حكاية الهداية

الجزء الأول

من بداية الخلق إلى خاتم الأنبياء

في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام

الباحث والكاتب

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

الطبعة الأولى • ٢٠٢٦

ISBN: 978-1-7642390-4-2

بسم الله الرحمن الرحيم

حكاية الهداية

من بداية الخلق إلى خاتم الأنبياء

في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام

الجزء الأول من أربعة أجزاء

الكتاب الثامن في سلسلة من أحد عشر كتابًا

تأليف الباحث والكاتب

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

الطبعة الأولى — ٢٠٢٦م / ١٤٤٨هـ

النسخة العربية

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة الكتاب	٦
تمهيد الجزء الأول	١٧
الفصل ١ — قبل آدم عليه السلام — عالم سبق الإنسان	٢٣
الفصل ٢ — آدم عليه السلام — بداية الإنسان وحكاية الهداية	٣٦
الفصل ٣ — شيث عليه السلام — هبة الله وحامل العهد بعد آدم	٧٤
الفصل ٤ — إدريس عليه السلام — نبي الصدق ورفعة المكانة	٩٥
الفصل ٥ — نوح عليه السلام — الدعوة والطوفان ونجاة المؤمنين	١٥٢
الفصل ٦ — سام بن نوح — حامل العهد بعد نوح	٢٢٢
الفصل ٧ — من سام إلى هود — حملة العهد في الأجيال بعد الطوفان	٢٥٢
الفصل ٨ — هود عليه السلام — رسول عاد ومواجهة حضارة القوة	٢٨٨
الفصل ٩ — من هود إلى صالح — استمرار الهداية بين عاد وثمود	٣٢٥
الفصل ١٠ — صالح عليه السلام — رسول ثمود وآية الناقة	٣٤٤
الفصل ١١ — من صالح إلى إبراهيم — الأجيال التي حفظت العهد	٣٧٧
الفصل ١٢ — إبراهيم عليه السلام — الخليل وإمام مرحلة جديدة من الهداية	٣٩٦
الفصل ١٣ — لوط عليه السلام — الهجرة مع إبراهيم ومواجهة قومه	٤٤٢
الفصل ١٤ — سارة وهاجر عليهما السلام — بيت إبراهيم وبداية الفرعين	٤٧٥
الفصل ١٥ — إسماعيل عليه السلام — مكة والبيت والدعاء للأمة القادمة	٥٠٥
الفصل ١٦ — إسحاق عليه السلام — البشارة وامتداد الهداية في الشام	٥٤٠
الفصل ١٧ — يعقوب عليه السلام — إسرائيل والأبناء الاثنا عشر	٥٦٦
الفصل ١٨ — يوسف عليه السلام — من الجب إلى تمكين الحق	٥٩٤
الفصل ١٩ — من يوسف إلى موسى — بنو إسرائيل وحفظ العهد في مصر	٦٢٩

المحتوى	الصفحة
الفصل ٢٠ — أيوب عليه السلام — الصبر والرحمة بعد البلاء	٦٤٢
الفصل ٢١ — شعيب عليه السلام — العدل في الميزان وأهل مدين	٦٥٨
الفصل ٢٢ — موسى عليه السلام — الميلاد والنجاة	٦٧٢
الفصل ٢٣ — موسى وهارون عليهما السلام — الرسالة والخروج	٦٨٦
الفصل ٢٤ — موسى عليه السلام — الكتاب والميثاق والتيه	٧٠٤
الفصل ٢٥ — الخضر وموسى عليهما السلام — حدود العلم البشري	٧٢٤
الفصل ٢٦ — يوشع بن نون — حمل العهد بعد موسى	٧٤٣
الفصل ٢٧ — من يوشع إلى داود — أنبياء بني إسرائيل وحملة العهد	٧٥٦
الفصل ٢٨ — داود عليه السلام — الحكم والزبور والعدل	٧٧١
الفصل ٢٩ — سليمان عليه السلام — الملك المسخّر والحكمة	٧٨٦
الفصل ٣٠ — آصف بن برخيا — العلم والوصية بعد سليمان	٨٠٣
الفصل ٣١ — أنبياء بني إسرائيل بعد سليمان — استمرار الهداية	٨١٧
الفصل ٣٢ — إلياس عليه السلام — الدعوة إلى التوحيد	٨٣٤
الفصل ٣٣ — اليسع عليه السلام — استمرار الدعوة	٨٥١
الفصل ٣٤ — يونس عليه السلام — النداء من الظلمات	٨٦٣
الفصل ٣٥ — ذو الكفل عليه السلام — الصبر وحمل المسؤولية	٨٨٢
الفصل ٣٦ — إرميا عليه السلام — الإنذار زمن الاضطراب	٨٩٤
الفصل ٣٧ — دانيال عليه السلام — الثبات في زمن المحنة	٩١٠
الفصل ٣٨ — حزقيل وعزير وإليا وجرجيس — شخصيات تذكرها الروايات	٩٢٨
الفصل ٣٩ — عمران وآل عمران — الأسرة التي مهّدت لميلاد مريم	٩٤٨
الفصل ٤٠ — مريم عليها السلام — النذر والاصطفاء ورعاية زكريا	٩٦٣
الفصل ٤١ — زكريا عليه السلام — الدعاء وبشارة يحيى وامتداد العهد	٩٨٠

المحتوى	الصفحة
الفصل ٤٢ — يحيى عليه السلام — الحكم صبيًا والشهادة للحق	٩٩٧
الفصل ٤٣ — عيسى ابن مريم عليهما السلام — الميلاد والرسالة والآيات	١٠١٧
الفصل ٤٤ — شمعون الصفا ومن حمل الهداية بعد عيسى — الوصية وثبات حملة الرسالة	١٠٥٠
الفصل ٤٥ — الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ — انتظار البشارة وحفظ التوحيد	١٠٧٥
الفصل ٤٦ — أجداد النبي محمد ﷺ وبيت النبوة — الجذور الإبراهيمية والأسرة الحاضنة للرسالة	١١٠٢
الفصل ٤٧ — محمد ﷺ — الميلاد والنشأة والاستعداد للرسالة	١١٣٢
الفصل ٤٨ — محمد ﷺ — البعثة والدعوة في مكة	١١٦١
الفصل ٤٩ — محمد ﷺ — الهجرة وبناء الأمة	١١٩٤
الفصل ٥٠ — محمد ﷺ — اكتمال الرسالة وبيان الوصية	١٢٢٥
خاتمة الجزء الأول	١٢٧٠
فهرس الأعلام والأوصاف	١٢٧٣
فهرس كتب المصادر	١٢٨١

الإهداء

إلى والديّ العزيزين، اللذين أنبتا في نفسي محبة الخير، ودعماني وشجّعاني في بداية مسيرتي إلى هذا الطريق؛ إليكما عرفانًا بفضل لا تفيه الكلمات، ودعاءً لا ينقطع.

إلى زوجتي، التي لطالما ساندتني، وصبرت على انشغالي في خدمة الدين والمذهب؛ لكِ من هذا الجهد نصيب بما منحتِني من صبر وعون، وبما تحمّلتِ من أجل أن تستمر هذه المسيرة.

إلى أولادي الثلاثة، ولديَّ وابنتي، الذين فتحت أسئلتهم أبواب هذا الكتاب؛ أهدي إليكم هذه الصفحات، راجيًا أن تجدوا فيها ما يعينكم على الفهم، وأن تبقى قلوبكم محبةً لله ورسوله وأهل بيته، وعقولكم ساعيةً إلى الحق.

إلى طلابي، من أبناء الجاليات الشيعية العربية وغير العربية، في المدارس الأسترالية، وفي مسجد وحسينية الإمام الكاظم عليه السلام بمدينة شبرتون في ولاية فكتوريا؛ حملتُ أسئلتكم معي، ورجوتُ أن أقرّب إليكم بها حكاية الهداية، وأن تجدوا في هذه الصفحات رفيقًا لأسئلتكم ورحلتكم في الإيمان.

إلى أستاذتي الأولى في درس القرآن الكريم والتربية الإسلامية في المدرسة الابتدائية، الأستاذة (ب) أم دعاء؛ وفاءً لبدايةٍ ما زال أثرها حاضرًا في نفسي، ولدرسٍ امتدّ معناه إلى ما بعد مقاعد المدرسة.

إلى أول أستاذ حوزوي تتلمذت على يديه في حوزة النجف الأشرف أيام مراهقتي، الشيخ عبد الرسول السوداني الناصري؛ لا أعلم أين استقرّ بك المقام، وما زلت أرجو أن يجمعني الله بك، لأعبّر لك عن امتناني لما تعلّمته على يديك في أول الطريق.

إلى روح سماحة الشيخ أحمد الوائلي، عميد المنبر الحسيني، رحمه الله؛ نشأنا على سماع أحاديثك وإرشاداتك، ورسمتَ لجيلنا بداية الطريق الحق في ذلك الزمن الأغبر. إليك وفاءَ من بقي يحمل أثر الكلمة التي سمعها منك، ويذكر فضلها عليه.

وإلى كل من ساندني بفكرة أو كلمة أو دعاء، وإلى كل باحث عن الحق في كتاب الله وسيرة محمد وآل محمد؛ أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع، سائلًا الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يوفّقني به لنيل رضاه ورضا رسوله وأهل بيته الطاهرين عليهم الصلاة والسلام.

الباحث والكاتب

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

مقدمة الكتاب

حكاية الهداية

الكتاب الثامن في سلسلة من أحد عشر كتابًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي أنعم علينا بالعقل، وفتح لنا أبواب النظر في كتابه، ووفّقنا للسعي في طلب الحق. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين. أحمد الله على ما أعانني عليه من هذا العمل، وأتوجّه بالشكر إلى رسوله وأهل بيته عليهم السلام لما وجدت في هديهم وسيرتهم من نور أستعين به على الفهم، وأسأله سبحانه أن يجعل هذه الخدمة خالصةً لوجهه الكريم.

أقدّم إلى القارئ الكريم «حكاية الهداية» بوصفه رحلةً في معرفة الطريق الذي دعا الله الإنسان إليه، وفي قراءة حياة الأنبياء والأوصياء ومن ارتبط بهم من رجال ونساء وأمم وأسر. ويصحب هذه الرحلة سؤال يتجاوز معرفة الأسماء والأحداث: كيف نفهم الهدى الذي نحمله بين أيدينا، وكيف يظهر أثره في اختياراتنا وأخلاقنا وصلتنا بالله وبالناس؟

كيف بدأت حكاية الهداية

كان وراء تأليف هذا الكتاب دافعان رئيسان، أولهما أسئلة أولادي الثلاثة؛ فقد رزقني الله ابنين وابنة، ووجدت في أسئلتهم بابًا للتأمل والبحث. كانت هذه الأسئلة تختلف باختلاف أعمارهم وتجاربهم واهتماماتهم، كما كنت ألمس تنوّعًا بين ما يسأل عنه ابناي وما تسأل عنه ابنتي. وقد جعلني ذلك أكثر انتباهًا إلى حاجة الأبناء إلى إجابة تراعي مرحلة نموهم وطريقتهم في الفهم، وتصل ما يسمعونه من قصص بما يعيشونه ويفكرون فيه، وتفتح أمامهم مجالًا للسؤال والمتابعة.

أما الدافع الثاني فكان أسئلة بعض الطلبة والشباب الذين أعمل معهم من أبناء الجاليات الشيعية العربية وغير العربية في أستراليا. فمن خلال عملي في المدارس الحكومية الأسترالية التابعة لوزارة التعليم، مسؤولًا عن التعددية الثقافية في إحداها، ومدرّسًا للغة العربية في أخرى، ومن خلال تدريسي مجموعةً من الشباب في مسجد وحسينية الإمام الكاظم عليه السلام في مدينة شبرتون بولاية فكتوريا، وجدت أمامي جيلًا تتنوّع لغاته وخلفياته وطرائق تعلّمه، ويحتاج إلى عرض قريب من فهمه يعينه على معرفة دينه وتاريخ الهداية وصلته بهما.

ولدى هذا الجيل أسئلة قد لا يجد جوابها على المنابر بالصورة المبسّطة أو بالسرد المتصل الذي يحتاج إليه، مع ما للمنبر من مكانة وما يقدّمه من خدمة. وقد تُعرض القصة في مناسبة معينة، ويبقى لدى الشاب أو الفتاة سؤال عما سبقها وما تلاها، وعن صلة الشخصيات والأحداث بعضها ببعض. وربما كانت هذه الحاجة حاضرة كذلك لدى كثير من الأبناء والآباء والمربين في بلادنا العربية والإسلامية؛

فالمقصود أن يجد القارئ لغةً يفهمها ومسارًا يستطيع متابعته، وأن تبقى لديه الرغبة في إكمال القصة وفهم الطريق والمنهج الذي يجمعها.

ومن هنا عاهدت نفسي أن أبذل ما أستطيع لتحقيق هذا المطلب في «حكاية الهداية»: أن أجمع المادة من مصادرها، وأقرّبها إلى القارئ بأسلوب واضح، وأرتّبها في سياق يحفظ اتصال الأجيال والأحداث والأفكار. وأرجو أن يجد فيه أولادي وطلبتي ومن يشاركهم هذه الأسئلة ما يعينهم على الفهم، وأن ينتفع به القارئ العام كذلك. وتجمع هذه النسخة النص العربي للكتاب في سياق متصل.

موضع الكتاب في السلسلة

يأتي «حكاية الهداية» في المرتبة الثامنة ضمن سلسلة من أحد عشر كتابًا. بدأ البحث والعمل على كتب السلسلة مجتمعة سنة ٢٠١٧م، واكتمل بعض كتبها، فيما لا يزال العمل على بعضها الآخر مستمراً حتى سنة ٢٠٢٦م، مع مواصلة مراجعة ما اكتمل منها وتدقيقه. وتسبق «حكاية الهداية» في ترتيب القراءة كتب الكون، والنبات، والحيوان، والملائكة، والجن، والخلق قبل آدم، والإنسان. وهذا ترتيب موضوعي يصل النظر في الخلق بمعرفة الإنسان وعلاقته بالرسالة، ولا يعني أن البحث في كل كتاب بدأ بعد الفراغ من سابقه. ويأتي «حكاية الهداية» بأجزائه الأربعة ضمن هذا المشروع المتصل.

أما الكتب الثلاثة التي تليه، وهي «حكاية الروح»، و«حكاية الجنة»، و«حكاية الخالق الذي لا نعلمه»، فهي مشروع قائم يجري العمل عليه، ولم تُنشر بعد. وسيكون للقارئ أن يتابعها عند صدورها إن شاء الله، لتتسع قراءته في الموضوعات التي اختص بها كل كتاب. والترتيب المبين هنا هو ترتيب للسلسلة في القراءة والنشر بحسب ترابط موضوعاتها، ولا يُقصد به إثبات ترتيب زمني لخلق المخلوقات.

بداية العمل على السلسلة واستمراره

بدأتُ البحث والجمع والعمل على هذه السلسلة مجتمعة سنة ٢٠١٧م، ثم تطورت كتبها بحسب موضوعاتها وما تيسر من مادتها. وقد اكتمل تأليف بعض الكتب، وبقي بعضها قيد العمل، ولا تزال السلسلة مشروعًا مستمراً حتى الآن. وتُميَّز في هذا التاريخ بداية البحث، واكتمال التأليف، واكتمال كل مرحلة من مراحل التدقيق والمراجعة؛ فلا يعني انتهاء مرحلة توقف الاستدراك والتحسين بعدها.

كتب السلسلة وترتيب قراءتها

الترتيب	الكتاب وعنوانه الفرعي	صلته بمسار السلسلة
١	حكاية الكون — من بدء الخلق إلى مشاهد الآخرة	الإطار العام للسماوات والأرض وعالم الخلق.
٢	حكاية النبات — من آيات الخلق إلى مشاهد الآخرة	الحياة والإنبات والأشجار والثمار في العالم المحسوس.

الترتيب	الكتاب وعنوانه الفرعي	صلته بمسار السلسلة
٣	حكاية الحيوان — من بدء الخلق إلى مشاهد الحشر	أمم الحيوان وصلتها بالبيئة والإنسان.
٤	حكاية الملائكة — من بدء الخلق إلى مشاهد الآخرة	مدخل إلى الغيب وحضور الملائكة في الخلق والوحي والهداية.
٥	حكاية الجن — من بدء الخلق إلى مشاهد الآخرة	عالم الجن وما يتصل به في قصة آدم والتاريخ الإنساني.
٦	حكاية الخلق قبل آدم — النسناس والعوالم السابقة في المصادر الشيعية	بحث العوالم السابقة والتمهيد لبداية عهد آدم.
٧	حكاية الإنسان — من بدء الخلق إلى ما بعد الموت	خلق الإنسان وجسده وروحه وحياته ومصيره.
٨	حكاية الهداية — بأجزائه الأربعة	مسيرة الأنبياء والأوصياء والشخصيات المرتبطة بالهداية عبر الأجيال.
٩	حكاية الروح — الخلْق العظيم الذي يسدّد الله به النبي والأئمة	دراسة روايات التسديد ودلالات الروح بعد معرفة سيرة النبي والأئمة.
١٠	حكاية الجنة — أهلها ونعيمها وما ورد عن خلقها	عالم الجنة، مع بحث الحور العين والولدان المخلّدين.
١١	حكاية الخلْق الذي لا نعلمه — العوالم المجهولة وحدود المعرفة	ما ورد عن العوالم غير المفصّلة وحدود ما يمكن إثباته.

من معرفة الخلق إلى معرفة طريق الهداية

يهيّئ «حكاية الإنسان»، الذي يسبق هذا الكتاب، للنظر في خلق الإنسان وجسده وروحه ومراحل حياته ومصيره. أما هنا فيتجه السؤال إلى علاقته بالرسالة: من علّمه، وكيف استجاب، وما الذي حفظه أو ضيّعه مما اؤتمن عليه؟ ولهذا لا تُعاد في هذا الكتاب المباحث العلمية والتشريحية، ولا تفصيل عوالم الملائكة والجن والنبات والحيوان إلا بقدر اتصالها بالقصة التي ندرسها.

وإذا بدأ الجزء الأول بتمهيد عما قبل آدم عليه السلام، فإن وظيفته بيان ما يحتاجه سياق الهداية من مقدمات، مع إحالة التوسع في العوالم السابقة إلى كتابها المختص. وكذلك يُبحث «الروح» في الكتاب التاسع من جهة الروايات المتصلة بتسديد النبي والأئمة عليهم السلام، مع تمييز هذا البحث عن مباحث النفس الإنسانية، وترك تحديد المعاني والنتائج لدراسة النصوص في مواضعها.

أجزاء حكاية الهداية الأربعة

يتألف «حكاية الهداية»، بحسب خطة هذا العمل، من أربعة أجزاء متصلة، وهو بأجزائه جميعًا الكتاب الثامن في السلسلة. ولكل جزء مجال محدد، وتصل خاتمته بما يليه، حتى يستطيع القارئ متابعة حركة الهداية وفهم امتدادها عند نشر الأجزاء اللاحقة إن شاء الله.

الجزء الأول — من بداية الخلق إلى خاتم الأنبياء

يمهّد لما قبل آدم في حدود ما يخدم موضوعه، ثم يتابع الأنبياء والأوصياء وحملة العهد عبر الأجيال، حتى يبلغ رسول الله محمدًا صلى الله عليه وآله. ويعنى بصلات الشخصيات بعضها ببعض، وبالأسر والأبناء والبنات والمؤمنين والمؤمنات الذين ارتبطت مواقفهم بمسيرة الرسالة. وينتهي عند ختام السيرة النبوية وما تفتحه من سؤال حفظ الرسالة والوفاء بأمانتها.

الجزء الثاني — من النبي محمد ﷺ إلى الإمام المهدي عليه السلام

ينطلق من الأمانة التي تركها رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتابع، وفق المنهج الإمامي الاثني عشري، سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وصولًا إلى ولادة الإمام المهدي وإمامته والتمهيد للغيبة. ويشمل البحث فاطمة الزهراء عليها السلام، وأسر الأئمة وأبناءهم وبناتهم وأصحابهم والرواة عنهم، وما يتصل بهم من حفظ العلم والتعليم والإصلاح والابتلاء، مع تجنّب إعادة ما استوفاه الجزء الأول.

الجزء الثالث — الإمام المهدي عليه السلام من الغيبة إلى الظهور وما بعده

يتناول الغيبتين الصغرى والكبرى، والسفراء والوكلاء والشخصيات المرتبطة بزمن الغيبة، ومعنى الانتظار ومسؤولياته، وما ورد في علامات الظهور وقيام الإمام وإقامة العدل. ويبحث كذلك الروايات المتعلقة بالرجعة والمهديين والأوصياء بعد القائم، بالاستناد إلى ما قدّمه علماء المذهب وأهل الاختصاص من تحقيق لمصادرها وأسانيدها وبيان لدلالاتها ومواضع الخلاف فيها. ولا تُحوَّل أخبار المستقبل إلى تواريخ مقطوع بها أو تعيينات لأشخاص معاصرين بغير دليل.

الجزء الرابع — الإنسان في طريق الهداية

يعود إلى القارئ نفسه، فيبحث ما تقتضيه المعرفة من عمل: أثر الفطرة والعقل والاختيار، وصلتنا بالقرآن، وطلب العلم، ومراجعة النفس والتوبة، والأسرة وتربية الأبناء، والعدل والرحمة ومقاومة الظلم، والتعامل مع الاختلاف والابتلاء. وغايته أن تصل قراءة السير بحياة الإنسان اليومية، وأن تكون معرفته بالهداة عونًا له على الصدق والمسؤولية وخدمة الناس.

منهج البحث وأمانة النقل

القرآن الكريم هو الأصل الأول لهذا الكتاب؛ تُجمع الآيات المتعلقة بالموضوع، وتُقرأ في سياقها، ولا يُنسب إليه اسم أو تفصيل لم يذكره. وتأتي روايات النبي وأهل البيت عليهم السلام في موضعها من البيان والتفصيل، ويُنظر فيها على ضوء محكم القرآن وأصول الفهم الإمامي. ولا يُجعل خبر مخالف لمحكم الكتاب أصلًا يُقدَّم عليه، كما لا يُرفض التفصيل لمجرد سكوت القرآن عنه؛ بل يُطلب له دليله ويُدرس في مصدره.

ويعتمد البحث على الرجوع إلى مصادر الحديث والتفسير الإمامية بحسب موضوع كل فصل، ومنها الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، وكمال الدين وتمام النعمة، وعلل الشرائع، والأمالي، والإمامة والتبصرة، وتفسير القمي، وتفسير العياشي، وقصص الأنبياء للراوندي، وغيرها. ويُستفاد من بحار الأنوار في جمع مواضع الأخبار، مع الرجوع إلى الأصول التي ينقل عنها متى أمكن. وذكر الكتاب ضمن المصادر لا يعني تصحيح جميع ما ورد فيه، ولا أن كل فصل يستعمل المصادر نفسها.

وتقتضي أمانة النقل التمييز بين الآية، والرواية المنقولة، وقول المفسّر أو المؤرخ، وما يقدّمه الكاتب من شرح أو ربط بين المعاني. فإذا اختلفت الأخبار أو دلالاتها، أُظهر ذلك للقارئ دون دمج الروايات المتعارضة في قصة توهم الاتفاق، ودون استكمال الفجوات بتفاصيل متخيّلة. ووجود الخبر في كتاب جامع لا يصحح سنده، كما أن تكرار نقله عن أصل واحد لا ينشئ طرقًا مستقلة. وأحكام الأسانيد المنقولة منسوبة إلى أصحابها من أهل الاختصاص، ولا تعني عبارة «ورد في الرواية» أن الخبر صحيح السند. وتُذكر الاستفادة من المصادر التاريخية أو المقارنة بصفتها، ويُصرّح بالمصدر الوسيط إذا لم يكن النقل من الأصل مباشرة.

أستعين بما قدّمه علماء المذهب وأهل الاختصاص من تحقيق للمصادر وبيان لدرجات الأخبار، وأنسب أحكامهم إليهم حيث أنقلها. ولا يعني إدراج خبر في هذا الكتاب أن سنده قد صُحح؛ فقد ترد أخبار ضعيفة أو مختلف فيها لبيان الاختلاف أو المقارنة، مع التصريح بحدودها. ولا أدّعي أهلية الحكم المستقل على الأسانيد والرجال؛ إنما تنصبّ خدمتي على جمع المادة، وأمانة نقلها، وترتيبها وتبسيط عرضها، ومراعاة ما بيّنه أهل العلم من حدود الثبوت ومواضع الاختلاف.

ولهذا جمعتُ موارد النقل ومصادره في نهاية كل فصل، بدل توزيعها في حواشي كل صفحة، حتى يبقى القارئ متصلًا بالقصة، ولا يتشتت انتباهه أو ينقطع تسلسل المنهج وترابط الأفكار. ويُبيَّن في توثيق الفصل مورد الخبر أو عنوان المبحث الذي يتصل به، ثم مصدره وموضعه من الكتاب، مع الجزء والصفحة أو الباب ورقم الحديث بحسب المتاح في الطبعة المعتمدة. وبذلك يستطيع من يريد التوسع أن يرجع إلى موضع النقل والتحقيق، ويستطيع من يريد متابعة الحكاية أن يمضي في قراءته بسلاسة، مع بقاء المصدر قريبًا منه في ختام الفصل.

الأسماء والمصطلحات

تُحفظ الأسماء العربية كما ترد في مصادرها، مع تمييز اختلاف صيغها ونسبتها إلى ناقليها. أما مساواة إدريس بأخنوخ فتبقى منسوبة إلى الرواية التي تذكرها، ولا تتحول إلى نص قرآني. وتُفهم مصطلحات الوصي والحجة والعصمة والتقوى بحسب سياقها. وتُراعى الفروق بين الجنة بمعنى البستان وبين جنة الآخرة، وبين المَلَك والمَلِك، ولا تُعامل الأسماء الشخصية كما لو كانت أوصافًا.

تُحفظ نسبة كل قول ودرجة ثبوته، وتُعرض الآيات والنصوص بألفاظها العربية، مع التمييز بينها وبين الشرح ونقل المعنى. وتُستعمل الأرقام العربية في هذه النسخة. ويُقصد بالرمز ﷺ في هذا الكتاب: صلى الله عليه وآله.

الشخصيات التي تحملها هذه الرحلة

أسعى في كل فصل إلى جمع ما يتصل بالشخصية من نشأتها إلى وفاتها، وصلتها بمن سبقها ومن تلاها، وما ثبت من تلقيها العهد أو العلم وتسليمه، وأبنائها وبناتها ومن صحبها من رجال ونساء. ولا تنحصر العناية في المشهورين؛ فقد يكون لصاحب موقف، أو أم، أو زوجة، أو ابنة، أو جماعة مؤمنة حضور مؤثر حفظه النص ولم يحفظ جميع أسمائه.

وهذه غاية للتحرّي والاستدراك، وليست ادعاءً بأن المصادر حفظت كل التفاصيل أو أن الباحث أحاط بكل ما ورد. فإذا لم يثبت اسم أو نسب أو تاريخ قيل ذلك بوضوح، وإذا عُرف الشخص بوصفه بقي الوصف موضع اسمه حتى يقوم دليل على تعيينه. وتُوضع القصة في الفصل الأنسب، ويُحال إليها عند تكرر الحاجة، لتبقى صلة الأجيال واضحة من غير حشو أو تكرار.

كيف تُقرأ هذه المقدمة وما يليها

هذه مقدمة عامة للكتاب بأجزائه الأربعة، وظيفتها التعريف بالمشروع وموقعه ومنهجه. ويليها تمهيد الجزء الأول ومقدمة فصوله، وفيهما يبدأ النظر التفصيلي في معنى الهداية ووحدة مسيرتها والسؤال عما قبل آدم عليه السلام. ثم تتتابع الفصول في مواضعها. وبذلك يعرف القارئ منذ البداية الفرق بين مدخل الكتاب كله ومدخل الرحلة التاريخية التي يفتتح بها الجزء الأول.

وأرجو أن يقرأ القارئ هذه الصفحات قراءة متأملة، فيراجع الدليل، ويقف عند حدود ما يثبته، ثم يسأل نفسه عما تعنيه المعرفة في حياته. ومن أراد متابعة حركة الهداية في امتدادها، فليتابع الأجزاء التالية عند نشرها إن شاء الله؛ فلكل جزء ما يضيفه إلى فهم السابق، ولكل كتاب من السلسلة مجاله الذي يوسّع جانبًا من جوانب الصورة.

كلمة الكاتب

الحمد لله رب العالمين، الذي فتح لنا باب السؤال والتعلّم، وهدانا إلى كتابه، وعرّفنا برسوله وأهل بيته الطاهرين. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين. أحمد الله على ما أعانني عليه من قراءة وجمع وكتابة، وأسأله أن يجعل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لمن يقرؤه، وأن يكون لي نصيب من العمل بما أتعلمه فيه.

أضع بين يدي القارئ «حكاية الهداية»، وأنا العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله وتوفيقه. لست رجل دين، ولا أدّعي أنني عالم، وإنما أنا باحث عن الحق، وجامع لما في بواطن الكتب، أقرأ لأتعلّم، وأعود إلى المصادر لأفهم، ثم أحاول أن أرتب ما أصل إليه وأقرّبه إلى من يشاركونني السؤال. وما أقدمه هنا ثمرة هذا السعي، بقدر ما تيسّر لي من فهم وقدرة، مع إقراري بأن حاجتي إلى أهل العلم وإلى المراجعة والتصحيح لا تنتهي بانتهاء الكتاب.

ومنذ سنة ٢٠١٧م بدأت البحث والعمل على كتب هذه السلسلة مجتمعة، بوصفها مشروعًا مترابطًا تتوزع أسئلته على موضوعات الخلق والإنسان والهداية وما يتصل بها. ولم تكن بداية كل كتاب منفصلة تمامًا عن الكتب الأخرى؛ فقد تقودني القراءة في موضوع إلى نص يفيد موضوعًا آخر، فأحفظه في موضعه وأعود إليه حين يتسع البحث. ومع مرور السنوات اكتمل بعض هذه الكتب، وبقي بعضها قيد التأليف، واستمر العمل على السلسلة حتى وقت كتابة هذه الكلمة. وما اكتمل منها ظل قابلًا للتدقيق والاستدراك؛ فاكتمال مسودة كتاب مرحلة في خدمته، تعقبها مسؤولية فحصه وتحسينه.

وحين أستعيد هذه البداية، أرى قيمة أن يكون للباحث مقصد يجمع جهده، مع صبر على التفاصيل التي يتكون منها كل فصل. فالسلسلة تحمل موضوعات واسعة، ولا يفي بها أن أجمع نصوصًا متجاورة وأضع لها عنوانًا. أحاول أن أفهم موضع كل مسألة، وأن أصل بين أجزائها بقدر ما تسمح به المصادر، وأن أعرف متى يحسن التفصيل ومتى تكفي الإحالة إلى كتاب آخر. وقد احتاج هذا العمل، وما زال يحتاج، إلى العودة المتكررة إلى المادة وإعادة النظر في ترتيبها؛ حتى يجد القارئ طريقًا يستطيع متابعته، ويعرف أين يبدأ السؤال وأين تقف الإجابة.

وأقدّم هذه الصفحات للباحثين عن الحقيقة العلمية والدينية، مع مراعاة موضوع كل كتاب وحدود ما يستطيع أن يجيب عنه. ففي مباحث الخلق أتعلّم أهمية السؤال عن الدليل المشاهد وحدود تفسيره، وفي مباحث الهداية أتعلّم أمانة الرجوع إلى النص وفهم سياقه وعدم تحميله ما لا يدل عليه. ويجمع ذلك كله رجاء أن تكون المعرفة طريقًا إلى الصدق. ولا أريد للقارئ أن يكتفي بما أختاره له من مادة؛ بل أرجو أن تنمو لديه الرغبة في الرجوع إلى المصادر، وفي التمييز بين ما هو معلوم وما يبقى محل بحث، وفي تقدير جهود المختصين في كل باب.

وحين أتأمل الدافع الذي حملني على هذه الرحلة، أجد أمامي وجوه أولادي وطلابي وأسئلتهم. فقد يفتح سؤال صغير بابًا واسعًا للبحث: من كان قبل هذا النبي؟ ومن حمل الرسالة بعده؟ وما الذي جرى

لأسرته وأصحابه؟ وكيف بقي الإيمان حيًّا بين جيل وجيل؟ وكنت أشعر بمسؤولية الإجابة، وبأن من حق السائل أن يجد كلامًا واضحًا يستند إلى مصدر، وأن يسمع مني «لا أعلم» حين لا أجد ما يسند الجواب.

ومن خلال صلتي بالشباب في المدارس وفي مسجد وحسينية الإمام الكاظم عليه السلام بمدينة شبرتون، ازددت إدراكًا لحاجة الأجيال التي تنشأ بين لغات وثقافات متعددة إلى معرفة قريبة من فهمها. قد يعرف الشاب أو الفتاة اسم نبي أو موقفًا من سيرته، ثم تبقى الصلة بما سبقه وما تلاه غير واضحة. ورجوت أن أعين على تقريب هذه الصلة، وأن يجد القارئ في الكتاب ما يدعوه إلى مواصلة القراءة وطرح السؤال، بثقة تسمح له بأن يبحث ويتعلّم ويطلب الإيضاح.

ومن أكثر ما أرجوه أن يشعر القارئ بأن له مكانًا في هذه الرحلة، مهما اختلف عمره أو مقدار معرفته السابقة. فلا أريد أن تكون العبارة حاجزًا أمام شاب يبدأ القراءة، ولا أن تخفي سهولتها ما يحتاج إليه القارئ المتوسع من مصدر أو تمييز. وقد يحسن أن أشرح المصطلح في موضعه، وأن أعيد وصل الحدث بما سبقه، وأن أترك للسؤال مساحته قبل الانتقال إلى الجواب. وأحسب أن خدمة القارئ تبدأ باحترام حاجته إلى الفهم، ثم بالصبر على إيضاح ما قد يكون واضحًا لمن اعتاد القراءة، لكنه جديد على من يفتح هذا الباب للمرة الأولى.

وأحاول أن أصغي إلى سؤال الفتاة كما أصغي إلى سؤال الفتى، وإلى حيرة الصغير كما أحترم بحث الكبير. فقد يلتفت أحدهم إلى معنى لم أتوقف عنده، أو يسأل عن امرأة مرت سيرتها سريعًا في العرض، أو يريد أن يفهم أثر الحدث في أسرة لا في شخص واحد. ومثل هذه الأسئلة تعينني على رؤية ما أغفلته، وتذكّرني بأن ترتيب المادة لا ينبغي أن يحجب أصحاب الأدوار المؤثرة. ولهذا أرجو أن يجد الأبناء والبنات في الكتاب ما يعينهم على فهم حضورهم ومسؤوليتهم في طلب العلم وفعل الخير، كلٌّ في موقعه وقدرته.

وللعيش والعمل في مجتمع متعدد الثقافات أثر في الطريقة التي أنظر بها إلى تقريب المعرفة. فقد يلتقي أشخاص يحملون السؤال نفسه، ويختلفون في اللغة التي يستطيعون التعبير بها عنه، وفي الصور التي تربطهم بالموروث. وتزداد الحاجة عندئذ إلى بيان هادئ لا يفترض أن الجميع يعرفون مقدماته. وأرجو أن يساعد هذا الكتاب الأسرة والمربي على فتح حوار قريب من الجيل الجديد، يتيح له أن يفهم ما يؤمن به، وأن يتحدث عنه بوعي واحترام، وأن يعرف أن الصدق والعدل وحسن الجوار معانٍ تظهر في التعامل اليومي مع الناس جميعًا.

وفي أثناء الجمع، كان يشغلني حضور الإنسان في هذه المسيرة؛ فالرسالة تبلغ بيوتًا وأسرًا وأممًا، وتظهر آثارها في مواقف الرجال والنساء. لذلك حرصت على تتبع ما حفظته المصادر من أخبار الأمهات والزوجات والبنات والأبناء، ومن صحب الأنبياء أو نصرهم أو عارضهم، مع الوقوف عند حدود ما يمكن معرفته. ولعل موقفًا حفظه النص لشخص لم يذكر اسمه يعلّمنا من الصبر أو الشجاعة أو صدق الإيمان ما يبقى حاضرًا في حياتنا.

وأنا أكتب عن هذه المواقف، أجد نفسي معنيًّا بما أكتبه قبل أن أوجّهه إلى غيري. فالحديث عن الأمانة يذكّرني بأمانتي في النقل، والحديث عن التواضع يردّني إلى حدود معرفتي، والحديث عن الرحمة يسألني عن معاملتي لمن حولي. وأرجو أن تكون قراءة هذا الكتاب فرصةً لمثل هذا التأمل؛ أن يسأل القارئ عمّا تعنيه الهداية في بيته وعمله وصلته بالناس، وكيف يظهر أثر ما عرفه في الصدق والعدل وحفظ الحقوق.

وحين أقرأ أخبار الأنبياء عليهم السلام، أتوقف عند ما تحمله مواقفهم من معانٍ يحتاج إليها الإنسان في شدته ورخائه. وأتساءل عما يمكن أن يتعلمه الأب في رعاية أبنائه، والمعلم في صبره على طلابه، ومن يحمل مسؤولية في إنصاف من استؤمن عليهم. ولا أجعل هذا التأمل بديلًا عن فهم النص أو سببًا لإضافة تفاصيل إليه؛ بل أرجو أن يأتي بعد القراءة الأمينة، فيساعدنا على إدراك أن ما نتعلمه يستدعي منا موقفًا. فما قيمة أن نعجب بالعدل في صفحات التاريخ ثم نغفل عنه حين تكون لنا قدرة على إنصاف أحد؟

وأتمنى أن يجد من ضاقت به تجربة أو أقلقه سؤال في هذا العمل ما يعينه على مواصلة الطلب. فالإنسان قد يحتاج إلى من يسمع سؤاله قبل أن يكثر عليه الجواب، وإلى كلمة تبين له أن عدم إحاطته بمسألة لا يغلق أمامه طريق التعلم. وأخاطب نفسي بهذا قبل غيري؛ فقد أحتاج إلى إعادة القراءة، أو إلى من يشرح لي نصًا، أو إلى زمن يتضح فيه ما لم أفهمه أول مرة. وأرجو أن يحمل الكتاب هذا الصبر، وألا يجعل القارئ يستحي من السؤال أو يظن أن حفظ الأسماء يغنيه عن الفهم والتأمل.

وقد تعلّمت من القراءة أن العثور على خبر في كتاب لا يعفيني من السؤال عن مصدره ومعناه وحدود نسبته. وربما رغبت النفس في حكاية مكتملة التفاصيل، بينما لا تحفظ لنا النصوص إلا بعض مشاهدها. وهنا أحاول أن أقبل حدود المعرفة، وأن أترك ما لم يثبت على حاله، فلا أملأ الفراغ بما يستحسنه الخيال. وأستعين في المسائل التي تحتاج إلى اختصاص بما يبينه العلماء والمحققون، من غير أن أنسب إلى نفسي مقامهم أو أجعل جمعي للمادة حكمًا بصحة كل ما ورد فيها.

وللقرآن الكريم في هذه الرحلة مقام الأصل الذي أرجع إليه، ولما نُقل عن رسول الله وأهل بيته عليهم السلام عناية أقترن فيها بمحبة التعلّم وأمانة التثبت. وأحمل في نفسي الامتنان لمن حفظوا هذا التراث، ونسخوا كتبه وحققوا نصوصه وشرحوا معانيه. فما أستطيع الوصول إليه اليوم قائم على جهود سبقتني، وواجبي أن أذكر فضلها، وأن أحفظ نسبة القول إلى صاحبه، وأن أدلّ القارئ على ما يعينه على الرجوع والتوسع.

وأشعر، وأنا أكتب عن الدين، بثقل الكلمة التي قد يتلقاها قارئ على أنها حقيقة ثابتة. فقد ينقلها إلى أولاده أو طلابه، وقد يبني عليها فهمًا يصعب تغييره لاحقًا. لذلك أحاول أن أزن عبارتي قبل أن أجعلها في موضع البيان، وأن أوضح أين أنقل وأين أشرح وأين أعرض احتمالًا. ولا يرفع عني مسؤوليتي أن تكون نيتي طيبة؛ فحسن القصد يحتاج إلى أمانة في الوسيلة، ومحبة أهل البيت عليهم

السلام تدعوني إلى التحرّي فيما أنسبه إليهم، وإلى قبول التصحيح إذا تبين أنني أخطأت في نقل أو فهم.

ومع محبتي لهذا التراث واعتزازي بالانتماء إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، أرى أن الأدب في عرض الاختلاف جزء من أمانة البحث. فقد تتباين الأخبار أو مناهج تفسيرها، وقد يحتاج فهم قول إلى معرفة سياقه قبل مناقشته. وأحاول أن أبين ما أعتمد عليه، وأن أنسب الرأي إلى قائله، وأن أتجنب تحويل الخلاف العلمي إلى إساءة إلى الناس. وأرجو أن تكون قوة الدليل ووضوح البيان هما ما ينتفع به القارئ، وأن تبقى لغتي ملتزمة بما أدعو إليه من عدل وإنصاف، سواء وافقت قولًا أو خالفته.

وأعرف أن الرغبة في استيعاب أخبار الشخصيات لا تعني أن المصادر حفظت لنا كل شيء عنها. فقد نعرف موقفًا ولا نعرف عمر صاحبه، أو نجد اسمًا اختلفت رواياته، أو نتوقف أمام مدة لم يثبت تحديدها. ومن أمانتي أن أبقي هذا الحد ظاهرًا. فلا أستبدل الغياب بيقين مصطنع، ولا أجعل ما أتمنى العثور عليه خبرًا واقعًا. وحين أقول إنني أسعى إلى جمع ما يتعلق بالشخصية، فإنني أصف جهدًا في التتبع، وأترك الباب مفتوحًا لمن يدلّني على ما فاتني، أو يبين أن ما أثبتّه يحتاج إلى إعادة نظر.

وللمراجعة عندي معنى يتجاوز إصلاح الهفوة في اللفظ أو ترتيب العنوان. فقد تكون المراجعة رجوعًا إلى أصل النقل، أو فصلًا بين شخصيتين تشابه اسماهما، أو تنبيهًا إلى أن حدثًا وضع في غير سياقه، أو تخفيفًا لعبارة تجاوزت حدود دليلها. وقد تكون حذف تكرار يحجب الفكرة، أو إضافة شرح يحتاج إليه القارئ. ولا أرى في الاعتراف بهذه الحاجة انتقاصًا من قيمة الجهد؛ إذ إن الكتاب الذي يبقى صاحبه مستعدًا لخدمته وتصحيحه أقرب إلى الأمانة من كتاب تحرسه الرغبة في الظهور بمظهر من لا يخطئ.

ولا أرى نشر الكتاب نهايةً لمسؤوليتي عنه. فقد تكشف قراءة لاحقة عن لفظ يحتاج إلى ضبط، أو اسمٍ يحتاج إلى تمييز، أو مصدر أدق، أو عبارة لم تؤدِّ المعنى كما ينبغي. وسأعدّ الملاحظة العلمية الأمينة عونًا على خدمة هذا العمل، وأرحب بما يستدرك نقصه ويصحح خطأه. فالحق مقدّم على رأيي، والرجوع إلى الصواب أحقّ من التمسك بعبارة لأنني كتبتها، وثقة القارئ أمانة تستوجب هذا الاستعداد للمراجعة.

وأتوجه بالشكر إلى والديّ ومعلميّ وكل من شجعني على طلب المعرفة، وإلى زوجتي التي ساندتني وصبرت على ما أخذته القراءة والكتابة من وقتي، وإلى أولادي وطلابي الذين حملت أسئلتهم معي. وأذكر بوفاء أثر سماحة الشيخ أحمد الوائلي، رحمه الله، وما بقي في نفسي من أحاديثه التي نشأنا على سماعها. وأشكر كل من أعانني بمصدر أو ملاحظة أو دعاء؛ فلهؤلاء أثر في الطريق الذي أتاح لهذا الجهد أن يتقدم.

وأحفظ في نفسي امتنانًا خاصًا لكل من تعلّمت على يديه، في البيت والمدرسة ومجالس العلم، ولكل من قرّب إليّ محبة القرآن وسيرة محمد وآل محمد عليهم السلام. وقد يبقى أثر المعلم في سؤال يرافق تلميذه سنوات طويلة، أو في طريقة النظر التي يعتادها، أو في خلق يحمله معه إلى عمله وأسرته. وحين أتوجه

إلى أولادي وطلابي بما أكتب، أرجو أن أؤدي شيئًا من هذا الحق، وأن يكون ما أنقله إليهم باعثًا على طلب الخير، مع بقاء الفضل لأهله والشكر لله الذي هيّأ أسباب التعلّم.

ولأسرتي في هذا الطريق حق أذكره بمحبة؛ فالوقت الذي تأخذه القراءة والكتابة جزء من حياة نتقاسمها، وما يقدمه الأهل من صبر وعون قد لا يظهر في اسم على الغلاف. وأرجو أن يكون هذا العمل خيرًا يصل أثره إليهم، وأن يجد أولادي فيه شيئًا من اهتمام أبيهم بأسئلتهم ومستقبلهم، وأن تعلم زوجتي أنني أذكر دعمها بامتنان. وأدعو الله أن يبارك في والديّ، وأن يجزيهما عني خير الجزاء، وأن يجعل فيما أقدمه وفاءً لما غرسا في نفسي من محبة الخير وتشجيع على مواصلة الطريق.

وإلى القارئ الكريم أقول: أرجو أن تصحب هذه الصفحات بعقل متأمل وقلب طالب للحق، وأن تجد فيها مدخلًا إلى المصادر، وحافزًا إلى سؤال أهل العلم فيما يحتاج إلى بيان. وما أتمناه أن تعينك هذه الحكاية على فهم صلتك بالهداية، وأن تزيدك محبةً لله ورسوله وأهل بيته، ورحمةً بعباده، وحرصًا على أن تكون المعرفة التي تحملها خيرًا لك ولمن حولك.

وأتوجه برجائي إلى الله أن يجعل عملي خدمة مقبولة لكتابه ولرسوله وأهل بيته عليهم السلام، وأن يرزقني صدق الانتظار وحسن العمل في زمن إمامنا المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف. وأرجو أن أكون من المنتفعين بهديهم في خلقي وسلوكي، وأن تكون محبتي لهم باعثًا على حفظ الأمانة والرحمة بالناس. ولا أزعم لنفسي بهذا مقامًا؛ إنما هو دعاء عبد يعرف ضعفه، ويأمل أن يتقبل الله منه ما بذل، ويغفر له ما قصّر، ويعينه على أن يصلح من نفسه وهو يحاول أن يقدم ما ينفع غيره.

وما كان في هذا العمل من توفيق فمن الله وحده، وما وقع فيه من خطأ أو تقصير فمنّي. أسأله سبحانه أن يغفر زللي، وأن يرشدني إلى الصواب، وأن يجعلني أول المنتفعين بما أقرأ وأكتب، وأن يرزقني رضاه ورضا رسوله وأهل بيته الطاهرين. وباسمه تعالى أقدّم «حكاية الهداية» للباحثين عن الحقيقة، راجيًا أن يكون هذا الجهد المتواضع بابًا للفهم وحسن العمل. والحمد لله رب العالمين.

الباحث والكاتب السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

تمهيد الجزء الأول

مقدمة فصول الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين، خالق الإنسان، وهادي الخلق إلى سبيله، الذي لم يخلق خلقه عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل أقام لهم الحجج، وأرسل إليهم رسله وأنبياءه، وأنزل عليهم كتبه، وأتم عليهم نعمته.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد المصطفى، خاتم الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله للعالمين، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

أما بعد:

فإن قصة الإنسان ليست قصة بدأت بولادته على الأرض، ولا قصة تنتهي بموته؛ بل هي حكاية طويلة تمتد جذورها إلى ما قبل وجود الإنسان على الأرض، وتكشف عن علاقة الإنسان بخالقه، وعن الغاية التي من أجلها خلقه الله، وعن الطريق الذي أعده له للوصول إلى الحق والهداية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٠

ومن هنا تبدأ حكاية الهداية.

لماذا نحتاج إلى الهداية؟

لم يخلق الله الإنسان عبثًا، ولم يضعه في هذا العالم بلا غاية.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ سورة المؤمنون، الآية ١١٥

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات، الآية ٥٦

فالإنسان في التصور القرآني مخلوق ذو غاية، يعيش في دار ابتلاء، وقد منحه الله العقل والاختيار، وأرشده إلى طريق الخير، وحذره من طريق الشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ سورة الإنسان، الآية ٣

والهداية، في هذا الكتاب، ليست مجرد معرفة نظرية بالخير والشر، وإنما هي مسيرة متكاملة تشمل ما وهبه الله للإنسان من فطرة وعقل، وما أرسله إليه من وحي ورسالات، وما أقامه له من أنبياء وأوصياء وحجج.

ومن هذا المنظور، لا تقتصر حكاية الهداية على تاريخ إرسال الأنبياء والرسل، بل تشمل كذلك الطريقة التي عرّف الله بها الإنسان، وعلّمه، وكلّفه، واختبره، وفتح له باب التوبة والرجوع إليه. فالهداية تسبق الاختبار، وترافق الإنسان في اختياره، وتدلّه على طريق العودة إذا أخطأ. ومن هنا سنقرأ قصص

الأنبياء لا بوصفها أحداثًا منفصلة، بل بوصفها مراحل متتابعة في علاقة الإنسان بربه: معرفةً، وتكليفًا، وابتلاءً، ورحمةً، وهدايةً.

ومن هنا يصبح السؤال الأساسي الذي سيصاحب صفحات هذا الكتاب:

كيف هدى الله الإنسان؟ وكيف تعامل الإنسان مع هداية الله؟

لماذا نبدأ من قبل آدم عليه السلام؟

قد يظن القارئ أن قصة الإنسان تبدأ عند خلق آدم عليه السلام، ولكن القرآن يفتح أمامنا مشهدًا أوسع.

فقبل أن تبدأ حياة الإنسان على الأرض، كان هناك عالم من الغيب لا نعرف تفاصيله إلا بما أخبرنا الله ورسوله وأهل البيت عليهم السلام.

ولهذا فإن الفصل الأول من هذا الكتاب لن يبدأ بخلق آدم عليه السلام مباشرة، وإنما سيبدأ من السؤال الذي يسبق ذلك:

ماذا كان قبل آدم عليه السلام؟

وما الذي يمكننا معرفته من القرآن الكريم والروايات المعتبرة عن ذلك العالم؟

وهنا ينبغي أن نميز منذ البداية بين ما أخبرنا به القرآن، وما ثبت في الروايات، وما ورد في بعض كتب التفسير والقصص دون أن يثبت بدليل معتبر.

فالكتاب لن يحاول ملء الفراغات بالغيب المظنون، ولن يقدم كل رواية على أنها حقيقة قطعية.

إنما سنقف عند حدود الدليل، ونميز بين النص القرآني، والرواية، والاستنباط، والاحتمال.

وحدة مسيرة الهداية

إن تاريخ الأنبياء عليهم السلام ليس مجموعة من القصص المتفرقة، وإنما هو سلسلة متصلة من الهداية الإلهية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ سورة النحل، الآية ٣٦

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ سورة فاطر، الآية ٢٤

فدعوة الأنبياء في أصلها دعوة واحدة: توحيد الله، وعبادته، واتباع الحق، واجتناب الطاغوت.

وإن اختلفت بعض الشرائع والأحكام بحسب الأزمنة والأمم، فإن أصل الدين واحد.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ سورة الشورى، الآية ١٣

إنها إذن حكاية هداية واحدة، حملها أنبياء الله إلى البشر جيلاً بعد جيل، حتى وصلت إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله.

الهداية والأنبياء والأوصياء والحجج

إن إرسال الأنبياء والرسل يمثل جانبًا أساسيًا من رحمة الله بعباده، فقد أقام الله الحجة على الناس، وأرسل إليهم من يبين لهم طريق الحق ويحذرهم من طريق الباطل.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ سورة النساء، الآية ١٦٥

وفي الرؤية الإمامية الاثني عشرية، لا تنحصر مسيرة الهداية في الأنبياء وحدهم، بل يتصل البحث بعد ختم النبوة بأوصياء النبي محمد صلى الله عليه وآله وحجج الله على خلقه.

وهنا يجب التفريق بين أمرين:

ختم النبوة يعني أن محمدًا صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده.

أما استمرار الهداية والبيان والحجة فلا يعني استمرار النبوة، وإنما يرتبط في المنهج الإمامي بما أقامه الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من حجج وأوصياء.

وسيأتي البحث في ذلك في موضعه، اعتمادًا على القرآن الكريم وما ثبت من روايات أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا تمتد حكاية الهداية من بداية الخلق، عبر الأنبياء والرسل، حتى تصل إلى محمد صلى الله عليه وآله، ثم تتصل في المرحلة اللاحقة بأهل بيته عليهم السلام.

الهدف من "حكاية الهداية"

إن الهدف من هذه الرحلة ليس أن نعرف فقط:

ماذا حدث لآدم؟

وماذا حدث لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام؟

وماذا حدث في عصر خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله؟

بل السؤال الأهم هو:

ماذا يريد الله أن يعلمنا من خلال هذه القصص؟

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة يوسف، الآية ١١١

فالقصص القرآني ليس مجرد أخبار عن الماضي، وإنما هو عبرة وهداية ورحمة.

وسنرى في هذه الرحلة كيف يتكرر الصراع بين:

الهدى والضلال،والإيمان والكفر،والتواضع والكبر،والطاعة والمعصية،والعدل والظلم،والتوحيد والشرك،والحق والباطل.

وسنرى كذلك أن الأنبياء لم يأتوا ليحكوا للبشر أخبار الماضي، وإنما جاؤوا ليقودوهم إلى الله.

ومن هنا كان عنوان هذا الكتاب:

حكاية الهداية

إنها حكاية الإنسان مع الهداية منذ بداية الخلق، مرورًا بالأنبياء والرسل، ووصولًا إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، ثم إلى ما يتصل باستمرار الحجة والهداية في أهل بيته عليهم السلام.

خاتمة المقدمة

وهكذا تبدأ رحلتنا.

لن نبدأ من الأرض، بل سنبدأ من السؤال الذي يسبق وجود الإنسان عليها.

لن نفترض ما لا نعلم، ولن نجعل الغيب مجالًا للتخمين.

سنبدأ بما أخبرنا الله به، ثم بما ثبت عن رسوله وأهل بيته عليهم السلام، وسنفرق بين الحقيقة الثابتة والرواية المروية، وبين العلم والاحتمال.

ثم نمضي خطوة بعد خطوة:

من عالم ما قبل آدم،إلى خلق آدم،إلى أول اختبار،إلى بداية الحياة على الأرض،ثم إلى الأنبياء والأمم،ثم إلى إبراهيم وموسى وعيسى وسائر أنبياء الله عليهم السلام،حتى نصل إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله،ثم إلى أهل بيته عليهم السلام، وما يتصل بهم من مفهوم الهداية والحجة والإمامة.

إنها ليست مجرد رحلة في الماضي.

إنها رحلة للبحث عن معنى الهداية نفسها.

فقد يكون الإنسان قد عرف قصص الأنبياء كلها، ولكنه لم يعرف بعد كيف يكون من أهل الهداية.

ولهذا فإن السؤال الذي سيبقى معنا من أول صفحة إلى آخر صفحة هو:

إذا كان الله قد هدانا، فأين نحن من هدايته؟

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يوفقنا فيه للصدق والأمانة، وأن يجنبنا القول عليه بغير علم، وأن يجعل القرآن الكريم نورًا لنا، وأن يرزقنا معرفة محمد وآل محمد، والتمسك بهديهم، والسير في طريق الحق.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ سورة آل عمران، الآية ٨

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

مصادر المقدمة

أولًا: القرآن الكريم

- سورة البقرة، الآية ٣٠
- سورة آل عمران، الآية ٨
- سورة النساء، الآية ١٦٥
- سورة النحل، الآية ٣٦
- سورة فاطر، الآية ٢٤
- سورة الشورى، الآية ١٣
- سورة المؤمنون، الآية ١١٥
- سورة الذاريات، الآية ٥٦
- سورة الإنسان، الآية ٣
- سورة يوسف، الآية ١١١

ثانيًا: مصادر روايات أهل البيت عليهم السلام

ستُستخدم هذه المصادر في فصول الكتاب بحسب موضوع كل فصل، ولن تُعامل جميع الروايات الواردة فيها بدرجة واحدة من حيث الثبوت.

- الشيخ الصدوق، التوحيد
- الشيخ الصدوق، علل الشرائع
- الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة
- الشيخ الطوسي، الأمالي
- محمد بن علي بن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب
- علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي
- محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي
- العلامة المجلسي، بحار الأنوار
- قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء

وسيُذكر في نهاية كل فصل المصدر المحدد لكل رواية، مع الجزء والصفحة أو الباب والموضع المناسب قدر الإمكان.

الفصل ١ — قبل آدم عليه السلام — عالم سبق الإنسان

عندما نتحدث عن بداية الإنسان، قد يبدو للوهلة الأولى أن القصة تبدأ بخلق آدم عليه السلام. لكن القرآن يضعنا أمام مشهد أوسع بكثير.

فآدم عليه السلام كان أول البشر وأبا هذا النوع الإنساني، لكنه لم يكن أول مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى. وقبل ظهور الإنسان كان هناك عالم واسع من الخلق: السماوات والأرض، والملائكة، والجن، ومخلوقات أخرى لا يخبرنا القرآن بكل تفاصيلها.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة الزمر، الآية ٦٢

وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الفاتحة، الآية ٢

فالقرآن لا يقدم الوجود على أنه عالم الإنسان وحده، وإنما يضع الإنسان داخل منظومة كونية واسعة، كلها مملوكة لله، وكلها قائمة بأمره وحكمته.

وعندما أعلن الله سبحانه وتعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ سورة البقرة، الآية ٣٠

لم يكن هذا الإعلان بداية الخلق، بل كان إعلانًا عن مرحلة جديدة في تاريخ الخلق: مرحلة ظهور الإنسان.

ومن هنا يبدأ سؤال هذا الفصل:

ماذا كان قبل آدم؟

والجواب يحتاج إلى قدر كبير من الأمانة العلمية؛ لأن القرآن أخبرنا ببعض الحقائق الكبرى، لكنه لم يقدم سجلًا تفصيليًا لكل من عاش على الأرض قبل آدم.

أولًا: قبل السماوات والأرض — الماء والعرش في روايات أهل البيت عليهم السلام

إذا كان هذا الفصل يسأل عما كان قبل آدم، فمن المناسب ألا نبدأ مباشرة بخلق الإنسان، بل نرجع خطوة أخرى إلى الصورة التي يقدمها القرآن وتشرح بعض جوانبها روايات أهل البيت عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ سورة هود، الآية ٧.

تذكر الآية خلق السماوات والأرض وكون العرش على الماء. أما تفصيل ترتيب مراحل الخلق فيحتاج إلى تفسيرها ومقابلة الأخبار، ولا نبني من هذا الموضع وحده تسلسلًا كونيًا كاملًا. ويذكر خبر منسوب إلى الإمام الباقر في الكافي الماء والعرش ضمن وصف الخلق، فيبقى تفصيله في حدود الرواية.

ولا ينبغي أن نفهم من ذكر العرش تشبيه الله بخلقه أو حاجته إلى مكان؛ فالتوحيد في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ينزه الله عن الجسم والمكان والحاجة. لذلك نثبت ما جاء به النص، ونقف عند حدوده، ولا نحوّل الألفاظ الغيبية إلى صور مادية من عندنا.

وهذه الإضافة مهمة؛ لأنها تبين أن الحديث عن «ما قبل آدم» لا يبدأ فقط بالجن والملائكة، بل إن الروايات الإمامية تفتح أمامنا مشهدًا أوسع من مراحل الخلق السابقة للإنسان. ومع ذلك، لا نحاول بناء تسلسل كوني كامل من أخبار متفرقة، بل نذكر ما يخدم حكاية الهداية وما يمكن نسبته إلى مصادر أهل البيت بوضوح.

ثانيًا: خلق السماوات والأرض قبل الإنسان

قبل أن نتحدث عن آدم عليه السلام، ينبغي أن نضع خلق الإنسان في سياقه القرآني الأوسع.

فالقرآن يقرر أن السماوات والأرض قد خُلقتا، وأن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ سورة الأنعام، الآية ٧٣

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الدخان، الآيتان ٣٨-٣٩.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سورة السجدة، الآية ٤

وهذه الآيات تؤسس لحقيقة مهمة:

وجود الإنسان جاء داخل خلق أوسع منه.

فالإنسان ليس أصل الوجود، ولا بداية الخلق، ولا المخلوق الوحيد الذي أخبرنا القرآن بوجوده.

وفي الوقت نفسه، لا ينبغي أن نحمل هذه الآيات ما لا تحتمل. فالقرآن ليس كتابًا في علم الكونيات بالمعنى التفصيلي، ولا يقدم لنا جدولًا زمنيًا كاملًا لجميع مراحل نشأة الكون.

إنما يذكر من أمر الخلق ما يرتبط بالتوحيد، والقدرة الإلهية، والحكمة، وموقع الإنسان من ربه.

ومن هنا فإن السؤال عن العالم قبل آدم يجب أن يبقى مرتبطًا بهذا الإطار: ماذا يريد القرآن أن نعرف، ولماذا يريدنا أن نعرفه؟

ثالثًا: الملائكة كانوا موجودين قبل آدم

من أوضح ما يدل على وجود خلق سابق لآدم أن القرآن يذكر الملائكة في المشهد الذي سبق خلق الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٠

فالآية تفترض وجود الملائكة قبل إعلان خلق آدم.

والقرآن يصف الملائكة بأنهم عباد لله، لا يعصونه فيما أمرهم.
قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ سورة التحريم، الآية ٦
وقال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦-٢٧
إذن، قبل أن يظهر الإنسان كان هناك عالم من الملائكة، عالم مرتبط بالعبادة والطاعة وتنفيذ أمر الله.
لكن القرآن لا يخبرنا في هذا الموضع بكل تفاصيل خلق الملائكة، ولا يقدم لنا تاريخًا كاملًا لعالمهم.
وهذا مهم، لأننا لا ينبغي أن نملأ الفراغات التي تركها القرآن بتفاصيل لا دليل قطعي عليها.

رابعًا: الجن خُلقوا قبل آدم

أما الجن، فلدينا نص قرآني أوضح في مسألة السبق الزمني.
قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ سورة الحجر، الآية ٢٧
والعبارة القرآنية صريحة: ﴿مِن قَبْلُ﴾
أي أن خلق الجان كان قبل خلق الإنسان المذكور في سياق القصة.
وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ سورة الرحمن، الآية ١٥
فالجن إذن مخلوق آخر غير الإنسان، وله وجود سابق على الإنسان.
والقرآن لا يقدم الجن على أنهم مجرد مخلوقات غير مسؤولة، بل يبين أنهم داخلون في دائرة التكليف.
قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات، الآية ٥٦
وقال الجن عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ سورة الجن، الآية ١١
وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ سورة الجن، الآية ١٤
إذن، قبل ظهور الإنسان كان هناك مخلوق آخر يدخل في دائرة الإيمان والكفر والطاعة والمعصية.
وهنا ينبغي أن نميز بين أمرين:
القرآن يثبت وجود الجن قبل الإنسان.
لكن القرآن لا يقول إن كل من كان في الأرض قبل آدم كان من الجن، ولا يقول إن الجن كانوا وحدهم سكان الأرض.
وهذا هو الموضع الذي تبدأ فيه الروايات بإضافة تفاصيل تحتاج إلى الدراسة.

خامسًا: ماذا كان في الأرض قبل آدم؟

هذه هي النقطة التي تكثر فيها الروايات، وتكثر معها الحاجة إلى التمييز بين النص القرآني والنص الروائي.

القرآن يخبرنا أن الله قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

ثم جاء سؤال الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

والسؤال الطبيعي هنا:

كيف عرفت الملائكة أن هذا المخلوق الجديد يمكن أن يفسد ويسفك الدماء؟

القرآن لا يقدم جوابًا تفصيليًا واحدًا.

ولهذا ظهرت عدة اتجاهات تفسيرية.

قد يكون الله سبحانه وتعالى قد أعلم الملائكة بشيء من طبيعة هذا المخلوق.

وقد يكونون قد فهموا من طبيعة الخلافة والاختيار أن احتمال الفساد وارد.

وقد يكون لديهم علم سابق بمخلوقات عاشت في الأرض.

وهنا تأتي بعض روايات أهل البيت عليهم السلام لتقدم تفسيرًا أكثر تحديدًا.

ورد في تفسير القمي، في الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام، أن الله سبحانه وتعالى خلق خلقًا قبل آدم، وأنهم أفسدوا وسفكوا الدماء، ثم بعث الله إليهم الملائكة، فقتلوا من قتلوا منهم، وأسروا إبليس، ثم رفعوه إلى السماء.

وهذه الرواية، إذا أخذنا بها، تقدم تفسيرًا محتملًا لسؤال الملائكة عن الفساد وسفك الدماء.

لكن ينبغي أن نكون دقيقين:

هذا تفسير روائي، وليس تصريحًا قرآنيًا تفصيليًا.

ولهذا لا يصح أن نقول:

"القرآن يثبت أن أقوامًا محددين عاشوا قبل آدم ثم أهلكتهم الملائكة."

بل الأدق أن نقول:

"وردت روايات إمامية تذكر خلقًا سابقًا لآدم عاش في الأرض ووقع منه الفساد وسفك الدماء."

ويَرِد في خبر آخر من التفسير المنسوب إلى القمي، ج١، ص٣٦–٣٨، عن الباقر عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام، ذكر الجن و«النسناس» قبل آدم. نحفظ اللفظ بوصفه من متن الخبر، لا اسمًا قرآنيًا ولا نوعًا بشريًا ثبت علميًا؛ ولا نستخرج منه أسماء رجال أو نساء أو نسبًا يصل أولئك بذرية آدم.

وهذا الفرق سيظل حاضرًا في منهج الكتاب.

سادسًا: هل كان إبليس من الملائكة؟

تأتي هنا مسألة مهمة جدًا، لأن إبليس يظهر في المشهد المرتبط بالملائكة، لكن القرآن يحسم أصله.

قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ سورة الحجر، الآيتان ٣٠-٣١

وقد يظن القارئ من هذا الأسلوب أن إبليس كان من الملائكة.

لكن القرآن يوضح ذلك في موضع آخر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ سورة الكهف، الآية ٥٠

إذن الأصل القرآني واضح:

إبليس من الجن.

أما سبب وجوده في ذلك المجلس مع الملائكة، فتذكر الروايات تفسيرًا لذلك، ومن ذلك ما ورد في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام من أنه كان معهم بالولاء، وليس من جنس الملائكة.

وهذا ينسجم مع القرآن ولا يعارضه.

ومن هنا يجب أن يبقى الأمر واضحًا:

- إبليس من الجن.
- الملائكة جنس آخر من خلق الله.
- وجود إبليس مع الملائكة لا يجعله واحدًا منهم.
- عبادته السابقة لا تعني عصمته من الانحراف.

وهذه النقطة ستصبح أكثر أهمية عندما نصل إلى قصة السجود لآدم.

سابعًا: هل كانت هناك عوالم متعددة قبل آدم؟

هنا نصل إلى واحدة من أكثر المسائل إثارة في الروايات الإمامية.

فبعض روايات أهل البيت عليهم السلام لا تتحدث فقط عن خلق سابق لآدم، وإنما تتحدث عن عوالم متعددة سبقت آدم.

ومن ذلك خبر محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام في الخصال للصدوق، أبواب السبعة، خبر «خلق الله عز وجل في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين»، ج٢، ص٣٥٨-٣٥٩، رقم٤٥ في الطبعة المقابلة، ورقم٧-٤٦ في فهرسة أخرى. يصف الخبر عوالم سكنت الأرض بالتعاقب وليست من ولد آدم، ثم خلق آدم وذريته. اختلاف ترقيم الحديث لا يعني وجود خبرين مستقلين، ووجود النص لا يغني عن تقويم سنده.

ويُروى في الخصال أيضًا عن جابر بن يزيد عن الإمام الباقر عليه السلام خبر آخر يذكر «ألف ألف عالم وألف ألف آدم»، في سياق أوسع يتحدث عن تجديد الخلق. فلا ندمج العددين في خبر واحد، ولا نحول «العالم» و«آدم» إلى تصنيف علمي معاصر. إنهما تعبيران في خبرين مختلفين، ويظل توثيق كل خبر وفهم دلالته من عمل أهل الاختصاص.

وقد جمع العلامة المجلسي عددًا من الروايات المتعلقة بهذه المسألة في بحار الأنوار ضمن الأبواب التي تتناول العوالم ومن كان في الأرض قبل خلق آدم.

وهذه الروايات هي التي أدت في بعض الكتابات إلى انتشار فكرة وجود "آدمين" أو "بشر سابقين" قبل آدم أبي البشر.

لكن هنا يجب أن نكون شديدي الدقة.

الرواية التي تتحدث عن سبعة عوالم لا تعني بالضرورة وجود سبعة "آدمين" بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن.

فلفظ "العوالم" أوسع من لفظ "الآدمين"، وتحديد طبيعة تلك المخلوقات يحتاج إلى دليل إضافي.

ولهذا سيكون التعبير العلمي في هذا الكتاب:

وردت روايات إمامية تتحدث عن عوالم ومخلوقات سبقت آدم عليه السلام.

ولا نقول:

ثبت يقينًا وجود سبعة آدمين قبل آدم. فالفرق بين العبارتين كبير.

ثامنًا: ماذا يمكن أن تعني كلمة "خليفة"؟

قبل آدم، لم يكن الإنسان موجودًا بعد، لكن القرآن يخبرنا أن الله أعلن للملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ سورة البقرة، الآية ٣٠

وهذه الكلمة من أهم الكلمات في قصة الإنسان.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المراد بالخلافة على وجوه متعددة، ولذلك لا ينبغي حصرها في معنى سياسي ضيق.

وفي المنظور القرآني، ترتبط الخلافة بالمسؤولية والابتلاء والطاعة وإقامة الحق.

وتوجد في الروايات المنسوبة إلى أهل البيت عليهم السلام إشارات إلى أن الأرض لا تخلو من حجة لله، وأن آدم وذريته يدخلون في سياق الهداية الإلهية.

وهنا نصل إلى نقطة مهمة في مشروع هذا الكتاب:

الإنسان لم يُخلق لمجرد الوجود، وإنما دخل في علاقة مع الله تقوم على المعرفة والطاعة والاختيار والهداية.

لكن من المهم ألا نحمل آية الخلافة وحدها تفاصيل عقائدية لم تذكرها.

فالآية تثبت أن الله جعل في الأرض خليفة، أما التفاصيل المتعلقة بتسلسل الحجج والهداة فهي تحتاج إلى مصادرها الروائية الخاصة.

تاسعًا: دلالة جواب الله للملائكة

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢:٣٠) يمنع اختزال الإنسان في احتمال الفساد. فالقدرة على الاختيار تتيح الإصلاح والعدل والتوبة والتضحية، كما تتيح الانحراف؛ ومن ذرية آدم يأتي الأنبياء والصالحون. ولا يدل سؤال الملائكة على أن الإنسان شرّ بطبيعته. أما احتمالات منشأ علمهم بالفساد فقد تقدمت في المبحث الخامس، فلا نكررها هنا.

عاشرًا: إبليس قبل أن يكون عدوًا للإنسان

قبل أن يصبح إبليس عدوًا للإنسان في القصة، كان مخلوقًا عابدًا.

والروايات تذكر مقامًا كان عليه إبليس قبل سقوطه، وتصف وجوده مع الملائكة وعبادته الطويلة.

لكن القرآن يكشف أن كثرة العبادة لا تكفي وحدها إذا فسد القلب بالكبر.

قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ سورة ص، الآية ٧٦

فالمشكلة لم تكن في أنه لم يعرف الله.

بل كان يعرف الله، ويعرف الأمر، ويعرف مقام العبادة.

لكن عندما جاء الاختبار، قدّم حكمه الخاص على أمر الله.

وهذه من أخطر الرسائل في قصة ما قبل آدم:

قد يملك الإنسان العلم، وقد يملك العبادة، لكنه قد يهلك إذا دخل الكبر إلى قلبه.

ولهذا فإن إبليس يمثل منذ هذه المرحلة نموذجًا للانحراف الذي يبدأ من الداخل.

ليس كل سقوط يبدأ بالجهل.

أحيانًا يبدأ السقوط بالمعرفة التي تتحول إلى غرور، وبالعبادة التي تتحول إلى شعور بالتفوق، وبالطاعة التي يظن صاحبها أنها تمنحه حق الحكم على الآخرين.

ومن هنا يصبح وجود إبليس في بداية قصة الإنسان ذا دلالة عميقة.

فالعدو الذي سيواجه الإنسان لم يبدأ عداؤه بعد خلق الإنسان فقط؛ بل إن جذور القصة كانت موجودة عند لحظة الامتحان الأولى.

الحادي عشر: هل نعرف كل ما كان قبل آدم؟

بعد جمع هذه النصوص والروايات، ينبغي أن نصل إلى جواب واضح.

لا، لا نعرف كل ما كان قبل آدم عليه السلام بالتفصيل.

لكننا نعرف مجموعة من الحقائق الكبرى:

- الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء.
- السماوات والأرض من خلق الله.
- الملائكة كانوا موجودين قبل آدم.
- الجن خُلقوا قبل الإنسان.
- إبليس من الجن.
- الله أعلن أنه سيجعل في الأرض خليفة.
- الملائكة ذكرت احتمال الفساد وسفك الدماء.
- الله أخبرهم أن لديه علمًا لا يعلمونه.
- وردت روايات إمامية تتحدث عن مخلوقات سابقة لآدم.
- ووردت روايات تتحدث عن عوالم متعددة قبل آدم.
- لكن تفاصيل تلك العوالم وطبيعة سكانها وعددهم ليست كلها في درجة واحدة من الثبوت.

وهنا تظهر قيمة المنهج العلمي.

الجهل بالتفصيل لا يعني الجهل بالحقيقة الأساسية.

نحن لا نعرف كل ما كان قبل آدم، لكننا نعرف أن الإنسان دخل إلى عالم لم يكن فارغًا، وأن خلقه جاء ضمن نظام إلهي سابق، وأن قصة الهداية لم تبدأ بعد وجود الإنسان فقط.

بل كانت عناصرها الأساسية موجودة منذ البداية:

الخالق.

الأمر.

الطاعة.

الاختيار.

الاختبار.

الهداية.

والشيطان.

الثاني عشر: لماذا لم يذكر القرآن تفاصيل العوالم السابقة؟

قد يسأل القارئ:

إذا كانت هناك روايات تتحدث عن مخلوقات وعوالم سبقت آدم، فلماذا لا نجد في القرآن أسماءها وتفاصيلها؟

الجواب أن القرآن ليس كتابًا لتسجيل كل المعلومات الممكنة عن تاريخ الكون.

إنه كتاب هداية.

قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة، الآية ٢

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ سورة آل عمران، الآية ١٣٨

ولهذا، عندما يخبرنا القرآن عن خلق آدم، لا يجعل هدفه الأساسي أن يقدم لنا موسوعة عن المخلوقات السابقة.

بل يركز على الأسئلة التي يحتاج الإنسان إلى معرفتها:

من خلقه؟

ما علاقته بالله؟

لماذا خُلق؟

ما معنى الاختيار؟

ما خطر الكبر؟

ما خطر الشيطان؟

ما طريق الهداية؟

وماذا يحدث عندما يخطئ الإنسان؟

وهذا يضع لنا قاعدة مهمة:

ليس كل ما يمكن أن نعرفه هو بالضرورة ما نحتاج إلى معرفته.

وقد يكون ترك بعض التفاصيل جزءًا من الحكمة؛ لأن الإنسان إذا عرف كل شيء عن الماضي فلن يتغير جوهر مسؤوليته أمام الله.

الثالث عشر: قبل أن يبدأ الإنسان، بدأت الهداية

وهنا نصل إلى أول درس حقيقي في هذا الفصل.

قد يظن الإنسان أن الهداية بدأت بعد خطأ آدم.

لكن الصورة القرآنية أعمق.

فمنذ اللحظة التي أعلن الله فيها عن خلق خليفة في الأرض، كان واضحًا أن الإنسان سيدخل عالمًا تحكمه سنن إلهية.

كان هناك:

علم.

وكان هناك:

أمر.

وكان هناك:

اختيار.

وكان هناك:

مسؤولية.

وكان هناك:

اختبار.

وكان هناك:

شيطان.

وكان هناك:

طريق إلى الله.

إذن، الهداية ليست علاجًا طارئًا ظهر بعد الخطأ.

بل هي جزء من المشروع الإلهي للإنسان منذ البداية.

وهذا هو المعنى الأول لعنوان الكتاب:

حكاية الهداية.

فالإنسان لم يدخل إلى عالم بلا معنى.

دخل إلى عالم له خالق.

وله أمر.

وله غاية.

وله اختبار.

وله عدو.

وله طريق للعودة إلى الله.

ومن هنا فإن قصة آدم ليست مجرد قصة أول إنسان ظهر على الأرض.
إنها بداية قصة مخلوق سيُمنح المعرفة والاختيار، ثم سيواجه الامتحان، ثم يتعلم كيف يعود إلى الله.
وقبل أن يخطو آدم أول خطوة في هذا العالم، كان المشهد الذي أعدّه الله لبداية الإنسان قد اكتملت عناصره الأساسية.
بقي أن يظهر الإنسان.
وهنا ينتهي هذا الفصل.
وهنا يبدأ الفصل التالي.

النبي وأهل بيته في أخبار الخلق السابق

ومن الأخبار المتصلة بهذا التمهيد ما رواه الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة، عن المفضل بن عمر، عن الإمام الصادق عليه السلام، في أربعة عشر نورًا يصفها الخبر بأنها أرواحهم. ويسمّي محمدًا وعليًا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ثم يذكر الأئمة من ولد الحسين وآخرهم القائم. وبذلك تبقى فاطمة عليها السلام حاضرة في هذا المورد الروائي المتعلق بما قبل الحياة الأرضية.
هذا عرض لمضمون خبر له سنده ودلالته، وليس تعدادًا قرآنيًا لمراحل الخلق، ولا يثبت به وحده ترتيب زمني مادي للكون. ويُترك تفصيل سير هؤلاء الهداة لفصولهم وأجزاء الكتاب المخصصة لهم، وتفصيل مباحث الخلق لكتبها، حتى لا يتكرر هنا ما له موضع آخر.

خلاصة الفصل

آدم عليه السلام هو أبو هذا النوع الإنساني، وتعرضه روايات أهل البيت عليهم السلام بوصفه بداية هذه البشرية، لكنه لم يكن أول مخلوق خلقه الله.
قبل آدم كان هناك عالم واسع من الخلق، يثبت القرآن منه السماوات والأرض والملائكة والجن.
وقد أثبت القرآن بوضوح أن الجن خُلقوا قبل الإنسان، وأن إبليس كان من الجن، لا من الملائكة.
كما أن الملائكة كانوا موجودين قبل آدم، وكانوا عبادًا لله مطيعين لأمره.
وعندما أعلن الله أنه سيجعل في الأرض خليفة، سألت الملائكة عن احتمال الفساد وسفك الدماء. ولم يشرح القرآن بالتفصيل كيف علمت الملائكة ذلك، ولذلك بقيت المسألة مفتوحة أمام أكثر من تفسير.
وتقدم بعض روايات أهل البيت عليهم السلام تفسيرًا يقول إن مخلوقات سبقت آدم وسكنت الأرض ووقع منها الفساد وسفك الدماء.
وتوجد روايات أخرى تتحدث عن عوالم متعددة سبقت آدم.

لكن هذه التفاصيل الروائية ليست في درجة واحدة من الثبوت، ولا ينبغي تحويلها إلى عقائد قطعية دون دليل معتبر.

والحقيقة الأهم التي يخرج بها القارئ من هذا الفصل هي أن قصة الإنسان لم تبدأ في فراغ.

لقد دخل الإنسان إلى عالم سبق وجوده، عالم فيه خلق، ونظام، وأمر، واختيار، وابتلاء.

وكانت الهداية جزءًا من هذا المشروع منذ البداية.

ولهذا فإن السؤال الأهم ليس فقط:

من كان على الأرض قبل آدم؟

بل أيضًا:

لماذا خلق الله آدم أصلًا؟ وهذا السؤال هو الذي سنبدأ به الفصل التالي.

مصادر الفصل

أولًا: القرآن الكريم

- القرآن الكريم، سورة الفاتحة، الآية ٢.
- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيات ٢ و٣٠.
- القرآن الكريم، سورة هود، الآية ٧.
- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية ٧٣.
- القرآن الكريم، سورة الحجر، الآيات ٢٧ و٣٠-٣١.
- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآيات ١٦ و١٩ و٢٦-٢٧.
- القرآن الكريم، سورة الرحمن، الآية ١٥.
- القرآن الكريم، سورة الدخان، الآيتان ٣٨-٣٩.
- القرآن الكريم، سورة السجدة، الآية ٤.
- القرآن الكريم، سورة ص، الآية ٧٦.
- القرآن الكريم، سورة الذاريات، الآية ٥٦.
- القرآن الكريم، سورة التحريم، الآية ٦.
- القرآن الكريم، سورة الجن، الآيتان ١١ و١٤.
- القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية ٥٠.
- القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية ٦٢.
- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ١٣٨.

ثانيًا: مصادر روايات أهل البيت عليهم السلام

الشيخ الكليني، الكافي، ج ٨، باب «كان كل شيء ماء»، ح ١: رواية محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام في الماء والعرش وخلق السماوات والأرض.

- علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، المواضع المتعلقة بتفسير سورة البقرة وقصة خلق آدم وإبليس والمخلوقات السابقة لآدم.
- الشيخ الصدوق، الخصال، ج٢، ص٣٥٨-٣٥٩، أبواب السبعة، ح٤٥ في هذه الطبعة: خبر محمد بن مسلم عن الإمام الباقر في سبعة عوالم؛ وخبر جابر بن يزيد عن الإمام الباقر في «ألف ألف عالم وألف ألف آدم»، في أبواب ما بعد الألف، مع اختلاف ترقيمه بين الطبعات والفهارس.
- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، الأبواب المتعلقة بخلق آدم والعوالم ومن كان في الأرض قبل آدم عليه السلام، ولا سيما ما ورد في كتاب السماء والعالم.
- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، الروايات المتعلقة بإبليس ومقامه السابق ووجوده مع الملائكة.

الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، باب ٣٣، ح٧، ص٣٣٥-٣٣٦: خبر المفضل بن عمر عن الإمام الصادق في الأربعة عشر نورًا؛ أُثبت هنا مورد التسمية دون ادعاء تصحيح السند.

الفصل ٢ — آدم عليه السلام — بداية الإنسان وحكاية الهداية

خلق آدم عليه السلام وبداية القصة

لم تبدأ قصة الإنسان على الأرض من تلقاء نفسها، ولم يكن وجوده نتيجة حدث بلا غاية أو معنى. قبل أن يعرف آدم معنى الأسرة، والعمل، والموت، والابتلاء، وقبل أن يعرف الإنسان معنى الخير والشر في تجربته الأرضية، كان هناك إعلان إلهي عن خلق الإنسان ومهمته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٠.

هذه الآية تضعنا أمام حقيقة مهمة منذ اللحظة الأولى:

الإنسان لم يظهر في الأرض بلا غاية.

لقد سبقت خلقه إشارة إلى دوره في الأرض، وإلى المسؤولية التي ستصبح جزءًا من وجوده.

فالقرآن لا يقدم الإنسان بوصفه مخلوقًا ظهر في عالم خالٍ من المعنى، وإنما يضع وجوده منذ البداية ضمن إطار من العلم الإلهي والحكمة والتكليف.

والخلافة هنا لا تعني أن الإنسان يصبح إلهًا أو شريكًا لله، ولا تعني أن الإنسان يمتلك سلطة مستقلة عن خالقه.

فالإنسان مخلوق، والله هو الخالق.

والإنسان عبد لله، مهما بلغ من العلم أو القدرة أو المكانة.

ومن هنا فإن الحديث عن خلافة الإنسان في الأرض يجب أن يبقى مرتبطًا دائمًا بمفهوم العبودية والمسؤولية.

فالإنسان لم يُعطَ الأرض ليملكها بلا حساب، وإنما أُعطي موقعًا ومسؤولية واختبارًا.

ثم أخبر الله الملائكة أنه سيخلق هذا الإنسان من طين.

قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ سورة ص، الآية ٧١.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ سورة الحجر، الآية ٢٦.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ سورة آل عمران، الآية ٥٩.

وتتعدد الألفاظ القرآنية في وصف مادة خلق آدم.

فتارة يذكر القرآن التراب، وتارة الطين، وتارة الصلصال، وتارة الحمإ المسنون.

ولا ينبغي أن ننظر إلى هذه التعبيرات وكأنها أوصاف متعارضة بالضرورة؛ فهي من البيان القرآني لأصل الخلق ومادته ومراحله.

فالإنسان الذي سيحمل العلم والتكليف والمسؤولية يبدأ من مادة تبدو في ظاهرها بسيطة وضعيفة.
وهنا يظهر جانب آخر من القصة:
قيمة الإنسان ليست في المادة التي خُلق منها وحدها، وإنما فيما أودعه الله فيه من قابلية للعلم والتكليف والهداية.
ثم اكتمل خلق آدم وسوّاه الله، ونُسبت إليه الروح إضافة تشريف، وأمر الملائكة بالسجود له.
قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سورة ص، الآية ٧٢.
ولا يعني قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ أن في آدم جزءًا من ذات الله، تعالى الله عن ذلك.
فالروح مخلوقة لله، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف وملك، كما في تعبيرات قرآنية أخرى.
وهكذا بدأت قصة الإنسان في إطار من العلم الإلهي، والاختيار، والتكليف، والمسؤولية.
لم يكن آدم مجرد أول جسد بشري ظهر في الوجود، بل كان بداية قصة الإنسان بوصفه كائنًا مكلّفًا، قادرًا على المعرفة، ومهيأً لحمل المسؤولية.
ومنذ هذه اللحظة الأولى تظهر إحدى الأفكار الكبرى التي سترافق تاريخ الأنبياء كله:
خلق الإنسان لم يكن منفصلًا عن هدايته.

آدم وتعليم الأسماء

لم يكن تمييز آدم فقط في أصل خلقه، ولا في كونه أول إنسان.
بل كان في العلم أيضًا.
قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سورة البقرة، الآية ٣١.
وهذه الآية من أعظم الآيات في فهم مكانة آدم.
فالله لم يخلق الإنسان فقط، بل منحه قابلية المعرفة والتعليم والفهم.
ولذلك جاءت قصة تعليم آدم الأسماء مباشرة بعد الإعلان عن خلقه، وقبل أن تبدأ مرحلة الاختبار المرتبطة بالسجود والشيطان والجنة.
ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ سورة البقرة، الآيتان ٣١-٣٢.
وهنا تظهر مسألة مهمة جدًا.
اختلفت الروايات والتفاسير في معنى الأسماء التي علّمها الله لآدم.
فهل المقصود أسماء الأشياء كلها؟
أم أسماء مخصوصة؟

أم معارف وحقائق تتجاوز مجرد الألفاظ والأسماء؟

هذه المسألة تناولها المفسرون والرواة بطرق متعددة، ولذلك لا ينبغي أن نختزلها في تفسير واحد ثم نقدمه وكأنه أمر متفق عليه في جميع المصادر.

لكن المعنى الأساسي الذي ينبغي أن يبقى واضحًا هو أن آدم لم يبدأ وجوده بلا تعليم.

لقد كان التعليم سابقًا على الاختبار.

وهذه نقطة ستتكرر في تاريخ الهداية كله:

الله يخلق الإنسان، ثم يعرّفه، ثم يكلّفه، ثم يختبره.

فالاختبار في التصور القرآني ليس اختبارًا لمخلوق تُرك في الجهل، وإنما هو اختبار لمخلوق أُعطي من مقدمات المعرفة ما يؤهله للمسؤولية.

وفي الروايات الإمامية توجد روايات كثيرة توسع الحديث عن العلم الذي أعطي لآدم، وعن الاسم الأعظم، وعن انتقال بعض العلم إلى من يأتي بعده.

وهذه المادة مهمة عند دراسة التصور الإمامي لمسألة استمرار العلم والهداية.

لكن المنهج الذي سنلتزم به في هذا الكتاب يقتضي التمييز بين المستويات.

فوجود رواية في مصدر روائي لا يعني وحده أن كل تفاصيلها أصبحت حقيقة تاريخية قطعية.

بل ننظر إلى السند، والمضمون، ومجموع الروايات، ومدى توافقها مع الأصول القرآنية والعقدية.

أما الأساس القرآني، فهو واضح: آدم عُلِّم.

والعلم كان جزءًا من تهيئته للمهمة التي سيحملها.

سجود الملائكة ورفض إبليس

بعد أن أظهر الله فضل آدم بالعلم، جاء الأمر الإلهي بالسجود.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٤.

لم يكن سجود الملائكة لآدم عبادةً لآدم.

وإنما كان امتثالًا لأمر الله.

وهذه نقطة أساسية؛ لأن القصة لا تتحدث عن منح آدم مقام الألوهية، وإنما عن تكريم الله له وأمر الملائكة بالسجود له بأمر من الله.

أما إبليس فرفض.

والقرآن يحدد السبب بوضوح: الكبر والاستكبار.

قال تعالى على لسان إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ سورة ص، الآية ٧٦.
وهنا ظهرت أول مواجهة كبرى في قصة الإنسان.
إبليس لم يقل إنه لا يعرف الله.
ولم يكن اعتراضه قائمًا على إنكار وجود الخالق.
بل كان يعرف الله ويخاطبه.
لكن المشكلة كانت في رفض الطاعة بسبب الاستكبار.
وهذا من أخطر دروس قصة آدم: قد يعرف الإنسان الحق، ثم يرفضه لأن الحق لا يوافق كبرياءه.
فالمعرفة وحدها لا تكفي إذا لم تتحول إلى خضوع للحق.
ولهذا يمكن أن يكون الجهل قابلًا للعلاج بالتعلم، بينما قد يصبح الكبر حاجزًا أمام التعلم نفسه.
فالإنسان الجاهل قد يقول: لا أعلم.
أما المتكبر فقد يرفض أن يقول: لا أعلم.
ومن هنا كانت مشكلة إبليس أعمق من مجرد نقص في المعلومات.
كانت مشكلة في الموقف من الحق والأمر الإلهي.
والقرآن يوضح كذلك طبيعة إبليس، فيقول: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ سورة الكهف، الآية ٥٠.
وهذا التفصيل مهم حتى لا تختلط علينا طبيعة إبليس بطبيعة الملائكة.
فالقرآن يصف إبليس بأنه من الجن، مع أنه كان حاضرًا مع الملائكة عند صدور الأمر بالسجود.
ثم طلب إبليس الإمهال، وأعلن أنه سيحاول إضلال بني آدم.
ومن هنا تظهر العداوة بين الشيطان والإنسان بوصفها عنصرًا مبكرًا في القصة.
لم تنتظر هذه العداوة حتى يصبح للبشر مجتمع كبير، أو حضارة، أو تاريخ طويل.
بل ظهرت منذ البداية.

حواء عليها السلام — أم البشرية وشريكة آدم في بداية الهداية

قبل الحديث عن الجنة والشجرة، ينبغي أن نتوقف عند حواء عليها السلام نفسها؛ لأنها ليست شخصية هامشية في قصة آدم، بل هي زوجته وأم البشر، وشريكته في بداية الأسرة الإنسانية والابتلاء والتوبة والحياة على الأرض.
القرآن الكريم لا يذكر اسم «حواء» صراحة، وإنما يعبر عنها بزوج آدم. ولذلك فإن اسم حواء وتفاصيل خلقها تأتي من الروايات، لا من التصريح القرآني.

ومن المسائل المهمة هنا كيفية خلق حواء. اشتهر في بعض المرويات أنها خُلقت من ضلع آدم، لكن في الروايات الإمامية مادة ترفض جعل هذا التصوير هو الأصل، وتربط خلقها بالطينة التي خُلق منها آدم. ولهذا لا نجعل قصة الضلع حقيقة قرآنية، بل نعرضها ضمن المادة الروائية ونرجع إلى النصوص الأصلية في التوثيق النهائي.

والأهم أن القرآن لا يجعل حواء وحدها سبب ما جرى في الجنة. يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، ويقول: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، كما يذكر اعترافهما معًا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. فالمشهد القرآني يقدم آدم وزوجه معًا في الابتلاء والوسوسة والتوبة، ولا يحمل المرأة وحدها مسؤولية الهبوط.

ثم هبط آدم وحواء إلى الأرض، وبدأت معهما الأسرة البشرية. ومن هنا ترتبط حواء بالحمل والولادة والأمومة وبداية ذرية آدم. وتوجد في روايات أهل البيت عليهم السلام تفاصيل متعددة عن أولادهما وبناتهما وكيفية استمرار النسل، وهذه الروايات ليست جميعها على صورة واحدة؛ ولذلك تُعرض في موضعها مع بيان الاختلاف بينها.

أما ما يتعلق بعمر حواء ووفاتها وموضع دفنها، فالمادة الروائية أقل وضوحًا وثبوتًا من المادة المتعلقة بآدم، ولذلك لا نصنع لها سيرة تفصيلية لا تسندها الأدلة.

ترد مصادر هذا المبحث في قائمة المراجع في نهاية الفصل، ومنها روايات بدء النكاح وخلق حواء في كتب الشيخ الصدوق.

آدم وحواء في الجنة

بعد خلق آدم وتعليمه، خلق الله له زوجه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ سورة النساء، الآية ١.

وفي التراث الإسلامي عُرفت زوجة آدم باسم حواء.

لكن القرآن لا يذكر اسمها صراحة في قصة آدم، وإنما يتحدث عن آدم وزوجه.

وهذه ملاحظة منهجية بسيطة لكنها مهمة.

فنحن نستطيع أن نقول: آدم كان له زوج.

أما إطلاق اسم "حواء" فهو من التراث الإسلامي والروايات والتقاليد الموروثة، وليس اسمًا ورد صراحة في الآيات التي تسرد قصة آدم.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ سورة البقرة، الآية ٣٥.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من القصة.

آدم لم يكن وحده.

ظهر الزوج، وبدأت الأسرة.

وهذه نقطة مهمة في فهم بداية الإنسان.

فالإنسان لم يُقدَّم في القصة بوصفه كائنًا منفردًا إلى الأبد، وإنما دخل منذ وقت مبكر في إطار العلاقة الزوجية والأسرة.

كان آدم وزوجه في مرحلة من النعيم، ولكن مع هذا النعيم جاء التكليف.

قال الله لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٥.

فالنعيم لم يكن إلغاءً للاختبار.

بل كان الاختبار موجودًا حتى في الجنة.

وهنا ينبغي أن نتوقف عند الشجرة.

القرآن لم يسمِّ نوعها، ولم يقل إنها كانت تفاحًا أو عنبًا أو قمحًا أو غير ذلك.

وقد وردت في بعض الروايات والتفاسير أقوال متعددة حول حقيقتها، لكن لا ينبغي أن نثبت اسمًا معينًا على أنه حقيقة قرآنية.

المهم هو أن الله نهى آدم وزوجه عن الاقتراب منها.

ثم بدأت وسوسة إبليس.

وهنا تنتقل القصة من مرحلة التكليف النظري إلى مرحلة الاختبار الفعلي.

الوسوسة والأكل من الشجرة

لم يبدأ إبليس بإجبار آدم وزوجه على الأكل من الشجرة، وإنما بدأ بالوسوسة.

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ سورة الأعراف، الآيتان ٢٠-٢١.

وهنا تظهر طبيعة الوسوسة.

الشيطان لا يقدم الشر دائمًا في صورته الحقيقية.

بل قد يعرضه في صورة منفعة، أو نصيحة، أو فرصة، أو وعد بشيء يبدو أفضل.

لم يقل لهما ببساطة: افعلا الشر.

بل ربط الفعل الممنوع برغبة الإنسان في الارتقاء والخلود، ثم أقسم لهما أنه ناصح لهما.

وهذا من أخطر أساليب الإغواء: أن يتحول الباطل في ذهن الإنسان إلى وسيلة لتحقيق شيء يظنه خيرًا.

ثم جاء التعبير القرآني: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ سورة الأعراف، الآية ٢٢.

أي أن إبليس أنزلهما من مقامهما بالخداع والتغرير.

ثم وقع الأكل من الشجرة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ سورة الأعراف، الآية ٢٢.

وهنا بدأت آثار الفعل تظهر.

لكن القصة لا تتوقف عند المخالفة.

وهذه نقطة أساسية في فهم قصة آدم.

فالقصة القرآنية لا تقدم الإنسان بوصفه مخلوقًا لا يخطئ، ولا بوصفه مخلوقًا إذا أخطأ انتهى أمره.

بل تعرض لنا مسارًا كاملًا:

أمر.

ثم اختبار.

ثم وسوسة.

ثم وقوع في الخطأ.

ثم إدراك.

ثم توبة.

ثم قبول.

ثم هداية.

ولهذا فإن قيمة قصة آدم لا تكمن فقط في لحظة السقوط، وإنما في الطريق الذي جاء بعدها.

توبة آدم عليه السلام

من أهم ما يميز قصة آدم أن الخطأ لم يكن نهاية الطريق.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٧.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ سورة طه، الآية ١٢٢.

وهذه من أهم النقاط في القصة كلها.

فالقرآن لا يترك آدم في صورة الإنسان الذي أخطأ ثم بقي بعيدًا عن الله.

بل يعرضه في صورة الإنسان الذي تاب، وقبل الله توبته، ثم اجتباه وهداه.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى الفرق بين آدم وإبليس.

كلاهما واجه أمرًا إلهيًا.

وكلاهما خالف ما طُلب منه.

لكن الموقف بعد المخالفة كان مختلفًا جذريًا.

إبليس جادل واستكبر.

قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾

ثم حاول أن يجعل المشكلة في الأمر الإلهي نفسه.

أما آدم وزوجه فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية ٢٣.

وهنا تظهر قيمة الاعتراف.

فالإنسان قد يسقط، لكن السقوط ليس هو الذي يحدد نهايته.

الذي يحدد الطريق هو موقفه بعد السقوط.

هل يبرر؟

هل يكابر؟

هل يلقي المسؤولية على الآخرين؟

أم يعترف ويرجع إلى الله؟

وقصة آدم تقدم لنا النموذج الثاني.

إنها تجعل التوبة جزءًا من تاريخ الإنسان منذ بدايته.

فالهداية ليست فقط أن يعرف الإنسان الطريق قبل أن يخطئ.

بل أن يعرف أيضًا كيف يعود عندما يخطئ.

آدم وقضية العصمة

هنا تظهر مسألة عقدية لا يمكن تجاوزها إذا أردنا أن نقدم قصة آدم عليه السلام ضمن التصور الإمامي بصورة دقيقة.

فالقرآن يقول: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه ٢٠:١٢١).

وقد يقرأ القارئ هذه الآية وحدها، فيظن أن آدم كان نبيًا متمردًا على الله، وأنه ارتكب المعصية بالمعنى الذي نتصوره في حق الإنسان العادي.

لكن فهم الآية يحتاج إلى النظر في القصة كاملة، وإلى التمييز بين لفظ القرآن وتفسيره في علم الكلام الإمامي.

فعلماء الإمامية يثبتون عصمة الأنبياء، وقد بحثوا فعل آدم والنهي عن الشجرة بحثًا مفصلًا. ومن التفسيرات التي ذكروها ترك الأولى؛ أي ترك ما كان أولى به أن يفعله. وهذه عبارة تفسيرية، وليست لفظًا ورد في الآية.

ولا نحتاج هنا إلى عرض جميع تفاصيل الخلاف الكلامي، لكن ينبغي أن تبقى القاعدة واضحة:

لا نقرأ قوله تعالى ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ بمعزل عن سائر الآيات، ولا ننسب إلى آدم تمردًا على الله لم يذكره القرآن.

فالقرآن نفسه يذكر ما جاء بعد الحادثة: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة ٢:٣٧)، ثم يقول: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه ٢٠:١٢٢).

وهكذا لا تنتهي قصة آدم عند الأكل من الشجرة، بل تمتد إلى التوبة والاجتباء والهداية. وفي هذا السياق تُفهم الآية، مع حفظ ألفاظ القرآن وبيان ما أضافه التفسير الإمامي إليها.

الهبوط إلى الأرض

بعد التوبة جاء الهبوط إلى الأرض.

قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ سورة طه، الآيتان ١٢٣-١٢٤.

وهنا توجد جملة تستحق أن تكون من مفاتيح الكتاب كله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾

فبعد الهبوط لم يترك الله الإنسان بلا هداية.

بل أعلن منذ بداية الحياة الأرضية أن الهداية ستأتي من الله.

وهذه الجملة مهمة جدًا في بناء الصورة الكاملة لقصة آدم.

فالهبوط ليس نهاية العلاقة بين الإنسان وربه.

بل هو بداية مرحلة جديدة.

لقد دخل الإنسان الآن إلى عالم الأرض:

عالم العمل،

والأسرة،

والولادة،

والموت،

والصراع،

والعبادة،

والابتلاء،

والاختيار.

ولهذا لا ينبغي أن يُفهم الهبوط فقط على أنه عقوبة.

فالقرآن كان قد أعلن قبل خلق آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

كانت الأرض إذن داخلة في المشهد الإنساني منذ البداية.

لم يكن وجود الإنسان على الأرض فكرة ظهرت بعد حادثة الشجرة فقط.

بل كان جزءًا من الإعلان الأول عن خلق الإنسان.

ومن هنا يمكن فهم الهبوط باعتباره انتقالًا إلى المرحلة الأرضية التي أُعلن عنها أصلًا، مع ما حملته هذه المرحلة من مسؤولية واختبار.

وهذا لا يلغي أن الحادثة تضمنت أمرًا ونهيًا ومخالفة ونتائج، لكنه يمنعنا من اختزال معنى الهبوط في فكرة العقوبة وحدها.

الأرض ستصبح ميدان التكليف.

وفيها ستبدأ هذه المرحلة من قصة البشر.

وفيها سيظهر الأنبياء.

وفيها سيكون الصراع بين الحق والباطل.

وفيها ستكون التوبة والعبادة والعمل.

ومن هنا يصبح الهبوط بداية مرحلة من تاريخ الهداية، لا نهاية الهداية.

آدم وحواء في الأرض

بدأت حياة آدم وزوجه على الأرض.

وهنا تغيرت طبيعة التجربة.

انتقل الإنسان من عالم النعيم إلى عالم العمل.

صار هناك تعب، وزراعة، وأسرة، وولادة، وأبناء، وموت، وصراع، وعبادة، وابتلاء.

ولم تعد الحياة مجرد إقامة في مكان من النعيم، بل أصبحت حياة مسؤولية واختيار.

وتذكر بعض الروايات تفاصيل عن بداية حياة آدم في الأرض، وعن موضع هبوطه وهبوط زوجه، وعن اجتماعهما بعد ذلك.

وقد انتشرت في بعض كتب القصص والتاريخ تفاصيل كثيرة حول هذه الأحداث.

لكن ينبغي أن نبقى على منهجنا: ما لم يثبته القرآن صراحة، لا نرفعه إلى مرتبة القرآن.

وما ورد في الروايات نعرضه بوصفه رواية، مع مراعاة درجة ثبوته.

فلا نستطيع أن نجزم من النص القرآني وحده بمكان هبوط آدم وزوجه، ولا بتفاصيل اجتماعهما، ولا بكل ما وقع في الأيام الأولى من حياتهما على الأرض؛ فهذه التفاصيل، وكيفية انتشار ذريتهما، تعتمد على الروايات.

وهذه التفاصيل ستظهر أهميتها لاحقًا عندما نناقش الروايات المتعلقة ببداية الأسرة البشرية.

أما الحقيقة الكبرى فهي أن آدم بدأ مهمته بين البشر.

كان أبًا، لكنه لم يكن أبًا فقط.

كان نبيًا.

وكانت مهمته أن يعلم أبناءه عبادة الله، وأن يعرفهم بما أمر الله به، وأن يقود الأسرة الأولى في بداية الحياة البشرية.

وهنا يظهر معنى بالغ الأهمية:

النبي الأول لم يبدأ رسالته في مجتمع متكامل.

لم تكن هناك مدن عظيمة.

ولا مؤسسات دينية.

ولا مدارس.

ولا أمة واسعة.

كانت البداية من الأسرة.

ومن هنا يمكن أن نفهم الأسرة الأولى باعتبارها أول بيئة للتربية والهداية.

آدم عليه السلام ومكة والبيت الحرام — تعليم المناسك في الروايات الإمامية

بعد أن بدأت حياة آدم وزوجه على الأرض، تنقل بعض الروايات الإمامية مرحلة أخرى مهمة من حياته: تعلُّم المناسك والارتباط بمكة والبيت الحرام.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، ويقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨). وعندما يتحدث القرآن صراحة عن رفع قواعد البيت يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧).

ولهذا لا ننسب إلى القرآن أنه يقول إن آدم بنى الكعبة، بل نقول: توجد روايات إمامية تربط آدم بموضع البيت ومناسكه قبل زمن إبراهيم، بينما يثبت القرآن بصورة صريحة دور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد البيت.

نزول آدم على الصفا وحواء على المروة — حدود الرواية

في الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب «حج آدم عليه السلام»، وردت روايات تذكر أن آدم عليه السلام أهبط على الصفا وأن حواء أهبطت على المروة. وهذه التفاصيل ليست واردة في القرآن. كما أن الروايتين المطولتين الأوليين من الباب حكم عليهما المجلسي بالضعف؛ ولذلك لا نصوغ الأمر بصيغة الجزم، بل نقول: ورد في بعض الروايات الإمامية أن آدم نزل على الصفا وأن حواء نزلت على المروة.

جبرئيل عليه السلام وتعليم آدم مناسك الحج

من أبرز ما في روايات حج آدم أن جبرئيل عليه السلام يأتيه ليعلّمه المناسك عمليًا. وتذكر الروايات انتقال آدم إلى مواضع العبادة وتعليمه التلبية والوقوف والطواف والسعي وغيرها من الأعمال. والمعنى الذي يهمنا في حكاية الهداية هو أن العبادة لا تُترك للإنسان كي يصنعها من هواه، بل يتعلم كيف يتقرب إلى الله من خلال الهداية.

موضع البيت والحجر الأسود

تربط بعض روايات اهل البيت آدم بموضع البيت قبل زمن إبراهيم عليه السلام، وتذكر أن جبرئيل دلّه على موضعه. كما ترد في بعض الأخبار تفاصيل عن الحجر الأسود ونزوله وتغير لونه. ولا ينبغي أن نصوغ ذلك بعبارة توهم التعارض مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. فالأدق أن نقول: الروايات تتحدث عن ارتباط آدم بموضع البيت قبل إبراهيم، والقرآن يثبت صراحة أن إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعد البيت. أما ما يتعلق بالحجر الأسود فهو من التفاصيل الروائية، إذ لا يروي القرآن تاريخ الحجر الأسود ولا يربطه بآدم.

عرفات والمشعر ومنى — التوبة في قلب المناسك

تذكر إحدى الروايات المطولة أن جبرئيل أخذ آدم إلى عرفات، وأمره بالاعتراف بما وقع منه وطلب المغفرة، ثم انتقل به إلى جمع، أي المزدلفة، ثم إلى منى. وفي منى تذكر الرواية القربان والحلق، كما تذكر الرمي عند الجمرات. وبسبب ضعف سند الرواية المطولة لا نجعل تفسير أسماء المواضع أو كل تفاصيلها حقائق قطعية، لكن بنيتها تحمل معنى منسجمًا مع القصة القرآنية الأثبت: آدم تاب، والله تاب عليه واجتباه وهداه.

آدم وإبليس عند الجمرات

تذكر بعض الروايات أن إبليس تعرض لآدم في طريقه، فأمره جبرئيل أن يرميه بالحصى ويكبر، وفي إحدى الروايات يتكرر ذلك عند الجمرات الثلاث. وهذه الصورة تربط المناسك بقصة العداوة التي بدأت قبل الهبوط، لكنها تبقى تفصيلاً روائيًا ولا تُنسب إلى القرآن.

الطواف بالبيت والملتزم

توجد في الباب نفسه رواية تذكر أن آدم طاف بالبيت وانتهى إلى الملتزم، فأمره جبرئيل بالإقرار لربه والاستغفار، وأن الله أخبره بالمغفرة. وقد حكم المجلسي على هذه الرواية بالحسن. وهي مهمة لأنها تقدم أساسًا روائيًا أقوى لارتباط طواف آدم بالتوبة.

الإحرام والتلبية وطواف النساء

تذكر الروايات المطولة في باب حج آدم عليه السلام أن جبرئيل علّم آدم جملة من أعمال الحج، ومن بينها التلبية والتنقل بين المشاعر، كما تذكر ضمن سياق المناسك طوافًا يرتبط بحلّ ما كان قد حُرّم عليه بالإحرام، وهو ما يُعبَّر عنه في الفقه الإمامي بطواف النساء. ولأن هذه التفاصيل واردة في الروايات المطولة التي حُكم بضعفها، فلا نجعل كل جزئية منها حقيقة تاريخية قطعية.

هل كان آدم أول من حج؟

لا ينبغي أن نقول إن آدم كان أول مخلوق حج البيت. ففي الحديث الرابع من باب حج آدم في الكافي تروي الرواية أن الملائكة قالت لآدم بعد حجه إنها حجت البيت قبله بألفي عام، وقد حكم المجلسي على هذه الرواية بالحسن. إذن الصياغة الأدق هي: تربط الروايات حج الإنسان منذ بدايته بآدم عليه السلام، مع وجود رواية إمامية تفيد أن الملائكة كانت قد حجت البيت قبل آدم.

الصفا والمروة — آدم وهاجر في طبقتين روائيتين

تذكر بعض روايات آدم السعي بين الصفا والمروة. لكن الكافي نفسه يروي في باب حج إبراهيم وإسماعيل أن هاجر، حين عطش إسماعيل، خرجت تبحث عن الماء أو من تستعين به، فذهبت بين الصفا والمروة سبع مرات، وتذكر الرواية أن الله جعل ذلك سنة. ولهذا لا يصح أن نقول إن أصل السعي يعود حصريًا إلى آدم، كما لا ينبغي أن نهمل روايات آدم. فالقرآن يثبت أن الصفا والمروة من شعائر الله، بينما الروايات الإمامية تربط الشعيرة بأكثر من محطة في تاريخ الهداية. وستأتي قصة هاجر وإسماعيل في موضعها في فصل إسماعيل عليه السلام.

الحج والتوبة في حكاية الهداية

إذا جمعنا المادة القرآنية مع الروايات مع الحفاظ على درجاتها، يظهر معنى بالغ الأهمية. القرآن يثبت أن آدم تلقى من ربه كلمات، فتاب الله عليه، ثم اجتباه وهداه. والروايات تضيف صورة تربط بعض مراحل هذه العودة بمكة ومناسك الحج. وهكذا يصبح الحج في الروايات: اعترافًا، واستغفارًا، وتواضعًا، وتضحية، ومواجهة للشيطان، وطوافًا وسعيًا، وعودة متجددة إلى الله.

مصادر هذه الوحدة

الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج آدم عليه السلام، الأحاديث ١-٦.

المجلسي، مرآة العقول، في تقويم أسانيد أحاديث باب حج آدم.

الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل، الحديث ٢ في سعي هاجر بين الصفا والمروة.

آدم أبو هذه البشرية وأول نبي في قصتها الأرضية

بحسب القرآن والروايات الإسلامية، يمثل آدم عليه السلام أبا هذه البشرية وبداية قصتها الإنسانية على الأرض، وهو من الأنبياء.

والقرآن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة آل عمران، الآية ٣٣.

وهذه الآية تضع آدم في بداية سلسلة من المصطفين.

فآدم ليس مجرد بداية بيولوجية للبشرية.

إنه أيضًا بداية تاريخ النبوة في التصور الإسلامي.

وهنا تبدأ فكرة سترافق الكتاب كله:

الإنسانية لم تبدأ من دون هداية.

بل بدأت بإنسان اصطفاه الله، وعلمه، وكلفه، وهداه.

ومن المهم هنا أن نميز بين أمرين:

الأول: أن آدم هو أبو هذه البشرية وبداية قصتها الإنسانية الأرضية بحسب التصور الإسلامي.

والثاني: أن تفاصيل حياته بعد خلقه لا يثبت جميعها بالدرجة نفسها.

فالقرآن يعطينا مادة واسعة وواضحة عن خلقه وتعليمه وسجود الملائكة له وقصة الجنة والتوبة والهبوط.

أما التفاصيل المتعلقة بأيامه الأولى على الأرض، وأبنائه، وأسمائهم، وكيفية انتشار ذريته، وما جرى داخل الأسرة الأولى، فسيكون اعتمادنا فيها أكبر على الروايات.

وهنا تبدأ الحاجة إلى المنهج الذي سيحكم بقية الفصل:

لا نساوي بين القرآن والرواية، ولا بين الروايات نفسها.

بل نعرف درجة كل مادة، ثم نبني منها الصورة بقدر ما تسمح به الأدلة.

الأسرة الأولى وبداية الحياة الإنسانية

بعد الهبوط بدأت الأسرة الأولى تتشكل، ودخلت الحياة الإنسانية مرحلة جديدة. فلم تعد قصة آدم عليه السلام متعلقة به وحده، بل امتدت إلى أبنائه وما نشأ بينهم من إيمان واختلاف.

ولا يقدم القرآن شجرة عائلة كاملة لآدم؛ فلا يذكر أسماء جميع أبنائه وبناته، ولا يحدد عددهم أو يفصل حياتهم. لكنه يروي لنا مشهدًا من حياة اثنين من أبنائه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة ٥:٢٧).

تبدأ القصة بقربانين قُبل أحدهما ولم يُقبل الآخر، ثم تكشف الآيات كيف تحول الحسد إلى تهديد، وكيف انتهى الأمر بقتل أحد الأخوين لأخيه (المائدة ٥:٢٧-٣١). وهكذا يضع القرآن أمامنا صراعًا داخل الأسرة الأولى، ويُظهر أن القرب من آدم بالنسب لم يكن كافيًا لاختيار طريق التقوى.

والقرآن يسميهما في هذه الآيات ابني آدم، ولا يذكر اسميهما. أما اسما هابيل وقابيل فيردان في الروايات والتقاليد الإسلامية. لذلك نستخدم الاسمين عند عرض ما ورد في الروايات، مع إبقاء الفرق واضحًا بين ما يثبته القرآن وما تضيفه الرواية.

وسيكون هذا التفريق مهمًا حين نبحث بقية الأخبار المتعلقة بأبناء آدم وبداية نسله.

التقوى معيار القبول

تكشف قصة ابني آدم عن قاعدة أخلاقية عميقة.

قال أحدهما: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ سورة المائدة، الآية ٢٧.

فالقضية لم تكن في مجرد تقديم القربان.

كان هناك معيار آخر:

التقوى.

وهذه الفكرة تتجاوز قصة ابني آدم نفسها.

فالإنسان قد يحمل اسمًا صالحًا، أو ينتمي إلى بيت صالح، أو يكون قريبًا من نبي، لكن ذلك لا يجعله صالحًا تلقائيًا.

ولهذا سيصبح مبدأ التقوى من المبادئ المتكررة في تاريخ الأنبياء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ سورة الحجرات، الآية ١٣.

وهكذا تقدم لنا الأسرة الأولى أول درس في أن النسب وحده لا يصنع الهداية.
كان كلا الرجلين من أبناء آدم، لكن موقفهما من الله ومن الحق اختلف.
ومن هنا لا يكفي أن نسأل:
من والدك؟
بل ينبغي أن نسأل:
ما موقفك من الحق؟

الحسد وأول جريمة قتل

بعد أن لم يُقبل قربان أحدهما، ظهرت الغيرة والحسد.
قال تعالى: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ سورة المائدة، الآية ٢٧.
ثم وقعت الجريمة.
قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة المائدة، الآية ٣٠.
وهكذا انتقلت الأسرة الأولى من الاختبار إلى أول جريمة قتل يرويها القرآن.
واللافت أن الدافع لم يكن جهلًا بوجود الله.
كان يعرف الله ويعرف القربان والقبول، لكنه لم يقبل أن يكون أخوه هو المقبول.
وهنا يظهر خطر الحسد.
الحسد لا يكتفي بأن يتمنى الإنسان زوال النعمة عن غيره، بل قد يتحول إذا استولى على النفس إلى رفض للحق نفسه.
ولهذا فإن قصة أول جريمة قتل ترتبط في عمقها بمشكلة داخلية: عدم الرضا بما قسمه الله، وتحول المقارنة إلى كراهية، ثم تحول الكراهية إلى عدوان.

الغراب وتعليم الإنسان دفن الموتى

بعد وقوع الجريمة وقف القاتل أمام جثة أخيه، ولم يعرف ماذا يفعل بها.
وهنا جاء التعليم الإلهي بطريقة تكشف جانبًا آخر من قصة الإنسان.
قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ سورة المائدة، الآية ٣١.
ومن تعليم آدم الأسماء، إلى تعليم الإنسان كيفية مواراة جثمان أخيه، يظهر التعلّم باعتباره جزءًا من التجربة الإنسانية؛ فالإنسان يتعلم من آيات الله في الكون، ومن الوقائع التي يمر بها، ومن المخلوقات التي يسخّرها الله لتكون وسيلةً للتعلّم والهداية.

وهنا نرى صورة أخرى من صور التعليم.

الإنسان الذي بدأ حياته بالتعليم والمعرفة احتاج مرة أخرى إلى أن يتعلم كيف يتعامل مع الموت.

والغراب أصبح وسيلة ليتعلم الإنسان دفن أخيه.

وهذا المشهد شديد الدلالة.

فالإنسان لم يكن يعرف كل شيء بصورة تلقائية.

كان يتعلم.

ثم جاءت النتيجة: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

لكن الندم جاء بعد الجريمة.

وهنا تقدم القصة فرقًا مهمًا بين التوبة والندم المتأخر.

فالندم قد يكشف للإنسان فداحة ما فعل، لكنه لا يمحو بالضرورة آثار الفعل في الدنيا.

ولهذا فإن قصة ابني آدم ليست فقط قصة أول جريمة، بل أيضًا قصة أول مواجهة إنسانية واضحة مع آثار القتل والمسؤولية والندم.

آدم والأسرة الأولى كمدرسة للهداية

من أعمق المعاني التي تظهر في قصة آدم أن الأسرة الأولى لم تكن مجرد بداية للتكاثر البشري، بل كانت أيضًا بداية التربية والهداية.

كان آدم نبيًا بين أهله وأولاده، ومن خلاله بدأت الأسرة الأولى تتعرف إلى الله، والعبادة، والطاعة، والتقوى، والأمر والنهي، والتكليف، والمسؤولية، ثم التوبة.

وهذا ينسجم مع الصورة الكبرى للقصة؛ فالدين والهداية لم يبدآ عندما أصبحت البشرية أمة كبيرة أو مجتمعًا أو دولة أو حضارة، بل بدأت الهداية داخل البيت.

في الأسرة الأولى عرف الإنسان معنى العلاقة بالله، وعرف أن للحياة أوامر ونواهي، وأن للإنسان مسؤولية عن اختياراته وأفعاله، وأن باب التوبة مفتوح بعد الخطأ.

لكن الأسرة نفسها أصبحت أيضًا أول ميدان كبير يظهر فيه الصراع الأخلاقي.

وهنا تأتي قصة ابني آدم.

ولهما أب واحد.

وهنا تظهر قاعدة مهمة في قصة الإنسان:

القرب من الصالحين لا يكفي وحده، والانتماء إلى أسرة صالحة لا يجعل الإنسان صالحًا تلقائيًا.

فالإنسان يحتاج إلى أن يختار الحق ويستجيب له، وأن يتحمل مسؤولية اختياراته. ولا يكفي أن يكون قريبًا من نبي أو ولي أو من أهل الصلاح، ما لم يترجم هذا القرب إلى إيمان وطاعة وسلوك.

وهذا المعنى سيبقى حاضرًا في قصص الأنبياء اللاحقة؛ إذ ستظهر مرارًا حقيقة أن القرابة من الأنبياء لا تضمن وحدها الهداية، وأن كل إنسان يواجه مسؤوليته الخاصة أمام الله.

النسب وحده لا يصنع الهداية

تكشف قصة الأسرة الأولى أن النسب لا يكفي لصناعة الصلاح.

كان ابنا آدم من بيت واحد، لكنهما لم يسلكا الطريق نفسه.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ سورة الحجرات، الآية ١٣.

وهذه آية عامة في ميزان الكرامة، وليست من آيات قصة ابني آدم.

فالميزان عند الله ليس مجرد الاسم، ولا العائلة، ولا القرب من شخص صالح.

والانتساب إلى نبي لا يجعل الإنسان صالحًا بصورة تلقائية.

وهذه الفكرة مهمة جدًا في تاريخ الأنبياء؛ لأن كثيرًا من القصص اللاحقة ستُظهر أن أبناء الأنبياء وأقاربهم ليسوا جميعًا على درجة واحدة من الإيمان والطاعة.

ومن هنا يجب أن نفرق بين النسب والهداية.

النسب قد يكون شرفًا.

لكن الهداية مسؤولية.

والقرب من الصالحين فرصة.

لكنه ليس ضمانًا.

والاسم قد يحمل تاريخًا عظيمًا.

لكن الإنسان هو الذي يحدد موقفه من ذلك التاريخ.

الهداية تسبق السقوط ولا تنتهي بعده

إذا نظرنا إلى قصة آدم من بدايتها إلى هذه المرحلة، سنجد أن الهداية حاضرة قبل الاختبار وبعده.

قبل خلق آدم، أعلن الله مهمته في الأرض.

ثم خلقه.

ثم علّمه.

ثم أمر الملائكة بالسجود له.

ثم حذره من الشيطان.

ثم جاء الاختبار.

ثم وقعت الوسوسة.

ثم حدث الخطأ.

ثم جاءت التوبة.

ثم جاء الاجتباء والهداية.

ثم بدأ الانتقال إلى الحياة الأرضية.

وبعد ذلك استمرت عملية التعليم داخل الأسرة الأولى.

إذن الهداية ليست عنصرًا طارئًا يظهر فقط عندما يقع الإنسان في المشكلة.

إنها جزء من البناء منذ البداية.

وهذا يقودنا إلى واحدة من أهم أفكار الفصل:

الله لم يخلق الإنسان ثم يتركه يبحث في الظلام عن معنى وجوده.

بل خلقه، وعلّمه، وأرسل إليه الخطاب، وعرّفه طريق المسؤولية، ثم وعده بالهداية.

ولهذا فإن قصة آدم ليست فقط قصة بداية الإنسان، بل هي أيضًا قصة العلم والتكليف والابتلاء والتوبة والأسرة واستمرار الهداية.

إنها أيضًا القصة الأولى في تاريخ الهداية البشرية.

آدم عليه السلام وامتداد الحياة

استمرت حياة آدم بعد بداية الأسرة الأولى.

ولا يقدم القرآن لنا سجلًا تفصيليًا لكل سنوات حياته.

ولهذا نجد في الروايات أخبارًا كثيرة عن عمره، وأحداث حياته، وأبنائه، ووصيته، ووفاته.

لكن هذه المادة ليست في درجة واحدة من الثبوت.

بعض الأخبار تتحدث عن عمر طويل جدًا لآدم.

وتختلف الروايات في مقدار هذا العمر، وفي كيفية حسابه، وفي بعض التفاصيل المتعلقة بالأحداث التي وقعت خلال حياته.

ولهذا فإن الصياغة الأكثر أمانة هي أن نقول:

إن آدم عاش مدة طويلة بحسب الروايات الإسلامية، وأن الأخبار اختلفت في تحديد مقدار عمره بدقة.

أما أن نضع رقمًا واحدًا ثم نقدمه بوصفه حقيقة قطعية، فهذا يتجاوز ما تسمح به المادة المختلفة في مصادرها.

مرض آدم واقتراب الوفاة

مع مرور السنين تقدم آدم في العمر.

وكانت وفاته نهاية مرحلة، لا نهاية للهداية.

فالإنسان يموت، ولكن العلم الذي يحمله لا ينبغي أن يضيع.

والعهد الذي أوكل إليه لا ينتهي بمجرد موته.

وتذكر الروايات الإمامية في هذا السياق أخبارًا عن انتقال العلم والعهد بعد آدم، لكن تفاصيل ذلك ستُدرس في الفصل الخاص بالمرحلة التالية، لا في هذا الفصل.

أما هنا، فالمهم أن ندرك أن موت آدم لا يعني نهاية المشروع الذي بدأ معه.

لقد بدأت مع آدم هذه المرحلة من القصة الإنسانية؛ فهو أبو هذه البشرية في هذا السياق، وأحد المصطفين، ونبي، ومعلّم، وأب.

ثم انتهت حياته الأرضية كما تنتهي حياة كل إنسان.

لكن الهداية في التصور الإسلامي لا تنتهي بموت شخص واحد.

وهذه الفكرة ستكون من المفاتيح الأساسية لفهم تسلسل تاريخ النبوة والهداية.

وفاة آدم عليه السلام

لا يقدم القرآن مشهد وفاة آدم بالتفصيل.

ولا يخبرنا بمكان قبره.

ولا يذكر من غسله أو كفنه أو دفنه.

أما الروايات، فتقدم تفاصيل متعددة.

وتوجد أخبار تتحدث عن كيفية وفاته، وعن الملائكة، وعن الحنوط والكفن والغسل والدفن، كما توجد أقوال مختلفة في مكان قبره.

وتوجد كذلك روايات تحدد يوم وفاته، ومنها ما يذكر يوم الجمعة.

لكن هذه التفاصيل لا ينبغي أن تجمع كلها في صورة واحدة ثم تقدم على أنها حقيقة قطعية.

بل يجب أن نبقيها في إطار الرواية التي وردت فيها، ونميز بين درجات الثبوت.

وهذا هو المنهج الذي سيحكم الكتاب كله:

إذا كان الأمر ثابتًا بالقرآن، قلنا: قال القرآن.

وإذا كان واردًا في رواية، قلنا: ورد في الرواية.
وإذا اختلفت الروايات، قلنا: اختلفت الروايات.
وإذا لم نستطع ترجيح قول، فلا نحول الاحتمال إلى يقين.

قبر آدم عليه السلام

من المسائل التي كثرت فيها الأقوال والروايات مسألة قبر آدم عليه السلام وموضع دفنه.
فالقرآن لا يحدد موضع قبر آدم، ولا يذكر أين دُفن بعد وفاته. أما في الروايات والتواريخ، فقد وردت أقوال متعددة نسبت قبره إلى أماكن مختلفة، ومن بينها مكة وما حولها، كما وردت روايات تربط قبره بالغري من أرض الكوفة، في الموضع المعروف اليوم بالنجف الأشرف.
وفي روايات أهل البيت عليهم السلام نجد تفصيلًا مهمًا يمكن أن يجمع بين القولين.
فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أن آدم عليه السلام دُفن في مكة، ثم لما جاء طوفان نوح عليه السلام، أوحى الله إلى نوح أن يطوف بالبيت، ثم استخرج تابوتًا كانت فيه عظام آدم عليه السلام، وحمله معه في السفينة. وبعد انتهاء الطوفان ووصول نوح إلى الكوفة، دفن التابوت في الغري، وهو الموضع الذي يُعرف اليوم بالنجف الأشرف.
وعلى هذا الأساس، يمكن فهم الروايات التي تذكر مكة والروايات التي تذكر النجف على أنها تتحدث عن مرحلتين مختلفتين: الدفن الأول لآدم عليه السلام كان في مكة، ثم نُقلت عظامه في زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان، ودُفنت في الغري من أرض الكوفة.
وتؤيد هذا المعنى روايات أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام في فضل زيارة الغري، حيث يذكر أن من زار أمير المؤمنين عليه السلام في النجف فكأنما زار عظام آدم، وبدن نوح، وجسم علي بن أبي طالب عليهم السلام. وهذه الروايات تجعل وجود آدم ونوح عليهما السلام في موضع الغري جزءًا من الرواية الإمامية عن تاريخ هذا الموضع.
كما وردت روايات في بعض المصادر تفيد بأن آدم ونوحًا وأمير المؤمنين عليهم السلام اجتمعوا في هذا الموضع، وأن قبر أمير المؤمنين عليه السلام كان في موضع قبر نوح، مع ارتباط موضع آدم به أيضًا.
ومع ذلك، ينبغي التفريق بين نقل الرواية وبين الجزم التاريخي القطعي. فالقرآن لا يحدد مكان قبر آدم، والروايات الواردة في هذا الباب ليست كلها على مستوى واحد من حيث النقل والثبوت، وإن كانت روايات النجف والغري حاضرة بوضوح في التراث الروائي الإمامي.
ولهذا لا ينبغي أن نضع في الكتاب صورة لقبر آدم في موضع معين ونقول للقارئ: هذا هو قبر آدم قطعًا.
والأمانة العلمية تقتضي أن نقول:

وردت في تراث أهل البيت عليهم السلام روايات تذكر أن آدم عليه السلام دُفن أولًا في مكة، ثم نُقلت عظامه في زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان، ودُفنت في الغري من أرض الكوفة، وهو الموضع المعروف اليوم بالنجف. لكن تحديد موضع قبر آدم لا يثبت من القرآن، وتفاصيل الروايات تحتاج إلى التعامل معها بوصفها روايات موروثة تختلف في درجة ثبوتها.

وهذا لا يؤثر في أصل قصة آدم عليه السلام. فمعرفة موضع قبره ليست هي التي تثبت خلقه أو نبوته أو تعليمه أو توبته أو هدايته؛ فهذه أمور مستقلة لها مصادرها وأدلتها.

ومن هنا يبقى المنهج واضحًا: نذكر ما ورد في تراث أهل البيت بأمانة، ونميز بين الرواية وبين الحقيقة التاريخية القطعية، ولا نحول ما يحتمل البحث والنظر إلى أمر محسوم بلا دليل.

الكبر أخطر من الجهل

ومن أهم الدروس التي تقدمها بداية قصة آدم عليه السلام ما تكشفه قصة إبليس؛ فقد بدأت مأساته بالاستكبار.

قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص ٣٨:٧٦).

كان إبليس يعلم أن الله خلقه وخلق آدم، لكنه جعل نفسه معيارًا للحكم، ورأى أنه أفضل من آدم لأن النار، في نظره، أشرف من الطين. ومن هذا الكبر جاء رفضه الامتثال لأمر الله.

وهنا يظهر الفرق بين معرفة تقود صاحبها إلى قبول الحق، ومعرفة يفسدها تعظيم الذات. فقصة إبليس ليست قصة عصيان فحسب، بل قصة معرفة انفصلت عن الخضوع لله.

قد يعرف الإنسان الحق ثم يرفضه لأن قبوله يقتضي منه التواضع. وقد يجهل أمرًا، لكنه يتعلمه ويقبله حين يتبين له. فالجهل يمكن أن يُعالج بالتعلم، أما الكبر فقد يمنع صاحبه من التعلم أصلًا.

ولهذا كان الكبر من أخطر أبواب الانحراف. أما التواضع، فيجعل العلم طريقًا إلى معرفة الإنسان حدوده وحاجته الدائمة إلى الله.

السقوط لا يعني نهاية الطريق

وقصة آدم تحمل معنى آخر بالغ الأهمية: السقوط لا يعني نهاية الطريق.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ سورة البقرة، الآية ٣٧.

وقال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ سورة طه، الآية ١٢٢.

هذه النهاية القرآنية لقصة آدم مهمة جدًا.

فآدم لا يُترك في صورة الإنسان الذي أخطأ ثم انتهى.

بل نراه يتلقى الكلمات، ويتوب، ويقبل الله توبته، ثم يجتبيه ويهديه.

ولهذا فإن السؤال الذي تطرحه القصة على الإنسان ليس:
هل يمكن أن تخطئ؟
فالإنسان يعيش في عالم الاختبار.
السؤال الأعمق هو:
ماذا تفعل عندما تخطئ؟
هل تتكبر؟
هل تبرر؟
هل تلقي المسؤولية على غيرك؟
أم تعود إلى الله؟

ما يثبت وما لا يثبت في قصة آدم

بعد أن اكتملت الصورة، يمكننا الآن أن نضع حدودًا واضحة لما نستطيع قوله بثقة.
نستطيع أن نقول بثقة إن:
آدم خلقه الله واختاره.
وأن الله علّمه الأسماء.
وأن الملائكة أمروا بالسجود له.
وأن إبليس رفض استكبارًا.
وأن آدم وزوجه كانا في الجنة.
وأن الشيطان وسوس لهما.
وأنهما أكلا من الشجرة.
وأن آدم تاب.
وأن الله قبل توبته واجتباه وهداه.
وأن آدم هبط إلى الأرض.
وأن الله أعلن استمرار الهداية.
وأن آدم من المصطفين.
وأن قصة ابني آدم والقتل وردت في القرآن.
أما الأمور التي تحتاج إلى تحفظ، فمنها:

اسم زوجة آدم بوصفه نصًا قرآنيًا.
أسماء جميع أبنائه وبناته.
عدد أبنائه.
تفاصيل زيجاتهم.
المواضع الدقيقة لهبوط آدم وحواء.
نوع الشجرة.
تفاصيل حياة آدم اليومية بعد الهبوط.
العمر الدقيق لآدم.
تفاصيل مرضه الأخير.
اليوم الدقيق لوفاته.
مكان قبره.
تفاصيل غسله وكفنه ودفنه.
وهذه الحدود ليست نقصًا في القصة.
بل هي جزء من الأمانة العلمية.

الخلاصة المنهجية للفصل

هذا الفصل لا يريد أن يقول إن كل ما روي عن آدم حقيقة قطعية.
بل يريد أن يقدم للقارئ ثلاث طبقات واضحة:
الطبقة الأولى: القرآن.
وهي الأساس الأعلى في القصة.
وفيها خلق آدم، وتعليمه، وسجود الملائكة، ورفض إبليس، وسكنى الجنة، والوسوسة، والأكل من الشجرة، والتوبة، والهبوط، والوعد بالهداية، وقصة ابني آدم.
الطبقة الثانية: روايات أهل البيت عليهم السلام.
وفيها تفاصيل أوسع عن آدم وحواء، وأسرتهما، وأبنائهما، وعمر آدم، وبعض أحداث حياته ووفاته.
الطبقة الثالثة: الأخبار التاريخية والقصصية.
وهذه يمكن الاستفادة منها في المقارنة وفهم تطور السرد، لكن لا يصح أن تتحول تلقائيًا إلى حقائق دينية قطعية.
وبذلك نحافظ على المعادلة التي سيقوم عليها الكتاب:

جمال القصة دون التضحية بالأمانة.
والإيمان دون تحويل كل رواية إلى يقين.
والتفصيل دون إخفاء الاختلاف.
والبحث في التراث دون الخلط بين درجات المصادر.
وبذلك تكتمل هذه الوقفة المنهجية في قصة آدم.
ويأتي بعد هذه الوقفة تفصيل أخبار الأسرة والأبناء، قبل ختام قصة آدم والانتقال إلى شيث.
وتُقرأ هذه الأخبار مع بقاء التمييز بين النص القرآني والتفصيل الروائي.
آدم ترك وراءه قصة الإنسان الأول:
الخلق،
والعلم،
والتكليف،
والاختبار،
والخطأ،
والتوبة،
والهداية،
والأسرة،
والصراع،
والموت.
وتُستكمل فيما يأتي أخبار الأسرة والأبناء وحدود ثبوتها، قبل الانتقال إلى شيث في الفصل التالي.

خلاصة لما تقدم من قصة آدم عليه السلام

بدأت قصة آدم قبل أن تبدأ حياة الإنسان على الأرض.
أعلن الله أنه جاعل في الأرض خليفة.
ثم خلق آدم من طين، وسواه، وأكرمه، وعلّمه الأسماء.
ثم أمر الملائكة بالسجود له، فامتثلوا، ورفض إبليس استكبارًا.
ثم خلق الله لآدم زوجه، وأسكنهما الجنة.
وأمرهما ألا يقربا الشجرة.

فوسوس الشيطان لهما، وزين لهما ما نهاهما الله عنه.

فوقع الأكل من الشجرة.

ثم أدرك آدم وحواء ما حدث.

ولم تنته القصة بالسقوط.

بل جاءت التوبة.

وتلقى آدم كلمات من ربه، فتاب الله عليه، ثم اجتباه وهداه.

ثم جاء الهبوط إلى الأرض.

وهناك بدأت المرحلة الأرضية من حياة الإنسان.

بدأت الأسرة.

وبدأت مسؤولية التربية.

وكان آدم نبيًا بين أولاده.

ثم ظهرت قصة ابني آدم، فكان أحدهما مثالًا للتقوى، بينما تحول الآخر إلى الحسد والعدوان والقتل.

وعلّم الله الإنسان دفن الموتى.

ثم استمرت حياة البشرية وتكاثرت ذرية آدم.

ولا يقدم القرآن لنا شجرة عائلة كاملة لأبناء آدم، ولا يذكر أسماء جميع أولاده وبناته، ولا يحدد عددهم، ولا يعرض تفاصيل استمرار النسل بصورة تاريخية مفصلة.

ولهذا تبقى هذه التفاصيل في دائرة الروايات، مع ضرورة التفريق بين الرواية الثابتة والرواية المختلف فيها والتفاصيل التي لا يمكن الجزم بها.

ثم تقدم آدم في العمر وانتهت حياته بالموت.

وهكذا اكتملت أولى المراحل الكبرى في قصة الإنسان:

الخلق،

والعلم،

والتكليف،

والاختبار،

والوسوسة،

والخطأ،

والتوبة،

والهبوط،

والأسرة،

والصراع،

والموت.

لكن الموت لم يكن نهاية تاريخ الهداية.

وهذه خلاصة للمسار العام الذي تقدّم، وتليها مقابلة الروايات المتعلقة بالأسرة والأبناء.

أما سيرة شيث وحمله العلم والعهد بعد آدم، فموضع تفصيلها الفصل الثالث، مع ذكر ما يتصل بوصية آدم هنا بقدر صلته بخاتمة حياته.

تفصيل أخبار الأسرة والأبناء في الروايات

مع استمرار الحياة بدأت الأسرة الأولى.

آدم وحواء كانا أصل البشرية بحسب النصوص الإسلامية.

لكن عندما نصل إلى أولادهما، تصبح الروايات أكثر تفصيلًا وأكثر اختلافًا.

وهنا يجب أن نكون أكثر حذرًا.

القرآن لا يعطينا قائمة بأسماء أبناء آدم وبناته.

ولا يقول إن عدد أولاده كان أربعين، أو عشرين ذكرًا وعشرين أنثى، على سبيل النص القرآني.

بل القرآن يذكر في سورة المائدة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ سورة المائدة، الآية ٢٧.

إذن الثابت قرآنيًا هو وجود ابنين لآدم، وقصة القربان، والقتل.

أما الاسمان "هابيل" و"قابيل" فهما مشهوران في الروايات والتفاسير، وليسَا مذكورين في القرآن صراحة.

وهذا الفرق ينبغي أن يبقى حاضرًا طوال الفصل.

أبناء آدم وبناته في الروايات الإمامية

عندما نبحث في الروايات الإمامية، نجد أكثر من صورة لأبناء آدم.

وهذا من أهم المواضع التي يجب ألا نختصرها في رواية واحدة.

تذكر بعض الروايات أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى، وأن مجموع أولادها من آدم بلغ عددًا كبيرًا.

وفي رواية منقولة عن الإمام زين العابدين عليه السلام ذُكر أن حواء ولدت عشرين بطنًا، وفي كل بطن ذكر وأنثى، أي عشرين ذكرًا وعشرين أنثى.

وتذكر الرواية أن أول بطن كان هابيل ومعه جارية تسمى إقليما، ثم كان قابيل ومعه جارية تسمى لوذا.

وهذه الرواية تورد أيضًا تفاصيل عن جمال لوذا، وعن الخلاف في الزواج بين الابنين.

لكن هذه ليست رواية ينبغي أن نحول كل تفاصيلها إلى حقيقة قطعية.

وفي مقابلها توجد رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام تقدم صورة مختلفة جذريًا لبداية النسل.

في تلك الرواية تظهر ابنة تسمى عتاقا، ثم قابيل، ثم هابيل، وتذكر أن قابيل تزوج من جنية تسمى جهانة، وأن هابيل تزوج حوراء تسمى نزلة، ثم يظهر شيث، وتذكر الرواية امرأة حوراء تسمى ناعمة، ثم بنتًا تسمى حورية.

وفي خبر زرارة عن الإمام الصادق في من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٨١، ح٤٣٣٧، يرد يافث ابنًا لآدم بعد شيث، ونزلة زوجةً لشيث، ومنزلة زوجةً ليافث، ثم ابن لشيث وبنت ليافث غير مسميين يتزوجان في متن الخبر. نحفظ هذه الشخصيات، ولا نخلط يافث ابن آدم بيافث ابن نوح، ولا نجعل نزلة هنا زوجة هابيل. ويُفصّل خبر أسرة شيث في الفصل الثالث؛ وتبقى اختلافات الأخبار والنسخ ظاهرة.

كما تذكر رواية أخرى أسماء مثل هبة الله وحورة، وتختلف في ترتيب الشخصيات وعلاقاتها.

وهنا يجب أن نكون واضحين:

هذه الأسماء موجودة في الروايات، لكنها ليست كلها في مستوى واحد من الثبوت.

وقد جمع العلامة المجلسي هذه الروايات في أبواب خاصة، وأشار في بعض المواضع إلى الإشكالات المتعلقة بها وإلى احتمال حمل بعض الأخبار على التقية.

لذلك سنذكرها بوصفها مادة روائية، لا بوصفها قائمة قرآنية مؤكدة.

هل تزوج أبناء آدم من أخواتهم؟

هذه من أكثر المسائل حساسية في قصة آدم.

وقد انتشرت في التراث الإسلامي روايات تقول إن أبناء آدم تزوجوا أخواتهم، مع اختلاف كبير في التفاصيل.

لكن توجد في المصادر الإمامية روايات صريحة تنفي الصورة البسيطة التي تقول إن آدم زوّج أبناءه بناته مباشرة.

ومن أشهر ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أنكر على من نسب إلى آدم تزويج ابنه ابنته، وذكر أن قابيل تزوج من جنية، وأن هابيل تزوج من حوراء.

وفي رواية أخرى عن الإمام زين العابدين عليه السلام توجد صورة مختلفة، تذكر زواج أبناء آدم من أخواتهم في الجيل الأول، ثم تقول إن تحريم الأخوات جاء بعد ذلك.

وهنا تظهر أهمية المنهج.

فالروايات نفسها ليست متفقة.

والعلامة المجلسي نقل هذه الأخبار وناقشها، ونُقل عنه في بيان بعض هذه الأخبار حمل رواية تزويج الإخوة بالأخوات على التقية لموافقتها لما كان مشهورًا عند غير الإمامية.

وعليه:

القرآن لا يذكر أصلًا كيفية استمرار النسل.

ولا يذكر أن أبناء آدم تزوجوا أخواتهم.

والروايات الإمامية تقدم أكثر من تفسير.

لذلك لا يصح أن نجعل هذه المسألة عقيدة أو حقيقة تاريخية قطعية.

هابيل وقابيل

بعد أن بدأت الأسرة الأولى، جاءت أول مأساة كبرى.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ سورة المائدة، الآية ٢٧.

لا يسمي القرآن الابنين، لكنه يذكر أن أحدهما قدم قربانًا فقبل الله قربانه، بينما لم يقبل قربان الآخر.

فقال الآخر: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

فأجابه أخوه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وهنا تظهر قاعدة عظيمة:

القبول عند الله ليس مجرد صورة خارجية للعمل.

بل التقوى عنصر أساسي.

وتذكر الروايات أن هابيل قدم أفضل ما عنده، بينما قدم قابيل شيئًا أقل قيمة أو أقل إخلاصًا.

وفي بعض الروايات كان هابيل صاحب غنم وقابيل صاحب زرع، فجاء قربان هابيل من أفضل ما يملك، بينما قدم قابيل من رديء زرعه.

لكن الأهم من تفاصيل القربان هو ما حدث في قلب قابيل.

لقد رأى نجاح أخيه فغار منه.
ثم تحول الحسد إلى تهديد.
ثم تحول التهديد إلى قتل.

لماذا قتل قابيل هابيل؟

القرآن يضعنا أمام الحسد والعدوان، لكن الروايات الإمامية تضيف بعدًا آخر مهمًا.
في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، لم يكن سبب القتل مجرد المنافسة على امرأة، بل كان مرتبطًا بالوصية.
تذكر الرواية أن الله أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل.
وكان قابيل أكبر سنًا، فاعترض وقال إنه أولى بالكرامة والوصية.
عندها أمر آدم ابنيه بتقديم القربان، فقبل الله قربان هابيل.
فازداد حسد قابيل له وقتله.
وهنا تصبح قصة القتل مرتبطة في الرواية الإمامية بقضية أوسع:
من يحمل عهد الله بعد النبي؟
هذه الرواية مهمة لفهم الفكر الإمامي حول الوصاية، لكنها تبقى رواية تحتاج إلى تقييم سندها ومقارنتها ببقية الأخبار.
أما القرآن نفسه فلا يذكر الوصاية سببًا للقتل، بل يروي قصة القربان والتهديد والقتل.
وهذا الفرق يجب ألا يضيع.

أبناء آدم بعد هابيل وقابيل

لا تنتهي ذرية آدم بقتل هابيل.
بل تذكر الروايات أن نسل آدم استمر من أكثر من فرع بحسب اختلاف الأخبار.
وهنا نجد روايات تتحدث عن شيث الذي تسميه هبة الله، وأخرى عن أولاد آخرين، مع حفظ اختلاف التسمية بين الطرق.
وتوجد أيضًا روايات تاريخية لاحقة تتحدث عن أبناء آدم بأسماء متعددة.
لكن لا ينبغي أن نضع شجرة نسب كاملة لآدم وكأنها ثابتة قرآنيًا.
القرآن لم يفعل ذلك.
والروايات نفسها تختلف.

ولهذا سيكون منهجنا في هذا الكتاب هو تقديم الاسم عندما يكون له قيمة في فهم القصة، مع بيان مصدره ومستوى ثبوته، بدل تحويل كل قائمة روائية إلى تاريخ يقيني.

عمر آدم عليه السلام

تختلف الروايات في عمر آدم.

ومن أشهر الأرقام الواردة في الروايات الإسلامية أرقام تقارب ألف سنة.

وتذكر بعض الروايات الإمامية أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة، بينما تذكر روايات أخرى تسعمائة وستين سنة، أي ألف سنة إلا أربعين.

وهذا الاختلاف ليس تفصيلًا صغيرًا؛ بل هو مثال ممتاز على ضرورة دراسة الروايات بدل جمعها في رقم واحد.

فالقرآن لم يذكر عمر آدم.

ولهذا لا يجوز أن نجعل عمره عقيدة.

يمكننا أن نقول:

الروايات الإسلامية تصفه بأنه عاش عمرًا طويلًا جدًا.

لكن تحديد الرقم الدقيق يحتاج إلى دراسة الأسانيد ومقارنة الروايات.

وقد أفرد العلامة المجلسي بابًا مستقلًا بعنوان اختلاف الروايات في عمر آدم، إلى جانب باب مستقل لعمره ووفاته ووصيته إلى شيث.

من آدم إلى شيث

وهكذا انتهت حياة آدم، ولكن لم تنته قصة الهداية.

كانت البداية مع آدم:

خلقًا،

وعلمًا،

وتكليفًا،

وتوبة،

ونبوة.

ثم جاءت الأسرة.

ثم جاءت أول جريمة قتل.

ثم جاء شيث.

وفي الروايات الإمامية، كان شيث حامل عهد آدم.
وهنا تبدأ صورة أكثر اتصالًا لتاريخ الهداية.
فالتاريخ ليس:
نبي ثم فراغ طويل بلا هداية.
بل يمكن أن يكون:
نبي،
ثم وصي،
ثم حفظ للعلم والعهد،
ثم مرحلة جديدة من النبوة.
وهذا المفهوم سيكون أساسيًا عندما ننتقل إلى شيث ثم إلى إدريس ثم إلى نوح عليهم السلام.
لكننا لن نقول إن القرآن قدم لنا جدولًا زمنيًا كاملًا يضع كل واحد منهم في موضع محدد.
فالقرآن نفسه يقول: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ سورة النساء، الآية ١٦٤.
وهذا يفتح الباب أمام وجود أنبياء وأوصياء لم ترد أسماؤهم في القرآن.

الهداية لا تنقطع

من آدم إلى شيث تظهر فكرة مركزية:
الهداية لا تنقطع.
قد يموت النبي.
لكن هذا لا يعني أن الأرض تصبح بلا معرفة بالله.
وقد تنحرف جماعات.
لكن هذا لا يعني أن الله ترك البشر بلا طريق.
وفي الروايات الإمامية يظهر شيث بوصفه حامل العلم والعهد بعد آدم.
وهذا هو الذي سيجعل الانتقال إلى شيث منطقيًا في بنية الكتاب.
نحن لا ننتقل من آدم إلى اسم جديد لمجرد ترتيب الأسماء.
بل ننتقل من مرحلة إلى مرحلة في مشروع الهداية.
ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا ستكون قصة شيث مهمة قبل أن نصل إلى إدريس.

الملاحظة المنهجية الخاصة بأبناء آدم

هذه النقطة ينبغي أن تبقى واضحة للقارئ طوال الكتاب.

عند الحديث عن آدم نفسه، توجد مادة قرآنية واسعة يمكن الاعتماد عليها مباشرة.

أما عندما نصل إلى أبنائه وبناته، فإن الاعتماد على الروايات يصبح أكبر بكثير.

ولهذا لا يجوز أن نقدم شجرة عائلة آدم وكأنها حقيقة قرآنية مكتملة.

فالقرآن لا يذكر أسماء أبنائه وبناته.

ولا يذكر عددهم.

ولا يذكر أسماء زوجاتهم.

ولا يشرح كيفية استمرار نسل آدم بالتفصيل.

أما الروايات الإمامية، فتقدم معلومات كثيرة، لكنها ليست متطابقة.

من الأسماء التي تظهر في بعض الأخبار:

هابيل،

قابيل،

شيث،

هبة الله،

إقليما،

لوذا،

عتاقا،

جهانة،

نزلة،

ناعمة،

حورية،

وحورة.

لكن وجود الاسم في رواية لا يعني أن الاسم ثابت تاريخيًا بدرجة القطع.

وبعض الروايات تختلف حتى في تحديد من هو "هبة الله"، وهل هو شيث نفسه أم شخص آخر في بعض طرق الرواية.

ولهذا سيكون منهجنا:

ما قاله القرآن نعرضه بوصفه قرآنًا.
ما ورد عن أهل البيت نعرضه بوصفه رواية منسوبة إليهم.
ما كان سنده أقوى أو تعددت طرقه يمكن أن نعطيه وزنًا أكبر.
ما كان مختلفًا فيه نصرح بأنه مختلف فيه.
وما كان تفصيلًا قصصيًا لا يثبت، لن نقدمه على أنه حقيقة.
هذه ليست علامة ضعف في القصة.
بل علامة على احترام النصوص.

نهاية قصة آدم وبداية مرحلة شيث

وهنا نصل إلى النهاية الطبيعية للفصل الثاني.
لا تنتهي قصة آدم لأن اسمه توقف.
بل تنتهي مرحلة وتبدأ مرحلة.
كان آدم:
أبو هذه البشرية،
وأول أب،
وأول نبي،
وبداية التاريخ الإنساني على الأرض.
وكانت قصته أول نموذج يجمع بين:
العلم،
والتكليف،
والاختبار،
والخطأ،
والتوبة،
والهداية،
والأسرة،
والصراع،
والموت،

والوصية.

ثم جاء شيث بحسب الروايات الإمامية حاملًا لعهد آدم.

ولهذا فإن الفصل التالي لن يبدأ بجملة عابرة:

"ثم جاء إدريس."

بل سنبدأ من شيث نفسه.

سنبحث:

من هو شيث؟

ما الذي يمكن إثباته عنه؟

ما معنى كونه وصيًا؟

ماذا تذكر الروايات عن صحفه وعلمه؟

كيف عاش بين الناس؟

ومن جاء بعده؟

وكيف نصل من شيث إلى إدريس؟

ثم كيف نصل من إدريس إلى نوح؟

وبذلك تستمر حكاية الهداية.

مصادر الفصل الثاني

أولًا: القرآن الكريم

المادة الأساسية في هذا الفصل تعتمد على الآيات القرآنية المتعلقة بخلق آدم عليه السلام، ونبوته، وتعليمه، وابتلائه، وتوبته، وأسرته، وقصة ابنيه، وأصل الهداية الإنسانية.

وأهم الآيات والمقاطع المعتمدة هي:

- سورة البقرة، الآيات ٣٠–٣٩: جعل آدم خليفة في الأرض، وخلقه وتعليمه الأسماء، وسجود الملائكة، وإبليس، والجنة، والنهي عن الشجرة، والتوبة، والهبوط والهداية.
- سورة آل عمران، الآية ٣٣: اصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران.
- سورة النساء، الآية ١: خلق الإنسان من نفس واحدة وخلق زوجها وانتشار الذرية.
- سورة المائدة، الآيات ٢٧–٣٢: قصة ابني آدم، والقربان، والحسد، والقتل، والغراب، ومواراة جثمان الأخ.

- سورة الأعراف، الآيات ١١-٢٧: خلق آدم، وسجود الملائكة، ورفض إبليس، والجنة، والوسوسة، وانكشاف السوءات.
- سورة الحجر، الآيات ٢٦-٤٤: خلق الإنسان من صلصال، وأمر السجود، ورفض إبليس، وما دار بينه وبين الله.
- سورة الكهف، الآية ٥٠: بيان أن إبليس كان من الجن.
- سورة طه، الآيات ١١٥-١٢٤: النهي، والنسيان، والوسوسة، والأكل من الشجرة، والاجتباء، والتوبة، والهداية، والتحذير من الإعراض عن ذكر الله.
- سورة ص، الآيات ٧١-٨٥: خلق آدم من طين، وأمر السجود، ورفض إبليس واستكباره.
- سورة الحجرات، الآية ١٣: التقوى معيار التفاضل والكرامة عند الله.
- وتبقى المقاطع المركزية في بناء قصة آدم في هذا الفصل خصوصًا:
- البقرة ٢:٣٠-٣٩، والأعراف ٧:١١-٢٧، وطه ٢٠:١١٥-١٢٣، وص ٣٨:٧١-٨٥، والحجر ١٥:٢٦-٤٤، والمائدة ٥:٢٧-٣٢.

ويمثل القرآن في هذا الفصل المصدر الأول والأساس الذي تُبنى عليه الصورة العامة للقصة، بينما تُدرس التفاصيل الزائدة عن النص القرآني في ضوء المصادر الروائية والتاريخية مع مراعاة درجات الثبوت.

ثانيًا: المصادر الروائية الإمامية

استفاد الفصل من المادة الروائية الإمامية بوصفها طبقة ثانية من المصادر، خصوصًا في التفاصيل التي لا يذكرها القرآن، مثل بعض الأخبار المتعلقة بخلق آدم، ونبوته، وعلمه، وأسرته، وأولاده، وعمره، ووفاته، ودفنه.

ومن أهم المصادر التي يمكن الرجوع إليها:الشيخ الكليني، الكافي: ولا سيما ج٤، كتاب الحج، باب حج آدم عليه السلام، الأحاديث ١-٦؛ وباب حج إبراهيم وإسماعيل، الحديث ٢ في سعي هاجر بين الصفا والمروة.

- الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: في الأخبار المتعلقة بحواء وبدء النكاح وبعض تفاصيل الأسرة الأولى، مع مراجعة الحديث على الطبعة المعتمدة.
- الشيخ الصدوق، علل الشرائع: في أبواب خلق آدم وحواء وعلل بعض الأحداث المرتبطة ببداية البشرية.
- القطب الراوندي، قصص الأنبياء: في المادة الروائية المتعلقة بآدم والأنبياء الأوائل، مع بقاء الحاجة إلى دراسة أسانيد الأخبار.

- الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا: في الأخبار المتعلقة بآدم وخلقه وعمره وبعض خصائصه وما يرتبط به من مسائل.
- الشيخ الصدوق، التوحيد: في المباحث المتعلقة بخلق آدم، والملائكة، وإبليس، وبعض مسائل التوحيد المرتبطة بالقصة.
- الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: في المباحث المتعلقة بالحجة، واستمرار الهداية، والعلم والعهد الإلهي.
- علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي: في تفسير الآيات المتعلقة بخلق آدم، وإبليس، والجنة، والوسوسة، وبعض أحداث القصة.
- تفسير العياشي: في الأخبار المتعلقة بآدم وابنيه، وبعض مسائل الوصية والنسل وما يرتبط بالقصة.
- الشيخ الطوسي، الأمالي: فيما ورد فيه من أخبار الأنبياء وآدم عليهم السلام.
- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١١: وهو من أهم المراجع الجامعة للمادة الروائية المتعلقة بآدم وحواء وأولادهما، ويشتمل على أبواب متعددة تتناول خلق آدم، وتعليمه، وسجود الملائكة، ورفض إبليس، والجنة، والنسل، والأسرة، وقصة ابني آدم، وعمر آدم، ووفاته، ووصيته، وغسله ودفنه.
- العلامة المجلسي، حياة القلوب وقصص الأنبياء: في المادة المتعلقة بآدم والأنبياء، مع ضرورة التمييز بين درجات الأخبار التي جمعها.
- العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان: ولا سيما مباحث خلق آدم، وإبليس، والهداية، والنبوة، وعصمة الأنبياء، وتفسير الآيات المتعلقة بقصة آدم.

إضافات توثيقية بعد المراجعة

في حج آدم عليه السلام: الكليني، الكافي، ج ٤، كتاب الحج، باب حج آدم عليه السلام، الأحاديث ١–٦؛ المجلسي، مرآة العقول، في تقويم أسانيد أحاديث هذا الباب؛ والكليني، الكافي، ج ٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل، الحديث ٢ في سعي هاجر بين الصفا والمروة.

في حواء عليها السلام: الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، كتاب النكاح، باب بدء النكاح وأصله؛ وعلل الشرائع، أبواب خلق حواء. تختلف أرقام الأحاديث والصفحات باختلاف الطبعات.

ثالثًا: المصادر التاريخية والمقارنة

يمكن الاستفادة من المصادر التاريخية الإسلامية للمقارنة بين طرق تشكل الرواية التاريخية حول آدم، ومعرفة كيفية تداول قصته وتفاصيلها في التراث الإسلامي الأوسع.

ومن أهم المصادر المفيدة في هذا الجانب:

- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك: في الأخبار المتعلقة بآدم وبدايات التاريخ البشري والأنبياء الأوائل.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ: في الأخبار المتعلقة بآدم والأنبياء وبدايات البشرية.
- ابن كثير، البداية والنهاية: في القصص والأخبار المتعلقة بآدم وبدايات التاريخ الإنساني.

وتفيد هذه المصادر في المقارنة التاريخية، وفي معرفة كيفية تداول الأخبار المتعلقة بآدم في المدارس والمصنفات الإسلامية المختلفة.

لكن ينبغي عدم الخلط بين المادة التاريخية العامة وبين المنهج الإمامي الذي يعتمد في بناء الصورة العقدية الأساسية على القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام.

كما أن وجود رواية في مصدر تاريخي لا يجعلها تلقائيًا حجة دينية، ولا يجعلها مساوية للنص القرآني أو للرواية الإمامية من حيث المصدر والمنهج ودرجة الثبوت.

الفصل ٣ — شيث عليه السلام — هبة الله وحامل العهد بعد آدم

انتقال الوصية والعلم واستمرار الهداية بعد آدم

بعد أن انتهت حياة آدم عليه السلام، لم تنتهِ قصة الهداية.

فآدم لم يكن مجرد أبٍ لهذه البشرية وبداية قصتها الإنسانية على الأرض، بل كان نبيًا ومعلّمًا للبشرية، وأول من حمل في هذه المرحلة البشرية مسؤولية توجيه ذريته إلى الله. ولذلك فإن موته لا يمثل نهاية مرحلة الهداية، وإنما انتقالًا من مرحلة إلى مرحلة أخرى.

لقد كان آدم هو البداية: بداية الإنسان، وبداية التكليف، وبداية المعرفة بالله، وبداية الصراع بين الطاعة والانحراف. ومع رحيله، بقي السؤال قائمًا:

من يحمل ما تركه آدم؟

ومن يحفظ العهد والعلم؟

ومن يواصل تعليم الجيل التالي؟

هنا يظهر شيث عليه السلام في الروايات الإسلامية، وبصورة خاصة في الروايات الإمامية، بوصفه الشخصية التي ارتبطت بانتقال العهد من آدم إلى من بعده.

لكن قبل أن ندخل في تفاصيل قصة شيث، ينبغي أن نضع قاعدة منهجية أساسية منذ البداية:

شيث لا يُذكر باسمه في القرآن الكريم.

وهذه نقطة يجب ألا تغيب عنا طوال هذا الفصل.

فالقرآن تحدث عن آدم عليه السلام، وعن ذريته، وعن استمرار الهداية والإنذار في البشرية، لكنه لم يذكر اسم شيث صراحة، ولم يقدم لنا قصة مفصلة عن حياته أو دعوته أو وفاته.

أما الصورة التفصيلية لشيث، وكونه ابن آدم، وهبة الله له، وكون آدم قد أوصى إليه، وكونه أول وصي من الآدميين في الأرض، فمصدرها الروايات.

ولهذا سنحافظ طوال الفصل على التمييز بين مستويين:

ما يثبته القرآن، وما تنقله الروايات.

وهذا ليس تقليلًا من قيمة الرواية، وإنما هو التزام بالمنهج الذي يقوم عليه هذا الكتاب: ألا نجعل كل ما ورد في المصادر الإسلامية في درجة واحدة من القطع واليقين.

أول وصي في الأرض

من أهم ما ورد في الروايات الإمامية عن شيث عليه السلام أنه كان أول وصي من الآدميين في الأرض.

وقد ورد هذا المعنى في رواية زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث تُذكر قصة آدم وما أوصى به إلى شيث، ويُشار إلى شيث بوصفه أول وصي أوصي إليه من الآدميين في الأرض.

وهذه العبارة تحتاج إلى تأمل.

فالرواية لا تقدم شيثًا فقط باعتباره الابن الذي عاش بعد أبيه، ولا باعتباره الشخص الذي تولى شؤون الأسرة بعد وفاة آدم.

إنما تربط مكانته بمفهوم الوصية.

والوصية هنا مرتبطة بالعهد، والعلم، والأمانة، والمسؤولية.

وهذا يفتح أمامنا مفهومًا أساسيًا في فهم تاريخ الهداية:

إن الهداية لا تتعلق فقط بظهور النبي.

بل تتعلق أيضًا بما يحدث بعد النبي.

فقد يأتي نبي برسالة، ويعلّم قومه، ويقيم الحجة عليهم، ثم تنتهي حياته. ولكن انتهاء حياة النبي لا يعني بالضرورة انتهاء ما حمله من علم وعهد وأمانة.

ومن هنا تأتي أهمية الوصي في الروايات.

فالوصي يحمل ما ينبغي أن يُحفظ من آثار المرحلة السابقة، ويواصل مسؤولية الهداية في المرحلة التالية وفق ما تنقله الروايات عن كل مرحلة.

وبحسب الرواية الإمامية، كان شيث هو أول من حمل هذه المسؤولية بعد آدم عليه السلام.

وهكذا فإن شيث يمثل، في البناء الروائي، أول انتقال واضح للعهد الإلهي بعد أول نبي.

لكن ينبغي أن نكرر:

هذا التفصيل روائي وليس قرآنيًا.

فالقرآن لا يقول إن شيث كان أول وصي، ولا يسميه أصلًا.

وإنما تأتي هذه الصورة من الروايات المنقولة في التراث الإسلامي، ومنها الروايات الإمامية.

لماذا سُمّي شيث: هبة الله؟

من الأمور اللافتة في الروايات أن اسم شيث فُسِّر بأنه هبة الله.

وهذا المعنى ليس مجرد شرح لغوي للاسم، بل يرتبط في الروايات بالظروف التي جاء فيها شيث إلى آدم عليه السلام.

فقد كان آدم قد فقد ابنه هابيل في حادثة مؤلمة تروي سورة المائدة أصلها، وتعرضها الروايات بوصفها أول قتل بين أبناء آدم.

ولم يكن مقتل هابيل مجرد فقدان ابن بالنسبة إلى آدم، بل كان حدثًا يكشف مبكرًا عن أحد أخطر الأمراض التي يمكن أن تصيب الإنسان:

الحسد عندما يتحول إلى عدوان.

كان قابيل قد رأى أن قربان أخيه قد قُبل، ثم قادته الغيرة إلى قتل أخيه.

وبعد هذه الفاجعة، تذكر الروايات أن شيث وُلد لآدم، ولذلك سُمّي هبة الله.

وهنا تظهر دلالة روحية جميلة في هذا الاسم.

فالله قد يسمح بأن تنتهي مرحلة مؤلمة، ثم يفتح للإنسان بابًا جديدًا من رحمته.

وقد يفقد الإنسان شخصًا عزيزًا، لكن فقده لا يعني أن الخير قد انتهى.

وقد يموت حامل من حملة الخير، لكن أثر الخير لا يموت بالضرورة معه.

وفي هذا المعنى يصبح اسم «هبة الله» مناسبًا جدًا للدور الذي يمثله شيث في الرواية.

فهابيل كان قد قُتل.

لكن قصة الخير لم تنتهِ.

وجاء شيث ليحمل مرحلة جديدة من حياة آدم وذريته.

وهنا تتضح مرة أخرى فكرة أساسية في هذا الكتاب:

نهاية شخص لا تعني بالضرورة نهاية الرسالة، ونهاية مرحلة لا تعني نهاية الهداية.

ومع ذلك، ينبغي أن نحافظ على التمييز بين المعنى الروحي وبين الإثبات التاريخي.

فالقرآن لا يقول إن شيث سُمّي «هبة الله»، وإنما هذا التفسير وارد في الروايات.

هل كان شيث نبيًا أم وصيًا؟

القرآن الكريم لا يذكر شيثًا باسمه، ولذلك لا نستطيع أن ننسب نبوته إلى نص قرآني يسمّيه. أما المادة الحديثية الإمامية فتصفه بالوصاية، وترد فيها أيضًا أخبار نبوته.

ففي رواية أبي ذر المروية في كتاب الخصال للشيخ الصدوق، يذكر النبي صلى الله عليه وآله أربعة من الأنبياء السريانيين، ويعدّ منهم: آدم، وشيث، وأخنوخ وهو إدريس، ونوح. وفي الرواية نفسها يرد أن الله أنزل على شيث خمسين صحيفة. وقد رويت هذه المادة أيضًا في معاني الأخبار.

وفي رواية أخرى محفوظة في تفسير القمي، ونقلها المجلسي في بحار الأنوار، يرد في وصف شيث أنه «كان أول من بُعث» بعد آدم أو من ذريته، بحسب بيان المجلسي.

وفي مقابل ذلك، فإن رواية الوصاية المشهورة في أمالي الصدوق والإمامة والتبصرة تركز على كونه وصي آدم وحامل العهد بعده، ولا تجعل الوصاية مساوية للنبوة.

إذن الصياغة الأدق في هذا الكتاب هي:

شيث عليه السلام وصي آدم بنص روايات إمامية صريحة، وتوجد كذلك روايات إمامية تصفه بالنبي وتذكر أن صحفًا أُنزلت عليه. لكن القرآن لا يذكر اسمه ولا يثبت نبوته باسمه، ولذلك تبقى هذه التفاصيل في المستوى الروائي وتحتاج أسانيدها إلى الدراسة.

ولا يوجد تعارض في الأصل بين أن يكون الشخص نبيًا ووصيًا؛ فالوصاية تصف علاقته بمن سبقه وحمله للعهد، بينما النبوة تصف تلقيه للهداية الإلهية ومقامه الرسالي بحسب الرواية.

شيث وهبة الله — الولادة والاسم بعد مأساة هابيل

تربط رواية طويلة في علل الشرائع للشيخ الصدوق ولادة شيث بالمرحلة التي أعقبت مقتل هابيل. وتروي عن الإمام الصادق عليه السلام أن آدم حزن على هابيل حزنًا شديدًا، ثم وُهب له بعد ذلك شيث وحده، وتقول الرواية صراحة: «واسم شيث هبة الله»، وتصفه بأنه أول من أوصى إليه آدم من الآدميين في الأرض.

هذه الرواية مهمة لأنها تجمع في موضع واحد ثلاثة عناصر:

مولد شيث بعد مأساة هابيل،

تفسير اسمه بهبة الله،

وانتقال الوصية إليه.

لكن تفاصيل المدة التي تذكرها الرواية في حزن آدم، وكذلك بعض تفاصيل الولادات السابقة واللاحقة، تبقى من المادة الروائية ولا يذكرها القرآن.

كما أن بعض المصادر تنقل استعمالات مختلفة لاسم «هبة الله»، ولذلك نعتمد هنا على النصوص التي تصرح بأن شيث نفسه هو هبة الله، مع الإشارة إلى وجود اختلافات في بعض الأخبار.

لماذا شيث وليس قابيل؟

هذا السؤال كان حاضرًا في ما كتبناه سابقًا، ويجب أن يبقى في النسخة النهائية.

قابيل ابن آدم، لكن القرابة وحدها لم تجعله حاملًا للعهد. فالقرآن يعرض جريمة قتل ابن آدم لأخيه بعد أن استولى عليه الحسد، بينما الروايات تجعل انتقال الوصية إلى شيث.

وهنا تظهر قاعدة أساسية ستتكرر في تاريخ الهداية:

القرب النسبي من النبي لا يكفي وحده.

الأقدمية لا تكفي.

والقوة لا تكفي.

المعيار في الروايات هو الاختيار الإلهي والأهلية لحمل العلم والعهد.
ولهذا فإن ذكر شيث بعد قصة هابيل وقابيل ليس انتقالًا عائليًا بسيطًا، بل انتقال من نموذج الحسد والعدوان إلى نموذج الأمانة وحفظ الهداية بحسب البناء الروائي.

شيث والوصية

إن مفهوم الوصية من أهم المفاهيم التي ترتبط بشيث عليه السلام في الروايات الإمامية.
فالرواية لا تقول فقط إن شيث عاش بعد آدم، وإنما تنقل أن آدم أوصى إليه.
وهذه الكلمة تحمل معنى أوسع من مجرد انتقال المسؤولية العائلية من الأب إلى الابن.
فالوصية تعني أن شيئًا كان عند السابق ثم أُودع عند اللاحق.
علمًا.
وعهدًا.
وأمانة.
ومسؤولية.
ولهذا فإن فهم شيث في الروايات لا ينبغي أن يكون قائمًا على النسب وحده.
فكونه ابن آدم يبين علاقته الأسرية، أما كونه وصيًا فيبين الدور الذي نُسب إليه في مسيرة الهداية.
ومن هنا يظهر أحد المحاور الكبرى لهذا الكتاب:
الهداية لا تنتقل فقط بواسطة الرسالة، وإنما تحتاج أيضًا إلى حفظ ما جاءت به الرسالة.
فالنبي يبلّغ.
والوصي يحفظ ما أُوكل إليه من العلم والعهد، بحسب التصور الروائي.
وهذا لا يعني أن الوصي يصبح نبيًا لمجرد كونه وصيًا، ولا يعني أن كل وصي يحمل شريعة مستقلة.
بل يجب أن نحافظ على الفروق بين النبوة والوصاية.
آدم عليه السلام نبي.
وشيث، بحسب الروايات الإمامية، وصي آدم.
وهذه التفرقة مهمة جدًا، لأن الخلط بين المقامين يؤدي إلى قراءة غير دقيقة للروايات.
ما الذي سلّمه آدم إلى شيث؟
من أهم ما تضيفه الروايات الإمامية إلى معنى الوصاية أنها لا تجعلها مجرد تسمية لمن يتولى أمر الأسرة بعد وفاة الأب، بل تربطها بانتقال علم وأمانة محددين.

ففي رواية مروية عن الإمام الباقر عليه السلام، ومحفوظة في روضة الكافي ضمن الحديث عن انتقال العلم في ذرية الأنبياء، يؤمر آدم أن يجعل عند هبة الله العلم الذي عنده، والإيمان، والاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوة. وتؤكد الرواية أن هذا العلم لا ينقطع من ذرية الأنبياء.

وفي خبر آخر نقله المجلسي في بحار الأنوار عن مصادر أقدم يرد التعبير عن اسم الله الأعظم، وما علّم الله آدم من الأسماء، وآثار النبوة، وما يحتاج الناس إليه، وأن ذلك دُفع إلى شيث.

وهنا تظهر صلة واضحة ببداية قصة آدم نفسها: آدم عُلِّم الأسماء، ثم في نهاية حياته تصف الروايات انتقال ما اؤتمن عليه من علم إلى من بعده.

إذن، ما يحمله شيث في هذه الصورة ليس مجرد نسبٍ من آدم، بل علم، وإيمان، وعهد، وميراث نبوة، ومسؤولية حفظ ما تحتاج إليه مرحلة ما بعد آدم.

ومع ذلك، تبقى تفاصيل هذه الموجودات ومصطلحاتها من المادة الروائية، ولا ينص القرآن على أن آدم سلّم «الاسم الأكبر» أو «آثار النبوة» إلى شيث باسمه.

الوصية في زمن الخوف — شيث وقابيل والكتمان

تضيف روايات أخرى عنصرًا مهمًا إلى قصة انتقال العهد: الخوف من تكرار جريمة قابيل.

فبحسب خبر محفوظ في روضة الكافي وما نُقل في مصادر الإمامية، عرف قابيل أن آدم خصّ هبة الله بعلم لم يُعطَه هو، وهدده بالقتل إن أظهر ما عنده، كما قتل هابيل من قبل.

وتقول الرواية إن هبة الله ومن جاء من عقبه ظلوا مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة حتى بعث الله نوحًا عليه السلام.

وفي بعض الأخبار يُنسب إلى آدم أنه أمر شيث أن يقبل الوصية بكتمان وتقية من أخيه حتى لا يقتله.

وهنا يصبح الكتمان جزءًا من حفظ الهداية في مرحلة لم يكن فيها إعلان ما عند حامل العهد آمنًا.

ولا ينبغي أن نفهم هذا على أنه نقص في الهداية؛ بل الرواية نفسها تجعل المقصود حفظ العلم حتى يحين زمن ظهوره وحاجة الناس إليه.

وهذا يفسر، داخل التصور الروائي الإمامي، كيف يمكن أن توجد حلقات من الهداية لا تكون أسماؤها ظاهرة في النص القرآني أو في السجل التاريخي العام.

شيث ووفاة آدم — من الوصية إلى تحمّل المسؤولية

لا تنتهي علاقة شيث بأبيه عند استلام الوصية.

ففي عدد من الروايات التي جمعت أخبار وفاة آدم، يظهر شيث في اللحظات التي تلي وفاة أبيه بوصفه الشخص الذي بدأ يتحمل المسؤولية عمليًا.

وتنقل روايات أن شيث خرج في حاجة لأبيه، فلقي الملائكة وأخبروه أن آدم قد توفي، ثم عاد معهم. وفي خبر نقله المجلسي في بحار الأنوار يرد أن شيث غسل آدم مع جبرئيل عليه السلام، ثم طلب من جبرئيل أن يتقدم للصلاة عليه.

لكن جبرئيل، بحسب الخبر، لم يتقدم، بل قدّم شيثًا، وربط ذلك بمقام الأوصياء. فتقدم شيث وصلى على أبيه.

وتختلف الأخبار في عدد التكبيرات على آدم؛ فبعضها يذكر ثلاثين، وأخبار أخرى تذكر أعدادًا مختلفة. ولذلك لا نجعل عدد التكبيرات جزءًا قطعيًا من القصة.

المهم في سياق شيث هو أن الروايات تجعل وفاة آدم أول لحظة يظهر فيها انتقال المسؤولية علنًا: انتهت حياة آدم، لكن ابنه الموصى إليه هو الذي وقف في موضع التقدم بعده.

وصية آدم المتجددة والبشارة بنوح

من أكثر الأخبار اتصالًا بفكرة «حكاية الهداية» ما ورد في روضة الكافي من أن آدم أوصى هبة الله أن يتعاهد الوصية عند رأس كل سنة، وأنهم كانوا يتعاهدون فيها ذكر نوح وزمان خروجه.

وتقول الرواية إنهم عرفوا نوحًا عندما ظهر من خلال العلم والوصية التي كانت عندهم، فآمنوا به واتبعوه وصدقوه.

وتضيف الرواية أن بين آدم ونوح أنبياء كانوا مستخفين، وأن خفاء أسمائهم يفسر — داخل الرواية — لماذا لم يُسمَّ كل واحد منهم في القرآن، مستشهدة بمعنى قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

هذه الرواية شديدة الأهمية لمنهج هذا الكتاب؛ لأنها تمنعنا من تصور أن التاريخ كان فراغًا بين الأسماء الكبرى.

لكنها في الوقت نفسه لا تعطينا أسماء جميع أولئك المستخفين، ولذلك لا يجوز لنا أن نخترع أسماء لسد الفراغ.

نثبت ما سمته الرواية، ونقر بوجود حلقات لم تصلنا أسماؤها على نحو يمكن الجزم به، ونستمر في البحث عن كل حلقة نثبتها المصادر.

الوصية ومسيرة الهداية

إذا نظرنا إلى قصة شيث من هذه الزاوية، فإنها تصبح أكثر من قصة رجل عاش في زمن بعيد.

إنها أول صورة تفصيلية في الروايات لفكرة انتقال الأمانة بعد آدم.

وهذه الفكرة ستتكرر لاحقًا في هذا الكتاب بصور مختلفة.

سنرى أن بعض الأنبياء يتركون وراءهم من يحمل العلم والعهد.

وسنرى أن تاريخ الرسالات لا يتكون فقط من ظهور نبي ثم اختفائه، بل من مراحل متتابعة تتصل بعضها ببعض.

نوح ومن جاء بعده.

إبراهيم ومن جاء بعده.

موسى ومن جاء بعده.

عيسى ومن جاء بعده.

ثم رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وما يرتبط بعده بأهل بيته عليهم السلام في التصور الإمامي.

لكن ينبغي ألا نسقط التفاصيل اللاحقة على شيث بطريقة آلية.

فليس لدينا في القرآن قصة مفصلة تقول إن نظام الوصاية بعد كل نبي كان مطابقًا تمامًا لما تذكره الروايات عن شيث.

وإنما نستطيع أن نقول إن مفهوم انتقال العهد والعلم يظهر في الروايات باعتباره عنصرًا من عناصر استمرار الهداية.

ومن هنا تكتسب قصة شيث أهميتها.

إنها لا تخبرنا فقط عن شخصية من الماضي، بل تقدم لنا نموذجًا مبكرًا لفكرة:

أن العهد لا ينبغي أن يضيع بموت حامله.

زوجة شيث وذريته — ماذا تقول الروايات؟

هذه المسألة مثال واضح على ضرورة جمع الروايات قبل اعتماد اسم واحد أو صورة واحدة.

في رواية اتصال الوصية المحفوظة في أمالي الصدوق وكمال الدين وتمام النعمة والإمامة والتبصرة، يرد أن شيثًا أوصى إلى ابنه «شبان»، وأن شبان كان ابن «نزلة الحوراء» التي أنزلها الله على آدم من الجنة فزوجها ابنه شيثًا.

ويؤكد من لا يحضره الفقيه في رواية زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام اسم «نزلة» للحوراء التي زُوِّجت من شيث.

لكن عند مراجعة علل الشرائع وبعض النقول اللاحقة تظهر اختلافات في ضبط الاسم؛ ففي بعض الطبعات يرد اسم «بركة» بدل «نزلة». كما تحفظ رواية أخرى في بحار الأنوار، من طريق مختلف، اسم «ناعمة» زوجةً لشيث، وتذكر أنها ولدت له جارية سميت «حورية».

إذن لا يصح أن نقول إن جميع الروايات متفقة على اسم واحد لزوجة شيث.

الأدق أن نقول:

— نزلة: الاسم الوارد في رواية الوصاية وفي من لا يحضره الفقيه.

– بركة: قراءة موجودة في بعض نصوص علل الشرائع أو النقول عنها.

– ناعمة: اسم يرد في رواية أخرى مختلفة البناء والتفاصيل.

وهذه الاختلافات قد تعود إلى اختلاف الروايات نفسها أو إلى اختلاف النسخ وضبط الأسماء، ولذلك لا ندمجها في قصة واحدة مصطنعة.

أما من جهة الذرية، فإن رواية الوصاية تعطي اسمًا مهمًا للغاية: «شبان»، ابن شيث، وهو الذي أوصى إليه شيث بحسب الرواية. وتختلف بعض النسخ في رسم الاسم: شبان، شتبان، شيبان، أو غير ذلك.

وفي خبر بدء النسل في الفقيه، ج٣، ص٣٨١، ح٤٣٣٧، يرد أن لیافث ابن آدم زوجةً اسمها منزلة، وأن لشيث غلامًا وليافث بنتًا غير مسميين في هذا الخبر، ثم تزوج ابن شيث من ابنة يافث. ويحكي الخبر استمرار النسل منهما، ولا نساوي الابن بشبان المذكور في خبر الوصية إلا مع بيان اختلاف النصين.

وهذا يجعل شيث داخل بعض الروايات حلقة في استمرار كل من النسل والعهد.

لكن القرآن لا يذكر اسم زوجته ولا اسم ابنه ولا تفاصيل زواجه، ولذلك تبقى هذه المادة في مرتبة الرواية.

وقد عُرض اختلاف الأخبار في زواج أبناء آدم في الفصل الثاني، بما فيه الخبر المنسوب إلى الإمام الباقر الذي ينكر تزويج أبناء آدم من بناته. ويقتصر هذا الموضع على أسرة شيث وتسمية من ارتبط بها، مع إبقاء كل خبر منسوبًا إلى مصدره.

رواية الخمسين صحيفة

ورد عدد «خمسين صحيفة» لشيث في حديث أبي ذر عند الصدوق؛ فهو رقم له أصل في المصدر الروائي، مع بقاء تقويم سند الخبر مستقلًا عن مجرد العثور عليه.

ففي حديث أبي ذر المروي في الخصال للشيخ الصدوق، ج٢، ص٥٢٣، وفي معاني الأخبار، ص٣٣٢، يسأل أبو ذر النبي صلى الله عليه وآله عن عدد الكتب، فتذكر الرواية أن الله أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين، وعلى إبراهيم عشرين، ثم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

إذن توجد رواية إمامية صريحة في هذا العدد.

ومع ذلك يبقى الفرق المنهجي قائمًا:

القرآن لا ينسب صحفًا إلى شيث ولا يحدد عددها.

الرواية هي التي تنص على الخمسين.

ولذلك نقول: «ورد في رواية أبي ذر عند الصدوق أن الله أنزل على شيث خمسين صحيفة»، ولا نصوغ ذلك بوصفه نصًا قرآنيًا.

ويُرجع في تقويم سند هذا الخبر إلى تحقيقات أهل الاختصاص، ولا يكفي مجرد اشتهاره للحكم بصحته.
أما أصل الصحف السابقة فيثبته القرآن بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: ١٨-١٩). فالآيتان تسميان إبراهيم وموسى، ولا تسميان شيئًا. وتختلف نسبة صحف إلى شيث عن وراثته علم أبيه وصحفه؛ فلا نجمع المعنيين في دعوى واحدة.

ما الذي كان يدعو إليه شيث؟

من أكثر الأسئلة الطبيعية التي قد يطرحها القارئ:
ماذا كان شيث عليه السلام يعلّم الناس؟
وهنا نواجه حدود المصادر بوضوح.
فالقرآن لا يذكر لنا شريعة مفصلة باسم شيث، ولا يحفظ لنا خطبًا أو حوارات طويلة منسوبة إليه.
ولا نملك في المصادر المعتبرة بسهولة مجموعة متكاملة من أقواله يمكن من خلالها إعادة بناء حياته وتفاصيل دعوته كما نستطيع أن نفعل مع بعض الأنبياء الذين حفظ القرآن والسنة تفاصيل كثيرة من حياتهم.
لكن هذا لا يعني أن شخصيته كانت بلا رسالة.
فإذا أخذنا الصورة العامة التي تقدمها الروايات، فإن شيث كان في مرحلة تحتاج فيها البشرية الناشئة إلى استمرار التوحيد، وحفظ العهد، وتعليم الناس، وتذكيرهم بالله، ومواجهة الانحراف.
وبهذا المعنى، فإن دعوته تمثل امتدادًا لما بدأه آدم عليه السلام:
عبادة الله.
حفظ العهد.
الاستقامة.
رفض الانحراف.
لكن ينبغي أن نتوقف عند حد مهم:
لا يجوز أن ننسب إلى شيث خطبة محددة، أو كتابًا محددًا، أو قانونًا تفصيليًا، أو أقوالًا طويلة دون مصدر يمكن الاعتماد عليه.
فحين لا نملك النص، لا ينبغي أن نصنع النص.
وهذه قاعدة أساسية في كتابة التاريخ الديني.

شيث ومواجهة الانحراف

إن قصة شيث تصبح أكثر وضوحًا عندما ننظر إليها من زاوية طبيعة الخطر الذي واجهته البشرية في تلك المرحلة.

فالإنسان لا يواجه الانحراف دائمًا بصورة مفاجئة.

أحيانًا يبدأ الانحراف صغيرًا.

ثم يصبح عادة.

ثم تتحول العادة إلى تقليد.

ثم يأتي جيل لا يعرف لماذا يفعل ما يفعل، ولكنه يستمر في فعله لأنه ورثه عن آبائه.

وهنا يمكن أن يتحول الدين من هداية حية إلى مجرد شكل خارجي.

ولهذا فإن حفظ الهداية لا يعني فقط نقل المعلومات.

بل يعني الحفاظ على المعنى.

فالإنسان قد يحفظ الكلمات وينسى المقصود منها.

وقد يحفظ الحكم وينسى الحكمة.

وقد يتحدث عن الله ثم يجعل هواه هو المرجع الحقيقي.

ومن هنا نفهم أهمية مفهوم الوصاية في الروايات الإمامية.

فالوصي، وفق هذه الصورة، ليس مجرد شخص يأتي بعد النبي زمنيًا.

بل هو حامل للأمانة والعلم والعهد، ومسؤول عن استمرار الهداية في مرحلة لاحقة.

وهذا يجعل قصة شيث أعمق من مجرد قصة ابن آدم.

إنها قصة انتقال المسؤولية.

آدم حمل العهد.

ثم أوصى إلى شيث بحسب الرواية.

وشيث حمل الأمانة إلى مرحلة جديدة من تاريخ البشر.

من شيث إلى إدريس — سلسلة الوصاية في رواية الصدوق

تسمي رواية اتصال الوصاية حملةً للعهد بين شيث وإدريس؛ فيُعرض تسلسلها كما ورد، مع تمييزه من الأنساب التاريخية.

في أمالي الصدوق، المجلس ٦٣، الحديث ٣، وفي كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٢٢، الحديث ١، وفي الإمامة والتبصرة، باب «الوصية من لدن آدم»، وردت سلسلة وصاية تبدأ بآدم ثم شيث، ثم تستمر قبل أن تصل إلى أخنوخ، وهو إدريس النبي.

بحسب هذه الرواية يكون التسلسل:

آدم

شيث / هبة الله

شبان

مجلث

محوق

غثميشا

أخنوخ = إدريس النبي عليه السلام

وتختلف كتابة بعض هذه الأسماء في النسخ: مجلث/محلث ونحو ذلك، وغثميشا/عثميشا/عميشا في بعض النقول. ولذلك لا ينبغي أن نعتمد رسمًا واحدًا من دون الإشارة إلى اختلاف النسخ.

وهذه السلسلة تختلف عن سلسلة الأنساب المشهورة في كتب التاريخ التي تذكر:

شيث ← أنوش ← قينان ← مهلائيل ← يارد ← أخنوخ/إدريس.

ولا ينبغي دمج السلسلتين وكأنهما نص واحد.

الأولى سلسلة وصاية مروية في مصادر إمامية.

والثانية سلسلة نسب تاريخية اشتهرت في كتب التاريخ والأنساب وتأثرت أيضًا بالمادة الكتابية القديمة.

وبما أن هدف هذا الكتاب هو استمرار الهداية، فإن سلسلة الوصاية الإمامية هي الأهم في بناء الجسر من شيث إلى إدريس، مع ذكر السلسلة التاريخية للمقارنة فقط.

لماذا لا ننتقل مباشرة إلى إدريس؟

قد يسأل القارئ:

إذا كان إدريس عليه السلام هو النبي الذي يذكره القرآن بعد هذه المرحلة، فلماذا لا ننتقل إليه مباشرة؟

لأن هذا الكتاب لا يريد أن يحول تاريخ الهداية إلى قائمة أسماء.

لسنا نكتب:

آدم.

شيث.

إدريس.

نوح.

إبراهيم.

موسى.

عيسى.

محمد صلى الله عليه وآله.

ثم نضع تحت كل اسم بضعة أسطر.

إنما نحاول أن نفهم كيف استمرت الهداية في التاريخ.

ولهذا كانت مرحلة شيث مهمة.

آدم مات، لكن الهداية لم تمت.

شيث ظهر في الروايات بوصفه حامل العهد بعد أبيه.

ثم اتسعت البشرية وتتابعت أجيالها.

ثم تذكر الروايات استمرار العهد في سلاسل مختلفة.

وبعد ذلك نصل إلى إدريس، الذي يذكره القرآن باسمه صراحة ويصفه بأنه صديق نبي.

وعندما نصل إلى إدريس، سنفهم أنه ليس اسمًا ظهر فجأة في التاريخ.

بل هو شخصية تأتي ضمن سياق أوسع لمسيرة الهداية.

ومن هنا فإن الفصل الثالث ليس مجرد فصل عن شخصية غائبة عن القرآن بالاسم.

إنه فصل عن المرحلة الواقعة بين آدم وإدريس، وعن مفهوم استمرار الهداية بعد وفاة أول نبي.

إدريس: من الرواية إلى النص القرآني

وعندما نصل إلى إدريس، تتغير طبيعة المادة التي بين أيدينا.

فالقرآن يقول بوضوح: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ سورة مريم، الآيتان ٥٦-٥٧.

وهذا يختلف عن شيث.

فشيث لم يذكر باسمه في القرآن.

أما إدريس فقد ذكر باسمه ووصف بأنه:

صديق.

نبي.

وقال الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في الكتاب.

لكننا لن نضع في قصة إدريس كل ما ورد في القصص الشعبية أو الكتب التاريخية دون تحقيق.

بل سنبدأ أولًا بما قاله القرآن.

ثم ننتقل إلى روايات أهل البيت عليهم السلام.

ثم ندرس ما ورد في تفسير الآيات.

ثم نقارن ذلك بما ذكرته المصادر الإسلامية الأخرى.

وبهذا ننتقل من:

شيث: وصي آدم في الروايات

إلى:

إدريس: نبي مذكور في القرآن.

عمر شيث ووفاته ومكة — ما الذي يمكن إثباته؟

توجد أخبار متعددة ومختلفة في عمر شيث ونهاية حياته، ولذلك لا يجوز أن نعطي رقمًا واحدًا بوصفه حقيقة ثابتة.

ينقل المجلسي في بحار الأنوار عن تفسير القمي خبرًا في صور الأنبياء يُنسب فيه إلى الإمام الحسن عليه السلام وصف شيث، ويقال عنه إنه «كان أول من بعث». وفي نسخة بحار الأنوار ورد أن عمره كان ألف سنة وأربعين يومًا، بينما يشير هامش المجلسي إلى أن نص تفسير القمي يقرأ: ألف سنة وأربعين عامًا.

وفي المصادر التاريخية، مثل الكامل لابن الأثير، يرد رقم آخر هو تسعمائة واثنتا عشرة سنة، مع أخبار أنه أقام بمكة يحج ويعتمر، وأنه بنى الكعبة بالحجارة والطين، وأنه دفن في غار أبي قبيس مع أبويه.

لكن ابن الأثير نفسه يقدم هذه الأخبار بصيغ مثل «قيل»، وبعضها مرتبط بنقول أهل التوراة والتاريخ، لا برواية إمامية مسندة واحدة جامعة.

ولهذا يكون الحكم المنهجي:

وجود رواية إمامية في بعث شيث وعمر طويل منقول عنه.

وجود اختلاف نصي في مقدار العمر.

وجود أخبار تاريخية عن إقامته بمكة وحجه وبناء الكعبة وموضع دفنه.

ولا يوجد في القرآن شيء من هذه التفاصيل.
لذلك تُذكر كلها مع نسبتها إلى مصادرها، ولا نجزم بعمره أو قبره أو بنائه للكعبة.

شيث في ميزان المنهج — ماذا نستطيع أن نثبت؟

بعد جمع المادة السابقة، يمكن وضع المعلومات المتعلقة بشيث عليه السلام في طبقات واضحة حتى لا تختلط الحقيقة القرآنية بالرواية الحديثية أو الخبر التاريخي.

أولًا: ما يقوله القرآن

القرآن الكريم لا يذكر شيثًا باسمه.

ولذلك لا نستطيع أن ننسب إلى القرآن مباشرة:

ولادته بعد هابيل،

اسمه هبة الله،

وصايته لآدم،

نبوته باسمه،

زوجته أو أولاده،

صحفه وعددها،

عمره،

موضع وفاته أو قبره،

أو سلسلة من جاء بعده.

لكن القرآن يثبت الإطار الذي تقع داخله هذه الروايات:

آدم من المصطفين.

لآدم ذرية.

الهداية لم تنقطع عن البشر.

والقرآن نفسه يصرح بوجود رسل لم يقصصهم بأسمائهم: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

ثانيًا: ما تنقله مصادر إمامية صريحة عن شيث

لدينا روايات إمامية تسمي شيثًا بوضوح وتربطه بأكثر من مقام:

— من لا يحضره الفقيه: شيث هو هبة الله، وهو «أول وصي أوصي إليه من الآدميين في الأرض».

— أمالي الصدوق وكمال الدين والإمامة والتبصرة: آدم أوصى إلى شيث، وشيث أوصى إلى شبان ابن نزلة، ثم تستمر سلسلة الوصاية حتى أخنوخ/إدريس.

– الخصال: حديث أبي ذر يعد شيثًا في جملة الأنبياء السريانيين، وينسب إليه خمسين صحيفة.

– روضة الكافي وما يرتبط بها من روايات انتقال العلم: هبة الله يحمل العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة، ويستمر هذا الميراث في العقب.

هذه النصوص تجعل صورة شيث في التراث الإمامي أوسع من وصف واحد: هو ابن آدم، وهبة الله، ووصيه، وحامل العلم والعهد، وتوجد روايات تصفه بالنبي وتنسب إليه صحفًا.

ثالثًا: ما يحتاج إلى دراسة سندية ونصية خاصة

لا يعني وجود هذه الأخبار في المصادر أن جميع تفاصيلها متساوية في القوة.

رواية سلسلة الوصاية تمر في بعض طرقها بمقاتل بن سليمان، وهو راوٍ وقع فيه خلاف، ولذلك تحتاج إلى دراسة رجالية وسندية مستقلة.

وحديث الخمسين صحيفة يحتاج كذلك إلى تقويم سنده، مع ثبوت وجود النص في الخصال ومعاني الأخبار.

وروايات بدء النسل وزوجة شيث تتعدد فيها الأسماء والصيغ، مثل نزلة وبركة وناعمة.

ولهذا نثبت وجود الرواية ونسبتها، ثم نفصل بينها وبين القطع التاريخي.

رابعًا: ما يرد في كتب التاريخ للمقارنة

تذكر كتب التاريخ أخبارًا أخرى عن شيث:

إقامته بمكة،

حجه واعتماره،

بناؤه الكعبة بالحجارة والطين،

عمرًا يبلغ ٩١٢ سنة في بعض الأخبار،

دفنه في غار أبي قبيس،

وأن ابنه أنوش قام بعده.

هذه الأخبار موجودة في مصادر تاريخية مثل الكامل في التاريخ، وبعضها منقول بصيغ «قيل» أو عن أهل التوراة.

ولهذا لا نستخدمها أساسًا لبناء العقيدة أو سلسلة الهداية، وإنما نذكرها عند الحاجة للمقارنة، مع بيان أنها ليست قرآنًا ولا رواية إمامية مسندة بالضرورة.

خامسًا: النتيجة التي يعتمدها هذا الكتاب

الصياغة الأدق التي سنعتمدها هي:

شيث عليه السلام شخصية لم يسمها القرآن، لكن مصادر الإمامية تحفظ له حضورًا واضحًا بوصفه هبة الله ووصي آدم وحامل العهد بعده، وتوجد فيها أيضًا روايات تصفه بالنبي وتنسب إليه خمسين صحيفة. أما تفاصيل زواجه وأسماء ذريته وعمره وحياته في مكة ووفاته وقبره فتختلف فيها الروايات والأخبار، وتُذكر كل معلومة بقدر دليلها.

الدروس المستفادة من مرحلة شيث عليه السلام

رغم أن القرآن لم يقدم قصة تفصيلية لشيث عليه السلام، فإن المرحلة التي يمثلها تحمل معاني كبيرة.

أولًا: موت النبي لا يعني موت الهداية.

آدم مات، لكن مسيرة الهداية لم تنتهِ.

وهذه واحدة من أهم الأفكار التي يجب أن تبقى أمامنا ونحن نقرأ تاريخ الأنبياء.

ثانيًا: العلم أمانة.

العلم الذي ينتقل من جيل إلى جيل ليس ملكًا شخصيًا لمن يحمله.

إنه أمانة.

والأمانة يمكن أن تحفظ، ويمكن أن تضيع.

ثالثًا: الهداية تحتاج إلى حفظ.

فالمشكلة ليست دائمًا أن الإنسان لم يسمع الحق.

أحيانًا يسمع الحق، ثم ينساه.

وأحيانًا يحفظه، ثم يغير معناه.

وأحيانًا يضيف إليه ما ليس منه.

ولهذا تحتاج الهداية إلى من يحفظها ويذكّر بها.

رابعًا: النسب وحده لا يكفي.

كون شيث ابن آدم لا يفسر وحده المكانة التي تنسبها إليه الروايات.

المسألة في الرواية مرتبطة بالأمانة والعهد والمسؤولية.

خامسًا: الصمت القرآني ليس نقصًا.

عدم ذكر القرآن لشيث باسمه لا يعني أن الكتاب ناقص.

فالقرآن لم يُنزل ليكون سجلًا تاريخيًا شاملًا لكل إنسان عاش على الأرض.

إنه كتاب هداية.

وقد يذكر شخصية في آيتين ويترك مئات التفاصيل؛ لأن المقصود هو ما يحتاجه الإنسان لهدايته.

سادسًا: عدم معرفة التفاصيل ليس فشلًا معرفيًا.
أحيانًا تكون أكثر الإجابات أمانة هي:
لا نملك دليلًا كافيًا.
وهذا أفضل من بناء تاريخ كامل على أخبار لا نستطيع إثباتها.

نهاية الفصل الثالث: شيث عليه السلام

وهكذا نصل إلى نهاية مرحلة شيث عليه السلام.
لم يكن شيث شخصية قرآنية مفصلة كما سيكون حال بعض الأنبياء الذين سيأتون في الفصول اللاحقة.
فالقرآن لم يذكر اسمه صراحة.
لكن الروايات الإمامية حفظت له موقعًا مهمًا في تصور استمرار الهداية بعد آدم:
شيث.
هبة الله.
ابن آدم.
حامل العهد.
وأول وصي من الآدميين في الأرض بحسب الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام.
ومن خلال هذه الصورة نرى أن موت آدم لم يكن نهاية لمسيرة الهداية.
بل كان انتقالًا إلى مرحلة جديدة.
انتقل العهد.
وتتابعت الأجيال.
واستمرت البشرية في الانتشار.
وتذكر الروايات سلاسل مختلفة لحَمَلة العهد بعد شيث.
لكننا، وفق منهج هذا الكتاب، لن نحول هذه السلاسل إلى حقائق قرآنية قطعية.
سنحمل كل رواية بقدر دليلها.
وعندما نصل بعد ذلك إلى إدريس عليه السلام، تتغير طبيعة المادة.
فلم يعد الأمر متعلقًا فقط بروايات عن شخصية لم يسمها القرآن.
بل نصل إلى نبي ذكره القرآن باسمه صراحة.
قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وهكذا ننتقل من:

شيث: حامل العهد في الروايات

إلى:

إدريس: نبي مذكور صراحة في القرآن.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حكاية الهداية.

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

- القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣:٣٣ — اصطفاء آدم.
- القرآن الكريم، سورة المائدة ٥:٢٧-٣١ — ابنا آدم، القربان، القتل والدفن؛ وهو السياق السابق لظهور شيث في الروايات.
- القرآن الكريم، سورة النساء ٤:١٦٤، وسورة غافر ٤٠:٧٨ — رسل قصهم الله ورسل لم يقصصهم؛ وهو أصل قرآني مهم عند الحديث عن شخصيات لم يسمها القرآن.
- القرآن الكريم، سورة الأعلى ٨٧:١٨-١٩ — الصحف الأولى وصحف إبراهيم وموسى؛ مع التنبيه إلى أن الآيتين لا تسميان شيثًا.
- القرآن الكريم، سورة مريم ١٩:٥٦-٥٧ — إدريس صديقًا نبيًا ورفعه مكانًا عليًا.
- القرآن الكريم، سورة الأنبياء ٢١:٨٥-٨٦ — إدريس في جملة الصابرين والصالحين.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية الأساسية

- الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، كتاب النكاح، باب بدء النكاح وأصله، الحديث ٢.

المادة المستفادة: شيث هو هبة الله، وهو أول وصي أوصي إليه من الآدميين في الأرض؛ وذكر يافث؛ ونزلة زوجة شيث بحسب الرواية؛ وتفصيل استمرار النسل.

- الشيخ الصدوق، الخصال، حديث أبي ذر في عدد الأنبياء والكتب، الكتاب ٢١، الباب ٩، الحديث ١ في الفهرسة الإلكترونية.

المادة المستفادة: عدّ شيث في الأنبياء السريانيين، ونسبة خمسين صحيفة إليه.

تنبيه: يُدرس سند الحديث مستقلًا قبل صياغة الحكم الحديثي النهائي.

- الشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس الثالث والستون، الحديث ٣.

المادة المستفادة: آدم أوصى إلى شيث وهو هبة الله؛ شيث أوصى إلى ابنه شبان ابن نزلة؛ ثم مجلث، محوق، غثميشا، أخنوخ/إدريس.

تنبيه رجالي: في طريق الرواية مقاتل بن سليمان، وقد وقع الخلاف فيه، فلا تُعامل السلسلة بوصفها تاريخًا قطعيًا بلا دراسة.

- الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الكتاب ٢، الباب ٢٢ «اتصال الوصية من لدن آدم عليه السلام»، الحديث ١.

المادة المستفادة: رواية اتصال الوصية نفسها مع شيث، شبان، نزلة، والحلقات المؤدية إلى إدريس ثم ما بعدها.

- علي بن الحسين بن بابويه القمي، الإمامة والتبصرة من الحيرة، باب اتصال/الوصية من لدن آدم.

المادة المستفادة: شاهد مبكر على رواية اتصال الوصية من آدم إلى شيث ومن بعده.

- الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٩-٢٠ في بعض الطبعات، في حديث بدء النسل من آدم.

المادة المستفادة: شيث/هبة الله، أول وصي؛ وزوجته في بعض النسخ؛ وبداية استمرار النسل.

تنبيه نصي: تختلف بعض الطبعات والنقول في اسم الحوراء بين «نزلة» و«بركة»، ولذلك يجب إثبات قراءة الطبعة المعتمدة عند النشر.

- الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، الروضة، ص١١٣، الحديث ٩٢ في بعض الطبعات والفهارس.

المادة المستفادة: انتقال العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى هبة الله؛ بقاء هبة الله وعقبه مستخفين بما عندهم حتى بعثة نوح؛ تعاهد وصية آدم وانتظار النبي الموعود؛ ووجود أنبياء مستخفين لم تظهر أسماؤهم.

- تفسير القمي، الخبر الذي نقله المجلسي في بحار الأنوار في وصف الأنبياء.

المادة المستفادة: وصف شيث بأنه «أول من بعث» وعمر طويل.

تنبيه نصي: توجد قراءة «ألف سنة وأربعون عامًا» وقراءة «ألف سنة وأربعون يومًا» في النقول والنسخ.

- الأخبار المتعلقة بوفاة آدم وغسله والصلاة عليه، كما جمعها المجلسي في بحار الأنوار، ج١١، ولا سيما الصفحات ٢٢٨-٢٢٩ في بعض الطبعات، مع الإحالة إلى الأصول الأقدم التي ينقل عنها.

المادة المستفادة: دور شيث في غسل آدم والصلاة عليه، وتقديمه على الملائكة في بعض الروايات، واختلاف عدد التكبيرات.

تنبيه: بحار الأنوار جامع للروايات وليس مجرد ورود الخبر فيه تصحيحًا لسنده.

ثالثًا: مصادر إمامية جامعة ومساندة

- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، أبواب قصة آدم ووصيته إلى شيث وأخبار أولاده — يستخدم جامعًا ووسيلة للوصول إلى النصوص الأقدم، لا بوصفه حكمًا تلقائيًا بصحة الأخبار.

- تفسير الصافي للفيض الكاشاني عند سورة الأعلى ٨٧:١٨-١٩ — ينقل حديث أبي ذر في صحف شيث عن الخصال.
- نور الثقلين للحويزي عند آيات ابني آدم — يجمع روايات انتقال العلم إلى هبة الله ويشير إلى روضة الكافي.

رابعًا: المصادر التاريخية للمقارنة فقط

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، «ذكر شيث بن آدم عليه السلام».

يذكر — بصيغ تاريخية منها «قيل» — إقامته بمكة وحجه واعتماره وبناء الكعبة بالحجارة والطين، ووفاته ودفنه في غار أبي قبيس، وعمر ٩١٢ سنة، وانتقال الأمر إلى أنوش.

هذه الأخبار لا تعتمد أساسًا للعقيدة أو لسلسلة الوصاية في الكتاب.

- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، في أخبار آدم وشيث.

يذكر مادة نسبية وزمنية عن ولادة شيث ووصية آدم له وأنوش وما بعده، وبعضها منقول عن أهل الكتاب وأهل التاريخ. تستخدم للمقارنة لا لبناء الرواية الإمامية.

الفصل ٤ — إدريس عليه السلام — نبي الصدق ورفعة المكانة

من شيث إلى إدريس — استمرار العهد قبل بداية قصة إدريس

لا يبدأ فصل إدريس من فراغ، ولا نريد أن نقفز من شيث عليه السلام إلى إدريس وكأن أجيال الهداية الواقعة بينهما لم تكن موجودة.

في رواية اتصال الوصاية التي ناقشناها في الفصل السابق، تستمر السلسلة على هذا النحو:

آدم عليه السلام

شيث / هبة الله

شبان

مجلث

محوق

غثميشا

أخنوخ = إدريس النبي عليه السلام

وتختلف كتابة بعض الأسماء بين النسخ، ولذلك لا نجعل رسمًا واحدًا منها حقيقة لا تحتمل المراجعة.

لكن قيمة الرواية في مشروعنا واضحة: الهداية والعهد لم ينقطعا بين شيث وإدريس.

ومن هنا يبدأ هذا الفصل بإدريس بوصفه نبيًا يذكره القرآن باسمه، بعد أن وصل إليه خط العهد في الروايات الإمامية.

ضبط حلقة الوصاية

موضع هذه السلسلة في من لا يحضره الفقيه هو الحديث ٥٤٠٢ من الجزء الرابع، ص١٧٤–١٧٦ في الطبعة المراجعة، ولها نقل في أمالي الصدوق، المجلس الثالث والستون، الحديث الثالث.

وفي الأمالي يقع اسم «مجلث»، وفي النسخة المراجعة من الفقيه «محلث». فنثبت اختلاف الرسم، ولا نحول فرق النسخ إلى شخصيتين متيقنتين. وكذلك تبقى الأسماء الأخرى محتاجة إلى مراعاة اختلاف الضبط.

ويمر طريق الأمالي بمقاتل بن سليمان عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وتعيين موضع الخبر وطريقه لا يغني عن تقويم رجاله؛ ولذلك نعرض السلسلة بوصفها رواية، لا قائمة تاريخية مقطوعًا بكل اسم فيها.

وتذكر الرواية نزلة الحوراء زوجة شيث وأم شبان. فهذه امرأة لها صلة بحلقة العهد السابقة لإدريس، ولا يصح جعلها أم إدريس أو زوجته.

كما أن الوصاية ليست نسبًا بالضرورة، فانتقال الأمانة من شخص إلى آخر لا يثبت وحده أن الثاني ابن الأول.

إدريس (عليه السلام): نبي الصدق والمقام الرفيع

بعد أن بدأنا حكاية الإنسان مع آدم عليه السلام، وتابعنا امتداد الهداية في ذريته، وتحدثنا عن شيث عليه السلام وما ورد في التراث الإمامي بشأنه بوصفه حاملًا للعهد بعد أبيه، نصل الآن إلى شخصية قرآنية عظيمة، لكن قصتها في القرآن قصيرة:

إدريس عليه السلام.

وهنا ينبغي أن نتوقف قليلًا.

فحكاية الهداية ليست كتابًا في التاريخ بالمعنى المعتاد، ولا تحاول أن تملأ كل فراغ بين شخصية وأخرى بتفاصيل لا دليل عليها.

القرآن لا يقدم لنا جدولًا زمنيًا كاملًا للأنبياء منذ آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك لا نستطيع أن نجزم من القرآن وحده بموقع إدريس الدقيق بين شيث وسائر الأنبياء الأوائل، ولا بعدد الأجيال التي تفصل بينهم.

لكن القرآن يمنحنا شيئًا أهم من مجرد التاريخ.

إنه يمنحنا الصورة التي أراد الله أن تبقى في ذاكرة الهداية عن إدريس.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ سورة مريم، الآيتان ٥٦-٥٧.

ثلاث كلمات تقريبًا ترسم لنا جوهر شخصيته:

صِدِّيقًا. نَبِيًّا. مَكَانًا عَلِيًّا.

ثم يضيف القرآن وصفًا آخر له: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ سورة الأنبياء، الآيتان ٨٥-٨٦.

وهكذا، قبل أن نعرف تفاصيل حياته، يخبرنا القرآن عن حقيقته الروحية.

كان صديقًا.

وكان نبيًا.

وكان من الصابرين.

وكان من الصالحين.

وأدخله الله في رحمته.

ورفعه مكانًا عليًا.

وهذه ليست أوصافًا عابرة.

إنها أول خريطة لشخصية إدريس في حكاية الهداية.

فإذا كان آدم عليه السلام يمثل بداية الإنسان، وإذا كان شيث يمثل في الروايات امتداد العهد بعد أبيه، فإن إدريس يمثل مرحلة أخرى من مراحل استمرار الهداية في الأرض.

مرحلة لا نعرف كل تفاصيلها التاريخية، لكننا نعرف أن الله لم يترك فيها الإنسان بلا هداية.

وهنا تبدأ قصة إدريس.

جميع المواضع القرآنية المرتبطة بإدريس عليه السلام — ما يثبت بالنص

قبل أي رواية أو خبر تاريخي، ينبغي أن نجمع كل ما يقوله القرآن عن إدريس عليه السلام بصورة مباشرة أو ضمن السياق.

الموضع الأول: سورة مريم ١٩:٥٦-٥٧

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

هذا هو النص القرآني الأوضح في إدريس، ويثبت له ثلاثة أمور صريحة:

الصديقية.

النبوة.

والرفع إلى مكان علي.

أما كيفية الرفع، وموضعه، وهل كان في حياته أو بعد موته، فلا تفصلها الآية نفسها.

الموضع الثاني: سورة الأنبياء ٢١:٨٥-٨٦

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهذا يثبت لإدريس:

أنه من الصابرين.

أنه من الصالحين.

أنه داخل في رحمة الله.

الموضع الثالث: سياق سورة مريم ١٩:٥٨

بعد ذكر عدد من الأنبياء، ومنهم إدريس، يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم ١٩:٥٨).

إدريس داخل في عموم الممدوحين في هذا السياق، لكن تعيينه بأنه المقصود تحديدًا بعبارة «من ذرية آدم» هو تفسير، لا نصٌّ منفصل باسمه في الآية.

ولا ينبغي أن نبني من الآية وحدها سلسلة نسب تفصيلية بين آدم وإدريس أو بين إدريس ونوح.

إذن الصورة القرآنية الكاملة لإدريس هي:

صِدّيق.

نبي.

من الصابرين.

من الصالحين.

داخل في رحمة الله.

مرفوع إلى مكان علي.

وما عدا ذلك من الاسم الآخر، والنسب، والكتابة، والخياطة، والصحف، والملك الجبار، والغيبة، ومسجد السهلة، والسماء الرابعة، وملك الموت، ومن جاء بعده — مصدره الروايات أو التفسير أو التاريخ، لا النص القرآني المباشر.

مصادر هذا القسم

القرآن الكريم: مريم ١٩:٥٦–٥٨؛ الأنبياء ٢١:٨٥–٨٦.

العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير مريم ٥٦–٥٨ والأنبياء ٨٥–٨٦.

إدريس في القرآن: آيات قليلة ومعانٍ كثيرة

إذا أردنا أن نبدأ من أكثر المصادر يقينًا، فعلينا أن نبدأ من القرآن.

وهنا نلاحظ شيئًا مهمًا جدًا:

اسم إدريس عليه السلام لم يرد في القرآن إلا في موضعين.

الأول في سورة مريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ سورة مريم، الآيتان ٥٦–٥٧.

والثاني في سورة الأنبياء:
﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾
سورة الأنبياء، الآيتان ٨٥-٨٦.

وهذا يعني أن القرآن لا يقدم لنا قصة طويلة عن إدريس.

لا يخبرنا عن عدد أتباعه.

ولا يذكر لنا أسماء قومه.

ولا يذكر تفاصيل دعوته.

ولا يحدد لنا مكان ولادته.

ولا يقدم لنا جدولًا زمنيًا لحياته.

ولا يذكر تفاصيل كثيرة عن وفاته.

لكن هل يعني ذلك أن إدريس قليل الأهمية؟

أبدًا.

وهنا نتعلم قاعدة أساسية في حكاية الهداية:

ليست أهمية النبي في طول القصة التي وردت عنه، وإنما في مقدار الهداية التي أراد القرآن أن يتركها لنا من خلاله.

وقد يكون في حياة نبي من الأحداث ما لا نحتاج إلى معرفته حتى نفهم رسالته.

وقد تكفي آيتان لتقديم شخصية عظيمة إلى أجيال لا تنتهي.

وهذا هو حال إدريس.

فالقرآن لم يكثر من التفاصيل الخارجية، وإنما ركز على الصفات التي تكشف حقيقة الإنسان عند الله.

صديق.

نبي.

صابر.

صالح.

داخل في رحمة الله.

مرفوع المكانة.

وهذه الكلمات القليلة ستكون مفتاحنا لفهم بقية قصة إدريس.

صِدِّيقًا نَبِيًّا: لماذا بدأ القرآن بالصدق؟

أول وصف منحه القرآن لإدريس هو وصف شديد العمق:

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

لم يقل القرآن أولًا إنه كان قويًا.

ولم يقل إنه كان ملكًا.

ولم يقل إن له أتباعًا كثيرين.

ولم يقل إنه امتلك سلطانًا عظيمًا.

بل بدأ من الداخل:

صِدِّيقًا.

ثم قال:

نَبِيًّا.

والصديقية ليست مجرد قول الصدق في الكلام.

إنها مرتبة أعمق من ذلك.

فالصدق يمكن أن يكون صدق اللسان، لكن الصديقية تتصل بصدق الإنسان في إيمانه، وتصديقه للحق، وإخلاصه لله، ومطابقة باطنه لظاهره.

ولهذا نجد القرآن يستعمل هذا الوصف في موضع آخر مع إبراهيم عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ سورة مريم، الآية ٤١.

فإبراهيم وإدريس عليهما السلام يشتركان في وصف قرآني لافت:

صِدِّيقًا نَبِيًّا.

وكأن القرآن يلفت نظرنا إلى حقيقة مهمة:

النبي لا يبدأ من المنبر.

ولا تبدأ الهداية من كلامه للناس.

الهداية تبدأ من صدقه مع الله.

فالنبي الذي يدعو الناس إلى الحق يجب أن يكون قد صدق الحق أولًا.

والذي يدعو الناس إلى التوحيد يجب أن يكون قلبه موحدًا.

والذي يدعو الناس إلى الطاعة يجب أن يكون هو من أهل الطاعة.

والذي يحذر الناس من الباطل يجب أن يكون قد عرف الباطل ورفضه.

وهنا تظهر إحدى أهم قواعد حكاية الهداية:
الهداية التي يحملها الإنسان إلى الآخرين لا بد أن يكون لها أصل في داخله.
فالرسالة ليست معلومات يحملها الإنسان كما يحمل كتابًا.
إنها حياة يعيشها.
ولهذا بدأ القرآن إدريس من هذه النقطة:
كان صديقًا.
وجمع له الوصف الآخر:
نبيًا.

ولا يعني ترتيب الوصفين في الآية أن إدريس اكتسب النبوة بعد الصدق اكتسابًا بشريًا. فالآية تجمع فضيلته واصطفاءه، ولا تروي تاريخًا تفصيليًا لمراحل نبوته. وما نستخرجه من درس تربوي يظل تدبرًا في الأوصاف، لا تتمة مخترعة للسيرة.

ملاحظة منهجية للفصل

من هذه النقطة سنستمر في الفصل على هذا الأساس: عندما يكون الكلام قرآنيًا سنقدمه بوصفه ثابتًا بالقرآن، وعندما ننتقل إلى الروايات الإمامية سنذكر مصدرها ونوضح طبيعتها، وعندما تكون المعلومة من كتب التاريخ أو القصص فلن نرفعها إلى مرتبة الحقيقة القرآنية.

وهذا مهم جدًا في قصة إدريس تحديدًا؛ لأن المصادر الإمامية والتفسيرية تنقل عنه مادة واسعة نسبيًا مقارنة بما ذكره القرآن مباشرة، ومنها روايات تتعلق برفعه وملك الموت، وقصته مع الملك الجبار، وما نُسب إليه من الكتابة والخياطة ودراسة الكتب. وقد عرض الميزان هذه المواد مع التنبيه إلى بعض الإشكالات السندية ومخالفة بعض الروايات لظاهر القرآن.

إدريس والصبر: عندما يصبح الحق طريقًا طويلًا

بعد أن وصف الله إدريس عليه السلام بالصديقية والنبوة، أعطانا وصفًا آخر لا يقل أهمية:
﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٨٥.
ولم يأتِ ذكر الصبر هنا منفصلًا عن بقية صفات هؤلاء الأنبياء.
فالصديقية تعني أن الإنسان صدق مع الحق.
والنبوة تعني أنه حمل رسالة الله.
لكن حمل الحق يحتاج إلى شيء آخر:
الصبر.
فالإنسان قد يعرف الحق، ولكنه لا يصبر عليه.

وقد يؤمن بالحق، لكنه يتراجع عندما تصبح الطريق صعبة.
وقد يبدأ في طاعة الله، ثم يتوقف عندما لا يرى النتيجة التي كان ينتظرها.
أما النبي، فليس مطلوبًا منه أن يعرف الحق فقط.
بل أن يثبت عليه.
وهنا يصبح الصبر جزءًا من الهداية نفسها.
فالدعوة إلى الله ليست دائمًا طريقًا سهلًا.
وقد يواجه صاحب الهداية رفضًا أو استهزاءً أو عنادًا أو تغيرًا بطيئًا في الناس.
وقد لا يرى ثمار عمله في حياته.
ومع ذلك يستمر.
وهذا معنى عميق في وصف إدريس عليه السلام بأنه من الصابرين.
فالقرآن لم يخبرنا عن تفاصيل كثيرة من حياته، لكنه أخبرنا عن الصفة التي كان يحتاج إليها في طريقه: الصبر.
ثم يأتي الوصف الثالث:
﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.
فالصبر لم يكن مجرد تحمل.
كان صبرًا يقود إلى الصلاح.
وهكذا تتكامل الصورة:
صدق، ونبوة، وصبر، وصلاح، ورحمة.
وهذه ليست مجرد سلسلة من الكلمات.
إنها صورة الإنسان الذي تحولت فيه الهداية من معرفة إلى حياة.

إدريس والمكانة عند الله

ثم تأتي العبارة القرآنية التي بقيت من أكثر العبارات ارتباطًا بإدريس عليه السلام:
﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.
آية قصيرة.
لكنها فتحت بابًا واسعًا من الأسئلة.
ما معنى الرفع؟

هل هو رفع في المنزلة؟
أم رفع حسي؟
أم رفع إلى السماء؟
أم أن الآية تحتمل أكثر من معنى؟
هنا يجب أن نعود إلى المنهج الذي بدأنا به.
القرآن أثبت الرفع.
أما كيفية هذا الرفع، فليست مفصلة في الآية نفسها.
ولهذا نجد المفسرين يتحدثون عن احتمالات متعددة.
فمنهم من حمل الرفع على الرفعة في الدرجة والمكانة.
ومنهم من فهمه على أنه رفع حقيقي إلى مكان مرتفع.
وقد جمعت بعض التفاسير بين المعنى المعنوي والحسي.
وفي الروايات الإمامية جاءت تفاصيل أكثر حول هذه الآية، وسيكون لها موضعها لاحقًا.
لكن قبل الدخول في الروايات، علينا أن نثبت الحقيقة القرآنية وحدها:
الله سبحانه وتعالى قال عن إدريس:
﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.
وهذا وحده يحمل معنى عظيمًا.
فقد يكون الإنسان معروفًا بين الناس ثم يزول ذكره.
وقد يكون مجهولًا عند أكثر أهل الأرض، لكنه معروف عند الله.
وقد يعيش الإنسان حياة قصيرة، لكن أثره يبقى قرونًا.
وقد لا يمتلك مالًا ولا سلطانًا ولا جيشًا، ومع ذلك يرفع الله مقامه.
وهذا ينسجم تمامًا مع الطريقة التي قدم بها القرآن إدريس.
لم يقل:
كان ملكًا.
لم يقل:
كان غنيًا.
لم يقل:
كان صاحب سلطان.

بل قال:

كان صديقًا نبيًا.

ثم قال:

ورفعناه مكانًا عليًا.

وكأن القرآن يعلمنا أن المكانة الحقيقية لا تبدأ بما يملكه الإنسان، وإنما بما يكونه عند الله.

هل نعرف متى عاش إدريس؟

بعد أن عرفنا ما يقوله القرآن عن شخصية إدريس، يأتي سؤال طبيعي:

متى عاش إدريس عليه السلام؟

وهنا نحتاج إلى قدر كبير من الحذر.

فالقرآن لم يقل:

«كان إدريس بعد شيث مباشرة».

ولم يقل:

«كان بين آدم وإدريس عدد كذا من السنين».

ولم يقل:

«كان إدريس في الجيل الفلاني من ذرية آدم».

ولهذا لا يجوز أن نحول الأخبار التاريخية إلى يقين قرآني.

لكن الروايات والمصادر الإسلامية تضع إدريس عليه السلام في مرحلة مبكرة جدًا من تاريخ البشرية.

وقد اشتهر في كتب التفسير والتاريخ أنه كان قبل نوح عليه السلام.

وهذا القول له حضور واسع في التراث الإسلامي، كما أن الروايات الإمامية تتعامل مع إدريس بوصفه من الأنبياء الأوائل.

لكن ينبغي أن نفرق بين أمرين:

أن يكون إدريس من الأنبياء الأوائل قبل نوح،

وبين:

أن نعرف بالتحديد أين يقع بين آدم وشيث وسائر الأنبياء، وكم جيلًا يفصل بينه وبين كل واحد منهم.

الأول له حضور في المصادر الإسلامية.

أما الثاني فلا يثبته القرآن.

ولهذا سيكون تعبيرنا في هذا الكتاب دقيقًا:

إدريس عليه السلام من الأنبياء الأوائل، وتضعه المصادر الإسلامية في مرحلة مبكرة من تاريخ البشرية قبل نوح عليه السلام، أما تحديد موقعه الزمني الدقيق بين آدم وشيث وسائر الأنبياء فلا يثبت من القرآن وحده.

وهذه الدقة ليست ضعفًا في القصة.

بل هي جزء من الأمانة.

لأن حكاية الهداية لا تحتاج إلى أن نخترع يقينًا حيث لا يوجد يقين.

هل إدريس هو أخنوخ؟

وهنا نصل إلى واحدة من أشهر المسائل المرتبطة بإدريس عليه السلام.

من هو إدريس؟

تذكر كتب التاريخ والتفسير الإسلامية أن إدريس هو نفسه أخنوخ، المعروف في التراث اليهودي والمسيحي باسم أخنوخ.

وهذا الربط مشهور جدًا في التراث الإسلامي.

لكن هل يثبت ذلك من القرآن؟

الجواب:

لا.

فالقرآن ذكر إدريس باسمه، لكنه لم يذكر اسم أخنوخ.

ولم يعطنا نسبًا تفصيليًا لإدريس يمكن من خلاله أن نقارن بينه وبين الأنساب الواردة في الكتب السابقة.

ولهذا ينبغي أن نقول:

اشتهر في المصادر الإسلامية أن إدريس هو أخنوخ، لكن القرآن نفسه لا يصرح بهذا التطابق.

وهذه نقطة منهجية مهمة جدًا.

فنحن لا نرفض المعلومة لمجرد أنها ليست قرآنية، ولا نقبلها لمجرد أنها مشهورة.

بل نضع كل معلومة في درجتها المناسبة.

فما ثبت بالقرآن شيء.

وما ثبت برواية معتبرة شيء آخر.

وما اشتهر في كتب التاريخ شيء ثالث.

وهكذا نستطيع أن نحافظ على التراث دون أن نحوله كله إلى يقين.

أسرة إدريس وما تسمح به المصادر

السؤال عن أسرة النبي مشروع، لكنه لا يبيح أن نملأ الفراغ بأسماء لا نعرف طريقها. والقرآن لا يسمي أبوي إدريس أو زوجته أو أبناءه، ولا يحدد تاريخ مولده.

وفي النقول التاريخية التي جمعها المجلسي في بحار الأنوار، ج١١، ص٢٨١، ترد سلسلة النسب: شيث، ثم أنوش، ثم قينان، ثم مهلائيل، ثم يارد، ثم أخنوخ أو إدريس. وترد بعده أسماء متوشلخ ولامك ثم نوح.

وعلى هذا النقل التاريخي يكون يارد أباه، ومتوشلخ ابنه، ولامك حفيده. لكن هذه ليست سلسلة قرآنية، ولا يساوي نقلها في البحار رواية صحيحة عن المعصوم. كما تختلف رسوم بعض هذه الأسماء في الكتب.

أما سلسلة الوصاية المروية عند الصدوق فتجعل ناحور بين إدريس ونوح. فلا نحذف ناحور لصالح النسب، ولا نجعل متوشلخ ولامك اسمين بديلين له من غير دليل. لكل سلسلة موضوعها ومصدرها.

ولم يثبت في النصوص الأساسية التي راجعناها لهذا الفصل اسم أم إدريس أو زوجته أو بناته بطريق نعتمده هنا. وهذه حدود للمادة المراجعة، لا نفي لوجود الأسرة ولا ادعاء بإحاطة بجميع كتب التراث.

ولا يكفي خبر بيت إدريس في موضع مسجد السهلة لإثبات أنه وُلد هناك. وكذلك تبقى الأقوال في مولده ببابل أو مصر، ومقادير عمره وتواريخه، ضمن الأخبار التاريخية المختلف فيها.

إن حفظ الأسماء حيث وردت، وترك الاسم حيث لم يثبت، كلاهما من الأمانة التي تقوم عليها حكاية الهداية.

دلالة الصديقية والوعي بالمصير

يجتمع وصف «صديقًا نبيًا» لإدريس وإبراهيم في مريم ١٩:٥٦ و١٩:٤١، لكن النبوة اصطفاء إلهي، وليست درجة يكتسبها كل صادق. ويصف الحديد ٥٧:١٩ المؤمنين بالله ورسله بالصديقية، فتظل دلالة الصدق أوسع من النبوة. كما أن أوصاف الصبر والصلاح والرحمة في الأنبياء ٢١:٨٥-٨٦ أوصاف متكاملة، لا مراحل زمنية نرتبها من عندنا. وفي أخبار ذكر إدريس للموت عبرة عامة تؤيدها آل عمران ٣:١٨٥ والنساء ٤:٧٨؛ أما تفاصيل لقائه بملك الموت فتعرض مرة واحدة في قسم الرفع والوفاة، مع اختلاف طرقها ونقدها. والخوف المسؤول من الله، كما في الرحمن ٥٥:٤٦، يدعو إلى العمل ولا يبرر اليأس.

إدريس عليه السلام في روايات أهل البيت عليهم السلام

بعد أن رسم القرآن لنا الصورة الأساسية لإدريس عليه السلام، يبقى سؤال مهم:

هل تركت لنا روايات أهل البيت عليهم السلام تفاصيل أخرى عن حياته؟

نعم.

توجد في التراث الإمامي روايات تتحدث عن إدريس عليه السلام، وتقدم بعض التفاصيل التي لا يذكرها القرآن بصورة مباشرة.

ومن أبرز ما ورد في هذا الباب روايات تتحدث عن بداية نبوة إدريس، وعن ملك جبار عاش في زمانه، وعن موقف إدريس من الظلم، ثم روايات أخرى تتعلق برفع إدريس وملك الموت.

وهنا تظهر صورة أكثر تفصيلًا لشخصية إدريس.

فإدريس في هذه الروايات ليس عالمًا منعزلًا عن واقع الناس، وإنما نبي يقف أمام الظلم، ويدافع عن الحق، ويذكر الناس بالله، ويواجه السلطة عندما تتحول القوة إلى وسيلة للعدوان.

وهذه الصورة، حتى قبل الدخول في تفاصيل الروايات، تنسجم مع الصورة القرآنية المختصرة:

صديق، نبي، صابر، صالح.

الرواية الطويلة في كمال الدين — غيبة إدريس ومواجهة الملك الجبار

يعرض الشيخ الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة، في باب غيبة إدريس عليه السلام، رواية مطولة تصل بين مواجهة الظلم وغيبة النبي وعودته. ومن دروسها أن النبوة تتصل بإقامة العدل في حياة الناس، وأن قوة الحاكم لا تجعل اعتداءه حقًا؛ وهذا تأمل في مضمون الخبر مع حفظ مرتبته الروائية.

واللافت أن الصدوق لا يضع القصة تحت عنوان سيرة إدريس فقط، بل يعرضها بوصفها مثالًا مبكرًا على الغيبة واستمرار الحجة وانتظار الفرج.

بداية النبوة والظلم الذي فجّر المواجهة

تروي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام أن بدء نبوة إدريس كان في زمن ملك جبار.

خرج الملك يومًا فرأى أرضًا خضراء لرجل مؤمن فأعجبته، وطلب من صاحبها أن يتخلى عنها أو يبيعها، فرفض الرجل لأن عياله أحوج إليها.

عاد الملك غاضبًا، فأشارت عليه امرأته أن يُقام على الرجل شهود بأنه خرج عن دين الملك، فيُقتل ثم تؤخذ أرضه.

فأقاموا الشهادة على مخالفته دين الملك، واتخذوا ذلك ذريعة لقتله والاستيلاء على أرضه. فالظلم في الرواية ليس مجرد نزاع على البيع، بل تسخير السلطة والشهادة لقتل المؤمن.

وهنا تجعل الرواية الظلم الواقع على رجل واحد سببًا لتوجيه إنذار إلهي إلى السلطة كلها.

رسالة إدريس إلى الجبار

بحسب الرواية، أوحى الله إلى إدريس أن يواجه الملك برسالة شديدة:

أنه قتل عبدًا مؤمنًا ظلمًا، واستولى على أرضه، وأحوج عياله، وأن العقوبة ستصيبه في الدنيا والآخرة.

فأدى إدريس الرسالة.

لم يتب الملك، بل هدد إدريس بالقتل. وتذكر رواية كمال الدين أن امرأته أرسلت أربعين رجلًا ليقتلوه.

وهكذا تنتقل الرواية من ظلم صاحب الأرض إلى محاولة إسكات النبي نفسه.

خروج إدريس وعدد من المؤمنين

علم أصحاب إدريس بالخطر، ونصحوه أن يخرج.

وتذكر رواية كمال الدين أنه اجتمع إليه عشرون من أصحابه، ثم خرجوا. وبعد استجابة دعائه بحبس المطر، أمرهم بالرجوع إلى مواضعهم وتنحى هو إلى الكهف.

ثم دعا ربه أن يحبس المطر عن القرية وما حولها حتى يسأله إدريس أن يعيده.

يمكن قراءة الدعاء في سياق مواجهة الظلم، لكن تفاصيل موقف إدريس من عودة المطر لا تكتمل إلا بقراءة بقية الرواية وما قيل في تأويلها، كما سيأتي.

الكهف والطعام الذي يأتيه

تذكر الرواية أن إدريس تنحى إلى كهف في جبل، وكان يصوم نهاره، وأن الله وكّل به مَلَكًا يأتيه بطعامه عند المساء. ولا تسمي الرواية هذا المَلَك.

وتذكر رواية كمال الدين أن الله أهلك الملك وخرب مدينته وأطعم الكلاب لحم امرأته. وهذه الألفاظ من الخبر، وليست تفاصيل يذكرها القرآن.

هذه التفاصيل ليست في القرآن، ولذلك تبقى من متن الرواية ولا تُرفع إلى درجة النص القرآني.

السنوات الطويلة بلا مطر

تمضي الرواية إلى مرحلة طويلة من القحط.

وتنص رواية كمال الدين على عشرين سنة من حبس المطر والجهد والجوع.

وفي هذه المدة تغير الحاكم، وبقي أثر الأزمة قائمًا.

هذه المدة رقم روائي، لا قرآني.

توبة أهل القرية وانقطاع الطعام

وقبل عودة إدريس تفصيل لا يصح إسقاطه من عرض هذه الرواية، لأنه يغير فهم تسلسلها.

تذكر رواية كمال الدين أن الناس، لما طال بهم القحط، رجعوا إلى الله وتابوا، ولبسوا المسوح وحثوا التراب على رؤوسهم وضجوا بالدعاء والبكاء. فليس انتقال القصة من القحط إلى المطر انتقالًا بلا توبة من الجماعة.

ثم يذكر الخبر أن الله أوحى إلى إدريس بإرادة رحمتهم، وطلب منه أن يسأله المطر حتى يغيثهم.

وفي متن الرواية أن إدريس لم يسأل، وأنه كرر الامتناع عند تجديد الطلب. وهنا موضع دقيق لا نخفيه ولا نحوله إلى حكم قطعي على نبي وصفه القرآن بالصديقية والصلاح.

ويمضي الخبر إلى أن المَلَك الذي كان يأتيه بالطعام أُمر بإمساكه عنه. فمضت ثلاثة أيام حتى اشتد جوع إدريس، فسأل ربه عن حبس رزقه.

وتورد الرواية عتابًا يقابل جوعه في الأيام الثلاثة بما أصاب أهل القرية خلال السنين الطويلة، ثم الأمر بالنزول وطلب المعاش. ومن هذا الموضع يأتي مشهد العجوز والغلام.

بهذه الحلقة يتصل سبب النزول لطلب الطعام بما سبقه، ولا يعود ظهور إدريس بين الناس حادثًا بلا مقدمة. وهذه الوقائع من رواية كمال الدين، ج١، الباب الأول، ح١، ص١٣٠–١٣٢، وليست زيادة من الخيال على القصة.

عودة إدريس إلى القرية دون أن يعرفه الناس

تذكر الرواية أن إدريس نزل من موضعه طالبًا الطعام، وأن المرأة التي قصد بيتها لم تعرفه في أول الأمر.

دخل بيت عجوز كانت تعد قرصتين من الخبز، إحداهما لها والأخرى لابنها، وسألها ما يقيم به قوته.

اعتذرت بقلة الطعام، فأشار بأن يكفي الصغير نصف قرصته، وأن يأكل هو النصف الآخر، فقبلت.

فلما رأى ابنها إدريس يأكل من القوت القليل جزع — بحسب الرواية — حتى مات.

فقال إدريس للأم ألا تجزع، وأخذ بعضدي الصبي وخاطب الروح أن تعود إلى بدنه بإذن الله، وعرّف نفسه بأنه إدريس النبي، فعاد الغلام إلى الحياة بحسب الخبر.

عندها عرفت المرأة أنه إدريس، وخرجت تنادي في الناس أن إدريس قد عاد.

هذه حادثة إحياء في متن الرواية، وليست آية قرآنية مذكورة عن إدريس، ولذلك يجب أن تبقى منسوبة إلى الرواية لا إلى القرآن.

عودة الناس وطلب المطر

اجتمع الناس إلى إدريس يطلبون منه أن يدعو الله بالمطر.

رفض أن يفعل حتى يأتي الحاكم وأهل القرية إليه مشاة حفاة متذللين طالبين ذلك.

تذكر الرواية أن الحاكم أرسل أولًا أربعين رجلًا ليأتوا بإدريس، فدعا عليهم فماتوا، ثم أرسل خمسمائة رجل.

وفي النهاية جاء الحاكم وأهل القرية خاضعين، فسأل إدريس الله المطر، فجاءتهم السحب والمطر حتى خافوا من شدته.

هذه التفاصيل جزء من الرواية الطويلة، وتحتاج إلى تقويم سندي ومضموني، ولا يجوز جعل كل جزئية فيها حقيقة تاريخية قطعية.

كيف نقرأ الموضع المشكل من الرواية

لا يجوز أن نستشهد بطول القصة على صحتها، ولا أن نجتزئ ما يلائم السرد ونخفي ما يحتاج إلى تفسير. فقضية امتناع إدريس عن الدعاء، والعتاب، وموت الرسل الأربعين، من المواضع التي تستلزم النظر في السند والدلالة معًا.

وقد حمل المجلسي الطلب المتعلق بالدعاء على الندب، وذكر في تعليقه إمكان فهم التأخير ضمن تأديب القوم وكسر استعلاء الجبابرة، في بحار الأنوار، ج١١، ص٢٧٦.

هذا توجيه من شارح متأخر للجمع بين ظاهر الخبر وأصل عصمة الأنبياء، وليس جزءًا من كلام الإمام في الرواية، ولا حكمًا تلقائيًا بصحة السند.

ولذلك نبقي الوصف القرآني لإدريس هو الأصل، ونعرض الرواية مع موضع الإشكال والتوجيه المنقول. فلا نجزم بنسبة معصية إليه، ولا ندعي أن كل سؤال في متن الخبر قد حسم.

كما لا تُنقل ألفاظ الفِرَق الواردة في بعض نسخ الخبر، مثل «الأزارقة» و«الروافض»، إلى تاريخ إدريس بمعانيها الاصطلاحية المتأخرة؛ فوجود اللفظ في النقل لا يثبت وجود تلك الفرق المعروفة في عصره.

لماذا عنون الصدوق الباب بغيبة إدريس؟

في مقدمة الباب يقول الصدوق إن أول الغيبات كانت غيبة إدريس، وإن البلاء اشتد على شيعته، ثم ظهر ووعدهم بالفرج وبقيام القائم من ولده، وهو نوح عليه السلام، ثم رفع الله إدريس إليه.

وهذا مهم جدًا في حكاية الهداية:

فالرواية لا تصور غياب إدريس بوصفه انقطاعًا للهداية، بل مرحلة اختبار وحفظ وانتظار.

كما أنها تربط قصة إدريس مباشرة بقصة نوح.

ما الذي نستفيده وما الذي لا نجزم به؟

نستفيد أن التراث الإمامي حفظ رواية متكاملة عن:

نبي يواجه سلطانًا ظالمًا.

مؤمن تُسلب أرضه ويُقتل ظلمًا.

محاولة قتل النبي.

خروج إدريس واختفائه.

القحط الطويل.

عودة إدريس.

ظهور آية إحياء في الرواية.

خضوع السلطة في النهاية.

وتمهيد جماعة المؤمنين لانتظار نوح.

لكننا لا نقول إن القرآن ذكر هذه التفاصيل.

ولا نقول إن جميعها قطعي الصحة لمجرد ورودها في كمال الدين.

بل نعرضها بوصفها رواية إمامية مهمة ذات سند ومتن يحتاجان إلى الدراسة.

إدريس ورفع مكانه

بعد هذه الروايات المتعلقة بالدعوة ومواجهة الظلم، نصل إلى أكثر ما ارتبط باسم إدريس في القرآن:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

هذه الجملة القرآنية القصيرة فتحت بابًا واسعًا من التفسير والرواية.

ما معنى أن الله رفع إدريس مكانًا عليًا؟

هل المقصود رفع المنزلة؟

أم رفعه إلى السماء؟

أم أن الآية تحتمل الأمرين؟

عند هذه النقطة ينبغي ألا نتعامل مع أحد التفسيرات وكأنه المعنى القرآني الوحيد الذي لا يحتمل غيره.

فالقرآن أثبت الرفع، وأثبت أنه كان إلى مكان علي.

أما كيفية هذا الرفع وتفاصيله، فقد اختلفت فيها التفاسير والروايات.
يذكر العلامة الطباطبائي في الميزان احتمال أن يكون الرفع رفعًا للمنزلة، كما يذكر احتمال المكان المرتفع. فلا يصح تحويل هذا العرض التفسيري إلى جزم بتفصيل لم تنص عليه الآية.
وفي المقابل، توجد روايات تجعل للرفع معنى حسيًا مرتبطًا بالسماء.
والجمع بين هذه المعاني ممكن من حيث الأصل، ما لم نجعل أحدها حقيقة قطعية لا دليل عليها.

إدريس وملك الموت

ومن هنا نصل إلى الرواية التي تعد من أشهر الروايات الإمامية في قصة إدريس.
ورد في الكافي، عن أبي جعفر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، خبر طويل يتحدث عن ملك من الملائكة كانت له عند الله منزلة عظيمة، ثم عُوقب بأن أُهبط إلى الأرض.
فجاء ذلك الملك إلى إدريس عليه السلام، وطلب منه أن يشفع له عند الله.
فاستجاب إدريس.
وتذكر الرواية أنه صلى لله ثلاث ليال، وصام أيامها، ثم دعا الله في السحر لذلك الملك.
فاستجاب الله دعاءه.
ثم قال الملك لإدريس إنه يريد أن يكافئه على إحسانه، وطلب منه أن يسأله حاجة.
فقال إدريس:
إنه يريد أن يرى ملك الموت.
ولماذا؟
تذكر الرواية معنى بالغ الدلالة:
أنه كان كثير الذكر للموت، وأن ذكره لم يكن يفارقه.
فطلب أن يرى ملك الموت.
ثم حمله الملك على جناحه، وصعد به.
وهنا تبدأ المرحلة الأكثر شهرة في الرواية.

تمييز الملائكة وطرق الخبر

في طريق الكافي ينقل الإمام الباقر عليه السلام الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيه سؤال النبي لجبرئيل عن معنى الرفع. فجبرئيل هنا ناقل الجواب في سياق الخبر، ولا يسمي النص به المَلَك الذي حمل إدريس.

كما لا يوجد في هذا الطريق ما يثبت أن المَلَك الحامل هو نفسه المَلَك الذي يأتي بالطعام في قصة الغيبة. تشابه الوظيفة السماوية لا يبيح دمج الشخصيتين.

وطريق تفسير القمي يرويه ابن أبي عمير «عمن حدثه» عن الإمام الصادق عليه السلام، وفي هذا الموضع واسطة غير مسماة. أما خبر الكافي فله طريق آخر، يُراجع في ج٣، ص٢٥٧، ح٢٦.

وقد انتقد الميزان هذين الخبرين لضعف في النقل ولما يفهم من ذنب المَلَك، بالنظر إلى الوصف القرآني لطاعة الملائكة. فنذكر هذا الاعتراض في موضعه، ولا نعرض قص الجناح أو العقوبة كحقيقة قرآنية محسومة.

وكل ما سيأتي من قراءة تربوية لذكر الموت هو تأمل في المعنى، لا تصحيح مستقل لتفاصيل القصة.

لماذا أراد إدريس أن يرى ملك الموت؟

هذه الجزئية تستحق التوقف.

ففي كثير من القصص البشرية، يحاول الإنسان الهروب من فكرة الموت.

أما إدريس، كما تصوره هذه الرواية، فكان يريد أن يرى ملك الموت.

وهذا لا يعني أنه كان يتمنى الموت لذاته، ولا يعني أن الإنسان مأمور بأن يطلب الموت.

بل المعنى الذي يمكن استخلاصه تربويًا هو أن الوعي بالموت كان جزءًا من وعيه بالله.

الإنسان الذي ينسى النهاية قد يظن أن الدنيا هي الحقيقة النهائية.

أما الذي يتذكر الموت، فإنه يعيد ترتيب أولوياته.

المال يصبح وسيلة.

والسلطة تصبح مسؤولية.

والعلم يصبح أمانة.

والعمر يصبح فرصة.

والعمل يصبح شيئًا سيقف الإنسان أمام الله عنه.

وهذا المعنى تؤكده آيات القرآن بوضوح:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. (آل عمران ٣:١٨٥).

فالموت ليس حادثًا استثنائيًا.

إنه قانون يشمل كل نفس.

بين السماء الرابعة والخامسة

نتابع الرواية فتذكر أن إدريس صعد مع الملك حتى لقي ملك الموت.

وكان ملك الموت متعجبًا.

فقد كان تحت ظل العرش، وقد أُمر أن يقبض روح إنسان في موضع بين السماء الرابعة والخامسة.

وفي خبر الكافي يسأل المَلَك الذي حمل إدريس ملك الموت عن سبب قطوبه وتحريك رأسه.

فيجيبه بأنه أُمر بقبض روح آدمي في ذلك الموضع، ويفهم من سياق الخبر أن المقصود إدريس.

وهنا سمع إدريس الكلام.

فلما سمع إدريس ذلك تقلص من جناح المَلَك، بحسب لفظ الخبر.

ثم قُبضت روحه في ذلك الموضع بين السماء الرابعة والخامسة، كما تروي هذه الطريق.

وتربط الرواية هذا الحدث بقوله تعالى:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وهذه الرواية مذكورة في الكافي، ونقل مضمونها أيضًا في مصادر تفسيرية إمامية، وناقش العلامة الطباطبائي مادة قصة إدريس والروايات المرتبطة بالرفع في الميزان.

لكن علينا هنا أن نكرر القاعدة:

الرواية تشرح الآية من وجهة نظرها، لكنها ليست الآية نفسها.

ماذا ثبت إذن؟

إذا أردنا أن نكون دقيقين جدًا، فيمكننا الآن أن نقسم الصورة إلى طبقات.

الطبقة الأولى: ما ثبت بالقرآن.

إدريس عليه السلام نبي.

وهو صديق.

وهو من الصابرين.

وهو من الصالحين.

وقد أدخله الله في رحمته.

وقد رفعه مكانًا عليًا.

هذه هي الأرض الصلبة التي نقف عليها.

الطبقة الثانية: ما ورد في الروايات.

ومنها قصة الملك الجبار.

ومنها دفاع إدريس عن المؤمن المظلوم.

ومنها قصة الملك من الملائكة.

ومنها طلب إدريس رؤية ملك الموت.

ومنها صعوده مع الملك.

ومنها قبض روحه في الموضع المذكور في الرواية.

هذه مادة روائية، لها قيمتها في التراث الإمامي، لكنها تحتاج إلى دراسة سندية وحديثية.

الطبقة الثالثة: الأخبار التاريخية والتفسيرية الأوسع.

ومن هذه المادة أخبار أخنوخ والصحف والكتابة بالقلم والخياطة. وبعضها موجود في مصادر إمامية مسندة، وبعضه في الأخبار التاريخية والقصصية؛ أما دعوى الأولوية في كل صنعة فتحتاج إلى فحص دليلها الخاص.

ولذلك لا نسوي بين هذه الأخبار في المصدر أو القوة، ولا نضع شيئًا منها في مرتبة النص القرآني القطعي لمجرد شهرته.

وهذا التمييز ليس تقليلًا من التراث.

بل هو احترام للتراث.

لأن احترام الرواية لا يعني إلغاء النقد العلمي.

إدريس: نبي في مواجهة الجبار

وهنا نستطيع أن نعود خطوة إلى الوراء لنرى الصورة كاملة.

إدريس الذي وصفه القرآن بأنه:

﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾

والذي جعله من:

﴿الصَّابِرِينَ﴾

والذي أدخله الله في:

﴿رَحْمَتِنَا﴾

هو نفسه الذي تقدم الروايات صورته وهو يواجه الظلم.

وهذا مهم جدًا.

فالصديقية ليست كلمة أخلاقية مجردة.

والنبوة ليست لقبًا.

والصبر ليس حالة سلبية.

بل هذه الصفات الثلاث يمكن أن تجتمع لتصنع إنسانًا يقف في وجه الباطل.

صدق مع الله.

فثبت على الحق.

ثم حمل الحق إلى الناس.

ولهذا يمكن أن نفهم حكاية إدريس باعتبارها حكاية إنسان لم تكن الهداية عنده فكرة نظرية.

كانت موقفًا.

وكانت عبادة.

وكانت علمًا.

وكانت صبرًا.

وكانت مسؤولية.

وكانت مواجهة للظلم.

مصادر هذا المبحث

اعتمد هذا المبحث، في جانبه القرآني والروائي، خصوصًا على:

المراجع القرآنية والروائية لهذا المبحث

القرآن الكريم، سورة مريم، الآيتان ٥٦-٥٧.

القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآيتان ٨٥-٨٦.

الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الجنائز، باب النوادر، ح٢٦، ص٢٥٧، في خبر إدريس والمَلَك وملك الموت.

الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي، تفسير سورة مريم، قصة إدريس والروايات المتعلقة به.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب الأول في غيبة إدريس، ح١، ص١٢٧-١٣٣، مع تمييز مقدمة المؤلف من الرواية المنقولة عن الإمام الباقر عليه السلام.

إدريس والعلم: حين يصبح العلم عبادة

لكن حتى إذا وضعنا جانبًا مسألة «أول من كتب بالقلم»، فإن ارتباط إدريس بالعلم والكتابة في التراث الإسلامي يفتح بابًا مهمًا جدًا.

وهو:

ما علاقة العلم بالهداية؟

منذ قصة آدم عليه السلام، يظهر العلم في قلب حكاية الإنسان.

قال تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. (البقرة ٢:٣١).

لم يبدأ القرآن قصة الإنسان بالجهل المطلق.

بل بدأها بالتعليم.

وهذا معنى بالغ الأهمية.

فالإنسان في التصور القرآني مخلوق قابل للعلم.

والعلم يمكن أن يكون طريقًا إلى معرفة الله.

لكن العلم وحده لا يكفي.

فقد يعرف الإنسان كثيرًا، ثم يستخدم معرفته في الظلم.

وقد يقرأ آلاف الصفحات، ولا يتغير قلبه.

وقد يحفظ النصوص، لكنه لا يعمل بها.

ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. (فاطر ٣٥:٢٨).

فالعلامة الكبرى للعلم الحقيقي ليست كثرة المعلومات.

بل أثر العلم في القلب والسلوك.

إذا زاد علم الإنسان بالله، ثم زادت معه خشية الله، فقد انتقل العلم من المعلومة إلى الحكمة.

أما إذا زادت المعلومات وزاد معها الكبر، فقد يصبح العلم نفسه حجابًا.

وعند الجمع بين الأوصاف القرآنية والمادة الروائية، مع تمييز مصدر كل وصف، يمكن تناول شخصية إدريس من خلال:

العلم، والصدق، والنبوة، والصبر، والصلاح.

إدريس وعبادة الله

ومن المهم هنا ألا نسمح للتفاصيل المتعلقة بالكتابة والعلم أن تجعلنا ننسى الأصل.

القرآن لا يسمي إدريس هنا عالمًا أو كاتبًا، بل يصفه بالصديقية والنبوة والصبر والصلاح.

وليس «الكاتب» فقط.

وليس «المخترع» فقط، كما قد توحي بعض القصص المتأخرة.

إنه أولًا:

﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

وهذا هو المركز.

فإذا كان العلم طريقًا إلى الله، فإن نهايته ينبغي أن تكون العبادة.

وإذا كانت الكتابة وسيلة لحفظ المعرفة، فإن المعرفة ينبغي أن تقود إلى الحق.

وإذا كان الإنسان يتعلم أسرار العالم، فعليه ألا ينسى رب العالمين.

ولهذا فإن إدريس يمثل في حكاية الهداية نموذجًا مهمًا:

ليس المطلوب أن تختار بين العقل والإيمان.

ولا بين العلم والعبادة.

ولا بين معرفة العالم ومعرفة الله.

المشكلة ليست في العلم.

المشكلة في العلم عندما ينفصل عن الغاية.

إدريس وأخنوخ والصحف والكتابة — تحقيق الروايات المختلفة

من المسائل التي تحتاج إلى ضبط دقيق في قصة إدريس: اسمه الآخر، وعدد الصحف المنسوبة إليه، والقول بأنه أول من خط بالقلم.

إدريس هو أخنوخ في روايات إمامية

حديث أبي ذر المروي في الخصال ومعاني الأخبار يذكر أربعة من الأنبياء السريانيين، ويقول في أحدهم: «أخنوخ وهو إدريس».

كما أن رواية اتصال الوصاية عند الصدوق تجعل أخنوخ هو إدريس النبي.

إذن الربط بين إدريس وأخنوخ ليس مجرد نقل من كتب النسب أو الكتاب المقدس؛ له حضور أيضًا في روايات إمامية.

ومع ذلك، القرآن لا يسمي إدريس أخنوخ، فلا ننسب هذا الاسم إلى القرآن.

كم صحيفة أنزلت على إدريس؟

هنا توجد روايات مختلفة، ولا يجوز إخفاء الاختلاف.

الرواية الأولى: ثلاثون صحيفة

في حديث أبي ذر المروي في الخصال للشيخ الصدوق، وفي معاني الأخبار، يرد أن الله أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة.

وهذه هي الرواية التي اعتمد عليها عدد من المتأخرين عند ذكر «ثلاثين صحيفة لإدريس».

الرواية الثانية: خمسون صحيفة

وفي الاختصاص، المنسوب إلى الشيخ المفيد، خبر عن أبي عبد الله عليه السلام، في حديث أبي ذر، ينسب إلى إدريس خمسين صحيفة، ويسميه أخنوخ وأول من خط بالقلم. وفي طريقه راوٍ مبهم بلفظ «عن رجل». وفي الصفحة نفسها نقل عن ابن عباس يذكر ثلاثين صحيفة؛ فلا يخلو هذا الموضع نفسه من اختلاف.

إذن داخل التراث الإمامي نفسه يوجد اختلاف في العدد.

ولا يصح أن نقول: «ثبت أن إدريس أنزل عليه ثلاثون صحيفة» من غير ذكر الرواية الأخرى.

ما الموقف الذي يعتمده هذا الكتاب؟

نقول:

وردت روايات إمامية تنسب صحفًا إلى إدريس.

إحدى روايات الصدوق تذكر ثلاثين صحيفة.

ورواية في الاختصاص تذكر خمسين صحيفة.

القرآن لا يذكر صحف إدريس ولا عددها.

ولا نملك نصًا موثوقًا لتلك الصحف يمكن أن ننسب محتواه إلى إدريس.

لذلك لا نبني «كتاب إدريس» من نصوص متأخرة أو هرمسية أو منحولة ثم ننسبه إليه.

هل كان إدريس أول من خط بالقلم؟

حديث أبي ذر في الخصال يعرّف أخنوخ بأنه إدريس ويصفه بأنه «أول من خط بالقلم».

ورواية الاختصاص تكرر هذا المعنى.

ولهذا فلدعوى الكتابة بالقلم أصل في روايات منقولة داخل التراث الإمامي، وليست مجرد خبر تاريخي متأخر.

لكن سند حديث أبي ذر نفسه يحتاج إلى دراسة، فلا نرفع العبارة إلى مستوى القطع القرآني.

هل كان أول من خاط الثياب؟

هنا يجب أن نفرق بين أمرين.

الرواية الواردة في الكافي عن مسجد السهلة تقول إن فيه «بيت إدريس النبي» وتربطه بالمكان الذي كان يخيط فيه.

هذا يثبت — على مستوى الرواية — ممارسة إدريس للخياطة.

أما العبارة الأشهر: «إدريس أول من خاط الثياب ولبس المخيط» فهي مشهورة في كتب السير والآثار، وينقلها المجلسي أيضًا عن مصادر تاريخية، وليست بنفس قوة الرواية التي تقول إنه كان يخيط.

إذن نقول: ورد في الرواية أنه كان يخيط، وأما كونه أول خياط في البشرية فهو خبر مشهور يحتاج إلى دليل مستقل.

والنجوم والحساب؟

ينقل بحار الأنوار عن مصادر تاريخية أن إدريس كان أول من نظر في علم النجوم والحساب، لكن المجلسي نفسه يميز مادة كهذه عن الأخبار المسندة عن المعصومين.

كما أن الروايات الإمامية تحذر من التنجيم المذموم والاعتقاد باستقلال النجوم بالتأثير.

لذلك لا نحول إدريس إلى صورة «مؤسس علم التنجيم» من غير دليل صحيح.

إن ثبت له علم بالحساب أو أحوال السماء في خبر، فيُفهم ضمن العلم المشروع لا ضمن الكهانة.

لماذا سمي إدريس؟

في تفسير القمي ونقول تفسيرية إمامية يرد أنه سمي إدريس لكثرة دراسته الكتب.

هذا تفسير روائي للاسم.

أما من جهة اللغة والتاريخ، فالاسم قد يكون أعجميًا، ولذلك لا نجعل الاشتقاق العربي من «الدرس» حقيقة لغوية قطعية.

مصادر هذا القسم

الشيخ الصدوق، الخصال، حديث أبي ذر في عدد الأنبياء والكتب، ج٢، ص٥٢٣-٥٢٤ في بعض الطبعات.

الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٣٢-٣٣٤، ح١؛ ذكر أخنوخ والقلم في ص٣٣٣، وعدد الصحف في ص٣٣٤ في الطبعة المراجعة.

الاختصاص، ص٢٦٤ في طبعة دار المفيد: رواية الخمسين صحيفة و«أخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم».

الكليني، الكافي، ج٣، ص٤٩٥، في أخبار مسجد السهلة وبيت إدريس.

المجلسي، بحار الأنوار، أبواب عدد الأنبياء والكتب وقصص إدريس، مع التنبيه إلى اختلاف المصادر التي يجمعها.

الطباطبائي، الميزان، قصة إدريس في تفسير سورة مريم.

لماذا لم يذكر القرآن تفاصيل أكثر عن إدريس؟

قد يسأل القارئ:

إذا كان إدريس نبيًا عظيمًا، فلماذا لا يذكر القرآن قصته بالتفصيل؟

وهذا السؤال نفسه يكشف لنا شيئًا مهمًا عن طريقة القرآن.

فالقرآن ليس كتابًا لتسجيل كل تفاصيل التاريخ البشري.

إنه كتاب هداية.

ولهذا فإن السؤال الصحيح ليس:

«كم صفحة خصصها القرآن لإدريس؟»

بل:

«ما الشيء الذي أراد القرآن أن يبقى معنا من إدريس؟»

والجواب واضح.

أراد أن يبقى معنا:

الصدق.

النبوة.

الصبر.

الصلاح.

الرحمة.

ورفعة المكانة.

ولهذا قد تكون آيتان أقوى في بناء الإنسان من مئات الصفحات من التفاصيل التاريخية.

فالقرآن لا يقيس عظمة النبي بعدد الكلمات التي تحدث بها عنه.

بل بمقدار الهداية التي يتركها ذكره في قلب الإنسان.

إدريس وحفظ العهد

وهنا نعود إلى الخيط الذي يربط فصول حكاية الهداية بعضها ببعض:

العهد.

منذ آدم، لم تكن المشكلة أن الإنسان لا يعرف أن الله موجود.

المشكلة كانت دائمًا في:

هل سيحفظ الإنسان العهد؟
هل سيبقى وفيًا للحق عندما تتغير الظروف؟
هل سيحافظ على التوحيد عندما تظهر المصالح؟
هل سيقدم أمر الله على رغباته؟
ومن هذه الزاوية يمكن أن نفهم إدريس.
فالصديقية تعني أن يكون الإنسان صادقًا في عهده.
والصبر يعني أن يحافظ على هذا العهد عندما يصبح مكلفًا.
والنبوة تعني أن يحمل هذا العهد إلى الآخرين.
والصلاح يعني أن يظهر أثر العهد في حياته.
والرحمة هي ثمرة من ثمار هذا الطريق.
وبذلك لا تصبح قصة إدريس قصة منفصلة عن قصة آدم.
بل تصبح حلقة أخرى في السلسلة نفسها:
العهد ← الهداية ← الاختبار ← الصبر ← الثبات.

إدريس في ميزان القرآن

إذا أردنا أن نضع كل ما وصلنا إليه في ميزان واحد، فإن القرآن يبقى هو المركز.
قد نقرأ الرواية التي تتحدث عن إدريس وملك الموت.
وقد نقرأ الرواية التي تتحدث عن مواجهته للملك الظالم.
وقد نقرأ ما ورد عن الكتابة والصحف.
وقد نقرأ ما قيل عن أخنوخ.
لكن عندما نريد أن نعرف من هو إدريس في النص الذي لا شك فيه، نعود إلى القرآن.
فنجد:
﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.
﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.
﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾.
﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.
﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾.

وهذه الكلمات القليلة تكفي لبناء شخصية كاملة.
إنها تخبرنا أن إدريس لم يكن مجرد اسم قديم في تاريخ البشر.
كان نبيًا.
وكان صديقًا.
وكان صابرًا.
وكان صالحًا.
وكان من أهل رحمة الله.
وكان له عند الله مقام رفيع.
وهذا هو إدريس الذي يريد القرآن أن يبقى في ذاكرتنا.

إدريس والعلم: عندما تصبح المعرفة طريقًا إلى الله

وإذا كانت الروايات قد ربطت إدريس بالكتابة والعلم، فإن هذا يفتح أمامنا معنى مهمًا في حكاية الهداية.
منذ بداية القصة، لم يكن الوحي عدوًا للعلم.
ولم تكن الهداية دعوة إلى إغلاق العقل.
فالقرآن نفسه يرفع من شأن العلم، لكنه في الوقت نفسه يحذر من العلم الذي لا يقود إلى الحق.
قال تعالى:
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (الزمر ٣٩:٩).
وقال سبحانه:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. (فاطر ٣٥:٢٨).
وهنا يظهر معيار مهم جدًا.
ليست المشكلة أن يعرف الإنسان.
المشكلة أن يعرف ولا يهتدي.
قد يمتلك الإنسان معلومات كثيرة، لكنه لا يمتلك الحكمة.
وقد يقرأ عشرات الكتب، لكنه لا يغير شيئًا من أخلاقه.
وقد يعرف الكثير عن الدين، لكنه لا يعرف كيف يخضع لله.
ولهذا فإن العلم في المنظور القرآني لا ينبغي أن ينتهي عند المعلومات.
بل ينبغي أن يتحول إلى خشية.

والخشية تتحول إلى عمل.

والعمل يتحول إلى صلاح.

ومن هنا نفهم العلاقة الجميلة بين العلم والهداية.

العلم الذي يقود الإنسان إلى الغرور قد يصبح حجابًا.

أما العلم الذي يقوده إلى معرفة الله والخشية منه، فإنه يصبح نورًا.

وهذا المعنى مهم جدًا في قصة إدريس، لأن الشخصية التي يقدمها القرآن ليست شخصية تجمع المعلومات فقط.

إنها شخصية تجمع:

العلم بالصدق.

والصدق بالنبوة.

والنبوة بالصبر.

والصبر بالصلاح.

والصلاح برحمة الله.

وهكذا لا يصبح العلم منفصلًا عن الهداية.

بل يصبح جزءًا منها.

إدريس وإقامة الحجة

وهنا نصل إلى معنى أعمق في حكاية إدريس عليه السلام.

لم يذكر القرآن لنا تفاصيل كثيرة عن قومه، ولا وصف لنا مجتمعًا كاملًا كما فعل في قصص بعض الأنبياء الآخرين.

لكن مجرد وجود نبي في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإنسان يحمل دلالة مهمة:

أن حاجة الإنسان إلى الهداية لم تبدأ بعد ظهور الحضارات الكبرى.

ولم تبدأ بعد تكوّن الدول والإمبراطوريات.

بل كانت الهداية حاضرة منذ المراحل الأولى من حياة البشر.

فالإنسان، منذ بدأ يعيش مع غيره، احتاج إلى من يذكره بالله.

احتاج إلى من يبين له الحق من الباطل.

احتاج إلى من يعلمه حدود العدل والظلم.

احتاج إلى من يذكره بأن القوة لا تجعل الباطل حقًا.

وأن كثرة الناس لا تجعل الخطأ صوابًا.

وأن الشهوة لا ينبغي أن تكون قائدًا للإنسان.

ولهذا فإن وجود النبي ليس مجرد حدث تاريخي.

إنه جزء من إقامة الحجة على الناس.

قال تعالى:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. (النساء ٤:١٦٥).

فالرسول يأتي ليزيل العذر.

يبيّن.

وينذر.

ويبشر.

ويضع الإنسان أمام الحقيقة بوضوح.

ومن هنا نفهم إدريس ضمن سلسلة الهداية.

فنحن لا نقرأه كشخصية منفصلة عن المشروع الإلهي، بل كنبي من أنبياء الله الذين أدوا دورهم في زمانهم، وحملوا مسؤولية البيان والهداية.

ماذا نعرف عن قوم إدريس؟

وهنا ينبغي أن نتوقف قليلًا عند نقطة مهمة.

قد يميل القارئ إلى السؤال:

إذا كان إدريس نبيًا، فمن هم قومه؟

وماذا كانوا يعبدون؟

وكيف كانت حياتهم؟

وكيف كانت دعوتهم؟

والجواب الصادق هو:

إن القرآن لا يعطينا تفاصيل كافية عن ذلك.

وهذه ليست ثغرة في القصة.

بل هي جزء من طبيعة القصص القرآني.

فالقرآن لا يروي كل شيء.

إنه يختار من الأحداث ما يخدم الهداية.

ولهذا لا ينبغي أن نحاول ملء الفراغات بتفاصيل غير ثابتة.

توجد في بعض كتب التاريخ والتفسير أخبار عن إدريس وعن قومه وعن عصره، لكن هذه الأخبار ليست كلها في درجة واحدة من الثبوت.

ومن هنا يجب أن نفرق بين:

ما يقوله القرآن.

وما ترويه الروايات.

وما تذكره كتب التاريخ والقصص.

فالقرآن لم يخبرنا أن قوم إدريس كانوا يعبدون الأصنام.

ولم يذكر لنا حوارًا تفصيليًا بينهم وبينه.

ولم ينقل لنا معجزة محددة أجراها الله على يديه.

ولم يذكر لنا عدد أتباعه.

ولم يذكر لنا مكان إقامته على وجه القطع.

ولهذا لن نضع هذه التفاصيل في القصة إلا إذا وجدنا لها دليلًا معتبرًا، وسنترك ما لا دليل عليه في دائرة الاحتمال أو الشهرة التاريخية.

وهذا جزء من الأمانة العلمية التي نريد أن تظل واضحة في حكاية الهداية.

فأحيانًا يكون احترام النص هو أن نقول:

لا نعلم.

إدريس واستمرار الهداية

وهنا تتضح لنا صورة أكبر.

فإدريس لم يظهر في فراغ.

ولم تكن رسالته بداية علاقة الله بالإنسان.

فالقرآن أخبرنا عن آدم عليه السلام، وعن تعليمه، وعن بداية الاختبار البشري.

ثم جاءت أجيال من ذريته.

وتحمل الروايات الإمامية أخبارًا عن شيث عليه السلام بوصفه من أوصياء آدم وحملة العهد بعده.

ثم نجد إدريس عليه السلام في مرحلة أخرى من تاريخ البشر.

وهكذا تبدأ حكاية الهداية في الظهور كسلسلة ممتدة عبر الأجيال.

ليس المقصود أن كل حلقة من هذه السلسلة يمكننا تحديدها تاريخيًا بدقة.

بل المقصود أن أصل الهداية الإلهية لم يكن حادثًا عابرًا.

كل جيل كان يعيش في عالم يتغير.

ومع تغير أحوال البشر، تتجدد الحاجة إلى البيان.

قد تتغير الظروف.

قد تتغير طرق المعيشة.

قد يزداد عدد الناس.

قد تظهر صور جديدة من الانحراف.

لكن حاجة الإنسان إلى معرفة الله لا تتغير.

وحاجة الإنسان إلى الحق لا تتغير.

وحاجته إلى من يذكره بعاقبة الظلم والانحراف لا تتغير.

وهنا يظهر أحد المعاني الكبرى في المشروع الذي يقوم عليه هذا الكتاب:

حكاية الهداية ليست حكاية أشخاص متفرقين، بل حكاية نور ينتقل عبر الزمن.

قد تختلف الأزمنة.

وقد تختلف المجتمعات.

وقد تختلف صور الابتلاء.

لكن أصل الدعوة واحد:

أن يعرف الإنسان ربه، ويعبده، ويستقيم على الحق، ويحفظ العهد.

هل مات إدريس أم بقي حيًا؟ — الرفع والسماء الرابعة والروايات المختلفة

من أكثر الأسئلة شهرة في قصة إدريس: هل رفعه الله حيًا وبقي حيًا، أم رفع ثم قُبضت روحه؟

القرآن لا يحسم هذا التفصيل.

هو يقول فقط:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

رواية الملك وملك الموت

في تفسير القمي ورد خبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن ملكًا من الملائكة جاء إلى إدريس بعد أن دعا له إدريس، ثم حمله إلى السماء الرابعة.

وهناك لقي ملك الموت، الذي أخبره أنه مأمور بقبض روح إدريس بين السماء الرابعة والخامسة، فقُبضت روحه هناك بحسب الرواية.

ويروي الكافي معنى قريبًا في طريق آخر.

ينقد العلامة الطباطبائي في الميزان هذين الخبرين المعينين من جهة السند، ومن جهة ما يفهم منهما من ذنب المَلَك، لمخالفته عنده ظاهر القرآن في عصمة الملائكة. وهذا النقد لا يعني حكمًا واحدًا على جميع أخبار إدريس، لكنه يمنع عرض هذين الخبرين بوصفهما تفسيرًا قطعيًا للآية.

إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج

في رواية المعراج المنقولة في تفسير القمي ونقلتها مصادر إمامية لاحقة، يصعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء الرابعة فيرى إدريس، فيسلم كل منهما على الآخر ويستغفر له.

هذه الرواية تؤكد داخل هذا المسار الروائي ارتباط إدريس بالسماء الرابعة.

لكنها لا تجعل الآية نفسها نصًا صريحًا في كل تفاصيل قصة ملك الموت.

رواية الاحتجاج وذكر ما بعد الوفاة

في الاحتجاج للطبرسي، في احتجاج منسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام مع يهودي، يرد ذكر أن إدريس رفعه الله مكانًا عليًا وأنه أُطعم من تحف الجنة بعد وفاته.

وهذا نص روائي آخر يميل بوضوح إلى حصول الوفاة.

وجود مثل هذا الخبر مهم لأنه يمنعنا من القول إن التراث الإمامي متفق على أن إدريس بقي حيًا إلى الآن.

إذن ما الذي نقوله؟

نقول بثقة:

القرآن يثبت رفع إدريس إلى مكان علي.

وتوجد روايات إمامية تربط هذا الرفع بالسماء الرابعة أو بما بين الرابعة والخامسة.

وتوجد روايات تتحدث عن قبض روحه.

وتوجد رواية في المعراج يظهر فيها إدريس في السماء الرابعة.

ولا يثبت من القرآن وحده أنه ما زال حيًا.

كما لا يصح أن نخلط الأخبار الإسرائيلية التي تقول إنه دخل الجنة حيًا ولم يخرج منها مع الروايات الإمامية وكأنها نص واحد.

أخبار المقارنة في الرفع والحياة

يجمع قصص الأنبياء للقطب الراوندي أخبارًا متعددة في باب إدريس، ولا تتساوى نسبتها. فمنها ما يروى عن الأئمة، ومنها ما ينتهي إلى ابن عباس أو وهب بن منبه؛ ووجود الجميع في كتاب إمامي لا يجعل الجميع كلامًا صادرًا عن أهل البيت.

في الخبر المنقول عن ابن عباس يظهر ملك الموت في صورة صاحب يرافق إدريس. وترد مواقف امتناع إدريس عن أخذ طعام لا يملكه، ثم طلب معاينة الموت والنار والجنة. ويظهر في هذا المسار خازن للنار وخازن للجنة من غير أن يثبت من هذا الموضع اسمان لهما.

وتتصل بهذه الأخبار حكاية دخوله الجنة وبقائه فيها. نذكر وجود هذا المسار لفهم سبب اختلاف ما اشتهر بين الناس، ولا نخلطه بخبر الكافي أو نجعله تفسيرًا قطعيًا لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وفي نقل عن وهب ترد أعداد لأتباع إدريس: سبعة وسبعون ثم سبعمائة ثم ألف، واختيار سبعة منهم. هذه أعداد في نقل مختلف، فلا تحل محل العشرين المذكورين في قصة الغيبة ولا تُجمع معها في إحصاء واحد.

وكذلك ما يرد في هذا المسار من هيئة جسمه وعمره وتفاصيل اتصال الملائكة به يحتاج إلى دليل مستقل. ولا نملأ به ما سكت عنه القرآن.

وتحفظ كتب متأخرة نصوصًا منسوبة إلى صحف إدريس، ومنها نقول ابن طاووس في سعد السعود. فوجود نص منسوب شيء، وثبوت أنه بقية وحي أنزل على إدريس شيء آخر؛ ولا يكفي العنوان لإثبات النسبة.

إحالة المقارنة: الراوندي، قصص الأنبياء، باب نبوة إدريس؛ ابن طاووس، سعد السعود، النقول المنسوبة إلى صحف إدريس؛ والميزان، البحث الروائي عند مريم ١٩:٥٦–٥٧. ويظل التفريق بين مصدر الخبر ودرجة ثبوته ملازمًا لكل هذه المواد.

مصادر هذا القسم

تفسير القمي، تفسير مريم ١٩:٥٧، خبر إدريس والملك وملك الموت.

الكليني، الكافي، الخبر الموازي في قصة الرفع.

الطباطبائي، الميزان، ج١٤ تقريبًا، قصة إدريس عند مريم ٥٦–٥٧، مع نقد أسانيد الروايات.

نور الثقلين، تفسير مريم ٥٧، لجمع طرق الروايات.

الطبرسي، الاحتجاج، ص٣١٥ في بعض الطبعات، في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام.

تفسير القمي وروايات المعراج في ذكر إدريس في السماء الرابعة.

مسجد السهلة وإدريس عليه السلام

ومن التفاصيل التي وردت في روايات أهل البيت عليهم السلام، ما يتعلق بمسجد السهلة.

ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، ورد في سياق الحديث عن مسجد السهلة:

أنه كان موضع بيت إدريس النبي عليه السلام الذي كان يخيط فيه.

وهذه الرواية مهمة لأنها تربط إدريس بموضع معروف في التراث الروائي الإمامي، كما تربطه بمهنة الخياطة التي اشتهرت نسبتها إليه في كتب القصص والتفسير.

لكن ينبغي مرة أخرى أن نكون دقيقين.

هذه ليست آية قرآنية.

ولا ينبغي أن نقول:

«القرآن يثبت أن بيت إدريس كان في مسجد السهلة».

بل نقول:

ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أن مسجد السهلة كان موضع بيت إدريس النبي الذي كان يخيط فيه.

وهذا فرق مهم.

فالرواية تقدم لنا معلومة من التراث الإمامي، لكنها لا تتحول بمجرد وجودها في كتاب روائي إلى حقيقة تاريخية قطعية لا تقبل البحث.

وفي «حكاية الهداية» نحن لا نريد أن نكثر المعلومات لمجرد كثرتها.

نريد أن نعرف:

ما الذي قاله القرآن؟

ما الذي ورد عن أهل البيت؟

ما الذي اشتهر في كتب التاريخ؟

وما الذي يمكن أن نقوله بدرجة عالية من الثقة؟

وهذا التفريق سيبقى معنا كلما تقدمنا في قصة الهداية.

الشخصيات الواردة في أخبار مسجد السهلة

لا يقتصر خبر السهلة على إدريس، ولذلك نقرأ أسماءه في سياقها الزمني، حتى لا نجعل أهل العصور المتباعدة معاصرين له.

في الكافي، ج٣، ص٤٩٥، ح١، يروي عبد الله بن أبان عن الإمام الصادق عليه السلام سؤاله عن عمه زيد بن علي. ويجيب رجل غير مسمى بأن زيدًا أراد الصلاة في المسجد وهو في منزل معاوية بن إسحاق، ثم شغله أمر فلم يتم له ما أراد.

ويمضي الخبر فيذكر بيت إدريس وخياطته، وبيت إبراهيم الذي يخرج منه إلى اليمن للعمالقة، وموضع خروج داود إلى جالوت، ثم صخرة خضراء فيها مثال صور الأنبياء وطينة الأنبياء وموضع الراكب الذي يفسره الخبر بالخضر.

فزيد ومعاوية بن إسحاق والرجل المجيب ينتمون إلى سياق السؤال اللاحق، وإبراهيم وداود وجالوت والخضر إلى فضائل الموضع المروية. وليس في ذلك إثبات اجتماعهم بإدريس في مجلس واحد أو زمن واحد.

وفي الحديث الثاني من الباب نفسه ذكر نزول القائم فيه بأهله. ولفظ الأهل هنا متعلق بالقائم، ولا يجوز نقله إلى أسرة إدريس أو استخراج أسماء لزوجته وأولاده منه.

وفي الحديث الثالث يرد أيضًا ذكر زيد والخضر وبيت إدريس، مع فضيلة الصلاة والدعاء في المسجد. وترد في هذا الطريق مدة عشرين سنة في الكلام عن زيد.

أما كامل الزيارات فينقل حوار الإمام الصادق مع أبي حمزة الثمالي في شأن خروج عمه، ويذكر مدة سنة في ذلك الخبر. وينقل التهذيب هذا المسار أيضًا. فهذا اختلاف في المتون لا نعالجه بإسقاط أحد اللفظين أو صناعة رواية موحدة منهما.

وفي قصص الراوندي تظهر أسماء أبان بن النعمان وأبي بصير وإسماعيل بن مهران في طرق أخبار السهلة. هؤلاء رواة للأخبار أو أطراف في سياق نقلها، وليسوا أصحابًا لإدريس في عصره.

إحالات هذا التفصيل: الكافي، ج٣، باب مسجد السهلة، ح١-٣، ص٤٩٥-٤٩٦؛ كامل الزيارات، باب فضل المساجد الأربعة، خبر أبي حمزة؛ تهذيب الأحكام، ج٦، ح٧٦، ص٣٧-٣٨، وج٣، ص٢٧٧؛ قصص الأنبياء للراوندي، أخبار السهلة في باب إدريس.

ماذا بقي لنا من قصة إدريس؟

كلما اقتربنا من نهاية فصل إدريس، نكتشف شيئًا مهمًا.

المعلومات التاريخية حوله كثيرة نسبيًا في كتب القصص.

لكن المعلومات القرآنية المباشرة قليلة جدًا.

وهذا ليس نقصًا في القصة.

بل هو جزء من طريقة القرآن.

فالقرآن لا يسرد كل ما يمكن أن يقال عن إدريس، بل يقدم من أوصافه ما يهدي القارئ إلى الصدق والصبر والصلاح.

إنما يريد أن يترك فينا صورة معينة.

صورة رجل:

صديق.

نبي.

صابر.

صالح.

داخل في رحمة الله.

مرفوع المكانة.

وهذه الصورة تكفي لبناء درس كامل في الهداية.

ثم تأتي الروايات فتضيف طبقات أخرى:

روايات عن ملك من الملائكة.

روايات عن شفاعة إدريس.

روايات عن لقائه بملك الموت.

روايات عن رفعه إلى السماء.

روايات عن ظهوره في السماء الرابعة في المعراج.

ورواية عن موضع بيته وخياطته في مسجد السهلة.

وأخبار أخرى عن الكتابة ودراسة الكتب.

لكن كل هذه الطبقات ليست في درجة واحدة.

وهنا تظهر قيمة المنهج.

فليس هدفنا أن نزيل الروايات من القصة.

وليس هدفنا أن نقبل كل رواية بلا بحث.

بل أن نضع كل معلومة في موضعها الصحيح.

وهكذا تصبح «حكاية الهداية» أكثر صدقًا وأعمق أثرًا.

إدريس بين الصديقية والنبوة

حين وصف الله إدريس عليه السلام بقوله:

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾

فإن القرآن لم يجمع بين كلمتين عابرتين.
فالصديقية مرتبة عظيمة من مراتب الإيمان.
والنبوة مسؤولية عظيمة من مسؤوليات الهداية.
تجمع الآية بين صديقية إدريس ونبوته، ولا تشرح توقيت اصطفائه أو مراحل إعداده قبل النبوة.
بل كان صادقًا مع الله، صادقًا في إيمانه، صادقًا في موقفه من الحق.
فالصدق وصف ثابت له في النص، والنبوة اصطفاء من الله؛ ولا تجعل الآية أحدهما مرحلة زمنية تؤدي حتمًا إلى الآخر.
وهنا تظهر قاعدة مهمة في «حكاية الهداية»:
إن الإنسان لا يستطيع أن يحمل نورًا إلى الآخرين إذا كان يعيش في الظلام من الداخل.
فالرسول يبدأ بنفسه.
قبل أن يدعو إلى الحق، يكون قد عرف الحق.
وقبل أن يأمر بالطاعة، يكون من أهل الطاعة.
وقبل أن يحذر من الانحراف، يكون قد ابتعد عنه.
ولهذا كانت الصديقية وصفًا مناسبًا جدًا لنبي من أنبياء الله.
إن الهداية ليست معلومات تُحمل فقط.
الهداية حياة.
وإدريس، كما قدمه القرآن، كان نموذجًا لهذه الحياة.

إدريس والصبر: الهداية ليست طريقًا قصيرًا

ثم يأتي الوصف الآخر:
﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾.
والآية لا تفصل لنا تفاصيل صبر إدريس.
لا تخبرنا عن عدد السنوات التي دعا فيها.
ولا تخبرنا عن عدد الذين استجابوا له.
ولا تنقل لنا حوارًا طويلًا بينه وبين قومه.
لكنها تعطيه وصفًا يكفي لفهم طبيعة الطريق:
كان من الصابرين.
والصبر في طريق الهداية ليس موقفًا واحدًا.

إنه صبر متكرر.

صبر على الطاعة.

وصبر عن المعصية.

وصبر على تبعات الدعوة.

وصبر أمام بطء النتائج.

وصبر عندما لا يفهم الناس الرسالة.

وصبر عندما يصبح الثبات على الحق أكثر كلفة من تركه.

ولهذا فإن الصبر ليس شيئًا يأتي بعد الهداية.

بل هو جزء من الهداية نفسها.

قد يعرف الإنسان الحق.

وقد يقتنع به.

وقد يبدأ السير فيه.

لكن الاختبار الحقيقي يظهر عندما تصبح الطريق صعبة.

هناك يظهر الصبر.

وهناك يظهر الصدق.

ولهذا جمع القرآن بين الصديقية والصبر في صورة إدريس.

فالصدق يبدأ الرحلة.

والصبر يجعل الإنسان يستمر فيها.

من الصبر إلى الرحمة

ثم تأتي النتيجة:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهنا ينتقل القرآن من وصف العمل والصفات إلى بيان ثمرة ذلك.

الصبر لم يكن بلا معنى.

والصلاح لم يكن بلا نتيجة.

لقد أدخلهم الله في رحمته.

والرحمة في القرآن ليست مجرد عاطفة.

إنها فضل من الله، ورعاية، وقبول، وإحسان.

وهذا يعلمنا شيئًا مهمًا:

إن طريق الهداية ليس طريقًا يقوم فيه الإنسان بكل شيء وحده.

فالعبد يسعى.

ويصدق.

ويصبر.

ويطيع.

لكن الرحمة في النهاية من الله.

ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يغتر بعمله.

قد يصلي.

وقد يصوم.

وقد يتعلم.

وقد يدعو إلى الخير.

لكن قلبه يجب أن يبقى متعلقًا برحمة الله.

وإدريس، الذي جمع القرآن له بين الصديقية والنبوة والصبر والصلاح، كان من الذين أدخلهم الله في رحمته.

وكأن السلسلة أصبحت واضحة:

الصدق.

ثم الصبر.

ثم الصلاح.

ثم الرحمة.

ماذا يعني أن يكون إدريس من الصالحين؟

قد يبدو وصف «الصالحين» بسيطًا.

لكن القرآن يستخدم الصلاح لوصف منزلة عظيمة.

فالصلاح ليس مجرد ترك الشر.

بل هو أن يكون الإنسان مستقيمًا في علاقته بالله، وفي نفسه، وفي عمله.

ولهذا عندما يقول الله:

﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

فإنه لا يصف سلوكًا منفصلًا، وإنما يضع إدريس في جماعة من عباد الله الذين استقاموا على الحق.
وهذا يعيدنا إلى طبيعة «حكاية الهداية».
فالهدف من بعثة الأنبياء ليس أن يصنعوا أتباعًا يرددون كلماتهم فقط.
بل أن يصنعوا أناسًا صالحين.
أناسًا يتحول التوحيد عندهم إلى أخلاق.
والإيمان إلى عمل.
والعلم إلى خشية.
والصبر إلى ثبات.
والعبادة إلى إصلاح.
وهذا هو السبب في أن القرآن يربط النبوة بالصلاح في أكثر من موضع.
فالنبي لا يأتي ليقدم للناس معلومات عن الله فقط.
بل ليعيد الإنسان إلى الطريق الذي يصلح به قلبه وحياته.

إدريس ومفهوم الحجة

عندما نضع قصة إدريس ضمن «حكاية الهداية»، فإننا نصل إلى معنى أوسع من قصة شخص واحد.
إن وجود نبي في مرحلة مبكرة من تاريخ البشرية يدل على أن الهداية لم تكن أمرًا مؤجلًا إلى مراحل الحضارة المتقدمة.
منذ أن بدأ الإنسان يعيش حياة اجتماعية، احتاج إلى بيان من الله.
احتاج إلى معرفة:
من خالقه؟
كيف يعبده؟
كيف يفرق بين الحق والباطل؟
كيف يتعامل مع الآخرين؟
ما حدود الشهوة؟
ما معنى العدل؟
وما مصير الإنسان بعد الموت؟
وهنا يظهر مفهوم «الحجة» في الفكر الإمامي.
فالله لا يترك عباده بلا بيان.

وقد ورد في الروايات الإمامية تأكيد هذا المعنى، وأن الأرض لا تخلو من حجة لله على خلقه.
لكن يجب أن نكون دقيقين هنا أيضًا.
فلا ينبغي أن نحول كل تفصيل في تحديد هوية الحجة في كل فترة تاريخية إلى أمر نستطيع إثباته من القرآن وحده.
ما نريد إثباته في هذا الفصل هو المبدأ العام:
أن الهداية الإلهية لم تكن حادثة عابرة.
بل كانت ممتدة في تاريخ الإنسان.
وإدريس واحد من وجوه هذه الهداية.

إدريس في سلسلة الهداية

والآن يمكننا أن نرى إدريس في موضعه الحقيقي داخل الحكاية.
لسنا بحاجة إلى أن نضعه في جدول زمني دقيق لا نملك دليله.
ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن بينه وبين آدم عددًا محددًا من الآباء.
ولا أن نجزم بكل تفاصيل نسبه.
ما نستطيع أن نقوله بثقة هو أن القرآن حفظ لنا اسمه، ووصفه، ومكانته.
والروايات أضافت تفاصيل عن عبادته، ورفعه، ولقائه بملك الموت، ووجوده في السماء، وبعض تفاصيل حياته.
وهكذا يظهر إدريس كحلقة من حلقات الهداية.
ليس المهم فقط أن نعرف أين عاش.
بل أن نفهم ماذا يمثل.
يمثل استمرار الوحي.
يمثل الصدق.
يمثل الصبر.
يمثل العلم حين يكون وسيلة إلى الله.
ويمثل أن الإنسان يستطيع أن يترك أثرًا خالدًا حتى لو لم نعرف تفاصيل حياته كلها.
إن القرآن لم يحفظ لنا كل يوم من أيام إدريس.
لكنه حفظ لنا ما نحتاجه من إدريس.
وهذه قاعدة تستحق أن تبقى معنا طوال الكتاب:

ليس كل ما حدث في التاريخ يحتاج أن يصل إلينا.
لكن ما أراد الله أن يكون هداية لنا، حفظه لنا.
ماذا نتعلم من إدريس؟
إذا أردنا أن نختصر رسالة إدريس في كلمات قليلة، فلن نجد أفضل من الكلمات التي اختارها القرآن نفسه.
صديقية.
نبوة.
صبر.
صلاح.
رحمة.
رفعة.
وهذه ليست صفات منفصلة.
بل تتكامل هذه الأوصاف في الصورة القرآنية، من غير أن تكون النبوة منزلة مكتسبة بالتدرج.
الصدق يجعل الإنسان ثابتًا.
والثبات يحتاج إلى الصبر.
والصبر مع الإيمان ينتج الصلاح.
والصلاح يجعل العبد أهلًا لرحمة الله.
ثم يرفع الله ذكر من شاء من عباده.
وهنا تظهر قيمة الإنسان الحقيقية.
ليس الإنسان عظيمًا لأنه يملك أكثر.
ولا لأنه يحكم أكثر.
ولا لأنه مشهور أكثر.
ولا لأن الناس تتحدث عنه أكثر.
بل لأنه عند الله أفضل.
وهذا هو الميزان الذي يعيد القرآن من خلاله ترتيب مقاييس الإنسان.
قد ينسى التاريخ ملوكًا كثيرين.
وقد تبقى أسماء الأنبياء.

وقد تسقط قصور.

وقد تبقى كلمة حق.

وقد يموت صاحب السلطة.

ويبقى أثر عبد صالح.

وهذا هو الرفع الحقيقي الذي ينبغي أن نتعلمه من قصة إدريس.

الدرس الأول: الصدق قبل الكلام

أول درس من إدريس هو أن الصدق يسبق الدعوة.

قد يتحدث الإنسان عن الحق ساعات.

وقد يكتب عنه كتبًا.

وقد يجادل الناس فيه.

لكن السؤال الأهم:

هل هو صادق مع الله؟

وهذا لا يعني العصمة للناس العاديين.

بل يعني أن طالب الهداية لا ينبغي أن يجعل الدين وسيلة لخدمة هواه؛ فإذا عرف الصواب فعليه أن يعمل به.

إذا أراد الحق، فعليه أن يقبل الحق حتى عندما يخالف رغباته.

وإذا عرف خطأه، فعليه أن يرجع.

وإذا عرف الصواب، فعليه أن يعمل به.

وهذه هي الصديقية التي تجعل الهداية حقيقية.

الدرس الثاني: العلم يحتاج إلى خشية

وإذا ربطنا ما اشتهر عن إدريس بالكتابة والعلم بما يقرره القرآن، يظهر أمامنا درس آخر:

ليس المهم أن تعرف فقط.

بل ماذا يفعل العلم بك؟

هل يجعلك أكثر تواضعًا؟

هل يجعلك أكثر خشية؟

هل يجعلك أكثر عدلًا؟

هل يجعلك أكثر رحمة؟

هل يجعلك أقرب إلى الله؟
أم يجعلك أكثر غرورًا؟
فالعلم يمكن أن يكون نورًا.
ويمكن أن يكون حجابًا.
والمعلومة في ذاتها ليست هداية.
الهداية تبدأ عندما تتحول المعرفة إلى موقف.
وهذا من أجمل ما يمكن أن نفهمه من إدريس، خصوصًا مع ما ورد في التراث من ارتباطه بالكتابة ودراسة الكتب.
الدرس الثالث: تذكر الموت يعيد ترتيب الحياة
وفي الرواية التي تحدثت عن لقاء إدريس بملك الموت، يظهر درس آخر.
إن ذكر الموت يعيد ترتيب الأولويات.
أشياء كثيرة تبدو ضخمة في أعيننا اليوم.
ثم عندما نتذكر أننا سنقف بين يدي الله، يتغير حجمها.
الغضب يصبح أقل أهمية.
الخصومة تصبح أقل أهمية.
حب الظهور يصبح أقل أهمية.
جمع المال يصبح وسيلة لا غاية.
ويبقى السؤال:
ماذا قدمت لله؟
وماذا صنعت في حياتك؟
ومن ظلمت؟
ومن أعنت؟
وماذا حملت في قلبك؟
ولهذا كان الموت في القرآن ليس مجرد نهاية بيولوجية.
بل بوابة إلى الحساب.
ومن يفهم ذلك، يعيش الدنيا بطريقة مختلفة.
الدرس الرابع: لا تملأ الفراغ بما لا تعلم

وهذا الدرس ربما يكون من أهم دروس فصل إدريس كله.
عندما نقرأ قصة قصيرة، نشعر أحيانًا بالحاجة إلى تفاصيل كثيرة.
نريد أن نعرف:
أين عاش؟
كم سنة عاش؟
من هم قومه؟
كم كان عددهم؟
ماذا حدث لهم؟
كيف كانت حياته اليومية؟
من جاء بعده مباشرة؟
لكن إذا لم يثبت لنا الجواب، فإن أفضل جواب هو:
لا نعلم على وجه اليقين.
وهذا ليس نقصًا.
بل أمانة.
فالعالم الذي يقول «لا أعلم» أقرب إلى الحق من شخص يملأ الفراغ بقصة جميلة لا دليل عليها.
وهذا هو المنهج الذي نحتاجه في «حكاية الهداية».
نحن لا نكتب رواية خيالية.
ولا نحاول أن نملأ كل فجوة تاريخية.
نحن نحاول أن نعيد بناء القصة من مصادرها، ونميز بين درجاتها.

إدريس في ميزان القرآن

إذا أردنا في النهاية أن نعرف ماذا أراد القرآن أن يبقى في ذاكرتنا من إدريس، فالأمر واضح.
لم يذكر القرآن عدد أتباعه.
لم يذكر مقدار ماله.
لم يذكر مساحة أرضه.
لم يذكر تفاصيل حياته السياسية.
لم يذكر بناء مدينة عظيمة باسمه.

لم يذكر حروبًا خاضها.

بل ذكر صفاته.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

ثم:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ثم:

﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ثم:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهكذا لا تحتاج قصة إدريس إلى عشرات الصفحات من الأحداث حتى تكون عظيمة.

يكفي أن القرآن أخبرنا من كان.

وهذا هو الفرق بين حجم القصة وقيمة القصة.

قد تكون القصة قصيرة، لكن صاحبها عظيم.

وقد يكون التاريخ طويلًا، لكن العبرة فيه قليلة.

من إدريس إلى نوح — ناحور حلقة لا ينبغي إسقاطها

هذه من أهم النتائج التي يجب إضافتها إلى هيكل حكاية الهداية.

فإذا كان هدف الكتاب تتبع انتقال العهد جيلًا بعد جيل، فلا يجوز أن نختم إدريس ثم نقفز إلى نوح من غير مراجعة رواية الوصاية.

رواية الوصاية عند الصدوق

في رواية اتصال الوصاية التي أوردها الصدوق في الأمالي، المجلس ٦٣، الحديث ٣، وفي كمال الدين وتمام النعمة، باب ٢٢، الحديث ١، يأتي التسلسل بعد أخنوخ، وهو إدريس، كما يأتي:

أخنوخ وهو إدريس النبي

ناحور

نوح عليه السلام

والنص يقول بمعناه:

أوصى إدريس إلى ناحور، ودفعها ناحور إلى نوح.

إذن ناحور هنا ليس تفصيلًا هامشيًا، بل حامل للعهد بين إدريس ونوح بحسب هذه الرواية.

هل ناحور نبي؟

الرواية المذكورة تثبته في سلسلة الوصاية، لكنها لا تكفي وحدها لأن نصفه بالنبي.

لذلك سيكون وصفه في هذا الكتاب:

حامل عهد/وصي في رواية الاتصال.

ولا نقول «النبي ناحور» بلا دليل مستقل.

هل هو ناحور المعروف لاحقًا في نسب إبراهيم؟

لا ينبغي افتراض ذلك.

الأسماء قد تتكرر عبر الأجيال، والفاصل الزمني بين إدريس وإبراهيم كبير في البناء التاريخي.

إذن ناحور المذكور بين إدريس ونوح يُثبت في موضعه الروائي من غير دمجه آليًا مع ناحور آخر في أنساب لاحقة.

وماذا عن سلسلة متوشلخ ولامك؟

كتب الأنساب والتاريخ المشهورة تربط أخنوخ/إدريس بمتوشلخ ثم لامك ثم نوح.

أما رواية الوصاية الإمامية التي بين أيدينا فتذكر إدريس → ناحور → نوح.

هاتان ليستا سلسلة واحدة.

الأولى سلسلة نسب تاريخية.

والثانية سلسلة انتقال وصاية مروية.

وقد يكون حامل الوصاية غير الابن المباشر في كل مرحلة.

لذلك لا نُسقط إحداهما على الأخرى بلا دليل.

صلة ذلك بغيبة إدريس

ويزداد المعنى وضوحًا بقراءة مقدمة الصدوق لباب غيبة إدريس في كمال الدين: يذكر فيها ظهوره وبشارته لأتباعه بالفرج وقيام نوح من ذريته، ثم رفعه. وهذه عبارة المؤلف في التمهيد، ويجب تمييزها من متن الحديث الذي يرويه بعد ذلك.

وهكذا يصبح الانتقال إلى الفصل الخامس منظمًا:

إدريس عليه السلام

ناحور — حامل العهد في رواية الوصاية

نوح عليه السلام — بداية مرحلة كبرى جديدة

وهذا لا يعني بالضرورة أننا نحتاج فصلًا كاملًا مستقلًا لناحور إذا كانت المادة عنه محدودة جدًا.
لكن يجب ألا يختفي اسمه من حكاية انتقال الهداية.

مصادر هذا القسم

الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص١٧٦ في بعض الطبعات، رواية اتصال الوصاية: «وأوصى إدريس إلى ناحور، ودفعها ناحور إلى نوح».
الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، ح٣، مع مراعاة اختلاف رسم بعض الأسماء بين النسخ.
الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، مقدمة باب غيبة إدريس، ص١٢٧، في البشارة بنوح.
المجلسي، بحار الأنوار، في نقل سلسلة الوصاية.
خلاصة ما ثبت في قصة إدريس
يمكننا الآن أن نجمع الصورة في درجات واضحة.
أولًا: ما ثبت بالقرآن.
إدريس عليه السلام نبي.
وهو صديق.
وهو من الصابرين.
وهو من الصالحين.
وقد أدخله الله في رحمته.
وقد رفعه مكانًا عليًا.
ثانيًا: ما ورد في الروايات الإمامية.
وردت روايات تتحدث عن إدريس وعبادته وذكره للموت.
ووردت روايات عن شفاعته لملك من الملائكة.
ووردت روايات عن لقائه بملك الموت.
ووردت روايات تربط رفعه بالسماء.
وورد في بعض روايات المعراج أنه كان في السماء الرابعة.
ووردت روايات تتحدث عن موضع بيته وعلاقته بمسجد السهلة.
ثالثًا: الأخبار التاريخية والتفسيرية وما اشتهر في كتب القصص.
ومنها التوسع في نسب الصناعات والعلوم إليه، أما أصل أخبار الكتابة والخياطة فله حضور في الروايات الإمامية أيضًا.

وكذلك الربط بأخنوخ موجود في روايات إمامية، فلا يصح حصره في الأخبار التاريخية، ولا نقل جميع تفاصيل أخنوخ منها إلى إدريس.

وتبقى التفاصيل الزائدة عن حياته محتاجة إلى توثيق مستقل، مع تمييز ما قاله القرآن مما سواه.

وهنا يجب أن تبقى الحدود واضحة.

لا نخلط بين هذه الطبقات.

فإذا قال القرآن شيئًا، قلنا: هذا ثابت بالوحي.

وإذا ورد في رواية، قلنا: هذا مروي.

وإذا كان خبرًا تاريخيًا مشهورًا، قلنا: هذا مشهور في المصادر.

وبهذا نكون قد أعطينا كل دليل حقه.

سجل الشخصيات وحدود صلتها بالفصل

نجمع هنا الأسماء والصفات التي قد تتفرق في السرد، لكي لا تسقط امرأة أو جماعة غير مسماة من الذاكرة، ولكيلا يختلط صاحب القصة براويها. وهذا السجل محصور في النصوص التي عالجها الفصل، ولا يدعي حصر كل خبر في جميع خزائن التراث.

إدريس عليه السلام هو مركز الفصل، و«أخنوخ» تعريف روائي له. فلا نفصل الاسمين إلى نبيين في المواضع التي تصرح باتحادهما، ولا ننسب الاسم الثاني إلى القرآن.

آدم وشيث أو هبة الله وشبان ومجلث أو محلث ومحوق وغثميشا هم الأسماء السابقة له في رواية الوصاية. ونزلة الحوراء هي المرأة المذكورة فيها بوصفها زوجة شيث وأم شبان.

ناحور هو حامل الوصية بعد إدريس في الرواية، ثم نوح هو النبي المبشر به من ذريته في تمهيد الصدوق. ولا يثبت بذلك أن ناحور ابنه المباشر أو أنه ناحور المعروف في نسب إبراهيم.

أنوش وقينان ومهلائيل ويارد ومتوشلخ ولامك أسماء في الأنساب التاريخية المذكورة للمقارنة. فلا تتبدل وظيفتها من نسب تاريخي إلى سلسلة وصاية لمجرد ورودها في الفصل.

صاحب الأرض مؤمن غير مسمى، وله عيال يصرح الخبر بحاجتهم إلى الأرض. ويجب ألا يختفي هؤلاء العيال وراء صورة الرجل وحده؛ فالوعيد في الرواية يتصل أيضًا بإفقارهم.

الملك الجبار الأول وامرأته غير مسميين. وللمرأة دور واضح في تدبير قتل صاحب الأرض ثم إرسال من يقتل إدريس. ونذكر الشهود والجماعة المنفذة من غير اختراع أسماء أو أنساب لهم.

أصحاب إدريس العشرون، وأهل القرية الذين أصابهم القحط ثم تابوا، جماعتان لهما موضعهما في الخبر. ولا يثبت أن كل أهل القرية هم أصحاب إدريس الأولون أو أن عدد العشرين يحصي جميع المؤمنين في حياته.

العجوز وابنها شخصيتان مستقلتان غير مسماتين. وهي ليست امرأة الملك ولا زوجة صاحب الأرض في النص المراجع. وقد استقبلت إدريس وأخبرت الناس بعودته، فلا يختزل دورها في كونها أم الغلام فقط.

الحاكم اللاحق غير الجبار الأول الذي هلك. ورجاله الأربعون ثم الخمسمائة غير جماعة الأربعين التي أرسلتها امرأة الملك لقتل إدريس في أول القصة. وتشابه العدد ليس اتحادًا للأشخاص.

المَلَك الذي يأتي بالطعام، والمَلَك الذي يحمل إدريس، وملك الموت أدوار متميزة في الأخبار. وجبرئيل حاضر في إطار السؤال النبوي وفي رواية المعراج. ولا نسمي ملك الموت «عزرائيل» اعتمادًا على هذه النصوص وحدها، ولا نسمي المَلَكين غير المسميين.

رسول الله محمد صلى الله عليه وآله حاضر بوصفه ناقلًا للخبر وفي لقاء المعراج، والإمامان الباقر والصادق عليهما السلام مصدران منسوب إليهما عدد من الروايات، والإمام علي عليه السلام طرف في احتجاج منقول مع محاور يهودي غير مسمى. وهؤلاء ليسوا شخصيات من عصر إدريس.

أبو ذر له موضع في خبر الأنبياء والصحف. وابن عباس ووهب بن منبه ناقلان لأخبار المقارنة، مع اختلاف مرتبتهما عن نسبة الخبر إلى المعصوم. وتظهر خزنة النار والجنة في بعض تلك الأخبار بلا أسماء يعتمدها هذا الفصل.

إبراهيم وداود وجالوت والخضر، وزيد بن علي ومعاوية بن إسحاق وأبو حمزة الثمالي، والقائم وأهله، حُفظت مواضعهم في أخبار السهلة. وعبد الله بن أبان وأبان بن النعمان وأبو بصير وإسماعيل بن مهران من الأسماء المتصلة بنقل هذه الأخبار، وليس وجودهم في السند لقاءً بإدريس.

إسماعيل وذو الكفل يردان مع إدريس في آيتي الأنبياء. وآدم ونوح وإبراهيم وإسرائيل يردون في سياق مريم ١٩:٥٨، وإسرائيل هو يعقوب. أما زكريا ويحيى وعيسى وإسحاق وموسى وهارون وغيرهم في السياق الأوسع لسورة مريم أو خبر المعراج فموضعهم سياق المقارنة والأنبياء، لا إثبات المعاصرة لإدريس.

وأما أمه وزوجته وبناته، فلم نثبت أسماء لهن من المادة الأساسية المراجعة. كما لا نحول ذكر «الأهل» و«العيال» إلى أسماء مستحدثة، ولا ندعي أن عدم التسمية يجيز حذف الدور الإنساني من السرد.

بهذا يبقى لكل شخصية موضعها: في الآية، أو في متن الرواية، أو في سندها، أو في المقارنة التاريخية. وتظل التفاصيل التي لم نثبت معلنة الحدود، بدل أن تصبح فراغًا يملؤه التخمين.

خاتمة قصة إدريس عليه السلام

وهكذا نصل إلى نهاية قصة إدريس عليه السلام في هذا الفصل.

ولعل أجمل ما في هذه القصة أن القرآن لم يجعل عظمة إدريس في كثرة الأخبار عنه.

بل جعلها في صفاته.

صديقية.

نبوة.

صبر.

صلاح.

رحمة.

ورفعة.

ثم جاءت الروايات لتفتح أمامنا نوافذ أخرى على شخصيته.

رأيناه في روايات أهل البيت نبيًا واعيًا بالموت، كثير العبادة، شفيعًا، ملتجئًا إلى الله، ومرتبطًا بقصة رفعه ولقائه بملك الموت.

ورأيناه في بعض روايات المعراج في السماء الرابعة.

ووجدنا في بعض الروايات صلة بينه وبين مسجد السهلة والخياطة.

ووجدنا أخبارًا عن الكتابة والصحف والخياطة وأخنوخ في مصادر إمامية وفي كتب التاريخ والتفسير، فميزنا بين طرقها، ولم نجعل مجرد تداولها تصحيحًا لها.

لكن بقيت القاعدة:

كلما ابتعدنا عن النص القرآني المباشر، احتجنا إلى مزيد من التثبت.

وهذا لا يجعل التراث أقل قيمة.

بل يجعل قراءتنا له أكثر احترامًا.

فليس من الأمانة أن ننسب إلى الله ما لم يقله.

وليس من الأمانة أيضًا أن نهمل ما حفظه التراث من أخبار لمجرد أنها ليست في القرآن.

المنهج الصحيح هو أن نضع كل شيء في مكانه.

وهكذا تبقى «حكاية الهداية» حكاية للقرآن أولًا، وللتراث الذي يضيء جوانبها ثانيًا، وللعبرة التي تصل إلى الإنسان في كل زمان.

إدريس عليه السلام لم يحتج إلى مملكة حتى يكون عظيمًا.

ولم يحتج إلى جيش حتى يكون قويًا.

ولم يحتج إلى كثرة أتباع حتى يكون مؤثرًا.

يكفي أن الله قال عنه:

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

ثم قال:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وهنا ينتهي فصل إدريس.

لا لأن كل شيء عنه قد عُرف.

بل لأننا وقفنا على ما أثبته القرآن وما أمكن توثيق مواضعه من الروايات، مع بيان حدود ما نعرفه.

المصادر والمراجع — الفصل الرابع: إدريس عليه السلام

أولًا: القرآن الكريم

سورة مريم ١٩:٥٦–٥٧: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

سورة مريم ١٩:٥٨: سياق الأنبياء الذين أنعم الله عليهم وهداهم واجتباهم.

سورة الأنبياء ٢١:٨٥–٨٦: إدريس من الصابرين والصالحين وممن أدخلهم الله في رحمته.

وتُستخدم آيات أخرى في الفصل للعبرة والشرح، مثل آل عمران ٣:١٨٥ في الموت، والنساء ٤:٧٨، والنساء ٤:١٦٥ في إقامة الحجة، والزمر ٣٩:٩ وفاطر ٣٥:٢٨ في العلم والخشية؛ لكنها ليست آيات تتحدث عن إدريس باسمه.

ثانيًا: المصادر الحديثية والروائية الإمامية

١. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب الأول في غيبة إدريس، مقدمة الباب والحديث ١، ص١٢٧–١٣٣، تحقيق علي أكبر الغفاري. [النص]

المادة المستفادة: بدء نبوة إدريس في زمن الملك الجبار، اغتصاب أرض المؤمن وقتله، مواجهة إدريس للملك، تهديده، خروجه وغيابه، حبس المطر، الكهف، طول القحط، عودته، إحياء الغلام في متن الرواية، خضوع أهل القرية وعودة المطر، والبشارة بنوح.

تنبيه: هذه رواية طويلة تحتاج إلى دراسة سندها ومتنها، ولا تُعامل تفاصيلها معاملة النص القرآني.

٢. الشيخ الصدوق، الخصال، حديث أبي ذر في عدد الأنبياء والكتب، ج٢، ص٥٢٣–٥٢٤ في بعض الطبعات. [النص]

المادة المستفادة: «أخنوخ وهو إدريس»، وصفه بأنه من الأنبياء السريانيين، وأنه أول من خط بالقلم بحسب الرواية، ونسبة ثلاثين صحيفة إليه في هذا الطريق.

تنبيه: سند حديث أبي ذر يحتاج إلى تقويم مستقل.

٣. الصدوق، معاني الأخبار، الحديث ١، ص٣٣٢–٣٣٤؛ أخنوخ والقلم ص٣٣٣، وعدد الصحف ص٣٣٤ في الطبعة المراجعة. [النص]

المادة المستفادة: رواية عدد الكتب والصحف، ومنها ثلاثون صحيفة لإدريس في هذا الطريق.

٤. الاختصاص، المنسوب إلى الشيخ المفيد، ص٢٦٤ في بعض الطبعات. [النص]

المادة المستفادة: خبر الخمسين صحيفة، وفي طريقه راوٍ مبهم، وخبر آخر عن ابن عباس في الصفحة نفسها يذكر ثلاثين. لا يكفي وجود أحدهما لإلغاء الآخر أو القطع بصحته.

تنبيه: هذا يثبت وجود اختلاف روائي في عدد الصحف: ثلاثون في بعض الطرق، وخمسون في طريق آخر.

٥. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ح٥٤٠٢، ص١٧٤-١٧٦ في الطبعة المراجعة، رواية اتصال الوصاية. [النص]

المادة المستفادة: أخنوخ هو إدريس النبي، وأن إدريس أوصى إلى ناحور، ودفعها ناحور إلى نوح.

وهذه الرواية أساسية في حفظ حلقة العهد بين إدريس ونوح.

٦. الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، ح٣، رواية اتصال الوصاية عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله؛ من طريق مقاتل بن سليمان. [النص]

المادة المستفادة: السلسلة التي تنتهي إلى أخنوخ/إدريس ثم تستمر في حملة العهد، مع اختلاف ضبط بعض الأسماء بين النسخ.

٧. علي بن الحسين بن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، مرجع عام لمسألة استمرار الحجة والوصية.

حدود الاستفادة: لم يُعتمد هنا موضع معين منه لإثبات أسماء سلسلة إدريس؛ الإحالة المباشرة لهذه الأسماء إلى الفقيه والأمالي. فلا تُعد هذه الإحالة العامة شاهدًا مستقلًا على تفاصيل لم تعين روايتها.

٨. الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الصلاة، باب مسجد السهلة، ح١-٣، ص٤٩٥-٤٩٦. [النص]

المادة المستفادة: ذكر «بيت إدريس النبي» وربط الموضع بخياطته في بعض طرق الخبر.

تنبيه: هذا يثبت ممارسة الخياطة على مستوى الرواية؛ أما كونه أول خياط في البشرية فدعوى أخرى تحتاج إلى دليل مستقل.

٩. الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الجنائز، باب النوادر، ح٢٦، ص٢٥٧. [النص]

المادة المستفادة: مادة روائية تربط إدريس بملك من الملائكة وملك الموت والرفع إلى السماء.

تنبيه: طرق هذه القصة ليست في درجة واحدة، وقد ناقش العلامة الطباطبائي ضعف بعض أسانيدها ومتونها.

١٠. تفسير القمي، ج٢، ص٥١-٥٢، عند مريم ١٩:٥٧؛ الطريق عن ابن أبي عمير «عمن حدثه» عن الصادق عليه السلام.

المادة المستفادة: رواية الملك الذي حمل إدريس، والسماء الرابعة، وملك الموت، وربط ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

١١. تفسير القمي، ج٢، خبر المعراج في تفسير مطلع سورة الإسراء، ولا سيما ص٨ في الطبعة المراجعة.

المادة المستفادة: لقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله بإدريس في السماء الرابعة، والسلام والاستغفار المتبادل في الرواية.

١٢. الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص٣١٥ في الطبعة المراجعة، الاحتجاج المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام مع محاور يهودي غير مسمى. [النص]

المادة المستفادة: خبر رفع إدريس وإطعامه من تحف الجنة بعد وفاته.

تنبيه: الاحتجاج كثيرًا ما يورد الأخبار مرسلة، فينبغي مراعاة ذلك في الحكم السندي.

١٣. ابن قولويه، كامل الزيارات، باب فضل المساجد الأربعة، ح١٠ في التقسيم الإلكتروني، ص٧٤-٧٥؛ والطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ح٧٦، ص٣٧-٣٨، وخبر مسجد السهلة في ج٣، ص٢٧٧. تختلف بعض تفاصيل أخبار السهلة، ومنها المدة المذكورة في شأن زيد، فلا تجمع ألفاظها كأنها رواية واحدة. [النص]

١٤. القطب الراوندي، قصص الأنبياء، باب نبوة إدريس عليه السلام؛ تُراجع كل رواية بنسبتها: إلى الإمام، أو ابن عباس، أو وهب، ولا يكتفى باسم الكتاب للحكم على الخبر. [النص]

١٥. ابن طاووس، سعد السعود، النقول المنسوبة إلى صحف إدريس؛ مرجع لوجود نسبة نصوص إليه، لا لتصحيح تلك النسبة من غير تحقيق مستقل. [النص]

ثالثًا: المصادر التفسيرية الإمامية

١. العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير مريم ١٩:٥٦-٥٨ والأنبياء ٢١:٨٥-٨٦. [النص]

المادة المستفادة: تحليل الصورة القرآنية لإدريس، معنى الرفع، عرض الروايات، والتنبيه إلى ضعف بعض الأخبار المرتبطة بملك الموت.

٢. الحويزي، نور الثقلين، عند مريم ١٩:٥٦-٥٧ والأنبياء ٢١:٨٥-٨٦.

المادة المستفادة: جمع طرق من الروايات الإمامية المتعلقة بإدريس والرفع.

٣. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، عند الآيات نفسها.

المادة المستفادة: جمع مختصر للمادة التفسيرية والروائية الإمامية.

٤. تفسير القمي، مع ملاحظة أن نسبة جميع مواد الكتاب وطرقها تحتاج إلى منهج تحقيق مستقل، وأن وجود الخبر فيه لا يعني تصحيحه تلقائيًا.

رابعًا: المصادر الجامعة

المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، الباب التاسع في قصص إدريس، ص٢٧٠ وما بعدها؛ ومن المواضع المراجعة تعليقه التأويلي على قصة الجوع ص٢٧٦، ونقول الأنساب التاريخية ص٢٨١.

يُستخدم بحار الأنوار جامعًا ووسيلة للوصول إلى مصادر أقدم، لا بوصفه حكمًا تلقائيًا بصحة كل ما ينقله.

ومن خلاله تظهر أيضًا أخبار تاريخية عن الكتابة والخياطة والنجوم والحساب ينبغي التمييز بينها وبين الرواية المسندة عن أهل البيت عليهم السلام.

خامسًا: المصادر التاريخية والمقارنة

تُراجع كتب التاريخ والأنساب والتفسير العام فيما يتعلق بأخنوخ، ومتوشلخ، ولامك، والقول بأسبقية إدريس في الخياطة أو بعض العلوم، لكن هذه الأخبار لا تُدمج تلقائيًا مع سلسلة الوصاية الإمامية.

ويجب خصوصًا عدم الخلط بين سلسلة النسب التاريخية: أخنوخ/إدريس ← متوشلخ ← لامك ← نوح، وبين سلسلة انتقال العهد في الرواية الإمامية: إدريس ← ناحور ← نوح.

كما لا تُنسب إلى إدريس الكتب الهرمسية أو المنحولة أو مواد أهل الكتاب إلا بوصفها مادة مقارنة صريحة، لا وحيًا إسلاميًا ثابتًا.

سادسًا: خلاصة المصدر

ما يثبت قطعًا بالقرآن:

إدريس صديق نبي، من الصابرين والصالحين، أدخله الله في رحمته، ورفعه مكانًا عليًا.

ما ورد في الروايات الإمامية:

أخنوخ/إدريس، الصحف مع اختلاف العدد، الكتابة بالقلم، الخياطة، مواجهة الملك الجبار، الغيبة والقحط والعودة، ملك الموت والسماء الرابعة، مسجد السهلة، وسلسلة الوصاية إلى ناحور ثم نوح.

ما يبقى تاريخيًا أو محل خلاف:

بعض تفاصيل النسب والزمن، الأولوية المطلقة في الخياطة والعلوم، علم النجوم، مقدار العمر، الموضع الجغرافي الدقيق، وما نُسب إليه من كتب متأخرة.

الفصل ٥ — نوح عليه السلام — الدعوة والطوفان ونجاة المؤمنين

من إدريس إلى نوح — ناحور وحفظ العهد قبل بداية مرحلة الطوفان

لا يبدأ فصل نوح عليه السلام من فراغ، ولا نريد أن نقفز من إدريس إلى نوح وكأن العهد انقطع بينهما.

في رواية اتصال الوصاية عند الشيخ الصدوق يأتي بعد أخنوخ، وهو إدريس النبي عليه السلام، اسم «ناحور»، ثم تنتقل الوصية إلى نوح عليه السلام.

والصياغة التي نعتمدها هنا هي:

إدريس عليه السلام

ناحور — حامل للعهد في رواية الوصاية

نوح عليه السلام

ولا نسمي ناحور نبيًا بلا دليل مستقل، كما لا نخلطه تلقائيًا بناحور آخر يرد لاحقًا في أنساب إبراهيم.

وهذا الانتقال مهم جدًا في حكاية الهداية؛ لأنه يثبت المبدأ الذي اتفقنا عليه: لا نسقط الحلقة الوسيطة إذا حفظتها الرواية.

نوح عليه السلام في القرآن — خريطة جميع المواضع الأساسية

لأن قصة نوح من أكثر قصص الأنبياء انتشارًا في القرآن، فمن المهم أن نجمع مواضعها قبل الدخول في التفاصيل، حتى لا نغفل شيئًا قرآنيًا مهمًا.

النساء ٤:١٦٣

يذكر القرآن أن الوحي إلى محمد صلى الله عليه وآله جاء كما أوحى الله إلى نوح والنبيين من بعده.

وهذا يضع نوحًا في مطلع سلسلة كبرى من الوحي النبوي.

الأنعام ٦:٨٤

يأتي نوح في سياق الهداية والاصطفاء قبل إبراهيم وذريته.

الأعراف ٧:٥٩-٦٤

دعوة نوح إلى التوحيد، تحذيره قومه، تكذيبهم له، ثم النجاة والغرق.

يونس ١٠:٧١-٧٣

عرض موجز لدعوة نوح وتوكله على الله وتحديه لقومه، ثم نجاته ومن معه.

هود ١١:٢٥-٤٩

أوسع المقاطع القرآنية في قصة نوح:

الدعوة،

اعتراض الملأ،

رفض طرد المؤمنين،

الحكم بنهاية الإيمان من قومه،

صناعة السفينة،

السخرية،

فوران التنور،

حمل الأزواج والأهل والمؤمنين،

الطوفان،

الابن الذي رفض الركوب،

الحوار بين نوح وربه،

استواء السفينة على الجودي،

والهبوط بسلام وبركات.

إبراهيم ١٤:٩

ذكر قوم نوح ضمن الأمم السابقة التي كذبت رسلها.

الإسراء ١٧:٣

وصف نوح بأنه ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾.

وهذه صفة أساسية في بناء شخصيته القرآنية.

مريم ١٩:٥٨

يأتي نوح في السياق العام للأنبياء الذين أنعم الله عليهم، من غير أن تقدم الآية قصة مستقلة عنه.

الأنبياء ٢١:٧٦-٧٧

استجابة الله لنوح ونجاته وأهله من الكرب العظيم ونصره على المكذبين.

الحج ٢٢:٤٢

ذكر قوم نوح ضمن سلسلة الأمم التي كذبت رسلها.

المؤمنون ٢٣:٢٣-٣٠

دعوة نوح، اعتراض الملأ، الأمر بصناعة الفلك، فوران التنور، وحمد الله عند النجاة والدعاء بالنزول منزلًا مباركًا.

الفرقان ٢٥:٣٧

إغراق قوم نوح وجعلهم آية للناس.

الشعراء ٢٦:١٠٥-١٢٢

تكذيب قوم نوح، اعتراضهم على أتباعه المؤمنين، رفضه طرد المؤمنين، دعاؤه، ثم النجاة والغرق.

العنكبوت ٢٩:١٤-١٥

المدة القرآنية الكبرى: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم جاءهم الطوفان، وجعل الله السفينة آية للعالمين.

الأحزاب ٣٣:٧

نوح ضمن الأنبياء الذين أخذ الله منهم الميثاق الغليظ، مع محمد وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

الصافات ٣٧:٧٥-٨٢

استجابة الله لنوح، نجاته وأهله، جعل ذريته هم الباقين، وبقاء الثناء عليه:
﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾.

غافر ٤٠:٥

قوم نوح من الأمم التي همّت برسولها وكذبت بالحق.

الشورى ٤٢:١٣

من أهم المواضع في فهم مقام نوح:
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا...﴾.
وهذه الآية أساسية عند بحث نوح في سياق أصحاب الشرائع وأولي العزم.

ق ٥٠:١٢

قوم نوح في عداد الأمم المكذبة.

الذاريات ٥١:٤٦

وصف قوم نوح بالفسق قبل ذلك.

النجم ٥٣:٥٢

ذكر قوم نوح وأنهم كانوا أظلم وأطغى.

القمر ٥٤:٩-١٧

تكذيب نوح واتهامه بالجنون، دعاؤه، انفتاح أبواب السماء بالماء، تفجر الأرض عيونًا، جريان السفينة بأعين الله، وجعل القصة آية للذكر.

الحديد ٥٧:٢٦

إرسال نوح وإبراهيم وجعل النبوة والكتاب في ذريتهما.

التحريم ٦٦:١٠

زوجة نوح مثال لمن لم تنفعها القرابة من النبي مع الكفر.
والروايات الإمامية تفسر الخيانة هنا بخيانة الدين والموقف، لا خيانة العرض.

الحاقة ٦٩:١١-١٢

تذكير بحمل البشر في الجارية حين طغى الماء، لتكون الواقعة تذكرة.

سورة نوح ٧١:١-٢٨

السورة المخصصة لدعوته:

الإنذار،

عبادة الله وتقواه وطاعة الرسول،
الدعوة ليلًا ونهارًا،
سرًا وجهارًا،
الاستغفار وآثاره،
الاستدلال بالخلق،
إصرار القوم،
الأصنام الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر،
ثم دعاء نوح بعد استنفاد الدعوة.
ومن الآيات المهمة في تحديد مقامه كذلك الأحقاف ٤٦:٣٥ في ذكر أولي العزم من الرسل.
الآية لا تسمي نوحًا ضمن الخمسة، لكن الروايات الإمامية تحدد أولي العزم بأنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

مصادر هذا القسم

القرآن الكريم، المواضع المذكورة أعلاه.
الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، رواية اتصال الوصاية: إدريس ← ناحور ← نوح.
مصادر الحديث والتفسير الإمامية المذكورة في نهاية الفصل.
بعد أن مررنا بآدم عليه السلام، ثم شيث بحسب ما ورد في الروايات الإمامية، ثم إدريس عليه السلام، نصل الآن إلى شخصية تحتل مكانة استثنائية في تاريخ الهداية:
نوح عليه السلام.
لكن قصة نوح لا تبدأ بالسفينة.
ولا تبدأ بالطوفان.
ولا تبدأ حتى بمواجهة قومه.
بل تبدأ قبل ذلك كله، من الإنسان نفسه، ومن انتقال الهداية من جيل إلى جيل، ومن اللحظة التي بدأت فيها البشرية تنتقل من مرحلة التوحيد الأولى إلى مرحلة ظهر فيها الشرك بصورة واضحة.
ولهذا فإننا قبل أن نتحدث عن دعوة نوح، وعن قومه، وعن الأصنام، وعن السفينة والطوفان، ينبغي أن نتوقف أولًا عند نوح الإنسان والنبي:
من هو؟
ما نسبه؟

متى ظهر في تاريخ البشرية؟
وما الذي يمكننا إثباته من القرآن؟
وما الذي وصل إلينا من روايات أهل البيت عليهم السلام؟
وهنا، كما فعلنا في الفصول السابقة، يجب أن نضع قاعدة منهجية واضحة:
لن نساوي بين القرآن والروايات التاريخية، ولن نجعل التفاصيل المشهورة يقينًا لمجرد شهرتها.
فالقرآن يعطينا الحقائق الأساسية، والروايات تضيف أحيانًا تفاصيل مهمة، لكن هذه التفاصيل تحتاج إلى دراسة وتمييز.
وهكذا تبدأ قصة نوح.
نوح عليه السلام: من هو؟
القرآن لا يقدم لنا في بداية قصة نوح نسبًا طويلًا، ولا يذكر اسم أبيه أو أجداده في الآيات التي تتحدث عن بعثته.
وهذه ملاحظة مهمة.
فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوجه نظرنا أولًا إلى رسالة نوح وموقفه من قومه، لا إلى تفاصيل نسبه.
ويذكر القرآن نوحًا باسمه في مواضع كثيرة، ويقدمه بوصفه رسولًا من رسل الله.
قال تعالى:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة نوح، الآية ١.
وقال سبحانه:
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سورة الأعراف، الآية ٥٩.
إذن، الحقيقة الأولى التي لا تحتاج إلى بحث تاريخي هي:
نوح نبي ورسول من عند الله، أرسله الله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده.
أما نسبه التفصيلي، فهنا تبدأ الروايات وكتب الأنساب.
وتذكر المصادر الإسلامية المشهورة أن نسبه هو:
نوح بن لَمَك بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام.
وبحسب هذا النسب يكون إدريس عليه السلام من آباء نوح، لا مجرد نبي سبقه في الزمن.
وهذا ينسجم مع النسب المشهور الذي يربط:
آدم ← شيث ← أنوش ← قينان ← مهلائيل ← يرد ← إدريس ← متوشلخ ← لمك ← نوح.

لكن ينبغي أن نكون دقيقين هنا.

هذا نسب مشهور في كتب التاريخ والأنساب، وليس سلسلة نسب ذكرها القرآن آية آية.

ولهذا لا ينبغي أن نقول للقارئ:

«هذا نسب قرآني ثابت».

بل نقول:

تذكر كتب الأنساب والتاريخ أن نوحًا هو نوح بن لمك بن متوشلخ بن إدريس، ويستمر النسب إلى شيث وآدم، وهذا هو النسب المشهور في التراث، مع بقاء تفاصيله في دائرة الأخبار التاريخية لا النص القرآني القطعي.

وهذا التفريق مهم جدًا، لأن حكاية الهداية لا تقوم على جمع القصص فحسب، وإنما تقوم على معرفة أي جزء من القصة نعرفه يقينًا، وأي جزء نعرفه من الرواية، وأي جزء لا نستطيع الجزم به.

حدود الاستقصاء وخريطة الشواهد القرآنية

تُقرأ هذه الحكاية على مستويين متمايزين: الآيات التي نثبت ألفاظها ومواضعها، والأخبار التي نسمي مصادرها ونبيّن مواضع اختلافها. وعبارة «رُوي» لا تعني الحكم بصحة السند، كما أن ورود الخبر في بحار الأنوار لا يحوّل جميع مواده إلى أحاديث عن المعصوم؛ ففيه الحديث والتفسير والتاريخ ونقول عن أهل الكتاب، وقد يفصل المجلسي بينها بنفسه.

والاستقصاء هنا يشمل الشخصيات والأدوار المتصلة بنوح في القرآن، وما أمكن تتبعه في المصادر المعينة في آخر الفصل. لا نعطي المرأة أو الرجل المجهول الاسم اسمًا من عندنا، ولا نعد اختلاف الأسماء دليلًا على تعدد الأشخاص، ولا نزعم إحاطة بكل نسخة مخطوطة أو خبر لم يصل إلينا. وتُذكر الشخصية ولو جاء الخبر بها ضعيفًا أو مختلفًا فيه، مع بيان ذلك، بدل إدخالها في السرد المتيقن.

ورد اسم نوح في ٤٣ موضعًا من ٢٨ سورة. ولإكمال الخريطة، فمواضع الاسم هي: آل عمران ٣٣؛ النساء ١٦٣؛ الأنعام ٨٤؛ الأعراف ٥٩ و٦٩؛ التوبة ٧٠؛ يونس ٧١؛ هود ٢٥ و٣٢ و٣٦ و٤٢ و٤٥ و٤٦ و٤٨ و٨٩؛ إبراهيم ٩؛ الإسراء ٣ و١٧؛ مريم ٥٨؛ الأنبياء ٧٦؛ الحج ٤٢؛ المؤمنون ٢٣؛ الفرقان ٣٧؛ الشعراء ١٠٥ و١٠٦ و١١٦؛ العنكبوت ١٤؛ الأحزاب ٧؛ الصافات ٧٥ و٧٩؛ ص ١٢؛ غافر ٥ و٣١؛ الشورى ١٣؛ ق ١٢؛ الذاريات ٤٦؛ النجم ٥٢؛ القمر ٩؛ الحديد ٢٦؛ التحريم ١٠؛ نوح ١ و٢١ و٢٦. وهذه إحالات الاسم، وليست حدود المقاطع القصصية التي تمتد إلى الآيات المجاورة.

وتضاف الحاقة ١١–١٢ في حمل الآباء في الجارية وبقاء التذكرة، ويس ٤١–٤٤ في الفلك المشحون بحسب تفسيره بسفينة نوح، مع التصريح بأن الاسم غير مذكور فيهما. أما الأحقاف ٣٥ فتقرر الصبر

الذي يستحضره هذا الفصل، وتعين الروايات نوحًا ضمن أولي العزم. وفي هود ٤٩ تعقيب على القصة يربط نبأ الغيب بصبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وبالعاقبة للمتقين.

وتشمل المقارنة الأخلاقية النساء أيضًا: فالتحريم ١٠ تضرب مثلًا بامرأتي نوح ولوط، ثم تعرض الآيتان ١١-١٢ امرأة فرعون ومريم ابنة عمران مثالين للإيمان. هن شخصيات من عصور مختلفة؛ واستحضارهن هنا للموازنة بين المسؤولية الشخصية والقرابة، لا لوضعهن جميعًا في زمن الطوفان.

فهرس مواضع اسم نوح

وترد لنوح في أخبار التسمية أسماء عبد الغفار وعبد الملك وعبد الأعلى، إلى جانب السكن، كما يرد عبد الجبار في خبر آخر. راجع بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٦-٢٨٧، ح ٣-٦، وص ٣٢٦، ح ٤٤. في عدد من هذه الطرق راوٍ غير مسمى؛ لذلك نحفظها أقوالًا في تفسير الاسم، ولا نجعلها أسماء أصلية متعددة ثابتة أو أشخاصًا مختلفين. أما الاسم الذي نسير به في الحكاية فهو الاسم القرآني: نوح.

الوالدان والنسب والأسماء التي لا يذكرها القرآن

يدخل الأب والأم في دعاء نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، من غير تسمية لهما. وأما «لامك بن متوشلخ» وسلسلة النسب المارة بأخنوخ/إدريس، ويارد، ومهلائيل، وقينان، وأنوش، وشيث، وآدم، فموضعها أخبار النسب. أورد المجلسي سلسلة قريبة من هذه عن قصص الأنبياء في بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٧، ح ٨؛ وتختلف كتابة بعض الأسماء بين النسخ.

ويرد في التفسير المنقول عن البيضاوي اسم «شمخا بنت أنوش» لأمه، كما نقله المجلسي، ج ١١، ص ٣١٠. نذكره بوصفه اسمًا في نقل تفسيري تاريخي، لا اسمًا قرآنيًا ولا حديثًا ثابتًا عن أهل البيت. ولا يجيز لنا هذا الاسم كتابة سيرة تفصيلية لأم نوح لا يثبتها المصدر.

ويظل ناحور في خبر اتصال الوصية حلقةً في انتقال العهد، لا بديلًا عن الأب المذكور في سلسلة النسب. فالنسب شيء، وتسليم العلم والوصية شيء آخر. ومن شواهد هذا الخبر رواية الوصية الطويلة في من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ح ٥٤٠٢؛ ولا نثبت بمجرد ورود الاسم فيها نبوة ناحور أو زمنًا تفصيليًا لحياته.

اختلاف حلقات الوصية: ناحور وخرقاسيل

ولا يكتمل ذكر حلقات العهد بإيراد طريق واحد وإخفاء الآخر. ففي قصص الأنبياء للراوندي، ص ٦٣-٦٤، ح ٤٣، رواية تذكر قينان ويزد وأخنوخ/إدريس، ثم «خرقاسيل»، وفي نسخ «خرقائيل»، قبل نوح. يقابل ذلك اسم ناحور في رواية الوصية المتقدمة. نسجل هذا الاختلاف ولا نضيف الأسماء كلها إلى سلسلة واحدة مصطنعة، ولا نجزم بأن خرقاسيل وناحور ولامك أسماء لشخص واحد. وفي سياق الرواية نفسها تحضر حواء وهابيل وقابيل وشيث بوصفهم خلفية للعهد الموروث من آدم، لا أشخاصًا ركبوا مع نوح.

وتُحفظ في فصل سام أيضًا تسمية «قنسوس بنت تركاسل» لأم نوح، و«عمودة» لأم سام، في خبر انتقال النور في إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي. لا نساوي قنسوس بشمخا، ولا عمودة بعمورة، من غير دليل يثبت اتحاد الأسماء، وهذه صيغ روائية أو تاريخية وليست أسماء قرآنية.

نوح في روايات أهل البيت عليهم السلام

ولا تقتصر صورة نوح في التراث الإمامي على كونه الرجل الذي صنع السفينة.

بل تقدم الروايات صورة أوسع لدوره في استمرار الحجة الإلهية وانتقال العلم والوصية من نبي إلى نبي.

وهذا جانب أساسي في حكاية الهداية.

فمن الروايات المهمة ما جاء في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث يتحدث عن نوح بعد الطوفان.

وفيه أن جبرئيل عليه السلام جاء إلى نوح بعد انقضاء نبوته، وأمره أن يدفع الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى ابنه سام.

وتذكر الرواية تعليلًا بالغ الأهمية:

أن الله لا يترك الأرض بغير عالم يُعرف به طاعته وهدايته، وأنه لا يترك الناس بغير حجة وداعٍ وهادٍ إلى سبيله.

وهنا تظهر لنا فكرة ستصبح من أهم الخيوط التي تربط فصول هذا الكتاب بعضها ببعض:

الهداية لا تنتهي بموت النبي.

النبي قد تنتهي حياته، وتنتهي فترة نبوته، لكن العلم والعهد والحجة لا يختفون من الأرض.

وفي هذه الرواية تحديدًا، يظهر سام بوصفه حاملًا لميراث نوح بعده.

وسنعود إلى هذا الأمر لاحقًا عندما نصل إلى الحديث عن أبناء نوح وذريته، لأن قضية سام وحام ويافث ليست مجرد مسألة نسبية، بل ترتبط في بعض الروايات بمسألة استمرار العلم والوصية.

ومن المهم أن نؤكد مرة أخرى:

هذه رواية إمامية ندرس مضمونها ضمن التراث الروائي، ولا نحول تفاصيلها إلى نص قرآني.

فالقرآن لم يقل إن سامًا حمل الاسم الأكبر وميراث علم النبوة.

لكن الرواية تنقل لنا تصورًا مهمًا عن استمرار الحجة والهداية بعد نوح.

وهذا بالضبط هو الأسلوب الذي سنستمر عليه.

هل كان نوح قبل إدريس أم بعده؟

هنا نصل إلى مسألة مهمة جدًا في ترتيب الأحداث.

في الفصل السابق تحدثنا عن إدريس عليه السلام، وقلنا إن المصادر المشهورة تضعه قبل نوح.
لكن عند دراسة التراث الإسلامي نجد أن مسألة ترتيب الأنبياء الأوائل ليست دائمًا بسيطة.
فقد وردت في بعض المصادر روايات أو أقوال مختلفة حول موقع إدريس، كما أن الحديث المشهور عن نوح بوصفه أول رسول أُرسل إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك يحتاج إلى فهم دقيق.
ولهذا يجب ألا نخلط بين أمرين:
النبوة والرسالة إلى قوم مشركين.
فالقرآن نفسه يذكر إدريس بوصفه:
﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.
أما نوح فيقول عنه:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.
وفي التراث الإسلامي وردت روايات مشهورة تجعل نوحًا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد انتشار الشرك.
ولهذا لا يوجد تعارض ضروري بين القول بأن إدريس كان نبيًا قبل نوح، وبين القول بأن نوحًا كان أول رسول إلى قوم وقعوا في الشرك.
وهذا التفريق سيكون مفتاحًا مهمًا عندما نصل إلى بداية الانحراف.
لأن السؤال الذي سيواجهنا ليس فقط:
متى جاء نوح؟
بل:
ماذا حدث بين زمن الأنبياء الأوائل حتى أصبحت البشرية أمام مشكلة الشرك وعبادة الأصنام؟
وهنا تبدأ واحدة من أهم حلقات حكاية الهداية.
كم عاش نوح عليه السلام؟
من أشهر الحقائق المرتبطة بنوح عليه السلام ما ذكره القرآن في سورة العنكبوت.
قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾
سورة العنكبوت، الآية ١٤.
وهنا ينبغي أن نكون دقيقين في العبارة.
القرآن لا يقول صراحة إن عمر نوح كله كان ٩٥٠ سنة.
بل يقول إنه:

لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

أي تسعمائة وخمسين سنة في قومه.

وهذه المدة وحدها كافية لتجعل قصة نوح واحدة من أعظم قصص الصبر في القرآن.

تسعمائة وخمسون عامًا من الدعوة.

لكن القرآن لا يحدد في هذه الآية وحدها:

كم كان عمره عندما بعث؟

وكم عاش قبل بعثته؟

وكم عاش بعد الطوفان؟

ولهذا ظهرت أقوال متعددة في كتب التاريخ والتفسير.

أما في الروايات الإمامية، فقد وردت تفاصيل أكثر عن عمره، ومنها ما جاء في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث تذكر الرواية أنه عاش بعد الطوفان خمسمائة سنة، ثم انتهت نبوته وأوصى بما عنده من ميراث العلم إلى سام.

وهنا يمكننا أن نميز بين مستويين:

الثابت قرآنيًا:أن نوحًا لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

والتفاصيل الروائية:أن له عمرًا أطول من ذلك، وأنه عاش بعد الطوفان مدة معينة.

وهذا التفريق سيصبح مهمًا جدًا عندما ندرس لاحقًا عمر نوح كاملًا.

فلا ينبغي أن نكتب ببساطة:

«عاش نوح ١٤٥٠ سنة.»

ثم نقدمها للقارئ وكأن القرآن قال ذلك.

بل نقول:

ذكر القرآن أن نوحًا لبث في قومه ٩٥٠ سنة، وتذكر بعض الروايات الإمامية أنه عاش بعد الطوفان ٥٠٠ سنة. ومجموع هاتين المدتين ١٤٥٠ سنة، لكنه ليس مجموع عمره بالضرورة، إذ لا يشمل ما تذكره الروايات عن حياته قبل البعثة؛ ولا يعد هذا الجمع رقمًا قرآنيًا لعمره.

نوح وأولاده: بداية ما بعد الطوفان

ومنذ الآن ينبغي أن نضع مسألة أبناء نوح في مكانها الصحيح داخل الحكاية.

فالقرآن لا يذكر أبناء نوح جميعًا بأسمائهم.

لكنه يذكر بوضوح ابنًا من أبنائه كان موقفه من الإيمان مختلفًا عن موقف أبيه.

قال تعالى في سورة هود:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ سورة هود، الآيتان ٤٢-٤٣.

سنعود إلى هذه القصة بالتفصيل في موضعها، لأن القرآن هنا يقدم لنا واحدة من أقوى الصور في تاريخ النبوة:

نبي ينادي ابنه:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾.

لكن الابن لا يستجيب.

وهذا يضع أمامنا منذ الآن قاعدة مهمة جدًا:

النبوة لا تعني أن كل أبناء النبي سيكونون مؤمنين.

وسنرى لاحقًا كيف يناقش نوح ربه بشأن ابنه، وكيف يصحح له الله مفهوم الأهل والنجاة.

أما أبناء نوح الآخرون، فتذكر الروايات والتقاليد الإسلامية أسماء سام وحام ويافث، وتربط بهم استمرار نسل البشر بعد الطوفان.

وفي الروايات الإمامية التي سنعود إليها بالتفصيل، يظهر سام خصوصًا في قضية ميراث العلم والوصية بعد نوح.

لكننا لن نتوسع الآن في هذه المسألة؛ لأن مكانها الطبيعي سيكون بعد الطوفان، عندما نصل إلى نوح وأبنائه وما بقي من البشرية بعد هلاك قومه.

وهكذا نحافظ على التسلسل.

لا نضع نهاية القصة قبل أن نصل إليها.

اسم نوح عليه السلام في روايات أهل البيت

ولا نتوقف الروايات عند مجرد نسب نوح.

ففي التراث الروائي الإمامي نجد اهتمامًا بأسماء الأنبياء، وبالأسباب التي ارتبطت ببعض أسمائهم.

وتوجد روايات عن أهل البيت عليهم السلام تتحدث عن نوح واسمه، وعن سبب تسميته بهذا الاسم، كما تذكر بعض الأخبار صفاته وشخصيته.

وفي خبر أسئلة الشامي لأمير المؤمنين علي عليه السلام، الذي رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا ونقله المجلسي في بحار الأنوار، ج١١، ص٢٨٦، ح٣، يرد اسم «السكن» وتفسير تسمية نوح بكثرة نياحته على قومه. فالمجيب في الخبر أمير المؤمنين، ولا تتحول نسبته إلى الإمام الرضا لمجرد عنوان الكتاب.

لكن هذه الروايات ليست في مرتبة واحدة من حيث السند والدلالة.

ولذلك سنفعل هنا ما فعلناه في قصة إدريس.

لن نحول كل تفسير روائي للاسم إلى حقيقة تاريخية قطعية.

بل نقول:

وردت في الروايات الإمامية أخبار تفسر اسم نوح وتربطه بالبكاء والحزن، وهي مادة روائية ينبغي دراستها بحسب أسانيدها ومتونها.

أما القرآن فلا يدخل في هذه التفاصيل.

وهو يستخدم اسم نوح بوصفه اسم النبي المعروف.

نوح من المصطفين

ومن أهم ما ينبغي أن نبدأ به قبل الحديث عن قوم نوح أن نفهم مكانته عند الله.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فالاصطفاء هنا ليس وصفًا عابرًا.

إنه يدل على اختيار إلهي.

وقد رأينا في قصة آدم كيف بدأت حكاية الإنسان بالاختيار والتعليم والتكليف.

ومع نوح نرى صورة أخرى من الاصطفاء:

اصطفاء نبي ليواجه انحرافًا جماعيًا.

وهذا فارق مهم.

فآدم عليه السلام يمثل بداية الإنسان.

أما نوح عليه السلام فيمثل بداية مرحلة جديدة من المواجهة مع الانحراف الاجتماعي الواسع.

ولهذا فإن دراسة نوح لا تبدأ بالطوفان.

بل تبدأ بالاصطفاء.

ثم بالرسالة.

ثم بالدعوة.

ثم بالصبر.

ثم تأتي بعد ذلك الأحداث الكبرى.

وهكذا ينبغي أن نحكي قصة نوح.

ليس باعتبارها سلسلة من المعجزات المنفصلة، وإنما باعتبارها حلقة متماسكة في حكاية الهداية.

أول رسالة نوح: التوحيد

عندما أرسل الله نوحًا إلى قومه، لم تكن رسالته غامضة.

كانت واضحة ومباشرة:

اعبدوا الله وحده.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

الأعراف، ٥٩.

وهذه الآية تختصر جوهر الرسالة.

نوح لم يبدأ بحديث عن السفينة.

ولم يبدأ بالحديث عن الطوفان.

ولم يبدأ بتفاصيل الحياة الدنيا.

بدأ بأصل الأصول:

لا إله لكم غير الله.

وهذا يكشف لنا أن المشكلة الأساسية التي واجهها نوح كانت مشكلة عقيدة وعبادة.

كان الناس قد ابتعدوا عن التوحيد.

فجاء النبي ليعيدهم إلى الأصل.

وهنا تتضح إحدى أهم قواعد حكاية الهداية:

كلما ابتعد الإنسان عن الله، جاء الوحي ليعيده إلى الحقيقة الأولى.

الله واحد، وهو وحده المستحق للعبادة.

كيف ظهر الشرك بعد التوحيد؟

بعد أن عرفنا أن نوحًا عليه السلام جاء برسالة واضحة تقوم على عبادة الله وحده، نصل الآن إلى السؤال الأصعب:

كيف وصل الإنسان إلى الشرك أصلًا؟

فالقرآن لا يعطينا قصة تقول إن قوم نوح استيقظوا فجأة فقرروا أن يعبدوا الأصنام.

بل عندما نقرأ الآيات، ثم نضم إليها ما ورد في الروايات، تظهر أمامنا صورة أكثر تعقيدًا.

كان هناك أناس صالحون في قوم نوح.

ثم مات هؤلاء الصالحون.

ثم تحولت ذكراهم إلى رموز.

ثم أصبحت الرموز صورًا وتماثيل.

ثم جاء جيل بعد جيل، حتى نُسيت الحكمة الأولى، وتحولت تلك الرموز إلى معبودات.

وهنا تظهر واحدة من أخطر القواعد في حكاية الهداية:

قد يبدأ الانحراف أحيانًا من شيء يبدو في بدايته تكريمًا للصالحين، ثم يتحول التكريم إلى غلو، والغلو إلى وسيلة للانحراف عن التوحيد.

وهذا هو الموضع الذي ينبغي أن نتوقف عنده طويلًا.

ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر

يذكر القرآن أسماء خمسة ارتبطت بقوم نوح:

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

سورة نوح، الآية ٢٣.

هذه الآية مهمة جدًا.

فالقرآن لا يقول فقط إن قوم نوح كانوا مشركين، بل يحفظ لنا أسماء معبوداتهم.

ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

ولم تكن هذه الأسماء مجرد أسماء أشخاص عاديين في السياق الذي يقدمه القرآن.

بل أصبحت أسماء لآلهة عُبدت من دون الله.

والسؤال هنا:

من أين جاءت هذه الأسماء؟

القرآن نفسه لا يشرح في هذه الآية كيف تحولت هذه الأسماء إلى أصنام.

لكن هنا تأتي الروايات.

خبر نشأة الأصنام في تفسير القمي

يورد التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، عند سورة نوح، خبرًا يربط نشأة الأصنام بقوم مؤمنين سبقوا نوحًا. وهذا المقطع من كلام التفسير، ولا يظهر فيه إسناد مستقل إلى الإمام الباقر عليه السلام؛ فلا ننسبه إليه مباشرة.

وتنقل الرواية أن هؤلاء كانوا رجالًا صالحين عاشوا في الفترة التي سبقت نوحًا، وأنهم ماتوا.
فحزن الناس عليهم.
ثم جاء الشيطان، بحسب مضمون الرواية، فوسوس إلى قومهم أن ينصبوا لهم تماثيل في الأماكن التي كانوا يجتمعون فيها، حتى يتذكروا أولئك الصالحين.
في البداية لم تكن العبادة هي المقصودة.
كان الهدف المعلن هو التذكر.
لكن الجيل الذي صنع التماثيل مات.
وجاء جيل آخر.
ثم جاء جيل آخر.
ومع مرور الزمن نُسي أصل القصة.
وبدأ الناس يتعاملون مع تلك التماثيل بطريقة مختلفة.
ثم انتهى الأمر إلى عبادتها.
وهنا تظهر خطورة المسار.
لم يبدأ الأمر بقول:
«لنعبد غير الله».
بل بدأ من باب الذكر والتكريم، ثم تغيرت العلاقة بالرمز عبر الأجيال، حتى وصل الأمر إلى العبادة.
وهذا المعنى هو من أشهر ما نُقل في تفسير بداية عبادة الأصنام في الروايات الإسلامية.

رواية أخرى عن الباقر: لا تدمج مع خبر القوم الصالحين

وهناك بالفعل رواية أخرى منسوبة إلى الإمام الباقر، لكن تفاصيلها تختلف عن خبر تفسير القمي السابق. يرويها الراوندي في قصص الأنبياء، ص ٦٧-٦٩، ح ٤٨: تجعل ودًّا في ذرية قابيل، ثم سواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا في تعاقب أسرته، وتصف تدخل إبليس وصناعة الصور والتنافس على التعظيم. ويظهر إدريس في ختامها قبل بعثة نوح. ونقلها المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٥٠-٢٥٢، ح ٨.
إذن، لا يصح جعل هؤلاء في رواية الباقر هذه خمسة صالحين عاشوا معًا، ثم إسناد كل تفاصيل خبر القمي إليها. نذكر اختلاف الروايتين، ويبقى النص القرآني مثبتًا أسماء المعبودات الخمسة وموقف القوم منها، دون أن يفصل هذه السير أو يجعل أحد المسارين التاريخيين نصًا قطعيًا.
قصص الأنبياء: اختلاف خبر الأصنام وحلقات الوصية
لكن هل هذه الرواية قرآنية؟

هنا يجب أن نتوقف، لأن هذا الفصل يعتمد على نفس المنهج الذي اتبعناه في إدريس.
القرآن يثبت لنا النتيجة، لكنه لا يروي لنا كل مراحل القصة.
فالقرآن يثبت أن قوم نوح قالوا:
﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.
لكن القرآن لا يقول:
إن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسر كانوا خمسة رجال صالحين، ثم صنعت لهم التماثيل، ثم تحولت التماثيل إلى أصنام.
هذه التفاصيل جاءت في الروايات والتفاسير.
ولهذا ينبغي أن نكتبها بهذه الطريقة:
يروي تفسير القمي خبرًا يربط نشأة الأصنام بقوم مؤمنين ماتوا، ثم صُنعت صور لتذكّرهم، قبل أن تتحول إلى معبودات. هذه مادة تفسيرية منقولة، وليست تفصيلًا قرآنيًا ولا حديثًا يصح إسناده هنا مباشرة إلى الإمام الباقر.
وهذه الصياغة تحفظ لنا أمرين:
الأمانة للتراث الروائي،
والأمانة للقرآن.

من التكريم إلى الغلو

وهنا تظهر إحدى أهم القضايا في قصة نوح.
الإسلام لا يمنع احترام الصالحين.
بل القرآن نفسه يعلمنا احترام الأنبياء والأولياء وأهل الفضل.
لكن هناك فرقًا بين:
التكريم
و
العبادة.
وبينهما مرحلة خطيرة هي:
الغلو.
فالإنسان قد يحب عبدًا صالحًا.
وقد يتأثر بعلمه وعبادته.

وقد يريد أن يحافظ على ذكراه.

كل ذلك لا يساوي عبادته.

لكن عندما يتحول الرمز من مجرد تذكير بالله إلى شيء يُطلب منه ما لا يطلب إلا من الله، تبدأ المشكلة.

وهنا نفهم لماذا كانت رسالة نوح مركزة على أصل التوحيد.

لم تكن القضية مجرد أن قومه يملكون تماثيل.

القضية أن هذه التماثيل أصبحت جزءًا من منظومة دينية تنافس عبادة الله.

ولهذا قال نوح:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

دعوة نوح لم تكن دعوة عابرة

وهذا يكشف حجم المهمة التي كانت أمام نوح.

لقد أرسل الله نوحًا إلى قومه.

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة نوح، الآية ١.

ثم يقول نوح:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

سورة نوح، الآيتان ٢-٣.

لاحظ ترتيب الدعوة:

اعبدوا الله.

واتقوه.

وأطيعون.

فالمحور الأول هو الله.

ثم التقوى.

ثم طاعة الرسول فيما جاء به من عند الله.

وهكذا كانت بداية نوح واضحة جدًا.

لم يكن يبحث عن نفوذ سياسي.

ولم يكن يطلب من قومه أن يجعلوه ملكًا.
ولم يبدأ بتغيير مظاهر المجتمع قبل إصلاح أصل العقيدة.
لقد بدأ من الجذر:
التوحيد.

ألف سنة إلا خمسين عامًا

وهنا نصل إلى واحدة من أشهر الآيات في قصة نوح.
قال تعالى:
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.
سورة العنكبوت، الآية ١٤.
هذه الآية وحدها تكشف شيئًا مذهلًا عن صبر نوح.
تسعمائة وخمسون سنة.
والآية تقول إنه لبث فيهم هذه المدة.
وهنا ينبغي أن ننتبه إلى الدقة.
القرآن لا يقول بالضرورة إن عمر نوح كله كان ٩٥٠ سنة.
بل يقول إنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.
أي أن هذه هي المدة التي قضاها فيهم بحسب النص القرآني.
وهذه الدقة مهمة.
لأن بعض الروايات والتفاسير تتحدث عن عمره الكلي وتضيف تفاصيل أخرى.
لكن النص القرآني الذي لا خلاف في ثبوته يقول لنا شيئًا محددًا:
نوح لبث في قومه ٩٥٠ سنة.
وهذا وحده كافٍ لندرك عظمة الصبر في قصته.
دعوة نوح: ليلًا ونهارًا
إذا كانت مدة دعوة نوح طويلة إلى هذا الحد، فالسؤال الذي يفرض نفسه هو:
كيف كان يدعو قومه؟
القرآن يجيبنا بنفسه، وفي سورة نوح نجد وصفًا دقيقًا لطريقته في الدعوة.
قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

نوح، ٥-٧.

هذه الآيات ترسم صورة مؤلمة جدًا.

نوح لم يدع قومه مرة أو مرتين.

قال:

﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

كان يبحث عن كل فرصة يمكن أن يصل فيها الحق إلى قلوبهم.

لكن النتيجة كانت عكس ما يتمنى.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

ثم وصف القرآن رد فعلهم:

﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾.

لم يريدوا حتى أن يسمعوا.

﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾.

ثم:

﴿وَأَصَرُّوا﴾.

ثم:

﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

وهنا يظهر أن المشكلة لم تعد مجرد جهل.

لقد أصبحت إصرارًا واستكبارًا.

تنوع أساليب نوح في الدعوة

ومن الأمور الجميلة في سورة نوح أن القرآن لا يقدم لنا نوحًا وكأنه كرر خطابًا واحدًا طوال ٩٥٠ سنة.

بل نرى تنوعًا في أساليب دعوته.

قال:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

نوح، ٨-٩.

وهذه الآيات تكشف عن مرونة عظيمة في الدعوة.

دعاهم جهارًا.

وأعلن لهم.

وأسر لهم.

أي أنه لم يجعل الدعوة مرتبطة بطريقة واحدة.

كان يحاول الوصول إلى الإنسان من أكثر من طريق.

وهذا درس مهم في حكاية الهداية:

الهداية لا تعني أن يكرر الداعي الكلمات نفسها بطريقة آلية.

بل قد تتغير طريقة البيان، بينما يبقى الحق واحدًا.

الرسالة لا تتغير.

لكن طريقة إيصالها قد تتنوع بحسب حال الناس.

ماذا وعدهم نوح؟

ثم نصل إلى جانب مهم جدًا من دعوة نوح.

لم يكن نوح يحذرهم من العذاب فقط.

بل كان يفتح أمامهم أبواب الرحمة.

قال تعالى:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

نوح، ١٠-١٢.

تأملوا الترتيب.

نوح يقول لهم:

استغفروا ربكم.

ثم يذكر لهم آثار الاستغفار:

المغفرة.

ونزول المطر.

والأموال.

والبنين.

والجنات.
والأنهار.
فدعوة نوح لم تكن دعوة إلى الخوف وحده.
كانت دعوة إلى العودة.
وهذا فرق كبير.
النبي لا يريد أن يخيف الإنسان لمجرد التخويف.
بل يحذره حتى يعود.
ويذكره بالعقوبة حتى يختار الرحمة.
وهكذا تجتمع في دعوة الأنبياء:
الإنذار والبشارة.

نوح والتوحيد والاستغفار

وهنا تظهر علاقة عميقة بين التوحيد والاستغفار.
فنوح لم يقل لهم فقط:
«استغفروا» بصورة منفصلة عن عقيدتهم.
بل جاءت دعوته منذ البداية إلى عبادة الله وحده.
ثم جاء الاستغفار بوصفه ثمرة من ثمار العودة إلى الله.
وهذا يتوافق مع القرآن في مواضع كثيرة:
التوبة ليست مجرد كلمة.
والاستغفار ليس مجرد ترديد للسان.
إنه عودة حقيقية إلى الله.
ولهذا كانت دعوة نوح دعوة إلى تغيير الإنسان من الداخل.
أن يتوقف عن الشرك.
وأن يعود إلى الله.
وأن يترك الاستكبار.
وأن يعترف بحاجته إلى ربه.
وهنا نلاحظ شيئًا مهمًا:

المشكلة لم تكن في غياب الأدلة فقط.
فنوح بقي يدعوهم قرونًا.
المشكلة أصبحت في موقف الإنسان من الحق.
كيف واجه قوم نوح دعوته؟
لم يكن رفض قوم نوح مجرد رفض فكري هادئ.
بل القرآن يصور لنا مواجهة اجتماعية شديدة.
قال تعالى:
﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.
الشعراء، ١١١.
هذه الجملة تكشف جانبًا مهمًا من تفكيرهم.
لم يناقشوا فقط مضمون رسالة نوح.
بل نظروا إلى من اتبعه.
وكأنهم يقولون:
كيف نتبعك ونحن نرى هؤلاء الفقراء والضعفاء من الناس هم الذين اتبعوك؟
وهنا يظهر مرض اجتماعي يتكرر في تاريخ الدعوات:
أن يقيس الإنسان الحق بأتباعه، بدل أن يقيس الأتباع بالحق.
لكن نوحًا لم يطرد المؤمنين لإرضاء المتكبرين.
قال:
﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.
الشعراء، ١١٤-١١٥.
وهذه لحظة مهمة جدًا في قصة نوح.
فالرسول لا يبيع الهداية مقابل القبول الاجتماعي.

استكبار الملأ

ويكرر القرآن في قصة نوح الحديث عن الملأ.
والملأ هم أصحاب المكانة والنفوذ في المجتمع.
قال تعالى:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

هود، ٢٧.

لاحظوا كيف بنوا اعتراضهم.

قالوا:

أنت بشر مثلنا.

وأتباعك هم من نراهم أقل منزلة.

ولا نرى لكم علينا فضلًا.

ثم انتهوا إلى اتهامكم بالكذب.

لم تكن حجتهم قائمة على دراسة الرسالة فقط.

بل دخل فيها:

الطبقية.

والكبر.

والنظر إلى المكانة الاجتماعية.

وهذا مهم جدًا لفهم مقاومة الهداية.

فأحيانًا لا يرفض الإنسان الحق لأنه لا يفهمه.

بل يرفضه لأن قبوله سيغير موقعه الاجتماعي، أو يهدم امتيازًا اعتاد عليه.

هل كان نوح يملك قوة دنيوية؟

ومن اللافت أن القرآن لا يقدم نوحًا بوصفه صاحب سلطة دنيوية.

بل كان قومه يحتجون عليه بأنه بشر مثلهم.

قالوا:

﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾.

وهذا الاعتراض يكشف تصورهم للرسالة.

كانوا يريدون نبيًا يمتلك ما يملكونه أو يتفوق عليهم في مقاييسهم الدنيوية.

لكن الله لا يرسل الأنبياء ليكونوا طبقة أرستقراطية.

الرسول بشر، يأكل ويشرب ويعيش بين الناس.

لكن ميزته ليست في امتلاك قوة دنيوية.

ميزته في الوحي.

وفي الحجة.

وفي الرسالة.

ولهذا كان نوح يكرر أن وظيفته هي البلاغ والإنذار.

وهذا يعيدنا إلى أحد المبادئ الأساسية في حكاية الهداية:

الحق لا يصبح حقًا لأنه قوي، ولا يصبح باطلًا لأنه ضعيف.

نوح عليه السلام: بداية المرحلة الكبرى

بعد أن بدأت البشرية تعرف الانحراف، وتراكمت الأجيال، لم تعد مشكلة الإنسان مجرد نسيان بعض تفاصيل العهد الإلهي.

لقد ظهرت مشكلة أخطر:

أن يتحول تكريم الصالحين إلى غلو، والغلو إلى تعظيم، ثم يتحول التعظيم إلى عبادة.

وهنا تبدأ واحدة من أعظم مراحل حكاية الهداية.

إنه نوح عليه السلام.

والقرآن لا يقدم نوحًا باعتباره مجرد نبي عاش في زمن قديم، وإنما يقدمه باعتباره رسولًا واجه مجتمعًا كاملًا، وصبر على دعوته صبرًا طويلًا، ودعا قومه إلى أصل واحد:

أن يعبدوا الله وحده.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

سورة الأعراف، الآية ٥٩.

وهنا نرى بوضوح أن رسالة نوح لم تبدأ بتفاصيل اجتماعية أو سياسية.

بدأت بإصلاح العقيدة.

بدأت بالتوحيد.

بدأت بإعادة الإنسان إلى الأصل الذي قامت عليه حكاية الهداية منذ آدم:

الله وحده هو المعبود.

نوح يبدأ دعوته

بعد أن نعرف طبيعة الانحراف الذي واجهه نوح، نستطيع أن نفهم لماذا كانت أول كلماته واضحة جدًا.

قال تعالى:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

سورة المؤمنون، الآية ٢٣.

هذه هي الرسالة.

لا آلهة متعددة.

لا وسائط تتحول إلى معبودات.

لا قوى مستقلة عن الله.

لا إنسان يملك من خصائص الألوهية شيئًا.

اعبدوا الله.

ثم يقول:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

وهذه العبارة تختصر جوهر التوحيد.

ليس المقصود فقط أن الله موجود.

بل أن الله هو الإله الذي لا إله غيره.

وهكذا يعود نوح إلى الأساس الذي بدأت به حكاية الهداية:

الإنسان يعرف ربه.

ويعبده.

ويخضع له.

ولا يجعل شيئًا من خلقه ندًا له.

ماذا وعد نوح قومه؟

ولم تكن دعوة نوح مجرد تخويف من العذاب.

بل حملت أيضًا وعدًا بالخير.

قال تعالى:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾

سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.

تأمل تسلسل الخطاب.

نوح يقول لهم:

استغفروا ربكم.

ثم يذكر آثار الاستغفار:

المطر.

والمال.

والبنين.

والجنات.

والأنهار.

إذن التوحيد والاستغفار ليسا مجرد أفكار نظرية منفصلة عن الحياة.

بل هما مرتبطان بعلاقة الإنسان بالله، وبالبركة، وبإصلاح حاله.

لكن هذه الآيات لا تعني أن الاستغفار مجرد وسيلة للحصول على المال والأبناء.

بل الأصل هو العودة إلى الله.

والنعم تأتي في سياق رحمته وفضله.

وهكذا يجمع خطاب نوح بين:

الخوف من الله، والرجاء في رحمته.

نوح والحجة

ومن هنا تبدأ نقطة مهمة جدًا في فهم وظيفة النبي.

نوح لم يأت ليجبر الناس على الإيمان.

بل أقام عليهم الحجة.

دعاهم.

كرر الدعوة.

أوضح لهم.

حذرهم.

وبشرهم.
ثم ترك لهم مسؤولية الاختيار.
وهذا يتفق مع أصل قرآني عام:
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
سورة البقرة، الآية ٢٥٦.
كما قال تعالى:
﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
سورة النساء، الآية ١٦٥.
وهنا تتضح وظيفة الرسول في حكاية الهداية.
إنه لا يملك قلوب الناس.
لكنه يملك أن يبلغ الرسالة.
ويقيم الحجة.
ويفتح الطريق.
أما الإنسان، فعليه أن يختار.
ولادة نوح عليه السلام ونسبه
بعد أن اتسعت حكاية الهداية عبر الأجيال، دخلت البشرية مرحلة جديدة.
لكن قبل أن نصل إلى الطوفان، والسفينة، ودعوة نوح الطويلة، ينبغي أن نتوقف عند نوح نفسه.
من هو نوح؟
متى ولد؟
ومن أي نسل جاء؟
وهل يعطينا القرآن نسبه الكامل؟
هنا، كما فعلنا مع إدريس، يجب أن نفرق بين ما يقوله القرآن، وما تنقله الروايات، وما اشتهر في كتب التاريخ.
فالقرآن يذكر نوحًا كثيرًا، لكنه لا يقدم لنا شجرة نسب طويلة باسمه وأسماء آبائه وأجداده.
بل يقدم لنا الأهم:
نوح كان عبدًا لله، ونبيًا مرسلًا إلى قومه، وداعيًا إلى التوحيد، وصابرًا على أذى قومه، ثم أصبح الطوفان في قصته نقطة فاصلة في تاريخ البشرية.

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ١-٣].

وهذه الآيات تختصر لنا منذ البداية جوهر الرسالة:

نوح لم يبدأ ببناء السفينة.

ولم يبدأ بالطوفان.

ولم يبدأ بالعقوبة.

بل بدأ بالدعوة.

بدأ بقوله:

اعبدوا الله.

وهذه هي النقطة التي ينبغي ألا تضيع منا ونحن نقرأ قصة نوح.

فالقصة في جوهرها ليست قصة كارثة مائية.

إنها قصة أمة ابتعدت عن التوحيد، ونبي أمضى قرونًا في دعوتها إلى الله، ثم جاءت النهاية بعد أن استنفدت الدعوة مجالها.

ماذا نعرف عن نسب نوح؟

إذا التزمنا بالقرآن وحده، فإننا لا نستطيع أن نكتب نسب نوح عليه السلام إلى آدم بصورة تفصيلية.

وهذا مهم جدًا، لأن بعض الكتب التاريخية تذكر سلسلة من الأسماء بين نوح وآدم، وقد يقرأها القارئ وكأنها جزء من النص الديني القطعي.

لكن القرآن لا يسرد هذه الأسماء.

ولهذا سنقول:

نوح من ذرية آدم، وكان من الأنبياء الأوائل، وأرسله الله إلى قومه قبل الطوفان.

أما التفاصيل المتعلقة بأسماء آبائه وأجداده، فينبغي أن ننسبها إلى مصادرها، لا إلى القرآن.

وهناك أصل قرآني واضح يساعدنا على فهم مكان نوح في سلسلة البشرية.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

فنوح هنا يأتي بعد آدم في سياق الاصطفاء الإلهي.

وهذا لا يعني أن الآية تقدم جدولًا زمنيًا تفصيليًا، لكنها تؤكد مكانته ضمن سلسلة الاصطفاء والهداية.

ويخاطب القرآن بني إسرائيل بوصفهم ذرية من حمل الله مع نوح، ثم يصف نوحًا بالعبد الشكور:
﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].
كما يقول:
﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].
وهاتان الآيتان ستصبحان مهمتين جدًا عندما نصل لاحقًا إلى أبناء نوح، لأن قصة نوح ليست قصة رجل واحد فقط.
إنها أيضًا قصة ذرية ستعيد البشرية من جديد بعد الطوفان.
لكننا لن نستعجل الوصول إلى تلك المرحلة.
فلكل جزء من القصة وقته.

نوح وحجة الفطرة

ثم ينتقل نوح إلى الاستدلال بما يحيط بالإنسان من آيات الله.
قال:
﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٣-١٧].
إنه لا يخاطب عقولهم من خلال فكرة مجردة فقط.
بل يلفت أنظارهم إلى أنفسهم وإلى الكون.
أنتم خُلقتم أطوارًا.
السماء فوقكم.
القمر.
الشمس.
الأرض.
النبات.
كل ذلك يشير إلى الخالق.
وهكذا كانت دعوة نوح تجمع بين:
الوحي،
والفطرة،

والعقل،

ومشاهدة آيات الله.

فالهداية لا تطلب من الإنسان أن يغلق عينيه عن الكون.

بل تطلب منه أن ينظر.

وأن يسأل:

من خلقني؟

ومن خلق هذا العالم؟

ولماذا أنا هنا؟

وإلى أين المصير؟

من الحجة إلى التهديد: ما الذي واجهه نوح؟

لم يكن رفض القوم اعتراضًا واحدًا. ففي هود ٢٧ نظر الملأ إلى بشريته وإلى فقر أتباعه، ثم جعلوا المكانة الاجتماعية مقياسًا للحقيقة. وجاء الجواب في الآيات ٢٨-٣١ حجةً واضحة: معه بينة ورحمة من ربه، ولا يستطيع أن يحملهم على الإيمان وهم كارهون؛ ولا يسألهم مالًا، ولا يطرد الذين آمنوا، ولا يدعي ملك خزائن الله أو العلم بالغيب من ذاته، ولا يدعي أنه ملك.

وهنا يظهر المؤمنون المستضعفون بوصفهم أصحاب موقف، لا مجرد عدد قليل على هامش القصة. لا يسميهم القرآن فردًا فردًا، لكنه يحفظ لهم إيمانهم وحقهم في ألا يُطردوا إرضاءً لأصحاب النفوذ. وما يزدريه الملأ لا يملك الملأ أن يسلبه كرامته عند الله. وفي الشعراء ١١١-١١٥ يتكرر هذا الجواب: الحساب إلى الله، ولا يكون النبي طاردًا للمؤمنين.

ثم ارتفع صوت الرفض. ففي المؤمنون ٢٤-٢٥ زعموا أنه بشر يريد التفضل عليهم، وطعنوا فيه بالجنون، وانتظروا به الأجل. وفي الشعراء ١١٦ هددوه بالرجم. وفي هود ٣٢ طالبوه بالعذاب الذي ينذرهم به، فأعاد الأمر إلى الله: ليس العذاب قدرة مستقلة يملكها النبي متى شاء، ولا الغلبة في الجدال دليلًا على النجاة.

وفي يونس ٧١-٧٢ يتجلى توكله: جمع الخصوم وقوتهم لا يبدل وجهته، وأجره على الله. لم يكن هذا طلبًا لمجد شخصي. كانت الدعوة أمانة، وكان ثباته عليها من غير شراء رضا الأغنياء أو إخراج الفقراء صورةً من الصبر العملي الطويل.

ولم تقتصر حجته على الخوف. فسورة نوح ١٣-٢٠ تلفت إلى خلق الإنسان أطوارًا، والسماوات، والقمر والشمس، والإنبات من الأرض والعودة إليها ثم الإخراج منها، والأرض المهيأة للسير في سبلها. فالرزق والمطر والخلق والبعث تجتمع في خطاب واحد يوقظ النظر والشكر. وهذه معاني نعرضها شرحًا للآيات، ولا نضيف إليها حوارًا لم يروه النص.

حين انتهت المهلة وبدأ صنع الفلك

لم يكن الدعاء على المكذبين أول موقف نوحٍ منهم. قبله قرون من الدعوة، ثم وحي يضع حدًا لانتظار إيمان من أصر على الرفض: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]. وعند قراءة دعائه في نوح ٢٦-٢٧ لا نفصل عباراته عن هذا العلم الذي أعلمه الله به، ولا نجعله حكمًا بشريًا على طفل لم يختر طريقه بعد.

وبعد أن ذكر نوح في سورة نوح ٢١-٢٤ عصيان قومه واتباعهم أصحاب المال والولد والمكر والتمسك بالأصنام، جاءت خاتمة موقفهم. لكن القرآن لا يسمي ملكًا بعينه أو زعيمًا محددًا لهذه الجماعة. لذلك يبقى الملأ والمضلون جماعة موصوفة، ولا نضيف إليهم أسماء ملوك من القصص غير المحققة.

ثم تحول الصبر إلى عمل. أُمر نوح بصنع الفلك بعناية الله ووحيه، وألا يخاطبه في الذين ظلموا [هود: ٣٧]. كان يصنع السفينة، وكلما مر به ملأ من قومه سخروا منه، فرد عليهم بما يرد الأمر إلى عاقبته [هود: ٣٨-٣٩]. لا يذكر القرآن عدد سنوات الصناعة ولا مقاييس السفينة، ولكنه يصفها بأنها ذات ألواح ودسر [القمر: ١٣].

وفي الكافي، ج ٨، ص ٢٨٣، ح ٤٢٥، خبر عن الإمام الباقر يصف سخرية القوم منه في مراحل الغرس والنجارة وصنع السفينة. وفي الحديث ٤٢٦ خبر عن الصادق يذكر أبعادًا للسفينة وطوافها بالبيت. نورد أصل هذه الأخبار بوصفه تفصيلًا روائيًا، ولا نجعل مقاديرها آيات قرآنية أو مقاييس أثرية مقطوعًا بها.

وتختلف أخبار مدة البناء وأبعاد السفينة وعدد مرات غرس النوى. فخبر المفضل في الكافي، ج ٨، ص ٢٨٠-٢٨١، ح ٤٢١، يذكر ثمانين سنة للصنع، وفي أخبار أخرى مدد مختلفة. كما يروي كمال الدين اختبار المؤمنين بتأخر الوعد وتجدد الغرس، وتختلف ألفاظه عن خبر آخر في الغيبة للنعماني. الجامع القصصي هو الصبر على الوعد؛ أما الأعداد فلا نركب منها تسلسلًا واحدًا لم يروه مصدر واحد.

الكافي: الصناعة والشريعة

فوران التنور والركوب: من العمل إلى النجاة

جاءت العلامة: فار التنور. وفي هود ٤٠ والمؤمنون ٢٧ ارتبطت العلامة بالأمر بحمل الزوجين والأهل، مع الاستثناء لمن سبق عليه القول، ومن آمن. لا تعني كلمة الأهل وعدًا مطلقًا لكل قريب مهما اختار، كما لا يحصر النص المؤمنين في الأسرة وحدها. وقد حفظ القرآن حقيقتين معًا: جماعة آمنت ونجت، وقلة الذين آمنوا معه.

ولم يترك التراث دور النساء غائبًا عن هذا المشهد. ففي الكافي، ج ٨، ص ٢٨١، ضمن حديث المفضل ٤٢١، يرد وصف امرأة عجوز مؤمنة ارتبط التنور بموضعها. وفي الحديثين ٤٢٢ و٤٢٣، ص

٢٨١-٢٨٢، ترد امرأة نوح التي أخبرته بخروج الماء، والثاني يروى بواسطة راوٍ غير مسمى. وليس في هذه المواضع ما يوجب الجزم بأن العجوز والزوجة شخص واحد.

وحين اكتمل الاستعداد جاء الركوب باسم الله. قال نوح: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]. فالسفينة وسيلة النجاة، لكن النبي لا ينسب حفظها إلى الخشب وحده أو إلى مهارته. بقيت الرحمة حاضرة عند دخولها كما كانت حاضرة في دعوته.

وتعرض سورة القمر ٩-١٧ مشهد الماء من جهتين: أبواب السماء وماء منهمر، والأرض وعيون تتفجر، ثم التقاء الماء على أمر مقدر. حمل الله نوحًا على ذات ألواح ودسر تجري برعايته، وبقيت القصة آية للتذكر. ولا يبيح النص لنا تحديد يوم ميلادي للطوفان أو رسم امتداده الجغرافي بالمقادير الحديثة من غير دليل مستقل.

وفي المؤمنون ٢٨-٢٩ تعلّم نوح شكر النجاة من القوم الظالمين، وسؤال المنزل المبارك. الدعاء حاضر قبل الرحلة وفي توجيه ما بعدها. ثم تتقدم السفينة في موج كالجبال، ويتجه النداء إلى الابن المنعزل. هنا تبدأ المحنة الأسرية التي يعرضها المبحث التالي، بعد أن اكتمل الطريق من الدعوة إلى الصناعة فالركوب.

الكافي: المرأة المؤمنة والتنور

الكافي: إخبار الزوجة

أبناء نوح واستمرار العهد

أبناء نوح عليه السلام

بعد أن عرضنا بداية قصة نوح عليه السلام، ونسبه ومكانته في سلسلة الأنبياء، نصل إلى جانب مهم من حياته، وهو أبناؤه.

وهنا يجب أن نتعامل مع المسألة بالطريقة نفسها التي اعتمدناها منذ بداية الكتاب:

نميز بين ما ذكره القرآن صراحة، وما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام، وما ذكرته كتب التاريخ والقصص.

فالقرآن يذكر لنوح عليه السلام أبناء، لكنه لا يقدم لنا قائمة كاملة بأسمائهم ولا يروي لنا تفاصيل حياتهم جميعًا.

وأبرز ما يذكره القرآن هو ذلك المشهد العظيم في أثناء الطوفان، عندما نادى نوح عليه السلام أحد أبنائه.

قال تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

سورة هود، الآيتان ٤٢-٤٣.

وهذه الآيات وحدها تحمل درسًا هائلًا في قصة الهداية.

كان نوح أبًا، وكان ابنه أمامه.

وكان يستطيع أن يناديه بمنطق الأبوة فقط:

تعال لأنني أبوك.

لكنه قال:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾.

فالأبوة هنا لا تنفصل عن الهداية.

نوح لا يريد فقط أن ينقذ جسد ابنه من الماء، بل يريد أن ينقذ قلبه من الكفر.

لكن الابن اختار الاعتماد على سبب مادي:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾.

فجاء جواب نوح:

﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

وهنا تبلغ قصة نوح واحدة من أعظم لحظاتها:

لا النسب ينقذ الإنسان.

ولا الأبوة.

ولا القرب من النبي.

ولا الجبل.

إنما النجاة في رحمة الله والاستجابة للحق.

هل كان ابن نوح من أهله؟

بعد أن رأى نوح عليه السلام ابنه يغرق، لم يتعامل معه كإنسان بعيد عنه.

بل عاد إلى الله وقال:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

سورة هود، الآية ٤٥.

وهذه الآية مهمة جدًا، لأنها تكشف لنا أن نوحًا لم يكن يعترض على حكم الله، وإنما كان يسأل عن وعد الله.

ثم جاءه الجواب الإلهي:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

سورة هود، الآية ٤٦.

وهنا نصل إلى قاعدة عظيمة في حكاية الهداية:

الأهل الحقيقيون ليسوا أهل الدم وحده، وإنما أهل الإيمان والطاعة.

وهذا المعنى مهم جدًا في الفكر القرآني.

فالقرآن لا ينكر النسب، ولكنه لا يجعل النسب سببًا للنجاة بذاته.

ولهذا كان جواب الله لنوح واضحًا:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وقد ناقش المفسرون معنى هذه الآية، كما وردت في التراث الإسلامي روايات متعددة في شأن ابن نوح.

والمنهج الذي سنلتزم به هنا هو ألا نحول كل تفصيل روائي إلى حقيقة قرآنية مستقلة.

فالقرآن يثبت بوضوح أن الرجل كان ابن نوح من جهة النداء والنسب الظاهر، لكنه لم يكن من أهله الذين وعد الله بنجاتهم، بسبب عمله غير الصالح.

ثم ماذا فعل نوح؟

لم يجادل.

بل قال:

﴿رَّبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

سورة هود، الآية ٤٧.

وهنا تظهر عظمة نوح مرة أخرى.

النبي الذي أمضى قرونًا يدعو قومه إلى الله، عندما يتعلم شيئًا جديدًا من ربه، لا يتكبر.

بل يرجع فورًا.

ويطلب المغفرة.

وهذا أيضًا من حكاية الهداية:

الهداية لا تعني أن الإنسان لا يتعلم، بل تعني أنه إذا ظهر له الحق ازداد خضوعًا له.

أبناء نوح في الروايات الإسلامية

أما أسماء أبناء نوح عليه السلام، فهنا ينبغي أن نكون أكثر دقة.

فالقرآن لم يسمِّ أبناء نوح جميعًا.

وإنما ذكر الابن الذي رفض الركوب في السفينة دون أن يذكر اسمه.

أما الأسماء التي اشتهرت في كتب التاريخ والتفسير، فمنها:

سام، وحام، ويافث.

وتذكر بعض المصادر اسمًا آخر للابن الذي غرق، وتختلف الروايات في تسميته.

ولهذا لا ينبغي أن نكتب في الكتاب:

«كان لنوح أربعة أبناء قطعًا، وهم فلان وفلان وفلان وفلان»

ثم نقدم ذلك باعتباره قرآنًا.

الأصح أن نقول:

إن المصادر الإسلامية والتاريخية تذكر لنوح عددًا من الأبناء، واشتهرت أسماء سام وحام ويافث، بينما تختلف المصادر في تفاصيل بقية الأبناء وفي تسمية الابن الذي غرق.

وتظهر بعض المصادر الإمامية التي تجمع الأخبار التاريخية هذه الأسماء أيضًا، لكنها لا تجعل القرآن نفسه مصدرًا لتفصيل أسمائهم.

وهذه نقطة مهمة في منهج الكتاب.

فنحن لا نريد حذف التراث.

ولا نريد أيضًا أن نضع الرواية التاريخية في مرتبة النص القرآني.

بل نعرضها، ونذكر مصدرها، ونبين درجتها.

وقد ورد في بعض المصادر التي تجمع أخبار الأنبياء أن نوحًا كان له أبناء منهم سام وحام ويافث، مع اختلاف الأخبار في بعض التفاصيل.

وهذا هو الأسلوب الذي سنستمر عليه:

القرآن أولًا، ثم الرواية، ثم التاريخ، مع التمييز بين درجات الإثبات.

الأبناء والنجاة: درس آخر من الطوفان

ولعل أعظم ما نتعلمه من أبناء نوح ليس أسماءهم.

بل السؤال:

من الذي نجا؟

القرآن يجعل القضية واضحة.
السفينة كانت وسيلة النجاة التي أمر الله بها نوحًا.
لكن مجرد وجود الإنسان قريبًا من نوح لم يكن كافيًا.
فابن نوح كان أمام أبيه.
وسمع الدعوة.
ورأى الماء.
ورأى السفينة.
ومع ذلك اختار أن يعتمد على الجبل.
وهنا يتكرر أحد أهم قوانين حكاية الهداية:
قد يكون الإنسان قريبًا من مصدر الهداية، لكنه يرفض الهداية.
وقد يكون بعيدًا عن النبي من حيث المكان، لكنه قريب منه بالإيمان.
فالنجاة ليست امتيازًا وراثيًا.
ولا تنتقل بالدم.
ولا تُمنح لمجرد الانتماء العائلي.
ولهذا أصبح مشهد ابن نوح من أقوى المشاهد القرآنية في بيان استقلال المسؤولية الإيمانية.
نوح نبي.
وابنه ابنه.
لكن عندما اختار الابن طريق الكفر، لم ينفعه نسبه.
وفي المقابل، كان المؤمنون الذين ركبوا السفينة مع نوح من أهل النجاة.
وهنا تتكرر فكرة رأيناها في قصة آدم وإدريس:
الله يريد من الإنسان أن يحفظ العهد بنفسه.

من بقي بعد الطوفان وذرية نوح

من بقي مع نوح عليه السلام؟
بعد أن انتهى الطوفان، لم تكن قصة نوح قد انتهت.
فالسفينة لم تكن مجرد وسيلة نجاة من الماء.
كانت بداية مرحلة جديدة من تاريخ البشرية.

قال تعالى:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

سورة هود، الآية ٤٤.

ثم قال سبحانه:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾

ثم انتهى الأمر بنجاة من كان مع نوح، وهلاك من كفر.

وهنا يطرح القارئ سؤالًا طبيعيًا:

من بقي من البشر بعد الطوفان؟

القرآن يعطينا مفتاحًا مهمًا في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾

سورة الصافات، الآية ٧٧.

هذه الآية من أهم الآيات في فهم ما بعد الطوفان.

فالقرآن يربط بقاء الذرية بنوح عليه السلام.

لكن يجب أن ننتبه إلى صياغة الآية.

لم يقل القرآن إن كل إنسان نجا.

ولم يقل إن جميع من ركب السفينة أصبحوا أصل البشرية.

بل قال:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

ومن هنا أصبح نوح نقطة مفصلية في التاريخ البشري.

هل كل من في السفينة كانوا من ذرية نوح؟

هذه مسألة تستحق التوقف.

لأن القرآن يقول:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

وفي الوقت نفسه يخبرنا أن نوحًا كان معه مؤمنون آخرون.

قال تعالى:

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

سورة هود، الآية ٤٠.

إذن كان هناك مؤمنون مع نوح غير أبنائه.

فكيف نفهم قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾؟

ذكر المفسرون وجوهًا في ذلك، ومن أهمها أن المراد أن استمرار نسل البشر بعد الطوفان كان من ذرية نوح، مع وجود من نجا معه من المؤمنين.

وهذا ينسجم مع كون القرآن لا يقول إن نوحًا كان وحده في السفينة.

بل يقول:

﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وهنا ينبغي ألا نحاول أن نملأ ما سكت عنه القرآن بتفاصيل قطعية.

فالمهم الذي يثبته النص هو:

نوح نجا.

ومن معه من المؤمنين نجوا.

وابن نوح الكافر غرق.

والقرآن يقرر أن ذرية نوح هي التي بقيت.

أما التفاصيل الدقيقة لكيفية استمرار نسل البشر بعد الطوفان، ومن كان مع نوح من غير ذريته، وكيف توزعت الأنساب بعد ذلك، فهذه تدخل في دائرة الروايات والتاريخ والتفسير.

أبناء نوح الثلاثة في الروايات

إذا انتقلنا الآن إلى الروايات الإسلامية، وخصوصًا الروايات التي حفظها التراث الإمامي، نجد اهتمامًا واضحًا بأبناء نوح.

ومن أشهر الأسماء:

سام، وحام، ويافث.

وتتحدث الروايات عن هؤلاء الثلاثة بوصفهم أبناء نوح الذين بقي نسلهم.

لكن هنا ينبغي أن نحافظ على القاعدة التي أصبحت جزءًا أساسيًا من حكاية الهداية:

لا نخلط بين القرآن والرواية.

فالقرآن لم يسمِّ سامًا ولا حامًا ولا يافثًا.

وإنما جاءت هذه الأسماء في الروايات وكتب التاريخ والتفسير.
وقد وردت في التراث الإمامي روايات تتحدث عن أبناء نوح وذراريهم، وتربط استمرار الأمم والأنساب بهم.
ومن الروايات المهمة في هذا الباب ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في شأن أبناء نوح وذراريهم.
وتظهر في بعض الروايات تقسيمات تتعلق بذريات سام وحام ويافث وما ترتب عليها من الأمم.
لكن هذه الأخبار ليست كلها في درجة واحدة من حيث السند.
ولهذا لا ينبغي أن نستخدمها لتقرير تفاصيل عرقية أو تاريخية قطعية لمجرد ورودها في كتاب روائي.
والأصح في أسلوبنا أن نقول:
ورد في الروايات الإمامية أن لنوح أبناء، واشتهر منهم سام وحام ويافث، وتحدثت الروايات عن استمرار الذرية من خلالهم، مع اختلاف الأخبار في بعض التفاصيل.
وهكذا نحفظ الرواية دون أن نجعلها قرآنًا.
نوح وأبناؤه: هل كانت النجاة مرتبطة بالإيمان أم بالنسب؟
وهنا يظهر سؤال أعمق.
إذا كانت ذرية نوح هي التي بقيت، فهل كان ذلك بسبب كونهم أبناء نبي فقط؟
الجواب الذي تعطيه حكاية نوح بوضوح هو:
لا.
فالقرآن سبق أن قدم لنا المثال المقابل:
ابن نوح نفسه لم ينج.
وهذا من أقوى الأدلة على أن النسب وحده لا يكفي.
كان نوح أبًا.
وكان ابنه من صلبه.
ومع ذلك قال الله:
﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.
فالبقاء بعد الطوفان لا ينبغي أن نفهمه على أنه تكريم عائلي مجرد.
إنما هو جزء من حكمة الله في استمرار البشرية من خلال ذرية النبي الناجية.
وهذا يعيدنا إلى واحدة من أهم أفكار الكتاب:

العهد لا يحفظه الدم وحده، وإنما يحفظه الإيمان والطاعة.

ولهذا فإن وجود ذرية نوح بعد الطوفان لا يعني أن كل فرد من هذه الذرية كان صالحًا.

فالإنسان بعد نوح سيبقى إنسانًا:

يمكنه أن يؤمن.

ويمكنه أن ينحرف.

يمكنه أن يحفظ العهد.

ويمكنه أن ينقضه.

وهكذا لا تنتهي مشكلة الهداية بانتهاء الطوفان.

بل تبدأ مرحلة جديدة.

ماذا حدث بعد استقرار السفينة؟

يقدم لنا القرآن مشهدًا مختصرًا لكنه عظيم.

بعد أن استقرت السفينة على الجودي، قيل لنوح:

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾

سورة هود، الآية ٤٨.

وهذه الآية تكشف شيئًا مهمًا.

فالطوفان لم يكن نهاية الحياة.

بل كان بداية مرحلة جديدة.

قال الله:

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾.

إنها لحظة انتقال.

من السفينة إلى الأرض.

من الخوف إلى السلام.

ومن مرحلة الهلاك إلى مرحلة إعادة بناء الحياة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

وهذه العبارة تؤكد أن مع نوح جماعة من البشر.

ولذلك فإن قصة ما بعد الطوفان ليست قصة رجل واحد يعود إلى أرض خالية.

بل قصة مجتمع جديد يبدأ حياته تحت رحمة الله.

وهنا يمكن أن نفهم لماذا أصبح نوح شخصية محورية في التاريخ البشري.

لقد مر العالم معه بتجربة غير مسبوقة.

مجتمع كامل كذب.

نبي دعا.

سنوات طويلة من الصبر.

ثم جاء الطوفان.

ثم بدأت مرحلة جديدة.

نوح عليه السلام بعد الطوفان

لم ينته ذكر نوح عليه السلام في القرآن بمجرد غرق قومه.

بل استمر القرآن في تقديمه بوصفه نموذجًا من نماذج العبودية والصبر والنجاة.

قال تعالى:

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

سورة الصافات، الآيات ٧٩-٨١.

وهذه الآيات من أجمل ما يمكن أن نختم به مرحلة الطوفان.

لاحظ كيف يصف الله نوحًا:

﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قبل أن يكون نوح قائدًا لأمة.

وقبل أن يكون صاحب سفينة.

وقبل أن يكون نبيًا واجه قومًا كاملًا.

كان:

عبدًا مؤمنًا لله.

ثم قال تعالى:

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾.

فالرجل الذي سخر منه قومه، والذي عاش زمنًا طويلًا في مواجهة الرفض، أصبح له سلام من الله في العالمين.

وهنا يعود بنا القرآن إلى المعنى الذي رأيناه مع إدريس:

القيمة الحقيقية ليست في قوة الإنسان عند الناس.

بل في منزلته عند الله.

نوح عليه السلام بعد الطوفان: بداية جديدة

لم تكن نجاة نوح عليه السلام ومن آمن معه مجرد نهاية لعذاب الطوفان، بل كانت بداية مرحلة جديدة في تاريخ البشرية.

قال تعالى:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٤.

تتوقف العاصفة.

وينحسر الماء.

وتستقر السفينة.

وينتهي ذلك المشهد الهائل الذي استمر فيه نوح يدعو قومه إلى الله، ثم رأى بعينيه نهاية مجتمع كامل أصر على التكذيب.

لكن القرآن لا يقدم الطوفان بوصفه قصة هلاك فقط.

بل يفتح بعده بابًا جديدًا:

باب النجاة.

باب البقاء.

وباب استمرار الإنسان في الأرض.

ولهذا يقول الله سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ سورة الصافات، الآية ٧٧.

وهذه الآية من أهم الآيات في فهم ما بعد الطوفان.

فذرية نوح بقيت، ومن خلالها استمر نسل البشر بعد تلك الحادثة العظيمة.

وهكذا لم تنته حكاية الهداية بالطوفان.

بل استمرت.

وكأن الرسالة الإلهية تقول لنا مرة أخرى:

قد يهلك مجتمع بأكمله عندما يصر على الانحراف، لكن عهد الله بالهداية لا ينقطع.

من بقي مع نوح؟

هنا ينبغي أن ننتبه إلى الفرق بين ما يخبرنا به القرآن وما تذكره الروايات.

القرآن يخبرنا أن نوحًا عليه السلام نجا، وأن من آمن معه نجا، وأن ذريته بقيت.

قال تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة العنكبوت، الآية ١٥.

وقال سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

أما أسماء أبناء نوح وعددهم وتفاصيل ذريته، فهذه تأتي بصورة أوضح في الروايات والتفاسير والتاريخ.

وتذكر الروايات الإسلامية المشهورة أن لنوح أبناءً، ومن أشهر الأسماء التي ارتبطت بهم:

سام، وحام، ويافث.

لكن القرآن نفسه لا يذكر هذه الأسماء الثلاثة.

بل يذكر في قصة الطوفان ابنًا لنوح رفض أن يركب السفينة.

قال تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ سورة هود، الآيتان ٤٢-٤٣.

وهنا نصل إلى واحدة من أكثر اللحظات ألمًا في قصة نوح.

إنه ليس شخصًا غريبًا عن نوح.

إنه ابنه.

ومع ذلك لم تنقذه القرابة.

لأن النجاة في منطق القرآن لم تكن بالانتساب إلى نبي، وإنما بالإيمان بالله والاستجابة لأمره.

وهذه قاعدة مركزية في حكاية الهداية:

النسب وحده لا يصنع الإيمان.

ابن نوح: عندما لا تنفع القرابة

بعد أن رأى نوح ابنه يغرق، جاء مشهد آخر يكشف عمق الأبوة، وفي الوقت نفسه يكشف حدود القرابة أمام حكم الله.

قال نوح عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٥.

لم يكن سؤال نوح اعتراضًا على الله.

بل كان سؤال نبي يريد أن يفهم حكم ربه.

فجاء الجواب:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٦.

وهذه الآية تحتاج إلى تأمل شديد.

فالله لم يقل إن نوحًا ليس أبًا له.

وإنما بيّن أن هذا الابن ليس من الأهل الذين يشملهم الوعد بالنجاة بسبب انقطاعه عن الإيمان والطاعة.

ولهذا أصبحت قصة ابن نوح واحدة من أوضح الشواهد القرآنية على أن رابطة العقيدة والهداية أعمق من رابطة الدم وحدها.

وهنا تظهر إحدى القواعد الكبرى في حكاية الهداية:

قد يكون الإنسان قريبًا من النبي جسدًا، لكنه بعيد عنه في طريق الله.

وقد يكون الإنسان بعيدًا في النسب، لكنه قريب في الإيمان.

دعاء نوح واستغفاره

بعد هذا الموقف لم يستمر نوح عليه السلام في السؤال.

بل عاد إلى مقام العبودية والتسليم.

قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة هود، الآية ٤٧.

وهنا تظهر عظمة النبي.

فالنبي لا يعني أنه لا يتأثر.

ولا يعني أن قلبه لا يحزن.

ولا يعني أنه لا يسأل.

بل يعني أنه عندما يتبين له أمر الله، يرجع ويسلم.

وهذا من أعمق معاني العبودية.

أن يكون القلب متعلقًا بالله، حتى عندما لا يفهم الإنسان كل الحكمة في اللحظة الأولى.

نوح كان أبًا.

وكان قلبه يتألم على ابنه.

لكنه في النهاية قال:

﴿أَعُوذُ بِكَ﴾.

فالهداية لا تلغي المشاعر الإنسانية.

بل تهذبها وتعيدها إلى الله.

ما بعد الطوفان: السلام والبركة

بعد انتهاء الطوفان واستقرار السفينة، جاء خطاب آخر لنوح عليه السلام.

قال تعالى:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة هود، الآية ٤٨.

تأمل هذه العبارة:

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾.

بعد الخوف يأتي السلام.

بعد الطوفان تأتي البركة.

بعد الهلاك تأتي بداية جديدة.

وهذه من أجمل التحولات في القصة.

فالقرآن لا يترك نوحًا عند مشهد الغرق.

بل ينقله إلى الأرض من جديد.

وكأن حكاية الهداية تقول:

إن نهاية مرحلة لا تعني نهاية الطريق.

فالإنسان قد يخرج من أعظم المحن وهو يحمل معه بركة الله، ويبدأ من جديد.

ذرية نوح عليه السلام

بعد أن استقرت السفينة، لم تنته قصة نوح عليه السلام.

بل بدأت مرحلة جديدة من تاريخ البشرية.

والقرآن يضع أمامنا حقيقة أساسية في هذه المرحلة، وهي أن ذرية نوح كانت هي التي بقي منها نسل البشر.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ سورة الصافات، الآية ٧٧.

وهذه الآية تجعل نوحًا عليه السلام شخصية محورية في تاريخ البشرية بعد الطوفان.

لكن من المهم هنا أن ننتبه إلى أن القرآن لا يسرد أسماء جميع أبنائه، ولا يقدم لنا شجرة نسب كاملة لذريته.

أما الروايات الإسلامية، ومنها روايات أهل البيت عليهم السلام، فتقدم تفاصيل أكثر حول أبناء نوح وذراريهم.

ومن أشهر ما يذكر في هذا الباب أن لنوح أبناءً هم:

سام، وحام، ويافث.

لكن لا ينبغي أن نخلط بين شهرة هذه الأسماء في كتب التاريخ والروايات، وبين كونها مذكورة في القرآن.

فالقرآن يذكر بوضوح ابنًا لنوح كان من الغارقين، لكنه لا يسميه في الآية.

وهذه الدقة مهمة، لأن حكاية الهداية لا تقوم على ملء الفراغات بما اشتهر، وإنما على التمييز بين درجات الدليل.

أبناء نوح في روايات أهل البيت عليهم السلام

توجد في التراث الروائي الإمامي أخبار تتحدث عن أبناء نوح عليه السلام، وعن استمرار البشرية من بعده.

ومن المسائل المهمة التي ينبغي ذكرها أن الروايات لا تقدم دائمًا جميع التفاصيل بالصورة نفسها، ولذلك ينبغي عند نقلها أن نفرق بين أصل المعنى وبين التفاصيل التي تختلف فيها الطرق.

وقد ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام التأكيد على أن استمرار نسل البشر بعد الطوفان ارتبط بذرية نوح.

وهذا يتوافق مع الأصل القرآني:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

كما وردت روايات تذكر أبناء نوح، وتربط بهم استمرار الأمم بعده.

وفي هذا الباب تبرز أهمية سام بصورة خاصة في الروايات الإمامية، لأن سلسلة الأنبياء بعد نوح ارتبطت في الروايات بذريته.

وهنا ينبغي أن نكون دقيقين:

فالقرآن يثبت بقاء ذرية نوح.

أما تفاصيل انتقال النبوة بعده، وأي أبنائه كان أصلًا في سلسلة الأنبياء، فهذه تحتاج إلى الرجوع إلى الروايات ودراسة أسانيدها ومتونها.

وهذا هو الأسلوب الذي اعتمدناه منذ بداية حكاية الهداية:

نثبت ما أثبته القرآن، ونذكر ما ورد في الروايات، ونبين درجة كل معلومة.

الأسرة التي لا تختزل في الأبناء الثلاثة

لنوح في القرآن ابن لم يركب، وزوجة ضُرب بها مثل للكافرين، ووالدان دعا لهما، وذرية أبقاها الله. والقرآن لا يسمي الابن الغريق ولا الزوجة ولا الأب والأم. أما سام وحام ويافث فأسماء تتكرر في الروايات والتاريخ، ولا يصح نقلها إلى قائمة الأسماء القرآنية. ويقال للابن الغريق في بعض الأخبار «كنعان»، وفي أقوال أخرى «يام»؛ راجع بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١٧، في حديث أسئلة الشامي وتعقيب المجلسي. ولا نخلطه بكنعان المنسوب إلى حام في قوائم أخرى.

وترد ابنة لنوح في خبر تفسير القمي المروي عن الصادق، الذي نقله المجلسي، ج ١١، ص ٣١٢-٣١٣، ح ٦. يذكر الخبر أنها ركبت السفينة وأن لها ذرية. هذه ابنة لا يجوز أن تسقط لمجرد شيوع الحديث عن ثلاثة أبناء ذكور؛ لكنه لا يسميها ولا يذكر زوجها، فلا نخترع لها اسمًا أو زواجًا أو سلسلة أولاد.

أما النساء المؤمنات فلا تختزل صورتهن في امرأة واحدة. فدعاء نوح يشمل المؤمنين والمؤمنات [نوح: ٢٨]، وترد العجوز المؤمنة في خبر التنور، كما ترد الزوجة التي أخبرته بفورانه، والابنة التي ركبت معه. نحفظ كل وصف بحسب مصدره، ولا نحوله إلى تعداد نهائي للراكبات أو نجزم أن الأوصاف كلها لأشخاص متغايرين.

وتذكر بعض الأخبار عدد الناجين ثمانين، ومنها خبر الإمام الرضا الذي نقله المجلسي عن علل الشرائع، ج ١١، ص ٣٢٢، ح ٣٠، بينما تذكر رواية تفسير العياشي عددًا آخر [بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٣٦-٣٣٧، ح ٦٤]. فالأصل القرآني أنهم قليل، والعدد المفصل مختلف فيه. وكذلك لا يقدم القرآن قائمة بأسماء زوجات سام وحام ويافث؛ وما ينقله ابن طاووس عن نص توراتي يظل نقلًا عن ذلك النص، لا رواية عن إمام.

امرأة نوح وعمورة: حفظ الأسماء مع حفظ درجتها

المرأة المضروب بها المثل في التحريم ١٠ زوجة نوح، ولا يسميها القرآن. وتختلف المصادر في ضبط اسمها؛ فيرد «واغلة» و«والغة»، كما ينقل ابن طاووس اسم «رابعا». هذه صيغ منقولة لا ثلاث نساء ثبتت سيرهن. ولا ننقل اسم امرأة لوط إلى امرأة نوح بسبب تشابه صيغ الأسماء في كتب التفسير.

والخيانة في التفسير الذي نعتمده خيانة للدين والرسالة، لا زنا. أورد الطبرسي الأقوال عند هود ٤٦ ورد القول الذي ينافي ظاهر البنوة ويشين مقام النبوة، ونقل المجلسي كلامه [ج ١١، ص ٣١٣-٣١٤]. وتصرح أخبار الإمام الرضا بأن الغريق ابن نوح، وأن العصيان أخرجه من أهل الوعد. وبذلك لا نترك للقارئ إيحاءً بأن عدم النجاة يثبت اتهامًا في النسب أو العرض.

ومن أخبار النساء خبر «عمورة بنت ضمران بن أخنوخ»؛ يسميها نقل ابن طاووس عن كتاب قصص لمحمد بن جرير الطبري من أوائل المؤمنات بنوح، ويذكر معارضة أبيها وحبسها، وثباتها، ثم زواج نوح بها وولادتها سامًا. فهي في هذا الخبر أم سام وزوجة نوح، وليست زوجة سام. مصدره سعد السعود، ص ٢٣٩ في النسخة الإلكترونية، ونقله بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٤١-٣٤٢. وهو خبر قصصي منقول، لا حديث مسند هنا إلى أحد الأئمة.

وفي السياق نفسه يذكر ابن طاووس قولًا باسم «هيكل» للزوجة المسلمة؛ ويرد في نقل تاريخي آخر «هيكل بنت ناموسا بن أخنوخ». لا ندمج عمورة وهيكل في هوية واحدة مقطوع بها، ولا نزعم أن اختلاف الأب يمكن حله بالتخمين. المهم حفظ وجود هذه الأسماء في التراث، مع بقاء عدد الزوجات وهوياتهن التفصيلية في دائرة الخبر المختلف، وعدم تغيير الاسم القرآني الوصفي: امرأة نوح.

سعد السعود: خبر عمورة

حام ويافث وسام: النسب لا يحمل ذنبًا موروثًا

يرد سام في خبر الوصية حاملًا للاسم الأكبر وميراث العلم، ويذكر حام ويافث في أخبار الأسرة وانتشار الذرية. لكن بعض أخبار الأسرة تتضمن حكاية انكشاف جسد نوح، وموقف الأبناء منه، وربط ذلك باختلاف ألوان الذرية أو استعبادها. أورد الصدوق نفسه ملاحظة على اختلاف النقل في يافث، ونقل المجلسي ذلك في بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٩١-٢٩٢، ح ٤.

لا نعتمد هذه التفاصيل حكمًا على قوم أو لون، ولا نجعلها أصلًا علميًا لتوزع الشعوب. ففي طرقها ومتونها ما يحتاج إلى النقد، وفيها اختلاف يصرح به ناقلها. والأصل القرآني أن اختلاف الألسنة والألوان من آيات الله [الروم: ٢٢]، وأن الكرامة بالتقوى [الحجرات: ١٣]، وأن أحدًا لا يحمل وزر غيره [الأنعام: ١٦٤]. لذلك نثبت أن خبرًا كهذا ورد، ونمتنع عن تحويله إلى نسب يورث المذمة.

وكذلك تذكر أخبار في قصص الأنبياء إيمان جماعة من ذرية شيث/هبة الله، ومقاومة جماعة من ذرية قابيل [بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٢٣، ح ٣٤؛ وص ٣٤٠، ح ٧٧]. فهذا وصف لجماعات في الخبر، لا حكم بأن كل فرد من نسل شخص بعينه مؤمن أو كافر. وقصة ابن نوح نفسها تمنع أن نستبدل العمل بشجرة النسب.

سام وحام ويافث

اشتهرت في المصادر الإسلامية والتاريخية أسماء سام وحام ويافث بوصفهم أبناء نوح عليه السلام.

لكن هذه الأسماء تحتاج إلى معالجة منهجية.

فالقرآن لم يذكر هذه الأسماء الثلاثة صراحة.

أما كتب الروايات والتاريخ والتفسير فقد نقلتها بطرق متعددة.

وفي بعض الروايات الإمامية ترد إشارات إلى أبناء نوح وذراريهم، مع ربط سام بالسلالة التي استمرت فيها النبوة.

وهذه المسألة مهمة جدًا بالنسبة إلى حكاية الهداية، لأننا لا نريد أن ننظر إلى الطوفان باعتباره نهاية قصة نوح فقط، بل باعتباره نقطة انتقال للعهد والهداية إلى مرحلة جديدة.

ومع ذلك، لا ينبغي أن نقول إن كل تفصيل ورد في كتب الأنساب قطعي.

فقد اختلط في بعض المصادر النقل الديني بالتاريخ القديم وبالأخبار الموروثة من أهل الكتاب.

ولهذا فإن الصياغة الأكثر أمانة هي:

تذكر المصادر الإسلامية ساماً وحاماً ويافث أبناء لنوح، وتربط بعض الروايات استمرار السلالات البشرية بهم، بينما لا يفصل القرآن هذه الأنساب تفصيلاً.

نوح وخاتم الأنبياء في ذريته

ومن المسائل المهمة في الروايات الإمامية أن خط النبوة لم ينقطع بعد نوح.

بل استمرت الهداية في ذريته وفي الأجيال التي جاءت بعده.

وهذا يتناسب مع الصورة الكبرى التي بدأت تتضح في حكاية الهداية.

فآدم عليه السلام كان البداية.

ثم انتقلت الهداية في ذريته.

ثم جاء نوح في مرحلة أصبح فيها الشرك والانحراف ظاهرة واسعة، فأرسل الله رسوله ليعيد الناس إلى التوحيد.

وبعد نوح لم تنته الحاجة إلى الأنبياء.

بل استمرت الرسالات في ذريته وفي الأمم التي جاءت بعده.

ولهذا يصبح نوح حلقة محورية في سلسلة الأنبياء.

وقد وردت في التراث الإمامي روايات كثيرة حول أن الأنبياء بعد نوح كانوا من ذريته، وأن الله جعل في ذريته استمرارًا للحجة.

وهذا المعنى ينبغي أن يظل حاضرًا ونحن نتابع حكاية الهداية.

فالطوفان لم يكن نهاية الوحي.

ولم يكن نهاية الحجة.

ولم يكن نهاية العهد.

بل كان انتقالًا إلى مرحلة جديدة.

كم عاش نوح عليه السلام؟

من أكثر المسائل شهرة في قصة نوح عليه السلام مسألة عمره.

والسبب في ذلك هو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ سورة العنكبوت، الآية ١٤.

أي أن نوحًا لبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة.

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى دقة التعبير القرآني.

الآية لا تقول صراحة إن عمر نوح كله كان تسعمائة وخمسين سنة.

بل تقول إنه لبث في قومه هذه المدة.

ولهذا اختلفت الروايات في عمره الكامل.

فقد وردت روايات في التراث الإسلامي تذكر أن نوحًا عاش بعد الطوفان مدة، وأن عمره الكلي كان أكثر من المدة التي ذكرها القرآن في قومه.

وفي بعض الروايات الإمامية ترد أرقام مختلفة في عمره قبل البعثة وبعدها وبعد الطوفان.

ولهذا لا ينبغي أن نحول كل رقم روائي إلى حقيقة قرآنية.

أما الحقيقة القرآنية القطعية فهي:

أن نوحًا لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وهذا وحده كافٍ لإدراك ضخامة صبر هذا النبي.

تسعمائة وخمسون سنة من الدعوة.

تسعمائة وخمسون سنة من مواجهة التكذيب.

تسعمائة وخمسون سنة من الثبات.

وهنا نفهم لماذا أصبح نوح واحدًا من أعظم نماذج الصبر في حكاية الهداية.

نوح في روايات أهل البيت عليهم السلام

إذا انتقلنا إلى روايات أهل البيت عليهم السلام، نجد أن شخصية نوح تصبح أكثر تفصيلًا.

فالروايات لا تتحدث فقط عن الطوفان، وإنما تتناول:

- مدة حياته.

- بعثته.
- صفاته.
- دعوته.
- بناء السفينة.
- الطوفان.
- أبناءه.
- ذريته.
- انتقال الحجة بعده.
- ومواضع مرتبطة بقبور الأنبياء.

وهنا نحتاج إلى قاعدة مهمة جدًا:

ليست كل رواية في كتب الحديث في درجة واحدة من الصحة.

وقد يكون المصدر نفسه جامعًا لروايات صحيحة وأخرى ضعيفة أو مختلفة في السند.

لذلك، عندما نقول:

ورد في الكافيأوورد في تفسير القميأوورد في بحار الأنوار

فهذا لا يعني تلقائيًا أن كل ما ورد فيه قطعي الثبوت.

بل يعني أن الرواية موجودة في ذلك المصدر، ثم تأتي مرحلة أخرى:

دراسة السند.

ودراسة المتن.

ومقارنة الرواية بالقرآن.

ومقارنتها بالروايات الأخرى.

وهذا مهم جدًا خصوصًا في قصة نوح، لأن المادة الروائية حوله واسعة جدًا.

قبر نوح عليه السلام

ومن الأمور التي يكثر السؤال عنها: أين دُفن نوح عليه السلام؟

وهنا أيضًا يجب أن نفرق بين ما يمكن إثباته وما اشتهر في الروايات.

توجد في التراث الإسلامي روايات تشير إلى موضع قبر نوح عليه السلام.

ومن أشهر ما ارتبط به في الروايات الإمامية أن قبره يقع في النجف الأشرف، بالقرب من قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقد وردت روايات في فضل زيارة أمير المؤمنين عليه السلام تتضمن الإشارة إلى وجود قبور عدد من الأنبياء في تلك البقعة.

ومن ذلك ما ورد في بعض الروايات من ذكر:

آدم، ونوح، وهود، وصالح عليهم السلام.

لكن هذا الموضوع من المسائل التي ينبغي أن ننقلها بصيغة:

ورد في الروايات الإمامية.

ولا ينبغي أن نقول إن القرآن حدد قبر نوح في النجف، لأن القرآن لم يفعل ذلك.

وهذا مثال آخر على المنهج الذي نريد أن نحافظ عليه في حكاية الهداية:

إذا كان الأمر قرآنيًا قلنا: ثبت بالقرآن.

إذا كان روائيًا قلنا: ورد في الروايات.

وإذا كان تاريخيًا قلنا: ذكرته المصادر التاريخية.

وبذلك لا تختلط طبقات المعرفة في ذهن القارئ.

نوح والنجف في الروايات

إن ارتباط نوح عليه السلام بأرض النجف في الروايات ليس مجرد مسألة جغرافية.

ففي التراث الإمامي ارتبطت هذه الأرض بعدد من الأنبياء والأوصياء، وأصبحت لها مكانة خاصة في روايات الزيارة.

وتذكر بعض الروايات أن أمير المؤمنين عليه السلام دُفن في موضع كان فيه قبر آدم ونوح عليهما السلام.

وهذه الأخبار تحتاج إلى دراسة مستقلة من ناحية الأسانيد ومصادرها.

لكن من المهم أن نحفظها في سياق الفصل، لأننا لا نريد أن نختصر قصة نوح في الطوفان فقط.

فنوح في التراث الإسلامي ليس مجرد النبي الذي صنع السفينة.

إنه نبي عاش قرونًا في الدعوة.

وشهد واحدًا من أعظم التحولات في تاريخ البشرية.

واستمر ذكره في الروايات بعد وفاته.

وارتبط اسمه بسلسلة الأنبياء من بعده.

ولهذا فإن الحديث عن قبره جزء من المادة التراثية المتعلقة بشخصيته، وإن لم يكن من التفاصيل التي يثبتها القرآن.

ما بعد الطوفان: حدود التاريخ واستمرار المسؤولية

يثبت هود ١١:٤٤ استواء السفينة على الجودي، و١١:٤٨ الهبوط بسلام وبركات؛ أما تعيين الموضع على خريطة معاصرة وتفاصيل انتشار الجماعات فتحتاج إلى أدلتها. ودعاء المنزل المبارك في المؤمنون ٢٣:٢٩ تعليم ضمن أمر الفلك والنجاة، لا تاريخ مستقل لأواخر حياة نوح. ولا تلغي النجاة استمرار الابتلاء؛ تذكر هود ١١:١١٨ اختلاف الناس، وتقرر الأنعام ٦:١٢٤ أن الرسالة اختيار إلهي، والحجرات ٤٩:١٣ أن التقوى ميزان الكرامة.

وينقل الصدوق في علل الشرائع، باب «العلة التي من أجلها سميت قرية نوح قرية الثمانين»، الحديث ١، عن عبد السلام بن صالح الهروي عن الإمام الرضا، أن نوحًا وولده ومن تبعه كانوا ثمانين وأنه بنى قرية بهذا الاسم. نحفظ هذا التفصيل بوصفه خبرًا، إلى جانب اختلاف الأعداد المذكور في قسم الناجين؛ فالقرآن يقول «وما آمن معه إلا قليل» (هود ١١:٤٠) ولا يسمي القرية أو يحدد العدد. أما أخبار عمر نوح وملك الموت والوصية لسام فتعرض في أقسامها الموثقة التالية، ويختص الفصل السادس بتفصيل سام؛ فلا يعاد هنا حوار الابن الغارق أو سرد الأنساب.

مقارنة موجزة في أسماء الأبناء

ينقل الطبري عند الصافات ٣٧:٧٧ خبرًا عن سمرة بن جندب عن النبي يذكر سامًا وحامًا ويافثًا، وينقل أقوالًا عن ابن عباس وغيره في بقاء ذرية نوح. هذا مسار تفسيري للمقارنة، لا رواية إمامية مستقلة ولا تسمية واردة في لفظ الآية. وما يرد معه من تقسيم الأمم بين الأبناء مادة أنساب لا نبني عليها قيمة دينية أو حكمًا عرقيًا. وقد عُرضت قصة الابن الغارق واختلاف تفسير «ليس من أهلك» في موضعها السابق؛ فلا نعيدها هنا. ويبقى انتقال ميراث العلم إلى سام في الخبر موضوع الفصل السادس.

الوصية وتجديد ذكرها في الخبر

في خبر الكافي، ج٨، ص٢٨٥، الحديث ٤٣٠، يأتي جبرئيل بالأمر بتسليم الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة إلى سام، وترد البشارة بهود وفتح الوصية كل عام والنظر فيها وجعل ذلك عيدًا. هذا تفصيل في الخبر، لا تشريع قرآني لعيد مستقل. يربط السرد حفظ العلم بتذكير الأجيال بالعهد، ولا يجعل النسب وحده ضمانًا للهداية أو كل حامل للوصية نبيًا. يعرض قسم «ضبط الأعمار والوصية وملك الموت» لاحقًا حال طريق هذا الخبر، ويستكمل الفصل السادس سيرة سام؛ فلا نكرر هنا الشكر وأولي العزم والقبر وقصة الابن.

خلاصة دروس قصة نوح عليه السلام

وهكذا نصل إلى نهاية قصة نوح عليه السلام.

لكن قبل أن نغادر هذه المرحلة، ينبغي أن نتوقف لحظة عند الصورة الكاملة التي رسمها القرآن.

فنوح لم يكن مجرد رجل بنى سفينة.

ولم تكن قصته مجرد قصة طوفان.

لقد كان نبيًا عاش زمنًا طويلًا في الدعوة، وواجه مجتمعًا كاملًا، وصبر على التكذيب، وحذّر قومه من عاقبة الانحراف، وبقي ثابتًا على ما أمره الله به.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت: ١٤.

تسعمائة وخمسون عامًا.

وهذا الرقم وحده يجعلنا ندرك ضخامة المرحلة التي عاشها نوح.

لكن القرآن لا يقول إن هذه كانت بالضرورة كل مدة حياته.

إنما يحدد المدة التي لبثها في قومه.

وهذا فرق ينبغي ألا نغفله.

ماذا بقي من رسالة نوح؟

إذا تأملنا قصة نوح في القرآن، وجدنا أن رسالته لم تكن قائمة على الطوفان.

الطوفان كان نتيجة مرحلة طويلة من الدعوة.

أما أصل الرسالة فكان:

عبادة الله وحده.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف: ٥٩.

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هود: ٢٥-٢٦.

وهنا تظهر النقطة المركزية.

كل الأحداث الكبرى في قصة نوح — الدعوة، التكذيب، الجدال، الاستهزاء، السفينة، والطوفان — كانت تدور حول قضية واحدة:

من يستحق العبادة؟

ولهذا فإن قصة نوح هي قصة التوحيد في مواجهة الشرك.

حصيلة مراحل القصة

وهنا نقف عند حصيلة المراحل السابقة.

لقد بدأت حكاية نوح في مرحلة كانت فيها البشرية قد ابتعدت عن عهد التوحيد، وظهرت عبادة الرموز والأصنام، ثم جاء النبي ليعيد الناس إلى أصل الرسالة:

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

وصبر نوح.

ودعا.

وحذّر.

وجادل بالحجة.

واستغفر لقومه.

وبقي ثابتًا حتى جاء أمر الله.

ثم جاءت السفينة.

ثم جاء الطوفان.

ثم نجا من كتب الله لهم النجاة.

ثم استقرت السفينة.

ثم قال الله:

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾.

وهنا تتضح حصيلة هذه المرحلة من قصة نوح.

وقد عرضنا أبناءه بقدر اتصالهم بحياته والطوفان والوصية، وتبقى سيرهم اللاحقة لمواضعها.

فكما اتفقنا منذ البداية، لكل نبي فصل مستقل.

والفصل التالي سيبدأ عندما نقرر الانتقال من نوح إلى المرحلة التي تليه، وسنبدأها من بدايتها: النسب، والولادة، والزمن، وما ثبت في القرآن، ثم روايات أهل البيت عليهم السلام، ثم الأحداث بالترتيب نفسه الذي اتبعناه مع آدم وإدريس ونوح.

وهكذا تبقى حكاية الهداية متصلة، لكن من غير أن نخلط بين قصص الأنبياء.

خلاصة قصة نوح عليه السلام

يمكننا الآن أن نضع أمامنا الصورة الكاملة التي ثبتت لنا من قصة نوح عليه السلام.

نوح نبي من أنبياء الله، أرسله الله إلى قومه عندما ظهر فيهم الشرك والانحراف عن التوحيد.

دعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذّرهم من العذاب، وبشّرهم بالمغفرة والرحمة.
ولم تكن دعوته قصيرة.
بل قال القرآن إنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.
ودعاهم ليلًا ونهارًا، سرًا وعلانية، وبأساليب مختلفة.
لكن أكثرهم أصروا على الرفض والاستكبار.
وكان من أبرز ما ظهر في موقفهم تعلقهم بما ورثوه من عبادة الرموز والأصنام، حتى سمّى القرآن بعض تلك الأصنام بأسمائها:
﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ نوح: ٢٣.
ثم دعا نوح ربه بعد أن استنفد وسائل الدعوة، وجاءه أمر الله بصنع السفينة.
فصنعها بوحي الله، وسخر منه قومه.
ثم جاء الطوفان، وحُمل في السفينة من أمر الله بحمله.
أما ابنه الذي رفض الركوب، فلم تنفعه القرابة، وغرق مع الغارقين.
وكانت زوجة نوح أيضًا مثالًا على أن القرب من النبي لا ينفع الإنسان إذا اختار طريق الكفر.
ثم انتهى الطوفان، واستقرت السفينة على الجودي، ونزل نوح ومن معه بسلام وبركات.
وهكذا انتهت واحدة من أطول وأعظم مراحل الدعوة في القرآن.
لكن أثر نوح لم ينتهِ.
فقد بقي اسمه في القرآن مثالًا للصبر، والشكر، والعبودية، والنبوة، والدعوة إلى التوحيد، والوقوف أمام الانحراف مهما طال الزمن.
ما الذي تعلمناه من نوح؟
إن قصة نوح ليست فقط قصة رجل نجا من الطوفان.
إنها قصة إنسان أدى واجبه أمام الله.
وهنا تظهر واحدة من أعظم قواعد حكاية الهداية:
النجاح في ميزان الله ليس دائمًا بعدد الذين استجابوا لك.
قد يدعو الإنسان إلى الحق ولا يستجيب له إلا القليل.
وقد يبذل سنوات طويلة من عمره دون أن يرى النتيجة التي يريدها.
وقد يواجه السخرية والرفض والاتهام.
لكن هذا لا يعني أن رسالته فشلت.

فنوح عليه السلام بقي يدعو قومه قرونًا، والقرآن لا يجعل قلة المستجيبين دليلًا على ضعف حجته.
بل يجعل ثباته وصبره من أعظم وجوه تكريمه.
وهذه نقطة مهمة جدًا في حكاية الهداية.
فالإنسان مسؤول عن صدق الطريق الذي يسلكه، وعن أداء ما كلفه الله به.
أما قلوب الناس ونتائج الدعوة النهائية فهي بيد الله.

المنهج الذي اعتمدناه في قصة نوح

وكما فعلنا في الفصول السابقة، يمكن تقسيم المادة المتعلقة بنوح إلى درجات:
الدرجة الأولى: ما ثبت بالقرآن
ومن ذلك:

- أن نوحًا نبي ورسول.
- أنه أُرسل إلى قومه.
- أنه دعاهم إلى عبادة الله وحده.
- أنه دعاهم ليلًا ونهارًا.
- أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.
- أن قومه كذبوه واستكبروا.
- أن الشرك كان حاضرًا في قومه وارتبط بأسماء أصنام معروفة.
- أن الله أمره بصنع السفينة.
- أن الطوفان وقع بأمر الله.
- أن نوحًا ومن معه نجوا في السفينة.
- أن ابنه الذي رفض الإيمان غرق.
- أن زوجته كانت من أهل الكفر.
- أن السفينة استقرت على الجودي.
- أن الله أمر نوحًا ومن معه بالهبوط بسلام وبركات.
- أن نوحًا كان عبدًا شكورًا.
- وأن الله ذكره بوصفه من عباده المؤمنين والصالحين.

الدرجة الثانية: ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام

وتشمل الأخبار التي تضيف تفاصيل إلى قصة نوح، أو تتحدث عن شخصيته، أو السفينة، أو ذريته، أو العهد والحجة بعده، أو موضع قبره.

وهذه الأخبار تُدرس بحسب أسانيدها ومتونها ومصادرها، ولا توضع جميعها في درجة واحدة.

الدرجة الثالثة: الأخبار التاريخية والقصصية

وهي التفاصيل التي نقلتها كتب القصص والتاريخ عن حياة نوح، أو عن مكانه، أو عن تفاصيل الطوفان، أو عن أمور لم يثبتها القرآن.

وهذه يمكن ذكرها إذا كانت ذات قيمة في فهم التراث، ولكن بصيغة واضحة تدل على أنها أخبار منقولة وليست نصوصًا قرآنية قطعية.

المصادر الأساسية للفصل الخامس

أولًا: القرآن الكريم

القرآن هو المصدر الأول والأعلى في بناء قصة نوح عليه السلام، ومن أهم المواضع التي ينبغي الرجوع إليها:

- سورة الأعراف، الآيات ٥٩–٦٤: دعوة نوح لقومه وبداية موقفهم منه.
- سورة يونس، الآية ٧١–٧٣: موقف قومه وقصة النجاة.
- سورة هود، الآيات ٢٥–٤٩: من أكثر المواضع تفصيلًا في قصة نوح، وتشمل الدعوة، والسفينة، والطوفان، وابنه، واستقرار السفينة.
- سورة المؤمنون، الآيات ٢٣–٣٠: إرسال نوح وبناء السفينة والنجاة.
- سورة الشعراء، الآيات ١٠٥–١٢٢: تكذيب قوم نوح وحواره معهم.
- سورة العنكبوت، الآية ١٤: مدة لبث نوح في قومه.
- سورة الأنبياء، الآيات ٧٦–٧٧: استجابة الله لنوح ونجاته وأهله.
- سورة الصافات، الآيات ٧٥–٨٢: دعاء نوح ونجاته وتكريمه.
- سورة القمر، الآيات ٩–١٧: تكذيب قوم نوح والطوفان والسفينة.
- سورة نوح، الآيات ١–٢٨: أهم سورة في عرض دعوة نوح، وأساليبه في الدعوة، وموقف قومه، وأسماء الأصنام، ودعائه.
- سورة التحريم، الآية ١٠: مثل امرأة نوح وبيان أن القرابة لا تغني عن الإيمان.
- سورة الإسراء، الآية ٣: وصف نوح بأنه ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾.
- سورة الصافات، الآية ٧٩: سلام الله على نوح.

- سورة هود، الآية ٤٨: الهبوط من السفينة بسلام وبركات.
- سورة الأحقاف، الآية ٣٥: الصبر وأولو العزم من الرسل.

ثانيًا: مصادر روايات أهل البيت عليهم السلام

١. الكافي

محمد بن يعقوب الكليني، الكافي.

ويُرجع إليه في الأحاديث المتعلقة بالأنبياء، والحجة، والعهد، وبعض الروايات التي تتصل بنوح عليه السلام وأهل بيته واستمرار الهداية.

لكن ينبغي دراسة كل رواية بحسب سندها ومضمونها، وعدم اعتبار مجرد وجودها في الكتاب حكمًا بصحتها التفصيلية.

٢. تفسير القمي

علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي.

ويفيد تفسير القمي في تتبع الروايات التفسيرية المرتبطة بآيات نوح والطوفان والسفينة وبعض تفاصيل حياة النبي وأهل بيته، مع ضرورة دراسة كل رواية بحسب سندها ومضمونها.

٣. تفسير العياشي

محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي.

وهو من المصادر المهمة في جمع الروايات التفسيرية المبكرة، ويمكن الرجوع إليه في الأخبار المتعلقة بقصة نوح والآيات الواردة فيها.

٤. من لا يحضره الفقيه

الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه.

ويفيد خصوصًا في الروايات ذات الطابع العقدي والفقهي والروحي التي تتصل بمكانة الأنبياء وأهل البيت، مع ضرورة دراسة الرواية بحسب سندها ومضمونها.

٥. بحار الأنوار

محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ولا سيما أبواب قصص الأنبياء.

وهو مصدر جامع للمادة الروائية المتعلقة بنوح عليه السلام، ويجمع روايات من مصادر متعددة ومتقدمة، ولذلك يفيد في معرفة التراث الروائي المتداول، مع ضرورة الرجوع إلى المصادر الأصلية كلما أمكن.

ثالثًا: مصادر التفسير

من المصادر المهمة لفهم قصة نوح وتفسير آياتها:

- الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي.
- كتب التفسير الروائي الإمامي التي تجمع أخبار الأنبياء والآيات المتعلقة بهم.

ويجب في كل هذه المصادر التمييز بين تفسير الآية، وبين الرواية التي تذكر تفاصيل تاريخية إضافية.

رابعًا: الروايات المتعلقة بالنجف وقبر نوح

ينبغي تخصيص عناية خاصة بالروايات التي تربط موضع قبر نوح عليه السلام بأرض النجف.

فهذه الروايات تنتمي إلى باب مختلف عن الآيات القرآنية المتعلقة بنوح.

والقرآن لا يحدد موضع قبره.

أما الأخبار الإمامية التي تربطه بموضع قبر أمير المؤمنين عليه السلام، أو بقبور آدم ونوح عليهما السلام، فتُذكر في الكتاب باعتبارها مادة روائية وتراثية، لا باعتبارها حقيقة قرآنية قطعية.

والأدق عند عرضها أن نذكر المصدر الذي أورد الرواية، ثم ندرس سندها إن كان المقام يسمح بذلك، ونبين للقارئ درجة الاعتماد عليها.

وهذا يحافظ على قيمة التراث النجفي والإمامي، وفي الوقت نفسه يحافظ على المنهج العلمي الذي التزمنا به منذ بداية الكتاب.

دروس جامعة من الرحلة

كانت قصة نوح عليه السلام أطول من أن تختصر في سفينة، وأعمق من أن تختصر في طوفان.

لقد كانت قصة نبي وقف أمام مجتمع كامل، ولم يتخلَّ عن دعوته رغم طول الزمن.

ويقدم خبر نشأة الأصنام في التفسير مثالًا على أن الشرك قد يتدرج عبر الأجيال؛ وهذا تفسير تراثي لا تفصيل قرآني لكل مراحله.

قد يبدأ بتعظيم الصالحين.

ثم يتحول التعظيم إلى رموز.

ثم تتحول الرموز إلى وسائط.

ثم تتحول الوسائط إلى معبودات.

وهنا يظهر الخطر الذي تكشفه قصة نوح.

فالإنسان قد يبدأ من الحب، ثم يتجاوز الحد.

وقد يبدأ من التكريم، ثم يقع في الغلو.

وقد يبدأ من الرمز، ثم ينتهي إلى العبادة.

ولهذا كانت رسالة نوح واضحة:

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

وفي المقابل، كان نوح نموذجًا للصبر.

دعا قومه قرونًا.

ولم يجعل قلة المستجيبين سببًا لترك الحق.

وكان نموذجًا للعبد الشكور.

وكان نموذجًا للنبي الذي لا تغنيه القرابة عن طاعة الله، ولا تغني القرابة أحدًا عن الإيمان.

ثم جاء الطوفان، وانتهت مرحلة كاملة من تاريخ البشرية.

ونزل نوح ومن معه:

﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾.

وعند هذا المشهد نقف لاستخلاص الدرس.

فقد اجتمعت فيه معاني التوحيد والصبر والنجاة.

فقد رأينا كيف انتقلت البشرية من مرحلة آدم وشيث وإدريس إلى مرحلة نوح، وكيف واجهت الهداية أخطر تحول ظهر حتى ذلك الوقت: ظهور الشرك وعبادة الأصنام.

ورأينا كيف وقف نبي واحد أمام هذا الانحراف، ودعا إلى أصل واحد:

التوحيد.

ثم انتهت مرحلة نوح.

أما المراحل اللاحقة لنوح فلها فصولها المستقلة، ويبقى هنا أن نستوفي ما يتعلق بحياته وعهده ومصادر أخباره، وفق القاعدة التي رافقتنا منذ البداية:

لا نملأ الفراغات بما لا نعلم، ولا نحذف ما ورد في تراث أهل البيت، ولا نجعل الرواية في مرتبة القرآن، ولا نجعل التاريخ عقيدة.

وهكذا تستمر حكاية الهداية.

جيلًا بعد جيل.

ونبيًا بعد نبي.

لكن لكل مرحلة قصتها، ولكل نبي مقامه، ولكل نص درجته من الثبوت.
وهنا يكتمل هذا المبحث من دروس قصة نوح عليه السلام.

ضبط الأعمار والوصية وملك الموت

أصل المدة القرآنية تسعمائة وخمسون عامًا بين إرسال نوح وأخذ قومه بالطوفان [العنكبوت: ١٤-١٥]. وفي الكافي، ج ٨، ص ٢٨٤، ح ٤٢٩، خبر عن الصادق يذكر ٢٣٠٠ سنة: ٨٥٠ قبل البعثة، و٩٥٠ في القوم، و٥٠٠ بعد النزول من السفينة. وفي طريقه عبارة «عن بعض أصحابنا»، فهي واسطة غير مسماة. ويذكر خبر الأمالي للصدوق ٢٥٠٠ سنة، بإضافة ٢٠٠ سنة في عمل السفينة؛ نقله المجلسي في بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٥-٢٨٦، ح ١-٢. فلا يُعرض أحد الرقمين كأنه نص القرآن، ولا يدمجان في رقم ثالث.

وفي خبر الكافي نفسه يأتي ملك الموت، ويشبّه نوح طول ما مر من الدنيا بانتقاله من الشمس إلى الظل. نحفظ ملك الموت بوصفه طرفًا في الخبر، ولا نسميه في هذه الرواية باسم لم يرد في لفظها. والمعنى الوعظي قصر الدنيا عند انقضائها، أما تفصيل الحوار فدرجة ثبوته درجة الخبر الذي حمله.

ويأتي جبرئيل في حديث الوصية بعد الطوفان، ويأمر نوحًا بتسليم الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة إلى سام. ويربط الخبر استمرار هذا العهد بالبشارة بهود وتذكّر الوصية في الأجيال التالية [الكافي، ج ٨، ص ٢٨٥، ح ٤٣٠]. ويشتمل طريقه على محمد بن سنان، المختلف في توثيقه؛ لذا ننسبه إلى مصدره ولا نطلق عليه حكم الصحة من غير بحث رجالي مستقل.

ومن هنا يكون سام حلقة في استمرار العلم وفق الخبر، ويكون هود نبيًا مبشرًا به في مرحلة لاحقة، لا واحدًا من الأشخاص الذين نجزم بركوبهم السفينة. والوصية في السرد حفظ أمانة ومسؤولية، وليست إعفاءً لكل ذرية الوصي من الامتحان والعمل.

الكافي: العمر وملك الموت

الكافي: الوصية لسام

الشكر وأولو العزم والشخصيات الغيبية في الأخبار

يصف القرآن نوحًا بالعبد الشكور [الإسراء: ٣]. وتشرح رواية عن الإمام الباقر هذا الشكر بذكر النعمة ونسبتها إلى الله في الصباح والمساء؛ أوردها الصدوق في علل الشرائع، ونقلها بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٩١، ح ٢. فليس الشكر خاتمة لفظية للنجاة فقط، بل خلق يضيء صورة النبي في مختلف المراحل.

وتسمي رواية سماعة عن الصادق في الكافي، ج ٢، ص ١٧-١٨، باب الشرائع، ح ٢، أولي العزم: نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم السلام، وتربطهم بالكتب والشرائع. ولذلك نفهم أولوية نوح في هذه الأخبار في باب الشريعة وأولي العزم، ولا نجعلها نفيًا لنبوة آدم أو الأنبياء السابقين. ويشرح

حديث الباقر في الكافي، ج ٨، ص ٢٨٢-٢٨٣، ح ٤٢٤، شريعة نوح بالتوحيد والإخلاص والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام.

ولا يغيب جبرئيل عن التفصيل الروائي: يظهر في التعليم وبناء السفينة والدعاء والوصية. وترد وفود من الملائكة تطلب إمهال القوم في بعض أخبار كمال الدين وتفسير القمي [بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١٠ -٣١٢ وص ٣٢٦-٣٢٨]. تبقى أعداد الوفود والمدد في حدود رواياتها المختلفة، ولا نخلق للملائكة المجهولين أسماء خاصة.

أما إبليس فيظهر في أخبار نشأة الأصنام، وفي أخبار حواره مع نوح والتحذير من الحسد والحرص والغضب، وفي قصة دخوله مع الحمار، وأخبار الكرم والعنب. جمع المجلسي نماذج منها في ج ١١، ص ٢٩٢-٢٩٤ وص ٣١٨ وص ٣٢٣. منها ما روي عن إمام، ومنها ما نقل عن وهب أو ابن عباس، وبعضها مرسل أو في طريقه من تُكلّم فيه. فلا يصح وصف جميعها بسند واحد أو اتخاذ حوار إبليس أصلًا مستقلًا للعقيدة أو الفتوى.

وترد رواية عن الرضا في سبب عدم وجود أطفال يعاقبون بذنب غيرهم عند الطوفان، وفيها توقف الولادة أربعين سنة [بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٢٠، ح ٢٥، عن علل الشرائع وعيون أخبار الرضا]. نذكرها بلفظ النسبة إلى الرواية، ونحفظ أصل العدل وعدم مؤاخذة البريء؛ ولا نمزجها بقصص شائعة عن أطفال غرقوا من غير فحص مصدرها.

أخبار النساء المجهولات وعوج: موضع النقد لا الإهمال

وفي الاستقصاء خبر عن سبعمائة امرأة من زمن نوح، يربط خروجهن إلى الأعياد بتغير دورات الحيض وانتشار ذلك في الذرية. أورده الفقيه بصيغة النقل عن الباقر، وله طريق مسند في علل الشرائع؛ راجع بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٢٦، ح ٤٧، وج ٧٨، ص ٨٢، ح ٣. فلا نعمم وصف الإرسال على جميع طرقه، كما لا نحكم بصحته لمجرد وجود طريق مسند. لا تذكر الرواية أسماء هؤلاء النساء، ولا تُتخذ هنا تفسيرًا طبيًا معتمدًا أو دليلًا على ذنب النساء بسبب طبيعتهن الجسدية.

ومن القصص التي تُلحق بالطوفان قصة عوج بن عناق، الذي يقال إنه طلب الركوب ولم يؤمر نوح بحمله، وإن الماء لم يجاوز ركبتيه ثم بقي إلى زمن موسى. ترد بصيغة «روي» في قصص الأنبياء للراوندي، ص ٧٢، ح ٥٧، وبحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٤٣، ح ٣٧، بعد خبر في وصف جسمه وعمره. نسجل اسمي عوج وعناق ولا نبني عليهما تاريخًا متيقنًا للناجين أو استثناءً ثابتًا من خبر هلاك المكذبين. وليس مجرد جمع الراوندي للخبر كافيًا لنسبته مباشرة إلى إمام أو تصحيح غرائبه.

بحار الأنوار: خبر النساء

السفينة وأهل البيت: بين المثل والخبر عن المستقبل

للصورة النوحية امتداد في حديث أهل البيت. يروي الصدوق عن الرضا عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله تشبيه أهل بيته بسفينة نوح في النجاة لمن يركبها [عيون أخبار الرضا، باب ٣١، ح ١٠؛ ج ٢، ص ٣٠ في النسخة المفحوصة، وص ٢٧ في طبعات أخرى]. هنا تتصل القصة بمعنى التمسك بالهداية، ولا يعني التشبيه أن أهل البيت كانوا ركاب السفينة في زمن نوح. وتظل دراسة أسانيد طرق الحديث باباً متميزاً عن بيان وجه المثل.

ويرد خبر آخر يربط خمسة مسامير بأسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ويجعل جبرئيل مبيّنًا لها لنوح، مع الإخبار بمقتل الحسين. أورده المجلسي في بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٢٨–٣٢٩، ح ٤٩، ونصه يحيل إلى تاريخ محمد النجار بإسناد مرفوعٍ إلى أنس بن مالك عن النبي. تثبت حضور فاطمة وسائر الأسماء في هذا الخبر، لكننا لا نسميه حديثًا صحيحًا عن أحد الأئمة، ولا نخلط الإخبار المستقبلي بحضورهم الجسدي مع نوح.

ومن الأخبار المنقولة مرور السفينة بكربلاء وإخبار جبرئيل نوحًا بمقتل الحسين [بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٢٤٣، ح ٣٨، بصيغة «روي»، كما اقتبسه الميرزا جواد التبريزي في بحث الزيارة والعزاء]. يصف النقل قاتله من غير تسميته في هذا الموضع؛ فلا ننقل اسم يزيد من أخبار الأنبياء المجاورة إلى لفظ خبر نوح. موضع الخبر هنا بيان الموروث غير المجزوم بثبوته، لا رسم طريق جغرافي قطعي للسفينة؛ والحسين شخصية مستقبلية في مضمونه، لا من رجال قوم نوح.

وتتصل بسام رواية أخرى في مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٦٤ في النسخة المفحوصة، عن كتاب العلوي البصري: جماعة من اليمن تسأل النبي عن وصيه وعن سام، فتروى كرامة لعلي في إظهاره لهم بإذن الله. ونقلها بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢١٢. تذكر هنا لتوضيح إحالة المسودة إلى سام، مع بقاء الطريق غير مستوفى في المقطع المنقول؛ ولا تجعلها تاريخًا لإقامة سام حيًا إلى عصر الإسلام.

عيون أخبار الرضا: حديث السفينة

مناقب آل أبي طالب: خبر سام

الموضع والقبر: ما يثبت في الآية وما تنقله الزيارة

يسمي القرآن الجودي موضع استواء السفينة [هود: ٤٤]، ولا يعطي إحداثيات حديثة ولا يحدد قبر نوح. وتختلف الأخبار الجغرافية: فمنها ما يربط الجودي بالموصل، ومنها ما يصله بفرات الكوفة. لذلك لا نجزم بإزالة الاختلاف، ولا نعرض خريطة واحدة على أنها النتيجة القطعية لكل النصوص.

وفي كامل الزيارات، باب ١٠، ح ٢، بالترقيم المتسلسل ٩١، ص ٨٩–٩١ في الطبعة المفحوصة، خبر المفضل عن الصادق في زيارة الغري، وفيه ذكر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي، ونقل نوح

تابوت عظام آدم ودفنه في الغري. وفي طرقه محمد بن سنان، وفي أحدها واسطة غير مسماة. ومحل الاستشهاد هنا بيان أصل الخبر ومضمونه، لا إصدار حكم رجالي عام عليه أو اعتباره نصًا قرآنيًا.

وتأتي أسماء موسى وعيسى وإبراهيم ومحمد في تتمة الخبر لبيان فضل الموضع، ويأتي علي في باب الزيارة والدفن. هؤلاء ليسوا جماعة معاصرة لنوح. وكذلك رواة الخبر ومن يشرحونه ليسوا شخصيات في مشهد الطوفان؛ فالإمام الصادق ناقل للخبر في هذا السياق، والمفضل سائله، ولا يجوز نقل مجلس روايتهما إلى زمان الحكاية.

كامل الزيارات: خبر الغري

سجل الشخصيات والأدوار المتصلة بالفصل

في مركز الحكاية: نوح، وقومه، والملأ المكذبون، والمؤمنون والمؤمنات. نوح مسمى في القرآن، أما أفراد الجماعات فلا يسميهم في هذه القصة. لا تختزل كلمة القوم النساء خارج دائرة الدعوة، ولا نضع أسماء مختلقة للملأ أو لصانعي السفينة.

في أسرته: والده ووالدته في الدعاء، والزوجة المذكورة في التحريم، والابن الغريق في هود، والذرية الباقية في الصافات. وفي الروايات: سام وحام ويافث، والابنة التي ركبت، والزوجة المخبرة بفوران التنور، والعجوز المؤمنة المرتبطة به. وفي الأسماء المختلف فيها: كنعان/يام، وعمورة، وهيكل، وصيغ اسم الزوجة غير المؤمنة، واسم الأم شمخا. وتبقى زوجات الأبناء غير مسميات في النصوص التي نعتمدها هنا.

في النسب والعهد السابق: آدم وحواء، وهابيل وقابيل في خلفية انتقال العهد، وشيث/هبة الله، وأنوش وقينان ومهلائيل ويارد وإدريس/أخنوخ ومتوشلخ ولامك في النسب المنقول. ويذكر ناحور في طريق للوصية، ويزد وخرقاسيل/خرقائيل في طريق آخر. حفظنا اختلاف الطرق ولم نحوله إلى يقين بتاريخ جميع الأسماء.

في نشأة المعبودات: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. هذه أسماء قرآنية لأصنام القوم؛ أما أصحاب الأسماء وسيرهم وتعاقبهم فمادة الروايات المختلفة. وفي بعض الأخبار القصصية: عمورة وأبوها ضمران، وهيكل وأبوها ناموسا، وعوج وعناق، ونساء مجهولات في خبر السبعمائة؛ لكل خبر درجته، ولا يتساوى الجميع مع شخصيات النص القرآني.

في امتداد الهداية: سام في الوصية، وهود في البشارة، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ضمن أولي العزم وشواهد استمرار النبوة. ويحضر علي وفاطمة والحسن والحسين في أخبار التمثل والذكر المستقبلي، ويذكر قاتل الحسين دون تسمية في النقل الذي فحصناه لخبر كربلاء. وتحضر امرأة لوط وامرأة فرعون ومريم في المقارنة القرآنية بالتحريم؛ فلا تخلط هذه العصور بعضها ببعض.

ومن غير البشر: جبرئيل، وملك الموت، ووفود الملائكة المجهولة الأسماء، وإبليس. ويذكر كل منهم بحسب النص الذي يتصل به. أما الأئمة الباقر والصادق والكاظم والرضا وسائر من نُقل عنهم،

والصحابة والرواة كأنس وابن عباس وأبي بصير والمفضل، فموضعهم أسانيد الأخبار ومجالس بيانها إلا إذا نص الخبر على دور آخر، فلا يعدون ركابًا أو خصومًا في زمن نوح.

هذا السجل أداة لضبط الاستقصاء داخل المصادر المبينة، لا قائمة تزعم صحة جميع الأخبار أو حصر كل ما يمكن العثور عليه في سائر التراث. اكتملت به حلقات السرد والشخصيات التي وقفنا عليها، وبقي الاختلاف ظاهرًا حيث لم يسمح الدليل بالجزم.

نوح في حكاية الهداية

لم يكن نوح عليه السلام مجرد اسم يأتي بعد إدريس في سلسلة الأنبياء.

كان بداية مرحلة مختلفة.

معه ظهرت صورة واضحة لصراع التوحيد مع الشرك، وصورة النبي الذي يستمر في أداء وظيفته رغم قلة من يستجيب له.

وفي قصته اجتمعت معانٍ كثيرة:

الصبر الطويل.

والدعوة المستمرة.

والتوكل على الله.

والبراءة من الشرك.

والتمييز بين القرابة الحقيقية والقرابة التي لا تنفع مع الكفر.

والنجاة التي جعلها الله لأهل الإيمان.

ثم جاء الطوفان ليطوي صفحة كاملة من تاريخ البشرية.

لكن الله لم يطوِ كتاب الهداية.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

فبقي أثر نوح في ذريته، وبقي ذكره في الوحي، وبقيت قصته عبرة للأجيال.

ومن هنا نغادر نوحًا عليه السلام، لا باعتباره شخصية انتهت بمجرد وفاته، بل باعتباره حلقة كبرى في سلسلة الهداية الإلهية.

ضبط الإحالات بين الطبعات

تعتمد الإحالات هنا المواضع المحددة في قائمة التوثيق التفصيلية: خبر نقل عظام آدم في كامل الزيارات، باب ١٠، ح٢/٩١؛ وخبر سام في مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص١٦٤ في النسخة

المبيّنة، ومادة سام في مستدرك سفينة البحار، ج٦، ص٣٠٧. أما أرقام الأجزاء والصفحات الأخرى التي وردت في المسودة من غير مقابلة فلا تُستعمل دليلًا مستقلًا.

ويُنسب عرض الأقوال في ابن نوح هنا إلى الطبرسي في مجمع البيان بحسب موضعه، مع التمييز بينه وبين الطبري. ولا تُدرج سبأ: ١٥ ضمن الآيات المباشرة في قصة نوح؛ فاستحضارها في معنى الشكر مقارنة موضوعية.

إحالات التوثيق التفصيلية

الكافي، للكليني: ج ٢، ص ١٧–١٨، باب الشرائع، ح ٢، لأولي العزم؛ وج ٨، ص ٢٨٠–٢٨٥، ح ٤٢١–٤٣٠، لبناء السفينة والتنور والشريعة والغرس والأعمار والوصية. أرقام الصفحات هنا أرقام الطبعة، وقد تختلف عن رقم الصفحة الإلكترونية.

بحار الأنوار، للمجلسي: ج ١١، ص ٢٨٥–٣٤٢، أصل مجموعة أخبار نوح في هذه المراجعة، مع الإحالة إلى أصوله داخل كل خبر. ومن المواضع المحددة: ص ٢٨٦، ح ٣–٦، للأسماء؛ ص ٢٩١–٢٩٤ للأخلاق وأخبار إبليس؛ ص ٣١٢–٣١٤ للأسرة والابنة وتفسير البنوة؛ ص ٣١٥ لخبر الأصنام في القمي؛ ص ٣٢٠–٣٢٢ لأخبار الرضا في الابن والأطفال والناجين؛ ص ٣٢٨–٣٢٩، ح ٤٩، للأسماء الخمسة؛ ص ٣٤١–٣٤٢ لنقول ابن طاووس. جمع الأخبار في هذا المصدر لا يساوي الحكم بتصحيحها.

قصص الأنبياء، للراوندي: ص ٦٣–٦٤، ح ٤٣، لاختلاف سلسلة الوصية؛ ص ٦٧–٦٩، ح ٤٨، لخبر الباقر في نشأة الأصنام؛ ص ٧٢، ح ٥٥–٥٧، لنقل تابوت آدم وخبر عوج. وتُفصل الأخبار المنقولة عن وهب عن الأخبار المسندة إلى الأئمة.

سعد السعود، لابن طاووس: ص ٢٣٩ في النسخة الإلكترونية المفتوحة، في النقل عن كتاب القصص وعمورة والأقوال في الزوجة؛ تراجع مقابلة النص في بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٤١–٣٤٢. عيون أخبار الرضا، للصدوق: باب ٣١، ح ١٠، لحديث تشبيه أهل البيت بالسفينة. كامل الزيارات، لابن قولويه: باب ١٠، ح ٢/٩١، ص ٨٩–٩١، لخبر الغري وآدم ونوح وعلي. مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب: ج ٢، ص ١٦٤ في النسخة المفحوصة، لخبر سام.

والأخبار التي نُقلت هنا عن أصل بواسطة بحار الأنوار وُصفت بهذه الواسطة، ولم يُدَّع فحص نسخة مستقلة من كل أصل. أما الكتب التفسيرية والفهارس العامة المذكورة في القائمة التالية، فيُستأنس بها ويُرجع إلى مواضعها، ولا تقوم أسماؤها المجردة مقام إسنادٍ أو إحالةٍ محددة لإثبات خبر.

بحار الأنوار، ج ١١

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

- سورة آل عمران: ٣٣.
- سورة النساء: ١٦٣.
- سورة الأنعام: ٧٤-٩٠.
- سورة الأعراف: ٥٩-٦٤.
- سورة يونس: ٧١-٧٣.
- سورة هود: ٢٥-٤٩.
- سورة المؤمنون: ٢٣-٣٠.
- سورة الشعراء: ١٠٥-١٢٢.
- سورة العنكبوت: ١٤-١٥.
- سورة الأنبياء: ٧٦-٧٧.
- سورة الصافات: ٧٥-٨٢.
- سورة القمر: ٩-١٧.
- سورة التحريم: ١٠.
- سورة نوح: ١-٢٨.
- سورة الحديد: ٢٦.
- سورة مريم: ٥٨.

ثانيًا: المصادر الروائية الإمامية

- الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ١٦٣ وما يتصل بها.
- الشيخ الصدوق، علل الشرائع.
- قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء.
- الشيخ الصدوق، الأمالي.
- علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، المواضع المتعلقة بقصة نوح، ومنها قصة نوح في تفسير سورة هود.
- محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، المواضع المتعلقة بآيات نوح.

ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٦٤ في النسخة الإلكترونية المفحوصة، خبر سام المنقول عن كتاب العلوي البصري؛ وتقابله إحالة بعض الطبعات إلى ج ١، ص ٤٧٢-٤٧٤.

• العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٥-٣٤٢، أبواب قصص نوح؛ وتذكر الإحالات التفصيلية في مباحثها.
• العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٢١٢، في نقل رواية سام بن نوح.
ابن قولويه، كامل الزيارات، باب ١٠، ح ٢ (الترقيم المتسلسل ٩١)، ص ٨٩-٩١ في الطبعة المفحوصة، خبر المفضل عن الصادق في آدم ونوح وعلي ونقل عظام آدم؛ وتقارن أخبار موضع القبر في الباب ٩.
• الشيخ عبد علي الحويزي، تفسير نور الثقلين.
• علي النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة البحار، ج ٦، ص ٣٠٧، مادة «سوم: سام بن نوح ووصيه»؛ فهرس مساعد للوصول إلى الأصول، لا سند مستقل.
ثالثًا: المصادر التفسيرية والتحليلية
• السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، مباحث قصة نوح.
• الشيخ محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٤، مادة نوح عليه السلام.

الفصل ٦ — سام بن نوح — حامل العهد بعد نوح

من الطوفان إلى استمرار الوصية والعلم

بداية الفصل — السؤال الذي تركه نوح

حين انتهى الطوفان، لم تنتهِ حكاية الهداية.

فالسفينة رست، والماء انحسر، وبدأت الأرض تستعيد حياتها.

لكن سؤالًا بقي خلف المشهد كله:

ماذا حدث للعهد الذي حمله نوح؟

فالنبوة ليست مجرد حياة نبي تنتهي بموته، ثم تبدأ قصة أخرى بلا رابط.

وفي روايات أهل البيت عليهم السلام يظهر مفهوم مهم جدًا: أن الله لا يترك الأرض خالية من الحجة والعلم الذي تقوم به الهداية.

وهنا يظهر اسم سام بن نوح.

ليس فقط بوصفه أحد أبناء نوح، وإنما بوصفه الشخصية التي ترتبط في الروايات بانتقال موروث النبوة والعلم والعهد بعد أبيه.

وهذه النقطة بالذات هي التي ستفتح لنا هذا الفصل.

لنبدأ من البداية:

من هو سام؟

ومن أين جاء؟

وما منزلته بين أبناء نوح؟

وماذا أعطاه نوح؟

وهل كان سام نبيًا؟

أم وصيًا؟

أم حاملًا للعهد والعلم؟

ثم ماذا حدث بعده؟

هذه الأسئلة ستكون محور هذا الفصل، وسنأخذها واحدة واحدة، دون أن نستعجل الوصول إلى النبي التالي.

أولًا: من هو سام بن نوح؟

سام هو أحد أبناء نوح عليه السلام.

وهنا ينبغي أن ننتبه منذ البداية إلى الفرق بين ما يثبته القرآن وما تذكره الروايات وكتب الأنساب.

القرآن يذكر أهل نوح، ويقص خبر ابنه الذي رفض الركوب وغرق، لكنه لا يسمي سامًا ولا حامًا ولا يافث، ولا يسمي الابن الغارق.

أما اسم سام، وكونه أحد أبناء نوح، فيظهر في التراث الروائي والتاريخي.

وفي الروايات الإمامية التي سنتوقف عندها لاحقًا، لا يأتي سام كشخصية هامشية.

بل تأتي له وظيفة محددة:

حمل ما أودعه نوح عنده.

وهذه العبارة ستصبح مفتاحًا لفهم شخصيته.

لأننا إذا قرأنا سامًا فقط باعتباره ابنًا من أبناء نوح، فسوف نفقد القسم الأهم من الرواية.

أما إذا قرأناه باعتباره حاملًا لما انتقل إليه من أبيه، فسوف نفهم لماذا يظهر اسمه في روايات الوصية والعهد.

سام بعد الطوفان

تخيل المشهد.

جيل كامل انتهى.

الأرض التي عرفها الناس قبل الطوفان تغيّرت.

والذين نجوا أصبحوا أمام مرحلة جديدة.

نوح عليه السلام لم يعد أمام قومه السابقين الذين كذبوه.

لقد أصبح أمام عالم جديد.

وفي هذه المرحلة، لم يكن المطلوب مجرد البقاء.

كان المطلوب حفظ الهداية.

وهنا تتخذ مسألة الوصية معناها.

فالرواية التي سنتوقف عندها لا تتحدث عن انتقال ملك دنيوي.

ولا عن وراثة سياسية بالمعنى المعتاد.

إنها تتحدث عن شيء أعمق:

الاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوة.

وهذه تعابير ثقيلة جدًا.
لأنها تعني أن ما حمله نوح من العلم الإلهي لم ينقطع بوفاته.
بل أودعه في من اختاره الله لحمل هذا الأثر.
وهنا يأتي سام.

الوصية: ماذا أعطى نوح سامًا؟

من أهم الروايات التي سترافقنا في هذا الفصل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في سياق الحديث عن استمرار الحجة والعلم.
وفيها أن نوحًا عليه السلام، عندما حضرته الوفاة، أوصى إلى ابنه سام.
وتذكر الرواية أن نوحًا دفع إليه:
الاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوة.
ثم جاء المعنى الذي سيصبح أحد أعمدة هذا الفصل:
أن الله لا يترك الأرض بغير عالم يُرجع إليه في أمر الله.
هذه ليست عبارة عابرة.
إنها تضع أمامنا تصورًا كاملًا لاستمرار الهداية.
فالنبي يموت، لكن العلم الذي أُعطي له لا يضيع.
والعهد لا ينقطع.
والحجة لا تختفي من الأرض.
ومن هنا نفهم لماذا لا يمكن أن نتعامل مع سام في هذا الفصل كشخصية نسبية فقط.
إنه في هذه الرواية حامل أمانة.

سام والعهد الذي لا ينقطع

وهنا تبدأ الصورة الأكبر بالظهور.
إذا كان نوح قد سلّم سامًا الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة، فمعنى ذلك أن مرحلة ما بعد نوح لم تكن فراغًا روحيًا.
كان هناك امتداد.
وكان هناك حامل للعلم.
وكان هناك عهد.

وهذا يفسر لماذا ستصبح شخصية سام نقطة انتقال أساسية في كتابنا.

لكن لا ينبغي أن نستعجل.

قبل أن نسأل:

من جاء بعد سام؟

علينا أن نعرف سام نفسه.

كم عاش؟

أين عاش؟

من هم أبناؤه؟

ما الذي وقع في عصره؟

هل بقي الناس على التوحيد الذي جاء به نوح؟

كيف بدأت المجتمعات الجديدة؟

وهل ظهرت بوادر الشرك مرة أخرى؟

ثم يأتي السؤال الأخطر:

من حمل العهد بعد سام؟

يعالج هذا الفصل هذه الأسئلة في حدود ما تسمح به النصوص، ويبيّن مواضع اختلافها وما لا نملك فيه خبرًا ثابتًا.

وبذلك تظل صلة سام بالهداية واضحة من غير أن نملأ الفجوات بقصص متخيلة.

ثانيًا: سام في بيت نوح

إذا أردنا أن نقترب من سام، فعلينا أولًا أن نتوقف عند البيت الذي خرج منه.

فهو ابن نوح عليه السلام، ذلك النبي الذي عاش دعوة طويلة في مواجهة قومه، ثم حمل المؤمنين معه في السفينة، وبدأ بعد الطوفان عهدًا جديدًا للبشرية.

لكن القرآن لا يقدم لنا سيرة مفصلة لسام.

وهذه نقطة يجب أن تبقى واضحة طوال الفصل:

القرآن لا يذكر سامًا باسمه أصلًا، وإنما يضع الإطار العام لقصة نوح وأهله، وتأتي تسمية سام وتفاصيله من الروايات وكتب الأنساب والتاريخ.

ولهذا سنميز دائمًا بين مستويين:

ما أخبر به القرآن.

وما نقلته الروايات.

ولا نجعل الرواية في منزلة الآية القرآنية.

أبناء نوح

وهنا نصل إلى مسألة مهمة.

من هم أبناء نوح الذين استمر بهم نسل البشرية بعد الطوفان؟

قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

وهذه الآية تعطي سام موقعًا مهمًا ضمن الصورة العامة، لكن القرآن لا يقول في هذه الآية: "سام هو الابن الذي بقي منه كذا".

أما كتب التفسير والتاريخ والأنساب الإسلامية فقد اشتهر فيها تقسيم أبناء نوح إلى:

سام، وحام، ويافث.

وأما الابن الذي قصّ القرآن علينا قصته في سورة هود، والذي قال:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾،

فليس هو سام في الروايات المشهورة، بل هو الابن الذي اختار الكفر ولم ينجُ مع أبيه.

وهنا يظهر درس بالغ الأهمية.

فالنسب وحده لا يصنع النجاة.

كون الإنسان ابن نبي لا يعني أنه مؤمن.

وفي المقابل، فإن حمل أمانة الهداية لا يكون بمجرد النسب، بل بما يضعه الله في الإنسان من علم وطاعة واصطفاء.

وهذا سيكون مفتاحًا لفهم الفرق بين أبناء نوح وحامل عهد نوح.

سام ليس هو ابن نوح الغارق

من المهم أن نثبت هذه النقطة حتى لا تختلط علينا الروايات لاحقًا.

عندما يذكر القرآن حوار نوح مع ابنه عند الطوفان، يقول نوح لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود: ٤٢).

ثم يأتي جواب الابن:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود: ٤٣).

ثم:

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٣).

بعد ذلك قال نوح:

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود: ٤٥).

فجاء الجواب:

﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦).

هذه الآيات لا تسمي الابن.

لكن الروايات وكتب القصص والأنساب تميّز بينه وبين سام.

ولذلك عندما نصل إلى سام، لا ينبغي أن نتصوره باعتباره الابن الذي حاول النجاة بجبل.

سام في الروايات هو من نجا مع أبيه، ثم ارتبط اسمه بوصية نوح.

ماذا نعرف عن ولادة سام؟

وتبدأ الأسئلة الشخصية بمسألة لا يجوز تجاوز حدود الدليل فيها:

الولادة.

هل نعرف متى ولد سام؟

أين ولد؟

من كانت أمه؟

كم كان عمر نوح عندما ولد؟

وهل كان سام أكبر أبنائه أم أصغرهم؟

هنا يجب أن نكون أكثر تحفظًا.

لا يذكر القرآن تاريخًا لميلاد سام، ولا مكانًا له، ولا ترتيبًا له بين أبناء نوح.

أما الروايات التاريخية والأنساب فتختلف في بعض التفاصيل.

ولهذا لا يصح أن نملأ الفراغ بأرقام تبدو دقيقة ثم نقدمها على أنها حقيقة ثابتة.

وهذه قاعدة سنلتزم بها في هذا الكتاب:

إذا لم يثبت الرقم، فلن نخترعه.

قد نجد في بعض كتب القصص والأنساب أعمارًا وترتيبات زمنية، لكننا سنضعها في موضعها الصحيح:

رواية تاريخية أو قولًا منقولًا، لا حقيقة قرآنية قطعية.

أم سام والنساء في بيت نوح — الاسم لا يغني عن الدليل

لا يكتمل النظر في بيت سام بذكر الرجال وحدهم. لكن حضور المرأة في القصة لا يبيح لنا أن نمنح كل امرأة اسمًا، أو أن نجمع أخبارًا متباينة في سيرة واحدة. يبدأ هذا الباب من امرأة نوح التي ضرب القرآن بها المثل في الكفر (التحريم: ١٠). الآية لا تسميها، ولا تقول إنها أم سام. لذلك لا يجوز أن ننقل حكمها إلى أمه بمجرد اشتراكهما في صلة الزوجية بنوح.

وفي سعد السعود ينقل ابن طاووس عن كتاب القصص لمحمد بن جرير الطبري خبر «عمورة بنت ضمران بن أخنوخ»، المؤمنة بنوح، ويجعلها أم سام. صلة هذا النص بسام مباشرة، إلا أن طريقه هنا نقل قصصي عن كتاب، وليس حديثًا مسندًا عن أحد الأئمة. نذكر الاسم ونسبته إلى مصدره، ولا نبني عليه تفاصيل حملها وولادتها أو حوارًا لم يثبت (سعد السعود، ص٢٣٨-٢٣٩). وينقل ابن طاووس في السياق نفسه اسم «رابعا» للزوجة الكافرة بصيغة خبر آخر، ولا تصبح بذلك تسمية قرآنية، ولا اسمًا لأم سام.

ويرد في قسم مولد النبي من كتاب إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي اسم «عمودة»، ويصفها الخبر بالإيمان ويجعل سامًا ابنها. وفي السياق نفسه ترد «قنسوس بنت تركاسل» أم نوح؛ فتكون جدة سام في نسب هذا الخبر. اختلاف «عمورة» و«عمودة» لا يحسم بمجرد تشابه اللفظ، ولا نقرر أنهما امرأتان مختلفتان أو اسم واحد مصحّف بلا شاهد. ويذكر اليعقوبي لزوج نوح اسم «هيكل بنت ناموس بن أخنوخ» في خبره عن أسرة نوح. تبقى هذه الأقوال منفصلة عن تسمية المرأة القرآنية وعن الحكم القطعي بهوية أم سام.

وتظهر امرأة نوح غير المسماة أيضًا في خبر التنور المروي في التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام؛ فهي التي تنبه نوحًا إلى ظهور الماء. ويذكر السياق ابنة لنوح حملها في السفينة، وهي أخت سام في هذا الخبر، من غير أن يسميها. هذه شخصية نسائية لا يصح إسقاطها لأن اسمها غائب، كما لا يصح اختراع اسم أو زواج لها. ولا نستطيع بمجرد هذا الخبر تعيين العلاقة بين المرأة التي نبهت إلى التنور والمرأة التي ضرب بها القرآن المثل (نقله المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، ص٣١٢-٣١٣، ح٦).

أما زوجات الأبناء وسائر المؤمنات اللاتي ترد الإشارة إليهن في أخبار الناجين، فوجودهن في الرواية يذكر بحسب لفظها، من غير حصر لجميع من ركب أو وضع قائمة أسماء متخيلة. وتظل العجوز المؤمنة الواردة في خبر نجاة العجوز في فصل نوح من جماعة ذلك العهد، لا امرأة ثبتت لها صحبة خاصة بسام. عدم وصول الأسماء ليس سببًا لحذف النساء، وورود اسم في كتاب قصص ليس كافيًا لتثبيته في السيرة.

نسب سام

أما نسبه المباشر، فهو أوضح:

سام بن نوح.

وفي سلسلة النسب التي أصبحت مشهورة في كتب الأنساب، يأتي سام بوصفه أحد أبناء نوح الثلاثة الذين ارتبطت بهم أنساب الأمم بعد الطوفان.

لكن هنا أيضًا توجد مشكلة ينبغي ألا نهملها.

كثير من كتب الأنساب المتأخرة بنت تفصيلات واسعة على أخبار متداولة، وربطت شعوبًا وأممًا معينة بسام أو حام أو يافث.

هذه المادة مهمة لفهم التصور التاريخي الإسلامي القديم، لكنها ليست كلها على درجة واحدة من الثبوت.

ولهذا، عندما نصل لاحقًا إلى مسألة:

من نسل سام؟

سنحتاج إلى فصل النسب المتوارث عن الرواية الدينية الموثقة.

وسنكون أكثر تشددًا في هذه النقطة، لأن سلسلة النسب ستصبح مهمة جدًا عندما نبحث عن النبي الذي يأتي بعد سام.

القرآن الكريم وسام بن نوح — ما الذي يثبت وما الذي لا يثبت؟

قبل أن نبني سيرة سام، يجب أن نضع الحد الفاصل بوضوح:

القرآن الكريم لا يذكر اسم سام بن نوح صراحة.

ولا يذكر اسم حام أو يافث.

ولا يذكر عدد أبناء نوح الذين بقوا بعد الطوفان بأسمائهم.

لكن القرآن يثبت إطارًا مهمًا جدًا تقع داخله قصة سام في الروايات.

أولًا: بقاء ذرية نوح

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾

الصافات: ٧٧.

هذه الآية تثبت أن ذرية نوح كانت محور استمرار النسل بعد الطوفان.

لكنها لا تقول:

إن سامًا وحده هو المقصود.

ولا تسمي الأبناء.

ولا تقدم لنا خريطة الشعوب التي خرجت من كل ابن.

ثانيًا: ابن نوح الغارق

قال تعالى في سورة هود:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾

ثم قال الابن:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾

ثم:

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

هود: ٤٢-٤٣.

ثم قال نوح:

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾

فجاء الجواب:

﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾

هود: ٤٥-٤٦.

القرآن لا يسمي هذا الابن سامًا، والروايات المشهورة تميزه عن سام.

ومن هنا يبقى الدرس القرآني ثابتًا:

القرابة وحدها لا تحمل العهد.

والنسب وحده لا يصنع النجاة.

ثالثًا: السلام والبركات بعد الطوفان

قال تعالى:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾

هود: ٤٨.

هذه الآية تفتح مرحلة ما بعد الطوفان.

وتسمح لنا أن نفهم لماذا يصبح البحث في من حمل الهداية بعد نوح مهمًا.

لكنها لا تسمي سامًا.

رابعًا: ذرية من حملهم الله مع نوح

قال تعالى:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

الإسراء: ٣.

وهنا أيضًا يربط القرآن الأجيال اللاحقة بجماعة النجاة مع نوح، لكنه لا يعطينا قائمة بأسماء من حملوا العلم والوصية.

إذن، إذا قلنا:

سام هو وصي نوح وحامل العلم بعده،

فهذا ليس نصًا قرآنيًا باسمه.

إنه حكم روائي يحتاج إلى مصدره.

آيات تحفظ حدود القصة ومعنى البقاء

لا تقف الدلالة القرآنية عند بقاء الذرية. ففي خطاب الهبوط يذكر القرآن البركة، ثم يذكر أممًا تنال متاعًا يعقبه العذاب (هود: ٤٨). بذلك لا يصح أن نقرأ النجاة من الطوفان وكأنها ضمان أبدي لاستقامة كل من ينتسب إلى الناجين. وفي قوله تعالى عن نوح وإبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٦)، تجتمع كرامة استمرار النبوة مع مسؤولية كل إنسان عن اختياره.

وتصل سورة مريم بين ذرية آدم ومن حُمل مع نوح وذرية إبراهيم وإسرائيل في سياق من أنعم الله عليهم من النبيين (مريم: ٥٨). وتقرر سورة النساء وجود رسل قص الله خبرهم ورسل لم يقصصهم (النساء: ١٦٣-١٦٤). هذه الآيات تسعفنا في فهم أن الأسماء القرآنية ليست سجلًا يستوعب أسماء جميع الأنبياء، لكنها لا تعطينا حق ملء كل فراغ باسم من كتب الأنساب، ولا تعيّن سامًا نبيًا.

وفي المقابل، يذكر القرآن إحياء عيسى للموتى بإذن الله (آل عمران: ٤٩؛ المائدة: ١١٠)، ولا يسمي سامًا واحدًا منهم. فحين نعرض خبر إحيائه نكون قد انتقلنا من الأصل القرآني العام إلى رواية تعيّن شخصًا بعينه. المحافظة على هذه المسافة جزء من أمانة الحكاية، وهي التي تمنع أن تتسلل التفاصيل المختلف فيها إلى نص الآية.

سام في الرواية الإمامية الكبرى — نقل الاسم الأكبر وميراث العلم

المحور الأهم في هذا الفصل هو الرواية التي حفظها الكليني في الكافي، ورويت كذلك في كمال الدين وتمام النعمة وفي مصادر لاحقة.

يروي الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام أن نوحًا عليه السلام، بعد الطوفان وعند اكتمال أيامه، جاءه جبرئيل عليه السلام وأمره أن ينظر إلى ما معه من:

الاسم الأكبر،

وميراث العلم،

وآثار علم النبوة،

وأن يدفعها إلى ابنه سام.

وتقول الرواية إن الله لا يترك الأرض إلا وفيها عالم تعرف به طاعته ويعرف به هداه، ويكون حجة وداعيًا وهاديًا بين قبض نبي وبعث نبي آخر.

ثم تنص الرواية بوضوح على أن نوحًا دفع:

الاسم الأكبر،

وميراث العلم،

وآثار علم النبوة،

إلى سام.

وهذه نقطة مركزية في تصوير الرواية لمكانة سام؛ أما تقويم سندها فمسألة مستقلة لا تحسمها شهرة الكتاب.

فالذي انتقل إليه ليس:

أرضًا،

ولا ملكًا،

ولا سلطة دنيوية.

إنما انتقل إليه بحسب الرواية:

علم،

وعهد،

وميراث نبوة،

وأمانة تحفظ الطريق حتى يأتي النبي التالي.

طريق الرواية وتابوت العلم — ماذا نستطيع أن نقول؟

حديث انتقال الاسم الأكبر في الكافي هو الحديث ٤٣٠ من الجزء الثامن، ص٢٨٥. يرويه الكليني بطريق يمر بمحمد بن سنان، عن إسماعيل بن جابر وعبد الكريم بن عمرو وعبد الحميد بن أبي الديلم، عن الإمام الصادق عليه السلام. وجود محمد بن سنان، الذي وقع الخلاف في تقويمه، يمنع عرض هذا السند وكأن صحته محل اتفاق. وطريق كمال الدين الموازن يلتقي معه في هذا الراوي وفي أصل الخبر؛ فلا تكون إعادة النص في كتاب آخر وحدها سندًا مستقلًا لكل تفصيل فيه.

وبهذا يتحدد حضور جبرئيل في القصة: هو حامل الأمر إلى نوح في الرواية، ونوح هو المؤتمن الذي يدفع العلم، وسام هو المتلقي. لا يصف الخبر درسًا يوميًا بين جبرئيل وسام، ولا يملي علينا ألفاظ أوراق أو أسماء أدوات أو مراسم تسليم مفصلة. المقصود الذي ينص عليه هو بقاء العلم والحجة، أما الصورة الحسية الكاملة لذلك المجلس فلا يرويها هذا النص.

وفي قصص الأنبياء للراوندي، في خبر حبيب السجستاني عن الإمام الباقر عليه السلام، يرد تابوت يحمل ميراث العلم، ويتصل انتقاله من آدم وشيث بمن جاء بعدهما حتى نوح وسام. يذكر الخبر أيضًا اجتماع بني آدم وبناته عند الوصية، فلا تحذف البنات من سياقه العام. وهو خبر آخر ذو طريقه الخاص، لا يصح جعله وصفًا تفصيليًا لنفس مجلس الحديث ٤٣٠ لمجرد اتفاقهما في انتقال العلم (قصص الأنبياء، ح٤٣، ص٦٢-٦٤).

أما وصف التابوت بالياقوت أو الدرة والسلاسل والعرى في خبر النور الوارد في إثبات الوصية، فيبقى من تفاصيل ذلك الخبر بعينه. لا يحمل حديث الكافي هذه الأوصاف، ولا نركب من النصوص المختلفة مشهدًا واحدًا ثم ننسبه كله إلى الإمام الصادق. يكفينا في السرد أن نبقي المعنى المنقول واضحًا: مضت حياة نوح، وبحسب هذه الأخبار لم يمض معها العلم الذي اؤتمن عليه.

هل عاش نوح بعد الطوفان خمسين سنة أم خمسمائة؟

هذه نقطة تحتاج إلى تحقيق ولا يجوز أن نمر عليها بسرعة.

في الكافي، ج٨، الحديث ٤٣٠، ورد:

أن نوحًا عاش بعد الطوفان خمسمائة سنة.

وفي نسخة كمال الدين وتمام النعمة المطبوعة بتحقيق علي أكبر الغفاري، ورد:

أن نوحًا عاش بعد النزول من السفينة خمسين سنة.

وقد نبه المجلسي نفسه إلى اختلاف النسخ، وذكر أن رواية قصص الأنبياء والكافي فيها «خمسمائة سنة»، ورأى أن ذلك هو الصواب بحسب الأخبار التي كانت بين يديه.

إذن لدينا اختلاف نصي:

خمسون سنة في بعض نسخ كمال الدين.

خمسمائة سنة في الكافي وبعض النقول الأخرى.

ولذلك لن نجعل الرقم جزءًا من تعريف سام.

المهم في الفصل السادس ليس عدد السنوات بين الطوفان ووصية نوح، بل وقوع انتقال العهد إلى سام بحسب الرواية.

سام وحام ويافث — لماذا اختص سام بالعلم؟

تقول الرواية نفسها:

إن نوحًا دفع الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى سام.

ثم تضيف:

أن حامًا ويافث «لم يكن عندهما علم ينتفعان به» بحسب لفظ الرواية.

وهذه العبارة لا تعني أن حامًا ويافث خرجا من الإيمان بالضرورة في كل الروايات.

ولا تسمح لنا ببناء أحكام عرقية أو أخلاقية على شعوب لاحقة.

بل سياق الرواية يتحدث عن:

من حمل الميراث العلمي الخاص المرتبط بالوصية.

فالفرق هنا ليس بين:

ابن كريم وابن حقير،

أو شعب مفضل وشعب ملعون.

إنما هو بين:

من أودع عنده ميراث العلم،

ومن لم يحمل ذلك الميراث الخاص في هذه الرواية.

وهذا ينسجم مع قاعدة سبق أن رأيناها في قصة آدم:

ليس كل ابن نبي حاملًا للعهد.

برّ سام بأبيه واختلاف خبر حام ويافث

تحفظ علل الشرائع خبرًا عن الإمام الهادي عليه السلام، بطريق عبد العظيم الحسني، في ستر سام لأبيه حين انكشف منه ما ينبغي ستره. لكن الصدوق نفسه ينبه إلى اختلاف مهم: جمع حام ويافث في الإساءة غريب في الطريق الذي عرضه، بينما تجعل أخبار أخرى سامًا ويافث شريكين في الستر وحامًا منفردًا بالفعل الآخر. يورد المجلسي الخبر وتعقيب الصدوق في بحار الأنوار، ج١١، ص٢٩١-٢٩٢.

لهذا لا يصح أن نقول إن جميع الأخبار اتفقت على موقف واحد ليافث، أو أن ننقل ما يرد في أحدها إلى خبر انتقال العلم ثم نجعلهما نصًا واحدًا. نستطيع أن نذكر صورة بر سام بأبيه كما يرويها هذا الباب، مع اختلاف دور أخويه، من غير أن نجعلها وحدها دليل تعيينه وصيًا.

وترد في بعض ألفاظ هذا الباب تعليلات لألوان البشر أو استعباد ذرية حام. هذه لا تتحول في الكتاب إلى حكم على شعوب أو أجناس. فالقرآن يجعل اختلاف الألسنة والألوان من آيات الله (الروم:

٢٢)، ويجعل التقوى معيار الكرامة (الحجرات: ١٣)، ويقرر ألا تحمل نفس وزر أخرى (الأنعام: ١٦٤). لا تورث جريمة مفترضة لابنٍ ذنبًا لأجيال كاملة، ولا نعرض التقسيمات القديمة وكأنها علم في الأنساب البشرية.

هل كان سام وصيًا؟

هنا تصبح المادة أوضح من مسألة نبوته.

إلى جانب رواية انتقال ميراث العلم، توجد أخبار في مصادر إمامية، منها بصائر الدرجات والخرائج والجرائح وما نقله عنهما بحار الأنوار، تصف سامًا صراحة بأنه وصي نوح.

ومنها خبر «هام/هامة» الجني، الذي يختلف عن حام أخي سام. وفي سياق السؤال عن أوصياء الأنبياء يرد:

من كان وصي آدم؟

شيث.

ومن كان وصي نوح؟

سام بن نوح.

هذه الرواية ليست في قوة القرآن، وليست كافية وحدها للحكم على جميع تفاصيل سلسلة الأوصياء، لكنها تتفق في المعنى العام مع رواية انتقال ميراث العلم إلى سام.

لذلك يمكننا في هذا الكتاب أن نقول:

تصف روايات إمامية سامًا بأنه وصي نوح وحامل ميراث العلم بعده.

هل كان سام نبيًا؟

هذا السؤال يجب أن يبقى منفصلًا عن الوصاية.

وجدنا نصوصًا تصف سامًا بالوصي، ونصوصًا تجعل عنده ميراث العلم وآثار النبوة.

لكن هذا لا يساوي تلقائيًا:

أنه كان نبيًا.

والقرآن لا يذكر سامًا باسمه أصلًا.

كما أن الرواية الأساسية في الكافي وكمال الدين لا تقول في هذا الموضع:

«سام النبي».

ولذلك لا يعتمد هذا الفصل لقب:

«النبي سام»

بوصفه نتيجة محسومة، لعدم قيام دليل صريح كافٍ في النصوص التي اعتمدت هنا.
الصياغة الأدق هي:
سام بن نوح — وصي نوح وحامل العهد والعلم في الروايات الإمامية.
وهذا لا ينتقص من مكانته.
فالكتاب لا يحتاج إلى تحويل كل حامل للهداية إلى نبي.
بل يحتاج إلى تحديد مقام كل شخصية كما تسمح به الأدلة.

نصوص لا تحسم لقب النبوة

يروي إثبات الوصية، في ترجمة سام، أمرًا إلهيًا له عند اقتراب وفاته بإيداع العلم عند أرنخشد. لكن ورود صيغة الإيحاء في خبر لا يغني عن فحص مصدره، ولا يبيّن وحده جميع حدود المنصب المقصود. والنص هنا في كتاب منسوب إلى المسعودي لا يسوق عند كل فقرة إسنادًا تفصيليًا؛ فلا يجعل هذا الفصل ذلك وحده حجة فاصلة على نبوة سام.

وفي خبر علي بن عاصم الكوفي مع الإمام الحسن العسكري عليه السلام، المنقول من مشارق أنوار اليقين إلى بحار الأنوار، تذكر آثار أقدام سام وأرنخشد ضمن أسماء كثيرة. الخبر متأخر المصدر في نقله، وليس تعداد الأسماء فيه تصريحًا بأن كل من ذُكر نبي؛ فسياقه يضم مراتب متعددة من أهل الفضل. لذلك يذكر في حضور سام في أخبار المناقب، ولا يستخرج منه لقب لم ينص عليه نص كافٍ (بحار الأنوار، ج١١، ص٣٣-٣٤، ح٢٧).

والنتيجة محددة: لا يجزم الفصل بنبوة سام، ولا يجزم بنفيها. إنه يلتزم الوصف الذي تدور عليه الأخبار التي عرضها: وصي نوح وحامل ميراث العلم. والفرق بين التوقف والنفي يحفظ للشخصية قدرها، ويحفظ للقارئ حقه في معرفة حدود الدليل.

الوصية السنوية — كيف حُفظ انتظار هود؟

الرواية لا تنتهي عند تسليم العلم إلى سام.
بل تقول إن نوحًا:
بشرهم بهود عليه السلام،
وأمرهم باتباعه،
وأمرهم أن يفتحوا الوصية في كل عام،
وينظروا فيها،
ويجعلوا ذلك يومًا يتعاهدون فيه ما عندهم.

وهذا يذكّرنا بما رأيناه في وصية آدم وشيث بشأن انتظار نوح.
وهنا يظهر نمط متكرر في حكاية الهداية:
نبي يذكر من سيأتي بعده.
وصي يحفظ العلم.
أجيال تراجع العهد.
ثم يأتي النبي الموعود فتُعرف علامته من الوصية.
إذن سام ليس نهاية الطريق.
هو حافظ جسر الهداية بين نوح وما بعده.

هل كان هناك أنبياء بين نوح وهود؟

هذه نقطة مهمة لفهم استمرار الهداية بعد سام.
في حديث أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام، المحفوظ في روضة الكافي، ج٨، ص١١٣-١١٧، ح٩٢، جاء:
أن بين نوح وهود أنبياء.
وهذا يعني أن الرواية نفسها تمنعنا من أن نرسم التاريخ هكذا فقط:
نوح ← هود.
بل هناك حلقات بينهما.
لكن الرواية في هذا الموضع لا تسمي كل أولئك الأنبياء.
وهذا يفرض علينا منهجًا واضحًا:
لا نخترع أسماء.
ولا نأخذ قائمة من كتب الأنساب ثم نحول كل اسم فيها إلى نبي.
ولا نقول إن الفراغ يعني انقطاع الهداية.
بل نقول:
الرواية الإمامية تنص على وجود أنبياء بين نوح وهود.
وتنص أيضًا على استمرار الوصية والعلم «عالمًا بعد عالم» حتى بعثة هود.
وهذا بالضبط هو موضوع الفصل السابع:
من سام إلى هود — حملة العهد في الأجيال بعد الطوفان.

استخفاء ولد سام وما عندهم من العلم

في كمال الدين ترد إضافة مهمة.

بعد أن تذكر الرواية انتقال الاسم الأكبر وميراث العلم إلى سام، تقول إن «الجبرية» ظهرت في ولد حام ويافث، وأن ولد سام استخفوا بما عندهم من العلم.

وهذا يعني أن حمل العهد لم يكن دائمًا ظاهرًا أمام الجميع.

فقد تمر مرحلة يكون فيها صاحب العلم أو أهل العهد في وضع يستدعي الكتمان.

ثم تقول الرواية إن الوصية كانت تُتوارث:

عالمًا بعد عالم،

حتى بعث الله هودًا عليه السلام.

هذه العبارة مهمة جدًا لأنها تجعل مرحلة سام وما بعده فترة:

حفظ،

وكتمان،

وانتقال مستمر،

لا فراغًا.

لكن ينبغي ألا نحمّل لفظ «الجبرية» هنا معاني مذهبية متأخرة من غير تحقيق.

نأخذ الرواية في سياقها الذي يتحدث عن غلبة وقوة ومرحلة اضطر فيها أهل العلم إلى الاستخفاء.

بين كتمان العلم والبشارة بهود

تعطي رواية كمال الدين، في ص١٣٥، وصفًا لولد حام ويافث بأنهم استظهروا على ولد سام، فصاروا يخفون ما عندهم من العلم. لفظ «الجبرية» في هذا السياق وصف للغلبة والقهر، ولا موجب لحمله على اسم الفرقة الكلامية المتأخرة. وإثبات الوصية يروي صورة أشد في مخالفة الأخوين لسام؛ لكن اختلاف الصياغة والمصدر يمنع تحويل ذلك إلى حكم متفق عليه على جميع أفراد البيوت الثلاثة.

ولا تعطينا هذه الأخبار أسماء كل امرأة أو رجل حفظ العلم في زمن الكتمان، ولا مدنهم ولا تفاصيل مجالسهم. لذلك لا نصف مدارس سرية أو طقوسًا موروثة أو وقائع اعتقال بأسماء مخترعة. ما تنقله الرواية هو حفظ الوصية وتعاهد البشارة بهود، وما نقرؤه من معنى الصبر وحراسة الأمانة تأمل في دلالة الخبر، لا حدث جديد نضيفه إلى التاريخ.

ويحتاج الجمع بين الروايات هنا إلى احتراز آخر: ترد في إحدى صيغ كمال الدين عبارة توهم أن هودًا يأتي بعد سام مباشرة، ثم يتحدث السياق عن أنبياء بين نوح وهود وعن توارث الوصية. لا نستعمل العبارة الأولى لمحو هذه الأجيال، ولا نحول اسم كل جد إلى نبي لملء المسافة. تحفظ الرواية اتصال

الهداية، ولا تمنحنا تقويمًا زمنيًا كاملًا لأهل ذلك العصر (كمال الدين، باب٢٢، ح٢؛ الكافي، ج٨، ح٩٢).

سام وذرية الأمم — ماذا تقول الرواية؟

تضيف رواية كمال الدين تفصيلًا عن ذرية أبناء نوح.

فتنسب إلى حام:

السند والهند والحبش.

وتنسب إلى سام:

العرب والعجم.

هذه العبارة موجودة في الرواية، ولذلك لا ينبغي حذفها.

لكن ينبغي أيضًا ألا نجعلها خريطة أنثروبولوجية علمية حديثة.

هي تعكس تصورًا نسبيًا مرويًا في ذلك النص.

أما كتب التاريخ والأنساب فتقدم خرائط أوسع بكثير:

فتذكر لسام أبناء مثل:

أرفخشذ،

وإرم،

ولاوذ،

وأشوذ أو أشور،

وأسماء أخرى بحسب اختلاف المصادر.

ومن هذه السلاسل ربط المؤرخون بين سام وبين:

عاد،

وثمود،

وخط إبراهيم عليه السلام،

وشعوب كثيرة.

لكن هذه التفاصيل ليست في القرآن.

كما أنها ليست جميعًا روايات مسندة عن أهل البيت عليهم السلام.

لذلك سنستفيد منها في الفصل السابع وما بعده كمواد نسبية مقارنة، لا كحقائق وحي قطعية.

من أبناء سام الذين نحتاجهم في حكاية الهداية؟

في كتب الأنساب يبرز اسم أرفخشذ بن سام بصورة خاصة لأنه يدخل في السلسلة التي تُوصل إلى إبراهيم عليه السلام في عدد من التقاليد التاريخية.

ويبرز إرم كذلك لأنه يرتبط في كتب الأنساب بعاد وما يأتي بعدهم.

لكن مشروعنا لا يسمح لنا بأن نقول:

كل اسم في سلسلة النسب هو نبي أو وصي.

لذلك سيكون العمل في الفصل السابع:

البحث عن الأسماء التي تثبتها روايات إمامية بوصفها حملة عهد أو أنبياء.

ثم مقارنة ذلك بسلاسل الأنساب التاريخية.

ثم فصل:

النسب،

عن الوصاية،

عن النبوة.

وهذا مهم جدًا لأن سام نفسه يعلّمنا أن:

استمرار النسب لا يساوي استمرار العهد،

وأن استمرار العهد قد يمر عبر أسماء لا يذكرها القرآن.

زوجة سام وأبناؤه — ما تقوله كتب الأنساب

يذكر ابن الأثير، ناقلًا عن ابن إسحاق، أن زوجة سام «صلب بنت بتاويل بن محويل بن حانوخ بن قين بن آدم». ويذكر في أبنائه أرفخشذ وأسود ولاود وإرم، ثم ينبه إلى عدم تيقنه من كون أم إرم هي أم إخوته المذكورين. من ثم لا نحول القائمة إلى عدد محصور للأبناء، ولا نجزم بوحدة أمهاتهم. ويحفظ خبر إثبات الوصية صيغة أخرى: زوّج نوح سامًا امرأة من بنات الملوك من غير أن يسميها، فولدت أرفخشد. لا دليل هنا على أن بنت الملك هي «صلب»، ولا على أنها زوجة ثانية (الكامل في التاريخ، ج١، ص٧٢-٧٦؛ إثبات الوصية، قسم مولد النبي).

وتشتهر في المقارنة الكتابية قائمة «عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام» (سفر التكوين: ١٠:٢٢). إيرادها هنا يكشف مصدر قائمة شائعة، ولا يرفعها إلى حديث عن أهل البيت. وتختلف رسوم الأسماء العربية: أرفخشد وأرفخشذ، وإرم وآرام، ولاود ولاوذ ولود. أما مساواة «أسود» في نقل بعينه بـ«أشور» فلا نحسمها بالتشابه أو بمحاولة توحيد القوائم.

أرنخشد هو الاسم الأشد اتصالًا بموضوع العهد بعد سام في إثبات الوصية. وإرم يرتبط في الأنساب بعوص أو عوض وغاثر وحويل، وبالسلاسل التي تنسب إليها عاد وثمود. أما شالخ أو شالح، وعابر أو غابر، وفالغ وقحطان، فتأتي أسماؤهم في سلاسل نسل أرنخشد بصيغ وترتيبات مختلفة. وقد يدخل قينان في بعض هذه السلاسل ولا يدخل في بعضها الآخر. نذكر موضع الاختلاف تمهيدًا للفصل التالي، ولا نجعل الأسماء حلقات وصاية ثابتة.

وترد «مرجانة» زوجة أرنخشد في خبر النور من إثبات الوصية، فيجعلها أم غابر الذي يسميه هودًا. غير أن ترتيب هذا الموضع لا يوافق ترتيب شالح بين أرنخشد وهود في موضع آخر من الكتاب. تبقى مرجانة امرأة مذكورة في الخبر، لا اسمًا ثبت به نسب أم هود على وجه القطع. كما لا يثبت من المصادر المعتمدة هنا سجل كامل لبنات سام أو أسمائهن، ولا يصح أن نحول هذا الصمت إلى نفي أن تكون له بنات.

وعند اليعقوبي قصة أخرى تذكر «لامك» ابنًا لسام، وزوجته «وزدق» أم «ملكيزدق». يجعل الخبر ملكيزدق حفيد سام ورفيقه في قصة نقل رفات آدم بإرشاد ملك لا يسميه. هذا لامك في ذرية سام بحسب الخبر، فلا يخلط بلامك أبي نوح؛ ووزدق زوجة ابن سام، فلا تنقل إلى موضع زوجة سام نفسه. القصة تاريخية وليست نصًا مسندًا إلى أحد الأئمة، وتختلف في موضع إيداع الرفات؛ فلا تعيّن قبرًا محققًا ولا تثبت أن ملكيزدق هو سام أو الخضر.

بهذا يظهر النساء والرجال في مواضعهم: زوجة مذكورة باسم في خبر، وأخرى موصوفة بلا اسم في خبر مختلف، وأم لابن، وزوجة لابن، وحفيد له دوره في رواية تاريخية. لا تُمحى هذه الصلات من الفصل، ولا تُجمع جميعها في شجرة واحدة تبدو يقينية وهي مؤلفة من أخبار متعارضة.

سام في خبر إحياء عيسى له — حضور بعد الوفاة

من الأخبار التي ترتبط باسم سام، وإن كانت تقع زمنيًا في عصر عيسى عليه السلام، رواية نقلها تفسير العياشي.

يروي العياشي عن محمد بن أبي عمير عمن ذكره مرفوعًا:

أن أصحاب عيسى عليه السلام طلبوا منه أن يحيي لهم ميتًا.

فأتى بهم إلى قبر سام بن نوح،

ودعاه بإذن الله،

فخرج سام من قبره بحسب الرواية.

ثم سأله عيسى:

هل يحب أن يبقى أم يعود؟

فطلب سام أن يعود إلى الموت، وذكر شدة ما بقي عنده من أثر الموت.

هذه الرواية مهمة من جهة وجود اسم سام في التراث الإمامي خارج قصة الطوفان.
لكن سندها مرفوع وفيه واسطة غير مسماة.
لذلك لا نجعلها من الحقائق القطعية في سيرة سام.
كما أن القرآن يثبت أصل معجزة إحياء الموتى لعيسى بإذن الله،
لكنه لا يسمي سامًا واحدًا ممن أحياهم عيسى.
سنعود إلى هذه الرواية في فصل عيسى عليه السلام عند الحديث عن معجزاته.

روايات أخرى عن سام في كتب الفضائل — ماذا نفعل بها؟

توجد في بعض كتب الفضائل والمناقب أخبار أخرى يظهر فيها سام بعد موته.
منها خبر نقله المجلسي في بحار الأنوار عن كتاب العلوي البصري بواسطة مناقب ابن شهرآشوب، يروي أن جماعة طلبوا من أمير المؤمنين عليه السلام إظهار سام بن نوح، وأن سام ظهر وشهد بالوصاية.
كما توجد رواية «هام» التي تذكر سامًا في قائمة أوصياء الأنبياء.
هذه النصوص مهمة لأنها تكشف حضور سام في الأدبيات الإمامية اللاحقة بوصفه رمزًا للوصاية.
لكن منهجنا يفرض:
ألا نسوّي بين الرواية والقرآن، وألا نصحح خبرًا لمجرد وروده في الكافي أو في غيره.
وألا نستخدمها وحدها لإثبات تفاصيل تاريخية عن حياة سام.
بل نذكرها في قسم الروايات المساندة، مع بيان مصدرها المتأخر أو طبيعة إسنادها.

سام في أخبار الأزمنة اللاحقة — ضبط الأشخاص والسياق

خبر العياشي في إحياء سام هو الحديث ٥٠ من الجزء الأول، ص١٧٤، عن محمد بن أبي عمير «عمن ذكره رفعه». لا يسمي النص المتاح الإمام الذي انتهى إليه الرفع، فلا ننسبه إلى الإمام الصادق جزمًا. أصحاب عيسى الذين طلبوا إحياء ميت غير مسمين؛ وعيسى هو الداعي، وسام هو الخارج من القبر في الخبر. واختياره العودة إلى الموت يمنع الاستدلال به على بقائه حيًا إلى عصور متأخرة.

ويأتي بعده في التفسير خبر آخر، عن أبان بن تغلب عن الإمام الصادق، في صديق لعيسى وأمه غير المسماة؛ أُحيي الابن وبقي معها. تلك الأم ليست أم سام، وذلك الابن ليس سامًا. تجاور الخبرين في الصفحة لا يدمج شخصياتهما. يكتفي فصل سام بخبره، ويحفظ خبر المرأة وابنها لموضعه في قصة عيسى.

وفي خبر مناقب ابن شهرآشوب، ج٢، ص١٦٤، المنقول عن كتاب العلوي البصري، الجماعة التي طلبت ظهور سام من أهل اليمن، وسياقها مع النبي محمد صلى الله عليه وآله ثم أمير المؤمنين علي عليه السلام. ينسب الخبر الإحياء إلى إذن الله، ويجعل سامًا شاهدًا للوصاية. لكن النص في هذا الموضع

لا يقدم سندًا كاملًا يجيز الجزم بالواقعة؛ فلا نضع الجماعة في عصر سام الأصلي، ولا نستنبط منها أن سامًا ظل حيًا من الطوفان إلى الإسلام.

أما «هام» أو «هامة» فهو جني في خبر الخرائج والجرائح، ج٢، ص٨٥٦–٨٥٨، ح٧١، وترد في اسمه وسلسلة نسبه قراءات، منها الهام بن الهيثم بن لاقيس بن إبليس. يروي الخبر توبته على يد نوح، ثم لقاءه بالنبي وتعليمه على يد علي، ويسمي سامًا وصي نوحٍ. هذا غير حام بن نوح؛ ولا يُخلط بين الاسمين. كما يرد في سياق الخبر اسم «يوحنا بن حنان» وصيًا لهود في هذه الصيغة، وهو اسم يذكر في موضعه اللاحق مع اختلاف الأخبار، لا خليفة مباشرًا لسام بلا دليل.

وتوجد شهادة أخرى في أمالي الصدوق، المجلس الحادي عشر، ح٤، الرقم العام٧٧، تشبّه منزلة علي من النبي بمنزلة سام من نوح، ضمن أمثلة هبة الله من آدم وإسحاق من إبراهيم وهارون من موسى وشمعون من عيسى. نقلها البحراني في غاية المرام، ج٦، ص١٥٩، وطريقها يمر بمقاتل بن سليمان؛ فتذكر بإسنادها ولا تجعل تشبيه المنزلة تطابقًا في كل صفة أو دليلًا مستقلًا كافيًا على نبوة سام.

وفي خبر سجدة الشكر المروي عن الإمام الصادق عن آبائه، ينقل النبي عن جبرئيل نجاة من تولى سامًا بوصفه وصي نوحٍ. ساق المجلسي الخبر في بحار الأنوار، ج٣٥، ص٢٦–٢٧، ح٢٢، وج٨٣ في باب سجدة الشكر، نقلًا عن خبر حفظه ابن طاووس في اليقين. تظهر في طريقه شخصيات من عصر النقل، منها الفضل بن الربيع والمنصور؛ هؤلاء رواة أو سائلون في سياق الخبر، لا معاصرون لسام. ففهم شبكة الرجال هنا لا يتم بجمع الأسماء وحده، بل بوضع كل اسم في زمنه ووظيفته.

مولد سام وأمه وزوجته وعمره — حدود ما نستطيع إثباته

القرآن لا يذكر:

تاريخ ولادة سام،

ولا مكان ولادته،

ولا اسم أمه،

ولا اسم زوجته،

ولا عمره عند الطوفان،

ولا عدد السنوات التي عاشها بعد نوح،

ولا مكان وفاته،

ولا قبره.

وتوجد في كتب التاريخ والأنساب أرقام وأسماء كثيرة.

ينقل ابن الأثير عمر ستمائة سنة بصيغة نسبته إلى أهل التوراة، ويذكر اليعقوبي العمر نفسه؛ وهو نقل تاريخي لا تحديد قرآني ولا نتيجة حديثية قطعية.

وترد أسماء للزوجة والأولاد في أخبار الأنساب، وقد عُرضت مع اختلافاتها في مواضعها من هذا الفصل.

ويرد لأمه اسما «عمورة» و«عمودة» في خبرين مختلفين، إلى جانب قول تاريخي آخر في زوج نوح؛ ولا ندمج هذه الأقوال في هوية محسومة.

لكن هذه المادة تعتمد إلى حد كبير على:

الأنساب القديمة،

والأخبار التاريخية،

ومواد مشتركة مع التراث الكتابي.

ولهذا لن نقدم رقمًا محددًا لعمر سام أو اسمًا لزوجته أو موضع قبره على أنه حقيقة إمامية ثابتة.

وحيث تُذكر هذه المعلومات في تسلسل النسب، تعرض بصيغة:

«ورد في كتب الأنساب...»

ولن نقول:

«ثبت في روايات أهل البيت...»

إلا بدليل روائي صريح بعد فحص إسناده ودلالته.

وفاة نوح ورحيل سام — إلى من انتقلت الوصية؟

يروي إثبات الوصية في ترجمة سام أنه تولى غسل نوح والصلاة عليه ودفنه، ثم قام بأمر المؤمنين. ويصل النص دفن نوح بموضع آدم في الغري. هذه نسبة تتعلق بمدفن نوح وآدم في الخبر؛ فلا تتحول إلى تحديد قبر سام. أما موضع وفاة سام ومدفنه، فلا يثبت في المادة التي اعتمدها الفصل تعيين يصلح للجزم، ولا يسوغ اعتماد مقام مشهور أو نسبة مدينة إليه بدلًا من الدليل.

ولا يخلو سياق إثبات الوصية من مادة مشكلة؛ إذ يذكر في زمن سام ولد قابيل و«عوج بن عناق». نثبت وجود هذه الإشارة في المصدر، ولا نبني عليها قائمة مؤكدة بناجين خارج السفينة، ولا نستعيد أخبار العمالقة وأعمارهم كوقائع ثابتة. عبارة المصدر تحتاج إلى بحث في أصلها ودلالتها، ولا تحل المشكلة بتجاهلها أو بجمعها قسرًا مع بقية الأخبار.

وعند نهاية عهد سام تظهر إجابتان مختلفتان عن صاحب العهد بعده. في إثبات الوصية يرد «أرنخشد بن سام»: أمر سام أن يودعه ما عنده من العلم، ثم يتابع الكتاب خبره وخبر شالخ. أما كمال الدين، باب٢٢، ح١، فيورد سلسلة فيها: أوصى نوح إلى سام، وسام إلى «عثامر»، ثم «برعيثاشا»، ثم

«يافث»، ثم «برة»، ثم «جفيسة»، ثم «عمران»، ثم إبراهيم. تختلف رسوم بعض هذه الأسماء في النقول، ومنها برغيثاشا وجفسية، فيلزم حفظ الاختلاف عند المقارنة. ويذكر اليعقوبي أيضًا وصية سام إلى أرنخشد، وهو شاهد من الكتابة التاريخية، لا تصحيح مستقل لأسانيد الأخبار الإمامية.

لا يثبت لدينا أن عثامر هو أرنخشد باسم آخر. ولا يثبت أن يافث في هذه السلسلة هو أخو سام، أو أن عمران فيها هو والد موسى، أو أن «برة» امرأة لمجرد صورة الاسم. الخبر يورد أسماء حملة وصية، لكنه لا يفصل تراجمهم أو أنسابهم أو أزمنتهم. كما أن طريقه يمر بمقاتل بن سليمان، وقد نبه محقق كمال الدين إلى إشكالات في السند وترتيب بعض حلقات الخبر، فلا نحوله إلى جدول تاريخي قطعي.

وبهذا لا تبقى مسألة من جاء بعد سام سؤالًا بلا جواب في الفصل: الجواب أن النصوص التي فحصناها تسمي أرنخشد في مسار، وعثامر في مسار آخر، ولا يكفي ما لدينا لإثبات اتحادهما أو ترجيح سلسلة كاملة بلا تحفظ. ويستقبل الفصل التالي هذه الأسماء مع بيان اختلافها، ثم يدرس صلتها بهود وإبراهيم بحسب كل مصدر، دون فرض أن سلسلة النسب وسلسلة الوصاية شيء واحد.

ويبقى المشهد الأخير في حدوده المروية: سام الذي تلقى العهد لا يصير خاتمة الهداية. تنسب الأخبار إليه حفظ ما تسلمه ثم نقله، وتختلف في أسماء بعض من بعده، وتقل فيها تفاصيل حياته الشخصية. يكتمل الفصل حين يروي ما حفظته النصوص، ويذكر ما اختلفت فيه، ويترك ما سكتت عنه من غير اختراع.

هل سام هو أصل «الساميين»؟

في الدراسات الحديثة استُخدم مصطلح «اللغات السامية» و«الشعوب السامية» نسبة إلى الاسم الغربي لسام.

لكن هذا تصنيف لغوي حديث نسبيًا.

ولا يجوز أن نأخذه ثم نعيده إلى القرآن وكأن القرآن قسم البشرية إلى «ساميين» وغيرهم بهذا المعنى العلمي الحديث.

في كتاب حكاية الهداية، اهتمامنا بسام ليس لأنه أعطى اسمه لتصنيف لغوي حديث.

بل لأنه في الروايات الإمامية:

حمل وصية نوح،

وميراث العلم،

وأمانة الانتظار حتى هود.

سام في ميزان المنهج — ماذا نستطيع أن نثبت؟

بعد جمع المادة، نستطيع ترتيبها في طبقات واضحة.

أولًا: ما يثبته القرآن

القرآن لا يذكر سامًا باسمه.

لكنه يثبت:

بقاء ذرية نوح.

وجود أمم ممن كانوا مع نوح بعد الطوفان.

غرق ابن من أبناء نوح بسبب كفره.

أن القرابة وحدها لا تكفي للنجاة.

ثانيًا: ما ترويه المصادر الإمامية المركزية

توجد رواية صريحة في الكافي تجعل نوحًا يدفع إلى سام:

الاسم الأكبر،

وميراث العلم،

وآثار علم النبوة.

وتنص على أن الأرض لا تُترك بغير عالم وهاد وحجة.

وتجعل سامًا مرتبطًا بحفظ العهد حتى ظهور هود.

وفي كمال الدين رواية موازية تضيف:

استخفاء ولد سام بالعلم،

وتوارث الوصية عالمًا بعد عالم حتى بعثة هود.

ثالثًا: ما تذكره الأخبار المساندة

توجد روايات تصف سامًا بوصي نوح.

وتوجد رواية العياشي في إحياء عيسى له.

وتوجد أخبار أخرى في كتب الفضائل عن ظهوره بعد موته.

لكن هذه الأخبار تحتاج إلى دراسة أسانيدها ومراتب مصادرها.

رابعًا: ما لا نستطيع الجزم به

نبوته.

عمره الدقيق.

اسم أمه وزوجته على نحو ثابت.

تفاصيل جميع أبنائه.

تقسيم جميع الشعوب منه.
قبره وموضع وفاته.
تفاصيل حياته اليومية.
خامسًا: الصياغة التي يعتمدها الكتاب
سام بن نوح لا يسميه القرآن، وتصفه الروايات الإمامية المذكورة هنا بأنه حلقة رئيسية بعد نوح، مع بقاء تقويم كل خبر بحسب سنده ومتنه:
وصيًا له في عدد من الروايات،
وحاملًا للاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة،
وحافظًا للعهد الذي يبشر بهود،
ومركزًا لانتقال الوصية إلى أجيال ترد لبعضها أسماء مختلفة في الأخبار، ولا تثبت لنا جميع حلقاتها بتسلسل واحد متفق عليه.

من سام إلى هود — نهاية الفصل السادس وبداية الفصل السابع

الآن نستطيع أن نغلق فصل سام من غير أن نقطع سلسلة الهداية.
فالترتيب ليس:
نوح
هود
بل الروايات تقول لنا إن بينهما:
سام،
وحملة وصية،
وعلماء،
وأنبياء لم تسمهم الرواية كلها في موضع واحد.
والصورة التي يتركها الفصل السادس هي:
نوح عليه السلام
سام بن نوح — حامل العهد وميراث العلم
حملة الوصية من الأنبياء والأوصياء والعلماء المذكورين في الأخبار
تعاقب أجيال لم تحفظ المصادر جميع أسمائها في سلسلة متفق عليها
هود عليه السلام

ولهذا سيكون الفصل السابع:

من سام إلى هود — حملة العهد في الأجيال بعد الطوفان.

وفيه سنبحث:

من هم الأسماء التي يمكن إثباتها؟

ما الفرق بين سلسلة النسب وسلسلة الوصاية؟

من كان نبيًا؟

من كان وصيًا؟

ومن كان مجرد جد في كتب الأنساب؟

وكيف وصلت حركة الهداية إلى هود عليه السلام؟

وبذلك لا نسقط أي حلقة يمكن للمصادر أن تثبتها.

دليل الشخصيات ذات الصلة بالفصل

في قلب القصة: نوح وسام، وحام ويافث في أخبار الأسرة، والابن الغارق الذي لا يسميه القرآن. وفي الوصية: جبرئيل حامل الأمر في الخبر، وهود الذي تتعلق به البشارة. آدم وشيث وإدريس يردون في أصل ميراث العلم والنسب السابق، ولا يعاد سرد حياتهم في هذا الفصل.

في الأسرة النسائية: امرأة نوح غير المسماة في القرآن؛ عمورة وعمودة وهيكل في أقوال مختلفة؛ قنسوس أم نوح في خبر النور؛ أخت سام غير المسماة في خبر السفينة؛ صلب وبنت الملك غير المسماة في خبرين عن زوجته؛ مرجانة في خبر زوجة أرنخشد؛ ووزدق في خبر زوجة لامك ابن سام. هذه الأسماء ليست قائمة قرآنية، ولا يعني جمعها أن جميع أنسابها ثابتة أو أنها تشير إلى نساء مختلفات يقينًا.

في الأبناء والامتداد القريب: أرنخشد، وإرم، وما يرد في القوائم المقارنة من أسود ولاود وعيلام وأشور؛ ولامك وملكيزدق في خبر اليعقوبي. وفي الانتقال: شالح وعابر أو غابر وفالغ وقحطان في الأنساب؛ وعثامر وبرعيثاشا ويافث وبرة وجفيسة وعمران في سلسلة الوصية المختلف فيها. لا تُساوى الأسماء المتشابهة ولا يُمنح أصحابها منصب لم يثبته الدليل.

وفي الحضور اللاحق: عيسى وأصحابه غير المسمين في خبر الإحياء؛ محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام والجماعة اليمنية غير المسماة في خبر المناقب؛ وهام/هامة الجني في خبر آخر. أما الأئمة الباقر والصادق والهادي والعسكري عليهم السلام، والرواة الذين تمر بهم الأخبار، فيذكرون في مقام نسبة الرواية، ولا يجعلون شخصيات معاصرة لسام. وتبقى أم صديق عيسى وابنها شخصيتين في خبر مستقل، فلا تختلطان بأم سام وسام.

هذا الدليل يجمع الشخصيات المباشرة والأسماء اللازمة لفهم الأخبار التي اعتمدها الفصل، بما فيها غير المسمين ومواضع الالتباس. لا يدعي استيعاب كل اسم في جميع كتب التراث، ولا يلحق بهذا الفصل أنساب كل أمة وكل نبي ينسبه المؤرخون إلى سام؛ فذلك امتداد للكتاب كله، وتعرض الشخصيات في مواضع قصصها.

المصادر والمراجع — الفصل السادس

أولًا: القرآن الكريم

سورة هود: ٤٠–٤٩؛ وسورة التحريم: ١٠؛ في الأسرة والنجاة والقرابة.

سورة الإسراء: ٣؛ مريم: ٥٨؛ النساء: ١٦٣–١٦٤؛ الحديد: ٢٦؛ في الذرية واستمرار الرسالات.

سورة الصافات: ٧٥–٨٢؛ وآل عمران: ٤٩؛ والمائدة: ١١٠؛ والروم: ٢٢؛ والحجرات: ١٣؛ والأنعام: ١٦٤.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية الأساسية

الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٨٥، ح٤٣٠، طبعة دار الكتب الإسلامية، تحقيق علي أكبر الغفاري.

المادة المستفادة:

عاش نوح بعد الطوفان خمسمائة سنة في نص الكافي؛ انتقال الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى سام؛ عدم وجود العلم نفسه عند حام ويافث؛ البشارة بهود؛ وفتح الوصية كل عام.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب ظهور نوح بالنبوة، ح٣، ص١٣٤–١٣٥، تحقيق علي أكبر الغفاري.

المادة المستفادة:

الرواية الموازية في انتقال العلم إلى سام؛ قراءة «خمسين سنة» في بعض النسخ بعد النزول من السفينة؛ البشارة بهود؛ استخفاء ولد سام بما عندهم من العلم؛ وتوارث الوصية عالمًا بعد عالم حتى هود.

الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٣–١١٧، ح٩٢، حديث أبي حمزة عن الإمام الباقر في اتصال العلم والوصية.

المادة المستفادة:

وجود أنبياء بين نوح وهود؛ تعاهد الوصية؛ واستمرار العلم والحجة.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب٢٢، ح١–٢، ص٢١١–٢١٧: سلسلة الأوصياء وخبر اتصال العلم؛ مع ملاحظة اختلاف الأسماء وإشكالات السند.

العياشي، التفسير، ج١، ص١٧٤، ح٥٠: خبر إحياء سام؛ وح٥١ لتمييز خبر صديق عيسى وأمه عنه.

المادة المستفادة:

الرواية المرفوعة عن محمد بن أبي عمير في طلب أصحاب عيسى إحياء ميت، وذهاب عيسى إلى قبر سام بن نوح وإحيائه بإذن الله.

تنبيه:

الرواية مرفوعة وفيها واسطة غير مسماة، فلا تعامل معاملة الخبر الصحيح القطعي.

ثالثًا: المصادر الجامعة والمساندة

المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، ص٢٨٨-٢٨٩، ح١١: نقل خبر سام ومقابلة خمسين بخمسمائة؛ وص٢٩١-٢٩٢: خبر الستر وتعقيب الصدوق.

الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٨٥٦-٨٥٨، ح٧١: خبر هام/هامة؛ وقارن نقله في بحار الأنوار، ج٣٩، ص١٦٤-١٦٥، ح٤، وإحالته إلى بصائر الدرجات.

تنبيه:

هذه روايات مساندة تحتاج إلى تقويم مصدرها وسندها.

العياشي، التفسير، ج١، ص١٧٤، ح٥٠ هو مرجع خبر الإحياء المعتمد هنا؛ وتكراره في المجاميع اللاحقة لا يعد طريقًا مستقلًا.

ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص١٦٤، عن كتاب العلوي البصري: خبر الجماعة اليمنية وإحياء سام؛ ومنه النقل في بحار الأنوار، ج٤١، ص٢١٢.

تنبيه:

هذه الأخبار ليست من أصول قصة سام، وتذكر للاستئناس ودراسة حضور شخصيته في التراث.

رابعًا: المصادر التاريخية للمقارنة فقط

ابن طاووس، سعد السعود، ص٢٣٨-٢٣٩، ناقلًا عن كتاب القصص لمحمد بن جرير الطبري: خبر عمورة أم سام. المقصود هنا النص المنقول الذي أمكن مراجعته.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص٧٢-٧٦، ذكر ذرية نوح: زوجة سام وأبناؤه والأنساب والعمر المنقول عن أهل التوراة.

اليعقوبي، التاريخ، ج١، أخبار نوح وسام: هيكل، ولامك ووزدق وملكيزدق. ولبيان أصل القائمة الكتابية فقط: سفر التكوين، ٢٢:١٠.

تستخدم هذه المصادر لفهم الأنساب التاريخية والتصورات القديمة عن توزع الشعوب، لا لإثبات النبوة أو الوصاية إلا بنص مستقل.

إحالات النصوص المستكملة وضبط استعمالها

الراوندي، قصص الأنبياء، ح٤٣، ص٦٢-٦٤: خبر حبيب السجستاني عن الإمام الباقر في تابوت العلم. وبحار الأنوار، ج١١، ص٣١٢-٣١٣، ح٦: خبر التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم في التنور وابنة نوح؛ وص٣٣-٣٤، ح٢٧: خبر علي بن عاصم مع الإمام العسكري، نقلًا عن مشارق أنوار اليقين.

إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي، ص٣٣ وما بعدها، عنوان «سام بن نوح»: وفاة نوح وانتقال الأمر إلى أرنخشد؛ وقسم مولد النبي، ضمن ص٩٣-١١٦ في النسخة المعروضة: عمودة وقنسوس وبنت الملك ومرجانة. نسبة الكتاب وطبيعة أسانيده واختلاف ترتيب الأنساب تمنع التعامل مع هذه المادة كخبر صحيح بمجرد عنوان الكتاب.

الصدوق، الأمالي، المجلس١١، ح٤، الرقم٧٧؛ نقله البحراني، غاية المرام، ج٦، ص١٥٩: تشبيه المنزلة. والمجلسي، بحار الأنوار، ج٣٥، ص٢٦-٢٧، ح٢٢: خبر سجدة الشكر الذي يذكر سامًا وصيًا؛ مع المقارنة بنقله عن اليقين في ج٨٣، باب سجدة الشكر.

تتبع أرقام الصفحات الطبعات المحددة في الإحالات أو الصفحات المطبوعة في النصوص الرقمية المرتبطة. قد يختلف عداد الصفحة الإلكترونية عن رقم الصفحة في الكتاب؛ لذلك تجمع الإحالة اسم الباب أو رقم الحديث مع الصفحة حيث أمكن.

الفصل ٧ — من سام إلى هود — حملة العهد في الأجيال بعد الطوفان

لماذا نحتاج فصلًا مستقلًا بين سام وهود؟

انتهى الفصل السابق عند سام بن نوح بوصفه حاملًا لميراث نوح في الرواية الإمامية.

لكن هودًا عليه السلام لا يظهر مباشرة بعد سام في القرآن أو في كل الروايات.

وهنا تكمن أهمية هذا الفصل.

لو انتقلنا من سام إلى هود في سطر واحد لوقعنا في المشكلة التي يقتضي منهج الكتاب تجنبها:

الاكتفاء بالأسماء المشهورة مع إسقاط من حفظت المصادر ذكره في زمن الانتقال بين نبي وآخر.

وتحفظ روضة الكافي، في الحديث ٩٢ عن الإمام الباقر عليه السلام من طريق أبي حمزة، خبرًا في اتصال العلم والوصية، يقول في سياق وصية نوح:

إن نوحًا بشّر سامًا بهود، وإنه «كان فيما بين نوح وهود من الأنبياء».

هذه الجملة وحدها تكفي لكي تمنعنا من تصور أن المسافة بين نوح وهود كانت فراغًا.

لكن الرواية لا تسمي جميع أولئك الأنبياء.

ومن هنا تبدأ مسؤوليتنا:

نثبت وجود الحلقات التي تثبتها الرواية،

ونبحث عن الأسماء التي تسميها المصادر الأخرى،

لكننا لا نخترع اسمًا لسد فراغ لم يحفظه لنا المصدر.

ما يثبته القرآن عن المرحلة التي بعد نوح

لا يذكر القرآن سامًا ولا أرفخشد ولا شالح بأسمائهم.

ولا يعطينا جدولًا زمنيًا مفصلًا بين نوح وهود.

لكنه يقدم مجموعة من الحقائق التي تحدد إطار هذه المرحلة.

أولًا: بقاء ذرية نوح

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾

الصافات: ٧٧.

وهذا يثبت أن ذرية نوح أصبحت محور استمرار البشر بعد الطوفان.
لكن الآية لا تسمّي أبناء نوح ولا تحدد أي فرع حمل العهد.

ثانيًا: أمم جديدة بعد الطوفان

قال تعالى:
﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
هود: ٤٨.

هذه الآية تفتح الباب مباشرة أمام مرحلة «الأمم» التي ستنشأ بعد الطوفان.
فالقصة لم تعد قصة أسرة صغيرة فقط، بل بداية انتشار شعوب وجماعات جديدة.

ثالثًا: عاد جاءت بعد قوم نوح

قال هود لقومه:
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾
الأعراف: ٦٩.

وهذه آية شديدة الأهمية لهذا الفصل.
فالقرآن يربط عادًا تاريخيًا بمرحلة ما بعد قوم نوح، لكنه لا يخبرنا بعدد الأجيال بينهما ولا أسماء حملة الهداية خلالها.

رابعًا: جيل أو أجيال بعد قوم نوح

بعد قصة نوح في سورة المؤمنون يقول تعالى:
﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾
المؤمنون: ٣١-٣٢.

اختلف المفسرون في تعيين هذا القرن والرسول، وكثير منهم يربطه بقوم عاد وهود.
لكن القرآن نفسه في هاتين الآيتين لا يسمي الرسول.
ولهذا نستفيد من النص وجود جيل جديد ورسالة جديدة بعد قوم نوح، مع بقاء التعيين التفصيلي في مستوى التفسير.

خامسًا: ليس كل الرسل قد سُمّوا لنا

قال تعالى:

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾

النساء: ١٦٤.

وقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾

غافر: ٧٨.

وهذه القاعدة القرآنية مهمة حين تقول الرواية إن بين نوح وهود أنبياء لم تحفظ لنا أسماؤهم جميعًا.

آيات تكمل صورة الأجيال بعد نوح

لا تنتهي آية الهبوط عند السلام والبركات؛ ففي بقيتها أمم تتمتع ثم ينالها العذاب (هود: ٤٨). لذلك لا تعني النجاة الأولى ضمان صلاح كل ذرية الناجين. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٦). هنا يجتمع امتداد النبوة مع اختلاف مواقف الذرية، فلا يجعل النسب وحده إنسانًا مهتديًا.

ويقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ (الإسراء: ١٧)، ويذكر قوم نوح وعادًا وثمود ثم يقول: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ (إبراهيم: ٩). وفي الفرقان: ٣٨ ذكر عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون كثيرة بين ذلك. هذه الآيات توسع أفق التاريخ، لكنها لا تعيّن أسماء الأنبياء بين سام وهود، ولا تسمح بنقل أصحاب الرس أو كل أمة مذكورة إلى هذه الفترة.

ومن ضوابط فهم المرحلة قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦). ولا يستخرج من عمومهما عدد معين للأنبياء أو أسماء لزوجاتهم وأبنائهم. ويصل القرآن الوحي إلى محمد صلى الله عليه وآله بما قبله في النساء: ١٦٣، ويجمع أصول الدعوة في الشورى: ١٣.

وعند الاقتراب من هود، تذكر الأحقاف: ٢١ إنذار أخي عاد لقومه ومرور النذر من قبله ومن بعده، وتجمع التوبة: ٧٠ والحج: ٤٢ وق: ١٢-١٤ بين أخبار أمم منها قوم نوح وعاد، وتذكر النجم: ٥٠-٥٢ عادًا الأولى وثمود وقوم نوح. هذه إحالات لاستكمال الإطار القرآني، وليست جدولًا متتابعًا لكل الأجيال. أما النصوص المفصلة عن مواجهة عاد وهلاكها فتدرس في فصل هود.

نوح يبشّر بهود قبل ظهوره

في روضة الكافي، ج٨، ص١١٣-١١٧، ح٩٢، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام من طريق أبي حمزة، في حديث طويل عن اتصال الهداية، أن نوحًا لما انتهت أيامه جعل العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة في عقبه.

ثم تقول الرواية:

إن نوحًا بشّر سامًا بهود عليه السلام.

وتصف هودًا بأنه النبي الذي سيأتي ويدعو قومه إلى الله فيكذبونه، ثم يهلكهم الله بالريح.

وتأمر الوصية من يدرك هودًا أن يؤمن به ويتبعه.

هذه الرواية مهمة لسببين:

الأول: أنها تصل سامًا بهود من خلال «انتظار نبي معلوم الصفات».

والثاني: أنها تصرح بأن بين نوح وهود أنبياء.

ثم تضيف الرواية أن سامًا كان يتعاهد الوصية في رأس كل سنة، ويجعل ذلك يومًا يراجع فيه ما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر ومواريث العلم وآثار النبوة.

وعندما ظهر هود قارنوا صفته بما عندهم من الوصية، فآمن به من حمل ذلك العهد.

هذه الصورة تعطي معنى أعمق لفكرة «الوصية».

فهي ليست ورقة تحفظ اسمًا فقط.

إنها ذاكرة هداية:

تحتفظ بعلامات النبي القادم،

وتمنع أتباع الحق من أن ينقطعوا عن خط الوعد،

وتحوّل انتظار النبي القادم إلى مسؤولية واعية.

«وكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء» — جملة لا ينبغي أن تمر سريعًا

هذه الجملة من أهم مفاتيح الفصل السابع.

الرواية لا تقول:

كان بين نوح وهود رجل واحد فقط.

ولا تقول:

لم يكن بينهما أحد إلا سام.

بل تقول إن بينهما أنبياء.

هذا يغيّر طريقة بناء الكتاب.

فالفصل السابع لا ينبغي أن يتحول إلى:

سام ← هود.

بل إلى:

سام ← أجيال من حملة الهداية، فيهم أنبياء لا نملك أسماءهم جميعًا ← هود.

وفي الصيغة الموازية في كمال الدين، باب٢٢، ح٢، ومنها المادة المجموعة في تفسير أبي حمزة الثمالي، يرد وصف الأنبياء بين نوح وهود:

أن ما بين نوح وهود كان فيه أنبياء «مستخفين ومستعلنين».

وهذا ينسجم مع فكرة وردت في روايات المرحلة السابقة:

قد تكون الحجة ظاهرة في زمن،

وقد يكون حامل الهداية مستخفياً في زمن آخر بسبب الطغيان أو الخوف أو فساد البيئة الاجتماعية.

لكن علينا أن نكون دقيقين.

الرواية تثبت وجود أنبياء بين نوح وهود.

أما أسماؤهم واحدًا واحدًا فلا تعطينا إياها هذه الرواية نفسها.

ومن هنا لا يجوز أن نحول كل اسم في كتب الأنساب إلى نبي لمجرد وقوعه بين سام وهود.

شريعة نوح بقيت مرجعًا حتى إبراهيم

يوجد في الكافي حديث مهم عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير أولي العزم.

يقول إن نوحًا بعث بكتاب وشريعة، وإن كل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف.

وجاء المعنى نفسه عن الإمام الرضا عليه السلام في عيون أخبار الرضا.

هذا الحديث مهم جدًا لفهم المرحلة بين سام وهود.

فهو يقول لنا إن الأنبياء الذين ظهروا بعد نوح وقبل إبراهيم لم يكونوا أصحاب شريعة عامة جديدة ناسخة لشريعة نوح.

وهذا يعني أن هودًا، وكل نبي ثبت وجوده بين نوح وإبراهيم، يتحرك داخل الإطار التشريعي الذي بدأ مع نوح حتى جاءت مرحلة إبراهيم.

وهنا نميز بين أمرين:

استمرار النبوة.

واستمرار الشريعة الكبرى.

قد يأتي نبي إلى قوم بعينهم، كما جاءت نبوة هود إلى عاد، من غير أن يكون صاحب شريعة ناسخة جديدة.

حفظ العلم حين تغلب القوة

تزيد رواية كمال الدين على أصل انتقال العلم وصفًا للمحنة التالية: تغلبت ذرية حام ويافث، فاستخفى ولد سام بما عندهم من العلم، وظلوا يتوارثون الوصية عالمًا بعد عالم إلى بعثة هود. وفي هذا السياق تعني «الجبرية» القهر والغلبة، لا اسم المذهب الكلامي المتأخر. وتلك صورة داخل خبر معين، لا حكم على كل فرد ينتسب إلى أحد أبناء نوح، ولا أساس للمفاضلة بين الشعوب [م٣].

وفي خبر آخر عن الإمام الصادق عليه السلام دعا نوح أتباعه عند دنو وفاته، وأنبأهم بزمن تظهر فيه الطواغيت وبفرج يأتي على يد هود من ذريته. يصف الخبر هودًا بالسكينة والوقار، ثم يذكر طول الانتظار وقسوة قلوب كثير من المنتظرين حتى جاء الفرج بعد اشتداد البلاء. وبذلك لا يصور النص جماعة متماسكة لم تتغير، بل يسجل امتحان الثبات وتفاوت الناس فيه. لا يسمي هؤلاء الطواغيت، ولا يحدد جميع مدنهم أو أسماء الرجال والنساء الذين صبروا [م٣].

وعندما يذكر الخبر أن العقب من ولد سام استجاب لهود، فالعبرة في السرد بالاستجابة وحفظ العلم، لا بمجرد النسب. ولا يلزم من التعبير أن سامًا نفسه بقي حيًا حتى مبعث هود؛ إذ يصف السياق التوارث بين الأجيال. كذلك لا نستخرج تاريخ ولادة هود أو عدد سنوات الفترة من عبارة «ليس بعد سام إلا هود» في الصيغة الموازية، مع أن السياق نفسه يذكر أنبياء بين نوح وهود.

في خبر الكافي ٤٣٠ يتولى جبرئيل إبلاغ نوح أمر تسليم العلم. فهو شخصية ملائكية مؤثرة في انتقال العهد، ولا يدرج في قائمة الرجال أو في سلسلة النسب. ويروي الكافي هنا خمسمائة سنة بعد الطوفان، بينما ترد خمسون في النص المتداول من كمال الدين؛ وهذا اختلاف عددي لا يجوز إخفاؤه أو اتخاذه وحده لحساب تواريخ أرنفخشد وشالح وهود [م٢، م٣].

سام في بداية السلسلة — وما لا نعيده من الفصل السادس

الفصل السادس خصصناه لسام بن نوح.

ولهذا لا نكرر هنا سيرته كاملة.

لكن لا بد من تثبيت النقطة التي يبدأ منها هذا الفصل:

في رواية الكافي، نوح دفع إلى سام:

الاسم الأكبر،

ميراث العلم،

وآثار علم النبوة.

وتقول الرواية إن حامًا ويافث لم يكن عندهما من هذا العلم ما عند سام.

هذا لا يجعل سام نبيًا بالضرورة.

لكنه يجعله في الرواية حاملًا واضحًا لأمانة نوح.

ومن سام تبدأ مرحلة انتظار هود.

ولهذا لا نعامل سام كواحد من ثلاثة أبناء فحسب.

في هذا المسار الروائي، هو مركز حفظ الوصية بعد نوح.

هل نملك سلسلة أسماء كاملة من سام إلى هود؟

الجواب: لا، ليس من مصدر واحد قوي وواضح ومتفق عليه.

وهنا يجب أن نتجنب خطأ مهمًا.

هناك أكثر من سلسلة في المصادر:

بعضها سلسلة وصاية،

وبعضها سلسلة نسب،

وبعضها أخبار تاريخية متأخرة.

ولا يصح دمجها في قائمة واحدة ثم القول:

«هذه هي السلسلة القطعية بين سام وهود».

سنفصلها واحدة واحدة.

السلسلة الأولى — رواية أمالي الصدوق واتصال الوصاية

في أمالي الشيخ الصدوق، المجلس الثالث والستين، الحديث الثالث، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله خبر طويل في اتصال الوصاية [م٤].

بعد نوح تقول الرواية:

نوح

سام

عثامر

برعيثاشا

يافث

برة

جفسيه

عمران

إبراهيم الخليل عليه السلام

وترد هذه الرواية أيضًا في كمال الدين وتمام النعمة بصيغة قريبة، ونقلها المجلسي في بحار الأنوار.

هذه الرواية مهمة جدًا لأنها تحفظ أسماء لا يجوز لنا أن نسقطها إذا كنا نبحث عن حملة العهد.

لكنها تخلق لنا سؤالًا مهمًا:

أين هود في هذه السلسلة؟

الرواية لا تذكر هودًا في هذا الموضع من سلسلة الوصاية.

وهذا لا يعني أن هودًا لم يكن نبيًا.

القرآن يثبت نبوته ورسالته إلى عاد بوضوح.

لكن الرواية تجعل خط الوصاية المسمى فيها يمر من سام إلى عثامر ثم من بعده حتى عمران وإبراهيم من غير ذكر هود ضمن هذه القائمة.

هذا يدعونا إلى التمييز بين القوائم، لكنه لا يثبت وحده ترتيبًا تاريخيًا بديلًا:

لا نعامل قائمة الأوصياء في خبر مختلف في سنده ومتن تسلسله على أنها حصر لجميع الأنبياء.

واحتمال تزامن نبي وحامل ميراث في خط آخر تفسير ممكن، لا واقعة أثبتها هذا الخبر.

كما يجب أن ننتبه إلى حال السند.

في طريق هذه الرواية مقاتل بن سليمان، وقد وقع الكلام فيه.

ولهذا لا نجعل هذه الأسماء وحدها تاريخًا قطعيًا.

ونحفظ الأسماء بوصفها أسماء وردت في مصدر إمامي؛ أما صحة نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وآله فلا نثبت بمجرد تدوين الخبر.

تنبيه مهم حول «يافث» في هذه الرواية

يظهر اسم «يافث» داخل سلسلة:

سام ← عثامر ← برعيثاشا ← يافث.

ولهذا لا ينبغي أن نفترض تلقائيًا أن هذا هو يافث بن نوح المعروف.

فالترتيب نفسه يضع يافث بعد شخصيتين بينه وبين سام.

وقد يكون الاسم متكررًا أو يكون في النص اختلاف نسخي.

إذن سنسميه:

«يافث الوارد في سلسلة الوصاية»

ولا نساويه آليًا بيافث بن نوح.

تنبيه مهم حول «عمران»

تنتهي هذه السلسلة قبل إبراهيم باسم «عمران».

ولا ينبغي أن نخلط هذا عمرانًا بأي عمران آخر اشتهر في قصص موسى أو مريم عليها السلام.

تكرر الأسماء أمر طبيعي في الأنساب القديمة.

والرواية نفسها تضع هذا عمران قبل إبراهيم.

أصحاب الأسماء في سلسلة الصدوق وحدود تراجمهم

عثامر يتلقى الوصية من سام ثم يوصي إلى برعيثاشا. وبرعيثاشا يتلقاها من عثامر ثم يوصي إلى يافث. ويافث المذكور هنا يتلقاها من برعيثاشا ثم يوصي إلى برة، ثم تنتقل من برة إلى جفسيه، ومن جفسيه إلى عمران، ومن عمران إلى إبراهيم. هذا هو دور كل اسم في الخبر، ولا يذكر هذا المقطع أن كل واحد ابن الذي سبقه [م٤].

وليس في هذا المقطع وصف لولادة أي من هؤلاء الستة، ولا اسم أم أو زوجة أو بنت أو ابن، ولا سن عند تسلّم الوصية، ولا تاريخ وفاة أو قبر. انتقال الوصية يحدد علاقة في الخبر، لكنه لا يوفر وحده سيرة شخصية. لذلك يبقى كل واحد حاضرًا باسمه ودوره دون إضافة حوار أو رحلة أو أسرة متخيلة.

ولا يثبت أن «عثامر» اسم آخر لأرنخشد، أو أن «برة» امرأة لمجرد صورة الاسم، أو أن «عمران» هنا هو والد موسى أو والد مريم. كما لا يثبت أن جميع الأسماء الستة عاشوا قبل هود؛ فنهاية الخبر عند إبراهيم، وهو يتجاوز الحد الزمني لهذا الفصل. تحفظ الأسماء هنا للمقارنة بين طرق انتقال العهد، ثم تراعى عند متابعة الفصول اللاحقة.

ويدعو نقد الخبر إلى أكثر من التحفظ العام: في طريقه مقاتل بن سليمان، وقد نبه محقق كمال الدين إلى الكلام فيه وإلى إشكالات بعض حلقات التسلسل. ونقل الصدوق الخبر في كتابين لا يجعل منه شاهدين مستقلين إذا عاد الطريق إلى الراوي نفسه. نثبت وجود الرواية ونص تسلسلها، ولا نقدمها بوصفها قائمة قطعية [م٤].

السلسلة الثانية — أرنخشد وشالح وهود

يوجد مسار آخر محفوظ في الكتاب المتداول باسم «إثبات الوصية» والمنسوب تقليديًا إلى المسعودي.

بحسب ترتيب الكتاب:

سام بن نوح
أرنخشد بن سام
شالح بن أرنخشد
هود بن شالح
ثم يستمر بعد هود إلى فالغ ويروغ وصاروغ وتاجور وتارخ ثم إبراهيم.
هذه السلسلة أقرب بكثير إلى الأنساب القديمة المعروفة التي تجعل:
أرنخشد ابن سام،
وشالح ابن أرنخشد،
ثم عابر/هود في بعض الأقوال.
لكن يجب أن نضع تنبيهًا علميًا مهمًا:
نسبة الكتاب المتداول باسم «إثبات الوصية» إلى المسعودي ليست محل اتفاق.
ومن الدراسات التي ناقشت هذه النسبة دراسة مصطفى خرمي «مصادر مسألة الإمامة في الفكر الشيعي: كتاب إثبات الوصية أنموذجًا»، ترجمة نظيرة غلاب، المنشورة في نصوص معاصرة؛ وتقابلها النسبة المعتمدة في مقدمة طبعة أنصاريان [م١٢].
ولهذا نستفيد من المادة بوصفها شاهدًا تراثيًا على سلسلة متداولة، لا بوصفها سندًا مستقلًا قاطعًا.

أرنخشد بن سام — ماذا نستطيع أن نقول؟

القرآن لا يذكر أرنخشد.
ولا توجد آية تجعلنا نصفه بالنبي.
يظهر أرنخشد في كتب الأنساب، ويذكره إثبات الوصية بعد سام، بل يصفه في ص٣٦ صراحةً بأنه «النبي المغمور الصامت»؛ فلا يصح نفي وجود هذا الوصف في المصدر [م٥].
ولهذا الصياغة الصحيحة هي:
أرنخشد شخصية في السلسلة النسبية والوصائية التي يرويها إثبات الوصية، ووصف النبوة وارد فيه على نحو صريح.
لكن إثبات صدور هذا الوصف وصحته مسألة أخرى؛ فلا نعرض نبوة أرنخشد كحقيقة قرآنية أو نتيجة حديثية محسومة.
وإذا قلنا إنه «حامل عهد» فنحن ننسب هذا الوصف إلى المصدر الذي يضعه في سلسلة الوصية، لا إلى القرآن.

شالح بن أرنخشد — الحلقة الأقرب إلى هود في هذه السلسلة

بعد أرنخشد يظهر شالح.

والقرآن لا يذكر شالحًا أيضًا.

لكن بعض سلاسل النسب تجعل هودًا ابن شالح، بينما تجعل مصادر أخرى بينهما اسم «عابر» أو تجعل هود نفسه عابرًا.

لهذا لا نقول:

«ثبت أن شالح كان نبيًا».

ولا نقول:

«ثبت قطعًا أن هود ابنه».

بل نقول:

إثبات الوصية يجعل شالح بين أرنخشد وهود، ويذكر عند وفاته استيداع الأسماء والحكمة والنبوة ابنه هودًا، وهذه صيغة أوسع من مجرد سرد نسب، مع بقاء الحاجة إلى فحص حجيتها [م٥].

أرنخشد وشالح من استلام العهد إلى تسليمه

يبدأ خبر أرنخشد في إثبات الوصية عند نهاية أيام سام: يذكر الكتاب أمر سام أن يودع ابنه نور الله وحكمته والاسم الأعظم وميراث النبوة، فيدعوه ويوصيه ويسلم إليه ما عنده. ثم يذكر قيام أرنخشد بالأمر واتباع المؤمنين الذين كانوا مع أبيه له. وعند وفاة أرنخشد يعود الخبر إلى المشهد نفسه: يستدعي شالح ويودعه الأمر كما أوصاه أبوه. هكذا يحفظ المصدر طرفي مسؤوليته، الاستلام والتسليم، من غير أن يروي تاريخ ولادته أو جميع أعمال حياته [م٥].

وفي ص٣٦ يسميه الكتاب «النبي المغمور الصامت». هذا تصريح من مؤلف المصدر، لا استنتاج من اسم أرنخشد أو من بنوته لسام. ونقله بأمانة لا يساوي الحكم بصحة الخبر؛ فالموضع لا يقدم إسنادًا تفصيليًا مستقلًا يمكن به حسم كل هذه المعلومات. ولا يحول وصف «المغمور» إلى قصة سجن أو مطاردة مسماة لم يذكرها النص.

ثم يقوم شالح بالأمر ومعه المؤمنون، ويسلك سبيل آبائه، وعند وفاته يستودع ابنه هودًا الأسماء والحكمة والنبوة. ويذكر الكتاب بعد ذلك إظهار نبوة هود واستجابة العقب من ولد سام. لا يعطينا النص في هذا الموضع أسماء كل المؤمنين، ولا زوجة شالح، ولا بناته، ولا موعد دفنه. فاكتمال عرض الخبر يعني ذكر ما قاله وما سكت عنه، لا سد سكوته بالتخمين [م٥].

ويذكر اليعقوبي، في خبر تاريخي للمقارنة، أن أرنخشد ولد له شالح بعد مائة وخمس وثمانين سنة، وأن أرنخشد عاش أربعمائة وخمسًا وستين سنة؛ ثم يجعل عمر شالح أربعمائة وثلاثين سنة، وولادة ابنه عابر

بعد مائة وثلاثين سنة. وينقل أيامًا وشهورًا للوفيات: أرنخشد يوم الأحد لسبع بقين من نيسان، وشالح يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من آذار. هذه أرقام في خبر اليعقوبي، وليست تاريخًا قرآنيًا أو حديثًا ثابتًا عن أهل البيت؛ ولا يمكن تحويلها إلى تواريخ ميلادية أو جزم بأنها تقويم تلك الأزمنة [م١٠].

وفي خبر اليعقوبي يجمع أرنخشد أهله وولده ويوصيهم بالطاعة واجتناب المعاصي، ويخص شالح بالقيام في أهله من بعده. ثم يوصي شالح إلى عابر، ويذكر عابر وفالغ بعده. وجود الأهل والولد بصيغة الجمع لا يعطينا أسماءهم جميعًا ولا عدد الذكور والإناث. كما لا يكفي لمساواة عابر بهود في كل مصدر؛ فالتعيين يحتاج إلى نص كل رواية على حدة.

هل هود هو «عابر»؟

هذه من أشهر مسائل النسب المرتبطة بهود.

بعض المصادر تقول إن هودًا هو:

عابر بن شالح بن أرنخشد بن سام بن نوح.

وبعضها يقول:

هود بن شالح بن أرنخشد بن سام.

وبعض الأخبار تنسبه إلى عاد نفسه بسلسلة أطول:

هود بن عبد الله بن رباح بن جلوث أو الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

جمع المجلسي أقوال النسب في باب قصة هود؛ والعبارات النسبية المنقولة عن المفسرين لا تصبح حديثًا عن إمام لمجرد ورودها في بحار الأنوار.

إذن لدينا أكثر من نسب متداول.

والقرآن لا يفصل نسب هود أصلًا؛ إنما يقول:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

لذلك لا نختار نسبًا واحدًا ونسميه «النسب القرآني».

الأدق:

هود من قوم عاد أو من عشيرتهم بحسب ظاهر «أخاهم» وما ورد في التفسير،

وتنسبه كتب الأنساب إلى سام بن نوح بطرق متعددة،

لكن التفاصيل بين سام وهود مختلفة في المصادر.

«أخاهم هودًا» — ماذا تعني الأخوة؟

في تفسير العياشي وما نقله تفسير الصافي ونور الثقلين عن الإمام زين العابدين عليه السلام، استُدل بآيات:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾

و

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾

و

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾

على أن الأخوة هنا أخوة العشيرة والقوم، لا أخوة الدين.

هذا مهم.

فكون هود «أخا عاد» لا يعني أنه كان على دينهم.

بل يعني أنه واحد من بيئتهم الاجتماعية أو القبلية، يعرفونه ويعرف لغتهم وحياتهم.

لكن هذه الآية لا تعطينا اسم أبيه أو جده.

النساء والأسرة في أخبار أرنخشد وشالح وهود

لا يذكر القرآن اسم أم أرنخشد أو زوجته، ولا أم شالح أو زوجته، ولا أم هود. وغياب هذه الأسماء عن القرآن لا يعني غياب النساء عن الحياة التي تصفها الأخبار، لكنه يمنع تقديم اسم تاريخي على أنه اسم قرآني.

وفي الدر النظيم، في سياق أخبار انتقال النور، يذكر أن سامًا تزوج بنت ملك غير مسماة فولدت أرنخشد، وأن أرنخشد تزوج امرأة تدعى «مرجانة» فحملت «غابر»، الذي يسميه الخبر هودًا. إذن يحفظ الخبر امرأة غير مسماة بوصفها أم أرنخشد، ومرجانة بوصفها زوجته وأم غابر/هود في هذه الصيغة. لكنه يسقط شالح من هذا الموضع، بخلاف سلسلة سام ثم أرنخشد ثم شالح ثم هود في إثبات الوصية. لا نجمع الصيغتين بجعل مرجانة أم شالح وهود معًا، ولا نخترع زواجًا ثانيًا لحل الاختلاف [م٩].

ويذكر البحر المحيط عند الأعراف: ٦٥ اسم «مرجانة» لأم هود ضمن أقوال النسب، مع سلسلة أخرى تمر بعبد الله ورياح والجلود وعاد وعوص وإرم وسام. هذا شاهد تفسيري من خارج المصادر الإمامية، لا رواية عن أهل البيت. تكرر اسم مرجانة في كتابين لا يكفي لإثبات أن جميع التفاصيل عن امرأة واحدة، ولا يصح تغيير نسبها لتوحيد الأخبار [م١١].

أما زوجة شالح وبناته وبنات أرنخشد، فلا تسميهن النصوص الإمامية المحددة التي بنينا عليها هذه التراجم. ولا نعوض ذلك بأسماء من كتب أهل الكتاب أو بقوائم إلكترونية لا تعزو إلى مصدر. وكذلك لا نحول الإشارات العامة إلى المؤمنين وذرية سام إلى قصص تعليم أو رعاية تقوم بها نساء مسميات دون نص.

وفي امتداد أسرة سام يذكر اليعقوبي لامك ابنه، و«وزدق» زوجة لامك، وملكيزدق ابنهما، في خبر خروج سام بجسد آدم. نثبت صلة هذه الشخصيات بالأسرة في هذا النقل التاريخي، مع إحالة تفصيله إلى فصل سام، ولا نجعل ملكيزدق خليفة أرنخشد أو شالح. واسم لامك هنا لا يساوى بلامك الواقع قبل نوح في سلاسل أخرى، كما لا يدل اسم أرنخشد الوارد قبل نوح في بعض النقول على أن الشخصية نفسها عاشت قبل نوح وبعده [م١٠].

عاد — الجيل الذي ظهر بعد قوم نوح

قبل الدخول في قصة هود نفسها، نحتاج أن نفهم موقع عاد في التسلسل.

القرآن يصف عاد بأنهم خلفاء بعد قوم نوح.

ويذكرهم في مواضع متعددة:

الأعراف،

هود،

الشعراء،

الأحقاف،

الذاريات،

القمر،

الحاقة،

والفجر.

لكن القرآن لا يقدم لنا شجرة نسب لعاد.

كتب الأنساب تقول عادة:

عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

وهذا يجعل عاد ضمن خط سام.

لكننا نعرض هذا كنسب تاريخي متداول، لا كآية قرآنية.

إرم ذات العماد — شخص أم قبيلة أم موضع؟

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾

الفجر: ٦-٧.

هذه الآية لا تسمح لنا بسهولة أن نقول إن «إرم» مدينة مفقودة ذات مبانٍ أسطورية.

اختلف المفسرون:

هل إرم اسم جد؟

أم اسم قبيلة؟

أم اسم موضع؟

أم وصف لفرع من عاد؟

ومن هنا لا نبني الفصل السابع على حكايات «مدينة إرم الضائعة».

نذكر ما يقوله القرآن أولًا:

هناك عاد،

وهناك تعبير «إرم ذات العماد».

ثم نعرض اختلاف التفسير.

أما تحويله إلى قصة أثرية محددة فلا يتم إلا بدليل مستقل.

الخضر وذو القرنين في الأخبار المتصلة بهذه الأجيال

يفتح إثبات الوصية، بعد ذكر قيام أرنخشد، استطرادًا عن أفريدون الذي يساويه بذِي القرنين، ويذكر بيوراسب في خبر قهر الجبابرة، ثم منوشهر بعد ذي القرنين. هذه المساواة والأزمنة جزء من رواية الكتّاب التاريخية؛ لا يسمي القرآن ذا القرنين أفريدون، ولا يربطه بزمن أرنخشد. فلا ندمج الملوك المذكورين في سلسلة الأوصياء، ولا نحول استطراد المؤلف إلى تقويم قطعي [م٥].

وفي قصص الأنبياء للراوندي خبر يصف ذا القرنين بالعبد الصالح، ويذكر الخضر في مقدمته، وتسمي بعض ألفاظه ذا القرنين «عياشًا» وأول الملوك بعد نوح. هذا يمنع إسقاط صلة ذي القرنين بعالم ما بعد الطوفان من سجل البحث، لكنه لا يحدد عدد السنين بينه وبين هود. ولا يصح جمع «عياش» و«أفريدون» في اسم مركب أو الجزم باتحادهما. وأصل قصة ذي القرنين القرآنية في الكهف: ٨٣-٩٨، مع أقوام مغرب الشمس ومطلعها والقوم عند السدين ويأجوج ومأجوج؛ ولا تعطي الآيات أسماء زوجة أو أبناء أو بنات لذي القرنين [م١٣].

ويذكر إثبات الوصية الخضر ابن أرنخشد بن سام، بينما ينقل خبر علل الشرائع، المحفوظ أيضًا في معاني الأخبار، اسم «تاليا بن ملكان بن عابر بن أرنخشد بن سام بن نوح». وتختلف أخبار أخرى في اسمه ونسبه. لذلك يذكر هنا بوصفه شخصية تربطها بعض الأخبار بهذا الامتداد، ولا يضاف كابن ثابت لأرنخشد أو كحلقة لازمة بين شالح وهود. وتفصيل صحبته لموسى يدرس في موضعه؛ فالقرآن يصف صاحب موسى بالعبد الذي آتاه الله رحمة وعلمًا (الكهف: ٦٥)، ولا يذكر اسم الخضر في الآية [م١٤].

وتأتي مسألة المنصب أيضًا بصيغ مختلفة: خبر يصف الخضر بالنبي المرسل، وخبر في الكافي والعياشي يصف صاحب موسى وذا القرنين بالعالمين اللذين لم يكونا نبيين. لا نحسم الخلاف بإخفاء أحد النصين. وما يروى من طول بقاء الخضر لا يثبت وحده أنه عاصر أرنخشد أو هودًا؛ فإمكان طول الحياة غير إثبات زمن معين [م١٤].

أسماء موازية لا تدمج في نسب واحد

ينقل الصدوق في كمال الدين، في كلامه بعد أخبار الخضر، أقوالًا تسميه خضرويه بن قابيل بن آدم، وخضرون، وجعدا، ثم يرجح بليا بن ملكان بن عامر بن أرنخشذ بن سام بن نوح، ويُحال في الحاشية إلى لفظ «تاليا» في معاني الأخبار. تحفظ هذه الأسماء باعتبارها أقوالًا متغايرة، لا أشخاصًا إضافيين ثبت تعاقبهم، ولا نسبًا واحدًا يجمع قابيل وسام. والقول الذي يختاره المصنف لا يغني عن دراسة الخبر الذي أحال إليه [م١٥].

وترد أم ذي القرنين غير مسماة، موصوفة بأنها عجوز ليس لها ولد غيره، في خبر عبد الله بن سليمان الذي أورده الصدوق عن قراءته في بعض الكتب. ويسمي الخبر ابنها إسكندروس، ويذكر دهقان الإسكندرية الذي يعزيها حين يرحل ابنها، وقومه والمساكين الذين شاركوا في بناء المسجد وإخراج ترابه. هذا الخبر ليس مسندًا إلى إمام في هذا الموضع، ولا يصح مساواة إسكندروس بعياش وأفريدون بلا دليل. كما أن خطبة التعزية فيه تستشهد بمحن أنبياء متأخرين، فلا يعتمد لتأريخ أمه قبل هود؛ يثبت حضورها في سجل الروايات وتبقى دراسة زمنها في موضع أخبار ذي القرنين [م١٥].

استطراد لضبط الشخصيات: أسرة الخضر في الأخبار

تُذكر هذه المادة هنا لتمييز الشخصيات التي استطرَد إليها المصدر عند عرض الأجيال، ولا يُستدل بموضعها في الكتاب على وقوعها بين سام وهود. أما صحبة الخضر لموسى فموضعها الفصل الخامس والعشرون. يروي التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم، عن أبيه عن يوسف بن أبي حماد عن الإمام الصادق، خبرًا يصل رائحة طيبة في المعراج بأسرة عُذبت في الله. وتنبه حاشية بحار الأنوار إلى إشكال اسم الراوي وإرساله على قراءة «يوسف بن حماد». وللخبر صيغة في إثبات الوصية وأخرى أقصر في قصص الأنبياء؛ فتُحفظ كل صيغة ونسبتها، دون عدّها سيرة مؤرخة قبل هود [م٦، م١٤].

في الصيغة المطولة الخضر ابن ملك لم يكن له ولد غيره، آثر العبادة على الملك. أراد الأب زواجه رجاء ولد يستمر به الملك، فتزوج امرأة بكرًا، وحفظت سره. ثم دخلت النساء ليتحققن من حالها، وبعد ذلك زُوّج امرأة أخرى كانت قد تزوجت من قبل. هذه الثانية أفشت الأمر للأب، فغضب وحبس ابنه، ثم لم يجده حين فتح عنه. وفي صيغة قصص الأنبياء ترد امرأة واحدة ذات أدب وعقل، وتخبر الأب بأنه لم يقربها؛ فلا ننقل إليها آليًا حكم المرأة الثانية في الصيغة الأخرى، ولا نخلط أدوار النساء الثلاثة في النقول [م٦، م١٤].

وتذكر الصيغة المطولة رجلين خرجا للتجارة، وبلغا جزيرة فوجدا الخضر يصلي. وعداه بالكتمان وأعادهما، فكتم أحدهما وأخبر الآخر الملك. استدعى الملك الرجل الكاتم، وأرسل مع المخبر من يبحث عن ابنه، فلم يجدوه. يذكر إثبات الوصية صلب المخبر، بينما لا يرد هذا التفصيل في النص المقابل من تفسير القمي الذي اعتمد هنا؛ فيبقى منسوبًا إلى صيغته الخاصة.

ثم يروي النص هلاك المدينة ونجاة المرأة الأولى والرجل الذي كتم خبر الخضر. التقيا وتزوجا وصارت لهما أسرة، وانتقلا في رواية القمي إلى مملكة أخرى. عملت المرأة في تزيين ابنة الملك؛ ولما وقع المشط من يدها ذكرت الله. سألتها البنت عن إله غير أبيها، فأجابت بما يعلن التوحيد، فأخبرت أباها. أحضر الملك المرأة وزوجها وولدها، وطلب منهم ترك إيمانهم، فأبوا.

وفي تفسير القمي يذكر مرجل ماء ساخنًا وبيتًا هُدم عليهم، بينما يذكر إثبات الوصية الزيت وطلب المرأة أن يجمع دفنهم في حفيرة. لا يركّب من الماء والزيت والهدم والدفن مشهد واحد ينسب إلى مصدر واحد. وفي الصيغتين يظهر ثبات الأسرة، وتأتي الرائحة الطيبة في خبر المعراج علامة على منزلتها في ذلك النقل [م٦].

لا يسمي الخبر الزوجتين ولا التاجرين ولا القوابل ولا الملك وابنته ولا أبناء الأسرة بأسمائهم. ولا نسمي الملك الأخير فرعون أو الماشطة ماشطة بنت فرعون من غير نص هذا الخبر؛ فالتشابه مع أخبار أخرى لا يثبت اتحاد الشخصيات. كذلك لا نقطع بأن هذه الأسرة عاشت في جيل أرنخشد لمجرد أن إثبات الوصية أورد قصتها في استطراده. نثبت حضور النساء والرجال والأطفال في الخبر مع إبقاء زمانه ونسبه في موضع البحث.

والدرس الذي يمكن استخلاصه من سياق الرواية هو أثر حفظ الأمانة والثبات على التوحيد عند الإكراه. وهذا تأمل في القصة المنقولة، وليس تصحيحًا تلقائيًا لسندها أو إقرارًا بكل لفظ ورد في رواياتها المختلفة.

هل نستطيع تسمية الأنبياء الذين كانوا بين نوح وهود؟

هذه هي المسألة الأصعب في الفصل.

لدينا رواية الكافي:

بين نوح وهود أنبياء.

ولدينا بعض السلاسل التي تسمي شخصيات بين سام وهود أو بين سام وإبراهيم.
لا تقدم النصوص المحددة المعروضة هنا قائمة واحدة يمكن اعتمادها حصرًا ثابتًا بأسماء جميع الأنبياء الذين كانوا بين نوح وهود.
ولهذا يجب أن نقسم الأسماء إلى طبقات.
الطبقة الأولى: شخصية ثبتت في الرواية كحامل عهد
سام — تنص رواية الكافي على أن نوحًا دفع إليه الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة؛ وصراحة الدلالة لا تعني تصحيح السند تلقائيًا.
الطبقة الثانية: أسماء وردت في رواية اتصال الوصاية
عثامر،
برعيثاشا،
يافث،
برة،
جفسيه،
عمران.
هذه أسماء في رواية أمالي الصدوق وكمال الدين.
لكن الرواية لا تقول إنهم كلهم أنبياء.
الأصح وصفهم بحسب النص:
حملة وصية أو حلقات في سلسلة الوصاية.
الطبقة الثالثة: أسماء في سلسلة نسبية/وصائية أخرى
أرنخشد،
شالخ،
ثم هود.
يصرح إثبات الوصية بنبوة أرنخشد، ويصف انتقال الحكمة والنبوة من شالخ إلى هود؛ نثبت لفظ المصدر ولا نجزم بصحة جميع تفاصيله.
الطبقة الرابعة: أنبياء لم تصلنا أسماؤهم
رواية الكافي نفسها تفتح هذا الباب:
«وكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء».

وهنا ينبغي أن نكون مستعدين للاعتراف:
نحن نعرف أن هناك أنبياء في هذه المرحلة،
لكننا لا نعرف أسماءهم جميعًا من طريق يمكن الجزم به.
وهذا أفضل من اختراع يقين غير موجود.

هل كان هود في خط الوصية أم خارج القائمة التي وصلت إلينا؟

لا يصح أن نضع خيارين متعارضين بصورة قاطعة.
المصادر لا تعطينا صورة واحدة بسيطة.
من جهة:
الكافي يجعل نوحًا يبشر سامًا بهود، ويجعل حملة الوصية يعرفون هودًا عندما يظهر ويؤمنون به.
وهذا يضع هودًا بوضوح داخل حركة الهداية التي حفظتها وصية نوح.
ومن جهة أخرى:
قائمة الوصاية في أمالي الصدوق لا تسمي هودًا بين سام وإبراهيم.
فكيف نفهم ذلك؟
أحد الاحتمالات المنهجية — لا على أنه حقيقة قطعية — أن قائمة الوصاية تسجل انتقال ميراث خاص عبر سلسلة معينة، بينما الأنبياء قد يبعثون في جماعات مختلفة داخل الزمن نفسه أو في أجيال متقاربة.
فالنبوة والوصاية وحمل الميراث ليست دائمًا ألفاظًا مترادفة.
وهذا ينسجم مع منهج الكتاب كله:
لا نفترض أن كل نبي هو بالضرورة الحلقة المسماة في كل سلسلة وصاية وصلت إلينا.
ولا نفترض أن كل وصي في سلسلة ما هو نبي.

نوح يجعل انتظار هود جزءًا من حفظ العهد

الرواية لا تقول فقط إن هود سيأتي.
بل تجعل الاستعداد له ممارسة متجددة.
كان سام ومن معه يتعاهدون الوصية.
ويفتحونها في رأس كل سنة.
ويتذكرون ما عندهم من العلم والإيمان.

ثم جاء اليوم الذي تحققت فيه البشارة.

هذه الفكرة شديدة الأهمية في «حكاية الهداية».

الهداية ليست مجرد تذكر الماضي.

هي أيضًا استعداد للمستقبل.

آدم أوصى بما بعده.

إدريس ارتبط بالبشارة بنوح.

ونوح يبشر بهود.

ثم هود — كما سنرى في الفصل الثامن — يبشر بصالح في روايات أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا تصبح السلسلة:

وحي،

ثم حفظ،

ثم انتظار،

ثم ظهور،

ثم تصديق،

ثم انتقال عهد جديد.

الأنبياء بين نوح وهود — هل كانوا ظاهرين كلهم؟

في كمال الدين، باب٢٢، ح٢، وفي النص الذي جُمعت مادته ضمن تفسير أبي حمزة الثمالي، يوصف الأنبياء بين نوح وهود بأنهم «مستخفون ومستعلنون»؛ والمقصود هنا معنى الرواية، مع اختلاف ضبط اللفظ في النقل [م٣].

حتى إذا اختلفت بعض الألفاظ بين النسخ، فإن المعنى ينسجم مع بنية روايات استمرار الحجة:

ليست كل مرحلة من التاريخ مرحلة ظهور علني واحد.

قد يكون النبي معروفًا لجماعته.

وقد يعيش حامل العهد في حال تقية أو خوف.

وقد يظهر نبي لقوم محددين دون أن يكون صاحب رسالة عامة لكل الأمم.

وهذا يساعدنا على فهم قول الإمام الباقر عليه السلام في رواية أخرى:

إن الأنبياء بعثوا «خاصة وعامة»، وإن هودًا أرسل إلى عاد بنبوة خاصة.

إذن كثرة الأنبياء بين نوح وهود لا تعني بالضرورة وجود شريعة جديدة لكل واحد منهم.

وقد يكون بعضهم لقوم مخصوصين، وكلهم ضمن شريعة نوح الكبرى إلى زمن إبراهيم.

من سام إلى هود — الخريطة التي يعتمدها هذا الكتاب

بعد جمع القرآن والروايات والسلاسل المختلفة، لا نكتب الخريطة هكذا:

سام ← أرفخشد ← شالح ← هود

على أنها حقيقة قطعية.

ولا نكتب:

سام ← عثامر ← برعيثاشا ← يافث ← برة ← جفسيه ← عمران ← إبراهيم

ثم نتجاهل هود.

بل نعتمد خريطة متعددة المستويات:

المستوى الأول — الإطار الذي تنص عليه الرواية الإمامية:

نوح

سام حامل العهد

أنبياء وحملة هداية بين نوح وهود، لم تُحفظ أسماؤهم جميعًا

هود النبي عليه السلام

المستوى الثاني — سلسلة وصاية مروية عند الصدوق:

سام

عثامر

برعيثاشا

يافث

برة

جفسيه

عمران

إبراهيم

المستوى الثالث — سلسلة نسبية/وصائية تراثية أخرى:

سام

أرفخشد

شالح

هود

ونضع السلاسل الثلاثة جنبًا إلى جنب بدل دمجها قسرًا.

وبهذا نحافظ على جميع المواد المهمة من غير أن نحول الاختلاف إلى يقين مصطنع.

لماذا لا نجعل أرنفخشد وشالح فصلين مستقلين؟

هذه مسألة بناء كتاب، وليست حكمًا على مكانتهما.

المادة الخاصة بهما محدودة بالنسبة إلى سير الأنبياء المفصلة، لكنها تتجاوز اسميهما في الفهرس؛ ففي إثبات الوصية وصف لاستلامهما الأمر وتسليمه، وفي التاريخ أخبار عن الأسرة والعمر.

لا يذكرهما القرآن.

ولا نملك سيرة إمامية مفصلة لكل واحد منهما مثلما نملك لنوح أو هود.

وتتفاوت تلك الأخبار بين نص وصائي وخبر نسبي أو تاريخي، ولا تجمع كلها في مرتبة واحدة.

لذلك الأفضل أن يبقيا داخل الفصل السابع بوصفهما من الأسماء التي حفظتها السلسلة الانتقالية.

لذلك يعرض هذا الفصل مادتهما في موضعها، مع فصل ما نسبه المصدر إليهما عن درجة ثبوته.

لماذا لا نجعل عثامر وبرعيثاشا ومن بعدهما أنبياء تلقائيًا؟

لأن النص الذي يذكرهم يذكر انتقال الوصية.

ولا يقول في كل موضع:

«وكان نبيًا».

وهنا نطبق قاعدة الكتاب:

الوصي ليس نبيًا بالضرورة.

وحامل ميراث العلم ليس رسولًا بالضرورة.

والنبي لا يلزم أن يكون صاحب شريعة عامة جديدة.

إذن نقول:

عثامر — مذكور في سلسلة الوصاية.

برعيثاشا — مذكور في سلسلة الوصاية.

يافث — مذكور في سلسلة الوصاية.

برة — مذكور في سلسلة الوصاية.

جفسيه — مذكور في سلسلة الوصاية.

عمران — مذكور في سلسلة الوصاية.

ولا نزيد:

«نبي»

إلا إذا وجد نص مستقل.

هل كان أرنخشد أو شالح من الأنبياء المجهولين بين نوح وهود؟

قد يخطر هذا الاحتمال.

لكن المصدر الذي يقول إن بين نوح وهود أنبياء لا يسميهم بأسمائهم.

أما إثبات الوصية فيصف أرنخشد بالنبي صراحةً، ويعرض شالح حاملًا للأمر ومودعًا النبوة عند هود؛ فلا يجوز تجاهل هذا الفرق بين عبارتي المصدرين.

لذلك لا نصل بين النصين بعبارة:

«إذن أرنخشد وشالح هما الأنبياء المقصودون».

قد يكونان منهم.

وقد يكون الأنبياء غيرهما.

لكن هذه الشواهد لا تكفي لتعيين كل الأنبياء الذين تقصدهم رواية الكافي أو لحسم صحة سلسلة كاملة.

وهذا مثال واضح على الفرق بين:

الاحتمال المعقول،

والحقيقة التي يثبتها النص.

الحفاظ على أسماء المراحل دون صناعة يقين

أحد أهداف هذا الكتاب أن يحفظ الأسماء التي تظهر في حركة الهداية.

لكن حفظ الاسم لا يعني مساواة كل الأسماء في درجة الثبوت.

في هذا الفصل نحفظ:

سام.

عثامر.

برعيثاشا.

يافث المذكور في سلسلة الوصاية.

برة.

جفسيه.

عمران.

أرنفخشد.

شالح.

عابر بوصفه اسمًا ارتبط بهود في بعض الأنساب.

عاد.

إرم.

ثم هود عليه السلام.

لكن بجوار كل اسم نحتفظ بسؤال المصدر:

هل هو قرآن؟

هل هو رواية إمامية؟

هل هو سلسلة وصاية؟

هل هو نسب تاريخي؟

هل هو تفسير؟

هل هو اسم مختلف في النسخ؟

بهذه الطريقة لا نضيع شيئًا، ولا نساوي بين ما ليس متساويًا.

اختلاف الأسماء في النسخ — ضرورة لا هامش

الأسماء القديمة المنقولة عبر نسخ كثيرة كثيرًا ما تتغير كتابتها.

وفي سلسلة الوصاية نجد مثلًا اختلافات من قبيل:

برعيثاشا / برعيثاثا.

جفسيه / جفيسة.

برة / بره.

وقد توجد فروق أخرى بين الطبعات.

وفي أنساب ما بعد سام:

أرنخشد / أرنخشذ.

شالح / شالخ.

عابر / عيبر في بعض النقل.

جلوث / الخلود في نسب آخر لهود.

نعتمد رسمًا ثابتًا في المتن، مع ذكر ما أمكن مقابلته من بدائل في بيان المصادر. ولا توصف قراءة بأنها اختلاف مخطوطات إلا إذا قام عليها شاهد نسخي؛ فقد تكون بعض الفروق طباعية أو من النقل الإلكتروني.

فالتوحيد الطباعي مطلوب،

لكن إخفاء اختلاف النسخ غير أمين.

القرآن لا يحتاج إلى سد الفراغات

قد يبدو للقارئ أن وجود أسماء قليلة في القرآن يعني وجود «نقص» في القصة.

لكن القرآن لم ينزل ليكون سجل مواليد وأنساب.

هو ينتقي من التاريخ ما يخدم الهداية.

ولذلك فإن قول القرآن:

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾

لا يطلب منا أن نخترع قائمة بديلة.

بل يعلمنا أن التاريخ الإلهي أوسع من الأسماء التي نعرفها.

هذا الفهم مهم جدًا في فصلنا.

نحن نبحث عن كل ما حفظته المصادر،

لكننا نقبل أن تبقى بعض الحلقات بلا أسماء.

ما الذي كان يحفظه حملة العهد؟

رواية الكافي عن نوح وسام تعطينا مفردات محددة:

العلم.

الإيمان.

الاسم الأكبر.

ميراث العلم.

آثار علم النبوة.
إذن المرحلة بين سام وهود لم تكن — في هذه الرؤية الروائية — مجرد انتقال للدم والنسب.
كانت انتقالًا لمضمون.
وهذا يفسر أمر نوح بفتح الوصية ومراجعتها في الرواية.
فالوصية لا تحفظ الاسم فقط.
تحفظ معيار التعرف على الهداية.
ومن هنا نستطيع أن نصوغ إحدى أفكار الكتاب الكبرى:
حكاية الهداية ليست سلسلة جينات.
إنها سلسلة أمانة.

من ذرية سام إلى قوم عاد

الروايات التاريخية والأنساب تربط عادًا بسام.
والصيغة المشهورة:
عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.
إذا قبلنا هذه الصيغة بوصفها نسبًا تاريخيًا متداولًا، يصبح لدينا مساران يخرجان من مرحلة سام:
مسار حفظ العهد.
ومسار اتساع الذرية والأمم.
ثم يظهر هود داخل قوم عاد.
وهنا يلتقي المساران مرة أخرى:
نبي مبشر به في وصية نوح،
وقوم ينسبهم المؤرخون إلى ذرية سام.
لكن القرآن يكفينا في أصل الربط التاريخي حين يقول لقوم عاد:
﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

هل كان الانتظار لهود معروفًا لكل الناس؟

الرواية تتحدث عن سام والعقب الذين كانوا يتعاهدون الوصية.
ولا تقول إن جميع أمم الأرض كانت تحفظ هذه الوصية.
ولهذا الأصح أن نفهمها كتراث محفوظ داخل خط مخصوص من أهل الإيمان والعلم.

وهذا يفسر أيضًا لماذا عندما ظهر هود:
آمن به من عرف العلامة،
وكذبه آخرون.
الهداية قد تكون محفوظة،
لكن الناس لا يُجبرون على قبولها.

بداية التحول من مرحلة الطوفان إلى مرحلة عاد

مع نوح كان الحدث الكوني في مركز القصة:
الطوفان.
أما مع هود فسينتقل التركيز إلى أمة قوية مستقرة بعد الطوفان.
قوم عندهم قوة،
وعمران،
واستكبار،
وأصنام،
وثقة بالقدرة البشرية.
الفصل السابع هو الجسر بين العالمين:
من الناجين القلائل،
إلى أمم جديدة.
من وصية نوح،
إلى انتظار هود.
من سام حامل العهد،
إلى أنبياء وحملة هداية لم تصلنا أسماؤهم جميعًا.
ثم إلى عاد التي ستواجه رسولها.

ما لا ينبغي نقله إلى الفصل السابع من الفصل الثامن

حتى لا يتضخم الفصل الانتقالي على حساب فصل هود، نضع حدًا واضحًا.
الفصل السابع ينتهي عند وصولنا إلى:
ظهور هود كنبي موعود،

وانتمائه إلى مرحلة عاد،
وتحقق البشارة التي حفظتها الوصية.
أما التفاصيل الآتية فموضعها الفصل الثامن:
دعوة هود لقوم عاد.
عبادتهم للأصنام.
استكبار الملأ.
قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.
القحط.
الريح.
مدة العذاب.
الأحقاف.
وفد عاد.
نجاة هود والمؤمنين.
مكان وفاته وقبره.
ومن أوصى إليه هود وبشارته بصالح.

سجل الشخصيات وحدود ما وصل من سيرها

نوح وسام وهود: نوح مصدر الوصية والبشارة في الأخبار، وسام متلقي الميراث، وهود النبي الموعود. نوح وهود مذكوران في القرآن، وسام مسمى في الروايات. حام ويافث ابنا نوح يردان في أخبار المقارنة في العلم والغلبة، ولا يسميهما القرآن. أما جبرئيل فمبلغ الأمر في رواية التسليم، لا إنسان في سلسلة النسب [م١-م٣].

عثامر وبرعيثاشا ويافث الوصاية وبرة وجفسيه وعمران: لكل منهم موضع استلام وتسليم في خبر الصدوق، دون سيرة مفصلة أو أسرة مسماة في المقطع؛ وينتهي هذا الخط بإبراهيم. إبراهيم حد المقارنة اللاحق، وليس شاهدًا على أن جميع هذه الأسماء قبل هود [م٤].

أرنخشد وشالح وعابر أو غابر: يرد الأولان في إثبات الوصية، وعابر في الأنساب وخبر اليعقوبي، وغابر/هود في خبر النور. اختلاف موقع شالح وهوية عابر لا يمحى. فالغ ومن بعده يروغ وصاروغ وتاجور وتارخ أسماء امتداد لاحق وردت في عرض المصدر، وليست حلقات نضيفها قبل هود [م٥، م٩، م١٠].

النساء في امتداد الأسرة: أم أرنخشد بنت ملك غير مسماة، ومرجانة زوجة أرنخشد وأم غابر/هود في خبر الدر النظيم؛ ومرجانة أم هود في قول نسبي آخر؛ ووزدق أم ملكيزدق في خبر اليعقوبي. ولا يثبت بهذه النصوص اسم زوجة شالخ أو أسماء بناته وبنات أرنخشد. لامك وملكيزدق صلة أسرية جانبية في خبر سام، لا بديلان عن حاملَي العهد [م٩-م١١].

الخضر وذو القرنين: لهما صلة بهذه الأجيال في أخبار تختلف أنسابها وتأريخها. تاليا وملكان وعابر أسماء في نسب الخضر المنقول، وعياش وأفريدون تسميتان في نصوص مختلفة لذي القرنين، لا أسماء قرآنية ثابتة له. بيوراسب ومنوشهر في استطراد الملوك، ولا يجعل أي منهم وصيًا بسبب مجاورته لأخبار الأوصياء [م٥، م١٣، م١٤].

في خبر الخضر الأسري: الأب الملك، وابنه، والزوجة الأولى الكاتمة، والثانية المفشية في الصيغة المطولة، والمرأة في الصيغة المختصرة، والنساء الفاحصات، وأهل المملكة ومستشاروها، والتاجران، والرجال المرسلون للبحث، والملك اللاحق، وابنته، والزوجان المؤمنان وولدهما. معظمهم بلا أسماء، وبعضهم هو الشخصية نفسها في مرحلة ثانية من القصة؛ فالزوجة الأولى هي المرأة التي تتزوج التاجر لاحقًا داخل الصيغة المطولة، فلا تعد امرأتين مستقلتين [م٦].

عاد وإرم وعوص، وعبد الله ورياح أو رباح والجلود أو جلوث أو الخلود: أسماء قوم وأجداد في الآيات أو أقوال النسب، مع اختلاف القراءات. القرآن يذكر عادًا وإرم وهودًا؛ أما تحويل إرم إلى جد معين، وربط كل هذه الأسماء في نسب واحد، فمن النقل التفسيري والنسبي. والمؤمنون حملة الوصية، والأنبياء غير المسمين، والطغاة وأتباعهم جماعات في الأخبار لا تزودنا بقائمة كاملة لأفرادها.

ويرد آدم وشيث وإدريس في خلفية العهد، وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام في المقارنات أو مآلات الأخبار. لا يعاد وضعهم في زمن سام إلى هود. والأئمة الباقر والصادق والرضا والسجاد عليهم السلام في هذا الفصل مصادر نقل أو تفسير، وأبو حمزة ومقاتل وسماعة وغيرهم رواة متأخرون، فلا يخلط الرواة بشخصيات الوقائع القديمة.

الخلاصة المنهجية للفصل السابع

يمكن تلخيص ما وصلنا إليه في خمس درجات.

أولًا — القرآن

يثبت بقاء ذرية نوح.

يثبت ظهور أمم بعد الطوفان.

يثبت أن عاد جاءت بعد قوم نوح.

يثبت هودًا رسولًا إلى عاد.

ويثبت أن هناك رسلًا لم تُذكر قصصهم كلها.

ثانيًا – روايات الكافي

نوح دفع ميراث العلم إلى سام.

نوح بشر سامًا بهود.

بين نوح وهود أنبياء.

حملة الوصية كانوا يتعاهدونها.

وعندما ظهر هود عرفه أهل الوصية واتبعوه.

ثالثًا – رواية اتصال الوصاية عند الصدوق

تذكر بعد سام:

عثامر،

برعيثاشا،

يافث،

برة،

جفسيه،

عمران،

ثم إبراهيم.

ولا تذكر هودًا داخل هذه القائمة.

ولهذا لا نساوي بين قائمة الوصاية وقائمة جميع الأنبياء.

رابعًا – سلسلة تراثية أخرى

تذكر:

سام،

أرنخشد،

شالح،

هود.

لكن مصدرها ونسبة بعض الكتب التي تحفظها تحتاج إلى احتياط.

خامسًا – النتيجة

لا يوجد فراغ بين سام وهود.

هناك امتداد هداية حقيقي.

لكن أسماء جميع حلقاته لم تصل إلينا بدرجة واحدة من الثبوت.
والأمانة تفرض أن نحفظ المعروف، ونذكر المختلف، ونترك المجهول مجهولًا.

نهاية الفصل السابع — عند باب هود

وهكذا يصل خط الهداية إلى باب جديد.
بعد الطوفان لم تُترك الأرض بلا علم.
نوح دفع أمانته إلى سام.
سام حفظ الوصية.
تحدثت الروايات عن أنبياء بين نوح وهود.
حفظت بعض المصادر أسماء حملة وصية.
وحفظت مصادر أخرى سلسلة نسب تصل سامًا بهود.
واختلفت القوائم.
لكن النهاية واحدة:
ظهر النبي الذي بشر به نوح.
هود عليه السلام.
وبظهوره يبدأ في سرد الكتاب فصل رسالته إلى عاد؛ أما وجود عاد فيسبق بعثته إليهم.
أمة قوية ورثت الأرض بعد قوم نوح،
لكنها ستواجه الامتحان نفسه الذي يتكرر في حكاية الإنسان:
هل تكون القوة سببًا للشكر،
أم سببًا للاستكبار؟
وهنا يبدأ الفصل الثامن.

المصادر والمراجع — الفصل السابع

أولًا: القرآن الكريم

سورة هود ١١:٤٨ — الهبوط بالسلام والبركات على نوح وأمم ممن معه.
سورة الصافات ٣٧:٧٧ — ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.
سورة الأعراف ٧:٦٥–٦٩ — هود وعاد، وقوله: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

سورة المؤمنون ٢٣:٣١-٣٢ — إنشاء قرن آخر بعد قوم نوح وإرسال رسول فيهم.
سورة النساء ٤:١٦٤، وسورة غافر ٤٠:٧٨ — رسل لم تُقصص أسماؤهم وقصصهم كلها.
سورة الفجر ٨٩:٦-٨ — عاد وإرم ذات العماد.
سورة الشعراء ٢٦:١٢٣-١٤٠ — عاد وهود، وتأتي تفاصيلها في الفصل الثامن.

ثانيًا: المصادر الروائية الإمامية الأساسية

١. الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٣-١١٧، ح٩٢، حديث أبي حمزة عن الإمام الباقر في اتصال العلم والوصية [م١].
المادة المستفادة:
نوح يجعل العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة في عقبه.
يبشر سامًا بهود.
يصرح بأن بين نوح وهود أنبياء.
يأمر بتعاهد الوصية.
يذكر أن أهل الوصية عرفوا هودًا عندما ظهر وآمنوا به.
تحدد هذه الإحالة برقم الحديث ومطلعه وموضعه في الطبعة، ولا تعتمد أرقام صفحات غير معيّنة الطبعة.

٢. الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٨٥، ح٤٣٠، عن الإمام الصادق عليه السلام [م٢].
المادة المستفادة:
نوح عاش بعد الطوفان ثم أمر بدفع الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى سام.
كما تتضمن الرواية البشارة بهود وفتح الوصية كل عام.

٣. الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٧، باب الشرائع، الحديث ٢.
المادة المستفادة:
نوح بعث بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم بالصحف.
وطريقها عن سماعة بن مهران، عن الإمام الصادق، بواسطة عثمان بن عيسى وأحمد بن محمد بن خالد؛ لا تستبدل دراسة السند بعبارة عامة عن «بعض الدراسات» [م٧].

٤. الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج٢، باب علل مختلف الأشياء، خبر ابن فضال عن الإمام الرضا، الحديث ١٣ في الفهرسة الإلكترونية المراجعة، ومطلعه «إنما سمي أولو العزم» [م٨].

المادة المستفادة:

المعنى نفسه في استمرار شريعة نوح إلى زمن إبراهيم.

٥. الشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، الحديث ٣.

المادة المستفادة:

سلسلة اتصال الوصاية، وبعد نوح:

سام ← عثامر ← برعيثاشا ← يافث ← برة ← جفسيه ← عمران ← إبراهيم.

تنبيه:

في السند مقاتل بن سليمان، ولذلك تحتاج الرواية إلى دراسة رجالية مستقلة، كما تختلف كتابة عدد من الأسماء بين النسخ.

٦. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب٢٢، ح١-٢، ص٢١١-٢١٧، سلسلة الوصية واتصال العلم؛ وباب ظهور نوح بالنبوة، أخبار انتقال العلم والبشارة بهود [م٣].

المادة المستفادة:

سلسلة قريبة من أمالي الصدوق.

كما يروي كمال الدين أن نوحًا عند وفاته بشر جماعة المؤمنين بهود، ووصف مرحلة ما بعده بالغيبة وظهور الطواغيت، وأن الفرج يكون بظهور هود.

٧. تفسير أبي حمزة الثمالي، النص المجموع في ص١٢٦ وما بعدها، المنقول في سياق أخبار اتصال العلم؛ يقارن بأصل كمال الدين، باب٢٢، ح٢ [م٣].

المادة المستفادة:

وجود أنبياء بين نوح وهود، وفي بعض النقل وصفهم بالمستخفين والمستعلنين.

هذه مجموعة لمرويات أبي حمزة من مصادر متعددة؛ إعادة الخبر فيها ليست بالضرورة طريقًا حديثيًا مستقلًا.

ثالثًا: المصادر التفسيرية الإمامية

١. علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، عند آيات هود وعاد — للاستفادة من الروايات التفسيرية المتعلقة بقوم عاد.

٢. الحويزي، نور الثقلين، ج٢، عند الأعراف ٧:٦٥ وما بعدها — يجمع روايات الكافي وكمال الدين وغيرها حول بشارة نوح بهود.

٣. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، عند الأعراف ٧:٦٥ — يورد روايات الأخوة العشائرية وبشارة نوح بهود ووجود أنبياء بينهما.

٤. كنز الدقائق، عند الأعراف ٧:٦٥ — يجمع اختلاف الأنساب المنقولة لهود، ومنها:
هود بن عبد الله... بن عاد بن عوص بن إرم بن سام،
وقول آخر: هود بن شالخ بن أرنخشد بن سام.

رابعًا: مصادر السلاسل والأنساب

١. الكتاب المتداول باسم «إثبات الوصية» والمنسوب تقليديًا إلى المسعودي:
ترتيب فصوله يذكر:
سام بن نوح،
ثم أرنخشد بن سام،
ثم شالخ بن أرنخشد،
ثم هود بن شالخ.
تنبيه علمي:
نسبة الكتاب محل نقاش. تعرض مقدمة طبعة أنصاريان النسبة إلى المسعودي، ويعارضها بحث مصطفى خرمي المشار إليه في [م١٢]. وتفحص أخبار الكتاب وأسانيدها كلّ على حدة.
٢. العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، باب قصة هود وقوم عاد.
المادة المستفادة:
جمع أقوال متعددة في نسب هود، ومنها النسب عبر عاد وإرم وسام، والقول بأنه عابر بن شالخ بن أرنخشد بن سام.
ويستخدم بحار الأنوار هنا جامعًا للمادة لا مصححًا تلقائيًا لها.
٣. كتب التاريخ والأنساب العامة.
تذكر بصورة شائعة:
سام ← أرنخشد ← شالخ ← عابر،
وتربط عادًا بإرم وسام.
هذه الأخبار تُذكر للمقارنة ولا تُساوى بالرواية الإمامية أو القرآن.

خامسًا: ضابط هذا الفصل

لا تُحوَّل الأسماء:
أرنخشد،

شالح،

عثامر،

برعيثاشا،

يافث،

برة،

جفسيه،

عمران

إلى أنبياء بمجرد وقوعهم في نسب أو وصاية؛ وإذا صرّح مصدر بوصف النبوة، كما فعل إثبات الوصية في أرنخشد، نثبت أنه قول المصدر ثم نبحث ثبوته.

ونحفظ في الوقت نفسه تصريح رواية الكافي بوجود أنبياء بين نوح وهود.

وهكذا لا نسقط الحلقة، ولا نخترع صفة.

إحالات التحقيق والاستكمال

[م١٥] كمال الدين، ص٣٩١-٣٩٢، تعقيب المصنف على أسماء الخضر؛ وص٣٩٤-٣٩٧، خبر عبد الله بن سليمان في ذي القرنين وأمه ودهقان الإسكندرية. الخبر الأخير ليس حديثًا عن إمام.

[م١٦] تفسير الصافي، ج٢، ص٢٠٩-٢١٠، عند الأعراف:٦٥، الأخوة العشائرية وبشارة هود وخصوص بعثته.

[م١] الكافي، ج٨، ص١١٣-١١٧، ح٩٢، خبر أبي حمزة عن الإمام الباقر في اتصال العلم.

[م٢] الكافي، ج٨، ص٢٨٥، ح٤٣٠، انتقال ميراث نوح إلى سام؛ اختلاف العدد يقارن بكمال الدين.

[م٣] كمال الدين، باب٢٢، ح٢، ص٢١٣-٢١٧؛ وباب ظهور نوح بالنبوة، أخبار التسليم والبشارة وظهور هود. ترقيم الأخبار الإلكترونية يختلف عن بعض الطبعات؛ يعتمد المطلع والسند أيضًا.

[م٣أ] كمال الدين، النص الإلكتروني لباب ظهور نوح، ولا سيما الأخبار ٢-٤ في هذه الفهرسة.

[م٤] أمالي الصدوق، المجلس٦٣، ح٣؛ وقارنه بكمال الدين، باب٢٢، ح١، ص٢١١-٢١٣، وحواشي التحقيق على السند وتسلسل الأسماء.

[م٥] إثبات الوصية، طبعة أنصاريان الثالثة، ١٤٢٦هـ، ص٣٣-٣٧، سام وأرنخشد وشالح وهود واستطراد الملوك والخضر.

[م٦] تفسير القمي، ج٢، ص٤٢-٤٤، خبر الخضر والأسرة؛ يقارن بإثبات الوصية، ص٣٤-٣٦. ونقل بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٩٦-٢٩٨، ح١٤، مع حاشية الإرسال.

[م٧] الكافي، ج٢، ص١٧، باب الشرائع، ح٢، حديث سماعة بن مهران في أولي العزم واستمرار الشريعة.

[م٨] عيون أخبار الرضا، ج٢، باب علل مختلف الأشياء، ح١٣ في الفهرسة المراجعة، خبر ابن فضال في أولي العزم.

[م٩] الدر النظيم، ص٦٨، أم أرنخشد ومرجانة وغابر/هود في خبر انتقال النور؛ لا يسوّى هذا النسب بالسلسلة الأخرى.

[م١٠] تاريخ اليعقوبي، ج١، أخبار سام وأرنخشد وشالح وعابر؛ مصدر تاريخي مقارن، لا رواية مسندة عن إمام في هذه المقاطع.

[م١١] أبو حيان، البحر المحيط، تفسير الأعراف:٦٥، أقوال نسب هود واسم مرجانة؛ شاهد تفسيري غير إمامي.

[م١٢] مصطفى خرمي، مصادر مسألة الإمامة في الفكر الشيعي، كتاب إثبات الوصية أنموذجًا، ترجمة نظيرة غلاب، نصوص معاصرة؛ للمناقشة البيليوغرافية فقط.

[م١٣] الراوندي، قصص الأنبياء، باب حديث ذي القرنين؛ ونقله في بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٠٠، ح١٩. تسمية عياش وتأريخه من الخبر لا من القرآن.

[م١٤] بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٨٦-٣٠٤، أخبار الخضر، خصوصًا ح٤ و١٤ و١٩ و٢٣ و٢٤ و٣٠، مع إحالاته إلى علل الشرائع ومعاني الأخبار والكافي والعياشي وقصص الأنبياء. الإحالة الجامعة لا تعني تصحيح الأخبار أو أن جميع أصولها قوبلت هنا.

الفصل ٨ — هود عليه السلام — رسول عاد ومواجهة حضارة القوة

من سام إلى هود — استمرار العهد بعد الطوفان

لا تبدأ قصة هود من فراغ. في نهاية قصة نوح رأينا أن الروايات الإمامية تجعل سام بن نوح حاملًا لما سلّمه إليه أبوه من الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة. وتقول رواية روضة الكافي إن ولد سام ظلوا يتوارثون الوصية والعلم، وأن نوحًا كان قد بشّرهم بهود وأمرهم باتباعه، فلما ظهر هود عرفه من كان يحمل الوصية فآمن به ونجا من عذاب الريح.

وتأتي رواية أخرى في كمال الدين وتمام النعمة لتصور الفترة بين نوح وهود بوصفها زمن انتظار وامتحان، وتقول إن نوحًا أخبر أتباعه بأن فرجهم سيكون على يد هود، وأنهم ظلوا يترقبونه حتى طال عليهم الأمد، ثم ظهر هود عند شدة البلاء.

هذه الروايات مهمة جدًا لهدف الكتاب، لأنها تمنعنا من تصوير التاريخ بين نوح وهود على أنه فراغ. لكنها لا تعطينا جميع أسماء حملة العهد بين سام وهود. ولذلك نثبت وجود استمرار للوصية بحسب الرواية، ونترك تسمية الحلقات التي لا نثبت أسماؤها للفصل السابق والبحث الخاص بحملة العهد بين سام وهود.

هود عليه السلام في القرآن — جميع المواضع الأساسية

قصة هود عليه السلام موزعة في القرآن على أكثر من سورة. بعض المواضع تسمي هودًا صراحة، وبعضها يذكر عادًا أو «أخا عاد» من غير أن يعيد الاسم.

المواضع التي تسمي هودًا صراحة:

الأعراف ٧:٦٥–٧٢.

هود ١١:٥٠–٦٠.

الشعراء ٢٦:١٢٣–١٤٠.

هود ١١:٨٩، ضمن موعظة شعيب.

موضع يذكر «أخا عاد» من غير إعادة اسمه:

الأحقاف ٤٦:٢١–٢٦.

ومواضع أخرى تتحدث عن عاد وعذابهم:

التوبة ٩:٧٠.

إبراهيم ١٤:٩.

الحج ٢٢:٤٢.

الفرقان ٢٥:٣٨.

العنكبوت ٢٩:٣٨.

ص ٣٨:١٢.

غافر ٤٠:٣١.

فصلت ٤١:١٣-١٦.

ق ٥٠:١٣.

الذاريات ٥١:٤١-٤٢.

النجم ٥٣:٥٠.

القمر ٥٤:١٨-٢٢.

الحاقة ٦٩:٦-٨.

الفجر ٨٩:٦-٨.

الأعراف ٧:٧٤، في خطاب صالح لثمود، والحاقة ٦٩:٤ تمهيد لعذاب عاد.

أما المؤمنون ٢٣:٣١-٤١ فتذكر قرنًا بعد قوم نوح ورسولًا منهم، وقد اختلف المفسرون في تعيينهم؛ فبعضهم حملها على عاد وهود، وبعضهم على ثمود وصالح. لذلك لا نجعل هذه الآيات نصًا صريحًا في هود.

استكمال الفهرس القرآني وروابط الشخصيات

يضاف إلى المواضع السابقة الأعراف ٧:٧٤، حيث يذكّر صالح ثمود بأنهم خلفاء من بعد عاد؛ وهود ١١:٨٩، حيث يحذر شعيب قومه مما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، ويذكر قرب قوم لوط. وهذان الموضعان يربطان قصة هود بما قبلها وما بعدها، ولا يجوز إسقاطهما من الفهرس.

ورد اسم هود النبي في سبعة مواضع: الأعراف:٦٥؛ هود:٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩؛ الشعراء:١٢٤. وهذا عدّ للاسم الصريح، لا لجميع آيات عاد. أما عنوان سورة هود فلا يعد آية إضافية. ويُقرأ سياق الأحقاف:٢٧-٢٨ والفجر:٩-١٤ لفهم اتساع الموعظة، مع عدم نسب جميع القرى المذكورة فيه إلى عاد.

من الشخصيات القرآنية المتصلة بهذه الإحالات نوح وصالح وشعيب ولوط، ويَرِد موسى في سياق التذكير بالأمم في إبراهيم:٥-٩، ومؤمن آل فرعون غير المسمى في غافر:٢٨-٣١. وفرعون وثمود وقوم

لوط وأصحاب الرس وتبّع وغيرهم أمثلة مقارنة في السور الجامعة، لا أشخاص أو جماعات أثبت النص أنهم عاشوا مع هود. والخطاب في ﴿واذكر أخا عاد﴾ موجّه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله.
لا يسمّي القرآن امرأة بعينها في قصة هود، ولا أمّه أو زوجته أو بناته، ولا فردًا من أتباعه أو خصومه. يذكر المؤمنين معه، والملأ الكافرين، والآباء، والبنين، والجبارين بصفتهم؛ فلا نحول هذه الجماعات إلى أسماء متخيلة.

هود في سورة الأعراف — الأخ الناصح الأمين

قال تعالى:
﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.
تبدأ القصة في الأعراف بإعلان جوهر الرسالة:
عبادة الله وحده.
ترك الشرك.
التقوى.
ووصف القرآن هودًا بأنه «أخوهم». المقصود هنا أخوة القوم والنسب والانتماء الاجتماعي، لا أنه كان موافقًا لهم في العقيدة. وهذا مهم؛ لأن الرسول لم يأتهم من مجتمع غريب عنهم، بل كان رجلًا يعرفونه ويعرفهم.
اتهمه الملأ بالسفاهة والكذب، فأجاب:
﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.
هذه الآيات ترسم شخصيته الرسالية:
رسول من رب العالمين.
مبلّغ.
ناصح.
أمين.
ثم ذكّرهم بأنهم خلفاء بعد قوم نوح، وأن الله زادهم في الخلق بسطة. لكنهم اختاروا التمسك بعبادة الآباء، فحاجهم هود في أسماء أطلقوها هم وآباؤهم على آلهتهم بلا سلطان من الله.

هود في سورة هود — الاستغفار والقوة والتوكل

في سورة هود يظهر جانب آخر شديد الأهمية من دعوته.
قال:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

ثم قال:

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

فالرسالة ليست تجارة، ولا مصدر نفوذ، ولا طلبًا لمقابل من الناس.

ثم ربط بين الاستغفار والتوبة وبين المطر وزيادة القوة:

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

هنا تظهر علاقة أخلاقية وروحية بالنعمة:

ليس المطلوب فقط طلب المطر، بل العودة إلى الله.

ولا تعني الآية أن كل قحط في كل زمان سببه ذنب معين يمكننا تحديده؛ بل هي خطاب خاص لقوم هود في سياق الوحي إليهم.

التوكل والعدل والاستبدال في خطاب هود

يكمل قوله تعالى ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ معنى التحدي السابق (هود:٥٦). فالمخلوقات في سلطان الله، وليس توكل النبي ادعاء قوة مستقلة؛ ويصل وصف الصراط المستقيم بين القدرة والعدل في فهم المفسرين.

وفي هود:٥٧ يعلن أنه بلّغ ما أرسل به، ويحذر من استخلاف قوم آخرين، وأن إعراضهم لا يضر الله. ثم ينص هود:٦٠ على اتباع عاد بلعنة في الدنيا ويوم القيامة. فلا تختزل عاقبة القصة في انهيار دنيوي وحده، ولا تُجعل القوة المادية دليلًا على الاستغناء عن الله.

«ما جئتنا ببينة» — هل يذكر القرآن معجزة مخصوصة لهود؟

قال قومه:

﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

القرآن لا يذكر لهود آية حسية مستقلة مثل ناقة صالح أو عصا موسى.

لكن هود واجه قومًا بالغين في القوة فقال لهم:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

وقد رأى عدد من المفسرين في هذا التحدي وثقته الكاملة بالله علامة من علامات تأييده؛ رجل واحد يواجه مجتمعًا جبارًا وآلهتهم المزعومة ويطلب منهم أن يجمعوا كيدهم من غير أن يمهلوه.

لكن من الأمانة ألا نقول إن القرآن سمّى هذا «المعجزة الخاصة بهود». القرآن يعرض موقف التوكل والتحدي، أما توصيفه كمعجزة مخصوصة فهو تفسير.

هود في سورة الشعراء — نقد الاستكبار والعمران العبثي

في سورة الشعراء يواجه هود المجتمع من زاوية أخرى:
﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.
ليس النقد هنا للعمران من حيث هو عمران، ولا للقوة من حيث هي قوة.
النقد موجه إلى:
البناء العبثي المتفاخر.
وهم الخلود.
تحويل القوة إلى بطش.
تحول السلطة إلى تجبر.
ثم يذكّرهم بنعم الله:
الأنعام.
البنون.
الجنات.
العيون.
وهكذا يصبح الصراع مع هود صراعًا حول معنى القوة:
هم رأوا القوة دليلًا على الاستغناء.
وهو أرادهم أن يروا فيها نعمة وأمانة ومسؤولية.

جواب عاد وإبطال الانتفاع بالنعمة

لم يكتفوا برد الناصح، بل قالوا إن وعظه وعدمه سواء، واحتجوا بخلق الأولين ونفوا عن أنفسهم العذاب (الشعراء:١٣٦-١٣٨). وتحتمل عبارة «خلق الأولين» في التفسير عادة السابقين أو ما نسبوه إلى أخبارهم؛ لا نثبت بها أسماء أصنام أو أشخاص لا يسميهم النص. ويؤكد ختام المقطع أن أكثرهم لم يكونوا مؤمنين، مع وصف الله بالعزيز الرحيم (١٣٩-١٤٠).
وتوضح الأحقاف:٢٦ أنهم أوتوا السمع والأبصار والأفئدة، لكن هذه الوسائل لم تغن عنهم مع جحود الآيات. ليست المشكلة نقص أدوات المعرفة وحده، بل تعطيل الانتفاع بها. ويذكّر الأعراف:٦٩ بأن مجيء الذكر على رجل منهم ليس سببًا صحيحًا للعجب والرفض.

من هم عاد؟

القرآن يجعل عادًا قوم هود بوضوح.

ويذكر أنهم جاءوا بعد قوم نوح:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

كما يصفهم بالقوة والبسطة:

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾.

وقال عنهم:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

ويذكر عن حضارتهم بناءً مرتفعًا ومصانع وموارد طبيعية واسعة.

لكن القرآن لا يعطينا رقمًا لطول أجسادهم.

ولا يقول إن أقصرهم كان ستين ذراعًا أو أطولهم مائة وعشرين ذراعًا.

هذه الأرقام توجد في أخبار تفسيرية وتاريخية مختلفة، وبعضها شديد المبالغة.

والصياغة الصحيحة هي:

القرآن يثبت أنهم كانوا ذوي قوة وبسطة في الخلق، أما المقادير العددية لأطوالهم فليست قرآنية.

«من أشد منا قوة» — حين تحولت النعمة إلى معيار للحق

قال تعالى:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

ثم جاء الرد:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

المشكلة لم تكن أن قوم عاد أقوياء.

المشكلة أنهم جعلوا القوة حجة ضد الحق.

كأنهم يقولون:

نحن أقوياء، إذن لا يمكن أن يأتي علينا عذاب.

نحن متقدمون، إذن لا حاجة لنا بهداية نبي.

نحن نملك العمران والقوة، إذن عقيدتنا لا بد أن تكون صحيحة.

وهذا من أهم دروس قصة هود:

القدرة المادية لا تتحول إلى معيار للحقيقة.

الأحقاف — أين عاش قوم هود؟

قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾.

الأحقاف جمع حقف، وهو الرمل المعوج أو الكثيب الرملي.

القرآن يثبت إذن أن إنذار «أخا عاد» ارتبط بالأحقاف.

لكنه لا يعطينا إحداثيات حديثة، ولا يسمي دولة معاصرة.

في تفسير القمي ورد تحديد روائي لمواضع الأحقاف، وربطها بمناطق كانت تعد من بلاد عاد. وفي كتب التفسير والتاريخ شاع القول بأنها في جنوب الجزيرة العربية، في نطاق بين عُمان وحضرموت أو ما يقارب ذلك.

لكن هذه التحديدات خارج النص القرآني.

لذلك نقول:

الموضع القرآني هو «الأحقاف».

أما المطابقة الدقيقة على خريطة اليوم فهي مسألة تفسيرية وتاريخية وجغرافية.

إرم ذات العماد — قوم أم نسب أم مدينة؟

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

هذه الآيات من أكثر المواضع التي تراكمت حولها القصص.

اختلف المفسرون:

هل «إرم» اسم لعاد أو لقب لهم؟

هل هو اسم لجد أو قبيلة؟

هل هو موضع أو مدينة؟

وهل «ذات العماد» وصف للقوة والطول والخيام، أم للأبنية ذات الأعمدة؟

العلامة الطباطبائي رجح من ظاهر الآيات صورة مدينة أو عمران عظيم، لكنه أكد أن أخبار القوم وآثارهم انقطعت ولا يوجد تفصيل يمكن الاطمئنان إليه خارج ما قصه القرآن.

أما القصص المشهورة عن شداد بن عاد وبناء مدينة من الذهب والفضة والياقوت، ثم العثور عليها في زمن معاوية، فقد جمعها المجلسي في باب مستقل بعد قصة هود. وهي في معظم بنيتها من الأخبار التاريخية والقصصية، وبعضها يمر بكعب الأحبار ونحوه.

ولذلك لا نجعل «مدينة إرم المفقودة» جزءًا ثابتًا من قصة هود.

نثبت ما قال القرآن:

عاد.

إرم ذات العماد.

قوة وعمران لا نظير لهما في سياقهما.

ثم نعرض الاختلاف التفسيري من غير تحويل الأسطورة إلى تاريخ قطعي.

عاد الأولى

قال تعالى:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾.

وصف «الأولى» أدى إلى نقاش طويل في كتب التفسير حول «عاد الأولى» و«عاد الأخرى».

الغالب في التفسير أن عاد قوم هود هم عاد الأولى.

أما تحديد «عاد الثانية» أو «الأخرى» فليس قرآنًا صريحًا، وظهرت فيه أقوال مختلفة.

لذلك لا نبني فصل هود على تقسيمات نسبية متأخرة.

يكفينا أن القرآن يصف قوم هود بأنهم عاد، وأنه يشير إلى «عاد الأولى».

نسب هود عليه السلام — ما نعرفه وما لا نعرفه

القرآن لا يقدم سلسلة نسب لهود.

يقول فقط إنه «أخو عاد».

في كتب التفسير والأنساب توجد صيغ مختلفة.

ومن أشهرها:

هود بن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح.

وتوجد سلاسل أخرى أطول تربطه بعاد.

ونقل الطبرسي والمجلسي هذه الأقوال في سياق التفسير، لا بوصفها نصًا قرآنيًا.

أما الروايات الإمامية الأهم لمشروعنا فلا تحتاج إلى إثبات سلسلة آباء طويلة كي تثبت موقعه في الهداية؛ فهي تجعله معروفًا في وصية نوح، وتربطه بعقب سام، وتقول إن المؤمنين من ذرية سام عرفوه واتبعوه.

إذن:

نسبه التفصيلي غير ثابت بالقرآن.

ارتباطه بقوم عاد ثابت.

وارتباط ظهوره بخط سام موجود في الروايات الإمامية.

أسرة هود: الأب والأم والزوجة والابن وحدود الأنساب

في إثبات الوصية، ص٣٦-٣٨، يُجعل شالح بين أرنخشد وهود، ويستودع ابنه هودًا الأسماء والحكمة والنبوة؛ ثم يذكر الكتاب انتقال الأمر والنور والحكمة من هود إلى ابنه فالغ، ومن فالغ إلى يروغ. هذا نص في الميراث لا مجرد نسب، لكن نسبة الكتاب إلى المسعودي محل بحث، ولا يثبت إسناده وتفصيله بمجرد العنوان [م٦].

ويحفظ الدر النظيم، ص٦٨، صيغة أخرى في خبر انتقال النور: امرأة من بنات الملوك، لم يسمها المقطع، تلد أرنخشد لسام؛ ثم يتزوج أرنخشد مرجانة فتلد غابر الذي يعرّفه النص بأنه هود. ويعقب ذلك قوله إنه تزوج امرأة اسمها ميشاخا فولدت فالغ. نثبت مرجانة وميشاخا كما وردتا في هذا الخبر، ولا نقدمهما اسمين ثابتين بالقرآن أو بسند محقق هنا [م٧].

وهذه الصيغة تجعل غابر/هود ابن أرنخشد مباشرة، وتضع شالح بعد فالغ، بخلاف الصيغة التي تجعل شالح أبا هود. فلا تجمع الأنساب في سلسلة واحدة، ولا تساوى ميشاخا تلقائيًا بزوجة هود غير المسماة في تفسير القمي. ولا يقدم هذان المقطعان قائمة كاملة بأولاده أو أسماء بناته أو تاريخ مولده.

وفي النسب الآخر المنقول في قصص الأنبياء وبحار الأنوار تظهر أسماء عبد الله ورباح أو رياح وجلوث أو جلوث، ثم عاد وعوص وإرم وسام ونوح، وتختلف بعض الألفاظ بين النسخ. هذه أسماء في قول نسبي، وليست شخصيات ثبت لكل منها دور مستقل في بعثة هود. كما أن مساواة هود بعابر أو غابر قول منقول، لا تسمية قرآنية ثانية له [م٥، م٩].

ظهور هود في رواية كمال الدين

من أهم النصوص الإمامية الخاصة بهود رواية الشيخ الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة.

تقول الرواية إن نوحًا عند وفاته أخبر أتباعه أن بعده غيبة تظهر فيها الطواغيت، وأن الفرج سيكون على يد قائم من ولده اسمه هود.

وتصف هودًا بسمت وسكينة ووقار، وتقول إنه يشبه نوحًا في خَلْقه وخُلُقه.

ثم تصف طول انتظار الناس له، وقسوة قلوب كثير منهم مع مرور الزمن، قبل أن يظهر الله هودًا عند اشتداد البلاء، ثم يهلك أعداءه بالريح العقيم.

هذه الرواية لا تُعامل كآية قرآنية.

لكنها شديدة الأهمية في بناء فكرة استمرار الحجة في التراث الإمامي:

نوح يبشر بهود.

الوصية تحفظ اسمه.

المنتظرون يمتحنون بطول الزمن.

ثم يظهر النبي الذي وُعدوا به.

رواية روضة الكافي — كيف عُرف هود؟

في روضة الكافي ورد أن نوحًا دفع إلى سام الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة، وبشّرهم بهود وأمرهم باتباعه، وأن هذه الوصية كانت تُفتح وتُراجع دوريًا.

ثم تقول الرواية إن من بقي على خط العلم والإيمان من ذرية سام وجدوا هودًا نبيًا، فآمنوا به واتبعوه وصدقوه، فنجوا من عذاب الريح.

وهذا النص يربط بين ثلاثة فصول من كتابنا:

نوح.

سام وحملة العهد.

هود.

فالنبي الجديد لا يظهر في رواية بلا ذاكرة.

هناك عهد سابق يهيئ الناس للتعرف عليه.

هل كان هود «قائمًا» في الرواية؟

تستخدم رواية كمال الدين تعبيرًا قريبًا من «القائم من ولدي» في بشارة نوح بهود.

لا ينبغي أن نحمّل اللفظ أكثر مما يحتمل في سياقه.

المقصود هنا القائم بأمر الله في ذلك العصر، أي النبي الذي سيظهر بعد زمن انتظار وبلاء.

ولا يعني ذلك الخلط بين هود وبين الإمام المهدي عجل الله فرجه.

الصدوق يورد هذه القصص ليبين وجود سنن للغيبة والانتظار والفرج في تاريخ الأنبياء، ثم يستدل بها على إمكان الغيبة في عقيدته بالإمام المهدي.

هود واللسان العربي

نقل الطبرسي في سياق تفسير قصة هود أن هودًا وصالحًا وشعيبًا وإسماعيل ونبينا محمدًا صلى الله عليه وآله تكلموا بالعربية.

هذه المعلومة ليست نصًا قرآنيًا.

هذه عبارة ينقلها المجلسي ضمن كلام الطبرسي التفسيري؛ لا يظهر لها في ذلك الموضع سند مستقل، فلا نرفعها إلى درجة النص القرآني أو الحديث الصحيح بمجرد ورودها هناك [م٩].

لذلك يمكن القول:

ورد في بعض المصادر التفسيرية الإمامية أن هودًا كان ممن تكلموا بالعربية.

ولا نجعل ذلك من أركان قصته التي يثبتها القرآن.

دين قوم عاد — عبادة أسماء بلا سلطان

قال هود لقومه:

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

هذه الآية تكشف أن جزءًا من مشكلة الشرك هو منح الأسماء والرموز سلطة دينية لم يمنحها الله.

القرآن لا يسمّي أصنام عاد بأسمائها.

وأي قائمة لأسماء آلهتهم تأتي من كتب الأخبار والتاريخ ولا ينبغي مساواتها بالنص القرآني.

والأهم أن هود لم يناقش مجرد حجارة.

كان يناقش نظامًا من التقديس الموروث:

«ما كان يعبد آباؤنا».

اتهامات قوم هود

جمع القرآن عددًا من ردودهم:

«إنا لنراك في سفاهة».

«إنا لنظنك من الكاذبين».

«ما جئتنا ببينة».

«ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك».

«ما نحن لك بمؤمنين».

«إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء».

«أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا؟».

«فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين».

هذه الاعتراضات تكشف مراحل الرفض:

الطعن في عقل النبي.

الطعن في صدقه.

رفض تغيير الموروث.

نسبة ما يصيبه إلى غضب الآلهة.

ثم تحدي النبي أن يأتي بالعذاب.

الملأ والجبارون — البنية الاجتماعية للرفض

تصف الأعراف «الملأ الذين كفروا من قومه».

وتقول سورة هود إنهم:

﴿اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

إذن الرفض لم يكن فرديًا فقط.

كان هناك ملأ وقيادات وجبابرة.

وهنا تلتقي العقيدة بالسلطة:

التوحيد يهدم قداسة الأصنام.

لكنه كذلك يهدم ادعاء الجبار أنه فوق المساءلة.

الاستغفار والمطر — هل سبق العذاب قحط؟

القرآن نفسه يجعل هودًا يقول:

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

هذا يوحي بقوة بأن المطر كان قضية حاضرة في خطابهم.

وفي تفسير القمي ورد أن بلادهم كانت خصبة كثيرة الخير، ثم حُبس عنهم المطر سبع سنين حتى أجدبوا.

وفي مصادر تفسيرية أخرى وردت مدد مختلفة، منها ثلاث سنين.

إذن:

القحط قبل العذاب له أصل في بعض الروايات والتفسير.

أما مدة سبع سنوات فليست نصًا قرآنيًا، وتوجد فيها روايات وأقوال مختلفة.

زوجة هود والزائرون وطلب المطر في تفسير القمي

يروي تفسير القمي عند هود:٥٠-٥٢ أن هودًا كان زراعًا، وأن قومًا من بلاد أجدبت قصدوا منزله يطلبون دعاءه. فخرجت امرأة وصفها الخبر بالشَّمَط والعَوَر، وسألت عنهم، ثم قالت إن هودًا لو استجيب له لدعا لزرعه الذي أضر به قلة الماء، وأرشدتهم إلى مكانه. والشمط اختلاط بياض الشعر بسواده، والعور وصف لإحدى العينين [م٤].

يواصل الخبر أنهم وجدوا هودًا، فصلى ودعا لهم، وأخبرهم أن بلادهم أمطرت وأخصبت. وعندما نقلوا كلام المرأة إليه قال إنها زوجته، وإنه يدعو لها بطول البقاء؛ وعلّل ذلك بما يلقاه المؤمن من أذى عدو، وأن وجود المؤذي في نطاق قدرته أهون من تسلط عدو عليه. هكذا يصور النص صبره على أذى قريب، دون أن يسميها أو يذكر أولادًا لها أو يروي وفاتها.

الفقرة تفسيرية تبدأ بصيغة «قال»، ولا يظهر لها سند مستقل إلى إمام في موضعها؛ وبعدها يأتي سند آخر لخبر الريح عن الإمام الباقر، فلا ينقل هذا السند إلى قصة الزوجة. كذلك لا يحمل الأذى المذكور معنى الخيانة الزوجية، ولا يجعل الخبر أصلًا لتعميم حكم على النساء أو العلاقات الزوجية.

الزائرون غير مسمين، ولا يقول هذا الموضع إنهم قيل بن عنز ووفده؛ وقصتهم في زيارة هود وطلب دعائه مستقلة عن قصة الوفد الذي ذهب إلى مكة. كما لا يثبت بها اسم زوجة هود في خبر الدر النظيم، ولا اتحاد الشخصيتين [م٤، م٧، م٩].

السحاب الذي ظنوه مطرًا

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾.

بعد انتظار المطر رأوا عارضًا في السماء متجهًا إلى أوديتهم.

فظنوه بشارة.

لكن الجواب جاء:

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

المشهد شديد الدلالة:

الشيء الذي استقبلوه باعتباره خلاصًا ماديًا صار بداية انهيار المجتمع الذي رفض التوبة.

أوصاف الريح في القرآن

جمع القرآن أوصافًا متعددة للعذاب:

«ريح صرصر».

«ريح صرصر عاتية».

«الريح العقيم».

«في أيام نحسات».

«في يوم نحس مستمر».

«سبع ليال وثمانية أيام حسومًا».

وقال:

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

وقال:

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وقال:

﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

القرآن إذن لا يصف مجرد عاصفة.

إنه يصور عذابًا مستمرًا ومنظمًا أسقط مجتمعًا كان يفاخر بقوته.

«يوم نحس» و«سبع ليال وثمانية أيام» — هل بينهما تعارض؟

لا.

في سورة القمر:

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾.

وفي فصلت:

﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾.

وفي الحاقة:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

يمكن أن يكون «اليوم» إشارة إلى يوم بدء العذاب أو إلى زمن الحدث، بينما النصوص الأخرى تبين مدة استمراره.

والقرآن نفسه يفسر القرآن هنا:

الحدث بدأ في يوم نحس واستمر أيامًا حتى بلغ سبع ليال وثمانية أيام.

لا حاجة إلى جعل الآيات متعارضة.

الريح العقيم في رواية الإمام الباقر عليه السلام

في تفسير القمي، بسند يمر بابن أبي عمير وعبد الله بن سنان ومعروف بن خربوذ عن الإمام الباقر عليه السلام، ورد وصف روائي للريح العقيم.

تقول الرواية بمعناها إن لهذه الريح موضعًا محفوظًا، وإن الذي أُرسل على عاد كان قدرًا محدودًا بأمر الله، وإن جبريل ردها إلى المقدار المأمور به حتى لا تتجاوز الحد.

هذه الرواية تعطي للعذاب صورة كونية شديدة.

لكن تفاصيل «موضع الريح» ومقادير خروجها ليست قرآنية، بل من متن الرواية.

المعنى الذي ينسجم مع القرآن:

أن العذاب لم يكن قوة خارجة عن سلطان الله.

بل كان بأمره وتقديره.

ملائكة الريح ومقارنة قوم يونس

ليس خبر الريح محصورًا بتفسير القمي؛ ففي الكافي، ج٨، ح٦٤، يرويه معروف بن خربوذ عن الإمام الباقر من طريق عبد الله بن سنان وابن محبوب. يفتتح بالتمييز بين رياح الرحمة ورياح العذاب، ويقارن بحال قوم يونس الذين صرف عنهم العذاب لما آمنوا وتضرعوا. ثم يذكر خزنة الريح وتدخل جبرئيل لضبط خروجها. فهؤلاء ملائكة غير مسمين سوى جبرئيل، ولا يدخلون في عد الرجال البشر [م٣].

وترد في المصادر المجموعة أخبار أخرى عن المَلَك الموكل بكل ريح، وعن كون خروج الريح بمقدار، وعن نصرة النبي بالصبا وإهلاك عاد بالدبور. جمعها المجلسي في أخبار الباب ٥ و٦ و٢٦ نقلًا عن الفقيه والكافي ونوادر الراوندي. تختلف التعابير عن المقدار، فلا تجمع صورة الخاتم وخرق الإبرة في قياس مادي واحد، ولا تتخذ صور الخبر بديلًا عن بيان الظواهر الجوية [م٩].

الريح الصرصر — باردة أم شديدة الصوت؟

فسرت المصادر «الصرصر» بعدة معان:

الباردة الشديدة.

والشديدة الصوت.

وقد يجتمع المعنيان في وصف ريح قاسية مؤذية.

تفسير القمي يفسرها بالبرد.

ولا حاجة إلى تحويل معنى لغوي واحد إلى عقيدة.

المقصود القرآني الواضح أنها كانت ريح عذاب بالغة الشدة.

«تدمر كل شيء» — هل دمرت الكون كله؟

قال تعالى:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

ثم قال:

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

إذن «كل شيء» هنا يفهم في سياقه:

كل ما تعلقت به من قومهم وأموالهم وما أُمرت بتدميره.

وتفسير القمي نفسه ينبه إلى أن اللفظ عام في صورته، لكنه مقيد بالسياق، لأن المساكن بقيت مرئية.

هل نجا هود والمؤمنون؟

نعم، وهذا قرآن صريح.

قال تعالى:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

وقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أما عدد الذين آمنوا معه فلا يحدده القرآن.

بعض كتب التفسير تذكر أرقامًا مثل أربعة آلاف.

لكن لا ينبغي إدخال رقم في متن القصة وكأنه ثابت ما لم نثبت مصدره وسنده.

كيف حُفظ المؤمنون من الريح؟

في بعض المصادر التفسيرية ورد أن هودًا ومن معه اعتزلوا في موضع، وأن الريح التي أهلكت عاد كانت تصل إليهم على صورة لطيفة لا تؤذيهم.

هذه صورة تفسيرية/روائية وليست من نص القرآن.

القرآن يثبت النجاة برحمة الله، ولا يبين الوسيلة التفصيلية.

لذلك نكتفي في الأصل بقول:

أنجاهم الله برحمته.

ومن مواضع هذه التفاصيل كلام الطبرسي الذي نقله المجلسي في تفسير الأحقاف وفي تذنيب قصة الوفد، وفيه اعتزال المؤمنين في حظيرة ولطف الريح بهم. وهو نقل تفسيري، لا آية ولا سند مستقل عن إمام في ذلك الموضع [م٩].

رواية أن ذرية سام آمنت بهود

في كمال الدين يرد عن الإمام الصادق عليه السلام:

أن هودًا لما بُعث آمن به «العقب من ولد سام»، وأن آخرين واجهوه بمنطق:

«من أشد منا قوة؟»

ثم تقول الرواية إن الله أهلك المكذبين بالريح العقيم.

هذه الرواية تربط نجاة المؤمنين بسلسلة العهد التي بدأت من سام.

وهي مهمة جدًا لترابط فصول الكتاب:

سام ليس مجرد جد نسبي.

خطه يحمل وصية.

والذين ثبتوا على ذلك الخط عرفوا هودًا عند ظهوره.

الخلجان: رئيس مسمى في خبر منسوب إلى الإمام الصادق

يروي الراوندي في الحديث ٨٤، ص٩٤-٩٥، عن أيوب بن راشد «عمن ذكره» عن الإمام الصادق خبرًا يذكر أعمارًا قدرها أربعمائة سنة وقحطًا ثلاث سنوات، ثم وفدًا إلى جبال مكة واختيار إحدى ثلاث سحابات. هذان العددان من هذا الخبر، لا من القرآن، وفي سنده واسطة غير مسماة فلا يعرض كسند متصل محقق [م٥].

يسمي الخبر رئيس القوم «الخلجان». وعند هبوب الريح يسأل هودًا عن خلق يراهم معها يحملون أعمدة، فيجيبه أنهم الملائكة. ثم يسأل: هل يمكّنه الله منهم إذا آمن؟ فيجيبه هود بأن الله لا يجعل أهل المعصية ظافرين بأهل الطاعة. وحين يسأل عن رجاله الهالكين يخبره أن الله يبدله خيرًا منهم، لكنه يختار اللحاق بقومه. فمركز الخبر توبة مشروطة بطلب الانتقام، لا مجرد فقد رجال أقوياء.

الاسم ليس قرآنيًا. ولا يجوز ضم تفاصيل الخلجان في الأخبار التاريخية الأخرى إلى هذه الرواية دون بيان اختلاف الطريق والمتن، أو الجزم بأن كل من سمي ملكًا أو رئيسًا لعاد هو الشخص نفسه.

رواية طويلة في قصص الأنبياء — ماذا نأخذ منها؟

يروي الراوندي في قصص الأنبياء، الحديث ٨٧، خبرًا طويلًا ينتهي إلى وهب بن منبه، ونقله المجلسي في بحار الأنوار، ج١١، باب هود، الحديث ٢١؛ وليس هذا الطريق حديثًا منتهيًا إلى إمام [م٥، م٩].

وفيها تفاصيل واسعة:

أن هودًا أوحي إليه في سن الأربعين.

وأن قومه آذوه.

وأن دعوتَه طالت قرونًا.

وأن أجسام عاد كانت هائلة المقادير.

وأن الأحقاف خاطبت هودًا.

وغير ذلك من التفاصيل.

هذه المادة لا ينبغي أن تُهمل تمامًا لأنها جزء من التراث الذي جمعه علماؤنا.

لكنها أيضًا لا تُعامل كالروايات الأقوى ولا كالقرآن.

وجود وهب بن منبه والمبالغات العددية والتفاصيل القصصية يفرض حذرًا شديدًا.

لذلك نضع هذه الأخبار في طبقة:

«مرويات قصصية تحتاج إلى تحقيق ولا يُبنى عليها أصل القصة».

تفاصيل خبر وهب وأوصاف هود

يسمي خبر وهب المطول جبرئيل الذي يطمئن هودًا بعد أذى قومه ويأمره بمواصلة الدعوة. ويذكر سبعمائة وستين سنة للدعوة، ومقادير استثنائية للأجسام، وخطاب الأحقاف، ثم اجتماع الوحوش والسباع والطير خوفًا من الهلاك مع العصاة. وفي ختامه جواب بأن من لم يعص لا يهلك بذنب العاصي. تُحفظ هذه التفاصيل بوصفها مضمون ح٨٧ عن وهب، لا حديثًا عن الإمام ولا تفسيرًا ملزمًا لكل حادثة طبيعية [م٥].

وفي ح٨١–٨٢ من الباب نفسه أخبار تنتهي إلى وهب عن شبه هود بآدم مع استثناء يوسف في وصف الحسن، وعن عمله بالتجارة، وعن انتقاله والمؤمنين إلى مكة بعد الهلاك، وعن حج هود وصالح وإبراهيم وموسى وشعيب ويونس. لا تساوي هذه الأخبار رواية كمال الدين التي تشبّهه بنوح في السمت والسكينة والوقار؛ فكل تشبيه مرتبط بمتنه ومصدره. كما لا تكفي أوصاف الزراعة والتجارة لتركيب سيرة مهنية مؤرخة [م٢، م٥].

كم عاش هود؟ وكم دامت دعوته؟

لا يذكر القرآن عمر هود، ولا سنه عند البعثة، ولا مدة دعوته.

الأرقام التي تظهر في كتب القصص — مثل بعثته في الأربعين أو دعوته مئات السنين — تأتي من روايات تاريخية وقصصية مختلفة.

لم يثبت في هذه المراجعة سند معتبر لرقم واحد يمكن عرضه بوصفه عمراً مقطوعًا به لهود؛ وهذا تحفظ على الاستدلال بالأخبار المعروضة، لا ادعاء فحص جميع طرق التراث.

ولهذا تظل الصياغة:

لا نعرف من القرآن مدة عمر هود ولا مدة دعوته.

وما ورد من أرقام يُذكر منسوبًا إلى مصدره عند الحاجة.

الأربعاء وعذاب عاد

توجد في بعض الروايات المروية في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا والخصال، في سياق أسئلة عن الأيام، إشارة إلى أن الريح أُرسلت على عاد في يوم الأربعاء.

مثل هذه الروايات لا تغير جوهر القصة، ولا ينبغي بناء تشاؤم مطلق من يوم الأربعاء عليها؛ لأن الأحكام العقدية والعملية لا تؤخذ من خبر منفرد بهذه الطريقة.

لكن من باب استيفاء ما روي:

جمع المجلسي هذه الأخبار في باب هود، الأحاديث ٢٢–٢٥: منها سؤال رجل شامي غير مسمى لأمير المؤمنين، ومنها ما ينسب إلى الإمام الرضا، ومنها ما يروى عن الإمام الصادق عن آبائه. تبقى الأسانيد المختلفة مستقلة، ولا يثبت بها تقويم تاريخي قطعي للواقعة [م٩].

الرمل والغبار وبقايا عاد في بعض الروايات

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في رواية نقلها قصص الأنبياء أن بعض ما تحمله الرياح من أنواع من السافي نُسب إلى بقايا قوم عاد.

هذه رواية غيبية غير قرآنية.

لا نملك أن نحولها إلى تفسير علمي للغبار أو الرمال.

وإنما نذكرها بوصفها خبرًا روائيًا ورد في المصادر.

«أخا عاد» في سورة الأحقاف

قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾.

الآية لا تذكر اسم هود في هذا الموضع.

لكن المفسرين اتفقوا في أصل القصة على أن «أخا عاد» هو هود.

والتعبير يعيد تأكيد أنه واحد منهم في الانتماء البشري والقومي.

ثم يقول هود:

﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾.

هذه الجملة مهمة جدًا:

النبي لا يدعي أنه يملك توقيت العذاب من نفسه.

العلم عند الله.

وظيفته التبليغ.

«كذبت عاد المرسلين» — لماذا بصيغة الجمع؟

قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

مع أن الذي واجههم في القصة هو هود، جاء التعبير «المرسلين» بالجمع.

يفهم المفسرون ذلك بأن تكذيب رسول الله في أصل رسالته تكذيب لخط الرسالة الإلهية كله، لأن أصل دعوة الأنبياء واحد.

وهذا لا يعني أن القرآن يذكر عدة رسل معروفين بعثوا إلى عاد في اللحظة نفسها.

بل يبين وحدة الرسالة.

هل كان قوم هود ينكرون البعث؟

في المواضع الصريحة التي تسمي هودًا، يركز القرآن على الشرك والاستكبار والقوة ورفض التوبة.

أما المؤمنون ٢٣:٣١-٤١ فتتحدث عن قوم ينكرون البعث ويقولون:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

لكن لأن تعيين هؤلاء بقوم هود مختلف فيه، لا نضيف إنكار البعث إلى عقيدة عاد بصيغة القطع اعتمادًا على هذه الآيات وحدها.

يمكن أن نقول:

ورد في بعض التفاسير حمل هذا المقطع على قوم هود، لكنه غير صريح في الاسم.

الآخرة في الآيات المحكمة وحدود المقارنة

لا يعتمد إثبات حضور الآخرة في قصة عاد على تعيين القوم في المؤمنون:٣١-٤١ وحده؛ فالحاقة:٤ تنص على تكذيب ثمود وعاد بالقارعة، وهود:٦٠ يذكر يوم القيامة، وفصلت:١٦ يصرح بأن عذاب الآخرة أخزى. لذلك تبقى مناقشة المؤمنون مقارنة تفسيرية، مع ثبوت هذا المحور في آيات تسمي عادًا صراحة.

«مساكنهم» — هل بقي أثر حضارتهم؟

قال القرآن بعد العذاب:

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

هذا يدل على أن المساكن كانت باقية عند انتهاء العذاب في سياق القصة.

لكن الآية لا تعدنا بأن هذه المساكن ستبقى مرئية إلى عصرنا الحديث.

ولا يمكن استخدام أي موقع أثري اليوم بوصفه «مدينة عاد» يقينًا بمجرد التشابه.

الآثار تحتاج إلى علم آثار مستقل.

والقرآن لا يحتاج إلى اختراع اكتشاف أثري لإثبات صدقه.

مساكن عاد في تفسير القمي

يروي تفسير القمي، عند الأحقاف:٢١، عن أبي المؤلف خبر بئر بدأ حفرها بأمر المعتصم في موضع سماه النص البطاينة، ثم تابع المتوكل حفرها. وعندما كُسرت صخرة خرجت ريح باردة فمات من قربها من العمال. فسأل المتوكل الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام، الذي يسميه الخبر أيضًا «ابن الرضا»، فنُسب المكان إلى بلاد عاد. المقصود هنا الهادي، لا الإمام علي بن موسى الرضا [م٤، م٩].

هذا خبر روائي جغرافي مثير للاهتمام.

لكن لا يجوز أن نحوله إلى مسح أثري حديث.

هو شاهد على وجود تقليد إمامي يربط مناطق معينة بالأحقاف وعاد.

خبر بئر آخر في الاحتجاج: أسماء لا تدمج بالخبر السابق

ينقل الاحتجاج خبرًا عن علي بن يقطين، أورده المجلسي في باب هود، ح١٣: أمر أبو جعفر المنصور الدوانيقي يقطين بحفر بئر بقصر العبادي، ثم أمر المهدي العباسي بمتابعة الحفر. ووجّه يقطين أخاه أبا موسى للإشراف. وبعد ظهور فجوة خرجت منها الريح أنزل رجلان غير مسميين، فقالا إنهما شاهدا رجالًا ونساءً وبيوتًا وآنية صارت حجارة، وثيابًا تتفتت عند مسها. ثم سُئل الإمام موسى بن جعفر الكاظم، فنسب الخبر المكان إلى بقية أصحاب عاد [م٩، م١٠].

علي بن يقطين ناقل الخبر، ويقطين وأبو موسى والمحفّران من شخصياته اللاحقة. وأبو جعفر هنا المنصور، والمهدي خليفة عباسي لا الإمام المهدي. وهذا غير خبر المعتصم والمتوكل والإمام الهادي، وإن اشتركا في البئر والأحقاف. والنساء والرجال الموصوفون في الجوف غير مسمين؛ ولا يكفي الخبر، الذي لا يعرض في هذا الموضع إسنادًا كاملًا، لإثبات اكتشاف أثري أو تفسير علمي للتحجر.

قوة عاد في الروايات — بين النص والمبالغة

نُقلت روايات وأخبار تصف أجساد عاد بأحجام خارقة، وأن الرجل منهم كان يقتلع من الجبل أو يحمل صخورًا عظيمة.

بعض هذه المادة ينقلها الطبرسي عن المفسرين، وبعضها ورد في الأخبار القصصية.

القرآن نفسه يغنينا عن المبالغة:

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾.

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

هذه نصوص كافية لإثبات القوة.

ولا حاجة إلى جعل كل رقم قصصي جزءًا من العقيدة.

لماذا أهلكوا؟

يمكن جمع أسباب الهلاك كما يعرضها القرآن:

الشرك:

عبدوا ما لم ينزل الله به سلطانًا.

الجحود:

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

عصيان الرسول:

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾.

اتباع الجبابرة:

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

الاستكبار:

﴿اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

الاغترار بالقوة:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

البطش:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

رفض التوبة رغم الإنذار.

فالعذاب لم يأتِ لمجتمع بريء فجأة.

سبقه إنذار، ودعوة، وتذكير بالنعم، وفتح لباب الاستغفار والتوبة.

النجاة بالرحمة

قال تعالى:

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾.

القرآن لا يقول إنهم نجوا لأنهم كانوا أقوى.

ولا لأنهم امتلكوا بناءً أكثر حصانة.

ولا لأنهم عرفوا اتجاه الريح.

نجوا «برحمة منا».

وهذا مقابل كامل لمنطق عاد:

عاد وثقت بالقوة.

هود وثق بالله.

ما بعد هلاك عاد

بعد هلاك المكذبين لا تنتهي قصة الهداية.

يقول الخبر ٤ من باب ظهور نوح في الفهرسة الإلكترونية لكمال الدين إن هودًا أوصى المؤمنين وبشرهم بصالح عليه السلام [م٢].

وفي خبر آخر في الباب نفسه، وهو الخبر ٣ في هذه الفهرسة، يرد:

«ثم وقعت الغيبة به بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام».

وهذا مهم جدًا لخريطة الكتاب.

فالفصل التاسع لا ينبغي أن يبدأ بصالح مباشرة.

بل يجب أن يبحث:

من حمل العهد بعد هود؟

من هم الذين حفظوا البشارة؟
هل وصلتنا أسماء؟
أم أن الرواية لا تعطينا إلا وجود فترة انتظار؟
نحن لا نخترع أسماء.
لكننا كذلك لا نترك الفراغ وكأنه لا توجد فيه هداية.

هل أوصى هود إلى شخص باسمه؟

خبر كمال الدين عن وصية هود وبشارته بصالح لا يسمّي شخصًا يتلقى الوصية. أما إثبات الوصية، المنسوب إلى المسعودي، فيذكر صراحة تسليم هود الأمر إلى ابنه فالغ؛ فغياب الاسم من الخبر الأول لا يعني غيابه من جميع المصادر [م٢، م٦].

وهذا فرق مهم.

نستطيع أن نقول:

هود ترك وصية وبشارة بصالح بحسب الرواية.

والصيغة الدقيقة عند ذكر الاسم هي:

«يسمي إثبات الوصية فالغ بن هود متلقيًا للعهد بعد أبيه».

أما ثبوت هذه الوصاية تاريخيًا وصحة نسبة الكتاب وأخباره فمسائل لا يحسمها مجرد وجود الاسم في النص.

ولهذا سيكون الفصل التاسع مخصصًا للتحقيق في الحلقات بين هود وصالح.

قبر هود عليه السلام — النجف أم حضرموت؟

القرآن لا يذكر قبر هود ولا مكان وفاته.

في التراث الإمامي توجد روايات تربط قبر هود بأرض النجف.

روى الشيخ الطوسي في تهذيب الأحكام خبرًا أن أمير المؤمنين عليه السلام قال عند وصيته بدفنه:

أن يُدفن في هذا الظهر في قبر «أخويه هود وصالح».

وتوجد رواية أخرى في الباب نفسه تنقل عبارة:

«ادفنوني في قبر أخي هود».

وتنسجم هذه الأخبار مع التقليد الشيعي الذي يربط هودًا وصالحًا بوادي السلام في النجف؛ ولا يكفي هذا وحده لتأريخ نشأة المقام [م٨].

وفي المصادر الإمامية نفسها أخبار أخرى تربط قبر هود بمهرة أو حضرموت، إلى جانب التقليد المحلي المشهور هناك؛ فالمقابلة ليست بين رواية إمامية وخبر غير إمامي فقط [م٥، م٩].

لا القرآن يحسم ذلك، ولا يجوز لنا أن نلغي أحد التقليدين بمجرد الشهرة.

المنهج:

نثبت أن روايات إمامية تربط قبر هود بنجف العراق.

ونذكر أن أخبارًا داخل المصادر الإمامية وأخبارًا تاريخية تربطه بمهرة أو حضرموت، مع إبقاء اختلاف المتون ظاهرًا.

ولا نحول الخلاف إلى حقيقة قرآنية.

أخبار مهرة وحضرموت ومكة: أصحاب المشاهد والرواة

في قصص الأنبياء، ح٨٥، يروي الأصبغ بن نباتة خروجًا مع أمير المؤمنين إلى النخيلة، وفيه قوم يهود يحملون ميتًا ويقولون عن قبر إنه قبر هود. يسأل الإمام الحسن عما يقولون، ثم ينسب القبر إلى يهودا بن يعقوب. ويسأل شيخًا غير مسمى من مهرة عن جبل عليه صومعة قريب من البحر، ويقول إن الموضع الذي يسميه قوم الشيخ قبر ساحر هو قبر هود. في سند النسخة المطبوعة اضطراب نبهت عليه الحاشية؛ فلا يجعل الخبر وحده حاسمًا. ويهودا اسم في الرواية، لا اسم ورد في القرآن [م٥].

وفي كنز الفوائد للكراجكي، كما نقله المجلسي في ح١٩، يحدث رجل حضرمي غير مسمى، أسلم على يد الإمام علي في أيام أبي بكر، عن زيارة مع رفاق ودليل إلى كهف في الأحقاف. يصف جسدًا وكتابة بالعبرانية تنسب صاحبها إلى هود، فيقول الإمام إنه سمع ذلك من أبي القاسم النبي صلى الله عليه وآله. يتوزع المشهد هنا بين زمن الزيارة وزمن روايتها، فلا يجعل أبو بكر أو الإمام علي من معاصري هود [م٩].

أما أخبار النجف في التهذيب فتذكر الإمام علي والإمام الحسن، ويَرِد ابن ملجم في سياق الوصية بعد الضربة في ح٦٦، ومسجد الأشعث في وصف طريق الجنازة في ح٦٧. والأخوة في «أخي هود» أو «أخوي هود وصالح» أخوة الدين، لا بنوّة لأب بشري واحد [م٨].

ويذكر إثبات الوصية موضعًا ساحليًا تحت جبل عليه صومعة، ثم قولًا بأنه خرج إلى مكة ومات بها؛ كما تنقل أخبار وهب انتقاله إلى مكة. واقترح المجلسي احتمال دفن أول ثم نقل إلى الغري للجمع بين الأخبار. هذا اقتراح من المصنف، لا رواية مستقلة تثبت النقل. لذلك نعرض اختلاف المواضع ولا نقرر رحلة جثمان أو سنة وفاة أو عمرًا نهائيًا لا يثبته الدليل [م٥، م٦، م٩].

هل عاش هود بعد العذاب؟

القرآن لا يروي تفاصيل حياته بعد نجاة المؤمنين.

هو يثبت أنه نجا ومن آمن معه.

الروايات التي تبشر بصالح تفترض استمرار دوره بعد هلاك عاد فترةً يكفي فيها لإيصاء المؤمنين وإبلاغهم بالبشارة.

أما مدة ذلك، ومكان إقامته، وموضع وفاته، فلا تثبتها الآيات.

شداد وإرم — لماذا نفصلها عن أصل قصة هود؟

جمع المجلسي بابًا مستقلًا عن شداد وإرم ذات العماد بعد باب هود.

وهذا الترتيب مفيد لنا:

القصة القرآنية لهود شيء.

والقصص التاريخية عن شداد ومدينة إرم شيء آخر.

بل إن بعض الأخبار نفسها تقول إن شداد ليس من عاد قوم هود، وإنما من عاد أخرى.

إذن لا يصح أن نضع قصة شداد في قلب دعوة هود كأن القرآن ذكرها.

يمكن أن توضع في ملحق:

«إرم وشداد في التراث القصصي».

ويُذكر فيها اختلاف المصادر دون أن تفسد بنية القصة القرآنية.

ملحق: إرم وشداد في التراث القصصي

تنقل بعض كتب الأخبار قصة ملك اسمه شداد بن عاد، بنى مدينة تحاكي وصف الجنة، وأمر أن تكون من الذهب والفضة والجواهر، ثم هلك قبل أن يدخلها.

وتأتي قصة رجل اسمه عبد الله بن قلابة قيل إنه دخل المدينة في زمن معاوية ثم أخبر الناس عنها، وأن كعب الأحبار فسّرها بأنها إرم ذات العماد.

هذه القصة طويلة ومشهورة، وجمعها المجلسي في بحار الأنوار.

لكنها ليست من القرآن.

والطريق الذي تتشكل منه القصة متأثر بأخبار القصاص وأهل الكتاب.

لذلك لا نستخدمها لإثبات موقع إرم أو تاريخها أو أنها موجودة اليوم تحت الرمال.

وفد عاد والنساء في الأخبار المقارنة

ينقل الطبرسي عن السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما خبر وفد عاد، وأورده المجلسي في تذنيب الباب. رئيس الوفد قيل بن عنز، ومضيفه معاوية بن بكر، وهو رجل من الزمن القصصي القديم لا معاوية بن

أبي سفيان. وكانت أم المضيف من عاد ولم يسمها هذا المقطع؛ ولذلك عبّر عنهم بأخواله. وتذكر بعض الصيغ بكرًا والد المضيف أيضًا [م٩، م١٢].

أقام الوفد عنده شهرًا يشربون الخمر، وكانت تغني لهم امرأتان تعرفان بالجرادتين. شق عليه تأخرهم عن طلب الغيث لقومهم، فاقترحتا أن يقول شعرًا تغنيانه لتذكيرهم بالمهمة دون مواجهتهم بالطرد. لا يعطي المقطع اسمًا شخصيًا منفردًا لكل مغنية. ثم خرج الوفد، وخالفهم رجل آمن بهود سرًا وقال إن الغيث مرتبط بطاعة النبي. يبقى الرجل غير مسمى في متن التذنيب، وتسميه صيغ مقارنة مرثد بن سعد، مع زيادة ابن عفير في بعضها [م٩، م١٢].

وتدخل شخصية لقمان بن عاد في بعض روايات الوفد وطول العمر والنسور؛ لا يثبت بذلك أنه لقمان المذكور في القرآن. وأخبار الوفد واختيار قيل السحابة تختلف عن خبر الخلجان المنسوب إلى الإمام الصادق، وعن زوار هود في تفسير القمي؛ فلا تجمع تفاصيلها في مشهد واحد [م٥، م٩، م١٢].

وتذكر رواية ابن إسحاق كما نقلها ابن كثير امرأة من عاد اسمها «مهد»، وفي نصوص أخرى «فهد»، تعرف الريح وتصف ما رأت من شهب ورجال يقودونها. وتذكر مادة وهب التي نقلها الطبرسي عجوزًا غير مسماة دخلت سربًا فلحقتها الريح في اليوم الثامن. هاتان صورتان في الطبقة القصصية المقارنة؛ لا تثبت مساواة أي منهما بزوجة هود، ولا تسميتهما في القرآن، ولا نسبتهما إلى الإمام بسبب نقلهما في مؤلف إمامي [م٩، م١٢].

وفي الرواية المقارنة التي يسوقها ابن كثير عن الحارث بن حسان، ويقال ابن يزيد البكري، يرد النبي محمد والعلاء بن الحضرمي وعجوز غير مسماة من بني تميم حملها الحارث، ثم يذكر وفد عاد مثالًا. فهذه العجوز من زمن النبي محمد، وليست امرأة نجت من ريح عاد. يثبت التفريق الزمني ولا تدخل هذه الشخصيات في جماعة هود [م١٢].

شداد وشديد: ضبط أسماء قصة إرم

في خبر إرم الذي يرويه الراوندي، ح٨٨، تظهر شخصيات عبد الله بن قلابة الذي يبحث عن إبله، ومعاوية بن أبي سفيان الذي يسأله، وكعب الأحبار الذي يسوق قصة شداد. وفي القصة القديمة شداد وأخوه شديد ابنا عاد، وترد جماعات العمال والبنائين والملوك؛ وفي إطار نقل الخبر صاحب صنعاء ورسول معاوية دون اسمين شخصيين. معاوية هنا غير معاوية بن بكر مضيف وفد عاد [م٥].

تصل سلسلة هذا الخبر إلى أبي وائل، ويأتي التفسير القصصي على لسان كعب؛ فلا يسمى حديثًا عن الإمام. كما أن بعض صيغ القصة تفرق بين عاد المذكور فيها وعاد قوم هود. لا يجوز جعل شداد وأخيه شديد ملكين ثابتين في دعوة هود بالقرآن، ولا تفسير إرم وحدها يثبت بناء مدينة تحاكي الجنة أو العثور عليها. ويَرِد سليمان في المقارنة بعظمة البناء، لا مشاركًا في إنشاء المدينة [م٥، م٩].

هود في الميزان — شخصيته المعنوية

عند جمع الآيات تظهر لنا شخصية هود بوضوح:

موحد لا يساوم.

ناصح أمين.

رسول لا يطلب أجرًا.

شجاع في مواجهة مجتمع أقوى منه ماديًا.

متوكل على الله.

لا يدعي علم الغيب من نفسه.

يفتح باب التوبة حتى آخر مراحل الإنذار.

ينتقد البطش والاستكبار والعبث.

ينجو برحمة الله لا بقوة دنيوية.

وهذه الصورة القرآنية أهم من كل التفاصيل القصصية التي اختلفت فيها المصادر.

القرآن والقوة — المحور المركزي في قصة هود

إذا كانت قصة نوح تدور بدرجة كبيرة حول طول الدعوة والطوفان، فإن قصة هود تتمحور حول اختبار القوة.

عاد:

أقوياء.

ذوو عمران.

ذوو موارد.

ذوو بطش.

لكن القرآن لا يقول إن القوة شر.

إنما يسأل:

كيف تُستخدم؟

هود لم يطالبهم أن يصبحوا ضعفاء.

قال:

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

المشكلة لم تكن القوة.

المشكلة كانت أن القوة انفصلت عن العبودية والعدل.

من القوة إلى الرميم

كان شعارهم:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

وكانت نهايتهم:

﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

وبين الجملتين تختصر القصة كلها.

قوة بلا تواضع.

عمران بلا عبودية.

بطش بلا عدل.

موروث ديني بلا برهان.

ثم جاء العذاب من شيء لا تستطيع الأجساد أن تمسكه:

الريح.

ماذا لم يقل القرآن عن هود؟

حتى لا نخلط الطبقات، القرآن لا يخبرنا صراحة عن:

اسم أبي هود.

سلسلة نسبه الكاملة.

اسم أمه.

زوجته.

أولاده.

عمره.

سن بعثته.

مدة دعوته.

عدد المؤمنين به.

أسماء أصنام عاد.

مقاييس أجساد عاد.
اسم ملك عاد.
أن شداد كان معاصرًا له.
موضع قبره.
أنه مدفون في حضرموت أو النجف.
اسم وصيه بعده.
تفاصيل حياته بعد العذاب.
هذه التفاصيل لا يجوز نسبتها إلى القرآن.

ما تحفظه المصادر الإمامية مع اختلاف الحجية

من المادة التي راجعناها نجد في المصادر الإمامية:
بشارة نوح بهود.
ارتباط خطه بذُرية سام.
انتظار المؤمنين ظهوره.
وصفه بالسمت والسكينة والوقار.
إيمان عقب من ولد سام به.
الريح العقيم في وصف روائي مفصل.
رواية عن مواضع الأحقاف.
أخبار عن قبر هود في النجف ومهرة وحضرموت، مع اختلاف المواضع.
وصية هود وبشارته بصالح.
أخبار قصصية عن عمره ودعوته وقوة قومه بدرجات أضعف.
ولا نجمعها كلها في مرتبة واحدة.

سجل الشخصيات: ما يثبت وما يبقى منقولًا

هود هو الرسول المسمى في القرآن؛ والمؤمنون معه والملأ المكذبون والآباء والبنون والجبارون جماعات قرآنية غير مفصلة الأسماء. نوح وصالح وشعيب ولوط وموسى ومؤمن آل فرعون والنبي محمد يربطون القصة بسياق الهداية والموعظة. بقية الأمم المقارنة لا تنقل إلى زمن هود.

في الأسرة والوصية: سام، أرنخشد، شالح، عابر أو غابر، فالغ، ويروغ، وامرأة سام الملكية غير المسماة، ومرجانة، وميشاخا، وزوجة هود غير المسماة في القمي. تحفظ هذه الأسماء والصفات بحسب نصوصها المختلفة؛ لا يثبت اتحاد ميشاخا بالزوجة المؤذية، ولا ينشأ منها سجل كامل لأبناء هود وبناته. ويحفظ النسب الآخر عبد الله ورباح أو رياح وجلوث أو جلوث وعاد وعوص وإرم دون اختراع سير لهم [م٤–م٧، م٩].

في الدعوة والعذاب: زوار هود غير المسمين، والخلجان، ووفد مكة، وقيل بن عنز، ومعاوية بن بكر وأبوه في بعض الصيغ، وأمه من عاد، والجرادتان، والمؤمن السري الذي يسمى مرثدًا في صيغ مقارنة، ولقمان بن عاد، ومهد أو فهد، والعجوز صاحبة السرب. جبرئيل وخزنة الريح ملائكة؛ والحيوانات الناطقة في خبر وهب جزء من صور ذلك الخبر، لا شخصيات بشرية [م٣–م٥، م٩، م١٢].

في إرم: شداد وشديد وعاد في نسبهما، ثم عبد الله بن قلابة ومعاوية بن أبي سفيان وكعب الأحبار وصاحب صنعاء والرسول والعمال غير المسمين. سليمان طرف المقارنة. وفي نقل المثال في عصر الإسلام: الحارث البكري والعلاء بن الحضرمي والعجوز التميمية والنبي محمد، وهم خارج زمن عاد [م٥، م١٢].

في أخبار القبر: الإمام علي والإمام الحسن، والأصبغ بن نباتة، والمشيعون اليهود وميتهم، ويهودا بن يعقوب، والشيخ المهري، والرجل الحضرمي ورفاقه ودليلهم، مع أبي بكر علامة زمنية؛ وابن ملجم في سياق وصية الدفن، والأشعث في اسم المسجد. هذه طبقات نقل ومشاهدة متأخرة، لا أتباع لهود في حياته [م٥، م٨، م٩].

في أخبار البئر: المعتصم والمتوكل والإمام الهادي والعمال؛ والمنصور والمهدي العباسي ويقطين وأخوه أبو موسى والمحفّران والإمام الكاظم، وعلي بن يقطين ناقل الخبر؛ والرجال والنساء الموصوفون داخل الأرض غير مسمين. لا يخلط الخبران ولا المهدي العباسي بالإمام المهدي [م٤، م٩، م١٠].

في طبقة الرواية والتفسير: الأئمة الباقر والصادق والرضا وعلي عليهم السلام، ومن وردت أسماؤهم في الأسانيد كأبي حمزة ومعروف بن خربوذ وعبد الله بن سنان وعبد الحميد بن أبي الديلم وسماعة، هم مصادر النقل ورجاله. وهب بن منبه وكعب وأبو وائل والسدي وابن إسحاق وابن عباس وغيرهم ليسوا لذلك شهودًا على دعوة هود. والشامي في سؤال الأربعاء غير مسمى. أما تفسير اسم هود بمعنى الهداية، المنقول في معاني الأخبار ضمن مادة الباب، فبيان ديني منقول لا برهان مستقل على أصل الاسم اللغوي [م٩].

هذا السجل يستوفي الشخصيات التي ظهرت في النصوص والمقاطع المقابلة لهذه المراجعة، مع حفظ المجهولين بصفاتهم. ولا يدّعي حصر كل اسم في جميع مخطوطات التراث أو تصحيح كل رواية؛ فذكر الاسم، وثبوت الخبر، وتحديد هويته التاريخية ثلاث مسائل مختلفة.

هود والمرحلة التي بعده

في خريطة الكتاب:

الفصل الثامن هو هود عليه السلام.

الفصل التاسع: من هود إلى صالح — استمرار الهداية بين عاد وثمود.

الفصل العاشر: صالح عليه السلام — رسول ثمود وآية الناقة.

وهذا الترتيب لا يُغيّر حتى نجد دليلًا قويًا يفرض تعديلًا.

في نهاية هود لا نقفز إلى صالح.

بل نأخذ بجدية قول الرواية إن هودًا بشر بصالح، ثم كانت فترة قبل ظهوره.

خلاصة الفصل

هود عليه السلام نبي ورسول بنص القرآن.

بُعث إلى عاد.

كان منهم نسبًا واجتماعًا، ولهذا سماه القرآن أخاهم.

دعا إلى توحيد الله وترك عبادة ما لم ينزل به سلطان.

لم يطلب أجرًا.

دعا إلى الاستغفار والتوبة.

واجه اتهامه بالسفاهة والكذب بثقة وهدوء.

واجه تهديد الآلهة المزعومة بإعلان براءته منها والتوكل على الله.

انتقد الاستكبار والبطش والعمران العبثي.

ذكّر قومه بنعم القوة والأنعام والبنين والجنات والعيون.

اغتر قومه بقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة.

أصروا على التكذيب.

رأوا العذاب مقبلًا فظنوه سحاب مطر.

أهلكوا بريح صرصر عاتية عقيم استمرت سبع ليال وثمانية أيام.

نجا هود والمؤمنون برحمة الله.

تربط الروايات الإمامية ظهوره ببشارة نوح وخط سام.

وتنقل أن هودًا بشر بصالح بعده.
ولا يثبت القرآن نسبه التفصيلي ولا عمره ولا قبره ولا اسم وصيه.

الدروس الأساسية من قصة هود

١. القوة ليست دليلًا على الحق.
٢. الحضارة لا تعصم من الانهيار الأخلاقي.
٣. العمران يصبح خطرًا حين يتحول إلى عبث وتفاخر ووهم خلود.
٤. التوحيد يحرر الإنسان من عبودية الأصنام ومن عبودية الجبابرة.
٥. التوبة ليست ضعفًا، بل طريقًا لاستعادة النعمة.
٦. النبي لا يطلب أجرًا من الناس.
٧. التوكل ليس انسحابًا من المواجهة؛ هود واجههم وهو متوكل.
٨. القرابة القومية لا تعني موافقة العقيدة؛ كان «أخاهم» وهو مخالف لهم في الدين.
٩. الإنذار يسبق العقوبة.
١٠. النجاة في القصة مرتبطة بالإيمان والرحمة، لا بالبنية الجسدية أو الحصون.
١١. الهداية لا تنقطع بموت نبي أو هلاك أمة؛ الروايات تجعل العهد مستمرًا إلى المرحلة التالية.
١٢. حين لا تسمي المصادر حلقة من حلقات العهد، لا نخترع اسمًا لسد الفراغ.

نهاية الفصل الثامن — هود عليه السلام

في هذا الفصل انتقلنا من عالم ما بعد الطوفان إلى حضارة قوية ترى نفسها فوق الانهيار.
ظهر هود من داخل قومه.
لم يطلب ملكًا.
ولم يطلب أجرًا.
ولم يأت ليهدم القوة.
بل ليعيدها إلى معناها الصحيح.
وخلاصة دعوته، بصياغة تفسيرية لا باقتباس حرفي:
القوة من الله.
والنعمة من الله.
والمطر من الله.

والهداية من الله.

فلا تجعلوا القوة إلهًا.

رفضوا.

وقالوا:

من أشد منا قوة؟

فجاء الجواب لا في خطبة بشرية، بل في التاريخ نفسه.

ثم نجا هود ومن آمن معه.

وانتهى سلطان المكذبين من عاد، ونجا هود والذين آمنوا معه.

لكن حكاية الهداية لم تنته.

تقول الرواية إن هودًا ترك وصية، وبشر بصالح.

ومن هنا يبدأ الفصل التاسع:

من هود إلى صالح — استمرار الهداية بين عاد وثمود.

المصادر والمراجع — الفصل الثامن

أولًا: القرآن الكريم

الأعراف ٧:٦٥–٧٢.

التوبة ٩:٧٠.

هود ١١:٥٠–٦٠.

إبراهيم ١٤:٩.

الحج ٢٢:٤٢.

الفرقان ٢٥:٣٨.

الشعراء ٢٦:١٢٣–١٤٠.

العنكبوت ٢٩:٣٨.

ص ٣٨:١٢.

غافر ٤٠:٣١.

فصلت ٤١:١٣–١٦.

الأحقاف ٤٦:٢١–٢٦.

ق ١٣:٥٠.

الذاريات ٤١:٥١-٤٢.

النجم ٥٠:٥٣.

القمر ١٨:٥٤-٢٢.

الحاقة ٦٩:٦-٨.

الفجر ٨٩:٦-٨.

المؤمنون ٣١:٢٣-٤١ للمقارنة التفسيرية فقط، لأن تعيين القوم مختلف فيه.

الأعراف ٧:٧٤؛ هود ١١:٨٩؛ الحاقة ٦٩:٤؛ ويقارن سياق الأحقاف ٤٦:٢٧-٢٨ والفجر ٨٩:٩-١٤.

ثانيًا: المصادر الحديثية والروائية الإمامية

١. الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٣-١١٧، ح٩٢، وص٢٨٥، ح٤٣٠، في الوصية والبشارة؛ وح٦٤ في الريح العقيم والملائكة ومقارنة قوم يونس [م١، م٣].

٢. الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الكتاب الثاني، الباب المتعلق بظهور نوح وما بعده، الحديث ٣: بشارة نوح بهود، انتظار المؤمنين، وصف هود بالسمت والسكينة والوقار، وإهلاك الأعداء بالريح.

٣. المصدر نفسه، الحديث ٤: إيمان عقب من ولد سام بهود، هلاك المكذبين بالريح العقيم، ووصية هود وبشارته بصالح.

٤. تفسير القمي، ج١، ص٣٢٩-٣٣٠، في تفسير هود:٥٠ وما بعدها: القحط وزوجة هود ودعاؤه، ثم خبر الريح؛ وج٢، ص٣٠٣-٣٠٤، في الأحقاف وخبر البئر. تميّز الفقرات التفسيرية عن الأخبار ذات الأسانيد [م٤].

٥. الشيخ الصدوق، علل الشرائع؛ وعيون أخبار الرضا؛ والخصال، في الروايات التي تربط بعض أحداث عاد بيوم الأربعاء، مع الحاجة إلى فحص طرقها.

٦. الراوندي، قصص الأنبياء، باب نبوة هود، ص٩٣-٩٧، ح٨١-٨٧؛ وح٨٨ في شداد وإرم، ص٩٧ وما بعدها. قوبل النص المنشور مباشرة، مع التمييز بين أخبار الأئمة وأخبار وهب وأبي وائل [م٥].

٧. الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٣-٣٤، ح٦٦-٦٧، في موضع قبر أمير المؤمنين وذكر هود وصالح [م٨].

٨. الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٤، أبواب المزار، في نقل روايات قبر هود وصالح تبعًا للتهذيب وغيره.

ثالثًا: المصادر التفسيرية الإمامية

١. الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأعراف ٦٥-٧٢، هود ٥٠-٦٠، الشعراء ١٢٣-١٤٠، الأحقاف ٢١-٢٦، والفجر ٦-٨.

٢. الطباطبائي، الميزان، ج١٠، مباحث قصة هود وعاد وشخصية هود؛ وج٢٠، تفسير الفجر:٦-٨، في البحث عن إرم. رأي المفسر يميز عن لفظ القرآن [م١١].

٣. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، في الآيات المتعلقة بهود وعاد.

٤. الحويزي، نور الثقلين، في الآيات المتعلقة بهود وعاد وجمع الروايات الإمامية.

رابعًا: المصادر الجامعة

العلامة محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١١:

الباب الرابع: قصة هود وقومه عاد، الأحاديث ١-٢٧، مع التفسير والتذنيب وأخبار الوفد؛ نحو ص٣٤٣-٣٦٧ بحسب الطبعة [م٩].

الباب التالي في شداد وإرم ذات العماد، ويجب عدم خلط مادته القصصية بالقصة القرآنية الأصلية.

خامسًا: مصادر تاريخية للمقارنة فقط

كتب التاريخ والأنساب في نسب هود وموضع الأحقاف وشداد وإرم وأخبار الوفد. أخبار حضرموت لا تنحصر بهذه الطبقة، بل يرد بعضها في المصادر الإمامية أيضًا.

هذه المادة لا تُقدّم على القرآن ولا تُعامل تلقائيًا كرواية إمامية صحيحة.

إحالات التحقيق والاستكمال — روابط النصوص

[م١] الكافي، ج٨، ح٩٢، ص١١٣-١١٧؛ وح٤٣٠، ص٢٨٥: استمرار العلم والبشارة بهود.

[م٢] كمال الدين، باب ظهور نوح بالنبوة، الأخبار ٢-٤ بحسب الفهرسة الإلكترونية: وصية سام، وبشارة هود، وبشارة صالح. تميّز طرق الأخبار ولا يجعل الخبران ٣ و٤ خبرًا واحدًا.

[م٣] الكافي، ج٨، ح٦٤، خبر معروف بن خربوذ عن الإمام الباقر: قوم يونس والريح العقيم والخزنة وجبرئيل.

[م٤] تفسير القمي، ج١، ص٣٢٩-٣٣٠، وج٢، ص٣٠٣-٣٠٤؛ يقابل نقل الصافي في هود:٥٠-٥٢، ونقل بحار الأنوار، باب هود، ح٢ و٤. قصة الزوجة فقرة تفسيرية تسبق سند خبر الريح.

[م٥] الراوندي، قصص الأنبياء، باب نبوة هود، ح٨١-٨٨، ص٩٣-٩٩: أخبار وهب، وصية صالح، الخلجان، القبر، الغبار، وشداد. ح٨٤ فيه «عمن ذكره»؛ وح٨٥ تنبه حاشيته إلى اضطراب السند.

[م٦] إثبات الوصية المنسوب للمسعودي، طبعة أنصاريان، ص٣٦-٣٨: شالح وهود وفالغ ويروغ وموضع الوفاة. وجود الاسم لا يحسم نسبة الكتاب أو صحة خبره.

[م٧] الدر النظيم، ص٦٨: امرأة سام غير المسماة، ومرجانة أم غابر/هود، وميشاخا أم فالغ. يختلف ترتيب هذا النسب عن إثبات الوصية.

[م٨] تهذيب الأحكام، ج٦، ص٣٣-٣٤، ح٦٦-٦٧: وصية دفن أمير المؤمنين وذكر هود وصالح.

[م٩] بحار الأنوار، ج١١، باب٤، قصة هود وقومه عاد، ح١-٢٧ والتفسير والتذنيب. إحالات كنز الفوائد والفقيه ومعاني الأخبار ونوادر الراوندي هنا بواسطة نقل المجلسي؛ لا توهم مقابلة كل أصل مستقلًا أو تصحيح جميع الأخبار.

[م١٠] الاحتجاج، خبر علي بن يقطين في بئر قصر العبادي، بواسطة بحار الأنوار، ج١١، باب٤، ح١٣؛ ويقابل البرهان، ج٥، تفسير الأحقاف:٢١، الخبر٣/٩٧٩٣.

[م١١] الميزان، ج٢٠، ص٢٨٠ وما بعدها، تفسير الفجر:٦-٨، رأي إرم بوصفها مدينة؛ تفسير بشري لا نص قرآني في قصة شداد.

[م١٢] ابن كثير، البداية والنهاية، قصة هود، أخبار ابن إسحاق ووفد عاد ومهد/فهد وخبر الحارث والعجوز؛ للمقارنة غير الإمامية. يقارن البغوي في الأعراف:٧٢ وابن عطية في الأعراف:٧٠، مع اختلاف الأسماء والتفاصيل.

الفصل ٩ — من هود إلى صالح — استمرار الهداية بين عاد وثمود

لماذا نحتاج فصلًا بين هود وصالح؟

لو كتبنا القصة على شكل قائمة مختصرة لقلنا:

هود عليه السلام

ثم

صالح عليه السلام.

لكن مشروع «حكاية الهداية» لا يريد القفز من اسم كبير إلى اسم كبير وترك ما بينهما فراغًا.

السؤال هنا ليس فقط:

من جاء بعد هود؟

بل:

كيف استمرت الهداية بعد هلاك عاد؟

من حفظ وصية هود؟

هل سمّت الروايات أشخاصًا بينه وبين صالح؟

هل انقطعت الحجة؟

وهل يقول القرآن شيئًا عن انتقال البشرية من مرحلة عاد إلى مرحلة ثمود؟

هذه الأسئلة هي موضوع هذا الفصل.

ما يقوله القرآن عن الانتقال من عاد إلى ثمود

القرآن لا يعطينا جدولًا زمنيًا كاملًا بين هود وصالح.

ولا يذكر اسم وصي لهود.

ولا يذكر أسماء أنبياء أو علماء بعينهم بينهما.

لكن القرآن يضع أمامنا إشارتين بالغتي الأهمية.

الأولى في كلام هود لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾

هود ١١:٥٧.

والثانية في خطاب صالح لقوم ثمود:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾
الأعراف ٧:٧٤.
هاتان الآيتان ترسمان انتقالًا واضحًا على مستوى الأمم:
عاد لم تكن نهاية التاريخ.
بعد هلاكها جاءت أمة أخرى.
وثمود تُذكَّر بأنها صارت «خلفاء من بعد عاد».
لكن هذا لا يساوي القول:
إن ثمود كانت بالضرورة نسلًا مباشرًا من عاد.
ولا يساوي القول:
إن صالح ظهر فور وفاة هود بلا فاصل زمني.
ولا يثبت أسماء حملة العهد في المدة الواقعة بينهما.

ضبط الاستدلال بالآيات وحدود معرفة الأسماء

الآيات المقتبسة أعلاه مقاطع من الآيات. ومن تمام هود:٥٧ أن الله حفيظ على كل شيء، ومن تمام هود:٥٨ أنه نجّى المؤمنين من عذاب غليظ. ومن تمام الأعراف:٧٤ الأمر بذكر آلاء الله والنهي عن الإفساد؛ فالانتقال من عاد إلى ثمود انتقال في مسؤولية التوحيد وشكر النعمة، لا مجرد انتقال عمران.
ويذكّر شعيب قومه بما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، ثم يقول: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، هود:٨٩. ذكر شعيب ولوط هنا صلة قرآنية بالموعظة؛ لا يثبت أنهما وسيطان بين هود وصالح. وكذلك يذكر إبراهيم:٩ قوم نوح وعادًا وثمود والذين من بعدهم، ولا يسمّي كل الأفراد أو الأجيال.
وتقرر النساء:١٦٤ وغافر:٧٨ أن من الرسل من قُصّت أخبارهم ومنهم من لم تُقصص. يبيح هذا الإقرار بحدود ما نعرفه، ولا يبيح اختراع أسماء للرسل غير المسمّين. كما أن النجم:٥٠-٥١ تجمع عادًا الأولى وثمود، من غير أن تعطي قائمة ملوك «عاد الثانية» أو وصاتها.
الأفراد المرتبطون مباشرة بموضوع الفصل هم هود وصالح، ونوح وسام من جهة البشارة والعقب في الروايات. أما إبراهيم فهو نهاية المدى الأوسع في بعض أخبار الوصايا، وآدم أصل النمط الروائي. ونذكر شعيبًا ولوطًا في موضع الاستشهاد القرآني، لا داخل سلسلة زمنية مفترضة بين هود وصالح.

«ويستخلف ربي قومًا غيركم» — وعد بزوال القوة لا بزوال الهداية

في سورة هود، يضع هود عليه السلام أمام قومه حقيقة قاسية:
القوة التي افتخروا بها ليست ضمانًا للبقاء.

إن أعرضوا، يستطيع الله أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم.
وهنا تظهر نقطة مهمة في مسار الكتاب:
هلاك أمة لا يعني هلاك الهداية.
قد تنهار حضارة، ويبقى عهد الله.
قد ينتهي قوم، ويبدأ قوم آخرون.
وقد ينتهي زمن نبي، لكن الله لا يترك البشر بلا طريق إلى معرفته بحسب ما تشرحه الروايات الإمامية.

«خلفاء من بعد عاد» — ماذا تعني؟

قال صالح لقوم ثمود:
﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.
الخلافة هنا في ظاهر السياق تعني أنهم جاءوا بعد عاد ومُكّن لهم في الأرض.
ثم تكمل الآية:
﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.
إذن القرآن يقارن مرحلتين من القوة والعمران:
عاد التي بطشت واستكبرت،
وثمود التي ورثت مرحلة لاحقة من الاستقرار والعمران.
لكن القرآن لا يقول إن ثمود هي نفسها «العقب المؤمن» الذي نجا مع هود.
ولا يقول إن كل فرد من ثمود كان من نسل أولئك المؤمنين.
هذه مسألة يجب ألا نخلط فيها بين الخلافة الحضارية والنسب البيولوجي.

القرآن يقرن عادًا وثمود أكثر من مرة

القرآن يعرض عادًا وثمود جنبًا إلى جنب في عدد من المواضع.
قال تعالى:
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾
الحاقة ٤:٦٩.
ثم يصف عذاب ثمود وعذاب عاد كلًّا بطريقته.
وقال تعالى:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾
الذاريات ٥١:٤١،

ثم ينتقل إلى ثمود:
﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾
الذاريات ٥١:٤٣.

وفي سورة الفجر:
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ... وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾
الفجر ٨٩:٦-٩.

هذا الاقتران القرآني لا يثبت أن القصتين متلاصقتان زمنياً بلا فاصل.
لكنه يجعل ثمود المرحلة القرآنية الكبرى التالية بعد عاد في سلسلة الأمثلة على القوة التي لم تمنع العذاب.

من بقي بعد عاد؟

القرآن يخبرنا أن هوداً والمؤمنين معه نجوا.
قال تعالى:
﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾
هود ١١:٥٨.

إذن لم تنته قصة هود بإبادة كل من عاش في مرحلته.
كان هناك مؤمنون نجوا.
وهؤلاء هم نقطة البداية الطبيعية للبحث عن استمرار الهداية بعد عاد.
لكن القرآن لا يسميهم واحداً واحداً، ولا يقول أيهم حمل وصية هود.

الرواية الإمامية المركزية: هود أوصى وبشّر بصالح

هنا تأتي واحدة من أهم الروايات في بناء هذا الفصل.
روى الشيخ الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة، في سياق الحديث عن استمرار الحجة والغيبات، عن الإمام الصادق عليه السلام:
أن الله لما بعث هوداً، «أسلم له العقب من ولد سام»، وأن الآخرين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فأُهلكوا بالريح العقيم، ثم:

«وأوصاهم هود وبشرهم بصالح عليه السلام».

هذه الجملة القصيرة شديدة الأهمية.

فهي تقول إن مرحلة هود لم تنته بلا وصية.

وتقول إن صالحًا لم يظهر في الرواية كشخصية منفصلة تمامًا عما قبله.

بل إن جماعة المؤمنين حُفظ عندها عهد وبشارة بنبي آتٍ بعد هود.

من هم «العقب من ولد سام»؟

الرواية لا تعطينا قائمة أسماء.

تستخدم تعبيرًا جمعيًا:

«العقب من ولد سام».

والعقب في مثل هذا السياق يشير إلى الذرية أو الخلف الذي استمر من ولد سام.

من الخطأ أن نحول هذا التعبير إلى اسم شخص محدد من عندنا.

كما لا ينبغي أن نقول إن كل ذرية سام آمنت بهود، لأن الرواية نفسها تميز بين من أسلم له وبين «الآخرين» الذين استكبروا.

إذن ما نستطيع قوله هو:

كانت هناك جماعة مؤمنة من عقب سام ارتبطت بهود.

نجت معه من العذاب.

وتلقت منه وصية وبشارة بصالح بحسب الرواية.

أما أسماء أفراد تلك الجماعة، ومن كان رأسها بعد هود، فلا يسميهم هذا الحديث.

هل سمّى هود وصيًا بعينه؟

في النص الذي بين أيدينا لا.

الرواية تقول:

«أوصاهم هود».

ولا تقول:

«أوصى هود إلى فلان».

وهذا فرق مهم.

حديث البشارة في كمال الدين لا يسمّي فردًا يتلقى الوصية، أما إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي فيسمّي فالغ بن هود. لذلك نميّز بين سكوت الحديث الأول وبين الاسم الوارد في المصدر الآخر، مع إبقاء البحث في ثبوت الخبر ونسبة الكتاب مستقلًا [م١، م٤].

ولذلك لا يصح أن نملأ الفراغ باسم من كتب الأنساب ثم نسميه «وصي هود» من غير نص.

الغيبة بعد هود إلى ظهور صالح

في كمال الدين توجد رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام تربط بين مرحلة هود ومرحلة صالح.

بعد وصف ظهور هود وهلاك أعدائه بالريح العقيم، تقول الرواية:

«ثم وقعت الغيبة (به) بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام» [م١].

هذه العبارة مهمة جدًا لفكرة الكتاب.

لا تسمي العبارة أشخاص المرحلة الواقعة بين هود وصالح؛ وقراءتها في سياق كتاب الصدوق تضعها ضمن تصور استمرار الحجة مع خفائها، لا ضمن بيان تفصيلي لأسماء حملة العهد.

الصدوق يضع هذه المرحلة ضمن حديثه عن الغيبة وامتداد الحجة.

وبالتالي يصبح ما بين هود وصالح في هذه الرواية:

زمن انتظار،

وغيبة أو خفاء،

ثم ظهور صالح عليه السلام.

لكن يجب أن تبقى درجتها واضحة:

القرآن لا يستخدم هذه العبارة عن الفترة بين هود وصالح.

وهذه تفاصيل روائية، لا نص قرآني.

الغيبة هنا لا تثبت عمرًا ممتدًا لهود

ترد كلمة «به» بين قوسين في النص الإلكتروني المقابل؛ أُبقيت للدلالة على ضبط النقل. ولا تفصّل العبارة هل المقصود خفاء شخص بعينه، أو طور خفاء الحجة وانتظار النبي الموعود في سياق الكتاب. لا نستخرج منها أن هودًا بقي حيًا إلى صالح، ولا نساويها بغيبة صالح الواردة في خبر مستقل عن حياته. الفصل التاسع يدرس الفاصل، والفصل العاشر يدرس خبر صالح نفسه [م١].

هل انقطعت الحجة في هذه المدة؟

الروايات الإمامية التي تحدثت عن انتقال العلم بعد نوح تقدم قاعدة عامة:

أن الله لا يترك الأرض بغير عالم يُعرف به أمره وهدايته.

وفي الرواية التي تنتقل من نوح إلى سام ثم إلى هود، يوصف ميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة بأنه يتوارث «عالم بعد عالم» حتى بعثة هود.

هذه الرواية تتحدث في أصلها عن مرحلة نوح وسام وهود، لكنها تعطينا المبدأ الذي يعمل به هذا المشروع:

الفترة الواقعة بين نبيين لا تُفهم تلقائيًا بوصفها فراغًا من الهداية.

وفي شرح خبر الروضة رقم ٩٢ في مرآة العقول يُراجع حكم المجلسي على الطريق نفسه، مع عدم نقل الحكم إلى طريق كمال الدين المختلف تلقائيًا. ولا نجعل ألفاظ هذه الأخبار التاريخية حقيقة قطعية لمجرد ورودها في كتاب حديث [م٢، م٣، م٧].

لكنها تظل شاهدًا مهمًا على تصور إمامي مبكر لاستمرار العلم والحجة بين الأنبياء.

هل كانت هناك شخصيات بين هود وصالح؟

هنا يجب أن نكون شديدي الأمانة.

حديثا كمال الدين الأساسيان يرويان:

وجود عقب مؤمن من ولد سام مع هود.

وصية هود لهم.

بشارته بصالح.

مرحلة غيبة أو خفاء حتى ظهور صالح.

وهذان الحديثان بخصوصهما لا يسميان:

وصيًا محددًا بعد هود،

ولا قائمة أنبياء بأسمائهم بين هود وصالح.

إذن لا نستطيع أن نصنع قائمة من عندنا.

مسارات الوصية بعد هود — مقارنة تمتد إلى إبراهيم

لا يصح بعد مقابلة المصادر أن نقول بإطلاق إنه «لا يوجد اسم بعد هود». يذكر إثبات الوصية، المنسوب إلى المسعودي، في ص٣٧-٣٩ أسماء وعلاقات صريحة. لكنها تنتمي إلى سرد يمتد إلى إبراهيم ولا يضع صالحًا داخل هذا المقطع، فلا نسمّيها جميعًا أنبياء عاشوا بين هود وصالح. ونسبة

النسخة المتداولة من الكتاب نفسها محل بحث؛ كما أن هذا الموضع لا يعرض لكل حلقة سندًا متصلًا مستقلًا إلى إمام [م٤، م١٢].

فالغ بن هود: يذكر النص أن هودًا دعا ابنه وأوصى إليه، ثم قام فالغ بالأمر وسار بسيرة أبيه. وعند وفاته استودع ابنه يروغ النور والاسم الأعظم بحسب الخبر. لا يذكر المقطع تاريخ مولده ولا عمره ولا اسم زوجته، ولا يقدم أسماء جميع أبنائه وبناته. فتثبت نسبة هذه المعلومات إلى الكتاب، لا ثبوت جميع تفاصيلها تاريخيًا.

يروغ بن فالغ: يعرضه الكتاب حاملًا للأمر بعد أبيه، ثم مستخفيا في زمن طاغية. وينسب قتله إلى جبار من ولد عوج بن عناق، ويذكر قتل خمسة من أولاده ويصفهم بالأنبياء من غير تسمية. لا يعطي الخبر أسماء أمهم أو أمهاتهم، ولا تاريخ ولادتهم أو وفاة يروغ، ولا يتيح تعيين هؤلاء الخمسة بأسماء نقتبسها من مصدر مختلف [م٤، ص٣٨].

نوشا بن أمين: هذا ضبط الاسم في متن ص٣٨، وإن اختصره الفهرس إلى «نوش بن أمين». يجعله النص مختارًا للأمر، مجتمعًا عليه أنبياء ذلك الزمان والمؤمنون والشيعة والصديقون، ووارثًا لما خلّفه يروغ من العلم والحكمة. ويقول إنه جاهد ثم رُفع من غير موت، وأوصى قبل رفعه إلى صاروغ بن يروغ. لا يقول هذا الموضع إنه ابن يروغ؛ و«أمين» لا تتجاوز معلوماته هنا كونه اسم الأب في النسب.

صاروغ بن يروغ بن فالغ: يتلقى العهد من نوشا في هذا السرد، ثم يوصي عند وفاته إلى ابنه تاجور. فصلة البنوة عنده تختلف عن جهة تسلّم العهد؛ وهذه نقطة تمنع تسوية سلسلة النسب بسلسلة الوصايا.

تاجور بن صاروغ: يذكره الكتاب قائمًا بالأمر، ثم مستودعًا الاسم الأعظم وميراث النبوة ابنه تارخ. نحفظ رسم «تاجور» في المصدر، ولا نستبدله تلقائيًا بـ«ناحور» الوارد في نص آخر.

تارخ بن تاجور: يصفه المصدر بأنه أبو إبراهيم، ويذكر بدء قيامه في السنة الرابعة والستين من ملك رهو بن طهمسعان، وبخبر آخر في الرابعة والثمانين. اختلاف الرقم محفوظ ولا يحوّل إلى سنة ميلادية. ينتهي هذا المسار إلى إبراهيم؛ ولا يجوز إرجاع جميع مراحله إلى الفترة السابقة لصالح لمجرد أنه بدأ بعد هود [م٤، ص٣٩].

هذه التراجم تحفظ ما ورد عن التلقي والتسليم والوفاة أو الرفع، وتصرّح بحدود الخبر. لا توجد في هذا المقطع مواليد مفصلة أو أعمار وزوجات وبنات مسمّيات لهؤلاء جميعًا، ولا نص يسمّي من سلّم الوصية إلى صالح مباشرة.

الشخصيات غير المسماة والملوك في السرد نفسه

حتى لا يغيب أحد بسبب تركيزنا على حملة العهد، يذكر إثبات الوصية أيضًا فراشيات، ويجعل ملكه اثنتي عشرة سنة في أيام يروغ؛ وامرأة غير مسماة وصفها بالساحرة وكانت معه؛ وجبارًا غير مسمى من ولد عوج بن عناق نُسب إليه قتل يروغ وأولاده. لا نجزم بأن فراشيات والجبار شخص واحد لأن النص لا يصرّح بذلك.

ثم يذكر طهمسعان وملكًا مقداره مائتان وثمان وتسعون سنة، ويصف خصب الزروع والبساتين في أيامه، مع إعانته ولد عوج على الأنبياء. ويرد رهو بن طهمسعان عند الانتقال إلى تارخ، ويعرّفه النص بنمرود. هذه الأسماء والأرقام أخبار هذا المصدر، وليست أعمارًا أو تواريخ قرآنية، ولا تجعل أصحابها من حملة الهداية.

ويذكر الخبر ألفًا وأربعمائة نبي في واقعة بعد قتل يروغ، وثمانمائة وأربعة عشر نبيًا قُتلوا في سياق اضطهاد لاحق، والخمسة من أولاد يروغ؛ فلا تسقط هذه الجماعات من حصر مضمون الرواية، ولا تتحول أعدادها إلى أسماء مجهولة أو إلى إحصاء مقطوع به. وأمر القتال المحكي فيها خبر عن واقعة مزعومة في زمنها، لا تشريع مستقل يتجاوز سياقها [م٤، ص٣٨–٣٩].

رواية «عشرة أنبياء بين هود وإبراهيم» — كيف نفهمها؟

في كمال الدين، باب ٢٢ «اتصال الوصية من لدن آدم»، الحديث ٢ عن الإمام الباقر عليه السلام، يرد: «وكان بين هود وإبراهيم من الأنبياء عشرة أنبياء». وفي موضع لاحق من الحديث نفسه يرد: «عشرة آباء وتسعة آباء وثمانية آباء كلهم أنبياء». هاتان عبارتان في سياق واحد، وليستا رقمًا واحدًا يجوز تبديل لفظه كيفما اتفق [م٢].

ويذكر النص آدم ونوحًا وهودًا وصالحًا وشعيبًا وإبراهيم في سياق تشابه ما جرى للأنبياء واستمرار العهد، ولا يكفي ترتيب هذه الأسماء في العبارة وحده لبناء تقويم زمني تفصيلي.

هذه الرواية مهمة لأنها تقول إن التاريخ بين هود وإبراهيم لم يكن خاليًا من الأنبياء.

لكنها لا تعطينا أسماء أولئك العشرة في هذا الموضع.

والأهم:

لا يجوز أن نقول إن العشرة كلهم كانوا بين هود وصالح.

فالمدى المذكور أوسع: من هود إلى إبراهيم، ويدخل فيه صالح وغيره.

إذن نستخدم الرواية لإثبات مبدأ:

وجود حلقات غير مسماة في المصادر التي وصلت إلينا.

ولا نستخدمها لاختراع توزيع زمني لا يصرح به النص.

سلسلة الأوصياء الأخرى لا تملأ الفراغ آليًا

في الحديث الأول من باب اتصال الوصية في كمال الدين، ونظيره في أمالي الصدوق، المجلس ٦٣، الحديث ٣، ترد سلسلة مختلفة بعد سام: عثامر، ثم برعيثاشا، ثم يافث، ثم برة، ثم جفيسة، ثم عمران، ثم إبراهيم. وفي حاشية كمال الدين رسم آخر «جفسية». نسجل الأسماء كما وردت ولا نستبدلها بأسماء إثبات الوصية [م٦].

طريق هذا الخبر يشتمل على مقاتل بن سليمان، وقد نبه محقق النص المنشور إلى الكلام فيه واضطراب بعض حلقات الرواية. الخبر لا يذكر هودًا وصالحًا في هذا المقطع، فلا نستنتج أن عثامر أو عمران أو غيرهما هو وصي هود أو الموصي إلى صالح، ولا أن يافث هنا هو يقينًا يافث ابن نوح المعروف في الأنساب. كما لا يعيّن المقطع أمهات هؤلاء أو زوجاتهم أو بناتهم أو أعمارهم، ولا نسمي «برة» امرأة اعتمادًا على هيئة الاسم وحدها.

هل كل من حمل العهد كان نبيًا؟

لا ينبغي أن نفترض ذلك.

في الروايات السابقة وجدنا شخصيات حملت وصية أو علمًا من غير أن يكون عندنا نص كافٍ لإثبات نبوتها.

وفي رواية أخرى يرد تعبير «أنبياء» عن حلقات واسعة بين الأنبياء الكبار.

لكن عندما لا يذكر النص اسم شخص بعينه ولا يحدد منزلته، لا يمكن أن نقول:

«فلان كان نبيًا»

أو:

«فلان كان وصيًا»

من غير دليل.

ولهذا سيبقى هذا الفصل صريحًا:

هناك استمرار للهداية بحسب الروايات.

لكن بعض الأسماء لا ترد في حديثي البشارة والغيبة، وبعضها يرد في نصوص أخرى تختلف في الأسانيد والأنساب وترتيب التعاقب؛ فلا نجمعها في قائمة مقطوع بها.

ماذا عن كتب الأنساب؟

كتب الأنساب والتواريخ القديمة تذكر سلاسل متعددة بين سام، وعاد، وثمود، وهود، وصالح.

وقد تختلف الأسماء وعدد الأجيال وطرق النسب اختلافًا كبيرًا.

بعضها متأثر بمرويات أهل الكتاب.

وبعضها اجتهاد نسابي متأخر.

وبعضها لا يملك سندًا روائيًا إماميًا يمكن أن نبني عليه «سلسلة الهداية».

نقارن هنا ما يمس انتقال العهد بعد هود، ونترك تفصيل نسب صالح للفصل العاشر؛ وننسب كل خبر إلى مصدره بدل تقديمه بوصفه تاريخًا متفقًا عليه.

أما في هذا الفصل فلن نحول سلسلة نسب تاريخية إلى سلسلة وصاية دينية بلا دليل.

النساء وصلات الأسرة في أخبار هذه المرحلة

القرآن لا يسمّي امرأة خاصة بالفاصل بين هود وصالح، ولا يسمّي فيه زوجة لهود أو لصالح. وهذا سكوت عن التسمية، لا نفي لوجود النساء أو مشاركتهن في حياة الجماعات. ولا يمكن من جمع «الذين آمنوا معه» استخراج أسماء المؤمنات أو عددهن أو صلة كل واحدة منهن بحملة العهد.

ميشاخا: يذكر الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم، ص٦٨، امرأة بهذا الاسم زوجة لغابر الذي يعرّفه النص بهود، وأمًا لفالغ. هذا اسم نسائي مرتبط مباشرة بأول حلقة مسمّاة بعد هود في ذلك الخبر. لا يورد المقطع مولدها أو وفاتها أو أسماء بنات لها. والسياق الطويل يبدأ في ص٦١ بنقل عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر في قصة راهب الجحفة؛ فهذه نسبة روائية داخل الكتاب، لا حكم بصحة جميع طريقها أو تفاصيلها [م٥].

مرجانة: يسميها النص زوجة أرنخشد وأم غابر الذي يعرّفه بهود. تقع قبل الفاصل المدروس، لكنها تُذكر هنا لضبط أمومة هود وجدّة فالغ في هذا الخبر، لا بوصفها وصية بعد هود. وقبلها امرأة غير مسماة من بنات الملوك، يذكرها زوجة لسام وأمًا لأرنخشد. لا نعطيها اسمًا من مصدر آخر.

دبا بنت غرة: هذا رسم الاسم في ص٦٨؛ يسميها الخبر زوجة تارخ وأم إبراهيم. وجودها هنا من تتمة السلسلة الممتدة إلى إبراهيم، لا دليل على حياتها قبل ظهور صالح. وفي إثبات الوصية، ص٣٩، توصف أم إبراهيم بأنها ابنة آزر من غير اسم شخصي في ذلك الموضع؛ لا نساوي المرأتين ولا نجعل «غرة» و«آزر» اسمين لشخص واحد بلا دليل [م٤، م٥].

زوجة هود غير المسماة: يورد تفسير القمي، ج١، ص٣٢٩–٣٣٠، في قصة القحط والدعاء، خبرًا عن سوء تعامل زوجة هود مع زواره وحلمه عنها. لا يسمّيها في ذلك الموضع. لا يصح إلصاق الخبر بميشاخا لمجرد أن كليهما وُصفت بأنها زوجة هود؛ فقد يختلف المصدر أو الشخص أو زمن الحكاية. ذُكرت تفاصيل الخبر في الفصل الثامن، ويكفي هنا حفظ عدم اتحاد الهويتين بدليل [م٩].

والمرأة غير المسماة التي يصفها إثبات الوصية بالسحر مع فراشيات تُذكر بوصفها شخصية في الخبر، لا زوجة له بنص صريح ولا حاملة للعهد. أما أمهات وزوجات فالغ ويروغ ونوشا وصاروغ وتاجور، وبناتهم غير المسمّيات، فلا نخترع لهن أسماء أو قصصًا. حفظ النساء في التاريخ يبدأ بإثبات المذكورة والتصريح بحدود غير المذكورة.

اختلاف الأنساب والخبر عن قحطان

يصل إثبات الوصية بين هود وفالغ ويروغ وصاروغ وتاجور وتارخ، مع إدخال نوشا بن أمين في انتقال العهد. أما الدر النظيم فيذكر بعد هود: فالغ، فشالخ، فأرغو، فشروع، فناحور، فتارخ. وفي نسب هود نفسه يختلف النصان: إثبات الوصية يجعله ابن شالخ، والدر النظيم يجعل غابر الذي هو هود مولودًا

لأرنخشد ومرجانة. لا يُحذف شالخ من أحدهما، ولا تُدمج هذه الألفاظ في نسب جديد لا ينقله أي مصدر [م٤، م٥].

وفي خلاصة السير لنشوان الحميري خبر يجعل قحطان ابن هود ووصيه، ثم يجعل يعرب موضع وصية قحطان، ويذكر أن أم أولاد قحطان امرأة من عاد لا يسمّيها. هذا شاهد تاريخي على اختلاف مسارات القصص؛ لا يثبت أن قحطان هو فالغ، ولا أنه واسطة منصوصة إلى صالح، ولا تتحول تتمة أنساب ملوك اليمن إلى أسماء ملزمة لفترة هذا الفصل [م١١].

الأسماء المتشابهة مثل يروغ وأرغو، وصاروغ وشروع، وتاجور وناحور تُحفظ في صيغ مصادرها. احتمال التصحيف أو اختلاف التعريب سبب للمقابلة، لا حجة كافية للجزم بالاتحاد. وكذلك الاسم في نسب شخص لا يجعله نبيًا أو وصيًا ما لم يدل الخبر على تلك الوظيفة.

عاد وثمود — هل هما شعب واحد؟

لا.

القرآن يعرض عادًا وثمود بوصفهما قومين متميزين.

لهود قوم عاد.

ولصالح قوم ثمود.

والقرآن يجعل ثمود «خلفاء من بعد عاد»، أي أمة جاءت بعد أمة وورثت مرحلة من التمكين في الأرض.

لا يساوي ذلك أنهما شعب واحد باسمين.

ولا يساوي أن صالحًا كان من عاد.

ولا يساوي أن ثمود كلها من نسل المؤمنين الذين نجوا مع هود.

من الريح إلى الناقة — تمهيد لا يعيد قصة صالح

هناك انتقال لافت بين القصتين.

قوم عاد تحدوا نبيهم بقوة الأجساد والعمران وقالوا:
﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾
فصلت ٤١:١٥.

فجاء عذابهم بالريح.

أما ثمود فسيكون امتحانهم المركزي في الفصل القادم مرتبطًا بآية ناقة الله.

وهذا يبين أن الهداية لا تعيد الامتحان بصورة واحدة.

الجوهر واحد:

هل يخضع الإنسان لله؟

لكن صورة الحجة والابتلاء تختلف باختلاف القوم والمرحلة.

الوصية والبشارة — نمط يتكرر في حكاية الهداية

في المراحل السابقة رأينا:

آدم يوصي.

نوح يبشر بهود.

العلم والعهد ينتقلان.

ثم يأتي هود، وفي حديث البشارة المتقدم «يوصي» ويبشر بصالح؛ وهو غير حديث نوح والبشارة بهود، وإن جمعهما نمط واحد في التراث [م١، م٢].

هذا لا يعني أن كل رواية في هذه السلسلة صحيحة بدرجة واحدة.

لكنه يكشف عن نمط واضح في التراث الإمامي:

النبي اللاحق لا يأتي من فراغ.

هناك انتظار.

وعهد.

وبشارة.

وأناس يُطلب منهم أن يعرفوا القادم عندما يظهر.

وهذه الفكرة ستصبح أهم كلما اقتربنا من سلاسل الأنبياء والوصاة المتأخرين.

هل صالح من ذرية سام؟

المصادر التاريخية والأنساب عادةً تربط ثمود وسلسلة صالح بخط سام بن نوح.

والرواية التي تقول إن «العقب من ولد سام» آمن لهود تجعل خط سام حاضرًا في الانتقال.

لكن القرآن لا ينص على نسب صالح إلى سام.

لذلك سنفصل في الفصل العاشر:

ما يقوله القرآن عن صالح.

ما تقوله الروايات الإمامية.

وما تقوله كتب النسب.

ولا نستبق التحقيق هنا بصيغة جازمة.

أين عاش المؤمنون بعد هود؟

يروي إثبات الوصية، ص٣٨، خبر انتقال هود وشيعته إلى مكة وإقامتهم بها حتى وفاته، ويذكر قبله موضعًا آخر للدفن على شاطئ البحر تحت جبل. نحفظ اختلاف الخبرين ولا نحوّلهما إلى رحلة واحدة لم يصرّح بها النص [م٤].

لكن هذه الأخبار ليست من القرآن.

كما أنها لا تعطينا سلسلة مسماة من حملة الوصية حتى صالح.

لذلك لا نستخدمها لسد الفجوة بأسماء لا توجد في النص.

مكان الإقامة شيء، وإثبات سلسلة الوصاية شيء آخر.

هل نستطيع تحديد طول المدة بين هود وصالح؟

لا يذكر القرآن عدد السنوات بينهما.

ولا تعطينا الرواية الأساسية التي تقول إن هود بشر بصالح رقمًا زمنيًا.

وعبارة الغيبة إلى ظهور صالح تثبت في الرواية وجود فترة، لكنها لا تحدد طولها.

لذلك لا نعتمد الأرقام المتداولة في بعض كتب التاريخ ما لم نجد لها أصلًا واضحًا.

الجواب الأمين:

المدة غير معلومة لنا على وجه يمكن الجزم به.

ما يثبت عن المدة وما يبقى مفتوحًا

ينبغي التفريق بين زمن جماعة جاءت بعد عاد، وزمن وفاة هود، وزمن بعثة صالح، وأعمار الأشخاص في الأخبار. لا يربط القرآن هذه الأمور برقم واحد. كما أن إثبات الوصية حين يذكر مدة بين نوح وإبراهيم لا يعطينا بها حسابًا للفترة بين هود وصالح، ولا يجوز اقتطاع مدد الملوك المذكورة فيه وجمعها لإنتاج هذا الحساب [م٤، ص٣٩].

وقد حفظ هذا الفصل الأسماء المباشرة، والنساء، والجماعات غير المسماة، والأسماء في السلاسل الأوسع التي قد يقع الخلط بها. هذا حصر للمادة المقابلة ومواطن احتمال السهو، لا ادعاء بأن كل مرويات التراث ذات الطبعات والمخطوطات المختلفة قد استوعبت، ولا أن اختلافها قد حُسم. ويبقى عدم معرفة حلقة بعينها نقصًا في معلوماتنا، لا برهانًا على انقطاع الهداية.

ماذا نثبت في نهاية هذا الفصل؟

يمكن أن نضع النتائج في طبقات واضحة.

أولًا: ما يثبت بالقرآن

عاد أُهلكت بعد تكذيب هود.

هود والمؤمنون معه نجوا.

هود حذر قومه أن الله قد يستخلف قومًا غيرهم.

ثمود جاءت بعد عاد.

صالح ذكّر ثمود بأن الله جعلهم خلفاء من بعد عاد.

القرآن لا يسمي حملة العهد بين هود وصالح.

ثانيًا: ما ترويه المصادر الإمامية

ورد أن العقب المؤمن من ولد سام آمن لهود.

ورد أن هود أوصاهم وبشرهم بصالح.

ورد في كمال الدين وصف فترة بعد هود بالغيبة إلى أن ظهر صالح.

وتوجد أخبار أوسع لاتصال الوصية، وأسماء في إثبات الوصية والدر النظيم وحديث سلسلة الأوصياء، مع اختلاف مصادرها ودلالتها وعدم ثبوت أنها جميعًا حلقات بين هود وصالح.

ثالثًا: ما لا نستطيع الجزم به

الجزم بصحة تعيين فالغ وصيًا لهود لمجرد ورود الاسم في إثبات الوصية.

أسماء جميع الأشخاص بين هود وصالح.

عدد السنوات بينهما.

نسب صالح التفصيلي.

أن ثمود كلها نسل مباشر من مؤمني عاد.

أن كل خبر تاريخي عن هذه الفترة يمثل رواية عن أهل البيت عليهم السلام.

ملاحظة سندية حول رواية هود وبشارة صالح

الرواية المركزية في كمال الدين تمر، في الطريق المذكور، بعدد من الرواة منهم محمد بن سنان وعبد الحميد بن أبي الديلم.

نقل الحلي في خلاصة الأقوال، في ترجمة عبد الحميد بن أبي الديلم، تضعيف ابن الغضائري له. وهذا حكم منقول عن ناقد بعينه، فلا يُصاغ إجماعًا. كما أن الكلام في محمد بن سنان لا يُختزل هنا في حكم متفق عليه [م٨].

ولهذا لا نسمي الرواية «صحيحة» من غير تحقيق مفصل.

نقول:

هي رواية محفوظة في كمال الدين عن الإمام الصادق عليه السلام، لا نمنح طريقها في هذا الفصل حكم «الصحيح». ولا يكفي اتساق معناها العام مع استمرار الهداية لتصحيح كل لفظ أو تفصيل فيها.

نهاية الفصل التاسع — على عتبة صالح عليه السلام

انتهت عاد.

لكن الهداية لم تنته.

نجا هود ومن معه.

وحفظت الرواية جماعة مؤمنة من عقب سام.

وأوصاهم هود.

وبشرهم بصالح.

ويصف حديث آخر مرحلة من الغيبة إلى ظهور صالح.

وفي القرآن ظهرت أمة جديدة:

ثمود.

أمة جاءت بعد عاد، وسكنت الأرض، وبنت في السهول، ونحتت من الجبال بيوتًا.

وهنا يصل بنا خط الهداية إلى نبي جديد:

صالح عليه السلام.

وسيبدأ الفصل العاشر من السؤال:

من هو صالح؟

ما نسبه؟

كيف كانت ثمود؟

ما هي الناقة؟

هل خرجت من الصخرة كما تقول بعض الروايات؟

ما شرط الماء؟

من عقر الناقة؟

من كان «أشقى» ثمود؟

ما معنى الصيحة والرجفة والطاغية؟

هل كانت لصالح غيبة؟

وماذا تقول روايات أهل البيت عليهم السلام عن حياته وما بعد نجاة المؤمنين؟

لن ندخل هذه التفاصيل هنا.

لأن الفصل التاسع مهمته أن يغلق الفراغ بين هود وصالح بأمانة:

نثبت ما عندنا.

ونصرح بما لا نعرفه.

ولا نخترع حلقة لم تسمها المصادر.

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

الأعراف ٧:٦٥-٧٤.

هود ١١:٥٠-٦٨، ولا سيما ١١:٥٧-٥٨.

فصلت ٤١:١٥-١٦.

الذاريات ٥١:٤١-٤٥.

الحاقة ٦٩:٤-٨.

الفجر ٨٩:٦-٩.

الشعراء ٢٦:١٢٣-١٥٩، للمقارنة بين قصة عاد وبداية قصة ثمود.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية

[م١] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، باب ذكر ظهور نوح بالنبوة بعد ذلك، الحديثان ٣ و٤ بحسب الفهرسة الإلكترونية: الغيبة إلى صالح، ثم وصية هود والبشارة بصالح. «الكتاب ٢» تسمية في تقسيم الموقع، فلا تخلط برقم الجزء المطبوع.

طريق الحديث ٤: والد الصدوق ومحمد بن الحسن، عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن سنان، عن إسماعيل بن جابر وكرام بن عمرو، عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن الإمام الصادق. وطريق الحديث ٣ مستقل عنه.

[م٢] الصدوق، كمال الدين، ج١، باب ٢٢ «اتصال الوصية من لدن آدم»، الحديث ٢ عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر؛ يبدأ ص٢١٣، وموضع الأنبياء العشرة ص٢١٦ في النص المقابل. ولا يخلط بالحديث ١ ذي الأسماء المختلفة.

[م٣] الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٣-١١٧، ح٩٢، «حديث آدم مع الشجرة»، عن أبي حمزة عن الإمام الباقر؛ يشتمل على انتقال العلم إلى سام والبشارة بهود والسياق الأوسع لاتصال العهد.

[م٧] المجلسي، مرآة العقول، ج٢٥، شرح حديث الروضة ٩٢، ص٢٧٢ وما بعدها في طبعة الأجزاء الستة والعشرين؛ وموضع انتقال العهد في ص٢٧٨-٢٨٠. تصحح بهذا الإحالة غير المعيّنة إلى ج١٦ في المسودة.

[م١٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، باب قصة هود وقومه عاد؛ يميّز فيه الحديث المسند عن كلام المفسرين والتذنيب التاريخي. يُستعمل لجمع الطرق والوصول إلى مصادرها، لا لتصحيحها جميعًا.

[م٤] إثبات الوصية للإمام علي، المنسوب إلى المسعودي، ص٣٧-٣٩: هود وفالغ ويروغ ونوشا وصاروغ وتاجور وتارخ، والملوك والمرأة غير المسماة؛ النص يحفظ اختلاف موضع وفاة هود ويمتد إلى إبراهيم.

[م٥] يوسف بن حاتم الشامي، الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم، ص٦١ لبداية خبر راهب الجحفة؛ وص٦٨ لمرجانة وميشاخا ودبا بنت غرة واختلاف ترتيب الأنساب.

[م٦] الصدوق، كمال الدين، ج١، باب٢٢، ح١، ص٢١١-٢١٣؛ والأمالي، المجلس٦٣، ح٣: سلسلة عثامر وبرعيثاشا ويافث وبرة وجفيسة وعمران، مع إبقاء اختلاف الرسم ومناقشة الطريق.

[م٩] تفسير القمي، ج١، ص٣٢٩-٣٣٠، تفسير هود:٥٠ وما بعدها؛ خبر الزوجة غير المسماة كما نقله أيضًا المجلسي في باب هود. لا يثبت اتحادها مع ميشاخا.

ثالثًا: مصادر الرجال للتحقيق

[م٨] الحلي، خلاصة الأقوال، ترجمة عبد الحميد بن أبي الديلم؛ وفي ترتيب خلاصة الأقوال ص٢٥٨: نقل تضعيف ابن الغضائري. يقتصر الاستدلال على الحكم المنقول ولا يُدّعى به اتفاق جميع الرجاليين.

يُفرَّق بين توثيق وجود الخبر في الكتاب، والحكم على جميع رجال سنده، ودراسة اضطراب متنه. لا يستعمل هذا الفصل عبارة «صحيح السند» للأخبار المختلف فيها أو للقصص التي لا يظهر في موضعها إسناد متصل.

رابعًا: المصادر التاريخية للمقارنة

[م١١] نشوان الحميري، خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة، ص٢-٧: خبر قحطان ويعرب بعد هود؛ مادة تاريخية مقارنة، لا يصح إلحاقها آليًا بأحاديث الأئمة.

لا تُركّب من قطان وفالغ وسلسلة عثامر قائمة واحدة، ولا يجعل الاشتراك في لفظ «الوصية» أو التشابه في الأسماء دليلًا على وحدة الشخص أو المسار.

[م١٢] عبد الهادي العلوي، «كتاب إثبات الوصية للمسعودي أم للشلمغاني؟»، البحث المنشور في تراث كربلاء، ص٨٢-٨٣ من ملف العدد: نقاش نسبة الكتاب والنسخة المتداولة، للاستدلال على وجود البحث في النسبة لا للحكم على كل خبر فيه.

الفصل ١٠ — صالح عليه السلام — رسول ثمود وآية الناقة

صالح عليه السلام — حين تحولت النعمة إلى امتحان

من الفصل التاسع إلى الفصل العاشر — من الهداية المستمرة إلى بعثة صالح

في الفصل التاسع وقفنا عند المرحلة الواقعة بين هود وصالح عليهما السلام، لأن منهج الكتاب لا يتعامل مع تاريخ الهداية كأنه سلسلة من أسماء متباعدة تفصل بينها فراغات.

لكن المصادر لا تعطينا في كل مرحلة قائمة مكتملة بأسماء الأنبياء والأوصياء وحملة العهد.

لذلك لا نخترع أسماء لسد الفراغ.

نثبت ما ثبت، ونصرح بما لم يثبت، ثم نصل إلى شخصية صالح عليه السلام حين يسميه القرآن صراحة رسولًا إلى ثمود.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة:

حضارة مستقرة.

قوة في البناء.

نحت للجبال.

زراعة ونخيل ومياه.

وانقسام اجتماعي بين مؤمنين ومستكبرين.

ثم تأتي آية الناقة لتصبح امتحانًا لا للقوة فقط، بل للطاعة.

أولًا: جميع المواضع القرآنية الأساسية في قصة صالح وثمود

قصة صالح عليه السلام ليست محصورة في سورة واحدة، بل موزعة في مواضع متعددة، وكل موضع يضيف زاوية لا ينبغي إسقاطها.

١. الأعراف ٧:٧٣–٧٩

تذكر بعثة صالح إلى ثمود، دعوته إلى عبادة الله وحده، ناقة الله آيةً، تذكيرهم بنعم الاستخلاف بعد عاد، نحت الجبال بيوتًا، انقسام المستكبرين والمستضعفين، عقر الناقة، الرجفة، ثم خطاب صالح لقومه بعد هلاكهم.

٢. هود ١١:٦١–٦٨

تضيف معنى مهمًا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، والاستغفار والتوبة، وقولهم لصالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾، ثم الناقة، وعقرها، ومهلة الثلاثة أيام، ونجاة صالح والمؤمنين، والصيحة.

٣. الشعراء ٢٦:١٤١-١٥٩

تعرض ثمود في صورة مجتمع يعيش في جنات وعيون وزروع ونخل، وينحت الجبال بيوتًا فارهين، ثم يأتي نداء صالح: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وعدم اتباع أمر المسرفين، وتقسيم الشرب بين الناس والناقة، ثم عقرها والندم ونزول العذاب.

٤. النمل ٢٧:٤٥-٥٣

تضيف عنصر الانقسام الداخلي: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، والتشاؤم بصالح، وتسعة رهط يفسدون في الأرض، ومؤامرتهم على قتل صالح وأهله ليلًا، ومكر الله بهم، ثم نجاة الذين آمنوا واتقوا.

٥. القمر ٥٤:٢٣-٣٢

تظهر اعتراضهم على اتباع بشر واحد منهم، واتهام صالح بالكذب والأشر، وتصف الناقة بأنها فتنة واختبارًا، وتقسيم الماء، ثم: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾، ثم صيحة واحدة جعلتهم كهشيم المحتظر.

٦. الشمس ٩١:١١-١٥

تختصر المأساة في كلمات شديدة:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

وتوجد مواضع قرآنية أخرى عن ثمود يجب ألا نغفلها:

إبراهيم ١٤:٩.

الحجر ١٥:٨٠-٨٤ في أصحاب الحجر.

الإسراء ١٧:٥٩ في الناقة المبصرة.

الحج ٢٢:٤٢.

الفرقان ٢٥:٣٨.

العنكبوت ٢٩:٣٨.

ص ٣٨:١٣.

فصلت ٤١:١٧-١٨.

ق ٥٠:١٢.

الذاريات ٥١:٤٣-٤٥.

النجم ٥٣:٥١.

الحاقة ٦٩:٤-٥.

الفجر ٨٩:٩.

وهذه المواضع لا تعيد القصة كاملة، لكنها تؤكد أن ثمود أصبحت في القرآن مثالًا متكررًا على الحضارة التي رأت الآية ثم اختارت التكذيب.

مواضع قرآنية إضافية يجب ألا تُسقط

إلى جانب المقاطع التي تسرد قصة صالح وثمود مباشرة، ترد ثمود في مواضع أخرى بوصفها أمة سابقة صار هلاكها عبرة لمن جاء بعدها.

في سورة التوبة ٩:٧٠ تُذكر ثمود مع قوم نوح وعاد وغيرهم ضمن الأمم التي كذبت رسلها.

وفي هود ١١:٨٩ يحذّر شعيب قومه مما أصاب قوم نوح وهود وصالح، ويذكّرهم أيضًا بقوم لوط. وفي هود ١١:٩٥ يأتي تشبيه بُعد مدين ببُعد ثمود.

وفي غافر ٤٠:٢٨-٣١ يذكّر رجل مؤمن من آل فرعون، يكتم إيمانه، بمصائر قوم نوح وعاد وثمود. لم يسمّه القرآن، فلا نضع له اسمًا في الحصر القرآني.

وفي فصلت ٤١:١٣ يأتي الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

هذه الآيات لا تضيف أحداثًا جديدة إلى سيرة صالح، لكنها توسّع موقع ثمود في الذاكرة القرآنية: لم تصبح قصتهم حادثة محلية منسية، بل مثالًا متكررًا على حضارة جاءتها الحجة ثم اختارت التكذيب.

الشخصيات في النص القرآني وحدود التسمية

يسمّي القرآن صالحًا، ويصف المؤمنين والمستضعفين والمستكبرين والمسرفين، وتسعة رهط، وصاحب العقر الموصوف بأشقاها، وأهل صالح ووليّه. ولا يسمّي الرجال التسعة، ولا امرأة بعينها من ثمود، ولا زوجة صالح أو أمه أو أبناءه. يشمل الحصر هذه الشخصيات والجماعات غير المسماة أيضًا؛ فلا يتحول غياب الاسم إلى إسقاطها أو اختراع اسم لها (٧:٧٣-٧٩؛ ٢٦:١٤١-١٥٩؛ ٢٧:٤٥-٥٣؛ ٥٤:٢٩؛ ٩١:١٢).

ويرتبط بالقصة في الإحالات القرآنية نوح وهود وشعيب ولوط، وموسى في سياق إبراهيم ١٤:٥-٩، والمؤمن من آل فرعون في غافر ٤٠:٢٨-٣١. ترد هذه الشخصيات للعبرة والمقارنة، لا بوصفها مجتمعة في واقعة واحدة. والناقة آية محورية، وليست «شخصية نسائية» بشرية.

ثمود — من هم؟

القرآن لا يقدم لنا نسب ثمود كاملًا، ولا سلسلة آبائهم، ولا تاريخًا زمنيًا مفصلًا.

لكنه يقدمهم أمةً جاءت بعد عاد.

قال تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾.

وهذا يكفي لإثبات ترتيب عام:

عاد قبل ثمود.

هود قبل صالح.

أما كل سلسلة نسب تُربط بثمود بن فلان بن فلان، فهي من كتب النسب والتاريخ، لا من القرآن.

القرآن يربط ثمود بالقوة العمرانية:

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

ويصف أصحاب الحجر بأنهم:

﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

والتفسير الإسلامي المشهور يربط أصحاب الحجر بثمود.

وهذا الربط قوي في التراث التفسيري، لكننا نفرق بين لفظ القرآن نفسه وبين تحديد المفسرين لهوية أصحاب الحجر.

صالح عليه السلام — نبي من قومه

يقول القرآن:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

الأخوة هنا أخوة قوم ونسب اجتماعي، لا أخوة في العقيدة؛ لأنه كان يدعو قومًا وقع فيهم الشرك.

والقرآن لا يعطينا نسب صالح الكامل، ولا اسم أبيه، ولا اسم أمه، ولا تاريخ ولادته.

كل ذلك إذا ورد في كتب التاريخ أو بعض الروايات فإنه يأتي بعد النص القرآني لا قبله.

وفي حديث أبي ذر المروي في الخصال ومعاني الأخبار، ورد أن أربعة من الأنبياء كانوا من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد صلى الله عليه وآله.

ورد ذلك في حديث أبي ذر في الخصال ومعاني الأخبار. نثبت نسبته إلى المصدرين من غير الجزم بصحة طريقه كله، ولا نجعله آية قرآنية [م٦، م٧].

نسب صالح — أسماء في المصادر لا شجرة نسب قرآنية

ينقل البحار عن قصص الراوندي نسبًا بصيغة: صالح بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح. ويورد ابن كثير سلسلة أخرى: صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح؛ وفي حاشية طبعته اختلاف في «ماسح». نثبت موضع الاختلاف، ولا نسوّي بين عاثر وعابر أو حاجر أو غيرها بلا تحقيق نسخي. كما يذكر جديس أخًا لثمود. هذه أسماء أنساب في المصادر، لا أسماء قرآنية لأسرة صالح ولا دليلًا مستقلًا على نبوة كل فرد فيها [م٥، ح٢؛ م١٤].

﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ — صالح في توقعات قومه

من أجمل المفاتيح النفسية في قصة صالح قول قومه:

﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾.

كانوا يرجون فيه شيئًا.

ربما مكانة.

ربما قيادة.

ربما استمرارًا في تقاليدهم.

لكن المشكلة بدأت عندما اصطدمت دعوتُه بالموروث الديني:

﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

إذن الأزمة لم تكن في أخلاق صالح ولا في معرفتهم به.

كانت في أنه طالبهم بمراجعة ما ورثوه.

والقرآن هنا يرسم قاعدة تتكرر في تاريخ الأنبياء:

احترام المجتمع للشخص قد ينقلب إلى رفض حين يطلب منه التخلي عن الباطل الذي ورثه.

رسالة صالح — التوحيد، التوبة، وعمارة الأرض

قال صالح:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

هذه هي البداية نفسها التي رأيناها في دعوة هود.

التوحيد ليس تفصيلًا داخل الرسالة.

هو أساسها.

ثم أضاف صالح معنى عظيمًا:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

أي أن وجود الإنسان في الأرض ليس وجودًا عبثيًا.

لقد أُنشئ فيها وجُعل قادرًا على عمرانها.

لكن العمران في القرآن لا ينفصل عن العبودية.

فقد امتلكت ثمود قدرة هائلة على البناء، ومع ذلك لم ينقذها العمران حين فسدت علاقتها بالله.

ثم قال:

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

قبل الناقة.

وقبل المؤامرة.

وقبل العذاب.

كان باب التوبة مفتوحًا.

﴿فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾

تكتمل حجة صالح في هود ١١:٦٣ بإعلانه أنه على بيّنة ورحمة من ربه، وأن موافقة قومه على مخالفة الوحي لا تنصره من الله. التعبير الشرطي لا يخبر بوقوع المعصية منه؛ بل يكشف امتناعه عن ترك الحق طلبًا لرضاهم. وبذلك تتصل دعوته إلى التوبة بثباته على الرسالة.

حضارة ثمود — جنات وعيون وبيوت منحوتة في الجبال

يقول صالح لقومه في سورة الشعراء:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾.

لم تكن ثمود جماعة فقيرة لا تملك شيئًا.

النص يقدمها أمةً ذات:

ماء.

وزراعة.

ونخيل.

وأمن.

ومهارة هندسية.

وقدرة على تطويع الصخر.

لكن صالح لم يطلب منهم ترك الحضارة.

طلب منهم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

المشكلة إذن لم تكن في القوة.

بل فيمن يقود القوة.

ولا في البناء.

بل في الفساد الذي يسكن خلف البناء.

المؤمنون والمستكبرون — الانقسام داخل ثمود

في سورة الأعراف لا يظهر القوم ككتلة واحدة.

قال الملأ المستكبرون للذين استُضعفوا ممن آمن:

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

فقال المؤمنون:

﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

فرد المستكبرون:

﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وفي سورة النمل:

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

هذه نقطة مهمة:

ثمود لم تكن جماعةً متفقة ثم جاءها العذاب بلا تمييز.

كان فيها مؤمنون.

وكان فيها مستكبرون.

والقرآن يثبت أن الله نجّى صالحًا والذين آمنوا معه.

التشاؤم بصالح — حين يتحول النبي إلى متهم

قالوا:

﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

أي جعلوا صالحاً والمؤمنين سبب الشؤم الذي أصابهم.

فرد:

﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

وسبق ذلك في ترتيب الآيات قوله:

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام، فُسر تطيرهم بصالح بما أصابهم من قحط، فجعلوا البلاء شؤمًا من النبي ومن معه.

وهنا يكرر صالح فتح باب الاستغفار بدل قبول منطق الخرافة.

الناقة في القرآن — ما الذي يثبته النص؟

القرآن يثبت أمورًا واضحة:

أنها ناقة الله.

أنها آية.

أن لها حقًا في الشرب.

أن للقوم حقًا في الشرب في يوم آخر.

أنهم نُهوا عن مسها بسوء.

أن عقرها كان جريمةً فاصلة.

أنها كانت فتنة واختبارًا.

قال تعالى:

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾.

وقال:

﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقال:

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾.

لكن القرآن لا يقول صراحة:

إن الناقة خرجت من صخرة.

ولا يحدد لونها.

ولا حجمها.

ولا عدد من شاهد خروجها.

ولا اسم عاقرها.

هذه التفاصيل تأتي من الروايات.

حديث الكافي الأول — التحدي بين أصنام ثمود وآية الله

في روضة الكافي، الحديث ٢١٣، ينقل أبو حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام سؤال النبي صلى الله عليه وآله جبرئيل عن هلاك قوم صالح. وحكم المجلسي على طريقه بالحسن في مرآة العقول، ج٢٦، ص٧٧ [م١، م٣].

تقول الرواية إن صالحاً بُعث إلى قومه وهو ابن ست عشرة سنة، وبقي يدعوهم حتى بلغ مائة وعشرين سنة، وإن لهم سبعين صنمًا.

هذه الأرقام ليست في القرآن.

لكنها جزء من رواية إمامية مهمة.

وتصور الرواية صالحاً وهو يعرض عليهم امتحانًا:

إما أن يسأل هو آلهتهم فيستجيبوا له، فيتركهم.

وإما أن يسألوه ما يشاؤون، فيدعو ربه.

خرج القوم بأصنامهم، فناداها صالح بأسمائها فلم تجبه.

ثم اختاروا سبعين رجلًا من كبارهم، وطلبوا آية مخصوصة.

هنا تصل الرواية إلى ما لا يذكره القرآن:

طلبوا ناقةً بصفات محددة تخرج من الجبل.

فدعا صالح الله.

وتصدع الجبل.

وخرجت الناقة، ثم ولدت فصيلها حين دعا صالح ربه استجابة لطلبهم؛ فالخبر يقول إنها ألقته فدبّ حولها، ولا يقول إن الفصيل خرج مستقلًا من الجبل [م١].

وتذكر الرواية أن السبعين قالوا أولًا إنهم سيؤمنون إن وقعت الآية.

لكن قبل عودتهم إلى القوم ارتد أربعة وستون منهم وقالوا: سحر وكذب.

وبقي ستة يشهدون بالحق، ثم ارتاب واحد من هؤلاء الستة، وكان لاحقًا فيمن شارك في عقر الناقة بحسب الرواية.

هذه المادة بالغة الأهمية لأنها تصور مشكلة لم تكن في نقص الدليل، بل في انقلاب الإنسان على ما رآه.

السبعون وسعيد بن يزيد — ضبط هوية الشهود

الخمسة الباقون بعد ارتياب واحد من الستة لا يمثلون بالضرورة مجموع المؤمنين كلهم، ولا يذكر الحديث أسماءهم. لا ننقل أسماء جندع أو غيره من مصدر تاريخي إلى هذه المجموعة بلا نص. وفي خاتمة الحديث يقول الحسن بن محبوب إنه حدّث سعيد بن يزيد، فذكر هذا الأخير أنه شاهد أثرًا في جبل بالشام؛ فهذا تعقيب راوٍ متأخر، لا شهادة رجل من أصحاب صالح ولا جزء من كلام جبرئيل [م١].

هل خرجت الناقة من الصخرة؟

في القرآن: لا يوجد نص يقول إنها خرجت من الصخرة.

في روايات الكافي وتفسير القمي: نعم، توجد روايات تفصل هذا الأمر.

ولهذا ستكون صياغة الكتاب:

«ورد في الروايات الإمامية أن ثمود طلبت من صالح أن يخرج لهم ناقة من صخرة أو جبل، وأن الله أظهر لهم الآية كما طلبوا».

ولا نقول:

«يقول القرآن إن الناقة خرجت من الصخرة».

هذا التفريق ضروري.

الماء واللبن — آية لا تضرهم ومع ذلك رفضوها

القرآن يقول:

﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

أي أن الماء قُسّم بينهم وبين الناقة.

وفي الحديث ٢١٤ من روضة الكافي، المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام، يرد تفصيل إضافي. وهذا الطريق حكم عليه المجلسي بالضعف [م٢، م٣]:

كانت تشرب الماء في يومها، ثم يحلبون منها فينتفع الصغير والكبير من لبنها، وفي اليوم الآخر يشرب الناس من الماء ولا تشرب هي.

وتؤكد الرواية أن الناقة لم تكن ضررًا بلا منفعة، بل كانت لهم منها منفعة عظيمة.

وهنا يصبح الامتحان أكثر وضوحًا:

لم يُطلب منهم أن يقدموا أرواحهم.
ولا أن يهجروا مساكنهم.
بل أن يحترموا حدًا وضعه الله:
يوم للناقة.
ويوم لهم.
لكن الاستكبار جعلهم يرون حتى هذا الحد اعتداءً على حريتهم.

من عقر الناقة؟ — فرد ارتكب والجماعة تبنت

القرآن يستخدم أكثر من صيغة:
﴿فَعَقَرُوهَا﴾ — نسبة الفعل إلى الجماعة.
﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ — شخص باشر.
﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ — أشقى القوم تحرك للفعل.
هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع المسؤولية الفردية والجماعية.
قد يباشر شخص الجريمة بيده، لكن الجماعة التي طلبت وأيدت ورضيت وشاركت في القرار تصبح مسؤولة عنها.
وفي حديث الكافي ٢١٤ يسمّى العاقر «قُدار»، بضم القاف؛ أما «ابن سالف» فيرد في الشروح وأخبار التفسير. ولا يسمّيه القرآن [م٢، م٣].
وتصفه الرواية بأنه الرجل الذي قبل الجعل على قتل الناقة.
ثم تقول إن القوم شاركوه في الاعتداء واقتسموا من لحمها.
وترد أسماء نساء ورجال آخرين في كتب التفسير والقصص؛ سنثبتها مع مصادرها وحدودها، من غير نسبتها إلى القرآن أو إلى الإمام بلا إسناد يصرّح بذلك.

رضا الجماعة بالفعل — تفسير أمير المؤمنين عليه السلام للمسؤولية الجماعية

هذه النقطة لا ينبغي أن تبقى مجرد استنتاج من اختلاف صيغ القرآن بين المفرد والجمع.
ففي نهج البلاغة يشرح أمير المؤمنين عليه السلام أن الناس يجمعهم الرضا والسخط، ويستشهد بثمود: الذي باشر عقر الناقة كان رجلًا واحدًا، لكن العذاب عمّ القوم لأنهم عمّوه بالرضا [م٩].
وهذا يفسر بوضوح لماذا يقول القرآن من جهة: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾، ثم ينسب الجريمة من جهة أخرى إلى الجماعة: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

إذن مسؤولية ثمود لم تكن لأن كل فرد أمسك السلاح بيده، بل لأن الجريمة أصبحت قرارًا اجتماعيًا مقبولًا ومؤيدًا داخل الجماعة التي تمردت على أمر الله.

وهذه قاعدة أخلاقية واسعة في حكاية الهداية: الرضا الواعي بالظلم قد يجعل الإنسان شريكًا في مسؤوليته حتى لو لم يباشر الفعل بيده.

عاقر الناقة في الذاكرة النبوية وروايات أهل البيت

لم تنتهِ دلالة عاقر ناقة ثمود بانتهاء قوم صالح.

ففي روايات نبوية نقلتها مصادر متعددة، ومنها ما أورده المجلسي في باب قصة صالح، وورد المعنى أيضًا في أمالي الشيخ الصدوق في خطبة شهر رمضان، صار عاقر الناقة مثالًا لـ«أشقى الأولين»، وقورنت جريمته بجريمة قاتل أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وفي أمالي الصدوق يرد التعبير: «شقيق عاقر ناقة ثمود» في وصف قاتل أمير المؤمنين [م٨].

هذه الروايات لا تضيف حدثًا جديدًا إلى حياة صالح، لكنها تكشف كيف بقيت جريمة ثمود رمزًا دينيًا للتمرد الواعي على آية الله والاعتداء على حجته.

ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ تجاوز في الذاكرة الروائية كونه وصفًا لشخص تاريخي، وأصبح نموذجًا يُستعاد للتحذير من أقصى صور الشقاء والعدوان.

الرجال والنساء في أخبار العقر — حصر مع نسبة كل خبر

نذكر هنا ما غاب من الأسماء، مع إبقاء أخبار التفسير والتاريخ منفصلة عن روايتي الكافي. قُدار في الحديث٢١٤ ليس اسمًا قرآنيًا، وما في الخبر من وصف نسبه لا يجعل الإنسان مؤاخذًا بذنب غيره؛ فأصل المسؤولية الشخصية ثابت في الأنعام ٦:١٦٤.

في تفسير الطبري عن ابن إسحاق ترد صدوف بنت المحيا، وزوجها المؤمن صنتم بن هراوة، وأبناؤهما وبناتهما غير المسمين؛ وترد عنيزة بنت غنم، المكنّاة أم غنم، زوجة ذؤاب بن عمرو، وبناتها. يربط الخبر صدوف بمصدع بن مهرج، وعنيزة بقُدار، ويذكر الحباب الذي رفض العرض. ويسمي سالفًا وصهيادًا في اختلاف نسبة قُدار. يختلف رسم بعض الأسماء والكنى عند ابن كثير، فلا نختار ضبطًا واحدًا ثم نزعم اتفاق المصادر [م١٣، م١٤].

وفي التذنيب الذي جمعه البحار يرد اسم «غنيرة» في موضع، ثم «عنيزة» في موضع تالٍ. وينقل عن كعب قصة ملكاء، الموصوفة بملكة ثمود، وقطام المرتبطة بقُدار، وقبال المرتبطة بمصدع. هذا نقل قصصي منسوب إلى كعب، وليس حديثًا عن إمام، ولا نثبت به ملكية امرأة لثمود أو تلك العلاقات يقينًا. ولا تخلط قطام هذه بامرأة أخرى تحمل الاسم في أخبار لاحقة [م٥، التذنيب].

ويذكر ابن كثير كلبة بنت السلق، ويقال لها الذريعة، في حكاية فرار امرأة ثم موتها بعد أن أخبرت قومًا آخرين. نثبت ورودها في مصدر تاريخي، ولا نرفع الحكاية إلى القرآن أو نجعلها امرأة مؤمنة ناجية. وهكذا لا تُسقط النساء من مراجعة الأخبار، ولا تُجعل أسماء القصص حقائق بلا تمييز [م١٤].

التسعة الذين يفسدون في الأرض

قال تعالى:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

هذه من أخطر صور القصة.

الفساد لم يكن مجرد خطأ جماعي عشوائي.

كان هناك مركز منظّم للفساد.

ثم قالوا:

﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

أي أنهم لم يكتفوا بعقر الناقة.

خططوا لقتل النبي وأهله ليلًا، ثم إنكار الجريمة.

قال تعالى:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

تفسير القمي ومصير أصحاب المؤامرة

في رواية أبي الجارود المنقولة في تفسير القمي، فُسر قوله تعالى عن التسعة رهط بأنهم كانوا يعملون بالمعاصي ويفسدون في الأرض.

وتذكر الرواية أنهم أتوا صالحاً ليلًا ليقتلوه، وأن ملائكةً كانت تحرسه فرجمتهم بالحجارة، فأصبحوا مقتولين، ثم جاءت الرجفة على قومهم [م٥، ح٧].

هذه كيفية روائية لتفسير قوله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾.

القرآن نفسه لا يقول إن الملائكة رجمتهم بالحجارة.

ولذلك ننسب هذا التفصيل إلى الرواية، لا إلى القرآن.

أسماء التسعة وأفراد ثمود في مصادر المقارنة

تسمي قائمة منسوبة إلى ابن عباس في التفسير، نقلها البحار: قُدار بن سالف، ومصدع، ودهمى، ودهيم، ودعمي، ودعيم، وأسلم، وقبال، وصداق. لا تُنسب هذه القائمة إلى القرآن أو إلى إمام، ولا يثبت بمجرد الاسم أن قبال فيها هي المرأة التي ذكرها خبر كعب [م٥، تفسير النمل٢٧:٤٨].

ويورد الطبري أسماء هويل بن ميلغ، ودعير بن غنم، ودأب بن مهرج، في مجموعة العاقرين، بلفظ عددي لا يستقيم جمعه على التسعة في النص المتداول؛ فلا نكمل العدد تخمينًا. ويذكر جندع بن عمرو المؤمن، وشهاب بن خليفة الذي صُرف عن الإجابة، وذؤاب والحباب ورباب بن صمعر المانعين، ومهوس بن عنمة القائل شعرًا. هذه شخصيات خبر ابن إسحاق، لا أسماء يثبتها حديث الكافي٢١٣ لشهوده [م١٣].

أما «وليّه» في النمل٢٧:٤٩ فهو غير مسمى؛ ويفسره النقل بذي رحم صالح. لا تكفي الكلمة وحدها لتعيين وصي نبوي أو ابن أو وارث معين، ولا تسمّي الآية أهل صالح الذين استهدفهم التبييت.

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ — آخر مهلة

بعد عقر الناقة قال صالح:

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

هذه المهلة ثابتة بالقرآن.

ويضيف حديث الكافي ٢١٤، الذي حكم المجلسي بضعف طريقه، قبول توبتهم لو رجعوا واستغفروا في هذه المهلة. فنحفظه بوصفه مضمون هذا الخبر، ولا ننسب هذا التفصيل إلى آية المهلة نفسها [م٢، م٣].

هذه إضافة شديدة الأهمية.

حتى بعد قتل الآية، تذكر الرواية أن باب التوبة لم يغلق فورًا.

وتذكر الرواية علامات في الوجوه خلال الأيام الثلاثة:

اصفرارًا.

ثم احمرارًا.

ثم اسودادًا.

هذه التفاصيل ليست في القرآن، ولذلك تُذكر بصفتها رواية.

كيف أهلكت ثمود؟ — الرجفة والصيحة والصاعقة والطاغية

قد يظن القارئ أن القرآن يذكر عقوبات مختلفة متناقضة.

لكن النص يستخدم أوصافًا متعددة للحدث نفسه أو لجوانب متعددة من الهلاك.

في الأعراف:
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

في هود:
﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾.

في فصلت:
﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾.

في الذاريات:
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

في الحاقة:
﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾.

في القمر:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

وفي الشمس:
﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

هذه التعابير لا يلزم أن تدل على حوادث منفصلة؛ ويمكن فهمها أوصافًا لجوانب من العذاب نفسه.

يمكن أن تصف عناصر الحدث:

صيحة مدمرة.

صاعقة.

رجفة.

وعذاب طاغٍ شامل.

ويذكر حديث الكافي ٢١٤ جبرئيل والصيحة والنار، مع تعبيره عن مجيئه بنصف الليل. أما الحجر ١٥:٨٣ فيصرّح بأخذهم مصبحين. نثبت هذا الاختلاف، ولا نجعل محاولة الجمع بين الزمنين حقيقة قرآنية؛ ولا سيما أن المجلسي ضعّف طريق الخبر [م٢، م٣].

هذه تفاصيل روائية تكمل الصورة ولا نساوي بينها وبين النص القرآني في درجة الثبوت.

اختلاف ألفاظ العذاب وحدود المسؤولية

يبدأ تغير الوجوه بالاصفرار في الكافي٢١٤، وبالابيضاض في نقل تفسير القمي؛ وقد علّق المجلسي على الفرق. نحفظه بدل حذف أحد اللفظين. وألفاظ الاستئصال في الأخبار لا تلغي نجاة المؤمنين التي

نص عليها القرآن، ولا تسوّغ نسبة الذنب إلى الأطفال. مسؤولية المشاركة والرضا تُبحث في حق من يصح منه القصد والتكليف [م٢، م٥، ح٨ و١١؛ هود١١:٦٦؛ الأنعام٦:١٦٤].

صالح والمؤمنون نجوا

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾.

وقال:

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

هذه الآيات مهمة لأنها تمنع قراءة العذاب بوصفه حدثًا أعمى.

هناك تمييز.

المؤمنون نجوا.

والذين آمنوا لم يكونوا مجرد متفرجين، بل جماعة وقفت مع صالح في مجتمع منقسم.

خطاب صالح بعد الهلاك — أبلغت ونصحت

بعد أن أخذتهم الرجفة قال صالح:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

هذا الخطاب يلخص وظيفة النبي:

تبليغ.

ونصيحة.

وصبر.

ثم ليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان.

والآية تكشف مأساة القوم:

لم تكن مشكلتهم أن النصيحة لم تصل.

بل أنهم لم يحبوا الناصحين حين اصطدمت النصيحة بأهوائهم.

حديث الكافي الثاني — قوم ثمود في رواية الإمام الصادق

في روضة الكافي، باب «قوم ثمود»، وردت رواية طويلة عن الإمام الصادق عليه السلام تبدأ بتفسير قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾.

وتذكر أن ثمود عظمت صخرة وكانت تجتمع عندها وتذبح، ثم طلبت من صالح أن يخرج منها ناقة عشراء.

وتعيد الرواية تفاصيل الشرب واللبن، ثم تسمّي العاقر «قدارًا»، وتصف تنفيذ الجريمة، ومشاركة القوم فيها، والإنذار ثلاثة أيام، ثم الصيحة والهلاك.

هذه الرواية واسعة جدًا ومهمة في جمع صورة القصة داخل التراث الإمامي.

لكن علينا أن نميزها عن حديث الباب السابق الذي حكم المجلسي عليه بالحسن.

وقد تحققنا من نص مرآة العقول، ج٢٦، ص٧٩: حكم المجلسي على الحديث ٢١٤ بأنه «ضعيف». فلا تُنقل درجة الحديث ٢١٣ إليه، ولا يلزم من ضعف الطريق بطلان كل مضمون وافق القرآن أو ثبت بدليل مستقل [م٢، م٣].

غيبة صالح في كمال الدين — رواية مهمة لا ينبغي نسيانها

خصص الشيخ الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة بابًا بعنوان:

«في غيبة صالح عليه السلام».

يروي الصدوق عن زيد الشحّام، عن الإمام الصادق عليه السلام، أن صالحًا غاب عن قومه زمانًا ثم رجع بصورة لم يعرفوه بها. هذا خبر مستقل في الباب الثالث، ص١٣٦-١٣٧، لا تفصيل قرآني [م٤].

وتقسم الرواية الناس إلى ثلاث طبقات:

جاحدون لا يرجعون.

وشاكون.

وأهل يقين.

بدأ صالح بالشاكين فقال: أنا صالح، فكذبوه.

ثم ذهب إلى الجاحدين فازدادوا نفورًا.

ثم جاء إلى أهل اليقين.

فطلبوا منه علامة، فقال لهم:

أنا صالح الذي أتيتكم بالناقة.

فسألوه عن علامتها.

فقال:

لها شرب ولكم شرب يوم معلوم.

فعرفوه وآمنوا به.

وفي جواب سؤال زيد الشحّام تؤكد الرواية عدم خلو الأرض من عالم، ثم تذكر سبعة أيام لا يعرف القوم فيها إمامًا بعينه وهم متمسكون بدينهم. فعدم معرفتهم لا يعني انعدام الحجة، والسبعة ليست نصًا في مجموع مدة غيبة صالح [م٤].

ويقول الإمام الصادق في نهاية الرواية:

إن مثل القائم عليه السلام مثل صالح.

هذه الرواية ليست جزءًا من القصة القرآنية المباشرة.

لكنها شديدة الأهمية في التراث الإمامي، لأنها تجعل قصة صالح مثالًا على:

الغيبة.

والثبات في فترة غياب الحجة عن المعرفة المباشرة.

والتمييز بين أهل اليقين والشاكين والجاحدين.

والتعرف على الحجة بالعلامة لا بمجرد الشكل.

هل غياب صالح كان قبل العذاب أم بعده؟

الرواية في كمال الدين لا تعطينا جدولًا زمنيًا مفصلًا يربط كل جزء منها بعقر الناقة والعذاب على نحو لا يحتمل الاحتمال.

ولهذا لا ينبغي أن نضعها داخل خط زمني صارم لمجرد الرغبة في ترتيب الأحداث.

الأصح أن نقول:

توجد في التراث الإمامي رواية مستقلة عن غيبة صالح وعودته.

ويضع المجلسي هذه الغيبة بعد هلاك الكافرين، في تعليقه عقب نقل خبر الراوندي في بحار الأنوار، ج١١، الباب٦، الحديث١٢. هذا تحديد من الشارح نثبته باسمه، ولا ننسبه إلى تصريح مستقل في متن كمال الدين [م٤، م٥].

صالح والعرب في حديث أبي ذر

ورد في الخصال ومعاني الأخبار في حديث أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«وأربعة من الأنبياء من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك محمد».

هذه الرواية تساعد في فهم سبب ورود خطاب صالح بلسان قومه وفي بيئة عربية بحسب الموروث الإسلامي.

لكن القرآن نفسه لا يقول:

«صالح من الأنبياء العرب».

ولذلك تكون الصياغة:

«ورد في حديث أبي ذر عند الصدوق أن صالحًا واحد من أربعة أنبياء من العرب».

فاطمة وحواء وشخصيات المقارنة الروائية

في الخصال، باب «الأربعة الذين يركبون يوم القيامة»، يذكر الخبر٢٠ محمدًا وعليًا وفاطمة وصالحًا، ويجعل صالحًا على ناقته وفاطمة على العضباء. ويَرِد حمزة وجعفر في افتتاح الخبر، لا ضمن الأربعة المعدودين فيه. أما الخبر١٩ فيذكر حمزة مكان فاطمة، والعباسَ سائلًا؛ وقد وصفه الصدوق بالغريب. نثبت اختلاف الخبرين، ولا نحولهما إلى قائمة واحدة متفق عليها. صلة فاطمة هنا أخروية، لا معاصرة لثمود [م١٠].

وفي خبر سؤال ملك الروم للإمام الحسن، تذكر حواء مع آدم، وكبش إبراهيم، وناقة صالح، وحية الجنة والغراب وإبليس في تعداد مخلوقات لم تخرج من رحم. ملك الروم غير مسمى؛ والراوي سفيان بن أبي ليلى. هذا خبر في الخصال، لا نص قرآني في كيفية خلق الناقة [م١١].

وينقل البحار خبر سؤال رجل شامي غير مسمى لأمير المؤمنين، وفيه آدم وحواء وكبش إبراهيم وعصا موسى وناقة صالح والطير المنسوب إلى معجزة عيسى ابن مريم. فحواء ومريم مذكورتان في نطاق المقارنة والنسب، وليس في قصة أسرة صالح؛ كما أن تخصيص الطير بالخفاش تفصيل روائي، لا لفظ القرآن في آل عمران٣:٤٩ [م٥، ح٩].

الحجر — المكان والآثار وحدود ما نستطيع قوله

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

الموروث التفسيري الإسلامي يربط أصحاب الحجر بثمود.

والآثار المعروفة اليوم في منطقة الحجر/مدائن صالح ترتبط تاريخيًا بمراحل متعددة، وبعض أشهر الواجهات الصخرية الباقية من فترات لاحقة، ولا يصح أن نقول إن كل مبنى أثري قائم اليوم هو بيت ثمودي قطعي من زمن صالح.

إذن نفرق بين ثلاثة أمور:

القرآن يثبت أصحاب الحجر ونحتهم الجبال.

التفسير يربطهم بثمود.

أما الواجهات الجنائزية المزخرفة الباقية في موقع الحجر الأثري فتصفها اليونسكو بأنها نبطية، تعود إلى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي؛ فلا نجعلها تلقائيًا مساكن ثمود زمن صالح [م١٥].

هل كانت الناقة وحدها آية؟

قال تعالى في سورة الحجر:

﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وجاء في الإسراء:

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

الناقة هي الآية الأوضح والأشهر في قصة صالح.

لكن صيغة الجمع «آياتنا» قد تحتمل تعدد وجوه الدلالة أو آيات أخرى.

ولا ينبغي أن نسمي آيات إضافية بأسمائها إلا إذا ثبتت في مصدر.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ — قدسية الحد الذي وضعه الله

إضافة الناقة إلى الله ليست بمعنى أن الله يحتاج إلى ناقة أو يملكها كملكية البشر.

هي إضافة تشريف واختصاص.

كما يقال:

بيت الله.

وحرم الله.

وناقة الله.

ثم جاء معها حق:

﴿وَسُقْيَاهَا﴾.

وهنا يصبح الاعتداء على الناقة اعتداءً على حد من حدود الله.

فالقصة ليست قصة حيوان فقط.

إنها قصة مجتمع قيل له:

هذه آية.

وهذا حق.

ولا تتجاوزوه.

فاختار أن يكسر الحق عمدًا.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ — محور الفساد

في سورة الأعراف جاء بعد ذكر النعم:

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وفي الشعراء:

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وفي النمل:

﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

كلمة «الفساد» تتكرر.

وهذا يوضح أن كفر ثمود لم يكن فكرة في القلب فقط.

تحول إلى نظام اجتماعي:

قيادات مفسدة.

وتحدٍ للرسول.

وتهديد للآية.

ومؤامرة قتل.

الندم بعد عقر الناقة

في سورة الشعراء:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۝ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

الندم ليس دائمًا توبة.

قد يندم الإنسان حين يرى نتيجة فعله دون أن يرجع إلى الله رجوعًا صادقًا.

وهذا ينسجم مع الرواية التي تقول إن صالحًا عرض عليهم التوبة في مهلة الأيام الثلاثة، لكن العتاة أصروا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ — التكذيب الذي يتحول إلى فعل

في سورة الشمس جُمعت المراحل:

تكذيب.

ثم انبعاث أشقى القوم.

ثم تحذير الرسول.

ثم عقر الناقة.

ثم الدمدمة.

وهذا مهم في حكاية الهداية:

الكفر ليس دائمًا لحظة فكرية ساكنة.

قد يتحول إلى قرار.

والقرار إلى جماعة.

والجماعة إلى جريمة.

ثم تصبح الجريمة حدًا فاصلًا لا يبقى بعده إلا التوبة أو العقوبة.

صالح والرحمة قبل العذاب

من الخطأ أن نقرأ قصة صالح وكأن الله أرسل الناقة فقط ليعذب القوم بعدها.

القرآن يقدم سلسلة طويلة من الرحمة:

رسول منهم.

ودعوة واضحة.

وتذكير بالنعم.

ودعوة للاستغفار.

وآية طلبوها.

وتقسيم منظم للماء.

وتحذير من مس الناقة.

ثم، بعد عقرها، مهلة ثلاثة أيام.

والرواية تضيف إمكان التوبة خلال تلك المهلة.

إذن العذاب هو نهاية سلسلة من الإنذارات، لا بدايتها.

ماذا عن عمر صالح؟

القرآن لا يذكر عمره.

أما حديث الكافي ٢١٣، الحسن عند المجلسي، فيذكر بعثته في السادسة عشرة وبلوغه مائة وعشرين أثناء الدعوة. لا يحدّد هذا العدد عمره عند الوفاة، ولا مدة حياته بعد النجاة [م١، م٣].

إذن يمكن أن نقول:

«ورد في حديث حسن عند المجلسي في مرآة العقول أن صالحًا بُعث في السادسة عشرة واستمرت دعوته حتى بلغ مائة وعشرين سنة».

ولا نقول:

«ثبت بالقرآن أن عمر صالح كان كذا».

ما اسم ابن الناقة وما مصيره؟

القرآن لا يذكر فصيل الناقة.

يذكر الحديث ٢١٣ ولادة الفصيل بعد خروج أمه؛ ويذكر الحديث ٢١٤ هربه إلى الجبل ورغاءه ثلاث مرات بعد قتلها. هذان تفصيلان في خبرين مختلفين، وليس أولهما خروج الفصيل من الصخر [م١، م٢].

وفي تفسير القمي، في قصة هود ١١:٦١-٦٨، يرد قتل الفصيل أيضًا. لذلك لا نحسم مصيره من مجموع أخبار مختلفة الألفاظ والأسانيد، ولا نمنحه اسمًا لا تذكره هذه النصوص [م٥، ح٨].

لذلك نثبت أصل وجود الفصيل في الرواية، ولا نبني قصة مستقلة طويلة عليه بلا سند محقق.

ما بعد هلاك ثمود — نجاة صالح، حياته اللاحقة، وموضع قبره

القرآن يثبت أمرًا واضحًا:

صالح عليه السلام نجا.

والذين آمنوا معه نجوا برحمة من الله.

لكنه لا يخبرنا:

إلى أين انتقل صالح بعد هلاك ثمود،

كم عاش بعد ذلك،

متى توفي،

ولا أين دُفن.

ولهذا لا يجوز أن ننسب موضع قبره إلى القرآن.

لكن توجد مادة روائية إمامية مهمة لا ينبغي إسقاطها.

وفي خبر أبي مطر الذي ينقله المجلسي عن تهذيب الأحكام، يسأل الحسنُ أميرَ المؤمنين عليهما السلام عن قتل ابن ملجم بعد ضربه؛ فيأمر بحبسه إلى أن يموت، ويوصي بالدفن في الظهر مع هود وصالح. هذه أسماء واردة في سياق نقل خبر القبر، وليست شخصيات من زمن ثمود [م٥، ح٤].

هذا الخبر يدل على وجود تقليد روائي إمامي يربط قبر صالح — مع هود — بأرض الظهر التي ارتبطت لاحقًا بالغري والنجف.

لكن وجود الرواية لا يكفي وحده لأن نقول إن موضع قبر صالح ثبت يقينًا من جميع الجهات.

فالخبر يحتاج إلى تقويم سنده، وتوجد مواد تاريخية أخرى تعطي مواضع مختلفة.

إذن الصياغة التي يعتمدها هذا الكتاب هي:

القرآن لا يحدد قبر صالح.

وفي التراث الإمامي رواية في تهذيب الأحكام تربط قبره بأرض الظهر/ناحية النجف مع قبر هود.

ونذكرها بوصفها رواية ذات دلالة، لا بوصفها حقيقة قرآنية أو أثرية مقطوعًا بها.

الأسرة والذرية والعلم والوفاة — ما نعرفه وما لا نعرفه

يذكر القرآن «أهل» صالح في سياق مؤامرة التسعة الذين قالوا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، لكنه لا يسمي زوجةً له، ولا أبناءً أو بنات، ولا يبين أيًّا منهم آمن.

ولذلك لا يجوز تحويل كلمة «أهله» إلى شجرة نسب لا يثبتها النص.

ولا يذكر القرآن لصالح كتابًا منزلًا باسمه أو صحفًا محددة، ولا يصف علمًا موروثًا خاصًا سلّمه إلى شخص بعينه بعده.

وتثبت الروايات نبوته، دعوته، معجزته، وصبره، لكننا لا نلحق به صحفًا أو وصيًا مسمى بالقياس إلى أنبياء آخرين من غير نص.

أما وفاته، فقد ثبتت نجاة صالح من العذاب، لكن زمن وفاته بعد ذلك غير مذكور في القرآن.

وكما سبق، توجد رواية إمامية تربط قبره بأرض الغري/النجف، بينما تذكر كتب التاريخ مواضع وأعمارًا أخرى.

ولهذا تبقى التفاصيل المتعلقة بزوجته وذريته وعمره بعد نجاة المؤمنين وموضع وفاته مسائل لا يجوز الجزم بها بلا دليل مستقل.

أبو رغال وخبر أصحاب الرس — ما لا يدمج في سيرة صالح

يرد أبو رغال في الخبر المنقول عن جابر بشأن مرور النبي بالحجر، بوصفه رجلًا من ثمود تأخر عنه العذاب ما دام في الحرم، ثم أصابه عند خروجه. هذا خبر ذو طريقه، لا اسم في القرآن؛ ولا نخلطه تلقائيًا بصاحب الاسم الوارد في قصة أصحاب الفيل [م٥، التذنيب؛ م١٤].

وينقل البحار عن قصص الراوندي، عن الإمام موسى الكاظم، خبرًا يميز بين رسّين، ويصرح بأن الجماعة الأولى ليست التي ذكرها القرآن. وفي خبر هذه الجماعة نبي يسمى «صالحًا»، ورسل مقتولون،

وولي غير مسمى يدعو الحوت، وأتباع ينجون. لا يكفي تشابه الاسم لإثبات أنه صالح ثمود؛ والقرآن يصرّح بنجاة صالح من قومه. ويأتي تفصيل الخبر ومقابلته برواية عيون أخبار الرضا في الفصل الحادي والثلاثين، في مبحث «أصحاب الرس وحدود تأريخهم»، دون اختراع اسم وصي لصالح أو دمج الجماعتين [م٥، ح١٣].

هل كان صالح من أولي العزم؟

القرآن لا يسمي صالحًا من أولي العزم.

وفي العقيدة الإمامية المشهورة، أولو العزم خمسة:

نوح.

وإبراهيم.

وموسى.

وعيسى.

ومحمد صلى الله عليه وآله.

وصالح نبي ورسول عظيم، لكنه ليس واحدًا من الخمسة بحسب هذا الاصطلاح [م١٦].

صالح في سلسلة الهداية — نقطة منهجية شديدة الأهمية

يتتبع هذا الكتاب قصة الأنبياء واستمرار العهد، مع التمييز بين نص كل رواية وما يمكن استنتاجه منها.

لكن رواية اتصال الوصاية المشهورة في أمالي الصدوق تسير من:

نوح

إلى سام

ثم عثامر

ثم برعيثاشا

ثم يافث

ثم برة

ثم جفسيه

ثم عمران

ثم إبراهيم.

ولا تذكر هودًا ولا صالحًا داخل هذه السلسلة المحددة.

هذا لا يعني أن هودًا وصالحًا لم يكونا نبيين.
القرآن يثبت نبوتهما ورسالتهما.
بل يعني أن:
سلسلة الوصاية المذكورة في تلك الرواية ليست قائمة بكل الأنبياء الذين بعثوا في العالم.
ولا يكفي سكوت قائمة واحدة عن هود وصالح لإثبات خطين متوازيين أو ترتيب زمني مفصل. طريق هذا الخبر يمر بمقاتل بن سليمان، فلا نصحح جميع حلقاته التاريخية لمجرد وروده في الأمالي [م١٢].
وهذه نقطة تحمينا من خطأ خطير:
لا نقول إن صالح أوصى إلى شخص معين بعده إلا بنص.
ولا نخترع حلقة بين صالح وإبراهيم.
ولهذا سيكون الفصل الحادي عشر:
«من صالح إلى إبراهيم — الأجيال التي حفظت العهد».
وفيه نبحث بدقة:
هل لدينا رواية تجعل صالحًا نفسه داخل سلسلة وصية؟
هل كانت دعوته موازية لخط آخر من حملة العهد؟
ما الأسماء التي يمكن إثباتها؟
وأين يجب أن نقول بوضوح إن المصدر لا يسمي لنا الحلقة؟

حصر الشخصيات بحسب صلتها بالفصل

في مركز القصة صالح، ومعه المؤمنون وأهله، وفي جانب المعارضة المستكبرون والتسعة والعاقر. أسماء قُدار والمحرّضين والنساء والتفاصيل النسبية قُيّدت بمصادرها أعلاه؛ ولم نحول المجموعات غير المسماة إلى تراجم مختلقة.

وفي الروايات المتصلة بالموضوع يرد النبي محمد وأمير المؤمنين والحسن وفاطمة وحمزة وجعفر والعباس، والإمامان الباقر والصادق مصدرَي الخبرين، وموسى الكاظم في خبر الرس، والقائم في المقارنة بالغيبة، وجبرئيل والملائكة في تفسير الآية والعذاب. ويروي خبر خطبة رمضان الرضا عن آبائه: موسى الكاظم وجعفر الصادق ومحمد الباقر وعلي زين العابدين والحسين وأمير المؤمنين؛ هؤلاء نقلة الخبر في سنده، لا معاصرون لصالح [م٨].

ومن الرواة أو المخاطبين ذوي الصلة المباشرة أبو ذر، وأبو حمزة الثمالي، وأبو بصير، وزيد الشحام، والحسن بن محبوب وسعيد بن يزيد، وابن عباس، وعمار بن ياسر في خبر المقارنة بين العاقرين، وجابر بن

عبد الله في خبر الحجر، وأبو مطر في خبر الدفن، وسفيان بن أبي ليلى، والشامي وملك الروم والسائل في خبر الركبان غير المسمين. وابن ملجم يرد في خبر الاعتداء على أمير المؤمنين، لا في زمن ثمود [م١-م١١].

حصر هذا الفصل مرتبط بالقرآن وبالنصوص المحددة في مراجعه، وليس ادعاء إحاطة بجميع مخطوطات التراث وطرقه. وما بقي غير محقق سنده وُصف بوصفه، وما لم يُسمَّ في المصدر بقي غير مسمى؛ وهذه الحدود جزء من التدقيق لا فراغ تملؤه القصص.

الدروس الكبرى من قصة صالح

١. الحضارة لا تحمي من الانهيار الأخلاقي.

ثمود بنت في الجبال، لكنها لم تبنِ الطاعة في القلوب.

٢. الدليل لا يجبر الإنسان على الإيمان.

في الرواية رأى السبعون الآية، ثم رجع أكثرهم إلى التكذيب.

٣. احترام النبي قبل الرسالة لا يعني قبول الحق بعد الرسالة.

قالوا: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾.

٤. حقوق الله قد تأتي في صورة حد صغير ظاهريًا.

يوم للناقة ويوم لهم.

لكن الاستكبار لا يطيق أن يخضع حتى لهذا.

٥. الجريمة الجماعية قد ينفذها فرد.

واحد عقر، لكن القرآن قال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

٦. الفساد يحتاج قيادة.

تسعة رهط أفسدوا ونظموا مؤامرة القتل.

٧. باب التوبة يسبق العذاب.

ودعوة صالح كلها استغفار وتوبة ورحمة قبل الهلاك.

٨. الإيمان لا يورث بالنسب ولا يمنح بالطبقة.

المستضعفون آمنوا، والمستكبرون كفروا.

٩. الثبات لا يقوم على الشكل وحده.

رواية غيبة صالح تجعل أهل اليقين يعرفون حجتهم بالعلامة والمعرفة.

١٠. الهداية لا تنقطع، لكن أسماء حلقاتها لا تُخترع.

إذا سكت المصدر، نسكت نحن عن الجزم.

الخلاصة الجامعة لقصة صالح عليه السلام

صالح عليه السلام نبي ورسول من قوم ثمود.
القرآن يقدمه داعيًا إلى التوحيد، والاستغفار، والتوبة، والتقوى، والطاعة.
وقومه كانوا أهل حضارة وقدرة ونحت للجبال وزراعة ومياه.
كان صالح عندهم مرجوًا قبل أن يتحدى عبادة الآباء.
ثم انقسموا إلى مؤمنين ومستكبرين.
أرسل الله الناقة آية لهم.
وجعل لها شربًا ولهم شرب يوم معلوم.
فنهاهم صالح عن مسها بسوء.
لكن قادة الفساد رفضوا الحد الذي وضعه الله.
فعُقرت الناقة.
ويذكر القرآن أيضًا مؤامرة على صالح وأهله، من غير ترتيب كل تفصيل فيها مع جميع أحداث الناقة.
ثم جاءت مهلة الثلاثة أيام.
ثم وقع العذاب الذي وصفه القرآن بالرجفة والصيحة والصاعقة والطاغية والدمدمة.
ونجّى الله صالحًا والذين آمنوا معه.
أما الروايات الإمامية فتضيف تفاصيل واسعة:
تحدي الأصنام.
عمر صالح في رواية الكافي.
السبعون الذين شهدوا الآية.
خروج الناقة من الجبل.
انتفاع القوم بلبنها.
اسم قدار.
تفاصيل الأيام الثلاثة.
صيحة جبرئيل.
ومادة غيبة صالح وعودته في كمال الدين.

لكننا لا نخلط بين المستويات.

ما قاله القرآن نقول: قاله القرآن.

وما قالته الرواية نقول: ورد في الرواية.

وما لم يثبت لا نملأه بالخيال.

وهكذا ينتهي فصل صالح لا بنهاية الهداية، بل بسؤال جديد:

من حمل العهد في الأجيال التي تلت ثمود حتى وصلت القصة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام؟

المصادر والمراجع — الفصل العاشر

أولًا: القرآن الكريم — جميع المواضع الأساسية والمراجع القرآنية

الأعراف ٧:٧٣–٧٩.

التوبة ٩:٧٠.

هود ١١:٦١–٦٨.

هود ١١:٨٩ و١١:٩٥.

إبراهيم ١٤:٩.

الحجر ١٥:٨٠–٨٤.

الإسراء ١٧:٥٩.

الحج ٢٢:٤٢.

الفرقان ٢٥:٣٨.

الشعراء ٢٦:١٤١–١٥٩.

النمل ٢٧:٤٥–٥٣.

العنكبوت ٢٩:٣٨.

ص ٣٨:١٣.

غافر ٤٠:٣١.

فصلت ٤١:١٣.

فصلت ٤١:١٧–١٨.

ق ٥٠:١٢.

الذاريات ٥١:٤٣–٤٥.

النجم ٥٣:٥١.

القمر ٥٤:٢٣-٣٢.

الحاقة ٦٩:٤-٥.

الفجر ٨٩:٩.

الشمس ٩١:١١-١٥.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية الأصلية

[م١] الكليني، الكافي، ج٨، الروضة، حديث قوم صالح، رقم٢١٣، ص١٨٥ وما بعدها في الطبعة الشائعة. رابط النص الكامل.

السند: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام.

المادة: البعثة في السادسة عشرة، بلوغ مائة وعشرين أثناء الدعوة، تحدي الأصنام، السبعون، خروج الناقة ثم ولادة فصيلها، وتراجع أكثر الشهود.

الحكم على الطريق: حسن عند المجلسي، مرآة العقول، ج٢٦، ص٧٧. وتعقيب ابن محبوب عن سعيد بن يزيد منفصل عن الكلام المرفوع إلى الإمام.

[م٢] الكليني، الكافي، ج٨، الروضة، حديث قوم ثمود، رقم٢١٤، ص١٨٧ وما بعدها. رابط النص الكامل.

المادة: طلب الناقة، تقسيم الماء، اللبن، تسمية العاقر قدارًا، مشاركة القوم، مهلة الأيام الثلاثة، تغير الوجوه في متن الخبر، صيحة جبرئيل والنار.

الحكم على الطريق: ضعيف عند المجلسي، مرآة العقول، ج٢٦، ص٧٩؛ فلا تساوى تفاصيله الزائدة بالنص القرآني.

[م٤] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب٣ «ذكر غيبة صالح النبي»، ص١٣٦-١٣٧، خبر زيد الشحام عن الصادق. «الكتاب٢» في الموقع تقسيم إلكتروني، لا رقم مجلد مطبوع.

المادة: غيبة صالح، رجوعه بصورة تغيرت على قومه، الجاحدون والشاكون وأهل اليقين، تعرف أهل اليقين إليه بعلامة الناقة، سبعة أيام من الفترة، والمقارنة بالقائم عليه السلام.

[م٦] الصدوق، الخصال، باب «ما سأل أبو ذر نبي الله»، الخبر١٣ ضمن هذا القسم (٢٠-١٣ في الفهرسة الرقمية).

المادة: ذكر هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله عليه وآله ضمن أربعة من الأنبياء العرب.

ويُدرس سند حديث أبي ذر مستقلًا.

[م٧] الصدوق، معاني الأخبار، ص٣٣٣ وما بعدها، حديث أبي ذر؛ الموضع الموازي لتعداد الأنبياء العرب.

[م٨] الصدوق، الأمالي، المجلس ٢٠، الحديث ٤: خطبة استقبال شهر رمضان، من طريق الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين.

المادة ذات الصلة: وصف قاتل أمير المؤمنين عليه السلام في الرواية بأنه «شقيق عاقر ناقة ثمود»، بما يكشف استمرار عاقر الناقة رمزًا للشقاء والعدوان في الذاكرة النبوية.

[م٩] نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١ في الترقيم الشائع، فقرة اجتماع الناس بالرضا والسخط وعقر ناقة ثمود. ينقلها أيضًا بحار الأنوار، ج ١١، الباب ٦، الحديث ٥.

المادة: أن المباشر بالعقر كان رجلًا واحدًا، وأن العذاب عم القوم لما عمّوه بالرضا؛ وهو تفسير مهم للجمع بين ﴿فَعَقَرَ﴾ و﴿فَعَقَرُوهَا﴾ ومعنى المسؤولية الجماعية.

الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، خبر أبي مطر في دفن أمير المؤمنين؛ قوبل نصه هنا من نقل بحار الأنوار، ج ١١، الباب ٦، الحديث ٤ [م٥]، فلا ندّعي مقابلة إسناده على نسخة محققة من التهذيب.

المادة: الرواية المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته أن يدفن «في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح».

تُذكر هذه الرواية لإثبات وجود تقليد إمامي يربط قبر صالح بأرض الظهر/الغري، مع بقاء الحاجة إلى تقويم السند وعدم تحويلها إلى تحديد قرآني أو أثري قطعي.

مصادر مكملة للأخبار المضافة

[م١٠] الصدوق، الخصال، باب «الأربعة الذين يركبون يوم القيامة»، الخبران ١٩ و٢٠ من أبواب الأربعة (٤-١٩ و٤-٢٠ في الموقع): اختلاف حمزة وفاطمة، والعباس وجعفر في سياق الخبرين.

[م١١] الصدوق، الخصال، باب «سبعة مخلوقات خلقها الله ولم تولد من رحم أمهاتها»، الخبر ٣٥ من أبواب السبعة (٧-٣٥): سؤال ملك الروم للحسن، وذكر حواء.

[م١٢] الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، الحديث ٣: سلسلة الوصايا المنقولة عن الصادق من طريق مقاتل بن سليمان.

[م١٦] الكليني، الكافي، ج ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، الحديث ٢: تسمية أولي العزم الخمسة عن الإمام الصادق.

ثالثًا: التفسير الإمامي

تفسير القمي، تحت النمل ٤٥:٢٧–٥٣، رواية أبي الجارود عن الباقر؛ قوبلت من نقل بحار الأنوار، ج ١١، الباب ٦، الحديث ٧ [م٥].

المادة: الفريقان، التطير بصالح، التسعة المفسدون، مؤامرة اغتيال صالح وأهله، والتفسير الروائي لمصير المتآمرين.

تفسير القمي، تحت هود ٦١:١١-٦٨؛ قوبل من نقل بحار الأنوار، ج١١، الباب٦، الحديث٨: وفيه قتل الفصيل وبياض الوجوه أولًا؛ وهما موضعا اختلاف عن خبر الكافي٢١٤.

نور الثقلين للحويزي: مرجع توسّع لجمع الأخبار تحت آيات القصة، لا مستند مستقل لتصحيح كل خبر.

تفسير الصافي للفيض الكاشاني: مرجع توسّع في تفسير مواضع القصة، مع ردّ الروايات إلى أصولها.

الميزان للطباطبائي: مرجع تفسيري مساعد في الآيات المذكورة، ولا تُنسب إليه في هذا الفصل درجة حديثية لم نقابلها في نصه.

رابعًا: المصادر الجامعة والمساندة

[م٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، الباب٦ «قصة صالح عليه السلام وقومه»، الأحاديث١-١٤ والتذنيب. يُميَّز فيه كلام المجلسي من نقول القمي والراوندي والطبرسي وابن الأثير وكعب.

يستخدم بوصفه جامعًا ووسيلة للوصول إلى المصادر الأقدم، لا بوصفه تصحيحًا تلقائيًا لكل خبر.

[م٣] المجلسي، مرآة العقول، ج٢٦، ص٧٧ و٧٩ وما بعدهما: شرح الحديثين٢١٣ و٢١٤، وحكمه بالحسن على الأول والضعف على الثاني.

قصص الأنبياء للقطب الراوندي: قوبلت الأخبار ذات الصلة من نقل بحار الأنوار، ج١١، الباب٦، الأحاديث٢ و١١-١٣. الاقتباس بواسطة البحار مصرّح به، ولا يعامل كطريق جديد مستقل [م٥].

خامسًا: المصادر التاريخية والآثارية للمقارنة فقط

[م١٣] الطبري، جامع البيان، تفسير الأعراف٧٣:٧: أخبار ابن إسحاق، ومنها الأنساب وجندع وصنتم وصدوف وعنيزة والمحرّضون. للمقارنة وتوثيق ورود الأسماء، لا لإثبات أنها أحاديث عن أهل البيت.

[م١٤] ابن كثير، البداية والنهاية، «قصة صالح عليه السلام نبي ثمود»: اختلاف الأنساب وأسماء النساء، وخبر كلبة بنت السلق وأبي رغال. لا تُجعل هذه التفاصيل أصلًا يقينيًا للقصة.

[م١٥] اليونسكو، صفحة «موقع الحجر الأثري»: لتأريخ الآثار النبطية الباقية وتمييزها عن نسبة كل بناء إلى ثمود زمن صالح.

نهاية الفصل العاشر

صالح عليه السلام — رسول ثمود وآية الناقة

والفصل التالي:

الفصل الحادي عشر – من صالح إلى إبراهيم: الأجيال التي حفظت العهد

الفصل ١١ — من صالح إلى إبراهيم — الأجيال التي حفظت العهد

من الفصل العاشر إلى الفصل الحادي عشر — ماذا بقي بعد ثمود؟

انتهى الفصل العاشر إلى هلاك المكذبين من ثمود ونجاة صالح والذين آمنوا معه، كما يقرر القرآن.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

وقال:

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

هذه النهاية مهمة جدًا.

فالطوفان لم يكن نهاية الهداية.

وهلاك عاد لم يكن نهاية الهداية.

وهلاك ثمود أيضًا لم يكن نهاية الهداية.

لكن القرآن لا يخبرنا باسم من تولى حمل العهد مباشرة بعد صالح.

ولا يذكر لنا عدد الأجيال بين صالح وإبراهيم.

ولا يقدم سلسلة آباء أو أوصياء تربط الرجلين.

وهنا يجب أن نقاوم رغبة سهلة لكنها خطرة: أن نملأ الفراغ بما نشاء.

الذي نعرفه يقينًا هو أن المؤمنين نجوا.

والذي نعرفه من مبدأ القرآن العام أن الله أرسل رسلًا آخرين لم يقصصهم علينا بأسمائهم.

والذي تشرحه الروايات الإمامية هو أن خط العلم والعهد لم ينقطع، وأن الأنبياء الذين جاءوا بعد نوح ظلوا ضمن شريعته حتى جاء إبراهيم بمرحلة تشريعية جديدة.

إذن هذا الفصل لا يبحث فقط عن سؤال:

«من جاء بعد صالح؟»

بل عن سؤال أعمق:

«كيف استمرت الهداية حتى وصلت إلى إبراهيم؟»

لماذا نحتاج فصلًا مستقلًا بين صالح وإبراهيم؟

لو انتقلنا مباشرة من صالح إلى إبراهيم، فسنخلق في ذهن القارئ صورة غير دقيقة:

صالح

ثم فراغ

ثم إبراهيم.

لكن المواد التي جمعناها في الفصول السابقة تمنع هذا الاختصار.

في الفصل السابع رأينا أن رواية اتصال الوصاية عند الصدوق تحفظ سلسلة تبدأ بنوح ثم سام، وتستمر عبر عدد من حملة العهد حتى تصل إلى عمران، ثم يدفع عمران الوصية إلى إبراهيم الخليل عليه السلام.

وفي الوقت نفسه رأينا أن هود عليه السلام لا يظهر داخل تلك القائمة مع أنه نبي ثابت بالقرآن، وصالح أيضًا لا يظهر داخلها مع أنه رسول ثابت بالقرآن.

هذا وحده يعلّمنا شيئًا بالغ الأهمية:

قائمة الوصاية ليست بالضرورة قائمة كاملة لجميع الأنبياء.

لكن سكوت قائمة عن نبي لا يثبت وحده وجود خطين تاريخيين متوازيين أو انفصال حامل العلم عن النبي في زمنه.

وذكر أشخاص في باب الوصية لا يكفي لتعيين مقام كل واحد منهم في النبوة أو نسبه أو زمنه.

ولا يجوز لنا أن نوحد المقامات بلا نص.

وهذا هو سر الحاجة إلى فصل مستقل:

حتى نضع أمام القارئ نوعين من الأدلة:

نصوص الرسالات إلى الأمم.

وأخبار حفظ العهد والعلم، مع بيان حدود ما تثبته كل رواية.

الخريطة القرآنية للمرحلة بين صالح وإبراهيم

القرآن لا يضع أمامنا فصلًا بعنوان «ما بين صالح وإبراهيم».

لكن توجد مجموعة من الآيات تحدد لنا ما يجوز قوله وما لا يجوز.

أولًا: المؤمنون مع صالح نجوا

في هود ١١:٦٦، والنمل ٢٧:٥٣، وفصلت ٤١:١٨، نقرأ بوضوح أن صالحًا والذين آمنوا نجوا.

القرآن لا يسمي عددهم ولا أسماءهم ولا المكان الذي ذهبوا إليه بعد هلاك ثمود.

إذن لا يجوز أن نبني سلسلة نسب أو وصاية من أسماء مخترعة بحجة أن هناك ناجين.

ثانيًا: ليس كل الرسل قد سُمّوا لنا

قال تعالى:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

وقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

هذا لا يسمح لنا باختراع أسماء.

لكنه يمنعنا من تصور أن الأسماء المذكورة في القرآن هي كل من بعثهم الله.

ثالثًا: القرآن يقدّم إبراهيم بوصفه صاحب مرحلة جديدة

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

وسيأتي في الفصل الثاني عشر أن قصة إبراهيم تمثل انتقالًا كبيرًا في تاريخ الهداية: محاجة قومه، تحطيم الأصنام، الهجرة، الإمامة، البيت، والذرية النبوية.

رابعًا: القرآن لا يقول إن إبراهيم هو الوصي المباشر لصالح

لا توجد آية تقول:

«ثم أوصى صالح إلى إبراهيم».

ولا آية تحدد عدد السنين بينهما.

ولا آية تذكر اسم حامل العهد الذي توسط بينهما.

إذن وظيفة هذا الفصل هي أن نملأ الفراغ بالمصادر لا بالخيال.

صلة نوح بإبراهيم في القرآن وحدود التسلسل

تجمع الشورى٤٢:١٣ نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلى الله عليه وآله في أصل إقامة الدين. وتذكر الحديد٥٧:٢٦ نوحًا وإبراهيم وجعل النبوة والكتاب في ذريتهما، ثم تميّز المهتدي من الفاسق؛ فمجرد النسب لا يثبت الهداية لكل فرد. وتصل الصافات٣٧:٨٣-٨٤ إبراهيم بنوح في السياق بسلامة القلب واتباع طريق الإيمان، دون تسمية جميع الوسطاء.

وتؤكد النحل١٦:٣٦ وفاطر٣٥:٢٤ عموم الإنذار في الأمم، وتذكر المؤمنون٢٣:٤٢-٤٤ قرونًا أخرى وتعاقب الرسل. هذه أصول عامة، لا سجل أسماء خاصًا بما بعد صالح. وصحف إبراهيم ثابتة في الأعلى٨٧:١٨-١٩ والنجم٥٣:٣٦-٣٧، وإمامته مذكورة في البقرة٢:١٢٤، وبناء البيت مع إسماعيل في٢:١٢٧؛ لكل نص دلالته، ولا تُستخرج منه قائمة تاريخية لم يذكرها.

هل جاء إبراهيم مباشرة بعد صالح؟

لا نستطيع أن نقول ذلك.

الترتيب المعتمد في الكتاب، هود ثم صالح ثم إبراهيم، ترتيب سردي تقليدي. يذكر القرآن خلافة عاد لقوم نوح وثمود لعاد (الأعراف٧:٦٩، ٧٤)، لكن ترتيب عرض القصص وحده لا يثبت تاريخ وفاة صالح قياسًا إلى مولد إبراهيم.

لكن القرآن لا يعطينا جدولًا زمنيًا يقول:

وفاة صالح

ثم بعد عدد محدد من السنوات وُلد إبراهيم.

بل إن الروايات التي تتحدث عن استمرار شريعة نوح إلى إبراهيم تفتح احتمال وجود عدد من الأنبياء في هذه المرحلة.

ورواية اتصال الوصاية تحفظ عددًا من حملة العهد قبل إبراهيم.

إذن نبحث في الانتقال بين القصتين وفي الامتداد الأوسع من نوح إلى إبراهيم، دون أن نجعل كل اسم سابق لإبراهيم حلقةً ثابتة بعد صالح.

شريعة نوح بقيت حتى زمن إبراهيم — مفتاح فهم المرحلة

يروي الكليني في الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، الحديث٢، عن سماعة بن مهران، عن الإمام الصادق عليه السلام، خبر أولي العزم. وحكم المجلسي على طريقه بأنه موثق في مرآة العقول، ج٧، ص٩٨ [م١].

سُئل الإمام عن أولي العزم، فذكر نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلى الله عليه وآله وعليهم السلام.

ثم بيّن أن سبب تسميتهم بأولي العزم أنهم أصحاب الشرائع والعزائم.

وجاء في الرواية:

إن نوحًا بُعث بكتاب وشريعة، وإن كل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح، لا كفرًا به [م١].

هذا النص شديد الأهمية.

فهو يعني أن المرحلة الممتدة من نوح إلى إبراهيم ليست مجموعة رسالات منفصلة بلا إطار مشترك.

بل توجد شريعة كبرى موروثة من نوح، والأنبياء الذين جاءوا بعده قبل إبراهيم يعملون ضمنها.

وهذا يشمل — بحسب العموم الذي في الرواية — الأنبياء الواقعين في زمن ما بعد نوح إلى زمن إبراهيم.

ومن هنا نفهم هودًا وصالحًا بطريقة أدق:

هما نبيان ورسولان إلى قوميهما.

لكن الرواية لا تجعلهما صاحبي شريعة كبرى ناسخة لشريعة نوح.

بل يقعان داخل المرحلة النوحية الواسعة.

ثم يأتي إبراهيم.

ومع إبراهيم تنتقل البشرية، بحسب الرواية، إلى شريعة وصحف وعزيمة جديدة.

وهذه نقطة تحول يجب ألا تضيع.

فالفصل الحادي عشر ليس مجرد جسر زمني بين شخصين.

إنه نهاية عصر تشريعي بدأ بنوح، وبداية الاستعداد لعصر تشريعي جديد مع إبراهيم.

رواية الإمام الرضا عليه السلام تؤكد المعنى نفسه

في عيون أخبار الرضا، ورد عن الإمام الرضا عليه السلام تفسير قريب جدًا: [م٢].

أن كل نبي كان بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعًا لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل.

ثم كان كل نبي في أيام إبراهيم وبعده على شريعة إبراهيم ومنهاجه وتابعًا لكتابه إلى زمن موسى.

وجود هذا المعنى في أكثر من مصدر إمامي مهم؛ لأنه يحمينا من خطأين:

الخطأ الأول:

أن نتصور أن كل نبي يأتي بشريعة مستقلة.

الخطأ الثاني:

أن نظن أن وجود أنبياء متعددين يعني انقطاع خط التشريع أو تبدله كل مرة.

قد يبعث الله نبيًا إلى قومه ليحيي التوحيد، وينذرهم، ويقيم عليهم الحجة، ويأمرهم بالطاعة، من غير أن يكون صاحب شريعة ناسخة لما قبله.

وهكذا نفهم صالحًا.

فقد جاء قوم ثمود بدعوة واضحة وآية عظيمة.

لكنه، بحسب هذا الإطار الروائي، لم يكن بداية شريعة مستقلة جديدة.

بقيت المرحلة مندرجة تحت شريعة نوح حتى جاء إبراهيم.

«كتاب صالح» في الرواية — هل يعني شريعة مستقلة؟

وفي الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين، الحديث٣، خبر عبد الحميد بن أبي الديلم عن الإمام الصادق عليه السلام، يربط ميراث الأنبياء بالكتاب والاسم الأكبر. وحكم المجلسي عليه بأنه «ضعيف على المشهور» (مرآة العقول٣:٢٧٠). ونثبت هنا نص الآية من المصحف، لا اللفظ المختلف في نقل الخبر [م٥]:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾.

تقول الرواية إن «الكتاب» هو الاسم الأكبر الذي كان مع الأنبياء، ثم تذكر:

كتاب نوح،

وكتاب صالح،

وشعيب،

وإبراهيم.

هذه العبارة تحتاج إلى دقة شديدة.

فلو أخذنا كلمة «كتاب» هنا بمعنى «شريعة مستقلة ناسخة»، سنقع في تعارض مع الرواية السابقة التي تقول إن الأنبياء بعد نوح كانوا على شريعته حتى إبراهيم.

لكن الرواية نفسها تشرح استعمالها:

الكتاب هنا مرتبط بالاسم الأكبر وبميراث العلم الذي كان مع الأنبياء.

إذن «كتاب صالح» في هذا الحديث لا يلزم أن يعني شريعة مستقلة جديدة.

بل يمكن أن يشير إلى ما كان معه من العلم الإلهي والكتاب/الاسم الأكبر في اصطلاح الرواية.

وهذا ينسجم مع فكرة الكتاب كلها:

قد يحمل النبي علمًا ووحيًا وحجةً خاصة به،

ويكون رسولًا إلى قومه،

من غير أن يبدأ شريعة عالمية جديدة.

والقرآن نفسه لا يذكر «صحف صالح» ولا يسمي كتابًا مستقلًا أنزل عليه.

لذلك نبقي هذا التفصيل في موضعه:

تفصيل في خبر إمامي ضعّف المجلسي طريقه على المشهور، له اصطلاحه الخاص، ولا يساوي نصًا قرآنيًا أو حجةً مستقلة على شريعة ناسخة.

ترتيب أسماء الكتب ليس ترتيباً زمنياً

ورود نوح وصالح وشعيب وإبراهيم في سياق «الكتاب» لا يجعل شعيباً قبل إبراهيم. فالقائمة في هذا الموضع بيان لما تضمنه ميراث العلم، لا جدول وفيات ومواليد. وبقية الخبر تذكر موسى ويوشع وبني هارون وعيسى وأحمد وإسماعيل وعلياً وجبرئيل؛ هذه أسماء في سياق طويل عن انتقال العلم، وليست شخصيات تعيش كلها بين صالح وإبراهيم [م٥].

هل أوصى صالح عليه السلام إلى شخص مسمّى؟

في النصوص المحددة والمراجعة لهذا الفصل، لا نملك خبراً ثابت الدلالة والسند نستطيع أن نقول بسببه: «أوصى صالح إلى فلان، ثم أوصى فلان إلى فلان، حتى إبراهيم».

وهذه النتيجة مهمة بقدر أهمية العثور على اسم.

الأمانة العلمية لا تعني أن نعثر دائمًا على جواب.

أحيانًا يكون الجواب الصحيح:

المصدر الذي بين أيدينا لا يسمّي الوصي المباشر لصالح.

وهذا لا يعني أن الهداية انقطعت.

فالروايات العامة تؤكد استمرار العلم والحجة.

ورواية شريعة نوح تؤكد وجود أنبياء في المرحلة الممتدة حتى إبراهيم.

ورواية اتصال الوصاية تحفظ خطًا آخر من حملة العهد يصل إلى إبراهيم.

لكننا لا نملك حق دمج هذه النصوص في جملة لم يقلها أي مصدر:

«صالح أوصى إلى عثامر»،

أو:

«صالح أوصى إلى برعيثاشا»،

أو:

«عمران كان ابن صالح».

لا يوجد في المصادر المعتمدة هنا ما يثبت هذه العبارات.

السلسلة التي تصل من نوح إلى إبراهيم

نعود الآن إلى إحدى أهم الروايات في مشروعنا كله: [م٣، م٤].

رواية اتصال الوصاية التي رواها الشيخ الصدوق في الأمالي، وورد نظيرها في كمال الدين وتمام النعمة ومصادر أخرى.

الرواية تبدأ بآدم ثم شيث، وتستمر حتى إدريس، ثم نوح.

وبعد نوح تذكر:

نوح عليه السلام

سام

عثام

برعيثاشا

يافث

برة

جفسيه

عمران

إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

هذه الرواية تقدم لنا لأول مرة خيطًا اسميًا متصلًا من مرحلة نوح إلى إبراهيم.

لكن يجب أن نقرأها بحدودها.

طريقا الأمالي وكمال الدين اللذان قابلناهما يلتقيان عند الحسن بن محبوب، عن مقاتل بن سليمان، عن الإمام الصادق، عن النبي صلى الله عليه وآله. فتعدد الكتابين لا يعني طريقين مستقلين من أولهما إلى آخرهما، ولا نحكم هنا بصحة هذا السند كله [م٣، م٤].

كما تظهر فروق في رسم بعض الأسماء بين النصوص المطبوعة والإلكترونية المقابلة؛ وهذه المقابلة ليست تحقيقًا لجميع المخطوطات.

والرواية لا تقول إن كل واحد من هؤلاء نبي.

ولا تقول إنهم جميعًا أبناء مباشرون لمن قبلهم.

ولا تذكر هودًا أو صالحًا داخل هذه القائمة.

إذن هي:

سلسلة وصاية مروية.

وليست شجرة كاملة لجميع الأنبياء.

وليست بالضرورة شجرة نسب بيولوجي.

أسماء حملة الوصية وحدود التعريف بهم

يعرض الفصل السابع هذه السلسلة في سياق ما بعد نوح. ونستعيد هنا ما يلزم للوصول إلى إبراهيم: عثامر يتلقى الوصية من سام ويسلمها إلى برعيثاشا، ثم تنتقل إلى يافث، فبرة، فجفسيه، فعمران، ثم إلى إبراهيم. لا يقدم هذا المقطع سيرًا مستقلة لهم، ولا يصف كل واحد بالنبوة، ولا يثبت أن كل لاحق ابن سابقه.

نثبت رسم «برعيثاشا» من الأمالي. وفي الاسم التالي لبرة يقرأ الأمالي «جفسيه»، ويقرأ متن كمال الدين «جفيسة»، مع «جفسية» في الهامش؛ اختلاف الرسم لا يثبت تعدد الأشخاص أو النطق الأصلي للاسم [م٣، م٤].

لا يحسم الخبر أن يافث هنا هو ابن نوح نفسه أو شخص آخر. ولا يكفي رسم «برة» لإثبات أنها امرأة. وعمران المذكور ليس بهذا الخبر أبا إبراهيم، ولا يطابق عمران والد مريم أو والد موسى؛ تشابه الأسماء لا يثبت وحدة الهوية.

أما آدم وشيث وشبان ومجلث ومحوق وغثميشا وأخنوخ، الذي يسميه الخبر إدريس، وناحور، والحوراء نزلة في خبر زواج شيث، فتقع في القسم السابق لنوح من الرواية. تبقى تفاصيلها في الفصول السابقة، ولا تنقل إلى ما بعد صالح. وترد مريم هنا للمقارنة بين الأسماء فقط.

لا تذكر هذه القائمة هودًا أو صالحًا، ولا تثبت لذلك خطًا موازيًا أو وصيًا مباشرًا لأي منهما؛ نحفظ وظيفة الاسم داخل الرواية وحدود ما تقوله.

أين يقع صالح من هؤلاء؟

هنا نصل إلى أصعب سؤال في الفصل.

العنوان يقول:

«من صالح إلى إبراهيم».

لكن سلسلة الوصاية تبدأ عندنا من نوح وسام وتتحرك حتى إبراهيم.

فأين نضع صالحًا داخلها؟

الجواب:

لا نضعه في موضع لم تضعه فيه الرواية.

صالح عليه السلام رسول مستقل إلى ثمود بنص القرآن.

وعلى ترتيب صالح قبل إبراهيم الذي يتبعه هذا الكتاب، يُفهم خبر استمرار شريعة نوح إطارًا تشريعيًا عامًا؛ فالخبر نفسه لا يؤرّخ صالحًا بالاسم [م١، م٢].

والحديث الآخر عن «كتاب صالح» يثبت في الرواية وجود علم/كتاب معه [م٥].

لكن سلسلة اتصال الوصاية لا تذكر اسمه.
إذن علاقتنا بالمصادر تفرض علينا أن نقول:
صالح نبي مرسل إلى ثمود بنص القرآن.
وكانت شريعة نوح هي الإطار التشريعي العام حتى إبراهيم بحسب الرواية.
وتعرض رواية الصدوق أسماء أخرى في سياق انتقال الوصية.
ولا يعيّن النص موضع صالح بالنسبة إلى كل واحد من تلك الأسماء.
هذه ليست ثغرة يجب إخفاؤها.
إنها حقيقة منهجية يجب إظهارها.

الأنساب التاريخية ليست سلسلة الوصاية

إلى جانب رواية الوصاية، تحفظ كتب الأنساب والتاريخ سلاسل أخرى لما بعد نوح.
ومن الأسماء المشهورة في بعض هذه السلاسل:
سام،
أرفخشد،
شالح،
عابر،
ثم فالغ، وراعو أو راغو، وساروغ، وناحور، وتارخ، ثم إبراهيم، في النسب الذي يورده ابن كثير ويصرّح بأنه من أخبار أهل الكتاب [م١١].
وفي مواد أخرى رُبط هود بعابر أو بشالح، بينما رُبطت عاد بإرم وسام.
وقد ناقشنا هذه الاختلافات في الفصل السابع.
المهم هنا أن هذه القوائم ليست هي نفسها:
سام ← عثامر ← برعيثاشا ← يافث ← برة ← جفسيه ← عمران ← إبراهيم.
واحدة قد تكون نسبًا بيولوجيًا تاريخيًا.
والأخرى رواية انتقال وصية.
وقد يكون الوصي غير الابن المباشر.
وقد تنتقل الوصية من فرع إلى فرع.
وقد تتكرر الأسماء.
لهذا لا يجوز أن ندمج القائمتين ونقول:

«عثامر هو أرنفخشد».

أو:

«برعيثاشا هو شالخ».

أو:

«جفسيه هو عابر».

لا يوجد دليل يثبت هذه المساواة.

نذكر القائمتين بوصفهما نوعين مختلفين من المادة.

قائمة أخرى في خبر هام: نثبت الاختلاف ولا ندمج السلاسل

ينقل البحراني في مدينة المعاجز، ج١، الخبر٧٥، عن الروضة لشاذان بن جبرئيل، خبر «هام بن الهيم بن لاقيس بن إبليس»، ويقدمه المتن من الجن، لا رجلًا من سلسلة أنساب البشر. ويتضمن ذكر لقاء نوح وهود وصالح وإبراهيم، وقائمة وصايا تخالف قائمة الصدوق [م١٠].

في النص المقابل تأتي بعد نوح أسماء: سام، أرنفخشد، غابر، سانخ، قالع، أشروع، أرغو، تاخور، تارخ، ثم يذكر خروج إبراهيم من صلب تارخ بصياغة مختلفة عن تسليم عمران الوصية. وتذكر حواشي الطبعة عن البحار رسومًا منها: أرفخشد، عابر، شانخ، أشروغ، روغا، ناخور. لا نحول هذه الفروق إلى أشخاص جدد، ولا نطابق «سانخ/شانخ» بصالح نبي ثمود لمجرد التشابه [م١٠].

إيراد هذا الخبر لاستكمال حصر القوائم ذات الصلة، لا لتصحيح إسناده. لم يثبت هنا طريق متصل موثق لكل تفاصيله؛ ولا يجيز وصف طول العمر فيه تأريخ المرحلة. لا تُدمج هذه القائمة مع الأمالي أو مع النسب الكتابي لإنتاج سلسلة واحدة لم ينقلها أي مصدر.

كم كانت المدة بين صالح وإبراهيم؟

لا يقدم القرآن رقمًا.

ولا تقدم الروايات الأساسية التي اعتمدناها هنا رقمًا واحدًا يمكننا أن نطمئن إليه.

وتوجد في كتب التاريخ أنساب وأعمار طويلة تسمح للباحث ببناء حسابات زمنية.

لكن هذه الحسابات تعتمد على:

صحة كل نسب،

وصحة أعمار الأشخاص،

وعدم سقوط أسماء من السلسلة،

وصحة ترتيبهم.

وهذه شروط لا نملك إثباتها بدرجة واحدة.

لذلك لا نكتب:

«بين صالح وإبراهيم مئة سنة».

ولا:

«خمسمئة سنة».

ولا:

« كذا أجيال بالضبط».

نقول:

تذكر الأخبار أجيالًا وأسماء في الامتداد الأوسع من نوح إلى إبراهيم؛ ولا تحدد موضع صالح بينها.

ولهذا لا نحسب عدد الأجيال بعد صالح من قائمة تبدأ قبله.

وقد يكون في الفترة أنبياء آخرون لا نملك أسماءهم.

أما العدد الدقيق للسنوات والأجيال فلا يثبته القرآن.

هل انقطعت النبوة بعد صالح حتى إبراهيم؟

لا يوجد ما يجيز لنا هذا القول.

بل الرواية التي تقول:

« كل نبي كان بعد نوح... إلى زمن إبراهيم»

يتناول من جاء بين نوح وإبراهيم عمومًا؛ ولا يثبت وحده وجود نبي في كل سنة، أو عدد الأنبياء بعد صالح تحديدًا.

كما أن القرآن يقرر أصل وجود رسل لم تُقصص أسماؤهم.

إذن الصياغة الصحيحة ليست:

«لم يكن هناك نبي بعد صالح حتى إبراهيم».

بل:

«النصوص المراجعة لا تعطينا سجلًا زمنيًا كاملًا لهذه المسافة، ولا يجوز أن نملأ نقصه بإثبات أو نفي غير مسند».

وهذا فارق كبير.

الجهل بالاسم لا يساوي عدم وجود الشخص.

استمرار الحجة لا يساوي سجلًا كاملًا للأنبياء

يقرر خبر «كتاب صالح» نفسه عدم ترك الأرض بلا عالم تقوم به الحجة بين قبض نبي وخروج آخر، مع بقاء درجته السندية التي ذكرناها. لذلك نفرق بين المعنى العقدي لاستمرار الهداية والحجة، وبين الدعوى التاريخية بأن كل حامل وصية نبي أو أن لدينا تاريخًا متصلًا لكل سنة. الأول موضوع النص، والثاني يحتاج إلى دليل زائد [م٥].

صالح وإبراهيم — تشابه واختلاف في حركة الهداية

لا يثبت الفصل وراثةً مباشرة بين صالح وإبراهيم، لكنه يقارن بين دلالات قصتيهما في حركة الهداية.

صالح جاء إلى مجتمع قوي مستقر في الأرض، ينحت الجبال ويبني ويزرع.

وكانت آيته الناقة، واختباره لقومه في الطاعة والعدل وحفظ حق عيّنه الله.

انتهت مرحلته بهلاك مجتمع رفض الآية ونجاة المؤمنين.

أما إبراهيم فسيأتي في عالم آخر من الوثنية والسلطة والأنساب والهجرة.

لن تكون قصته قصة أمة واحدة فقط.

ستصبح نقطة تحول عالمية في حكاية الهداية.

وبين الرجلين بقيت القاعدة واحدة:

القوة لا تصنع الحق.

الموروث لا يصير مقدسًا لمجرد قدمه.

الهداية لا تنقطع لأن أمة كذبت.

والله قادر أن يبدأ من بعد انهيار حضارة مرحلة أوسع.

لاحج وأسرة إبراهيم: اسم لا ينبغي إغفاله

في روضة الكافي، الحديث ٥٦٠ بحسب الترقيم المطبوع، يروي إبراهيم بن أبي زياد الكرخي عن الإمام الصادق خبر مولد إبراهيم بكوثى ربا، ويصف «لاحج» بأنه نبي منذر لم يكن رسولًا. هذا تصريح داخل الرواية بنبوته، يختلف عن قائمة الأوصياء التي لا تصف كل حامل بالنبوة. وتنقل صفحة الحديث عن المجلسي حكم «حسن أو موثق». لا يثبت الخبر أنه الوصي المباشر لصالح، ولا يحدد تاريخ حياته بالنسبة إليه [م٨].

لكن أول الخبر يذكر أم إبراهيم وأم لوط أختين، ويورد «سارة وورقة»، ومعه قراءة «رقية»، ثم يجعلهما ابنتين للاحج. وبعد ذلك يسمي سارة زوجة إبراهيم ابنة لاحج وابنة خالته. ظاهر هذا التركيب

يوقع في إشكال نسبي إذا جمعت عباراته حرفيًا؛ فلا نرسم منه شجرة عائلة جازمة، ولا نعين أي الاسمين أمًّا لأيٍّ من النبيين على سبيل القطع [م٨].

وفي قصص الأنبياء للراوندي، الخبر١٠٠، يثبت النقل أختًا أم إبراهيم وأم لوط، ويذكر زواجه سارة بنت لاحج، من غير سرد الاسمين المضطربين في صدر خبر الكافي. نعرض النصين كما وردا، ولا نصحح أحدهما من عندنا. فوجود لاحج في الخبر محفوظ، أما تفصيل القرابة فيحتاج إلى الاحتراز المذكور [م٩].

النساء عند عتبة العهد الإبراهيمي

أم إبراهيم وأم لوط: يذكرهما الخبر في صلة القرابة دون أن يحسم الفصل اسميهما. وفي خبر الولادة في الكافي دور للأم في إخفاء الطفل وإرضاعه ورعايته، وذكر لنساء من القوابل غير مسميات. هذه شخصيات داخل خبر الولادة، لا أسماء قرآنية ولا أوصياء مفترضون [م١٢].

سارة: يذكرها خبر الكرخي زوجةً لإبراهيم وصاحبة مال وماشية وأرض، ملكته ما تملك، ورافقته مع لوط عند الخروج. لا يُختزل حضورها في النسب وحده. والقرآن يذكر امرأة إبراهيم وبشارة إسحاق ويعقوب (هود١١:٧١-٧٣؛ الذاريات٥١:٢٩-٣٠) دون أن يسميها «سارة» في لفظه [م٨، م٩].

هاجر: يسميها امتداد خبر الكرخي أم إسماعيل، ويصف انتقالها مع الأسرة بعد واقعة سارة والملك. صلتها هنا افتتاحية للفصل الإبراهيمي اللاحق؛ لا يدعي الفصل أنها عاشت في زمن صالح، ولا ينسب اسمها إلى لفظ القرآن [م٨].

ومن باب المقارنة وحدها ينقل ابن كثير لأم إبراهيم اسمي «أميلة» و«بونا بنت كربنا بن كرثى»، ويذكر «ملكا» زوجة ناحور وابنة هاران. هذه أخبار أنساب غير متفقة، لا تعيّن أم إبراهيم في الرواية الإمامية ولا تحل إشكال نص الكافي. وناحور أخو إبراهيم في هذا الخبر ليس تلقائيًا ناحور الجد في عمود النسب [م١١].

أسماء رجال عند بداية قصة إبراهيم وحدود إدراجهم

آزر مذكور بالاسم في الأنعام٦:٧٤ بلفظ «لأبيه آزر». ويصفه خبر الولادة في الكافي بالأب، بينما يصفه خبر الراوندي٩٥ بالعم ويذكر تارخ في مولد إبراهيم. نثبت اختلاف النصين؛ فحمل الأب على العم تفسير يحتاج إلى دليله، وليس حذفًا للفظ القرآن. ولا نجعل عمران في رواية الوصايا واحدًا منهما دون نص [م١٢، م٩].

لوط: يثبت القرآن إيمانه لإبراهيم (العنكبوت٢٩:٢٦)، ويذكره خبر الكرخي مرافقًا له. نمرود: اسم في الروايات، أما المحاجّ في البقرة٢:٢٥٨ فلا تسمّيه الآية. ويذكر خبر الكرخي أيضًا قاضي نمرود، وملكًا قبطيًا اسمه «عرارة»، وعاشرًا يأخذ العشر ورسلًا للملك، دون تسمية أولئك الأفراد. هؤلاء من مشاهد إبراهيم، لا حلقات وصاية بين صالح وإبراهيم [م٨].

ماريا بن أوس شخصية من أخبار إبراهيم، لا حلقة مثبتة بين صالح وإبراهيم. يناقش الفصل الثاني عشر خبره والتمييز بين اسمه وهويته، مع الإحالة إلى قصص الأنبياء للراوندي، الخبر ١١٦.

وترد في خبر الولادة جماعة إخوة لإبراهيم دون أسماء، فلا نملأ هذا الموضع بأسماء هاران وناحور من خبر تاريخي آخر دون التنبيه إلى اختلاف المصدر. ويُذكر إسماعيل وإسحاق ويعقوب في أفق البيت الإبراهيمي، وموسى وعيسى ومحمد في أخبار الشرائع؛ وذكرهم لا يجعلهم معاصرين للمرحلة التي يعالجها عنوان الفصل.

حصيلة حصر الشخصيات وحدود الاكتمال

يشمل الحصر: نوحًا وسامًا وهودًا وصالحًا وإبراهيم، والناجين المؤمنين غير المسميين؛ عثام وبرعيثاشا ويافث وبرة وجفسيه وعمران في خبر الصدوق؛ وأسماء القائمة البديلة والأنساب بحدودها المبينة؛ ولاحج وأسرة إبراهيم والنساء المسميات أو الموصوفات في الأخبار. ويميز بين مريم ونزلة الواردتين للمقارنة أو لصدر السلسلة، وبين نساء البيئة الإبراهيمية.

ومن أصحاب الروايات: النبي محمد والإمام علي في سياق الوصاية، والإمام الصادق والإمام الرضا في نقل مادتها؛ ومن الرواة ذوي الصلة المباشرة: سماعة بن مهران، والحسن بن علي بن فضال، وعبد الحميد بن أبي الديلم، والحسن بن محبوب، ومقاتل بن سليمان، وإبراهيم بن أبي زياد الكرخي، وأبو بصير. هؤلاء رواة أو شخصيات في سياقات لاحقة، لا سكان ما بين صالح وإبراهيم. وأسماء رجال الأسانيد الباقين تُراجع في النصوص المرتبطة، فلا تتحول فهارس الرواة إلى سير لشخصيات العصر القديم.

اكتمل حصر النصوص المحددة التي راجعها هذا الفصل، مع إبقاء الاختلافات ظاهرة. لا يعني ذلك دعوى استقراء كل مخطوط وكل رواية في التراث. وما لا تسمّيه المصادر يبقى غير مسمّى، وما لا يثبت سنده أو موضعه الزمني يبقى مقيّدًا بحدوده، فلا تغطي بلاغة السرد نقص الدليل.

نهاية الفصل الحادي عشر — عند باب إبراهيم

وهكذا نصل إلى نهاية مرحلة طويلة بدأت بعد نوح، ومرّت بهود وصالح، وحملت في داخلها أجيالًا من الإيمان والنبوة والوصية لا نعرف جميع أسمائها.

ثمود هلكت.

لكن الإيمان لم يهلك.

صالح نجا.

لكن القرآن لم يسم لنا من حمل العهد بعده.

شريعة نوح بقيت.

والروايات تذكر أن أنبياء عاشوا في ظلها.

وفي رواية الصدوق تنتهي السلسلة المروية بتسليم عمران الوصية إلى إبراهيم الخليل.

عند هذه الجملة يتغير المشهد كله.

لم نعد أمام فصل انتقالي.

نحن أمام إبراهيم.

أمام الخليل.

أمام محطّم الأصنام.

أمام المهاجر في سبيل الله.

أمام الإمام.

أمام أبي إسماعيل وإسحاق.

أمام الرجل الذي ستتشعب من بيته معظم الخطوط النبوية التي ستملأ بقية الجزء الأول.

وهنا ينتهي الفصل الحادي عشر.

ويبدأ الفصل الثاني عشر:

إبراهيم عليه السلام — الخليل وإمام مرحلة جديدة من الهداية.

المصادر والمراجع — الفصل الحادي عشر

أولًا: القرآن الكريم

هود ١١:٦٦ — نجاة صالح والذين آمنوا معه.

النمل ٢٧:٥٣ — نجاة الذين آمنوا وكانوا يتقون.

فصلت ٤١:١٨ — نجاة المؤمنين من ثمود.

النساء ٤:١٦٤ — رسل قصصهم الله ورسل لم يقصصهم.

غافر ٤٠:٧٨ — رسل قبل النبي صلى الله عليه وآله، منهم من قص الله ومنهم من لم يقصص.

الأنبياء ٢١:٥١ — ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾.

الحديد ٥٧:٢٥ — الرسل والبينات والكتاب والميزان.

الأعلى ٨٧:١٨-١٩ — الصحف الأولى وصحف إبراهيم وموسى.

وتأتي آيات إبراهيم التفصيلية في الفصل الثاني عشر.

ثانيًا: المصادر الروائية الإمامية الأساسية

[م١] الكليني، الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، الحديث٢، ص١٧؛ سماعة بن مهران عن الصادق. حكم المجلسي: موثق، مرآة العقول٧:٩٨.

المادة المستفادة:

نوح من أولي العزم.

بُعث بكتاب وشريعة.

كل من جاء بعد نوح أخذ بكتابه وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم بالصحف وبعزيمة جديدة.

هذه الرواية هي المفتاح التشريعي للفصل.

[م٢] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج٢، الباب٣٢ في علل مختلف الأشياء، الحديث١٣، ص٨٦؛ رواية الحسن بن علي بن فضال عن الرضا. حكم طريق الكافي لا ينتقل تلقائيًا إلى هذا الطريق.

المادة المستفادة:

كل نبي بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعًا لكتابه إلى زمن إبراهيم، ثم انتقلت المرحلة إلى شريعة إبراهيم.

وهي شاهد إمامي موازٍ للمعنى السابق.

[م٣] الصدوق، الأمالي، المجلس٦٣، الحديث٣؛ اتصال الوصايا من آدم إلى النبي وأمير المؤمنين، من طريق مقاتل بن سليمان عن الصادق.

المادة المستفادة:

سلسلة اتصال الوصاية:

نوح ← سام ← عثامر ← برعيثاشا ← يافث ← برة ← جفسيه ← عمران ← إبراهيم.

تنبيه:

طريق الأمالي وطريق كمال الدين يلتقيان عند الحسن بن محبوب عن مقاتل؛ لا نعدّ الكتابين تصحيحين مستقلين لكل حلقة.

المقابلة هنا للنصوص المنشورة المتاحة، وليست تحقيقًا لجميع المخطوطات.

[م٤] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب٢٢ «اتصال الوصية من لدن آدم»، الحديث١، ص٢١١–٢١٣؛ مع هامش اختلاف «جفيسة/جفسية».

المادة المستفادة:

نص موازٍ لرواية الأمالي، مع اشتراك الجزء المتأخر من الإسناد؛ وليس شاهدًا سنديًا مستقلًا بكامله.

[م٥] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين، الحديث٣، ص٢٩٣ وما بعدها؛ عبد الحميد بن أبي الديلم عن الصادق. حكم المجلسي: ضعيف على المشهور، مرآة العقول٣:٢٧٠.

المادة المستفادة:

«كتاب صالح» في اصطلاح الرواية مرتبط بميراث العلم والاسم الأكبر، ولا يلزم منه إثبات شريعة مستقلة ناسخة لشريعة نوح.

٦. بصائر الدرجات للصفار: مرجع عام في ميراث العلم. لم نحدد هنا نصًا مطابقًا مستقلاً لعبارة «كتاب صالح»، فلا يُعدّ بهذه الإحالة العامة سندًا إضافيًا للعبارة.

المادة المستفادة:

الاستدلال المحدد في هذا الفصل بعبارة «كتاب صالح» يعود إلى الحديث المعين في الكافي [م٥].

٧. بحار الأنوار للمجلسي: جامع مساعد، ومنه ج١٧ في ميراث النبي، وج١٢ في أخبار إبراهيم؛ لا يحل النقل الجامع محل الإحالات الأصلية المحددة أعلاه.

تكرار الخبر في جامع لاحق لا يجعله طريقًا مستقلاً ولا تصحيحًا له.

مصادر الأخبار والأسماء المستكملة

[م٨] الكليني، الكافي، ج٨، الروضة، الحديث٥٦٠، ص٣٧٠ وما بعدها؛ إبراهيم بن أبي زياد الكرخي عن الصادق. يعرضه موقع الثقلين برقم الباب٥٥٩. النص يذكر لاحج والأسرة وسارة وهاجر وعرارة، وفي صدره إشكال القرابة المبين في المتن.

[م٩] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب٤، الأخبار٩٥ و١٠٠ و١١٦، ص١٠٣ و١٠٦ –١٠٨ و١١٥–١١٦: آزر وتارخ، أسرة إبراهيم وسارة، وماريا بن أوس. لا تنتقل درجة طريق الكافي تلقائيًا إلى طرق الراوندي.

[م١٠] هاشم البحراني، مدينة المعاجز، ج١، الخبر٧٥، ص١٣٠–١٣٦ في الطبعة المصورة؛ ينقل خبر هام عن الروضة لشاذان، وتحيل الحاشية إلى بحار الأنوار٥٤:٣٨، ح٩. تُراجع فروق الأسماء في ص١٣٢؛ أرقام صفحاتالملف الرقميتزيد بنحو صفحة عن المطبوع في هذا الموضع.

[م١٢] الكليني، الكافي، ج٨، الروضة، خبر الولادة الذي يبدأ «أن آزر أبا إبراهيم كان منجمًا لنمرود»، الباب٥٥٧ في الفهرسة الإلكترونية؛ للمقارنة النصية مع خبر الراوندي٩٥، لا للجمع الصامت بينهما.

ثالثًا: المصادر التفسيرية الإمامية

تفسير الصافي للفيض الكاشاني: للاستئناس التفسيري؛ لا يضاف طريق مستقل بمجرد إعادة نقل خبر الكافي.

البرهان في تفسير القرآن للبحراني: جامع تفسيري للمقارنة، مع الرجوع إلى مصدر كل خبر وإسناده.

نور الثقلين للحويزي: مرجع تفسيري مساعد؛ لا نفترض استقلال ما يجمعه عن مصادره السابقة.

الميزان للطباطبائي: للمقارنة التفسيرية، لا لتصحيح أسانيد الأخبار التاريخية. هذه المراجع العامة ليست إحالات مستقلة لتفاصيل غير موثقة هنا.

رابعًا: الأخبار التاريخية والأنساب للمقارنة

[م١١] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، «قصة إبراهيم خليل الرحمن»: النسب من نوح إلى إبراهيم، والأسماء المختلفة لأمه وأقاربه، منقول للمقارنة مع تصريح المؤلف بمصدره الكتابي في النسب.

هذه المواد لا تُجعل أساسًا لسلسلة الوصاية الإمامية.

ولا نساوي بين أسمائها وأسماء عثامر وبرعيثاشا وجفسيه وعمران بلا نص.

كما لا نعتمد أي تحديد زمني دقيق بين صالح وإبراهيم لمجرد إمكان حسابه من أعمار تاريخية مختلف فيها.

خامسًا: ضابط الفصل

لا يوجد نص قرآني يربط صالحًا مباشرة بإبراهيم.

لا نملك في المصادر المعتمدة هنا نصًا صريحًا يسمّي الوصي المباشر لصالح.

لدينا رواية تجعل شريعة نوح ممتدة إلى إبراهيم.

ولدينا رواية وصاية تصل من سام إلى إبراهيم عبر حملة عهد مسمّين.

وغياب هود وصالح عن سلسلة الوصاية يثبت ضرورة التفريق بين قائمة الوصية وقائمة جميع الأنبياء.

ولا نسمي عثامر وبرعيثاشا ويافث وبرة وجفسيه وعمران أنبياء بلا نص مستقل.

الفصل ١٢ — إبراهيم عليه السلام — الخليل وإمام مرحلة جديدة من الهداية

من الفصل الحادي عشر إلى إبراهيم — أين وصل خط العهد؟

لم يصل إبراهيم عليه السلام في هذا الكتاب بوصفه اسمًا ظهر فجأة بعد صالح عليه السلام. في الفصل السابق تتبعنا ما أمكن من خط الوصاية المروي بعد الطوفان حتى وصل إلى عمران، ثم إلى إبراهيم. والرواية المنقولة في أمالي الصدوق وكمال الدين ومن لا يحضره الفقيه تذكر سلسلة من حملة الوصية تنتهي بقولها إن عمران دفع الوصية إلى إبراهيم.

ولا يعني ذلك أن جميع تلك الأسماء أنبياء، ولا أن السلسلة القرآنية نفسها تسميهم. لكنه يعني أن التراث الإمامي احتفظ بصورةٍ لاستمرار العهد، وأن إبراهيم يظهر في نهايتها بوصفه بداية مرحلة جديدة واسعة جدًا من تاريخ الهداية.

تتفرع من ذرية إبراهيم خطوط الأنبياء اللاحقة عبر إسماعيل وإسحاق، ومن إسحاق يعقوب ويوسف ثم أنبياء بني إسرائيل، كما يمتد الفرع الإسماعيلي إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله. أما لوط فمؤمن معاصر لإبراهيم ومهاجر معه، وليس ابنًا له؛ وتُبحث صلته الأسرية في فصله.

لذلك فإن فصل إبراهيم ليس سيرة منفصلة، بل عقدة مركزية في حكاية الهداية كلها.

إبراهيم في القرآن — خريطة النصوص قبل الدخول في القصة

قصة إبراهيم عليه السلام موزعة في سور كثيرة، ولا يمكن فهمها من موضع واحد. من أهم المقاطع:

البقرة ٢:١٢٤–١٤١: الابتلاء، الإمامة، البيت، الدعاء، وملة إبراهيم.

البقرة ٢:٢٥٨: محاجته للذي حاجّه في ربه.

البقرة ٢:٢٦٠: سؤال كيفية إحياء الموتى وقصة الطيور.

آل عمران ٣:٦٥–٦٨ و٩٥–٩٧: إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، واتباع ملته، والبيت ببكة.

النساء ٤:١٢٥: اتخاذ الله إبراهيم خليلًا.

الأنعام ٦:٧٤–٨٣: آزر، ملكوت السماوات والأرض، الكوكب والقمر والشمس، والحجة على القوم.

التوبة ٩:١١٤: استغفاره لأبيه ثم التبرؤ منه عندما تبين له أنه عدو لله.

هود ١١:٦٩–٧٦: ضيوف إبراهيم، البشرى بإسحاق ويعقوب، وحديثه في قوم لوط.

إبراهيم ١٤:٣٥–٤١: دعاؤه لمكة وذريته والصلاة والرزق والمغفرة.

الحجر ١٥:٥١-٦٠: ضيوف إبراهيم والبشرى.
النحل ١٦:١٢٠-١٢٣: إبراهيم أمة، قانت، حنيف، شاكر، مجتبى، وعلى صراط مستقيم.
مريم ١٩:٤١-٥٠: حواره مع أبيه، الهجرة، وهبة إسحاق ويعقوب.
الأنبياء ٢١:٥١-٧٣: رشده المبكر، مواجهة الأصنام، النار، النجاة، والهجرة والذرية.
الحج ٢٢:٢٦-٢٧: مكان البيت والأذان بالحج.
الشعراء ٢٦:٦٩-٨٩: حواره مع أبيه وقومه ودعاؤه.
العنكبوت ٢٩:١٦-٢٧: الدعوة، تكذيب القوم، محاولة إحراقه، نجاة الله له، وإيمان لوط.
الصافات ٣٧:٨٣-١١٣: صلته بنهج نوح، مواجهة الأصنام، النار، الهجرة، الغلام الحليم، الذبح والفداء، والبشرى بإسحاق.
ص ٣٨:٤٥-٤٧: إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار والمخلصين.
الزخرف ٤٣:٢٦-٢٨: براءته من عبادة قومه وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه.
الذاريات ٥١:٢٤-٣٠: ضيوف إبراهيم وبشارة الغلام العليم.
النجم ٥٣:٣٧: إبراهيم الذي وفّى.
الممتحنة ٦٠:٤-٦: إبراهيم والذين معه أسوة في البراءة من الشرك.
الأعلى ٨٧:١٨-١٩: صحف إبراهيم وموسى.
وتضاف آيات الاصطفاء والذرية والميثاق: آل عمران ٣:٣٣-٣٤؛ الأنعام ٦:٨٤-٨٧؛ يوسف ١٢:٣٨؛ مريم ١٩:٥٨؛ الأنبياء ٢١:٧٢-٧٣؛ الأحزاب ٣٣:٧؛ النساء ٤:١٦٣. كما تذكر التوبة ٩:٧٠ والحج ٢٢:٤٣ قوم إبراهيم في قوائم الأمم. وترتبط آيات أخرى بملته وذريته والدعاء والبيت؛ لهذا تُبنى القصة من مجموع القرآن، لا من سرد واحد منفصل.

اسم إبراهيم وألقابه في القرآن

لا يقدمه القرآن باسم واحد فقط، بل يرسم شخصيته من خلال مجموعة كبيرة من الأوصاف:

إبراهيم.
صِدّيقًا نبيًا: مريم ١٩:٤١.
خليل الله: النساء ٤:١٢٥.
إمامًا للناس: البقرة ٢:١٢٤.
أمة: النحل ١٦:١٢٠.
قانتًا لله: النحل ١٦:١٢٠.

حنيفًا: النحل ١٦:١٢٠، وآيات أخرى.

مسلمًا غير مشرك: آل عمران ٣:٦٧.

شاكرًا لأنعم الله: النحل ١٦:١٢١.

مجتبى ومهدي إلى صراط مستقيم: النحل ١٦:١٢١.

من الصالحين في الآخرة: البقرة ٢:١٣٠؛ النحل ١٦:١٢٢.

حليمًا أواهًا منيبًا: هود ١١:٧٥، والتوبة ٩:١١٤ في وصف الأواه.

يدعو القرآن إلى اتباع ملته الحنيفية مع إسلام الوجه لله والإحسان: النساء ٤:١٢٥؛ وهذا وصف لطريق الاتباع في الآية، لا لقب مستقل فيها لإبراهيم.

من أولي الأيدي والأبصار: ص ٣٨:٤٥.

مخلصًا بذكرى الدار: ص ٣٨:٤٦.

من الأخيار: ص ٣٨:٤٧.

الذي وفّى: النجم ٥٣:٣٧.

من أولي العزم في الروايات الإمامية مع نوح وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله.

هذه ليست ألقابًا للزينة؛ كل واحد منها يفتح بابًا لفهم مرحلة من شخصيته.

نسب إبراهيم ومولده — ما يقوله القرآن وما لا يقوله

القرآن لا يذكر تاريخ ميلاد إبراهيم، ولا اسم أمه، ولا موضع ولادته، ولا يقدم شجرة نسب كاملة بين نوح وإبراهيم.

أما الروايات وكتب التاريخ فتذكر أسماء وأماكن متعددة، مثل بابل وكوثى والسواد ومواضع أخرى، ولا تتفق جميعها على ضبط واحد.

وفي رواية الوصاية التي اعتمدناها في الفصل السابق يصل العهد إلى عمران ثم إلى إبراهيم، لكن هذا لا يساوي إثبات أن عمران أبوه البيولوجي؛ انتقال الوصية والنسب موضوعان مختلفان.

تذكر كتب الأنساب اسم «تارخ/تارح» في نسب إبراهيم، بينما يقول القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾. وهنا نشأ بحث واسع في معنى «أبيه» وهوية آزر.

آزر وتارخ — هل كان آزر الأب الصلبي لإبراهيم؟

النص القرآني يستخدم كلمة «أبيه» مع آزر في الأنعام ٦:٧٤، ويعرض في مريم ١٩:٤٢–٤٨ حوار إبراهيم مع أبيه، كما يذكر التوبة ٩:١١٤ استغفاره لأبيه ثم تبرؤه منه عندما تبين له أنه عدو لله.

لكن في التراث الإمامي اشتهر تفسير آزر بأنه عم إبراهيم أو كافله، وأن أباه الصلبي كان تارخًا، واستند أصحاب هذا الرأي إلى استعمال كلمة «الأب» في العربية والقرآن للعم أحيانًا، كما في البقرة ٢:١٣٣ حيث عُدَّ إسماعيل من آباء يعقوب مع أنه عمه.

كما ترتبط المسألة عند الإمامية بفكرة طهارة آباء النبي صلى الله عليه وآله من الشرك، لأن إبراهيم من آبائه.

لا يصح أن نقول إن القرآن نفسه يقول صراحة: «آزر عم إبراهيم». القرآن يسميه «أباه». والصياغة الدقيقة هي:

القرآن يصف آزر بالأب في مقام الخطاب.

والتفسير الإمامي المشهور يفرق بين الأب في مقام الرعاية أو القرابة وبين الأب الصلبي، ويجعل تارخ الأب النسبي.

وهذه مسألة تفسيرية وروائية وليست آية مستقلة تحسم الاسم البيولوجي.

مولد إبراهيم في زمن الجبار — روايات النمرود وإخفاء الولادة

وردت في التفسير الروائي وكتب قصص الأنبياء أخبار عن ولادة إبراهيم في زمن ملك جبار سمي في الروايات والتاريخ بالنمرود.

تذكر بعض الأخبار أن المنجمين أو الكهنة أخبروه بولادة غلام يكون على يديه فساد دين الأصنام أو زوال سلطان الجبار، فأمر بمراقبة الحوامل أو قتل المواليد الذكور.

وفي بعض الروايات الإمامية أن أم إبراهيم أخفته في سرب أو كهف، وأنه نشأ هناك فترة قبل خروجه.

هذه القصة ليست في القرآن.

القرآن يبدأ معنا من مرحلة أن الله آتى إبراهيم رشده، ومن حواره مع آزر وقومه.

لذلك نعرض أخبار الولادة والإخفاء بوصفها روايات مبكرة محفوظة في تفسير العياشي وتفسير القمي وما جمعه المجلسي، من غير تحويل كل تفصيل فيها إلى حقيقة قرآنية أو تاريخية قطعية.

وفي «كمال الدين وتمام النعمة» للصدوق، ج١، باب «في غيبة إبراهيم»، الخبر ٢ بحسب ترقيم الباب (ويُعدّ الحديث ٧ في الترقيم المتسلسل بالطبعة المطالعة، ص١٣٧–١٣٩)، خبر مسند عن الإمام الصادق عليه السلام: يصف تحذير والد إبراهيم لنمرود من مولودٍ يخشى سلطانه، ثم حمل الأم وخوف الأبوين عليه، وإخفاء الأم طفلها في غار وزيارتها له وإرضاعه. يروي النص أيضًا نماءه السريع ورزقه في الغار. هذه كلها مادة رواية، لا يذكر القرآن منها اسم نمرود أو الغار أو حال الحمل. وخبر غيبته في مقدمة الباب من صياغة الصدوق التفسيرية، لا يُنسب بألفاظه كلها إلى الإمام.

وفي خبر الولادة في روضة الكافي، ج٨، ص٣٦٦-٣٦٩، عن أبي بصير عن الإمام الصادق، تظهر أم إبراهيم بوصفها حاميةً لطفلها ترضعه وتتعهده، وتظهر قوابل غير مسميات يفحصن الحمل، وإخوة غير مسمين في تتمة الخبر. تحفظ هذه الأدوار كما يذكرها المصدر؛ فلا نخترع أسماء للقوابل ولا نسمي الإخوة من قائمة نسب أخرى. ولا يُحسم اسم الأم من هذا الخبر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ — الهداية قبل المواجهة

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ الأنبياء ٢١:٥١.

هذه الآية مفتاح مهم جدًا.

إبراهيم لا يدخل القصة رجلًا تائهًا ثم يعثر صدفة على التوحيد.

القرآن يقول إن الله آتاه رشده من قبل.

ولهذا يجب أن تُقرأ مناظرته للكوكب والقمر والشمس في ضوء هذا الرشد، لا بوصفها رحلة شرك حقيقي ثم إيمان متأخر.

ويقول القرآن كذلك في الأنعام ٦:٧٥: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

فالرشد واليقين يسبقان إقامة الحجة على قومه.

إبراهيم وملكوت السماوات والأرض

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

الآية تثبت أن الله أراه الملكوت، لكنها لا تشرح كيفية الرؤية.

وفي روايات عن الإمام الباقر عليه السلام ورد أن الله قوّى بصر إبراهيم حتى رأى من ملكوت السماوات والأرض ما شاء الله أن يريه.

هذه التفاصيل تفسير روائي لمعنى الملكوت.

المهم أن القرآن يجعل هذه الرؤية طريقًا إلى اليقين، لا إلى الشك.

الكوكب والقمر والشمس — مناظرة لا شرك

تروي الأنعام ٦:٧٦-٧٩ أن إبراهيم رأى كوكبًا فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم لما أفل قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾. ثم جرى الأمر مع القمر، ثم الشمس، حتى أعلن: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

في التفسير الإمامي وردت روايات تؤكد أن قول إبراهيم «هذا ربي» لم يكن شركًا.

ومنها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: من قالها اليوم معتقدًا لربوبية الكوكب فهو مشرك، «ولم يكن من إبراهيم شرك»، وإنما كان في مقام طلب الحجة على قومه أو إظهار فساد معتقدهم.
تختلف الروايات والتفاسير في تصوير دقيق لأسلوب المناظرة، لكن النتيجة واحدة:
إبراهيم لم يُثبت للكوكب ربوبية حقيقية في قلبه ثم تراجع.
كان يسوق قومه من مقدمتهم إلى نقضها:
الإله لا يكون أفولُه علامة نقص وغياب.
ولهذا انتهى بقوله الواضح: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

حجة إبراهيم والأمن الحقيقي

بعد ذلك يقول إبراهيم لقومه: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، ثم يسألهم: كيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطانًا؟
ثم يقول الله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الأنعام ٦:٨٣.
إذن القرآن نفسه يسمي هذا المسار «حجة».
والأمن في نهاية المقطع مرتبط بالإيمان الذي لا يلبس بظلم الشرك.
فالمشهد ليس بحثًا شخصيًا مجردًا فقط، بل إقامة حجة على منظومة عبادة الأجرام والأصنام.

إبراهيم وآزر — الدعوة بالرفق قبل المفاصلة

في مريم ١٩:٤١-٤٨ يظهر إبراهيم وهو يخاطب أباه أربع مرات بعبارة ﴿يَا أَبَتِ﴾.
يسأله: لماذا تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا؟
ويقول له إن علمًا جاءه لم يأتِ إليه، ويدعوه لاتباعه إلى صراط سوي.
ويحذره من عبادة الشيطان ومن عذاب الرحمن.
لكن الأب يهدده: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.
فيرد إبراهيم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾.
هذا النص يكشف أن المفاصلة لم تبدأ بالغلظة.
سبقتها دعوة هادئة متكررة.
لكن الرفق لا يعني التنازل عن التوحيد.

استغفار إبراهيم لأبيه ثم التبرؤ منه

قال تعالى في التوبة ٩:١١٤:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

إذن القرآن نفسه يشرح سبب الاستغفار.

لم يكن إقرارًا بالشرك، بل وفاء بوعد سبق أن قاله في مريم.

ثم لما تبين له العداء لله تبرأ منه.

وهذا الموضع من أسباب اهتمام التفسير الإمامي بتمييز آزر عن الأب الصلبي لإبراهيم، وبفهم دعاء إبراهيم في إبراهيم ١٤:٤١: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفي بعض الروايات التفسيرية الإمامية نُقلت قراءة «ولولدي» بدل «ولوالدي»، لكنها قراءة روائية لا تحل محل النص القرآني المتواتر الذي بين أيدينا.

إبراهيم وقومه — سؤال الأصنام قبل تحطيمها

يقول في الأنبياء ٢١:٥٢: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

يجيبون: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

فيرفض إبراهيم جعل الموروث معيارًا للحقيقة: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وفي الشعراء ٢٦:٧٠-٨٢ يسألهم أيضًا: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ هل ينفعونكم أو يضرون؟

فيجيبون بالحجة القديمة نفسها: وجدنا آباءنا يفعلون.

وهنا يعلن إبراهيم أن ما يعبدونه أعداء له إلا رب العالمين، ثم يصف ربه:

الذي خلقني فهو يهدين.

والذي يطعمني ويسقين.

وإذا مرضت فهو يشفين.

والذي يميتني ثم يحيين.

والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

هذه من أجمل صيغ التوحيد في القرآن: الخلق والهداية والرزق والشفاء والموت والحياة والمغفرة كلها ترجع إلى الله.

تحطيم الأصنام — الحجة بالفعل

يقول تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ الأنبياء ٢١:٥٧-٥٨.

ثم سأل القوم من فعل هذا.

فلما جيء بإبراهيم قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾.

الهدف واضح من السياق:

إن كنتم تزعمون أنهم آلهة، فاسألوهم.

فرجع القوم إلى أنفسهم لحظة واعترفوا بأن الأصنام لا تنطق، لكنهم انقلبوا بعد ذلك إلى العناد.

وفي الروايات والتفاسير كلام حول معنى العبارة وهل هي تعليق على شرط «إن كانوا ينطقون» أو إلزام جدلي، ولذلك لا ينبغي أن تُفهم ككذبة أخلاقية عادية من نبي.

النار — ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

عندما عجزت الحجة المضادة، تحول القوم إلى العنف:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء ٢١:٦٨.

وفي الصافات ٣٧:٩٧: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾.

وفي العنكبوت ٢٩:٢٤ جاء جواب قومه: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

فقال الله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

هذه المعجزة ثابتة بنص القرآن.

أما تفاصيل المنجنيق، ومن صنعه، ومدة بقائه في النار، وحجم البناء، وما قالته الملائكة، فكلها من الروايات والقصص، وتحتاج إلى نسبة دقيقة لمصدرها.

وتنقل روايات إمامية أن جبرئيل عرض عليه المساعدة وهو في طريقه إلى النار، وأن إبراهيم لم يطلب حاجته من غير الله، وهو معنى ارتبط في بعض الأخبار بسبب خُلته وانقطاعه إلى الله.

لكن أصل النجاة لا يحتاج إلى الرواية: القرآن يقرره صراحة.

هل بردت النار فقط أم صارت سلامًا؟

الآية لا تقول «بردًا» فقط، بل «بردًا وسلامًا».

لو كانت برودة مؤذية لكان في ذلك أذى آخر، فجاء السلام مع البرد.

وتذكر التفاسير أن الأمر الإلهي جمع رفع الإحراق ورفع الضرر.

ومن هنا أصبحت النار في قصة إبراهيم مثالًا على أن الأسباب لا تستقل عن أمر الله:

النار تحرق بطبيعتها التي خلقها الله، لكنها ليست إلهًا مستقلًا، وإذا أمرها خالقها لم تُحرق.

إبراهيم والملك الذي حاجه في ربه

قال تعالى في البقرة ٢:٢٥٨:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ...﴾.
قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.
فقال الملك: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.
فنقل إبراهيم الحجة إلى ما لا يمكن التلاعب بالألفاظ فيه:
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.
﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.
القرآن لا يسمي هذا الملك.
الروايات وكتب التفسير والتاريخ تسميه النمرود، لكن هذا الاسم تفصيل خارج النص القرآني.
كما أن التفسير الشائع لقوله «أنا أحيي وأميت» بأنه أطلق سجينًا وقتل آخر شرح روائي/تفسيري، لا ألفاظ الآية نفسها.

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ — سؤال الكيف لا سؤال القدرة

قال إبراهيم في البقرة ٢:٢٦٠: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.
قال الله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟
قال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.
السؤال «كيف تحيي» لا «هل تستطيع أن تحيي».
القرآن نفسه يثبت إيمانه بكلمة «بلى».
طلب إبراهيم انتقالًا من العلم إلى المعاينة في كيفية الإحياء.
فأمره الله بأربعة من الطير، وتفريق أجزائها ثم دعائها، فجاءته سعيًا.
وفي الروايات الإمامية اختلفت أسماء الطيور: ففي بعض الأخبار الطاووس والديك والحمام والغراب، وفي غيرها أنواع أخرى، كما اختلف عدد الجبال بين الأخبار.
هذا الاختلاف يمنعنا من جعل نوع كل طائر وعدد الجبال جزءًا من اليقين القرآني.
أما أصل الآية، والأربعة، وتفريق الأجزاء، وعودتها بإذن الله، فثابت بالنص.

إبراهيم والطيور في روايات أهل البيت

يروي تفسير القمي وبعض طرق العياشي عن الإمام الصادق أو الباقر عليهما السلام أن إبراهيم رأى جيفة تأكل منها دواب البر والبحر أو السباع، فتأمل كيف يجمع الله الأجزاء بعد تفرقها.
وتذكر رواية أسماء: الطاووس والديك والحمام والغراب، وتذكر روايات أخرى النعامة أو الوزة أو الهدهد أو غيرها.

كما تذكر بعض الأخبار عشرة جبال.

وقد نبه العلامة الطباطبائي في الميزان إلى أن اختلاف التفاصيل يؤكد أن العمدة في فهم الآية هو المعنى القرآني، لا تثبيت كل اسم جزئي.

وبهذا نحفظ الرواية ولا نحول اختلاف الروايات إلى مشكلة في أصل القصة.

الهجرة — ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

بعد المواجهة مع القوم والنار، يقول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ الصافات ٣٧:٩٩.

ويقول القرآن: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العنكبوت ٢٩:٢٦.

ويقول: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ٢١:٧١.

القرآن يثبت إذن ثلاثة أمور:

إيمان لوط لإبراهيم.

الهجرة لله.

الانتقال إلى أرض مباركة.

أما أسماء المدن ومسار الرحلة الدقيق من موضع الميلاد إلى حران ثم الشام أو فلسطين، فمادة تاريخية وروائية لا يفصلها القرآن.

في روايات الإمامية وكتب القصص تظهر الشام بوصفها أرض الهجرة والبركة، وتظهر رحلات إبراهيم إلى مناطق أخرى، لكن لا ينبغي أن نستبدل وضوح الآية بخريطة تاريخية لا نملك عليها درجة الثبوت نفسها.

لوط مع إبراهيم — مؤمن ومهاجر ثم رسول مستقل

يقول القرآن بوضوح: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾.

إذن لوط عليه السلام حاضر في قصة إبراهيم قبل أن تبدأ رسالته المستقلة لقومه.

ثم يذكر القرآن إنجاء الاثنين إلى الأرض المباركة.

وفي ضيوف إبراهيم سيعود اسم قوم لوط مرة أخرى.

لكن فصل لوط سيأتي بعد هذا الفصل، لذلك نثبت هنا ما يخص إبراهيم:

لوط آمن له.

هاجر معه.

كان جزءًا من جماعة التوحيد في مرحلة الخروج من بيئة الأصنام.

ثم صار له لاحقًا مقام رسالي مستقل سيعالجه الفصل الثالث عشر.

وهكذا لا نذيب قصة لوط في قصة إبراهيم، ولا نفصلها عنها كأنهما لم يلتقيا.

شخصيات الأسرة والخروج في خبر الكرخي

يذكر خبر إبراهيم بن أبي زياد الكرخي عن الإمام الصادق في روضة الكافي (ج٨، الحديث٥٦٠؛ رقم٥٥٩ في العرض الإلكتروني) «لاحج» بوصفه نبيًا منذرًا غير رسول، ويذكر سارة وهاجر، وملكًا قبطيًا يسمى «عرارة»، وقاضي نمرود وعاشرًا ورسلًا غير مسمّين. هؤلاء شخصيات في أخبار إبراهيم؛ فلا ندرجهم تلقائيًا في سلسلة الأوصياء. ويورد صدر الخبر لأم إبراهيم وأم لوط الاسمين «سارة وورقة» مع قراءة «رقية»، ثم يصف سارة الزوجة بأنها بنت لاحج وابنة خالة إبراهيم. لهذا لا نعين الاسمين للأمّين ولا نبني من هذا التركيب شجرة نسب جازمة. يبقى تفصيل سارة وهاجر في الفصل الرابع عشر.

سارة وهاجر — موقعهما في قصة إبراهيم

القرآن لا يذكر اسم «سارة» صراحة، لكنه يتحدث عن «امرأته» في قصة الضيوف وبشارتها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

كما لا يذكر اسم «هاجر» صراحة، لكنه يذكر دعاء إبراهيم عند إسكان بعض ذريته بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم، وتفصل الروايات أن المقصود هاجر وإسماعيل.

الروايات الإسلامية والإمامية تسمي زوجتيه سارة وهاجر.

وفي الأخبار التاريخية والروائية تفاصيل عن انتقال هاجر إلى بيت إبراهيم، وعن الغيرة والعلاقة بين الزوجتين، لكن هذه التفاصيل ليست كلها في مستوى واحد من الثبوت.

في هذا الفصل سنذكر من سارة وهاجر ما يتصل مباشرة بإبراهيم، ثم يأتي الفصل الرابع عشر ليفصل قصة هاجر وإسماعيل ومكة.

إبراهيم وطلب الذرية

بعد الهجرة يقول إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الصافات ١٠٠:٣٧.

وتأتي الاستجابة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

هذا الدعاء يكشف أن مشروع إبراهيم لم يكن فرديًا.

كان يسأل عن امتداد صالح، لا مجرد ابن من ناحية النسب.

وفي سورة مريم ١٩:٤٩، بعد اعتزاله قومه، يقول الله: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

وفي الأنبياء ٢١:٧٢: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

وفي العنكبوت ٢٩:٢٧: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

وهنا يبدأ التحول الكبير:
الهداية التي حملها إبراهيم ستصبح أصلًا لبيوت نبوة ممتدة عبر أجيال كثيرة.

ضيوف إبراهيم — من الخوف إلى البشارة

وردت قصة الضيوف في هود ١١:٦٩-٧٦، والحجر ١٥:٥١-٦٠، والذاريات ٢٤:٥١-٣٠.
في الذاريات:
دخلوا عليه فقالوا سلامًا.
فقال سلام.
ذهب إلى أهله فجاء بعجل سمين أو حنيذ بحسب موضع آخر.
قرّبه إليهم.
فلما رأى أيديهم لا تصل إليه أوجس منهم خيفة.
فقالوا لا تخف.
وبشروه بغلام عليم.
وفي هود كانت امرأته قائمة فضحكت، فبشرت بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.
تظهر هنا صفتان عظيمتان:
الضيافة.
والثقة بوعد الله بعد الخوف الأول.
أما أسماء الملائكة وعددهم التفصيلي، فتذكرها الروايات بطرق مختلفة، وليست في القرآن.
فالقرآن يسميهم «رسلنا» و«ضيف إبراهيم المكرمين»، ولا يحتاج أصل القصة إلى تسمية كل ملك.

إبراهيم أبو الضيفان في الروايات

في الكافي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أن إبراهيم كان «أبا أضياف»، وأنه إذا لم يجد ضيفًا خرج يطلب من يضيفه.
وفي الرواية نفسها جاءه جبرئيل بالبشارة بأن الله اتخذ عبدًا من عباده خليلًا، ثم أخبره أنه هو.
وتنقل روايات أخرى أن من أسباب خلته كثرة إطعام الطعام، أو كثرة السجود، أو قيام الليل، أو أنه لم يسأل أحدًا قط غير الله.
هذه الروايات لا تتعارض بالضرورة؛ فقد تصف جوانب متعددة من شخصيته.
لكن لا نجعل سببًا واحدًا منها تفسيرًا قرآنيًا حصريًا لعبارة ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

الثابت بالقرآن هو الخلة.

أما أسبابها التفصيلية فمن الروايات.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ — معنى الخلة

قال تعالى في النساء ٤:١٢٥:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

الخلة في اللغة تدل على صفاء المحبة وتمام القرب.

وفي احتجاجات وروايات إمامية ربطت الخلة أيضًا بانقطاع إبراهيم إلى الله وفقره إليه وعدم سؤاله غيره.

ولا تعني الخلة تشبيه الله بعلاقة بشرية محتاجة؛ الله غني عن خلقه.

إنها منزلة اصطفاء وقرب ومحبة من الله لعبده.

ولهذا جاء اتباع ملة إبراهيم في الآية نفسها مع ذكر خُلته.

إبراهيم «أمة» وحده

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ النحل ١٦:١٢٠-١٢١.

في تفسير العياشي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام تفسير «أمة» بأنه كان أمة واحدة حين لم يكن على التوحيد الظاهر معه أحد في مرحلة من المراحل، ثم آنسه الله بإسماعيل وإسحاق بحسب الرواية.

المعنى القرآني الأوسع أن إبراهيم اجتمعت فيه خصال إمام يُقتدى به:

الطاعة.

الحنيفية.

الشكر.

الاجتباء.

الهداية.

وعدم الشرك.

ولهذا صار فردًا يحمل معنى جماعة كاملة في الثبات على الحق.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ — ذروة جديدة في مقام إبراهيم

من أهم آيات إبراهيم في القرآن قوله تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة ٢:١٢٤.

الآية تجعل الإمامة نتيجة ابتلاء وإتمام.

ولا تفصل الآية نفسها ماهية كل «الكلمات»، ولذلك اختلفت التفاسير والروايات في تحديدها.

من الروايات ما يربطها بابتلاء الذبح.

ومنها ما يربطها بسنن الحنيفية.

ومنها روايات ذات تفسير ولائي.

الصحيح في منهجنا أن نثبت ما لا خلاف فيه:

إبراهيم ابتلي.

أتم ما كلف به.

جعله الله إمامًا للناس.

سأل لذريته.

فقيد الله العهد بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

مراتب إبراهيم في روايات الكافي — عبد ثم نبي ثم رسول ثم خليل ثم إمام

في الكافي، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

إن الله اتخذ إبراهيم عبدًا قبل أن يتخذه نبيًا،

واتخذه نبيًا قبل أن يتخذه رسولًا،

واتخذه رسولًا قبل أن يتخذه خليلًا،

واتخذه خليلًا قبل أن يجعله إمامًا.

ثم لما جمع له هذه المقامات قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وتوجد رواية قريبة عن الإمام الباقر عليه السلام.

هذه الروايات مركزية في الفكر الإمامي لأنها تجعل الإمامة مقامًا متميزًا عن أصل النبوة والرسالة والخلة.

لكن أسانيد الطرق الواردة ليست كلها في درجة واحدة، ولذلك نعرض المعنى بوصفه تفسيرًا إماميًا أصيلًا للآية، لا بوصفه ألفاظًا قرآنية.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ — الإمامة والعصمة في الاستدلال الإمامي

قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

فلم يرفض الله الذرية كلها، ولم يقبلها كلها.

قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

في الروايات والتفسير الإمامي استُدل بهذه الآية على أن من عبد صنمًا أو كان ظالمًا لا يكون إمامًا للتقاة.

وتأتي بعض الروايات بعبارة: من عبد صنمًا أو وثنًا لا يكون إمامًا.

المعنى الذي يهم كتابنا:

العهد لا ينتقل بالنسب وحده.

إبراهيم نفسه أبو أنبياء كثيرين، لكن الله لم يجعل كل فرد من ذريته حاملًا للعهد لمجرد النسب.

هذا المبدأ سيعود بقوة في قصة إسماعيل وإسحاق ويعقوب وبني إسرائيل، ثم في موضوع الإمامة عند أهل البيت.

إبراهيم من أولي العزم

في الكافي وغيره من مصادر الإمامية ورد أن سادة النبيين والمرسلين وأولي العزم خمسة:

نوح.

إبراهيم.

موسى.

عيسى.

محمد صلى الله عليه وآله.

وعليهم دارت رحى الرسالات الكبرى.

القرآن لا يستخدم عبارة «أولو العزم» مع قائمة أسمائهم صراحة، لكنه يأمر النبي بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل في الأحقاف ٤٦:٣٥.

وتحدد الروايات الإمامية هؤلاء الخمسة.

ويُربط ذلك في روايات أخرى بأنهم أصحاب شرائع عامة أو عهود كبرى.

إبراهيم لذلك ليس نبيًا عاديًا في تسلسل الأسماء؛ إنه صاحب مرحلة تشريعية كبرى.

ملة إبراهيم — لماذا طُلب من محمد صلى الله عليه وآله اتباعها؟

قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل ١٦:١٢٣.

وقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ آل عمران ٣:٩٥.

وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ البقرة ٢:١٣٠.

وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ آل عمران ٣:٦٧.

إذن ملة إبراهيم ليست ملكًا لطائفة جاءت بعده.

هو سابق تاريخيًا على اليهودية والنصرانية بصورتيهما التاريخيتين.

والقرآن يعيد تعريف الانتماء إليه:

ليس بالاسم.

بل بالتوحيد والإسلام لله والحنيفية.

الحنيفية — الميل عن الباطل إلى الحق

«الحنيف» في الاستعمال القرآني ليس مجرد اسم ديني.

إبراهيم حنيف لأنه مال عن الشرك كله إلى توحيد الله.

وتأتي في بعض الروايات الإمامية «سنن الحنيفية» مرتبطة بالنظافة والختان وقص الأظفار وغيرها من السنن.

وتفسير القمي عند البقرة ٢:١٢٤ يربط «الكلمات» بمجموعة من سنن الحنيفية في بعض الأخبار.

لكن ينبغي التفريق:

الحنيفية في القرآن أوسع من قائمة سنن جسدية.

هي أصل التوحيد والاستقامة.

والسنن العملية جزء من صورتها الروائية والشرعية، لا كل معناها.

إبراهيم والختان وسنن الفطرة

وردت روايات كثيرة في أبواب السنن والطهارة أن الختان من سنن إبراهيم، وأنه اختتن في سن متأخرة بحسب بعض الأخبار.

وتختلف التفاصيل في عمره والآلة والظرف.

كما نُسب إليه في بعض الروايات عدد من سنن النظافة والحنيفية.

لا يذكر القرآن ختان إبراهيم.
لذلك تُدرج هذه المادة في باب السنن المنقولة، لا في صلب الأحداث القرآنية.
ولا نثبت عمرًا محددًا له عند الختان إلا مع ذكر الرواية التي قالت به.

صحف إبراهيم — القرآن يثبتها والرواية تفصل

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ الأعلى ٨٧:١٨-١٩.
وقال في النجم ٥٣:٣٦-٣٧: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾.
إذن وجود صحف لإبراهيم ثابت بالقرآن.
أما عددها ومحتواها فليس في القرآن.
في حديث أبي ذر المروي في معاني الأخبار والخصال ورد أن الله أنزل على إبراهيم عشرين صحيفة.
وتنقل الرواية أمثالًا وحكمًا من تلك الصحف، منها خطاب للملك المبتلى المغرور، وتنظيم أوقات العاقل بين مناجاة الرب ومحاسبة النفس والتفكر في صنع الله وحظ النفس من الحلال.
هذه المادة ثمينة، لكنها تبقى من حديث أبي ذر وتحتاج إلى تقويم سنده.
ولا يجوز جمع نصوص هرمسية أو كتب منتحلة لاحقة وتسميتها «صحف إبراهيم» بلا دليل.

﴿إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ — ماذا وفّى؟

القرآن يصفه في النجم ٥٣:٣٧ بأنه ﴿إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾.
اللفظ مفتوح على معنى عظيم:
أتم ما كُلّف به.
وفّى بالعهد.
صدق في الابتلاء.
وتذكر روايات وتفاسير تفاصيل متعددة في تفسير «وفّى»، بعضها يربطه بأذكار أو عبادات مخصوصة، وبعضها بتمام الطاعة.
ولا يوجد ما يلزم بحصر اللفظ في عمل واحد.
والأنسب لسياق القرآن كله أن نرى وفاء إبراهيم متجسدًا في مسيرته كاملة:
ترك الأصنام.
تحمل النار.
هاجر.

دعا.

بنى البيت.

استجاب للذبح.

وأتم ابتلاء الإمامة.

إبراهيم ومكة — بداية الفرع الإسماعيلي

من أعظم التحولات في حياة إبراهيم عليه السلام انتقال بعض ذريته إلى مكة.

قال تعالى على لسانه:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إبراهيم ١٤:٣٧.

القرآن لا يذكر في هذه الآية اسم هاجر أو إسماعيل، لكنه يثبت:

أن إبراهيم أسكن بعض ذريته في واد غير ذي زرع.

أن الموضع كان عند البيت المحرم.

أن الغاية الدينية المركزية كانت إقامة الصلاة.

أنه دعا بأن تميل قلوب الناس إليهم.

وأن يرزقهم الله من الثمرات.

روايات أهل البيت تشرح أن المقصود هاجر وإسماعيل.

وهذا التفصيل سيُعالج بصورة أوسع في الفصل الرابع عشر، لكن لا يمكن حذف دوره من فصل إبراهيم، لأن القرار والدعاء جزءان من سيرة الخليل نفسه.

إبراهيم وهاجر وإسماعيل — موضع التفصيل

يربط خبر الكافي بين ترك إبراهيم أسرته في رعاية الله، وسعي هاجر سبعة أشواط، وظهور زمزم، وبداية الاستقرار في مكة. تفصيل دور هاجر وجبرئيل والوافدين محفوظ في الفصل الرابع عشر، ثم نتبع سيرة إسماعيل في الفصل الخامس عشر؛ ويكفي هنا اتصال هذا الحدث بثقة إبراهيم ودعائه، من غير إعادة القصة كاملة.

هل كان البيت موجودًا قبل إبراهيم؟

يقول القرآن:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ البقرة ٢:١٢٧.

يذكر النص رفع قواعد البيت، ويُقرأ ذلك مع بيان مكانه لإبراهيم في آية الحج. أما زمن تأسيس الموضع قبل إبراهيم ومن بناه فلا تحسمه هذه العبارة وحدها.

وفي الحج ٢٢:٢٦ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾.

ولهذا فرّقت روايات المسلمين بين وجود موضع البيت أو قواعده قبل إبراهيم وبين البناء الإبراهيمي.

وقد مر في فصل آدم أن بعض الروايات الإمامية تربط موضع البيت بآدم.

الصياغة الدقيقة:

القرآن يثبت أن الله بوّأ لإبراهيم مكان البيت، وأن إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعده.

أما تاريخ الموضع قبل إبراهيم فتفصله الروايات.

رفع القواعد — إبراهيم وإسماعيل يبنيان وهما يدعوان

قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ البقرة ٢:١٢٧-١٢٩.

هذه الآيات تجمع البناء والدعاء.

لم يقل إبراهيم: لقد بنينا فاقبل منا حتمًا.

قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.

العمل العظيم لا يلغي الخوف من عدم القبول.

ثم دعا:

بالإسلام لله.

بأمة مسلمة من ذريتهما.

بتعليم المناسك.

بالتوبة.

وببعثة رسول من ذريتهم يتلو الآيات ويعلم الكتاب والحكمة ويزكي الناس.

في التصور الإسلامي، دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وآله ترتبط بهذه الدعوة الإبراهيمية.

مقام إبراهيم والبيت أمنًا

قال تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة ٢:١٢٥.
ويأمر الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.
إذن مقام إبراهيم ليس مجرد أثر تاريخي.
القرآن يجعله مرتبطًا بالصلاة.
والبيت:
مثابة.
وأمن.
وموضع طواف واعتكاف وركوع وسجود.
وتفصل الروايات موضع المقام وتحرك الحجر وأثر القدمين، لكن أصل المقام والصلاة عنده قرآني.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ — نداء إبراهيم

قال تعالى:
﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج ٢٢:٢٧.
في سياق الآيات، الخطاب لإبراهيم بعد أن بوّأ الله له مكان البيت.
وهكذا لم تكن مهمة إبراهيم بناء جدران فقط.
كان عليه أن يدعو البشرية للحج.
وتنقل روايات أن إبراهيم نادى وأن الله أوصل النداء إلى من شاء من عباده، وأن «لبيك» جواب لذلك النداء في معنى من المعاني.
هذه التفاصيل من الرواية، أما أصل الأذان بالحج فقرآني.

إبراهيم والمناسك في روايات أهل البيت

يضم الكافي بابًا بعنوان حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت.
وتنقل الروايات تعليم جبرئيل لإبراهيم وإسماعيل المناسك، ومواقع الوقوف والطواف والسعي والذبح وغير ذلك.
وكما فعلنا في فصل آدم:
لا نجعل كل تفصيل في كل رواية مساويًا للقرآن.
لكن وجود باب كامل في الكافي يبين أن التراث الإمامي يرى إبراهيم وإسماعيل أصلًا مهمًا في تاريخ مناسك الحج.

ويأتي تفصيل سعي هاجر وزمزم في الفصل الرابع عشر، ثم دور إسماعيل في البيت والمناسك في الفصل الخامس عشر، مع الاكتفاء هنا بما يخص إبراهيم.

إبراهيم ودعاؤه لمكة بالأمن والرزق

ورد الدعاء في موضعين مهمين.

البقرة ٢:١٢٦:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

إبراهيم ١٤:٣٥:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

لاحظ الفرق اللغوي:

في البقرة «بلدًا» عند الدعاء بالبلد.

وفي إبراهيم «البلد» في سياق بلد معروف.

وقد تأمل المفسرون في دلالة ذلك على مرحلتين من الدعاء.

كما أن إبراهيم لم يطلب الأمن المادي فقط.

ربط الأمن بالتوحيد والصلاة والرزق والشكر.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ — الخوف من الشرك بعد تحطيم الأصنام

الرجل الذي كسر الأصنام يطلب من الله دوام الحفظ له ولبنيه؛ فالعصمة في الفهم الإمامي حفظ إلهي، ولا تعني الاستغناء عن الله أو عن الدعاء.

بل يدعو الله أن يجنبه وبنيه عبادتها.

ثم يقول: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

هذا درس عميق:

إبراهيم لم يحول انتصاره القديم على الأصنام إلى ثقة بالنفس تغنيه عن الدعاء.

التوحيد يحتاج حفظًا مستمرًا.

وهذه الفكرة ستصبح أكثر أهمية حين ننظر إلى تاريخ بعض ذريته الذين وقعوا لاحقًا في الانحراف.

إبراهيم وإسماعيل — شراكة في البيت لا تلغي مقام الأب

القرآن يقول إن إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد معًا.

إسماعيل ليس مجرد عامل يساعد أباه.

هو شريك في العبادة والدعاء:
﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.
﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.
﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.
ومن هنا سيكون فصل إسماعيل مستقلًا، لأن دوره يتجاوز كونه ابن إبراهيم.
لكن إبراهيم يبقى صاحب المبادرة الأبوية والنبوية في إسكان الأسرة، الدعاء، بناء البيت، وإعلان الحج.

الابتلاء بالذبح — أعظم اختبارات التسليم

قال تعالى في الصافات ١٠٢:٣٧:
﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.
قال الابن:
﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.
ثم:
﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا... ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.
القصة ليست اختبار إبراهيم وحده.
القرآن يقول: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾.
الأب أسلم.
والابن أسلم.
لم يذكر القرآن أن الذبح وقع فعلًا على الابن؛ بل صدق إبراهيم الرؤيا ثم جاء الفداء.
وهذا من أعمق مشاهد التسليم في القرآن.

من هو الذبيح؟ — القرآن لا يسميه

القرآن في قصة الصافات يقول «الغلام الحليم» ثم «يا بني»، ولا يذكر الاسم.
بعد نهاية قصة الفداء يقول: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.
لهذا ذهب كثير من علماء الإمامية إلى أن الذبيح إسماعيل.
لكن الأمانة تقتضي أن نقول إن الروايات المنقولة عن أهل البيت ليست على لفظ واحد في هذا الموضوع.

فقد جمع المجلسي في بحار الأنوار روايات تقول إسماعيل وروايات تقول إسحاق.

ومن الروايات الصريحة:

عن الإمام الرضا عليه السلام عندما سئل: إسماعيل أم إسحاق؟ قال: إسماعيل، واستدل بالبشارة بإسحاق بعد قصة الذبح.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض الطرق: «الذبيح إسماعيل».

وعن الإمام الصادق عليه السلام في معاني الأخبار: أن إسماعيل كان أكبر وأنه الذبيح وأن الذبح كان أيام الموسم بمنى.

وفي المقابل توجد أخبار أخرى تنسب الذبح إلى إسحاق، وقد حفظها الكافي والعياشي وبعض المجاميع.

قال الطبرسي إن القولين رُويا عن أصحابنا، وإن الأظهر في الروايات إسماعيل.

وقال المجلسي بعد الجمع إن الأخبار المعتبرة المصرحة بإسماعيل كثيرة.

إذن الصياغة الصحيحة:

القرآن لا يسمي الذبيح.

الروايات الإمامية مختلفة.

والأظهر والأشهر عند الإمامية أن الذبيح إسماعيل.

الذبح ومنى والجمرات في الروايات

ترتبط روايات الحج الإبراهيمية بقصة الذبح في منى.

وتذكر أخبار أن إبليس تعرض لإبراهيم في الطريق، فرماه بالحجارة، وربطت الروايات ذلك برمي الجمرات.

وتنقل أخبار نزول الكبش الذي فُدي به الابن.

لكن التفاصيل تختلف في طرقها.

القرآن يثبت فقط:

الرؤيا.

التسليم.

إضجاع الابن.

تصديق الرؤيا.

والفداء بذبح عظيم.

أما موضع كل حركة وشكل الكبش وتاريخ نزوله فمادة روائية.

والتفصيل الأكبر سيأتي مع فصل إسماعيل والحج.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ — لماذا كان البلاء عظيمًا؟

قال الله بعد المشهد: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

الاختبار جمع:

محبة الأب لابنه بعد طول انتظار.

رؤيا النبوة.

تكليفًا يصطدم بأقوى عاطفة بشرية.

قبول الابن.

إقدام الأب.

ثم إظهار أن الله لا يريد الدم لذاته، بل صدق التسليم.

ولهذا صار الحدث من أعظم رموز العبودية.

ومنه نفهم أيضًا لماذا ربطت بعض تفاسير البقرة ٢:١٢٤ ابتلاء إبراهيم بالإمامة بهذا الاختبار أو جعلته من أبرز مصاديق الكلمات التي أتمها.

البشرى بإسحاق — فرع آخر من العهد

بعد قصة الذبح تقول الصافات:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

إذن البركة لا تعني أن كل فرد من الذرية صالح.

القرآن نفسه يذكر:

محسن.

وظالم لنفسه.

وهذا يعيدنا إلى قاعدة البقرة ٢:١٢٤:

النسب الإبراهيمي شرف، لكنه لا يعفي من المسؤولية.

إسحاق سيصبح أصل خط نبوي كبير، وسيأتي فصله بعد إسماعيل.

إبراهيم يجادل في قوم لوط — الرحمة لا تلغي حكم الله

حين جاءت الملائكة بالبشرى قالوا إنهم مرسلون إلى قوم لوط.

يقول هود ١١:٧٤-٧٦:

بعد أن ذهب الروع عن إبراهيم وجاءته البشرى، أخذ يجادل رسل الله في قوم لوط.

ثم يصفه الله:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾.

هذه المجادلة ليست اعتراضًا على عدل الله.

هي مظهر رحمة وحلم ورجاء في إمهال الناس.

لكن حين جاء الأمر النهائي قيل له:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

الحلم لا يتحول إلى تعطيل للحكم بعد تمام الحجة.

وقصة قوم لوط ستأتي كاملة في الفصل الثالث عشر.

أدعية إبراهيم في القرآن — سيرة كاملة في كلمات الدعاء

من أراد أن يعرف قلب إبراهيم عليه السلام فليجمع أدعيته.

القرآن لا يعطينا فقط أحداثًا عنه، بل يحفظ لنا دعاءه في مراحل متعددة من حياته.

الدعاء الأول: طلب الذرية الصالحة

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الصافات ١٠٠:٣٧.

لم يقل: هب لي ولدًا فقط.

طلب ولدًا داخل دائرة الصلاح.

الدعاء الثاني: الأمن والرزق

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ البقرة ٢:١٢٦.

الدعاء الثالث: قبول بناء البيت

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ البقرة ٢:١٢٧.

الدعاء الرابع: الثبات على الإسلام

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ البقرة ٢:١٢٨.

الدعاء الخامس: معرفة المناسك والتوبة

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ البقرة ٢:١٢٨.

الدعاء السادس: بعثة الرسول

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة ٢:١٢٩.

الدعاء السابع: أمن مكة والبعد عن الأصنام

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ إبراهيم ١٤:٣٥.

الدعاء الثامن: إقامة الصلاة وميل القلوب والرزق

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ... رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ إبراهيم ١٤:٣٧.

الدعاء التاسع: إقامة الصلاة في ذريته

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ إبراهيم ١٤:٤٠.

الدعاء العاشر: المغفرة يوم الحساب

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ إبراهيم ١٤:٤١.

الدعاء الحادي عشر: الحكم واللحاق بالصالحين

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الشعراء ٢٦:٨٣.

الدعاء الثاني عشر: لسان صدق في الآخرين

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ الشعراء ٢٦:٨٤.

وقد استجاب الله له بصورة ظاهرة؛ فذكر إبراهيم بقي في أديان وملل وأجيال كثيرة.

الدعاء الثالث عشر: وراثة جنة النعيم

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ الشعراء ٢٦:٨٥.

الدعاء الرابع عشر: دعاؤه لأبيه قبل التبرؤ

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الشعراء ٢٦:٨٦.

ويُفهم هذا في ضوء التوبة ٩:١١٤: كان عن موعدة، ثم تبرأ منه حين تبين له العداء لله.

الدعاء الخامس عشر: ألا يُخزى يوم البعث

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء ٢٦:٨٧-٨٩.

الدعاء السادس عشر: طلب رؤية كيفية الإحياء

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ البقرة ٢:٢٦٠.

وهو سؤال علم ومعاينة لا شك في أصل القدرة.

الدعاء السابع عشر: صلاة التوحيد والبراءة

في الممتحنة ٦٠:٤-٥ يحفظ القرآن عن إبراهيم والذين معه:
﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾.
وهكذا تصبح أدعيته خريطة لحياته:
ذرية.
بيت.
مكة.
صلاة.
توحيد.
رسول.
مناسك.
توبة.
حكم.
ذكر صالح.
جنة.
قلب سليم.
وتوكل.

القلب السليم — من نوح إلى إبراهيم

قالت الصافات بعد ذكر نوح:
﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٣٧:٨٣-٨٤.
والضمير في «شيعته» فسره كثير من المفسرين بأنه يعود إلى نوح:
إبراهيم من أتباع نهجه في التوحيد.
وهذا لا يعني أنه عاش مع نوح أو تلقى منه مباشرة.
إنها صلة منهج.
وقلب إبراهيم السليم يعود في دعائه:
﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.
كأنه دعا للناس بما عاشه هو.

القلب السليم هو قلب لا يعبد مع الله غيره ولا يحمل ولاءً للشرك.

إبراهيم والرسول الخاتم — دعاء قبل قرون من البعثة

من أهم صلات إبراهيم بخاتم الأنبياء دعاؤه عند البيت:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾.

وفي الروايات الإسلامية وصف النبي صلى الله عليه وآله نفسه بأنه دعوة أبيه إبراهيم في معنى مشهور.

حتى من دون الاعتماد على هذا الخبر، القرآن نفسه يضع دعاء الرسول في سياق بناء البيت مع إسماعيل.

إذن الفرع الإسماعيلي لا يظهر في الكتاب فقط كفرع نسب.

هو يحمل دعاءً رساليًا منذ إبراهيم:

رسول.

آيات.

كتاب.

حكمة.

تزكية.

ومن هنا يصبح الانتقال من إبراهيم إلى إسماعيل ثم إلى الأجيال العربية وصولًا إلى محمد صلى الله عليه وآله جزءًا من حكاية الهداية، لا مجرد شجرة أنساب.

آل إبراهيم والنبوة والكتاب

قال تعالى:

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء ٤:٥٤.

وقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ العنكبوت ٢٩:٢٧.

وقال في الحديد ٥٧:٢٦ عن نوح وإبراهيم:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

هذه الآيات تشرح لماذا يصبح إبراهيم محورًا تاريخيًا:

من ذريته خرجت سلاسل نبوية كبرى.

لكن القرآن نفسه يمنع تحويل ذلك إلى امتياز آلي:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ الصافات ٣٧:١١٣.
البركة لا تلغي الاختبار.

آل إبراهيم والاصطفاء في القرآن

تزيد آل عمران ٣:٣٣-٣٤ صورة السلسلة وضوحًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾. تسمية «آل إبراهيم» مقصودة، لكنها لا تقول إن كل فرد من أسرته مُصطفى؛ فقيد ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢:١٢٤) باقٍ، كما يذكر القرآن في ذريته محسنًا وظالمًا (الصافات ٣٧:١١٣). والمصطلح «آل عمران» في الآية لا يكفي وحده لإثبات أنه عمران حامل الوصية المذكور في رواية انتقال العهد قبل إبراهيم؛ اشتراك الاسم لا يحسم الهوية ولا الزمن.

تقول الأنعام ٦:٨٤-٨٧: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾، وتعدد بعدهما أسماء أنبياء، منهم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ثم إسماعيل واليسع ويونس ولوط. وتختم باجتباء بعض الآباء والذرية والإخوة وهدايتهم. هذه خريطة قرآنية للامتدادات النبوية، وليست شهادةً بأن كل اسم في القائمة ابن مباشر لإبراهيم؛ فلوط مؤمن معاصر له بنص العنكبوت ٢٩:٢٦. ويُبحث مرجع الضمير في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ تفسيرًا، فلا نلغي اختلاف الأجيال وصلة كل نبي.

وتستعيد مريم ١٩:٥٨ ذكر ﴿ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ ضمن الأنبياء المنعم عليهم، وتصفهم بأنهم يخرّون سجدًا وبكيًا عند تلاوة آيات الرحمن. تختص هذه الآية بصورة العبادة التي انتقلت في خطوط الهداية، وتصل بيت إبراهيم بما سيتفرع من بيت يعقوب/إسرائيل. لا تعني أن جميع أبناء إبراهيم أنبياء، ولا تختزل الفرع الإسماعيلي في الفرع الإسرائيلي.

إبراهيم ليس يهوديًا ولا نصرانيًا — تصحيح ملكية الذاكرة

قال تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران ٣:٦٧.

الآية لا تنتقص من أنبياء بني إسرائيل أو المسيح.

بل تصحح خطأ زمنيًا وعقديًا:

إبراهيم أسبق من الهويات التاريخية اللاحقة.

ومن كان أحق بإبراهيم؟

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ آل عمران ٣:٦٨.

القرب الحقيقي:

اتباع.

لا ادعاء نسب أو اسم فقط.

إبراهيم في الصلاة على محمد وآل محمد

من أشهر صيغ الصلاة في التراث الإسلامي:

اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم.

هذه الصيغة تضع «آل إبراهيم» معيارًا لبركة بيت نبوي ممتد.

في الكتاب لن نستخدمها لإثبات تفاصيل تاريخية ليست في القرآن، لكنها تذكرنا بأن إبراهيم ليس فردًا فقط، بل أصل بيت هداية واسع.

وفي التصور الإمامي يأتي آل محمد ضمن ذروة خط الهداية الذي دعا له إبراهيم في مكة، مع بقاء كل استدلال عقدي في موضعه ومصدره.

إبراهيم و«الكلمة الباقية» في عقبه

قال تعالى في الزخرف ٤٣:٢٦-٢٨:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

«الكلمة» في السياق هي كلمة التوحيد والبراءة من الشرك.

وتوجد في التفسير الإمامي قراءات تربط بقاء الكلمة أيضًا باستمرار الحجة والإمامة في ذرية مختارة.

لكن النص القرآني نفسه يضع الأساس:

براءة من المعبودات.

توجه إلى الفاطر.

هداية.

كلمة باقية في العقب.

هذه الآية تلخص مشروع إبراهيم بعد موته:

أن يبقى التوحيد حيًا في الأجيال.

إبراهيم والقدوة — ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

قال تعالى في الممتحنة ٦٠:٤:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.
القدوة هنا مرتبطة بالبراءة من الشرك والعبادة الباطلة.
لكن الاستثناء مهم:
﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.
القرآن نفسه يعلمنا ألا نحول حياة النبي إلى تقليد بلا تمييز.
هناك موقف مخصوص كان مرتبطًا بوعد ثم انتهى بالتبرؤ.
القدوة القرآنية دقيقة، لا عاطفية فقط.

إبراهيم وإسحاق ويعقوب — القوة والبصيرة

قال تعالى:
﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۝ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ص ٣٨:٤٥-٤٧.
«الأيدي» ليست مجرد قوة جسدية؛ تفهم في معنى القدرة على العمل والطاعة.
و«الأبصار» بصيرة في الدين.
وجعل الله لهم خصوصية ذكر الدار الآخرة.
إبراهيم في القرآن ليس صاحب فكر نظري فقط.
هو صاحب عمل وبصيرة وآخرة.

إبراهيم والرجل العابد في روايتين إماميتين

في «كمال الدين»، باب «في غيبة إبراهيم»، الخبر ٣، يروي الإمام الباقر عليه السلام خروج إبراهيم يسير في البلاد للاعتبار، ثم لقاءه رجلًا قائمًا يصلي في فلاة. سأل إبراهيم لمن يصلي، فلما أجاب أنه يعبد خالق الاثنين أحبّ مواخاته في الله. دعا الرجلُ الله ثلاث سنين أن يرى خليله بعدما مرّ به غلام مع ماشية قال إنه إسماعيل ابن إبراهيم؛ فعرّفه إبراهيم بنفسه، وحمد العابد الله على إجابة دعائه. ثم دعا إبراهيم بالمغفرة والرضا للمؤمنين المذنبين إلى يوم القيامة، وأمّن الرجل على دعائه. يختم الخبر ببيانٍ منسوب إلى الإمام الباقر عن بلوغ الدعوة للمؤمنين المذنبين من الشيعة. هذه شخصية مؤمنة مهمة، ولا تسميها الرواية وصيًا ولا تثبت لها رتبة النبوة. غياب هذا الوصف من الخبر لا يساوي الجزم بنفي النبوة عنها مطلقًا.
وفي «الأمالي» للصدوق، المجلس التاسع والأربعون، الحديث ١١، خبرٌ آخر عن رجل عابد لقيه إبراهيم قرب بيت المقدس. يختلف تصوير المكان وحال العابد والمدة التي انتظر فيها استجابة دعائه: ثلاثون سنة

في هذا النص مقابل ثلاث سنوات في خبر «كمال الدين»، كما يختلف لفظ دعائه وبعض تفاصيل الغلام والماشية. لا نركّب الخبرين في واقعة واحدة مؤكدة أو نجعل الرجل وصيًا أو خضرًا بلا دليل. لم يُستكمل هنا تقويم سند كلٍّ من الخبرين، فتبقى التفاصيل في مرتبة الأخبار المنسوبة إلى الإمامين، بعد اليقين القرآني في سيرة إبراهيم.

إبراهيم والشفقة على الضيف والغريب والضعيف

من جمع الآيات والروايات يرى صفة تتكرر:

كان يطعم.

يكرم الضيف.

يجادل رحمة بقوم لوط.

يدعو للذرية.

يدعو للمؤمنين.

ويخشى على ذريته من الأصنام.

لهذا ليست الخلة انعزالًا صوفيًا عن الناس.

كلما ازداد قربه من الله اتسعت مسؤوليته تجاه الخلق.

وهذه نقطة مهمة في فهم معنى الإمامة:

القرب من الله يتحول إلى خدمة وهداية ورحمة.

إبراهيم والعدالة — لا قداسة للملك الظالم

مناظرة الملك في البقرة وقصة الجبار في الروايات، مع رفض إبراهيم للأصنام، تضع مبدأ واحدًا:

لا سلطة بشرية تصبح ربوبية.

الملك إن أوتي الملك من الله لا يملك أن يجعل نفسه إلهًا.

والقوة السياسية لا تصنع الحقيقة.

لهذا انتقل إبراهيم في محاجته بالملك إلى الشمس:

إن كنت ربًا حقًا فغيّر نظامًا كونيًا خارج سلطانك.

فبُهت الذي كفر.

التوحيد عند إبراهيم يهدم عبادة الحجر وعبادة السلطة معًا.

هل إبراهيم «أبو الأنبياء»؟

هذه عبارة شائعة ويمكن استخدامها بشرط الدقة.

القرآن يقول إن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب.

ومن ذريته جاء إسماعيل وإسحاق، ومن إسحاق يعقوب، ثم أنبياء بني إسرائيل، ومن الفرع الإسماعيلي جاء خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله.

لكن ليس معنى ذلك أن كل نبي في التاريخ جاء من ذريته؛ نوح وإدريس وهود وصالح سبقوه.

إذن «أبو الأنبياء» تعبير عن كثرة من جاء بعده من الأنبياء في ذريته، لا أنه والد جميع الأنبياء.

ماريا بن أوس: عابد من أخبار إبراهيم

ينقل الراوندي في قصص الأنبياء، الخبر١١٦، حكاية «ماريا بن أوس»، وهو رجل عابد، لا امرأة. يلقى إسحاق ثم إبراهيم، وتدور الحكاية حول دعائه أن يلتقي إبراهيم واستجابة الدعاء والتعارف بينهما. لا يفتتح هذا المقطع بإسناد مستقل؛ لذلك نعرضه خبرًا يحتاج إلى دراسة طريقه، لا واقعة تاريخية مقطوعًا بها. ولا يجعل الخبر ماريا وصيًا لصالح، ولا يصلح العمر الطويل المذكور فيه لضبط الفاصل الزمني بين صالح وإبراهيم. موضع الشخصية هنا مع أخبار إبراهيم؛ وفي الفصل الحادي عشر تكفي الإحالة إليها.

أبناء إبراهيم — ما الذي يثبته القرآن؟

يسمي القرآن من أبنائه:

إسماعيل.

إسحاق.

ويذكر يعقوب حفيدًا.

أما أخبار أولاد آخرين من زوجات أخريات، مثل قنطورا وأسماء أبنائها، فهي من كتب التاريخ وأهل الكتاب والنسب وليست جزءًا من القصة القرآنية.

لا نحتاج إلى إنكارها كلها، لكن لا نضعها في المستوى نفسه.

في حكاية الهداية، الخطان الثابتان بالقرآن هما:

إسماعيل.

إسحاق.

ومن هنا سيتفرع الكتاب.

سارة وبشارة الشيخوخة

في هود ١١:٧٢ تقول امرأة إبراهيم:
﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.
فيرد الملائكة:
﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.
إذن ولادة إسحاق تأتي في القرآن علامة رحمة وبركة بعد الشيخوخة.
أما تحديد عمر إبراهيم وسارة يوم البشارة فتفاصيل تأتي من الأخبار التاريخية والروايات، لا من الآية.

إبراهيم والشيخوخة — الشكر عند تحقق الدعاء

قال في إبراهيم ١٤:٣٩:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.
تثبت الآية أن الابنين هبة في الكبر، وتقدم إسماعيل في الذكر؛ أما ترتيب الولادتين والفاصل بينهما فيحتاج إلى بقية الأدلة، ولا يثبت من مجرد ترتيب الاسمين.
إسماعيل وإسحاق كلاهما هبة في الكبر.
والآية تسمي إسماعيل أولًا.
ثم لا يكتفي إبراهيم بالفرح بالولد، بل يحول تحقق الدعاء إلى الحمد.
ويكمل مباشرة بالدعاء للصلاة.
النعمة عند إبراهيم تقوده إلى العبادة، لا إلى الغفلة.

إبراهيم في نهاية حياته — ماذا نعرف؟

القرآن لا يصف موت إبراهيم.
لا يذكر عمره عند الوفاة.
لا يذكر مرضه.
لا يذكر موضع قبره.
ولا يصف من تولى دفنه.
كتب التاريخ وأهل الكتاب تشتهر بقول إنه عاش نحو ١٧٥ سنة ودُفن في حبرون/الخليل في مغارة المكفيلة إلى جانب سارة، وأن إسماعيل وإسحاق توليا دفنه.
هذه الأخبار مشهورة جدًا تاريخيًا، لكنها ليست قرآنًا.

وفي روايات إسلامية أخبار عن لقاء ملك الموت بإبراهيم وكيفية وفاته، وتختلف صيغها.
لذلك يكون منهجنا:
نثبت أن إبراهيم مات ككل بشر، لقوله تعالى في العموم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.
ونذكر حبرون والخليل والعمر المشهور بوصفه مادة تاريخية.
ولا نجعل ١٧٥ سنة أو موضع المغارة حقيقة قرآنية.

مدينة الخليل وقبر إبراهيم — بين الذاكرة الدينية والإثبات

مدينة الخليل في فلسطين ارتبط اسمها تاريخيًا بإبراهيم الخليل عليه السلام.
ويُعرف فيها الحرم الإبراهيمي ومغارة تُنسب إليه وإلى أسرته.
وجود تقليد ديني وتاريخي قوي حول هذا الموضع حقيقة تاريخية في الذاكرة الجماعية.
أما إثبات أن البناء الحالي أو كل قبر محدد داخله يمثل الموضع المادي اليقيني لجثمان نبي معين فموضوع أثري وتاريخي آخر.
الكتاب الديني لا يحتاج إلى تحويل الذاكرة المكانية إلى يقين يفوق الدليل.

هل نذكر النمرود وموته بالبعوضة؟

كتب القصص والتاريخ تشتهر بقصة أن النمرود عوقب ببعوضة أو حشرة دخلت رأسه.
هذه القصة ليست في القرآن.
ولم نجدها في صلب الروايات الإمامية التي يعتمد عليها الفصل بالدرجة التي تسمح بجعلها حدثًا أساسيًا من سيرة إبراهيم.
لذلك لا نحذف ذكر وجودها من الذاكرة القصصية، لكننا لا نبني عليها الفصل.
هذا مثال عملي على قاعدة الكتاب:
الشهرة ليست وحدها دليلًا.

هل كل ما نُسب إلى إبراهيم من علوم وكتب صحيح؟

ارتبط اسم إبراهيم في بعض الأدبيات المتأخرة بعلم النجوم، وأسرار الحروف، وكتب منسوبة إليه، ونصوص هرمسية.
وجود اسم إبراهيم على كتاب متأخر لا يجعل الكتاب من صحفه.
المعيار:
القرآن يثبت صحف إبراهيم.

الرواية الإمامية تنقل عشرين صحيفة في بعض الطرق.
أما محتوى كتب متأخرة مجهولة الطريق فلا يُنسب إلى إبراهيم بلا سند.
وبهذا نحمي مقام النبي من أن يصبح مظلة لكل نص غامض.

ما تضيفه الروايات الإمامية إلى الصورة

الروايات تضيف — بدرجات مختلفة من الثبوت:
تفاصيل ولادته في زمن النمرود وإخفائه.
تفسير آزر وتارخ.
تفاصيل ملكوت السماوات والأرض.
شرح مناظرته بالكوكب والقمر والشمس.
تفاصيل النار والمنجنيق وجبرئيل.
اسم النمرود.
تفاصيل الطيور وأنواعها والجبال.
أسباب اتخاذه خليلًا.
مراتب عبد/نبي/رسول/خليل/إمام.
سنن الحنيفية والختان.
عدد صحفه وبعض الحكم المنسوبة إليها.
تفاصيل هاجر وإسماعيل وزمزم والسعي.
تعليم جبرئيل للمناسك.
تفاصيل الذبح ومنى والجمرات.
تعيين الذبيح مع وجود اختلاف روائي، والأشهر إسماعيل.
تفاصيل موضع المقام والحجر.
أخبار وفاته وعمره وقبره.
هذه الطبقة لا تُلغى، لكنها دائمًا تحمل بطاقة مصدرها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ — جوهر إبراهيم

قال تعالى في البقرة ٢:١٣١:
﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هذه الآية تختصر كل ما سبق:

إبراهيم لم يجعل الإسلام لله شعارًا، بل جواب حياته كله.

والفعل «أسلمت» يعود في:

النار.

الهجرة.

البيت.

الذبح.

الإمامة.

ومن هنا جاء وصفه بالحنيف المسلم.

وصية إبراهيم لبنيه — استمرار الهداية بعده بنص القرآن

قال تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ البقرة ٢:١٣٢.

هذه آية شديدة الأهمية لمشروع حكاية الهداية.

فهي لا تتحدث عن نسب فقط.

تستخدم لفظ «وصى».

ومضمون الوصية:

الدين الذي اصطفاه الله.

الثبات على الإسلام حتى الموت.

ثم تأتي البقرة ٢:١٣٣ بمشهد يعقوب مع بنيه:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾.

وهكذا ينتقل سؤال «ما الذي يبقى بعد موت النبي؟» من الروايات إلى نص قرآني صريح في البيت الإبراهيمي:

يبقى التوحيد.

ويبقى التكليف بحفظ الدين.

أما تعيين كل وصي بالاسم في كل جيل فموضوع آخر يحتاج دليله الخاص.

ملة أبيكم إبراهيم — الأبوة الروحية للأمة

قال تعالى في الحج ٢٢:٧٨:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾.

ويسمي القرآن إبراهيم «أبا» للمؤمنين في هذا السياق بمعنى الأبوة الدينية الجامعة، فوق الصلة النسبية المباشرة.

ويقول أيضًا:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام ٦:١٦١.

إذن إبراهيم أبٌ في مدرسة التوحيد كما هو أبٌ لخطوط نسبية كبيرة.

دين واحد من نوح إلى إبراهيم إلى محمد

قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى ٤٢:١٣.

هذه الآية من أهم آيات «حكاية الهداية».

تضع نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله داخل وحدة أصلية:

إقامة الدين.

عدم التفرق فيه.

اختلاف الشرائع التفصيلية لا يلغي وحدة أصل التوحيد والعبودية.

إبراهيم لذلك حلقة داخل عهد أوسع، وفي الوقت نفسه بداية فرع تاريخي ضخم.

الميثاق والرسالة والقيادة في ذرية إبراهيم

يسمي القرآن إبراهيم صراحةً ضمن من أُخذ عليهم ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ من النبيين، مع نوح وموسى وعيسى والنبي محمد صلى الله عليه وآله (الأحزاب ٣٣:٧). وتقول النساء ٤:١٦٣ إن الوحي أُرسل إلى محمد كما أُرسل إلى نوح والنبيين من بعده، وتسمّي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وغيرهم. هذه الآيات شاهد قرآني مستقل على موضع إبراهيم في عهد النبوة، يضاف إلى تقرير الشورى ٤٢:١٣ لوحدة أصل الدين. ولا تحول قائمة الأسماء في هذه الآيات إلى جدول تفصيلي لكل حامل علم بين الأنبياء.

وفي الأنبياء ٢١:٧٢-٧٣ بعد هبة إسحاق ويعقوب يرد: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾. يجمع السياق بين الهبة والقيادة والعمل والعبادة، ويمنع اختزال إمامة الأجيال في رابطة الدم وحدها. وتقول سورة يوسف ١٢:٣٨ على لسان يوسف إنه اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ بذلك يبلغنا صوتُ جيل لاحق يعلن وعيه بالعهد، مع بقاء سيرة يوسف لفصله المخصص.

آيات الإيمان بالأنبياء دون تفريق

في البقرة ٢:١٣٦ وآل عمران ٣:٨٤ يؤمر المؤمنون أن يقولوا إنهم آمنوا بما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ولا يفرقون بين رسل الله.

هذه الآيات لا تضيف حدثًا جديدًا إلى سيرة إبراهيم، لكنها تحدد مكانه في عقيدة الأمة:

إبراهيم ليس ذكرى تاريخية.

الإيمان بما أوحي إليه جزء من إيمان المسلم.

تفاصيل روائية إضافية لا ينبغي إسقاطها

توجد في أبواب فضائل إبراهيم وسننه روايات كثيرة متفرقة. لا تصلح كل واحدة منها لتكون محورًا مستقلًا، لكن حذفها كلها يجعل الصورة ناقصة. ومن أشهر ما ورد:

أن إبراهيم كان كثير الضيافة حتى عُرف بأبي الضيفان.

أن بعض الأخبار تعده أول من أضاف الضيف على هذا الوجه.

أن روايات تذكر أنه أول من رأى الشيب فسأل عنه، فقيل له: وقار في الدنيا ونور في الآخرة، فطلبه من الله.

أن الختان من سننه، وأنه اختتن في سن متقدمة بحسب بعض الأخبار.

أن له نقش خاتم وأذكارًا مخصوصة في بعض الروايات.

أن بعض الروايات تفسر اسمه أو اشتقاقه بتفسيرات وعظية مختلفة، وهي ليست حقائق لغوية قرآنية.

أن أخبارًا تنسب إليه لباس السراويل أو بعض سنن الطهارة والنظافة.

أن بعض الروايات تذكر لقاءات له مع ملك الموت لا تتفق تفاصيلها كلها.

هذه الأخبار تُذكر في الهوامش أو القسم الروائي بحسب الحاجة، ولا تُرفع إلى درجة أحداث القرآن.

أهم دروس إبراهيم في حكاية الهداية

الدرس الأول: التوحيد ليس فكرة نظرية.

إبراهيم واجه به العائلة والمجتمع والملك والنار.

الدرس الثاني: التقليد لا يصنع الحق.

قول القوم «وجدنا آباءنا» لم يكن حجة.

الدرس الثالث: الرحمة لا تعني المداهنة.

خاطب أباه بلطف، لكنه تبرأ من الشرك.

الدرس الرابع: الله فوق الأسباب.

النار سبب للإحراق، لكنها لا تستقل عن خالقها.

الدرس الخامس: اليقين درجات.

إبراهيم مؤمن، ومع ذلك سأل عن «كيف» ليطمئن قلبه بالمعاينة.

الدرس السادس: النسب لا يكفي.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وفي ذريته محسن وظالم لنفسه.

الدرس السابع: القيادة الدينية امتحان قبل أن تكون مقامًا.

الإمامة جاءت بعد إتمام الابتلاء.

الدرس الثامن: البيت لا ينفصل عن الصلاة.

إسكان الذرية وبناء البيت مرتبطان في دعاء إبراهيم بإقامة الصلاة.

الدرس التاسع: الدعاء يصنع مستقبل الأجيال.

دعاء إبراهيم امتد إلى أمة مسلمة ورسول من ذريته.

الدرس العاشر: التسليم ليس إلغاء للعاطفة.

قصة الذبح مؤلمة لأنها تجري داخل محبة أب وابن، ومع ذلك سلما لله.

الدرس الحادي عشر: العلم لا يناقض الإيمان.

سؤال إحياء الموتى كان بحثًا عن كيفية المشاهدة داخل الإيمان.

الدرس الثاني عشر: المؤمن يمكن أن يكون أمة.

إبراهيم وقف وحده أمام نظام واسع من الشرك.

ما الذي لا ينبغي أن ننسبه إلى القرآن؟

قبل إغلاق الفصل، نضع قائمة واضحة حتى لا تختلط الطبقات.

القرآن لا يقول صراحة:
إن اسم أبي إبراهيم الصلبي تارخ.
إن آزر عمه.
إن إبراهيم ولد في بابل أو كوثى.
إن النمرود هو الملك الذي حاجه.
إن المنجنيق صُنع له.
إن جبرئيل قال له عبارة محددة في الهواء.
إن أنواع الطيور كانت أربعة أسماء بعينها.
إن الجبال كانت عشرة.
إن هاجر هي المرأة المذكورة باسمها في القرآن.
إن زمزم خرجت باسمها في القرآن.
إن الذبيح إسماعيل أو إسحاق بالاسم.
إن عمر إبراهيم عند موته ١٧٥ سنة.
إن قبره في موضع محدد داخل الخليل.
هذه كلها مسائل قد يكون لبعضها سند روائي قوي أو شهرة تاريخية، لكنها ليست ألفاظ القرآن.

الانتقال إلى لوط عليه السلام — لماذا يأتي الفصل الثالث عشر الآن؟

ينتهي فصل إبراهيم، لكن قصته لم تنتهِ من حيث أثرها.
أول انتقال مباشر في ترتيب الكتاب سيكون إلى لوط عليه السلام.
والسبب واضح:
لوط آمن لإبراهيم.
هاجر معه.
ثم صار رسولًا إلى قوم مستقلين.
وضيوف إبراهيم أنفسهم أعلنوا أنهم ذاهبون إلى قوم لوط.
إذن الانتقال من إبراهيم إلى لوط ليس انتقالًا اعتباطيًا.
هو خروج من بيت إبراهيم إلى أول خط رسالي معاصر له.
بعد لوط سنعود إلى هاجر وإسماعيل ومكة، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف.

وبذلك نحفظ الفروع من غير أن يسقط بعضها تحت بعض.

خاتمة الفصل الثاني عشر — إبراهيم الخليل وإمام مرحلة جديدة

بدأ إبراهيم في القرآن برشد آتاه الله إياه.

واجه الأصنام.

جادل قومه.

جادل الملك.

دخل النار فأنجاه الله.

هاجر.

طلب ذرية صالحة.

صار خليلًا.

ابتلي فأتم.

جعله الله إمامًا.

حمل ذريته إلى مكة.

رفع البيت.

دعا بالحج.

دعا لرسول يأتي بعده.

قدّم أعظم نموذج للتسليم في قصة الذبح.

وجعل الله في ذريته النبوة والكتاب.

ثم ترك كلمة التوحيد باقية في عقبه.

وهكذا لا ينتهي إبراهيم عند قبر أو تاريخ وفاة.

إبراهيم يبقى حيًا في:

ملة.

بيت.

حج.

دعاء.

ذرية نبوية.

وخط هداية سيستمر حتى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله.
ومن هنا يبدأ بعده تشعب القصة، لا انقطاعها.

المصادر والمراجع — الفصل الثاني عشر: إبراهيم عليه السلام

أولًا: القرآن الكريم

البقرة ٢:١٢٤-١٤١ — ابتلاء إبراهيم، الإمامة، البيت، المقام، الدعاء، الإسلام، الأمة المسلمة، الرسول القادم، ملة إبراهيم.
البقرة ٢:٢٥٨ — محاجة الملك.
البقرة ٢:٢٦٠ — إحياء الطيور.
آل عمران ٣:٦٥-٦٨ — إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا وأولى الناس به من اتبعه.
آل عمران ٣:٩٥-٩٧ — ملة إبراهيم والبيت ببكة.
النساء ٤:٥٤ — آل إبراهيم والكتاب والحكمة.
النساء ٤:١٢٥ — الخلة وملة إبراهيم.
الأنعام ٦:٧٤-٨٣ — آزر، الملكوت، الكوكب والقمر والشمس، الحجة.
التوبة ٩:١١٤ — الاستغفار للأب والتبرؤ.
هود ١١:٦٩-٧٦ — الضيوف والبشارة وقوم لوط.
إبراهيم ١٤:٣٥-٤١ — أدعية مكة والذرية والصلاة.
الحجر ١٥:٥١-٦٠ — الضيوف والبشارة.
النحل ١٦:١٢٠-١٢٣ — أمة، قانت، حنيف، شاكر، مجتبى، مهدي.
مريم ١٩:٤١-٥٠ — الحوار مع الأب، الهجرة، إسحاق ويعقوب.
الأنبياء ٢١:٥١-٧٣ — الرشد، الأصنام، النار، النجاة، الهجرة، الذرية.
الحج ٢٢:٢٦-٢٧ — مكان البيت والأذان بالحج.
الشعراء ٢٦:٦٩-٨٩ — مناظرة القوم وأدعية إبراهيم.
العنكبوت ٢٩:١٦-٢٧ — الدعوة والنار والهجرة ولوط والذرية.
الصافات ٣٧:٨٣-١١٣ — القلب السليم، الأصنام، النار، الهجرة، الغلام الحليم، الذبح، إسحاق.
ص ٣٨:٤٥-٤٧ — الأيدي والأبصار وذكر الدار والاصطفاء.
الزخرف ٤٣:٢٦-٢٨ — البراءة والكلمة الباقية.

الذاريات ٢٤:٥١-٣٠ — الضيوف والبشارة.

النجم ٣٦:٥٣-٣٧ — صحف إبراهيم وإبراهيم الذي وفى.

الحديد ٢٦:٥٧ — النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم.

الممتحنة ٦٠:٤-٦ — إبراهيم والذين معه أسوة.

الأعلى ٨٧:١٨-١٩ — صحف إبراهيم وموسى.

آل عمران ٣:٣٣-٣٤ — اصطفاء آل إبراهيم وآل عمران، مع عدم الخلط بين عمران القرآني وحامل الوصية المروي.

الأنعام ٦:٨٤-٨٧ — إسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء الذين ورد ذكرهم في سياق الذرية والاجتباء.

يوسف ١٢:٣٨؛ مريم ١٩:٥٨؛ الأنبياء ٢١:٧٢-٧٣ — ملة الآباء والذرية والقيادة بأمر الله والعبادة.

النساء ٤:١٦٣؛ الأحزاب ٣٣:٧؛ التوبة ٩:٧٠؛ الحج ٢٢:٤٣ — الوحي والميثاق وذكر قوم إبراهيم ضمن الأمم.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية الأصلية

الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة — روايات تدرج إبراهيم: عبد، نبي، رسول، خليل، إمام؛ وروايات أولي العزم.

الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت ومن ولي البيت بعدهما — هاجر وإسماعيل، الصفا والمروة، زمزم، بناء البيت والمناسك.

الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الزكاة، باب معرفة الجود والسخاء، ح٦، ص٤٠ في الطبعة المشار إليها — خبر زيد الشحام عن الإمام الصادق في ضيافة إبراهيم وبشارة جبرئيل بالخلة.

الصدوق، معاني الأخبار — حديث أبي ذر في الكتب والصحف وما ينسب إلى صحف إبراهيم، وروايات الذبيح.

الصدوق، الخصال — حديث أبي ذر في عدد الصحف والأنبياء، وما يرتبط بسنن إبراهيم.

الصدوق، علل الشرائع — أبواب علل سنن إبراهيم، الذبح، وأخبار أخرى من قصته.

الصدوق، عيون أخبار الرضا — روايات مناظرات الأنبياء وتفسير بعض أفعال إبراهيم.

الطوسي، الأمالي — روايات في تعيين الذبيح ومكارم إبراهيم.

قرب الإسناد — خبر السؤال عن الذبيح إسماعيل أو إسحاق وجواب الإمام الرضا عليه السلام.

تفسير العياشي — روايات الكوكب والقمر والشمس، الملكوت، الطيور، وبعض آيات الإمامة.

تفسير القمي — روايات مولد إبراهيم، قومه، النار، مناسك البيت وتفسير آياته.

الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الرابع، ص١٠٣-١١٦؛ ولا سيما الأخبار ٩٥ و١٠٠ و١١٦: آزر وتارخ، والأسرة والهجرة، وماريا بن أوس. يعرض كل خبر بنسبته وحدوده، ولا يدمج اختلاف الألفاظ في نسب واحد.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، باب «في غيبة إبراهيم»، الخبر ٢ عن ولادته وإخفائه في الغار، والخبر ٣ عن لقائه الرجل العابد ودعائه للمؤمنين المذنبين (ص١٣٧-١٤٠ تقريبًا بحسب النسخة المطالعة). وصف الغيبة في فاتحة الباب كلام الصدوق التفسيري؛ ويُدرس إسناد كل خبر على حدة.

الصدوق، الأمالي، المجلس التاسع والأربعون، الحديث ١١ — لقاء إبراهيم بالرجل العابد؛ يختلف عن خبر كمال الدين في مدة انتظار إجابة الدعاء وبعض التفاصيل، ولا يُحسم الجمع بينهما بمجرد التشابه.

ثالثًا: التفاسير الإمامية

الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن — خصوصًا تفسير البقرة ١٢٤ و٢٥٨ و٢٦٠؛ الأنعام ٧٤-٨٣؛ هود ٦٩-٧٦؛ مريم ٤١-٥٠؛ الأنبياء ٥١-٧٣؛ الصافات ٨٣-١١٣.

الطبرسي، مجمع البيان — المواضع نفسها، وفيه نقاش تعيين الذبيح ونقل اختلاف أصحابنا.

الفيض الكاشاني، تفسير الصافي — جمع روايات إمامية في آيات إبراهيم.

الحويزي، نور الثقلين — طرق الروايات تحت الآيات.

تفسير العياشي وتفسير القمي — مع دراسة أسانيد كل خبر وعدم التسوية بينها.

رابعًا: المصادر الجامعة

المجلسي، بحار الأنوار، ج١١ وج١٢، أبواب قصة إبراهيم وفضائله وسننه، النار، الذبح، الحج، الذرية. ويستخدم بحار الأنوار جامعًا ومرشدًا إلى المصادر الأقدم، لا تصحيحًا آليًا لكل خبر.

ومن أهم مواضعه: ج١٢، باب قصة الذبح وتعيين الذبيح، حيث جمع الروايات المختلفة في إسماعيل وإسحاق.

خامسًا: المصادر التاريخية والمقارنة

كتب التاريخ والأنساب الإسلامية عند البحث في:

مكان الميلاد.

تارخ/تارح.

حران والشام.

العمر عند الوفاة.

حبرون/الخليل.

سارة وهاجر في الأخبار التاريخية.

الأبناء المنسوبين إلى زوجات أخرى.

وتبقى هذه طبقة مقارنة لا أساسًا للعقيدة.

كما لا تُجعل المواد الكتابية أو الإسرائيليات أو الكتب الهرمسية أصلًا لبناء الفصل.

الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٦٦-٣٦٩، خبر أبي بصير عن مولد إبراهيم (القسم ٥٥٧ في العرض الإلكتروني)؛ وخبر الكرخي، ح٥٦٠ في الترقيم المطبوع، ص٣٧٠ وما بعدها (القسم ٥٥٩ إلكترونيًا)، في الأسرة والهجرة وسارة وهاجر.

الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، ح٣؛ وكمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب ٢٢، ح١، ص٢١١-٢١٣: رواية اتصال الوصية. يلتقي الطريقان عند الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان؛ لا يُعدّ ورود الخبر في كتابين تصحيحًا مستقلًا له.

الفصل ١٣ — لوط عليه السلام — الهجرة مع إبراهيم ومواجهة قومه

الفصل الثالث عشر: لوط عليه السلام — الهجرة مع إبراهيم ومواجهة قومه

من الفصل الثاني عشر إلى لوط عليه السلام — فرع رسالي معاصر لإبراهيم

لا يأتي لوط عليه السلام بعد إبراهيم في هذا الكتاب لمجرد الترتيب الزمني.

فالقرآن نفسه يربط الرجلين ربطًا مباشرًا.

قال تعالى بعد قصة إبراهيم:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت ٢٩:٢٦).

وقال:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧١).

إذن لوط حاضر في حركة إبراهيم قبل أن تبدأ قصته مع قومه:

آمن بإبراهيم،

وخرج معه من بيئة الشرك،

ونجا معه إلى الأرض المباركة،

ثم يظهر في القرآن رسولًا مستقلًا إلى قومه.

وتعود الصلة مرة أخرى عندما تصل الملائكة إلى إبراهيم بالبشرى ثم تعلن أنها مرسلة إلى قوم لوط.

ولهذا فالفصل الثالث عشر ليس قصة منفصلة أُلصقت بقصة إبراهيم.

إنه أول فرع رسالي معاصر لإبراهيم نتابعه بعد فصل الخليل.

وبعد أن نغلق قصة لوط، نعود إلى الفرع الإبراهيمي الآخر: هاجر وإسماعيل ومكة، ثم إسحاق ويعقوب ويوسف.

لوط عليه السلام في القرآن — خريطة جميع المواضع قبل الدخول في القصة

قصة لوط موزعة في القرآن على عدد كبير من السور. وبعض المواضع تسميه صراحة، وبعضها يذكر قومه أو المؤتفكات أو القرية التي نزل بها العذاب.

ولكي لا نسقط شيئًا مهمًا، نجمع الخريطة أولًا:

١. الأنعام ٦:٨٦

يأتي لوط ضمن مجموعة من الأنبياء الذين فضلهم الله على العالمين في سياق الهداية والاصطفاء.

٢. الأعراف ٧:٨٠-٨٤

الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، إتيان الرجال شهوة من دون النساء، وصفهم بالإسراف، تهديد أهل لوط بالإخراج لأنهم «أناس يتطهرون»، نجاة لوط وأهله إلا امرأته، ومطر العذاب.

٣. هود ١١:٦٩-٨٣

ضيوف إبراهيم والبشرى، إرسالهم إلى قوم لوط، مجادلة إبراهيم فيهم، وصول الرسل إلى لوط، ضيقه بهم و«يوم عصيب»، مجيء قومه مسرعين، قوله «هؤلاء بناتي»، قوله «لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد»، كشف الملائكة لهويتهم، الخروج ليلًا، استثناء الزوجة، موعد الصبح، قلب القرية، وحجارة السجيل المنضود المسوم.

٤. هود ١١:٨٩

شعيب عليه السلام يذكّر قومه بأن قوم لوط ليسوا منهم ببعيد، فتصبح قصتهم شاهدًا في دعوة نبي لاحق.

٥. الحجر ١٥:٥١-٧٧

ضيوف إبراهيم، مهمتهم إلى «قوم مجرمين»، استثناء آل لوط إلا امرأته، وصول الرسل، نهي القوم لوطًا عن العالمين، مجيء أهل المدينة مستبشرين، «هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين»، وصف القوم بأنهم في سكرتهم يعمهون، الأمر بالسير ليلًا، الصيحة عند الإشراق، قلب القرية، الحجارة، وبقاء الموضع على سبيل مقيم وآيات للمتوسمين والمؤمنين.

٦. الأنبياء ٢١:٧١ و٢١:٧٤-٧٥

نجاة إبراهيم ولوط إلى الأرض المباركة، إيتاء لوط الحكم والعلم، إنجاؤه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وصف أهلها بأنهم «قوم سوء فاسقين»، وإدخاله في رحمة الله لأنه من الصالحين.

٧. الشعراء ٢٦:١٦٠-١٧٥

تكذيب قوم لوط للمرسلين، قوله «إني لكم رسول أمين»، الدعوة إلى التقوى والطاعة، عدم طلب الأجر، إنكار إتيان الذكران وترك الأزواج، وصفهم بأنهم «قوم عادون»، تهديده بالإخراج، براءته من عملهم، دعاؤه بالنجاة، نجاة أهله إلا عجوزًا في الغابرين، وهلاك الباقين ومطر السوء.

٨. النمل ٢٧:٥٤-٥٨

الفاحشة «وأنتم تبصرون»، إتيان الرجال شهوة، وصفهم بالجهل، جوابهم بطرد آل لوط لأنهم «أناس يتطهرون»، نجاة أهله إلا امرأته، ومطر العذاب.

٩. العنكبوت ٢٩:٢٦ و٢٩:٢٨-٣٥

إيمان لوط بإبراهيم، وصف الفاحشة بأنها لم تسبق، إتيان الرجال، قطع السبيل، إتيان المنكر في النادي، تحديهم بإتيان عذاب الله، دعاء لوط «رب انصرني على القوم المفسدين»، الملائكة عند إبراهيم ثم إعلان هلاك القرية لأن أهلها ظالمون، قول إبراهيم «إن فيها لوطًا»، جوابهم «نحن أعلم بمن فيها»، ضيق لوط بالرسل، كشف هويتهم، نجاة أهله إلا امرأته، وإنزال رجز من السماء وترك آية بينة للعاقلين.

١٠. الصافات ٣٧:١٣٣-١٣٨

النص الصريح: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، نجاة لوط وأهله إلا عجوزًا في الغابرين، تدمير الآخرين، ومرور المخاطبين على آثارهم صباحًا وليلًا.

١١. الذاريات ٥١:٢٤-٣٧

ضيوف إبراهيم، سؤال مهمتهم، قولهم إنهم أُرسلوا إلى قوم مجرمين بحجارة من طين مسومة، إخراج المؤمنين، عدم العثور إلا على «بيت من المسلمين»، وترك آية للذين يخافون العذاب الأليم.

١٢. القمر ٣٣:٥٤-٤٠

تكذيب قوم لوط بالنذر، إرسال الحاصب عليهم إلا آل لوط الذين نُجّوا بسحر، مراودتهم لوطًا عن ضيفه، طمس أعينهم، وعذاب مستقر في الصباح.

١٣. التحريم ١٠:٦٦

امرأة لوط مثال للذين كفروا: القرابة من عبد صالح لا تنفع مع خيانة الدين والعهد.

١٤. الإشارات إلى قوم لوط والمؤتفكات

التوبة ٩:٧٠، الحج ٢٢:٤٣، ص ٣٨:١٣، ق ٥٠:١٣، النجم ٥٣:٥٣-٥٤، الحاقة ٦٩:٩.

تربط كتب التفسير «المؤتفكات» بقرى قوم لوط التي قلبت، مع بقاء اللفظ القرآني أوسع من التفاصيل الجغرافية اللاحقة.

ويُذكر أيضًا الفرقان ٢٥:٤٠ في «القرية التي أمطرت مطر السوء»؛ جمهور من المفسرين يربطها بقرية قوم لوط، لكن الآية نفسها لا تسمي لوطًا.

هذه الخريطة هي التي سنبني عليها الفصل.

لن نأخذ سورة واحدة ونترك البقية، لأن كل موضع يضيف شيئًا لا يضيفه الآخر.

لوط عليه السلام — ما الذي يثبته القرآن عن مقامه؟

قبل أن نسأل عن نسب لوط أو موطنه أو عمره، يجب أن نثبت مقامه الذي لا يحتاج إلى أخبار تاريخية.

القرآن يقول صراحة:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات ٣٧:١٣٣).

ويقول في خطابه لقومه:
﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ٢٦:١٦٢).
إذن رسالته ليست استنتاجًا من القصة، بل نص قرآني.
ويقول:
﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧٤-٧٥).
فتثبت له الآيتان:
الحكم،
والعلم،
والنجاة،
والدخول في رحمة الله،
والصلاح.
وفي الأنعام ٦:٨٦ يذكره الله مع إسماعيل واليسع ويونس ثم يقول:
﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.
هذه هي نقطة البداية الصحيحة.
لوط في القرآن ليس مجرد رجل صالح عاش بجوار قوم فاسدين.
هو رسول، صاحب حكم وعلم، من الصالحين، داخل في رحمة الله، ومن المفضلين في سياق الأنبياء.

إبراهيم إمام على لوط في رواية الكافي

من أهم النصوص الإمامية التي تكشف موقع لوط داخل مرحلة إبراهيم ما رواه الكليني في باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة.
يقول الإمام الصادق عليه السلام في بيان طبقات الأنبياء إن من الأنبياء من يكون عليه إمام، ثم يعطي مثالًا واضحًا:
«مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام» بحسب لفظ الرواية؛ وهذه عبارة حديثية وليست آية.
هذا النص مهم جدًا لحكاية الهداية.
فالقرآن يثبت أن لوطًا آمن لإبراهيم، والرواية تضيف أن إبراهيم كان إمامًا على لوط.
وهكذا لا تكون علاقتهما مجرد قرابة أو رحلة مشتركة.
في التصور الإمامي تصبح العلاقة:

إبراهيم عليه السلام – إمام المرحلة،

ولوط عليه السلام – نبي ورسول يعمل داخل هذه المرحلة.

ويتفق هذا مع الحديث الآخر في الكافي عن أولي العزم الذي يقرر أن الأنبياء في زمن إبراهيم وبعده كانوا على شريعته ومنهاجه وصحفه إلى زمن موسى.

لكننا نحافظ على الحدود:

القرآن يقول إن لوطًا آمن لإبراهيم وإن كليهما نُجّي إلى الأرض المباركة.

أما كون إبراهيم «إمامًا على لوط» بهذه العبارة فهو نص روائي إمامي.

من هو لوط من جهة النسب؟ – ما نعرفه وما لا نعرفه

القرآن لا يقول:

لوط بن فلان بن فلان.

ولا يذكر اسم أبيه أو أمه.

ولا يحدد سنة مولده أو مكان ولادته.

ولهذا لا يجوز أن نجعل شجرة النسب المشهورة جزءًا من النص القرآني.

في كتب التفسير والأنساب اشتهر قولان:

أنه لوط بن هاران بن تارخ، فيكون ابن أخي إبراهيم بحسب هذا النسب؛

وقول آخر في مادة إمامية محفوظة في علل الشرائع يجعله ابن خالة إبراهيم، وتذكر الرواية أن سارة أخت لوط.

هذه الاختلافات نفسها تمنع الجزم.

فالهدف في حكاية الهداية ليس أن نختار النسب الأشهر ثم نخفي بقية المادة.

الصياغة الدقيقة:

لوط قريب من إبراهيم بلا شك من جهة التراث الإسلامي، وقد جمعتهما الهجرة والرسالة في القرآن.

أما درجة القرابة التفصيلية فليست منصوصة في القرآن، وقد اختلفت فيها الأخبار.

ولا نعرف من القرآن:

عمره عند الهجرة،

سنة مولده،

اسم أمه،

أو ترتيب عمره بالنسبة إلى إبراهيم.

لوط مع إبراهيم — الإيمان ثم الهجرة إلى الشام في الرواية

القرآن يقول:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾.

وهذه عبارة قصيرة لكنها عظيمة في تاريخ الهداية.

إبراهيم واجه قومه والنار، فكان لوط من الذين صدقوه.

وفي رواية من روضة الكافي تتصل بقصة إبراهيم ونمرود وتحطيم الأصنام والنار، يرد بعد نجاة إبراهيم: أن لوطًا آمن له، وأن إبراهيم خرج مهاجرًا إلى الشام ومعه سارة ولوط.

هذه الرواية تعطي صورة جغرافية أكثر تحديدًا من القرآن.

فالقرآن يكتفي بالقول إن الله نجّى إبراهيم ولوطًا إلى الأرض التي بارك للعالمين.

أما تسمية الشام ومسار الرحلة فهي من طبقة الرواية والتفسير.

ومع ذلك فالرواية مهمة لأنها تحفظ لوطًا داخل جماعة الهجرة الأولى، لا كشخص يظهر فجأة عند بداية قصة قومه.

المكانة والقرابة والهجرة

يسوق القرآن لوطًا في عداد من هداهم الله (الأنعام ٦:٨٦)، ويقول: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ ثم ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧٤-٧٥). وفي الشعراء يُسمى «أخوهم لوط» (٢٦:١٦١)، أي إنه خاطبهم من داخل معاشرتهم بحسب سياق الخطاب، ولا تكفي اللفظة وحدها لإثبات كل تفصيل نسبي. وتثبت رسالته بعبارة الصافات الصريحة، فضلًا عن قوله لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء ٢٦:١٦٢).

في ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ (العنكبوت ٢٩:٢٦) ثبت إيمان لوط، أما قائل «إني مهاجر» فيُبحث في اتصال الضمير وسياق إبراهيم؛ فلا نعلّق على لوط وحده عبارةً تحتمل عودها إلى إبراهيم. الذي يثبت بلا نزاع من الأنبياء ٢١:٧١ نجاة الاثنين إلى الأرض المباركة. يصف خبر في علل الشرائع لوطًا بابن خالة إبراهيم، في مقابل ما اشتهر في كتب الأنساب من كونه ابن أخيه؛ فلا نجزم من القرآن بنسب تفصيلي. [٤ر]

لوط في زمن إبراهيم — رسول، لكنه ليس من أولي العزم في التصنيف الإمامي

يثبت القرآن أن لوطًا من المرسلين: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات ٣٧:١٣٣)، ويصفه بالحكم والعلم والصلاح والرحمة.

وفي الروايات الإمامية المشهورة عن أولي العزم، يذكر الإمام الصادق عليه السلام خمسة: نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا صلى الله عليه وآله. لوط ليس ضمن هذه الخمسة.

هذا لا ينقص من نبوته أو رسالته؛ بل يحدد منزلته ضمن التصنيف الروائي الإمامي.

وتضيف الرواية نفسها مبدأ مهمًا لفهم موقع لوط في زمن إبراهيم: كل نبي جاء في أيام إبراهيم وبعده كان على شريعة إبراهيم ومنهاجه وصحفه إلى زمن موسى.

وبما أن لوطًا رسول معاصر لإبراهيم وقد آمن به في القرآن، فإن وضعه داخل مرحلة شريعة إبراهيم ينسجم مع هذا الأصل الروائي العام.

لكننا لا نقول إن القرآن نصّ على عبارة «لوط كان على شريعة إبراهيم»؛ هذا استنتاج من الجمع بين معاصرته الثابتة قرآنيًا والمبدأ العام المنقول في الرواية الإمامية.

الأرض المباركة وبلاد القوم

سمّى القرآن «الأرض التي باركنا فيها للعالمين» في سياق نجاة إبراهيم ولوط (الأنبياء ٢١:٧١)، ولم يسمّ قرية لوط في آيات القصة باسم «سدوم»، ولم يضع حدودها على خريطة حديثة. ويذكر أن آثارها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ (الحجر ١٥:٧٦)، وأن المخاطبين ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ﴾ (الصافات ٣٧:١٣٧-١٣٨). تسمية سدوم والمواقع الجغرافية التفصيلية من طبقة الأخبار التاريخية والتفسيرية، وليست نصًا قرآنيًا.

وفي الكافي رواية عن الصادق عليه السلام تصف مرور الملائكة بإبراهيم ثم لقائهم لوطًا في زراعة قرب القرية [ر١، ح٦]. هذه صورة روائية مفيدة لترتيب المشهد، لكنها لا تُحوِّل موضع الحقل أو حدود المدينة إلى معلومة قرآنية ثابتة.

قوم لوط — القرآن لا يختزل فسادهم في فعل واحد

من الأخطاء الشائعة أن تُقرأ قصة قوم لوط وكأن القرآن لا يذكر إلا معصية واحدة.

عند جمع الآيات تتسع الصورة.

فالقرآن يصفهم بعبارات متعددة:

﴿قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (الأعراف ٧:٨١).

﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (النمل ٢٧:٥٥).

﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء ٢٦:١٦٦).

﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ في دعاء لوط (العنكبوت ٢٩:٣٠).

﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ في خطاب الملائكة (الحجر ١٥:٥٨؛ الذاريات ٥١:٣٢).

﴿قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧٤).

ويقول إن أهل القرية كانوا ظالمين (العنكبوت ٢٩:٣١).

هذه الأوصاف لا تلغي الفاحشة التي نص عليها القرآن، لكنها تكشف أن المشكلة تحولت إلى ثقافة اجتماعية من الإسراف والعدوان والفسق والفساد.

«ما سبقكم بها من أحد من العالمين» — ما الذي يثبته القرآن؟

قال لوط:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف ٧:٨٠).

وقال:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت ٢٩:٢٨).

الآيتان تنسبان إلى قوم لوط سابقة في تحويل هذه الفاحشة إلى ممارسة عُرفوا بها.

ثم يفسر القرآن جانبها المركزي:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ (الأعراف ٧:٨١).

ويقول:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (النمل ٢٧:٥٥).

وفي الشعراء:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (٢٦:١٦٥-١٦٦).

هذا هو النص القرآني.

أما تفصيل «من بدأ أولًا؟ وكيف انتشرت الممارسة؟» فتنقله الروايات ولا تقوله الآيات.

قطع السبيل والمنكر في النادي — حين خرج الفساد إلى المجال العام

سورة العنكبوت تضيف تفصيلًا لا ينبغي إسقاطه:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (٢٩:٢٩).

إذن القصة ليست محصورة في أفعال خفية.

هناك:

إتيان الرجال،

وقطع السبيل،

وممارسة المنكر في النادي، أي في المجتمع ومجالسهم العامة.

ما معنى «قطع السبيل» بالتحديد؟

ذكر المفسرون احتمالات منها الاعتداء على المارة، وإخافة المسافرين، وقطع طريقهم بهذه الممارسات أو بغيرها.

وتوجد في الروايات الإمامية صورة واضحة لخطرهم على المسافرين والضيوف.

لكن القرآن نفسه لا يحصر «قطع السبيل» في كيفية واحدة.

والأصل أن نحفظ سعة اللفظ بدل أن نغلقه في قصة تفصيلية واحدة.

«وأنتم تبصرون» — المعصية بعد المعرفة

في سورة النمل يسألهم لوط:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٢٧:٥٤).

ثم يقول:

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

الجمع بين «تبصرون» و«تجهلون» بالغ الدلالة.

هم ليسوا فاقدين للحواس أو غافلين عن وجود الإنذار.

لوط بينهم.

الحجة تُتلى عليهم.

ومع ذلك يتصرفون تصرف الجاهل الذي لا ينتفع بما يرى.

وهذا نمط يتكرر في حكاية الهداية:

الجهل ليس دائمًا نقص معلومات.

قد يكون رفضًا متعمدًا لما عرفه الإنسان.

الطهارة التي صارت تهمة

قالوا:

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف ٧:٨٢).

وقالوا:

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل ٢٧:٥٦).

هذه من أشد مفارقات القصة.

الصفة التي كان يفترض أن تكون مدحًا أصبحت عندهم سببًا للطرد.
المشكلة وصلت إلى مرحلة صار فيها رفض الفساد نفسه جريمة اجتماعية.
وهنا لا يعود الصراع فقط بين فرد يرتكب معصية ونبي ينهاه عنها.
بل بين مجتمع يريد أن يجعل الفساد معيار الانتماء، وبيت يريد أن يبقى طاهرًا.

رسالة لوط — تقوى وطاعة وأمانة بلا أجر

في سورة الشعراء يعرض القرآن دعوته في صيغة تشبه صيغة كبار الرسل:
﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٦:١٦١-١٦٤).
إذن لوط لم يبدأ معهم من العقوبة.
بدأ من:
التقوى،
والثقة برسول أمين،
والطاعة،
وتنزيه الرسالة عن المصلحة المالية.
ثم واجه الفاحشة.
وهذا ترتيب مهم.
الأخلاق في القرآن ليست منفصلة عن التوحيد والرسالة.
ولوط لا يقف بينهم بوصفه مراقبًا اجتماعيًا فقط.
هو رسول يحمل أمر الله، ويطلب منهم أن يعيدوا حياتهم إلى ميزان الطاعة.

دعاء لوط — حين استنفدت الدعوة حجتها

حفظ القرآن دعاءين واضحين للوط.
الأول:
﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء ٢٦:١٦٩).
والثاني:
﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت ٢٩:٣٠).
الأول طلب نجاة له ولأهله من البيئة والعمل الذي يحيط بهم.

والثاني طلب نصر بعد أن بلغ الفساد مرحلة التحدي:
﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.
ليس الدعاء أول خطوة في قصته.
سبقه البلاغ والإنذار والدعوة.
وحين يطلب النصر، لا يطلب انتقامًا شخصيًا لأذى وقع على كرامته.
القرآن يسميهم في الدعاء «القوم المفسدين».
فالمسألة صارت حماية للحجة والبيت المؤمن والمجتمع من فساد متعمد.

«أولم ننهك عن العالمين» — الحرب على الضيافة نفسها

عندما جاء الضيوف إلى لوط قال قومه:
﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر ١٥:٧٠).
هذه الآية تكشف أن أزمة الضيف لم تبدأ تلك الليلة.
كانوا قد نهوا لوطًا من قبل عن استقبال الناس.
وتنسجم هذه العبارة مع الروايات التي تصف تهديدهم له بسبب إكرامه للمسافر والنازل.
إذن دخول الملائكة بيته لم يخلق المشكلة من الصفر.
كان اختبارًا أخيرًا كشف نظامًا قائمًا من العدوان على الغريب والضيف.
ولهذا قال:
﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾.
إن حماية الضيف هنا ليست عادة اجتماعية هامشية.
صارت جزءًا من مقاومة الفساد.

كيف استقبلوا الإنذار؟

هددوا لوطًا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء ٢٦:١٦٧). وتقدم ذكر تهديد أهل بيته بالطرد وتسميتهم «أناسًا يتطهرون» في الأعراف ٧:٨٢ والنمل ٢٧:٥٦، وتحديهم أن يأتيهم بعذاب الله في العنكبوت ٢٩:٢٩. استُبدلت الحجة بالتهديد، وصار التعفف عندهم سببًا للإقصاء.

«فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين» — البيت الذي بقي في مدينة الفساد

تقول سورة الذاريات:
﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٥١:٣٥-٣٦).

هذه من أهم الآيات في فهم المرحلة الأخيرة.

القرآن لا يقول إن لوطًا كان وحده.

كان هناك «بيت من المسلمين».

ولا يقول إن كل من في بيته نجا، فالزوجة مستثناة بنصوص متكررة.

إذن البيت الواحد كان منقسمًا من جهة الموقف الإيماني:

لوط ومن نُجّي معه،

وامرأته التي اختارت قومها.

وهذا يعيد إلينا قاعدة رأيناها في آدم ونوح:

البيت النبوي لا يلغي التكليف الفردي.

قد يعيش الإنسان بجوار نبي، وتحت سقفه، ثم لا ينفعه ذلك إذا رفض الإيمان.

هل يعني «بيت واحد» أنه لم يؤمن أحد قط في ثلاثين سنة؟

لا.

الآية تتحدث عن ساعة الإخراج قبل العذاب:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم تقول إن الموجود عند وقوع القضاء كان بيتًا واحدًا من المسلمين.

لا يمكن من الآية وحدها أن نستخرج تاريخ كل شخص آمن ثم مات أو غادر أو تبدل حاله في السنوات السابقة.

ولهذا لا نستعمل «بيت واحد» لنكتب سيرة افتراضية لأتباع لوط.

نثبت ما يقوله النص:

عند الإخراج لم يُوجد في القرية غير البيت المسلم الذي أراد الله إنقاذه.

آل لوط وبناته — ما يثبت وما لا يثبت

القرآن يستعمل:

«أهل لوط»،

و«آل لوط»،

و«هؤلاء بناتي».

ونثبت الروايات الإمامية وجود بنات للوط، كما تذكر بعض الأخبار خروجه بهن ليلًا.

لكن القرآن لا يسمي البنات ولا يحدد عددهن.

ولا نثبت للبنات أسماءً من القرآن. وللمقارنة وحدها: ينقل الطبري عن السدي عند هود ١١:٧٧ اسمي «ريثا» و«زغرتا» لابنتين، مع مشهد استقاء إحداهما للماء. هذا نقل تفسيري عن السدي، وليس حديثًا عن أهل البيت أو تسمية قرآنية؛ فلا ندمجه مع خبر بنت لوط غير المسماة في الكافي لإنتاج هوية مؤكدة.

كما لا نشتق من بنات لوط أنساب أمم لاحقة من غير دليل إسلامي معتبر.

سيأتي عند «هؤلاء بناتي» أن رواية في الكافي عن الإمام الصادق تفسر العرض بأنه عرض تزويج، وهو ما يرفع أي توهم بأن النبي كان يعرض الحرام.

خبر علل الشرائع: البخل والضيافة والقرابة

روى الصدوق في علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٤٨–٥٥٠، باب ٣٤٠، ح ٤، عن أبي بصير عن الباقر عليه السلام خبرًا يربط نشأة اعتداء القوم على العابرين ببخلهم بالطعام وكراهتهم كثرة الضيوف؛ ويصف انتقال التنفير المتعمَّد للزائرين إلى ممارسة استحكمت فيهم. ويذكر أن لوطًا كان كريم الضيافة وأن القوم هددوه إن آوى ضيفًا، وأنه ظل يدعوهم ثلاثين سنة ولم تكن له عشيرة تحميه بينهم. هذه صورة روائية تفسر «وتقطعون السبيل» والخوف على الضيوف، ولا يعين القرآن البخلَ سببًا أولًا للفاحشة ولا مدة الدعوة. يرد الخبر بسند: محمد بن موسى بن المتوكل، عن عبد الله بن جعفر الحميري، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن هشام بن سالم، عن أبي بصير؛ نثبت السند ولا نصدر هنا حكمًا مستقلًا بصحته. [ر٤]

في الخبر نفسه تسمية لوط ابن خالة إبراهيم، وسارة أخت لوط؛ وهي تفاصيل نسبية لا ينص عليها القرآن وتختلف عن مشهور الأنساب. ويقول الخبر عند شرح «غلام عليم» في الحجر ١٥:٥٣ إن البشارة كانت بإسماعيل بن هاجر، ثم يسرد بشارة إسحاق لسارة في سياق آخر؛ أما هود ١١:٧١ فيسمي إسحاق ويعقوب صراحة في لقاء الرسل مع سارة. لا نُسقط الخبر كله ولا نقدمه على النص الواضح؛ نميز بين موضعي الآيتين ونترك الربط الزمني الخاص بالرواية موضع بحث، ولا ننقل اسم إسماعيل إلى آية هود. بعض نسخ المتن تتضمن فاصل سبعة أيام بين الإنذار والخروج؛ القرآن يأمر بالخروج ليلًا ويحدد موعد العذاب صباحًا، ولا يقرر هذه المدة. [ر٤]

روايات الكافي عن بداية الانحراف — أكثر من طريق، وليست قصة واحدة

في الكافي، كتاب النكاح، باب اللواط، توجد مجموعة أخبار ترتبط بقوم لوط.

ومن المهم ألا نجمعها بلا تمييز، لأن أسانيدها ومتونها مختلفة.

الحديث الرابع

يروي عن أحد الإمامين الباقر أو الصادق عليهما السلام تفسيرًا لقوله تعالى:
﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.
ويصور إبليس آتيًا في هيئة حسنة إلى شباب منهم حتى نقل إليهم الفعل ثم ترك بعضهم لبعض.
حكم العلامة المجلسي على هذا الطريق في مرآة العقول: «حسن أو موثق».
هذه الرواية تعطي تفسيرًا روائيًا لبداية الممارسة، لا نصًا قرآنيًا.

الحديث الخامس

يقدم قصة أطول بكثير:
يبدأ بقوم كانوا يعملون ويتركون النساء خلفهم،
ثم يصور إغواء إبليس،
ثم انتقال الفساد إلى الاعتداء على المارة،
ثم ترك الرجال النساء،
ثم يتابع إلى وصول ثلاثة ملائكة إلى لوط وهو يحرث،
ودخولهم المدينة،
واقتحام القوم للبيت،
وطمس الأبصار،
والخروج ليلًا.
وقد حكم المجلسي على هذا الخبر بالضعف.
لذلك لا يجوز أن يُستخدم وحده لبناء كل التفاصيل التاريخية.
قيمته أنه يحفظ صورة روائية كاملة انتشرت في التراث، مع ضرورة إبقاء درجته أمام القارئ.

الحديث السادس

يروي عن الإمام الصادق عليه السلام طريقًا آخر للضيوف والعذاب، ويذكر أربعة ملائكة:
جبرئيل،
وميكائيل،
وإسرافيل،
وكروبيل.

ويمر بإبراهيم قبل لوط، ويذكر مجادلة إبراهيم، وتحذير لوط للضيوف من قومه، وإشارة امرأته للقوم، وهجومهم، وطمس أعينهم، ثم الخروج والعذاب.

وحكم المجلسي على هذا الطريق بالمجهول.

الحديث السابع

في تفسير قوله:

﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾

قال الإمام الصادق عليه السلام:

إن لوطًا عرض عليهم التزويج.

وقد حكم المجلسي على الحديث بالحسن، وعدّه البهبودي في صحيح الكافي.

وهذه من أقوى الروايات الخاصة بتفسير هذا الموضع في المجموعة.

إذن عندما نستخدم الكافي في قصة لوط، لا نقول:

«الكافي يروي قصة واحدة صحيحة بكل تفاصيلها».

بل نقول:

هناك طرق متعددة،

بعضها أقوى من بعض،

ونتشابه في بعض العناصر وتختلف في أخرى.

وهذا مقتضى الأمانة العلمية في الكتاب.

الرسل عند إبراهيم: رحمةٌ قبل القضاء

قبل وصول الملائكة إلى لوط، وردت رسل الله على إبراهيم. في هود ١١:٦٩-٧٦ والذاريات ٥١:٢٤-٣٤ والحجر ١٥:٥١-٦٠، كان سلامهم وبشارة الولد ثم كشف مقصدهم إلى قوم مجرمين. خاف إبراهيم حين لم تمتد أيديهم إلى الطعام، ثم جاءت البشرى لسارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (هود ١١:٧٠-٧٣). تُظهر هذه البداية اجتماع البشارة داخل بيت إبراهيم والإنذار لقوم لوط في مجيء واحد؛ فلا يُلغى خط سارة وإسحاق حين نروي مأساة القرية.

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود ١١:٧٤-٧٥)، لكن الجواب: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (١١:٧٦). وفي العنكبوت ٢٩:٣٢ قال إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فأكدت الملائكة علمها بالناجين. وتزيد رواية الكافي سؤال إبراهيم عن وجود مئة ثم أعداد أقل من المؤمنين؛ تفاصيل العدد رواية، وأصل مجادلته قرآن. [ر١، ح٦]

الملائكة: ما ثبت وما اختلف

يسمي القرآن ضيوف إبراهيم ولوط «رسلنا» و«المرسلون» بصيغة الجمع، ولا يحدد عددهم ولا أسماءهم. وفي الكافي خبر عن الباقر عليه السلام يسمي جبرئيل وميكائيل وإسرافيل [ر١، ح٥]، وخبر آخر عن الصادق عليه السلام يذكر معهم «كروبييل» فيكونون أربعة [ر١، ح٦]. هذا اختلاف داخل مادة المصدر الأول نفسه؛ لذلك لا نختار عددًا واحدًا كأنه لفظ القرآن، ولا نجعل الأسماء أساس ترتيب الوقائع الذي لا يتوقف عليها.

يروي خبر الكافي الثاني أن إبراهيم أكرمهم، وأنهم التقوا لوطًا قرب القرية بثياب بيض، فأراد إيواءهم مع علمه بخطر الطريق، ويذكر أنهم طلبوا منه شهادة متكررة على سوء قومه. وتذكر رواية أخرى أنه كان يحرث وأنه حاول تأخير دخولهم إلى الظلام، وأرسل ابنته بطعام وماء وكساء [ر١، ح٥-٦]. هذه تفاصيل مهمة لصورة ضيافته وخوفه عليهم، ولكنها من الرواية، لا من الآيات. سند الخبر المطول الخامس فيه «عن أبيه عن عمرو» غير محدد الهوية هنا، وسند السادس يمر بابن فضال وأبي يزيد الحمّار؛ لا نمنح أيًّا منهما حكم صحة مستقلًا من مجرد إدراجه في الكافي. ويذكر الخبر الخامس أيضًا امرأة غير مسماة وصبيًا في مشهد اعتداء إبليس، ثم اجتماع أهل المدينة؛ لا نسميهما ولا نجعل الخبر الضعيف واقعة قرآنية. وتصوير إبليس في هيئة امرأة في أول الخبر ليس اسمًا لامرأة بشرية أخرى.

يوم عصيب: الضيافة في مواجهة المدينة

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود ١١:٧٧). لم يكن خوفه على ملائكة عرف حقيقتهم من أول لحظة؛ يفهم من تسلسل الخطاب أنهم أعلنوا رسالتهم لاحقًا: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (١١:٨١). وفي الحجر واجههم أولًا بقوله ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، فأخبروه أنهم جاءوا بما كان القوم يمترون فيه وبالحق (١٥:٦٢-٦٤).

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الحجر ١٥:٦٧)، و﴿جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (هود ١١:٧٨). قال: ﴿هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (الحجر ١٥:٦٨-٦٩)، و﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود ١١:٧٨). كان الدفاع عن حرمة الضيف وطلب كف العدوان جزءًا من وظيفة الرسول داخل مجتمع هدد حتى عابري السبيل.

زوجته: خيانة الرسالة لا افتراض الفاحشة

يستثني القرآن امرأة لوط من النجاة: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الأعراف ٧:٨٣)، ويتكرر المعنى بألفاظ أخرى في العنكبوت ٢٩:٣٢-٣٣ والحجر ١٥:٦٠ والشعراء ٢٦:١٧١ والنمل ٢٧:٥٧. ويجعلها مع امرأة نوح مثلًا للكافرين: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (التحريم ٦٦:١٠، مقتطف). لا تنص الآية على خيانة جنسية، فلا تُنسب إليها من مجرد لفظ الخيانة.

تروي رواية الكافي عن الصادق عليه السلام أنها أشارت إلى القوم بالدخان من السطح ثم أخبرتهم بحسن هيئة الضيوف [ر١، ح٦]. وفي تفسير القمي صورة أخرى تجعل الدخان علامة نهارية والنار علامة ليلية، وأنها أوقدت النار عند وصولهم ليلًا [ر٣]. ويذكر خبر العياشي أن امرأته مضت تُخبر القوم في سياق الخروج [ر٢]. تُشرح الخيانة في ضوء نص القرآن بهذه الأخبار مع إبراز اختلاف وسيلة الإبلاغ والتوقيت، ولا تُحكى إحدى الصورتين كخبر قطعي. وجودها زوجة نبي لم يُغن عنها، مثلما لا يجعل اختلاف موقفها كل نساء البيت هامشًا. وينقل مجمع البيان عند التحريم ٦٦:١٠ اسم «واهلة»، وينقل عن مقاتل «والهة». هما تسميتان في أقوال تفسيرية، لا امرأتان مثبتتان ولا اسم قرآني؛ تبقى الشخصية في السرد «امرأة لوط».

نساء في أخبار القصة وإطار نقلها

يربط خبر إسحاق بن جرير عن الإمام الصادق في الكافي، باب السحاق، ح٢، سلوك نساء قوم لوط بترك الرجال لهن. وينقل الخبر سؤال امرأة وجاريتها غير المسميتين، وهما من زمن الإمام، لا من أهل قرية لوط. نقل المجلسي حكم «موثق» لطريقه.

وفي ح٤ من الباب نفسه يرد اسم «لاقيس بنت إبليس»، مع التردد في النقل بين أبي عبد الله وأبي إبراهيم، وحكم المجلسي «مجهول». يُحفظ الاسم في سياق الخبر، ولا تُجعل لاقيس امرأة بشرية معلومة التاريخ في قوم لوط، ولا تُدمج تلقائيًا بهيئة إبليس في الحديث الخامس من باب اللواط.

«هؤلاء بناتي»: حدود المعنى

قال لوط أمام التهديد: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ (هود ١١:٧٨)، وفي الحجر ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٥:٧١). أجابوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (هود ١١:٧٩). لا يصح تصويره داعيًا إلى انتهاك بناته؛ فقوله ﴿هن أطهر لكم﴾ في سياق التقوى والدفع عن الضيوف.

في الكافي عن الصادق عليه السلام تفسير موجز: «عرض عليهم التزويج» [ر١، ح٧]، ويقول خبر آخر «دعاهم إلى الحلال» [ر١، ح٦]، ونقل العياشي معنى التزويج [ر٢]. يبقى بحث «بناتي» هل هن بناته حقيقة أو نساء قومه على معنى أبوة الرسول لهم خلافًا تفسيريًا لا يقطع به اللفظ وحده. الخبر الذي يجعل ابنته تأتي بطعام في الكافي يدل على وجود بنت في ذلك الخبر، ولا يثبت العدد أو أن كل من خوطب كان مستحقًا للزواج بها. لا نزيد أسماءً أو مشاهد تزويج لم يذكرها القرآن.

«لو أن لي بكم قوة»: ساعة انكشاف النصرة

بلغ الضيق أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود ١١:٨٠). قيل له بعد ذلك: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (١١:٨١). لا تحمل الآية اتهامًا للنبي بنقص التوكل؛ إنها

تصور طلب وسيلةٍ ظاهرة لكف الاعتداء قبل أن تتكشف له حقيقة الضيوف ووعد الله. وفي رواية الكافي عن الباقر عليه السلام تعليق على أن جبرئيل كان معه في الحجرة وهو لا يعلم مقدار هذه القوة [ر١، ح٥].

قراءة إمامية في «القوة» و«الركن الشديد»

إلى جانب المعنى الظاهر للآية — تمنّي لوط وسيلة ظاهرة تمنع اعتداء القوم على ضيوفه — نقل تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام تأويلًا إماميًا لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

ففي رواية صالح بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام: «القوة» القائم عليه السلام، و«الركن الشديد» ثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه. وروي في كمال الدين عن أبي بصير معنى قريبًا، يربط تمنّي لوط بقوة القائم وشدة أصحابه.

هذه قراءة تأويلية في التراث الإمامي، ولا تلغي المعنى السياقي المباشر في سورة هود. لذلك نعرض مستويين من الدلالة:

المعنى القرآني الظاهر: لوط يطلب قوةً ظاهرة أو سندًا قويًا لكف الاعتداء عن ضيوفه.

والتأويل الروائي الإمامي: ربط القوة بالقائم عليه السلام والركن الشديد بأصحابه.

ولا يجوز جعل التأويل الروائي هو المعنى اللغوي الوحيد للآية أو القول إن القرآن نفسه سمّى القائم وأصحابه في هذا الموضع.

«لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» — حين يبلغ العناد عمى البصيرة

بعد أن رفض القوم كلام لوط، يقول القرآن:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر ١٥:٧٢).

الخطاب في التفسير المشهور للنبي محمد صلى الله عليه وآله، والقَسَم بحياته من مواضع تعظيمه في القرآن.

أما قوم لوط فيصفهم النص بأنهم في «سكرتهم» يترددون عمهًا.

ليست هنا سكرة شراب منصوصة بالضرورة.

إنها صورة عن استغراقهم في الهوى حتى لم يعد الإنذار يوقظهم.

لقد جاءهم نبي.

ونهى.

وأنذر.

وطلب منهم حماية الضيف.

وعرض عليهم الحلال.

ومع ذلك استمر الاندفاع.

هذا هو العمى الذي يسبق في سورة القمر طمس الأبصار الحسي.

طمس الأعين — آية قرآنية قبل العذاب العام

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر ٥٤:٣٧).

هذه الآية مهمة لأنها تثبت حدثًا لا ينبغي أن يُترك للروايات وحدها:

القوم راودوه عن ضيفه،

ثم طمس الله أعينهم.

إذن وقع تدخل إلهي يحمي بيت لوط قبل العذاب العام في الصباح.

أما كيف وقع الطمس؟

الروايات تختلف.

في حديث الكافي الخامس يُذكر أن جبرئيل أخذ كفًا من بطحاء وضرب وجوههم فعَموا.

وفي الحديث السادس يذكر أن جبرئيل أهوى بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم.

الحدث نفسه ثابت بالقرآن.

أما هيئة التدخل ففيها أكثر من نقل.

وهنا يظهر مرة أخرى منهج الكتاب:

نثبت أصل الآية،

ثم نضع الرواية في درجتها.

«لن يصلوا إليك» — نهاية خوف الضيف وبداية أمر النجاة

وتحفظ سورة هود إعلان الرسل هويتهم ووعد الحماية:

﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (هود ١١:٨١).

هذه الجملة تقلب المشهد.

قبلها كان لوط يحاول حماية ضيوفه.

بعدها يعرف أن الضيوف هم جنود النجاة والعذاب.

والمعنى الدقيق:

ليس أن لوط كان متروكًا ثم وجد قوة بالصدفة.
بل أن الله أظهر له الوسيلة التي كانت خافية عنه.
ومن هنا يبدأ الأمر:
﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾.

الليل والسَّحَر: خروج المؤمنين

جاء الأمر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ (هود ١١:٨١)، و﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (الحجر ١٥:٦٥). وتحدد القمر ٥٤:٣٤ النجاة ﴿بِسَحَرٍ﴾. لا يُجعل اختلاف فهم استثناء الزوجة في تركيب هود سببًا لإسقاط محكم الاستثناء في السور الأخرى: لم تكن من الناجين.
في رواية الكافي السادسة أمرٌ بأن يحمل لوط من معه ويترك امرأته، ويذكر خبر الباقر أن الملائكة قالت له «خذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك» [ر١، ح٥-٦]. وفي العياشي رواية تصف سيره ببناته ومضي امرأته إلى قومها [ر٢]. تفيد هذه الأخبار في فهم أفراد البيت، ولكنها لا تمنحنا قائمة كاملة بالناجين ولا مسار هربهم الدقيق. القرآن يعلل النجاة: ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (القمر ٥٤:٣٥).

الصبح: موعد القضاء وتفاصيله في الروايات

يحدد القرآن الموعد: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود ١١:٨١). وتأتي أوصاف العذاب القرآنية في القسم التالي. أما ارتفاع القرية وسماع صياح الديكة ونباح الكلاب في بعض الأخبار فزيادات روائية، لا ألفاظ الآيات [ر١، ح٦؛ ر٢].

العذاب في القرآن — أوصاف متعددة لواقعة واحدة

إذا قرأنا مواضع القصة منفردة قد يبدو أن القرآن يستعمل تعبيرات مختلفة:
مطرًا،
وحجارة من سجيل،
وصيحة،
وحاصبًا،
ورجزًا من السماء،
وقلبًا للقرية،
وعذابًا مستقرًا.

لكن الجمع بينها لا يحتاج إلى افتراض عذابات متعارضة.
كل سورة تعرض جانبًا من الواقعة.
في هود ١١:٨٢-٨٣:
قلبُ عالي القرية سافلها،
ومطرُ حجارة من سجيل منضود،
مسومة عند الله.
في الحجر ١٥:٧٣-٧٤:
الصيحة عند الإشراق،
ثم جعل العالي سافلًا،
وحجارة من سجيل.
في الأعراف ٧:٨٤، الشعراء ٢٦:١٧٣، والنمل ٢٧:٥٨:
«مطر» على القوم.
في العنكبوت ٢٩:٣٤:
﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بسبب الفسق.
في الذاريات ٥١:٣٣-٣٤:
﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.
في القمر ٥٤:٣٤:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾.
ثم في ٥٤:٣٨:
﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾.
إذن يمكن أن يكون المشهد:
عذابًا سماويًا،
وحجارة،
وقلبًا للمكان،
وصيحة،
ووقوع ذلك في الصباح.
ولا يحق لنا حذف لفظ قرآني لأن سورة أخرى استعملت لفظًا مختلفًا.

السجيل والطين والحجارة المسومة — لا نزيد ما لم يقله القرآن

تقول سورة هود:

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

وقالت الذاريات:

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

القرآن يربط السجيل بالحجارة، وتصف الذاريات الحجارة بأنها من طين.

لكن الأخبار تضيف أحيانًا:

أن على كل حجر اسم صاحبه،

أو أن الأحجار تتبع أفرادًا هاربين في أماكن بعيدة،

أو أوصافًا دقيقة للحجر وحجمه.

هذه التفاصيل ليست في الآيات.

إذا وردت في رواية نذكرها بعنوان رواية، ولا نجعل «مسومة» وحدها دليلًا على كل تلك التفصيلات.

المؤتفكة والمؤتفكات — ذاكرة قلب القرى

يقول تعالى:

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ (النجم ٥٣:٥٣-٥٤).

ويذكر:

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (التوبة ٩:٧٠).

وفي الحاقة:

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ (٦٩:٩).

المؤتفكة من مادة الانقلاب، ولهذا ربط جمهور المفسرين هذه الألفاظ بقرى قوم لوط التي جعل الله عاليها سافلها.

لكن الآيات المختصرة لا تسمي لوطًا في كل موضع.

ولهذا الصياغة الدقيقة:

يربط التفسير الإسلامي «المؤتفكة/المؤتفكات» بقوم لوط وقرى العذاب،

ويتفق هذا مع وصف هود والحجر لقلب القرية،

لكننا لا نستخرج من اللفظ عدد المدن ولا أسماءها ولا حدودها الجغرافية.

هل «القرية التي أمطرت مطر السوء» قرية لوط؟

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ (الفرقان ٢٥:٤٠).

جمهور من المفسرين يربط هذه القرية بقوم لوط، لأن التعبير عن «مطر السوء» يوافق أوصاف عذابهم.

لكن الآية نفسها لا تقول:

«قرية لوط».

لذلك نذكرها ضمن خريطة الشواهد المرتبطة بالقصة مع هذا القيد، ولا نجعل التعيين نصًا قرآنيًا صريحًا.

آيات باقية للعابرين

﴿وَتَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت ٢٩:٣٥)، و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ (الحجر ١٥:٧٥-٧٦). ثم إن الصافات ٣٧:١٣٧-١٣٨ تسائل من يمر عليهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. الوظيفة الباقية للمكان في النص هي الاعتبار، ولا يقتضي ذلك الجزم بتطابق أثر أثريٍّ مع كل تفصيل من مشهد العذاب.

وردت «المؤتفكات» في التوبة ٩:٧٠ والحاقة ٦٩:٩، و«المؤتفكة» في النجم ٥٣:٥٣-٥٤؛ يربطها المفسرون بقلب قرى لوط، لكن الصيغ الجماعية في مواضع الإشارة تظل إشارات لا بيانات جغرافية تفصيلية. ويذكر القرآن «قوم لوط» في الحج ٢٢:٤٣ وص ٣٨:١٣ و«إخوان لوط» في ق ٥٠:١٣ ضمن أمم التكذيب. ويحذر شعيب قومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (هود ١١:٨٩)، أي إن الذكرى صارت حجة في خطاب نبي لاحق.

طريق موازٍ في قصص الأنبياء للراوندي

حفظ قطب الدين الراوندي في قصص الأنبياء طريقًا آخر لقصة لوط، ينتهي إلى أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام في خبر يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسؤاله جبرئيل: كيف كان مهلك قوم لوط؟

ويشترك هذا الخبر مع بعض ما ورد في علل الشرائع والكافي في جملة من العناصر:

أن لوطًا عاش بينهم وهو ليس من أهل القرية بحسب الرواية.

أنه لم تكن له عشيرة تحميه فيهم.

أنه دعاهم إلى الله والإيمان والطاعة ونهى عن الفواحش.

أنه كان كريمًا مضيافًا.

أنه لبث فيهم ثلاثين سنة بحسب الخبر.

خروج لوط ببناته ليلًا.

وقلب القرية وإنزال العذاب.

لكن وجود طريق موازٍ لا يعني أن كل تفصيل صار قطعيًا؛ بل يفيد في معرفة انتشار الصورة الروائية ومقارنة الألفاظ والطرق.

وتزيد بعض نسخ الخبر تفاصيل تصويرية عن رفع القرية وسماع أصوات دوابها قبل قلبها. هذه تفاصيل روائية لا يذكرها القرآن، ولا ينبغي أن تتحول إلى وصف قرآني لمجرد شهرتها في كتب القصص.

كما أن الراوندي يروي المادة بأسانيد، وهذا يجعلها أحق بالفحص من القصص المرسلة، لكنه لا يغني عن دراسة رجال الطريق ومقارنة النص بالمصادر الأقدم.

البيان الإمامي المطول: كيف يُستفاد منه؟

يفصل هذا الفصل أخبار الكافي الأربعة بدل تركيبها في قصة واحدة: خبر الإغواء الرابع، والخبر المطول الخامس، وخبر الملائكة السادس، وتفسير التزويج السابع. وتبقى المقارنة بين المتون ودرجات الطرق لازمة عند متابعة التفاسير [ر١].

تظهر مادة موازية في تفسير العياشي عند آيات هود، منها خبر طويل عن زمن الدعوة وخروج البنات وقلب القرية، وخبر موجز في التزويج، وتظهر في تفسير القمي صورة إشارة الزوجة للناس. بعض أسانيد النسخة المتداولة من تفسير العياشي محذوفة من أوائل الأخبار، ونسبة كل مادة التفسير المتداول إلى علي بن إبراهيم تحتاج فحصًا نصيًا؛ فلا تساوي هذه الإحالات تصحيحًا تلقائيًا لكل جزئية. الاستفادة المنضبطة: تثبيت الحدث بالقرآن، وشرح الاحتمال بالرواية، وإظهار الاختلاف والسند حيث ظهر. [ر٢، ر٣]

وعلى مستوى الوعظ ورد في الكافي عند الحديث ٥ ربط آخر هود ١١:٨٣ بالتحذير من ظلم أمة محمد ﷺ إذا صنعت فعل القوم، وفي الحديث ٩ تفسير وعيدي خاص؛ لا ينتج من ذلك حكمٌ بأن كل كارثة معاصرة عقوبة مماثلة أو حقٌ للناس في إيقاع عقاب على أشخاص. مجال الفصل سرد الهداية والدليل، لا إصدار فتوى عقابية.

العصمة والرحمة والحدود التي لا نتجاوزها

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧٥): هذه خاتمة القرآن لشخص لوط، إلى جانب إثبات حكمه وعلمه ورسالته. لم يقدّم القرآن عبارة «لو أن لي بكم قوة» اعترافًا بعجز عن الله، ولا جعل حزن النبي على ضيوفه خطأً. كما لا تُستخدم آيات إدانة فعل القوم لإثبات روايات قاسية التفاصيل على أفراد لم يتحدث عنهم القرآن.

يذكر القرآن زوجة لوط مثالًا على عدم نفع القرابة بلا إيمان، ويذكر في مقابلها زوجة فرعون ومريم في الآيتين التاليتين (التحريم ٦٦:١١-١٢). لذلك لا تختزل المرأة في دور زوجته: بناته تظهرن في خطابه

وفي بعض الأخبار عند الخروج، وقد يكون لنساء أخريات من أهل البيت دور في النجاة دون أن تسميهن الآيات. والواجب أن نذكر ما نعلم ثم نقف حيث يقف الدليل.

ما تضيفه الروايات الإمامية — مع اختلاف الدرجات

الروايات الإمامية تضيف بدرجات مختلفة:

تفسيرًا لبعض صلة لوط بإبراهيم.

رواية أن إبراهيم كان إمامًا على لوط.

الهجرة إلى الشام مع إبراهيم وسارة.

أقوالًا مختلفة في قرابته من إبراهيم.

تفسيرًا لبداية الفاحشة ووسوسة إبليس.

ربطًا بين البخل وإيذاء الضيوف وقطع الطريق.

مدة ثلاثين سنة في بعض الأخبار.

صورًا لضيافة لوط وكرمه.

عددًا وأسماء للملائكة مع اختلاف الروايات.

تفصيلًا لإشارة امرأته إلى القوم.

تفسير «هؤلاء بناتي» بأنه عرض الزواج والحلال.

كيفية طمس الأعين في أخبار مختلفة.

تفاصيل خروجه ببناته.

تفاصيل تصويرية إضافية في قلب القرية والعذاب.

وتأويلًا لـ«القوة» و«الركن الشديد» بالقائم وأصحابه.

هذه المادة لا تُمحى من الفصل.

لكنها لا توضع كلها في سطر واحد باسم «الرواية الصحيحة».

بعضها حسن،

وبعضها حسن أو موثق،

وبعضها ضعيف،

وبعضها مجهول،

وبعضها من تفاسير وصلت أسانيدها ناقصة أو تحتاج إلى تحقيق.

وهذا التفاوت نفسه جزء من أمانة الكتاب.

ما لا ندخله في حكاية لوط بلا دليل — قصة ما بعد الخراب في بعض كتب أهل الكتاب

توجد في التراث الكتابي قصة مشهورة تُروى بعد هلاك القرى، تزعم وقوع علاقة محرمة بين لوط وبناته ونشوء أقوام من ذلك.

هذه القصة ليست في القرآن.

ولا نحتاج إليها لشرح أي آية من قصة لوط.

ولا نعتمدها جزءًا من سيرته لمجرد وجودها في كتب أقدم أو انتقالها إلى بعض كتب التاريخ والقصص.

القرآن يختم صورة لوط بأنه:

من الصالحين،

داخل في رحمة الله،

صاحب حكم وعلم،

ورسول من المرسلين.

ومنهج هذا الكتاب لا يسمح بأن نلصق بنبي خبرًا بالغ الخطورة من مصادر خارج منهجنا بلا حجة إسلامية معتبرة.

كذلك لا ننبي أنساب أمم لاحقة من بناته اعتمادًا على تلك القصة.

إذا ذُكرت في بحث مقارن يومًا، تُذكر بوصفها رواية كتابية خارج الأساس القرآني والإمامي لهذا الكتاب، لا جزءًا من «حكاية الهداية».

بعد النجاة: ما الذي لا نعلمه؟

لا يذكر القرآن تاريخ وفاة لوط، ولا عمره، ولا موضع قبره، ولا عدد بناته وأسمائهن، ولا اسم زوجته، ولا اسم وصيّ خلفه في قومه، ولا صحفًا منزلة عليه بعينها. قد ترد أقوال متأخرة في هذه الموضوعات، لكنها لا تصلح لسد فراغ سلسلة الهداية بلا دليل. كذلك لا يستخرج من الآيات نسبُ قبائل لاحقة من بناته. بقي لوط في النص رسولًا صالحًا مُنجّى، وبقيت رسالته شاهدًا يذكّر به القرآن أممًا لاحقة.

لا توجد في المادة القرآنية التي راجعناها سلسلة وصاية «لوط ← فلان»؛ ولهذا لا ننشئ واحدة. يستمر عهد إبراهيم في خطّيه اللذين بُشّر بهما ونُقل خبرهما: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، كما فُصل في فصل إبراهيم وكما ستتبع الفصول الآتية. الصلة هنا صلة توازٍ في زمن النبوة، لا ادعاء أن رسالة لوط انتقلت نسبًا إلى واحد من هذين الخطين.

خاتمة الفصل الثالث عشر — لوط عليه السلام: الرسول الذي حفظ الطهارة والضيف في مدينة الفساد

بدأ لوط عليه السلام في القرآن مؤمنًا بإبراهيم.

ثم اجتمع معه في الهجرة والنجاة إلى الأرض المباركة.

وفي الرواية الإمامية يظهر إبراهيم إمامًا عليه ضمن طبقات الأنبياء.

ثم أرسله الله رسولًا إلى قوم صار الفساد فيهم نظامًا اجتماعيًا:

فاحشة،

وإسراف،

وعدوان،

وقطع سبيل،

ومنكر في النادي،

وتهديد للطاهرين والضيوف.

لم تكن دعوته مجرد نهي عن فعل منفرد.

قال:

اتقوا الله.

أطيعون.

أنا لكم رسول أمين.

ولا أسألكم عليه أجرًا.

واجه قومًا جعلوا الطهارة تهمة.

هددوا بطرده وأهله.

ومنعوه من استقبال العالمين.

ثم جاء اليوم الذي دخل عليه ضيوف لا يعرف حقيقتهم.

ضاق بهم ذرعًا لأنه عرف قومه.

دافع عنهم.

عرض الحلال.

سأل:

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

ثم قال في لحظة الألم:
﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.
عندها انكشف ما كان خافيًا.
الضيوف رسل الله.
ولن يصل القوم إليه.
وطُمست أعين المعتدين.
وأُمر لوط بالخروج في الليل.
خرج البيت المؤمن.
وبقيت امرأته مع من اختارت موقفهم.
فلم تنفعها زوجية النبي.
وكما لم ينفع ابن نوح نسبه، لم تنفع امرأة لوط قرابتها.
الهداية في حكاية الأنبياء ليست وراثة جسدية بلا اختيار.
ثم جاء الصبح.
وانقلبت القرية.
ونزلت الحجارة.
وجاءت الصيحة.
وصار المكان آية لمن يعقل ويتوسم ويمر في الطريق.
ولم تنتهِ القصة عند ذلك الصباح.
بقي قوم لوط مثالًا يذكّر به شعيب قومه، من غير أن تحدد آية التذكير عدد الأجيال الفاصلة.
وبقيت المؤتفكات في ذاكرة القرآن.
وبقي قول الله عن لوط نفسه:
﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾،
﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾،
﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾،
﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
أما الروايات فوسعت الصورة بتفاصيلها المنسوبة، مع بقاء درجاتها واختلاف ألفاظها كما بُيّن في مواضعها.

وهنا تنتهي قصة لوط في هذا الكتاب من غير أن نصنع بعده وصيًا لم تسمه المصادر.
لم نجد في القرآن سلسلة:
لوط ← فلان.
ولم نحتاج إلى اختراع واحدة.
لوط كان فرعًا رساليًا معاصرًا لإبراهيم، لا حلقة نسب تصل إبراهيم بما يأتي بعده.
ولهذا نعود الآن إلى بيت الخليل نفسه.
إلى سارة وهاجر.
وإلى إسحاق وإسماعيل.
وإلى الوادي غير ذي الزرع.
وإلى زمزم في الروايات.
وإلى البيت والحج.
وإلى الفرعين الإبراهيميين اللذين تتابع الفصول القادمة حركة الهداية فيهما.

المصادر والمراجع — الفصل الثالث عشر: لوط عليه السلام

أولًا: القرآن الكريم — جميع المواضع الأساسية

الأنعام ٦:٨٦.
الأعراف ٧:٨٠–٨٤.
التوبة ٩:٧٠.
هود ١١:٦٩–٨٣، و١١:٨٩.
الحجر ١٥:٥١–٧٧.
الأنبياء ٢١:٧١، ٢١:٧٤–٧٥.
الحج ٢٢:٤٣.
الفرقان ٢٥:٤٠ — مع التنبيه إلى أن تعيين القرية بقوم لوط تفسير مشهور، لا تسمية صريحة في الآية.
الشعراء ٢٦:١٦٠–١٧٥.
النمل ٢٧:٥٤–٥٨.
العنكبوت ٢٩:٢٦، ٢٩:٢٨–٣٥.
ص ٣٨:١٣.

ق ١٣:٥٠.

الذاريات ٢٤:٥١-٣٧.

النجم ٥٣:٥٣-٥٤.

القمر ٣٣:٥٤-٤٠.

الصافات ١٣٣:٣٧-١٣٨.

التحريم ١٠:٦٦-١٢.

الحاقة ٩:٦٩.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية الأصلية

١. محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، الحديث ١.

المادة: طبقات الأنبياء، والمثال الصريح: «مثل ما كان إبراهيم على لوط».

تنبيه سندي: حكم العلامة المجلسي على هذا الطريق في مرآة العقول بالضعف. لذلك نثبت أنه نص إمامي محفوظ في الكافي ولا نسميه صحيحًا.

٢. الكليني، الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، الحديث ٢، عن سماعة بن مهران عن الإمام الصادق عليه السلام.

المادة: أولو العزم الخمسة، وأن الأنبياء بعد إبراهيم أخذوا بشريعته ومنهاجه وصحفه إلى زمن موسى.

يُستخدم أصلًا عامًا لتحديد المرحلة التشريعية التي عاش فيها لوط، لا بوصف الحديث مسميًا لوطًا في تلك الجملة.

[ر١] ٣. الكليني، الكافي، ج٥، كتاب النكاح، باب اللواط، الكتاب ٣، الباب ١٨٦ بحسب الفهرسة الإلكترونية:

الحديث ٤: تفسير بداية الفاحشة ووسوسة إبليس.

حكم المجلسي في مرآة العقول: «حسن أو موثق».

الحديث ٥: الخبر الطويل عن بداية الفساد، المارة، وصول الملائكة، بيت لوط، طمس الأبصار والخروج.

حكم المجلسي: ضعيف.

الحديث ٦: خبر الأربعة: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وكروبييل، مرورهم بإبراهيم ثم لوط، إشارة الزوجة، الهجوم والطمس والعذاب.

حكم المجلسي: مجهول.

الحديث ٧: تفسير ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ بأن لوطًا «عرض عليهم التزويج».

حكم المجلسي: حسن؛ وأدرجه الشيخ محمد باقر البهبودي في صحيح الكافي.

الحديث ٩: يتضمن تأويلًا ووعيدًا خاصًا في الباب، ويُستفاد منه بقدر نصه ولا يُحوّل إلى قاعدة لإسقاط العذاب على أحداث معاصرة.

الكافي، ج٥، كتاب النكاح، باب السحاق، ح٢ وح٤ (الفهرسة الإلكترونية ٥/٣/١٨٨): نساء القوم، والسائلة وجاريتها في إطار الرواية، ولاقيس. مرآة العقول ٢٠:٤٠١-٤٠٢: ح٢ موثق، وح٤ مجهول؛ تنقل الأحكام عن المجلسي ولا يصدر الفصل تصحيحًا مستقلًا.

٤. روضة الكافي، الخبر المطول في قصة إبراهيم والنمرود والنار والهجرة.

المادة المستخدمة في هذا الفصل: إيمان لوط بإبراهيم، وخروج إبراهيم مهاجرًا ومعه سارة ولوط نحو الشام بحسب الخبر.

هذا تفصيل روائي في الجغرافيا والهجرة؛ القرآن يثبت أصل إيمان لوط ونجاة إبراهيم ولوط إلى الأرض المباركة.

٥. الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج٢، الباب ٣٤٠، الحديث ٤، ص٥٤٨-٥٥٠ تقريبًا بحسب الطبعة.

خبر أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام.

المادة: البخل والضيافة، الاعتداء على المارة، لوط وكرم الضيف، مدة ثلاثين سنة، قرابته من إبراهيم في متن الخبر، وبعض تفاصيل الملائكة والبشارات.

تنبيه: بعض ترتيب الخبر وتفاصيل البشارة تحتاج موازنة بالقرآن؛ فلا يحل أي لفظ روائي محل التصريح القرآني بإسحاق في هود ١١:٧١.

٦. الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، نحو ص٦٧٣ بحسب بعض الطبعات.

خبر أبي بصير في التأويل الإمامي لقوله ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ وربطه بالقائم عليه السلام وأصحابه.

هذا تأويل روائي، لا المعنى السياقي الوحيد للآية.

٧. قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، باب ذكر لوط عليه السلام، نحو ص١١٧-١٢٠ بحسب الطبعة.

خبر بطريق ينتهي إلى أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام في سؤال النبي صلى الله عليه وآله جبرئيل عن هلاك قوم لوط.

المادة: الدعوة، عدم العشيرة، الضيافة، مدة الثلاثين سنة في الخبر، الخروج ليلًا، وقلب القرية.

يُستخدم طريقًا موازيًا للمقارنة، لا تصحيحًا تلقائيًا لكل تفصيل.

ثالثًا: مصادر التفسير الإمامي

[ر٢] ١. محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، ج٢، عند آيات هود ١١:٧٨-٨٣.

المادة: «هؤلاء بناتي»، مادة القصة المطولة، الخروج، وتفسير ١١:٨٠ بالقائم وأصحابه في بعض الأخبار.

تنبيه: النسخة المتداولة من تفسير العياشي فاقدة لأوائل أسانيد أخبار كثيرة، ولذلك لا تُعامل كل رواية فيها نخبر مسند كامل.

[ر٣] ٢. التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، ج١، عند هود ١١:٧٣-٨٣ وما يقاربها.

المادة: ضيوف إبراهيم، إشارة امرأة لوط، وبعض تفاصيل المشهد.

تنبيه: الكتاب الموجود اليوم ذو تركيب نصي يحتاج إلى تحقيق في نسبة المقاطع وأسانيدها؛ لذلك لا يعني الاستشهاد به تصحيح كل تفصيل.

٣. الحويزي، نور الثقلين، عند آيات لوط في الأعراف وهود والحجر والنمل والعنكبوت والقمر.

يُستفاد منه في جمع طرق الروايات وإرجاعها إلى مصادرها الأقدم.

٤. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، المواضع نفسها.

مصدر تفسيري جامع، لا يغني عن الرجوع إلى أصل الرواية.

٥. العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير المقاطع الأساسية من قصة لوط.

يُستفاد منه في جمع الصورة القرآنية، مناقشة الدلالات، وفصل النص عن القصص الزائدة.

٦. الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، عند آيات القصة.

الطبرسي، مجمع البيان، تفسير التحريم ٦٦:١٠: «واهلة» و«والهة» في الأقوال عن اسم امرأة لوط، مع بيان أن الخيانة في الدين؛ هذه أقوال يوردها المفسر، وليست كلها أحاديث عن أهل البيت.

رابعًا: المصادر الجامعة والمساندة

العلامة محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢ أو أبواب قصص إبراهيم ولوط بحسب تقسيم الطبعة، بوصفه جامعًا للنظائر ومصدرًا للوصول إلى كتب أقدم، لا تصحيحًا تلقائيًا لما ينقله.

العلامة المجلسي، مرآة العقول، ج٢٠ عند أحاديث باب اللواط في الكافي:

الحديث ٤: حسن أو موثق.

الحديث ٥: ضعيف.

الحديث ٦: مجهول.

الحديث ٧: حسن.

تُراجع الطبعة المعتمدة قبل تثبيت رقم الصفحة النهائي.

خامسًا: المادة التاريخية والكتابية للمقارنة فقط

تذكر كتب الأنساب أن لوطًا ابن هاران بن تارخ وتجعل علاقته بإبراهيم علاقة ابن أخ، بينما تحفظ رواية في علل الشرائع صورة أخرى للقرابة.

كما تسمي المصادر التاريخية المدينة «سدوم» وتحدد مواضع حول البحر الميت.

هذه التفاصيل ليست أسماءً قرآنية ولا إحداثيات قرآنية.

ولا تُعتمد القصص الكتابية المتأخرة — ومنها القصة المنسوبة إلى لوط وبناته بعد الخراب — جزءًا من السيرة الإسلامية بلا دليل إمامي معتبر.

ولا تُستخرج أنساب أمم لاحقة من بناته اعتمادًا على تلك القصة. ولحصر الأسماء للمقارنة فقط: الطبري، جامع البيان، تفسير هود ١١:٧٧، خبر ١٨٣٥٤ عن السدي: ريثا وزغرتا. لا تُنسب هذه التسمية إلى القرآن أو أئمة أهل البيت.

الفصل ١٤ — سارة وهاجر عليهما السلام — بيت إبراهيم وبداية الفرعين

من الفصل الثالث عشر إلى الفصل الرابع عشر — نعود من لوط إلى بيت إبراهيم

أنهينا الفصل الثالث عشر مع لوط عليه السلام، وهو أول فرع رسالي معاصر لإبراهيم تابعناه بالتفصيل: آمن بإبراهيم، وهاجر معه، ثم حمل رسالة مستقلة إلى قومه.

لكن حركة إبراهيم لم تكن خطًا واحدًا.

بعد أن تابعنا لوطًا، يجب أن نعود إلى بيت الخليل نفسه؛ لأن هذا البيت سيصبح نقطة انطلاق فرعين عظيمين من ذرية إبراهيم:

فرع إسماعيل عليه السلام، المرتبط بمكة والبيت، والذي ينتهي في خطه النبوي بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله.

وفرع إسحاق عليه السلام، الذي يأتي منه يعقوب ويوسف ثم سلسلة واسعة من أنبياء بني إسرائيل.

وقبل أن ندخل في فصل إسماعيل أو فصل إسحاق، لا يصح أن نتجاوز سارة وهاجر كأنهما مجرد اسمين في الهامش.

فالقرآن نفسه يجعل امرأة إبراهيم حاضرة في مشهد البشارة.

والروايات تجعل هاجر حاضرة في بداية مكة، وفي السعي، وزمزم، وبقاء إسماعيل في الوادي.

إذن هذا الفصل هو الجسر بين:

إبراهيم الخليل،

وبيته،

والأمّين،

والابنين،

ثم الفرعين اللذين ستتفرع منهما مراحل لاحقة من حكاية الهداية.

لماذا نحتاج فصلًا مستقلًا لسارة وهاجر؟

لو كتبنا التاريخ على صورة نسب مختصر، لقلنا:

إبراهيم

ثم إسماعيل وإسحاق.

لكن حكاية الهداية لا تريد أن تختصر حركة الوحي في أسماء الرجال وحدهم.

هناك لحظات يتغير فيها التاريخ من داخل البيت:

امرأة تصبر على طول الانتظار ثم تسمع بشارة لا تتوقعها.

وأم تحمل طفلًا إلى وادٍ لا زرع فيه ولا ماء ظاهر، ثم يتحول سعيها إلى شعيرة باقية في الحج.

وسارة وهاجر لا تُدرسان هنا لأننا نريد إضافة أسماء نسائية إلى قائمة الكتاب، بل لأن النصوص نفسها تجعل لهما أثرًا حقيقيًا في انتقال القصة:

سارة في وعد إسحاق ويعقوب.

وهاجر في بداية قصة إسماعيل ومكة.

كما أن هذا الفصل يحمي الكتاب من خطأ شائع:

تحويل المرأتين إلى خصمين، وتحويل الفرعين إلى صراع أصلي.

القرآن لا يبني قصة إبراهيم بهذه الصورة.

هو يثني على إسماعيل وإسحاق، ويبارك في ذرية إبراهيم، وفي الوقت نفسه يقرر أن صلاح الإنسان لا يُورث تلقائيًا بمجرد النسب.

سارة وهاجر في القرآن — خريطة جميع المواضع التي تمس قصتهما

قبل الدخول في الروايات، يجب أن نثبت الخريطة القرآنية كاملة.

أولًا: هود ١١:٦٩-٧٣

ضيوف إبراهيم.

تقديم العجل.

خوف إبراهيم حين لم تصل أيديهم إلى الطعام.

إخبارهم أنهم أرسلوا إلى قوم لوط.

وقوف امرأة إبراهيم في المشهد.

﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

تعجبها من الولادة في الشيخوخة.

ثم قول الملائكة:

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

ثانيًا: الذاريات ٢٤:٥١-٣٠

ضيوف إبراهيم.

الخوف من امتناعهم عن الطعام.

البشارة بغلام عليم.
إقبال امرأة إبراهيم في صرّة.
صكّها وجهها من شدة التعجب.
قولها:
﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.
وجوابهم بأن الأمر من ربها الحكيم العليم.
ثالثًا: الحجر ١٥:٥١-٥٦
بشارة إبراهيم بالغلام العليم.
تعجبه من البشارة مع مسّ الكبر.
التأكيد أن البشارة بالحق.
هذه الآيات لا تسمي المرأة، لكنها جزء من سياق البشارة الإبراهيمية التي تُقرأ مع هود والذاريات.
رابعًا: الأنبياء ٢١:٧٢-٧٣
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾.
هذه الآيات تبين أن بشارة سارة لم تكن مجرد ولادة طفل، بل بداية خط نبوي سيستمر في إسحاق ويعقوب وما بعدهما.
خامسًا: العنكبوت ٢٩:٢٧
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.
وهذه من أهم آيات الفرع الإبراهيمي المتجه إلى الأنبياء والكتب.
سادسًا: الصافات ٣٧:١١٢-١١٣
﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.
هذه الآية شديدة الأهمية لهذا الفصل:
البركة لا تعني أن كل فرد في الذرية سيكون صالحًا.
النسب المبارك لا يلغي المسؤولية الشخصية.
سابعًا: إبراهيم ١٤:٣٥-٤١
دعاء إبراهيم لمكة بالأمن.
دعاؤه بإبعاد نفسه وبنيه عن عبادة الأصنام.

ثم قوله:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾.

القرآن لا يسمي هاجر ولا إسماعيل في هذه الآية، لكن الروايات الإمامية تعينهما.

ثامنًا: إبراهيم ١٤:٣٩

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

هذه الآية تجمع الابنين في موضع واحد من الحمد والشكر.

تاسعًا: البقرة ٢:١٢٥-١٢٩

البيت مثابة وأمنًا.

مقام إبراهيم.

تطهير البيت.

رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد.

دعاؤهما بالقبول.

دعاؤهما أن يكونا مسلمين لله ومن ذريتهما أمة مسلمة.

دعاؤهما بتعليم المناسك.

ودعاؤهما ببعثة رسول من ذريتهم.

عاشرًا: البقرة ٢:١٥٨

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

الآية تثبت الشعيرة.

أما قصة هاجر بوصفها منشأ السعي فتأتي من الرواية، لا من نص الآية نفسها.

الحادي عشر: الحج ٢٢:٢٦-٢٩

تبوئة إبراهيم مكان البيت.

تطهيره.

الأذان بالحج.

المناسك.

وهو سياق متصل بمرحلة مكة التي بدأت، في الروايات، بإسكان هاجر وإسماعيل.

الثاني عشر: آل عمران ٣:٩٦-٩٧

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

هذا يضع قصة مكة في إطار الهداية للعالمين، وإن لم يذكر هاجر بالاسم.

الثالث عشر: مريم ١٩:٥٤-٥٥

يأتي إسماعيل بوصفه:

﴿صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾،

وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

تُدرس هذه الآيات في الفصل الخامس عشر مع اختلاف الأخبار في تعيين إسماعيل المذكور فيها؛ فلا نجعلها هنا وصفًا مقطوعًا به للطفل ابن هاجر، إذ تفصل بعض الروايات الإمامية بينه وبين إسماعيل بن حزقيل.

الرابع عشر: الصافات ٣٧:٩٩-١١٣

دعاء إبراهيم بالولد الصالح.

البشارة بالغلام الحليم.

رؤيا الذبح.

التسليم والفداء.

ثم البشارة بإسحاق.

الابن في مشهد الذبح غير مسمى صراحة في الآيات، وهذه نقطة يجب أن تبقى واضحة.

القرآن لا يسمي سارة ولا هاجر — لماذا هذه الملاحظة مهمة؟

منهج الكتاب يفرض علينا أن نقول الأشياء بأسمائها الصحيحة.

القرآن لا يقول:

«سارة».

ولا يقول:

«هاجر».

في قصة البشارة يقول:

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾.

وفي قصة مكة يقول إبراهيم:

﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾.

أما اسما سارة وهاجر، وتعيين سارة أمًا لإسحاق وهاجر أمًا لإسماعيل، فمحفوظان في الروايات والتراث الإسلامي.

هذا لا يجعل الاسمين موضع شك عملي في التراث.
لكنه يمنعنا من صياغة جملة غير دقيقة مثل:
«قال القرآن إن هاجر فعلت كذا».
إذا كان القرآن لم يسمها أصلًا.
الصياغة الصحيحة تكون:
القرآن يذكر امرأة إبراهيم في مشهد البشارة، والروايات تسميها سارة.
والقرآن يذكر إسكان بعض ذرية إبراهيم عند البيت، والروايات الإمامية تسمي الأم هاجر والابن إسماعيل.

سارة قبل البشارة — الهجرة والمال والبيت في رواية روضة الكافي

لا تبدأ سارة في الروايات عند لحظة البشارة بإسحاق.
روضة الكافي تحفظ رواية طويلة عن الإمام الصادق عليه السلام تضعها في مرحلة أسبق من حياة إبراهيم.
تذكر الرواية أن سارة كانت صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة، وأنها جعلت ما تملكه في يد إبراهيم، فقام على ذلك المال وأصلحه ونما.
هذه صورة مهمة.
فهي تمنعنا من اختزال سارة في امرأة تنتظر طفلًا.
الرواية تقدمها أيضًا صاحبة مال وبيت وحضور في حركة الهجرة.
وتذكر الرواية أن إبراهيم، بعد مواجهة نمرود والنار، خرج مهاجرًا ومعه لوط وسارة، واتجهوا نحو الشام.
القرآن يثبت نجاة إبراهيم ولوط إلى الأرض المباركة، لكنه لا يسمي سارة ضمن رفاق الرحلة.
وجودها في الهجرة هنا من الرواية.
أما تفاصيل نسبها، فتختلف بعض الألفاظ والنسخ في أسماء الأمهات والقرابات.
والرواية نفسها تصفها بأنها ابنة لاحج وابنة خالة إبراهيم بحسب ذلك الطريق.
لكن كتبًا أخرى تحفظ أنسابًا مختلفة.
ولهذا لا نجعل شجرة نسب واحدة لسارة حقيقة قرآنية أو تاريخية قطعية.

سارة في مواجهة سلطان جائر — الحماية والكرامة في الرواية

في رواية روضة الكافي يخرج إبراهيم من سلطان نمرود ويمر بسلطان رجل من القبط يسمى «عرارة».
ويبدأ مشهد سارة بعاشِر، أي جابي العُشر، يطلب فتح التابوت الذي كانت فيه، ثم يرسل إلى الملك.

يذكر الخبر رسلًا بينهما ولا يسمي الجابي أو الرسل؛ فلا نمنحهم أسماء من خارج النص، ولا نجعل عرارة اسمًا قرآنيًا.

وتعرض الرواية مشهدًا حاول فيه الحاكم الاعتداء على حرمة سارة.

بحسب الخبر:

أصر الحاكم على رؤيتها.

وحين مد يده إليها دعا إبراهيم ربه.

فتوقفت يد الحاكم عن الوصول إليها.

وطلب من إبراهيم أن يدعو له حتى تعود يده.

ثم عاد مرة أخرى، وتكرر المنع.

وفي النهاية كفّ عنها وأكرم إبراهيم.

هذه ليست قصة قرآنية.

والقرآن لا يسمي هذا الحاكم، ولا يذكر مصر أو قصرًا أو عدد المحاولات.

لكنها رواية إمامية مهمة لأنها تضع سارة في مشهد حماية إلهية داخل رحلة إبراهيم.

والأهم أن الخبر لا يصورها سببًا للفتنة، بل امرأة وقع عليها تهديد من صاحب سلطة، ثم انتهى الأمر من غير أن يصل إليها بسوء بحسب الرواية.

ومن هذه الواقعة يدخل اسم هاجر إلى بيت إبراهيم في هذا الطريق الروائي.

كيف دخلت هاجر بيت إبراهيم؟ — ما تقوله الرواية وما لا يقوله القرآن

تقول رواية روضة الكافي إن الحاكم، بعد أن كف عن سارة، عرض أن يخدمها امرأة قبطية جميلة عاقلة.

وتقول الرواية إنه وهبها لسارة:

وهي هاجر أم إسماعيل.

ثم تتابع الرواية أن إبراهيم لما أبطأ عليه الولد، قال لسارة إن شاءت نقلت إليه هاجر لعل الله يرزقه منها ولدًا، ثم وُلد إسماعيل.

هذه العبارات تحتاج إلى أمانة في النقل.

فالقرآن لا يقول:

إن هاجر قبطية.

ولا يقول:

إنها جاءت من ملك.

ولا يحدد وضعها الاجتماعي السابق.

ولا يستخدم مصطلح «جارية» أو «أمة» في قصة أم إسماعيل.

لذلك لا نحول لغة خبر واحد إلى تعريف كامل لهوية هاجر.

نقول:

في رواية روضة الكافي وُصفت بأنها قبطية عاقلة دخلت بيت سارة من خلال ذلك الحاكم، ثم صارت أم إسماعيل.

وهذا أوسع من أن نختصرها في وصف اجتماعي واحد؛ لأن دورها في القصة التالية يصبح دور أمٍّ تحفظ طفلها، وتسعى، وتواجه العطش، وتبني بداية استقرار بشري في مكة.

هاجر وولادة إسماعيل — أول الابنين في سياق الروايات

القرآن يقول على لسان إبراهيم:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

الآية تثبت:

إسماعيل ابن لإبراهيم.

وإسحاق ابن لإبراهيم.

وأنهما جاءا في زمن الكبر.

وأن إبراهيم رأى فيهما إجابة لدعائه.

لكن القرآن لا يذكر اسم أم إسماعيل.

الروايات الإمامية تسمي هاجر أمًا لإسماعيل.

وفي حديث الكافي في الحج تصف نفسها أمام جبرئيل:

«أنا أم ولد إبراهيم».

ويُفهم من ترتيب القصة في الروايات ومن كون سارة لم يكن لها ولد عند ولادة إسماعيل أن إسماعيل ولد قبل إسحاق.

أما فرق السنوات، وأعمار إبراهيم وسارة وهاجر وقت الولادتين، فليست أرقامًا قرآنية، ولا نثبت رقمًا إلا إذا بيّنا مصدره ودرجته.

هل كانت العلاقة بين سارة وهاجر صراعًا دائمًا؟

من أكثر المواضع التي تراكمت فيها القصص المتأخرة علاقة سارة وهاجر.

يجب أن نبدأ بما لا يقوله القرآن:

القرآن لا يذكر غيرة سارة من هاجر.

ولا يذكر مشاجرة بينهما.

ولا يقول إن إسكان هاجر في مكة كان عقوبة منزلية.

ولا يجعل إحدى المرأتين شريرة والأخرى صالحة في مواجهة دائمة.

لكن توجد روايات إمامية تتحدث عن توتر.

في علل الشرائع للشيخ الصدوق، في خبر عن الإمام الصادق عليه السلام ضمن باب علة الختان، يرد أن سارة عيّرت هاجر بعد ولادة إسماعيل، فبكت هاجر وبكى إسماعيل لبكائها، ودعا إبراهيم ربه لها.

وسند هذا الخبر يمر بمحمد بن قزعة، ويحتاج إلى تحقيق رجالي خاص.

وفي تفسير القمي ترد صورة أشد، تجعل حزن سارة بعد ولادة إسماعيل ودخول الغيرة في سياق الأمر بإخراج هاجر وإسماعيل إلى مكة.

لكن في أخبار الحج في الكافي يأتي محور الانتقال مختلفًا:

إبراهيم يتحرك بأمر إلهي إلى موضع البيت، وجبرئيل معه، ويسأل عن المكان الذي أُمر به.

لهذا لا يجوز أن نجمع كل هذه المواد في جملة واحدة فنقول:

«بسبب غيرة سارة أمر الله إبراهيم أن ينفي هاجر».

هذه صياغة أقوى من المصادر.

الصياغة المنهجية:

وردت أخبار عن توتر وعتاب بين سارة وهاجر.

ووردت أخبار تجعل الانتقال إلى مكة تنفيذًا لأمر إلهي متعلق بالبيت.

ولا نحول خبر التوتر إلى الوصف النهائي لشخصية سارة، ولا نستخدمه لإهانة أي من المرأتين.

تفاصيل روائية إضافية حول سارة وهاجر — نثبتها بحدودها

حتى لا يسقط من الفصل ما حفظته المصادر، نضيف هنا ثلاث ملاحظات لا ينبغي أن تتحول إلى مركز القصة، لكنها تستحق التسجيل.

الأولى:

في تفسير القمي عند قصة إسكان مكة ترد رواية تجعل إبراهيم يسير بهاجر وإسماعيل بإرشاد جبرئيل، وتذكر أنه كان قد عاهد سارة ألا ينزل حتى يرجع إليها. هذا تفصيل روائي يفسر بعض حركة الرحلة، وليس جزءًا من آية إبراهيم ١٤:٣٧.

الثانية:

في علل الشرائع، ج٢، ص٥٠٦، باب علة الختان، ح٢، يروي معاوية بن عمار عن الإمام الصادق خبر خفض سارة لهاجر، مع دعائها ألا تؤاخذ بما صنعت. لفظ «الخفض» هنا اسم للفعل الجسدي الوارد في الخبر، وليس تعبيراً عن خفض مكانتها. نحفظ نسبة الخبر وموضعه، ولا نستخرج منه في هذا الفصل حكمًا فقهيًا أو وصفًا شاملًا لشخصية سارة.

الثالثة:

في تفسير القمي عند قوله تعالى في الذاريات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ورد تفسير بمعنى أنها غطت وجهها عند البشارة، بينما المشهور في اللغة والتفسير حمله على ضرب الوجه أو لطمه تعجبًا. نسجل هذا بوصفه اختلافًا تفسيريًا، ولا نجعل أحد المعنيين وحده حقيقة قطعية تتجاوز النص.

بهذه الطريقة نحفظ المادة، لكننا لا نسمح للتفاصيل الأضعف أن تطغى على الصورة القرآنية الأثبت.

سارة تستقبل البشارة — امرأة داخل مشهد الوحي لا خارجه

في سورة هود، ليست امرأة إبراهيم غائبة عن المشهد.

يقول الله:

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

البشارة موجهة إليها.

والولد سيأتي منها.

بل إن البشارة تتجاوز إسحاق إلى يعقوب.

فتسمع، في لحظة واحدة، وعد الابن ووعد الحفيد.

قالت:

﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

فجاء الجواب:

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

هذه الآيات تجعل سارة — وإن لم يذكر القرآن اسمها — داخلة في خطاب الرحمة والبركة لأهل البيت.

ولا نحتاج إلى رفعها إلى مقام لم يثبته النص حتى ندرك عظمة موقعها في القصة.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ — ماذا تعني؟ اختلاف تفسيري وروائي يجب أن يبقى ظاهرًا

كلمة واحدة في قصة سارة فتحت أكثر من تفسير:

﴿فَضَحِكَتْ﴾.

ظاهر اللفظ العربي يفهم منه الضحك.

وقد فسّره بعض المفسرين بالسرور أو التعجب أو الاطمئنان بعد زوال الخوف.

لكن تفسير العياشي يحفظ عن أبي جعفر عليه السلام معنى التعجب، ويحفظ في رواية عن أبي عبد الله عليه السلام تفسيرًا آخر:

أنها حاضت.

أي إن عودة الحيض كانت علامة سبقت البشارة بالولد بعد طول العقم.

وهذه الرواية التفسيرية لا تسمح لنا بإلغاء ظاهر الآية قطعًا، كما لا يصح أن نهمل وجودها في التراث الإمامي.

نقول:

ورد في التفسير الإمامي أكثر من بيان لمعنى «فضحكت»، ومنها التعجب، ومنها الحيض في رواية.

وفي سورة الذاريات نجد مشهدًا آخر واضحًا في التعجب:

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

إذن الثابت قرآنًا:

الدهشة كانت حقيقية.

أما تفسير فعل «ضحكت» على وجه محدد، ففيه مادة تفسيرية مختلفة.

العجز البشري لا يقيد الوعد الإلهي — الشيخوخة والعقم في قصة سارة

القرآن لا يجمّل صعوبة الموقف.

سارة تقول عن نفسها:

عجوز.

وتقول:

عقيم.

وتصف إبراهيم بأنه شيخ.

أي أن البشارة لم تأت في ظرف يراه الإنسان طبيعيًا للإنجاب.

وهنا تأتي وظيفة البشارة نفسها:

أن تبيّن أن أمر الله لا تحده المقاييس التي يظن الإنسان أنها نهاية الإمكان.

لكن علينا ألا نحول هذا إلى باب للأرقام غير الموثقة.

القرآن لم يعطنا عمر سارة عند البشارة.

ولم يعطنا عمر إبراهيم في هذه الآيات.

ما يثبت:

كانت الشيخوخة والعقم سبب التعجب.

وما لا يثبت بالقرآن:

رقم عمر كل واحد منهما.

إسحاق ثم يعقوب — البشارة التي فتحت فرعًا كاملًا من الهداية

قال تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

هذه ليست بشارة بولد فقط.

هي بشارة بمستقبل ذري.

سارة ستلد إسحاق.

ومن إسحاق سيأتي يعقوب.

ومن يعقوب تبدأ قصة بني إسرائيل التي سيأتي منها يوسف، ثم لاحقًا سلسلة واسعة من الأنبياء.

ولهذا فإن عبارة:

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

تقع في نقطة حاسمة من حكاية الهداية.

ويؤكد القرآن لاحقًا:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾،

ثم:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

ولا يعني هذا أن سارة نفسها أصبحت نبية.

بل يعني أن بيتها صار موضع بشارة بخط من الأنبياء والهداة.

البركة لا تعني العصمة الوراثية — درس مهم من ذرية إبراهيم وإسحاق

بعد البشارة بإسحاق يقول الله:

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

هذه الآية من أهم ما يجب أن يضبط معنى «الفرعين».

فالكتاب لا يقول:

كل من انتسب إلى إسماعيل فهو مهدي.

ولا يقول:

كل من انتسب إلى إسحاق فهو مهدي.

القرآن نفسه، داخل خطاب البركة، يقرر وجود:

محسن،

وظالم لنفسه.

وهذا يعيدنا إلى قاعدة رأيناها مع ابن نوح:

النسب يفتح تاريخًا،

لكنه لا يلغي التكليف.

الهداية تحتاج إيمانًا وطاعة واصطفاءً ودليلًا.

ولا يكفي الاسم العائلي وحده.

هاجر إلى مكة — من بيت إبراهيم إلى الوادي غير ذي زرع

هنا تنتقل القصة من بيت إبراهيم إلى مكان سيصبح مركزًا عالميًا للعبادة.

قال إبراهيم:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

الآية لا تقول:

هاجر.

ولا تقول:

إسماعيل.

لكن روايات أهل البيت عليهم السلام تعينهما.

في الكافي، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت، وردت رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تصف حمل إبراهيم لإسماعيل وأمه إلى موضع البيت، ومعهم جبرئيل.

وتذكر أن إبراهيم سأل:

أهنا أُمرت؟

فقيل له: نعم.

هذه الرواية مهمة لأنها تجعل الانتقال إلى مكة جزءًا من تكليف إلهي متعلق بالبيت، لا مجرد انتقال سكاني.

وقد حكم العلامة المجلسي على الحديث الأول من هذا الباب بأنه «حسن كالصحيح»، وأورده الشيخ البهبودي في صحيح الكافي.

﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ — لماذا أُسكنت الذرية في الوادي؟

من أكثر العبارات أهمية في دعاء إبراهيم:

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

لم يقل:

ليؤسسوا سوقًا.

ولا:

ليبنوا مدينة.

ولا:

ليكون لهم ملك.

كل ذلك قد يأتي لاحقًا.

لكن الغاية الدينية التي يصرح بها القرآن هي:

الصلاة.

ثم دعا:

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

فنرى ثلاثة خطوط:

العبادة،

الإنسان،

والرزق.

مكان بلا زرع سيجتمع فيه الناس.

وطفل قليل الحيلة سيصير نبيًا.

ووادي قاحل سيصير قبلة للحج.

هاجر حين تركها إبراهيم — سؤال الثقة لا سؤال الاستسلام السلبي

في رواية الكافي تقول هاجر لإبراهيم عندما أراد الرجوع:

إلى من تدعنا؟

وفي رواية أخرى في الباب نفسه تروي أمام جبرئيل أنها سألت إبراهيم:

إلى من تركتنا؟

فقال:

إلى الله عز وجل.

فقال لها جبرئيل بمعنى الرواية:

لقد وكلكم إلى كافٍ.

هذه الصورة من أجمل ما حفظته الرواية عن هاجر.

لكن الثقة هنا ليست سكونًا بلا فعل.

هاجر ستتوكل على الله،

ثم ستقوم،

وتبحث،

وتنادي،

وتصعد،

وتهبط،

وتكرر السعي.

إذن التوكل في قصتها ليس انتظارًا سلبيًا للمعجزة.

هو ثقة بالله تتحول إلى حركة.

الصفا والمروة — سبعة أشواط من بحث أم عن الحياة

في الحديث الثاني من باب حج إبراهيم وإسماعيل في الكافي، عن الإمام الصادق عليه السلام، عطش إسماعيل.

خرجت أمه.

وقفت على الصفا.

نادَت:

هل في البوادي من أنيس؟
لم يجبها أحد.
ذهبت إلى المروة.
ونادت.
ثم عادت.
وكررت ذلك حتى فعلته سبعًا.
وتقول الرواية:
فأجرى الله ذلك سنة.
هذه العبارة هي التي تربط حركة هاجر بالشعيرة.
أما القرآن فيقول:
﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.
ولا يقول:
«لأن هاجر سعت بينهما سبعًا».
إذن المستويان واضحان:
القرآن يثبت الشعيرة.
والرواية الإمامية تفسر أحد أصولها التاريخية بحركة هاجر.
وقد حكم العلامة المجلسي على الحديث الثاني من الباب بأنه «حسن».
وهنا يجب أن نتذكر ما مر معنا في فصل آدم:
وردت أيضًا روايات تربط آدم بالسعي بين الصفا والمروة.
لذلك لا نقول إن الرواية الإمامية كلها تجعل هاجر البداية الوحيدة المطلقة للسعي.
بل نقول إن هاجر تمثل طبقة إبراهيمية واضحة في تفسير الشعيرة، وخصوصًا العدد سبعة.

جبرئيل وظهور زمزم — من العطش إلى الرزق

تذكر رواية الكافي أن جبرئيل جاء إلى هاجر.
وفي الحديث نفسه يظهر الماء عند إسماعيل بعد أن كان الطفل قد اشتد به العطش.
وتذكر الرواية أن الماء نبع عنده، وأن هاجر أخذت تجمع التراب حوله خوفًا من أن يسيح.
وهذه الرواية تسمي الماء:

زمزم.
القرآن لا يذكر اسم زمزم.
ولا يشرح في سورة إبراهيم كيف جاء الماء.
لذلك لا نقول:
«القرآن يروي معجزة زمزم لهاجر».
بل نقول:
القرآن يثبت إسكان الذرية في واد غير ذي زرع والدعاء بالرزق.
والرواية الإمامية تشرح ظهور الماء وتربطه بهاجر وإسماعيل.
واللافت أن الرزق لا يأتي هنا من فراغ:
الماء يصبح علامة.
والطيور تراه.
والعابرون يرون الطيور.
ومن الماء تبدأ صلة الوادي بالناس.

من الماء إلى المجتمع — هاجر ليست متلقية فقط

الحديث الثاني من الكافي يذكر مرور ركب من اليمن.
رأوا الطير تحوم فعرفوا أن هناك ماء.
جاؤوا إلى الموضع.
فصار بينهم وبين هاجر وإسماعيل تبادل:
يسقون من الماء،
ويقدم الركب لهما الطعام.
وتقول الرواية إن الله أجرى لهما بذلك رزقًا.
وتفسير القمي يوسع هذه الصورة فيذكر جرهم، واستئذانهم في النزول بالقرب من هاجر وإسماعيل، ثم بداية نشوء مجتمع حول الماء.
لكن ينبغي التفريق:
الحديث القوي نسبيًا في الكافي يقول «ركب من اليمن» ولا يحتاج إلى تسمية القبيلة.
أما تسمية جرهم وتفاصيل الاستئذان والنزول فتأتي في طبقة تفسيرية وروائية أخرى.
وهنا تظهر هاجر لا كإنسانة جرى عليها الحدث فقط.

هي صاحبة الماء في المشهد.
وهي من يتعامل مع القادمين.
وهي من تحمي الطفل.
ومن وجودها ووجوده تبدأ نواة المجتمع.

سارة وهاجر — أمومتان مختلفتان في الظرف، مشتركتان في حركة الهداية

سارة تدخل الأمومة بعد انتظار طويل، وبعد أن تصف نفسها بالعجز البشري:
عجوز عقيم.
وهاجر تدخل الأمومة قبلها في الروايات، ثم تحمل طفلها إلى بيئة قاسية في مكة.
الأولى تواجه استحالة العمر والعقم.
والثانية تواجه استحالة المكان والعطش.
لكن كلتيهما تصبح مرتبطة بولد نبي:
سارة بإسحاق.
هاجر بإسماعيل.
ومن هنا لا ينبغي أن نقارن المرأتين بطريقة تضع فضيلة إحداهما في إهانة الأخرى.
حكاية الهداية لا تحتاج إلى هذا الصراع.
هي تحتاج أن ترى:
كيف جاءت البركة في بيت واحد بأكثر من طريق،
وكيف فتح الله من ذلك البيت مسارين من النبوة والهداية.

البيت بين هاجر وإسماعيل وإبراهيم — من الإقامة إلى البناء

وجود هاجر في مكة يسبق — في الروايات — مرحلة رفع القواعد.
ثم يكبر إسماعيل.
ويأتي القرآن إلى مرحلة أخرى فيقول:
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
النص يسمي البانيين:
إبراهيم وإسماعيل.
ولا يسمي هاجر شريكة في البناء.

وهنا ينبغي ألا نحاول زيادة النص بدافع التكريم.
تكريم هاجر لا يحتاج أن نجعلها بانية للكعبة بلا دليل.
دورها، بحسب الروايات، أسبق:
الإقامة،
رعاية الطفل،
السعي،
الماء،
وبداية المجتمع الذي سيعيش فيه إسماعيل.
ثم يأتي الابن الذي رعته ليقف مع أبيه ويرفع القواعد.

الحج والمناسك — كيف يدخل أثر هاجر في عبادة باقية؟

البقرة ٢:١٥٨ تثبت أن الصفا والمروة من شعائر الله.
البقرة ٢:١٢٥-١٢٩ تربط إبراهيم وإسماعيل بالبيت، وبدعاء:
﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.
الحج ٢٢:٢٦-٢٧ يربط إبراهيم بتطهير البيت والنداء بالحج.
ثم تأتي روايات الكافي لتربط السعي السباعي بهاجر.
وهكذا نرى ظاهرة مهمة في حكاية الهداية:
حدث من حياة أسرة يتحول، بإذن الله وشرعه، إلى ذاكرة عبادة تتكرر عبر الأجيال.
الحاج لا يقرأ في القرآن اسم هاجر عند الصفا والمروة.
لكن الرواية الإمامية تضع حركتها في خلفية هذا المنسك.
وهذا لا يعني أن كل تفصيل تاريخي صار ركنًا فقهيًا بسبب القصة.
الفقه يؤخذ من أدلته الشرعية.
أما القصة فتوضح لنا البعد الذاكري والروحي في بعض المناسك.

سارة وهاجر في ضوء «أهل البيت» — حدود الاستدلال

قالت الملائكة لامرأة إبراهيم:
﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.
هذه الآية تثبت أن امرأة إبراهيم داخلة في خطاب أهل البيت في ذلك السياق اللغوي والقصصي.

لكن يجب ألا نخلط الاستعمالات القرآنية المختلفة لعبارة «أهل البيت».
فالآية هنا في بيت إبراهيم.
وآية التطهير في الأحزاب لها سياقها وأدلتها وتفسيرها الخاص في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.
لا نحتاج إلى خلط البابين حتى نفهم جمال خطاب سارة:
هي ليست خارج الوعد.
بل المخاطبة بالبشارة تدخل في رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت.

ابن الذبح — لماذا يجب أن نحمي هذا الفصل من الخصومة؟

في الصافات تبدأ القصة:
﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.
ثم تأتي رؤيا الذبح والفداء.
القرآن في مشهد الابتلاء لا يسمي الغلام.
وبعد إتمام الاختبار يقول:
﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.
لهذا استدل كثيرون من ترتيب السياق على أن الغلام الأول إسماعيل.
لكن توجد في التراث روايات مختلفة، وبعضها يسمي إسحاق.
والكافي نفسه يحفظ مادة يظهر فيها اختلاف في التعيين، ويُذكر رأي زرارة في إسماعيل.
هذا الخلاف سيُدرس بتفصيل أكبر في فصل إسماعيل.
أما هنا فهناك قاعدة أهم:
لا يجوز أن تتحول مسألة «الذبيح» إلى أداة لاحتقار سارة أو هاجر.
ولا يجوز أن نرفع أحد الفرعين بإهانة الأم الأخرى.
القرآن لم يبن القصة بهذه الروح.

سارة وهاجر في «إثبات الوصية» — خبر إضافي وحدود الترجيح

يروي الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب» (ص٤٢-٤٥) أن إبراهيم كان يزور هاجر وإسماعيل في مكة بعد انتقالهما إليها، ويذكر توترًا في البيت وأن سارة طلبت منه ألا يبيت عندهما. هذه صورة في خبر تاريخي روائي يحتاج إلى تحقيق نسبة الكتاب وطرقه؛ فلا نجعلها سببًا قرآنيًا لإسكان مكة أو وصفًا نهائيًا لشخصية سارة. وفي آخر سيرة إبراهيم يذكر الخبر أن سارة اقترحت

عليه أن يسأل الله امتداد أجله، وأنها أعدّت طعامًا للمؤمنين شكرًا بعد إجابته. هذا يضيف لها حضورًا في البيت والضيافة والدعاء، ولا يخبرنا بوقت وفاتها.

ويجعل الخبر سارة في نحو التسعين عند البشارة، وإبراهيم فوق المائة (ص٤٥)، ويصور دهشة من حولهما بعد ولادة إسحاق. أما القرآن فيثبت الشيخوخة والعقم والتعجب ولا يعطي عمرًا رقميًا ولا يروي اعتراض الناس. وفي وفاة هاجر يقول الكتاب إن إبراهيم دفنها في الحجر (ص٤٣)، بينما ينسب خبرا «الكافي» في باب حج إبراهيم وإسماعيل، الحديثان ١٣ و١٥، دفنها والتحجير على قبرها إلى إسماعيل. نتفق في موضع الحجر بحسب هذه الأخبار ونصرح باختلاف فاعل الدفن؛ ولا نحو الأقوى سندًا بوجود نص قصصي آخر، ولا نجزم بتفاصيل الواقعة قبل المقابلة والتحقيق.

يأتي ذكر زيارة إبراهيم لهاجر وإسماعيل في الخبر بعد استقرارهما بمكة، لا في الآية التي تصف إسكان ذريته عند البيت المحرم (إبراهيم ١٤:٣٧). وفي القصة المطبوعة تعود زيارة لاحقة بعد وفاة هاجر، فيلقى إبراهيم أهل بيت إسماعيل في غياب ابنه؛ وهذه مادة تخص حياة إسماعيل وزوجته وذريته، فموضع تفصيلها الفصل التالي. هنا يكفي إثبات أن غياب هاجر عن ذلك المشهد في الخبر يدل على وفاتها قبل تلك الزيارة، بشرط قبول ترتيب الخبر نفسه. ولا يصح استنباط تاريخ وفاتها أو أعمار أبنائها منه. كما لا يجوز جمع خبر دفن إبراهيم وخبري دفن إسماعيل في واقعة جديدة بافتراض أن كليهما دفنها في مرحلتين؛ لا ينص أيٌّ من الأخبار على نبش أو نقل أو دفن ثانٍ.

ويبقى أثر الخبر المتعلق بسارة محدودًا بما يحكيه: مبادرتها إلى مشورة إبراهيم وإطعام المؤمنين. لا نعرف من القرآن تاريخ وفاة سارة ولا موضع قبرها ولا كيف انتقلت مسؤولية رعاية إسحاق بعد وفاتها. ولا يثبت الخبر المذكور هذه التفاصيل أيضًا. فالقدر المحكم في انتقال الهداية هو وعد الله لإبراهيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (هود ١١:٧١)، وذكر النبوة والكتاب في ذريته (العنكبوت ٢٩:٢٧)، مع ثبوت الوحي إلى إسماعيل في النساء ٤:١٦٣، وشراكته لإبراهيم في رفع قواعد البيت في البقرة ٢:١٢٧. أما إسماعيل المذكور بوصف «صادق الوعد» في مريم ١٩:٥٤–٥٥ فتفصل بعض الروايات الإمامية بينه وبين إسماعيل بن إبراهيم؛ وسيُعرض هذا الاختلاف في الفصل الخامس عشر، فلا نفترض اتحادهما هنا. وبهذا تُقرأ الأمومتان في فرعين متوازيين من العهد، دون ادعاء وصية مستقلة لسارة أو هاجر لا نص عليها.

وفاة هاجر — ما تثبته الروايات عن الحِجر

القرآن لا يذكر وفاة هاجر.

ولا يذكر عمرها.

ولا يحدد قبرها.

لكن في الكافي توجد روايات مباشرة عن دفن أم إسماعيل في الحِجر.

الحديث ١٣ من باب حج إبراهيم وإسماعيل يروي عن الإمام الصادق عليه السلام أن إسماعيل دفن أمه في الحِجر وحجّر عليها حتى لا يوطأ قبرها.

وقد حكم العلامة المجلسي على هذا الخبر بأنه حسن، وأورده الشيخ البهبودي في صحيح الكافي.

والحديث ١٥، بسند آخر، يسأل عن الحِجر وهل هو من البيت، فيجيب الإمام بأنه ليس من البيت في ذلك الخبر، ثم يذكر أن إسماعيل دفن أمه فيه وكره أن توطأ فحجر عليها، ويذكر قبور أنبياء فيه.

وقد حكم المجلسي على الحديث ١٥ بالصحة، وكذلك أورده البهبودي في صحيح الكافي.

وهذا يجعل موضع دفن هاجر من التفاصيل التي لها سند روائي إمامي أقوى من كثير من أخبار حياتها المتأخرة.

أما الحديث ١٤ الذي يقول إن في الحِجر قبر هاجر وقبر إسماعيل فطريقه أضعف، وفيه رواة يحتاجون إلى بحث.

ولهذا لا نساوي بين الأحاديث الثلاثة.

والذي نثبته في الكتاب:

توجد روايات معتبرة نسبيًا في الكافي تربط دفن أم إسماعيل بالحِجر، وتربط التحجير بحماية قبرها من أن يوطأ.

وفاة سارة — الخبر الروائي وحدود ما يثبته

القرآن لا يذكر وفاة سارة.

ولا عمرها عند الوفاة.

ولا موضع قبرها.

وتذكر كتب التاريخ وأهل الكتاب أخبارًا مشهورة عن وفاتها في أرض كنعان وحبرون، وعن شراء إبراهيم موضعًا لدفنها، وتذكر رقمًا لعمرها.

لكن هذه المادة ليست قرآنًا.

ويجب ألا نغفل الكافي، باب حج إبراهيم وإسماعيل، ح٩: يسمي الأم سارة، ويروي لقاءها الشيخ الحبيث في سياق الذبح، ثم نظرها إلى أثر السكين في حلق ابنها، ويجعل ذلك بداية مرضها الذي ماتت فيه. أدرجه البهبودي في صحيح الكافي، ج٢، ص١٠٤؛ فلا يوصف بالضعف لمجرد مخالفته الرواية المشهورة. لكنه من مادة تعيين الذبيح بإسحاق، وفي الباب أخبار مخالفة يناقشها الفصل الخامس عشر.
لا يحدد الخبر عمر سارة عند الوفاة أو موضع قبرها، ولا يجوز نقل اسمها أو خبر موتها إلى هاجر.

لذلك لا نختم سيرة سارة بجملة واثقة مثل:

«ماتت في المكان الفلاني وعمرها كذا»،

إلا إذا قلنا بوضوح إن ذلك من المصادر التاريخية المقارنة.
وهذا ليس نقصًا في قدرها.
فالقرآن نفسه اختار أن يحفظ من قصتها:
البشارة،
التعجب،
الرحمة،
البركة،
وامتداد الوعد إلى إسحاق ويعقوب.

هل سارة أو هاجر نبية أو وصية؟

لا يوجد في القرآن نص يصف سارة أو هاجر بالنبوة.
ولا بالرسالة.
ولا بالوصاية.
كما أن الروايات الأساسية التي اعتمدناها في هذا الفصل لا تعطينا نصًا صريحًا معتبرًا يقول إن إحداهما كانت «وصية» لإبراهيم.
لذلك لا نرفع الرتبة بالدافع العاطفي.
يمكننا أن نقول:
سارة امرأة مؤمنة في بيت إبراهيم، دخلت في خطاب الرحمة والبركة، وتلقت بشارة إسحاق ويعقوب.
وهاجر امرأة مؤمنة محفوظة في الروايات أمًا لإسماعيل، وثقتها بالله وسعيها في الوادي متصلان في الرواية ببداية شعيرة ومجتمع.
وهذا مقام عظيم من غير أن نخترع لقبًا.

الفرع الإسماعيلي والفرع الإسحاقي — لا منافسة بل مسؤوليتان في تاريخ الهداية

يقول إبراهيم:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.
جمعهما في الحمد.
ولم يجعل شكر أحدهما إلغاءً للآخر.
ثم تتوزع الوظائف في القرآن:

إسماعيل مع أبيه عند البيت.
إسحاق ثم يعقوب في بشارة الزوجة.
النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم.
ثم أنبياء مختلفون في الفروع اللاحقة.
ومن هنا فإن عبارة «بداية الفرعين» في عنوان الفصل لا تعني:
فرعين متعاديين منذ الأصل.
بل تعني:
خطين نسبيين كبيرين داخل الوعد الإبراهيمي، ستظهر فيهما شخصيات الهداية والابتلاء معًا.
وسنواصل منهج الكتاب:
لا نعد كل فرد من الفرعين نبيًا أو وصيًا.
بل نبحث في كل جيل:
من ثبتت نبوته؟
من ثبتت رسالته؟
من حمل العهد؟
من حمل العلم؟
وما الذي يثبته القرآن؟
وما الذي تحفظه الرواية؟

سارة وهاجر في حكاية الهداية — ما الذي نتعلمه؟

الدرس الأول: الهداية تمر أحيانًا عبر البيت قبل أن تظهر في المجتمع.
بيت إبراهيم لم يكن مكانًا خاصًا منفصلًا عن حركة الوحي.
منه خرج إسماعيل وإسحاق.
الدرس الثاني: الانتظار لا يعني أن الوعد مات.
سارة وصلت إلى مرحلة وصفت نفسها فيها بالعجوز العقيم، ثم جاء الوعد.
الدرس الثالث: التوكل لا يلغي السعي.
هاجر — في الرواية — وُكلت إلى الله، ثم سعت سبعًا تبحث عن النجدة.
الدرس الرابع: المكان القاحل قد يصبح مركز هداية.

الوادي غير ذي الزرع صار موضع البيت والحج.

الدرس الخامس: النسب وحده لا يصنع النجاة.

قال القرآن في ذرية إبراهيم وإسحاق:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

الدرس السادس: لا نحتاج إلى تشويه امرأة لتكريم أخرى.

الحق لا يحتاج إلى صناعة خصومة لم يصنعها القرآن.

الدرس السابع: ما يبدو فعلًا يوميًا يمكن أن يدخل ذاكرة العبادة.

بحث أم عن الماء صار — في الرواية — متصلًا بسعي الحجاج.

الدرس الثامن: حفظ القصة يحتاج أمانة في حدود الدليل.

ليس كل مشهور ثابتًا.

وليس كل ما لم يذكره القرآن مرفوضًا.

بل يُدرس كل خبر بحسب مصدره وسنده ومضمونه.

نهاية الفصل الرابع عشر — بيت واحد وطريقان مفتوحان

بدأ هذا الفصل من بيت إبراهيم.

وفيه رأينا امرأتين لم يسمهما القرآن، لكنه حفظ أثر إحداهما في مشهد البشارة، وحفظ لنا في الدعاء المكان الذي ستربطه الروايات بالأخرى.

ومن هنا ينفتح الطريقان: هاجر وإسماعيل في مكة والبيت، وسارة وإسحاق ومن بعده يعقوب في الفرع الآخر. تبقى الأمّان حاضرتين في ذاكرة القصة، مع الفصل بين النص القرآني وتفصيل الرواية.

الفصل الخامس عشر سيكون:

إسماعيل عليه السلام — مكة والبيت والدعاء للأمة القادمة.

ثم يأتي:

إسحاق عليه السلام — البشارة وامتداد الهداية في الشام.

وهكذا يظل إبراهيم مركز اللقاء، من غير أن يبتلع أحد الفرعين الآخر، ومن غير أن تسقط الأمّان من ذاكرة القصة.

المصادر والمراجع — الفصل الرابع عشر

أولًا: القرآن الكريم

هود ١١:٦٩–٧٣ — ضيوف إبراهيم، امرأة إبراهيم، البشارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، خطاب الرحمة والبركة.

الحجر ١٥:٥١–٥٦ — البشارة بالغلام العليم والتعجب من البشارة مع الكبر.

إبراهيم ١٤:٣٥–٤١ — مكة، إسكان بعض الذرية بواد غير ذي زرع، الصلاة، ميل القلوب، الرزق، والحمد على إسماعيل وإسحاق.

الأنبياء ٢١:٧١–٧٣ — الأرض المباركة، إسحاق ويعقوب، الصلاح والإمامة والهداية.

البقرة ٢:١٢٥–١٢٩ — البيت، مقام إبراهيم، رفع القواعد مع إسماعيل، الدعاء للذرية، المناسك، والرسول من ذريتهم.

البقرة ٢:١٥٨ — الصفا والمروة من شعائر الله.

آل عمران ٣:٩٦–٩٧ — البيت ببكة والحج.

العنكبوت ٢٩:٢٧ — إسحاق ويعقوب وجعل النبوة والكتاب في الذرية.

الصافات ٣٧:٩٩–١١٣ — الغلام الحليم، الذبح والفداء، البشارة بإسحاق، البركة والتمييز بين المحسن والظالم في الذرية.

الذاريات ٥١:٢٤–٣٠ — ضيوف إبراهيم، زوجته، التعجب، العقم والبشارة.

الحج ٢٢:٢٦–٢٩ — موضع البيت وتطهيره والنداء بالحج.

مريم ١٩:٥٤–٥٥ — إسماعيل صادق الوعد؛ يُبحث اختلاف تعيينه في الفصل الخامس عشر، ولا يُفترض هنا أنه ابن إبراهيم وهاجر.

ثانيًا: المصادر الحديثية الإمامية الأساسية

١. محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٧٠ وما بعدها، خبر إبراهيم وسارة وعرارة وهاجر، ح٥٦٠ في ترقيم الطبعة، و٨/١/٥٥٩/١ في الفهرسة الإلكترونية؛ عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي عن الإمام الصادق.

المادة المستفادة:

سارة ومالها وهجرتها.

المواجهة مع الحاكم.

دخول هاجر في بيت سارة.

وصف هاجر بالقبطية العاقلة في الرواية.

انتقال هاجر إلى إبراهيم وولادة إسماعيل.

تنبيه سندي:

للخبر طرق تلتقي في الحسن بن محبوب عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي، وفي أحد الطرق سهل بن زياد. لا يُدعى تصحيح جميع تفاصيل الخبر جملة واحدة.

٢. الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب «حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت ومن ولي البيت بعدهما»، الحديث ١.

المادة المستفادة:

حمل إبراهيم إسماعيل وأمه إلى موضع البيت بإرشاد جبرئيل.

سؤال هاجر: إلى من تدعنا؟

بداية العطش والسعي والماء.

تقويم المجلسي في مرآة العقول: حسن كالصحيح.

وأورده الشيخ البهبودي في صحيح الكافي.

٣. المصدر نفسه، الحديث ٢.

السند:

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن الإمام الصادق عليه السلام.

المادة المستفادة:

السعي بين الصفا والمروة سبع مرات.

قول هاجر إنها أم ولد إبراهيم.

سؤالها: إلى من تركنا؟

جواب جبرئيل.

ظهور زمزم.

الطيور.

مرور ركب من اليمن.

بداية الرزق والتعامل مع المارين.

تقويم المجلسي: حسن.

٤. المصدر نفسه، الحديث ٤.

المادة المستفادة:

بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت.

مادة في النداء بالحج.

وجود اختلاف روائي في تعيين الذبيح، مع نقل رأي زرارة في إسماعيل.

يُستخدم لإثبات وجود الاختلاف، لا لإغلاق المسألة بلا تحقيق.

٥. المصدر نفسه، الحديث ١٣.

المادة المستفادة:

إسماعيل دفن أمه في الحِجر وحجّر عليها كي لا يوطأ قبرها.

تقويم المجلسي: حسن.

وأورده البهبودي في صحيح الكافي.

٦. المصدر نفسه، الحديث ١٤.

المادة المستفادة:

ذكر قبر هاجر وإسماعيل في الحِجر.

تنبيه:

طريقه أضعف من الحديثين ١٣ و١٥، وفيه رواة ومبهمات تحتاج إلى دراسة خاصة.

٧. المصدر نفسه، الحديث ١٥.

المادة المستفادة:

الحِجر ليس من البيت بحسب هذا الخبر، ودفن إسماعيل أمه فيه وتحجيره عليها، وذكر قبور أنبياء.

تقويم المجلسي: صحيح.

وأورده البهبودي في صحيح الكافي.

ثالثًا: مصادر التفسير والرواية الإمامية

٨. علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، عند البقرة ٢:١٢٧ وإبراهيم ١٤:٣٧ وما يرتبط بقصة هاجر وإسماعيل.

المادة المستفادة:

تفاصيل انتقال هاجر وإسماعيل إلى مكة.

إرشاد جبرئيل.

السعي وظهور الماء.

وفيه تسمية جرهم وتفاصيل إضافية عن الاستقرار.

كما يربط في بعض نصوصه الانتقال بحزن سارة بعد ولادة إسماعيل.

تنبيه:

هذه التفاصيل تُعرض بوصفها تفسيرًا روائيًا، ولا تساوى بالنص القرآني أو بأقوى طرق الكافي.

٩. محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، ج٢، عند هود ١١:٧١.

المادة المستفادة:

تعيين امرأة إبراهيم بسارة.

تفسير «فضحكت» بالتعجب في نقل، وتفسيرها بالحيض في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام.

يُذكر الاختلاف كما ورد.

١٠. الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج٢، ص٥٠٥-٥٠٦، باب ٢٧٤ «علة الختان»، ح١-٢.

السند يمر بمحمد بن قزعة.

المادة المستفادة:

خبر تعيير سارة لهاجر بعد ولادة إسماعيل، وبكاء هاجر وإسماعيل، وما تلاه في متن الخبر.

تنبيه:

حال محمد بن قزعة وتفاصيل الخبر تحتاج إلى تحقيق خاص؛ لذلك لا يُجعل هذا الخبر وصفًا نهائيًا لشخصية سارة ولا سببًا قطعيًا لإسكان مكة.

١١. الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت، ح٩: خبر الذبح وتسمية سارة ومرضها الأخير؛ صحيح الكافي للبهبودي، ج٢، ص١٠٤. يناقش اختلاف تعيين الذبيح في الفصل الخامس عشر.

١٢. العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، أبواب أحوال أولاد إبراهيم وأزواجه وبناء البيت.

يُستخدم بحار الأنوار جامعًا ومحددًا لمواضع الروايات ومصادرها الأقدم، لا بوصف وجود الخبر فيه تصحيحًا للسند.

رابعًا: المصادر التفسيرية التحليلية

١٣. العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير هود ١١:٦٩-٧٦، الذاريات ٥١:٢٤-٣٠، إبراهيم ١٤:٣٥-٤١، البقرة ٢:١٢٥-١٢٩، والصافات ٣٧:٩٩-١١٣.

يستفاد منه في ضبط دلالة الآيات والفصل بين النص القرآني وبين التوسع الروائي.

الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب»، ص٤٢-٤٥: زيارات إبراهيم لهاجر وإسماعيل، موقف سارة في أواخر حياة إبراهيم، عمرها المروي عند البشارة، واختلاف نسبة دفن هاجر إلى إبراهيم؛ خبر تاريخي روائي تُبحث نسبة الكتاب وطرقه، ويقارن بالكافي ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل، ح١٣ و١٥.

خامسًا: المصادر التاريخية للمقارنة فقط

الطبري، تاريخ الرسل والملوك، وأخبار إبراهيم وسارة وهاجر.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أخبار وفاة سارة وهاجر وأولاد إبراهيم.

سفر التكوين ٢١ و٢٣ عند الحاجة إلى بيان أصل بعض الأخبار المشهورة في الأدبيات المقارنة.

هذه المصادر لا تُجعل أساسًا للعقيدة ولا لتثبيت الوقائع حين لا يعضدها القرآن أو رواية إمامية معتبرة.

الفصل ١٥ — إسماعيل عليه السلام — مكة والبيت والدعاء للأمة القادمة

من الفصل الرابع عشر إلى إسماعيل — من أم وطفل في الوادي إلى شريك إبراهيم في البيت

انتهى الفصل السابق عند سارة وهاجر عليهما السلام وبداية الفرعين الإبراهيميين. والآن نتبع الفرع الذي حملته هاجر إلى الوادي غير ذي الزرع. يثبت القرآن إسماعيل ابنًا لإبراهيم، وشريكًا له في رفع قواعد البيت، ويذكر اسم إسماعيل في مواضع أخرى من النبوة والصبر والخير. أما آيتا «صادق الوعد» في سورة مريم فستحتاجان إلى وقفة خاصة؛ لأن روايات إمامية صريحة تميّز صاحب الآيتين عن إسماعيل بن إبراهيم.

والروايات الإمامية تضيف المشهد الذي سبق ذلك: هاجر، العطش، السعي، زمزم، نشوء الاستقرار في مكة، تعلم إسماعيل المناسك، ثم حياته عند البيت.

إسماعيل في القرآن — خريطة المواضع الأساسية

أهم المواضع التي لا ينبغي إسقاطها:

البقرة ٢:١٢٥–١٢٩: تطهير البيت، مقام إبراهيم، رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد، الدعاء بالقبول، الإسلام لله، الأمة المسلمة، المناسك، وبعث رسول من الذرية.

البقرة ٢:١٣٣ و٢:١٣٦ و٢:١٤٠: إسماعيل داخل السلسلة الإبراهيمية في خطاب التوحيد والإيمان بالأنبياء.

آل عمران ٣:٨٤ والنساء ٤:١٦٣: يرد اسم إسماعيل ضمن سلسلة الإيمان والوحي إلى الأنبياء.

الأنعام ٦:٨٦: يذكر إسماعيل مع اليسع ويونس ولوط في سياق من فضّلهم الله على العالمين.

إبراهيم ١٤:٣٧: إسكان بعض ذرية إبراهيم عند البيت المحرم في واد غير ذي زرع؛ الآية لا تسمي هاجر وإسماعيل، والروايات تعينهما.

إبراهيم ١٤:٣٩: حمد إبراهيم لله على هبة إسماعيل وإسحاق على الكبر.

مريم ١٩:٥٤–٥٥: تذكر نبيًا اسمه إسماعيل، صادق الوعد، رسولًا نبيًا، يأمر أهله بالصلاة والزكاة. والمشهور عند كثير من المفسرين أنه ابن إبراهيم، لكن روايات إمامية صريحة تجعله إسماعيل بن حزقيل؛ لذلك لا يُدمج الموضع في سيرة ابن إبراهيم بلا تنبيه.

الأنبياء ٢١:٨٥–٨٦: إسماعيل من الصابرين، أدخله الله في رحمته، ومن الصالحين.

ص ٣٨:٤٨: إسماعيل مع اليسع وذي الكفل من الأخيار.

الصافات ٣٧:٩٩-١١١: دعاء إبراهيم بالغلام الصالح، البشارة بالغلام الحليم، امتحان الذبح والفداء، الابن غير مسمى في آيات الذبح نفسها.

الحج ٢٢:٢٦-٢٩ وآل عمران ٣:٩٦-٩٧: البيت والحج في المرحلة الإبراهيمية؛ إسماعيل لا يسمى في هذه الآيات، لكنها من سياق المشروع الذي شارك فيه عند البيت.

صادق الوعد — أيُّ إسماعيل تقصده سورة مريم؟

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم ١٩:٥٤-٥٥).

هذه الآيتان تحتاجان إلى تحقيق خاص؛ لأن المصادر الإمامية تحفظ أكثر من تعيين لهذا «إسماعيل».

التفسير المشهور عند كثير من المفسرين يحمل الآيتين على إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

لكن في علل الشرائع للشيخ الصدوق، وكامل الزيارات، وتفسير القمي كما نقلته المجاميع الإمامية، روايات عن الإمام الصادق عليه السلام تصرّح بأن المقصود ليس إسماعيل بن إبراهيم، بل نبي آخر يسمى إسماعيل بن حزقيل. وتذكر بعض هذه الأخبار أن قومه آذوه أذى شديدًا، وأنه صبر وطلب أن يكون له بالحسين عليه السلام أسوة.

وورد عن الإمام الرضا عليه السلام في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا تفسير «صادق الوعد» بأنه وعد رجلًا فجلس ينتظره حولًا حتى جاء.

لذلك لا يصح أن نبني سيرة إسماعيل بن إبراهيم على مريم ١٩:٥٤-٥٥ وكأن جميع روايات أهل البيت متفقة على أن المقصود هو ابن إبراهيم.

والصياغة التي يعتمدها هذا الكتاب هي:

القرآن يذكر نبيًا اسمه إسماعيل ويصفه بصدق الوعد والرسالة والنبوة والأمر بالصلاة والزكاة والرضا عند الله.

وفي التفسير الإسلامي المشهور يُحمل على إسماعيل بن إبراهيم.

لكن روايات إمامية صريحة تميّز «إسماعيل صادق الوعد» وتجعله إسماعيل بن حزقيل.

وهذا التفريق مهم؛ لأن الأمانة في حكاية الهداية لا تسمح بضم شخصيتين في سيرة واحدة إذا كانت روايات أهل البيت نفسها تفصل بينهما.

حدود التمييز بين الإسماعيلَيْن

في كامل الزيارات، الباب ١٩، الأخبار ١-٤، تتصل قصة إيذاء النبي إسماعيل بالاقتداء بالحسين عليه السلام؛ ويسمي الخبر الثالث أباه حزقيل، والملكَ المرسل إليه «سطاطائيل»، ويذكر قومًا مكذبين غير مسمين، وطلب الرجعة مع الحسين. لا ننقل هذه الشخصيات والأحداث إلى إسماعيل بن إبراهيم،

ولا نجعل حزقيل هنا اسمًا آخر لإبراهيم. وفي خبر انتظار الموعد يبقى الرجل الذي وُعد غير مسمى، ولا يثبت لقب «صادق الوعد» وحده اتحاد الشخصيتين. [م٥]

وتحتاج جملة الخبر الثالث بأن إسماعيل مات قبل إبراهيم إلى إبقاء الاختلاف ظاهرًا: فهي لا تنسجم على ظاهرها مع أخبار موت إبراهيم أولًا وانتقال الوصية إلى إسماعيل. وقد نبه هامش الطبعة المقابلة إلى هذا التعارض. نثبت نصوص الباب بوصفها روايات تحتاج إلى دراسة الأسانيد والمتون؛ ولا نحل التعارض باختراع تاريخ وفاة أو بإسقاط نبوة إسماعيل التي يذكرها القرآن ضمن سياق الوحي في النساء ٤:١٦٣. [م٢: ح٥؛ م٥: ح٣]

إسماعيل بن إبراهيم — ما يثبته القرآن عن ميلاده وترتيبه

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (إبراهيم ١٤:٣٩).

هذه الآية تثبت بوضوح:

أن إسماعيل ابن لإبراهيم.

وأن إسحاق ابن له كذلك.

وأن ولادتهما كانت في كبر إبراهيم.

وأن إبراهيم رأى فيهما استجابة لدعائه.

لكن القرآن لا يذكر عمر إبراهيم عند ولادة إسماعيل، ولا يحدد عدد السنوات بين إسماعيل وإسحاق.

وفي بعض الروايات الإمامية الواردة في معاني الأخبار وما جمعه المجلسي في قصة الذبح، يرد أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق، وتذكر إحدى الروايات فرق خمس سنين. أما كتب التاريخ والأنساب فتحفظ أرقامًا أخرى، ولذلك لا نجعل عدد السنوات حقيقة قطعية.

المهم في بناء القصة هو الترتيب العام الذي تؤيده الروايات الإمامية المشهورة: إسماعيل جاء قبل إسحاق، ثم جاءت البشارة بإسحاق في مرحلة لاحقة.

إسماعيل واللسان العربي — ماذا تقول الروايات؟

من الأخبار المشهورة في التراث الإمامي ما نُقل عن الإمام الباقر عليه السلام أن إسماعيل بن إبراهيم كان أول من «شق لسانه بالعربية»، وأنه كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة، وأن لسانه قبل ذلك كان على لسان أبيه وأخيه، وتذكر الرواية نفسها أنه الذبيح.

هذا الخبر ورد مرفوعًا في تحف العقول ونقلته المجاميع اللاحقة، ولذلك لا يُعامل معاملة نص قرآني ولا معاملة خبر متصل السند بلا بحث.

وفي كتب التاريخ يشيع القول إن إسماعيل تعلّم العربية من جرهم أو من العرب الذين نزلوا مكة. أما روايات الكافي في باب حج إبراهيم وإسماعيل فتذكر وجود أناس من العماليق حول مكة، وقافلة من اليمن جاءت إلى الماء، ولا تجعل كل تفاصيل الاستقرار الأول في صيغة واحدة.

إذن نقول:

هناك تراث روائي يربط إسماعيل بنشأة العربية المستعربة ويصفه بأنه أول من نطق بالعربية في ذلك السياق.

أما كيفية تعلمه، والقبيلة التي أخذ عنها، والعمر الدقيق، فتحتاج إلى إبقاء طبقات المصادر منفصلة.

واصطلاحا «العرب العاربة» و«العرب المستعربة» تقسيمات في كتب الأنساب، لا تسميتان قرآنيتان. والخبر عن نطق إسماعيل بالعربية لا يكفي وحده لإعادة بناء تاريخ اللغة أو إثبات أولوية لغوية مطلقة خارج سياقه.

هاجر وإسماعيل في مكة — الرواية الإمامية الكبرى في الكافي

في الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت، تحفظ روايات متعددة صورة مفصلة:

حمل إبراهيم إسماعيل وأمه إلى موضع مكة بأمر الله.

كان الماء قليلًا، فلما عطش الطفل سعت أمه بين الصفا والمروة تبحث عمن يغيثهما.

كررت ذلك سبع مرات، وتقول الرواية إن الله أجرى ذلك سنة.

ظهر ماء زمزم عند الطفل، وجمعت هاجر التراب حوله.

رأت قافلة الطير فوق الماء، فجاء الناس، وصار الماء سببًا في الرزق والاستقرار.

هذه التفاصيل ليست في نص إبراهيم ١٤:٣٧، لكنها تنسجم مع دعاء إبراهيم عن الوادي غير ذي الزرع وتشرح في الرواية كيف بدأت الحياة حوله.

وفي هذا الخبر تسأل الأم إبراهيم إلى من يتركهما، ويأتيها التطمين في سياق عناية الله بهما. يجتمع اعتمادها على الله مع سعيها وحفظها الماء والتعامل مع القادمين؛ فهي فاعلة في القصة لا هامش لها. والصفا والمروة من شعائر الله بنص البقرة ٢:١٥٨، أما ربط السعي سبعًا بهاجر فمن الرواية، وقد فُصّل من جهة سيرتها في الفصل الرابع عشر.

إسماعيل والحج — حين صار الطفل متعلمًا للمناسك

تروي رواية أخرى في الباب نفسه أن الله أمر إبراهيم أن يحج ويحج إسماعيل معه وأن يسكنه الحرم، وأن جبرئيل علّمهما الإحرام والتلبية والطواف والصلاة والمناسك.

هذا مهم لحكاية الهداية: إسماعيل لا يظهر في مكة فقط كساكن، بل كمتلقٍ لتعليم عبادي سيصبح جزءًا من هوية البيت.

ثم يأمر الله إبراهيم ببناء الكعبة، فيجمع إسماعيل الحجارة، ويشارك أباه في البناء. وهنا يلتقي النص القرآني والرواية: القرآن يقول بوضوح ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

رفع القواعد — العمل والدعاء في لحظة واحدة

البقرة ٢:١٢٧ لا تصور بناء البيت عملاً هندسيًا فقط:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فهما يبنيان ويدعوان.

ثم يسألان الإسلام لله، وذرية مسلمة، وتعليم المناسك، والتوبة، والرسول الآتي من الذرية.

وهنا يبلغ فصل إسماعيل إحدى أهم نقاطه: مكة ليست مشروع حجر، بل مشروع عبادة وأمة ورسالة آتية.

الدعاء للرسول القادم — من إسماعيل إلى محمد صلى الله عليه وآله

قال إبراهيم وإسماعيل:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

هذه الدعوة هي الجسر الكبير بين مكة الإبراهيمية وخاتم الأنبياء.

لا تعطي الآية أسماء الأجيال كلها، لكنها تجعل الرسالة القادمة جزءًا من دعاء مؤسسي البيت.

ولهذا سيعود الكتاب إلى خط إسماعيل عند أجداد النبي محمد صلى الله عليه وآله.

مكة قبل أن تصبح مدينة — العماليق، قافلة اليمن، وبداية الاستقرار

روايات الكافي نفسها تحفظ أكثر من لقطة عن المجتمع المحيط بمكة في زمن إسماعيل.

في الحديث الأول من باب حج إبراهيم وإسماعيل يرد أن حول مكة يومئذ أناسًا من العماليق، وأن موضع البيت كان معروفًا في الرواية على هيئة ربوة حمراء.

وفي الحديث الثاني، وهو من طريق ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام، تأتي قافلة من اليمن بعدما ترى الطير تحوم فوق الماء. يشرب القادمون من زمزم ويطعمون هاجر وإسماعيل، ويصبح مرور الناس سببًا للرزق.

وقد حكم العلامة المجلسي على هذا الحديث بالحسن.

هذه الصورة أضبط من أن نقول ببساطة: «جاءت جرهم فورًا فسكنت مكة»، لأن اسم جرهم لا يظهر في هذا الحديث نفسه بهذه الصيغة. جرهم حاضرة بقوة في كتب التاريخ، وتظهر أيضًا في روايات لاحقة عن ولاية البيت، لكن بناء أول لحظة من الاستقرار يجب أن يبقى وفيًا لألفاظ كل مصدر.

جرهم وهاجر — إذن الاستقرار وحدود اختلاف الروايات

لا ينحصر ذكر جرهم في كتب الأنساب المتأخرة. ففي الخبر المنقول من تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام يلاحظ أهل جرهم، النازلون بذي المجاز وعرفات، اجتماع الطير على الماء، فيأتون هاجر ويطلبون مجاورتها، فتربط الإذن بقدوم إبراهيم واستئذانه. وتذكر الرواية هدايا الغنم ونشوء الاستقرار حول الأم والطفل. وأفراد جرهم في هذا المشهد غير مسمين؛ فلا نبتكر شيخًا للقبيلة أو نجعل امرأة إسماعيل حاضرة في طفولته. [م٢: ح٦]

وفي قصص الراوندي، ح١٠٦، خبر منسوب إلى أمير المؤمنين عن تسابق إسماعيل وإسحاق بعدما شبّا، ثم نقل هاجر وإسماعيل إلى مكة؛ وهو ترتيب يختلف عن خبر الكافي الذي يبدأ بالمولود وأمه. كما تختلف هيئة السفر ونسبة إظهار الماء في الأخبار. يظل الأصل القرآني هو إسكان بعض الذرية في الوادي (إبراهيم ١٤:٣٧)، وتروى الزيادات كلٌّ بطريقها، ولا تُركّب منها رحلة واحدة مصطنعة. [م١: ح١-٢؛ م٤: ح١٠٦-١٠٧]

زمزم — من عطش الطفل إلى رزق الوادي

في الحديث الحسن المذكور، تبحث هاجر بين الصفا والمروة سبع مرات، ثم تجد الماء قد نبع عند الطفل، وتجمع التراب حوله حتى لا يسيح.

وفي رواية أطول في الباب نفسه يظهر لاحقًا تجديد حفر زمزم بأمر من الله، وأن جبرئيل يرشد إبراهيم إلى الحفر، ثم يؤمر إبراهيم أن يشرب ويدعو لذريته بالبركة.

وهكذا ترتبط زمزم في الرواية بثلاث طبقات:

نجاة الأم والطفل من العطش.

جذب الناس إلى الوادي وفتح باب الرزق.

ثم اتصال الماء بالحج والدعاء لذرية إسماعيل.

ولا ينبغي أن نخلط تفاصيل الروايات المختلفة وكأنها حادثة واحدة ذات سند واحد. القرآن نفسه لا يذكر اسم زمزم، لكن دعاء إبراهيم في ١٤:٣٧ يثبت الوادي غير ذي الزرع، والحاجة إلى الرزق، والغاية الكبرى: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

الحجر الأسود والأذان بالحج في روايات بناء البيت

القرآن يثبت أن إبراهيم وإسماعيل رفعا القواعد، لكنه لا يذكر الحجر الأسود في هذه الآيات.

في الحديث الرابع من باب حج إبراهيم واسماعيل في الكافي تذكر الرواية أن إبراهيم وإسماعيل كانا يبنيان البيت حتى بلغا موضع الحجر الأسود، وأن أبا قبيس نادى إبراهيم بأن عنده وديعة، فأُخذ الحجر ووُضع في موضعه.

ثم تذكر الرواية أذان إبراهيم في الناس بالحج، وأن من سيحج إلى يوم القيامة لبّى ذلك النداء في عالم لا تفصله الآية نفسها.

نحن نثبت قرآنيًا:

رفع القواعد،

والأذان بالحج في الحج ٢٢:٢٧.

أما قصة وديعة الحجر في أبي قبيس وكيفية استجابة الأجيال للنداء فهي من الرواية.

اختبار الذبح — من هو الابن؟

سورة الصافات ٣٧:٩٩-١١٣ تبني المشهد على مراحل دقيقة:

إبراهيم يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فيأتي الجواب: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

ثم يبلغ الغلام معه السعي.

ويرى إبراهيم في المنام أنه يذبحه.

فيجيبه الغلام: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ثم يقع التسليم والفداء.

وبعد ذلك تقول السورة: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

القرآن لا يسمي الغلام الحليم داخل مشهد الذبح.

وهذا هو الحد الأول الذي يجب ألا نتجاوزه.

لكن التراث الإمامي لا يأتي بصوت واحد تمامًا في التعيين.

أولًا: روايات تعين إسماعيل

ورد عن الإمام الرضا عليه السلام جواب صريح لمن سأله: الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟ فقال: إسماعيل، واستدل بوقوع البشارة بإسحاق بعد قصة الذبح.

وورد في أمالي الشيخ الطوسي عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «الذبيح إسماعيل».

وتوجد رواية مفصلة عن الإمام الصادق عليه السلام تذكر أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق وأنه هو الغلام الحليم الذي وقع عليه الامتحان.

ثانيًا: أخبار تعين إسحاق

باب الكافي نفسه يحفظ، في ذيل حديث بناء البيت، نقلًا عن أبي بصير أنه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يذهبان إلى إسحاق، بينما نُقل عن زرارة تعيين إسماعيل.

كما توجد أخبار أخرى في التراث الإسلامي تعين إسحاق.

ثالثًا: كيف تعامل علماء الإمامية مع التعارض؟

الشيخ الصدوق نفسه صرّح باختلاف الروايات في الذبيح، ثم حاول الجمع بينها مع ترجيح أن الذبيح في واقع الأمر إسماعيل، وفسّر بعض إطلاق «ذبيح الله» على إسحاق بمعانٍ أخرى، كما حمل بعض العلماء أخبار إسحاق على التقية.

لكن منهج هذا الكتاب لا يحتاج إلى إخفاء التعارض.

نقول:

القرآن لا يسمّي الابن.

الروايات الإمامية مختلفة.

وتوجد مجموعة قوية الحضور في التراث الإمامي تعين إسماعيل، حتى أصبح ذلك هو المشهور عند الإمامية.

وفي المقابل لا نحذف الروايات التي قالت بإسحاق.

والعبرة القرآنية التي لا تتوقف على الاسم هي التسليم الكامل من الأب والابن:
﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾.

تفاصيل امتحان الذبح — ما يروى وما لا يسميه القرآن

تعرض الصافات ٣٧:١٠٢-١٠٧ بلوغ الغلام السعي، وإخبار الأب بالرؤيا، وتسليم الاثنين، وإلقاءه للجبين، والنداء بتصديق الرؤيا والفداء. ولا تسمي هذه الآيات الابن أو أمه، ولا تحدد عمره، ولا تذكر إبليس أو السكين أو موضع الجمرة أو اسم الملك. ترجيح إسماعيل هنا قائم على القرائن والروايات المبينة في الفصل، وليس على وجود اسمه في لفظ آيات الذبح. [القرآن؛ م٣: ح٧، ٩، ١١]

أما الكافي، ح٩ من باب حج إبراهيم وإسماعيل، فيروي مجيء شيخ خبيث يحاول صرف إبراهيم، وثبات الأب، وطلب الغلام تغطية وجهه وشد وثاقه، وامتناع إبراهيم عن الجمع بين الوثاق والذبح. ثم يذكر قلب جبرئيل للمدية، والنداء من جهة مسجد الخيف، وإحضار الكبش من ثبير. وهذه تفاصيل

روائية، لا ألفاظ قرآنية. ويذكر ح١٠ أن الكبش أقرن أملح وله مواضع سود، وأن موضع الامتحان عند الجمرة الوسطى. [م١: ح٩-١٠]

والأمانة تقتضي إكمال نهاية ح٩: الأم فيه مسماة سارة، وتأتي لترى آثار السكين، ويجعل الخبر ذلك بداية مرضها الذي ماتت فيه. وهذا من مادة القول بإسحاق، فلا تبدل سارة بهاجر ولا تجعل وفاة هاجر نتيجة للذبح. كما يذكر ذيله أم رسول الله، وهي آمنة في السيرة، وعلي بن الحسين وبني هاشم وبني أمية في وصف توارث موضع النزول؛ هؤلاء من أزمنة لاحقة وليسوا شهودًا لحادثة إبراهيم. والحديث مدرج عند البهبودي في صحيح الكافي، فلا يصح التخلص من إشكاله بمجرد وصفه بالضعف دون تحقيق. [م١: ح٩]

وفي أخبار الفداء: ينسب إلى الرضا أن الكبش مخلوق لم يولد من أم وأنه رعى في الجنة، وتروى نظائر في أجوبة أمير المؤمنين والإمام الحسن؛ ويأتي خبر عن مطالبة إبليس بنصيب من الكبش في تعليل تحريم بعض أجزائه. ونقلت أخبار الأطعمة تفضيل الضأن وسمت بعضها إسماعيل، وجاء في أخرى إسحاق. تجمع هذه الأخبار بوصفها شواهد مختلفة، ولا يثبت بها لون أو عمر أو تاريخ طبيعي على سبيل القطع، ولا يصبح كل تفسير أورده المجلسي حديثًا عن إمام. [م٣: ح١، ٥-٦، ٨، ١٠، ١٢-١٤، ١٧]

زوجة إسماعيل في رواية الكافي — امرأة من حمير وخدمة البيت

القرآن لا يسمي زوجة لإسماعيل، ولا يذكر عدد زوجاته، ولا يعدد أبناءه.

لكن الحديث الثالث من باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت في الكافي يحفظ قصة مهمة جدًا لامرأة إسماعيل.

تقول الرواية إن إسماعيل رأى امرأة من حمير وكانت متزوجة، فدعا الله أن يزوجها إياه؛ ثم تذكر وفاة زوجها، وبقاءها بمكة حزنًا عليه، وتسليتها ثم زواج إسماعيل منها. هذا ترتيب الخبر، ولا يقول إنه قتل زوجها أو دعا بموته. [م١: ح٣]

وتصفها الرواية بأنها «امرأة موفقة» و«عاقلة».

وعندما قدم إبراهيم للحج وكان إسماعيل قد خرج إلى الطائف يمتار طعامًا لأهله، سألها إبراهيم عن حالهم وعن دين إسماعيل، فذكرت خيرًا.

ثم تقترح الرواية أنها هي التي أشارت على إسماعيل بوضع ستور على أبواب الكعبة، ثم قالت: لماذا لا أحوك للكعبة ثيابًا فتستر كلها؟

فبدأت الغزل والنسج واستعانت بقومها، وأصبحت الرواية بذلك من أقدم الأخبار الإمامية التي تربط امرأة إسماعيل بكسوة البيت.

ثم يذكر الخبر أن إسماعيل وضع للكعبة أعمدة وسقفها بالجريد وسواها بالطين.

هذه المرأة مهمة في الكتاب، لأنها ليست اسمًا هامشيًا:

تظهر زوجة،

وصاحبة رأي،

ومشاركة في خدمة البيت،

ومبادرة إلى كسوته.

لكن الرواية لا تسميها باسم شخصي.

ولا تقول في هذا الموضع إنها أم جميع ذرية إسماعيل.

ولهذا لا نخترع لها اسمًا من قوائم الأنساب، ولا نجعلها تلقائيًا أم نابت أو قيدار أو غيرهما بلا نص مستقل.

نساء الكسوة والزوج السابق — شخصيات لم تسمَّ

لا تقتصر قصة الحميرية على الزوجين: فالزوج السابق الذي توفي غير مسمى، والنساء اللاتي غزلن الصوف وأعنّ على النسج غير مسميات، وكذلك العرب الذين قدموا الهدايا ثم أتمت بها الكسوة. وقبل ذلك يذكر الخبر أربعة ملائكة يناولون إبراهيم وإسماعيل حجارة البناء، دون تسمية هؤلاء الأربعة. نثبت الأدوار ولا نملأ الفراغ بأسماء من خارج الرواية. [م١: ح٣]

وحين انكشفت للزوجة هوية إبراهيم، قالت إنها تخشى أن تكون قصرت في حقه؛ فلا يصح تحويل خشيتها إلى اتهام أخلاقي. ويختتم مشهد الخدمة بوحي إلى إسماعيل أن ينحر الهدي ويطعم الحاج، ثم العناية بماء زمزم. وقد وصف المجلسي سند هذا الحديث بالمجهول في مرآة العقول (١٧:٣٤)، بينما حكم على خبر السعي الثاني بالحسن؛ فليست تفاصيل الزواج والكسوة بدرجة واحدة مع كل أخبار زمزم. [م١: ح٢-٣]

أبناء إسماعيل — ما بين الرواية الإمامية وكتب الأنساب

كتب التاريخ والأنساب تشتهر بذكر اثني عشر ابنًا لإسماعيل، وتختلف في ضبط أسمائهم، ومن أشهر الأسماء نابت وقيدار.

لكننا لم نجد في النص الأساسي من الكافي الذي بنينا عليه قصة مكة قائمةً تسمّي هؤلاء الاثني عشر واحدًا واحدًا.

المهم في الرواية الإمامية الأقوى حضورًا هنا ليس قائمة الأسماء، بل أن «بني إسماعيل» تولوا البيت وأقاموا للناس حجهم وأمر دينهم وتوارثوا ذلك كابرًا عن كابر حتى زمن عدنان بن أدد.

وعند الوصول إلى أجداد النبي صلى الله عليه وآله في الفصل السادس والأربعين تُبحث حلقات النسب وأمهات السلسلة كما يُبحث آباؤها، ولا تُستعار لها أسماء من روايات متعارضة دون بيان.

أما هنا فلا نثبت قائمة أبناء لمجرد شيوعها في كتب التاريخ.

زوجات أخريات في الأخبار — لا تُدمج الأسماء المختلفة

يروي الراوندي عن الإمام الصادق عليه السلام قصة زوجة من العمالقة اسمها في النص المقابل «سماة»، وجاء في نقل البحار «سامة». قدم إبراهيم في غياب إسماعيل فلم تعرض عليه المنزل وشكت شدة العيش، فترك رسالة بتغيير عتبة الباب؛ وفهم إسماعيل الإشارة ففارقها. ثم يروي زيارة أخرى لزوجة ثانية غير مسماة في هذا الخبر: رحبت بإبراهيم وشكرت الحال وعرضت غسل رأسه، وأوصى بها خيرًا. وورد في سياق الزيارة أثر قدميه في المقام، وفي خبر مستقل طي الأرض له. هذه روايات منسوبة إلى الإمام، لا نص قرآني، ولا نقطع بأن الثانية هي الحميرية صاحبة الكسوة. [م٤: ح١٠٩–١١٠؛ م٢: ح٣٨–٣٩]

ويورد البحار، من مادة قصص الأنبياء، مقطعًا آخر لا يبدأ فيه بإسناد مستقل إلى المعصوم: زوجة جرهمية اسمها «زعلة أو عمادة» طلقها ولم تلد، ثم «السيدة بنت الحارث بن مضاض» ولدت له. يعرض هذا بوصفه خبرًا قصصيًا يختلف عن خبر سماة/سامة وعن «هالة بنت الحارث» في إثبات الوصية؛ لا نجزم بأنها امرأة واحدة ذات أسماء متعددة، ولا نعدها نساء مستقلات يقينًا، ولا نستخرج من اختلاف الصيغ عددًا نهائيًا لزوجاته. [م٢: ح٤٠]

ويتضمن خبر الزيارة عند الراوندي اتفاق إبراهيم وسارة على التزام ما وافق الحق، ويفسر تشبيه الضلع في سياق الصبر في العشرة. ليس التشبيه نصًا بأن المرأة خلقت من ضلع، ولا يبيح إلغاء حقوقها أو يصحح كل تصرف يُنسب إلى شخصية في خبر مختلف السند. [م٤: ح١٠٩]

هالة وقيدار وعدد الأبناء — خبر «إثبات الوصية» وحدوده

في الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب» (ص٤٤–٤٥)، يرد أن إسماعيل تزوج «هالة بنت الحارث» وأنها ولدت «قيدار»، ويصفه الخبر بأكبر أولاده ورئيسهم، ثم يقول إن لإسماعيل ثلاثة عشر ذكرًا. وتذكر الفقرة نفسها أنه خلّف سبع عنزات. هذه معلومات في خبر تاريخي إمامي من حيث تداول الكتاب في المكتبة الإمامية؛ لكنها ليست في القرآن، ولا يذكرها خبر زوجته الحميرية في «الكافي» (ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل، ح٣). فلا نقرر أن هالة هي الحميرية المجهولة الاسم أو أم جميع أولاده، ولا نلغي روايات الأنساب التي تذكر اثني عشر ابنًا؛ بل نعرض اختلاف العدد ومصدر كل قول. ولا يحفظ هذا الموضع أسماء بنات إسماعيل أو سيرة كل واحد من أبنائه.

يقول الخبر نفسه إن إسماعيل أقام أكثر أيامه بمكة، وعاش مائة وعشرين سنة، ودفن بها؛ ويذكر أنه استودع أخاه إسحاق الاسم والنور والحكمة عند قرب الوفاة، ثم يورد صيغة أخرى تقول إن إسحاق شاركه في الوصية. هذه شهادة إضافية لمسألة الانتقال التي ترويها سلسلة الصدوق، مع اختلاف النص

والطرق، ولا يلزم من تعدد الشواهد صحة كل جزئية. ويدعو خبر «إثبات الوصية» إسماعيلَ «صادق الوعد»، بينما تميز رواية إمامية أخرى صاحب مريم ١٩:٥٤ عن ابن إبراهيم وتسميه ابن حزقيل؛ نثبت الاختلاف ولا نختزل الشخصيتين بلا تحقيق. نسبة الكتاب وأسانيد قصصه وتواريخه تحتاج إلى فحص، فلا نجزم بالعمر أو العدد أو اسم الزوجة على أساسه وحده.

الابن الذي لا عقب له والأبناء الستة عشر — زيادة «علل الشرائع»

في الصيغة المطولة من خبر كلثوم بن عبد المؤمن، كما نقلها البحار من علل الشرائع، زيادة لا توجد في نهاية ح٣ من الكافي: ولدٌ للحميرية لا عقب له، ثم أربع زوجات لإسماعيل، من كل واحدة أربعة غلمان. وتذكر موت إبراهيم، وتعزية جبرئيل لإسماعيل، ثم تعيين وصي بلفظ «فلان» خلاف تعلق الأب بابن صغير محبوب. فلا نسمي هؤلاء الزوجات والأبناء بلا دليل، ولا نبدل «فلانًا» بقيدار أو نابت من عندنا. ولا ننسب هذه الزيادة إلى الكافي، إذ نبه المجلسي نفسه إلى موضع انتهاء روايته. [م٢: ح٥ وبيانه]

هذا الخبر يحفظ صورة أخرى للذرية والوصية، تختلف عن قوائم الاثني عشر وعن الثلاثة عشر في إثبات الوصية وعن انتقال الوصية إلى إسحاق. المقصود استيعاب الشواهد مع حدودها، لا جمع الأعداد أو اختراع توفيق يجعل جميع الصيغ تاريخًا واحدًا ثابتًا. ويظل تعيين الوصي في الخبر اختيارًا إلهيًا؛ فلا يحوَّل تعلق الأب بولده إلى نص بتعيينه. [م٢: ح٥]

وفاة هاجر، الحجر، وقبر إسماعيل — درجات مختلفة من الثبوت

تحتاج أخبار الحجر والدفن إلى تمييز درجات الأسانيد، لا الاكتفاء باتفاق موضوعها.

في الحديث الثالث عشر من باب حج إبراهيم وإسماعيل في الكافي، يرد أن إسماعيل دفن أمه في الحجر، وحجّر على الموضع لئلا يُوطأ قبرها.

وفي الحديث الخامس عشر، من طريق معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام، سُئل الإمام هل الحجر من البيت، فقال إنه ليس من البيت، ثم قال إن إسماعيل دفن أمه فيه، وكره أن يوطأ قبرها فحجّر عليه، وإن فيه قبور أنبياء.

وقد حكم العلامة المجلسي على هذا الحديث بالصحيح.

أما الحديث الرابع عشر فيقول: «الحجر بيت إسماعيل وفيه قبر هاجر وقبر إسماعيل». وهذا طريق آخر، وسنده ليس في قوة الحديث الخامس عشر.

إذن نستطيع أن نقول بدرجة أقوى:

الرواية الصحيحة في الكافي تثبت ـ على مستوى الحديث ـ أن إسماعيل دفن أمه هاجر في الحجر وحمى موضع قبرها.

أما دفن إسماعيل نفسه في الحجر فله رواية مستقلة أقل قوة، ويشتهر كذلك في كتب التاريخ، ولذلك يُذكر بدرجة أدنى من الجزم.

والقرآن لا يذكر وفاة هاجر ولا وفاة إسماعيل ولا موضع دفنهما.

بنات إسماعيل وأعمار الوفاة — حفظ المجهول من غير اختلاق

يروي الكافي عن معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام أن عذارى من بنات إسماعيل دفنّ في الحجر مما يلي الركن الثالث. لا يسمي النص واحدة منهن، ولا يحدد عددهن أو أمهاتهن أو سبب الوفاة. وقد حكم المجلسي على ح١٦ بالضعف؛ فيذكر بوصفه خبرًا عن بنات غير مسميات، ولا تستعار لهن أسماء من أنساب غير موثقة. أما رواية دفن هاجر وحماية قبرها في ح١٥ فحكمه عليها صحيح؛ فثبوت خبر الأم لا يصحح تلقائيًا خبر البنات. [م١: ح١٥-١٦]

والعمر عند وفاة إسماعيل مختلف فيه: مائة وعشرون في خبر كمال الدين المنقول في البحار، ومائة وثلاثون في قصص الراوندي ح١١٢، ومائة وسبع وثلاثون في المقطع القصصي الآخر. القرآن لا يذكر عمره ولا تاريخ وفاته، فلا نعطي القارئ سنة ميلادية أو عمرًا محسومًا. وذكر شبر وشبير ابني هارون في المقطع المتعلق بالحجر إحالة إلى مدفونين من زمن لاحق بحسب ذلك الخبر، لا إلى أبناء إسماعيل أو معاصريه. [م٢: ح٤٠-٤٢؛ م٤: ح١١٢]

بنو إسماعيل وولاية البيت — خط مكة لا ينتهي بموت إسماعيل

يروي الحديث السابع عشر من باب حج إبراهيم وإسماعيل في الكافي امتداد ولاية البيت بعد إسماعيل.

يروي أبو بصير عن الإمام الباقر عليه السلام أن بني إسماعيل ظلوا ولاة البيت، يقيمون للناس حجهم وأمر دينهم، ويتوارثون ذلك «كابرًا عن كابر» حتى زمن عدنان بن أدد.

ثم تذكر الرواية أن طول الأمد أدى إلى قسوة القلوب ووقوع الفساد والبدع، مع بقاء أشياء كثيرة من الحنيفية في أيديهم:

الحج،

والتلبية،

والغسل من الجنابة،

وبعض أحكام النكاح،

مع ما دخل على ذلك لاحقًا من انحراف وشرك.

وقد وصف المجلسي طريق هذا الخبر بأنه «موثق كالصحيح».

هذه الرواية شديدة الأهمية لبنية الكتاب، لأنها تعطي جسرًا حقيقيًا بين إسماعيل والفصل الذي سيأتي لاحقًا عن أجداد النبي صلى الله عليه وآله.

خط إسماعيل لم يبق مجرد نسب بيولوجي.

في الرواية بقيت معه:

ولاية البيت،

تعليم الحج،

وأجزاء من الحنيفية،

ثم وقع الانحراف تدريجيًا مع طول الزمن.

وهذا ينسجم مع فكرة حكاية الهداية كلها:

الهداية يمكن أن يُحفظ منها شيء عبر أجيال طويلة، ثم يدخل عليها التحريف، حتى تأتي مرحلة جديدة من البيان الإلهي.

والرواية لا تعطينا هنا أسماء كل من تولى البيت واحدًا واحدًا بين إسماعيل وعدنان.

لذلك لا نخترع سلسلة كاملة.

نثبت المبدأ، ونؤجل تحقيق الأسماء إلى فصل أجداد النبي.

إسماعيل وحفظ العهد بعد إبراهيم — الوصية والفرعان

إلى جانب ولاية البيت، توجد رواية أخرى تتصل بمفهوم الوصية نفسه.

رواية اتصال الوصاية عند الشيخ الصدوق تجعل إبراهيم عليه السلام يدفع الوصية إلى إسماعيل، ثم تجعل إسماعيل يدفعها إلى إسحاق.

هذه الصورة شديدة الأهمية؛ لأنها تمنعنا من تحويل الفرعين إلى خصومة أصلية:

إسماعيل ليس نقيض إسحاق.

وإسحاق ليس إلغاءً لإسماعيل.

في رواية الوصاية يلتقيان في انتقال أمانة واحدة:

إبراهيم

إسماعيل

إسحاق

لكننا نحتفظ بالتنبيه السندي نفسه الذي استعملناه في الفصول السابقة:

بعض طرق سلسلة الاتصال تمر بمقاتل بن سليمان، وقد وقع الكلام فيه.

ولهذا نحفظ الخبر بوصفه مادة إمامية صريحة في معنى اتصال الوصاية، ولا نحوله إلى تاريخ قطعي لكل تفصيل.

وفي الوقت نفسه يوجد خط آخر باقٍ في مكة:
ذرية إسماعيل وولاية البيت والحج.
إذن بعد إبراهيم لا ينبغي أن نرسم خطًا واحدًا بسيطًا.
هناك:
خط وصاية تذكر الرواية انتقاله من إسماعيل إلى إسحاق،
وخط إسماعيلي مكّي يستمر في ذرية إسماعيل وبيت الله،
وخط نبوي واسع سيظهر في ذرية إسحاق ويعقوب.
ثم بعد قرون طويلة سيعود الخط الإسماعيلي إلى مركز القصة مع محمد صلى الله عليه وآله.

إسماعيل والبيت في القرآن — العهد بالتطهير قبل الحديث عن البناء

من المواضع التي ينبغي ألا تمر سريعًا قوله تعالى:
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة ٢:١٢٥).
هذه الآية لا تجعل دور إسماعيل مقتصرًا على حمل الحجارة مع أبيه.
فالله يقول: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾.
إذن إسماعيل شريك في عهدٍ إلهي متعلق بالبيت:
تطهيره،
وتهيئته للطائفين،
والعاكفين،
والراكعين الساجدين.
وهذا يفتح بُعدًا مهمًا في شخصيته.
إسماعيل في القرآن ليس مجرد ابن إبراهيم الذي سكن مكة.
هو جزء من تأسيس وظيفة البيت الدينية نفسها.
والتطهير هنا أوسع من تنظيف البناء من التراب.
إنه تطهير المكان من الشرك والدنس وما يمنع أن يكون موضع عبادة لله وحده.
ولهذا ينبغي أن نقرأ الآية مع مشروع التوحيد كله:
بيتٌ لا يعبد فيه إلا الله،
ومناسك لا تقصد إلا الله،

وأمة تتعلم عنده معنى الإسلام لله.

ومن هنا نفهم أن مسؤولية إسماعيل عند البيت كانت عبادة وحراسة لمعنى التوحيد قبل أن تكون إدارة لمكان.

إسماعيل ومقام إبراهيم — ذاكرة الطاعة في قلب المسجد

تذكر الآية نفسها مقام إبراهيم:

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

المقام منسوب إلى إبراهيم، لكن قصة رفع القواعد تجعل إسماعيل حاضرًا في العمل الذي ارتبط به هذا الموضع.

والقرآن لا يقول إن «مقام إسماعيل» شعيرة مستقلة.

ولهذا لا ننشئ من الخيال اسمًا أو موضعًا لم يسمه الوحي.

لكن وجود إسماعيل مع أبيه في بناء البيت يجعلنا نرى شيئًا مهمًا:

الشعيرة قد تحمل اسم فرد، بينما يكون وراءها جهد عائلة مؤمنة كاملة.

إبراهيم يبني.

إسماعيل يعينه.

وهما معًا يدعوان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.

فالبيت لا يقوم على البطولة الفردية.

يقوم على طاعة مشتركة.

الأمن والرزق — ماذا طلب إبراهيم للبلد الذي عاش فيه إسماعيل؟

قبل رفع القواعد وبعده، تتكرر أدعية إبراهيم لمكة.

قال تعالى:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة ٢:١٢٦).

وقال:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم ١٤:٣٥).

وقال في سياق إسكان الذرية:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم ١٤:٣٧).

هذه الآيات تضع ثلاثة أركان لمكة:

الأمن،

والعبادة،

والرزق.

والترتيب مهم.

إبراهيم لا يدعو بالمال أولًا ثم يضيف الدين.

بل يربط الاستقرار بإقامة الصلاة.

حتى طلب الرزق يأتي في النهاية:

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. ويكمل جواب البقرة ٢:١٢٦ أن للكافر متاعًا قليلًا في الدنيا ثم حسابًا وعذابًا؛ فالرزق لا يثبت وحده الرضا عن عقيدة صاحبه.

وهكذا يصبح وجود إسماعيل في مكة جزءًا من مشروع عبادة قبل أن يكون مشروع عمران.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ — الإسلام قبل اسم الأمة

بعد بناء البيت يقول إبراهيم وإسماعيل:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة ٢:١٢٨).

هذا الدعاء مهم جدًا في فهم «الإسلام» في القرآن.

إبراهيم وإسماعيل يطلبان الإسلام لله قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله بقرون.

إذن الإسلام هنا ليس اسم مرحلة تاريخية فقط.

هو معنى الاستسلام لله.

ثم يطلبان أن يكون من ذريتهما أمة مسلمة.

ولا تقول الآية إن جميع الذرية ستكون كذلك.

قالا:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾.

ومن هنا لا يجوز أن نحول النسب الإسماعيلي كله إلى ضمان إيماني.

الآية نفسها تترك باب المسؤولية الفردية والجماعية مفتوحًا.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ — لماذا يطلب النبيان تعليم المناسك؟

يقولان:

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

حتى إبراهيم وإسماعيل يطلبان أن يريهما الله المناسك.

وهذا يرسخ مبدأ مهمًا:

العبادة توقيف وتعليم.

لا يصنع الإنسان الحج من ذوقه.

ولا يحدد المقدس بمجرد العادة.

ولهذا تنسجم الروايات التي تتحدث عن تعليم جبرئيل للمناسك مع أصل قرآني واضح:

طلب التعليم.

ثم يأتي:

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾.

وهنا يجتمع العلم بالتوبة.

المعرفة بالمناسك لا تجعل العابد مستغنيًا عن الرحمة.

إسماعيل والصبر — من الذبح إلى سورة الأنبياء

قال تعالى:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٨٥).

سواء ربطنا الصبر مباشرة بقصة الذبح أم لم نربطه، فالقرآن يثبت صفة الصبر لإسماعيل صراحة.

ثم يقول:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

إذن لدينا ثلاث دوائر:

الصبر،

الصلاح،

والرحمة.

ثم في سورة ص:

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾.

فيضاف وصف:

من الأخيار.

هذا مهم لأن إسماعيل لا يُختزل قرآنيًا في كونه ابن إبراهيم أو ساكن مكة.

له وصف أخلاقي وروحي مستقل.

إسماعيل في سلاسل الوحي — لماذا يذكره القرآن مع الأنبياء؟

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ (النساء ٤:١٦٣).

هذه الآية بالغة الأهمية.

هي لا تضع إسماعيل فقط داخل عائلة إبراهيم.

تضعه داخل سلسلة الوحي.

وفي آل عمران ٣:٨٤ يأتي ضمن الإيمان بما أوتي الأنبياء.

وفي الأنعام ٦:٨٦ يأتي ضمن من فضّلهم الله.

إذن نبوته لا تعتمد على كتب النسب.

القرآن نفسه يدرجه في سياق الأنبياء والوحي.

جرهم وخزاعة وقصي — لماذا لا نروي التاريخ كله هنا؟

روايات ولاية البيت تمتد بعد زمن إسماعيل إلى مراحل جرهم وخزاعة وقصي.

هذه المادة مهمة.

لكن وضعها كلها في فصل إسماعيل سيكسر توازن الكتاب.

لذلك نثبت هنا المبدأ:

بعد إسماعيل استمر الصراع على ولاية البيت.

وتغيرت الجماعات التي تولته.

وبقي خط بني إسماعيل حاضرًا في ذاكرة البيت.

أما التفاصيل الطويلة عن جرهم وخزاعة وقصي فموضعها الأنسب:

الفصل السادس والأربعون عند أجداد النبي وبيت النبوة،

بهذا لا نحذف المادة، لكن نضعها في مكانها.

من عدنان إلى قصي — أسماء لاحقة لا أبناء مباشرون

تذكر رواية الكافي ح١٧ عدنان بن أدد وتضع موسى بين زمن إسماعيل وعدنان؛ فلا يكون عدنان ابنًا مباشرًا لإسماعيل ولا تكون السلسلة القرآنية وحدها قائمة نسب متصلة. ثم يأتي ح١٨ بصيغة الإرسال: معد بن عدنان ووضع الأنصاب، وغلبة جرهم، وعمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو رئيس خزاعة، وعمرو بن الحارث بن مصاص الجرهمي، ثم قصي بن كلاب وانتقال ولاية البيت إليه. تحفظ الأسماء هنا كما وردت في هذا الخبر، ولا يسوّى بين «مصاص» في هذا الموضع و«مضاض» في خبر الزوجة بغير مقابلة. [م١: ح١٧-١٨]

ويحفظ ح١٩ عن الإمام الصادق صورة استمرار بعض الحنيفية في صلة الرحم وإكرام الضيف والحج واجتناب مال اليتيم، ثم يذكر جيشًا من أهل الشام ومنجنيقًا على أبي قبيس. هذه شواهد على مصير تراث البيت في عصور لاحقة؛ لا تجعل تلك الجماعات معاصرة لإسماعيل، ولا تعني ولاية البيت وحدها ثبوت النبوة لكل متولٍّ. تفصيل أجيال ما قبل البعثة يبقى في موضعه اللاحق من الكتاب. [م١: ح١٩]

الخيل وحمام الحرم والطائف — أخبار متفرقة

روى الصدوق في علل الشرائع عن الرضا خبر إسماعيل وركوب الخيل بعد أن كانت وحشية، وروي في المحاسن خبر مرفوع عن الإمام الصادق عن نداء إبراهيم وإسماعيل للخيل بأجياد. وهناك خبر عن ابن عباس في الباب نفسه؛ وهو قول منقول عنه وليس حديثًا عن معصوم لمجرد وروده في البحار. لا نبني بهذه الأخبار تاريخًا أثريًا محسومًا لتدجين الخيل. وينقل البحار عن الكافي عن الإمام الصادق أن أصل حمام الحرم بقية حمام كان لإسماعيل. [م٢: ح١٦، ٢١، ٤٦، ٥٢]

وتحفظ علل الشرائع أخبارًا عن الطائف تربط ثمارها بدعاء إبراهيم ونقل قطعة من الأردن وطوافها بالبيت. تذكر باعتبارها خبرًا عن آية خارقة منسوبة إلى الرواية، لا وصفًا جيولوجيًا مثبتًا. وينقل خبر عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق تفسير الآيات البينات بمقام إبراهيم والحجر الأسود ومنزل إسماعيل؛ وهو يزيد حضور إسماعيل في ذاكرة البيت، دون أن يسمي القرآن موضع بيته تفصيلًا. [م٢: ح٣٠-٣١، ٥٧]

إسماعيل في حج النبي محمد صلى الله عليه وآله — الشعيرة تستعيد أصلها

في رواية حج النبي صلى الله عليه وآله في الكافي، عندما خالف رسول الله امتيازات قريش في الإفاضة، ربط الخبر قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾

بإفاضة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ومن بعدهم.

هذه الرواية ذات قيمة كبيرة في البناء الأدبي للكتاب.
لأنها تجعل حجة النبي الخاتم استعادة لخط أقدم.
محمد صلى الله عليه وآله لا يبدأ حجًا جديدًا من الصفر.
الرواية تضعه في امتداد حج إبراهيم وإسماعيل.
ومن هنا يلتقي أول هذا الفصل بآخر الكتاب.

إسماعيل والأذان بالحج — بيت محلي ورسالة عالمية

قال تعالى:
﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج ٢٢:٢٧).
الخطاب في سياق إبراهيم.
لكن البيت الذي شارك إسماعيل في رفع قواعده يصبح مقصدًا للناس.
وهنا يحدث تحول:
الأسرة التي بدأت وحيدة في الوادي
تصبح في مركز شعيرة يأتيها الناس من كل فج.
وهذا يعطينا معنىً كبيرًا:
الهداية قد تبدأ في دائرة صغيرة جدًا،
ثم يفتح الله لها أفقًا عالميًا.

مكة والبيت والذرية — لماذا لا تكفي كلمة «النسب»؟

في هذا الفصل نتقاطع ثلاثة أنواع من الامتداد:
امتداد الدم،
وامتداد المكان،
وامتداد العهد.
إسماعيل ابن إبراهيم: امتداد نسب.
إسماعيل عند البيت: امتداد مكان مقدس.
إسماعيل في الوصية والرواية: امتداد عهد وعلم.
هذه ليست شيئًا واحدًا.
وقد يستمر النسب وينحرف بعض أهله.

وقد يبقى المكان ويُدخل الناس إليه الشرك.

وقد يُحفظ العهد في شخص دون آخر.

ولهذا سيحتاج الكتاب دائمًا إلى التمييز بين:

من هو الابن؟

من هو ساكن المكان؟

من هو حامل العهد؟

ومن هو النبي؟

هذه الفروق تمنعنا من بناء تاريخ الهداية على الأنساب وحدها.

مادة المقارنة — قادم وأشملك والزوجة المصرية

في آخر الباب الخامس من بحار الأنوار نقل عن كنز الفوائد للكراجكي عن سالم الأعرج مولى بني زريق، يحكي العثور عند حفر بئر على كتابة تنسب نفسها إلى «قادم بن إسماعيل بن إبراهيم»، وأنه فر بدينه من «أشملك». هذه حكاية اكتشاف مروية، لا حديث مسند إلى إمام في هذا النص، ولا نقش محقق أثريًا بين أيدينا؛ فنسجل الاسمين وحدود الشهادة، ولا نضيف قادم يقينًا إلى قائمة الأبناء. [م٢: ح٥٩]

وينقل الباب نفسه من سعد السعود لابن طاوس عن توراة مترجمة خبر هاجر وبرية بئر سبع وفاران، وأن أمه زوجته امرأة مصرية، وذكر اثني عشر رئيسًا. وجود النقل في كتاب إمامي لا يجعله رواية عن أهل البيت. لذلك لا تحل الزوجة المصرية محل الحميرية أو الجرهمية، ولا تنقل جغرافية تلك الرواية إلى زمزم بلا دليل، ولا تستعمل لإكمال أسماء النساء أو الأبناء على أنها أسماء قرآنية. [م٢: ح٥٨]

العهد والذرية قبل البيت — ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

قبل أن ينتقل سياق سورة البقرة إلى البيت وإبراهيم وإسماعيل، يضع القرآن قاعدة شديدة الأهمية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢:١٢٤).

هذه الآية يجب أن تقرأ قبل آيات البيت.

لماذا؟

لأنها تمنع القارئ من أن يساوي بين:

الذرية،

والعهد.

إبراهيم يسأل عن ذريته.

والجواب الإلهي يضع قيدًا:

العهد لا ينال الظالمين.

إذن حتى داخل ذرية إبراهيم لا يصبح النسب ضمانًا للعهد.

وهذا مفتاح بالغ الأهمية لفهم إسماعيل وذريته لاحقًا.

فكونهم من نسل إبراهيم لا يعني أن كل فرد منهم حامل للعهد.

ومن هنا نحتاج دائمًا إلى نص يثبت من حمل العلم أو الوصية أو النبوة.

ثم بعد هذه القاعدة مباشرة يأتي الحديث عن البيت:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...﴾.

كأن السياق يعلّمنا:

العهد له شروط،

والبيت له وظيفة،

والذرية عليها مسؤولية.

إسماعيل في وصية يعقوب لأبنائه — لماذا يسمى العم «أبًا»؟

قال أبناء يعقوب:

﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ (البقرة ٢:١٣٣).

هذه الآية مثيرة للاهتمام من جهة النسب واللغة.

إبراهيم جد يعقوب.

وإسحاق أبوه.

أما إسماعيل فهو عم يعقوب.

ومع ذلك يأتي ضمن:

﴿آبَائِكَ﴾.

وهذا يدل على سعة استعمال «الأب» في لسان القرآن والعرب، فقد يشمل العم أو الأصل الأكبر في السياق.

وهذه ملاحظة منهجية مهمة عندما نقرأ الأنساب والروايات.

ليس كل استعمال لكلمة «أب» في نص قديم مساويًا حتمًا للأب المباشر.

ومن جهة الهداية، الآية تجمع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق داخل توحيد واحد.

فلا مجال لقراءة إسماعيل وإسحاق كخطين دينيين متعارضين في أصل الدعوة.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ... كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾

قال تعالى:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ (البقرة ٢:١٤٠).

هذه الآية تمنع إسقاط الهويات الدينية المتأخرة على الأنبياء السابقين.

إسماعيل سابق تاريخيًا لليهودية والمسيحية بصورهما اللاحقة.

والقرآن لا يريد أن تتحول شخصيات الهداية إلى ملكية حصرية لجماعة متأخرة.

هذا مهم جدًا في كتابنا:

نحن لا نكتب «تاريخ قوم» فقط.

نكتب حركة الهداية.

والأنبياء ينتمون أولًا إلى عبودية الله.

الدعاء بالرسول وصداه في القرآن — هل أجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل؟

في البقرة ٢:١٢٩ دعا إبراهيم وإسماعيل:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

ثم نجد في القرآن بعد ذلك عبارات تكاد تعكس الدعاء نفسه.

قال تعالى:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة ٢:١٥١).

وقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران ٣:١٦٤).

وقال:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة ٦٢:٢).

التشابه في الوظائف واضح:

رسول منهم،

تلاوة الآيات،

التزكية،

تعليم الكتاب،

تعليم الحكمة.

ولهذا يصبح من الطبيعي في البناء القرآني أن نرى بعثة محمد صلى الله عليه وآله جوابًا تاريخيًا عظيمًا للدعاء عند البيت.

إسماعيل والذبح العظيم — رواية الإمام الرضا عليه السلام والربط بالحسين

في عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق باب خاص في تفسير قوله تعالى:

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

تنقل الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام أن الله لما أمر إبراهيم بذبح الكبش بدل ابنه إسماعيل، تمنى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه بيده حتى يبلغ أعلى درجات الصبر على المصيبة.

ثم تسوق الرواية حوارًا يربط حب إبراهيم لمحمد صلى الله عليه وآله وحبه لولده بمصيبة الحسين عليه السلام.

وتقول في نهايتها إن جزع إبراهيم على الحسين جُعل له في منزلة ما كان سيجده من جزع على إسماعيل.

هذه الرواية مهمة في الذاكرة الإمامية لأنها تربط قصة الذبح بكربلاء.

لكن يجب أن نصوغها بدقة.

لا نقول:

القرآن صرح بأن «الذبح العظيم» هو الحسين.

فالآية لا تقول ذلك.

بل نقول:

ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في عيون الأخبار تفسير روائي يربط «الذبح العظيم» بجزع إبراهيم على الحسين عليه السلام ضمن معنى روحي وثواب المصيبة.

وهذا التفريق يحفظ الرواية ولا يخلطها بظاهر النص القرآني.

«أنا ابن الذبيحين» — إسماعيل وعبد الله في رواية الإمام الرضا

في عيون أخبار الرضا أيضًا رواية في تفسير قول النبي صلى الله عليه وآله:

«أنا ابن الذبيحين».

يسأل ابن فضال الإمام الرضا عليه السلام عن المعنى.

فيجيب أن الذبيحين هما:
إسماعيل بن إبراهيم،
وعبد الله بن عبد المطلب.
ثم تشرح الرواية قصة إسماعيل، وتصرح بأنه الغلام الحليم.
وتذكر الكبش الذي فُدي به.
بعد ذلك تنتقل إلى عبد الله والد النبي وقصة نذر عبد المطلب وفدائه بالإبل.
هذه الرواية بالغة الأهمية لخط الكتاب كله.
لأنها تصل:
إسماعيل،
بعبد المطلب وعبد الله،
ثم بمحمد صلى الله عليه وآله.
أي أن «جسر إسماعيل إلى محمد» ليس جسر نسب فقط في الرواية.
إنه جسر ذاكرة دينية أيضًا.

الأضحية ومنى — امتداد ذكر إسماعيل في العبادة

رواية الإمام الرضا في «أنا ابن الذبيحين» تقول إن كل ما يذبح بمنى هو فداء لإسماعيل إلى يوم القيامة.
هذه عبارة روائية، لا آية قرآنية.
لكنها تشرح كيف فهمت الرواية الإمامية استمرار ذكر امتحان إسماعيل داخل الحج.
فتصبح منى ليست مجرد موضع نحر.
إنها، في هذا الخبر، مكان يحمل ذاكرة فداء الابن.
وهذا يربط:
الذبح،
والحج،
ومكة،
وإسماعيل.
ويجعل شخصيته حاضرة في العبادة التي استمرت بعده بقرون.

إسماعيل و«افعل ما تؤمر» — الفرق بين الرؤيا والأمر

تلفت رواية الإمام الرضا النظر إلى عبارة دقيقة في جواب الغلام:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

لم يقل:

افعل ما رأيت.

بل:

ما تؤمر.

وفي الرواية يُفهم هذا على أن الغلام أدرك أن رؤيا النبي تحمل أمرًا إلهيًا في هذا المقام.

ومن هنا نتعمق صورة إسماعيل:

لا يستسلم لرغبة أبيه.

يستسلم لأمر الله.

وهذا فرق جوهري.

فالطاعة الدينية لا تكون للإنسان لذاته.

حتى إبراهيم لا يُطاع لأنه أب فقط.

بل لأن الأمر أمر الله.

دعاء إبراهيم في مكة لا ينتهي عند ١٤:٣٧

من الخطأ أن نقتطع آية الوادي وحدها.

فالسياق يستمر.

قال إبراهيم:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ (١٤:٣٨).

ثم:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (١٤:٣٩).

ثم:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ (١٤:٤٠).

ثم:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (١٤:٤١).

بهذا يصبح مشهد مكة أوسع من الماء والرزق.

هو دعاء:

لإقامة الصلاة،

وللذرية،

وللمغفرة،

وللمؤمنين،

ولليوم الآخر.

وهذا يعطي مشروع إسماعيل في مكة أفقًا أخرويًا لا عمرانيًا فقط.

إسماعيل والبيت المحرم — هل كان البيت قائمًا عند إسكانه؟

في إبراهيم ١٤:٣٧ يقول إبراهيم:

﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وفي البقرة ٢:١٢٧ نقرأ عن رفع القواعد؛ مقابلة الموضعين لا تكفي وحدها لتحديد تاريخ جميع مراحل البناء.

هذا فتح بابًا للتفسير:

هل كان موضع البيت معروفًا قبل رفع إبراهيم القواعد؟

هل كانت هناك قواعد أقدم؟

هل أعاد إبراهيم بناء بناء سابق؟

القرآن يثبت أمرين:

إسكان الذرية عند «بيتك المحرم».

ورفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت.

أما التفاصيل السابقة على ذلك فتأتي من الروايات.

وروايات الإمامية، كما رأينا في فصل آدم، تتحدث عن موضع البيت قبل إبراهيم.

إذن لا يوجد اضطرار إلى القول إن إبراهيم أنشأ قداسة المكان من الصفر.

لكن لا يجوز أيضًا أن نملأ تاريخ البناء قبل إبراهيم بتفاصيل غير محققة.

إسماعيل وبيتٍ «مثابة» — لماذا يعود الناس؟

قال تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾.

المثابة موضع يعود إليه الناس مرة بعد مرة.

وهذا المعنى ينسجم بشكل عجيب مع قصة إسماعيل.

الطفل الذي بدأ في واد لا يمر به الناس كثيرًا

يصير ساكنًا عند بيت يعود إليه الناس.

المكان الذي احتاج أن تأتيه قافلة بسبب الماء

يصير مكانًا تقصده القوافل للحج.

هذه الحركة من العزلة إلى المثابة هي واحدة من أكبر تحولات الفصل.

إسماعيل وحرمة مكة — الأمن ليس مجرد غياب الحرب

طلب إبراهيم الأمن لمكة.

والبيت نفسه جعله الله أمنًا.

لكن الأمن القرآني ليس فقط غياب السيوف.

هو أيضًا بناء مساحة يستطيع الناس أن يقصدوا فيها الله.

ولهذا ترتبط الحرمة بالمناسك.

وسيصبح الاعتداء على حرمة البيت لاحقًا مسألة دينية كبرى في تاريخ مكة.

أما تفاصيل حدود الحرم، ومن نصب أنصابه، وكيف جددت علاماته، فتحتاج إلى روايات خاصة ولا نحمّلها كلها لفصل إسماعيل.

وصية إبراهيم لبنيه وسؤال يعقوب

تقول البقرة ٢:١٣٢ إن إبراهيم وصى بها بنيه ويعقوب، ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. لا يسمي النص كل ابن حاضر عند الوصية، لكن إسماعيل داخل أبناء إبراهيم المعروفين من آيات أخرى. والآية التالية تصور سؤال يعقوب أبناءه عند الموت، فيجيبون أنهم يعبدون إلهه وإله آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا (٢:١٣٣). هو ترتيب في عبارة جوابهم، وليس شجرة وصاية زمنية. [ق]

حين نبحث انتقال العهد لا يجوز حذف هذا الأصل القرآني لمصلحة خبر نسبي أطول. الوصية المصرح بها في الآية هي الثبات على الدين والتوحيد؛ أما تسليم صحيفة أو اسم أعظم أو منصب خاص من إبراهيم إلى إسماعيل ثم إسحاق فتورده رواية اتصال الوصاية، ويظل تحقيق سندها ودلالتها منفصلًا.

يمكن أن يثبت للبيت وصية بالتوحيد بنص القرآن، وتُروى سلسلة مسؤولية خاصة بخبر آخر، من غير أن نساوي بين مدلوليهما. [ق؛ ر: الصدوق، كمال الدين، خبر اتصال الوصاية]

وتظهر الآية حراسة معنى الأمة: حين يسأل يعقوب بنيه «ما تعبدون من بعدي» لا يسألهم بأي اسم قبلي ينتسبون، بل يختبر وجهة عبادتهم. لذلك إذا اختلفت كتب الأنساب في أسماء ذرية إسماعيل أو في أمهات بعضهم، فلا ينبغي أن تتقدم تلك القوائم على سؤال التوحيد الذي جعله القرآن في قلب البيت الإبراهيمي. [ق]

دليل الشخصيات وحدود الاستيعاب

الشخصيات المباشرة في بناء الفصل: إبراهيم وإسماعيل وهاجر، وإسحاق وسارة في الفرع الآخر وفي الأخبار المختلفة، ثم زوجات إسماعيل بأسمائهن المختلف فيها أو بوصفهن، وأبناؤه وبناته غير المسمين. ومن المادة التاريخية: نابت وقيدار، وهالة، والسيدة بنت الحارث بن مضاض، وسماة/سامة، وزعلة أو عمادة، مع الامتناع عن توحيد الهويات بغير دليل. أما النساء العاملات في الكسوة والزوج السابق للحميرية وقوافل اليمن وجرهم والعماليق والحجاج، فلهم أدوار محفوظة بلا أسماء فردية. [م١–م٤]

ويظهر جبرئيل والملائكة الأربعة غير المسمين وإبليس في الأخبار، ويظل إسماعيل بن حزقيل وأبوه حزقيل والملك سطاطائيل في مسار متميز. وترد أسماء اليسع ويونس ولوط وإدريس وذي الكفل في سياقات الثناء القرآني المقارنة، لا بوصفهم حاضرين في مكة مع إسماعيل (الأنعام ٦:٨٦؛ الأنبياء ٢١:٨٥؛ ص ٣٨:٤٨). ويظهر يعقوب وبنوه في سؤال التوحيد (البقرة ٢:١٣٣)، وموسى في الخبر الزمني، وهارون وابناه في رواية الحجر، ثم عدنان ومعد وقصي وغيرهم في العصور التالية. ومحمد وآله، وعبد الله وعبد المطلب، وآمنة وعلي بن الحسين، يحضرون في الدعاء وتأويل الفداء وامتداد ميراث البيت بحسب مواضعهم، لا في مجلس تاريخي واحد.

هذه المراجعة تستوعب مواضع اسم إسماعيل القرآنية الاثني عشر والآيات المتصلة بالبيت والذبح، وتقابل أبواب المصادر المحددة في الإحالات. لا تعني أنها تثبت جميع الأخبار أو تحيط بكل نسخة مخطوطة وكل رواية في التراث. وإذا لم يثبت اسم امرأة أو رجل أو تاريخ أو سند، فإبقاء المجهول مجهولًا جزء من إكمال الفصل، وليس نقصًا يملأ بالاختلاق.

الدروس الكبرى من فصل إسماعيل

أولًا: التوكل لا يلغي الحركة.

هاجر توكلت وسعت.

ثانيًا: العبادة تحتاج إلى تعليم.

إبراهيم وإسماعيل دعوا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

ثالثًا: العمل الصالح يحتاج إلى قبول.

بعد رفع البيت قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.

رابعًا: النسب لا يضمن الهداية.

دعوا لأمة مسلمة من ذريتهما، لا لكل فرد بلا استثناء.

خامسًا: الأسرة يمكن أن تحمل مشروع هداية.

إبراهيم، هاجر، إسماعيل، وزوجته في الرواية، لكل واحد دور مختلف.

سادسًا: المكان يصبح مقدسًا بالطاعة لا بالقوة.

مكة تبدأ واديًا غير ذي زرع، ثم تصبح قلب حج الناس.

سابعًا: الدعاء قد يمتد عبر قرون.

الدعاء بالرسول القادم ينتظر حتى بعثة محمد صلى الله عليه وآله.

ثامنًا: اختلاف الروايات لا يُحل بالحذف.

الذبيح مثال واضح.

تاسعًا: المرأة جزء من تاريخ الهداية.

هاجر وزوجة إسماعيل ليستا هامشًا.

عاشرًا: حركة الهداية لا تسير في خط نسبي واحد.

بعد إبراهيم يتفرع المشهد إلى مكة الإسماعيلية والخط الإسحاقي، مع بقاء الجميع داخل العهد الإبراهيمي.

خاتمة الفصل الخامس عشر — من مكة إلى إسحاق

بدأ إسماعيل طفلاً في واد غير ذي زرع.

ارتبطت به أمه هاجر في السعي وزمزم بحسب الرواية.

تعلم المناسك.

شارك أباه في رفع البيت.

دعا معه لأمة مسلمة ورسول آتٍ.

ويثبت القرآن لإسماعيل بن إبراهيم البنوة لإبراهيم والشراكة في رفع البيت، وتذكره آيات أخرى في سياق الوحي والصبر والخير، أما «صادق الوعد» فتبقى هوية صاحبها محل تمييز روائي كما بيّنا.

وتحفظ إحدى روايات الوصية انتقالها منه إلى إسحاق، مع بقاء اختلاف الأخبار الذي بيناه.

ومن هنا لا نغادر مكة لننساها، بل نترك فيها خطًا سيعود إلى محمد صلى الله عليه وآله، وننتقل الآن إلى الفرع الآخر من بيت إبراهيم: إسحاق عليه السلام.

المصادر والمراجع

إحالات المقابلة التفصيلية ويرمز حرف م للمصدر

[م١] الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت ومن ولي البيت بعدهما، الأحاديث ١–١٩. أحكام الأسانيد المذكورة من مرآة العقول وصحيح الكافي كما يعرضها النص المقابل؛ وهي أحكام أصحابها.

[م٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، الباب ٥: أحوال أولاده وأزواجه وبناء البيت، مع تعيين المصدر السابق ورقم الخبر داخل الفصل. الباب جامع للروايات والآثار والتفسير والمقارنة، ولا تتساوى جميع مادته في النسبة أو الصحة.

[م٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، الباب ٦: قصة الذبح وتعيين الذبيح، الأخبار ١–١٧ وتعليقات المصنف. تنسب المادة إلى أصولها: العيون والخصال والعلل وقرب الإسناد وأمالي الطوسي ومعاني الأخبار والكافي والتفسيرين، ولا تحول تعليقات الجامع إلى كلام الإمام.

[م٤] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص١٠٣–١١٦، ولا سيما الأحاديث ١٠٦–١١٣؛ مقابلة نص الزوجة «سماة» وزيارات إبراهيم وأعمار الوفاة مع نقل البحار.

[م٥] ابن قولويه، كامل الزيارات، الباب ١٩: علم الأنبياء بقتل الحسين، الأحاديث ١–٤، ص٦٣–٦٥ في النسخة المقابلة؛ خبر إسماعيل بن حزقيل واسم سطاطائيل في ح٣.

أولًا: القرآن الكريم

البقرة ٢:١٢٤–١٢٩ — البيت، رفع القواعد، القبول، الإسلام لله، الأمة المسلمة، المناسك، والدعاء للرسول القادم.

البقرة ٢:١٣٢–١٣٣، ٢:١٣٦، ٢:١٤٠ — إسماعيل في السلسلة الإبراهيمية والتوحيد. وتُقارن دعوة الرسول بالبقرة ٢:١٥١ وآل عمران ٣:١٦٤ والجمعة ٦٢:٢.

آل عمران ٣:٨٤ — الإيمان بما أوتي إبراهيم وإسماعيل وسائر الأنبياء.

النساء ٤:١٦٣ — الوحي إلى نوح والنبيين، ومنهم إسماعيل.

الأنعام ٦:٨٦ — إسماعيل ضمن سياق الأنبياء المفضلين.

إبراهيم ١٤:٣٥–٤١، وبخاصة ١٤:٣٧ و١٤:٣٩ — الوادي غير ذي الزرع، الذرية عند البيت، وهبة إسماعيل وإسحاق على الكبر.

مريم ١٩:٥٤–٥٥ — «إسماعيل صادق الوعد»، مع ضرورة بيان الروايات الإمامية التي تميزه عن إسماعيل بن إبراهيم.

الأنبياء ٢١:٨٥–٨٦ — إسماعيل في الصابرين والصالحين وفي رحمة الله.

الحج ٢٢:٢٦-٢٩ — البيت والأذان بالحج والمناسك في المرحلة الإبراهيمية.

الصافات ٣٧:٩٩-١١٣ — الغلام الحليم وامتحان الذبح والفداء ثم البشارة بإسحاق، الابن في مشهد الذبح غير مسمى صراحة.

ص ٣٨:٤٨ — إسماعيل واليسع وذو الكفل من الأخيار.

آل عمران ٣:٩٦-٩٧ — أول بيت ببكة والحج.

ثانيًا: الكافي — المصدر المركزي لمكة والبيت

الكليني، الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب «حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت ومن ولي البيت بعدهما»، ١٩ حديثًا.

الحديث ١ — نقل إسماعيل وأمه إلى موضع الحجر، حال مكة، وهاجر والسعي والماء في أحد طرق الخبر.

الحديث ٢ — سعي أم إسماعيل سبع مرات بين الصفا والمروة، زمزم، قافلة اليمن، وبداية الرزق؛ حكم المجلسي: حسن.

الحديث ٣ — تعليم جبرئيل إبراهيم وإسماعيل الإحرام والتلبية والطواف والمناسك، بناء البيت، زوجة إسماعيل من حمير، كسوة البيت وعمارته.

الحديث ٤ — بناء البيت وموضع الحجر الأسود والأذان بالحج، مع حفظ اختلاف النقل في تعيين الذبيح.

الأحاديث ١١-١٢ — حدود المسجد في روايات مرتبطة بإبراهيم وإسماعيل.

الحديث ١٣ — دفن إسماعيل أمه في الحجر وحمايته موضع قبرها.

الحديث ١٤ — «الحجر بيت إسماعيل وفيه قبر هاجر وقبر إسماعيل»، بطريق مستقل أضعف.

الحديث ١٥ — دفن أم إسماعيل في الحجر ووجود قبور أنبياء؛ حكم المجلسي: صحيح.

الحديث ١٧ — بنو إسماعيل ولاة البيت، وتعليم الحج وأمر الدين، وبقاء أجزاء من الحنيفية حتى زمن عدنان؛ حكم المجلسي: موثق كالصحيح.

الحديث ١٨ — خبر مرسل عن مراحل جرهم وخزاعة وقصي بعد عدنان. الحديث ١٩ — بقايا الحنيفية ثم جيش أهل الشام والمنجنيق؛ ليست هذه الشخصيات من زمن إسماعيل.

ثالثًا: «صادق الوعد» وتمييز إسماعيل بن حزقيل

الشيخ الصدوق، علل الشرائع، باب العلة التي من أجلها سمي إسماعيل صادق الوعد — روايات في الانتظار والوفاء، ورواية تصرح بأن إسماعيل مريم ١٩:٥٤ ليس إسماعيل بن إبراهيم بل إسماعيل بن حزقيل.

الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٧٩ في بعض الطبعات — خبر انتظار إسماعيل لمن وعده حولًا.

ابن قولويه، كامل الزيارات، ص٦٤-٦٥ في بعض الطبعات — خبر أذى إسماعيل صادق الوعد وربطه بأسوة الحسين عليه السلام.

تفسير القمي، عند مريم ١٩:٥٤؛ ونور الثقلين، ج٣، ص٣٤٢ في بعض الطبعات — جمع الروايات في تعيين إسماعيل صادق الوعد.

المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٨٨-٣٩٠ في بعض الطبعات — جامع للمادة، لا مصدر تصحيح مستقل.

رابعًا: الذبيح

القرآن الكريم، الصافات ٩٩:٣٧-١١٣ — لا يسمّي الابن في مشهد الذبح.

قرب الإسناد للحميري — خبر سؤال الإمام الرضا عليه السلام: إسماعيل أم إسحاق؟ وجوابه بإسماعيل.

أمالي الشيخ الطوسي — رواية عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «الذبيح إسماعيل».

معاني الأخبار للصدوق — رواية مفصلة في تعيين إسماعيل وبيان ترتيب البشارتين.

الكافي، ج٤، كتاب الحج، الباب ٧، الحديث ٤ — يحفظ اختلافًا داخل المادة المنقولة بين تعيين إسحاق وإسماعيل.

الصدوق، عيون أخبار الرضا، في تفسير قول النبي صلى الله عليه وآله «أنا ابن الذبيحين» وما ذكره الصدوق بعده من اختلاف الروايات ومحاولة الجمع.

بحار الأنوار، أبواب قصة الذبح وتعيين الذبيح — جامع للأخبار المتعارضة ومناقشاتها.

خامسًا: اللسان العربي

تحف العقول، المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام: «أول من شق لسانه بالعربية إسماعيل بن إبراهيم...» مع كونه خبرًا مرفوعًا يحتاج إلى حذر سندي.

تُذكر أخبار جرهم وتعليم العربية في كتب التاريخ والأنساب للمقارنة، لا بوصفها قرآنًا أو حديثًا إماميًا ثابتًا بمجرد شهرتها.

سادسًا: الوصية واستمرار العهد

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب ٢٢، ح١؛ ويقارن بالأمالي، المجلس ٦٣، ح٣. يرد انتقال الوصية من إبراهيم إلى إسماعيل ثم إسحاق في السلسلة المشتركة المارة بمقاتل بن سليمان؛ فتعدد مواضع الطباعة ليس بالضرورة تعددًا مستقلًا للأسانيد.

الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، باب الوصية من لدن آدم — شاهد موازٍ على سلسلة الاتصال.

الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب»، ص٤٤–٤٥: هالة بنت الحارث، قيدار، ثلاثة عشر ذكرًا، عمر مائة وعشرين سنة، ووصية إسماعيل إلى إسحاق مع صيغة مشاركة؛ خبر تاريخي روائي تُفحص نسبة الكتاب وطرقه، ويقارن بالكافي ج٤، كتاب الحج، الباب ٧، ح٣، وبخبر الصدوق، ولا يثبت تفصيله بمجرد وروده في الكتاب.

تنبيه: بعض طرق السلسلة يمر بمقاتل بن سليمان، ولذلك تُحفظ بوصفها رواية وصاية ولا تُحوّل إلى تاريخ قطعي.

سابعًا: المصادر التفسيرية والجامعة

تفسير العياشي وتفسير القمي عند آيات البيت والذبح وإسماعيل.

الفيض الكاشاني، الصافي.

الحويزي، نور الثقلين.

الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، عند البقرة ٢:١٢٥–١٢٩، إبراهيم ١٤:٣٧–٣٩، مريم ١٩:٥٤–٥٥، والصافات ٣٧:٩٩–١١٣.

المجلسي، بحار الأنوار، أبواب إبراهيم وإسماعيل والحج والذبح، بوصفه جامعًا ووسيلة للوصول إلى المصادر الأقدم لا حكمًا آليًا بصحة الرواية.

ثامنًا: ما لا نعتمده بلا تحقيق مستقل

قوائم الاثني عشر ابنًا وأسماؤهم مثل نابت وقيدار محفوظة في كتب الأنساب والتاريخ وتختلف ألفاظها، فلا تُجعل حديثًا إماميًا لمجرد شهرتها.

ولا نثبت اسمًا شخصيًا للزوجة الحميرية في رواية الكافي لأنها لا تسميها؛ ويسمي خبر «إثبات الوصية» هالة بنت الحارث زوجةً أخرى مذكورة في ذلك النص، من غير دليل كافٍ على اتحاد المرأتين.

ولا ننسب الكتب الهرمسية أو الأخبار الكتابية المتأخرة إلى إسماعيل بوصفها وحيًا إسلاميًا.

الفصل ١٦ — إسحاق عليه السلام — البشارة وامتداد الهداية في الشام

من إسماعيل إلى إسحاق — فرعان في بيت واحد لا خصمان

أنهينا الفصل السابق عند إسماعيل ومكة والبيت. لكن بيت إبراهيم لم يكن خطًا واحدًا. القرآن نفسه يجمع إسماعيل وإسحاق في حمد إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

إسحاق يأتي في القرآن بالبشارة، والبركة، والنبوة، ثم منه يعقوب، ومن خط يعقوب تتشكل مرحلة واسعة من بني إسرائيل.

وفي رواية اتصال الوصاية يمر العهد: إبراهيم ← إسماعيل ← إسحاق ← يعقوب. وهي صورة تمنع تحويل أبناء إبراهيم إلى أصل لصراع مصطنع.

إسحاق في القرآن — خريطة أوسع لجميع المواضع التي تمس قصته

إلى جانب المواضع الأساسية المذكورة في هذا الفصل، ينبغي أن تبقى الخريطة القرآنية كاملة قدر الإمكان:

البقرة ٢:١٣٣: يعقوب يوصي بنيه بالتوحيد، ويذكرون إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

البقرة ٢:١٣٦: الإيمان بما أُنزل إلى الأنبياء؛ و٢:١٤٠: رد دعوى أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى، والتحذير من كتمان الشهادة.

آل عمران ٣:٨٤: ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط في خطاب الإيمان بالوحي.

النساء ٤:١٦٣: ذكر إسحاق في سلسلة من أوحى الله إليهم.

الأنعام ٦:٨٤: هبة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وهدايتهما.

هود ١١:٧١–٧٣: البشارة الصريحة لامرأة إبراهيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

يوسف ١٢:٦: يعقوب يخاطب يوسف بتمام النعمة على آل يعقوب كما أتمها الله على إبراهيم وإسحاق؛ وفي ١٢:٣٨ يعلن يوسف في السجن اتباع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

إبراهيم ١٤:٣٩: حمد إبراهيم على هبة إسماعيل وإسحاق على الكبر.

مريم ١٩:٤٩: هبة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وجعل كل واحد منهما نبيًا.

الأنبياء ٢١:٧٢–٧٣: إسحاق ويعقوب هبة نافلة، وصلاح، وإمامة وهداية بأمر الله، وفعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

العنكبوت ٢٩:٢٧: جعل النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم بعد هبة إسحاق ويعقوب.

الصافات ٣٧:١١٢-١١٣: البشارة بإسحاق نبيًا من الصالحين، والبركة، ثم تقرير أن الذرية لا تكون كلها على مستوى واحد من الطاعة.

ص ٣٨:٤٥-٤٧: إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، مخلصون بذكرى الدار، ومن الأخيار.

الذاريات ٥١:٢٨-٣٠: البشارة بغلام عليم وتعجب الزوجة العجوز العقيم؛ لا يُذكر اسم إسحاق في المقطع، لكن يُقرأ مع البشارة الصريحة في هود.

الحجر ١٥:٥١-٥٦: بشارة الغلام العليم وتعجب إبراهيم من الولادة على الكبر؛ الاسم غير مصرح به في المقطع نفسه.

هذه الخريطة تكشف أن القرآن لا يقدم إسحاق في قصة واحدة طويلة، بل يوزع شخصيته على أربعة محاور:

البشارة.

النبوة والصلاح.

البركة والهداية.

والامتداد إلى يعقوب والذرية النبوية.

ضبط الحصر القرآني ودلالة السياق

ورد اسم إسحاق ١٧ مرة في ١٦ آية؛ فالاسم مكرر في هود ١١:٧١. المواضع المسماة هي: البقرة ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠؛ آل عمران ٨٤؛ النساء ١٦٣؛ الأنعام ٨٤؛ هود ٧١؛ يوسف ٦، ٣٨؛ إبراهيم ٣٩؛ مريم ٤٩؛ الأنبياء ٧٢؛ العنكبوت ٢٧؛ الصافات ١١٢، ١١٣؛ ص ٤٥. أما الحجر والذاريات فتدخلان من سياق البشارة، لا من ورود الاسم فيهما. [م١٠]

وفي مريم ١٩:٥٠ تأتي هبة الرحمة ولسان الصدق بعد ذكر إسحاق ويعقوب؛ فلا ينتهي السياق عند ١٩:٤٩. وتكمل الأنعام ٦:٨٥-٨٩ تعداد أنبياء الهداية والاصطفاء والكتاب والحكم. التعداد يجمع أنبياء من عصور متعددة، ولا يجعلهم جميعًا معاصرين لإسحاق أو أبناءه المباشرين.

ضيوف إبراهيم وبشارة إسحاق وخبر لوط

تبدأ البشارة بضيوف يسلّمون، وبإبراهيم يقدم عجلًا، ثم يخاف حين لا تمتد أيديهم إلى الطعام. يطمئنونه ويخبرونه بمهمتهم إلى قوم لوط (هود ١١:٦٩-٧٦؛ الذاريات ٥١:٢٤-٣٧). وفي الذاريات تقبل الزوجة في صرة وتصك وجهها، وتصف نفسها بالعجوز العقيم؛ ويجيء الجواب منسوبًا إلى ربها العليم الحكيم. وفي الحجر ١٥:٥٤-٥٦ يتعجب إبراهيم من البشارة على الكبر ويصرح برفض القنوط من رحمة الله. لذلك لا نصفه باليأس من الله.

الرسل غير مسمين في هذه الآيات. ينقل مجمع البيان، كما أورده المجلسي في بحار الأنوار ج١٢، باب أحوال أولاد إبراهيم وأزواجه، أقوالًا في عددهم: ثلاثة بأسماء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، وأربعة مع قول بإضافة كروبيل، وأعدادًا أخرى. هذه أقوال متفاوتة النسبة، وليست قائمة قرآنية ولا خبرًا واحدًا متفقًا عليه. وتصل المهمة إلى لوط وأهله مع استثناء امرأته؛ أما بناته فلهن سياقهن في قصة لوط، لا في تلقي بشارة إسحاق. [م٨]

إسحاق نبيًا من الصالحين

الصافات تحسم مقامه:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فنبوة إسحاق ليست استنتاجًا من نسبه، بل نص قرآني.

ثم تقول الآية التالية إن البركة لا تلغي المسؤولية:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

وهذا قانون مهم في الكتاب كله: النسب المبارك يفتح باب الأمانة، ولا يمنح حصانة من الاختيار.

سارة والبشارة بإسحاق — الرؤية الإمامية لمقامها

سبق أن تناولنا سارة عليها السلام في الفصل الرابع عشر، لكن بشارة إسحاق هي اللحظة التي تلتقي فيها قصتها مباشرة بسيرة ابنها.

القرآن يثبت أنها خاطبت الملائكة وخاطبوها، وأنها تلقت البشارة بإسحاق ومن بعده يعقوب.

وهنا قد يسأل القارئ: هل رؤية الملائكة ومخاطبتهم تجعل سارة نبية؟

في علل الشرائع للصدوق (ج١، ص١٨٢-١٨٣) ورد الخبر عن محمد بن أبي بكر، وفيه التمييز بين النبوة والتحديث، وذكر سارة ممن عاينت الملائكة ولم تكن نبية. ليست هذه العبارة في هذا الطريق قولًا مباشرًا لأحد الأئمة؛ ويعقبها تعليق للصدوق، فلا تُمزج طبقات المتكلمين. [م٤]

وهذه الرواية مهمة لمنهج الكتاب:

المقام الروحي العظيم لا يقتضي أن نسمي صاحبه نبيًا بلا نص.

وقد ترى المرأة الملائكة أو تُحدَّث من غير أن تكون نبية بحسب هذا الخبر.

إذن سارة في قصة إسحاق:

زوجة إبراهيم.

الأم التي تلقت البشارة.

امرأة خاطبتها الملائكة.

لكننا لا نثبت لها نبوة.

نساء الخبر وحدود النسبة

يجمع النص المذكور في علل الشرائع سارة ومريم وأم موسى وفاطمة عليها السلام أمثلةً في بحث التحديث. صلتهن هنا مقارنة في المقام، لا اجتماعًا في زمان إسحاق. وعبارة «ولا محدث» الواقعة في الخبر ليست جزءًا من نص آية الحج ٢٢:٥٢ في المصحف؛ فلا تُدرج في اقتباس قرآني. [م٤]

هل كان إسحاق هو الذبيح؟ — موضع الاختلاف وحدود هذه السيرة

فُصّلت الروايات في الفصل الخامس عشر. لا تسمي الصافات ٣٧:٩٩-١١٣ الابن داخل مشهد الذبح، وتأتي بعدها البشارة بإسحاق. استدل بذلك القائلون بإسماعيل، وتؤيدهم أخبار عن الرضا والصادق وأمير المؤمنين عليهم السلام؛ لكن الكافي يحفظ في ح٤ من باب حج إبراهيم وإسماعيل نقل أبي بصير عن الباقر والصادق بتعيين إسحاق، مقابل قول زرارة بإسماعيل، وفي ح٩ خبرًا يسمي الأم سارة ويصف مرضها الأخير.

لا تُحذف هذه الأخبار ولا تُبنى سيرة إسحاق على أن تعيينه ذبيحًا أمر متفق عليه. وتأتي أدناه محاولة الصدوق تفسير اختلاف الأخبار؛ أما سرد الامتحان وطرق رواياته فموضعهما الفصل السابق.

مولد إسحاق وأعمار أبويه — ما بين القرآن والرواية والتاريخ

القرآن يثبت أن البشارة جاءت وإبراهيم وامرأته في الكبر.

وتقول امرأة إبراهيم:

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

وفي الذاريات تقول:

﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

هذه النصوص تثبت العجز البشري الظاهر أمام القدرة الإلهية، لكنها لا تعطي عمرًا رقميًا لإبراهيم أو سارة عند الولادة.

الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية» (ص٤٥) يقول إن سارة كانت ابنة تسعين سنة وإبراهيم فوق المائة عند البشارة، ويصور استغراب المحيطين من ولادتهما ثم إقرارهم بعد رؤية شبه المولود بأبويه. ويذكر في خبر وفاة إسماعيل (ص٤٥) أن إسماعيل يكبر إسحاق بخمس سنوات. هذه أرقام ومشاهد من خبر تاريخي روائي يحتاج تحقيق نسبة الكتاب وطريقه؛ لا يذكر القرآن أي رقم أو موقف الناس من شبه الطفل.

أما بعض الروايات الإمامية فتؤكد ترتيب إسماعيل قبل إسحاق من غير أن تعطينا دائمًا رقمًا واحدًا متفقًا عليه.

لذلك لا نجعل الأرقام التاريخية جزءًا من النص القرآني، ولا نعتمد فرقًا زمنيًا واحدًا إلا مع نسبته إلى مصدره.

خبر ختان إسحاق — رواية تحتاج تقويمًا

روى الصدوق في علل الشرائع خبر محمد بن قزعة عن الصادق عليه السلام، وفيه سارة وهاجر وإسماعيل، ثم أمر إبراهيم بختان إسحاق في سياق اليوم السابع. وينسب الخبر سببًا لذلك إلى تعيير سارة لهاجر. يُحفظ الخبر بنسبته ولا يُجعل وصفًا قطعيًا لسارة أو تفسيرًا طبيًا عامًا؛ كما تحتاج دعواه عن أحوال أولاد الأنبياء إلى مقابلة سائر الأخبار. لم يذكر القرآن هذا الحدث، ولا يُستخرج منه حكم بصحة جميع تفاصيله. المصدر المباشر: علل الشرائع، ج٢، ص٥٠٥–٥٠٦، باب ٢٧٤، ح١؛ وموضع نقله في البحار مبين في قائمة المصادر.

زوج إسحاق وأسرته — حدود ما نعرفه

القرآن لا يسمي زوجة إسحاق.

ولا يروي قصة زواجه.

ولا يذكر أبناء له بالاسم سوى ظهور يعقوب بوضوح في البشارة والذرية.

الأسماء المشهورة في كتب الأنساب، مثل رفقة، تنتمي إلى التاريخ والنقل الكتابي وما دخل كتب القصص، ولا ينبغي جعلها حقيقة قرآنية أو رواية إمامية ثابتة من غير نص مستقل.

لذلك يثبت هذا الفصل الأسرة بقدر النص:

إسحاق ابن إبراهيم.

يعقوب ابنه في السلسلة القرآنية والتقليد الإسلامي.

وما وراء ذلك يُعرض بدرجة مصدره.

العيص، قرابة الزوجة، وتسليم المواريث — خبر «إثبات الوصية»

يذكر الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب» (ص٤٥–٤٦) أن إسحاق قام بالأمر والنبوة بعد إسماعيل، وأنه تزوج من جهة أخواله في الشام، فولد له يعقوب والعيص. لا يسمي الخبر المرأة؛ فلا نثبت أنها «رفقة» اعتمادًا على هذا النص، ولا نجزم بتعيين درجة قرابتها من عبارة «من أخواله». وهو يصف العيص لاحقًا بأنه أخو يعقوب، ويدخل تفصيل صراعهما في سيرة يعقوب في الفصل التالي. القرآن يبشر بيعقوب من وراء إسحاق، ولا يسمي العيص أو زوجة إسحاق. إذن لدينا

اسم أخٍ ليعقوب في خبر تاريخي روائي داخل كتاب متداول إماميًا، لا اسمٌ قرآني ولا رواية ذات إسناد محقق هنا.

ويقول الخبر عند وفاة إسحاق إنه استودع يعقوب الاسم الأعظم والنور والمواريث، ثم يذكر دفنه في بيت المقدس وأن عمره مائة وثمانون سنة (ص٤٦). هذا يضيف تفاصيل للانتقال الذي تختصره رواية اتصال الوصاية عند الصدوق بقولها إن إسحاق أوصى إلى يعقوب. لا يحكي القرآن مشهد الوفاة أو مكان القبر أو العمر. ونسبة «إثبات الوصية» وطرق هذه الفقرات تحتاج تحقيقًا، فلا نرفع وصف الزوجة أو تفاصيل المواريث أو الموضع والعمر إلى درجة القطع. وذكر العيص لا يثبت له نبوة أو وصاية؛ الحامل التالي للعهد في الخبر هو يعقوب.

بنت إسحاق، عمة يوسف — المرأة التي غابت عن فهرس الأسرة

في عيون أخبار الرضا، ج٢، باب٣١، ح٥-٦، يروي إسماعيل بن همام والحسن بن علي الوشاء عن الإمام الرضا عليه السلام خبر عمة يوسف ومنطقة إسحاق الموروثة. أحبّت الصبي وأرادت بقاءه عندها، فوضعت المنطقة عليه ثم ادعت فقدها. لا يسمي هذان الخبران العمة. وصلتهما بيوسف ١٢:٧٧ تفسير لكلام الإخوة، لا إثبات لسرقة فعلية من يوسف. [م١]

وفي الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩، ح٥٣، خبر عن أبي محمد العسكري عليه السلام يسميها «سارة بنت إسحاق بن إبراهيم»، ويصرح بأنها سُمّيت باسم أم إسحاق. إذن سارة الأم وسارة البنت شخصيتان في هذا الخبر. طريقه يمر بمحمد بن الحسن بن شمون، فلا يكفي وجود الاسم للجزم بثبوته. نُثبت البنت في سجل الأخبار مع هذا القيد، ولا تُمنح نبوة أو وصاية بسبب حيازتها المنطقة. [م٢]

ميثاق إبراهيم وحدود التعميم في ذرية إسحاق

قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فلما سأل: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، جاء الجواب: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢:١٢٤). تتصل الآية بفرعي إسماعيل وإسحاق، لكنها لا تسمي كل فرد من الذرية إمامًا أو وصيًا. ويضم القرآن إليها وصية إبراهيم ويعقوب لبنيهما بالثبات على الدين، وسؤال يعقوب أبناءه عما يعبدون من بعده (البقرة ٢:١٣٢-١٣٣). فامتداد الهداية في بيت إسحاق ثابت، أما تعيين كل حامل للعهد وترتيب انتقاله فيُبحث في الروايات بأسانيدها، ولا يستخرج من مجرد النسب.

إسحاق في رواية اتصال الوصاية

رواية الصدوق الطويلة تقول:

أوصى إبراهيم إلى إسماعيل،

وأوصى إسماعيل إلى إسحاق،

وأوصى إسحاق إلى يعقوب.

وهذا يجعل إسحاق حلقة واضحة في خط العهد المروي.

يرد الطريق المشترك في أمالي الصدوق وكمال الدين عن الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان، وقد نوقش حال مقاتل؛ فنحفظ نسبة الخبر ولا ندعي تحقيق سنده هنا. و«أوصى» في سياقه انتقال أمانة دينية، لا مجرد مال، من غير أن يفصل كل ما تسلمه إسحاق. وتعدد مواضع الخبر في الكتب لا يثبت استقلال أسانيدها.

إسحاق وحفظ أثر إبراهيم — قميص الجنة من إبراهيم إلى إسحاق ثم يعقوب

من أهم الروايات التي تجعل إسحاق حلقة عملية في انتقال ميراث الأنبياء ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قصة قميص يوسف.

تقول الرواية إن جبرئيل أتى إبراهيم عليه السلام بثوب من ثياب الجنة عندما أُلقي في النار، فلم يضره معه حر ولا برد.

فلما حضرت إبراهيم الوفاة جعله في تميمة وعلقه على إسحاق.

ثم علقه إسحاق على يعقوب.

ثم وصل إلى يوسف.

وعندما أخرج يوسف القميص في مصر وجد يعقوب ريحه، وربطت الرواية ذلك بقوله:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

ثم يقرر الإمام في الخبر مبدأ أوسع:

أن ما ورثه الأنبياء من علم أو أثر انتهى إلى محمد وآله عليهم السلام.

هذا الخبر مهم في «حكاية الهداية» لأنه يعطينا صورة محسوسة لمفهوم الميراث:

إبراهيم

إسحاق

يعقوب

يوسف.

ولا يعني ذلك أن القميص هو الوصاية كلها.

إنه أثر مادي في الرواية يرمز إلى انتقال شيء من آثار النبوة، بينما رواية اتصال الوصاية تتحدث عن انتقال العهد نفسه.

يروى الخبر في الكافي، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح٥، وفي كمال الدين، باب غيبة يوسف، وعلل الشرائع، باب علة وجدان يعقوب ريح يوسف، وترد نظائره في التفسير وبصائر الدرجات. تُحفظ طرقه منفصلة، ولا يُجعل القميص قوة مستقلة عن الله.

وتختلف طرقه ودرجاتها، ولذلك يثبت بوصفه مادة روائية لا نصًا قرآنيًا.

ماريا بن أوس — لقاء إسحاق بالعابد

يورد الراوندي في قصص الأنبياء، ص١١٥-١١٦، ح١١٦، رجلًا اسمه ماريا بن أوس، لا امرأة. يلتقي إسحاق الشاب عند غنم إبراهيم، فيتمنى لقاء الخليل. ينقل إسحاق الخبر لأبيه، ويصف الخبر لقاء إبراهيم بالعابد وعبورهما الماء ثم التعارف والمعانقة. يُذكر دور إسحاق في الوصل بينهما، لكن الفقرة المعروضة لا تسوق إسنادًا مستقلًا متصلًا إلى الإمام؛ فلا نجزم بعمر الرجل الطويل أو الخوارق أو وصف المعانقة بأنها الأولى تاريخيًا. [م٥]

إسحاق والشام — ماذا يثبت؟

القرآن يقول إن الله نجى إبراهيم ولوطًا إلى ﴿الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، ثم يذكر هبة إسحاق ويعقوب.

التفاسير والتاريخ يربطان البيت الإبراهيمي بالشام وفلسطين، لكن الآيات لا تعطي إسحاق عنوانًا جغرافيًا تفصيليًا ولا اسم مدينة عاش فيها.

ولذلك جاء عنوان الفصل «امتداد الهداية في الشام» بوصفه الإطار المعروف للمرحلة، لا بوصفه آية تحدد سيرة إسحاق الجغرافية يومًا بيوم.

عمر إسحاق ووفاته وموضع دفنه — ما الذي يمكن قوله؟

القرآن لا يذكر عمر إسحاق عند الوفاة، ولا موضع قبره.

في رواية مروية في إكمال الدين ونقلها المجلسي في بحار الأنوار عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ترد أعمار عدد من الأنبياء، وفيها أن إسحاق بن إبراهيم عاش مائة وثمانين سنة. ويشمل الخبر أعمار آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف وغيرهم؛ لا تُجمع هذه الأرقام من طرق مختلفة لبناء تقويم قطعي.

هذا رقم روائي، لا قرآني، ويحتاج سنده إلى تقييم مستقل.

أما نسبة قبره إلى مغارة المكفيلة، موضع الحرم الإبراهيمي في حبرون/الخليل إلى جوار إبراهيم وسارة وما يذكر عن زوجته، فهو مشهور في كتب التاريخ والجغرافيا والآثار، لكننا لم نجد في المادة الإمامية الأساسية التي نعتمد عليها نصًا مسندًا قويًا يجعل تحديد القبر جزءًا من سيرة إسحاق القطعية.

لذلك نقول:

ورد في رواية إمامية عمر مائة وثمانين سنة.

واشتهر تاريخيًا دفنه في أرض الخليل.

ولا نجعل أيًّا من التفصيلين آية قرآنية أو يقينًا مستقلًا عن مصدره.

إسحاق في سورة هود — بشارة لامرأة إبراهيم قبل أن يكون قصة مستقلة

قال تعالى:

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود ١١:٧١-٧٣).

هذا الموضع هو مركز قصة إسحاق القرآنية.

البشارة تتجه إلى امرأة إبراهيم.

والاسم يرد صريحًا:

إسحاق.

ثم لا تتوقف البشارة عند الولد.

بل تمتد إلى:

﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

أي أن المرأة لا تُبشر بمولود فقط، بل بخط كامل من الاستمرار.

واللافت أن جواب الملائكة لا يركز على «قوانين الشيخوخة» وإنما يقول:

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

وهكذا تدخل ولادة إسحاق في القرآن تحت عنوان:

قدرة الله،

ورحمته،

وبركاته على أهل البيت.

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ — من هم أهل البيت هنا؟

في سياق سورة هود، الخطاب موجّه إلى بيت إبراهيم.

وهذا مهم لأن القرآن يستخدم «أهل البيت» هنا قبل بيت النبوة المحمدية بقرون.

ولا يترتب على ذلك خلط المقامات أو جعل كل استعمال قرآني لعبارة «أهل البيت» متطابقًا من كل جهة.

لكن الآية تعلمنا معنى أساسيًا:

البيت النبوي قد يكون وحدةً تحمل الرحمة والبركة والتكليف عبر الأجيال.

في هذا البيت:

إبراهيم نبي.

سارة تتلقى البشارة.

إسحاق يولد بوعد.

ويعقوب يُذكر قبل أن يولد.

إنها عائلة تدخل التاريخ بوصفها حاملة لمستقبل الهداية.

الضحك قبل البشارة — ماذا يثبت النص وماذا اختلف فيه المفسرون؟

قال تعالى:

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾.

يرد في النص لفظ «فضحكت» قبل البشارة، ويحتاج تفسيره إلى تمييز المعنى اللغوي عن الأقوال والروايات الآتية.

أما سبب الضحك فقد اختلفت فيه الأقوال:

هل كان فرحًا؟

هل كان تعجبًا؟

هل كان متعلقًا بخبر هلاك قوم لوط؟

أم بمعنى آخر؟

لا يعطينا النص القرآني سببًا صريحًا واحدًا.

لذلك لا نجعل تفسيرًا واحدًا جزءًا من أصل القصة.

هذه قاعدة منهجية صغيرة لكنها مهمة:

حين يذكر القرآن الفعل ولا يذكر علته، لا نملأ العلة باليقين.

تفسير «فضحكت» في رواية الصادق عليه السلام

روى الصدوق في معاني الأخبار، باب معنى الضحك، عن عبد الرحمن بن الحجاج عن الصادق عليه السلام تفسير اللفظ بالحيض. ينبغي ذكر هذه القراءة الروائية صراحة، إلى جانب أقوال الضحك والتعجب والسرور؛ فهي اختلاف في معنى الفعل نفسه، لا في سببه وحده. لا نغيّر ألفاظ الآية، ولا نزعم أن جميع المفسرين اختاروا هذا الوجه. [م٧]

إسحاق والغلام العليم — سورة الحجر والذاريات

في الحجر ١٥:٥٣ يقول الضيوف لإبراهيم:

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

وفي الذاريات ٥١:٢٨:

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

في هذين الموضعين لا يُسمّى الغلام داخل الآيات نفسها.

لكن سورة هود تسمي إسحاق في البشارة لامرأة إبراهيم، ولذلك يقرأ جمهور المفسرين هذه المشاهد معًا.

ومع ذلك يبقى الانضباط مهمًا.

نقول:

الغلام العليم في هذا السياق يُفهم تفسيرًا على أنه إسحاق عند جمع المواضع.

ولا نقول:

الحجر أو الذاريات سمّتاه إسحاق.

العلم قبل الميلاد — لماذا وُصف الغلام بأنه «عليم»؟

من اللافت أن البشارة في الحجر والذاريات ليست:

غلامًا فقط.

بل:

﴿غُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

إذا جمعنا هذا الوصف مع البشارة بإسحاق نبيًا من الصالحين، تظهر صورة متكاملة:

مولود موعود،

سيكون في خط العلم،

والنبوة،

والصلاح.

ولا نحتاج أن نخترع قائمة علوم لإسحاق حتى نفهم المعنى.

القرآن لا يروي لنا دروسه ولا كتبه ولا خطبه.

لكنه يجعل «العلم» جزءًا من صورة البشارة نفسها.

سارة بين الكبر والعقم — القرآن لا ينتقص من المرأة حين يذكر الضعف البشري

في الذاريات تصف امرأة إبراهيم نفسها:

﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

وفي هود:

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾.

ليس المقصود تحقيرها.

بل إبراز المسافة بين القدرة البشرية والقدرة الإلهية.

العقم والكبر في القصة ليسا هوية سارة.

هما الحالة التي يجعل الله منها البشارة أكثر ظهورًا.

وهذا يشبه قصصًا قرآنية لاحقة:

زكريا وزوجه،

ومريم من وجه آخر مختلف.

الهداية في القرآن كثيرًا ما تظهر عند الحد الذي يعجز فيه البشر عن تصور الطريق.

إسحاق في سورة الأنعام — الهداية قبل سرد التفاصيل

قال تعالى عن إبراهيم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ (الأنعام ٦:٨٤).

هذه الآية قصيرة لكنها عظيمة.

هي لا تقول:

أعطيناه نسلًا فقط.

بل:

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

إذن نعمة إسحاق ليست نعمة التكاثر وحدها.

هي نعمة استمرار الهداية في شخص مهدي.

وفي هذا يتضح الفرق بين:

إنجاب ولد،

وولادة حلقة في حركة الهداية.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ — النبوة لا تحتاج إلى استنتاج

قال تعالى:

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم ١٩:٤٩، مقتطف).

هذه من أكثر الآيات وضوحًا.

إسحاق نبي بنص القرآن.

لذلك لا نحتاج إلى بناء نبوته من:

نسبه،

أو تاريخ بني إسرائيل،

أو الروايات.

الروايات تأتي بعد ذلك لتشرح بعض التفاصيل.

أما أصل النبوة فهو قطعي في النص.

إسحاق ويعقوب «نافلة» — ما معنى الزيادة على المطلوب؟

قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧٢).

لفظ «نافلة» فُسر بوجوه.

ومن معانيه:

الزيادة في العطاء.

إبراهيم طلب ولدًا.

فجاء العطاء ممتدًا:

إسحاق،

ثم يعقوب.

وهكذا لا يستجيب الله للطلب وحده.

بل قد يفتح وراءه مستقبلًا لم يكن السائل يراه.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ — إسحاق في خط الإمامة النبوية

تقول الآية التالية:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٧٣).

الآيات ٢١:٧١-٧٤ تذكر إبراهيم ولوطًا وإسحاق ويعقوب. ويُقرأ ضمير «جعلناهم» في اتصال خبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم يُفرد لوط بالذكر في الآية ٧٤؛ فلا نجزم بإدخال كل اسم في الضمير لمجرد مجاورته.

وهنا يأتي وصف:

أئمة يهدون بأمر الله.

الإمامة هنا ليست مجرد منصب سياسي.

الآية تربطها بـ:

الهداية بأمر الله،

والوحي،

والخيرات،

والصلاة،

والزكاة،

والعبادة.

وهذا يمنح إسحاق صورة أوسع من «نبي لم تُروَ قصته».

هو داخل جماعة من القادة الربانيين الذين جعلهم الله هداة.

فعل الخيرات قبل تفاصيل الشرائع

لا يعطينا القرآن شريعة مفصلة باسم إسحاق.

لكنه يقول:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾.

إذن يوجد وحي وهداية عملية.

لكننا لا نعرف من الآية:

تفاصيل الحلال والحرام في شريعته،

عدد أتباعه،

شكل المجتمع،

ولا الخطب التي قالها.

الصمت القرآني هنا ليس دعوة للتأليف.
بل دعوة إلى الوقوف عند ما حفظه الوحي.

إسحاق والصلاة والزكاة — استمرارية العبادة قبل موسى

ذكر الصلاة والزكاة في سياق إسحاق ويعقوب مهم جدًا.
لأن القارئ قد يتخيل أن هذه المفاهيم بدأت فقط مع الشرائع المتأخرة.
لكن القرآن يضع:
إقامة الصلاة،
وإيتاء الزكاة،
في حياة الأنبياء قبل موسى.
وهذا يؤكد أن أصول العبادة والأخلاق ممتدة في حركة الهداية.
ولا يعني أن كل التفاصيل الفقهية كانت مطابقة حرفيًا لما جاء في الإسلام المحمدي.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ — ما الذي يعنيه هذا لإسحاق؟

قال تعالى في إبراهيم:
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (العنكبوت ٢٩:٢٧).
إسحاق هنا عند بوابة انتقال تاريخ النبوة إلى أجيال واسعة.
لكن الآية لا تقول إن النبوة حُصرت إلى الأبد في خط واحد دون كل غيره.
محمد صلى الله عليه وآله سيأتي من خط إسماعيل.
إذن معنى الآية:
أن ذرية إبراهيم أصبحت موطنًا لنبوات وكتب كثيرة.
وفي السياق الذي يذكر إسحاق ويعقوب تظهر بوضوح بداية خط بني إسرائيل.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ — البركة لا تلغي الاختبار

بعد البشارة بإسحاق يقول تعالى:
﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات ٣٧:١١٣).
هذه الآية من أهم الآيات في منهج الكتاب.
البركة حقيقية.

لكنها ليست حصانة أخلاقية للذرية.

في الذرية:

محسن،

وظالم لنفسه.

إذن كل نظرية تجعل النسب وحده كافياً للهداية تصطدم مباشرة بهذه الآية.

مرجع الضمير في البركة — اختلاف لا يمس نبوة إسحاق

يفسر خبر داود الرقي عن الصادق عليه السلام في معاني الأخبار ضمير «عليه» في الصافات ٣٧:١١٣ بإسماعيل. ويقرأه مفسرون على إبراهيم بحسب اتصال السياق. نثبت الوجهين بنسبتهما، ولا نخلط الاسم المصرح به، وهو إسحاق، بالاسم المستفاد من الضمير. كما أن اختلاف تعيين الذبيح لا يغير النص الصريح بنبوة إسحاق وصلاحه. [م١١]

﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ — القوة والبصيرة

قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص ٣٨:٤٥).

اختلفت عبارات المفسرين في شرح «الأيدي والأبصار».

ومن المعاني الواضحة:

القوة في الطاعة والعمل،

والبصيرة في الدين.

القرآن لا يقدم هؤلاء أنبياء سلبيين.

لهم:

عمل،

وقوة،

وبصيرة.

وهكذا يظهر إسحاق صاحب فعل ورؤية، لا مجرد حلقة نسب.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ — ذاكرة الآخرة

تقول الآية التالية:

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.

ثم:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.

إسحاق إذن:

من المصطفين،

ومن الأخيار،

ومرتبط بذكر الدار الآخرة.

وهذا يضيف إلى صورته بعدًا لا ينبغي إسقاطه:

النبوة ليست إدارة شؤون الدنيا فقط.

البصيرة الحقيقية تتجه إلى المصير.

إسحاق في سورة يوسف — ذاكرة الأب داخل حفيد لم يره القارئ في قصته

يُذكر إسحاق في سورة يوسف مرتين، على لسان يعقوب أولًا، ثم على لسان يوسف.

في أول السورة يقول يعقوب ليوسف:

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ (يوسف ١٢:٦).

ثم يقول يوسف في السجن:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (١٢:٣٨).

لا يسند إليه السياق القرآني في سورة يوسف فعلًا حاضرًا في المشاهد المروية، وهذا وحده لا يحدد تاريخ وفاته.

لكن أثره حاضر:

في النعمة،

وفي الملة،

وفي هوية يوسف.

وهذا هو معنى انتقال الهداية بين الأجيال:

قد يغيب الشخص،

ويبقى الطريق.

«أبويك» في يوسف — إبراهيم وإسحاق

يعقوب يقول ليوسف:

﴿عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

إبراهيم بالنسبة إلى يوسف جد أعلى.

وإسحاق جده.

ومع ذلك جاء التعبير:

أبويك.

وهذا يضيف شاهدًا آخر على سعة الألفاظ النسبية في العربية القرآنية.

ولهذا يجب أن نكون حذرين في قراءة «الأب» و«البنين» في الروايات القديمة قراءةً بيولوجية ضيقة دائمًا.

المنطقة والقميص والوصية — ثلاثة موضوعات متمايزة

المنطقة حزام في خبر عمة يوسف؛ والقميص أثر آخر في رواية المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام؛ والوصية عهد ديني في خبر اتصال الأوصياء. لا يلزم من حمل المرأة أثرًا أن تكون وصية، ولا من انتقال القميص مباشرة من إبراهيم إلى إسحاق سقوط ذكر إسماعيل من رواية الوصاية. تعدد الأشياء والطرق يمنع صنع إسناد واحد مركب منها. [م١، م٢، م٦]

وفي خبر القميص من الكافي لا يُعطى تاريخ ميلادي، ولا تُفصّل مدد بقاء الأثر عند كل شخص. فلا تُجمع أعمار الأنبياء من أخبار متباينة لصناعة سنوات وفاة وميلاد قطعية، ولا يُخلط حزن يعقوب وذهاب بصره في القرآن بأخبار ضعف بصر إسحاق في النقل الكتابي.

إسحاق والذبيح — تعليق الشيخ الصدوق نفسه

من المهم ألا نكتفي بالقول إن الروايات مختلفة.

الشيخ الصدوق نفسه، بعد أن نقل أخبار «أنا ابن الذبيحين»، صرح بأن الروايات اختلفت:

منها ما يقول إسحاق،

ومنها ما يقول إسماعيل.

ثم قال إن الذبيح في الحقيقة إسماعيل على ترجيحه.

وحاول تفسير إطلاق «ذبيح الله» على إسحاق بأن إسحاق لما ولد بعد ذلك تمنى أن يكون هو الذي أمر أبوه بذبحه، لينال درجة الصبر والتسليم.

هذه محاولة جمع من الصدوق، وليست نصًا قرآنيًا.

لكنها مهمة لأنها تثبت أن عالمًا إماميًا مبكرًا لم يخفِ التعارض.

رفقة وقصة البركة — هامش مقارن محدود

يسمي النقل الكتابي زوجة إسحاق رفقة بنت بتوئيل، ويذكر لابان أخاها، ويصف يعقوب والعيص بالتوأمين. وتُنقل قصة إلباس يعقوب ثياب أخيه للحصول على دعاء إسحاق. هذه المادة تُعرف في أصلها الكتابي، ولا تصبح حديثًا إماميًا لمجرد نقلها في كتاب مسلم. لا نجعل اختيار النبي ثمرة خداع بشري، ولا ننسب تفاصيل القصة إلى القرآن. ويقتصر ذكر هذه الأسماء هنا على بيان موضعها المقارن. [م٩]

إسحاق في خطاب المسلمين — لماذا يأمرنا القرآن بذكره؟

قال تعالى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ (البقرة ٢:١٣٦).

إسحاق ليس شخصية تخص بني إسرائيل وحدهم.

الإيمان بما أوتي هو جزء من عقيدة المسلم.

وهذا يغيّر طريقة كتابة الفصل.

لسنا ندرس شخصية غريبة بعيدة.

نحن ندرس نبيًا يأمر القرآن الأمة المحمدية أن تؤمن بما أوتي.

إسحاق والكتاب — ماذا أُوتي تحديدًا؟

القرآن يقول:

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾.

لكن لا يسمي «كتاب إسحاق».

ولا يذكر صحفًا بعنوان مستقل له.

إذن لا يجوز أن نصنع كتابًا مفقودًا باسم إسحاق.

نقول:

القرآن يثبت أن في هذا الخط وحيًا وهداية.

أما اسم الكتاب المستقل ومحتواه فلا يثبته النص.

إسحاق في انتقال البركة إلى يعقوب

في سورة هود جاءت البشارة:

إسحاق،

ثم من وراء إسحاق يعقوب.

وفي الأنبياء:

إسحاق ويعقوب نافلة.

وفي الأنعام:

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

وفي مريم:

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

هذا التكرار يجعل الانتقال إلى يعقوب جزءًا من تعريف إسحاق نفسه في القرآن.

إسحاق ليس نهاية فرع.

هو جسر.

لماذا لا يروي القرآن طفولة إسحاق؟

لا يذكر القرآن:

رضاعه،

طفولته،

نشأته،

تعليمه الأول،

ولا تفاصيل زواجه.

هذا ليس نقصًا في الوحي.

القرآن اختار من حياته ما يخدم الهداية:

البشارة،

النبوة،

الصلاح،

البركة،

البصيرة،

ذكر الآخرة،

واستمرار الخط إلى يعقوب.

منهج «حكاية الهداية» لا يحوّل الصمت إلى رواية من صنعنا.

هل نعرف قوم إسحاق؟

القرآن لا يقدم «قوم إسحاق» بقصة مستقلة كما يقدم قوم نوح أو عاد أو ثمود.

ولا يحفظ لنا حوارًا طويلًا بين إسحاق وقوم مكذبين.

إذن لا ينبغي أن نكتب:

«قوم إسحاق قالوا كذا»

من غير نص.

قد يكون له مجتمع يدعو فيه ويعلمه بوصفه نبيًا.

لكن التفاصيل لم تُحفظ في القرآن.

إسحاق والصمت عن المعجزات

لا ينسب القرآن إلى إسحاق معجزة حسية مستقلة باسمه مثل عصا موسى أو ناقة صالح.

لكن ولادته نفسها جاءت في إطار آية القدرة:

امرأة عجوز عقيم،

ورجل شيخ،

ثم بشارة إلهية.

إذن لا نحتاج أن نبحث عن معجزة أسطورية لنثبت مكانته.

النبوة ثبتت بالنص.

والبشارة نفسها تكفي لتظهر القدرة الإلهية في بداية حياته.

إسحاق في الذاكرة الإبراهيمية — لماذا قصته قصيرة لكن أثره طويل؟

إذا قسنا أهمية النبي بعدد الآيات التي تروي أحداث حياته، فسوف نظلم إدريس وإسحاق وأنبياء كثيرين.

إسحاق قصته الحدثية قصيرة.

لكن أثره طويل جدًا.

منه:

يعقوب،

ثم الأسباط،

ثم تاريخ بني إسرائيل،

ثم يوسف،

ثم موسى وهارون،

ثم سلسلة واسعة من الأنبياء.

إذن قلة التفاصيل لا تعني قلة الدور.

الدروس الكبرى من فصل إسحاق

أولًا: قدرة الله لا تتقيد بحساب الإنسان.

جاءت البشارة في الكبر وبعد العقم.

ثانيًا: النبوة هبة واختيار.

إسحاق نبي بنص القرآن، لا لأنه ابن إبراهيم فقط.

ثالثًا: البركة لا تساوي العصمة للذرية.

القرآن نفسه يقول إن في الذرية محسنًا وظالمًا لنفسه.

رابعًا: البيت النبوي يحمل مسؤولية عبر الأجيال.

سارة تتلقى البشارة، وإسحاق يحملها، ويعقوب يأتي وراءه.

خامسًا: العلم والعمل والآخرة اجتمعت في وصفه.

عليم في سياق البشارة، من أولي الأيدي والأبصار، وممن أخلصهم الله بذكرى الدار.

سادسًا: اختلاف الجغرافيا لا يصنع اختلاف التوحيد.

إسماعيل في مكة وإسحاق في الشام داخل بيت إبراهيم نفسه.

سابعًا: الميراث النبوي ليس مالًا فقط.

الروايات تحفظ انتقال وصية وآثار بين إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ثامنًا: لا نملأ الفراغ بالكتابيات.

زوجة إسحاق وأسماء أولاده غير يعقوب لا تثبت عندنا بمجرد شهرتها في مصادر أخرى.

سجل الشخصيات وحدود اكتمال الفصل

المحور المباشر: إسحاق؛ إبراهيم أبوه؛ سارة أمه في الروايات والمرأة المبشرة في القرآن؛ إسماعيل أخوه؛ هاجر أم إسماعيل في الأخبار؛ يعقوب ابنه؛ زوجة إسحاق غير المسماة قرآنيًا؛ العيص في إثبات الوصية؛ وبنت إسحاق، عمة يوسف، وتسميتها سارة في خبر الخرائج. ويدخل يوسف من جهة النسب والقميص والمنطقة، وماريا بن أوس من جهة خبر اللقاء. تُراجع تفاصيل رفقة ولابان وبتوئيل في الهامش المقارن، لا في قائمة الأسماء القرآنية.

السياق المتصل: لوط وأهله وزوجه في مهمة رسل البشارة؛ وضيوف إبراهيم الملائكة الذين لا تسميهم الآيات. ويأتي بنو يعقوب والأسباط والذرية المحسنة والظالمة جماعاتٍ لا يجوز اختراع أسماء أفرادها من النص المجمل.

سياق المقارنة القرآنية يشمل نوحًا وداود وسليمان وأيوب وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس واليسع ويونس، مع إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف ولوط؛ بحسب قوائم النساء ٤:١٦٣ والأنعام ٦:٨٤–٨٦. ليس هذا تعدادًا لمعاصري إسحاق. ومريم وأم موسى وفاطمة وزوج زكريا يردن في مقارنة المقام والبشارة، لا بوصفهن نساء عصره.

حد الاكتمال هنا مراجعة المواضع القرآنية المسماة والسياقات المتصلة، وجمع الأخبار والأسماء التي أمكن تعيين مصادرها في هذه المراجعة. لا تعني العبارة استقراء كل مخطوط أو تصحيح كل سند؛ والمجهول يبقى مجهولًا، والمختلف فيه يبقى منسوبًا إلى قائله.

خاتمة الفصل السادس عشر — من البشارة إلى إسرائيل

إسحاق هو ابن البشارة.

نبي من الصالحين.

مبارك، لكن ذريته مسؤولة أفرادًا.

منه يعقوب.

وفي الرواية ينتقل إليه العهد من إسماعيل ثم يسلمه إلى يعقوب.

وهنا يبدأ فصل جديد لا يعود فيه الحديث عن ابن واحد، بل عن أب سيحمل اسم إسرائيل، وعن أسرة ستصبح في القرآن «بني إسرائيل».

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

البقرة ٢:١٢٤، ١٣٢–١٣٣، ١٣٦، ١٤٠.

آل عمران ٣:٨٤.

النساء ٤:١٦٣.

الأنعام ٦:٨٤–٨٩.

هود ١١:٦٩–٧٦.

يوسف ١٢:٦، ٣٨، ٧٥–٧٧، ٩٣–٩٦.

إبراهيم ١٤:٣٩.

الحجر ١٥:٥١–٦٠.

مريم ١٩:٤٩–٥٠.

الأنبياء ٢١:٧١–٧٤.

العنكبوت ٢٩:٢٧.

الصافات ٣٧:٩٩–١١٣.

ص ٣٨:٤٥–٤٧.

الذاريات ٢٤:٥١–٣٧.

ثانيًا: روايات البشارة ومقام سارة

الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٨٢–١٨٣: النص المنقول عن محمد بن أبي بكر في سارة ومريم وأم موسى وفاطمة، ثم تعليق الصدوق؛ لا يُنسب مجموع الكلام مباشرة إلى الإمام. [م٤]

تفسير القمي، تفسير العياشي، نور الثقلين، الصافي والميزان عند هود ١١:٧١–٧٣ والذاريات ٢٨:٥١–٣٠.

ثالثًا: الوصية وآثار النبوة

الشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، الحديث ٣ — رواية اتصال الوصاية: إبراهيم ← إسماعيل ← إسحاق ← يعقوب.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب ٢٢، ح١؛ طريق مشترك مع خبر الأمالي المذكور، فلا يعد موضعًا مستقل السند بمجرد اختلاف الكتاب.

الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، رواية اتصال الوصاية.

تنبيه: يمر مقاتل بن سليمان في بعض طرق السلسلة، ولذلك تحتاج إلى نقد سندي.

الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣٢، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح٥؛ والصدوق، كمال الدين، باب غيبة يوسف، وعلل الشرائع، باب علة وجدان يعقوب ريح يوسف. [م٦]

تفسير القمي، عند يوسف ١٢:٩٣–٩٤ — الخبر نفسه أو ما يقاربه.

بصائر الدرجات، أبواب مواريث الأنبياء وآثارهم — طرق موازية للمادة.

رابعًا: الذبيح

القرآن الكريم، الصافات ٣٧:٩٩–١١٣ — لا يسمّي الابن.

قرب الإسناد — خبر الإمام الرضا في تعيين إسماعيل.

أمالي الشيخ الطوسي – خبر «الذبيح إسماعيل».

تفسير القمي عند الصافات – رواية تعيين إسماعيل.

الكافي، ج٤، كتاب الحج، باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت، ح٤ وح٩: اختلاف تعيين الذبيح، وتسمية سارة في الخبر التاسع؛ صحيح الكافي للبهبودي، ج٢، ص١٠٤، في إدراجه لح٩.

الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا ومعاني الأخبار – مناقشة أخبار «ابن الذبيحين» واختلاف التعيين.

بحار الأنوار، أبواب الذبح – جامع للأخبار المتعارضة، لا مصحح آلي.

خامسًا: العمر والوفاة

الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، خبر أعمار الأنبياء – يذكر لإسحاق مائة وثمانين سنة.

المجلسي، بحار الأنوار، ج١١، ص٦٥ في بعض الطبعات – نقل خبر الأعمار.

الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب»، ص٤٥-٤٦: خبر سارة وولادة إسحاق، زواجه في الشام، يعقوب والعيص، تسليم الاسم الأعظم والنور والمواريث إلى يعقوب، والعمر والدفن في بيت المقدس؛ يُبحث في نسبة الكتاب وأسانيد الخبر. وتُستخدم أخبار دفنه بحبرون/الخليل في كتب التاريخ والجغرافيا للمقارنة، ولا تُدمج المواضع المختلفة دون تحقيق.

سادسًا: الأسرة

القرآن لا يسمي زوجة إسحاق ولا يقدم قائمة أولاده؛ ويميز هذا الفصل بين يعقوب الثابت في البشارة وبين اسم العيص في «إثبات الوصية».

يفصل قسم الأسرة بين زوجة إسحاق غير المسماة في القرآن، والعيص في إثبات الوصية، وعمة يوسف في عيون أخبار الرضا، وتسميتها سارة بنت إسحاق في الخرائج والجرائح. لا تسوي هذه الإحالات بين درجات الأخبار. [م١-م٣، م٩]

الثابت قرآنيًا في خط هذا الكتاب هو انتقال القصة من إسحاق إلى يعقوب.

إحالات النصوص المراجعة

[م١] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج٢، باب٣١، ح٥-٦، ص٧٦-٧٧: عمة يوسف ومنطقة إسحاق.

[م٢] الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩، ح٥٣: سارة بنت إسحاق؛ الخبر عن العسكري عبر داود الجعفري.

[م٣] إثبات الوصية، الكتاب المطبوع، ص٤٥-٤٧: زواج إسحاق والعيص والعهد والوفاة؛ لا تصحيح لنسبة الكتاب هنا.

[م٤] الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٨٢-١٨٣: خبر محمد بن أبي بكر وتعليق المصنف.

[م٥] الراوندي، قصص الأنبياء، ص١١٥-١١٦، ح١١٦: ماريا بن أوس وإسحاق وإبراهيم.

[م٦] الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣٢، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح٥: القميص.

[م٧] الصدوق، معاني الأخبار، باب معنى الضحك، ح١: تفسير «فضحكت».

[م٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، باب٥، ح٧ نقلًا عن علل الشرائع: الختان؛ ومقدمة الباب التفسيرية: أقوال رسل البشارة.

[م٩] ابن كثير، قصص الأنبياء، الجزء الأول، قصة إسحاق ويعقوب: النقل عن أهل الكتاب للمقارنة فقط، لا للاستدلال الإمامي.

[م١٠] المعجم الصرفي للقرآن، مادة إسحاق: ١٧ ورودًا؛ المعيار هو نص الآيات.

[م١١] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، باب٦، ح١١ نقلًا عن معاني الأخبار: داود الرقي، مرجع الضمير والذبيح.

الفصل ١٧ — يعقوب عليه السلام — إسرائيل والأبناء الاثنا عشر

من إسحاق إلى يعقوب — حين تتحول الأسرة إلى أمة

مع يعقوب يتغير حجم القصة. كان إسحاق ابن البشارة، أما يعقوب فيصبح أبًا لبيت واسع سيعرف لاحقًا في القرآن باسم بني إسرائيل.

لكن علينا منذ البداية ألا نخلط بين ثلاثة أشياء:

يعقوب النبي الذي يثبته القرآن.

إسرائيل بوصفه الاسم الذي يربطه به التفسير والرواية.

وبني إسرائيل بوصفهم ذرية وجماعة تاريخية ستكبر عبر الأجيال.

الفصل يبدأ بالأب، لا بالأمة.

يعقوب في القرآن — خريطة أوسع للمواضع التي لا ينبغي إسقاطها

البقرة ٢:١٣٢–١٣٣: وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما بالتوحيد، ومشهد يعقوب عند الموت.

البقرة ٢:١٣٦: الإيمان بما أُنزل إلى الأنبياء؛ و٢:١٤٠: رد دعوى أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى.

آل عمران ٣:٨٤: يعقوب والأسباط ضمن ما أوتي الأنبياء من ربهم.

آل عمران ٣:٩٣: «إسرائيل» وما حرمه على نفسه قبل نزول التوراة.

النساء ٤:١٦٣: يعقوب والأسباط في سياق الوحي.

الأنعام ٦:٨٤: إسحاق ويعقوب في خط الهداية.

هود ١١:٧١: يعقوب داخل البشارة قبل أن يولد أبوه إسحاق.

يوسف ١٢: السورة المركزية في حياة يعقوب الأسرية والروحية.

مريم ١٩:٤٩: هبة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وجعل كل واحد منهما نبيًا.

الأنبياء ٢١:٧٢–٧٣: يعقوب من الصالحين ومن الأئمة الذين يهدون بأمر الله.

العنكبوت ٢٩:٢٧: النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم.

ص ٣٨:٤٥–٤٧: إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ومن الأخيار.

الأعراف ٧:١٦٠: ذكر اثنتي عشرة أسباطًا أممًا في مرحلة لاحقة من بني إسرائيل، وهو مهم لفهم تحول أبناء يعقوب إلى فروع جماعية، لا لإثبات أن كل ابن كان نبيًا.

استكمال المواضع المسماة — آل يعقوب وذرية إسرائيل

يرد اسم يعقوب في ست عشرة آية: البقرة ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠؛ آل عمران ٨٤؛ النساء ١٦٣؛ الأنعام ٨٤؛ هود ٧١؛ يوسف ٦، ٣٨، ٦٨؛ مريم ٦، ٤٩؛ الأنبياء ٧٢؛ العنكبوت ٢٧؛ ص ٤٥. ويأتي اسم إسرائيل بوصفه شخصًا في آل عمران ٣:٩٣ ومريم ١٩:٥٨، إضافة إلى مواضع بني إسرائيل بوصفهم جماعة.

في مريم ١٩:٦ يسأل زكريا ربه وليًا يرثه ويرث من آل يعقوب، ثم تأتي بشارة يحيى. هذا حضور لاحق لبيت يعقوب في سلسلة الهداية، لا لقاء تاريخي بين يعقوب وزكريا. ولا تختزل الآية هنا في حكم تفصيلي عن نوع الإرث. وفي مريم ١٩:٥٨ تذكر ذرية إبراهيم وإسرائيل ضمن سلسلة الأنبياء المنعم عليهم. [م٢]

وفي يوسف ١٢:٣٨ يعلن يوسف اتباع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ وفي ١٢:٦٨ يثني النص على علم يعقوب الذي علمه الله. بذلك تجتمع وصية الأب وشهادة الابن ومصدر العلم، فلا يصبح النسب بديلًا عن التوحيد أو عن تعليم الله.

يعقوب هو إسرائيل — الرواية الإمامية ومعنى الاسم

في علل الشرائع للشيخ الصدوق ورد عن الإمام الصادق عليه السلام خبر يقول إن يعقوب وعيص كانا توأمين، وإن عيص خرج أولًا ثم خرج يعقوب بعقبه، فسمي يعقوب لذلك.

ويقول الخبر الأول: «ويعقوب هو إسرائيل»، ويفسر إسرائيل بعبد الله. أما معنى «قوة الله» فيورده الصدوق في خبر آخر بصيغة «وروي»، فلا ندمج الخبرين في إسناد واحد. [م١] لفظ خبر الولادة «خرج بعقب أخيه»؛ لا يقول إنه أمسك بعقب أخيه، فلا تضاف تلك الصورة إليه. والقرآن يذكر إسرائيل في آل عمران ٣:٩٣ ومريم ١٩:٥٨، أما الجملة الصريحة «يعقوب هو إسرائيل» فمن التفسير والرواية.

هذا خبر روائي في تفسير الاسم، وليس آية قرآنية في الاشتقاق اللغوي.

لكن أهميته أنه يقدم نصًا إماميًا صريحًا في الهوية التي اعتمدها التفسير الإسلامي:

يعقوب = إسرائيل.

أما قصة عيص وكونه توأم يعقوب وتفاصيل السبق في الولادة، فتأتي من الرواية والتاريخ، لا من القرآن.

ما الذي حرمه إسرائيل على نفسه؟ — رواية الإمام الصادق

قال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ (آل عمران ٣:٩٣).

الآية تثبت أن إسرائيل حرم على نفسه شيئًا من الطعام قبل التوراة، لكنها لا تسمي الطعام.

في تفسير العياشي، عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية، فقال إن إسرائيل كان إذا أكل لحوم الإبل هيج عليه وجع الخاصرة، فحرم على نفسه لحم الإبل، وكان ذلك قبل نزول التوراة.

وعلي بن إبراهيم القمي ينقل معنى قريبًا مرتبطًا بوجع عرق النسا وتحريم لحم الجمل على النفس.

إذن الروايات الإمامية تعطي تفسيرًا للآية:

تحريم شخصي سببه الألم، لا شريعة أزلية نازلة على إبراهيم.

وهذا مهم؛ لأن الآية نفسها تحتج على دعوى أن بعض هذه المحرمات كانت دائمًا من شريعة إبراهيم.

لكن تفاصيل المرض والطعام تبقى تفسيرًا روائيًا، لا ألفاظًا ذكرتها الآية.

العيص أخو يعقوب — القرابة والخصومة في خبر «إثبات الوصية»

إلى جانب خبر التوأمين في «علل الشرائع»، يروي الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب» (ص٤٦-٤٧) أن إسحاق أوصى إلى يعقوب، وأن أخاه العيص كانت له شوكة وسلطان. ويذكر أن يعقوب قصد بيت المقدس، وأن العيص خرج لملاقاته على نية الأذى، فبعث يعقوب إليه هدية وكتابًا يستميله، ثم وقف أبناؤه يحولون بينهما عند الاقتراب. وتحكي الفقرة صورًا أخرى للعداوة ثم ابتعاد العيص. هذه مشاهد من خبر تاريخي روائي لم يذكرها القرآن؛ لا نعتمد ألفاظ الرسالة أو عدد الجند أو تفاصيل الرؤى الملائكية تاريخًا قطعيًا قبل فحص نسبة الكتاب وطريقه. العيص أخ في الخبر، ولا يسميه القرآن ولا يثبت له هذا النص مقام النبوة أو حمل الوصية.

وفي الكتاب نفسه (ص٤٦) أن يعقوب تزوج في الشام ابنتي خالته، وأن له اثني عشر ذكرًا. لا يسمي هذا الموضع المرأتين، ولا يوزع الأبناء عليهما، ولا يذكر أسماء البنات أو ينفي وجودهن. ونقل جواز الجمع بين الأختين في زمنه وصفٌ في متن الخبر القديم، وليس حكمًا شرعيًا يُؤخذ منه لزمننا. تبقى روايات تسمية راحيل وخالة يوسف وتفاصيل الأمهات محل دراسة مستقلة، كما يبقى جدول الأسماء المتداول في الأنساب تاريخيًا حتى تثبت كل حلقة بمصدرها. نذكر هنا المرأة بوصفها أمًا وشريكة في الأسرة بحسب الخبر، وإن غاب اسمها عنه، ولا نسد هذا الفراغ باسم من سفر التكوين.

الأبناء الاثنا عشر — بين القرآن والرواية وكتب الأنساب

القرآن لا يقدم قائمة بأسماء أبناء يعقوب الاثني عشر.

لكنه يثبت مجموعة مهمة من الحقائق:

يوسف ابن يعقوب.

له أخ شقيق في القصة بحسب الروايات، والقرآن يسميه «أخاه» ولا يذكر اسمه.

وليوسف أحد عشر أخًا كما تفهم الرؤيا وبنية القصة.

ثم تتحول ذرية يعقوب تاريخيًا إلى «بني إسرائيل» و«الأسباط».

في تفسير القمي عن الإمام الباقر عليه السلام، ورد أن يوسف كان له أحد عشر أخًا، وأن له من أمه أخًا واحدًا يسمى بنيامين.

ويذكر الفيض الكاشاني أن كون يوسف وبنيامين من أم واحدة مشهور مستفيض في روايات العياشي وغيره، مع وجود روايات أخرى تختلف في بعض صلات القرابة وتسميات مثل «ابن ياميل».

أما أسماء بقية الإخوة كاملة، فيقول الفيض صراحة إنه لم يجدها «في رواية معصومية بتمامها معدودة»، ثم يذكر القائمة التاريخية المشهورة بوصفها قولًا منقولًا.

وهذه ملاحظة منهجية مهمة جدًا:

لا نحول القائمة الكتابية/التاريخية إلى حديث عن المعصوم.

لذلك نستطيع أن نقول:

توجد روايات إمامية تسمي بنيامين أخًا ليوسف من أمه.

أما الأسماء العشرة الأخرى، بعد يوسف وبنيامين، فتحتاج إلى تمييز ما ورد منها منفردًا في الروايات عن القائمة النسبية الكاملة.

هل كان إخوة يوسف أنبياء؟ — روايات أهل البيت ترفض ذلك

هذه المسألة يجب أن تكون واضحة لأن كلمة «الأسباط» قد تدفع بعض القراء إلى تصور أن أبناء يعقوب الأحد عشر كانوا جميعًا أنبياء.

في تفسير العياشي، عن نشيط بن صالح، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: أكان إخوة يوسف أنبياء؟

فقال: «لا، ولا بررة أتقياء»، واستشهد بقولهم لأبيهم:

﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

وتوجد أخبار أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام تنكر كونهم أنبياء بعد ما صنعوا بيوسف.

كما ينقل تفسير الصافي عن الكافي خبرًا عن الإمام الباقر عليه السلام يفرق بين كونهم أسباطًا من أولاد الأنبياء وبين النبوة نفسها، مع التأكيد على أنهم تابوا في نهاية أمرهم.

والعلامة الطباطبائي في الميزان يستعمل هذه الروايات مع دلالة العصمة ليقرر أن لفظ «الأسباط» في آيات الوحي ليس نصًا في أن المراد به إخوة يوسف أنفسهم؛ فاللفظ يمكن أن يراد به الشعوب والفروع

النبوية من بني إسرائيل. ولا ينسب هذا النقاش فعل التآمر إلى بنيامين لمجرد كونه أخًا ليوسف؛ فالسورة تفصل أخاه المحتجز عن فعل الإخوة الأول.

إذن:

الأسباط أوسع من الإخوة الأحد عشر.

ولا نثبت النبوة لإخوة يوسف على أساس النسب وحده.

أمهات أبناء يعقوب — ما ثبت في الروايات وما بقي تاريخيًا

القرآن لا يسمي زوجات يعقوب ولا أمهات أبنائه.

لكن بعض الروايات الإمامية المرتبطة بقصة يوسف تعطينا جزءًا محدودًا من الصورة:

في تفسير القمي عن الإمام الباقر عليه السلام، يوسف له أخ واحد من أمه يسمى بنيامين.

ويذكر تفسير الصافي أن الروايات المشهورة تفهم يوسف وبنيامين من أم واحدة، وتظهر في بعض طرق التفسير تسمية «راحيل» لأم يوسف.

وفي بعض أخبار العياشي تكون أم يوسف قد ماتت، وتأتي خالته «ياميل» مع يعقوب إلى مصر بمنزلة الأم، فيفسر بها الخبر قوله تعالى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

هذا الاختلاف مهم.

فهو يمنعنا من بناء قصة واحدة جامدة تقول إن كل تفاصيل الزوجات والأمهات متفق عليها في الرواية الإمامية.

أما ليا/ليئة، وزلفة، وبلهة، وتقسيم الأبناء عليهن، فمشهور في المادة التاريخية والكتابية. ولم أقف في المصادر المراجعة على حديث معصومي واحد يسرد هذا الجدول كاملًا بإسناد محقق؛ وهذا وصف لحدود المراجعة، لا حكم على جميع الكتب والمخطوطات.

الصياغة الآمنة:

راحيل تظهر في بعض المادة التفسيرية الإمامية أمًا ليوسف وبنيامين.

وتوجد طرق أخرى تجعل الخالة في موضع الأم عند وصول الأسرة إلى مصر.

أما بقية شبكة الأمهات فتُذكر عند الحاجة كمادة تاريخية لا كقرآن أو حديث ثابت.

سجل الأسرة — أسماء الأبناء والنساء وحدود إثباتها

القائمة النسبية المشهورة للأبناء الاثني عشر: روبيل/رأوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يشجر/يساكر، زبالون/زبولون، دان، نفتالي، جاد/حاد، آشر، يوسف، بنيامين. يذكر الصافي هذه الأسماء ضمن قول

نسبي، وينبه إلى أنه لم يجدها كلها معدودة في رواية معصومية واحدة. ورود اسم معين في خبر لا يصحح تلقائيًا القائمة كلها. [م٣]

في التقسيم الكتابي والتاريخي: ليا أم روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشجر وزبالون؛ وبلهة أم دان ونفتالي؛ وزلفة أم جاد وآشر؛ وراحيل أم يوسف وبنيامين. هذا سجل مقارنة، لا جدول يقرره القرآن ولا حديث واحد عن الإمام. [م٤]

رفقة اسم أم يعقوب في الأنساب المشهورة، ولابان اسم خاله فيها. وتذكر المادة نفسها دينا بنت يعقوب من ليا. تُحفظ أسماؤهم بهذا القيد؛ فلا يقال إن القرآن سماهم، ولا ننسب دينا إلى خبر معصومي لم نتحققه. كما لا نثبت بهذه القائمة وحدها هويات زوجة أيوب أو أنسابها المختلفة. [م٤]

أما راحيل وبنيامين فلهما حضور مسمى في المادة المنقولة عن الباقر في تفسير القمي عند مطلع يوسف. وياميل خالة يوسف في خبر آخر عند العياشي. لا نساوي بين راحيل وياميل، ولا بين الأم والخالة، ولا نجزم بجمع الروايات المتعارضة في سيرة واحدة. [م٣، م٥]

وسارة امرأة إبراهيم، التي بشرها الرسل بإسحاق ومن ورائه يعقوب، هي جدته في النسب المعروف؛ لا يذكر القرآن اسمها في هذا الموضع (هود ١١:٦٩–٧٣). وإسماعيل أخو إسحاق، ويذكر ضمن آباء يعقوب في البقرة ٢:١٣٣؛ فالآية أوسع من حصر لفظ الأب في الوالد المباشر. والعيص أخو يعقوب في خبر علل الشرائع المذكور، لا اسم قرآني.

أخت يعقوب — عمة يوسف، وليست خالته

في عيون أخبار الرضا، ج٢، الباب٣١، ح٥، ترد عمة يوسف حافظةً لمنطقة إسحاق. يطلب يعقوب رجوع ابنه من عندها؛ وتعرض الرواية حيلة المنطقة لتبقيه عندها. لا تسمي هذه الرواية العمة، ولا تجعل يوسف سارقًا حقيقة. إنها تفسير روائي لخلفية اتهام الإخوة في يوسف ١٢:٧٧. [م٦]

يسمي خبر آخر في الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٣٨–٧٣٩، ح٥٣، العمة «سارة بنت إسحاق». فإذا ذكرنا الاسم نسبناه إلى هذا الخبر وطريقه، ولا نخلطها بسارة امرأة إبراهيم، ولا بياميل خالة يوسف. اختلاف المصدر مهم، كما أن وجود الاسم لا يغني عن تحقيق الإسناد. [م٧]

قميص إبراهيم عند يعقوب ويوسف — ميراث مادي داخل خط الهداية

في روايات عن الإمام الصادق عليه السلام، يرد أن جبرئيل أنزل على إبراهيم ثوبًا من الجنة حين أُلقي في النار.

ثم:

دفعه إبراهيم إلى إسحاق.

ودفعه إسحاق إلى يعقوب.

ودفعه يعقوب إلى يوسف.

وعندما أرسل يوسف قميصه من مصر، وجد يعقوب ريحه قبل وصول العير، وربطت الرواية ذلك بقوله:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

وفي بعض الطرق كان يعقوب ببيت المقدس أو فلسطين، ويوسف بمصر.

ثم يقول الإمام في أحد الأخبار:

ويقرر الخبر بمعناه أن ما ورثه الأنبياء من علم أو غيره انتهى إلى آل محمد عليهم السلام؛ لا توضع صياغة تلخيصية بين علامتي اقتباس على أنها لفظ جميع الطرق.

هذه الرواية لا تغير الحقيقة القرآنية:

القميص الذي أرسله يوسف كان سببًا في رجوع بصر يعقوب بإذن الله.

لكنها تضيف طبقة إمامية عن توارث آثار النبوة:

إبراهيم ← إسحاق ← يعقوب ← يوسف.

يعقوب في رواية الوصاية

رواية اتصال الوصاية تقول:

إسحاق ← يعقوب ← يوسف.

وهي تتفق من حيث الترتيب العام مع انتقال القصة القرآنية من الأب إلى الابن، لكنها تبقى رواية خاصة في موضوع الوصية ولا تجعل كل تفاصيل حياة الأسرة معلومة لنا.

ويستمر الخبر بعد يوسف إلى «بثرياء»، الذي يناقشه الفصل التاسع عشر في سؤال بقاء الهداية بين يوسف وموسى.

عمر يعقوب ووفاته — ما الذي يثبته المصدر؟

يذكر القرآن وصية يعقوب عند حضور الموت (البقرة ٢:١٣٣)، لكنه لا يحدد عمره أو تاريخ وفاته أو موضع قبره.

في رواية أعمار الأنبياء في «كمال الدين وتمام النعمة» (الباب ٤٩، ح٣) ورد أن يعقوب عاش مائة وعشرين سنة. ويذكر الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية» (ص٤٧–٤٨) أنه قُبض وعمره مائة وست وأربعون سنة؛ وتنقل مجاميع أخرى أرقام مائة وأربعين ومائة وسبع وأربعين. هذه أخبار مختلفة لا يحدد القرآن بينها، وتحتاج إلى نقد الأسانيد والمصادر.

هذه أرقام روائية مختلفة؛ لا يختار القرآن بينها، ولا يغني شيوع أحدها عن فحص مصدره وطريقه.

وفي تفسير العياشي (ج٢، ص١٩٨، ح٨٧) خبر عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام يقول إن يعقوب عاش مع يوسف بمصر حولين، وإن يوسف حمل عظامه في تابوت إلى أرض الشام فدفنه في بيت المقدس، وكان يعقوب الحجة حتى مات ثم صار يوسف الحجة. يورد الراوندي الخبر بطريق أوسع في «قصص الأنبياء» (الباب السادس، ح١٣٨)، ويعرض «إثبات الوصية» وفاة يعقوب في مصر ونقله مع زيادات قصصية. هذه روايات إمامية تحتاج فحص أسانيدها، لا آيات قرآنية؛ والتفاصيل التاريخية الأخرى في الدفن لا ترفع إلى درجتها تلقائيًا.

اختلاف نقل العمر — المقابلة قبل اختيار الرقم

النص الإلكتروني المقابل من كمال الدين، باب ما روي في التعمير، ح٣، يذكر ليعقوب ١٢٠ سنة. وينقل الصافي، ج٣، ص٥٠، عن الإكمال ١٤٠ سنة. فهذا اختلاف في النقل نفسه ينبغي إظهاره، لا تصحيحه حدسًا. لا نجمع هذه الأعداد ولا نبني عليها سنة ميلاد أو وفاة قطعية، كما لا نخلطها بعمر يوسف أو بمدة فراقه. [م٨، م٥]

يعقوب قبل أن يولد — نبي حاضر في البشارة

من عجائب السرد القرآني أن اسم يعقوب يظهر قبل أن يظهر كشخصية مستقلة.

قال تعالى في بشارة امرأة إبراهيم:

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

يعقوب حاضر في البشارة قبل ولادته بحسب التسلسل القصصي؛ والمقصود ليس ترتيب ورود اسمه في المصحف.

قبل ولادته:

اسمه حاضر.

مكانه في السلسلة حاضر.

واستمرار الهداية من بعد إسحاق حاضر.

وهذا يجعل حياته منذ البداية جزءًا من وعد أكبر من الفرد.

يعقوب نبي بنص القرآن — لا بمجرد أنه ابن إسحاق

قال تعالى:

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم ١٩:٤٩، مقتطف).

فنبوة يعقوب ليست استنتاجًا من النسب.

وليست لأنها ستأتي منه أمة كبيرة.

الله جعله نبيًا.

وتقول آية الأنبياء ٢١:٧٢:

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

إذن يعقوب:

نبي،

صالح،

مهدي،

داخل في خط الإمامة النبوية والهداية بأمر الله.

وصية إبراهيم ويعقوب — ماذا اختار الأبناء لأنفسهم؟

قال تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة ٢:١٣٢).

هذه الآية تربط وصية يعقوب بوصية إبراهيم.

المضمون ليس:

احفظوا اسم العائلة.

بل:

لا تموتوا إلا وأنتم مسلمون لله.

هذا فرق جوهري.

وصية الأنبياء ليست حماية النسب.

هي حماية التوحيد.

مشهد الموت — السؤال الأخير ليعقوب

قال تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ (٢:١٣٣).

هذا من أعظم مشاهد الأبوة النبوية.

يعرض القرآن سؤال يعقوب عن العبادة في هذا المشهد، لا حديثًا عن:

من سيملك المال؟

من سيكون أكبر؟

كيف ستتقاسمون الأرض؟

يسأل:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾.

إنه سؤال العقيدة.

وهذا يكشف معنى «حامل العهد» في أبسط صورة:

ما يخاف عليه النبي بعد موته هو وجهة العبادة.

جواب الأبناء — إله واحد عبر الأجيال

قالوا:

﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

هنا تجتمع السلسلة:

إبراهيم،

إسماعيل،

إسحاق،

يعقوب،

والأبناء.

والجامع ليس الدم وحده.

الجامع:

إله واحد،

واستسلام واحد.

يعقوب والأسباط — ما معنى السبط؟

لفظ «الأسباط» لا يساوي بالضرورة:

الأبناء الاثنا عشر أنفسهم.

السبط في الاستعمال قد يدل على الفرع والقبيلة المتشعبة من أصل.

وفي الأعراف:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

الآية تتحدث عن جماعات/أمم داخل بني إسرائيل.

ولهذا ينبغي أن نميز:

الأبناء الاثنا عشر في أصل النسب،

والأسباط بوصفهم الفروع الجماعية الناتجة من هذا النسب.

هل الأسباط في آيات الوحي هم إخوة يوسف؟

قال تعالى:

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾.

لو حملنا «الأسباط» هنا على إخوة يوسف أنفسهم لزم سؤال كبير:

هل كانوا جميعًا أنبياء؟

الروايات الإمامية تنفي ذلك في حق إخوة يوسف.

لذلك رجح مفسرون إماميون أن المراد بالأسباط:

أنبياء الفروع والقبائل من ذرية يعقوب،

لا الإخوة الذين ألقوا يوسف في الجب بأعيانهم.

الأبناء الاثنا عشر — لماذا لا يذكر القرآن أسماءهم؟

سورة يوسف تحتاج إلى بعض الإخوة بوظائفهم داخل القصة، لا بأسمائهم.

تقول:

إخوته.

أخوه.

كبيرهم.

الذي قال لا تقتلوا يوسف.

لكنها لا تجعل الأسماء غاية.

هذا درس في منهج القرآن.

الهوية الأخلاقية أهم من ملء جدول الأنساب.

يعقوب ورؤيا يوسف — أب يفهم قبل الأبناء

يقول يوسف:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

يعقوب يدرك أن للرؤيا وزنًا.

فيقول:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

هذا مشهد نبوي وتربوي.

يعقوب لا يزرع الكراهية.

لكنه لا يكون ساذجًا.

يعرف أن الغيرة موجودة.

ويحمي ابنه بالحكمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ — يعقوب يرى خط الهداية في يوسف

يعقوب لا يكتفي بتحذير يوسف.

يقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

إذن الأب يرى في الرؤيا:

اجتباء،

وعلمًا،

وتمام نعمة.

ويصلها بإبراهيم وإسحاق.

هذا هو انتقال الوعي بالعهد عبر الأجيال.

الحب والغيرة — هل أخطأ يعقوب في محبة يوسف؟

الإخوة قالوا:

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾.

لكن القرآن لا يقول إن يعقوب ظلم أبناءه.

ولا يقول إنه ارتكب خطأ شرعيًا في محبته.

هذا وصف الإخوة لمشاعرهم.

وقد تكون محبة يعقوب مرتبطة بما يرى من يوسف من استعداد واصطفاء.

لذلك لا نجعل اتهام الإخوة حكمًا إلهيًا على الأب.

قبل القميص — الاستئذان والخوف من الذئب

تروي يوسف ١٢:١١-١٤ إلحاح الإخوة في اصطحاب يوسف، ووعدهم بالنصح والحفظ، وحزن يعقوب لفراقه وخوفه من أن يأكله الذئب وهم غافلون. ثم يظهر ادعاء الذئب في ١٢:١٧؛ فالقرآن يذكر الخوف والادعاء، ولا يقرر أن ذئبًا أكل يوسف، ولا يروي محاورة يعقوب لذئب. لا تُلحق الحكايات الزائدة بالنص القرآني.

وعند ١٢:١٠ يبقى الأخ الذي اقترح الجب غير مسمى. وفي ١٢:٨٠ يبقى كبير الإخوة الذي لزم مصر غير مسمى أيضًا. وتختلف المادة التفسيرية في تعيين الأدوار؛ يذكر الصافي قولًا بيهوذا في الموضع الأول، وينقل عن القمي خبرًا يسمي لاوي. لذلك لا نختار اسمًا قرآنيًا لشخص تركه القرآن بلا اسم. [م٣، م٥]

القميص الكاذب — يعقوب لا يصدق الدليل المصنوع

جاء الإخوة:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

ثم:

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

يعقوب لا يخدع بالبكاء ولا بالدم المصنوع.

يقول:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

هذا درس في التمييز بين:

الانفعال،

والدليل.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ — ما هو الصبر الجميل؟

قال يعقوب:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الصبر الجميل ليس عدم الحزن.

يعقوب سيحزن لاحقًا حتى تبيض عيناه.

إذن الصبر الجميل هو حزن بلا اعتراض على الله،
وثبات بلا يأس،
واستعانة بالله.

السائل ذميال — رعاية المحتاج في رواية الابتلاء

في علل الشرائع، الباب٤١، ح١، يروي أبو حمزة الثمالي عن الإمام علي بن الحسين خبر سائل صائم غريب يسمى «ذميال» مر بباب يعقوب ولم ينل الطعام، ثم يربط الخبر الابتلاء بالتنبيه إلى حق المحتاج. وفي إطار نقل الخبر ترد «سكينة» مولاة الإمام السجاد، التي يأمرها بإطعام من يقصد الباب؛ فهي من زمن الإمام، لا امرأة في بيت يعقوب. [م٩] ويُراجع الفصل الثامن عشر لقراءة «بقوم» في طريق آخر، ولقراءتي «وشيكة» و«الفتيكة» لاسم المولاة؛ لا تُسوّى هذه الألفاظ أو تعدّ شخصيات إضافية بلا دليل.

يذكر الخبر بيت يعقوب وأهل الدار دون تسمية جميع أفراده. ومغزاه المنقول العناية بالجائع ومراجعة الغفلة عنه. لا يجيز ذلك نسبة ظلم متعمد إلى النبي بلا تحقيق، ولا بناء قاعدة أن كل مصيبة عقوبة على ذنب، ولا لوم المصاب على مرضه أو فقده. يُقرأ الخبر في ضوء عصمة النبي والمحكم القرآني، وتبقى صحة طريقه مسألة مستقلة.

الميرة والعهد — ما بين الرحلتين إلى مصر

في يوسف ١٢:٥٩-٦٦ يتصل طلب اصطحاب الأخ بحاجة الأسرة إلى الطعام، وبإعادة بضاعتهم إليهم. يتذكر يعقوب ما وقع ليوسف، ثم يأخذ العهد مع الاستثناء الصريح «إلا أن يحاط بكم». ليس العهد تكليفًا بالمستحيل، ولا قبولًا بلا شرط.

وفي ١٢:٨٠-٨٣ يبقى كبيرهم بمصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له، ويطلب العائدون سؤال أهل القرية والعير. لذلك يشمل رجاء يعقوب «أن يأتيني بهم جميعًا» يوسف وأخاه ومن بقي في مصر بحسب اتصال القصة. لا يذكر القرآن اسم الكبير ولا أسماء شهود القرية والعير؛ تُثبت أدوارهم دون اختراع هويات.

الميثاق قبل إرسال بنيامين

قال:
﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ (يوسف ١٢:٦٦).
بعد تجربة يوسف، يعقوب لا يكرر القرار نفسه بلا ضمان.
يطلب ميثاقًا.

التجربة لم تحوله إلى يائس.

حوّلته إلى أكثر احتياطًا.

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾

هذه الجملة تكشف الذاكرة الأخلاقية.

يعقوب لا ينسى ما حدث ليوسف.

لكن لا يقفل الباب إلى الأبد.

يقول:

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

الحفظ الحقيقي عند الله.

الدخول من أبواب متفرقة — احتياط لا يغير القدر

قال:

﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

ثم مباشرة:

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

هذه من أجمل معادلات القرآن:

خذ بالأسباب،

ولا تؤله الأسباب.

هل كان يعقوب يخاف العين؟

كتب التفسير والروايات ذكرت احتمال العين والحسد في تفسير أمر الأبواب.

لكن الآية لا تصرح بالسبب.

ولهذا نقول:

من أشهر التفسيرات أنه خاف عليهم العين أو لفت الأنظار.

لكن لا نجعل هذا السبب نصًا قرآنيًا.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ — التوكل بعد التدبير

في السياق نفسه يقول يعقوب:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يعقوب وضع خطة.

ثم أعلن أن الحكم لله.

هذه ليست مفارقة.

هذا هو التوكل الصحيح:

تبذل السبب،

وتعرف أن النتيجة ليست ملكك.

الصبر الجميل يتكرر — المرة الثانية أصعب

عندما يفقد يعقوب ابنه الآخر يقول مرة أخرى:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

هذه المرة الصبر ليس صمتًا فارغًا.

هو متصل برجاء واضح:

﴿عَسَى اللَّهُ﴾.

الصبر عند يعقوب يزداد خبرة.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ — هل الحزن يناقض النبوة؟

القرآن لا يخجل من دموع النبي.

يقول:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

الحزن هنا حقيقي وجسدي.

لكن يعقوب لا ييأس من الله.

إذن المشاعر الإنسانية ليست نقصًا في النبوة.

الفرق هو:

إلى أين يقود الحزن؟

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ — الشكوى إلى الله ليست شكوى من الله

عندما يلومه أبناؤه على ذكر يوسف يقول:

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾.
هذه من أعظم جمل الدعاء في القرآن.
يعقوب يشكو إلى الله.
ولا يشكو من الله.
يجعل الله موضع كشف الألم.
وهذا يفرق بين:
الاعتراض،
والتضرع.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ — معرفة تصنع الرجاء

بعد قوله السابق يقول:
﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.
لا يشرح القرآن كل ما كان يعلمه.
لذلك لا نخترع تفاصيل.
لكن الجملة تكشف أن رجاءه ليس سذاجة.
وراء الرجاء معرفة بالله.

هل كان يوسف حيًا؟ — خبر ملك الموت وحدود العلم

في روضة الكافي، ح٢٣٨، خبر عن الإمام الباقر أن يعقوب سأل ملك الموت عن قبض روح يوسف، فأجابه بما أبقى رجاء حياته. يسمى الملك في متن الخبر «بريال»، ويذكر الخبر عشرين سنة للفراق. درجته عند المجلسي، بحسب التخريج المرفق بالنص، ضعيف؛ فلا يصير الاسم أو العدد حقيقة قرآنية. [م١٠]

حتى على فرض قبول الخبر، فالعلم ببقاء يوسف حيًا لا يساوي معرفة مكانه ولا الاطلاع المستقل على كل غيب. والقرآن ينسب علم يعقوب إلى تعليم الله (١٢:٦٨)، ويجعل الرجاء باعثًا على البحث (١٢:٨٧). ولا نركب من مدد الفراق وأعمار الأبناء المختلفة خطًا زمنيًا يقينيًا.

﴿لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ — يعقوب يرسل أبناءه للبحث

يقول:
﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾.

لم يقل:
انتظروا فقط.
قال:
اذهبوا.
تحسسوا.
لا تيأسوا.
كما رأينا مع هاجر:
التوكل لا يلغي الحركة.

اليأس والكفر — لماذا ربطهما يعقوب؟

يكمل:
﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.
هذا لا يعني أن كل لحظة نفسية من الحزن كفر.
الآية تتحدث عن اليأس من رحمة الله بوصفه موقفًا عقديًا من قدرة الله ورحمته.
يعقوب نفسه حزين جدًا.
لكنه غير يائس.

رسائل يعقوب إلى عزيز مصر — اختلاف الألفاظ ومحل النقد

تنقل تفاسير العياشي والقمي ومجمع البيان، كما جمع الصافي عند يوسف ١٢:٩٢-٩٦، أخبار المراسلة بين يعقوب وعزيز مصر في شأن بنيامين. تذكر دعاء يعقوب، والرسول غير المسمى، وتأثر يوسف بكتاب أبيه. هذه رسائل مروية، لا نصوص واردة في القرآن، ولا يصح تركيب ألفاظ طرقها المتعددة في رسالة واحدة ثم وضعها بين علامتي اقتباس. [م٥]

تتضمن بعض الطرق عتابًا بألفاظ توهم القنوط أو نسيان ذكر الله. لا نجعل هذه الألفاظ حكمًا ثابتًا على يعقوب؛ فهي تحتاج نقد السند والمتن، ويقابلها تصريح القرآن برجائه ونهيه عن اليأس (١٢:٨٣، ٨٦-٨٧). الاستعانة برسول وطلب إطلاق الابن لا تثبت بذاتها اعتراضًا على الله.

وفي بعض أخبار المراسلة يذكر جبرئيل وتعليم الدعاء. تبقى صيغة الدعاء ونسبة تعليمها من الخبر المنقول، لا ضمانًا آليًا لعودة كل مفقود. كما أن ذكر إسحاق بوصفه المبتلى بالذبح في إحدى الرسائل يوثق اختلاف الروايات في الذبيح، ولا يلغي ما فُصل في فصلي إسماعيل وإسحاق.

رسول من البادية — الرجل وزوجته وأهل بيته

في كمال الدين، باب غيبة يوسف، خبر منسوب إلى الإمام الصادق عن أعرابي ينقل رسالة رجاء بين يوسف ويعقوب. يصور الخبر زوجته ابنة عمه، وخدمًا مع إبله، ثم دعاء يعقوب لهما بالولد. لا يسمي الرجل أو المرأة. ويختلف النقل في عدد البطون التي ولدت فيها توائم؛ يحفظ النص الإلكتروني «أربعة أبطن أو ستة أبطن»، فلا نختار رقمًا قطعيًا. [م١١]

يروي الراوندي أصل هذا الخبر في قصص الأنبياء، ح١٣٦. وجود الزوجة والخدم والذرية جزء من الرواية المنقولة، مع بقائهم غير مسمين؛ لا يستدعي ملء أسمائهم بالظن. وليس هذا الأعرابي هو البشير بالقميص لمجرد أن كليهما يحمل خبرًا، إذ لكل مشهد سياقه. [م١٢]

القميص وعودة البصر — آية داخل الأسرة

يقول يوسف:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

ثم:

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

هذه علامة خاصة في القصة.

لا نحولها إلى وصفة طبية.

ولا نحتاج إلى نفي الجانب المادي.

القرآن يقول إن وضع القميص ارتبط بعودة البصر في هذه المعجزة.

الرائحة قبل البشير — كيف عرف يعقوب؟

قال:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

القافلة لم تصل بعد.

القرآن لا يشرح الآلية.

الرواية تربطها بالقميص.

لكننا لا نحتاج إلى تفسير فيزيائي.

الآية تثبت إدراكًا منحه الله ليعقوب في تلك اللحظة.

عودة يوسف — هل قال يعقوب «ألم أقل لكم» شماتة؟

بعد عودة بصره يقول:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ليست الجملة احتفالًا بانتصار الأب على أبنائه.

إنها تثبيت للدرس:

لا تجعلوا الظاهر آخر كلمة.

طلب الاستغفار — التوبة تدخل البيت

الإخوة يقولون:

﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

هذه لحظة تحول.

في بداية القصة أرادوا إبعاد يوسف.

في النهاية يعترفون:

نحن الخاطئون.

الهداية لا تظهر فقط في نجاة يوسف.

تظهر أيضًا في إمكان توبة الإخوة.

لماذا قال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾؟

في نهاية القصة يعترف الإخوة:

﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

فيقول يعقوب:

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

تفسير الصافي يجمع عدة روايات إمامية:

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أخّرهم إلى السحر، وذكر أن الأسحار من خير أوقات الدعاء.

وفي الفقيه والعياشي ورد أنه أخّر الاستغفار إلى سحر ليلة الجمعة.

وفي علل الشرائع سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن الفرق بين مبادرة يوسف إلى قول «لا تثريب عليكم اليوم» وتأخير يعقوب، فذكر أن جناية الإخوة الأصلية كانت على يوسف، فبادر يوسف بالعفو عن حقه، أما يعقوب فكان يستغفر في أمر تعلق بحق غيره أيضًا، فأخر الدعاء.

هذه الأخبار ليست تفسيرًا وحيدًا للآية، لكنها تقدم قراءة تربوية جميلة:

العفو عن حقك شيء.

والاستغفار لمن اعتدى على حق غيرك يحمل مسؤولية أخرى.

استكمال رواية الاستغفار — نقل المعنى لا حذف موضع الإشكال

خبر علل الشرائع المذكور يجمع بين التفريق في الحقوق وبين عبارة «قلب الشاب أرق من قلب الشيخ». لذلك كان تلخيصه بالحقوق وحدها تلخيصًا جزئيًا. نثبت وجود العبارة في الخبر، من غير تحويلها إلى حكم قطعي على باطن يعقوب أو إلى اتهام له بالقسوة؛ فذلك يحتاج إلى تحقيق الطريق والدلالة. والمحكم القرآني يثبت وعده بالدعاء ورجاء المغفرة. [م٥]

يعقوب يدخل مصر — من أسرة إلى جماعة مهاجرة

في نهاية السورة:

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

هذه لحظة تاريخية كبرى.

أسرة يعقوب تنتقل إلى مصر.

ولن تبقى أسرة صغيرة.

بعد أجيال سيصبح أحفادها:

بني إسرائيل في مصر.

هنا يبدأ الجسر الحقيقي إلى قصة موسى.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ — الأبوان من هما؟

قال تعالى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

التفسير المشهور يجعل الأب يعقوب والأم والدة يوسف.

لكن روايات إمامية تحفظ قولًا بأن أم يوسف كانت قد ماتت، وأن خالته التي كانت بمنزلة الأم حضرت.

إذن الآية واضحة في لفظ «أبويه»، لكن تعيين المرأة يدخل فيه اختلاف روائي.

السجود ليوسف — هل كان عبادة؟

قال تعالى:

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

السجود هنا لا يمكن أن يكون عبادة ليوسف بمعنى تأليهه.

القرآن نفسه يجعل يوسف نبيًا موحدًا.

فسر العلماء السجود بأنه تحية أو تكريمًا مشروعًا في شريعتهم، أو سجودًا لله شكرًا وكانت جهة يوسف سبب المناسبة.

الروايات الإمامية تتضمن تفسيرات في هذا الباب.

المهم:

لا نقرأ اللفظ خارج عقيدة التوحيد التي بنتها السورة كلها.

تحقق الرؤيا — يعقوب كان في أولها وآخرها

يوسف يقول:

﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

القصة بدأت:

يا أبت.

وتنتهي:

يا أبت.

يعقوب هو أول من سمع الرؤيا.

وهو حاضر عند تحققها.

وهذا يعطي القصة دائرة كاملة.

لقاء الأب — خبر عدم الترجل لا ينسخ التكريم القرآني

يروي الكافي، ج٢، ص٣١١، باب الكبر، ح١٥، خبر عدم ترجل يوسف عند لقاء يعقوب، ويربطه برفع النبوة من عقبه. في طريقه «عمن حدثه»، وقد وصفه المجلسي بالمرسل. فلا يستعمل لتقرير تكبر يوسف على أبيه حقيقةً ثابتة، ولا لإثبات حصر النبوة في نسل أخ بعينه بلا تحقيق مستقل. [م١٣]

وتوجد صيغة في تفسير القمي، منقولة في الصافي، تربط انتقال النبوة إلى ولد لاوي بنهيه عن قتل يوسف وبموقفه في مصر. نذكرها بمرتبتها الروائية؛ لا يلزم من نسبة أنبياء إلى ذريته أن لاوي نفسه كان نبيًا. أما القرآن فيثبت إيواء يوسف أبويه ورفعهما على العرش واجتماع الأسرة (١٢:٩٩-١٠٠). [م٥]

وفي خبر آخر يسأل يعقوب ابنه عما صنع به إخوته، فيطلب يوسف إعفاءه من استعادة التفاصيل المؤلمة. ينقله الراوندي في ح١٣٧ ضمن أخبار القصة؛ لا نكمل الحوار من الخيال. وبذلك يحفظ الفصل اجتماع الأسرة دون تحويل أذاها القديم إلى مادة تشهير جديدة. [م١٢]

يعقوب في ذاكرة أهل البيت — الحزن الذي لا يقطع الرجاء

في الخصال، باب الخمسة، خبر «البكاؤون خمسة» عن الإمام الصادق: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليهم السلام. يربط الخبر حزن السجاد على الحسين باستشهاد يعقوب بشكواه إلى الله. وفي سنده رفع؛ فلا يوصف بالصحيح لمجرد اشتهاره. [م١٤]

فاطمة والسجاد والحسين والنبي محمد شخصيات في تلقي قصة يعقوب عبر العصور، لا معاصرون له. وكذلك أبو حمزة وسكينة في إطار رواية السائل. إبقاء هذا الفصل الزمني يمنع تحويل رجال الأسانيد ونسائها إلى أفراد الأسرة القديمة.

وليس حزن يعقوب في القرآن نقيض التوحيد أو الصبر؛ إنه حزن يقترن بالرجاء والسعي. أما الخبر المنقول فيستشهد بهذا المعنى في ذاكرة أهل البيت، دون أن يلزم من عدد المذكورين فيه نفي البكاء المشروع عن كل من سواهم.

الدروس الكبرى من فصل يعقوب

أولًا: وصية النبي الأخيرة هي التوحيد.

ثانيًا: النسب لا يكفي.

يعقوب سأل أبناءه ماذا يعبدون.

ثالثًا: الصبر الجميل لا يعني انعدام الحزن.

رابعًا: الشكوى إلى الله عبادة، والشكوى من الله اعتراض.

خامسًا: الرجاء يحتاج إلى حركة:

﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾.

سادسًا: لا تيأسوا من روح الله.

سابعًا: الأسرة قد تكون مكان أكبر الابتلاءات وأكبر التوبات.

ثامنًا: الأنبياء يأخذون بالأسباب ثم يتوكلون.

تاسعًا: الميثاق أهم من الثقة الساذجة.

عاشرًا: حركة الهداية تنتقل من الأب إلى الابن بوعي وعلم، لا بالنسب وحده.

يعقوب ويوسف في مصر — متى انتقلت وظيفة الحجة؟

في خبر محمد بن مسلم عن الإمام الباقر الذي تقدم عند وفاة يعقوب، بقي يعقوب الحجة مدة اجتماعه بيوسف، مع كون الملك ليوسف؛ وبعد موته انتقلت وظيفة الحجة إلى يوسف. فهذا يميز سلطة خزائن مصر من انتقال العهد، من غير أن ينفي نبوة يوسف في حياة أبيه. مدة الحولين وموضع الدفن تفاصيل روائية، لا تواريخ قرآنية. وتفصيل مسيرة الابن يأتي في الفصل الثامن عشر.

ضبط نطاق الشخصيات — ما يحضر هنا وما يفصل في قصة يوسف

في قلب هذا الفصل: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ويوسف، والإخوة، والأبوان في مشهد اللقاء، وامرأة إبراهيم في البشارة. ويضاف بحسب الروايات: العيص، وراحيل، وبنيامين، وياميل، وعمة يوسف، وذميال، والأعرابي وزوجته وخدمه، والرسول غير المسمى. وقد فُصلت أسماء الأنساب المقارنة عن هذه الطبقة.

وفي خلفية مصير يوسف التي مست أباه: أصحاب القافلة وواردهم، والمشتري المصري العزيز وامرأته، والشاهد من أهلها، ونسوة المدينة، وصاحبا السجن والناجي منهما، والملك ورسوله وخدم يوسف والمنادي ومرافقو الإخوة. لا يسمي القرآن هؤلاء بأسماء شخصية؛ وتفاصيلهم، ومنها اسم زليخا في روايات امرأة العزيز، موضعها الفصل الخاص بيوسف حتى لا تتكرر القصة كاملة. [م٥]

أما جبرئيل وملك الموت فليسا شخصيتين بشريتين؛ يذكران في أخبار محددة بحدودها. والشيطان حاضر في تحذير يعقوب (١٢:٥) وفي تفسير يوسف لما وقع بينه وبين إخوته (١٢:١٠٠). وظهور آدم ونوح وزكريا ويحيى وموسى وغيرهم في آيات النسب والهداية أو روايات الذاكرة لا يجعلهم جميعًا معاصرين ليعقوب.

اكتمال الفصل هنا يعني استيعاب مواضعه القرآنية ومحاور أخباره وشخصياته في المصادر المبينة، مع إظهار اختلافها. لا يعني دعوى استنفاد كل مخطوط أو تصحيح كل رواية. وما لم يثبت اسمه أبقيناه بوصفه، وما تعارض لم نسوِّه باختراع تاريخ موحد.

خاتمة الفصل السابع عشر — الأبناء يدخلون مصر

يعقوب هو النبي والأب.

هو إسرائيل في التفسير والرواية.

أوصى بعبادة الله.

ابتلي داخل أسرته.

حزن ولم ييأس.

استعاد يوسف.

ودخلت أسرته مصر.

ومن هذه الأسرة تبدأ قصة يوسف بالتفصيل، ثم يبدأ بعد يوسف السؤال الأخطر: كيف بقي العهد محفوظًا في مصر حتى جاء موسى؟

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

البقرة ٢:١٣٢-١٤٠.

آل عمران ٣:٨٤، ٩٣.

النساء ٤:١٦٣.

الأنعام ٦:٨٤.

الأعراف ٧:١٦٠.

هود ١١:٧١.

يوسف ١٢ كاملة، وبخاصة ١٢:٤-٦، ١٨، ٦٣-٦٨، ٨٠-١٠٠.

مريم ١٩:٦، ٤٩-٥٠، ٥٨.

الأنبياء ٢١:٧٢-٧٣.

العنكبوت ٢٩:٢٧.

ص ٣٨:٤٥-٤٧.

ثانيًا: يعقوب = إسرائيل وما حرمه على نفسه

الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٤٣، الباب ٣٩، ح١-٢: خبر الولادة وتفسير يعقوب وإسرائيل؛ يفصل الخبر الأول عن النقل الثاني المرسل.

تفسير العياشي، ج١، ص١٨٤، الحديث ٨٥ في بعض الطبعات — عن عبد الله بن أبي يعفور عن الإمام الصادق في آل عمران ٣:٩٣، وتحريم إسرائيل لحم الإبل على نفسه بسبب الوجع.

تفسير القمي عند آل عمران ٣:٩٣ — تفسير قريب مرتبط بعرق النسا ولحم الجمل.

تنبيه: تفسير معنى اسم «إسرائيل» وسبب التحريم رواية، أما الآية نفسها فتثبت فقط وجود تحريم ذاتي قبل التوراة.

ثالثًا: إخوة يوسف والأسباط

تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٤-١٩٥، ح٧٤-٧٨؛ لفظ ح٧٤ في النص المقابل: «لا ولا بررة أتقياء». يظهر في بعض النقول الإلكترونية للصافي «لا ولكن بررة أتقياء»؛ يُرجع في الاقتباس هنا إلى نص العياشي، ولا يسوى بين اللفظين دون مقابلة.

الكافي، كما نقله الصافي عند يوسف ١٢:٩٧-٩٨ — عن الإمام الباقر: الإخوة أسباط من أولاد الأنبياء، مع نفي نبوتهم وذكر توبتهم؛ ولا يقيد نفي النبوة بمرحلة الجريمة.

الطباطبائي، الميزان، عند خواتيم سورة يوسف — مناقشة أن «الأسباط» لا يلزم أن يكونوا إخوة يوسف بأعيانهم وأن عصمة الأنبياء تمنع هذا التعيين.

الأعراف ٧:١٦٠ — الأسباط بوصفهم اثنتي عشرة جماعة/أمة في بني إسرائيل.

رابعًا: بنيامين والأمهات

تفسير القمي عن الإمام الباقر عند يوسف ١٢:٤-٥ — يوسف له أحد عشر أخًا، وله من أمه أخ واحد يسمى بنيامين.

تفسير الصافي، ج٣، عند يوسف ١٢:٥ — جمع روايات القمي والعياشي في بنيامين، راحيل، ياميل، والخلاف في الأم/الخالة.

تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٦-١٩٧ — ابن ياميل/بنيامين وخالة يوسف ياميل في بعض الطرق.

تنبيه: القائمة الكاملة لأسماء الأبناء وأمهاتهم ليست محفوظة في رواية معصومية واحدة بتمامها بحسب تنبيه الفيض الكاشاني.

خامسًا: القميص وآثار النبوة

الصدوق، علل الشرائع، باب علة وجدان يعقوب ريح يوسف؛ ويقارن بالكافي، ج١، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح٥: قميص إبراهيم الموروث.

تفسير القمي، عند يوسف ١٢:٩٣-٩٤.

تفسير العياشي، أخبار قميص يوسف وعودة بصر يعقوب.

بصائر الدرجات، أبواب مواريث الأنبياء وآثارهم.

سادسًا: الاستغفار للأبناء

الكافي، عن الإمام الصادق، في تفسير ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ — تأخير الدعاء إلى السحر.

من لا يحضره الفقيه وتفسير العياشي — سحر ليلة الجمعة.

الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٥٤ في بعض الطبعات — الفرق بين عفو يوسف واستغفار يعقوب.

سابعًا: الوصاية والعمر

تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٨، الخبر ٨٧ في الطبعة المتداولة — عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر: كان يعقوب الحجة والملك ليوسف، ثم انتقلت وظيفة الحجة إلى يوسف بعد وفاة يعقوب؛ سند النسخة المتداولة يحتاج تحقيقًا.

الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، ح٣؛ كمال الدين، ج١، الباب ٢٢، ح١؛ ومن لا يحضره الفقيه، خبر اتصال الوصية. الطريق المشترك في الموضعين الأولين لا يصبح طريقين مستقلين لمجرد اختلاف الكتّاب.

تنبيه: بعض طرق سلسلة الاتصال يمر بمقاتل بن سليمان ويحتاج إلى دراسة سندية.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٤٩، الحديث ٣ — عمر يعقوب مائة وعشرون سنة في متن الخبر؛ ويقابل بالكتّاب المطبوع «إثبات الوصية»، ص٤٧–٤٨، الذي يذكر مائة وستًا وأربعين سنة، مع اختلاف الأخبار الأخرى. لا يثبت عمر قطعي من هذه الأرقام.

بحار الأنوار، ج١١، ص٦٥ في بعض الطبعات — نقل خبر الأعمار.

ثامنًا: التاريخ والأنساب

الكتّاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب»، ص٤٦–٤٨: يعقوب والعيص، زوجتا يعقوب غير المسميتين فيه، مشهد اللقاء بين الأخوين، اثنا عشر ابنًا، وفاته بمصر ونقل جسده؛ خبر تاريخي روائي يحتاج فحص نسبة الكتّاب وطرقه. تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٨، ح٨٧؛ والراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ح١٣٨: رواية وفاة يعقوب ونقل يوسف رفاته، مع نقد الطريقين. أما قوائم أبناء يعقوب وأمهاتهم الكاملة والتفاصيل الزائدة في كتب التاريخ والأنساب والمادة الكتابية فتُذكر للمقارنة وتصنّف مستقلة ما لم يثبتها نص إمامي معين.

إحالات الإضافات والتحقيق

أرقام الصفحات بحسب النسخ المشار إليها؛ قد تختلف بين الطبعات. الإحالة تثبت موضع النقل، ولا تعني تصحيح سنده.

[م١] الصدوق، علل الشرائع، باب٣٩، ح١–٢: يعقوب وإسرائيل؛ خبران مختلفان.

[م٢] القرآن، مريم ١٩:٦، ٥٨؛ يوسف ١٢:٦، ٣٨، ٦٨.

[م٣] الفيض الكاشاني، الصافي، ج٣، ص٥–٨، يوسف ١٢:٤–١٠: أسماء الأسرة والأخ المقترح.

[م٤] ابن كثير، البداية والنهاية، قصة إسحاق وأولاده: مادة أنساب للمقارنة فقط.

[م٥] الفيض الكاشاني، الصافي، ج٣، ص٤١-٥٢: اختلاف أخبار المراسلة واللقاء والعمر والأسرة.

[م٦] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج٢، باب٣١، ح٥، ص٧٦ في طبعة و٨٢ في أخرى: عمة يوسف.

[م٧] الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩، ح٥٣: سارة بنت إسحاق.

[م٨] الصدوق، كمال الدين، باب ما روي في التعمير، ح٣؛ الباب ٤٤ من القسم الثاني في الفهرسة الإلكترونية.

[م٩] الصدوق، علل الشرائع، باب٤١، ح١، ص٤٥ وما بعدها: ذميال وسكينة وإطعام المحتاج.

[م١٠] الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٢٣، ح٢٣٨: ملك الموت؛ مع نقل تضعيف المجلسي.

[م١١] الصدوق، كمال الدين، باب غيبة يوسف: خبر الأعرابي عن هشام بن سالم عن الصادق، أول أخبار الباب في الفهرسة الإلكترونية.

[م١٢] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب٦، ح١٣٥-١٣٨: الدعاء والأعرابي وملك الموت والدفن.

[م١٣] الكليني، الكافي، ج٢، ص٣١١، باب الكبر، ح١٥: خبر الترجل، مرسل.

[م١٤] الصدوق، الخصال، أبواب الخمسة، خبر البكائين الخمسة، ح١٥ في ترقيم الباب.

الفصل ١٨ — يوسف عليه السلام — من الجب إلى تمكين الحق

من يعقوب إلى يوسف — حين تدخل الهداية بيتًا ممزقًا بالغيرة

سورة يوسف تقدم القصة بوصفها ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ في سياق الوحي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله.

وهي من أكثر قصص الأنبياء تماسكًا في سورة واحدة.

لكنها ليست قصة صعود اجتماعي فقط.

إنها قصة رؤيا وحسد وجب ورق وفتنة وسجن وعلم وعفو، وأسرة تعود إلى بعضها؛ ثم عهد ينتقل بعد يوسف في الرواية إلى شخصية ستفتح الفصل التالي.

يوسف في القرآن — خريطة أوسع لا ينبغي أن تسقط منها أي حلقة

سورة يوسف ١٢:١-١١١ هي الإطار الكامل للفصل: تمهيد الوحي (١-٣)، ثم القصة إلى دعاء يوسف (٤-١٠١)، ثم خطاب الرسول والعبرة وسنن الدعوة (١٠٢-١١١). ويضاف إليها الأنعام ٦:٨٤ وغافر ٤٠:٣٤.

الأنعام ٦:٨٤ تضع يوسف ضمن سلسلة من الأنبياء الذين هداهم الله.

غافر ٤٠:٣٤ يقول عن مصر قبل موسى:
﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾.

وهذه الآية شديدة الأهمية؛ لأنها تثبت أن يوسف لم يكن في مصر مجرد رجل إدارة أو صاحب منصب، بل جاءهم «بالبينات»، وبقي أثر رسالته في ذاكرة المجتمع بعد موته.

يوسف ١٢:٦ و١٢:٣٨ تربطه بملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وتضع علمه وتأويل الأحاديث داخل خط النعمة الإبراهيمية.

يوسف ١٢:٤٠ يعلن التوحيد في السجن: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

يوسف ١٢:٥٥ يضع الأمانة والعلم في قلب تحمله للمسؤولية العامة.

يوسف ١٢:٩٠-٩٢ يجمع الاعتراف بالتقوى والصبر والعفو.

يوسف ١٢:١٠٠-١٠١ يختم القصة بتحقق الرؤيا ودعاء يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

إذن قصة يوسف في القرآن ليست فقط «من الجب إلى القصر».

إنها نبوة وبينات، وتوحيد داخل السجن، وعفة وعصمة، وعلم وتأويل، وإدارة مسؤولة وعفو؛ ثم تسليم لله عند نهاية مرحلة التمكين.

كم كان عمر يوسف عند الرؤيا؟

القرآن لا يذكر عمر يوسف حين رأى الكواكب والشمس والقمر.

في تفسير القمي، في خبر منقول عن الإمام الباقر عليه السلام، ورد أنه كان ابن تسع سنين حين رأى الرؤيا.

وهذا رقم روائي، لا قرآني.

لذلك لا نقول في متن الكتاب: «كان يوسف في التاسعة» بوصفه حقيقة قطعية، بل نقول:

ورد في بعض الروايات الإمامية أنه كان ابن تسع سنين.

فضل تلاوة سورة يوسف — رواية في أثر القصة على قارئها

قبل تتبع الأحداث لا تُغفل وظيفة السورة عند قارئها. في أول روايات سورة يوسف من «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٦٦، الخبر ١، يروي أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام فضل قراءتها، ويذكر في بعض ألفاظ النسخة «في كل يوم أو في كل ليلة»، وما يرتبط بأمن القارئ من الفزع يوم القيامة وبجمال يشبه جمال يوسف، ثم يذكر يوسف من عباد الله الصالحين ومجانبة الفاحشة. هذه رواية في ثواب التلاوة والتأسي، لا آية تحدد برنامج قراءة ملزمًا، ولا وعدًا آليًا بأن التلاوة تغني عن العمل والعفة. تردد «كل يوم أو كل ليلة» في النص يُحفظ كما هو حتى تقابل النسخ، ويُبحث طريق أبي بصير إلى الكتاب قبل تصحيح الخبر بدرجة محددة. في القرآن نفسه وظيفة القصة هي العبرة والهدى والرحمة لأولي الألباب والمؤمنين (١٢:١١١)، وبذلك تتصل قراءة السورة بالسلوك لا بالمشاهدة المجردة لأحداثها.

ميلاد يوسف وبيته قبل الرؤيا — ما نعرفه وما لا نعرفه

يسميه القرآن يوسف ابن يعقوب، ويجعل في دعاء يعقوب عند الرؤيا ذكر تمام نعمة الله على «آل يعقوب» كما أتمها على إبراهيم وإسحاق (يوسف ١٢:٤-٦). ويذكره ضمن المهديين من ذرية إبراهيم في الأنعام ٦:٨٤. لا يحدد القرآن سنة ميلاده أو موضعها، ولا يذكر اسم أمه، ولا عمره عند الرؤيا. تذكر مواد تفسيرية إمامية أن له أخًا شقيقًا، وتختلف الأخبار في تفاصيل الأم والخالة واسم الأخ؛ فهذه مرتبة رواية لا قرآنية. وترد قصة عمته ومنطقة إسحاق في الروايات لتفسير اتهام الإخوة اللاحق، لكنها لا تمنحنا تاريخ ميلاد يوسف. يبدأ المتن القرآني الموثوق بمخاطبته أباه بالرؤيا، لا بسيرة طفولة مكتملة يمكن اختراعها من القصص العامة.

الرؤيا الأولى — الطفل يرى نهاية القصة قبل بدايتها

قال يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

فهم يعقوب أن للرؤيا شأنًا، وحذره من قصها على إخوته.

لا يعني هذا أن النجوم كانت آلهة، ولا أن السجود في نهاية القصة عبادة ليوسف.

وفي تفسير كيفية سجود الأسرة أخبار وأقوال مختلفة؛ وسنعرض في موضع تحقق الرؤيا الروايات الإمامية التي تجعله سجود شكر لله عند يوسف. لا نصفه هنا بأنه عبادة ليوسف، ولا نجزم بأن صورته كانت تحية له من دون تحقيق.

أسماء الإخوة والنساء في الأنساب — قائمة مقارنة لا حديث جامع

يسرد الصافي عند مطلع السورة أسماء الإخوة في مادة نسبية، ويصرح بأنه لم يجدها جميعًا معدودة في رواية معصومية واحدة: يوسف وبنيامين وروبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وزبالون ويشجر ودان ونفتالي وجاد، الذي ورد «حاد» في النص الإلكتروني، وآشر. وترد ليا وراحيل وزلفة وبلهة في تقسيم الأمهات. هذا نقل للأنساب مع تحفظ مؤلفه، لا أسماء قرآنية ولا إسناد جامع ثابت. [م٣]

لا يكفي ورود اسم أخ في خبر منفرد لإثبات بقية القائمة أو نسبة كل فعل إليه. القائل بعدم القتل في ١٢:١٠، والكبير الباقي في ١٢:٨٠، والبشير في ١٢:٩٦ أدوار لا يسمي القرآن أصحابها؛ اختلاف تعيينها في الأخبار يبقى ظاهرًا.

الرؤيا والحسد في تعليم الأئمة — معنى تربوي لا تاريخ جديد

في صدر سورة يوسف من تفسير العياشي، ج٢، ص١٦٦، الخبر ٢ عن مسعدة بن صدقة، يروي الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام مثالًا في معاملة الأبناء: قد يُظهر الأب عناية زائدة بواحد دفعًا لحسد إخوته، وإن كان الحق لغيره، وذكّر بما صنع إخوة يوسف. الخبر توظيف أخلاقي للقصة في حماية الولد من أذى الإخوة، لا تصريح بأن كل ما وقع بين يعقوب وبنيه يمكن تفسيره بقاعدة واحدة في التربية. ولا يجيز لنا اتهام يعقوب بجور لم يثبته القرآن؛ فالقرآن ينقل شعور الإخوة بالتفضيل، ولا يصدر حكمًا بظلم الأب.

وفي الخبر ٣ من الصفحة نفسها، عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام، ذُكر أن من الأنبياء من ينبأ في منامه، وورد يوسف وإبراهيم مثالين في سياق أنواع تلقي الخبر. يُقرأ هذا مع رؤيا يوسف ومع تحقق تأويلها، لكنه لا يعطي وحده تاريخ تكليفه بالرسالة ولا يحدد لحظة انتقال الحجة إليه من يعقوب. ولهذا نبقي الترتيب الروائي الآخر الذي يجعل يعقوب حجة مدة بعد اجتماع الأسرة في موضعه، ولا نساوي بين رؤية الطفل للمستقبل وبين تسليم العهد كاملًا في ذلك اليوم.

ذميال وابتلاء بيت يعقوب — خبر الإمام السجاد وحدود الاحتجاج

يروي تفسير العياشي، ج٢، ص١٦٧-١٦٩، الخبر ٥، عن أبي حمزة الثمالي أنه صلى الفجر مع الإمام علي بن الحسين عليهما السلام يوم الجمعة. دعا الإمام مولاةً له سمّاها الخبر «وشيكة» ـ وفي النسخ ضبط

آخر، وفي رواية العلل «سكينة» ـ وأمر بألّا يُرد سائل ذلك اليوم. ثم ساق خبرًا عن رجل مؤمن غريب صائم اسمه «ذميال» أتى بيت يعقوب وقت الإفطار وطلب الطعام فلم يُطعم، مع أن البيت كان فيه فضل طعام. وفي متن الخبر جاء عتاب إلهي ليعقوب في شأن حق الفقير، ثم سؤال أبي حمزة عن توقيت رؤيا يوسف؛ فأجابه الإمام بأن الرؤيا كانت في تلك الليلة، وأن يعقوب خاف على يوسف من البلاء وحذره من قصها على إخوته، وأن الحسد اشتد بعد سماعهم بها. هذه أحداث وأسماء في رواية إمامية، لا تفاصيل تنطق بها سورة يوسف ١٢:٤–١٥.

يتميز الخبر بأنه لا يجعل ذميال نبيًا أو وصيًا أو فردًا من الأسرة؛ هو صاحب حق في الطعام بحسب متنه. كما أن «وشيكة/سكينة» مولاة في إطار رواية الإمام السجاد الذي يروي القصة بعد قرون، وليست امرأة من زمن يعقوب. يورد العياشي خبرًا أقصر، رقم ٤، عن أبي خديجة «عن رجل» عن الإمام الصادق في سبب الابتلاء والجائع، وهذا الطريق يتضمن واسطة مجهولة. لا نستنتج من تكرار المعنى صحة جميع التفصيلات، ولا نقرر أن محنة يوسف كانت عقوبة قطعية على ذنب يعقوب؛ القرآن يروي كيد الإخوة والعناية الإلهية ولا يذكر ذميال أو تفسير العلة هذا. ما يجوز أخذه من الخبر على درجته هو حضور مسؤولية إطعام المحتاج في الوعي الروائي، ووجود تفسير إمامي للابتلاء يحتاج دراسة السند والمتن ومقارنة ألفاظ علل الشرائع. ويسمي النص الإلكتروني المقابل للخبر ٤ المحتاج «بقوم»، فلا نسقط هذا الرسم أو نسويه باسم ذميال بلا مقابلة؛ الخبران مختلفا الطريق. وتذكر حاشية الخبر ٥ قراءة «الفتيكة» إلى جانب وشيكة، و«سكينة» في العلل؛ الاختلاف في اسم مولاة السجاد لا يثبت نساءً متعددات.

رؤيا يوسف في سؤال بستان — شخصيات زمن الرواية

في الخصال، باب أسماء النجوم الأحد عشر، خبران عن جابر بن عبد الله؛ ثانيهما يحكي سؤال رجل يهودي يسمى «بستان» في النسخة المقابلة، و«بشان» في نقل الصافي، للنبي محمد عن أسماء الكواكب، وإخبار جبريل بها. الأول يتضمن راوياً مبهمًا، وللثاني طريق آخر؛ فلا يدمجان أو يصححان تلقائيًا. بستان وجابر والنبي من مشهد التلقي اللاحق، لا من معاصري يوسف. وأسماء الكواكب في الخبر ليست أسماء إخوة يوسف ولا تقريراً فلكيًا عن كواكب النظام الشمسي. [م٤]

دعاء يوسف في الجب — خبر إمامي يحتاج فحص السند

يروي الصدوق في الأمالي، المجلس الثالث والستين، الحديث الرابع، عن أبي بصير أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن دعاء يوسف في الجب. يذكر الخبر دعاءً يسأل الله فيه يوسف أن يرحم ضعف يعقوب وأن يجمع بينهما؛ وبذلك يربط محنة الابن بقلق الأب، وهو معنى يخدم محور هذا الكتاب. لكن القرآن في موضع الجب يذكر الوحي إلى يوسف وبشارة أنه سينبئ إخوته بأمرهم (يوسف ١٢:١٥)، ولا يسرد ألفاظ هذا الدعاء. ويمر سند الخبر بالحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه؛

لذا لا نثبت اللفظ باعتباره قرآنًا أو حقيقة قطعية قبل استكمال النظر الرجالي في الطريق، ونورده بوصفه رواية إمامية محددة المصدر.

جبريل ودعاء الفرج في الجب — طريق آخر غير خبر الأمالي

يحفظ تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٠، الخبر ٦، عن مسمع أبي سيار عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا مختلفًا عن دعاء الأمالي السابق: ينزل جبريل إلى يوسف في الجب ويسأله عمن ألقاه وما يرجو، فيرد يوسف الأمر إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم يعلّمه دعاءً يتضمن الثناء على الله، والصلاة على محمد وآل محمد، وطلب الفرج والمخرج والرزق. ويصل متن الرواية بين الدعاء والخروج من الجب، والنجاة من كيد المرأة، وحصول الملك. لا يسرد القرآن لقاء جبريل أو ألفاظ الدعاء في يوسف ١٢:١٥، ولا يجعل نجاح يوسف اللاحق مشروطًا بلفظ ورد في هذا الطريق. لذلك نحفظ هذا الخبر مستقلًا عن خبر الصدوق الذي يبرز ضعف يعقوب واللقاء به، ولا نركب من متنين مختلفين دعاءً واحدًا ننسبه إلى يوسف على وجه القطع. ذكر آل محمد في دعاء يروي واقعة قديمة جزء من المتن الروائي وموضوع فحصه، لا عبارة قرآنية. وفي الصفحة نفسها خبر آخر عن الإمام الصادق من طريق زيد الشحام يجعل يوسف ابن سبع عند الوحي في الجب، وهو شاهد آخر للعدد الروائي لا تاريخًا ثابتًا.

الحسد والجب — الجريمة تبدأ داخل البيت

قال الإخوة: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾.

ثم تحولت المقارنة إلى فكرة الإزالة:

اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا.

لكن أحدهم اقترح الجب.

القرآن لا يسمي أي أخ قال كل عبارة، ولا يقدم قائمة أسمائهم.

وهنا نكرر قاعدة الفصل السابق: لا نجعل الأسماء المأخوذة من الأنساب جزءًا من النص القرآني.

ليل الإخوة والقميص الملطخ — بين الدعوى والدليل

رجع الإخوة إلى أبيهم عشاءً يبكون، وقالوا إنهم ذهبوا يستبقون وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب، وأضافوا: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (يوسف ١٢:١٦-١٧). هذه دعواهم في القرآن، وليست تقريرًا من الوحي بأن الذئب أصابه. وجاؤوا على قميصه ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، فرد يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (١٢:١٨). يسمّي القرآن الدم كذبًا، ويجعل صبر يعقوب استعانة بالله أمام وصفهم، فلا نحوله إلى تصديق لرواية الذئب ولا إلى خلو من الحزن. ولا يذكر النص مصدر الدم، أو كيف حصلوا عليه، أو امتحان تمزق القميص في هذا الموضع؛ تلك تفاصيل خبرية تحتاج سندًا خاصًا.

وفي السورة ثلاثة أدوار مختلفة للقميص: قميص جيء عليه بدم كذب في بداية الفراق (١٢:١٨)، وآخر قُدَّ من دبر عند باب امرأة العزيز فصار علامة في التحقيق (١٢:٢٥-٢٨)، ثم قميص أرسله يوسف إلى أبيه فعاد بصيرًا بإذن الله (١٢:٩٣، ٩٦). جمع الأدوار هنا قراءة بنائية للقرآن لا دعوى أنها قطعة واحدة من الثوب؛ وما ترويه بعض الأخبار عن قميص موروث من إبراهيم يذكر في موضعه بدرجة الرواية. هكذا تتدرج شهادة الأشياء في القصة من أداة استعملها الإخوة للكذب، إلى دليل يبرئ يوسف، إلى آية فرج للأسرة.

الوارد والبيع وبيت العزيز — حدود ما نعرفه عن صباه

تفصل الآيات ١٩-٢٢ ما اختصرته عبارة الانتقال من الجب إلى مصر. جاءت سيارة فأرسلت واردها إلى الماء، فأدلى دلوه وقال عند رؤية يوسف: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾. ثم يقول القرآن ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ (يوسف ١٢:١٩). لا يسمي الوارد أو رفاقه، ولا يعين عدد الأيام في الجب. وفي ضمير «أسروه» بحث تفسيري: من أخفى أمره؟ لذلك لا نجزم بخبر عن طريقة تسليمه أو هوية من ادعى ملكيته. يلي ذلك البيع بثمن بخس ودراهم معدودة، مع وصف القائمين بالبيع بأنهم كانوا فيه من الزاهدين (١٢:٢٠). لم يحدد القرآن عدد الدراهم أو اسم البائع، فالتقديرات العددية من طبقة التفسير أو الخبر.

وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ (١٢:٢١). هذه عبارة رجاء في التبني أو الانتفاع، وليست نصًا على حصول التبني شرعًا أو ثبوت علاقة بنوة نسبية. والمرأة هنا هي صاحبة البيت التي ستقع معها المحنة اللاحقة؛ ولا يسميها القرآن، كما لا يسمي زوجها في هذا الموضع، وإن دعيت لاحقًا «امرأة العزيز» (١٢:٣٠). ويضع الوحي فوق خطة المشتري خطة التمكين وتعليم تأويل الأحاديث: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. وحين بلغ يوسف أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا (١٢:٢٢)، من غير تاريخ ميلاد أو عمر محدد عند البيع أو عند بلوغ الأشد. لا يجوز أن نسد هذه الفجوات بتاريخ تخميني، أو أن نؤرخ بدء نبوته من الآية وحدها على نحو قاطع. إنها مرحلة نمو العلم في بيت مصري تسبق امتحان المراودة، ويظل خط الهداية الآتي من يعقوب حاضرًا في الخلفية. وثمن السوق القليل لا يقيس قيمة يوسف عند الله؛ ففي هذا الانتقال تظهر العناية الإلهية داخل ما يظنه الناس نهاية مستقبله.

ثمن يوسف وعمره عند الجب — اختلاف العدد في الأخبار

اكتفى القرآن بوصف الثمن بأنه ﴿بِبَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ (يوسف ١٢:٢٠)، ولم يذكر عددًا. في تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٢، الخبر ١١ عن الإمام الصادق بطريق «الحسن عن رجل» يذكر عشرين درهمًا وفيه واسطة مبهمة؛ والخبر ١٤ عن الإمام الباقر يذكر ثمانية عشر، والخبران ١٢ و١٥ المنسوبان إلى الإمام الرضا يذكران عشرين مع تفسير البخس بالنقص. اختلاف الثمانية عشر والعشرين، وجهالة الرجل في أحد الطرق، يمنعان تحويل أي رقم إلى نص قطعي أو تسوية المتون بغير قرينة. لا

يحدد القرآن كذلك عمره عند إلقائه في الجب. وفي الخبر ١٦ من العياشي عن أبي حمزة سأل علي بن الحسين عليهما السلام عن عمره يومئذ فورد «ابن سبع سنين»، مع ملاحظة المحقق أن في حديث العلل «تسع» بدل «سبع». هذه رواية عن عمره عند الجب لا عن لحظة الرؤيا؛ فلا نخلط السؤالين. بل إن أخذ خبر التاسعة عند الرؤيا وخبر السابعة عند الجب معًا بظاهرهما يوقع تناقضًا زمنيًا، لأن الجب جاء بعد الرؤيا؛ فلا نجمع الرقمين على أنهما تاريخان ثابتان. اختلاف نسخة «سبع/تسع» يزيد الحاجة إلى تحقيق الخبرين، ولا يجعل أحد الرقمين تاريخًا قرآنيًا. وفي الخبر نفسه وصف لمسافة مصر وتفاصيل مراودة المرأة، وهي زيادات روائية لا يُستخرج منها خط زمني يقيني من غير فحص طريقها.

امرأة العزيز — القرآن لا يسميها زليخا

القرآن يقول: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾.

ثم يسميها الناس في المدينة: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾.

اسم «زليخا» ليس قرآنيًا، لكنه لا يقتصر على الأدب المتأخر؛ تذكره أيضًا أخبار إمامية، ومنها خبر علل الشرائع وأخبار الراوندي التي يناقشها هذا الفصل. ثبوت وجود الاسم في مصدر غير تصحيح الرواية.

ولا ينبغي أن نجعل الروايات الأدبية المتأخرة أساسًا لصورة المرأة.

النص القرآني نفسه يكفي: مراودة، إغلاق الأبواب، استعصام يوسف بالله، السباق إلى الباب، وتمزق القميص.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ — يوسف والعصمة في روايات أهل البيت

قوله تعالى في يوسف ١٢:٢٤ من أكثر المواضع التي دخلتها أخبار قصصية لا تنسجم كلها مع مقام النبوة.

القرآن نفسه لا يترك المشهد مفتوحًا، بل يقول:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

يحفظ عيون أخبار الرضا خبرين مستقلين في تفسير الآية، فلا نسميهما مجرد اختلاف لفظ في حديث واحد.

في خبر مجلس المأمون، الذي يرويه علي بن محمد بن الجهم، ينفي جواب الإمام الرضا قصد المعصية عن يوسف، وينقل عن آبائه معنى امتناعه عن الفعل. [م١]

وفي خبر أبي الصلت الهروي عن المجلس، يكون السائل علي بن محمد بن الجهم؛ ويفسر الجواب همّ يوسف بقتلها إن أجبرته، مع صرف القتل والفاحشة عنه. هذا تفسير روائي آخر بطريق مستقل، لا عبارة عن وقوع القتل ولا لفظ قرآني. [م٢]

والعبارة الآتية منسوبة إلى الإمام الصادق داخل خبر المجلس الأول نفسه، فلا تعد شاهدًا مستقل الطريق بمجرد إفرادها:

«همّت بأن تفعل، وهمّ بأن لا يفعل».

وتوجد في بعض التفاسير أخبار أخرى تتوسع في «برهان ربه» بصور مختلفة، ومنها ما في تفسير القمي من رؤى أو مشاهد واعظة.

لكن القاعدة العقائدية التي يعتمدها هذا الكتاب واضحة:

لا نفسر الآية بطريقة تجعل نبيًا مصطفى يقصد الفاحشة ثم يتراجع عنها بعد شروع نفسي فيها.

القرآن نفسه يصفه بالمخلَص ويقول إن الله صرف عنه السوء والفحشاء.

وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام خبر آخر يشرح موقف يوسف من ناحية الحياء من الله: لما غطت المرأة صنمًا تستحي منه، ذكّرها يوسف بأنه أولى أن يستحي من خالقه.

إذن الطبقات هي:

الآية تثبت المراودة وصرف السوء والفحشاء.

روايات أهل البيت تقرأها في إطار عصمة يوسف.

أما الأخبار التي تنسب إليه قصد الزنا أو مقدماته القبيحة فلا تُقدَّم على محكم القرآن وأصل عصمة الأنبياء.

الشاهد والقميص — من هو الشاهد؟

قال تعالى:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

القرآن يثبت:

وجود شاهد من أهل امرأة العزيز.

وحجته القائمة على موضع قدّ القميص.

لكنه لا يسمي الشاهد، ولا يقول صراحة إنه طفل.

في تفسير القمي وردت رواية تجعل الشاهد صبيًا في المهد تكلم.

وهذا هو أحد الاتجاهات الروائية المشهورة في التفسير الإمامي.

لكن كتب التفسير تحفظ أيضًا أقوالًا بأنه رجل من أهلها أو قريب لها.

ولهذا لا نجعل «الطفل الناطق» جزءًا من النص القرآني نفسه.

الصياغة الدقيقة:

القرآن يثبت شاهدًا من أهلها.

وفي رواية إمامية في تفسير القمي عُيّن الشاهد طفلًا.

وتبقى الهوية تفصيلًا روائيًا لا يغيّر جوهر الحجة: القميص كان شاهدًا ماديًا على اتجاه الهروب والمطاردة.

نسوة المدينة والتهديد بالسجن — امتحان العفة أمام المجتمع

بعد ظهور قدّ القميص من دبره جاء الخطاب إلى يوسف أن يعرض عن الأمر، وإلى المرأة أن تستغفر لذنبها (يوسف ١٢:٢٩). لكن الخبر خرج من البيت إلى المدينة: قالت نسوة إن امرأة العزيز تراود فتاها وقد شغفها حبًا. ولما سمعت بمكرهن دعتهن، وهيأت لهن متكأ، وآتت كل واحدة سكينًا، ثم أمرت يوسف بالخروج عليهن. فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن إن هذا إلا ملك كريم (١٢:٣٠-٣١). لا يحدد القرآن عدد النسوة، ولا يسمي واحدة منهن، ولا يعين الطعام الذي كانت السكاكين له، فلا نعطي هذه الجزئيات أسماء أو أرقامًا بغير دليل. وصف «ملك كريم» قول النسوة في دهشتهن، لا تقرير قرآني بأن يوسف ليس بشرًا.

اعترفت امرأة العزيز أمامهن بالمراودة وبأنه استعصم، ثم أعلنت أنها إن لم ينفذ أمرها فسيسجن ويكون من الصاغرين (١٢:٣٢). هكذا لم تنته المحنة بظهور دليل براءته في البيت؛ فقد اقترن ضغط الرغبة بسلطة تستطيع الإذلال والحبس. والآية التالية تورد دعاءه: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، وسؤاله الله أن يصرف عنه كيدهن، إذ لا يزكي نفسه باستغناء عن العون الإلهي (١٢:٣٣). جاءت الاستجابة صريحة: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢:٣٤). ثم بدا لهم بعد ما رأوا الآيات أن يسجنوه إلى حين (١٢:٣٥). لا يحدد القرآن أصحاب القرار واحدًا واحدًا أو مدة «الحين»، ولا يصف سجنه عقوبة عادلة؛ بل يجاور في السرد بين قيام الدليل واستعمال السلطة في حبسه.

في هذا المشهد أدوار نسائية مختلفة لا يصح اختزالها في اسم امرأة العزيز: نسوة المدينة يتحدثن وينقلن القضية، ثم يشهدن جمال يوسف ويتأثرن به، والمرأة صاحبة البيت تقر أمامهن باستعصامه وتهدده. وعند تحقيق الملك بعد سنين ترجع النسوة شاهدات: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ (١٢:٥١). هذا الربط بين المجلس والشهادة اللاحقة ثابت في القرآن؛ أما سيرة كل امرأة قبل المجلس وبعده فلا يسجلها النص.

السجن — الإحسان مع استمرار الدعوة

دخل يوسف السجن مظلومًا، لكنه واصل الدعوة والإحسان. وتفسر أخبار في تفسير القمي وصف صاحبيه له بالإحسان بأنه كان يعود المرضى ويسعى في حوائج السجناء ويوسع لهم المكان؛ وتُراجع

نسبة كل طريق إلى الإمام الباقر أو الصادق في مصدره. أما تفاصيل دعوته وتأويل الرؤيتين وطلبه من الناجي أن يذكره عند سيده فتعرضها الآيات التالية.

من رؤيا السجينين إلى البرهان على التوحيد — قراءة الآيات ٣٦-٤٢

يذكر القرآن أن فتيين دخلا السجن مع يوسف: رأى أحدهما أنه يعصر خمرًا، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه. لم يسمِّ النص الرجلين ولا حدد وظيفتيهما. خاطباه لأنهما رأيا فيه الإحسان (يوسف ١٢:٣٦). وقبل تعبير الرؤيا قال لهما إن ما يأتيهما من طعام لن يقع إلا أخبرهما بتأويله قبل مجيئه، ونسب هذا العلم إلى تعليم ربه، ثم أعلن أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة كافرون، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. قوله ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ يربط علمه بأمانة التوحيد المتوارثة، ويصف هذا الفضل بأنه من الله على الأسرة وعلى الناس، مع أن أكثر الناس لا يشكرون (١٢:٣٧-٣٨).

ثم خاطب صاحبيه خطابًا مباشرًا: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. سمّى المعبودات الأخرى أسماء وضعها الناس وآباؤهم من غير سلطان أنزله الله، وقرر أن الحكم لله وأن أمره هو ألا يُعبد إلا إياه؛ وسمّى ذلك الدين القيم (١٢:٣٩-٤٠). هذه الدعوة جزء من جواب يوسف نفسه، وليست موعظة أضيفت إلى القصة من خارج القرآن. وفيها ينتقل علم التأويل من مهارة تنفع سجينًا إلى شهادة عامة بحق الله.

بعد البيان قال إن أحدهما سيسقي ربه خمرًا، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، ثم ختم بأن الأمر الذي استفتي فيه قد قضي (١٢:٤١). تذكر الآية التالية طلبه من الذي ظن أنه ناجٍ أن يذكره عند «ربه»، والمراد في سياق الخدمة سيده البشري، ثم تقول ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ (١٢:٤٢). يحتمل الضمير في القراءة التفسيرية رجوعه إلى الناجي أو إلى يوسف، ولا تذكر الآية اسم الناجي ولا تصريحًا بأن يوسف أنكر ربه. الأخبار التي ترى عتابًا تربويًا في طلب الوساطة تروى بوصفها تفسيرًا روائيًا، ولا ترفع هذا الاحتمال إلى لفظ قرآني قطعي أو تجعل الاستعانة بسبب مباح ذنبًا ثابتًا على النبي. وفي بعض أخبار العياشي عتاب يفسر، حيث يقبل الخبر، بدقة مقام التوكل وترك الأولى، لا بإثبات معصية تخالف عصمة النبي. ويعرض اختلاف عدد السنوات في قسم مدة السجن.

السجّان ودعاء ما بعد الصلاة — وجهان في روايات السجن

يروي تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٥-١٧٦، الخبر ٢١ عن العباس بن هلال أنه سمع الإمام الرضا عليه السلام يذكر قول السجّان ليوسف إنه يحبه؛ فيجيبه يوسف داخل متن الرواية بأنه يخشى ما جلبه له حب عمته، ثم حب أبيه الذي أثار حسد إخوته، ثم حب امرأة العزيز الذي انتهى بالحبس. ليس المقصود إدانة المحبة في ذاتها، ولا إثبات أن يعقوب تسبب في جريمة أبنائه؛ بل يسوق الخبر ملاحظة يوسف عن اقتران صور من التعلق بمحنته. السجّان شخصية لا يسميها القرآن، ولا نعرف من الآيات

ولادته أو إيمانه أو نهايته، فلا نعطيه رتبة حامل عهد. والرواية لا تحدد هل كان هو المسؤول عن جميع سنوات الحبس.

ويورد العياشي في ص١٧٦، الخبر ٢٢، عن ابن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام أن جبريل أمر يوسف في السجن بدعاء بعد كل صلاة فريضة يطلب فيه الفرج والمخرج والرزق من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب. يشبه بعض لفظه دعاء الجب في الخبر ٦، لكن الموضعان مختلفان: هناك خبر عند الجب، وهنا خبر في السجن. لا ندمجهما في حادثة واحدة ولا ننسب تحديد الصلاة والدعاء إلى سورة يوسف؛ فالقرآن يذكر دعوته إلى التوحيد وتأويل الرؤى وامتداد السجن ولا يسرد برنامج عبادته اليومي. يبقى الخبران مادة إمامية جديرة بالتوثيق والتحقيق، لا زيادة على الآية بصفة اليقين.

دعاء يوسف في السجن وخبر الاعتراف — نقد المتن قبل البناء عليه

في «قصص الأنبياء» للراوندي (الباب السادس، ص١٣٢-١٣٤، الخبر ١٣٥) خبر عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر بشارة جبريل ليوسف بالفرج ودعاءه بحق محمد وآله، ويصل ذلك برؤيا الملك وخروجه. وفي «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٩٨، الخبر ٨٨، رواية عن إسحاق بن يسار تتضمن دعاءً للفرج كذلك، لكنها تشتمل أيضًا على لفظ «اعترف بجرمه» وإشارة ملتبسة إلى مجلس المرأة. نثبت وجود الخبرين ولا نحذف اللفظ المشكل صمتًا؛ لكن سياق القرآن يعلن استعصام يوسف وإقرار المرأة والنسوة ببراءته (١٢:٣٢، ٥١)، فلا نجعل العبارة ذريعة لنسبة فاحشة إليه. نبّه محقق طبعة العياشي في هامشه إلى مخالفة هذا الجزء لمذهب عصمة يوسف واقترح حمله على التقية؛ وهذه ملاحظة تحريرية تُبحث ولا تُعامل قولًا للإمام. نفصل الدعاء الوارد في الرواية عن ادعاء جرم أخلاقي لا يسنده محكم السورة، ونحتاج دراسة الإسناد والنسخ قبل تقرير تفصيل وقت البشارة أو صيغتها.

مدة السجن — اختلاف الأخبار لا يغيّر معنى ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾

بعد طلب يوسف من الناجي أن يذكره عند ربه يقول القرآن ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف ١٢:٤٢)، من دون رقم محدد. في تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٨، خبر مرفوع عن الإمام الصادق يذكر سبع سنوات، وتلاحظ حاشية النقل صيغة «تسع» في بعض النسخ. وفي خبر عمر يوسف المنقول في مجمع البيان يرد أنه مكث في السجن ثماني عشرة سنة. لا نساوي بين رقم «بضع» في سياق الآية وبين مجموع سنوات السجن الذي تقصده كل رواية؛ وقد يكون نطاق العد مختلفًا، لكن لا يجوز الجزم بهذا الجمع دون دليل. وسند الخبر المرفوع وطرق خبر العمر بحاجة إلى فحص، لذلك نعرض سبعًا وتسعًا وثماني عشرة على أنها أخبار مختلفة، ونبقي عبارة القرآن أصلًا. وفي ذيل الخبر ٢٣، ص١٧٦، ينقل ابن أبي عمير عن ابن أبي حمزة عشرين سنة؛ ينبغي تمييز هذا التعقيب من كلام الإمام في صدر الخبر وعدم إخفاء اختلاف نطاق العد.

رؤيا الملك — العلم يصير خدمة عامة

بعد السجن يعرض القرآن رؤيا الملك: سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات. عجز الملأ عن تعبيرها وسموها أضغاث أحلام، فتذكر الناجي من السجن يوسف بعد أمة، أي بعد مدة، وعاد إليه يسأله. لم يجعل يوسف المعرفة ثمنًا مشروطًا لخروجه؛ بل فسر الرؤيا بخطة عملية: سبع سنين من الزراعة الدائبة يُحفظ المحصول فيها في سنبله إلا ما يؤكل، تعقبها سبع شداد تستهلك المدخرات إلا قليلًا، ثم عام يغاث فيه الناس ويعصرون. هكذا يميز القرآن بين خبر الرؤيا وتدبير الطعام، ويُظهر أثر علم النبي في دفع المجاعة عن المجتمع كله (يوسف ١٢:٤٣-٤٩).

العام الذي يغاث فيه الناس — النص ووجوه القراءة

لم تتوقف خطة يوسف عند تخزين سبع سنين ثم استهلاك المخزون في سبع شداد؛ بل قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف ١٢:٤٩). يثبت النص مجيء عام فرج وإغاثة، ويذكر فعل العصر في لفظ المصحف المتداول، من غير تسمية المحاصيل ولا كمية المطر. في «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٨٠، الخبران ٣٥-٣٦، تفسير أو وجه قراءة يتصل بالمطر، يفسر أحدهما اللفظ بـ«يمطرون» ويذكر الآخر ضم الياء، مع اختلاف نقل النسخ في الهامش، واستشهاد بآية ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (النبأ ٧٨:١٤). أحد الطريقين فيه «عن رجل» مبهم؛ ولا يسمح هذا الاختلاف بأن نستبدل لفظ الآية المشهور بلفظ روائي غير محقق. وقد يكون الإغاثة بالمطر والمعاش والعصر من عودة النماء من وجوه تفسير المعنى، لكن تحديد نوع المحصول استنباط يحتاج شاهدًا. والأهم في حركة الهداية أن علم يوسف لم يقتصر على تنبؤ الأزمة بل قدم أفق الخروج منها دون أن ينسب التدبير إلى نفسه وحده.

التحقيق قبل الخروج — شهادة النساء وإقرار امرأة العزيز

عندما أمر الملك بإحضار يوسف رفض الخروج قبل أن تُبحث قضية النسوة اللاتي قطعن أيديهن. سأل الملك عن شأنهن، فقلن إنهن لم يعلمن عليه سوءًا. وعندئذ أقرت امرأة العزيز بأنها راودته وأنه كان من الصادقين. لا يسمي القرآن المرأة ولا يورد محاكمة قضائية بتفاصيل لم يذكرها؛ والمشهد يعيد الحق إلى صاحبه علنًا بعد سنوات السجن. وتُقرأ عبارتا ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ و﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ في سياق الحوار، وقد اختلف المفسرون في تعيين المتكلم بهما؛ لذلك لا نجزم بنسبة كل لفظ إلى يوسف أو إلى المرأة بغير بيان وجه القراءة (يوسف ١٢:٥٠-٥٣).

التمكين وخزائن الأرض — الأمانة والعلم

قال الملك بعد مخاطبة يوسف إنه مكين أمين، فطلب يوسف تولي خزائن الأرض، وعلل ذلك بقوله ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. لم يحدد القرآن اسم الملك، ولا مساحة ولاية يوسف، ولا النظام الإداري

تفصيلًا. يثبت النص مسؤوليته عن الخزائن وتدبير الأزمة، ويصف تمكين الله له في الأرض، ثم يقرر أن أجر الآخرة خير للذين آمنوا واتقوا. ليست الخزائن في القصة مجدًا منفصلًا عن الهداية؛ إنها موضع أمانة يتلاقى فيه حفظ الموارد مع علم المآلات (يوسف ١٢:٥٤-٥٧).

لماذا تولّى يوسف الخزائن؟ — احتجاج الإمام الرضا عليه السلام

لم يكتف القرآن بذكر نجاة يوسف من السجن؛ بل جعل الطلب منه بعد ظهور أمانته وعلمه: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢:٥٥). يروي «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٨٠، الخبر ٣٨، عن الحسن بن موسى بصيغة «روى أصحابنا» أن رجلًا أنكر على الإمام الرضا عليه السلام ما صار إليه من المأمون. فقارن الإمام في متن الخبر بين مقام النبي ومقام الوصي، وبين سلطان مصر غير المؤمن الذي طلب يوسف منه تولي الخزائن وبين المأمون الذي ألجأه إلى موقعه. هذا احتجاج إمامي لاحق يقرأ سيرة يوسف في مسألة الولاية تحت سلطان قائم، مع تفريق المتن بين طلب يوسف للمصلحة وبين إكراه الإمام؛ فلا نختزل الحالتين في حكم واحد. طريق الرواية فيه «روى أصحابنا» من غير تسمية جميع الوسائط، كما أن تسميتها صاحب الحكم المصري «العزيز» ليست تصريحًا قرآنيًا بأن الرجل الذي اشترى يوسف هو عين الملك الذي خاطبه في ١٢:٥٤-٥٥؛ في القرآن موضعان ودوران، ويحتاج جمعهما دليلًا. يحتفظ الفصل بآية تولي الخزائن أصلًا، ويعرض المقارنة شاهدًا على تلقي أهل البيت للقصة، لا معلومة عن اسم الحاكم أو طائفته من القرآن.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ — التعريف بالكفاءة في موضع الحاجة

بعد طلب يوسف ولاية الخزائن لم يكتفِ بتمني المنصب، بل ذكر صفتين تتصلان بالعمل: الحفظ والعلم (يوسف ١٢:٥٥). في «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٨١، الخبر ٣٩، تفسير مقتضب يجعل «حفيظ» حفظ ما بيده و«عليم» العلم بكل لسان، لكن صيغة النقل المقتطعة «قال وقال» لا تكشف وحدها قائل هذا التفسير وطريقه كاملًا؛ فلا نثبت معرفة يوسف بكل لغات البشر بمرتبة الآية. وفي الخبر ٤٠ يُسأل الإمام الصادق عليه السلام عن جواز تزكية الرجل نفسه، فيجيب بالجواز عند الاضطرار مستشهدًا بطلب يوسف، وبقول ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ في خطاب هود لقومه (الأعراف ٧:٦٨). فذكر الكفاءة في ظرف تحمل مسؤولية عامة يختلف عن مدح الذات طلبًا للرياء. هذه قراءة أخلاقية وفقهية روائية تتفق مع سياق توليه مهمة حفظ الغذاء، ولا تعطي من تلقاء نفسها تفصيلًا عن كيفية إدارة الموظفين أو أسماء معاونيه أو تفويضه من الملك. لا يسمي القرآن لغة البلاط المصري أو عدد لغات يوسف، ويظل معنى العلم العملي والأمانة واضحًا من سياق الخطة وما تلاها.

ملك يوسف وإدارة الغذاء — بين النص والخبر

يقول القرآن ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ (١٢:٥٦)، ولا يرسم حدود دولته على خريطة. في الخصال للصدوق، باب الأنبياء الذين كانوا ملوكًا، خبر عن الإمام الباقر عليه

السلام يجعل ملكه مصر وبراريها ولا يتعداها؛ لكن الطريق يشتمل على «عمن ذكره»، وهي جهالة تمنع تحويل الوصف الجغرافي إلى يقين. ويرد معنى قريب في تفسير العياشي، ج٢، ص١٨١. أما خبر اختلاف أقوال التجار في أثمان الطعام في العياشي، ص١٧٩-١٨٠، فيضيف تصورًا روائيًا عن آثار الغلاء والتداول، لا قائمة أسعار محفوظة بالقرآن. نثبت تدبير سنوات الخصب والشداد بنص يوسف ١٢:٤٧-٤٩، ثم نعرض حدود السلطة وحكايات السوق بدرجة الخبر لا بدرجة الآية.

رواية الراوندي في اقتصاد المجاعة — ثم ردّ الحقوق

في «قصص الأنبياء» للراوندي (الباب السادس، ص١٣٤-١٣٦، الخبر ١٣٥) رواية عن هشام بن سالم، عن الإمام الصادق عليه السلام، تتابع خروج يوسف من السجن وتدبيره للغذاء. تصف تبادل القمح خلال سبع سنوات الشدة بالنقد، ثم الحلي، ثم الماشية، ثم الرقيق، ثم العقار، ثم المزارع والأنهار، ثم تجعل الناس في السنة الأخيرة تحت سلطته؛ وتختم بأن يوسف أعتق أهل مصر وردّ إليهم أموالهم وعبيدهم، وبإقرار الملك بالتوحيد. هذا تسلسل مفصل للغاية خارج سورة يوسف، ولا يجوز أن يقرأ بوصفه تقريرًا قرآنيًا لوقائع الاقتصاد المصري. لفظ «وبإسناده عن الصفار» في صدر الخبر يقتضي استكمال الطريق إلى الصفار وتقييمه قبل الحكم على المتن، كما أن شمول «مصر وما حولها» وأوصاف البيع والعتق تحتاج دراسة نصية وتاريخية مستقلة. نذكر خاتمة ردّ الحقوق لأنها جزء لا ينفصل عن هذا الخبر، ولا نقتطع صورة التملك منه لننسبها إلى يوسف يقينًا. الثابت القرآني هو تخطيط التخزين والسنوات السبع وطلب يوسف أن يلي الخزائن (١٢:٤٧-٥٧).

هوية ملك مصر وأخبار طول الأعمار — لا يُستخرج تاريخ قطعي

لا يسمي القرآن الملك الذي استدعى يوسف، ويسميه «الملك» في موضعي الرؤيا والاستدعاء (يوسف ١٢:٤٣، ٥٤). أما الذي اشتراه فيرد أولًا بعبارة ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾، ثم يرد لقب «العزيز» في خطاب نسوة المدينة (١٢:٢١، ٣٠). في «قصص الأنبياء» للراوندي (الباب السادس، ص١٣٧-١٣٨، الخبر ١٤٤) رواية تنسب إلى الإمام الصادق عليه السلام تجعل الملك «نمرود» الذي حاج إبراهيم، وتذكر عمرًا مديدًا له؛ وفي الخبر ١٤٥ حكاية رجل من بقية عاد حضر زمن ملك يوسف وروى ما شهده، وفي طريقها «عن رجل» غير مسمى. هذان خبران مختلفان عن سياق الآيات، ولا يتولد من جمعهما جدول زمني يقيني لعهدي إبراهيم ويوسف أو هوية ملك مصر. يلزم تحقيق أسانيدهما ونصوص النسخ وإمكان حمل الاسم على شخص واحد أو لقب متكرر قبل أي ترجيح. لذلك يبقى «الملك» و«العزيز» لفظي القرآن، ولا نستبدلهما باسم نمرود في متن السيرة المقطوع بها.

اللقاء الأول بالإخوة — المعرفة مع ضبط الكشف

دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون. جهزهم بجهازهم وطلب أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم، محذرًا من أنهم لن يكال لهم إذا لم يحضروه، فوعدوه بمحاولة إقناع أبيهم. ثم أمر فتيانه برد بضاعتهم إلى

رحالهم لعلهم يعرفونها عند رجوعهم. لا يقول القرآن إن الإخوة عرفوا هويته في هذه الزيارة، ولا يذكر سببًا واحدًا مؤكدًا لرد البضاعة فوق ما نصت عليه الآية. يظهر يوسف قادرًا على التخطيط من دون أن يعجل بكشف نفسه أو انتقامه (يوسف ١٢:٥٨-٦٢).

ما قاله الإخوة عند أول لقاء — رواية تكشف بقاء الكتمان

تفصل رواية أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام في «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٨١، الخبر ٤٢، زيارة الإخوة الأولى. بعد أن عرفهم يوسف ولم يعرفوه وأمر برد بضاعتهم، يسألهم في متن الخبر عن أخوين لهما من أبيهم؛ فيقولون إن الكبير أكله الذئب وإن الصغير بقي عند أبيه لشدة شفقته عليه. ثم يطلب يوسف إحضار الأخير في الزيارة القادمة. يضيف الخبر هنا حوارًا لا يرويه القرآن بنصه: قول «أكله الذئب» يعيد الكذبة التي قدموها ليعقوب في يوسف ١٢:١٧، ويدل داخل الرواية على استمرار كتمان الحقيقة أمام يوسف الذي لم يكشف شخصيته بعد. أما القرآن فيذكر طلب إحضار الأخ ورد البضاعة، من غير أن يسجل هذا السؤال أو يثبت أنهم أعادوا دعوى الذئب أمام عزيز مصر (١٢:٥٨-٦٢). لا نستخدم الإضافة لنحكم بأن كل أخ نطق بالعبارة أو لنحدد سن الأخ الأصغر، بل نحفظ الفرق بين حوار الخبر والصمت القرآني. وقد يكون سؤال يوسف بحسب الرواية تدبيرًا لمعرفة ما يقولونه، لكن تعيين قصده الباطن تفسير لا ينص عليه لفظ الآيات. ينبغي مقابلة هذا الطريق الطويل بما أورده الراوندي في الخبر ١٣٤؛ الاشتراك في عناصر الزيارة لا يثبت استقلال روايتين أو صحة كل تفصيل فيهما من دون مقارنة السند والمتن.

الارتحال طلبًا للقوت — خبر موسمي لا تاريخ قرآني

يروي الراوندي في «قصص الأنبياء» (الباب السادس، ص١٣٢ وما بعدها، الخبر ١٣٤) بسند طويل ينتهي إلى أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام أن يعقوب كان يمتار لأهله من مصر في الشتاء والصيف، وأن أبناءه حملوا بضاعة يسيرة مع قافلة. في الخبر عرفهم يوسف ولم يعرفوه، وقدّمهم في الكيل وأمر بردّ بضاعتهم. أصل معرفة يوسف بهم وردّ البضاعة ثابت في يوسف ١٢:٥٨-٦٢؛ أما تكرار الرحلات الموسمية، قلة المقدار، وترتيبهم قبل غيرهم فهي إضافات الرواية. يمر السند بعلي بن أبي حمزة، ويحتاج تعيينه وتقويمه ومقابلة طرق القصة قبل الجزم بالتفاصيل. ولا نشتق من «مرتين في السنة» عدد زيارات الإخوة المحددة في السورة؛ فقد يكون وصفًا عامًا للتموين في زمن المحنة، ولا يبين القرآن تقويمًا سنويًا لرحلاتهم.

خبر الأمالي الطويل — شمعون ورسالة يعقوب إلى العزيز

روى الصدوق في الأمالي، المجلس ٤٣، الحديث ٧، بسند ينتهي إلى ابن عباس، قصة مطولة بين آيات السورة. فيها أن يوسف أوقف أحد الإخوة بالقرعة وسمّته «شمعون»، وأن يعقوب سأل عن صوته عند عودتهم، ثم حمل الأخ الأصغر رسالة من أبيه إلى العزيز يخبره فيها بحزنه وشيبه وفقد بصره،

وتأثر يوسف حتى بكى. وتذكر الرواية رسالة أخرى عند اشتداد المحنة وتفاصيل في وصول القميص. هذه المشاهد توسع دور يعقوب وشمعون والرسول الأخ، لكنها ليست ألفاظ القرآن، ولا تتحول بمجرد وجودها في كتاب الصدوق إلى قول صادر عن الإمام؛ سندها في هذا الموضع إلى ابن عباس وتفاصيلها تفحص على حدة. القرآن نفسه يذكر رجوع الإخوة ورد البضاعة وطلب إحضار الأخ (١٢:٥٨-٦٥)، ولا يسمي محتجزًا أول في الزيارة أو يورد نص رسائل الأب.

ميثاق يعقوب وأبواب مصر — الأخذ بالأسباب مع التوكل

عندما رجع الإخوة إلى أبيهم طلبوا إرسال أخيهم، فتذكر يعقوب ما جرى مع يوسف. ثم فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم، واحتجوا بأنهم سيجلبون الميرة ويحفظون أخاهم؛ وبعد ذلك طلب الأب موثقًا من الله بأن يعيدوه إلا أن يحاط بهم. وأوصاهم ألا يدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة، مع إقراره أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن الحكم لله وعليه التوكل. نفذت الوصية حاجة في نفس يعقوب ولم تدفع قضاء الله؛ ولا نحدد من عندنا الخطر الذي خشيه الأب (يوسف ١٢:٦٣-٦٨). وتفصيل موقف الأب في الفصل ١٧، ويهمنا هنا أثره في رحلة الإخوة إلى يوسف.

أخو يوسف في الروايات — اسمه وأولاده

لا يسمي القرآن الأخ الذي طلب يوسف إحضاره من أبيه، ولا يذكر أولاده، وإنما يقول بعد ذلك ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ (يوسف ١٢:٦٩). وفي تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٣-١٨٤، أخبار عن لقاء المائدة: جلس الإخوة بحسب اشتراك الأم، وبقي هذا الأخ وحده، فدعاه يوسف إلى الجلوس معه. يرد اسمه في طرق مختلفة بصيغ «ابن يامين» و«ابن ياميل» و«بنيامين». ويذكر خبر في العياشي عشرة أبناء اشتق أسماءهم من ذكرى يوسف، وطريق آخر أحد عشر، بينما يسوق الصدوق في الأمالي، المجلس ٤٣، الحديث ٧، رواية طويلة تنتهي إلى ابن عباس وتقول اثني عشر ابنًا. فالعدد مختلف بين عشرة وأحد عشر واثني عشر، والطريق الأخير ليس قولًا مباشرًا لأحد الأئمة؛ لا نخلط الأعداد ولا ننسب أولئك الأولاد إلى يوسف. وينسب خبر إلى يعقوب تشجيعه ابنه على الزواج رجاء ذرية تسبح الله. كل ذلك تفاصيل روائية متفاوتة الأسانيد، أما مصالحة الأخ وإيواؤه فهي في القرآن.

الأخ الشقيق وتدبير الصواع — حدود ما يصرح به النص

آوى يوسف أخاه إليه وأخبره بأنه أخوه، ثم جعل السقاية في رحله. نادى مؤذن بأن العير سارقة، فتوقفت القافلة ودخلت في سؤال الجزاء. قرر الإخوة بأنفسهم أن من وُجد المتاع في رحله يكون هو الجزاء، فبدأ التفتيش بأوعيتهم قبل وعاء الأخ، ثم استخرجت السقاية منه. يسند القرآن التدبير إلى الله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، ويقول إنه لم يكن ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله. لا يلزم من نداء المؤذن أن يوسف اتهم أخاه حقيقة بالسرقة؛ وينبغي عرض اختلاف الأخبار في تفاصيل علم الأخ وموافقة يوسف له بوصفه رواية لا نصًا قرآنيًا (يوسف ١٢:٦٩-٧٦).

نداء العير — تأويلات إمامية متعددة للصدق

يقول القرآن إن مؤذنًا نادى ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ثم سأل الإخوة عن المفقود فأجيبوا بأنه صواع الملك (يوسف ١٢:٧٠-٧٢). في تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٤-١٨٥، أخبار عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام تستعمل هذه الآية في شرح الكلام الذي له وجه صادق وإن لم يكن المخاطبون سرقوا الصواع. ويرد في خبر عن رجل غير مسمى أن المقصود أخذهم يوسف من أبيه، وهو طريق لا يجوز إغفال جهالة واسطته. هذه تأويلات روائية، ولا يقول القرآن إن المؤذن كشف هذا المعنى، ولا يصف صواع الملك بأنه من ذهب؛ مادة الإناء وصفته تردان في أخبار مختلفة. نحافظ على سلامة مقام يوسف مع عدم اختراع نية قطعية لم يصرح بها الوحي.

اتهام الأخ السابق واحتفاظ يوسف بالجواب

تستحق الآية الواقعة بين العثور على السقاية وطلب الإخوة استبدال أخيهم وقفة خاصة. قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف ١٢:٧٧). هذا كلام الإخوة، لا إقرار قرآني بسرقة فعلية من يوسف في صغره. وقد أسر يوسف ردّه في نفسه ولم يبدِه لهم، وقال في السياق: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. تظهر هنا طبقة أخرى من الامتحان: بعد أعوام الفراق بقي وصف ظالم يلاحقه من أفواه إخوته، وهو قادر على كشف هويته لكنه يؤخر ذلك. لا نركب من اتهامهم سيرة ذنب لطفل اصطفاه الله، ولا نعين الشيء الذي قالوا إنه سرق إلا بوصف رواية تفسيرية. ويرد في أخبار قصة عمته ومنطقة إسحاق تفسير لمصدر هذا الاتهام، نعرضه في قسمه مع درجته، لا على أنه معنى الآية الوحيد. كما أن قول المؤذن في ١٢:٧٠ وقول الإخوة في ١٢:٧٧ متكلمان مختلفان، فلا نسوي بينهما في المقصود أو الحكم.

العمة ومنطقة إسحاق — تفسير اتهام لا إثبات سرقة

عند قول الإخوة ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف ١٢:٧٧)، لا يقول القرآن إن يوسف سرق فعلًا. يورد تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٥-١٨٦، خبرين عن الإمام الرضا عليه السلام: أحبته عمته وأرادت أن يبقى عندها، فجعلت منطقة إسحاق في ثيابه ثم ادعت فقدها. تفسر الرواية كلام الإخوة، ولا تصير إدانة ليوسف. وفي بعض الألفاظ أن المنطقة كانت أثرًا موروثًا في بيت الأنبياء. هذه تفاصيل روائية تختلف ألفاظها ويحتاج طريقها إلى النظر؛ الثابت قرآنيًا هو الاتهام وقول يوسف في نفسه إنه لم يُظهره لهم.

هل لعمة يوسف اسم؟ — سارة بنت إسحاق في خبر مخصوص

يسمي الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩، ح٥٣، حافظة المنطقة «سارة بنت إسحاق» في خبر عن الإمام العسكري، من طريق سعد بن عبد الله ومحمد بن الحسن بن شمون وداود بن القاسم

الجعفري، وفي مجلس السؤال رجل من أهل قم غير مسمى. لا ننقل الاسم إلى القرآن أو نص عيون أخبار الرضا الذي لا يسمي العمة. سارة هذه غير سارة امرأة إبراهيم، وغير ياميل الخالة؛ وصلتها بيوسف بحسب الخبر عمة من جهة الأب. وجود الاسم في الطريق لا يغني عن نقده، ولا تجعل حيلة المنطقة يوسف سارقًا حقيقة. [م٦]

العرض والاعتذار ثم الفقد الثاني

اقترح الإخوة أن يأخذ يوسف أحدهم بدل أخيهم لمكانة الأب الكبير، فرفض أن يأخذ إلا من وجد المتاع عنده. خلصوا نجيا، وامتنع كبيرهم من العودة حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله، وطلب أن ينقل الآخرون ما شهدوه وما لا يعلمون من الغيب. هذه الآيات لا تسمي الأخ الذي بقي في موضعها، فتعيين اسمه يحتاج مصدرًا مستقلًا. تلقى يعقوب الخبر بقوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ورجا أن يأتيه الله بهم جميعًا. ثم تولى عنهم وابيضت عيناه من الحزن، لكنه لم يكف عن الرجاء والشكوى إلى الله (يوسف ١٢:٧٧-٨٦).

من بقي في مصر؟ اسم يهوذا في الخبر وحدود الإثبات

يقول كبيرهم في القرآن: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ (يوسف ١٢:٨٠)، ولا يسميه في الآية. وفي تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٦-١٨٧، خبر عن الإمام الصادق عليه السلام من طريق هشام بن سالم يسميه «يهوذا» أو «يهودا» بحسب اختلاف النسخ، ويصف مراجعته ليوسف بعد حبس أخيه. يروي الخبر مشهد غضب شديد يهدأ حين يلمسه طفل من ولد يعقوب، ويجعله ابنًا صغيرًا ليوسف. هذا الخبر يجمع هوية الأخ الباقي ووجود طفل ليوسف في سياق واحد، لكنه لا يعين أم الطفل، ولا يجوز جعله دليلًا على أن كل إخوة يوسف أنبياء. والصفة الجسدية المصاحبة للغضب وتفاصيل الرمانة أحداث روائية لا يذكرها القرآن؛ تذكر للتحقيق لا لتزيين القصة.

لا تيأسوا من روح الله — الاعتراف والعفو

أمر يعقوب أبناءه أن يتحسسوا من يوسف وأخيه وألا ييأسوا من روح الله. عادوا إلى يوسف وقد مسهم الضر وجاؤوا ببضاعة مزجاة يسألونه الوفاء والصدقة. واجههم بسؤال عن فعلتهم بيوسف وأخيه حين كانوا جاهلين، فتعرفوا عليه واعترفوا بأن الله آثره عليهم وأنهم كانوا خاطئين. أجابهم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ودعا لهم بالمغفرة، ثم أعطاهم قميصه وأمرهم أن يلقوه على وجه أبيه وأن يأتوه بأهلهم أجمعين. يبلغ العفو هنا ذروته في تمكين يوسف لا في ضعفه (يوسف ١٢:٨٧-٩٣).

خبر علم يعقوب بحياة يوسف ورسالة المسافر

يسأل خبر يورده الراوندي (قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٤-١٣٥، الخبر ١٣٧) الإمام الباقر عليه السلام: هل كان يعقوب يعلم أن يوسف حي حين أمر أبناءه بالتحسس عنه؟ فيجيبه

بالإيجاب، وتشرح إحدى نسخ الهامش حواراً مع ملك الموت عن عدم قبض روح يوسف. لفظ المتن المطبوع في أصل الصفحة مقتضب، وفي النسخ اختلاف عند جملة نزول ملك الموت؛ لذلك لا نجعل الحوار المفصل وحياً قرآنياً أو طريقاً قطعياً لعلم يعقوب. يورد الراوندي كذلك (ص١٣٤، الخبر ١٣٦) رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في رجل أعرابي اشترى طعاماً من يوسف، ثم حمل إلى يعقوب سلاماً يطمئنه إلى وديعته، فدعا يعقوب للرجل أن يرزقه الله ولداً. ويذكر الخبر أن زوجته بنت عمه، وأنه رُزق بعد الدعاء أربعة أبطن، في كل بطن اثنان؛ وهذه تفاصيل الرواية التي لا يذكرها القرآن. لا يسمي القرآن هذا الرجل ولا زوجته أو أبناءه، ولا يعين زمن هذا التبليغ بالنسبة إلى لحظة التعارف العلني؛ فلا نركب عليه تسلسلاً زمنياً يناقض خط السورة. أصل الآيات هو يقين يعقوب برجاء الله وأمره ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ونهيه عن اليأس (١٢:٨٦-٨٧)، ثم خبر ريح يوسف والقميص (١٢:٩٤-٩٦). تُدرس الروايتان في ضوء هذا الأصل، مع فحص طريقيهما واختلاف النسخ.

القميص الموروث — إضافة الكافي إلى خبر رجوع البصر

يروي الكافي، ج١، ص٢٣٢، ح٥، عن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق أن جبريل ألبس إبراهيم ثوباً من الجنة، ثم انتقل محفوظاً إلى إسحاق ويعقوب ويوسف؛ ويربط إخراجه بوجدان يعقوب ريح يوسف، ويصل ميراث الأنبياء بآل محمد. هذا أصل روائي محدد، لا تفصيل تنص عليه يوسف ١٢:٩٣-٩٦. وطريقه يمر بأبي إسماعيل السراج وبشر بن جعفر والمفضل، فلا يكفي ذكر الكتاب للحكم بصحته. كما لا يثبت الخبر وحده أن هذا هو بعينه قميص الدم وقميص المراودة. [م٥]

ريح يوسف، رجوع البصر، والقدوم إلى مصر

لما فصلت العير قال يعقوب لمن بقي عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾. فأجابوه: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف ١٢:٩٤-٩٥). هذا قولهم في لحظة لا يرون فيها ما أدركه، وليس حكماً من القرآن على بصيرة يعقوب. ولم يسمِّ النص الأشخاص المخاطَبين أو يحدد المسافة التي وصل منها الأثر، فلا نحول خبر الوجدان إلى قياس مادي من عندنا. وعندما جاء البشير ألقى القميص على وجه يعقوب فارتد بصيراً، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٢:٩٦). يثبت القرآن الرجوع إلى البصر مع وصول القميص، وينسب علم يعقوب إلى الله، لكنه لا يسمي البشير في هذه الآية.

قال الأبناء: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، ووعدهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (١٢:٩٧-٩٨). فالاعتراف وطلب الدعاء ووعد الأب حقائق نصية، أما تعيين الليلة أو الساعة التي وقع فيها استغفاره فيحتاج إلى طريق روائي مخصوص، ولا يقدمه لفظ «سوف» وحده. ثم دخلوا على يوسف في مصر، فآوى إليه أبويه وقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (١٢:٩٩). لا يحدد

القرآن عدد أفراد الأسرة المهاجرة أو تاريخ الرحلة. هكذا تبدأ إقامة بيت يعقوب في مصر، تمهيدًا لسؤال الفصل التالي عن الأجيال الفاصلة بين يوسف وموسى.

بعد اجتماع الأب والابن — رواية تذكر ألم الجب

في ذيل الخبر ١٣٧ من «قصص الأنبياء» للراوندي (ص١٣٥) يسأل يعقوب يوسف عما صنع به إخوته، فيستعفي يوسف أولًا، ثم يذكر أنهم أجلسوه عند رأس الجب وأرادوا نزع قميصه، وأن واحدًا منهم هدده بسكين. يسقط يعقوب مغشيًا عليه بحسب الرواية، ثم يعفي يوسف من إكمال التفصيل بعدما يستحلفه. هذه صورة روائية متأخرة في ترتيب الحكاية عن أثر فعل الإخوة على الأب والابن؛ لا يقول القرآن إن هذا الحوار وقع، ولا يسمي الأخ صاحب السكين. جاء في هوامش الطبعة اختلاف في ترتيب بعض الألفاظ وإسناد تتمة الخبر، فيلزم مقابلة أصل الرواية في «علل الشرائع» والنسخ قبل اعتماد ألفاظها التفصيلية. لا تمحو المصالحة القرآنية ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (١٢:٩٢) وصف ما وقع في البداية، ولكننا لا نجعل المشهد الروائي شرطًا لفهم عفو يوسف الثابت في الآية. وفي استعفاء يوسف ذكر آل إبراهيم وإسحاق وإسماعيل؛ فهم إحالة أسرية في متن الخبر، لا أشخاص حاضرون في مجلس اللقاء.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ — لمن كان السجود؟

في النسخ القصصية الشائعة يقال أحيانًا إن السجود كان «تحية ليوسف».

لكن روايات أهل البيت تقدم تفسيرًا أدق يجب أن نعتمده في هذا الكتاب.

في تفسير العياشي، عن الإمام الصادق عليه السلام، ورد أن سجودهم «كان عبادة لله».

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام فُسر سجودهم بأنه تعظيم وشكر لله.

وفي خبر آخر عن الإمام الهادي عليه السلام جاء أن سجود يعقوب وبنيه كان شكرًا لله على جمع شملهم، وكان يوسف في المشهد سببًا للنعمة لا معبودًا.

وهذا ينسجم مع التوحيد الذي حمله يوسف طوال حياته.

فالسجود في الآية لا يُقرأ بوصفه عبادة لنبي.

إنما يكون:

سجودًا لله شكرًا،

وقع عند تمام نعمة جمع يوسف بأهله،

وبه تحقق تأويل الرؤيا.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ — الأب والأم أم الأب والخالة؟

القرآن يقول «أبويه» ولا يسميهما في هذا الموضع.

التفسير المشهور يفهمهما يعقوب وأم يوسف.

لكن الروايات الإمامية لا تأتي بصورة واحدة.

بعض الأخبار التفسيرية تسمي راحيل أمًا ليوسف وبنيامين.

وفي طرق أخرى من تفسير العياشي يظهر أن أم يوسف كانت قد ماتت، وأن التي جاءت مع يعقوب إلى مصر كانت خالته «ياميل»، وقد نزلت منزلة الأم.

ولهذا لا نبني على لفظ «أبويه» تفصيلًا تاريخيًا واحدًا لا خلاف فيه.

العربية قد توسع استعمال الأب والأم فيمن يقوم مقامهما، والروايات نفسها تعطي أكثر من صورة.

الصياغة الأدق:

القرآن يثبت رفع «أبويه» على العرش.

أما تعيين المرأة هل هي أم يوسف أو خالته التي قامت مقام الأم، فهو موضع اختلاف روائي.

تحقق الرؤيا ودخول الأسرة مصر

رفع يوسف أبويه على العرش وخروا له سجدًا، وقال: ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾.

ثم ذكر نعم الله من السجن ومجيء الأسرة من البدو.

ولا يذكر القرآن تاريخ وفاة يعقوب أو يوسف في السورة، لكنه يترك الأسرة مستقرة في مصر.

ومن هنا تبدأ الخلفية التي سيولد فيها بنو إسرائيل كجماعة كبيرة ثم يتعرضون للاستضعاف.

غيبة يوسف عن أبيه — توظيف القصة في الرواية الإمامية

ورد في الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب الغيبة، الخبر ٤، عن سدير الصيرفي عن الإمام الصادق عليه السلام تشبيه حال صاحب الأمر بحال يوسف الذي باعه إخوته وخاطبوه ولم يعرفوه حتى عرّفهم بنفسه. وأفرد الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة بابًا بعنوان «في غيبة يوسف عليه السلام». يذكر خبر الكافي مسافة ثمانية عشر يومًا بين يوسف وأبيه، وتسعة أيام لسير الأسرة إليه؛ وهذان رقمان روائيان لا يوردهما القرآن ويحتاج الطريق إلى تقييم مستقل. يستدل فيه على أن يعقوب لم يقطع بحصول موت ابنه، ويستحضر قوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وقوله ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (يوسف ١٢:٨٣، ٨٧). وينقل الباب تشبيهًا بين وجود يوسف مع خفاء شخصه عن إخوته وبين فكرة غيبة الحجة. هذا وجه تأويلي في المصدر الإمامي، لا تصريح قرآني باسم الإمام المهدي أو تفاصيل غيبته في سورة يوسف. ويضم الباب مشاهد إضافية عن القميص وحوار يعقوب مع ملك الموت؛ نُميزها عن

نص القرآن، ونحتاج إلى تحقيق طريق كل خبر قبل اعتماد تفاصيله. أما الثابت في سورة يوسف أن الأب لم ييأس، وأن الإخوة لم يعرفوا يوسف حتى عرّفهم بنفسه (١٢:٥٨، ٨٧-٩٠).

امرأة العزيز بعد المحنة — روايتان لا خبر قرآني

لا يروي القرآن زواج يوسف ولا يذكر اسم امرأته. لكن تفسير القمي عند ختام سورة يوسف ينقل خبرًا ينسب إلى الإمام الهادي عليه السلام: بعد وفاة العزيز وافتقار امرأته لقيت يوسف، ثم دعا لها بعودة شبابها وتزوجها. وتورد علل الشرائع في خبر آخر عن الإمام الصادق عليه السلام لقاءً بينهما يتضمن ذكر النبي محمد ﷺ وينتهي بالأمر بزواجها. يذكر الخبران اسم «زليخا»، لكن الاسم والزواج وتفاصيل الفقر والشباب ليست قرآنًا. كما أن وجود الخبر في تفسير إمامي لا يغني عن فحص اتصال سنده ونسخه؛ لذلك نسرد الروايتين مع اختلاف مسارهما ولا نبني عليهما واقعة قطعية. أما دورها الثابت في القرآن فهو المراودة ثم إقرارها بصدق يوسف (١٢:٢٣-٣٢، ٥١).

تفاصيل متغايرة عن امرأة العزيز في روايات الراوندي

يجمع الراوندي في «قصص الأنبياء» (الباب السادس، ص١٣٦-١٣٧، الأخبار ١٤٠-١٤٣ بحسب ترقيم الطبعة، وفيها تكرار رقم ١٤١) متونًا لا ينبغي صهرها في قصة واحدة. خبر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول إن امرأة العزيز تعرضت ليوسف بعدما تولى أمره، فأرسل إليها مالًا، ولا يذكر زواجًا في هذا الموضع. وخبر آخر بواسطة «بعض أصحابنا» عن زرارة ينص على أنه تزوجها وأنه وجدها عذراء، ويذكر تعليلًا لفعلها القديم؛ هذه التفاصيل لا تثبتها سورة يوسف. ويروي خبر مرفوع عن «بعض أصحابنا» لقاءها وهي محتاجة ثم زواجها، بينما يربط خبر آخر طريقه «عمن ذكره» زواجها بمحبتها للنبي محمد ﷺ. تتفق بعض الأخبار في أصل الزواج وتختلف في سببه ومشهد اللقاء، وبعضها يقف عند الإعانة المالية؛ والواسطة المبهمة والرفع ونقل الراوندي عن أصول أقدم تمنع التسوية بينها أو القطع بتفاصيلها. كما لا تُستعمل عبارة عن حال العزيز الجسدية الواردة في إحدى الروايات لإثبات وصف شخصي له في التاريخ القرآني. تبقى توبتها أو مصيرها بعد اعترافها مسألة روايات، أما إقرارها بصدق يوسف فهو الثابت في القرآن (١٢:٥١).

خبر زواج آخر في العياشي — امرأة غير مسماة

لا تقتصر أخبار زواج يوسف على الروايتين اللتين تذكران امرأة العزيز بعد المحنة. ففي تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٥، الخبر ٢٠، عن محمد بن مروان «عن رجل» عن الإمام الصادق عليه السلام، قصة خطبة يوسف امرأة جميلة في زمانه، ومراجعة أبيها الذي رد القرار إليها، ثم وقوع الزواج في آخر الخبر. لا يسمي المتن المرأة ولا يقول إنها امرأة العزيز، ولا يحدد موضع القصة في الجدول الزمني للسورة. وفي السند رجل مبهم، لذلك لا نجعل الرواية إثباتًا قطعيًا لزوجة ثانية، ولا ندمجها آليًا مع قصة زليخا، ولا نستبعد إمكان اختلاف الخبرين من غير دليل. توجد هنا ثلاثة أشياء منفصلة: صمت القرآن عن اسم

الزوجة وزواج يوسف، روايتان تنسبان له الزواج من امرأة العزيز، وخبر ثالث بامرأة لا تسمى وطريقه مجهول الواسطة. لا نستخرج من أي منها أسماء بنات يوسف أو عدد أولاده.

ذرية يوسف — بين ابن غير مسمى وأسماء تاريخية

لا يذكر القرآن أولادًا أو بنات ليوسف ولا عددهم أو أسماءهم. وفي تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٧، خبر من طريق هشام بن سالم عن الإمام الصادق يصف ابنًا صغيرًا ليوسف يلعب برمانة من ذهب أمامه حين فاوضه يهوذا في أخيه، ويذكر أن مس الصبي ليهوذا هدأ غضبه. هذا خبر عن ابن غير مسمى، وليس شاهدًا على أسماء أولاد يوسف أو عددهم، وفي تفاصيله ما يحتاج دراسة السند والمتن، مع وجود خبر آخر يصف امتناعه عن مباشرة النساء مدة غيبة اللقاء؛ وقد حاول الفيض الكاشاني الجمع بينهما، وهذا الجمع تفسير لا نص قرآني. أما الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب» (ص٤٨-٤٩) فيسمي ولدين ليوسف: «إفرائيم» و«ميشا»، ويجعل إفرائيم جدًّا ليوشع بن نون. هذا خبر من ذلك الكتاب يحتاج إلى تحقيق نسبته وطرق نقله، ولا يثبت أسماء الأبناء قرآنيًا. ويتداول غيره اسمي «أفرايم» و«منسّى» في الأنساب المقارنة، فلا نسوي بين «ميشا» و«منسّى» بغير دليل، ولا نجزم بعدد ذرية يوسف أو أسماء بناته. وبحسب رواية الوصاية التي يوردها الصدوق انتقل العهد من يوسف إلى «بثرياء»، لكنها لا تنص على أنه ابنه؛ فلا نحول سلسلة الوصية إلى نسب. أسماء بنات يوسف، وتواريخ ولادة أولاده، ومصائرهم الفردية غير ثابتة فيما تحققناه هنا.

من يعقوب إلى يوسف — فصل السلطة عن الحجة في خبر الباقر

في تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٨، الخبر ٨٧، يسأل محمد بن مسلم الإمام الباقر عليه السلام عن مدة اجتماع يعقوب ويوسف في مصر ومن كان حجة الله. يذكر الخبر حولين، وأن يعقوب كان الحجة والملك ليوسف، ثم صار يوسف الحجة بعد وفاة أبيه ونقل جسد يعقوب إلى الشام. ويورد قطب الدين الراوندي أصل هذا الخبر في «قصص الأنبياء»، الباب السادس، ص١٣٧-١٣٨، الخبر ١٣٨، بطريق مفصل يمر بالصدوق ومحمد بن موسى بن المتوكل وعبد الله بن جعفر الحميري وأحمد بن محمد والحسن بن محبوب والعلاء ومحمد بن مسلم؛ ويصرح في آخره بكون يوسف رسولًا نبيًا مستدلًا بغافر ٤٠:٣٤. هذه فائدة مصدرية تزيد إمكان فحص الرواة بدل الاكتفاء بنسخة العياشي المختصرة، ولا تعني الحكم بصحة الطريق قبل التحقيق. لا يرد زمن الحولين أو تفصيل الحجة والملك في القرآن؛ ونميز انتقال الحجة من يعقوب إلى يوسف عن خبر الصدوق في الوصية بعد يوسف إلى بثرياء. ولا ينفي تمييز الحجة من الملك نبوة يوسف في حياة أبيه.

دعاء يوسف بعد التمكين — الوفاة على الإسلام

بعد تحقق الرؤيا ذكر يوسف نعمة الله عليه: ﴿قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، ثم توجه إلى فاطر السماوات والأرض: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

(يوسف ١٢:١٠١). تبلغ القصة غايتها لا بمجرد سلامة الأسرة أو السلطة على الخزائن، بل ببقاء الولاية لله عند اكتمال النعمة. وطلب الوفاة مسلمًا دعاء بحسن الخاتمة، لا نص قرآني على أنه توفي في تلك اللحظة؛ لذلك لا نستخرج من ترتيب الآية تاريخًا لوفاته.

الدعاء عند التمكين — هيئة روائية ومعنى قرآني

يروي «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٩٩، الخبر ٨٩، عن عباس بن يزيد عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا يجعل يوسف بعد أن استقر له أمر مصر يخرج إلى فلاة بثياب نظيفة، ويصلي ثم يرفع يديه بدعاء الآية ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ إلى ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٢:١٠١). ويذكر الخبر حوارًا مع جبريل، ثم يفسر طلب حسن الخاتمة بأنه خشي الفتن. الدعاء نفسه قرآن، أما مكانه، والثياب، والركعات، وحوار جبريل، والتعليل فهي عناصر روائية لا تذكرها الآية، ولا تثبت عدد الركعات أو زمانها من لفظها. ونطلب تحقيق طريق عباس بن يزيد ونص النسخة قبل وصف هذه الهيئة بأنها ممارسة ثابتة ليوسف. في سياق الكتاب تبرز هذه الرواية سؤالًا دقيقًا: التمكين لا يغني عن دوام العبودية حتى نهاية العمر، لكن هذا معنى مستفاد من الدعاء، لا شهادة على وفاة يوسف فور قوله.

نهاية حياة يوسف — العمر، القبر، ونقل الرفات في زمن موسى

لا يروي القرآن مشهد وفاة يوسف أو عمره أو موضع دفنه؛ دعاؤه بحسن الخاتمة، الذي تقدم، لا يحدد ساعة موته.

في خبر أعمار الأنبياء المروي في «كمال الدين» ورد أن يوسف عاش مائة وعشرين سنة. وفي «قصص الأنبياء» للراوندي، الباب السادس، ص١٣٨–١٣٩، الخبر ١٤٦، طريق إلى الإمام الصادق عليه السلام يقول إنه دخل السجن ابن اثنتي عشرة سنة، ومكث فيه ثماني عشرة، ثم عاش بعد خروجه ثمانين، فيكون مجموعها مائة وعشر سنين؛ ويرد هذا المجموع أيضًا في «مجمع البيان». ننبه إلى أن عبارة «مكث بعدها ثمانية عشر» في النسخة تحتاج ضبط مرجع الضمير ومقابلة النقل، وأن سلسلة الخبر تمر برواة يُبحث حالهم، فلا يثبت بها عمره قطعًا. القرآن لا يذكر عمره أو مدة حياته بعد السجن، ولا نرجح رقمًا دون نقد الطريق والمتن.

اختلاف هذين الرقمين يمنع دمجهما في عمر واحد دون ترجيح مستند إلى تحقيق الروايات.

تربط أخبار إمامية دفنه بنقل رفاته في زمن موسى؛ يثبت القسم التالي دور المرأة الدالة على الموضع، وتفصيل مقارنة الطرق في فصل الخروج، الفصل ٢٣.

المرأة العارفة بالقبر — حضورها في خاتمة سيرة يوسف

يروي الراوندي في قصص الأنبياء، ح١٣٩، عن أبي الحسن خبر انحباس المطر والأمر بإخراج رفات يوسف؛ امرأة مسنة لا يسميها المتن تدل موسى على الموضع بعد طلب رد القدرة على المشي والبصر والشباب وصحبته في الجنة. ويصف استخراج التابوت قرب النيل ونقله إلى الشام. هذه تفاصيل خبر واحد تُقابل بغيره؛ المرأة من زمن موسى، فلا نجعلها معاصرة ليوسف أو من أهله، ولا نستنبط منه يقيناً بشأن قبر معاصر. [م٧] وفي خبر الكافي، الروضة، ح١٤٤، شيخ غير مسمى يدل موسى على المرأة؛ يُذكر دوره وإطار خبر مضيف النبي بالطائف في الفصل ١٩، ولا يدمج الشيخ بالمرأة أو بمعلمي بني إسرائيل.

ذرية لاوي وخبر القمي — النسب والوصية سلسلتان مختلفتان

في تفسير القمي عند يوسف ١٠١:١٢-١٠٢ خبر يذكر أن النبوة في مرحلة من بني إسرائيل صارت في ولد لاوي أخي يوسف، ويسوق نسباً لموسى من جهته. ويتضمن الخبر قصة عتاب يوسف لأنه لم يقم لأبيه عند اللقاء، وعبارة عن خروج النبوة من صلبه. القرآن لا يذكر هذا العتاب ولا يحكم بانقطاع النبوة من نسل يوسف؛ كما لا يحدد نسل موسى في هذه الآيات. لذلك يُسجل الخبر بلفظه ووظيفته في بعض التفاسير مع تحقيق سنده ومتنِه، ولا يُبنى عليه حكم قطعي ينتقص من مقام النبي أو ينفي كل أثر لذريته. ثم إن خبره عن خط النسب لا يساوي رواية الصدوق عن خط الوصاية: يوسف ← بثرياء ← شعيب ← موسى؛ الأولى تزعم امتداداً نسبياً للنبوة في لاوي، والثانية تسمي من انتقلت إليه الوصية بحسب متنها دون تسميته ابناً ليوسف. لا ندمج الخطين ولا نفترض فراغاً زمنياً قدّره أي منهما.

خبر عدم الترجل — تحديد الإرسال بدل إطلاق التصحيح

لخبر عتاب يوسف طريق في الكافي أيضًا، ج٢، باب الكبر، ح١٥، عن مروك بن عبيد عمن حدثه عن الإمام الصادق. الواسطة غير مسماة، وحكم المجلسي المنقول على الطريق «مرسل». فإثبات وروده في الكافي لا يثبت تهمة الكبر على يوسف، ولا يحسم نفي النبوة عن جميع عقبه. يُقرأ بجانب إكرامه أبويه في يوسف ٩٩:١٢-١٠٠، ولا يقدم خبر مرسل على محكم الثناء القرآني. [م٨]

العهد بعد يوسف — تمهيد للفصل التالي

لا يسمي القرآن وصياً ليوسف. تسمي رواية الصدوق بثرياء ثم شعيب قبل موسى، بينما يحفظ «إثبات الوصية» سلسلة ببرز بن لاوي ثم أحرب وميتاح وعاق وخيام ومادوم ثم شعيب. لا يثبت ذلك اتحاد بثرياء وببرز، أو نبوة كل حامل، أو نسباً أبوياً ليوسف. تفصيل السلسلتين وقراءات الاسم وطرق النقل في الفصل ١٩؛ ويكفي هنا إثبات اختلافهما عند ختام سيرة يوسف.

يوسف رسول بالبينات — شاهد من سورة غافر

لا ينتهي ذكر يوسف بسورته. ففي خطاب مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، ثم يذكر شكهم وقولهم بعد هلاكه إن الله لن يبعث من بعده رسولًا (غافر ٤٠:٣٤). تثبت الآية صلته بدعوة عامة في مصر، لا مجرد براعته في تفسير الأحلام وإدارة الطعام. ولا تسرد الآية ماهية كل بينة جاء بها، أو أسماء أتباعه وخصومه، أو مدة دعوته؛ فتظل هذه الحدود معلومة للقارئ بدل أن نكملها بفرض تاريخي.

يوسف في خبر البكائين — الحزن والذاكرة اللاحقة

يذكر الخصال في أبواب الخمسة، خبر البكائين، آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعلي بن الحسين. ويصف بكاء يوسف على أبيه في السجن، ويربط حزن فاطمة بفقد الرسول وحزن السجاد بالحسين. طريقه عن محمد بن سهل البحراني بصيغة الرفع، فلا يثبت به كل تفصيل تاريخي دون فحص. فاطمة والحسين والسجاد والنبي من سياق المقارنة اللاحقة، لا من أهل مصر زمن يوسف؛ ولا يجعل عدّ الخمسة حزن غيرهم ممنوعًا. [م٩]

شواهد أخرى من التلقي اللاحق

يضم العياشي، ج٢، ص١٧٧–١٧٩، ح٢٨–٣١، خبرًا يقارن بكاء آدم ويوسف وداود، ودعاءً يذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ثم يعلّم السائل التوجه إلى الله بمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة. كما يروي خبر رؤيا أحزنت فاطمة بشأن الحسن والحسين وطمأنة النبي لها. هذه شخصيات مقارنة وتلقٍّ، لا إضافة إلى أهل مصر زمن يوسف؛ ولا تُسوَّى رؤيا الخوف بالرؤيا النبوية أو تُجعل ألفاظ تمثيل الرؤيا أسماء نساء. وفي ح٤٦، ص١٨٤، يسأل جابر بن يزيد الإمام الباقر عن لقب أمير المؤمنين في تطبيق لفظ الميرة على العلم، وفي ح٤٩ يُذكر سالم بن حفصة داخل سؤال عن وجوه الكلام والصدق. تحفظ هذه المواضع أدوار السائلين في عصر الرواية، وتفصل بينها وبين أحداث السورة.

الإخوة بعد الاعتراف — ما يمكن وما لا يمكن إثباته

قال الإخوة ليوسف: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، وقالوا لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف ١٢:٩١، ٩٧). هذه شهادة قرآنية بالإقرار بالخطأ وطلب الاستغفار، ويقابلها عفو يوسف ووعد يعقوب بالدعاء. أما الحكم التفصيلي على مرتبة كل أخ، أو افتراض نبوة الجميع من لفظ «الأسباط»، أو تحديد خاتمة كل فرد باسمه، فيحتاج دليلًا زائدًا. الاعتراف لا يمحو وصف الفعل السابق، لكنه يجعل التوبة والعفو جزءًا من حكاية الهداية لا هامشًا لها.

روايتا الراوندي في الإخوة — المنزلة والتوبة

يروي قطب الدين الراوندي في «قصص الأنبياء» (الباب السادس، ص١٣٢، الخبر ١٣٣) عن حنان بن سدير أنه سأل الإمام الباقر عليه السلام: هل كان أولاد يعقوب أنبياء؟ فنفى ذلك، ووصفهم بالأسباط وأولاد الأنبياء، وذكر توبتهم مما صنعوا وحسن خاتمتهم. هذه رواية إمامية صريحة في السؤال عن منزلتهم، لكنها لا تجعل كل استعمال قرآني لكلمة «الأسباط» حكمًا على جميع الأفراد في كل عصر. يسبقها في الكتاب خبر آخر (رقم ١٣٢) عن الإمام الصادق عليه السلام يجيب بالإيجاب عن سؤال خروج بني يعقوب عن الإيمان، من غير شرح لمدة ذلك أو مصير كل واحد. لا نسوّي بين الخطأ العارض والحكم النهائي، ولا نخفي اختلاف صياغة الخبرين؛ يُفحص طريق كل منهما ودلالته، وتبقى الآيات في الإقرار والاستغفار والعفو (١٢:٩١–٩٨) أصلًا ثابتًا. أسماء من تسلّم العهد من إخوة يوسف أو ذريتهم لا تُستخرج من هذين الخبرين.

العياشي في نبوة الإخوة — نفي النبوة لا ينفي إمكان التوبة

عند يوسف ١٢:٩٥ يجمع «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٩٤، الأخبار ٧٤–٧٦، ثلاثة أوجه في سؤال منزلة إخوة يوسف. في الخبر ٧٤ يسأل نشيط بن صالح الإمام الصادق عليه السلام عن نبوتهم، فينفيها وينفي وصفهم بالبررة الأتقياء في سياق قولهم لأبيهم ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ الْقَدِيمِ﴾. ويقابل الخبر ٧٥ سؤال سليمان بن عبد الله الطلحي عن خروج بني يعقوب من الإيمان، وهو قريب من خبر الراوندي ١٣٢. أما الخبر ٧٦ فيرد بصيغة «عن بعض أصحابنا» واستفهام إنكاري عن اجتماع فعلتهم بنبوة مزعومة، وهو أقصر وأضعف تعيينًا للواسطة. هذه الأخبار تنفي الاستناد إلى لقب «الأسباط» لتثبيت نبوة هؤلاء الإخوة، ولا نقيد نفي النبوة بزمن الجريمة وحده، لكنها لا تجيز أن نمحو توبتهم المروية في خبر الراوندي ١٣٣ أو اعترافهم القرآني (١٢:٩١، ٩٧). كذلك لا نثبت حكمًا واحدًا على كل من انتسب إلى الأسباط في الأجيال التالية؛ اللفظ أوسع من هؤلاء الأفراد. نفرق بين تقويم الفعل في زمنه، وإمكان التوبة، ونبوة أشخاص آخرين من نسل بني إسرائيل إن ثبتت بأدلتها. وبحسب الأصل الإمامي في العصمة قبل البعثة وبعدها، لا تجعل التوبة مرتكب هذه الأفعال نبيًا بعد ذلك؛ التوبة والنبوة دعويان مختلفتان.

آيات الطريق بعد القصة — البصيرة وسنن الرسل

بعد خبر يوسف يخاطب الوحي النبي محمدًا ﷺ بأن هذه من أنباء الغيب التي لم يكن حاضرًا حين أجمع الإخوة أمرهم ومكروا (يوسف ١٢:١٠٢). ويقرر أن حرص الرسول لا يلزم الناس بالإيمان، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا، وأن آيات كثيرة في السماوات والأرض يمرون عليها معرضين، بل إن إيمان أكثرهم لا يخلو من شرك، ويحذرهم من غاشية عذاب الله أو مجيء الساعة بغتة (١٢:١٠٣–١٠٧). هذه الآيات لا تضيف أسماء إلى أسرة يوسف، بل تنقل أثر القصة إلى مسؤولية المخاطبين في زمن التنزيل.

ثم تأتي صيغة الدعوة: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، مع تنزيه الله من الشرك (١٢:١٠٨). وتذكر السورة أن الرسل من قبل كانوا رجالًا يوحى إليهم من أهل القرى، وتدعو إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة السابقين، وأن دار الآخرة خير للمتقين (١٢:١٠٩). وعندما يبلغ الرسل شدة الامتحان يأتي نصر الله وينجى من يشاء، ولا يرد بأسه عن المجرمين (١٢:١١٠). في تفسير ضمير ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ واختلاف القراءات كلام معروف؛ فلا نضع اليأس من وعد الله أو ظن الكذب في مقام الرسل اعتمادًا على احتمال غير محقق. خاتمة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ (١٢:١١١) تصل هذا كله بوظيفة الكتاب: التصديق والتفصيل والهدى والرحمة للمؤمنين. وهذا تفسير لسياق الآيات، لا رواية عن تفاصيل حياة يوسف.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ — درجات المعنى في الروايات

تنتقل سورة يوسف بعد قصته إلى نقد إيمان لا يستقيم معه التوحيد في جميع المواقف (١٢:١٠٦). في «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٩٩-٢٠٠، الأخبار ٩٠-٩٨، فسرت روايات عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام صورًا من ذلك: الحلف بحياة المخلوق، نسبة المطر إلى النوء على وجه يغفل المنعم، تصديق الكهان، قول الإنسان «لولا فلان لهلكت» كأن الرزق والدفع مستقلان عن الله، وشرك الطاعة بمعصية الله وطاعة الشيطان. هذه أمثلة تطبيقية متغايرة، وفي الخبر ٩٢ عن الإمام الرضا عليه السلام بيان أن بعض هذا الشرك «لا يبلغ به الكفر»؛ فلا نحكم بالكفر على كل من وقع في تعبير خاطئ أو معصية. وفي الخبر ٩٦ يميز الإمام الصادق بين إسناد النجاة إلى الشخص استقلالًا وبين قول «لولا أن الله منّ عليّ بفلان لهلكت»، فأجاز الثاني. لفظ الآية باقٍ في سياقه القرآني العام، وهذه الأخبار تشرح وجوه التطبيق، ولا نجعلها حصرًا لكل ما يدخل في الشرك أو حكمًا واحدًا على أصحابه. وهو امتداد عملي لنداء يوسف في السجن ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (١٢:٤٠): شكر السبب البشري لا يقطع نسبة الفضل إلى الله.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ — النص العام والتطبيق الإمامي

تقول الآية ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف ١٢:١٠٨). الخطاب القرآني بصيغة «من» لا يسمي شخصا في الآية نفسها. لكن «تفسير العياشي»، ج٢، ص٢٠٠-٢٠١، الأخبار ٩٩-١٠١، يروي عن الإمام الباقر عليه السلام تطبيق المتبع على علي بن أبي طالب عليه السلام، ويزيد الخبر ١٠١ ذكر رسول الله وعلي والأوصياء بعدهما في حمل الدعوة على بصيرة. ويرد الخبر ١٠٠ في الاحتجاج بصغر السن لمن تحققت فيه الحجة، مع اختلاف نسخة في «سبع» و«تسع» سنوات، وتحتاج صيغة نسبة الخبر ومرجع المتكلم إلى تحقيق خاص؛ فلا نخلطه بسيرة يوسف أو نجزم بالعمر من نسخة مضطربة. هذا التفسير الإمامي لا يمحو عموم الدعوة إلى الله ولا يضيف اسم علي إلى ألفاظ الآية، لكنه يبين تطبيقًا روائيًا يصل ختام السورة بمشروع استمرار الهداية بعد النبي محمد ﷺ،

وسيبحث إثبات الوصية في موضعه من الجزء الثاني بأدلته الخاصة، لا باستنتاجه من هذه الآية وحدها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ — اختلاف القراءة والتفسير وصيانة معنى الوحي

في ختام سورة يوسف (١٢:١١٠) تأتي عبارة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ في سياق تأخر النصر ثم مجيئه. ينبغي ضبط القراءة والتشديد والضمير قبل نسبة الظن إلى الرسل أو أقوامهم. يورد «تفسير العياشي»، ج٢، ص٢٠١، الخبر ١٠٢ عن أبي بصير تفسيرًا في قراءة مخففة يتحدث عن احتمال تمثل الشياطين بصورة الملائكة عند شدة البلاء، ثم ترد أخبار ١٠٣–١٠٥ بألفاظ مقتضبة مختلفة. وفي الخبر ١٠٦ عن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام جواب عن سؤال كيف يأمن الرسول أن يكون ما يأتيه نزغًا شيطانيًا: ينزل الله عليه السكينة والوقار، فيكون ما أتاه من قبل الله واضحًا له كالمشاهدة. لا نقدم لفظ خبر ١٠٢ منفصلًا عن هذا الجواب أو نجعله حكمًا بأن الرسول لا يميز الوحي الصادق، ولا نساوي احتمالًا تفسيريًا في قراءة مخصوصة بقطعي القرآن. تُقابل أسانيد هذه الأخبار وقراءات النص ومقام كل سؤال، ونثبت من الآية يقين مجيء نصر الله عند نهاية المحنة، من غير رسم تجربة نفسية لكل نبي لا يبينها القرآن.

تفسير الرضا لخاتمة المحنة — شاهد ينبغي ضمه

في خبر مجلس المأمون نفسه يفسر الإمام الرضا يوسف ١٢:١١٠ بأن الرسل يئسوا من قومهم، وأن القوم هم أصحاب الظن المذكور، ثم جاء نصر الله للرسل. يُضم هذا الوجه إلى عرض أخبار العياشي، ولا تختزل الروايات في اللفظ المشكل الذي يوهم اشتباه الوحي. اختلاف الأسانيد والقراءات يبقى محل تحقيق، أما هذا التفسير فمصرح به في مصدره. [م١]

سجل شخصيات الفصل وحدود الحصر

في السرد القرآني: يوسف، أبوه يعقوب، إبراهيم وإسحاق في نسب الملة؛ إخوته، والأخ الذي آواه، والقائل منهم بعدم القتل، وكبيرهم الباقي، وأبواه عند اللقاء. وفي مصر: القافلة وواردها، المشتري العزيز وامرأته، الشاهد من أهلها، نسوة المدينة، صاحبا السجن والناجي منهما، الملك والملأ ورسوله، فتيان يوسف، المؤذن والمتعهد بحمل البعير، وأهل القافلة والبشير ومن خاطبهم يعقوب. لا نجعل اختلاف الأدوار برهانًا على أشخاص مستقلين دائمًا، ولا نسقط المجهولين لغياب أسمائهم.

في الأخبار التي يعرضها الفصل: راحيل، بنيامين بصيغ اسمه، ياميل الخالة، العمة المسماة سارة بنت إسحاق في طريق خاص، زليخا، المرأة غير المسماة في خبر الزواج وأبوها، طفل يوسف، أبناء أخيه، ذميال، وصيغة بقوم في خبر الجائع الآخر، الأعرابي وزوجته وأبناؤهما، السجان، والتجار ورجل بقية عاد. وتبقى أسماء الأنساب ليا وزلفة وبلهة وسائر الإخوة، وإفرائيم وميشا ومنسّى في طبقة النقل أو المقارنة المبينة، لا أسماء قرآنية.

في امتداد العهد والذكر: بثرياء وسلسلة ببرز ولاوي وأحرب وميتاح وعاق وخيام ومادوم وشعيب؛ موسى والمرأة الدالة على القبر؛ مؤمن آل فرعون في غافر. وفي التلقي اللاحق: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة المذكورون، وبستان/بشان وجابر بن عبد الله وجابر بن يزيد وسالم بن حفصة والمأمون وابن الجهم. أما أبو حمزة ومولاة السجاد المسماة وشيكة أو الفتيكة أو سكينة بحسب النقل، والمفضل وغيرهم، فمن إطار نقل الرواية، ولا ينقلون إلى زمن يوسف. وداود في المقارنة بين البكائين، والشيخ الدال على المرأة في خبر القبر، لكل منهما سياقه المبين.

جبرئيل وملك الموت شخصيتان ملائكيتان في الأخبار، والشيطان مذكور في السورة في ١٢:٥، ٤٢، ١٠٠؛ لا يعدون رجالًا أو نساء. والكواكب والشمس والقمر رموز الرؤيا في سياقها، لا شخصيات بشرية إضافية.

هذا الحصر يتناول الشخصيات ذات الدور في قصة يوسف والأخبار والتطبيقات المعروضة، لا كل اسم في أسانيد الكتب أو كل نبي في آيات المقارنة. راجع الفصل ١٧ لتفصيل أسرة يعقوب. اكتمال هذه المراجعة لا يعني استنفاد كل مخطوط أو تصحيح جميع الأخبار؛ مواضع الاختلاف وعدم ثبوت الأسماء موضحة في النص.

خاتمة الفصل الثامن عشر — مصر بعد يوسف

بدأ يوسف برؤيا، ثم ألقي في الجب وبيع. راودته امرأة العزيز فاستعصم، ودخل السجن فدعا إلى التوحيد وفسر الرؤى. خرج مبرأ، وحفظ الناس في المجاعة، وعفا عن إخوته وجمع الأسرة. ثم انتهى عصره، وبقي بنو إسرائيل في مصر.

وهنا لا يجوز أن نقفز فورًا إلى موسى.

بين يوسف وموسى مرحلة لا يفصل القرآن أجيالها؛ تسمي رواية الصدوق بثرياء ثم شعيب، ويحفظ خبر «إثبات الوصية» سلسلة ببرز ومن بعده حتى مادوم ثم شعيب. ندرس الروايتين في الفصل التالي دون دمجهما.

وهذه هي مهمة الفصل التالي.

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

الأنعام ٦:٨٤.

سورة يوسف ١٢:١–١١١ كاملة.

غافر ٤٠:٣٤.

ثانيًا: يوسف في الجب وعصمته وتفسير ١٢:٢٤

تفسير العياشي، ج٢، ص١٦٦، الخبر ١ عن أبي بصير عن الإمام الصادق في فضل قراءة سورة يوسف، وفي نسخته «كل يوم أو كل ليلة»؛ تُقابل الألفاظ والطريق. والخبران ٢-٣: عن مسعدة بن صدقة في اتقاء حسد الإخوة، وعن زرارة عن الإمام الباقر في رؤيا الأنبياء؛ وهما توظيفان روائيان لا تأريخ قطعي لانتقال الحجة.

تفسير العياشي، ج٢، ص١٦٧-١٦٩، الخبر ٥ عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام علي بن الحسين: خبر ذميال وطلبه الطعام والرؤيا، مع اختلاف اسم المولاة بين النسخ؛ والخبر ٤ عن أبي خديجة «عن رجل» عن الإمام الصادق، وفيه واسطة مبهمة. تُقارن ألفاظ علل الشرائع، ولا يذكر القرآن هذا السبب للابتلاء.

تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٠، الخبر ٦ عن مسمع أبي سيار عن الإمام الصادق: خبر جبريل والدعاء في الجب؛ والخبر ٧ عن زيد الشحام في سن السابعة. هما خبران روائيان، لا لفظ القرآن.

الشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، الحديث ٤ (ص ٤٨٨ في طبعة مؤسسة البعثة): دعاء يوسف في الجب، بسند يمر بالحسن بن علي بن أبي حمزة وأبيه ويحتاج فحصًا رجاليًا.

الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، في مجلس الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون في عصمة الأنبياء — تفسير ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ بما لا ينسب قصد الفاحشة إلى يوسف.

الصدوق، عيون أخبار الرضا، خبر مجلس المأمون المروي عن علي بن محمد بن الجهم: العبارة المنسوبة إلى الصادق جزء من هذا الطريق، وليست هنا خبرًا مستقلًا. [م١]

تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٢-١٧٣، الأخبار ١١-١٧: ثمن يوسف ثمانية عشر أو عشرون درهمًا باختلاف الخبر؛ الخبر ١١ فيه «عن رجل» مبهم. وفي الخبر ١٦ عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليهما السلام: سبع سنوات عند الجب، مع قراءة «تسع» في حديث العلل بحسب حاشية الطبعة. وأخبار «برهان ربه» عند ١٢:٢٤ متفاوتة المتن والطريق، ولا يثبت منها ما يخالف ثناء القرآن على عصمة يوسف.

تفسير القمي، تفسير العياشي، نور الثقلين، الصافي، والميزان عند يوسف ١٢:٢٤، مع التفريق بين الروايات وعدم تقديم خبر يخالف أصل العصمة ومحكم الثناء القرآني.

ثالثًا: الشاهد

تفسير القمي عند يوسف ١٢:٢٦-٢٨ — رواية تعين الشاهد صبيًا تكلم.

تفسير العياشي والمجاميع التفسيرية عند الآية — أقوال وطرق أخرى في هوية الشاهد.

القرآن لا يسميه ولا يحدد عمره.

رابعًا: السجن

تفسير القمي عند يوسف ١٢:٣٦ — خبر في إحسان يوسف إلى السجناء: عيادة المريض والسعي في الحاجة والتوسعة.

تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٥–١٧٦، الخبران ٢١–٢٢: خبر السجّان ودعاء يوسف بعد الصلاة؛ وص١٧٦–١٧٧، الخبر ٢٣: ذكر عشرين سنة في تعقيب ابن أبي عمير عن ابن أبي حمزة على الخبر، ويحتاج طريقه ونطاق العدد إلى تحقيق. ثم ص١٧٧–١٧٨، الأخبار ٢٦–٣٠ عند يوسف ١٢:٤٢ — روايات العتاب في «اذكرني عند ربك»؛ سبع سنوات في خبر مرفوع، و«تسع» في اختلاف نسخة. ويقارن بخبر الثماني عشرة في مجمع البيان عند ١٢:١٠١. لا يحدد القرآن العدد.

القرآن يكتفي بـ﴿بضع سنين﴾ ولا يحدد المدة الكلية. وينظر أيضًا: قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٢–١٣٤، الخبر ١٣٥، في دعاء يوسف وبشارة الخروج؛ وتفسير العياشي، ج٢، ص١٩٨، الخبر ٨٨، في دعاء آخر مع لفظ مشكل عن «جرمه» نبّه محقق الطبعة إلى معارضته للعصمة؛ لا يُثبت اتهامًا يخالف يوسف ١٢:٣٢، ٥١.

خامسًا: السجود والأبوين

تفسير العياشي عند يوسف ١٢:١٠٠ — عن الإمام الصادق: سجودهم عبادة لله؛ وعن الإمام الباقر: تعظيم وشكر لله.

أخبار الإمام الهادي عليه السلام في تفسير السجود بالشكر لله عند اجتماع الأسرة.

تفسير العياشي والصافي عند ١٢:١٠٠ — اختلاف الروايات في «أبويه»: الأم أو الخالة ياميل بعد وفاة الأم في بعض الطرق.

سادسًا: القميص

الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح٥، ص٢٣٢: قميص إبراهيم وانتقاله إلى إسحاق ويعقوب ويوسف. وتقارن النقول في علل الشرائع والقمي والعياشي وبصائر الدرجات.

سابعًا: الوصية

تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٨، الخبر ٨٧، عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر في بقاء يعقوب حجة ثم انتقالها إلى يوسف؛ وقطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٧–١٣٨، الخبر ١٣٨، بطريق أوسع عبر الصدوق إلى محمد بن مسلم، مع الاستدلال بغافر ٤٠:٣٤ على رسالة يوسف. يحتاج كلا الطريقين إلى تحقيق رجالي ومقابلة المتن. والشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس ٦٣، الحديث

٣؛ كمال الدين وتمام النعمة؛ من لا يحضره الفقيه — سلسلة يعقوب ← يوسف ← بثرياء ← شعيب ← موسى.

تنبيه: ضبط «بثرياء» يختلف بين النسخ، وبعض طرق السلسلة يمر بمقاتل بن سليمان. ويقارن أيضًا بالكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب»، ص٤٨-٥٠، في ذكر ابني يوسف إفرائيم وميشا وتسليم الوصية إلى ببرز بن لاوي ثم أحرب وميتاح وعاق وخيام ومادوم؛ لا تدمج سلسلته بسلسلة الصدوق قبل تحقيق نسبة الكتاب والمتن والأسانيد. ويقارن مع تفسير القمي عند يوسف ١٠١:١٢-١٠٢، خبر خط النبوة في ولد لاوي وعتاب يوسف؛ هذا خبر نسب مختلف عن سلسلة الوصية، ويحتاج تحقيق سنده ومتنِه ولا يُقدَّم على محكم القرآن.

ثامنًا: العمر والقبر

كمال الدين وتمام النعمة، خبر أعمار الأنبياء — يوسف ١٢٠ سنة في هذا الطريق؛ قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٨-١٣٩، الخبر ١٤٦، عن الإمام الصادق في اثنتي عشرة سنة قبل السجن وثماني عشرة فيه وثمانين بعده، ومقارنته بالطبرسي، مجمع البيان، عند يوسف ١٠١:١٢، مجموع ١١٠ سنوات. اختلاف العمر روائي لا قرآني وتُفحص الطرق والنسخ.

من لا يحضره الفقيه وعلل الشرائع — خبر أمر موسى بنقل عظام/رفات يوسف من مصر ودلالة المرأة المسنة على موضعه؛ ويقارن بقطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٥-١٣٦، الخبر ١٣٩، بطريق إلى أبي الحسن عليه السلام، وفيه احتباس المطر وشروط المرأة وإخراج التابوت من ناحية النيل. تُقابل النسخ وتُفحص الأسانيد.

بحار الأنوار، أبواب يوسف وموسى، جامع للمادة لا مصححًا تلقائيًا.

تاسعًا: الغيبة والقياس بيوسف

الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب الغيبة، الخبر ٤، عن سدير الصيرفي عن الإمام الصادق؛ والشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الكتاب الثاني، الباب الخامس «في غيبة يوسف عليه السلام»، ولا سيما الحديث ٣؛ ثم كتب الغيبة للنعماني والطوسي في توظيف قياس يوسف الذي عرف إخوته ولم يعرفوه. تفاصيل الخبر تحتاج فحص طريقها.

هذا استعمال لاحق لقصة يوسف في الفكر الإمامي، لا جزء من أحداث السورة نفسها.

عاشرًا: امرأة العزيز وذرية يوسف

تفسير القمي، ذيل سورة يوسف ١٠١:١٢-١٠٢، خبر زواج يوسف بامرأة العزيز المنسوب إلى الإمام الهادي؛ الشيخ الصدوق، علل الشرائع، خبر آخر منسوب إلى الإمام الصادق. قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٦-١٣٧، الأخبار ١٤٠-١٤٣ (مع تكرار رقم

١٤١ في الطبعة): إعانة مالية في خبر، وزواج وأسباب مختلفة في غيره؛ منها طريق «عن بعض أصحابنا» ومرفوع وطريق «عمن ذكره»، فلا تسوّى الأسانيد. تفسير العياشي، ج٢، ص١٧٥، الخبر ٢٠، امرأة غير مسماة في خبر زواج آخر، وفي طريقه راوٍ مبهم («عن رجل»).

تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٣-١٨٧، الأخبار ٤٤-٥٦ في الطبعة المتداولة: موائد الإخوة، اختلاف عدد أبناء أخ يوسف بين عشرة وأحد عشر؛ ويذكر خبر ابن عباس في أمالي الصدوق، المجلس ٤٣، الحديث ٧، اثني عشر ابنًا، مع روايته شمعون ورسائل يعقوب، قصة منطقة إسحاق وعمته عن الإمام الرضا، تسمية يهوذا في خبر هشام بن سالم، وذكر ابن صغير غير مسمى ليوسف. تُفحص أسانيد هذه الأخبار وتُحفظ فروق متونها؛ وأسماء الذرية في الأنساب التاريخية لا تثبت منها. لا يسمي القرآن زوجة يوسف أو أولاده.

حكم يوسف وإدارة الغلاء وتلقي أهل البيت لولاية الخزائن: تفسير العياشي، ج٢، ص١٨١، الخبران ٣٩-٤٠، في تفسير «حفيظ عليم» وجواز التعريف بالكفاءة عند الحاجة؛ الخبر ٣٩ مختصر القائل والطريق. وقبل ذلك ج٢، ص١٨٠، الخبر ٣٨، عن الحسن بن موسى بصيغة «روى أصحابنا» عن الإمام الرضا في مقارنته وضع يوسف بموقفه من المأمون، وطريقه مختصر؛ والصدوق، الخصال، باب الأنبياء الأربعة الذين كانوا ملوكًا، الخبر ١١٠، وفي سنده «عمن ذكره»؛ تفسير العياشي، ج٢، ص١٨٠، الخبران ٣٥-٣٦ في تفسير «وفيه يعصرون» والمطر، وأحد الطريقين فيه «عن رجل»؛ وص١٧٩-١٨١، أخبار الغلاء وحدود الملك؛ قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٤-١٣٦، الخبر ١٣٥، في مبادلات سنوات الشدة ثم عتق أهل مصر ورد حقوقهم، مع ضرورة فحص صدر الطريق «وبإسناده عن الصفار». هذه شواهد روائية لا حدود قرآنية مرسومة. ويقارن أيضًا بالراوندي، المصدر نفسه، ص١٣٧-١٣٨، الخبرين ١٤٤-١٤٥، في تسمية الملك وطول الأعمار ورجل من بقية عاد؛ في الثاني راوٍ مبهم، ولا تثبت بهما هوية الملك أو كرونولوجيا الأنبياء.

حادي عشر: منزلة إخوة يوسف وتوبتهم

قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس «في نبوة يعقوب ويوسف»، ص١٣٢، الخبران ١٣٢-١٣٣: سؤال عن خروج بني يعقوب عن الإيمان، وسؤال حنان بن سدير للإمام الباقر عن نبوتهم مع ذكر توبتهم. ويقارن بتفسير العياشي، ج٢، ص١٩٤، الأخبار ٧٤-٧٦، ولا سيما خبر نشيط بن صالح عن الإمام الصادق في نفي نبوة هؤلاء الإخوة دون قصره على زمن الفعل، والخبر ٧٦ بطريق «عن بعض أصحابنا». لا يُسقط اختلاف اللفظ، ويُبحث سند كل خبر ودلالته. القرآن، يوسف ١٢:٩١-٩٨، هو الأصل في الإقرار والعفو والاستغفار.

ثاني عشر: رحلات الإخوة، علم يعقوب، وحوار ما بعد اللقاء

تفسير العياشي، ج٢، ص١٨١، الخبر ٤٢، عن أبي بصير عن الإمام الباقر في اللقاء الأول ودعوى الذئب في الحوار الروائي، وتقارن طرقه بقطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس، ص١٣٢-١٣٥، الخبر ١٣٤ في الامتيار شتاءً وصيفًا وردّ البضاعة، وفي طريقه علي بن أبي حمزة؛ والخبر ١٣٦ في سلام يبلغه أعرابي إلى يعقوب ودعائه للرجل؛ والخبر ١٣٧ في علم يعقوب بحياة يوسف وسؤاله ابنه عن واقعة الجب. للخبر الأخير اختلاف نسخ وهوامش، وتُقابل تتمته بعلل الشرائع. يقابل ذلك آيات يوسف ١٢:٥٨-٦٢، ٨٦-٩٨ من غير دمج التفاصيل الروائية في القرآن.

ثالث عشر: دعاء يوسف وخاتمة السورة في التفسير الإمامي

تفسير العياشي، ج٢، ص١٩٩، الخبر ٨٩: صلاة يوسف ودعاؤه عند التمكين عن عباس بن يزيد عن الإمام الصادق؛ نص يوسف ١٢:١٠١ قرآني، وهيئة الدعاء زيادة رواية. ج٢، ص١٩٩-٢٠٠، الأخبار ٩٠-٩٨: تطبيقات «الشرك» في يوسف ١٢:١٠٦، مع التمييز بين شرك الطاعة والعبادة والتنبيه إلى أن بعضه لا يبلغ الكفر. ج٢، ص٢٠٠-٢٠١، الأخبار ٩٩-١٠١: تطبيق «من اتبعني» في ١٢:١٠٨ على علي والأوصياء؛ الخبر ١٠٠ يحتاج ضبط نسبة المتكلم واختلاف «سبع/تسع». ج٢، ص٢٠١، الأخبار ١٠٢-١٠٦: قراءات وتفسير يوسف ١٢:١١٠ وتمييز الرسول للوحي بالسكينة، مع فحص الطرق والمتون وعدم نسبة الشك إلى الأنبياء دون دليل.

إحالات التحقيق والإضافات

تفسير العياشي، ج٢، ص١٦٧، ح٤-٥: بقوم وقراءات اسم المولاة؛ وص١٧٧-١٧٩، ح٢٨-٣١، وص١٨٤، ح٤٦ و٤٩: شواهد المقارنة والتلقي اللاحق.

تختلف أرقام الصفحات باختلاف الطبعات؛ الإحالات تحدد النص ولا تصحح السند تلقائيًا.

[م١] الصدوق، عيون أخبار الرضا، مجلس المأمون في العصمة، ح١؛ تفسير ١٢:٢٤ و١٢:١١٠.

[م٢] الصدوق، عيون أخبار الرضا، خبر أبي الصلت وسؤال ابن الجهم، ح١.

[م٣] الفيض الكاشاني، الصافي، ج٣، ص٥-٨؛ أسماء الأسرة وحدود القائمة.

[م٤] الصدوق، الخصال، أبواب الأحد عشر، باب أسماء النجوم، ح١-٢.

[م٥] الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣٢، ح٥، خبر القميص.

[م٦] الراوندي، الخرائج والجرائح، ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩، ح٥٣، اسم العمة.

[م٧] الراوندي، قصص الأنبياء، ص١٣٥-١٣٦، ح١٣٩، المرأة ورفات يوسف.

[م٨] الكليني، الكافي، ج٢، باب الكبر، ح١٥، طريق مرسل.

[م٩] الصدوق، الخصال، أبواب الخمسة، ح١٥، البكاؤون الخمسة؛ مرفوع.

الفصل ١٩ — من يوسف إلى موسى — بنو إسرائيل وحفظ العهد في مصر

لماذا نحتاج فصلاً بين يوسف وموسى؟

تنتهي سورة يوسف والأسرة في مصر، ثم تأتي قصة موسى في زمن صار فيه بنو إسرائيل جماعة مستضعفة تحت سلطان فرعون. وبين المشهدين أجيال لا يسرد القرآن أسماءها واحدًا واحدًا.

لو قفزنا من يوسف إلى موسى مباشرة لتركنا سؤال حكاية الهداية بلا جواب: ماذا حدث لوصية يوسف؟ كيف استمر التوحيد في بيت يعقوب؟ وماذا تحفظ الروايات عن حملة العهد في هذه المدة؟ هذا الفصل لا يخترع تاريخًا مفقودًا، بل يجمع ما تسمح به الآيات والروايات.

خريطة الآيات وحدود المرحلة

تقوم أرضية الفصل على البقرة ٢:١٣٢–١٣٣ ويوسف ١٢:٩٩–١٠١ في أصل العهد واجتماع الأسرة، وعلى غافر ٤٠:٢٨–٣٥ في شهادة مؤمن آل فرعون عن يوسف، والقصص ٢٨:٣–١٣ في الاستضعاف وبداية النجاة. وتقابلها البقرة ٢:٤٩–٥٠، والأعراف ٧:١٢٧–١٣٧، ١٤١، وإبراهيم ١٤:٦، والشعراء ٢٦:٢٢، والدخان ٤٤:٣٠–٣٣ في وصف القهر والخلاص. ويضيء يونس ١٠:٨٣–٨٩ خوف المؤمنين والتوكل والصلاة والدعاء في زمن رسالة موسى، والمائدة ٥:٢٠ تذكيرهم بالأنبياء والنعمة. هذه المواضع تشمل خلفية الفترة ومآلها، ولا تعني أن جميع أحداثها وقعت قبل ولادة موسى. تفصيل البعثة والخروج في الفصل ٢٣، وتفصيل الميلاد في الفصل ٢٢.

وصية يعقوب ووصول الأسرة — أصل قرآني سابق للفترة

تسبق وصية يعقوب لأبنائه زمنَ الفاصل بين يوسف وموسى. ففي البقرة ٢:١٣٢–١٣٣ يوصي إبراهيم ويعقوب بنيهما بالثبات على الدين، ويسأل يعقوب بنيه عند حضور الموت عمّا يعبدون بعده، فيجيبون بالتوحيد. هذا نص قرآني في نقل الإيمان داخل الأسرة، لا قائمة بأسماء الأوصياء الذين تولوا شؤون الجماعة بعد وفاة يوسف. وفي يوسف ١٢:٩٩–١٠١ يجتمع الأبوان والإخوة بيوسف في مصر، ويدعو يوسف ربَّه أن يتوفاه مسلمًا ويلحقه بالصالحين؛ الدعاء لا يحدد موعد وفاته ولا زمن تعاقب الأجيال. ومن ثم يبدأ البحث في الفترة بثلاث حقائق متمايزة: وصية يعقوب بالتوحيد، حضور أسرته في مصر، ثم شهادة مؤمن آل فرعون لاحقًا بأن يوسف جاء بالبينات وأن الشك بقي بعد هلاكه (غافر ٤٠:٣٤). لا تكفي هذه الآيات لتسمية حامل وصية بعينه بين يوسف وموسى.

القرآن يذكر يوسف في ذاكرة مصر بعد وفاته

من أهم الآيات لهذا الفصل قول مؤمن آل فرعون:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ غافر ٤٠:٣٤.

الآية تثبت أمورًا بالغة الأهمية: يوسف جاء أهل مصر بالبينات. بقي أثر رسالته في الذاكرة بعد موته. ظهرت بعده فكرة خطرة: أن الرسالة انتهت ولن يبعث الله رسولًا بعده. وهذا بالضبط يجعل مرحلة ما بعد يوسف جزءًا من صراع الهداية، لا مجرد تاريخ سكاني.

كيف صار بنو إسرائيل مستضعفين؟

سورة القصص تبدأ بوصف فرعون:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ ٢٨:٤.

ويذكّر القرآن بني إسرائيل في البقرة ٢:٤٩ وإبراهيم ١٤:٦ بالعذاب نفسه.

إذن عندما نصل إلى موسى نجد: سلطة متعالية، مجتمعًا مقسمًا، وبني إسرائيل في موقع الاستضعاف.

لكن القرآن لا يعطينا اسم أول فرعون بدأ الاستعباد ولا عدد السنين التي تحولت فيها أسرة يعقوب إلى جماعة كبيرة.

النساء والأسر في زمن الاستضعاف — حدود الخبر القرآني

لا يقتصر وصف فرعون في القصص ٢٨:٤ على قتل الأبناء؛ فقد قرن القرآن ذلك باستحياء النساء، وكرر التذكير به في البقرة ٢:٤٩ وإبراهيم ١٤:٦ والأعراف ٧:١٤١. لا يصف النص بهذه العبارة حياة كل امرأة على حدة ولا يسمي أمهات الأجيال بين يوسف وموسى، لكنه يضع النساء في صميم محنة الجماعة، بما فيها استمرار البيوت وحمل ذاكرة الإيمان تحت القهر. وما سيرد عن أم موسى وأخته وامرأة فرعون له موضعه في فصل الميلاد والنجاة (الفصل ٢٢)، فلا ننقل أفعالهن إلى فترة لم يحددها القرآن.

الوعد للمستضعفين

بعد وصف الاستضعاف يقول الله:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص ٢٨:٥.

القصة إذن لا تبدأ بموسى فقط. تبدأ بإرادة إلهية ألا يبقى الاستضعاف قدرًا أبديًا. وهذا ينسجم مع فكرة الكتاب: الهداية تعمل أحيانًا داخل زمن يبدو أن الظلم قد أغلقه كله.

﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ — ماذا يثبت الخطاب المتأخر؟

يذكّر موسى قومه بعد الخروج بنعمة الله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ (المائدة ٥:٢٠). تثبت الآية وجود أنبياء في بني إسرائيل من حيث الجملة، ولا تسرد أسماء من عاش بين يوسف وموسى، ولا تصلح وحدها لإسناد النبوة إلى كل ابن ليعقوب أو إلى بثرياء. وإذا ضممناها إلى قول مؤمن آل فرعون عن يوسف (غافر ٤٠:٣٤)، أدركنا أن ذكرى النبوة بقيت موضع جدال في زمن موسى. هذا جمع بين موضعين من القرآن، لا قائمة تاريخية لأجيال الفترة.

الاستضعاف قبل مجيء موسى وبعده

قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ (الأعراف ٧:١٢٩). يثبت النص أن الأذى سبق مجيئه إليهم واستمر بعده؛ أما وقوع سياسة قتل الأبناء في زمن مولده فيظهر من سياق القصص ٢٨:٤-١٣. فلا نجعل لفظ «تأتينا» وحده تاريخًا لمولده. أمرهم موسى بالاستعانة بالله والصبر، ورجا أن يهلك الله عدوهم ويستخلفهم في الأرض لينظر كيف يعملون (٧:١٢٨-١٢٩). هذا يربط محنة الجماعة بمسؤوليتها بعد الخلاص، ولا يحدد سنوات الاستعباد أو أسماء جميع من حفظ الإيمان خلالها.

من الوعد إلى التمكين — زمن الفعل الإلهي

تجمع القصص ٢٨:٤-٦ ثلاثة مستويات: فعل فرعون بتفريق الناس وقتل الأبناء، وإرادة الله أن يمن على المستضعفين ويجعلهم أئمة ووارثين، ووعده أن يمكّن لهم في الأرض ويُري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون. الوعد الإلهي هنا جزء من افتتاح قصة موسى، لكنه لا يقدم أسماء أوصياء تلك الفترة. كما لا يصح أن ننقل لفظ «أئمة» إلى شخص معين لم يسمه النص؛ المقصود في السياق جماعة المستضعفين ومآلها. عند الانتقال إلى فصل ميلاد موسى نفهم كيف بدأت أسباب تحقق هذا الوعد، خطوة خطوة، من بيت أم أخفت طفلها.

الإيمان تحت القهر — الجماعة ليست أسماء الأوصياء وحدهم

يرد موسى على تذكير فرعون بتربيته له بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء ٢٦:٢٢). فلا تمحو رعاية فرد حقيقة استعباد جماعة. وفي يونس ١٠:٨٣-٨٦ يظهر خوف المؤمنين من الفتنة، ثم توكلهم ودعاؤهم بالنجاة، ويأتي الأمر لموسى وأخيه باتخاذ البيوت وإقامة الصلاة (١٠:٨٧). ونفهم من هذه النصوص حضور جماعة تؤمن وتخاف وتصلي، لا مجرد تعاقب أسماء قادة؛ وهذا وصف قرآني لزمن الرسالة، فلا نسقط تفاصيل تنظيمه على القرون السابقة. وفي الأعراف ٧:١٣٧ يُربط مآل المستضعفين بصبرهم، وفي الدخان ٤٤:٣٠-٣٣ يأتي الخلاص من العذاب المهين

ومن فرعون. تحفظ هذه الآيات الرجال والنساء غير المسمّين ضمن قصة الجماعة، وإن لم تمنحنا سيرة فردية لكل واحد.

استمرار الحجة — أصل عقدي لا يملأ فراغ الأسماء

يفرد الكليني في «الكافي»، ج١، كتاب الحجة، بابًا بعنوان «أن الأرض لا تخلو من حجة». وفي خبره الأول يسأل الحسين بن أبي العلاء الإمام الصادق عليه السلام عن خلو الأرض من إمام فينفيه؛ وطريقه يمر بأحمد بن محمد بن عيسى ومحمد بن أبي عمير. وينقل الخبر الثامن عن الإمام الباقر معنى استمرار الإمام الذي يهدي إلى الله منذ قبض آدم. هذا أساس لفهم استمرار الهداية في المنظور الإمامي، لكنه لا يسمّي كل من تولى العهد بين يوسف وموسى. فلا يلزم من عدم ثبوت قائمة الأسماء انقطاع الحجة، ولا يلزم من الاعتقاد باستمرارها تصحيح كل اسم أو نسب في كتب الأخبار. وبذلك يبقى البحث أمينًا للأصل العقدي ولحدود المعرفة التاريخية معًا. [م٣]

رواية اتصال الوصاية — يوسف ثم بثرياء

في كمال الدين وتمام النعمة، وفي الأمالي ومن لا يحضره الفقيه، تحفظ رواية طويلة لاتصال الوصية.

بعد يعقوب ويوسف تقول:

«وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى بثرياء، وأوصى بثرياء إلى شعيب، ودفعها شعيب إلى موسى بن عمران»؛ هذا نص روائي بلفظ «الأمالي»، المجلس ٦٣، ح٣، وليس آية قرآنية. وفي «كمال الدين» ترد عبارة «وأوصى شعيب إلى موسى بن عمران». [م١، م٢]

هذه الرواية هي السبب في عدم حذف اسم بثرياء من مشروعنا.

إنها لا تقول إن بثرياء أحد أبناء يوسف.

ولا تقول صراحة إنه نبي.

إنها تضعه في موضع حامل الوصية بين يوسف وشعيب. ولفظ الإيصاء يصف انتقال المسؤولية، لا يثبت الأبوة؛ لذلك لا تتحول السلسلة إلى شجرة نسب.

تحقيق اسم بثرياء

يظهر الاسم في المصادر والنسخ بصور متقاربة:

بثرياء،

بثريا،

وفي هامش «بشارة المصطفى» للطبري الإمامي، ص١٣٧، ضُبطت نسخة مشار إليها بالحرف «ط» بلفظ «بريشا»؛ وهذا اختلاف قراءة في شاهد نصي، ولا يثبت أنه شخص آخر.

في النص المتداول لكمال الدين يظهر «بثرياء».

ويقرأ متن «بشارة المصطفى» «بثرياء»، بينما ترد صيغة «بثريا» في بعض الشواهد المطبوعة؛ لا تكفي هذه الفروق لتعيين أصل الاسم من غير مقابلة النسخ.

لذلك سيعتمد الكتاب «بثرياء» بوصفه قراءة المصدر الذي بين أيدينا، مع إبقاء الاختلاف في الهامش المنهجي.

لا نبني له سيرة أو نسبًا لم يحفظه النص.

هل سند السلسلة يثبت تاريخًا قطعيًا؟

في «كمال الدين»، ج١، باب اتصال الوصية، ح١ (ص٢١١–٢١٣ في الطبعة المقابلة)، تتعدد طرق صدر الإسناد حتى الحسن بن محبوب، لكنها تجتمع بعده عند مقاتل بن سليمان عن الإمام الصادق عليه السلام؛ فلا تجعل كثرة الطرق العليا الخبر مستقل الأسانيد في موضع العلة المشترك. ومقاتل مضعّف ومختلف فيه كما يبين تعليق الطبعة، لذلك لا نثبت بهذا المتن وحده تسلسلًا تاريخيًا قطعيًا ولا رتبة نبوية لبثرياء. ويرد الخبر أيضًا في «الأمالي» ونقول أخرى، وتحتاج مقارنة ألفاظها وطرقها إلى تحقيق مستقل. يبقى الاسم شاهدًا روائيًا مصرحًا بدرجته، لا اسمًا قرآنيًا ولا حلقة مقطوعًا بها.

شاهد أقدم عند والد الصدوق — «الإمامة والتبصرة»

في «الإمامة والتبصرة من الحيرة» لعلي بن الحسين بن بابويه، باب الوصية من لدن آدم، الخبر ١ (ص٢٠–٢٣ بحسب الطبعة المقابلة)، نجد سلسلة يوسف ← «بثريا» ← شعيب ← موسى. لهذا الشاهد قيمة في ضبط تداول الاسم قبل مصنفات الابن، وفي تمييز رسم «بثريا» عن «بثرياء» في الطبعات. لكنه يروي عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب والهيثم بن أبي مسروق النهدي، عن الحسن بن محبوب، عن مقاتل بن سليمان، عن الإمام الصادق عليه السلام. ويعود طريق «كمال الدين» بعد تعدد صدره إلى الحسن بن محبوب ومقاتل أيضًا. فوجود الخبر عند الأب والابن شاهدان كتابيان، وليس طريقين مستقلين يتجاوز أحدهما موضع الخلاف في مقاتل. لا يضيف خبر الأب نسبًا لبثريا ولا عمرًا أو زوجةً أو أبناءً ولا يصفه صراحة بأنه نبي.

العصا بوصفها أثرًا منقولًا — غير سلسلة الوصاية

في «الكافي» للكليني (ج١، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح١، ص٢٣١ في طبعة الغفاري) يروي محمد بن الفيض عن الإمام الباقر عليه السلام أن عصا موسى كانت لآدم، وصارت إلى شعيب، ثم إلى موسى، ويذكر الخبر استمرار أثرها لدى الأئمة عليهم السلام. هذه رواية عن أثرٍ من آثار الأنبياء، لا تقول إن آدم ناول العصا لشعيب مباشرة، ولا تسرد أسماء من حفظوها

بينهما، ولا تثبت بذاتها أن شعيب تسلم وصية بثرياء أو مادوم. ويورد «الإمامة والتبصرة» (ص١١٦، ح١٠٨) متنًا مقاربًا، وكذلك الكتاب المطبوع باسم «الاختصاص» المنسوب إلى الشيخ المفيد (ص٢٦٩ في إحدى الطبعات)، مع تقارب الطريق في طبقاته الأخيرة من منيع بن الحجاج إلى محمد بن الفيض. لذا لا نعد هذه الطبعات ثلاث شهادات مستقلة على كل تفصيل، وتبقى نسبة «الاختصاص» إلى المفيد موضع بحث. لا يذكر القرآن تاريخ العصا قبل موسى؛ وعند الحديث عن آياتها في فصول موسى يُجعل القرآن أصلًا، وتبقى قصة انتقالها في مرتبة الرواية.

يوسف عند الوفاة — إنذار العائلة وبشارة الفرج

وفي «قصص الأنبياء» (ص١٤٨، الخبر ١٦٠) يروي محمد الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام، في طريق يمر بأحمد بن أبي نصر البزنطي وأبان بن عثمان، أن يوسف جمع آل يعقوب عند اقتراب وفاته، ويجعلهم الخبر ثمانين رجلًا. وأنذرهم بغلبة القبط وعذاب بني إسرائيل، وبشّرهم بالخلاص على يد موسى من نسل لاوي بن يعقوب، وذكر له نسبًا ووصفًا، ثم يذكر تسمية بعض الآباء أبناءهم «عمران» وأحفادهم «موسى» انتظارًا للموعود. وظيفة هذا الخبر في الفصل بيان بقاء رجاء الفرج في ذاكرة الجماعة؛ أما عدد الحاضرين والنسب التفصيلي والهيئة والتسميات فهي تفاصيل رواية لا يسردها القرآن. ولا يثبت هذا الخبر وحده أن كل فرد من المجتمع عرف النبوءة أو أن انتظار موسى استمر على صورة واحدة في كل جيل.

بعد إنذار يوسف، يورد الراوندي طريقًا آخر عن أبي بصير يذكر مدّعي اسم موسى. في مطبوع «قصص الأنبياء» (ح١٦٠) عددهم ثمانون، وهذا غير الثمانين رجلًا من آل يعقوب الذين جمعهم يوسف في صدر الخبر؛ تساوي العددين لا يجعلهما جماعة واحدة. وتقرأ صيغة «كمال الدين» خمسين مدعيًا، ويذكر «إثبات الوصية» سبعين ويورد الخمسين بصيغة «رُوي». الأعداد أخبار روايات، لا إحصاء قرآني. وإنذار يوسف بالابتلاء خبر منقول سابق للأحداث، أما القصص ٢٨:٤ فتصف الاستضعاف في القرآن عند افتتاح قصة موسى.

لاوي وقاهت وعمران — النسب غير الوصاية

يسمّي خبر «كمال الدين» الثاني عشر موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب، وتظهر في مطبوع «قصص الأنبياء» في الخبر ١٦٠ قراءة «فاهث» في الموضع المقابل. نسجل اختلاف الرسم دون أن نصنع منه رجلين أو نحسم الاسم الأصلي من نسخة واحدة. ولاوي هنا ابن يعقوب الذي تنسب إليه الرواية فرع موسى؛ وهو أيضًا والد ببرز في «إثبات الوصية». لا يثبت اشتراك السلسلتين في لاوي أن ببرز هو قاهت أو أنه بثرياء، ولا أن عمران تسلم الوصية من مادوم. والنسب إلى عمران في هذه الروايات لا يبيح مساواة أبي موسى بعمران والد مريم المذكور في آل عمران ٣:٣٥-٣٦ والتحريم ٦٦:١٢؛ اتحاد الاسم لا يثبت اتحاد الشخص. [م٤، م٥، م٦]

عمران والقابلة — أسرة تحفظ الحياة عند عتبة الفرج

في ذيل الخبر ١٣ من «كمال الدين»، بعد انتقال الرواية إلى طريق أبي بصير، يخاف بنو إسرائيل من قتل مواليدهم فيقترحون ترك معاشرة النساء، ويخالفهم عمران أبو موسى ثقة بنفاذ أمر الله. ويصفه «إثبات الوصية» بأنه عالم مؤمن تقي. هذا وصف إيماني في الخبر، ولا يتضمن وحده نصًا بتسلمه مقام الوصاية. وتذكر الرواية قابلةً وُضعت لمراقبة أم موسى، ثم رقّ قلبها لها، وكتمت الولادة وصرفت الحرس؛ وبعد ذلك تحفظ الأم والأخت والقابلة سر الطفل. القابلة شخصية نسائية غير مسماة في هذا الطريق، وليست هي أم موسى أو أخته أو امرأة فرعون. أما خبرها وتفاصيل مراقبتها فلا ترد في القرآن؛ أصل دور الأم والأخت وامرأة فرعون ثابت في القصص ٢٨:٧–١٣ وطه ٢٠:٣٧–٤٠. ينتهي دور الفصل هنا بإثبات موضع هذه الشخصيات؛ وتفصيل مسار الطفل في فصل الميلاد. [م٤، م٥، م٦]

حفظ الذاكرة إلى زمن موسى

تذكر روايات إمامية امرأة من بني إسرائيل حفظت معرفة موضع مدفن يوسف، فاستعان بها موسى عند نقل رفاته. لا يسميها القرآن ولا يذكر نقل الرفات؛ وتختلف صيغ الخبر في سبب البحث ومطالبها وموعد الإخراج. تفصيل الطرق والفروق في فصل موسى والخروج (الفصل ٢٣)، حيث يقع الحدث روائيًا.

الشيخ الدال على المرأة — حلقة صغيرة لا تُسقط

في رواية «الكافي»، الروضة، ح١٤٤، عن يزيد الكناسي عن الإمام الباقر عليه السلام، يسبق حضور المرأة شيخٌ يخبر موسى أن امرأة بعينها تعرف موضع قبر يوسف. لا يذكر الخبر اسم الشيخ، ولا يجوز دمجه بالفقيه الذي كان يحدث الناس بصفة موسى في «كمال الدين». ثم تعرض المرأة طلبها أن تكون مع موسى في درجته في الجنة. ويَرِد ذلك ضمن حديث النبي صلى الله عليه وآله عن رجل أضافه بالطائف ثم جاء يطلب العطاء، هذا المضيف وصحابة النبي من إطار رواية القصة في العصر النبوي، لا من رجال مصر القديمة. ونسبة معرفة موضع القبر إلى المرأة لا تثبت عمرًا يمتد من يوسف إلى موسى ولا نسبًا أو وصاية لها. [م٧]

الفقيه المجهول في «كمال الدين» — حفظ المعرفة زمن الشدة

يحفظ الصدوق في «كمال الدين وتمام النعمة»، باب غيبة موسى، الخبر ١٢ (ص١٤٥–١٤٧ في الطبعة المقابلة)، قصة أطول عن انتظار بني إسرائيل بعد إنذار يوسف. يذكر أن رجلًا يصفه النص بـ«الفقيه» كان يروي للجماعة خبر الفرج وصفات موسى ويواسيهم، وأنه استتر حين اشتد طلبه، ثم خرج إليهم في الصحراء استجابة لرسائلهم. وفي الخبر يتعرف على موسى وهو شاب قبل خروجه إلى

مدين، بينما لا يعرفه معظم المجتمع من قبل؛ ثم يعود خبر استتار الفقيه ومواساة القوم في فترة أخرى. هذه شخصية وسيطة ذات وظيفة تعليمية وحفظ للخبر، فلا نسقطها من سلسلة حكاية الهداية، لكن الرواية لا تسميه ولا تنص صراحة على أنه نبي أو وصي يوسف أو بثرياء. تعليق المحقق على إلهام الفقيه احتمال تفسير، وليس نصًا يثبت نبوته.

ينبغي فصل أربعة أزمنة داخل متن «كمال الدين» (باب غيبة موسى، الخبر ١٢): يذكر انتظارًا قدره أربعمائة سنة إلى ظهور علامات الموعود ولقائه أول مرة وهو شاب؛ ثم يذكر خروجه إلى مدين وإقامته عند شعيب، ويسمي فترة الغياب «غيبة ثانية» ويعطيها أكثر من خمسين سنة. ولا يفصل النص هذا العدد باعتباره مدة مستقلة بعد انتهاء الإقامة، ولا يساويه بعقد العمل ذي الثماني أو العشر حجج في القصص ٢٨:٢٧–٢٩. وفي اجتماع الفقيه بالجماعة يرد وعد بفرج بعد أربعين سنة، ثم ثلاثين، ثم عشرين، ثم عشر، حتى يؤذن لهم في سياق ثنائهم على الله؛ وهذا عدّ تنازلي في مشهد روائي واحد، لا أربع فترات متتابعة تُجمع حسابيًا. وبعد عودة موسى وتعريفه بنفسه رسولًا، يختم النص بأن بين ذلك اللقاء وغرق فرعون أربعين سنة أخرى. فاللقاء الأول لا يساوي لحظة تسلّم الرسالة في الخبر، و«الإذن بالفرج» لا يساوي غرق فرعون. هذه الأرقام ليست في القرآن، وطريق الخبر يمر بسهل بن زياد والمبارك بن فضالة؛ لذلك لا نحولها إلى تأريخ قطعي أو نساوي كل استعمال لـ«الغيبة» بالمصطلح الإمامي العقدي.

طريقان في الصدوق وخبر الراوندي — ما يتكرر وما يستقل

لا نخلط بين الخبر ١٢ عن الفقيه المجهول والخبر ١٣ في باب غيبة موسى من «كمال الدين» (ص١٤٧–١٥٠). في صدر الخبر ١٣ رواية محمد الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام عن إنذار يوسف؛ تتعدد طرق صدرها ثم تجتمع عند أحمد بن محمد بن عيسى فالبزنطي فأبان فالحلبي. ويحفظ الراوندي في «قصص الأنبياء» (ح١٦٠) هذه النواة بطريق يمر بالصدوق وأبيه وسعد بن عبد الله إلى أحمد بن محمد بن عيسى؛ فلا يكون وجود النص في الكتابين شاهدين مستقلين تمامًا. وبعدها تتبدل جهة الرواية إلى أبي بصير: في «كمال الدين» العدد خمسون، ورُوي فيه عن الإمام الباقر عليه السلام، بينما يقرأ مطبوع الراوندي ثمانين وينسبه إلى الإمام الصادق عليه السلام، وتظهر في الوسيط بين أبان وأبي بصير قراءة «أبي الحصين/أبي الحسين» بحسب النسخة. وفي «إثبات الوصية» سبعون مع الإشارة إلى خمسين. اختلاف العدد ونسبة الإمام واسم الراوي الوسيط يستدعي مقابلة الأصول، ولا نجمع هذه الألفاظ في سند واحد.

دعاء بني إسرائيل وخبر سارة — لا يُنقل بلا نقد

يروي «تفسير العياشي»، ج٢، ص١٥٤، ح٤٩، عن الفضل بن أبي قرة عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا يربط قول سارة عند البشارة بابتلاء ذريتها، ثم يذكر دعاء بني إسرائيل أربعين صباحًا وأمر موسى وهارون بتخليصهم، ونقص مائة وسبعين سنة من المدة المذكورة. يضيف هذا الخبر هارون

صراحة إلى مشهد الفرج، ويستحضر إبراهيم وسارة قبل زمن يوسف. لكن طريق العياشي إلى الراوي غير ظاهر كاملًا في النسخة المختصرة المتداولة، وفي الفضل بن أبي قرة كلام رجالي؛ فلا يصححه مجرد اشتهاره في أبواب الدعاء. [م٨]

وفي قراءة المضمون يُقدَّم محكم القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام ٦:١٦٤)، وتنتهي بشارة امرأة إبراهيم بالرحمة والبركات على أهل البيت (هود ١١:٧١-٧٣). لذلك لا ننسب إليها جريمة ثابتة، ولا نفسر اضطهاد فرعون بوصفه عقوبة مستحقة على الأطفال بسبب قول جدتهم؛ فالقرآن يصف فرعون بالإفساد. يبقى فضل الدعاء والتضرع مؤيدًا بالقرآن، ومنه يونس ١٠:٨٥-٨٩، مع التوقف في تعليل الخبر وأرقامه. ولا نجمع مائة وسبعين سنة وأربعين صباحًا مع أرقام خبر الفقيه في تقويم واحد، ولا نستخرج موعدًا محددًا لظهور الإمام المهدي من هذه الأخبار.

سلسلة أخرى في «إثبات الوصية» — ببرز وبنوه

يعرض الكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب»، ص٤٨-٥١، خطًا آخر أكثر تفصيلًا: عند اقتراب وفاة يوسف، يقول النص إنه سلّم النور والحكمة ومواريث الأنبياء والتابوت إلى ببرز بن لاوي بن يعقوب، بعد أن جمع آل يعقوب وأنذرهم بابتلاء القبط والفرج على يد موسى من نسل لاوي. ويجعل ببرز قائمًا بالأمر إلى حضور وفاته، ثم يذكر إيصاءه إلى ابنه أحرب؛ وأحرب إلى ابنه ميتاح مع تسليم المواريث؛ وميتاح إلى ابنه عاق؛ وعاق إلى ابنه خيام؛ وخيام إلى ابنه مادوم؛ ومادوم إلى شعيب، الذي يصفه الخبر بأنه من ولد نابت بن إبراهيم. يكرر النص لغة الأمر الإلهي عند بعض هذه الانتقالات ويصف أتباع ميتاح وخيام بالقلة والخوف والاستخفاء. هذه صورة الخبر نفسه وليست قائمة قرآنية مثبتة، ولا يذكر تاريخ ميلاد أي من هؤلاء، أو عمره، أو اسم زوجته أو بناته، أو موضع قبره. وعبارة الوحي في هذا المصنف لا تكفي وحدها، مع الحاجة إلى تحقيق نسبته وطرقه، للجزم بأن كل واحد منهم نبي.

يقول هذا الخبر إن المؤمنين كانوا قلة يستخفون من الجبار وينتظرون الفرج، ويذكر دعوى أناس أنهم موسى المنتظر باختلاف العدد بين خمسين وسبعين. ويجعل مادوم آخر المذكورين قبل شعيب. هذه تفاصيل خبر تاريخي روائي في كتاب يحتاج إلى تحقيق نسبة نصه وطرقه، ولا نحول أعدادَه وأزمنتَه أو أوصافَه إلى حقائق قرآنية. مضمون الوعد بالخلاص ومحنة بني إسرائيل يوافق الإطار العام في القصص ٢٨:٤-٦، أما أسماء الأوصياء فلا نثبت من تلك الآيات.

أسماء الحكام والمدد في «إثبات الوصية» — لا تتحول إلى تقويم قرآني

بعد خبر ببرز، يسمي «إثبات الوصية» (ص٥٠) حاكمًا يقرأ اسمه «فيقابوس»، ويقول إنه ملك بعد «فرعون يوسف» مائة وخمسين سنة، وبنى مدينة سماها «قيفدون». وعند الحديث عن مادوم وشعيب (ص٥١) يسمي فرعون موسى «الوليد بن ريان بن مصعب» وينسب إلى ملكه أربعمائة سنة. هذه

أسماء وأعداد داخل كتاب مطبوع يحتاج تحقيق النسبة والنص؛ القرآن يسمي صاحب الرؤيا في قصة يوسف «الملك» (يوسف ١٢:٤٣، ٥٤)، ويسمي خصم موسى «فرعون»، ولا يسمي واحداً منهما باسم شخصي ولا يحدد مدة حكمه. فلا نعتمد لفظ «فرعون يوسف» اصطلاحًا قرآنيًا، ولا نرتب على هذين العددين تاريخًا دقيقًا لحياة ببرز أو أبنائه أو شعيب. ويذكر الموضع نفسه زواج أيوب من «رحمة بنت يوسف» بحسب خبره؛ يدرس موضع هذا النسب ودرجته في فصل أيوب (الفصل ٢٠)، دون أن يُفترض به هنا تعاصر مباشر مع يوسف. ويقارن الخبر فيقابوس بسليمان بن داود في حديثه عن الشياطين؛ ذكر سليمان وداود هنا إحالة مقارنة إلى زمن آخر، لا إدخالهما في عصر ما بين يوسف وموسى. و«قيفدون» اسم مدينة في الخبر، لا شخصية إضافية.

مقارنة الروايتين: بثرياء أم ببرز؟

سلسلة الصدوق في «كمال الدين» (ج١، الباب ٢٢، ح١) و«الأمالي» (المجلس ٦٣، ح٣) تقول: يوسف ← بثرياء ← شعيب؛ أما «إثبات الوصية» فيضع ببرز بن لاوي ثم خمسة حملة مسمّين، أحرب وميتاح وعاق وخيام ومادوم، ثم شعيب. لا يكفي تشابه اللفظ الأول لتوحيد «بثرياء» و«ببرز»، ولا يجوز حذف الأسماء الخمسة الوسيطة لكي توافق الرواية الأقصر. كما لا نثبت أن كل هؤلاء أنبياء لمجرد استعمال الخبر لغة النور والحكمة أو الوصية. نبقي السلسلتين منفصلتين، ونشير إلى احتمال اختلاف النسخ أو اختصار إحدى الروايتين بوصفه احتمالًا يحتاج دليلًا، لا نتيجة مقررة.

هل يعني هذا أن شعيب عاش مباشرة بعد يوسف؟

سلسلة الصدوق تضعه بعد بثرياء وقبل موسى، ويضعه الخبر الآخر بعد مادوم؛ ولا تعطينا أي منهما جدولًا زمنيًا موثوقًا للفترة.

والقرآن لا يقدم جدولًا زمنيًا يحدد المسافة بين يوسف وشعيب أو شعيب وموسى.

ولهذا سيكون لشعيب فصل مستقل في موضعه، وسنبحث هناك مسألة صلته بالرجل الصالح في مدين الذي زوجه موسى إحدى ابنتيه.

ترتيب الفصول تعليمي وتحقيقي، ولا ندعي أن كل فصل يلي الآخر بسنة أو جيل واحد.

لماذا يأتي أيوب في الفصل التالي؟

موقع أيوب الزمني ليس مضبوطًا بجدول قرآني.

ذكره القرآن في سياق تعداد الأنبياء في الأنعام ٦:٨٤، ولم يربط قصته بتاريخ مصر أو ببثرياء؛ والآية ليست ترتيبًا زمنيًا للأنبياء المذكورين.

لذلك وضع فصل أيوب هنا لا يعني أنه حلقة الوصاية المباشرة بين يوسف وموسى.

هو ترتيب كتابي يسمح بإغلاق شخصية إبراهيمية مهمة قبل العودة إلى شعيب وموسى، مع التصريح بأن التسلسل الزمني الدقيق غير مقطوع به. والكتاب المطبوع بعنوان «إثبات الوصية» (ص٥١) يذكر أن زوجة أيوب رحمة بنت يوسف وأنه بُعث في زمن فرعون موسى؛ هاتان دعويان خبريتان تحتاجان تحقيقًا، ولا نجعلهما تاريخًا قطعيًا أو نسبًا ثابتًا. يُفحص الخبر بتفصيله في فصل أيوب.

سجل الشخصيات وحدود الاستقصاء

في أصل المرحلة: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأبناء يعقوب وأسرهم؛ تُفصّل سيرهم في الفصول السابقة. وفي روايات انتقال العهد: بثرياء/بثريا مع قراءة بريشا، وببرز بن لاوي، وأحرب، وميتاح، وعاق، وخيام، ومادوم، وشعيب؛ ويبقى كل اسم في سلسلته دون دمج. وفي نسب موسى: لاوي، وقاهت مع قراءة فاهث، وعمران، ثم موسى وهارون. لا يثبت النسب وحده مقام النبوة أو الوصاية. و«نابت بن إبراهيم» رسمٌ في خبر نسب شعيب لا يُصحَّح صامتًا إلى نسب آخر. أيوب وزوجته المسماة رحمة في بعض الأخبار يُحالان إلى الفصل ٢٠، وشعيب وأهل مدين إلى الفصل ٢١. وسليمان وداود في المقارنة الواردة في خبر فيقابوس، لا في قائمة معاصري حملة العهد.

وفي حفظ الإيمان والحياة: الفقيه أو الشيخ المعلّم غير المسمى، والمؤمنون المنتظرون والآباء الذين سمّوا أبناءهم في الأخبار، وأم موسى وأخته والقابلة وامرأة فرعون، والمرأة العارفة بموضع قبر يوسف والشيخ الذي دلّ عليها. وفي سلطة القهر: فرعون وهامان والجنود والملأ والكهنة والسحرة والحرس والقوابل المكلفات بالمراقبة؛ لا تعني وظيفة القابلة أن جميع القوابل اتخذن الموقف نفسه. ومؤمن آل فرعون شاهد قرآني في زمن الرسالة، ولا نعيّنه فقيهَ الانتظار أو شيخَ القبر بلا دليل. وفي الأخبار المختلف فيها: مدعو مقام موسى، وفيقابوس، واسم الوليد بن ريان بن مصعب المنسوب إلى فرعون موسى. أما سارة فترد في الخبر التفسيري السابق مع بيان نقده، ولا تجعل من نساء عصر الاستعباد.

لا تسمي المصادر التي قابلناها زوجات بثرياء وببرز وحملة العهد بعده أو بناتهم، ولا تقدم تواريخ ميلادهم وأعمارهم وقبورهم بما يسمح بسير مستقلة. ولا نستخرج أسماء جميع نساء بني إسرائيل من كتب الأنساب ثم ننسبها إلى أهل البيت. والنبي محمد والأئمة المذكورون في أسانيد هذه الأخبار، والمضيف بالطائف، ينتمون إلى زمن نقل القصة وتفسيرها؛ لا إلى الفاصل بين يوسف وموسى. غاية هذا السجل جمع أصحاب الأدوار في نصوص الفصل التي تمت مراجعتها، ولا يعني الإحاطة بكل مخطوط أو الحكم بصحة كل رواية.

خاتمة الفصل التاسع عشر — العهد لا يختفي في مصر

يوسف مات، لكن ذكر البينات بقي. الأجيال تغيرت. السلطة تحولت إلى اضطهاد. بنو إسرائيل صاروا مستضعفين.

وتحفظ رواية الصدوق بثرياء، ويحفظ خبر «إثبات الوصية» ببرز وأحرب وميتاح وعاق وخيام ومادوم. ويحفظ «كمال الدين» خبر فقيه غير مسمى كان يواسي الجماعة ويحفظ ذكر الفرج، كما تحفظ أخبار نقل رفات يوسف معرفة امرأة لم يسمها القرآن. لكل شخصية موضعها ودرجة خبرها؛ فلا نختزل السلسلتين في واحدة، ولا نسمي الفقيه أو المرأة نبيين أو وصيين بلا نص.

لا نعرف عن بثرياء ما يسمح بسيرة مستقلة، لكننا لا نحذفه. ثم تضع الرواية شعيباً قبل موسى. وهكذا نصل إلى المرحلة التالية من غير اختراع حلقات ولا إسقاط ما حفظه المصدر. ويأتي فصل أيوب تالياً ثم فصل شعيب بحسب ترتيب الكتاب، لا وفق تواريخ متيقنة متتابعة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: البقرة ٢:٤٩–٥٠، ١٣٢–١٣٣؛ يوسف ١٢:٩٩–١٠١؛ غافر ٤٠:٢٨–٣٥؛ القصص ٢٨:٣–١٣؛ إبراهيم ١٤:٦؛ المائدة ٥:٢٠؛ الأعراف ٧:١٢٧–١٣٧، ١٤١؛ يونس ١٠:٨٣–٨٩؛ الشعراء ٢٦:٢٢؛ الدخان ٤٤:٣٠–٣٣؛ طه ٢٠:٣٧–٤٠؛ الأنعام ٦:٨٤، ١٦٤؛ هود ١١:٧١–٧٣.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الكتاب ٢، الباب ٢٢، الحديث ١، اتصال الوصية من لدن آدم؛ والباب المعنون «في غيبة موسى»، الخبر ١٢، ص١٤٥–١٤٧، عن الفقيه المجهول وانتظار الفرج، والخبر ١٣، ص١٤٧–١٥٠، عن إنذار يوسف آل يعقوب ورواية أخرى عن مدعي مقام موسى. لا تُجمع الطرق المختلفة أو أعدادها دون تحقيق.

الشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس الثالث والستون، الحديث ٣ (ص ٤٨٧ في طبعة مؤسسة البعثة): رواية اتصال الوصية بطريق محمد بن موسى بن المتوكل ← الحميري ← أحمد بن محمد بن عيسى ← الحسن بن محبوب ← مقاتل بن سليمان ← الإمام الصادق عليه السلام؛ ويحتاج الطريق إلى نقد سندي.

لا نعتمد إحالة عامة إلى «علل الشرائع» لإثبات هذه السلسلة دون تعيين الخبر؛ المواضع المحددة للمقابلة هنا هي «كمال الدين» و«الأمالي» و«الفقيه» و«الإمامة والتبصرة» و«بشارة المصطفى».

الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، باب الوصية من لدن آدم، للمقارنة بين ألفاظ سلسلة الوصاية؛ وج١، ص١٩٢–١٩٣، ح٥٩٤، خبر موضع يوسف والمرأة وطلوع القمر. يحتاج كل طريق إلى فحصه بحسب موضعه.

علي بن الحسين بن بابويه القمي، الإمامة والتبصرة من الحيرة، باب الوصية من لدن آدم، ح١، ص٢٠–٢٣، قراءة «بثريا» بطريق يمر بالحسن بن محبوب ومقاتل؛ والكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، ح١، ص٢٣١ (طبعة الغفاري)، خبر العصا؛ وقارن الإمامة والتبصرة، ص١١٦، ح١٠٨، والكتاب المطبوع بعنوان الاختصاص والمنسوب إلى الشيخ المفيد، ص٢٦٩ في بعض الطبعات، مع فحص نسبة الكتاب واستقلال الطريق.

الكليني، الكافي، الروضة، ج٨، ص١٥٥، ح١٤٤ (طبعة علي أكبر الغفاري): خبر المرأة العارفة بقبر يوسف وطلبها مرافقة موسى في درجته بالجنة، في سياق الخروج من مصر.

الراوندي، قصص الأنبياء، ص١٣٥-١٣٦، الخبران ١٣٨ و١٣٩: انتقال الحجة بعد يعقوب، وخبر المرأة التي حفظت موضع قبر يوسف؛ وص١٤٨-١٤٩، الخبر ١٦٠: إنذار يوسف آل يعقوب قبل وفاته وبشارة موسى. هذه روايات إمامية، وتحتاج طرقها واختلاف ألفاظها إلى فحص مستقل.

الطبري الإمامي، بشارة المصطفى، ص١٣٦-١٣٧، الخبر ٨٧: نقل سلسلة الوصية بطريق يمر بمقاتل بن سليمان، مع فروق أسماء في الحواشي؛ لا يُعد هذا الطريق شاهدًا مستقلًا إذا رجع إلى إسناد الصدوق نفسه.

الكتاب المطبوع بعنوان إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، ص٤٨-٥١، أخبار ببرز بن لاوي ثم أحرب وميتاح وعاق وخيام ومادوم وشعيب، وخبر زمن أيوب ونسب زوجته؛ مادة تاريخية روائية تحتاج إلى فحص نسبة الكتاب وأسانيده، وتُعرض منفصلة عن سلسلة الصدوق.

بحار الأنوار، أبواب الوصايا وقصص الأنبياء، جامعًا للمادة.

إحالات النصوص المقابلة

تختلف الصفحات باختلاف الطبعات؛ الروابط تعيّن النصوص المقابلة ولا تعني تصحيح أسانيدها.

[م١] كمال الدين، ج١، باب٢٢، ح١، ص٢١١-٢١٣.

[م٢] الأمالي، المجلس٦٣، ح٣.

[م٣] الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة، ح١، ٨.

[م٤] كمال الدين، ج١، باب٦، ح١٢-١٣، ص١٤٥-١٥٢.

[م٥] قصص الأنبياء، ح١٦٠، ص١٤٨-١٤٩.

[م٦] إثبات الوصية، ص٥٠-٥١.

[م٧] الكافي، الروضة، ح١٤٤، ص١٥٥.

[م٨] تفسير العياشي، ج٢، ص١٥٤، ح٤٩.

[م٩] الإمامة والتبصرة، باب الوصية، ح١.

[م١٠] بشارة المصطفى، ص١٣٦-١٣٧، ح٨٧-٨٨.

[م١١] قصص الأنبياء، ح١٣٨-١٣٩، ص١٣٥-١٣٦.

[م١٢] القرآن، غافر٣٤:٤٠.

[م١٣] القرآن، القصص٤:٢٨-١٣.

[م١٤] القرآن، يونس٨٣:١٠-٨٩.

الفصل ٢٠ — أيوب عليه السلام — الصبر والرحمة بعد البلاء

أيوب في حكاية الهداية — نبي لا يعرّفه القرآن بمرضه وحده

أصبح اسم أيوب مرادفًا للصبر في الذاكرة الإسلامية، لكن القرآن لا يقدمه مجرد مريض تحمل الألم. يضعه أولًا ضمن سلسلة الأنبياء المهديين، ثم يروي دعاءه، ويصفه في سورة ص: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. إذن محور القصة: العبودية، والأوبة، والصبر، والدعاء، ثم الرحمة والفرج.

أيوب في القرآن — جميع المواضع الأساسية

النساء ٤:١٦٣ تذكر أيوب في سياق الوحي إلى الأنبياء. والأنعام ٦:٨٤–٨٩ تذكره بين من هداهم الله، في سياق إيتاء الأنبياء الكتاب والحكم والنبوة. ورد اسم أيوب صراحة أربع مرات: النساء ٤:١٦٣، والأنعام ٦:٨٤، والأنبياء ٢١:٨٣، وص ٣٨:٤١؛ وتمتد قصته في الموضعين الأخيرين إلى الآيات التالية.

الأنبياء ٢١:٨٣–٨٤: دعاؤه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، الاستجابة، كشف الضر، رد الأهل ومثلهم معهم، رحمة وذكرى للعابدين.

ص ٣٨:٤١–٤٤: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، الأمر بالركض بالرجل، المغتسل البارد والشراب، رد الأهل ومثلهم، الرحمة، وأمره أن يأخذ ضغثًا فلا يحنث، ثم الثناء على صبره وعبوديته وأوبته.

هذه هي الحدود القرآنية المباشرة. لا يذكر القرآن اسم زوجته، ولا نوع المرض الطبي، ولا عدد سنواته، ولا الدود أو الروائح أو المزبلة.

الوحي إلى أيوب — آية لا يجوز إسقاطها

تذكر النساء ٤:١٦٣ أيوب باسمه ضمن من أوحى الله إليهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾. هذا نص مستقل عن آيات البلاء، يثبت موضعه في سلسلة الوحي والنبوة. لا يسمي القرآن كتابًا نزل عليه أو شريعة خاصة به، ولا يحدد زمن بعثته من ترتيب الأسماء في الآية؛ فالسرد هنا يجمع أنبياء من أزمنة مختلفة ولا يقدم جدولًا تاريخيًا.

موقع أيوب في النسب والتاريخ

تذكر الأنعام أيوب في سياق أنبياء مهديين، وتقول: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ بعد ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح. وقد اختلف التفسير في مرجع الضمير بين نوح وإبراهيم؛ فلا تُجعل العبارة وحدها شجرة نسب مفصلة لأيوب. لكن القرآن لا يعطي شجرة نسبه أو تاريخ مولده أو موطنه. وتختلف كتب الأنساب في

نسبه كثيرًا. لهذا لا نبني مكانه الزمني على سلسلة تاريخية واحدة، ولا نجعله حامل الوصاية بين يوسف وموسى بلا دليل.

النص القرآني للقصة — الدعاء والاستجابة وخاتمة الثناء

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء ٨٣:٢١-٨٤).

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص ٣٨:٤١-٤٤).

يتكامل موضعا القصة: في الأنبياء «ذكرى للعابدين»، وفي ص «ذكرى لأولي الألباب». فلا ينحصر المغزى في احتمال الألم؛ يشمل العبادة والتفكر والرحمة بالأهل وحفظ العهد. ولا تدل مجاورة أسماء الأنبياء في النساء أو الأنعام على تتابع زمني أو وصاية مباشرة بينهم.

﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ — أدب الدعاء

أيوب لم يقل في دعائه: لماذا فعلت بي؟ ولم يضع قائمة استحقاقات. قال فقط: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. إنه يعرض حاله على الله، ويضع بجوار الألم صفة الرحمة. ولهذا كان الجواب: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾. الصبر هنا لا يعني الصمت عن الدعاء؛ الدعاء نفسه جزء من الصبر.

﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ — ماذا تعني؟

سورة ص تنسب إلى أيوب قوله إن الشيطان مسه بنصب وعذاب. لا يلزم من ذلك أن الشيطان امتلك روحه أو عقيدته أو إرادته. ينفي القرآن سلطان الشيطان على عباد الله في سياق الإغواء، وعلى الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (الحجر ١٥:٤٢؛ النحل ١٦:٩٩). فلا يلزم من ذكر المسّ إثبات تسلطه على إيمان أيوب؛ كما لا يصح محو لفظ الآية أو الجزم بكيفية البلاء من غير دليل. الروايات والتفاسير اختلفت في كيفية تعلق الشيطان بالبلاء. والأدق أن نثبت اللفظ القرآني ولا نبني عليه قصة تفصيلية بلا سند.

روايات الدود والنتن — لماذا لا نعتمدها؟

دخلت إلى بعض كتب القصص أخبار تصف جسد أيوب بالقروح والدود والنتن حتى نفرت منه الدواب والناس. لكن رواية مهمة عن الإمام الباقر عليه السلام، نقلها الصدوق، تنفي ذلك بوضوح: ابتلي أيوب بلا ذنب، ولم تنتن له رائحة، ولا قبحت صورته، ولا خرج منه دم أو قيح، ولا استقذره من رآه، ولا دوّد شيء من جسده. وهذا النص شاهد روائي صريح في نفي الأوصاف المنفرة عن

النبي، ولذلك تجب مقابلته بالأخبار المخالفة قبل اعتماد تفاصيلها. ويحفظ التفسير المطبوع باسم القمي خبرًا مخالفًا يذكر الدود والنتن؛ نعرض التعارض وطريقي الخبرين، ونمتنع عن الجزم بالتفصيل المنفرد. مجرد التعارض لا يثبت منشأ الخبر أو أنه من الإسرائيليات؛ ويحتاج الحكم على الطريق ونسبة النص إلى تحقيق مستقل.

البلاء بلا ذنب

تؤكد الرواية نفسها أن أيوب ابتلي من غير ذنب، وأن الأنبياء معصومون مطهرون. هذه نقطة عقدية مهمة. الابتلاء ليس دائمًا عقوبة. قد يكون رفعًا للدرجة، وكشفًا للصبر، وتعليمًا للناس ألا يحتقروا فقيرًا أو مبتلى. وهذا ينسجم مع خاتمة القرآن: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ — الفرج لا يلغي الأخذ بالسبب

أمره الله أن يضرب الأرض برجله: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. الشفاء من الله، ومع ذلك يأتي عبر فعل وماء وغسل وشرب. حكاية الهداية لا تجعل التوكل خصمًا للأسباب.

تفسير رد الأولاد في الكافي

تثبت الآية رد الأهل ومثلهم معهم، واختلف التفسير بين إحياء من مات، وجمع من بقي والتعويض، أو الزيادة في الأسرة؛ لا نفصل ما أجملته الآية بغير نسبة. في «روضة الكافي»، الخبر ٣٥٤، يروي أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام تفسير ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: سأل عن الأولاد، فأجابه بأن الله أحيا له من ولده الذين ماتوا قبل ذلك بآجالهم مثل الذين هلكوا يومئذ. فهذا نص إمامي في تفسير الإحياء، وليس مجرد احتمال حديث نضيفه إلى الآية. ومع ذلك لا يسمي الأبناء أو البنات، ولا يحدد عددهم؛ وتبقى دلالة الآية المجملة متميزة من هذا التفصيل الروائي. موضع الآية هنا الأنبياء ٢١:٨٤ بلفظ «وآتيناه»، لا لفظ «ووهبنا» الوارد في ص ٣٨:٤٣.

تحقيق الروايات المتعارضة — طريق الصدوق وطريق التفسير المطبوع

في «الخصال» للصدوق، أبواب السبعة، الخبر ١٠٧، يروي أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أن أيوب ابتلي سبع سنين بلا ذنب. والخبر ١٠٨ طريق آخر عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام ينفي نتن الرائحة وقبح الصورة وخروج القيح وتدوّد الجسد، ويعلل اجتناب بعض الناس له بالفقر والضعف الظاهرين. لا ينبغي جمع الخبرين في إسناد واحد: ذكر السنوات في الأول، والتفصيل في صيانة هيئته في الثاني. كما لا تكفي الموافقة العقدية وحدها للحكم بصحة جميع رجال الطريق الثاني؛ تبقى دراسة الإسناد مستقلة عن قراءة المتن.

وفي «علل الشرائع» للصدوق، ج١، باب ٦٥، الأخبار ١–٥، روايات متعددة عن سبب الابتلاء، وشكر أيوب، وعتاب أصحابه له، وعبادته وإطعامه اليتيم. بعضها يمر بأبي بصير عن الإمام الصادق،

وبعضها عن الإمام الكاظم عليهما السلام، ولا نتعامل مع تكرار القصة على أنه اتفاق حرفي أو استقلال كل طريق. أما التفسير المطبوع باسم القمي عند ص ٣٨:٤١-٤٤ فيحكي خبرًا أطول عن المال والولد والزرع والغنم وقيام الزوجة على قوته، ثم يذكر الدود والنتن والمزبلة. هذه الزيادات تتعارض صراحة مع متن «الخصال» في وصف الجسد. فلا نصفها جميعًا بالإسرائيليات على وجه الجزم بمجرد التعارض، بل نبيّن موضع الخلاف، ونتوقف عن تبني الأوصاف المنفرة، ولا ننسب التفاصيل إلى القرآن.

العقل والتوحيد في رواية الكافي

في «الكافي»، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، ح٢٢ في ترتيب النص المتاح، يُروى عن الإمام الصادق عليه السلام أن البلاء مس مال أيوب وولده وأهله، ولم يمس عقله الذي بقي له ليوحّد الله به. ويأتي معنى قريب في ج٣، كتاب الجنائز، باب علل الموت، ح١٠ بحسب ترتيب آخر. كلا الطريقين المطبوعين يمران بمحمد بن سنان وعثمان النواء ثم «عمن ذكره»؛ فهذا إبهام في الواسطة، ولا يصير الخبر صحيحًا لمجرد وروده في موضعين من الكافي. نأخذ منه تصويرًا روائيًا لحفظ إيمان أيوب ووعيه وسط الخسارة، مع جعل الثابت القرآني أصلًا: دعاؤه، وصبره، وثناء الله عليه.

رواية أخرى عن البدن والدين — لا تُخفى مخالفة اللفظ

في روضة الكافي، ح٤٣٣، عن أبي بصير عن الإمام الصادق، يميز الخبر بين التأثير في بدن المؤمن والتسلط على دينه، ويذكر أيوب بلفظ «فشوّه خلقه». حكم المجلسي المعروض على الطريق «ضعيف». هذا اللفظ يحتاج مقابلة رواية الخصال النافية لقبح صورته؛ فلا نحصر الأخبار المخالفة في تفسير القمي وحده، ولا نسوي التشوه بالدود والنتن، ولا نستخرج منه أن الشيطان يملك إيمان النبي. نقل كنز الدقائق، ج٨، ص٤٥٥، هذا الخبر، وأشارت حاشيته إلى اختلاف في رجال الطريق عن نص الكافي.

زوجة أيوب — رعاية المبتلى واختلاف الاسم والنسب

لا يسمي القرآن من تعلقت به يمين أيوب في ص ٣٨:٤٤، ولا يذكر اسم الزوجة أو أباها. يرد في النص الإلكتروني المقابل للتفسير المطبوع باسم القمي «رحيمة بنت يوسف بن يعقوب»، وترد صيغة «رحمة» في نقول أخرى، ويرد أيضًا في «إثبات الوصية» المطبوع (ص٥١ بحسب الطبعة التي استعملناها في الفصل ١٩) هذا النسب في خبر يضع أيوب في زمن فرعون موسى. هذه صياغات روائية، لا دليل قرآني على الأبوة المباشرة ليوسف أو على ضبط المسافة الزمنية بين الرجلين. وفي خبر التفسير تقوم الزوجة بطلب الطعام، ويذكر قص شعرها للحصول عليه، ثم عودتها ومعرفتها أيوب بعد الشفاء، وتربط الرواية يمينه بما رأى من شعرها. يُعرض دورها في الخدمة والثبات على أنه مضمون هذا الخبر، لا سيرة مقطوعٍ بها في كل جزئية. لا يجوز أن يتحول الأمر القرآني بالضغث إلى تبرير لأذى الزوجة؛ النص يذكر مخرجًا خاصًا من اليمين، وتفسير سبب اليمين مختلف الرتبة عن الآية.

الراوندي: شكر أيوب حين زالت النعم

في «قصص الأنبياء» للراوندي، باب أيوب وشعيب، الخبر ١٤٨ (ص١٣٩-١٤٠ في الطبعة المقابلة)، طريقه من سعد بن عبد الله عن يعقوب بن يزيد والحسن بن علي وداود بن سرحان إلى الإمام الصادق عليه السلام. يحكي الخبر أن أيوب ازداد شكرًا عند النعمة، ثم فقد إبله ورقيقه وخيله وبقره وغنمه ومزارعه وأرضه، ثم أهله وولده، وهو يحمد الله عند ما يفقده. يَرِد وصف الخسارة وترتيبها في الرواية، لا في الآيات؛ والقرآن يثبت البلاء واستجابة الله وردّ الأهل من غير هذا الجرد المفصل. لا يستقيم تحويل كل ما في الخبر إلى وقائع قرآنية، كما لا يجوز إغفال صورة الشكر التي تعطيها الرواية لحياة أيوب قبل المرض. ويذكر الخبر غلامًا واحدًا بقي لجاء يخبر أيوب بما وقع؛ فهو شخصية رجالية غير مسماة لا ينبغي إسقاطها، ولا يُختلق له اسم.

الأصحاب والشاب الذي أنصفه — اختلاف الخبر عن أصل الدعاء

يذكر الراوندي في الخبر ١٤٩، بطريق يمر بمحمد بن أبي عمير وهشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام، أن جماعة من أصحاب أيوب كانوا رهبانًا في الجبال، وأن إبليس حملهم على زيارته، فجاؤوا يسألونه عن ذنب يظنون أنه استوجب البلاء. ويروي أن شابًا فيهم اعترض على تعيير النبي، وأن أيوب ذكر إطعامه يتيمًا أو ضعيفًا، واختياره أشق الطاعتين على بدنه، ثم دعا. وفي آخر الخبر سئل بعد العافية عما كان أشد عليه فقال: شماتة الأعداء. هذه أسماء أدوار لا أسماء أشخاص؛ لا نعين للشاب نسبًا أو رتبة لم يسمها النص. ويورد «علل الشرائع» للصدوق، ج١، باب ٦٥، صورة قريبة من عتاب الأصحاب وإطعام اليتيم مع اختلاف الطريق والتفصيل. قول الراوندي في الخبر ١٤٧ إن أيوب «ما سأل العافية في شيء من بلائه» لا يؤخذ على إطلاق ينفي دعاءه الذي سجله القرآن؛ يمكن فهمه في مرحلة سابقة للدعاء أو حمله على عدم طلب العافية بصيغة مباشرة، لكن هذا تفسير محتمل لا نص قاطع.

ردّ من مات في رواية الراوندي، وحدود الآية

عقب خبر زوال النعم، يفسر الخبر ١٤٨ من «قصص الأنبياء» قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ (ص ٣٨:٤٣) بأن المقصود «الذين كانوا ماتوا». هذه إجابة روائية محددة عن كيفية الرد، ويجوز عرضها منسوبةً إلى الخبر؛ لكنها ليست تصريحًا في لفظ القرآن باسم كل ولد أو بنته أو بعددهم. ويحكي الخبر ١٥٠، عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق، مطرًا من ذهب وجواب أيوب لجبرئيل في فضل الله؛ لا يذكر القرآن ذهبًا في قصة شفائه. وبذلك تنفصل ثلاثة مستويات: الرد في الآية، وتفسير إحياء من مات في الرواية، وخبر الذهب في رواية أخرى.

إليّا أم رحمة؟ خبر وهب في الراوندي واختلاف العمر

ينقل الراوندي في الخبرين ١٥١-١٥٢ عن وهب بن منبه صورة أخرى: يجعل أيوب في زمن يعقوب، ويسمي امرأته «إليّا» ابنة يعقوب وأخت يوسف، ويزعم أن أم أيوب ابنة لوط وأن أباه ممن آمن بإبراهيم، ويصف زوجته ملازمةً له في البلاء ومجيبةً لوسوسة إبليس. وهذه الأنساب لا يثبتها القرآن. ويذكر خبر وهب أن أيوب أقسم أن يضربها، ثم جعل الضغث مخرجًا من اليمين، وأن عمره كان ثلاثًا وسبعين سنة قبل البلاء وزيد له مثلها. تقابل هذه الصورة رواية التفسير المطبوع باسم القمي و«إثبات الوصية» التي تسمي الزوجة رحيمة أو رحمة بنت يوسف بحسب النص، وتقابل دعوى ثلاث وتسعين سنة في خبر وهب المنقول في «المستدرك». لا نحول «إليّا» و«رحمة» إلى امرأة واحدة بتخمين، ولا نجزم بأن أيوب عاصر يعقوب أو فرعون موسى، ولا نخرج متوسطًا حسابيًا لأعمار متعارضة. وفي هذا الموضع أصل الأخبار عن وهب وابن عباس كما يصرح النص، وليس رواية إمامية عن إمام؛ نستعملها للمقارنة وبيان الخلاف، لا لإثبات نسب الزوجة أو زمن الولادة والوفاة.

صبر أيوب في كلمة الإمام زين العابدين عليه السلام

يروي الشيخ الصدوق في «عيون أخبار الرضا»، باب الأخبار المجموعة عن الإمام الرضا، الخبر ١٦٤، بإسناده عن الإمام الرضا عن آبائه عن الإمام علي بن الحسين عليهم السلام: «أخذ الناس ثلاثة من ثلاثة: أخذوا الصبر عن أيوب، والشكر عن نوح، والحسد من بني يعقوب». هذا شاهد إمامي على حضور أيوب مثالًا للصبر في التعليم الأخلاقي، لا خبر عن عدد أولاده أو تفاصيل مرضه أو تاريخ حياته. وورود «بهذا الإسناد» يوجب ردّه إلى الأسانيد السابقة في الباب عند الحكم الرجالي؛ لا نمنحه درجة صحة مستقلة من العبارة المختصرة وحدها.

خبر آخر في النسب لا يثبت به تاريخ أيوب

ويضم «قصص الأنبياء» للراوندي، الخبر ١٥٩ في فصل يجمع شعيبًا وأيوب، خبرًا عن وهب بن منبّه يربط أيوب برهط آمنوا لإبراهيم وهاجروا معه إلى الشام، ويذكر مصاهرة بنات لوط. هذا غير خبر الراوندي ١٥١ الذي يجعل أم أيوب ابنة لوط وزوجته ابنة يعقوب. كلاهما نقل تاريخي عن وهب لا تصريح قرآني ولا رواية عن إمام تثبت قرابة أو جيلًا محددًا؛ واحتمال التعارض في ترتيب القرابة سبب إضافي لعدم بناء شجرة نسب يقينية منهما. تُبحث تفصيلات شعيب الواردة في بقية الخبر ١٥٩ في فصله، تجنبًا للتكرار. ويسمي الخبر نفسه شعيبًا وأيوب وبلعم ضمن تلك الذرية؛ هذا ذكر نسبي في خبر وهب، لا إثبات لاجتماع الثلاثة في مجلس أو عصر واحد.

اسم أيوب ومعنى الأوبة في خبر الصدوق

في «معاني الأخبار» للصدوق، باب معاني أسماء الأنبياء والمرسلين، الخبر ١، يشرح النص اسم «أيوب» من «آب يؤوب»؛ أي الرجوع إلى العافية والنعمة والأهل والمال والولد بعد البلاء. وهذا تفسير روائي للاسم ودلالته في القصة، لا اشتقاق لغوي مقطوع به لكل اللغات ولا خبرًا عن يوم تسميته عند الولادة. صدر الخبر جامع عن مشايخ الصدوق بأسانيد يقول إنه ذكرها متفرقة في «علل الشرائع»، فلا نحكم على فقرة أيوب بسند مفرد لم يُعيَّن في هذا الموضع. يلتقي المعنى المروي مع وصف القرآن له بـ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص ٣٨:٤٤)، من غير ادعاء أن الآية تشرح أصل الاسم صراحة.

مريم ويوسف وأيوب — قدوة في خبر يوم القيامة

يروي الكليني في «الروضة»، الخبر ٢٩١، عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا يضم امرأة حسناء ورجلًا حسنًا وصاحب بلاء، وكلهم غير مسمين. يقابل الخبر المرأة بمريم، والرجل بيوسف، والمبتلى بأيوب؛ فالجمال أو شدة المحنة ليسا بذاتهما عذرًا للاستسلام للفتنة. يجب إدراج مريم عليها السلام هنا بوصفها شخصية نسائية صريحة في الرواية، مع يوسف وأيوب، دون جعلهم أسرة واحدة أو أشخاصًا التقوا في زمن أيوب. وسياق الخبر أخروي وعظي، لا تشخيص لأحوال كل مريض أو اتهام له بقلة الإيمان.

بعد العافية — خبر الزرع وبني إسرائيل

في «الكافي»، ج٦، كتاب الأطعمة، باب الحمص، ح٣، يروي رفاعة عن الإمام الصادق عليه السلام أن أيوب، بعد عافيته، رأى زرعٍ بني إسرائيل ولم يكن قد زرع، فدعا ربه، وأُمر أن يبذر كفًا مما عنده، فنبت ما يسميه الخبر عدسًا ويسميه المخاطبون حمصًا. يظهر بنو إسرائيل هنا جماعة غير مسماة الأفراد، وتضيف الرواية مشهدًا للحياة والعمل بعد المرض، لا مجرد نهاية عند الشفاء.

تقرأ النسخة الإلكترونية المقابلة «سبحتك»، وترد «سبختك» بالخاء في نقل «وسائل الشيعة»، الخبر ٣١٤٠٤. يجب إبقاء اختلاف اللفظ ظاهرًا؛ فلا يُقطع بأن المراد حبات مسبحة، ولا يُستخرج من الخبر تفسير نباتي أو وصفة علاجية. وهو تفصيل روائي لا نص قرآني في أصل هذا النبات.

الضغث في رواية فقهية — شخصيات من زمن النبي محمد

يروي الصدوق في «من لا يحضره الفقيه»، ج٤، ص٢٨، ح٥٠٠٧، بطريق الحسن بن محبوب عن حنان بن سدير، سؤال عباد المكي للإمام الصادق عليه السلام بتوجيه من سفيان الثوري. وفي الجواب خبر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله ورجل وامرأة شديدي المرض أقيم عليهما الحد بضغث فيه مائة شمراخ، مع الاستشهاد بآية أيوب. هذه الشخصيات تتصل بتاريخ الاستدلال بالآية، لا بحياة أيوب؛ والرجل والمرأة غير مسميين.

العدد مائة، وتعيين الشخص المقصود بيمين أيوب، وسبب اليمين، ليست ألفاظًا مذكورة في ص ٣٨:٤٤ نفسها. كما أن نقل هذه الواقعة لا يغني عن البحث الفقهي في شروطها وحدود تطبيقها، ولا يجعلها إذنًا لأفراد الناس بإيقاع العقوبات.

التوفيق إلى الطاعة — اختلاف ألفاظ العتاب

في «أمالي الطوسي»، ص٦٦٢، الخبر ١٣٨٠/٢٤، عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام، يرد حوار يذكّر أيوب بأن الله هو الذي وفّقه للطاعة. ويقابله «الزهد» للحسين بن سعيد، ح١٨٣، بطريق الحسن بن علي الوشاء عن أبي الحسن، و«علل الشرائع»، الباب ٦٥، ح٥، عن أبي بصير عن أبي الحسن الماضي، أي الإمام الكاظم عليه السلام. تتقارب الأخبار في معنى الافتقار إلى الله، وتختلف في سياق الشكوى والتعبير عن التواضع؛ ففي بعض النصوص وضع التراب على الرأس، وفي أخرى في الفم. لا نمزجها في واقعة واحدة متطابقة.

وذكر السحابة أو النداء في بعض الطرق لا يعني حلول الله في سحابة أو إثبات جسم له. هذه أوصاف في الخبر لوسيلة الخطاب؛ والآيات لا تروي هذه المحاورة التفصيلية. كذلك لا نحول تذكير العبد بفضل التوفيق إلى إثبات أن أصل البلاء كان عقوبة على ذنب.

أخبار لا تُعتمد لإدانة أيوب أو ضبط زمنه

في «أمالي الصدوق»، ضمن حديث علقمة عن الإمام الصادق عليه السلام في ألسنة الناس واتهامهم الأنبياء، يأتي إنكار نسبة بلاء أيوب إلى ذنوبه. وفي المقابل يورد الراوندي في «الدعوات»، ص١٢٣، ح٣٠٤، قولًا منسوبًا إلى النبي بلا إسناد متصل في موضعه، يجعل البلاء بسبب مداهنة فرعون في كلمتين. لا يُعتمد هذا المرسل لإثبات ذنب على أيوب، ولا لتعيين فرعون بأنه فرعون موسى أو لتثبيت معاصرته له. ذكر الخبر وبيان إرساله أدق من إخفائه أو تقديمه كحقيقة ثابتة.

وثمة خبر أورده البحراني في «مدينة المعاجز»، ج٢، ص٣١–٣٢، ح٣٧٢، نقلًا عن شرف الدين النجفي، وتحيل حاشيته إلى «تأويل الآيات»، ج٢، ص٥٠٤، ح٤. ينسب الخبر إلى أيوب شكًا في مقام أمير المؤمنين؛ لكن الطريق المعروض فيه رفع من الفضل بن شاذان إلى جابر الجعفي، ثم راوٍ مبهم بلفظ «رجل من أصحاب أمير المؤمنين». لذلك لا نثبته واقعة في سيرة أيوب، ولا نجعله تفسيرًا معتمدًا لبلائه. وفي إطار الرواية حوار علي وسلمان، ودخول الحسن والحسين، والإشارة إلى أمهما فاطمة بوصفها خيرة النساء؛ هؤلاء شخصيات سياق النقل، لا معاصرون لأيوب. الإحالة هنا إلى النص الذي أمكن مقابلته في «مدينة المعاجز»، لا دعوى مقابلة نسخة مستقلة من أصل «تأويل الآيات».

ويذكر «الخصال»، أبواب السبعة، خبر أيام الأربعاء المرقم ٧٩، ذهاب مال أيوب وولده في الأربعاء. هذا تعيين روائي ليوم أسبوع، لا تاريخ سنة أو مدة مرض، ولا برهان على شؤم كل أربعاء. لا نبني منه تقويمًا لحياة أيوب، ولا نضيف إليه يوم مولد أو وفاة لم يرد فيه.

أيوب في خبر سنن القائم — الفرج بعد البلوى

في «كمال الدين وتمام النعمة» للصدوق، الباب ٣١، ح٣، ص٣٢١-٣٢٢، يروي سعيد بن جبير عن الإمام زين العابدين عليه السلام أن في القائم سننًا من الأنبياء، ومنها عن أيوب «الفرج بعد البلوى». يرد معه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وتذكر بعض نسخ الخبر آدم كذلك، كما تنبه حاشية النص إلى اختلاف النسخ. فهذا موضع حضور أيوب في روايات الإمام المهدي، لا خبر عن لقاء تاريخي بينهما، ولا تحديد لموعد الفرج أو مدته.

زوجته تدعوه إلى سؤال العافية — خبر السبعين عامًا

يروي الراوندي في «الدعوات»، ص١٦٥، ح٤٥٦، عن ابن عباس أن زوجة أيوب قالت له: لو دعوت الله أن يشفيك؟ فأجاب بأنهما كانا في النعماء سبعين عامًا، واقترح الصبر، ثم يذكر الخبر أنه عوفي بعد ذلك بيسير. السبعون هنا مدة النعماء، لا مدة المرض. والخبر في هذا الموضع منسوب إلى ابن عباس، لا إلى أحد الأئمة، وليس فيه إسناد متصل ظاهر؛ فلا نجعله تاريخًا ثابتًا ولا حكمًا يمنع طلب الشفاء. ودعاء أيوب في القرآن شاهد على اجتماع الصبر وسؤال الرحمة.

زوجة أيوب في خبر الحولاء — الخدمة واختلاف مدة البلاء

تذكر «قصة الحولاء»، المنشورة في «ميراث حديث شيعه»، ج١٨، ص١٦، أن زوجة أيوب خدمته ثماني عشرة سنة، وحملته، وعملت في الطحن والغسل لتأتيه بالطعام. ونقل النوري الخبر الطويل في «مستدرك الوسائل»، ج١٤، ح١٦٦٠٤، عن مجموعة عتيقة بخط بعض العلماء، ورجّح بالقرائن أخذها من كتاب الخطب للجلودي؛ وفي الطريق المطبوع راوٍ مبهم. فلا يسوغ تصحيح الخبر لمجرد وروده في المستدرك، ولا الجزم بثماني عشرة سنة أو جمعها مع السبع بتقسيمات مخترعة. وفي إطار القصة الحولاء العطّارة، وزوجها غير المسمى، والنبي محمد صلى الله عليه وآله، وأم سلمة وجاريتها غير المسماة. هؤلاء شخصيات إطار الاستشهاد اللاحق، لا أهل عصر أيوب. ويُحفظ رسم «الحولاء» في هذا المصدر، ولا تُساوى تلقائيًا بكل صحابية اسمها خولة.

أيوب وآسية في رواية أخلاقية

يورد الحسن الطبرسي في «مكارم الأخلاق»، ص٢١٣-٢١٤، قولًا منسوبًا إلى النبي صلى الله عليه وآله يشبّه أجر صبر الرجل على سوء خلق زوجته بأجر أيوب على بلائه، وأجر صبر المرأة على سوء خلق زوجها بثواب آسية بنت مزاحم. لا يساق للقول إسناد في هذا الموضع؛ والإسناد التالي له في الكتاب

يخص خبرًا آخر. والتشبيه لا يقول إن زوجة أيوب كانت سيئة الخلق، ولا يجعل آسية من أسرته أو عصره. يذكر هنا بوصفه استعمالًا أخلاقيًا لاحقًا للقصة، ولا يتحول إلى إقرار بالظلم بين الزوجين.

دعاء منسوب إلى أيوب في مهج الدعوات

أورد ابن طاووس في «مهج الدعوات»، ضمن الأدعية المتفرقة، نصًا بعنوان «دعاء أيوب عليه السلام». وقوبل النص العربي في الطبعة المصحوبة بترجمة قيومي، ص٥٥٥: «اللهم إني أعوذ بك اليوم فأعذني، وأستجير بك اليوم من جهد البلاء فأجرني، وأستغيث بك اليوم فأغثني، وأستصرخك اليوم على عدوك وعدوي فأصرخني، وأستنصرك اليوم فانصرني، وأستعين بك اليوم على أمري فأعني، وأتوكل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني، وآمن بك فآمني، وأسألك فأعطني، وأسترزقك فارزقني، وأستغفرك فاغفر لي، وأدعوك فاذكرني، وأسترحمك فارحمني». جملة الاستصراخ موضوعة بين قوسين في النص المقابل. لا يظهر إسناد مستقل في هذا المدخل؛ لذا ننسب الدعاء إلى الكتاب ولا نجزم بأن هذه ألفاظ أيوب التاريخية، ولا نثبت له عدد تكرار أو أثرًا علاجيًا مخصوصًا بلا دليل.

ذكر أيوب في دعاء ليلة عرفة

وفي «إقبال الأعمال» لابن طاووس، ج٢، فصل فضل ليلة عرفة، ص٤٩–٥١، دعاء يذكّر باستجابة الله لأنبيائه وأوليائه، ومنه: «وباسمك الذي دعاك به أيوب إذ حل به البلاء، فعافيته وآتيته أهله ومثلهم معهم». فهذا دعاء يستحضر قصة أيوب، بخلاف نص «مهج الدعوات» المنسوب إليه نفسه. ويقترن ذكره هنا بآسية ويعقوب ويوسف وسليمان، وفي السياق الخضر وموسى وفرعون وعيسى ومريم وذو النون وداود والنبي محمد وجبرئيل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش. الاقتران تعبدي، لا نسب ولا لقاء ولا تعاصر، وورود النص في كتاب دعاء لا يغني عن فحص طريق نقله.

الفقه المنسوب إلى الرضا — صيغة أخرى للعتاب

ينقل المجلسي في «بحار الأنوار»، ج١٢، ص٣٥٣، ح٢٤، عن الكتاب المنسوب إلى الإمام الرضا خبرًا يبدأ بـ«روي أن أيوب»، وفيه الجثو على الرماد، والنداء من غمامة بيضاء بستة آلاف ألف لغة، ثم السجود والإقرار بالمنة لله وكشف الضر. هذه صيغة أخرى للمعنى الذي تقدم في الأمالي والزهد وعلل الشرائع. ونسبة الكتاب إلى الإمام ليست هنا محققة، والخبر معلق بصيغة «روي»؛ فلا ننسبه جزمًا إلى الإمام، ولا نجمع أرقامه وتفاصيله مع سائر الطرق في مشهد تاريخي واحد. وهذه الإحالة قراءة لنقل المجلسي، وليست ادعاء مقابلة مخطوط الأصل.

أيوب في خطاب الإمام الصادق للمنصور

ينقل المجلسي عن مهج الدعوات في بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٩٣–١٩٤، ح٣٩، خبر استدعاء المنصور الإمام الصادق، من رواية الفضل بن الربيع عن أبيه الربيع الحاجب. وفيه إبراهيم بن جبلة

الذي أُرسل لإحضاره، والمسيب بن زهير الضبي المأمور بالسيف، وغلام غير مسمى في المجلس. يستحضر جواب الإمام صبر أيوب وعفو يوسف وشكر سليمان، ثم ترد أخبار صلة الرحم عن النبي، وفي أحدها رجل بار وآخر عاق وملك الموت، ويذكر جبرئيل في خبر آخر. هؤلاء أصحاب أدوار في الإطار المتأخر للاستشهاد، لا رجال من عصر أيوب. الموضع المقابل نقل المجلسي، ولا يدعي هذا الفصل مقابلة جميع تتمة مهج الدعوات من أصل مستقل أو تصحيح الطريق الطويل.

مقابلة التفاسير — ما تضيفه وما لا تثبته

قوبلت مواضع القصة في التبيان ومجمع البيان والصافي والبرهان ونور الثقلين والميزان، مع الموضع المطبوع من تفسير القمي وإحالة الأمثل إلى نور الثقلين. يجمع البرهان عند ص ٤١–٤٤، الأحاديث ٩١٠٩–٩١١٨، أخبار القمي والكافي وعلل الشرائع والخصال والتهذيب؛ فهذه إحالات إلى أصول سبق تناولها، وليست عشرة شواهد مستقلة صحيحة. وفي نور الثقلين، ج٤، ص٤٦٤–٤٦٦، ح٦٩–٧١، الخبر الطويل عن القمي، ثم نقل مجمع البيان والخبر الفقهي المنقول عن العياشي. ويجمع الصافي بين المأثور والشرح؛ فقوله عند الأنبياء إن أيوب من ولد عيص بن إسحاق جاء بصيغة «قيل»، وليس في العبارة إسناد إلى الإمام. ولهذا يذكر عيص في دعاوى النسب فحسب. ولا تُنسب أقوال قتادة أو مقاتل أو وهب أو ابن عباس إلى أهل البيت لمجرد أن مفسرًا إماميًا أوردها. وأضيفت مواضع متاحة من كنز الدقائق، كما يبين القسم التالي.

أقوال تفسيرية في المرض والأهل واليمين

يعرض التبيان تفسير المس بالوسوسة ومحاولة الإضلال دون نجاحها، ويذكر قولًا بأن الأذى جاء من تحريض الناس عليه. ويجيز الميزان من حيث التفسير تأثيرًا في البدن لا في عصمة النبي، مع عدم إلغاء الأسباب الطبيعية؛ وهذه معالجة تفسيرية وليست تشخيصًا طبيًا لكل مرض. ويورد مجمع البيان عند ص اسم «ليا بنت يعقوب» للزوجة، وقول ابن عباس في تمثل إبليس بصورة طبيب واشتراط نسبة الشفاء إليه، وقولًا آخر في تأخرها عن الرجوع، ويذكر إطعام أهل القرية سبعة أيام بصيغة «قالوا». وعند الأنبياء ٨٤ ينقل عن وهب سبع بنات وثلاثة بنين، وعن ابن يسار سبعة بنين وسبع بنات. هذه أقوال متغايرة لا تُحسم بالجمع، ولا نثبت بها أسماء الأولاد. وليا وإليّا من صيغ الاسم المنقول، لا دليل على زوجتين. كما ينقل المجلسي عن البيضاوي «ماخير بنت ميشا بن يوسف» أو «رحمة بنت إفرائيم بن يوسف»؛ نثبت اختلاف النقل، ولا نصحح هذا النسب بمجرد نقله في البحار.

ما أضافته مقابلة كنز الدقائق

في كنز الدقائق، ج٨، ص٤٥١، عند الأنبياء ٨٣، نُقلت دعوى نسب أيوب إلى عيص، وصيغتا ماخير بنت ميشاء ورحمة بنت إفراهيم في اسم الزوجة ونسبها، مع خبر ثمانين سنة من الرخاء؛ تحيل الحاشية إلى أنوار التنزيل. فهذه أقوال منقولة، لا حديث إمامي مستقل، ولا يساوى الثمانون بالسبعين

في خبر الدعوات أو بمدة المرض. وفي ج١١، ص٢٤٧، عند ص ٤١، يذكر ليا بنت يعقوب أو رحمة بنت يوسف؛ وفي ص٢٤٩ ينقل الخبر المشكل المتعلق بعلي وسلمان الذي تقدم نقده، فلا يعد تكراره طريقًا مستقلًا. وفي ص٢٥٠ يبدأ نقل خبر القمي ويقابل رد الأهل بخبر الكافي. كما ينقل في ج٨، ص٤٥٥-٤٥٦، عبارة منسوبة إلى علي في مشابهة أيوب، مع حاشية تقول إن المحقق لم يعثر على موضعها في الإرشاد ووجد نقلها في نور الثقلين؛ فتنسب هنا إلى نقل التفسير، لا إلى أصل مستقل قابلناه. لم تتيسر قراءة جميع الصفحات المتوسطة في هذه النسخة، فلا يوصف ذلك بمقابلة كاملة لجميع تفصيلات الباب.

سجل الشخصيات — الحضور المباشر والحضور الروائي

في القرآن: أيوب هو النبي المسمى، وأهله مذكورون جمعًا بلا أسماء، والشيطان مذكور في دعائه. لا تسمية لزوجة أو ابن أو بنت، ولا ذكر لجبرئيل في آيات القصة. والأنبياء الذين تقترن أسماؤهم باسمه في النساء والأنعام شركاء في سياق الوحي والهداية، لا تُفترض معاصرتهم له من مجرد الاقتران. ومن الأسماء في هذين السياقين: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وعيسى ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويونس، والأسباط مذكورون جمعًا؛ ويواصل سياق الأنعام بذكر زكريا ويحيى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط. لا تتحول هذه القائمة إلى ادعاء صلة أسرية أو لقاء مع أيوب لكل واحد منهم.

في أخبار البلاء والعافية: الزوجة التي تختلف الأخبار في اسمها ونسبها؛ الأولاد والأهل؛ الغلام الناجي الذي أخبره بالخسائر؛ الرهبان أو الأصحاب؛ الشاب الذي دافع عنه؛ اليتيم والضعيف اللذان يذكر إطعامهما؛ الشامتون؛ أهل القرية الذين تصف بعض الأخبار إخراجهم له؛ وأناس قصدتهم الزوجة لطلب الطعام. لا يسمّي خبر القمي هؤلاء الأناس امرأة بعينها، فلا نضيف بائعة أو صاحبة ضفائر مسماة من غير نص. وفي الخبر نفسه مَلَك غير مسمى في مشهد العافية، بينما يسمى جبرئيل في خبر الذهب. لا نسوي بين الملك المبهم وجبرئيل بغير قرينة.

في الأخبار التاريخية المختلف فيها: رحمة أو رحيمة وإليّا أسماء منقولة للزوجة، وليست دليلًا على زوجات متعددات؛ يوسف ويعقوب ولوط وإبراهيم يردون في دعاوى النسب؛ أم أيوب وأبوه وبنات لوط والرهط المهاجر معه شخصيات أو جماعات غير مسماة بأفرادها؛ وحومل وبشر وعبدان يردون في خبر وهب، مع التمييز بين ابن أيوب وحفيده. وشعيب وبلعم وفرعون مذكورون في أخبار متفاوتة لا تثبت اجتماعهم جميعًا في زمن واحد.

في سياقات الاستشهاد اللاحقة: مريم ويوسف وأيوب، ومعهم المرأة والرجل وصاحب البلاء في خبر القيامة؛ النبي محمد والرجل والمرأة المريضان في الخبر الفقهي؛ علي وسلمان والحسن والحسين والإشارة إلى فاطمة في الخبر غير المتصل؛ والقائم والأنبياء المذكورون في خبر سننه. ومن أهل البيت الناقلين لمعنى القصة أو المفسرين لها: السجاد والباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام. أما أبو بصير

وهشام بن سالم وداود بن سرحان ورفاعة وعبد الأعلى وعلقمة وسعيد بن جبير وغيرهم من رجال الأسانيد، فذكرهم توثيق لطريق الخبر، لا إدخال لهم في مجتمع أيوب.

وتضاف من المراجعة التكميلية: آسية بنت مزاحم للمقارنة الأخلاقية؛ والحولاء العطارة وأم سلمة والجارية وزوج الحولاء في إطار القصة اللاحق؛ وليا وماخير وميشا وإفرائيم وعيص في اختلاف الاسم والنسب، من غير تصحيح تلك الأنساب. والخضر وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش يردون مع الأسماء السابقة في سياق دعاء ليلة عرفة، لا بوصفهم شهودًا على بلاء أيوب. وفي خبر مجلس المنصور: المنصور والربيع وإبراهيم بن جبلة والمسيب بن زهير والغلام، والرجل البار والعاق في الحديث المنقول، وملك الموت؛ وهم من إطار الاستشهاد اللاحق. والفضْل بن الربيع ناقل عن أبيه، لا شاهد يُفترض حضوره بلا نص.

هذا السجل يجمع الشخصيات والأدوار ذات الصلة في النصوص التي قوبلت في هذه المراجعة؛ ولا يزعم حصر كل ذكر عابر لأيوب في جميع المخطوطات والمجاميع. وهو يفصل إثبات ورود الاسم عن الحكم بصحة الخبر أو وقوع الحادثة.

أولاد أيوب وخاتمة حياته — حدود العلم بمن بعده

يثبت القرآن ردّ أهله إليه ومثلهم معهم (الأنبياء ٢١:٨٤؛ ص ٣٨:٤٣)، ولا يسمي ابنًا أو بنتًا، ولا يبين هل أُحيي من مات أو وُهب له غيرهم، ولا يذكر سنة وفاته أو قبره أو اسم من تسلّم عهده بعده. يرد في خبر تاريخي عن وهب بن منبه، أورده الحاكم في «المستدرك»، ذكرُ ابن اسمه حومل، وابن آخر اسمه بشر يُجعل هو ذا الكفل، ثم عبدان ابن بشر بعد أبيه، لا ابنًا آخر لأيوب، مع دعوى عمر أيوب ثلاثًا وتسعين سنة. هذا خبر منقول عن وهب، لا رواية إمامية عن أهل البيت، ولا يصلح وحده لتعيين ذي الكفل أو لإثبات سلسلة وصاية في منهج هذا الكتاب. ولا نعرف من القرآن أو المصادر الإمامية التي وقفنا عليها أسماء البنات أو وصية موثوقة بعد أيوب؛ يبقى موضعه التاريخي بالنسبة إلى شعيب غير محسوم.

الميلاد والدعوة والوفاة — ما يبقى مجهولًا

تثبت النساء ٤:١٦٣ الوحي إلى أيوب، وتجعله الأنعام ٦:٨٤–٨٩ في عداد المهديين من الأنبياء؛ لكن القرآن لا يذكر ميلاده أو عمره حين بُعث، ولا اسم قوم أُرسل إليهم، ولا مدينة الدعوة ومدة تبليغها، ولا كتابًا خاصًا أو معجزة دعوية مفصلة قبل البلاء. أخبار الإبل والرقيق والزرع وإطعام اليتيم والشاب المدافع وزوجته تمنحنا مشاهد روائية متفرقة، ولا تحولها إلى سيرة مرتبة من طفولته إلى بعثته. أما الوفاة والقبر، فتتعارض الأعمار المنقولة، ولا يثبت موضع قبره بهذه الآيات أو الأخبار التي فحصناها. ولهذا يذكر الكتاب حدود العلم صراحة: لم نتوصل إلى نص إمامي موثق يسمي من سلّم أيوب

إليه الوصية أو من تسلمها منه. ويأتي شعيب في الفصل اللاحق لبحث دعوته، لا بوصفه وارثًا مباشرًا لأيّوب لمجرد ترتيب الفصلين.

خاتمة الفصل العشرين — الصبر ليس استسلامًا للبلاء

أيوب دعا. وصبر. ولم يجعل البلاء حجة على الله. وجاء الفرج. وردت الأسرة. وبقيت العبارة التي تلخص حياته: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ثم نعود في الفصل التالي إلى خط الرسالة والعدل الاجتماعي مع شعيب عليه السلام ومدين.

المصادر والمراجع

تُقرأ بعض النقول هنا بواسطة المصدر الجامع: من ذلك خبر استدعاء المنصور للإمام الصادق، المنقول عن مهج الدعوات في بحار الأنوار. وتقتصر المقابلة في كنز الدقائق وفي ذلك النقل على المواضع المحددة في المراجع؛ فلم تتيسر مقابلة جميع الصفحات المتوسطة في النسخ الإلكترونية.

القرآن الكريم: النساء ٤:١٦٣؛ الأنعام ٦:٨٤–٨٩؛ الأنبياء ٢١:٨٣–٨٤؛ ص ٣٨:٤١–٤٤.

الصدوق، الخصال، أبواب السبعة، الخبران ١٠٧ و١٠٨: الأول بطريق أبي بصير عن الصادق عليه السلام في سبع سنين بلا ذنب؛ والثاني عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام في نفي الأوصاف المنفرة. طريقا الخبرين منفصلان، وحكم الصحة التفصيلي يحتاج تحقيق رجال كل إسناد.

الصدوق، علل الشرائع، ج١، الباب ٦٥ «العلة التي من أجلها ابتلي أيوب النبي»، الأخبار ١–٥، ص٧٥–٧٦ في طبعة المكتبة الحيدرية؛ تشمل طرقًا عن الصادق والكاظم عليهما السلام، وفي الخبر الرابع راوٍ غير مسمى بحسب المطبوع.

التفسير المطبوع باسم علي بن إبراهيم القمي، عند ص ٣٨:٤١–٤٤: رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام في البلاء وزوجته، وهي متعارضة مع متن الخصال في الدود والنتن؛ تُفحص نسبة القسم والطريق ولا يعتمد التفصيل المخالف بمجرد وروده.

الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، كتاب تواريخ المتقدمين، خبر وهب بن منبه عن حومل وبشر وعبدان وعمر أيوب: خبر تاريخي مقارن لا سند إماميًا له عن أهل البيت، فلا يثبت به اسم الوصي أو هوية ذي الكفل.

الكليني، الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، ح٢٢؛ وقارن ج٣، كتاب الجنائز، باب علل الموت، ح١٠ بحسب ترتيب النص المتاح: خبر بقاء عقل أيوب للتوحيد، والطريقان فيهما محمد بن سنان وعثمان النواء وواسطة مبهمة.

الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السابع في أيوب وشعيب، ص١٣٩–١٤٢ في الطبعة المقابلة، الأخبار ١٤٧–١٥٢: الخبر ١٤٧ يمر بالصدوق إلى طريق الخصال نفسه في السبع سنين، فلا يعد

شاهدًا مستقلًا؛ ١٤٨ عن داود بن سرحان في الشكر ورد الأهل؛ ١٤٩ عن هشام بن سالم في عتاب الأصحاب وإطعام اليتيم؛ ١٥٠ عن هشام في خبر الذهب؛ ١٥١-١٥٢ عن وهب بن منبه وابن عباس في «إليّا» وعمر أيوب، مادة مقارنة لا تُنسب إلى الإمام.

الصدوق، عيون أخبار الرضا، باب الأخبار المجموعة، الخبر ١٦٤ (ج١ ص٤٩ بطبعة الأعلمي؛ ويختلف ترقيم المجلد والصفحة بين الطبعات): قول الإمام السجاد في صبر أيوب؛ يلزم مراجعة الأسانيد الثلاثة السابقة لعبارة «بهذا الإسناد».

الراوندي، قصص الأنبياء، الخبر ١٥٩، ص١٤٦-١٤٨ في الطبعة المقابلة: خبر وهب في نسب أيوب ورهط إبراهيم، خبر تاريخي لا يثبت به النسب.

الصدوق، معاني الأخبار، ج١، الكتاب ١، باب ٢٦ «معاني أسماء الأنبياء والمرسلين»، الخبر ١: تفسير اسم أيوب بالأوبة إلى العافية والنعمة، مع افتتاحٍ جماعي للأسانيد لا يفرد لهذه الفقرة طريقًا ظاهرًا.

الكليني، روضة الكافي، الخبر ٣٥٤: إحياء الأولاد في تفسير الأنبياء ٨٤:٢١؛ والخبر ٢٩١: مريم ويوسف وأيوب في خبر الاحتجاج يوم القيامة.

الكليني، الكافي، ج٦، كتاب الأطعمة، باب الحمص، ح٣، ص٣٤٣: رفاعة عن الصادق في الزرع بعد العافية؛ وقارن الحر العاملي، وسائل الشيعة، الخبر ٣١٤٠٤ لاختلاف «سبحتك/سبختك».

الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٢٨، ح٥٠٠٧: سؤال عباد المكي، وخبر الرجل والمرأة المريضين والاستشهاد بآية الضغث.

الطوسي، الأمالي، ص٦٦٢، ح١٣٨٠/٢٤؛ والحسين بن سعيد، الزهد، ح١٨٣؛ وقارن علل الشرائع، الباب ٦٥، ح٥: التوفيق إلى الطاعة واختلاف سياق الحوار.

الصدوق، الأمالي، حديث علقمة عن الصادق في اتهامات الناس للأنبياء، ومنه عبارة «ألم ينسبوا أيوب إلى أنه ابتلي بذنوبه» (ص١٦٤ في النص الإلكتروني المقابل). والراوندي، الدعوات، ص١٢٣، ح٣٠٤: خبر مداهنة فرعون، مرسل في موضعه.

البحراني، مدينة المعاجز، ج٢، ص٣١-٣٢، ح٣٧٢، نقلًا عن شرف الدين النجفي، مع إحالة الحاشية إلى تأويل الآيات، ج٢، ص٥٠٤، ح٤: خبر فيه رفع وواسطة مبهمة، أُدرج للنقد لا لإثبات سبب البلاء.

الصدوق، الخصال، أبواب السبعة، خبر أيام الأربعاء المرقم ٧٩: ذهاب مال أيوب وولده؛ وكمال الدين وتمام النعمة، الباب ٣١، ح٣، ص٣٢١-٣٢٢: الفرج بعد البلوى في سنن القائم.

مراجع المقابلة التكميلية

ابن طاووس، مهج الدعوات، دعاء أيوب، ص٥٥٥ في الطبعة المصحوبة بترجمة قيومي؛ وخبر الاستدعاء الرابع للصادق، قوبل بنقل بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٩٣-١٩٤، ح٣٩.

المشهدي، كنز الدقائق، المواضع التي تيسرت قراءتها: ج٨، ص٤٥١، ٤٥٥-٤٥٦؛ ج١١، ص٢٤٧، ٢٤٩-٢٥٠. والكليني، روضة الكافي، ح٤٣٣، في الفرق بين البدن والدين، مع حكم المجلسي المنقول بضعف الطريق.

الراوندي، الدعوات، ص١٦٥، ح٤٥٦؛ قصة الحولاء، ميراث حديث شيعه، ج١٨، ص١٦، وتقارن بمستدرك الوسائل، ج١٤، ح١٦٦٠٤؛ الحسن الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٢١٣-٢١٤؛ ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج٢، ص٤٩-٥١؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، ص٣٥٣، ح٢٤.

التفاسير المقابلة عند الأنبياء ٨٣:٢١-٨٤ وص ٤١:٣٨-٤٤: التبيان، مجمع البيان، الصافي، البرهان، نور الثقلين والميزان، مع تمييز أقوال أصحابها من النصوص المسندة إلى أهل البيت.

الفصل ٢١ — شعيب عليه السلام — العدل في الميزان وأهل مدين

من بثرياء إلى شعيب — عودة السلسلة الروائية إلى نبي سماه القرآن

بعد تتبع حملة العهد بين يوسف وموسى في الفصل التاسع عشر، نصل هنا إلى شعيب عليه السلام، النبي الذي يسمّيه القرآن ويعرض دعوته إلى التوحيد والعدل في مدين. وتُبحث صلته بسلسلة الوصاية في موضعها من هذا الفصل، مع التمييز بين الخبر الروائي والنص القرآني.

شعيب في القرآن — خريطة جميع المواضع الكبرى

الأعراف ٧:٨٥–٩٣: مدين، التوحيد، الوفاء بالكيل والميزان، عدم بخس الناس، عدم الإفساد، عدم القعود بكل صراط توعدون، تهديد الملأ بإخراج شعيب والمؤمنين، ثم الرجفة.

هود ١١:٨٤–٩٥: عبادة الله، الكيل والميزان بالقسط، عدم بخس الناس، استغفار الله والتوبة، اتهامهم لصلاته، تهديدهم له، قوله ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ثم الصيحة والنجاة.

العنكبوت ٢٩:٣٦–٣٧: دعوة مدين إلى عبادة الله ورجاء اليوم الآخر وعدم العثو في الأرض مفسدين، ثم الرجفة.

الشعراء ٢٦:١٧٦–١٩١: أصحاب الأيكة، تسمية شعيب في ٢٦:١٧٧، تكذيب المرسلين، رسول أمين، إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، عدم بخس الناس، وعذاب يوم الظلة.

بل تسميه الشعراء ٢٦:١٧٧ صراحةً في خطاب أصحاب الأيكة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾. يبقى البحث في العلاقة بين أصحاب الأيكة ومدين: هل هما تسميتان لقوم واحد أو جماعتان خاطبهما النبي نفسه؟

مواضع أخرى لأصحاب مدين والأيكة

تذكر التوبة ٩:٧٠ والحج ٢٢:٤٤ أصحاب مدين ضمن أمم كذبت رسلها، من غير إعادة اسم شعيب في الموضعين. وتذكر الحجر ١٥:٧٨–٧٩، وص ٣٨:١٣–١٤، وق ٥٠:١٤ أصحاب الأيكة في قوائم المكذبين. وتذكر طه ٢٠:٤٠ أن موسى لبث سنين في أهل مدين، والقصص ٢٨:٤٥ تنفي أن النبي محمدًا ﷺ كان ثاويًا في أهل مدين يتلو عليهم آيات الله؛ هذان موضعان متعلقان بمدين، لا يسمّيان شعيبًا ولا يثبتان أن أبا المرأتين هو هو. هذه الآيات تكمل خريطة الذكر القرآني، لكنها لا تروي ميلاد شعيب ولا أسماء أسرته أو زمن وفاته. وفي الحجر تعقب قصة لوط عبارة ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾؛ فلا نستنبط من ترتيب السرد تاريخًا دقيقًا للبعثة.

مشاهد الدعوة القرآنية — من النعمة إلى التهديد

يبدأ شعيب بالأصل: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف ٧:٨٥؛ هود ١١:٨٤)، ويذكر مجيء البيّنة، لكن الآيتين لا تسميان آية حسية مخصوصة. ثم يربط التوحيد بالوفاء في التجارة وحفظ أشياء الناس وصلاح الأرض. ويذكّرهم بنموهم بعد القلة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ (٧:٨٦)، ويحذر من القعود بكل صراط للتهديد والصد وابتغاء العوج. لم يكن المخاطبون جميعًا على موقف واحد، فقد آمنت طائفة وكفرت أخرى (٧:٨٧). طلب منهم الصبر حتى يحكم الله، بينما هدد الملأ المستكبرون بإخراج شعيب والمؤمنين أو حملهم على ملتهم (٧:٨٨). قوله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ (٧:٨٩) جزء من جوابه، ولا يلزم منه أنه كان يعبد ما عبدوه قبل البعثة؛ صيغة «العود» تشمل الجماعة المخاطبة، وتحتاج دلالتها التفصيلية إلى تفسير متسق مع عصمة الأنبياء. وفي ختام المشهد يسمّي القرآن الناجين: شعيبًا والذين آمنوا معه، ويسجل توليه عن المكذبين بعد هلاكهم (٧:٩١–٩٣؛ ١١:٩٤–٩٥).

الإخراج أو العودة إلى ملتهم — موقف شعيب ودعاؤه

لم يكتف الملأ بتكذيب شعيب؛ خيروه والمؤمنين معه بين الإبعاد من قريتهم والدخول في ملتهم (الأعراف ٧:٨٨). رفض أن تكون النجاة الاجتماعية ثمنًا للرجوع عن الحق، فقال إن الافتراء على الله بعد النجاة من تلك الملة ظلم، ثم أعلن التوكل ودعا: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٧:٨٩). «افتح» هنا طلب الفصل والحكم، ويذكر القرآن في الآية التالية تحريض الملأ على المؤمنين بزعم أن اتباع شعيب خسارة. وبعد الرجفة صار المكذبون كأن لم يقيموا بديارهم، فانقلب الحكم عليهم بأنهم هم الخاسرون (٧:٩١–٩٢). الخطاب يتكلم عن جماعة رسالية تتعرض للتهجير، ولا يذكر أسماء الذين خرجوا أو مسار هجرة نجاة قبل العذاب.

خطابه في هود — إصلاح لا منفعة شخصية

قال شعيب ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ (هود ١١:٨٤)، فكان الغشّ واقعًا مع توفر أسباب الرزق لا مجرد اضطرار يبيحه. وحين سخروا من صلاته واتهموا دعوته بمصادرة التصرف في أموالهم، أعلن ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ و﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (١١:٨٨): يلتزم بما يأمر به، ويرد النجاح إلى الله. وذكّرهم بمصائر نوح وهود وصالح وقوم لوط، ثم دعاهم إلى الاستغفار والتوبة ووصف ربه بالرحمة والود (١١:٨٩–٩٠). قالوا إنهم لا يفقهون كثيرًا من قوله، وإنهم يرونه ضعيفًا فيهم، ولولا «رهطك» لرجموه. احتجّ شعيب بأن الله أحق بالتعظيم من الرهط، وأعلن انتظار حكم الله (١١:٩١–٩٣). وجود رهط يذكره الخصوم في النص لا يبيح وضع سلسلة نسب مفصلة بأسماء غير ثابتة.

الأيكة — نداء التقوى ورفض الأجر

في الشعراء ٢٦:١٧٦-١٩١ يُسمَّى شعيب صراحةً، ويعلن أنه رسول أمين، ويقول ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. يأمر بالكيل التام والوزن بالقسطاس المستقيم ولا يبخس الناس أشياءهم ولا يعثى في الأرض مفسدين. وبعد تكذيبهم له واستنكارهم إلا أن يكون بشرًا مثلهم، تحدوه أن يُسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان صادقًا (٢٦:١٨٦-١٨٧)، فجاء ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ (٢٦:١٨٩). لا يذكر القرآن في هذه السورة عدد أيام الحر أو اسم الملك أو أسماء من احتموا بالغمامة؛ تلك تفاصيل أخبار تحتاج سندًا مستقلًا.

العدل الاقتصادي جزء من التوحيد

قال شعيب:

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

لم يقل لقومه: أصلحوا عقيدتكم واتركوا السوق كما هو.

العبادة والاقتصاد في الرسالة ليسا عالمين منفصلين.

فمن يعبد الله ثم يغش الناس في المكيال لم يفهم أثر التوحيد على الحياة.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

في سياق سورة هود تأتي العبارة بعد النهي عن نقص المكيال.

المعنى المباشر: ما يبقيه الله لكم من الرزق الحلال خير من الربح الذي تجمعونه بالظلم.

واستعملت روايات أهل البيت عبارة «بقية الله» في مقامات أخرى، ومنها ألقاب الإمام المهدي عجل الله فرجه.

لكن لا يجوز أن نمحو سياق شعيب التجاري من الآية.

الأصل أولًا هو معناها في خطاب مدين، ثم تأتي التطبيقات الروائية في موضعها.

«بقية الله» في خبر الإمام الباقر — تطبيق لاحق مع بقاء السياق

في «الكافي» (ج١، كتاب الحجة، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، الخبر ٥) يروي أبو بكر الحضرمي خبر رحلة الإمام الباقر من الشام: عند مدين قرأ الإمام ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فقال شيخ هناك إن هذه دعوة شعيب. تظهر الرواية حضور الآية في خطاب الإمام في موضعها المنسوب إلى شعيب، وتطبيق لفظ «بقية الله» على الحجة في زمن آخر؛ ولا تغيّر أصل خطاب شعيب إلى قومه بشأن العدل والرزق في هود ١١:٨٤-٨٦. الرواية ذات سلسلة رجال تحتاج تقويمًا، وذكر مدين فيها لا يثبت تاريخ قبر شعيب أو ذرية مخصوصة بقيت فيها.

الصلاة التي أزعجت المجتمع

قالوا لشعيب:

﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾.

هذه آية تكشف أن الصلاة الحقيقية لم تكن عندهم طقسًا خاصًا.

رأوا أنها تنتج موقفًا من عبادة الآباء ومن المال.

ولهذا سخروا منها.

وشعيب أجابهم بمنطق الإصلاح:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

قطع الطريق والصد عن سبيل الله

في الأعراف يقول:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الفساد لم يكن في الميزان وحده.

كان هناك تهديد للناس وصد عن سبيل الله.

إذن مجتمع مدين يجمع فساد العقيدة والاقتصاد والأمن العام.

هل كان شعيب «خطيب الأنبياء»؟

اشتهر هذا اللقب في كتب القصص والتفسير لجمال مراجعته لقومه. وفي الخبر ١٥٩ من «قصص الأنبياء» يرد داخل مادة منقولة عن وهب بن منبّه إسنادُ وصف «خطيب الأنبياء» إلى رسول الله ﷺ؛ فلا تجعلنا صيغة النسبة في خبر وهب نحكم بثبوتها عن النبي من غير طريق مستقل معتبر. اللقب ليس قرآنيًا.

لا نحتاج إليه لإثبات عظمة شعيب؛ خطابه القرآني نفسه يكفي.

مدين وأصحاب الأيكة — قوم واحد أم جماعتان؟

يسمي القرآن شعيبًا في خطابه لمدين (الأعراف ٧:٨٥؛ هود ١١:٨٤؛ العنكبوت ٢٩:٣٦)، ويسميه أيضًا في خطاب أصحاب الأيكة (الشعراء ٢٦:١٧٧). والفرق اللفظي أن آيات مدين تقول «أخاهم شعيبًا»، بينما تقول آية الأيكة «إذ قال لهم شعيب» من غير «أخاهم». اختلف المفسرون في ما إذا كان الاسمان لجماعة واحدة أو جماعتين، ولا تحسم تسمية النبي في الموضعين وحدها هوية الجماعة. نعرض وجهَي التفسير وأدلتهما من غير صنع بعثتين متعاقبتين بلا دليل.

العذاب — الرجفة والصيحة ويوم الظلة

الأعراف والعنكبوت يذكران الرجفة.

هود يذكر الصيحة.

الشعراء يذكر عذاب يوم الظلة.

لا يلزم أن تكون هذه ألفاظًا متناقضة؛ قد تصف وجوهًا من العذاب أو تتعلق بمدين والأيكة على اختلاف القول.

لكن لا نركب سيناريو تفصيليًا من عندنا.

نثبت الألفاظ القرآنية ونذكر التفسيرات.

شعيب في رواية الوصاية

رواية اتصال الوصاية تقول:

بثرياء ← شعيب ← موسى بن عمران.

هذه الرواية تمنح شعيب دورًا إضافيًا غير قصته مع مدين:

حامل للعهد قبل موسى.

لكن القرآن لا يقول إن شعيب أوصى إلى موسى.

يرد هذا التسلسل في خبر الوصاية، لا في القرآن، ومدار الطريق المذكور هنا على مقاتل بن سليمان. وتورده الإمامة والتبصرة وكمال الدين وبشارة المصطفى، مع اختلاف رسم بعض الأسماء؛ لذلك لا يُحسب تكراره في هذه الكتب أسانيد مستقلة لمجرد تعدد العناوين.

الأب والابنة والعصا في خبر الإمام الرضا عليه السلام

يروي الراوندي في «قصص الأنبياء»، الخبر ١٦١، بطريق سعد بن عبد الله عن أحمد بن محمد بن عيسى عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، أنه سأل الإمام الرضا عليه السلام: أكانت التي جاءت موسى ودعته بأمر أبيها هي التي تزوجها؟ فأجاب: نعم. ويشرح الخبر سؤال أبيها عن سبب وصفها موسى بالقوة والأمانة، ومشيها وراءه لتدلّه على الطريق. ثم يسمي الخبر الأب «شعيبًا» حين يعرض على موسى أخذ عصا من البيت، وتعود إليه العصا مرارًا فيسمح له بأخذها؛ ويذكر زيارته لموسى في كل سنة. هذا نص إمامي مهم لتفسير هوية الأب والابنة وانتقال العصا، لكنه لا يحول التسمية أو مشهد العصا إلى لفظ قرآني، ولا يثبت بمجرد وجوده سند سلسلة وصاية متصلة من آدم إلى شعيب. ويُقارن بخبر الراوندي ١٦٠ في قصة موسى، وبالروايات التي تسمي الزوجة «صفراء بنت شعيب»؛ وفي «كمال الدين»، باب وفاة موسى وغيبة الأوصياء بعده، الخبر ١٧، يرد هذا الاسم ضمن خبر ممتد إلى زمن

يوشع، لا ضمن تسمية القرآن. نترك أحداث ما بعد وفاة موسى لفصل يوشع، ونبقي تقويم الإسناد ومعارضة الأسماء التاريخية ظاهرين.

هل صاحب مدين في قصة موسى هو شعيب؟

هذه مسألة يجب ألا نكرر فيها عبارة مشهورة بلا تحقيق.

سورة القصص ٢٨:٢٢-٢٨ تذكر:

موسى يصل ماء مدين،

يلتقي امرأتين،

تأتيه إحداهما على استحياء،

يذهب إلى أبيهما،

ثم يعرض الأب تزويجه إحدى ابنتيه مقابل ثماني حجج أو عشر.

لكن القرآن لا يسمي الرجل «شعيبًا».

ولا يسمي البنت «صفورة»؛ ويأتي الاسم في روايات ينبغي نسبتها إلى مصادرها.

اشتهر في كتب التفسير أن الرجل شعيب، ووردت أخبار تؤيد ذلك، لكن أقوالًا أخرى تجعله رجلًا صالحًا من قوم شعيب أو ابن أخيه أو غير ذلك.

حتى في التراث الإسلامي لا يوجد اتفاق كامل.

لذلك نقول في هذا الكتاب:

صلة القصة بمدين ثابتة بالقرآن.

هوية الأب بشعيب ليست نصًا قرآنيًا، وتحتاج الروايات الخاصة إلى تقويم.

وسيعود هذا التفصيل عند موسى.

ابنتا صاحب مدين — ما الذي يثبته القرآن؟

القرآن يثبت امرأتين تذودان، وأبًا شيخًا كبيرًا، وأن إحداهما مشت على استحياء وقالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

ولا يسميهما.

يرد اسم «صفراء بنت شعيب» في رواية من «كمال الدين» (باب وفاة موسى وغيبة الأوصياء، الخبر ١٧)، ويُذكر هنا على أنه خبر روائي لا تسمية قرآنية.

وهذا ينطبق على كل أسماء الأسرة.

صلة أهل مدين بقصة موسى

ترسم القصص ٢٨:٢٢-٢٩ لقاء موسى بالمرأتين وأبيهما، ثم العمل والزواج وقضاء الأجل والرحيل بالأهل. يُسرد تسلسل اللقاء في الفصل ٢٢، وتبدأ رحلة العودة والنداء في الفصل ٢٣. وما يخص هذا الفصل هو صلة الأب بشعيب في الروايات، وحضور الابنتين في العمل والبيان وحسن التقدير؛ فلا تُحجب إحداهما لأن الأخرى صارت زوجة موسى، ولا تُجعل الأسماء الروائية جزءًا من لفظ القرآن.

أي الأجلين قضى؟ وما الذي تضيفه الروايات؟

ينقل مجمع البيان عند القصص ٢٨:٢٦-٢٨ عن الإمام الصادق عليه السلام، بطريق الحسين بن سعيد عن صفوان بن يحيى، أنه تزوج التي جاءت بالدعوة، وأتم عشر سنين، ودخل بها قبل انقضاء المدة، وأن علمه ببقائه حتى الوفاء متعلق بخصوص قصته. ويورده الصافي في الموضع نفسه؛ فهذا نقل للخبر لا شاهد مستقل لمجرد تعدد الكتب. كما ينقل الصافي عن الفقيه عن الإمام الكاظم تفسير القوة برفع الصخرة والأمانة بأن طلب موسى سيرها خلفه. أما أعداد الرجال اللازمين لرفع الحجر أو الدلو فتختلف في المنقول، فلا نختار رقمًا ونضيفه إلى القرآن. ويضيف خبر الراوندي ١٦١ أن موسى كان يقوم لشعيب عند الطعام ويكسر له الخبز حين يزوره.

تجمع كنز الدقائق، ج١٠ ص٦٠، أخبار الفقيه في الإجارة والمهر، وتفسير العياشي ج١ ص٦٠ ح٩٩ عن الحلبي عن الصادق في الاستدلال بلفظ «حجج» على معرفة الحج قبل الإسلام. تُذكر بوصفها روايات تفسيرية وفقهية، ولا نحول تفاصيل عقد موسى إلى فتوى عامة أو نجعل حق المرأة في مهرها مالًا للأب. وفي مجمع البيان أخبار عن نتاج الغنم المخالف لألوان أمهاته وعطاء شعيب لموسى، منسوبة إلى يحيى بن سلام أو مذكورة بصيغة «قيل»، وليست في ذلك الموضع مسندة إلى إمام؛ لا نجعلها معجزة ثابتة. وقصة امتناع موسى أولًا عن الطعام خشية أخذ عوض عن عمل الآخرة، ثم قبوله الضيافة، يذكرها المجمع عن أبي حازم؛ فيحفظ الفرق بين حكاية المفسر وحديث أهل البيت.

«إني أراكم بخير»: سعة الرزق لا تبرير التطفيف

ورد في تفسير العياشي (ج٢، ص١٥٩، الخبر ٦١) عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى «إني أراكم بخير» (هود ١١:٨٤): «كان سعرهم رخيصًا». يضيء هذا التفسير حال السعة التي واجه فيها شعيب قومه: وفرة المعيشة تزيد قبح أخذ حقوق الناس. لكن الطريق يمرّ بعبارة «عن بعض أصحابنا»، فلا نجعل رخص الأسعار معنى الآية الوحيد ولا واقعة اقتصادية قطعية. والآية نفسها لا تعيّن مقدار الغنى ولا سلعة بعينها.

عصا آدم وشعيب وموسى في «الكافي» — بين الأثر والوصاية

روى الكليني في «الكافي» (ج١، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، الخبر ١، ص٢٣١ في طبعة الغفاري) عن الإمام الباقر عليه السلام أن عصا موسى كانت لآدم، ثم صارت إلى شعيب، ثم إلى موسى، وأنها عند الأئمة وأُعدّت للقائم. هذه رواية عن انتقال أثر من آثار الأنبياء، ولها قيمة في تصور اتصال الهداية في الموروث الإمامي؛ لكنها ليست آية قرآنية، ولا تذكر أسماء كل من حمل العصا بين آدم وشعيب، ولا تعني وحدها أن شعيبًا أخذ وصيته مباشرة من آدم أو أن كل انتقال للعصا يساوي انتقال منصب النبوة. وفي إسنادها عدة رجال يحتاجون إلى بحث مستقل، فلا نوصفها بالصحة القطعية. وتُقرأ إلى جانب خبر العصا في رواية لقاء موسى بمدين، مع إبقاء خبر الوصية المذكور سابقًا طريقًا مختلفًا في موضوع مختلف.

مدين والأيكة في التفسير الإمامي — موضع الاختلاف

يفسر النص المطبوع من «تفسير القمي» (ج١، ص٣٣٧، عند هود ١١:٨٤) مدين بأنها قرية في طريق الشام، ويروي تفسيرًا لقولهم «إنا لنراك فينا ضعيفًا» في سياق بصر شعيب. وفي موضع الأيكة (ج١، ص٣٧٧) يجعل أصحابها قوم شعيب. هذه مادة تفسيرية في الكتاب المطبوع، لا تصريحًا قرآنيًا بتحديد الموقع أو المرض ولا برهانًا مستقلًا على أن مدين والأيكة جماعتان أو جماعة واحدة. القرآن يسمّي شعيبًا في خطاب أصحاب الأيكة (الشعراء ٢٦:١٧٧) ويقول «أخاهم» في مدين؛ ومن ثم نعرض اختلاف توجيه النصين دون اختراع رحلتين أو رسالتين مؤرختين.

رواية صناعة المكيال والميزان — وحدود دلالتها

روى قطب الدين الراوندي في «قصص الأنبياء»، الخبر ١٥٣، بسنده إلى الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، أن شعيبًا عمل المكيال والميزان بيده، وأن قومه كانوا يوفون ثم طففوا وبخسوا. هذه إضافة روائية إمامية إلى التصوير القرآني للغش، ولا يذكر القرآن أن شعيبًا كان أول صانع للأداتين في تاريخ البشر. ولا نجزم بصحة الخبر قبل دراسة رجاله، ولا نحمل كلمة «أول» على تاريخ عالمي محقق. وفي الخبر التالي (١٥٤) قصة رجل مسمى «شعيب بن صالح» موصوف بأنه رسول رسول شعيب؛ وهي حكاية متأخرة عن كشف قبر في عهد هشام بن عبد الملك، وليست تصريحًا قرآنيًا أو سندًا مستقلًا لإثبات حلقة وصاية. تُذكر هنا بوصفها خبرًا يحتاج التحقيق، ولا تضاف الشخصية إلى سلسلة العهد المتيقنة.

روايات العبادة وطول الدعوة — مع بيان السند

في «قصص الأنبياء» للراوندي، الخبر ١٥٦، رواية مرفوعة إلى أمير المؤمنين عليه السلام تقول إن شعيبًا دعا قومه حتى أسنّ وضعف، ثم غاب عنهم وعاد شابًا. في طريقها «عن بعض أصحابنا»

و«رفعه»، فلا نثبت بها غيبة تاريخية محددة أو تجدد العمر على وجه القطع. وفي الخبر ١٥٧ نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام عدّ خمسة أنبياء من العرب: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد وقوله إنه «كان شعيب بكّاء»، والطريق فيه راوٍ غير مسمى. تعرض هذه مادةً روائية عن عبادته وموقعه، لا معلومات قرآنية عن مولده ووفاته. أما الخبر ١٥٨، وفيه ملك وتحكم بالطعام والحر والسحابة وعمر مقدّر بمئتين واثنتين وأربعين سنة، فهو خبر عن ابن عباس لا عن إمام، فلا يثبت به ملك بعينه أو عدد عمر. والخبر ١٥٩ عن وهب بن منبّه يختلف في تفصيل القوم ومصير شعيب؛ ولا تصير عبارة «الرواية الصحيحة» في ذيل النص حكمًا رجاليًا مُبرهنًا بمجرد نقلها. لذلك نثبت النجاة القرآنية ونتوقف عن الجزم بمكة موضعًا لوفاته أو بقاءه حيًا حتى لقاء موسى.

البكاء محبةً لله: خبر «علل الشرائع»

يروي الصدوق في علل الشرائع، باب العلة التي من أجلها جعل الله موسى خادمًا لشعيب، الخبر الأول، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله، أن شعيبًا بكى من محبة الله حتى ذهب بصره ثم ردّه الله، وتكرر ذلك، وأن بكاءه لم يكن لمجرد الخوف من النار أو طلب الجنة؛ وجعل الخبر خدمة موسى له كرامة متصلة بهذه المحبة. الطريق يمر بعبد الرزاق ومعمر والزهري إلى أنس؛ فهو خبر نبوي أورده الصدوق، وليس رواية عن الإمام الصادق. ووجوده في كتاب إمامي لا يكفي لتصحيحه دون بحث رجاله واتصاله. وفسّر الصدوق عبارة الرؤية الواردة فيه بقبول الله له حبيبًا؛ فلا تُحمل على رؤية جسم أو جهة. ولا يعيّن القرآن سبب ضعف شعيب، فلا نخلط هذا الخبر بتشخيص قطعي لقوله «وإنا لنراك فينا ضعيفًا».

مداهنة الظالمين ومسؤولية المجتمع

في الكافي، ج٥ ص٥٥-٥٦، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح١، عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام، خبر أن الله أوحى إلى شعيب بعذاب مائة ألف: أربعين ألفًا من الأشرار وستين ألفًا ممن وُصفوا بالأخيار، وعلّل شمول الآخرين بمداهنة أهل المعاصي وترك الاعتراض على معصيتهم. في الطريق «عن بعض أصحابنا» قبل بشر بن عبد الله وأبي عصمة قاضي مرو، فلا نخفي الإبهام أو نجزم بصحته. الأعداد جزء من الرواية وليست إحصاءً قرآنيًا لسكان مدين. ولفظ «الأخيار» هنا لا يساوي المؤمنين المنجّين بنص هود ١١:٩٤؛ فالخبر نفسه ينسب إلى هؤلاء المداهنة. ولا يُستعمل لتبرير الاعتداء على الأبرياء أو إدانة كل ساكت دون نظر إلى حاله.

التوفيق والانتظار: تفسير كلمات شعيب في روايات الأئمة

في التوحيد للصدوق، باب تفسير الهدى والضلال والرشاد والخذلان، ح١، يسأل عبد الله بن الفضل الهاشمي الإمام الصادق عن «وما توفيقي إلا بالله»؛ فيشرح التوفيق بموافقة الطاعة للأمر الإلهي وبإعانة

الله العبد على ترك المعصية. هذا بيان لمعنى الآية، لا حدث جديد في سيرة شعيب، ولا يسقط مسؤولية الإنسان. وينقل البرهان هذا الخبر عند هود ضمن الأخبار ٥١٦٢-٥١٦٦.

وينقل نور الثقلين عند هود ١١:٩٣، الخبرين ٢٠١-٢٠٢، عن العياشي وعن كمال الدين، استشهاد الإمام الرضا بقول شعيب في الانتظار. وفي كمال الدين، باب ٥٥ ح٥، حضّ على الصبر وانتظار الفرج؛ والطريق يشتمل على سهل بن زياد، فلا يُختزل بحثه في وصف الصحة. نفرق بين سياق الآية الأصلي في انتظار حكم الله بين شعيب وقومه وبين تطبيقها الوعظي اللاحق. ويورد نور الثقلين أيضًا خبر لقب «خطيب الأنبياء» نقلًا عن مجمع البيان عن النبي من غير إظهار سند متصل في هذا الموضع؛ فلقب الخطيب ليس مقصورًا على نقل وهب، ولا يثبت حديثًا صحيحًا بمجرد تكراره.

يوم الصيحة: خبر لا يحدد تاريخًا

يورد نور الثقلين عند هود، الخبر ٢٠٤، مقتطفًا من عيون أخبار الرضا، في أسئلة الشامي لأمير المؤمنين، يربط الصيحة بيوم الأربعاء. لا يذكر القرآن يومًا من الأسبوع ولا تاريخًا للعذاب. والمقتطف المختصر لا يكفي وحده لتعيين كل واقعة صيحة باسم قومها؛ لذلك يثبت هنا بوصفه مادة روائية مرتبطة بالتفسير، ولا تبنى عليه روزنامة تاريخية أو اعتقاد أن كل أربعاء مشؤوم.

المؤمنون والملأ والرهط — أشخاص لا تسميهم الآيات

تفصل الأعراف (٧:٨٦-٩٣) بين الذين آمنوا بشعيب والملأ المستكبرين الذين هددوه وأتباعه بالإخراج، ونادوا المؤمنين بالخسارة إذا اتبعوه. وتذكر هود (١١:٩١-٩٢) رهطه الذي امتنعوا لأجله عن رجمه، مع أن القوم لم يجعلوا الله عزيزًا عندهم. هؤلاء أطراف مؤثرة في حكاية الهداية: المؤمنون نجوا معه بنص هود (١١:٩٤)، لكن القرآن لا يذكر أسماءهم أو عددهم، ولا يسمّي زعيم الملأ ولا أفراد الرهط، ولا يصح تحويل القرابة القبلية إلى شهادة إيمان. أما قول شعيب «وما قوم لوط منكم ببعيد» (١١:٨٩) فهو إنذار بمصير معروف، ولا يحدد وحده سنوات المعاصرة أو مسار هجرة شعيب.

خبر النسب والهجرة والملك — تفصيل من وهب لا يرفعه القرآن إلى اليقين

يسوق الراوندي في «قصص الأنبياء» (الخبر ١٥٩، ص١٤٦-١٤٧ في النسخة المشار إليها) عن وهب بن منبّه خبرًا يجعل شعيبًا وأيوب وبلعم من نسل رهط آمنوا بإبراهيم وهاجروا معه إلى الشام، ويذكر مصاهرة بنات لوط، وملكًا أمر باحتكار الطعام ونقص الميزان. أما خبر أهل البيت الذين وفّوا الكيل فنجوا فيرد في الخبر السابق ١٥٨ عن ابن عباس، وليس ضمن خبر وهب ١٥٩. هذه تفاصيل عن النسب والنساء والسلطة والمؤمنين ذات صلة بموضوع الفصل، لكنها تمر بطريق عبد المنعم بن إدريس عن أبيه إلى وهب، وليست حديثًا مرفوعًا إلى أحد الأئمة. ولا يسمّي النص امرأة شعيب أو بناته تسمية موثوقة، ولا يقدم نسبًا متفقًا عليه. نعرض مضمون الخبر بوصفه رواية تاريخية في مصدر

إمامي، ونثبت من القرآن أصل الدعوة إلى العدل والنجاة، دون القطع بالملك الموصوف أو أسماء الأسر أو العمر المذكور في خبر آخر.

أسماء النسب والابنتين: حفظ الاختلاف دون ترجيح متكلف

يسوق مجمع البيان عند الأعراف ٧:٨٥ أنسابًا مختلفة: شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم عن عطاء، وشعيب بن بويب عن قتادة، وشعيب بن ميكيل بن يشحب بن مدين بن إبراهيم عن ابن إسحاق، مع قوله إن أم ميكيل بنت لوط. ويورد عند ٧:٨٦ عن ابن عباس مصاهرة مدين لبنت لوط. هذه أقوال تفسيرية مسماة المصادر، وليست جميعها أحاديث عن أهل البيت ولا سلسلة نسب متفقًا عليها. ولا يصح دمجها في نسب واحد أو تحويل بنت لوط في كل طريق إلى زوجة شعيب أو أمه.

وفي مجمع البيان عند القصص ٢٨:٢٦: صفورة للزوجة وليا للأخرى، ثم قول آخر بأن الكبرى صفراء والصغرى صفيراء. وفي موضع الأب عند ٢٨:٢٥ يذكر قول وهب وسعيد بن جبير إنه يثرون ابن أخي شعيب، وقولًا باسم يثروب، وقولًا بأن ذلك اسم لشعيب نفسه. يحفظ الفصل اختلاف الرسوم والهويات، ولا يختار للابنة الثانية اسمًا قطعيًا أو يساوي تلقائيًا بين كل هذه الأسماء. وتبقى صيغة «صفراء بنت شعيب» في كمال الدين خبرًا بعينه، لا استدراكًا على سكوت القرآن.

صفراء في الأخبار المتأخرة عن زمن موسى

لئلا يسقط ذكر النساء، تُسجل إشارتان خارج زمن دعوة مدين: خبر كمال الدين عن خروج صفراء زوجة موسى على يوشع بن نون بعد وفاة موسى، ثم حسن معاملته لها بعد الغلبة، ويُبحث تفصيله وسنده في فصل يوشع؛ وخبر ولادة فاطمة الزهراء الذي ترد فيه صفراء بنت شعيب ضمن أربع نسوة مع سارة وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران، عند خديجة. يلفت مستدرك سفينة البحار، ج٦ ص٢٩٦، إلى أن هذا النقل عن العدد، بينما يرد في أمالي الصدوق اسم كلثم أخت موسى بدل صفراء، ويحيل إلى بحار الأنوار ج١٦ ص٨٠ وج٤٣ ص٢. هذه معارضة في تعيين المرأة الرابعة؛ فلا نجمع الاسمين كأن الخبر سمّى خمس نسوة، ولا نجعل هذه الإشارة المتأخرة دليلًا مستقلًا على كل تفاصيل زواج موسى. إحالة مستدرك السفينة هنا نقل مقارن، لا دعوى فحص مستقل لسند كتاب العدد.

الميلاد والأسرة والوفاة — حدود الأخبار

يثبت القرآن دعوة شعيب ونجاته مع المؤمنين (هود ١١:٩٤؛ وانصرافه في الأعراف ٧:٩٣)، ولا يحدد سنة ميلاده أو عمره أو موضع وفاته وقبره، ولا يذكر اسم زوجته أو عدد بنيه وبناته. كما لا يسمّي أبا الفتاتين في القصص ٢٨ شعيبًا. وأسماء النسب والأسرة المتداولة في كتب التفسير والتاريخ ليست درجة واحدة من الثبوت؛ نعرضها، إذا استعملناها، بأسانيدها لا على أنها نص قرآني. ولا نحول غياب التفاصيل إلى سيرة متخيلة.

سجل الشخصيات وصلتها بالفصل

في صلب القصة القرآنية: شعيب، والمؤمنون معه، والملأ المكذبون، ورهطه، وأهل مدين وأصحاب الأيكة. وفي مشهد مدين المتصل بموسى: موسى، والأب الشيخ، والفتاتان، والرعاة، وأهل موسى عند الرحيل. وفي إنذاره لقومه: نوح وهود وصالح ولوط وأقوامهم، وهي إحالات إلى أمم سابقة وليست حضورًا شخصيًا في مجلس شعيب. لا تعطينا الآيات أسماء المؤمنين أو رؤساء الملأ أو الرعاة.

وفي الأخبار التي يعالجها الفصل: آدم في خبر العصا، وإسماعيل في خبر الأنبياء العرب، ويوسف وبثريا في الوصاية قبل شعيب، ويوشع بعد موسى، وإبراهيم وأيوب وبلعم وبنات لوط في خبر وهب، وأسماء آباء شعيب المختلف فيها كما تقدم، والملك غير المسمى وأهل البيت الناجون في خبر ابن عباس، وشعيب بن صالح، وسهل بن سعيد، وهشام بن عبد الملك في خبر القبر. لا يُساوى شعيب بن صالح بالنبي شعيب، ولا تثبت له وصاية أو صلة بأخبار آخر الزمان لمجرد تشابه الاسم.

وفي قصة الإمام الباقر بمدين: الإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق في طريق الراوندي، وهشام بن عبد الملك، وأهل المدينة وتجارها، والشيخ الناصح غير المسمى، ووالي المدينة، وأبو بكر الحضرمي راوٍ لطريق الكافي. وترد في الروايات التفسيرية أقوال النبي محمد، وأمير المؤمنين علي، وزين العابدين، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والقائم في خبر العصا. هم مصادر تفسير أو أطراف أخبار لاحقة، لا أشخاص معاصرون لشعيب.

وفي سجل النساء: ابنتا صاحب مدين أولًا دون تسمية قرآنية، وصفورة/صفراء وليا وصفيراء أسماء مختلفة في المنقول، وبنات لوط في روايات النسب، وزوجة شعيب التي لم يثبت في المادة المقابلة اسم لها، ثم خديجة وفاطمة وسارة وآسية ومريم وكلثم في المقارنة الروائية السابقة. ويُحفظ للمرأة غير المسماة دورها دون اختراع اسم أو نسب. أما رواة الأسانيد فلا يُحوّلون جميعًا إلى شخصيات في زمن القصة، ترد أسماؤهم عند الحاجة إلى تعيين الطريق ومناقشة نسبته.

حدود الاستقصاء في هذه المراجعة

جُمعت مواضع القرآن المتصلة بشعيب ومدين والأيكة، وقوبلت الإضافات بمواضعها من الكافي، وعلل الشرائع، والتوحيد، وكمال الدين، وقصص الأنبياء، وبالنقول المبينة من التفاسير الإمامية: القمي والعياشي والتبيان ومجمع البيان والصافي والبرهان ونور الثقلين والميزان وكنز الدقائق. ترد مواضع الإحالة في المتن والمراجع، ولا يعني ذلك قراءة كل مجلد من هذه المصنفات أو تصحيح كل مروياتها. وما نُقل بواسطة تفسير أو جامع، مثل بعض أخبار الفقيه وعيون الأخبار والعدد، صُرّح بوسيطه. لم تُثبت سنة مولد أو وفاة، أو اسم زوجة، أو عدد أولاد، أو قبر يقيني، لعدم قيام دليل كافٍ في المادة المقابلة. هذه مراجعة مكتملة لمادة الفصل والمصادر المحددة هنا، وليست دعوى إحاطة بجميع المخطوطات والطبعات أو انتهاء البحث الرجالي في كل سند.

خاتمة الفصل الحادي والعشرين — من ميزان السوق إلى عصا موسى

شعيب دعا إلى التوحيد.

واجه الغش.

دافع عن أموال الناس.

رفض الإرهاب والصد عن سبيل الله.

طلب الإصلاح.

نجا مع المؤمنين.

وتنسب رواية الوصاية، مع حاجتها إلى تحقيق الإسناد، انتقال العهد منه إلى موسى.

أما كونه والد زوجة موسى فهو مسألة مستقلة لا يحسمها القرآن.

والآن نصل إلى مولد موسى نفسه، حيث يبدأ وعد الله للمستضعفين داخل بيت امرأة خائفة على رضيعها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: الأعراف ٧:٨٥–٩٣؛ التوبة ٩:٧٠؛ هود ١١:٨٤–٩٥؛ الحجر ١٥:٧٨–٧٩؛ طه ٢٠:٤٠ (مقام موسى بمدين)؛ الحج ٢٢:٤٤؛ الشعراء ٢٦:١٧٦–١٩١؛ القصص ٢٨:٢٢–٢٩، ٤٥ للمقارنة؛ العنكبوت ٢٩:٣٦–٣٧؛ ص ٣٨:١٣–١٤؛ ق ١٤:٥٠.

ابن بابويه القمي، الإمامة والتبصرة من الحيرة، باب الوصية من لدن آدم، الخبر ١، ص٢٣ في طبعة مقابلة، وفيه «بثريا»؛ والصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، خبر اتصال الوصية، ص٢١٢ في طبعة مؤسسة آل البيت؛ والطبري الإمامي، بشارة المصطفى، الخبر ٨٧، ص١٣٦–١٣٧: مواضع متصلة لطريق الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان، مع اختلاف رسم الاسم؛ لا تعد شواهد مستقلة دون تحقيق.

الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء، الخبر ١، ص٢٣١ في طبعة الغفاري: انتقال عصا آدم إلى شعيب ثم موسى؛ السند يحتاج دراسة رجال كل طبقاته؛ وله أيضًا ج١، كتاب الحجة، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، الخبر ٥، قصة الإمام الباقر في مدين وتلاوته آية «بقية الله»، وسندها يحتاج تقويمًا. العياشي، تفسير العياشي، ج٢، ص١٥٩، الخبر ٦١، تفسير «إني أراكم بخير» برخص السعر؛ في الطريق راوٍ مبهم. القمي، تفسير القمي المطبوع، ج١، ص٣٣٧ و٣٧٧، مدين والأيكة وما ورد في ضعف شعيب؛ تُنسب المادة إلى التفسير المطبوع دون دعوى صحة إسناد كل فقرة.

الراوندي، قصص الأنبياء، باب نبوة شعيب، الخبر ١٥٣ (ص١٤٢) في المكيال؛ والخبر ١٥٤ (ص١٤٢-١٤٣) في الحكاية التاريخية؛ والأخبار ١٥٦-١٥٩ (ومنها الخبر ١٥٩، ص١٤٦-١٤٧) في العبادة والعمر والنسب، مع اختلاف الطرق؛ والخبر ١٦١ (ص١٥٢) عن الإمام الرضا في الابنة والعصا.

الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب وفاة موسى وغيبة الأوصياء من بعده، الخبر ١٧، ص١٥٣-١٥٥ في الطبعة المقابلة: «صفراء بنت شعيب»، ضمن خبر ممتد إلى يوشع، يُفحص سنده ولا يُنسب إلى القرآن.

مواضع المصادر الإلكترونية المقابلة

علل الشرائع: باب خدمة موسى لشعيب، ح١

الكافي: ج٥ ص٥٥-٥٦، الأمر بالمعروف، ح١

التوحيد: باب تفسير الهدى والضلال والرشاد والخذلان، ح١

كمال الدين: باب٥٥ ح٥، الصبر وانتظار الفرج

مجمع البيان: الأعراف ٨٥:٧-٨٧، الأنساب والبينات

مجمع البيان: القصص ٢٢:٢٨-٢٥، الأب والضيافة

مجمع البيان: القصص ٢٦:٢٨-٣٠، الأسماء والأجل

التبيان: الشعراء ١٧٦:٢٦-١٩١، الأيكة

الصافي: القصص ٢٤:٢٨-٢٨، جمع روايات اللقاء

البرهان: هود، الأخبار ٥١٦٢-٥١٦٦

نور الثقلين: هود ٩٣:١١ وما يتصل بها، الأخبار ٢٠١-٢٠٤

الميزان: القصص ٢٢:٢٨-٢٨، الأب والعقد

كنز الدقائق: ج١٠ ص٦٠، الحج والإجارة والبكاء

مستدرك سفينة البحار: ج٦ ص٢٩٦، اختلاف اسم المرأة الرابعة

قصص الأنبياء: الأخبار ١٥٣-١٥٥، المكيال والقبر

قصص الأنبياء: الأخبار ١٥٦-١٦١، العبادة ومدين والعصا

الفصل ٢٢ — موسى عليه السلام — الميلاد والنجاة

من شعيب إلى موسى — نبي يولد داخل مشروع إبادة

تبدأ قصة موسى قبل أن يتكلم.

فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم.

لكن سورة القصص تقابل مشروع السلطة بإرادة الله:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾.

ثم يولد الطفل الذي سيصبح رسولًا، في بيت خائف، وتبدأ الهداية بوحي إلى أم لا تحمل جيشًا ولا سلطة.

موسى في القرآن — خريطة مرحلة الميلاد والنشأة

القصص ٢٨:٣-١٤: استضعاف بني إسرائيل، إرادة الله، الوحي إلى أم موسى، إلقاؤه في اليم، التقاط آل فرعون، امرأة فرعون، تحريم المراضع، أخت موسى، رده إلى أمه، ثم بلوغه الأشد وإيتاؤه الحكم والعلم.

طه ٢٠:٣٧-٤٠: تذكير موسى بالمنن السابقة: الوحي إلى أمه، القذف في التابوت واليم، إلقاء المحبة، مشي أخته، الرد إلى أمه، قتل النفس، النجاة من الغم، الفتون، والإقامة في أهل مدين ثم المجيء على قدر.

البقرة ٢:٤٩ وإبراهيم ١٤:٦: تذكير بني إسرائيل بذبح الأبناء واستحياء النساء.

الشعراء ٢٦:١٨-٢١: شهادة الحوار اللاحق على سنوات التربية في بيت فرعون، والخوف والفرار، ثم الحكم والرسالة. وتقارن الإشارة إلى عقدة اللسان في طه ٢٠:٢٧ وبلاغة هارون في القصص ٢٨:٣٤ بخبر الجمرة دون أن تثبتا سببه.

التحريم ٦٦:١١: امرأة فرعون نموذج للمؤمنين، ودعاؤها بالبيت في الجنة والنجاة من فرعون وعمله وقومه الظالمين.

هذه هي البنية القرآنية الأساسية لهذه المرحلة.

استكمال مواضع القرآن وحدود المرحلة

تُقرأ القصة المتصلة كاملة في القصص ٣-٢٨، وتُقابل بطه ٣٧-٤٠. ويضم التذكير بالاضطهاد البقرة ٤٩ وإبراهيم ٦ والأعراف ١٤١. وفي الشعراء ١٨-٢٢ يرد احتجاج فرعون بالتربية وجواب موسى؛ فالآية ٢٢ تربط تلك المنّة باستعباد بني إسرائيل، فلا تُروى التربية إحسانًا منفصلًا عن نظام القهر.

والتحريم ١١ يثبت إيمان امرأة فرعون ودعاءها، مع كونه شاهدًا من مرحلة لاحقة. أما بدء النداء في القصص ٢٩ وطه ٩ وما بعدها فحدّ الانتقال إلى الفصل التالي.

فرعون يصنع الخوف والله يعد بالتمكين

تبدأ القصص (٢٨:٣-٦) بالإعلان أن الخبر يُتلى بالحق لقوم يؤمنون، ثم ترسم سياسة فرعون: علا في الأرض، وجعل أهلها شيعًا، واستضعف طائفة يذبح أبناءها ويستحيي نساءها. النساء هنا شهود على القهر ولسن تفصيلًا ثانويًا، والآية لا تسمّي فرعون باسمه الشخصي ولا تحدد سنة للمذبحة. مقابل ذلك ترد إرادة الله أن يمنّ على المستضعفين ويجعلهم أئمة ووارثين، وأن يري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون. هذه بشارة بالنتيجة قبل أن يولد موسى في السرد، وليست تصريحًا بأن الطفل تولى منصب الإمامة منذ المهد.

من يوسف إلى عمران ولاوي — رواية اتصال لا نسب قرآني مفصل

يقدّم الراوندي في «قصص الأنبياء» الخبر ١٦٠، بطريقٍ يبدأ بالصدوق ثم سعد بن عبد الله وأحمد بن محمد بن عيسى والبزنطي وأبان بن عثمان ومحمد الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام، قولًا منسوبًا إلى يوسف عند وفاته عن استضعاف آل يعقوب ونجاتهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب، ويسميه «موسى بن عمران بن فاهث بن لاوي». يحمل الخبر ذاكرة انتظار المخلّص في بني إسرائيل وصلة يوسف بموسى عبر النسب، ولا يصح أن نستخرج منه أسماء جميع حملة الوصية بينهما أو نجزم بتفاصيل النسب بمجرد وروده. ويتحول النص بعد ذلك بلفظ «فذكر أبان» إلى طريق آخر عبر أبي الحصين وأبي بصير؛ يجب إبقاء هذا التحول الإسنادي واضحًا عند نقل أحداث الحمل والولادة. سبق تناول حملة العهد بين يوسف وموسى في الفصل ١٩، فنذكر هنا ما يمهّد للميلاد فقط.

مقابلة «كمال الدين» بـ«قصص الأنبياء» — اختلافات لا تُطمس

يروي الصدوق في «كمال الدين وتمام النعمة» (ج١، باب غيبة موسى، الخبر ١٣) عن الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام صدرَ خبر يوسف وانتظار موسى، ثم ينتقل بلفظ «فذكر أبان بن عثمان» إلى أبي الحسين/الحصين، عن أبي بصير، عن الإمام الباقر عليه السلام في طبعة الصدوق المراجعة. أما طبعة «قصص الأنبياء» للراوندي (الخبر ١٦٠) فتسوق المقطع الثاني منسوبًا إلى الإمام الصادق، وتزيد في أول نسب موسى «بن فاهث»، وتقول إن مدّعي اسم موسى قبل ظهوره ثمانون؛ وفي «كمال الدين» هم خمسون. هذا اختلاف نصي وإسنادي في مادة متقاربة، لا خبران متفقان في كل حرف. نثبت أصل تداول انتظار المولود في الرواية، ولا نجزم بعدد المدّعين ولا بالجد الزائد ولا بنسبة كل تفصيل إلى إمام واحد من غير مقابلة النسخ وتقويم الطريق. ولا يذكر القرآن عدد المدّعين أصلًا؛ فتظل قصة القابلة والكهنة وأسماؤهم خارج دائرة المتيقن القرآني.

القابلة التي كتمت الولادة — شخصية تحفظها الرواية

في امتداد الخبر ١٦٠ من «قصص الأنبياء» (ص١٤٩-١٥١)، يتحدث الطريق الثاني المنسوب في طبعة الراوندي إلى الإمام الصادق؛ وفي «كمال الدين» للصدوق إلى الإمام الباقر عن قابلة عُهد إليها بمراقبة أم موسى. لما رأت المولود وعدت الأم أن تكتم أمره، ثم أبعدت الحرس بخبر مغاير. يثبت القرآن سياسة قتل الأبناء ونجاة الطفل، لكنه لا يذكر قابلة ولا اسمها ولا حوارها؛ لذلك تسجل هذه المرأة بوصفها شخصية روائية محتملة في مسار الحفظ، لا شاهدًا قرآنيًا. وفي الخبر أيضًا تقدير الكهنة لمولد من يهدد فرعون وتعدد مدّعي الاسم؛ وهي تفاصيل لا تُحمل على اليقين ولا يلزم منها معرفة فرعون بالطفل قبل التقاطه.

أم موسى — وحي الإلهام لا نبوة

قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

الوحي هنا لا يثبت لها النبوة.

القرآن يستعمل الوحي أيضًا للإلهام والتوجيه في مواضع أخرى.

المعنى الثابت أن الله هدى أم موسى إلى خطة لا يمكن للمنطق البشري المجرد أن يختارها بسهولة:

أرضعيه،

فإذا خفت عليه فألقيه في اليم،

ولا تخافي ولا تحزني،

إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

القلب الذي كاد أن يفضح السر

قال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

القرآن لا يجرد الأم من مشاعرها ليجعلها مؤمنة.

الإيمان هنا يعيش داخل الخوف.

وربط الله على قلبها لا يعني أنها لم تحزن، بل أن الحزن لم يهدم التكليف.

أخت موسى — مراقبة من بعيد

قالت الأم لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾.

فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون.

ثم كان لها دور في إعادة موسى إلى أمه حين قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

القرآن لا يسمي أخت موسى.

وهذا يمنعنا من إدخال اسم تاريخي في النص بلا دليل.

لكن دورها نفسه واضح: ذكاء، ضبط للنفس، ومشاركة في النجاة.

امرأة فرعون — آسيا في الروايات

حين عثر آل فرعون على الطفل قالت امرأته:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

والقرآن يعود إليها في التحريم ٦٦:١١ بوصفها مثالًا للمؤمنين:

﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾.

القرآن لا يسميها «آسية».

الاسم محفوظ في الروايات الإسلامية والإمامية.

إذن نقول:

امرأة فرعون في القرآن،

وآسية بحسب الروايات.

خبر الجمرة والدينار — لا نجعل الرواية سببًا قرآنيًا للعقدة

في «قصص الأنبياء» للراوندي، الخبر ١٦٢ (ص١٥٢-١٥٣)، نقلٌ عن الإمام الصادق عليه السلام بطريق فيه «ابن أبي عمير، عمّن ذكره»: أن موسى أمسك بلحية فرعون وهو طفل، فأراد فرعون قتله، فاقترحت امرأته امتحانه بجمرة ودينار، فوضع يده على الجمرة ثم على لسانه، فكانت له «لغثة» بحسب النص. هذا خبر مرسل لوجود «عمّن ذكره»، وفي نسخه اختلاف في كلمة تتصل بإفلات اللحية. يذكر القرآن دعاء موسى لاحقًا ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (طه ٢٠:٢٧) و﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ (القصص ٢٨:٣٤)، لكنه لا يذكر جمرة أو دينارًا أو سبب العقدة، ولا يجيز نسبة الحادثة إلى القرآن. تستحق الرواية الذكر في طفولته مع درجتها، ثم يحال تحليل فصاحته وتعضيد هارون له إلى فصل الرسالة.

اختلاف خبر القمي عن خبر الراوندي

في تفسير القمي، ج٢، ص١٣٥-١٣٦، يرد إخفاء الحمل، وحراسة النساء القبطيات لنساء بني إسرائيل، وتعاطف الموكّلة بالأم، وإنزال التابوت عليها، والتقاطه عند قصر فرعون. ويذكر الخبر أن بعض المرضعات فقدن أولادهن بالقتل، ثم عطاس موسى وحمده لله وغضب فرعون، واختبار التمر والجمر، وتدخل جبرئيل في صرف اليد. أما خبر الراوندي ١٦٢ ففيه الدينار والجمرة ولم يذكر تدخل جبرئيل، وطريقه يتضمن «عمن ذكره». وفي الخبر المطوّل الآخر نساء من بيوت رجال القصر يعرضن الرضاع. نُثبت هذه الفروق في الرواية المنسوبة إلى مصدرها؛ ولا يُصنع منها تسلسل واحد يجمع التمر والدينار والنساء جميعًا. جبرئيل هنا شخصية في الخبر الروائي، لا في نص آيات طفولة موسى.

بيت فرعون يربي من سيهدم دعواه

قال الله:

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

اللام هنا تكشف مفارقة القدر:

البيت الذي يقتل الأطفال خوفًا من المستقبل صار بيتًا التقط الطفل الذي سيواجه فرعون. وتختم الآية ٢٨:٨ بذكر فرعون وهامان وجنودهما وأنهم كانوا خاطئين؛ ثم دافعت امرأة فرعون عن الطفل قائلة إنه قرة عين لها وله، ونهت عن قتله ورجت نفعه أو اتخاذه ولدًا، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٨:٩). تثبت الآية رجاء التبني، ولا تجزم بأن موسى صار ابنًا بالنسب أو أن فرعون آمن به.

لا يعني ذلك أن الأسرة أرادته عدوًا؛ بل إن النتيجة الإلهية قلبت حساباتهم.

تحريم المراضع ورد موسى إلى أمه

قال تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

رفض الطفل المراضع حتى جاءت أخته بالدلالة على أهل بيت.

ثم قال الله:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

القصة لا تنتهي بنجاة الطفل فقط.

عاد الطفل إلى أمه كما وُعدت، لتقرّ عينها ولا تحزن وتعلم أن وعد الله حق؛ وتختم الآية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص ٢٨:١٣). لا تحدد الآية أجرة الرضاعة أو عقدًا مع القصر.

كم غاب عن أمه؟ خبر الثلاثة أيام وحدود النص

ورد تقدير الغياب بثلاثة أيام في «قصص الأنبياء» للراوندي، الخبر ١٦٤، ص١٥٣، بصيغة مختصرة. وله شاهد مسند في تفسير القمي، ج٢، ص١٣٥–١٣٦: عن أبيه، عن ابن محبوب، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام؛ وفي آخره سؤال محمد بن مسلم عن المدة وجواب الإمام: ثلاثة أيام. فهذا طريق معيّن يمكن دراسته، وليس خبرًا بلا مصدر معروف. ولا يلزم من العثور على السند تصحيح جميع فقرات الخبر الطويل أو القطع بتاريخ المدة؛ القرآن يثبت الرد إلى الأم ولا يحدد عدد الأيام (القصص ١٣؛ طه ٤٠).

أسماء أم موسى وأخته — ماذا نفعل بالروايات؟

كتب القصص والتاريخ تسميهما بأسماء متعددة.

والروايات قد تحفظ بعض الأسماء في طرق مختلفة.

لكن الأسماء ليست جزءًا من القرآن، ولا يحتاج جوهر القصة إليها.

لذلك لا نختار اسمًا واحدًا لمجرد شهرته ونطبعه كحقيقة قطعية.

ضبط الأسماء والأنساب المتداولة

تذكر النقول التاريخية اسم يوخابد لأم موسى، ومعه صيغ مختلفة مثل يوخابيل وبوخائيد، وأسماء أخرى؛ ويعرض المجلسي جانبًا من هذا الاختلاف في بحار الأنوار، ج١٣، ص٤–٥، نقلًا عن الثعلبي وابن الأثير، مع فروق النسخ والحواشي. فهذه مواضع أقوال تاريخية، وليست بمجرد ورودها في البحار حديثًا عن إمام. ويذكر النقل التفسيري مريم أو كلثمة لأخت موسى، في مقابل الخبر الإمامي الذي يذكر كلثوم في أمالي الصدوق الآتي؛ لا نجزم بأن اختلاف الاسم يثبت أختين. كما لا نخلط عمران والد موسى بعمران والد مريم أم عيسى. وفي أنساب موسى تفصيلات مختلفة لأسماء الآباء بين عمران ولاوي؛ يثبت كل نقل بلفظه ومصدره ولا تُركّب منه سلسلة موحّدة بلا حجة.

آسية وكلثوم — اسمان في خبر إمامي متأخر عن قصة الميلاد

يسمي خبر أورده الصدوق في «الأمالي» في قصة ولادة فاطمة الزهراء عليها السلام امرأتين: «آسية بنت مزاحم» و«كلثوم أخت موسى بن عمران» (وفي هامش طبعة «الأمالي»: «كلثم» في نسخة)، ضمن رواية حضور نساء لمؤازرة خديجة. يفيد ذلك في توثيق وجود الاسمين في مصدر إمامي أولي، لكنه خبر عن زمن النبي محمد ﷺ، لا شاهد معاصر على تسمية أخت موسى عند اليم. والقرآن لم يسمِّ امرأة فرعون ولا الأخت؛ فلا نحذف الاسمين مما نقلته الرواية ولا نجزم بهما على أنهما لفظ القرآن، ولا نسوّي ثبوت دور المرأتين في القصص ٢٨ بثبوت هذين الاسمين. أما زواج آسية أو وفاتها وتوقيت إيمانها بالتفصيل، فلا تُحسم من آيتي القصص ٢٨:٩ والتحريم ٦٦:١١ وحدهما.

امرأة فرعون والمراضع في خبر الراوندي — دور النساء في قلب القصر

يزيد خبر الراوندي ١٦٠ على الصورة القرآنية مشاهدًا عن امرأة فرعون، يصفها بالصلاح ويقول إنها التقطت التابوت بنفسها عند النهر، فمال قلبها إلى الطفل حتى أقنعت فرعون بإبقائه. ويعرض إرسال نساء كبار القوم لتكون إحداهن مرضعة، ورفض الطفل الرضاعة، ثم دخول الأخت وإرشادها إلى الأم، واعتراض فرعون أولًا على اجتماع طفل ومرضعة من بني إسرائيل قبل قبوله. المتيقن قرآنًا هو كلمة المرأة «لا تقتلوه»، وتحريم المراضع على الطفل، ودلالة أخته، وردّه إلى أمه (القصص ٢٨:٩-١٣). لا ننسب إلى القرآن تفصيل النهر بوصفه النيل، ولا النزهة الربيعية أو أسماء المرضعات أو حوار الاعتراض، ولا يذكر الخبر أسماء النساء المرافقات على وجه يجيز فصل سيرة مستقلة لهن.

من عرف موسى قبل النداء — الشيخ المجهول في الخبر

يذكر آخر خبر الراوندي ١٦٠ شيخًا من بني إسرائيل عنده علم بوعد مجيء موسى، تعرّف إلى الشاب حين سمع اسمه ونسبه وقبّل يده. لا يسمي الخبر هذا الشيخ، ولا يثبت أنه نبي أو وصي، ولا تُستخرج من تعرّفه سلسلة وصاية جديدة. وفي الخبر أن أم موسى والقابلة ماتتا بعد أن كُتم أمره في القصر، لكن القرآن لا يحدد وفاة الأم أو القابلة ولا زمن ذلك؛ فلا نحول هذا السطر إلى تأريخ محسوم. وظيفة الخبر هنا تبيين انتظار بني إسرائيل وحفظ الخبر في الذاكرة، بينما خبر الله في طه ٢٠:٣٩ يؤكد «وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني»، وهو وصف قرآني للرعاية لا تحديد بشري لهوية كل راعٍ.

هارون في بيت موسى — ما يثبت وما يؤجل

ينص القرآن على أخوّة هارون لموسى في دعائه اللاحق ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي﴾ (طه ٢٠:٢٩-٣٠)، وعلى طلب إرساله معه لأنه أفصح لسانًا (القصص ٢٨:٣٤). هذا يكفي لإثبات هارون شخصيةً أساسية من أسرته، لكنه لا يروي ولادته أو موضعه عند إلقاء موسى في اليم. وفي فقرة مرقمة ١٦٥ من «قصص الأنبياء» للراوندي (ص١٥٣-١٥٤) جواب بأن هارون كان أكبر من موسى ومات قبله، وتسمي ابنيه شبيرًا وشبرًا. لا يظهر في هذا الموضع إسناد مستقل متصل للسؤال والجواب، فلا ننقل السنّ أو اسمي الابنين بوصفهما حقائق قرآنية أو معلومات مقطوعًا بها. نثبت وجود الخبر ونؤجل تفصيل دور هارون في الرسالة ووفاته إلى الفصول الخاصة به؛ كما نؤجل وصية موسى إلى يوشع إلى موضعها، ولا نجعل صلة الأخوة دليلًا تلقائيًا على انتقال العهد بعد الوفاة.

صلة هارون وأبناء الأسرة

يزيد خبر محمد بن مسلم عن الإمام الباقر في تفسير القمي، ج٢، ص١٣٦-١٣٧، أن هارون أخو موسى لأبيه وأمه وأنه أكبر منه. وفي آخره نفي الولد عن موسى وإثبات الذرية لهارون. لا يحوَّل هذا

التفصيل إلى حقيقة قرآنية أو إجماع؛ فمرويات الرحلة اللاحقة تذكر حمل الزوجة أو مخاضها، مما يحتاج إلى مقابلة مستقلة في فصل العودة. وابنا هارون شبر وشبير مذكوران أيضًا في خبر أبي بلال المكي عن الإمام الصادق بشأن موضع صلاتهما، ورد في الكافي، ج٤، ص٢١٤، كتاب الحج، باب حج الأنبياء عليهم السلام، ح٩، ونقله المجلسي (بحار الأنوار ١١:١٣، الخبر ١٧). يذكران هنا في صلة الأسرة، ولا يجعلان شاهدين على طفولة موسى بلا نص.

الفقيه الذي حفظ خبر الموعود — رواية أخرى ذات مشهدين

في «كمال الدين وتمام النعمة» للصدوق (ج١، باب ٦، الخبر ١) رواية مرفوعة إلى النبي ﷺ عبر الأئمة عليهم السلام تصف انتظار بني إسرائيل رجلًا من ولد لاوي بعد وصية يوسف، وتذكر فقيهًا لم تسمّه كان يحدّثهم بصفته ويطمئنهم حين اشتد الاضطهاد. في المشهد الأول يلقى الفقيه موسى الشاب الخارج من دار فرعون، فيتعرف إليه بالصفة، ثم يمضي موسى بعد ذلك إلى مدين. وفي المشهد الثاني، بعد غيبته عنهم وعودته رسولًا، يسأله الفقيه عن نسبه وما جاء به، فيجيب بأنه جاء بالرسالة؛ وهذه واقعة لاحقة تذكر هنا فقط لئلا ندمج اللقاءين، ويأتي تفصيلها في فصل البعثة. يذكر الخبر مددًا طويلة للانتظار وتخفيفًا متتابعًا للفرج على أثر أجوبة القوم، لكن لا تثبت هذه الأرقام من القرآن، ولا يجعل النص الفقيه نبيًا أو وصيًا مسمّى. وفي إسناده أسماء تحتاج بحثًا رجاليًا، ومنهم سهل بن زياد؛ فلا نرفع الخبر إلى مرتبة التاريخ المقطوع به. وقد يكون هذا الفقيه قريبًا من صورة الشيخ المجهول في خبر الراوندي ١٦٠، غير أن اتحاد الشخصين غير منصوص عليه، فلا ندمجهما بلا دليل.

شهادة لاحقة على سنوات القصر — الشعراء ٢٦:١٨-٢١

حين واجه موسى فرعون بعد البعثة، ذكّره فرعون بتربيته طفلًا في بيته وبمكثه بينهم سنين، ثم ذكّره «فعلتك التي فعلت» (الشعراء ٢٦:١٨-١٩). أجاب موسى بأنه فعلها يومئذ ثم فرّ حين خافهم، وأن ربه وهب له الحكم وجعله من المرسلين (٢٦:٢٠-٢١). نضع هذه الآيات هنا لأنها تثبت من القرآن مرحلة التربية الطويلة في محيط فرعون والخوف الذي أعقب الحادثة، وإن جاء الحوار نفسه بعد النبوة. لا تمنحنا كلمة «سنين» عددًا محددًا، ولا تجيز أن نرتب طفولته سنةً بعد سنة من رواية منفردة. وهي تبيّن انتقالًا في سيرته: حكم وعلم عند بلوغ الأشد في القصص ٢٨:١٤، ثم فرار ومقام مدين، ثم جعل من المرسلين بعد ذلك؛ ولا نمحو فرق السياقات.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ — خلاصة المحن قبل الرسالة

في خطاب الله لموسى عند تكليفه، تُستعاد مراحل حياته بصيغة المخاطب: الوحي إلى أمه، حمل التابوت في اليم، محبة ألقيت عليه، عودة الرضيع إلى أمه، قتل النفس والنجاة من الغم، ثم ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه ٢٠:٣٧-٤٠). «الفتون» لفظ قرآني جامع للابتلاء والتمحيص في سياق المنن والنجاة، لكنه لا يعدّد محنةً مستقلة لكل سنة ولا يحدد زمن

المكث في مدين بعدد معلوم. و«جئت على قدر» وصف لبلوغ ميعاد النداء، لا دليل منه وحده على تفاصيل طريق العودة أو عمر موسى حينئذ. يجمع هذا الاسترجاع الأم والأخت والقصر والمدينة ومدين في مسار رعاية واحد، من غير أن يمحو استقلال مشهد كل منها في القصص ٢٨ أو يضيف شخصيات غير مسماة. لذلك لا نحول قول «سنين» إلى ثماني أو عشر سنوات إلا عند بحث عقد الإجارة في القصص ٢٨:٢٧-٢٨ والروايات الخاصة بما قضى موسى منهما.

بلوغ موسى وإيتاؤه الحكم والعلم

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

قبل مشهد القتل والخروج إلى مدين، يثبت القرآن أن موسى دخل مرحلة النضج وقد آتاه الله حكمًا وعلمًا.

وهذا يمنع قراءة شبابه كمرحلة بلا هداية.

المحبة والرعاية والعمر عند بلوغ الأشد

المحبة الملقاة على موسى في طه ٣٩، وصنعه على عين الله، تدلان في سياق النجاة على العناية والحفظ، ولا تحمل العين هنا على جارحة أو تشبيه الخالق بخلقه. ولا تعني محبة الطفل تصديق فرعون أو زوال ظلمه. أما القصص ١٤ فتثبت بلوغ الأشد والاستواء وإيتاء الحكم والعلم دون رقم للعمر. وفي معاني الأخبار للصدوق، باب معنى الأشد والاستواء، خبر عن الإمام الصادق يفسر الأشد بثماني عشرة سنة والاستواء بالالتحاء؛ نقله البحار ١٣:٤٩، الخبر ١٩. وفي التفسير أقوال أخرى، منها ثلاث وثلاثون وأربعون؛ فلا يُفرض عمر واحد على جميع النصوص، ولا يُستدل من اختلافه على اختلاف الشخص.

وكزة موسى واستغفاره — النص القرآني وقراءة الإمام الرضا

دخل موسى المدينة فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما من شيعته والآخر من عدوه، فاستغاثه الأول فوكز الآخر فقضى عليه، ثم دعا ربه وأعلن أنه لن يكون ظهيرًا للمجرمين (القصص ١٥-١٧). وفي «عيون أخبار الرضا»، ج١، باب ١٥، الخبر ١، عن علي بن محمد بن الجهم، يفسر الإمام الرضا عليه السلام عمل الشيطان بالاقتتال بين الرجلين، ويبين أن موسى قضى على العدو بحكم الله، وأن طلب المغفرة هنا طلب الستر من الأعداء بعد تعريض نفسه لخطر المدينة. ونقل السيد المرتضى في «تنزيه الأنبياء»، في مسائل موسى، وجهًا آخر: أنه قصد دفع الظالم ونصرة المستغيث ولم يقصد إزهاق النفس، فوقع الموت من المدافعة. كلا التوجيهين ينزّه النبي عن تعمد المعصية، مع اختلاف تفسير الواقعة؛ فلا ينسب الفصل إلى موسى قتلًا عدوانيًا ولا يجعل ضعف طريق بعينه نقضًا لأصل العصمة. والآيات لا تسمي

الرجلين. وفي اليوم التالي تكرر استصراخ الرجل نفسه، وورد توبيخه وخبر التهديد بالقتل (٢٨:١٨-٢٠). انظر أيضًا بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٢-٣٦، حيث نُقلت المناقشة ومصادرها.

الرجل الذي جاء من أقصى المدينة

في اليوم التالي رأى موسى المستصرخ نفسه يخاصم رجلًا آخر، فقال له إنه غوي مبين (القصص ٢٨:١٨). وحين أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ورد قول «يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس» (٢٨:١٩). لا يصرح تركيب الآية باسم القائل؛ لذلك لا ننبني تحديد هويته أو طريق انتشار الخبر على هذا الموضع وحده. ثم جاء رجل من أقصى المدينة يسعى وأخبر موسى أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه، ونصحه بالخروج (٢٨:٢٠). هويته ونسبه ومرتبته الدينية غير مذكورة هنا؛ فلا نجعله وصيًا ولا نطابقه قطعًا مع «رجل مؤمن من آل فرعون» الذي يذكره القرآن في خطاب لاحق (غافر ٤٠:٢٨) بمجرد التشابه. هذا الرجل المجهول أدى دورًا ثابتًا في حفظ حياة موسى: نقل الخبر في الوقت المناسب، فخرج موسى خائفًا يترقب داعيًا ربه (٢٨:٢١). تبقى مقارنة الاسمين موضوع بحث روائي مستقل، أما فعل الإنذار ونتيجته فقرآن.

تعيين المنذر في الرواية وحدود أسماء الخصوم

يوجد بالفعل شاهد روائي على مطابقة المنذر بمؤمن آل فرعون: تفسير القمي، ج٢، ص١٣٧، يصف خازن فرعون بأنه يكتم إيمانه ويصل بين إنذاره موسى وآية غافر ٢٨. فينبغي إثبات هذا الشاهد مع تمييزه من سكوت القرآن عن الاسم؛ ولا يتوقف الأمر على مجرد التشابه. أما أسماء خربيل وحزبيل وحزقيل وشمعون وشمعان فترد بصيغ متفاوتة في القصص والتفسير، ولا يثبت أحدها بمجرد تكراره. ويورد النقل عن الثعلبي في البحار اسم قاتون أو قاثون للقتيل، وقولًا بأن المستغيث هو السامري (١٣:٥٧)، وهو نقل قصصي غير كاف لنسبة التعيين إلى أهل البيت. فلا نسمي المستغيث سامريًا ولا نعطي القتيل اسمًا قطعيًا، ولا نخلط المنذر بصاحب يس لمجرد عبارة «أقصى المدينة».

ماء مدين — العمل والأمان قبل النداء

نتابع القصص ٢٨:٢٢-٢٨ رحلة موسى: بلغ ماء مدين ووجد الناس يسقون وامرأتين تذودان حتى ينصرف الرعاء، فأخبرتاه أن أباهما شيخ كبير. سقى لهما ثم تولى إلى الظل ودعا ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. جاءت إحداهما تمشي على استحياء تدعوه إلى أبيها ليجزيه أجر السقي، فقص عليه خبره فطمأنه بالنجاة من القوم الظالمين. اقترحت إحدى الابنتين استئجاره للقوة والأمانة؛ وعرض الأب الزواج من إحداهما على خدمة ثماني حجج مع إمكان إتمام عشر، وقبل موسى العهد بلا تعدٍّ أيّ الأجلين قضى. هذه معالم قرآنية لاستقرار الشاب الخارج من الخوف، أما اسم الأب والبنت والمدة التي قضاها فعلًا وما حدث في العمل فيُبحث من الروايات، وقد فُصّل موضع هوية الأب في فصل

شعيب دون تكرار الحكم هنا. لا يثبت في هذا المشهد أن موسى تلقى الرسالة عند البئر، يأتي النداء بعد انقضاء الأجل في الفصل التالي.

خبر المرأة التي جاءت على استحياء — تحديد روائي مضبوط

يروي الراوندي في «قصص الأنبياء» (الخبر ١٦١، ص١٥٢) بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي أنه سأل الإمام الرضا عليه السلام: أكانت التي قالت لموسى ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ هي التي تزوجها؟ فأجاب: نعم. وفي الخبر أن أباها سألها كيف عرفت أمانته، فوصفت سيره أمامها وإرشادها له من خلفه. هذا يربط شخصيتين في الخبر، لكنه لا يذكر اسم المرأة في متن الجواب، ولا يمنح القرآن اسمًا لم يذكره. ويستمر الخبر إلى حديث العصا والعلاقة مع شعيب بعد الإجارة؛ نثبت هنا منه ما يخص الاستقبال والزواج، وتُبحث العصا والعودة والنداء في موضعها اللاحق. وتسمية الأب شعيب في تتمة الرواية لا تجعل هوية الأب اسمًا قرآنيًا؛ وقد عولج اختلاف أخبار هويته في الفصل ٢١.

الجوع والضيافة والمرأتان في مدين

يشرح أمير المؤمنين عليه السلام افتقار موسى في دعائه تحت الظل بأنه طلب طعامًا يسد جوعه؛ ورد ذلك في نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠ في الترقيم الشائع، ونقله البحار ١٣:٥٠. فلا يُجعل الدعاء طلب مال أو زواج بنصه، وإن ترتب الأمن والعمل والزواج بعده. والقرآن لا يسمي الأب ولا المرأتين؛ تعيين الأب بشعيب وكون الزوجة هي التي دعته واردان في الروايات المذكورة. أما صفورة وليا، وصفراء وصفيراء، فأسماء وأقوال تفسيرية منقولة في مجمع البيان عند القصص ٢٦–٢٧؛ لا نجزم بها، ولا نجعل الأخت التي لم تتزوج غائبة عن القصة، فهي شريكة السقي والعودة إلى الأب. وفي الكافي، كتاب النكاح، خبر البزنطي عن أبي الحسن في الآية، أن موسى وفّى عشر سنين ودخل بزوجته قبل انقضاء الشرط؛ نقله البحار ١٣:٣٧–٣٨، الخبر ٨. وتبقى مسائل المهر واشتراط العمل مسائل فقهية لا تختزل في وصف البنت بأنها ثمن للخدمة. والقرآن يثبت التخيير في الزيادة على الثماني، والرضا بالاتفاق، والشهادة على الوفاء.

الخروج إلى مدين — نهاية فصل الميلاد والنجاة

خرج موسى خائفًا يترقب وقال:

﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم توجه تلقاء مدين:

﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ومن هنا نتصل قصته بما سبق بحثه في فصل شعيب: ماء مدين، المرأتان، الأب الشيخ، العمل والزواج.

لكننا لا نثبت أن الأب هو شعيب إلا بقدر الرواية.

الفصل التالي يبدأ بعد هذه المرحلة، عند العودة والنار والنداء والرسالة.

أخبار أُحصيت ولم تُحوَّل إلى وقائع قطعية

في علل الشرائع خبر ينتهي إلى مقاتل بن سليمان، بواسطة غير مسمّى، عن بركات موسى في بطن أمه واشتقاق اسمه من الماء والشجر؛ ليس هذا الإسناد رواية مسندة إلى إمام (نقله البحار ١٣:٧–٨، الخبر ٧). وفي البحار ١٣:٤٦–٤٧، الخبر ١٤، نقل عن الفضائل والروضة يتحدث عن كلام موسى لأمه رضيعًا، ثم ينقل تقدير سبعين يومًا أو سبعة أشهر لبقائه؛ تُذكر هذه الألفاظ بوصفها اختلافًا لا يُجمع مع الثلاثة أيام حسابيًا. وفي الخبر ١٥ نقل عن كمال الدين في حديث سدير عن الإمام الصادق عددًا يتجاوز عشرين ألف مولود قُتلوا في الطلب؛ العدد روائي والقرآن لا يحصيه. والخبر ١٦ من التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري يذكر حفظ أطفال بني إسرائيل ونسائهم بالصلاة على محمد وآله؛ نسبة الكتاب وطريقه موضع بحث، فلا تُساوى هذه التفاصيل بالآيات ولا يُحصر جميعها في زمن الرضاعة.

الشخصيات القصصية وما يُحال إلى الفصول التالية

يسرد المجلسي بعد الأخبار في الباب الثاني نقلًا مطولًا عن الثعلبي، وفيه النجار الذي صنع التابوت، وبنت فرعون المصابة بالبرص وجواريها، وحواضن القصر، وإخفاء الطفل في التنور، ومنام فرعون، وسياسة القتل عامًا وتركه عامًا (بحار الأنوار ١٣:٥٠–٥٧). هذه شخصيات وتفاصيل موجودة في النقل، لكنها ليست بذلك روايات ثابتة عن أهل البيت؛ وبعضها يختلف عن خبر عدم الولد لفرعون وخبر إنزال التابوت. أُثبت وجودها ومصدرها هنا كي لا تُهمل، دون إدخالها في صلب الوقائع المتيقنة. وأخبار ماشطة آل فرعون وأطفالها، وتعذيب آسية، وخطبة مؤمن آل فرعون، والمرأة الدالة على قبر يوسف، وقارون والسامري ويوشع، لها صلات بأحداث لاحقة؛ تُحال إلى مواضعها ولا تُسقط زمنيًا على مرحلة الميلاد. ومحمد وآله عليهم السلام في هذه المصادر رواة أو مذكورون في التأويل والفضائل، وليسوا شخصيات بشرية مشاركة في حدث الولادة.

خاتمة الفصل الثاني والعشرين — النجاة التي تعد للرسالة

أم ألهمها الله.

أخت راقبت.

امرأة فرعون حمت الطفل.

قصر العدو صار موضع الحفظ.
عاد الطفل إلى أمه.
بلغ الأشد وآتاه الله حكمًا وعلمًا.
وقعت حادثة الوكزة، ثم خرج من مصر.
ثم وصل إلى مدين.
كل ذلك قبل أن يسمع النداء عند الطور.
الهداية تعد حاملها قبل أن تكلفه بالمواجهة الكبرى.

حصر الشخصيات وحدود هذه المراجعة

الشخصيات المرتبطة مباشرة بالمشهد القرآني: موسى؛ أمه؛ أخته؛ امرأة فرعون؛ فرعون؛ هامان؛ آل فرعون وجنوده والملأ؛ المستضعفون من بني إسرائيل ونساؤهم وأبناؤهم؛ المرضعات؛ المستغيث من شيعته؛ خصمه القتيل؛ الخصم في اليوم التالي؛ الرجل المنذر؛ رعاة مدين؛ المرأتان وأبوهما؛ والزوجة التي صارت من أهله. ويضاف في الروايات المبيّنة: عمران؛ هارون؛ يوسف ولاوي ويعقوب في خبر البشارة والنسب؛ القابلة أو الموكّلة بالأم؛ حرس الولادة والكهنة؛ نساء القصر؛ الشيخ أو الفقيه المنتظر وأصحابه؛ جبرئيل؛ وشبر وشبير في صلة الأسرة. أما الأسماء والتفاصيل القصصية المختلف فيها فموضعها الفقرة السابقة، وليس حكمها حكم النص القرآني.

المصادر المقابلة وما لا تدّعيه النسخة

قوبلت آيات المرحلة ومادة الفصل بما أمكن التحقق منه في قصص الأنبياء للراوندي، وكمال الدين وأمالي الصدوق وعيون أخبار الرضا، وتفسير القمي في أول قصة القصص، مع النقول المسماة من الكافي ومعاني الأخبار وعلل الشرائع ونهج البلاغة وتنزيه الأنبياء ومجمع البيان في بحار الأنوار، ج١٣، البابين الأول والثاني. واستُفيد من البرهان في تعيين طريق تفسير القمي. ما أُخذ بواسطة البحار صُرّح بوساطته، ولم يُحسب مصدرًا مستقلًا ثانيًا للرواية نفسها. هذه مراجعة نصية وتوثيقية للمصادر المذكورة، لا دعوى استقراء كل مخطوط وطبعة ولا حكم رجالي نهائي على كل سند. تبقى التفاصيل التي لم يثبت ترجيحها منسوبة إلى مصادرها، ويُستكمل نقدها عند ظهور شاهد معتبر.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: البقرة ٢:٤٩؛ الأعراف ٧:١٤١ (تذكير لاحق بالاستضعاف)؛ إبراهيم ١٤:٦؛ طه ٢٠:٢٧، ٢٩–٣٠، ٣٧–٤٠؛ الشعراء ٢٦:١٨–٢٢؛ القصص ٢٨:٣–٣٤؛ التحريم ٦٦:١١. تمتد أحداث مدين هنا إلى حد الانتقال للفصل التالي، ولا تُكرر فيه تفاصيل الدعوة والخروج.

الراوندي، قصص الأنبياء، فصل نبوة موسى، الخبر ١٦٠، ص١٤٨-١٥١ في الطبعة المقابلة: نبوءة يوسف في صدر طريق الحلبي عن الصادق، ثم رواية الحمل والقابلة والقصر والمراضع والشيخ من طريق أبي بصير المذكور داخل الخبر؛ لا يدمج الطريقان إسنادًا واحدًا. والخبر ١٦١، ص١٥٢، بسؤال البزنطي للإمام الرضا عن المرأة التي تزوجها موسى وذكر شعيب والعصا في تتمته؛ والخبر ١٦٢، ص١٥٢-١٥٣، في امتحان الجمرة والدينار، وفي طريقه «عمّن ذكره»؛ والفقرة المرقمة ١٦٤، ص١٥٣، في تقدير غياب الرضيع بثلاثة أيام، وله شاهد مسند عن الإمام الباقر في تفسير القمي ٢:١٣٥-١٣٦؛ والفقرة ١٦٥، ص١٥٣-١٥٤، في تقدم هارون عمرًا ووفاةً وذكر ابنيه، بلا إسناد مستقل متصل ظاهر في موضعها. الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، باب ٦ في غيبة موسى، الخبر ١ (نحو ص١٧٤ في طبعة أخرى): خبر الفقيه المجهول ولقاءاه بموسى، وفي إسناده سهل بن زياد وغيره ممن يلزم تقويمهم؛ والخبر ١٣ (ص١٤٧ في النسخة الرقمية المقابلة، وتختلف الصفحات بحسب الطبعة): أصل مبكر للمادة؛ في المقطع الثاني الإمام الباقر، وخمسون مدعيًا، ولا يذكر «بن فاهث» في صدر الخبر.

الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب مجلس الإمام الرضا عند المأمون في عصمة الأنبياء، الباب ١٥، الخبر ١، ص١٧٦ تقريبًا في الطبعة المفهرسة: تفسير القصص ١٥:٢٨-١٧؛ يرويه علي بن محمد بن الجهم، ويحتاج سنده إلى تقويم مستقل. الصدوق، الأمالي، المجلس ٨٧، الخبر ١ (ترقيم ٩٤٧)، ص٦٩٠-٦٩١ في الطبعة المصورة المراجعة: خبر حضور نساء عند ولادة فاطمة عليها السلام، ويورد «آسية بنت مزاحم» و«كلثوم أخت موسى»، مع ضبط «كلثم» في هامش نسخة؛ الخبر مروي عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام بسلسلة تحتاج تقويمًا رجاليًا مستقلًا، ولا يُستدل به على تسمية قرآنية أو تفاصيل ولادتهما ووفاتهما.

المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، باب أحوال موسى من ولادته إلى نبوته: فهرس جامع للمرويات، مع الرجوع في هذا الفصل إلى نص الراوندي والصدوق المذكورين بدل الاكتفاء بنقل الجامع.

روابط النصوص المقابلة

تفسير القمي، ج٢، ص١٣٥-١٣٦: الولادة والرد إلى الأم

تفسير القمي، ج٢، ص١٣٧: هارون والمنذر والخروج

الراوندي، قصص الأنبياء، الأخبار ١٦٠-١٦٥

بحار الأنوار، ج١٣، البابان ١-٢: النصوص المنقولة ومصادرها

البرهان في تفسير القرآن، القصص ٧، الخبر ٨١٠٣: طريق خبر القمي

الكافي، ج٤، ص٢١٤، باب حج الأنبياء عليهم السلام، ح٩: مصلى شبر وشبير ابني هارون.

الفصل ٢٣ — موسى وهارون عليهما السلام — الرسالة والخروج

من مدين إلى الطور — العودة التي تبدأ برسالة

انتهى الفصل السابق باستقرار موسى في مدين والعمل والزواج. وبعد أن قضى الأجل سار بأهله، فرأى نارًا عند جانب الطور (القصص ٢٨:٢٩).

قال لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.

لكن النار لم تكن نهاية الطريق، بل بداية الرسالة.

في سورة طه والقصص والنمل يظهر النداء من الوادي المقدس، وتأتي العلامتان: العصا واليد، ثم التكليف:

اذهب إلى فرعون.

هنا يتحول موسى من ناجٍ من بطش فرعون إلى رسول مأمور بالعودة إلى موضع الخطر نفسه.

خريطة القرآن في مرحلة الرسالة والخروج

طه ٢٠:٩-٧٩: النداء، العصا واليد، طلب هارون، الذهاب إلى فرعون، المواجهة، السحرة، إيمانهم، ثم الخروج والبحر.

القصص ٢٨:٢٩-٤٢: النداء، الآيات، خوف موسى من قضية القتل، طلب أخيه هارون لأنه أفصح لسانًا، تكذيب فرعون وهامان، نهاية فرعون.

الأعراف ٧:١٠٣-١٣٧: موسى وهارون إلى فرعون، العصا واليد، السحرة، إيمانهم، سنوات الجدب والآيات المفصلة، الخروج والغرق، توريث المستضعفين.

يونس ١٠:٧٥-٩٢: المواجهة، السحر، الإيمان، دعاء موسى وهارون، الخروج، إعلان فرعون الإيمان عند الغرق، وإنجاء بدنه ليكون آية.

الشعراء ٢٦:١٠-٦٨: الحوار المطول، تذكير فرعون بتربية موسى، دعوى الربوبية، السحرة، الخروج، انشقاق البحر والغرق.

النمل ٢٧:٧-١٤: النداء والآيات وإنكارها ظلمًا وعلوًا مع استيقان الأنفس.

غافر ٤٠:٢٣-٤٦: موسى بالآيات والسلطان، مؤمن آل فرعون، جدال القوم، النجاة من مكرهم.

الزخرف ٤٣:٤٦-٥٦ والدخان ٤٤:١٧-٣٣ والنازعات ٧٩:١٥-٢٦: زوايا أخرى في مواجهة فرعون والاستكبار والخروج.

إبراهيم ١٤:٥-٨: إخراج القوم من الظلمات إلى النور وتذكيرهم بأيام الله.

مواضع مكملة في القرآن

تكتمل خريطة المرحلة بالبقرة ٤٩-٥٠ في الاستضعاف والعبور، والأنفال ٥٢-٥٤ في أخذ آل فرعون بذنوبهم؛ وهود ٩٦-٩٩ في اتباع أمر فرعون وقيادته قومه إلى النار؛ والإسراء ١٠١-١٠٤ في الآيات والإغراق؛ والمؤمنون ٤٥-٤٩ في رسالة الأخوين واعتراض القوم بأنهما بشر من قوم مستعبَدين؛ والفرقان ٣٥-٣٦ في وزارة هارون والتدمير؛ والعنكبوت ٣٩-٤٠ في اقتران قارون وفرعون وهامان بالاستكبار. وتعرض الصافات ١١٤-١٢٢ منّة الله على موسى وهارون ونجاتهما وقومهما ونصرهما وإيتاء الكتاب. وترد إشارات العبرة في ص ١٢، وق ١٣-١٤، والذاريات ٣٨-٤٠، والقمر ٤١-٤٢، والحاقة ٩-١٠، والمزمل ١٥-١٦، والفجر ١٠-١٤. لا تكرر هذه المواضع الحكاية بلا فائدة؛ إنها تربط النجاة بالهداية، والطغيان بمآله في الدنيا والآخرة.

النداء في الوادي — التوحيد والصلاة والساعة قبل مواجهة فرعون

حين بلغ موسى النار نودي في الوادي المقدس طوى، وأُمر أن يخلع نعليه؛ وتبدأ طه ٢٠:١١-١٦ تعريف الرسالة من أصلها: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، ثم ذكر الساعة وجزاء كل نفس بما تسعى والتحذير ممن يكذب بها ويتبع هواه. ويورد القصص ٢٨:٣٠ موضع النداء «مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ»، وفي النمل ٢٧:٨-٩ تسبيح الله وربوبيته للعالمين. هذه أوصاف قرآنية متكاملة للمشهد، ولا نستخرج منها تحديدًا جغرافيًا حديثًا لموضع الشجرة. يبدأ التكليف بعبادة الله والصلاة والمحاسبة قبل مخاطبة الطاغية؛ فالرسول لا يحمل مجرد مشروع نجاة سياسية. ثم سأل الله موسى عما بيمينه، فذكر العصا وما ينتفع به منها، وأُمر بإلقائها، ثم أُري آية اليد البيضاء من غير سوء (طه ٢٠:١٧-٢٣). خوف موسى من حركة العصا ثم تسكينه ثابتان في القصص ٢٨:٣١ والنمل ٢٧:١٠، ولا ينافيان عصمته أو يقينه بالله؛ الخوف الطبيعي عند مشاهدة الآية غير الشك في المرسِل.

أهل موسى وخلع النعلين — اختلاف الأخبار

بدأ النداء وموسى مع أهله، فطلب منهم المكث ورجا أن يأتيهم بخبر أو قبس يستدفئون به (طه ١٠؛ النمل ٧؛ القصص ٢٩). الزوجة حاضرة في هذه المرحلة، لكن الآيات لا تسميها ولا تصرح بعدد الأطفال أو وقوع ولادة حينئذ. وفي علل الشرائع، باب خلع النعلين، رواية يعقوب بن شعيب عن الصادق تذكر جلد حمار ميت؛ وخبر آخر يفسر الأمر برفع خوفه على أهله وخوفه من فرعون، ويذكر مخاض الزوجة. وفي الاحتجاج، ضمن خبر سعد بن عبد الله المنسوب إلى الإمام القائم، إنكار تفسير جلد الميتة وتأويل الأمر بإخلاص المحبة لله. نقل المجلسي هذه النصوص متقابلة في بحار الأنوار ٦٤:١٣-٦٦. لا نجمعها في سبب واحد مؤكد ولا نجعل الخبر المختلف فيه طعنًا في علم النبي بالطهارة. والقول بأن عقدة اللسان ناشئة عن حيائه من مخاطبة غير الله ورد هناك عن واعظ نقله الصدوق، فلا

ينسب إلى الإمام. أما التكليم من الشجرة فلا يعني حلول الله فيها، إنما هي جهة سماع كلامه المخلوق، والله منزه عن الجسم والمكان.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾

موسى لم يطلب من الله أن يعفيه من الرسالة.

طلب عونًا فيها.

قال:

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾.

وفي القصص قال إن هارون أفصح منه لسانًا، فطلب إرساله معه ردءًا يصدقه.

فاستجاب الله:

﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

هارون إذن ليس شخصية ملحقة بالقصة؛ القرآن يجعله شريكًا في المهمة، نبيًا، وعضدًا لموسى.

هارون نبي لا مجرد مترجم

قال الله عن موسى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ مريم ١٩:٥٣.

وقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء ٢١:٤٨).

فلا يصح اختزال هارون في وظيفة الكلام.

هو نبي، وداخل في تلقي الكتاب والفرقان، وشريك في الدعوة.

طلب الوزير ووعد الحفظ — الرسالة بصيغة التثنية

يشرح موسى حاجة الدعوة قبل ذهابه: شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، ثم أن يجعل له وزيرًا من أهله هارون أخاه، يشد به أزره ويشركه في أمره كي يسبّحا الله ويذكراه كثيرًا (طه ٢٠:٢٥-٣٥). وقد عرض في القصص ٢٨:٣٣-٣٤ خوفه من أن يقتلوه بسبب حادثة المصري وخوفه من التكذيب، وبيّن أن هارون أفصح لسانًا. جاء الجواب ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (طه ٢٠:٣٦)، وفي القصص ٢٨:٣٥ وعد بشد عضده بأخيه وسلطان لهما فلا يصل إليهما خصومهما بآيات الله. وفي الشعراء ٢٦:١٢-١٥ جبر الله خوف موسى من التكذيب وضيق الصدر والقتل وأمرهما بالمضي بآياته. لا تعني الاستعانة بهارون نقصان نبوة موسى، ولا نجعل فصاحة هارون وصفًا بأنه مجرد مترجم؛ فالمسؤولية صارت مشتركة بنص ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه ٢٠:٤٦)،

وصار الخطاب «اذهبا». وظيفتهما المباشرة إبلاغ فرعون أنهما رسولا رب العالمين، ومطالبته بإرسال بني إسرائيل والكف عن عذابهم (طه ٢٠:٤٧؛ الشعراء ٢٦:١٦-١٧).

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ — القوة لا تلغي أدب الدعوة

أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون الذي طغى، ثم قال:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

اللين هنا ليس تصديقًا للطاغية ولا تنازلاً عن التوحيد.

إنه طريقة أولى لإقامة الحجة.

ثم لما أصر فرعون جاء البيان الأشد والآيات والعذاب.

من هو فرعون؟

يسمي القرآن حاكم مصر الذي واجه موسى «فرعون»، ولا يذكر اسمه الشخصي.

المحاولات الحديثة لتعيينه بملك مصري محدد تعتمد على نماذج تاريخية وأثرية متنازع فيها.

هذا الكتاب لن يحول فرضية أثرية إلى حقيقة قرآنية.

نقول فقط:

فرعون موسى في القرآن هو الحاكم الذي استعلى، واستضعف بني إسرائيل، وادعى الربوبية العليا، وقاوم موسى وهارون حتى غرق.

اسم فرعون وهامان وقارون في هذه المرحلة

في علل الشرائع رواية ابن أبي عمير عن الإمام موسى بن جعفر تفسر القول اللين بمخاطبة فرعون بكنيته «أبي مصعب»، وتذكر «الوليد بن مصعب»؛ ونظير التكنية في معاني الأخبار عن الصادق (نقلهما البحار ١٣:١٣٤-١٣٥). يُثبت الاسم بوصفه خبرًا منسوبًا إلى مصدره، ولا يعيّن به ملك مصري أثري. وهامان مسمّى قرآنًا شريكًا في بنية القمع والبناء (القصص ٦ و٨ و٣٨؛ غافر ٢٤ و٣٦-٣٧). وقارون مسمى معه ومع فرعون في غافر ٢٤ والعنكبوت ٣٩؛ لذا لا يغيب عن شخصيات الرسالة، وإن كانت قصته المفصلة وموقفه من موسى في موضع لاحق. لا تنسب الآيات إلى كل واحد منهم كل قول قاله الآخر. وفي نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، تصوير دخول موسى وهارون بلباس الصوف والعصي ورفض جعل الذهب معيار صدق الرسول؛ فالهيئة المتواضعة لا تنقص حجتهما.

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ — حين تتحول السلطة إلى تأليه الذات

قال فرعون:

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

وقال:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

المشكلة لم تكن سلطة سياسية قاسية فقط.

وصل الاستعلاء إلى إعادة تعريف الحقيقة والدين حول شخص الحاكم.

وموسى جاء ليعيد المركز:

ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

مناظرة الربوبية — الخلق والهداية والعلم بالأولين

سأل فرعون في طه ٢٠:٤٩: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾، فأجاب موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٢٠:٥٠). وحين سأله عن القرون الأولى رد علمها إلى ربه في كتاب، لا يضل ولا ينسى (٢٠:٥١-٥٢)، ثم عدد القرآن آثار القدرة في الأرض والمطر والنبات (٢٠:٥٣-٥٥). وفي الشعراء ٢٦:٢٣-٢٨ توالت أسئلة فرعون «وما رب العالمين» فأجاب موسى برب السماوات والأرض، ورب المخاطبين وآبائهم الأولين، ورب المشرق والمغرب؛ والآيات تصف جدالًا لا مجرد عرض معجزة. ذكر تربية موسى في بيت فرعون وحادثة الوكزة في أول الحوار (الشعراء ٢٦:١٨-٢٢) قد عرض من جهة النشأة في الفصل ٢٢، فنكتفي هنا بوظيفته في محاولة فرعون صرف الكلام عن أصل الرسالة. وفي القصص ٢٨:٣٨ أمر فرعون هامان أن يوقد على الطين ويبني له صرحًا ليرى إله موسى، ثم أعلن ظنه أن موسى من الكاذبين؛ القرآن لا يحدد مقاييس البناء أو موقعه الأثري. ليس موسى داعيًا إلى سلطة بديلة فقط، بل إلى ربوبية الخالق الذي يهدي ويعلم ويحاسب.

خطاب فرعون لقومه — الأنهار والزينة والاستخفاف

تكشف الزخرف ٤٣:٤٦-٥٦ جانبًا آخر من المواجهة: جاء موسى فرعون وملأه بالآيات، فاستهزؤوا بها، وكلما جاءتهم آية أكبر من أختها أُخذوا بالعذاب ثم وعدوا بالإيمان إذا كشف عنهم، فلما كشف نكثوا (٤٣:٤٦-٥٠). ونادى فرعون قومه محتجًا بملك مصر والأنهار الجارية من تحته، وزعم أن موسى «مهين» لا يكاد يبين، وطالب بأساورة من ذهب أو بملائكة مقترنين (٤٣:٥١-٥٣). يرد النص بقوله ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ (٤٣:٥٤)، ثم يذكر الإغراق وجعلهم سلفًا ومثلًا للآخرين (٤٣:٥٥-٥٦). ليست الأنهار دليلًا على صدق الحاكم، ولا يثبت طلب الذهب ضعف رسالة موسى؛ إنه معيار زخرفي يروّجه فرعون لصد الناس عن الآية. وفي النازعات ٧٩:١٥-٢٦ دعوة

موسى إلى التزكي وهداية فرعون إلى ربه ثم تكذيبه وحشره قومه وقوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ تختصر السورة العبرة الأخلاقية دون أن تمدنا بتاريخ مستقل للوقائع.

العصا واليد — آيتان لا سحر

ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين.

ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

فرعون سمى ذلك سحرًا.

لكن القرآن يفرق بين الآية والسحر.

السحرة أنفسهم، وهم أهل الخبرة في صناعتهم، عرفوا أن ما رأوه ليس من جنس ما يصنعون، فسجدوا:

﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

السحرة — من خدمة فرعون إلى الإيمان

لما أظهر موسى الآيتين، وصفه الملأ بالسحر في الأعراف، ونُسب الوصف إلى فرعون مخاطبًا ملأه في الشعراء؛ ثم اقترحوا تأخيره هو وهارون وجمع السحرة من المدائن (الأعراف ٧:١٠٩-١١٢؛ الشعراء ٢٦:٣٤-٣٧). جعل موسى الموعد يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضحى (طه ٢٠:٥٩)؛ فكان التحدي علنيًا. سأل السحرة فرعون عن الأجر إن غلبوا، فوعدهم به وبأن يكونوا من المقربين (الأعراف ٧:١١٣-١١٤؛ الشعراء ٢٦:٤١-٤٢). ولما ألقوا حبالهم وعصيهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم (الأعراف ٧:١١٦)، وخُيّل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة، فجاءه التثبيت الإلهي: لا تخف، وألق ما في يمينك (طه ٢٠:٦٦-٦٩). تلقفت العصا ما يأفكون وظهر بطلان الصنعة، فألقي السحرة ساجدين وأعلنوا الإيمان برب العالمين، رب موسى وهارون (الأعراف ٧:١١٧-١٢٢؛ الشعراء ٢٦:٤٥-٤٨).

لم يكتف فرعون برفض إيمانهم؛ زعم أنهم آمنوا قبل إذنه واتهمهم بالتواطؤ مع موسى، ثم توعد بقطع الأيدي والأرجل من خلاف والصلب (طه ٢٠:٧١؛ الأعراف ٧:١٢٣-١٢٤). ردوا بأنهم لن يؤثروه على ما جاءهم من البينات، وأن قضاءه لا يتجاوز الحياة الدنيا (طه ٢٠:٧٢-٧٣)، وقالوا ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء ٢٦:٥٠)، ودعوا بالصبر والوفاة مسلمين (الأعراف ٧:١٢٦). القرآن يثبت تهديد فرعون وصمودهم، ولا يروي هنا تنفيذ العقوبة أو أسماء السحرة أو عددهم؛ فلا نسميهم شهداء مقتولين على وجه الجزم. وتختلف الروايات القصصية في الأعداد والأسماء، ويحتاج كل خبر منها إلى تحقيق مستقل.

خوف موسى ومصير السحرة في الروايات

يفسر أمير المؤمنين في نهج البلاغة، الخطبة ٤ في الترقيم الشائع، خوف موسى أمام السحرة بالخوف من غلبة الجهال ودول الضلال؛ ويناقش المرتضى في تنزيه الأنبياء خشية التباس الحجة على الجمهور. فالأولى عدم حصر تفسير طه ٦٧ في خوف جسدي، وعدم خلطه بخوفه عند أول رؤية العصا. وينقل تفسير القمي في سورة الشعراء، بطريق أبيه عن ابن فضال عن أبان عن الصادق، اختيار ثمانين ساحرًا بعد جمع أعداد أكبر، ثم حبس من آمن بموسى وإطلاقهم بعد الآيات؛ بينما يذكر خبر الراوندي ١٩٤ مقتل أحد الرجلين مع السحرة. هذه أخبار مختلفة لا يسوغ أن نستنتج منها مصيرًا واحدًا لجميع الأفراد. والقرآن يثبت سجودهم ورفضهم تقديم فرعون على البينات وطلبهم مغفرة الخطايا وما أكرههم عليه من السحر (طه ٧٣). لا يعين أسماءهم ولا عددهم؛ فلا يتحول اختلاف ثمانين واثنين وسبعين إلى قائمة أسماء مخترعة.

خبر الراوندي عن القصر والسحرة — لا يُجعل عددهم قرآنيًا

ينقل الراوندي في «قصص الأنبياء» (الخبر ١٦٨، ص١٥٥–١٥٦) عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا يصف تحصن فرعون وراء مدائن وأبواب، وفتحها لموسى، وظهور العصا على هيئة مهيبة أمام فرعون، وتدخل هامان حين كاد فرعون أن يصدّق. ثم يذكر أن «اثنين وسبعين شيخًا» من السحرة خرّوا سجدًا، وأنهم استدلوا بزوال حبالهم وعصيهم على أن فعل موسى ليس سحرًا. يصون القرآن أصل عرض الآية وإيمان السحرة، لكنه لا يذكر مدائن سبعًا ولا شكل باب القصر ولا هامان في ذلك المشهد بعينه ولا هذا العدد. وعبارة الخبر تخص اثنين وسبعين شيخًا في السحرة، ولا يجوز تحويلها بلا دليل إلى عدد جميع السحرة الحاضرين. وفي السند المطبوع أسماء وصياغة تحتاج مراجعة النسخ والرجال، فلا نرفع التصوير التفصيلي إلى مرتبة الثبوت القرآني. وفي ذيل الخبر وصف لطريقة اتباع جند فرعون موسى إلى البحر وتفسير إنجاء بدن فرعون؛ سنذكره عند مشهد الغرق بوصفه رواية، مع إبقاء الآيات أصلًا.

شخصيات في النقول القصصية — مع حفظ مرتبتها

نقل المجلسي في ختام باب الرسالة مادة من عرائس الثعلبي، عن السدي وابن إسحاق ومقاتل وغيرهم؛ وجودها في البحار لا يحولها إلى أحاديث عن الأئمة. تذكر أم موسى عند رجوعه إلى مصر، وحارس القصر والبواب، ورجلًا كان يضحك فرعون فنقل إليه خبر الأخوين، وعجوزًا من أقارب أم موسى آوتهما فحفظتهما العصا وآمنت. وفي خبر آخر رئيسا سحرة أخوان، وأمهما التي دلتهما على قبر أبيهما، والأب الميت الذي أجابهما في القصة، ومعلم السحرة والمنادون والحاضرون والعمال في بناء الصرح. لا تساوى العجوز المضيفة بعجوز قبر يوسف، ولا تنسب هذه الأدوار جميعًا إلى خبر إمامي واحد (البحار ١٤١:١٣–١٥٢).

وتذكر هذه المادة أربعة من رؤساء السحرة: سابور وعادور وحطحط ومصفا، مع اختلاف نسخ العرائس: غادر بدل عادور، وخطط بدل حطحط، وزيادة «حفظ» فيصيرون خمسة (البحار ١٣:١٥٠ وحواشيه). تحفظ الأسماء واختلافها في هذه المرتبة القصصية؛ لا تثبت بها هويات تاريخية قطعية ولا أسماء قرآنية. وكذلك اختلاف عدد السحرة وتاريخ يوم الزينة ومكانه لا يحوّل الروايات إلى تاريخ واحد مصطنع.

مؤمن آل فرعون — رجل يكتم إيمانه

يعرض غافر ٤٠:٢٣-٤٦ الصراع داخل بيت السلطة نفسه. بعد إرسال موسى بالآيات والسلطان المبين إلى فرعون وهامان وقارون، اتُّهم بالسحر والكذب، وعُدّ قتل موسى خيارًا لدى فرعون (٤٠:٢٣-٢٦). عندئذ تكلم ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾، محتجًا بأن قتل رجل لقوله «ربي الله» ظلم، وأن صدقه إن ثبت يعرّضهم لبعض ما يتوعدهم به (٤٠:٢٨). واستحضر ملكهم الزائل ومصارع الأحزاب وخبر يوسف السابق، ثم واجه دعوتهم إلى النار بدعوته إلى العزيز الغفار، وفوّض أمره إلى الله (٤٠:٢٩-٤٤). تختم الآية بأن الله وقاه سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٠:٤٥-٤٦). لا يعطي القرآن اسمه ولا يجعله نبيًا أو وصيًا، ولا يثبت أنه الرجل الذي أنذر موسى قبل هجرته في القصص ٢٨:٢٠.

وفي «قصص الأنبياء» للراوندي (الخبر ١٩٤، ص١٦٦-١٦٧) تأتي قصة طلب فرعون هذا المؤمن باسم «حزبيل»، ويظهر في هامش الطبعة اختلاف «خربيل». يروي الخبر صلاته بين الجبال وحماية دابة له من رسولَي فرعون، ثم نجاته؛ ولا يظهر في المقطع المرقم إسناد مستقل متصل يجيز الجزم بالتفاصيل أو بهوية الرجل الاسمية. نذكر الخبر لأنه يتصل بمؤمن داخل القصر، ونحفظ فرقًا أساسيًا: وقاية المؤمن ثابتة قرآنًا، لكن الآية لا تحسم أنها نجاة جسدية دائمة؛ أما الاسم والوحوش وطريقة خروجه فمادة روائية. ويُقابل هذا الخبر برواية الكافي الآتية في حفظ دينه رغم قتله.

وقاية المؤمن وحفظ دينه — شاهد الكافي

في الكافي، ج٢، ص٢١٥، باب سلامة الدين، الحديث ١، إسناد محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن أيوب بن الحر، عن الإمام الصادق: يذكر قتله ويفسر الوقاية بأنه لم يُفتن في دينه. فهذا نص إمامي مباشر ينبغي تقديمه في عرض المسألة، لا إغفاله لصالح قصة النجاة الجسدية وحدها. ونظيره في المحاسن، ص٢١٩، وتفسير القمي عند غافر ٤٥؛ نقله البحار ١٣:١٦٢-١٦٣. والقرآن نفسه لا يسرد مشهد وفاته؛ تثبت الوقاية بنصه، ويشرح الخبر نوعها. وتعيين المنذر السابق بمؤمن آل فرعون ورد في القمي ٢:١٣٧، كما تقدم في الفصل ٢٢، لكنه ليس اسمًا قرآنيًا. أما خبر حزبيل وتوريته أمام فرعون، وكونه ابن عمه وولي عهده، في التفسير المنسوب إلى العسكري والاحتجاج، فله بحثه في نسبة الكتاب والطريق؛ لا يجعل هذا الرجل نبيًا أو وصيًا، ولا يخلط بنبي آخر يحمل اسم حزقيل.

ويورد الصدوق في الخصال، باب الثلاثة، ح٢٥٤، خبرًا نبويًا يقرن مؤمن آل فرعون بعلي بن أبي طالب وحبيب النجار في وصف الصدّيقين. هذا شاهد آخر على موقعه في أدب الإيمان والثبات، وليس نصًا يسمّيه أو يثبت معاصرة الرجال الثلاثة؛ فحبيب وعلي مذكوران للمقارنة في الفضيلة، ولكل منهما عصره وفصله. وينتهي الطريق المطبوع إلى محمد بن أبي ليلى عن النبي، فلا يُحكم باتصاله أو صحته من هذه الصيغة وحدها.

امرأة فرعون — إيمان داخل بيت الطغيان

ظهرت امرأة فرعون في قصة إنقاذ الطفل موسى حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (القصص ٢٨:٩)، وقد بُحث هذا الدور عند الميلاد في الفصل السابق. ويعيد القرآن ذكرها في ختام مثال مستقل للمؤمنين: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم ٦٦:١١). بهذا الدعاء لا تختزل حكايتها في تربية موسى؛ إنها صاحبة اختيار إيماني ضد عمل زوجها وسلطته. الآية لا تسميها ولا تفصل زمن إظهار إيمانها، أو طريقة موتها، أو أولادًا لها. الاسم المشهور «آسية بنت مزاحم» وتفاصيل تعذيبها وشهادتها تُبحث بوصفها أخبارًا منقولة لا تُستخرج من هذه الآية. ولا نخلط بينها وبين المؤمن الرجل من آل فرعون في غافر ٤٠:٢٨؛ لكل منهما شهادته القرآنية المستقلة.

آسية بنت مزاحم — الاسم والفضيلة والابتلاء

ورد اسم آسية بنت مزاحم صريحًا في الخصال للصدوق، في خبر النبي عن أفضل نساء الجنة: خديجة وفاطمة ومريم وآسية، بطريق ينتهي إلى عكرمة عن ابن عباس؛ ونقله البحار ١٣:١٦١-١٦٢، الخبران ٣-٤. ووجود الخبر في مصدر إمامي لا يعني أن جميع رجال طريقه إمامية. وفي الخصال خبر آخر عن جابر يذكر ثبات آسية على الوحي؛ لا يحوّل ذلك إلى تاريخ محدد لابتداء إيمانها. وفي مجمع البيان عند التحريم ١١ روايات وأقوال عن تعذيبها بالأوتاد والشمس والصخرة، ورؤيتها بيتها في الجنة، وقبض روحها قبل إلقاء الصخرة؛ منها ما ينسب إلى سلمان ومنها أقوال الحسن وابن كيسان، فلا تسمى جميعًا أحاديث عن أهل البيت. ويحفظ النقل عن الثعلبي في البحار ١٣:١٦٣-١٦٥ صلتها بماشطة القصر، وموقف أمها التي حاولت حملها على موافقة فرعون. أم آسية شخصية غير مسماة في هذا النقل، ولا نضيف إليها نسبًا أو سيرة. الثابت القرآني اختيار آسية الله والآخرة ورفضها ظلم زوجها، أما طريقة الوفاة وتسلسل التعذيب فيعرضان بدرجة أخبارهما.

ماشطة بنت فرعون وأطفالها — أسرة لا تُنسى

تروي القصة التي نقلها المجلسي عن الثعلبي خبر امرأة تمشط بنت فرعون، فسقط مشطها وذكرت الله، فسألتها البنت عن ربها، فأجابت بأنه ربها ورب فرعون. ولما بلغ الخبر الحاكم استدعاها مع أولادها، فرفضت ترك إيمانها، وطلبت جمع عظامها وعظام أولادها في دفن واحد. وفي الرواية قتلهم بالنار

وثبات رضيعها وكلامه لأمه، وذكر النبي رائحتهم الطيبة في خبر الإسراء المنقول عن ابن عباس (بحار الأنوار ١٣:١٦٣-١٦٤، عن عرائس الثعلبي). هكذا تُحفظ المرأة وأطفالها، ومنهم الرضيع، وبنت فرعون ناقلة الخبر، في سجل الشخصيات مع بيان مصدر القصة. ليست الماشطة هي بنت فرعون ولا هي آسية؛ الإضافة تصف عملها عند البنت. وتعيينها زوجة مؤمن آل فرعون وارد في هذا النقل القصصي، لكنه لا يثبت بكل طرق الحديث ولا بمجرد جمع الأسماء. لم يُستخرج في هذه المراجعة لهذه الصيغة إسناد إمامي مستقل يجيز تصحيح جميع تفاصيلها؛ لذلك تُروى بصيغة النقل، ولا تنسب إلى الكافي أو إلى إمام بلا مستند.

الجماعة تحت الخوف — الصبر والبيوت والصلاة

لم تكن المواجهة مناظرةً في قصر فرعون وحده. ففي الأعراف ٧:١٢٧ طلب ملؤه أن لا يُترك موسى وقومه، فأعلن فرعون قتل الأبناء واستحياء النساء من جديد، وهو موضع لاحق لذكر الاستضعاف عند الميلاد؛ لا نمزج المرحلتين في سنة واحدة. قال موسى لقومه ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ وذكّرهم بأن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين (٧:١٢٨)، فشكوا أنهم أوذوا قبل مجيئه وبعده (٧:١٢٩)، ولم يَعِدهم بزوال الأذى في اللحظة نفسها. وتذكر يونس ١٠:٨٣ إيمان ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنوهم؛ لا تعطي الآية قائمة أسماء هؤلاء ولا عددهم، ولا تمحو وجود مؤمنين آخرين في مشاهد القرآن المختلفة. ثم خاطب موسى قومه بالتوكل على الله إن كانوا مسلمين (١٠:٨٤)، ونقل القرآن دعاءهم ألّا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين وأن ينجيهم برحمته (١٠:٨٥-٨٦). وأوحي إلى الأخوين أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتًا ويجعلا بيوتهما قبلة ويقيما الصلاة ويبشرا المؤمنين (١٠:٨٧): هنا تقوم جماعة عبادة وصبر داخل مصر قبل الرحيل. وفي دعاء موسى على طغيان فرعون وملئه يأتي الجواب ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ (١٠:٨٨-٨٩)، فينسب الجواب إلى الاثنين، وإن كان نص الدعاء المباشر على لسان موسى. ولا تحدد الآيات شكل البيوت أو جهة قبلتها الجغرافية بتفصيل هندسي.

دعوة الأخوين وانتظار الإجابة

تفسر نوادر الراوندي، عن موسى بن جعفر عن آبائه عن النبي، تثنية «دعوتكما» بأن موسى دعا وهارون أمّن، وتذكر تأمين الملائكة أيضًا (نقله البحار ١٣:١٣٥، الخبر ٤٢). وفي العياشي عن هشام بن سالم عن الصادق تقدير أربعين سنة بين الإجابة وأخذ فرعون، وفي الخصال خبر يقاربه؛ هذا زمن روائي لا تأريخ قرآني، فلا نجعله مدة قطعية لكل مراحل البعثة. ويشرح خبر عن أبي إبراهيم في تفسير القمي الأمر بالبيوت والصلاة بأنه صلاة المؤمنين في بيوتهم عند الخوف (البحار ١٣:١١٦). وحين يدعو موسى على أموال الطغاة لا يعني ذلك أن الله يريد الضلال من عباده؛ ناقش المرتضى في تنزيه الأنبياء لام «ليضلوا» بوصفها لام العاقبة وغيرها من الوجوه. والعبرة ثبات المؤمنين في العمل والدعاء، لا انتظار الخلاص مع ترك المسؤولية.

الآيات المفصلة — إنذارات قبل الغرق

بدأ الإنذار بسنين من الشدة ونقص الثمرات «لعلهم يذكرون» (الأعراف ٧:١٣٠)، لكنهم نسبوا الحسنة لأنفسهم وجعلوا السيئة طيرةً بموسى ومن معه (٧:١٣١). أعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءت به الآية (٧:١٣٢)، فذكر القرآن خمسًا مسماة: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات (٧:١٣٣). وعند وقوع الرجز طلبوا من موسى الدعاء ووعدوا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل، فلما كشف عنهم إلى أجل بلغوه نكثوا (٧:١٣٤-١٣٥). وفي الزخرف ٤٣:٤٨-٥٠ يعاد معنى تتابع الآيات والأخذ بالعذاب والعودة إلى نكث العهد عند كشفه. هذه البنية القرآنية تميز بين الدعوة والإنذار والاستجابة المؤقتة والعناد ثم الغرق (الأعراف ٧:١٣٦).

يقول القرآن أيضًا إن الله آتى موسى ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الإسراء ١٧:١٠١؛ وانظر النمل ٢٧:١٢)، لكن لا تسرد هاتان الآيتان قائمة مفصلة بالأسماء التسعة. لا يصح حساب الخمس المذكورة في الأعراف مع العصا واليد والسنين ونقص الثمرات حسابًا يقينيًا أو فرض قائمة واحدة دون حجة؛ تعرض التفاسير والروايات وجوهًا في عدها. وما يرد في بعض الأخبار من عدد أيام كل بلاء وكيفية تحول الماء أو أسماء البلاد وصف روائي لا نص قرآني، يُذكر بعد فحص الطريق. لا نخلط طوفان هذه الآيات بطوفان نوح الذي له سياق مستقل.

قائمة التسع في الخصال وتفسير الألفاظ

في الخصال، باب التسعة، خبر هارون الغنوي عن الصادق وخبر سلام بن المستنير عن الباقر، تعداد الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والعصا واليد (نقلهما البحار ١٣:١٣٦، الخبران ٤٥-٤٦). يُثبت هذا التعداد الروائي بدل الاكتفاء بقول إن القوائم مختلفة؛ وإدخاله الحجر والبحر يمنع افتراض أن كل قائمته وقعت داخل القصر قبل الخروج. وفي العياشي عن الصادق تفسير الطوفان بالماء والطاعون، وعن الرضا خبر في تفسير الرجز بالثلج (البحار ١٣:١٣٨)؛ تعرض الألفاظ بمصادرها ولا يُفرض واحد منها معنى حصريًا على كل موضع. وفي معاني الأخبار تفسير بياض اليد بأنه من غير برص، وهو يوافق نفي السوء في الآيات (البحار ١٣:١٣٦، الخبر ٤٧). ولا تعني هذه المقابلة تصحيحًا جماعيًا للأسانيد أو لكل تفاصيل البلاء في الكتب القصصية.

تفاصيل البلاء في خبر الراوندي — ما يضاف وما لا يثبت

في فصل «تسع آيات موسى» من «قصص الأنبياء» (ص١٦٧-١٦٩، فقرة مرقمة ١٩٥ في الطبعة المقابلة) توسع قصصي يبدأ بصرح فرعون، ثم يصف الدم والضفادع والجراد والقمل؛ من صوره أن ماء النيل يصير دمًا لآل فرعون وماءً صافيًا لبني إسرائيل، وأن بعض نساء القبط يطلبن الماء من نساء بني إسرائيل، وأن الضفادع دخلت البيوت والآنية، وأن الجراد أصاب الزرع والأبواب. يضيف النص أمدًا من «أربعين ليلة» للدم، ثم يذكر طمس الأموال والطاعون في الأبكار واستعارة الحلي قبل

المسير. لا يرد هذا التسلسل التفصيلي ولا تلك المدد والأعداد ولا قصة الأبكار والحلي في موضع تعداد الآيات في الأعراف ١٣٠:٧-١٣٦. وبعض هذه المادة يذكّر بمرويات تاريخية مقارنة، فلا تُجعل أساسًا للكتاب. ولأن الفقرة المعروضة تبدأ من غير إسناد مستقل ظاهر، وفيها اضطراب طباعي وتكرار رقم الخبر في الصفحة التالية، لا نعيّن لها درجة صحة من مجرد نسبتها إلى الراوندي. نستفيد منها شاهدًا على تداول تفسير الآيات عند بعض الناقلين، ونترك الوقائع المفصلة معلقة إلى أن توجد أسانيدها وشواهدها. والنساء في مشهد تبادل الماء شخصيات غير مسماة في هذا الخبر، وليس دورهن ثابتًا في القرآن.

حافظة موضع يوسف ونقل رفاته — اختلاف الروايات الإمامية

يربط خبر روائي خروج بني إسرائيل بذاكرتهم ليوسف عليه السلام: تروي «روضة الكافي» (ج٨، ص١٥٥، ح١٤٤، طبعة الغفاري)، من طريق يزيد الكناسي عن الإمام الباقر عليه السلام، أن موسى أُمر بحمل عظام يوسف قبل الخروج من مصر. لم يعرف موضعها إلا امرأة من بني إسرائيل، فطلبت أن تكون مع موسى في درجته بالجنة. هذه هي صيغة الخبر هنا؛ لا يذكر هذا اللفظ عودة الشباب أو البصر.

ويورد الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» (ج١، ص١٩٢-١٩٣، ح٥٩٤ في الطبعة المقابلة) امرأة مسنة عمياء مقعدة، وأربع مطالب تتعلق بالبصر والقوة والشباب ومرافقة موسى في الجنة، ويربط إخراج الرفات بطلوع القمر. وفي «قصص الأنبياء» للراوندي (ص١٣٥-١٣٦، ح١٣٩) طريق يمر بابن بابويه وأبيه وسعد بن عبد الله وأحمد بن محمد بن عيسى والحسن بن علي بن فضال إلى «أبي الحسن» عليه السلام؛ وفيه احتباس المطر وإخراج الرفات من ناحية النيل وحملها إلى الشام. تتفاوت هذه الصيغ في سبب البحث وترتيب المطالب وظرف الحدث، فلا تُصهر في مشهد واحد مؤكد. ولا يسمي القرآن هذه المرأة ولا يذكر نقل رفات يوسف، كما لا تثبت الروايات المذكورة اسمها أو نسبها أو كونها وصية؛ دورها المصرح به حفظ معرفة موضعه. ويحتاج كل طريق وتفصيل جغرافي إلى فحص مستقل قبل الجزم به.

شاهد قرب الإسناد والشيخ الدال على المرأة

يزيد قرب الإسناد شاهدين لقصة يوسف: خبر البزنطي عن الرضا يذكر المرأة العمياء المقعدة وطلب رفع عجزها ومرافقة موسى في درجته، وخبر صفوان الجمال عن الصادق عن النبي يذكر شيخًا دل موسى على المرأة العارفة بالقبر (نقلهما البحار ١٢٩:١٣-١٣٠، الخبران ٣٠ و٣٢). يُضاف الشيخ غير المسمى إلى الشخصيات، دون مطابقته بشيخ انتظار موسى في طفولته أو منحه وصاية. واختلاف عدّ المطالب قد يكون اختلاف تفصيل أو اختصار، فلا يُحكم بالتناقض لمجرد العدد؛ أما اختلاف المطر والقمر وظرف الرحلة فيبقى معروضًا للمقابلة. ولا يُتخذ حمل الرفات في الخبر حكمًا عامًا لنقل قبور الناس خارج سياقه الفقهي.

الخروج ليلًا

أُمر موسى أن يسري بعباد الله ليلًا، مع التصريح بأنهم سيُتبعون (الشعراء ٢٦:٥٢؛ الدخان ٤٤:٢٣). فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، ووصف القوم بالقلة وأعلن حذر جيشه، وخرج وراءهم عند الشروق (الشعراء ٢٦:٥٣-٦٠). يذكر النص الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم التي خلفها الطغاة، ثم يذكر توريث بني إسرائيل (٢٦:٥٧-٥٩؛ الدخان ٤٤:٢٥-٢٨). لا يعطي عدد الخارجين ولا أعداد الجيش، ولا تاريخ الليلة أو مسار المدن. وحين تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنهم مدركون، فكان جوابه ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء ٢٦:٦١-٦٢). هذه ثقة في وعد الله عند انسداد الطريق، لا استبعاد حسي لقدوم المطاردين.

انشقاق البحر

أُوحي إلى موسى أن يضرب للناس طريقًا في البحر يبسًا «لا تخاف دركًا ولا تخشى» (طه ٢٠:٧٧). وفي الشعراء ٢٦:٦٣ أمره بضرب البحر بعصاه، فانفلق وكان كل فرق كالطود العظيم، ثم أُزلف الآخرون وأنجى الله موسى ومن معه وأغرق الآخرين (٢٦:٦٤-٦٦). وتقول الدخان ٤٤:٢٤ ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾. اختلاف زاوية العرض بين الطريق اليابس والبحر المنفلق وتركه لا يوجب اختراع عدد من الممرات أو توقيت بالدقائق لانطباقه. ولا يحدد القرآن في هذه الآيات الاسم الحديث للبحر أو إحداثيات العبور؛ وكل تعيين جغرافي زائد يحتاج شاهدًا مستقلًا. نجاة القوم وغرق المطاردين قطعيان في النص، أما صورة جبرئيل راكبًا فرسًا أو عدد فرق البحر فموضع روايات تُبحث بدرجتها.

يوشع وكالب والممرات في أخبار البحر

في تفسير القمي عند الشعراء، في خبر أبان عن الصادق، يوشع بن نون يسأل موسى عن الأمر الإلهي ثم يدخل بفرسه الماء، ويصف الخبر اثني عشر طريقًا للأسباط وفتحات يرى بعضهم بعضًا منها. ويذكر منجّمًا حذّر فرعون من الدخول، ثم جبرئيل على فرس أنثى تتبعها دابة فرعون؛ هذه شخصيات روائية أو تفاصيل فعل لم تنص عليها آيات العبور (نقله البحار ١٣:١٢٢-١٢٣). وفي التفسير المنسوب إلى العسكري يظهر كالب بن يوحنا، مع اختلاف «يوفنة» في الضبط، في خبر توسل وعبور ممهد وانقسام البحر (البحار ١٣:١٣٨-١٤٠). لا ندمج فعل يوشع وفعل كالب في رجل واحد، ولا نصحح الكتاب بمجرد نسبة اسمه إلى الإمام. ويُحفظ ذكرهما هنا، وتفصل أدوارهما اللاحقة حيث يأتي نصها. وجبرئيل في الخبر راكب فرس، لا فرسًا تمثل بذاته؛ هذا فرق ينبغي صونه.

الرجل الذي عاد لأبيه وقوم طلبوا دنيا فرعون

يروي الكافي، ج٢، ص٣٧٤-٣٧٥، في باب مجالسة أهل المعاصي، عن الجعفري عن أبي الحسن خبر رجل من أصحاب موسى كان أبوه مع فرعون، تأخر لينصح أباه فلحقهما الغرق، فقال موسى إنه في رحمة الله، مع بيان أن البلاء قد يصيب من قارب موضعه. هذان رجلان غير مسميين؛ لا يجعل غرق الابن برهانًا على كفره. وفي الكافي، ج٥، ص١٠٩، باب عمل السلطان وجوائزهم، الحديث ١٣، عن الصادق بطريق فيه «عمن أخبره»، قوم أرادوا الانتفاع بدنيا فرعون ثم اللحاق بموسى عند ظهوره، فردهم ملك إلى العسكر فغرقوا. لا يُخلط هؤلاء بالابن الناصح؛ مقصده مختلف، والخبر الثاني مرسل في موضعه المذكور. وتكشف المقارنة أن التشابه في النهاية الدنيوية لا يسوّي بين النيات والمصائر الأخروية.

في ذيل خبر الراوندي — كيف وقعت المطاردة؟

يضيف ذيل الخبر ١٦٨ من «قصص الأنبياء» (ص١٥٦) أن فرعون تهيّب دخول البحر، وأن جبرئيل تمثل على فرس أنثى فأقبلت نحو الطريق وجذبت فحل فرعون، فدخل الجيش وغرق؛ ويذكر أن البحر لفظ جسد فرعون ميتًا لئلا يظن الناس أنه غاب حيًا. هذا تصوير روائي لكيفية الدخول وسبب إظهار الجسد، ولا تفصله آيات الشعراء ٢٦:٦٠-٦٨ أو يونس ١٠:٩٠-٩٢ بهذه الصورة. نذكره في موضعه لأنه يشرح حلقة من الرواية الإمامية، مع إبقاء درجة السند محل فحص وعدم جعله دليلًا على موقع البحر أو ترتيب حركات الجند. أما أصل الغرق ونجاة بدن فرعون ليكون آية فمن القرآن نفسه.

إعلان فرعون الإيمان عند الغرق

قال فرعون عند إدراك الغرق:

﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾.

فجاء الجواب:

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.

القصة تضع حدًا لفكرة التوبة التي لا تأتي إلا عند زوال القدرة على الاختيار.

وفي الوقت نفسه قال الله:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.

الآية تقول إن بدنه يُنجى ليكون آية، لكنها لا تسمح وحدها بتعيين مومياء بعينها اليوم.

إيمان الغرق وخبر الطين ومآل آل فرعون

في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا، عن إبراهيم بن محمد الهمداني عن الإمام الرضا، تفسير عدم قبول إيمان فرعون بأنه وقع عند رؤية البأس، مع الاستشهاد بغافر ٨٤-٨٥ والأنعام ١٥٨، وتفسير ظهور بدنه على مرتفع وهو مثقل بالحديد (البحار ١٣:١٣٠-١٣٢، الخبر ٣٤). وفي ذيل الخبر استغاثته بموسى وبيان سعة رحمة الله لو استغاث به؛ يعرض هذا الذيل مع أوله ولا يُجعل إلغاءً لحكم يونس ٩٠-٩٢ أو دليلًا على نجاته الأخروية.

ويرد في تفسير القمي عند قصة الغرق خبر إلقاء جبرئيل الطين في فمه، وفي بعض سياقه حكاية خوف جبرئيل لأنه فعله قبل أمرٍ خاص (البحار ١٣:١١٧-١١٨، ١٢٢-١٢٣). هذا تفصيل روائي يحتاج نقد طريقه ودلالته؛ لا نستنتج منه أن ملكًا يستطيع منع رحمة الله أو إبطال توبة يقبلها الله. والقرآن يصرح أصلًا بأن فرعون نطق بإيمانه. ولا تنتهي العبرة عند جسده: غافر ٤٦ تذكر عرض آل فرعون على النار قبل قيام الساعة ثم أشد العذاب، وهود ٩٨-٩٩ تصف تقدمه قومه إلى النار. فنجاة البدن في الآية إظهار علامة، وليست شهادة بإيمانه المقبول.

هارون في مرحلة الخروج

ثبّت القرآن شراكة هارون لموسى في الرسالة ومواجهة فرعون، ولا يفصّل موضع هارون أثناء عبور البحر. وبعد النجاة يظهر دوره صراحةً حين يستخلفه موسى على قومه قبل ميقات الطور (الأعراف ٧:١٤٢).

وهذا هو الجسر إلى الفصل التالي:

الحرية من فرعون ليست نهاية الامتحان.

بعد الخروج يأتي الكتاب والميثاق، ثم امتحان العجل والتيه.

أخبار أخرى وحدود الاستدلال بها

ورد في طب الأئمة خبر محاولة تسميم بني إسرائيل، وفيه موسى وهارون ويوشع والنساء والأطفال وجبرئيل، ونقله البحار ١٣:١١٨-١١٩ بطريق عبد الله بن بسطام عن إبراهيم بن النضر عن الأئمة إجمالًا. يُحفظ موضع الخبر وما يضيفه إلى سجل الشخصيات، ولا تعني روايته اعتماد دوائه أو أعداده الضخمة أو ثبوت جميع تفصيلاته.

وفي كامل الزيارات، عن ربعي عن الصادق، تأويل الشاطئ والموضع المبارك والشجرة بالفرات وكربلاء ومحمد؛ وعقّب المجلسي باحتمال ظهور نور النبي لموسى (البحار ١٣:١٣٦-١٣٧). هذا باب تأويل وفضائل، فلا يُستعمل وحده خريطةً جغرافية لرحلة مدين أو دليل حلول. وفي العياشي عن الفضل بن أبي قرة خبر ضراعة بني إسرائيل أربعين صباحًا وتخفيف مدة البلاء، مع صدر يربطها بسارة

ونسلها (البحار ١٣:١٤٠). يُذكر وجوده دون جعل الأرقام تاريخًا ثابتًا أو تقرير مؤاخذة الأبناء بذنب أمهم؛ فذلك يحتاج بحثًا خاصًا في الطريق والدلالة على ضوء الأنعام ١٦٤، وبشارة سارة في هود ٧١-٧٣.

وتضيف مادة الثعلبي المنقولة في البحار ١٣:١٥٣-١٥٥ خربيل عند البحر، وميكائيل خلف الجند، وهامان محذرًا فرعون، ثم يوشع وكالب في بعثة لاحقة إلى مصر ورجلًا غير مسمى استخلفه يوشع. تُسجّل هذه الوجوه ولا تُلحم بخبر مقتل المؤمن في الكافي أو بخبر المنجم؛ اختلاف المشاهد والمصادر قائم، ولا يثبت القرآن بنفسه هذه البعثة إلى مصر أو أسماء قادتها.

خاتمة الفصل الثالث والعشرين — الخروج من سلطة فرعون لا يكفي

موسى عاد إلى مصر رسولًا.

وهارون صار شريكه ووزيره ونبيًا.

قامت الحجة.

آمن السحرة.

ظهر مؤمن من آل فرعون.

تتابعت الآيات.

خرج بنو إسرائيل.

انشق البحر.

وغرق فرعون.

لكن الإنسان قد يخرج من أرض الطاغية ويبقى في داخله شيء من ثقافة الطغيان أو الوثن.

ولهذا يبدأ الفصل التالي مباشرة باختبار جديد:

هل يستطيع القوم الذين تحرروا من فرعون أن يحملوا الميثاق؟

حصيلة الشخصيات وحدود المراجعة

تضم هذه المرحلة موسى وهارون، وأهل موسى وزوجته، وفرعون وهامان وقارون، والمؤمن من آل فرعون، وامرأة فرعون، والسحرة، والملأ والحاشرين والجند، والمؤمنين المستضعفين من بني إسرائيل ونسائهم وأطفالهم. وتميز الروايات التي عُرضت: آسية وأمها، والماشطة وأطفالها وبنت فرعون، وامرأة قبر يوسف والشيخ الدال عليها، ويوسف بوصفه صاحب الرفات، ويوشع وكالب، والرجل العائد إلى أبيه وأباه، وطالبي دنيا فرعون، والرجلين المرسلين لطلب المؤمن، والمنجم، والحراس والعجوز المضيفة وأسرة الساحرين والأسماء المختلف فيها. ولجبرئيل والملائكة، وميكائيل في النقل القصصي، أدوار تذكر بصفتها الغيبية؛ أما رواة الأخبار والأئمة المفسرون والنبي محمد ومن ذُكر معه في أخبار الفضائل فليسوا

معاصرين لهذه الحوادث. ويُذكر علي بن أبي طالب وحبيب النجار في خبر الصدّيقين للمقارنة في الفضيلة، لا بوصفهما حاضرين في زمن موسى.

أُنجزت مراجعة النص القرآني ومقابلة النقول الأساسية المذكورة هنا، مباشرةً حيث أتيح نص المصدر، وبواسطة بحار الأنوار حيث صُرّح بالنقل عنه. شملت المقابلة أبواب النداء والرسالة والخروج ومؤمن آل فرعون وآسية، والنقول ذات الصلة من الكافي والصدوق والراوندي والتفاسير. هذا استكمال موثق ضمن هذه المادة؛ ليس ادعاء إحصاء جميع المخطوطات أو تصحيح كل إسناد. وتبقى أحداث العجل والميقات والتيه وقارون وما بعدها في فصولها، مع الإحالة إلى الشخصيات التي بدأت أدوارها هنا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: طه ٢٠:٩–٧٩؛ القصص ٢٨:٢٩–٤٢؛ الأعراف ٧:١٠٣–١٣٧؛ يونس ١٠:٧٥–٩٢؛ الشعراء ٢٦:١٠–٦٨؛ النمل ٢٧:٧–١٤؛ غافر ٤٠:٢٣–٤٦؛ الزخرف ٤٣:٤٦–٥٦؛ الدخان ٤٤:١٧–٣٣؛ النازعات ٧٩:١٥–٢٦؛ الإسراء ١٧:١٠١؛ إبراهيم ١٤:٥–٨؛ مريم ١٩:٥٣؛ الأنبياء ٢١:٤٨؛ التحريم ٦٦:١١؛ القصص ٢٨:٩.

الكليني، الكافي، الروضة، ج٨، ص١٥٥، ح١٤٤ (طبعة الغفاري)؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٩٢–١٩٣، ح٥٩٤؛ الراوندي، قصص الأنبياء، ص١٣٥–١٣٦، ح١٣٩. روايات مختلفة في نقل رفات يوسف والمرأة الحافظة للموضع؛ يُفحص سند كل طريق وتفصيله على حدة. الراوندي، قصص الأنبياء، خبر ١٦٨، ص١٥٥–١٥٦: مشهد القصر والسحرة واثنين وسبعين شيخًا منهم، مع ضرورة تقويم الطريق ومقابلة النسخ، ولا يُجعل العدد قرآنيًا. وخبر ١٩٤، ص١٦٦–١٦٧: «حزبيل/خربيل» مؤمن آل فرعون، مع غياب إسناد مستقل متصل ظاهر في المقطع المرقم. وفقرة «تسع آيات موسى»، ص١٦٧–١٦٩، المرقمة ١٩٥: تفاصيل الدم والضفادع والجراد والقمل وأخبار أخرى، بلا إسناد مستقل ظاهر في المقتطف، مع اضطراب ترقيمه.

بحار الأنوار، ج١٣، أبواب موسى وهارون، مع الرجوع إلى الأصول وعدم التصحيح بمجرد الجمع.

إحالات الإضافات وروابط النصوص

تضاف إلى المراجع السابقة: الكافي، ج٢، ص٢١٥، باب سلامة الدين، ح١؛ وج٢، ص٣٧٤–٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، ح٢؛ وج٥، ص١٠٩، باب عمل السلطان وجوائزهم، ح١٣. والصدوق: علل الشرائع، أبواب خلع النعلين والقول اللين وإيمان فرعون؛ معاني الأخبار، تفسير طه واليد البيضاء؛ الخصال، أخبار آسية وباب التسعة. وقرب الإسناد، شاهدا البزنطي وصفوان في نقل رفات يوسف. ونوادر الراوندي ودعواته؛ وكامل الزيارات في تأويل البقعة. ونهج البلاغة، كلام خوف موسى والخطبة القاصعة؛ وتنزيه الأنبياء، مسائل السحر والدعاء.

للتفاسير: القمي عند طه والشعراء ويونس وغافر؛ والعياشي عند يونس والإسراء؛ ومجمع البيان عند التحريم ١١؛ والاحتجاج والتفسير المنسوب إلى العسكري مع قيد النسبة والطريق. جُمعت إحالات هذه النصوص في بحار الأنوار، ج١٣، ص٦٤-٦٦، ثم ص١١٦-١٤١، وص١٥٧-١٦٥؛ والنقول القصصية عن الثعلبي في ص١٤١-١٥٥ و١٦٣-١٦٥. صفحات الأصول المذكورة في المتن تتبع الطبعات التي أحال إليها المصدر؛ عند اختلاف الطبعة يعتمد اسم الباب والحديث والآية أيضًا.

نص الكافي: باب سلامة الدين، الحديث ١

نص الكافي: الرجل الذي عاد إلى أبيه، ج٢، ص٣٧٥

نص الكافي: باب عمل السلطان وجوائزهم، الحديث ١٣

قصص الأنبياء للراوندي: أخبار موسى والقصر والخروج

قصص الأنبياء للراوندي: مؤمن آل فرعون وآيات موسى

بحار الأنوار، المجلد ١٣: النص الجامع وإحالاته إلى الأصول

الصدوق، الخصال، باب الثلاثة، ح٢٥٤، ص١٨٤: خبر الصدّيقين الثلاثة.

الفصل ٢٤ — موسى عليه السلام — الكتاب والميثاق والتيه

من البحر إلى الميثاق — الحرية تحتاج شريعة

نجا بنو إسرائيل من فرعون.

لكن الخروج من مصر لم يكن نهاية رسالة موسى.

الآن يجب أن تتحول جماعة نجت من الاستعباد إلى جماعة تحمل كتابًا وعهدًا.

ولهذا تأتي مرحلة الطور:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾.

وتأتي الألواح.

ويأتي استخلاف هارون.

ثم يقع امتحان العجل.

كأن القصة تقول:

التحرر من الطاغية أسرع من تحرير القلب من آثار الوثنية.

الخريطة القرآنية لهذه المرحلة

البقرة ٢:٤٠–٩٣: تذكير النعم، البحر، الأربعون ليلة، العجل، الكتاب، طلب الرؤية، المن والسلوى، الماء، القرية، نقض الميثاق ورفع الطور.

الأعراف ٧:١٣٨–١٧١: طلب إله مثل آلهة القوم، الميقات، الألواح، استخلاف هارون، العجل، غضب موسى، السبعون، الميثاق ورفع الجبل.

طه ٢٠:٨٠–٩٨: النجاة، موعد الطور، السامري، العجل، موقف هارون، محاسبة السامري.

المائدة ٥:٢٠–٢٦: دعوة دخول الأرض المقدسة، الرجلان اللذان يخافان الله، رفض القوم، الأربعون سنة في التيه.

الأنعام ٦:١٥٤؛ القصص ٢٨:٤٣؛ الإسراء ١٧:٢؛ المؤمنون ٢٣:٤٩؛ السجدة ٣٢:٢٣؛ غافر ٤٠:٥٣: إيتاء موسى الكتاب والهداية.

القصص ٢٨:٧٦–٨٢: قارون وكنوزه واغتراره وخسف الأرض به.

العنكبوت ٢٩:٣٩ وغافر ٤٠:٢٤: قارون مع فرعون وهامان في نماذج الاستكبار.

مواضع قرآنية تكمل الخريطة

تُقرأ قصة البقرة كاملة في البقرة ٢:٦٧-٧٤، ويُضم إلى الميثاق تفصيل الوصايا في ٢:٨٣-٨٤ والمائدة ٥:١٢-١٣، وإلى الكتاب بيان التوراة والقصاص في ٥:٤٤-٤٥، وذكر صحف موسى في النجم ٥٣:٣٦-٤٢ والأعلى ٨٧:١٤-١٩. ويُستكمل مشهد النجاة والرزق بقول موسى في إبراهيم ١٤:٦-٨، وبالتذكير بإسكان بني إسرائيل في يونس ١٠:٩٣ والإسراء ١٧:١٠٤، وبالكتاب والحكم والنبوة في الجاثية ١٧:٤٥-١٦. أما العدل في الحكم على الجماعة فتؤكده الأعراف ٧:١٥٩؛ ففي قوم موسى أمة تهدي بالحق وتعدل به.

ويستدعي هذا الفصل أيضًا الأعراف ٧:١٥٦-١٥٧ في الرحمة والبشارة بالنبي الأمي، و٧:١٧٥-١٧٧ في صاحب الآيات الذي انسلخ منها، والأحزاب ٣٣:٦٩ والصف ٦١:٥ في أذى موسى. ولا تُجعل أخبار الأجيال اللاحقة، ومنها أصحاب السبت في الأعراف ٧:١٦٣-١٦٦، وقائع مؤرخة في حياة موسى لمجرد مجاورتها لقصته.

﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

بعد عبور البحر مر بنو إسرائيل على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا:

﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

قال:

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

هذا المشهد يفسر لماذا كان العجل ممكنًا بعد كل الآيات.

رؤية المعجزة لا تمحو فورًا العادات الفكرية المتراكمة.

ثلاثون ليلة وعشر

الأعراف تقول إن الله واعد موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

والبقرة تذكر الأربعين إجمالًا.

لا تعارض:

موضع يذكر البداية ثم الإتمام،

وموضع يذكر المجموع.

في هذه الفترة قال موسى لهارون:

﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾.

الميقات بين الشوق والامتحان

تضيف طه ٨٣:٢٠-٨٤ إلى عدد الليالي معنى العجلة إلى رضا الله؛ فقد قال موسى إن قومه على أثره وإنه عجل إلى ربه ليرضى. وكان تأخر رجوعه امتحانًا لمن بقي مع هارون، لا دليلًا على بطلان وعده. ويروي العياشي عن الباقر أخبارًا في الثلاثين وإتمامها بعشر؛ ويناقش المجلسي لفظ «البداء» الوارد في بعضها بمعنى ظهور ما خفي على العباد، لا حدوث علم لله بعد جهل. ويرد في تفسير القمي تعيين الثلاثين بذي القعدة والعشر بأول ذي الحجة. هذه زيادة روائية لا تاريخ يصرح به القرآن، ولا نلزم بها كل خبر في نزول التوراة. المصدر الجامع: بحار الأنوار، ج١٣، باب ٧، ص٢١٣-٢١٤ و٢٢٦-٢٢٨.

استخلاف هارون

﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ نص قرآني واضح في أن هارون كان خليفة موسى على القوم في غيبته عنهم.

هذا لا يساوي تلقائيًا كل معنى عقدي لاحق، لكنه يثبت وظيفة الاستخلاف في هذه المرحلة.

ولذلك صار هذا المشهد حاضرًا بقوة في الحديث النبوي «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» عند الحديث عن علي عليه السلام، وتُبحث دلالته في موضع الحديث عن النبي وعلي عليهما الصلاة والسلام.

السامري — القرآن يسميه ولا يعطينا سيرته

طه يسمي الشخصية المركزية في فتنة العجل:

السامري.

لكن القرآن لا يخبرنا:

اسمه الشخصي الكامل،

قبيلته على نحو تاريخي،

موطنه،

ولا سيرته قبل الحدث.

الروايات وكتب التفسير تضيف تفاصيل كثيرة، وبعضها غريب.

لذلك نثبت ما يثبت القرآن:

أضل القوم،

أخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار،

واعتذر بأنه قبض قبضة من أثر الرسول ونبذها.

أما تفسير «أثر الرسول» ومن هو الرسول، فتختلف فيه الروايات والتفاسير.

السامري وأعوان الفتنة في الأخبار

تروي مادة تفسير القمي أن إبليس تمثل في صورة إنسان وروّج خبر عدم رجوع موسى، وأن السامري احتفظ بتراب من أثر مركوب جبرئيل ثم ألقاه في العجل. وتختلف الأخبار والتفاسير في تفسير الخوار: أكان مع جسم صارت له حياة، أم كان صوتًا أحدثته صنعة أو حيلة؟ يعرض «الميزان» اختلاف تفسير القبضة، ويرجح من وصف «جسدًا» أن العجل لم يكن حيًا. فلا نسوي بين هذا الاجتهاد التفسيري وبين جميع ألفاظ الأخبار. وتظل حجة القرآن واضحة: العجل لا يجيب ولا يملك نفعًا أو ضرًا (طه ٢٠:٨٩). لا تنتج عن غرابة المشهد ألوهية ولا عذر لترك هارون.

وفي خبر عن الصادق يورده القمي ويجمعه المجلسي يذكر السامري ومعه «مرعقيبا» في سياق إضلال قوم موسى. في طريقه علي بن أبي حمزة، فلا تكفي هذه الإشارة لصنع سيرة مستقلة للرجل أو جعله من الأنبياء. أما الأسماء «موسى بن ظفر» و«ميخا» وأقوال نسب السامري وموطنه، فهي أقوال متباينة ينقلها المجلسي في ذيل الباب عن أهل التفسير والقصص، وليست اسمًا نص عليه القرآن أو تعيينًا إماميًا متفقًا عليه.

وتظهر أم السامري غير المسماة في خبر طفولته ورعاية جبرئيل له؛ يعرضه بعض المفسرين نقلًا عن ابن عباس وأخبار القصص. نثبت وجود هذه الشخصية في ذلك الخبر، مع بيان أن هذا الطريق ليس قولًا مسندًا إلى إمام من أهل البيت. ولا نستنتج من نسبة السامري حكمًا على جماعة دينية معاصرة. المصادر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٠٩–٢١٦ و٢٤٤–٢٤٧؛ الميزان، تفسير طه ٢٠:٨٠–٩٨.

خمسة من بيت واحد — حضور المرأة والابنة

يورد الصدوق في «الخصال» خبرًا عن أبي الحسن يذكر خمسة من أهل بيت واحد أمروا قوم موسى بعبادة العجل: «أذينوه وأخوه مبذويه وابن أخيه وابنته وامرأته». ويقع اختلاف في ضبط اسمَي الرجلين في النسخ والنقول؛ فمنها «ميذويه» بدل «مبذويه»، وترد صورة «أذنبوية» في بعض النقل. لذلك تُحفظ الأسماء كما وردت، ولا تتحول اختلافات الرسم إلى أشخاص جدد.

يحفظ الخبر امرأة وابنة وابن أخ بلا أسماء شخصية، ويذكر أن أهل هذا البيت هم الذين ذبحوا البقرة المأمور بها. ولا يكفي ذلك لتوحيدهم مع كل شخص في روايات البقرة المختلفة، أو لمساواة أحد الرجلين بالسامري. أورد الصدوق الخبر في باب الخمسة، ثم أوضح أن فتواه تجيز الاشتراك في البدنة والبقرة عن سبعة، وأن الإجزاء عن سبعة لا ينافي الإجزاء عن واحد أو خمسة. فهذا توضيح فقهي، لا حكم مستقل على صحة التفاصيل التاريخية. المصدر: الخصال، باب الخمسة، خبر أهل البيت المذكورين؛ وله نظير في عيون أخبار الرضا، الأخبار المتفرقة، ح٢٢؛ بحار الأنوار، ج١٣، ص٢١٦–٢١٧، ح٨.

أما مصير السامري فيبقى مضبوطًا بوعيد طه ٢٠:٩٧: «لا مساس» وموعد لا يُخلَف. وفي الكافي، كتاب الزكاة، باب معرفة الجود والسخاء، ح١٣، خبر رفعه علي بن إبراهيم إلى الصادق في أن سخاء السامري كان سببًا لعدم قتله. الطريق مرفوع، ولا يقول إن عبادة العجل صارت مقبولة أو إن وعيده الأخروي أُلغي.

هل هارون شارك في العجل؟

القرآن يبرئ هارون من ذلك بوضوح.

قال لهم:

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

رفضوا.

وحين رجع موسى غضبان أخذ برأس أخيه، فقال هارون:

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾.

فقال موسى بعد ذلك:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

لا يصح بناء صورة تجعل هارون مسؤولًا عن صناعة العجل؛ النص صريح في مقاومته.

عتاب الأخوين وعصمة هارون

قال هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه ٢٠:٩٤). يجتمع هذا مع قوله إن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه؛ فهو يشرح لماذا لم يغادر بمن أطاعه ويترك الجماعة تتصدع، لا لماذا رضي بعبادة العجل. وينقل الصدوق في «علل الشرائع» عن الصادق تفسيرًا لبقائه وانتظاره رجوع موسى، ثم يناقش الصدوق، ويناقش الشريف المرتضى في «تنزيه الأنبياء»، دلالة أخذ الرأس واللحية بما يحفظ عصمة النبيين. كلام المؤلفين تأويل عقدي، فلا ينسب لفظه إلى الإمام.

والنداء «يا ابن أم» استرحام بذكر الأم، ولا يثبت أنهما أخوان من الأم فقط. ودعاء موسى بالمغفرة له ولأخيه لا يلغي نص القرآن في مقاومة هارون للفتنة. لهذا لا يصح نقل صورة من مصدر آخر تجعل هارون صانع العجل ثم إلحاقها في الرواية القرآنية. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٢١٩–٢٢٢، مع نقل علل الشرائع وتنزيه الأنبياء.

الرجوع من عبادة العجل — المسؤولية والتوبة

لم يقتصر القرآن على ذكر العجل بوصفه حادثة عابرة. ففي الأعراف ٧:١٤٨–١٥٢ يصف اتخاذه من حلي القوم، وعجزه عن مخاطبتهم أو هدايتهم، ثم ندمهم حين تبين لهم الضلال. وفي طه ٢٠:٨٥–٩٨

يعرض خبر إضلال السامري، وإنذار هارون السابق لعودة موسى، ومساءلة موسى لهما؛ ولما واجه السامري قال إنه رأى ما لم يروه وقبض قبضة من أثر الرسول، ثم جاء حكمه وذُكر إهلاك العجل وإلقاء أثره في اليم. لا يحدد القرآن ماهية هذا «الأثر» تحديدًا لا يحتمل غيره، فلا نجعل أحد تفاسيره جزءًا من لفظ الآية. أما قول موسى لقومه ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة ٢:٥٤) فيُعرض بلفظه وسياق التوبة، وتُبحث كيفية وقوعه في التفسير والروايات دون اختراع عدد للقتلى. وتذكر الأعراف ٧:١٥٣ سعة رحمة الله لمن تاب وآمن بعد السيئات. بهذا يجتمع في المشهد عدل المحاسبة وفتح باب الرجوع، ولا تُلصق صناعة العجل بهارون الذي قاومها.

كيف تروي الأخبار توبة القوم؟

يذكر تفسير القمي في شرح البقرة ٢:٥٤ صورة اجتماع المتورطين وتقاتلهم ثم قبول التوبة، ويورد عددًا للحاضرين وعددًا للقتلى. وتضيف روايات التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري تفصيلًا في تمييز عابدي العجل ممن ثبتوا، ودعاء موسى وفتح باب العفو. هذه التفاصيل ليست كلها على طريق واحد، ونسبة التفسير المذكور وأسانيد مادته تحتاجان بحثًا مستقلًا؛ فلا نأخذ مجموع أعداده وأحداثه باعتباره شرحًا قطعيًا للآية.

يُحفظ أصل الأمر القرآني في سياق تلك الجماعة وتوبتها، من غير تحويله إلى تكليف عام يطبقه الأفراد على أنفسهم أو غيرهم. والغاية التي يختم بها النص هي قبول التوبة: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، باب ٧، ص٢٢٢، وما نقله في الباب من التفسير المنسوب إلى العسكري.

الألواح والكتاب

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ٧:١٤٥).

والقرآن يسمي ما أوتيه موسى:

الكتاب،

الفرقان،

ضياء،

ذكرًا،

هدى ورحمة.

يذكر القرآن التوراة كتابًا فيه هدى ونور (المائدة ٥:٤٤)، ويذكر إيتاء موسى الكتاب في مواضع أخرى؛ أما تفصيل العلاقة بين أسماء الكتاب والألواح فيُعرض بقدر دلالة كل آية، من غير إضافة تاريخ لنزوله لم يرد فيها.

لكن التفاصيل المادية للألواح، نوع حجرها وألوانها وأحجامها، من الروايات المختلفة وليست قرآنًا.

ما الذي يحمله الكتاب؟

لم تُعط الألواح لتكون أثرًا محفوظًا بلا عمل. في المائدة ٥:٤٤ تُذكر التوراة بما فيها من هدى ونور، والأنبياء والربانيون والأحبار بما استُحفظوا من كتاب الله وشهدوا عليه، مع النهي عن خشية الناس وبيع الآيات بثمن قليل. وتذكر الآية التالية أحكام القصاص وفضل التصدق به. وفي النجم ٥٣:٣٦-٤٢ يأتي من مضمون صحف موسى وإبراهيم أن الإنسان لا يحمل وزر غيره، وأن سعيه يُرى ثم يجزى؛ وفي الأعلى ٨٧:١٤-١٩ تتصل الصحف بالتزكي والذكر والصلاة وإيثار الآخرة. بذلك يرتبط الكتاب بالعدل والمسؤولية وتطهير القلب.

ويروي الكافي عن أبي بصير عن الصادق وجود صحف إبراهيم وموسى عند أهل البيت، ويسأله أبو بصير عن الألواح فيجيبه بالإثبات. وتورد بصائر الدرجات أخبارًا عن انتقال الألواح وحفظها حتى انتهائها إلى النبي وأهل بيته، وفي بعضها ذكر جبل ووفد من اليمن. هذه أخبار في وراثة العلم والآثار، ولا يثبت بها تحديد موقع أثري معاصر أو اتفاق في مادة الألواح ومقاديرها. المصادر: الكافي، كتاب الحجة، باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء، ح٤-٥؛ بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٢٤-٢٢٦؛ نور الثقلين عند الأعلى ٨٧:١٨-١٩.

الميثاق تحت الطور — تلقي الكتاب والعمل به

حين هدأ غضب موسى أخذ الألواح، وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (الأعراف ٧:١٥٤). ولا يحدد القرآن مادتها ولا عددها. وفي البقرة ٢:٦٣، ٩٣ والأعراف ٧:١٧١ يذكّر الله بني إسرائيل بالميثاق ورفع الطور فوقهم والأمر بأخذ ما أوتوا بقوة وذكر ما فيه. المقصود في سياق الآيات إلزامهم بالعهد والعمل، لا الاكتفاء بحيازة ألواح أو نسبٍ إلى نبي. ويذكر القرآن في البقرة ٢:٦٧-٧٣ أمر موسى بذبح بقرة وتتابع أسئلة قومه ثم وقوع الذبح؛ لا يربط النص تلك القصة بتاريخ محدد من سنوات التيه، فلا نضعها في يوم من أيام الميقات بغير دليل. وما يرد في الأخبار عن شكل الجبل ومقاييس الألواح وتفاصيل البقرة يحتاج فحصًا مستقلًا قبل أن يدخل في السرد بوصفه واقعة ثابتة.

الميثاق في البيت والمجتمع

تفصل البقرة ٢:٨٣-٨٤ عهد بني إسرائيل: عبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، والقول الحسن للناس، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وترك سفك الدماء وإخراج بعضهم بعضًا من الديار. فالأم والأب واليتيم والمسكين ليسوا هامشًا في قصة الكتاب؛ حقوقهم من مضمون العهد نفسه، وإن لم تُذكر أسماؤهم.

وفي المائدة ٥:١٢ يذكر الله اثني عشر نقيبًا، ويربط وعد المعية بإقامة الصلاة والزكاة والإيمان بالرسل ونصرتهم والقرض الحسن؛ ثم يذكر نقض الميثاق وقسوة القلوب في ٥:١٣. ورفع الطور في البقرة

٢:٦٣ والأعراف ٧:١٧١ يجيء مع الأمر بالأخذ بقوة والتذكر. أما الأعراف ٧:١٥٦-١٥٧ فتفتح دعاء موسى على الرحمة المكتوبة للمتقين واتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا في التوراة والإنجيل. وعند الحديث عن المخالفين لا يُنسى استثناء أهل العدل من قوم موسى في ٧:١٥٩؛ فلا تتحول أخطاء فئة إلى إدانة كل فرد أو كل جيل.

قصة البقرة — الجريمة التي كشفها الله

قال موسى لقومه إن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فاستقبلوا الأمر بالسؤال عما إذا كان يتخذهم هزوًا؛ فاستعاذ بالله من الجهل. ثم سألوا عن سنها، فبيّن أنها وسط بين الكبيرة والصغيرة، وعن لونها فكانت صفراء فاقعًا لونها تسر الناظرين، وعن حالها فكانت غير مذللة لحرث الأرض أو سقي الزرع، سليمة لا شية فيها. عندئذ قالوا إنه جاء بالحق، فذبحوها وما كادوا يفعلون (البقرة ٢:٦٧-٧١).

ثم يكشف النص صلة هذا الأمر بجريمة قتل تنازعوا فيها، وبما كانوا يكتمون؛ فأمرهم الله بضرب المقتول ببعض البقرة، وجعل إحياء الموتى وإراءة الآيات طريقًا إلى التعقل (٢:٧٢-٧٣). لا تسمي الآية القاتل ولا المقتول ولا مالك البقرة، ولا تحدد الجزء الذي ضُرب به. ويختم السياق بذكر قسوة القلوب بعد ذلك ومقارنتها بالحجارة التي قد يتفجر منها الماء أو تهبط من خشية الله (٢:٧٤).

في القصة ضحية لا يجوز أن تضيع، وحقائق أخفاها بشر ثم أظهرها الله. وترتيب عرض أمر الذبح ثم ذكر القتل أسلوب النص؛ لا يلزم منه أن القتل حدث بعد الذبح. ولا يوضع هذا الحدث في سنة معينة من التيه بغير دليل.

أصحاب البقرة والنساء في رواياتها

في «عيون أخبار الرضا»، الأخبار المتفرقة، ح٣١، يروي البزنطي عن الرضا أن رجلًا قتل قريبًا له وألقى الجسد في طريق سبط من خيار الأسباط ثم طالب بدمه. وتتوالى أسئلة البقرة حتى توجد عند فتى بار بأبيه: فاته ربح تجارة لأن المفتاح تحت رأس أبيه النائم فآثر ألا يوقظه، فعوّضه أبوه بالبقرة. اشتُريت بملء جلدها ذهبًا، وضُرب المقتول بقطعة من ذنبها فقام وسمى ابن عمه قاتله. الشخصيات هنا: المقتول وابن عمه، والمتهمون من السبط، والفتى وأبوه، وموسى. لا أسماء شخصية لهم في هذا المتن.

أما رواية القمي عن الصادق، من طريق ابن أبي عمير عن بعض رجاله، فتقدم باعثًا مختلفًا: رجل صالح اختارته فتاة أو أهلها للزواج، فحسده ابن عمه المرفوض وقتله. ثم تروي شأن الابن البار وأبيه والبقرة. ففيها فتاة صاحبة اختيار وأهلها، لا يصح إسقاطهم من السرد؛ وطريقها يتضمن راويًا غير مسمى. وفي خبر عند الراوندي ينتهي إلى ابن عباس يكون المقتول شيخًا ذا ابنة، ويقتله ابن أخيه بعد أن منعه زواجها. هذا طريق آخر، لا يُنسب إلى الصادق، ولا يُجعل المقتول فيه هو العريس في الرواية السابقة.

ويطيل التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري القصة: ثلاثة أبناء عم تتصل خصومتهم بفتاة، ويقتل اثنان صاحبهما؛ ثم تظهر أم الفتى صاحب البقرة في تحديد الثمن، وترد تفاصيل إحياء المقتول وزواجه وطول عمره، والدعاء بالنبي وأهل بيته. تُذكر هذه العناصر بصفتها مادة ذلك التفسير، مع التوقف في نسبة الكتاب وأسانيده؛ ولا ندمج الأم صاحبة قرار البيع مع الأب في رواية الرضا في مشهد واحد مصطنع.

وينقل ابن طاووس في «سعد السعود» عن تفسير منسوب إلى الباقر خبرًا تكون فيه البقرة مملوكة لامرأة؛ فلا نفترض بلا دليل أنها أم الفتى نفسها. وترد في الأخبار القصصية التي نقلها الثعلبي أم أرملة وولد بار وأب متوفى، وملك يمتحن البيع، وإبليس في هيئة راع، كما يرد للمقتول اسم «عاميل». هذه زيادات من طرق القصص وأهل الكتاب أو من نقل غير محقق النسبة، وليست جميعها روايات عن الأئمة. جامع الطرق والفروق: بحار الأنوار، ج١٣، باب ٩، ص٢٥٩–٢٧٧.

وتلتقي الأخبار، على اختلافها، عند خطر الحسد والبهتان وتعطيل الحق بكثرة التعنت، وعند بر الوالدين. لكن اشتراكها في العبرة لا يزيل اختلاف عدد القتلة أو صلة القرابة أو هوية مالك البقرة.

طلب الرؤية و﴿لَن تَرَانِي﴾

قال موسى:

﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

فقال:

﴿لَن تَرَانِي﴾.

وفي العقيدة الإمامية تُفهم الآية في تنزيه الله عن الرؤية البصرية والجسم والمكان.

وتشرح روايات أن موسى طلب ذلك في سياق قومه أو لإقامة الحجة عليهم، لا لأنه يجهل استحالة رؤية الله بالبصر.

فلما تجلى الرب للجبل بمعنى ظهور أثر القدرة، جعله دكًا وخر موسى صعقًا.

رواية الإمام الرضا في سؤال الرؤية — معنى القول وحدود الخبر

يروي الصدوق في «التوحيد» (ص١٢١–١٢٢، ح٢٤ في الطبعة المحققة) وفي «عيون أخبار الرضا» (ج٢، ص١٧٨–١٧٩) حوار الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون عن الأعراف ٧:١٤٣. يبين الإمام أن موسى كان عالمًا بأن الله لا يُرى بالأبصار، وأن قومه ألحوا في سماع الكلام ثم في الرؤية، فسأل ربه ما سألوه لإظهار الجواب لهم. وفي متن الخبر تفصيل اختيار سبعين من أعداد أكبر، وحديث الصاعقة والإحياء؛ القرآن يثبت اختيار سبعين في الأعراف ٧:١٥٥ ويذكر طلب الرؤية والصاعقة في البقرة ٢:٥٥–٥٦، ولا يثبت أعداد مراحل الاختيار أو أن المشهدين متطابقان زمنيًا.

وفي طريق الخبر المطبوع تميم بن عبد الله عن أبيه وحمدان بن سليمان وعلي بن محمد بن الجهم؛ لا نضع له هنا حكمًا رجاليًا نهائيًا من مجرد وجوده في الكتاب، بل نميز وجه الاستدلال الإمامي عن الأعداد والتفاصيل الروائية. كما يعرض الصدوق في «التوحيد» ص١١٩ بيانًا تأليفيًا له في تنزيه الله وعصمة موسى، ولا نخلط قول المؤلف بلفظ رواية مسندة.

السبعون

اختار موسى من قومه سبعين رجلًا لميقات الله.

وترتبط القصة في الأعراف بالرجفة ودعاء موسى.

وفي البقرة ترد قصة الذين قالوا لن نؤمن حتى نرى الله جهرة ثم أخذتهم الصاعقة وأعيدوا.

اختلف المفسرون في كيفية جمع التفاصيل وترتيبها.

لا ندمج المشهدين في سيناريو واحد بلا دليل.

السبعون والتجلي — مواضع لا يحسمها الجمع وحده

تذكر الأعراف ٧:١٤٣ أن الجبل صار دكًا وأن موسى خر صعقًا، ثم تقول إنه أفاق. فلا يُستبدل هذا اللفظ بحكم قطعي بأنه مات في هذا المشهد. وفي أخبار بصائر الدرجات ذكر الكروبيين وتجلي واحد منهم للجبل؛ ومنها طريق مرفوع، فلا تثبت به كيفية مادية لله أو رؤية ذات الله. مصدر هذه الزيادة: بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٢٤.

وفي أخبار نقلها المجلسي عن الكشي والعياشي عبارة إن السبعين بُعثوا أنبياء، ومعها مناقشة للمجلسي في معنى النبوة وكيفية الجمع مع ما نسب إليهم. وينقل في سياق المناقشة أسماء يوشع وشمعون وابني هارون شبر وشبير، وخبر اتهام موسى بقتل هارون. هذه مادة مختلفة السياقات، فلا نسمي السبعين واحدًا واحدًا ولا نجزم أن كل خبر بالرجفة أو الصاعقة يحكي الحادثة نفسها. نثبت ورود شمعون وشبر وشبير في هذا النقل، ونبقي تفاصيلهم على قدره. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٤٢–٢٤٤.

والثابت في دعاء موسى في الأعراف ٧:١٥٥–١٥٦ تضرعه ألا تهلك الجماعة بفعل السفهاء، وطلب المغفرة والرحمة وحسنة الدنيا والآخرة؛ ثم يأتي الجواب بسعة الرحمة. يظل هذا المقصد واضحًا مهما اختلفت محاولة ترتيب المواعيد والروايات.

المن والسلوى والماء

في التيه وما بعد الخروج، يذكر القرآن:

تظليل الغمام،

المن والسلوى،

وضرب الحجر بالعصا فتفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وقد علم كل أناس مشربهم.
هذه النعم تأتي مع اختبار:
هل يعيش القوم بمنطق الشكر أم يعودون إلى التذمر والمقارنة بما تركوه؟

النعمة والاعتراض — ما الذي طلبه القوم؟

يذكر القرآن تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى مع الأمر بالأكل من الطيبات، ثم يبين أنهم ظلموا أنفسهم حين قابلوا النعمة بغير شكر (البقرة ٢:٥٧؛ الأعراف ٧:١٦٠؛ طه ٢٠:٨٠-٨١). وحين استسقى موسى لقومه أُمر بضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وعلمت كل جماعة مشربها (البقرة ٢:٦٠؛ الأعراف ٧:١٦٠). ثم تسجل البقرة ٢:٦١ قولهم ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وطلبهم البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، فيجيبهم موسى على معنى استبدال الأدنى بما هو خير. لا يحدد القرآن ماهية المن بدقة علمية أو نوع الحجر أو مكان العيون في خريطة حديثة. وتذكر البقرة ٢:٥٨-٥٩ والأعراف ٧:١٦١-١٦٢ أمر دخول القرية وقول «حطة» وتبديل الظالمين القول؛ لا نجزم باسم القرية أو نثبت أن ذلك الدخول وقع داخل الأربعين سنة، لأن الآيات لا تصنع جدولًا تاريخيًا مفصلًا.

الرزق والحجر في الروايات الإمامية

تصف أخبار القمي المن والسلوى وتظليل الغمام بوصفها رزقًا أُعطي في التيه، وتفصل بعض الأخبار في مقدار ما يؤخذ منه واستغناء القوم به. ويضيف التفسير المنسوب إلى العسكري صورًا من الإمداد، كالنور والكسوة؛ تُحفظ نسبتُها إلى مصدرها ولا تُرفع إلى مستوى النص القرآني. وفي تفسير «الفوم» تنقل التفاسير الحنطة والثوم؛ لذلك لا تُحذف أحد القراءتين التفسيريتين بادعاء يقين لا يعطيه اللفظ وحده.

ويجمع الصافي عند البقرة ٢:٦٠ خبرًا عن الباقر، من المجمع والعياشي، في حجر بني إسرائيل ضمن ثلاثة أحجار من الجنة. وفي الكافي، ج١، ص٢٣١، ح٣، عن الصادق عن الباقر خبر حمل القائم حجر موسى في مسيره من مكة إلى الكوفة واستغناء أصحابه بالماء الخارج منه؛ في سنده موسى بن سعدان وعبد الله بن القاسم وأبو سعيد الخراساني. المقصود إثبات موضع الخبر في تراث وراثة آثار الأنبياء، لا إصدار تصحيح رجالي له أو تحديد الحجر في متحف أو موضع معاصر.

أما دخول القرية و«حطة» فلهما أخبار تضعهما بعد التيه، وأخرى تعرضهما في سياق موسى دون ترتيب مفصل. وقولهم الذي بُدل وموقف الداخلين من الطاعة هما لب القصة؛ فلا نجعل يوشع وموسى قائدين للدخول نفسه يقينًا بمجرد جمع الأخبار. المصادر: بحار الأنوار، ج١٣، باب ٦، ص١٧٤-١٨٥؛ الصافي عند البقرة ٢:٥٨-٦١.

﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ — حين يخاف المحررون من الحرية

قال موسى:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

لكنهم قالوا إن فيها قومًا جبارين.

وقف رجلان يخافان الله وقالا:

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾.

ثم جاء الرد الصادم:

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

عند هذا الرفض قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة ٥:٢٥). فأخبره الله أن الأرض محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، وأمره ألا يأسى على القوم الفاسقين (٥:٢٦). لا تسمي الآيات حدود الأرض بدقة، ولا تجعل وفاة هارون في لحظة هذا الدعاء.

القرآن لا يسمي الرجلين.

الروايات والتفسير يذكران يوشع بن نون وكالب بن يوفنا غالبًا، لكن التعيين روائي/تفسيري.

يوشع وكالب والنقباء والأبناء

يحفظ القرآن عدد النقباء اثني عشر (المائدة ٥:١٢)، ويذكر رجلين أنعم الله عليهما ودعوا إلى التوكل والدخول (٥:٢٣)، لكنه لا يسرد أسماء النقباء ولا يجعلهم جميعًا أنبياء. وتعين أخبار نقلها المجلسي عن الاختصاص وقصص الراوندي والعياشي الرجلين بيوشع بن نون وكالب بن يوفنا، مع اختلاف رسم الاسم الأخير. وبعضها يذكر بقاء هذين من الجيل الرافض ودخول الأبناء بعده؛ فلا تساوي بين ذنب الآباء وحكم كل ولد.

وفي خبر للعياشي عن حريز عن بعض أصحابه عن الباقر، يرد هارون وابناه مع يوشع وكالب فيمن ثبتوا. وهو طريق فيه واسطة غير مسماة، ولا يسمي هذا المتن الابنين؛ أما شبر وشبير فلهما موضع آخر سبق بيانه. وتوجد في الأخبار اختلافات في خروج موسى من التيه أو وفاته فيه، وفي وقوع بعض الوقائع معه أو مع يوشع. تُعرض الأسماء وما ورد من أدوارها، ويُترك التفصيل المتصل بقيادة يوشع لما بعد موسى إلى الفصل السادس والعشرين.

وتذكر كتب القصص زواج كالب بأخت موسى المسماة فيها «مريم بنت عمران». هذا نقل تاريخي يورده المجلسي عن غير أسانيد الأئمة في هذا الموضع؛ ولا تُخلط مريم أخت موسى بمريم أم عيسى

لاشتراك الاسم، ولا يُجعل الزواج حقيقة قرآنية. المصادر: بحار الأنوار، ج١٣، ص١٧٦-١٨٢ و١٨٨ و٣٧٣.

الجبارون وعوج — الاسم وحدود الخبر

وصف «قومًا جبارين» في المائدة ٥:٢٢ لا يحدد أطوال أجساد القوم. وتذكر بعض التفاسير والقصص عوج بن عنق، أو عناق، وتلحق به أخبارًا عن ضخامة غير معتادة وحمله النقباء وما قالته زوجته حين أشارت بإطلاقهم ليخبروا قومهم. فتدخل الزوجة غير المسماة، والأم التي تذكر بعض القصص اسمها عنق أو عناق، في سجل ذلك الموروث القصصي وحده.

ينقل المجلسي هذه المادة عن الثعلبي ونحوه، وفي حاشية النص المطبوع تنبيه إلى أسطورية بعض تفاصيلها وعدم ورودها بطرق الإمامية. لذلك لا نثبت مقاييس الطول وقصة النجاة من الطوفان والقتال بهذه الصورة على أنها رواية أهل البيت. ويكفينا في الحدث القرآني أن القوم خافوا القوة القائمة أمامهم، وأن رجلين قابلا الخوف بالتوكل. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص١٨٦-١٩٠.

قارون — الثروة داخل قوم موسى

تقول القصص ٢٨:٧٦-٨٢ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وإن مفاتح كنوزه تثقل العصبة أولي القوة. نصحه قومه ألا يبطر، وأن يبتغي بماله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يحسن كما أحسن الله إليه ويجتنب الفساد. لكنه رد الفضل إلى «علم عندي»، مع أن أجيالًا أشد منه قوة وأكثر جمعًا قد هلكت.

وحين خرج في زينته تمنى أهل إرادة الدنيا مثل حظه، بينما ذكّر أهل العلم بأن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا. ثم خسف الله به وبداره، فلم تنفعه فئة تنصره؛ فأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقرون بأن الله يبسط الرزق ويقدر. هكذا يكتمل المشهد بتحول نظرة الناس، لا بمصير قارون وحده.

لا يذكر القرآن اسم أبيه أو زوجته أو أولاده، ولا يحدد زمن الخسف بالنسبة إلى سنوات التيه. وتبين القصة أن البغي قد ينشأ داخل الجماعة التي نجت من فرعون، وأن كثرة المال ليست شهادة بصحة الموقف.

هل قارون ابن عم موسى؟

كتب التفسير والأنساب تذكر علاقات قرابة، لكن القرآن يكتفي بأنه «من قوم موسى».

لا نحول النسب المشهور إلى آية.

وتأتي هنا الرواية المنقولة عن الصادق في قرابة الخالة، مع فصلها عن النسب الأشهر في كتب التاريخ.

قرابة قارون وماله — ما تضيفه المصادر

ينقل الطبرسي في «مجمع البيان» عن أبي عبد الله أن قارون ابن خالة موسى، بينما تشيع في كتب النسب والقصص رواية ابن العم وتسمي أباه يصهر في سلسلة النسب. يورد المجلسي القولين ولا يجعل واحدًا منهما لفظ القرآن. فالأمانة تقتضي حفظ اختلاف القرابة، لا إطلاق «ابن عم موسى» في كل موضع دون تنبيه. المصدر: مجمع البيان عند القصص ٢٨:٧٦، كما في بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٥٢.

وتحكي مادة تفسير القمي عن حسن تلاوته للتوراة وتسمية «المنور»، وتربط ماله بعلم الكيمياء؛ وتحكي أخبار أخرى رفضه حق المال ومنافسته في منزلة هارون. هذه تفسيرات وأخبار متباينة؛ لا يحدد القرآن طريقة إنتاج الثروة، ولا يدل قوله «على علم عندي» بذاته على تحويل المعادن إلى ذهب. وفي الأخبار القصصية موكب وجوارٍ وأتباع؛ لا تعطينا كثرة العدد فيها أسماء زوجة قارون وأولاده ولا تجيز اختراعها.

المرأة التي كشفت البهتان وكلثم بنت عمران

يروي الراوندي في «قصص الأنبياء»، من طريق محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس، أن قارون استأجر امرأة لاتهام موسى، لكنها لما حضرت المواجهة كشفت تدبير قارون ولم تثبت التهمة. تحفظ القصة امرأة غير مسماة تراجعت عن شهادة الباطل. وتختلف الأخبار في مقدار المال وتفصيل المشهد، فلا نجعل مبلغًا واحدًا ثابتًا. والأهم في الإسناد أن هذا الطريق ينتهي إلى ابن عباس؛ وجود الخبر في كتاب إمامي لا يحوله إلى رواية مباشرة عن الإمام. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٥٣–٢٥٤، ح٤، مع الأخبار القصصية التالية.

ويرد في تفسير القمي، بسند يمر بابن أبي عمير وجميل عن الصادق، خبر لقاء يونس بقارون في سياق وجود يونس في بطن الحوت. يسأل قارون فيه عن موسى وهارون وعن «كلثم بنت عمران» ويذكر أنها كانت مسماة له، ويحزن لفناء آل عمران. تحفظ هذه الرواية اسم كلثم وصلتها بالبيت؛ وعبارة التسمية لا تكفي لإثبات وقوع زواجها من قارون. كذلك لا يعني جمعها هنا أن يونس كان حاضرًا في مجلس موسى أو أن المشهدين معاصران؛ فالخبر يربط زمنين مختلفين. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٢٥٣، ح٢.

وفي بعض الأخبار يعقب الندم تخفيف أو توقف في نوع من العذاب. لا يُجعل ذلك إلغاءً لمشهد الخسف القرآني، ولا شهادة مطلقة لقارون بالنجاة. ومن اللازم إبقاء أصحاب العلم الذين وعظوه، والمفتونين بزينته الذين اعتبروا بعد هلاكه، ظاهرين في السرد؛ فهم شخصيات جماعية نص عليها القرآن، لا مجرد خلفية لقارون.

صاحب الآيات وبلعم — العلم حين يتبع الهوى

تضرب الأعراف ٧:١٧٥-١٧٧ مثلًا برجل آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. لا تسميه الآيات، ولا تقول إنه كان نبيًا. وفي تفسير القمي عن الحسين بن خالد عن الرضا تعيينه ببلعم بن باعورا، وأنه عرف الاسم الأعظم ثم مال إلى فرعون وأراد الدعاء على موسى؛ وفي الخبر دابة امتنعت عن المضي وضربها صاحبها حتى هلكت. هذا هو تعيين الخبر، لا اسم داخل النص القرآني.

أما خبر الراوندي المرفوع، الذي يسمي ناقله في النص المطبوع «عمار بن معاوية الدهني» وفي نقل البحار «معاوية بن عمار»، فيضع قصة أخرى في زمن يوشع، ويذكر «بالق» في البلقاء وامرأة ذات علم ضمن سياقها، وخبر صرف بني إسرائيل عن الاستقامة بالنساء. وتذكر مادة تاريخية نقلها المجلسي عن «الكامل» زوجة بلعم التي قبلت هدية وحملت زوجها على موافقة قومه. الزوجة غير المسماة وامرأة البلقاء شخصيتان في طريقين مختلفين؛ لا ندمجهما ولا ننسب خبر الزوجة إلى الرضا.

لهذا يذكر بلعم هنا لصلته بموسى في إحدى الروايات، مع إحالة ما اتصل بزمن يوشع إلى فصله. وتُحفظ الروايات دون الجمع بين فرعون وبالق في مجلس واحد أو ترتيب وقائع متعارضة في سنة محددة. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، باب ١٣، ص٣٧٧-٣٨٠، والمادة التاريخية في ص٣٧٣ وما بعدها.

نهاية هارون قبل موسى

القرآن لا يروي وفاة هارون ولا تاريخها.

الروايات الإسلامية، ومنها مواد إمامية جمعها المجلسي، تذكر أن هارون توفي قبل موسى.

وهذا يفسر لماذا كانت الوصية النهائية بعد موسى في الروايات إلى يوشع بن نون لا إلى هارون.

لكن تفاصيل مكان وفاة هارون ودفنه من الروايات وليست قرآنًا.

وفاة هارون وبراءة موسى والوصية

في خبر ينقله الراوندي عن الصادق، من طريق ابن أبي عمير «عمن ذكره»، خرج موسى وهارون إلى طور سيناء، فوجد هارون بيتًا وسريرًا وثوبين، فنام وقبضه الله. ولما رجع موسى اتهمه بعض بني إسرائيل بقتله، فأظهر الله لهم آية براءته بإنزال سرير هارون بين السماء والأرض. تحفظ الرواية موسى وهارون والمتهمين والملائكة، ولا تتضمن أسماء أبناء هارون في مشهد الوفاة؛ وفي سندها راو غير مسمى. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٦٨-٣٦٩، ح١٣، عن قصص الأنبياء.

وفي التهذيب خبر عن الصادق في شق موسى ثوبه على أخيه، نقله المجلسي في ج١٣، ص٣٦٤، ح٥. وفي عيون أخبار الرضا خبر سؤال موسى المغفرة لهارون، يتضمن ذكر الحسين بن علي في سياق الوعيد

لقاتله، وهو من أخبار الربط بين الأنبياء وأهل البيت، لا وجودًا للحسين في زمن هارون (بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٤٥، ح٣٠).

ويروي الكافي عن الصادق أن موسى أوصى إلى يوشع، وأن يوشع أوصى إلى ولد هارون؛ فالاختيار في الخبر لله وليس قاعدة وراثة آلية لكل ابن. وتفصل رواية أخرى عن الصادق لقاء موسى بملك الموت، وإيصاءه إلى يوشع، وقبضه ودفنه؛ ويُترك عرضها الأوسع إلى فصل يوشع. أما تحديد قبر هارون أو موسى وأعمار الوفاة وتواريخها ففيه أخبار متفاوتة، ولا يقدم القرآن موضع قبر أو تاريخًا. المصادر: الكافي، ج١، ص٢٩٣؛ بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٦٤ و٣٦٩-٣٧٣.

من وصايا التوراة ومناجاة موسى

يجمع المجلسي في باب مناجاة موسى أخبارًا عن أئمة أهل البيت تتصل بمعنى الكتاب في الحياة: كظم الغضب، وترك الحسد والرشوة والربا، وعدم احتقار الفقير، وبر الأم والأب، ومراقبة اللسان، وقضاء حاجة المؤمن وإدخال السرور عليه. ويذكر خبر في أمالي الصدوق، عن الباقر، الوصية بالأم مكررة ثم بالأب؛ وفي الكافي عن الصادق النهي عن حسد الناس على ما آتاهم الله، وطلب الذكر عند الغضب. هذه المضامين تجعل مقابلة قارون والعجل بالكتاب مقابلة أخلاقية أيضًا: الحسد والغرور وقسوة القلب وجوه لنقض العهد.

وفي الكافي أخبار في ذكر الله على كل حال، وفي أن حسن العمل لا ينفصل عن صدق القلب وترك ما يكره الله. وفي مناجاة طويلة أوردها تحف العقول، ولها طريق مرفوع في روضة الكافي، وصايا بالخشوع والعدل والرحمة بمن أقبل تائبًا. تُروى بوصفها مناجاة منقولة، لا نصًا عربيًا قابلًا للمطابقة الحرفية مع نسخة معاصرة من التوراة. كما أن الخطاب التحذيري للنبي لا يثبت أنه فعل الذنب المحذَّر منه.

ومن الأخبار ما يروي سؤال بني إسرائيل التحكم في أوقات المطر، ثم خيبة ظنهم في المحصول، في سياق التوكل على التدبير الإلهي؛ وما يذكر شكر النعمة واستثمار ثمن الأرض والماء في نظيرهما. ونقلت بعض أبواب الطعام خبرًا عن شكوى مرض وذكر طعام؛ يبقى خبرًا في سياقه القديم لا وصفة علاجية يُقررها هذا الفصل. المصدر الجامع: بحار الأنوار، ج١٣، باب ١١، ص٣٢٤-٣٦٣، مع تمييز ما ينقله عن الكافي والأمالي والخصال والمحاسن وتحف العقول وقصص الأنبياء.

شخصيات غير مسماة في أخبار التربية

تحفظ أخبار المناجاة رجالًا ونساءً لا ترد لهم تراجم أو أسماء، ولا يصح إسقاطهم لأن شهرة القصة تعلقت بموسى وحده. ففي «عدة الداعي» خبر عن الصادق في عابدين يزورهما موسى، ثم حداد مملوك يجمع الذكر والصلاة في وقتها والعمل والصدقة وأداء حق مولاه. وفي «إعلام الدين» نقل عن الباقر يقابل بين صياد يسجد للشمس ويكثر صيده وصياد مؤمن يقل صيده؛ والعبرة أن العطاء الدنيوي ليس

وحده مقياس المنزلة. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٤٥-٣٤٧، ح٣٢، وص٣٤٩-٣٥٠، ح٣٨.

وفي قصص الراوندي خبر ملك جبار قضى حاجة مؤمن بشفاعة عبد صالح، ثم اختلف ظاهر جنازتهما؛ وفي طريقه راو غير مسمى. وخبر صاحب صحب موسى إلى الجبل فمات هناك وأُوِّل موته بالتطهير. لا نستعمل هذين الخبرين للحكم على مصير إنسان معاصر من شكل جنازته أو سبب موته. وفي روضة الكافي رجل شق قميصه عند الموعظة، ورجل أطال السجود، وكلا المشهدين يرد العمل إلى إصلاح القلب. وهناك خبر رجل أطال رفع يديه بالدعاء من طريق فيه مجهول الاسم، فلا يُدمج مع صاحب السجود. المصادر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٥٠-٣٥٢، ح٤٠ و٤٥، وص٣٥٥-٣٥٦، ح٥٣ و٥٥.

وترد قصة صاحب ينم على موسى ثم يتوب، من طريق عثمان بن عيسى عن بعض أصحابه عن الصادق، وقصة رجل تحت ظل العرش لأنه بر والديه ولم يحسد الناس، بطريق مرفوع. وفي وصايا منقولة ذكر الثكلى التي تُعزّى والمريض الذي يعاد والسائل الذي يُكرم، وربما كان السائل ملكًا ممتحنًا للمعطي. هؤلاء أدوار في أخبار التربية، لا أسماء لأشخاص ثبت أنهم حضروا ميقات الأربعين. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٥٣-٣٥٥، ح٤٧-٤٨ و٥٢.

أما إبليس فيظهر في خبر مناجاة موسى مع ملك يستنكر طمعه في إغوائه، وفي خبر آخر ببرنس متعدد الألوان يحذر سياقه من العجب واستصغار الذنب ونقض العهد والتثبيط عن الصدقة. ليس إبليس مصدر تشريع؛ إنما تُفهم الحكاية من جهة الإمام الذي تُنسب إليه، مع أن طريق الخبر الثاني يتضمن إرسالًا. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٣٨-٣٣٩، ح١٤، وص٣٥٠، ح٣٩.

البشارة بأهل البيت — حضور في الخبر لا معاصرة تاريخية

ترد في أخبار مناجاة موسى البشارة بعيسى ابن مريم ثم بمحمد صلى الله عليه وآله، وذكر علي وفاطمة والحسن والحسين في أخبار ما كتب في التوراة أو عُرّف به موسى. في خبر أمالي الصدوق عن الحسن يأتي ذكر فاطمة سيدة نساء العالمين، ومعه ألفاظ لأسماء النبي وأهل بيته في الكتب السابقة. وتختلف الأخبار في ضبط بعض هذه الأسماء؛ فلا تُجعل الألفاظ المنقولة تحقيقًا لغويًا مستقلًا للعبريّة. المصدر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٣١-٣٣٣، ح١١-١٣.

وترد مناظرة الرضا مع رأس الجالوت في بشارات الكتب، وأخبار في تعريف موسى بمنزلة محمد وأهل بيته وأمته، ومنها ما يروى من طريق التفسير المنسوب إلى العسكري أو بطريق غير تام. حضور مريم وعيسى وفاطمة وأهل البيت هنا حضور بشارة أو استشهاد في الرواية، لا انتقال لهم إلى زمن الخروج. والأصل القرآني المستقل لبشارة التوراة بالنبي الأمي هو الأعراف ٧:١٥٧. المصادر: بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٣٨-٣٤٢، ح١٤ و١٨، وص٣٤٧-٣٤٨، ح٣٤.

من الكتاب إلى العلم الخاص — الجسر إلى الخضر

موسى صاحب كتاب ورسالة كبرى.

ومع ذلك يروي القرآن رحلته وطلبه أن يتبع عبدًا آتاه الله رحمة وعلمًا من لدنه ليتعلم مما عُلِّم (الكهف ١٨:٦٠-٦٦).

هذا ليس انتقاصًا من موسى.

بل درس في أن العلم الإلهي أوسع من علم أي مخلوق.

وهذا هو موضوع الفصل التالي.

خاتمة الفصل الرابع والعشرين — الميثاق تحت الاختبار

نجوا من فرعون.

ثم طلب بعضهم إلهًا.

غاب موسى فعبد قوم العجل.

ثبت هارون ولم يشاركهم.

أُعطي موسى الألواح.

تكرر الميثاق.

جاء الرزق والماء.

رفضوا دخول الأرض المقدسة.

ودخلوا التيه.

وظهر قارون من داخلهم.

الهداية لا تنتهي بالمعجزة؛ تحتاج أن تتحول إلى عهد يعيش في السلوك.

سجل الشخصيات وحدود الاستيعاب

في صلب القصة القرآنية: موسى وهارون والسامري وقارون، والرجلان الصالحان غير المسميين، والنقباء الاثنا عشر والسبعون، وعباد العجل ومن قاومهم، والضحية وأهل الخصومة في قصة البقرة، وأهل العلم والناصحون والمفتونون بزينة قارون، والجبارون والجيل الذي دخل التيه. ليس العدد في القرآن إذنًا باختراع اسم لكل فرد، كما أن الجماعة لا تُحمل كلها على موقف واحد.

وفي الطرق الروائية والمقارنة التي عُرضت: يوشع وكالب، وشمعون وشبر وشبير بقدر النص المنقول، ومرعقيبا، وأذينوه وأخوه وابن أخيه وابنته وامرأته، والفتى صاحب البقرة وأبوه وأمه، والفتاة وأهلها، والمرأة مالكة البقرة، والمرأة التي كشفت بهتان قارون، وكلثم بنت عمران، وأخت موسى المسماة مريم

في خبر زواج كالب، وبلعم وزوجته وبالق وامرأة البلقاء، وعوج وزوجته وأمه في أخبار القصاص. وتدخل أم السامري والعابدان والحداد ومولاه والصيادان والملك والعبد الصالح وأصحاب أخبار الدعاء والتوبة في مواضعهم السابقة، مع جبرئيل والملائكة وملك الموت وإبليس حيث وردوا. بعض هذه الأسماء لا يقوم عليه خبر إمامي مسند؛ وقد صُرح بذلك عند كل موضع، فلا تتساوى بمجرد اجتماعها في هذا السجل.

وتحضر شخصيات أخرى بالإحالة لا بالمشاركة في زمن الحدث: يونس في خبر قارون، وإبراهيم وأهل النبوة في الصحف والمناجاة، ومريم أم عيسى وعيسى ومحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والقائم في أخبار البشارة ووراثة العلم والآثار. أما الرواة والمؤلفون، ومنهم الباقر والصادق والرضا في نقل هذه الأخبار، فوظيفتهم الإسناد والتفسير؛ لا يُجعلون أشخاصًا عاشوا في زمن موسى. وتُترك رحلة موسى مع العبد العالم للفصل الخامس والعشرين، وتفاصيل خلافة يوشع للفصل السادس والعشرين.

هذه مراجعة موسعة للآيات ومظان الروايات والتفسير المبينة في المراجع، وليست دعوى استقراء كل مخطوط أو تصحيح كل سند. المقصود ألا تسقط شخصية عُثر عليها في المادة المتعلقة بهذا الفصل، مع الفصل بين الثابت قرآنيًا والمنقول والمختلف فيه. وأرقام صفحات الكتب تابعة للطبعات المشار إليها في النص الجامع، ولذلك أضيف رقم الباب أو الحديث حيث أمكن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: البقرة ٢:٤٠–٩٣؛ الأعراف ٧:١٣٨–١٧١؛ طه ٢٠:٨٠–٩٨؛ المائدة ٥:٢٠–٢٦، ٤٤؛ القصص ٢٨:٤٣، ٧٦–٨٢؛ الأنعام ٦:١٥٤؛ الإسراء ١٧:٢؛ المؤمنون ٢٣:٤٩؛ السجدة ٣٢:٢٣؛ غافر ٤٠:٢٤، ٥٣.

تفسير القمي والعياشي ومجمع البيان في النقول المحددة في المتن؛ والميزان والصافي ونور الثقلين في المواضع التي تبينها إحالات المراجعة التالية.

الكليني، الكافي، أبواب التوحيد والرؤية، في الروايات المتعلقة بطلب موسى الرؤية وتنزيه الله.

الصدوق، التوحيد وعيون أخبار الرضا، في تفسير آيات الرؤية والعصمة.

بحار الأنوار، ج١٣، أبواب موسى وهارون ويوشع.

إحالات المراجعة وروابط النصوص

اعتمدت المراجعة في جمع الطرق على بحار الأنوار، ج١٣: باب ٦ في التيه وأحوال بني إسرائيل، ص١٦٦–١٩٥؛ باب ٧ في الميقات والعجل والرؤية والألواح، ص١٩٦–٢٤٩؛ باب ٨ في قارون، ص٢٤٩–٢٥٨؛ باب ٩ في البقرة، ص٢٥٩–٢٧٧؛ باب ١١ في المناجاة والوصايا، ص٣٢٤–٣٦٣؛ باب ١٢ في الوفاة والوصية، ص٣٦٣–٣٧٧؛ وباب ١٣ في بلعم، ص٣٧٧–٣٨٠. ما

نُسب في هذا الفصل إلى القمي والعياشي والراوندي وبصائر الدرجات والكشي والأمالي وغيرها بواسطة البحار هو قراءة لنقل المجلسي، لا ادعاء بمقابلة جميع أصول تلك الكتب أو مخطوطاتها.

وقوبلت مواضع محددة بنصوص عيون أخبار الرضا والخصال والكافي المتاحة، وبالميزان عند طه ٨٠:٢٠–٩٨، والصافي عند البقرة ٢:٦٠–٦١، ونور الثقلين عند الأعلى ٨٧:١٨–١٩. ورود خبر في أكثر من جامع لا يثبت تلقائيًا استقلال طرقه؛ فقد ينقل الجامعان الأصل نفسه. وأما مادة الثعلبي وابن الأثير والنسب التاريخي فاستُعملت للمقارنة وتمييز منشأ الأسماء، لا بوصفها روايات أهل البيت.

نص بحار الأنوار، المجلد ١٣

عيون أخبار الرضا: رواية البقرة، الأخبار المتفرقة، ح٣١

الخصال: خمسة أهل بيت وعبادة العجل

الكافي: خبر السامري والسخاء، ح١٣

الكافي: صحف إبراهيم وألواح موسى

الميزان: طه ٨٠:٢٠–٩٨

الصافي: البقرة ٢:٦٠–٦١

نور الثقلين: سورة الأعلى

الفصل ٢٥ — الخضر وموسى عليهما السلام — حدود العلم البشري

الخضر وفتى موسى في النص القرآني

القصة القرآنية تقع في سورة الكهف ١٨:٦٠–٨٢. القرآن يسمي موسى، لكنه لا يسمي العبد الصالح «الخضر» ولا الفتى «يوشع». هذان الاسمان يأتيان من الرواية والتفسير. سنحافظ بدقة على هذا الفرق، ثم ندرس ما تضيفه روايات أهل البيت عليهم السلام عن الخضر وهوية الفتى ومقام كل منهما.

حدود المادة وطريقة توثيقها

تتألف قصة موسى والعالم في القرآن من ثلاث وعشرين آية متتابعة، الكهف ٦٠–٨٢. لا يوجد في القرآن موضع آخر يسمي الخضر أو يروي له سيرة مستقلة. وترد صلته بذي القرنين، الذي تأتي قصته بعد ذلك في الكهف ٨٣–٩٨، في الروايات؛ فلا يجعل تجاور القصتين وحده الخضر حاضرًا في آيات ذي القرنين [م١].

يعتمد هذا الفصل على مقابلة القصة بباب موسى والخضر في بحار الأنوار، ثم تمييز مواده المنقولة عن القمي والعياشي والكافي وكتب الصدوق والراوندي وغيرها، ومقارنتها بنور الثقلين ومجمع البيان والصافي والميزان. ما قرئ في جامع ناقل يذكر بهذه الصفة، ولا يوهم أن كل أصل مخطوط قد قوبل. وتكرار الخبر في عدة جوامع لا يحوله إلى عدة أسانيد مستقلة [م٢–م١٦].

سياق النزول والأسماء التي لا يجوز خلطها

ينقل الصافي عن القمي خبر إرسال قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل إلى أهل الكتاب للسؤال عن مسائل، منها موسى والعالم، ثم مخاطبة أبي طالب وسؤال النبي. وفي هذا السياق تذكر الرواية تأخر الوحي ونزول جبرئيل بالسورة. هو خبر في أسباب النزول بألفاظه ومدته المروية، لا جزء من رحلة موسى ولا تاريخ مستخرج من الآيات نفسها [م١٥: الصافي، أول الكهف].

وترد تسمية الخضر في قول ينقله التبيان عن ابن إسحاق بشأن الرجل الذي مر على القرية الخاوية في البقرة ٢٥٩. يقابلها تعيينات أخرى، ومنها إرميا في الرواية التي يذكرها الطوسي عن الباقر. لذلك لا نضم واقعة المائة عام إلى سيرة الخضر كأن القرآن عينه، ولا نمحو حدود الفصل المخصص لذلك الرجل [م١٨].

﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾

قال موسى لفتاه إنه لن يبرح حتى يبلغ مجمع البحرين أو يمضي حقبًا.

القصة تبدأ بنبي عظيم يمشي لطلب علم.

هذه وحدها رسالة:

المقام لا يلغي التعلم.

وموسى الذي تلقى الكتاب وناجى ربه لا يرى في طلب العلم من عبد آخر نقصًا.

أي موسى؟ وأين كان مجمع البحرين؟

المقصود في روايات الأئمة التي اعتمدها الفصل موسى بن عمران، صاحب التوراة. أما قول موسى بن ميشا بن يوسف فينقله مجمع البيان عن ابن إسحاق عن أهل الكتاب، وليس تسمية قرآنية ولا رواية إمامية مساوية للنصوص التي تصرح بابن عمران. لا ننشئ من هذا القول نبيًا آخر بطلًا للقصة [م٣، م١٣].

تختلف الأقوال في ملتقى البحرين: بحر فارس وبحر الروم، أو طنجة، أو إفريقية؛ وفي خبر عند العياشي تقع علامة الحوت بأذربيجان. لا تكفي هذه الأقوال لتثبيت خط سير على خريطة حديثة. و«حُقُبًا» تعبر عن استعداد موسى للمضي زمنًا طويلًا؛ والأعداد المنقولة، كسبعين أو ثمانين سنة، تفسيرات للفظ وليست سجلًا لمدة الرحلة الفعلية [م٢: ص٢٨١–٢٨٥، ٣٠٦–٣٠٧؛ م١٣].

تضع بعض الروايات اللقاء بعد إيتاء التوراة، لكن الآيات لا تؤرخه بسنة، ولا تربطه صراحة بمرحلة معينة من التيه. ترتيب هذا الفصل في الكتاب ترتيب عرض، لا إثبات لتاريخ لم يذكره النص.

من هو الفتى؟

القرآن يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾.

ولا يسميه.

لكن روايات وتفاسير إمامية تعرفه بيوشع بن نون، وصي موسى في الروايات.

ويشيع في التفسير والرواية تعيين الفتى بيوشع بن نون، لكن هذه الشهرة لا تغني عن تعيين النصوص وأسانيدها عند بحث الوصية في الفصل التالي.

إذن الصياغة الصحيحة:

الفتى غير مسمى في القرآن.

والروايات تعرفه بيوشع بن نون.

يوشع: تعيين روائي مع اختلاف استمرار الصحبة

في تفسير العياشي، عن أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام، أن وصي موسى بن عمران يوشع بن نون، وأنه الفتى المذكور في الكتاب. وينقل القمي التعيين نفسه في سياق الرحلة. أورد المجلسي خبر العياشي في هذا الباب، الحديث ٢٧؛ وتتبعه إحالات نور الثقلين عند الكهف ٦٠ [م٣، م٤، م١٤].

بعد الوصول يقول القرآن «فانطلقا»، ولا يعود إلى تفصيل عمل الفتى. أما صيغة القمي فتجعلهم ثلاثة عند ركوب السفينة. نحفظ الفرق: غياب الفتى عن بؤرة السرد القرآني لا يثبت موته أو عقوبته أو اختفاءه الخارق. ولا نأخذ حكاية حبسه في البحر إلى القيامة، التي تعرض في بعض المقارنات، سيرة ثابتة ليوشع [م١، م٣].

الحوت والعلامة

كان الحوت علامة المكان.

فلما بلغا مجمع البحرين نسيا حوتهما، فاتخذ سبيله في البحر سربًا.

ثم بعد أن جاوزا المكان طلب موسى الطعام، فتذكر الفتى ما وقع.

قال موسى:

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

فعادا على آثارهما قصصًا.

الروايات تضيف تفاصيل عن حياة الحوت والماء الذي مسه، لكن الآية نفسها تثبت الحدث من غير شرح طبي أو جغرافي.

الحوت والصخرة والنسيان: ما يقوله النص وما تضيفه الأخبار

تقول الآيات أولًا «نسيا حوتهما»، ثم ينسب الفتى نسيان ذكره إلى الشيطان. فلا نستبدل التثنية في الآية بعبارة توهم أن موسى لم يدخل في وصف النسيان أصلًا. ويشرح المفسرون التثنية باشتراكهما في فقد الزاد، أو اختلاف ما نسيه كل منهما، أو إسناد أمر المتعهد بالطعام إلى الجماعة [م١، م١٣].

في القمي حوت مملوح يمسه ماء الحياة، وفي خبر العياشي حوت مشوي تصيبه قطرة مطر؛ وترد الصخرة والرجل المتعبد أو المستلقي في صيغ اللقاء. هذه تفاصيل روايات متعددة، لا وصف واحد نزيد بعضه على بعض. وتنبه قراءة الميزان إلى أن الآيات لا تصرح بأن الحوت كان ميتًا ثم أحياه الماء، وإن كان ذلك مشهورًا في الأخبار [م٣، م٤، م١٥].

كما يختلف الكلام الإمامي في النسيان غير المتعلق بتبليغ الرسالة: يناقش الشريف المرتضى إمكان النسيان العادي، ومعنى الترك، وأوجهًا في التعبير، بينما يفسر خبر علل الشرائع «نسيت» بالترك. لا

تجعل مسألة مختلفًا فيها إجماعًا، ولا تجعل نسبة الفتى النسيان إلى الشيطان اتهامًا له بالكفر أو سقوط الأمانة [م٦، م١٢].

﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ — القرآن لا يقول «الخضر»

قال تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

هذا هو وصف القرآن:

عبد من عباد الله.

آتاه الله رحمة.

وعلمه من لدنه علمًا.

الاسم «الخضر» يأتي من الروايات.

والروايات تفسر تسميته بالخضر بأن الأرض تخضر حيث يجلس أو يمر، بتفاصيل مختلفة.

اسم الخضر ونسبه: لماذا لا نوحد الصيغ؟

يروي علل الشرائع عن الإمام الصادق عليه السلام اسم «تاليا بن ملكان بن عابر بن أرنخشد بن سام بن نوح»، ويجعل اخضرار الخشبة اليابسة أو الأرض البيضاء علامة له. وينقل المجلسي صيغًا أخرى، منها «بليا بن ملكان»، وأسماء وأنسابًا في كلام أصحاب السير، منها خضرويه وخضرون. هذه صيغ متعارضة في التسمية والنسب، لا أسماء رجال مستقلين تجوز صناعة سير كاملة لهم [م٢: ص٢٨٤-٢٨٧، ٣٠٢-٣٠٣؛ م٦].

ترد أيضًا أقوال تسميه إلياس أو اليسع. لا يكفي ذلك لدمج الشخصيات: إلياس واليسع مسميان في القرآن، بينما أخبار أخرى تذكر لقاء الخضر وإلياس بوصفهما اثنين. ولا يثبت من هذه المادة تاريخ ولادته، أو اسم أمه، أو عمر محدد، أو قبر معلوم [م١؛ م٢: ص٢٨٤، ٣١٩].

هل كان الخضر نبيًا؟

القرآن لا يسميه نبيًا.

في الكافي، باب «في أن الأئمة عليهم السلام بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوة»، الحديث ٥، عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «صاحب موسى وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين». هذه معارضة روائية صريحة، وليست مجرد مناقشة متأخرة بين العلماء [م٥].

وفي علل الشرائع خبر من طريق محمد بن عمارة عن الإمام الصادق يصف الخضر بأنه نبي مرسل إلى قومه، دعاهم إلى التوحيد والإقرار بالأنبياء والرسل والكتب. اختلاف هذين النصين يجب عرضه، ولا تحسمه شهرة أحد القولين. وقد ناقش المجلسي احتمال اختلاف الحال وقت لقاء موسى، وأبدى إشكالًا في هذا الجمع [م٢: ص٣٠٥؛ م٦].

لذلك لا نقول: «القرآن يثبت نبوة الخضر».

نقول: القرآن يثبت عبدًا ذا رحمة وعلم من الله؛ وفي المرويات الإمامية نص ينفي النبوة وآخر يثبتها. أما الاستدلال على النبوة من تلقي الأمر الإلهي فاستدلال تفسيري ينبغي تمييزه من التصريح باسم «نبي» في الآية [م٥، م٦، م١٥].

لماذا ذهب موسى إليه؟

تنقل روايات التفسير الإمامي أن موسى خطر في نفسه، بعد ما أعطي من العلم والتوراة، ألا يكون أحد أعلم منه في جانب من العلم، فعرّفه الله أن هناك عبدًا عند مجمع البحرين عنده علم لم يؤت موسى من ذلك الباب.

المعنى ليس أن الخضر أفضل من موسى مطلقًا.

العلم موزع بأمر الله، وقد يعلم عبد شيئًا لا يعلمه عبد آخر.

وتنقل بعض الروايات عن الأئمة أن موسى والخضر أعطيا علم ما مضى أو أبوابًا مخصوصة، بينما ورث أهل البيت علمًا أوسع من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وهذه تطبيقات عقدية روائية لا تدخل في نص الآية نفسها.

علم مخصوص لا مفاضلة مطلقة

يضم النقل في تفسير القمي مقدمة عن تحديث موسى نفسه بالعلم، ثم رسالة منسوبة إلى الإمام الرضا في جواب سؤال يونس وهشام بن إبراهيم، بحضور القاسم الصيقل في سياق النقل. لا تنسب كل المقدمة إلى جواب الرضا بلا فصل. يصرح الجواب بموسى بن عمران وباختلاف ما وكل به موسى وما وكل به العالم [م٣].

وفي العياشي عن هشام بن سالم عن الصادق أن موسى أعلم من الخضر، وفي خبر آخر يقارن ذلك بعلم سليمان وآصف. المقصود منع الانتقال من تعلم واقعة خاصة إلى دعوى أن رتبة الخضر أعلى من موسى في كل شأن. وتصور روايات الطائر الذي يأخذ بمنقاره من البحر محدودية علم المخلوق؛ فهي تمثيل، لا نسبة حسابية يمكن قياس علم الله بها [م٤؛ م٢: ح٢٢، ٢٨، ٣٥].

وفي رسالة الرضا وخبر أبي بصير عند الراوندي يرد ذكر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وما يصيب أهل البيت، وبكاء موسى والعالم. وفي الكافي خبر سيف التمار عن الصادق في وراثة علم رسول الله، نقله المجلسي في الحديث ٢٠. هذه أخبار في مكانة علم أهل البيت، لا زيادة على آيات

الكهف ولا دعوى علم ذاتي مستقل عن الله. كما أن نقد القياس في بعض الأخبار موجه إلى إفتاء بغير حجة، فلا يقرأ دعوة إلى إلغاء العقل مطلقًا [م٢: ح١، ٢٠-٢٢، ٣١؛ م١٤].

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ — أدب المتعلم

قال موسى:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

لم يقل: أنا نبي فاشرح لي.

طلب الاتباع للتعلم.

فقال العبد:

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

ثم وضع شرطًا:

لا تسألني حتى أحدث لك منه ذكرًا. ووعد موسى بالصبر مع تعليق الأمر بمشيئة الله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ (الكهف ١٨:٦٩-٧٠). لا يقدم النص هنا منافسة بين نبي وعبد صالح؛ بل اتفاقًا واضحًا على التعلم مع صعوبة مشاهدة أفعال لم تُعرف أسبابها بعد. وفي كل محطة سيبقى اعتراض موسى تعبيرًا عن الحكم بحسب ما ظهر له، بينما يؤخر العبد بيان التأويل إلى نهاية الصحبة. فلا تُتخذ القصة ذريعةً لاتهام موسى بخلل في عصمته أو لتجريد أحكام الشريعة الظاهرة من قيمتها.

السفينة — ضرر صغير يمنع ضررًا أكبر

ركبا سفينة لمساكين يعملون في البحر.

خرقها الخضر.

اعترض موسى لأن ظاهر الفعل إفساد لممتلكات فقراء وقد يعرضهم للغرق.

ثم جاء التفسير:

كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا.

فالعيب المحدود أبقى السفينة في أيدي أهلها.

لكن هذه القصة لا تعطي لأي إنسان حق تخريب أموال الناس بحجة أنه يعرف «مصلحة خفية».

الخضر تصرف بعلم أُعطيه من الله، ثم قال في نهاية القصة إنه لم يفعل ذلك عن أمر نفسه (الكهف ١٨:٦٥، ٨٢)، وليس باجتهاد شخص يدعي الغيب. وعندما رأى موسى الخرق اعترض: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ (١٨:٧١)، لأن الضرر الظاهر كان حقيقيًا بالنسبة إلى من في السفينة. وبعد التنبيه الأول قال ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (١٨:٧٣). وعند التأويل ظهر أنها لمساكين يعملون في البحر،

وأن وراءهم ملكًا يأخذ كل سفينة غصبًا (١٨:٧٩). لم تحدد الآية اسم الملك أو مكان البحر أو حجم الخرق، كما لم تقل إن الغرق وقع بالفعل. يبقى الضرر المحدود في القصة مرتبطًا بعلم مخصوص بهذا المصير، لا قاعدةً عامةً تجيز الاعتداء على مال الفقراء.

أهل السفينة والملك: تفاصيل لا تختلط بالآية

تذكر صيغة القمي أن أصحاب السفينة حملوا المسافرين لكونهم صالحين، وأن الخضر سد موضع العيب بالخرق والطين. وفي النقل النبوي الذي يورده مجمع البيان عن أبي بن كعب عرف أصحاب السفينة الخضر فحملوه بغير أجرة. يضاف بذلك معنى الإحسان السابق من أهل السفينة، من غير جعل هاتين الصيغتين لفظ القرآن [م٣، م١٣].

ولا ينفي امتلاك سفينة وصف المسكنة؛ فالآلة التي يكتسب بها الناس قد لا تكفيهم أو لا تحميهم من الغصب. أما عددهم عشرة إخوة، نصفهم عاجز ونصفهم يعمل، والأسماء المتداولة للملك مثل هدد بن بدد أو الجلندى بن كركر، فهي من أقوال القصاص والمفسرين المقارنة التي نقلها المجلسي، وليست أسماء قرآنية أو تعيينًا ثابتًا عن الإمام [م٢: ص٢٨٢–٢٨٥؛ م١٢].

وترد في بعض الأخبار صيغة «كل سفينة صالحة» وتفسير «وراءهم» بأمامهم. تثبت الآية المتداولة «كل سفينة غصبًا»، وتفهم سلامة السفن المطلوبة من سياق التأويل. نذكر اللفظ الزائد بوصفه قراءة مروية أو بيانًا في المصدر، ولا ندرجه في نص المصحف [م١، م٤، م١٤: ح١٦١–١٦٣].

الغلام — أصعب مشاهد القصة

قتل الخضر غلامًا.

فقال موسى:

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

الاعتراض بحسب الظاهر الأخلاقي والقانوني مفهوم.

ثم يشرح الخضر:

كان أبواه مؤمنين، وخشي أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا، فأراد الله أن يبدلهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا.

هذه الواقعة لا تصلح ذريعة للعنف البشري الاستباقي.

لا أحد يملك قتل طفل لأنه يتوقع مستقبله.

القصة قائمة على علم خاص من الله، وتنتهي بقول العبد إنه لم يفعل شيئًا عن أمر نفسه، ولا يملك الناس ادعاء هذا المقام. يذكر القرآن اعتراض موسى الثاني ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ (الكهف ١٨:٧٤)، ثم يقول موسى بعد التنبيه: إن سألت عن شيء بعدها فلا يصاحبه العبد، فقد بلغ من لدنه

عذرًا (١٨:٧٦). وعند التأويل يذكر النص أن أبوي الغلام كانا مؤمنين وأن الخشية تعلقت بما سيرهقهما به من طغيان وكفر، وأن الله أراد لهما بدلًا خيرًا (١٨:٨٠-٨١). لا يصرح القرآن باسم الغلام، ولا بعمره القانوني، ولا بأنه ارتكب بالفعل جريمة تستوجب القتل وفق القضاء البشري؛ لذلك لا يجوز نقل هذا المشهد إلى قاعدة في معاملة الأطفال أو التنبؤ بأفعالهم.

هل كان الغلام طفلًا بريئًا أم بالغًا؟

لفظ «غلام» لا يحسم العمر القانوني وحده.

والروايات اختلفت في تفاصيل حاله: بعضها يذكر أنه طبع كافرًا أو أن في علم الله ما سيكون منه.

لا نحتاج إلى بناء إدانة أخلاقية مستقلة للغلام.

النص يركز على علم الله والحكمة التي لم تكن في متناول موسى في اللحظة.

الأبوان والبنت التي جاءت بدلًا من الغلام

الأم حاضرة في القرآن ضمن «أبواه مؤمنين»، كما أن الأب حاضر؛ فلا تختزل الرحمة في الرجل وحده. لا يسمي القرآن واحدًا منهما، ولا يحدد جنس البدل في قوله «خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». أما تعيين البدل بنتًا فمن الروايات [م١].

في الكافي، كتاب العقيقة، باب فضل البنات، الحديث ١١، يدخل رجل غير مسمى على الإمام الصادق متسخطًا من ولادة بنت. يذكره الإمام باختيار الله، ثم يربط ذلك بقصة الغلام وأن الله أبدل أبويه جارية ولدت سبعين نبيًا. في الطريق «عدة من أصحابه» عن الحسن بن علي بن يوسف عن الحسن بن سعيد اللخمي؛ فلا نصفه هنا بالصحيح لمجرد وجوده في الكافي. وتنقل طبعات أخرى اختلافًا في اسم الراوي الأخير [م٧].

وفي العياشي، عن عثمان عن رجل عن الصادق، أنها جارية ولدت غلامًا كان نبيًا؛ وفي خبر مرفوع آخر سبعون نبيًا. ويحفظ نقل الفقيه عبارة ولد منها سبعون نبيًا. لا نضع اسمًا للبنت أو زوجها أو الأنبياء، ولا نخترع قائمة من سبعين اسمًا. وقد يحمل بعض التعبير على الذرية، لكن ذلك تفسير لا لفظ موحد لجميع الطرق [م٤؛ م١٤: ح١٧٠-١٧٤].

وهنا شخصيتان أنثويتان في زمنين: بنت الأبوين في القصة المروية، والمولودة الجديدة في مجلس الصادق التي استدعت الموعظة. لا تندمجان، وتظهر في كل منهما قيمة البنت التي قد يسيء الإنسان تقدير الخير فيها.

قراءة أخبار الغلام دون تسويغ الاعتداء

تختلف الروايات في تصوير الغلام بين اللعب مع الصبيان وعلامة مكتوبة على الجبين أو الكتف. وتنقل كتب التفسير أسماء مثل حيسور أو جيسور وخشنوذ، ولا تثبتها الآية. لا يثبت جمع هذه التفاصيل أن

النص القرآني حكم على أطفال بأوصاف جسمية أو بأنسابهم، ولا أن الإنسان يجازى على فعل لم يختره [م٢: ص٢٨٢-٢٨٥، ٣٠٩-٣١٢].

ويروي العياشي عن عبد الله بن سنان عن الصادق خبر سؤال نجدة الحروري لابن عباس عن الذراري، وأن جواب ابن عباس يبدأ بأن رسول الله لم يكن يقتلهم، ثم يعلّق فعل الخضر على العلم الذي كان عنده. هذا احتجاج على من يستبيح الذرية، لا تفويض له بالقتل. يبقى الأطفال في غير هذه الواقعة تحت أحكام العصمة الظاهرة وحرمة الاعتداء [م٤؛ م١٤: ح١٦٦].

الجدار — الإحسان لمن لم يكرم الضيف

دخلا قرية فأبى أهلها أن يضيفوهما.

ثم وجد الخضر جدارًا يريد أن ينقض فأقامه مجانًا.

اعترض موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا.

ثم جاء التفسير:

الجدار لغلامين يتيمين،

تحته كنز لهما،

وأبوهما كان صالحًا.

فأراد الله أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما (الكهف ١٨:٨٢). هنا جاء اعتراض موسى الثالث على ترك الأجرة بعد أن أبى أهل القرية إطعامهما (١٨:٧٧)، فقال العبد: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ (١٨:٧٨)، ثم بيّن أن الجدار يحفظ كنز اليتيمين رحمةً من ربهما. لم يسمّ القرآن القرية ولا الغلامين ولا أباهما، ولا يثبت من لفظه أن الأب كان نبيًا أو وصيًا. صلاح الأب مذكور صراحة، أما هيئة الكنز ومقداره فتحتاجان إلى الروايات مع بيان درجتها. وبذلك تنتهي الصحبة ببيان تأويل السفينة والغلام والجدار، لا بتفويض مفتوح لأي مدعٍ للعلم الخفي.

ما هو الكنز؟

القرآن يقول: كنز لهما.

لا يحدد هل كان ذهبًا أو مالًا أو علمًا.

ورد في بعض روايات أهل البيت نفي الذهب والفضة وتفسير الكنز بكلمات من الحكمة، وفي روايات أخرى أنه لوح من ذهب مكتوب. يجب حفظ الصيغتين وعدم اختزالهما في نفي مطلق لمادة الذهب [م٨].

هذه رواية مهمة تفتح معنى «الكنز» على العلم، لكنها لا تغير لفظ القرآن المفتوح.

كنز اليتيمين وصلاح الأب: مقابلة الروايات

في الكافي عن صفوان الجمال عن الصادق: الكنز كلمات في التوحيد والموت والحساب والقدر. وفيه عن علي بن أسباط عن الرضا مواعظ في الموت وتقلب الدنيا والرضا بالقضاء وعدم استبطاء الرزق؛ ويذكر الراوي طلبه كتابة الكلمات ومناولة الإمام الدواة. ويصرح قرب الإسناد، بطريق البزنطي عن الرضا، بأنه لوح من ذهب؛ وفي القمي عن معاوية بن عمار عن الصادق صيغة قريبة، مع اختلاف المواعظ [م٨].

يجمع تفسير المجلسي بين بعض الصيغ بأن المنفي مال مدخر يراد لذاته، لا مادة اللوح الذي يحمل الحكمة. هذا وجه جمع، وليس إلغاء لعبارة «لوح من ذهب». كما أن الخبر المرفوع في معاني الأخبار إلى أمير المؤمنين ليس مساويًا في الاتصال لسند يسمي جميع الوسائط [م٢: ص٢٩١، ٢٩٤-٢٩٦؛ م٨].

ولا يحدد القرآن كم يفصل اليتيمين عن الأب الصالح من أجيال. تذكر بعض الطرق سبعة آباء، وفي خبر علل الشرائع سبعين أبًا، وفي العياشي سبعمائة سنة. لا نجمع هذه الأعداد في نسب واحد. وفي أخبار أخرى يحفظ ولد المؤمن وولد ولده وجيرانه بصلاحه؛ نقرأها في أثر الرحمة والبركة، لا في توريث الذنب أو إسقاط مسؤولية كل إنسان: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» (الأنعام ١٦٤) [م١، م٦، م١٤: ح١٨٦-١٩١].

وينقل العياشي وأمالي الطوسي أن الكنز علم وأن الغلامين لا يعلمان به، ثم سؤالًا عن الأكبر في سياق الاستدلال على الإمامة. لا يتحول هذا التطبيق إلى حكم يسلب الأصغر نصيبه في أموال الناس. ومن التطبيقات أيضًا دعوة الصادق إلى حفظ حرمة أهل البيت كما حفظ العبد الصالح اليتيمين، واحتجاج الحسين على نافع بن الأزرق بفضل رسول الله وفاطمة؛ هذه أخبار تطبيقية متأخرة زمنًا، لا أشخاص إضافيون في القرية [م١٤: ح١٨٠-١٨١، ١٨٩].

في التفسير المقارن المنسوب إلى مقاتل تسمى اليتيمان «أصرم وصريم»، والأب «كاشح»، والأم «دهنا». لا نعرض هذه الأسماء كرواية عن أهل البيت أو كتسمية قرآنية. ولا يثبت من الآية أن أباهما نبي، ولا وفاة أمهما؛ فاليتم لا يكفي لافتراض غياب الأم [م١٨].

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾

هذه الجملة مفتاح أخلاقي للقصة كلها.

الخضر لم يقل:

أنا أرى ما لا ترون، فأفعل ما أشاء.

قال:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

أي أن الأعمال الخارجة عن ظاهر الحكم لم تكن نزوة شخصية.

ومن هنا لا يجوز تحويل «علم الباطن» إلى باب يسقط به التكليف والشرع عن مدعٍ.

التأويل والصبر والوصية عند الافتراق

يعرض الشريف المرتضى القصة ضمن تنزيه الأنبياء: صعوبة الصبر على ما خفي وجهه لا تعني سلب القدرة أو إلزامًا بالمحال، وتعلم نبي مسألة عند غيره لا يسلبه مقامه. وفي تنوع «فأردت»، «فأردنا»، «فأراد ربك» تأملات في إسناد النقص والخير إلى قائلهما؛ يظل الجامع الصريح آخر القصة: «وما فعلته عن أمري» [م١، م٦، م١٢].

وردت وصايا عند الوداع في أمالي الصدوق: اجتناب اللجاجة والمشي لغير حاجة والضحك لغير موجب، والاشتغال بإصلاح النفس عن تتبع خطايا الناس. وفي الخصال عن الإمام السجاد: ألا يعير المرء غيره بذنب، مع القصد والعفو عند القدرة والرفق ومخافة الله. وفي الكافي نصيحة موجزة بالتمسك بما لا ينفع غيره مع تركه؛ وفي خبر آخر تذكير بالاستعداد ليوم الحساب. بعض الطرق يشتمل على راوٍ مبهم، فلا نجعل جميع الوصايا حديثًا واحدًا بسند واحد [م١١].

ويقارن واعظ نقل الصدوق كلامه، محمد بن عبد الله بن طيفور، بين السفينة وتابوت موسى الذي ألقته أمه، وبين الغلام والقبطي، وبين إقامة الجدار وسقي موسى للمرأتين. هذه قراءة وعظية لصاحبها؛ ليست في ذلك الموضع حديثًا عن الإمام، ولا نثبت أن الخضر قالها. تبقى أم موسى والمرأتان والقبطي شخصيات للمقارنة، ولا ننقلهم إلى رحلة الكهف [م٢: ص٢٩٢–٢٩٣].

الخضر وطول العمر — الروايات الإمامية

تحفظ روايات الإمامية أن الخضر بقي حيًا مدة طويلة، وتربطه ببعض أخبار الإمام المهدي عليه السلام وتشبه بقاءه ببقاء الحجة.

كما تذكر أخبار حضوره عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله أو مجالس الأئمة بأسانيد مختلفة.

هذه الروايات لا تجعل طول حياته حقيقة قرآنية، لكنها جزء من التراث الإمامي حوله ويجب ذكرها بحدودها. ولا تذكر آيات الكهف اسمه الشخصي، أو ولادته، أو نسبه، أو زوجته وأولاده، أو تاريخ وفاته؛ فلا نملأ هذه المواضع بسيرة يقينية من أخبار لم تُفحص أسانيدها.

أسرة الخضر: الملك والمرأتان والتاجران

يحفظ تفسير القمي خبرًا مطولًا عن الصادق يبدأ بسؤال النبي لجبرئيل ليلة الإسراء عن رائحة طيبة من بيت قوم عذبوا في الله. يرجع الخبر إلى خضر من أبناء الملوك، وحيد لأبيه، اعتزل للعبادة. أراد الملك بقاء الملك في عقبه فزوجه امرأة بكرًا؛ وافقت على كتمان عدم اقترابه منها، ثم كشف فحص النساء

بقاء حالها. وبعدها زوجه امرأة ثيبًا، فلم تكتم ما طلب منها كتمانه. غضب الأب وحبس ابنه بسد الباب، ثم فتحه بعد ثلاثة أيام فلم يجده [م٣؛ م٢: ح١٤].

وتسوق الرواية بعد ذلك خبر تاجرين من مدينة أبيه، التقياه يصلي في جزيرة. طلب إليهما الكتمان وأعادهما على سحابة في يومهما. حفظ أحدهما السر، وأخبر الآخر الملك. استدعي التاجر الكاتم، وخرج المخبر مع خيل للبحث فلم يجدوا الخضر، فأطلق الملك صاحبه. هذه تفاصيل الخبر العجائبي كما نقل، لا وصف لوسيلة سفر عادية ولا تأريخ يمكن إثباته من آيات الكهف [م٣].

ثم يذكر الخبر هلاك المدينة ونجاة المرأة الأولى والتاجر الذي كتم، وزواجهما وانتقالهما إلى مملكة أخرى. لا يصح تسمية التاجر خضرًا، ولا نسبة أولاد هذا الزواج إلى الخضر. فالخبر يجعلهم أولاد المرأة وزوجها التاجر [م٣].

وفي قصص الأنبياء للراوندي صيغة أقصر عن المفضل عن الصادق: امرأة عاقلة اتفق معها على كتمان شأنه ثم أخبرت أباه الحقيقة؛ فأعادها إلى أهلها ووقع الحبس والغياب. لا نوزع أفعال هذه الصيغة على امرأتَي القمي بلا دليل، ولا نسقط وصف العقل بسبب اختلاف موقفها. وفي أسانيد هذه المادة ومطبوعاتها اختلاف ومواضع تحتاج تحقيقًا؛ يلاحظ المجلسي أو محقق النسخة احتمال الإرسال في طريق يوسف بن حماد [م٢: ح١٤، ٢٣].

المرأة المؤمنة وبنت الملك والأطفال

في تتمة خبر القمي تعمل المرأة في زينة بنت الملك. يسقط مشطها فتذكر الله، فتسألها البنت: ألها إله غير أبي؟ فتعلن أن الله ربها ورب الملك. تبلغ البنت أباها، فيستدعي المرأة وزوجها وأولادهما، ويطالبهم بالرجوع عن الإيمان. يصف الخبر تعذيبهم بالماء الحار ثم هدم البيت عليهم، ويصل بذلك إلى الرائحة الطيبة التي سأل عنها النبي [م٣؛ م٢: ص٢٩٦-٢٩٨].

لا يسمي هذا السياق الملك الأخير فرعون، ولا يعطي اسم المرأة أو بنت الملك أو الأطفال. لذلك لا ندمجه تلقائيًا مع كل خبر يروى عن ماشطة ابنة فرعون؛ تشابه المهنة والتعذيب لا يكفي لإثبات اتحاد القصتين. وتبقى المرأة المؤمنة وبنت الملك شخصيتين مختلفتين في الدور والموقف، ويذكر الزوج والأطفال معها، لا يغيبون في اختصار يقول «امرأة عذبت».

ذو القرنين في القرآن: القوة في خدمة العدل

قبل أخبار عين الحياة، تُقرأ قصة ذي القرنين في الكهف ١٨:٨٣-٩٨. مكّنه الله في الأرض وآتاه أسبابًا، فسلك طريقًا إلى مغرب الشمس ووجد قومًا، فبيّن جزاء الظالم وحسن معاملة المؤمن العامل بالصالحات. ثم بلغ مطلع الشمس عند قوم لم يجعل لهم من دونها سترًا. هؤلاء جماعتان في النص، لا شخص واحد، ولا تسمي الآيات ملوكهما أو نساءهما وأطفالهما. ويُفهم مشهد الغروب من موضع المشاهدة، ولا يلزم منه أن جرم الشمس يغوص في ماء الأرض. [م١٩]

ثم بلغ بين السدين قومًا يشكون فساد يأجوج ومأجوج، فعرضوا مالًا ليقيم حاجزًا. طلب عونهم بالقوة، وجمع قطع الحديد وأفرغ القطر بعد الإحماء، فصار الردم مانعًا من التسلق والنقب. نسب الإنجاز إلى رحمة ربه، وأقر بأن وعد الله سيجعل الردم دكاء. فالقوم المستغيثون والعاملون ويأجوج ومأجوج داخلون في القصة، دون تعيينهم بأمم معاصرة أو الجزم بموقع جغرافي لا تسميه الآيات. ويصل الأنبياء ٢١:٩٦ ذكر يأجوج ومأجوج بمشهد آخر متعلق بوعد الآخرة. [م١٩]

أما أسماء عياش وأفريدون وإسكندروس، وأم ذي القرنين والدهقان، فقد عُرض اختلاف مصادرها في الفصل السابع عند بحث الأخبار التي ربطته بأجيال ما بعد نوح. لا يجعل ذلك ترتيبًا زمنيًا قرآنيًا. وهنا يستكمل موضعه من قصة الخضر، مع التمييز بين القرآن وأخبار الرحلة وعين الحياة. ولا تثبت الآيات اسم أمه أو زوجته أو أولاده، كما أن حديث الكافي الذي سبق توثيقه يصف صاحب موسى وذا القرنين بالعالمين وينفي عنهما النبوة في ذلك الخبر. [م٥؛ الفصل السابع]

ذو القرنين وعين الحياة وحدود أخبار البقاء

تجعل روايات الخضر على مقدمة ذي القرنين في طلب عين الحياة. ومن طرقها ما يرويه عبد الله بن سليمان بصيغة «قرأت في بعض كتب الله»، ثم خبر العيون الثلاثمائة والستين والحيتان المملحة، واهتداء الخضر إلى الماء دون ذي القرنين. هذه صيغة نقل عن كتاب غير معين، لا تصريح بالسماع من الإمام. وتوجد صيغة أخرى عن الباقر نقلها الراوندي؛ لا يسد أحد الطريقين فراغ إسناد الآخر [م٢: ح١٦، ١٩؛ م٩].

وفي خبر عن الرضا في كمال الدين أن الخضر شرب من ماء الحياة، ويأتي أهل البيت فيسلم عليهم فيسمعون صوته، ويحضر الموسم وعرفات، ويؤنس الله به القائم في غيبته. يساق هذا في الاستدلال الروائي على إمكان طول العمر، لا في تحديد تاريخ ولادته أو إعلان خلود ذاتي؛ فالقرآن يقرر أن كل نفس ذائقة الموت [م٩؛ آل عمران ١٨٥، الأنبياء ٣٤].

وفي روايات ذي القرنين عند العياشي ونور الثقلين يفسر الخضر حجرًا لا يشبعه إلا التراب: يربطه بطمع ابن آدم وانتهاء أمله بالموت. ويظهر في سياق القصة صاحب الصور وطائر القصر وعلماء الملك. هذه مادة وعظية عجائبية منفصلة عن سفينة موسى وغلامه وجدار اليتيمين، فلا تضاف إلى آيات الكهف ٦٠–٨٢ ولا يستنتج منها اتحاد ذي القرنين بالإسكندر [م٤، م١٤: أخبار ذي القرنين بعد الآية ٨٣].

ويورد مهج الدعوات خبر اجتماع الخضر وإلياس في الموسم وتفرقهما على ذكر الله والتوكل عليه. لفظ «روي» هنا لا يوفر وحده سندًا كاملًا. وهو شاهد على رواية تميزهما كشخصين، لا دليل قاطع على تحديد وظائفهما في البر والبحر أو مشاهدة أي مدعٍ لهما [م٢: ح٥٣].

الخضر والنبي وأهل البيت: التعزية والشهادة بالإمامة

في خبر الرضا الذي ينقله كمال الدين تأتي التعزية عند وفاة النبي، وعلي وفاطمة والحسن والحسين عنده؛ ثم يعرف علي المعزي بأنه الخضر. وفي صيغة مروية عن السجاد يسمعون صوت المعزي ولا يرون شخصه. تحفظ الصيغتان معنى العزاء والرجوع إلى الله، ولا تجمع الرؤية وعدمها في مشهد واحد بلا بيان [م٢: ح١٨؛ م٩، م١٦].

وفي كمال الدين، الباب ٢٩، الحديث ١، عن الإمام الجواد بطريق أبي هاشم الجعفري، يدخل علي المسجد الحرام ومعه الحسن وسلمان. يسأل الزائر عن النوم والذكر والنسيان وشبه الولد بأعمامه وأخواله، فيجيب الحسن. ثم يشهد الزائر بسلسلة الأئمة: علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري والقائم من ولده. وبعد انصرافه يعرفه علي بأنه الخضر [م١٠].

موضع الخبر إثبات الحجة في سياقه الروائي، وليس فصلًا في الطب الحديث أو الوراثة. ولا يعني ذكر الأئمة الاثني عشر أنهم كانوا جميعًا حاضِرين في ذلك المجلس؛ الحضور لعلي والحسن وسلمان والزائر، والباقون مذكورون في شهادته.

وينقل كمال الدين، الباب ٢٩، الحديث ٢، احتجاج الحسن بقصة الخضر في جواب اللائمين على الصلح مع معاوية: قد تخفى وجهة الحكمة عن الناظر. وفي الباب ٣٦، الحديث ١، يشبه العسكري، في حديث أحمد بن إسحاق، طول غيبة ابنه بحال الخضر وذي القرنين. ويروي الصدوق عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الصادق أن وجه الحكمة في الغيبة ينكشف كما انكشف تأويل أفعال الخضر عند الفراق. هذه تطبيقات في الإمامة والغيبة؛ لا تبيح لغير الحجة تعطيل الشرع بدعوى أسرار خفية [م١٠، م١٤: ح١٩٣].

لقاءات مروية أخرى: لا تدمج الأسماء أو الشواهد

يرد لقاء رجل لعلي بن الحسين عند الحائط، يسأله عن حزنه ويطمئنه إلى كفاية الله، في خبر التوحيد والإرشاد. وترد في كمال الدين، الباب ٣٦، الحديث ٣، صيغة مشابهة تجعل الإمام محمد الباقر هو المخاطب وتصرح بأن الرجل الخضر. نحفظ اختلاف المخاطب ولا نصحح اسم أحد الإمامين بالحدس [م١٠، م١٦].

وفي أخبار أخرى يلتقي الخضر الباقر والصادق في الحج ويسأل عن الطواف والتوبة؛ ويختلف تمام الرواية بين الكافي والعياشي. وفي مادة الخرائج خبر يعرض السؤال على جعفر بحضور أبيه. هذه مواضع مستقلة تحتاج قراءة سند كل منها، ولا يكفي ضمها إلى باب الفضائل للحكم بصحة تفاصيلها [م١٦].

وتحفظ الأخبار عن علي لقاءً عند أستار الكعبة في دعاء العفو، وخطابًا في مسؤولية العالم والغني والفقير، ولقاءً في مسجد الكوفة مع احتياط أصحابه عليه. يرد في طرقها محمد بن الحنفية والأصبغ بن

نباتة، ويظهر الحرس وشرطة الخميس في صيغة أخرى؛ هم شهود أو جماعات في أخبار متفرقة، وليسوا رفاق رحلة موسى [م١٦].

أما الرجل الذي رثى عليًا يوم وفاته في خبر أسيد بن صفوان، فالنص المتداول في الكافي يصفه ولا يسميه في آخره؛ ربطه بالخضر يرد في صيغ وتسميات أخرى. لذلك لا نجعل عنوان «زيارة الخضر» كافيًا لنسبة تعيين الاسم إلى كل مصدر للمرثية [م١٦].

وفي أخبار الفضائل امرأة سوداء كفيفة تسقي الناس حبًا لعلي، يروي الأعمش خبر دعاء الخضر لها وعودة بصرها؛ وفي الدعوات للراوندي أعرابي أعمى يدعو بمحمد وآله ثم يسمع هاتفًا يعرف نفسه بالخضر. المرأة والأعرابي شخصيتان مختلفتان، والخبران من مادة المناقب التي تحتاج تحقيقًا مستقلًا، لا شهادة طبية ولا تعيينًا قرآنيًا. ويبقى الأعمش ناقلًا للخبر، لا شخصية من زمن موسى [م١٦].

الدعاء والمساجد وخبر السائل والمشتري

يروي ابن طاووس في إقبال الأعمال خبر كميل بن زياد عن أمير المؤمنين في ليلة النصف من شعبان، ثم صيغة يسأل فيها كميل عن «دعاء الخضر» فيعلمه الإمام الدعاء المشهور. هذه صلة الخضر بدعاء كميل في المصدر. لا يلزم منها أن كميل لقي الخضر مباشرة؛ وصيغة «وجدت في رواية أخرى» لا تسمي جميع رجال الإسناد [م١٧].

وفي التوحيد للصدوق خبر منام لعلي قبل بدر، يعلم فيه الخضر ذكر التوحيد، فيقصه علي على النبي. نذكره منامًا كما ورد، ولا نحوله إلى زيارة حسية. وتوجد أخبار أذكار أخرى عند الكعبة والموسم؛ يكفي تعيين مواضعها هنا دون خلطها في دعاء واحد [م١٦، م١٧].

وينقل الكافي في فضل مسجد السهلة أنه مناخ الراكب الخضر. أما قصة الرجل الذي دل الزائرين على صلوات السهلة ومسجد زيد بن صوحان وانصرف، ففي ختامها قول صاحب الراوي إنه الخضر؛ لا نحول هذا التعرف البشري إلى تصريح صادر من الإمام. ويختلف وزن هذا الخبر عن وجود الرواية المسندة في فضل المسجد [م٢: ح٢٥-٢٦، ص٣٢٠-٣٢١؛ م١٦].

ويورد إعلام الدين، كما نقله المجلسي عن أبي أمامة عن النبي، قصة فقير يسأل الخضر بوجه الله، فيمكنه الخضر من بيعه بأربعمائة درهم، ثم يعمل عند مشتريه عملًا خارقًا في نقل الحجارة والبناء، ويكشف له شأنه فيعتقه. في الخبر سائل ومشترٍ وأهل للمشتري، وكلهم بلا أسماء. يقرأ في سياق الإغاثة وتعظيم السؤال بالله، مع عدم اكتمال طريقه في هذا الموضع، ولا يستخرج منه ترخيص عام لاسترقاق الأحرار [م٢: ح٥٥، ص٣٢١-٣٢٣].

تطبيق السفينة على زرارة، وأخبار تحفظ مع نقدها

في اختيار معرفة الرجال يروي عبد الله بن زرارة رسالة الصادق إلى أبيه: ما صدر من عيب ظاهر له كان دفعًا لأذى المتربصين، ويستشهد الإمام بسفينة المساكين. وفي تتمة الخبر ذكر ابني زرارة الحسن

والحسين وحفظهما بصلاح أبيهما، على مثال اليتيمين. هؤلاء أبناء زرارة، فلا يختلط الاسمان بالحسن والحسين الإمامين. ونقل نور الثقلين طرفًا من الخبر عند الآية ٧٩ [م١٤: ح١٦٣؛ م١٨].

وفي علل الشرائع خبر ابن عباس مع رجل شامي من حمص يسأله عن قتال علي، فيستشهد ابن عباس بموسى والعالم. الشامي غير مسمى، فلا يدمج مع نجدة الحروري أو نافع بن الأزرق. أما التطبيق الوارد في خبر العياشي المطول، الذي يذكر الحسن والحسين ومعاوية وعبد الله بن علي، فقد استشكل المجلسي بعض أسمائه وتفاصيله واقترح احتمالات للتصحيف؛ لا نجعل اقتراحه نصًا مصححًا أو واقعة تاريخية ثابتة [م٢: ح٦، ٣٣ وبيانه ص٣٠٨].

ويحفظ الحديث ٥٢ من الباب نفسه خبر رق سرياني منسوب إلى ذخيرة أحد حواري المسيح، وفيه موسى يقص على هارون خبر طائر وخمس قطرات، وصياد يبين دلالتها على علم النبي ووصيه ثم يعرف في الخبر بأنه ملك. لا يثبت هذا الإطار صحة نسبة الرق إلى التوراة، ولا هو سند إمامي مباشر للقاء. نذكر هارون والصياد والحواري غير المسمى كما وردوا، مع الفصل عن رواية الطائر القصيرة، وعن قصص الصيادين الأخرى [م٢: ص٣١٢-٣١٣].

الفتى يعود إلى الواجهة — تمهيد يوشع بن نون

في القصة القرآنية يتوقف ذكر الفتى بعد الوصول إلى العبد الصالح.

لكن الروايات التي تعرفه بيوشع بن نون تفتح الباب مباشرة للفصل التالي.

يوشع ليس مجرد حامل طعام في رحلة.

في روايات الوصية يصبح حامل عهد موسى بعده.

سجل الشخصيات وحدود الاستكمال

في أصل القصة القرآني: موسى، الفتى، العبد المعلم، أصحاب السفينة والمساكين العاملون، الملك الغاصب، الغلام المقتول، أبوه وأمه المؤمنان، أهل القرية، اليتيمان وأبوهما الصالح. لا يثبت القرآن أسماء غير موسى في هذا المشهد، وذكر الأم داخل الأبوين مقصود في هذا الحصر [م١].

في الزيادات الروائية: يوشع والخضر بتعيينهما، البنت البديلة ونسلها غير المسمى، الصبيان اللاعبون، الملك أبو الخضر، المرأة الأولى والثانية ونساء الفحص، التاجر الكاتم والتاجر المخبر والخيل المرسلة، الملك الآخر وبنته، المرأة المؤمنة وزوجها وأطفالها، ذو القرنين وأصحابه وعلماؤه، إلياس، السائل والمشتري وأهله. تذكر الأنساب والأسماء المقارنة بصفتها أقوالًا، ولا تخلق منها شخصيات مثبتة جديدة.

في اتصال القصة بعصر الرسالة والأئمة: النبي محمد، علي، فاطمة، الحسن، الحسين، والأئمة إلى المهدي؛ سلمان وكميل ومحمد بن الحنفية والأصبغ وأسيد وأحمد بن إسحاق؛ ابن عباس ونجدة الحروري ونافع بن الأزرق ومعاوية وابن الزبير بحسب الوقائع المختلفة؛ والمرأة الكفيفة والأعرابي والرجل المتسخط بولادة بنت وابنته. بعض هؤلاء حاضر في الخبر، وبعضهم راوٍ أو مخاطب أو مذكور بالمقارنة، فلا يساق

الجميع في طبقة تاريخية واحدة. وتضاف في سياق النزول أسماء أبي طالب والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل، وفي التطبيق زرارة وابنه عبد الله وابناه الحسن والحسين، وفي خبر الرق هارون والحواري غير المسمى.

وجبرئيل وصاحب الصور والملك المتصور في بعض الأخبار ليسوا شخصيات بشرية. والحوت والطائر علامات أو صور في الخبر، لا رجالًا ونساء. وتميز المراجعة بين ذلك كله وبين مؤلفي المصادر ورواة الأسانيد الذين لا نختلق لهم أدوارًا في القصة.

بهذا يستكمل الفصل مادته وفق النصوص المفصلة في مراجع هذه المراجعة. يبقى الخلاف في النبوة والنسب والمكان والعمر وتفاصيل الكنز ظاهرًا، ولا تدعى مقابلة جميع المخطوطات أو تصحيح كل ما روي. والغاية أن لا يسقط شاهد عثر عليه، ولا تدخل زيادة مجهولة على أنها قرآن أو حديث ثابت.

خاتمة الفصل الخامس والعشرين — العلم الذي يعلم حدوده

موسى طلب العلم.

والخضر لم يعمل من أمر نفسه.

ثلاثة أحداث بدت في ظاهرها صعبة.

ثم انكشف بعضها بحكمة أخرى.

لكن الدرس ليس أن الظاهر بلا قيمة.

ولا أن كل غامض حكمة صحيحة.

الدرس أن الإنسان لا يحيط بعلم الله، وأن من يدعي علمًا خاصًا لا يملك أن يسقط به شريعة الله.

ثم ننتقل إلى الفتى الذي سار مع موسى، وتقول الروايات إنه سيحمل العهد بعده:

يوشع بن نون.

المصادر والمراجع

م١ — القرآن الكريم: الكهف ٦٠–٨٢؛ وللفصل بين القصتين ٨٣–٩٨؛ الأنعام ١٦٤؛ آل عمران ١٨٥؛ الأنبياء ٣٤. تراجع الآية من المصحف، ولا تدرج ألفاظ القراءات المروية في نصه.

م٢ — المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، الباب ١٠: «قصص موسى والخضر عليهما السلام»، ص٢٧٨–٣٢٣، الأحاديث ١–٥٥ مع البيانات والتعليقات. هذا هو موضع الجمع الرئيس؛ وتعين الإحالات في المتن رقم الخبر أو الصفحة عند الحاجة.

م٣ — تفسير القمي، قصة موسى والعالم وخبر أسرة الخضر: بنقل بحار الأنوار ج١٣، ح١–٣ وح١٤، ص٢٧٨–٢٨١، ٢٨٦، ٢٩٦–٢٩٨؛ وبالمقابلة مع نور الثقلين، الكهف، ح١٥٨ وح١٩٨. في النص المتداول فواصل بين تفسير المصنف والرسالة المنسوبة إلى الرضا؛ تحفظ ولا تسقط.

م٤ — تفسير العياشي، عند الكهف ٦٠-٨٢ وأخبار ذي القرنين التالية؛ نقل مادته المجلسي ج١٣، ح٢٧-٢٩، ٣١-٤٥، ٤٧-٥٠. تراعى الأسانيد المختصرة والإرسال والراوي المبهم حيث وردت؛ مجرد إعادة نشر الرواية لا يستعيد ما لم يذكر من طريقها.

م٥ — الكليني، الكافي، ج١، ص٢٦٩، باب «في أن الأئمة عليهم السلام بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوة»، ح٥: طريق علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن بريد بن معاوية. وهو نص نفي نبوة صاحب موسى وذي القرنين.

م٦ — الصدوق، علل الشرائع، خبر موسى والخضر بطريق محمد بن عمارة عن الصادق، كما نقله بحار الأنوار ج١٣، ح٤، ص٢٨٧-٢٩١؛ وللاسم راجع أيضًا ح١٥ عن معاني الأخبار. يفصل تعليق الصدوق اللاحق عن متن الخبر.

م٧ — الكافي، ج٦، ص٦-٧، كتاب العقيقة، باب فضل البنات، ح١١. تقارن رواية البنت بنور الثقلين ح١٧٠-١٧٤، وبحار الأنوار ج١٣، ح٤٥-٤٧. لا يحول اختلاف الواحد والسبعين إلى قائمة أسماء غير موجودة.

م٨ — الكافي، ج٢، ص٥٨-٥٩، باب فضل اليقين، خبرا صفوان الجمال وعلي بن أسباط في كنز اليتيمين؛ وقرب الإسناد، خبر البزنطي عن الرضا؛ والخصال، خبر اللوح والكلمات الأربع؛ ومعاني الأخبار، خبر اللوح المرفوع. نصوص المقابلة في بحار الأنوار ج١٣، ح٢، ٩-١٢، ٥١؛ ونور الثقلين ح١٧٥-١٨٥.

م٩ — الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، أخبار الخضر وطول عمره وتعزيته لأهل البيت؛ مواضعها المجموعة في بحار الأنوار ج١٣، ح١٦-١٨، ص٢٩٨-٣٠٠. يميز قول «قرأت في بعض كتب الله» من الرواية المسندة إلى الإمام الرضا.

م١٠ — كمال الدين وتمام النعمة: الباب ٢٩، ح١-٢، والباب ٣٦، ح١ وح٣، بحسب ترقيم الأبواب في النص الإلكتروني؛ شهادة الخضر بالأئمة، تطبيق الحسن، حديث أحمد بن إسحاق، وخبر الحائط. ويقارن حديث الشهادة بالكافي ج١، ص٥٢٥. ولحكمة الغيبة خبر عبد الله بن الفضل الهاشمي المنقول في نور الثقلين ح١٩٣.

م١١ — أمالي الصدوق، وصايا الخضر لموسى؛ الخصال، الخبر عن الزهري عن علي بن الحسين؛ الكافي، ج٢، ص٤٥٩، خبر التذكير بالموت. النصوص في بحار الأنوار ج١٣، ح٧-٨، ٥٤؛ ونور الثقلين ح١٩٥-١٩٧. تميز وصية الرواية من شرح المجلسي.

م١٢ — الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء، مسائل موسى والخضر؛ النص المنقول والمناقش في بحار الأنوار ج١٣، ص٣١٤-٣١٩. هذا استدلال كلامي للمؤلف، لا سند جديد للوقائع.

م١٣ — الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الكهف ٦٠-٨٢، ولا سيما تعيين موسى والفتى والموضع، والقراءات، وقصة أبي بن كعب، والكنز. ما يحكيه عن ابن إسحاق أو غيره من المفسرين لا ينسب تلقائيًا إلى أهل البيت.

م١٤ — الحويزي، نور الثقلين، سورة الكهف، الأحاديث المتعلقة بالرحلة حتى ح١٩٨، ثم مادة ذي القرنين ذات الصلة بالخضر. أرقام الأخبار المثبتة في المتن تحيل إلى هذا الترتيب. من الزيادات المهمة ح١٦٣ في زرارة، وح١٨٩ في احتجاج الحسين، وح١٩٣ في حكمة الغيبة.

م١٥ — الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، بحث الكهف ٦٠-٨٢، البيان والبحث الروائي؛ والفيض الكاشاني، تفسير الصافي، سورة الكهف في المواضع نفسها. يميز التحليل التفسيري من الروايات التي ينقلها كل مصنف.

م١٦ — أخبار اللقاءات المتفرقة: التوحيد للصدوق، ص٨٩، ٣٠٦، ٣٧٣؛ الإرشاد للمفيد ج٢، ص١٤٨؛ أمالي المفيد ص٩١؛ أمالي الطوسي ص٥١؛ الكافي ج١، ص٤٥٤ وج٤، ص١٨٨؛ تفسير العياشي ج١، ص٣٠؛ الخرائج ج٢، ص٦٣١؛ غرر الأخبار ص٨٧؛ الدعوات للراوندي ص١٩٥؛ المزار الكبير ص١٤٠. حصر المواضع ومقارنة صيغها بواسطة مجموعة «الخضر عليه السلام» لمركز سيد الشهداء، مع إحالاتها إلى بحار الأنوار ج٣:٢٢٢، ج١١٩:١٠، ج١٣٠:٣٩-١٣٣، ج٩:٤٢، ج٣٧:٤٦، ج٤٠:٩١، ج٢٠٥:٩٦، ج٣٥٤:٩٧، ٤٤٣. هذه إحالات منقولة، وليست ادعاء قراءة مستقلة لكل طبعة أو تصحيح لكل سند.

م١٧ — ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج٣، ص٣٣١-٣٣٨، دعاء ليلة النصف من شعبان وخبر كميل و«دعاء الخضر»، مع نقله عن مصباح المتهجد. وفي بحار الأنوار ج١٣، ص٣١٩-٣٢٣ أخبار مهج الدعوات والمزار وإعلام الدين، مع اختلاف درجتها وتمام طرقها.

م١٨ — الطوسي، التبيان، تفسير البقرة ٢٥٩، في اختلاف تعيين المار على القرية؛ اختيار معرفة الرجال، ج١، ص٣٨٩-٣٩٠، ح٢٢١ في ترقيم النسخة المقروءة؛ رسالة الصادق إلى زرارة بطريق ابنه عبد الله. ولأسماء أصرم وصريم وكاشح راجع القول المقارن المنسوب إلى مقاتل في تفسير الكهف ٨٢، لا بوصفه رواية إمامية.

روابط النصوص المقابلة — بحار الأنوار ج١٣؛ الكافي في مقام صاحب موسى؛ الكافي في فضل البنات؛ كمال الدين، الباب ٢٩؛ كمال الدين، الباب ٣٦؛ نور الثقلين؛ تفسير العياشي؛ مجمع البيان؛ الميزان؛ الصافي؛ إقبال الأعمال؛ مجموعة اللقاءات المتفرقة؛ التبيان؛ رجال الكشي؛ التفسير المقارن للآية ٨٢.

م١٩ — القرآن الكريم، الكهف ٨٣-٩٨ والأنبياء ٩٦؛ الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الكهف ٨٣-٨٧ و٨٨-٩٢ و٩٣-٩٨: رحلات ذي القرنين وأقوامه والردم.

الفصل ٢٦ — يوشع بن نون — حمل العهد بعد موسى

يوشع بين الآية والتعيين الروائي

يوشع بن نون عليه السلام لا يرد باسمه في القرآن. تتصل قصته بما يقوله القرآن عن فتى موسى والرجلين المؤمنين والتيه، ثم بالروايات التي تسميه وتصف حمله العهد بعد موسى.

الآيات التي يقوم عليها الفصل

الموضع الأول هو الكهف ٦٠–٦٥. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾. ثم تذكر الآيات فقد الحوت، وطلب الغداء، وقول الفتى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾، والرجوع على الآثار حتى لقاء العبد الذي آتاه الله رحمة وعلمًا. الاسم «يوشع» ليس جزءًا من هذه الآيات [م١].

والموضع الثاني المائدة ٢٠–٢٦: يذكّر موسى قومه بنعم الله، ويأمرهم بدخول الأرض المقدسة، فيعتذرون بوجود قوم جبارين. ويقول تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. ثم يقع الرفض، ودعاء موسى، والحكم بالتيه أربعين سنة. لا تسمي الآيات الرجلين ولا قائد الدخول اللاحق [م١].

وتتصل بالمرحلة آيات الميثاق والنقباء الاثني عشر في المائدة ١٢، واستخلاف هارون في الأعراف ١٤٢، والتوراة وحملتها في المائدة ٤٤، وأئمة بني إسرائيل الذين يهدون بأمر الله في السجدة ٢٣–٢٤. هذه أصول لفهم الميثاق والتعليم والقيادة، وليست قوائم تسمي يوشع وأصحابه.

أما أمر دخول القرية وقول «حطة» في البقرة ٥٨–٥٩ والأعراف ١٦١–١٦٢، ومثل المنسلخ من الآيات في الأعراف ١٧٥–١٧٦، وذكر ذي الكفل في الأنبياء ٨٥–٨٦ وص ٤٨، فستأتي صلتها بيوشع ضمن البحث التفسيري والروائي، دون دمج الشخصيات لمجرد تشابه الأخبار.

وتفتح البقرة ٢٤٣ و٢٤٦–٢٥١ باب المرحلة التالية: قوم أماتهم الله ثم أحياهم، ونبي غير مسمى يخاطبه الملأ، ثم طالوت وجالوت وداود. وتمنعنا قاعدة الرسل الذين لم تُقصص أسماؤهم، في النساء ١٦٤ وغافر ٧٨، من عدّ القائمة المعلومة سجلًا كاملًا لكل حملة الهداية [م١].

اسمه ونسبه ومولده وأسرته

يحفظ الكافي اسمه «يوشع بن نون»، ويعرّفه بأنه وصي موسى وفتاه. أما إرجاع نسبه إلى أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، فيظهر في كتب السير ومنها إثبات الوصية. هذا انتساب تاريخي مروي، ولا يجوز اختزال قرون محتملة بجعل كل اسم في السلسلة أبًا مباشرًا للذي بعده [م٢، م١١].

لم نجد في النصوص المعتمدة هنا خبرًا محققًا يضبط تاريخ ولادته ومكانها أو اسم أمه وتفاصيل طفولته. لذلك لا نضع له سنة ميلاد أو قصة نشأة في قصر أو مدرسة لم تثبت.

ولا تتوافر هنا تسمية موثقة لزوجته أو بناته. لكن عدم معرفة الأسماء لا يساوي نفي الأسرة: خبر الراوندي عن الدخول يذكر يوشع وكالب وأبناءهما، وفي الكافي عبارة «لم يوص إلى ولده»، وفي إثبات الوصية تسمية فينحاس ابنًا له. سنعرض تعارض أخبار الوصية في موضعه، ولا نجعل واحدًا منها قائمة قطعية لأبنائه [م٣، م٤، م١١].

ولا نضم إلى أسرته أسماء نساء أو أبناء من الموروث الكتابي لمجرد شيوعها في قصص الأنبياء. فما لم يثبت في القرآن أو في خبر يمكن اعتماده يظل خارج السيرة المقررة.

يوشع في قصة الخضر — الفتى الذي رافق موسى

تظهر الرحلة قبل أن يصل السرد إلى حمل العهد بعد وفاة موسى. وفي روضة الكافي، الحديث ٩٢، عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام، يرد: «وكان وصي موسى يوشع بن نون عليه السلام، وهو فتاه الذي ذكره الله عز وجل في كتابه». فالتعيين هنا نص رواية، لا كلمة محذوفة من القرآن [م٢].

سار موسى وفتاه نحو مجمع البحرين. وعند موضع اللقاء وقع أمر الحوت، ثم تجاوزا المكان، فلما طلب موسى الغداء أخبره الفتى بما حدث عند الصخرة. عندئذ قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، فرجعا على آثارهما. هذه العودة تصل خبر الفتى بلقاء العبد الصالح، وتبرز قيمة الانتباه للعلامة والرجوع إلى الطريق حين يتبين موضعها [م١: الكهف ٦٠–٦٥].

ولا يحدد القرآن عمر الفتى، ولا يقول إنه ابن موسى، ولا يصرح بأنه رافقه في كل ما وقع بعد ذلك من السفينة والغلام والجدار. لذلك لا نضيف له حوارًا في هذه المشاهد، ولا نجعله صاحب اعتراض لم ينسبه النص إليه.

وفي دائرة القصة الموسعة: موسى، والفتى، والعبد الصالح الذي تسميه الروايات الخضر، والمساكين أصحاب السفينة، والملك الذي يأخذ السفن، والغلام وأبواه المؤمنان، والغلامان اليتيمان وأبوهما الصالح، وأهل القرية. والأم من «الأبوين» حاضرة في نص القرآن مثل الأب. وقد فُصّلت هذه الشخصيات في الفصل الخامس والعشرين؛ حضورها في القصة لا يجعلها جميعًا أصحابًا ليوشع في مرحلة وصايته.

الحوت والنسيان وحدود الاستدلال على العصمة

تقول الآية أولًا: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، ثم تقول على لسان الفتى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾. فلا نحذف التثنية، ولا نخفي نسبة النسيان في كلامه، ولا نحولها من غير دليل إلى خيانة للعهد أو كفر أو تعمد لمعصية.

ويُفرَّق في البحث الإمامي بين حفظ الوحي وأمانة الحجة، وبين تفسير ألفاظ النسيان في شؤون الرحلة. وقد عرض الفصل السابق اختلاف التوجيه بين النسيان العادي ومعنى الترك وأوجه الإسناد. لا يصح اختزال ذلك في دعوى إجماع على تفسير واحد، أو استنتاج أن كل أثر منسوب إلى الشيطان يعني اتباعه في الاعتقاد.

ومع إبقاء مقام العصمة أصلًا في منهج الكتاب، نلتزم بالنص القرآني ونحيل تفصيل الجمع الكلامي إلى موضعه، ولا نخترع عمرًا ليوشع أو تاريخًا لبدء حجيته لحل الإشكال.

وأخبار الحوت المملوح وماء الحياة وكيفية عودته إلى البحر تنتمي إلى الروايات. لا يستفاد من آيات الكهف وحدها أن يوشع شرب ماء الخلود أو بقي حيًا إلى آخر الزمان؛ فلا تُنقل إليه تلقائيًا أخبار الخضر.

الرجلان عند باب الأرض المقدسة — يوشع وكالب

كان القوم أمام تكليف لم يكونوا مستعدين لتحمل تبعته. قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، فجاء موقف الرجلين داعيًا إلى الدخول والتوكل. غير أن الأكثرية مضت في الرفض حتى قالت لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [م١: المائدة ٢٢-٢٤].

القرآن يمدح الرجلين بما أنعم الله عليهما، ولا يسميهما. ويعيّنهما خبر الراوندي، عن أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام، بيوشع بن نون وكالب بن يوفنا. ويذكر نجاتهما من فناء جيل التيه ودخولهما مع الأبناء. اسم كالب يرد أيضًا بصيغ منها «ابن يوقنا» في بعض كتب التفسير؛ لا نحول اختلاف الضبط إلى شخصيات متعددة [م٤، م١٢].

لا يُهمَل كالب لأن الفصل يحمل اسم يوشع: فهو الشريك في الدعوة إلى الثبات، ثم يرد اسمه في أخبار الدخول وما بعد يوشع. لكن تاريخ مولده ووفاته واسم زوجته وتفاصيل أولاده لا تضبطها هذه الرواية؛ فلا نملأها بافتراضات.

وتذكر المائدة ١٢ اثني عشر نقيبًا من بني إسرائيل دون أسمائهم. ربط يوشع وكالب بأسماء النقباء أو بعثة الاستطلاع من تفصيل الأخبار، وليس في الآية تصريح بأن هذين الرجلين كانا اثنين من قائمة مسماة. وكذلك «القوم الجبارون» وصف قرآني، أما أسماء ملوكهم وأطوال أجسادهم الخارقة فليست من نصه.

الدرس هنا أن صدق الموقف لا يقاس بكثرة أصحابه. وقف رجلان يدعوان إلى الثقة بالله والعمل، بينما أراد غيرهما ثمرة النصر دون تحمل مسؤوليته.

التيه والجيل الذي حمل مسؤولية الدخول

الحكم القرآني هو: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]. الأربعون ثابتة بنص الآية، أما مساحة التيه وأسماء من مات فيه وتوقيت كل وفاة فمن الأخبار.

وفي خبر الراوندي رقم ١٩٨: إقامة في التيه، والمن والسلوى، وفناء الجيل الرافض، ووفاة موسى وهارون، ثم دخول يوشع وكالب وأبنائهما، ومعهم الحجر الذي كان يضربه موسى فتنبع منه المياه للأسباط. فليس المشهد، حتى في الرواية، فتحًا قام به رجل منفرد، بل انتقالًا إلى جماعة وأبناء يحملون تبعة جديدة [م٤].

ينبغي فهم عبارة فناء القوم في سياق الجيل المذكور، لا تحويلها إلى دعوى أن كل امرأة وطفل من بني إسرائيل مات ولم يبق إلا رجلان؛ فالرواية نفسها تذكر الأبناء. ولا يعطي هذا الخبر أسماء نساء ذلك الجيل ولا أعدادهم التفصيلية.

وترد في إثبات الوصية صورة تربوية: الجيل الناشئ في التيه لم ير الجبارين بالصورة التي شلت الجيل السابق. نذكر ذلك منسوبًا إلى الكتاب، لا بوصفه آية أو تشخيصًا نفسيًا ثابتًا لكل فرد [م١١].

موسى أوصى إلى يوشع — العلم قبل السلطان

أصل وصاية يوشع لا يقوم على رواية واحدة. تذكره روضة الكافي وصيًا وفتى لموسى، ويورد كتاب الحجة من الكافي، في باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام، خبرًا عن الإمام الصادق عليه السلام يبدأ بوصية موسى إلى يوشع [م٢، م٣].

وفي كمال الدين، باب مضي موسى ووقوع الغيبة بالأوصياء، يروي الصدوق عن الصادق عليه السلام أن موسى دعا يوشع، وأوصى إليه، وأمره بكتمان أمره، وبأن يوصي من بعده إلى من يقوم بالأمر. وللمعنى شاهد في أمالي الصدوق، المجلس الحادي والأربعين، الحديث الثاني، ونقله الراوندي في الخبر ٢٠٤ [م٥، م٦].

الكتمان في هذا الخبر لا يعني ضياع العهد. إنه وصف لطريقة حفظه في ظرف الخوف. وعندما يتحدث إثبات الوصية عن تسليم العلم والتابوت وإعلام بني إسرائيل بيوشع، فهذه صيغة أخرى لا ندمجها مع صيغة الكتمان لنبتكر يومًا ومجلسًا وتسلسلًا تفصيليًا لم تذكره المصادر [م١١].

ويفسر سياق الكافي معنى الإرث بأنه علم وأمانة وهداية. ليست الوصية مجرد توزيع لمال، ولا يتوقف صدقها في منطق الرواية على أن يكون حاملها صاحب دولة ظاهرة في كل مرحلة.

ومن جهة الإسناد، نثبت نصوص المصادر وأسماء أبوابها دون إطلاق «صحيح» عليها جميعًا. فخبر كتاب الحجة يمر بمحمد بن سنان وعبد الحميد بن أبي الديلم، وخبر كمال الدين يمر بجعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه. لا يكفي اتفاق العنوان العام لتصحيح جميع الألفاظ والأعداد والتفاصيل.

هارون ويوشع — وظيفتان في زمنين

قال موسى لهارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. هذا استخلاف صريح أثناء الميقات، مع نبوة هارون التي يثبتها القرآن.

أما وفاة هارون قبل موسى فتذكرها الأخبار، ولا يسرد القرآن تاريخها. وعلى هذا التسلسل تفهم وصاية يوشع بعد وفاة موسى، دون إلغاء مقام هارون أو تحويل الأمر إلى تنافس بينهما [م٤-م٦].

ويبقى لبيت هارون حضور بعد وفاة هارون: يذكر الكافي انتقال الوصية من يوشع إلى «ولد هارون». ومن ثم لا تنتهي صلة هارون بحركة الهداية عند موته، ولا يجوز إسقاط ذريته من بحث المرحلة التالية [م٣].

هل كان يوشع نبيًا؟ وهل هو ذو الكفل؟

الوصاية والنبوة مقامان ينبغي ضبط نصوصهما. القرآن لا يسمي يوشع، فلا يثبت نبوته باسمه ولا ينفيها. وفي الخصال، باب الستة، خبر الأنبياء الذين لهم اسمان، رواية من طريق الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام تعد يوشع بين الأنبياء وتربطه بذي الكفل [م٧].

وفي النص المطبوع من كمال الدين، عقب الحديث الثاني من باب اتصال الوصية، عبارة صريحة في إرسال يوشع إلى بني إسرائيل وبدء نبوته في البرية. لكن هامش النسخة التي قوبلت ينبّه إلى أن خاتمة الرواية توافق نهاية خبر روضة الكافي قبل هذا التفصيل، ويرجح أن الكلام اللاحق من المؤلف أخذه من الأخبار. لذلك الأدق أن نقول: ورد هذا البيان في كمال الدين، دون الجزم بأن كل فقراته استمرار لكلام الإمام في الإسناد نفسه [م٩].

أما ذو الكفل، فقد ورد اسمه في الأنبياء ٨٥ وص ٤٨، مع الثناء عليه، دون نسب إلى نون أو تعيين بأنه فتى موسى. وتوجد أقوال أخرى في هويته. فخبر الخصال محفوظ بوصفه خبرًا مسندًا في الكتاب، لكننا لا نحكم بصحته لمجرد وروده، ولا ندمج سيرة ذي الكفل بكاملها في سيرة يوشع اعتمادًا عليه وحده.

كما أن عبارة «صاحب موسى» في خبر آخر لا يكفي إطلاقها للحكم على يوشع ما دام احتمال إرادة العبد الصالح قائمًا. نثبت إذن وضوح وصف الوصي في المرويات، ونذكر نصوص النبوة مع مصادرها، ونتوقف عن الجزم بوحدة يوشع وذي الكفل.

دخول الأرض المقدسة — الفتح وأمر «حطة»

تنسب أخبار التيه والوصاية إلى يوشع قيادة بني إسرائيل بعد موسى. غير أن القرآن لا يروي باسمه حصار أريحا أو فتح بيت المقدس، ولا يذكر سقوط الأسوار بالنفخ في الأبواق. لذلك لا نستورد تفاصيل سفر يشوع لنكمل بها خبرًا إماميًا من غير تنبيه إلى اختلاف المصدر [م٤، م١٠، م١١].

وفي البقرة ٥٨-٥٩ والأعراف ١٦١-١٦٢ أمر بدخول القرية خاضعين وطلب المغفرة، ثم بيان تبديل الظالمين القول ونزول الرجز. الآيات لا تسمي قائد هذا الدخول ولا القرية. أما الراوندي في الخبر ٢٠٢ فيربط المشهد بخروج موسى من أرض التيه ودخول العمران. وهذه صياغة تختلف عن الخبر ١٩٨ الذي يذكر موت موسى في التيه ودخول يوشع بعده؛ فلا تُجمع الصيغتان في تسلسل زمني جازم [م١، م٤، م١٠].

ويبقى المعنى القرآني واضحًا دون حسم كل خلاف تاريخي: دخول الأرض ليس إعفاءً من الطاعة، والنصر لا يحوّل تبديل الأمر الإلهي إلى حق. أما أسماء المدن وترتيب فتحها وأعداد الجيوش فتحتاج إلى دليل خاص بكل خبر.

بالق والمرأة صاحبة العلم — شخصيتان في خبر الفتح

في قصص الأنبياء للراوندي، الخبر ٢٠٠، رواية مرفوعة من طريق عمار بن معاوية الدهني عن فتح مدائن الشام، ثم لقاء رجل يسمى «بالق» في البلقاء. وتذكر امرأة غير مسماة «عندها علم» يرتبط بها خروج المقاتلين سالمين، ثم طلب الصلح. لا يسمّي النص إمامًا في نهاية هذا الطريق؛ فلا نعرضه باعتباره قولًا ثابتًا عن أهل البيت [م١٠].

ويفصّل إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي القصة: يصف المرأة بادعاء معرفة النجوم وتقدير من يخرج للقتال، ويربط اختلال حسابها بحبس الشمس، ثم يذكر تسليمها إلى يوشع وحوارها معه ودخولها في دينه وتركه قتلها. هذه زيادة في ذلك الكتاب، لا تفصيل موجود كله في خبر الراوندي، ولا برهان على امتلاكها علم الغيب المطلق [م١١].

نثبت حضور المرأة بالوصف الذي وصلنا، مثلما نثبت حضور بالق؛ ولا نمنحها اسمًا من قصص أخرى، ولا نجعلها زوجة يوشع. فالامتناع عن اختراع اسمها لا يبرر إسقاط دورها من الرواية.

بلعم بن باعوراء — اختلاف زمن القصة ومسؤولية الاختيار

تضرب الأعراف ١٧٥-١٧٦ مثلًا بمن آتاه الله آياته فانسلخ منها واتبع هواه. القرآن لا يسميه بلعم، ولا يذكر يوشع في هذا المقطع. وفي تفسير القمي، عند الآية ١٧٥، خبر عن الإمام الرضا عليه السلام يسمي بلعم بن باعوراء، ويجعله في سياق فرعون وموسى؛ فلا يصح نقل هذا التوقيت إلى زمن وصاية يوشع بلا بيان [م١، م١٣].

أما خبر الراوندي ٢٠٠ فيضع بلعم أمام طلب صاحب مدينة أخرى أن يدعو على جيش يوشع. وترد فيه الدابة التي تعترض الطريق، وجبرئيل الذي يمنعه، ثم اقتراح إغراء رجال الجيش بالنساء، ووقوع الفاحشة والطاعون. يذكر الخبر سبعين ألفًا في ثلاث ساعات، لكن هذا عدد في متن الرواية المرفوعة، لا إحصاء قرآني أو حقيقة تاريخية مستقلة [م١٠].

وهنا شخصيات لا تُسقط: ملك المدينة غير المسمى، والنساء اللاتي جرى إرسالهن، والرجال الذين وقعوا في الفعل. لا يورد المصدر أسماء النساء ولا تفاصيل إرادتهن أو ظروفهن؛ فلا يُحمَّلن وحدهن مسؤولية الرواية، ولا يتحول الخبر إلى حكم على النساء عامة. وفي إثبات الوصية زيادة عن ابنين لهارون ورجل وامرأة عوقبا، بلا تسمية لهؤلاء الأربعة في هذا الموضع [م١١].

ويورد إثبات الوصية نفسه إشارة إلى أخبار أخرى في بلعم لا توافق صورة انحرافه، مع نسبته إلى ولد لوط. نذكر وجود الاختلاف، ولا نجزم بهذا النسب أو نبني عليه سيرة لوط. كما لا نصف بلعم بأنه نبي معصوم ثم ارتد؛ لا القرآن يثبت له النبوة هنا، ولا امتلاك اسم أو علم يساوي النبوة.

هذه مادة متعددة الصيغ والأزمنة. يصلح المثل القرآني للتحذير من اتباع الهوى بعد العلم؛ أما تعيين الشخصية وتاريخ الحادثة وتفاصيل العقوبة فتظل مسائل روائية منفصلة.

حبس الشمس وردّها — ضبط اللفظ والمصدر

ينبغي التفريق بين تأخير الغروب أو حبس الشمس، وبين رجوعها بعد أن غربت؛ ليسا عبارة واحدة وإن جمعتهما بعض كتب القصص. القرآن لا يذكر معجزة للشمس باسم يوشع.

في المصادر السنية، يروي صحيح البخاري، الحديث ٣١٢٤، خبر نبي غزا وحُبست له الشمس، لكنه لا يسميه في المتن. ويأتي التصريح بيوشع في خبر أبي هريرة الذي نقله ابن كثير عن مسند أحمد: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس». نميّز إذن بين متن لا يسمي النبي ومتن يسميه، وبين هذا الطريق السني والأخبار الإمامية [م١٤، م١٥].

ويتضمن خبر البخاري رجالًا أُمروا بالتخلف لانشغالهم بزواج أو بناء أو ماشية، ثم رجالًا انكشف عندهم الغلول من الغنيمة. لا يسميهم النص، فلا نلحق بهم أسماء من سفر يشوع، ولا ننسب الغلول إلى يوشع نفسه.

وفي إثبات الوصية خبر حبس الشمس المتصل بامرأة بالق؛ وهو سياق مختلف عن سياق الغنيمة في البخاري. نذكر كل صيغة بمصدرها دون تركيب حادثة واحدة من جميع التفاصيل [م١١].

المعجزة، على فرض ثبوت خبرها، فعل لله، وليست استقلالًا من النبي بالتصرف في الكون. ولا تحتاج مكانة يوشع في روايات الوصاية إلى تحويل كل لفظ مشهور عن الشمس إلى واقعة ثابتة أو تفسير فلكي مستحدث.

وفاة موسى ودفنه — ما الذي يقوله الخبر؟

في خبر أمالي الصدوق، المجلس ٤١، الحديث ٢، يأتي ملك الموت إلى موسى، ثم يمهله؛ وبعد ذلك يدعو موسى يوشع ويوصيه. ويغيب موسى عن قومه، ويرى ملائكة يحفرون قبرًا، فيضطجع فيه، ويُكشف له عن مكانه في الجنة، ويسأل ربه أن يقبضه. ثم يذكر الخبر أن ملك الموت قبضه ودفنه، وأن الملائكة صلت عليه. فلا يصح الاستشهاد بهذا النص لإثبات أن يوشع هو الذي دفنه [م٦].

وتذكر خاتمة الخبر موضعًا عند الطريق الأعظم والكثيب الأحمر. ويرد في كمال الدين خبر للوفاة والوصية، وفي إثبات الوصية صيغة تجعل حافر القبر جبرئيل في صورة إنسان. نعرض الفرق، ولا نساوي بين تفاصيل الملائكة وملك الموت وجبرئيل في جميع المصادر [م٥، م١١].

القرآن لا يحدد موضع قبر موسى أو تاريخ وفاته. وثبوت الوصية في متن خبر لا يثبت تلقائيًا موضع قبر متداول اليوم، ولا يكفي وصف قديم مجمل لتعيين موقع حديث تعيينًا قطعيًا.

صفراء أو صفوراء — خبر الخروج على يوشع

بعد موسى، لا يصور كمال الدين طريق يوشع خاليًا من المحنة. ففي باب مضي موسى خبر عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر صبره في أيام ثلاثة طواغيت، ثم قوة أمره، وخروج رجلين من المنافقين بامرأة موسى «صفراء» عليه، وانتهاء القتال بغلبته وأسرها والعفو عنها في الدنيا. لا يسمي الخبر الطواغيت الثلاثة ولا الرجلين، فلا نستبدل بهم أسماء من عصر آخر [م٥].

تأتي في بعض النصوص «صفراء بنت شعيب»، وفي إثبات الوصية «صفورا»؛ وهي في سياق هذه الأخبار امرأة موسى. اختلاف الرسم لا يكفي لجعلها امرأتين. أما القرآن فيذكر في القصص ٢٣–٢٨ ابنتي الرجل الذي آوى موسى وزواج إحدى ابنتيه منه، من غير تسميتهما أو تسمية أبيهما في الآيات؛ فإطلاق اسم صفوراء ونسبتها إلى شعيب من طبقة الرواية والتفسير، وليس لفظًا قرآنيًا.

وينقل الراوندي الخبر في الرقم ٢٠٦ من طريق قريب من طريق كمال الدين؛ فلا يُعدّ تكراره شاهدًا مستقلًا بمجرد اختلاف اسم الكتاب. وفي الخبر ٢٠٥، من طريق ابن أورمة «بإسناده» إلى أبي جعفر، ذكر ركوب امرأة موسى زرافة، وغلبة يوشع، وامتناعه عن الإساءة إليها حفظًا لموسى. والطريق مختصر في هذا الموضع، كما أن زيادة «بنت شعيب» في موضع من خبر ٢٠٦ ليست في المخطوطات التي يذكرها المحقق [م١٠].

الأعداد الكبيرة وتفاصيل المركوب والحوار تبقى من ألفاظ الأخبار المختلفة. لا يجعل هذا الفصل الاتهام حدثًا قرآنيًا، ولا يحكم بصحة جميع طرقه. وفي داخل الرواية نفسها تقترن الغلبة بكفّ الانتقام وصون حرمة موسى، فلا تحجب الخصومة هذا العنصر الأخلاقي.

النساء اللواتي رافقنها — حضور لا يجوز إسقاطه

يزيد إثبات الوصية خبر نساء متلثمات ركبن الخيل في زي الرجال لمرافقة صفوراء وصونها عند إعادتها. ثم يذكر اعتراضها على إرسالها مع رجال وكشف المرافقات عن هويتهن. هذه مجموعة نسائية فاعلة في متن الخبر، وليست مجرد خلفية للمعركة، لكن أسماء أفرادها غير مذكورة ولا نجد لهذه الزيادة سندًا مفصلًا في الموضع نفسه [م١١].

وهكذا تتعدد صور النساء في المادة المتعلقة بالفصل: أم الغلام المؤمنة في قصة الخضر، وامرأة بالق، والنساء في خبر بلعم، وامرأة موسى، والمرافقات اللواتي تولين حمايتها. تختلف مصادر هذه الصور

ودرجات ثبوتها، ولا يجوز دمج نساء مجهولات الأسماء في شخصية واحدة، أو جعل النساء كلهن في جانب الخصومة.

وفاة يوشع ومن حمل العهد بعده

لا يذكر القرآن وفاة يوشع أو عمره أو قبره. ويورد ابن كثير، في سياق الأخبار التاريخية، أنه عاش مائة وسبعًا وعشرين سنة وأن قيامه بعد موسى كان سبعًا وعشرين سنة؛ ليست هذه الأرقام نصًا قرآنيًا أو حديثًا إماميًا صححناه. لذلك لا نبني عليها تاريخًا ميلاديًا قطعيًا، ولا نثبت له موضع قبر معين بمجرد اشتهاره [م١٥].

المسألة الأهم هنا: إلى من انتقل العهد؟ يروي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «وأوصى يوشع بن نون إلى ولد هارون، ولم يوص إلى ولده ولا إلى ولد موسى». ثم يقرر الخبر اختيار الله. هذا نص ينبغي إظهاره، لأنه يختلف عن جعل الخلافة تلقائيًا في أبناء يوشع، ولا يسمي الوارث من ولد هارون باسم شخصي [م٣].

وفي المقابل، يجعل إثبات الوصية فينحاس ابن يوشع ووصيه، ثم يسرد بعده بشير بن فينحاس، وجبرئيل بن بشير، وأبلث، وأحمر، ومحتان، وعوق، وصولًا إلى طالوت. جبرئيل هنا اسم رجل في قائمة النسب، فلا يخلط بالملك جبرئيل المذكور في أخبار الوفاة وبلعم [م١١].

لا يصح اعتماد النسبتين معًا وكأنهما نص واحد: الكافي ينفي الوصية إلى ولد يوشع، وهذا الكتاب يثبتها لابنه. ولا نحول فينحاس إلى ابن هارون أو حفيده لتسوية الخلاف من خارج النص المقروء. نسجل الأسماء كيلا تضيع من البحث، ونبقي نسبها وترتيبها ونسبة الكتاب نفسه موضع تحقيق، فلا تصبح القائمة عقيدة ملزمة أو سجلًا تاريخيًا محققًا.

بين يوشع وداود — ثلاث صيغ لا تُختزل في سهم

في كمال الدين، باب اتصال الوصية، الحديث الأول، يرد عن طريق مقاتل بن سليمان عن الإمام الصادق عليه السلام، في خبر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وآله: «وأوصى يوشع إلى داود». هذا لفظ المصدر. لكن وجوده لا يجيز تقرير اتصال زمني مباشر، ولا الجزم بأنه مجرد اختصار مقصود؛ فالخبر يحتاج إلى نقد سنده ومقارنة متنه بغيره، وقد نبهت حاشية الطبعة إلى اضطراب ترتيب بعض حلقاته [م٨].

وفي باب مضي موسى من الكتاب نفسه، عقب خبر يوشع وصفراء، ذكر أحد عشر إمامًا بعد يوشع، استتروا عبر أربعمائة سنة إلى زمن داود، وكان الناس يأخذون عنهم دينهم حتى آخرهم الذي بشّر بداود وأخبرهم أنه يطهّر الأرض من جالوت وجنوده. لا يسمي هذا المتن الأحد عشر، فلا نملأ أسماءهم بقائمة إثبات الوصية، ولا نعدّ عددهم ومدتهم ثابتين بالقرآن [م٥].

وينقل مجمع البيان عند البقرة ٢٤٣ قولًا يجعل يوشع ثم كالب ثم حزقيل في تعاقب القائمين بأمر بني إسرائيل. ويذكر ضمن الأقوال قصة أم حزقيل المسنة التي سألت الله الولد، كما ينقل تعييناً آخر للنبي المرتبط بإحياء القوم باسم شمعون. هذه أقوال تفسيرية متفاوتة النسبة، وليست جميعها رواية واحدة عن معصوم؛ وتفصيلها وأدوار أم حزقيل والقوم مؤجل إلى الفصل التالي [م١٢].

لا نساوي شمعون المذكور في هذا القول تلقائيًا بشمعون وصي عيسى؛ تشابه الاسم لا يثبت وحدة الشخص. وكذلك لا نجعل حزقيل ويوشع شخصًا واحدًا لأن بعض الأخبار ربطت كلًا منهما بذي الكفل.

والقدر القرآني المستقل هو وجود مرحلة «من بعد موسى»، وملأ يخاطبون نبيًا لهم، ثم طالوت وداود. القرآن لا يسمي ذلك النبي، ولا يحدد عدد الأجيال بين يوشع وداود. حفظ هذه الحدود أولى من رسم سلسلة تبدو مكتملة وهي قائمة على توفيق لم تثبته المصادر [م١: البقرة ٢٤٦–٢٥١].

يوشع في خطاب الوصاية — المقارنة ليست معاصرة

يروي الراوندي في الخبر ٢٠١، من طريق الإمام الرضا عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وصف علي عليه السلام بأنه «يوشعها وشمعونها وذو قرنيها» في خطاب عن هذه الأمة. هذا موضع مقارنة في الهداية والوصاية، لا خبر عن حضور علي أو شمعون أو ذي القرنين في جيش يوشع [م١٠].

ويُذكر النبي محمد وعلي في هذا الفصل لكون الروايات تحتج باتصال العهد وتقارن الوصي بالوصي. لا تُنقل أسماء خصوم أو وقائع من التاريخ الإسلامي إلى زمن موسى لمجرد تشابه البناء القصصي؛ فكل تعيين يحتاج إلى نص مستقل.

سجل الشخصيات — ضبط الحضور وعدم اختراع الأسماء

في صلب الفصل: يوشع بن نون، وموسى، وهارون، وكالب؛ ومع بداية الرحلة العبد الصالح المعروف في الروايات بالخضر. وذو الكفل اسم قرآني مستقل لا ندمجه بيوشع بلا بيان الخلاف. أما نون وأفرائيم ويوسف ويعقوب فيردون في الاسم والنسب المروي، لا بوصفهم جميعًا معاصرين للأحداث.

في الأخبار المتصلة بالفتح والمحنة: بالق، والمرأة غير المسماة المرتبطة به، وبلعم، والملك الآخر غير المسمى، والنساء والرجال في خبر الفتنة، وابنا هارون غير المسميين، وصفراء/صفوراء، والرجلان الخارجان بها، والطواغيت الثلاثة، والنساء المرافقات. حضور كل مجموعة مضبوط بالمصدر الذي ذكرها؛ لا تُعطى للمجهولين أسماء تخمينية.

في دائرة الامتداد: ولد هارون غير المعينين في الكافي، وفينحاس وبشير وجبرئيل البشري وأبلث وأحمر ومحتان وعوق في قائمة إثبات الوصية، وكالب وحزقيل وأمه وشمعون في الأقوال التفسيرية، والأئمة الأحد عشر غير المسميين في كمال الدين؛ ثم النبي غير المسمى وطالوت وجالوت وداود في آيات

البقرة. وورود شعيب أبًا لامرأة موسى أو لوط في نسب بلعم منقول بحسب مصدره، لا تصريح من آيات القصة.

أما الشخصيات غير المسماة في رحلة الخضر، ومنها الأم المؤمنة، فقد أحيلت إلى الفصل السابق دون إسقاطها. وجبرئيل الملك وملك الموت وسائر الملائكة فئة متميزة من البشر، والشيطان حاضر في لفظ آية الحوت وفي مثل المنسلخ من الآيات؛ فلا تُخلط هذه الأسماء والصفات بالشخصيات الإنسانية.

بهذا السجل يُراجع ما تضمنته المادة المستعملة، مع بقاء النساء مجهولات الاسم حاضرات بوظيفتهن. وليس السجل ادعاءً أن كل اسم في مصدر تاريخي ثبتت شخصيته وتفاصيله أو أنه لم يبق خبر في مخطوط غير مفحوص.

التمهيد للفصل السابع والعشرين

انتهى زمن موسى في الأخبار، لكن سؤال الهداية لم ينته بوفاته ولا بوفاة يوشع. سيبحث الفصل التالي الفترة إلى داود: الأخبار عن كالب وحزقيل ومن جاء بعدهما، والقوم الذين أحياهم الله، والنبي الذي طلب منه الملأ ملكًا، وطالوت، والتابوت، وامتحان النهر، وجالوت، ثم ظهور داود. ويُحفظ فيه التمييز بين أسماء النص القرآني وتعيينات المفسرين وقوائم الأوصياء المختلفة.

خاتمة الفصل السادس والعشرين — حمل العهد مسؤولية

تبدأ صورة يوشع، في الروايات التي تعرّفه بفتى موسى، بالتعلم والصحبة، ثم تظهر مع كالب في موقف الثقة بالله، وتصل إلى حمل الوصية في زمن المحنة. وهذه الخيوط تحفظ مكانته من غير أن ننسب اسمه إلى آية لم تسمه.

وقد اتسعت الصورة لتشمل من شاركوه الطريق أو عارضوه أو وردوا في أخبار ما بعده، رجالًا ونساءً، مسمين وغير مسمين. فلا ينفرد القائد بالذاكرة، ولا يسقط الشريك أو المرأة لأن الرواية لم تحفظ لهما ترجمة كاملة.

والأمانة في حكاية الهداية تجمع حفظ النص إلى ضبط نسبته: يقين القرآن في موضعه، والرواية مع مصدرها، والخلاف معلن، والمجهول لا يُملأ بالخيال. وعلى هذا الأساس ننتقل من يوشع إلى الأجيال التي سبقت داود.

المصادر والمراجع — دليل التحقق

تحيل العلامة [م] إلى المرجع بالرقم نفسه. اعتمدت إحالات السورة والآية والباب والحديث أولًا، لأن الصفحات والفواصل الإلكترونية تختلف. نُقلت العبارات العربية من أصولها. النسبة إلى الكتاب تثبت موضع النقل، ولا تقوم وحدها مقام الحكم بصحة الإسناد.

[م١] القرآن الكريم: البقرة ٥٨-٥٩، ٢٤٣، ٢٤٦-٢٥١؛ النساء ١٦٤؛ المائدة ١٢، ٢٠-٢٦، ٤٤؛ الأعراف ١٤٢، ١٦١-١٦٢، ١٧٥-١٧٦؛ الكهف ٦٠-٨٢؛ الأنبياء ٨٥-٨٦؛ القصص ٢٣-٢٨؛ السجدة ٢٣-٢٤؛ ص ٤٨؛ غافر ٧٨. أرقام السور والآيات هي مرجع التحقق، والرابط يفتح بداية مقطع فتى موسى.

[م٢] الكليني، الكافي، ج٨، الروضة، الحديث ٩٢، ص١١٧ وما بعدها في الطبعة ذات الأجزاء الثمانية؛ خبر أبي حمزة الثمالي عن الإمام الباقر، وفيه تعيين يوشع وصيًا لموسى وفتاه. راجع النص العربي، لا ترجمة آلية لأسماء الشخصيات.

[م٣] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام، الحديث ٣، ص٢٩٣ وما بعدها؛ خبر عبد الحميد بن أبي الديلم عن الإمام الصادق، وفيه الوصية إلى ولد هارون لا إلى ولد يوشع أو موسى.

[م٤] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الخبر ١٩٨، ص١٧١-١٧٢؛ عن أبي حمزة عن الإمام الباقر: الرجلان، وكالب، والتيه، والدخول مع الأبناء. الرابط يعرض صفحات الباب.

[م٥] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب ٧: «باب مضي موسى عليه السلام ووقوع الغيبة بالأوصياء والحجج من بعده إلى أيام المسيح»، الحديث الأول وتتمته، ص١٥٣-١٥٥؛ طريق جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه عن الإمام الصادق. تتضمن التتمة خبر صفراء والأئمة الأحد عشر، وتفصل بعض الفهارس الإلكترونية التتمة برقم آخر.

[م٦] الصدوق، الأمالي، المجلس الحادي والأربعون، الحديث ٢؛ خبر هشام بن سالم عن الإمام الصادق في وفاة موسى ووصيته. نقله الراوندي في قصص الأنبياء، الخبر ٢٠٤، ص١٧٥ [وانظر م١٠].

[م٧] الصدوق، الخصال، أبواب الستة، «الأنبياء الستة الذين لهم اسمان»، الحديث ٧ في ترقيم الباب؛ عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين، وفيه يوشع وذو الكفل. عنوان الفقرة أدق من اختلاف ترقيم العرض الإلكتروني.

[م٨] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، الباب ٢٢ في اتصال الوصية من لدن آدم، الحديث ١، ص٢١١-٢١٣؛ طريق الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان، وفيه «وأوصى يوشع إلى داود». تُقرأ ملاحظة المحقق على اضطراب الترتيب بوصفها تعليقًا نقديًا منفصلًا عن المتن.

[م٩] المصدر نفسه، الباب ٢٢، الحديث ٢ وما يتصل بخاتمته، ص٢١٣-٢٢٠، ولا سيما ص٢١٩-٢٢٠ وحاشية نهاية النص الموازي لروضة الكافي؛ يُفصل البيان المتعلق بنبوة يوشع عن الجزم بأنه استمرار لكلام الإمام في الإسناد نفسه.

[م١٠] الراوندي، قصص الأنبياء، الأخبار ٢٠٠–٢٠٦، ص١٧٣–١٧٦: بلعم وبالق والمرأة، والمقارنة بعلي، وأمر «حطة»، ووفاة هارون وموسى، وخروج امرأة موسى. تُراجع حواشي اختلاف النسخ، ولا سيما زيادة «بنت شعيب».

[م١١] إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، المنسوب إلى المسعودي، طبعة أنصاريان الثالثة، ص٦٣–٦٧؛ وصاية يوشع والفتح وبلعم وصفورا والمرافقات وفينحاس ومن بعده. تُذكر نسبة الكتاب كما هي، ولا يُعامل هذا السرد غير المفصل الأسانيد معاملة خبر محقق السند.

[م١٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير البقرة ٢٤٣، فقرة المعنى؛ الأقوال في يوشع وكالب وحزقيل وأم حزقيل وشمعون. تُحفظ صيغ «قيل» ونسب الأقوال، ولا تُحوّل الفقرة كلها إلى حديث عن أهل البيت.

[م١٣] التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، تفسير الأعراف ١٧٥؛ خبر الحسين بن خالد عن الإمام الرضا في بلعم وفرعون وموسى. موضع الآية هو المرجع عند اختلاف ترقيم الصفحات.

[م١٤] صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، الحديث ٣١٢٤ في الترقيم الشائع؛ خبر النبي غير المسمى وحبس الشمس والغلول. مصدر سني للمقارنة، ولا يُعرض بوصفه طريقًا إماميًا أو نصًا يسمي يوشع.

[م١٥] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، «ذكر نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل بعد موسى وهارون»؛ نقل خبر أبي هريرة عن مسند أحمد في تسمية يوشع في حبس الشمس، وأقوال العمر ومدة القيام. أخبار التاريخ وتقييمات المؤلف لا تتحول بمجرد النقل إلى تصحيح إمامي.

الفصل ٢٧ — من يوشع إلى داود — أنبياء بني إسرائيل وحملة العهد

١. من يوشع إلى ظهور داود

لم تنتهِ حكاية الهداية بوفاة موسى ويوشع عليهما السلام. بقي في بني إسرائيل كتابٌ وعهدٌ وآثار نبوّة، وبقي السؤال عن الإنسان الذي يحمل هذا الميراث ويحفظه حين تضعف الجماعة أو تستولي عليها الأهواء. ينتهي هذا الفصل عند ظهور داود عليه السلام وقتله جالوت، تمهيدًا للفصل الثامن والعشرين المخصّص لسيرته.

٢. الخريطة القرآنية: أشخاص بأسمائهم وآخرون بأفعالهم

تبدأ خريطة هذا الفصل بجماعة خرجت من ديارها خوف الموت فأماتها الله ثم أحياها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. لا تسمّي الآية نبيًّا ولا قرية ولا عددًا محددًا، ولا تعيّن موقع الحادثة من زمن يوشع وداود. صلتها بحزقيل تأتي من الروايات والتفسير، وسيأتي ضبطها.

وفي البقرة ٢٤٦ يظهر الملأ من بني إسرائيل، ونبيٌّ لهم لم يُسمَّ، وأبناء أُبعد عنهم آباؤهم أو حُرموا الاجتماع بهم. وفي ٢٤٧ يُسمّى طالوت ملكًا اختاره الله وزاده علمًا وقوة. وفي ٢٤٨ تُذكر الملائكة وآل موسى وآل هارون في آية التابوت. وفي ٢٤٩–٢٥٠ يظهر الجنود، والمخالفون عند النهر، والمؤمنون الذين تجاوزوه، والثابتون بالدعاء. وفي ٢٥١ يُسمّى داود وجالوت، وتُذكر هزيمة جيش جالوت وإيتاء داود الملك والحكمة.

هذه الأسماء لا تستوعب وحدها جميع المشاركين. فالقرآن يحفظ أحيانًا وظيفة الإنسان وموقفه دون اسمه، وتبقى الجماعات والذرية والأسر جزءًا من القصة. لكنه لا يسمّي في هذا المقطع زوجة طالوت أو ابنته أو أم النبي، ولا يقدّم سلسلة كاملة لأوصياء يوشع. كما يصرّح في مواضع أخرى بأن من الرسل مَن لم تُقصص أخبارهم على النبي صلى الله عليه وآله [النساء: ١٦٤؛ غافر: ٧٨].

وتصل الآيات هذه الوقائع بالإنفاق والجهاد والصبر ودفع الفساد، لا بمجرد تعاقب الملوك؛ قال تعالى قبل قصة طالوت: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، ثم دعا إلى القرض الحسن [البقرة: ٢٤٥]، وختم القصة بفضله على العالمين [البقرة: ٢٥١]. [١]

٣. بعد يوشع: استمرار العهد وحدود الأسماء

يروي الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام، في حديث عبد الحميد بن أبي الديلم: «أوصى موسى إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى ولد هارون، ولم يوص إلى ولده ولا إلى ولد موسى». وينبّه

سياق الخبر إلى أن الاختيار لله، ثم يتحدث عن استمرار الوصية في عالم بعد عالم. الخبر لا يسمّي هذا الوارث من ولد هارون، فلا يجوز إكمال اسمه بالتخمين. وقد وصف المجلسي طريقه في مرآة العقول بأنه «ضعيف على المشهور»؛ لذلك نذكر نصه ونسبته، ولا نجعله وحده سلسلة تاريخية مقطوعًا بها. [٢]

وفي كمال الدين يروي الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا طويلًا في غيبة الحجج بعد موسى. وبعد ذكر يوشع يقول إن الأئمة بعده استتروا إلى زمن داود أربعمائة سنة، وكانوا أحد عشر، وكان أتباع كل واحد يرجعون إليه في معالم دينهم. ثم يذكر أن آخرهم غاب وظهر وبشّر بداود الذي يكون على يديه الخلاص من جالوت. لا يسرد هذا الموضع أسماء الأحد عشر، ولا يبيّن أعمارهم أو مدد كل واحد منهم. والعدد والمدة من مضمون الرواية، لا من نص القرآن ولا من تأريخ متفق عليه. [٣]

يحفظ الخبر معنى مهمًّا: خفاء حامل العهد عن جمهور الناس لا يعني انقطاع التعليم عمن يعرفه ويقصده. ويأتي ظهور داود، في هذا السياق الروائي، بعد انتظار وبشارة، لا بوصفه أول حامل للهداية منذ يوشع. لكن هذا المعنى لا يجيز اختراع أسماء الأوصياء الخفيين أو جعل جميع الأنبياء المختلف في تاريخهم أعضاءً في القائمة.

وفي باب آخر من كمال الدين يرد ضمن خبر سلسلة مختصرة لفظ يربط وصية يوشع بداود مباشرة. لا يصح تحويل هذا الاختصار إلى إثبات أنهما التقيا أو أن داود خلف يوشع بلا وسائط؛ فطريق الخبر ومتنه يحتاجان إلى النظر، وفي الكتاب نفسه ذكر الوسائط الأحد عشر. نثبت اختلاف النصوص، ولا نسمّي تأويلًا محتملًا حقيقةً تاريخية. [٥]

٤. الأسماء السبعة في إثبات الوصية

يقدّم إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي سلسلة أكثر تفصيلًا، وينبغي حفظ أسمائها في الفصل مع بيان مصدرها وحدودها. وبحسب ضبط النسخة التي قوبلت، يتتابع فيها بعد يوشع: فينحاس بن يوشع، وبشير بن فينحاس، وجبرئيل بن بشير، وأبلث بن جبرئيل، وأحمر بن أبلث، ومحتان بن أحمر، وعوق بن محتان. ثم يذكر انتقال الميراث من عوق إلى طالوت. [٤]

فينحاس: يصرّح هذا النص بأنه ابن يوشع، وأن يوشع سلّمه علوم النبيين ومواريثهم؛ ويتبعه المؤمنون مع قلة عددهم. بشير: يتسلّم الوصية من أبيه فينحاس ويقوم مقامه. جبرئيل: يتسلّمها من بشير ويقوم بين أتباعه بما قام به آباؤه؛ وهو في هذه السلسلة رجل من البشر، فلا يختلط بجبريل الملك.

أبلث: يتسلّم ما عند جبرئيل ثم يسلّمه إلى أحمر. أحمر: يورّث ابنه محتان الوصية ومواريث الأنبياء، ويذكر النص معها الاسم الأعظم والنور. محتان: يوصي إلى عوق. عوق: يقوم بالأمر ويتبعه المؤمنون ثم يسلّم ما عنده إلى طالوت. لا يقدّم هذا الموضع سيرًا مفصلة لهؤلاء، ولا أسماء أمهاتهم أو زوجاتهم أو بناتهم.

وهنا تعارض لا يصح إخفاؤه: هذا الكتاب يجعل فينحاس ابن يوشع، بينما ينفي خبر الكافي انتقال وصية يوشع إلى ولده ويذكر ولد هارون. كما أن الأسماء السبعة لا تطابق تلقائيًّا عدد الأحد عشر في

كمال الدين. والموضع في إثبات الوصية يسوق هذه الأخبار بلا أسانيد مفصلة؛ فلا نعالج التعارض بتغيير النسب أو بإضافة أربعة أسماء من عندنا.

ويذكر النص عند عوق ملكًا اسمه بهراسب، وينسب إلى عهده عودة اليهود إلى الأرض المقدسة وأمنهم، ويذكر مدة مائة وعشرين سنة لملكه. يُحفظ بهراسب في سجل الأسماء الواردة، لكن هذا الربط لا يكفي لضبط تقويم الفترة أو لتسوية ما فيه من إشكال زمني. ولا تنشأ من هذه الفقرة شهادة مستقلة بصحة ترتيب السلسلة كلها.

٥. كالب وحزقيل وأمّه: ما الذي يثبت في ترتيبهم؟

ينقل مجمع البيان عند البقرة ٢٤٣، بصيغة الحكاية، أن يوشع خلَفه كالب بن يوقنا، ثم خلَف كالبَ حزقيل. يفسّر هذا سبب ذكر كالب وحزقيل في مراجعة الفترة، لكنه ليس ترتيبًا قرآنيًّا ولا حديثًا مسندًا إلى الإمام في هذا الموضع. ويجب ألا يندمج تلقائيًّا مع سلسلة إثبات الوصية المختلفة. [٦]

ويحكي الموضع نفسه أن حزقيل كان يُدعى ابن العجوز؛ لأن أمّه كانت عاقرًا ثم دعت الله في كبرها فرزقها إياه. أم حزقيل حاضرة في هذه الحكاية بعبادتها ورجائها، لكن اسمها غير مذكور، والحكاية هنا من مادة التفسير المنقولة، فلا ننسبها جزمًا إلى أحد الأئمة ولا نستخرج منها تاريخ ميلاد ابنها.

وينقل مجمع البيان أقوالًا أخرى: منها نسبة إحياء الموتى إلى شمعون، ومنها قول الحسن إن حزقيل هو ذو الكفل، مع حكاية كفالته أنبياء وإنقاذهم. هذه أقوال مختلفة في الهوية، وليست أسماءً مترادفة ثبت اتحاد أصحابها عن أهل البيت. ولذلك يبقى ذو الكفل موضوعًا مستقلًا، ولا يُجعل كل ما ورد فيه سيرةً لحزقيل.

وترد لحزقيل في مصادر الرواية سياقات زمنية أخرى، منها ما يتصل بسليمان أو بسبي بخت نصر. لذا نعالج هنا صلته بتفسير الآية وما قيل في مرحلة ما بعد يوشع، ونُبقي استكمال شخصيته ومشكلاتها الزمنية للفصل الثامن والثلاثين، من غير حذف اسمه من هذا الموضع أو الجزم بأن جميع أخباره وقعت قبل داود. [٩، ١٠، ١١]

٦. الذين خرجوا حذر الموت: الجماعة والنساء والعودة إلى الحياة

يحكي خبر روضة الكافي في تفسير البقرة ٢٤٣ أن جماعة من بني إسرائيل كانت في مدينة من مدائن الشام، وأن الطاعون كان يقع فيها. وكان الأغنياء يخرجون لقدرتهم على الارتحال، ويبقى الضعفاء لقلة الحيلة. ثم اتفق أهلها على الخروج جميعًا، فماتوا وصاروا عظامًا. ويذكر الخبر سبعين ألف بيت، وهو تفصيل روائي لا تعيّنه الآية. [٧]

ويمر بهم في الخبر نبي اسمه حزقيل، فيبكي لما يرى، ويسأل ربّه إحياءهم ليعمروا البلاد ويعبدوه. فيعلّمه الله ما يدعو به، فتعود الأجساد إلى الحياة ويقوم الناس يسبّحون الله. وفي صيغة عند الراوندي يُذكر رش الماء عليهم. لا نستخرج من اختلاف الألفاظ طريقةً بشرية لإحياء الموتى؛ المعجزة في هذه

الأخبار فعل الله واستجابة لدعاء نبيّه. وطريق خبر الكافي مصنّف بالضعف عند المجلسي، فيُروى بهذه المرتبة. [٧، ٩]

وفي تفسير العياشي عن حمران عن الإمام الباقر عليه السلام أن إحياءهم لم يكن عودة قصيرة لينظر بعضهم إلى بعض ثم يموتوا؛ بل رجعوا إلى الدنيا، وسكنوا الدور، وأكلوا الطعام، ونكحوا النساء، وبقوا حتى انتهت آجالهم. وتدخل النساء هنا في صورة المجتمع العائد إلى الحياة الأسرية، من غير أن يسمّي الخبر زوجة واحدة أو يتيح عدّ جميع أفراد الجماعة رجالًا أو نساءً. [٨: ح٤٣٣]

وتجمع أبواب بحار الأنوار صيغًا أخرى تختلف في العدد والسياق، ومنها خبر مرتبط بالنيروز ورش الماء. أما مناظرة الإمام الرضا عليه السلام في التوحيد فتذكر إحياء حزقيل خمسة وثلاثين ألف رجل من سبي بخت نصر بعد ستين سنة من موتهم، ثم تعرض على حدة قصة الفارّين من الطاعون مع نبي غير مسمّى في تلك الجملة. هذا التفريق داخل النص نفسه يمنع دمج القصتين آليًّا أو جمع أعدادهما في حادثة واحدة. [١٠، ١١]

المحور القرآني الثابت هو سلطان الله على الموت والحياة وفضله الذي يقابله كثير من الناس بترك الشكر. وأما اسم حزقيل وأحوال القرية والأعداد وتفاصيل العودة فمن طبقة الرواية والتفسير. وبذلك تُحفظ القصة ومعناها، وتبقى حدود دليل كل جزء ظاهرة.

٧. أخبار متصلة بحزقيل لا تُحوَّل إلى تاريخ محسوم

يروي الراوندي عن أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام خبر ملك من القبط خرج لهدم بيت المقدس، فلجأ الناس إلى حزقيل، ودعا النبي ربّه، فأُمر مَلَك الهواء بحبس أنفاس الجيش فهلك. الملك هنا غير مسمّى، ولا يجيز النص مساواته بجالوت لمجرد اشتراك بعض الأخبار في وصف القبط. وتشتمل رواية أوسع نقلها المجلسي من المحاسن على ذكر سليمان؛ ولذلك لا يوضع الخبر كله بثقة قبل داود. [٩: ح٢٨٢؛ ١١]

وفي قصص الأنبياء أيضًا سؤال لعبد الأعلى مولى بني سام بحضور الإمام الصادق عليه السلام عن خبر يرويه الناس: أن ملكًا أُخبر بقرب موته، فدعا أن يُمهل حتى يكبر طفله، فزِيد في عمره خمس عشرة سنة. النسخة المعروضة لا تحفظ جواب الإمام عن السؤال، وقد نبّه المحقق إلى هذا البتر. نُسجّل حضور الملك وطفله غير المسمّيين في الخبر المعروض، لكن لا نسوق الحكاية على أنها جواب ثابت أقرّه الإمام. [٩: ح٢٨٣]

ويرد اسم إسماعيل بن حزقيل في خبر آخر عند الراوندي: يَعِد رجلًا بالبقاء في مكانه وينتظره حين ينسى الرجل موعده، فيُضرب به المثل في صدق الوعد. وترد رواية تميّز إسماعيل صادق الوعد عن إسماعيل بن إبراهيم، وتذكر ابتلاءه بقومه. لا يكفي اسم أبيه لإثبات أنه ابن حزقيل المذكور في تفسير البقرة ٢:٢٤٣ أو أنه عاش قبل داود؛ لذلك نحفظ اسمه والإحالة إليه دون بناء نسب أو ترتيب زمني غير منصوص عليه. [٢٠: ح٢٣٥-٢٣٧]

وتبقى أخبار أنبياء آخرين أو رجال ونساء من بني إسرائيل بلا تاريخ محدد خارج التسلسل الجازم لهذا الفصل. ورود قصة في باب مجاور، أو تشابه اسمين، لا يثبت المعاصرة. ولهذا لا نضم إلياس واليسع وإرميا وذا الكفل إلى مرحلة واحدة لمجرد اجتماع أسمائهم في بعض التفاسير؛ لكل منهم موضعه ومناقشة أدلته في فصول الكتاب.

٨. مَن النبي الذي أعلن ملك طالوت؟

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. يثبت القرآن نبوته ولا يسمّيه. ومهمته في المَشهد أن يبلّغ اختيار الله ويختبر صدق الجماعة التي طلبت القتال.

ينقل الشيخ الطوسي في التبيان تسمية «شمويل»، وينقل الطبرسي في مجمع البيان «أشمويل» مع اختلاف ضبط الاسم، وينسبان هذا التعيين إلى المروي عن الإمام الباقر عليه السلام. لذلك لا يصح القول إن اسم شمويل لا صلة له بالمادة الإمامية. لكن هذين الموضعين التفسيريين لا يعرضان سندًا كاملًا لهذا التعيين، فلا نرفعه إلى درجة الاسم القرآني الصريح. [١٢، ١٣]

ويذكر المفسران أقوالًا أخرى، منها شمعون بن صفية المنقول عن السدي، ويوشع المنقول عن قتادة. وفي تفسير القمي تأتي جملة «وروي أنه إرميا النبي» داخل السياق، بصيغة نقل مستقل غير مسند في الجملة نفسها؛ فلا تُساوى هذه العبارة بلا فحص بأصل الخبر المسند عن أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام. [١٤]

والاسم الذي يُستعمل في هذا الفصل، عند الحاجة، هو شمويل/أشمويل، مع بقاء وصف القرآن «نبي لهم» أصلًا ثابتًا. وما ينقله مجمع البيان من أن أشمويل بالعربية إسماعيل لا يعني أنه إسماعيل بن إبراهيم أو إسماعيل بن حزقيل. ولا نجزم بأن شمويل وإرميا شخص واحد، ولا نُبدّل أسماء فصول إرميا اعتمادًا على هذا القول المختلف فيه.

٩. أمّ النبي والأسر المقهورة: حضور النساء في الرواية

يحفظ القرآن سببًا صرّح به القوم لطلب القتال: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]. ويزيد خبر القمي عن الإمام الباقر عليه السلام أن جالوت أذلّهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأموالهم واستعبد نساءهم. فالنساء هنا لسن خلفية صامتة لقصة حرب؛ إنهن من المتضررات المباشرات من الاستبداد، وإن لم يحفظ الخبر أسماءهن. [١٤]

أما قصة ولادة شمويل وتربيته، فينقلها المجلسي بعد قوله الصريح: «قال صاحب الكامل». وفيها أمٌّ كانت عاقرًا ودعت الله، وضَرّة لها ولدت لزوجها عشرة أولاد، ثم ولادة شمويل وتسليمه إلى بيت المقدس ليتعلم التوراة، وكفالة شيخ من علمائهم له. تَرِد الأم والضرة والزوج والأولاد العشرة والشيخ

في هذا النقل التاريخي، فلا يجوز عرض تفاصيلهم بوصفها حديثًا عن الإمام لمجرد ورودها في البحار. [١٨: النقل التاريخي بعد ح١٧]

ولا يثبت هذا الموضع اسم الأم أو الضرة أو الشيخ. لذلك لا نُلحق به أسماء مشهورة في تقاليد أخرى على أنها من روايات أهل البيت. وكذلك لا نخلط هذه الأم بأم حزقيل؛ فتشابه حكاية العقم والدعاء لا يكفي لتوحيد الشخصيتين.

ويذكر النقل التاريخي نفسه ملكًا اسمه إيلاف، ويربط اضطراب بني إسرائيل بفقدان التابوت، ويذكر مددًا تختلف عن خبر كمال الدين. تُحفظ هذه المادة في موضعها بوصفها رواية مؤرخ، لا سندًا مستقلًّا لتصحيح الأنساب والأرقام أو لترتيب إلياس واليسع قبل شمويل ترتيبًا قطعيًّا.

١٠. طالوت: الاختيار الإلهي والعلم والقدرة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

انتقل الاعتراض من طلب القيادة إلى رفض القائد حين لم يوافق مقاييس الوجاهة والمال. ويشرح خبر الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أن طالوت لم يكن من سبط النبوة ولا من سبط المملكة. وفي القمي والعياشي يُنسب إلى بنيامين بن يعقوب. أما التفصيل في بيت الملك فيختلف: يذكر القمي ولد يوسف، ويذكر خبر العياشي لاوي ويهودا في حديث بيتي النبوة والملك. لذلك يُذكر أصل الاختيار بوضوح، وتُحفظ فروق الأنساب دون تسويتها. [٨: ح٤٣٧؛ ١٤، ١٥]

وفي العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام تمييز بين عمل الملك وعمل النبي: الملك يسير بالجنود، والنبي يقيم له أمره ويخبره عن ربّه. وهذا يفسر وجود نبي يبلّغ وطالوت يقود الجيش، ولا يلزم منه أن كل ملك نبي. ويصف إثبات الوصية طالوت بعبارة «في أيام نبوته»، لكن هذه الزيادة لا يثبت بها وحدها مقام النبوة، مع حال مصدرها واختلافها عن البناء الذي تعرضه الأخبار الأخرى. المتيقن قرآنيًّا أنه ملك اصطفاه الله. [٤، ٨]

وتذكر الأخبار التاريخية أنه كان دبّاغًا أو سقّاء، ويجعله إثبات الوصية راعيًا. لا يثبت القرآن مهنته، فلا نختار واحدةً بلا حجة. أما ما يقدّمه النص القرآني معيارًا للاختيار فهو العلم والقدرة، مع فضل الله وحكمته؛ ففقر الإنسان لا يسلبه أهلية حمل المسؤولية. ويشرح الميزان هذا الوجه في صلة القيادة بمصالح المجتمع والقدرة على تدبيرها. [١٨، ٢٥]

١١. التابوت: أم موسى وآل هارون وحفظ الميراث

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. يربط التابوت القيادة الجديدة بميراث النبوة السابق، وتكون عودته علامة على صدق ما أعلنه النبي.

يربط خبر القمي التابوت بالتابوت الذي وضعت فيه أم موسى وليدها وألقته في اليم، ثم بما أودعه موسى عند وفاته من الألواح والدرع وآيات النبوة، وبما سلّمه إلى وصيه يوشع. أم موسى شخصية قرآنية ثابتة في طه ٣٨-٣٩ والقصص ٧، لكنها غير مسمّاة فيهما؛ وأما القول بأن التابوتين واحد فمن الرواية، لا من نص البقرة وحده. [١٤]

ويصف الخبر استخفاف بني إسرائيل بالتابوت حتى صار الصبيان يلعبون به في الطرقات، ثم رفعه عنهم ورده علامةً لملك طالوت. هؤلاء الصبيان جماعة غير مسمّاة، ولا يُجعل سلوكهم اتهامًا لكل أطفال بني إسرائيل. وتذكر أخبار أخرى أخذ العدو للتابوت ثم رجوعه؛ فلا تُضاف تفاصيل الأسر والمدد والمواضع إلى القرآن وكأنها ألفاظه. [١٤، ١٨]

وفي العياشي تُفسَّر البقية في خبر برضاض الألواح، أي ما تكسّر منها، وفيها العلم والحكمة؛ وفي خبر آخر بذريّة الأنبياء. ويرد في خبره عن الإمام الرضا عليه السلام ذكر الألواح والطست التي تُغسل فيها قلوب الأنبياء. هذه ألفاظ مختلفة في تفسير الميراث وليست قائمة متجانسة نركّبها من عندنا، ولا يتيح تفسير البقية بالذرية تعيين أشخاص بأسمائهم لم يسمّهم النص. [٨: ح٤٤٠-٤٤٢]

وتكشف أخبار بصائر الدرجات، وما جمعه المجلسي من الكافي، عن وجه المقارنة عند أهل البيت: مواريث النبوة والسلاح علامة على انتقال العلم والإمامة، كما كان التابوت علامة في بني إسرائيل. وفي بصائر الدرجات خبر يذكر استيداع أم سلمة بعض هذا الميراث في زمن الحسن والحسين عليهما السلام. تُذكر أم سلمة هنا بوصفها امرأة في مثال لاحق لحفظ الأمانة، لا بوصفها من نساء عصر طالوت. ولا تعني المقارنة أن حيازة أثر مادي بمعزل عن النص والعلم تثبت وحدها كل دعوى قيادة. [١٧؛ ١٨: ح١٨-٢٠]

١٢. السكينة والملائكة: قراءة الألفاظ دون خلط

يقول القرآن إن في التابوت سكينة من الرب وإن الملائكة تحمله، ولا يسمّي الملائكة في هذه الآية. ولا تتحد السكينة في جميع الروايات مع جبريل، ولا تُخلط بجبرئيل بن بشير الذي ورد في سلسلة إثبات الوصية.

يجمع معاني الأخبار ثلاثة نصوص في معنى السكينة: خبرًا عن الإمام الباقر عليه السلام يفسرها بالإيمان؛ وخبرًا عن أبي الحسن عليه السلام يصف تابوت موسى بأنه ثلاثة أذرع في ذراعين، وفيه العصا والسكينة، ويصف السكينة بلفظ «روح الله يتكلم» عند اختلاف القوم؛ وخبرًا عن الإمام

الرضا عليه السلام يصفها بريح طيبة من الجنة ذات صورة كصورة الإنسان، ويصلها بإبراهيم عند بناء الكعبة. فإبراهيم حاضر هنا في شرح الرواية للسكينة، لا في زمن طالوت. [١٦]

تُقرأ عبارة «روح الله» في إطار التوحيد وتنزيه الله، فلا تُحمل على حلول ذاته في التابوت؛ وهذا بيان لمعنى العبارة في القراءة التوحيدية، لا إضافة لفظ إلى الحديث. ويجب التفريق كذلك بين تفسير السكينة بالإيمان وبين وصف آية مخصوصة تصاحب الأنبياء، مع إبقاء البحث في أسانيد كل صيغة ودلالتها مستقلًّا.

وقد جمعت تفاسير البرهان ونور الثقلين والصافي وكنز الدقائق هذه الأخبار أو بعضها مع أقوال تفسيرية أخرى. رجوع أربعة كتب إلى خبر واحد لا يصنع أربعة أسانيد مستقلة، وكثرة تكرار القصة لا تسوّي تلقائيًّا اختلاف ألفاظها. والعبرة في المقابلة بموضع النقل ومصدره وطريقه. [٢١-٢٤]

١٣. النهر: امتحان الطاعة وتصحيح الأعداد

خرج طالوت بالجنود، فكان الابتلاء قبل لقاء العدو: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. الاستثناء جزء من التكليف نفسه؛ فالغرفة باليد مأذون بها، ولا يصح جعل كل من مس الماء مخالفًا.

قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾. وفي خبر الكافي عن أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام أن الذين بقي لهم هذا الوصف كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، «منهم من اغترف ومنهم من لم يشرب». وقد صحّح المجلسي هذا الخبر في مرآة العقول، وهو أوضح هنا من تعميم الحكم على أخبار الباب كلها. ويرد مضمونه في العياشي والصافي. [١٥؛ ٨: ح٤٤٣؛ ٢٣]

ويشرح الخبر أن الذين اغترفوا قالوا عند البروز: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وأن الذين لم يغترفوا ذكّروا بإمكان غلبة الفئة القليلة بإذن الله. هذا بيان لدرجة الثبات في تلك الرواية؛ ولا يقلب الرخصة القرآنية في الغرفة إلى معصية. كما أن العدد ٣١٣ من الرواية، بينما يكتفي القرآن بوصف القلة.

وثمة موضع آخر للقلة في الآية ٢٤٦، قبل امتحان النهر: حين فُرض القتال تولى أكثر من طالبوا به. يروي العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام أن القليل هناك ستون ألفًا. وفي صيغة القمي يُذكر ستون ألفًا في الذين شربوا. فلا يُنقل رقم من مرحلة إلى أخرى، ولا يُستخرج مجموع نهائي للجيش بجمع روايات مختلفة كأنها كشف إحصائي واحد. [٨: ح٤٣٨؛ ١٤، ٢٤]

لا تسمّي الآية النهر. وتسمّيه أقوال تاريخية نهر الأردن أو نهرًا بفلسطين، لكن تعيين المكان لا يبلغ درجة النص القرآني. وما يكتمل به المشهد هو انتقال الجماعة من الحماسة المعلنة إلى الطاعة العملية، ثم من الطاعة إلى الثبات عند رؤية القوة المعادية.

١٤. داود وأبوه وإخوته: ظهور غير المتوقَّع

حين خاف بعض القوم قوة جالوت، لم يكن داود في مركز الوجاهة التي تخيّلوها للنصر. يروي كمال الدين أنه كان أصغر إخوته، خامل الذكر بينهم، وأن أباه كان شيخًا كبيرًا وله أربعة إخوة. وكان يرعى غنم أبيه، ثم أُرسل بالطعام إلى إخوته ليتقوّوا به على العدو. وفي خبر العياشي أيضًا أب شيخ وأربعة إخوة، مع وصف صفاء قلب داود وقوته. الأب والإخوة هنا من شخصيات القصة ولو لم تُسرد أسماؤهم. [٣؛ ٨: ح٤٤٥]

وفي صيغة أخرى بالقمي يُذكر الأب باسم أشي، ويجعل الخبر له عشرة بنين أصغرهم داود، ويذكر أن الذي يستوي عليه درع موسى هو قاتل جالوت. تجرّب الدرع على الأبناء ثم يُستدعى داود من رعي الغنم. وقد نقل الصافي هذه الصيغة أيضًا. فالاسم والعدد وعلامة الدرع تفاصيل روائية، ويختلف هذا العدد عن خبر الإخوة الأربعة؛ فلا نجزم بأسرة ذات عدد موحّد من غير بيان الاختلاف. [١٤، ٢٣]

ويختلف كذلك نسب داود في بعض النصوص؛ فترد في صيغة القمي المذكورة نسبته إلى ولد لاوي، بينما نتداول نصوص الأنساب والتاريخ نسبًا آخر. لا يذكر القرآن في آيات المعركة اسم أبيه ولا سبطه، ولا تُحسم هذه المسألة بتكرار الصيغة في كتب ناقلة عنها. يُؤجَّل تفصيل النسب إلى الفصل المخصّص لداود، ونثبت هنا صلة الخبر بأبيه وإخوته وحدودها.

تبدأ قصة ظهوره، في رواية كمال الدين والعياشي، بمهمة بسيطة داخل الأسرة: حمل الطعام. ثم يسمع تعظيم الناس لشأن جالوت فيعلن ثقته بقدرته على مواجهته. يسأله طالوت عما جرّب من قوته، فيذكر إنقاذ الشاة من الأسد. ثم تُؤتى الدرع فتستوي عليه. في صيغة كمال الدين هي درع طالوت، وفي صيغة القمي درع موسى؛ نحفظ العلامتين في روايتيهما ولا نستبدل إحداهما بالأخرى.

ويشير كمال الدين إلى قوم كانوا ينتظرون داود ولا يعرفون أن الشاب الذي يشاهدونه هو المنتظر. في هذا المعنى يتصل ظهور داود بموضوع حملة العهد: قد يكون حامل الفرج قريبًا من الناس وهم لا يدركون منزلته، ثم يأتي الامتحان الذي يكشف دوره. [٣]

١٥. اللقاء مع جالوت: الدعاء والنصر وبداية الملك

حين برز المؤمنون للعدو جمعوا الاستعداد والدعاء: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. ثم جاء بيان العاقبة: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. النصر في الآية للجماعة بإذن الله، وقتل جالوت فعل مخصوص لداود، وإيتاء الملك والحكمة فضل إلهي عليه.

يذكر كمال الدين والعياشي حجرًا ينادي داود ليأخذه، ثم يرمي به جالوت فيصيبه بين عينيه ويسقطه عن دابته. وفي الصيغة المنقولة من القمي ثلاث صخرات، ورمي لميمنة الجيش وميسرته، ثم إصابة جالوت

في جبهته، ويُوصف فيها بأنه على فيل وعليه تاج. هذه صور روائية مختلفة لتفصيل النصر، ولا يذكر القرآن الحجر أو المقلاع أو الفيل أو التاج. فلا نكتب مشهدًا مركّبًا يوهم أن جميع هذه التفاصيل وردت في حديث واحد. [٣؛ ٨: ح٤٤٥؛ ١٤، ٢٣]

وجالوت في القرآن قائد المعسكر المعادي الذي واجهه طالوت والمؤمنون وقتله داود. أما أصله القبطي في خبر القمي، ووصفه في النقل التاريخي بملك الكنعانيين أو ربط قومه بالعمالقة، فطبقات أخرى من الخبر لا تُختزل في نسب واحد محسوم. ولم تسمِّ المواضع المعتمدة هنا زوجته أو أمه أو بناته أو أبناءه، ولا تعطينا قياسات جسمه وعمره؛ فلا تضاف إليه سيرة عائلية متخيَّلة. [١٤، ١٨]

وفي الكافي، باب مسجد السهلة، خبر عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر أنه الموضع الذي سار منه داود إلى جالوت، ويذكر في السياق إدريس وإبراهيم والخضر. صنّف المجلسي طريقه بالمجهول. نحفظ الإشارة المكانية بمرتبتها، ولا نجعلها دليلًا على أن داود وُلد هناك أو أن المعركة وقعت في موضع المسجد. وإدريس وإبراهيم والخضر هنا شخصيات تتصل بتاريخ الموضع في الخبر، لا رفاقًا لداود في المعركة. [١٩]

هنا يبلغ الفصل حدّه الزمني الأساس: من بقاء حملة العهد إلى ظهور داود وإيتائه الملك والحكمة. أما الزبور وتسبيح الجبال والطير وتليين الحديد والعبادة والقضاء، فقد تُلحقها بعض الأخبار بذكر النصر اختصارًا، وتفصيلها في الفصل الثامن والعشرين، حيث تُقرأ مع آيات النساء والإسراء والأنبياء وسبأ وص.

١٦. ابنة طالوت وخاتمة أخباره: ما يُذكر وما لا يثبت

يرد في النقل عن صاحب الكامل الذي أورده المجلسي أن طالوت وعد بتزويج ابنته مَن يقتل جالوت، ثم زوّجها داود بعد النصر. لذلك لا تُسقط ابنته من فهرس النساء المتصلات بالقصة. لكنها غير مسمّاة في هذا الموضع، والخبر فيه تاريخي، لا حديث مسند عن الإمام. فلا نثبت لها اسم «ميكال» من هذا النص، ولا نلحق بها تفاصيل زواج وأبناء لم يذكرها. [١٨]

وينبّه المجلسي نفسه إلى أن ما ذكره مؤرخون من حسد طالوت لداود ومحاولة قتله غير معتمد عنده؛ ويعلّل ذلك بما يظهر من الآية وبعض الروايات من فضل طالوت وعلمه، وبأنه لم يرد في أخبارهم شيء من ذلك. هذا تنبيه من المصنّف إلى حدود مادته، ولذلك لا نجعل خصومة طالوت لداود فصلًا ثابتًا من الرواية الإمامية.

كما ينقل المجلسي عن كنز الفوائد حكاية في زمن الوليد بن عبد الملك عن رجل وُجد في سفط عند حفر منارة في الأردن، فقيل إنه طالوت. لا يكفي قول مجهول القائل لإثبات هوية المدفون أو قبر طالوت. ويُذكر الوليد هنا في زمن حكاية متأخرة، لا في زمن بني إسرائيل. ولا تعطينا هذه الحكاية تاريخ وفاة طالوت أو سببها. [١٨: ح٢٢]

وفي الطرف الأول من الفصل، تتصل بخاتمة يوشع شخصية صفراء بنت شعيب في خبر كمال الدين، مع رجلين قادا الخروج عليه. ويذكر إثبات الوصية، في حكايته، نساءً متلثمات تولّين مرافقتها بعد الأسر. وقد تناول الفصل السادس والعشرون هذه الأخبار، يُحفظ هنا رابطها بحمل العهد، مع بقاء مرتبة الرواية واختلاف تفاصيلها، ولا تُحوَّل النساء غير المسمّيات إلى شخصيات ذات أنساب مخترعة. [٣، ٤]

وبذلك تبقى مواضع السكوت معلومة: لا توجد في المواضع التي قوبلت هنا سيرة موثّقة متصلة لمولد طالوت ووفاته وزوجته، ولا قائمة ثابتة بأسماء جميع أبناء داود وإخوته في هذه المرحلة، ولا أسماء لنساء الجماعات المستضعفة. اكتمال المراجعة لا يقتضي إكمال الفراغ بالحدس.

١٧. لقمان وأسرته عند عتبة عصر داود

من الأسماء التي ينبغي ألا تضيع عند الانتقال إلى داود اسم لقمان. يذكره القرآن صاحب حكمة وشكر ووصية لابنه، ويذكر الابن دون تسميته [لقمان: ١٢–١٩]. لا يؤرّخ القرآن علاقته بداود، ولا ينص في هذه الآيات على نبوته؛ فالوصف المحكم هنا هو إيتاؤه الحكمة.

وفي قصص الأنبياء للراوندي خبر عن الإمام الصادق عليه السلام يصف قوة لقمان في أمر الله وتفكره وكتمان ما لا يعنيه وإصلاحه بين الناس. ويذكر أنه تزوج نساءً وولد له أولاد كثيرون مات أكثرهم في حياته، دون تسمية زوجة أو ولد. كما يروي اختياره العافية حين خُيّر في الحكم، وإيتاءه الحكمة، ثم كثرة زيارته لداود. هذه هي صلة الخبر بحدّ الفصل الزمني، لا دليل على إدراج لقمان في أوصياء يوشع السبعة أو الأحد عشر. [٢٠: ح٢٤١]

ويَظهر من وضع لقمان إلى جانب بداية مُلك داود اختلاف وجوه الخدمة: حكيم يعظ ويصلح، ونبي يؤتى الحكم والعلم. يثبت القرآن الوصية للابن، وتزيد الرواية صورًا من أسرته وصبره وعلاقته بداود. نذكر الزوجات والأولاد بصفاتهم دون أسماء، ونترك توسيع حكمه ومواعظه لموضعها المخصّص، حتى لا يبتلع هذا الفصل سيرة لقمان كلها.

١٨. ما الذي بقي من العهد؟

يُقرأ هذا الفصل على مستويين متصلين: أشخاص يحملون العلم والميراث، وجماعة يُمتحن صدقها في الوفاء به. قد تعرف الجماعة آثار موسى وهارون، ثم تعترض على مَن اختاره الله؛ وقد تطلب القتال، ثم تتراجع عند التكليف؛ وقد تعبر النهر، ثم تحتاج إلى مَن يذكّرها بالصبر. لذلك لا تقوم الهداية على مجرد امتلاك الرموز أو إعلان الاستعداد.

وتحفظ روايات أهل البيت الصلة بين العلم والاختيار والمواريث، وتضرب الأمثال بالتابوت وظهور داود بعد الخفاء. وفي كمال الدين تتصل خاتمة خبره بالمقارنة مع قيام القائم عليه السلام. هذه مقارنة

روائية في معنى البشارة والظهور والنصرة، وليست إذنًا بتعيين كل شخصية قديمة بشخصية لاحقة أو بخلط أعداد أنصار طالوت بأعداد جميع الجيوش في أخبار الظهور. [٣، ٨، ١٧]

ويختم القرآن المشهد بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وتورد الروايات تطبيقات أخرى لمعنى الدفع، منها دفع البلاء بعبادة الصالحين. تُقرأ هذه التطبيقات مع سياق مقاومة جالوت، ولا تُحوَّل إلى إعفاء للإنسان من مسؤوليته أو إلى إلغاء لمعنى الآية في قصتها. [٨: ح٤٤٦؛ ٢٣، ٢٥]

لقد حمل العهد رجال عُرفت أسماؤهم وآخرون لم تُحفظ لنا تفاصيلهم، وحضرت النساء في حفظ الوليد والميراث، وفي الدعاء والأسرة، وفي الألم الذي صنعه الاستبداد. فلا يكون الإنصاف بإسقاط الشخصيات التي لم تشتهر، ولا بإلباس المجهول اسمًا من عندنا، بل بحفظ ما وصل، وبيان مرتبته، وترك ما لم يثبت على حدوده.

وعند داود يبدأ طور جديد: الملك والحكمة والتعليم الإلهي. بهذا ينتهي فصل الانتقال، ويُفتح الفصل التالي على سيرة داود عليه السلام وعبادته وقضائه وما آتاه الله من فضل.

١٩. سجل الشخصيات وحدود إدراجها

الشخصيات المركزية: يوشع بن نون بوصفه طرف الانتقال؛ النبي غير المسمّى في القرآن، والمسمّى شمويل/أشمويل في النقل التفسيري؛ طالوت؛ داود؛ جالوت. وتدخل معهم جماعات الملأ والجنود والمؤمنين والثابتين والأبناء الذين فُرّق بينهم وبين أهليهم.

حملة العهد في الأخبار: وارث من ولد هارون لم يسمّه خبر الكافي؛ أحد عشر إمامًا لم يسمّهم موضع كمال الدين، ومنهم المبشِّر الأخير بداود؛ فينحاس وبشير وجبرئيل وأبلث وأحمر ومحتان وعوق في إثبات الوصية. لا تُدمج القوائم المختلفة في سلسلة واحدة.

الشخصيات ذات الصلة المختلف في ترتيبها: كالب بن يوقنا؛ حزقيل؛ إسماعيل بن حزقيل؛ شمعون بوصفه تعيينًا بديلًا في التفسير؛ وذو الكفل وإرميا وإلياس واليسع عند مناقشة اختلاف الهوية أو الترتيب. لقمان وابنه عند طرف عصر داود. لكل اسم درجة صلة مختلفة، ولا يثبت هذا السجل تزامنهم جميعًا.

الأقارب والملوك في المتون: أبو داود المسمّى أشي في صيغة القمي، وإخوة داود؛ بهراسب في إثبات الوصية؛ إيلاف في نقل المؤرخ؛ أبو شمويل وأبناء ضرّة أمّه وشيخه؛ ملك القبط في خبر حزقيل؛ والملك وطفله في السؤال المبتور. ويُذكر يعقوب وبنيامين ولاوي ويوسف ويهودا في الأنساب، وموسى وهارون وآلهما في الميراث.

النساء عند طرف يوشع: صفراء بنت شعيب، والنساء المرافقات لها في حكاية إثبات الوصية. النساء في تفسير الآية ٢٤٣: أم حزقيل، والنساء المذكورات في عودة الحياة الزوجية إلى الجماعة التي أُحييت.

النساء في قصة طالوت: أم شمويل وضرّتها في النقل التاريخي، ونساء بني إسرائيل المستعبدات في خبر القمي، وابنة طالوت في خبر الزواج التاريخي.

النساء في صلات الميراث والحكمة: أم موسى في خبر التابوت، وأم سلمة في المقارنة اللاحقة لحفظ المواريث، وزوجات لقمان في خبر أسرته. لا تذكر المواضع المعتمدة أسماء هؤلاء الزوجات، ولا اسم ابنة طالوت أو أم شمويل أو أم حزقيل؛ أما أم سلمة وصفراء فوردتا بالاسم أو الكنية في النصين المشار إليهما.

شخصيات سياقية من عصور أخرى: إبراهيم في خبر السكينة؛ إدريس وإبراهيم والخضر في خبر السهلة؛ سليمان وبخت نصر في مناقشة أخبار حزقيل؛ الوليد بن عبد الملك في حكاية القبر المتأخرة. ويَرِد النبي محمد وأهل بيته عليهم السلام بوصفهم مصدر التعليم أو موضوع المقارنة في استمرار المواريث، لا بوصفهم معاصرين لهذه الوقائع.

الملائكة: حَمَلة التابوت في القرآن بلا تسمية فردية؛ جبريل في الحكاية التاريخية عن ابتداء وحي شمويل؛ ومَلَك الهواء في خبر حزقيل. لا يُخلط أيٌّ منهم بجبرئيل بن بشير. ولا تُعدّ أسماء رواة الأسانيد والمؤلفين شخصيات تاريخية في عصر الفصل لمجرد مرورها في التوثيق.

٢٠. ملاحظات التوثيق والمراجع المقابَلة

الأرقام بين المعقوفين تحيل إلى القائمة الآتية. أُثبت اسم الكتاب والباب أو رقم الحديث أو موضع الآية قبل رابط النسخة الإلكترونية؛ إذ تختلف صفحات الطبعات وترقيم بعض المواقع. الروابط وسيلة للوصول إلى النص، وليست مصدرًا مستقلًا زائدًا على الكتاب.

أحكام السند المذكورة نُسبت إلى أصحابها، ولم تُعمَّم على الكتب: خبر طالوت في روضة الكافي ح٤٩٨ صحّحه المجلسي؛ وخبر الألوف ح٢٣٧ ضعّفه؛ وحديث وصية يوشع في الكافي وصفه بالضعيف على المشهور؛ وخبر السهلة وصفه بالمجهول. وما ورد في النسخة المختصرة من تفسير العياشي لا يُحكم بصحة جميع طرقه لمجرد نسبته إلى الكتاب. وكذلك لا يُصحَّح كل متن في تفسير القمي أو كمال الدين بمجرد وجوده فيه.

[١] القرآن الكريم: البقرة ٢٤٣–٢٥٢؛ طه ٣٨–٣٩؛ القصص ٧؛ النساء ١٦٤؛ غافر ٧٨؛ لقمان ١٢–١٩.

[٢] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام، ح٣: وصية يوشع إلى ولد هارون؛ مع نقل حكم مرآة العقول على الطريق.

[٣] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب السابع، ح١، ص١٥٣–١٥٦ في النسخة المعروضة: يوشع، الأحد عشر، البشارة بداود، ثم ظهوره. موضع الانتقال في ص١٥٤ وتكملة داود في ص١٥٥.

[٤] إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي، ص٦٥-٦٨ في النسخة المعروضة: فينحاس إلى عوق وطالوت، مع حكاية خاتمة يوشع. يُراعى اختلافه مع خبر الكافي وعدم عرض أسانيد مفصلة لهذه السلسلة.

[٥] الصدوق، كمال الدين، الباب الثاني والعشرون، ح١: خبر سلسلة الوصايا المختصرة؛ موضع «وأوصى يوشع إلى داود» لا يُقرأ كتأريخ متصل ثابت.

[٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير البقرة ٢٤٣: كالب وحزقيل وأمّه، والأقوال في شمعون وذي الكفل، وخبر حمران في عودة الحياة.

[٧] الكليني، روضة الكافي، ح٢٣٧، ص١٩٨-١٩٩ في الترقيم المتداول: الألوف الفارّون من الطاعون وحزقيل؛ مع نقل تضعيف المجلسي لطريقه.

[٨] العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص١٣٠-١٣٥، خصوصًا ح٤٣٣ و٤٣٧-٤٤٦: العودة إلى الحياة، الملك والنبي، التابوت، النهر، داود والدفع.

[٩] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس عشر، فصل حزقيل، ص٢٤١-٢٤٢، ح٢٨٢-٢٨٤؛ الرقم الأخير يظهر «٢٤٨» في متن النسخة الشبكية، مع تعليقات المحقق على السقط.

[١٠] الصدوق، التوحيد، باب مجلس الرضا عليه السلام مع أهل الملل بحضرة المأمون، ح١، الباب ٦٥ في الفهرس الشبكي: حزقيل وسبي بخت نصر، ثم خبر الفارّين من الطاعون.

[١١] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، الباب ١٤ «قصة حزقيل»، ولا سيما الأخبار المنقولة من المحاسن والكافي وعيون الأخبار، وخبر النيروز.

[١٢] الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، عند البقرة ٢٤٦: شمويل والتعيينات الأخرى، ونسبة القول إلى المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

[١٣] الطبرسي، مجمع البيان، عند البقرة ٢٤٦: أشمويل، وشمعون بن صفية، ويوشع، مع تمييز مصادر الأقوال.

[١٤] تفسير القمي، عند البقرة ٢٤٦-٢٥١: خبر أبي بصير، النساء المستعبدات، طالوت، التابوت، وظهور داود. رابط الآية ٢٤٦ لأصل السياق؛ وتُقابل تتمة المتن أيضًا في الصافي والبرهان [٢١، ٢٣].

[١٥] الكليني، روضة الكافي، ح٤٩٨: أصل طالوت، رجوع التابوت، والثلاثمائة والثلاثة عشر، وفيهم مَن اغترف ومَن لم يشرب؛ تصحيح المجلسي في مرآة العقول ٢٦:٤٢٠.

[١٦] الصدوق، معاني الأخبار، باب معنى السكينة، ح١-٣، الباب ٣١٨ في الفهرس الشبكي: الإيمان، والعصا والروح، والريح الطيبة.

[١٧] الصفار، بصائر الدرجات، ص١٩٧ في النسخة المعروضة، ح٧-١٠ في سياق مواريث السلاح: تشبيه السلاح بالتابوت، وانتقال الميراث، وذكر أم سلمة.

[١٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، الباب ١٩ «قصة إشمويل وطالوت وجالوت وتابوت السكينة»: الروايات، والنقل التاريخي بعد ح١٧، وتعقيب رفض قصة الحسد، ثم ح١٨-٢٢.

[١٩] الكليني، الكافي، كتاب الصلاة، باب مسجد السهلة، ح١: خروج داود إلى جالوت؛ مع نقل حكم المجلسي بجهالة الطريق.

[٢٠] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب العاشر «في نبوة إسماعيل وحديث لقمان»، ح٢٣٥-٢٣٧ وح٢٤١، ص١٨٨-١٩٣: إسماعيل بن حزقيل؛ ولقمان وأسرته وصلته بداود.

[٢١] البحراني، البرهان في تفسير القرآن، مجموعة البقرة ٢٤٦-٢٥٠: مقابلة نصوص القمي والكافي والعياشي ومعاني الأخبار، بدءًا من الأخبار ١٣٥٠ وما بعدها في النسخة الشبكية.

[٢٢] الحويزي، نور الثقلين، ج١، مواضع البقرة ٢٤٣-٢٤٨، الأخبار ٩٦٠-٩٩٩ في النسخة المعروضة: مقابلة طرق الإحياء وطالوت والتابوت.

[٢٣] الفيض الكاشاني، الصافي، عند البقرة ٢٤٩-٢٥١: الغرفة المأذونة، والعدد، وصيغتا ظهور داود في القمي والعياشي.

[٢٤] المشهدي، كنز الدقائق وبحر الغرائب، عند البقرة ٢٤٣-٢٥١: جمع الأقوال والروايات، ومناقشة اسم النبي وأعداد الجيش.

[٢٥] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، بيان وبحث روائي في البقرة ٢٤٤-٢٥٢: سياق القصة، والعلم والقدرة في القيادة، ودفع الفساد.

الفصل ٢٨ — داود عليه السلام — الحكم والزبور والعدل

حكاية الهداية — في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام والتفسير الإمامي.

١. مدخل: النبوّة حين تحمل أمانة الحكم

تلتقي في سيرة داود عليه السلام النبوّة والملك والعبادة والصنعة والقضاء. يظهر أولًا في سياق انتصار المؤمنين على جالوت، ثم يقدّمه القرآن عبدًا أوّابًا، وصاحب كتاب وعلم وحكمة، وحاكمًا مأمورًا بالعدل. ليست قوته إذن تفويضًا مطلقًا؛ إنما يضعه الوحي أمام مسؤولية الحق، ويحذّره من اتباع الهوى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ [ص: ٢٦].

٢. الخريطة القرآنية الكاملة للمواضع المسماة

يرد اسم داود في ستة عشر موضعًا: البقرة ٢٥١؛ النساء ١٦٣؛ المائدة ٧٨؛ الأنعام ٨٤؛ الإسراء ٥٥؛ الأنبياء ٧٨ و٧٩؛ النمل ١٥ و١٦؛ سبأ ١٠ و١٣؛ ص ١٧ و٢٢ و٢٤ و٢٦ و٣٠. وتُقرأ هذه المواضع مع سياقاتها؛ فصناعة الدروع في الأنبياء ٨٠ وسبأ ١١ تتمّة لذكره، والزبور في الأنبياء ١٠٥ يتصل بكتابه في أحد أوجه التفسير، وإن لم يرد اسمه في الآية.

توزّع هذه الخريطة الموضوعات على سبعة محاور: الانتصار والملك والحكمة [البقرة: ٢٤٦–٢٥١]؛ الوحي والزبور [النساء: ١٦٣؛ الإسراء: ٥٥]؛ مقاومة العصيان وترك التناهي عن المنكر [المائدة: ٧٨–٧٩]؛ الاندراج في سلسلة الأنبياء المهديين [الأنعام: ٨٤]؛ القضاء والتسبيح وصنعة اللبوس [الأنبياء: ٧٨–٨٠]؛ العلم والوراثة [النمل: ١٥–١٦]؛ والفضل والشكر والإنابة وأمانة الحكم والبنوّة [سبأ: ١٠–١٣؛ ص: ١٧–٣٠].

لا تُنقل إلى داود خصائص جعلها السياق لسليمان: تسخير الريح، وعين القطر، وعمل الجن، وخبر العصا ودابّة الأرض عند الوفاة. وورود خطاب ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ في أثناء ذكر سليمان يربط الأسرة بالعبادة، ولا يمحو الحدود بين سيرة الأب وسيرة الابن. وبالمثل، لا تجعل الأسماء المتجاورة في الأنعام أصحابًا عاشوا في عصر واحد.

٣. من بيت الأسرة إلى مواجهة جالوت

يقول القرآن: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. لا يسمّي أباه أو أمّه أو إخوته، ولا يحدّد موضع ولادته أو عمره يوم القتال أو أداة قتله لجالوت. وتأتي هذه التفاصيل، حيث ترد، من الأخبار؛ فلا تُعرض بوصفها ألفاظًا قرآنية.

في خبر كمال الدين، أبٌ شيخ وأربعة إخوة لداود، وهو أصغرهم، يرعى الغنم ويأتي بإعاشة إخوته. ويتصل ظهوره بامتحان السلاح وبمواجهة جالوت. أما نقل القمي فيتضمن تسمية الأب «أشي»،

ويذكر عددًا آخر للأبناء وتفاصيل مختلفة في الحجارة والمركب والسلاح. فلا تُركّب الروايتان في قصة واحدة جازمة، ولا يُستخرج من اختلافهما تعداد نهائي للأسرة. [١٠-١١]

طالوت هو الملك الذي نصّ عليه سياق البقرة؛ وجالوت قائد الخصم الذي قتله داود؛ والنبي الذي بلّغ بني إسرائيل اختيار طالوت غير مسمّى في القرآن، وتذكر الرواية والتفسير اسم إشمويل/شمويل. مكان هؤلاء الأساسي هو الفصل السابع والعشرون، ويُستبقى هنا قدر صلتهم ببداية داود. وأما خبر زواجه ابنة طالوت غير المسمّاة، وما يروى من غيرة طالوت وعداوته له، فيُذكر في طبقة النقل التاريخي؛ وقد اعترض المجلسي على ما يناقض صلاح طالوت، فلا نُثبت تلك المطاعن بوصفها روايات أهل البيت. [١٠-١٢]

٤. النسب والأسرة: ما ثبت وما بقي غير مسمّى

يثبت القرآن أن سليمان ابن داود بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠]، ويذكر «آل داود» [سبأ: ١٣]. ولا يعطي سجلًا بأسماء زوجاته وبناته وسائر أبنائه. ولا تكفي عبارة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ [الأنعام: ٨٤] وحدها لإثبات سلسلة آبائه التفصيلية، مع وجود البحث التفسيري في مرجع الضمير.

تتباين النقول في اسم الأب ونسبه القبلي؛ ففي بعضها «أشي»، وفي نقل ابن الأثير الذي أورده المجلسي «إيشا» مع سلسلة تنتهي إلى يهوذا بن يعقوب. كما ينقل ابن الأثير عدد تسعة عشر ابنًا. هذه معلومات تاريخية منقولة، لا نصوص قرآنية ولا أخبارًا عن إمام بمجرد ورودها في البحار. ولا تتوافر في المادة المحققة هنا تسمية ثابتة لأم داود، أو برهان كافٍ لتأريخ مولده ومكانه تفصيلًا. [١١-١٢]

تُحفظ أربع جهات نسائية متميزة: أم سليمان في خبر وصيتها لابنها؛ وزوجة داود وابنها غير المسمّيين في خبر اختيار الوصي؛ وابنة طالوت في النقل التاريخي؛ وامرأة أوريا في الأخبار المختلف فيها. لا يجوز دمج هذه الشخصيات أو تسميتها بأسماء شائعة في مدونات أخرى دون دليل خاص. وكذلك لا تُحوَّل النعاج التسع والتسعون في سورة ص إلى تعداد قرآني لزوجات داود. [١٣-١٦]

ويروى في قصص الأنبياء، ونقله البحار، أن آل داود كانوا رجالًا ونساءً يتعاهدون المحراب؛ وفي نسخة عدد ثمانين رجلًا وسبعين امرأة، مع اختلاف النسخ في العبارة. لا يثبت بذلك أنهم ثمانون ابنًا وسبعون زوجة، ولا أن العدد إحصاء تاريخي متفق عليه. القيمة الواضحة للخبر هي مشاركة رجال الأسرة ونسائها في الشكر والعمل والعبادة. [١٧]

٥. الزبور وموقعه في سلسلة الوحي

يصرّح القرآن مرتين: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣؛ الإسراء: ٥٥]. وتربط آية الأنبياء ١٠٥ الكتابة في الزبور بعد الذكر بوعد وراثة الأرض للعباد الصالحين. وقد نقل المفسرون أوجهًا في المراد بالزبور والذكر؛ منها زبور داود والتوراة، ومنها معنى أعمّ لكتب الوحي. فلا تُلزم الآية بوجه واحد مع إخفاء بقيّة الأوجه. [٣، ١٨]

تروي مصادر الحديث أن الأئمة ورثة علم الأنبياء وكتبهم، وفي الكافي ذكر انتقال العلم من داود إلى سليمان، واجتماع علم الكتب عند أهل البيت. المقصود هنا بيان وحدة الهداية ووراثة العلم، لا إثبات اتصال زمني مباشر بين جميع الأسماء الواردة في الخبر. وما ينقله ابن طاوس في سعد السعود عن نسخ ينسبها إلى الزبور مواعظ كتابية منقولة؛ لا يصح تحويلها إلى نصوص قرآنية أو إلى أحاديث مسندة عن الإمام. [١٨-١٩]

وفي الأخبار نزول الزبور في شهر رمضان، مع اختلاف النقل في الليلة، منها الثامنة عشرة ومنها غيرها. ويكفي في أصل الفصل القطع بما أثبته القرآن من إيتاء الكتاب، مع عرض تفاصيل النزول بصيغتها الروائية. ولا يقتضي اشتراك الاسم أن كل فقرة في كتاب المزامير المتداول اليوم مطابقة حرفيًا للزبور المنزل؛ هذه دعوى تحتاج تحقيقًا نصيًا مستقلًا. [١٨]

٦. العبد الأوّاب: التسبيح والصوت والعبادة

يصفه القرآن بأنه ﴿ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، ثم يذكر تسبيح الجبال معه بالعشي والإشراق والطير المحشورة [ص: ١٧-١٩]. والأيد هنا القوة، وفي الرواية بيانها بالقوة في الطاعة. ويشهد الأنبياء ٧٩ وسبأ ١٠ للمعنى نفسه. لا يتوقف إثبات هذه الآية على شرح آليّة مادية لم يذكرها النص، ولا يصح اختزالها إلى مجرد صورة أدبية تنفي التسخير. [١، ٢٠]

وتصف الخطبة ١٦٠ من نهج البلاغة داود بصاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، وتجمع حسن تلاوته مع تواضع معاشه. وليس هذا اللفظ بمفرده دليلًا على استعمال آلة موسيقية بعينها. كما تذكر روايات الصوم صيام داود يومًا وإفطاره يومًا، في سياق عرض أنماط العبادة؛ ولا يحوّل ذلك إلى تكليف عام يلزم كل مؤمن. [٢١-٢٢]

وترد أخبار الضفدع والدودة الصغيرة وما تكشفه من دوام التسبيح وعلم الله بالخفي، وخبر دعاء داود في الحج وإراءته مخلوقًا في صخرة في البحر. تُذكر هذه في باب الموعظة مع إسنادها وحدوده؛ فمن طرقها ما فيه راوٍ غير مسمّى. والدرس المستفاد أن الإقبال على الله لا يورث احتقار مخلوق، ولا أن يظن العابد أنه أحاط بأصوات التسبيح وأحوال الخلق. [٢٢]

٧. الحديد والدروع وكرامة الكسب

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. يجمع السياق الفضل الإلهي بإتقان العمل، ويصرح بوظيفة الحماية. و«قدّر في السرد» توجيه إلى إحكام النسج والتقدير، فلا يُستبدل بمعادلات صناعية أو وصف هندسي لا أصل له في النص. [١-٤]

يروى عن الإمام الصادق أن داود وُجّه إلى الكسب بعمل يده، وأن الله ألان له الحديد. وتفصّل بعض الأخبار عدد الدروع وثمنها. هذه الأعداد تفاصيل خبرية متفاوتة، وليست ميزانية موثقة

لمملكته. كما لا يعني التوجيه إلى الاستغناء عن بيت المال ثبوت اختلاس أو أكل مال بغير حق؛ موضوعه مرتبة من التعفف وفضل العمل. وتضيف خطبة نهج البلاغة عمل سفائف الخوص وشراء قوت الشعير بثمنها. [٢١-٢٢]

تربويًا، لا تنفصل العبادة عن المهارة النافعة. يستخدم صاحب السلطان قدرته في عمل يحفظ الإنسان، ويُقرن حسن الصنعة بصلاح العمل: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. هذا استنباط من جمع الآيات، لا رواية مستقلة تُنسب إلى إمام.

٨. أمانة القضاء وحدود السلطان

تتوج سورة ص ذكر داود بالأمر بالحكم بالحق والنهي عن الهوى، وتربط الضلال بنسيان يوم الحساب [ص: ٢٦]. وسبق ذلك تقوية ملكه وإيتاؤه الحكمة وفصل الخطاب [ص: ٢٠]. فالملك في هذا السياق وظيفة مسؤولة، وفصل الخطاب قدرة على بيان الحق وحسم الخصومة على وجهها، لا جواز إسكات الخصم أو الاستغناء الدائم عن الحجّة. [١-٣]

تذكر أخبار القضاء أن داود سأل إراءة الحكم بحقيقة الوقائع، فظهرت له جرائم خفية، ثم ورد الأمر بالقضاء بالبيّنات والأيمان. والمعنى الذي تحفظه هذه الأخبار أن المعرفة الاستثنائية الممنوحة لنبي لا تتحول إلى إذن للقاضي العادي في إدانة الناس بالحدس. وتُقرأ أخبار سلسلة داود وإحياء المقتول وأمثالها في طبقتها الروائية، مع تمييزها عن القاعدة القضائية الظاهرة. [٢٠، ٢٢]

٩. الحرث والغنم: داود وسليمان أمام حقوق الناس

الأصل القرآني هو: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾، ثم ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]. أطراف القضية البشرية هما صاحب الحرث وصاحب الغنم، وهما غير مسمّيين. ولا تفصل الآيتان صورة التعويض، ولا تنسبان إلى داود ظلمًا أو فسادًا في القضاء.

في أخبار أبي بصير وغيرها تفسير النفش بالرعي ليلًا، مع توزيع مسؤولية الحفظ بين صاحب الزرع نهارًا وصاحب الماشية ليلًا. وتأتي صور مختلفة للحكم: رقاب الغنم؛ أو اللبن والصوف لذلك العام؛ أو نتاجها، بحسب الخبر وبيان مقدار التلف. وتذكر طائفة أن داود حكم بما أوحي إلى الأنبياء قبله، ثم فُهّم سليمان حكمًا مخصوصًا؛ فتؤكد أن كليهما حكم بأمر الله. [٢٣]

وفي رواية القمي أن داود أحال الخصمين إلى سليمان ليُعرف فضله ووصايته، وأن تلف الأصل والفرع يختلف عن تلف الفرع وحده، مع نفي اختلافهما في الحكم. وفي خبر زرارة عن الإمام الباقر أنهما كانا يتناظران في القضية. هذه مسالك روائية وتفسيرية متغايرة؛ يعرض الجامع بينها، وهو العلم الإلهي وصيانة العدل، من غير ادعاء أن تفاصيلها جميعًا نص واحد متطابق. [٢٣]

ويضم الكافي خبرًا آخر يجمع القضية باختيار الوصي، وفيه زوجة لداود وولد لها وعلماء بني إسرائيل الذين قوّموا الضرر. صنّفه المجلسي «ضعيف على المشهور» في مرآة العقول. لذلك يُثبت في سجل الأخبار والشخصيات، ولا يُجعل وحده أساسًا يقينيًا لتاريخ الأسرة أو لتوجيه تهمة محاباة إلى النبي. [١٤]

١٠. الخصمان في المحراب: النص قبل القصص الملحقة

تصف سورة ص اقتحام الخصم المحراب وفزع داود، ثم عرض شكوى صاحب نعجة واحدة من صاحب تسع وتسعين نعجة. ويقول داود إن طلب ضم نعجته ظلم، ويذكّر بأن كثيرًا من الخلطاء يبغي بعضهم على بعض إلا أهل الإيمان والعمل الصالح، ثم يستغفر وينيب، ويثبت الله له الزلفى وحسن المآب [ص: ٢١-٢٥].

لا تسمّي الآيات الخصمين، ولا تذكر امرأة تغتسل، ولا قائدًا أُرسل ليقتل، ولا رجلًا اسمه أوريا. والنعجة في منطوقها نعجة؛ تحويلها إلى امرأة خطوة تفسيرية زائدة لا تتحول إلى نص القرآن. كذلك لا يلزم من صيغة «الخصم» حصر جميع الداخلين في رجلين بلا أتباع؛ يعرض التبيان ومجمع البيان بحث الصيغة والسياق. [٢-٣]

تذكر بعض الأخبار أنهما ملكان، ويَرِد جبريل وميكائيل في بعض سياقات الاحتجاج المروية؛ لكن الاسمين لا يردان في الآيات، وبعض ورودهما ضمن صياغة سؤال المحاور. أما البيان المروي عن الإمام الرضا فيجعل موضع التنبيه آداب القضاء، أي التعجل في الجواب قبل استكمال سماع الطرف الآخر وطلب حجته. لا يُحمَّل هذا البيان اعترافًا بالقتل أو الفاحشة التي يرفضها الخبر نفسه. [١٥-١٦]

يرفض الطوسي والطبرسي الأخبار المنفّرة عن النبي، ويعرضان وجوهًا تحفظ مقامه وتفسر الإنابة. ويبحث الميزان احتمال التمثّل الملائكي، فلا تكون الواقعة حكمًا تنفيذيًا عاديًا، ويعرض وجوهًا أخرى لفهم الجواب. هذه قراءات تفسيرية ينبغي نسبتها إلى أصحابها، لا تحويل أحدها إلى خبر قطعي متفق عليه. [٢-٣، ٩]

١١. أوريا وامرأته: تدقيق الروايات وصيانة العرض

توجد في التفسير المنسوب إلى القمي رواية تربط المشهد بامرأة أوريا بن حنان، وتتهم داود بتدبير تقديمه للقتل. وينقلها البرهان ونور الثقلين والبحار. وتوجد أيضًا رواية مختلفة في تفصيل الأمر العسكري. لا يصح إخفاء هذا الوجود، كما لا يصح اعتماد مضمونها لمجرد أنها مدرجة في كتب تتداولها الإمامية. [٦-٨، ١٦]

وفي عيون أخبار الرضا، الباب الرابع عشر، الحديث الأول، يروي أبو الصلت الهروي مجلسًا يجيب فيه الإمام الرضا عن أسئلة علي بن محمد بن الجهم بحضرة المأمون. يرفض الإمام نسبة التهاون بالصلاة والفاحشة والقتل إلى داود، ويبين أن خبر أوريا يتعلق بإباحة الزواج من أرملة بعد مقتله وانقضاء عدتها، لا بتدبير قتله للاستيلاء عليها. تختلف بعض النسخ والنقول الرقمية في جمل من هذا السياق؛

لذلك يعتمد المعنى بعد مقابلة نقل العيون بنصه المحفوظ في المجاميع التفسيرية، دون بناء وقائع إضافية على عبارة مضطربة. [١٥-١٦]

ويروي الراوندي عن الإمام الصادق ردّ نسبة هذه التهمة، وفي بعض ألفاظه أنها مما تقوله العامة. ويصرح الطوسي والطبرسي برفض الصورة التي تقتضي دناءة النبي وتنفير الناس عنه. أما قول المجلسي بحمل الخبر المخالف على التقية فهو توجيه من المصنّف، لا واقعة تاريخية ثابتة تفسّر منشأ كل طريق. كما يجب التمييز بين «بيان» المجلسي وتعليقات محققي الطبعات في الحواشي. [٢-٣، ١٦، ٢٠]

تسجّل امرأة أوريا كشخصية غير مسمّاة، ويُسجّل أوريا بوصفه اسمًا في الروايات لا في القرآن. وتسميتها «بثشبع»، أو الجزم بأنها أم سليمان اعتمادًا على القصة المطعون فيها، يحتاج إلى دليل آخر. ولا يصح تشويه سمعتها بذنب لا يثبته نص مقبول، ولا اعتبار زواج الأرملة بعد العدة تهمة. الوزير والقائد العسكري ومن أُلحق بالمشهد من خازن الجنة أو طائر شيطاني شخصيات وعناصر في صيغ مخصوصة من القصة المختلف فيها، لا وقائع ثابتة في سيرة النبي.

١٢. قضايا أخرى: حقوق خفيّة وخصوم غير مسمّين

يروي الراوندي قضايا متقاربة في موضوعها لا يلزم أنها قضية واحدة: خصومة ينكشف فيها قتل أب أحد المتخاصمين؛ وشيخ وشاب اختلفا في بستان عنب، فيظهر في الخبر أن الشيخ قتل أبا الشاب واستولى على ماله؛ وخصومة في بقرة تتصل بجريمة سابقة. يجب إبقاء صاحب الحق وأبيه المقتول والمعتدي وسائر الشهود بأوصافهم، دون اختراع أسماء لهم. [٢٠]

وتختلف طرق هذه الأخبار: منها ما يُنسب إلى الإمام الصادق، ومنها خبر البقرة الذي ينتهي في الصيغة المقروءة إلى إسماعيل بن جعفر ولا يصرّح برفعه إلى الإمام. فلا يكفي اسم الأب أو وجود الخبر في كتاب إمامي لإضافة نسبة لم يذكرها النص. وفي بعض القصص يتوسط جبريل في إظهار وجه الحق، ويحضر علماء أو أصحاب لداود غير مسمّين. [٢٠]

وفي خبر سلسلة داود، يخبئ رجل وديعة خصمه في عصا، ويناوله العصا وقت الامتحان ليتوصل إلى تورية خادعة، ثم ينتهي هذا الامتحان ويأتي الأمر بالبينات والأيمان. يُستبقى المودِع والمودَع عنده في الحصر، وتُستخرج العبرة من تحريم الاحتيال؛ ولا يُبنى على خبر السلسلة نظام قضائي يُغني عن البيّنة. [٢٠]

١٣. أمّ «عاش الدين» والولد الذي أعاد القضاء حقّه

يرد في خبر نقله البحار من كتب الحديث أن داود مرّ بصبي يسمّى «مات الدين»، فسأل أمّه عن سبب الاسم. ذكرت أن أباه خرج في سفر وهي حامل، وأن رفقاءه رجعوا بخبر موته وعدم بقاء مال له، وبوصية منسوبة إلى أبيه بتسمية الولد بهذا الاسم. استجوب داود الرفقاء حتى انكشف قتل الأب

والاستيلاء على ماله، وأعيد الحق، وغيّر اسم الولد إلى «عاش الدين». لا يسمّي الخبر الأم أو الأب أو رفقاء السفر. [٢٤]

للأم هنا دور معرفي وقضائي: تحفظ تفاصيل غياب الزوج، وتروي ما قيل لها، فتكون إفادتها مدخلًا إلى كشف الجريمة. والولد صاحب حق لا مجرد وسيلة لاختبار ذكاء الحاكم. أما أطفال اللعب الذين ظهر الاسم في صحبتهم فشخصيات جماعية هامشية لا أسماء ثابتة لهم في الخبر.

يَرِد خبر داود داخل رواية عن قضاء أمير المؤمنين علي، وفي إطارها شريح وقنبر وعبيد الله بن أبي رافع، وشاب آخر وأبوه المفقود ورفاق سفره وأعوان القضاء. هؤلاء لا يُنقلون إلى عصر داود؛ إنما يُدرجون في إطار رواية الخبر وتطبيقه اللاحق. والتشابه بين القضيتين لا يبرر إسقاط الأسماء من إطار إلى آخر. [٢٤]

١٤. المرأة المستكرهة: قراءة لا تظلم الضحية

ينقل البحار من الفقيه خبر امرأة في عهد داود كان رجل يستكرهها على نفسها. تخبره أن نظير فعله يقع عند أهله، فيرجع ويجد رجلًا عند زوجته، ثم يشكو إلى داود ويأتيه الجواب الواعظ بمجازاة الظلم. أطراف الخبر امرأة مكرهة، ورجل معتدٍ، وزوجته، والرجل الذي وجده عندها؛ ولا يذكر أسماءهم. [٢٥]

ورد النقل بصيغة «في الصحيح عن إبراهيم بن أبي البلاد»، ثم يسوق إبراهيم الحكاية، من غير تصريح في هذا الموضع برفعها إلى إمام. صحة الطريق إلى الراوي، على فرضها، لا تساوي تلقائيًا صحة نسبة المتن إلى المعصوم. كما أن الرواية لا تمنح القارئ علمًا تفصيليًا برضا الزوجة أو إكراهها في الواقعة الثانية.

لذلك لا يستخرج منها اتهام المرأة المكرهة أو ذويها، ولا قاعدة تقول إن كل اعتداء على امرأة عقوبة لذنب ارتكبه قريبها. الأصل القرآني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] يمنع نقل المسؤولية الأخلاقية إلى غير فاعلها. يُسجّل الخبر لتمام الحصر، وتبقى قراءته مقيدة برفض الإكراه وصيانة حق المظلومة.

١٥. خلّادة بنت أوس: امرأة يبرزها الصبر والشكر

يروي الراوندي عن الإمام الصادق أن الله أوحى إلى داود أن يبشّر خلّادة بنت أوس بالجنة وأنها قرينته فيها. ذهب إليها، فتعجّبت وسألت أهي المقصودة أم امرأة وافق اسمها اسمها. ولم تدّع لنفسها مقامًا؛ فلما سألها عن سريرتها، ذكرت صبرها على الوجع والحاجة والجوع وحمدها لله حتى تأتي العافية والسعة. فبيّن أن بهذا بلغت ما بلغت. [٢٦]

الاسم في النص المقروء «خلّادة بنت أوس»، وتذكر بعض النقول ضبطًا آخر «جلادة». وأوس مذكور بوصفه أباها، ولا يرد له في الخبر دور مستقل. ولفظ «قرينتك في الجنة» يدل على الصحبة أو

الاقتران في المنزلة بحسب السياق، لا يكفي لإثبات أنها زوجة داود في الدنيا أو لإنشاء سيرة زوجية لها.

تُبرز القصة امرأة مستقلة في فضيلتها، يتعلم القارئ من جوابها لا من نسبها إلى صاحب سلطان. وصبرها الموصوف لا يصبح تحريمًا لطلب العلاج أو الدعاء برفع البلاء، فقد حكى القرآن دعاء أيوب بكشف الضر [الأنبياء: ٨٣-٨٤]. العبرة هي صدق التوجّه والشكر، لا إلزام الناس بكتمان الألم أو ترك أسباب الفرج.

١٦. متّى ولقمان وحزقيل: دوائر الحكمة حول داود

في تنبيه الخواطر لورّام، بنقل مرفوع إلى الإمام الصادق يتضمن واسطة غير مسمّاة، يسأل داود عن نظيره في الجنة، فيُخبر بأنه متّى أبو يونس. يذهب مع سليمان إليه، فيجدانه حطّابًا يبيع حطبه، ويشتري بقوته طعامًا يعدّه، ويشكر الله على القدرة والرزق. يحضر في المشهد أهل السوق والمشترون غير المسمّين. ويَرِد يونس للتعريف بأبيه، ولا تقول الرواية إنه حضر الزيارة، ولا تكفي وحدها لحسم تقويم تاريخي بين العصور. [٢٧]

ويذكر خبر لقمان في قصص الأنبياء أن الحكمة ارتبطت بالتفكر وضبط اللسان، وأنه عُرض عليه مقام الحكم فاختار السلامة من تبعته، وأنه كان يزور داود فيتذاكران. لقمان في القرآن عبد أوتي الحكمة، وليس النص القرآني دليلًا على نبوّته. ويَرِد في الخبر ذكر زوجاته وأولاده الذين فقدهم، من دون أسماء، فهؤلاء من أسرته في سياق ترجمته، وليسوا من آل داود. [٢٨]

وفي خبر عن الإمام الصادق أورده البحار عن الصدوق، يلقى داود النبيَّ العابد حزقيل، وتدور المحاورة حول عدم الشماتة بالمبتلى والتذكّر بالموت. ويَرِد سرير وعظام ونقش باسم ملك تُختلف كتابة اسمه بين «أروى سلم» وما يقاربه. هذا الملك شخص في موعظة منقولة، لا صاحب سيرة مؤرخة ثبتت فيها مدد الحكم والأعداد الكبيرة المذكورة. كما لا يثبت بمجرد تشابه الأسماء أن حزقيل هذا مطابق لكل ما في التواريخ عن النبي المعروف باسم حزقيال. [٢٩]

تلتقي الأخبار الثلاثة في أن صاحب النبوّة يسمع حكمة العامل والحكيم والعابد، ولا يحجب الملك عن التواضع. وهي ليست متساوية في أسانيدها، خصوصًا خبر متّى المرفوع. لذلك يُعرض معناها التربوي مع نسبتها، دون ادعاء تصحيح شامل أو جمعها في رحلة واحدة.

وصية لقمان لابنه

ويظهر ابن لقمان في لقمان ٣١:١٣ و١٦-١٩ مخاطبًا بوصية أبيه: اجتناب الشرك، واستحضار علم الله بأدق الأعمال، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، وترك الكبر، والاعتدال في المشي والصوت. ولا تذكر الآيات اسم الابن. وبين مقطعي الوصية يأتي خطاب الوالدين وذكر حمل الأم وفصال الطفل، والبر بهما دون طاعتهما في الشرك؛ فلا تُجعل كل عبارة في الآيات كلامًا

مباشرًا للقمان. وهكذا يدخل الابن والأب والأم في تعليم الأسرة والهداية، دون اختراع أسماء لهم. [٢٨؛ لقمان ١٢-١٩]

١٧. الشاب والعروس وأبوها: الرحمة التي تفتح باب الحياة

يروي قصص الأنبياء عن الإمام الباقر، وفي الطريق واسطة بصيغة «عن رجل»، أن شابًا رثّ الهيئة قليل الكلام كان يأتي داود، وأن ملك الموت أخبر بقرب أجله. فسأله داود عن زواجه، فلما وجده غير متزوج سعى في تزويجه ابنة رجل ذي مكانة من بني إسرائيل وأعانه على مؤنته. ثم امتد عمره، وبيّن الخبر أن الله رحمه لرحمة داود به. [٣٠]

الشخصيات هنا الشاب، والعروس، وأبوها، وداود، وملك الموت؛ ولا يذكر النص أسماء الشاب أو المرأة أو أبيها. ولا يثبت فيه، في الصيغة المقابلة، أن الشاب يتيم أو أن العروس أرملة. ويذكر سبعة أيام ثم زيادة ثلاثين سنة، وهذه أعداد الرواية لا تواريخ مستقلة. ولا تُضاف صدقة معيّنة إلى الحدث من حكاية أخرى لمجرد تشابه الموعظة.

تعطي القصة الرحمة صورة عملية: السؤال عن الحاجة وإعانة الشاب وتيسير تكوين البيت. وتبقي العروس صاحبة حياة وحقوق، فلا تُقرأ الحكاية اختزالًا لها في أداة لنجاة غيرها. كما لا تؤسس وعدًا بأن كل زواج أو إحسان يغيّر العمر بعدد حسابي معلوم.

١٨. حكمة آل داود: الشكر والمحاسبة ونصرة المظلوم

تنقل روايات الكافي من حكمة آل داود معرفة الإنسان بزمانه، وإقباله على شأنه، وحفظ لسانه. وترد مواعظ في قرب المتواضع وبعد المتكبر، والتوكل، والبشارة للمذنب بقبول التوبة، وتحذير الصدّيق من العجب بعمله. تُقرأ هذه النصوص بوصفها تربية للباطن والسلوك، مع بقاء البحث السندي لكل طريق على حدة. [١٨، ٣١]

ويرد في تنبيه الخواطر تقسيم الوقت بين مناجاة الله، ومحاسبة النفس، وصحبة من يصدق في بيان العيوب، وراحة مباحة تعين على ما سواها. وفي إرشاد القلوب خبر مرسل يأمر داود أن يبلّغ حاكمًا جائرًا أن مسؤوليته نصرة المظلوم، لا جمع الدنيا. هذا الحاكم غير مسمّى، ولا دليل يجيز تحويله إلى طالوت أو إلى داود نفسه. [٣١]

وفي خبر آخر رجل عابد يعلم داود من حاله الرياء، ثم يشهد له جماعة بالخير عند وفاته، فيأتي البيان بسعة الرحمة. لا يسمّى العابد أو المشيّعون، ولا يُستخرج من القصة ترخيص في الرياء أو إسقاط لحقوق الناس بشهادة لا تعلم حقيقتها. وكذلك الملك الظالم ووزراؤه وأعوانه في النص الذي نقله ابن طاوس عن الزبور شخصيات في موعظة كتابية، لا رواية مسندة عن أهل البيت. [١٨، ٣١]

١٩. اللعن وأصحاب السبت: المسؤولية دون تعميم

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، ثم بيّن السبب: العصيان والاعتداء وترك التناهي عن المنكر [المائدة: ٧٨-٧٩]. موضوع الآية فئة موصوفة بأفعالها، لا كل بني إسرائيل، ولا كل يهودي في أي عصر. وعيسى ومريم مذكوران في هذه الصلة النصية، لا بوصفهما من معاصري داود.

يربط المفسرون هذا الموضع بقصص الاعتداء في السبت والمائدة، مع اختلاف الأخبار في توزيع المسخ على زمن داود وعيسى. وفي روايات إمامية مذكورة في الكافي والقمي والراوندي نسبة الخنازير إلى لسان داود والقردة إلى لسان عيسى، على خلاف المشهور في بعض كتب التفسير. وقد تنبّه المجلسي إلى هذا الاختلاف. الآية نفسها لا تعيّن نوع المسخ لكل نبي؛ فلا يُطمس التفاوت ولا يُصنع منه إجماع غير موجود. [٣٢]

وفي قصة السبت يظهر المعتدون، والناهون عن السوء، ومن يثبّطون الواعظين أو يداهنون. ويفصّل القرآن نجاة الناهين وأخذ الظالمين [الأعراف: ١٦٣-١٦٦]، وتزيد الروايات تفصيلًا في مصير الفئة الثالثة. ومن عناصر الخبر رجل يصعد السور ليستطلع حال القرية، وأقارب يعرفهم الممسوخون، وعلماء سكتوا أو نهوا؛ لا أسماء ثابتة لهؤلاء في المادة المقابلة. والأنساب هنا لا تسوّغ اتهام أجيال لاحقة أو نسب الحيوانات الموجودة إلى ذرية أولئك. [٣٢]

٢٠. الوصاية لسليمان وأمّه في مشهد التربية

يثبت القرآن إعطاء سليمان لداود، ووراثة سليمان له، وعلمهما وشكرهما [ص: ٣٠؛ النمل: ١٥-١٦]. وتفسر الروايات الوصاية بأنها عهد إلهي، لا حق يملكه الأب لينقله بحسب الميل الشخصي. لكن تفاصيل الامتحان والأعمار وأحوال الأسرة لا تستوي في الثبوت مع أصل البنوّة والوراثة القرآني. [١٤، ١٧، ١٩]

في خبر الكافي السابق زوجة غير مسمّاة تقترح ابنها، ثم يظهر قضاء سليمان في الكرم، ويعلن داود التسليم لاختيار الله. يُذكر الخبر مع تضعيفه المنقول، ولا يُسمّى ذلك الابن «أدونيا» أو «أبشالوم»، ولا تُنسب الأم إلى شخصية بعينها. وفي خبر آخر يجمع داود رؤوس الأسباط وتُحفظ عصيهم في بيت مختوم، ثم تظهر علامة في عصا سليمان، ويُختبر في معنى العفو والمحبة. وتختلف طرق هذا الخبر، ومنها طريق الراوندي الذي يشتمل على أبي الخطاب؛ فلا يُسوّى بين طرقه ولا يُدّعى اتفاق العلماء على صحته. [١٠، ١٤، ١٧]

وترد في الفقيه وصية أم سليمان له بالتحذير من الإفراط في نوم الليل والغفلة عن الآخرة، وينقلها البحار عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله. ينبغي ألا يغيب صوتها من الفصل: إنها أم مربّية تخاطب ابنًا نبيًا، مع بقاء اسمها غير ثابت في هذا الخبر. وذكرها بهذا الوصف لا يثبت وحده أنها امرأة أوريا، ولا أنها الزوجة المذكورة في خبر اقتراح الوصي. [١٣]

ويبقى تفسير ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ محتاجًا إلى مراعاة البحث الإمامي في العلم والملك والمال؛ فلا يُختزل هنا إلى عبارة تستبعد الإرث المالي قطعًا من غير إقامة دليل. وينتقل التفصيل في ملك سليمان وبلقيس وآصف بن برخيا والهدهد والجن إلى الفصل التاسع والعشرين؛ لا تُدرج تلك الشخصيات تلقائيًا في بلاط داود.

٢١. العمر والوفاة: لا تاريخ مركّبًا من أخبار متعارضة

ينقل البحار من كمال الدين خبرًا يجعل عمر داود مائة سنة ومدة ملكه أربعين. وتختلف أخبار هبة آدم من عمره لداود؛ ففيها ثلاثون وخمسون وستون سنة، مع اختلاف ما يُذكر من أصل العمر. ويذكر المجلسي أن بعض الوجوه أوفق بسائر الأخبار. لا تُجمع هذه الأعداد حسابيًا لتوليد تاريخ ولادة أو وفاة يقيني، ولا يُحذف اختلافها لتقديم تقويم موحّد. [٢٢]

وفي الكافي خبر وفاته يوم السبت مفجوعًا به وأن الطير أظلّته. أما الحوار المفصل مع ملك الموت، وذكر الجارية غير المسمّاة التي تغلق الأبواب، والأب والأخ والجار والمعارف، وبعض أخبار الجنازة، فيُراجع مصدر كل زيادة؛ فما أورده المجلسي من ابن الأثير لا يصبح حديثًا عن أهل البيت. لا يحدّد القرآن سنة الوفاة أو موضع القبر، ولم يثبت في هذه المقابلة دليل كافٍ للجزم بأن مزارًا بعينه هو قبره التاريخي. [١٢، ٢٢]

وترد أخبار في ابتداء بناء بيت المقدس وإكمال سليمان له، وفي امتداد الملك إلى أقاليم مسمّاة، وفي بعض خصائص الولادة. يُحفظ ذلك في طبقة الأخبار مع مصادره، ولا تُنشأ منه خريطة حدود سياسية دقيقة أو سنة ميلادية قاطعة. ويتصل الختام المؤكد بما قرره القرآن من الزلفى وحسن المآب وباستمرار الهداية في سليمان. [١٢، ٢٢]

٢٢. امتداد الهداية وموقع داود بين الأنبياء

إيتاء داود الزبور لا يجعله، في التصنيف الإمامي المشهور، واحدًا من أولي العزم الخمسة. تسمي الروايات نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم السلام، وتربط ذلك بالعزائم والشرائع. فلا يلزم من اختصاصهم بهذا الوصف نقص في نبوّة داود؛ وقد مدحه القرآن وأثبت له الوحي والكتاب والحكمة. [٣٣]

وتربط روايات وراثة العلم بين داود وسليمان ورسول الله وأهل بيته. كما تذكر أخبار المهدي الحكم بحكم داود وسليمان، في سياق علم خاص وإقامة الحق، وتفسر بعض الروايات العباد الصالحين في الأنبياء ١٠٥ بأصحاب المهدي. المهدي وأصحابه شخصيات في الامتداد المستقبلي، لا معاصرون لداود. ولا تبيح هذه الأخبار للناس في حاضرهم ترك الضمانات القضائية أو ادعاء العلم بالغيب. [١٨-١٩، ٣٤]

وللأسماء التي تظهر في مناظرات العصمة وظيفة أخرى: آدم ويوسف وأيوب وموسى ويونس وغيرهم أمثلة يناقشها الإمام، وعيسى ومريم يَرِدان في المقارنة النصية. وكذلك محمد وعلي والأئمة الباقر والصادق والكاظم والرضا مصادر بيان ورواية في أزمنة لاحقة، لا أفراد في القصة القديمة. يرفع هذا الفصل الالتباس بين تاريخ الواقعة وتاريخ نقلها وتفسيرها. وفي خبر الراوندي ٢٦٤ يخاطب الصادقُ علقمةَ في رد الافتراء على الأنبياء، ويذكر زيد بن حارثة وامرأته ضمن ما اتُّهم به النبي ثم رُدَّ؛ فهؤلاء من إطار المقارنة اللاحق، لا من أهل عصر داود. [٢٠]

٢٣. سجل الشخصيات وحدود الحصر

الدائرة القرآنية المباشرة: داود، وسليمان، وطالوت، وجالوت؛ والنبي غير المسمّى في قصة طالوت؛ وصاحب الحرث وصاحب الغنم؛ والخصمان في المحراب؛ وآل داود رجالًا ونساءً؛ وجموع بني إسرائيل والمؤمنين والمعتدين بحسب السياق. لا تُستخرج أسماء أفراد هذه الجماعات من ألفاظ عامة لم تسمّهم.

الدائرة الأسرية والنسائية في الأخبار: الأب المختلف في اسمه وعدد أولاده؛ الإخوة؛ أم داود التي لم يثبت اسمها هنا؛ أم سليمان؛ زوجة داود وابنها في خبر الوصاية؛ ابنة طالوت في النقل التاريخي؛ الجارية في خبر الوفاة التاريخي؛ أوريا وامرأته في الأخبار المتعارضة؛ خلّادة بنت أوس وأبوها المذكور في نسبها؛ أم عاش الدين وولدها وزوجها المقتول؛ المرأة المستكرهة والمعتدي وزوجته والرجل الآخر؛ والعروس والشاب وأبوها في خبر إطالة العمر. وقد بُيّنت طبقة كل خبر في موضعه.

دائرة الحكمة والقضاء: متّى أبو يونس، ولقمان وأفراد أسرته غير المسمّين، وحزقيل، والملك ذو النقش المختلف في اسمه؛ وشيوخ الأسباط والعلماء؛ وأصحاب البستان والبقرة والوديعة وآباؤهم وخصومهم وشهودهم بحسب كل قصة؛ ورفاق السفر القاتلون وأطفال اللعب؛ والحاكم الجائر والعابد المتوفى والمشيّعون وأهل السوق والمشترون. وتظل بعض هذه الشخصيات في مواعظ أو أخبار لم يثبت اتصالها بالمعصوم.

الدائرة الملائكية وما عدا البشر: جبريل وميكائيل بحسب الروايات، وملك الموت؛ والجبال والطير والحديد في النص القرآني، وما يرد من حيوان أو سلسلة في أخبار الموعظة والقضاء. لا تدخل في تعداد الرجال والنساء، لكن ذكرها مستقلًا يمنع إسقاط عناصر القصة أو تحويلها إلى شخصيات بشرية.

إطار النقل اللاحق: أمير المؤمنين وشريح وقنبر وعبيد الله بن أبي رافع في خبر القضاء؛ والإمام الرضا وأبو الصلت وعلي بن محمد بن الجهم والمأمون في المناظرة؛ والصادق وعلقمة في خبر رد الافتراء، وزيد بن حارثة وامرأته في المقارنة؛ والأئمة والرواة والمفسرون بحسب الإحالات. لا يُعد كل اسم في سلسلة الإسناد شخصية في حياة داود. وما لم يثبت اسمه أو تاريخه بقي غير مسمّى أو غير مؤرَّخ، بدل استكماله بالتخمين.

٢٤. خاتمة: القوة التي يشهد عليها الشكر والعدل

تكتمل صورة داود في القرآن بترابط عطايا الله ومسؤولية العبد: نصر يتبعه حكم، وكتاب يصاحبه تسبيح، وصنعة تحمي الناس، وعلم يطلب إنصاف الخصم، وملك لا يستغني عن المحاسبة والإنابة. وإلى جواره لا تغيب الأسرة والنساء وأصحاب الحقوق: أم تعلّم، وامرأة صابرة، وأرملة يحفظ عرضها، وضحية لا تُحمَّل ذنب معتديها، وأم تنقل خبرًا يكشف جريمة.

ليس تمام الفصل في زيادة أسماء لا دليل عليها، بل في إثبات كل شخصية بقدر ما يشهد لها مصدرها، وتسجيل غير المسمّى دون إهماله، وإظهار موضع الاختلاف. ومن هنا ينتقل السرد إلى سليمان: وريثًا في سياق العلم والهداية، وصاحب ابتلاء وملك لهما تفصيل مستقل في الفصل التالي.

المراجع والإحالات المحققة

الآيات موثقة بالسورة ورقم الآية في المتن. أرقام الإحالات الآتية تحيل إلى مواضع داخل المصادر، ولا تمثل عدد كتب مستقلة. عند اختلاف الطبعات يُقدَّم اسم الباب ورقم الحديث أو الآية، وتُذكر صفحات بحار الأنوار بحسب ترقيم الجزء الرابع عشر في النص المقابل. الإحالة إلى مصدر بواسطة البحار مصرح بها ولا تعني فحص مخطوط الأصل.

[١] القرآن الكريم: المواضع الستة عشر المبينة في القسم الثاني، مع سياقاتها؛ ولا سيما البقرة ٢٤٦–٢٥١، والأنبياء ٧٨–٨٠، وسبأ ١٠–١٤، وص ١٧–٣٠.

[٢] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير ص ٢١–٢٥: معنى الخصم، ورفض قصة القتل والفاحشة، ووجوه تفسير الإنابة.

[٣] الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ص ٢١–٢٥؛ والأنبياء ٧٨–٧٩ و١٠٥، كما نقلت مواضعه أيضًا في البحار ١٤، ص ٣٣ و١٣٠–١٣١.

[٤] الفيض الكاشاني، الصافي، تفسير الأنبياء ٧٩، في جمع أخبار الكافي والقمي عن الحرث والغنم؛ وتفسير البقرة ٢٤٩–٢٥١ في أخبار طالوت وداود.

[٥] تفسير العياشي، الجزء الأول، أخبار البقرة ٢٤٩–٢٥١؛ وتُراجع أخبار المائدة ٧٨ والأعراف ١٦٣–١٦٦ في مواضعها. الجزء المتاح لا يمتد إلى سورتي الأنبياء وص، فلا تصح الإحالة إلى تفسيرهما فيه بلا نص محفوظ مستقل.

[٦] تفسير القمي، أخبار البقرة ٢٤٩–٢٥١، والأنبياء ٧٨–٧٩، وص ١٧–٢٦؛ قوبلت نقوله في الصافي والبرهان ونور الثقلين والبحار، مع عدم التسوية بين جميع طرق الكتاب.

[٧] هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، تفسير ص ١٧–٢٦، الأخبار المرقمة ٩٠٧٦–٩٠٨٤ في العرض المقابل، ومنها خبر العيون ونقلا القمي المختلفان.

[٨] الحويزي، نور الثقلين، أخبار داود في تفسير سورة ص، ولا سيما أخبار مجلس الإمام الرضا والاحتجاج والقمي؛ موضع العرض الإلكتروني المربوط لا يطابق دائمًا أول آية للنص المعروض.

[٩] السيد الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير ص ١٧-٢٩، في بحث تمثّل الخصمين ومقام النبوّة؛ استُعمل هنا لبيان وجه تفسيري محدد، لا لتصحيح جميع الروايات.

[١٠] الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب السابع، الحديث الأول، ص ١٥٣-١٥٦ في العرض المقابل؛ خبر طالوت وظهور داود، ثم استخلاف سليمان وما بعده.

[١١] الصافي، تفسير البقرة ٢٤٩ وما يتصل بها، نقلًا عن القمي؛ وقوبل بخبر كمال الدين لتمييز اسم الأب وعدد الإخوة والحجارة والسلاح.

[١٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٤، الباب الأول، ص ١٤-١٥ وما يتصل بها، نقل ابن الأثير في النسب والأولاد والوفاة؛ وج ١٣، باب قصة إشمويل وطالوت وجالوت، في نقد المطاعن التاريخية على طالوت.

[١٣] الصدوق، من لا يحضره الفقيه، خبر وصية أم سليمان؛ نقله البحار ١٤، الباب العاشر، الحديث ٨، ص ١٣٤، عن جابر بن عبد الله عن رسول الله.

[١٤] الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب «أن الإمامة عهد من الله عز وجل معهود من واحد إلى واحد»، الحديث ٣؛ وحكم المجلسي: «ضعيف على المشهور»، مرآة العقول ٣/١٨٤. ونقله البحار ١٤، ص ١٣٢-١٣٤.

[١٥] الصدوق، عيون أخبار الرضا، الباب الرابع عشر، الحديث الأول: رواية أبي الصلت الهروي، ومحاورة علي بن محمد بن الجهم للإمام بحضرة المأمون؛ قوبلت بنقول البرهان ونور الثقلين والبحار.

[١٦] بحار الأنوار ١٤، الباب الثاني، ص ١٩-٣٢: قصة الخصمين ونقد خبر أوريا؛ وقطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الحادي عشر، الأخبار ٢٦٢-٢٦٤ في النسخة المقابلة.

[١٧] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الحادي عشر، خبر ٢٦٧ في استخلاف سليمان، والباب الثاني عشر، خبر ٢٧١ في آل داود، مع اختلاف النسخ؛ والبحار ١٤، ص ٦٧-٧١.

[١٨] بحار الأنوار ١٤، الباب الثالث، ص ٣٣-٤٨: أخبار نزول الزبور والحكم، وذيل منقول عن سعد السعود لابن طاوس، ص ٤٧-٥١ من ترقيم المصدر الذي أثبته المجلسي.

[١٩] الكافي ١/٢٢٥، أخبار وراثة علم الأنبياء والكتب، ومنها حديث ضريس الكناسي بحضور أبي بصير؛ وقوبلت بنقول البحار في أبواب داود.

[٢٠] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الحادي عشر، الأخبار ٢٥٠-٢٦٤، ص ١٩٨-٢٠٥ تقريبًا في النسخة المقابلة: المواعظ وقضايا الدم والمال والسلسلة وردّ التهمة.

[٢١] نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠، وصف داود وصناعة الخوص وقوت الشعير؛ ونقلها البحار ١٤، الباب الأول، الحديث ٢٥، ص ١٥.

[٢٢] بحار الأنوار ١٤، الباب الأول، ص ١-١٨، ولا سيما أخبار الوفاة والعمر والكسب والصوم والحج والضفدع والدودة؛ نُسب كل أصل فيه إلى كتابه ولم يُصحح الباب جملة.

[٢٣] بحار الأنوار ١٤، الباب العاشر، الأخبار ٢-٧، ص ١٣١-١٣٤، عن القمي والمحاسن والفقيه والتهذيب والكافي؛ والصافي عند الأنبياء ٧٩، في اختلاف صور حكم الحرث والغنم.

[٢٤] بحار الأنوار ١٤، الباب الأول، الحديث ٢٠، ص ١١-١٣، نقل خبر «مات الدين/عاش الدين» وإطاره في قضاء أمير المؤمنين من كتب القضاء الحديثية.

[٢٥] الفقيه، خبر إبراهيم بن أبي البلاد في المرأة المستكرهة؛ نقله البحار ١٤، الباب الثالث، الحديث ٢٨، ص ٤١، مع ملاحظة عدم التصريح برفعه إلى الإمام في هذا الموضع.

[٢٦] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الحادي عشر، الحديث ٢٦٨، ص ٢٠٦-٢٠٧، خبر خلّادة بنت أوس؛ والبحار ١٤، الباب الثالث، الحديث ١٨، ص ٣٩.

[٢٧] ورّام، تنبيه الخواطر، ج ١، ص ١٨-١٩، علي بن الحكم عمّن رفعه إلى الإمام الصادق، خبر متّى أبي يونس؛ نقله البحار ١٤، الباب السادس والعشرون، الحديث ١٦، ص ٤٠٢-٤٠٣.

[٢٨] الراوندي، قصص الأنبياء، خبر لقمان، الحديث ٢٤١ في العرض المقابل، ص ١٩٢-١٩٣: الحكمة وأحوال أسرته وصلته بداود؛ مع أصل الحكمة في لقمان ١٢-١٩.

[٢٩] بحار الأنوار ١٤، الباب الثاني، الحديث ٣، ص ٢٥-٢٦، عن الصدوق، خبر حزقيل والنقش على سرير الملك؛ مع اختلاف ضبط اسم الملك.

[٣٠] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الحادي عشر، الحديث ٢٦٥، ص ٢٠٥-٢٠٦، خبر الشاب والعروس وملك الموت؛ والبحار ١٤، الباب الثالث، ص ٣٨-٣٩.

[٣١] بحار الأنوار ١٤، الباب الثالث، الأخبار ١٩-٣١، ص ٣٩-٤٢، بنقول الكافي والاختصاص وإرشاد القلوب وتنبيه الخواطر والزهد: اللسان والتواضع والتوبة والعدل وخبر العابد.

[٣٢] بحار الأنوار ١٤، الباب الرابع، ص ٤٩-٦٤، قصة أصحاب السبت واختلاف أخبار المسخ، خصوصًا الخبرين ١٤-١٥ وتعقيب المجلسي؛ والراوندي، قصص الأنبياء، الحديث ٢٦٩.

[٣٣] بحار الأنوار، ج ١١، ص ٥٦، نقل المحاسن عن سماعة عن الإمام الصادق في أولي العزم الخمسة، وتراجع نظائره في البرهان عند الأحقاف ٣٥، ولا سيما الخبر المنقول عن الإمام الرضا.

[٣٤] الكافي ١/٣٩٧-٣٩٨، أخبار حكم القائم بحكم داود وسليمان؛ والإرشاد في أخبار قيامه، كما نقلها البحار في أبواب داود. يُقرأ ذلك مع اختصاص العلم والقضاء الإلهي، لا بوصفه قاعدة لإسقاط البيّنة في قضاء عامة الناس.

الفصل ٢٩ — سليمان عليه السلام — الملك المسخّر والحكمة

١. مدخل: نبيٌّ يُمتحن بالنعمة

تبدأ صورة سليمان في القرآن من العبودية والوحي، لا من الخاتم والعجائب. وهبه الله لداود، وآتاه الحكم والعلم، وسخّر له من خلقه ما صار آية على قدرته سبحانه. ومع اتساع الملك بقي سليمان يسأل ربّه الشكر والعمل الصالح، ويعرف أن العطاء امتحان. وتضبط سيرته عبارتان قرآنيتان: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» في ص ٣٠، و«وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ» في البقرة ١٠٢. فلا تُقدَّم حكاية تنقض هذين الأصلين باعتبارها حقيقة قرآنية. [١, ٦]

٢. الخريطة القرآنية: سبع سور وستّ عشرة آية مسمّاة

يرد اسم سليمان سبع عشرة مرة في ستّ عشرة آية من سبع سور؛ إذ يتكرر مرتين في البقرة ١٠٢. والمواضع هي: البقرة ١٠٢؛ النساء ١٦٣؛ الأنعام ٨٤؛ الأنبياء ٧٨ و٧٩ و٨١؛ النمل ١٥ و١٦ و١٧ و١٨ و٣٠ و٣٦ و٤٤؛ سبأ ١٢؛ ص ٣٠ و٣٤. ويشمل فهم القصة الآيات المتصلة التي لا تكرر الاسم: الأنبياء ٧٨–٨٢، والنمل ١٥–٤٤، وسبأ ١٢–١٤، وص ٣٠–٤٠. [١–٦]

تثبت النساء ١٦٣ الوحي إليه ضمن سلسلة الأنبياء، وتضعه الأنعام ٨٤ في سياق الهداية والإحسان. وتعرض الأنبياء القضاء والتسخير، والنمل العلم والجيش والنملة والهدهد وملكة سبأ، وسبأ العمل والشكر والوفاة، وص الخيل والابتلاء والعطاء. أما البقرة فتردّ نسبة السحر والكفر إليه. هذه الخريطة تمنع اختزال الفصل في قصة الملكة، كما تمنع نسبة أسماء وتواريخ إلى القرآن لم يذكرها. [١–٦]

٣. ابن داود ووارثه: العلم والمال والاصطفاء

تثبت بنوّة سليمان لداود في ص ٣٠، ويجمعهما النمل ١٥ في العلم والحمد. ثم يقول تعالى: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ». ولا يصح، في فصل يتبع تفسير أهل البيت، الجزم بأن الميراث هنا علمٌ فقط مع نفي المال؛ فالطبرسي يستدل بالآية على توريث الأنبياء المال، ويذكر أن هذا هو الصحيح عند أهل البيت في مقابل حصر الميراث في العلم والنبوّة والملك على وجه المجاز. [٦–٧]

يمكن عرض انتقال العلم والقيادة في سياق السيرة، مع حفظ هذا الدليل وعدم تحويل النبوّة نفسها إلى حقٍّ عائليّ آليّ. فالوحي اصطفاء إلهي، والعلم أمانة، والمال له باب الإرث. ويذكر دعاء سليمان في النمل ١٩ نعمة الله عليه وعلى والديه؛ فتدخل أمّه في دائرة الشخصيات القرآنية بالإشارة، وإن لم يذكر القرآن اسمها. ولا تعطي هذه الآيات تاريخ ولادته أو أسماء جميع إخوته وأخواته. [٢, ٤, ٧]

٤. إظهار حكمته واستخلافه في حياة أبيه

يروي كمال الدين، في خبر عن الإمام الصادق، أن داود أعلن اختيار سليمان، فاعترض بعض رؤوس أسباط بني إسرائيل لصغر سنّه. وجاء امتحان العصيّ المكتوبة بأسماء أصحابها وإظهار علامة في عصا سليمان، ثم سؤاله عن العفو والمحبّة. وله نظائر في قصص الراوندي والكافي، تختلف طرقها وبعض ألفاظها. وتؤكد هذه الأخبار أن ظهور الحجة بالعلم والتعيين لا بكِبَر السنّ وحده؛ لكنها لا تسمح بتصحيح جميع طرق القصة بحكم واحد. [٩, ١٢]

وفي الكافي خبر آخر يذكر زوجة غير مسمّاة لداود وابنًا لها رغبت في استخلافه، ثم جعل الفصل في الأمر بما أظهره الله من حكم سليمان في قضية الغنم والكرم. وحكم المجلسي على هذا الطريق بأنه ضعيف على المشهور. تُذكر الزوجة وابنها وسائر أبناء داود وعلماء بني إسرائيل بوصفهم شخصيات في هذا الخبر، ولا يُجزم باسم المرأة أو ابنها، ولا تُخلط هذه الزوجة بأم سليمان دون دليل. [١٠]

٥. قضية الحرث: إنصاف المتضرّر وحفظ قدر النبيَّين

تذكر الأنبياء ٧٨–٧٩ داود وسليمان في حكم الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، وتخصّ سليمان بالتفهيم مع إثبات الحكم والعلم لكليهما. وشخصيتا الخصومة، صاحب الحرث وصاحب الغنم، غير مسمّاتين. وتشرح روايات أهل البيت أثر دخول الماشية ليلًا، والفرق بين إتلاف أصل الكرم وأكل ثمره، وبين تمليك رقاب الغنم وتعويض صاحب الزرع من نتاجها أو لبنها وصوفها. [٣, ١٠–١١]

وتختلف الروايات في تصوير المسألة: ففي بعضها إظهار داود علم ابنه، وفي بعضها مذاكرة قبل الحكم، وفي بعضها حكمٌ وفق ما أوحي لكل نبي. فلا تُجمع هذه الوجوه في تفصيل واحد، ولا يُجعل تفهيم سليمان اتهامًا لداود بالظلم. موضع الاتفاق القرآني هو علم النبيَّين وعدالة القضاء، وأما صورة التعويض وتفصيل زمن الحراسة فمن البيان الروائي والفقهي، لا من ألفاظ الآيتين وحدهما. [٣, ١١]

وتوجد قصة مشهورة لامرأتين وطفلين، أخذ الذئب أحد الطفلين، ثم كشف سليمان الأمّ باستثارة شفقتها عندما ذُكر شقّ الطفل الباقي. نقلها البحار في موضع آخر عن الصحيحين، عن أبي هريرة، بواسطة النقل من حياة الحيوان. لذلك تُسجَّل المرأتان والطفلان هنا لاستكمال ما يختلط على القارئ، مع التصريح بأن هذا الطريق ليس رواية عن أحد أئمة أهل البيت، ولا نصًا قرآنيًا. [١٣]

٦. أمّ سليمان: حضور الأمومة والنصيحة

لا ينبغي أن تغيب أمّ سليمان عن الفصل لأن النص لم يسمّها. ففي الدعاء القرآني شكرٌ للنعمة على الوالدين، وفي الفقيه خبر عن جابر بن عبد الله عن رسول الله يتضمن نصيحتها لابنها بألا يكثر النوم بالليل، لما في ذلك من تفويت زاد الآخرة. تُروى النصيحة في باب تهذيب النفس، مع نسبتها إلى مصدرها، ولا يُستخرج منها اسم للأم أو سيرة كاملة لها. [٤, ١٤]

وتظهر أمّ سليمان أيضًا في قصة الخاتم المنقولة في تفسير القمي، حين يستغرب الناس تغيّر سلوك من يظنونه سليمان ويسألونها عنه. هذا موضع داخل خبر مشكل سيأتي نقده، فلا يُستعمل لإثبات تفاصيل جديدة في سيرة الأم. وإثبات حضورها في دعاء القرآن أو في خبر مستقل لا يصحّح تلقائيًا كل حكاية أخرى أُدخلت فيها. [٢٥-٢٦]

٧. الزوجة في خبر الاستتار وأبواها والصيّاد

يتابع خبر كمال الدين أن سليمان أخفى أمره وتزوّج امرأة غير مسمّاة. أقام في مؤونة أبيها، فشجّعته على طلب الرزق، وواسته حين عاد دون كسب. وفي اليوم الثالث أعان صيّادًا فأعطاه سمكتين، فوجد خاتمًا في إحداهما، ثم دعا أبوي زوجته إلى الطعام بطلب منها، وكشف لهم عن نفسه. وينتهي هذا المشهد بحمل الزوجة وأبويها إلى إصطخر واجتماع أتباعه إليه. [٩]

تحضر هنا أربع شخصيات بشرية حول سليمان: زوجته، وأبوها، وأمّها، والصيّاد، وكلهم بلا أسماء في هذا الطريق. وتظهر الزوجة صاحبة مبادرة وتشجيع وصلة بأبويها. لا يصح تسميتها بلقيس، ولا مساواتها بالزوجة اليمنية أو أمينة أو جرادة في أخبار أخرى. كما لا يُدمج خبر الاستتار هذا مع حكاية استيلاء شيطان على النبوّة؛ فالاشتراك في السمكة والخاتم لا يلغي اختلاف السياق والمضمون. [٩, ٢٥]

٨. الزوجات والأبناء: ما ترويه النصوص وما لا تسمّيه

تذكر بعض الأخبار كثرة نساء سليمان؛ ففي نقل الكافي وغيره عدد ألف، يُفصَّل إلى ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرية، ويصف نقل الراوندي الإماء بأنهن قبطيات. وهذا تفصيل روائي لا تعداد قرآني، كما أن لفظ السراري غير لفظ الزوجات بعقد الزواج. ولا تمنحنا هذه الأخبار قائمة أسماء، وفي بعض طرقها إبهام أو إرسال؛ فلا تُحوَّل الأعداد إلى إحصاء تاريخي قطعي للأسرة. [١٥]

وفي تفسير القمي خبر زوجة يمنية غير مسمّاة وولد لها، ضمن تفسير الجسد على الكرسي. وفي خبر آخر يُطلب من سليمان أن يستخلف ابنًا لا يسمّيه النص، فيختبره فلا يجيب. ويروي ورّام نصيحة سليمان لابنه بترك المراء لما يولّده من عداوة. لا يثبت من ذلك أن الأبناء المذكورين شخص واحد، ولا أنهم ثلاثة أشخاص مختلفون قطعًا، ولا تُلصق بهم أسماء مستوردة من أخبار أخرى بلا بيّنة. [١٤, ٢٥, ٣٢]

وتذكر رواية الراوندي في آل داود ثمانين رجلًا وسبعين امرأة يتعاقبون على العبادة، مع اختلاف عددي في النسخ نبّه إليه المحقق، كما تقدم في فصل داود. هذا عددٌ لآل داود في الخبر، وليس نصًا على أن الرجال جميعًا أبناء سليمان أو النساء جميعًا زوجاته. وما لم يسمّه القرآن أو الرواية يُحفظ بوصفه: امرأة، ابن، خادم، جماعة؛ فصيانة الاسم المجهول جزء من أمانة الحصر. [١٢]

٩. الملك والريح: سلطان ممنوح وحدود معلومة

في الأنبياء ريح عاصفة تجري بأمر سليمان إلى الأرض المباركة، وفي سبأ غدوّها شهر ورواحها شهر، وفي ص ريح رخاء تجري حيث أراد. تُقرأ الأوصاف في سياق التسخير الإلهي، لا بوصفها قوة ذاتية مستقلة للنبي. ويذكر القرآن جنودًا من الجن والإنس والطير، ونظامًا يضبط حركتهم، دون أن يعيّن عدد الجيش أو مساحة بساط أو خارطة تفصيلية لجميع البلاد. [٣–٦]

تذكر الأخبار الشام وبيت المقدس وإصطخر، وتصف مواكب وأسفارًا وأعدادًا مختلفة. تثبت هذه الأسماء في مواضع روايتها، ولا يساوي تكررها إثبات تاريخ عسكري حديث أو مسار جغرافي يقيني. أما طلب سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فيفسّره خبر عن الإمام الكاظم بملك تظهر هبته من الله ولا يُنسب إلى القهر والجور، ويذكر الطوسي وجوهًا في كونه آية مخصوصة. فالخصوصية لا تستلزم البخل ولا تنقص ما آتاه الله أنبياءه بعده. [١٢, ١٦, ٢٤]

١٠. العجوز والريح وأصحاب السفينة

يروي المحاسن عن أبي الحسن الثاني، الإمام الرضا، أن امرأة عجوزًا اشتكت إلى سليمان من الريح، فقد مرّت بها وهي على سطحها فسقطت وانكسرت يدها. وفي الخبر أن الريح كانت مسرعة لإنقاذ سفينة من الغرق، فسأل سليمان ربّه عن الحكم، فجاء التعويض عن الكسر على أرباب السفينة التي انتفعت بالإنقاذ. وهذه من الشخصيات النسائية التي يُغفلها الاقتصار على بلقيس. [١٧]

المرأة وأصحاب السفينة غير مسمّين، والطريق يمر بمحمد بن سليمان الديلمي؛ لذلك يُعرض الخبر منسوبًا إلى مصدره دون ادعاء تصحيحه هنا. ومعناه التربوي أن مصلحة الجماعة لا تجعل أذى الفرد أمرًا لا يُلتفت إليه. أما تنزيل تفاصيله على أحكام الضمان المعاصرة فبحث فقهي مستقل، وليس غرض السرد التاريخي في هذا الفصل. [١٧]

١١. البناء والصناعة: العمل الذي يُقابَل بالشكر

تذكر سبأ عين القطر، والمحاريب والتماثيل والجفان كالجواب والقدور الراسيات، ثم تأمر آل داود بالعمل شكرًا. وتذكر ص البنّائين والغوّاصين وآخرين مقرنين في الأصفاد. لا يسمّي القرآن أفراد هؤلاء الصنّاع أو العاملين، ولا يجعل كل إنسان عمل في المملكة صالحًا بالضرورة، كما لا يجعل جميع الجن صنفًا واحدًا في الإيمان والطاعة. [٥–٦]

ويرد عن الإمام الصادق في المحاسن والكافي تفسير التماثيل بالشجر وشبهه، مع نفي كونها تماثيل رجال ونساء. يُذكر هذا البيان بوصفه تفسيرًا روائيًا، دون استخراج وصف تفصيلي لمادة كل أثر أو صناعة من ألفاظ الآية. وتُروى أخبار بناء بيت المقدس واستعمال العمّال والمهرة ومواد النفائس، لكن جانبًا واسعًا من التفصيل الذي يجمعه البحار هنا من أخبار المفسرين والمؤرخين، لا من حديث مسند عن إمام. [١٨]

ولهذا لا تُنسب إلى سليمان على سبيل اليقين مقاييس القصر أو أعداد أعمدته أو اختراع كل حمّام ورحى ونوع بناء. وتبقى دلالة الآيات أوضح: القدرة على الإنجاز لا تعفي من الشكر، وإدارة العمل جزء من الأمانة التي يراقب الله أصحابها. [٥, ١٨, ٢١]

١٢. العبادة والتواضع والحج ولقاء متّى

تعرض كتب المواعظ سليمان مطعمًا للناس، قليل التكلّف في طعام نفسه، قريبًا من المساكين، مشتغلًا بالذكر. وتختلف أسانيد هذه الأخبار؛ ففيها المرسل والنقل الوعظي. وفي الخبر عن حجّه وكسوته البيت بالقباطي طريقٌ عن زرارة عن الإمام الباقر نقله الفقيه. فلا تُجعل الأخبار المرسلة عن مروره بمكة دون نزول ناسخةً لهذا الخبر، ولا تُدمج الرحلات المختلفة في رحلة واحدة. [١٩]

وسبق في الفصل الثامن والعشرين تفصيل زيارة داود وسليمان لمتّى أبي يونس، كما يرويها تنبيه الخواطر بطريق فيه واسطة غير مسمّاة. تُستحضر هنا لدلالتها على تواضع سليمان وشكر الرزق، مع بقاء يونس اسمًا للتعريف بأبيه، لا شاهدًا على حضوره الزيارة. [٢٠]

وتُروى مواقف مع فلاح أو عابد يتعجب من عظمة الملك، فيرده سليمان إلى فضل التسبيح وما يبقى من العمل الصالح. ويعرض نهج البلاغة وفاة سليمان مثالًا على أن الملك لا يمنع انقضاء الأجل. وفي كل ذلك تبقى السيادة خاضعة للعبودية، ويصبح التواضع معنى يُقاس به استعمال النعمة، لا وصفًا يُستنتج من فقر صاحبها أو غناه وحدهما. [١٩, ٣٣]

١٣. النملة والطير: الإصغاء إلى ما يصغر في أعين الناس

في وادي النمل تحذّر نملة قومها من أن يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون؛ فيتبسم ويدعو بالشكر والعمل الصالح والدخول في عباد الله الصالحين. ليست في الآية تسمية للنملة، ولا تحديد يقيني لمكان الوادي، ولا نص بأنها «ملكة النمل». وتأنيث لفظ نملة في العربية لا يكفي وحده لبناء وصف علمي لجنسها أو نظام مستعمرتها. وهي شخصية حيوانية في القصة، لا شخصية نسائية بشرية. [٤, ٧, ٢١]

وفي عيون أخبار الرضا وعلل الشرائع خبر عن محاورة النملة وتذكيرها بزوال ما تحمله الريح من مظاهر الملك. وتُروى قصة أخرى لنملة تستسقي، فيرجع سليمان ومن معه وقد كُفوا بغيرهم، وهي غير حادثة الوادي من جهة النص. وفي الكافي خبر زوج من القنابر وبيضهما وتنحية الجيش عن موضعهما، مع إرسال في الطريق. لا يُجعل جمع هذه الأخبار دليلًا على اتحاد النملات أو على صحة كل تفصيل حيواني. [١٢, ٢١]

ويجمع البحار أيضًا مواعظ عن عصفورين ومخلوق بحري ودودة في صخرة، مع اختلاف مصادرها ووجود إرسال أو عدم تعيين للقائل. تحفظ مواضعها بصفتها مواعظ منقولة، ولا تُنسب كلها إلى أهل البيت أو تتحول إلى تقرير في علم الحيوان. أما أصل فهم سليمان منطق الطير، فثابت في القرآن. [٤, ٢١]

١٤. الهدهد: الخبر والبيّنة ومسؤولية التحقّق

يتفقّد سليمان الطير فيفقد الهدهد، ويقرن الوعيد بإمكان تقديم سلطان مبين. يعود الهدهد بخبر امرأة تملك سبأ، وعرش عظيم، وقوم يسجدون للشمس. لا يُردّ خبره لمجرد صغر ناقله، ولا يُقبل بلا امتحان؛ بل يرسل سليمان كتابه وينتظر ما يرجع به الجواب. ومن هنا يتصل العلم بالتثبت، وتظهر مسؤولية القائد في سماع الحجة. [٤]

تختلف الأخبار في سبب تفقد الهدهد: الدلالة على الماء أو التظليل أو غير ذلك. ويروي مجمع البيان عن العياشي محاورة أبي حنيفة والإمام الصادق في إبصار الهدهد الماء وعدم إبصاره الفخ عند نزول القدر. الإحالة هنا إلى نقل الطبرسي عن العياشي، لأن القسم المتاح من تفسير العياشي لا يمتد إلى سورة النمل. وأما اسما «يعفور» لهدهد سليمان و«عنقير»، وفي نسخة «عنفير»، لهدهد اليمن، فمن حكاية الثعلبي التي نقلها البحار، وليسا اسمين قرآنيين ولا ثابتين هنا عن إمام. [٢٢]

١٥. ملكة سبأ: امرأة تتخذ القرار

يقدّم القرآن الملكة بصفتها السياسية: امرأة تملك قومها، ولها عرش عظيم. لا يذكر اسمها، لكن اسم بلقيس حاضر في الروايات، ومنها أخبار آصف في الكافي. وهي لا تظهر صامتة في القصة؛ تستشير ملأها، وتقدّر عواقب دخول الجيوش، وترسل مبعوثين، وتجيب عن عرشها، ثم تعلن إسلامها بلسانها. ومن الإنصاف إظهار هذه الأفعال، لا اختزال شخصيتها في وصف ساقيها أو في خبر زواج مختلف فيه. [٤, ٢٣]

يسجل القرآن سجودها وقومها للشمس قبل إسلامها، ويبين أثر ما اعتادوه من عبادة غير الله. لكنه لا يمنع عنها التعقل أو القدرة على مراجعة الموقف. وعبارة «أوتيت من كل شيء» تُفهم في سياق سعة أسباب الملك، لا امتلاك كل ممكن بلا استثناء. وملؤها وقومها حاضرون جماعةً بلا أسماء؛ فلا ننسب إلى القرآن أسماء الوزراء والقادة أو أعداد جنودهم التي تضيفها الحكايات. [٤, ٧, ٢٢]

١٦. الكتاب والهدية والرسل

يبدأ الكتاب بالبسملة، ويصل إلى الملكة دعوةً إلى ترك الاستعلاء والإتيان مسلمين. تعرضه على ملئها، فيعلنون القوة ويفوّضون إليها القرار، فتختار إرسال هدية وانتظار نتيجة السفارة. ويرد سليمان بأن ما آتاه الله خير، فلا تجعل الهدية الدعوة سلعةً تُشترى. ويُقرأ الوعيد اللاحق ضمن مشهد الدعوة والجواب، دون إضافة حربٍ وقعت بالفعل؛ إذ ينتقل النص إلى مجيئها وإسلامها. [٤]

وردت في التفاسير تفاصيل اختبارات الجواهر والخيط، وغلمان وجوارٍ في لباس متشابه، وصنوف الذهب والخيل. وينقل مجمع البيان خبر المبعوث «المنذر بن عمرو» في سياق حكايات وهب وغيره. لذلك يُسجَّل الاسم والغلمان والجواري وسائر المبعوثين بوصفهم إضافات روائية أو قصصية بحسب

الطريق، لا أفرادًا سمّاهم القرآن أو ثبتت جميع أوصافهم عن أهل البيت. أما نص القرآن فيثبت الرسل والهدية دون هذا التعداد. [٢٢]

١٧. العرش وآصف والعفريت

عندما يطلب سليمان إحضار العرش، يعرض عفريت من الجن أن يأتي به قبل قيامه من مقامه، ثم يعرض الذي عنده علم من الكتاب إحضاره قبل ارتداد الطرف. لا يسمّي القرآن أيًّا منهما. وتسمّي روايات الكافي الشخص الثاني آصف، وتذكر أن عنده علمًا من اسم الله الأعظم، وأن ما وقع كان بقدرة الله. وحين يرى سليمان العرش مستقرًا عنده ينسب الفضل إلى ربّه ويسأل نفسه عن الشكر والكفران. [٤, ٢٣]

لا ينبغي أن يُختزل هذا العلم في تعويذة مستقلة عن الإذن الإلهي، ولا أن يُستدل بالفعل وحده على نقص علم سليمان. ففي جواب منسوب إلى الإمام الهادي، نقله تحف العقول وروته كتب التفسير، بيان أن إظهار علم آصف كان لتعريف الجن والإنس بالحجة من بعد سليمان. ورد الجواب في مسائل يحيى بن أكثم التي حملها موسى بن محمد إلى أخيه الإمام؛ فهؤلاء من سياق نقل التفسير المتأخر، لا من أهل مجلس سليمان. [٣٤]

ويعرض مجمع البيان أقوالًا أخرى في تعيين صاحب العلم: بلخيا، وأسطوم، والخضر، وجبرئيل، بل سليمان نفسه في قول يضعّفه. تُذكر هذه الأقوال عند تحرير الخلاف، ولا تُضاف شخصياتها كلها إلى مشهد العرش كأنها حضرت معًا. والمعتمد في العرض الروائي الإمامي هنا هو تعيين آصف، مع بقاء اسم العفريت غير ثابت في القرآن. وسيُفرد الفصل الثلاثون لآصف والعلم والوصية. [٢٢-٢٣, ٣٤]

١٨. الصرح وإسلام الملكة وحدود خبر الزواج

يُغيَّر العرش وتُسأل الملكة عنه فتجيب بما يحفظ التثبت: «كَأَنَّهُ هُوَ». ثم ترى الصرح فتحسبه ماءً وتكشف عن ساقيها، فيُبيّن لها أنه صرح ممرد من قوارير. وينتهي المشهد بإقرارها بظلم نفسها وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين. فالغاية المعلنة هي التوحيد، ولا يذكر القرآن شكل الساقين أو لون البشرة أو جمال المرأة أو زواجًا وقع بعد ذلك. [٤]

تنقل كتب التفسير خبر شعر ساقيها وصناعة النورة، وتختلف في مصيرها: زواجها من سليمان، أو تزويجها ملكًا يُسمّى تبّعًا وإعادتها إلى بلادها. وفي تفسير القمي المنقول في البحار نصّ على زواج سليمان بها؛ لكنه يأتي ضمن السرد التفسيري، فلا تُلحق الفقرة آليًا بقول الصادق الذي يليها ولا يُدَّعى أن كل كلمة فيها حديث مسند. يثبت الفصل إسلامها يقينًا بنص القرآن، ويذكر الزواج باعتباره خبرًا منقولًا مختلفًا فيه. [٢٢]

١٩. نسب بلقيس والأسماء التاريخية المختلف فيها

يختلف ضبط اسم أبي بلقيس بين الشرح أو شراحيل أو شرحبيل وألفاظ أخرى في النسخ والنقول، ويرد لقب الهدهاد. وتنقل حكاية الثعلبي أن أمّها جنيّة اسمها ريحانة بنت السكن، وفي النسخ اختلاف، مع اسم آخر للملكة بصيغتي تلقمة وبلعمة. لا يثبت شيء من هذا في القرآن، ولا يكفي نقل المجلسي له في الهامش لإثبات سند إلى أهل البيت. لذلك لا يُبنى نسب يقيني للملكة على هذه الحكاية، ولا يثبت أنها نصف إنسانة أو أن لها حافرًا. [٢٢]

ومن الأسماء الواردة في حواشي النقول «كودن» للعفريت، و«ناطورا» في تسمية صاحب العلم، و«شمعياء» في نسبه، و«زوبعة» لأمير الجن في اليمن، و«تبّع» في خبر زواج الملكة. ويقال في أحد الأقوال إن آصف ابن أخت سليمان، فتظهر أخت غير مسمّاة في هذا القول وحده. تُحفظ هذه الأسماء ودرجة ورودها في سجل الخلاف، ولا تُساوى بالأسماء القرآنية أو بتعيين آصف في روايات الكافي. [٢٢–٢٣]

وتظهر في خبر التيجان المنقول في هامش البحار شخصية «البشر» الجرهمي في سياق مكة، وتَرِد أنساب لسبأ بوصفه أصلًا قبليًا في أقوال المفسرين. هذه مادة تاريخية جانبية، وليست قائمة شهود في مجلس سليمان. إن استيعاب الاسم لا يعني تبنّي حكايته؛ بل قد يكون موضعه الصحيح التنبيه إلى أنه لم يثبت في نطاق الروايات المعتمدة هنا. [١٩, ٢٢]

٢٠. الصافنات الجياد: تحرير معنى المسح والوقت

تذكر ص ٣١–٣٣ عرض الخيل، وحب الخير، والتواري بالحجاب، والردّ والمسح بالسوق والأعناق. وقد تعددت الأقوال في عود الضمير إلى الشمس أو الخيل، وفي معنى المسح. فمنها المسح باليد أو الاعتناء بالخيل، ومنها الذبح للقربة والصدقة في بعض الوجوه التفسيرية، ومنها حكاية قتلها عقوبةً لأنها شغلته. ولا يصح عرض جميع ذلك بوصفه قولًا واحدًا لأهل البيت. [٦, ٢٤–٢٧]

ينكر الصدوق نسبة معاقبة الخيل بغير ذنب إلى سليمان، وينقل عن الإمام الصادق خبر رد الشمس ثم مسح سليمان ساقيه وعنقه وأمر أصحابه بمثله، بوصفه طهورًا في ذلك الخبر. وهذا غير تفسير المسح بمسح أعناق الخيل؛ فلا يُمزج الوجهان. ويذكر الطبرسي نقلًا عن أمير المؤمنين يردّ فيه قول كعب في ظلم الخيل، كما ترد في روايات الإمامية عبارة فوات أول الوقت. والآيات لا تفصل بنفسها كل هذه الوجوه. [٢٥–٢٧]

يثبت الفصل إذن أصل عرض الخيل والإنابة وفضل سليمان، ويصرّح بالخلاف في التفاصيل، ولا ينسب إليه ظلم الحيوان جزمًا. كما يضبط موضع الثناء: «نعم العبد إنه أواب» افتتاح قصة سليمان في ص ٣٠، و«وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» خاتمتها في ص ٤٠؛ وليس الثناء الأول جملةً نزلت بعد قصة الخيل. [٦]

٢١. الجسد على الكرسي: ابتلاء لم يفصّل القرآن هويته

تقول ص ٣٤ إن الله ابتلى سليمان وألقى على كرسيه جسدًا ثم أناب. ولا تسمّي الآية الجسد أو أمّه، ولا تذكر كيف وصل إلى الكرسي. وقد نقل المفسرون احتمالات: ولد مات، أو ولد لم يكتمل خلقه، أو مرض اشتد بسليمان فصار كالجسد، إلى جانب قصة الشيطان المردودة عند من ينزّه مقام النبوّة عن انتحالها. لا يُحوَّل الاحتمال المختار عند مفسّر إلى لفظ قرآني. [٦, ٢٤-٢٧]

وينقل الصافي ونور الثقلين عن مجمع البيان خبرًا منسوبًا إلى الإمام الصادق في ولد خاف عليه أبوه من الجن، فجعل رضاعه في السحاب ثم وُضع ميتًا على الكرسي. ويورد القمي سردًا لزوجة يمنية وولد خيف عليه الموت، تختلف تفاصيله ودوافعه. كما ينقل المفسرون خبر النساء والولد الناقص عن أبي هريرة. تُفصل هذه الطرق والأحداث، ولا يُدّعى أن أسماء الولد وأمّه أو عدد النساء المذكور فيها من ثابت القرآن. [٢٥-٢٧]

دلالة الآية المتيقنة هي الامتحان والرجوع إلى الله. أما تعيين صورة البلاء فموضع رواية وتفسير، ولا يقتضي طلب المغفرة إثبات كبيرة أو عبادة صنم. وهنا تنفع قواعد تنزيه الأنبياء في نقد التفاصيل، مع الاعتراف بوجود النصوص المشكلة في بعض المجموعات وعدم إخفائها. [٢٤-٢٧]

٢٢. الخاتم والشخصيات التي أُدخلت في قصته

تَرِد للخاتم أخبار مختلفة: علامة في قصة الاستتار، وأثر موروث في أخبار الأئمة، وحكاية استيلاء شيطان عليه ثم تشبّهه بسليمان. لا يصح تسوية هذه المعاني. يرفض الطوسي والشريف المرتضى تفسيرًا يجعل النبوّة مودعة في خاتم يمكن سرقته، أو يمكّن الجني من انتحال النبي على نحو يبطل الثقة بالرسالة. وينبّه الفيض الكاشاني إلى إشكال بعض ما نقله القمي، فلا يكون نقد القصة طعنًا في أصل المعجزة أو إنكارًا لكل خبر يذكر خاتمًا. [٩, ٢٤-٢٦, ٣٢]

تُسمّى في بعض الحكايات امرأة «جرادة» ابنة ملك جزيرة، وتُذكر خادمات لها وصورة لأبيها؛ وتُسمّى حافظة الخاتم «أمينة». ويتردد اسم الشيطان بين صخر وأصف أو آصف وألفاظ أخرى مختلفة الضبط، منها خنفيق في نقل التبيان. هذه الأسماء موجودة في مواد تفسيرية نقلها الجامعون للنقاش، وليست سجلًّا موثقًا لزوجات سليمان أو خدمه. ولا يجوز الخلط بين «آصف» في تسمية شيطان عند بعض القصاص، وآصف بن برخيا صاحب العلم والوصية. [٢٤-٢٥]

كما يدخل في سرد القمي خادم غير مسمّى، وأم سليمان، ونساؤه وجواريه، والصياد، وبنو إسرائيل؛ ويذكر اعتداءات تخلّ بمقام النبوّة وأهلها. تُحصر هذه الشخصيات بوصفها واردة في خبر منتقَد، دون رواية الاعتداء على أنه وقع حقيقة. والقرآن لا ينص على سرقة خاتم أو حلول شيطان محل سليمان، وإنما يذكر الجسد والابتلاء والإنابة. [٦, ٢٥-٢٧]

٢٣. هاروت وماروت وإبطال نسبة السحر

لا تكتمل مراجعة سليمان بإغفال البقرة ١٠٢. تبرئه الآية من الكفر، وتدين تعليم الشياطين السحر، وتذكر هاروت وماروت ببابل، والتحذير من الكفر، وما يُتعلّم للتفريق بين المرء وزوجه. فيدخل الزوج والزوجة هنا بوصفهما مثالًا إنسانيًا غير مسمّى للأذى، ولا دليل على أنهما زوجان من بيت سليمان. وهاروت وماروت ملكان في القراءة المشهورة، فلا يعدّان من الرجال البشر، ولا يثبت مجرد الجمع في الآية حضورهما في قصره. [١, ٢٩]

يروي العياشي عن أبي بصير عن الإمام الباقر أن إبليس وضع كتاب سحر بعد هلاك سليمان ونسبه زورًا إلى آصف والملك؛ فميّز المؤمنون بين النبي والافتراء عليه. وهذه إحالة إلى الجزء الموجود من تفسير العياشي عند البقرة، بخلاف الإحالات إلى السور المتأخرة التي تصلنا بواسطة ناقلين عنه. والكتاب المنحول في الخبر مثال على وجوب فحص النسبة، وليس تراثًا لسليمان أو آصف يُقبل لمجرد كتابة اسميهما عليه. [٢٨]

وتوجد أخبار متعارضة في هاروت وماروت؛ فالعياشي يورد قصة ابتلاء، بينما تَرِد في عيون أخبار الرضا روايات ترفض نسبة القبائح إلى الملائكة وتفسيرًا للتعليم بأنه بيان ما تُدفع به حيل السحرة. وتذكر روايات الردّ حكاية امرأة سميت الزهرة، وتنفي تحولها إلى الكوكب. لذلك يُذكر اسم الزهرة في سجل الأخبار المختلف فيها، ولا تُجعل امرأة ثابتة في حياة سليمان، ولا تُخفى مخالفة الروايات بعضها لبعض. ولا يسمّي النص العربي في العيون النبيَّ الذي أُرسل إليه الملكان في هذا التفسير، فلا نعيّنه من زيادة ترجمة. [٢٨–٢٩]

٢٤. الوفاة ودابة الأرض: سقوط دعوى علم الغيب

تحسم سبأ ١٤ أصل النهاية: قضى الله على سليمان الموت، ولم يدلّهم عليه إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خر ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب المهين. لا يسمّي القرآن الدابة باسم شخص، ولا يحدد مدة بقائه متكئًا، ولا يعيّن عمره عند الوفاة. ويُفسَّر لفظ المنسأة بالعصا، وتحدّد الروايات الدابة بالأرضة. [٥, ٣٠–٣١]

تروي عيون أخبار الرضا وعلل الشرائع حضور ملك الموت في صورة رجل، وتسليم سليمان لأمر ربّه. وتذكر بعض الأخبار سنةً ظل الجن يعملون خلالها، بينما لا يحدد خبر آخر سوى المدة التي شاءها الله. ويروي الكافي عن الإمام الصادق خبر شجرة الخرنوبة بوصفها علامة على قرب الوفاة، ثم بقاء العاملين على ظن حياته حتى انكسرت العصا. وقد نُقل تصحيح المجلسي لهذا الطريق في مرآة العقول؛ وهو حكم على هذا الخبر بعينه، لا على جميع قصص الوفاة. [٣٠–٣١]

وتصف بعض النقول افتتان جماعات بين من غلا في سليمان أو اتهمه بالسحر ومن ثبت على أنه عبد الله ونبيّه، مع خبر تدبير آصف للأمر. وتورد بعض المصادر صيغًا تفسيرية أو منقولة للآية بزيادة ذكر

الإنس، فلا تُستبدل بها ألفاظ المصحف في الاقتباس. وتبقى الحجة القرآنية قائمة بالقراءة المتداولة: قدرات الجن لا تعني إحاطتهم بالغيب، وملك النبي لا يخرجه من حد العبودية والموت. [٥, ٣٠, ٣٢]

٢٥. الوصية بعد الملك وصلتها بأهل البيت

ينتهي خبر كمال الدين بإيصاء سليمان إلى آصف بن برخيا بأمر الله، ومرجع الناس إليه في معالم الدين. وفي تحف العقول تفسير إحضار العرش بإظهار حجته للناس. لذلك لا تختزل نهاية سليمان في سقوط العصا، تنتهي حياة النبي وتستمر أمانة الهداية. ولا يصح أن يُفرض ابن غير مسمّى خليفةً لمجرد النسب، خصوصًا مع الخبر الذي يفرّق بين طلب الناس استخلافه وبين صلاحيته. [٩, ٣٢, ٣٤]

وتصل الروايات بين علم الأنبياء وآثارهم وبين رسول الله والأئمة من أهل بيته، ومن ذلك أخبار الاسم الأعظم وخاتم سليمان وما ورد في حكم آل داود. تَرِد أسماء موسى وعيسى وغيرهما في المقارنة أو ميراث العلم، لا باعتبارهم أشخاصًا حضروا مجلس سليمان. وكذلك أخبار الإمام المهدي في القضاء والعلم تتعلق بالمستقبل، فلا تُدخل شخصيته في التسلسل الزمني لعهد سليمان. [٢٣, ٢٧, ٣٢]

ويختص الفصل الثلاثون من هذا الكتاب بآصف بن برخيا: العلم والوصية بعد سليمان. أما أنبياء بني إسرائيل اللاحقون، ومنهم ذو الكفل الذي يذكره خبر الراوندي بعد سليمان، فتتصل أخبارهم بمباحث لاحقة. هذا الفصل يثبت موضع الانتقال دون استباق فصولهم أو اختراع صلة زمنية تفصيلية لم تذكرها المصادر. [٩, ١٢, ٣٤]

٢٦. العمر والمدة وسبأ: مواضع لا يجزم بها

تختلف النقول في عمر سليمان ومدة ملكه: منها ثلاث عشرة سنة عند الاستخلاف وأربعون للملك، ومنها اثنتان وخمسون أو ثلاث وخمسون للعمر في الأخبار التاريخية، ومنها سبعمائة واثنتا عشرة سنة في خبر من كمال الدين. ويذكر المجلسي غرابة خبر آخر في مدة الملك الطويلة ومخالفته الأخبار المعتبرة. لا تُجمع الأعداد حسابيًا ولا يُقدَّم واحد منها على أنه تاريخ قرآني؛ فموضعها بيان اختلاف الروايات. [٣٥]

كما أن قصة أهل سبأ وسيل العرم في سبأ ١٥–١٩ لا تسمّي بلقيس، ولا تنص على أن السيل وقع في حياتها أو أنها رجعت عن إسلامها. وينقل القمي صلة إنشاء مجارٍ مائية بسليمان، لكنها إضافة تفسيرية لا تحسم التأريخ. فلا يُوصل إسلام الملكة بعقاب قوم سبأ في سلسلة واحدة متخيلة، ولا يُجعل بختنصر أو دانيال أو عزير، المذكورون في امتداد بعض أخبار الوصية، معاصرين لسليمان بلا دليل. [٩, ٣٥]

أهل سبأ وسيل العرم

بعد مشهد ملكة سبأ في سورة النمل، يعرض القرآن في سورة سبأ مشهدًا آخر لبلد ذي رزق وأمن. كانت لهم جنتان عن يمين وشمال، ودعوة إلى الأكل من رزق الله وشكره، ووصف للبلدة بالطيب

وللرب بالمغفرة. ثم جاء الإعراض، فأرسل عليهم سيل العرم، وتبدل النبات المثمر بما يذكره النص من أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. والمقابلة بين الحالين جزء من معنى القصة: عمران ينتفع به الناس، ثم خسارة ترتبط في خطاب القرآن بكفران النعمة. [٣٦]

ولا ينتهي الخبر عند الجنتين. تذكر الآيات قرى ظاهرة بين مساكنهم والقرى المباركة، وسيرًا مقدرًا يستطيع المسافر أن يقطعه آمنًا ليلًا ونهارًا. ثم يرد طلب المباعدة بين الأسفار وظلمهم أنفسهم، فصاروا أحاديث ومُزقوا كل ممزق. هكذا يجمع المقطع بين الغذاء وطرق السفر والأمن ووحدة الجماعة، ولا يحصر أثر العرم في خراب منشأة مائية وحدها. [٣٦]

أما أسماء من عاشوا هذا التحول فلا تسميها الآيات. وينقل الطبرسي، عن الكلبي عن أبي صالح، خبر طريفة الكاهنة وعمرو بن عامر الملقب مزيقياء: تتحدث طريفة عن خطر يتهدد سد مأرب، ثم يبيع عمرو أمواله ويرتحل بقومه، ويتصل الخبر بتفرق جماعات في عمان ويثرب والشام وغيرها. تُحفظ لطريفة في هذا النقل وظيفة الإنذار والمشورة، ولعمرو قرار الارتحال؛ لكن هذه أسماء وتفاصيل في خبر تفسيري تاريخي، وليست نصًا قرآنيًا ولا رواية مسندة إلى إمام بمجرد إدراجها في مجمع البيان. [٣٧]

ويبقى موضع هذا المبحث موضوعيًا بسبب صلته بسبأ، لا إثباتًا لمعاصرة سيل العرم لسليمان أو لبلقيس. فلا يُستنتج منه ارتداد الملكة، ولا يُسوّى بين القصة القرآنية وكل ما روي عن هجرات القبائل، ولا تُتخذ تسمية طريفة بالكاهنة دليلًا مستقلًا على علمها بالغيب. ويظل تحديد زمن انهيار بعينه ومقابلته بالشواهد الأثرية بحثًا آخر يحتاج إلى أدلته. [٣٦، ٣٧]

٢٧. دلالة الهداية في سيرة سليمان

يجتمع في سيرة سليمان علم يسمع، وقضاء يتبين، وملك يعمل، وقلب يشكر. يسمع قول النملة، ويطلب حجة الهدهد، ويقدّر جواب الملكة، ويرد الفضل إلى الله عند حضور العرش. لا تنقص العبودية من هيبة النبي، بل تضبط وجهته، ولا تمنح كثرة الموارد صاحبها غنًى عن الدعاء. ويتكرر الامتحان في صغر المخلوق وعظم السلطان، وفي القدرة على الفعل والعجز عن دفع الأجل. [٣-٦]

ويروي الخصال عن الإمام الباقر حكمةً لسليمان تجعل خير ما وجده بعد ما أوتي من العلم والملك: خشية الله في السر والعلن، والاعتدال في الغنى والفقر، وقول الحق في الرضا والغضب، والتضرع إلى الله في كل حال. تُنقل هذه الخصال مع نسبتها، وهي تجمع معنى الحكاية في سلوك يومي يقدر عليه صاحب السلطان ومن لا يملك سلطانًا. [١١]

وأبرز ما تحفظه الروايات عند قراءتها قراءة ناقدة ألا يطغى بريق العجائب على الحق: حق صاحب الحرث، وحضور الأم والزوجة وصاحبة الشكوى، واختيار الوصي بالعلم والتعيين. وما ثبت بالقرآن يُروى بثباته، وما زاد عليه يُنسب إلى قائله، وما اضطرب يُبيَّن اختلافه. هكذا تخدم مراجعة الأخبار سيرة النبي ولا تحولها إلى مجموعة حكايات متساوية الرتبة. [١٠, ١٧, ٢٣, ٣٤]

٢٨. سجل الشخصيات وحدود الحصر

الدائرة القرآنية البشرية: سليمان، وداود، وأم سليمان بالإشارة إلى والديه، وملكة سبأ، والذي عنده علم من الكتاب دون اسم في الآية، وأصحاب الحرث والغنم، وملأ سليمان وملأ الملكة، ورسلها وقومها، وجنود الإنس وآل داود. وفي البقرة المتعلمون للسحر والمتضررون به، والمرء وزوجه بوصف عام. لا تُختلق أسماء للأفراد الذين أبقاهم النص غير مسمّين. [١-٦]

دائرة الروايات الأسرية والاجتماعية: آصف بن برخيا، وأم سليمان صاحبة النصيحة، وزوجته في خبر الاستتار وأبوها وأمها والصياد، والزوجة اليمنية والولد في خبر الجسد، والابن المرشّح للخلافة والابن المخاطَب بالموعظة دون الجزم بوحدتهما أو تعددهما، والزوجات والسراري، وزوجة داود وابنها وسائر أولاده، ورؤوس الأسباط والعلماء، والعجوز وأصحاب السفينة، ومتّى وأهل السوق، والفلاح أو العابد والمساكين والعاملون والخدم في الأخبار المنقولة. ويذكر يونس تعريفًا بأبيه لا مشاركًا في الزيارة. [٩-١٢, ١٤-٢٠, ٢٥, ٣٢]

دائرة الأسماء والأخبار غير المثبتة هنا: أسماء أبوي بلقيس المختلف فيها، وأخت سليمان في القول بقرابة آصف، والمنذر بن عمرو والغلمان والجواري في خبر الهدية، وتبّع والبشر، وجرادة وأبوها وخادماتها وأمينة، والمرأتان وطفلاهما في الطريق المنقول عن الصحيحين، والزهرة في أخبار هاروت وماروت المتعارضة. أما بلخيا وأسطوم والخضر وجبرئيل في تعيين صاحب العلم فهي أقوال بديلة، وليست أشخاصًا يثبت اجتماعهم في القصة. [١٣, ١٩, ٢٢, ٢٤-٢٩]

وتضاف إلى سجل الأخبار المقارنة طريفة الكاهنة وعمرو بن عامر والجماعات المرتحلة في خبر سبأ. لا تدخل هذه الأسماء في قائمة معاصري سليمان، كما لا يجعل عدم تسمية رجال القرى ونسائها في الآيات حضورهم الاجتماعي غائبًا عن قصة الرزق والأمن والتفرق. [٣٦، ٣٧]

الدائرة غير البشرية: العفريت، والجن والشياطين وإبليس، وهاروت وماروت، وملك الموت والملائكة في الأخبار، والنملة والهدهد والطير والخيل ودابة الأرض، والريح والشجرة في مواضعها. وتلحق بها الحيوانات الأخرى في المواعظ مع بيان ضعف اتصال بعضها. أسماء كودن وزوبعة وأسماء شيطان الخاتم وتسميات الهدهدين تُحفظ في هامش الرواية المختلف فيها، ولا تُعد شخصيات رجالية أو نسائية بشرية. [١, ٣-٦, ٢١-٢٢, ٢٤-٣١]

هذا السجل يحصر الأسماء والأوصاف ذات الصلة في النصوص التي أمكن مقابلتها، ويُبقي الشخصيات المجهولة ظاهرة بدل إسقاطها. ولا يدّعي استيعاب كل مخطوط أو طريق مفقود، ولا يقوم مقام دراسة رجالية مستقلة لكل إسناد. أما الرواة والمفسرون المذكورون في الأسانيد، والشخصيات التي وردت للمقارنة أو في عصور لاحقة، فلا تُضاف إلى معاصري سليمان لمجرد ورود أسمائهم في المصدر. وتُنقل الإحالات التالية بحسب الجزء والباب والحديث والآية، مع مراعاة اختلاف ترقيم الطبعات. [٨]

المراجع والإحالات المحققة

[١] القرآن الكريم، البقرة ١٠٢؛ تبرئة سليمان، وهاروت وماروت، وتعليم السحر وأثره في الزوجين. تُراجع الآية كاملةً، ولا تُنسب زيادات القصص إلى ألفاظها.

[٢] القرآن الكريم، النساء ١٦٣ والأنعام ٨٤؛ الوحي إلى سليمان وورود في سلسلة الهداية والإحسان.

[٣] القرآن الكريم، الأنبياء ٧٨–٨٢؛ حكم الحرث والغنم، والعلم، والريح والغوص والعمل.

[٤] القرآن الكريم، النمل ١٥–٤٤؛ العلم والميراث والوالدان والجنود والنملة والهدهد والملكة والعرش والصرح والإسلام.

[٥] القرآن الكريم، سبأ ١٢–١٤؛ التسخير والعمل والشكر ووفاة سليمان. ويُقارن سياق أهل سبأ في ١٥–١٩ دون افتراض تطابق الزمن.

[٦] القرآن الكريم، ص ٣٠–٤٠؛ الثناء والخيل والجسد والإنابة والملك وحسن المآب.

[٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير النمل ١٥–١٩، وخاصة بيان ميراث المال عند الآية ١٦، ومنطق الطير، ودعاء الشكر على الوالدين؛ قوبل النص مباشرةً.

[٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٤، أبواب سليمان: الأبواب ٥–١١، ص ٦٥–١٤٣. استُعمل جامعًا للمقابلة، مع فصل الحديث عن بيان المجلسي ونقول المؤرخين والحواشي، لا حكمًا بصحة جميع ما جمعه.

[٩] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب السابع، الحديث الأول؛ خبر استخلاف سليمان، ثم استتاره وزوجته وأبويها والصياد، ثم الوصية لآصف. قوبل النص مباشرة؛ وتقع فقرة الزوجة والسمكتين في ص ١٥٧ من العرض المراجع. ونقله البحار ١٤، ص ٦٧–٦٩.

[١٠] الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب «أن الإمامة عهد من الله عز وجل معهود من واحد إلى واحد»، الحديث ٣؛ زوجة داود وابنها وقضية الكرم. حكم المجلسي: ضعيف على المشهور، مرآة العقول ٣/١٨٤، وفق النقل المرفق بالنص.

[١١] بحار الأنوار ١٤، الباب ١٠، ص ١٣٠–١٣٤، الأحاديث ١–٩؛ الحديث ١ عن الخصال في الحكم الأربع، و٢–٧ في أخبار القضاء من القمي والمحاسن والفقيه والتهذيب والكافي. هذه النقول لا تتحد في تصوير الواقعة أو سندها.

[١٢] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الحديث ٢٦٧ في الاستخلاف، والأحاديث ٢٧٠–٢٧٥ في سليمان، و٢٧٧ في ذي الكفل؛ قوبلت مباشرةً في النسخة الرقمية. لا يدل اتصال الأبواب وحده على التعاصر أو توحيد أسانيدها.

[١٣] بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٧٩، في النقل من حياة الحيوان ١/٢٦٠-٢٦٢؛ قصة المرأتين والطفلين معزوّة إلى الصحيحين عن أبي هريرة. أُثبت نوع الطريق منعًا لنسبتها إلى أحد الأئمة لمجرد وجودها في البحار.

[١٤] الفقيه، خبر نصيحة أم سليمان عن جابر عن النبي؛ وورّام، تنبيه الخواطر، ج ٢، ص ١٢، نصيحة سليمان لابنه؛ قوبلا من نقل البحار ١٤، الباب ١٠، الحديثين ٨-٩، ص ١٣٤.

[١٥] بحار الأنوار ١٤، الباب ٥، الأحاديث ٥ و١٢ و١٧، ص ٧٠ و٧٢-٧٤؛ نقول الكافي وقصص الراوندي ومكارم الأخلاق في نساء سليمان. وقوبل خبر الراوندي ٢٧٤ مباشرةً، مع حفظ الفرق بين المهائر والسراري.

[١٦] معاني الأخبار وعلل الشرائع، خبر علي بن يقطين عن الإمام الكاظم في معنى الملك؛ نقله البحار ١٤، الباب ٦، الحديث ١، ص ٨٥-٨٧؛ وله نقل مباشر في قصص الراوندي، الحديث ٢٧٥.

[١٧] البرقي، المحاسن، ص ٣٠٢ في الطبعة المحال إليها؛ خبر العجوز والريح عن أبي الحسن الثاني، وفي طريقه محمد بن سليمان الديلمي؛ قوبل من نقل البحار ١٤، الباب ٥، الحديث ١٤، ص ٧٣-٧٤، دون إصدار تصحيح سندي له هنا.

[١٨] المحاسن ص ٦١٨، والكافي في تفسير التماثيل، عن الإمام الصادق؛ نقلهما البحار ١٤، الباب ٥، الحديث ١٥، ص ٧٤. وتُقارن أخبار البناء وتفسير سبأ في ص ٧٥-٧٩، مع تمييز نقول مجمع البيان والمؤرخين.

[١٩] بحار الأنوار ١٤، الباب ٥، الحديثان ١٩-٢٠، ص ٧٥، عن الفقيه في الحج وكسوة البيت؛ والأحاديث ٨ و٢٧-٢٩ ونقول المواعظ في ص ٧١ و٨١-٨٥؛ وفي آخرها حكايات الثعلبي وهوامش التيجان، وهي غير الأحاديث المسندة عن الأئمة.

[٢٠] ورّام، تنبيه الخواطر، ج ١، ص ١٨-١٩؛ علي بن الحكم عمّن رفعه إلى الإمام الصادق، خبر متّى أبي يونس وزيارة داود وسليمان؛ قوبل من نقل البحار ١٤، الباب ٢٦، الحديث ١٦، ص ٤٠٢-٤٠٣.

[٢١] بحار الأنوار ١٤، الباب ٧، ص ٩٠-٩٨؛ أخبار النملة من القمي والعيون والعلل والفقيه، ثم المواعظ المختلفة المصدر. ويُراجع خبر القنابر من الكافي في الباب ٥، الحديث ٢٦، ص ٨٢-٨٣، وفيه إرسال.

[٢٢] بحار الأنوار ١٤، الباب ٩، ص ١٠٩-١٣٠؛ وخاصة نقل القمي ص ١١٠-١١٢، ومجمع البيان ص ١١٦-١٢٧، والثعلبي ص ١٢٨-١٣٠. وقوبل مجمع البيان عند النمل ٢٠-٢٦ مباشرةً في نقل العياشي؛ الأسماء والحواشي مميَّزة عن المتن القرآني.

[٢٣] الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب «ما أعطي الأئمة عليهم السلام من اسم الله الأعظم»، الحديثان ١ و٣؛ آصف وعرش بلقيس. قوبلا مباشرةً، ونقلهما البحار ١٤، ص ١١٣-١١٤.

[٢٤] الشيخ الطوسي، التبيان، تفسير ص ٣٠-٤٠؛ الأقوال في الخيل والجسد، ورفض جعل النبوّة في خاتم أو تمكين الجني من انتحالها، وبيان وجوه الدعاء بالملك. قوبل النص مباشرةً.

[٢٥] بحار الأنوار ١٤، الباب ٨، ص ٩٨-١٠٨؛ نقل القمي في الخيل والخاتم والزوجة اليمنية، ونقد الصدوق والشريف المرتضى، ومقارنة أقوال الطبرسي والرازي وأسماء جرادة وأمينة وشيطان الخاتم. موضع الاستعمال نقد النقول، لا اعتمادها جميعًا.

[٢٦] الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج ٤، ص ٢٩٩، عند ص ٣٣-٣٥؛ قوبل مباشرةً في نقد خبر الخاتم، والتمييز بين خبر أبي هريرة والخبر المنسوب إلى الإمام الصادق في الجسد.

[٢٧] الحويزي، نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٥٢-٤٥٧، وخاصة الأحاديث ٤١-٤٨؛ قوبلت نصوصه في وقت الصلاة والخيل والخاتم والجسد، مع نقوله عن الكافي والفقيه والقمي ومجمع البيان. وذُكرت إحالات المقارنة بأهل البيت دون جعلهم معاصرين لسليمان.

[٢٨] العياشي، التفسير، ج ١، تفسير البقرة ١٠٢، الخبران ٧٤-٧٥؛ الأول في انتحال كتاب السحر على سليمان وآصف، والثاني في هاروت وماروت. قوبل النص الموجود مباشرةً، مع عدم دعوى اتصال الأسانيد المحذوفة من النسخة المختصرة.

[٢٩] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ١، الباب ٢٧، الحديثان ١-٢، في هاروت وماروت والزهرة؛ قوبل النص العربي مع تمييزه عن زيادة الترجمة في تسمية النبي الذي تلقّى بيان الملكين.

[٣٠] عيون أخبار الرضا وعلل الشرائع، أخبار وفاة سليمان وملك الموت؛ قوبلت بنقل البحار ١٤، الباب ١١، الأحاديث ١-٦، ص ١٣٦-١٤٠، مع التفريق بين السنة المذكورة في بعض الطرق والمدة غير المحددة في غيرها.

[٣١] الكافي، الروضة، خبر شجرة الخرنوبة وسليمان؛ العرض الرقمي: المجلد ٨، الباب ١١٤، الحديث ١. حكم المجلسي المنقول: صحيح، مرآة العقول ٢٥/٣٤٥. وقوبل بنقل الراوندي، الحديث ٢٧٣، والبحار ١٤، ص ١٤٠.

[٣٢] بحار الأنوار ١٤، الباب ١١، الحديث ٩، ص ١٤١، عن القمي في ابن سليمان؛ وص ١٤٢ عن مجمع البيان في تدبير آصف؛ والباب ٥، الحديث ٢٤، ص ٨١، عن الكافي في خاتم سليمان ضمن آثار الأنبياء.

[٣٣] نهج البلاغة، المقطع الذي يبدأ «ولو أن أحدًا يجد إلى البقاء سلمًا» ويذكر سليمان؛ قوبل من نقل البحار ١٤، الباب ٥، الحديث ٩، ص ٧١. تجنّب الاعتماد على رقم خطبة يختلف بين الطبعات.

[٣٤] ابن شعبة الحراني، تحف العقول، جواب الإمام الهادي عن مسائل يحيى بن أكثم التي حملها موسى بن محمد، ص ٤٧٨؛ وقوبل بنقل البحار ١٤، الباب ٩، الحديث ١٣، ص ١٢٧-١٢٨. ويُنسب نقل العياشي هنا إلى ناقليه، لا إلى الجزء الموجود من تفسيره.

[٣٥] بحار الأنوار ١٤، الباب ٥، الحديثان ١٣ و٢٣، ص ٧٣ و٨٠، والباب ١١، الحديث ٨ وتعقيب المؤلف والنقول التاريخية، ص ١٤٠-١٤٣؛ اختلاف العمر والملك. ويُراجع الباب ١٢، ص ١٤٣-١٤٤، في خبر مجاري المياه وقوم سبأ.

[٣٦] القرآن الكريم، سبأ ١٥-١٩؛ الجنتان وسيل العرم والقرى الآمنة والتفرق.— النص في المصدر

[٣٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سبأ ١٥-١٩؛ خبر طريفة وعمرو بن عامر منسوبًا إلى الكلبي عن أبي صالح، مع فصل التفصيل التاريخي عن ألفاظ الآيات.— النص في المصدر

الفصل ٣٠ — آصف بن برخيا — العلم والوصية بعد سليمان

١. رجل حفظ القرآن فعله قبل أن تذكر الروايات اسمه

في مجلس سليمان عليه السلام ظهر صاحب علم لم يذكر القرآن اسمه، لكنه حفظ كلمته وأثر علمه: وعد بإحضار عرش ملكة سبأ قبل ارتداد الطرف، ثم رآه سليمان مستقرًّا عنده. وتسمي روايات إمامية هذا الرجل آصف، وتذكر نصوص أخرى اسمه مع نسبته: آصف بن برخيا. ومن هنا تبدأ قصته في «حكاية الهداية»: من العلم الذي ظهر في حياة النبي إلى الأمانة التي تذكر الأخبار أنه حملها بعده. [١, ٦, ٨–٩, ١٤]

٢. الآيات التي يقوم عليها الفصل

المشهد المباشر في النمل ٣٨–٤٠، ويُقرأ مع مقدماته ونتيجته في النمل ١٥–٤٤. قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾. [١]

ثم يأمر سليمان بتنكير العرش، فتقول الملكة حين تُسأل عنه: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، وتنتهي قصتها القرآنية بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فلا تُقرأ آية صاحب العلم بعيدًا عن انتقال المرأة من عبادة الشمس إلى الإيمان بالله. [١]

وترتبط بالفصل الرعد ٤٣ في المقارنة الروائية بين «علم من الكتاب» و«علم الكتاب»، وسبأ ١٢–١٤ في التسخير ووفاة سليمان، والبقرة ١٠٢ في تبرئته من السحر. أما النمل ٦٥ والجن ٢٦–٢٧ فتضبطان الكلام على علم الغيب: أصله لله، وما يكشفه لعباده إنما يكون بإذنه. هذه صلات تفسيرية وعقدية، وليس اسم آصف مذكورًا في أيٍّ من هذه الآيات. [٢–٥]

٣. الاسم والهوية والأسماء البديلة

يسمي حديثا الباقر وأبي الحسن صاحب العسكر عليهما السلام في باب الاسم الأعظم من «الكافي» الشخصية «آصف»، من غير ذكر «ابن برخيا» في متنيهما. ويأتي الاسم الكامل في خبر جواب الإمام الهادي عليه السلام، وفي خبر الوصية في «كمال الدين». فالتعريف بآصف بن برخيا قائم على مجموع هذه النصوص، ولا ينبغي أن ننسب الصيغة الكاملة إلى موضع يقتصر على الاسم الأول. [٦, ٩, ١٤]

ويحكي «مجمع البيان» أقوالًا أخرى في هوية صاحب العلم: بلخيا، وأسطوم، والخضر، وجبرئيل، وقولًا بأنه سليمان نفسه. وينسب الأقوال إلى أصحابها، ويستبعد الأخير. هذه تعيينات بديلة للشخصية

الواحدة، وليست أسماء رجال وملائكة ثبت حضورهم جميعًا في المجلس. ويعتمد هذا الفصل التعريف الإمامي بآصف، مع حفظ الاختلاف في هامشه العلمي. [٨]

ويذكر هامش النسخة المقابلة من «البحار»، نقلًا عن «المحبّر» للبغدادي، اسم «ناطورا» ونسبة «آصف بن برخيا بن شمعياء». هذه زيادة في هامش الطبعة، لا لفظ حديث عن أهل البيت، ولا تجعل ناطورا رجلًا آخر أو تثبت سيرة لشمعياء. [١٩]

وبرخيا اسم الأب في النسبة المروية، ولا يتيح النص الذي يذكره وحده كتابة سيرة مستقلة للأب أو الحكم بنبوته. كما لا تثبت وحدة آصف مع كل شخصية مشابهة الاسم في كتب الأنساب أو الروايات الدينية الأخرى بمجرد التشابه.

٤. الولادة والنشأة والقرابة والأسرة

لم تقدم النصوص التي قوبلت لهذا الفصل تاريخًا يمكن اعتماده لولادة آصف، ولا مكان ولادة محققًا، ولا وصفًا متصلًا لطفولته وتعليمه. لذلك يبدأ ما نستطيع روايته عنه بدوره مع سليمان، ولا نملأ ما قبله بتواريخ أو حوارات متخيلة.

في «مجمع البيان» أنه وزير سليمان وابن أخته، ضمن قول منسوب إلى ابن عباس. وفي «إثبات الوصية» المنسوب إلى المسعودي أنه كاتب سليمان وابن عمه ووصيه وزوج ابنته. والقول الأول يجعل أم آصف أختًا لسليمان من غير تسمية، والثاني يذكر بنتًا لسليمان زوجةً لآصف من غير تسمية أيضًا. لا ندمج القرابتين في نسب واحد، ولا نجعل ما نُقل عن ابن عباس حديثًا عن إمام من أهل البيت. [٨, ١٧]

تظل أم آصف، والبنت المنسوبة إلى سليمان في خبر زواجه، شخصيتين محفوظتين بوصفهما الوارد، مع التنبيه إلى عدم ثبوت تفاصيلهما. ولا يذكر النص المقابل اسم زوجة آصف أو بناته؛ أما ابنه المسمى «صفورا» في «إثبات الوصية» فسيأتي في خبر تسليم العهد. ولا يصح أن نستنتج من سكوت هذه المصادر أنه لم تكن له بنات أو أولاد آخرون. [١٧]

٥. سليمان يعرّف الناس بحامل العلم

يسأل يحيى بن أكثم، في خبر حمل مسائله موسى بن محمد إلى أخيه الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام: أكان سليمان محتاجًا إلى علم آصف؟ ويأتي الجواب بأن سليمان لم يعجز عن معرفة ما عرفه آصف، لكنه أراد أن تعرف أمته من الإنس والجن أنه الحجة من بعده، وأن هذا من علم سليمان الذي أودعه آصف بأمر الله. ويشبه الخبر ذلك بإظهار فهم سليمان في حياة داود لتأكيد الحجة. [٩]

هذا النص من أوضح الأخبار في وصل مشهد العرش بالتعريف بالوصي. وهو مروي في «تحف العقول»، ومنقول في «مجمع البيان» عن تفسير العياشي. لا يعرض الموضع المقابل في «تحف العقول» إسنادًا متصلًا كاملًا، كما أن نقل الطبرسي عن العياشي لا يساوي وجود هذا الموضع في الجزء الباقي

المتداول من تفسيره. لذلك نثبت دلالة النص مع إبقاء طريقه موضع بحث، ولا نجعل نقله في كتب متعددة أسانيد مستقلة تلقائيًا. [٨-٩]

وموسى المذكور هنا ابن الإمام محمد الجواد، لا موسى بن عمران؛ والإمام المجيب هو علي الهادي، لا الحسن العسكري. أما يحيى بن أكثم فصاحب السؤال في العصر العباسي، لا شخصية من عصر سليمان. وهذه الفروق تمنع أن تدخل أسماء ناقلي الحكاية في سجل معاصري آصف.

وفي مقابل هذا الجواب، ينقل «نور الثقلين» عن تفسير القمي تعليقًا على امتحان الشكر، فيه عبارة «أفضل مني علمًا». لا يُعرض هذا التعليق في موضعه بوصفه حديثًا مسندًا عن إمام، ولا يُسوّى صامتًا بالجواب السابق أو يُتخذ حكمًا نهائيًا بتفضيل آصف على سليمان. يُحفظ الاختلاف بوصفه اختلافًا في المادة التفسيرية يحتاج إلى بحث مستقل. [٢٠]

٦. آصف وحرف من الاسم الأعظم

يروي «الكافي» عن الإمام الباقر عليه السلام أن الاسم الأعظم ثلاثة وسبعون حرفًا، كان عند آصف منها حرف واحد؛ فتكلم به، وخُسف بالأرض بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير، ثم عادت الأرض أسرع من طرفة عين. ويذكر الخبر أن عند الأئمة اثنين وسبعين حرفًا، وأن الله استأثر بحرف في علم الغيب. ويروي عن أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام مضمونًا مقاربًا، وفيه انخراق الأرض بين آصف وسبأ وتناول عرش بلقيس. [٦]

نقل «مرآة العقول» في تقويم حديث الباب الأول حكم «مجهول»، وفي الثالث «ضعيف على المشهور». فنعزو الخبرين إلى موضعهما، ونثبت أن اسمي آصف وبلقيس وردا فيهما، دون أن ندعي تصحيح الطريقين. ولا يعني وصف الإسناد بالجهالة أو الضعف أن كل معنى في المتن باطل، كما لا تعني موافقة معنٍ لأصل عقدي صحة جميع تفاصيله. [٦]

ويضم الباب نفسه خبرًا عن عيسى وموسى وإبراهيم ونوح وآدم ومحمد عليهم السلام في تفاوت ما أُعطوا من حروف الاسم. هؤلاء مذكورون للمقارنة بين عطايا العلم، لا بوصفهم حاضرين مع آصف. وإسناد هذا الخبر الثاني يشتمل على راوٍ لم يُحفظ اسمه، وحكم المجلسي المنقول فيه «مجهول». [٦]

٧. اختلاف الألفاظ وحدود تفسير الاسم الأعظم

تؤيد أخبار «بصائر الدرجات» أصل ورود آصف في هذا الباب، لكنها تكشف اختلافًا ينبغي إظهاره: فالأخبار في الصفحتين ٢٢٩-٢٣٠ من النسخة المقابلة تذكر ثلاثة وسبعين واثنين وسبعين، بينما يذكر الخبر التاسع اثنين وسبعين وأحدًا وسبعين. وفيه وصف آصف بكاتب سليمان وعبارة «وكان يوحى إليه»، مع اختلاف نقلي أثبته هامش «البحار» بلفظ «يومى إليه». فلا نسوي الصيغ بصمت، ولا نبني إثبات النبوة على كلمة مضطربة النقل. [٧, ١٩]

وحكى «مجمع البيان» أقوالًا في الدعاء والاسم، منها «يا حي يا قيوم» و«يا ذا الجلال والإكرام»، مع نسبتها إلى مفسرين. هذه ليست صيغة قرآنية منصوصة للاسم الذي دعا به آصف، ولا وصفة تضمن للإنسان نقل الأجسام بمجرد ترديد الحروف. [٨]

ويربط «الميزان» أثر العلم بارتباط العبد بالله وإجابة دعائه بإذنه، ويرفض اختزال الاسم الأعظم في أصوات ذات تأثير مستقل. وهذا تفسير للمعنى، لا تفصيل تجريبي لكيفية انتقال العرش. أما الآية فتبقى عند حدودها: علم من الكتاب، وإتيان بالعرش، وفضل لله. [١, ١٠]

٨. «علم من الكتاب» و«علم الكتاب»

قال تعالى في خاتمة سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. وتقارن روايات أهل البيت هذه العبارة بوصف صاحب العرش في النمل. ففي خبر سدير عن الصادق عليه السلام في «الكافي» تشبيه علم صاحب العرش بقطرة في البحر، ثم سؤال عن الأوسع علمًا: من عنده بعض الكتاب أم علمه كله؟ ويأتي الجواب الروائي بنسبة علم الكتاب إلى الأئمة. حكم المجلسي المنقول على هذا الطريق «مجهول». [٢, ١١]

وفي النقل عن تفسير القمي يفسر «الذي عنده علم الكتاب» بأمير المؤمنين عليه السلام، ويُشبَّه علم صاحب العرش بما تحمله البعوضة من ماء البحر. لا يذكر لفظ الآية اسم علي أو آصف؛ تعيين المصاديق هنا من الرواية التفسيرية. كما لا يساوي هذا العلمُ علمَ الله الذاتي غير المحدود، ولا يجيز وصف المخلوق بالاستقلال عن الله. [٥, ١٢]

ويذكر خبر سدير أبا بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير وميسّرًا، وترد في مقدمته جارية غير مسماة. تُحفظ هذه الأسماء عند شرح سياق الخبر، لكنها من عصر الإمام الصادق. ولا تُنقل الجارية إلى بيت آصف، ولا يُعد سدير ورفاقه أصحابًا لسليمان. [١١]

٩. الوصاية والنبوة والملك

لا يصف القرآن صاحب العلم بأنه نبي، ولا يسميه وزيرًا أو وصيًا. وتأتي الوصاية في الأخبار التي تسمي آصف وتربطه بسليمان. فلا يثبت لقب النبي بمجرد وقوع الكرامة، ولا يُنفى إمكان الإلهام عن غير النبي؛ فالقرآن نفسه يذكر الإيحاء إلى أم موسى. ولكن هذا العموم لا يصحح كل خبر خاص عن آصف. [١, ٥, ٩, ١٤–١٥]

وينبغي كذلك التفريق بين حمل العهد وحكم الدولة. خبر وصية سليمان يصف رجوع الأتباع إلى آصف لتعلم معالم الدين، ولا يقدم قائمة موثقة بسنوات حكمه أو حروبه أو حدود مملكته. فوظيفته في هذا الكتاب حفظ العلم والهداية بحسب الروايات، ولا تتحول تلقائيًا إلى سيرة ملكية مفصلة.

١٠. ملكة سبأ والشخصيات المحيطة بمشهد العرش

المرأة المركزية في المشهد هي ملكة سبأ، التي تسميها الأخبار بلقيس. ولها في القرآن رأي ومشاورة وقرار: تتلقى الكتاب، وتستشير الملأ، وتختبر الموقف بالهدية، ثم تأتي إلى سليمان وتعلن إسلامها. وإحضار عرشها مرتبط بهذا المسار؛ فلا تختزل سيرتها في أنها صاحبة شيء نقله رجل. ولا تسمي الآيات الشخص الذي سألها «أهكذا عرشك»، ولا من نفذ أمر تنكير العرش، فلا نجزم بأنه آصف. [١, ٦, ٨]

ومن الشخصيات غير المسماة ملأ سليمان، وملأ الملكة، ورسل الهدية والرسول المخاطب بالرجوع، وقوم سبأ، والعاملون في بلاط سليمان. وتضيف بعض القصص حراس العرش والخدم والوصائف والعبيد المصاحبين للهدية، وأعدادًا للحاشية؛ وهذه زيادات نقلية لا يُنسب عددها إلى القرآن. كما أن أخبار زواج الملكة بسليمان أو بتبع وذي تبع ليست إثباتًا لزواجها بآصف. [١, ٨, ١٧]

ويشارك في السياق غير البشري الهدهد، والعفريت من الجن، والجن والشياطين، ويذكر الهدهد تزيين الشيطان لقوم سبأ. ويذكر هامش «البحار» عن «المحبّر» اسم «كودن» للعفريت، وهو نقل إضافي لا حديث إمامي مسند في هذا الموضع. [١٩] ولا يدل تفوق صاحب العلم في سرعة الإحضار وحده على أن العفريت ادعى الوصاية أو نازع عليها. وإسناد القوة والأمانة إلى العفريت في الآية حكاية لقوله؛ أما تحديد اسمه فزيادة خبرية، لا اسم قرآني. [١]

١١. كيف وصل العرش؟

لا يشرح القرآن وسيلة الانتقال. وتختلف الأخبار والتفسيرات بين انخراق الأرض أو طيها وتقارب الموضعين وظهور العرش عند سليمان، وبين احتمالات تفسيرية أخرى، مثل حمل الملائكة أو الريح. ويذكر «مجمع البيان» هذه الوجوه، وينسب طي الأرض إلى خبر عن الصادق عليه السلام، ولا يجعل كل وجه حديثًا مرويًا عنه. [١, ٦–٨]

أما تعيين المسافة بالدقة، أو تحويل الحدث إلى نظرية علمية عن سرعة الضوء أو انتقال المادة، فلا ينهض به النص. والمكان المسمى في القرآن هو سبأ في سياق خبر الهدهد؛ وتأتي مأرب والشام في بعض النقول التفسيرية. نرويها بحدودها، ونحفظ أصل الدرس: العلم والقدرة الموهوبان لا ينفصلان عن مشيئة الله. [١, ٢٠]

١٢. من مشهد العرش إلى وفاة سليمان

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. وفي الآية حدٌّ لدعوى علم الجن بالغيب، ولا تذكر اسم آصف أو مدة بقائه في إدارة الأمر. [٣]

وينقل «مجمع البيان» عن أبي عبد الله عليه السلام أن آصف كان يدبر أمر سليمان حتى دبت الأرضة. هذا خبر عن عمله في مرحلة خفاء الوفاة، ورد في التفسير دون عرض إسناده كاملًا في الموضع. ولا تُحمل عليه كل تفاصيل القبة وملك الموت ومدة السنة الواردة في أخبار أخرى إلا مع عزو كل تفصيل إلى مصدره. [١٣]

وفي أخبار أُخرى ابن غير مسمى لسليمان اقترح بنو إسرائيل استخلافه، فلم يُقرَّه سليمان بحسب الخبر. يُذكر هذا في بيان أن اختيار حامل الأمانة لا يثبت بالنسب وحده؛ ولا نعين هذا الابن باسم تاريخي لم يسمه النص، ولا نجعله ابن آصف أو وصيه. [١٩]

١٣. انتحال السحر باسم آصف

تبرئ البقرة ١٠٢ سليمان من الكفر، وترد تعليم السحر إلى الشياطين. وفي خبر العياشي عن أبي بصير عن الباقر عليه السلام أن إبليس، بعد وفاة سليمان، كتب كتابًا في السحر ونسبه زورًا إلى آصف بن برخيا وإلى كنوز علم سليمان، ودفنه تحت السرير ثم أظهره للناس؛ فقال الكافرون إن هذا سر غلبة سليمان، ورد المؤمنون بأنه عبد الله ونبيه. [٤, ١٨]

مغزى الخبر تزييف نسبة الكتاب، لا إثبات أن آصف ألّف كتاب سحر. كما أن أسانيد النسخة المتداولة من تفسير العياشي مختصرة، فلا نزعم اتصال جميع طرقها. وتبقى تبرئة سليمان قرآنية، بينما قصة الدفن والكتابة باسم آصف من الرواية. ولا يصح تصحيح كتاب منسوب إليه اليوم اعتمادًا على شهرة اسمه أو وجوده على غلاف. [٤, ١٨]

وتتضمن الآية نفسها هاروت وماروت، والمتعلمين، والمرء وزوجه في سياق التفريق بالسحر. يثبت حضور هذه الأوصاف في بحث الآية، ولا يجعل هاروت وماروت رجلين من أصحاب آصف، ولا يثبت أن كل متعلم مذكور كان من معاصريه. أما أخبار الزهرة وقصص افتتان الملكين فقد نوقشت في الفصل السابق، ولا تتحول إلى جزء ثابت من سيرة آصف.

١٤. آصف في أخبار الخاتم: ما يُروى وما لا يُعتمد

دخل اسم آصف في قصص متعارضة عن خاتم سليمان. في بعضها يكتشف آصف وعظماء بني إسرائيل اختلاف الحكم، ويسأل نساء سليمان؛ وفي بعضها يرد اسم شبيه بآصف لشيطان استولى على الخاتم. فلا يُخلط الوصي بالشيطان بسبب تشابه الاسم، ولا تُتخذ قصة تمكّن الشيطان من مقام النبوة حقيقة مسلّمة. وقد نقل المجلسي اعتراضات المرتضى والمفسرين على هذا البناء، بما يمس عصمة النبي والثقة بنبوته. [١٩]

وفي «إثبات الوصية» رواية مختلفة: يأخذ آصف الخاتم ليدبر الملك عند غياب سليمان، ويربط السياق ذلك بخبر قتل الخيل وأربعة عشر يومًا. اختلاف الفاعل والمدة والسبب يمنع تركيب هذه الأخبار في

قصة واحدة. ولا نعتمد نسبة ظلم الخيل إلى سليمان لمجرد ورودها هنا، وقد تقدم اختلاف تفسير آيات الخيل في الفصل التاسع والعشرين. [١٧, ١٩]

وترد جرادة، وأبوها، وأمينة، ونساء سليمان وخدمه، وأسماء صخر أو خيفيق ونحوها ضمن صور تلك الحكايات. تُحفظ في دائرة الأخبار المنتقدة، ولا تُزاد إلى الأسرة الثابتة لآصف. والزوجة غير المسماة وأبواها والصياد في خبر استتار سليمان في «كمال الدين» شخصيات من سيرة سليمان، لا أسرة آصف؛ اشتراك الخبر في ذكر وصيته له لا يغير أصحاب الوقائع. [١٤, ١٩]

١٥. تسلّم الوصية بعد سليمان

في «كمال الدين وتمام النعمة»، ضمن الخبر الطويل في الباب السابع، يرد أن سليمان لما حضرته الوفاة أوصى إلى آصف بن برخيا بأمر الله، وأن الشيعة كانوا يختلفون إليه ويأخذون عنه معالم دينهم. و«الشيعة» هنا أتباع الحجة في سياق الخبر عن بني إسرائيل، لا اسم جماعة تاريخية معاصرة بالضرورة. ورقم الخبر في النسخة المقابلة ١٧، وموضع خبر آصف في الصفحة ١٥٧؛ فلا يُستبدل رقم الجزء المنقول برقم الحديث في أصله. [١٤]

طريق هذا الخبر عن أحمد بن الحسن القطان، عن الحسن بن علي السكري، عن محمد بن زكريا البصري، عن جعفر بن محمد بن عمارة، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام. نثبته لتكون الإحالة قابلة للمراجعة، دون دعوى استكمال توثيق رجاله جميعًا. وتبقى التفاصيل الطويلة عن الغيبة والسنين والأجيال بحاجة إلى نقد سندي ومتني مستقل، لا تصحيح شامل بسبب قيمة موضوع الوصية.

ويذكر «الإمامة والتبصرة من الحيرة»، في أول أبوابه، وصية سليمان إلى آصف ضمن سلسلة من آدم إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله ثم علي عليه السلام. ويلتقي هذا الطريق في الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان عن الصادق عليه السلام، كما يرد نظيره في منقولات الصدوق. تعدد الكتب الحاكية للسلسلة لا يعني استقلال كل طريق منها عند موضع الالتقاء. [١٥–١٦]

١٦. الغيبة والعودة والوداع

يتابع خبر «كمال الدين» أن الله غيّب آصف غيبة طال أمدها، ثم ظهر لقومه وبقي ما شاء الله، ثم ودعهم. ولما سألوه عن الملتقى أجاب: «على الصراط»، ثم غاب عنهم واشتد البلاء على بني إسرائيل. لا يسمي النص مدة غيبته الأولى أو الثانية بعدد، ولا يعين يوم الوداع أو مكانه. ولا تُحمل عبارة الوداع وحدها على تاريخ وفاة محدد أو على دليل أنه باقٍ إلى يومنا. [١٤]

ثم ينتقل الخبر إلى تسلط بختنصر وسبي بني إسرائيل، ومن السبي أربعة من أهل بيت يهودا فيهم دانيال، وعزير من ولد هارون؛ ويسمي دانيال حجة في الأسر، ثم يذكر انتقال الأمر إلى عزير بعده. فهذا سياق عن استمرار البلاء والهداية بعد غياب آصف، وليس فيه عبارة صريحة بأن آصف سلّم

الوصية إلى دانيال في لقاء مؤرخ. ولا يجعل ورود الأسماء متتابعة أصحابَها جميعًا معاصرين لسليمان. [١٤]

وتبقى النساء والذراري الذين طالهم السبي حاضرِين في صورة الجماعة المبتلاة، وإن لم يسمهم الخبر أفرادًا. أما النبي غير المسمى الذي يحمل الطعام إلى دانيال والملائكة في تتمة قصته، فموضع تفصيلهم مرحلة دانيال، لا مجلس آصف. [١٤]

١٧. الابن المسمى صفورا وخبر وفاة آصف

يقدم «إثبات الوصية» صورة أخرى لنهاية حياته: لما حضرت آصف الوفاة أُمر أن يستودع ما عنده ابنه «صفورا»، فدعاه وسلّم إليه التابوت والوصية. هذا نص يستحق الحفظ كي لا يسقط الابن من حصر الشخصيات، لكنه وارد في سرد لا يعرض في هذا الموضع سندًا متصلًا إلى إمام. فلا نجعله حسمًا للخلاف فيمن جاء بعد آصف. [١٧]

واللفظ في النص «ابنه صفورا»؛ فهو شخصية رجالية في هذه السلسلة، لا صفورا المنسوبة إلى زوجية موسى في أخبار أخرى. ولا يسمي النص أمه، فلا نجزم بأن أمه هي بنت سليمان المذكورة في خبر زواج آصف، ولا نشتق له عمرًا أو تاريخ ولادة من ترتيب الأسماء.

ليس في المادة المقابلة ما يكفي لاعتماد سنة وفاة آصف أو عمره أو سبب موته أو موضع قبره. وتسمية مقام باسمه في بلد ما، إن وُجدت في التقليد المحلي، تحتاج إلى بحث خاص ولا تقوم مقام شاهد على دفنه فيه. وهكذا تنتهي سيرته عند حد الخبر، ويبقى ما وراءه غير محقق.

١٨. إلى من انتقل العهد؟ ثلاث صور لا تُدمج

الصورة الأولى في «الإمامة والتبصرة» ونظائر خبر مقاتل: سليمان، ثم آصف، ثم زكريا، ثم عيسى، ثم شمعون بن حمون الصفا، ثم يحيى بن زكريا؛ ويتابع الخبر إلى منذر ثم سليمة ثم بردة، وصولًا إلى النبي محمد وعلي. هذا ترتيب النص المنقول، وليس جدولًا زمنيًا محققًا لكل جيل. وما فيه من اختصار وإشكالات في ترتيب بعض الأسماء لا يُحل بإسقاط الأنبياء الآخرين أو افتراض لقاءات وأعمار طويلة لم يذكرها دليل. [١٥-١٦]

والصورة الثانية في «كمال الدين»: وصية سليمان إلى آصف، ثم غيبتا آصف وعودة بينهما، ثم خبر بختنصر ودانيال وعزير، ثم الانتقال إلى أحداث يحيى وعيسى. يروي النص مراحل، لكنه لا يسمي كل وسيط ولا يصف تسليمًا مباشرًا من آصف إلى كل شخصية لاحقة. [١٤]

والصورة الثالثة في «إثبات الوصية»: آصف، ثم صفورا بن آصف، ثم مبنه بن صفورا، ثم هندو أو هندوا بن مبنه، ثم أسفر أو أسفرا بن هندو، ثم رامن أو رامين، ثم إسحاق بن رامين، ثم أيم بن إسحاق، ثم زكريا بن أيم. وتذكر النسخة لزكريا اسم «زمرتا» ورواية نسبه إلى «أردن». تثبت اختلاف الرسم كما

ظهر، ولا نعد كل رسم شخصًا مستقلًا. وإسحاق هنا صاحب اسم في السلسلة، وليس لمجرد اسمه إسحاق بن إبراهيم. [١٧]

لا تُحذف هذه الأسماء لندرتها، ولا تُصحح لمجرد الحاجة إلى سلسلة متصلة. وسيبحث الفصل التالي الفترات والشخصيات اللاحقة مع الحفاظ على هذا التمييز: الإيمان باستمرار الحجة لا يمنحنا تلقائيًا قائمة تاريخية ثابتة بأسماء كل جيل.

١٩. رجال ونساء في أخبار المرحلة اللاحقة

يربط سرد «إثبات الوصية» أيام آصف بملك كشتاسب، ثم يذكر أردشير بن إسفنديار في أيام مبنه، وحماة بنت شهرزان في أيام أسفرا. ويذكر لحماة امرأة تخدمها، وأخبارًا في سياستها وسلوكها. تُحفظ أسماء كشتاسب وإسفنديار وأردشير وشهرزان وحماة، ودور الخادمة غير المسماة، في دائرة هذا السرد المختلف فيه؛ فلا تُعتمد المدد الملكية المذكورة فيه تأريخًا ثابتًا، ولا تُنسب روايات سلوك الملكة إلى القرآن أو تُساق بلا تحفظ سندي. [١٧]

ويصل السرد إلى زكريا وزوجته «إيساع» وأختها «حنة» أم مريم، ثم مريم وعيسى. هؤلاء من حلقة لاحقة، لا نساء بيت آصف ولا معاصروه بمجرد وجودهم في الفصل نفسه من المصدر. ويذكر النص بعد زكريا طريقًا آخر إلى اليسابغ ثم ابنه روبيل؛ وهما أيضًا من البحث اللاحق، ولا يُخلط روبيل هنا بسميّه الوارد في أخبار أخرى. وكذلك داود ويهودا وهارون قد ترد أسماؤهم في النسب، فيختلف دور الجد أو صاحب السبط عن دور من شهد الحدث. [١٤, ١٧]

والمقصود من هذه الإشارة حفظ منافذ الانتقال إلى الفصول القادمة، لا استباق سير الأنبياء كلّها هنا. فلا نرتب إلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى في خط زمني واحد اعتمادًا على ترتيبهم في قائمة أو على تجاور أخبارهم في كتاب جامع.

٢٠. آصف في احتجاجات الأئمة اللاحقة

صار مشهد آصف مثالًا في بيان العلم الموهوب للأئمة. فإلى خبر سدير تضاف رواية أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله في تعريف صاحب العلم بأنه وصي سليمان، نقلها «نور الثقلين» عن «روضة الواعظين». وتنقل مصادر الاحتجاج مقارنات على لسان أمير المؤمنين، منها خبر أبان عن الصادق عليه السلام بشأن القدرة على بلوغ ابن أبي سفيان بالشام، وخبر مرفوع إلى سلمان الفارسي يقارن آصف بعلم أمير المؤمنين. تُذكر هذه الشواهد بطرقها المختلفة، ولا تُجمع تحت حكم بالصحة لم يُنجز. [١١, ٢٠, ٢٣]

وفي «نور الثقلين» نقل عن «الخرائج والجرائح» عن خصومة رجل خارجي مع آخر أمام علي عليه السلام، وخبر كرامة يعقبه الاحتجاج بآصف والسؤال عن قتال معاوية. هذا من أخبار الكرامات غير القرآنية، ويُحفظ موضعه للمراجعة ولا يُبنى عليه وصف واقعة ثابتة من حياة آصف. والرجلان،

ومعاوية، وسلمان وأبان وأبو سعيد، شخصيات سياقات لاحقة؛ ليست أسماء أفراد في مجلس سليمان. [٢٠, ٢٣]

ويُقرأ هذا الاستحضار ضمن وحدة الرسالة والعلم الموهوب، دون إلغاء خصوصية كل نبي وإمام أو جعل التشبيه مساواةً في جميع المقامات. وتُترك التفاصيل العقدية الموسعة لأبواب النبي والأئمة في الجزء الثاني، مع عدم إسقاط أصل الصلة هنا.

٢١. الراهب والراهبة ومتمّم بن فيروز

ومن الشواهد التي لا ينبغي إغفال نسائها خبرٌ في «الكافي» عن يعقوب بن جعفر: أتى الإمامَ موسى الكاظم عليه السلام راهب من نجران ومعه راهبة، واستأذن لهما الفضل بن سوار. بدأت الراهبة بالمسائل، ثم أسلمت بحسب الخبر. وذكر الراهب رجلًا في الهند قيل له إنه يعلم الاسم الذي عرفه آصف؛ ثم يسميه الإمام في تتمة الرواية «متمّم بن فيروز»، من أبناء الفرس. فالرجل الذي كان غير مسمى في أول الحكاية له اسم في آخرها، ولا يصح إبقاؤه مجهولًا بعد قراءة تمامها. [٢١]

ويتضمن سياق الرحلة مخبرًا غير مسمى، وشيخًا يصنع البواري عند دار تُعرف بدار مروان، وذكرًا لأبوي الراهب؛ وهذه أدوار في رواية الرحلة، لا أصحاب لآصف. وحكم المجلسي المنقول على هذا الخبر «ضعيف على المشهور». لذلك يُعرض شاهدًا على حضور آصف في الذاكرة الروائية، ولا يُستخرج منه إثبات كل خبر جغرافي أو كرامة مذكورة فيه. و«أم خير» في اسم البئر لا تكفي وحدها لإضافة امرأة صاحبة سيرة مستقلة. [٢١]

وفي خبر آخر نقله «نور الثقلين» عن «عيون أخبار الرضا»، يروي عمر بن واقد قصة المسيب الموكّل بالإمام الكاظم في زمن هارون الرشيد، ودعاء الإمام بالاسم الذي دعا به آصف ليجتمع بابنه علي في المدينة ويسلّمه العهد. نحفظ أسماء الكاظم والرضا والمسيب وهارون وعمر بن واقد في سياق الرواية اللاحقة؛ لا نجعل الخبر لقاءً بينهم وبين آصف، ولا نصحح سنده لمجرد نقله في التفسير. [٢٢]

٢٢. الذكر في الدعاء والصلات بعصر الغيبة

ينقل «نور الثقلين» عن «مهج الدعوات» فقرة من دعاء العلوي المصري تتوسل إلى الله بالاسم الذي دعا به آصف عند إحضار عرش ملكة سبأ. هذه شهادة على توظيف القصة في الدعاء، لا وثيقة جديدة عن ولادته أو أسرته. كما لا تصح نسبة كل دعاء منقول بهذا العنوان إلى إمام دون فحص طريقه. [٢٠]

وأخبار غيبة آصف في «كمال الدين» واردة في كتاب يبحث الغيبة واستمرار الحجة. وهذا يفسر الصلة الموضوعية ببحث الإمام المهدي عليه السلام، لكنه لا يثبت وحده رجعة آصف أو حضوره في أصحاب القائم أو بقاؤه حيًا إلى عصر الظهور. لا يضاف شيء من ذلك إلى سيرته من غير نص خاص يُفحص بذاته. [١٤]

٢٣. سجل الشخصيات وضبط حدود الحصر

الدائرة المباشرة: سليمان، وصاحب علم من الكتاب الذي تسميه الروايات آصف بن برخيا، وملكة سبأ التي تسميها بلقيس؛ ومعهم الملأ والرسل والعمال والخدم والحراس حيث ترد أدوارهم، وأتباع آصف الذين يرجعون إليه في الدين. داود حاضر بوصفه والد سليمان وصاحب المرحلة السابقة، وبرخيا في اسم الأب، وابن سليمان المقترح للخلافة غير مسمى. ولا يزيل غياب الاسم وجود الدور في النص. [١, ٦, ٨-٩, ١٣-١٥, ١٩]

الدائرة الأسرية المختلف في توثيقها: أم آصف على قول إنه ابن أخت سليمان، وبنت سليمان المنسوبة إلى زوجية آصف، وصفورا المنصوص على أنه ابنه، ثم مبنه وهندو وأسفرا ورامين وإسحاق وأيم وزكريا في سلسلة «إثبات الوصية». وتبقى أسماء الأم والزوجة والبنات غير معلومة في المادة المقابلة. وتُفصل حماة وخادمتها وإيساع وحنة ومريم عن نساء بيت آصف، كما تُفصل جرادة وأمينة ونساء سليمان الواردات في أخبار الخاتم المنتقدة. [٨, ١٤, ١٧, ١٩]

دائرة ما بعد الغيبة: بختنصر ودانيال وعزير، والأسرى الأربعة من بيت يهودا الذين سُمي منهم دانيال، وذراري بني إسرائيل وأهلهم، ثم من يسميهم كل خبر من حملة الهداية اللاحقين. ودائرة المقارنة والتلقي تشمل النبي محمد وأمير المؤمنين والأئمة المذكورين في الأخبار، وأبا سعيد وسلمان وسدير وأبا بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير وميسّرًا وأبانًا، والجارية غير المسماة، وموسى بن محمد ويحيى بن أكثم، والراهب والراهبة ومتممًا والفضل ويعقوب والمسيب وعمر بن واقد وغيرهم من أدوار تلك الروايات. لا تتحول هذه الدوائر إلى عصر واحد. [١١, ١٤-١٧, ٢٠-٢٣]

وفي الدائرة غير البشرية: العفريت، والهدهد، والجن والشياطين، وإبليس في خبر الكتاب المنتحل، ودابة الأرض في خبر الوفاة؛ والملائكة وهاروت وماروت أو جبرئيل حيث ترد أخبارهم أو التعيينات التفسيرية. أما بلخيا وأسطوم والخضر وجبرئيل وسليمان في أقوال تعيين صاحب العلم، فلا يُعدون خمسة مشاركين إضافيين لمجرد اختلاف المفسرين. [١, ٣-٤, ٨, ١٨]

هذا حصر مرتبط بالنصوص التي أمكن مقابلتها وبموضوع الفصل. لا يدعي استيعاب كل مخطوط أو كل طريق مفقود، ولا يقوم مقام دراسة رجالية تامة لجميع الأسانيد. ويُذكر ما وصل بواسطة جامع مثل «نور الثقلين» أو «البحار» بهذه الواسطة، بدل إيهام القارئ أن كل أصل قوبل مباشرة.

٢٤. أمانة العلم واستمرار الهداية

ليس أعظم ما في قصة صاحب العلم أن العرش انتقل؛ بل أن سليمان، حين رأى أثر القدرة، قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾. فالنعمة سؤال عن الشكر، والعلم مسؤولية، والكرامة لا تنشئ لصاحبها استقلالًا عن الله. وحين تجعل الروايات آصف حاملًا للعهد، فإنها توجه النظر من بهاء السلطان إلى حفظ معالم الدين بعد رحيل النبي. [١, ٩, ١٤]

تُغلق هذه الصفحات سيرة آصف عند ما تسمح به الأدلة: صاحب العلم في التعريف الإمامي، ووصي سليمان في أخبار الوصية، وشخصية بقي أثرها في تفسير الأئمة واحتجاجاتهم. وتبقى تفاصيل الأسرة والخلفاء والغيبة والوفاة متفاوتة في النقل والتوثيق. ومن هنا يبدأ الفصل الحادي والثلاثون بحث استمرار الهداية في بني إسرائيل، مع حفظ الأسماء التي وصلتنا وعدم ملء الأزمنة المجهولة بأخبار متخيلة.

المصادر والإحالات

الأرقام تحيل إلى المداخل الآتية، وروابطها تفتح النصوص المقابلة. أرقام الصفحات تخص الطبعات الرقمية المبينة وقد تختلف في طبعة أخرى. عُيّن النقل بواسطة جامع حيث لم يُقابل الأصل مباشرة، ولم يُجعل تكرار الرواية في الجوامع تصحيحًا لإسنادها.

[١] القرآن الكريم، النمل ١٥–٤٤، ولا سيما ٣٨–٤٤: صاحب علم من الكتاب، والعرش، وملكة سبأ. الرابط إلى بداية مشهد طلب العرش.

[٢] القرآن الكريم، الرعد ٤٣: «ومن عنده علم الكتاب». يُفصل لفظ الآية عن تعيين صاحب العلم في الروايات.

[٣] القرآن الكريم، سبأ ١٢–١٤، ولا سيما الآية ١٤: وفاة سليمان، ودابة الأرض، وحدود علم الجن.

[٤] القرآن الكريم، البقرة ١٠٢: تبرئة سليمان، والسحر، وهاروت وماروت، والتفريق بين المرء وزوجه.

[٥] القرآن الكريم، النمل ٦٥؛ الجن ٢٦–٢٧؛ القصص ٧٠. الأولى والثانية في علم الغيب، والثالثة في الإيحاء إلى أم موسى؛ ولا تسمي هذه الآيات آصف.

[٦] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب «ما أعطي الأئمة من اسم الله الأعظم»، الأحاديث ١–٣، ص٢٣٠ في الترقيم المتداول. النص والتقويم المنقول عن مرآة العقول، ج٣، ص٣٥–٣٧، في النسخة الرقمية «الثقلين».

[٧] الصفار، بصائر الدرجات، باب ١٢ في الأئمة وأنهم أُعطوا اسم الله الأعظم وكم حرفًا هو، الأحاديث ٦–٩، ص٢٢٩–٢٣٠ من النسخة الرقمية المقابلة؛ مع مقابلة اختلاف اللفظ بهامش البحار ١١٤:١٤.

[٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير النمل ٣٨–٤٤: تعيين صاحب العلم، وأقوال المفسرين، والدعاء، وكيفية إحضار العرش؛ وفيه نقل جواب الهادي عن العياشي.

[٩] ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ما روي عن أبي الحسن الثالث علي بن محمد الهادي، جوابه عن مسائل يحيى بن أكثم التي حملها موسى بن محمد؛ موضع آصف ص٤٧٨ في الترقيم المتداول. الرابط إلى النص الرقمي لهذا القسم.

[١٠] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير النمل ١٥-٤٤، وبحث الآيات ٣٨-٤٠: معنى العلم والاسم الأعظم وعلاقته بإجابة الدعاء. هذا تحليل للمفسر يُفصل عن ألفاظ الروايات.

[١١] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، «باب نادر فيه ذكر الغيب»، الحديث ٣: خبر سدير والمقارنة بين علم من الكتاب وعلم الكتاب. النسخة الرقمية ١/٤/٤٥/٣، مع تقويم مرآة العقول ٣:١١٢.

[١٢] تفسير القمي، خبر ابن أذينة عن الصادق في «علم الكتاب»، قوبل بواسطة الحويزي، نور الثقلين، ج٤، ص٨٧-٨٨، الحديث ٦٥؛ لا تُفهم هذه الإحالة على أنها مقابلة مستقلة لكل نسخ تفسير القمي.

[١٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سبأ ١٠-١٤، عند الآية ١٤: الخبر عن أبي عبد الله بأن آصف كان يدبر الأمر حتى دبت الأرضة؛ وقارن نقل البحار ١٤:١٤٢.

[١٤] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٧ في مضي موسى وغيبة الأوصياء إلى أيام المسيح، الحديث ١٧، ص١٥٣-١٥٩؛ وخبر وصية سليمان وغيبة آصف وما بعدها في ص١٥٧-١٥٨. قوبل النص الكامل للخبر.

[١٥] علي بن الحسين بن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة، الباب ١ «الوصية من لدن آدم»، الحديث ١، ص٢١-٢٣، ولا سيما ص٢٣؛ طبعة مدرسة الإمام المهدي، قم، ١٤٠٤هـ، بالنص الرقمي في «أصول».

[١٦] أمالي الصدوق، خبر سلسلة الأوصياء بطريق الحسن بن محبوب عن مقاتل، قوبل بواسطة المجلسي، بحار الأنوار، ج١٧، ص١٤٨، الحديث ٤٣. تظهر صفحة النص في الرابط بالموضع الرقمي ١٥٠.

[١٧] إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي، ص٧٣-٧٨، طبعة مؤسسة أنصاريان بالنص الرقمي في «رافد»: قرابة آصف، والخاتم، وصفورا، وأسماء حملة العهد والملوك والنساء. النسبة والمرويات لا تُصحح بمجرد عنوان الكتاب.

[١٨] العياشي، تفسير العياشي، ج١، تفسير البقرة ١٠٢، الحديث ٧٤، ص٥٢ في النص المقابل: كتاب السحر المنتحل باسم آصف. الرابط الرقمي في «أصول» يحمل الموضع ٥١؛ تُراعى أسانيد النسخة المختصرة.

[١٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، أبواب سليمان وملكة سبأ ووفاته، ص٩٨-١٤٢؛ خاصة أخبار الخاتم ص١٠٥-١٠٨، وهامش اختلاف اللفظ ص١١٤، وهوامش الأسماء ص١٢٣، وأخبار الخاتمة ص١٣٧-١٤٢. تُفصل تعليقات المحقق عن كلام المجلسي والأخبار.

[٢٠] الحويزي، نور الثقلين، ج٤، ص٨٧-٩٢، تفسير النمل ٤٠، الأحاديث ٦٣-٨٢: النقول عن روضة الواعظين والخرائج ومهج الدعوات وغيرها. تختلف طرق هذه المواد، وتُراجع الصفحات المتتابعة من الرابط.

[٢١] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، الحديث ٥: الراهب والراهبة ومتمم بن فيروز. الموضع الرقمي ١/٤/١٢٠/٥؛ وتقويم مرآة العقول ٠٦:٥٥. قوبل تمام الخبر.

[٢٢] عيون أخبار الرضا، خبر عمر بن واقد والمسيب والإمام الكاظم، قوبل بواسطة نور الثقلين، ج٤، ص٨٩، الحديث ٧٠؛ الاستشهاد باسم آصف ضمن خبر لاحق في تسليم العهد.

[٢٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢٨ وما بعدها، الحديثان ٩-١٠، في باب الاسم الأعظم: نقل عن الاختصاص بطريق أبان، وخبر مرفوع إلى سلمان عن المحتضر. الرابط يعرض الصفحة ٢٨ في الموضع الرقمي ٣٠.

الفصل ٣١ — أنبياء بني إسرائيل بعد سليمان — استمرار الهداية

١. بعد رحيل سليمان: بقي العهد

انتهى في الفصول السابقة الحديث عن سليمان عليه السلام وملكه، وعن آصف بن برخيا وما تحمله أخبار الوصية من معنى حفظ العلم. غير أن انقضاء ذلك العهد لا يجعل ما بعده فراغًا في تاريخ الهداية. فالملك يزول، وتضعف الدولة، ويتفرق الناس، وتبقى مسؤوليتهم أمام الكتاب والميثاق. وفي هذا الفصل نتتبع هذا الامتداد، ونستدرك الأسماء والأدوار التي قد تضيع بين سيرة سليمان وسير الأنبياء اللاحقين، دون تحويل أخبار متباعدة إلى قصة واحدة متصلة التفاصيل. [١, ٧]

عنوان «بعد سليمان» يحدد المجال العام للبحث، ولا يعني أن جميع الشخصيات الآتية عاشت في جيل واحد، أو أن ترتيب فصول الكتاب يساوي ترتيبها التاريخي المقطوع به. فلبعض الأسماء موضع واضح في الرواية، ولبعضها موضع مختلف فيه، وأسماء أخرى تذكر للمقارنة ومنع الخلط. أما التفصيل المستقل لإلياس واليسع ويونس وذي الكفل وأرميا ودانيال، ثم حزقيل وعزير وآل عمران، فيأتي في الفصول المخصصة لهم. وما يجمع هذا الفصل هو استمرار الدعوة، وحفظ الأمانة، وحضور الرجال والنساء في هذا التاريخ.

٢. القرآن أصل البناء وحدود الأسماء

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧]. ويذكر ميثاق بني إسرائيل وإرسال الرسل إليهم في المائدة: ٧٠. فالقرآن يثبت تتابع الرسالة بعد موسى، ويصف مواقف القبول والتكذيب والقتل، لكنه لا يقدم في هذين الموضعين قائمة بجميع الأنبياء وأعمارهم وتواريخ حكم الملوك الذين عاصروهم. والاستدلال على أصل الاستمرار صحيح، أما استخراج جدول تفصيلي كامل من الآيتين فزيادة على منطوقهما. [١]

وتربط سورة الحديد النبوة والكتاب بذرية نوح وإبراهيم، ثم تذكر إرسال عيسى ابن مريم [الحديد: ٢٦–٢٧]، كما تذكر العنكبوت: ٢٧ جعل النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم. وهذا بيان لخط الاصطفاء، لا تزكية لكل من انتسب إليه؛ فالآية نفسها تفرق بين المهتدي والفاسق. ويقرر القرآن أيضًا أن من الرسل من قُصَّ خبره ومنهم من لم يقصص [النساء: ١٦٤؛ غافر: ٧٨]. لذلك يبقى في سجل الفصل موضع للأنبياء والأتباع الذين لم تحفظ المصادر المقابلة أسماءهم. [٢, ٣]

٣. الميثاق والنبوة والعلم والسلطان

تذكر المائدة: ١٢ اثني عشر نقيبًا في ميثاق بني إسرائيل. وهؤلاء متصلون بسياق الميثاق الموسوي، فلا يصح جعل العدد قائمة جاهزة لأوصياء سليمان. وتجمع المائدة: ٤٤ بين النبيين والربانيين والأحبار في مسؤولية الحكم بالتوراة وحفظ الكتاب. فالنبي ليس كل عالم، والعالم ليس بالضرورة وصيًا منصوصًا

عليه، والملك لا يصير حجة بمجرد غلبته. وقد يجتمع بعض هذه الأوصاف في شخص، كما اجتمع الملك والنبوة لسليمان، ولكن اجتماعها فيه لا يثبتها لكل ملك جاء بعده. [٤]

وفي «الكافي»، في باب الشرائع، يروي سماعة عن الإمام الصادق عليه السلام تفسير أولي العزم بأصحاب الشرائع، ويذكر الأخذ بالتوراة بعد موسى إلى مجيء المسيح بالإنجيل. وينقل «تفسير الصافي» هذا المعنى عند الأحقاف: ٣٥. وبذلك يفهم استمرار الأنبياء في هذه المرحلة مع وحدة المرجع التشريعي العام؛ فلا يلزم من تعدد الأنبياء أن يكون لكل واحد منهم كتاب جديد ناسخ. أما التفاصيل الزمنية لكل انتقال فلا تؤخذ من هذا البيان الإجمالي وحده. [٦]

٤. آصف وما بعده في خبر الاستتار

يروي الصدوق في «كمال الدين» عن الإمام الصادق عليه السلام خبرًا طويلًا يجعل وصية سليمان إلى آصف بن برخيا، ثم يصف حالًا من الاستتار وابتلاء بني إسرائيل، وينتقل إلى بختنصر والسبي ودانيال وعزير. والعمدة في هذا الموضع أن علم النبوة لا يضيع بزوال السلطان، وأن خفاء الحجة عن عامة الناس ليس إقرارًا بغياب الهداية. أما الجزم بأن آصف لقي دانيال مباشرة، أو أنه بقي حيًا إلى السبي، فليس لازمًا من انتقال الرواية بين هذين المشهدين. [٧]

ويذكر الخبر في الأسر أربعة من ولد يهوذا، منهم دانيال، ويذكر عزيرًا من ذرية هارون. فدانيال وعزير شخصان متميزان في هذا النقل، ولا يصح دمج نسب أحدهما في الآخر. كما لا يسمي هذا المقطع الأربعة جميعًا؛ فلا تُملأ أسماؤهم بأسماء فتية وردوا في خبر آخر إلا بدليل يصل بين الخبرين. ومن ذلك يبدأ الاحتياط الذي يحفظ الشخصية ولا يصنع لها سيرة من أجزاء متفرقة. [٧]

٥. السلسلة المختصرة: آصف وزكريا وعيسى

وفي باب اتصال الوصية من «كمال الدين» يرد، بطريق الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان عن الإمام الصادق عن النبي صلى الله عليه وآله، تسلسل يذكر سليمان، ثم آصف، ثم زكريا، ثم عيسى ابن مريم، ثم شمعون بن حمون الصفا، ثم يحيى بن زكريا، ثم منذر وسليمة وبردة. ويقابل هذا الطريق خبر في «الإمامة والتبصرة»، فلا يعامل اشتراكهما في أصل الطريق كأنه شاهدان مستقلان على جميع تفاصيل الترتيب. [٨]

هذه السلسلة تحفظ أسماء مهمة، لكنها تثير مسائل في ترتيب الأزمنة، ولا سيما تقديم عيسى وشمعون على يحيى في سياق انتقال الوصية. وفي طريقها مقاتل بن سليمان، فلا تُعرض بوصفها إسنادًا متفقًا على صحته. نثبتها شاهدًا على تصور اتصال العهد في هذا النقل، ولا نحولها إلى جدول ولادة ووفاة، ولا نفترض طول أعمار غير منصوص عليه لتسوية جميع الفواصل. وتبقى سيرة يحيى وعيسى وشمعون في فصولها مجال المقابلة التفصيلية.

٦. صفورا ومبنه: اسمان لا ينبغي إسقاطهما

يسوق «إثبات الوصية»، المنسوب إلى المسعودي، خبرًا آخر يجعل بعد آصف ابنه صفورا، وبعد صفورا ابنه مبنه. وبحسب هذا السياق يسلم آصف ما عنده إلى صفورا عند قرب وفاته، ثم يسلم صفورا الأمانة إلى مبنه. لفظ «ابنه» هنا مهم: صفورا في هذه السلسلة رجل، وليس امرأة اسمها صفّورة في أخبار موسى. وتشابه الرسم لا يجيز نقل الجنس أو القرابة من سياق إلى سياق. [٩]

ولا يقدم المقطع المقابل اسم أم صفورا، أو أم مبنه، أو زوجتيهما، أو تاريخ مولدهما، أو موضع قبريهما. فلا يزاد شيء من ذلك في سيرتهما. وما يثبت هنا هو ورود الاسمين والقرابة في هذا الكتاب، لا صدور جميع جزئيات الخبر بسند صحيح عن إمام. وكتابة «مبنه» تتبع النسخة المقابلة، ولا تُحوَّل صامتةً إلى اسم أشهر ظنًّا بأن غرابة الاسم خطأ. [٩]

٧. هندوا وأسفرا ورامين وإسحاق وإيم

يمضي الكتاب نفسه بعد مبنه إلى هندوا، ثم أسفرا، ثم رامين، ثم إسحاق، ثم إيم، وبعده زكريا. ويصل الأسماء في مواضعها بقرابات أبوية؛ فيرد هندوا بن مبنه، وأسفرا بن هندوا، ورامين بن أسفرا، وإسحاق بن رامين، وإيم بن إسحاق. وهؤلاء من الأسماء التي تضيع إذا اقتصر العرض على قائمة الأنبياء المشهورين. غير أن حفظهم يقتضي أيضًا حفظ قيد المصدر: هذه سلسلة ذلك الكتاب، وليست قائمة قرآنية. [١٠]

وتظهر في الصفحة نفسها صيغ هندو وهندوا، وأسفر وأسفرا، ورامن ورامين؛ ويذكر عند زكريا أن اسمه روي «زمرتا». هذه وجوه رسم أو تعيين في المصدر تحفظ عند المقابلة، ولا تعد كل صيغة منها شخصية جديدة. ومن ثم يكون ضبط الاسم بالنسب والسياق أولى من بناء عدد للشخصيات على اختلاف الحروف وحده. [١٠]

وإسحاق بن رامين في هذه السلسلة لا يدمج بإسحاق بن إبراهيم الخليل. كما لا تكفي ألفاظ نقل العلم والحكمة وحدها للحكم بأن كل واحد من المذكورين نبي صاحب رسالة مستقلة. ولأن المقطع لا يفصل حياة هؤلاء، يُكتفى بموضعهم في نقل الأمانة وعلاقاتهم المنصوصة. أما أخبار الملوك المقارنة بهم وأرقام أعمار الدول فتظل أخبارًا تحتاج تحقيقًا مستقلًا، ولا تُستخدم لإنتاج تواريخ ميلادية جازمة. [١٠]

٨. زكريا واليسابغ وروبيل: ضرورة تمييز المتشابه

يذكر «إثبات الوصية» زكريا بن إيم، ويورد قولًا آخر في اسم أبيه هو أردن، ثم يذكر اليسابغ وروبيل بن اليسابغ قبل الانتقال إلى المسيح. نثبت هذا كما جاء في سياقه، ولا نجعل اختلاف اسم أبي زكريا نسبًا ثانيًا ثابتًا. كذلك لا يدمج «اليسابغ» باليسع لمجرد تقارب اللفظ؛ فلكل منهما موضع مختلف في النص، واليسع اسم قرآني مستقل. [١١]

وروبيل بن اليسابغ لا يساوي تلقائيًا روبيل صاحب يونس، ولا روبيل ابن يعقوب في أخبار الأسباط. ولأن تكرار الاسم كثير في المدونات، فلا نثبت وحدة الشخص إلا بنسب أو حدث أو قرينة واضحة. وعلى هذا يكون استكمال الأسماء زيادة في الدقة، لا زيادة حسابية في عدد الأنبياء. [١١, ١٨]

٩. النساء في خبر السلسلة: بنت سليمان وحماة وخادمتها

ينسب «إثبات الوصية» إلى آصف المصاهرة بسليمان، فيذكر أنه زوج ابنته، ولا يسميها في الموضع المقابل. فهذه البنت تبقى حاضرة بقرابتها دون اختراع اسم لها. ولا يُنقل إليها اسم ملكة سبأ، ولا تجعل أمًا لصفورا على سبيل الجزم إذا لم يصرح النص بذلك؛ فالزواج من امرأة وذكر ولد للرجل لا يكفيان وحدهما لإثبات أمومة هذه المرأة لذلك الولد. [٩, ١٠]

ويذكر سياق الملوك في الكتاب حماة بنت شهرزان، وامرأة من خدمها تتصل بخبرها. تدرجان هنا لئلا تمحى الشخصيات النسائية من سرد المرحلة، مع إبقاء الخبر في منزلته التاريخية داخل هذا المصدر. ولا تُجعل حماة نبية أو وصية، ولا تُكرر التهم التي يسوقها الخبر كأنها حقائق ثبتت بنص قرآني أو خبر محقق. كما لا تُوحَّد تلقائيًا بامرأة يذكرها مصدر آخر باسم قريب. [١٠]

١٠. شعيا: حضوره ومقدار ما نعرفه

شعيا من أبرز الأسماء التي ينبغي استدراكها في هذا الفصل. لا يرد اسمه صريحًا في القرآن، لكنه حاضر في «قصص الأنبياء» للراوندي وفي خبر مناظرة الإمام الرضا عليه السلام. ويقابل اسمه في الاستعمال الشائع «إشعيا»، غير أن إثبات هذه المقابلة الاسمية لا يجعل كل ما ورد في الأسفار أو كتب التاريخ عن إشعيا رواية عن أهل البيت. فلا نعتمد بمجردها نسبًا مفصلًا أو تاريخ ميلاد أو مدة نبوة. [١٢, ١٣]

في الخبر المنسوب إلى الإمام الرضا يسأل الإمام الجاثليق ورأس الجالوت عن كلام لشعيا، ويفسر ذكر راكب الحمار وراكب الجمل بعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله. ودلالة الموضع في سياقه هي الاحتجاج بالبشارة ووحدة أصل الرسالة. أما رجال مجلس المناظرة، كالنوفلي الراوي والجاثليق ورأس الجالوت، فليسوا من معاصري شعيا؛ إنهم أطراف نقلٍ أو مناظرة متأخرة، ولا يضافون إلى شخصيات عصره. [١٣]

١١. شعيا ومسؤولية الصالحين

يروي الراوندي، بإسناده عن جابر عن الإمام الباقر عن أمير المؤمنين عليهم السلام، خبرًا يذكر شعيا وتحذيره من هلاك يقع في قومه، وفيه مساءلة من وُصفوا بالأخيار عن مداهنة أهل المعاصي وترك الإنكار. واسم شعيا مثبت في هذا الموضع من النسخة المقابلة؛ فلا يستبدل بشعيب صامتًا لمجرد شهرة

مضمون قريب منسوب إلى اسم آخر. غاية الاستفادة هنا أن الاستقامة الفردية لا تستغني عن المسؤولية الأخلاقية تجاه الظلم. [١٢]

ولا يؤخذ هذا الخبر ذريعة لاتهام كل فرد في جماعة تاريخية أو معاصرة؛ فالقرآن يقول عن بني إسرائيل: ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ويقرر في أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. فلا يصح أن يصير الفصل حكمًا واحدًا على نسب أو قوم، بل هو بحث في مواقف محددة: وفاء بالعهد، وإصلاح، وتكذيب، وظلم، وصبر. [٥]

١٢. الملك المريض وخبر مقتل شعيا

ثم يورد الراوندي خبرًا عن وهب بن منبه، لا عن إمام، في ملك من بني إسرائيل في زمن شعيا، أصيب بقرحة، وأُخبر بقرب أجله، فتضرع ودعا، وجاء في الخبر أنه أُمهل خمس عشرة سنة. ويذكر أيضًا ملكًا مهاجمًا وجيشه، ونجاة القوم بعد توبتهم، ثم عودتهم إلى المخالفة بعد وفاة ملكهم. الملكان غير مسميين في أصل هذا المقطع، فلا تدرج أسماء من حواشي المؤرخين في كلام الإمام أو في متن الراوندي نفسه. [١٢]

أما قصة اختباء شعيا في شجرة ثم نشره، فيوردها المجلسي في هذا الموضع عن ابن الأثير. لذلك لا تساق بعنوان حديث ثابت عن أهل البيت، ولا تخلط بقصة قريبة تروى عن زكريا. ولا يحدد هذا الفصل سنة وفاة شعيا أو قبره؛ فالمواضع المقابلة لا توفر لذلك دليلًا محققًا. وبذلك يكتمل ما أمكن ضبطه من خبره: الاسم، وموقعه في البشارة والإنذار، وخبر الملك من طريق وهب، ثم رواية مقتله مع بيان مصدرها التاريخي. [١٤]

١٣. حيقوق: البشارة دون سيرة مخترعة

يأتي حيقوق في خبر مناظرة الإمام الرضا، ويسميه الإمام في النص نبيًا، ويسأل رأس الجالوت عما ينسب إليه من بشارة تتصل بفاران وكتاب جديد بعد خراب بيت المقدس. ويشيع ضبط الاسم «حبقوق» أيضًا. نحفظ الصيغتين للتعرف إلى الشخصية، ولا نعدهما رجلين مختلفين دون دليل. وليس له اسم صريح في القرآن، ولا تسمي المقاطع التي قابلناها أباه أو أمه أو زوجته أو أولاده. [١٣]

ومن المهم ألا يسمى حيقوق تلقائيًا النبي الذي حمل الطعام إلى دانيال في الجب. فرواية الراوندي التي سنشير إليها تقول «نبي من أنبيائه» ولا تسميه. قد تقع هذه التسمية في موروث آخر، لكن نقلها إلى هذا الخبر يجعل السكوت تصريحًا. كذلك لا تُبنى سيرة حيقوق على نسبة مقام أو قبر إليه، ولا يوضع له تاريخ ولادة ووفاة اعتمادًا على تخمين الفواصل بين الملوك. [٢٦]

١٤. إلياس واليسع ويونس وذو الكفل

إلياس واليسع ويونس وذو الكفل أسماء قرآنية، غير أن ورودها في آيات متجاورة لا يصنع ترتيبًا زمنيًا تفصيليًا. فالأنعام: ٨٤-٨٦ تجمع عددًا من الأنبياء، وتذكر ص: ٤٨ إسماعيل واليسع وذا الكفل. وتفرد الصافات دعوة إلياس إلى ترك عبادة بعل، وقصة يونس، من غير أن تجعل بينهما سلسلة آباء وأوصياء. لذلك يحفظ هذا الفصل أصل ذكرهم، ويترك تفصيل حياتهم للفصول ٣٢-٣٥، دون الادعاء أن ترقيم الفصول برهان على ترتيب بعثاتهم. [١٥, ١٧]

وفي جواب مروي عن الإمام الجواد عليه السلام لعبد العظيم الحسني، يذكر ذو الكفل باسم «عويديا»، ويصرح الخبر بأنه كان بعد سليمان بن داود، وأنه كان يقضي بين الناس. هذا نص روائي له قيمته في تحديد موضع الشخصية، مع بقاء النظر في سنده. ولا يجعل اسم «عويديا» دليلًا كافيًا على مطابقته لأي اسم متشابه في مدونة أخرى، ولا يثبت أن ذا الكفل هو حزقيل أو اليسع؛ فتلك تعيينات أخرى تحتاج أدلتها. [١٦]

ويسبق هذا الجواب خبر آخر ينتهي إلى عبد الله بن عمر عن النبي، وفيه «عويديا بن إدريم» ونبي سابق غير مسمى وفتى يتعهد بالقيام بأمر الناس دون غضب. فاسم إدريم يؤخذ من ذلك الطريق، ولا يلحق بجواب الإمام الجواد وكأنه جزء منه. ويُحفظ النبي السابق والحاجب الوارد في القصة ضمن شخصيات فصل ذي الكفل، من غير تسمية متكلفة. [١٦]

وفي خبر إلياس الطويل عند الراوندي، المروي من طريق وهب عن ابن عباس، تظهر زوجة الملك، وكاتبها المؤمن، وصاحب البستان المظلوم وأهله وولده، وابن الملك، وأم يونس التي آوت إلياس بحسب الخبر، واليسع تلميذه. وفي خبر آخر عن يونس تظهر شخصيتا روبيل وتنوخا، مع الحوامل والأجنة والأطفال والشيوخ والنساء من قومه. هذه أدوار محفوظة في سجل الفصول المقبلة، ولا تُعطى الأمهات والزوجات فيها أسماء لم يسمها الخبر، ولا توصف رواية وهب بأنها رواية عن إمام. [١٨]

١٥. أرميا: الإنذار قبل الخراب

أرميا، ويكتب أيضًا إرميا وأرمياء، من الشخصيات التي توسعت فيها كتب الأخبار والتفسير، ولم يرد اسمه صريحًا في القرآن. ففي الخبر المنقول من تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام، يواجه قومًا انحرفوا عن العهد، ويبلغهم التحذير قبل وقوع البلاء. ويظهر معه علماء ومسؤولون عن الإنكار، وأهل يطلب لهم الأمان، وشخصية بختنصر في مراحل من الخبر. فتلك الجماعات والشخصيات جزء من المشهد، وليست أسماء يمكن حذفها ثم الادعاء بأن السيرة اقتصرت على النبي وحده. [١٩]

وحين يذكر الخبر أم بختنصر أو فتى من الفرس أو رجال البلاط، لا يكون ذلك إذنًا بإثبات كل ما يروى عن الأنساب والرضاع والتواريخ على وجه القطع. ونكتفي هنا بإبراز دور أرميا في الإنذار، وصلته في بعض الأخبار بخراب المدينة وبصاحب المائة سنة. أما نسبه ومولده وتفاصيل انتقاله ووفاته

فتدرس في الفصل ٣٦ على قدر ما تعطيه النصوص، ولا تستعار من سيرة عزير لتكميل فراغاتها. [١٩, ٢٨]

وتدخل في الخبر الطويل نفسه قصة يحيى، وملك وامرأة تحرض على قتله، وامرأة مسنة يذكرها خبر القتل اللاحق. لا تدمج هذه النساء بأم يحيى أو أم مريم، ولا تعطى المرأة المحرضة اسمًا مستعارًا من رواية أخرى. وتحفظ الأدوار للفصل الخاص بيحيى، بينما يبقى وصلها الزمني بختنصر من مواضع الاختلاف الآتي بيانها، لا واقعة حسمها هذا الفصل. [١٩, ٢٢]

١٦. فسادا بني إسرائيل واختلاف تعيين الملوك

تذكر الإسراء: ٤–٨ إفسادين، وعلوًا، وغلبة أعداء، وردّ كرة، ثم تحذر من العودة. ولا تسمي الآيات بختنصر أو سنحاريب أو غيرهما. ويعرض الطبرسي في «مجمع البيان» أقوالًا مختلفة: منها ما يربط الحوادث بقتل زكريا أو يحيى أو شعيا، ومنها ما يذكر جالوت أو بختنصر أو سابور، وينقل أيضًا القول بالتوقف عن تعيين ما لم تبينه الآية. فكون القول منقولًا في تفسير إمامي لا يجعله إجماع المفسرين، ولا حديثًا عن الإمام. [٢١]

وفي «بحار الأنوار» يجمع المجلسي اختلافات الأخبار والتواريخ في هذا الباب، وينبه إلى إشكال اتصال بختنصر بدم يحيى عند مقارنة الروايات. وترد ضمن الأقوال أسماء مثل سنحاريب وبهمن وكشتاسب وأنطياخوس، لا على أنها جميعًا شخص واحد أو أن جميعها أسماء قرآنية. وفي «كمال الدين» خبر طويل عن أبي رافع يضع أحداثًا بعد عيسى وشمعون ثم يذكر بختنصر ودانيال؛ وطريقه يتضمن راويا غير مسمى بلفظ «عمن حدثه». لذلك لا يعتمد هذا الخبر منفردًا لتركيب تاريخ قطعي. [٢٠, ٢٢]

ولا يعالج الاختلاف بافتراض بختنصرين، أو عمر خارق لكل شخص، أو تواريخ محددة، إلا إذا أقيم دليل مستقل على ذلك. فحفظ الاختلاف أوفى من إخفائه. أما المقصد القرآني الثابت فهو ارتباط العاقبة بالإحسان والإساءة، مع فتح باب الرحمة؛ ولا يجيز النص إلغاء صالحين، أو تحميل طفل تبعة نسبه، أو إسقاط أخبار القرون الماضية على أشخاص معاصرين بلا دليل. [٥, ٢١, ٢٢]

١٧. دانيال والمرأة التي ربته

يحفظ خبر «الكافي»، المنقول في «البحار» عن معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عن أمير المؤمنين عليهم السلام، امرأتين مختلفتين: مسنّة كفلت دانيال بعد فقد أبويه، وزوجة عابدة اتهمها قاضيان زورًا بعد رفضها إكراههما. ويظهر في الخبر الزوج الصالح والملك والوزير والصبيان الذين مثّل دانيال معهم محاكمة كشفت تناقض الشهادة. هؤلاء غير مسمّين في النص؛ فلا تسمّى المتهمة «سوسنة» اعتمادًا على رواية أخرى، ولا تدمج بالكافلة. ويأتي تفصيل القضية وأدوار أصحابها في الفصل ٣٧. [٢٣]

١٨. دانيال في الجب ورفقاؤه الأربعة

يروي الراوندي عن حفص بن غياث عن الإمام الصادق عليه السلام خبر دانيال في جب فيه سباع، وأن الله أمر نبيًا أن يأتيه بطعام، ودلّه إلى موضعه. والنبي المرسل بالطعام غير مسمى في هذا الخبر، كما لا يسمى الملك في هذا المقطع إلا بوصف الجبروت. لذلك يحفظ الفصل الشخصيتين بوصفهما الوارد، ولا يستبدل السكوت باسم حيقوق أو أرميا أو ملك معين. [٢٦]

وفي رواية أخرى من طريق وهب بن منبه تظهر مع دانيال أربعة أسماء: يوشال، ويوحين، وعيصوا، ومريوس. يرفض الفتية السجود للصنم ويواجهون النار، ثم يروى خلاصهم. هذه الأسماء تثبت هنا كما في النص المقابل، مع التصريح بأن الخبر عن وهب. ولا يقال إنهم قطعًا الأربعة من ولد يهوذا المذكورون في خبر «كمال الدين»؛ ففي ذلك الخبر دانيال واحد من الأربعة، وهنا أربعة معه. اختلاف العدد والعلاقة مانع من الجمع التلقائي. [٧, ٢٤]

ويمضي خبر وهب إلى ابن للملك وإلى زوجة حكيمة نشأت على تأديب دانيال، تنصح زوجها بالانتفاع بعلمه. فالابن والزوجة شخصيتان أُخريان، ولا يسميهما هذا الموضع. وينبه المجلسي عند مناقشة هذه الأخبار إلى أن قصص وهب في هذا السياق ليست مما يعتمد عليه. لذلك نحفظ وجود الزوجة الناصحة في سجل الرواية، دون الجزم بنسبها أو مساواتها بملكة أخرى أو تصحيح جميع أحداث الخبر. [٢٤, ٢٥]

١٩. امرأتان وطفلان في خبر المجاعة

وفي خبر إكرام الخبز الذي ينقله «البحار» من «الكافي» عن الإمام الصادق عن النبي صلى الله عليه وآله، يظهر صاحب المعبر وامرأتان لكل منهما ولد في سياق مجاعة ودعاء دانيال لرفع البلاء. تحفظ الأمهات والطفلان بوصفهم شخصيات ذلك الخبر، ولا تدمج المرأتان بكافلته أو بالمرأة المتهمة. ويأتي تفصيله في الفصل ٣٧؛ ولا يُتخذ حكمًا على أسباب كل مجاعة أو ذنوب ضحاياها، مع بقاء الأصل القرآني في عدم حمل نفس وزر أخرى [الأنعام: ١٦٤]. [٢٧]

٢٠. عزير وصاحب المائة سنة

ورد اسم عزير صريحًا في التوبة: ٣٠ في سياق إنكار نسبة البنوة إلى الله. أما البقرة: ٢٥٩ فتروي خبر رجل مر على قرية خاوية، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ولا تسميه. وقد ورد تعيينه بعزير، وورد تعيينه بأرميا في الأخبار والتفاسير، وينقل بعض المفسرين قولًا آخر بالخضر. فلا يصح كتابة «قال القرآن إن عزيرًا...» ثم نسبة جميع تفاصيل الآية إليه وكأن الاسم جزء من نصها. [٢٨, ٢٩]

وفي الأخبار المتصلة بعزير صورتان أسريتان يجب التفريق بينهما. إحداهما تذكر أنه ترك امرأته حاملًا، ثم عاد فوجد ابنه أكبر منه سنًا بعد إحيائه. والأخرى، في خبر سؤال عالم نصراني للإمام الباقر عليه السلام، تذكر عزيرًا وعزرة أخوين وُلدا معًا، ويختلف ما عاشه كل منهما بسبب المائة سنة. فزوجة

عزير وابنه في الصورة الأولى، وأمه وأبوه وأخوه عزرة في الثانية، ليسوا أشخاصًا يمكن حذفهم أو تبديل صلاتهم. وتبقى الصورتان روايتين، ولا تجمع أعمارهما في شجرة نسب واحدة محققة. [٢٨]

وعالم النصارى وهشام بن عبد الملك والإمام الباقر من إطار رواية المناظرة المتأخر، لا من أهل عزير أو معاصريه. كما أن مجاورة خبر عزير لخبر حزقيل في كتاب لا تبيح دمج إحياء صاحب المائة سنة بإحياء الجماعة الخارجة حذر الموت في البقرة: ٢٤٣. اختلاف النص القرآني والأحداث مقدَّم على التشابه في موضوع الإحياء. [٢٨–٣٠]

٢١. حزقيل وإليا: الموضع والهوية

تربط رواية الراوندي حزقيل بالذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، وتذكر نبيًا مر بعظامهم وسأل إحياءهم. غير أن الآية نفسها لا تسمي هذا النبي، كما لا تجعله الآية وحدها من الجيل اللاحق لسليمان. وفي الكتاب أخبار أخرى له مع ملك القبط، ومع ملك غير مسمى. لذلك يُحفظ حزقيل في شبكة أخبار بني إسرائيل، مع بقاء زمنه وتعدد الأخبار المنسوبة إليه موضع تحقيق، دون الجزم بأن كل ذكر للاسم يعود إلى شخص واحد في زمن واحد. [٣٠]

وفي خبر عن الإمام الصادق عليه السلام يسمي الراوندي «إليا» رئيسًا على أربعمائة من بني إسرائيل، ويذكر ملكًا تزوج امرأة من قوم يعبدون الأصنام، ووزيرًا أخفى أصحاب إليا وأطعمهم في زمن القحط. فإليا والملك والزوجة والوزير والأصحاب أطراف الخبر. والتقارب مع قصة إلياس ظاهر، لكنه لا يكفي وحده لإلغاء اختلاف اللفظ والسياق؛ ولذلك تُذكر المسألة في الفصل ٣٨، مع مقابلة فصل إلياس. ولا يسند إلى الزوجة اسم لم يذكره هذا النص. [٣٠]

٢٢. جرجيس والمرأة صاحبة الثور

يضم الراوندي إلى هذه المجموعة خبر جرجيس، من طريق عكرمة عن ابن عباس، في دعوته ملكًا يرد اسمه «دازانة» مع اختلاف الرسم في النقول. ويظهر معه ساحر آمن، وصاحب شرطة آمن، وجماعة من المؤمنين، وامرأة فقدت ثورًا كانت تعيش به، وتذكر الرواية عودته إلى الحياة بإذن الله. فالمرأة هنا صاحبة حاجة ومعاش وموقف إيمان؛ لا يصح حذفها عند اختصار الخبر إلى مواجهة بين داعية وملك. [٣١]

ليس اسم جرجيس صريحًا في القرآن، وطريق الخبر المذكور ليس حديثًا مباشرًا عن إمام. كما أن وضع القصة قرب أخبار حزقيل وعزير لا يثبت أنها وقعت بين سليمان وعيسى. لهذا يقتصر حضورها هنا على منع سقوط الشخصية وشركائها من سجل الكتاب، وتبقى سيرتها وموقعها الزمني وحدود الروايات عنها في الفصل ٣٨. ولا تضاف قصة زوجة للملك أو أم لجرجيس لم يذكرهما المقطع المقابل. [٣١]

٢٣. آل عمران: النساء في قلب الامتداد

عند الاقتراب من عيسى عليه السلام، يقدم القرآن أسرة لها حضور واضح: عمران، وامرأة عمران، ومريم، وزكريا، وامرأته، ويحيى، وعيسى. يذكر القرآن نذر امرأة عمران، وولادة مريم وتسميتها، وكفالة زكريا لها، ودعاء زكريا بالذرية، وبشارة يحيى، ثم بشارة مريم بعيسى. فهذه النساء لسن مجرد حلقات نسب؛ لهن دعاء واختيار وعبادة وابتلاء، وتظهر الهداية في المحراب والأسرة كما تظهر في خطاب النبي لقومه. [٣٣]

وفي خبر الراوندي عن الإمام الباقر عليه السلام تسمى أم مريم «حنّة» وامرأة زكريا «حنانة»، ويذكر أنهما أختان. وفي «إثبات الوصية» ترد امرأة زكريا باسم «إيساع». نسجل اختلاف التسمية ولا نعد حنانة وإيساع امرأتين لزكريا لمجرد اختلاف المصدر، كما لا ننسب الاسمين إلى نص القرآن. ويجعل خبر الراوندي عمران نبيًا، بينما ذكر اسمه في آل عمران وحده لا يكفي لإثبات هذه الصفة دون الاستناد إلى الرواية. [١١, ٣٢]

وعمران والد مريم لا يدمج بعمران والد موسى لمجرد تشابه الاسم. وكذلك لا تخلط مريم ابنة عمران بمريم أخرى، ولا توضع أسماء لإخوة مريم أو أخواتها بغير نص. وتأتي دراسة القرابات ومعنى البشارة بعيسى وكفالة مريم في الفصول ٣٩–٤٣؛ أما هنا فالمقصود أن خاتمة الامتداد الإسرائيلي قبل المسيح لا تروى رواية صحيحة إذا أُسقطت منها الأم والخالة ومريم وامرأة زكريا. [٣٢, ٣٣]

٢٤. أسماء يحفظها الدعاء: ميشا وتورخ ومتّى

يحفظ دعاء أم داود في «إقبال الأعمال»، في فقرة الصلاة على الأنبياء والصالحين، أسماء شعيا وحيقوق وأرميا ودانيال وعزير، ومعها أسماء قليلة التفصيل في هذا الباب، منها ميشا وتورخ ومتّى. ولأن غرض الدعاء الصلاة والثناء، لا ترتيب تاريخ الأنبياء، فلا يستخرج من مجاورة الأسماء فيه زمن واحد أو نسب واحد أو تعاقب مباشر في الوصية. وإدراج طالوت ولقمان والخضر وغيرهم في الفقرة نفسها يمنع أيضًا اعتبار كل اسم فيها، بمجرد الإدراج، نصًا مستقلًا قاطعًا في النبوة. [٣٥]

وميشا في هذه النسخة لا يساوي تلقائيًا مكيخا بن دانيال، ولا يوحد تورخ بتارخ في أنساب إبراهيم بمجرد التشابه، ولا يثبت أن متّى هو بعينه المتصل باسم يونس في كل خبر. فهذه أسماء تحفظ مع مواضعها، وتبقى هوياتها التفصيلية غير محسومة بما قابلناه هنا. كما تذكر الفقرة السابقة من الدعاء آدم وحواء؛ ووجود حواء فيه لا يجعلها من نساء هذه الفترة، بل يبين أن الدعاء يستوعب أزمنة كثيرة. [٣٥]

٢٥. ما يتجاوز حدود المرحلة: مكيخا ومن بعده

يذكر خبر أبي رافع في «كمال الدين» مكيخا بن دانيال، ثم ابنه أنشو، ثم دسيخا، ثم نسطورس، ثم مر عيدا، ثم بحيرى الراهب. ويضعهم في سياق الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله، مع أخبار

ملوك وأصحاب الكهف. أما «إثبات الوصية» فتظهر في قائمته صيغ مثل أنشوا ورشيخا ومرعيد وبحيرا. نذكر هذا الطرف من السلسلة لبيان أن خبر دانيال في تلك المدونات يمتد إلى مجال آخر، لا لكي نجعل جميع هؤلاء قبل المسيح. [٢٠, ٣٦]

ولهذا تحفظ الأسماء للفصلين ٤٤ و٤٥، وتبقى مسائل ضبطها وترتيبها وتمييزها من منذر وسليمة وبردة في موضعها. ولا يحول اختلاف «دسيخا» و«رشيخا» إلى اتفاق مصطنع أو إلى شخصين مستقلين بغير تحقيق. ومن جهة الرجال السياسيين، تبقى أسماء كشتاسب وأردشير بن إسفنديار ودارا والإسكندر ومهرقيه بن بختنصر أسماء في أخبار الملوك، لا أنبياء لمجرد مجاورتها سلسلة حملة العلم. [٨-١١, ٢٠]

٢٦. الشهداء والأطفال ومن لم تحفظ أسماؤهم

من أصعب مواضع الاختصار أن تذكر أعداد القتلى والناجين وتضيع أدوارهم. ففي أخبار هذه المرحلة أنبياء مقتولون، وعلماء ساكتون، ومصلحون، وأسرى، وأمهات، وأطفال، وأتباع يخفون إيمانهم. والقرآن نفسه يذكر قتل النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس [آل عمران: ٢١]، دون أن يسمي جميع هؤلاء. فلا يسوغ تحويل كل جماعة إلى أفراد مسمين بالحدس، كما لا يسوغ حذف الجماعة من سرد الهداية لأنها مجهولة الأسماء.

وفي أخبار أصحاب الأخدود عند الراوندي ترد صورة نبي حبشي وقومه، وامرأة ورضيعها يواجهان الاضطهاد، كما ترد صور أخرى لتعيين أصحاب الأخدود. وخبر أبي رافع يربط الأخدود بدانيال وأصحابه. وهذه اختلافات لا تختزل إلى حادثة واحدة مؤكدة التاريخ. نحفظ المرأة والرضيع والنبي غير المسمى في سجل الروايات، ونمتنع عن إلزامهم زمن سليمان أو دانيال لمجرد مجاورة الخبر في الكتاب. [٢٠, ٣٤]

وبجوار أخبار شعيا يروي الراوندي، في خبر ينتهي إلى سلمان الفارسي، قصة ملك يسمى روذين، ونبي غير مسمى، ورضيع وأبيه وأمه. يدور الخبر على منع ظلم الطفل وانقلاب الملك إلى العدل. ولا يحدد هذا السياق صلة زمنية محققة بسليمان، فلا يدخل روذين في سلسلة ملوك بني إسرائيل جزمًا. ذِكره هنا يحفظ التمييز بين «ورود القصة في الباب نفسه» و«ثبوت انتمائها إلى الفترة نفسها»، مع عدم إسقاط الأم والأب والطفل من تعريف الخبر. [٣٤]

أصحاب الرس وحدود تأريخهم

يذكر القرآن أصحاب الرس مع عاد وثمود وقرون كثيرة في الفرقان: ٣٨، ويذكرهم مع الأمم المكذبة في ق: ١٢-١٤. يثبت بذلك أصل وجود الجماعة وتكذيب الرسل واستحقاق الوعيد، لكنه لا يسمي نبيها ولا ملكها، ولا يحدد موضع الرس أو تاريخها أو عدد قراها. ولهذا لا تعني مجاورتها ثمود في الآية أنها فرع منها، ولا يثبت ترتيب الأسماء وحده تقويمًا للأحداث. [٣٧]

وتروي عيون أخبار الرضا، بإسناد الصدوق عن الرضا عن آبائه عن الحسين عن أمير المؤمنين، جوابًا عن أصحاب الرس يجعل قصتهم بعد سليمان. هذا التحديد هو وجه عرض الرواية في هذا الفصل، مع بقائه تحديدًا روائيًا لا تأريخًا قرآنيًا متفقًا عليه. وفي إطار نقل الخبر يسأل رجل من أشراف تميم اسمه عمرو أمير المؤمنين؛ فلا يُنقل عمرو إلى زمن أصحاب الرس ولا يُجعل من رجال مملكتهم. [٣٨]

يصف الخبر قومًا يعبدون شجرة صنوبر تسمى «شاه درخت»، وينسب غرسها إلى يافث بن نوح. ولهم اثنتا عشرة قرية على نهر يسمى الرس، وقريتهم الكبرى إسفندار، وملك تسميه النسخة «تركوذ». ويذكر اجتماعهم في الأعياد للشجرة، وما يسمعونه من صوت ينسبه الخبر إلى الشيطان. هذه تفاصيل الرواية نفسها، وتبقى أسماء الأشجار والقرى والملك ونسبة الغرس في درجتها الخبرية؛ فلا تلحق بألفاظ القرآن ولا تُتخذ وحدها تحديدًا جغرافيًا حديثًا. [٣٨]

وفي هذه الرواية يبعث الله إليهم نبيًا من بني إسرائيل من ذرية ابن ليعقوب، ولا يسمي النبي باسمه. يدعوهم زمنًا، ثم يدعو على الشجرة فتجف، فيختلفون في تفسير ما أصابها، ويجتمعون على قتل الداعي. ويحكي الخبر أنهم حبسوه في حفرة عند موضع الماء حتى مات، ثم يصف عقابهم بالريح والنار. فلا نسميه حنظلة أو صالحًا اعتمادًا على خبر آخر، ولا نخترع زوجة أو ابنة له لسد خانة خالية في سجل الشخصيات. [٣٨]

أما رواية قصص الراوندي عن الإمام موسى الكاظم فتبدأ بالتمييز بين رسّين. ففي الجماعة الأولى، التي تنفي الرواية أن تكون المقصودة بذكر القرآن، يرد صالح ورسل بعده وولي غير مسمى. وتصور قومًا يسجدون لحوت في عيدهم، ثم يرفضون الاستجابة بعد العلامة التي طلبها الولي، وتنتهي بهلاك المكذبين وقسمة مال على أتباع الولي بالسوية بين الصغير والكبير. فهذا هو الخبر الذي سبقت الإشارة إليه في فصل صالح؛ وليس تمة لقصة ناقة ثمود. [٣٩]

وتنتقل رواية الراوندي إلى الجماعة التي تسميها أصحاب الرس المذكورين في القرآن، فتضع نهرهم بين أرمينية وآذربيجان، وتذكر قتل أنبياء، ثم نبيًا وليًا وجماعة مخلصة نجت. وتتابع تعاقب أجيال بين طاعة ونفاق ومعاصٍ وعقوبات، حتى تذكر رجالًا ونساءً في أخبار الجيل الأخير. ولا تسمي هؤلاء الأفراد. تختلف بنية هذا السرد عن رواية الشجرة والقرى الاثنتي عشرة؛ فلا يُمزجان في واقعة واحدة، ولا يُحمل عدد الأنبياء في إحداهما على النبي المفرد في الأخرى. [٣٩]

وللمقارنة التاريخية ينقل ابن كثير في البداية والنهاية، عن ابن عساكر، قولًا في نبي اسمه حنظلة بن صفوان وقتله قومه. ويحكي أقوالًا متباينة في تعيين أصحاب الرس، ومنها صلتهم بأصحاب الأخدود أو بغيرهم، ويناقشها. فحنظلة اسم محفوظ في أحد النقول، لا اسم قرآني ولا تعيين لازم للنبي غير المسمى في عيون أخبار الرضا. ويُراجع أيضًا موضع ذكر حنظلة في الفصل السادس والثلاثين ضمن خبر تاريخي مختلف السياق. [٤٠]

يحفظ هذا العرض ما اتفقت عليه الآيات، ويترك للأخبار اختلافها في المكان والزمن والشخصيات. ووجود الخبر في كتاب معتمد لدى مصنفه لا يغني عن دراسة سنده ومتنه؛ لذلك لا يُحكم هنا بصحة جميع هذه التفاصيل، ولا تُجعل الجماعات المجهولة رجالًا فقط أو تُنشأ للنساء أسماء لم تذكرها المصادر.

٢٧. المولد والأسرة والوفاة: ما يثبت وما يبقى مجهولًا

لا يكتمل التحقيق بملء خانة لكل شخصية بأي خبر متاح، بل بتعيين حدود ما نعرفه عنها. ففي صفورا ومبنه ومن بعدهما يظهر في «إثبات الوصية» انتقال الأمانة عند الوفاة، ولا تظهر تواريخ ميلاد أو أسماء أمهات لجميعهم. وفي شعيا وحيقوق يثبت موضعهما في أخبار البشارة، ولا تكتمل بذلك سلسلة أسرية. وفي دانيال يظهر اليتم والرعاية في خبر، والسبي والجب في أخبار أخرى، فلا يدمج الجميع في عمر محدد قبل مقابلة السياقات. [٩–١٤, ٢٣, ٢٦]

ومن الأمثلة التي تستوجب التوقف خبر في «الكافي» يذكر لقاء داود بشخص يسمى دانيال، يقابله وضع دانيال في أخبار السبي اللاحق. فإثبات اسم مشترك لا يحسم هل المراد شخص واحد طال عمره، أو شخص آخر، أو أن للخبر بحثًا آخر في متنه ودلالته. لا ينشئ هذا الفصل حلًا من عنده. وكذلك لا يستدل بمجرد كتاب قصص على قبر معين، أو عدد جميع الأبناء، أو اسم زوجة، أو تاريخ انتقال الوصية. [٧, ٢٢, ٢٣]

وتوثيق النساء يخضع للقاعدة نفسها: نذكر اسم حنّة إذا سمته الرواية، ونذكر «المرأة التي ربّت دانيال» إذا لم تسمها، ونثبت «زوجة الملك الحكيمة» بوصفها في خبر وهب، ونميزها من الزوجة المتهمة ظلمًا ومن امرأتي المجاعة. بهذا يصان حق المرأة في الحضور، ويصان حق القارئ في معرفة ما هو نص وما هو تعيين محتمل. ولا يكون نقص الاسم مبررًا لنقص الدور.

٢٨. استمرار الهداية والانتقال إلى إلياس

أعطى الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة [الجاثية: ١٦]، لكن حمل هذه النعمة لم يجعل مسيرتهم فعلًا واحدًا أو موقفًا واحدًا. ففي الأخبار ملوك يصغون وملوك يبطشون، وعلماء يحفظون وعلماء يداهنون، ونساء يربين وينصحن ويثبتن أمام الظلم، ورجال ونساء لا نعرف أسماءهم ولكن بقي أثر إيمانهم. وليس استمرار الهداية وعدًا ببقاء كل دولة أو أسرة حاكمة؛ إنه استمرار الحجة والمسؤولية والدعوة إلى عبادة الله والعدل بين عباده.

وعند هذا الحد تنتهي وظيفة الفصل الجامع: ثُبِّت أصل الاستمرار، وحُفظت الأسماء الواردة في المصادر المقابلة، وأُبرزت النساء والشخصيات غير المسماة، وفُصل بين نص القرآن وتعيينات الأخبار، وبقيت مواطن الاختلاف ظاهرة. ومن هنا ننتقل في الفصل الثاني والثلاثين إلى إلياس عليه السلام، الذي يصفه القرآن بأنه من المرسلين، وإلى سؤاله لقومه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

[الصافات: ١٢٥]. فبعد النظر في امتداد العهد، تبدأ دراسة دعوة محددة وشخصياتها وأحداثها على أساس النص والدليل. [١٧]

مصادر الفصل ومواضع التوثيق

أرقام الإحالات في المتن تقابل القائمة الآتية. أرقام الصفحات تخص النسخ المبينة في الروابط، وقد تختلف في طبعات أخرى؛ لذلك أضيف اسم الباب أو موضع الآية حيث يلزم. والإحالة إلى خبر لا تعني تصحيح جميع رواته، ولا تجعل تعليق المحقق جزءًا من الرواية. وما قُرئ بواسطة «البحار» أو «الصافي» صرّح بوسيطه. أسماء الكتب العامة وحدها لم تعتمد بدل تحديد موضع الشاهد.

[١] القرآن الكريم: البقرة ٨٧؛ المائدة ٧٠–٧١؛ في تتابع الرسل ومواقف بني إسرائيل منهم.

[٢] القرآن الكريم: الحديد ٢٦–٢٧؛ العنكبوت ٢٧؛ في النبوة والكتاب والتمييز بين المهتدي وغيره.

[٣] القرآن الكريم: النساء ١٦٤؛ غافر ٧٨؛ في الرسل المقصوصين وغير المقصوصين.

[٤] القرآن الكريم: المائدة ١٢–١٣، ٤٤–٤٨؛ الميثاق والنقباء والنبيون والربانيون والأحبار.

[٥] القرآن الكريم: الأعراف ١٦٨؛ آل عمران ١١٣–١١٥؛ الأنعام ١٦٤؛ في اختلاف المواقف والمسؤولية الفردية.

[٦] الكليني، الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، ح٢، ص١٧–١٨؛ وقوبل نقله في تفسير الصافي، الأحقاف: ٣٥، خبر سماعة عن الإمام الصادق في أولي العزم.

[٧] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٧، ح١٧، ص١٥٣–١٥٩، ولا سيما ص١٥٧–١٥٨؛ وصية سليمان لآصف، والاستتار والسبي ودانيال وعزير.

[٨] الصدوق، كمال الدين، الباب ٢٢: اتصال الوصية، ح١، ص٢١١–٢١٣؛ ويقابله خبر الإمامة والتبصرة، الباب الأول، ح١، من طريق الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان.

[٩] إثبات الوصية، المنسوب إلى المسعودي، ص٧٣ و٧٦؛ صلة آصف بسليمان، وصفورا بن آصف، ومبنه بن صفورا.

[١٠] إثبات الوصية، ص٧٧؛ هندوا وأسفرا ورامين وإسحاق وإيم؛ وحماة بنت شهرزان والمرأة التي تخدمها، مع اختلاف رسم بعض الأسماء في الصفحة نفسها.

[١١] إثبات الوصية، ص٧٨؛ زكريا ونسبه، وامرأته إيساع، واليسابغ وروبيل، وأخبار الملوك المقارنة.

[١٢] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السابع عشر، ص٢٤٤–٢٤٥؛ أخبار شعيا: النقل عن الباقر عن علي، وخبر وهب، وخبر أنس عن سؤال عبد الله بن سلام.

[١٣] الصدوق، عيون أخبار الرضا، باب مجلس الرضا مع أهل الأديان وأصحاب المقالات، ح١، خبر الحسن بن محمد النوفلي؛ مقطع شعيا وحيقوق، وقوبل بنقله في بحار الأنوار، ج١٤، ص١٦٢-١٦٣، ح٣.

[١٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ص١٦٢، في قصة شعيا؛ النقل التاريخي عن الكامل لابن الأثير، وهو متميز عن متن الخبر المنسوب إلى الإمام.

[١٥] القرآن الكريم: الأنعام ٨٤-٩٠؛ الأنبياء ٨٥-٨٦؛ ص ٤٨؛ في أسماء الأنبياء والصالحين دون جدول زمني مفصل.

[١٦] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الثالث عشر، ص٢١٢-٢١٣، ح٢٧٦-٢٧٧ في نسخة الرابط؛ خبر ابن عمر، وجواب الإمام الجواد لعبد العظيم الحسني في ذي الكفل.

[١٧] القرآن الكريم: الصافات ١٢٣-١٣٢، ١٣٩-١٤٨؛ يونس ٩٨؛ إلياس ودعوته ويونس وقومه.

[١٨] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السابع عشر، ص٢٤٨-٢٥٢؛ خبر إلياس من طريق وهب عن ابن عباس، ثم خبر يونس وروبيل وتنوخا من طريق أبي عبيدة عن الباقر.

[١٩] تفسير القمي، خبر هارون بن خارجة عن الإمام الصادق في أرميا وبختنصر؛ قُرئ بنقل المجلسي في بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٥٦-٣٦٠، ح١ من باب قصص أرميا ودانيال وعزير وبختنصر.

[٢٠] الصدوق، كمال الدين، الباب ٢٢، ح٢٠، ص٢٢٤-٢٢٨؛ خبر أبي رافع، وفي إسناده «عمن حدثه»؛ الملوك ودانيال ومكيخا ومن بعده.

[٢١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الإسراء: ٤-٨؛ اختلاف تعيين الفسادين والملوك، وبيان المعنى القرآني.

[٢٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٥١-٣٥٥؛ جمع الأقوال ومناقشة اختلاف أخبار بختنصر ويحيى؛ يميز كلام المجلسي من حواشي المحقق.

[٢٣] الكافي، خبر معاوية بن وهب عن الصادق عن علي في دانيال والمربية والمرأة المتهمة؛ قُرئ في بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٧٥-٣٧٦، ح١٨. وانظر الخبر التالي، ح١٩، ص٣٧٦-٣٧٧، في داود ودانيال.

[٢٤] الراوندي، قصص الأنبياء، أخبار دانيال، ص٢٢٥-٢٣٠؛ روايات وهب في الفتية الأربعة والملك وابنه والزوجة الحكيمة.

[٢٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٧٠-٣٧١؛ تعقيبه على قصص وهب وعدم الاعتماد عليها في هذا السياق.

[٢٦] الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢٣٠؛ خبر حفص بن غياث عن الإمام الصادق في دانيال والجب والنبي غير المسمى الذي جاءه بالطعام.

[٢٧] الكافي، خبر مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عن النبي في الخبز ودانيال؛ قُرئ في بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٧٧-٣٧٨، ح٢٠؛ صاحب المعبر والمرأتان والطفلان.

[٢٨] بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٦٠-٣٦٢، ٣٧٣-٣٧٥، ٣٧٨-٣٧٩؛ نقول مجمع البيان والاحتجاج والعياشي ومختصر بصائر الدرجات والقمي في صاحب المائة سنة، وابن عزير، وعزرة.

[٢٩] القرآن الكريم: البقرة ٢٥٩؛ التوبة ٣٠؛ التمييز بين الرجل غير المسمى في خبر الإحياء وعزير المسمى في سورة التوبة.

[٣٠] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس عشر، ص٢٤١-٢٤٣؛ أخبار حزقيل وإليا والملك والزوجة والوزير، ومقابلة البقرة: ٢٤٣.

[٣١] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس عشر، ص٢٣٨-٢٤٠؛ خبر جرجيس من طريق عكرمة عن ابن عباس، والملك والساحر وصاحب الشرطة والمرأة صاحبة الثور.

[٣٢] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الثالث عشر، ص٢١٤-٢١٥؛ أخبار عمران وحنّة وحنانة ومريم ويحيى وعيسى، ح٢٧٨-٢٨٠ في نسخة الرابط.

[٣٣] القرآن الكريم: آل عمران ٣٣-٤٧؛ مريم ٢-٣٦؛ أسرة عمران ومريم وزكريا وامرأته ويحيى وعيسى.

[٣٤] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السابع عشر، ص٢٤٥-٢٤٧؛ روذين والطفل وأبواه والنبي غير المسمى، وأخبار أصحاب الأخدود والمرأة ورضيعها.

[٣٥] ابن طاووس، إقبال الأعمال، دعاء أم داود، فقرة الصلاة على الأنبياء والصالحين، ص٢٤٤ في النسخة الرقمية المشار إليها؛ ومنها ميشا وتورخ ومتّى وشعيا وحيقوق.

[٣٦] إثبات الوصية، فهرس القسم الأول، مواضع ص٨٨-٨٩؛ صيغ أسماء مكيخا وأنشوا ورشيخا ونسطورس ومرعيد وبحيرا، للمقابلة الاسمية دون تصحيح التسلسل الزمني.

[٣٧] القرآن الكريم، الفرقان ٣٨-٣٩ وق ١٢-١٤؛ الموضعان اللذان يرد فيهما أصحاب الرس.— النص في المصدر

[٣٨] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، الباب السادس عشر، الحديث الأول، ص١٨٣-١٨٦ في العرض الرقمي؛ خبر أصحاب الرس عن الرضا عن آبائه.— النص في المصدر

[٣٩] الراوندي، قصص الأنبياء، الخبر ٨٩، في باب هود وصالح؛ التمييز الصريح بين رسّين، وخبر الحوت ثم خبر الجماعة الأخرى.— النص في المصدر

[٤٠] ابن كثير، البداية والنهاية، باب ذكر أمم أهلكوا بعامة، فصل أصحاب الرس؛ نقل ابن عساكر في حنظلة بن صفوان، ومناقشة اختلاف التعيين. مصدر تاريخي مقارن.— النص في المصدر

الفصل ٣٢ — إلياس عليه السلام — الدعوة إلى التوحيد

١. مدخل إلى سيرة إلياس وحدود مصادرها

بعد الحديث عن استمرار الهداية في بني إسرائيل، نصل إلى نبي سمّاه القرآن صراحة، وأثبت رسالته وصلاحه وإيمانه: إلياس عليه السلام. ليست قلة الآيات التي تتناول سيرته قلة في منزلته؛ فالقرآن يجمع في مشهد قصير أصل دعوته، واعتراض قومه، ونجاة المخلصين، وبقاء الثناء عليه. ومن هذا الأصل تبدأ السيرة، ثم تتسع بما تنقله كتب الحديث والتفسير، على أن يبقى لكل خبر قائله وطريقه. [١,٢]

يجمع هذا الفصل المواضع القرآنية المباشرة، والأخبار المتصلة بإلياس وإليا واليسع، وتفسير «آل ياسين». وتأتي صلات هذه الأسماء في مواضعها، مع حفظ الفرق بين النبي الذي تدور عليه القصة ومن ينقل خبره.

لا يفترض ترتيب الكتاب أن إلياس تسلّم الأمر مباشرة من آصف، ولا أن بينه وبين سليمان عددًا معلومًا من السنين. فالانتقال من الفصل السابق انتقال في موضوع الكتاب، وليس سندًا مستقلًا لإثبات التسلسل الزمني. وكذلك فإن الولادة والنسب والزواج والوفاة أبواب لا تملأ بالتخمين؛ فما لم يثبت فيها يظل غير محدد، ولو اشتهرت له حكاية في الأدب القصصي. [٤]

٢. إلياس في القرآن: موضعا الاسم والنص الكامل للقصة

يذكر القرآن إلياس باسمه في الأنعام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٦:٨٥). ويأتي هذا في سياق يذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوحًا، وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ثم زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ثم إسماعيل واليسع ويونس ولوطًا. اجتماع الأسماء في مقام الهداية لا يعني تعاصر أصحابها، ولا يجعل كل واحد خلفًا مباشرًا لمن سبقه في التلاوة. [١]

وأما القصة المباشرة فترد في الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٧:١٢٣-١٣٢). ويأتي بحث القراءة والتفسير في الآية ١٣٠ في موضعه أدناه. [٢]

تثبت الآيات الرسالة، والدعوة إلى التقوى والتوحيد، ووجود التكذيب والمؤمنين، والجزاء والثناء. ولا تسمي ملكًا أو ملكة، ولا بستانًا أو جبلًا، ولا أم يونس، ولا تحدد مدة القحط أو كيفية رفع إلياس. وهذه حدود نافعة للقارئ: فالأسماء والأحداث اللاحقة يمكن أن تكون مادة روائية، ولكن لا تدخل في النص القرآني بمجرد أنها تشرح قصته. [٢]

٣. «ألا تتقون»: الدعوة قبل المواجهة

يبدأ كلام إلياس بالسؤال عن التقوى، ثم يسمّي موضع الانحراف: دعاء بعل وترك عبادة الله. فالمواجهة في النص ليست خصومة شخصية مع قومه، ولا مطالبة بسلطة لنفسه. إنه يدعوهم إلى ربهم ورب آبائهم، أي إلى حقيقة لا تتغير بتغير الأجيال. وفي هذا إبطال للاستناد إلى الموروث وحده: الآباء أنفسهم مخلوقون لله، ولا يصبح اختيارهم حجة على الله. [٢,٤]

ووصف الله بأنه أحسن الخالقين لا يقر لبعل استقلالًا في الخلق أو التدبير. يرد الاسم الإلهي بعده لبيان من له الربوبية التي تقتضي العبادة. ويشرح الميزان اتصال الخلق بالتدبير، وعموم ربوبية الله للقوم ولمن سبقهم. فالدعوة تعالج أصل الاعتقاد الذي يمنح الصنم قوة لا يملكها، ولا تتوقف عند تغيير اسم المعبود. [٢,١٠]

٤. بعل: ما يثبته النص وما تضيفه كتب التفسير

يفسر النص المنسوب إلى علي بن إبراهيم بعلًا بأنه صنم كان القوم يسمونه بهذا الاسم، وينقل مثالًا لغويًا لرجل يسأل أعرابيًا عن ناقة فيجيبه بأنه بعلها، أي صاحبها. ويعرض مجمع البيان معنى الصنم، ومعنى الرب أو السيد في اللغة. فالرجل السائل والأعرابي في المثال اللغوي ليسا من أصحاب إلياس، ولا يصح إدخالهما في زمنه؛ إنما وردا لتفسير اللفظة. [٤,٥,٩]

وتربط القصة التاريخية الدعوة ببعلبك في الشام. لكن اسم المدينة ليس في الآيات، ولا يكفي التشابه بين «بعل» و«بعلبك» وحده لإثبات كل تفصيل جغرافي متداول. كما أن القول بأن الصنم من ذهب، أو تحديد صورته وحجمه وعدد خدمه، يحتاج إلى مصدر خاص. ما لا تتوقف عليه دلالة القرآن ولا يثبت بطريق واضح لا يتحول هنا إلى وصف يقيني للمعبد أو المدينة. [٤,١٦]

٥. المؤمنون الذين لم يسمّهم القرآن

بعد ذكر التكذيب، يستثني القرآن عباد الله المخلصين. فلا يصح أن يقال إن جميع قوم إلياس كفروا، أو إنه لم يؤمن به أحد، ثم تساق القصة على هذا الأساس. يفسر مجمع البيان الاستثناء بالمخلصين من قومه. ولا تذكر الآيات أسماء هؤلاء أو عددهم، ولا تفصل رجالهم عن نسائهم. [٢,٤]

وعند ذكر الكاتب المؤمن أو المؤمنين الذين أنقذهم في الخبر المطول، لا نجزم بأنهم جميع المراد بهذه الآية، أو أنهم يساوون عدد المخلصين في القرآن. فالنص القرآني أوسع من التفصيل القصصي، والتطبيق المحتمل لا يصبح تعيينًا قطعيًا. وفي سجل الشخصيات يبقى «المخلصون من قوم إلياس» مدخلًا مستقلًا، حتى لا يسقطوا لأن أسماءهم لم تحفظ. [٢,١٦]

٦. النسب والمولد والعائلة: ما يمكن قوله

تضع الأخبار إلياس بين أنبياء بني إسرائيل. وينقل مجمع البيان عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغيرهما أنه من ولد هارون بن عمران، وأنه ابن عم اليسع. ويذكر نقل البحار نسبًا بصيغة: إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، مع اختلاف في بعض الأسماء في الحواشي. هذه سلسلة تاريخية منقولة، وليست نسبًا يذكره القرآن ولا حديثًا عن إمام بمجرد إيرادها في تفسير إمامي. [٤,١٧]

وبذلك لا يغيب ياسين وفنحاص والعيزار وهارون وعمران عن المراجعة، ولكن لا تنشأ لكل واحد منهم سيرة من مجرد ورود اسمه في سلسلة نسب. كما لا يحمل اسم عمران هنا على عمران أبي مريم بلا دليل. ولم أجد في الأصول المقابلة خبرًا يثبت اسم أم إلياس، أو تاريخ مولده، أو طفولته، أو اسم زوجة له وأولاد. عدم العثور على ذلك لا يثبت أنه لم يتزوج؛ إنه يحدد ما يمكن لهذه السيرة أن تقوله بأمانة. [٤,١٧]

٧. «إلياسين» و«آل ياسين»: القراءة قبل التأويل

في الآية ١٣٠ قراءتان ينبغي بيان الفرق بينهما. يذكر التبيان ومجمع البيان قراءة الوصل «إلياسين»، وقراءة الإضافة «آل ياسين»، مع نسبة الثانية إلى نافع وابن عامر ويعقوب في عرض التبيان، وتفصيل بعض طرقها في مجمع البيان. وفي تفسير قراءة الوصل ذُكر أنها صيغة للاسم، أو أنها تشمل إلياس وأتباعه على وجه من وجوه العربية. وفي قراءة الإضافة نوقشت دلالة «آل» ومن المراد بياسين. [٣,٤]

ولا يكفي رسم الكلمات وحده لحسم جميع هذه المسائل، كما لا يجوز أن تنقل ترجمة إنجليزية واحدة ثم توهم القارئ أنها تمثل جميع القراءات والتفاسير. لذلك يحافظ هذا الفصل على اسم إلياس في سياق قصته، ويثبت بصورة مستقلة الروايات التي فسرت «آل ياسين» بآل محمد صلى الله عليه وآله. ولا يختزل تلك الروايات في عبارة مبهمة عن «أدبيات لاحقة»؛ فهي موجودة في مصادر محددة ينبغي تسميتها. [٣,٧–٩]

٨. تفسير أهل البيت لـ«آل ياسين»

عقد الصدوق في معاني الأخبار بابًا لمعنى «آل ياسين». وفي الحديث الثاني يروي بطريقه إلى كادح، عن الإمام الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «ياسين محمد، ونحن آل ياسين». وفي الباب نفسه أخبار عن ابن عباس، وخبر في بعض ألفاظه عن أبي مالك، ثم خبر في القراءة عن عمر بن الخطاب. فهذه طرق مختلفة، ولا يصح تحويلها كلها إلى أحاديث مسندة إلى الإمام علي أو إلى الصادق. [٧]

وفي خبر الريان بن الصلت في عيون أخبار الرضا، يجري الحوار بين الإمام الرضا والمأمون وعلماء من العراق وخراسان في الفرق بين العترة والأمة. ويستدل الإمام في موضعه بالسلام على «آل ياسين»، ويبينه بآل محمد. ونقل نور الثقلين هذا الموضع، ثم خبر معاني الأخبار، ثم خبرًا من الاحتجاج في

المعنى نفسه. ويرد تفسير الاسم والآل كذلك في النص المنسوب إلى القمي، وفي الصافي عند تفسير صدر سورة يس. [٥-٩]

تدخل العترة هنا في تفسير الآية، لا في دعوى أنها عاشت زمن إلياس. ومن ثم لا يغيب حضور فاطمة الزهراء عليها السلام مع علي والحسن والحسين في بيان أهل البيت في خبر الرضا، ولا تتحول هذه الصلة التفسيرية إلى قرابة نسبية بإلياس. ويذكر الخبر نوحًا وإبراهيم وموسى وهارون للمقارنة بين صيغ السلام في السورة؛ هؤلاء أمثلة قرآنية في الاستدلال، وليسوا أشخاصًا التقوا إلياس في الواقعة. [٨,٩]

والنتيجة التحريرية أن يحفظ البحث الأمرين: سياق قصة النبي في الصافات، ووجود تفسير إمامي للقراءة الأخرى في فضل آل محمد. أما صحة كل إسناد، ووجه الجمع التفصيلي بين ظاهر السياق والتأويل، فليسا حاصلين بمجرد كثرة الكتب التي أعادت نقل طريق واحد. [٧-٩]

٩. إلياس العابد في حديث الإمام الصادق

يروي الكليني، في باب أن الأئمة عندهم الكتب المنزلة ويعرفون ألسنتها، عن المفضل بن عمر أنه أتى مع جماعة إلى باب الإمام الصادق يريدون الإذن عليه، فسمعوا كلامًا بغير العربية وبكاء. ثم خرج إليهم غلام فأذن لهم. ولما سأل المفضل، ذكر الإمام إلياس النبي، وأنه من عباد أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان يردد مناجاته في السجود. أعاد الإمام الكلام بالسريانية ثم فسره بالعربية. [١١]

تتكرر في المناجاة خشية العذاب مع ذكر الظمأ لله، وتعفير الوجه في التراب، واجتناب المعاصي، وإحياء الليل بالعبادة. ثم يأتي الجواب الإلهي برفع الرأس والوعد بعدم العذاب، وتنتهي الرواية بتأكيد الوفاء بالوعد. المعنى الذي يعرضه الخبر هو افتقار العابد إلى ربه، لا ادعاء استحقاق مستقل يلزم الله بعمله. ويظل هذا شرحًا لمعنى الرواية، وليس نصًا جديدًا من كلام إلياس. [١١]

وشخصيات المشهد هي الإمام الصادق، والمفضل، والجماعة التي معه، والغلام الذي أذن لهم؛ أما إلياس فيحضر بذكر مناجاته. ولا يقول الخبر إن الإمام رآه في ذلك المجلس. وفي إسناده سهل بن زياد وبكر بن صالح، وقد ضعّفهما النجاشي في ترجمتيهما؛ لذلك يروى مع هذا التنبيه، ولا يوصف هنا بالصحيح. كما أن ورود القس والجاثليق في تشبيه فصاحة الإمام لا يعني وجود رجلين مسميين منهما في المجلس. [١١,١٢]

١٠. مناجاة «إليا» في خبر الإمام الباقر

وينقل المجلسي عن بصائر الدرجات خبر موسى النميري: جاء إلى باب الإمام الباقر، وسمع الحاضرون صوتًا حزينًا بالعبرانية، فظنوا أن عنده رجلًا من أهل الكتاب يستقرئه. فلما دخلوا لم يروا أحدًا، فبيّن الإمام أنه تذكر مناجاة إليا لربه. وفيها ذكر طول القيام والصلاة، ثم تأكيد الوفاء بالوعد الإلهي. فالخبر يسمّي إليا، ويذكر العبرانية، بينما خبر المفضل يسمّي إلياس ويذكر السريانية. [١٣]

التشابه في مضمون الدعاء حمل المجلسي على احتمال اتحاد إليا وإلياس، لكنه عبّر عن ذلك باحتمال، لا بنقل تصريح من الإمام يحسم الهوية. ولهذا يحفظ الفصل الصيغتين، ويقابلهما دون محو الاختلاف. كما لا ينشئ شخصية «رجل كتابي قارئ» من ظن الحاضرين؛ فالإمام نفسه نفى حضور ذلك الرجل. وموسى النميري هنا راوٍ في زمن الباقر، وليس موسى النبي. [١٣]

١١. خبر الطعام وصلته باليسع ويوشع

في الكافي، باب الكرفس، يروي الإمام الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وآله خبرًا يذكر الكرفس طعامًا لإلياس واليسع ويوشع بن نون. يجمع الخبر الأسماء الثلاثة في شأن الطعام، ولا يثبت أنهم عاشوا في وقت واحد أو جلسوا إلى مائدة واحدة. وفي الطريق عبارة «محمد بن عيسى أو غيره»، فلا يغفل القارئ هذا التردد عند الكلام على السند. [١٤]

يفيد إيراد هذا النص في استكمال أخبار إلياس المتفرقة خارج أبواب السير. لكنه لا يثبت أن طعامه اقتصر على الكرفس، ولا ينسخ خبر أكله من نبات الأرض في القصة التاريخية، ولا يتحول إلى وصفة علاجية. ونذكر يوشع هنا بصفته صاحب الاسم في الرواية، مع إبقاء سيرته في فصلها وعدم توحيده باليسع بسبب بعض الأقوال المختلفة. [١٤,١٦]

١٢. إليا والملك: رواية مستقلة عن الإمام الصادق

يروي الراوندي في قصص الأنبياء، بإسناده عن الصدوق إلى عمار بن موسى عن الإمام الصادق، خبر رجل من بني إسرائيل يسمى إليا، كان رئيسًا على أربعمائة منهم. يضع المجلسي الخبر ضمن أخبار إلياس، ويحتمل اتحاد الشخصيتين؛ أما افتتاح الرواية نفسها فلا يقول صراحة: «إليا النبي». لذلك نثبت اسمها كما ورد، ونبين وجه اتصالها بالفصل دون أن نجعل احتمال الاتحاد نصًا قاطعًا. [١٥,١٣]

يربط الخبر إليا بملك تزوّج امرأة من قوم يعبدون الأصنام، وبوزير أخفى أصحاب إليا وأطعمهم. ويُميّز بين أربعمائة من جماعته وثمانمائة جاءوا مع المرأة والصنم، ثم يروي القحط وتوبة الملك وعودة المطر. تفصيل المرأة والوزير وخاتمة الخبر محفوظ في الفصل ٣٨. موضعه هنا بيان احتمال صلته بإلياس، مع إبقاء نصّه مستقلًا عن القصة التالية التي تنتهي بهلاك الملك؛ فلا تُنقل الأسماء أو الخواتيم من إحداهما إلى الأخرى. [١٥، ١٣]

١٣. أصل القصة المطوّلة: وهب عن ابن عباس

تأتي القصة المطولة لإلياس في الباب التالي من قصص الأنبياء. وينتهي سندها، بعد رجال يسميهم الراوندي، إلى منعم بن إدريس عن وهب بن منبه عن ابن عباس. فهي ليست في هذا الموضع رواية عن الإمام الصادق أو الباقر، وإن رواها مصنف إمامي بطريق يمر بالصدوق. ونقل المجلسي هذه القصة

أيضًا مع تعليقات وإضافات في الهوامش. هذه النسبة ترافق جميع التفاصيل الآتية عن الملك والبستان وأم يونس واليسع. [١٦,١٧]

يفتتح الخبر بذكر موسى، ثم يوشع بن نون الذي أسكن بني إسرائيل الشام، ثم قبيلة نزلت بعلبك وكان إلياس منها. وبعد ذلك تظهر مملكة يعبد حاكمها وقومه بعلًا. لا يحدد هذا التمهيد تاريخًا محسوبًا لبعثة إلياس، ولا يثبت اتصال كل الأحداث مباشرة بوفاة يوشع. ذكر الجذور الإسرائيلية يبين خلفية القصة، أما تعيين السنوات والسلالة الملكية فليس في النص ما يكفي لإثباته. [١٦]

ولأن الروايتين تتشابهان في الأصنام والقحط والملك، يسهل أن تدمجا بلا تنبيه؛ لكن الفروق جوهرية. في خبر إليا وزير يحمي الأصحاب وتوبة للملك وقحط محدد بثلاث سنين. وفي خبر وهب كاتب مؤمن، وصاحب بستان مقتول، وأم يونس، ثم هلاك الملك وزوجته. لا يثبت أن الوزير هو الكاتب، أو أن المرأة الوافدة هي الملكة ذات البستان، ولا يجمع اختلاف النهاية بمرحلة جديدة لم يذكرها المصدر. [١٥,١٦]

١٤. الملك والملكة والكاتب المؤمن

في القصة المطولة تكون زوجة الملك ذات نفوذ، تخلفه في الحكم عندما يغيب. ويصفها الخبر بالبطش، ويذكر في سياق ذمها أزواجًا سابقين وذرية كثيرة. لا يسمي هؤلاء الأفراد، ولا يقدم لكل واحد واقعة مستقلة. فلا تتحول هذه الأرقام والأوصاف إلى أنساب موثقة، ولا تستورد لها أسماء من روايات أخرى. كذلك لا نضع اسمًا جازمًا للملك: ما يرد في بعض الحواشي من تسميات تاريخية ليس اسمًا قرآنيًا ولا جزءًا ثابتًا من هذا المتن. [١٦,١٧]

وكان للملكة كاتب مؤمن حكيم، يروي الخبر أنه أنقذ من يدها ثلاثمائة مؤمن. ليس الكاتب نبيًا في النص، ولا وزيرًا مسمى، ولا واحدًا من أنبياء القرآن بغير دليل. قيمته داخل الرواية في موقفه: فهو يعرف خطر السلطة التي يعمل قريبًا منها، ويستخدم موضعه لحماية أرواح الآخرين. وبهذا تكتمل صورة الصراع؛ فالمؤمنون ليسوا نبيًا وحيدًا في مواجهة مجتمع يخلو كله من الخير. [١٦]

ووجود امرأة ظالمة في هذا الخبر لا يمثل جميع النساء في الفصل. ستظهر أم يونس صاحبة إيواء وسعي ورحمة، كما تظهر فاطمة الزهراء في باب التأويل في مقام أهل البيت. لكل امرأة فعلها ومصدر خبرها، ولا يقلب اختلاف المواقف إلى حكم على جنس كامل. كذلك لا ينقل وصف صلاح الكاتب إلى الملك، ولا يجعل اعتراض الملك اللفظي على جريمة لاحقة ردًا فعليًا للمظلمة. [٨,١٦]

١٥. صاحب البستان وأسرته: المظلومون في قلب القصة

كان بجوار الملك رجل صالح له بستان يعيش منه ويعول أهله وولده. وعندما غاب الملك، استولت الزوجة على البستان وقتلت صاحبه. ولما عاد الملك أنكَر ما صنعت، لكن الخبر لا يذكر أنه أعاد الحق إلى أهله أو أقام العدل في الجريمة. يبقى صاحب البستان بلا اسم في هذه الرواية؛ فلا يسمى باسم

متداول في مصادر دينية أخرى لمجرد تشابه الحادثتين. وكذلك تذكر أسرته وأولاده بوصفهم متضررين، دون اختراع اسم زوجة أو عدد أبناء. [١٦]

جاء إنذار إلياس متصلًا بهذه الجريمة وبعبادة الأصنام. وفي بناء القصة لا ينفصل فساد الاعتقاد عن الاعتداء على الإنسان؛ فالملك والملكة لا يملكان تحويل ما يريدانه إلى حق لمجرد القدرة عليه. يطالب النبي بالتوبة، وتصور الرواية رفض التحذير وتكذيب الرسالة. أما تحويل البستان إلى موقع معروف اليوم، أو تعيين مساحة أرضه وأسماء ورثته، فليس مما تثبته المصادر المقابلة. [١٦]

ويعود البستان في خاتمة القصة حين تهلك السلطة التي ظلمت صاحبه. وهذه العودة تمنح الحكاية بناءها الأخلاقي، لكنها لا تعوّض عن التحقيق التاريخي لطريقها. فنحفظ للمظلوم وأسرته حضورهم الكامل، مع إبقاء أصل القصة منسوبًا إلى وهب عن ابن عباس. ولا يحتاج القارئ إلى الجزم بكل جزئية ليفهم أن سلامة العقيدة لا تنفصل عن حرمة الدم والمال. [١٦,١٧]

١٦. الجبل وابن الملك والرسل: مسالك المطاردة

تروي القصة أن إلياس اختفى عن قومه سبع سنين في الجبال، يأكل من نبات الأرض وثمارها. ثم مرض ابن محبوب للملك، فلجأ القوم إلى الصنم فلم يغن عنهم شيئًا. واجه إلياس من مر به من رسل الملك، وذكّرهم بالله الذي يملك الشفاء. عادوا بالخبر، فغضب الملك لأنهم لم يأخذوه، وذكروا أنهم خافوا منه. ابن الملك والرسل هنا شخصيات غير مسماة، والولد غير يونس الذي يرد لاحقًا في بيت أمه. [١٦]

وأرسل الملك بعد ذلك خمسين رجلًا من الأقوياء، يزعمون الإيمان ليقع إلياس في أيديهم. وتذكر الرواية دعاءه وانكشاف مكرهم وهلاكهم. هذه الجماعة ليست الثلاثمائة الذين أنقذهم الكاتب، ولا الأربعمائة في خبر إليا الآخر. ومن العناية بالنص أن تحفظ وظيفة كل عدد في موضعه، وألا يتحول تكرر الجنود والمؤمنين إلى جماعة واحدة تتبدل أسماؤها بحسب حاجة السرد. [١٥,١٦]

ثم استعمل الملك الكاتب المؤمن رسولًا في محاولة أخرى. عرف إلياس صوته، ويعرض الخبر خطابًا إلهيًا يأمره بملاقاة أخيه المؤمن. وكان الكاتب يخاف أن يقتله الملك إن عاد دون النبي. وتربط الرواية النجاة بانشغال الملك بموت ابنه، وفي عرض بعض مراحلها اختصار لا يسوغ ملؤه بحوار مخترع. هنا يلتقي ضعف الوسيلة السياسية مع حفظ الله لنبيه وللرجل الذي لم ينقلب ولاؤه للحق رغم قربه من البلاط. [١٦,١٧]

١٧. أم يونس: الإيواء والفقد والسعي إلى النجدة

تذكر رواية وهب أن إلياس نزل عند أم يونس بن متى، فآوته، وكان يونس يومئذ طفلًا صغيرًا. وأقام عندها ستة أشهر قبل أن يعود إلى الجبل. لا يذكر النص اسم الأم، ولا يجعلها زوجة إلياس أو قريبته.

ومتى يرد في نسبة يونس، دون أن يسند إليه فعلًا في مشهد الإيواء. تكتسب المرأة مكانها من عمل واضح: فتح بيتها لمن تضيق به المطاردة، ثم حماية طفلها والسعي من أجله. [١٦]

وبعد فطام يونس مات، بحسب هذا الخبر، فخرجت أمه تبحث عن إلياس في الجبال أيامًا حتى بلغته، ثم عاد معها إلى ولدها. لا تظهر في القصة مستسلمة بلا فعل؛ بل تحمل ألم الفقد وتقطع الطريق وتطلب العون. ويروي الخبر دعاء إلياس وإحياء الله الغلام. فالفعل الخارق، كما ينسبه المتن، يقع بقدرة الله واستجابة الدعاء؛ ولا يصير النبي مالكًا مستقلًا للموت والحياة. [١٦]

تذكر القصة أن سبعة أيام كانت قد مضت على وفاة الطفل حين وصلت أمه إلى إلياس وسألها عن وقت موته، ثم استغرقت عودتهما سبعة أيام أخرى؛ فلا يصف النص الأيام الأولى بأنها مدة بحثها عنه. ثم يذكر بعثة يونس في الأربعين. هذه تفاصيل من الخبر، وليست آيات قرآنية. وفي الحديث التالي عند الراوندي رواية عن الإمام الباقر تذكر بعثته في الثلاثين، بطريق ينقل عن أمير المؤمنين ورسول الله وجبرئيل. يُثبت الاختلاف دون اختراع مرحلتين للبعثة، ويأتي تفصيله في فصل يونس. [١٦، ٢٣]

ولا تتحدد أم يونس هنا بأنها المرأة التي يذكرها خبر آخر مع اليسع، ولا يوحد الطفلان بغير دليل. كما لا تسقط الأم من فهرس الشخصيات لأنها مجهولة الاسم؛ فجهل اسمها لا يساوي جهل دورها داخل هذه الرواية. ويبقى الفرق محفوظًا بين مكانتها في القصة المنقولة وبين ثبوت القصة نفسها عن معصوم، وهو ما لا يدل عليه سند وهب في هذا الموضع. [١٦,٢٨]

١٨. القحط واليسع: الدعاء وعودة المطر

تستمر القصة بذكر مضي سبع سنين بعد إحياء يونس، ثم ضيق إلياس بتكذيب قومه وطلبه الموت. ويرد في الخبر جواب يبقيه لأداء مهمته، ثم طلب القحط سبع سنين إلا بشفاعته. لا ينبغي أن تتحول صيغة الطلب وحدها إلى سجل مناخي يثبت أن الانقطاع استمر سبع سنين كاملة. كما أن بعض حواشي البحار تنقل رواية تفاوض تنتهي بثلاث؛ وهي مادة أخرى لا تسوّى بالمتن الذي نقرؤه. [١٦,١٧]

عند اشتداد الجوع رجع القوم إلى إلياس يطلبون الفرج، وخرج معه تلميذه اليسع إلى الملك. لام الملك إلياس على البلاء، فردّ بأن منشأه انحرافهم. ثم صلى ودعا، وطلب إلى اليسع أن ينظر هل يرى شيئًا في السماء؛ فلما رأى سحابة أرسله إلى القوم يبشرهم بالمطر ويأمرهم بأن يحترزوا وأن يحفظوا أنفسهم وأموالهم من الغرق. فالاحتراز توجيه في الخبر، وليس دعاءً منقولًا يمنع السيول. [١٦]

يحمل اليسع في المشهد وظيفة مشاهدة العلامة والمشاركة في خدمة الدعوة. لا تمنحه هذه الوظيفة نبوة مستمدة من ذات إلياس، ولا تثبت وحدها تاريخ ولادته أو نسبه. وستذكر القصة انتقال الوصية إليه في نهايتها. أما القرآن فقد أفرده بالاسم في الأنعام وص، فيبقى نبيًا مستقل الهوية، ولا يجعل التشابه اللفظي بين إلياس واليسع اسمين لشخص واحد. [١,١٦,٢٦]

١٩. نهاية الملك وانتقال الوصية إلى اليسع

تذكر رواية وهب أن القوم رجعوا بعد الفرج إلى التكذيب، ثم سلط عليهم عدو هزمهم وقتل الملك وامرأته. ويعيد الخبر موضع النهاية إلى بستان الرجل المظلوم. العدو غير مسمى في النص، فلا يعين ملك آخر أو جيش معروف اعتمادًا على تشابه قصص تاريخية. كما أن قتلى هذه الخاتمة ليسوا الخمسين الذين وردوا في مطاردة الجبل؛ فلكل مشهد موقعه وشخصياته. [١٦]

ثم يوصي إلياس إلى اليسع، وتذكر القصة أن الله أنبت له «الريش» وألبسه النور ورفعه، وأنه ألقى كساءه إلى اليسع. وفي هامش النسخة المنشورة من قصص الأنبياء فسر الريش باللباس الفاخر. يجب أن يبقى هذا تفسيرًا هامشيًا، فلا ينسب إلى الإمام، ولا يستبدل تلقائيًا بصورة أجنحة طائر. وليس في القرآن وصف لهذا الرفع أو للكساء. [١٦]

ويختم الخبر ببعثة اليسع وهداية قومه. نثبت هذه الصلة بصفتها مضمون الرواية، مع الفصل بين إثبات القرآن لاسم اليسع وفضله وبين تفاصيل التلمذة والوصية في الخبر التاريخي. وهنا تنتهي القصة الطويلة؛ فلا نضيف إلى نهايتها قبرًا معينًا أو تاريخ وفاة لا يذكره النص. ويفتح انتقال الوصية باب الفصل التالي من غير أن يبتلع هذا الفصل سيرة اليسع كلها. [١,١٦,٢٦]

٢٠. لقاء إلياس بالإمام الباقر في رواية الكافي

في كتاب الحجة من الكافي، في باب شأن سورة القدر وتفسيرها، يرد خبر عن أبي جعفر الثاني، الإمام الجواد، يحكي فيه الإمام الصادق ما وقع لأبيه الباقر. كان الباقر يطوف، فأتاه رجل معتم غطى بعض وجهه، ثم انتقلا إلى دار قرب الصفا ودعي الصادق إليهما. فلا يختصر الإسناد بقول «التقى إلياس بالإمام الجواد»؛ الجواد راو للخبر في هذا الطريق، أما طرف اللقاء المروي فهو الباقر ومعه الصادق. [١٨]

يدور الحوار في العلم الذي لا يتناقض، وما يحتاج إليه العباد مما عند الأوصياء، والفرق بين مقام النبي ومقام الأئمة المحدَّثين. ويسأل الرجل عن سبب عدم إظهار بعض العلم، فيأتي الجواب متصلًا بالطاعة والتوقيت الإلهي، وبصبر رسول الله قبل الأمر بالجهر. وليس في هذا تقرير لنبوة إمام بعد رسول الله؛ بل يصرح الخبر بتمييز النبي عن المحدَّثين. [١٨]

ويذكر الرجل مهدي الأمة والملائكة وسيوف آل داود، ثم يخرج سيفًا ويعلن أنه إلياس، وأن غرض أسئلته تقوية أصحاب الإمام. فيسجل داود وآله هنا في وصف السيوف، والمهدي في الحديث عن المستقبل، ولا يجعلون جميعًا حاضرين في الدار. كما لا يثبت هذا المتن وحده أن إلياس واحد من عدد معين من أصحاب القائم، ولا يحدد برنامجًا زمنيًا لظهوره. [١٨]

في سند هذا الحديث الحسن بن العباس بن الحريش، وقد وصفه النجاشي بأنه ضعيف جدًا، وتكلم على كتابه في سورة القدر. ولذلك لا تعرض واقعة اللقاء باعتبارها خبرًا صحيح الإسناد متفقًا عليه. وجودها

في الكافي يوجب دراستها بأمانة، لا إسقاطها من الحصر ولا تحويلها إلى برهان قطعي على بقاء إلياس. ويختلف هذا الخبر عن سماع مناجاته على لسان الصادق في الباب السابق؛ فذاك ذكر لعبادته، وهذا ادعاء لقاء مباشر. [١٢,١٨]

٢١. لقاء رسول الله بإلياس: رواية أنس

ينقل المجلسي عن مناقب ابن شهرآشوب خبرًا عن أنس، يذكر سماع صوت عند جبل يدعو صاحبه أن يكون من الأمة المرحومة المغفورة. ويصف لقاء رسول الله برجل شديد الطول أبيض الشعر، ثم يعرّفه بإلياس، ويذكر عناقًا وطعامًا نازلًا من السماء وأنه يأكل في كل سنة مرة. وفي النص تحديد لطوله بثلاثمائة ذراع. هذه الأوصاف جزء من الرواية المنقولة، وليست قياسات ثابتة لجسد إلياس أو نظام غذائه. [٢٠]

تختلف هذه الطريق عن رواية الإمام الباقر، ولا يجعل جمعهما في باب واحد أحدهما توثيقًا تلقائيًا للآخر. أنس راو للمشهد المنسوب إلى عهد رسول الله، لا من أصحاب إلياس في بعلبك. ومن مقتضى الاستيعاب ذكر الخبر مع مصدره؛ ومن مقتضى التدقيق عدم بناء تفاصيل الحياة اليومية والصفات الجسدية عليه قبل ثبوت طريقه. [١٨,٢٠]

٢٢. الخضر وإلياس وذكر الموسم

ومن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري نقل البحار خبرًا يخاطب فيه رسول الله زيد بن أرقم بأذكار تبدأ بالتسمية وتعليق الأمر بمشيئة الله، وترد الخير والنعمة ودفع السوء إليه. ثم يذكر أن الخضر وإلياس يلتقيان في كل موسم ويتفرقان بهذه الكلمات. نعزو النص إلى الكتاب بعنوانه مع التنبيه إلى نسبته، ولا نجعل عنوان التفسير وحده توثيقًا لجميع مروياته. [١٩]

وهذا موضع حضور زيد بن أرقم في الفصل. ليس هو الرجل المجهول الذي لقي إلياس في خبر عسقلان الآتي، ولا أبو الدنيا المغربي. كما أن وجود الاسمين معًا في الخبر يمنع إسقاط أحدهما باعتباره الاسم الآخر للشخص نفسه. وأما تعيين كل لقاء بعرفة، أو إثبات إقامة دائمة لأحدهما في بلد معين، فيحتاج إلى نصه المستقل؛ فلفظ الموسم وحده لا يحدد جميع هذه التفاصيل. [١٩,٢١,٢٢]

٢٣. أبو الدنيا المغربي: خبر لقاء الخضر وإلياس

في كمال الدين، ضمن أخبار المعمرين، يورد الصدوق قصة أبي الدنيا المغربي، واسمه علي بن عثمان بن الخطاب بن مرة بن مؤيد. وفي الحديث التاسع من بابه يحكي أبو الدنيا خروجه صغيرًا من حضرموت مع أبيه وعمه محمد يريدون الحج وزيارة رسول الله. ضلوا الطريق حتى بلغوا رجلين عند بئر أو عين؛ فعرضا الماء عليهم، فامتنع الأب والعم إلى وقت الإفطار، وشرب الغلام. ثم عرف الرجلان نفسيهما بالخضر وإلياس. [٢١]

وينسب إليهما الخبر إرسال السلام إلى أمير المؤمنين، وإخبار الغلام بأنه يعمر حتى يلقى المهدي وعيسى بن مريم، وأن عمه يموت قبل بلوغ مكة وأباه بعد إتمام الحج، وأنهم لن يدركوا النبي قبل وفاته. وتستمر القصة بوفاة العم والأب ثم اتصال الغلام بعلي. مريم هنا مذكورة في نسبة عيسى، ولا تدعي الرواية أنها حضرت مجلس الماء. واسم الأب «عثمان» يفهم من نسب أبي الدنيا، فلا يختلط بعثمان بن عفان الذي يأتي ذكره لاحقًا. [٢١]

وتتسع تتمة حديثه إلى ادعاء خدمة علي في عهود أبي بكر وعمر وعثمان، ثم صحبة الحسن والحسين. وتذكر طلحة والزبير وابن ملجم ومعاوية، وجعدة بنت الأشعث بن قيس في خبر تسميم الحسن. تذكر هذه الأسماء هنا لتحديد امتداد الحكاية، لا لإثبات أن أصحابها التقوا إلياس، ولا لاتخاذ هذا الطريق وحده مستندًا لكل الوقائع اللاحقة. ولا تنقل أحاديث أخرى مستقلة في الباب إلى مشهد إلياس لمجرد اشتراكها في الراوي. [٢١]

وللتدقيق هنا أثر حاسم: الحديث الأول في الباب نفسه يروي أصلًا مختلفًا لطول عمر أبي الدنيا؛ ففيه أب قرأ أخبار ماء الحياة، وخادمان، ورحلة إلى الظلمات، وشرب الغلام وحده، وبقاء الأب بعد الرجوع سنوات. كما يجعل بدء صحبته لعلي في أواخر عهد عثمان، بخلاف الحديث التاسع. فلا يصاغ من الروايتين تاريخ واحد متصل، ولا يحذف اختلافهما لأن المصنف أورد عبارة «صح عندي» عند طريق الحديث التاسع. نسجل قبول الصدوق لذلك النقل بوصفه حكمه، ونبقي المقارنة بين المتنين ظاهرة. [٢١]

ومن ثم يسجل الأب والعم محمد والخادمان وأبناء أبي الدنيا وأحفاده في مواضعهم الصحيحة: الخادمان في الرواية الأولى، والعم في التاسعة، والأحفاد من شهود تداول خبر المعمر في زمن لاحق. أما الحسن بن محمد العلوي وغيره ممن نقلوا اللقاء به، فدورهم رواية قصة أبي الدنيا، لا أنهم شاهدوا الخضر وإلياس بأنفسهم. وهذه الحدود تمنع تضاعف «شهود اللقاء» بحساب كل رجال الإسناد. [٢١]

٢٤. الرجل العسقلاني وما نقله الثعلبي

بعد الأخبار السابقة في البحار، ينقل المجلسي عن الثعلبي حكاية رجل من عسقلان يقول إنه لقي إلياس في ناحية الأردن. يسأله عن الوحي، فيجيبه في القصة بانقطاع الوحي إليه بعد بعثة محمد، ثم يذكر عيسى وإدريس في السماء، وإلياس والخضر في الأرض، ويصف لقاءه بالخضر في الموسم. هذه ليست رواية مسندة إلى أحد الأئمة في هذا الموضع، بل نقل مصرح بمصدره الخارجي. [٢٢]

وفي الحكاية دعوات تذهب خوف الرجل، وخبر جماعة تسمى الأبدال، وحديث عن قتال مروان بن الحكم وأهل الشام، وإقرار الرجل أنه حضر ذلك القتال. ثم يأتي طعام، وتظهر ناقة، ويطلب الرجل الصحبة فيعتذر إليه إلياس ويحثه على الزواج، ويذكر اعتكافًا في بيت المقدس. تحفظ هذه العناصر لئلا يظن أن الاسم ورد مجردًا عن مشهد؛ لكنها لا تثبت بمجموعها مؤسسة ذات عدد ومواقع يقينية، ولا تجعل تقويم أحداث الفتنة حكمًا صادرًا عن أهل البيت. [٢٢]

كما ترد أربعة أوصاف للنساء في النص: الناشزة والمختلعة والملاعنة والمبارئة. هذه أصناف في كلام الحكاية، وليست أربع نساء مسميات لقيهن إلياس. ولا يجوز استخراج تراجم لنساء لم يذكرهن النص أو بناء حكم فقهي على هذا الطريق القصصي. وبذلك يشمل الحصر كل امرأة ذات دور فعلي دون تحويل كل لفظ مؤنث إلى شخصية تاريخية مستقلة. [٢٢]

٢٥. إلياس وإدريس واليسع: منع انتقال الأخبار بين الأسماء

نقل المفسرون قولًا بأن إلياس هو إدريس، كما نقلوا غيره. لكن القرآن يذكر إدريس باسمه في مريم ويصفه بالصديقية والنبوة ورفعة المكان، ولا يقول في ذلك الموضع إنه الاسم الآخر لإلياس. يذكر القول في تاريخ التفسير، ويبقى الاتحاد محتاجًا إلى حجة. لا تنقل طفولة إدريس أو صناعات نسبت إليه أو أخباره مع ملك الموت إلى إلياس تلقائيًا. [٤,٢٥]

وينقل مجمع البيان أيضًا عن وهب قولًا يتصل بذي الكفل، وتذكر نقول التفسير احتمال الاتحاد بالخضر. كما يذكر حزقيل عند ترتيب البعثات. تحفظ هذه الأسماء باعتبارها مواضع اختلاف في التعريف والتسلسل، لا شخصيات ثبت اجتماعها في مجلس إلياس. ويبقى ذو الكفل والخضر وإدريس أصحاب تراجم مستقلة في الكتاب، ما لم يثبت اتحاد معين بدليله؛ وتختلف هذه الأقوال عن الروايات التي تجمع الخضر وإلياس صراحة شخصين. [٤,١٧,١٩]

واليسع شخص آخر يثبته القرآن باسمه. وفي مناظرة الإمام الرضا مع الجاثليق يرد أنه مشى على الماء وأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، في سياق الاحتجاج على تأليه عيسى لمجرد المعجزات. الاسم في هذه الفقرة هو اليسع، لا إلياس. وقد جمع المجلسي أخبارهما في باب واحد، لكن عنوان الباب لا يبدل صاحب الفعل داخل الحديث. والجاثليق هنا مخاطب في مناظرة الرضا، بخلاف وروده تشبيهًا في خبر مناجاة الصادق. [٢٤]

٢٦. هل بقي إلياس حيًا؟ حدود ما تثبته الأخبار

وردت أخبار في الرفع واللقاء وطول البقاء، وقد عرضت هنا بأصولها: قصة وهب، ولقاء الباقر، ورواية أنس، وذكر الموسم، وخبر أبي الدنيا، وحكاية العسقلاني. تختلف طرق هذه النصوص ومستويات نسبتها، ولا تتحول بمجرد جمعها إلى نص قرآني أو حديث واحد متعدد الأسانيد المستقلة. وينبه الميزان في بحث قصة إلياس إلى ضعف أخبار كثيرة من هذا الباب، ومنها أخبار بقائه؛ فنذكر وجود القول دون عرضه يقينًا لازمًا. [١٠,١٦,١٨-٢٢]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ (٢١:٣٤) ينفي الخلود للبشر؛ لكن نفي الخلود الأبدي ليس وحده برهانًا على امتناع كل عمر طويل. وبالمقابل، إمكان طول العمر لا يثبت وقوعه لشخص معين من غير دليل. فيبقى القرآن أصلًا في الرسالة والإيمان، وتبقى كيفية نهاية حياة إلياس وتاريخها ومكانها غير محسومة في المادة التي أمكن تحقيقها هنا. [٢٥]

٢٧. العجوز المضيفة وأم اليسع: استكمال الحضور النسائي

تنقل كتب أخلاق الأنبياء المتأخرة خبر امرأة عجوز قدمت لإلياس ما عندها من دقيق وزيت في القحط، فدعا بالبركة فكثر ما عندها. ويورده محمد مهدي تاج اللنكرودي في فصل إلياس من كتابه، منسوبًا إلى ابن عباس. وللقصة أصل أقدم في تفسير الثعلبي، ثم تظهر بعده في روايته امرأة أخرى لها ولد هو اليسع بن أخطوب، آوت إلياس وأخفت أمره، فدعا لولدها فعوفي وصحب النبي. [٢٧,٢٨]

هنا امرأتان بحسب تتابع السرد: صاحبة الدقيق والزيت، وأم اليسع. لا يسميهما المصدر، ولا يثبت أنهما امرأة واحدة أو أن إحداهما أم يونس. وأخطوب يرد في اسم اليسع دون عمل مستقل في هذا المشهد. ومن رأى الحكايتين في كتاب لمؤلف شيعي لا ينسبهما لذلك إلى الإمام؛ فطريقهما المعروض قصصي تفسيري، ونسبة الأولى فيه إلى ابن عباس. [٢٨]

ويضاف في الرواية أن قوم المرأة الأولى سألوها عن كثرة طعامها، فوصفت الزائر فعرفوه، وتجدد طلبه. هؤلاء سائلون غير مسمين داخل القصة، ولا يشهد النص بأن المرأة قصدت خيانته. وفي المرأة الثانية يظهر الإيواء مع كتمان الخبر. نثبت اختلاف الدورين، ولا نحمل شخصيات النص ما لم يقله عنها. أما أسماء الملوك والملكة وصور الرفع التي توسعت فيها مصادر المقارنة، فتبقى ضمن رواياتها ولا تلحق بالقرآن. [٢٨]

٢٨. سجل الشخصيات والصلات: الرجال والجماعات

في صلب القصة: إلياس، وإليا في الرواية التي احتمل المجلسي اتحادها معه، واليسع، ويونس، ويوشع، والملك غير المسمى، وابنه، والكاتب المؤمن، والوزير في الخبر الآخر، وصاحب البستان وأسرته، والرسل والخمسون، والعدو الذي هزم الملك، والمخلصون من القوم. ويلحق بهم أصحاب إليا الأربعمائة، وحملة الصنم الثمانمائة، والثلاثمائة الذين أنقذهم الكاتب. هذه أدوار متمايزة؛ فلا تجمع الأعداد لحساب سكان عصر إلياس، ولا يساوى الحصر بعدد أشخاص ثبتت تاريخيتهم. [٢,١٥,١٦]

في النسب والتعريف: ياسين وفنحاص والعيزار وهارون وعمران في النسب المنقول؛ ومتى في نسبة يونس؛ وأخطوب في نسبة اليسع. وفي الأقوال المقارنة: إدريس والخضر وذو الكفل وحزقيل. أما إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وزكريا ويحيى وعيسى وإسماعيل ولوط، فسبق بيان موضعهم في السياق القرآني أو المقارنة؛ لا يعني ذكرهم أنهم جميعًا عاصروا إلياس. [١,٤,١٧,٢٨]

في أخبار أهل البيت: رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين في تفسير العترة؛ والباقر والصادق في المناجاة وخبر اللقاء، والجواد في رواية اللقاء، والرضا في تفسير آل ياسين ومناظرة الجاثليق، والعسكري من جهة نسبة التفسير الذي نقل خبر الموسم. والمهدي يرد في أخبار المستقبل، والملائكة في خبر اللقاء، وجبرئيل في خبر عمر يونس. ويظهر المفضل بن عمر وموسى النميري والريان بن الصلت وزيد بن أرقم

وأنس بوظائف رواية أو مخاطبة محددة، ومعهم جماعة المفضل والغلام، والمأمون وعلماء مجلسه. [٧-٩,١١,١٣,١٨-٢٤]

في أخبار اللقاء المتأخرة: أبو الدنيا المغربي، وأبوه، وعمه محمد، وخادما الرواية الأخرى، وأولاده وأحفاده، ومن رووا لقاءه؛ ثم الرجل العسقلاني ومروان بن الحكم وأهل الشام والأبدال المذكورون في حكايته. ويثبت أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وابن ملجم ومعاوية وجعدة في تتمة خبر أبي الدنيا، لا في لقاء العين. أما ابن عباس ووهب ومنعم بن إدريس وسائر رجال النقل، فتعرف وظائفهم في الأسانيد، ولا يعد اسم الراوي شخصية مضافة إلى العصر القديم. [١٦,٢١,٢٢]

٢٩. سجل النساء: الاسم المعلوم والدور المحفوظ

النساء ذوات الفعل في أخبار عصر إلياس هن: المرأة الوافدة بالصنم في خبر إليا؛ وزوجة الملك المتسلطة في خبر وهب؛ وأم يونس التي آوت النبي وسعت إلى إنقاذ ابنها؛ والعجوز صاحبة الدقيق والزيت؛ وأم اليسع التي آوت النبي وأخفت خبره. لم تثبت أسماء شخصية لهن في النصوص التي اعتمدناها، ولم يثبت اتحاد المتشابهات منهن. وتحفظ عبارة أهل صاحب البستان وأولاده كما جاءت، دون اختراع زوجة مسماة أو تحديد جنس كل فرد من الأسرة. [١٥,١٦,٢٨]

أما فاطمة الزهراء فحضورها من صلة الآية بأهل البيت، ومريم من ذكر عيسى بن مريم، وجعدة بنت الأشعث من تتمة حكاية أبي الدنيا. تختلف هذه الصلات عن معاصرة إلياس أو لقائه. وليس في المادة المقابلة اسم ثابت لأمه أو زوجته أو ابنته. فاكتمال السجل يتحقق بإثبات الموجود وبيان نوع صلته، ولا يتحقق بملء الفراغ بأسماء غير مسندة. [٨,٢١]

٣٠. ما تبقى من دعوة إلياس

يبقى مركز الفصل ما بدأ به القرآن: رسول يدعو إلى التقوى، ويعيد قومه إلى ربهم ورب آبائهم، فيكذبه المكذبون ويبقى المخلصون. وتنتهي الآيات بالسلام والإحسان والإيمان، لا بوصف قوة عسكرية أو ثروة ورثها النبي. وهذا يمنح القارئ معيارًا لترتيب التفاصيل؛ فخبر خارق مختلف فيه لا يزاحم الحقيقة القرآنية الواضحة، ولا تصبح قلة التفاصيل الثابتة سببًا في اختراع سيرة أطول. [٢]

وتكشف القصص المنقولة، عند قراءتها بنسبتها الصحيحة، عن موضوعات متكررة: حفظ الضعفاء، وإيواء المطارد، ومسؤولية صاحب السلطة، وطلب الرحمة، وانتقال مهمة الهداية. يستطيع القارئ أن يميز تأمله الأخلاقي من قول المعصوم، وأن يعرف لماذا ذكر الكاتب والوزير والأمهات والأطفال، لا الملك والنبي وحدهما. فالشخصية المجهولة الاسم قد تحمل جزءًا لا يستغنى عنه في بناء القصة. [١٥,١٦,٢٨]

ومن إلياس نتجه إلى اليسع، الذي ذكره القرآن في الصالحين المختارين، وجعلته القصة المنقولة صاحبًا وتلميذًا وموصى إليه. يكتمل هذا الفصل عند هذا الحد: أصل قرآني محفوظ، وروايات معينة المصادر،

وشخصيات لم تسقط لخفاء أسمائها، واختلافات معلنة تتيح مواصلة البحث دون بناء اللاحق على يقين لم يثبت. [١,١٦,٢٦]

المصادر والإحالات التفصيلية

تتطابق الأرقام الآتية مع إحالات المتن في المتن. أرقام الصفحات للطبعات المعروضة في الروابط، وقد تختلف في غيرها؛ ولذلك قرنت الإحالة بالباب أو الحديث أو موضع الآية حيث أمكن. عبارة «كما نقله البحار» تعني أن النص قوبل في نقل المجلسي، ولا توهم مراجعة طبعة مستقلة للأصل. أما مصادر المقارنة غير الإمامية فذكرت لكشف منشأ القصة، لا لإبدال روايات أهل البيت بها.

[١] القرآن الكريم، الأنعام ٨٣–٩٠، ولا سيما ٨٥–٨٦: ذكر إلياس واليسع وسياق أسماء الأنبياء.

[٢] القرآن الكريم، الصافات ١٢٣–١٣٢: النص القرآني المباشر لقصة إلياس.

[٣] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير الصافات ١٢٣–١٣٢، بحث القراءات ومعنى «إلياسين» و«آل ياسين».

[٤] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الصافات ١٢٣–١٣٢: النسب والأقوال التاريخية والقراءة وبعل والمخلصون. لا تنسب الأقوال التي ينقلها عن ابن عباس ووهب وغيرهما تلقائيًا إلى إمام.

[٥] التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، الصافات ١٢٥ و١٣٠، كما نقله بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠١، ح١٠: بعل وآل ياسين؛ ويحيل هامش البحار إلى ص٥٥٩–٥٦٠ من طبعة التفسير التي اعتمدها.

[٦] الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، صدر سورة يس، تفسير الآيات ١–٥: اسم يس وصلته برسول الله وآله، والنقل عن الأمالي.

[٧] الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص١٢٢–١٢٣، باب معنى آل ياسين، الأحاديث ١–٥، ولا سيما الحديث ٢ عن أمير المؤمنين بطريق الصادق وآبائه.

[٨] الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب ٢٣، ح١: خبر الريان بن الصلت في مناظرة الرضا مع المأمون والعلماء في الفرق بين العترة والأمة، ومواضع المباهلة وآل ياسين.

[٩] عبد علي الحويزي، نور الثقلين، ج٤، ص٤٣١–٤٣٢، ح١٠٠–١٠٣ في تفسير الصافات ١٣٠، مع الإحالات إلى القمي والعيون ومعاني الأخبار والاحتجاج.

[١٠] محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير الصافات ١١٤–١٣٢، البيان والبحث الروائي والكلام في قصة إلياس؛ استعمل هنا بقدر التلخيص المحدود لملاحظاته.

[١١] الكليني، الكافي، ج١، ص٢٢٧–٢٢٨، باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب المنزلة وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها، ح٢؛ قوبل بنقله في بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٩٢–٣٩٣، ح١: خبر المفضل ومناجاة إلياس.

[١٢] أحمد بن علي النجاشي، رجال النجاشي: الحسن بن العباس بن الحريش، رقم ١٣٨، ص٦٠؛ بكر بن صالح، رقم ٢٧٦، ص١٠٨؛ سهل بن زياد، رقم ٤٩٠، ص١٨٥. تتبع التراجم بالأسماء عند اختلاف الترقيم بين الطبعات.

[١٣] الصفار، بصائر الدرجات، خبر موسى النميري ومناجاة إليا، كما نقله بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠٠، ح٧، مع بيان المجلسي المتصل بخبر إليا قبله.

[١٤] الكليني، الكافي، ج٦، ص٣٦٦، باب الكرفس، ح١: إلياس واليسع ويوشع بن نون؛ وفي السند «محمد بن عيسى أو غيره».

[١٥] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السادس عشر، ص٢٤٢-٢٤٣، ح٢٨٥: إليا والملك والمرأة والوزير والأربعمائة؛ عن الإمام الصادق بطريق عمار بن موسى.

[١٦] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السابع عشر، ص٢٤٨-٢٥١، ح٢٩٣: القصة المطولة، بطريق منعم بن إدريس عن وهب بن منبه عن ابن عباس.

[١٧] محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، باب ١٦ «قصة إلياس وإليا واليسع»، ص٣٩٣-٣٩٧، ح٢ وما بعده من بيان ونقول. تميز هوامش النسخة وزياداتها عن متن الراوندي.

[١٨] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب في شأن إنا أنزلناه في ليلة القدر وتفسيرها، ح١، ج١، ص٢٤٢ وما بعدها؛ ومختصره في البحار ١٣:٣٩٧-٣٩٩، ح٤. لقاء الباقر والصادق بالرجل الذي سمى نفسه إلياس.

[١٩] التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري، خبر رسول الله وزيد بن أرقم، كما نقله بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٩٩، ح٥: أذكار الصباح والمساء ولقاء الخضر وإلياس في الموسم.

[٢٠] ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص١١٨-١١٩ بحسب إحالة البحار؛ قوبل بنقله في بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠١، ح٩: خبر أنس في لقاء رسول الله بإلياس.

[٢١] الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج٢، باب ٥٠ «سياق حديث معمر المغربي»، ح١ وح٩، ص٥٣٨-٥٤٧، ولا سيما ص٥٤٥-٥٤٦ للقاء الخضر وإلياس. تقارن الروايتان ولا تدمجان.

[٢٢] الثعلبي، خبر الرجل العسقلاني، كما نقله المجلسي في بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠١-٤٠٣ بعد ح١٠، مع إحالة الهامش إلى عرائس الثعلبي ص١٤٦. مصدر مقارن من غير روايات الأئمة.

[٢٣] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب السابع عشر، ص٢٥١، ح٢٩٤: خبر الإمام الباقر في بعثة يونس ابن ثلاثين، للمقارنة مع الأربعين في ح٢٩٣.

[٢٤] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب ١٢، ح١، خبر الحسن بن محمد النوفلي في المناظرة؛ فقرة اليسع قوبلت بنقل بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠١، ح٨، الذي يعزوها كذلك إلى التوحيد والاحتجاج.

[٢٥] القرآن الكريم، مريم ٥٦-٥٧ في إدريس، والأنبياء ٣٤-٣٥ في نفي الخلود وعموم الموت؛ الإحالة لا تتضمن اعتماد التفسير الافتراضي الذي تعرضه منصة المصحف.

[٢٦] القرآن الكريم، ص ٤٨: ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾، وتراجع الأنعام ٨٦ في الإحالة [١].

[٢٧] محمد مهدي تاج اللنكرودي، أخلاق الأنبياء، النسخة الإنجليزية المنشورةللكتّاب، الفصل ١٦ عن إلياس، فقرتا المضيفة والمريض. استعمل لتتبع تداول القصتين، لا لتصحيح سندهما.

[٢٨] الثعلبي، الكشف والبيان، تفسير الصافات ١٢٣-١٢٥، ج٨، ص١٦٦: العجوز صاحبة الدقيق والزيت وأم اليسع بن أخطوب. مصدر قصصي مقارن؛ لا ينسب الخبر فيه إلى إمام من أهل البيت.

الفصل ٣٣ — اليسع عليه السلام — استمرار الدعوة

١. مدخل إلى سيرة نبيّ من الأخيار

يأتي اليسع عليه السلام في القرآن باسم محفوظ وثناء صريح، وإن لم تأت قصته في مشاهد متتابعة كقصة موسى أو يوسف. ولذلك تبدأ حكايته من الموضع الذي وضعه الله فيه: نبيًّا من المهديين المفضَّلين، وواحدًا من الأخيار الذين أُمر النبي محمد صلى الله عليه وآله بذكرهم. ليست قلة التفاصيل القرآنية نقصًا في منزلته، وإنما تحدد مقدار ما نستطيع أن نرويه اعتمادًا على القرآن نفسه. [١, ٢]

٢. اليسع في سورة الأنعام

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦]. تضع هذه الآية اليسع مع إسماعيل ويونس ولوط في سلسلة الهداية التي تبدأ في هذا السياق بذكر إبراهيم وحجته على قومه، ثم تذكر إسحاق ويعقوب ونوحًا وسائر الأنبياء. فالاسم هنا جزء من تاريخ التوحيد، لا اسم عابر في تعداد بشري. [١]

وتكتمل دلالة الموضع بقراءة ما بعده: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، ثم ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٨٨]. فالاجتباء والهداية والتفضيل هي الأوصاف الأساسية التي ينبغي أن يقوم عليها عرض سيرته. ويفسر الطبرسي التفضيل في هذا الموضع بالتفضيل على عالمي زمان كل واحد منهم؛ فلا يلزم منه ترتيب جميع المذكورين بعضهم فوق بعض. [١, ٤]

٣. ثبوت نبوته في الآية ٨٩

لا يتوقف إثبات نبوة اليسع على مجرد وجود اسمه بجوار أسماء الأنبياء؛ ففي ختام المجموعة يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. والإشارة تعود إلى المذكورين في هذا السياق، ومنهم اليسع. هذه دلالة قرآنية على نبوته ضمن إسناد النبوة إلى المجموعة، وإن لم ترد جملة مستقلة بصيغة «اليسع نبي». [١, ٣]

ولا تعني هذه الآية أن لكل واحد كتابًا مستقلًّا معروف الاسم، أو أن اليسع جاء بشريعة منفصلة عن كل من سبقه. فهذه تفاصيل تحتاج إلى دليل آخر. ثم يجيء التوجيه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ولهذا فإن الأمانة في كتابة سيرته تجمع بين إثبات نبوته دون تردد ناشئ عن اختصار القصة، وبين الامتناع عن نسبة كتاب أو أحكام خاصة إليه بغير بينة. [١, ٣]

٤. اليسع في سورة ص

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]. وهذا هو الموضع الثاني الذي يذكر اليسع باسمه. وقد سبقه ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبيان قوتهم وبصيرتهم واصطفائهم. ثم جمع اليسع مع إسماعيل وذي الكفل في وصف الخير، وأمر بذكرهم بما يحيي الاقتداء بأهل الطاعة. [٢, ٥]

إن قوله ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ثناء على اليسع نفسه، وليس وصفًا يستمده فقط من صحبته لإلياس. وفي المقابل، فإن مجاورة اسمه لذي الكفل لا تثبت وحدها أنهما شخص واحد أو أن أحدهما خلف الآخر مباشرة. ترتيب الأسماء في مقام الثناء أوسع من ترتيب سنوات الحكم أو انتقال الوصاية. وسيأتي بحث الخبر الذي ربط بينهما على حدة. [٢, ١٣, ١٤]

٥. اسمه وقراءته والتمييز بينه وبين يوشع

الاسم في القراءة المشهورة هنا «الْيَسَع»، بسكون اللام وفتح الياء. ويذكر الطوسي قراءة حمزة والكسائي وخلف «اللَّيْسَع»، بتشديد اللام وفتحها وسكون الياء، في الأنعام وص. وتعرض كتب التفسير وجوهًا لغوية لدخول الألف واللام وبناء الاسم. هذه مباحث قراءة ولغة، ولا تدل على تعدد الأنبياء المسمَّين في الآيتين. [٣, ٤]

يجب التمييز بين اليسع وإلياس ويوشع بن نون؛ فتقارب الأسماء لا يجيز دمج سير أصحابها. ومن الشواهد على التمييز في النقل الإسلامي خبر الكرفس في الكافي، إذ يجمع «إلياس واليسع ويوشع بن نون» أسماءً متعاطفة. ومع ما في سنده من ملاحظة، فإنه لا يسوغ قلب أحد هذه الأسماء إلى الآخر عند نقل نصه. [١٠]

٦. النسب والمولد والأسرة: ما نعرفه وما لم يثبت

يورد مجمع البيان عند الأنعام: ٨٦ اسم «اليسع بن أخطوب بن العجوز». وهذه تسمية في كلام المفسر، وليست لفظًا قرآنيًّا ولا حديثًا مسندًا إلى إمام في هذا الموضع. وتظهر صيغ أخرى في الأقوال التي نقلت عن ذي الكفل، منها «ابن خطوب». فلا تُبنى على هذه الألفاظ وحدها سلسلة نسب قطعية، ولا يُجعل لفظ «العجوز» اسمًا شخصيًّا ثابتًا لأم اليسع. [٤, ١٤]

لم أجد في المادة المحددة الموثقة لهذا الفصل رواية عن أهل البيت تثبت سنة مولده، أو عمره، أو اسم زوجته، أو عدد أبنائه وبناته وأسماءهم. لا يعني ذلك الجزم بأنه لم يتزوج أو لم يولد له؛ معناه أن الفصل لا يملك دليلًا يملأ هذه الخانات. وكذلك لا يكفي ذكر آباء الأنبياء وذرياتهم إجمالًا في الأنعام: ٨٧ لتسمية ولد بعينه لليسع. [١]

٧. خبر أمه وشفائه في صباه

توجد قصة مؤثرة عن امرأة من بني إسرائيل آوت إلياس وأخفت أمره، وكان لها ابن اسمه اليسع بن أخطوب أصابه ضر. يذكر الثعلبي أن إلياس دعا له فعوفي، ثم آمن اليسع بإلياس وصدقه ولازمه، وكان إلياس قد كبر واليسع غلامًا شابًّا. هكذا تظهر أم اليسع في الخبر: امرأة صاحبة بيت وموقف إيواء، ولها ابن مريض يصير رفيقًا للنبي. لا يحفظ هذا الموضع اسمها الشخصي. [٧]

مصدر هذا التفصيل الذي أمكن تتبعه هنا هو الكشف والبيان للثعلبي، وهو تفسير غير إمامي، فلا يُقدَّم الخبر بوصفه رواية عن الإمام الصادق أو غيره من الأئمة. وإثبات موضعه في الفصل غايته ألا تُهمَل الشخصية النسائية التي يذكرها التراث القصصي، مع بيان رتبة ذلك التراث. ولا يحدد النص مرض اليسع تشخيصًا، فلا نستبدل كلمة «ضر» باسم مرض معين. [٧]

وفي السياق السابق عند الثعلبي امرأة مسنّة ذات دقيق وزيت، يرد خبر بركتهما في أيام القحط. ثم ينتقل النص إلى بيت امرأة لها ابن هو اليسع. لا يصرح الموضع بأن المرأتين واحدة، ولذلك لا ندمجهما في شخصية واحدة، ولا نجعل قصة الدقيق والزيت معجزة لليسع؛ الفاعل النبوي في تلك الرواية هو إلياس. [٧]

٨. صحبته لإلياس في خبر الراوندي

يروي قطب الدين الراوندي في قصص الأنبياء، الحديث ٢٩٣، خبرًا طويلًا ينتهي إلى ابن عباس بواسطة وهب بن منبه، وفي طريقه منعم بن إدريس. وفيه أن إلياس دعا بني إسرائيل إلى الله، وأن الملك أضلهم بعبادة بعل، ثم أصابهم القحط. وعندما طلبوا الفرج جاء إلياس إلى الملك ومعه «تلميذ له اليسع». هذا اللفظ يثبت أن الرواية تصوّر اليسع في موضع الصحبة والتعلّم قبل تسلمه شأن الدعوة. [٦]

الكتاب إمامي ومؤلفه من علماء الإمامية، لكن سند هذه القصة لا ينتهي إلى أحد الأئمة. لذلك يقال: «روى الراوندي خبرًا عن ابن عباس»، ولا يقال: «قال أهل البيت إن اليسع فعل كذا» اعتمادًا على هذا الطريق وحده. ويُستفاد من الخبر وصف علاقة اليسع بإلياس في الموروث القصصي، دون تحويل كل حوار وتوقيت فيه إلى واقعة مقطوع بها. [٦]

٩. اليسع في أيام القحط وعودة المطر

في خبر الراوندي يظهر اليسع مع إلياس حين بلغ الضيق بالناس مبلغًا شديدًا، وطلبوا أن يدعو لهم ربَّه بالسقيا. وترد متابعة ظهور السحاب في سياق هذا الاستسقاء، ثم ينزل الفرج. وفي رواية الثعلبي كذلك يرد خروج إلياس ومعه اليسع في طلب انكشاف البلاء. فالصورة المشتركة هي صحبة اليسع لنبي يدعو قومه إلى الله ويستسقي لهم، وليست مواجهة مستقلة بين اليسع وملك مسمّى في القرآن. [٦, ٧]

لا يسمي القرآن ملك اليسع، ولا يحدد له مدينة في آيتي ذكره. أما بعلبك والشام وأخبار الملك وزوجته في هذا السياق، فترد في قصة إلياس التي يتصل اليسع بآخرها. ولا يكفي هذا وحده لإثبات مولد اليسع ببعلبك أو حصر جميع دعوته فيها، كما لا يصح نقل أسماء الملوك الواردة في الكتاب المقدس إلى هذا الخبر من غير بيان مصدرها. [١, ٢, ٦]

١٠. الوصية والكساء واستمرار الدعوة

تختم رواية الراوندي المرحلة بقولها: «ثمّ وصّى إلياس إلى اليسع»، ثم تذكر رفع إلياس وإلقاء كسائه إلى اليسع، وتقول عن اليسع: «فنبّاه الله على بني إسرائيل، وأوحى إليه وأيّده، فكان بنو إسرائيل يعظّمونه ويهتدون بهداه». هذا هو النص القصصي الأوضح في المادة المراجعة في ربط عنوان «استمرار الدعوة» بشخص اليسع. [٦]

ومع إبقاء وصف الخبر السابق لسنده، ينبغي الانتباه إلى أن النص نفسه ينسب النبوة والوحي والتأييد إلى الله. فالكساء ليس مصدرًا مستقلًّا للنبوة، ولا يقال إن اليسع صار نبيًّا بقوة ثوب. وتبقى تفاصيل الرفع والكساء من ألفاظ الرواية، أما أصل نبوة اليسع فثابت من القرآن ولا يتوقف على صحة هذه التفاصيل. [١, ٦]

بهذا الحد يمكن أن تُروى الصلة بين النبيين: صاحبٌ يتعلم ويشهد البلاء والفرج، ثم تُسند إليه مواصلة الدعوة بحسب الخبر. ولا يُضاف إلى ذلك عدد سنوات صحبته، أو أسماء جميع تلاميذه، أو نص عهد طويل بينه وبين إلياس؛ فهذه أمور لا يقدمها النص الذي بين أيدينا. والاقتداء هنا يكون في حفظ التوحيد وخدمة الناس بعد رحيل من كانوا يألفون دعوته.

١١. معجزاته في رواية الإمام الرضا

أهم ما يضاف إلى سيرة اليسع من الروايات المنقولة عن أهل البيت خبر احتجاج الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام على جاثليق النصارى. أورده الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا، في باب مجلسه مع أهل الأديان وأصحاب المقالات. وفيه: «فإنّ اليسع قد صنع مثل صنع عيسى عليه السلام: مشى على الماء، وأحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم تتخذه أمته ربًّا، ولم يعبده أحد من دون الله عزّ وجلّ». [٨]

هذه أربعة أوجه من التأييد الخارق يذكرها النص: المشي على الماء، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، وإبراء الأبرص. لكنه لا يسمي أشخاصًا شُفوا على يديه، ولا يحدد أسماء الذين أُحيوا، ولا موضع الماء الذي مشى عليه. لذلك تُحفظ في السيرة فئات المنتفعين بالمعجزة، ولا تُملأ بأسماء مأخوذة من رواية أخرى من غير إحالة. [٨]

وليس صحيحًا بعد الوقوف على هذا النص أن تُرد جميع أخبار معجزات اليسع إلى مجرد حكايات شعبية لا أصل لها في الكتب الإمامية. الصحيح أن هناك خبرًا إماميّ المصدر منسوبًا إلى الإمام الرضا

يذكرها إجمالًا، وأن التحقيق في سنده شيء آخر غير إنكار وجوده. وفي المقابل لا يجعل هذا الإجمال كل قصة تفصيلية متداولة عنه ثابتة بذلك الخبر. [٨, ٩]

١٢. سند المناظرة وحدود دلالتها

ينتهي نقل مجلس المناظرة إلى الحسن بن محمد النوفلي الهاشمي، وفي الطريق إليه العبارة: «حدثني من سمع الحسن بن محمد النوفلي». فهناك واسطة غير مسمّاة في الطريق المعروض في عيون الأخبار. لذلك لا نصف الخبر في هذا الفصل بأنه صحيح السند لمجرد اشتهاره أو وروده في كتاب للصدوق. ومع ذلك يُثبت نصه بوصفه رواية منقولة عن الإمام، ويُشرح وجه الاحتجاج فيه. [٨]

وجمع المجلسي هذا المقطع في بحار الأنوار مع الإشارة إلى الاحتجاج والتوحيد والعيون، كما نقل نور الثقلين بعض كلام المناظرة عن عيون الأخبار. تعدد مواضع الاقتباس يحفظ انتشار النص ويساعد في تتبعه، لكنه لا يثبت تلقائيًّا تعدد أسانيد مستقلة. ولا نعد عبارة المجلسي أو الحويزي حديثًا جديدًا مختلفًا عن أصل المناظرة لمجرد تغير الكتاب الناقل. [٩, ١٦]

١٣. المعجزة دليل على التأييد، والعبادة لله

جاء ذكر اليسع في المناظرة جوابًا عن الاستدلال بإحياء الموتى والشفاء على استحقاق العبادة. فجواب الإمام، كما تنقله الرواية، يقيم المقارنة: إذا وقع مثل ذلك على يد اليسع ولم يكن ربًّا، فلا يصح جعل مجرد وقوع المعجزة علة للألوهية. وبهذا تصبح سيرة نبي قليل الذكر في القصص القرآني حاضرة في بيان أصل كبير من أصول التوحيد. [٨]

ويمتد المقطع نفسه إلى حزقيل وعيسى بن مريم وإبراهيم وموسى، وإلى رسول الله محمد وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام. وتُذكر جماعات من بني إسرائيل وقريش في شواهد الإحياء. هذه أسماء استُحضرت للمقارنة في مجلس متأخر عن زمن اليسع، فلا تُجعل شخصيات عاشت معه أو شاركته حدثًا واحدًا. كما لا تنقل أعداد الذين أُحيوا في خبر حزقيل إلى معجزات اليسع؛ فلكل مقطع صاحبه. [٨]

ويوافق هذا المعنى الأصل القرآني في معجزات عيسى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فالقدرة لله، والنبي عبد مصطفى يؤيده ربه. وحين نروي عن اليسع المشي على الماء أو إحياء الموتى، نروي ما نسبه الخبر إليه ضمن هذا المعنى، ولا نمنحه استقلالًا عن خالقه. [٨, ١٩]

١٤. رجال مجلس الإمام الرضا ونساؤه المذكورات

يسمي صدر الرواية المأمون، والفضل بن سهل الذي جمع أهل المقالات، والجاثليق، ورأس الجالوت، ورؤساء الصابئين، والهربذ الأكبر، وأصحاب زردهشت، ونسطاس الرومي، والمتكلمين. ويذكر الحسن بن محمد النوفلي راوي المجلس، وياسرًا الذي حمل الرسالة إلى الإمام، ومحمد بن جعفر في جماعة من

الطالبيين والهاشميين، والقواد الحاضرين. أما المحاور المباشر في مقطع اليسع فهو الجاثليق، ويُلتفت إلى رأس الجالوت في الشاهد المتصل بحزقيل. [٨]

ويظهر في بقية المجلس عمران الصابئ في مناظرة أخرى، فلا ننسب إليه السؤال الخاص بمعجزات اليسع. كما يرد اسم زردهشت في وصف أصحابه، لا بوصفه حاضرًا في المجلس. وذكر موسى بن جعفر في تعريف الإمام الرضا ذكر نسبٍ، ولا يعني حضور الإمام الكاظم. هذه الفروق تحفظ للشخصيات أدوارها الفعلية بدل جمع الأسماء في مشهد واحد بلا تمييز. [٨]

والشخصيتان النسائيتان المذكورتان باسميهما في هذا السياق هما فاطمة بنت رسول الله، في تعريف نسب الإمام الرضا، ومريم، في التعريف بعيسى بن مريم. ليس في ذلك القول بحضورهما المجلس أو بصلتهما الزمنية باليسع. ولكنه يحفظ ذكرهما حيث أورده المصدر، مع عدم اختلاق امرأة محاورة في مقطع لا يذكر امرأة بهذه الصفة. [٨]

١٥. خبر الكرفس في الكافي

روى الكليني في الكافي، كتاب الأطعمة، باب الكرفس، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليكم بالكرفس فإنه طعام إلياس واليسع ويوشع بن نون». فهذا موضع صريح لاسم اليسع في رواية منقولة عن الإمام الصادق عن النبي. ولا ينبغي إسقاطه عند جمع المادة المتعلقة به، وإن كان لا يقدم قصة طويلة عن حياته. [١٠]

وفي السند: أحمد بن أبي عبد الله، عن محمد بن عيسى «أو غيره»، عن قتيبة بن مهران، عن حماد بن زكريا، عن أبي عبد الله. وعبارة «أو غيره» تمنع عرض هذا الطريق كما لو كانت كل وسائطه معيّنة بلا إشكال. نثبت الخبر بلفظه ونسبته، ولا نحوله إلى وصفة علاجية، ولا نستنتج منه أن الأنبياء الثلاثة عاشوا في زمن واحد أو اجتمعوا على مائدة واحدة. [١٠]

١٦. ذو الكفل: ما تقوله رواية الإمام الجواد

لأن اليسع وذا الكفل اجتمعا في ص: ٤٨، ولأن بعض الأخبار ربط بين مرحلتيهما، يلزم بحث هذه الصلة هنا. يروي الراوندي عن عبد العظيم الحسني أنه كتب إلى أبي جعفر محمد بن علي بن موسى، أي الإمام الجواد عليه السلام، يسأله عن ذي الكفل واسمه وهل كان من المرسلين. والتمييز بين أبي جعفر الجواد وأبي جعفر الباقر ضروري في نسبة هذا الجواب. [١٢]

يفيد الجواب المنقول أن ذا الكفل من المرسلين، وأنه كان بعد سليمان بن داود، وأنه كان يقضي بين الناس كما يقضي داود، ولا يغضب إلا لله، وأن اسمه «عويديا». ويستشهد الجواب بآية ص التي تجمع إسماعيل واليسع وذا الكفل. وفي الطريق إلى عبد العظيم سهل بن زياد، فلا تُمنح الرواية حكم الصحة هنا من غير دراسة رجال سندها. والأهم لموضوعنا أنها لا تنص على أن ذا الكفل ابن اليسع أو أنه اليسع نفسه، ولا تسمي اليسع سلفه المباشر. [١٢, ١٣]

١٧. خبر خلافة ذي الكفل لليسع

بعد نقل خبر آخر عن ذي الكفل، لاحظ المجلسي احتمال سقوط شيء من أوله، ثم قال إنه رأى في بعض الكتب خبرًا يبدأ بكبر سن اليسع ورغبته في استخلاف رجل ينظر في عمله في حياته. وفيه أنه عرض على الناس الصيام بالنهار والقيام بالليل وعدم الغضب، فقام رجل تزدريه الأعين متعهدًا بذلك، ثم كرر عرضه فقام الرجل نفسه، فاستخلفه. هذا التعيين لليسع يقع في بيان المجلسي المنقول عن بعض الكتب، لا في جواب الإمام الجواد المتقدم. [١٣]

وتنبه حاشية الطبعة التي بين أيدينا إلى نظير للخبر في عرائس الثعلبي. لذلك يروى هذا المشهد بعنوانه: خبر قصصي أورده المجلسي لشرح اتصال القصة، لا نص مستقل ثابت السند عن أهل البيت في تعيين الوصي. وهو يفسر منشأ شهرة القول بأن ذا الكفل كان وصي اليسع، دون أن يرفع الاختلاف في اسمه وهويته. [١٣, ١٥]

ومع هذا التحفظ، يحمل الخبر معنى واضحًا في اختيار من يتولى أمر الناس: لا تكفي الهيبة الظاهرة ولا مكانة الرجل في عيونهم، بل ينظر في صدقه وعبادته واحتماله. هذا معنى مستفاد من القصة، أما وقوع تفاصيلها وتعيين أشخاصها فيحتاجان إلى مرتبة أخرى من الإثبات. فلا يتحول التأمل الأخلاقي إلى توثيق تاريخي مستتر.

١٨. الأبيض والحاجب وصاحب الخصومة المزعومة

يروي الراوندي في الحديث ٢٧٦، بطريق ينتهي إلى عبد الله بن عمر عن النبي، امتحان ذي الكفل بعد تعهده ألا يغضب، من غير أن يسمّي النبي السابق باليسع. ويظهر إبليس والشيطان «الأبيض» الذي يفتعل شكوى، وحاجب بشري غير مسمّى يحاول حماية وقت راحته. أما الخصم فداخل الشكوى المختلقة، لا شخص ثبت حضوره. ويأتي تفصيل الامتحان في الفصل ٣٥؛ فصلة الخبر هنا بحث خلافة اليسع محدودة، ولا يجوز جعله نصًا صريحًا على تلك الخلافة. [١١]

١٩. الأقوال في اتحاد اليسع وذي الكفل

ينقل مجمع البيان عند الأنبياء: ٨٥ أقوالًا متعددة في ذي الكفل. ومنها قول غير مسند في ذلك الموضع يجعله «اليسع بن خطوب الذي كان مع إلياس»، ثم يضيف أنه ليس اليسع المذكور في القرآن، ويربطه بملك جبار اسمه كنعان تكفل له بدخول الجنة إن تاب. هذه صيغة قول تفسيري، ولا يجوز حذف قيد «ليس اليسع الذي ذكره الله في القرآن» ثم اتخاذه دليلًا على اتحاد النبيين. [١٤]

يُذكر كنعان لهذا السبب في سجل الأقوال المتصلة بالقضية، دون إدخاله ملكًا ثابتًا في سيرة اليسع القرآني، ودون مساواته بشخص آخر يحمل الاسم نفسه. ولا ينشأ من وجود هذا القول وحده إثبات نبيين تاريخيين اسمهما اليسع؛ فغاية ما ثبت هنا أن المفسر حكى هذا التمييز ضمن أقوال مختلفة. [١٤]

ويجمع المجلسي أقوالًا تجعل ذا الكفل إلياس أو يوشع أو زكريا أو بشر بن أيوب، ويذكر شهرة كونه وصي اليسع عند مؤرخين. عرض هذه الأقوال يبين موضع الاختلاف، ولا يجيز جمع أصحابها في هوية واحدة. والمعتمد في بناء هذا الفصل إبقاء اليسع باسم القرآن ووصفه، والإشارة إلى علاقته بذي الكفل على قدر ما تقوله كل رواية، مع تأجيل تفصيل سيرة ذي الكفل إلى موضعها الخاص في الكتاب. [١٥]

٢٠. النساء وصلة النسب في تفسير سياق الأنعام

عند تفسير المجموعة التي ورد فيها اليسع، تظهر مسألة النسب عن طريق النساء. ففي تفسير العياشي، عن بشير الدهان، عن الإمام الصادق عليه السلام، أن الله نسب عيسى بن مريم إلى إبراهيم من قبل النساء، ثم استشهد بآيات المجموعة. ويستدل الطوسي من السياق نفسه على دخول الحسن والحسين في ذرية رسول الله عن طريق فاطمة عليها السلام. هذه صلة تفسيرية بالسياق، وليست خبرًا عن أسرة اليسع. [٣, ١٨]

ويحفظ العياشي في الخبر التالي مناقشة بين الحجاج ويحيى بن يعمر، يرويها أبو حرب بن أبي الأسود، حول الاستدلال بعيسى على انتساب الحسن والحسين إلى النبي. يذكر هذا الفصل أسماءهم لتعيين موضع الشاهد التفسيري، دون تحويل الواقعة إلى جزء من حياة اليسع. كما أن الأسانيد في النسخة المتداولة من تفسير العياشي مختصرة في هذه الأخبار، فننقلها بعزوها ولا نمنحها تصحيحًا مطلقًا. [١٨]

والنتيجة في حصر الشخصيات واضحة: أم اليسع المجهولة الاسم في الخبر القصصي شخصية، ومريم في الشاهد القرآني والتفسيري شخصية أخرى، وفاطمة في الاستدلال بالنسب وتعريف الإمام الرضا شخصية ثالثة. ولا تعوّض واحدة منهن غياب معلومات ثابتة عن زوجة اليسع وبناته؛ فلكل صلة بابها وحدودها. [٧, ٨, ١٨]

٢١. سجل الشخصيات: أهل القصة والسياق السابق

اليسع: الشخصية المركزية، نبوته وتفضيله وخيريته ثابتة في السياق القرآني. إلياس: النبي الذي يصحبه ويخلفه اليسع بحسب الخبر القصصي. أم اليسع: امرأة إسرائيلية مجهولة الاسم في خبر الثعلبي. أخطوب: اسم الأب في التسمية التفسيرية، ولا توجد له في النصوص المذكورة سيرة مستقلة. المرأة المسنّة صاحبة الدقيق والزيت: في سياق إلياس عند الثعلبي، ولا يثبت أنها أم اليسع. [١, ٢, ٤, ٦, ٧]

الملك وزوجته في خبر الراوندي: شخصيتان غير مسماتين في ذلك النص، وردتا في بيئة مقاومة دعوة إلياس التي انتهت إلى انتقال الدعوة إلى اليسع. ويشمل الخبر السابق كاتبًا مؤمنًا للملكة، وصاحب بستان قُتل ظلمًا وأسرته، وابن الملك الذي مرض، ورسل الملك وأعوانه، والمؤمنين الذين حماهم الكاتب، وأم يونس وابنها، وعدوًّا سلطه الله على الملك بحسب الرواية. موضع تفصيل هؤلاء فصل

إلياس، ذكرهم هنا يحفظ اتصال السياق ولا ينسب إلى كل واحد منهم لقاءً باليسع لم ينص عليه الخبر. [٦]

بنو إسرائيل: جماعة الدعوة في خبر الراوندي، ومنهم المؤمنون والرافضون في سياق القصة، لا يسوي الفصل بينهم في موقف واحد. والمرضى والموتى الذين يذكر خبر الرضا شفاءهم وإحياءهم على يد اليسع جماعات غير مسمّاة، ولا يبين النص جنس كل فرد منها. ويوشع بن نون مذكور في تمهيد خبر الراوندي وفي خبر الكرفس، ولا يثبت من اجتماعه مع اسم اليسع في النقل تعاصرهما. [٦, ٨, ١٠]

٢٢. سجل الشخصيات: الأنبياء والسياق القرآني

الأسماء الواردة في مجموعة الأنعام: ٨٣–٨٦ هي إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. تُذكر هذه المجموعة كاملة لتجنب إسقاط اسم في سياق الآيات، لكن ورودها في سياق واحد لا يجعل الجميع من أصحاب اليسع أو أهل عصره. ومحمد صلى الله عليه وآله هو المخاطب بالأمر بالاقتداء بهداهم في ختام المقطع. [١, ٣]

وفي ص: ٤٥–٤٨: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم إسماعيل واليسع وذو الكفل. وفي الأنبياء: ٨٥، المستشهد بها عند مناقشة ذي الكفل: إسماعيل وإدريس وذو الكفل. أما حزقيل فيأتي في خبر المناظرة شاهدًا مقارنًا، لا اسمًا مذكورًا صراحة في آيتي اليسع. ومريم ترد في تعريف عيسى ومناقشة نسبه، لا بوصفها من أسرة اليسع. [٢, ٨, ١٤, ١٨]

وفي رواية المناظرة يرد بخت نصر في شاهد حزقيل، وأصحاب موسى السبعون، وقوم خرجوا حذر الموت وأهل القرية المحيطة بهم، وقريش وموتاها في الشاهد المتصل برسول الله وعلي. هذه الشخصيات والجماعات تقع في الأمثلة التي ساقت المناظرة بها الحجة، ولا يصح استعمالها لتحديد زمن اليسع أو تسمية قوم شُفوا على يديه. [٨]

٢٣. سجل الشخصيات: الناقلون وأصحاب الأقوال

في روايات أهل البيت المعتمدة في العرض هنا: الإمام الرضا في خبر المعجزات، والإمام الصادق ناقلًا عن الرسول في خبر الكرفس وفي تفسير النسب من جهة النساء، والإمام الجواد في جواب عبد العظيم الحسني عن ذي الكفل. هؤلاء مصادر الرواية أو شواهدها، لا رجالًا من زمن اليسع. ويرد الحسن بن محمد النوفلي وبشير الدهان وعبد العظيم الحسني بوصفهم ناقلين أو سائلين، بحسب كل خبر. [٨, ١٠, ١٢, ١٨]

ومن ناقلي الأخبار الأخرى: ابن عباس ووهب بن منبه ومنعم بن إدريس في طريق القصة الطويلة، وعبد الله بن عمر ومقاتل بن سليمان في طريق خبر امتحان ذي الكفل. ومن أصحاب الأقوال

التفسيرية الذين يسميهم مجمع البيان في ذي الكفل: أبو موسى الأشعري وقتادة ومجاهد والحسن والجبائي وابن عباس. تسمية هؤلاء تمنع نسبة أقوالهم إلى الأئمة بغير دليل. [٦, ١١, ١٤]

أما الكليني والصدوق والراوندي والطوسي والطبرسي والمجلسي والحويزي والطباطبائي والعياشي والثعلبي فهم أصحاب الكتب أو جامعو المادة ومفسروها المذكورون في الإحالات. ويُميز الطبرسي صاحب مجمع البيان عن عنوان الاحتجاج الذي يحيل إليه المجلسي؛ فلا يُجعل اسم الكتابين وحده دليلًا على مؤلف واحد أو طريق واحد. أسماء المصنفين جزء من توثيق السيرة وليست امتدادًا لعدد شخصيات أحداثها.

٢٤. نهاية حياته وحدود التسلسل الزمني

لا تذكر آيتا اليسع تاريخ وفاته أو موضع دفنه أو مدة دعوته. ولم أجد في الأخبار المحددة التي اعتمدها هذا الفصل نصًّا يثبت هذه التفاصيل بدرجة تتيح الجزم بها. ولذلك لا نثبت هنا سنة وفاة أو عمر معين أو قبر بعينه. وهذا إثبات لحدود المادة الموثقة، لا نفي لوجود أقوال تاريخية أو مواضع يتناقل الناس نسبتها إليه. [١, ٢]

ويُحفظ من التسلسل ما يحتمله الدليل: قصة الراوندي تجعله تابعًا لإلياس ثم قائمًا بالدعوة بعده؛ وبعض الأخبار القصصية تجعل ذا الكفل خلفًا له؛ وجواب الإمام الجواد يجعل ذا الكفل بعد سليمان دون تحديد الفاصل أو النص على اليسع. لا نُركِّب من هذه النصوص سلسلة زمنية تفصيلية ثم ننسبها إلى القرآن أو إلى حديث واحد. [٦, ١٢, ١٣]

ويونس مذكور مع اليسع في الأنعام، وله في القرآن قصة مستقلة. انتقال هذا الكتاب بعد الفصل الحاضر إلى يونس انتقال في ترتيب العرض، وليس دعوى أن يونس تسلم الوصية مباشرة من اليسع. وبالمثل لا تكفي كلمة «بعد» في مصدر عام لإثبات لقاء شخصي أو تلمذة أو انتقال كتاب من يد إلى يد. [١]

٢٥. ما الذي تضيفه هذه السيرة إلى حكاية الهداية؟

أول ما تعلمه هذه السيرة أن الذكر القرآني الموجز قد يحمل مقامًا عظيمًا: اليسع نبي من أهل الهداية والخير، ولا يتوقف الإيمان بنبوته على العثور على قصة مطولة لولادته أو وفاته. وثانيه أن بقاء الدعوة لا يقاس بشهرة صاحبها وحدها؛ ففي الخبر الذي يربطه بإلياس يحمل اليسع عبء الاستمرار بعد زمن من المحنة. وهذه قراءة لمعنى السيرة في حدود النص، لا فصل جديد من أحداث لم تروها المصادر. [١, ٢, ٦]

وثالثه أن التكريم والعبودية يجتمعان: يذكر خبر الإمام الرضا لليسع معجزات عظيمة، ثم يجعل ذلك شاهدًا على أن عظمة المعجزة لا تخرج صاحبها من كونه عبدًا لله. ورابعه أن توثيق النساء جزء من

الأمانة نفسها، فلا تُنسى الأم التي ورد خبرها، ولا تُملأ فجوات السيرة بزوجة أو بنت لا يحمل المصدر اسمها ولا قصتها. [٧, ٨]

وتبقى الخاتمة التي يملكها النص القرآني أرسخ من جميع التفصيلات المختلف فيها: ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾. فمن هنا يبدأ ذكر اليسع، وإلى هذا يرجع ميزان عرض سيرته: حفظ منزلته، وإظهار ما روي عنه بأمانة، وترك ما لا نعلمه في موضعه دون ادعاء. [٢]

٢٦. حصيلة المراجعة ونطاقها

استندت مادة الفصل إلى موضعي اليسع في القرآن وسياقهما، وإلى المواضع المعينة أدناه من التبيان ومجمع البيان، وعيون أخبار الرضا، والكافي، وقصص الأنبياء للراوندي، وبحار الأنوار، ونور الثقلين، وتفسير العياشي، مع ملاحظة معالجة الميزان للخبرين المتعلقين باليسع وذي الكفل. واستُعمل الثعلبي لتعيين مصدر خبر الأم وبعض الأخبار القصصية، مع التصريح بأنه خارج مصادر الرواية الإمامية. [١–١٨]

وفي الميزان عند سورة ص يُورد خبر معجزات اليسع المنقول في البحار، ثم جواب الإمام الجواد عن ذي الكفل، ويمتنع المؤلف عن استيعاب الأخبار الأخرى التي لا يعتمدها. فهذا موضع يفيد في معرفة انتقاء المفسر، ولا يضيف سندًا مستقلًّا للخبرين. [١٧]

لم تُدرج عناوين عامة في قائمة المراجع على أنها أدلة تفصيلية لم تُقرأ، ولم يُحسب تكرر الرواية في كتب النقل أخبارًا مستقلة. كما لم نثبت أسماء زوجة اليسع وأولاده، ولا تواريخ مولده ووفاته أو قبره. والمقصود باستكمال الفصل استيعاب المادة ذات الصلة التي أمكن تحديد مواضعها ومراجعتها هنا، لا الادعاء باستقراء كل مخطوط أو كل رواية مفقودة. وقد حفظ سجل الشخصيات الأسماء الصريحة والأوصاف المجهولة والصلات المختلف فيها دون مساواتها في درجة الثبوت.

المصادر والإحالات

[١] القرآن الكريم، الأنعام: ٨٣–٩٠؛ النص ضمن التبيان.

[٢] القرآن الكريم، ص: ٤٥–٤٩؛ النص ضمن مجمع البيان.

[٣] الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير الأنعام: ٨٤–٩٠.

[٤] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنعام: ٨٣–٨٧.

[٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ص: ٤٥–٥٤.

[٦] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب ١٧، ص٢٤٨–٢٥١، ح٢٩٣؛ خبر إلياس واليسع.

[٧] الثعلبي، الكشف والبيان، ج٨، ص١٦٦؛ خبر أم اليسع. مصدر غير إمامي.

[٨] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب ١٢، ح١؛ مجلس الرضا مع أهل الأديان والمقالات.

[٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، باب ١٦، ص٤٠١، ح٨؛ معجزات اليسع في خبر الرضا.

[١٠] الكليني، الكافي، ج٦، ص٣٦٦، كتاب الأطعمة، باب الكرفس، ح١.

[١١] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب ١٣، ص٢١٢-٢١٣، ح٢٧٦؛ امتحان ذي الكفل.

[١٢] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب ١٣، ص٢١٣، ح٢٧٧؛ جواب الإمام الجواد لعبد العظيم.

[١٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، باب ١٧، ص٤٠٥؛ بيان المجلسي، ثم ح٢.

[١٤] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنبياء: ٨٥-٨٦؛ الأقوال في ذي الكفل.

[١٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٠٦؛ اختلاف الأقوال في هوية ذي الكفل.

[١٦] الحويزي، نور الثقلين، ج١، ص٢٤١، ح٩٦٠؛ اقتباس من مجلس الإمام الرضا.

[١٧] الطباطبائي، الميزان، تفسير ص: ٤١-٥٤، فقرة «خبر اليسع وذي الكفل».

[١٨] العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص٣٦٧، ح٥٢-٥٣؛ النسب من جهة النساء.

[١٩] القرآن الكريم، آل عمران: ٤٩؛ النص ضمن مجمع البيان.

الفصل ٣٤ — يونس عليه السلام — النداء من الظلمات

١. نبيّ عاد إلى قومٍ عادوا إلى الله

تلتقي في حكاية يونس عليه السلام نجاة نبيّ ونجاة أمة. قومٌ طال تكذيبهم، ثم فتح الله لهم باب التوبة؛ ورسولٌ أحاطت به ظلمات البحر وبطن الحوت، فبقي طريق الدعاء مفتوحًا بينه وبين ربه. لم تنته الحكاية بهلاك المدينة، ولم تنته بغياب نبيها، بل بالإيمان والرحمة واستئناف الهداية. يقول القرآن: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾، ويقول في نبيه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. [٤, ٥]

والبداية التي يحفظ بها القارئ ميزان القصة هي قول الله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. فهذا وصفه الذي يحكم قراءة ما يأتي بعده من تفاصيل الابتلاء. وفي ضوء هذا الأصل تُقرأ ألفاظ العتاب، وتُفهم الروايات، وتُميَّز العبرة الصحيحة من الصور التي تنسب إلى النبي جهلًا بالله أو اعتراضًا على رحمته. [٤, ٦–٨]

٢. مواضع يونس في القرآن الكريم

ورد اسم يونس صريحًا في أربعة مواضع: النساء ١٦٣، والأنعام ٨٦، ويونس ٩٨، والصافات ١٣٩. وسُمّي «ذا النون» في الأنبياء ٨٧، و«صاحب الحوت» في القلم ٤٨. والنون هو الحوت؛ فالاسمان الأخيران يعودان إلى يونس نفسه، ولا يدلان على نبيين آخرين. أما عنوان سورة يونس فلا يعني أن السورة كلها سيرة له؛ فخبر قومه المباشر فيها يتركز في الآية ٩٨. [١–٥, ٨]

تثبت آية النساء دخوله في سلسلة الوحي، وتجمع آية الأنعام إسماعيل واليسع ويونس ولوطًا في سياق تفضيل الأنبياء. وتعرض آية يونس توبة قومه وكشف العذاب عنهم. وتروي آيتا الأنبياء ٨٧–٨٨ ذهابه ونداءه واستجابة الله له. وتفصل الصافات ١٣٩–١٤٨ السفينة والقرعة والحوت والتسبيح والعراء واليقطين والرسالة إلى مائة ألف أو يزيدون. وتختم القلم ٤٨–٥٠ بصورة الرحمة والاجتباء، وتوجّه النبي محمدًا صلى الله عليه وآله إلى الصبر لحكم ربه. [١–٥]

هذه المقاطع متكاملة، ولكل منها غرضه. فلا يُستخرج من ترتيب سورها تاريخٌ للأحداث، ولا يدل اقتران اسم يونس باليسع في الأنعام على أنه استلم منه الوصية مباشرة. كما أن ذكر زكريا بعده في سورة الأنبياء لا يثبت أن زكريا كان خليفته المباشر. ترتيب الذكر القرآني حجة فيما يقوله النص، ولا يغني عن الدليل الخاص حين نبحث تاريخ الولادة أو اتصال الوصاية. [١, ٣]

٣. اسمه ونسبه وحدود أخبار أسرته

الاسم الذي يثبته القرآن هو «يونس»، وترد في روايات أهل البيت تسمية «يونس بن متّى». وتصف رواية في «تنبيه الخواطر» متّى بأنه أبو يونس، وكذلك عنوان الباب الذي جمعه المجلسي: «قصص يونس

وأبيه متى». وعلى هذا يرد اسم متّى هنا أبًا، مع إبقاء درجة خبر سيرته كما هي؛ فلا تتحول شهرته إلى سند متصل صحيح بمجرد تكراره في الكتب. [٧, ١٦, ٢٩]

لم يذكر القرآن اسم أمه، ولا اسم زوجة له، ولا أسماء أبناء أو بنات، ولا يوم ولادته أو سنة وفاته. وفي المادة الحديثية والتفسيرية التي أمكن مقابلتها لهذا الفصل لم يثبت تعيينٌ يُعتمد عليه لاستكمال هذه الفراغات. فتبقى الأم شخصية مذكورة في خبر خاص يأتي بيانه، وتبقى الزوجة والذرية من المعلومات غير المحققة؛ وهذا لا يساوي الحكم بأنه لم يتزوج أو لم يُرزق ولدًا.

وتصل الأخبار يونس ببيئة أنبياء بني إسرائيل، وبنينوى من أرض الموصل، لكنها لا تعطينا سلسلة نسب تفصيلية متفقة، ولا تاريخًا قطعيًا نصل به أخبار متّى وداود وسليمان بأخبار أم يونس وإلياس. لذلك نروي كل خبر في موضعه، ولا نصنع من جمع الأخبار المختلفة تقويمًا تاريخيًا واحدًا لم ينص عليه مصدر موثوق. [٩, ١١, ١٦]

ويرد في «معاني الأخبار» تفسير لاسم يونس بالاستئناس بربه، ثم كونه مؤنسًا لقومه بعد الرجوع. نذكره تفسيرًا معنويًا واردًا في الكتاب، لا اشتقاقًا لغويًا تاريخيًا محسومًا للاسم. وهو يلتقي مع نهاية الحكاية التي يعود فيها النبي إلى قوم مؤمنين. [٣٧]

٤. متّى الحطّاب: نعمةٌ تُرى في لقمة الخبز

يروي ورّام عن علي بن الحكم، عمّن رفعه إلى الإمام الصادق عليه السلام، أن داود سأل ربه عن قرينه في الجنة، فجاءه ذكر متّى أبي يونس. فاستأذن في زيارته، وخرج ومعه سليمان. ولم يصل الخبر إلينا بإسناد متصل في هذا الموضع؛ فهو خبر مرفوع يُذكر للعبرة مع بيان مصدره، ولا يُجعل أساسًا للجزم بالمزامنة التاريخية بين هؤلاء جميعًا. [١٦]

في صورة الخبر، قصد داود وسليمان بيتًا من سعف، فقيل لهما إن صاحبه في السوق بين الحطابين. جلسا ينتظرانه حتى أقبل يحمل حطبه، فحمد الله وباعه، ثم دعا ضيفيه إلى منزله. اشترى طعامًا من كسبه، وطحن وعجن وأوقد النار، ثم وضع خبزه وملحه وماءه. لم تكن المائدة كثيرة الأصناف، ولكن صاحبها كان يرى في إعدادها سلسلة من النعم. [١٦]

كان يسمّي الله عند الطعام ويحمده بعده، ثم يذكر سلامة سمعه وبصره وبدنه، والقوة التي بلغ بها الشجر، والرزق الذي ساق الله له من شجر لم يغرسه، والمشتري الذي جاءه، والطعام الذي لم يزرعه، والنار التي أنضجته، والشهوة التي أعانته على أكله ليقوى على الطاعة. ثم بكى، فقال داود لسليمان إنه لم ير عبدًا أشكر لله منه. وتكتمل في هذا المشهد أسماء داود وسليمان ومتّى، ومعهم الحطابون والمشترون الذين لم يسمهم الخبر. [١٦]

والصلة التربوية بين هذا الخبر وحكاية يونس واضحة: التسبيح في الضيق له قرين في الشكر زمن السعة. غير أن هذه الصلة قراءة لمعنى الخبرين، وليست رواية تقول إن يونس تلقّى هذا الدعاء بعينه من أبيه أو حضر زيارة داود وسليمان؛ فلا يذكر الخبر حضوره، ولا يصف طفولته في ذلك البيت.

٥. أمّ يونس وإلياس: خبرٌ محفوظ بحدوده

في «قصص الأنبياء» للراوندي خبر طويل عن إلياس، يرويه بطريق ينتهي إلى منعم بن إدريس، عن وهب بن منبّه، عن ابن عباس. وتأتي فيه أم يونس امرأةً آوت إلياس حين كان مستخفيًا، ويونس مولود. ثم يذكر الخبر موت الطفل بعد فطامه، وخروج أمه تبحث عن إلياس في الجبال، ورجاءها أن يدعو الله فيحيي لها ابنها. لا يذكر النص اسم الأم. [١١]

تقول الرواية إن إلياس عاد معها واجتهد في الدعاء فأحيا الله يونس بقدرته، ثم أُرسل يونس إلى قومه حين بلغ الأربعين. هذا خبر عن ابن عباس بواسطة وهب، وليس حديثًا مرويًا عن إمام من أهل البيت لمجرد أن الراوندي أدرجه في كتابه. كما أن سن الأربعين فيه يختلف عن سن الثلاثين في خبر أبي عبيدة عن الإمام الباقر. فلا يثبت به ميلاد مؤرخ ولا عمر متفق عليه، ولا يُروى إحياء الطفل على أنه تفصيل قرآني. [١١–١٣]

ومع هذا البيان لا تُحذف الأم من سجل الشخصيات: دورها في الرواية الإيواء والرعاية وطلب الدعاء، وإلياس هو النبي الذي تلجأ إليه. ولا تُدمج هذه المرأة بأم اليسع التي ورد خبرها في سياق آخر، ولا يُنقل اسم أو نسب من إحداهما إلى الأخرى. أما الملك وزوجته وكاتبه المؤمن في صدر خبر إلياس، فموضع سيرتهم فصل إلياس؛ وليسوا أشخاصًا ثبت أنهم شهدوا بعثة يونس. [١١]

٦. الرسالة إلى نينوى

يثبت القرآن رسالة يونس، ويذكر قومه وعددًا عظيمًا ممن أُرسل إليهم، لكنه لا يسمّي المدينة. وتعيّن الروايات والتفاسير نينوى من أرض الموصل. وهذا التعيين مشهور في «مجمع البيان» وأخبار القمي والعياشي، فيرد هنا بوصفه تعيينًا روائيًا وتفسيريًا، مع بقاء التفريق بين اسم المدينة في المصادر وبين ألفاظ القرآن. [٢, ٤, ٩, ١٣, ١٤]

كان يدعوهم إلى الإيمان بالله وتصديق رسالته. ويصور خبر أبي عبيدة الحذّاء عن الإمام الباقر طول الدعوة وشدة التكذيب، ويذكر تهديده وإخراجه، وأن الذين آمنوا به في تلك المرحلة كانا رجلين. ويحدد الخبر بعثته في الثلاثين، وإقامته في الدعوة ثلاثًا وثلاثين سنة. هذه أرقام ذلك الخبر، لا تواريخ قرآنية؛ وقد اجتمع في متنه ما يحتاج إلى نقد، فتُذكر نسبتها ولا تُبنى عليها حسابات جازمة لعمره. [١٢, ١٣]

وليس في قصة يونس القرآنية اسم ملك واجهه، أو اسم كاهن قاد تكذيب قومه، أو اسم زوجة حرّضت عليه. لذلك يبقى المكذبون جماعة غير مسمّاة، ولا نستعير لهم أسماء من تاريخ آشور أو من قصص متأخرة. المعلومة التي يبرزها القرآن هي قدرة هذه الجماعة على الانتقال من التكذيب إلى الإيمان، وما أحدثته توبتها في مصيرها. [٢, ٤]

٠٧. روبيل وتنوخا، واسم مليخا

تظهر في الرواية شخصيتان لا يكفي إغفالهما والاكتفاء بذكر «عالم وعابد». الأول روبيل، صاحب العلم والحكمة، القديم الصحبة ليونس، وتصفه رواية أبي عبيدة بأنه يرعى غنمًا يتقوت منها. والثاني تنوخا، عابد زاهد يحتطب ويأكل من كسبه. وتأتي رواية جميل عن الإمام الصادق في تفسير القمي باسم «مليخا» للعابد، مع بقاء اسم روبيل للعالم. [١٢-١٤]

والأقرب في تحرير سجل القصة أن نثبت «تنوخا، وسُمّي العابد مليخا في طريق آخر»، بدل أن نجعلهما رجلين مستقلين بلا دليل. كذلك لا يصح الخلط بين تنوخا الحطاب ومتّى الحطاب؛ فاشتراكهما في المهنة لا يجعلهما شخصًا واحدًا، ولكل منهما موقع مختلف في الرواية. [١٣, ١٤, ١٦]

في خبر القمي يؤيد العابد الدعاء على القوم، ويحث العالم على الإمهال رجاء التوبة. وفي رواية العياشي يبقى روبيل مع الناس ويدعوهم إلى الرجوع إلى الله، ثم يعترف تنوخا بعد انكشاف العذاب بصواب رأيه. غير أن النص الإلكتروني المقابل من مختصر الراوندي ينسب إرشاد القوم إلى تنوخا في موضع تُسنده الرواية المطولة إلى روبيل. نثبت هذا الاختلاف النصي، ولا نطمسه بصياغة توهم اتفاق جميع الطرق. [٩, ١٢-١٤]

والعبرة التي يحملها دور العالم هي أن المعرفة بالله توسّع باب الرجاء، وتمنع تحويل العبادة إلى حكم متعجل على الناس. لكنها لا تبيح جعل روبيل أعلى من النبي في مقام الرسالة، أو قبول كل عبارة وردت في الحوار المنسوب إليه. فحكمة الناصح شيء، وثبوت جميع تفاصيل الحكاية وصحة دلالاتها شيء آخر.

٠٨. الإنذار ووجوه الناس التي لا تُنسى

تروي الأخبار أن يونس أنذر قومه بالعذاب، ثم ظهر لهم ما أفزعهم. وفي أصل القرآن أنهم آمنوا فكشف الله عنهم عذاب الخزي. أما لون الريح، وارتفاع العذاب، وتعيين يوم نزوله، فتفاصيل تختلف فيها الأخبار، وليست شروطًا لفهم الآية أو حقائق متساوية في الثبوت. [٢, ٩, ١٣, ١٧]

ويذكر خبر أبي عبيدة، واختصاره عند الراوندي، الحبلى والجنين والطفل والشيخ الكبير والمرأة الضعيفة والمستضعف. هذه ليست أسماء أفراد، لكنها حضور إنساني لا يجوز إسقاطه من قراءة القصة. فالقوم ليسوا كتلة من الرجال المعاندين وحدهم، بل أسر وأمهات وصغار وضعفاء. ويأتي في الخبر تأكيد أن الصغار لا يحملون ذنوب الكبار. [١٢, ١٣]

ولأن هذا المعنى الرحيم جاء في خبر طويل يشتمل أيضًا على عبارات مشكلة في وصف النبي، فلا نجزّئه لنزعم صحة الخبر كله. نستأنس بما يوافق أصل الرحمة والعدل، ونذكر المصدر، ثم نعرض ألفاظه المشكلة على محكم القرآن وتفسير أهل البيت كما سيأتي. وهذا يحفظ حضور النساء والأطفال دون بناء مشاهد لم ترد في النص.

٩. توبة القوم: خروج الرجال والنساء والأطفال

حين أحس القوم بالخطر عادوا إلى السؤال: ما طريق النجاة؟ تروي أخبار القمي والعياشي أنهم استجابوا لمن دعاهم إلى التوبة، فخرجوا من منازلهم، واجتمعوا في الفضاء، وأعلنوا الإيمان بالله وبرسوله. وتشدد الروايات على الدعاء والبكاء والتضرع، ويثبت القرآن النتيجة التي تجمع معناها: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. [٢, ١٣, ١٤]

وتصف الروايات تفريق الأمهات عن الأطفال، والأنعام عن أولادها، فارتفعت أصوات الصغار وأمهاتهم، واختلطت أصوات الحيوان بنداء البشر. هذا وصف لمشهد مروي، لا تشريع لطقس يُؤمر الناس بتكراره، ولا دعوة إلى إيذاء الأطفال أو الحيوان. المقصود الذي تسنده الآية هو صدق الرجوع إلى الله؛ أما هيئة الاجتماع فتبقى من تفاصيل الروايات. [٩, ١٣, ١٤]

ويورد «مجمع البيان» عن ابن مسعود أنهم ردوا المظالم، حتى إن الرجل اقتلع حجرًا من أساس بنائه ليرده إلى صاحبه. وينقل عن أبي مخلد رجوعهم إلى شيخ من بقية علمائهم علّمهم الدعاء. نذكر هذين الخبرين منسوبين إلى ناقليهما، ولا نحولهما إلى حديث عن الإمام الصادق، ولا نجزم بأن الشيخ المجهول هو روبيل؛ فاشتراك الدور لا يكفي لإثبات وحدة الشخصية. [٩]

والنساء في هذا المشهد شريكات في التوبة والنجاة، لا أسماء أضيفت على هامش سيرة رجل. وقد حفظت الأخبار رجوع الناس إلى منازلهم وضمّ نسائهم وأولادهم إليهم بعد انكشاف البلاء. ما كان مهددًا بالضياع مجتمعًا بأسره عاد إلى الحياة، وبقي له زمن يعمل فيه ويؤمن، كما يقول القرآن: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. [٢, ١٣]

١٠. لماذا كشف الله العذاب؟

سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام عن صرف العذاب عن قوم يونس، وقد أظلهم. وفي «علل الشرائع» أن الله كان يعلم أنه سيصرفه لتوبتهم، وأن ما جرى ليونس فتح له باب عبادة وكرامة. ويرد عن سماعة أن صرفه كان في العلم الذي لم يُطلع الله عليه أحدًا. فالتوبة لم تكشف لله أمرًا كان يجهله؛ وإنما ظهر للعباد ما كان معلومًا له. [١٧]

وفي «روضة الكافي» عن معروف بن خربوذ، عن الإمام الباقر عليه السلام، تفسير للرحمة التي تداركت قوم يونس حين آمنوا وتضرعوا. يربط الخبر تغير المصير بتغير موقف القوم، فلا تكون الطاعة وبالًا عليهم. وهذه المادة أوضح في بيان الأصل من الانشغال بإحصاء المسافة بين السحاب والرؤوس أو تحويل اختلاف الألفاظ إلى قصة واحدة متكلفة. [١٨]

ويعرض المفسرون سؤالًا آخر: هل رأى القوم أمارات العذاب قبل حلوله، أم أظلهم ثم كُشف؟ يذكر الطبرسي الوجهين، وفي الأخبار ألفاظ تدل على شدة قربه. والقدر الجامع أنهم آمنوا إيمانًا نفعهم

وقبله الله، فلا يصح قياس كل إيمان عند الغرق أو معاينة الموت على قصتهم، ولا جعل خبرهم وعدًا بإمكان تأخير التوبة دائمًا إلى اللحظة الأخيرة. [٢, ٩, ١٧, ١٨]

١١. الذهاب مغاضبًا: بيان الإمام الرضا

بعد مشهد قومه تأتي محنة يونس. يقول القرآن: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾. ولأن العبارة موجزة، جاءت روايات الإمام الرضا عليه السلام لتمنع حملها على غضب النبي من الله أو اعتراضه على عدله. ففي جوابه المروي في مجلس المأمون: «ذهب مغاضبًا لقومه». الغضب هنا متصل بموقفهم من الرسالة، ولا يجعل النبي خصمًا لربه. [٣, ٧]

وفي المجلس المروي عن أبي الصلت الهروي، واجه علي بن محمد بن الجهم الإمام بأسئلة عن عصمة الأنبياء. فرفض الإمام تأويل الكتاب بما ينسب إليهم الفواحش والباطل، وفسر آية يونس بما يوافق معرفة النبي بالله. وفي مجلس آخر يرويه ابن الجهم كان المأمون هو السائل. وهذان سياقان ينبغي تمييزهما؛ فالسائل والراوي ليسا دائمًا الشخص نفسه. [٦, ٧]

ولا يعني هذا إسقاط العتاب من القصة. يشرح الشيخ الطوسي أن المقام والصبر كانا أولى، وأن ما ورد من الخروج يُفهم على ترك الأولى، لا على ارتكاب محظور أو إنكار لرحمة الله. هكذا تبقى جدية الابتلاء ظاهرة، ويبقى مقام النبوة مصونًا؛ فالعصمة لا تعني الاستغناء عن التربية الإلهية، ولا أن منازل القرب كلها مرتبة واحدة. [٨]

١٢. ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾

أشد الأخطاء في قراءة هذه الآية أن تُفهم على اعتقاد يونس أن الله عاجز عن إدراكه. وقد صرح الإمام الرضا، في الخبر المروي عن أبي الصلت، بأن حملها على ذلك يقتضي الكفر، فلا يكون تفسيرًا صحيحًا لحال نبي مرسل. وبيّن أن المقصود التضييق، مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾، الفجر ١٦. [٦]

وفي رواية المجلس الآخر فُسّر «ظن» بمعنى استيقن، و«لن نقدر عليه» بمعنى لن نضيّق عليه رزقه. ويذكر الطوسي والطبرسي أيضًا معنى عدم التضييق أو عدم تقدير الشدة عليه. فلا تُفهم العبارة بما يفيد أنه ظن أنه يستطيع الإفلات من قدرة الله. المقصود توقع عدم التضييق، ثم مجيء ابتلاء علّمه مقامًا أرفع من التسليم. [٧, ٨, ٢٨, ٣٢]

والفارق كبير بين عبد ينكر سلطان ربه، ونبي يعرفه ويحتاج في كل لحظة إلى لطفه. دعاء يونس نفسه شاهد على جهة رجوعه: لم ينادِ قوة أخرى، ولم يحتج على الله، بل بدأ بالتوحيد والتنزيه. وهنا تتصل بداية الدعاء بنهايته، ويصبح تفسير الآية بالآية أمانًا من اقتطاع لفظة عن سياق الإيمان. [٣]

١٣. السفينة المشحونة والقرعة

بلغ يونس البحر وركب السفينة. يقول القرآن: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾. والفلك المشحون سفينة مملوءة، والمساهمة إجراء القرعة، والمدحض هنا من خرجت عليه القرعة فغُلب فيها. أما «أبق» فمعناه الفرار؛ ولا يصح اختزاله إلى مجرد سرعة المشي، كما لا يصح جعله دليلًا على إنكار الله. [٤, ١٠, ٣٢]

تفصل بعض الأخبار اضطراب السفينة، وبعضها تعرض الحوت لها، ثم وقوع القرعة على يونس ثلاث مرات. وتختلف في أنه ألقى نفسه أو ألقاه أهل السفينة. أما القرآن فيثبت المساهمة ونتيجتها والتقام الحوت، ولا يحدد أسماء البحارة، أو الميناء، أو مقصد الرحلة، أو عدد مرات القرعة. لذلك تبقى صورة السفينة في السرد ضمن هذا القدر، وتُروى الزيادات منسوبة. [٤, ١٠, ١٢-١٤, ٢١]

وفي خبر الثمالي يظهر ملّاح ورجلان يخاطبان يونس؛ وفي غيره يأتي أهل السفينة جماعة. هؤلاء رجال غير مسمّين ذوو دور مباشر، فلا يُهملون، ولا يمنحون أسماء من التخمين. ولا تُستنبط من هذه الواقعة قاعدة تبيح إلقاء إنسان في البحر عند كل خطر؛ فالرواية تحكي واقعة نبوية مخصوصة، وليست تفويضًا مفتوحًا للناس في دماء بعضهم. [١٣]

١٤. مريم بنت عمران في خبر المساهمة

يروي «الخصال» عن الإمام الباقر عليه السلام خبرًا يجمع قرعة كفالة مريم وقرعة يونس، ويستشهد بقوله تعالى في مريم: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، آل عمران ٤٤. ثم يذكر تكرار القرعة على يونس. وفي طريقه «عمن أخبره»، فلا يُغفل الإرسال عند تقييمه. [٢١]

صلة مريم بهذا الفصل إذن صلة استشهاد ومقارنة في الرواية، وليست حضورًا على السفينة أو في نينوى، ولا قرابة بيونس. ويَرِد ذكر عيسى ابن مريم في احتجاج منقول عن أمير المؤمنين حول ضرورة التمييز بين كمال الأنبياء وبشريّتهم وبين الكمال الإلهي؛ فلا تُفهم آيات الابتلاء سببًا لتأليه النبي أو للطعن في نبوته. [٢١, ٢٥]

١٥. في بطن الحوت

يقول القرآن: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. فأصل التقام الحوت له ثابت بالنص، وبقاؤه إلى أن أنجاه الله آية من حفظه. ولا يسمّي القرآن نوع الحيوان تسمية علمية، ولا يصف أحشاءه، ولا يحدد عمق البحر. ولذلك لا يُفرض نوع محدد من الحيتان على النص. [٤]

وفي خبر الراوندي المنقول عن الإمام الصادق، وفي طريقه رجل غير مسمّى، أُمر الحوت ألا يكسر ليونس عظمًا ولا يأكل له لحمًا، لأنه لم يُجعل رزقًا له. يبرز الخبر معنى الحفظ في موضع الهلاك المعتاد. أما تفسير «مليم» عند الطوسي والطبرسي فهو استحقاق لوم العتاب على ترك الأولى؛ فلا يُنقل إلى القارئ بمعنى سقوط النبي من الإيمان. [١٠, ١٢, ٣٢]

وفي بعض أخبار الأسئلة الموجهة إلى أمير المؤمنين وُصف الحوت بالسجن الذي سار بصاحبه. والسائل في أحد هذه الأخبار رجل يهودي غير مسمّى. هذا من سياق نقل العبرة في الأزمنة اللاحقة، ولا يجعل السائل شاهدًا على رحلة يونس. كما لا يلزم من التعبير المجازي عن الحوت بالسجن أن تكون كل تفاصيل مساره الجغرافي ثابتة. [١٤, ٢٥]

١٦. النداء الذي اخترق الظلمات

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. الأنبياء ٨٧-٨٨. [٣]

تفسر رواية الإمام الرضا الظلمات بظلمة الليل والبحر وبطن الحوت. لم يكن أحد من قومه يسمع هذا النداء، ولم يكن معه من يدفع عنه ضيقه؛ لكن انقطاع الوسائل الظاهرة لم يقطع صلته بالله. يبدأ الدعاء بنفي الشريك، ثم تنزيه الله عن الظلم والنقص، ثم الانكسار بين يديه. ليس فيه اتهام للرحمة، بل رجوع إليها. [٣, ٧]

أما قوله «إني كنت من الظالمين» فلا يُفرغ من الخضوع الحقيقي، ولا يُحمل على ظلم الناس أو فساد العقيدة. في تفسير الإمام الرضا إقرار بترك مثل العبادة التي تفرغ لها في الحوت، وفي بيان الطوسي نقصان حظ النفس من ثواب المقام والصبر الذي كان أولى. هذه قراءات تحفظ صدق الدعاء ومقام النبي معًا، دون اختراع معصية لا يدل عليها النص. [٧, ٨]

١٧. التسبيح والنجاة من الغم

تصل سورة الصافات النجاة بالتسبيح: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. ويذكر المفسرون تسبيحه قبل الابتلاء، وتسبيحه في بطن الحوت. والوجهان لا يتعارضان من حيث أصل المعنى: عبوديته ليست وليدة البحر، ونداؤه في البحر ثمرة توحيده ورجوعه. أما تعيين المراد التفصيلي من الآية فيُذكر بوصفه تفسيرًا. [٤, ١٠, ٣٢]

ولا تعني الجملة الشرطية أنه بقي بالفعل إلى يوم القيامة؛ فالآيات نفسها تخبر بإخراجه. إنها تبيّن عظم أثر لطف الله وتسبيح عبده في دفع ما كان سيقع لولا ذلك. ثم تخرج سورة الأنبياء بالقصة من خصوص صاحبها إلى رجاء المؤمنين: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. [٣, ٤]

ولذلك بقي دعاء يونس حيًا في أدعية أهل البيت وتعليمهم. ليس ترديدًا لألفاظ غريبة، بل إقرار بالتوحيد وتنزيه للرب ومراجعة للنفس. ومن تمام فهمه ألا يُتخذ للتعالي على المبتلى أو للقول إن كل تأخر في الفرج دليل ضعف إيمان؛ فالآية تفتح الرجاء، ولا تمنح الناس علمًا بمقادير ابتلاء الآخرين.

١٨. مدة البقاء والتواريخ المختلفة

لم يحدد القرآن عدد ساعات يونس في الحوت أو أيامه. وفي الأخبار التي جمعها المجلسي تسع ساعات في سياق منقول عن القمي، وثلاثة أيام في رواية أبي الجارود وفي خبر معمر عن الإمام الرضا، وسبعة أيام في خبرٍ أبي عبيدة، وأربعون صباحًا في خبر المناقب. كما يعرض «مجمع البيان» أقوالًا أخرى، ومنها عشرون يومًا. هذه اختلافات قائمة، وليست مقادير تُجمع لنستخرج منها مدة جديدة. [١٠, ١٣, ١٤, ٢٣, ٢٩]

وفي الرواية المطولة غيابٌ من ثمانية وعشرين يومًا، موزعة على الذهاب إلى البحر، والحوت، والعراء، والرجوع، سبعة أيام لكل مرحلة. ويأتي فيها منتصف شوال يوم الأربعاء موعدًا للإنذار، بينما ينقل «نور الثقلين» عن «التهذيب» خبرًا يجعل توبة القوم يوم عاشوراء، وينقل المجلسي عن «مصباح المتهجد» خروج يونس من الحوت في التاسع من المحرم. لا نركب هذه الأخبار في تقويم واحد، ولا نحولها إلى تواريخ قطعية أو مناسبة تعبّدية مستحدثة. [١٣, ٢٦, ٢٩]

وقد نبّه المجلسي نفسه إلى إشكال الجمع بين مدد المكث. فالقول الأمين في متن الحكاية أنه مكث حتى شاء الله نجاته، مع إثبات اختلاف الأخبار في موضعه. وهكذا يُحفظ الخبر دون أن يصبح رقم مشهور، كالأربعين، حقيقة قرآنية لم يذكرها القرآن. [٢٩]

١٩. قارون وموسى وهارون وكلثم بنت عمران

ترد في أخبار القمي والعياشي والراوندي حكاية مرور الحوت بموضع عذاب قارون. يسمع قارون صوت يونس، ويستأذن الملك الموكل به في مخاطبته، ثم يسأله عن موسى وهارون. وتزيد بعض الطرق السؤال عن كلثم بنت عمران، وتذكر أنها كانت «سُمّيت له». ولذا ينبغي تسجيل كلثم ضمن النساء الوارد ذكرهن في مادة الفصل، مع الانتباه إلى أنها مذكورة في السؤال، وليست مرافقة ليونس في البحر. [١٢–١٤]

وفي الرواية يخبره يونس بوفاتهم، فيرقّ قارون لقرابته ويبكي، ثم يرد تخفيف العذاب عنه أو رفعه مدة الدنيا، بحسب الطريق. ليست هذه التفاصيل في القرآن، وفي طريق الراوندي راوٍ غير مسمّى، وتوجد في النص عبارة: «وفي هذا الخبر شيء يحتاج إلى تأويل»؛ غير أن محقق الكتاب ناقش موضعها ونسبتها، ورجح اتصالها بالحديث التالي، فلا نجزم بأنها تعليق الراوندي على قصة قارون. فلا يجوز نقل الحكاية كأنها خبر قطعي عن مصير قارون الأخروي، أو كأن القرآن نصّ على نجاته. [١٢]

وتُحفظ عبارة كلثم على قدرها: لا يثبت من «سميت له» زواج مكتمل ولا ذرية، ولا يصح دمج كلثم بنت عمران بمريم بنت عمران أم عيسى لمجرد الاشتراك في اسم الأب. فخبر كلثم يدور في سياق موسى وهارون، وخبر مريم في سياق آخر. أما الملك الموكل بقارون فلا يسميه النص، فلا ندعوه مالكًا أو رضوان أو عزرائيل بغير دليل. [١٣, ١٤, ٢١]

٢٠. على العراء: نجاةٌ تتبعها رعاية

خرج يونس من الحوت، لكن الخروج لم يكن نهاية حاجته إلى ربه. يقول القرآن: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾. العراء موضع مكشوف، والسقم يبين ضعفه بعد المحنة. وهنا تنتقل صورة الرحمة من حفظه في البحر إلى العناية به على الأرض، فيأتي النبات جزءًا من النجاة التي ترد إليه القدرة على الحياة. [٤, ١٠]

فسرت روايات القمي اليقطين بالدباء أو القرع، ويذكر أهل اللغة والتفسير معنى أوسع للنبات الذي ينبسط ولا يقوم على ساق كالأشجار المعهودة. فلا يلزم من لفظ «شجرة» في الآية تصور جذع ضخم وأغصان مرتفعة. والذي يهم الحكاية أن الله أنبت عليه ما كان سببًا لرعايته؛ أما فوائد غذائية أو طبية محددة فلا تنسب إلى الآية بغير دليل. [١٠, ١٤, ٣٢]

وتصف بعض الروايات رقّة جلده وتساقط شعره وانتفاعه بالظل، ثم عودة قوته. وينقل «مجمع البيان» في مادته القصصية خبر حيوان يشرب من لبنه. لا يذكر القرآن ذلك الحيوان، ولا تذكر الآيات مرضعة بشرية قامت بعلاجه. لذلك لا تُختلق امرأة ممرضة لإكمال حضور النساء، كما لا يُجزم بنوع الحيوان أو كيفية رضاعته من أخبار مختلفة الألفاظ. [٩, ١٠, ١٤]

٢١. اليقطين والرحمة بالخلق

تضيف رواية أبي الجارود أن الشجرة يبست بعد أن قوي يونس، فحزن لفقدها، وجاءه خطاب يلفت قلبه إلى أهل نينوى الذين يزيدون على مائة ألف. وفي خبر معمر عن الإمام الرضا معنى قريب: الانتقال من التألم لفقد ظل الشجرة إلى تأمل نجاة هذا العدد من البشر. تروى هذه الزيادة بوصفها رواية، ولا تضاف إلى الآية كأنها بقيتها. [١٣, ١٤]

وفي قراءة المعنى على أصل العصمة لا يصبح النبي عدوًا للحياة أو كارهًا للمؤمنين. إنما تُقرأ المحنة في باب تكميل العناية والرفق، وما يعلمه الله عبده من سعة تدبيره. فقد كان القوم في بداية القصة مكذبين، ثم صاروا مؤمنين؛ وتغير حالهم لا يناقض صدق الرسول، بل يكشف ثمرة من ثمار دعوته وإن جاءت بعد طول امتناع. [٢, ٦–٨]

٢٢. الراعي الذي حمل خبر العودة

في رواية أبي الجارود، لما استرد يونس قوته أُمر بالرجوع إلى أهل نينوى، فقد آمنوا واتقوا. ولما دنا من المدينة لقي راعيًا، وطلب إليه أن يخبرهم بمجيئه. استبعد الراعي ذلك، لأن الخبر الذي بلغه كان أن يونس غرق وذهب. لم يعطنا النص اسم الراعي، ولا نسبه أو عمره، وإنما حفظ دوره بوصفه حامل بشارة العودة. [١٤, ٢٦]

وتذكر الرواية شهادة شاة بصدق يونس، ثم ذهاب الراعي إلى قومه، واستبعادهم خبره وهمّهم بضربه، حتى يبين لهم ما معه من آية. فيخرجون يطلبون نبيهم ويجدونه ويرجعون به، ويحسن إيمانهم. هذه

صورة روائية لمعجزة ولعودة النبي إلى الجماعة، وأصل القرآن الذي تستند إليه النهاية هو إيمان القوم وتمتيعهم إلى حين. [٢, ٤, ١٤]

ولا يصح أن يُسمّى هذا الراعي وصيًا ليونس بمجرد حمله خبر العودة، أو أن تتحول الشاة إلى شخصية بشرية لها اسم ونسب. ويُميّز الراعي هنا من روبيل الذي تصفه رواية أخرى برعي الغنم؛ فخبر اللقاء لا يصرح أنه روبيل، بل تصف أحداثه رجلًا لم يتعرف إلى يونس أولًا. [١٣, ١٤]

٢٣. إلى مائة ألف أو يزيدون

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. يحمل ختام الصافات أثر الرسالة في المجتمع، فلا تبقى القصة محصورة في محنة فردية. إن وراء النجاة قومًا يتلقون الهداية، وحياةً تستأنف في البيوت، وإيمانًا يعقب التكذيب. [٤]

ولا تدل «أو» على شك في علم الله. يعرض الطبرسي والطوسي وجوهًا لغوية، منها وصف العدد بحسب ما يقدره الناظر: مائة ألف أو أكثر. أما الزيادات المعينة التي حكاها المفسرون، كعشرين ألفًا أو غيرها، فلا يُختار واحد منها ثم يُنسب إلى القرآن. المقدار القرآني نفسه كاف لإظهار اتساع الرسالة. [١٠, ٣٢]

ويختلف المفسرون في صلة هذا الإرسال بما قبله: أهو رجوع إلى قومه وتجديد للدعوة بينهم، أم إرسال آخر؟ تذكر التفاسير الوجوه، وتؤيد روايات العودة إلى نينوى الاتصال بالقوم الأولين. نختار في تسلسل السرد خبر العودة مع بيان مستنده، ولا نجعل مجرد ترتيب الجمل دليلًا على أن يونس لم يكن رسولًا قبل الحوت؛ فالقرآن أثبت رسالته في افتتاح المقطع. [٤, ١٠, ١٤, ٣٢]

٢٤. ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾: قراءة الخاتمة مع العتاب

في سورة القلم خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾. والمكظوم المملوء بالغم أو المحبوس به. تحمل الآية تعليم الصبر، ولا تجعل دعاء يونس مذمومًا؛ فقد صرحت سورة الأنبياء باستجابته ونجاته، وإنما التحذير من الحال التي تقود إلى نظير تلك الشدة. [٣, ٥, ٣١, ٣٣]

ثم يقول: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقد وقع النبذ بالعراء بحسب الصافات، لكن الذي وقع كان مع الرحمة، لا على الوجه المذموم المفروض في الشرط. ولهذا لا تناقض بين «وهو سقيم» وبين نفي الخاتمة المذمومة؛ فالمرض حال بدنية، والذم حكم آخر. [٤, ٥, ٣٣]

فلا تقف قراءة يونس عند كلمة «أبق» وتنسى «لمن المرسلين»، ولا عند «مليم» وتنسى «فاجتباه ربه». كما لا تُحذف ألفاظ العتاب لتبقى حكاية خالية من التربية. يجمع القرآن الأمرين: مقام الاصطفاء، ودقة ما يطلب من أهله من صبر وافتقار وتسليم. [٤, ٥]

٢٥. تحرير الروايات الطويلة على أصل العصمة

من أكثر أخبار الفصل تفصيلًا رواية أبي عبيدة الحذّاء في تفسير العياشي، ومنها نقلت كتب لاحقة كثيرًا من الأسماء والحوار. لكن متنها يتضمن وصفًا ليونس بالعجز عن حمل أعباء النبوة، وعبارات مثل «كذبني الوحي» و«مغاضبًا لربه». هذه الألفاظ لا تمر في سرد الكتاب بوصفها حقائق مسلّمة؛ فهي تحتاج إلى معالجة صريحة في ضوء آيات الرسالة والاجتباء وبيان الإمام الرضا. [٤–٧, ١٣]

حمل المجلسي بعض الألفاظ على غير ظاهرها؛ ففسر تكذيب الوحي باعتقاد القوم، وذكر في المغاضبة معنى الغضب على القوم لله أو الخوف من تكذيبهم. هذا تأويل من المجلسي، وليس لفظًا آخر ثبت أنه صدر في الرواية. أما الطوسي فقد رفض نسبة الغضب من عفو الله إلى النبي؛ لأنه اعتراض لا يليق بمعرفته وحكمته. ويُحفظ الفرق بين نص الخبر وبين اجتهاد شارحه. [٨, ٢٩]

كما يرد في حوار روبيل أن هلاك القوم يمحو اسم يونس من النبوة ويبطل رسالته. لا نأخذ هذا تقريرًا عقديًا؛ فالقرآن يروي هلاك أمم مع بقاء أنبيائها في مقام الرسالة. ولهذا لا تكفي فائدة الرواية في حفظ أسماء روبيل وتنوخا لتصحيح جميع عقائد الحوار أو الجزم بكل رقم وتفصيل فيه. الإحالة الدقيقة تحفظ المادة، والنقد يمنع أن تصير مشكلاتها جزءًا من الإيمان بالنبي. [١٣]

ونقل الرواية في «الصافي» أو «نور الثقلين» أو «البحار» لا يجعلها ثلاثة شواهد مستقلة إذا كان الجميع يرجع إلى أصل واحد. وقد روعي هنا الرجوع إلى موضع العياشي نفسه في سورة يونس، وإلى مختصر الراوندي، وإلى طريق القمي، ثم بيان الاتفاق والاختلاف. ولم يُصدر هذا الفصل حكمًا إجماليًا بصحة كل ما في كتاب، ولا حكمًا بوضع خبر لمجرد استغراب مضمونه. [١٢–١٤, ٢٥, ٢٦, ٢٩, ٣٤]

٢٦. أخبار الولاية: ذكرها وتمييز دلالتها

ينقل المجلسي عن «بصائر الدرجات» خبر حبّة العرني عن أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه عرض الولاية وذكر يونس والحوت. وينقل عن «مناقب آل أبي طالب» خبر أبي حمزة الثمالي عن حضور عبد الله بن عمر عند الإمام زين العابدين، وسؤاله عن صلة ابتلاء يونس بالولاية، ثم خبر مخاطبة الحوت. لا يُحذف هذان الخبران من مراجعة مادة الفصل، ولا يُدمجان تلقائيًا بما ثبت من القرآن. [٢٢, ٢٣]

وتتعلق بهذا السياق أسماء أمير المؤمنين علي، والإمام علي بن الحسين، وعبد الله بن عمر، وأبي حمزة الثمالي وحبة العرني، مع ذكر الأئمة من ذرية علي. وفي خبر المناقب أسماء آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وأيوب وداود ومحمد عليهم السلام في سياق تفسير الابتلاء. ورود هذه الأسماء لا يثبت أن الأنبياء أنكروا حجة الله عن علم، ولا يبيح إعادة وصف محنهم بالمعصية من غير ردّها إلى أصول العصمة. [٢٢, ٢٣]

عرض المجلسي تأويلًا للإنكار بعدم القبول التام وما يتصل بالتوسل، وفسر الطباطبائي خبر الولاية بمعنى العبودية والتسليم لتدبير الله. هذا تفسير للخبر، لا توثيق آلي لسنده أو تصحيح لكل ألفاظه. ولذلك لا

نجعل الجحود بأمير المؤمنين تفسيرًا قطعيًا لآيات يونس، ولا نزعم أن الأربعين صباحًا الواردة في خبر المناقب حسمت اختلاف المدد. [٢٢, ٢٣, ٢٧]

ولا تعني هذه الأخبار أن يونس استلم وصية تاريخية مباشرة من الإمام علي أو سلّمها إليه؛ فالبحث في الميثاق والولاية غير البحث في لقاء الأشخاص وتسليم عهد من نبي إلى وصي في زمان واحد. والتمييز بين البابين لازم لحفظ تسلسل «حكاية الهداية» من تركيب حلقات لا يدل عليها النص.

٢٧. أمّ سلمة ودعاء النبي في الليل

ومن النساء ذوات الصلة المباشرة بمرويات يونس أم المؤمنين أم سلمة. ففي الخبر المنقول عن الإمام الصادق في تفسير القمي، وجدَت النبي صلى الله عليه وآله قائمًا في ناحية من البيت، رافعًا يديه يبكي ويدعو، ومن دعائه: «اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا». فبكت وسألته عن هذا الافتقار وهو في مقامه الكريم عند الله. [١٥, ٢٥]

فذكر لها يونس بن متّى وما كان من أمره حين وُكل إلى نفسه طرفة عين. وليس معنى الخبر أن العصمة تنفي حاجة النبي إلى الله، بل العكس: اللطف والتسديد من الله دائمًا، والنبي أكمل الناس معرفةً بافتقاره إليه. أم سلمة هنا شاهدة على الدعاء، وسائلة حفظ سؤالها معنىً من معاني التوكل، وليست معاصرة ليونس. [١٥]

ويُقرأ هذا الخبر مع بيان الإمام الرضا في معنى «لن نقدر عليه»، فلا يستعمل لإثبات كفر أو جهل بالقدرة الإلهية. وفي ضبط طريقه يوجد اختلاف بين «عبد الله بن سنان» و«عبد الله بن سيّار» في بعض النقول التي نبه عليها هامش البحار؛ لذلك لا تُطلق هنا دعوى تصحيح جميع نسخه بلا فحص رجال كل طريق. [٦, ٧, ١٥, ٢٩]

٢٨. الإمام الصادق وتعليم الافتقار والدعاء

يروي ابن أبي يعفور أنه سمع الإمام الصادق عليه السلام يدعو ألا يكله الله إلى نفسه طرفة عين، ورأى دموعه، ثم سمع منه ذكر يونس. ولما سأل الراوي: أبلغ به ذلك كفرًا؟ جاء الجواب: «لا». وهذا النفي مهم في فهم الخبر نفسه؛ فلا يصح اقتطاع صدره لبناء صورة تناقض جوابه. وطريقه في الكافي يحتاج إلى نظر رجالي، وقد أُشير إلى إشكاله في هامش النقل بالبحار. [١٩]

وفي «أمالي الصدوق» عن الإمام الصادق أنه تعجب ممن يغتم كيف لا يفزع إلى دعاء يونس، مستشهدًا بالاستجابة والنجاة المذكورتين بعده. رواه ابن أبي عمير عن جماعة منهم أبان بن عثمان وهشام بن سالم ومحمد بن حمران. وهؤلاء من حملة النص، لا أشخاص عاشوا أحداث نينوى؛ إنما حفظوا انتقال عبرتها إلى أهل الإيمان بعد قرون. [٢٤]

ويرد في «الكافي»، في باب الدعاء في طلب الولد، رجل من خراسان سأل الإمام الصادق بالربذة لأنه لم يُرزق ولدًا، فأرشده إلى قراءة آيات تبدأ بذكر ذي النون. يُذكر الرجل وزوجته المشار إليها بلفظ

«أهلك» دون تسمية، فالخبر لا يعطي اسمًا لأحدهما ولا يروي لنا خبر مولود بعينه. وهو من أخبار الدعاء، فلا نحوله إلى ضمان طبي أو إلى قصة أسرة مكتملة التفاصيل. [٢٥, ٣٥]

٢٩. يونس في الحج وأبواب العبادة

لا تختصر الروايات عبادة يونس في لحظة الحوت. ففي خبر هشام بن الحكم عن الإمام الصادق في الكافي وعلل الشرائع، المروي في البحار، أنه مر بصفائح الروحاء وهو يقول: «لبيك كشاف الكرب العظام لبيك». يضع الخبر يونس في سياق تلبية الأنبياء وعبادتهم، ولا يحدد تاريخ حجته بالنسبة إلى ابتلائه أو عودته إلى قومه. [٢٠]

وينقل «نور الثقلين» من علل الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا في «من لا يحضره الفقيه» ذكر قوم يونس في تعليل الفزع إلى الله عند الآيات المخوّفة، كما يورد من «مصباح المتهجد» الدعاء لله الذي سمع نداء ذي النون في الظلمات الثلاث. هذه مواضع لاحقة لاستحضار القصة في العبادة، ولا يستفاد منها أن يونس شرّع بنفسه كل صيغة دعاء ورد فيها اسمه. [٢٥, ٢٦]

ويختم خبر الراوندي عن الحوت بقول منسوب إلى النبي: «ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». وقد عرض المجلسي له توجيهًا، على تقدير صحة الخبر، يمنع جعل علو المكان قربًا ذاتيًا من الله، فالله لا يحويه مكان، ومعراج النبي وابتلاء يونس لا يفسران قربًا وبعدًا مكانيين من ذاته. ولا يُجعل هذا التوجيه حكمًا بإلغاء مراتب الأنبياء التي ثبتت بأدلتها، وإنما يحفظ أدب الحديث عنهم. [١٢, ٢٩]

٣٠. عدّاس: ذكر يونس في لقاء النبي بالطائف

وفي سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله مشهد يصل اسم يونس برجل من أهل نينوى هو عدّاس. يورده الطبرسي في «إعلام الورى»، وينقله المجلسي في أخبار الطائف. كان عدّاس غلامًا نصرانيًا لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وقد أرسلاه بالعنب إلى النبي حين لجأ إلى البستان بعد أذى أهل الطائف. فسأله النبي عن أرضه، فلما ذكر نينوى سأله عن مدينة الرجل الصالح يونس بن متّى. [٣٠]

استوقف عدّاس علم النبي بيونس. وفي النص المنقول أخبره النبي بأن الله أوحى إليه خبره، فعرف عدّاس من حديثه ما اتصل عنده بسيرة نبي بلده، وأقبل عليه بالتكريم. هذا هو موضع الصلة المقصود: حضور ذكر يونس في تبليغ الرسالة المحمدية إلى إنسان لم تمنعه غربته أو خدمته من أن يكون مخاطبًا بالهداية. [٣٠]

وعتبة وشيبة شخصيتان محيطتان بهذا اللقاء، لا من أصحاب يونس. وكذلك عدّاس ليس الناجي على سفينته ولا الراعي الذي بشر أهل نينوى بعودته؛ بين السياقات أزمنة مختلفة. ولا ننقل إلى الفصل بقية أسماء رحلة الطائف التي لا يتوقف عليها هذا اللقاء، فموضع سيرتهم التفصيلية فصل النبي محمد، مع حفظ الرجال الثلاثة ذوي الصلة المباشرة هنا. [٣٠]

٣١. جبريل وإسرافيل والحوت: أدوار لا تختلط

يأتي جبريل في صدر خبر أبي عبيدة واسطةً يخبر النبي محمدًا بقصة يونس، وترد أخبار أخرى عن استثناء في أمر العذاب لم يسمعه يونس. ويأتي إسرافيل في الرواية المطولة منفذًا لأمر صرف العذاب. وتذكر بعض الطرق الجبال بناحية الموصل، وأخرى جبال آمد. هذه تفاصيل روائية متغايرة؛ ولا يذكر القرآن اسم ملك في قصة يونس المباشرة، ولا يقرر بها تاريخًا جيولوجيًا لتكوّن الجبال والمعادن. [١٢, ١٣, ٢٦]

أما الحوت فمخلوق يجري عليه أمر الله، وليس إلهًا يملك النجاة، واليقطين نبات جعله الله سببًا للرعاية، والشاة في خبر الراعي آية في رواية مخصوصة. وتدخل الأنعام وأولادها في مشهد توبة القوم. وحفظ هذه الأدوار يبين اتساع المشهد، مع إبقاء الملائكة والبشر والحيوان والنبات في مواضعهم، فلا تُعد كلها شخصيات رجالية أو نسائية. [٤, ١٣, ١٤]

٣٢. يونس والقائم: الغيبة والعودة في خبر المقارنة

وفي «كمال الدين وتمام النعمة» للصدوق يروي محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أن في القائم من آل محمد شبهًا من خمسة من الرسل، ومنهم يونس. ويجعل وجه الشبه بيونس الرجوع من الغيبة في هيئة الشباب بعد كبر السن. ولهذا لا يغيب الإمام المهدي عليه السلام عن استقصاء الروابط الروائية لهذا الفصل، مع إبقاء رواية المقارنة في بابها وعدم تحويلها إلى لقاء تاريخي بين الشخصيتين. [٣٨]

لا يحدد هذا الخبر عمر يونس يوم الرجوع، ولا يجعل مدة غيبة القائم مساوية لمدة الحوت. وفي حاشية النسخة المقابلة تنبيه إلى عدم العثور على ترجمة اثنين في الطريق؛ لذلك يثبت الخبر منسوبًا، دون إطلاق تصحيح لسنده. وأما يوسف وموسى وعيسى ومحمد المذكورون معه، فلهم وجوه شبه أخرى تخص الرواية، وتُستوفى في فصل الإمام المهدي؛ فموضع يونس هنا هو الغيبة والعودة وتجدد القوة. [٣٨]

٣٣. الشخصيات النسائية والرجالية في سجل الفصل

في أحداث الأسرة والدعوة يظهر يونس محورًا للقصة؛ ومتّى أبًا في خبر الشكر؛ وأم يونس غير المسمّاة في خبر إلياس؛ وداود وسليمان ضيفين في خبر متّى؛ وإلياس في خبر الأم. ويظهر روبيل وتنوخا أو مليخا في خبر القوم، والشيخ غير المسمّى في أحد النقول التفسيرية، والملّاح والركاب والرجلان في روايات السفينة، والراعي في خبر العودة. لا تملأ الأسماء غير المعروفة بالتخمين، ولا تُدمج الشخصيات لمجرد تشابه المهنة أو الدور. [٩, ١١–١٤, ١٦]

ومن النساء: الأم المذكورة في خبر الطفولة، وأمهات نينوى ونساؤها والحوامل والضعيفات في خبر التوبة، وكلثم بنت عمران في خبر قارون، ومريم بنت عمران في خبر القرعة، وأم سلمة في دعاء النبي، وزوجة الرجل الخراساني المشار إليها دون تسمية. أما زوجة يونس وبناته، فلا توجد في المادة المعتمدة

هنا أسماء ثابتة لهن. ولا تُحذف المرأة غير المسمّاة، كما لا تُعطى المرأة المذكورة في مقارنة روائية دورًا لم تروه المصادر.

وفي نقل العبرة وتفسيرها يظهر النبي محمد، وأمير المؤمنين، والأئمة زين العابدين والباقر والصادق والرضا عليهم السلام؛ ويظهر أبو الصلت وعلي بن محمد بن الجهم والمأمون في سياق المجالس، ومحمد بن مسلم ناقل المقارنة بالقائم، وابن أبي يعفور في سؤال الافتقار، وعبد الله بن عمر وأبو حمزة في خبر المناقب، وعدّاس وعتبة وشيبة في خبر الطائف. وتبقى أسماء رواة الأسانيد، كأبي عبيدة وجميل وأبي بصير وسماعة ومعمر، أسماء لنقلة الأخبار، لا شهودًا على حياة يونس. [٦, ٧, ١٣–١٥, ١٧, ١٩, ٢٣, ٣٠]

وتُذكر أسماء أنبياء آخرين في مواضع الاستشهاد: ففي النساء نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب وهارون وسليمان وداود، وفي الأنعام إسماعيل واليسع ولوط مع يونس. هؤلاء شركاؤه في أصل الوحي والهداية، ولا يثبت من اجتماع الأسماء لقاءٌ بينهم أو وصاية مباشرة متتابعة. وفي خبر قارون يرد موسى وهارون في السؤال عن ماضيهما، وقد ميزنا هذا عن أصحاب الرحلة. [١, ١٣, ١٤]

ويعرض الميزان في بحثه الروائي طرقًا من «الدر المنثور»، منها خبر سعد في عموم دعاء يونس للمؤمنين، وإشارة إلى رواية عن عائشة في الدعاء والقدر. يُحفظ ذكر عائشة وسعد هنا في حدود النقل المقارن الذي أورده المفسر؛ فليسا شاهدين على أحداث نينوى، ولا يتحول الطريق إلى رواية إمامية مستقلة لمجرد وروده في تفسير إمامي. [٣٦]

٣٤. ما بعد العودة: الوفاة والوصاية

تصل النصوص الأساسية إلى نجاة يونس وإيمان قومه واجتبائه، ولا تروي لنا يومه الأخير أو موضع دفنه بإسناد يصلح للجزم. كما لا تعطي أسماء أبناء وبنات انتقل إليهم العهد، ولا اسم وصي عيّنه عند وفاته في خبر ثبت في هذه المراجعة. لذلك لا يُختم الفصل بمشهد احتضار أو جنازة أو وصية مصنوعة، ولا يُسوّى بين شهرة مقام منسوب إليه وثبوت القبر تاريخيًا. [٢, ٤, ٥]

وفي الجهة السابقة من السلسلة، ورد خبر يصل طفولته بإلياس، ولم يثبت فيه أن إلياس سلّمه وصية النبوة، ولا أن اليسع سلّمها إليه في لقاء مسمى. وفي الجهة اللاحقة لا يدل وضع فصل ذي الكفل بعده في هذا الكتاب على أن ذا الكفل خلفه مباشرة. استمرارية هداية الله أصل، أما أسماء حلقاتها وتواريخ تسليمها فتحتاج إلى نص لكل حلقة. [١, ١١]

وهذه الحدود ليست فراغًا يُسد بالحكاية المتخيلة؛ إنها جزء من أمانة السيرة. فالمعلوم أن يونس رسول اصطفاه الله، وأنه دعا وابتلي وسبّح ونجا، وأن قومه انتفعوا بإيمانهم. وما لم يثبت من الميلاد والأسرة والوفاة يُذكر أنه لم يثبت، حتى يبقى القارئ قادرًا على التمييز بين الوحي والخبر والاحتمال.

٣٥. ختام: باب الرجوع لا تغلقه الظلمات

عاد القوم من عنادهم إلى الإيمان، وعاد يونس من محنته إلى حياة الدعوة. وبين العودتين ظهرت الرحمة: في توبة مدينة، وفي دعاء نبي، وفي حفظه داخل الحوت، وفي نبات يستظل به، وفي إيمان يتجدد. وما كان يرجوه الناس في لحظة الخوف صار فرصة للعمل إلى حين؛ فالنجاة في القرآن بداية مسؤولية، وليست إلغاءً للعبودية. [٢-٥]

ويبقى النداء محفوظًا لكل من ضاقت عليه الأسباب: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. لا يملك البحر أن يحجب سمع الله، ولا يملك الماضي أن يمنع التوبة التي يقبلها. وفي الفصل التالي تستمر حكاية الهداية مع ذي الكفل عليه السلام، مع حفظ ما يثبت من صلته بمن سبقه دون فرض تسلسل لم تنص عليه المصادر. [٣, ٢٤]

المصادر والإحالات

والإحالات إلى «بحار الأنوار» أدناه تعرّف الأصل الذي نقل عنه المجلسي؛ وحيث كان الاطلاع بواسطة نقله صُرّح بذلك، فلا يُدّعى فحص الأصل مستقلًا. وقد تختلف أرقام الصفحات بين الطبعات؛ لذلك جُمعت أرقام الأبواب والأحاديث والآيات حيث أمكن.

[١] القرآن الكريم، النساء ١٦٣؛ الأنعام ٨٦-٨٧: اسم يونس وسياق الوحي والتفضيل.

[٢] القرآن الكريم، يونس ٩٨: إيمان القوم وكشف العذاب وتمتيعهم إلى حين.

[٣] القرآن الكريم، الأنبياء ٨٧-٨٨: ذو النون ودعاؤه والنجاة من الغم.

[٤] القرآن الكريم، الصافات ١٣٩-١٤٨: الرسالة والسفينة والحوت والتسبيح والعودة.

[٥] القرآن الكريم، القلم ٤٨-٥٠: صاحب الحوت والنعمة والاجتباء.

[٦] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب ١٤، ح١: خبر أبي الصلت في أجوبة العصمة.

[٧] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب ١٥، ح١: مجلس المأمون المروي عن ابن الجهم.

[٨] الطوسي، التبيان، تفسير الأنبياء ٨٧-٨٨: المغاضبة والتضييق وترك الأولى.

[٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير يونس ٩٨: نينوى والتوبة ورواية العالم والعابد والنقول الأخرى.

[١٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الصافات ١٣٩-١٤٨: الألفاظ والمدة واليقطين والعدد.

[١١] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب ١٧، ح٢٩٣، ص٢٤٨-٢٥١: خبر إلياس وأم يونس عن ابن عباس بطريق وهب.

[١٢] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب ١٧، ح٢٩٤-٢٩٥، ص٢٥١-٢٥٣: مختصر القصة وخبر الحوت وقارون.

[١٣] العياشي، التفسير، ج٢، ص١٢٩-١٣٧، ح٤٤-٤٧، عند يونس ٩٨: خبر أبي عبيدة وأبي بصير والثمالي ومعمر.

[١٤] تفسير القمي، عند يونس ٩٨؛ قوبل بنصه المنقول في بحار الأنوار، ج١٤، باب ٢٦، ح٢، ص٣٨٠-٣٨٤.

[١٥] تفسير القمي، عند الأنبياء ٨٧، خبر أم سلمة؛ قوبل بنقله في نور الثقلين، ح١٤٠، وبحار الأنوار ١٤، ص٣٨٤ وحاشيتها.

[١٦] ورّام، تنبيه الخواطر، ج١، ص١٨-١٩ بحسب إحالة البحار؛ وخبر متّى في النسخة الإلكترونية ص٢٧؛ بحار ١٤، ح١٦، ص٤٠٢-٤٠٣.

[١٧] الصدوق، علل الشرائع، خبر أبي بصير وخبر سماعة في صرف العذاب؛ بواسطة بحار ١٤، باب ٢٦، ح٣-٤، ص٣٨٥-٣٨٦.

[١٨] الكليني، روضة الكافي، ج٨، ح٦٤: معروف بن خربوذ عن الإمام الباقر في الرياح ورحمة قوم يونس.

[١٩] الكليني، الكافي، ج٢، ص٥٨١، خبر ابن أبي يعفور؛ بواسطة بحار ١٤، باب ٢٦، ح٦، ص٣٨٧، مع اختلاف اللفظ والتنبيه السندي.

[٢٠] الكافي وعلل الشرائع، خبر هشام بن الحكم عن الإمام الصادق في تلبية يونس؛ بواسطة بحار ١٤، باب ٢٦، ح٥، ص٣٨٦-٣٨٧.

[٢١] الصدوق، الخصال، ج١، ص٧٥ بحسب إحالة المجلسي، خبر قرعتي مريم ويونس؛ بواسطة بحار ١٤، ح٨، ص٣٩٠؛ القرآن، آل عمران ٤٤.

[٢٢] الصفار، بصائر الدرجات، خبر حبة العرني في الولاية؛ بواسطة بحار ١٤، باب ٢٦، ح١٠، ص٣٩١ وتعليقه.

[٢٣] ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٢٨١ بحسب إحالة المجلسي؛ بواسطة بحار ١٤، ح١٥، ص٤٠١-٤٠٢؛ وقوبل بنور الثقلين، الأنبياء ٨٧، ح١٤٩.

[٢٤] الصدوق، الأمالي، المجلس الثاني، ح٢، ص٥٤-٥٥ في النسخة المقابلة: حديث «عجبت لمن اغتم»؛ ونظيره في الخصال ح٤٣ بحسب حاشية الأمالي.

[٢٥] الحويزي، نور الثقلين، تفسير الأنبياء ٨٧-٨٨، ح١٣٨-١٥٢: جمع أخبار القمي والاحتجاج والمناقب والدعاء، مع تمييز أصولها.

[٢٦] الحويزي، نور الثقلين، تفسير يونس ٩٨، ح١٣٢-١٤٤: القصة والتوبة والراعي، ونقول التهذيب والكافي والفقيه.

[٢٧] الطباطبائي، الميزان، تفسير الصافات ١٣٩-١٤٨، البحث الروائي في خبر الولاية: استُفيد من تأويله مع عدم جعله توثيقًا للسند.

[٢٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنبياء ٨٧-٨٨: دلالة التضييق والتنزيه والنجاة.

[٢٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب ٢٦، «قصص يونس وأبيه متى»، ص٣٧٩-٤٠٦، الأحاديث ١-١٧ وشروحها: فهرس جامع للمقابلة وتتبع الأصول.

[٣٠] الطبرسي، إعلام الورى، خبر عداس بالطائف؛ بواسطة نقل بحار الأنوار، ج١٩، ص٦-٧، وقورنت فقرة اللقاء بالنص المفهرس لإعلام الورى.

[٣١] الحويزي، نور الثقلين، تفسير القلم ٤٨، ح٦٠-٦١: صدر خبر أبي عبيدة وتفسير «مكظوم».

[٣٢] الطوسي، التبيان، تفسير الصافات ١٣٩-١٤٨: الإباق والمساهمة والعتاب واليقطين والعدد، ومعانيه عند الأنبياء ٨٧.

[٣٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير القلم ٤٨-٥٠: الصبر والنعمة والنبذ والاجتباء.

[٣٤] الفيض الكاشاني، الصافي، تفسير يونس ٩٨، ضمن المقطع ٩٦-٩٨: شاهد ناقل لخبر العياشي، لا طريق مستقل عنه.

[٣٥] الكليني، الكافي، ج٦، باب الدعاء في طلب الولد، ح١٠، ص١٠: سؤال الرجل الخراساني بالريذة.

[٣٦] الطباطبائي، الميزان، البحث الروائي عند يونس ٩٨ والأنبياء ٨٧-٨٨: الإشارة إلى طرق سعد وعائشة من الدر المنثور، للنقل المقارن فقط.

[٣٧] الصدوق، معاني الأخبار، باب معنى أسماء الأنبياء والرسل، فقرة معنى يونس؛ وقوبل بنقل بحار ١٤، ح٩، ص٣٩١.

[٣٨] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١، باب ٣٢، ح٧، ص٣٢٧-٣٢٨: محمد بن مسلم عن الإمام الباقر في شبه القائم من خمسة رسل.

الفصل ٣٥ — ذو الكفل عليه السلام — الصبر وحمل المسؤولية

١. اسم قليل الأخبار، عظيم الدلالة

يأتي اسم ذي الكفل عليه السلام في القرآن محاطًا بالثناء: صبرٌ وصلاحٌ وخيرية، ورحمةٌ أدخله الله فيها. ولا يعرض القرآن مدينة نشأ فيها، ولا حوارًا مع قومه، ولا تفصيلًا لمعجزة جرت على يديه. ومن هذا القدر الواضح تبدأ حكايته؛ فقلة التفاصيل لا تنقص منزلته، لكنها تحدّد ما نستطيع قوله عن حياته. ولهذا يبقى اسمه شاهدًا على أن الإنسان قد يحمل أمانة عظيمة، ويخلّد الله فضله، من غير أن تصل إلينا أيامه مرتبةً يومًا بعد يوم. [١، ٢]

٢. الموضعان اللذان سمّياه في القرآن

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۖ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، الأنبياء: ٨٥–٨٦. يجمعه هذا الموضع بإسماعيل وإدريس عليهما السلام، ويصرّح بالصبر والصلاح والرحمة. وهذه أوصاف مثبتة له بنص القرآن، لا تتوقف على صحة قصة لاحقة تشرح سبب تسميته. [١]

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾، ص: ٤٨. وهنا يقترن اسمه بإسماعيل واليسع عليهما السلام، ويتوجّه الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله بذكرهم. يختلف الاسمان المصاحبان في الموضعين، وتبقى وحدة الثناء قائمة: هؤلاء من أهل الصبر والخير، وجديرون بأن تبقى ذكراهم في الأمة. [٢]

هذان هما موضعا ذكره بهذا الاسم في القرآن. ولا تسمي الآيتان أباه أو أمه أو زوجته أو أولاده، ولا تحددان زمن بعثته أو اسم قومه أو موضع قبره. أما وصفه بالنبوّة، فله بحثه في السياق والتفسير والرواية؛ إذ ليس في هذين الموضعين جملة مستقلة بلفظ «كان نبيًا». والتمييز بين دلالة السياق والتصريح اللفظي يحفظ دقة الاستدلال، ولا يقدح في منزلته. [١، ٢، ٦، ١١]

٣. مَن ذُكر حوله، وما الذي يعنيه اقتران الأسماء؟

إسماعيل وإدريس واليسع هم الشخصيات المقترنة باسمه مباشرةً في الآيتين. وفي سياق سورة الأنبياء تسبقهم قصة أيوب، ثم يأتي ذكر ذي النون، أي يونس عليهما السلام؛ وفي سورة ص يسبقهم ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب. يجمع السياق هذه الأسماء في العبودية والصبر والاصطفاء، ولا يقول إن أصحابها عاشوا جميعًا في عصر واحد، أو اجتمعوا في مجلس واحد، أو تسلّم كل واحد منهم الوصية من الذي سبق اسمه في التلاوة. [١، ٢، ٩]

وينبّه «الميزان» في سياق سورة الأنبياء إلى أن ترتيب القصص ليس ترتيباً تاريخيًا. وتفيد هذه الملاحظة هنا في منع تحويل موضع ذي الكفل بين الأسماء إلى تاريخٍ لولادته أو بعثته. فصلة الذكر القرآني ثابتة، أما صلة اللقاء والتلمذة والنسب فتحتاج كل واحدة منها إلى دليل آخر. [١٠]

٤. سؤال عبد العظيم الحسني إلى الإمام الجواد

أوضح الروايات الإمامية التي تجمع اسمه ووظيفته وزمنه النسبي خبرٌ أورده قطب الدين الراوندي عن الصدوق. يقول عبد العظيم بن عبد الله الحسني إنه كتب إلى أبي جعفر، ثم يعيّن الإمام تعييناً لا لبس فيه: محمد بن علي بن موسى عليهم السلام، أي الإمام الجواد. وسأله عن اسم ذي الكفل، وهل كان من المرسلين. وهذا التعيين مهم؛ فكنية أبي جعفر هنا لا تعني الإمام الباقر. [٤]

يذكر الجواب المنقول أن الله بعث مائةً وأربعةً وعشرين ألف نبي، كان المرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، وأن ذا الكفل منهم. ثم يذكر أنه كان بعد سليمان بن داود، وأنه كان يقضي بين الناس كما يقضي داود، وأن غضبه كان لله عز وجل، ويسميه «عويديا»، ويختم بآية سورة ص. فالرواية تنص على رسالته، ولا تكتفي بوصفه رجلًا صالحًا؛ لكنها تبقى روايةً يلزم النظر في سندها، كما يلزم ضبط ألفاظها. [٤, ٥]

ونقل الطبرسي مضمون هذا الخبر في «مجمع البيان» عن «كتاب النبوة» بإسناده إلى عبد العظيم الحسني، كما أورده المجلسي في «بحار الأنوار» عن «قصص الأنبياء». وتظهر قيمة هذه المواضع في حفظ الخبر ومقارنة ألفاظه؛ أما صدوره عن الإمام فلا يثبت بمجرد تعدد الكتب التي أعادت نقله. [٥, ٦]

٥. منزلة الرواية وحدود الحكم على سندها

يمر طريق الراوندي إلى خبر عبد العظيم بالصدوق، فعلي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق، فمحمد بن أبي عبد الله الكوفي، فسهل بن زياد الآدمي، ثم عبد العظيم الحسني. ويَرِد محمد بن أبي عبد الله في نقل البحار بوصف الأسدي. وفي بعض النصوص الإلكترونية تصحيف اسم سهل إلى «سهر»؛ فلا يُجعل هذا التصحيف اسم راوٍ جديد. هذه أسماء ناقلي الخبر، وليست أسماء رجال عاصروا ذا الكفل. [٤, ٥]

ومن مواضع التوقف في هذا الطريق سهل بن زياد؛ فقد ضعّفه النجاشي في ترجمته، رقم ٤٩٠، وذكر عدم الاعتماد عليه في الحديث. لذلك لا يوصف هذا الطريق في الفصل بأنه سند صحيح. وفي الوقت نفسه، لا تعني مناقشة السند أن مضمون الخبر ثبت بطلانه، ولا أنها تسقط الثناء القرآني القطعي على ذي الكفل. الصياغة الدقيقة هي: رُوي عن الإمام الجواد أنه من المرسلين، وجاء في الرواية كذا؛ مع إبقاء مرتبة الرواية متميزةً عن مرتبة الآية. [١٥]

٦. اسمه ونسبه وبلده: ما تقوله الألفاظ فعلًا

في جواب الإمام الجواد المنقول عند الراوندي اسم «عويديا». وفي الخبر الآخر اسم «عويديا بن إدريم» مع نسبته إلى حضرموت. ويذكر محقق «قصص الأنبياء» اختلافًا في بعض النقل إلى «عويد بن أديم»، بينما يظهر في «مجمع البيان» لفظ «عدويا بن أدارين». ينبغي حفظ هذا الاختلاف كما هو؛ فلا تُصنع منه أسماء آباء متعاقبين، ولا تُفترض به شخصيات متعددة، ولا يُقطع بصورة واحدة للاسم اعتمادًا على التخمين. [٣, ٤, ٦]

وقول الخبر إنه رجل من حضرموت أضيق من دعوى معرفة مكان ولادته بالتحديد أو اسم قريته أو مسار هجرته. كما أن الرواية التي تسميه بشر بن أيوب تنتمي إلى مسار آخر سيأتي بيانه، ولا يصح تركيبها مع «عويديا بن إدريم» في نسب واحد. أما زمن الميلاد، واسم الأم، وملامح الطفولة، فلا تمنحنا المصادر المعتمدة هنا خبرًا نطمئن إليه لإثباتها. [٣, ١٩]

٧. بعد سليمان، وعلى مثال داود في القضاء

تضع رواية عبد العظيم ذا الكفل بعد سليمان بن داود عليهما السلام. ولفظ «بعد» يثبت ترتيبًا نسبيًا داخل الرواية، لكنه لا يحدد عدد السنين بينهما، ولا يقول إنه تسلّم منه الوصية مباشرة، ولا يثبت أنه اجتمع بداود. كذلك فالتشبيه بقضاء داود يتصل بالعدل ووظيفة الحكم كما ورد في الخبر؛ ولا يبيح نقل كل معجزات داود أو تفاصيل دولته إلى سيرة ذي الكفل. [٤]

ولذلك يحضر داود وسليمان في هذا الفصل بوصفهما شخصيتين صريحتين في رواية أهل البيت، مع اختلاف صلتهما: سليمان علامة زمنية، وداود مثال للقضاء. ولا تذكر الرواية كتابًا مستقلًا أُنزل على ذي الكفل أو شريعة جديدة مفصّلة. فالسكوت عن ذلك يُحفظ، ولا تُملأ المسافة بين الأسماء بحوار أو مراسم تسليم لا ينص عليها المصدر. [٤]

٨. النبي غير المسمّى والفتى الذي حمل الأمانة

يروي الراوندي خبرًا آخر بسند ينتهي إلى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله. وفيه نبي يسأل مَن يقوم بأمر الناس بعده على أن لا يغضب. يقوم فتى ويقبل، ثم يتكرر السؤال والقبول، ويموت النبي ويبقى الفتى، ويجعل الله ذلك الفتى نبيًا. هذا هو ذو الكفل في بناء الخبر، وهو الذي يبدأ نهاره بالقضاء بين الناس. ولا يسمّي هذا المتن النبي السابق باليسع أو غيره. [٣]

وفي مطلع هذا الخبر مشكلة نصية نبّه إليها المجلسي؛ إذ يبدو الكلام في بعض النقل ناقصًا. وأثبت محقق «قصص الأنبياء» بين معقوفين عبارة «وكان في زمن نبي من الأنبياء» من موضع آخر للنقل، لتستقيم صلة الفتى بالنبي السابق. لهذا لا تُقرأ العبارة الناقصة قراءة تجعل اسم عويديا للنبي السابق ثم تترك ذا الكفل بلا اسم؛ بل يُذكر اختلاف النص ولا يُخفى الإصلاح التحريري. [٣, ٥]

وليست هذه الرواية طريقًا عن أحد الأئمة، وإن نقلها الراوندي عن الصدوق؛ فهي تنتهي إلى ابن عمر عن النبي. ويَرِد في طريقها أبو العباس محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، وأحمد بن قيس المفسّر، وأحمد بن أبي البهلول المروزي، والفضل بن نفسي، والحسن بن شجاح البلخي، وسليمان بن الربيع، ورباح بن أحمد، ومقاتل بن سليمان، وعبد الله بن سعد. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف نسخي، فلا يثبت لهذا السند وصف الصحة هنا. تُحكى قصته بوصفها خبرًا منقولًا، لا تفصيلًا قرآنيًا مقطوعًا به. [٣]

٩. إبليس و«الأبيض»: امتحان القضاء وقت التعب

تتابع الرواية فتذكر إبليس يسأل أتباعه عمن يتولى إغضاب ذي الكفل. يجيبه واحد منهم يسمّيه الخبر «الأبيض»، فيرسله لهذه الغاية. فإبليس هو المدبّر، والأبيض هو المبعوث في هذا الطريق من القصة؛ وليس الأبيض رجلًا صالحًا أو مَلَكًا أو اسمًا آخر للنبي. ويأتي إلى ذي الكفل عند منتصف النهار، حين أخذ مضجعه، معلنًا أنه مظلوم. [٣]

لا يقابله ذو الكفل بطرد أو سبّ. يعطيه خاتمه ويطلب منه أن يأتي بخصمه. فالخاتم هنا وسيلة استدعاء في سياق الخبر، ولا يقول النص إنه خاتم سليمان أو أنه يحمل قوة خارقة. ويذهب الأبيض، وقد انتهت المحاولة الأولى من غير أن تحقق غرضها. إن موضع الامتحان في الحكاية ليس وجود نزاع ثابت، بل استغلال صورة المظلوم للوصول إلى القاضي في ساعة تعبه. [٣]

١٠. الحاجب والكتاب المختوم والزيارة الثالثة

في اليوم التالي يعود الأبيض في الساعة نفسها، ويدّعي أن خصمه لم يلتفت إلى الخاتم. وهنا يظهر شخص بشري لا يسمّيه النص: الحاجب. يطلب الحاجب من الزائر أن يترك ذا الكفل ينام، ويذكر تعبه وقلة نومه. لكن الزائر يصرّ، فيدخل الحاجب ويبلّغ. يكتب ذو الكفل كتابًا ويختمه ويدفعه إليه، وتخرج المحاولة الثانية من غير الغضب الذي أراده إبليس. [٣]

وفي الزيارة الثالثة يكرر الأبيض الصياح، ويقول إن خصمه لم يعبأ بشيء من الأمر. عندئذ يقوم ذو الكفل ويأخذ بيده في يوم شديد الحر. وحين يرى الأبيض هذا الإصرار على القيام بالواجب ينتزع يده ويبأس من إغضابه. هذه نهاية الامتحان في رواية الراوندي؛ فلا تُضاف إليها محاكمة للخصم، أو عقوبة قضائية، أو أسماء شهود، إذ لا يذكر النص وقوع شيء من ذلك. [٣]

وللحاجب موضع محفوظ في سجل الشخصيات، لكنه ليس ابن ذي الكفل ولا وصيّه بمجرد أنه كان على بابه. أما «الخصم» فلا يظهر شخصًا قائمًا في المشهد؛ إنه جزء من الشكوى التي اختلقها الأبيض. ويختم الخبر بربط القصة بصبر النبي محمد صلى الله عليه وآله على الأذى؛ وهذه خاتمة الرواية، وليست نصًا قرآنيًا يحدد سبب نزول الآيتين أو تاريخ نزولهما. [٣]

١١. ما الذي تعنيه كفالة الصبر؟

تجعل هذه الرواية مسؤولية الناس موضع اختبار الصبر. فالقاضي يملك أن يستثقل المراجعة، لكن صاحب الحاجة لا يعرف دائمًا ساعة التعب. ومن المعاني التي يمكن التأمل فيها أن الرحمة لا تبقى شعورًا داخليًا، بل تظهر في الاستماع وفي اتخاذ خطوة عملية لإنصاف من يبدو مظلومًا. وهذا تأمل في دلالة الحكاية، لا إضافة إلى ألفاظها ولا دليل مستقل على صحة تفاصيلها.

ويضيء خبر الإمام الجواد المنقول جانبًا آخر: ليس المقصود من ضبط الغضب محو الغيرة على الحق، فالخبر يذكر أنه لم يغضب إلا لله. ولذلك لا تُفهم كفالته على أنها رضا بالظلم، أو تعطيل للقضاء، أو إلزام لكل مظلوم بالصمت. والعبارتان، في حدود دلالتهما، تميزان بين الانفعال للنفس والانتصار للحق؛ ولا تحوّلان الهدوء إلى بديل من العدل. [٣, ٤]

١٢. اليسع: خلافة مروية لا تاريخ متفق عليه

بعد نقل رواية الفتى، يورد المجلسي في بيانه خبرًا وجده في بعض الكتب: كبر اليسع، وأراد أن يستخلف رجلًا يختبر وفاءه، فسأل عمن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب. تقدّم رجل تزدريه الأعين، ثم كرر قبوله عند إعادة السؤال، فاستُخلف. هنا يسمّى اليسع صراحة، لكن هذا النص يأتي في كلام المجلسي التفسيري بعد الحديث، ولا يجوز وصله بسند الحديث السابق وكأنه جزء منه. [٥]

كما يذكر المجلسي أن كثيرًا من المؤرخين جعلوا ذا الكفل وصي اليسع، ويصرّح بأن وضع قصته في ذلك الموضع من الكتاب تبعٌ لهذا الترتيب، مع أن الخبر الآخر يجعله بعد سليمان. هذا التصريح يحفظ للقارئ فرقًا مهمًا بين ترتيب أبواب المصنّف وبين التاريخ المروي. ومن ثم لا يروي هذا الفصل لقاءً ثابتًا بين اليسع وذي الكفل، وإنما يحفظ القول بخلافته ضمن الأقوال، ويترك التعارض ظاهرًا. [٥]

١٣. يوشع بن نون في خبر الأسئلة لأمير المؤمنين

يحفظ الصدوق في «عيون أخبار الرضا» خبر الأسئلة في جامع الكوفة، عن الإمام الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام. يبدأ الخبر برجل من أهل الشام، ويَرِد في أثنائه السؤال عن ستة من الأنبياء لهم اسمان. وفي الجواب مساواة صريحة بين يوشع بن نون وذي الكفل. فلا يصح حذف هذا الخبر من البحث لمجرد أنه يخالف الرواية التي تجعل ذا الكفل بعد سليمان؛ فكلا المسارين حاضر في المادة المنقولة، وإن لم يلزم تصحيح سنديهما. [١٢]

ويضم الجواب أيضًا يعقوب وإسرائيل، والخضر والاسم الوارد له في هذا النقل «تاليا»، ويونس وذا النون، وعيسى والمسيح، ومحمدًا وأحمد. هذه أزواج أسماء في جواب تعليمي، وليست قائمة بأصحاب ذي الكفل أو معاصريه. وفي نقل «نور الثقلين» يَرِد اسم الخضر بصورة «حليقا»، ويُذكر أن سائلًا آخر قام بالسؤال في أثناء المجلس؛ لذلك لا نجزم بأن صاحب هذا السؤال بعينه هو الرجل الشامي الذي افتتح الخبر، ولا نخترع للسائل اسمًا. [١٢, ١٤]

وأخذ «تفسير الصافي» بتعيين يوشع بن نون عند تفسير الأنبياء: ٨٥، وأحال إلى خبر العيون، كما أعاد «نور الثقلين» نقل موضع الأسماء عن المصدر نفسه عند تفسير الصف: ٦. فوجود الخبر في هذين التفسيرين مهم في متابعة تلقيه، لكنه ليس دليلًا على طريقين مستقلين جديدين. والاختلاف بين يوشع المرتبط بعهد موسى وبين رجل جاء بعد سليمان لا يحلّه افتراض عمر ممتد أو بعثة ثانية لم يذكرها أي من الخبرين. [١٣, ١٤]

١٤. أقوال النبوّة والاسم في كتب التفسير

يعرض «التبيان» و«مجمع البيان» قولًا منسوبًا إلى أبي موسى الأشعري وقتادة ومجاهد، يجعل ذا الكفل رجلًا صالحًا تكفّل لنبي بالصوم والقيام والحكم بالحق وضبط الغضب. ويعرضان في مقابل ذلك القول بنبوّته، ومنه ما ينقل عن الحسن. ويذكر «مجمع البيان» عن ابن عباس القول بأنه إلياس، وعن الجبائي تفسير الاسم بزيادة نصيبه من الثواب. هذه نسب الأقوال في التفسير، ولا تُنسب بأجمعها إلى أهل البيت. [٦, ٧]

ويحكي المجلسي عن البيضاوي أقوالًا في تعيينه بإلياس أو يوشع أو زكريا. أما «الميزان» فيبحثه ضمن الأنبياء، ويورد خبر عبد العظيم عن الإمام الجواد، مع الإعراض عن الاسترسال في القصص غير المعتمدة. ويبقى استعمال الاسم القرآني «ذو الكفل» هو الأضبط في السرد؛ فلا تتحول كل هوية مقترحة إلى اسم مقطوع به، ولا تُدمج سير إلياس وزكريا ويوشع في سيرة واحدة. [٥, ١١]

١٥. اليسع بن خطوب والملك كنعان

من الأقوال التي يذكرها «مجمع البيان» أن ذا الكفل هو «اليسع بن خطوب» الذي كان مع إلياس، ثم يصرّح القول نفسه بأنه ليس اليسع المذكور في القرآن. ويربط التسمية بملك جبار اسمه كنعان: تكفّل له هذا الرجل بأنه إن تاب دخل الجنة، ودفع إليه كتابًا بذلك، فتاب الملك. يُذكر هذا الخبر لئلا يسقط اسم ورد في مادة الفصل، لكنه قول تفسيري لا يعرضه الطبرسي هنا بسند عن إمام. [٦]

وعليه، فكنعان في هذا القول ملك غير محدد التاريخ، ولا دليل في النص على أنه ابن نوح، أو أنه اسم شعب كامل، أو أنه ملك لقي يوشع بن نون. وخطوب اسم أب وارد في هذه الهوية المقترحة وحدها، فلا يُضاف إلى سلسلة «إدريم» أو «أدارين». والكتاب المذكور هنا وعد للملك التائب في هذا القول، وهو غير الكتاب المختوم في قصة الأبيض؛ فتشابه وجود الكتاب لا يجعل الحكايتين حادثة واحدة. [٣, ٦]

١٦. حزقيل وأمّه والأنبياء الذين قيل إنه حماهم

لا يقتصر ربط ذي الكفل بحزقيل على نسبة مزار أو على كتابات متأخرة. ففي «مجمع البيان» عند البقرة: ٢٤٣ يَرِد عن الحسن القول بأن حزقيل هو ذو الكفل، مع تفسير لقبه بأنه كفل سبعين نبيًا

ووقاهم القتل. ويصوّر القول قومًا يبحثون عن أولئك الأنبياء، ورجلًا يعرض نفسه للخطر ليحميهم، ثم يذكر أن الله منعه من أعدائه. هذا قول محفوظ في التفسير، وليس في الموضع رواية عن أهل البيت تثبت اتحاد الاسمين. [١٦]

وفي السياق نفسه يُذكر موسى، ثم يوشع بن نون، ثم كالب بن يوقنا، ثم حزقيل، ويقال إن حزقيل كان يُعرف بابن العجوز؛ لأن أمه سألت الله الولد بعد كبرها وعقمها. فهذه الأم امرأة غير مسماة في النص، وصلتها المروية بحزقيل محفوظة، أما جعلها أمًا لذي الكفل فيتوقف على إثبات الهوية المختلف فيها. ولا يصح إسقاط ذكرها من بحث الأقوال، كما لا يصح تقديمها في مطلع سيرته على أنها أمه المعلومة. [١٦]

والأنبياء السبعون في هذا القول غير مسمّين، وكذلك ملاحقوهم؛ فلا تُملأ أسماؤهم من قوائم الأنبياء المعروفة. ويذكر «التبيان» عند سورة ص قولًا أوجز في تكفله بأمر أنبياء خلصهم الله به من القتل، من غير تسمية أو عدد في ذلك الموضع. أما آية البقرة التي تذكر الخارجين من ديارهم وإماتتهم وإحياءهم فلا تسمي ذا الكفل ولا حزقيل؛ ويورد «مجمع البيان» قولًا آخر يسمي النبي شمعون. لذلك لا تُضاف حادثة إحياء أولئك القوم إلى معجزات ذي الكفل على سبيل الجزم. [٨, ١٦]

١٧. بشر بن أيوب وقوم الروم: حكاية من مسار آخر

ينقل المجلسي عن الثعلبي في «عرائس المجالس» قولًا يبدأ بصيغة «وقال بعضهم»، يجعل ذا الكفل بشر بن أيوب الصابر. وفيه أنه بُعث بعد أبيه إلى أرض الروم، فصدّقه أهلها، ثم ثقل عليهم ما دُعوا إليه من الجهاد لخوفهم من الموت وحبهم للحياة. فطلبوا منه أن يدعو لهم بطول الأعمار وألا يموتوا إلا إذا شاؤوا. هكذا يدخل أيوب وبشر وقوم الروم في هذا القول، لا في الآيتين ولا في خبر عبد العظيم. [١٩]

وتتابع الحكاية بأن بشرًا استعظم طلبهم، ولجأ إلى الله مبينًا أنه لا يملك إلا نفسه، وسأله ألا يؤاخذه بجريرة غيره. ثم جاءه الجواب، في الحكاية، بإطالة أعمارهم وأن يكون كفيلًا لهم بذلك؛ ومن هنا فُسّر اللقب. وتكاثر الناس وضاقت بهم بلادهم وتنغصت معيشتهم، فعادوا يطلبون الرجوع إلى الآجال، وردّهم الله إلى أعمارهم المعتادة. ومغزى القصة في نقلها هو قصور اختيار الإنسان إذا لم يحط بعواقبه؛ أما تفاصيلها فليست حديثًا مسندًا إلى إمام في هذا الموضع. [١٩]

ويُتبع الخبر بقول في نسب الروم إلى «روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم»، وبنسبة خبر الإقامة في الشام والعمر، خمسة وتسعين عامًا، إلى وهب بن منبّه. تُحفظ هذه الأسماء بوصفها جزءًا من النقل المقارن، ولا يُجعل النسب حقيقة تاريخية محسومة، ولا يعتمد عدد العمر تاريخًا ثابتًا لذي الكفل. كما أن العبارة عن كثرة الروم في العالم قول في ذلك المصدر، لا إحصاء صالحًا لوصف السكان. ويشير التعليق على النص إلى مشكلة اتساق العمر مع الامتداد الزمني الذي تفترضه الحكاية. [١٩]

ومن هنا لا يجوز جعل زوجة أيوب أمًا معلومةً لذي الكفل استنادًا إلى هذه الحكاية وحدها؛ فالانتقال من قول محتملٍ في الهوية إلى تعيين أم وأب ونسب كامل يضاعف ما لا يثبت. كما لا تصبح قصة الروم مرحلةً تاليةً لقصة الأبيض، ولا يُفترض أن الملك كنعان كان واحدًا من أولئك القوم. كل خبر يُحفظ في حدوده، ويُسرد بما يسمح به مصدره. [٣, ٦, ١٩]

١٨. «الكِفل» والمرأة المحتاجة: ضرورة التمييز

يرد في جامع الترمذي، الحديث ٢٤٩٦، خبر عن رجل من بني إسرائيل يسمّى «الكِفل»؛ والاسم في هذا المتن ليس «ذا الكفل». تصفه القصة بكثرة الذنوب، وتذكر امرأة دفعتها الحاجة إليه، فبذل لها مالًا في مقابل علاقة محرمة. فلما اضطربت وبكت، وبيّنت أن حاجتها هي التي ألجأتها، تركها وأبقى لها المال وعزم على التوبة، ثم مات، وجاء في الخبر الإخبار بمغفرته. وتُذكر هذه الرواية هنا للمقارنة وضبط الاشتباه، لا لاعتمادها رواية عن أهل البيت. [٢٠]

والمرأة في الخبر غير مسماة، وليست زوجة ذي الكفل، ولا بنته، ولا امرأة ثبت لقاؤه بها. وقد تنبّه ابن كثير في تفسير الأنبياء: ٨٥ إلى احتمال اختلاف الرجلين، استنادًا إلى الفرق بين «الكفل» و«ذي الكفل». وليس التشابه اللفظي حجة لنسبة هذه السيرة إلى الشخصية التي أثنى عليها القرآن. لذلك تحفظ القصة في باب التمييز بين الأخبار، ولا تُروى مرحلةً من حياة ذي الكفل أو مقدمةً لنبوته. [٢٠, ٢١]

١٩. النساء والأسرة في حدود ما وصل

لا تقدّم الآيتان، ولا روايتا الراوندي الأساسيتان، اسم زوجة لذي الكفل أو بنت أو ابن، ولا مشهدًا ثابتًا من حياته المنزلية. وهذا يعني غياب التفصيل عن هذه النصوص، لا أنه لم يتزوج أو لم يُرزق ولدًا. وحين تكون المعرفة ناقصة، يبقى الصمت عن الاسم أكثر وفاءً للتاريخ من اختيار اسم مألوف من أسر الأنبياء وإدخاله في نسبه. [١–٤]

والشخصيتان النسائيتان اللتان يتعين التنبيه إليهما في بحث الأقوال هما أم حزقيل العجوز، في المسار المشروط باتحاد حزقيل وذي الكفل، والمرأة المحتاجة في خبر الكفل المختلف. الأولى أم لشخصية جرى اقتراح مساواتها به، والثانية شخصية في خبر لا تثبت صلته به. أما الأخبار المتصلة بأسر يوشع أو أيوب أو زكريا، فلا تنتقل بأكملها إلى هذا الفصل لمجرد ورود أسمائهم في خلاف الهوية. هذا الفصل يحفظ موضع المرأة في الدليل الذي وردت فيه، ويحفظ معها حدود ذلك الدليل. [١٦, ٢٠]

٢٠. كيف تلقّت كتب الأخلاق معنى الكفالة؟

في «منية المريد» للشهيد الثاني تَرِد حكاية نبي عرض على مَن معه أن يكون خليفته مَن يكفل له ألا يغضب، فقام شاب ووفى، وصار بعده في منزلته، وسُمّي ذا الكفل. يقدّم المؤلف ذلك بعبارة «وفي

الأخبار القديمة». وهي عبارة تفصل هذه الحكاية عما سبقها من حديث أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر في الغضب؛ فلا يصح وصل الحكاية بذلك السند وجعلها حديثًا آخر عن الإمام الباقر. [١٧]

وينقل «بحار الأنوار» عن «سعد السعود» لابن طاووس قولين في الكفالة: الوفاء لله، أو الوفاء لنبي زمانه بضبط الغضب رغم سعي إبليس. وقيمتهما هنا في تتبع حضور المعنى في التأليف الأخلاقي والتفسيري. ولا نُنشئ بهما نبيًا سابقًا ثالثًا، ولا اسمًا جديدًا للشاب، ولا طريقًا مسندًا لم يذكره الناقل. وتتفق هذه الصيغ في إبراز الوفاء، مع اختلاف درجة تفصيلها وطريق ورودها. [١٨]

٢١. سجل الشخصيات: الحضور ليس على درجة واحدة

في أصل الفصل ذو الكفل، ومعه في اللفظ القرآني إسماعيل وإدريس واليسع. وفي الرواية المنسوبة إلى الإمام الجواد داود وسليمان. وفي قصة الامتحان النبي السابق غير المسمّى، والفتى الذي هو ذو الكفل في الخبر، والحاجب غير المسمّى، وجمهور الناس الذين يقضي بينهم. أما الخصم المدّعى فلا يثبت خارج حيلة الأبيض. ويُفصل عن البشر إبليس وأتباعه، ومنهم الأبيض المسمّى صراحةً. هذا التفريق يمنع عدّ الفتى وذي الكفل رجلين مختلفين، أو عدّ الأبيض وإبليس اسمين لشخص واحد في هذا الطريق. [١–٤]

وفي سجل الأقوال، لا في قائمة المعاصرين الثابتين، يَرِد يوشع بن نون، وإلياس، وزكريا، وحزقيل، وبِشر بن أيوب، واليسع بن خطوب، والملك كنعان، وكالب بن يوقنا، وشمعون، والأنبياء غير المسمّين. ويَرِد روم وعيص وإسحاق وإبراهيم في النسب الذي تحكيه قصة الروم، وتَرِد أسماء إدريم وأديم وأدارين بصفتها اختلافًا في ضبط الاسم المنقول. وأسماء يعقوب والخضر ويونس وعيسى ومحمد وألقابهم حاضرة في جواب الأسماء المزدوجة. تُقرأ كل مجموعة مع القيد الذي سبق بيانُه، دون تحويلها إلى مجلس أو سلسلة نسب واحدة. [٣, ٦, ١٢, ١٦, ١٩]

وفي زمن نقل المعرفة تبرز أسماء النبي محمد صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين، والإمام الرضا، والإمام الجواد، وعبد العظيم الحسني، والسائلين غير المسمّين في خبر جامع الكوفة، وعبد الله بن عمر في طريق القصة الأخرى. أما أسماء الرواة والمفسّرين والجامعين المذكورة في التخريج، فوظيفتها بيان وصول النص أو جهة القول، وليست جزءًا من أحداث حياة ذي الكفل. وتكتمل مراعاة الشخصيات النسائية بما سبق من ذكر أم حزقيل والمرأة المحتاجة، مع عدم ثبوت اسم امرأة من أسرة ذي الكفل نفسه في النصوص الأساسية. [٣, ٤, ١٢, ١٤, ١٦, ٢٠]

٢٢. الوفاة والقبر ومَن جاء بعده

لا تخبرنا الآيتان ولا روايتا الراوندي الأساسيتان بتاريخ وفاة ذي الكفل أو كيفية موته أو وصية أخيرة قالها لأهله. أما عمر الخمس والتسعين سنة، فهو جزء من قول وهب في بشر بن أيوب المنقول عند

الثعلبي، وقد سبق بيان موقعه. ولا تتحول نسبة قبر إلى ذي الكفل، بمجرد شيوعها، إلى تحقيق لهويته أو تاريخ وفاته؛ فتاريخ الموضع المنسوب بحث مستقل يحتاج إلى أدلته. [١-٤, ١٩]

وكذلك لا تسمّي هذه النصوص خليفةً تسلّم الأمر من ذي الكفل، ولا تجعل إرميا تلميذًا له أو متلقيًا لوصيته. وإذا انتقل الكتاب بعد هذا الفصل إلى إرميا، فذلك انتقال في ترتيب الكتاب، وليس رواية عن لقاء أو تسليم تاريخي ثابت. وتبقى صلة الأنبياء في وحدة دعوتهم إلى الله أوسع من قدرتنا على رسم كل حلقة من حلقات التعاقب الزمني.

٢٣. ما يبقى من حكايته

بعد اختلاف الأسماء وتعدد الحكايات، يبقى لنا من ذي الكفل ما أثبته القرآن: رجل من الصابرين والصالحين والأخيار، أدخله الله في رحمته. وتمنح الروايات المنقولة صورةً أخلاقية متكررة للوفاء بالأمانة وضبط النفس في خدمة الناس، مع تفاوت ثبوت تفاصيلها. فنحفظ الثناء يقينًا، ونروي الأخبار بأمانة، ولا نجعل قلة المعلومات بابًا لاختراع حياة لم يروها مصدر. [١-٤]

وهذا هو موضعه في حكاية الهداية: أن حمل المسؤولية يحتاج إلى صبر لا يطغى به تعب صاحبه على حق غيره، وإلى وفاء لا يطلب من الشهرة مقدار ما يطلب من الصدق. أما دقائق الأيام التي لم تبلغنا، فنتركها لله الذي علمها، والذي اختار أن يخلّد اسمه في كتابه مع الأخيار.

٢٤. المصادر والإحالات

تدل الأرقام بين المعقوفين على المراجع الآتية. أرقام الصفحات بحسب النصوص المشار إليها، وقد تختلف باختلاف الطبعات؛ لذا ذُكرت السورة والآية أو الباب ورقم الحديث حيث أمكن. وتُذكر الوساطة صراحةً عندما يكون الاعتماد على نقل المجلسي عن كتاب آخر.

[١] القرآن الكريم، سورة الأنبياء: ٨٣–٨٨؛ وموضع تسمية ذي الكفل والثناء عليه الآيتان ٨٥–٨٦.

[٢] القرآن الكريم، سورة ص: ٤٥–٤٨؛ وموضع تسمية ذي الكفل الآية ٤٨.

[٣] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب الثالث عشر: «في أحوال ذي الكفل وعمران عليهما السلام»، ص ٢١٢–٢١٣، ح ٢٧٦، مع حاشية اختلاف النسخ. الخبر المنتهي إلى ابن عمر عن النبي، وفيه الفتى والأبيض والحاجب.

[٤] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب نفسه، ص ٢١٣، ح ٢٧٧: مكاتبة عبد العظيم الحسني لأبي جعفر محمد بن علي بن موسى، الإمام الجواد، في اسم ذي الكفل ورسالته.

[٥] محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٣، الباب ١٧: «قصص ذي الكفل عليه السلام»، ص ٤٠٤–٤٠٧، الحديثان ١–٢ والبيان بعدهما. يُميَّز نص الحديث من تعليق المجلسي ومن نقوله المقارنة.

[٦] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنبياء: ٨٥-٨٦، ضمن مقطع الآيات ٨١-٨٦؛ ج ٧، ص ٥٩-٦٠ في إحالة البحار. وفيه خبر عبد العظيم وأقوال الهوية وخبر الملك كنعان.

[٧] محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير الأنبياء: ٨٥، ضمن مقطع الآيات ٨١-٨٥؛ الأقوال في النبوّة والكفالة.

[٨] الطوسي، التبيان، تفسير ص: ٤٨، ضمن مقطع الآيات ٤٥-٥٤؛ ومنه القول بكفالته أمر أنبياء أنجاهم الله به من القتل.

[٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ص: ٤٥-٥٤، ولا سيما الآية ٤٨ وسياق ذكر الأنبياء والأخيار.

[١٠] محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة الأنبياء، المقطع المتصل بالآيات ٨٣-٩٠؛ الملاحظة المتعلقة بترتيب القصص والثناء على المذكورين.

[١١] الطباطبائي، الميزان، تفسير ص: ٤١-٤٨، فقرة «خبر اليسع وذي الكفل»؛ وفيها نقل خبر عبد العظيم من قصص الأنبياء.

[١٢] محمد بن علي بن بابويه الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ١، الباب ٢٤، ح ١: خبر الأسئلة لأمير المؤمنين في جامع الكوفة، ضمن خبر الرجل الشامي؛ وموضع الاستشهاد جواب الأنبياء الذين لهم اسمان.

[١٣] محسن الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٥١، تفسير الأنبياء: ٨٥-٨٦؛ إحالته في تعيين يوشع بن نون إلى خبر العيون.

[١٤] عبد علي الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣١٢، ح ١٢، عند تفسير الصف: ٦؛ نقل خبر الأسماء عن عيون أخبار الرضا، وهو مستقل في عرضه عن النقل السابق عن تفسير القمي.

[١٥] أحمد بن علي النجاشي، رجال النجاشي، ص ١٨٥، الترجمة ٤٩٠: «سهل بن زياد أبو سعيد الآدمي الرازي»؛ موضع الحكم الرجالي المتصل بسند خبر عبد العظيم.

[١٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير البقرة: ٢٤٣؛ الأقوال في حزقيل وأمه والأنبياء السبعين وكالب وشمعون. يميّز النقل بين القول التفسيري والخبر المنسوب إلى الإمام.

[١٧] زين الدين الجبعي العاملي، الشهيد الثاني، منية المريد، ص ٣٢١، في الكلام على الغضب؛ الحكاية المصدّرة بعبارة «وفي الأخبار القديمة»، لا الحديث السابق عليها عن أبي حمزة.

[١٨] علي بن موسى بن طاووس، سعد السعود، ص ٢٤١، بواسطة نقل المجلسي في بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٠٧؛ القولان في الوفاء بكفالة ضبط الغضب.

[١٩] أحمد بن محمد الثعلبي، عرائس المجالس، ص ٩٥ بحسب إحالة البحار، بواسطة نقل المجلسي في بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٠٦-٤٠٧؛ قصة بشر بن أيوب والروم وخبر وهب في العمر. مصدر مقارن، وليس رواية عن إمام في هذا النقل.

[٢٠] محمد بن عيسى الترمذي، الجامع، ح ٢٤٩٦، خبر «الكفل» والمرأة المحتاجة، عن ابن عمر. أُدرج للتمييز بين الاسمين؛ لا لإلحاقه بسيرة ذي الكفل ولا لعدّه من طرق أهل البيت.

[٢١] إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الأنبياء: ٨٥؛ موضع التنبيه إلى احتمال اختلاف «الكفل» عن «ذي الكفل». إحالة مقارنة محددة، لا اعتماد جميع ما في تفسيره منهجًا للفصل.

الفصل ٣٦ — إرميا عليه السلام — الإنذار زمن الاضطراب

١. النبي أمام المدينة المهددة

تظهر صورة إرميا عليه السلام في أخبار أهل البيت نبيًا ينذر قومه قبل الخراب، ويحاور علماءهم، ويطلب النجاة لأهله، ثم يقف أمام مدينة أصابها الدمار. وفي طائفة من الروايات يتصل خبره بالرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. تجمع هذه المشاهد بين مسؤولية الإنسان عن عمله، ورحمة النبي بالناس، وقدرة الله على الإحياء بعد الموت؛ لكنها لم تصل في خبر واحد متفق على جميع تفاصيله. ولذلك يروي هذا الفصل كل مسار مع مصدره، ويحفظ الاختلاف حين لا يثبت وجه الجمع. [٣-٨]

لم يرد اسم إرميا صريحًا في القرآن. والآية التي ستكون محور البحث، البقرة: ٢٥٩، لا تسمي الرجل ولا القرية. أما القرآن في الإسراء فيذكر بني إسرائيل والكتاب والإفساد والعقوبة والعودة إلى الرحمة، من غير تسمية إرميا أو بخت نصر. وتعيين الأشخاص والأماكن يأتي من الرواية والتفسير. كما أن مجيء هذا الفصل بعد ذي الكفل، وقبل الفصل المخصص لدانيال، ترتيب للعرض في الكتاب، لا شهادة بأن انتقال النبوة وقع بين هؤلاء مباشرة. [١, ٢, ٢١]

٢. الاسم والنسب وما لا نعرفه عن البدايات

يرد الاسم بصيغ إرميا وأرميا وأرمياء. وتذكر الأقوال التاريخية التي جمعها المجلسي صيغًا مختلفة لاسم الأب: خلفيا أو حلقيا أو حزقيا، ويذكر مجمع البيان، في الخبر المنقول عن ابن إسحاق، أنه من سبط هارون. لا يحوّل هذا النقل التاريخي أسماء الآباء إلى نسب ثابت بسند عن إمام، ولا يثبت أن الشخص المسمى حزقيا هنا هو النبي حزقيل. ويثبت الفصل اختلاف الأسماء كما هو، من غير تركيب سلسلة نسب تجمع أقوالًا متباعدة. [١٥, ٢١]

لم نجد في الأصول المقابلة لهذا الفصل خبرًا يثبت تاريخ ولادته، أو اسم أمه، أو وصف طفولته وتربيته، أو عمره عند بدء الدعوة. أما أهله فليسوا غائبين تمامًا: ينقل تفسير القمي عنه طلب الأمان لنفسه ولأهل بيته. غير أن الخبر لا يسمي الزوجة ولا الأبناء ولا يحدد عددهم؛ فلا يجوز نفي وجود أهله، كما لا يجوز إكمال أسمائهم من التخمين. وما يرد من أم وزوجة وأبناء في أخبار عزير لا ينقل تلقائيًا إلى إرميا. [٣, ٩, ١٣]

٣. أصل المشهد: آية المائة عام

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ

طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. البقرة: ٢٥٩. [١]

المنصوص عليه هو المرور بالقرية الخاوية، والسؤال، والموت مائة عام، ثم البعث، وحفظ الطعام والشراب، والنظر إلى الحمار والعظام، وانتهاء المشهد بإقرار القدرة الإلهية. لا تذكر الآية حربًا باسمها، ولا ملكًا، ولا عمر الرجل عند خروجه، ولا اسم من خاطبه. وتسمية بيت المقدس، وتعيين إرميا أو عزير، وتفصيل نوع الزاد وكيفية عودة الأعضاء، زيادات تفسيرية وروائية يتعين تمييزها من ألفاظ القرآن. [١, ٩, ١٠]

٤. هل صاحب القرية إرميا أم عزير؟

يسمي خبر هارون بن خارجة عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير القمي صاحب الحادثة إرميا، وكذلك خبر أبي بصير في تفسير العياشي، وخبر الراوندي في الباب المخصص لإرميا ودانيال. ويورد الاحتجاج، في الحوار المنقول عن الإمام الصادق مع زنديق، إرميا مثالًا لمن أعاده الله إلى الحياة. وهذه نصوص تجعل صلته بالآية قولًا روائيًا حاضرًا في التراث الإمامي، فلا يصح إسقاطه باعتباره مجرد قول مجهول المصدر. [٣-٥, ٧, ١٢]

في المقابل، ينقل التبيان ومجمع البيان تعيينه بعزير عن الإمام الصادق، وتعيينه بإرميا عن الإمام الباقر، مع ذكر أقوال المفسرين، ومنها الخضر عن ابن إسحاق. وفي العياشي خبر عن ابن الكواء وسؤاله أمير المؤمنين عن ولد أكبر من أبيه، ويذكر الجواب عزيرًا. فلا يصح ادعاء اتفاق روايات أهل البيت على اسم واحد، أو جعل اختلاف النسبة دليلًا بذاته على أن إرميا وعزير شخص واحد. بل إن رواية القمي الطويلة تذكر عزيرًا وإرميا شخصين مختلفين. [٤, ٥, ٩, ١٠]

ناقش المجلسي اختلاف الأخبار، واقترح احتمالات للجمع، منها التقية، أو الإجابة بما يوافق معتقد السائل، أو وقوع الإحياء لكل منهما مع اختصاص الآية بأحدهما. هذه احتمالات شارح وليست زيادة في نص القرآن. أما الميزان فينبّه إلى اختلاف الأخبار وضعف بعض أسانيدها وعدم دلالة ظاهر الآية على التعيين. والنتيجة التي يسير عليها الفصل: أصل المائة عام قرآني ثابت، ونسبة الحادثة إلى إرميا تعرض بوصفها رواية، مع إبقاء الروايات الأخرى في موضعها. [١١, ١٦]

٥. إرميا والخضر: تعيين يحتاج إلى المقابلة

لا يقتصر الربط بين إرميا والخضر على أقوال المؤرخين. ففي علل الشرائع، ضمن أسئلة رجل شامي لأمير المؤمنين عن أنبياء لهم اسمان، ورد: «والخضر وهو إرميا». ولكن النسخة الرقمية المقابلة من عيون أخبار الرضا تورد في الموضع الموازي «تاليا». ويسمي الخبر أيضًا يوشع وذا الكفل، ويعقوب وإسرائيل، ويونس وذا النون، وعيسى والمسيح، ومحمدًا وأحمد. وهذه الشخصيات تذكر هنا لبيان موضع النص واختلاف لفظه، لا لإدخال سيرها جميعًا في سيرة إرميا. [١٩, ٢٠]

وجود هذه القراءة يوجب إثباتها في البحث، لكنه لا يجيز نقل كل ما ورد عن الخضر وصحبته لموسى، أو بقائه، أو أسرته، إلى إرميا صاحب أخبار خراب بيت المقدس. ولا يحسم اختلاف ضبط الأسماء بمجرد تشابه الحروف؛ بل يحتاج إلى مقابلة النسخ والأسانيد. يظل اتحاد الشخصيتين قولًا مختلفًا فيه، ويظل تفصيل سيرة الخضر في موضعه المستقل. [٩, ١٠, ١٩, ٢٠]

٦. موضعه من الأنبياء السابقين واللاحقين

يعرض مجمع البيان في تفسير الإسراء خبرًا عن ابن إسحاق يضع بعثة إرميا بعد محنة شعيا ومقتله، ويجعله من سبط هارون. ففي هذا المسار يظهر شعيا، وملك بني إسرائيل غير المسمى في المقطع، وسنحاريب، ثم بخت نصر. هذه خلفية تاريخية منقولة، وليست كلها حديثًا عن الإمام الباقر أو الصادق. ولا يصح أن تتحول عبارة «بعد شعيا» إلى وصف مجلس تسليم وصية مفصل لم يروه النص. [٢١]

وفي خبر الإمام الصادق الذي أورده الصدوق في كمال الدين ونقله الراوندي، يذكر سليمان وآصف بن برخيا، ثم شدة البلاء والسبي ودانيال وعزير. لا يسمي هذا المقطع إرميا حلقةً في السلسلة. ولذلك نثبت استمرار الهداية في زمن المحنة، ونذكر اقتران إرميا بدانيال في أبواب الرواية، من غير أن ننشئ من هذا الخبر وحده نصًا يقول إن إرميا أخذ الوصية مباشرة من آصف أو سلّمها مباشرة إلى دانيال. [٢٤]

٧. الأرض المختارة والغرس الذي تغيّر

يبدأ المسار المروي عن الإمام الصادق بمثل بلدة اختيرت من كرائم البلدان وغرس فيها كريم الشجر، ثم جاء ثمرها على خلاف المنتظر. وفي تفسير القمي يسأل أحبار بني إسرائيل عن معنى المثل، فيصوم إرميا ويبلغهم أن البلد بيت المقدس، وأن الغرس بنو إسرائيل الذين تغير عملهم وبدّلوا النعمة بالكفر. ويرد الخرنوب في لغة المثل مقابل الغرس المختار؛ فالمقصود تغير حال القوم، لا وضع حكم ديني على الشجرة أو ثمرتها. [٣, ٥–٧]

وفي العياشي وكتاب الزهد يذكر استهزاء القوم بالمثل وشكوى إرميا إلى الله، ثم يفسر لهم موضع الإنذار: تبديل الطاعة بالمعصية يعرض العمران والمال والأمن للخراب. وفي الخبر وعيد بتسلط من يسفك الدماء ويأخذ الأموال، ثم ذكر خراب مائة عام وإعادة العمارة. يحمل النبي الرسالة قبل تحقق الكارثة، فلا تكون وظيفته مجرد تفسير الهزيمة بعد وقوعها. [٥, ٦]

٨. سؤال العلماء والفقراء ومسؤولية الإنكار

حين سمع العلماء الوعيد سألوا عن ذنبهم ما داموا لم يعملوا عمل المسيئين. وفي رواية القمي جاء سؤالهم عن الفقراء والمساكين والضعفاء أيضًا. يعود إرميا إلى الدعاء والصوم، وتذكر الأخبار تتابع أسابيع من الصيام يتخللها الطعام. ثم يأتي الجواب في محور القصة: «لأنكم رأيتم المنكر فلم تنكروه». لا يقتصر حساب

الجماعة، في هذا الخبر، على فاعل المنكر وحده؛ بل يواجه من رأى وسكت مع مسؤوليته عن الموقف. [٣, ٥, ٦]

غير أن الرواية لا تقدم أسماء جميع أفراد المجتمع ولا أحوال قدرتهم وعجزهم. فلا يصح توسيع جوابها إلى حكم بأن كل فقير أو طفل أو ضحية حرب مذنب، ولا جعل كل كارثة معاصرة دليلًا على استحقاق أهلها العقوبة. ويضبط القرآن المسؤولية بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. فالتحذير من السكوت عن المنكر لا يرفع التمييز بين الظالم والمظلوم، ولا ينقل تبعة فعل أحد إلى غيره بمجرد القرابة أو الانتماء. [٢٥]

٩. الدعاء وحدود الكلام على العصمة

تشتمل الرواية على خطاب شديد لإرميا يأمره بالكف عن المراجعة في الأمر المقضي. يجب ذكر هذا الموضع عند عرض الخبر، فلا يحذف لأنه صعب، ولا يصاغ على أنه نص قرآني يثبت معصية للنبي. إنه جزء من رواية تحتاج دراسة سندها ودلالتها، وصيغة الوعيد الشرطي لا تعني أن العقوبة المذكورة وقعت بالفعل. كما أن سؤال النبي عن الضعفاء يعرض في سياق الرحمة وطلب البيان، لا بوصفه إنكارًا لعدل الله من إنشاء الكاتب. [٣, ٥, ٦]

تلتقي العبرة هنا مع أصلين: أن النبي لا يجعل رحمته طريقًا إلى تبديل حكم الله، وأن العالم لا يستبدل واجب الإصلاح بمجرد العزلة عن الناس. ويظل هذا فهمًا لدلالة الخبر، لا نصًا جديدًا منسوبًا إلى الإمام. كما لا يصح الجمع بين أسابيع الصيام في الصيغ المختلفة لإنتاج عدد قطعي لأيام صيام إرميا طوال حياته؛ فبعض الألفاظ يذكر سؤال تفسير المثل ثم سؤال الضعفاء، وبعضها يختصر المراحل. [٣, ٥, ٦]

١٠. بخت نصر قبل السلطان: الصبي وأمه

يتوسع تفسير القمي فيخبر أن إرميا سأل عن الرجل الذي سيتسلط على قومه ليأخذ منه أمانًا. دُلّ على غلام ضعيف مريض في خان، وله أم تعطيه كسر الخبز ممزوجة بلبن خنزيرة. عرفه إرميا باسمه، وعالجه حتى برئ، ثم طلب منه كتاب الأمان. وفي هذا المسار يبدو فعل النبي علاجًا للمريض مع علمه بما أخبر به عن مستقبله، ولا يذكر الخبر أنه علّمه القتال أو أمره بالظلم. [٣]

أم بخت نصر امرأة مذكورة بالدور لا بالاسم، ويجب حفظ حضورها في الحصر. لكن وصفها في النسخ المتداولة مضطرب: يظهر في بعضها «تزني بالكسر»، وفي نقول أخرى «تزبي» أو «تربي»، وتشرح حاشية نور الثقلين لفظًا متصلًا بإعداد الطعام. فلا يثبت هذا الفصل اتهامًا لأم مجهولة اعتمادًا على حرف مختلف فيه. كما أن ألفاظ ذم الولادة أو الغذاء في الخبر لا تتخذ أساسًا لقول إن الإنسان مجرم بنسبه؛ فالقرآن يرد تبعة العمل إلى صاحبه. [٣, ١٣, ٢٥]

وفي خبر الراوندي تعليل آخر للاسم، يذكر رضاعه من كلبة اسمها «بخت» وصاحبها «نصر». هذا تعليل روائي للاسم، لا تحقيق لغوي ولا نسب تاريخي ثابت. والشخص البشري المسمى نصر يظهر بوصفه صاحب الحيوان في هذه الرواية، فلا يجعل أبًا لبخت نصر. ولا يصح مزج هذا الخبر بخبر الأم ولبن الخنزيرة لإنتاج طفولة متصلة لم يروها أي من المصدرين بهذه الصورة. [٧]

١١. كتاب الأمان وأهل إرميا

يواصل خبر القمي وصف الغلام وقد صار يجمع الناس للغزو، بعد ذكر عمله في الاحتطاب وبيع الحطب. ولما أقبل بخت نصر بجيشه خرج إرميا على حمار يحمل كتاب الأمان، وتعذر وصوله إليه لكثرة الجند، فرفع الكتاب على قصبة ليُرى. يذكره بما كتب، فيقر له بالأمان الشخصي، ثم يجعل أمر أهله معلقًا بوصول سهمه إلى بيت المقدس. وتذكر الرواية أن الريح حملت السهم فعلق فيها، فقال إنه لا أمان لهم عنده. [٣]

يسجل هذا المشهد إرميا وأهل بيته وبخت نصر والجنود، ولا يسمي فردًا من الأسرة. وامتناع الملك عن ضمانهم ليس نصًا على أنه قتل كل فرد منهم، ولا يبيح إضافة مشهد وداع أو استشهاد زوجة وأطفال بلا خبر. وفيه أيضًا فرق بين الأمان الذي يطلبه النبي وبين ما يختاره صاحب القوة: إخبار إرميا بما سيقع لا يجعل قرارات بخت نصر أحكامًا نبوية أو أوامر شرعية. [٣]

١٢. دم يحيى والنساء في خبر الغزو

تتضمن رواية القمي الطويلة مشهد دم يغلي في المدينة، وتسميه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام. وتروي أن يحيى أنكر على ملك جبار علاقاته المحرمة، وأن امرأة من النساء اللاتي كان يأتيهن طلبت منه قتل النبي حين سكر. المرأة هنا غير مسماة، والملك كذلك. فلا يستبدل اسمهما بهيرودس أو هيروديا أو سالومة من مدونة أخرى ثم يقال إن هذه الأسماء وردت في رواية القمي. [٣]

ثم يذكر الخبر قتل بخت نصر رجالًا ونساءً وصبيانًا، وأن عجوزًا غير مسماة كانت آخر من بقي في ذلك المسار، فقتلها فسكن الدم. هذه العجوز شخصية مستقلة عن أم بخت نصر وعن المرأة التي طلبت قتل يحيى؛ ولا يذكر النص لها زوجًا ولا ولدًا ولا جريمة بعينها. ونساء القرى والصبيان ضحايا مذكورون جماعة، لا يصح إسقاطهم من القصة لأن أسماءهم لم تحفظ. [٣]

هذه الفقرة من مواضع الإشكال الزمني، وليست جدولًا تاريخيًا محسومًا: الرواية تجعل بين قتل يحيى وخروج بخت نصر مائة سنة، بينما أخبار أخرى تضع السبي في سياق مختلف. نثبت مضمونها ونناقش التعارض، ولا نمحو يحيى وزكريا والنساء منها، ولا نستخدمها لتبرير قتل الأبرياء أو للقول إن الانتقام الجماعي تشريع إلهي. فحكاية ما فعله الجبار غير إقرار حقه في فعله. [٣, ١٥, ٢٥]

١٣. دانيال والنبي المرسل بالطعام

ينتقل خبر القمي إلى بابل، حيث ألقي دانيال في بئر ومعه لبوة. وتذكر الرواية بقاءه وحفظه وإرسال الطعام والشراب إليه مع نبي كان ببيت المقدس، ثم دعاء دانيال شكرًا لله. هذا النبي المرسل لا يسميه المقطع، وإن جاء ضمن خبر ابتدأ بإرميا؛ فلا يصح الجزم بأنه إرميا أو حيقوق. ويذكر خبر الأمالي المنقول في البحار، وكذلك خبر الراوندي في دانيال، نبيًا غير مسمى أيضًا. [٣, ٧, ١٢]

ولذلك يكون نصيب دانيال هنا قدر صلته بسياق إرميا وبخت نصر، ويأتي تفصيل سيرته في الفصل التالي. أما زوجة ابن الملك الحكيمة، والمرأة المتهمة، والمربية، والمرأتان في خبر المجاعة، وفتية دانيال، فلهم مواضعهم في أخبار دانيال، ولا يثبت بمجرد جمع المجلسي أخبارهم في باب واحد أنهم صحبوا إرميا. يحفظ هذا الفصل وجودهم في نطاق الباب المشترك، دون أن ينشئ لهم لقاءات معه لم ترد. [٧, ٨, ١٦, ٢٤]

١٤. رؤيا الملك والفتى الفارسي

بعد خبر البئر يروي القمي أن بخت نصر رأى رؤيا، ثم طالب المنجمين بأن يخبروه بما رآه قبل أن يرويه لهم. عجزوا فأمر بقتلهم، وأشار بعض من حضر إلى دانيال. وصف له دانيال الرؤيا وأنذره بنهاية ملكه وقتله على يد رجل من الفرس. وتذكر الرواية حراس المدن وخيل الملك وإجراءاته المتشددة، ثم غلامًا فارسيًا أعطاه الملك سيفه وأمره بقتل كل من يلقاه، حتى الملك نفسه، فقتله. [٤]

لا اسم ثابت للغلام في المقطع، وتختلف ألفاظ النقول بين غلام اتخذه ابنًا وبين غلام يخدم ابنًا له. لذلك يثبت بوصف «الفتى الفارسي» مع التنبيه إلى الاختلاف، ولا يساوى بكورش أو بملك فارسي آخر بلا نص. وكذلك لا تسمى شخصية البلاط التي دلت على دانيال. وهذه النهاية لبخت نصر تخص هذا المسار، وتقابلها أخبار أخرى عن نهايته؛ فلا تجمع النهايات المختلفة في حياة واحدة من غير بيان. [٤, ١٣, ١٥]

١٥. الخروج من المدينة والوقوف أمام الخراب

في العياشي، يعرض بخت نصر على النبي البقاء عنده أو الخروج، فيختار الخروج، ويتزود عصيرًا وتينًا. وعندما يبتعد ويلتفت إلى المدينة يقول ما تحكيه الآية عن إحيائها بعد موتها. وفي رواية هارون المذكورة عقب الخبر جاء العصير واللبن، وهي صيغة يرويها الراوندي أيضًا. القرآن يثبت الطعام والشراب ولا يحدد نوعهما؛ فذكر التين أو اللبن وصف روائي، لا تفسير حصري يجب أن تبنى عليه عقيدة. [١, ٥, ٧, ١٤]

أما القمي فيجعل المشهد بعد وصف الجيف وما تأكله السباع، ثم يذكر إرميا على حماره ومعه الزاد. وينص في هذا السياق على أن عزيرًا كان قد هرب وغاب في عين، بينما بقي إرميا ميتًا مائة سنة. يحفظ الفصل هذه التفرقة داخل الرواية، ولا يبدّل اسمًا باسم ليزيل التعارض بينها وبين روايات عزير.

وكذلك لا يحوّل اختلاف تصحيف كلمة الزاد في بعض النقول إلى إثبات خادم مجهول جديد يصحب إرميا. [٤, ١٣]

١٦. السؤال الذي انتهى إلى معاينة القدرة

يفسر مجمع البيان السؤال بأنه طلب لمشاهدة الإحياء، فلا يلزم من «أنى» إنكار البعث أو الشك في قدرة الله. فالانتقال من العلم بالخبر والدليل إلى المعاينة لا يساوي انتقالًا من الكفر إلى الإيمان. ويجاور هذا المشهد في سورة البقرة سؤال إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى؛ لكن المجاورة الموضوعية لا تعني أن إرميا كان حاضرًا مع إبراهيم أو مع الذي حاجه في ربه. [١, ٩]

ويعرض التبيان أقوالًا كلامية متعددة في صاحب الحادثة وكيفية الإحياء، ويناقش دلالة المعجزة؛ فلا ينسب كل قول حكاه الطوسي إلى اختياره أو إلى الإمام. وفي كتابة سيرة نبي وفق مدرسة أهل البيت، يبقى التفريق لازمًا بين سؤال البيان وبين الاعتراض، وبين تفسير الآية وبين الحكم على إسناد خبر يعيّن صاحبها. والآية نفسها تختم بإقرار العلم بأن الله على كل شيء قدير، وهو مركز المشهد الذي لا يضيع وسط اختلاف الأسماء. [٩, ١٠]

١٧. مائة عام ثم بعثه

تروي أخبار إرميا بدء عودة الحياة بالعينين ومشاهدته التئام العظام واللحم والعروق، ثم قيامه. وفي بعض الألفاظ ينظر إلى عظامه، وفي تفسير آخر إلى عظام حماره. ويتعرض التبيان لكيفية فهم الحياة والإدراك في وصف العينين، فلا يقرأ التشبيه الوارد في الخبر على أنه تقرير طبي. يثبت القرآن النظر إلى العظام وإلباسها اللحم، ويأتي تحديد صاحب العظام وتتابع الأعضاء من الروايات والتفسير. [٤, ٥, ٩, ١٠, ١٢]

وفي العياشي يكون الموت أول النهار والبعث في آخره قبل مغيب الشمس، فيظن أنه لبث يومًا ثم يقول بعض يوم. وفي القمي وصف مختلف لموضع الشمس. لا يغير هذا الاختلاف المدة القرآنية، لكنه يمنع صياغة ساعة محددة متفق عليها. ويحمل بقاء الطعام والشراب دون تغير معنى آخر في المشهد: ليست السنون مؤثرة استقلالًا عن مشيئة الله؛ فقد جرى على الإنسان ما لم يجر على زاده. [١, ٤, ٥]

١٨. السجن والحصار في خبر وهب

يورد الراوندي بعد الخبر المنسوب إلى الإمام الصادق رواية طويلة عن وهب بن منبه. يجب فصل المصدرين: وجود خبر وهب في كتاب إمامي لا يجعله حديثًا عن أهل البيت. في هذا المسار ترد حملة أولى لبخت نصر يرجع عنها بعدما تاب القوم وأنكروا المنكر، ويذكر سهمًا أصاب فرسه. ثم عادوا إلى الفساد، فأنذرهم إرميا بحملة أخرى. وهنا تفصيل للمسؤوليات: أحبار ورهبان استعبدوا الناس، وملوك وأمراء أبطرتهم النعمة، وقراء وفقهاء تابعوا الملوك، وأبناء شاركوا في الباطل. [٨]

يرد القوم الإنذار بحجة أن الله لا يعطل بيوت عبادته، ثم يقيدون إرميا ويسجنونه. ويأتي الحصار في الخبر شديدًا، حتى تنتهي المدينة إلى القتل والسبي. لا يسمي هذا المقطع ملك بني إسرائيل ولا سجّان النبي، ولكنه يذكر النساء ضمن من أصابهم الغزو. فالسجن والحصار ومدة الأشهر فيه تعرض جميعًا على أنها مضمون خبر وهب، لا باعتبارها ألفاظًا في القرآن أو تفاصيل أجمع عليها رواة الأئمة. [٨]

١٩. الحرية المعروضة وبقاء النبي مع قومه

يبلغ بخت نصر في خبر وهب أن أسيرًا كان يحذر قومه مما وقع، فيأمر بإخراج إرميا ويسأله عن إنذاره، ثم يعرض إكرامه عنده أو تأمينه في بلاده. يجيب إرميا بأنه كان في أمان الله، وأن خروج قومه من طاعته عرضهم للخوف. ويبقى في إيلياء الخرِبة، فيجتمع إليه من بقي ويطلبون النصيحة بعدما عرفوا صدق إنذاره. لا يعطي النص أسماء هؤلاء الباقين، لكنه يثبت جماعة نجت واحتاجت إلى الهداية بعد الانهيار. [٨]

ومشهد البقاء بين الناجين يختلف في مساره عن مشهد الخروج مباشرة بالزاد في خبر العياشي. كلاهما يحفظ علاقة النبي بالمحنة، لكن إلحاق أحداث أحدهما بالآخر من غير تنبيه يصنع رواية جديدة. لذلك نقرأ خبر مصر الذي يلي على امتداد رواية وهب نفسها، ولا نجعله مرحلة متفقًا عليها بين جميع روايات إرميا. [٨, ٥]

٢٠. اللجوء إلى مصر والحجارة الأربع

يأمر إرميا الناجين في رواية وهب بالإقامة، لكنهم يختارون اللجوء إلى ملك مصر، فيمنحهم ذمته. يبلغ ذلك بخت نصر فيطلب تسليمهم أو يهدد بالحرب. حينها تدرك إرميا الرحمة بقومه، فيلحق بهم لينذرهم مرة أخرى. فذهابه في هذا الخبر ليس موافقة على قرارهم الأول، ولا تخليًا عنهم بسبب مخالفتهم؛ بل محاولة لإنقاذهم بعد أن وقع الخطر الجديد. وملك مصر هنا غير مسمى، فلا يحدد بفرعون معروف من تاريخ آخر بلا شاهد. [٨]

تقول الرواية إن إرميا دفن أربع حجارة في الموضع الذي سيقوم عليه سرير بخت نصر بعد انتصاره. وحين وقع الأسر وكان إرميا في جملة الأسرى، اتهمه الملك بمصاحبة أعدائه، فدلّه على الحجارة تحت قوائم السرير شاهدًا على إنذاره السابق. بعد ذلك ينسب الخبر إلى بخت نصر قرار قتل الأسرى الذين لم يصدقوا إرميا. لا ينسبه إلى أمر من النبي؛ فلا تجوز إعادة صياغة القصة كأن إرميا طلب دماء اللاجئين. [٨]

٢١. العودة وإعادة العمران

يبقى إرميا في مصر مدة غير محددة في هذا الخبر، ثم يؤمر بالعودة إلى إيلياء، فيرى الخراب ويأتي مشهد الموت مائة عام. وبعد مضي سبعين عامًا يرسل الله، بحسب رواية وهب، ملكًا إلى ملك فارسي يدعى

في هذه النسخة «كوشك»، فيحشد العمال لإعادة البناء، وتتم العمارة بعد ثلاثين سنة، ثم يبعث إرميا. بذلك تتوزع المائة في هذا المسار إلى مرحلتين، لا إلى مائة تضاف إلى سبعين وثلاثين. [٨]

الملك المرسل والعمال والمشرفون على البناء جماعات وأدوار لا يذكر النص أسماء أفرادها، واسم الملك الفارسي من مواضع اختلاف النقل. لا يساويه الفصل بكورش أو بهمن أو بشتاسب على القطع، وإن وردت أسماء هؤلاء في أقوال أخرى عن عودة بني إسرائيل. كما لا تعتمد الأعداد الضخمة الواردة للعمال والجند إحصاءً تاريخيًا مستقلًا. وأصل إحياء الإنسان بعد مائة عام قرآني، أما سنوات البناء واسم القائم به فخبر تاريخي محدد المصدر. [٨, ٢١]

٢٢. آيات الإسراء: الإنذار والعودة إلى الرحمة

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. الإسراء: ٢–٣. يبدأ السياق بالهداية والتوحيد والشكر، قبل الحديث عن الفساد والعقوبة؛ فيحفظ ذكر موسى ونوح وميراث المسؤولية، ولا يحول تاريخ بني إسرائيل كله إلى وصف واحد لا يميز المحسن من المسيء. [٢]

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. الإسراء: ٤–٦. [٢]

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. الإسراء: ٧–٨. لا تقف الآيات عند الخراب؛ بل تقرن أثر العمل بفاعله، وتذكر إمكان الرحمة والتحذير من العودة. [٢]

٢٣. اختلاف الملوك والتواريخ

جمع مجمع البيان أقوالًا مختلفة في الغزوتين، تذكر بخت نصر، أو جالوت، أو ملوكًا من الفرس والروم؛ ويظهر سنحاريب في خلفية خبر شعيا. وتذكر بعض الأقوال كورش، وبهمن بن إسفنديار، وبشتاسب أو كشتاسب بن لهراسب، وأسماء مختلفة للغازي اللاحق. لا يجوز تحويل هذه البدائل إلى قائمة قادة حضروا جميعًا مع إرميا. ولا تسمي آيات الإسراء واحدًا منهم. [٢١]

وينقل المجلسي اعتراض ابن الأثير على ربط بخت نصر بمقتل يحيى لاختلاف الزمنين، ثم يلاحظ أن الأخبار المروية مختلفة أيضًا، ويناقش طول العمر والتقية ضمن احتمالاته، مع ترجيحات سندية لبعض الأخبار. فلا ننسب إلى المجلسي أنه أسقط الروايات كلها لمجرد الاعتراض التاريخي. ولا نعامل اقتراح تعدد ملوك باسم بخت نصر كأنه برهان كاف على حل كل تعارض في المتون. [١٥]

وينبه الميزان إلى اختلاف الأخبار في تطبيق آيات الإسراء. فلا يضع الفصل سنة ميلادية قطعية لمولد إرميا أو وفاته من هذه المادة، ولا يستخرج من المائة عام تاريخًا لم يذكره القرآن. [٢٢]

٢٤. نبي طالوت: خبر يجب ألا يسقط

في تفسير القمي للبقرة: ٢٤٦ يرد خبر بني إسرائيل بعد موسى ونبي يأمرهم وينهاهم، ثم عبارة «وروي أنه أرميا النبي». ويتصل المشهد بجالوت وقهره للناس وقتل الرجال واستعباد النساء، ثم طلب الملك الذي يسير بهم إلى القتال. فهذا القول متعلق بإرميا من جهة التسمية، ويجب تسجيله، وإن لم يعتمد أساسًا لدمج قصته بقصة صموئيل أو أشموئيل. [١٧]

لفت الشيخ محمد جواد البلاغي في آلاء الرحمن إلى أن هذه الزيادة مرسلة، وناقش مخالفتها لما يرويه القمي نفسه عن إرميا وزمن السبي، وذكر القول بأشموئيل في التبيان ومجمع البيان. وهذا نقد داخل التفسير الإمامي، يمنع نسبة التعيين إلى الإمام بلا تمييز بين صدر الرواية والزيادة المنقولة بصيغة «روي». [١٨]

وبناء على ذلك يثبت في حصر هذا القول موسى، والنبي المختلف في اسمه، وطالوت، وجالوت، وداود الذي يظهر في ختام القصة القرآنية، وآل موسى وآل هارون في آية التابوت، والملأ والجنود والنساء المستعبدات. لا يصبح هؤلاء جميعًا معاصرين لإرميا صاحب السبي على سبيل القطع، ولا يستدعى نسب طالوت وتفصيل الحرب مرة ثانية إلى هذا الفصل. [١٧, ١٨, ٣٠]

٢٥. اسم أرميا في خبر إقامة سليمان

يرد في إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي، في سياق وفاة داود وبداية أمر سليمان، نبي يسمى أرميا كان متخليًا في الجبال. يعلم أن بني إسرائيل أقاموا رجلًا من أبناء داود غير سليمان، فينزل ويحث سليمان، ثم يخرج به على بغلة داود ويعلن للناس أنه حجة الله عليهم، فيرجعون إليه. هذا خبر يستحق التسجيل عند تتبع الاسم، لكنه يأتي في سياق زمني غير سياق خراب بيت المقدس، ولا يصرح بأن أرميا فيه هو بعينه صاحب المائة عام. [٢٨]

ويذكر الخبر سبب ميل الناس إلى الابن الآخر: أن أمه كانت منهم، بخلاف أم سليمان بحسب هذه الرواية. بذلك يحضر داود وسليمان وابن داود المنافس، وأم هذا الابن وأم سليمان، ورؤساء الأسباط. لا يسمي المقطع الابن المنافس ولا المرأتين، ولا يجوز جعل إحداهما زوجة إرميا أو أمه. كما لا نجزم باتحاد أرميا المذكور هنا بإرميا السبي، ولا نخترع له عمرًا يصل الأزمنة بعضها ببعض. [٢٨]

٢٦. أخبار حفظ الميراث والبشارة

ورد في نقل متأخر عن حلية الأبرار، عن عمر بن إبراهيم الأوسي مرفوعًا إلى النبي، خبر تابوت أمر إرميا بإلقائه في بحر طبرية، ثم إخراجه في سياق أخبار آخر الزمان. ويذكر بقية آل موسى وآل هارون.

حفظنا هذا الخبر حتى لا يسقط من تتبع الاسم، لكن طريقه في النقل الذي أمكن مراجعته ليس سلسلة موصولة عن أحد الأئمة، ولم يتحقق هنا أصل إسناده؛ فلا يثبت به وحده مكان التابوت اليوم أو مهمة تاريخية مقطوع بها لإرميا. [٢٦]

وفي شرح الزيارة الجامعة للأحسائي يرد، ضمن نقل قصصي عن غزو العرب، أن إرميا حمل معد بن عدنان لينجو من النقمة، لما سيكون في ذريته من بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله، ثم يذكر زواج معد بامرأة اسمها معانة. ويرد في هذا السياق شعيب بن ذي مهدم وحنظلة بن صفوان وقومهما. هذه مادة نقل تاريخي، ولم يظهر في المقطع سند يصلها إلى إمام؛ لذلك تحفظ بوصفها خبرًا متداولًا، لا حلقة ثابتة في نسب إرميا أو شاهدًا قطعيًا على تعاصر جميع المذكورين. [٢٧]

أما مجمع البيان عند الأنبياء: ١١–١٥ فيذكر، بصيغة القول، قرية باليمن قتل أهلها نبيًا يقال له حنظلة، ثم غزو بخت نصر، ولا يذكر في المقطع المقابل إنقاذ إرميا لمعد. فلا يجوز نسبة القصة الموسعة كلها إلى مجمع البيان بمجرد اشتراك النصين في بخت نصر وحنظلة. وهذه المقابلة تحفظ أيضًا اسم معانة بوصفها زوجة معد في الخبر المتأخر، ولا تجعلها من نساء أسرة إرميا. [٢٧, ٢٩]

٢٧. أهل البيت في روايات التطبيق

تورد بعض روايات تفسير الإسراء تطبيقات تتعلق بأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، وبالقائم ونصرة آل محمد. يعرض الميزان نماذج منها، ويفرق بين تطبيق السنن على أحداث هذه الأمة وبين جعلها التفسير التاريخي المباشر لوقائع بني إسرائيل. لذلك لا تسقط هذه الأسماء من البحث التفسيري، ولا توضع في حوادث إرميا كأن أصحابها عاشوا في زمانه. [٢٢]

وكذلك يرد النبي محمد صلى الله عليه وآله في خبر العياشي التالي لخبر إرميا، في كلام على الإيمان بالقدرة الإلهية. لا يضيف ذلك رفيقًا لإرميا في القرية، ولا يغير نص الآية المثبت في المصحف. والحفاظ على هذه الحدود يمنع خلط ثلاثة أزمنة: زمن القصة الماضية، وزمن رواية الإمام وتعليمه، وزمن ما يذكر من مستقبل. [٥, ١٣]

٢٨. عزير وأسرته: حدود الاشتراك في الآية

تذكر بعض أخبار عزير خروجه وامرأته حامل، ثم عودته بعد مائة عام وابنه أكبر منه. وفي خبر آخر عن الإمام الباقر في جوابه لعالم نصراني يذكر عزير وعزرة، وأمهما وأباهما غير المسميين، وولادتهما معًا، ثم اختلاف مدة حياتهما بسبب المائة عام. وفي نقل عن أمير المؤمنين يظهر ابن الكواء سائلًا عن هذه المفارقة. هؤلاء من شخصيات روايات عزير، لا من أسرة إرميا لمجرد أن المفسرين بحثوا الاسمين تحت آية واحدة. [٥, ٩, ١٣, ١٦]

وينقل مجمع البيان خبر إعادة التوراة في سياق عزير، ورجلًا يخبر عن أبيه وجده ونسخة مدفونة. فلا ينقل فعل الإملاء ولا الأب والجد ولا موضع النسخة إلى إرميا. كذلك يرد اسم عزير صريحًا في

التوبة: ٣٠ في إنكار نسبة البنوة إلى الله، بينما لا يرد اسم إرميا فيها. يبقى الاشتراك في مناقشة آية البعث سببًا للمقارنة، لا دليلًا على اتحاد السيرة أو الأسرة أو العمل. [٩, ١٣]

٢٩. النساء والجماعات التي لا تحفظ الروايات أسماءها

يتوزع الحضور النسائي المتصل بالمسارات المباشرة على أم بخت نصر، والمرأة التي طلبت قتل يحيى، والعجوز المقتولة في ختام مشهد الدم، ونساء بني إسرائيل اللواتي أصابهن القتل والسبي، واللاجئين في الخبر المصري من غير تحديد أفرادهم. ولا يثبت نص أهل إرميا أسماء نساء أسرته أو عددهن. تحفظ هذه الأدوار كما وردت، مع اختلاف قيمة أخبارها، فلا تجعل امرأة مصدر كل فساد، ولا تختزل النساء في المرأة المحرِّضة وتنسى الأمهات والضحايا. [٣, ٨, ١٣]

وفي الأخبار الملحقة للمقارنة تظهر النساء المستعبدات في خبر نبي طالوت، وأم سليمان وأم الابن المنافس في خبر إقامة سليمان، ومعانة زوجة معد في النقل المتأخر، وأم عزير وزوجته ضمن روايات عزير. أما النساء في أخبار دانيال فذكرت حدود صلتهن في موضعها. هذا التفريق يحفظ الشمول دون تحويل كل امرأة مذكورة في أبواب متجاورة إلى شخصية شاركت إرميا حياته. [١٣, ١٧, ٢٧, ٢٨]

وتدخل في الحصر أيضًا جماعات العلماء والأحبار، والفقراء والمساكين والضعفاء، والملوك والأمراء، والقراء والفقهاء والأبناء، وناجو المدينة، وجند بخت نصر وحراسه ومنجموه ورجال مجلسه، والأسرى والعمال. لا يسمي الفصل راويًا في الإسناد تلميذًا لإرميا، ولا يجعل السؤال الذي طرحه زنديق على الإمام الصادق حادثة وقعت في زمن النبي القديم. أسماء الناقلين تحفظ في التوثيق، وأصحاب الأحداث في السيرة. [٣–٨, ١٢]

٣٠. سفر إرميا وحدود الاستفادة من المدونات الأخرى

توجد مدونة كتابية تحمل اسم إرميا، لكن هذا الفصل لا يثبت صحة كل ما فيها بمجرد الاسم، ولا ينسب نصوصها إلى روايات أهل البيت. ولم يعتمد عليها لإكمال طفولة النبي، أو أسماء زوجته وأبنائه، أو تفصيل وفاته. فإذا قورن بها خبر في دراسة مستقلة وجب تسمية السفر والموضع، وتمييز النص الكتابي من الحديث الإمامي، وعدم إلباس أحدهما إسناد الآخر.

وينطبق ذلك على الأسماء الشائعة خارج الأصول المعتمدة هنا، مثل باروخ وملوك يهوذا المسمين في الأسفار، فلا يقال إنهم غائبون عن كل تراث، ولا يثبتون تلقائيًا أصحابًا لإرميا في الحديث الإمامي. وما ورد في كتاب إمامي عن وهب أو ابن إسحاق أو غيرهما يعرض باسمه أيضًا. فالانتساب المذهبي للمؤلف لا يلغي اختلاف مصادر ما جمعه. [٨, ٢١]

٣١. إرميا في الدعاء والذاكرة الدينية

يذكر دعاء أم داود في إقبال الأعمال اسم إرميا ضمن الصلاة على الأنبياء والصالحين، وتجاوره أسماء متى وحيقوق ودانيال وعزير، كما يذكر شعيا وغيره في الفقرة نفسها. يحفظ ذلك حضور الاسم في الذاكرة التعبدية، لكنه ليس ترتيباً زمنياً للبعثات ولا وثيقة نسب. ولا يثبت من مجاورة اسمين أن أحدهما والد الآخر أو وصيه أو صاحبه في حادثة بعينها. [٢٣]

وفي هذا الحضور يبقى معنى الهداية أوسع من أخبار الملوك: النبي الذي أنذر قبل الخراب، ورحم قومه، وشهد قدرة الله بحسب روايات إحيائه، يذكر مع سلسلة العبودية لله. وتسمية الدعاء بأم داود تتعلق بسياقه التعبدي اللاحق، فلا تجعل أم داود امرأة من عصر إرميا أو من أسرته. [٢٣]

٣٢. الوفاة وموضع القبر وما يبقى مجهولًا

الموت مائة عام ثم البعث، على رواية تعيين إرميا، ليس خبر وفاته النهائية ولا بيان موضع قبره بعد تمام حياته. لم تثبت في النصوص المقابلة هنا سنة وفاته الأخيرة، ولا عمره الكامل، ولا اسم من قام بتغسيله ودفنه، ولا موضع قبر يصح الجزم بنسبته إليه. كما لا يثبت قول إنه قتل في حادثة بعينها بإلحاق كل خبر ورد في قتل الأنبياء بسيرته. [١, ٣–١٠]

وكذلك لا نجد في هذه المادة اسم وصي مباشر لإرميا بنص واضح متفق عليه. فنجعل الانتقال إلى دانيال انتقالًا إلى سيرة مرتبطة بأخبار المحنة والسبي، دون الادعاء بأن كل مراحل انتقال المواريث قد ثبتت. والفراغ المصرح به أكثر أمانة من نهاية روائية مؤلفة، ولا ينقص من مكانة النبي أن يكون بعض تاريخ حياته غير محفوظ في المصادر التي وصلت إلينا.

٣٣. حصيلة الروايات ومنهج اعتمادها

اعتمدت هذه المراجعة آيات البقرة والإسراء أساسًا، وقابلت أخبار تفسير القمي والعياشي وكتاب الزهد وقصص الراوندي، ثم أقوال التبيان ومجمع البيان والصافي ونور الثقلين والميزان وآلاء الرحمن. ورجعت إلى مواضع الاختلاف في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا وإثبات الوصية، وإلى الدعاء في إقبال الأعمال. واستعملت بحار الأنوار لتتبع الأصول وتعليقات المجلسي، مع التصريح بالنقل الوسيط حين لم تقرأ الطبعة الأصلية للخبر، كما في مقطع الاحتجاج والنقل عن حلية الأبرار.

تعدد الكتب الناقلة لا يعني تعدد طرق مستقلة؛ فالصافي ونور الثقلين والبحار قد يعيدون الخبر نفسه من القمي أو العياشي. كما أن النص المتداول للعياشي لا يظهر في هذه الأخبار سلسلة كاملة من المصنف إلى الإمام، فلا يكفي وجود اسم أبي بصير في أوله للحكم على جميع الطريق. ولم يمنح الفصل جميع الأخبار درجة «الصحيح»، ولم يجعل كل قول في التفسير حديثًا. المقصود استيعاب المادة التي أمكن توثيقها، مع حفظ مراتبها، لا ادعاء فحص كل نسخة ومخطوط في العالم.

تستقر صورة إرميا في هذا الفصل على نبي إنذار ورحمة، تقرأ أخباره في ضوء القرآن وتعرض اختلافاتها بأمانة. وتبقى المرأة المجهولة والطفل والأسير والعالم والملك في مواضعهم من المشهد، كما تبقى الأسماء المختلف فيها ظاهرة للقارئ. ومن هذه المدينة المهددة، ومن أخبار البقاء بعد المحنة، ينتقل الكتاب إلى دانيال عليه السلام في الفصل السابع والثلاثين.

المصادر والإحالات

الأرقام بين المعقوفين تحيل إلى القائمة الآتية، ونص كل إحالة مرتبط بنسخته الرقمية. أرقام الصفحات تخص الطبعات المشار إليها، وقد تختلف عن ترتيب صفحات الموقع. نقلت مضامين الأخبار بالمعنى إلا المواضع الموضوعة بين علامتي اقتباس. لا يعني إدراج المرجع تصحيح جميع أخباره.

[١] القرآن الكريم، البقرة: ٢٥٩؛ النص القرآني في صفحة تفسير مجمع البيان للآية.

[٢] القرآن الكريم، الإسراء: ٢–٨؛ النص والسياق في صفحة الميزان لهذه المجموعة من الآيات.

[٣] تفسير القمي، تفسير البقرة: ٢٥٩، خبر هارون بن خارجة عن الإمام الصادق، القسم الأول: الإنذار وأهل إرميا وبخت نصر ويحيى ودانيال.

[٤] تفسير القمي، الموضع نفسه، الصفحة الثانية في العرض الرقمي: رؤيا بخت نصر والفتى الفارسي وخروج إرميا وإحياؤه.

[٥] تفسير العياشي، ج١، ص١٤٠–١٤٢، ح٤٦٦–٤٦٨؛ خبر أبي بصير في إرميا، والخبر التالي، وخبر ابن الكواء في عزير.

[٦] الحسين بن سعيد، كتاب الزهد، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خبر هارون بن خارجة عن الإمام الصادق؛ ح١ في ترتيب الباب الرقمي، ويقع برقم ٢٨٧ في ترقيم الكتاب المتداول.

[٧] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، باب «في نبوة إرميا ودانيال»، ص٢٢٢–٢٢٣، ح٢٩٤؛ وانظر أخبار دانيال اللاحقة في الصفحة الرقمية نفسها.

[٨] المصدر نفسه، ص٢٢٣–٢٢٥، ح٢٩٥، عن وهب بن منبه: الحصار والسجن ومصر والحجارة الأربع وإعادة العمران. هذا خبر وهب، لا رواية عن الإمام.

[٩] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير البقرة: ٢٥٩، الأقوال في صاحب القرية ومعنى السؤال والعظام، وخبر أسرة عزير والتوراة.

[١٠] الشيخ الطوسي، التبيان، تفسير البقرة: ٢٥٩؛ تعيين صاحب القصة والبحث اللغوي والكلامي في الإحياء.

[١١] السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان، تفسير البقرة: ٢٥٨–٢٦٠، البحث الروائي المتعلق بآية ٢٥٩.

[١٢] الاحتجاج، خبر هشام بن الحكم عن الإمام الصادق في حوار الزنديق؛ قُرئ بنقل بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٦٢، ح٣. وفي الصفحة نفسها ابتداء خبر أمالي الطوسي في دانيال والنبي غير المسمى، ح٤.

[١٣] الشيخ الحويزي، نور الثقلين، تفسير البقرة: ٢٥٩، ح١٠٧٨-١٠٨٦؛ مقابلة الأخبار وتعليقات الألفاظ.

[١٤] الفيض الكاشاني، الصافي، تفسير البقرة: ٢٥٩، ضمن مقطع الآيات الذي يبدأ بآية ٢٥٨؛ مقارنة نقلي القمي والعياشي والإحالة إلى الاحتجاج وكمال الدين.

[١٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب قصص أرميا ودانيال وعزير وبخت نصر، ص٣٥١-٣٥٥: الأقوال التاريخية وتعليق المجلسي؛ وانظر ص٣٧٠-٣٧١ في نقد بعض أخبار وهب.

[١٦] المصدر نفسه، ص٣٧٤-٣٧٩، الأخبار اللاحقة في عزير ودانيال؛ وبيان المجلسي في اختلاف تعيين صاحب المائة عام، ص٣٧٨.

[١٧] تفسير القمي، تفسير البقرة: ٢٤٦؛ عبارة «وروي أنه أرميا النبي» ضمن خبر نبي بني إسرائيل وجالوت.

[١٨] الشيخ محمد جواد البلاغي، آلاء الرحمن، ج١، تفسير البقرة: ٢٤٦؛ نقد إلحاق اسم أرميا بالخبر المسند.

[١٩] الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج٢، ص٥٩٦، ضمن خبر مسائل الشامي لأمير المؤمنين: «والخضر وهو إرميا».

[٢٠] الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب كلام الرضا في سؤال الشامي لأمير المؤمنين، ح١؛ النسخة الرقمية المقابلة تقرأ «والخضر وهو تاليا».

[٢١] مجمع البيان، تفسير الإسراء: ٤-٨؛ رواية ابن إسحاق والأقوال المتعددة في الغزوتين وأسماء الملوك.

[٢٢] الميزان، تفسير الإسراء: ٢-٨، ولا سيما البحث الروائي وتمييز التطبيق من التفسير التاريخي.

[٢٣] السيد ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج٣، ص٢٤٤، دعاء أم داود، فقرة الصلاة على الأنبياء والصالحين.

[٢٤] الراوندي، قصص الأنبياء، تتمة أخبار دانيال وعزير، ص٢٣١ وما بعدها؛ نقل خبر كمال الدين عن الإمام الصادق في سليمان وآصف والسبي ودانيال وعزير.

[٢٥] القرآن الكريم، الأنعام: ١٦٤، أصل المسؤولية الفردية وعدم حمل وزر الغير.

[٢٦] خبر حلية الأبرار عن عمر بن إبراهيم الأوسي؛ قُرئ بواسطة محمد أمير الناصري، الإمام المهدي في الأحاديث المشتركة بين السنة والشيعة، ص٢٢٨، ح٤٩١. لم يتحقق هنا أصل إسناده.

[٢٧] الشيخ أحمد الأحسائي، شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، ج٣، شرح فقرة «ويملك في دولتكم» ومناقشة النصرة؛ نقل خبر إرميا ومعد ومعانة وغزو العرب، دون إسناد إمامي ظاهر في المقطع.

[٢٨] إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي، ص٧١-٧٢، خبر أرميا وإقامة سليمان بعد داود، وذكر أم سليمان وأم الابن الآخر.

[٢٩] مجمع البيان، تفسير الأنبياء: ١١-٢٠، وخصوصًا القول المتعلق بالقرية اليمنية وحنظلة وبخت نصر عند الآيات ١١-١٥.

[٣٠] القرآن الكريم، البقرة: ٢٤٦-٢٥١، نبي بني إسرائيل وطالوت وجالوت وداود وآية التابوت؛ قرئت مع تفسير مجمع البيان.

الفصل ٣٧ — دانيال عليه السلام — الثبات في زمن المحنة

١. دانيال في زمن المحنة

تظهر شخصية دانيال عليه السلام في الموروث الإمامي عند التقاء محنة السبي بعلم النبوة: فتى يتيم تكفله امرأة، وحكيم يكشف شهادة الزور، ونبي يثبت في الجب، وداعٍ يشفق على الأطفال حين تستحكم المجاعة. ولا تختزل هذه الصورة في رؤيا ملك أو في موضع قبر؛ إذ تتوزع أخبارها على أبواب القضاء والعلم والتوبة والدعاء والطعام، فضلًا عن كتب قصص الأنبياء. ومن ثم يجمع الفصل هذه المواضع، ويحفظ لكل واحد منها سياقه، قبل أن يستخلص ما يجمعها من معاني الهداية. [٢, ٣, ٥, ١٥–١٨]

٢. دانيال والقرآن: الاسم الغائب والإطار الحاضر

لا يرد اسم دانيال صريحًا في القرآن الكريم. وهذا لا ينفي أصل نبوته؛ فالقرآن يقرر أن من الرسل من قصّهم الله على نبيه ومنهم من لم يقصصهم عليه، كما يذكر إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة. غير أن هذا الإطار العام لا يتحول إلى نص خاص على ميلاد دانيال أو نسبه أو سجنه أو قبره. إثبات تلك الأخبار أو مناقشتها عمل روائي، وليس استخراجًا لسيرة مسماة من ألفاظ القرآن. [١]

وتحتاج صلته بآيتين إلى ضبط خاص. فالبقرة ٢:٢٥٩ لا تسمّي المار على القرية، وتعرض المصادر التي راجعناها أخبارًا في إرميا وعزير، فلا ينقل هذا الحدث إلى دانيال لمجاورة أخباره لهما. أما البروج ٨٥:٤–١٠ فتذكر أصحاب الأخدود والمؤمنين والمؤمنات ولا تسمّي دانيال؛ وسيأتي الخبر الذي يربطه بالأخدود مع بيان اختلاف تعيين أصحابه. والتمييز بين الآية وتطبيقها الروائي يحفظ مقام القرآن ويمنع محو الفروق بين الشخصيات. [٧, ٢١–٢٣, ٣٠]

٣. النبوة والعلم ومحبة أهل البيت

يروي الراوندي عن طريق الصدوق، في خبر ينتهي إلى جابر بن يزيد الجعفي عن الإمام الباقر عليه السلام، سؤالًا عن تعبير الرؤيا عن دانيال. ويصفه الجواب بأنه نبي يوحى إليه، ممن علّمهم الله تأويل الأحاديث، وصدّيق حكيم، ويدين بمحبة أهل البيت عليهم السلام. هذا نص روائي مباشر في منزلته داخل الموروث الإمامي، وليس مجرد استنتاج من شهرته في كتب الأمم. ولفظ النبوة يرد أيضًا في خبر القضاء وخبر الخبز في «الكافي». [٢, ٣, ١٥]

ولا يعني هذا الخبر تصحيح كل كتاب في تعبير الأحلام يحمل اسمه، ولا إثبات كل حساب مستقبلي ينسب إليه. فموضوعه أصل العلم الذي آتاه الله إياه، وأما نسبة كتاب بعينه فتحتاج إلى دليل مستقل. كذلك فإن ذكر محبة أهل البيت هنا خبر عن وحدة الهداية في الاعتقاد الإمامي، ولا يجعل الأئمة شخصيات معاصرة لأحداث بابل. الإمام الباقر راوٍ معلّم عن دانيال، ودانيال هو صاحب الخبر القديم. [٢]

٤. النسب والمولد والأسرة: ما نعرفه وما لا نعرفه

يضع خبر «كمال الدين» دانيال ضمن أربعة أسرى صغار من أهل بيت يهودا، ويذكر عزيرًا على حدة من ولد هارون. فهذا تعيين لانتماء جماعي بحسب الخبر، وليس سلسلة نسب مكتملة إلى الأب والأم. ولا تعطي النصوص الأساسية التي اعتمدناها تاريخًا مضبوطًا لمولده، أو اسمًا ثابتًا لأبيه وأمه، أو اسم زوجته. ولا يلزم من سكوتها عن الزواج نفيه، كما لا يجوز استحداث امرأة مسماة لإكمال صورة الأسرة. [٤]

ويذكر خبر آخر مكيخا بن دانيال، ويصرّح «إثبات الوصية» بأنه ابنه؛ فتثبت هذه البنوة داخل ذلك النقل مع التحفظ على اضطراب سياقه الزمني، لا بوصفها معلومة قرآنية. أما الطفل الذي يشبه دانيال في خبر الإمام الرضا عليه السلام فهو ابن ملك غير مسمى، وليس ابن دانيال. وهذه التفرقة تمنع ضم أطفال الأخبار المختلفة إلى أسرة واحدة لم ينص عليها المصدر. [١٤, ٢١, ٢٤]

٥. المرأة التي احتضنت اليتيم

في «الكافي»، بسند علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عليه السلام، يروي أمير المؤمنين عليه السلام أن دانيال كان يتيمًا لا أم له ولا أب، وأن امرأة كبيرة السن من بني إسرائيل ضمته وربّته. لا يسمّيها الخبر، ولا يصفها بأنها زوجة نبي أو أم ملك. منزلتها في القصة نابعة من فعلها: احتضان طفل فقد أبويه، حتى نشأ وظهر منه ما يدفع الظلم عن غيره. [٣]

ينبغي لذلك إثباتها في سجل نساء الفصل بعنوان «كافلة دانيال العجوز». وهي غير أمه المذكورة في خبر الخاتم عند ابن كثير، وغير المرأة العابدة التي افتُري عليها، وغير المرأتين في خبر المجاعة. ولا تتكفل الرواية ببيان متى فقد أبويه أو كم كان عمره حين تكفلته؛ فلا نضع لهذه الفجوات مشاهد حوار أو تواريخ لم تنقل. [٣, ١٥, ٢٩]

٦. المرأة العابدة والقاضيان الخائنان

يتابع خبر «الكافي» أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل كان له قاضيان وصديق لهما، رجل صالح له امرأة جميلة. وحين احتاج الملك إلى من يرسله في بعض شؤونه، رشّح القاضيان ذلك الرجل، فخرج موصيًا إياهما بالإحسان إلى زوجته. ولكنهما خانَا الأمانة، وراوداها عن نفسها، ثم هدداها باتهامها بالزنا إن لم تستجب. فرفضت، ومضيا إلى الملك يشهدان عليها زورًا. [٣]

يعرفها الخبر بوصف «العابدة»، ولا يذكر اسمها ولا اسم زوجها ولا اسمي القاضيين. ومن أمانة النقل ألا يُجعل اسم سوسنة المتداول في تراث آخر جزءًا من لفظ الإمام، وألا يُستبدل بالزوج رجل معروف من أنبياء بني إسرائيل. لقد اجتمع عليها فساد الشهوة وفساد المنصب؛ إذ حاول صاحبا سلطة قضائية أن يجعلا منزلتهما حجة على براءة امرأة لا تملك مثل سلطانهما. هذا معنى مستفاد من سياق القصة، لا عبارة مضافة إلى الحديث. [٣]

٧. دانيال الصبي والوزير وكشف التناقض

أمهل الملك تنفيذ العقوبة ثلاثة أيام، وسأل وزيره عن مخرج فلم يجد. وفي اليوم الثالث مر الوزير بصبيان يلعبون، وفيهم دانيال وهو لا يعرفه. جعل دانيال لنفسه دور الملك، ولصبي دور المرأة، ولآخرين دور القاضيين، واتخذ سيفًا من قصب. ثم فصل بين الشاهدين في تمثيل الصبيان، وسأل كل واحد على انفراد عن الواقعة، فخالف أحدهما صاحبه. فاستبان للوزير وجه التحقق الذي غاب عن مجلس الحكم. [٣]

أخبر الوزير الملك، فأحضر القاضيين واختبر شهادتيهما، فوقع الاختلاف كما وقع في تمثيل الصبيان، وأمر بعقوبتهما. الفاعلون هنا ليسوا دانيال وحده: هناك الوزير الذي أصغى ونقل، والملك الذي أعاد النظر، والصبيان الذين قامت بهم المحاكاة، والمنادي والجمهور في خلفية الخبر. ولا يسمى أي منهم. والقصة تعرض قضاءً في أمة سابقة؛ فلا تستنبط منها وحدها إجراءات عقوبة تطبق خارج ضوابط الشريعة وأبواب القضاء. [٣]

٨. لماذا روى أمير المؤمنين قصة دانيال؟

لخبر القضاء صدر لا ينبغي إسقاط شخصياته. فقد عُرضت في زمن عمر بن الخطاب قضية يتيمة في كفالة رجل كثير الغياب. خافت زوجته أن يتزوج اليتيمة بعدما كبرت، فاعتدت عليها مستعينة بنساء من جاراتها، ثم اتهمتها بالفاحشة وجعلت المشاركات شاهدات عليها. ولما أحيلت القضية إلى أمير المؤمنين عليه السلام فصل بين النساء واستنطقهن، فانكشف الاعتداء والافتراء. وعندئذ ذكر سابقة دانيال في التفريق بين الشاهدين، فسأله عمر عن قصته. [٣]

وهكذا يحضر أمير المؤمنين وعمر والرجل الكافل وزوجته واليتيمة والشاهدات في إطار رواية دانيال، لا في عصره. وليست اليتيمة هي العابدة الإسرائيلية، وليست الزوجة المعتدية كافلة دانيال المحسنة. إن حفظ هذا الفصل بين الأزمنة والأدوار يمنع أن تضيع إحدى الضحيتين أو أن تلتبس امرأة مجرمة بامرأة أحسنت. ومحور الاستشهاد هو إنقاذ البريء من شهادة متواطئة، مع إبقاء بقية الأحكام في سياق الخبر الفقهي الكامل. [٣]

٩. السبي وبيت يهودا وعزير

يروي «كمال الدين» عن الإمام الصادق عليه السلام، في حديث طويل عن غيبات الحجج، اشتداد البلاء على بني إسرائيل بعد غيبة آصف بن برخيا، وتسلط بخت نصر عليهم، واختياره أربعة صبية من بيت يهودا فيهم دانيال، واختياره عزيرًا من ولد هارون. في هذا اللفظ يكون دانيال واحدًا من الأربعة، وتبقى أسماء الثلاثة الآخرين غير مذكورة. أما عزير فمذكور باختيار مستقل، فلا يحذف من مشهد الأسر ولا يجعل من بيت يهودا على خلاف اللفظ. [٤]

وتحفظ الرواية الجماعة أيضًا: من قُتل، ومن هرب، والذرية المسبيّة، والشيعة الذين ينتظرون الفرج. ليست هذه الأوصاف قوائم أسماء مفقودة يجوز اختراعها، ولكنها جزء من موضوع الفصل؛ لأن ثبات دانيال لا ينفصل عن أناس طال عليهم الخوف. ولا نخلط هذا العدد بخبر وهب الذي يجعل مع دانيال أربعة فتية مسمّين، فإن تركيب الجماعة مختلف بين النقلين. [٤, ١٠]

١٠. من إرميا إلى دانيال: اتصال الموضوع وحدود الوصية

يربط ترتيب الكتاب بين فصل إرميا وهذا الفصل من جهة الإنذار بالخراب ثم الثبات في المحنة. لكن المجاورة التحريرية ليست سندًا لوصية شخصية من إرميا إلى دانيال. ففي خبر «كمال الدين» المذكور تظهر غيبة آصف ثم أسر دانيال؛ وفي التفسير المنسوب إلى القمي تجتمع أخبار إرميا ودانيال وعزير في سياق واحد؛ وفي «إثبات الوصية» يرد طريق آخر يجعل منذر بن شمعون مستودِعًا للميراث عند دانيال. لكل نص بناؤه الذي ينبغي عرضه باسمه. [٤, ٧, ٢٤]

ويصح استخلاص معنى استمرار الحجة في زمن فقدان الدولة، مع عدم تحويله إلى سلسلة أسماء وتواريخ لم تتفق عليها الأخبار. فالهداية في هذه المادة لا تزول لأن الحاكم ظالم أو لأن المؤمن أسير، ولكن معرفة كل انتقال فردي تحتاج إلى نصها الخاص. لهذا يحفظ الفصل مواضع الاتصال ومواضع عدم العلم معًا، ويؤخر تفصيل مكيخا وعزير إلى مبحث الوصية. [٤, ٢١, ٢٤]

١١. خبر الجب في أمالي الطوسي وقصص الراوندي

يروي الشيخ الطوسي في «الأمالي» عن الإمام الصادق عليه السلام أن ملكًا جبارًا ألقى دانيال في جب ومعه سباع لتفترسه، فلم تدن منه ولم تجرحه. فأوحى الله إلى نبي أن يأتيه بطعام، ودلّه على الطريق بضبع يتبعه حتى يصل إلى الجب، فأدلى الطعام إلى دانيال. ويروي الراوندي الخبر بطريق آخر ينتهي إلى حفص بن غياث عن الإمام الصادق. إذن للخبر حضور صريح في النقل الإمامي، ولا يصح وصفه بأنه حكاية كتابية لم تدخل مصادرنا. [٥, ٦]

ومع ذلك لا يسمي هذا الخبر الملك ولا النبي حامل الطعام؛ فتسميتهما بخت نصر وإرميا من نقل آخر لا تكون استكمالًا للفظ نفسه. كما أن طريق الطوسي وطريق الراوندي يحتاج كل منهما إلى دراسته السندية، ولا يكفي اختلاف الطريق لإعلان الصحة القطعية. أما الضبع والسباع فهي عناصر غير بشرية في القصة، ودورها الدلالة والحفظ، لا زيادة عدد الشخصيات الرجالية والنسائية. [٥, ٦]

١٢. اللبوة في التفسير والنبي غير المسمى

في الخبر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في التفسير المنسوب إلى القمي، يُذكر بخت نصر باسمه، ويذكر أنه ألقى دانيال في بئر ببابل ومعه لبوة، فجعلت تأكل طين البئر ويشرب دانيال لبنها. ثم أوحى الله إلى نبي في بيت المقدس أن يحمل إليه الطعام والشراب ويبلغه السلام. وحين سمع دانيال

صوته استغربه، فأخبره بمهمته وأدلى إليه ما حمله. هذه التفاصيل أوسع من خبر الطوسي في جانب اللبوة ومكان النبي، لكنها لا تعطي اسمه. [٧]

أما ابن كثير فينقل خبرًا عن ابن أبي الدنيا، ينتهي إلى عبد الله بن أبي الهذيل، يسمّي حامل الطعام أرميا. يذكر هذا للتفريق بين الموارد، لا لنقل الاسم إلى إسناد الإمام الصادق. وكذلك لا يسمّى حيَقوق حامل الطعام هنا بغير حجة من النص المعتمد. ومن المهم عدم خلط خبر اللبوة في بئر السجن بخبر الأسد واللبوة حول الطفل في قصة الخاتم؛ فاختلاف العمر والسياق والمصدر يمنع الجزم بوحدة الحادثتين. [٧, ٢٧, ٢٩]

١٣. دعاء دانيال: الثقة حين تنقطع الحيل

يلتقي خبرا الطوسي والراوندي وخبر التفسير على حمد دانيال لله حين يأتيه الرزق في موضع لا يملك الخروج منه. وفي «الأمالي» يحمد الله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يخيّب من دعاه، ويكفي المتوكل عليه، ولا يكل الواثق به إلى غيره، ويجزي بالإحسان إحسانًا وبالصبر نجاة. وفي التفسير زيادة في الحمد عند كشف الكرب وانقطاع الحيل. تحفظ هذه المعاني ألفاظ الدعاء في مصادرها، ولا تجمع جميع الزيادات في صيغة واحدة يقال إنها النص المتفق عليه. [٥–٧]

وفي صدر خبر الطوسي ذمّ للهم بالرزق، وفي ذيله أن أرزاق المتقين تأتي من حيث لا يحتسبون. لا نحول هذا الوعظ إلى إلغاء للعمل أو تبرير لترك من تلزم رعايته؛ فالقصة نفسها جعلت وصول الطعام على يد نبي حمله وسعى به. والمعنى الذي يظهر منها هو ألا يتحول الخوف من الفقر إلى يأس من الله أو خضوع للظالم، وأن الشكر ممكن حتى قبل انفتاح باب السجن. وهذا استنباط أخلاقي من الخبر، لا حكم جديد في أبواب الكسب. [٥, ٦]

١٤. طول الأسر والملائكة والفرج في كمال الدين

ينص خبر «كمال الدين» على أن دانيال بقي أسيرًا في يد بخت نصر تسعين سنة، ثم أُلقي في الجب لما عُرف فضله ورجاء بني إسرائيل بخروجه. وكان يصوم النهار ويفطر على ما يُدلى إليه من طعام يحمله نبي. وطال البلاء على المنتظرين حتى شك كثير منهم لطول الأمد. يرد العدد هنا بوصفه مقدارًا داخل الرواية؛ ولا يحسب منه تاريخ ميلاد يقيني، ولا يطابق بغير بحث على مدة حكم ملك تاريخي معين. [٤]

ثم رأى الملك في المنام ملائكة تهبط أفواجًا إلى دانيال وتبشره بالفرج؛ فندم، وأخرجه، واعتذر إليه، وفوّض إليه النظر في شؤون مملكته والقضاء بين الناس. فظهر المستترون واجتمع المؤمنون إليه. ويختم هذا المسار بقصر المدة بعد الفرج ووفاة دانيال وإفضاء الأمر إلى عزير. إنها نهاية تختلف عن نهاية الملك المقتول في خبر التفسير، فلا تُلصق إحداهما بالأخرى لتكوين سيرة واحدة متصلة ظاهرًا. [٤, ٨]

١٥. رؤيا المعادن والغلام الفارسي في خبر التفسير

في تتمة خبر القمي يرى بخت نصر نفسه في صورة رأس من حديد ورجلين من نحاس وصدر من ذهب. ويعجز المنجمون عن إخباره بما رآه، فيأمر بقتلهم. فيرشده رجل من حاشيته إلى دانيال صاحب الجب. يصف دانيال الرؤيا ويخبره، بحسب النص، بانتهاء ملكه ومقتله خلال ثلاثة أيام على يد رجل من ولد فارس. ويحاول الملك الاحتماء بالحرس والمدائن، ثم يأمر بقتل من يلقاه رجاله. [٨]

ويأتي مقتله على يد غلام فارسي من داخل محيط القصر بعد أن دفع إليه سيفه وأمره ألا يستثني أحدًا حتى الملك نفسه. في النص الرقمي للتفسير وصف الغلام بأنه يخدم ابنًا للملك، بينما يرد في نقل «البحار» وصف قريب من اتخاذه ابنًا؛ فالأحوط حفظ اختلاف اللفظ وعدم بناء نسب أو تبنٍّ جازم عليه. والغلام غير مسمى، وليس لدينا في هذا الخبر ما يجيز تسميته كورش أو دارا. كذلك لا يتطابق ترتيب المعادن هنا مع ترتيبها في خبر وهب الآتي. [٨, ٩, ٣١]

١٦. يحيى والنساء في سياق خراب بيت المقدس

يجيء خبر دانيال في التفسير عقب رواية تربط قتل بخت نصر بدم يحيى بن زكريا. وفي ذلك السياق ملك غير مسمى وامرأة طلبت قتل يحيى، ثم عجوز يذكر الخبر أنها آخر من قُتل على الدم. لهذه الشخصيات صلة بسياق المصدر، لكنها ليست شخصيات ثبت أنها التقت دانيال. ولا تسمّى المرأة هيروديا ولا العجوز كافلته بغير نص، ولا تُحوّل سلسلة القتل إلى تأريخ محقق لمجرد اتصال فقراتها في كتاب واحد. [٧]

ومن مواضع الإشكال أن الأخبار لا تستقر على ترتيب واحد لدانيال وعزير ويحيى والمسيح. و«إثبات الوصية» نفسه يذكر خبرًا آخر يجعل عزيرًا ودانيال قبل المسيح ويحيى. لذلك لا يصح تجاوز المشكلة باستبدال اسم ملك باسم آخر من غير شاهد. يثبت الفصل ورود يحيى وأبيه زكريا في الإطار الروائي، ويحيل تفصيل حياتهما إلى موضعهما، ويحفظ للنساء المذكورات أدوارهن المحددة دون اختراع لقاءات. [٢١, ٢٤]

١٧. رؤيا التمثال والملكان في رواية وهب

ينقل الراوندي عن وهب بن منبّه خبرًا آخر يبدأ بأسر بني إسرائيل وفيهم دانيال وعزير. وبعد سبع سنين يرى بخت نصر رؤيا وينساها، ويطالب قومه بمعرفتها وتأويلها. ويبلغ الأمر دانيال في السجن، فيطلب من صاحب السجن إبلاغ الملك. وعند دخوله يمتنع من السجود للملك، ويشرح أن العلم الذي أوتيه مرتبط بعبادته لله وحده. صاحب السجن والحرس وأهل الملك حاضرون في هذه الرواية، لكنهم لا يسمّون. [٩]

تتكون الصورة هنا من ذهب وفضة ونحاس وحديد وفخار، ويهدمها حجر يتسع حتى يغطي الأرض. ويجعل التأويل الذهب لملك بخت نصر، والفضة لابنه، والنحاس للروم، والحديد لفارس، والفخار لأمتين تحكمهما امرأتان: إحداهما في شرقي اليمن والأخرى في غربي الشام. ثم يفسر الحجر بدين يظهر في آخر الزمان ببعثة نبي أمي من العرب. لا يسمّي وهب الملكتين، فلا نجعلهما بلقيس وبوران، ولا نحول هذه البشارة في خبره إلى حديث صادر عن الإمام. [٩]

ويذكر الخبر أن الملك رفع منزلة دانيال، وأمر أبناءه وأهل بيته بأخذ العلم عنه وتقديم رسوله، فحسده قومه. يحفظ هذا النقل صورة العلم الذي يدخل القصر ولا يسجد لصاحبه، لكن قوته الأدبية لا تزيل الحاجة إلى نقد مصدره. ويأتي لاحقًا تنبيه المجلسي الصريح إلى عدم الاعتماد على هذه القصص المنقولة عن وهب. [٩, ١٣]

١٨. الفتية الأربعة والخامس في النار

في امتداد رواية وهب صنع خصوم دانيال صنمًا، وأوقدوا نارًا لمن يمتنع من السجود له. ويذكر النص أربعة فتية مع دانيال بأسماء: يوشال، ويوحين، وعيصوا، ومريوس، بحسب ضبط النسخة التي قابلناها. رفضوا عبادة المصنوع، وأعلنوا استعدادهم للسجود لخالقه، فأُلقوا في النار. وينبغي إثبات أسمائهم بهذا القيد؛ فاختلاف النسخ والأسماء المنقولة عن لغات أخرى لا يسمح بتصحيحها اعتمادًا على أسماء كتابية مألوفة وحدها. [١٠]

ويرى الملك معهم خامسًا وقد انقلبت النار بردًا؛ ويصفه جواب دانيال في هذه النسخة بعبارة «بحر البرد» المرسل نصرة لهم. لا نستخرج من هذا اللفظ اسم جبرئيل، ولا نعدّه خامسًا بشريًا مسمى، ولا نجعل دانيال واحدًا من الأربعة؛ فالخبر يفرده بوصفه المفسر الذي سئل عنهم. ثم يضمهم الملك إليه ويكرمهم. وهذه رواية عن وهب، تختلف عن خبر «كمال الدين» الذي يجعل دانيال نفسه مع أصحابه في الأخدود. [١٠, ٢١]

١٩. رؤيا الشجرة وخبر المسخ ونقد المجلسي

يروي وهب أن بخت نصر رأى شجرة عظيمة تأوي إليها الطيور والوحوش، وملكين يتحاوران في قطعها مع إبقاء أصلها. وفسر دانيال الشجرة بالملك، والطيور بأهله وولده، وما استظل بها بخدمه ورعيته؛ ثم أخبره بعقوبة بسبب موافقته على عبادة الصنم. ويتابع الخبر وصف تحوله إلى عقاب، ثم بعوضة، ثم عودته إنسانًا بعد سبع سنين، وإظهاره التوحيد وموته. وتبقى شخصيات أهله وولده والرعية جماعات غير مسماة، والملكان شخصيتين غيبيتين لا يذكر النص اسميهما. [١١]

لكن المجلسي يصرح عند هذه الأخبار بأن قصص وهب ليست مما يعتمد عليه، ويرى أن إيمان بخت نصر يخالف ظواهر أخبار أخرى. ويشير إلى عبارة «بالتيه» في النص المعروف بتوحيد المفضل، ثم ينبه التعليق في طبعة «البحار» إلى أن اللفظ لا يثبت المسخ بذاته. لذلك يُذكر الخبر لإحاطة القارئ بمادة

المصدر، ولا يعتمد خاتمة يقينية للملك أو دليلًا على قبول توبته. وعبارة وهب عن شبه إيمانه بإيمان السحرة مقارنة منه، لا تجعل سحرة فرعون أصحابًا لدانيال. [١٣]

٢٠. ابن الملك وزوجته الحكيمة والكتابة على الجدار

يتبع خبر وهب خبرٌ عن ابن بخت نصر الذي آل إليه الملك، وعن الأواني المأخوذة من بيت المقدس، المنسوبة في القصة إلى سليمان بن داود. وينهى دانيال عن تدنيسها، ثم يبتعد عنه الملك الشاب. وفي هذا الموضع تظهر امرأة حكيمة، زوجة الابن، نشأت في تأديب دانيال، وتدعوه إلى الانتفاع بحكمته كما كان أبوه يفعل. لا يسمّي النص هذه المرأة، ولا يجعلها زوجة دانيال أو ابنته. وهي غير الملكتين الواردتين في تأويل التمثال. [١٢]

ويحكي الخبر ظهور كتابة على الجدار تفسر بخفة ميزان الملك وتنجز الوعد وتفرق الملك بعد اجتماعه، ثم موته بعد عذاب بعوضة دخلت رأسه. وتختلف بعض ألفاظ الكتابة ولفظ استجابته لدانيال بين النسخ؛ فلا حاجة إلى إنشاء عبارة موحدة جازمة من مواضع مضطربة. كما لا يسمّي النص الابن بلشاصر؛ فمطابقة الأسماء الكتابية تحتاج بحثًا مستقلًا. ويظل هذا الخبر ضمن مجموعة قصص وهب التي أعقبها المجلسي بنقده، وإن حملت صورة ذات معنى للمرأة الناصحة داخل قصر السلطان. [١٢, ١٣]

٢١. الملك الذي طلب ولدًا يشبه دانيال

يروي الراوندي بطريق يشتمل على السياري، عن إسحاق بن إبراهيم، عن الإمام الرضا عليه السلام، أن ملكًا قال لدانيال إنه يشتهي أن يكون له ابن مثله. وينقل النص توجيهًا يتعلق باستحضار صورته عند المعاشرة، ثم ولادة ابن يشبهه. وترد عقب الخبر مناقشة في أثر ذلك وتأويله، مع استطراد في خبر موسى وشعيب والغنم. فلا يصح عرض النص كقاعدة طبية أو وراثية مقررة؛ غرض ذكره هنا حصر المادة المنسوبة إلى الإمام وتمييز شخصياتها، مع بقاء فحص إسناده قائمًا. [١٤]

الشخصيات المباشرة هي دانيال والملك وابنه؛ وأم الطفل مفهومة من حصول الولادة ولكنها لا تُعرّف باسم ولا بسيرة مستقلة في هذا النص. ولا يجوز جعل هذا الابن مكيخا، أو جعل الملك بخت نصر، أو ربط المرأة بزوجة ابن بخت نصر الحكيمة. أما موسى وشعيب فيظهران في التعليق المقارن، لا باعتبارهما حاضرين في مجلس دانيال. بهذه الحدود لا يسقط أحد من الذكر، ولا تنتضخم القصة بأنساب مصطنعة. [١٤]

٢٢. الخبز وصاحب المعبر والمرأتان في المجاعة

يروي «الكافي» في باب فضل الخبز، عن مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، أن دانيال أعطى صاحب معبر رغيفًا ليعبر به، فرماه الرجل مستهينًا بالخبز لكثرته عندهم. فدعا دانيال أن يكرم الله الخبز، وأصاب القوم انقطاع المطر والزرع حتى اشتدت مجاعتهم.

يربط الخبر نعمة الطعام بعمل كثير من الخلق، فيجعل الاستهانة بها تجاهلًا لرحمة الله ولما يجتمع في وصولها من أسباب. [١٥]

ويصف النص حدًا بالغ القسوة من الجوع: اتفقت امرأتان لكلٍ منهما ولد على أكل ولد إحداهما ثم الآخر، فلما امتنعَت الثانية عن تسليم ولدها احتكمتا إلى دانيال. يُذكر ذلك بقدر ما يوضح شدة البلاء، دون تصوير مثير أو تلطيف يطمس ضحية القصة. الشخصيات التي يجب حفظها هي المرأتان والولدان، فضلًا عن صاحب المعبر. لا أسماء لها، ولا يقول الخبر إن المرأتين زوجتا ملك أو إن أحد الطفلين من ذرية دانيال. [١٥]

فلما بلغته حالهما رفع يديه طالبًا عودة الفضل والرحمة وألا يعاقب الأطفال ومن فيه خير بذنب صاحب المعبر وأمثاله؛ فجاء الفرج بالمطر والإنبات، وذكر النص الرحمة بالطفل الصغير. في هذه النهاية يتقدم إنقاذ الضعفاء، ولا يصير ما فعلته المرأتان فعلًا مأذونًا به. كما لا يعمم الخبر على كل مجاعة ليقال إن ضحاياها مذنبون؛ إنه نقل عن واقعة مخصوصة ودعاء مخصوص، ومعناه الأخلاقي الحاضر إكرام النعمة والرحمة بالجائع. [١٥]

٢٣. دانيال والعلم في حديث الإمام السجاد

في باب ثواب العالم والمتعلم من «الكافي» يروي أبو حمزة عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، بطريق فيه رفع، كلامًا في فضل طلب العلم، ثم وحيًا إلى دانيال يذم الجاهل المستخف بحق أهل العلم، ويمدح التقي الملازم للعلماء، التابع للحلماء، القابل عن الحكماء. والتنبيه إلى الرفع ضروري؛ فالنص موجود في المصدر، لكن وجود واسطة غير مبيّنة لا يزول عند اختصار الإسناد. [١٦]

ويكتمل بهذا جانب آخر من صورته: الحكمة ليست مهارة لكسب رضا الملك فحسب، وإنما أدب في تلقي الحق وملازمة أهله. فالجاهل المذموم هنا ليس كل من لم يتيسر له التعلم، بل من يضيف إلى جهله استخفافًا وإعراضًا. وهذا التمييز مستفاد من أوصاف الخبر نفسها. أما العلماء والحلماء والحكماء فصفات لجماعات، لا أسماء لأشخاص يمكن إدخالهم في جدول المعاصرين لدانيال. [١٦]

٢٤. داود ودانيال ومناجاة طلب العصمة

يروي «الكافي» في باب التوبة عن أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام أن الله أرسل داود إلى عبده دانيال بعتاب على تكرر المعصية، وأن دانيال قام في السحر معترفًا بحاجته إلى عصمة الله. وفي الرواية طريق عن علي بن إبراهيم عن أبيه، وطريق آخر عن عدة من أصحاب الكليني عن سهل بن زياد، يلتقيان عند ابن محبوب. لذلك لا يختزل النظر في الإسناد في ذكر طريق واحد ثم إسقاط الآخر. [١٧]

وفي فهمه مسألتان: النص هنا يقول «عبدي دانيال» ولا يفصل نسبه وعصره، بينما أخبار السبي تجعله في سياق آخر؛ فلا نجزم بوحدة الشخص في كل نقل، ولا نجزم بتعدده لمجرد دفع الإشكال. كما أن حمل العتاب على ذنوب تناقض عصمة الأنبياء يحتاج إلى معالجة عقدية ودلالية، ولا يثبت بمجرد

قراءة لفظ منفرد. يورد الفصل الخبر كما هو من حيث مضمونه العام، ويتوقف عن تعيين معصية لم يسمّها، أو تركيب سيرة تجعل داود معاصرًا لبخت نصر. [١٧, ٤]

والمعنى التعبدي الواضح هو افتقار العبد إلى عناية الله وعدم استغنائه بعمله. والتكرار في طلب العصمة لا يقدم برنامجًا للمعصية، بل يبرز العجز عن مقاومة الهوى من دون توفيق الله. فيظل داود شخصية مذكورة في خبر مستقل يتصل باسم دانيال، مع إبقاء سؤال الهوية والزمن ظاهرًا للقارئ بدل إخفائه. [١٧]

٢٥. ذكر دانيال في الدعاء والاستعاذة

يروي «الكافي» في باب الحرز والعوذة، عن الإمام الصادق عن أمير المؤمنين عليهما السلام، الاستعاذة عند لقاء السبع برب دانيال والجب من شر الأسد. ويشتمل الطريق على ابن جمهور وأبيه ومحمد بن سنان، فلا يُساق هذا الموضع بوصفه إسنادًا مفروغًا من صحته. لكنه شاهد نصي على حضور خبر دانيال والجب في الموروث الدعائي، منفصل عن كتب القصص. والالتجاء في عبارته إلى الله رب دانيال، لا إلى استقلال المخلوق بالحفظ. [١٨]

ويَرِد اسمه كذلك في دعاء أم داود كما أورده ابن طاووس في «إقبال الأعمال»، في سياق الصلاة على الأنبياء إلى جانب إرميا وحيقوق وعزير وغيرهم. أم داود هنا مرتبطة بالعمل الدعائي وروايته في عصر لاحق، وليست أم النبي دانيال. كما أن ترتيب الأسماء في الدعاء ليس جدول تعاقب زمني، فلا يستدل به على أن كل مذكور أوصى إلى الذي بعده. [١٩]

٢٦. الكتب المنسوبة إلى دانيال والملاحم والعلامات

لا تكفي شهرة دانيال بتعبير الرؤيا لنسبة كل كتاب يحمل اسمه إليه. ومع ذلك فإن نفي وجود أي مادة من هذا الباب في المصادر الإمامية غير دقيق؛ فالراوندي يورد خبرًا عن الإمام الصادق عليه السلام بلفظ «كان في كتاب دانيال»، يتعلق بأول المحرم وما يوافقه من أيام الأسبوع، ثم فصولًا في الكسوف والخسوف وأحداث السنة. وفي طريق الخبر جعفر بن محمد بن مالك الفزاري وغيره؛ وعرض النص لا يغني عن فحص الطريق ونقل الكتاب الذي يدعيه. [٢٠]

والراوندي نفسه يعلّق صحة إدراجها في الملاحم والحوادث على صحة الروايات عن دانيال. ولذلك نُثبت هنا بوصفها مادة منسوبة مشروطة، ولا تعتمد للتنبؤ بطقس سنة معينة أو أسعارها أو حروبها، ولا لتحديد موعد ظهور الإمام المهدي عليه السلام. والملوك والنساء والأطفال والجماعات المذكورة فيها أوصاف عامة ضمن توقعات، وليست سيرًا لأشخاص مسمّين صح أنهم عاشوا مع دانيال. [٢٠]

٢٧. دانيال وأصحاب الأخدود: الرواية وحدود التعيين

في حديث طويل يرويه الصدوق عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وآله، يذكر ملكًا بعد بخت نصر، تختلف كتابة اسمه بين «مهرويه» و«مهرقيه» في النقول، وتعذيب دانيال وأصحابه وشيعته بإلقائهم في أخدود من النار ثم في جب السباع، ونجاتهم. ويصل الخبر بينهم وبين آيتي «قتل أصحاب الأخدود» و«النار ذات الوقود». ينبغي إثبات هذا المورد لأنه يربط دانيال بنص قرآني، مع التصريح بأن التسمية من الرواية لا من الآية. [٢١, ٢٢]

غير أن طريق الحديث يشتمل على راوٍ مبهم بلفظ «عمن حدثه»، ويجمع متنه سلسلة ملوك وأنبياء ذات إشكالات زمنية واضحة، نبه إليها محقق الكتاب. وفي «إثبات الوصية» يسمى الملك المعذب «فهر»، فلا نطمس هذا الاختلاف في الاسم. فلا يصح جعل هذا المسار التفسير الوحيد المقطوع به للأخدود. [٢٤] والقرآن يذكر اضطهاد المؤمنين والمؤمنات بسبب إيمانهم، بينما لا تقدم هذه الرواية قائمة بأسماء نساء جماعة دانيال. نحفظ وجود النساء في النص القرآني، ونمتنع عن منحهن أسماء من قصص أخرى لا تنص على هذا الاتصال. [٢١, ٢٢]

٢٨. المرأة ورضيعها في أخبار الأخدود الأخرى

يجمع الطبرسي في «مجمع البيان» عند سورة البروج أخبارًا متعددة. ومنها نقل عن العياشي، عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام، أن أمير المؤمنين سأل أسقف نجران، ثم ذكر نبيًا حبشيًا وأصحابه، وامرأة معها طفل ابن شهر شجعها على الثبات حين هابت النار. هذه المرأة وطفلها لا يسميهما الخبر، ولا يسمي النبي دانيال. فلا يجوز ضمهما إلى أصحابه جزمًا، وإن اشتركت القصتان في عنوان الأخدود. [٢٣]

ويذكر التفسير أيضًا، مع تعيين قائلي الأخبار، قصة الغلام والراهب والساحر وجليس الملك، وقولًا في أخاديد متعددة، وخبر يوسف ذي نواس، وامرأة وابنها، وابنة رجل رأت نور قراءة الإنجيل. هذه شخصيات في مواد تفسيرية مقارنة، لا أسماء مستدركة على سيرة دانيال. والغاية من الإشارة إليها منع إسقاط حضور النساء ومنع الخلط في الوقت نفسه؛ فاستيعاب المرويات لا يعني جمع جميع أبطالها في حادثة واحدة. [٢٣]

٢٩. الوصية إلى مكيخا وإفضاء الأمر إلى عزير

لا يصح إبقاء القول المطلق بأن المصادر لا تذكر من جاء بعد دانيال. فحديث أبي رافع في «كمال الدين» يقول إن دانيال أُمر عند دنو وفاته أن يستودع نور الله وحكمته مكيخا بن دانيال. ويذكر «إثبات الوصية» الأمر نفسه، ويصرح بأن مكيخا ابنه. يثبت الفصل هذا الاسم وهذا الدور بوصفهما مضمون النقل، ويحتفظ بمشكلة الإسناد والسياق الزمني، فلا يحوّل مجرد وجود الاسم إلى يقين تاريخي شامل. [٢١, ٢٤]

وفي المقابل يختم خبر الإمام الصادق في «كمال الدين» مسار الأسر والفرج بوفاة دانيال وإفضاء الأمر بعده إلى عزير. لا ينص هذا الموضع على أن عزيرًا هو مكيخا، ولا أن أحدهما اسم للآخر، ولا يشرح ترتيبًا مشتركًا يجمع الروايتين. لذا تعرض النهايتان منفصلتين: عزير في خبر الغيبة والفرج، ومكيخا في خبر توارث النور والحكمة. والوقوف عند حد النص أصدق من سد الفجوة بوصية غير مروية. [٤, ٢١]

٣٠. منذر بن شمعون ومن بعد مكيخا

يقدم الكتاب المعروف بـ«إثبات الوصية»، المنسوب إلى المسعودي، مسارًا يذكر تسليم منذر بن شمعون ميراث الأنبياء إلى دانيال، ثم مكيخا ابنه، ثم أنشوا بن مكيخا، ثم رشيخا، ثم نسطورس، ثم مرعيد، ثم بحيرا. وفي حديث «كمال الدين» ترد صيغ أنشو ودسيخا ونسطورس ومرعيدا وبحيرى. نسجل الفروق في الرسم ولا نفترض أنها كلها تصحيفات محسومة، ولا نسقط اسمًا لأن ضبطه غير مألوف. [٢١, ٢٤, ٢٥]

هذه الأسماء اللاحقة ليست كلها من معاصري دانيال. ويذكر «إثبات الوصية» في امتدادها بوران بنت كسرى ثم يزدجرد، فتثبت بوران بوصفها ملكة مذكورة في آخر ذلك التسلسل، لا إحدى ملكتي رؤيا دانيال ولا امرأة ثبت أنه التقاها. كما يورد الكتاب طريقًا بديلًا بعد يحيى يمر بمنذر ثم سلمة بن منذر، فيكشف بنفسه تعدد مسارات النقل. وجود هذه القوائم مهم لتتبع الدعوى، لكنه لا يرفع الاضطراب الزمني ولا يحقق وحدة الأسانيد. [٢٥]

ويظهر اسم مكيخا مرة أخرى في خبر أصحاب الكهف في هذا المصدر بوصفه حامل الورق إلى المدينة؛ ولا يكفي اشتراك الاسم لإثبات أنه مكيخا بن دانيال. وكذلك لا يُعرّف نسطورس الوارد في الوصية تلقائيًا بشخصية كنسية معروفة تحمل اسمًا قريبًا. تحفظ الأسماء في مواضعها حتى يأتي الدليل على الاتحاد أو الاختلاف، وتفرد تفاصيل الأجيال اللاحقة لبحثها الخاص. [٢٥]

٣١. الوفاة والعمر وموضع الدفن

تفيد الأخبار المتقدمة وفاة دانيال، لكنها لا تمنحنا تاريخًا متفقًا عليه أو عمرًا ثابتًا عند الوفاة. فخبر التسعين سنة يذكر مدة الأسر في بنائه الخاص، ولا يساويها بالعمر كله، وخبر مكيخا يذكر قرب القبض والوصية من غير سنة. كذلك لا يتعين من هذه الأخبار مرض موته أو حضور امرأة معينة عنده. إثبات حدود المعرفة هنا جزء من السيرة، وليس حذفًا متعمدًا لفصل الولادة والوفاة. [٤, ٢١]

أما «إثبات الوصية» فيقول إنه دفن بتستر، ويضيف أنه روي بالسوس. هذه شهادة على اختلاف الموضع في الموروث نفسه. والسوس وتستر اسمان لمدينتين، وليسا مجرد لفظين عربي وفارسي لمدينة واحدة؛ فينبغي تجنب العبارة الملتبسة التي تضع شوش وشوشتر موضعًا واحدًا. وإثبات نسبة قبر في رواية لا يكفي وحده لإثبات أن بناءً معينًا اليوم يطابق مكان الدفن المروي. [٢٤, ٢٦, ٢٧]

٣٢. خبر السوس في الفتوح وأمر أمير المؤمنين

ينقل ابن أعثم الكوفي في «الفتوح» أن أبا موسى الأشعري رأى في السوس جسدًا محفوظًا، فسأل أهلها، فحدثوه عن رجل كانوا يستسقون به، جُلب من العراق مع رهن خمسين رجلًا، ثم بقي عندهم حتى مات. فكتب أبو موسى إلى عمر، وسأل عمر الصحابة، فنسب الخبر إلى أمير المؤمنين عليه السلام تعريفه بأنه دانيال الحكيم، والأمر بالصلاة عليه ودفنه في موضع لا يقدر أهل السوس على الوصول إلى قبره. [٢٦]

ويتبع ذلك تحويل مجرى النهر، وزيادة أكفانه، والصلاة عليه، ودفنه في مجراه ثم إعادة الماء. أبو موسى وعمر وأمير المؤمنين من إطار العثور على الجسد ودفنه بعد زمن دانيال؛ أما أهل العراق والسوس والرجال المرهونون في القصة التي يرويها أهل البلد عن استقدامه فتتصل أدوارهم بحياته في ذلك النقل. فلا تُجمع الطبقتان في زمن واحد. والمصدر كتاب فتوح يسوق خبرًا تاريخيًا، لا سندًا إماميًا مفصلًا في هذا الموضع؛ فلا يوضع على رتبة واحدة مع كل خبر مسند في «الكافي»، ولا ينسب إلى «من لا يحضره الفقيه» بلا موضع محدد. [٢٦]

٣٣. خبر تستر والكتاب والخاتم: روايات تاريخية للمقارنة

ينقل ابن كثير عن أبي العالية خبر العثور في بيت مال الهرمزان بتستر على جسد وعند رأسه كتاب، وحمل الكتاب إلى عمر وترجمة كعب له، ودفن الجسد ليلًا بعد حفر ثلاثة عشر قبرًا لإخفاء موضعه عن النبش. ويناقش ابن كثير نفسه تعيين الرجل بدانيال ومقدار المدة منذ موته. فتُثبت أسماء أبي العالية والهرمزان وعمر وكعب في هذا الخبر، ولا يقال إنهم أصحاب دانيال في حياته. كما أن كلمة «مصحف» في سياقه لا تجعل الكتاب قرآنًا منزلًا على دانيال. [٢٧, ٢٨]

ويذكر خبرًا آخر فيه حرقوص، وبشارة منسوبة إلى النبي لمن يدل على دانيال، ثم يصرح بإرساله وبالنظر في حفظه. ويروي أيضًا قصة أربعة أسرى عملوا في تحويل النهر ثم قتلوا لإخفاء القبر؛ لا تُسوّى هذه التفاصيل المختلف طريقها، ولا يُجعل قتل الأسرى أمرًا صادرًا عن أمير المؤمنين، ولا مصداقًا أخلاقيًا يحتذى. نذكر الشخصيات والخلاف كما في المصدر المقارن، مع إبقاء الحكم على الواقعة في حدود ثبوت نقلها. [٢٨]

وفي خبر الخاتم يروي أبو بردة عن أبي موسى، عن علماء البلدة، أن الملك أمر بقتل مواليد ليلة خشي فيها زوال ملكه، وأن دانيال ألقي طفلًا في مأوى أسد ولبوة فلم يضراه، وجاءت أمه فوجدته سالمًا. فنقش صورة النجاة في خاتمه، بحسب الحكاية. يتيح هذا ذكر أم دانيال بوصفها امرأة غير مسماة في نقل تاريخي غير إمامي، ولا يحولها إلى الكافلة العجوز في «الكافي». كما يميز نجاة الرضيع هنا من محنة النبي الأسير في الجب. [٢٩]

٣٤. إخفاء القبر وحدود الاستنتاج العقدي

تحتفظ أخبار الدفن بمعنى صيانة جسد من اعتقد ناقلوها نبوته أو صلاحه، وتختلف في كيفية الإخفاء وأسبابه وتفاصيل الاستسقاء والمال والكتاب. ولا نجد في موضع «الفتوح» الذي اعتمدناه تعليلًا صريحًا يجعل كل زيارة لقبر عبادة له. لذلك لا يُستنتج من خبر تاريخي خاص إدانة مطلقة لزيارة قبور الأنبياء أو التبرك المشروع بحسب أدلته. احترام النبي وعبادة الله قضيتان لا تختلطان بمجرد ذكر قبر. [٢٦–٢٨]

وبالمقابل لا تثبت بمجرد شهرة الموضع فضيلة مخصوصة لزيارة دانيال أو صيغة زيارة منسوبة إلى إمام. ما لم نعثر على نص موثق مناسب لا نجعله من مكتسبات هذا الفصل. الخلاصة الخاصة بالدفن: هناك أخبار في السوس وأخبار في تستر، وفي بعضها أمر منسوب إلى أمير المؤمنين؛ أما تعيين الموقع الحالي وصحة كل جزئية وفضائل زيارته فمسائل لا يحسمها هذا الجمع. [٢٤, ٢٦–٢٩]

٣٥. سجل الشخصيات النسائية وحدود التعريف

الشخصيات النسائية المباشرة في الأخبار الإمامية المعروضة هي: كافلة دانيال الكبيرة في السن؛ والعابدة المتهمة زورًا؛ والمرأتان اللتان حملهما الجوع على الفعل المذكور في خبر الخبز؛ مع أم طفل الملك بوصفها غير مسماة ومفهومة من الولادة لا ذات سيرة مفصلة. وفي روايات وهب ترد الملكتان غير المسميتين في تأويل التمثال، وزوجة ابن بخت نصر الحكيمة. لا يدل تكرر لفظ «امرأة» على اتحاد واحدة من هؤلاء بالأخرى. [٣, ٩, ١٢, ١٤, ١٥]

وفي أطر النقل والمقارنة تحضر: اليتيمة في قضية أمير المؤمنين، وزوجة كافلها وجاراتها المعتديات؛ وأم دانيال في خبر الخاتم؛ والمرأة المرتبطة بطلب قتل يحيى والعجوز المقتولة في خبر الخراب؛ والمرأة ورضيعها في خبر النبي الحبشي، ونساء أخبار الأخدود الأخرى؛ وأم داود في الإطار الدعائي؛ وبوران في امتداد قائمة الملوك المتأخرة. وهذه أدوار مختلفة الأزمنة والمراتب، لا مجموعة نساء ثبت اجتماعهن بدانيال. [٣, ٧, ١٩, ٢٣, ٢٥, ٢٩]

٣٦. سجل الرجال والجماعات والحدود بين الأزمنة

يتصدر دانيال الفصل، وتتصل به في الأخبار القديمة أسماء بخت نصر وعزير ومكيخا ومنذر بن شمعون، وأسماء الفتية يوشال ويوحين وعيصوا ومريوس في رواية وهب. وتتصل بالسياقات المقارنة أسماء آصف بن برخيا ويهودا وهارون وداود وسليمان وإرميا ويحيى وزكريا، ثم رجال قوائم الوصية اللاحقة. لا تعني هذه الصلة أن كل واحد منهم التقى دانيال؛ فقد يكون الاسم نسبًا جماعيًا أو سلفًا في الخبر أو ناقلًا لميراث أو موضوعًا للمقارنة. [٢–٤, ٧–١٢, ١٧, ٢١, ٢٤, ٢٥]

ومن غير المسميين: الملك في قضية العابدة، وقاضياه، والزوج الصالح، والوزير، والصبيان المشاركون في التمثيل؛ والنبي حامل الطعام؛ وصاحب السجن والحرس والرجل الذي دل الملك على دانيال؛ والغلام

الفارسي وابن الملك الذي يظهر في وصف خدمته؛ وابن بخت نصر في خبر الجدار؛ والملك صاحب طلب الولد وطفله؛ وصاحب المعبر والولدان في المجاعة؛ والأسرى والمؤمنون والمستخفون بدينهم. تحفظ أوصافهم دون استبدالها بأسماء تخمينية. [٣–١٥]

أما النبي محمد صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والأئمة السجاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام، فيحضرون بوصفهم مصادر القول والتفسير والدعاء أو في إطار حادثة لاحقة. ويحضر جابر الجعفي ومعاوية بن وهب وأبو حمزة وحفص بن غياث ومسعدة بن صدقة وإسحاق بن إبراهيم وأبو رافع ضمن طرق النقل، ووهب بوصفه صاحب أخبار تاريخية. ويميز خبر الدفن أبا موسى وعمر وأبا العالية وكعبًا وأبا بردة وحرقوصًا والهرمزان عن رجال زمن دانيال. تسمية هذه الطبقات تمنع الخلط بين بطل الخبر وناقله. [٢, ٣, ٥, ٦, ١٤–١٨, ٢١, ٢٦–٢٩]

٣٧. دلالة الثبات ومحصلة التدقيق

لا ترسم النصوص التي جمعها الفصل سيرة زمنية واحدة خالية من الاختلاف، لكنها تحفظ وجوهًا متكاملة لموضوع الهداية: رعاية اليتيم، ومقاومة شهادة الزور، وحفظ العبادة تحت القهر، وشكر الرزق، والتعلم من أهل الحكمة، والشفقة على الأطفال. وهذه المعاني لا تحتاج إلى إلغاء اختلاف الروايات لكي تؤثر في القارئ. بل إن ضبط أسماء النساء والرجال، وترك المجهول مجهولًا، يزيد الحكاية أمانة ويمنع أن تتحول العبرة إلى تاريخ مصنوع. [٣–١٨]

وقد تناولت هذه المراجعة النصوص المحددة في الإحالات الآتية، وردّت أخبار «البحار» إلى أصولها المتاحة حيث أمكن، وأظهرت ما بقي من نقل تاريخي أو إسناد ناقص أو اختلاف في اللفظ والزمن. ولا تدعي استقراء كل مخطوط وطبعة، ولا تصحيح جميع ما نقلته. وما لا نعلمه من اسم أم دانيال وأبيه وزوجته وعمره المضبوط وتفاصيل قبره لم يُملأ بالظن. وبذلك تنتهي مادة الفصل إلى معرفة موثقة بحدودها، مع إبقاء البحث في الأجيال اللاحقة قائمًا على نصوصها الخاصة.

المصادر والإحالات

الإحالات إلى مواضع النصوص المقابلة، والصفحات بحسب الطبعات الرقمية المستعملة. الروابط في عناوين المراجع.

[١] القرآن الكريم: النساء ٤:١٦٤؛ غافر ٤٠:٧٨؛ البقرة ٢:٨٧؛ الجاثية ٤٥:١٦؛ الحديد ٥٧:٢٦–٢٧. إطار تعدد الرسل واستمرار الكتاب والنبوة؛ لا يرد فيها اسم دانيال.

[٢] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص ٢٢٩–٢٣٠، خبر جابر الجعفي عن الإمام الباقر: السؤال عن تعبير الرؤيا عن دانيال ونبوته ومحبته لأهل البيت؛ ضمن باب إرميا ودانيال.

[٣] الكليني، الكافي، ج ٧، كتاب القضاء والأحكام، باب النوادر، ح ٩، ص ٤٢٥-٤٢٧: قضية اليتيمة عند أمير المؤمنين، ثم كفالة دانيال وخبر المرأة والقاضيين. وقوبل ذيل الخبر بنقل البحار، ج ١٤، ص ٣٧٥-٣٧٦.

[٤] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ١٥٧-١٥٩، من الحديث الطويل ح ٢ في أخبار الغيبة: آصف، وأسر دانيال وعزير، والتسعون سنة، والجب والفرج وإفضاء الأمر إلى عزير. اعتمد النص الكامل، لا العرض الرقمي المختصر لبعض فقراته.

[٥] الشيخ الطوسي، الأمالي، ص ٣٠٠، ح ٥٩٣/٤٠، من أخبار أبي محمد الفحام: دانيال والجب والسباع والنبي حامل الطعام والضبع ودعاء الحمد.

[٦] الراوندي، قصص الأنبياء، ص ٢٣٠، الخبر المنتهي إلى حفص بن غياث عن الإمام الصادق: الجب والرزق والنبي غير المسمى؛ قورن بخبر أمالي الطوسي.

[٧] التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، تفسير البقرة ٢:٢٥٩، القسم الأول من الخبر عن الإمام الصادق: سياق يحيى وبخت نصر، ودانيال واللبوة والنبي في بيت المقدس ودعاء الحمد.

[٨] المصدر نفسه، تفسير البقرة ٢:٢٥٩، الصفحة الثانية في العرض الرقمي: رؤيا المعادن والمنجمون والغلام الفارسي ومقتل بخت نصر، ثم خبر إرميا.

[٩] الراوندي، قصص الأنبياء، ص ٢٢٥-٢٢٧، ح ٢٩٦ في العرض المستعمل، عن وهب بن منبّه: السجن ورؤيا التمثال والملكان والنبي الأمي من العرب.

[١٠] المصدر نفسه، ص ٢٢٧-٢٢٨، تتمة رواية وهب: يوشال ويوحين وعيصوا ومريوس، والصنم والنار والخامس معهم؛ الأسماء بحسب النسخة المقابلة.

[١١] المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩، رواية وهب في رؤيا الشجرة والملكين وخبر تحول بخت نصر وإيمانه وموته؛ مادة تاريخية نقدها المجلسي.

[١٢] المصدر نفسه، ص ٢٢٩، خبر ابن بخت نصر وزوجته الحكيمة وأواني سليمان والكتابة على الجدار؛ قورن بنقل البحار، ج ١٤، ص ٣٧٠.

[١٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٧٠-٣٧١، البيان عقب قصص وهب، مع التعليق على الاستدلال بلفظ «التيه» على المسخ.

[١٤] الراوندي، قصص الأنبياء، ص ٢٣٠-٢٣١، خبر إسحاق بن إبراهيم عن الإمام الرضا بطريق فيه السياري: الملك والولد الشبيه بدانيال، والتعليق اللاحق بشأن موسى وشعيب.

[١٥] الكليني، الكافي، ج ٦، كتاب الأطعمة، باب فضل الخبز، ح ٢: خبر مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عن النبي؛ صاحب المعبر والمجاعة والمرأتان والولدان والفرج.

[١٦] الكليني، الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم، باب ثواب العالم والمتعلم، ح ٥، ص ٣٥: خبر أبي حمزة عن الإمام السجاد، وفي طريقه رفع، في الوحي إلى دانيال بشأن العلم.

[١٧] الكليني، الكافي، ج ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، ح ١١، ص ٤٣٥-٤٣٦: خبر الإمام الباقر في داود ودانيال وطلب العصمة.

[١٨] الكليني، الكافي، ج ٢، كتاب الدعاء، باب الحرز والعوذة، ح ٩، ص ٥٧١: الاستعاذة برب دانيال والجب، عن الإمام الصادق عن أمير المؤمنين.

[١٩] ابن طاووس، إقبال الأعمال، ج ٣، ص ٢٤٤، من دعاء أم داود: الصلاة على الأنبياء وذكر إرميا وحيقوق ودانيال وعزير؛ ليس ترتيباً زمنياً للوصية.

[٢٠] الراوندي، قصص الأنبياء، ص ٢٣٢-٢٣٧، الفصول في العلامات وكسوف الشمس وخسوف القمر، بدءًا بلفظ «كان في كتاب دانيال»، مع تعليق المؤلف المشروط بصحة الروايات.

[٢١] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٨، ح ٢٠، حديث أبي رافع في الملوك وانتقال العلم: دانيال والأخدود ومكيخا ومن بعده. في الطريق «عمن حدثه»، وللمحقق تعليقات على إشكالات المتن والزمن.

[٢٢] القرآن الكريم، البروج ٨٥:٤-١١: الأخدود والنار واضطهاد المؤمنين والمؤمنات؛ لا تسمية لدانيال أو ملكه في الآيات.

[٢٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة البروج، ضمن «قصة أصحاب الأخدود»: اختلاف الأخبار، والنقل عن العياشي عن الإمام الباقر في النبي الحبشي والمرأة وطفلها، وسائر الأقوال مع نسبتها إلى قائليها.

[٢٤] إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب، المنسوب إلى المسعودي، ص ٨٧: منذر بن شمعون ودانيال والملك «فهر» ومكيخا، واختلاف ترتيب دانيال وعزير، وذكر تستر والسوس.

[٢٥] المصدر نفسه، ص ٨٨-٨٩: مكيخا وأنشوا ورشيخا ونسطورس ومرعيد وبحيرا، واسم مكيخا في خبر الكهف، وبوران بنت كسرى، والطريق البديل عبر منذر وسلمة.

[٢٦] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج ٢، ص ٢٧٤، خبر دانيال بالسوس، ومراسلة أبي موسى لعمر، والأمر المنسوب إلى أمير المؤمنين بالصلاة عليه ودفنه؛ نقل تاريخي للمقارنة.

[٢٧] ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٤٨: نقل ابن أبي الدنيا الذي يسمّي أرميا حامل الطعام، وخبر أبي العالية عن جسد تستر والكتاب والهرمزان وعمر وكعب؛ ليست روايات إمامية.

[٢٨] المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩: مناقشة تعيين الجسد والمدة، وخبر حرقوص، واختلاف أخبار المال والدفن والأسرى؛ مع نقد المؤلف لبعض طرقها.

[٢٩] المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠: خبر أبي بردة وأبي موسى عن علماء البلدة في الخاتم وأم دانيال والأسد واللبوة؛ نقل تاريخي لا يدمج بخبر كافلته في الكافي.

[٣٠] الحويزي، نور الثقلين، تفسير البقرة ٢:٢٥٩، الأخبار المنقولة عن القمي والعياشي وغيرهما في إرميا وعزير؛ استعمل للمقابلة، لا بوصفه شاهدًا مستقلًا عن الأصول التي ينقلها.

[٣١] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٥٨–٣٥٩، نقل خبر القمي في اللبوة ورؤيا بخت نصر والغلام الفارسي؛ لمقابلة اختلاف وصف الغلام مع نص التفسير المباشر.

الفصل ٣٨ — حزقيل وعزير وإليا وجرجيس — شخصيات تذكرها الروايات

١. مدخل: استكمال الأسماء مع حفظ حدود الدليل

يجمع هذا الفصل أربعة أسماء ترد في كتب الرواية والتفسير، ولكنها لا ترد فيها على درجة واحدة من البيان. فعزير مذكور باسمه في القرآن، وإلياس مذكور فيه أيضًا، أما مطابقة «إليا» لإلياس فتحتاج إلى بحث مستقل. ولا يَرِد اسما حزقيل وجرجيس صريحين في المصحف. ومن ثمّ لا تتحول شهرة القصة إلى آية قرآنية، ولا يصبح كل ما جمعه عالم إمامي حديثًا صادرًا عن أهل البيت عليهم السلام. غاية الفصل أن يستعيد الأشخاص والحوادث ذات الصلة، مع إبقاء نسبة كل خبر إلى قائله ومصدره. [١, ١٦, ٣٠, ٣٣]

تختلف مصادر هذه السير: فأخبار حزقيل وعزير تُقرأ في كتب الحديث والتفسير، وأخبار إليا تُقارن بما سبق في فصل إلياس، وقصة جرجيس محفوظة في كتب القصص. ويُستفاد من التاريخ والمصدر المسيحي المقارن في بيان اختلاف السرد والتلقي، مع بقاء مادتهما في موضع المقارنة.

٢. مواضع القرآن: الاسم، والقصة، والتفسير

الموضع الأول هو البقرة: ٢٤٣: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ». يثبت النص جماعةً وخروجًا وموتًا وإحياءً، ولا يسمّي نبيًّا ولا امرأة ولا ملكًا. وتسمية حزقيل تأتي من الرواية. والموضع الثاني هو البقرة: ٢٥٩، وفيه المارّ بالقرية الخاوية الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه؛ ولا يسمّيه القرآن عزيرًا ولا أرميا. أما التوبة: ٣٠ فتذكر عزيرًا باسمه في سياق إبطال نسبة البنوّة إلى الله، من غير أن تسرد ميلاده أو وفاته. [١, ١٦, ١٩, ٢٠]

وترتبط بالحصر أيضًا مريم: ٥٤–٥٥ في إسماعيل صادق الوعد، وغافر: ٢٨ في مؤمن آل فرعون، والصافات: ١٢٣–١٣٢ في إلياس. هذه الصلات لا تبيح نقل جميع صفات أصحاب الآيات إلى شخصية متشابهة الاسم. كما أن ذكر عيسى ومريم في سياق التوبة يخصّ الرد على التأليه، وليس دليلًا على اجتماعهما بعزير في زمان واحد. وسيرد جرجيس بوصفه شخصية في الخبر، لا بوصفه اسمًا قرآنيًّا. [١٦, ٣٧–٣٩]

٣. حزقيل: الاسم والأم وموضعه بين أنبياء بني إسرائيل

تصف رواية الكافي حزقيل بأنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، ويذكره كمال الدين نبيًّا عابدًا في خبر داود. وهذه نسبة نبوّة في الأخبار، مع عدم ورود اسمه صريحًا في القرآن. ويورد مجمع البيان سياقًا يجعل موسى ثم يوشع ثم كالب بن يوقنا قبل حزقيل، ويصفه بأنه ثالث خلفاء موسى في هذا التسلسل. لكنه

سياق تفسيري منقول، لا نص قرآني على سلسلة وصاية مفصّلة. وتختلف الأخبار الأخرى في الإطار الزمني؛ لذلك لا تُصاغ منه قائمة قطعية تجمع جميع الروايات في تاريخ واحد. [٢, ٣, ١٠]

ويحفظ مجمع البيان لأمّه حضورًا لا ينبغي إسقاطه: كانت امرأة كبيرة السن لم تُرزق ولدًا، فسألت الله الولد فرزقها حزقيل، ولذلك قيل له «ابن العجوز». لا يسمّي النص هذه الأم، ولا يذكر زوجةً لحزقيل أو بناتٍ له. فلا تتحول الأم المجهولة الاسم إلى امرأة مسمّاة بالتخمين، ولا نضيف سلسلة آباء من مصدرٍ آخر من غير بيان انتقال المصدر. أما إسماعيل بن حزقيل فله موضع مستقل لاحقًا، لأن ثبوت النسب في خبر لا يحسم وحده اتحاد أبيه مع جميع من ورد باسم حزقيل. [٣, ١٢]

٤. الألوف الذين خرجوا: رواية الكافي

يروي الكليني، عن عمر بن يزيد وغيره، خبرًا يُنقل بعضه عن الإمام الصادق وبعضه عن الإمام الباقر عليهما السلام. وفيه أن أهل مدينة من مدائن الشام كانوا سبعين ألف بيت، وأن الطاعون كان يقع فيهم؛ فيخرج الأغنياء القادرون على الارتحال ويبقى الفقراء لضعفهم. فلما لاحظوا تفاوت الموت بينهم عزموا على الخروج جميعًا، ونزلوا مدينة خربة مات أهلها من قبل، فماتوا هم أيضًا. وأزال المارّة عظامهم عن الطريق، حتى مرّ بهم حزقيل. والمذكور «سبعون ألف بيت»، فلا يصح تحويله في النقل إلى سبعين ألف رجل أو إلى عدد دقيق لجميع الأفراد. [٢]

يرى حزقيل ما بقي من القوم فيبكي، ويسأل ربّه إحياءهم ليعمروا البلاد ويعبدوه وينسلوا. ويعلّمه الله كلمات يدعوه بها، فتجتمع العظام وتُكسى لحمًا وتعود الحياة بإذنه، ثم يُسمع تسبيح القوم. لا يقدّم الخبر النبي مالكًا للموت والحياة، بل عبدًا داعيًا تستجاب دعوته. ولا يسرد صيغةً مكتملة للاسم الأعظم حتى تُخترع للقارئ تعويذة من خارج النص. وفي هذا المشهد حضور للفقراء والأغنياء والأسر والمارّة وأهل المدينة السابقة، وإن لم يذكر الخبر أسماء أفرادهم. [٢]

٥. رجوع الحياة ومعنى العبرة

ينقل مجمع البيان عن حمران بن أعين سؤال الإمام الباقر عليه السلام: هل عاد هؤلاء إلى دنيا الناس، فأكلوا الطعام وتزوّجوا النساء ثم ماتوا بآجالهم؟ وجاء الجواب بالإثبات. فالإحياء في هذا النقل عودة إلى حياة بشرية، لا مجرد بقاء الاسم أو نشوء جيل جديد. وتَرِد في بعض المجاميع اختلافات في اسم السائل، لذلك يُعتمد هنا اللفظ الذي أورده مجمع البيان، ولا يُجعل اختلاف النقل شخصين حاضرين في مجلس واحد. [٣, ٥]

وتفيد هذه الزيادة في حصر النساء: يذكر الخبر الزواج بعد الإحياء، من غير أن يسمّي الزوجات أو يبيّن هل كل امرأة منهن كانت من الخارجين أولًا. فلا نُسقط وجودهن، ولا ننسب إليهن حادثة الموت والإحياء بغير نص. ويناقش الميزان ظاهر الآية بوصفه موتًا وإحياءً حقيقيين، وينقل الاحتجاج

بهذا المعنى في خبر مناظرة للإمام الصادق مع سائل منكر. وهذه مناقشة لدلالة الآية، منفصلة عن تصحيح كل تفصيل عددي أو جغرافي في الأخبار. [٣, ٦]

٦. اختلاف العدد والمكان وسبب الخروج

يجمع التفسير أقوالًا في عدد القوم ومكانهم: أعدادًا من الآلاف إلى عشرات الآلاف، وقولًا في داوردان أو نواحي واسط، إلى جانب رواية المدينة الشامية. ويُنقل أن خروجهم كان فرارًا من الطاعون، ويُنقل أنه كان خوفًا من القتال. ويذكر بعض النقل ملكًا وجندًا وعدوًّا، بينما لا تحتاج رواية الكافي إلى هؤلاء الأشخاص لتفسير الخروج. يحفظ الفصل هذه الفروع بوصفها أقوالًا مختلفة؛ فلا يركّب مدينة شامية باسم عراقي وجيشًا ووباءً وعددًا واحدًا ويقدّم التركيب كأنه حديث واحد. [٢-٤]

وتورد بعض التفاسير اسم شمعون بدل حزقيل في إحياء القوم، كما تصل روايات متأخرة الخبر برشّ الماء والنيروز. يُذكر شمعون هنا لئلا يُحذف الاسم المختلف فيه، مع إبقاء القول منسوبًا إلى موضعه التفسيري. أما تعيين يوم الإحياء أو استنباط عادة سنوية منه فلا يُقدَّم بوصفه مضمون الآية أو نتيجة لازمة لرواية الكافي. فالنص القرآني يثبت الأصل، والتفاصيل المتفاوتة تبقى بحاجة إلى نظر في طريق كل منها. [٣, ٥]

٧. حزقيل في مناظرة الإمام الرضا عليه السلام

في مناظرة الإمام الرضا عليه السلام التي أوردها الصدوق، يأتي ذكر حزقيل في محاورة الجاثليق، ويُستشهد بعلم رأس الجالوت. يستدل الإمام بأن إحياء الموتى لا يقتضي ألوهية من أجرى الله الآية على يده؛ إذ تُذكر نظائر لذلك في أنبياء آخرين، ومنهم اليسع وحزقيل، فلا يُتخذ ما أُعطيه عيسى دليلًا على خروجه عن العبودية. ويذكر الخبر خمسة وثلاثين ألفًا مضى على موتهم ستون سنة، مع سياق أسر بختنصر ونقل الأسرى إلى بابل. هذه أرقام ذلك الخبر، لا تصحيح آلي لأرقام قصة الطاعون. [١٥]

وبذلك يدخل بختنصر والأسرى والجاثليق ورأس الجالوت في حصر الشخصيات المتصلة بالمبحث، ولكنهم لا يجتمعون جميعًا في عصر حزقيل: الأول والأسرى داخل القصة المستشهَد بها، والآخران من أشخاص مجلس المناظرة اللاحق. ويتصل عيسى واليسع بالحجة المقارنة. وهذا التفريق يحفظ معنى النص ويمنع تحوّل سلسلة الاستشهاد إلى لقاء تاريخي موهوم. كما يبقى التوفيق الزمني بين هذه الرواية وخبر حزقيل مع داود مسألة مفتوحة، لا حقيقة أُنجز إثباتها. [١٠, ١٥]

٨. ملك القبط وتهديد بيت المقدس

يروي الراوندي عن أبي حمزة، عن الإمام الباقر عليه السلام، أن ملك القبط خرج يريد هدم بيت المقدس، فاجتمع الناس إلى حزقيل وشكوا إليه. وعدهم بمناجاة ربّه، فجاءه ما يفيد كفايتهم أمر

العدو، وأُمر ملك الهواء بإمساك أنفاس الجيش فماتوا، ثم خرج القوم فوجدوهم كما أُخبروا. الشخصيات هنا: حزقيل، والملك المهاجم، وأهل المدينة، والجند، وملك من الملائكة غير مسمّى. ولا يذكر المتن اسم الملك؛ فلا يُستبدل به فرعون موسى لمجرد وصفه بملك القبط. [٧]

وللخبر في المحاسن، كما نقله المجلسي، ذيل يذكر مقارنة حزقيل نفسه بسليمان وابتلاءه ثم تضرعه وزوال الأذى. طريق هذا النقل يشتمل على راوٍ غير مسمّى، وهذه الزيادة ليست في المتن القصير الذي ساقه الراوندي. لذلك لا تُجعل أصلًا قاطعًا للطعن في مقام نبي، ولا يُعاد تأليف الروايتين كأنهما نص واحد. يَرد سليمان هنا طرفًا في المقارنة المنقولة، لا ملكًا حاضرًا في واقعة الجيش. ويُذكر الذيل بحدوده النقدية، من غير تحويل ما ورد فيه من علاج إلى إرشاد طبي. [٨]

٩. الملك الذي طُلب تأخير أجله: سؤال لا جواب محفوظ

يشتمل قصص الأنبياء على خبر يرويه هشام بن سالم عن مجلس الإمام الصادق عليه السلام: سأل عبد الأعلى مولى بني سام عن حديث يتداوله الناس، وفيه أن حزقيل أُمر بإخبار ملك بموته، فدعا الملك أن يُمهل حتى يكبر طفله ويقضي أمره، ثم ورد تمديد عمره خمس عشرة سنة. غير أن النص المتاح ينقل سؤال عبد الأعلى ومضمون الخبر المسؤول عنه، ولا يحفظ جواب الإمام. هذه ملاحظة جوهرية: وجود الإمام في إطار السؤال لا يساوي تصديقه لكل ما تضمّنه. [٩]

يُحفظ في الحصر إذن ملك غير مسمّى وطفل غير مسمّى وعبد الأعلى وهشام، مع الفصل بين أهل الحادثة المفترضة ورواة المجلس. ولا يُسمّى الملك حزقيا، ولا يُبدّل النبي بشعيا، لمجرد وجود خبر قريب في فصول سابقة عن زيادة خمس عشرة سنة. التشابه يوجب المقارنة، لكنه لا يجيز محو اختلاف الأسماء أو سدّ جواب ساقط بكلام ننسبه إلى الإمام من عندنا. [٩]

١٠. حزقيل وداود وأروى بن سلم

يروي الصدوق في كمال الدين، بسنده عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام، أن داود خرج يقرأ الزبور، فجاوبته الجبال والطير، وانتهى إلى نبي عابد على جبل يقال له حزقيل. استأذنه في الصعود، فلم يأذن أولًا، ثم جاءه الأمر بألا يعيّر داود وأن يسأل الله العافية، فأخذ بيده وأصعده. ودار بينهما حديث عن العبادة والعُجب وميل النفس إلى الدنيا. لا يحتاج هذا الخبر في عرضه إلى إلحاق التهم المنكرة التي أُدخلت في بعض قصص داود، وقد عولج مقامه في فصله. [١٠]

ويُري حزقيل داود موضعًا يعتبر به: سريرًا من حديد عليه بقايا إنسان، ولوحًا يحمل اسم «أروى بن سلم» وما ينسب إليه من سلطان وعمران، ثم نهاية الجسد إلى التراب. فأروى شخصية مسمّاة في النقش الذي يرويه الخبر، لا ملك تَحقّق لدينا تاريخه وسنواته من شاهد مستقل. وتفيد القصة في باب التواضع وقصر الدنيا، لكنها لا تعيّن مولد حزقيل أو وفاته ولا تثبت أنه عاش جميع الأزمنة التي وُضع فيها اسمه في أخبار أخرى. [١٠]

١١. إسماعيل بن حزقيل: شخصية لا يجوز إغفالها

في كامل الزيارات، باب علم الأنبياء بقتل الحسين عليه السلام، تَرِد أخبار عن الإمام الصادق في إسماعيل صادق الوعد، وتعيّن إحدى الروايات اسمه «إسماعيل بن حزقيل النبي». وتسرد اضطهاد قومه له وثباته، ثم مجيء ملك العذاب المسمّى في النسخة المقروءة «سطاطائيل»، وتذكر طلب إسماعيل أن يرجع مع الحسين عليه السلام. وهذه صلة مباشرة تستوجب ذكر إسماعيل، وقومه، والملك، والحسين، مع التنبيه إلى أن الحسين طرف في الاستشهاد والوعد المستقبلي داخل الخبر، لا معاصر لإسماعيل في القصة. [١٢]

ولا تُلغى بهذا كل الأقوال في إسماعيل المذكور في سورة مريم؛ فالقرآن لا يذكر نسبه في الموضع، والتعيين باب روائي. وفي الخبر المفصّل جملة عن تقدّم وفاة إسماعيل بن إبراهيم على أبيه، وقد نبّهت حاشية المصدر والمجلسي إلى تعارضها مع أخبار أخرى. فلا تُحوَّل هذه الجملة إلى حقيقة تاريخية متفق عليها. كذلك لا يبيّن الخبر أن حزقيل الأب هو بالضرورة صاحب الألوف أو عابد جبل داود؛ نُثبت الصلة الاسمية، ويُترك اتحاد الأشخاص غير محسوم. [١٢, ١٤, ٣٨]

١٢. صادق الوعد والعابد والملك والجبّار

يورد الراوندي خبرًا، عن الإمام الصادق عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في عابد من بني إسرائيل يسعى بحوائج الناس عند الملك. طلب من إسماعيل بن حزقيل أن ينتظره، فنسي الموعد، فبقي إسماعيل في موضعه. ثم خرج الملك والعابد فعرفاه؛ واعترض رجل جبّار في صحبة الملك متهمًا إسماعيل بالكذب، ثم اعترف بظلمه وطلب الدعاء، فوسّط الملك إسماعيل في حاجته. ويُختم الخبر بفضل الدعاء في السحر. هؤلاء ثلاثة رجال غير مسمّين يضافون إلى إسماعيل، ولا يختزل حضورهم في كلمة «القوم». [١٣]

ويلي ذلك خبر آخر عن انتظار إسماعيل في الصفاح وطلب أهل مكة له، وفي اسم صاحب الموعد اختلاف نسخي تُذكر معه قراءة «الطائفي». لا يُدمج هذا الموضع تلقائيًّا مع خبر ابن حزقيل؛ فاختلاف الإطار المكاني والنسب يستلزم إبقاء النقلين منفصلين. ولا يستلزم الحصر أن نسرد سيرة إسماعيل بن إبراهيم مرة ثانية، بل أن نمنع انتقال تفاصيل أحد الاسمين إلى الآخر بلا حجة. [١٣]

١٣. حزقيل ومؤمن آل فرعون وذو الكفل

يذكر تفسير فرات حديث «الصديقون ثلاثة»، ويسمّي حبيب النجار مؤمن آل يس، وحزقيل مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب عليهم السلام. فهذا شاهد على ورود اسم حزقيل لشخص في سياق موسى وفرعون، بينما لا يسمّي القرآن الرجل المؤمن في غافر: ٢٨. ولا يكفي اتفاق الاسم لدمجه مع نبي إحياء الموتى أو صاحب داود. ويُحفظ حبيب وعلي في حصر الأسماء بوصفهما طرفين في الحديث المقارن، لا شخصين من قوم حزقيل. [١١, ٣٧]

كما ينقل مجمع البيان قولًا عن الحسن في تسمية حزقيل بذي الكفل، مرتبطًا بكفالته أنبياء مهدَّدين. وهذا قول تفسيري، لا نتيجة متفق عليها تُلغي الأقوال التي سبق عرضها في فصل ذي الكفل. وأخبار آسية وماشطة آل فرعون وأهل بيتها تتعلق بسياق فرعون في مواضعها؛ فلا تُحوَّل النساء الواردات هناك إلى زوجة نبي الإحياء أو بناته بمجرد تداول اسم حزقيل. وما يحتاجه هذا الفصل هو ضبط موضع الاشتراك، لا إعادة تركيب الأسر المتشابهة. [٣, ١١]

١٤. ما لا نعرفه عن خاتمة حزقيل

لا تقدّم الأصول المعتمدة هنا تاريخًا متماسكًا لميلاد حزقيل ووفاته، أو مدة رسالته، أو اسم زوجته، أو وصية مسندة يسلّم فيها الأمانة إلى نبي بعينه. وبعض كتب التفسير ترتّبه بعد كالب، بينما تربطه أخبار أخرى بداود أو بأسر بختنصر. وعرض هذه المادة جميعًا أمانة علمية، أما ملء الفجوات بعمر طويل محسوب أو نسب جامع أو قبر معيّن فزيادة لم يثبتها هذا التحقيق. تنتهي ترجمته هنا بالقدر الذي يتيحه الدليل، مع بقاء الشخصيات المسمّاة وغير المسمّاة ظاهرة في مواضعها. [٢, ٣, ١٠, ١٥]

١٥. عزير في القرآن: تكريم العبد لا تأليهه

يقول تعالى في التوبة: ٣٠: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ». هذا هو موضع عزير المسمّى في القرآن. والآية ترد على مقالة البنوّة، ولا تتهم عزيرًا بأنه دعا الناس إلى تأليهه، ولا تسرد بعثته أو أسماء أسرته. ثم يرد في الآية التالية ذكر اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا والمسيح ابن مريم. فمركز السياق هو توحيد الله وحدود طاعة البشر، لا بناء سيرة تاريخية مفصّلة لكل اسم فيه. [١٦, ٢٥]

ولا يصح تحويل نسبة المقالة إلى جماعة في سياقها إلى حكم بأن كل يهودي في كل عصر اعتقدها. يذكر مجمع البيان أقوالًا في القائلين وأسباب نسبتهم، ويروي أسماء رجال في خبر سبب النزول. تُحفظ هذه الأقوال بوصفها تفسيرًا تاريخيًّا للخطاب، مع التفريق بين نقد عقيدة بعينها وبين التعميم على جميع أفراد جماعة دينية. وفي هذا الضبط وفاء بلفظ القرآن وبحدود ما تخبرنا به الروايات معًا. [٢٥, ٢٦]

١٦. أصل عزير وأسرته: الثابت في الخبر والمجهول

يذكر كمال الدين عزيرًا في نسل هارون، ضمن خبر انتقال الحجة في بني إسرائيل بعد السبي. وهذا نسب إجمالي في رواية، لا سلسلة أسماء كاملة للأب والأجداد. أما خبر الأخوين فيحفظ لعزير أبًا وأمًّا وحملًا واحدًا جمعه بأخيه عزرة، من غير تسمية الوالدين. وتُذكر زوجته وابنه في خبر تفسيري آخر. وبذلك لا يجوز أن تخلو ترجمته من النساء المحيطات به، كما لا يجوز اختراع أسماء لهنّ أو تحويل النسب الهاروني إلى قائمة آباء لم يذكرها المصدر. [١٧, ١٩, ٢٢]

ولا تثبت هذه المصادر يوم ميلاده أو اسم بلد الولادة على وجه يمكن الجزم به، ولا تعيّن زوجته بنسب معروف، ولا تذكر له بنتًا في الأخبار التي بُني عليها هذا الفصل. والجارية المسنّة التي سترد لاحقًا شخصية أخرى في رواية تاريخية؛ ليست أمّه ولا زوجته. أما اسم «عزرة» في خبر الأخوين فلا يُختزل في تهجئة أخرى لعزير داخل ذلك الخبر، لأن أصل السؤال قائم على وجود شخصين مختلفين. [١٩, ٢٢, ٢٧]

٠١٧ عزير ودانيال واستمرار الحجة

يعرض كمال الدين خبرًا عن الإمام الصادق عليه السلام يربط مرحلة بختنصر ببقاء الحجة بين بني إسرائيل، ويذكر دانيال ومن معه، ثم عزيرًا من ولد هارون. وفي هذا الطريق انتقال للأمر من دانيال إلى عزير، وذكر لتعليم عزير قومه دينهم، ثم غيبته بالموت مائة سنة وعودته. ومن هنا جاءت الصلة بهذا الفصل بعد فصل دانيال. لكن ترتيب الكتاب لا يثبت جميع تفاصيل التسلسل التاريخي؛ إنما يتيح عرض هذا الطريق مع نسبته الصريحة إلى مصدره. [١٧]

وفي مواد إثبات الوصية التي عُرضت في الفصل السابق يَرِد «مكيخا» في سياق خلافة دانيال. لا تُمحى هذه القراءة لمصلحة خبر عزير، ولا يُخترع لقاء يجمع مكيخا وعزيرًا لتوحيد الطريقين. وكذلك فإن وصول رواية كمال الدين إلى ذكر يحيى والمسيح بعد فترات خفاء لا يساوي وجود وصية مباشرة من عزير إلى يحيى، ولا يملأ أسماء جميع الحجج في الفاصل. يُذكر دانيال ومكيخا وهارون ويحيى وعيسى بحسب أدوارهم المختلفة، مع إبقاء الفجوات ظاهرة. [١٧, ٢٨]

٠١٨ صاحب القرية الخاوية: عزير أم أرميا؟

تبدأ آية البقرة: ٢٥٩ بإنسان يمرّ على قرية خاوية على عروشها، فيسأل كيف يحييها الله بعد موتها. يعرض التبيان ومجمع البيان أقوالًا في هويته: عزير في طريق، وأرميا في طريق آخر، ويُذكر الخضر في قول منقول عن ابن إسحاق. وتنسب كتب التفسير بعض هذه الأقوال إلى الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليهما السلام. ولذلك تُذكر الأسماء الثلاثة في البحث، لكن لا يُكتب فوق الآية «قصة عزير» على نحو يوهم أن المصحف سمّاه. [١٩, ٢٠]

وقد عولج طريق أرميا في فصله، فلا تُعاد سيرته هنا ولا تُحذف. ويؤكد الميزان أن التعيين التفصيلي يحتاج إلى ما وراء ألفاظ الآية، ويناقش اختلاف المنقولات. فإذا وردت في هذا الفصل عبارة «عودة عزير» فالمقصود بها الرواية التي تعيّنه، لا دعوى أن جميع أخبار المائة عام متفقة عليه. كما أن تسمية القرية ببيت المقدس أو ربط خرابها بختنصر زيادة تفسيرية تُنسب إلى مصدرها، وليست اسمًا صريحًا في الآية. [١٩–٢١]

١٩. المائة عام: ما تقوله الآية وما لا تقوله

أمات الله ذلك الإنسان مائة عام ثم بعثه، فسُئل عن مدة لبثه فقال يومًا أو بعض يوم، وأُخبر بأنها مائة عام. وأُمر بالنظر إلى طعامه وشرابه اللذين لم يتغيّرا، وإلى حماره، وإلى العظام وكيف تُرفع ويُكسى بعضها لحمًا، وجُعل آية للناس. وينتهي المشهد إلى الإقرار بقدرة الله على كل شيء. لا يذكر النص اسم مخاطب بشري أو ملك باسمه، ولا زوجةً أو ولدًا في هذا المشهد نفسه. [١٩, ٢٠]

وتُذكر في التفسير تفاصيل كالتين والعنب والعصير، وتختلف الأقوال في توجيه النظر إلى العظام. تُعرض هذه الشروح باعتبارها شروحًا، فلا تُدرج ألفاظها داخل الاقتباس القرآني. كذلك ليس سؤال «أنّى يحيي» بذاته تصريحًا بإنكار البعث؛ يناقش المفسرون حمله على طلب مشاهدة الكيفية وزيادة البيان. وبهذا يتصل السياق بما قبله وبعده من دلائل الحياة والموت، من غير نسبة كفر إلى صاحب القصة لمجرد صيغة السؤال. [١٩–٢١]

٢٠. زوجة عزير وابنه: مرور الزمن على الأسرة

ينقل مجمع البيان عن أمير المؤمنين علي عليه السلام خبرًا يجعل عمر عزير عند خروجه خمسين سنة، ويذكر أنه خلّف زوجة حاملًا. وبعد المائة عام عاد وهو على حاله، وقد بلغ ابنه مائة سنة، فكان الابن أكبر من أبيه في مقدار ما عاشه ظاهرًا. تحفظ هذه الرواية الزوجة والابن وإن لم تسمّهما، وتُظهر أثر الغياب في الأسرة. لكنها لا تقول إن عزير مات نهائيًّا في سن الخمسين، ولا تعطي اسم الابن أو خبرًا متصلًا عن مصير الأم. [١٩]

وهذه الأرقام لا تُسوّى قسرًا مع رواية الأخوين ولا مع رواية الجارية المسنّة. فلكلٍ خبر بناؤه، والابن في هذا النقل ليس «عزرة»، لأن عزرة أخ في الرواية الأخرى. ومن الأمانة ألا يُستعار اسم من نسب عزرا في كتب أخرى ليملأ خانة الابن هنا. وإذا غاب اسم امرأة أو ولد بقيت صلتهما معروفة، وبقي الاسم مجهولًا؛ فعدم التسمية لا يعني عدم الوجود. [١٩, ٢٢, ٢٧]

٢١. عزير وعزرة في مناظرة الإمام الباقر عليه السلام

يحفظ الكافي خبر الإمام الباقر عليه السلام في الشام أيام هشام بن عبد الملك، ولقاءه عالمًا نصرانيًّا يجتمع الناس إليه. ومن أسئلته: أخوان وُلدا في ساعة واحدة وماتا في ساعة واحدة، عاش أحدهما خمسين سنة والآخر مائة وخمسين. ويأتي الجواب بعزير وعزرة؛ فرق المائة عام هو زمن إماتة عزير، بينما مضت الحياة على أخيه. ويذكر الخبر الأب والأم والحمل المشترك والوفاة في يوم واحد، ويضم إليهما إطار المجلس: الإمام، وهشام، والعالم النصراني، والحاضرين. [٢٢]

وفي النقل الموازي بتفسير القمي وتفاسير الرواية تفصيل للأعمار قبل المائة وبعدها، وتوجد فروق في الصياغة العددية. أما متن الكافي في الموضع المقروء فيستعمل «كذا وكذا سنة» في جزء من بيان المدة؛

فلا ننسب إليه من عندنا توزيعًا محددًا لسنوات الطفولة وما بعد العودة. المعنى المشترك في خبر المناظرة هو تفسير التفاوت بالمائة سنة، لا وضع جدول ولادة ووفاة موثّق بالسنة. [٢٢-٢٤]

وتَرد في المجلس أسئلة أخرى عن الزمن والغذاء، وفي الجواب تمثيل بحياة الجنين في بطن أمّه. لا يجعل ذلك كل أم أو جنين شخصية جديدة مسمّاة في قصة عزير؛ فهذا مثال احتجاجي في مجلس الباقر. ويجب التمييز بين الشخص الحاضر، والشخص المذكور في السؤال، والمثال العام؛ وإلا تضخّم الحصر بأشخاص لم يثبت وجودهم كأفراد في الحدث. [٢٢]

٢٢. عزير والتوراة: العلم لا البنوّة

تربط أقوال تفسيرية بين مكانة عزير وإعادة تعليم التوراة بعد ضياعها أو إحراقها في خراب بيت المقدس. يذكر مجمع البيان رواية عن إملائه ما حفظ، ثم العثور على نسخة مخبوءة ومقابلتها بما أملى؛ ويظهر فيها رجل عرف موضع كتاب أخفاه أبوه أو جدّه. وتذكر روايات أخرى مَلَكًا أو جبرئيل في تعليم عزير. تختلف طرق البيان، والمشترك هو استعادة العلم بعد محنة الجماعة. ولا يصرّح القرآن نفسه بهذه التفاصيل عند ذكر عزير. [١٩, ٢٥]

يُحفظ في الحصر صاحب النسخة المخبوءة وأبوه أو جدّه على حسب لفظ النقل، ولا يُحسم التردد بتسمية الاثنين شخصين ثابتين. ويُحفظ جبريل حيث يسمّيه الخبر، بينما يبقى المَلَك غير مسمّى حيث لا يذكر النص اسمًا. أما تحويل استعادة التوراة إلى دليل على أن عزير ابن لله فهو عين الغلو الذي يرفضه السياق القرآني: حمل العلم وخدمة الكتاب لا ينقلان العبد إلى مرتبة الألوهية. [١٦, ١٩, ٢٥]

٢٣. الجارية المسنّة والابن والأحفاد في الرواية التاريخية

يزيد ابن الأثير في الكامل خبرًا عن رجوع عزير إلى منزله، فيلقى جارية له كانت قد بلغت مائة وعشرين سنة، وقد فقدت البصر والقدرة على الحركة. تُنكر أولًا أن يكون هو، وتستدل عليه باستجابة الدعاء، ثم تتعرف إليه بعد الدعاء لها. وتنقل خبره إلى ابنه وأحفاده، ويذكر هذا النقل أن الابن بلغ مائة وثماني عشرة سنة، وأنه عرف أباه بعلامة في ظهره. لا يذكر هذا الموضع اسم الجارية ولا اسم الابن. [٢٧]

أُدرجت هذه المرأة والأحفاد كي لا يختفوا من المقارنة، ولكن الخبر تاريخي وليس حديثًا عن أهل البيت بمجرد وروده هنا. ولا يُبدَّل عمر الابن فيه بالمائة الواردة في مجمع البيان، ولا تُدمج الجارية بزوجة عزير الحامل. كما لا نثبت لها الاسم الذي تتناقله بعض الصياغات الحديثة من غير شاهد في النص المقروء. هذا مثال على استكمال الأشخاص مع بقاء مصدرهم المختلف واضحًا للقارئ. [١٩, ٢٧]

٢٤. سؤال عزير عن الأطفال والعدل

يورد الراوندي، بالطريق المنتهي إلى ابن عباس، خبر سؤال عزير عن وقوع الهلاك العام وفي القوم أطفال. وتُساق فيه قصة النمل مثالًا يقوده إلى النظر، ثم يُفسَّر موت الأطفال في الخبر بانتهاء آجالهم، مع تمييزه عن عقوبة من استحق العقاب. هذا الخبر لا ينتهي إلى الإمام الصادق أو الباقر، فلا يُنسب إلى أحدهما بغير طريق آخر. كما لا يفيد أن الأطفال يحملون ذنوب الكبار؛ فهذه قراءة تخالف نفس التفريق الذي يقيمه المتن. [١٨]

لا يُتخذ هذا الخبر جوابًا تفصيليًّا عن كل كارثة تقع في التاريخ، ولا حجة على تعيين ذنوب ضحاياها. والمبدأ القرآني أن نفسًا لا تحمل وزر أخرى باقٍ في موضعه. كما لا يثبت النص أن عزيرًا نُزعت منه النبوّة لأنه سأل؛ فلا تُضاف هذه النتيجة إلى خاتمة حياته. حضور الأطفال هنا جماعي غير مسمّى، والمقصود حفظهم في مضمون السؤال، لا اختراع تراجم لهم أو نسبة عقوبة أخلاقية إليهم. [١٨, ٤٠]

٢٥. رجال سبب النزول وسياق الطاعة

ينقل مجمع البيان عن ابن عباس أسماء سلام بن مشكم، والنعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الضيف، في خبر خطاب النبي صلى الله عليه وآله بشأن عزير. هؤلاء شخصيات في خبر متأخر عن زمن عزير، لا تلامذته ولا أبناؤه. كما ترد في تفسير الآية التالية مناقشة الأحبار والرهبان، ويُنقل عن الإمامين الباقر والصادق بيان أن اتخاذهم أربابًا يتصل باتباعهم في تغيير الحلال والحرام، لا بمجرد صورة سجود لهم. [٢٥]

ويذكر المفسر كذلك حديث عدي بن حاتم مع النبي في تفسير هذا المعنى بطريقه الخاص. يُحفظ اسم عدي في موضعه، ولا يُجعل من رجال بني إسرائيل في عصر عزير. وذكر عيسى ابن مريم والأحبار والرهبان في هذا السياق يُكمل خريطة الإحالات القرآنية، لكنه لا يمدّ سيرة عزير بأحداث من حياة المسيح أو من عصر الرسالة المحمدية. [١٦, ٢٥]

٢٦. غيبة عزير وعودته وخاتمة أخباره

تستعمل أخبار كمال الدين موت عزير وعودته مثالًا على إمكان غياب الحجة مدة طويلة ثم ظهورها. لكن بعض الطرق المطوّلة تجمع تواريخ وأنبياء على نحو يختلف عن طرق أخرى، وفي طريق أبي رافع راوٍ غير مسمّى. وترد فيه جماعة مرتبطة بعزير وأعداد وسياق وباء لا يطابق خبر حزقيل في الكافي. فلا يَسري عدد من هنا إلى هناك، ولا تُجعل جميع قصص الإحياء حادثة واحدة لأن فيها موتًا ثم حياة. [١٧, ٢٩]

أما وفاته الأخيرة فلا يثبت لها هنا تاريخ محدد أو قبر مقطوع به. خبر الأخوين يذكر موته مع عزرة، ورواية المؤرخ تكتفي بخاتمة حياته بين قومه، ولا يكفي ذلك لتعيين سنة أو مكان. وتسمية عزير

«عزرا» في المقارنة مع التراث الكتابي، وربطه بعودة بني إسرائيل في عهد كورش كما يناقش الميزان، لا تبرر مزج جميع تواريخ الرجوع وإعادة البناء في سنة واحدة. يُحفظ كورش في سياق المقارنة التاريخية، مع بقاء تفصيل المواقيت خارج ما حُسم في هذا الفصل. [٢٢, ٢٦, ٢٧]

٢٧. إليا في قصص الأنبياء وصلته بإلياس

يرد اسم إليا في قصص الأنبياء للراوندي خبر صريح، بسند يمرّ بعمّار بن موسى إلى الإمام الصادق عليه السلام، يبدأ برجلٍ في بني إسرائيل يسمّى إليا، رئيس على أربعمائة منهم. وقد سبق تناول الصلة بإلياس في فصله، ويُعاد هنا ما يلزم لضبط الاسم والشخصيات ومصدر الخبر، من غير تكرار جميع سيرة إلياس. [٣٠]

ولفظ صدر الخبر «رجل يسمى إليا» لا يجيز أن نضع بين علامتي اقتباس لفظ «النبي» وكأنه فيه، وإن كان المتن يذكر مناجاته والوحي إليه. ويناقش المجلسي احتمال اتحاد إليا وإلياس لتشابه الاسمين والقصتين. هذا ترجيحٌ أو احتمال عند الجامع، لا لفظ من الإمام في الرواية يصرّح بأن الاسمين لشخص واحد. ولهذا يُثبت الفصل «إليا» كما ورد، ويبيّن صلته المحتملة بإلياس القرآني. [٣٠, ٣٢]

٢٨. الملك والمرأة والوزير والأربعمائة

في الرواية أن ملك بني إسرائيل رغب في امرأة من قوم يعبدون الأصنام، فاشترطت أن تأتي بصنمها وتعبده في بلده. تردد ثم قبل، وجاء معها ثمانمائة رجل يعبدونه. يقابله إليا بالنصيحة والتذكير بنعمة السلطان وطول العمر، فلا يستجيب. وهنا تظهر امرأة ذات أثر مباشر في التحول الديني للقصر، وملك يتحمل مسؤولية قبوله، وجماعة عبادة وافدة. لا يسمّي النص الملك ولا المرأة ولا الصنم؛ فلا نملأ هذه الخانات بأسماء من قصة أخرى. [٣٠]

ثم يدعو إليا، ويذكر الخبر قحطًا ثلاث سنين اشتد حتى لم يبق من دواب الركوب إلا ما للملك والوزير. وكان الوزير يخفي أصحاب إليا في سَرَب ويطعمهم. فلا يجوز إهمال هذا الرجل لأنه غير مسمّى: دوره حماية الأربعمائة وإبقاء الجماعة المؤمنة حيّة في وقت الضيق. ولا تعني وظيفته في الدولة أنه شارك الملك معتقده أو عداءه؛ فقد حفظ النص له فعلًا مختلفًا. [٣٠]

٢٩. نهاية القحط ومشكلة دمج الروايات

تبلغ القصة أمر إليا بالتعرض للملك، لأن الله يريد أن يفتح له طريق التوبة. فيأخذ عليه عهدًا، ويُخرج أصحابه، ويذكر الخبر التقرب بثورين، وقتل المرأة وإحراق الصنم، ثم توبة الملك ولبسه الشعر ونزول المطر والخصب. تُروى خاتمة المرأة كما وردت، من غير استنباط حكم عام من قصة تاريخية أو تعيين الفاعل حيث يتردد مرجع الضمير. وليست إزالة المرأة وحدها موضوع الخبر؛ إذ ينص على تبدل موقف الملك نفسه، وهو المسؤول عن إدخال العبادة إلى بلده. [٣٠]

ولا تُسمّى هذه المرأة إيزابل لمجرد الشبه بقصة إلياس، ولا يُسمّى الوزير كاتب زوجة ملك إلياس على وجه الجزم. ففي خبر إلياس الآخر أسماء أدوار وأعداد وحوادث مختلفة، منها صاحب البستان وأهله، وقد عولجت في موضعها. يُذكر احتمال الصلة، لكن يبقى لكل متن أشخاصه وألفاظه. وكذلك لا يلزم من وجود ثورين في القربان أن ننشئ رجلين مالكين لهما؛ فالحصر يَتبع من نص عليهم الخبر، ولا يولّد أشخاصًا بالافتراض. [٣٠, ٣٢]

٣٠. مناجاة إليا في بصائر الدرجات

يروي الصفّار، عن موسى النميري في الطريق الوارد، أن جماعة استأذنت على الإمام الباقر عليه السلام فسمعت صوتًا حزينًا بالعبرانية، فظنوا أنه استدعى رجلًا من أهل الكتاب يقرأ عليه. ولما دخلوا لم يجدوا عنده أحدًا، فبيّن أنه تذكّر مناجاة إليا لربّه فبكى. ويذكر من المناجاة خوف العبد بعد طول القيام والصلاة، ثم الوعد الإلهي والوفاء به. فهذا موضع آخر صريح للاسم في أصل إمامي، مع اختلاف بعض النقول في ضبط اسم الراوي. [٣١]

لا يقول النص إن إليا دخل على الإمام في تلك الساعة، ولا يسمّي قارئًا يهوديًّا أو نصرانيًّا حاضرًا؛ فذلك كان ظن الزائرين ثم نُفي. كما أن تعيين إليا بشخص آخر في حاشية مترجم ليس جزءًا من المتن العربي. ولهذا تُحفظ مناجاة إليا وشخص الإمام والراوي والجماعة، ولا يُضاف رجل من أهل الكتاب إلى سجل الحاضرين وكأن الظن الأول قد ثبت. هذه عناية صغيرة في ظاهرها، لكنها تمنع اختراع شخصيات من سوء قراءة الحوار. [٣١]

٣١. إليا: ما يبقى غير محسوم

لا يسوق خبر الراوندي اسم أبي إليا أو أمه أو زوجته أو أولاده، ولا يحدد ولادته ووفاته، ولا يروي وصية منه إلى خليفة مسمّى. والمرأة المحورية فيه زوجة الملك، وليست زوجة إليا. فإذا قُبل احتمال اتحاده بإلياس صارت أخبار إلياس موضع مقارنة، لا مادة تنتقل إليه بلا بيان؛ وإذا تُرك الاحتمال مفتوحًا بقيت الترجمة بما في هذين الأصلين. لا يقتضي اكتمال الفصل أن تُملأ كل خانة، بل أن يُقال بوضوح أين ينتهي الخبر. [٣٠–٣٢]

٣٢. جرجيس: مصدر القصة ودرجة نسبتها

يفتتح خبر جرجيس في قصص الأنبياء بذكر بعثه إلى ملك يعبد صنمًا. غير أن طريق الخبر، مع مروره بنقلة وكتب إمامية، ينتهي إلى عكرمة عن ابن عباس، ولا ينتهي في النص المقروء إلى أحد الأئمة. هذه النتيجة تضبط الفصل كله: يصح أن نقول «روى الراوندي عن ابن عباس»، ولا يصح اختصار ذلك إلى «قال الإمام الصادق». وكذلك وصفه بالرسالة أو النبوّة في سياق الخبر يبقى نسبة ذلك المصدر، لا تسمية قرآنية مستقلة. [٣٣]

وأورد المجلسي الخبر في بحار الأنوار، ثم أشار إلى أخبار مطوّلة في كتب التواريخ ترك إيرادها لعدم اعتماده على أسانيدها. أما التعليق في حاشية الطبعة بشأن عدم العثور على رواية عن الأئمة في أمر جرجيس فيُقرأ بوصفه تعليقًا تحريريًّا، ولا يُخلط بكلام المجلسي نفسه. ومن ثمّ تُعرض القصة هنا بإسنادها وحدودها، ويُفصل عنها ما زاده ابن الأثير من الشخصيات والأحداث. [٣٤, ٣٥]

٣٣. جرجيس والملك دازانة

يصف خبر الراوندي جرجيس بأنه من الروم القاطنين بفلسطين، ويجعل الملك في الشام، ويضبط اسمه في المتن «دازانة»، مع اختلاف النسخ والنقول في رسمه. يدعوه جرجيس إلى عبادة الله وحده، فيقابله الملك بالحبس والعذاب. الملك هنا شخص محدد في الرواية، أما أفراد أسرته فلا تذكرهم هذه النسخة من الخبر. ولا يذكر النص اسم والد جرجيس أو والدته، ولا عمره حين بدأ الدعوة. [٣٣]

يرفض جرجيس أن يكون السلطان معيار الحق أو أن يصير المعبود الحق تابعًا لرغبة الملك. وتتعاقب محاولات إخضاعه من غير أن يتراجع في الخبر. تُحفظ هذه المواجهة في معناها: عبد يدعو إلى الله وملك يوظف القهر لحماية عبادة الصنم. أما تفصيل وسائل التعذيب فلا يحتاج إلى وصف مطوّل ليؤدي وظيفته في السيرة؛ المهم صبر الرجل وما يتركه ثباته في شهود الواقعة. [٣٣]

٣٤. الساحر وصاحب الشرطة والمؤمنون

يستدعي الملك السحرة، ويبرز في الخبر ساحر يحاول التأثير في جرجيس ثم يسقيه السم، فلا يبلغه منه ما أراد. عندئذ يعلن الساحر الإيمان ويتبرأ من فعله، فيقتله الملك. هذه شخصية لها انتقال واضح داخل السرد، من نصرة القهر إلى الشهادة للحق؛ ولا يذكر الراوندي اسمها. وبعد إحدى مرات عودة جرجيس يقوم صاحب الشرطة بالإيمان، ويتبعه أربعة آلاف، فيقتلهم الملك. [٣٣]

لا يُدمج الساحر بصاحب الشرطة، ولا تُنقل إلى أحدهما أسماء من حكايات القديس جورج بغير نص. ويظهر رجل آخر من مجلس الملك يطلب آية في الأخشاب التي صُنعت منها المنابر والمائدة، ثم يقع ما طلب في الرواية. هذا الرجل ثالث مستقل من حيث الدور، ولا يلزم أن يكون هو صاحب الشرطة أو الساحر. فحفظ الأشخاص غير المسمّين بأوصافهم أدق من توزيع أسماء شائعة عليهم. [٣٣]

٣٥. الإحياء المتكرر والملائكة والخاتمة

يأتي جرجيس في السجن ملك غير مسمّى يبشّره بالصبر والنصرة، ويخبره بأربع مرات من القتل. وفي مراحل القصة يُذكر ميكائيل في إقامته من الموت، ثم إسرافيل في مرحلة أخرى. لا يُسمّى ملك السجن جبريل في هذا النص، فلا يُستكمل اسمه من الظن. وتُنسب العودة في جميع المواضع إلى أمر الله وقدرته؛ فلا يُجعل جرجيس قادرًا على إحياء نفسه استقلالًا. [٣٣]

تنتهي الرواية بقتله بالسيف بعد دعائه، ثم بهلاك من أصرّوا على قتله. وتَرد في الدعاء رغبة في أن يكون ذكره عونًا على الصبر عند البلاء. لا يثبت بذلك تاريخ سنوي لشهادته أو شعيرة محددة ذات ألفاظ وإجراءات لم يذكرها النص. وخاتمة الخبر لا تتضمن اسم وصي له، ولا زواجًا أو أولادًا، ولا قبرًا معيّنًا؛ فلا يُضاف شيء من ذلك بدعوى استكمال السيرة. [٣٣]

٣٦. المرأة صاحبة الثور

من أكثر شخصيات الخبر عرضة للسقوط في الاختصار امرأة جاءت إلى جرجيس تشكو أن ثورًا كانوا يعيشون به قد مات. يعطيها عصاه، ويأمرها أن تضعها على الثور وتذكر القيام بإذن الله؛ فيحيا في الخبر وتؤمن المرأة. لا يقول الراوندي إنها ملكة أو زوجة جرجيس، ولا يسمّيها. ويشير قولها إلى معاش جماعة معها، لكن النص لا يفصّل عدد أهل بيتها ولا أسماءهم. [٣٣]

لا يقتصر دورها على مشاهدة آية في قصر الملك؛ إنها صاحبة حاجة معيشية، تبادر بالسؤال ثم تقوم بالفعل الذي وُجّهت إليه. وبذكرها يعود إلى القصة وجه الرحمة بالضعفاء إلى جانب الصبر على الاضطهاد. وتَرِد صاحبة الثور أيضًا في السرد التاريخي المطوّل مع وصفها بأنها من الشام، لكن هذا الاشتراك لا يجعلها العجوز صاحبة البيت التي تظهر في موضع لاحق. [٣٣, ٣٥]

٣٧. العجوز وابنها وامرأة الملك في الكامل

في رواية ابن الأثير يُحبس جرجيس في بيت عجوز فقيرة بقصد تجويعه. ولها ابن فاقد للبصر والنطق والحركة في وصف القصة. تؤمن العجوز، وتطلب له الطعام، ثم ترى رزقًا في بيتها، وتسأل شفاء ابنها. يذكر الخبر عودة بعض قدراته أولًا، ثم كلامه ومشيه في مشهد الأصنام لاحقًا. هذه أم وابن غير مسمّيين، ولا يجوز إسقاطهما من العرض المقارن، كما لا يجوز نسبة القصة المطوّلة إلى الإمام الصادق لمجرد مجاورتها خبر الراوندي في هذا الفصل. [٣٥]

وتظهر امرأة الملك بعد سماعها صلاة جرجيس وقراءته الزبور؛ تؤمن وتكتم إيمانها أولًا، ثم تعلنه في مجلس المواجهة. يأمر الملك بتعذيبها، ويذكر النص رؤيتها ملكين مع تاج من الجنة قبل موتها. فهي امرأة أخرى مستقلة عن صاحبة الثور وعن العجوز، والملكان غير مسمّيين. ويُحفظ موقفها كما ينقله المؤرخ، من غير تسميتها آسية أو إعطائها اسم ملكة من الرواية المسيحية. [٣٥]

٣٨. بقية الشخصيات في السرد المطوّل

يزيد الكامل إحياء سبعة عشر إنسانًا: تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبية، وفيهم شيخ يجيب عن زمن موته. لا يسمّي النص أحدًا منهم، ولا يجعل النساء الخمس زوجات للرجال التسعة. ويذكر بقايا الحواريين الذين أخذ عنهم جرجيس وأصحابه، وأصحابًا صالحين له، وكبير السحرة، ورجال البلاط،

وحملة أو منفذي أوامر الملك، وجموعًا آمنت. يختتم المؤرخ بعدد إجمالي مختلف عن الأربعة آلاف في مشهد مبكر؛ فلا تُجمع الأعداد وكأنها إحصاءات مستقلة خالية من التداخل. [٣٥]

ومن الألفاظ التي تحتاج إلى فصل «أفلون»، وهو اسم الصنم في هذه الرواية لا اسم رجل معاصر لجرجيس. وترد «طرقلينا» و«مخليطيس» في محاورة أسماء من عظمائهم، مع اضطراب في عبارة النسخة الإلكترونية؛ يُحفظ ذكرهما بوصفهما اسمين في النص التاريخي من غير تعيين قاطع لهويتهما أو وصل أنسابهما. ولا تُنشأ تراجم بشرية للشمس والقمر والأصنام الأخرى المذكورة في الحكاية. فحصر الشخصيات يختلف عن جمع كل اسم ظاهر في الصفحة. [٣٥]

٣٩. جرجيس والقديس جورج: مقارنة محدودة

تعرض الموسوعة الكاثوليكية تقاليد القديس جورج مع التنبيه إلى اختلاف الروايات وصعوبة إثبات تفاصيل سيرته. وتذكر موضوعات تشبه بعض مادة جرجيس، كالإحياء المتكرر وإيمان امرأة من القصر، وتورد اسم ألكسندرا في الرواية المسيحية. هذا تشابه يستحق المقارنة، ولا يثبت وحده أن كل الأسماء والتواريخ قابلة للنقل بين النصوص. لذلك لا تُسمّى ملكة ابن الأثير ألكسندرا، ولا تُضاف حكاية التنين والأميرة إلى خبر الراوندي؛ فهي من مادة تقليد آخر. [٣٦]

٤٠. سجل النساء في نطاق الفصل

في مادة حزقيل: أمّه المسنّة غير المسمّاة في مجمع البيان، والنساء اللاتي يذكر خبر العودة الزواج بهنّ. ولا يثبت فيهما اسم زوجة لحزقيل أو بنت له. وفي مادة إسماعيل بن حزقيل لا تسمي الأخبار المعتمدة هنا أمّه أو زوجته. أما آسية وماشطة آل فرعون فذُكرتا عند التحذير من خلط سياق مؤمن آل فرعون بسيرة النبي الذي أُحيي القوم بدعائه، وليستا إضافتين إلى أسرته. [٣, ١١–١٣]

في مادة عزير: أمّه في خبر التوأمين، وزوجته الحامل في النقل التفسيري، والجارية المسنّة في الكامل؛ كلهن غير مسمّيات في النصوص المذكورة. ومريم مسمّاة في السياق القرآني المتصل بالمسيح، لا بوصفها معاصرة لعزير. وفي مادة إليا: المرأة التي تزوّجها الملك وأدخلت معها الصنم، وهي غير مسمّاة، ولا تَرِد زوجة لإليا في هذا الخبر. [١٦, ١٩, ٢٢, ٢٧, ٣٠]

في مادة جرجيس: صاحبة الثور في خبر الراوندي؛ والعجوز أم الطفل، وامرأة الملك المؤمنة، والنسوة الخمس في جماعة السبعة عشر، في زيادة ابن الأثير. لا تُدمج هذه النساء ولا تُخترع أسماؤهن. وألكسندرا والأميرة وردتا في المقارنة المسيحية وحدها. هذا السجل يحفظ درجات الحضور ومصادره، ولا يرفع كل امرأة مذكورة إلى رتبة الشخصية القرآنية أو المرويّة عن إمام. [٣٣, ٣٥, ٣٦]

٤١. سجل الرجال والأطفال والجماعات

تجمع مادة حزقيل، إلى جانبه، موسى ويوشع وكالب في قول الترتيب، وشمعون في التعيين البديل، وداود وأروى بن سلم في خبر العبرة، وسليمان في ذيل المحاسن، وبختنصر والأسرى في المناظرة، وإسماعيل بن حزقيل وقومه والعابد والملك والجبّار في أخباره. ويُذكر ذو الكفل ومؤمن آل فرعون وحبيب النجار وعلي في بحث تمييز الأسماء. أما ملك القبط والملك ذو الطفل والطفل نفسه وأهل القرى والمارّة والمحيون فتبقى أسماء أفرادهم غير معلومة. [٢, ٣, ٧–١٥]

وفي مادة عزير: عزرة الأخ، والأب غير المسمّى، والابن والأحفاد غير المسمّين، ودانيال وهارون وأرميا والخضر ومكيخا ويحيى وعيسى وبختنصر بحسب مواضعهم، وصاحب نسخة التوراة وأبوه أو جدّه، والأطفال في سؤال العدل، وكورش في المقارنة التاريخية. ويُحفظ سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الضيف وعدي بن حاتم في سياق الرسالة المحمدية. لا يُرتّب هؤلاء جميعًا بوصفهم أصحاب عزير أو معاصريه. [١٧–٢٩]

وفي مادة إليا: الملك والوزير والأربعمائة والثمانمائة، من غير أسماء أفراد. وفي مادة جرجيس: دازانة باختلاف رسمه، والساحر، وصاحب الشرطة، وطالب آية الأخشاب، وأهل السجن، والمنفذون لأمر الملك، والمؤمنون. وتزيد الرواية التاريخية ابن العجوز، والشيخ المُحيا، والرجال التسعة والصبية الثلاثة، وبقايا الحواريين والأصحاب الصالحين وكبير السحرة، واسمَي طرقلينا ومخليطيس بحدودهما النصية. أما تعداد الجماعات فلا يتحول إلى أسماء أفراد لم يذكرهم المصدر. [٣٠, ٣٣, ٣٥]

٤٢. المعلّمون والرواة والملائكة: عدم خلط الأدوار

حضور رسول الله وأمير المؤمنين والإمامين الباقر والصادق والإمام الرضا عليهم السلام في هذا الفصل يكون، بحسب الموضع، تعليمًا أو تفسيرًا أو مناظرة أو استشهادًا. ويَرِد الحسين عليه السلام في خبر إسماعيل بن حزقيل بوصفه موضع أسوة ووعد بالرجعة. هؤلاء ليسوا معاصرين لحوادث بني إسرائيل لمجرد اجتماع أسمائهم في سند أو متن واحد. وكذلك ابن عباس وعكرمة وأبو حمزة وعمر بن يزيد وحمران وهشام بن سالم وعبد الأعلى وعمّار بن موسى وموسى النميري وبريد العجلي من طبقات الرواية أو السؤال، لا من أهل القرية التي أُحييت. [٢, ٣, ٧, ٩–١٥, ١٨, ٢٢, ٣٠, ٣١, ٣٣]

ومن غير البشر يَرِد ملك الهواء غير المسمّى في خبر حزقيل، وملك العذاب سطاطائيل في خبر إسماعيل، وجبريل في بعض أخبار التوراة، وميكائيل وإسرافيل وملك السجن غير المسمّى في قصة جرجيس، وملكان في زيادة امرأة الملك. تُحفظ أسماؤهم وأدوارهم لأنهم من عناصر الخبر، لكنهم لا يدخلون في عدّ الرجال والنساء. كما لا يَثبت اسم ملك في طريق لأنه سُمّي في طريق مختلف. [٧, ١٢, ٢٥, ٣٣, ٣٥]

٤٣. موضع الفصل في حكاية الهداية

يؤدي جمع هذه الشخصيات غرضًا موضوعيًّا: استعادة أسماء ترتبط بالحياة بعد الموت، وبقاء العلم، والثبات على التوحيد، وتمييز الخبر المأثور من التوسعات التاريخية. لكنه لا يثبت أن الأربعة عاشوا متتابعين في عصر واحد. فخبر جرجيس عند ابن الأثير يربطه بمن أخذوا عن بقايا حواريّي عيسى؛ ومن ثمّ لا يجوز أن نجعله سابقًا لمريم وعيسى لمجرد أن فصلهما سيأتي بعده في ترتيب الكتاب. الانتقال إلى آل عمران انتقال في بناء الكتاب، لا دعوى بأن جرجيس سلّم إليهم وصية مباشرة. [١٧, ٣٠, ٣٣, ٣٥]

واكتمال هذا الفصل يعني أن الشخصيات والأدوار ذات الصلة في المصادر المحددة قد وجدت مواضعها، وأن الروايات المختلفة لم تُخفَ، وأن المجهول لم يُملأ بالتخمين. تبقى دلالة القرآن في صدر البحث، وتُروى أخبار أهل البيت بأسماء مصادرها، وتظهر الأم والزوجة والخادمة والملكة والطفل والمستضعف إلى جانب النبي والملك والراوي. بهذه الأمانة يستمر الحديث عن الهداية: حفظًا للأسماء التي وصلتنا، وحفظًا للحدود التي لم يتجاوزها الدليل.

المصادر والإحالات

الأرقام بين المعقوفين تحيل إلى المواضع الآتية، وعناوين المراجع روابط قابلة للفتح. أرقام الصفحات تتبع النسخ المشار إليها وقد تختلف في طبعات أخرى؛ وعند إمكان تحديد الحديث أو الآية أُثبت رقمها لتيسير المراجعة. تكرار الكتاب في أكثر من إحالة يعني اختلاف الموضع المستعمل، ولا يعني أنه مصدر مستقل جديد. والتعبير «كما نقله» يميّز النقل الوسيط من قراءة الأصل نفسه.

[١] القرآن الكريم، البقرة: ٢٤٣–٢٤٤؛ خروج الألوف وإحياؤهم، وسياق القتال التالي.

[٢] الكليني، الكافي، ج ٨، الروضة، ح ٢٣٧، ص ١٩٨–١٩٩؛ حديث عمر بن يزيد وغيره في حزقيل وسبعين ألف بيت.

[٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير البقرة: ٢٤٣؛ أم حزقيل، وتسلسل الأسماء، واختلاف التعيين، وخبر الحياة والزواج بعد الإحياء.

[٤] الطوسي، التبيان، تفسير البقرة: ٢٤٣؛ الأقوال في العدد وسبب الخروج ودلالة الآية.

[٥] الحويزي، نور الثقلين، تفسير البقرة: ٢٤٣؛ الأخبار المجموعة في الإحياء والماء والنيروز، مع اختلاف طرقها.

[٦] الطباطبائي، الميزان، تفسير البقرة: ٢٤٣، البحث الروائي؛ دلالة الإحياء والنقل عن الاحتجاج.

[٧] الراوندي، قصص الأنبياء، ح ٢٨٢، ص ٢٤١؛ أبو حمزة عن الإمام الباقر في ملك القبط وحزقيل.

[٨] البرقي، المحاسن، ج ٢، ح ٩٠٢، كما نقله المجلسي في بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٨٣-٣٨٤؛ ذيل خبر حزقيل وسليمان، وطريقه غير المسمّى في موضع منه.

[٩] الراوندي، قصص الأنبياء، ح ٢٨٣، ص ٢٤١-٢٤٢، مع حاشية التحقيق؛ سؤال عبد الأعلى الذي لم يُحفظ جواب الإمام عنه في المتن.

[١٠] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢، ص ٥٢٤-٥٢٥، ح ٦؛ هشام بن سالم عن الإمام الصادق في داود وحزقيل وأروى بن سلم.

[١١] فرات الكوفي، التفسير، في سورة يس، ح ٤٨٠-٤٨١، ص ٣٥٤؛ حديث الصديقين وتسمية مؤمن آل فرعون.

[١٢] ابن قولويه، كامل الزيارات، الباب ١٩، ح ١-٤، ص ٦٣-٦٥؛ إسماعيل بن حزقيل والأسوة بالحسين، مع التنبيه إلى اختلاف أخبار وفاة إسماعيل.

[١٣] الراوندي، قصص الأنبياء، الباب العاشر، ح ٢٣٥-٢٣٧، ص ١٨٨-١٩٠؛ صادق الوعد والعابد والملك والجبّار، والخبر الموازي في الصفاح.

[١٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٨٨-٣٩١؛ أخبار إسماعيل صادق الوعد والتعليق على تعارض بعض تفاصيلها.

[١٥] الصدوق، عيون أخبار الرضا، خبر مناظرة الإمام الرضا مع الجاثليق ورأس الجالوت؛ وانظر نقل فقرة حزقيل في بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٨٦-٣٨٧.

[١٦] القرآن الكريم، التوبة: ٣٠-٣١؛ عزير والمسيح ابن مريم والأحبار والرهبان.

[١٧] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ١٥٧-١٥٩، الباب ٧؛ دانيال وعزير ونسل هارون وفترات الخفاء.

[١٨] الراوندي، قصص الأنبياء، ح ٢٨١، ص ٢٤٠-٢٤١؛ خبر ابن عباس في سؤال عزير عن الأطفال والعدل.

[١٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير البقرة: ٢٥٩؛ هوية المارّ، وزوجته وابنه في النقل عن علي، وأخبار التوراة.

[٢٠] الطوسي، التبيان، تفسير البقرة: ٢٥٩؛ عزير وأرميا والخضر، وشرح السؤال ومشهد الإحياء.

[٢١] الطباطبائي، الميزان، تفسير البقرة: ٢٥٩، ولا سيما البحث الروائي واختلاف التعيين.

[٢٢] الكليني، الكافي، ج ٨، الروضة، ح ٩٤؛ الإمام الباقر والعالم النصراني، وخبر عزير وعزرة.

[٢٣] تفسير القمي، تفسير البقرة: ٢٥٩؛ خبر الإمام الباقر في الشام ومقابلة ألفاظ الأعمار في رواية الأخوين.

[٢٤] الحويزي، نور الثقلين، تفسير البقرة: ٢٥٩؛ جمع أخبار الكافي والقمي وغيرها في المائة عام والأخوين.

[٢٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير التوبة: ٣٠-٣١؛ رجال سبب النزول، واستعادة التوراة، وتفسير طاعة الأحبار والرهبان.

[٢٦] الطباطبائي، الميزان، تفسير التوبة: ٣٠ وما يتصل بها؛ بحث عزير وعزرا والمقارنة التاريخية وحدود التعميم.

[٢٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، «ذكر مسير بختنصر إلى بني إسرائيل»، في خاتمة أخبار أرميا وعزير، ص ٢٣٥-٢٣٦ في النسخة المعروضة؛ الجارية والابن والأحفاد واستعادة التوراة. مصدر تاريخي للمقارنة.

[٢٨] إثبات الوصية، المنسوب إلى المسعودي، ص ٨٧-٨٩ في النسخة المقروءة؛ دانيال ومكيخا، مع الإحالة إلى مناقشة الفصل السابق.

[٢٩] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٨، ح ٢٠؛ الطريق المطوّل عن أبي رافع، وفيه واسطة غير مسمّاة واختلاف في ترتيب الأخبار.

[٣٠] الراوندي، قصص الأنبياء، ح ٢٨٥، ص ٢٤٢-٢٤٣؛ عمّار بن موسى عن الإمام الصادق في إليا والملك والمرأة والوزير.

[٣١] الصفّار، بصائر الدرجات، الجزء السابع، الباب ١٣، ح ٣؛ موسى النميري عن الإمام الباقر في مناجاة إليا. الاعتماد على المتن العربي، لا على الزيادة التفسيرية في الترجمة المرافقة.

[٣٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٩٩-٤٠٠، ح ٦ والتعليق عليه؛ احتمال اتحاد إلياس وإليا، لا القطع به.

[٣٣] الراوندي، قصص الأنبياء، ح ٢٨٠، ص ٢٣٨-٢٤٠؛ قصة جرجيس، بطريق عكرمة عن ابن عباس.

[٣٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٤، باب قصة جرجيس، ص ٤٤٥-٤٤٧؛ نقل خبر الراوندي وتعقيب المجلسي، مع فصل حاشية المحقق عنه.

[٣٥] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ضمن أحداث أيام ملوك الطوائف، خبر جرجيس؛ موضعه قبل خبر خالد بن سنان في النص الإلكتروني. مصدر الزيادات التاريخية، لا حديث عن إمام.

[٣٦] الموسوعة الكاثوليكية، مادة «القديس جورج»، المنشورة علنيوأدفنت؛ للمقارنة بين التقاليد فقط.

[٣٧] القرآن الكريم، غافر: ٢٨ وما بعدها؛ المؤمن من آل فرعون، من غير تسمية قرآنية له.

[٣٨] القرآن الكريم، مريم: ٥٤-٥٥؛ إسماعيل صادق الوعد، من غير نسب مذكور في هذا الموضع.

[٣٩] القرآن الكريم، الصافات: ١٢٣-١٣٢؛ إلياس ودعوته، وأساس تمييز الاسم القرآني من «إليا» في الرواية.

[٤٠] القرآن الكريم، الأنعام: ١٦٤؛ أصل عدم حمل نفس وزر أخرى، في مناقشة خبر الأطفال.

الفصل ٣٩ — عمران وآل عمران — الأسرة التي مهّدت لميلاد مريم

١. مدخل الفصل وحدود الرواية

تبدأ قصة هذه الأسرة في القرآن بدعاء امرأة، وبنذر مولود لم تره بعد، ثم بطفلة يتقبلها الله وينشئها في رعاية زكريا. ليست أم مريم تفصيلًا هامشيًا في سيرة رجل؛ فكلماتها هي مدخل السرد، واختيارها الاسم واستعاذتها لابنتها وذريتها جزء من النص الإلهي. ويتناول هذا الفصل عمران وامرأته، وميلاد مريم ونشأتها وكفالتها، وصلات البيت بزكريا وزوجه ويحيى وعيسى عليهم السلام. أما تفصيل حياة مريم وحملها بعيسى ورسالة ابنها فيأتي في موضعه اللاحق. [١, ٢]

٢. الاصطفاء في سياق آل عمران

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٣–٣٤). يجمع النص آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران في سياق الاختيار الإلهي. ثم ينتقل مباشرة إلى امرأة عمران، فلا يصح أن تُمحى النساء من معنى الأسرة المصطفاة حين تُروى القصة. كما أن ذكر النسب لا يغني عن الإيمان والعمل اللذين يظهران في النذر والقنوت والتصديق. [١]

يعرض «مجمع البيان» قولًا يجعل آل عمران موسى وهارون، وقولًا يجعلهم مريم وعيسى من بيت عمران أبي مريم. والمقصود في عنوان هذا الفصل عمران أبو مريم، لأن قصة امرأته وابنته هي موضوع الآيات التالية. يُسجل اختلاف التفسير، ولا يُجعل ذريعة لخلط أسرتين أو لجعل مريم أم عيسى أختًا زمنية لموسى وهارون. [٧, ١٥]

٣. عمران أبو مريم: الاسم الثابت وحدود السيرة

يذكر القرآن «امرأة عمران» في آل عمران: ٣٥، ويسمي مريم «ابنت عمران» في التحريم: ١٢. بذلك يثبت اسم الأب وعلاقته بالأم والابنة. أما عمره، وتاريخ مولده، وموضع ولادته، وأسماء أبويه وإخوته، ومهنته التفصيلية، فلا تعرضها هذه الآيات. ولا يصح ملء هذه الفراغات بأسماء متداولة ثم تقديمها على أنها جزء من القرآن. [١, ٢]

ورود اسم عمران في أخبار نسب موسى لا يعني أن الرجلين شخص واحد. والقرآن لا يسمي أبا موسى في قصة ولادته. كذلك لا تُعتمد المدة العددية التي يذكرها بعض المفسرين بين العمرانين بوصفها تأريخًا مقطوعًا به؛ المقصود هنا تثبيت تمايز الشخصيتين، مع ترك حساب القرون لما يثبت بدليل مستقل. [٧]

٤. هل كان عمران نبيًا؟

لا تصرح الآيات المذكورة بلفظ النبوة لعمران، لكن رواية أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام تجيب عن السؤال مباشرة. أورد الراوندي في «قصص الأنبياء»، الحديث ٢٧٨، سؤال أبي بصير عن عمران، وجواب الإمام: «نعم كان نبيًّا مرسلًا إلى قومه». ويتصل الخبر بذكر حنّة وحنانة ومريم ويحيى وعيسى. ولهذا لا تقتصر الصياغة على وصف عمران بأنه رجل صالح مع إغفال هذه الرواية الصريحة. [٤]

وطريق الراوندي المذكور يمر بالصدوق، ثم محمد بن موسى بن المتوكل، وعبد الله بن جعفر الحميري، وأحمد بن محمد بن عيسى، والحسن بن محبوب، وعلي بن رئاب، وأبي بصير. نذكر الطريق لتمييز الخبر من الحكاية المرسلة، دون إصدار حكم رجالي شامل على جميع رجاله هنا. وتسانده من جهة المضمون رواية البشارة في «الكافي»، إذ تنص على الوحي إلى عمران. النتيجة المنضبطة: نبوته منصوص عليها في الرواية، وليست وصفًا صريحًا في آيات القصة. [٣, ٤]

٥. النسب والمكانة في بني إسرائيل

تذكر كتب التفسير «عمران بن ماثان»، وتورد «ابن الهشم» وفي نقل آخر «ابن أشهم»، وتظهر في الحواشي صيغ ياشهم وساهم. ويأتي أمون بعد الهشم في نسب عرضه «مجمع البيان»، ثم يصل النسب بداود وسليمان عليهما السلام. ويسوق «مجمع البيان» بعض ذلك عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما، كما يذكر في قصة الكفالة أن مريم بنت إمام القوم وصاحب قربانهم. هذه تعيينات تفسيرية وتاريخية، لا ألفاظ قرآنية؛ وتُراجع صيغها أيضًا في تعليقات «البحار». فلا نستخرج منها قائمة مؤكدة بآباء عمران أو لقبًا سياسيًا ثابتًا له. [٧, ١١, ١٢, ١٥]

وعليه يُذكر ماثان، ومن وردت صيغ أسمائهم بدلًا منه، في هامش اختلاف الأنساب لا بوصفهم آباء متتابعين ثابتين. ويُذكر داود وسليمان بوصفهما أصلًا منسوبًا إليه البيت في تلك الأخبار، ولا تُنشأ واقعة لقاء بينهم وبين عمران. أما يعقوب بن ماثان الوارد في بعض أقوال تفسير ميراث زكريا، فليس هو بالضرورة يعقوب بن إسحاق؛ ويُحفظ التفريق عند بحث آل يعقوب في فصل زكريا. [٧, ١٥, ٢٥]

٦. امرأة عمران: حنّة ومرثا ووهيبة

لا يسمي القرآن امرأة عمران باسم شخصي. وأما «حنّة» فليست مجرد تسمية شائعة خارج الروايات؛ فقد جاء الاسم في خبر أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام في «الكافي»، وفي خبر الراوندي عن الإمام الباقر عليه السلام. وعند استعمال الاسم في السرد نقول: امرأة عمران، المسماة حنّة في هذه الروايات، وهي أم مريم وجدة عيسى من جهة أمه. [٣, ٤]

وفي «الكافي»، باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، الحديث الرابع، يرد في حوار الإمام الكاظم عليه السلام مع نصراني أن اسم أم مريم «مرثا»، وأنها «وهيبة بالعربية». وتُنقل أيضًا صيغ «مرتا» و«مرثار»

في النقول والنسخ. لا تعني هذه الأسماء وجود أمهات متعددات لمريم. وقد اقترح الشراح احتمالات كاختلاف الاسم واللقب أو اختلاف الاصطلاح المنقول، ولكن الاحتمال ليس دليلًا قاطعًا على الجمع. لذلك نثبت اختلاف التسمية ونحافظ على وحدة الشخصية. [١٠, ١٩, ٢٠]

٧. أم يحيى: امرأة زكريا التي لا تُغفل

يثبت القرآن لزكريا زوجة، ويذكر عقرها، ثم يقول: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (الأنبياء: ٩٠). وهي أم يحيى، لكنها غير مسماة في القرآن. ويسميها خبر الراوندي المتقدم «حنانة»، ويجعلها أخت حنّة امرأة عمران. ويورد «مجمع البيان» اسمًا بصيغ إيشاع أو أشياع بحسب النقل. فلا ينبغي عدّ حنانة وإيشاع امرأتين مختلفتين لمجرد اختلاف اللفظ. [١, ٤, ٧, ٢٣]

وينقل «بحار الأنوار» عن تفسير فرات خبرًا في مشهد القيامة يذكر «أم كلثوم أم يحيى بن زكريا» مع مريم وفاطمة وخديجة وآسية. نسجل هذه الكنية في ملف أم يحيى مع بيان مصدرها وطبيعة سياقها، ولا نجعلها اسمًا قرآنيًا أو طريقًا لحسم جميع الاختلافات. وأما إليصابات المتداول في الكتابات المقارنة فلا يُنسب إلى القرآن أو إلى الروايات المذكورة هنا دون نص خاص. [٢٢]

٨. قرابة البيتين: صورتان لا شجرة جازمة

الصورة الأولى في خبر الراوندي واضحة: حنّة وحنانة أختان؛ مريم بنت حنّة، ويحيى ابن حنانة. وبذلك يكون يحيى ابن خالة مريم، ويكون عيسى ابن بنت خالة يحيى. ويشرح الخبر إمكان التعبير بقرابة الخالة مع اختلاف الجيل بعبارة «وخالة الأم بمنزلة الخالة». ولا تُختزل هذه الصورة في القول إن مريم وأم يحيى أختان. [٤]

وتظهر الصورة الثانية في أخبار يرد فيها أن زكريا زوج أخت مريم، أو في ضمير «أختها» الذي ناقش المجلسي مرجعه وإمكان حمله على أم مريم. هذه مادة اختلاف حقيقية: قد يكون الاختلاف في النسب نفسه أو في فهم الضمير واستعمال القرابة. يبقى الثابت القرآني أن زكريا كفل مريم وأن له زوجة وأن يحيى ابنه؛ أما درجة القرابة بين المرأتين فتُذكر بحسب كل خبر. [٦, ١١, ١٩]

٩. شوق الأم إلى الولد: الخبر وحدوده

يروي «مجمع البيان» في سياق أقوال المفسرين أن حنّة انقطع عنها الولد، وأن رؤيتها طائرًا يطعم فرخه حركت رغبتها في الأمومة، فدعت الله ورُزقت مريم. لهذه الصورة أثر أدبي في تفسير النذر، ولكن عرضها بصيغة «قالوا» ليس إسنادًا إلى الإمام. فلا نجزم بعمر حنّة عند الحمل، ولا بعدد سنوات انتظارها، ولا نضع دعاء مطولًا على لسانها لم يثبت في الآية أو الخبر. [٧]

١٠. البشارة لعمران وتحققها في عيسى

يروي الكليني عن أبي بصير، عن الإمام الصادق عليه السلام، أن الله أوحى إلى عمران ببشارة ذكر مبارك يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويكون رسولًا إلى بني إسرائيل. فأخبر عمران امرأته حنّة، فحملت وهي تتوقع غلامًا؛ ثم وضعت مريم. ويبين الخبر أن عيسى، حين وهبه الله لمريم، كان هو الموعود الذي بُشّر به عمران. وهذا هو العمود الروائي الذي يصل قصة الأسرة برسالة المسيح. [٣]

وتأتي رواية قريبة في التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، بطريق أبيه عن الحسن بن محبوب وعلي بن رئاب وأبي بصير، كما يرويها الراوندي في الحديث ٢٧٩. وتكرارها في «الصافي» و«نور الثقلين» و«بحار الأنوار» لا يحول النقل الواحد إلى شواهد مستقلة بعدد الكتب؛ المهم ملاحظة أصل الطريق وما وقع فيه من زيادة أو اختصار. [٤, ٥, ١٩, ٢٠]

١١. فهم البشارة دون اختلاق مواعيد

يختم خبر «الكافي» ببيان أن القول في رجل قد يتحقق في ولده أو ولد ولده. وفي هذه القصة جرى تحقق البشارة عبر الابنة ثم ابنها. فلا يدل ميلاد مريم على إخلاف الوعد، كما لا يجيز الخبر للكاتب أن يضع من عنده موعدًا لولادة عيسى أو مدة بين الوحي والولادة. والآيات لا تعرض هذا الحوار السابق للحمل أصلًا، ولذلك يُنسب شرحه إلى الرواية. [٣]

ويورد الراوندي في الحديث ٢٨٠ خبرًا آخر عن الإمام الرضا عليه السلام يتضمن تعيين السنة والشهر وغياب عمران واختلاف الناس بعد ولادة مريم. وقد نبه التعليق في «بحار الأنوار» إلى جهالة بعض رجال هذا الطريق. لا ندمج هذه التفاصيل في الرواية الأثبت حضورًا في «الكافي»، ولا نحول لفظ الغياب إلى تاريخ وفاة، ولا نستخرج منه نظرية زمنية ملزمة. [٤, ١١]

١٢. النذر: إخلاص المولود لخدمة الله

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ٣٥). يجمع الدعاء النذر وطلب القبول؛ فلا نتعامل الأم مع العمل كاستحقاق تفرضه على الله. و«محررًا» في شروح «التبيان» و«مجمع البيان» يدور على الإخلاص للعبادة أو التفرغ لخدمة موضعها، مع تحرير المولود من استخدام الأسرة له في مصالحها المعتادة. [١, ٧, ٨]

وتصف روايات العياشي المحرَّر بخدمة العباد والإقامة في موضع العبادة. وترد ألفاظ المسجد والكنيسة والبيعة في نقل هذه البيئة السابقة؛ فلا تُفهم «الكنيسة» هنا على أنها تقرير لوجود مؤسسة مسيحية بعد عيسى في زمن أمه قبل مولده. كما أن وصف نظام نذر قديم لا يكفي وحده لإثبات حكم فقهي معاصر يلزم طفلًا بنذر والديه. [٦, ٨]

١٣. صوت الأم ومسؤوليتها

تظهر امرأة عمران صاحبة دعاء ونذر وتسمية واستعاذة. لا يعرضها القرآن مجرد حاملة لبشارة زوجها، ولا يسند إليها طلب الغلبة أو الملك لذريتها. إنها تسأل القبول والحفظ. ومن قراءة هذا البناء يظهر أن التمهيد للهداية يبدأ في البيت بالإخلاص، ثم يمتد إلى التربية والكفالة؛ وهذا استنتاج تربوي من ترتيب القصة، لا رواية جديدة ننسبها إلى أهل البيت. [١]

١٤. ولادة مريم وتسميتها في القرآن

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦). الثابت هنا أن الأم وضعت أنثى، وسمتها مريم، ودعت لها ولذريتها. ولا تتضمن الآية وصف المخاض، أو اسم قابلة، أو يومًا من الأسبوع، أو سنّ الأم عند الولادة. [١]

١٥. «وليس الذكر كالأنثى»: قراءة تحفظ السياق

تذكر التفاسير اختلافًا في نسبة الجملة إلى كلام الأم أو إلى التعقيب الإلهي. ويجعل «الصافي» جملة «والله أعلم بما وضعت» اعتراضًا إلهيًا، ثم يعرض «وليس الذكر كالأنثى» من كلام الأم. ويربط خبر «الكافي» توقعها بالبشارة برسول. لذلك لا يصح انتزاع الجملة من قصتها وجعلها حكمًا بأن كل رجل أكرم عند الله من كل امرأة؛ فالمولودة نفسها تُقبل قبولًا حسنًا وتُصطفى. [١, ٣, ٢٠]

ويعدّ «الميزان» المقارنة تعقيبًا إلهيًا يلفت إلى خصوصية هذه الأنثى، وإلى أن ما أرادته الأم لا يحيط بما أعده الله لمريم. نذكر هذا وجهًا تفسيريًا مع الوجه الروائي المتقدم، ولا نمزجهما في قول واحد منسوب إلى الإمام. والجامع بينهما في قراءة الفصل أن ولادة الأنثى لم تُبطل القبول ولا مكانتها في تدبير الهداية. [٩]

١٦. الاسم والدعاء يمتدان إلى الذرية

التسمية فعل صريح للأم: «وإني سميتها مريم». وتشرح بعض التفاسير الاسم بمعنى العابدة أو الخادمة في لغة القوم، لكن ذلك تفسير لغوي منقول، لا ترجمة قرآنية منصوصة للاسم. ولا يحتاج إثبات هوية مريم إلى الجزم بهذا الاشتقاق. الأهم في السياق أن الأم لم تتخل عن نذرها ودعائها عند مخالفة الولادة لتوقعها. [١, ٧, ٢٠]

وتشمل الاستعاذة مريم وذريتها. ويأتي عيسى في النص القرآني ابنًا لمريم، فتصل القصة بين دعاء الجدة وبين الابنة وولدها، دون أن توجب العبارة إثبات أولاد آخرين لمريم لم يسمهم القرآن. والشيطان المذكور في الدعاء ليس شخصية بشرية في سجل الأسرة، وإنما هو الجهة التي تطلب الأم الحماية من إغوائها. [١, ٢, ٢٤]

وينقل «مجمع البيان» و«الصافي» خبر مس الشيطان للمولود واستثناء مريم وابنها، مع اختلاف في تفسير المس. لا نجعل هذا الخبر شرحًا لازمًا للآية، ولا نستنبط منه سلب العصمة عن سائر الأنبياء وأهل البيت؛ فالدعاء القرآني أوسع من صورة حسية واحدة، وتفاصيل الحديث ومدى دلالته تُبحث في موضعها. [٧, ٢٠]

١٧. غياب عمران ووفاته

يذكر «مجمع البيان» بصيغة «قيل» أن عمران مات وامرأته حامل. وتنقل روايات تفسيرية أن مريم يتمت من أبيها، وترد في نقل آخر عبارة اليتم من أبويها. هذه النصوص تفسر الحاجة إلى الكفالة، لكنها لا تعطي تاريخ وفاة محققًا أو مكان دفن ثابتًا. فلا يُكتب لعمران يوم وفاة أو عمر أو قبر محدد اعتمادًا على شهرة محلية غير مدروسة. [٧, ١١, ١٣]

وكذلك لا نجد في مواضع المراجعة تاريخًا ثابتًا لوفاة حنّة أو مقدار بقائها بعد ولادة مريم. ولا يدل صمت الآيات عن الأم بعد الدعاء على أنها ماتت في لحظة الولادة. فالانتقال السردي إلى زكريا يثبت قيامه بالكفالة، ولا يكفي وحده لبناء خبر وفاة الأم. [١, ٧, ١٣]

١٨. قبول الطفلة ونباتها الحسن

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران: ٣٧). ينتقل النص من رجاء الأم إلى فعل العناية: قبول ونماء وكفالة. ولا تحجب الخصوصية الإلهية وسائل التربية البشرية؛ فقد جعل الله لمريم كافلًا معروفًا باسمه. وهذا يمنع تصوير نشأتها وكأنها جرت بلا رعاية أو تعليم أو مسؤولية أسرية. [١]

وأما ما يرد من نموها في يوم نمو غيرها في عام، أو تحديد سن معينة لبلوغها مرتبة اجتهاد خاصة، فهو من أقوال منقولة في التفسير، وليس مدلول «نباتًا حسنًا» وحده. نثبت النشأة المباركة وننسب الزيادات إلى ناقليها، ولا نحول الوصف القرآني إلى جدول طبي أو زمني. [١٢]

١٩. زكريا الكافل

زكريا نبي مسمى في القرآن، ودوره المباشر هنا كفالة مريم والدخول عليها في المحراب. لا تنشئ الكفالة أبوة نسب، ولا تجعله زوجًا لمريم. وتسميته خالًا في بعض الألفاظ قد تكون توسعًا في قرابة المصاهرة بحسب الرواية؛ أما الصلة الثابتة في هذه الآية فهي الرعاية. وتذكر القراءات والتفاسير تشديد الفاء في «كفّلها» وتخفيفها، مع بقاء نسبة الرعاية إلى زكريا في الحالتين. [١, ١٢]

٢٠. الاقتراع على الكفالة

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤). تثبت الآية وجود جماعة تتنافس على الكفالة وتلقي أقلامها، ولا تسمي أفرادها. ويصف خبر «الكافي» المشاركين بالأنبياء، ويصف نقل القمي المتنافسين بآل عمران، وتذكر أخبار تفسيرية الأحبار. تُحفظ هذه الأوصاف كما وردت ولا تُحوَّل إلى قائمة أسماء متخيلة. [١, ١٤, ١٣]

والخلاف في زمن التنافس لا يُخفى: يذكر «مجمع البيان» وقوعه عند ولادتها وتسليمها لموضع العبادة، وينقل قولًا آخر في وقت كبرها. وفي بعض أخبار العياشي كلام على كفالتها وكفالة ولدها. لذلك يُجعل الثابت محورًا للسرد، وهو كفالة زكريا ووجود الاقتراع، وتُعرض المراحل المختلف فيها بوصفها اختلافًا، لا سلسلة وقائع متتابعة ثبتت جميعها. [١١, ١٣]

٢١. عدد المقترعين وكيفية خروج السهم

ينقل «مجمع البيان» عن ابن إسحاق وجماعة عدد تسعة وعشرين رجلًا، مع صور مختلفة لحركة الأقلام في الماء. وفي «بحار الأنوار» نقل عن «الخصال» و«من لا يحضره الفقيه» يتضمن «والسهام ستة»، ثم مناقشة لمعنى العدد. ومن اللافت أن النقل الإلكتروني في «نور الثقلين» يعرض «والسهام سنة»، مما يوجب الانتباه إلى الرسم والنسخ، لا اعتماد نتيجة عددية من غير مقابلة. [١١, ١٢, ١٣]

لا يذكر القرآن عددًا للمقترعين ولا اسم النهر ولا ترتيب ارتفاع الأقلام وغرقها. ولذلك لا نثبت ستة أو تسعة وعشرين على أنهما رقم قرآني، ولا نختار صورة واحدة لإجراء القرعة ثم نسقط سائر النقول بصمت. والمقصود من ذكر الجماعة في سجل الشخصيات ألا يختفي حضورها بسبب عدم معرفة أسمائها. [١, ١١, ١٢]

٢٢. بيت الرعاية والخالة والمرضعة

تذكر رواية ابن إسحاق التي أوردها «مجمع البيان» أن زكريا ضم مريم إلى خالتها أم يحيى، ثم بنى لها موضعًا في المحراب لما كبرت. ويذكر التفسير الاسترضاع، كما ينقل قولًا آخر بأنها لم ترضع وأن رزقها كان يأتيها من الجنة. هذان تصويران لا يُجمعان في خبر واحد جازم. فإن ذُكرت مرضعة فبصفتها امرأة غير مسماة في هذا القول، ولا تُنشأ لها هوية أو سيرة. [١٢]

وفي روايات الخدمة يظهر العباد الذين كانت مريم تناولهم وتخدمهم قبل اتخاذ الحجاب. هم جزء من البيئة التي نشأت فيها، دون أسماء فردية ثابتة في النصوص المستشهد بها. أما تفاصيل السلم والباب وإغلاق الموضع فلا تُسرد بوصفها وصفًا معماريًا قرآنيًا؛ هي زيادات تفسيرية ينبغي أن تبقى مرتبطة بمصدرها. [٦, ١٢]

٢٣. الطهارة والبلوغ: عدم إخفاء اختلاف الأخبار

ورد في «الكافي»، باب الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، حديث إسماعيل الجعفي عن الإمام الباقر عليه السلام الذي يستشهد بقصة مريم وخروجها حين بلغت ما تبلغ النساء. وجاء نظيره عند العياشي. فلا يصح أن يقال إن جميع روايات أهل البيت تنفي عنها الطمث، أو أن كل تفسير للطهارة في قوله «وطهرك» متفق على معنى جسدي واحد. [١٤, ٦]

وتذكر التفاسير معاني للطهارة تشمل الإيمان والطاعة والبراءة من الفاحشة وطهارة الأصل، إلى جانب الأقوال المتعلقة بالحيض. يحفظ الفصل مكانة مريم من غير طمس النصوص المختلفة، ومن غير تحويل أحكام العبادة إلى انتقاص من النساء. والمغيرة بن سعيد المذكور في صدر حديث «الكافي» طرف في مناقشة نقل فقهي في زمن الإمام، وليس شخصًا من معاصري مريم. [١١, ١٤]

٢٤. الرزق في المحراب

يقول القرآن إن زكريا كلما دخل على مريم المحراب وجد عندها رزقًا، فسألها عن مصدره، فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧). لا تسمي الآية نوع الطعام. وتفسر روايات القمي والعياشي المشهد بفاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. ويُذكر هذا التفصيل على أنه رواية، دون إضافته إلى ألفاظ الآية. [١, ٥, ٦]

ويستدل الطبرسي بهذا الموضع على إمكان ظهور الكرامة على غير الأنبياء من الأولياء والأصفياء. فلا يلزم من الرزق الخارق إثبات نبوة مريم، كما لا يلزم من عدم وصفها بالنبيّة إنكار ما منحها الله. ويبقى جوابها مركز القصة: تعرف النعمة وتردها إلى الله، وزكريا يسأل ليتبين، ثم يفتح المشهد باب دعائه بالولد. [١٢, ١]

٢٥. من رزق مريم إلى دعاء زكريا

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨). ثم تبشره الملائكة بيحيى، وتذكر الآيات كبره وعقر امرأته. وهكذا يتجاور دعاء امرأة عمران ودعاء زكريا، وتظهر أم يحيى في قلب الاستجابة، ولو لم يرد اسمها الشخصي. وليس انتقال السرد إليها إذنًا بتكرار سيرة زكريا كاملة داخل هذا الفصل. [١, ٢٣]

٢٦. مريم المخاطَبة بالاصطفاء والقنوت

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢-٤٣). انتقلت الطفلة المنذورة إلى امرأة مخاطبة بالعبادة والتكريم. فمريم ليست مجرد صلة نسب بين عمران وعيسى؛ لها إيمانها وعبادتها وخطابها الإلهي. [١]

وتذكر روايات الاصطفاء طهارة نسبها وخصوصية ولادة عيسى منها، وتفرق بعض روايات أهل البيت بين سيادتها على نساء عالمها وسيادة فاطمة عليها السلام. يُذكر هذا الاتصال في الفصل، وتبقى تفصيلات فضائل مريم لفصلها. والملائكة في هذه الآيات مذكورون بصيغة الجمع، فلا نسمي كل واحد منهم جبرئيل، وإن كانت روايات أخرى تسمي الروح المرسل إليها في قصة حملها جبرئيل. [١١, ١]

٠٢٧. «يا أخت هارون» ومنع الخلط بين الأجيال

يقول قوم مريم لها في سورة مريم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (مريم: ٢٨). يشهد خطابهم بأن أبويها معروفان لديهم بغير الفجور، ولكنه يقع في سياق اتهام يدحضه الله، لا في مقام تصديق تهمتهم. كما أن لفظ «أخت هارون» لا يكفي وحده للقول إن أبا مريم هو أبو موسى. [١٦]

يجمع «مجمع البيان» أقوالًا: التشبيه برجل صالح اسمه هارون، أو أخ لها من أبيها، أو الانتساب إلى هارون أخي موسى، وينقل قولًا آخر في تشبيه ذم. لا تتساوى هذه الأقوال بمجرد جمعها، ولا يُنسب كل منها إلى أهل البيت. ولهذا يثبت هارون في سجل الأسماء المتصلة بتفسير الآية مع بيان اختلاف تعيينه؛ ولا نقرر لمريم أخًا شقيقًا أو أخًا من أبيها على أساس اسم الآية وحده. [١٧]

٠٢٨. الذرية من طريق مريم

تصل رواية البشارة عمران بعيسى من طريق ابنته، ويصرح القرآن باسم «عيسى ابن مريم». ويذكر عيسى كذلك في سياق الذرية والأنبياء في الأنعام: ٨٤–٨٧. فلا يجوز إلغاء الأم من عرض النسب بحجة أن الشخصية التالية رجل. وفي حدود هذا الفصل يكون عمران أبًا لمريم وجدًا لعيسى من جهة الأم، وتكون حنّة أمًا لمريم وجدةً لعيسى من الجهة نفسها. [٣, ٢٤, ٢٦]

وتبقى رابطة يحيى بعيسى تابعة لاختلاف الروايات في الأمهات الذي سبق عرضه. أما اسم عيسى ونسبته إلى مريم واسم يحيى ونسبته إلى زكريا فثابتة، ولا يتوقف إثباتهما على حسم جميع أسماء الجدات أو الأجداد. لا ننشئ إخوة أو أخوات أو أبناء آخرين لتكميل رسم الأسرة. [١, ٤]

٠٢٩. أهل البيت ووراثة الهداية في تفسير الآيات

يجمع «نور الثقلين» عند الآيتين ٣٣–٣٤ روايات في اتصال أهل البيت بالذرية المصطفاة ووراثة علم الأنبياء، وينقل عن الإمام الباقر عليه السلام ما يدل على أنهم من تلك العترة. وتذكر هذه النصوص النبي محمدًا وأمير المؤمنين عليًا والأئمة من ذريتهما، كما تستحضر احتجاجات للأئمة بآية الاصطفاء. هذه صلة تفسيرية وعقدية بين بيوت الهداية، وليست ادعاء أن أصحابها عاشوا مع عمران. [١٨, ٢٧]

وتنقل بعض كتب التفسير أخبارًا تتضمن عبارة «آل محمد» في سياق الآية. يُتعامل معها في موضع البحث في الرواية والتأويل والنقل، ولا تُزاد هذه العبارة في متن الآية المثبت في الفصل. النص القرآني هنا هو نص المصحف المتداول، مع التمييز بينه وبين كل خبر تفسيري مهما بلغت منزلة ناقله. [١, ١٥, ٢٧]

٣٠. بُرَيهة والمرأة التي آمنت معه

من الشخصيات التي يمكن أن تُغفل عند مراجعة تفسير «ذرية بعضها من بعض» بُرَيهة، ويختلف رسم اسمه في النقول، والمرأة التي كانت معه. ينقل «نور الثقلين» عن «الكافي» خبر لقائه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بواسطة هشام بن الحكم، ومعرفته بما عند الإمام من الإنجيل، ثم إيمانه وإيمان المرأة. وبعد نقل الخبر إلى الإمام الصادق عليه السلام يرد الاستشهاد بالآية. [٢٧]

تُذكر المرأة بوصفها مؤمنة مشاركة في التحول الوارد في الخبر، ولا تُسمى من غير دليل، ولا تُجعل زوجة بُريهة لمجرد صحبتها له. وهؤلاء من أشخاص الرواية التفسيرية اللاحقة، لا من أفراد بيت عمران التاريخي. كما لا يُخلط هذا الخبر بحوار الإمام الكاظم مع النصراني الذي ورد فيه اسم «مرثا»؛ فلكل خبر سياقه وطريقه. [١٠, ٢٧]

٣١. فاطمة وعلي والمقداد في نظير رزق مريم

يروي العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام خبر إيثار علي المقداد بن الأسود بما استقرضه، ثم وجود الطعام عند فاطمة وجوابها بأنه من عند الله، ومقارنة النبي حالها وحال علي بمريم وزكريا. ويذكر ذيله القائم والجفنة. هؤلاء من نظير روائي لاحق، لا من بيت عمران في زمن مريم؛ وتفصيل الخبر وحدود طريقه في الفصل ٤٠. [١٩، ١١]

٣٢. مريم وآسية وخديجة وفاطمة

تقارن أخبار «الخصال»، كما جمعها «بحار الأنوار»، مريم بآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد عليهن السلام. إنها صلة فضل وتكريم، لا قرابة أو مشاركة في بيت عمران؛ وقد فصّل الفصل ٤٠ طرق هذه الأخبار. والقرآن يذكر امرأة فرعون دون اسمها في التحريم: ١١، ثم مريم في الآية التالية. ولا يقتضي خبر النساء الأربع إسقاط حنّة أو أم يحيى من قصة الأسرة، فلكل منهما موضعها. [٢، ١١، ٢٢]

٣٣. بنت حمزة ونظير التنافس على الكفالة

في مادة العياشي التي نقلها المجلسي عند آيات مريم مقارنة بالتنافس على بنت حمزة. فتُثبت بنت حمزة شخصية نسائية مرتبطة بالنظير الروائي للكفالة، ويُثبت أبوها حمزة لتعيينها، دون إدخالهما في زمن مريم.

ولا يُلحق بهذه الإشارة اسم شخصي للبنت أو تفاصيل النزاع وأسماء جميع أطرافه من روايات أخرى لم تُبحث هنا؛ محلها فصل السيرة النبوية. [١١]

٣٤. يوسف النجار وقيدوس: أسماء عند حدود الفصل

يظهر يوسف النجار في أخبار لاحقة متعلقة بولادة عيسى وخدمة مريم، ومنها خبر ينقله «بحار الأنوار» عن «علل الشرائع» بإسناد ينتهي إلى وهب. نسبته إلى وهب مهمة؛ فلا يُعرض مباشرة على أنه قول للإمام. ولا تسميه آيات الكفالة، ولا تجعل له أبوةً لعيسى. لذلك يُذكر هنا لمنع سقوط اسمه أو إدخاله خطأً في موضع زكريا، وتؤجل تفاصيل أخباره إلى فصل مريم وولادة عيسى. [٢٨]

ويذكر حوار الإمام الكاظم مع النصراني اسم قيدوس وولده وأشياعه عند إحضار آل عمران للنظر إلى مريم في سياق ما بعد ولادة عيسى، كما نقله المجلسي عن «الكافي». لا يعرّف ذلك قيدوس كأب لمريم أو كافل طفولتها، ولا يثبت أسماء ولده وأتباعه. وذكره في موضعه يحفظ الشخصية من الإغفال، مع عدم اختراع وظيفة أو نسب لها. [١٠, ٢٨]

ويُعرّف الحوار نفسه النصراني باسم «عبد الصليب»، ثم يسميه الإمام «عبد الله». ويسمي أمه «عنقالية» وبالعربية «ميّة»، وجدته لأبيه «عنقورة»، وأباه «عبد المسيح» وبالعربية «عبد الله»، وجده «جبرئيل» الذي يسميه الإمام «عبد الرحمن». ويذكر زواجه بعد إسلامه بامرأة غير مسماة من بني فهر. وفي مقدمة رحلته عالم غير مسمى بدمشق، و«باطي بن شرحبيل السامري» مذكور بوصفه عالمًا باليهودية، ثم رجل غير مسمى من قيس بن ثعلبة في خاتمة اللقاء. هؤلاء من إطار الرواية في زمن الإمام الكاظم، لا من أقارب مريم أو معاصريها، والجد المسمى جبرئيل إنسان لا المَلَك. [١٠]

٣٥. خبر الخمسمائة سنة ومشكلة التسلسل الزمني

نقل المجلسي عن «قصص الأنبياء» خبرًا مرفوعًا يتضمن بقاء مريم بعد عمران خمسمائة سنة، وعلق عليه بما يفيد غرابته وشذوذه ومخالفته سائر الأخبار والآثار. لا يُخفى الخبر عند الاستقصاء، لكنه لا يصلح لبناء تقويم الفصل أو لتعيين عمر مريم. وتحتاج الأرقام المنفردة إلى نقد السند والمتن ومقارنتها بسائر المادة، لا إلى إدراجها في جدول زمني بثقة. [١١]

والذي يسمح به النص القرآني هنا ترتيب إجمالي: نذر أثناء الحمل، ثم ولادة مريم وتسميتها، ثم قبولها ونشأتها وكفالتها، ثم مشاهد المحراب والبشارة. أما السنوات الفاصلة وأعمار الشخصيات فلا يثبتها هذا الترتيب. كما لا يثبت موضع إدراج كل خبر مختلف في سلسلة واحدة. [١]

٣٦. الكفالة والنبوة والوصاية

يختلف إثبات عمران نبيًا في الرواية عن إثبات وصي معين له. ويختلف ضم زكريا مريم إلى رعايته عن النص على أنه تسلم وصية عمران أو ورث مقامه مباشرة. لم يقدم خبر الكفالة المستشهد به نصًا صريحًا

بهذا الانتقال، فلا تُنشأ منه سلسلة: عمران ثم زكريا ثم يحيى ثم عيسى، على أنها تسلسل ثابت للوصاية. وقد يجتمع الأنبياء في زمن واحد، فلا يوجب ترتيب أسمائهم في الكتاب تعاقبهم الحصري. [١, ٣, ٤, ١٤]

٣٧. نهاية الحياة وما لا يثبت من التواريخ

تُنقل عن الإمام الصادق عليه السلام في «الكافي» رواية في تغسيل فاطمة تتضمن أن عيسى غسل مريم، وقد أوردها «بحار الأنوار» في بابها. يثبت في عرضنا وجود هذا الخبر، مع إبقاء تفاصيل وفاة مريم لفصلها؛ فالخبر لا يعطينا بنفسه يوم الوفاة أو العمر أو موضع القبر. وأما عمران وامرأته وأم يحيى فلا نثبت مواضع المراجعة هنا تواريخ تفصيلية موحدة لمواليدهم ووفياتهم. [١١]

٣٨. عمران في احتجاج الإمام الرضا

ينقل المجلسي عن تفسير القمي و«معاني الأخبار» خبرًا في احتجاج الإمام الرضا عليه السلام ببشارة عمران وولادة مريم ثم عيسى. وفي تسمية مخاطبه اختلاف بين أبي سعيد المكاري وابنه في الطرق المنقولة. يسجل هذا الاختلاف كما هو، ويُفهم الاستشهاد في باب اتصال الولد بالأصل وتحقيق الوعد عبر الذرية؛ فلا يؤخذ اللفظ لإلغاء التمايز بين مريم وابنها كشخصين. هؤلاء من أطراف خبر تفسيري لاحق، لا من رجال أسرة عمران القديمة. [١١]

٣٩. سجل النساء المرتبطات بالفصل

في قلب الأسرة ثلاث شخصيات نسائية: امرأة عمران، أم مريم وجدة عيسى، وحنّة ومرثا ووهيبة تسميات منقولة لها؛ ومريم بنت عمران، المولودة المنذورة ثم العابدة وأم عيسى؛ وامرأة زكريا أم يحيى، التي وردت لها حنانة وإيشاع وأم كلثوم في مصادر متفاوتة، مع اختلاف صلتها الدقيقة بمريم. هذه الأسماء البديلة لا تزيد عدد النساء الثلاث. ويضاف اسم الأب المنقول لأم مريم، بصيغ قاقود أو قافوذا أو فاقود، وما بعده من فتيل أو قبيل بحسب النسخة، في باب اختلاف النسب لا على أنه شخصية نسائية جديدة أو اسم للأم. [٣, ٤, ٧, ١٠, ٢٠, ٢٢]

وفي الأخبار المتصلة: مرضعة غير مسماة في أحد أقوال التنشئة، والمرأة المؤمنة التي كانت مع بُريهة، وأم النصراني وجدته لأبيه وزوجته من بني فهر في إطار حوار الإمام الكاظم المتقدم، وبنت حمزة في نظير الكفالة، وفاطمة وخديجة وآسية في أحاديث المقارنة والفضل. لا تتساوى درجات الإثبات ولا الأدوار: المرضعة واردة في قول تفسيري، والمرأة مع بُريهة طرف في خبر لاحق، والنساء الأخريات ذوات صلة محددة بأحاديث الباب. ولا تُلحق بهن أسماء قابلات أو أخوات لم تذكرها المادة المستشهد بها. [١٠، ١١، ١٢، ٢٢، ٢٧]

٤٠. سجل الرجال والجماعات

الأشخاص المباشرون هم عمران أبو مريم، وزكريا كافلها، ويحيى ابن زكريا، وعيسى ابن مريم. ويذكر سياق الاصطفاء آدم ونوحًا وإبراهيم وآل إبراهيم. ويظهر موسى وهارون في تمييز البيوت وتفسير الأسماء، وداود وسليمان وماثان وصيغ اسم أبي عمران الأخرى في أقوال النسب، ويعقوب في بحث آل يعقوب، مع ضرورة التفريق بين يعقوب بن إسحاق ويعقوب بن ماثان في النقول. أما هارون المخاطَب بنسبته في «يا أخت هارون» فتعريفه محل اختلاف سبق بيانه. [١, ٤, ٧, ١٥, ١٧, ٢٥]

وتشمل الجماعات البشرية غير المسماة أفرادًا: المتنافسين على الكفالة، والأنبياء أو الأحبار بحسب وصف الخبر، والعباد في موضع الخدمة، وآل عمران الذين تذكرهم بعض الروايات، وقوم مريم في مشهد مواجهتها بعد الولادة. ويضاف يوسف النجار وقيدوس وولده وأشياعه في أخبار المرحلة اللاحقة، دون نقلهم إلى مشهد طفولتها أو اختراع أسمائهم. أما الملائكة والشيطان فيُذكرون في سياقهم القرآني ولا يدخلون في عدد الرجال والنساء. [١, ٦, ١١, ٢٨]

وفي طبقة الرواية والتفسير اللاحقة يرد النبي محمد، وعلي وفاطمة والحسن والحسين، والأئمة الباقر والصادق والكاظم والرضا والقائم عليهم السلام بحسب الأخبار المستشهد بها. ويظهر المقداد، وحمزة من خلال ابنته، وبُريهة وهشام بن الحكم، والنصراني محاور الإمام الكاظم وأبوه وجده والعالم الدمشقي وباطي بن شرحبيل والرجل من قيس بن ثعلبة في إطار حواره، وأبو سعيد المكاري أو ابنه، والمغيرة بن سعيد في مناقشة النقل الفقهي. يميّز هؤلاء من الشخصيات التاريخية في بيت عمران، كما يميز رواة الأسانيد ومؤلفو الكتب من أبطال القصة. [١٠, ١١, ١٤, ١٨, ١٩, ٢٧]

٤١. خاتمة: من دعاء الأم إلى حياة مريم

تتكون صورة الأسرة من أب يرد في الرواية نبيًا مبشَّرًا، وأم يخلد القرآن دعاءها، وابنة يقبلها الله وينشئها ويصطفيها، وكافل يتعهدها، وبيت آخر يستجيب الله لدعائه بيحيى. ولا يكتمل هذا المشهد بحشد الأسماء وحده؛ إنما يكتمل بإعطاء كل امرأة ورجل موضعه، وبإظهار ما ثبت وما اختلف فيه وما لم يصلنا علمه. [١, ٣, ٤, ٢٣]

وبهذا ينتهي تمهيد بيت عمران، ويبدأ في الفصل الأربعين النظر المفصل في مريم نفسها: عبادتها واصطفاؤها والبشارة بعيسى وامتحانها أمام قومها. وتأتي سيرة زكريا ويحيى في الفصلين المخصصين لهما. أما الزيادات العددية والأنساب المختلف فيها فلا تُستخدم لملء صفحات؛ فالغاية أن يبقى البناء ممتلئًا بالمادة الموثقة، أمينًا للنص، واضحًا في حدوده.

٤٢. المصادر والمواضع المراجَعة

الأرقام التالية إحالات إلى مواضع محددة، وليست عددًا لكتب مستقلة. روجعت الأصول المتاحة مباشرة، واستُعمل «بحار الأنوار» و«نور الثقلين» و«الصافي» و«البرهان» في مقابلة النقول وتعقب

الأصول؛ وحيث كان الاعتماد على نقل كتاب عن آخر صُرح بذلك في المتن. وترقيم الصفحات يختلف بين الطبعات، لذلك قُرن به اسم الباب أو رقم الحديث أو الآية حيث أمكن. والروابط على أسماء المراجع تفتح النصوص المقابلة أو صفحة بداية الموضع. [٢١]

[١] القرآن الكريم، آل عمران: ٣٣-٥١؛ محور النذر والكفالة والاصطفاء والبشارة.

[٢] القرآن الكريم، التحريم: ١١-١٢؛ امرأة فرعون ومريم ابنت عمران.

[٣] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب «في أنه إذا قيل في الرجل شيء فلم يكن فيه وكان في ولده أو ولد ولده فإنه هو الذي قيل فيه»، ح١؛ الترقيم القديم ج١، ص٥٣٥؛ في الطبعة المعروضة ج٢، ص٧٠٦-٧٠٨، ح١٤٠٨.

[٤] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢١٤-٢١٥، الأحاديث ٢٧٨-٢٨٠؛ نبوة عمران والأختان والبشارة واختلاف تحققها.

[٥] التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي، ج١، تفسير آل عمران: ٣٥-٤٤؛ خبر أبي بصير والبشارة ورزق المحراب؛ النص المعروض في صفحة ١٠١ الإلكترونية وما يليها.

[٦] محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، ج١، ص١٧٠، الأخبار ٣٦-٣٨؛ خبر ٣٨ يتصل بالصفحة التالية؛ النذر والخدمة والبلوغ والكفالة.

[٧] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير آل عمران: ٣٥-٣٦؛ الأسماء والنسب والنذر وولادة مريم.

[٨] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير آل عمران: ٣٥؛ معاني التحرير والنذر والقبول.

[٩] السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير آل عمران: ٣٥-٤١؛ قراءة «وليس الذكر كالأنثى».

[١٠] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، ح٤؛ الحوار مع النصراني واسم أم مريم؛ وللمقابلة نقل البحار ج١٤، ص٢١٣-٢١٤.

[١١] محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب ١٦ «قصص مريم وولادتها وبعض أحوالها وأحوال أبيها عمران»، ص١٩١-٢٠٦، الأحاديث ١-٢٣ وتعليقاتها؛ جامع نقول، لا تصحيح جماعي للأخبار.

[١٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير آل عمران: ٣٧؛ الكفالة والرضاعة والمحراب والرزق.

[١٣] عبد علي الحويزي، نور الثقلين، تفسير آل عمران: ٤٤، الأخبار ١٣٧-١٤٠؛ مقارنة ألفاظ القرعة واليتم والكفالة.

[١٤] الكليني، الكافي، كتاب الحيض، باب «الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة»، ح٤؛ حديث إسماعيل الجعفي عن الإمام الباقر.

[١٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير آل عمران: ٣٣-٣٤؛ معنى الآل واختلاف تعيين آل عمران.

[١٦] القرآن الكريم، مريم: ١٦-٣٦، ولا سيما الآيات ٢٧-٣٢؛ مواجهة القوم ونسب عيسى إلى مريم.

[١٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير مريم: ٢٨ ضمن مقطع ٢١-٣٠؛ الأقوال في «يا أخت هارون».

[١٨] الحويزي، نور الثقلين، تفسير آل عمران: ٣٣، الأخبار ٩٦-١٠١؛ الاصطفاء واتصال أهل البيت بالذرية.

[١٩] الحويزي، نور الثقلين، تفسير آل عمران: ٣٦-٣٧، الأخبار ١١٢-١١٩؛ نصوص العياشي والكافي ونظير رزق فاطمة.

[٢٠] الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، تفسير آل عمران: ٣٥-٣٧؛ الأسماء والنذر ومقابلة خبر الكافي والقمي.

[٢١] هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، تفسير آل عمران: ٤٣-٤٤؛ النقول المرقمة ١٦٨٥ وما بعدها في النسخة الإلكترونية، ومنها خبر العياشي رقم ١٦٨٨.

[٢٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب قصص زكريا ويحيى، ص١٦٨، ح٩، نقلًا عن تفسير فرات، «أم كلثوم أم يحيى بن زكريا».

[٢٣] القرآن الكريم، الأنبياء: ٨٩-٩١؛ زكريا وزوجه ويحيى والتي أحصنت فرجها وابنها.

[٢٤] القرآن الكريم، المائدة: ٧٥؛ المسيح ابن مريم وأمه الصديقة.

[٢٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ص١٧٤-١٧٥؛ النقول في نسب زكريا وآل يعقوب وعمران بن ماثان.

[٢٦] القرآن الكريم، الأنعام: ٨٤-٨٧؛ ذكر عيسى وزكريا ويحيى في سياق الأنبياء والذرية.

[٢٧] الحويزي، نور الثقلين، تفسير آل عمران: ٣٤، الأخبار ١٠٢-١١٠؛ بُريهة والمرأة معه ووراثة العلم والاستشهاد بالآية.

[٢٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب ١٧ «ولادة عيسى»، ص٢١١-٢١٤، ولا سيما الخبران ٩ و١١؛ نقل علل الشرائع عن وهب، ونقل الكافي في قيدوس واسم أم مريم.

الفصل ٤٠ — مريم عليها السلام — النذر والاصطفاء ورعاية زكريا

٠١. مريم في مسيرة الهداية

تبدأ قصة مريم قبل ولادتها بدعاء أمها، ثم تصبح هي صاحبة العبادة والجواب والموقف، وتنتهي صورتها القرآنية مثالًا للإيمان للناس. لذلك يتناول هذا الفصل حياتها وشخصيتها، ويعرض من سيرة عيسى ما يتصل بأمومتها وابتلائها وتبرئتها. وتبقى التفاصيل الموسعة لزكريا ويحيى ورسالة عيسى في فصولهم، مع الإحالة إلى الفصل السابق في أسرة عمران.

٠٢. خريطة مريم في القرآن

المواضع المركزية هي: آل عمران ٣٣–٣٧ في الأسرة والنذر والولادة والرعاية؛ و٣٨–٤١ في دعاء زكريا المتصل بمحرابها؛ و٤٢–٥١ في الاصطفاء والعبادة والبشارة؛ و٥٩ في قياس خلق عيسى على خلق آدم. وتروي مريم ١٦–٣٦ الاعتزال والبشارة والحمل والمخاض والعودة وكلام الطفل. هذه مواضع متكاملة، ولا تتيح وحدها وضع تقويم تفصيلي لكل مراحل حياتها. [١, ٢]

ويضاف إليها النساء ١٥٦ في البهتان، و١٧١ في حقيقة المسيح؛ والمائدة ١٧ و٧٢ و٧٥ و١١٠ و١١٦–١١٧ في العبودية والصدّيقية والنعمة ونفي التأليه؛ والأنبياء ٩١ في العفة والآية؛ والمؤمنون ٥٠ في الإيواء إلى الربوة؛ والتحريم ١٢ في تصديق كلمات الله وكتبه والقنوت. أما تكرر اسمها في نسبة عيسى إليها، مثل البقرة ٨٧ و٢٥٣ والحديد ٢٧ والصف ٦ و١٤، فيحفظ أمومتها دون أن يضيف في كل موضع حادثة مستقلة من سيرتها. [٣–٧]

٠٣. الاسم والهوية والأوصاف

يسميها القرآن مريم ابنة عمران، ويسمي ولدها عيسى ابن مريم. ومن أوصافها: المصطفاة، والمطهرة، والصدّيقة، والمحصنة، والمصدقة بكلمات ربها وكتبه، والقانتة. وهذه الأوصاف متوزعة في الآيات، وليست كلها نصًا واحدًا. واسم «العذراء» يلخص معنى عدم مسّ البشر لها عند الحمل، أما «البتول» فمن الألقاب المتداولة في التراث، ولا يرد لقبًا لها في آيات قصتها. [١, ٢, ٤, ٧]

لا يذكر القرآن تاريخ ميلادها أو عمرها عند البشارة أو اسم أمها أو سلسلة أجدادها التفصيلية. كما لا يثبت لها إخوة مسمين على نحو يحسم معنى «أخت هارون». والتمييز بين الصريح والمحتمل يحفظ شخصيتها من أن تتحول التفاصيل المشهورة إلى معلومات قرآنية لم ينص عليها الكتاب.

٤. عمران: الأب والوعد المتحقق في الذرية

مريم ابنة عمران بنص القرآن. وتروي أخبار «الكافي» و«قصص الأنبياء» نبوة عمران وبشارته بذكر مبارك تحقق الوعد به في عيسى ابن ابنته. وقد عالج الفصل ٣٩ نصوص هذه البشارة والنسب واختلاف أخبار اليتم؛ ويكفي هنا تذكر أن انتقال الوعد عبر مريم يحفظ لها موضعًا أصيلًا في قصة الأسرة. [٧–٩، ١٣، ١٦]

٥. أم مريم: حنّة ومرثا واختلاف الاسم

أم مريم هي «امرأة عمران» في القرآن، وصاحبة النذر والتسمية والاستعاذة. وتسميها روايات «حنّة»، ويسميها حوار الإمام الكاظم عليه السلام «مرثا» أو «مرتا» بحسب النسخ، ويذكر «وهيبة» بالعربية. عرض الفصل ٣٩ اختلاف هذه التسميات وخبر شوقها إلى الولد؛ وهي امرأة واحدة في الروايات، ويبقى دعاؤها مدخلًا إلى حياة ابنتها. [١، ٨–١٠، ١٣، ١٦]

٦. النذر وولادة الأنثى

كان النذر لما في بطنها «محررًا» لله؛ وتفسره الروايات والتفاسير بخدمة موضع العبادة والتفرغ له. فلما ولدت أنثى قالت ما سجله القرآن، ثم سمتها مريم واستعاذت لها. ولا يصح اقتطاع «وليس الذكر كالأنثى» لتصبح حكمًا بإهدار قيمة المرأة؛ فالآيات التالية نفسها تثبت قبول هذه البنت واصطفاءها، وتدور الأقوال التفسيرية هنا على توقع الأم ووظيفة المحرر وخصوصية المولودة. [١, ١١–١٥]

والاستعاذة تشمل «ذريتها»، فتمتد عناية الأم إلى مستقبل لم تشهده بعد. غير أن الآية لا تسرد طقوسًا لتسليم الطفلة ولا عدد الحاضرين ولا اسم كل خادم في المعبد؛ وما يزاد من ذلك يلزم رده إلى الخبر الذي حمله.

٧. القبول والإنبات: نشأة مريم

يجمع التعبير القرآني بين القبول الحسن والإنبات الحسن. الأول يضع النذر في دائرة الرضا الإلهي، والثاني يصور رعاية النشأة. ولا يلزم من هذا التعبير وحده تحديد سرعة نمو جسدي خارقة أو عمر بلغت فيه مبلغ النساء. وتورد التفاسير أخبارًا عن طفولتها وعبادتها ورزقها، وعن مرضعة في بعض الحكايات، وأقوالًا أخرى تنفي الرضاع المعتاد؛ فلا يمكن جمعها كلها كأنها شهادة واحدة. [١, ١٣, ١٦]

ومن الأخبار الشاذة رواية تذكر خمسمائة سنة في عمرها أو المدة المتصلة بعمران. وهي مرفوعة في طريق الراوندي، ونبه المجلسي إلى غرابتها ومخالفتها الأخبار والآثار. لذلك تحفظ في سجل الاختلاف ولا يعتمد عليها لتأريخ حياتها، كما لا يستبدل بها رقم آخر لم يقم عليه دليل. [١٦, ٢٠]

٨. زكريا والمتنافسون على الكفالة

يثبت القرآن كفالة زكريا لمريم والتنافس عليها بإلقاء الأقلام، دون تسمية بقية المتنافسين أو تعدادهم. وقد فصّل الفصل ٣٩ اختلاف وصفهم بالأنبياء أو الأحبار أو آل عمران، والأقوال في عددهم وكيفية الاقتراع. موضع العبرة هنا أن الرعاية الإلهية لم تُلغ حاجة الطفلة إلى كافل يحفظها ويربيها. [١، ١٣، ١٥، ١٦، ٤٠]

٩. امرأة زكريا ويحيى: قرابة تحتاج إلى ضبط

لا يسمي القرآن زوجة زكريا ولا يحدد قرابتها بمريم. ويروي الراوندي أن حنّة أم مريم وحنانة امرأة زكريا أختان؛ وعلى هذه الصورة تكون زوجة زكريا خالة مريم، ويكون يحيى ابن خالتها. وتوجد نصوص تجعل امرأة زكريا أخت مريم، كما ترد تسمية إيشاع في كتب التفسير. هذه صور مختلفة لشجرة الأسرة، لا أسماء يمكن جمعها بلا تفسير. [٩, ١٣, ١٦]

ويحفظ خبر في كمال الدين خروج زكريا وخالة مريم في طلبها بعد اعتزالها، بينما تربط أخبار أخرى بين حمل امرأته بيحيى وحمل مريم بعيسى. ولا نستخرج من ذلك وحده فارق عمر محددًا أو نقطع بتفاصيل لقاء المرأتين. الثابت قرآنيًا أن دعاء زكريا جاء عند مشهد رزق مريم، وأن يحيى بشر به مصدقًا بكلمة من الله؛ وتفصيل حياته مؤجل إلى فصله. [١, ١٩, ٢٤]

١٠. المحراب والرزق والجواب

حين وجد زكريا عندها رزقًا وسألها عنه، أجابت بأنه من عند الله. فتظهر مريم صاحبة معرفة وجواب، ويأتي دعاء زكريا بعد ذلك: «هنالك دعا زكريا ربه». وليس المقصود أن الراعي كان فاقدًا للإيمان، بل يفتح المشهد أمامه بابًا للدعاء ويعرض صلة العطاء الإلهي بما يتجاوز الأسباب المألوفة. [١]

أما فاكهة الصيف في الشتاء والشتاء في الصيف فتفصيل ترويه مصادر التفسير والأخبار، وليس لفظ «رزقًا» وحده تسمية لنوع الطعام أو فصله. ولا يثبت من الآية ارتفاع المحراب أو عدد أبوابه أو طريقة الدخول إليه. نحتفظ بالمعنى القرآني، وننسب تفصيل الفاكهة إلى مورده. [١١-١٣, ١٦]

١١. الاصطفاء والطهارة

تكرر الاصطفاء في آل عمران ٤٢، وتوسطته الطهارة. وتعرض النصوص التفسيرية معاني تتصل بالانتساب إلى بيت طاهر، وبالاختيار للعبادة، وبالولادة من غير أب. وفي المروي عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير للطهارة من السفاح في الآباء والأمهات، وتفسير للاصطفاء بخصوصية ولادة عيسى. فلا تختزل طهارتها في معنى جسدي واحد. [١, ١٢, ١٦]

بل يرد في الكافي، في حديث إسماعيل الجعفي عن الإمام الباقر، خروجها من المسجد حين بلغت ما تبلغ النساء، وهو خبر يستدل به في مسألة الحيض. ولذلك لا يصح القول إن جميع روايات أهل البيت

تنفي عنها الحيض. وجود تفسير آخر للطهارة لا يمحو هذا النص؛ كما أن تسجيله لا يحول الفصل إلى فتوى فقهية. [١٥, ١٦]

١٢. القنوت والسجود والركوع

يعقب خطاب الاصطفاء الأمر بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين. فالمقام موصول بالعبادة، ومريم مخاطبة بالتكليف بنفسها. وتختم التحريم صورتها بأنها كانت من القانتين. ولا يحول وصفها بالاصطفاء إلى إعفاء من العمل، ولا يجعل عبادتها مجرد نتيجة لكونها أم نبي؛ فقد ظهر مقامها في القصة قبل البشارة بالمسيح. [١, ٧]

وعند نقل الآيات يعتمد نص المصحف، ولا يبدل ترتيب ألفاظه بما تذكره بعض النسخ التفسيرية في مقام الشرح أو القراءة المنقولة. وتفسر العبادة هنا داخل سياقها القرآني، دون استنباط هيئة تفصيلية لصلاتها أو عدد ركعاتها من أخبار لا تثبت ذلك. [١١, ١٦]

١٣. خطاب الملائكة ومقام الصدّيقة

مخاطبة الملائكة لمريم ثابتة في آل عمران، ووصفها بالصدّيقة ثابت في المائدة ٧٥. لكن تلقي خطاب ملكي لا يثبت بمفرده مقام النبوة الاصطلاحية. فالقرآن يروي خطاب الملائكة لامرأة إبراهيم، ويوحي إلى أم موسى بما تصنع بطفلها، دون أن يسميهما في تلك المواضع نبيتين. ويعرض هذا الفصل مريم بالأوصاف التي ثبتت لها، ولا يضيف لقب النبية لمجرد وقوع الخطاب. [١, ٤, ٧]

ولفظ «صدّيقة» يمنحها حضورًا إيمانيًا مستقلًا إلى جانب رسولية ابنها. ومقارنة خطابها بما يروى لفاطمة الزهراء عليها السلام تأتي لاحقًا بوصفها مقارنة في الروايات، لا استبدالًا لشخصية مريم بشخصية أخرى، ولا جعلًا لهما شخصًا واحدًا.

١٤. البشارة بالمسيح ومعنى الكلمة والروح

تسمي البشارة ولدها قبل ولادته: المسيح عيسى ابن مريم، وتذكر وجاهته وقربه وصلاحه وكلامه في المهد وكهلًا. وتستقبل مريم الخبر بسؤال عن كيفية الولد مع عدم مس البشر لها، فيأتي الجواب بقدرة الله على الخلق. وتقارن آل عمران ٥٩ خلق عيسى بخلق آدم؛ فالآية دليل القدرة، وليست نسبًا إلهيًا للمولود. [١]

وفي النساء ١٧١ يسمى عيسى رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحًا منه. وترد في الكافي روايات عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام تصرح بأن الروح في آدم وعيسى مخلوقة. بذلك يفهم اللفظ في إطار الخلق والتشريف، لا أن الله جزء من مخلوق أو أن الروح أب لعيسى. ويظل جبرئيل الرسول إلى مريم غير عيسى المبشر به. [٣, ١٩]

١٥. الاعتزال وجبرئيل في صورة بشر

تبدأ قصة مريم في السورة باعتزالها أهلها مكانًا شرقيًا واتخاذها حجابًا. ثم يرسل الله إليها روحه فيتمثل لها بشرًا سويًا. تذكر الآية «روحنا» و«رسول ربك»، وتسميه التفاسير جبرئيل. وفصل التسمية التفسيرية عن لفظ الآية يحفظ الدقة دون إنكار التفسير المأثور. [٢, ١٩-٢٢]

كان ردها الأول الاستعاذة بالرحمن. فهي لم تتلق صورة الرجل بما يلغي حذرها وعفتها، وإنما عرفها الرسول بنفسه ورسالته. والمكان الشرقي ليس اسم مدينة، والحجاب لا يحدد لنا أبعاد بناء، كما أن «إن كنت تقيًا» خطاب يستدعي تقوى المخاطب، ولا نحتاج لتفسير المشهد إلى اختراع رجل معلوم الاسم كانت تخشاه.

١٦. الحمل: أصل الآية واختلاف المدة

يصرح القرآن بالحمل والانتقال إلى مكان قصي، ويؤكد عدم مس البشر لها، لكنه لا يعطي عدد أيام الحمل أو شهوره. ويروي الكافي خبرًا يقارن عيسى بالحسين عليهما السلام في الولادة لستة أشهر، وفي سنده «عن رجل من أصحابنا». ويروي في الروضة خبر تسع ساعات، وفي طريقه أيضًا راو غير مسمى: «عن رجل». لذلك لا يستعمل أحد الرقمين لإلغاء الآخر دون بحث، ولا يوصف واحد منهما بأنه نص القرآن. [٢, ١٧, ١٨]

وفي النسخة المتاحة من قصص الراوندي خبر يحمل لفظ «سبع ساعات»، بينما ينقله البحار بلفظ «تسع ساعات». وهذا اختلاف نصي يستحق التسجيل قبل بناء أي استنتاج زمني. وتذكر أخبار أخرى النفخ في الجيب أو تمرة أتى بها جبرئيل؛ وهي تفصيلات روائية لا يسردها القرآن، ولا نجمعها في آلية جسدية مركبة ثم ننسبها إليه. [١٩, ٢٠]

١٧. عمر مريم ويوم الولادة

لا يحدد القرآن سن مريم حين حملت بعيسى. أما الأيام والتواريخ فتختلف فيها الأخبار: يذكر حوار الكاظم عليه السلام يومًا للحمل ويومًا للوضع، وتورد مصادر أخرى الخامس والعشرين من ذي القعدة، ويأتي يوم عاشوراء في خبر ناقشه المجلسي وذكر احتمال التقية فيه، ونبه الهامش إلى ضعف طريقه بكثير النواء. لا يثبت جمع هذه الأخبار تاريخًا موحدًا. [١٠, ١٩]

وفي بعض المختصرات ترد عبارة «اليوم الذي ولدت فيه مريم»، وقد توهم تاريخ ميلاد مريم نفسها. لكن سؤال الخبر الكامل هو عن اليوم الذي وضعت فيه عيسى، ويتلوه تحديد النهر الذي ولدته عنده. ومن ثم يجب قراءة العبارة في سياقها وعدم تحويلها إلى تاريخ لميلاد الأم. [١٠]

١٨. موضع الولادة وبراثا: أخبار لا تدمج قسرًا

تقول الآية «مكانًا قصيًا» وتذكر جذع النخلة، دون تسمية البلد. وفي رواية الإسراء المنقولة عن تفسير القمي تعيين بيت لحم؛ وفي الكافي والراوندي أخبار الفرات والكوفة وما يقرب من النجف؛ وينقل البحار من التهذيب خبرًا يجعل الموضع كربلاء. هذه تعيينات روائية مختلفة، وليست كلها ألفاظًا قرآنية أو شواهد مستقلة على مسار رحلة واحدة. [٢, ١٠, ١٩, ٢٠]

ويرد خبر براثا، نقلًا عن أمالي الطوسي، وفيه أمير المؤمنين علي عليه السلام وراهب غير مسمى وعين ماء وصخرة بيضاء. واللفظ المنقول يقول إن مريم وضعت عيسى «من عاتقها» على الصخرة وصلت؛ فلا يصح اختصاره إلى أنها ولدته على الصخرة. كذلك يبقى اقتراح طي الأرض وجهًا للجمع ذكره الشارح، وليس حدثًا صرح به كل خبر. [١٩]

١٩. المخاض وثقل المواجهة

يصور القرآن ألم المخاض ووصول مريم إلى جذع النخلة، ثم قولها إنها تتمنى لو ماتت قبل هذا وكانت نسيًا منسيًا. لا تعرض القصة امرأة بلا ألم أو خوف؛ لكنها لا تنسب إليها كفرًا أو اعتراضًا على قدرة الله. وقد شرح المفسرون كلامها بثقل ما ستواجهه من اتهام، ويروي مجمع البيان عن الصادق عليه السلام معنى عدم وجود من ينزهها في قومها بفراسته. [٢, ٢١]

ويلفت الميزان إلى صلة هذا التمني بعفتها وخوفها من انكشاف حال يسيء الناس فهمه. وهذه قراءة تفسيرية لمعاناتها، لا تشخيص طبي لحالتها ولا إضافة لحوار لم يروه النص. وتأتي الاستجابة بالتطمين والطعام والشراب، فتجتمع رعاية الجسد وتهدئة القلب. [٣٥]

٢٠. المنادي والسري

في «فناداها من تحتها» اختلف المفسرون: أهو عيسى أم جبرئيل؟ يعرض مجمع البيان والتبيان الوجهين، ويجعل سياق من تفسير القمي المنادي عيسى. ولا تسمي الآية المنادي باسمه، فلا يصح حذف الخلاف أو وصف جميع الأقوال بأنها روايات مسندة عن أهل البيت. [١٩, ٢١, ٢٢]

وكذلك «السري» فسره كثيرون بالنهر أو مجرى الماء، وذكر بعضهم معنى الشريف وأراد به عيسى. ويقوى تفسير الماء في اتصال الأمر بالشرب، لكن عرض وجه آخر في المصدر لا يقتضي إضافة شخص ثالث مجهول إلى المشهد. وتحفظ الشخصيات الممكنة هنا بأسمائها المعروفة، مع إبقاء موضع الاحتمال واضحًا. [٢١, ٢٢]

٢١. النخلة والطعام والطمأنينة

أمرت مريم بهز الجذع، وبالأكل والشرب وقرة العين. والقرآن يذكر الرطب الجني، بينما تضيف الأخبار نوع العجوة أو يبس النخلة قبل ذلك أو وقتًا من الشتاء. ويورد الكافي، كما نقله البحار، خبر

معمر بن خلاد عن الإمام الرضا عليه السلام في العجوة و«كانون». تحفظ هذه التفاصيل بأسانيدها ومواضعها ولا تحمل الآية على كل واحد منها حملًا قطعيًا. [٢, ١٩, ٢١]

واللافت في المشهد أن الكرامة لا تلغي فعل مريم: تمد يدها، وتهز، وتأكل، وتحمل طفلها، وتعود. هذه أفعال امرأة ترعاها الرحمة وتباشر مسؤوليتها، لا مجرد مكان تمر به المعجزة.

٢٢. نذر الصمت والإشارة

تقول الآيات إنها تنذر للرحمن صومًا، فلا تكلم ذلك اليوم إنسيًا، ثم تشير إلى الطفل عند مواجهة القوم. وتنقل روايات الكافي في الصيام تفسير الصوم بالصمت في هذا السياق. ويذكر المفسرون احتمال إعلان النذر بالكلام المأذون به أولًا أو بإشارة تفهمه؛ ولذلك فالجزم بأن كل ما صدر منها كان إشارة وحدها زيادة على النص. [٢, ١٩, ٢١]

والصمت هنا جزء من هذه القصة، تمهيدًا لظهور الحجة على لسان عيسى. ولا يتحول وحده إلى تشريع عام بأن تتخذ كل امرأة الصمت جوابًا عن الظلم، أو بأن تنذر الأمة ترك الكلام مطلقًا؛ فالوظيفة الخاصة في القصة غير التعميم على جميع الأحوال.

٢٣. الرجوع بالطفل والبهتان العظيم

عادت مريم حاملة ولدها؛ فلم تمح محنتها بالخروج من مجتمعها إلى الأبد. واجهها قومها باستنكار يستحضر صلاح أبيها وأمها، ثم أشارت إلى عيسى. وتسمي النساء ١٥٦ التهمة «بهتانًا عظيمًا»، فيكون إثبات عفتها حكمًا قرآنيًا لا مجرد ترجيح تاريخي. [٢, ٣]

لا تسمي الآيات أفراد المتهمين، ولا تذكر أسماء من أنصفها قبل كلام الطفل. كما لا يجيز هذا المشهد تعميم جريمة أشخاصه على كل فرد من بني إسرائيل أو على جماعات لاحقة. ويحافظ السرد على تعيين الفعل وأصحابه بقدر ما عينه المصدر، دون إضافة أسماء أو أحكام جماعية لم ينص عليها.

٢٤. «يا أخت هارون»: أربعة اتجاهات تفسيرية

يجمع مجمع البيان أربعة اتجاهات: التشبيه برجل صالح اسمه هارون؛ أو أخ لها من أبيها بهذا الاسم؛ أو الانتساب إلى ذرية هارون أخي موسى؛ أو التشبيه برجل سيئ بهذا الاسم على وجه التعيير. وهذه أقوال منقولة عن مفسرين مختلفين، وليست أربعة إخوة لمريم، ولا أربعة أخبار ثابتة عن إمام واحد. [٢١]

ويظهر التفسير الأخير في السياق المنقول من تفسير القمي أيضًا. أما مساواة مريم أم عيسى بأخت موسى مساواة شخصية فليست نتيجة لازمة للفظ الأخوة؛ إذ يستعمل هذا اللفظ في الانتماء والمشابهة كذلك. لذلك يدرج هارون في سجل شخصيات الفصل باعتباره موضع اختلاف في التعيين، وتُميَّز مريم أم عيسى من أخت موسى التي ترد في أخبار أخرى باسم كلثم أو كلثوم. [١٩, ٢١]

٢٥. قيدوس والنساء والمتعبدات وأهل السوق

في حوار الكاظم عليه السلام مع النصراني يرد اسم «قيدوس»، وأنه نادى ولده وأشياعه وأخرجوا آل عمران لينظروا إلى مريم. لا يسميه القرآن، ولا يكفي الاسم لتعيينه بملك أو حاكم معروف من مصدر آخر. ويحفظ الراوندي خبرًا عن سبعين من العواتق وجهن إليها الفرية، وخبرًا آخر عن خمسمائة بكر في موضع العبادة. هؤلاء جماعتان في خبرين، ولا دليل على اتحادهما أو على أسمائهما الفردية. [١٠, ٢٠]

ويذكر السياق المنقول من تفسير القمي نساء من بني إسرائيل واجهنها، وحاكة أساؤوا إليها وتجارًا دلوها على النخلة. هذا السياق لا يسند كل جملة منه صراحة إلى إمام، فلا يجعل ما فيه حكمًا على مهنة أو جماعة. كما أن تفصيل العقوبة في خبر العواتق يبقى مضمون ذلك الخبر، لا تتمة قرآنية ولا أساسًا لتطبيق عقوبة على أحد اليوم. [١٩, ٢٠]

٢٦. يوسف النجار: الاسم وسياق البهتان

يروي الصدوق في الأمالي، في حديث علقمة عن الإمام الصادق عليه السلام، أمثلة لما اتهم به الأنبياء والأولياء ظلمًا، ومنها نسبة حمل مريم إلى رجل نجار اسمه يوسف. فالمقصود من إيراد الاسم هنا نفي البهتان، وليس إقرار أبوة يوسف لعيسى. ولا يرد يوسف النجار في القرآن، وهو غير يوسف النبي ابن يعقوب. [٢٣]

أما مساعدته مريم في البرد وإيقاده الحطب وإطعامها الجوز، فنقله البحار من علل الشرائع بسند ينتهي إلى وهب؛ ونبه إلى جهة هذا النقل. لذلك لا يعاد تقديم القصة بوصفها قولًا ثابتًا لإمام، ولا يستخرج من خبر المساعدة وحده زواج أو نسب أو حضور مؤكد عند المخاض. هكذا لا يسقط الاسم من التحقيق ولا يحمل ما لا يدل عليه. [١٩]

٢٧. وفد المجوس وإبليس والملائكة

ينقل البحار عن فرج المهموم، الناقل بدوره عن كتاب النبوة للصدوق، خبر وفد من علماء المجوس قدموا إلى مريم تعظيمًا لشأن ابنها، وذكروا نجمًا وقدموا الذهب والمر واللبان. طريق الاطلاع هنا مركب، فلا يقال إن كتاب النبوة تمت معاينته مباشرة. ولا يسمي النص المنقول أفراد الوفد، ولا يثبت عددًا معينًا لهم؛ وعدد أنواع الهدايا ليس عدد الزائرين. [١٩]

ويروي الراوندي خبر إبليس الذي طلب المولود ومنعته الملائكة من الاقتراب. لا تذكر آيات الولادة هذا المشهد، لكنه يسجل ضمن رواياتها مع نسبته إلى مصدره. وجبرئيل والملائكة ليسوا شخصيات رجالية أو نسائية بشرية؛ لذا يفصل حصرهم عن حصر أهل مريم والقوم، كما يفصل إبليس عنهم. [٢٠]

٢٨. عيسى في المهد: تبرئة الأم وتعريف الرسالة

أشارت مريم إلى ابنها، فجاء كلامه مبتدئًا بالعبودية لله، ثم الكتاب والنبوة والبركة والصلاة والزكاة والبر بالأم. لا يقتصر الكلام على نفي التهمة، بل يضع حياة الطفل في إطار العبودية والرسالة. وتبقى مريم حاضرة في قوله «وبرًا بوالدتي»؛ فالآية التي دافعت عنها لا تذيب أمومتها في المعجزة. [٢]

ويرد في الكافي وفي قصص الراوندي، في حديث يزيد الكناسي، وصف كلامه بأنه آية للناس ورحمة من الله لمريم إذ عبر عنها. ويتضمن الخبر ترتيبًا لدور زكريا ويحيى وعيسى؛ تؤخذ منه هنا صلته بتبرئتها، وتترك مناقشة أعمار الأنبياء وتداخل حججهم إلى موضعها من فصولهم، دون جعل تفاصيله كلها منصوصة في القرآن. [٢٠]

٢٩. مريم الأم: الرعاية والتعليم

تروي قصص الراوندي عن الإمام الصادق عليه السلام أخبارًا في رعاية مريم لعيسى في صغره حين يتألم أو يبكي، وتظهر فيها حاجته إلى أمه مع ما أعطيه من علم. قيمة هذا الباب في السيرة أنه يمنع اختزال الأمومة في لحظة الميلاد وحدها. وليس نقل الخبر وصفة علاجية؛ فلا يستنتج منه الفصل إرشادًا طبيًا للأطفال. [٢٠]

وفي الخبر رقم ٣٠٨ عن الإمام الباقر عليه السلام أنها أخذته إلى المعلم، وفيه حديث تفسير الحروف. المعلم غير مسمى، ولا يستخرج من الخبر اسم مدرسة أو برنامج تعليم تاريخي مفصل. كما يختلف توقيت الكلام والتعليم بين الأخبار؛ فلا نجمع عمر السبعة أشهر في هذا الخبر وأرقام أخبار أخرى في تسلسل زمني قطعي. [٢٠]

٣٠. الربوة ومصر والناصرة

تجعل المؤمنون ٥٠ ابن مريم وأمه آية، وتذكر إيواءهما إلى ربوة ذات قرار ومعين. الثابت وصف الملجأ والاستقرار والماء الظاهر؛ أما البلد فليس في الآية. وتعرض التفاسير دمشق وبيت المقدس والرملة ومصر، وترد أخبار إمامية في النجف والكوفة والفرات. لا يحسم تعداد الأقوال هوية الموضع. [٦, ١٩, ٢٠]

لكن الإقامة في مصر والناصرة ليست محصورة في حكايات المؤرخين: ففي علل الشرائع، في خبر عن الإمام الرضا عليه السلام في تسمية النصارى، ذكر نزول مريم وعيسى الناصرة بعد الرجوع من مصر. يسجل ذلك خبرًا إماميًا في موضعه، دون أن يثبت به وحده طول الإقامة أو الطريق أو أسماء المضيفين أو أن «الربوة» هي الناصرة. [٢٥]

٣١. عمل مريم وثوب ابنها

ينقل البحار عن تفسير العياشي خبرًا عن الإمام الصادق عليه السلام يصف ثوب عيسى بأنه من غزل مريم ونسجها وخياطتها. وفي الطريق المنقول إبهام بعبارتي «بعض أصحابنا» و«رجل حدثه». فالخبر لا يبلغ بمجرد وروده رتبة اليقين التاريخي، لكنه يكشف جانبًا من الصورة الروائية للأم التي تعمل لابنها. [٣٩]

ولا يلزم من بقاء ثوب صنعته أن تكون حية وقت رفعه، كما لا يثبت الخبر مكان عملها أو مورد نفقتها الوحيد. وبهذا يحتفظ الفصل بصورة العمل والرعاية دون أن يركب منها نهاية حياة لم يروها النص.

٣٢. وفاة مريم وتغسيل عيسى لها

لا يذكر القرآن موت مريم أو عمرها عند الوفاة أو موضع قبرها. لكن الكافي يروي عن المفضل بن عمر، عن الإمام الصادق عليه السلام، في الكلام على تغسيل أمير المؤمنين لفاطمة، أن مريم لم يغسلها إلا عيسى. وترد الرواية في أحكام غسل الميت وفي باب مولد الزهراء بطرق متفاوتة. فهذا نص ينبغي ذكره بدل إطلاق القول بأن لا خبر إمامي في وفاتها. [٢٦, ١٦]

الخبر يربط غسل الصدّيقة بالصدّيق، ولا يحدد تاريخ الواقعة أو مكانها أو اسم قابض روحها أو من حضر دفنها. كما لا يغني عن البحث الرجالي لطريقه. لذلك تثبت نسبته ومضمونه المحدد، وتترك تعيينات القبر والأعمار وحكايات حوارها بعد الموت بلا جزم حيث لم يقم في المصادر المستعملة دليل يحققها.

٣٣. مريم وآسية وخديجة وفاطمة

يجمع الخصال أسماء أربع نساء في أخبار الفضل: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد عليهن السلام. ومنها طرق عن ابن عباس عن النبي، وطريق عن الإمام الكاظم عليه السلام عن النبي. ويجمع البحار نصوصها، فلا يسقط اختلاف الطريق ولا يتوهم أن ترتيب الأسماء في جملة واحدة ترتيب للفضيلة بالضرورة. [٢٨, ١٦]

آسية وخديجة وفاطمة شخصيات متمايزة، وليسن قريبات لمريم لمجرد جمعهن معها في الفضل. ويسمي القرآن امرأة فرعون بوصف الزوجية، أما اسم آسية واسم أبيها فمن الروايات. وخديجة وفاطمة لا تسميهما آيات قصة مريم، وإنما أدخلتهما روايات المقارنة والاصطفاء في دائرة هذا الفصل. [٧, ٢٨]

٣٤. مريم وفاطمة: عالمها والعالمون

في أمالي الصدوق، المجلس السادس والعشرين، يسأل الحسن بن زياد العطار الإمام الصادق عليه السلام عن سيادة فاطمة على نساء أهل الجنة، فيميز الخبر بينها وبين مريم سيدة نساء عالمها. ويرد معنى

مقارب في خبر كون فاطمة محدثة في علل الشرائع. تعرض هذه الأخبار بوصفها التفسير الروائي الإمامي لدائرة الفضل، ولا يمحى بها نص اصطفاء مريم. [٢٧, ٢٩]

وفي حديث الأمالي نفسه يرد الحسن والحسين عليهما السلام في سيادة شباب أهل الجنة. دخولهما هنا دخول في سؤال الفضل، لا حضور في حياة مريم. وبالمثل يذكر الحسين في أخبار مدة الحمل، فلا يجعل التشابه بين الولادتين زمنهما واحدًا، ولا تستخرج منه تفاصيل تخص أمهما فاطمة لم يذكرها الخبر.

٣٥. مريم في خبر ولادة فاطمة

يروي الصدوق في المجلس السابع والثمانين من الأمالي، عن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام، خبر خديجة حين تخلت نساء عنها عند الولادة، وحضور أربع نسوة يعرفن أنفسهن: سارة، وآسية، ومريم، وكلثوم أخت موسى؛ وفي نسخة «كلثم». فتضم الرواية شخصيات نسائية لا يجوز إغفالها عند جمع أخبار مريم، مع التنبيه إلى أن هذا حضور خارق في الرواية، لا اجتماع اعتيادي لنساء في عصر واحد. [٣٠]

سارة هي زوجة إبراهيم في التعريف التراثي، وأخت موسى لا يسميها القرآن في قصة اتباع التابوت، وإن سمتها الرواية هنا. ويظهر أيضًا النبي محمد وجبرئيل، وتذكر الرواية نساء قريش وبني هاشم وعشرًا من الحور العين دون أسماء فردية. ولا نعطي هذه الجماعات أسماء لم يحملها النص، ولا ننقل رواية الولادة إلى سيرة مريم الدنيوية بلا بيان لاختلاف نوع المشهد.

٣٦. التحديث ومؤانسة فاطمة

ينقل علل الشرائع خبر تسمية فاطمة «محدثة»، وفيه مخاطبة الملائكة لها بمثل ما خاطبت به مريم، ثم بيان دائرة سيادة كل منهما. وفي أمالي الصدوق خبر آخر عن ابن عباس عن النبي، يذكر إرسال مريم لتؤنس فاطمة في علتها. هذان خبران مختلفان مصدرًا وطريقًا وموضوعًا جزئيًا، وإن اجتمعا في حفظ الصلة المعنوية بين المرأتين. [٢٩, ٣١]

ويشتمل طريق خبر الأمالي على الحسن بن علي بن أبي حمزة وأبيه؛ فلا توصف القصة بمجرد وجودها في الكتاب بأنها خبر صحيح متفق عليه. ويعرض مضمونها منسوبًا إلى الرواية، ولا يتخذ دليلًا على بقاء مريم في الأرض إلى زمن فاطمة. كذلك لا يجعل التحديث مرادفًا تلقائيًا للنبوة.

٣٧. رزق فاطمة وتشبيه بيتها بمحراب مريم

في خبر العياشي المنقول في البحار، عن الإمام الباقر عليه السلام، يخرج علي عليه السلام في طلب الطعام، ثم يؤثر المقداد بما استقرضه، ويعود فيجد النبي وفاطمة والطعام. ويجري في الخبر سؤال عن

مصدر الرزق وجواب بأنه من عند الله، ثم مقارنة بما جرى بين زكريا ومريم. فالمقداد شخصية لازمة لهذا الخبر، ولكنه ليس من معاصري مريم. [٣٢]

ويذكر ذيل الخبر القائم عليه السلام والجفنة. تحفظ هذه الزيادة في حدود نسبتها إلى الرواية؛ فلا تجعل آية رزق مريم بنفسها نصًا في الجفنة أو تفاصيل آخر الزمان. والمقصود أن نموذج الشكر والرزق يعود في رواية أخرى مع بقاء الأشخاص والأزمان مختلفين. [٣٢]

٣٨. بنت حمزة والمقارنات التي لا تعني القرابة

في المروي بتفسير العياشي، كما حفظه البحار عند آيات الكفالة والاصطفاء، إشارة إلى الاختصام في بنت حمزة ومقارنته بالاختصام في مريم. وترد البنت في النص بهذا الوصف دون اسم شخصي. تدخل لذلك في سجل المقارنات، ولا تجعل قرابتها بالنبي قرابة لمريم، ولا تستبدل بأخت موسى أو بابنة عمران لمجرد اشتراك الأخبار في الحديث عن النساء الصالحات. [١٦]

وكذلك يورد باب ولادة عيسى في البحار تشبيهًا لعلي عليه السلام بعيسى من جهة ما يقع من غلو بعض الناس وجفاء آخرين وبهتانهم لأمه. هذه مقارنة أخلاقية وعقدية في الخبر، وليست اشتراكًا في الأسرة أو الزمن. وبذلك يبقى النبي وعلي وحمزة وابنته في مواضع الصلة الفعلية التي أوردتها النصوص. [١٩]

٣٩. خبر السلام على نساء الجنة

يورد من لا يحضره الفقيه، الحديث ٣٨٣، خطاب النبي لخديجة في مرضها بأن تقرئ السلام على مريم وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون، وفيه لفظ «ضرائرك». وهو من أخبار الآخرة كما يدل سياقه، لا إثبات زواج دنيوي جمع النبي بمريم. ويورده الصدوق في هذا الموضع دون سلسلة إسناد ظاهرة في المتن. [٣٣]

ويعيد الصافي ونور الثقلين نقله، فلا يصبح تكراره فيهما سندين مستقلين للواقعة. كما ينقل نور الثقلين، عن مجمع البيان، خبرًا آخر فيه تردد الراوي بين «كلثم» و«حكيمة» في اسم أخت موسى؛ يسجل هذا اختلاف تسمية ولا ينشأ منه إثبات أخت ثانية. [٣٦, ٣٧]

٤٠. مريم ويوسف وأيوب في خبر الاحتجاج يوم القيامة

في روضة الكافي، الحديث ٢٩١، خبر عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر امرأة افتتنت بحسنها، فيحتج عليها بمريم؛ ثم رجلًا افتتن بحسنه، فيحتج عليه بيوسف؛ ثم صاحب بلاء، فيحتج عليه بأيوب. فالمرأة والرجل وصاحب البلاء غير مسمين، ولا يجوز تحويل المرأة إلى شخصية تاريخية معينة أو نسبتها إلى أسرة مريم. [٣٤]

ويوسف في هذا الخبر هو النبي المثال في العفة، وليس يوسف النجار المذكور في خبر البهتان. ومن جهة الدلالة يجعل الخبر مريم قدوة تتجاوز زمانها، ويقرن فضيلتها بفضائل أنبياء. لكن لا يستخرج من ذلك تساوٍ في جميع المقامات أو تاريخ مشترك بينهم، ولا تعمم لغة الابتلاء على لوم من وقع عليه اعتداء بغير اختياره.

٤١. مثال الإيمان ونفي التأليه

تقابل خاتمة التحريم بين امرأتي نوح ولوط من جهة، وامرأة فرعون ومريم من جهة أخرى. فالقرابة بنبي لا تغني وحدها، والابتلاء ببيت ظالم لا يمنع الإيمان، والنذر والاصطفاء لا يسقطان مسؤولية العمل. وتدخل زوجتا نوح ولوط هنا بوصفهما في المقابلة القرآنية، دون نسبة معاصرة أو خصومة شخصية بينهما وبين مريم. [٧]

وتجمع المائدة بين علو مقام مريم وبشريتها: أم المسيح صدّيقة، وكانا يأكلان الطعام. وفي سؤال عيسى عن اتخاذه وأمه إلهين يبرئ نفسه من الدعوة إلى ذلك ويقرر عبادة الله. فتكريم الأم وابنها محفوظ، ونفي الألوهية عنهما محفوظ أيضًا. ولا يلزم من عرض الخطاب القرآني نسبة عقيدة واحدة بكل تفاصيلها إلى كل مسيحي في كل عصر. [٤]

٤٢. شخصيات في الحكايات التاريخية: تسجل ولا تنسب إلى الأئمة

يجمع البحار أيضًا، نقلًا عن الكامل وعرائس المجالس ونحوها، أخبارًا عن مريم بمصر، ودهقان استضافها، وأعمى ومقعد في قصة مال مسروق، وضيوف وأهل بيت وصبيان ومعلم صباغ. وتذكر حكاية من طريق وهب ملكًا باسم هردوس ورجوعها بعد موته، مع يوسف النجار. ورود هذه المادة في البحار لا يجعلها بذاته روايات عن أهل البيت. [٣٨]

لهذا تثبت هذه الأسماء والأوصاف في سجل المادة المقارنة، ولا تعاد صياغة الحكايات كلها على أنها سيرة إمامية محققة. والدهقان والصباغ والطفل في هذه القصص لا تعطى لهم أسماء تخمينية؛ ولا يدمج هردوس بقيدوس لمجرد تقارب بعض الحروف. كذلك لا يخلط المعلم في خبر الراوندي بالصباغ في حكاية عطاء إلا بدليل يصل بين النصين. [٢٠, ٣٨]

٤٣. سجل الرجال وصلة كل منهم بالفصل

في أصل القصة: عمران أبو مريم؛ زكريا الكافل؛ عيسى الابن؛ ويحيى صاحب البشارة المتصلة بدعاء زكريا. وفي مواضع التعيين المختلف: هارون في خطاب القوم، ويوسف النجار في الأخبار، وقيدوس في حوار الكاظم، وهردوس في المادة التاريخية المقارنة. ولا يعامل اختلاف الهوية كما لو أنه تعدد ثابت لأشخاص إضافيين. [١, ٢, ١٠, ٢١, ٢٣, ٣٨]

وفي المقارنات والفضائل: آدم في بيان قدرة الخلق؛ إبراهيم في خطاب زوجه وسياق الاصطفاء؛ موسى في التمييز بين الأسرتين؛ نوح ولوط وفرعون في أمثال التحريم؛ يوسف النبي وأيوب في خبر الاحتجاج؛ والنبي محمد وعلي وفاطمة وابناها الحسن والحسين، والمقداد وحمزة والقائم في الأخبار التي سبقت. ذكر فاطمة هنا لبيان الأسرة المرتبطة بهؤلاء، ومكان تفصيل النساء في السجل التالي.

وترد أسماء أئمة أهل البيت بوصفهم مصادر بيان هذه الأخبار: الباقر والصادق والكاظم والرضا، وينقل بعض أخبار المكان عن علي بن الحسين عليهم السلام. وهؤلاء ليسوا من معاصري مريم. أما رجال الأسانيد فيذكر منهم من تدعو إليه معرفة الطريق أو اختلافه؛ ولا يجعل كل راو بطلًا في قصتها. وكذلك تترك أنساب الأجداد الطويلة التي توسع فيها الفصل السابق في إطار اختلاف مصادرها، دون إنشاء سلسلة يقينية جديدة.

٤٤. سجل النساء والجماعات غير المسماة

في مركز الفصل مريم وأمها امرأة عمران؛ وترد للأم أسماء حنّة ومرثا أو مرتا ووهيبة بحسب المصادر. وامرأة زكريا، التي ترد باسم حنانة أو إيشاع، صلتها بمريم مختلف فيها بين الخالة والأخت في الأخبار. ليست هذه الاختلافات دليلًا على وجود عدة أمهات أو عدة زوجات لزكريا. [٨–١٠، ١٣، ١٦]

وفي الفضائل والمقارنات: فاطمة الزهراء، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم، وسارة، وأخت موسى المسماة كلثم أو كلثوم، ومعها اختلاف «حكيمة» في أحد الأخبار؛ وبنت حمزة غير المسماة في النص المستعمل؛ وأم موسى وامرأة إبراهيم وزوجتا نوح ولوط في المقارنة القرآنية. ولا تعد سارة وامرأة إبراهيم شخصيتين لمجرد اختلاف طريقة التعريف، ولا تختلط أخت موسى بمريم أم عيسى. [٧، ١٦، ٢٨–٣١، ٣٣، ٣٧]

وتشمل الجماعات والأفراد غير المسميْن: أهل مريم وقومها، وأصحاب القرعة، وخدام موضع العبادة، والمرضعة في بعض الحكايات، ونساء الاتهام والعواتق والمتعبدات، وأتباع قيدوس وولده، والحاكة والتجار، والمعلم والراهب، ووفد المجوس، والنساء المتصلات بإطار حوار الإمام الكاظم اللواتي فُصّلن في الفصل ٣٩، والمرأة الحسناء في خبر القيامة، ونساء قريش وبني هاشم والحور في خبر ولادة فاطمة. ويحفظ جبرئيل وسائر الملائكة وإبليس في فئة مستقلة عن البشر. [١٠، ١٣، ١٩، ٢٠، ٣٠، ٣٤]

٤٥. حصيلة التحقيق واتصال الفصول

تثبت الآيات مريم ابنة عمران، صاحبة النشأة المقبولة والعبادة والاصطفاء والعفة، وأم عيسى بخلق الله من غير أب، والصدّيقة التي دافع الوحي عنها. وتوسع الروايات المشهد بالأسماء والقرابة والفضائل والرعاية؛ لكن أخبار المدة والمكان وبعض تفاصيل العمر والوفاة لا تتفق على صورة واحدة، فلا يسوغ إسقاط اختلافها من كتاب يقوم على التحقيق.

ومن هنا ينتقل الكتّاب إلى زكريا ثم يحيى ثم تفصيل رسالة عيسى، مع إدراك أن ترتيب الفصول ترتيب عرض، وليس أعمارًا متتابعة لا تتداخل. تبقى مريم حاضرة في كل انتقال بصلتها الخاصة: مكفولة زكريا، وذات القرابة المختلف في تفصيلها بأم يحيى، وأم عيسى التي قرن القرآن بره بها بنبوته. فمريم صاحبة فصل قائم على الإيمان والعمل والابتلاء، لا مجرد مقدمة تنتهي بولادة ولدها.

٤٦. المصادر والإحالات

تشير الأرقام بين المعقوفين إلى المداخل الآتية. وقد يخصص أكثر من مدخل لمواضع مختلفة من الكتّاب نفسه؛ فهي أربعون إحالة محددة، وليست أربعين كتابًا مستقلًا. وتذكر عبارة «نقلًا عن» حيث كان الاطلاع بواسطة جامع لاحق. تختلف الصفحات باختلاف الطبعات؛ لذلك أضيف الباب أو رقم الحديث متى أمكن.

[١] القرآن الكريم: آل عمران ٣٣–٥١ و٥٩؛ الأسرة والنذر والكفالة والاصطفاء والبشارة.

[٢] القرآن الكريم: مريم ١٦–٣٦؛ الحمل والمخاض والعودة وكلام عيسى.

[٣] القرآن الكريم: النساء ١٥٦–١٥٨ و١٧١؛ البهتان وحقيقة المسيح ورفعه.

[٤] القرآن الكريم: المائدة ١٧ و٧٢ و٧٥ و١١٠ و١١٦–١١٧؛ الصدّيقية والنعمة ونفي التأليه.

[٥] القرآن الكريم: الأنبياء ٩١؛ والبقرة ٨٧ و٢٥٣، والحديد ٢٧، والصف ٦ و١٤.

[٦] القرآن الكريم: المؤمنون ٥٠؛ ولتعيين الربوة: مجمع البيان عند الآية، ونقله في البحار ج١٤، ص٢٣٢.

[٧] القرآن الكريم: التحريم ١٠–١٢؛ وللمقارنة: هود ٧١–٧٣، والقصص ٧–١٣.

[٨] الكليني، الكافي، ج١، ص٥٣٥، باب «في أنه إذا قيل في الرجل شيء...»، ح١؛ خبر أبي بصير في عمران.

[٩] الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢١٤–٢١٥، ح٢٧٨–٢٨٠؛ عمران وحنّة وحنانة والقرابة.

[١٠] الكليني، الكافي، ج١، باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، ح٤، ص٤٧٧–٤٨٠؛ حوار النصراني.

[١١] تفسير القمي، ج١، ص٩١–٩٣، عند آل عمران ٣٥–٥١؛ يميز الخبر المنسوب إلى الإمام من الشرح.

[١٢] تفسير العياشي، ج١، عند آل عمران ٣٥–٤٤؛ أخبار إسماعيل الجعفي وحفص وحريز، وتقارن بالمرجع [١٦].

[١٣] الطبرسي، مجمع البيان، عند آل عمران ٣٥–٣٧ و٤٢–٤٤؛ النذر والنشأة والقرعة والرزق.

[١٤] الطوسي، التبيان، عند آل عمران ٣٥–٣٧؛ التحرير وولادة الأنثى والقبول.

[١٥] الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الطهارة، باب الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، ح٤؛ خبر الجعفي.

[١٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ب١٦، ص١٩١-٢٠٦؛ ٢٣ خبرًا في مريم وعمران، مع التفاسير والتعليقات.

[١٧] الكافي، ج١، باب مولد الحسين، ح٤، ص٤٦٤-٤٦٥؛ الستة أشهر، وفي الطريق راو مبهم.

[١٨] روضة الكافي، ج٨، ص٣٣٢، ح٥١٦؛ التسع ساعات، وفي الطريق «عن رجل».

[١٩] البحار، ج١٤، ب١٧، ص٢٠٦-٢٣٠؛ ٣٢ خبرًا في ولادة عيسى وتعقيب تفسيري؛ تذكر وسائط النقل في المتن.

[٢٠] الراوندي، قصص الأنبياء، ب١٨، ص٢٦٤-٢٧٠، ح٣٠٢-٣١٦، خاصة ٣٠٢-٣٠٨ و٣١٥-٣١٦.

[٢١] مجمع البيان، عند مريم ٢١-٣٠؛ المخاض والمنادي والسري والصمت و«أخت هارون».

[٢٢] التبيان، عند مريم ٢٣-٢٥؛ المنادي والسري والتطمين.

[٢٣] الصدوق، الأمالي، المجلس ٢٢، ح٣، الرقم ١٦٣؛ حديث علقمة والبهتان واسم يوسف النجار.

[٢٤] الصدوق، كمال الدين، ج١، خبر غيبات الأنبياء، فقرة «لما ولد المسيح»؛ وتقارن بالبحار ج١٤، ب١٧، ح١٠.

[٢٥] الصدوق، علل الشرائع، ج١، ب٧٢؛ ابن فضال عن الرضا، ومصر والناصرة. والخبر الموازي في العيون نقلًا بالبحار ٢٧٢:١٤-٢٧٣.

[٢٦] الكافي، ج٣، ص١٥٩، ح١٣؛ تغسيل مريم. وله طريق في ١:٤٥٩؛ وانظر البحار ج١٤، ب١٦، ح٣.

[٢٧] الصدوق، الأمالي، المجلس ٢٦، ح٧، الرقم ١٩٦؛ سؤال العطار في الفضل ومريم وفاطمة والحسنين.

[٢٨] الصدوق، الخصال، النساء الأربع، نقلًا بالبحار ج١٤، ب١٦، ح٩-١١، ص٢٠٠-٢٠١.

[٢٩] علل الشرائع، تسمية فاطمة محدثة، نقلًا بالبحار ج١٤، ب١٦، ح٢٣، ص٢٠٦.

[٣٠] الأمالي، المجلس ٨٧، ح١، الرقم ٩٤٧؛ ولادة فاطمة وسارة وآسية ومريم وكلثوم، وفي نسخة «كلثم».

[٣١] الأمالي، المجلس ٢٤، ح٢، الرقم ١٧٨؛ خبر ابن عباس ومؤانسة مريم لفاطمة في علتها.

[٣٢] العياشي، خبر سيف عن نجم عن الباقر، رزق فاطمة والمقداد؛ نقلًا بالبحار ج١٤، ب١٦، ح٤، ص١٩٧-١٩٨.

[٣٣] الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٣٩-١٤٠، ح٣٨٣؛ خديجة والسلام على مريم وكلثم وآسية.

[٣٤] روضة الكافي، ج٨، ص٢٢٨، ح٢٩١؛ الاحتجاج بمريم ويوسف وأيوب.

[٣٥] الطباطبائي، الميزان، ج١٤، عند مريم ١٦-٤٠، خاصة ٢٣-٢٦؛ التمني والحزن والتطمين.

[٣٦] الفيض الكاشاني، الصافي، ج٥، عند التحريم ١١-١٢؛ ونقله خبر الفقيه.

[٣٧] الحويزي، نور الثقلين، ختام التحريم، ح٤٢-٤٧ في العرض الإلكتروني؛ ومنه اختلاف اسم أخت موسى.

[٣٨] البحار، ج١٤، ص٢٦٧-٢٦٩؛ نقول الكامل وعرائس المجالس: مصر والدهقان والصباغ وهردوس؛ مادة مقارنة.

[٣٩] العياشي، ثوب عيسى من عمل مريم، نقلًا بالبحار ج١٤، ب٢٣، ح٩، ص٣٣٨؛ مع إبهام في الطريق.

[٤٠] البحراني، البرهان، عند آل عمران ٤٣-٤٤، ح١٦٨٥-١٦٩٠ في العرض الإلكتروني؛ القرعة والخدمة والقرابة.

الفصل ٤١ — زكريا عليه السلام — الدعاء وبشارة يحيى وامتداد العهد

١. زكريا ورجاء امتداد العهد

تلتقي في سيرة زكريا عليه السلام رعاية مريم، ورجاء الأبوة بعد الكبر، والخوف على ما يتركه المؤمن من أمانة، والبشارة بيحيى. ويقدمه القرآن عبدًا صالحًا ونبيًا في سلسلة الهداية، لا مجرد شيخ استجيبت له دعوة شخصية. ومن هنا يتناول هذا الفصل أسرته، وصلته بآل عمران، ودعاءه، وتربية ابنه، وما ورد في انتقال العهد ووفاته. أما تفصيل رسالة يحيى وشهادته فيأتي في فصله، مع إثبات ما يتصل منه بأبيه هنا. [١-٤]

٢. المواضع القرآنية التي يقوم عليها الفصل

تذكر سورة آل عمران زكريا في كفالة مريم ورزقها ودعائه وبشارة الملائكة وآية الامتناع عن الكلام: الآيات ٣٧-٤١، مع سياق نذر امرأة عمران والاقتراع على الكفالة في ٣٥-٣٦ و٤٤. وتفصّل سورة مريم نداءه الخفي وطلب الولي الرضي والبشارة بيحيى وخروجه على قومه: الآيات ٢-١١، ثم تصف يحيى وبره بوالديه في ١٢-١٥. وتوجز الأنبياء الدعاء والاستجابة وإصلاح الزوجة في ٨٩-٩٠. وتجمع الأنعام زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ضمن الصالحين في الآية ٨٥. [١-٤]

تتكامل هذه المواضع ولا تتكرر بلا غاية: آل عمران تصل الدعاء بكرامة مريم، ومريم تكشف لغة المناجاة، والأنبياء تربط الإجابة بالخير والخشوع، والأنعام تثبت موضعه في أهل الصلاح. أما آيات ذم قتل الأنبياء، مثل البقرة ٦١ وآل عمران ٢١، فلا تسمي زكريا في خبر مقتله؛ فلا تُستعمل وحدها لإثبات طريقة وفاته أو اسم قاتله.

٣. النشأة والنسب: ما نعرفه وما لم يُحفظ

لم يسمّ القرآن أبا زكريا أو أمه، ولم يحدد مولده أو عمره يوم البشارة أو موضع قبره. والثابت في مشهد الدعاء أنه بلغ الكبر، وأن امرأته كانت عاقرًا، وأن الله وهبهما يحيى. ولذلك لا يصح ملء طفولته ومهنته وسنوات حياته بتفاصيل شائعة لا تحمل إحالة واضحة. ويحيى هو الابن الذي سمّاه القرآن له؛ وهذا إثبات للاسم الوارد، لا إحصاء قطعي لجميع من قد يكون نُسب إليه من أولاد في أخبار أخرى. [١-٣]

تختلف الأنساب في كتب الأخبار: يذكر «إثبات الوصية» المنسوب إلى المسعودي أنه ابن أيم، ويروي أيضًا ابن أردن، ويورد في الموضع السابق لفظ «زمرتا» اسمًا مرويًا لزكريا. وتذكر بعض التفاسير نسبه في ولد هارون بن عمران، وتظهر في النقول التاريخية أسماء آباء أخرى، منها برخيا وبشوى ويوحنا.

تُحفظ هذه بوصفها اختلافًا في النقل، لا أسماء متتابعة لأب واحد، ولا شجرة نسب متفقًا عليها. [١١,١٣,١٨,١٩,٢٦]

٤. من سبقه في حفظ العهد

يحفظ «إثبات الوصية» مسارًا يذكر هندو بن مبنه، وأسفرا أو أسفر بن هندو، ورامين بن أسفر، وإسحاق بن رامين، ثم أيم بن إسحاق الذي يوصي إلى ابنه زكريا. وترد اختلافات في رسم بعض هذه الأسماء داخل النص نفسه. يفيد هذا المسار في تعريف الشخصيات التي يربطها المصدر بعهد زكريا، لكنه لا يبيح مساواة إسحاق بن رامين بإسحاق ابن إبراهيم، ولا جعل أيم شخصية قرآنية منصوصة. [١٨]

أما «كمال الدين» فيورد، في خبر طويل عن الصادق عليه السلام، دانيال وعزير ثم ظهور يحيى ضمن حديثه عن فترات الاستتار والفرج. وهذا سياق آخر لا ينص في موضعه على أن دانيال أو عزير سلّما العهد مباشرة إلى زكريا. فالاتصال العام للهداية معنى حاضر، أما تفاصيل الأشخاص والسنوات فتحتاج إلى حفظ اختلاف طرقها، لا صناعة ترتيب واحد من مصادر متباينة. [٢٢، باب ٧، ح١٧]

٥. زوجة زكريا: امرأة لا يجوز أن تُحجب وراء البشارة

زوجة زكريا حاضرة في أصل القصة القرآنية: يذكر عقرها، وتأتي الاستجابة بإصلاح حالها وهبة يحيى. ولم يذكر القرآن اسمها. وفي «قصص الأنبياء» للراوندي، في خبر أبي بصير عن الباقر عليه السلام، تسمى حنانة، وتكون أخت حنّة امرأة عمران وأم مريم؛ فتكون زوجة زكريا خالة مريم. ويسميها «إثبات الوصية» إيساع، ويجعلها أيضًا أخت حنّة. وترد في التداول صيغ مثل إيشاع؛ فلا تُحسب هذه الصيغ وحدها نساء متعددات. [٣,٥,١٩]

في مقابل ذلك، تصفها روايات في تفسير القمي والعياشي بأنها أخت مريم، وكذلك خبر في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري. وهذا اختلاف في درجة القرابة، لا مجرد اختلاف إملائي. ويورد تفسير فرات اسم «أم كلثوم أم يحيى بن زكريا» في خبر أخروي سيأتي. فلا نجزم بأن جميع هذه الأسماء ألقاب ثابتة لشخص واحد، ولا نُسقط أي صيغة من سجل الاختلاف. أما «إليصابات» الشائع في السياق المسيحي فليس اسمًا قرآنيًا ولا يُنسب إلى روايات أهل البيت بلا إحالة مخصوصة. [٦,٧,٢٦,٢٧]

٦. عمران وحنّة ومريم في محيط زكريا

تبدأ صلة زكريا بمريم قبل دعائه بالولد: تنذر امرأة عمران ما في بطنها محررًا، ثم تضع مريم وتستعيذ بالله لها ولذريتها. يسمي الخبر الإمامي الأم حنّة، ويصف عمران بالنبوة في رواية الراوندي، بينما لا تنص

آيات آل عمران على نبوته صراحة. وتروي الأخبار أن الوعد بالولد المبارك تحقق في عيسى ابن مريم؛ فامتداد الخير في الذرية لا يلزم أن يقع في الجيل الذي توقعه البشر أولًا. [١,٥]

لا تُهمَّش هنا امرأة عمران لأن مولودها أنثى؛ فالقرآن يثبت قبول مريم وإنباتها الحسن. كما لا تتحول كفالة زكريا إلى إلغاء لدور أمها أو لخصوصيتها الروحية. وتأتي قرابة زوجته بمريم في الأخبار لتشرح جانبًا من المحيط العائلي، مع بقاء اختلاف «الأخت» و«الخالة» ظاهرًا، وبقاء الأم وأخت مريم أو خالتها والكفيل أدوارًا لا يجوز خلطها. [١,٥-٨]

٧. الكفالة والاقتراع ومسؤولية الرعاية

يثبت القرآن أن زكريا كفل مريم، وأن قومًا تنازعوا فيمن يكفلها وألقوا أقلامهم للاقتراع. ولا يسمي أولئك المتنافسين. وتزيد الروايات تفاصيل عن نذر الخدمة وبلوغ مريم وما يترتب على رعايتها، ومنها خبر إسماعيل الجعفي عن الباقر في الكافي وتفسير العياشي. ويجب إبقاء الأشخاص غير المسمين بأوصافهم: الكفلاء المتنافسون أو أهل الخدمة، من غير اختراع أسماء لهم. [١,٧,٨]

الكفالة في سياق الفصل عمل ديني وأسري معًا: متابعة حال مريم، والدخول عليها، والسؤال عن رزقها، وحفظ الصلة بها. ومع ذلك لا تصح إضافة أعمار تفصيلية لكل انتقال في حياتها، أو تعيين غرفة بعينها لكل مشاهد المحراب، ما لم يذكر المصدر ذلك بوضوح. الاشتراك في لفظ المحراب لا يثبت وحده أن كل حدث وقع في الموضع المادي نفسه.

٨. رزق مريم وبداية الرجاء المتجدد

كلما دخل زكريا على مريم المحراب وجد عندها رزقًا، فسألها عن مصدره، فأجابت بأنه من عند الله، وأن الله يرزق من يشاء بغير حساب. يعقب القرآن ذلك مباشرة بدعائه بالذرية الطيبة. وتفصل روايات التفسير الرزق بفاكهة الصيف في الشتاء والشتاء في الصيف، وهذا بيان روائي زائد على لفظ الرزق القرآني، وإن كان مشهورًا في كتب التفسير. [١,٦,٧,٩]

مريم في هذا المشهد شخصية مؤثرة في سياق الدعاء، لا مجرد متلقية لرعاية زكريا. يقرأ النبي في كرامتها سعة القدرة الإلهية، ثم يرجو من ربه ذرية طيبة. ويصل «الميزان» بين طيب الذرية في آل عمران وطلب الولي الرضي في مريم: فالمقصود خلف صالح، لا مجرد استمرار الاسم العائلي. [١٥]

٩. النداء الخفي وضعف الجسد

يفتتح مشهد سورة مريم بنداء خفي. ثم يصف زكريا وهن العظم وانتشار الشيب، ويذكر سابق عناية الله بدعائه. لا ينكر السن ولا يحاول تجميل ضعفه، لكنه لا يجعل ضعف الأسباب حكمًا على قدرة الله. ويقرأ التبيان ومجمع البيان في هذه الألفاظ تصويرًا بالغًا للكبر والافتقار، لا معطيات طبية تسمح بحساب عمر محدد. [٢,١١,١٣]

وخفاء الدعاء لا يعني انقطاعه عن مسؤولية الناس. فالذي يناجي ربه سرًا هو نفسه الذي يخرج بعد البشارة إلى قومه ويأمرهم بالتسبيح. يجتمع في سيرته القلب المنكسر والعمل العلني، والطلب الشخصي وحفظ الأمانة العامة؛ ولذلك لا تنتهي القصة عند حصوله على ولد. [٢,٣]

١٠. الخوف من الموالي بعده

يقول زكريا إنه خاف الموالي من ورائه. ويعرض المفسرون معاني العصبة والعمومة وبني العم والورثة، وينقل مجمع البيان عن الباقر تفسيرهم بالعمومة وبني العم. ليس في الآية أسماء لهؤلاء، ولا وصف مفصل لكل فرد منهم. فالخوف متعلق بما قد يؤول إليه الأمر بعده، ولا يبرر اتهام كل قريب له بجرم تاريخي معين. [٢,١١,١٣]

ويورد الكافي، في باب فضل الولد، خبرًا عن الصادق عن أمير المؤمنين عليهما السلام يستشهد بدعاء زكريا وبأنه لم يكن له وارث حتى وهب الله له بعد الكبر. وهذه إحالة روائية إلى معنى طلب الخلف؛ ولا يرد فيها تعداد أقاربه أو ما ارتكبوه. وتفصل آية «واجعله رب رضيا» بين مجرد وجود وارث وبين صلاح من يحمل الأمانة. [١٦]

١١. «يرثني»: المال والعلم والنبوة

لا يستقيم عرض الموقف الإمامي من الآية بإلغاء إرث المال ابتداءً. فالشيخ الطوسي في التبيان، والطبرسي في مجمع البيان، يستدلان بها على أن الأنبياء يورثون المال، ويذكران أن حمل اللفظ على النبوة وحدها ليس ظاهر الكلام؛ إذ لا تنال النبوة بمجرد النسب. كما يوردان أقوالًا أخرى في إرث العلم أو الجمع بين وجوه الإرث. لذلك يُذكر الاستدلال الإمامي بوضوح، وتُنسب الأقوال الأخرى إلى أصحابها. [١١,١٣]

أما خبر الكافي في وراثة يحيى الكتاب والحكمة بعد زكريا فيثبت مضمونًا روائيًا آخر في استمرار الهداية. ولا يلزم منه نفي المال، ولا أن النبوة حق آلي لكل ابن نبي. يُفرّق هنا بين انتقال التركة بحكم الإرث، وانتقال العلم والأمانة، والاصطفاء الإلهي للنبوة. وبذلك لا يُستعمل خبر في أحد هذه الأبواب لإلغاء الآخر بلا دليل. [٢٠]

١٢. آل يعقوب واستشهاد فاطمة بالآية

في تعيين يعقوب المذكور في الدعاء قول بأنه يعقوب ابن إسحاق، وقول في بعض التفاسير بأنه يعقوب بن ماثان المرتبط بآل عمران. ويذكر التبيان ومجمع البيان هذه الأقوال؛ فلا يجوز الجزم بأن كل لفظ يعقوب في أخبار هذا الفصل يعود إلى شخص واحد. أما داود وسليمان وهارون ويهوذا فيردون في بيانات النسب والبيوت الدينية، لا بوصفهم رجالًا عاصروا زكريا جميعًا. [١١,١٣,١٩]

وينقل نور الثقلين عن «الاحتجاج» استشهاد فاطمة الزهراء عليها السلام بآية وراثة زكريا في احتجاجها على أبي بكر في شأن إرث أبيها، مع الاستشهاد القرآني بوراثة سليمان داود. حضور فاطمة هنا حضور الاستدلال اللاحق بآية زكريا، لا المشاركة في زمنه. ولأن النقل هنا مأخوذ من جامع تفسيري، تُحفظ الإحالة بصيغة «نقلًا عن الاحتجاج»، ولا يُدّعى فحص مستقل لجميع طرق الخطبة. [١٧، عند مريم ٦، ح٢٦]

١٣. الولي الرضي والذرية الطيبة

يجمع الدعاء بين طلب الولد وطلب صلاحه. فقول زكريا «واجعله رب رضيا» يجعل القيمة فيما يكون عليه الوارث من طاعة وأمانة، لا في وجوده البيولوجي وحده. ولا يترتب على البشارة بغلام أن البنات أقل قيمة؛ فسياق الدعاء نفسه مرتبط بمريم التي تقبلها الله قبولًا حسنًا، وجعلها مثالًا للطهر والعبادة. [١,٢,١١,١٣]

ويستحضر خبر آخر في الكافي، نقله نور الثقلين، مرور عيسى بقبر رجل تغيّر حاله بسبب عمل ابنه الصالح: أصلح طريقًا وآوى يتيمًا. ثم يستشهد الخبر بدعاء زكريا. الأب المدفون، والابن، واليتيم شخصيات غير مسماة في هذا المثل الروائي؛ ومعناه هنا أن الخلف النافع يتجاوز حمل الاسم إلى نفع الناس. [١٧، ح٢٥]

١٤. البشارة وهو قائم يصلي

تأتي البشارة في آل عمران من الملائكة وزكريا قائم يصلي في المحراب. يجمع المشهد الطلب والعبادة والإجابة؛ فالولد الموعود عطية من الله في سياق حياة قائمة على الصلاة. وتستشهد أخبار التفسير بهذا الموضع في فضل الصلاة. أما تعيين المنادي بجبرئيل في بعض النقول فلا يغيّر أن اللفظ القرآني في هذا الموضع هو الملائكة. [١,٩,٣٦]

وتسمي سورة مريم الغلام يحيى قبل ولادته، وتقرر أنه لم يجعل له من قبل سميًا. يفسر كثير من المفسرين ذلك بسبق هذا الاسم، وتذكر بعض الأقوال معنى المثل والنظير. لا حاجة إلى اشتقاق اسم أجنبي ثم جعله هو معنى الآية الوحيد؛ فموضع التكريم القرآني هو أن البشارة والتسمية جاءتا من الله. [٢,١٢]

١٥. صفات يحيى في بشارة أبيه

لم تقتصر البشارة على مولود، بل وصفته بأنه مصدق بكلمة من الله، وسيد، وحصور، ونبي من الصالحين. وتشرح التفاسير «حصورًا» بالعفة أو الإمساك عن النساء، ولا يلزم من ذلك افتراض عجز جسدي أو مرض. ويذكر مجمع البيان وتفسير العياشي أقوالًا وروايات في هذه الصفات؛ فيُحفظ الفرق بين نص البشارة وتفسير مفرداتها. [١,٧,٩,٢٦]

وبذلك يُرى طلب زكريا في ضوء غايته: ولد يجمع الصلاح والموقف الأخلاقي والنبوة. وتأتي سورة مريم لاحقًا بالحكم في الصبا والحنان والزكاة والتقوى والبر بالوالدين، ثم السلام عليه في الميلاد والموت والبعث. تُذكر هذه الصفات هنا لأنها جواب دعاء الأب وأثر التربية الأسرية، ويُستكمل تفصيل حياة صاحبها في الفصل التالي. [٢]

١٦. عيسى: الكلمة التي يصدق بها يحيى

تفسر المصادر الإمامية الكلمة في بشارة يحيى بعيسى ابن مريم. وهكذا يتصل بيت زكريا ببيت مريم على مستوى الرسالة، إضافة إلى الكفالة والقرابة المختلف في درجتها. ولا يستلزم وصف عيسى بالكلمة إسناد أبوة بشرية له؛ فالقرآن يقدمه ابن مريم، وتبقى ولادته المعجزة بابًا آخر من القدرة الإلهية. [١,٩,٢٦]

ويروي التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري مشهد تلاقي المرأتين وحضور تصديق يحيى بعيسى قبل ولادتهما. يُذكر الخبر بوصفه من هذا الكتاب المنسوب، لا بنحو الجزم بصحة نسبته أو بكل جزئية فيه. كما لا يُجعل دليلًا على تسوية اختلاف الروايات بين كون المرأتين أختين أو خالة وابنة أخت. [٢٦، ح٣٦]

١٧. السؤال عن كيفية العطية ومقام اليقين

يسأل زكريا كيف يكون له غلام مع كبره وعقر امرأته، فيأتيه الجواب بأن الأمر هين على الله الذي خلقه من قبل ولم يك شيئًا. ويقرأ مجمع البيان السؤال على جهة الاستفهام عن كيفية وقوع الأمر والتعجب من عظيم القدرة، ويرفض تفسيرًا يجعل النبي عاجزًا عن تمييز خطاب الملَك من وسوسة الشيطان. وهذا الرفض موقف تفسيري صريح يجب أن يُحفظ عند عرض الأخبار الأخرى. [١,٢,١٠,١٢]

توجد مع ذلك أخبار أو مقاطع تفسيرية تذكر عرض الشيطان أو طلب التثبت، ومنها خبر الراوندي الذي يمر سنده بعبارة «عن رجل»، ونقول جمعها المجلسي. لا تُحذف من سجل البحث، لكنها لا تروى بصوت المؤلف كحقيقة متفق عليها. وأصل طلب الآية لا يساوي بالضرورة إنكار الوعد؛ فقد يفسر بمعرفة وقت تحققه أو زيادة الطمأنينة، على ما يناقشه المفسرون. [٢٣، ح٢٨١؛ ٢٦، ح١٣ و٣١]

١٨. ثلاثة أيام وثلاث ليال

تحدد آل عمران الآية بثلاثة أيام لا يكلم فيها الناس إلا رمزًا، وتذكر مريم ثلاث ليال وهو سوي. ليس في ذلك لزوم فترتين مستقلتين؛ فاليوم والليل يصفان مدة الآية من جهتين. و«سويًا» تؤكد سلامة حاله في التفسير المشهور، فتكون الآية خارجة عن المعتاد، لا تقريرًا بإصابته بمرض مزمن. [١,٢,١٢,٢٦]

ويصحب الآية أمره بكثرة ذكر ربه والتسبيح بالعشي والإبكار. ولهذا لا يصح تحويلها إلى صمت مطلق عن العبادة، ولا عدّها عقوبة ثابتة على معصية لم يذكرها القرآن. وتروي التفاسير أنه كان يقدر على الذكر دون مخاطبة الناس؛ ويظل التفصيل من التفسير، بينما الأمر بالذكر نفسه صريح في الآية. [١,١٢]

١٩. الخروج إلى القوم ولغة الإشارة

بعد البشارة يخرج زكريا على قومه من المحراب، فيوحي إليهم أن يسبحوا بكرة وعشيًا. والمقصود بالوحي هنا الإعلام بالإشارة في التفسير، لا أن كل أفراد القوم صاروا أنبياء. وتذكر بعض الأقوال الإيماء باليد أو الرأس، وأخرى الكتابة؛ فيثبت أصل الإفهام غير المعتاد، ولا تُجمع الوسائل كلها على أنها وقعت في مجلس واحد. [٢٦،١٢،٢، ح١٩ و٣٣]

يبقى القوم في هذا المشهد جماعة غير مسماة. وهم غير أقاربه الذين خاف أمرهم، وغير من تذكر روايات القتل أنهم اعتدوا عليه، ما لم ينص خبر مخصوص على ذلك. فالتوسع في الشخصيات يقتضي حفظ الفروق بين الجماعات أيضًا، لا تسمية كل جماعة من بني إسرائيل بالصفة نفسها.

٢٠. إصلاح الزوجة والاستجابة للأسرة

في الأنبياء يجتمع دعاء زكريا ألا يترك فردًا مع الإقرار بأن الله خير الوارثين، ثم تأتي هبة يحيى وإصلاح الزوجة. يفسر مجمع البيان إصلاحها بصلاحها للولادة، وينقل القمي تغير حالها بعد أن لم تكن تحيض. وتوجد أقوال تفسيرية أخرى في استعادة الشباب أو حسن الخلق؛ فلا يُجعل القول الأخير اتهامًا قرآنيًا للزوجة بسوء الخلق، إذ لم يذكر القرآن ذلك. [٣,١٤,٣٢]

وتذكر الآية المسارعة في الخيرات والدعاء رغبًا ورهبًا والخشوع. وقد نوقش مرجع ضمير الجمع: أهو الأسرة المذكورة في السياق أم الأنبياء المتقدم ذكرهم؟ لذلك نستفيد المعنى الجامع من غير حصر نحوي جازم. أما الزوجة فليست تفصيلًا هامشيًا؛ لقد سمّى النص إصلاح حالها جزءًا من الإجابة نفسها. [٣,١٤]

٢١. العمر ومدة الانتظار والحمل

لا يحدد القرآن كم كان عمر زكريا أو زوجته. وينقل مجمع البيان في موضع تقديرًا بمائة وعشرين سنة له وثمان وتسعين لها، وفي موضع آخر بضعًا وتسعين له، وهي أقوال منسوبة إلى مفسرين وليست تاريخًا قرآنيًا. كما ينقل عن الباقر، بطريق الحكم بن عيينة، أن يحيى ولد بعد البشارة بخمس سنين. يُذكر هذا خبرًا مخصوصًا، لا مدة حمل ثابتة. [١٠,١٢]

ويرد حمل يحيى ستة أشهر في خبر تأويل «كهيعص» في كمال الدين. وتختلف الروايات المتعلقة بالمقارنة مع حمل الحسين بين ذكر يحيى وذكر عيسى في مصادر أخرى. فلا يُدمج زمن البشارة بزمن الحمل، ولا

تُحسب منه سنة ميلاد ميلادية أو هجرية. وحدود هذا الفصل أن البشارة جاءت مع الكبر، أما المقادير الزائدة فتبقى مع أخبارها. [٢٢، باب ٤٣، ح٢١؛ ١٧، ح٤١-٤٢]

٢٢. الأب والأم في وصف يحيى القرآني

يصف القرآن يحيى بأنه بار بوالديه، ولم يكن جبارًا عصيًا. وهذا حضور واضح لزكريا وزوجته معًا في ثمرة التربية والرسالة. فلا تختزل الأم في العقر ثم تختفي بعد الولادة، ولا تُفهم النبوة عذرًا لإهمال البر الأسري. ويأتي الحنان والتقوى إلى جانب القوة في أخذ الكتاب، فيجتمع أداء الأمانة برقة القلب. [٢]

وتورد الأخبار صورًا إضافية لرعاية الوالدين وخوفهما عليه. تُقرأ هذه الصور على ضوء الأصل القرآني في البر والرحمة، لا بوصفها رخصة في إيلام النفس أو إهمال الأهل. وكلما اشتمل الخبر على تفاصيل غير معتادة أو عبارات مشكلة، وجب إبراز مصدرها وعدم جعلها النموذج الملزم للتدين. [٢٣,٢٤,٢٦]

٢٣. أخبار الرضاعة والنشأة المبكرة

يروي الراوندي عن الباقر خبر رفع يحيى بعد ولادته إلى السماء وتغذيته ثم رده إلى أبيه عند الفطام، وفي بعض ألفاظه اختلاف متعلق بما كان يغذى به. ويورد بعده خبرًا مرفوعًا عن بكاء يحيى ونداء جبرئيل له، وفيه سؤال زكريا ابنه عن سبب بكائه. تُذكر هذه الأخبار لأن فيها تفاصيل عن الأب والابن والمَلَك، مع بيان أنها أخبار زائدة على القرآن، وليست بديلًا عن أصل رعاية الأبوين الثابت في سياق السيرة. [٢٣، ح٢٨٢-٢٨٣]

ولا يثبت هذا النوع من الأخبار وحده اسم مرضعة بشرية أو معلم خاص أو إخوة ليحيى. ومن مقتضى استكمال الشخصيات ألا نملأ الأدوار المتوقعة بأسماء لا يذكرها النص: الأم ثابتة، والأب ثابت، وجبرئيل مسمى في الخبر، وما عدا ذلك لا يزاد بالظن.

٢٤. زكريا الواعظ وقلق الوالدين على يحيى

في أمالي الصدوق خبر طويل عن زهد يحيى، يظهر فيه زكريا واعظًا لبني إسرائيل، وتظهر الأم وهي تصنع لابنها لباسًا وتخفف أثر بكائه، ثم تبحث عنه بطلب من أبيه. ويظهر أيضًا راع غير مسمى، وشبان من بني إسرائيل. طريق الخبر يمر بعبد الله بن لهيعة وينتهي إلى عبد الله بن عمر؛ فوجوده في الأمالي لا يجعله رواية عن إمام من أهل البيت. وقد نبه هامش طبعة البحار إلى إشكالات في بعض ألفاظه. [٢٤؛ ٢٦، ح٤]

وتوجد عند الراوندي صيغة مختصرة من القصة. تحفظ الصيغة المختصرة حضور الأم والأب في صنع اللباس والوعظ، أما الراعي والشبان وامتداد البحث فترد في خبر الأمالي المطوّل، مع عدم إضفاء

القطع على تفاصيل الزهد الشديد. كذلك لا تُدرج هذه الصورة الزمنية تلقائيًا بعد خبر وفاة زكريا ويحيى صغير؛ فبقاء الأب إلى مرحلة زهد ابنه المتقدمة وجه روائي مختلف يجب أن يظهر اختلافه. [٢٣، ح٢٨٧؛ ٢٠]

٢٥. مريم عند ولادة عيسى ومعنى الأبوة بالرعاية

يروي كمال الدين، في خبر الصادق عن فترات الاستتار، أن زكريا وخالة مريم تبعا أثرها حتى وصلا إليها وقد وضعت عيسى، وأن الله أظهر حجتها بكلام المولود. هذا الخبر يزيد حضور زكريا في أزمة مريم، لكنه لا يحول الكفالة إلى أبوة جسدية لعيسى، ولا يسوي تلقائيًا بين جميع الأقوال في صلة زوجة زكريا بمريم. [٢٢، باب ٧، ح١٧]

وفي مواعظ الله لعيسى المروية في روضة الكافي، يرد وصف زكريا بأنه بمنزلة أبيه وكفيل أمه. يدل السياق على منزلة الرعاية؛ إذ يذكر ولادة عيسى من غير أب. وهنا تكتمل وظيفة زكريا في الأسرة: راع لمريم، وأب ليحيى، وصاحب منزلة أبوية لعيسى من جهة الكفالة، مع حفظ الفروق بين هذه الروابط. [٢١]

٢٦. الكافي: زكريا ثم يحيى والكتاب والحكمة

من أهم أخبار الفصل حديث الكاساني عن الباقر في باب حالات الأئمة في السن من الكافي. يبين أن عيسى كان حجة على من سمع كلامه في المهد، ثم يذكر صمته، وحجية زكريا، ووفاة زكريا ووراثة يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير. ثم يذكر تكلم عيسى بالنبوة والرسالة في السابعة وحجيته على يحيى والناس. فهذا مصدر إمامي مباشر لإدراج يحيى في تسلسل العهد بعد أبيه. [٢٠]

ويصل الإمام في الخبر هذا المعنى بعدم خلو الأرض من الحجة منذ آدم، ثم يجيب عن سؤال في منزلة علي في حياة رسول الله وبعده. ذكر آدم ومحمد وعلي هنا جزء من شرح أصل الهداية ومثال لاحق، لا توسعة زمنية لعصر زكريا. كما أن لفظ «مات» في الخبر لا يحدد وحده هل كانت الوفاة قتلًا أو بغير قتل؛ الذي يثبته هذا الموضع هو ترتيب الأشخاص في روايته. [٢٠]

٢٧. مسارات أخرى للعهد وحدود الجمع بينها

يذكر «إثبات الوصية» وجهًا في تسليم زكريا المواريث إلى عيسى، ثم يذكر خبرًا آخر بتسليمها إلى اليسابغ، ومنه إلى ابنه روبيل. تُثبت الشخصيتان لأن المصدر يربطهما مباشرة بما بعد زكريا. ولا دليل في هذا الموضع على أن اليسابغ هو اليسع القرآني، أو أن روبيل هو ابن يعقوب المعروف؛ فتشابه الأسماء لا يكفي للتوحيد بين الشخصيات. [١٩]

وفي خبر أبي رافع الذي ينقله كمال الدين ثم البحار يأتي شمعون بن حمون بعد عيسى، ثم يحيى، ثم ذرية يعقوب بن شمعون. وهذا ترتيب آخر، يصحبه ذكر أردشير بن بابكان وسابور بن أردشير، وقد نبه

المجلسي إلى صعوبة بعض وجوه الجمع. لذلك لا تُصنع من هذه الأخبار قائمة نهائية متصلة، ولا يُفترض إحياء يحيى مرة أخرى لحل التعارض من غير نص صريح صالح لذلك. [٢٢؛ ٢٦، ح٤٢]

٢٨. خبر مقتل زكريا في قصص الراوندي

لا يصح القول إن قصة قتل زكريا في الشجرة لا وجود لها في مصدر إمامي يروي عن أهل البيت. ففي قصص الراوندي خبر منسوب إلى الصادق عليه السلام: يهرب زكريا، وتضمه شجرة، ويدل إبليس طالبيه عليه، وينتهي الخبر بنشر الشجرة. ويذكر في بعض تفصيله أن القوم كانوا يعبدون تلك الشجرة فترددوا قبل الاعتداء. هذه تفاصيل الخبر، وليست ألفاظ القرآن. [٢٣، ح٢٨٤]

لكن إثبات وجود الخبر غير الحكم بصحة سنده. ينبه محقق النص المنشور إلى إشكال في اتصال إبراهيم بن هاشم بهشام بن سالم في هذا الطريق، ويقترح احتمال واسطة ساقطة. نثبت هذا التنبيه كما هو؛ فلا ندرج اسمًا مقترحًا داخل السند كأنه ثابت، ولا نصف الخبر بالصحيح دون بحث مستقل. كما لا يُنسب فعل القتلة إلى كل بني إسرائيل أو إلى جماعة دينية في كل زمان. [٢٣، هامش ح٢٨٤]

٢٩. خبر وهب في علل الشرائع

يورد الصدوق في باب علة قتل الكفار زكريا خبرًا ينتهي إلى وهب بن منبه، بواسطة عبد المنعم بن إدريس عن أبيه. يذكر تحريض إبليس بالقذف الباطل لمريم وزكريا، وهرب زكريا إلى الشجرة، ثم قتله، وخبر الملائكة في غسله والصلاة عليه. هذا الطريق لا ينتهي إلى إمام من أهل البيت؛ ولذلك تُكتب نسبته إلى وهب صراحة، ولا يُقال «قال الإمام» لمجرد أن الصدوق أورده. [٢٥]

والقذف المذكور في الخبر قذف باطل، لا معلومة نسب عن عيسى. كما أن عدم ألم المنشار أو صلاة الملائكة ثلاثة أيام وتفاصيل الدفن تبقى في هذا الطريق الروائي، ولا تستخرج منها أحكام عامة أو مكان قبر محدد. وتختلف صيغة «إثبات الوصية» بذكر قبض روحه قبل وصول المنشار؛ فلا تُحوّل الصيغ المختلفة إلى وصف واحد محسوم للحظة الوفاة. [١٩,٢٥]

٣٠. توقيت الوفاة وموضع القبر

تختلف الأخبار في المدى الزمني لحياة زكريا بعد ولادة يحيى. فخبر الكافي يجعله يموت ويحيى صغير، بينما تفترض أخبار وعظه بحضور ابنه بقاءه إلى مرحلة لاحقة، ويذكر خبر «كهيعص» فجيعته بيحيى. هذا اختلاف حقيقي لا يعالج بإسقاط إحدى الروايات من العرض، ولا بإعلان التوفيق بينها دون دليل. نثبت لكل خبر موضعه، ونمتنع عن بناء تقويم تفصيلي من هذه المواد المتعارضة. [٢٠,٢٢–٢٤]

ولا تقدم الآيات ولا الأخبار المعينة هنا تاريخ وفاة متفقًا عليه أو إحداثية قبر ثابتة. لذلك لا توصف نسبة مقام مشهور إليه بأنها حسم تاريخي في هذا الفصل. ويُذكر خبر القتل بوصفه واردًا في مصادر

متعددة متفاوتة الطرق، مع بقاء الحكم التفصيلي على الأسانيد ومكان الدفن خارج ما يثبته النص المتاح.

٣١. «كهيعص» بين أسماء الله والتأويل الروائي

تبدأ سورة مريم بالحروف المقطعة «كهيعص». وينقل نور الثقلين والصافي والبرهان عن معاني الأخبار روايات عن الصادق تفسرها بمعاني الكفاية والهداية والولاية والعلم وصدق الوعد. كما تُنقل في هذه الكتب تفسيرات قريبة عن القمي ودعاء منسوب إلى أمير المؤمنين. يدل تعدد المادة على أن عرض رواية واحدة لا يسوغ جعلها المعنى الوحيد المتفق عليه للحروف. [٢٨–٣٠]

أما الحديث الآتي فيربطها بكربلاء، وهو باب من التأويل الغيبي في روايته. يُعرض إلى جانب الأخبار الأخرى، مع الانتباه إلى أن اشتراكه في كتب متأخرة متعددة لا يعني بالضرورة تعدد أصوله؛ فقد ترجع هذه النقول إلى أصل واحد في كمال الدين. [٢٢,٢٨–٣٠]

٣٢. زكريا وأسماء الخمسة وخبر الحسين

في حديث سعد بن عبد الله القمي عن القائم عليه السلام، ضمن لقائه بالإمام العسكري، يسأل زكريا ربه أن يعلمه أسماء الخمسة، فيعلمه جبرئيل أسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين. ويربط الخبر حزنه عند ذكر الحسين بما سيقع في كربلاء، ويفسر الحروف بذكر كربلاء وهلاك العترة ويزيد والعطش والصبر، ثم يذكر دعاء زكريا بالولد وابتلاءه بفقده. هذه الشخصيات حاضرة في الخبر بطريق الإخبار عن المستقبل، لا على أنها اجتمعت في عصر واحد. [٢٢، باب ٤٣، ح٢١]

للخبر طريق طويل يحتاج إلى بحث رجالي مستقل، فلا يُوصف هنا بالصحة لمجرد شهرته. كما أن الأيام الثلاثة التي يذكرها لحزن زكريا ليست بنصها هي الأيام الثلاثة لآية الكلام؛ فلكل منهما سياق مختلف. وتبقى دلالة الفجيعة بالابن موضع مقارنة مع خبر الكافي في وفاة الأب ويحيى صغير، لا حقيقة زمنية تُفرض على جميع الروايات. [٢٠,٢٢,٢٨]

٣٣. أم يحيى مع فاطمة وخديجة ومريم وآسية

يروي تفسير فرات، عند آيات الشفاعة في الشعراء، خبرًا في فضل فاطمة يذكر نداء جبرئيل لفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وأم كلثوم أم يحيى بن زكريا. ويذكر في المشهد أيضًا محمدًا وعليًا والحسن والحسين. فلا يجوز إغفال أم يحيى من الحصر النسائي المتعلق بزكريا، وإن كان ورودها هنا في خبر عن الآخرة لا في تفصيل حياتها الدنيوية. [٢٧]

سند الخبر في النص المنشور يرد بصيغة العنعنة مع اختصار الطريق، فلا يكفي إدراجه للحكم باتصال جميع رجاله. كما لا يصح تعريف أم كلثوم هذه بأنها أخت موسى المسماة في أخبار أخرى، ولا بأنها

ابنة أمير المؤمنين، فالنص يحددها هنا بأمومة يحيى. وتُذكر هذه الصيغة مع حنانة وإيساع في باب اختلاف تسمية الزوجة، دون صناعة تعدد زوجات أو حسم اتحاد الألقاب. [٥,١٩,٢٧]

٣٤. دعاء زكريا في خبر أول المحرم

في حديث الريان بن شبيب عن الرضا عليه السلام في أمالي الصدوق، يذكر الإمام أن زكريا دعا ربه في أول يوم من المحرم، وأن الملائكة بشرته بيحيى وهو قائم يصلي. يقع الخبر في سياق تذكير بالمحرم ومصاب الحسين. وهو مصدر لربط الدعاء بهذا اليوم في الموروث الإمامي، وليس نصًا قرآنيًا على تاريخ الدعاء، ولا تعيينًا ليوم ولادة يحيى. [٣١]

ويؤكد هذا الحضور اللاحق أن دعاء زكريا صار جزءًا من الذاكرة التعبدية لأهل البيت. أما تفاصيل العمل الواردة في الخبر فتُفهم في سياقها الروائي؛ ولا تُحوّل هذه السيرة إلى وعد طبي بحدوث الحمل لكل من دعا، أو إلى حكم على إيمان من لم يرزق ولدًا.

٣٥. أشخاص حملوا الدعاء في الروايات اللاحقة

ينقل الكافي الدعاء بطلب الذرية في أبواب متخصصة، ومن ذلك خبر محمد بن مسلم عن الباقر، وخبر الحارث الذي شكا إلى الصادق عدم الولد، فذُكر له دعاء زكريا، ثم يذكر الخبر أنه رزق ابنين سماهما عليًا والحسين. الاسمان هنا لولدي صاحب الواقعة، لا للإمامين علي والحسين. وفي بعض هذه الطرق راو غير مسمى، كما تختلف نسبة بعض صيغ الدعاء بين الأبواب، فلا تُجمع الأسانيد المختلفة كأنها طريق واحد. [٣٢,٣٣,٣٥]

وينقل نور الثقلين عن أمالي الطوسي خبر علي بن محمد الصيمري الكاتب وزوجته، وهي ابنة جعفر بن محمد الكاتب غير المسماة، ومراجعته الإمام الهادي في طلب الولد، مع نقش الدعاء على خاتم فيروزج ثم ذكر مولود له. وينقل عن عوالي اللآلي توجيهًا من السجاد إلى بعض أصحابه بدعاء زكريا. تحفظ أسماء الأشخاص والأدوار كما وردت، مع بيان أن الوصول إلى هذين الخبرين هنا بواسطة نور الثقلين. [٣٢، ح١٥٣-١٥٤]

٣٦. نظير رزق مريم في بيت فاطمة

يروي تفسير العياشي، في خبر نقله البحار، قصة طعام في بيت فاطمة ترتبط بعلي والمقداد والنبي والحسن والحسين، ويستحضر فيها سؤال زكريا لمريم عن رزقها. وقد فُصّلت القصة في الفصل ٤٠؛ ووظيفة الإشارة إليها هنا بيان امتداد المثال القرآني في روايات فضائل أهل البيت. ويُثبت المقداد لأنه طرف في القصة المنقولة، لا لأنه شخصية من عصر زكريا، وتُحفظ منزلة فاطمة في المقارنة الروائية دون خلطها بمريم. [٣٤]

وتستعمل أخبار أخرى الحكم الذي أوتيه يحيى صغيرًا في بيان إمامة الجواد في صغره، ومنها خبر علي بن أسباط المنقول في الكافي ونور الثقلين. هذا باب استدلال بمثال نبوي، لا إضافة شخصيات جديدة إلى بيت زكريا. وبذلك يجتمع ذكر الأئمة في هذا الفصل على وظائف واضحة: ناقلون للخبر، أو مفسرون للآية، أو موضوع للمقارنة. [١٧، ح٣٢؛ ٢٠]

٣٧. شخصيات من أخبار يحيى والملوك تحتاج إلى فصل

في أخبار شهادة يحيى التي أوردها الراوندي والبحار يظهر ملك غير مسمى، وامرأة وابنتها، مع اختلاف في تصوير صلة القرابة، ويظهر في بعض الطرق شيخ أو امرأة كبيرة تفسر خبر الدم. وترد أسماء بختنصر في أخبار الانتقام. تُحفظ هذه الشخصيات في موضعها عند بحث يحيى، ولا يُسمى الملك هيرودس أو الفتاة سالومة داخل رواية إمامية لم تسمهما، ولا يُجزم بأنها لقيت زكريا. [٢٣، ح٢٨٥-٢٨٨؛ ٢٦، ح٢٠-٣٠]

ويذكر «إثبات الوصية» في سياق اليسابغ وروبيل دارا بن شهزادان، ودارا بن دارا، والإسكندر، ويذكر الخبر الآخر أردشير وسابور. لا يكفي اقتران هذه الأسماء في النص لإثبات توافق زمني مع عصر عيسى ويحيى، ولا تُسوّى هوية كل ملك وتواريخه بلا تحقيق مستقل. إدراج الأسماء يحفظ مادة المصدر، وإظهار الإشكال يمنع تحويلها إلى جدول تاريخي موهوم. [١٩,٢٢,٢٦]

٣٨. سجل النساء وصلاتهن بالفصل

تتصدر السجل زوجة زكريا وأم يحيى، غير المسماة في القرآن، وصيغ تسميتها الروائية: حنانة وإيساع أو إيشاع، وأم كلثوم في خبر فرات. وتأتي مريم بنت عمران، وامرأة عمران المسماة حنّة في أخبار، مع بقاء خبر آخر عن الكاظم، نقله نور الثقلين من الكافي، يسمي أم مريم «مرتا» ويذكر «وهيبة» بالعربية. هذه صيغ محفوظة في مصادرها، فلا تُحذف ولا تتحول إلى أمهات متعددات لمريم. [١٧،٥، ح٣٩؛ ٢٧،١٩]

وترد فاطمة الزهراء في الاحتجاج بالإرث، وفي خبر الرزق، وفي خبر أسماء الخمسة والمشهد الأخروي؛ وترد خديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم في المشهد الأخير. وتظهر زوجة الصيمري غير المسماة في خبر طلب الولد، والمرأة وابنتها والعجوز غير المسماة في بعض أخبار يحيى. ويُحفظ وصف خالة مريم حين لا يصرح الخبر باسمها. النساء المذكورات في سياق لاحق أو أخروي لسن جميعًا معاصرات لزكريا. [١٧,٢٢,٢٣,٢٧,٣٢,٣٤]

٣٩. سجل الرجال: الأسرة والعهد والمقارنات

في صميم القصة زكريا ويحيى وعيسى، ومع محيط الأسرة عمران. وفي النسب والتفسير: يعقوب بصيغتي تعيينه، وإسحاق وإبراهيم، وهارون وموسى، وداود وسليمان ويهوذا وماثان. ويأتي إلياس مع زكريا في

تعداد الصالحين في الأنعام، لا بوصف الآية دليلًا على لقائهما. وفي سلسلة «إثبات الوصية»: مبنه وهندو وأسفر أو أسفرا ورامين وإسحاق بن رامين وأيم، ثم اليسابغ وروبيل. وتبقى أردن وبرخيا وبشوى ويوحنا صيغًا متنافسة في النسب، وزمرتا اسمًا مرويًا لا شخصية إضافية. [٤,١١,١٣,١٨,١٩,٢٦]

وفي أخبار استمرار العهد دانيال وعزير وشمعون بن حمون ويعقوب بن شمعون، ومع الاختلاف الزمني دارا بن شهزادان ودارا بن دارا والإسكندر وأردشير وسابور وبختنصر. وفي المقارنات والتلقي اللاحق: آدم، ومحمد، وعلي، والحسن، والحسين، والمقداد؛ وأبو بكر في نقل احتجاج فاطمة؛ ويزيد في تأويل خبر كربلاء. لكل اسم صلته المحددة، فلا يحول التسجيل الجامع هؤلاء إلى جماعة واحدة أو طبقة زمنية واحدة. [١٧,١٩,٢٠,٢٢,٢٣,٢٦,٣٤]

٤٠. الملائكة والمجموعات والرواة

يذكر القرآن الملائكة في البشارة، وتسمّي أخبار جبرئيل في مواضع متعددة. ويظهر إبليس في أخبار القتل أو التثبت المختلف فيها؛ وهما من الشخصيات غير البشرية، فلا يدرجان في سجل الرجال بوصفهما بشرًا. وتبقى المجموعات غير المسماة ظاهرة بأدوارها: المتنافسون على كفالة مريم، والموالي، وقوم زكريا المأمورون بالتسبيح، وطالبوه في رواية القتل، والراعي والشبان في خبر الزهد، والأب والابن واليتيم في المثل المروي عن عيسى. [١,٢,١٧,٢٣–٢٧]

ومن أهل البيت الذين تنقل عنهم مادة الفصل أو تستشهد بهم: أمير المؤمنين، والسجاد، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والجواد، والهادي، والعسكري، والقائم، مع الحسن والحسين في المقارنات المذكورة. ومن حملة الأخبار أو أصحاب وقائع الدعاء: أبو بصير، وإسماعيل الجعفي، والكناسي، ومحمد بن مسلم، والحارث، وعلي بن أسباط، والريان بن شبيب، وسعد بن عبد الله، وأحمد بن إسحاق، وعلي بن محمد الصيمري. هؤلاء ليسوا صحابة لزكريا؛ وكتب الأسانيد تحفظ رجال الطرق على نحو أوسع من سجل الشخصيات القصصية. [٥,٨,١٧,٢٠,٢٢,٣١–٣٣]

٤١. من دعاء الأب إلى أمانة الابن

تكتمل صورة زكريا حين يُرى كفيلًا لمريم، وزوجًا يشترك مع امرأته في رجاء الرحمة، وأبًا ليحيى، وداعيًا لا يمنعه ضعف الجسد من حمل الأمانة. تأتي البشارة جوابًا لدعاء، لكنها تفتح عملًا جديدًا: أن يحمل الولد الكتاب بقوة، ويجمع العلم بالرحمة، ويبر بوالديه، ويصدق بعيسى ابن مريم. [١–٣,٢٠,٢١]

وبهذا ينتقل الكتاب إلى يحيى من غير إغلاق الأسئلة التي لم تحسمها المصادر. الثابت القرآني يُروى بثبوته، والخبر الإمامي يُعزى إلى طريقه، والاختلاف يُحفظ بدل أن يُطمس. لقد طلب زكريا خلفًا رضيًا؛ ويبدأ الفصل الآتي من صفات ذلك الخلف وموقفه في الناس، حتى موضع شهادته في الأخبار.

المصادر والإحالات

الإحالات إلى الآيات ثابتة بأرقام السور والآيات. وفي الكتب تختلف أرقام الصفحات باختلاف الطبعات؛ لذلك أضيف عنوان الباب أو رقم الحديث حيث أمكن التحقق منه. والروابط مرتبطة بكل فقرة مرجعية. «نقلًا عن» تعني أن النص قُرئ في المصدر الناقل المبين، لا أن الأصل المحال عليه خضع في هذا الفصل لتحقيق مستقل. ولا تمثل قائمة المراجع حكمًا إجماليًا بصحة جميع الأخبار التي تضمها.

[١] القرآن الكريم، آل عمران ٣٥–٤٤، وبخاصة ٣٧–٤١: الكفالة والرزق والدعاء والبشارة وآية الكلام.

[٢] القرآن الكريم، مريم ١–١٥؛ مع سياق مريم وعيسى في ١٦–٣٦.

[٣] القرآن الكريم، الأنبياء ٨٩–٩٠: دعاء زكريا وهبة يحيى وإصلاح الزوجة والخشوع.

[٤] القرآن الكريم، الأنعام ٨٣–٩٠، وبخاصة ٨٥: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

[٥] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢١٤–٢١٥، ح٢٧٨–٢٨٠: عمران وحنّة وحنانة وصلة مريم ويحيى.

[٦] تفسير القمي، ج١، ص٩١–٩٣، تفسير آل عمران ٣٥–٤١: الكفالة والرزق والدعاء؛ مع الفصل بين كلام التفسير والأخبار المسندة داخله.

[٧] تفسير العياشي، ج١، تفسير آل عمران ٣٥–٤٤: أخبار كفالة مريم وبشارة يحيى وصفاته.

[٨] الكليني، الكافي، ج٣، باب الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، ح٤؛ في ترقيم النسخة الرقمية: ٣/٢/١٨/٤، خبر إسماعيل الجعفي عن الباقر في مريم والكفالة.

[٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير آل عمران ٣٨–٣٩: الذرية الطيبة وبشارة الملائكة وصفات يحيى.

[١٠] مجمع البيان، تفسير آل عمران ٤٠: سؤال زكريا ومناقشة تفسيره بالشك وأقوال العمر.

[١١] مجمع البيان، تفسير مريم ١–٦: النداء والموالي والميراث وآل يعقوب.

[١٢] مجمع البيان، تفسير مريم ٧–١١: اسم يحيى والكبر ومدة الانتظار وآية الكلام والإشارة.

[١٣] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير مريم ٤–٦: معاني الموالي والميراث والاستدلال على إرث مال الأنبياء.

[١٤] مجمع البيان، تفسير الأنبياء ٨٧–٩٠، وبخاصة ٨٩–٩٠: إصلاح الزوجة ومرجع ضمير الجمع.

[١٥] السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير مريم ١–١٥، وبخاصة بيان ٤–٦ وصلته بآل عمران ٣٨.

[١٦] الكافي، ج٦، باب فضل الولد، خبر السكوني عن الصادق عن أمير المؤمنين في دعاء زكريا والوارث، ص٤ في الترقيم الشائع.

[١٧] الحويزي، نور الثقلين، ج٣، تفسير مريم، مجموعة الأخبار ٢٠-٤٣: القرابة والميراث واحتجاج فاطمة وحكم الصبي وأم مريم. ح٢٦ نقلًا عن الاحتجاج، وح٣٩ نقلًا عن الكافي.

[١٨] إثبات الوصية، المنسوب إلى المسعودي، ص٧٧: هندو وأسفر ورامين وإسحاق وأيم ووصيته إلى زكريا؛ مع اختلاف رسم الأسماء.

[١٩] إثبات الوصية، ص٧٨: نسب زكريا وزوجته، خبر موته، اليسابغ وروبيل، وأسماء الملوك في ذلك السياق.

[٢٠] الكافي، ج١، ص٣٨٢-٣٨٣، كتاب الحجة، باب حالات الأئمة في السن، ح١؛ الترقيم الرقمي ١/٤/٩١/١: حديث الكناسي عن الباقر.

[٢١] الكافي، الروضة، ج٨، ص١٣٦ ضمن حديث عيسى بن مريم: منزلة زكريا وكفالته لمريم.

[٢٢] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة: باب ٧ ح١٧، ص١٥٣-١٥٩؛ وخبر أبي رافع في تسلسل الأوصياء، ص٢٢٥-٢٢٦ في النسخة المعروضة؛ وباب ٤٣ ح٢١، ص٤٥٤-٤٦٥، وتأويل «كهيعص» في ص٤٦١-٤٦٢.

[٢٣] الراوندي، قصص الأنبياء، باب أخبار زكريا ويحيى، ص٢١٦-٢٢١، ح٢٨١-٢٩٣؛ وبخاصة ح٢٨٤ وهامش تحقيق سنده.

[٢٤] الصدوق، الأمالي، المجلس الثامن، ح٣، الترقيم المتسلسل ٤٨: خبر زهد يحيى وأبيه وأمه بطريق عبد الله بن عمر.

[٢٥] الصدوق، علل الشرائع، باب ٧١ في الطبعة المرتبطة: علة قتل الكفار زكريا، ح١، المتسلسل ١٣٠، ص١٥٠-١٥١؛ خبر وهب بن منبه.

[٢٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب ١٥، ص١٦٣-١٩١، ح١-٤٢: جامع أخبار زكريا ويحيى؛ مع التمييز بين نقول المؤلف وبيانه وهوامش محقق الطبعة.

[٢٧] فرات الكوفي، التفسير، عند الشعراء ١٠٠-١٠٢، خبر سهل بن أحمد الدينوري عن الصادق، وفيه سؤال جابر للباقر في فضل فاطمة وذكر أم كلثوم أم يحيى؛ ص٢٩٨-٢٩٩ في الترقيم المتداول.

[٢٨] نور الثقلين، تفسير مريم ١، ح٣-٧: كمال الدين ومعاني الأخبار والقمي في تفسير «كهيعص».

[٢٩] السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، تفسير مريم ١، الأحاديث ٦٨٣٢-٦٨٣٤ في النسخة الرقمية: وجوه تفسير الحروف ونقل خبر سعد.

[٣٠] الفيض الكاشاني، الصافي، تفسير مريم ١-٥: الحروف المقطعة والنداء الخفي ووهن العظم؛ والنقل عن الإكمال والمعاني والقمي.

[٣١] الصدوق، الأمالي، المجلس السابع والعشرون، ح٥، المتسلسل ٢٠٢: حديث الريان بن شبيب عن الرضا في أول المحرم ودعاء زكريا.

[٣٢] نور الثقلين، تفسير الأنبياء ٨٩-٩٠، ح١٥٣-١٦٣: الصيمري والهادي، ودعاء السجاد، والحارث، وإصلاح الزوجة؛ مع مصادر كل نقل داخل النص.

[٣٣] الكافي، ج٣، ص٤٨٢، باب صلاة من أراد أن يدخل بأهله ومن أراد أن يتزوج، ح٣؛ الترقيم الرقمي للباب ٣/٤/٩٩، خبر محمد بن مسلم عن الباقر.

[٣٤] بحار الأنوار، ج١٤، باب ١٦، ص١٩٧-١٩٨، ح٤، نقلًا عن تفسير العياشي: خبر طعام فاطمة والمقارنة برزق مريم وحضور المقداد.

[٣٥] الكافي، ج٦، باب الدعاء في طلب الولد، ص٧-٨: أخبار طلب الذرية؛ تقارن بنقول نور الثقلين عند الأنبياء ٨٩.

[٣٦] نور الثقلين، تفسير آل عمران ٣٨-٣٩، ح١٢٠-١٢٤: الصلاح والبشارة والصلاة ونقول يحيى وزكريا.

الفصل ٤٢ — يحيى عليه السلام — الحكم صبيًا والشهادة للحق

١. من بشارة زكريا إلى رسالة يحيى

يبدأ خبر يحيى عليه السلام قبل مولده، في دعاء أب بلغ الكبر وأم كانت عاقرًا، ثم يتجاوز فرح الأسرة إلى رسالة نبي. سماه الله قبل أن يولد، وبشّر بأنه يصدق بكلمة منه، وجمع له الحكم والحنان والزكاة والتقوى. وتروي أخبار أهل البيت شهادته، وتصل مظلوميته بمظلومية الحسين عليه السلام. لذلك تُقرأ حياته من البشارة إلى الموقف والتعليم والشهادة، مع حضور أبيه وأمه ومريم وعيسى، وسائر الأشخاص الذين تتصل بهم الأخبار. [١–٤]

٢. خريطة يحيى في القرآن

تأتي تسمية يحيى صراحة في آل عمران ٣٩، والأنعام ٨٥، ومريم ٧ و١٢، والأنبياء ٩٠. وتُقرأ معها آل عمران ٣٥–٤١ في أسرة مريم ودعاء زكريا، ومريم ٢–١٥ في البشارة والصفات، والأنبياء ٨٩–٩٠ في الدعاء والاستجابة والخشوع. ويجمعه قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بسائر الأنبياء المذكورين في الآية. ورود إلياس هنا صحبة في الثناء القرآني، ولا يثبت لقاءً شخصيًا بينه وبين يحيى. [١–٤]

لا يذكر القرآن تاريخ ميلاد يحيى، ولا سن وفاته، ولا اسم قاتله أو المرأة المرتبطة بقتله، ولا موضع قبره. كما أن آيات قتل الأنبياء لا تعطي وحدها تفاصيل حادثته. أما أخبار بكاء السماء، وكلام الرأس، وغليان الدم، فموضعها الرواية والتفسير المنقول، لا نص الآيات التي تسميه. ويمنع هذا الفصل بين الأدلة أن تُنسب إلى القرآن تفاصيل لم يذكرها.

٣. الأب والأم والبيت الذي انتظر مولده

أبوه زكريا عليه السلام، النبي الذي كفل مريم ودعا ربه ذرية طيبة. وأمه امرأة زكريا التي لم يسمّها القرآن، لكنه أدخلها في قصة الاستجابة: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾. فليست مجرد شخصية عابرة في نسب ابنها؛ يتعلق بها إمكان الحمل بعد العقر، وتقوم معها صورة الأسرة التي تسارع في الخيرات وتدعو الله رغبًا ورهبًا. والآية تثبت إصلاح حالها؛ أما تفاصيله فتُطلب من التفسير ولا تُحمّل العبارة جميع القصص اللاحقة. [١–٣]

في خبر الراوندي عن أبي بصير، عن الإمام الباقر، اسمها «حنانة»، وأختها «حنة» أم مريم. ويسميها «إثبات الوصية» «إيساع» في الموضع المتعلق بزكريا، وترد صيغ قريبة للاسم في النقل. أما «أم كلثوم أم يحيى بن زكريا» فتأتي في خبر تفسير فرات. تحفظ هذه الصيغ بوصفها اختلافًا في التسمية، ولا تُحوّل إلى زوجات متعددات لزكريا أو أمهات متعددات ليحيى. [٩، ١١، ١٢]

٤. مريم وحنة وعمران: درجات القرابة

على ترتيب رواية حنة وحنانة، تكون مريم ابنة خالة يحيى، ويكون عيسى ابن ابنة خالته. وفي نصوص أخرى، منها ما ينقله نور الثقلين عن القمي والعياشي، توصف امرأة زكريا بأنها أخت مريم، فيكون يحيى وعيسى ابني خالة مباشرة. وليس من الدقة رسم شجرة واحدة ثم نسبتها إلى جميع هذه الأخبار. الثابت قرآنيًا هو زكريا أبًا ليحيى، ومريم أمًا لعيسى، وكفالة زكريا لمريم؛ أما مقدار القرابة بين البيتين فتختلف فيه النصوص المنقولة. [١, ٩, ١١, ١٤]

عمران وامرأته وحنة ومريم يدخلون هنا من جهة أسرة مريم وصلتها بالبشارة. ويقع في بعض النقول عن القمي ذكر «ماثان» و«يعقوب بن ماثان» وبني ماثان وصلتهم بداود وسليمان؛ وهذه مادة نسبية تفسيرية لا يثبت بها أن يعقوب بن ماثان هو يعقوب بن إسحاق. وترد في حديث الإمام الكاظم مع رجل نصراني تسمية أم مريم «مرتا»، و«وهيبة» بالعربية، كما جمعه نور الثقلين. وقد فُصّل هذا الحوار في الفصل ٣٩. تُحفظ هذه الأسماء في موضع الاختلاف، ولا تُستعمل لمضاعفة عدد النساء بغير دليل. [١٤, ٢٤]

٥. البشارة والاسم الذي سبق الولادة

قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾. الاسم جزء من البشارة، فلا تقدمه السيرة بوصفه اختيارًا اجتهد فيه الأبوان بعد الولادة. وفسر عدد من المفسرين «سميًا» بمن سُمي باسمه قبله، ونقلوا أقوالًا أخرى في النظير والمثل. ويميز الفصل بين اللفظ القرآني وبين اشتقاقات الاسم التي تُذكر على جهة الشرح، كإحياء عقر الأم أو حياة القلب بالإيمان. [٢, ٥, ٢٤]

وفي آل عمران تأتي البشارة وزكريا قائم يصلي في المحراب، والمنادي في نص القرآن «الملائكة». وتعين بعض التفاسير جبرئيل، بينما يحمل غيرها اللفظ على جماعة من الملائكة. أما علامة الإمساك عن كلام الناس ثلاثة أيام أو ثلاث ليال، مع الذكر والتسبيح والإشارة إلى القوم، فقد بُسطت في فصل زكريا. وهي هنا إطار استقبال يحيى، ولا تدل على أن أباه فقد الإيمان أو أن الرسالة كانت موضع عبث من الشيطان؛ وقد رد الطبرسي هذا التفسير الأخير. [١, ٢, ٥, ٢٤]

ويروي الريان بن شبيب عن الإمام الرضا أن أول المحرم يوم دعاء زكريا واستجابة البشارة بيحيى، ويصل الخبر ذلك بالصوم والدعاء. هذه نسبة زمنية في رواية العيون التي نقلها البحار، لا تاريخ في لفظ القرآن، ولا تحدد يوم ولادة يحيى. والريان هنا صاحب السؤال والرواية عن الرضا، لا أحد أفراد أسرة النبي. [٢٤]

٦. الولادة والرضاعة: الرواية وحدود التاريخ

لم يعين القرآن مدة حمل أم يحيى أو مكان الولادة. وترد الأشهر الستة في حديث سعد بن عبد الله في «كمال الدين» ضمن المقارنة بين يحيى والحسين، بينما تذكر أخبار أخرى عيسى والحسين في خصوص

الحمل بستة أشهر. لذلك لا تُستعمل عبارة الحصر في طريق لإلغاء الطريق الآخر، ولا يتحول اختلاف الروايات إلى تقرير طبي أو تاريخ مؤرخ. وكذلك ما نقل في أعمار زكريا وزوجته أو الفاصل بين البشارة والولادة يُذكر منسوبًا، ولا يُجعل تاريخًا قرآنيًا. [٢, ١٤, ٢٩]

ويروي الراوندي عن الإمام الباقر أن يحيى رُفع بعد ولادته، وغُذّي من الجنة حتى فُطم، ثم رُد إلى أبيه، وكان يضيء البيت بنوره. وفي لفظ الغذاء اختلاف أثبته محقق النص بين «أنهار» و«أثمار». هذه رواية كرامة، وليست وصفًا قرآنيًا لنظام رضاعته، ولا تسمي مرضعة بشرية. ويذكر «إثبات الوصية» معنى قريبًا؛ فتكرار الصورة في كتابين لا يغني عن فحص طريق كل نقل. [١٠, ٢١]

٧. النص الجامع لصفاته

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. هذه الآيات من سورة مريم ١٢–١٥ هي ميزان الصورة التي يرسمها الفصل ليحيى. فلا يُختزل في الشدة والبكاء، وتُنسى الرحمة والطهارة وبر الوالدين ونفي التجبر. [٢]

تجمع الآيات بين العطاء والتكليف: الحكم والحنان والزكاة عطايا، وأخذ الكتاب بقوة مسؤولية، والتقوى والبر خلق مستقر يظهر في العمل. ولا تقدم النبوة رخصة للتعالي على الناس. ومن هذه الوحدة الأخلاقية تُقرأ المواعظ وأخبار الزهد اللاحقة؛ فما أوهم إساءة إلى الوالدين أو ضياع فريضة لا يتقدم على الثناء القرآني الواضح، بل يحتاج إلى النظر في سنده ولفظه ودلالته.

٨. «خذ الكتاب بقوة»: علم وعمل

فسر الطبرسي الكتاب هنا بالتوراة، وأخذها بقوة بالجد وصحة العزم والعمل بما فيها. فالقوة ليست عنفًا على الخلق، ولا مجرد حفظ ألفاظ الكتاب دون فهمه أو امتثال هديه. ولم يسم القرآن ليحيى كتابًا مستقلًا جديدًا أو شريعة ناسخة. وتثبت رواية الإمام الباقر أنه ورث عن زكريا الكتاب والحكمة؛ وهي وراثة أمانة في هذا الخبر، لا دليل على أن يحيى ألّف كتابًا من عند نفسه. [٦, ١٣]

ويشرح الميزان أخذ الكتاب بالعناية بمعارفه وأحكامه علمًا وعملًا، ويميز الحكم عن النبوة من جهة استعمال القرآن، ويربطه بمعرفة الحقائق الإلهية. وهذا رأي تفسيري للطباطبائي، يُذكر إلى جانب تفسير الحكم بالنبوة أو الفهم في المصادر الأخرى، ولا يُنسب إلى الإمام بغير نص. [٨]

٩. الحكم في الصغر ودلالته في أخبار الأئمة

يثبت القرآن الحكم ليحيى وهو صبي، ولا يحدد في الآية عدد سنواته. أما الثلاث أو غيرها فترد في التفسير، ولا تساوي نصًا قرآنيًا في السن. وفي «الكافي» يروي علي بن أسباط أنه تأمل هيئة الإمام محمد الجواد ليصف قامته لأصحابه بمصر، فاحتج الإمام بأن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج في النبوة،

وذكر إيتاء يحيى الحكم صبيًا. فالمقصود في هذا الاستدلال أن الاختيار الإلهي والعلم الموهوب لا يقيّدان بما يألفه الناس من سن التعليم المعتاد. [٢, ٦, ١٣]

وفي الباب نفسه يرد سؤال صفوان بن يحيى للإمام الرضا عن الجواد وهو ابن ثلاث، فيستشهد الرضا بعيسى؛ فلا يصح نقل عدد الثلاث من هذا الحديث إلى عمر يحيى. كما ترد أحاديث داود وسليمان وإمامة الصغير في السياق نفسه. هؤلاء شواهد في باب الحجة، لا معاصرون ثبت أنهم جلسوا مع يحيى. والتفريق بين الشخصية التي تدور عليها السيرة، والشاهد الذي يستدعيه الإمام، يحفظ موضع كل اسم. [١٣]

١٠. الصبيان والجد المبكر

ينقل مجمع البيان عن معمر خبر الصبيان الذين دعوا يحيى إلى اللعب، فكان جوابه أنهم لم يُخلقوا للعب، ويذكر روايته عن الإمام الرضا أيضًا. الصبيان غير مسمين، ولا يثبت الخبر عددهم أو أنهم تلامذته الدائمون. وهو يصور وعي يحيى بمسؤوليته المبكرة، ولا يصح تحويله إلى تحريم قرآني للعب الأطفال أو إلى إلزام كل طفل بطريقة خاصة في الزهد. [٦]

ويقابل ذلك ما جمعه نور الثقلين عن مناقب ابن شهرآشوب في كلام الحسن عليه السلام وهو صغير لأبي سفيان، وفيه حضور علي وفاطمة وذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله، وتشبيه بالحكم الذي أوتيه يحيى. نسجل هذه الشخصيات لأن الخبر يستشهد بيحيى صراحة، مع إبقاء الحادثة في باب مناقب الحسن، لا ضمن أحداث عصر يحيى ولا بوصفها تفسيرًا وحيدًا للآية. [٣٣]

١١. الحنان والزكاة والتقوى

الحنان في لغة التفسير عطف ورحمة، وقد حمله المفسرون على رحمة من الله بيحيى أو رقة ورحمة آتاهما الله إياه. ويروي أبو حمزة عن الإمام الباقر، كما نقل نور الثقلين عن الكافي، أن من تحنن الله عليه أنه إذا قال: «يا رب» أجابه: «لبيك يا يحيى». ويجمع المصدر نفسه خبرًا عن أبي بصير عن الإمام الصادق من «المحاسن» في المعنى. هذه ألفاظ رواية في قرب العبد من ربه، ولا تُشرح بتجسيم الله أو بمماثلة ندائه لنداء المخلوق. [٦, ١٤]

أما الزكاة فتدور في أقوال التفسير حول الطهارة والصلاح والنماء، ولا يلزم حملها هنا على مقدار مالي معين. والتقوى تصف حراسة الإنسان لأمر الله وحدوده. وبذلك يصبح الحنان قرينًا للتقوى، فلا تكون الرحمة تهاونًا بالحق، ولا تكون التقوى قسوة على المحتاج والمخطئ. وهذه قراءة تربوية للصفات المجتمعة في الآية، وليست حوارًا جديدًا يُنسب إلى يحيى. [٢, ٦]

١٢. البر بالوالدين ونفي التجبر

خص القرآن والدي يحيى بالذكر: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾. فيدخل الأب والأم معًا في هذا الثناء، ولا يصح أن تستأثر سيرة زكريا بكل الضوء فتغيب الأم التي حملت وربّت. ثم نفى القرآن عنه أن يكون «جبارًا عصيًا». ويفسر مجمع البيان الجبار بمن لا يرى لأحد عليه حقًا؛ فيحيى صاحب علم ومقام، لكنه لا يلغي حقوق الناس ولا يتعالى على أبويه. [٢, ٦]

ومن ثم تُقرأ أخبار شدة بكائه وقلق أبويه عليه في ضوء أصل البر. ويُذكر ما صدر من الأم من رعاية أو بحث عنه، وما صدر من الأب من تعليم ومواساة، بوصفهما دورين حقيقيين في الأخبار. أما تفاصيل توهم اتهام الأبوين بإهلاكه، فموضعها النقد الآتي، ولا تُجعل العبارة التي يعلّمها هذا الفصل للأبناء في مخاطبة آبائهم. [١٠, ١٥, ٢٤]

١٣. «سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين»

تجمع بشارة آل عمران بين تصديقه بكلمة من الله وبين السيادة والحصر والنبوة والصلاح. والسيادة في أقوال مجمع البيان علم وحلم وتقوى وحسن خلق ورئاسة في الخير، لا وصف لقوة ملكية أو ثروة. ويفسر الحصور بحبس النفس عن الشهوات، وينقل عدم إتيان النساء عن الإمام الباقر، ويرفض تفسيره بالعجز الجسدي لما في سياق الآية من المدح. فموضع الثناء ضبط النفس، ولا يُبنى من اللفظ انتقاص من تمام خِلقة النبي. [١, ٥]

ولا يقرر هذا الوصف أن الزواج في نفسه دون التقوى، ولا يُستخرج منه تشريع عام بالرهبانية. ولم نجد في المادة المحددة لهذا الفصل اسم زوجة ليحيى أو ابن أو ابنة له يمكن إثباته هنا. فيثبت هذا القدر من عدم التعيين، ولا تُنشأ له ذرية لاستكمال شجرة، ولا يُخلط أولاد شمعون الذين تذكرهم أخبار الوصية بأولاد يحيى. [٥, ٢١, ٢٣]

١٤. الأم الراعية والأب المعلّم في خبر الزهد

في أمالي الصدوق، المجلس الثامن، خبر طويل عن زهد يحيى، ينتهي سنده في النص إلى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله. يبدأ برؤيته أحبارًا ورهبانًا ببيت المقدس، ثم طلبه من أمه ثوب شعر وبرنس صوف. لا تتصرف الأم في الرواية منقطعة عن أبيه، بل تنتظر زكريا وتشاوره، فيتحاور الأب مع ابنه في صغر سنه وحضور الموت في وعيه. وهنا تظهر الأم صانعة لثوبه، والأب مخاطبًا له، والأحبار والرهبان جماعة محيطة بعبادته، دون أسماء شخصية لهم. [١٥]

ثم يصور الخبر شدة بكائه وقلق أمه عليه، واتخاذها قطعتي لبد لخديه، ودعاء زكريا له بالرحمة. وفي بعض مواعظ الأب يرد جبرئيل مصدرًا للخبر المنقول عن الآخرة. ويذكر النص «السكران» و«الغضبان» اسمين لجبل وواد في ذلك الوصف، فلا يُدرجان بين أسماء الرجال. إن إحصاء

الشخصيات يحتاج إلى هذا التمييز بين الإنسان والملك واسم المكان، وإلى عدم إعطاء الأحبار أو الرهبان أسماء لم يحفظها الخبر. [١٥]

١٥. الفتية والراعي والعودة إلى البيت

حين يغيب يحيى بعد سماع الموعظة، يطلب زكريا من أمه البحث عنه. تقابل فتية من بني إسرائيل فيخرجون معها، ثم يدلها راع غير مسمى على موضعه. فتضمه الأم وتناشده العودة، ويعود معها. هؤلاء أشخاص فاعلون في الخبر: الأم التي تبحث، والفتية الذين يعينونها، والراعي الذي يدلها، ولا يصح أن تسقطهم السيرة لأن أسماءهم غير مذكورة. [١٥]

لكن خاتمة الخبر تتضمن نومًا عن الصلاة بعد الطعام، وعبارة يخاطب بها أبويه بما يوهم أنهما يوردانه المهالك. وقد نبهت حاشية الطبعة المنقول منها في البحار إلى غرابة هذا الموضع وإلى طريق الخبر. لذلك لا يُساق بكل تفاصيله بوصفه سيرة مقطوعًا بها، ولا تُستنبط منه فضيلة إيذاء البدن أو هجر رعاية الأم. لا يغير وجود الخبر في أمالي الصدوق طريقه إلى حديث مسند عن أحد الأئمة، ولا يزيل ما في بعض ألفاظه من إشكال. [١٥, ٢٤]

١٦. الخشية والرجاء: يحيى وعيسى

ترد في قصص الراوندي رواية مرفوعة عن بكاء يحيى، ومراجعة زكريا له، وذكر جبرئيل في خبر النجاة من النار. وترد في البحار نقول أخرى عن الزهد، منها المنقول عن كتاب زهد الصادق، ومنها كلام في إرشاد القلوب. نُثبت هذا الاتجاه في الموروث بحدوده، ولا نجعل كل صيغة شاهدًا مستقلًا مساويًا للقرآن، ولا نجزم ببرنامج يومي لطعام يحيى ولباسه من أخبار متفاوتة الطريق. [١٠, ٢٤]

وفي الكافي، باب الدعابة والضحك، ينقل عن أبي الحسن الأول، الإمام موسى الكاظم، أن يحيى كان يبكي ولا يضحك، وأن عيسى كان يضحك ويبكي، وأن فعل عيسى أفضل. في الطريق راو غير مسمى بلفظ «عمن ذكره». والمعنى التربوي الذي يستفاد منه أن البكاء ليس المعيار الوحيد للكمال، وأن الرجاء والسرور المشروع لا يناقضان الخشية. ولا يبيح الخبر انتقاص يحيى الذي شهد القرآن بتقواه. ويورد البحار نقلًا قريبًا عن الرضا من قصص الراوندي؛ تبقى نسبة كل طريق مستقلة. [١٩, ٢٤]

١٧. إبليس في رواية المحاسن

يروي البرقي في المحاسن، من طريق حفص بن غياث عن الإمام الصادق، ظهور إبليس ليحيى ومعه معاليق يصفها بأنها الشهوات التي يصيب بها بني آدم. يسأله يحيى عن نصيبه منها، فيذكر له أن الشبع قد يثقله عن الصلاة والذكر، فيعزم يحيى على ألا يملأ بطنه. ويختم الإمام الرواية بخطاب حفص في ترك الامتلاء والتعلق بالدنيا. فالشخصيتان في المشهد يحيى وإبليس، وحفص ناقل يتلقى الموعظة من الإمام بعد ذلك، لا شاهد من أهل زمن يحيى. [١٦]

لا تقول هذه الرواية إن يحيى أطاع إبليس في معصية، ولا إن الشيطان صار مرجعًا لتشريع النبي. موضوعها التنبه إلى مدخل الغفلة. ويُحمل أثرها الأخلاقي على الاعتدال وحضور القلب، دون تحويلها إلى مقادير غذائية ملزمة أو جعل الجوع المؤذي شرطًا للعبادة. ويتصل بها خبر أطول في أمالي الطوسي، ينبغي تمييزه عنها بدل دمج جميع تفاصيله في لفظ المحاسن. [١٦, ٤١]

١٨. الحوار المطول في أمالي الطوسي

يسند الطوسي الخبر ٦٩٢ في المجلس الثاني عشر إلى الإمام الرضا عن آبائه. وفيه يخاطب يحيى إبليس بكنية «أبي مرة»، ويسأله عن مصائده، فيصف النص هيئة رمزية مخيفة وخيوط ألوان وجرسًا وغطاء رأس وحديدة. ويجعل الحوار هذه الأشياء صورًا للإغواء بالشهوة واللهو وصرف القلب عن الاستقامة. وأبو مرة هنا إبليس نفسه، لا رجل جديد ينبغي إضافته إلى قائمة الأشخاص. [٤١]

وفي الحوار كلام على استعمال الزينة والنساء في الإغواء، وهو كلام موضوع في فم إبليس داخل الخبر، فلا يُقتطع ليصبح حكمًا بأن كل امرأة شر أو مصيدة. هذا الفصل نفسه يثبت صلاح أم يحيى ومريم وحنة ونساء أهل البيت، ويحمّل الرجل والمرأة مسؤولية الاختيار كلًا عن عمله. وتنتهي الرواية بعزم يحيى على تجنب الامتلاء، وبانصراف إبليس. أما تفاصيل الهيئة والأدوات فلا ينص عليها القرآن، ولا تثبت صحتها بمجرد شهرة القصة. [٤١]

١٩. يحيى والرجل التائب

ينقل الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» عن الإمام الصادق، بصيغة «قال» في هذا الموضع، خبر رجل أقر لعيسى بذنب وطلب التطهير. يجتمع الناس، ثم يطالب الرجل ألا يتولى عقوبته من عليه مثل تبعة الحد، فينصرفون ويبقى عيسى ويحيى. يدنو يحيى ويطلب منه الموعظة. لا يذكر النص اسم الرجل أو المرأة التي اتصل بها ذنبه، ولا أسماء الجمهور، فلا تُستعار له أسماء من قصص أخرى. [١٧]

تأتي موعظته في ثلاثة معان: ألا يترك المرء نفسه لهواها فتهلكه، وألا يعيّر المخطئ بخطيئته، وألا يغضب. ويقبل يحيى الكفاية من هذه الكلمات. تكشف الرواية تواضعًا في تلقي التذكير، ولا تجعل العاصي أعلى مقامًا من النبي، ولا تجعل طلب الموعظة إقرارًا من يحيى بارتكاب ذلك الذنب. كما أن نقل حادثة العقوبة في شريعة سابقة لا يغني عن أبواب القضاء والحدود في الشريعة الإسلامية. [١٧]

٢٠. موعظة عيسى ليحيى في كلام الناس

في أمالي الصدوق، المجلس السابع والسبعين، ينقل عن الإمام الصادق عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قولًا لعيسى يخاطب به يحيى: إن قيل في الإنسان ما فيه، فليستغفر، وإن قيل فيه ما ليس فيه، فله حسنة لم يتعب فيها. صيغة الشرط تعليم في استقبال النقد والبهتان، ولا تسجل على يحيى خطيئة

معينة، ولا تعني التسليم بصدق كل اتهام. وموضع القوة فيها ألا يجعل الإنسان كلام الناس سببًا لانفلاته عن الحق. [١٨]

يسبق ذلك في الحديث نفسه خبر صاحب قبر رفع عنه العذاب بسبب ولد صالح أصلح طريقًا وآوى يتيمًا. فصاحب القبر وابنه واليتيم شخصيات غير مسماة في مثال يرويه النبي، ولا ينص الخبر على أن يحيى التقاهم. نحفظهم في حدود المثال، ولا نخلط هذا الأب وابنه بزكريا ويحيى، ولا نجعل صاحب القبر هو يحيى الذي ترد قصة قبره في خبر آخر مستقل. [١٨, ٢٠]

٢١. الأمثال الخمسة المنسوبة إلى يحيى

يحفظ «إثبات الوصية» خمسة أمثال يجعلها من تعليم يحيى لقومه. يشبه الشرك بعبد يجعل ثمرة سعيه لغير مالكه؛ والصلاة بالوصول إلى باب سلطان مهيب ثم الإذن بعرض الحاجة؛ والصدقة بفداء يفك قيد صاحبه؛ والصوم بالسلاح الذي يتقي به صاحبه؛ والاعتصام بالكتاب بحصن يحذر أهله عدوهم. يجمع هذا النص العبادة إلى التحرر من أسر الهوى، ولا يحصر وظيفة يحيى في العزلة والبكاء. [٢١]

يستعمل النص المطبوع لفظ «القرآن» في المثل الخامس؛ أُثبتت هذه الملاحظة حتى لا تتحول إعادة الصياغة إلى دعوى أن المصحف المنزل على محمد صلى الله عليه وآله كان بين يدي قوم يحيى بتفاصيله. وموضع الخبر في الكتاب متصل بتسلسل وصاية يجعل شمعون قبل يحيى، وهو تسلسل مختلف عن خبر الكافي الآتي. كما أن العبد والمالك والسلطان والأسير وأهل الحصن أشخاص تمثيليون في الأمثال، لا أسماء تاريخية جديدة في سيرة النبي. [٢١]

٢٢. التصديق بعيسى: الكلمة من الله

قال تعالى في البشارة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. فسر جمهور من نقل عنهم مجمع البيان الكلمة بعيسى، مع ذكر قول آخر في كتاب من الله. وتتعاضد قراءة عيسى مع بشارة مريم بالكلمة في آل عمران ٤٥. فصلة يحيى بعيسى جزء من تعريف رسالته، وليست مجرد مجاورة أسرية. [١, ٥]

ترد في أخبار التفسير صورة تصديق يحيى لعيسى وهما في بطني أميهما، وتحرك يحيى عند حضور مريم، وفي بعض الألفاظ السجود. تُروى هذه الصورة منسوبة، ولا تُجعل تفاصيلها منطوق الآية. وحتى في قراءتها على أنها كرامة لا يكون السجود عبادة لعيسى؛ أصل دعوة النبيين عبادة الله. أما تحديد فرق العمر بستة أشهر فهو من المنقول التفسيري، ولا تكفيه الآية وحدها. [٥, ١٤, ٢٤]

وتحفظ رواية ابن أبي يعفور عن الإمام الصادق في الكافي أسماء أولي العزم الخمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله. فيحيى نبي مكرم، وعيسى داخل في هذه الخمسة في الرواية، وهي فروق مقام ورسالة لا تنافس بين أهل الهداية. ولا يجعل وصف يحيى بالسيد مساويًا لكل مقام خص به غيره من الأنبياء. [٤٢]

٢٣. وراثة الكتاب ومقام الحجة في رواية الكافي

في حديث يزيد الكناسي عن الإمام الباقر، في باب حالات الأئمة في السن، يَرِد أن عيسى كان حجة على من سمع كلامه في المهد، ثم صمت، وأن زكريا كان الحجة، ثم مات فورثه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي. ويذكر الحديث أن عيسى لما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة فكان الحجة على يحيى وعلى الناس. هذه مراحل داخل خبر بعينه؛ لا تُختصر إلى أن يحيى كان بلا مقام حتى كبر عيسى، ولا إلى تنافس بين النبيين. [١٣]

ويمتد احتجاج الإمام إلى أن الأرض لا تخلو من حجة منذ آدم، ثم يسأل الراوي عن علي في حياة رسول الله وبعد وفاته، فيبين الإمام موقع طاعة الرسول وموقع ولاية علي. يدخل آدم ومحمد وعلي هنا في بناء الاستدلال، ويثبت حضور الإمام الباقر والكناسي في مجلس نقل الخبر. ولا يجعل هذا الاستدلال جميع تفاصيل أعمار الأنبياء المذكورة في طرق أخرى متوافقة تلقائيًا. [١٣]

٢٤. الظهور لقومه والحواريون

في «كمال الدين»، ضمن خبر طويل عن الإمام الصادق عن آبائه، يرد أن يحيى ظهر وله سبع سنين، وخطب في الناس مذكرًا بأيام الله، ووعدهم الفرج بقيام المسيح بعد نيف وعشرين سنة. يسبق ذلك في تسلسل الخبر ذكر دانيال والعزير. لا نجعل «قيام المسيح» مساويًا لمولده بغير نص، ولا نلحق هذا التوقيت آليًا بتوقيت الكافي؛ فكل خبر يحفظ عبارته وترتيبه. [٢٢]

وفي خبر آخر في قصص الراوندي يبعث عيسى يحيى في اثني عشر من الحواريين لتعليم الناس، ويرتبط تعليمهم بالنهي عن نكاح بنت الأخت. هؤلاء الاثنا عشر جماعة مذكورة في النص، ولم يسمهم هذا الموضع واحدًا واحدًا. لا يجوز ملء الفراغ بقائمة مأخوذة من مصدر آخر ثم نسبتها إلى هذه الرواية، ولا جعل كل شخص اسمه شمعون في أخبار الوصية عضوًا معينًا في هذا الوفد بلا دليل. [١٠]

٢٥. الشهادة: القدر المشترك واختلاف الطرق

تتفق مجموعة من الأخبار التي راجعناها على قتل يحيى ظلمًا، ويتكرر فيها رأسه المنقول إلى مجلس سلطان أو إلى امرأة، والاعتداء على صوت يأمر بالحق. لكن القرآن لا يروي كيفية ذلك، والأخبار لا تتفق على سبب واحد مفصل أو على صلة واحدة بين الملك والمرأة. لذلك نعرض الطرق الآتية مستقلة، مع بقاء دلالة الشهادة في مقاومة الباطل وعدم شراء رضا السلطان بتغيير حكم الله. [١٠، ٢١، ٢٤–٢٨]

ولا يُحمّل قوم بأكملهم، فضلًا عن أحفادهم بعد قرون، مسؤولية قرار الملك أو المحرض أو المباشر للقتل. فالسيرة تذكر زكريا ومريم ويحيى وعيسى والصالحين من بني إسرائيل في البيئة نفسها التي تذكر فيها الظلم. والفارق الذي يعتني به القرآن فارق الإيمان والعمل، لا إدانة نسب أو جماعة بشرية على الإطلاق. [١–٤، ٣٦]

٢٦. طريق المرأة وابنتها في قصص الراوندي

في الحديث ٢٨٥ من قصص الأنبياء، عن الإمام الصادق، ملك غير مسمى كانت له علاقة بامرأة، فلما كبرت أرادت أن تجعل ابنتها مكانها. هي التي توجه ابنتها إلى طلب قتل يحيى إذا عرض عليها الملك قضاء حاجة، ثم يلح الطلب حتى يأمر بإحضار يحيى، فيؤتى به ويُذبح في طست من ذهب بحسب هذا الطريق. المرأة الأم غير الفتاة، والفتاة غير المنفذ للقتل؛ فلا تختفي مسؤولية الملك خلف حضور النساء في القصة. [١٠]

ويمتد الخبر إلى غليان الدم ومحاولة تغطيته بالتراب، ثم مجيء بخت نصر بعد زمن طويل. وفيه شيخ يجيب عن سبب الدم بما سمعه عن أبيه عن جده. لا يسمي النص الشيخ ولا أباه ولا جده، ولا يثبت أنهم حضروا القتل بأعيانهم. هؤلاء ناقلو ذاكرة في داخل القصة، أما سند الرواية عن الإمام فطبقة أخرى مستقلة. [١٠]

٢٧. طريق الربيبة وطريق بنت الأخت

يعقب الراوندي الخبر بلفظ «وفي خبر آخر» رواية تجعل المرأة زوجة ملك سابق، ثم زوجة الملك اللاحق، وتجعل ابنتها من الأول ربيبة للثاني. يسأل الملك يحيى عن الزواج بها فيمنعه، فتتدبر الأم إيصال ابنتها إليه في حال السكر لتطلب قتل النبي. هذه صلة ربيبة بزوج أمها، وليست صلة بنت أخته به. تُحفظ منفصلة ولا تُحذف كلمة «ربيبة» ليُسوّى الاختلاف. [١٠]

أما الحديث ٢٨٨ فيجعل الفتاة بنت أخت الملك، ويذكر إعجابه بها ورغبته في زواجها، وطلبها ذبح يحيى. ويقول إن قطرة من الدم وقعت على الأرض فظلت تعلو، ثم دلت عجوز من بني إسرائيل بخت نصر عليها. لا يُصرح هذا الموضع باسم الفتاة أو العجوز، ولا يعطينا حق الجزم بأن العجوز أم الفتاة أو هي الفتاة بعد الكبر. كذلك لا ننقل تدبير الأم من الطريق السابق إلى هذا الطريق وكأنه مذكور في لفظه. [١٠]

٢٨. المرأة المحرضة والرأس المتكلم في نقل القمي

ينقل البحار عن تفسير القمي، من طريق هارون بن خارجة عن الإمام الصادق، خبرًا أطول في أرميا وبخت نصر، وفي أثنائه أن ملكًا جبارًا كان يفجر بالنساء، وأن يحيى ينهاه. تطلب امرأة ممن كان يأتيهن قتله في حال سكره، فيؤتى برأس يحيى في طست. ويذكر النص أن الرأس يخاطب الملك بالإنكار نفسه: اتق الله، لا يحل لك هذا. هنا امرأة محرضة غير مسماة، ولا ينص المقطع على أم وابنة أو زواج من ابنة أخت. [٢٥]

وفي هذا الطريق يفصل النص مائة سنة بين قتل يحيى وخروج بخت نصر، وينتهي غليان الدم بعد قتل عجوز كانت آخر من بقي في موضعها. هذه العجوز ضحية في هذه الصيغة، بينما عجوز الحديث ٢٨٨ عند

الراوندي دالة على الدم. اختلاف الدور مؤثر، فلا تُدمج المرأتان بغير دليل. كما أن كلام الرأس كرامة مروية في هذا الطريق، وليس لفظًا قرآنيًا أو تفصيلًا لازمًا في كل روايات القتل. [١٠, ٢٥]

٢٩. المرأة ورجل اللهو في إثبات الوصية

في «إثبات الوصية» صيغة أخرى: امرأة تأتي الملك وتمتنع من الرجوع إليه حتى يقتل يحيى، فيرسل إليه ويؤتى بالرأس. ثم يطلب رجل موصوف في النص بأنه «رقاص مله» أخذ الرأس لأنه كان يتأذى من إنكار يحيى عليه، فيحمله إلى منزله، ويبدأ خبر الدم. هذا الرجل شخصية جديدة في هذه الصيغة تحديدًا؛ لا يصح أن يُسقط لأنه لم يرد في الطريق الأشهر، ولا أن يُنقل إلى جميع الروايات. [٢١]

يسمي هذا السياق أردشير بن بابكان، ثم سابور بن أردشير، ويذكر عمر يحيى ثلاثًا وثلاثين سنة بلفظ الرواية. كما يورد ابن مرجانة في المقارنة اللاحقة بقتلة الحسين، لا بوصفه من قتلة يحيى أو معاصريه. هذه الأسماء والأرقام محفوظة في نص الكتاب، لكن ترتيبها التاريخي يحتاج إلى نقد، فلا نعتمد منها سنة ميلاد أو وفاة قطعية ليحيى. [٢١]

٣٠. بخت نصر وأرميا: خبر الدم ومشكلة الترتيب

تروي بعض الطرق أن بخت نصر قتل سبعين ألفًا حتى سكن الدم؛ ويذكر أحدها سنة واحدة، ويذكر غيره فاصلًا طويلًا أو نقلًا عبر الأجيال. ويقدم نقل القمي أرميا نبيًا ينذر قومه، ثم يلتقي بخت نصر قبل سلطانه ويطلب منه أمانًا. وفيه أم لبخت نصر، وأحبار يراجعون أرميا، وجنود، وأهل أرميا الذين يسأل عن أمانهم. كلهم داخل إطار تلك الرواية، ولا تحولهم كثرة التفصيل إلى حقائق ثبت تاريخها استقلالًا. [١٠, ٢٥]

ويذكر «إثبات الوصية» بخت نصر متأخرًا منسوبًا إلى «ملتنصر» وإلى «بخت نصر الأكبر»، بينما تعرض نقول أخرى الاسم دون هذا التفصيل. كما ينقل البحار اعتراضًا تاريخيًا عن ابن الأثير على وضع بخت نصر المعروف بعد يحيى. فلا نكتفي بعبارة «انتقم بخت نصر» ثم نخفي المشكلة؛ ولا نجزم بأن جميع الأسماء تشير إلى ملك واحد أو بأن فرض تعددهم قد ثبت. [٢١, ٣٤]

وأرقام القتلى ومشاهد قتل النساء والأطفال في بعض الصيغ تُنقل مع نسبتها بوصفها من خبر كارثة وبطش، ولا تُصاغ فضيلة أخلاقية لقتل الأبرياء أو قاعدة للاقتصاص من أجيال لاحقة. ولا يسمي القرآن بخت نصر أو يحيى في آيات الإفسادين من سورة الإسراء ٤–٨؛ فربط الأسماء بها تفسير منقول يحتاج إلى حجته، وليس قراءة للاسم في لفظ الآية. [٧, ٢٥, ٣٦]

٣١. العمر والموضع والدفن

بقي عمر يحيى عند الموت وتاريخ شهادته وموقع دفنه خارج ما عيّنه القرآن. وقد رأينا رقم ثلاث وثلاثين سنة في «إثبات الوصية»، وروايات تجعل قتله في حياة عيسى، وأخرى تؤخره إلى ما بعد

شمعون. تُذكر هذه المعطيات في موضع اختلافها، ولا تُركب منها سيرة ذات سنوات دقيقة. وكذلك ورود بيت المقدس في أخبار عبادته أو في سياق الدم لا يكفي وحده لإثبات أن جميع أحداثه وقعت في موضع واحد. [١٠, ٢١, ٢٣, ٢٤]

ولا يثبت الفصل موضعًا بعينه للرأس أو الجسد اعتمادًا على شهرة مزار، ما لم يقم النص المعين على ذلك. وأقصى ما يثبته خبر الكافي الآتي أن القصة تصور عيسى عند قبر يحيى، دون أن تسمي مدينة القبر في لفظها. وجود قبر في الرواية شيء، وتعيين الموقع المتداول اليوم شيء آخر. [٢٠]

٣٢. عيسى عند قبر يحيى

يروي الكافي عن الإمام الصادق أن عيسى جاء قبر يحيى بعدما سأل ربه أن يحييه له، فدعاه فخرج. ولما سأله عيسى أن يؤنسه كما كان في الدنيا، أجاب يحيى بما يفيد أن حرارة الموت لم تسكن عنه، وأن الرجوع يعيده إلى المرور بها، فتركه فعاد إلى قبره. في السند «عن بعض أصحابنا»، وهي واسطة لم يسمها هذا الموضع. نثبت الخبر منسوبًا، ولا نحوله إلى واقعة مقطوع بها أو إلى طريق بلا إرسال. [٢٠]

الشخصيتان هنا عيسى ويحيى؛ والقدرة لله الذي يُسأل الإحياء، لا قدرة مستقلة عن الله. كما أن رجوع يحيى إلى قبره في خاتمة الرواية لا يثبت أنه عاش بعد ذلك عقودًا ليحمل وصية شمعون. إذا استُعمل احتمال الإحياء للجمع بين أخبار مختلفة، وجب التصريح بأنه اجتهاد في الجمع، لا اللفظ الذي يقوله هذا الحديث. [٢٠, ٢٤]

٣٣. يحيى وعيسى في خبر المعراج

في خبر المعراج المنقول في تفسير القمي يرد لقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله بيحيى وعيسى، وتعريف جبرئيل بهما، وتبادل السلام والدعاء والترحيب بالنبي الصالح والأخ الصالح. ويسميهما الخبر ابني الخالة. هذا حضور ليحيى في ذاكرة النبوة بعد حياته الأرضية، مع بقاء عبارة القرابة على ما في ذلك الطريق، وعدم جعلها وحدها حلًا لكل اختلاف أنساب الأسرة. [٤٠]

ويختلف هذا المشهد عن خبر القبر السابق: الأول لقاء في المعراج يروى عن النبي، والثاني دعاء عيسى بإحياء يحيى عند قبره. لا يُجمعان على أنهما زيارة واحدة، ولا يُستنبط من أحدهما تحديد موضع جسد يحيى في الأرض. ولهذا يذكر سجل الفصل محمدًا وجبرئيل في سياق المعراج، وعيسى في كلا الخبرين، مع اختلاف المشهد والزمان. [٢٠, ٤٠]

٣٤. السلام في الولادة والموت والبعث

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. يروي ياسر الخادم عن الإمام الرضا في «عيون أخبار الرضا» أن هذه ثلاثة مواطن شديدة الوحشة على الإنسان: خروجه إلى الدنيا، ومعاينته الآخرة

عند الموت، وقيامه للبعث. وقد سلم الله على يحيى فيها وآمن روعته. ويقارن الإمام ذلك بقول عيسى في مريم ٣٣: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. [٢, ٣١]

السلام الإلهي لا يعني أن يحيى لم يتعرض لأذى الناس، أو أن الشهادة تتناقض مع تكريمه. إنه يضع نهاية السيرة في أفق أوسع من مجلس الملك ومن فعل القاتل. ولا يلزم من تشابه العبارتين تساوي جميع مقامات النبيين، ولا تحويل صيغة السلام إلى حجة على ألوهية أحدهما؛ فكلاهما عبد لله ونبي من أنبيائه. [١, ٢, ٣١]

٣٥. الحسين يستحضر يحيى في طريقه

ينقل الإرشاد للمفيد عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه خرج مع أبيه الحسين، فكان يذكر يحيى وقتله عند النزول والارتحال، وقال في معنى هوان الدنيا على الله إن رأس يحيى أُهدي إلى بغي من بني إسرائيل. حفظ نور الثقلين هذا النقل، كما أورده مجمع البيان. فالحسين هنا مستحضر للعبرة، والسجاد ناقل لما شهده مع أبيه، والمرأة غير المسماة واردة في صيغة هذا الخبر دون نسب مفصل. [٢٨]

لا يحتاج هذا الربط إلى اختراع كلام دار بين يحيى والحسين في حياتهما الأرضية. وجهه أن قيمة الحق لا تقاس بما يناله صاحبه من أمن عند أهل السلطان، وأن قتل الحجة لا يصير برهانًا على بطلانها. ويحفظ الفصل خصوصية كل سيرة، فلا يضع أسماء واقعة كربلاء مكان أسماء خبر يحيى، ولا يجعل كل تشابه اتحادًا في التفاصيل. [٢٦–٢٨]

٣٦. بكاء السماء والأرض في كامل الزيارات

عقد ابن قولويه بابًا لبكاء السماء والأرض على الحسين ويحيى. وفيه طرق عن الإمامين الباقر والصادق، وخبر عن السجاد، تذكر اختصاصًا في البكاء، وتفسر بعض ألفاظه باحمرار السماء أو الشمس عند الطلوع والغروب أربعين يومًا. وترد صيغ أخرى في الباب، فلا تختزل كلها في لفظ واحد ثم تُنسب إلى كل الأسانيد. ويذكر خبر حنان بن سدير عن الصادق يحيى شبيهًا بالحسين في هذا السياق، مع الحث على زيارة الحسين. [٢٧]

وتُستشهد آية الدخان ٢٩ في بعض الأخبار: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾. سياقها القرآني قوم فرعون، ولا تسمي يحيى أو الحسين. أما الرواية فتقابل من لم تبك عليهم السماء بمن عظم فقدهم. هذا بيان روائي للعبرة، ولا يُعرض كأن اسم الحسين أو يحيى موجود في لفظ الآية، ولا كقياس فلكي يغني وحده عن نقد الأخبار. [٢٧, ٣٥]

٣٧. أخبار القتلة والمسؤولية عن العمل

جمع «كامل الزيارات» في الباب الخامس والعشرين أخبارًا تقرن قاتل يحيى بقاتل الحسين في شدة الجرم، ومنها رواية عن الباقر عن النبي في منزلتهما من العذاب، وأخبار تتضمن وصفًا يتعلق بالولادة.

وترد في قصص الراوندي مقارنة بعاقر ناقة صالح، وفي بعض النقول الواردة في البحار ذكر قاتل علي أيضًا. صالح وعلي والحسين هنا شخصيات مقارنة، لا أطراف مشتركون في زمن مقتل يحيى. [١٠, ٢٤, ٢٦]

العبارات التي تصف ولادة شخص أو نسبه لا تعطي القارئ حق الحكم على طفل مجهول الحال أو إدانة إنسان بذنب أبويه. الميزان القرآني: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. كما أن الروايات لا تمنحنا اسمًا شخصيًا متفقًا عليه للمباشر بقتل يحيى. فيبقى «قاتل يحيى» وصف دور في تلك النصوص، ويُفصل بينه وبين الملك الآمر، والمرأة المحرضة، ومن تسلم الرأس، ومن جاء بعد ذلك في خبر الدم. [٢٦, ٣٦]

٣٨. «كهيعص» وخبر زكريا والحسين

يربط خبر سعد بن عبد الله في كمال الدين، في اللقاء المنقول بالإمام الحسن العسكري وولده القائم، بين «كهيعص» ومصاب الحسين ودعاء زكريا ومولد يحيى. وقد عُرضت تفاصيله واختلاف تفسير الحروف في الفصل ٤١. وتُحفظ هنا أسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وجبرئيل، وذكر يزيد في التفسير المنقول، مع التمييز بين زمن القصة وزمن اللقاء الذي رُويت فيه. [٢٩]

هذا تأويل مروي في طريق معين، لا يجوز تقديمه على أنه المعنى اللغوي الوحيد للحروف المقطعة أو أن سورة مريم تصرح باسم يزيد. فقد جمعت كتب التفسير الروائي، ومنها نور الثقلين والبرهان والصافي، أقوالًا أخرى في الحروف وأسماء الله. كما أن حضور يزيد في تأويل الكاف والهاء والياء والعين والصاد لا يجعله ملكًا في عصر يحيى. والتشابه المروي بين الحملين والشهادتين لا يلغي استقلال كل قصة ولا اختلاف طرقها. [٢٩, ٣٠, ٣٧, ٣٨]

٣٩. أم يحيى في خبر نساء القيامة

في تفسير فرات، في خبر عن الإمام الصادق يتضمن رواية جابر عن الإمام الباقر عن آبائه، يرد نداء جبرئيل في القيامة لفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، و«أم كلثوم أم يحيى بن زكريا». يسجل الفصل المرأة بهذا القيد كاملًا؛ لأن الاسم وحده قد يوهم امرأة أخرى تحمل كنية أم كلثوم. ومجيئها في الخبر يضيف جانب التكريم الأخروي إلى دورها في الحمل والتربية. [١٢]

لا يثبت هذا الاجتماع الأخروي أن خديجة وفاطمة وآسية عشن مع أم يحيى في بيت واحد في الدنيا، ولا أن أم كلثوم هي أم مريم أو أخت موسى أو بنت علي. ويظهر في سياق الخبر محمد وعلي والحسن والحسين وجبرئيل أيضًا، موضعهم في مشهد الآخرة، لا في شجرة أسرة زكريا. كما أن صيغة «معنعنًا» في طريق النقل لا تسوغ وصف الخبر بأنه صحيح مفصل الرجال دون دراسة مستقلة. [١٢]

٤٠. يحيى في الاحتجاج على مقام النبوة

ينقل الاحتجاج، كما أورده نور الثقلين، حوارًا بين أمير المؤمنين علي وعالم يهودي من أهل الشام يذكر ليحيى الحكم في الصغر والفهم والخشية. ويجيبه علي بذكر ما أعطيه النبي محمد صلى الله عليه وآله من الحكم والصدق والطهارة بين عبدة الأوثان. الرجل اليهودي غير مسمى في المقطع، والإمام الحسين داخل طريق نقل الحديث، وليس المقصود مواجهة وقعت بين العالم ويحيى نفسه. [٣٢]

ويأتي في مواعظ عيسى المنقولة في روضة الكافي ذكر يحيى نظيرًا له في آية القدرة: وهب لأمه بعد الكبر، كما أظهر الله قدرته في خلق عيسى. نقل نور الثقلين موضع الشاهد. وهذا يربط الميلادين في الدلالة على القدرة، مع اختلاف حال الأمومة والأبوة؛ ليحيى أب وأم، ولعيسى أم من غير أب. ولا يصح أن يحمل لفظ «نظيرك» على تماثل جميع الأحكام والمقامات. [٣٩]

٤١. شمعون ومنذر ويعقوب: اختلاف أخبار الوصية

يقدم خبر الكافي الذي مر معنا خطًا فيه زكريا ثم يحيى ثم ظهور حجة عيسى. وفي خبر أبي رافع المرفوع إلى النبي في كمال الدين يرفع الله عيسى، ويقوم شمعون بن حمون في قومه، ثم يأتي ذكر يحيى، وتنتقل الوصية إلى ولد شمعون، ويذكر النص ذرية يعقوب بن شمعون. أما «إثبات الوصية» فيسمي الموصى إليه من بعد يحيى «منذر بن شمعون»، ويذكر حضور ولد شمعون والحواريين. لا نجزم أن منذر ويعقوب شخص واحد، ولا نجعلهما ابني يحيى. [١٣, ٢١, ٢٣]

ويصل «إثبات الوصية» هذا الخط بدانيال، ويورد العزير وبخت نصر في تسلسله، ثم يصرح بوجود خبر آخر يجعل العزير ودانيال قبل المسيح ويحيى. فالمصدر نفسه يحفظ اختلافًا، ولا يصح أن نخفيه في جدول زمني موحد. كذلك ورد في سياق زكريا فيه اليسابغ وروبيل بن اليسابغ قبل المسيح؛ لا يُجزم من تشابه الاسم بأن اليسابغ هو اليسع القرآني، أو أن روبيل هذا هو ابن يعقوب المعروف في أخبار يوسف. [١١, ٢١]

وقد صرح المجلسي بأن الجمع بين تقدم وفاة يحيى على رفع عيسى وتأخرها عنه مشكل، ثم ذكر احتمالات للجمع، منها الإحياء. تُنسب هذه الاحتمالات إلى اجتهاده، ولا تُرفع إلى حديث عن الإمام. وتظل رسالة يحيى وتصديقه بعيسى ثابتين في القرآن، وإن لم نملك من هذه الطرق تسلسلًا تاريخيًا واحدًا لا اختلاف فيه. [١, ٢٤]

٤٢. سجل النساء والأدوار غير المسماة

في أسرة البشارة: أم يحيى، مع صيغ حنانة وإيساع وأم كلثوم؛ ومريم؛ وامرأة عمران المسماة حنة في رواية، مع مرتا ووهيبة في نقل آخر. وفي خبر الشهادة: المرأة المرتبطة بالملك، وابنتها، والربيبة أو بنت الأخت بحسب الطريق، والمرأة المحرضة التي لا يذكر لها ولد في صيغة القمي. لا نعد هذه التسميات

كلها نساء مختلفات حتمًا، ولا نجمعها كلها في امرأة واحدة؛ موضع كل منها الطريق الذي يذكرها. [٩ -١٢, ١٤, ٢١, ٢٥]

وفي خبر الدم: العجوز التي تدل بخت نصر، والعجوز التي تُقتل في نهاية طريق آخر؛ وأم بخت نصر في مقدمة نقل القمي؛ والنساء غير المسميات في خبر بطش الجيش. وفي المقارنة والآخرة: فاطمة وخديجة وآسية وأم يحيى ومريم. والمرأة التي يفترضها ذنب الرجل التائب لا يسميها خبر الفقيه ولا يصف دورًا مستقلًا لها. هذا السجل يحفظ الحضور النسائي بمقدار النص، ولا يكمله بأسماء متداولة من غير المصادر المعتمدة هنا. [١٠, ١٢, ١٧, ٢٥]

٤٣. سجل الرجال والملائكة والجماعات

في صلب السيرة: يحيى، وأبوه زكريا، وعيسى؛ وعمران في خلفية أسرة مريم، وإلياس في تعداد الصالحين. وفي الأخبار المختلف في ترتيبها: شمعون بن حمون، ومنذر بن شمعون، ويعقوب بن شمعون، ودانيال، والعزير، وأرميا، وأردشير بصيغ نسبه المختلفة، وسابور، وبخت نصر ومن نُسب إليهم في بعض الصيغ. وفي مواقع الشهادة غير المسماة: الملك، والمباشر بالقتل، وحامل الرأس أو متلقيه، ورجل اللهو، والشيخ وأبوه وجده في حكاية الدم. [٤, ١٠, ٢١–٢٥]

وفي التربية والمواعظ: الصبيان، والفتية، وراعي الغنم، والأحبار والرهبان، والرجل التائب، والجمهور المنصرف، والحواريون الاثنا عشر، وأهل الأمثال الخمسة. وفي الغيب: الملائكة، وجبرئيل حين يُسمى، وإبليس المكنى أبا مرة؛ وإبليس ليس رجلًا من بني إسرائيل. أما أصحاب الأسانيد كأبي حمزة وأبي بصير وحفص بن غياث وعلي بن أسباط وياسر الخادم والكاساي وسعد بن عبد الله وأبي رافع، فدورهم نقل أو سؤال، ولا يُدرجون بين معاصري يحيى. [٦, ١٠, ١٣–٢٣, ٢٩, ٣١, ٤١]

وتظهر شخصيات أهل البيت بحسب مواضعها: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين في المقارنة والتكريم، والسجاد في نقل مسير الحسين وخبر البكاء، والباقر والصادق والكاظم والرضا في التعليم والرواية، والجواد في الاستدلال بالحكم صبيًا، والعسكري والقائم في حديث سعد. كما يرد أبو سفيان في خبر الحسن، والعالم اليهودي غير المسمى في الاحتجاج، ويزيد في التأويل المتعلق بكربلاء. لا يعني اجتماعهم في سجل الفصل أنهم اجتمعوا في زمن واحد. [١٢–١٤, ١٩, ٢٦–٣٣]

٤٤. حصيلة التدقيق وحدود الإسناد

قوبلت مادة الفصل بمواضع القرآن المذكورة، وبالأخبار المعينة من الكافي والفقيه والمحاسن وأمالي الصدوق وأمالي الطوسي وعيون أخبار الرضا وكمال الدين وكامل الزيارات وقصص الراوندي وتفسير فرات وإثبات الوصية، وبما تجمعه التفاسير والبحار من طرقها. بعض الأصول قُرئ مباشرة، وبعض المواضع أُثبت من نقل مصدر مسمى عنها كما تبين قائمة الإحالات. ولا يُقال في الحالة الثانية إن الأصل كله قد روجع أو إن كل روايات الكتاب متفقة مع النقل.

ويقتضي فهم هذه الأخبار التمييز بين اسم الراوي وشخصية القصة، وبين عمر الجواد أو عيسى وعمر يحيى، وبين بنت الأخت والربيبة، وبين العجوز الدالة والعجوز المقتولة، وبين خبر القبر وخبر انتقال الوصية. وتحضر الأم والرعاة والفتية والحواريون والرجل التائب ورجل اللهو، كلٌّ بدوره المحدد في الرواية. وبقيت الأسماء والتواريخ التي لا يسندها نص معين غير محسومة، بدل أن تُملأ بالتخمين.

لم يُمنح جميع ما في الفصل حكمًا واحدًا بالصحة أو الضعف. في بعض الطرق راو مبهم أو رفع أو إرسال ظاهر، وفي بعضها اختلاف متن وترتيب، وفي بعضها رأي مفسر لا رواية إمام. وصيغ «روي» و«نقل» و«ذكر المصدر» مقصودة لهذا التمييز. أما المعاني القرآنية المحكمة في تسمية يحيى ونبوته وتقواه وبره وسلامه فلا تتوقف على صحة كل تفصيل قصصي لاحق.

٤٥. خاتمة الفصل: أمانة الكتاب والشهادة للحق

جاء يحيى جوابًا لدعاء، ثم صار هو صاحب تكليف: أن يأخذ الكتاب بقوة. اجتمع فيه الحكم المبكر والحنان والطهارة والبر، وكان مصدقًا بكلمة من الله. وتكشف الأخبار المنسوبة إلى أهل البيت صوته الواعظ، وموقعه إلى جانب عيسى، وما حفظه الموروث من شهادته ومقارنتها بالحسين. لا تُستنفد سيرته في مشهد الرأس والدم؛ فقبل ذلك حياة علم وعبادة ورحمة، وأم ترعى، وأب يعلّم، وقوم يُدعون إلى الله. [١–٣, ١٠, ١٣, ١٧, ١٨, ٢٦–٢٨]

ومن يحيى ينتقل مسار الكتاب إلى عيسى ابن مريم عليهما السلام: من النبي المصدق بالكلمة إلى النبي الذي بشرت مريم به كلمة من الله. يبقى لكل واحد مقامه وقصته، وتبقى لهما وحدة العبودية والهداية. ويختم الفصل بما ختم به القرآن وصف يحيى: سلام عليه في مولده وموته وبعثه، وتبقى أمانة نقل سيرته جزءًا من الوفاء لهذا السلام. [١, ٢]

المصادر والإحالات

الإحالات المرقمة تحدد مواضع الاستشهاد، لا عدد كتب مستقلة ولا حكمًا بصحة جميع الأخبار. تختلف أرقام الصفحات باختلاف الطبعات، لذلك أضيف اسم الباب أو رقم الحديث أو الآية حيث أمكن. وكل عبارة «نقلًا عن» تعني أن الموضع روجع في الناقل المحدد، ولا تعني مقابلة مخطوطات الأصل.

[١] القرآن الكريم: آل عمران ٣٥–٤٥، وبخاصة ٣٨–٤١ و٤٥: البشارة بيحيى وصفاته والتصديق بالكلمة وبشارة مريم.

[٢] القرآن الكريم: مريم ٢–١٥ و٣٠–٣٣: دعاء زكريا، تسمية يحيى، الحكم والحنان والبر، والسلام على يحيى وعيسى.

[٣] القرآن الكريم: الأنبياء ٨٩–٩٠: الاستجابة لزكريا، وهبة يحيى، وإصلاح الزوجة، والخير والخشوع.

[٤] القرآن الكريم: الأنعام ٨٥: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس في الصالحين، مع سياق تعداد الأنبياء ٨٣-٩٠.

[٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير آل عمران ٣٨-٤١: معنى الكلمة والسيد والحصور، والقرابة والبشارة، ونقد توهم التباس نداء الملائكة.

[٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير مريم ١٢-١٥: الكتاب والحكم، خبر الصبيان، الحنان والزكاة والبر والسلام.

[٧] القرآن الكريم: الإسراء ٤-٨. أسماء يحيى وبخت نصر وأرميا ليست في ألفاظ هذا المقطع؛ تعيينها يأتي في بعض التفسير المنقول.

[٨] الطباطبائي، الميزان، تفسير مريم ١٢-١٥، ضمن المقطع الذي يبدأ بأول السورة: شرح أخذ الكتاب والحكم والحنان والزكاة.

[٩] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢١٤-٢١٥، ح٢٧٨-٢٨٠ في النسخة المعروضة: عمران وحنة وحنانة ومريم وصلتهم بزكريا.

[١٠] الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢١٦-٢٢١، ح٢٨١-٢٩٣: رضاعة يحيى والزهد، وطرق الشهادة، وبكاء السماء. تختلف ألفاظ بعض النقول في البحار عن النص المعروض هنا.

[١١] إثبات الوصية، المنسوب إلى المسعودي، ص٧٨: اسم زوجة زكريا وصلتها بحنة، واليسابغ وروبيل في سياق انتقال العهد.

[١٢] تفسير فرات الكوفي، عند الشعراء١٠٢، خبر أم كلثوم أم يحيى ونساء القيامة؛ ونقله البحار ١٤:١٦٨-١٦٩، باب١٥، ح٩.

[١٣] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب حالات الأئمة في السن، خصوصًا ح١ و٢ و٧: يحيى وعيسى واحتجاج الجواد.

[١٤] الحويزي، نور الثقلين، مريم، الموضع المعروض من الآية٤، خصوصًا ح٢٠-٣٩ و٦٦-٦٨: أخبار الأسرة والحكم ونقول التفاسير والأصول.

[١٥] الصدوق، الأمالي، المجلس الثامن، ح٣، والرقم المتسلسل٤٨: خبر زهد يحيى عن عبد الله بن عمر عن النبي؛ ونقله البحار ١٤:١٦٥-١٦٨، ح٤.

[١٦] البرقي، المحاسن، ج٢، ص٤٣٩-٤٤٠، خبر حفص بن غياث عن الصادق في معاليق إبليس والشبع؛ رابط إلى نقله في البحار.

[١٧] الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٣، ح٥٠١٩ بحسب الترقيم المتسلسل: موعظة الرجل التائب ليحيى؛ روجع نصه نقلًا في البحار ١٤:١٨٨، باب١٥، ح٣٩.

[١٨] الصدوق، الأمالي، المجلس٧٧، ح٨: خبر القبر والابن الصالح، ثم موعظة عيسى ليحيى في كلام الناس.

[١٩] الكليني، الكافي، ج٢، باب الدعابة والضحك، ح٢٠؛ في السند «عمن ذكره». يفهرسه الموقع بعنوان «الدعاء والضحك».

[٢٠] الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الجنائز، باب النوادر، ح٣٧: عيسى عند قبر يحيى؛ في السند «عن بعض أصحابنا».

[٢١] إثبات الوصية، المنسوب للمسعودي، ص٨٥-٨٧: الأمثال والشهادة ووصاية منذر بن شمعون واختلاف ترتيب الأنبياء.

[٢٢] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب٧، ح١٧، ص١٥٣-١٥٩: ظهور يحيى وبشارة قيام المسيح في الخبر الطويل.

[٢٣] الصدوق، كمال الدين، خبر أبي رافع في اتصال الوصية، ص٢٢٥-٢٢٦؛ وقارن البحار ١٤:١٩٠، ح٤٢، و١٤:٥١٦-٥١٧.

[٢٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، باب١٥ «قصص زكريا ويحيى»، ص١٦٣-١٩١، بأحاديثه٤٢ وتعليقاته وحواشيه.

[٢٥] تفسير القمي، خبر هارون بن خارجة عن الصادق في أرميا وبخت نصر ودم يحيى، روجع نقلًا في البحار ١٤:٣٥٦-٣٥٨، ح١؛ تتمة الخبر تتناول دانيال.

[٢٦] ابن قولويه، كامل الزيارات، باب٢٥ «ما جاء في قاتل الحسين وقاتل يحيى»، ص٧٩ وما بعدها، خصوصًا ح١ و٢ و٤ و٦.

[٢٧] ابن قولويه، كامل الزيارات، باب٢٨، ص٩٣-٩٨: بكاء السماء والأرض؛ خصوصًا ح٣ و٤ و٦ و٨-١٠ و١٢-١٥.

[٢٨] المفيد، الإرشاد، خبر السجاد في تذكر الحسين ليحيى أثناء السفر؛ روجع نقلًا في نور الثقلين، مريم، ح٢٨.

[٢٩] الصدوق، كمال الدين، باب٤٣، ح٢١، حديث سعد بن عبد الله، خصوصًا ص٤٦١-٤٦٢: «كهيعص» وزكريا ويحيى والحسين.

[٣٠] الحويزي، نور الثقلين، تفسير مريم١، ح٣-٧ وما يتصل بها: طرق تفسير الحروف المقطعة.

[٣١] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، باب٢٦، ح١١، عن ياسر الخادم: السلام في المواطن الثلاثة؛ وانظر نور الثقلين، مريم، ح٣٨.

[٣٢] الطبرسي، الاحتجاج، حوار علي والعالم اليهودي؛ روجع موضع يحيى نقلًا في نور الثقلين، مريم، ح٣٤.

[٣٣] ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، خبر الحسن وأبي سفيان؛ روجع نقلًا في نور الثقلين، مريم، ح٣٥.

[٣٤] المجلسي، البحار، ج١٤، ص١٨٨-١٩٠: نقول تاريخ يحيى، ومنها ابن الأثير، وتعليق المجلسي على اختلاف توقيت الوفاة.

[٣٥] القرآن الكريم: الدخان٢٥-٣١، خصوصًا٢٩، وسياق قوم فرعون عند قراءة روايات بكاء السماء.

[٣٦] القرآن الكريم: الأنعام١٦٤، في عدم حمل نفس وزر أخرى، وضبط قراءة الأنساب وأخبار الانتقام.

[٣٧] هاشم البحراني، البرهان، تفسير مريم١: طرق تفسير «كهيعص»، ومنها النقل عن كمال الدين.

[٣٨] الفيض الكاشاني، الصافي، تفسير مريم١-٥: الحروف المقطعة وافتتاح خبر زكريا.

[٣٩] الكليني، روضة الكافي، مواعظ عيسى: «ونظيرك يحيى»؛ روجع نقلًا في نور الثقلين، مريم، ح٣٠.

[٤٠] تفسير القمي، ج٢، ص٨، من خبر المعراج: لقاء محمد يحيى وعيسى وتعريف جبرئيل بهما وتبادل السلام.

[٤١] الطوسي، الأمالي، المجلس١٢، ح٣٢، الرقم المتسلسل٦٩٢، ص٣٣٨-٣٤٠: حوار يحيى وإبليس، من طريق الرضا عن آبائه.

[٤٢] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة، ح٣: أولو العزم الخمسة.

الفصل ٤٣ — عيسى ابن مريم عليهما السلام — الميلاد والرسالة والآيات

٠١. من البشارة إلى الرسالة

يأتي هذا الفصل بعد فصل مريم، ثم زكريا ويحيى عليهم السلام، ليجمع قصة عيسى من البشارة بميلاده إلى رسالته وآياته ورفعه، وما يرتبط بذلك من وعد العودة واستمرار الحجة. مريم ليست شخصية تمهيدية تنتهي وظيفتها عند الولادة؛ فهي الأم المؤمنة التي يدافع عنها كلام المهد، وترافق اسم ابنها في القرآن، وتحضر معه في آية الربوة وفي نفي الألوهية عنهما. ويحيى ليس اسمًا عابرًا: إنه المصدّق بكلمة من الله، وترد له مع عيسى لقاءات ومواعظ ينبغي حفظها من الدمج أو النقل إلى زمن غير زمنها. [١, ٢, ٣, ٩]

٠٢. خريطة الآيات: قصة واحدة موزعة في السور

ترد البشارة باسم المسيح وصفاته ورسالته إلى بني إسرائيل وآياته وحوار الحواريين والوعد بالرفع في آل عمران ٤٥–٥٥، ثم الموازنة بآدم والمباهلة في ٥٩–٦٤. وتعرض مريم ١٦–٣٦ الاعتزال والبشارة والمخاض والرجوع إلى القوم وكلام المهد. وتجمع المائدة ١١٠–١١٨ تذكير عيسى بالنعم والمائدة والشهادة يوم القيامة، وتقرر الآيات ٤٦–٤٧ منزلته وكتابه، والآيات ٧٢–٧٨ توحيده وبشريته وموقفه من العصيان. هذه المواضع تتكامل، ولا يصح اختزال السيرة في الميلاد والمعجزات وحدهما. [١, ٢, ٣]

وتمنع النساء ١٥٦–١٥٩ نسبة الفاحشة إلى مريم وتقرر نفي قتل عيسى وصلبه على الوجه الذي ادعاه خصومه، وتشرح ١٧١–١٧٢ وصف الكلمة والروح مع النهي عن الغلو. وتذكر الصف ٦ بشارته بأحمد، والصف ١٤ أنصاره، والحديد ٢٧ أتباعه والرهبانية، والزخرف ٥٧–٦٥ الجدل في شأنه وصلته بالساعة على أحد وجوه التفسير. وفي الأنبياء ٩١ والمؤمنون ٥٠ والتحريم ١٢ تبرز مريم وعيسى آيةً لله، مع اختلاف المقاصد والسياقات. [٤, ٦–١٠]

وتستكمل الخريطة بالبقرة ٨٧ و١٣٦ و٢٥٣، وآل عمران ٨٤، والنساء ١٦٣، والأنعام ٨٥، والتوبة ٣٠–٣١، والأحزاب ٧، والشورى ١٣. ففيها التأييد بروح القدس، ووحدة الإيمان بالرسل، ودخول عيسى في سلسلة النبوة، وميثاق الأنبياء، ورفض اتخاذ المخلوق ربًّا. وذكره مع زكريا ويحيى وإلياس في الأنعام يضعه داخل تاريخ الهداية؛ فلا تعني فرادة ميلاده انقطاعه عن الأنبياء قبله، ولا تعني وحدة أصل دعوتهم تماثل كل شريعة في تفاصيلها. [٥, ١٠]

٣. عيسى ابن مريم بين الأنبياء وأولي العزم

الاسم القرآني الأوضح هو «عيسى ابن مريم»، واللقب «المسيح». ولا يضع القرآن له أبًا بشريًا، ولا يجعل النسبة إلى أمه عيبًا أو نقصًا. وفي المقابل لا تنقلب الولادة من غير أب إلى بنوّة لله؛ إذ يحتج القرآن بآدم الذي خلقه الله من تراب. وهكذا يجمع الأصل القرآني بين تكريم الأم، وإثبات المعجزة، وصيانة التوحيد. وما يرد من أنساب بعيدة في كتب الأخبار يجب أن يقرأ على ضوء هذه القاعدة، وألا يحوَّل يوسف النجار إلى أب خفي للمسيح. [١, ٢, ٤, ١٦]

تسمي رواية الكافي نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم السلام أولي العزم، وتربط تتابعهم بالشريعة والكتاب. وإيراد عيسى في هذه المجموعة يبيّن جسامة رسالته؛ لكنه لا يقتضي أن تكون جميع تفاصيل حياته محفوظة لنا أو أن نملأ الفراغات بتخمينات. وقد أكدت الشورى وحدة الوصية بإقامة الدين وعدم التفرق فيه، وذكرت الأحزاب أخذ الميثاق من هؤلاء الرسل. فالمسيح حلقة كبرى في تاريخ العهد الإلهي، لا شخصية منفصلة عن هذا التاريخ. [١٠, ٤٤]

٤. الكلمة والروح: تكريم لا حلول

تسمي آل عمران عيسى كلمةً من الله، وتقول النساء: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ». وفي الآية نفسها وصفه برسول الله والنهي عن القول بثلاثة، ثم تنزيه الله عن الولد. لذلك لا يصح اقتطاع «روح منه» من سياقها وبناء معنى التجزؤ عليها. فالآية تتحدث عن رسول مخلوق أوجده الله على وجه خارق للمألوف، ولا تقول إن جزءًا من ذات الله صار إنسانًا أو انتقل إلى جسد مريم. [١, ٤]

تورد روايات التوحيد والكافي، التي جمعها المجلسي في باب الميلاد، تفسير الروح بأنها مخلوقة، وأن إضافتها إلى الله إضافة تشريف واختصاص. وترد في القرآن إضافات مثل بيت الله وناقة الله من غير أن يراد أنها أجزاء منه. كما أن «الكلمة» ترتبط بأمر التكوين والبشارة والوعد؛ ويُذكر اختلاف الشرح من غير تحويل المصطلح إلى نظرية فلسفية لا يحملها النص. أما الروح المتمثل لمريم في سورة مريم فيفسر في الأخبار بجبرئيل، وهو رسول إليها، وليس أبًا للطفل. [١١, ٥٠]

٥. الأسرة: عمران وأم مريم وزكريا وامرأته

يمتد نسب القصة إلى عمران وامرأته التي نذرت ما في بطنها لخدمة الله، ثم سمّت ابنتها مريم واستعاذت لها ولذريتها بالله من الشيطان. لا يسمي القرآن أم مريم، وإن اشتهر اسم حنّة في التفسير؛ وترد في خبر الإمام الكاظم مع النصراني صيغ مرثا أو مرتا ووهيبة. اختلاف الاسم في النقل لا يثبت تعدد الأمهات. وقد سبق بسط هذه المادة في الفصل الأربعين، ويعاد هنا القدر الذي يمنع سقوط الجدة من شبكة الشخصيات المتصلة بميلاد عيسى. [١, ١٤, ٥٣]

وزكريا كافل مريم، وامرأته أم يحيى من نساء هذه الدائرة. وتختلف الأخبار في كونها خالة مريم أو أختها، كما تتفاوت صيغ اسمها؛ فلا يعاد رسم شجرة قرابة واحدة وكأن جميع الروايات اتفقت عليها.

وكذلك «يا أخت هارون» خطاب قرآني لمريم لا تصريح بأنها عاصرت موسى وأخاه. فقد ذكر المفسرون احتمالات النسب، أو التشبيه برجل صالح، أو أخ لها بهذا الاسم، ونقلت بعض التفاسير وجهًا آخر. الواجب إبقاء الاحتمال منسوبًا إلى قائله. [٢, ١٤, ٥٢, ٥٣]

٦. البشارة والروح المتمثل بشرًا

تبدأ قصة مريم في السورة باعتزالها أهلها مكانًا شرقيًا واتخاذها حجابًا، ثم إرسال الروح إليها في صورة بشر سوي. كان أول موقفها الاستعاذة بالرحمن، فعرّف نفسه بأنه رسول ربها ليهب لها غلامًا زكيًا. وسؤالها عن الولد مع عدم مسّ البشر لها ليس اعتراضًا على القدرة، بل استيضاح لطريق تحقق البشارة. ويأتي الجواب بأن الأمر هيّن على الله، وأن الطفل سيجعل آية للناس ورحمة منه. هنا تسبق صيانة العفة كل رواية لاحقة عن تفاصيل الحمل. [٢]

وفي آل عمران ترد بشارة الملائكة بالاسم والوجاهة في الدنيا والآخرة والقرب من الله والكلام في المهد والكهولة. ولا يلزم من اختلاف العرض تعدد حمل أو تعدد طفل؛ فالسورتان تبينان جوانب من حدث واحد. أما تفاصيل النفخ وموضعه، أو الأفعال المنسوبة إلى جبرئيل في بعض الأخبار، فليست كلها ألفاظًا قرآنية. يذكر ما ثبت موضعه في الرواية بصيغة النقل، ولا توضع إضافات القصاص بين عبارتي القرآن بحيث تبدو جزءًا من الآية. [١, ٢, ١١]

٧. المخاض والنخلة والرجوع إلى القوم

حملت مريم فانتبذت بالطفل مكانًا قصيًا، وأجاءها المخاض إلى جذع النخلة. وينقل القرآن شدة ما لقيته حتى تمنت أن تكون نسيًا منسيًا؛ فلا يحول هذا إلى حكم بفساد إيمانها أو اعتراضها على الله. ثم جاء التطمين، والسري تحتها، والأمر بهز الجذع لتساقط الرطب، والأكل والشرب وقرة العين. وقد اختلف التفسير في المنادي وفي بعض مفردات المشهد، لكن اتفق السياق على عناية الله بها في موضع الضعف والعزلة. [٢, ٥٢]

حين رجعت تحمل عيسى واجهها قومها باتهام يمس سمعة أبيها وأمها، فأشارت إليه. ولا يسمي القرآن المتكلمين بأسمائهم، كما لا يحدد عدد النساء أو الرجال الذين شاركوا في الاتهام. وحضور الأب والأم في كلام القوم لا يجيز اختراع مشهد لهما عند الولادة. أما صومها عن الكلام في ذلك المقام فهو جزء من قصتها الخاصة؛ ولا يستخرج منه تشريع للصمت التعبدي في شريعة الإسلام من غير مراجعة أدلته المستقلة. [٢, ١٤]

٨. كلام المهد: العبودية والنبوة وبرّ الأم

افتتح عيسى كلامه بقوله: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»، ثم ذكر البركة والصلاة والزكاة والبر بأمه، ونفى عنه أن يكون جبارًا شقيًا، وختم بالسلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا. هذه

المعاني ترسم هويته قبل عرض أي معجزة أخرى: عبد لله، ونبي مبارك، ومسؤول عن العبادة والإحسان. والدفاع عن مريم لم يحتج إلى تسمية مفترٍ بعينه؛ فقد كان كلام الطفل نفسه آية تدفع التهمة. [٢]

وفي تفسير «مباركًا» ورد معنى كونه نفّاعًا، وهو معنى يلائم ما ستعرضه الآيات من شفاء ورحمة وتعليم. وذكر البر بالأم هنا لازم في بناء الشخصية، فلا يقتصر على هامش عاطفي في سيرة رجل عظيم. كما أن قوله «ويوم أموت» يثبت دخوله في حكم الموت البشري من حيث الأصل، لكنه لا يحدد وحده تاريخ الوفاة ولا يحسم خلاف تفسير التوفي والرفع. وسيأتي هذا البحث في موضعه من غير تقديم النتيجة قبل أدلتها. [٢, ١٧, ٢٦]

٩. مدة الحمل ومكان الميلاد وتاريخه

لا يذكر القرآن عدد أشهر حمل مريم ولا اليوم المدني لميلاد عيسى. وفي الأخبار اختلاف واضح: يرد حمل ستة أشهر في الكافي ضمن خبر مولد الحسين، وترد تسع ساعات في روضته، وفي الطريقين إبهام راوٍ. وفي نص قصص الراوندي المتاح صيغة سبع ساعات في خبر يقابله نقل بتسع في البحار. لا يصح إذابة هذه النصوص في مدة واحدة بالتخمين، ولا جعل كل ساعة شهراً على سبيل الحقيقة الطبية؛ بل يذكر اختلاف الألفاظ وطرق النقل، وتبقى معجزة أصل الميلاد ثابتة بالقرآن. [١١, ١٢, ٤٧, ٤٨]

وتذكر رواية المعراج بيت لحم، بينما ترد في أخبار أخرى الكوفة أو كربلاء ومجاري الفرات. وخبر براثا يربط الموضع بمريم وعيسى وصلاة الأنبياء، ولا يلزم من كل ذكر لمقام أو صخرة أن يكون تعييناً حصرياً لمكان الولادة. وفي التوقيت ترد أيام وصيغ مختلفة، منها الخامس والعشرون من ذي القعدة وخبر عاشوراء، وقد ناقش المجلسي بعض طرقها ووجوه حملها. لذلك لا يُثبت هنا تاريخ واحد أو خريطة تنقل مفصلة بزعم أن الأخبار اتفقت عليها. [١١, ١٤, ١٧]

١٠. المولود وخصومه والزائرون القادمون من المشرق

يروي الراوندي أخباراً عن اضطراب إبليس عند الميلاد وحضور الملائكة، وعن نساء اتهمن مريم ثم واجهن آية كلام الطفل. وترد في بعض النصوص سبعون امرأة، وفي خبر آخر جماعة من العذارى العابدات يبلغن خمسمائة. هذه أعداد روائية، لا يذكرها القرآن، ولا تسمى أفراد هذه الجماعات في النصوص المستعملة. إثبات وجودها في سجل الروايات يمنع إغفال النساء، لكنه لا يجيز منحهن أسماء متخيلة أو جمع كل الجماعات في مشهد تاريخي واحد. [١١, ١٢]

ونقل ابن طاووس عن كتاب النبوة للصدوق خبر قوم من أهل المشرق اهتدوا بعلامة نجمية وجاؤوا بهدايا للمولود. يصل النص في هذا الموضع بواسطة النقل، ولا يسمي الزائرين بأسماء، ولا يثبت العدد الشائع «ثلاثة» لمجرد أن الهدايا ثلاثة أصناف. كذلك يظهر يوسف النجار في بعض القصص التاريخية

مرافقًا أو قريبًا، بينما يستنكر خبر علقمة عن الصادق البهتان الذي نسب إلى مريم معه. يوسف هذا غير النبي يوسف ابن يعقوب، ولا يثبت بمجرد هذه الأخبار أنه زوج مريم. [١١, ١٦]

١١. عيسى والمعلّم وأطفال المدرسة

في خبر الراوندي عن الإمام الباقر أن مريم أخذت عيسى إلى المؤدب، فظهر من علمه ما جعل المعلم يقر بأنه لا يحتاج إلى تعليمه. وتفسَّر حروف أبجد في ذلك الخبر بمعان دينية ووعظية. المقصود إبراز العلم الموهوب، لا وضع تأريخ لغوي لنشأة الأبجدية أو اشتقاق علمي لأسماء حروفها. والمعلم رجل غير مسمى، ومريم هي التي تصطحب الطفل، فلا يسقط حضورها من القصة ولا يستعار اسم معلم من روايات أخرى لتكميل الفراغ. [١٢؛ ح٣٠٨]

وتوجد في بعض الحكايات المنقولة عن وهب وغيره أخبار أطفال المدرسة وإخبار عيسى بما يدخره أهلهم، بل قصة طفل مقتول وشهادة تكشف قاتله. لا تتساوى هذه الحكايات مع آية القرآن أو مع خبر منسوب إلى الإمام بسند معلوم. فإن ذكر الطفل المقتول والطفل المتهم أو القاتل في حصر الشخصيات فبصفة شخصيات في حكاية منقولة، لا باعتبار أن القرآن سمّاهم أو أن حديثًا إماميًا معتبرًا عيّن الواقعة بجميع تفاصيلها. أما أصل الإخبار بالطعام المدخر فله مستند قرآني مستقل. [١, ١١, ١٧]

١٢. النبوة في الصغر ومراحل الإعلان

يقرر القرآن النبوة في كلام المهد، وتستعمل أخبار الكافي هذا الأصل في بيان إمكان الحجة في السن الصغيرة. وفي خبر يزيد الكناسي عن الباقر تفاصيل تفرق بين النبوة والحجية في الصغر، وبين فترات الكلام والسكوت وإعلان الرسالة، وتذكر زكريا ثم يحيى في استمرار الهداية. وتأتي روايات أخرى في الاحتجاج بإمامة الجواد بأعمار وصيغ مختلفة. لا تعارض النبوة المبكرة ضرورةَ اختلاف مراحل التكليف العام، لكن لا يجوز تركيب جميع الأعداد في جدول واحد وكأنها متن متفق عليه. [٢, ١٣]

وفي الأخبار أن الإخبار بالمطعوم والمدخر ظهر منه وهو ابن سبع أو ثمان، وفي أخبار أخرى بعثة عند الثلاثين، أو رفع عند الثالثة والثلاثين. ويجب التمييز بين عمره عند الحدث، ومدة بقائه في قومه، ومدة بعثته؛ فاختلاف متعلق العدد قد يزيد التعقيد. ما يثبت قطعًا في هذا الفصل هو أصل النبوة والرسالة والكتاب والآيات بنص القرآن، أما ضبط الأعمار فمادته روائية تحتاج إلى مقابلة الأسانيد والألفاظ، ولا يصح إظهارها بمنزلة تواريخ مدنية محسومة. [١٢, ١٧, ٢٥, ٢٦]

١٣. يحيى وعيسى: التصديق واللقاء والموعظة

بُشّر زكريا بيحيى «مصدقًا بكلمة من الله»، وفسر ذلك بعيسى. وتجمع سورة مريم بين السلام على يحيى والسلام الذي ينطق به عيسى على نفسه في المراحل الثلاث: الولادة والموت والبعث. وفي خبر ياسر

عن الرضا بيان لشدة هذه المواطن وأمان الله ليحيى وإخبار عيسى بالسلام على نفسه. لا يلزم من هذه المقارنة أن تختلط أم يحيى بمريم أو أن يتحد مسار العمرين؛ فلكل واحد قصته وأمه ووظيفته في الروايات. [١, ٢, ٤٦]

وفي روايات يضحك عيسى ويبكي، بينما يغلب البكاء على يحيى؛ ويقدم عيسى في هذا الجانب بما يفتح باب الرجاء مع الخشية. وفي طريق الكافي واسطة مبهمة، فيذكر المعنى مع حال النقل. كما يرد خبر إحياء عيسى ليحيى عند قبره ثم رجوعه إليه؛ لا يستفاد منه تلقائيًا أن يحيى عاش بعد ذلك عهدًا جديدًا وصار خليفة شمعون. وقد فصلت هذه المسائل في الفصل الثاني والأربعين، ويقتصر هنا على حفظ الصلة وضبط حدود الاستدلال. [١٩؛ ح٣٢٦، ٣٦، ٣٧]

١٤. مريم بعد الميلاد: الرعاية والوفاة

تحضر مريم في أخبار المرض والطفولة والمعلّم، لا في مشهد الولادة وحده. ويروي الراوندي خبرًا عن شكوى عيسى في صغره وحديثه مع أمه في سبب عافيته، وخبرًا آخر عن بكاء عيسى نفسه وهو طفل ورعاية مريم له. تُروى هذه النصوص بوصفها أخبارًا في السيرة والآداب، ولا تستخرج منها وصفات علاجية ملزمة أو يخلط بين علاج مرض بشري ومعجزة الشفاء بإذن الله. والاحتياج إلى رعاية الأم لا يناقض ما وهبه الله من النبوة؛ بل يؤكد بشريته وحق أمه عليه. [١٢؛ ح٣١٥-٣١٦]

ولا يحدد القرآن وفاة مريم أو عمرها أو موضع قبرها. لكن في الكافي خبر عن الصادق، في سياق تغسيل أمير المؤمنين لفاطمة، يذكر أن عيسى غسل مريم. لهذا لا يصح القول إنه لا توجد رواية إمامية متصلة بوفاتها. ويثبت من هذا النص قدره المحدد: تولي عيسى الغسل بحسب الرواية؛ أما اسم من حضر الدفن وكيفية خروج الروح والقبر المعين والتاريخ فلا تثبت بهذا الخبر. وتحفظ صلته بفاطمة وعلي في باب المقارنة، من غير جعلهما معاصرين لمريم. [١٥, ٥٣]

١٥. الإنجيل: هدى ونور وتصديق للتوراة

تقول المائدة إن الله آتى عيسى الإنجيل فيه هدى ونور، مصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. فالكتاب وحي إلهي في أصل الاعتقاد القرآني، وليس مجرد خواطر نبي أو أقوال تلاميذ. ويعلّمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل كما في آل عمران. ولا يقتضي ذلك إلغاء منزلة موسى أو اتهام التوراة المنزلة من أصلها بالباطل؛ إذ يصرح النص بالتصديق، مع وجود تعديل لبعض الأحكام في رسالة عيسى. [١, ٣]

وتذكر روايات أن في الإنجيل مواعظ وأمثالًا، وأن عيسى أمر أتباعه بالإيمان بشرائع الأنبياء. ويجب قراءة العبارة الخاصة بعدم اشتماله على تفصيل القصاص والمواريث في سياق الرواية؛ فهي لا تعني أن المجتمع المؤمن بلا حكم أو عدل أو مسؤولية. كما تختلف أخبار تاريخ نزوله في رمضان بين صيغ عددية، فلا تدمج في يوم واحد إلا بدليل. والأناجيل المعروفة بأسماء أصحابها موضوع آخر يتصل بتاريخ النص

ونقله، وسيأتي بحثه مع مناظرة الرضا دون مساواة تلقائية بين كل نص متداول والإنجيل المنزل. [١٢؛ ح٣٠٩، ٢٤، ٣٣، ٣٤]

١٦. الرسالة إلى بني إسرائيل ومعنى التخفيف

يقول عيسى في آل عمران إنه جاء مصدقًا للتوراة «ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم»، ثم يدعو إلى تقوى الله وطاعته بوصفه رسولًا، ويقرر أن الله ربه وربهم. لا يقول النص إن كل تكليف قد سقط، ولا إن الإيمان به يغني عن التوحيد والعمل. ولفظ «بعض» يمنع التعميم. كما أن تسميته رسولًا إلى بني إسرائيل تثبت جهة الخطاب المباشر، ولا تسوغ ازدراء غيرهم أو نفي كل أثر لدعوته خارجهم، وقد نقلت الأخبار بعث رسل إلى بلاد أخرى. [١, ٦, ١٢]

والقرآن لا يقدم قصة عيسى حربًا على عرق أو نسب، بل يميز الإيمان من الكفر والعدل من الظلم داخل الجماعات. فقد آمن به قوم وكفر قوم، وناصره الحواريون من بيئته، وكانت مريم وزكريا ويحيى من هذا التاريخ نفسه. لذلك تنسب مقاومته إلى أصحابها وأفعالها، ولا يحمل وزر جماعة قديمة لكل يهودي في كل عصر. ويُفهم نقد الأحبار والرهبان في التوبة على أنه رفض لاتخاذ المخلوق سلطة تعبد من دون الله، لا حظر على العلم أو التعلم أو الحوار. [٣, ٦, ١٠]

١٧. الآيات بإذن الله: القدرة الموهوبة والعبودية

تتكرر عبارة «بإذن الله» في آيات عيسى، وفي المائدة يأتي الخطاب الإلهي «بإذني». هذا القيد أساس تفسير المعجزة، وليس تتمة يمكن حذفها عند السرد. فالله هو مصدر القدرة، وعيسى عبد مأذون في إظهار العلامة. ويصح أن ينسب الفعل إلى عيسى من جهة مباشرته، وأن ينسب الخلق والإحياء إلى الله من جهة الإيجاد والتمكين، من غير أن يصير النبي شريكًا مستقلاً في الربوبية. بهذا ينتظم صنع هيئة الطير والشفاء وإخراج الموتى جميعًا. [١, ٣, ٥٠]

ويروي الكافي سؤال ابن السكيت لأبي الحسن عن اختلاف معجزات الأنبياء، وفيه ربط آيات عيسى بما احتاج الناس إليه من الطب، مع تأكيد مجيئه بما ليس في وسعهم مثله. فالرواية تجعل المعجزة حجة يفهم أهل العصر دلالتها، لا درسًا بأن ممارسة الطب تزاحم الإيمان. وفي مناظرة الرضا يقارن إحياء عيسى بآيات أنبياء آخرين لرد الاستدلال بالمعجزة على الألوهية؛ فالفضل محفوظ، والاستنتاج الفاسد هو موضع الرد. [٣٤, ٤٥]

١٨. الطير من الطين وروح القدس

يذكر القرآن أن عيسى يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله. ولا يسمّي النوع في نص الآية؛ فتعيينه بالخفاش أو غيره قول تفسيري يحتاج إلى نسبته. وكذلك لا يسمي القرآن أشخاص الجمهور الحاضرين لهذه العلامة. والمعجزة ليست تحويلًا لصنعة عيسى إلى خلق مستقل عن

الله، كما لا تقاس بها دعوى كل من يصنع شكلًا أو يحدث خديعة بصرية. وقد ناقشت الأخبار الفرق بين هذا الإذن الإلهي وبين ما نسب إلى السامري وعجله. [١, ٣, ١٧, ١٨]

ويذكر القرآن تأييده بروح القدس في البقرة والمائدة. لا يصح جمع كل استعمال لكلمة «روح» في القرآن والحديث في كيان واحد بلا دليل؛ فالروح المرسل إلى مريم، والروح التي أضيف بها عيسى إلى الله، وروح القدس الذي أيد به، لكل تعبير سياقه. ويكفي في هذا الموضع إثبات التأييد الإلهي مع التزام تفصيل كل خبر في موضعه، بدل استيراد تصور عقدي ثم إلزام النصوص جميعًا به. [٣-٥, ٥٠]

١٩. شفاء المرضى والإخبار بالمطعوم والمدّخر

تثبت آل عمران والمائدة إبراء الأكمه والأبرص، ويشيع تفسير الأكمه بمن ولد فاقدًا للبصر، مع ذكر خلاف لغوي في بعض التفاسير. والقرآن يثبت حصول الآية ولا يضع أسماء لكل من شُفي أو سجلًا طبيًا بعدد المرضى. ومن ثم لا يصح أن تحول كل عبارة عامة إلى مريض معين من الأناجيل أو القصص الشعبية. وتدخل في قائمة الشخصيات فئة المرضى غير المسمين، مع تمييز من تذكر الروايات حادثته خاصة، كالطفل في قصة المرأة الكنعانية والأعمى في خبر رسل عيسى. [١, ٣, ١٨, ١٩]

ومن آياته الإخبار بما يأكل قومه وما يدخرون في بيوتهم. وفي تفسير القمي عن أبي الجارود عن الباقر أخبار تبرز اختلاف الاستجابة بين التصديق واتهامه بالسحر. العلم هنا آية أطلعه الله عليها، وليس تقريرًا بأنه يعرف من ذاته كل غيب بلا حد. كما لا تتحول معرفة الشيء المخبوء إلى معيار كاف لتصديق كل مدعٍ؛ فالحجة القرآنية ضمن نبوة ثابتة ودعوة إلى التوحيد، لا مهارة منفصلة عن الصدق والرسالة. [١, ١٧]

٢٠. المرأة الكنعانية وابنها

يحفظ قصص الراوندي خبر امرأة من كنعان لها ابن مقعد، قصدت عيسى تسأله الرحمة. ويعرض الخبر سؤالها الملحّ في سياق ذكر إرساله إلى بني إسرائيل، ثم حصول الإذن الإلهي وشفاء ابنها. فالمرأة فاعلة في القصة: تسعى وتخاطب وتدافع عن حاجة ولدها، وليست مجرد أم مجهولة على هامش قائمة المعجزات. لا يذكر المصدر اسمها ولا اسم الطفل، ويجب المحافظة على وصفها الذي يميّزها من أم الصديق الميت ومن الأم صاحبة الابن الوحيد في حكايات أخرى. [١٢؛ ح٣١٤]

ومن أهم مواضع التدقيق أن النص الذي بين أيدينا يقول «ابن»؛ فلا يستبدل بابنة لموافقة رواية مسيحية مشهورة، ولا ينسب إلى عيسى كلام جارح لم يرد في هذا الخبر. وتعرض صورة فتات المائدة ضمن احتجاج المرأة ورجائها، لا ذريعة لازدراء قوم أو تبرير حرمان محتاج. ويُقرأ مضمون الرحمة مع القيد الدائم: الشفاء بإذن الله، والواقعة خبر منقول يذكر مصدره، وليست من تفصيلات القصة التي نص القرآن على اسم صاحبتها. [١٢]

٢١. الصديق الذي أُحيي وأمه وأسرته اللاحقة

يروي الكافي عن الصادق قصة صديق لعيسى مات، وأن عيسى سأل أمه عن رغبتها في رؤيته، ثم توجه إلى قبره ودعا الله فقام. وفي الخبر لقاء الأم بابنها وبكاؤهما، ثم تخيير الرجل في البقاء أو الرجوع، واختياره الحياة مع ما يذكر من رزق وزواج وولد ومدة عشرين سنة. هذه التفاصيل تجعل الأم من الشخصيات المركزية في الخبر؛ فهي صاحبة الفقد والشوق، وليست شاهدًا يمكن حذفه مع إبقاء المعجزة سليمة السرد. [٢٠]

لا يسمي الكافي هذا الرجل لعازر، ولا يسمي أمه أو زوجته أو أبناءه. وتنقل الفهرسة الحديثية حكم المجلسي على طريقه بالضعف في مرآة العقول؛ فلا يقدم هنا بوصفه خبرًا صحيحًا متفقًا عليه. ووجود خبر آخر عن لعازر وأخته لا يسمح بضم الروايتين في ترجمة واحدة. كذلك لا يثبت ذكر الزواج اسم زوجة أو عدد أولاد. فيفهرس هنا الصديق وأمه، وتذكر زوجته وذريته بوصفهما وردا ضمن مستقبل حياته في الخبر. أما العمر الزائد فهو من مضمون الرواية، لا قاعدة عامة لكل من أحياه عيسى ولا وعدًا لكل من دعا عند قبر. [١٨, ٢٠]

٢٢. سام بن نوح ودلالة إحياء الموتى

يروي العياشي، ونقل الراوندي أيضًا، خبر إحياء سام بن نوح بطلب من قوم عيسى. وفيه دعاؤه أن يقوم بإذن الله، ثم اختيار سام العودة إلى قبره لما يجد من أثر الموت. سام شخصية مسمّاة في الخبر، ونوح أبوه، لكن الآيات التي تثبت الإحياء لا تسميه. لذلك يقال: ورد في الرواية أنه أحيا سامًا؛ ولا يقال إن القرآن عدّ سامًا من الذين أحياهم عيسى. وهذا فرق صغير في العبارة، كبير في أمانة النقل. [١٢؛ ح٣١٠، ١٧، ٥١]

ولا تتطابق وظائف جميع قصص الإحياء: فخبر الصديق يبرز رحمة الأم والرزق بعد الرجوع، وخبر سام يبرز رهبة الموت، وخبر ابن الملك يأتي في سياق إقامة الحجة على سلطة معاندة، وخبر يحيى له سياق موعظة. جمعها تحت عنوان المعجزة مفيد، أما تحويلها إلى واقعة واحدة متكررة الأسماء فيضيع خصائصها. والمشترك الذي يبقى فوق تفاصيل الأخبار هو أن الحياة موهوبة من الله، وأن عيسى لا يدعي الألوهية بسبب ما أجراه الله على يديه. [١٧, ٢٠, ٣٧]

٢٣. لعازر وأخته وابن العجوز وابنة العاشر

يذكر مجمع البيان عند آل عمران ٤٩، بصيغة «قيل»، أربعة ممن أحياهم عيسى: عازر، الذي يرد اسمه أيضًا بصيغة لعازر، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح. وفي التفصيل تحضر أخت الأول وأم الثاني وأبو الثالثة. هذه الشخصيات مهمة في الاستدراك، لكن مقامها مقام خبر تفسيري منقول، لا قائمة قرآنية ولا حديث مصرح فيه بأنه عن الإمام. وإذا كان اسم أحدهم معروفًا في تقليد آخر فلا يثبت به اسم شقيقته أو والديه في المصدر الإمامي المستعمل. [١٨]

وعبارة «ابنة العاشر» وصف لأبيها وعمله في جباية العشر، وليست اسمًا شخصيًا للفتاة. كما أن الأم المسنة في هذا الخبر لا تثبت هويتها بأم الصديق في الكافي، ولا بالعجوز التي يظهر ابنها في حكاية الكنز والملك. ويبقى في السجل ثلاث نساء متميزات على الأقل بحسب موارد النقل: أخت لعازر، وأم ابن العجوز، وابنة العاشر، فضلًا عن أم الصديق. إبقاء الفروق أولى من تقليل العدد على أساس تشابه عناصر الحكاية. [١٨, ٢٠, ٢٣]

٢٤. الحواريون: الاستجابة لا مجرد اللقب

حين أحس عيسى الكفر قال: «من أنصاري إلى الله»، فأجاب الحواريون: «نحن أنصار الله»، وأعلنوا الإيمان وطلبوا أن يكتبوا مع الشاهدين. وفي الصف يدعو القرآن المؤمنين إلى أن يكونوا أنصار الله ويستحضر هذا الجواب. فالمقام مقام ولاء ونصرة ومسؤولية، لا مجرد صحبة مكانية. لا يسمي القرآن الحواريين فردًا فردًا ولا يذكر عددهم هنا؛ والعدد اثنا عشر والتعيينات الشخصية يأتيان في الروايات، فينسب كل مستوى إلى مصدره. [١, ٦, ٢٣]

وفي تفسير لقب الحواريين نقل عن الرضا أنهم كانوا يطهرون أنفسهم ويطهرون غيرهم من الذنوب بالموعظة، في مقابل تفسير مشهور يربط اللقب بتبييض الثياب. يذكر الوجهان بحسب جهة النقل، ولا يثبت أن كل حواري كان قصّارًا لمجرد تداول هذا الاشتقاق. كما أن الوحي إليهم في المائدة لا يجعلهم أنبياء بالضرورة؛ فقد يستعمل الوحي للإلهام والإلقاء بحسب السياق، وترد في التفسير رواية تنفي أن يكون كل من أوحي إليه نبيًا. [٣, ٢٣]

٢٥. أسماء التلاميذ وعلماء الإنجيل

شمعون أو سمعان، الذي يرد بوصفه وصيًا وناصرًا، هو أوضح اسم يتصل باستمرار أمر عيسى في الأخبار المستعملة. وفي خبر مناظرة الرضا يرد أن الحواريين اثنا عشر، وأن أعلمهم وأفضلهم «ألوقا» أو «الوقا» بحسب ضبط النص. لا يصح استبدال هذه الكلمة باسم آخر لموافقة قائمة مألوفة، ولا بناء حكم نهائي في مطابقتها لشخصية إنجيلية قبل فحص النسخ. كذلك تذكر الرواية يوحنا الأكبر، ويوحنا بقرقيسيا، ويوحنا الديلمي، مع اضطراب في بعض أسماء المواضع الملحقة بهم. [٢٣, ٣٣–٣٥]

ثم تظهر في الكلام على تدوين الإنجيل أسماء ألوقا ومرقابوس ومتى ويوحنا. ورود هذه الأسماء في فقرة عن تدوين النص لا يجعلها تلقائيًا قائمة الحواريين نفسها. ويوحنا المعاصر للرضا، الذي يسمى أبو قرة في خبر آخر ويذكر اسمه عند السؤال، ليس أحد هؤلاء القدماء لمجرد اتفاق الاسم. لهذا يحفظ الفهرس سياق كل اسم ووظيفته: حواري أو وصي، عالم في رواية قديمة، منسوب إليه تدوين الإنجيل، أو محاور عاش في عصر الإمام. [٣٣–٣٥]

٢٦. غسل أقدام الحواريين: العالم في خدمة الناس

يروي الكافي أن عيسى طلب من الحواريين حاجة، فلما وافقوا قام يغسل أقدامهم. استحضر الخبر معنى التواضع، وأن أولى الناس بالخدمة صاحب العلم، ليقتدي المتعلمون بالفعل لا بالخطاب وحده. ويقرن الموعظة بصورة الزرع الذي ينبت في السهل ولا يثبت على الصخر؛ فالتواضع أرض تقبل العلم، والكبر يعطل الانتفاع به. وهذه القصة من أكثر الأخبار اتصالًا بتكوين جماعة الرسالة من داخلها، لأنها تعالج علاقة المعلم بأصحابه. [٢٢]

وفي طريق الخبر رفعٌ ينبغي ألا يغيب عند التوثيق. لكن إظهار حال السند لا يقتضي إسقاط المضمون من باب المواعظ، كما لا يجيز الجزم بأنه متفق على صحته. ولا يلزم من غسل الأقدام هنا حكم طهارة مخصوص في فقه الوضوء؛ فالخبر حكاية خدمة وتربية، وتفصيل الأحكام يستند إلى أدلته. ويتقدم فيه الحواريون بوصفهم متعلمين قابلين للتأديب، لا جماعة كاملة لا تخطئ ولا تحتاج إلى مراجعة النفس. [٢٢]

٢٧. الرفيق القصير والمشي على الماء

في الكافي خبر عن الصادق أن عيسى خرج في بعض سياحته ومعه رجل قصير، فمشى عيسى على الماء بإذن الله ومشى صاحبه، ثم دخل الرجل العجب وطلب المساواة بمقام عيسى فغاص، فاستغاث فأخرجه عيسى ونبهه إلى موضع الخلل. الرجل غير مسمى في النص؛ لذلك لا يوضع اسم بطرس في موضعه من غير دليل من هذه الرواية. والمعجزة هنا تقترن بمحاسبة النفس، لا بسباق في خوارق العادات. [٢١]

والعبرة لا تتعلق بقصر القامة بوصفه عيبًا أخلاقيًا؛ فهذه علامة تعريف للشخص في الخبر، بينما الخلل هو العجب وتجاوز الحد. كما أن إنقاذه وتوبته عنصران لا ينبغي حذفهما لصالح مشهد العقوبة وحده. يقرن الخبر القدرة بالافتقار إلى الله، ويجعل الرجوع عن الزلل ممكنًا. وليس في ذلك دعوة إلى اختبار سلامة المرء بالمشي على الماء أو تعريض النفس للخطر؛ فالمأذون لنبي لا يصير تجربة عامة يطالب الناس بتكرارها. [٢١, ٢٥]

٢٨. الدعاء والشك والعمل لكفاية الناس

ومن أخبار الحواريين رجل يتعبد ويدعو مدة فلا يرى الإجابة، فيكشف عيسى ما علق بقلبه من شك في المقام الذي أمر باتباعه، ثم يدعو له فيزول الحاجز. يعرض الخبر صلة الدعاء بالصدق واليقين في سياقه، ولا يتحول إلى قاعدة للحكم على كل مبتلى أو متأخر الإجابة بأنه مذنب أو منافق. وليس المقصود وصم الوسواس القهري أو معاناة نفسية معاصرة باسم الشك الديني؛ فهذه تعيينات لم يتحدث عنها النص. [٢٣]

وفي خبر آخر يسأل الحواريون عمن هو أفضل منهم لما يرونه من الآيات، فيوجههم عيسى إلى من يعمل بيده ليكفي غيره. ويروي الكافي سؤالًا عن صعوبة كسب القوت مقارنة بالمشي على الماء، بما يكسر وهم أن الحياة الإيمانية استعراض للكرامات مع ترك أعباء العيش للآخرين. وتجمع هذه النصوص، على اختلاف طرقها، بين التوكل والسعي، وبين عبادة الله وتحمل مسؤولية الطعام والكسوة والرعاية. [٢٣]

٢٩. المائدة: السؤال والدعاء والاستجابة

تروي المائدة أن الحواريين سألوا عيسى نزول مائدة من السماء، فذكّرهم بتقوى الله، ثم بينوا أنهم يريدون الأكل واطمئنان القلوب والعلم بصدقه والشهادة على الآية. ودعا عيسى ربه أن تكون عيدًا لأولهم وآخرهم وآية منه، وأن يرزقهم وهو خير الرازقين. يجمع هذا الدعاء الطعام والمعنى: ليس كل المقصود سد الجوع، بل تثبيت العهد والشهادة وتذكر النعمة. وأسماء طالبي المائدة لا ترد مفصلة في القرآن. [٣]

ووعد الله بإنزالها مع وعيد شديد لمن يكفر بعد هذه الآية. وتناقش التفاسير قراءة «هل يستطيع ربك» وقراءة الخطاب لعيسى وما يراد بالسؤال، فلا يقرر من غير شرح أن الحواريين جهلوا قدرة الله المطلقة أو كفروا جميعًا. ويمكن أن يعرض سؤالهم بوصفه طلب تحقق الفعل أو الدعاء به بحسب وجه القراءة والتفسير. وتبقى حقيقة الحساب مرتبطة بمن يكفر بعد قيام الحجة، لا بكل من انتسب إلى جماعة الحواريين في جميع الروايات. [٣, ٣١]

٣٠. طعام المائدة والمخالفون: حدود التفصيل

تذكر الأخبار أصنافًا وأعدادًا للطعام، ومن ذلك تسعة أرغفة وتسع سمكات، وتذكر في بعض الألفاظ سلاسل من ذهب. وللنصوص اختلافات في ضبط بعض كلمات السمك وما يشبهها، فلا يطمس اختلاف النسخة بكتابة تفصيل واحد على أنه القرآن. كما يروى أن بعضهم أكل قبل الإذن أو خالف العهد، وترد أخبار المسخ والعقوبة. هذه التفاصيل تجمع في بابها ويعين مصدرها، ولا يخلط بينها وبين أصل نزول المائدة الذي يعرضه النص القرآني. [١٧, ١٩, ٣١]

وفي خبر العياشي أن عيسى تكلم بما يحفظ شأن أحد أصحابه في واقعة الطعام، مع اختلاف تفسير المقصود من إنكاره. لا يستخرج من هذا وحده ترخيص عام للكذب أو إخفاء الجرائم، ولا يعاد بناء الواقعة بأسماء غائبة. ومن لعن العصاة على لسان داود وعيسى في المائدة ٧٨–٧٩ يظهر سبب أخلاقي صريح: العصيان والاعتداء وترك التناهي عن المنكر. فالذم متعلق بالفعل والموقف، لا بصفة وراثية في شعب أو جنس. [٣, ١٧]

٣١. الرسل إلى ملك الروم وابنه

في قصص الراوندي خبر أن عيسى بعث رجلًا إلى الروم يؤيد بالشفاء، فاستدعاه الملك بعد ظهور آيته، ثم بعث رسولًا آخر يعرف ما علّمه الله من إحياء الموتى. وتصل القصة إلى قبر ابن الملك، فيدعو أحد الرسولين ويؤمّن الآخر، ويقوم الابن ويشهد لهما. وتظهر في هذه الرواية شخصيات منفصلة: عيسى المرسل، والرسولان غير المسمّيين، والملك، وابنه، والغلام الذي شفي بصره، والجمهور. لا يذكر المصدر هنا اسم الملك ولا يلزم أن يكون هو ملك كل رواية أخرى. [١٢؛ ح٣٠٩]

المعجزة في هذه الصورة تجري على يد رسول عيسى بإذن الله، فلا يجوز تحويل النص إلى أن عيسى حضر بنفسه كل تفصيل. ويبرز تعاون الداعية وزميله في إقامة الحجة بدل تنازعهما على الفضل. وتعرض الرواية كذلك خطر الغلو عقب الآية؛ فاستعظام الناس للشفاء لا يبيح انتقالهم من تصديق الرسول إلى تأليه المرسل أو الطبيب. هكذا تتصل القصة بمبدأ العبودية الذي تكرر منذ كلام المهد. [١٢, ١٧]

٣٢. أنطاكية وشمعون: روايات متقاربة لا متن واحد

وترد قصة أخرى عن مبعوثين حُبسا عند ملك، ثم رجل ثالث دخل في تدبير هادئ حتى أمكن إظهار الحجة. وفي خبر الراوندي يسمى الثالث شمعون، وتحضر شخصيات الملك ووزرائه وبعض المرضى وابنه الميت. وفي تفسير القمي عن الباقر تظهر صورة فيها رسولان ورفيق ثالث مع تفاصيل أخرى. تشابه الهيكل لا يثبت تطابق كل أسماء الأشخاص أو مدد السجن أو أعداد المرضى، ولذلك تعرض الروايات متجاورة ولا تصهر في مشهد واحد طويل. [١٧، ١٩؛ ح٣٣٢]

ومن المهم أن سورة يس، في قصة أصحاب القرية والمرسلين، لا تسمي القرية أنطاكية، ولا تنص على أن المرسلين من حواريي عيسى، ولا تسمي الثلاثة. وهذه تعيينات تفسيرية روائية. كما أن رواية تنتهي بإيمان أهل المدينة جميعًا لا تطابق بلا شرح الآيات التي تذكر أخذ المكذبين بصيحة. حفظ هذا الفرق يمنع أن يتحول اسم أنطاكية الشائع إلى مفتاح يلغي اختلاف النصوص، ويمهد لتفصيل شخصية شمعون في الفصل التالي. [٢٣, ١٩]

٣٣. مؤمن آل يس وحبيب وآسية

يظهر الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى في سورة يس مدافعًا عن المرسلين، داعيًا قومه إلى اتباع من لا يسأل أجرًا. القرآن لا يذكر اسمه، بينما اشتهر حبيب النجار في التفسير، وترد أخبار عن حبيب ومؤمن آل يس في المجاميع الإمامية. ومن ذلك خبر يذكر ابتلاءه في بدنه مع ثباته على الإيمان، فينقض قياس الكرامة عند الله على سلامة الجسد أو الغنى. ولا يقتضي ذلك أن كل صفة طيبة في الحكايات متفقة الرواية. [١٧, ٢٣]

وفي خبر الخصال عن جابر تُجمع شخصيات مؤمن آل يس وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون في الثبات على الإيمان. هذه مقارنة في الفضل، لا اجتماع زمني بين الثلاثة. وترد في مصادر أخرى صيغة تضم حبيبًا وحزقيل وعليًا؛ فلا تستبدل صيغة بأخرى أو تسقط آسية من الخبر الأول. وهكذا تدخل آسية في نطاق الفصل من جهة المقارنة الروائية المرتبطة بالمؤمن الناصر، مع بقاء قصتها الأصلية في سياق موسى وفرعون. [٢٣]

٣٤. إبليس والجدل في المعجزات

جمع المجلسي بابًا في مناظرات عيسى مع إبليس، وفيه خبر عن ابن عباس يعدد وجوه احتجاج إبليس بالولادة والشفاء والإحياء، ويأتي جواب عيسى بردها إلى قدرة الله وخلق آدم وحواء. هذا الخبر مروي عن ابن عباس في موضعه، فلا ينقل على أنه لفظ مباشر لإمام من أهل البيت. وترد في آخره جنية غير مسماة تسأل إبليس عن حاله؛ فيذكرها سجل الشخصيات غير البشرية، ولا تحذف لأنها أنثى ولا تحول إلى امرأة بشرية. [٢٥]

ولا تثبت أقوال إبليس في هذه القصص كل ما يدعيه عن نفسه أو قدرته أو رجائه؛ فالراوي قد يحكي قول خصم لا يقره. وكذلك لا يدل بكاؤه في حكاية على تحقق توبته وقبولها ما لم ينص الدليل على ذلك. ويستفاد من الحوار في حدوده أن ظهور الآية لا يجيز تأليه صاحبها، وأن التأويل الفاسد للكرامة قد يكون بابًا للفتنة بقدر ما تكون الكرامة نفسها حجة على صدق النبي. [٢٥]

٣٥. الامتحان المحظور وحدود السؤال

في خبر الراوندي يظهر إبليس لعيسى في صورة ملك فلسطين، ويطلب منه أن يلقي نفسه من جبل، فيجيبه بأن ما أظهره من الآيات مأذون فيه، وهذا لم يؤذن له فيه. وفي خبر آخر يرفض عيسى أن يمتحن العبد ربه، وترد مسألة الأرض والبيضة في سياق التمييز بين القدرة والتناقض في فرض السؤال. «ملك فلسطين» هنا هيئة تمثل بها إبليس داخل الخبر، وليس بالضرورة ملكًا بشريًا آخر ينبغي إنشاء سيرة له. [١٢؛ ح٣١١–٣١٢، ٢٥]

والفرق بين الثقة بالله والمجازفة واضح في البناء الروائي: النبوة طاعة، وليست مطالبة لله بأن يوافق كل اقتراح خصم. كما أن تعليق المصنف الذي يشرح استحالة فرض ما لا يصبح كلامًا لعيسى لمجرد اتصاله بالخبر في الصفحة. لذلك يميز النقل بين الجواب المروي وبين عبارة «يعني» أو تفسير الراوندي أو المجلسي. وهذه قاعدة لازمة في جميع الأبواب، إذ كثيرًا ما يتبع الحديث بيان من الجامع يحتاج إلى فصل في النسبة. [١٢, ٢٥]

٣٦. الزهد في نهج البلاغة وحقيقة الاقتداء

يعرض أمير المؤمنين عيسى مثالًا في قلة التعلق بالدنيا: وسادة من حجر، ولباس خشن، وقوت متواضع، واليدان خادمتاه والرجلان دابته. ويذكر عدم الزوجة والولد في هذه الصورة من سيرته. الغاية من المقطع كسر العبودية للترف والتفاخر، لا الحط من قيمة المرأة أو الطفل أو الرزق الحلال. وهو واحد من أمثلة الأنبياء في الخطبة، فيقرأ مع غرضها العام، لا بوصفه أمرًا لكل مؤمن أن يعيش تفاصيل الحياة نفسها. [٣٢]

وترد أخبار أخرى تصف طعامه وسياحته ولباسه، وتذكر تلبيته في الروحاء: «لبيك عبدك ابن أمتك». يجمع هذا الوصف بين العبودية والانتساب إلى مريم، ويصل سيرته بعبادة الله التي عرفها الأنبياء. ولا تثبت هذه الأخبار قائمة رحلات مؤرخة ولا كل تفصيل شائع عن لباس بعينه. والاقتداء الأخلاقي الممكن هو القناعة والتواضع والرحمة، مع أداء واجبات الكسب والأسرة لمن تعلقت به، وقد سبقت أخبار تفضل من يكفي غيره بعمله. [١٧, ٢٣, ٣٢]

٣٧. الزواج والمرأة: التفريق بين السيرة والحكاية

لا تثبت النصوص الإمامية التي اعتمدها هذا الفصل زوجة لعيسى أو ذرية من صلبه، ويوافق ذلك الوصف المنقول في نهج البلاغة. ولا يكفي غياب الاسم من القرآن وحده لنفي كل خبر محتمل؛ إنما يضبط الكلام بحدود ما روجع من المصادر. أما الأخبار عن عروس أو امرأة متزوجة أو امرأة تسأل عيسى فكلها تتعلق بنساء أخريات، ولا يصح تحويل إحداهن إلى زوجة له. كذلك ليس اسم مريم في كل قصة دليلًا على أنها مريم أمه أو شخصية أخرى اشتهرت في تراث مختلف. [١٧, ١٩, ٣٢]

ويروي الراوندي وعلل الشرائع خبر زوجين يشكو الرجل تغير هيئة امرأته مع صلاحها، فيرد توجيه إلى الاعتدال في الطعام. هذه امرأة متزوجة وزوجها غير مسميين، ولا علاقة لهما بعروس الصدقة. ويذكر الخبر في أدب المعاشرة والرواية التاريخية من غير اعتماد تفسيره الجسدي وصفةً طبية، ومن غير اختزال قيمة الزوجة في مظهرها. وفي بعض المواعظ المرسلة امرأة خاطبها عيسى أو رأى منها ما اجتنبه؛ لا يثبت بهذا وصف عام للنساء، ولا صلة زواج به. [١٩؛ ح٣٢٨، ٢٤، ٥٧]

٣٨. الرجال الثلاثة ولبنات الذهب

في أمالي الصدوق، عن الصادق، أن عيسى مر ومعه ثلاثة من أصحابه بلبنات من ذهب، فحذرهم من فتنتها ومضى. رجعوا إليها واحدًا بعد آخر، ثم أرسل اثنان الثالث ليشتري الطعام. عزم المرسَل على تسميمهما ليختص بالذهب، وعزما على قتله للغرض نفسه؛ فقتل عند عودته، وأكلا الطعام فماتا. ثم عاد عيسى فأحياهم بإذن الله وذكّرهم بما حذرهم منه. القصة كاملة في تواطؤ الطمع مع الخيانة، لا في كون الذهب مادة محرمة لذاتها. [٢٤؛ ح٥]

لا يسمي الخبر الرجال الثلاثة، ولا يذكر أنهم جميع الحواريين أو أن أحدهم يهودا. كما لا تضاف إليه واقعة رغيف مأكول أو رفيق يهودي لم ترد في هذا الطريق، وإن تداولت كتب أخرى قصة متشابهة. وهم يدخلون في حصر من أحياهم عيسى بحسب الروايات، لكنهم يختلفون عن الصديق وسام وابن الملك. والمغزى أن طلب الاستئثار قد يجعل كل متآمر يقع في التدبير الذي أراده لصاحبه، ثم تأتي الإحياء والموعظة لفتح باب الاعتبار. [٢٤]

٣٩. العروس التي تصدقت

يروي الصدوق، ونقله الراوندي، أن عيسى مر بقوم يحتفلون بزواج فتاة، وأخبر بما كان ينتظرها من موت في تلك الليلة. فلما أصبحت حية اختلف المصدقون والمنافقون في الخبر، فجاءها وسألها عما فعلت. ذكرت سائلًا اعتاد أن يأتيهم، وأنها قامت من بين انشغال الناس فأعطته طعامًا. وفي بقية القصة تظهر حية في موضع كان يمكن أن يصيبها، ويبين عيسى أثر الصدقة في دفع البلاء. العروس هي صاحبة الفعل الذي غيّر مسار المشهد. [١٩؛ ح٣١٧، ٥٥]

ويحضر الزوج الذي يستأذن لها ويراعي سترها، والسائل المحتاج ومن وراءه من أهل، وأهل العرس، والمصدقون والمشككون؛ ولا يسمى أحد منهم باسم شخصي. ولا ينبغي اختزال المرأة إلى عنوان «نجت من الحية» مع إسقاط مبادرتها. كما يشرح الخبر في باب القدر المشروط والدعاء والصدقة، لا بوصفه تغيرًا في علم الله أو إخفاقًا متعمدًا للنبي. ولا ينتج منه وعد بأن كل صدقة تمنع كل موت؛ فهو واقعة روائية لها سياقها، ومعناها الأخلاقي حفظ المحتاج وسط فرح القادرين. [٥٥]

٤٠. الأب في القبر والابن واليتيم

في أمالي الصدوق خبر مرور عيسى بقبر يعذب صاحبه، ثم مروره به في عام آخر وقد رفع عنه العذاب، فسأل ربه عن ذلك. يذكر الخبر أن ابنًا صالحًا أدرك لصاحب القبر، فأصلح طريقًا وآوى يتيمًا، فكان لهذا العمل أثر في رحمة الأب. لا يسمى الأب أو الابن أو اليتيم. وهذه ثلاثة أدوار ينبغي حفظها: ميت ينتفع، وولد يعمل، وطفل محروم يجد مأوى؛ فاليتيم ليس تفصيلًا زائدًا يمكن حذفه من سبب الرحمة. [٣٨]

وفي ذيل الخبر وصية من عيسى ليحيى في تلقي النقد: أن يستغفر الله إن كان العيب حقًّا، وأن يحمده إذا نُسب إليه ما ليس فيه، فتجتمع فيه صلة الأجيال وصلة النبيين. ولا يفيد هذا أن الإنسان يملك شراء مغفرة غيره أو إسقاط حقوق الناس بمجرد تبرع؛ فالنص يروي فضلًا من الله على عمل صالح. ويثبت منه اتساع النفع إلى ما بعد موت الفاعل الأول، وتقدم إصلاح المرافق ورعاية الضعيف على تصور العبادة عملًا فرديًا لا يمس حاجات الناس. [٣٨]

٤١. الرجل المعترف ويحيى وعيسى

في من لا يحضره الفقيه خبر رجل أقر عند عيسى بفاحشة وأراد إقامة الحكم عليه. وفيه دعوة من كان عليه ذنب إلى الانصراف، فانصرف الناس وبقي يحيى وعيسى، ثم طلب يحيى من الرجل موعظة. وتدور الكلمات المنقولة على ألا يعير مذنب بذنبه، وألا يشتد الغضب، وأن تراجع النفس. المقر في هذه الرواية رجل، فلا يستبدل بامرأة زانية لموافقة مشهد معروف في تقليد آخر، ولا يسقط اسم يحيى الذي يؤدي دورًا واضحًا. [٣٩]

المقام هنا تحقيق رواية في أخلاق التوبة والتواضع، لا إصدار حكم فقهي معاصر ولا تفويض أفراد بإقامة عقوبات. ومن قوة الموعظة في الخبر أن طالب النصح نبي، وأن المتكلم رجل أقر بزلله؛ فلا يمنع التعلم من الحكمة كون قائلها محتاجًا إلى التوبة. كذلك لا تروى القصة بصيغة تبرئ كل ما وقع أو تلغي حقوق المتضررين؛ بل يحفظ غرضها المحدد، مع ترك شروط الإثبات والحدود إلى أبوابها الفقهية المختصة. [٣٩]

٤٢. الشيخ الزارع والأمل والعمل

تنقل مجموعة ورام قصة شيخ يعمل بمسحاة، يسأل عيسى ربه أن ينزع الأمل من قلبه، فيلقي الشيخ أداته ويضطجع، ثم يسأل رده فيعود إلى العمل. ولما سئل الشيخ شرح أنه تذكر الموت فترك السعي، ثم رأى أنه يحتاج إلى العيش ما دام حيًا. هذه حكاية وعظية تروى بطريقها، لا خبرًا مسندًا في درجة روايات الكافي. واسم الشيخ غير معلوم، لكن موقعه مهم لأنه يمثل العمل المنتج في مقابل الفهم المعطل للزهد. [٥٧]

ويفسر هذا الخبر جانبًا من التوازن في مواعظ عيسى: ذم طول الأمل ليس إلغاء التخطيط والكسب، كما أن ذكر الموت لا يوجب تضييع النفس أو العيال. وفي مقابل ذلك تظهر الدنيا في بعض الأخبار بصورة عجوز مزينة قد أفنت أزواجًا كثيرين. هذه صورة تمثيلية للدنيا، وليست امرأة تاريخية يجب البحث عن اسمها، ولا دليلًا على أن النساء مصدر الشر. ويفصل الفهرس بين الشخص الحقيقي في القصة والرمز الأدبي. [٢٤, ٥٧]

٤٣. القرية الهالكة وصوت الرجل

في معاني الأخبار قصة قرية أهلك أهلها، سأل عيسى عن حالهم فتكلم رجل منهم وذكر طاعة الطواغيت وحب الدنيا، وبيّن أنه كان بينهم ولم يكن على حالهم في جميع الأمور، ثم أصابه ما أصابهم. المقصود الروائي التحذير من الاندماج في الظلم والغفلة، ويظهر فيه الرجل غير المسمى شاهدًا على تجربة يتعظ بها السامعون. وتذكر القصة ما يلقاه في البرزخ بلغة الوعظ، فلا تحول كل صورة إلى خريطة مادية قطعية لما وراء الموت. [٢٤؛ ح٣٣]

ولا تتيح هذه الحكاية الحكم على ضحايا زلزال أو وباء أو حرب في عصرنا بأنهم أهل عقوبة؛ فتعيين سر البلاء يحتاج إلى وحي، والظن لا يقوم مقامه. كما لا تثبت سلامة شخص لأنه نجا من حادثة. القدر المتصل بالفصل هو خبر عيسى والرجل وأهل القرية، ودعوته إلى الاعتبار وعدم طاعة الظالم. ويقرأ إلى جوار نصوص الرحمة بالمبتلى التي تمنع اتخاذ مصيبته ذريعة للشماتة أو التحقير. [١٧, ٢٤]

٤٤. العالم والعمل ومسؤولية التعليم

تكثر في مواعظ عيسى مقابلة العلم النافع بالعلم الذي يصير وسيلة إلى المال والجاه. فليس الفضل بكثرة الكلام وحدها، بل بأن يصدق العمل القول، وأن توضع الحكمة في موضعها، وألا يعان ظالم على ظلمه. وفي بعض الأخبار يشبه العالم الذي لا يعمل بمن يظهر للناس جمالًا ويخفي ضررًا. وتستعمل هذه الأمثال في نقد التناقض بين الظاهر والباطن، لا في إسقاط العلم وأهله جميعًا أو مساواة الأمين بالمتاجر بالدين. [٢٤, ٤١]

وفي تعليم الحواريين يظهر أن التواضع شرط لقبول الحكمة، وأن المعلم مسؤول عن أثره في الناس. فلا يجوز تفسير التحذير من بذل الحكمة لغير أهلها حيلةً لاحتكار التعليم أو حرمان الضعيف؛ إذ يجمع التراث نفسه بين صيانة العلم وإيصاله إلى من ينتفع به. ويحتاج الواعظ إلى ما ينصح به قبل أن يجعل الموعظة امتحانًا للآخرين وحدهم. هذا المعنى يربط خبر غسل الأقدام بسائر كلمات الزهد، ويمنع فصل الأخلاق عن طريقة نقلها. [٢٢, ٢٤]

٤٥. اللسان والصحبة والنظر إلى المحاسن

تورد روايات الكافي عن عيسى التحذير من كثرة الكلام في غير ذكر الله، ومن الكذب الذي يذهب ببهاء صاحبه، ومن مخالطة من يفسد القلب والعمل. وفي سؤال الحواريين عمن يجالسون يأتي وصف من يذكر بالله منظره، ويزيد العلم منطقه، ويرغب في الآخرة عمله. فلا تقاس الصحبة بمجرد قوة التأثير أو لذة المجلس، بل بما تتركه في المعرفة والسلوك. والمقصود إصلاح الاختيار، لا ترك حقوق الأقارب والناس بحجة طلب صحبة مثالية. [٢٤؛ ح٧٠، ح٧٢–٧٣]

وفي حكاية ورام مر عيسى وأصحابه بكلب ميت، فذكروا نتن رائحته وذكر هو بياض أسنانه. لا يراد إلغاء حقيقة الأذى أو إنكار الموت، بل تدريب اللسان على ألا يستغرق في القبح إذا أمكن أن يرى وجهًا آخر. ويختلف موقع هذا الكلب عن الطير المصنوع من الطين والحية في خبر العروس؛ فكلها كائنات في السرد، لكن ليست كل واحدة معجزة أو رمزًا واحد المعنى. وتثبت الحكاية بوصفها موعظة منقولة لا نصًا قرآنيًا. [٥٧]

٤٦. الغضب والرحمة ورد الإساءة

تجعل أخبار من مواعظ عيسى الكبر والتجبر واحتقار الناس من أسباب الغضب، وتدعو إلى خفض الجناح ومراجعة النفس. وترد كلمات في مقابلة الإساءة بالإحسان، ومحبة ما يحبه المرء لنفسه للآخرين، والإصلاح بين المتخاصمين. هذه مضامين تتصل بجوهر دعوته إلى الرحمة، لكنها لا تلغي تمييز الحق من الباطل أو مسؤولية حماية المظلوم. فالعفو الشخصي فضيلة، ولا يملك الفرد به إسقاط حق غيره أو إعانة المعتدي على الاستمرار. [٢٤, ٤١]

ولهذا لا ينبغي تقديم صورة عيسى في المصادر الإمامية على أنها سلبية مطلقة أمام كل ظلم. ففي كتاب الزهد المنقول في البحار خبر عن قتال أهل البغي بتكريت، وهو خبر يحتاج إلى فحص طريقه وسياقه ولا يكفي وحده لبناء تاريخ عسكري. يجتمع التنبيه إليه مع عدم تحويل الموعظة إلى دعوة عنف: المقصود أن الصورة الروائية أوسع من شعار مبسط، وأن لكل واقعة درجتها، وأن نصرة الحق والرحمة لا يتنافيان من حيث الأصل. [٥٦]

٤٧. المناجاة الطويلة: التوحيد والرحمة والصدق

يحفظ روضة الكافي نصًا طويلًا فيما أوحى الله إلى عيسى، وله طرق أو صيغ في أمالي الصدوق وتحف العقول، وقد قابل المجلسي جملة من ألفاظه. تتكرر فيه عبودية عيسى، وحاجته إلى ربه، والأمر برحمة الضعيف وعدم قهر اليتيم، وخفض الصوت باللين وإفشاء السلام، ومراقبة العمل. ليس محور النص التنبؤ بالعجائب، بل بناء قلب حاضر ولسان صادق وعمل لا ينفصل عن الرحمة. وتظهر فيه محاسبة النفس قبل الافتتان بصلاح الظاهر. [٤٠]

ومن دقائقه النهي عن اختلاف السر والعلانية، وعن دعاء مقرون بالسحت والظلم، وعن الاغترار بمن يأكل رزق الله ثم يعصيه. وتحضر فيه أسماء آدم وإبراهيم ويحيى وأحمد في سياقات الأصل والقدوة والبشارة. وعبارات التحذير المشروطة لا تثبت أن عيسى ارتكب الذنب الذي حذر منه؛ فالوصية قد تكون حفظًا وتعليمًا. كما أن وصف الله بالبقاء وإخبار عيسى بفناء الدنيا يؤكدان الفارق بين الخالق والمخلوق، فلا يحمل مقام القرب على اتحاد الذاتين. [٤٠]

٤٨. مواعظ تحف العقول والأمثال

جمع تحف العقول مواعظ للمسيح تحت عنوان يتصل بالإنجيل وغيره، وفيها التطويب للرحماء والمصلحين ونقي القلوب، والتحذير من الرياء وطلب مدح الناس، وأمثال البذر والأرض والثمر. والنص مجموعة حكم بلا أسانيد مفصلة في هذا الموضع، فلا يقدم للقارئ باعتباره نسخة محققة من الإنجيل المنزل أو حديثًا واحدًا متصل السند. ومع ذلك فهو شاهد مهم على حضور أخلاق عيسى في الأدب الإمامي، ويستحق الذكر مع بيان طبيعته. [٤١]

وتحتاج الأمثال إلى قراءة تناسب جنسها: فساد الثمرة يكشف خلل الشجرة في التمثيل الأخلاقي، وتقديم كنز الآخرة يصحح ترتيب المحبة، والتحذير من العين التي تقود إلى الخطيئة يراد به كف النظر وضبط الإرادة. لا تنقل الصور الشديدة على أنها أمر بإيذاء الجسد. كما أن القصاص أو المنقولات الإنجيلية التي يذكرها ابن طاووس لها بابها من المقارنة، ولا ترفع تلقائيًا إلى مرتبة كلام إمام لمجرد إدراجها بين أبواب المواعظ. [٢٤, ٤١]

٤٩. الإحسان إلى الحيوان والرعاية اليومية

ومن الأخبار التي لا ينبغي إغفالها ما رواه الكافي عن المعلى بن خنيس عن الصادق في إلقاء عيسى شيئًا من قوته إلى دواب البحر، رجاء ثواب الله. يظهر في هذه اللفتة أن الرحمة ليست مقصورة على مشهد المعجزة أو على الإنسان صاحب المنزلة؛ بل تمتد إلى مخلوق لا يمدح المتصدق ولا يكافئه. وهذا المعنى يكمل خبر السائل في العرس واليتيم في خبر القبر، ويمنع اختزال سيرة الرحمة في خطاب نظري. [١٧؛ ح٥٥]

وترد في قصص الراوندي أخبار لأهل قرى يسألون عن أمراض أو آثار عادات غذائية، وأخبار طفل يبكي وزوجين يحتاجان إلى إصلاح حالهما. يثبت وجود هذه الشخصيات الجماعية والفردية في سجل الروايات، من غير إعادة نشر الوصفات القديمة بوصفها حقائق طبية متحققة. والمشترك السردي هو التفات عيسى إلى المعاناة اليومية، وأن صاحب الرسالة لا ينحصر اهتمامه في مناظرة الملوك أو مواجهة الخصوم، بل يصغي إلى الطفل والمرأة والمريض وصاحب الحاجة. [١٢, ١٩]

٥٠. شهادة عيسى يوم القيامة ومكانة مريم

في خاتمة المائدة يسأل الله عيسى عما نسب إليه من دعوة الناس إلى اتخاذه وأمه إلهين من دون الله، فينزه ربه وينفي أن يقول ما ليس له بحق، ويقرر أنه لم يأمر إلا بعبادة الله ربه وربهم. لا يقتضي السؤال جهلًا من الله، بل إظهار الحق وإقامة الحجة. وتفسر الأخبار صيغة الماضي في هذا الحوار على أنها إخبار عن المستقبل المتيقن. ومريم هنا ليست غائبة؛ فبراءتها من ادعاء الألوهية جزء من رد الغلو في شأن الابن والأم معًا. [٣, ١٧, ٢٤]

وتقرر المائدة أيضًا أنهما كانا يأكلان الطعام، وأن المسيح رسول وأمه صدّيقة. حجة الطعام بيان للاحتياج البشري، لا انتقاص من طهارتهما. وقوله «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» رد الأمر إلى علم الله وحكمته، لا إقرار بما ابتدع بعده ولا تفويض للمؤلف بالحكم على مصائر الأفراد. ويعرض الفصل الخلاف العقدي بوضوح مع احترام كرامة المخالف، فلا تتحول دراسة النصوص إلى سخرية من أتباع دين. [٣, ٤]

٥١. المباهلة: عيسى وآدم وأهل البيت

تصل آية المباهلة في آل عمران بين الحجة في خلق عيسى وبين حضور النبي وأقرب أهل بيته. فبعد الموازنة بآدم يأتي الأمر بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ثم الابتهال على الكاذبين. ويذكر مجمع البيان خروج رسول الله ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين. هؤلاء شخصيات الحدث في عصر الإسلام، وليسوا شهودًا على ميلاد عيسى؛ وصلتهم بالفصل أن الجدل كان في حقيقة المسيح، وأنهم حضروا آية نصرة الحق في شأنه. [١, ٤٣]

وفي الطرف الآخر وفد نجران، ويذكر التفسير العاقب والسيد والأسقف أبا حارثة. وتتوسع كتب السيرة في أسمائهم وتفاصيل الوفد، لكن يكفي في هذا الفصل تثبيت من ورد في المصدر المستعمل دون ملء القائمة بأسماء غير مراجعة. وفاطمة هي المرأة المعينة في هذا المشهد بحسب الرواية التفسيرية؛ فلا تذاب في تعبير عام عن «نساء أهل البيت». كما يميز بين ألفاظ الآية التي لا تسمي الأفراد وبين الأخبار التي تعين مصاديقها. [٤٣]

٥٢. البشارة بأحمد ووحدة العهد

تنص الصف على قول عيسى لبني إسرائيل إنه رسول الله إليهم مصدقًا للتوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد. يثبت الاسم هنا بنص القرآن، لا باشتقاق لغوي ظني ولا بمقابلة غير محققة مع لغة أخرى. وتورد روايات الكافي أن الأنبياء بشر بعضهم ببعض حتى انتهى الأمر إلى محمد، وأن عيسى بشّر بالنبي من ولد إسماعيل. فتظهر صلة إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى ومحمد في استمرار الوعد، مع اختلاف وظائفهم وشرائعهم. [٦, ٣٥]

وتذكر مواعظ منقولة أوصاف النبي وأهل بيته وامرأة مباركة وذرية مرتبطة بالشهادة. غير أن بعض الألفاظ لا تصرح باسم المرأة، بل ترد بصيغ تجمع أوصافًا تحتاج إلى تفسير. فلا يكتب اسم فاطمة أو خديجة داخل النص المنقول إذا لم يكن فيه، وإن شرح المفسر جهة حمله. وتثبت البشارة القرآنية مستقلة عن صحة كل تفصيل في تلك الأخبار، فلا يجعل اختلاف رواية فرعية سببًا لرد الأصل، ولا قوة الأصل سببًا لتصحيح كل زيادة. [٢٤؛ ح٦، ١٩؛ ح٣١٨، ٣٥، ٤٠]

٥٣. مناظرة الرضا: المعجزة لا تثبت الألوهية

يروي الصدوق مجلسًا للرضا بحضرة المأمون، ينقله الحسن بن محمد النوفلي، جُمع فيه الجاثليق ورأس الجالوت وغيرهما من أهل المقالات. ويستفهم الإمام عن عبادة عيسى وصومه وصلاته ليبين أن العابد متوجه إلى رب، ثم يناقش الاستدلال بالإحياء على الألوهية. ويذكر اليسع وحزقيل وإبراهيم وموسى ومحمد في أمثلة إلهية أخرى. المقارنة لا تسلب عيسى فضله؛ بل تبطل القفز من فعل خارق أجراه الله على يد نبي إلى استحقاق ذلك النبي للعبادة. [٣٣, ٣٤]

ويحضر في إطار المجلس الفضل بن سهل، وياسر الخادم، ومحمد بن جعفر، وقسطاس الرومي الذي تختلف بعض النقول في ضبط اسمه، والهربذ الأكبر، وعمران الصابئ. وداخل الاحتجاج تظهر أسماء شعيا وحيقوق أو حبقوق وداود، كما يرد بختنصر في خبر مقارن عن بني إسرائيل. تدرج هذه الأسماء في باب تلقي قصة عيسى والاحتجاج بها، لا في قائمة معاصريه. ويُحفظ كون المجلس خبرًا ذا طريق؛ فلا يجعل السرد تحقيقًا مستقلًا لكل واقعة تاريخية وردت في احتجاجه. [٣٣, ٣٤]

٥٤. الإنجيل المنزل والنصوص المتداولة

تتناول مناظرة الرضا الفرق بين الإنجيل الأول وما دون بعد افتقاده، وتذكر ألوقا ومرقابوس ويوحنا ومتى في سياق جمع النص وتناقض بعض النسب والأقوال المنقولة. ينبغي أن تروى هذه المادة بوصفها مضمون المناظرة كما نقلت، لا أن توضع أقوالها بين علامتي اقتباس وتنسب إلى مواضع في الأناجيل الحالية من غير مقابلة فعلية. كما لا يصح اعتماد ترتيب أسماء الآباء الوارد في احتجاج روائي شجرة نسب تاريخية محققة لعيسى. [٣٣, ٣٤]

ويظهر لفظ الفارقليط أو البارقلطا في البشارة، مع اختلاف الرسم بين النقول. يذكر تفسيره في سياق الرواية الإسلامية، لكن لا يدعى أن تغيير حروف كلمة يونانية قد ثبت مخطوطيًا من غير دليل. وفي خبر مستقل يحاور الرضا أبا قرة الذي يسمي نفسه يوحنا، موضحًا أن الإيمان بعيسى في الإسلام متصل بإقراره بالعبودية وبشارته بمحمد. فهذا محاور آخر وسياق آخر، لا تمة يمكن إلحاقها بالمجلس الأول من غير تمييز. [٣٣–٣٥]

٥٥. نفي القتل والصلب في القرآن

تقرر النساء أن القائلين «إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله» لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكن شبه لهم، وأن المختلفين فيه ليس لهم به علم إلا اتباع الظن، ثم تقول: «بل رفعه الله إليه». هذا هو الأصل الذي ينطلق منه الفصل. والقرآن لا يسمّي البديل، ولا يعطي عدد الحاضرين في البيت، ولا يصف أدوات التنفيذ أو هوية كل مشارك. يثبت النفي والرفع كما وردا، وتوضع روايات التفاصيل بعدهما في مرتبتها، لا داخل نصهما. [٤]

ولا تُقرأ «رفع إليه» على أن الله محصور في جهة أو مكان تصعد إليه الأجسام؛ فقد شرح الطوسي جهة التكريم والاختصاص مع تنزيه الله عن المكان. ولا يلزم من إثبات الرفع إلغاء بشرية عيسى التي أكدتها سائر الآيات. كما أن تقرير الرؤية القرآنية لا يغني عن الدقة عند وصف معتقد المسيحيين المخالف؛ فلا ينسب إليهم قول لم يقولوه ولا يستعمل الاختلاف العقدي مبررًا لإهانتهم. موضع البحث هنا ما يقوله القرآن والروايات التي يعتمدها هذا الكتاب. [٤, ٢٩]

٥٦. الشاب المتطوع وهوية الشبيه

في تفسير القمي، عن حمران بن أعين عن الباقر، أن عيسى جمع اثني عشر من أصحابه ليلة رفعه، وأخبرهم بما أوحى الله إليه، وسأل من يقبل أن يلقى عليه شبهه فيقتل ويصلب ويكون معه في درجته. فانتدب شاب منهم، ثم وقع الرفع وهم ينظرون. ويذكر الخبر رجلًا آخر يتنبأ عيسى بإنكاره، ثم أخذ الطالبون ذلك الرجل والشاب. الشاب المتطوع والرجل المنكر شخصان مختلفان في هذا المتن؛ فلا يجوز جمعهما في خائن واحد. [٢٦, ٣٠]

وتعرض كتب التفسير أقوالًا أخرى: متطوع يسمى سرجس في بعض النقول؛ ويوشع في نقل تاريخي آخر؛ ومهاجم أُلقي عليه الشبه يسمى طيطانوس أو ططيانوس، مع صيغة نطليانوس في مصدر آخر؛ وشخص باسم مضطرب مثل بودس زكريا بوطا أو بورس زكريا نوطا، قورنت تسميته بيهودا الإسخريوطي على سبيل الاحتمال. ويظهر يهودا رئيسًا للطالبين في حكاية طيطانوس. هذه ليست أسماء متفقًا عليها للشخص نفسه؛ ويوشع هنا لا يثبت أنه يوشع بن نون. [٢٦, ٢٩]

ومن النصوص المتباينة ما ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري في صورة المهاجم، ونسبة هذا التفسير وأسانيده محل بحث عند الإمامية. أما أقوال وهب وابن إسحاق والسدي ونحوهم التي يوردها الطوسي أو الطبرسي فتبقى منسوبة إلى أصحابها، ولا تصير روايات عن أهل البيت بوجودها في تفسير إمامي. والأمين في الخاتمة أن القرآن لم يسم الشبيه، وأن الروايات اختلفت في هويته ودوره، وأن خبر المتطوع لا يجوز تحريفه ليوافق خبر الخائن. [٢٦, ٢٩]

٥٧. التوفي والرفع: موضع الاختلاف

في آل عمران «إني متوفيك ورافعك إلي»، وفي المائدة «فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم». ناقش المفسرون معنى التوفي: الأخذ تامًا، أو النوم، أو الموت في وقت يفسره السياق، وذكروا أن العطف بالواو لا يفرض دائمًا الترتيب الزمني. هذه وجوه تفسير، ولا ينبغي أن يعلن أحدها معنى لغويًا وحيدًا في جميع الاستعمالات. كذلك لا يكفي نقل معنى «الموت» في آية أخرى لإغلاق البحث في هذه الآيات دون ملاحظة أدلة الرفع والعودة. [١, ٣, ٢٦, ٢٩]

وفي عيون أخبار الرضا، من طريق ابن فضال عن الرضا، خبر يقول إن عيسى رفع من الأرض حيًا، وقبضت روحه بين السماء والأرض ثم ردت إليه. وجود هذا النص يمنع الجزم بأن كل الروايات تقول بتفصيل واحد لا قبض فيه أصلًا. لكنه لا يثبت قتل الخصوم له أو صلبه، ولا ينفي حياته بعد رد الروح بحسب نفس الخبر. يعرض الاختلاف بأمانة، وتترك دعوى الجمع القطعي أو الترجيح السندي إلى تحقيق يستوفي الطرق، بدل إسقاط الرواية المخالفة بصمت. [٢٦؛ ح١١]

٥٨. ليلة الرفع والأعمار وأسماء الملوك

يربط خبر خطبة الحسن بعد وفاة أمير المؤمنين ليلة وفاته بليلة رفع عيسى، وترد رواية في ليلة إحدى وعشرين من رمضان. وفي خبر آخر تجمع ليالي تتصل بعلي ويوشع بن نون والحسين ورفع عيسى، لكن لا يقال بسبب هذا الجمع إن عيسى قتل كما قتل أولئك. كذلك يرد عمر ثلاث وثلاثين في بعض الأخبار، وترد مدة دعوة بهذا العدد في غيرها؛ ولا تتساوى مدة الرسالة وعمر صاحبها تلقائيًا. [٢٦, ٣٠]

وفي خبر أبي رافع عن النبي ترد أسماء ملوك وأعداد طويلة في سياق انتقال النور والعلم، ومنها أشج بن أشجان، مع اختلاف النسخ في رسم الاسم، ثم أردشير في مرحلة لاحقة. لا تُسقط هذه الأسماء من سجل الرواية، لكن لا تعتمد الأرقام وحدها لإعادة كتابة تواريخ الممالك؛ فاضطراب الضبط وتسلسل الأنبياء في بعض الطرق يحتاجان إلى تحقيق مستقل. وحيث يرد جبرئيل رافعًا لعيسى في خبر الدعاء، ففعله بإذن الله ولا يناقض نسبة الرفع إلى الله في القرآن. [١٩؛ ح٣٣٣، ٢٦، ٢٧، ٤٢]

٥٩. شمعون والوصية واستمرار العلم

يروي كمال الدين أن عيسى أودع شمعون بن حمون الصفا نور الله وحكمته وعلم كتابه، وأقامه على أمر المؤمنين. وفي رواية القمي تذكر الفرقة التي تتبع شمعون في مقابل من يفتري على الله بعد عيسى. لهذا لا تنتهي القصة برفع النبي وانقطاع كل تعليم؛ بل يبدأ بحث حفظ الوصية وما أصاب الأتباع من اختلاف. ويخصص الفصل التالي لتفصيل شمعون، فلا يستبق هذا الفصل جميع أخباره، لكنه يثبت موقعه الضروري في خاتمة رسالة عيسى. [٢٦, ٢٧, ٤٢, ٥٤]

وتحتاج سلاسل التعاقب إلى حذر: خبر أبي رافع يضع يحيى بعد شمعون ثم الوصية في ولد شمعون، بينما تبين أخبار أخرى معاصرة يحيى لعيسى وتقدمه في بعض مراحل الهداية. وفي النقل عن إثبات الوصية تظهر منذر بن شمعون ودانيال، مع رواية أخرى تقدم دانيال والعزير على المسيح؛ وترد اليسابغ وروبيل في مقدمات السلسلة. هذه أسماء في تقاليد ترتيب الأوصياء، لا خط زمني واحد محقق. ويذكر اختلاف الروايات صريحًا بدل تحويل إحياء يحيى عند قبره إلى حل زمني لم ينص عليه الخبر. [١٣, ٢٧, ٣٧, ٥٤]

٦٠. الفترة والرهبانية والمؤمنون المنتظرون

تذكر روايات كمال الدين مائتين وخمسين عامًا بلا حجة ظاهرة، وتوضح رواية يعقوب بن شعيب عن الصادق أن قومًا كانوا متمسكين بدين عيسى مؤمنين، وأن الأرض لا تكون إلا وفيها عالم. فغياب الظهور العام ليس عند هذه الروايات غيابًا مطلقًا للحجة أو انعدامًا لكل مؤمن. وتختلف أخبار المدة بين عيسى ومحمد بين أربعمائة وثمانين وخمسمائة وستمائة في سياقات متفاوتة. تحفظ الأعداد مع سياقها ولا تسوّى بتخمين تاريخي غير مسند. [٢٧, ٣٥, ٤٢]

وتذكر الحديد الرأفة والرحمة والرهبانية التي ابتدعت ولم ترع حق رعايتها. وفي خبر مروي عن ابن مسعود تفسير لفرار مؤمنين من الجبابرة إلى الجبال وانتظار النبي الذي بشر به عيسى، مع التفريق بين من ثبت ومن بدل. كما ورد تفسير القسيسين والرهبان في المائدة بمن انتظروا البشارة وآمنوا بها. فلا يجعل كل راهب مذمومًا لاسم الرهبانية، ولا كل من اعتزل الناس صالحًا لمجرد اعتزاله؛ المعيار هو الإيمان والعمل والوفاء بالعهد. [٣, ٧, ٢٣, ٥٨]

٦١. نزول عيسى والصلاة خلف المهدي

ترد في المصادر الإمامية أخبار نزول عيسى وصلاته خلف القائم من أهل البيت. ومن مواردها أمالي الصدوق وكمال الدين وما جمعه المجلسي في باب ما بعد الرفع. ويظهر فيها أن عودته لا تؤسس شريعة تناقض رسالة محمد، بل تشهد لاستمرار الحق ووحدة العهد. فحضور الإمام المهدي أساسي في هذه الأخبار، وليس تفصيلًا يجوز إسقاطه مع الإبقاء على عنوان «عودة المسيح». ويذكر الفصل هذا الأصل الروائي من غير تنزيله على مدعٍ معاصر أو تعيين موعد. [٢٧, ٤٢]

وفي تفسير النساء ١٥٩ يروي شهر بن حوشب عن الباقر معنى إيمان أهل الكتاب بعيسى قبل موته عند نزوله، في قصة سؤال الحجاج له. الحجاج وشهر شخصيتان في نقل التفسير بعد عصر عيسى، لا شاهدان على النزول نفسه. وللضمير في «قبل موته» أقوال أخرى في التفاسير، وكذلك ضمير «وإنه لعلم للساعة» في الزخرف بين عيسى والقرآن. ذكر هذا الخلاف يحفظ الفرق بين ظاهر الآية ووجه الاستدلال الروائي عليها. [٤, ٨, ٢٧, ٤٩]

٦٢. الدجال والموت البشري وحدود التوقيت

تذكر بعض أخبار نزول عيسى الدجال وقتله، ومنها خبر مرتبط باحتجاج الحسن مع ملك الروم نقله القمي. ويظهر الدجال خصمًا في مشهد آخر الزمان، لا شخصية معاصرة لميلاد عيسى أو واحدًا من الحواريين. ولا يكفي جمع الأخبار ذات الأسماء المتشابهة لإعداد جدول مفصل للمدن والسنين والمعارك؛ فلكل تفصيل طريقه ودرجة ثبوته. والمتيقن من الآيات في أصل الطبيعة أن عيسى عبد مخلوق، وأن السلام عليه يشمل يوم موته وبعثه، فلا يصير الرفع أزلية. [٢, ١٧, ٢٧]

وفي خبر سؤال عيسى جبرئيل عن الساعة يأتي الجواب بما ينفي امتلاك موعدها عند المسؤول أكثر من السائل، فترد المعرفة إلى الله. ومن ثم لا يحدد هذا الفصل سنة النزول أو مدة الحياة بعده أو موضع دفن عيسى بغير نص محقق. وتبقى الأخبار في خاتم عيسى وصفته الجسمية ولباسه، مما جمع في باب أحواله، أخبار أوصاف لا أدوات لتشخيص شخص يظهر في زمننا. ولا يعتمد تصور فني أو ملامح متخيلة حجة على هويته. [١٧، ١٩؛ ح٣١٩]

٠٦٣. عيسى وكربلاء والحسين

يروي الصدوق في أماليه، في خبر ابن عباس عن أمير المؤمنين عند المرور بكربلاء، ذكر مرور عيسى والحواريين بالموضع، واجتماع الظباء وبكائه وإخباره بمقتل فرخ أحمد وابن الطاهرة البتول. ويحفظ الخبر صلة الحسين بالنبي وفاطمة، ويقارن طهارة أمه بمريم. كما ترد فيه علامة بقيت إلى زمن علي ثم حديث ابن عباس عن ظهور أثرها عند مقتل الحسين. هذا خبر طويل من أخبار الدلائل والمناقب، وليس آية قرآنية ولا شهادة تاريخية عادية يمكن فصلها عن دعواه الغيبية. [٥٩]

الشخصيات هنا موزعة على أزمنة: عيسى والحواريون في الخبر السابق، وعلي وابن عباس في إطار الرواية، والحسين وفاطمة ومحمد في البشارة، والخضر في ظن بعض من سمعوا صوت التعزية في ذيلها، لا في تعيين قطعي متفق عليه. ويذكر المصدر والطريق، ولا يكفي اشتمال القصة على أسماء مقدسة لتصحيح كل جزئية. كما لا تضاف أسماء قتلة بعينهم إلى كلام عيسى إذا لم يذكرهم هذا المتن. والتفصيل الأوسع لمصاب الحسين له موضعه من الكتاب. [٥٩]

٠٦٤. حضور عيسى في تعليم أهل البيت

إلى جانب المباهلة والمناجاة والمواعظ، يرد تشبيه ما قيل في علي من الإفراط والتفريط بما وقع في شأن عيسى، على جهة التحذير من الغلو والبغض. ويرتبط الحسن بعيسى في خبر ليلة الرفع وفي المناظرة مع ملك الروم، والحسين في أخبار الحمل والبشارة بمصابه، وفاطمة في المقارنة بمريم وخبر التغسيل. ويظهر الباقر والصادق والكاظم والرضا وغيرهم ناقلين ومفسرين، والجواد في الاحتجاج بإمكان الحجة في الصغر. هذه صلات متنوعة، فلا تعرض كأن الأئمة جميعًا شخصيات داخل زمن المسيح. [١١, ١٣, ١٥, ١٧, ٢٦, ٥٣, ٥٩]

ويروى عن علي، ومعه الحارث الأعور، تفسير صوت الناقوس بما يذكر بزوال الدنيا، ثم إسلام راهب في الحيرة. وراهب براثا في خبر الصلاة بالمكان شخص آخر في مورد آخر. كما يرد في أمالي الصدوق خبر عن كعب يقارن بين مريم وآمنة أم النبي في بشائر الميلاد، فيذكر اسم آمنة مع التصريح بأن هذا كلام منقول عن كعب، لا حديثًا يصح نسبته إلى إمام لمجرد وجوده في الأمالي. تفيد هذه المواد في تتبع أثر قصة عيسى ومريم في الذاكرة الدينية. [١١, ١٧, ٢٨, ٦٠]

٠٦٥. الحكايات غير المسندة إلى أهل البيت

نقلت بعض المجاميع عن وهب والثعلبي وابن الأثير وغيرهم حكايات عن إقامة مريم في مصر مع طفلها، وصاحب منزل يؤوي المحتاجين، وأعمى ومقعد اشتركا في أخذ مال، وعن عرس ابن المضيف وأوعية الشراب، وعن الصباغ والثياب، وعن الملك هيرودس أو هردوس والخروج والعودة. تذكر هذه الشخصيات عند حصر المادة القصصية، لكن ينص على أن نقلها في البحار لا يحولها إلى أخبار

إمامية مسندة. ولا يدمج هذا الملك بملوك الروم أو أنطاكية أو ملك فلسطين الذي تمثل إبليس بصورته. [١١, ١٧]

وفي آخر باب الحواريين حكاية يقول المجلسي إنه وجدها في بعض الكتب: عجوز لها ابن يجمع الشوك، وملك وابنة ملك، وزواج وملك زائل، ثم اختيار الابن صحبة عيسى، فيسميه كنزه. الإحالة المبهمة لا تسمح بوضع القصة في رتبة الحديث المسند، والأم والأميرة والابن لا يندمجون بعروس الصدقة أو أم الصديق. كما نقل ابن طاووس مقاطع من الإنجيل تتضمن سفينة ورفقاء ورجلًا يريد دفن أبيه؛ فهي اقتباسات كتابية في مصدر إسلامي، لا أقوال أهل البيت بمجرد النقل. [١٧, ٢٣, ٢٤]

٦٦. فهرس الرجال المسمّين وصلتهم بالفصل

في مركز السيرة: عيسى المسيح ابن مريم؛ وعمران جدّه لأمه؛ وزكريا كافل مريم؛ ويحيى المصدق به. ويظهر هارون في خطاب القوم مع اختلاف تفسير هويته. وتذكر شخصيات الأنبياء في المقارنة أو العهد: آدم، ونوح وابنه سام، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف النبي في التمييز عن يوسف النجار، وموسى، وداود، وإلياس، واليسع، وحزقيل، وشعيا، وحيقوق أو حبقوق. ليست جميع هذه الأسماء شخصيات عاصرت عيسى أو قابلته؛ وظيفة كل اسم مبينة في موضعه. [١–٥, ١٠, ١٢, ٣٤]

في دائرة الأتباع والنقل القديم: شمعون بن حمون الصفا؛ وألوقا أو الوقا؛ ويوحنا الأكبر ويوحنا بقرقيسيا ويوحنا الديلمي؛ ومتى ومرقابوس في خبر تدوين الإنجيل؛ وحبيب النجار، مع اختلاف ما ألحق باسمه من نسب بين ابن مرّي أو مرى وابن إسرائيل ولفظ آخر في بعض النسخ. وترد أسماء شمعون ويوحنا وبولس للرسل الثلاثة في قول منقول عن شعبة، وصادق وصدوق وسلوم في قول منقول عن ابن عباس وكعب. هذه بدائل تفسيرية، وليست ستة أسماء أثبت القرآن اجتماعها في القرية. [١٧؛ ص٢٤٢–٢٤٤، ٢٣، ٣٣–٣٥]

في قصص الإحياء والرفع: سام بن نوح، وعازر أو لعازر في الخبر التفسيري، وسرجس ويوشع وطيطانوس أو ططيانوس ونطليانوس وبودس أو بورس بصيغتها المختلفة في أخبار الشبيه. ويهودا اسم يرد لرئيس الطالبين في حكاية، ويظهر أيضًا في سلسلة نسب منقولة؛ فلا يخلط ذلك تلقائيًا بيهودا الإسخريوطي. وفي التاريخ القصصي: يوسف النجار، وهيرودس أو هردوس، وأشج بن أشجان وأردشير، ويختنصر في الاحتجاج المقارن. وما اتصل بأسماء الملوك وسلاسل الأوصياء يظل مقيدًا باختلاف مصادره. [١١, ١٧, ١٨, ٢٦, ٢٧, ٣٤]

وفي امتداد الهداية: محمد أحمد، وعلي، والحسن، والحسين، والإمام المهدي، وشمعون وولد شمعون ومنذر في أخبار التعاقب؛ وترد اليسابغ وروبيل ودانيال والعزير في السلاسل المختلف فيها، مع أسماء دارا والإسكندر في الإطار التاريخي المنقول لا بوصفهما تلميذين للمسيح. ويظهر الدجال في أخبار العودة.

ويضاف العاقب والسيد وأبو حارثة في المباهلة، ورأس الجالوت والجاثليق في المناظرة، مع التمييز بين اللقب العام وحامله في كل مجلس. [٢٧, ٣٤, ٤٣, ٥٤]

٠٦٧. فهرس النساء والأمهات والفتيات

مريم هي الأم والصدّيقة وصاحبة البشارة والرعاية؛ وأم مريم امرأة عمران، بأسماء حنّة ومرثا أو مرتا ووهيبة بحسب الموارد، هي صاحبة النذر والدعاء للذرية. وامرأة زكريا أم يحيى، التي ترد صيغ مثل إيشاع وحنانة لاسمها، تختلف الأخبار في صلتها بمريم. وحواء تحضر في المقارنة بخلق آدم وعيسى، لا في أحداث الميلاد نفسها. وفي دائرة الإسلام تحضر فاطمة في المباهلة والتغسيل والمقارنة بمريم، وآمنة في خبر كعب، وآسية في خبر الثابتين على الإيمان. [١١, ١٤, ١٥, ٢٣, ٢٥, ٤٣, ٥٣, ٦٠]

وفي الوقائع الخاصة: المرأة الكنعانية أم الطفل الذي شفي؛ وأم الصديق الذي أُحيي في الكافي؛ وزوجته اللاحقة المذكورة إجمالًا؛ وأخت لعازر؛ وأم ابن العجوز؛ وابنة العاشر؛ والعروس المتصدقة؛ والمرأة المتزوجة في خبر الاعتدال؛ والعجوز أم جامع الشوك والأميرة في الحكاية غير المسندة؛ والمرأة غير المسماة في بعض مواعظ السياحة. يثبت لكل واحدة مورد مستقل، ولا يُستعار لها اسم من قصة تشبه قصتها، ولا تجعل كل أم ثكلى هي المرأة نفسها. [١٢, ١٨–٢٠, ٢٣, ٢٤, ٥٥, ٥٧]

وفي الشخصيات الجماعية: النساء اللواتي اتهمن مريم في بعض الأخبار، وجماعة العذارى العابدات، ونساء القوم حيث يذكرهن الخبر بلا تعيين. ولا تضاف مريم المجدلية أو قائمة نساء الأناجيل إلى متن روايات أهل البيت بغير شاهد محدد من المادة المعتمدة. وأما المرأة المباركة في بعض ألفاظ البشارة فلا يفرض لها اسم لم ينص عليه الخبر. والعجوز التي تجسد الدنيا تمثيل أدبي، والجنية في حوار إبليس من غير البشر؛ فهاتان تفصلان عن سجل النساء التاريخيات. [١١, ١٢, ٢٤, ٢٥, ٥٧]

٠٦٨. الرجال والأطفال غير المسمّين والجماعات

يشمل السجل: مؤدب عيسى؛ وأطفال المدرسة حيث وردوا؛ والصديق الميت؛ وأبناءه المذكورين إجمالًا؛ والابن الذي شفي في قصة الكنعانية؛ وابن العجوز؛ وأبا ابنة العاشر؛ والرسولين إلى الروم؛ والملك وابنه والغلام الذي شفي بصره؛ وملك أنطاكية ووزراءه والمرضى في الروايات المتوازية؛ والرفيق القصير؛ والعابد صاحب الدعاء؛ والرجال الثلاثة أصحاب الذهب؛ وزوج العروس؛ والسائل وأهله؛ والأب في القبر وابنه واليتيم؛ والرجل المعترف؛ والشيخ الزارع؛ والمتكلم من القرية الهالكة. [١٢, ١٧–٢٤, ٣٨, ٣٩, ٥٥, ٥٧]

ويضاف الشاب المتطوع للشبه، والرجل الذي أنكر في خبر القمي، ومن طلبوا عيسى، ورهبان الحيرة وبراثا كل في خبره، وصاحب الدار وابنه والأعمى والمقعد والصباغ والملك وابنه أو ابنته في الحكايات التاريخية. وتبقى الجماعات بقدر تسمية المصدر: الحواريون، وبنو إسرائيل المخاطبون، ومن آمن ومن كفر، وأهل المائدة، وأهل القرى، والرهبان والقسيسون، ووفد نجران، والحاضرون في مجلس الرضا.

وليس عدد فئات هذا الفهرس عددًا نهائيًا لأفراد عاشوا في التاريخ. [١١, ١٧, ١٩, ٢٣, ٢٦, ٢٨, ٣٣, ٣٤]

٦٩. الملائكة والجن والكائنات والرموز

جبرئيل في تفسير الروح المرسل إلى مريم وفي أخبار التأييد والرفع والسؤال عن الساعة، والملائكة في مشاهد البشارة والحفظ، وإبليس في الميلاد والجدل والامتحان، والجنية في الخبر عن ابن عباس، كلها أطراف غير بشرية ينبغي تمييزها من الرجال والنساء. وفي خبر الكاظم مع النصراني يظهر اسم قيدوس وولده وأشياعه في تحريك الاتهام على مريم؛ فيثبت اللفظ في موضعه من غير تعيين زائد لهوية صاحبه لم يبينه المقطع المعتمد. [١١, ١٤, ٢٥, ٢٦]

والطير من الطين آية قرآنية، والأسماك في أخبار المائدة، والحية في خبر العروس، ودواب الماء في خبر الصدقة، والكلب في الموعظة، والظباء في خبر كربلاء، لكل منها وظيفة مختلفة. وترد الأتان والأسد في بعض أوصاف السياحة وحكاياتها، من غير أن تصبح حيوانات مسماة بأسماء شخصية. أما الدنيا المصورة عجوزًا، والبذر والثمر والكنز في الأمثال، فهي رموز أو عناصر تمثيل. فصل هذه الأنواع يمنع تضخيم قائمة الشخصيات البشرية بمجازات وكائنات لا تنتمي إليها. [١, ٣, ١٧, ٢٤, ٣٥, ٥٥, ٥٧, ٥٩]

٧٠. الرواة والمحاورون: موقعهم من السيرة

لا يعد كل راوٍ في سند خبر شخصيةً في حياة عيسى. فحمران وأبو بصير وابن أبي عمير وابن فضال وعلقمة وياسر وابن السكيت وغيرهم أدوات تعيين للطريق أو أصحاب سؤال في عصرهم؛ وقد يكتسب الراوي دورًا قصصيًا في خبر خاص، كما ابن عباس مع علي في كربلاء، أو شهر بن حوشب مع الحجاج في التفسير. والمأمون والفضل بن سهل ومحمد بن جعفر وقسطاس والجاثليق ورأس الجالوت والهربذ وعمران الصابئ والنوفلي شخصيات مجلس الرضا، لا تلاميذ عيسى. [١٦, ٢٦, ٣٣–٣٥, ٤٥, ٤٦, ٤٩, ٥٩]

وكعب ووهب وابن إسحاق وابن عباس وشعبة والسدي، عندما ينسب إليهم قول تفسيري، يذكرون أصحابَ ذلك القول، ولا يرفع قولهم إلى الإمام بلا طريق. وكذلك حديث ليث مع كعب بحضور معاوية إطار نقل متأخر عن عصر المسيح. أما الطوسي والطبرسي والحويزي والمجلسي والراوندي والصدوق والكليني فمصنفون أو جامعون ومفسرون، وليس ترتيب أسمائهم في قائمة المصادر حكمًا متساويًا بصحة كل ما أوردوه. بهذا ينفصل فهرس الشخصيات عن فهرس الأسانيد والكتب مع بقاء الصلة قابلة للتتبع. [١٧, ٢٣, ٢٦, ٢٩, ٦٠]

٧١. حصيلة التحقيق والانتقال إلى شمعون

تجتمع في سيرة عيسى الأصول التي نص عليها القرآن: أمومة مريم وعفتها، والميلاد من غير أب، والنبوة والرسالة والإنجيل، والآيات بإذن الله، ونصرة الحواريين والمائدة، والبشارة بأحمد، ونفي دعوى القتل والصلب والرفع، وشهادة عيسى بالتوحيد. وتحضر الشخصيات التي قد تختفي عند الاختصار، ولا سيما الأمهات والعروس والفتاة والمريض واليتيم، مع إبقاء غير المسمى غير مسمى. وتبقى الأخبار المتعارضة متميزة، كما يبقى التفسير غير الرواية، والحكاية غير المسندة غير الخبر المنسوب إلى أهل البيت.

وما بقي مختلفًا فيه لا يعالج بادعاء القطع: أسماء بعض الأقارب والرسل، وأعمار الأحداث ومكان الولادة وتاريخها، وهوية الشبيه، وتسلسل بعض الأوصياء، ومدد الفترة. وتبقى حياة عيسى في هذا البناء دعوة إلى الله ورحمة بخلقه وتصديقًا للرسل ووفاء بالعهد. ومن موضع الوصية لشمعون يبدأ الفصل التالي، حيث ينتقل البحث من سيرة الرسول إلى حفظ علمه بين أتباعه، مع حمل ضوابط التحقيق نفسها إلى ما بعد الرفع.

٧٢. المصادر والإحالات

الأرقام التالية مواضع إحالة، وليست ستين كتابًا مستقلًا. وقد تتكرر إحالة الكتاب نفسه إلى باب أو خبر مختلف. أرقام صفحات البحار بحسب الطبعة التي يعرضها النص الإلكتروني، وقد تختلف في طبعات أخرى؛ وحيث ذكر «نقلًا بالبحار» فالمراجعة لذلك النص المنقول. وروابط العناوين تفتح النص المتاح أو موضعه المرجعي.

[١] القرآن الكريم، آل عمران ٣٥–٦٤ و٨٤؛ الأسرة والبشارة والآيات والحواريون والرفع والمباهلة.

[٢] القرآن الكريم، مريم ١٦–٣٧؛ ويقارن بخبر يحيى في ٧–١٥.

[٣] القرآن الكريم، المائدة ١٧، ٤٦–٤٧، ٧٢–٨٥، ١١٠–١١٨.

[٤] القرآن الكريم، النساء ١٥٦–١٥٩، ١٦٣، ١٧١–١٧٢؛ البهتان والرفع والكلمة والروح.

[٥] القرآن الكريم، البقرة ٨٧ و١٣٦ و٢٥٣، والأنعام ٨٥؛ ويضم البحث يس ١٣–٣٢.

[٦] القرآن الكريم، الصف ٦ و١٤؛ البشارة بأحمد وأنصار الله.

[٧] القرآن الكريم، الحديد ٢٧؛ الرحمة والرهبانية والوفاء بها.

[٨] القرآن الكريم، الزخرف ٥٧–٦٥؛ عيسى والجدل والساعة.

[٩] القرآن الكريم، الأنبياء ٩١ والمؤمنون ٥٠؛ مريم وابنها والربوة.

[١٠] القرآن الكريم، التوبة ٣٠–٣١، والأحزاب ٧، والشورى ١٣، والتحريم ١٢.

[١١] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ب١٧، ص٢٠٦–٢٣٠؛ أخبار ميلاد عيسى والتفسير الملحق.

[١٢] الراوندي، قصص الأنبياء، ب١٨، ص٢٦٤-٢٧٠، ح٣٠٢-٣١٦؛ النسخة النصية بمكتبة الكفيل.

[١٣] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب حالات الأئمة في السن، حديث الكاسي والأخبار التالية.

[١٤] الحويزي، نور الثقلين، عند مريم، ابتداء من الآية ٤؛ أخبار الطفولة والحمل والأسرة ضمن التفسير الممتد.

[١٥] الكافي، ج٣، ص١٥٩، ح١٣، وله طريق في ج١، ص٤٥٩؛ تغسيل مريم، ونقله البحار ١٤، ب١٦، ح٣.

[١٦] الصدوق، الأمالي، المجلس ٢٢، ح٣، رقم ١٦٣؛ خبر علقمة والبهتان ويوسف النجار.

[١٧] البحار، ج١٤، ب١٨، ص٢٣٠-٢٧٠؛ أحوال عيسى والآيات والإحياء والأخبار المتفرقة.

[١٨] الطبرسي، مجمع البيان، عند آل عمران ٤٨-٤٩؛ معاني الآيات وأسماء من قيل إنهم أُحيوا.

[١٩] الراوندي، قصص الأنبياء، ص٢٧١-٢٧٦، ح٣١٧-٣٣٣؛ العروس والمواعظ وشمعون ودعاء الرفع.

[٢٠] روضة الكافي، ح٥٣٢؛ طريق أبان بن تغلب عن الصادق، خبر الصديق وأمه والعشرين سنة.

[٢١] الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الحسد، ح٣؛ الرفيق القصير والمشي على الماء.

[٢٢] الكافي، ج١، كتاب فضل العلم، باب صفة العلماء، ح٦؛ غسل أقدام الحواريين، والطريق مرفوع.

[٢٣] البحار، ج١٤، ب٢٠، ص٢٧٢-٢٨٣؛ الحواريون وأصحاب عيسى، مع النقل التفسيري والحكاية الختامية.

[٢٤] البحار، ج١٤، ب٢١، ص٢٨٣-٣٣٤؛ المواعظ والحكم والوحي إلى عيسى، مع تعيين أصول النقل في المتن.

[٢٥] البحار، ج١٤، ب١٩، ص٢٧٠-٢٧٢؛ مناظرات عيسى مع إبليس؛ وتقارن بأخبار الراوندي ٣١١-٣١٢.

[٢٦] البحار، ج١٤، ب٢٣، ص٣٣٥-٣٤٥؛ الرفع والشبيه والتوفي، ونقول القمي والعيون والتفاسير.

[٢٧] البحار، ج١٤، ب٢٤، ص٣٤٥-٣٥١؛ شمعون والفترة والنزول، مع اختلاف السلاسل والمدد.

[٢٨] الأمالي ومعاني الأخبار للصدوق، نقلًا بالبحار ج١٤، ب٢٢، ص٣٣٤-٣٣٥؛ علي والحارث والناقوس والراهب.

[٢٩] الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، عند النساء ١٥٧-١٥٨؛ اختلاف الأقوال في الشبيه ومعنى الرفع.

[٣٠] نور الثقلين، عند آل عمران ٥٢، ح١٥٤-١٥٥؛ نقل خبر القمي عن حمران وخبر ليلة الرفع.

[٣١] مجمع البيان، عند المائدة ١١٢-١١٣؛ القراءات ومعنى سؤال الحواريين عن المائدة.

[٣٢] نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠؛ فقرة الاقتداء بعيسى، وتقارن بنقل البحار ج١٤، ب١٨، ح١٦.

[٣٣] الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج١، ب١٢؛ مجلس المناظرة الذي رواه الحسن بن محمد النوفلي.

[٣٤] الصدوق، التوحيد، باب ٦٥، ح١؛ مناظرة الرضا بحضرة المأمون؛ تميز الحكاية عن نصوص الأناجيل الحالية.

[٣٥] نور الثقلين، عند الصف ٦، ح١١-٢٥؛ أحمد، وأبو قرة يوحنا، والمناظرة، والفترة، ونقول الكافي.

[٣٦] الكافي، ج٢، باب الدعابة والضحك، ح٢٠؛ فهرسة ٢/٤/٢٣/٢٠؛ ضحك عيسى وبكاء يحيى، وفي الطريق واسطة مبهمة.

[٣٧] الكافي، ج٣، باب النوادر من الجنائز، ح٣٧ في فهرسة النص المتاح؛ إحياء يحيى عند قبره ورجوعه.

[٣٨] الأمالي للصدوق، المجلس ٧٧، ح٨؛ الأب في القبر والابن واليتيم، وفي ذيله موعظة عيسى ليحيى.

[٣٩] الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٣، ح٥٠١٩؛ الرجل المعترف؛ نقلًا بالبحار ١٤:١٨٨، ح٣٩.

[٤٠] روضة الكافي، ج٨، ص١٣١-١٤١؛ المناجاة الطويلة، مع أمالي الصدوق وتحف العقول، نقلًا بالبحار ١٤، ب٢١، ح١٤.

[٤١] ابن شعبة الحراني، تحف العقول، مواعظ المسيح في الإنجيل وغيره، نقلًا بالبحار ١٤، ب٢١، ح١٧، ص٣٠١-٣١٧.

[٤٢] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج١؛ أخبار غيبات الأنبياء والفترة والوصية؛ تقارن بالبحار ١٤، ب٢٣-٢٤.

[٤٣] مجمع البيان، عند آل عمران ٥٩-٦١؛ وفد نجران والمباهلة وتعيين أهل البيت المشاركين.

[٤٤] الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة، ح٣؛ أولوا العزم الخمسة.

[٤٥] الكافي، ج١، ص٢٤، كتاب العقل والجهل؛ سؤال ابن السكيت لأبي الحسن عن آيات موسى وعيسى ومحمد.

[٤٦] عيون أخبار الرضا، ج١، ب٢٦، ح١١؛ خبر ياسر في السلام على يحيى وعيسى في المواطن الثلاثة.

[٤٧] الكافي، ج١، باب مولد الحسين، ح٤، ص٤٦٤-٤٦٥؛ حمل الستة أشهر؛ ويقارن بنور الثقلين عند مريم.

[٤٨] روضة الكافي، ج٨، ص٣٣٢، ح٥١٦؛ التسع ساعات، وفي الطريق راو مبهم؛ يقارن بقصص الراوندي ح٣٠٥.

[٤٩] تفسير القمي عند النساء ١٥٩، نقلًا بالبحار ١٤:٣٤٩، ح١٣؛ شهر بن حوشب والحجاج والتفسير عن الباقر.

[٥٠] التوحيد والكافي في الروح المخلوقة، نقلًا بالبحار ١٤:٢١٨-٢١٩، ب١٧، ح٢٤-٢٥.

[٥١] تفسير العياشي عند آل عمران والمائدة، نقلًا بالبحار ج١٤، أول ب١٨؛ سام والطعام والمائدة وتفسير الشهادة.

[٥٢] مجمع البيان، عند مريم ٢١-٣٠؛ المخاض والمنادي والسري وأخت هارون.

[٥٣] البحار، ج١٤، ب١٦، ص١٩١-٢٠٦؛ عمران ومريم ووالدتها والمقارنات النسائية وأخبار التغسيل.

[٥٤] كمال الدين، خبر أبي رافع في الوصية، وما نقل من إثبات الوصية؛ المقابلة في البحار ١٤:٣٤٥-٣٤٨ وهوامشه.

[٥٥] أمالي الصدوق، خبر أبي بصير عن الصادق في العروس والصدقة؛ نقلًا بالبحار ١٤:٢٤٤-٢٤٥، ح٢٢، والراوندي ح٣١٧.

[٥٦] الحسين بن سعيد، الزهد، خبر ابن أبي يعفور عن الصادق في تكريت؛ نقلًا بالبحار ١٤:٢٧٧، ب٢٠، ح١١.

[٥٧] مجموعة ورام، تنبيه الخواطر، مواعظ عيسى وحكاياته، نقلًا بالبحار ١٤:٣١٩-٣٢٧، ب٢١، ح٤١-٦٦.

[٥٨] مجمع البيان عند الحديد ٢٧، وخبر ابن مسعود في الرهبانية، نقلًا بالبحار ١٤:٢٧٣-٢٧٥.

[٥٩] أمالي الصدوق، المجلس ٨٧، ح٥، رقم ٩٥١، ص٦٩٣-٦٩٦ في الطبعة النصية؛ خبر ابن عباس وكربلاء وعيسى.

[٦٠] أمالي الصدوق، المجلس ٨٨، ح١، رقم ٩٥٣؛ خبر ليث عن كعب بحضور معاوية، وفيه مقارنة مريم وآمنة.

الفصل ٤٤ — شمعون الصفا ومن حمل الهداية بعد عيسى — الوصية وثبات حملة الرسالة

تبدأ هذه الحلقة حيث انتهت سيرة عيسى ابن مريم عليه السلام: عند أمانة بقيت في الأرض، وأناس امتحنهم الثبات عليها بعد غياب نبيهم عن أعينهم. وليس موضوعها إعادة أخبار الميلاد والمعجزات كلها، بل التعرف إلى شمعون الصفا، والحواريين، ومن تذكرهم الروايات في انتقال الوصية، وإلى النساء والرجال الذين تتصل أخبارهم بهذه الأمانة. ويأتي بعدها فصل الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله، وفيه تتسع دراسة انتظار البشارة وأحوال المؤمنين قبيل البعثة.

١. أصل الحكاية وحدود اليقين

يثبت القرآن إيمان الحواريين بعيسى ونصرتهم له، ويخبر عن افتراق بني إسرائيل بين الإيمان والكفر، وعن بقاء الرأفة والرحمة في قلوب أتباع عيسى. لكنه لا يذكر اسم شمعون، ولا يسرد أسماء الحواريين، ولا يقدم قائمة زمنية بأوصياء المسيح. وهذه حدود نافعة للقارئ: فالاسم الذي يأتي في الرواية لا يصير، بمجرد شهرته، اسمًا منصوصًا عليه في الآية، والتفسير الذي يعين شخصًا لا يساوي في مرتبته نفس النص القرآني. [١, ٢, ٣, ٥]

٢. الحواريون في خطاب القرآن

قال عيسى: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ»، فقال الحواريون: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». ثم جمع دعاؤهم بين الإيمان بما أنزل الله واتباع الرسول وطلب الكتابة مع الشاهدين. فالنصرة هنا مرتبطة بوجهة الدعوة: إلى الله. ليست تعظيمًا لإنسان مستقل عن ربه، ولا انتقالًا من عبادة الله إلى عبادة الرسول الذي أرسله. ومن هذا الموضع تُقرأ أمانة شمعون في الروايات: استمرارًا في طاعة مرسِل عيسى وفي اتباع تعليمه، لا رسالة تناقض توحيده. [١]

وتذكر سورة المائدة إيحاء الله إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسوله، فيجيبون بالإيمان والإسلام. وتورد بعد ذلك سؤال المائدة والدعاء بإنزالها والتحذير من الكفر بعد الآية. ولم تسمِّ هذه الآيات السائلين فردًا فردًا، فلا يصح تخصيص السؤال بشمعون أو إلحاق تبعة شخص بعينه به من غير نص. والمشترك الذي تقوم عليه الحكاية أن القرب من النبي يفتح مسؤولية أكبر: فهم الآية، وشكر النعمة، والثبات على العهد الذي قامت عليه الصحبة. [٢]

٣. طائفة تؤمن وطائفة تكفر

تستعيد خاتمة سورة الصف نداء عيسى وجواب الحواريين، ثم تقول: «فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ»، وتذكر تأييد المؤمنين. فلا يصح أن تحوّل روايات الانحراف بعد عيسى إلى حكم بأن

كل من انتسب إليه كفر، ولا أن تمحو أخبار الاضطهاد وجود الجماعة المؤمنة. في هذا الفصل يظهر شمعون ضمن الروايات التي تصف استمرار تلك الجماعة، بينما تبقى الآية أوسع من تسمية قائدها أو حصر أفرادها. [٣, ٧]

وسورة الحديد تجمع كذلك بين الرأفة والرحمة، وبين نقد الرهبانية التي لم يرعها أصحابها حق رعايتها، ثم تميز المؤمنين من الفاسقين. وتساعد هذه الموازنة على تجنب صورتين ناقصتين: صورة تجعل تاريخ أتباع المسيح انحرافًا محضًا، وصورة تمنح كل ممارسة لاحقة قداسة مستمدة من اسم المسيح. الذين حملوا الهداية يعرفون بوفائهم لما جاء به الرسول، لا بمجرد الاسم الذي حملته جماعتهم. [٥]

٤. شمعون بن حمون الصفا

يسمي خبر أبي رافع في كمال الدين وصي عيسى «شمعون بن حمون الصفا»، وترد هذه الصيغة، مع اختلاف الضبط، في أخبار أخرى. والقدر المشترك في هذه النصوص أنه صاحب عهد من عيسى وقائم في المؤمنين بتعليمه. أما مولده، وسنه عند الصحبة، واسم أمه وزوجته، وتفاصيل معاشه قبل الدعوة، فلا تمنح النصوص الأساسية التي اعتمدها هذا الفصل مادة كافية لبناء سيرة متصلة عنها. إن حفظ مكانته لا يحتاج إلى سد هذه الفراغات بحكايات لا نعرف مأخذها. [١٧, ١٨, ٢٢, ٢٦]

ويشيع التعريف به باسم سمعان بطرس في المقابلات مع التراث المسيحي، لكن هذا الفصل يحافظ في نقل الرواية على اسمها العربي، ويفصل بين التسمية المقارنة وبين تفاصيل السيرة المنقولة من تراث آخر. فلا تُنسب إلى الإمام رواية عن روما أو كيفية الصلب أو إنكار بطرس لمجرد ورودها في كتب مسيحية، ولا تُستخرج من لقب «الصفا» وحده حكاية كاملة عن نسبه أو منصبه أو طريقة اختياره. [١٧, ٢٢, ٢٦]

٥. معنى الحواري: صفاء يتعدى إلى الآخرين

يروي الصدوق عن الإمام الرضا عليه السلام تفسيرًا لتسمية الحواريين: يذكر ما يقوله الناس في صلتها بتبييض الثياب، ثم يشرح أنهم كانوا مخلصين في أنفسهم، مخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير. وقد حفظ المجلسي هذا الخبر عن علل الشرائع وعيون أخبار الرضا. ليست قيمة البيان في نفي كل خبر عن مهنة بعضهم، بل في نقل النظر من بياض الثوب إلى إصلاح القلب والعمل. فالحواري لا يكتفي بالصحبة، وإنما يعين غيره على العودة إلى الله. [٨]

ويجاور هذا المعنى خبر غسل عيسى أقدام الحواريين في الكافي، حيث يعلّمهم الخدمة والتواضع. وفي مجمع البيان خبر عن انتقالهم إلى الكسب بأيديهم بعد أن سألوا عن فضلهم. تختلف طرق هذه الأخبار، ولا يصح تسويتها جميعًا في درجة واحدة، لكن موضوعها واضح: لا تتحول منزلة المعلِّم إلى استعلاء، ولا تصبح المعجزة ذريعة لترك العمل. وهذه أخلاق مناسبة لفهم صورة شمعون في أخبار الدعوة، إذ يقرب من الضعفاء ويستمع إليهم قبل أن يبلغ مجلس الملك. [٣١, ٣٢, ٩]

٦. عدد الحواريين والأسماء التي لا تُدمج

يرد عدد اثني عشر في رواية مناظرة الإمام الرضا مع الجاثليق وفي خبر اجتماع أصحاب عيسى عند رفعه. ولكنه عدد الحواريين في تلك الأخبار، وليس عدد الأوصياء المتعاقبين بعد عيسى، ولا قائمة قرآنية بأسمائهم. وتذكر المناظرة في النص الذي بين أيدينا أن أفضلهم وأعلمهم «ألوقا»، بينما تجعل نصوص الوصية شمعون موضع العهد. نسجل لفظ الرواية ولا نستبدل «ألوقا» بـ«شمعون» لإخفاء اختلاف ظاهر، كما لا نجزم من هذه العبارة وحدها بتطابق كل اسم مع شخصية تاريخية معروفة خارجها. [٧, ١٦]

وتذكر المناظرة علماء باسم يوحنا: يوحنا الأكبر «بأج» في هذه النسخة، ويوحنا بقرقيسيا، ويوحنا الديلمي «بزجان»، مع اختلاف ألفاظ المواضع في النقول. كما تظهر أسماء لوقا ومرقابوس (مرقس) ويوحنا ومتى في بحث الأناجيل. هؤلاء يذكرون هنا لأن اختلاطهم بالحواريين والرسل الثلاثة يوقع في أخطاء الفهرسة؛ وليس كل من حمل اسم يوحنا هو يحيى بن زكريا، ولا يلزم أن يكون يوحنا المذكور بين رسل القرية عين يوحنا الديلمي. وتبقى الألفاظ المختلفة كما هي مع نسبتها إلى موضعها. [١٦, ١١]

٧. ليلة الرفع: ثلاثة أدوار لا شخصية واحدة

ينقل نور الثقلين عن تفسير القمي، بطريق حمران عن الإمام الباقر عليه السلام، خبر اجتماع عيسى باثني عشر من أصحابه. وفيه شاب يعرض أن يلقى عليه شبه عيسى ويقتل مكانه، ورجل آخر يُخبر بأنه سينكر عيسى، ثم خبر افتراق الناس ونجاة الفرقة التي تتبع شمعون. الشاب غير مسمى في هذا الطريق، والمنكر غير مسمى كذلك، أما شمعون فيسمى في موضع الجماعة الصادقة. ولا يسمح هذا البناء بضم الأدوار الثلاثة في رجل واحد، أو تسمية الشبيه باسم استعير من خبر آخر. [٧]

أما القرآن فيقرر أن عيسى لم يقتله خصومه ولم يصلبوه، وأن الله رفعه إليه. وتفاصيل البيت وعدد المجتمعين والشبيه ونوع الإنكار تفاصيل روائية، تدرس في ضوء هذا الأصل ولا تحل محله. ولذلك لا تُروى قصة إنكار بطرس المعروفة في الأناجيل على أنها شرح قطعي للرجل المجهول في خبر القمي، ولا يحمل شمعون وزر فعل لم تسمه الرواية فاعلًا له. وقد فُصِّل أصل الرفع في الفصل السابق، وهنا يؤخذ منه ما يمس انتقال الأمانة. [٦, ٧]

٨. إيداع العلم والحكمة

في خبر أبي رافع يأمر الله عيسى، عند إرادة رفعه، أن يستودع شمعون نور الله وحكمته وعلم كتابه، ويصفه بخليفته على المؤمنين. ثم يتابع الخبر وصف شمعون قائمًا بأمر الله، مهتديًا بما قاله عيسى. هذه هي النواة الروائية للفصل: أن الوصية أمانة في معرفة الدين والعمل به، وأن القائم بها لا ينقض رسالة من أئتمنه. ولا يعني لفظ النور جزءًا من ذات الله ينتقل بين الأجساد؛ فسياقه هنا سياق هداية وعلم وحكمة مستودعة. [١٧]

ومع أهمية الخبر، فإن سنده المطبوع يشتمل على واسطة غير مسماة بلفظ «عمن حدثه»، كما يضم متنه الطويل إشكالات في ترتيب الأزمنة والملوك. لذلك لا يوصف مجموعه بالصحة اعتمادًا على وجوده في كمال الدين وحده. ننتفع بما يبينه من صورة الوصية، ونقابل أسماءه وأزمنته بالنصوص الأخرى، ونصرح بمواضع الاختلاف. فالتحقيق يحفظ الرواية من أن تحمل أكثر مما يحتمله طريقها ومتنها. [١٧]

٩. العهد في خبر ابن عباس

في معاني الأخبار يروي الصدوق، بإسناده إلى ابن عباس، حديثًا يربط الوفاء بالعهد بوفاء الأمم لأوصياء أنبيائها. ويسمي شيثًا مع آدم، وسامًا مع نوح، وإسماعيل مع إبراهيم، ويوشع بن نون مع موسى، ثم شمعون بن حمون الصفا مع عيسى، ويصل ذلك بعهد النبي محمد صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام. ورود شمعون هنا ليس خبر رحلة أو معركة، بل استشهاد بموقعه في سلسلة العهود. [٢٦]

وترد في الأمالي تشبيهات بين منزلة علي من النبي ومنازل أوصياء سابقين، وفيها شمعون من عيسى. والتشبيه في حمل الوصية لا يقتضي تماثل جميع الوقائع، ولا يجعل عليًا نبيًا؛ ففي بعض هذه النصوص التصريح بأنه لا نبي بعد محمد. كما أن ذكر نقض الأمم للعهود لا يمحو المؤمنين الثابتين الذين أثبتهم القرآن وأثبتتهم رواية اتباع شمعون. يجمع الفصل بين أصل العهد ووجود الوفاء به، وبين الخبر عن مخالفيه. [٢٧, ٢٦, ٧, ٣]

١٠. أم سليم تسأل عن أوصياء الأنبياء

يحفظ مقتضب الأثر خبر امرأة تسمى أم سليم، صاحبة الحصاة، تسأل النبي عن وصيه مستندة في سؤالها إلى ما قرأته من التوراة والإنجيل. ويذكر المصنف أنها غير حبابة الوالبية وغير أم غانم. وفي كلامها عن عيسى يرد «كالب بن يوفنا» وصيًا في حياته، ثم شمعون بن حمون الصفا بعده، وتصف شمعون بأنه ابن عمة مريم. هذه زيادة مهمة في باب الشخصيات النسائية والقرابة، لكنها تظل جزءًا من ذلك الخبر، لا نسبًا مفصلًا نص عليه القرآن. [٢٣]

ولا ينبغي أن يسقط اسم كالب لأنه غير مألوف في هذا الموضع، أو أن يدمج آليًا بكالب المعروف في قصص موسى لمجرد تشابه الاسم. ولا تسمى أم شمعون باسم من عندنا؛ فالخبر يحدد صلتها بمريم ولا يعطي اسمها. كذلك لا يُجزم بأن أم سليم هذه هي أم أنس بن مالك، ولا تُخلط صاحبات الحصاة الثلاث في امرأة واحدة. ويتصل سياق الخبر بسلمان والبراء بن عازب، ثم بعلي والحسن والحسين عليهم السلام؛ وحضور أم سليم فيه حضور سائِلة عارفة تبحث عن دليل، لا اسم عابر في هامش الرجال. [٢٣]

١١. طرق خبر أم سليم وحدود عبارته

يذكر ابن عياش للخبر طريقين، ويفرق بين طريق العامة وطريق الخاصة، ويصرح باختياره لفظ أحدهما. ولذلك لا يصح أن تُنسب كل عبارة من الصيغة المطولة إلى الإمام مباشرة من غير بيان الطريق. كما يرد في سؤال المرأة تعبير عن الزمن التالي لعيسى بلفظ الوفاة؛ وهو لفظ داخل حكاية سؤالها، ولا يجوز اقتطاعه لإبطال أصل الرفع أو لإثبات الصلب الذي نفاه القرآن. فالقارئ يحتاج إلى معرفة المتكلم داخل الخبر، لا اسم الكتاب وحده. [٢٣, ٦]

والمعنى الذي يضيفه هذا الخبر إلى بناء الفصل هو اتساع دائرة حفظ المعرفة: امرأة تقرأ وتسأل، ورجال ينقلون سؤالها، وموازنة بين العهود السابقة والعهد المحمدي. أما تفاصيل الخوارق الواردة في بقية قصة الحصاة فموضع دراستها تراجم أصحابها وأبواب دلائل الإمامة. لا نكررها هنا كاملة، ولا نستعملها لإكمال فراغات سيرة شمعون، بل نثبت ما له صلة مباشرة باسمه وأمه وموقعه في خبر الوصية. [٢٣]

١٢. المدينة في سورة يس قبل تعيين أسمائها

يضرب القرآن مثلًا بأصحاب القرية حين جاءها المرسلون: أرسل إليهم اثنان فكذبوهما فعُززا بثالث. يرد القوم بأن الرسل بشر مثلهم، ويتطيرون بهم ويهددونهم بالرجم والعذاب. ويأتي رجل من أقصى المدينة يسعى، فيدعو قومه إلى اتباع من لا يسألهم أجرًا وهم مهتدون. هذه الأدوار ثابتة في النص: رسولان، وثالث يؤازرهما، ورجل مؤمن ينصح قومه، وقوم يرفضون الإنذار. أما الأسماء والمواضع فليست مذكورة في الآيات. [٤]

ولذلك يبدأ بحث الصلة بشمعون من هذا التمييز. فالرجل الساعي ليس، في البناء القرآني، مجرد اسم آخر للرسول الثالث؛ إنه يظهر بعد خطاب المرسلين مخاطبًا قومه. والتفاسير التي تسميه حبيبًا النجار وتسمي الثالث شمعون تقدم تعيينات روائية تحتاج إلى مقابلة. كما أن نسبتها إلى أنطاكية تفسير مشهور، وليست كلمة واردة في المصحف. وحفظ هذا الحد يمنع تحويل أشهر صيغة قصصية إلى الصيغة الوحيدة الممكنة للآيات. [٤, ١١, ١٢]

١٣. رواية الراوندي: رسولان يتعجلان الإنكار

يروي الراوندي في قصص الأنبياء، عن الإمام الصادق عليه السلام، أن عيسى حين أراد وداع أصحابه أوصاهم بضعفاء الخلق ونهاهم عن الجبابرة، ثم وجه اثنين إلى أنطاكية. دخلا في يوم عيد، فوجدا القوم قد أظهروا أصنامهم يعبدونها، فعجلا بالتعنيف، فقيدا وأودعا السجن. لا يسمي هذا الطريق الرجلين، ولذلك يبقيهما الفصل رسولين غير مسميين، ولا يأخذ لهما اسمين من طريق مختلف ثم يضعهما في كلام الإمام. [٩]

في الرواية لا يكون الخطأ في الدعوة إلى الله، بل في تدبير مخاطبة قوم تحت سلطان جبار قبل أن تُفتح للبيان مساحة. وقد حفظ النص ضعف المرسلين في هذه اللحظة دون أن يلغي رسالتهما. فالداعية قد يكون صاحب حق ويحتاج في إبلاغه إلى رفق وتقدير للعاقبة. وهذا المعنى يستفاد من سياق الخبر نفسه، وليس ترخيصًا بإخفاء الظلم أو بترك الناس لعبادة غير الله. [٩]

١٤. شمعون يبدأ من الضعفاء

حين علم شمعون بما حدث، جاء إلى أنطاكية ودخل على صاحبيه في السجن وعاتبهما، ثم خرج وجلس مع الضعفاء. تصف الرواية كلامًا يطرحه شيئًا بعد شيء، فيحمله الضعيف إلى من هو أقوى منه، حتى يبلغ الملك. ليس في هذا الموضع خطبة طويلة محفوظة اللفظ، ولا أسماء الوسطاء الذين تداولوا الكلام؛ وإنما فيه صورة لتدرج الدعوة عبر الناس. ولما سأل الملك عن مدة وجوده في المملكة قيل: منذ شهرين، فاستدعاه وقربه. [٩]

ثم يذكر الخبر رؤى أفزعت الملك، ففسرها شمعون بما سرّه، وازداد تمكنه من محادثته. وهذه التفاصيل جزء من طريق الراوندي، لا من الآيات نفسها. وأثرها في بناء الحكاية أن شمعون لم يدخل مجلس الحكم أولًا خصمًا محكومًا عليه، بل دخل وقد نشأت فرصة للسؤال والإصغاء. وحين اطمأن إلى إمكان سماع صاحبيه، فتح قضيتهما بدل أن يطلب منزلة لنفسه أو يتركهما في الحبس. [٩]

١٥. مجلس السؤال وآيات الشفاء

يستدعي الملك الرجلين، ويسألهما شمعون في حضرته عن ربهما وعن دليلهما. وتتعاقب في الخبر آيات شفاء، ومنها إبراء الأبرص، ثم يبلغ الامتحان خبر ابن الملك الذي مات. ويتوجه القوم إلى قبره، ويصلّي شمعون وصاحباه ويدعون الله، فيقوم الفتى ويشير إلى الثلاثة الذين رآهم في صلاتهم ودعائهم. في هذه الصيغة الابن ابن الملك، والمشار إليهم ثلاثة؛ وهذان تفصيلان يجب حفظهما عند مقابلة الصيغ الأخرى. [٩]

وتنتهي الرواية بإيمان الملك ووزرائه وأهل مملكته. لا تضيف أسماء للملك أو الابن أو الوزراء أو المرضى، فلا تُملأ فراغاتها بأسماء تاريخية محتملة. وفي سندها محمد بن سنان، وهو ممن وقع الخلاف في شأنهم، فلا تكفي شهرة القصة لإعطاء كل جزئية حكمًا بالصحة. مع ذلك تُحفظ الرواية بوصفها نصًا مسمى المصدر، يعرض شمعون ناصرًا لصاحبيه وداعية إلى إيمان لا يقوم على منفعة يأخذها من الملك. [٩]

١٦. صيغة القمي: ثالث لا يذكر اسمه

ينقل نور الثقلين عند تفسير يس ١٤ خبرًا عن القمي، عن الإمام الباقر عليه السلام، في رسولين سُجنا عند ملك يعبد الأصنام. ويأتي ثالث يدبر الوصول إلى الملك وإخراج صاحبيه إلى المحاجّة. لكن النص

المنقول في هذا الطريق لا يسمي الثالث شمعون، وإن كانت كتب أخرى تسمي بطل القصة المشابهة بذلك. الصياغة الدقيقة إذن: خبر يشبه أخبار شمعون في موضوعه، لا «حديث القمي الذي سمّى شمعون» في كل تفصيل. [١٠]

وفي هذه الصيغة تمتد الملازمة سنة، وترد مقارنة في شفاء العميان والمقعدين، ثم إحياء ابن الملك الوحيد. وحين يسأل الأب ابنه عمن دعا له، يعرف الرجلين؛ وليست إشارته إلى ثلاثة كما في خبر الراوندي. وينتهي هذا الطريق كذلك بإيمان الملك وأهل مملكته. وهذه فروق تمس بناء الخبر: المدة، والتسمية، وأنواع الآيات، وعدد من عرّفهم الفتى. لا يجمعها الفصل في قصة مصطنعة تكون سنة وشهرين معًا، أو إشارتين وثلاث إشارات في مشهد واحد. [٩, ١٠]

١٧. ما يحفظه مجمع البيان من اختلاف الأسماء

يجمع الطبرسي عند قصة أصحاب القرية أقوالًا متعددة: ينقل عن شعبة أن الرسولين شمعون ويوحنا وأن الثالث بولس، وعن ابن عباس وكعب أن الأولين صادق وصدوق والثالث سلوم. وينقل عن وهب وكعب أنهم رسل عيسى. ثم يسرد خبرًا آخر يكون فيه شمعون ثالثًا ورأس الحواريين. أهمية هذه المادة أنها تمنع اختزال اختلاف المرويات في قائمة واحدة؛ فشمعون نفسه يقع في موضع مختلف بين قول وآخر. [١١]

وصادق وصدوق وسلوم وبولس ويوحنا أسماء تحفظ في هذا الفصل على أنها تعيينات في أقوال ينقلها التفسير، لا أسماء قرآنية، ولا أسماء ثبتت جميعًا بحديث واحد عن الإمام. ووجود القول في تفسير إمامي لا يحوّل شعبة أو كعبًا أو وهبًا إلى راوٍ عن أهل البيت في كل ما نقل عنه. كما أن ذكر بولس في أحد الأقوال لا يثبت من تلقاء نفسه كل ما تقوله عنه كتب التاريخ المسيحي، قبولًا أو نقدًا. [١١]

١٨. اختلاف الآيات والخواتيم في روايات المدينة

في بعض ما ينقله مجمع البيان عن وهب يظهر غلام لا عينين له، وميت مضت عليه سبعة أيام ولم يدفن انتظارًا لأبيه الغائب؛ وهذه صورة غير صورة ابن الملك في الطريق السابق. ويذكر بعض النقل إيمان الملك وبعض قومه، بينما يحكي عن ابن إسحاق أن الملك لم يؤمن وقصد قتل الرسل. كما ينقل الطبرسي عن العياشي، عن الثمالي وغيره، عن الإمامين الباقر والصادق، خبرًا قريبًا ترد فيه شخصية ابن الملك. نعزو هذا الأخير إلى نقل الطبرسي عن العياشي، ولا ندعي مقابلة أصل مستقل لم نقرأه. [١١]

والأصل القرآني يختم قصة الرجل المؤمن بدخوله الجنة، ثم يذكر خمود قومه بصيحة واحدة. لهذا لا تخلو مساواة جميع صيغ إيمان المدينة بالقصة القرآنية نفسها من إشكال. وقد رجح الطوسي ظاهر كون المرسلين رسلًا من الله، مع نقله القول بأنهم رسل عيسى، ونبه الطباطبائي إلى عدم ملاءمة بعض

الروايات لسياق الآيات. نثبت الصلة التفسيرية المشهورة، ونترك موضع التعارض ظاهراً بدل اختراع أحداث فاصلة لم تذكرها المصادر. [٤, ١٢, ١٣]

١٩. حبيب النجار: النصرة من خارج مجلس الملك

الرجل الذي جاء من أقصى المدينة هو من أوضح الشخصيات المساندة في هذا الباب. يسميه التفسير حبيباً النجار، بينما يقدمه القرآن بفعل السعي وبكلامه لقومه. لا يطالبهم بامتياز شخصي، بل يلفت إلى أن المرسلين لا يسألون أجراً وأنهم مهتدون، ثم يحتج لعبادة الذي فطره ويبطل رجاء الآلهة التي لا تنقذ من ضر أراده الله. وفي لحظة المواجهة يبقى يقول «يا قوم»، فلا تفارقه صلته بمن يريد لهم النجاة. [٤, ١١]

ثم تأتي الأمنية: أن يعلم قومه ما غفر له ربه وما أكرمه به. وهي ليست خطاب انتقام يتمنى فيه هلاكهم، بل استمرار للرغبة في هدايتهم بعد ما لقيه منهم. ويظل هذا المعنى ثابتاً ولو بقي الخلاف في اسم المدينة وأسماء الرسل؛ فهو مستخرج من نظم الآيات، لا من التفاصيل المختلف عليها. ويُفصل حبيب عن شمعون: أحدهما في الروايات رسول أو وصي، والآخر المؤمن الذي نهض لنصرة المرسلين من بين القوم. [٤, ١١]

٢٠. حبيب وابنه والابتلاء الجسدي

يورد مجمع البيان في بعض تفصيل القصة أن الرجل كان يرعى غنيمات، وأن له ابناً مريضاً طال مرضه، فشفاه الله بدعاء الرسولين. هنا شخص آخر ينبغي ألا يسقط من الحصر: ابن حبيب غير المسمى. ولا يُدمج بابن الملك الذي يرد في مشهد الإحياء، ولا بالميت الذي كان أبوه غائباً في طريق آخر؛ فتشابه صفة البنوة أو المرض لا يثبت اتحاد الأشخاص. [١١]

وفي الكافي خبر يرد على زعم أن المؤمن لا يصاب ببعض الأمراض، ويستشهد بصاحب يس الذي كان مكنعاً، أي أصاب يده أو أصابعه عارض. تحفظ هذه الإشارة صلة الإيمان بالابتلاء: المرض لا يسلب المؤمن كرامته، ولا تكفي سلامة الجسد علامة على صدق العقيدة. والمقصود هنا دلالة الخبر على حال الشخصية ومواجهة ذلك الزعم، لا وضع تشخيص طبي متأخر أو إطلاق أحكام على كل من يحمل إعاقة. [١٤]

٢١. آسية وعلي ومؤمن آل فرعون في المقارنة

يحفظ الخصال خبراً يجمع مؤمن آل يس وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون في وصف الثبات على الوحي. فآسية حاضرة في المادة المرتبطة بحبيب بوصفها مثالاً للمقارنة، وليست امرأة من أنطاكية أو من جيل شمعون. وذكرها هنا يمنع سقوط شخصية نسائية وردت في الرواية، من غير أن ينقلها إلى زمن غير زمنها أو يجعلها مشاركة في رحلة لم يذكرها النص. [١٥]

وتورد مصادر التفسير والمناقب صيغًا أخرى تجمع عليًا وصاحب يس ومؤمن آل فرعون في السبق والتصديق. وهذه شخصية رجالية غير آسية، ولو التقت معها في نصرة الحق داخل بيئة فرعون. ولا يُخلط مؤمن آل فرعون بالنبي حزقيل لمجرد تقارب بعض الأسماء التي تذكرها كتب الأخبار. محل الاستفادة في هذا الفصل هو مقارنة النصرة والثبات، مع حفظ كل اسم ووصف في الرواية التي جاء فيها. [١٥, ١١]

٢٢. جزيرة الاستتار: جماعة لا تنقطع صلتها

يذكر الصدوق في سياق أخبار الغيبة والاستتار أن شمعون بن حمون والمؤمنين لجؤوا إلى جزيرة من جزائر البحر، ففجر الله لهم العيون وأخرج لهم الثمرات وهيأ لهم الماشية. ويتابع الخبر بحمل النحل إلى الجزيرة على سمكة تسمى القمد، وبكثرة العسل، وبأنهم لم يكونوا يفقدون أخبار المسيح. هذه صورة روائية للحفظ في حال الاضطهاد، ولم يسم النص البحر أو الجزيرة أو قادة الجماعة واحدًا واحدًا. [٢٠]

ينبغي أن يقرأ هذا المقطع في سياق المصنف، وألا تتحول عباراته السردية كلها إلى حديث مستقل مسند إلى إمام من غير استخراج سنده. وكذلك لا تُرسم له خريطة جغرافية جازمة أو طريق سفر مفصل. ويهمنا منه حضور جماعة مستترة، لا فرد معزول فقط، وبقاء الصلة الدينية في وقت ضعف الظهور العام. أما تعيين أفرادها من الرجال والنساء فغير متاح في هذا النص، فلا يجوز أن يخفي الحصر الجماعة أو أن يخترع أسماءها. [٢٠]

٢٣. رواية إثبات الوصية ومواطن التوقف

يورد كتاب إثبات الوصية المنسوب إلى المسعودي قصة الوصية لشمعون، وتسليم الاسم الأعظم والتابوت، وافتراق الجماعات بعد عيسى. لكنه يضم أيضًا أخبارًا لا يمكن إلحاقها آليًا بما تقدم: منها حضور شمعون تحت خشبة المصلوب، وعبارة مشكلة في زيادة افتتان قوم، وخبر مريم وأختها عند القبر. ليس عرض الكتاب لهذه المادة تصحيحًا لكل لفظ فيها، وليس اعتمادنا على بعض أسمائه إقرارًا بأن متنه كله متوافق أو مسند إسنادًا متصلًا. [٢١]

وفي خبر الدعوة يجعل الكتاب إرسال الرجلين إلى بلاد الروم من شمعون، ثم مجيئه في هيئة متطبب، ويذكر ابن ملك مضت على موته سبع سنين. وهذه غير السبعة الأيام في خبر وهب، وغير تفاصيل الراوندي والقمي. تبقى هذه صيغة قائمة بنفسها، يُعرف بها اختلاف الموروث، ولا تُضاف سنواتها إلى متن رواية أخرى. كما أن نسبة الكتاب إلى مؤلفه محل بحث، ولذلك يذكر الفصل هذه النسبة بصيغة الاحتراز. [٢١, ١١, ٩, ١٠]

٢٤. مريم وأختها في الأخبار اللاحقة للرفع

في صيغة إثبات الوصية تسأل مريم ملك اليهود أن يهب لها جسد المصلوب فتدفنه، ثم تخرج مع أختها لزيارة القبر، وترى عيسى ويخبرها برفع الله له. لا يسم النص الأخت، ولا يجوز تسميتها باسم امرأة أخرى في الأناجيل أو في أخبار مريم بلا حجة. كما لا نقرر أن كل تفصيل هنا تاريخ ثابت؛ فقد تقدمت في سيرة عيسى أخبار أخرى في زمن وفاة مريم، وتحتاج هذه الأخبار إلى الموازنة ولا يصح جمعها بالتخمين. [٢١]

وفي مجمع البيان، ضمن ما يحكى عن وهب في قصة الرفع، يرد أن عيسى عاد إلى مريم لتجمع له الحواريين فيبعثهم دعاة في الأرض. يثبت الفصل هذا الدور المنقول لمريم مع التصريح بمصدره، ولا ينسبه إلى الإمام من غير طريق. وهكذا يظهر حضورها في أكثر من مستوى: أم عيسى في القرآن، وشخصية في بعض أخبار اجتماع الحواريين، وقريبة لشمعون في خبر أم سليم، ثم شخصية في رؤيا نرجس الآتية. اتحاد الاسم لا يجعل هذه الأخبار المتفاوتة خبرًا واحدًا. [٣١, ٢٣, ٢٤]

٢٥. خبر مقتل شمعون

يروي كامل الزيارات عن الإمام الصادق خبر استدعاء هشام بن عبد الملك للإمام الباقر إلى الشام وسؤاله عن العلامة التي ظهرت ليلة مقتل علي عليه السلام. وفي الجواب ذكر الليلة التي قتل فيها شمعون بن حمون الصفا ضمن ليالٍ ارتبطت بعلامة الدم تحت الحجارة، مع ذكر هارون ويوشع ورفع عيسى ومقتل علي والحسين. يثبت هذا النص وجود رواية تصرح بمقتل شمعون، ولكنه لا يسمي قاتله ولا مدينته ولا أداة القتل ولا يومه من السنة. [٢٢]

وفي طريق الحديث راوٍ غير مسمى بين الحسين بن سعيد ويحيى بن بشير، فلا ينبغي تجاوز هذا الإبهام عند الكلام على سنده. كما لا يعني تكرار عبارة «وكذلك كانت الليلة» أن جميع الوقائع حدثت في تاريخ واحد؛ فلا يستخرج منها تحديد ليلة الحادي والعشرين من رمضان لمقتل شمعون. أما المواضع المشهورة المنسوبة إلى قبره أو أخبار صلبه في روما، فلا يحسمها هذا الحديث، ولم يثبت هذا الفصل موضع دفنه بخبر صريح موثوق من النصوص التي راجعها. [٢٢]

٢٦. ما بعد شمعون: أمانة باقية وتاريخ غير متصل التفاصيل

تلتقي أخبار الوصية على تصوير دين عيسى محفوظًا عند مؤمنين، لكنها لا تمنحنا سيرة متصلة موثقة لكل جيل. وقد يذكر النص اسمًا ووصية ثم يقفز إلى عهد آخر، أو يضم في رواية واحدة أنبياء وملوكًا يصعب ترتيبهم تاريخيًا. لا يحول الفصل هذا النقص إلى انقطاع في أصل الهداية، ولا يحوله في الجهة المقابلة إلى سلسلة تواريخ مصنوعة. نعرض ما توفر من الأسماء بحسب كل طريق، ثم نفصل ما ثبت في القرآن عما يحتاج إلى تحقيق في الرواية. [١٧, ١٨, ١٩, ٢١]

ولذلك تعني عبارة «من حمل الهداية بعد عيسى» في عنوان الفصل نطاقًا روائيًا يحتاج إلى تمييز، لا تصحيحًا مسبقًا لكل من وضعته قائمة في ذلك الموضع. ومن المهم هنا خصوصًا يحيى بن زكريا، والعزير، ودانيال: فذكرهم في تسلسل واحد بعد شمعون يثير مسألة زمنية لا يجوز إخفاؤها. وقد اعترف بعض ناقلي المادة بوجود ترتيب آخر يجعل العزير ودانيال قبل المسيح ويحيى؛ فالتعارض موجود داخل المصادر نفسها. [١٧, ١٨, ٢١]

٢٧. السلسلة المختصرة في كمال الدين

في أول أخبار الباب الثاني والعشرين من كمال الدين ترد سلسلة طويلة للأوصياء، يمر طريقها بمقاتل بن سليمان. والجزء المتصل بموضوعنا يسمي عيسى، ثم شمعون بن حمون الصفا، ثم يحيى بن زكريا، ثم منذرًا، ثم سليمة، ثم بردة، ثم النبي محمدًا صلى الله عليه وآله، ويتصل بعده بعلي والأوصياء. يثبت الفصل هذه الأسماء في ترتيب هذه الرواية بالذات، ولا يصحح ضبطها أو يستبدل بعضها بما في خبر آخر من غير تنبيه. [١٨]

ولا تعطينا هذه القائمة وحدها آباء منذر وسليمة وبردة، ولا تواريخ وفياتهم، ولا مواضع إقامتهم، ولا تفصيل ما سلم بعضهم إلى بعض. فإذا ورد في مصدر آخر «منذر بن شمعون» أمكن تسجيل تلك الزيادة هناك، لكن لا يجوز الادعاء بأن جميع الصيغ لفظ واحد. والسند الذي يمر بمقاتل ليس ذريعة لتوثيق كل رجاله بلا بحث؛ كما أن إشكال وضع يحيى بعد شمعون يمنع تحويل القائمة إلى جدول تاريخي قطعي. [١٨, ٢١]

٢٨. يحيى بن زكريا بين الروايات

يحيى نبي مسمى في القرآن، وبشارته وكرامته لا تتوقفان على صحة قائمة من قوائم الوصية. أما توقيت قيامه بالأمر بالنسبة إلى شمعون في الأخبار التي بين أيدينا فموضع اختلاف. بعض الأخبار تسرده بعد شمعون، وبعضها يربط قتله بآخر أيام المسيح أو بما بعده، ويضم الكتاب المنسوب إلى المسعودي نفسه روايات مختلفة في ترتيب هؤلاء الأنبياء. لذلك لا تُجعل الجملة الانتقالية في خبر مطول بديلًا عن مراجعة مجموع أخبار يحيى وعيسى. [١, ١٧, ١٨, ٢١]

وتظهر في بعض صيغ مقتله امرأة غير مسماة تحرض الملك، وملك غير مسمى في مشهد القتل، ورقاص مله يأخذ الرأس. لا يفرض الفصل على هذه الصيغة أسماء نساء أو ملوك من تقاليد أخرى، ولا يبدل الرقاص بامرأة لمجرد اشتهار قصة راقصة في مصدر مختلف. وتذكر روايات يحيى أباه زكريا وأمه التي وصفها القرآن بالعقر ثم استجاب الله لدعائهما؛ أما إعادة سيرتهم كاملة فمحلها الفصل المختص بهم، لا هذا الانتقال المحدود. [٢١, ١]

٢٩. ولد شمعون وذرية يعقوب بن شمعون

يقول خبر أبي رافع إن يحيى أُمر أن يجعل الوصية في ولد شمعون، وأن يأمر الحواريين وأصحاب عيسى بالقيام معه. ثم يذكر بقاء الوصية في ذرية يعقوب بن شمعون. هنا اسم يجب إثباته مستقلًا: يعقوب بن شمعون. وليس هو يعقوب بن إسحاق نبي بني إسرائيل لمجرد اشتراكهما في الاسم. كما لا يثبت هذا الطريق وحده أن يعقوب ومنذر شخص واحد، فلا تستعمل فرضية اتحاد الاسمين لإزالة الاختلاف بين القائمتين. [١٧, ٢١]

ولفظ الذرية أوسع من الابن المباشر، وقد يشمل أجيالًا لا يسميها الخبر. ولذلك لا تُرسم شجرة نسب تصل كل حلقة فيها باسم متخيل، ولا يُستفاد من هذه العبارة أن كل فرد في ذرية شمعون كان وصيًا. الأمانة المذكورة في النص تخص من عُهد إليه بها، والقرابة وحدها لا تكفي لإثبات منصب ديني لكل من انتسب إلى البيت. وسيعود هذا التمييز عند خبر نرجس وانتسابها إلى شمعون من جهة الأم. [١٧, ٢٤]

٣٠. العزير ودانيال: رواية لا تحسم ترتيب القرون

يمتد خبر أبي رافع إلى العزير ودانيال، وتظهر في الكتاب المنسوب إلى المسعودي وصية منذر بن شمعون إلى دانيال. لكن المتن يقرن هذه الأخبار بملوك وأحداث لا تستقيم في ترتيب تاريخي واحد، ويذكر ترتيبًا بديلًا يجعل العزير ودانيال قبل المسيح ويحيى. نثبت الاسمين لأنهما جزء من المادة التي تداولتها المصادر، ونمتنع عن تقديم موضعهما فيها باعتباره حكمًا نهائيًا على تاريخ العالم القديم. [١٧, ٢١]

وفي خبر دانيال المذكور أصحاب مؤمنون يعذبهم ملك ثم ينجيهم الله من النار والسباع. هؤلاء غير مسمين في هذا المقطع، ولا يستخرج منه تلقائيًا أسماء أصحاب الأخدود الذين سيعالج تاريخهم في موضعه. كما أن نسبة مشهد إلى آيات سورة البروج في بعض الأخبار لا تجعل كل خبر عن أخدود هو الحادثة نفسها. المهم هنا حفظ اسم دانيال وصلة مكيخا به في السلسلة، والتنبيه إلى أن التشابه القصصي لا يكفي وحده لتوحيد الأشخاص والأزمنة. [٢١]

٣١. من مكيخا إلى بحيرى في خبر أبي رافع

يسمي خبر أبي رافع بعد دانيال: مكيخا بن دانيال، ثم أنشو بن مكيخا، ثم دسيخا بن أنشو، ثم نسطورس بن دسيخا، ثم مرعيدا، ثم بحيرى الراهب. وهذه الأسماء قليلة التفاصيل في هذا الموضع؛ فلا نضيف إليها مهنًا أو مدنًا أو كتبًا أو أسماء أمهات لا يذكرها الطريق. ويفيد نقلها جميعًا في منع سقوط الشخصيات الأقل شهرة عند الانتقال السريع من شمعون إلى سلمان أو إلى زمن البعثة. [١٧]

ولا يصح تعريف نسطورس هنا بأنه بالضرورة نسطور المشهور في تاريخ الكنائس؛ فالاشتراك الصوتي لا يعوض فقدان الدليل. كذلك لا تُجعل كل صيغة لاسم مكيخا أو أنشو شخصية جديدة قطعًا، ولا كل صيغتين متقاربتين شخصًا واحدًا قطعًا. نورد الرسم الذي في المصدر، ونذكر مقابله في المصدر الآخر، ثم

نترك مقدار الاتحاد لما تسمح به الشواهد. وأما تفصيل بحيرى وأخبار لقائه بالنبي فمحله دراسة الفترة والسيرة المحمدية، بعد التثبت من كل طريق. [١٧, ٢١]

٣٢. رشيخا ومرعيد: اختلاف الرسم في إثبات الوصية

ترد في إثبات الوصية السلسلة التالية بعد دانيال: مكيخا، ثم أنشوا، ثم رشيخا بن أنشوا، ثم نسطورس بن رشيخا، ثم مرعيد بن نسطورس، ثم بحيرا. ويظهر في موضع من النص رسم «نشوا» أيضًا. والمقابلة مع خبر أبي رافع تكشف اختلاف «رشيخا» و«دسيخا»، واختلاف رسم أنشو ومرعيدا وبحيرى. يصح عرض الاحتمال بأن بعض ذلك ناشئ عن اختلاف النقل والتعريب، ولكن لا يصح تسميته تصحيحًا مخطوطيًا محققًا من دون مقابلة النسخ. [١٧, ٢١]

هذه الدقة ليست ترفًا في الضبط؛ فحذف أحد الرسمين يفقد القارئ وسيلة التعرف إلى الشخصية حين يلقاها في كتاب آخر، وجمعهما بلا تنبيه قد يوهم أننا وجدنا شخصين موثقين بسيرتين مستقلتين. لذلك تحفظ خلاصة الأسماء في آخر الفصل الصيغ المتقابلة، وتوضح أنها مقابلة بين نصوص لا حكم في هوية كل اسم. والقدر الذي يصرح به كلا السياقين هو انتقال ما يسميانه النور والحكمة ومواريث الأنبياء. [١٧, ٢١]

٣٣. السلسلة الأخرى: منذر وسلمة وبرزة وأبي

بعد السلسلة السابقة يورد إثبات الوصية خبرًا آخر: يحيى بن زكريا يستودع منذر بن شمعون، ثم منذر يستودع ابنه سلمة، ثم سلمة يستودع ابنه برزة، ثم تنتقل الوصية إلى أبي بن برزة. هنا تصرح الرواية بالبنوة في مواضع لا تصرح بها القائمة المختصرة في كمال الدين. و«سلمة» في هذا الرسم لا تُبدل بـ«سليمة» بصمت، كما لا يُبدل «برزة» بـ«بردة» من غير بيان اختلاف النسختين النصيتين. [٢١, ١٨]

وتتوالى بعد ذلك أسماء دوس بن أبي، وأسيد بن دوس، وهوف، ويحيى بن هوف، ثم يختم السياق بالانتقال إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله. وتستعمل النسخة في هذا الموضع لفظ «وأنا» وتفسره داخل الكلام بأنه اسم للنبي، فلا يُفصل في الفهرس على أنه وصي آخر مجهول بين يحيى ومحمد. أما ضبط الأسماء الأعجمية وتفسيرها اللغوي فيحتاج إلى أكثر من مجرد التخمين من الرسم العربي. [٢١]

٣٤. يحيى بن هوف ليس يحيى بن زكريا

يتكرر اسم يحيى في أول السلسلة البديلة وآخرها، لكن النسب مختلف: في أولها يحيى بن زكريا، وفي آخرها يحيى بن هوف. لا يصح دمجهما ثم اتهام النص بأنه جعل الشخص نفسه يعيش جميع تلك الأجيال؛ بل يقرأ كل اسم بنسبه. وبالمثل لا يُدمج أبي بن برزة في هذه القائمة بآبي الذي تذكره أخبار

أخرى بوصفه آخر أوصياء عيسى من غير قرينة كافية. التقارب في الاسم وحده لا يثبت الاتحاد. [٢١, ٣٠]

وتبقى هذه السلسلة بديلًا مرويًا، لا حلًا جاهزًا لكل إشكالات السلسلة الأولى. فغياب التواريخ والإسناد المفصل يمنع القطع بمدد الأشخاص، وتعدد القوائم يمنع تقديم إحداها على أنها إجماع مصادر أهل البيت. الذي أُنجز هنا هو حفظ الأسماء، وفصل الطريق عن الطريق، وتحديد ما تعجز المادة عن إثباته، ليعرف القارئ أين تنتهي الرواية وأين يبدأ الاجتهاد في تفسيرها. [٢١, ١٧, ١٨]

٣٥. الملوك في الرواية وبوران بنت كسرى

تدخل أسماء الملوك في الخبر الطويل بوصفها إطارًا للأزمنة، لا بوصف جميع أصحابها حملة هداية. وفي النصوص التي قورنت ترد أسماء أردشير، وسابور، وبخت نصر، وفهر، وبهرام، وهرمز، ونرسي، ويزدجرد، وفيروز، وكسرى، مع أنساب وترتيبات مختلفة. ومجاورة هذه الأسماء لأسماء الأنبياء لا تصحح التسلسل التاريخي، ولا نثبت أن كل ملك مسمى في القائمة هو بعينه الشخصية التاريخية التي نعرفها من مصادر أخرى. [١٧, ٢١]

ومن الشخصيات النسائية التي يجب تسجيلها هنا «بوران بنت كسرى» في إثبات الوصية، حيث يذكرها السياق في زمن بحيرا ثم يذكر يزدجرد بعدها. وجودها في هذا الموضع لا يجعلها وصية أو مؤمنة بالضرورة، ولا يجعل توقيت ملكها في القصة تاريخًا معتمدًا. نثبت أنها امرأة حاكمة مذكورة في الإطار الروائي، مع بقاء اضطراب الترتيب ظاهرًا. وبذلك لا تُسقط المرأة لأن دورها سياسي، ولا تمنح منزلة دينية لم ينص عليها المصدر. [٢١]

٣٦. أصحاب الكهف ومكيخا الآخر

يربط إثبات الوصية في سياق أنشوا بين أصحاب الكهف وكتاب من كتب المسيح، ويسمي المبعوث بالورق لشراء الطعام «مكيخا». أما القرآن فيسميهم فتية آمنوا بربهم، ويذكر إرسال أحدهم بالورق إلى المدينة، ولا يسمي المبعوث مكيخا ولا يسرد في هذه الآيات أسماء الفتية. ولذلك نثبت اسم مكيخا هنا بوصفه زيادة في ذلك الكتاب، ونفصله عن مكيخا بن دانيال؛ فالمقطع لا يقدم حجة كافية على أنهما شخص واحد. [٢١, ٣٤]

وترد في الكتاب تفاصيل عن إخفائهم الإيمان وعن سلوك ظاهر نسب إليهم، وهي مادة لا يتبناها هذا الفصل بوصفها أحكامًا شرعية مستفادة من القصة. ويكفي هنا بيان صلتهم الروائية بمرحلة الاستتار، مع إبقاء دراستهم المستقلة للفصل ٤٥ الذي يتناول الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ. فاستيعاب الشخصيات لا يعني تكرار جميع أخبارها في كل موضع، بل ألا يغيب اسم ذو صلة أو يتحول الانتقال العابر إلى تقرير غير مدقق. [٢١, ٣٤]

٣٧. آبي وبالط وبردة

في نوادر كمال الدين يروي الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام أن الذي انتهت إليه وصية عيسى رجل يقال له «آبي»، ويروي في طريق آخر اسم «بالط». وفي كلام المصنف جمع بين الاسمين، كما يذكر في موضع سابق اسم بردة. هذه شهادة على تعدد الألفاظ في المصادر، لا إذن بأن نجمعها في اسم مركب لم يثبته النص. وفي الطريق الذي يذكر بالط واسطة مبهمة بلفظ «عمن حدثه من أصحابنا»، فيلزم إبقاء هذا القيد عند تقييم الخبر. [٣٠]

وينبه الصدوق إلى التباس «آبي» بـ«أبي» الذي قاد بعض الناس إلى حمله على أبي طالب. لا يجعل هذا التنبيه الفصل بحثًا في جميع أدلة إيمان أبي طالب؛ إنما يمنع الاستدلال بتصحيف محتمل على هوية آخر الأوصياء. ويذكر خبر سلمان أن آخر عالم أقام عنده كان آبي، وأنه أخبره بظهور من يطلبه في مكة. وهنا يتصل خيط الفصل بما سيأتي من رحلة سلمان وطلبه العلم، من غير استباق تفصيلها. [٣٠]

٣٨. الوصايا المستودعة وخاتم النبيين

يسأل درست بن أبي منصور، في خبر يرويه الصدوق، الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن علاقة النبي بآبي، فيبين الخبر أن آبي كان مستودعًا للوصايا فسلمها، وأقر بالنبي وما جاء به. يحدد هذا النص الفرق بين حفظ أمانة قبل البعثة وبين أن يكون حاملها صاحب رسالة فوق الرسول الخاتم. كما يبين أن تسليم المواريث لا يعني استمرار نبوة مستقلة بعد محمد صلى الله عليه وآله. [٣٠]

والروايات التي تتكلم على خمس مئة سنة بين عيسى ومحمد، أو على مئتين وخمسين سنة لا نبي فيها ولا عالم ظاهر، لا تتكلم كلها على المدة نفسها أو على المعنى نفسه للظهور. ويقول الخبر المنقول عن الإمام الصادق إن الأرض لا تكون إلا وفيها عالم. لذلك نفرق بين الفترة من إرسال الرسل، وخفاء الحجة عن عامة الناس، وبين انعدام كل علم وهداية. ولا نختزل اختلاف أرقام الروايات في حساب واحد يوهم الدقة، ولا نضع سنة ميلادية لكل وصي بلا مستند. [١٩, ٣٠]

٣٩. نرجس: صلة بعيدة في النسب لا لقاء في التاريخ

من أشهر الأخبار التي أعادت اسم شمعون إلى الذاكرة الإمامية خبر نرجس أم الإمام المهدي عليهما السلام. يروي كمال الدين عن بشر بن سليمان أنها عرفت نفسها بأنها مليكة بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم، وأن أمها من ولد الحواريين تنسب إلى وصي المسيح شمعون. فالصلة بشمعون في هذه الصيغة من جهة أمها، لا من جهة أبيها لمجرد كونه من بيت الملك. والخبر لا يسمي الأم ولا يسرد سلسلة الأجداد التي تصلها بشمعون. [٢٤]

ولا تعني عبارة الانتساب أنها ابنته المباشرة أو حفيدته في الجيل الثاني؛ فبين زمن عيسى وزمن الإمامين الهادي والعسكري أجيال كثيرة. كذلك لا نعين قيصر باسم إمبراطور مخصوص اعتمادًا على اللقب وحده، ولا نبني تاريخًا سياسيًا مفصلًا على أعداد الحاضرين في مشهد الزواج. تكمن صلة الخبر

بالفصل في انتساب مروي إلى شمعون، وفي اجتماع رموز الهداية في الرؤيا، وفي الدور الذي تضطلع به النساء في التعلم وحفظ السيرة. [٢٤]

٤٠. بشر وكافور والرسالة الرومية

يقدَّم بشر بن سليمان في الخبر من ذرية أبي أيوب الأنصاري ومن المقربين إلى الإمامين الهادي والعسكري. يأتيه كافور الخادم يدعوه إلى الإمام علي بن محمد، ثم يكلفه الإمام حمل رسالة مكتوبة بلغة رومية ومال إلى بغداد لابتياع امرأة بصفات يحددها. ومن الشخصيات المذكورة في المشهد عمر بن يزيد النخاس، ومشترٍ غير مسمى، وجماعة من الوكلاء والمبتاعين. تحفظ هذه الأسماء ضمن خبر نرجس، ولا تنتقل إلى زمن شمعون لأنها وردت في فصل يحمل اسمه. [٢٤]

وتصور الرواية نرجس رافضة لمن يحاول الاطلاع عليها أو لمسها، وتختار صاحب الرسالة بعد قراءتها. وهذا الوصف جزء من السرد الذي ينقله بشر، وليس وثيقة بيع مستقلة عُثر عليها. ويُقرأ المشهد بظروفه التاريخية وبما فيه من سبي واستضعاف. الذي يعني الحكاية هنا هو حفاظ المرأة على موقفها، وفهمها للرسالة، وقدرتها على رواية قصتها بعد ذلك. [٢٤]

٤١. مليكة وجدها ومشروع الزواج

تقول مليكة إن جدها أراد تزويجها أحد ابني أخيه، وجمع أهل الكنيسة وأصحاب المناصب والقادة، ثم تعثر مجلس العقد في مشهد تصفه الرواية بانهيار الرموز الموضوعة فيه وسقوط العريس. وأعيدت المحاولة مع أخيه، فحدث مثل ذلك. العريسان أخوان غير مسميين، ولا تعطي الرواية اسم كبير القسيسين أو بقية رجال المجلس. ومن واجب الحصر إثباتهم بأوصافهم من دون اختلاق أسماء لهم. [٢٤]

ثم يرد مرضها وكتمانها سبب تعلقها بما رأت في المنام، وقلق الجد واستدعاؤه الأطباء. وتذكر الرواية أنها طلبت إطلاق أسرى من المسلمين تخفيفًا لما بها، فاستجاب جدها في ذلك السياق. ليس الأسرى أفرادًا مسمين، لكن حضورهم مهم: فالسرد يربط رغبتها الشخصية بالرحمة بأناس واقعين في الأسر. ولا يحتاج إثبات هذا الموضع إلى إلحاق اسم قائد أو حملة عسكرية لم يسمها الخبر. [٢٤]

٤٢. عيسى وشمعون في رؤيا نرجس

ترى مليكة في خبرها عيسى وشمعون وجماعة من الحواريين، ثم النبي محمدًا وأهل بيته، ويجري في المنام طلب تزويجها من الإمام الحسن العسكري. هنا تظهر وظيفة شمعون في القصة بوصفه أصل الانتساب ووصي المسيح، وتلتقي رموز العهدين في مشهد الرؤيا. لكن الرؤيا، ولو وردت في خبر ديني، ليست اجتماعًا جسديًا تاريخيًا لأهل هذه الأزمنة في قصر واحد. والتصريح بأنها رؤيا جزء من الأمانة في نقل النص. [٢٤]

ولا تثبت هذه الرؤيا وحدها أسماء جميع الحواريين الذين ظهروا فيها، ولا تتيح إضافة مريم المجدلية أو امرأة أخرى إلى المجلس لمجرد شهرتها في التراث المسيحي. فالنساء المذكورات بالاسم في المشهد التالي هن مريم وفاطمة، وتظهر معهن جماعة موصوفة من نساء الجنة. تبقى الشخصيات المسماة مسماة، والجماعة غير المسماة جماعة، ولا نملأ صورة المنام بتفاصيل فنية ثم نقدمها على أنها رواية. [٢٤]

٤٣. فاطمة ومريم: الهداية في مشهد نسائي

في الرؤيا التالية تقبل فاطمة عليها السلام ومعها مريم بنت عمران، فتشكو إليها مليكة شوقها إلى الحسن، وتربط الرواية الوصول إليه بإقرارها بالتوحيد وبنبوة محمد صلى الله عليه وآله. لا يغيب حضور مريم حين تنتقل المرأة إلى الإسلام، بل تشارك في مشهد يقدمه الخبر بوصفه امتدادًا للهداية. وهذا معنى سردي داخل الخبر، لا نقل حرفي عن إنجيل قائم ولا شهادة تاريخية خارجية على مجلس الرؤيا. [٢٤]

والمقارنة بين هذا الخبر وخبر أم سليم تكشف شكلين من الحضور النسائي: امرأة تسأل النبي في اليقظة عما قرأت، وامرأة تروي رؤيا وتحولًا في حياتها. لا تساوي المراجعة بين نوعي الدليل، لكنها لا تهمل أحد الدورين. وتظل فاطمة ومريم شخصيتين مستقلتين لكل منهما سيرتها، ولا تختزلان في تمهيد لنسب رجل؛ فقد وصف الخبر دورهما في الإرشاد والطمأنينة كما وصف نسب نرجس. [٢٤, ٢٣]

٤٤. المعلِّمة المترجمة والنساء المرافقات

يسأل بشر نرجس عن معرفتها العربية، فتقول إن جدها وكل بها امرأة ترجمان تختلف إليها صباحًا ومساء وتعلمها العربية حتى استقام لسانها. هذه المرأة غير مسماة، لكنها صاحبة عمل محدد في الرواية: التعليم والترجمة. لا تُحذف لأنها ليست أميرة أو قريبة للإمام، ولا تنسب إليها عقيدة أو سيرة لا يذكرها النص. وحضورها يفسر داخل الخبر قدرة نرجس على مخاطبة بشر بالعربية. [٢٤]

وتذكر نرجس خروجها مع الوصائف في هيئة لا تعرف بها منزلتها، ثم وقوعها في الأسر، وتذكر شيخًا وقع إليها يسألها اسمها فقالت نرجس. فالوصائف جماعة نسائية غير مسماة، والشيخ رجل غير مسمى، واسم نرجس في القصة جزء من إخفاء هويتها السابقة. هذه التفاصيل لا تسمح بتسمية كل وصيفة أو تعيين جيش الأسر، لكنها تكمل المحيط البشري للخبر وتمنع اختزاله في رجال الرسالة والبيع وحدهم. [٢٤]

٤٥. حكيمة والتعليم في بيت الإمامة

عند وصول نرجس إلى سامراء يبشرها الإمام الهادي بالولد، ثم يعهد بها إلى أخته حكيمة لتعلمها الفرائض والسنن. حكيمة هي بنت الإمام محمد الجواد، وأخت الإمام علي الهادي، وعمة الإمام الحسن العسكري؛ فلا تبدل بحليمة لمجرد تقارب الرسم. وهي في الخبر صاحبة وظيفة تعليمية واضحة، ثم

تحفظ روايات أخرى شهادتها في ولادة الإمام المهدي. يثبت الفصل صلتها المباشرة بخبر النسب الشمعوني دون أن يعيد أبواب الولادة والغيبة كلها. [٢٤, ٢٥]

وتأتي في كمال الدين صيغة أخرى على لسان حكيمة، تصف نرجس جارية عندها قبل انتقالها إلى الإمام العسكري. لا تروي هذه الصيغة جميع تفاصيل قيصر والسبي والرؤى. وصمتها عن تلك التفاصيل ليس شهادة مستقلة بصحتها كلها، كما أنه لا يكفي وحده لإثبات نفيها. فالواجب عرض مقدار المشترك والاختلاف: نرجس وحكيمة والإمام العسكري والولد، ثم خصوصيات خبر بشر التي تحتاج إلى تقييم طريقها على حدة. [٢٥, ٢٤]

٤٦. منزلة خبر نرجس في هذا الفصل

طريق الخبر في كمال الدين يمر بمحمد بن علي بن حاتم النوفلي، وأحمد بن عيسى الوشاء، وأحمد بن طاهر القمي، ومحمد بن بحر الشيباني، إلى بشر بن سليمان. ذكر الأسماء هنا لتعيين طريق الرواية، لا لإعطاء حكم توثيق شامل لكل راوٍ. والتفصيل القصصي المشهور لا يصير بمجرد شهرته في المجالس قرآنًا أو حديثًا متواترًا في جميع جزئياته. لذلك صيغ الخبر في هذا الفصل بوصفه رواية مسماة المصدر، وبقيت الأنساب والرؤى والأسماء ضمن حدودها. [٢٤]

ومع هذا الاحتراز، لا تُسقط نرجس من فصل شمعون، لأن صلة الانتساب إليه صريحة في الخبر. وتدل طريقة عرضها هنا على إمكان الجمع بين احترام الشخصية ودقة النقل: نذكر ما قيل فيها، ونسجل النساء اللاتي ساعدنها أو ظهرن في رؤاها، ونعترف بما لا نعرفه عن أمها وأجدادها. أما حكم قبول طريق الخبر أو تضعيفه تفصيلًا فله بحث رجالي مستقل، ولا يستعاض عنه بعبارة ثقة عامة في آخر قصة طويلة. [٢٤, ٢٥]

٤٧. شمعون راهب صفين: اسم مشترك وزمن مختلف

يحفظ أمالي الصدوق في المجلس الرابع والثلاثين خبر راهب يلتقي جيش علي عليه السلام في طريق صفين عند قصة عين الماء. يسميه الإمام شمعون، فيتعجب الراهب لأن هذا اسم سمته به أمه، ثم يقر بالنبي وبوصيه ويلتحق بعلي، وتذكر الرواية استشهاده. ويظهر في سياق الخبر مالك الأشتر وحبيب بن الجهم. هذه حكاية أخرى، لا تتمة خفية لسيرة شمعون الصفا ولا دليل فيها على عمر يمتد من زمن عيسى إلى صفين. [٢٨]

وأم الراهب امرأة غير مسماة وردت في تعليل الاسم، فتثبت في سجل النساء عند بيان سبب ذكرها، من غير الخلط بينها وبين أم شمعون الصفا المذكورة بقرابتها من مريم في خبر أم سليم. كما أن حبيب بن الجهم في سياق صفين ليس حبيب النجار في قصة يس. هذه أمثلة عملية على أن استيعاب الأسماء لا يتم بعدّ الألفاظ، بل بمعرفة السياق والنسب والوظيفة في كل خبر. [٢٨, ٢٣, ١١]

٤٨. شمعون بن لاوي في خبر العقل

ينقل المجلسي عن تحف العقول كلام النبي في جواب شمعون بن لاوي بن يهودا عن العقل وما يتشعب منه. وفي صدر النقل وصف له يتصل بحواريي عيسى. لا يذكر هذا الموضع أنه شمعون بن حمون الصفا نفسه، ولا يشرح لنا هذا الوصف بما يجيز القطع بأنه عاش من صحبة عيسى إلى زمن النبي. ولأن اختلاف النسب والزمن مؤثر، يحفظ الاسم مستقلاً، وتبقى مسألة المراد بالوصف محتاجة إلى تحقيق، بدل اختراع عمر أو نسب وسيط لإزالة الإشكال. [٢٩]

موضوع الحوار أخلاقي ومعرفي: العقل والحلم والعلم والرشد والعفاف والصيانة والحياء، لا تسلسل أوصياء عيسى. ولهذا لا ننسخ الحوار كله في سيرة شمعون الصفا، لكن لا نغفل الاسم الذي قد يصادفه القارئ فيخلطه بصاحب الفصل. وبالمثل فإن شمعون بن يعقوب المذكور في أخبار أبناء يعقوب شخصية من سياق آخر، وليس لقبًا إضافيًا لشمعون بن حمون. [٢٩, ١٧]

٤٩. أخبار مدح الحواريين وأخبار مقارنة النصرة

يرد في روضة الكافي عن الإمام الصادق خبر يقارن حواريي عيسى بشيعة أهل البيت، ويذكر ما لقيه أنصار الأئمة من قتل وتعذيب وتشريد في نصرتهم. ويتضمن عتابًا للحواريين في عدم القتال دون عيسى. لا ينبغي إخفاء هذا الخبر لأن غيره يمدحهم، ولا حمله على نفي كل إيمانهم الذي نطق به القرآن. فالمقارنة في صور النصرة وتحمل البلاء غير الحكم بأن كل فرد خان، ولا يذكر هذا الطريق أن شمعون هو المنكر المجهول في خبر الرفع. [٣٣, ٣, ٧]

ويفيد هذا الجمع القارئ في فهم لغة الفضائل والعتاب: قد يمدح نص أصل الإيمان، ويقارن نص آخر درجة التضحية، ويروي ثالث حادثة تخص فردًا لا الجماعة كلها. وليس من التحقيق إلغاء الاختلاف، كما ليس منه توسيع أضيق خبر حتى يطغى على القرآن. تبقى دراسة السند والدلالة لازمة لكل طريق، ويظل تعداد الأشخاص مرتبطًا بالأدوار التي تسندها إليهم النصوص نفسها. [٨, ٣٣, ٧]

٥٠. كيف تقرأ إحالات هذا الفصل

تشير الأرقام بين المعقوفين إلى قائمة المصادر في خاتمة الفصل. والصفحة المذكورة هي صفحة الكتاب في النص أو الطبعة المحال إليها، وليست رقم صفحة الموقع الإلكتروني، وقد تختلف في طبعة أخرى. وإذا كان المأخذ نقلًا في بحار الأنوار أو نور الثقلين عن كتاب أقدم، صُرّح بذلك. لا تعد إعادة الخبر في ثلاثة جوامع ثلاثة أسانيد مستقلة إذا كانت كلها تنقله من أصل واحد. [٧, ٨, ١٤, ١٥, ٣٣]

وقد قوبلت قصة يس كذلك بمواضعها في البرهان والصافي. يورد البرهان تعيين حبيب وخبر ابتلائه، ويذكر طرقًا مختلفة في فضائل السابقين؛ أما الصافي فيعين الثالث بشمعون في عبارة التفسير ثم ينقل خبر القمي الذي لا يصرح باسمه داخل الحوار. هذه المقابلة تشرح كيف ينشأ أحيانًا الانطباع بأن الاسم

جزء من لفظ الحديث، مع أنه جاء في تمهيد المفسر. وحيث كانت بعض المتون غير ظاهرة كاملة في العرض الإلكتروني، لم نعتمد الموضع الناقص لإثبات لفظ زائد. [٣٥, ٣٦]

٥١. سجل الرجال: أصحاب الحكاية ومَن يليهم

في المركز: عيسى ابن مريم، وشمعون بن حمون الصفا. وفي أخبار الصحبة والوصية المباشرة: الحواريون جماعة، والشاب غير المسمى الذي قبل الشبه، والمنكر غير المسمى، وكالب بن يوفنا في خبر أم سليم. لا تدخل أسماء هؤلاء الأربعة الأدوار في قائمة واحدة بلا تمييز؛ فبعضها أسماء أفراد، وبعضها أوصاف لا يجوز تعيين أصحابها بالظن. [٧, ١٧, ٢٣]

في أخبار القرية: الرسولان غير المسميين في طريقي الراوندي والقمي، والثالث غير المسمى داخل متن القمي، وحبيب النجار وابنه، والملك وابنه ووزراؤه، والغلام المطموس العينين، والميت ذو الأب الغائب، والمرضى الذين تذكرهم صيغ الشفاء. وفي أقوال التفسير: شمعون ويوحنا وبولس، أو صادق وصدوق وسلوم. هذه مجموعات بحسب النصوص، ولا يثبت منها عدد نهائي للأفراد التاريخيين، لاحتمال اختلاف تعيين الخبر الواحد وتعدد صيغته. [٩, ١٠, ١١]

في سلاسل الوصية: يحيى بن زكريا، ومنذر، ومنذر بن شمعون، ويعقوب بن شمعون وذريته، وسليمة، وبردة، والعزير، ودانيال، ومكيخا بن دانيال، وأنشو أو أنشوا، ودسيخا أو رشيخا، ونسطورس، ومرعيدا أو مرعيد، وبحيرى أو بحيرا. وتضيف السلسلة البديلة سلمة بن منذر، وبرزة بن سلمة، وأبي بن برزة، ودوس بن أبي، وأسيد بن دوس، وهوف، ويحيى بن هوف. ويأتي آبي وبالط في أخبار النهاية. تثبت الألفاظ كما وردت ولا تعلن اتحادات لم تثبت. [١٧, ١٨, ٢١, ٣٠]

وفي امتدادات الحكاية: مكيخا المبعوث من أصحاب الكهف، وسلمان الذي طلب العلماء، وبشر بن سليمان، وأبو أيوب الأنصاري المذكور في نسبه، وكافور، وعمر بن يزيد، ويشوعا بن قيصر، وقيصر، وابنا أخيه، ورئيس القسيسين، والأطباء، والمشتري والشيخ غير المسميين في خبر نرجس. ومن أصحاب الاسم المشترك: راهب صفين وأمه، ومالك الأشتر وحبيب بن الجهم في خبره، وشمعون بن لاوي بن يهودا في خبر العقل. [٢١, ٣٠, ٢٤, ٢٨, ٢٩]

٥٢. سجل النساء: المسميات وغير المسميات

مريم بنت عمران: أم عيسى في الأصل القرآني، وقريبة شمعون بحسب خبر أم سليم، وشخصية في بعض أخبار الحواريين وفي رؤيا نرجس. أخت مريم: غير مسماة في خبر القبر في إثبات الوصية. أم شمعون الصفا: غير مسماة، ووصفها في خبر أم سليم أنها عمة مريم. لا يُستنتج من هذه العلاقات اسم لم يرد، ولا توحد أخت مريم بعمتها أو بأم شمعون. [١, ٢١, ٢٣, ٢٤, ٣١]

أم سليم صاحبة الحصاة: سائِلة تقرأ الكتب وتتحقق من الوصية. حبابة الوالبية وأم غانم: وردتا لتمييز أم سليم عنهما، لا بوصفهما شريكتين في سؤالها. آسية امرأة فرعون: مثال للثبات في الخبر الذي يذكر

مؤمن آل يس. وأم يحيى: ذات صلة بالسياق النبوي ليحيى، مع بقاء تفصيل سيرتها في فصلها. والمرأة المحرضة على قتله في صيغة إثبات الوصية غير مسماة، فلا تحمَّل النساء الأخريات اسمها أو فعلها من غير نص. [٢٣, ١٥, ١, ٢١]

نرجس، وهي مليكة في خبر بشر: صاحبة الانتساب المروي إلى شمعون من جهة أمها. أم نرجس: غير مسماة، وهي حلقة النسب المباشرة في عبارتها. المعلِّمة المترجمة: غير مسماة، وتتولى تعليم العربية. الوصائف: جماعة نسائية غير مسماة ترافق نرجس في بعض خبرها. فاطمة الزهراء ومريم: تظهران في الرؤيا. حكيمة بنت الإمام الجواد: تتولى تعليم نرجس، وتروي أخبار ولادة ولدها. وهذه وظائف مختلفة لا تذوب في عنوان عام عن «نساء الأسرة». [٢٤, ٢٥]

بوران بنت كسرى: حاكمة مذكورة في الإطار الزمني المضطرب لإثبات الوصية، لا دليل في ذلك الموضع على جعلها وصية. أم راهب صفين: غير مسماة، ووردت لأنها سمته شمعون. وترد في رؤيا نرجس جماعة من نساء الجنة من غير أسماء فردية. أما زوجة شمعون الصفا أو بناته المسميات، فلم تثبت لهن في النصوص المعتمدة هنا تعيينات يمكن إضافتها بثقة؛ فتسجل هذه الفجوة بدل اختراع تراجم لها. [٢١, ٢٨, ٢٤]

٥٣. أهل البيت والرواة: موقع كل اسم

يحضر النبي محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين في أخبار العهد والمقارنة والرؤى؛ ويحضر الباقر والصادق والرضا والكاظم بوصفهم مصادر منقولة للتفسير والبيان، ويحضر الهادي والعسكري والمهدي في خبر نرجس. لا يجمع هذا الحضور أزمنة حياتهم في مجلس تاريخي واحد. ويذكر خبر كامل الزيارات هشام بن عبد الملك في إطار سؤال الباقر، بينما ترد مناظرة الرضا مع الجاثليق في إطار مجلس المأمون. الإطار الناقل للخبر غير زمن الواقعة التي يحكيها. [١٦, ٢٢, ٢٤, ٢٦, ٢٧, ٣٠]

وترد في المقارنات النبوية أسماء آدم وشيث، ويسمى هبة الله في صيغة من الأمالي، ونوح وسام، وإبراهيم وإسماعيل، وإسحاق في صيغة أخرى، وموسى وهارون ويوشع بن نون. هؤلاء شواهد على معنى الوصية، لا قائمة بأشخاص عاشوا بعد شمعون. وتظل رواية الاسم داخل التشبيه غير رواية سيرة كاملة له. [٢٦, ٢٧]

وفي مناظرة الرضا يظهر قسطاس الرومي ورأس الجالوت، والفضل بن سهل، وياسر الخادم، والحسن بن محمد النوفلي ناقل المجلس، ومحمد بن جعفر في الحاضرين. هؤلاء من إطار الاحتجاج الذي يذكر الحواريين وعلماء الإنجيل، لا من أصحاب شمعون. وكذلك أبو رافع وابن عباس وحمران وأبو حمزة الثمالي وأبو بصير وناجية ومقاتل ومحمد بن سنان وغيرهم ممن تقدم ذكرهم أدوارهم في نقل الأخبار أو أسئلتها. لا يساوي إدراج الراوي في السند مشاركته في الحادثة، ولا يجعل كل ما نقله المفسر عن وهب أو كعب حديثًا عن الإمام. [١٦, ١٧, ١٨, ٧, ١٠, ١٤, ٢٢, ١١]

٥٤. ما اكتمل وما بقي غير معين

اكتمل في هذا الفصل عرض الأخبار الأساسية التي أمكن مقابلتها في المصادر المسماة: موقع شمعون في الوصية، الحواريون، روايات رسل القرية، حبيب ومن حوله، خبر الاستتار والمقتل، قوائم الأوصياء بألفاظها المختلفة، وخبر النسب المتصل بنرجس. وأُثبتت النساء المسمّيات وغير المسمّيات ذوات الصلة، كما فُصل المشتركون في الأسماء. ليس المقصود بـ«اكتمال الفصل» أن كل خبر قد صح سنده، أو أن التاريخ صار خاليًا من الفراغ، وإنما أن المتاح الذي استند إليه النص عُرض بإحالاته وقيوده.

ويبقى غير معين على نحو يمكن الجزم به: مولد شمعون وعمره، واسم أمه وزوجته، وتسلسل جميع ذريته، وتاريخ مقتله وكيفيته وموضع قبره، وأسماء كل الحواريين من طريق إمامي واحد ثابت، وتواريخ جميع الأوصياء الواردين في القوائم. كما تبقى العلاقة التاريخية الدقيقة بين صيغ قصة القرية محتاجة إلى ترجيح لا توفره الشهرة وحدها. لا يُسد شيء من ذلك بخيال أدبي، وتظل مراجعة نسخة جديدة أو إسناد مستقل بابًا لإضافة علم موثق في المستقبل.

٥٥. من حفظ الوصية إلى انتظار البشارة

ليس شمعون في هذا المسار مجرد اسم بين نبيين. تصفه الروايات حاملًا لعلم عيسى، وناصرًا لأصحابه، وقائدًا لجماعة صدقت على الله، وتبقي ذكره حاضرًا في أخبار العهد والذرية. ويظهر إلى جانبه مؤمن من أقصى المدينة، ورسولان مستضعفان، ونساء يسألن ويعلمن وينقلن، وأناس لم تحفظ لنا النصوص أسماءهم. فالهداية في هذه الحكاية تحملها مسؤولية معلومة وإن خفيت كثير من الوجوه والتواريخ. [٧, ٩, ١٧, ٢٣, ٢٤]

وعند هذا الحد ينتقل الكتاب إلى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله: إلى جماعات حفظت ما علمت، وعلماء خفي أمرهم أو ظهر لبعض الطالبين، وإلى سلمان ومن سلك سبيل السؤال والبحث عن البشارة. يحمل الفصل التالي هذا الامتداد، على أن يبقى الميزان الذي تأسس هنا حاضرًا: القرآن أصل، والرواية تُعرف بطريقها ولفظها، ولا تُنسى امرأة أو رجل ثبتت صلته بالموضوع، ولا يُخترع اسم ليبدو التاريخ مكتملًا. [١٩, ٣٠, ٣, ٥]

المصادر والإحالات

ترقيم الإحالات خاص بهذا الفصل. المقصود بالمصدر هنا موضع النص الذي استندت إليه الفقرة، لا تزكية عامة لجميع محتويات الكتاب. أرقام الأبواب والأحاديث مقدمة على الصفحات عند اختلاف الطبعات.

[١] القرآن الكريم، آل عمران ٣: ٣٧–٥٥؛ ولا سيما بشارة يحيى، ونداء عيسى للحواريين، ودعاؤهم. وتراجع الآيات ١١٣–١١٥ و١٩٩ في تمييز المؤمنين من أهل الكتاب.

[٢] القرآن الكريم، المائدة ٥: ٤٦-٤٨، ١١١-١١٥؛ الإيمان بالرسول وخبر المائدة. وتراجع الآيات ١٩ و٨٢-٨٥ في الفترة والمؤمنين من أهل الكتاب.

[٣] القرآن الكريم، الصف ٦١: ٦، ١٤؛ البشارة بأحمد، ونصرة الحواريين، وافتراق بني إسرائيل.

[٤] القرآن الكريم، يس ٣٦: ١٣-٣٢؛ المرسلون، والرجل الساعي من أقصى المدينة، وعاقبة القوم.

[٥] القرآن الكريم، الحديد ٥٧: ٢٦-٢٧؛ أتباع عيسى والرأفة والرحمة والرهبانية.

[٦] القرآن الكريم، النساء ٤: ١٥٧-١٥٩؛ نفي قتل عيسى وصلبه وبيان رفعه.

[٧] تفسير القمي، ج١، ص١٠٣، خبر حمران عن الإمام الباقر في رفع عيسى؛ قوبل بنقله في نور الثقلين عند آل عمران ٣: ٥٢، الحديث ١٥٤. منه الشاب غير المسمى واتباع شمعون.

[٨] الصدوق، علل الشرائع وعيون أخبار الرضا، خبر ابن فضال عن الإمام الرضا في تسمية الحواريين والنصارى؛ قوبل في بحار الأنوار، ج١٤، الباب ٢٠، الحديث ٢، ص٢٧٢-٢٧٣.

[٩] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الحديث ٣٣٢، ص٢٧٤-٢٧٥ في النص المحال إليه؛ خبر الإمام الصادق في الرسولَين وشمعون وأنطاكية.

[١٠] تفسير القمي، ج٢، ص٢١٢ وما بعدها؛ خبره عن الإمام الباقر في رسل القرية، قوبل في نور الثقلين عند يس ٣٦: ١٤، الحديث ٣٠. الثالث غير مسمى داخل هذا المتن.

[١١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير يس ٣٦: ١٣-٢٩؛ اختلاف أسماء المرسلين، وحبيب وابنه، ونقول وهب وابن إسحاق، ونقل الطبرسي عن العياشي.

[١٢] الشيخ الطوسي، التبيان، تفسير يس ٣٦: ١٣-١٥؛ القول برسالة المرسلين من الله والقول بأنهم رسل عيسى.

[١٣] الطباطبائي، الميزان، تفسير يس ٣٦: ١٣-٣٢، البحث الروائي؛ التنبيه الموجز إلى عدم ملاءمة بعض الأخبار لسياق الآيات.

[١٤] الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٥٤، خبر ناجية في ابتلاء صاحب يس؛ قوبل بنقله في بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٧٤، وبالبرهان. وقع اختلاف في كنية الإمام في بعض النقول؛ لم تبن عليه هوية صاحب القصة.

[١٥] الصدوق، الخصال، خبر جابر في مؤمن آل يس وعلي وآسية؛ قوبل في بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٧٣، مع الأخبار المقارنة في مؤمن آل فرعون وصاحب يس.

[١٦] الصدوق، التوحيد، باب مجلس الرضا مع أهل الملل بحضرة المأمون، الباب ٦٥، الحديث ١؛ عدد الحواريين، وألوقا، ويوحنا بألفاظه، والاحتجاج في الأناجيل. وقوبل موضع الحواريين في بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٧٧-٢٧٨.

[١٧] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٢٢، الحديث ٢٠، ج١، ص٢٢٤-٢٢٨؛ خبر أبي رافع في إيداع شمعون وسلسلة الأوصياء والملوك. يتضمن سنده واسطة غير مسماة، وتحتاج تواريخه إلى نقد.

[١٨] كمال الدين، الباب ٢٢، الحديث ١، ج١، ص٢١١-٢١٣؛ السلسلة التي تذكر شمعون ويحيى ومنذرًا وسليمة وبردة. ومن طرقها مقاتل بن سليمان.

[١٩] كمال الدين، الباب ٨، الحديثان ١٩ و٢٠، ج١، ص١٦٠-١٦١، مع كلام المصنف المحيط بهما؛ الفترة والعالم غير الظاهر، وخبرا معاوية بن عمار ويعقوب بن شعيب عن الإمام الصادق.

[٢٠] كمال الدين، ج١، ص١٥٨-١٥٩، خاتمة السياق السابق لباب بشارة عيسى؛ استتار شمعون والجماعة في الجزيرة. نقل المقطع بوصفه من سياق الصدوق، لا حديثًا مستقلًا مفصولًا عن سياقه.

[٢١] إثبات الوصية، الكتاب المنسوب إلى المسعودي، ص٨٣-٩٠ في النص المحال إليه؛ أخبار شمعون ومريم ويحيى، وسلاسل مكيخا ومنذر، وبوران، وأصحاب الكهف. نسبة الكتاب وترتيبه التاريخي لا يفترضان محسومين.

[٢٢] ابن قولويه، كامل الزيارات، الباب ٢٤، الحديث ١؛ سؤال هشام للإمام الباقر وخبر مقتل شمعون، برواية الإمام الصادق. يتضمن الطريق راويا غير مسمى.

[٢٣] أحمد بن عياش الجوهري، مقتضب الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، ص١٧-٢٠؛ خبر أم سليم صاحبة الحصاة، وتمييزها من حبابة وأم غانم، وكالب بن يوفنا وقرابة شمعون لمريم، مع بيان المصنف للطريق واللفظ المختار.

[٢٤] كمال الدين، الباب ٤١، الحديث ١، ج٢، ص٤١٧-٤٢٣؛ خبر بشر بن سليمان في نرجس، واسم مليكة، والنسب إلى شمعون من جهة الأم، والرؤى، والمعلِّمة المترجمة، وحكيمة.

[٢٥] كمال الدين، الباب ٤٢، ج٢، ص٤٢٤-٤٢٧ وما بعدها؛ أخبار حكيمة في نرجس وولادة الإمام المهدي، مع اختلاف مقدار التفاصيل عن خبر بشر.

[٢٦] الصدوق، معاني الأخبار، باب معنى وفاء العباد بالعهد لله، الحديث ١، ص٣٧٢-٣٧٣؛ حديث ابن عباس في عهود الأنبياء وأوصيائهم. رقمه ٤٢١ في الفهرسة الإلكترونية المحال إليها.

[٢٧] الصدوق، الأمالي، المجلس ١١، الحديث ٤، ص١٠٠-١٠١؛ والمجلس ٥٨، الحديث ١٩ في متن الكتاب، ص٤٤٩-٤٥٠. التشبيه بأوصياء الأنبياء، ومنهم شمعون. يُعرض الخبر الثاني برقم ١٨ في عدّ الموقع، مع بقاء «١٩» في المتن.

[٢٨] الصدوق، الأمالي، المجلس ٣٤، الحديث ١٤، ص٢٥٠-٢٥٢؛ شمعون الراهب وعين الماء ومالك الأشتر في طريق صفين. شخصية متميزة عن شمعون الصفا.

[٢٩] ابن شعبة الحراني، تحف العقول، خبر جواب النبي لشمعون بن لاوي بن يهودا في العقل؛ قوبل بنقله في بحار الأنوار، ج١، ص١١٧، الحديث ١١ وما بعده.

[٣٠] كمال الدين، الباب ٥٨، الأحاديث ٤-٧، ج٢، ص٦٦٤-٦٦٥؛ آبي وبالط وسلمان وتسليم الوصايا. ويقارن بكلام الصدوق في ج١، ص١٦٦، في آبي وبردة والتنبيه إلى التصحيف.

[٣١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير آل عمران ٣: ٥٢-٥٤؛ أقوال تسمية الحواريين، والكسب، وخبر وهب عن الرفع ومريم وجمع الحواريين. لا تنسب هذه الأقوال كلها إلى أهل البيت.

[٣٢] الكليني، الكافي، كتاب فضل العلم، باب صفة العلماء، الحديث ٦؛ خبر تواضع عيسى وغسل أقدام الحواريين، وفي طريقه رفع. الفهرسة الإلكترونية: ١ / ٢ / ٥ / ٦.

[٣٣] الكليني، روضة الكافي، ج٨، ص٢٦٨؛ خبر أبي يحيى كوكب الدم عن الإمام الصادق في الحواريين وشيعة أهل البيت، قوبل في بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٧٤-٢٧٥.

[٣٤] القرآن الكريم، الكهف ١٨: ٩-٢٦؛ الفتية المؤمنون والمبعوث بالورق، دون تعيين اسمه في الآيات.

[٣٥] السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، تفسير يس ٣٦: ١٨-٢٩، الأخبار ٨٩١٤ وما بعدها في الفهرسة الإلكترونية؛ تعيين حبيب، وخبر ناجية، وطرق أخبار السبق. مواضع العرض الناقصة لم تستخدم لإثبات متن غير ظاهر.

[٣٦] الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، تفسير يس ٣٦: ١٣-١٤؛ تعيين الثالث بشمعون في صدر التفسير، ثم نقل رواية القمي عن الإمام الباقر.

الفصل ٤٥ — الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ — انتظار البشارة وحفظ التوحيد

١. من أمانة الوصية إلى زمن الانتظار

انتهى الفصل السابق عند شمعون الصفا وحملة الوصية بعد عيسى عليه السلام، وعند اختلاف الأخبار في أسماء من توارثوا تلك الأمانة. ويبدأ هذا الفصل من السؤال الذي تتركه تلك المرحلة: كيف بقي الإيمان حين خفت الصوت العلني للهداية، وكيف عرف بعض الناس أن رسالة جديدة ستظهر؟ يمتد النظر إلى بقايا المؤمنين بعيسى، وإلى المضطهدين والرهبان والباحثين عن الحنيفية، ثم إلى من لقوا محمدًا ﷺ أو عرفوا صفته قبل ظهوره بالرسالة. وتبقى أنساب آبائه وأمهاته وتفاصيل مولده ونشأته للفصلين السادس والأربعين والسابع والأربعين، مع ذكر ما يصلها هنا بموضوع البشارة.

٢. «على فترة من الرسل»: النص الذي يضبط عنوان الفصل

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]. يوجّه الخطاب إلى أهل الكتاب إعلانًا بوصول الرسول، ويقطع حجة من يحتج بعدم مجيء البشير والنذير. ولا تتضمن الآية قائمة بأسماء أهل تلك الفترة، ولا تعيّن عدد سنواتها، ولا تقول إن كل مؤمن أو عالم قد زال من الأرض. فتلك مسائل تُطلب أدلتها في مواضع أخرى، ولا تُدرج في ألفاظ الآية نفسها. [١]

وتطرح روايات إمامية التمييز بين ظهور الرسالة على الملأ وبقاء الحجة وحملة العلم. ويفسّر الصدوق زمن الفترة في خاتمة «كمال الدين» بالاختفاء وعدم إعلان الدعوة في بعض الأزمنة، ويحتج بأخبار الأوصياء وخالد بن سنان وسلمان. هذا تقرير للصدوق تُذكر أدلته وتُناقش، وليس زيادة في النص القرآني، ولا يتفق المفسرون الإمامية على كل تفصيل فيه، كما ستبيّن المقارنة مع «التبيان». كما أن إثبات الفترة السابقة لا يفتح باب النبوة بعد محمد ﷺ؛ فختم النبوة مسألة مستقلة مقررة في القرآن [الأحزاب: ٤٠]، ولا يخلط الفصل بين استمرار الهداية بعده وظهور نبي جديد. [١١,١٢,٣٨,٤٢]

٣. عيسى يبشّر بأحمد: الاستقبال يبدأ قبل انقضاء العهد السابق

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]. يجمع قول عيسى بين تصديق الوحي السابق والبشارة بمن يأتي بعده. فلا يبدأ الانتظار في هذا البناء من فراغ، بل من عهد يحفظه من آمن بالمسيح وصدّق ما جاء به. ويبرز في الآية اسم عيسى واسم أمه

مريم واسم أحمد، وهي أسماء قرآنية صريحة، بخلاف أسماء الرهبان والأحبار التي ستأتي من الروايات. [٢]

وتذكر السورة نفسها أن طائفة من بني إسرائيل آمنت وطائفة كفرت، وأن الله أيّد المؤمنين [الصف: ١٤]. وفي هذا يمنع النص صورةً مبسطة تقول إن الجميع انقلبوا على عيسى بلا استثناء. أما تعيين من حفظ البشارة في كل جيل، وكيف انتقلت الصحف والوصايا من شخص إلى آخر، فليس مفصّلًا هنا. لذلك يُقرأ خبر آبي وسلمان، وخبر بحيرى وأبي المويهب، على أنه محاولة روائية لتعريف بعض الوجوه التي حملت ذلك الانتظار، مع فحص كل طريق على حدة. [٢,١٢,١٧,١٩]

٤. بقايا الإيمان: أناس يقومون بالحق في محيط مضطرب

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥]. ليست هذه الآيات سجلًا زمنيًا لجميع أهل الفترة، لكنها أصل في الإنصاف: فلا يُمحى اختلاف الناس بإطلاق حكم واحد على كل من انتسب إلى كتاب سابق. وتؤكد الآية ١٩٩ من السورة إيمان فريق منهم بالله وما أُنزل إلى المسلمين وإليهم وخشوعهم لله. [٤]

وفي المائدة يذكر القرآن قسيسين ورهبانًا لا يستكبرون، وأناسًا تفيض أعينهم من الدمع حين يسمعون ما أُنزل إلى الرسول ويعرفون الحق [المائدة: ٨٢-٨٥]. ويروي العياشي، من طريق مروان عن بعض أصحابنا عن الإمام الصادق، تفسيرًا يربط هؤلاء بقوم كانوا بين عيسى ومحمد ينتظرون مجيء محمد ﷺ. وفي الطريق راوٍ غير مسمّى، فلا يتحول هذا الربط إلى تعيين قطعي لكل من شملته الآية. لكنه يوضح موضوع الفصل: قيمة العلم السابق تظهر في الاستجابة للحق عند حضوره، وفي تواضع صاحبه حين يجد ما كان ينتظره. [١,٢٥]

٥. الرأفة والرهبانية: حفظ الدين ومسؤولية الوفاء

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. يأتي ذلك بعد ذكر نوح وإبراهيم وجعل النبوة والكتاب في ذريتهما. ولا تساوي الآية بين الجميع؛ فهي تذكر الرأفة والرحمة، وتتناول الرهبانية، ثم تميّز المؤمنين الذين أعطوا أجرهم من كثيرٍ فسقوا. [٣]

وينقل «مجمع البيان»، وتبعه «نور الثقلين»، خبرًا عن ابن مسعود يروي فيه عن النبي ﷺ أن الجبابرة غلبوا المؤمنين بعد عيسى، فتفرّق من بقي منهم في الأرض إلى أن يُبعث النبي الذي وعدهم به عيسى. هذا خبر نبوي من طريق ابن مسعود في التفسير، لا رواية مسندة عن أحد الأئمة في ذلك الموضع.

ويُنقل أيضًا تفسير عن أبي الحسن للرهبانية بصلاة الليل. يبقى لكل نص سياقه، فلا تُختزل الرهبانية في قصة واحدة، ولا يصير كل معتزل للناس من حملة الوصية. والمرأة المؤمنة، وإن لم يرد اسمها في أخبار الصوامع، لا يخرجها ذلك من عموم حفظ الإيمان والعمل الصالح. [٢٦]

٦. معرفة البشارة لا تكفي وحدها

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. ويذكر القرآن معرفة أهل الكتاب به كما يعرفون أبناءهم [البقرة: ١٤٦]، كما يصف اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل [الأعراف: ١٥٧]. بهذا يفرّق الكتاب بين وجود العلم وبين الوفاء بما يقتضيه. فالانتظار قد يكون إيمانًا واستعدادًا، وقد ينقلب، عند الامتحان، إلى حسد أو خوف على المكانة. [٥,٦]

وفي الخبر الذي يرويه «الكافي» عن أبي بصير عن الإمام الصادق، سعى قوم إلى الموضع الذي وجدوا أنه مهاجر النبي، وتوزعوا بين تيماء وفدك وخيبر ثم عرف بعضهم الموضع بين عير وأحد. ويظهر في الرواية أعرابي من قيس دلّ المسافرين على الجبلين، من غير ذكر اسمه. ثم تتصل القصة بتُبَّع والأوس والخزرج. وفي خبر إسحاق بن عمار عن الصادق يرد المعنى موجزًا: قوم بين محمد وعيسى توعدوا أهل الأصنام بالنبي المنتظر ثم كفروا به حين خرج. تُروى هذه الأخبار لتفسير انقلاب موقف بعض المنتظرين، مع إبقاء التفصيل القرآني الذي يثبت وجود المؤمنين من أهل الكتاب أيضًا. [٢٤]

٧. السنوات المختلف فيها والحجة المستورة

يروي الصدوق عن معاوية بن عمار عن الإمام الصادق أن الناس بقوا بعد عيسى مائتين وخمسين سنة بلا حجة ظاهرة. ويروي عن يعقوب بن شعيب عنه أن المدة بين عيسى ومحمد خمسمائة عام، منها مائتان وخمسون عامًا ليس فيها نبي ولا عالم ظاهر؛ ولما سُئل عن أهلها ذكر تمسّكهم بدين عيسى وإيمانهم، وأن الأرض لا تكون إلا وفيها عالم. مدار هذه الأخبار على الظهور والاختفاء، فلا يصح حذف قيد «ظاهر» ثم بناء صورة أرضٍ خلت من كل هداية. كما لا تعيّن الرواية أسماء كل أولئك المؤمنين أو أسرهم. [١١]

وفي محاورة منقولة عن الإمام الباقر مع نافع مولى ابن عمر يرد خمسمائة سنة في جواب الإمام، وستمائة بحسب قول السائل. وتوجد أعداد أخرى في أخبار التسلسل التي نوقشت في الفصل السابق. لا تُساق هذه المقادير كأنها قياسات متفقة بين نقطتي بدء وانتهاء محددتين، ولا يُنشأ منها تقويم دقيق لميلاد كل راهب ووفاته. الثابت في سياق الفصل هو امتداد الانتظار وتعاقب حاملي المعرفة، أما جمع الأرقام المختلفة في معادلة واحدة فيحتاج إلى دليل لا توفره مجرد محاولة التوفيق. [١١,١٢,٣٤]

٨. آبي وبالط وبردة: آخر الأمانة قبل تسليمها

في باب النوادر من «كمال الدين» خبر عن الإمام الصادق يسمّي من انتهت إليه وصية عيسى «آبي»، وخبر آخر، فيه راوٍ غير مسمّى، يذكر «بالط». ويجمع الصدوق بين الاسمين في تعليقه، كما يذكر في تعقيبه على خبر سلمان اسم «بردة». وقد نبّه إلى التباس «آبي» بـ«أبي» الذي حمل بعض الناقلين على جعله أبا طالب. لذلك تثبت الألفاظ كما وردت، ويُنسب الجمع بينها إلى صاحبه؛ ولا يُخترع اسم مركب، ولا تُجعل جميع الأسماء المتشابهة في قوائم الأوصياء شخصًا واحدًا. أما تفصيل تلك القوائم واختلاف أنسابها فقد تقدّم في الفصل الرابع والأربعين. [١٢,١٣]

وينقل الصدوق عن دُرُست بن أبي منصور أنه سأل الإمام موسى بن جعفر: هل كان رسول الله محجوجًا بآبي؟ فجاء الجواب بالنفي، مع بيان أن آبي كان مستودعًا للوصايا فسلّمها إلى النبي وأقر به وبما جاء به، وأنه مات من يومه بحسب الخبر. يحفظ هذا النص منزلة الحافظ من غير أن يجعل النبي تابعًا له. ولا تتضمن الأخبار المراجعة سيرة كاملة لآبي: فلا نملك منها اسم أمه أو زوجته، ولا أسماء أبناء وبنات يمكن إثباتهم له، ولا يومًا متفقًا عليه لمولده أو وفاته. فتنتهي ترجمته هنا عند الوظيفة التي عرّفته بها الرواية، وتسليم الأمانة لصاحب الرسالة. [١٢]

٩. خالد بن سنان العبسي: دعوة واجهها قومها بالامتناع

يظهر خالد بن سنان في الروايات الإمامية بوصفه من شخصيات الفترة، ولا يرد اسمه في القرآن. يروي الكليني عن بشير النبال عن الإمام الصادق خبر امرأة أقبلت على رسول الله ﷺ فرحّب بها وأجلسها، ثم عرّفها بأنها ابنة نبي ضيّعه قومه، خالد بن سنان. وتعود الرواية من هذا اللقاء إلى دعوة أبيها: فقد دعا قومه فلم يؤمنوا، وكانت نار تخرج في وقت معلوم وتؤذيهم، فعرض عليهم أن يردّها عنهم على أن يستجيبوا له. قالوا نعم، فردّها بثوبه وتبعها إلى كهفها، ثم خرج وهم يظنون أنه لن يخرج. ومع ظهور ذلك في الخبر أبوا الإيمان. [٣٥]

ثم أخبرهم، بحسب الرواية، بقرب موته، ووصف لهم علامة تأتي بعد دفنه: قطيعًا من حمر الوحش يتقدمه عير أبتر يقف على قبره. وأمرهم حينئذ أن يكشفوا عنه ويسألوه، فلما ظهرت العلامة امتنعوا خوفًا من العار أو لأنهم لم يصدقوه في حياته. يروي الراوندي خبرًا قريبًا، مع اختلاف في وصف النار ووقت خروجها وبعض تفصيل الوصية. تُروى القصة بوصفها من أخبار خالد، لا بوصفها إذنًا عامًّا للتصرف في القبور. ولفظ النار مختلف فيه أيضًا؛ ففي متن منقول «نار الحدثان»، ويناقش المجلسي قراءة «نار الحرتين». لا يجيز ذلك تحويل اختلاف اللفظ إلى حادثتين ثابتتين. [٣٤,٣٥,٣٩]

١٠. مُحَيّاة بنت خالد: حفظ الاسم وحفظ موضع الخلاف

يسمّي خبر «كمال الدين» المرأة «محياة ابنة خالد بن سنان»، وينقله الصدوق عن الإمامين الباقر والصادق من طريق بشير النبال. وفيه أن النبي ﷺ أدناها وبسط لها رداءه وأجلسها إلى جنبه، ورحّب

بها بوصفها ابنة أخيه. هذه الأخوة في سياق النبوة، ولا تجعلها ابنة عم للنبي بالنسب. وبحضورها يصل خبر داعية من زمن الفترة إلى مجلس الرسول الجديد؛ فهي شخصية في صلب انتقال الذاكرة، لا مجرد اسم ملحق بسيرة أبيها. ولا يذكر النص المراجع اسم أمها أو زوجها أو أولادها أو تاريخ وفاتها، فلا تُزاد لها أسرة لا يدل عليها الخبر. [١٢]

ومع أخبار الإثبات، يحفظ «الاحتجاج» في أسئلة الزنديق للإمام الصادق خبرًا مخالفًا، سأل فيه عن بعث خالد إلى المجوس، فجاء فيه أنه عربي بدوي «وما كان نبيًا». وقد أورد المجلسي الطرفين ورجّح أخبار الإثبات بأنها أقوى وأكثر. أما الصدوق فقرّر نبوته وذكر أن بين مبعثه ومبعث نبينا خمسين سنة، وهذا تقريره التاريخي والكلامي. إثبات هذا الخلاف جزء من التدقيق؛ فلا يُحذف الخبر المخالف، ولا تُنسب محاولة حمل النفي على خصوص نبي المجوس إلى لفظ الإمام نفسه. وتبقى نسبة خالد إلى بني عبس واضحة في أخبار الباب، مع عدم توافر سيرة موثقة لجميع آبائه وذريته. [١٢,٣٤,٣٧]

١١. أصحاب الكهف: الإيمان الذي حمل أصحابه على مفارقة السلطان

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۞ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٩-١٠]. ثم يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. يعرّفهم القرآن بإيمانهم ودعائهم، ولا يبدأ بذكر آبائهم أو رتبهم في قصر ملك. ومن هنا يدخلون هذا الفصل، مع بيان اختلاف الروايات لاحقًا في تعيين زمنهم بالنسبة إلى بعثة عيسى. [٧]

قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]. ويستنكرون اتخاذ قومهم آلهة من دون الله بلا سلطان بيّن، ثم يعتزلون قومهم وما يعبدون إلا الله [١٥-١٦]. ليس في هذه الآيات اسم دقيانوس ولا اسم أفسوس ولا أسماء الفتية؛ تلك تعيينات في كتب التفسير والقصص. أما الموقف المتيقن من النص فهو رفض تأليه غير الله والاحتماء به حين صار البقاء بين القوم خطرًا على الدين. وتُظهر الآية أن الرحمة قد تُطلب في مكان ضيق ظاهريًا، حين تضيق المدينة الواسعة بأهل الإيمان. [٧]

١٢. النوم والبعث: ما يحفظه القرآن من تفاصيل المشهد

يضرب الله على آذانهم في الكهف سنين، ثم يبعثهم لتظهر معرفة أي الحزبين أحصى ما لبثوا [الكهف: ١١-١٢]. وتصف الآيات الشمس تميل عن كهفهم، وهم في فجوة منه، وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد [١٧-١٨]. ويذكر النص الرعب الذي يلقاه من يطّلع عليهم. الكلب حاضر في القرآن، أما اسمه ولونه وكونه كلب راعٍ بعينه فليست من ألفاظه. كما لا يُسمّى في القرآن الملك الذي اضطهدهم أو من حكم المدينة عند يقظتهم، ولا تُذكر امرأة بعينها من أسرهم. [٧]

حين تساءلوا عن مدة مقامهم قالوا يومًا أو بعض يوم، ثم ردّوا العلم إلى ربهم. واتفقوا على إرسال أحدهم بورقهم إلى المدينة لينظر أزكى الطعام ويأتيهم برزق منه، مع التلطّف وإخفاء خبرهم؛ فهم يخافون الرجم أو الإكراه على الرجوع إلى ملة قومهم [الكهف: ١٩-٢٠]. هكذا يصلنا من القرآن شأن الطعام والنقد والحذر المتبادل، دون تسمية حامل المال. والخوف في هذا المشهد مفهوم من ذاكرتهم للعهد الذي فرّوا منه، بينما لم يكونوا يعلمون مقدار التغيّر الذي وقع خارج الكهف. [٧]

١٣. العثور عليهم وعددهم: موضع العلم وحدود الجدل

يبيّن القرآن أن إظهار أمرهم كان ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، وينقل اختلاف المتنازعين في شأنهم: بين بناء بنيان عليهم واتخاذ مسجد [الكهف: ٢١]. ثم يحكي الأقوال في عددهم، ويأمر الرسول بأن يرد علم عدتهم إلى الله وألا يماري فيهم إلا مراء ظاهرًا وألا يستفتي فيهم من لا يملك العلم [٢٢]. ولا يسوّغ ذكر الأقوال بناء يقين بكل قائمة أسماء تداولها القصاص؛ فالعبرة المصرّح بها هي صدق الوعد والبعث، مع ضبط ما يجوز ادعاء معرفته عن أصحاب الآية. [٧]

وتأتي الآيتان ٢٣-٢٤ بتعليق الفعل المستقبلي بمشيئة الله وذكره عند النسيان، ثم يُذكر لبث ثلاثمائة سنين وازدياد تسع، ويتلوه الأمر: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [٢٥-٢٦]. وقد اختلف المفسرون في بعض وجوه اتصال هذا الكلام بالأقوال السابقة، كما اختلفوا في تعيين الرقيم: أهو اللوح المكتوب أم اسم موضع؟ تذكر روايات عن الصادق كتابة الأسماء والأنساب في صحف من رصاص، ويذكر نقل آخر لوحين من نحاس. يُثبت الفصل هذا الاختلاف، ولا يجعل مادة اللوح أو موقع الكهف جزءًا مقطوعًا به من القرآن. [٧,٢٧,٢٩,٣٠]

١٤. أصحاب الكهف في روايات أهل البيت

يروي الراوندي والعياشي أخبارًا عن الصادق تصف إسرارهم الإيمان وإظهارهم ما يدفع بطش قومهم حتى جاء الفرج. وفي خبر أبي بكر الحضرمي أنهم خرجوا على غير معرفة سابقة ولا ميعاد، ثم أخذ بعضهم على بعض العهود في الصحراء، فلما أظهروا أمرهم وجدوا أنهم على إيمان واحد. فلا تُختزل قصتهم في الهرب وحده؛ فيها كذلك تمييز الصاحب المأمون، ومخاطرة كشف ما يعتقدونه، واكتشاف الجماعة التي لم يكن أفرادها يعرفون بعضهم من قبل، وفق هذا الطريق. [٢٧,٢٩]

وترد في «الكافي» رواية دُرُست الواسطي عن الصادق في حضورهم الأعياد وشد الزنانير تقية، وأجرهم مرتين. ويرد تشبيه أبي طالب بهم من جهة إسرار الإيمان، وسيأخذ خبره تفصيله في الفصل التالي. وفي رواية أخرى يفسّر الإمام لفظ «الفتى» بالمؤمن، مع ذكر أنهم كانوا شيوخًا أو كهولًا في بعض الطرق. هذه دلالة روائية على فتوة الإيمان، وليست مستندًا لاختراع أعمار عددية لهم. كما ورد وصفهم بالصيارفة؛ وشرح الصدوق ذلك بصيارفة الكلام، بينما تناقش نصوص أخرى سياق الصرف والتجارة، فلا تُقدَّم حرفة واحدة لهم باعتبارها أمرًا متفقًا عليه. [٢٩,٣١]

١٥. أسماء الفتية والراعي والملكين في الخبر الطويل

في الخبر الطويل الذي أورده الراوندي، في سياق سؤال أحبار للإمام علي ونقله عن رسول الله، تسمّى المدينة أفسوس والملك دقيانوس أو دقيوس. ويذكر ستة من أهل مجلسه: تمليخا، ومكسلمينا، ومنشيلينا، ومرنوس، وديرنوس، وشاذريوس؛ وفي نقل «البحار» اختلافات، منها «ميشيلينا». يرى تمليخا خوف الملك واضطرابه، فيستدل بأن من يفزع ويحتاج وينام ليس إلهًا، ثم يجتمع أصحابه على مفارقة عبادته. هذه أسماء هذا الخبر وتفاصيله، ولا يثبت بإيرادها تصحيح إسناده أو مطابقة جميع ألفاظه للتاريخ. [٢٧,٢٨,٣١]

يلقون راعيًا غير مسمّى يشاركهم الإيمان ويلحق بهم بعد ردّ الأغنام إلى أصحابها، ويتبعه الكلب الذي يسمّيه الخبر قطمير. وبعد اليقظة يذهب تمليخا إلى خبّاز غير مسمّى، ثم إلى ملك يدعى عبد الرحمن، ويظهر شيخ من ذريته يقر بأنه جدّه؛ ويذكر الخبر اسم أبي تمليخا «قسطيكين». ثم يرد ملكان، أحدهما مؤمن موصوف بالمسلم والآخر يهودي، واختلافهما في البناء عند الكهف. ومعنى المسلم في هذا السياق المؤمن المستسلم لله، فلا يُنقل الرجل إلى أمة محمد زمنيًا بمجرد هذا اللفظ. وفي نقل القمي يرفض الراعي الانضمام بينما يصحبهم الكلب؛ فلا يُمحى الفرق بين الخبرين. [٢٨,٢٩]

١٦. قوائم أخرى وزمن غير محسوم

أورد المجلسي في تتمة الباب حكاية من تفسير الثعلبي، لا حديثًا مسندًا جديدًا عن أهل البيت. وفيها يندروس ورورياس، وهما كاتبان مؤمنان يستران إيمانهما في بيت الملك ويثبتان خبر الفتية؛ والملك الصالح تندوسيس؛ ورئيسا المدينة أربوس وأسلطيوس. وتسرد اللوحة في تلك الحكاية ثمانية أسماء: مكسلمينا، ومجسلمينا، ويمليخا، ومرطونس، وكسوطونس، وبيورس، وبكرنوس، وبطينوس. يُثبت هذا السجل لئلا تُخلط القوائم أو تُنسب جميعها إلى الإمام علي. ليس لدينا دليل يجعل كل اسم مغاير مجرد لقب لشخص من قائمة الراوندي. [٣١]

ويمتد الاختلاف إلى الزمن: يضع نقل القمي الفتية في الفترة بين عيسى ومحمد، بينما يقول خبر الراوندي الطويل إن عيسى بُعث ورُفع خلال غيابهم، فيقتضي بدء قصتهم قبل بعثته. ويذكر «مجمع البيان» القولين. كما تتضمن تتمة الثعلبي عن وهب خبر حواري مجهول عمل في حمام وعلّم الفتية، وصاحب الحمام وابن ملك وامرأة معه؛ وهي إضافات قصصية لا تُجعل طبقة جديدة ثابتة في سند الوصية. لهذا أُدرج أصحاب الكهف هنا لصلتهم بتفاسير الفترة وحفظ الإيمان، مع إبقاء ترتيبهم الزمني موضع اختلاف، دون دمج أفسوس والدولة الفارسية والروم في تقويم مصطنع. [٢٨,٢٩,٣٠,٣١]

١٧. أصحاب الصخرة: قصة قريبة في اللفظ مختلفة في الأشخاص

من أسباب اختلاط الشخصيات أن بعض التفاسير يذكر في «الرقيم» ثلاثة نفر انسد عليهم غار بصخرة. ويورد الراوندي خبرهم: توسل أحدهم بترك معصية حين قدر على امرأة، وتوسل آخر بأداء

مال أجير نما في يده حتى صار مالًا كثيرًا، وتوسل الثالث ببر أبيه وأمه وانتظاره حتى يستيقظا ليشربا اللبن. فانفرجت الصخرة وخرجوا. هؤلاء ثلاثة غير مسمّين، ولا دليل في هذا الخبر يجعلهم تمليخا وأصحابه أو يحدد زمنهم في الفترة بين عيسى ومحمد. [٢٨,٣٠,٣١]

وللمرأة المقصودة في القصة، وللأم النائمة، وللأب والأجير مواضع محفوظة في الخبر وإن لم يسمّهم. ولا تُحوَّل المرأة إلى زوجة لأحد الفتية، ولا تُجعل الأم أمًا لتمليخا. يفسّر ذكرهم هنا منشأ الالتباس ويحفظ الشخصيات من السقوط أو النقل إلى قصة غير قصتها. أما التوسع في أخبار كل عابد من بني إسرائيل، أو قصة لا تحدد زمن صاحبها، فيتجاوز حدود الفصل إذا لم توجد صلة أخرى بزمن الفترة. وهذا ينطبق أيضًا على إلحاق قصص جريج أو برصيصا بهذه القرون دون سند زمني خاص؛ فلا يُنشأ لها تاريخ لمجرد ورود راهب فيها.

١٨. أصحاب الأخدود: المؤمنون والمؤمنات في صلب النص

قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٤-٩]. يجمع المشهد بين النار المعدّة للتعذيب، والجلوس على ما يقع للمؤمنين، وبيان سبب الاضطهاد: الإيمان بالله. ولا يذكر اسم حاكم أو مدينة، ولا اسم نبي أو غلام، ولا عددًا للقتلى. [٨]

وتصرّح الآية التالية بالنساء مع الرجال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، ثم تعد المؤمنين العاملين الصالحات بالجنات والفوز الكبير [البروج: ١٠-١١]. فالنساء هنا حضور قرآني صريح في الجماعة المضطهدة، وإن لم تسمّ واحدة منهن. ويمنع هذا اللفظ أن تتحول القصة إلى بطولة رجالية وحدها. كما أن تعليق الوعيد بعدم التوبة جزء من الآية يجب حفظه، ولا يختزل السرد النص في العذاب دون بقيته. [٨]

١٩. النبي الحبشي والأم ورضيعها

في «المحاسن» خبر عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر أن الله بعث نبيًا حبشيًا إلى قومه، فقاتلوه وقتلوا من أصحابه وأسروا، ثم أعدوا أخدود النار. ودعوا من كان على دينهم إلى الاعتزال، ومن تمسك بدين النبي إلى دخول النار. وتقدمت امرأة معها صبي، فهابت المشهد، فنطق الصبي بما يثبتها. ويروي الراوندي عن الباقر خبرًا يربط ذلك بسؤال أسقف نجران للإمام علي؛ وفيه أن المرأة رحمت ابنها حين همّت بإلقاء نفسها، وأن الله أنطقه بما يطمئنها. اسم النبي واسم المرأة واسم الصبي غير مذكورة. [٢٧,٣٣]

ويختلف النقل في سن الرضيع: ففي خبر الراوندي شهران، وفيما ينقله «مجمع البيان» عن العياشي شهر. هذا اختلاف صغير في العدد، لكنه يمنع تقديم عمر واحد باعتباره نصًا لا خلاف فيه. كذلك لا

يكفي تشابه الأم والطفل لإثبات أنها المرأة نفسها في كل أخبار الأخدود. وتبقى الأم في هذه الرواية مؤمنة تواجه إكراهًا على دينها، ويظهر ترددها من رحمتها بصغيرها. لحفظ دورها يقتضي عرض هذا المعنى الإنساني، لا الاكتفاء بجملة أن غلامًا تكلم في المهد وحذف المرأة التي دار الحدث حول محنتها. [٢٧,٣٢,٣٣]

٢٠. نجران وذو نواس ودوس: التعيين في النقل التفسيري

في تفسير القمي المنقول في «بحار الأنوار» وغيره، يرتبط الأخدود بذي نواس، الذي تهوّد وسمّى نفسه يوسف، وبقوم في نجران بقوا على دين عيسى وحكم الإنجيل. جمعهم وعرض عليهم الدخول في دينه، فلما أبوا عذبهم بالنار والسيف. ويذكر النقل عدد عشرين ألفًا للقتلى والمحرقين، ويذكر نجاة رجل يدعى دوسًا، وفي لفظ المصدر «دوس ذو ثعلبان»، فرّ على فرس حتى أعجز طالبيه. هذه الأسماء والأعداد من الخبر التفسيري، ولا يجوز نقلها إلى القرآن بوصفها ألفاظه أو الأعداد التي عيّنها. [٣٣]

ويحتاج اسم رأس المؤمنين إلى عناية: في النقل ألفاظ مثل «عبد الله بن بريامن» و«عبد الله بن يامن»، وفي نصوص أخرى «عبد الله بن بريا»، وتذكر حواشي المقابلة اسم «عبد الله بن الثامر» أو «التامر» في كتب التاريخ. لا يحسم التشابه وحده أن الجميع رجل واحد، ولا أن كل صيغة صحيحة بالقدر نفسه. لذلك يثبت الفصل اختلاف الرسم في موضعه، ولا ينشئ عدة قادة مستقلين من تصحيفات محتملة. كما لا يساوي بين ذي نواس وكل ملك حميري سُمّي تُبّعًا؛ فالتشابه في البيئة الملكية لا يكفي لإلغاء اختلاف الشخصيات والمواقف. [٣٢,٣٣]

٢١. الغلام والراهب وابنة المستأجر: أخبار يجب ألا تندمج

ينقل الطبرسي في «مجمع البيان» خبر صهيب عن النبي من «صحيح مسلم»: ملك له ساحر، وغلام يتعلّم عنده، وراهب يجلس إليه الغلام في طريقه. يتعلم الغلام أن الشفاء من الله، ويؤمن جليس للملك بعد أن كان أعمى، ثم يقع الاضطهاد على الجليس والراهب والغلام. وتفشل محاولتا قتل الغلام بإلقائه من الجبل وإغراقه في البحر، ثم يُقتل بسهم مع ذكر رب الغلام، فيؤمن الناس ويُعدّ لهم الأخدود. وتظهر الأم والطفل في ختام هذا الطريق أيضًا. جميع هؤلاء غير مسمّين في متن الخبر، وإيراده في تفسير شيعي لا يغيّر طريقه إلى رواية عن الإمام الباقر أو الصادق. [٣٢]

ويحكي التفسير نفسه عن مقاتل خبر رجلين يقرآن الإنجيل، أحدهما بتهامة والآخر بنجران، وأن أحدهما استؤجر للعمل فرأت ابنة مستأجره نورًا عند قراءته فأخبرت أباها، فكان ذلك سبب تعرّف الأب إلى الدين واتباع جماعة من الرجال والنساء له. هذه الابنة شخصية مختلفة عن أم الرضيع، ولا يذكر النص اسمها أو اسم أبيها. ويورد هذا الطريق أعدادًا غير عدد القمي، كما يذكر مقاتل أخاديد بالشام وفارس ويسمّي أنطياخوس وبخت نصر. تُحفظ هذه الأقوال بصفتها أقوال تفسير، ولا يُجعل جميعها أحداثًا متعاقبة ثابتة بين عيسى ومحمد، ولا يُنقل بخت نصر إلى عصر متأخر لمجرد وروده في المقارنة. [٣٢]

٢٢. خبر المجوس ونبي الأخدود المدفون

ورد في «قصص الأنبياء» للراوندي خبر عن حكم المجوس وأن لهم كتابًا، وفيه ملك اعتدى على قرابته ثم حاول حمل الناس على استحلال ما صنع، فامتنعوا، فحفر الأخدود وألقى المخالفين فيه. وفي لفظ الراوندي ذكر أخته وأمه، وفي نقل «مجمع البيان» التردد بين ابنته وأخته. لا يُختار من هذا الاختلاف اسم امرأة أو صلة قرابة واحدة ثم يقال إنها المتفق عليها، ولا تُدمج هؤلاء النساء مع أم الطفل المؤمنة. كما أن زمن هذا الخبر لا يثبت من سياقه، فلا يجزم بإدخاله في القرون بين عيسى ومحمد. [٢٧,٣٢]

ويورد الراوندي خبرًا عن عامل لعمر في ناحية من الشام كان بناء المسجد عنده يسقط، فأرشد الإمام علي، بحسب الرواية، إلى موضع نبي قتلته جماعته ودُفن هناك، ثم ثبت البناء بعد نقل الجسد. وفي صيغة أخرى عرّفه بأنه نبي أصحاب الأخدود. العامل والنبي غير مسمّيين، والخبر عن العثور على الجسد متأخر عن الفترة، وإن كان متعلقًا بذكر من مضى. لا يكفي هذا لوضع اسم خالد أو جرجيس أو صاحب نجران مكان النبي المجهول، ولا لحسم موطن القصة القرآنية المختلف في تعيينه. [٢٧,٣٣]

٢٣. جرجيس والمرأة صاحبة الثور: رواية محفوظة مع التحفظ على سندها

تقدمت قصة جرجيس في الفصل ٣٨، ببيان مصدرها وحدود نسبتها. ويكفي هنا موضعها في أخبار الفترة، مع بقاء تاريخها غير محسوم: ينقل المجلسي عن قصص الأنبياء خبرًا ينتهي إلى ابن عباس، يذكر الملك داذانة، والساحر وصاحب الشرطة الذين آمنوا، وميكائيل وإسرافيل في مشاهد الإحياء. وهذه أسماء في الرواية، لا أسماء نصّ عليها القرآن، ولا ينتهي هذا الطريق إلى إمام من أهل البيت. [٣٤]

وتُحفظ المرأة غير المسماة صاحبة الثور في سجل القصة؛ فقد رُويت استجابتها بعد عودة الحيوان الذي تقوم عليه معيشة أسرتها، وفُصّل خبرها في الفصل ٣٨. ولا توصف بزوجة جرجيس أو بالملكة بغير نص. كما يبقى تصريح المجلسي بعدم الاعتماد على سند الزيادة التاريخية المطولة قيدًا على نقلها؛ فلا يُبنى عليها تاريخ يقيني لجرجيس أو موضع محسوم في سلسلة أوصياء عيسى. [٣٤]

٢٤. تُبَّع: الملك وقومه ليسوا حكمًا واحدًا

يذكر القرآن «قوم تُبَّع» في سياق أمم كذبت وأُهلكت [الدخان: ٣٧؛ ق: ١٤]، ولا يروي في هذين الموضعين سيرة الملك أو أسماء أفراد قومه. وفي «كمال الدين» باب لتُبَّع يورده الصدوق بين العارفين بخبر النبي المنتظر. ويُروى عن الإمام الصادق أنه قال للأوس والخزرج أن يبقوا في ذلك الموضع حتى يخرج النبي، وأنه لو أدركه لخدمه وخرج معه. وفي خبر آخر حبر من قريظة يعرّفه أن للموضع شأنًا مع نبي يخرج من مكة ويهاجر إلى يثرب؛ فالحبر شخصية غير مسمّاة، ولا يصح إعطاؤه اسمًا من أخبار أخرى. [٩,١٠,١٥]

وتفصّل رواية أبي بصير في «الكافي» أن تُبَّع حاصر أهل الموضع، وأنهم كانوا يلقون إلى ضعفاء جنده التمر والشعير ليلًا، فبلغته رحمتهم فأمّنهم. ثم أخبروه أن الأرض مهاجر نبي، فترك فيها من قومه من

ينصره، وسمّى الخبر الأوس والخزرج. ويأتي في «كمال الدين» نقل عن ابن عباس يصف تتبّع بالإسلام، وطريقه غير طريق الخبر عن الصادق. تحفظ هذه النصوص صورة ملك استجاب لما عرفه في الرواية، دون أن تجعل كل ملوك حمير شخصًا واحدًا أو تسقط ذم القرآن لقوم مكذبين. ولا تتوافر في هذه الأخبار أسماء زوجاته وبناته، فلا يضاف إليه نسب نسائي ظني. [١٥,٢٤]

٢٥. قسّ بن ساعدة الإيادي: صوت في سوق عكاظ

يروي الصدوق عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أن رسول الله ﷺ سأل وفد بكر بن وائل، يوم فتح مكة، عن قسّ بن ساعدة، فأخبروه بموته. واستعاد النبي، في الخبر، مشهده في سوق عكاظ على جمل أحمر يخطب الناس، داعيًا إلى الاجتماع والإنصات والفهم والحفظ. كان قس يلفت أبصار سامعيه إلى السماء والأرض وتعاقب الليل وذهاب الأجيال، ثم يستدل بالموت على أن ما يراه الناس ليس عبثًا، ويعلن أن لله دينًا خيرًا مما هم عليه. في هذا الطريق ليس قس نبيًا مسمّى في القرآن، بل رجل حكمة وتوحيد ينتظر الهداية الآتية. [١٤]

ويترحم عليه النبي في الرواية ويذكر حشره أمة وحده، ثم يسأل عمن يحفظ من شعره. فيُنشد رجل غير مسمّى أبياتًا تتأمل مصير الأوّلين، وأن موارد الموت لا يرجع عنها الواردون. ليس ذلك اسمًا جديدًا لقس ولا دليلًا على أنه أدرك البعثة وآمن بها في حياة النبي؛ فالخبر يحكي تذكّر الرسول له بعد موته. كما أن وفد بكر بن وائل في هذا الطريق غير وفد إياد الوارد في الطريق التالي عند الصدوق. يبقى لكل وفد موضعه، ولا يُنشأ وفد واحد تجمع أسماؤه من روايات مختلفة. [١٤]

٢٦. وصية قس لأهله وما لا نعلمه عن سيرته

يجمع الصدوق إلى الخبر السابق حكمًا وأشعارًا من طرق أخرى. وفي أحدها يجمع قس ولده ويوصيهم بالعدل، والبدء بالنفس عند النهي، والاقتصاد في القول والطعام، وصيانة الدين، والصدقة. وينبّه إلى ألا يوضع في العنق طوق لا يمكن نزعه إلا بمشقة، وإلى اختيار الوقت المناسب للمشاورة. هذه أخبار في باب قس، لكنها لا تمر جميعًا بالإمام الباقر؛ فبعضها عن رواة الأخبار والأنساب وبعضها منسوب إلى ابن عباس عن أبيه. ولهذا لا تُنسب كل حكمة في الباب إلى حديث واحد عن الإمام. [١٤]

ويذكر المصنّف نسبه إلى إياد، ويحكي بصيغة «يقال» عمرًا طويلًا يبلغ ستمائة سنة، ويصفه بمعرفة البشارة والعمل بالتقية. لا تكفي صيغة الحكاية لإثبات ذلك العمر أو استخراج سنة ميلاد ووفاة. كما أن ذكر «ولده» لا يعطينا أسماء الأبناء، ولا يثبت أن جميعهم ذكور أو يتيح تسمية بنات له. ولا يرد في النص الذي اعتمدناه اسم زوجته أو أمه. يُحفظ قس إذن بما رواه المصدر من دعوة وحكمة وأثر في الذاكرة النبوية، وتبقى فراغات سيرته معلنة بدل ملئها بتفاصيل توارثتها كتب بلا مقابلة. [١٤]

٢٧. زيد بن عمرو بن نفيل: الخروج في طلب الحنيفية

يفرد «كمال الدين» لزيد بن عمرو باباً، ويقدّمه الصدوق طالباً للدين الحنيف ومنتظراً للنبي. والطريق المفصّل الذي يسوقه يمر بمحمد بن إسحاق، فهو خبر سيرة أورده مصنّف إمامي، وليس قولاً منسوباً إلى إمام في هذا الموضع. يخرج زيد من مكة يسأل أهل الكتاب عن دين إبراهيم، ويذكر الخبر الموصل والجزيرة والشام في رحلته، حتى يصل إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء. يخبره الراهب بأن النبي الذي يبعث بدين إبراهيم قد أظلّ زمانه، وأنه يظهر في الأرض التي خرج منها زيد. [٢٣]

يرجع زيد مسرعاً يريد مكة، لكن القصة تنتهي قبل تحقق اللقاء: عدا عليه قوم بأرض لخم فقتلوه. وبذلك يحفظ النص رحلة رجل مات وهو في الطلب، لا سيرة رجل لقي الرسول ثم انقطعت أخباره. ولا يُسمّى الراهب الذي أرشده، فلا يُجعل بحيرى أو أبا المويهب بغير شاهد. ويذكر الصدوق أخباراً في سؤال سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب عن الاستغفار لزيد، وفي وصفه بأنه يأتي يوم القيامة أمة وحده. وهي أخبار أخرى بأسانيدها، لا برهان على صحة كل تفصيل جغرافي أو عائلي في قصة الرحلة. [٢٣]

٢٨. صفية بنت الحضرمي وورقة: الشخصيات المحيطة بزيد

تسمّي رواية ابن إسحاق في «كمال الدين» زوجة زيد «صفية بنت الحضرمي». وتقول إنها كانت تخبر الخطاب بن نفيل كلما رأت زوجها يتهيأ للخروج. هذه وظيفة محددة في الخبر، ولا يذكر النص دوافعها الداخلية ولا نهاية موقفها، فلا يُكتب لها اعتقاد أو تحول ديني لم يصرح به المصدر. ويظهر الخطاب في القصة معارضًا للخروج، ويظهر سعيد في أخبار الباب ابناً لزيد يسأل عن أبيه. أما أسماء بنات زيد أو بقية أولاده فلا يثبتها هذا الموضع، كما لا يكفي ذكر الزوجة للحكم بأنها أم كل ولد نُسب إليه في كتب أخرى. [٢٣]

ويظهر ورقة بن نوفل باكيًا زيدًا ومرثيًا له، ويقول الخبر إنه اتبع مثل أثره ولم يفعل مثل فعله. يُذكر ورقة هنا بهذا الحد: شاهدًا أدبيًا على البحث عن التوحيد ورجلًا يرتبط ببيئة الانتظار. أما أخباره مع خديجة وبداية الوحي فلها موضعها في سيرة النبي، ولا يصح استخدام مجرد هذه المرثية لإثبات جميع ما يروى عنه هناك. ويحفظ الفصل كذلك إبراهيم عليه السلام بوصفه صاحب الدين الذي يطلبه زيد، من غير أن يجعل كل طالب للحنيفية وصيًا منصوصًا عليه أو عالمًا بكل تفاصيل الرسالة المنتظرة. [٢٣]

٢٩. سلمان وروزبه: بداية الخبر الطويل وأثر الأم والأب

أبرز من يصل به السرد من زمن الانتظار إلى اللقاء سلمان الفارسي. وفي «كمال الدين» خبر طويل يرويه الصدوق عن الإمام موسى بن جعفر، وفي طريقه «عمن ذكره»، أي راوٍ لم يسمّ. ويفتتح بمجلس عند قبر النبي يجتمع فيه الإمام علي وسلمان وأبو ذر وجماعة من قريش، فيسأل علي سلمان عن مبدأ

أمره. يقول سلمان في هذا الطريق إنه من أهل شيراز ومن أبناء الدهاقين، وإنه كان عزيزًا على أبيه. هذه صورة هذا الخبر، فلا تُقدّم تفاصيلها باعتبارها إجماعًا على مولده ونشأته. [١٣]

يسمع، وهو يسير مع أبيه في عيد، رجلًا في صومعة يشهد لله بالوحدانية ويذكر عيسى ومحمدًا. فتتعلق نفسه بالبشارة، وتلحظ أمه تغيره وتسأله عن ترك السجود لمطلع الشمس. ثم يذكر الخبر كتابًا معلقًا في البيت يقرأ فيه عهدًا بالبشارة، ويشتد خلافه مع أبويه حتى يُحبس في بئر. الأم حاضرة في السؤال والتحذير والحبس، والأب حاضر في السلطة العائلية، وكلاهما غير مسمّى في متن القصة. أما «خشبوذان» فيورده الصدوق في تعليقه اسمًا لأبي روزبه، فلا يخلط التعليق بالمتن. وكذلك يقرر الصدوق أنه لم يسجد للشمس، وأن أبويه أخطآ فهم صلاته إلى جهة شرقية؛ وهذا تفسيره الذي يحفظه الفصل منسوبًا إليه. [١٣]

٣٠. من صومعة إلى صومعة: الرهبان غير المسمّين

يروي الخبر أن رجلًا عليه ثياب بيض أخرج روزبه من محنته وأوصله إلى الديراني الأول. لا يسمّي هذا المنقذ ولا يصرّح بأنه جبريل، فلا تُعطى له هوية ملَك بعينه. يخدم سلمان الديراني حولين، فلما دنت وفاته يسأله عمّن يخلفه، فيدله على راهب في أنطاكية ويعطيه لوحًا يحمله إليه. يغسل معلمه ويكفنه ويدفنه، ثم يحمل الأمانة ويسير. وتتكرر الخدمة والوصية عند راهب أنطاكية، الذي يوجّهه إلى الإسكندرية. يحمل هذا التكرار معنى البحث المتصل والرعاية الشخصية للمعلم عند نهاية حياته، في حدود الرواية. [١٣]

وعند راهب الإسكندرية، بعد مدة أخرى، يأتي الإخبار بأن وقت محمد قد حان، والتوجيه بحمل اللوح إليه. لا يذكر الطريق أسماء الرهبان الثلاثة، ولا أسماء أمهاتهم أو زوجاتهم أو تلاميذ آخرين معهم. لذلك لا يجوز ملء هذه المواضع بحيرى ونسطور وآبي على التوالي لمجرد أن الكتب تذكرهم في أبواب أخرى. وحتى تحديد آخرهم بآبي يحتاج إلى جمع بين طريقين مختلفين يُذكر بوصفه احتمالًا، لا بوصفه لفظ الرواية الطويلة. وينتهي دور هؤلاء الرهبان هنا بما تسلمه سلمان منهم، لا بسيرة مخترعة لكل دير وتاريخ بنائه. [١٢,١٣]

٣١. الطريق والاسترقاق والمرأة السلمية

بعد وفاة معلمه يصحب سلمان قومًا على أن يخدمهم ويكفوه طعامه وشرابه. ويروي الخبر أنهم اعتدوا عليه حين امتنع عن طعام وشراب خالف ما التزمه، فأقر لأحدهم بالعبودية اتقاء للقتل، فباعه إلى رجل يهودي. يكلّفه الرجل نقل رمل كثير في ليلة ويهدده بالقتل؛ فيدعو سلمان ربه ويذكر الخبر إعانته بريح نقلت الرمل، ثم اتهامه بالسحر وبيعه مرة أخرى. هؤلاء الرفاق والرجل المشتري غير مسمّين، والخبر عن فعل أشخاص معينين لا عن صفة لازمة لكل قوم أو لكل أتباع دين. [١٣]

ثم يشتريه في هذا الطريق امرأة يصفها النص بأنها «سلمية». فهذا وصف نسبة، وليس اسمًا شخصيًا هو «سلمى»، ولا يقول الموضع إنها يهودية. ويذكر الخبر أنها أحبته وجعلت له حائطًا يأكل منه ويهب ويتصدق. ستصبح هذه المرأة طرفًا مباشرًا في انتقاله إلى النبي، ولذلك لا تُحذف من القصة حين يختصر بعض الناقلين الطريق في عبارة «اشتراه رجل ثم أعتقه الرسول». ولا يملك النص اسمها الكامل أو اسم زوجها أو أولادها، كما لا يثبت منه أنها هي المالكة في كل روايات مكاتبة سلمان الأخرى. [١٣]

٣٢. اللقاء والعلامات: الصدقة والهدية والخاتم

في الحائط يرى سلمان جماعة تتبعهم غمامة، ويعدد الخبر رسول الله والإمام علي وأبا ذر والمقداد وعقيل بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة. يطلب من مولاته تمرًا، فيقدمه أولًا باسم الصدقة؛ فيمسك النبي عن الأكل. ثم يعود بطبق يسميه هدية، فيأكل منه الرسول ومن معه. وبعد ذلك يطلب النظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فيكشفه له النبي، فيعرف فيه العلامة التي كان ينتظرها. لا يتضمن القرآن هذه الأطباق أو أسماء الحاضرين في ذلك المجلس؛ إنها تفاصيل هذا الخبر المسند بالطريق المتقدم. [١٣]

وتحتاج قائمة الحاضرين خصوصًا إلى التنبيه: اجتماع عقيل وحمزة وأبي ذر في هذا السياق يثير إشكالًا عند مقابلة مراحل إسلامهم وحضورهم، وقد نبّه محقق الطبعة إلى ذلك. فلا تتحول القائمة إلى وثيقة قطعية لترتيب إسلام الصحابة أو حضورهم في المدينة. ويمكن بيان معنى العلامات في السرد مع إبقاء الإشكال ظاهرًا؛ فالامتناع عن تصحيح جزء مضطرب لا يساوي حذف سلمان أو محو الرحلة كلها، كما أن شهرة أصل إسلامه لا تصحح تلقائيًا كل تفصيل في رواية واحدة. [١٣]

٣٣. العتق واسم سلمان: خاتمة الطريق في الرواية

يطلب النبي في الخبر شراء سلمان من المرأة، فتشترط أربعمائة نخلة، نصفها صفراء ونصفها حمراء. ويأمر عليًا بجمع النوى وغرسه وسقيه، فينبت النخل في الرواية سريعًا. ثم تغيّر المرأة الشرط إلى أن تكون النخلات كلها صفراء، فيذكر الخبر مسح جبريل بجناحيه عليها وتحوّلها. وبعد إتمام الأمر يعتق الرسول روزبه ويسميه سلمان. تُحفظ الأعداد وتبدّل الشرط وإسهام علي وذكر جبريل بوصفها تفاصيل هذا الطريق، لا بوصفها نصًا جامعًا اتفقت عليه جميع روايات العتق. [١٣]

تجمع الخاتمة بين تحرير الإنسان ووصوله إلى من طلبه. لكن هذا الفصل ينتهي من سيرة سلمان عند عبوره من البشارة إلى النصرة، فلا يستبق تفصيل الخندق ومواقفه بعد وفاة النبي أو وفاته هو؛ لتلك الأخبار سياقها في فصول السيرة اللاحقة. ولا تُستخرج من الأعمار الطويلة المحكية له سنة حسابية لمولده. أما أمه والمرأة السلمية والمعلمون الثلاثة فيبقون في الفهرس بأوصافهم، لأن أهمية الرحلة لا تقتصر على الاسم الذي اشتهر في نهايتها. [١٣]

٣٤. الطريق المختصر إلى سلمان ومعنى حفظ الوصية

إلى جانب الخبر الطويل، يروي «كمال الدين» عن الإمام الصادق أن سلمان أتى غير واحد من العلماء، وأن آخر من لقيه كان آبي، فمكث عنده ثم وجّهه إلى محمد حين ظهر بمكة. هذا الخبر أقل تفصيلًا، ولا يذكر الآبار والأطباق والنخل. يثبت الفصل الطريقين دون أن يملأ فراغات أحدهما بجميع ألفاظ الآخر. كما أن وصف الصدوق سلمان بأنه مؤدٍّ لما حُمّل إلى صاحب الوصية لا يجعل كل راهب خدمه وصيًا منصوصًا، ولا يجعل سلمان نبيًا أو أصلًا مستقلًا للرسالة التي تلقاها محمد من الله. [١٢,١٣]

وحين يُقرأ خبر موسى بن جعفر في تسليم آبي الوصايا إلى النبي، يتضح الفرق بين الحفظ والإنشاء: يحمل الأمين ما استودع، ويقرّ لصاحب الرسالة بما جاء به. وهذه نقطة وصل بين الفصل السابق وهذا الفصل؛ فالسابق تتبع أسماء الوصية ومشكلاتها، والحاضر يتتبع أثر الانتظار في حياة الناس. ومن ثم لا نحتاج إلى إعادة جميع سلاسل شمعون ودانيال وميكيخا ونسطور، ولا إلى تعيين مرحلة كل واحد منهم في رحلة سلمان دون نص. [١٢]

٣٥. بحيرى الراهب: التعرف إلى الصفة في طريق الشام

أورد الصدوق ثلاثة أخبار في باب بحيرى. في أحدها يروي أبو طالب رحلة إلى الشام بصحبة محمد، وما رآه الراهب من علاماته، وسؤاله عن صلته بالغلام. وفي الخبر المختصر المرفوع عن أبان بن عثمان، ينزل بحيرى من صومعته حين يرى الغمامة، ويدعو القافلة إلى طعام، فيلاحظ بقاء الغمامة عند الرحل حيث تُرك الغلام، فيطلب حضوره. ثم يسأل أبا طالب عن أبيه، ويحذره من تعريضه لمن يتربص به، ويدعوه إلى إعادته إلى بلاده. لا يذكر القرآن بحيرى، ولا تمنح شهرة القصة جميع أسانيدها درجة واحدة. [١٧]

وفي الطريق المطوّل يرفض محمد أن ينفرد بالطعام دون رفقائه، ويذكر الخبر بركة الطعام وظلال الشجرة وعلامات أخرى كثيرة. كما يروي سؤال بحيرى بحق اللات والعزى، ورفض الغلام أن يُسأل بهما، ثم انتقال السؤال إلى الله. تمثل هذه المقاطع في الرواية أخلاق المشاركة ونفورًا من الأوثان، لكنها واردة في طريق ناقشه محقق الكتاب من جهة رجاله وانقطاعه وغرائبه. يوردها الفصل بعبارة الخبر، ويحيل تفصيل الرحلة وعمر النبي فيها ومقابلة الروايات إلى فصل نشأته. ولا تُحوَّل معجزة من هذا الطريق إلى آية قرآنية أو شاهد مستقل عن مصدرها. [١٧]

٣٦. بحيرى وأبو طالب وشمعون: صلات لا تسوّغ خلط الهويات

يربط الخبر المطوّل معرفة بحيرى بكتاب منسوب إلى شمعون الصفا، يذكر فيه علامة ظهور الماء مع النبي الآتي من تهامة. وتظهر بذلك صلة موضوعية بما سبق من حفظ تراث عيسى، دون أن يكون النص نفسه سجلًا كاملًا لوصول كتاب شمعون إلى الراهب. وفي خبر آخر عند الصدوق يخاطب بحيرى أبا طالب بشأن حفظ ابن أخيه، ويذكر ناصرًا من ولده يُعرف في الكتب بالوصية. يحفظ الفصل هذا

الربط بوصفه من أخبار البشارة، ويترك بسط إيمان أبي طالب ونصرته للفصل الذي يختص ببيت النبي. [١٧]

ولا تثبت هذه الأخبار أن بحيرى هو آبي أو بالط، أو أنه الراهب الإسكندري الذي خدمه سلمان، أو أنه كل من حمل اسمًا قريبًا من نسطور في كتب السيرة والوصية. وتختلف بعض أخبار الرحلة في العمر والملابسات، فلا يقال إن جميع المشاهد وقعت في يوم واحد. كما يذكر الخبر المطوّل استقبال أهل مكة بعد الرجوع واستثناء أبي جهل، وهذا جزء من ذلك المتن لا دليل على مواقف كل أهل مكة في كل وقت. المقصود هنا تعريف الراهب ودوره في التعرّف والبشارة، مع بقاء الأشخاص والأزمنة متميزة. [١٢,١٣,١٧]

وتذكر تتمة الرواية المطوّلة، بعد مغادرة بحيرى، حبرًا اسمه نسطورا في الشام؛ راقب محمدًا ثلاثة أيام، ثم سأل أبا طالب أن يرى العلامة في ظهره، وحذّره مما قد يتعرض له، وكان يأتيه بالطعام. ويذكر الخبر قميصًا عرضه الراهب فلم يأخذه محمد وأخذه أبو طالب. فنسطورا هنا شخصية مصرح بها، لا مجرد اختلاف في كتابة اسم بحيرى، وتبقى تفاصيله ضمن الرواية نفسها التي نبّه إلى ضعف طريقها وغرائب متنها. [١٧]

٣٧. كبير الرهبان وخالد بن أسيد وطليق بن سفيان

يسوق «كمال الدين» خبر خالد بن أسيد بن أبي العيص وطليق بن سفيان بن أمية، وهما يتاجران إلى الشام في السنة التي خرج فيها محمد. وفي سوق بصرى يأتيهما رهبان يطلبون أن يصحباهم إلى كبيرهم، ظانين أن أحدهما هو الرجل الذي يريدونه. ينظر كبير الرهبان إليهما وإلى كتاب بين يديه، ثم يتبين أنهما ليسا المقصودين. ويسأل عن بقية القافلة، فيذكران شابًا من بني هاشم يدعى يتيم بني عبد المطلب، فيخرج معهما حتى يراه ويخاطبه بالتوقير والبشارة. [١٨]

كبير الرهبان هنا غير مسمّى؛ فلا يصح تحويله إلى بحيرى لأن المكان هو بصرى أو لأن الدلالة متشابهة. والتلامذة والبطارقة المحيطون به جماعة أخرى لا تعرف أسماؤهم في الخبر. ويقول الراوي إنه كان حوله ثمانون رجلًا، وهو عدد من الرواية لا من القرآن. أما خالد بن أسيد فغير خالد بن سنان العبسي، وطليق غير زيد بن عمرو، ولا يسوّغ الاشتراك في أخبار ما قبل البعثة دمجهم. وينتهي هذا الموضع بتعريف الحدث والشهود، إذ لا يقدم المصدر هنا سيرًا كاملة لهم ولا أنسابًا لنسائهم. [١٨]

٣٨. أبو المويهب وخديجة في خبر التجارة

وفي باب مستقل يذكر الصدوق أبا المويهب الراهب. يسأل تاجرين عن الشاب الهاشمي الذي قدم معهما، فيذكران محمدًا وعمله في تجارة امرأة اسمها خديجة. يطلب لقاءه، ثم يوصي التاجرين باتباعه إذا دعا إلى التوحيد، ويسأل عن مولود لأبي طالب اسمه علي ويذكر معرفته بصفة الوصية. خديجة هنا امرأة صاحبة مال وتجارة ترد باسمها في سياق الرحلة؛ ولا يبدأ حضورها في السيرة عند الزواج

وحده. أما بسط نسبها وعمل ميسرة وأخبار الزواج فموضعه الفصل المختص، ولا يُنقل كل ما ورد في أخبار التجارة إلى هذا الطريق بعينه. [١٩]

ويرد في صدر الخبر اسم عبد مناة بن كنانة واسم نوفل بن معاوية مع امتداد نسب، وفي صياغة بعض النسخ اضطراب ظاهر في ترتيب العبارة؛ وتثبت بعض العروض الواو بين الاسمين. يحفظ الفصل الاسمين كما ظهرا في هذا الطريق، ولا يحسم بهذا الرسم وحده تاريخ الشخص الأول أو مطابقته لمن يحمل الاسم في الأنساب القديمة. كما أن أبا المويهب غير كبير الرهبان غير المسمّى في الخبر السابق ما لم يقم دليل على اتحادهما. ويقع سند هذا الباب ضمن أخبار السيرة المسندة التي جمعها الصدوق، وليس في متنه قول مباشر عن إمام يصحح جميع تعييناته. [١٩]

٣٩. سيف بن ذي يزن ووفد قريش

في خبر سيف بن ذي يزن، يروي الصدوق عن ابن عباس قدوم وفد من قريش لتهنئته بعد غلبته الحبشة. ويسمّي عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان، وأسد بن خويلد، ووهب بن عبد مناف، مع آخرين. يستقبلهم الملك في صنعاء، ثم يخص عبد المطلب بخبر يجده في علمه عن غلام بتهامة بين كتفيه علامة، اسمه محمد، يموت أبواه ويكفله جده وعمه، وتكون له نصرة ودار هجرة. ويذكر عبد المطلب في الحوار ابنه عبد الله وزوجته آمنة بنت وهب. [١٦]

للخبر قيمة في بيان صورة انتظار البشارة في كتب السيرة، لكن داخله مشكلة زمنية: يبدأ بجعل الزيارة بعد المولد بسنتين، ثم يذكر وفاة الأم وكفالة الجد والعم، وهي تفاصيل لا تستقيم تلقائيًا مع هذا التحديد. نُثبت المشكلة بدل حذفها أو تغيير التاريخ بلا دليل. ويذكر النص هدايا من الأعبد والإماء والأموال، دون أسماء للأشخاص الذين عدّهم في العطاء؛ فلا يصبحون زوجات مسمّيات لأعضاء الوفد. كما أن أمية بن عبد شمس المذكور في الوفد غير أمية بن أبي الصلت الشاعر الذي استشهد الخبر بشعره. ويختم النص بوفاة سيف قبل مرور الحول على الموعد الذي ضربه لعبد المطلب؛ وهذا زمن الخبر الداخلي لا تاريخ تقويمي محقق. [١٦]

٤٠. سطيح وعبد المسيح: خبر الإشارات ليلة المولد

يجمع الصدوق في باب سطيح الكاهن خبرًا عن اضطراب إيوان كسرى وخمود نار فارس ورؤيا الموبذان. يرسل كسرى إلى النعمان بن المنذر يطلب عالمًا يفسّر ما وقع، فيُبعث إليه عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني. ولما لم يجد عنده الجواب يحيله عبد المسيح إلى خال له بالشام يدعى سطيحًا، ثم يسافر إليه وهو مشرف على الموت. ويربط جواب سطيح في القصة بين العلامات وتحوّل الملك وظهور صاحب الهراوة وكثرة التلاوة. هذا خبر من أخبار الدلائل جمعه الصدوق، وليس حديثًا عن إمام في سنده المعروض. [٢٠]

تظهر فيه كذلك أسماء بهرام والهرمزان وسابور في الشعر الملحق، وهي أسماء مستحضرة في وصف تقلب الملك، لا شهود ثبت أن كل واحد منهم تلقى البشارة. وفي ذيل الخبر أقوال مضطربة في عمر سطيح وانتسابه وزمانه، فلا يُبنى منها عمر محقق يمتد قرونًا ولا نسب نهائي إلى الأزد أو عبد القيس. ويُذكر خاله وقرابته بحسب الرواية مع بقاء اسم أم عبد المسيح غير معروف في هذا الموضع. وسيعود خبر المولد في فصله؛ أما هنا فموضعه تعريف شاهد من أدبيات الانتظار، لا جعل الكهانة مصدرًا يساوي الوحي أو طريقًا لازمًا لمعرفة كل نبي. [٢٠]

٤١. يوسف اليهودي وآمنة: معرفة العلامة عند ظهورها

في باب «خبر يوسف اليهودي بالنبي وبصفاته وعلاماته» يروي الصدوق، من طريق مرفوع عن أبان بن عثمان، خبر المولد وما رُوي عن آمنة بنت وهب. وتسأل قريش الوليد بن المغيرة عن اضطراب النجوم في القصة، بينما يبحث رجل يهودي بمكة يدعى يوسف عن مولود تلك الليلة، لما يعرفه من علامة في كتبه. ولما يسمع بولادة ابن لعبد الله بن عبد المطلب يطلب رؤيته، فتخرج آمنة ابنها في قماطه، وينظر الرجل إلى العلامة بين كتفيه. يوسف هنا شخصية مكية في هذا الخبر، وليس يوسف النبي ابن يعقوب. [٢١]

ويُحفظ حضور آمنة بوصفها أمًا وناقلة لما خبرته في الرواية، لا بوصفها مجرد حلقة نسب. ويظهر عبد الله وعبد المطلب والوليد ويوسف في أدوار مختلفة، وتظهر الملائكة وجبريل وإبليس في المقاطع الغيبية من الخبر. لا يُحوّل الفصل هذه المقاطع إلى تواريخ فلكية مقطوع بها، ولا يعالج هنا اختلاف يوم المولد؛ فذلك جزء من تدقيق الفصل السابع والأربعين. والغرض الحالي بيان أن التعرّف في هذا الطريق يقع عند ظهور العلامة، وأن رؤية العلامة لا تكفي وحدها للحكم على كل تفاصيل سيرة صاحب الخبر أو خاتمته. [٢١]

٤٢. ابن حواش الحبر وكعب بن أسد

يروي «كمال الدين» عن ابن عباس خبر حبر أقبل من الشام ينتظر النبي بمهاجره. يرد في عنوان الباب «ابن حواش»، وفي بعض العرض «دواس ابن حواش». تصف الرواية تركه بلاده إلى أرض النخل والتمر، وإخباره أن النبي يخرج بمكة وأن هذا الموضع دار هجرته، مع وصف هيئته وعلامة النبوة. ينتقل ذكره إلى زمن بني قريظة حين يذكّر النبي كعب بن أسد بوصيته. فالحبر صاحب انتظار سابق، وكعب متلقٍّ لتلك الوصية يظهر في حدث لاحق؛ لا يُجمعان في شخصية واحدة. [٢٢]

وفي الخبر يقر كعب بأنه سمع تلك الوصية، لكنه يمتنع عن الإيمان خشية تعيير قومه له بالجبن. هنا يتصل السرد بالقاعدة القرآنية في الفرق بين المعرفة والاستجابة، مع إبقاء تفاصيل الحكم على كعب في فصل أحداث السيرة لا في تاريخ الفترة. ولا يثبت من الباب أن ابن حواش هو ابن الهيبان المذكور

في طرق أخرى، ولا أنه دوس ذو ثعلبان الناجي من أخدود نجران لمجرد تشابه «دواس» و«دوس». ولا تعرف في النص أسماء زوجته وأولاده أو مدة مقامه، فتُترك مجهولة. [٥,٢٢]

٤٣. أمية بن أبي الصلت وأبو عامر: حدّ المعرفة وحدّ الاستجابة

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. لا تسمّي الآية الرجل. ويورد «مجمع البيان» في تفسيرها أقوالًا في بلعم وأمية بن أبي الصلت وأبي عامر، ثم ينقل عن الإمام الباقر أن الأصل في بلعم وأن المثل يشمل من آثر هواه على هدى الله. وعليه لا يقال إن القرآن سمّى أمية أو أبا عامر، ولا يُنسب تعيينهما إلى الإمام الباقر لمجرد وروده قبل قوله في الصفحة نفسها. [٦,٣٦]

في القول المتعلق بأمية يظهر شاعر قرأ الكتب وتطلع إلى شأن النبوة ثم لم يستجب لمحمد. وترد أخته ناقلة لشعره حين يستنشدها النبي، من غير تسميتها في هذا النص. فلا تُهمل بوصفها حافظة للكلام وشاهدة عليه، ولا يضاف اسم متداول لها بلا مصدر مستقل. وأما أبو عامر بن النعمان بن صيفي فيرد في قول آخر راهبًا ادعى الحنيفية ثم عارض النبي؛ وهذا قول تفسيري منسوب إلى سعيد بن المسيب. ورد الاسمان هنا لتكميل صورة المواقف المختلفة من البشارة، وتبقى وقائعهما بعد البعثة وأخبار بدر والمدينة في سياقها اللاحق. [٣٦]

٤٤. النساء في أخبار البشارة المتصلة ببيت النبي

ترد آمنة بنت وهب وخديجة في الأخبار المتقدمة بأدوار واضحة: الأم الحافظة لخبر مولد ابنها، وصاحبة التجارة التي ارتبطت بها رحلة محمد. ويتصل بذلك في باب عبد المطلب وأبي طالب من «كمال الدين» ذكر امرأة توصف بكاهنة قريش سألها عبد المطلب عن رؤيا، وامرأة أخرى توصف بكاهنة بني مخزوم في خبر العباس. لا يثبت النص أنهما واحدة، ولا يسمّي إحداهما، ولا يدل وصف عملهما على صحة كل ما نسبتاه إلى المستقبل. ويَرِد اسم شعيرة الأسدية في خبر تابع منسوب إليها، ضمن رواية المولد التي تحتاج نقدًا مستقلًا. [١٦,١٩,٢١,٤٠]

تُثبت هذه الإشارات حتى لا يقتصر تتبّع الشواهد على الرجال، لكنها لا تُرفع إلى منزلة الآيات أو الروايات الصحيحة بمجرد وجودها في كتاب الصدوق. ويُحال تفصيلها إلى فصل الميلاد، مع مقابلة ما في بعض طرقها من إرسال وغرائب. ولا تُلحق فاطمة بنت أسد أو حليمة السعدية بمجلس لم يذكرهما لمجرد أن لهما دورًا عظيمًا في النشأة؛ فموضع كل شخصية تحدده الرواية المتعلقة بها. وكذلك لا تُنقل مريم أم عيسى إلى مجالس أحبار مكة؛ حضورها هنا قرآني في تعريف ابنها وأصل البشارة، وقد استوفيت سيرتها في فصلها. [٢,٤٠]

وتتصل بخديجة بشارة أخرى ينقلها المجلسي عن «المناقب» و«العدد»: رجل يهودي غير مسمّى يخاطب نساء قريش بظهور نبي، فيستقر قوله في قلب خديجة. ثم يخرج محمد مع ميسرة في تجارتها، ويذكر الخبر

راهبًا يدعى نسطور يتعرّف إلى العلامات ويوصي ميسرة به. ويخبر ميسرة خديجة بما شاهده، وينتهي هذا الجزء إلى عتقه وعتق أولاده الذين لا يسمّيهم. وفي النقل السابق له عن «الخرائج» يرد اسم بحيرى في رحلة التجارة. يُحفظ اختلاف الاسمين والسياقين، ولا يُسوّى بينهما وبين خبر نسطورا في رحلة أبي طالب بتخمين. هذه أخبار مناقب وسيرة، ولا تُنسب جميع ألفاظها إلى إمام لمجرد نقل المجلسي لها. [٤٦]

ويمتد النقل إلى عقد الزواج، فيذكر عمرو بن أسد عمّ خديجة، وينقل قولًا آخر يجعل التزويج إلى أبيها خويلد بن أسد، كما يسمّي عبد الله بن غنم في شعر التهنئة المتصل ببشارة عيسى وموسى. يُشار إلى الأسماء هنا لصلة النص بالبشارة، وتُترك المفاضلة بين أخبار العقد لفصل السيرة الخاص به. وكذلك تبقى نساء قريش الحاضرات، والنساء عند خديجة في الرواية الأخرى، وجواريها، وأولاد ميسرة، أشخاصًا وجماعات لا تُنشأ لهم أسماء ولا أنساب من خارج تلك الأخبار. [٤٦]

٤٥. النجاشي ومن استقبلوا القرآن: نهاية الانتظار وبداية عهد آخر

ينقل تفسير القمي، كما أورده «نور الثقلين» عند المائدة ٨٢، خبر هجرة جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة وقراءته على النجاشي من سورة مريم، واعتراف الملك بما في الدعوة من صلة برسالة عيسى. وتظهر في امتداد الخبر أسماء بنت عميس وعبد الله بن جعفر، ويذكر ابنًا للنجاشي سمّاه محمدًا، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، ومارية أم إبراهيم. كما يذكر عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، وزوجة لعمرو وخادمة للنجاشي لا يسميهما. هذه الشخصيات لا تُسقط من تتبع النص، لكن أحداثها من عهد البعثة والهجرة وما بعدهما، فلا تُقدّم بوصفها وقائع سبقت مولد النبي. [٢٥]

وفي هذا النقل تفاصيل تحتاج إلى المقابلة، منها نسبة إرسال مارية إلى النجاشي، بينما ينبه السيد جعفر مرتضى العاملي عند نقد هذا الخبر إلى أنها مرتبطة بهدية المقوقس. فلا نعتمد النسبة المضطربة لإعادة كتابة سيرتها. والغرض هنا الوقوف عند الاستجابة للقرآن بوصفها ثمرة محتملة لحفظ البشارة، وإحالة السير اللاحقة إلى مواضعها. ولا يلزم من ذكر قسيسين ورهبان مؤمنين أن كل من انتسب إليهم عرف النبي أو آمن به؛ فقد قدّم القرآن نفسه صور الاستجابة وصور الجحود، وبهذا التفصيل يستقيم الانتقال من زمن الفترة إلى زمن الرسالة الظاهرة. [١,٢٥,٤١]

٤٦. مقابلة التفاسير: حفظ الاختلاف وعدم مضاعفة الشاهد

ينص الشيخ الطوسي عند تفسير المائدة ١٩ على أن الفترة انقطاع من الرسل، ويستدل على عدم وجود نبي في ذلك الزمان. وهذا يختلف، في ظاهره، عن تفسير الصدوق الذي يستوعب أنبياء مستخفين وأخبار خالد بن سنان. فلا يصح أن ننسب إلى جميع المفسرين الإمامية قولًا واحدًا في هذه الجزئية. وقد نُقل القولان بأدلتهما وحدودهما؛ أما الجمع بينهما بتخصيص نوع من النبوة أو نوع من الظهور فيحتاج إلى دليل زائد، فلا يُقدَّم باعتباره لفظ الطوسي أو تصريح الصدوق. [١٢,٤٢]

ويركز «الميزان» عند الآية على مجيء الرسول بالبيان بعد انقطاع الرسل وإتمام الحجة على المخاطَبين. يفيد هذا في ضبط مقصد الآية، لكنه لا يجعلها قائمة بأسماء رجال الفترة ونسائها. أما التفصيل العددي للسنين وأخبار الأفراد فيبقى محتاجًا إلى نصوصه الخاصة. [١,٤٣]

وتفيد مقابلة «البرهان» في أخبار الأخدود في ملاحظة لفظ «عبد الله بن بريا» في النقل عن القمي، واسم يوسف لذي نواس، وتسمية دوس ذي ثعلبان. وهذه مقابلة لألفاظ الخبر، لا سند مستقل جديد لكل تفصيل فيه. وكذلك ينقل «الصافي» عند الكهف ١٣، عن «الكافي» و«العياشي»، ما يفسر الفتوة بالإيمان ويصف أصحاب الكهف بالكهولة. فوجود المعنى في «نور الثقلين» و«الصافي» لا يجعله حديثين مستقلين إذا رجعا إلى الأصل نفسه. وبهذا تُفهم قيمة الجوامع: تجمع مواضع النص وتعين على مقابلته، ويظل الحكم على الرواية متعلقًا بأصلها وطريقها. [٢٩,٣٣,٤٤,٤٥]

كما يجب التمييز بين أبطال الخبر وناقليه: أمير المؤمنين والباقر والصادق والكاظم عليهم السلام مصادر مروية للتفسير في مواضع متعددة هنا، وليس معنى ذلك أنهم عاشوا في زمن الفترة. وابن عباس وابن مسعود وصهيب ووهب ومقاتل والثعلبي وغيرهم يُذكرون لتعيين منشأ نقل أو قول، لا لإلحاق جميع أقوالهم بروايات أهل البيت. وفي المقابل، لا يتحول الإسناد الناقص إلى صحيح بمجرد موافقة فكرته لموضوع الفصل. يتيح هذا الضبط سرد الحكاية بتفاصيلها، مع بقاء القارئ قادرًا على معرفة ما قاله القرآن، وما روي عن الإمام، وما أضافه المؤرخ أو المفسر.

٤٧. فهرس الشخصيات الرجالية والجماعات المتصلة بها

أصل البشارة وحملة العهد، في المباحث ١–٨ و٣٤–٣٦: عيسى ابن مريم، ومحمد الذي جاء اسم أحمد في البشارة به، وشمعون الصفا، وآبي وبالط وبردة بحسب اختلاف النصوص المبين في مواضعه. ويُذكر إبراهيم وموسى مرجعين للرسالة والكتب السابقة، لا شخصيتين عاشتا في الفترة. وتشمل الجماعات بني إسرائيل وأهل الكتاب والمؤمنين بعيسى والقسيسين والرهبان والأحبار، ومن هؤلاء من بقي بلا اسم في الروايات. ونافع مولى ابن عمر حاضر في خبر السؤال عن المدة بوصفه محاورًا متأخرًا، لا رجلًا من أهل الفترة. [١,٢,٥,٦,١١,١٢,١٧,٣٤]

خالد وأصحاب الكهف، في المباحث ٩–١٧: خالد بن سنان وأبناؤه أو قومه في أخبار الوصية بالقبر، ودقيانوس وأصحاب الكهف والراعي. وفي الرواية المطوّلة: تمليخا، ومكسلمينا، ومنشيلينا، ومرنوس، وديرنوس، وشاذريوس، مع اختلاف ضبط بعض الأسماء في النسخ؛ وعبد الرحمن الملك، والخبّاز، والشيخ المنسوب إلى ذرية تمليخا، والملكان المتنازعان على البناء. وتَرِد في النقل عن الثعلبي أسماء يندروس ورورياس وتندوسيس وأربوس وأسلطيوس، والقائمة الأخرى لأسماء الفتية، على ما فُصل في المبحث ١٦، فلا تُدمج القائمتان لإنتاج عدد زائد. ويُحفظ ذكر ثلاثة أصحاب الصخرة، والعامل، والأب، وصاحب الحمّام وابن الملك في الأخبار الموازية، مع عدم ثبوت تاريخ كل منها. والكلب ليس شخصية بشرية؛ اسمه قطمير من النقل القصصي لا من القرآن. [٧,٢٧,٢٨,٣٠,٣١]

الأخدود وجرجيس، في المباحث ١٨-٢٣: النبي الحبشي غير المسمّى؛ وذو نواس، ويَرِد باسمه يوسف؛ وعبد الله بن بريامن أو ابن يامن أو ابن بريا، مع نقل اسم ابن الثامر في الطريق الآخر دون الجزم باتحاد جميع الألفاظ؛ ودوس ذو ثعلبان. وفي خبر الغلام: الملك والساحر والراهب والغلام وجليس الملك الذي كان أعمى. وفي الروايات الأخرى: قارئا نجران أو تهامة، وصاحب العمل، والنبي المدفون، وملك المجوس، وعامل الشام، وعمر وعلي في خبر اكتشاف القبر. أما أنطياخوس وبختنصر فاسمان في تعيينات تاريخية مختلفة لا يثبت بها وقوع جميع الأخاديد في هذا العصر. وفي خبر جرجيس: جرجيس وداذانه بحسب ضبطه، والساحر، وصاحب الشرطة، والمؤمنون الذين تذكر الرواية استجابتهم؛ وتفصيل ضعف الاعتماد على ذلك الطريق محفوظ في المبحث الخاص به. [٨,٢٧,٣٢,٣٣,٣٤,٤٤]

تُبّع والباحثون وسلمان، في المباحث ٢٤-٣٤: تُبّع، والحبر من قريظة، والأعرابي من قيس، والأوس والخزرج؛ وقس بن ساعدة ووفدا بكر بن وائل وإياد بحسب اختلاف الخبرين؛ وزيد بن عمرو بن نفيل، والخطاب بن نفيل، وسعيد بن زيد، وعمر بن الخطاب، وورقة بن نوفل، والراهب الذي دلّ زيدًا على زمن النبي. وسلمان المسمّى روزبه، وأبوه الذي يذكر الصدوق اسمه خشبوذان في تعليقه، والمنقذ ذو الثياب البيض، والرهبان الثلاثة، ورفاق الطريق، والمشتري اليهودي؛ ومحمد وعلي وأبو ذر والمقداد وعقيل وحمزة وزيد بن حارثة في مشهد المدينة وفق المتن الذي نبّه إلى إشكاله الزمني. ولا تُنشأ أسماء للرهبان المجهولين، ولا يُستبدل آبي بهم جميعًا. [٥,١٣,١٤,١٥,٢٣,٢٤]

رهبان البشارة وشهودها، في المباحث ٣٥-٤٤: بحيرى، وأبو طالب، ونسطورا، وكبير الرهبان غير المسمّى، وخالد بن أسيد بن أبي العيص، وطليق بن سفيان بن أمية؛ وأبو المويهب، وعبد مناة بن كنانة، ونوفل بن معاوية بحسب لفظ الخبر؛ وسيف بن ذي يزن، وعبد المطلب، وأمية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان، وأسد بن خويلد، ووهب بن عبد مناف؛ وسطيح وعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة، وكسرى والنعمان بن المنذر والمؤبذان، وبهرام والهرمزان وسابور في الشعر المضمّن. ومنهم يوسف اليهودي، وعبد الله والد النبي، والوليد بن المغيرة، والعباس، وابن حواش في اختلاف ضبط اسمه، وكعب بن أسد، وأمية بن أبي الصلت، وأبو عامر بن النعمان بن صيفي، وأبو جهل. وفي خبر خديجة: ميسرة ونسطور والرجل اليهودي وعمرو بن أسد وخويلد بن أسد وعبد الله بن غنم، ضمن حدود الأخبار التي ساقت أسماءهم. [١٦,١٧,١٨,١٩,٢٠,٢١,٢٢,٣٦,٤٠,٤٦]

ما بعد ظهور الرسالة، في المبحث ٤٥: النجاشي وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر ومحمد ابن النجاشي في ذلك النقل، وعمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، والمقوقس في المقابلة التصحيحية. أما جبريل وميكائيل وإسرافيل والملائكة، وكذلك إبليس، فترد بحسب مواضعها في الأخبار، ولا تدخل في عدد الشخصيات البشرية. ولا يشمل هذا الفهرس كل اسم في سلسلة رواة الحديث، ولا كل جد ورد في نسب طويل؛ فهذه وظيفة فهارس الأسانيد والأنساب، بينما غايته منع سقوط شخص له دور في الحدث أو تفسيره. [١٣,٢٥,٣٤,٤١]

ومن الشخصيات المتصلة بإطار السؤال عن أصحاب الكهف، لا بأحداث زمنهم، النضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل السهمي. يذكر نقل القمي عن أبي بصير عن الإمام الصادق، كما أورده «البحار»، إرسال قريش هؤلاء إلى نجران لسؤال علماء اليهود والنصارى عما يمتحنون به النبي. نُثبت الأسماء بصفتها جزءًا من هذا النقل في مناسبة نزول السورة، مع بقاء بحث طرقه وملابساته ضمن أحداث البعثة، ولا يُجعل الرجال الثلاثة من أصحاب الكهف أو من المؤمنين المنتظرين. [٣١]

٠٤٨. فهرس النساء والأطفال ومن بقي اسمه مجهولًا

في أصل البشارة وبيت النبي: مريم أم عيسى، وآمنة بنت وهب، وخديجة بنت خويلد، وكاهنة قريش، وكاهنة بني مخزوم، وشعيرة الأسدية في خبرها المنقول. وفاطمة بنت أسد وحليمة السعدية مذكورتان لتحديد موضع سيرتهما اللاحق، فلا تُنسب إليهما أفعال لم تذكرهما فيها النصوص. وتبقى النساء اللاتي شهدن خبر البشارة عند اجتماع قريش، والنساء مع خديجة، وجواريها، بلا أسماء في النقل المراجع. مواضع ذلك في المباحث ٣ و٣٩ و٤١ و٠٤٤. [٢,١٦,٢١,٤٠,٤٦]

في الثبات تحت الابتلاء: محيّاة ابنة خالد بن سنان، مع فصل الاسم في رواية «كمال الدين» عن الروايات التي تقول «ابنة خالد» فحسب؛ وأم الطفل عند الأخدود وطفلها، واختلاف عمره بين الأخبار؛ وابنة صاحب العمل في خبر القارئين، والمؤمنات المصرح بهن في سورة البروج. وفي الأخبار التي لا يثبت تأريخها: أم ملك المجوس أو أخته أو ابنته بحسب اختلاف النقل، والمرأة في خبر أحد أصحاب الصخرة، وأمه في خبر صاحبه الآخر، والمرأة الواردة مع ابن الملك في الرواية الموازية لأصحاب الكهف، والمرأة صاحبة الثور في خبر جرجيس. الجهل بالاسم لا يلغي الدور، واختلاف الصفة لا يبيح اختراع عدة سير أو جمعها قسرًا في امرأة واحدة. مواضع ذلك في المباحث ٩–١٠ و١٦–٢٣. [٨,١٢,٢٧,٢٨,٣١,٣٢,٣٣,٣٤,٣٥,٣٧,٣٩]

في البحث عن الدين وحمل الأخبار: صفية بنت الحضرمي زوجة زيد بن عمرو، وأم سلمان، والمرأة السلمية التي آل إليها سلمان؛ ولفظ «سلمية» نسبة وليس اسمًا شخصيًا ثابتًا. وترد أخت أمية بن أبي الصلت حافظة لشعره بلا تسمية في النص المقابل. كما تذكر رواية وفد سيف بن ذي يزن إماءً في الهدايا، دون بيان أسمائهن. وأولاد قس وأولاد ميسرة لا يعيّن الخبر أسماءهم ولا يتيح تحويل اللفظ الجامع إلى قائمة من الذكور وحدهم. مواضع ذلك في المباحث ٢٦ و٢٨–٣٣ و٣٩ و٤٣–٤٤. [١٣,١٤,١٦,٢٣,٣٦,٤٦]

في نهاية الانتظار وما تلاها: أسماء بنت عميس، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، ومارية أم إبراهيم، وزوجة عمرو بن العاص غير المسمّاة، وخادمة النجاشي غير المسمّاة. أُثبت ورودهن في النص مع التنبيه إلى اضطراب نسبة إرسال مارية، وإلى أن هذه الوقائع تلت البعثة. وليس إدراج امرأة في الفهرس حكمًا

واحدًا على إيمانها أو موقفها أو صحة كل ما رُوي عنها؛ لكل خبر دليله، ولكل سيرة زمنها. موضعهن في المبحث ٤٥. [٢٥,٤١]

٤٩. من حفظ البشارة إلى ظهور الرسالة

تجتمع خيوط هذا الفصل عند معنى واحد: أن انتظار الهدى امتحان للعمل بما عُرف منه. ففي القرآن مؤمنون ومؤمنات واجهوا الفتنة، وأناس سمعوا الوحي فعرفوا الحق وبكوا، وفي الروايات باحث قطع الطريق، وراهب حمل خبرًا، وأم أو ابنة أو امرأة أسهمت في حفظ الحكاية أو تغيير مجراها. ولا يلزم أن تكون كل تفاصيل هذه الأخبار ثابتة حتى يُحفظ موضعها في تاريخ الرواية؛ لكن يلزم ألّا يتساوى النص القرآني والخبر المختلف فيه في طريقة عرضه أو درجة الاعتماد عليه. [١,٢,٧,٨]

وبذلك يُغلق هذا الفصل عند العتبة التي قصدها: البشارة، وحفظ التوحيد، وصور الاستجابة أو الإعراض. وقد جُمعت الشخصيات ذات الصلة في النصوص المقابلة، وأُثبتت الأسماء المختلف فيها والأشخاص غير المسمّين، مع إحالة التفاصيل المتصلة بآباء النبي وأمهاته إلى الفصل السادس والأربعين، وتفاصيل الميلاد والنشأة إلى الفصل السابع والأربعين. وما بدأ انتظارًا يصير في السيرة التالية لقاءً بالرسول ودعوةً ظاهرة؛ وسيبقى ميزان القراءة نفسه: آية تُتلى، ورواية تُعزى، ودليل يُفحص، وإنسان لا يُمحى دوره لأن الخبر لم يحفظ اسمه.

المصادر والإحالات

الأرقام بين المعقوفين تحيل إلى المواضع الآتية، وروابطها مثبتة في الإحالات وفي هذه القائمة. تعدد الأرقام لا يعني تعدد الكتب المستقلة، فقد خُصص رقم لكل باب أو موضع يحتاجه السرد. أرقام الصفحات هي المطبوعة داخل النصوص الرقمية المقابلة، وقد تختلف عن عدّاد الموقع أو صفحات طبعة أخرى. وإذا قُرئ أصلٌ منقولًا في جامع، صُرّح بالواسطة، ولا يُدّعى فحص مخطوطاته أو تصحيح جميع أحاديثه.

[١] القرآن الكريم، سورة المائدة ٥:١٩ و٨٢–٨٥؛ الفترة، وأهل الكتاب، والاستجابة لسماع الوحي.

[٢] القرآن الكريم، سورة الصف ٦١:٦ و١٤؛ بشارة عيسى بأحمد والمؤمنون من بني إسرائيل.

[٣] القرآن الكريم، سورة الحديد ٥٧:٢٦–٢٧؛ الرسالات والرهبانية والتمييز بين المستجيبين.

[٤] القرآن الكريم، سورة آل عمران ٣:١١٣–١١٥ و١٩٩؛ تفصيل أحوال أهل الكتاب.

[٥] القرآن الكريم، سورة البقرة ٢:٨٩ و١٤٦؛ الاستفتاح والمعرفة والاستجابة.

[٦] القرآن الكريم، سورة الأعراف ٧:١٥٧ و١٧٥–١٧٦؛ وصف الرسول وصورة الانسلاخ من الآيات.

[٧] القرآن الكريم، سورة الكهف ١٨:٩–٢٦؛ أصل قصة أصحاب الكهف وحدود ما سمّاه القرآن.

[٨] القرآن الكريم، سورة البروج ٨٥:٤-١١؛ أصحاب الأخدود والمؤمنون والمؤمنات.

[٩] القرآن الكريم، سورة الدخان ٤٤:٣٧؛ قوم تُبّع في سياق التحذير.

[١٠] القرآن الكريم، سورة ق ٥٠:١٤؛ قوم تُبّع ضمن الأمم المكذبة.

[١١] الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، الباب ٨، ص١٦٠-١٦١، الخبران ١٩-٢٠؛ أوصياء عيسى ومدة الفترة.

[١٢] الصدوق، كمال الدين، الباب ٥٨، ص٦٥٩-٦٦٥، ولا سيما الأخبار ٣-٧ وتعقيب المصنف؛ خالد وابنته وآبي وبالط وبردة وسلمان وتفسير الفترة.

[١٣] الصدوق، كمال الدين، الباب ٩، ص١٦١-١٦٦؛ خبر إسلام سلمان، مع تعقيب الصدوق وملاحظات المحقق المتميزة عنه.

[١٤] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٠، ص١٦٦-١٦٩؛ أخبار قس بن ساعدة والوفود ووصيته.

[١٥] الصدوق، كمال الدين، الباب ١١، ص١٦٩-١٧١؛ أخبار تُبّع وطلبه للنبي وصفته.

[١٦] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٣، ص١٧٦-١٨١؛ خبر سيف بن ذي يزن ووفد عبد المطلب.

[١٧] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٤، ص١٨٢-١٨٨؛ أخبار بحيرى وأبي طالب ونسطورا، مع اختلاف الطرق وملاحظات الطبعة.

[١٨] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٥، ص١٨٨-١٨٩؛ خبر كبير الرهبان وخالد بن أسيد وطليق بن سفيان.

[١٩] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٦، ص١٩٠-١٩١؛ خبر أبي المويهب الراهب، مع مقابلة النص الرقمي في «ثقلين».

[٢٠] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٧، ص١٩١-١٩٦؛ خبر سطيح وعبد المسيح ورؤيا المؤبذان.

[٢١] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٨، ص١٩٦-١٩٨؛ خبر يوسف اليهودي ومولد النبي.

[٢٢] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٩، ص١٩٨؛ ابن حواش وكعب بن أسد، مع التنبيه إلى اختلاف رسم الاسم.

[٢٣] الصدوق، كمال الدين، الباب ٢٠، ص١٩٨-٢٠١؛ خبر زيد بن عمرو بن نفيل وصفية والخطاب وورقة.

[٢٤] الحويزي، نور الثقلين، تفسير البقرة ٢:٨٩، الأخبار ٢٧٧-٢٨١ في العرض الرقمي؛ نقوله عن الكافي والقمي والعياشي في الاستفتاح والسكنى.

[٢٥] الحويزي، نور الثقلين، تفسير المائدة ٥:٨٢، الخبران ٣١٦-٣١٧؛ نقل القمي في الحبشة والنجاشي، ونقل العياشي في المنتظرين.

[٢٦] الحويزي، نور الثقلين، تفسير الحديد ٥٧:٢٧، الأخبار ١٠٥-١٠٨؛ نقوله في الرهبانية عن الكافي ومجمع البيان.

[٢٧] قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، الباب ١٧، ص٢٤٦-٢٥٦، الأخبار ٢٩٠-٣٠٠؛ الأخدود وبداية أخبار أصحاب الكهف.

[٢٨] الراوندي، قصص الأنبياء، تتمة خبر ٣٠٠ وخبر ٣٠١، ص٢٥٧-٢٦٣؛ خبر الكهف المطوّل وقصة الثلاثة الذين سدّت الصخرة عليهم الغار.

[٢٩] الحويزي، نور الثقلين، تفسير الكهف ١٨:١٣ وما يتصل به، الأخبار ١٧-٣٣؛ النقول عن الكافي والعياشي والقمي والمحاسن والفقيه.

[٣٠] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الكهف ١٨:٩-١٢؛ الأقوال في الرقيم وزمن أصحاب الكهف.

[٣١] محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، الباب ٢٧، ص٤٠٧-٤٣٧؛ أخبار أصحاب الكهف، والتتمة المنقولة عن الثعلبي، خاصة ص٤٣٠-٤٣٧.

[٣٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة البروج، ضمن عرض الآيات ١-٢٢؛ أقوال الأخدود وخبر صهيب ونقول مقاتل وغيرها، مع تمييز مصادرها.

[٣٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، الباب ٢٨، ص٤٣٨-٤٤٤؛ أخبار الأخدود ونقول القمي والمحاسن وقصص الأنبياء.

[٣٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، الباب ٢٤، ص٣٤٥-٣٤٨ في الفترة؛ والبابان ٢٩-٣٠، ص٤٤٥-٤٥١ في جرجيس وخالد بن سنان.

[٣٥] الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٤٢-٣٤٣، خبر ابنة خالد بن سنان؛ قُرئ وقوبل هنا من نقله في بحار الأنوار، ج١٤، ص٤٤٨-٤٥٠، فلا تُعد الواسطة أصلًا مستقلًا آخر.

[٣٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأعراف ٧:١٧٥-١٧٨؛ الأقوال في بلعم وأمية بن أبي الصلت وأبي عامر، مع نسبة كل قول إلى ناقله.

[٣٧] أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، سؤال الزنديق للإمام الصادق في خالد بن سنان؛ قُرئ ضمن نقل المجلسي ومناقشته في بحار الأنوار، ج١٤، ص٤٥١.

[٣٨] القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٣:٤٠؛ ختم النبوة بمحمد ﷺ.

[٣٩] الراوندي، قصص الأنبياء، الخبر ٣٣٤، ص٢٧٧-٢٧٨؛ خبر خالد بن سنان وابنته في النقل عن الإمام الصادق.

[٤٠] الصدوق، كمال الدين، الباب ١٢، ص١٧١-١٧٦؛ عبد المطلب وأبو طالب وأخبار الرؤى، وذكر الكاهنتين وشعيرة الأسدية.

[٤١] السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج١٩، ص١٥٢؛ موضع نقد نسبة إرسال مارية إلى النجاشي والتنبيه إلى المقوقس. استُخدم لهذا التصحيح المحدد.

[٤٢] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير المائدة ٥:١٩؛ معنى الفترة وقوله في عدم وجود نبي خلالها واختلاف المدد المنقولة.

[٤٣] السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، تفسير المائدة ٥:١٩؛ بيان مجيء الرسول وإتمام الحجة.

[٤٤] السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، تفسير البروج ٨٥:٤، الخبر الأول؛ نقل القمي وألفاظ أسماء أهل نجران وذي نواس ودوس.

[٤٥] الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، تفسير الكهف ١٨:١٣؛ النقل عن الكافي والعياشي في الفتوة بالإيمان وكهولة أصحاب الكهف.

[٤٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، الباب ٥، الخبران ٨–٩، ص٣–٦؛ نقوله عن الخرائج والمناقب والعدد في خديجة وميسرة والراهب والبشارة المتصلة بالزواج.

الفصل ٤٦ — أجداد النبي محمد ﷺ وبيت النبوة — الجذور الإبراهيمية والأسرة الحاضنة للرسالة

٠١. من انتظار البشارة إلى معرفة البيت

انتهى الفصل السابق إلى انتظار النبي الخاتم وحفظ معالم التوحيد في زمن الفترة. وهنا نقترب من البيت الذي ولد فيه محمد ﷺ: آبائه وأمهاته، وأعمامه وعماته، ومن حملوا مسؤولية رعايته. والمقصود أن تظهر المرأة في تاريخ هذا البيت باسمها وصلتها وعملها حيث تحفظ المصادر ذلك، وأن لا تختزل الأنساب في سلسلة من الرجال. يبدأ هذا الفصل بالجذور الإبراهيمية، ثم يتتبع النسب إلى عبد الله وآمنة، ويميز بين القرابة المباشرة، والقرابة الأبعد، والرضاع، والكفالة، والمصاهرة. أما تفصيل الميلاد والنشأة والاستعداد للرسالة فموضعه الفصل السابع والأربعون؛ وما يرد هنا من أحداث لاحقة يأتي بقدر ما يوضح سيرة أحد أفراد الأسرة وموقعه منها.

٠٢. الاصطفاء والقرابة ومسؤولية الفرد

يقول الله لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فلما سأل لذريته جاء الجواب: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. تحمل الآية في هذا الباب ميزانين معا: للبيت الإبراهيمي مكانة في تاريخ الهداية، ولكن النسب لا يمنح كل منتسب إليه العهد الإلهي. وكذلك لا يغني انحدار المرء من أسرة شريفة عن إيمانه وعمله. ويقرر القرآن معيار الكرامة بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. لذلك لا تعني دراسة نقاء نسب النبي أن نحكم بالصلاح على كل قريب جانبي، ولا أن نحمل أحدا ذنب قريب آخر. وسيظهر الفرق بوضوح بين نصرة أبي طالب وعداوة أبي لهب. [١, ٣, ١٠]

ومن هنا يلزم الفصل بين سلسلة الآباء التي يتناولها اعتقاد الإمامية، وبين مجموع بني هاشم أو قريش، وبين أهل البيت الذين تتناولهم نصوص التطهير والكساء. تتداخل هذه الدوائر في بعض الأشخاص، ولكنها ليست مترادفات. عبد المطلب جد للنبي، وأبو طالب عم وكافل، وفاطمة بنت أسد زوجة عمه وأم علي عليه السلام، وخديجة زوجته، وفاطمة الزهراء ابنته. ولكل صلة دلالتها، ولكل فضيلة دليلها. فلا ينسب إلى امرأة أنها أم للنبي بالنسب لأنها كانت له بمنزلة الأم في الرعاية، ولا يجعل كل عم وصيا بمجرد عموم القرابة. بهذه الحدود يصبح حفظ الأسماء حفظا للحقائق، لا مجرد إطالة للقائمة. [١١, ١٢, ١٣, ١٩, ٣٠]

٠٣. إبراهيم وإسماعيل وهاجر: أصل البيت الحرام

يجمع القرآن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعد البيت ويدعوان بالقبول وبعثة رسول في ذريتهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾. وفي سورة إبراهيم دعاء بإقامة الصلاة، وأمن البلد،

واجتناب عبادة الأصنام، ورزق الذرية التي أسكنت عند البيت المحرم. هذه النصوص هي الأصل القرآني الذي ينتظم حوله معنى النسب إلى إبراهيم وإسماعيل؛ فالغاية عبادة الله والتعليم والتزكية، وليست تفاخرا عرقيا. ولا تسرد الآيات الأسماء الواقعة بين إسماعيل وعدنان، ولا تجعل كل تفاصيل أخبار مكة جزءا من منطوق القرآن. وعندما يذكر هذا الفصل سلسلة لاحقة فإنما يذكرها بما حفظته كتب النسب والرواية، مع بيان مواضع التوقف. [١, ٢, ٢١]

هاجر أم إسماعيل شخصية لازمة لفهم هذا الأصل، وإن لم يسمها القرآن في تلك الآيات. يذكرها اليعقوبي في نسب الأمهات، كما يميزها من سارة أم إسحاق؛ فلا تكون سارة أم إسماعيل بسبب جمع الزوجتين في قصة إبراهيم. وقد تناولت فصول الأنبياء تفاصيل هذا البيت، ويكفي هنا تثبيت صلة هاجر بإسماعيل، وإسماعيل بالنسب النبوي العام. أما آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل فهم من الأنبياء المسمين في القرآن، وترد أسماؤهم في أخبار انتقال النور والنسب. ولا يسوغ أن ننقل درجة ثبوت هذه الشخصيات القرآنية إلى كل اسم أعجمي مختلف الضبط في سلسلة النسابين، أو أن نستخرج من الاشتراك في الاسم اتحاد شخصين تفصل بينهما أجيال. [١, ٢, ٢١, ٢٩]

٤. سلسلة النسب إلى عدنان

السلسلة المشهورة التي تضبط مواضع الأسماء هي: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وترد هذه السلسلة في صدر أنساب النبي عند اليعقوبي، ويجمع المجلسي صيغها من المناقب وغيرها، مع تنبيهات إلى سقوط اسم في بعض النقول؛ فمن أمثلة ذلك التنبيه إلى كنانة بين النضر وخزيمة، وكعب بين مرة ولؤي. لذلك لا يعتمد نقل مختصر سقط منه اسم لتصحيح السلسلة كلها، بل يقابل بما يفسر السقط ويحفظ ترتيب الأجيال. [٢١, ٢٩]

وتعين معرفة الأسماء والألقاب على منع تكرار الشخص الواحد: عبد المطلب هو شيبة أو شيبة الحمد، وهاشم هو عمرو، وعبد مناف هو المغيرة، وقصي هو زيد، ومدركة يذكر باسم عامر. وليس «المطلب» اسما آخر لعبد المطلب؛ المطلب بن عبد مناف أخو هاشم وعم شيبة. كما أن عبد مناف جد آمنة من جهة أبيها غير عبد مناف بن قصي جد هاشم. ويقع التقاء النسب الأبوي والأمومي عند كلاب: قصي بن كلاب في جانب عبد الله، وزهرة بن كلاب في جانب آمنة. فإذا ضبطت هذه العقد أمكن قراءة أخبار البيت دون خلط بين العم والجد، أو بين فرعين يحفظان اسما واحدا. [٢١, ٢٦, ٢٩]

٥. ما بعد عدنان وحدود اليقين النسبي

تورد كتب الأنساب سلاسل متعددة بين عدنان وإسماعيل، وفيها أد وأدد، والهميسع، ونبت أو نابت، وقيذار أو قيدار، وأسماء أخرى تختلف عددا وترتيبا وضبطا. وينقل ابن شهرآشوب، كما في البحار، خبر

التوقف عند عدنان، ويعرض في الموضع نفسه اختلاف الروايات. فإثبات الأصل الإسماعيلي في هذا البناء لا يساوي القطع بكل واسطة مسماة. ولهذا لا ترسم هنا شجرة واحدة جازمة تتجاوز عدنان، ولا تختار الأسماء الأطول لأنها تبدو أكمل. يوضع عدنان في نهاية السلسلة التفصيلية المعتمدة، ويذكر اتصالها العام بإسماعيل مع إبقاء الوصل التفصيلي موضع اختلاف. [٢١, ٢٩]

والحكم نفسه يجري على أمهات تلك الطبقات البعيدة. ففي اليعقوبي أسماء حية وحارثة وقطامة، ومواضع بياض أو ضعف ضبط في النص المطبوع، واسم لأم إبراهيم مختلف عن أسماء ترد في كتب أخرى. حفظ وجود هذه المادة لا يقتضي استنساخ فراغاتها في صورة معلومات مكتملة. كما ترد شيث وأنوش وقينان ومهلائيل ويرد وأخنوخ، مع تعريف أخنوخ بإدريس في بعض النقول؛ فتلك طبقة من الموروث النسبي تحتاج إلى تحقيق مستقل، وليست أسماء قرآنية بمجرد ورودها إلى جانب نوح وآدم. يظل ذكرها هنا تعريفا بحدود السجل، دون بناء أعمار أو تواريخ أو وصايات متتابعة عليها. [٢١, ٢٩]

٦. معد ونزار: الأسماء الأولى في السلسلة المحفوظة

يتابع اليعقوبي أخبار عدنان بمعد، ثم بنزار، ويصور نزارا ذا منزلة في قومه ومقيما بمكة. ويذكر لمعد أبناء، منهم نزار وقضاعة وعبيد الرماح وقنص وقناصة وجنادة وعوف وأود وسلهم وجنب. هذه قائمة تاريخية ينقلها المؤلف، وليست نصا مسندا عن إمام في كل اسم، وفي نسب قضاعة نفسه خلاف قديم يذكره الخبر. ويذكر لنزار أربعة أبناء: مضر وإياد وربيعة وأنمار. تدخل هذه الأسماء في الفصل لأنها تفسر الفروع القريبة من السلسلة، ولا تجعل أخبار جميع القبائل المتفرعة منها جزءا من ترجمة أجداد النبي. [٢٦]

ولا تهمل الأمهات في هذه البداية: يذكر اليعقوبي ناعمة بنت جوشم الجرهمية أما لنزار، ويسمي في أم مضر صيغًا مختلفة بين موضعي كتابه؛ ففي الجزء الأول سودة أو حيية بنت عك، وفي سجل الجزء الثاني شقيقة بنت عك. ويذكر جدالة بنت وعلان في خبر أم ربيعة وأنمار. كما يصف أم معد في موضع بأنها جرهمية، ويسمي في موضع آخر تيمة بنت يشجب. هذه الفروق تسجل بوصفها فروق نقل، فلا تجمع النساء على أنهن أمهات لشخص واحد، ولا يستبدل الاختلاف بتاريخ زواج متخيل. ولا نملك من هذه المواضع تواريخ موثوقة لولادتهن ووفياتهن، أو سيرة مفصلة لكل واحدة. [٢٦, ٢٩]

٧. مضر وإلياس وخندف

مضر بن نزار واسطة في النسب، ومن ذريته إلياس الذي تتصل به السلسلة النبوية. يصفه اليعقوبي بالحكمة ويروي عنه وصايا في الصبر ومقاومة الهوى، ويروي النهي عن سب مضر وربيعة لأنهما كانا على دين إبراهيم. تحفظ هذه الأخبار بصيغة نسبتها إلى المصدر، ولا يحكم لصحتها بمجرد مناسبتها لمعنى طهارة الآباء. ويذكر إلياس وعيلان في ولد مضر، ويسمي أمهما الحنفاء بنت إياد، مع اختلاف في تتمة

نسبها بين الموضعين. وإلياس بن مضر في سجل الأنساب لا يدمج تلقائيا في النبي إلياس المذكور في القرآن؛ فتعيين الهوية يحتاج إلى نص مستقل، ولا يكفي فيه الاشتراك في الاسم. [٢١, ٢٦, ٢٩]

وخندف امرأة ذات اسم ونسب في هذا السجل: هي ليلى بنت حلوان القضاعية، وتذكر أما لمدركة وطابخة وقمعة، وتفسر الرواية التاريخية أسماء أبنائها بعامر وعمرو وعمير. ويروي اليعقوبي حزنا شديدا أصابها بعد وفاة إلياس؛ لكن تفاصيل خروجها في الأرض ونذرها ألا يظلها بيت تظل من الأخبار التاريخية، ولا تنقل إلى القارئ على أنها حكم شرعي في الحداد أو حديث عن أهل البيت. الذي يثبت في سياق النسب هنا هو موضعها بوصفها أما لهذه الطبقة، وما حفظته المصادر من اسمها ولقبها. أما عدد سنوات حياتها، وسنة زواجها، وتحديد قبرها فلا تستكمل بغير دليل. [٢٦, ٢٩]

٨. مدركة وخزيمة وكنانة: قراءة الفروع القريبة

تنتقل السلسلة من مدركة إلى خزيمة ثم كنانة. ويورد اليعقوبي في أبناء مدركة خزيمة وهذيلا وغيرهما، وفي أبناء خزيمة كنانة وأسدا والهون. وليس أسد بن خزيمة هو أسد بن هاشم والد فاطمة بنت أسد؛ فالأول في طبقة بعيدة تنسب إليها قبائل، والثاني من البيت الهاشمي القريب الذي سيأتي خبره. ويدرج المؤرخ تحت كنانة النضر، وحدالا، وسعدا، ومالكا، وعوفا، ومخرمة، وعليا وغزوان، وجرولا والحارث وعبد مناة. يذكر هذا الفرع لتفريق النضر الذي تمر به سلسلة النبي عن إخوته، ولمنع خلط مالك بن كنانة بمالك بن النضر، فهما اسمان في جيلين مختلفين. [٢٦, ٢٩]

ويختلف سجل الأمهات عند اليعقوبي بين سرد القبائل وسرد أمهات النبي: ترد سلمى في أم خزيمة مع اختلاف في أبيها، وترد عوانة بنت قيس في أم كنانة في الجزء الأول، وهند بنت قيس في الجزء الثاني. وترد هالة بنت سويد في أم النضر في سرد، وبرة بنت مر في السجل الآخر. وتذكر برة أيضا في فروع خزيمة وكنانة، وتظهر فكيهة، الملقبة بالذفراء، أما لعبد مناة. لا يسوغ من هذا التشابه أن نقرر زواجا بعينه أو ننفيه دون مقابلة مستقلة. لذلك تحفظ الأسماء بوصفها قراءات المصدر، ويصرح بالتعارض بدل إخراج شجرة نسائية متماسكة في ظاهرها تخفي اضطراب أصلها. [٢٦, ٢٩]

٩. النضر ومالك وفهر ومعنى قريش

النضر بن كنانة، ثم مالك بن النضر، ثم فهر بن مالك، ثلاث حلقات متتابعة في النسب. ويعرض التراث اختلافا في صاحب اسم قريش: أهو النضر، أم فهر، أم أن الاسم صار وصفا لجماعتهم؟ وينقل مجمع البيان في تفسير سورة قريش أن قريشا ولد النضر، بينما يذكر اليعقوبي القول بأن اسم فهر قريش. وليس المطلوب اختراع شخص إضافي اسمه قريش بينهما، بل فهم اختلاف تفسير الاسم الجامع. كذلك تتعدد التعليلات اللغوية بين التجارة والتجمع وتشبيه الاسم بدابة البحر، وهي أقوال في التسمية لا تزيد حرفا في نص السورة ولا تثبت بنفسها خبرا عن إمام. [٢٦, ٢٩, ٣٣]

وتحفظ هذه الطبقات أسماء نساء ينبغي ألا تغيب: عكرشة التي تسمى عاتكة والحصان في سجل أم مالك، وجندلة الجرهمية أم فهر، وليلى الهذلية أم غالب. وفي أولاد النضر يذكر مالك ويخلد والصلت، وفي أولاد مالك فهر والحارث وشيبان، وفي أولاد فهر غالب والحارث ومحارب وجندلة. وتتكرر جندلة هنا اسما في موضعين، فلا توحد المرأة المذكورة أما لفهر مع الاسم الوارد في ذريته. والأسماء المتشابهة في هذه الطبقات تؤدي وظيفة تعريفية: لا يضبط القارئ شخصا بلفظة «الحارث» وحدها، بل بأبيه وطبقته، ولا يبني على سطر نسبي قصير قصة حياة لم ينقلها مؤلفه. [٢٦, ٢٩]

١٠. غالب ولؤي وكعب: النسب والخبر المنقول

غالب بن فهر والد لؤي، ولؤي والد كعب الذي تتصل به السلسلة إلى مرة وكلاب. ويذكر اليعقوبي في إخوة لؤي تيم الأدرم وتغلب ووهبا وكثيرا وحراقا، وفي ولد لؤي كعبا وعامرا وسامة وخزيمة وعوفا والحارث وجشما وسعدا، مع أخبار اختلاف الانتماء القبلي لبعض الفروع. ليست هذه الأخبار تفصيلا قرآنيا، ولا تعني أن كل من عرف باسم لؤي أو كعب هو الجد المقصود هنا. وفي الأمهات يختلف السرد نفسه: يجعل أم لؤي عاتكة بنت يخلد في موضع، وسلمى بنت عمرو في آخر، ويختلف في موضع عائذة ووحشية وماوية بين الأجيال. يترك هذا التباين ظاهرا حتى لا يتحول النقل الانتقائي إلى يقين مصنوع. [٢٦, ٢٩]

وتنسب كتب السيرة إلى كعب بن لؤي جمع قومه في يوم عروبة، والحديث عن نبي آت، والوصية بتعظيم الحرم وصلة الرحم. يورد اليعقوبي خطبة وشعرا في هذا المعنى، ويذكر أن قريشا أرخت بوفاته. يمكن قراءة ذلك ضمن الذاكرة التاريخية التي ربطت البيت المكي بانتظار الهداية، ولكن لا تثبت ألفاظ الخطبة كلها بالسند الذي تثبت به رواية مستقلة في الكافي، ولا يستخرج منها تاريخ ميلادي مضبوط. ويذكر في ولده مرة وهصيصا وعديا، ويظهر اسم حبيبة بنت بجالة في أم عدي. وبذلك يبقى التمييز بين كعب الجد وبين أبنائه وفروعهم واضحا دون تحويل الفصل إلى تاريخ لكل بطن من بطون قريش. [٢٦]

١١. مرة وكلاب وزهرة: ملتقى النسبين

مرة بن كعب والد كلاب، وتذكر هند بنت سرير الكنانية أما لكلاب. وفي ولد مرة تيم ويقظة أيضا، فتفسر هذه الطبقة قرب بعض بطون قريش بعضها من بعض. أما كلاب فمن ولده قصي وزهرة، وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل. ينزل النسب الأبوي للنبي من قصي إلى عبد مناف ثم هاشم، وينزل النسب الأمومي من زهرة إلى عبد مناف ثم وهب ثم آمنة. هذه الصلة تبين أن آمنة زهرية قرشية، وأن قول بني زهرة إنهم أخوال النبي تعبير عن قرابة العشيرة من جهة أمه، ولا يثبت أن كل رجل منهم أخ شقيق لآمنة. [٢٦, ٢٩, ٣٠]

وترد في أخبار كلاب وما قبله أخبار خدمة الحرم وتنظيم الموسم والنسأة. لا ينبغي جمع كل منصب في شخص واحد، ولا افتراض أن ما مارسته فروع القرابة كان من دين كل جد. يروي المؤرخون تشابك الزعامة والسقاية والحجابة والتحالف، ثم يختلفون في انتقالها. ومركز هذا الفصل هو اتصال الأسرة وتعيين أصحاب الأسماء؛ لذلك لا يعيد تفصيل تاريخ النسيء أو جميع صراعات القبائل. ويظهر هنا دور فاطمة بنت سعد بن سيل بوصفها أما تجمع قصيا وزهرة؛ وسيكون قرار انتقالها ثم تعريفها قصيا بأصله من عناصر القصة التي حفظت خبر عودة قصي إلى مكة. [٢٦, ٢٩]

١٢. قصي وأمه فاطمة: العودة إلى مكة

تروي الأخبار أن كلابا مات وولداه زهرة وقصي، واسمه زيد، في سنين مختلفتين؛ ثم تزوجت فاطمة ربيعة العذري وانتقلت معه، وحملت الصغير. نشأ قصي بعيدا عن مكة حتى عرف من أمه نسبه، وأراد الرجوع إلى قومه. يحفظ اليعقوبي في اسم زوجها ربيعة بن حرام، وترد في غيره صيغ قريبة، فلا تحمل فروق الضبط على تعدد الأزواج. وينسب لقب قصي إلى البعد عن الدار. وفي الرواية نفسها لا تكون الأم مجرد حلقة صامتة: هي التي تحفظ له خبر أبيه، وتدله على قومه، وتنصحه أن يخرج مع الحجاج في الشهر الحرام حرصا على سلامته. [٢٢, ٢٦]

ثم تذكر الأخبار إعانة أخ لقصي من أمه له، ويسميه نص اليعقوبي دراج بن ربيعة، وتشتهر في كتب السيرة قراءة رزاح. تبقى هذه قراءة مختلفة لا أخوين يضاف أحدهما إلى الآخر بلا حجة. ومن شخصيات نزاع مكة يعمر بن عوف، الذي تصفه الرواية حكما بين الأطراف وتلقبه بالشداخ. وتسير الحكاية إلى اجتماع قريش في البطحاء وارتفاع منزلة قصي. أما ألفاظ المحاورات الطويلة ونسب كل مبادرة إليه على سبيل الأولية المطلقة فتبقى من مادة السيرة؛ والذي يعنينا أن قصيا صار موضع التقاء الأسرة بمؤسسات مكة، وأن النساء والقرابة من جهة الأم جزء من تفسير هذا الانتقال. [٢٦]

١٣. حبى وحليل وولد قصي

حبى بنت حليل الخزاعية زوجة قصي وأم ولده المذكورين في الرواية: عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبد قصي. وأبوها حليل بن حبشية صاحب صلة بحجابة البيت في أخبار خزاعة. فينتقل النظر من أم قصي التي حفظت له نسبه إلى زوجه التي ترتبط به من جهتها أسرة من أصحاب البيت. وهذه حبى غير حبابة وغير خديجة، وعبد العزى بن قصي غير عبد العزى بن عبد المطلب المعروف بأبي لهب. يفصل بين الرجلين عدد من الأجيال، وإن تشابه الاسم. وتذكر حواشي البحار، نقلا عن المحبر، فاطمة بنت نصر في أم حبى، فتثبت بوصفها نقلا نسبيا إضافيا، لا رواية مستقلة عن إمام. [٢٦, ٢٩, ٣٩]

وتختلف روايات انتقال الحجابة: منها وصية حليل إلى قصي، ومنها خبر أبي غبشان وبيع المفتاح، ومنها الحرب والتحكيم. يورد اليعقوبي هذه الوجوه ولا يصح لنا جمعها في واقعة متصلة مع القطع بصحة كل جزئية. ويذكر اسم أبي غبشان في أحدها سليمان بن عمرو؛ فوجود الاسم لا يوجب اعتماد قصة البيع

بما فيها من تفصيل. كما تختلف الأخبار في قسمة السقاية والرفادة والدار بين أبناء قصي. ويمكن تثبيت أسماء الأسرة وموقعها العام من خدمة الحرم مع التوقف في الرواية المتعارضة، وتبقى دار الندوة في هذا السياق مؤسسة للشورى الاجتماعية والعقد، لا دليلا بذاته على نبوة منشئها أو إمامته. [٢٦]

١٤. عبد مناف وعاتكة وفروع الأسرة

عبد مناف بن قصي، واسمه المغيرة، أبو هاشم؛ وأمه حبى بنت حليل. وتذكر المصادر جماله وشرفه وألقابه، لكن جوهر التعريف به هنا موقعه بين قصي وهاشم. ويذكر اليعقوبي أبناءه هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفلا وأبا عمرو، وبناته حنة وتماضر وأم الأخثم وأم سفيان وهالة وقلابة. وتذكر عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية أما لهاشم وعبد شمس والمطلب وللبنات في هذا السرد، وواقدة بنت أبي عدي أما لنوفل وأبي عمرو. وهذه عاتكة أقدم من عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبي؛ فلا يختصر السجل باسم «عاتكة» من غير نسب، ولا تنسب قصة واحدة إليهما معا. [٢٦, ٢٩]

ومن هذه الطبقة تتفرع بيوت هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل. تفسر هذه القرابة ما يأتي في السيرة من تقارب بعض الفروع أو اختلافها، ولكن المستقبل لا يعاد إسقاطه على كل مولود منها. ومن الأخبار التي تحتاج إلى هذا الاحتراز حكاية توأمية هاشم وعبد شمس واتصال عقبيهما ثم التنبؤ بصراع ذريتهما؛ ينقلها اليعقوبي على وجه الرواية، ولا نعتمدها برهانا على قدر محتوم يحكم كل فرد من الفرعين. وكذلك لا يستنتج الاعتقاد الشخصي من ظاهر لقب قديم وحده، ولا يصلح تفسير اسم عبد مناف بعبادة صنم في خبر تاريخي لإلغاء النصوص العقدية الإمامية أو للاستغناء عن تحقيق مصدر ذلك الخبر. [١٢, ١٣, ٢٢, ٢٦]

١٥. هاشم: الإطعام والإيلاف

هاشم بن عبد مناف هو عمرو، ويعرف بعمرو العلى. تربط كتب السيرة لقبه بهشم الخبز للثريد وإطعام الناس في الشدة. وفي أخبار اليعقوبي يأخذ الإطعام صورة عمل عام: يجمع ما تبذله قريش للحجاج، ويضيف إليه من ماله، ويوفر الماء والطعام في مواضع الموسم. ويعرض مجمع البيان عند سورة قريش أخبار رحلتي الشتاء والصيف، وينقل صلة هاشم بحمل الميرة من الشام. أما القرآن فيذكر الإيلاف والرحلتين والإطعام والأمن، ثم يأمر بعبادة رب البيت، ولا يسمي هاشما. فتقرأ سيرته بجوار الآيات لتفسير البيئة التاريخية، دون إدراج اسمه في منطوق السورة. [٩, ٢٦, ٣٣]

ويذكر اليعقوبي سفر هاشم إلى الشام ووفاته بغزة، ثم سعي إخوته في تثبيت العهود التجارية: عبد شمس إلى الحبشة، ونوفل إلى العراق، والمطلب في أمر مكة. هذه أعمال ترد في سجل التجارة والزعامة، ولا تكفي وحدها لإثبات أن كل أخ حمل وصية نبوية. ومن أثر هاشم في قصة الهداية أن اسمه صار عنوان البيت الهاشمي، وأن خدمته للحاج حفظتها الذاكرة مع صلاته بيثرب. أما عمره عند الوفاة وتواريخ

رحلاته على التقويم الميلادي فلا تجزم بها هذه الأخبار. ووفاته بعيدا عن مكة تفتح قصة ابنه الذي عرف في طفولته بين أخواله قبل أن يحمله عمه إلى بيت أبيه. [٢٢, ٢٦]

١٦. سلمى بنت عمرو وأولاد هاشم

سلمى بنت عمرو النجارية أم عبد المطلب، وهي الصلة النسائية البارزة بين البيت الهاشمي ويثرب. يذكرها اليعقوبي أما لعبد المطلب والشفاء. وتختلف الروايات في توقيت انتقالها إلى يثرب وولادة شيبة بالنسبة إلى سفر هاشم ووفاته؛ فيكتفى هنا بما تتفق عليه صلة الأمومة ونشأة الغلام بين أهلها. لا تكون سلمى هذه سلمى أخت حليمة، ولا سلمى بنت عميس زوج حمزة، ولا سلمى الواردة في طبقات الأمهات الأقدم. وتبقى بنت هاشم الشفاء شخصية مستقلة تستحق إثبات الاسم حتى إن لم تتوافر لها ترجمة مطولة، لا أن تختفي لأن أخبار أخيها أكثر. [٢٢, ٢٦, ٢٩]

ويورد اليعقوبي لهاشم أسرة أوسع: نضلة وأمه أميمة بنت عدي؛ وأسدا، والد فاطمة بنت أسد، وأمه قيلة بنت عامر؛ وأبا صيفي وصيفيا وأمهما هند بنت عمرو؛ وضعيفة وخالدة وأمهما واقدة بنت أبي عدي؛ وحنة وأمها أم عدي بنت حبيب الثقفية. ويذكر رقيقة بنت أبي صيفي في هذا الفرع أيضا. تحفظ هذه الصلات بحسب روايته، مع الانتباه إلى تشابه الأسماء بين جيل هاشم وجيل أبيه. ولا تنسب إلى هؤلاء نبوّة أو شهادة أو وفاة في حادثة بعينها حيث لا يقدم النص ذلك. وبهذا يظهر أن نسب فاطمة بنت أسد إلى هاشم فرع آخر يلتقي بنسب أبي طالب في هاشم نفسه، وهو ما يفسر وصف علي بأنه هاشمي من الطرفين. [١٩, ٢٦, ٣١]

١٧. المطلب وشيبة وخديجة بنت سعيد

تروي الأخبار أن المطلب بن عبد مناف بلغه شأن ابن أخيه بيثرب، فخرج إليه وجاء به إلى مكة. واختلفت في رضا أمه قبل الخروج، وفي العبارة التي فسرت بها قريش مجيء الصبي معه؛ ثم شاع لقب عبد المطلب وبقي اسمه شيبة معروفا. فلا تكون كلمة «عبد» في هذا اللقب إثباتا لرقه أو لنسب آخر، ولا يكون المطلب أباه البيولوجي. وتظهر في رواية اليعقوبي خديجة بنت سعيد بن سهم زوجة المطلب، إذ أدخله عليها بعد قدومه. وهي امرأة أخرى غير خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، ولا يباح إسقاطها من السجل لأن الاسم الأشهر استأثر بذاكرة القارئ. [٢٢, ٢٦, ٢٧]

ويذكر المؤرخ أن المطلب خرج إلى اليمن بعدما جعل لابن أخيه موقع أبيه في أمر مكة، وأنه توفي بردمان. فتكون الرعاية قد مرت من بيت الأم بيثرب إلى بيت العم بمكة، ثم إلى تحمل شيبة مسؤوليات أسرته. في هذه السلسلة من الحضانة لا تحل الألقاب محل أصحابها: هاشم الأب، وسلمى الأم، والمطلب العم، وخديجة بنت سعيد زوجة العم. أما الذي سيكفل محمدًا ﷺ لاحقا فهو عبد المطلب نفسه، ثم ابنه أبو طالب. وفصل الأجيال بهذه الصورة يمنع التباس ثلاث كفالات مختلفة: كفالة شيبة، وكفالة النبي عند جده، وكفالته في بيت عمه. [٢٢, ٢٧, ٢٨]

١٨. عبد المطلب في روايات أهل البيت

من أوضح النصوص في منزلة عبد المطلب ما رواه الكليني عن زرارة، عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه يحشر يوم القيامة أمة واحدة عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك. وهو الحديث الثاني والعشرون في باب مولد النبي ووفاته، وقد وصفه المجلسي في مرآة العقول بالصحيح. قوة هذا الطريق تمنع تسوية جميع الأخبار الواردة في الجد ببعض القصص المرسلة؛ لكنها لا تستلزم تصحيح كل زيادة في الروايات المجاورة. فحديث «أول من قال بالبداء» ورد في طريق آخر حكم المجلسي بضعفه، كما ضعف طريق القصة المطولة التي تربط ذلك بالخوف على النبي حين تأخر في جمع الإبل. [١٨]

وفي الحديث السادس والعشرين من الباب نفسه صورة أخرى: كان لعبد المطلب فراش بفناء الكعبة، فجاء النبي طفلا وجلس عنده، فأراد بعض بنيه تنحيته، فمنعهم الجد وأقر مكانته. وحكم المجلسي على هذا الطريق بأنه حسن كالصحيح. تتجلى هنا منزلة الطفل في عين جده ورعاية البيت له، ولا تتطلب الرواية اختراع أسماء للابن الذي هم بتنحيته أو لمن شهد المجلس. يجمع هذا الفصل بين الدلالة الروحية للخبر والدلالة الإنسانية للرعاية؛ فعبد المطلب ليس اسما عابرا في النسب، بل شخصية يجتمع في أخبارها التوحيد والخدمة العامة والحرص على حفيده. [١٨]

١٩. زمزم والحارث وأمانة خدمة الحاج

ترتبط شهرة عبد المطلب بإظهار زمزم بعد اندراسها. وفي رواية اليعقوبي تتكرر رؤيا تأمر بالحفر، ثم يخرج ومعه ابنه الحارث، وليس معه يومئذ من البنين من يعينه غيره. يعترض قومه ثم يظهر طي البئر والماء، وتبدأ منازعة أخرى في حق الانتفاع وما وجد من متاع. والحارث في هذه القصة ابن عبد المطلب، لا الحارث السعدي زوج حليمة، ولا الحارث بن فهر الجد الأقدم. وتستحق هذه المشاركة أن تثبت في ترجمته، فليس كل حضور في تاريخ البيت مقصورا على أشهر الأعمام الذين أدركوا البعثة. أما تفصيل الرؤى والكنز والقداح فينقل بوصفه الخبر التاريخي الذي رواه المؤلف. [٢٧, ٣٠]

ويحفظ الخبر امرأة غير مسماة في التحاكم، هي كاهنة بني سعد، كما يذكر سطيحا في نزاع آخر على ماء ذي الهرم بالطائف، ويظهر حرب بن أمية في بعض رفقاء السفر. ليست كل هذه الوقائع قصة واحدة، ولا تكون كاهنة زمزم بالضرورة المرأة الواردة في بعض صيغ فداء عبد الله. ومن حق المرأة المجهولة الاسم أن يبقى وصفها محفوظا من غير اختلاق اسم لها. وتنتهي صورة زمزم في هذه الأخبار إلى خدمة الواردين وإطعام المحتاج، وهو المعنى الذي يفسر بقاء السقاية في ذاكرة الأسرة. أما التحاكم إلى الكهان وما نقل فيه من تفاصيل فيبحث ضمن نقد السيرة، ولا يستخرج منه ترخيص ديني عام. [٢٢, ٢٤, ٢٧]

٢٠. السنن الخمس ومعنى التوحيد العملي

ينقل المجلسي عن الخصال خبرا في وصية النبي لعلي عليهما السلام يذكر أن عبد المطلب سن خمسا أجراها الله في الإسلام: تحريم نساء الآباء على الأبناء، وإخراج الخمس من كنز وجده، وتسمية زمزم سقاية الحاج، وتقدير الدية بمائة من الإبل، وجعل الطواف سبعة أشواط. ويضيف الخبر أنه لم يكن يعبد الأصنام ولا يستقسم بالأزلام ولا يأكل ما ذبح على النصب، وكان ينتسب إلى دين إبراهيم. هذه رواية لها طريقها، وليست كل فقرة فيها آية قرآنية باسم عبد المطلب. ونقل المجلسي لها لا يغني عن تمييز أصل الخبر من بيانه الذي اقترح فيه أن تكون هذه السنن بإلهام أو من بقية ملة إبراهيم. [٢٢]

تبدو مشكلة القداح في خبر الفداء عند مقارنته بالنهي عن الأزلام، ولهذا لا يكفي أن نجمع الألفاظ ونتجاوز موضع السؤال. قد يفسر بعض الباحثين ما وقع بالقرعة لا باستقسام العبادة، لكن ذلك وجه في الجمع يحتاج إلى فحص النصين، ولا يثبت بمجرد تشابه اللفظ. ويستفاد من مجموع المادة أن الإمامية تقرأ عبد المطلب في إطار التوحيد، مع تفاوت قوة الأحاديث المفسرة لحياته. ولا يلزم من ذلك أن ننسب إليه تشريعا مستقلا ينازع شريعة النبي؛ فالخبر نفسه يجعل الإقرار الإلهي هو الميزان. وتحفظ السنن هنا لدورها في صورة الجد، لا لإصدار حكم فقهي جديد في الديات أو الخمس أو النذور. [١٢, ١٣, ٢٢, ٢٤]

٢١. أصحاب الفيل: الحد القرآني والرواية المفسرة

تثبت سورة الفيل أن الله أبطل كيد أصحاب الفيل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. لا تسمي السورة قائد الجيش، ولا عبد المطلب، ولا الفيل، ولا عدده، ولا تحدد يوما من السنة. تسمية أبرهة تأتي من التفسير والسيرة، وتسمية الفيل محمود تظهر في رواية الكافي وغيرها. والتمييز بين هذه المستويات يحفظ عظمة الآية القرآنية من أن تربط صحتها بكل تفصيل مختلف في الروايات. كذلك لا تجعل النجاشي المذكور في بعض مقدمات الخبر هو، بلا تحقيق، النجاشي الذي استقبل مهاجري المسلمين؛ فاللقب الملكي يتكرر، والزمانان مختلفان. [٨, ١٨, ٣٢, ٣٤]

في الكافي، باب مولد النبي، الحديث الخامس والعشرون عن الإمام الصادق عليه السلام، ترد قصة إبل عبد المطلب التي أخذها الجيش، ودخوله على صاحب الحبشة، وقوله إن له شأن إبله وللبيت ربا يمنعه. وفي الرواية ترجمان وحاجب ومولى أرسله عبد المطلب للاستطلاع، ولا تسميهم. وحكم المجلسي على طريق هذا الحديث بالمجهول، فلا يوصف في هذا الفصل بالصحيح. كما يجمع نور الثقلين طريقا آخر ومادة تفسيرية قريبة، ويذكر مجمع البيان خبر العياشي عن الإمام الصادق في الطير. يتكامل بذلك عرض النص القرآني والخبر المنقول، مع بقاء الحكم على كل طريق مستقلا عن إجلالنا للحدث. [١٨, ٣٢, ٣٤]

٢٢. شخصيات خبر الفيل وما لا يثبت من تعييناتها

يسمي مجمع البيان أبرهة الأشرم، ويورد كنيته أبا يكسوم، ثم ينقل في مقدمات القصة تبعا، وأحيحة بن الجلاح، وبنيامين القرظي، وروزبه، والنجاشي وقيصر، ورجلا كنانيا ورجلا سلميا لم يسمهما في موضعيهما. ويذكر دليلا باسم نفيل، ويورد أبياتا يخاطب فيها ردينة؛ فمجرد الخطاب الشعري لا يمنح ردينة ترجمة مستقلة أو مشاركة في الواقعة. أما خبر تبع ورجال البشارة فقد سبق تفصيله في الفصل الخامس والأربعين، ولا يجعل جزءا من جيش أبرهة. والمقصود من إيراد هذه الأسماء هنا تمييز طبقات القصة: الخلفية التاريخية، والجيش، والدليل، وأهل مكة، والرواة الناقلون. [٣٢]

وفي النص المنقول من القصة أسماء وتفاصيل تثير سؤال التسلسل الزمني، ومنها ذكر شيبة بن عثمان بن عبد الدار في حجابة البيت يوم الفيل. لا يعتمد هذا الفصل تلك العبارة لتأريخ حياة شخص بعينه دون تحقيق، ولا يصلح اسم مشابه لتجاوز الإشكال. كما لا تستخرج من رواية الكافي أسماء للحاجب أو الترجمان أو المولى الذين تركهم النص بلا تسمية. وفي رواية البكري الطويلة المنقولة في البحار زيادات أخرى، منها حناطة، مع تنبيه في الحاشية إلى غرابة بعض السياق. تحفظ هذه الأسماء في نطاق الرواية التي ذكرتها؛ أما دعوى القطع بهوياتها وأعمالها فتتجاوز الدليل المتاح. [١٨، ٢٥، ٣٢]

٢٣. إيمان الآباء والأمهات في تقرير الصدوق والمفيد

يقرر الصدوق في باب الاعتقاد في آباء النبي أنهم مسلمون من آدم إلى عبد الله، ويصرح بإسلام أبي طالب وآمنة بنت وهب. ويوافقه المفيد في تصحيح الاعتقاد على توحيد الآباء إلى آدم، ويستدل بتقلبه في الساجدين وبالنقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة. هذه صياغة عقدية لأصل الإمامية في الباب، لا قائمة أحاديث صحيحة السند عن كل جد على انفراد. ومعنى الإسلام في الحديث عن أجيال سبقت البعثة هو التسليم لله والتوحيد على الهدى المشروع في زمنهم، وليس إقامة شعائر لم تكن قد شرعت بعد على صورتها المحمدية. [١٢، ١٣]

ويتناول الكافي عبد الله وآمنة وأبا طالب في حديث تحريم النار على الصلب والبطن والحجر، وفي طريق آخر تذكر فاطمة بنت أسد أيضا. ونبه المجلسي إلى أن الطريق الأول مجهول والثاني مرسل. يجوز أن يذكر هذا الخبر ضمن شواهد الباب مع بيان مرتبته، ولا يصح إلحاق حكم الحديث الصحيح في عبد المطلب به. كذلك ترد أخبار إحياء الوالدين في معاني الأخبار وعلل الشرائع والتفسير، وينبه المجلسي إلى إشكال مواضع القبور في بعض صيغها. لا نحتاج إلى الجزم بتلك التفاصيل لإثبات أن الصدوق والمفيد قررا إيمان الآباء والأم، ولا نخلط بين تقرير المذهب وصحة كل قصة استعملت في شرحه. [١٢، ١٣، ١٨، ٢٢]

٢٤. «وتقلبك في الساجدين» بين السياق والتأويل المروي

تأتي الآيات في سياق إنذار العشيرة والتوكل على الله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾. يذكر الطوسي في التبيان تفسيرها برؤية النبي في الصلاة مفردا وفي الجماعة، ويذكر عن قوم من الإمامية انتقاله من آدم إلى عبد الله في ظهور الموحدين. ويورد الطبرسي في مجمع البيان الوجهين، وينسب معنى الانتقال في أصلاب النبيين إلى الرواية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام. حفظ الوجه المروي لا يستلزم إلغاء سياق الصلاة، كما أن ذكر السياق لا يوجب إسقاط التأويل الذي استدل به علماء الإمامية على طهارة الأصول. [٤, ١٤, ١٥]

وحدود الدلالة مهمة: لا تحتوي الآيتان أسماء قصي وهاشم وسلمى وحبي، ولا تمنحان قارئهما أعمار هؤلاء أو بلدان دفنهم. وتأتي تسمية الأفراد من علم النسب والرواية. كما أن عبارة انتقاله في النبيين لا تصلح وحدها لإعلان نبوة كل اسم في السلسلة، فضلا عن كل أخ أو زوجة في فروعها؛ فصياغة المفسرين لمعنى طهارة الآباء أوسع من قائمة تراجم الأنبياء المسمين. ولذلك يثبت هذا الفصل الأصل الذي قرره الصدوق والمفيد، ويحيل في كل دعوى خاصة عن شخص إلى نصها الخاص. هذا الجمع يصون المرجعية الروائية ويمنع تحميل الآية تفاصيل لم تتعرض لها. [١٢, ١٣, ١٤, ١٥]

٢٥. آزر ووالد إبراهيم: أمانة عرض الاختلاف

يقول القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾. وينقل الطبرسي أن أصحابنا جعلوا آزر عم إبراهيم أو جده لأمه، مستندين إلى أصل توحيد آباء النبي وإلى سعة استعمال لفظ الأب في القرابة. ويربط هذا بقول النسابين إن اسم الوالد تارخ أو تارح. هذه قراءة تفسيرية إمامية لها أدلتها، ولكن اسم تارخ لا يرد في الآية، ولفظ «أبيه» القرآني لا يحذف من الاقتباس ليوافق شرحا مسبقا. ويجب التفريق بين اللفظ المنزل، وتعيين المقصود به عند المفسر، والمادة النسبية التي استعان بها على التعيين. [٥, ١٣, ١٦]

ويقتضي التدقيق أيضا ذكر أن نور الثقلين نقل عن روضة الكافي خبرا ترد فيه عبارات ظاهرة في أبوة آزر لإبراهيم، ومنها حمل امرأته به. فلا يصح القول إن جميع الألفاظ المنقولة خالية من الإشكال أو متفقة على صورة واحدة. يثبت الاختلاف، ويبحث الجمع أو الترجيح في ضوء القرآن ومباني العلماء وأسانيد الأخبار، دون اختراع تصحيح للنص. وكذلك توضح آيتا التوبة أن إبراهيم تبرأ ممن تبينت عداوته لله؛ ولا تعينان بذاتهما كل تفصيل نسبي. تحافظ هذه المعالجة على الموقف الإمامي الذي يتبناه الكتاب، وعلى الصدق في وصف المادة التي استند إليها وتعارض بعض ظواهرها. [٦, ١٦, ١٧, ٣٧]

٢٦. زوجات عبد المطلب وأمهات أولاده

من أوضح أسماء هذه الطبقة فاطمة بنت عمرو المخزومية أم عبد الله وأبي طالب والزبير، وهالة بنت أهيب، ويقال وهيب، الزهرية أم حمزة وصفية في السجل الذي يورده اليعقوبي. ويذكر نتيلة بنت جناب أما للعباس وضرار، ولبنى بنت هاجر الخزاعية أما لأبي لهب، وصفية بنت جندب أما للحارث

وقثم، وممنعة بنت عمرو الخزاعية أما للغيداق. وتختلف بعض كتب النسب في إلحاق المقوم وحجل وبعض بقية الأبناء بهذه الأمهات، فلا يستخرج من القائمة ترتيب زواج قطعي، ولا تعتمد أعدادها لحسم خلاف عدد البنين. واسم هاجر في نسب لبنى اسم أبيها هنا، وليس هاجر أم إسماعيل. [٢٣, ٢٧, ٣٠]

وترد في بعض النقل قراءة سمراء في اسم أم الحارث، وصيغ نتيلة ونثيلة في أم العباس. ينبغي تسجيلها بوصفها اختلاف أسماء أو ضبط، لا إضافة زوجات جديدات لمجرد تبدل حرف. أما القصة الطويلة التي أوردها المجلسي عن البكري فتسوق قائمة أخرى وتفاصيل موسعة، وقد وصفها المجلسي نفسه بالغرابة والإرسال. فلا تسوى قائمتها بأصل النسب المحفوظ ولا تجمع كل صيغها آليا مع غيرها. والأسماء المذكورة هنا تعرف بصلة كل امرأة إلى أولادها، مع الاعتراف بأن أخبار حياتها الخاصة أقل كثيرا من أخبار الرجال، وعدم وجود ترجمة مفصلة لا يبرر حذفها أو ملء فراغها بخيال أدبي. [٢٥, ٢٧, ٣٠]

٢٧. أبناء عبد المطلب: العدد والأسماء والألقاب

ينقل المجلسي عن الخصال أن النبي سئل عن ولد عبد المطلب فقال: «عشرة والعباس»، ثم يورد شرح الصدوق بالأسماء: عبد الله، وأبو طالب، والزبير، وحمزة، والحارث، والغيداق، والمقوم، وحجل، وعبد العزى وهو أبو لهب، وضرار، والعباس. ويذكر في التعقيب أن من الناس من جعل المقوم هو حجل. وفي نقل المناقب بحار الأنوار عشرة، مع جعل حجل هو الغيداق، وضرار هو نوفل. وفي قوائم أخرى يظهر قثم وعبد الكعبة. هذه مادة لا تحتمل عبارة مختصرة من نوع «أجمعوا على أن أبناءه أحد عشر»؛ فالاختلاف ليس في الجمع الحسابي وحده، بل في استقلال الاسم أو كونه لقبا. [٢٣, ٣٠]

ولكي لا يسقط اسم من المجال الذي راجعناه يثبت السجل الأسماء المشهورة جميعا، مع تعريف عبد مناف بأنه أبو طالب، وعبد العزى بأنه أبو لهب، وإبقاء الغيداق وحجل والمقوم وعبد الكعبة وقثم في دائرة الخلاف المبين. ويذكر مصعب في بعض أقوال النسب اسما للغيداق، والمغيرة اسما لحجل؛ ولا يلزم من ذلك عد رجل جديد لكل لفظ. وعبد الله من أبناء عبد المطلب لكنه أبو النبي، فلا يدخل في عدد أعمامه. كما لا يفهم من قول كتاب نسبي «أعقب منهم أربعة» أنه ينفي فاطمة ذرية النبي؛ فقد يكون الحديث عن أبناء أعمامه وفروعهم في موضع مخصوص، ويقرأ كل حصر في سياقه. [٢٣, ٢٧, ٣٠, ٤٥]

٢٨. عبد الله بن عبد المطلب

عبد الله أبو محمد ﷺ، وأمه فاطمة بنت عمرو، وهو أخو أبي طالب من الأبوين في النص الذي نقله الطبرسي والمجلسي. وزوجته آمنة بنت وهب الزهرية. لا يثبت القرآن اسمه ولا تاريخ زواجه ووفاته، وإنما تأتي هذه المعلومات من السيرة والحديث. وترد في الأخبار صورة الابن المحبوب لأبيه، وقصة

افتدائه بالإبل، ثم زواجه ووفاته في يثرب. ويذكر اليعقوبي أن الوفاة كانت عند أخوال أبيه من بني النجار بدار النابغة؛ فلفظ «الأخوال» هنا يحتاج إلى بيان طبقة القرابة، ولا يحول بني النجار إلى إخوة آمنة الزهرية. [١٨, ٢٢, ٢٨, ٣٠]

وفي زمن وفاته اختلاف جوهري: مقدمة باب مولد النبي في الكافي تقول إن النبي كان ابن شهرين، بينما تنقل مصادر أخرى أن آمنة كانت حاملا، وترد أقوال بسبعة أشهر أو ثمانية وعشرين شهرا بعد الولادة. والمقدمة التاريخية للباب ليست كلها حديثا مسندا عن الإمام؛ فينسب القول إلى موضعه ولا يصنع منه إجماع. كذلك يرد عمر خمس وعشرين لعبد الله في بعض السير، ولا يثبت هنا على أنه العمر المقطوع به. أما دفنه بالمدينة ودار النابغة فهو الخبر المشهور في هذه المادة، ويكفي لإيضاح كيف دخل اليتم في حياة النبي دون تركيب تاريخ يومي لا تسنده النصوص. [١٨, ٢٢, ٢٨]

٢٩. خبر الفداء وعاتكة: الروايات لا تدمج قسرا

يروي الصدوق في عيون أخبار الرضا، كما نقله المجلسي، تفسير قول «ابن الذبيحين» بإسماعيل وعبد الله. وفي هذه الصيغة تسعى عاتكة بنت عبد المطلب إلى إنقاذ أخيها، فتقترح المفاداة بالإبل، وتكرر القرعة حتى تقع على المائة، ويذكر إخوة عبد الله، ولا سيما الزبير وأبا طالب، في انتشاله واحتضانه. هذه مساهمة نسائية محددة لا ينبغي حذفها عند تلخيص الخبر بقولنا: افتدى عبد المطلب ابنه. وفي صيغة أخرى تسند المشورة إلى كاهنة، وفي بعض النقل يتقدم دور الحارث؛ فلا تجعل عاتكة والكاهنة امرأة واحدة، ولا يرتب اجتماع جميع الأفعال في مشهد واحد من غير نص. [٢٢, ٢٤, ٢٧]

ولا تسمي آيات الصافات عبد الله، ولا تصف قصته؛ فالربط بين الفدائين من الرواية. كما أن حفظ الخبر لا يجيز استنباط إباحة نذر قتل الولد أو جعله قربانا في الشريعة. ويختلف سياق النذر وعدد البنين في الصيغ، فيصرح بذلك ولا يختار من كل نص جزئية ليصنع رواية تبدو أوثق من أصولها. وفي هذا الفصل يحفظ أصل القصة كما روته المصادر، ويبرز اسم عاتكة وموضع الأم فاطمة بنت عمرو وإخوة عبد الله، ويترك الحكم التفصيلي على السند والمتن في حدود ما تحقق. أما طول الحوار وأعداد الحاضرين وأعمارهم الدقيقة في بعض القصص المرسلة فلا تثبت لمجرد اشتهار الفداء. [٢٢, ٢٤, ٢٥, ٢٧]

٣٠. آمنة بنت وهب وأسرتها

آمنة أم النبي ﷺ، بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي في السجل النسبي. يجتمع في تعريفها انتماؤها إلى بني زهرة من جهة أبيها وصلتها ببني عبد الدار من جهة أمها. ووهب هنا والد آمنة، لا وهب بن منبه راوي أخبار القصص، وعبد مناف في هذا الفرع غير أبي هاشم كما تقدم. لا تعرف آمنة من خلال حدث الولادة وحده؛ هي الأم التي حملت الطفل ورعته، ويرتبط بها سفره إلى يثرب وذكر أخوال الأسرة ووفاتها بالأبواء. واسمها

صريح في تقرير الصدوق لإيمانها، وفي الروايات التي تسمي البطن الذي حمل النبي. [١٢, ١٨, ٢٢, ٢٩]

وتنتشر حول خطبتها أخبار طويلة عن نور عبد الله وإقبال نساء عليه، وترد امرأة باسم فاطمة بنت مرة في نقل المناقب، بينما تسوق روايات أخرى أسماء أو تعيينات مختلفة. يحفظ اسمها في حدود تلك الرواية، ولا يجعل ذلك زواجا ثانيا لعبد الله أو امرأة من أمهات النبي. وفي بعض القصص تهديد من جماعات وأعداد مبالغ فيها من النساء، فلا تصير مادة ثابتة عن قبيلة أو جماعة دينية لمجرد ورودها في كتاب جامع. الأخبار التي تنسب فضيلة لآمنة أو لوالد النبي تدرس بأسانيدها وسياقها، وأصل إيمانها في التقرير الإمامي لا يتوقف على قبول كل هذه الحكايات. [١٢, ٢٢, ٢٥]

٣١. الأبواء: فقد الأم واستمرار الرعاية

تصل رحلة آمنة مع ابنها إلى يثرب بين نسب الأسرة وحياتها اليومية. فصلة بني النجار بعبد المطلب ترجع إلى أمه سلمى بنت عمرو، ولا تعني أن كل من وصف بأنه من أخوال النبي أخ مباشر لآمنة. ويذكر اليعقوبي زيارة آمنة وما أعقبها من وفاتها بالأبواء في طريق العودة، ودور أم أيمن في الطفل. هكذا تجتمع في سنواته الأولى آمنة أم الولادة، وأم أيمن الحاضنة، والجد عبد المطلب، ثم العم أبو طالب وزوجته فاطمة بنت أسد. تختلف وظائف هذه الشخصيات، ولا تلغي كفالة الجد عمل النساء في الحفظ والرعاية والسفر. [١٨, ١٩, ٢٨]

وفي عمره عند وفاة أمه اختلاف يستحق الإثبات: مقدمة باب المولد في الكافي تذكر أربع سنين، ويذكر اليعقوبي ست سنين وثلاثة أشهر، وتشيع في كتب السيرة عبارة ست سنين. لذلك يثبت موضع الوفاة وموقعها في تسلسل الرعاية، ويعرض اختلاف العمر دون اختراع يوم يجمع الأقوال. وآية اليتم في سورة الضحى تثبت عناية الله بنبيه، لكنها لا تسمي الحاضنة ولا تحدد سن وفاة الأم أو الجد. ويظل خبر آمنة أكبر من تاريخ وفاتها: حضورها في نسبه ورعايته وإيمانها في التقرير الإمامي عناصر متكاملة، وإن كانت التفاصيل التاريخية متفاوتة النقل. [٧, ١٢, ١٨, ٢٨]

٣٢. سجل الأمهات: حفظ الأسماء مع اختلاف النسابين

يجمع اليعقوبي في الجزء الثاني أسماء أمهات حلقات النسب، فيسمي، بعد آمنة، فاطمة بنت عمرو أم عبد الله، وسلمى بنت عمرو أم عبد المطلب، وعاتكة بنت مرة أم هاشم، وحبى بنت حليل أم عبد مناف، وفاطمة بنت سعد سيل أم قصي. ثم يذكر هند بنت سرير أم كلاب، وماوية بنت القين أم مرة، ووحشية بنت شيبان أم كعب، وسلمى بنت عمرو أم لؤي، وليلى بنت سعد الهذلية أم غالب، وجندلة بنت الحارث أم فهر. وسلمى أم لؤي ليست سلمى النجارية أم عبد المطلب، وعاتكة تتكرر في طبقات مختلفة؛ فلا يكفي تشابه الاسم لإلغاء امرأة أو دمج نسبين. [٢٩]

ويستمر السجل بعاتكة العدوانية أم مالك، وترد لها تسمية عكرشة وصيغ أخرى، وبرة بنت مر أم النضر، وهند بنت قيس أم كنانة، وسلمى بنت أسد أم خزيمة، وخندف ليلى بنت حلوان أم مدركة، والحنفاء بنت إياد أم إلياس، وشقيقة بنت عك أم مضر، وناعمة بنت جشم أم نزار، وتيمة بنت يشجب أم معد. لكن الجزء الأول نفسه يورد في مواضع أسماء أخرى، منها عوانة لأم كنانة، وهالة لأم النضر، وعائذة لأم كعب، ووحشية لأم مرة. هذا اختلاف في الأصول المقروءة، لا سهو يصح إخفاؤه. تحفظ هذه الأسماء بوصفها تعيينات نسبية منقولة، ولا تنسب إلى القرآن أو إلى حديث صحيح عن إمام بمجرد وجودها عند مؤرخ. [٢٦, ٢٩]

٣٣. العواتك: أسماء متكررة وفروع مختلفة

يخصص اليعقوبي بيانا للعواتك في نسب النبي، ويبلغ بهن اثنتي عشرة امرأة. ومن الأسماء الواردة: عاتكة بنت هلال بن وهيب، وعاتكة بنت عطوارة بن طرب، وعاتكة بنت يخلد بن النضر؛ ومن سليم عاتكة بنت مرة بن هلال أم هاشم، وعاتكة بنت مرة بن عدي، وفي تعيين إحداهن قول يجعلها بنت جابر بن قنفذ. وفي النص المطبوع تفاوت بين عدد السلميات المعلن والأسماء المفصلة؛ وينقل هامش بحار الأنوار عن المحبر عاتكة بنت عصية بن خفاف لاستكمال الفرع. تنسب هذه الزيادة إلى مصدرها، ولا تدخل خفية في عبارة اليعقوبي كأنه سماها بنفسه. [٢٩, ٣٩]

ويذكر كذلك عاتكة بنت عامر بن الظرب، مع بديل نسبي هو بنت عبد الله بن الحارث بن وائلة بن الظرب، وعاتكة بنت عدوان؛ وعاتكة بنت سعد الهذلية، وعاتكة بنت دودان الأسدية، وعاتكة بنت الأزد بن الغوث، وعاتكة بنت رشدان بن قيس الجهنية. وتظهر في وصلات هذه الفروع أسماء ريطة بنت كعب بن سعد، وقيلة أو قبلة بنت حذافة، وأميمة بنت عامر، وماوية الحوراء بنت عمرو، وسلمى بنت طابخة. المقصود حفظ شبكة الأمهات والجدات، لا ادعاء أنهن كلهن أمهات متعاقبات في عمود واحد. وعاتكة بنت عبد المطلب، عمة النبي، متأخرة عن هؤلاء ومتميزة عنهن وإن اشتركت في الاسم. [٢٩, ٣٩]

٣٤. الفواطم في النسب وبيت الرعاية

يسجل اليعقوبي أربع فواطم في نسب النبي: فاطمة بنت عمرو أم عبد الله؛ وفاطمة بنت ربيعة بن عبد العزى بن رزام من بني بكر بن هوازن في نسبها؛ وفاطمة بنت الحارث بن بهثة السلمية في الطبقة التي فوقها؛ وفاطمة بنت سعد سيل أم قصي. وينقل هامش بحار الأنوار أيضا فاطمة بنت نصر بن عوف الخزاعية أم حبى بنت حليل. فهذه الأخيرة إضافة نسبية من نقل آخر، وليست اسما خامسا في عبارة اليعقوبي التي عددت أربعا. ويتطلب السجل تمييز الاسم الشخصي عن الكنية، واسم الأب عن لقب مثل سعد سيل، وحفظ الاختلاف في ضبط الأسماء القديمة. [٢٩, ٣٩]

أما فاطمة بنت أسد فهي زوجة أبي طالب وأم علي، ومن بيت الحضانة الذي آوى النبي، وليست واحدة من جداته في عمود نسبه. وفاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ من ذريته وأهل بيته، لا من أمهاته. وفاطمة بنت مرة المذكورة في خبر عرض الزواج على عبد الله لا تثبت بذلك زوجة له. بذلك يجتمع الحفظ والتفريق: لا تحذف امرأة لمشاركة غيرها في الاسم، ولا تمنح امرأة صلة قرابة لم يثبتها النص. وترد أخبار فاطمة بنت أسد في الكافي وأمالي الصدوق بنطاق أوسع من السجل النسبي، وستعرض مستقلة مع بيان درجات الروايات. [١٩, ٢٢, ٣١]

٣٥. العمات الست وصفية بنت عبد المطلب

تتفق القائمة المشهورة في المصادر التي جمعتها بحار الأنوار على ست عمات: صفية، وعاتكة، وأروى، وأميمة، وبرة، وأم حكيم البيضاء. وأم حكيم والبيضاء ليستا امرأتين؛ الأولى كنية والثانية لقب في هذا السجل. صفية أمها هالة بنت أهيب أو وهيب، ومن زواجها بالعوام بن خويلد ولد الزبير بن العوام؛ وتذكر الأخبار زواجا سابقا لها بالحارث بن حرب. فصلة الزبير بالنبي تمر من أمه صفية، وصلته بخديجة تمر من أبيه العوام أخيها، ولا يحول اشتراك الأسماء بين الزبير بن العوام والزبير بن عبد المطلب إلى شخص واحد. [٢٧, ٣٠, ٤٤]

ولصفية أخبار في الهجرة وأحد والدفاع في زمن الأحزاب، وهي مما يوسع ترجمتها في موضع أحداث المدينة، ولا يلزم نقل تفاصيل المغازي هنا. أصل إدراجها في المسلمات أوضح في قوائم السيرة من الخلاف المنقول في بعض أخواتها. ويقدم خبر النسب الذي نقله الهيثمي عن الزبير بن بكار مثالا نافعا لشبكة النساء: يجمع أبناء إخوتها وأخواتها وابنها وابن ابنة أختها في قرابة واحدة، فتظهر أسماء برة وأروى وأميمة والبيضاء. يستفاد منه هنا في تعريف الروابط بوصفه خبرا نسبيا من خارج المدونة الإمامية، ولا يقدم حديثا عن أهل البيت أو دليلا مستقلا على أحكامهم. [٣٠, ٤٤]

٣٦. عاتكة بنت عبد المطلب ورؤيا بدر

عاتكة عمة النبي بنت عبد المطلب، وتذكر قوائم الأسرة زواجها بأبي أمية بن المغيرة المخزومي. وليست عاتكة أم هاشم، ولا يصح نقل فضائل إحداهما إلى الأخرى. ومن أشهر أخبار العمة رؤيا سابقة لبدر: راكب ينذر قريشا، وصخرة تتفرق في دورها، ثم مجيء ضمضم بن عمرو بخبر العير. ينقل بحار الأنوار ذلك عن التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم ضمن تفسير آيات الأنفال. وفي صيغته تخبر عاتكة العباس، وينقل العباس الخبر إلى عتبة بن ربيعة، ويقابل أبو جهل الرؤيا بالسخرية والاتهام. مصدر هذه الأسماء سياق الرواية، لا ألفاظ آيات بدر. [٣٠, ٤٢]

لا تثبت الرؤيا لعاتكة نبوة، ولا تصير عبارة الخصم الساخرة تقريرا عقديا. كما لا تكفي رواية المنام وحدها للحكم على جميع تفاصيل إسلامها أو هجرتها؛ ففي قوائم إسلام عمات النبي اختلاف ينبغي حفظه. وترد الرؤيا أيضا بأسانيد تاريخية منقطعة في مصادر أخرى، مما يفسر شهرتها ولا يغني عن

فحص كل طريق. وذكرها هنا يرد امرأة من نساء البيت إلى موقعها في الذاكرة المكية، ويربطها بأخيها العباس، مع إبقاء القصة في درجتها المنقولة. أما تعداد قادة قريش ومسار الغزوة وتفاصيل القافلة فيتناوله فصل بدر. [٣٠, ٤٢, ٤٤]

٣٧. أروى وأميمة: فرعان لا يغني أحدهما عن الآخر

أروى بنت عبد المطلب عمة النبي، وتصلها كتب النسب بعمير وبابنها طليب؛ وتختلف صيغ امتداد نسب الزوج في النقول المختصرة. وهي غير أروى بنت حرب أم جميل، وغير أروى بنت كريز ابنة البيضاء. وتتحدث أخبار السيرة عن موقف طليب وإسلام أمه، مع بقاء اختلاف أهل السير في تفصيل من أسلم من العمات. ينبغي لذلك أن يقال: تنقل المصادر خبر إسلام أروى، لا أن يجعل كل تفصيل في الحوار أو الشعر المنسوب إليها حديثا صحيحا عن الإمام. ووجود الاسم في شجرة الأسرة ثابت في مستواه النسبي، ولو بقيت بعض مشاهد الترجمة محتاجة إلى تحقيق مستقل. [٣٠, ٤٤, ٤٥]

وأميمة بنت عبد المطلب زوجة جحش بن رئاب، وتصلها ترجمة صفية المنقولة بعبد الله بن جحش وأبي أحمد، ويذكر سجل زوجات النبي زينب بنت جحش بوصفها ابنة عمته أميمة. فزينب زوجة النبي ليست زينب بنت النبي، وأبو أحمد كنية لشخص آخر غير عبد الله. ويتصل بهذا البيت عبيد الله بن جحش وحمنة في كتب التراجم، وتفصل أخبارهم في مواضع الهجرة وأحد والزواج النبوي. أهمية أميمة هنا أنها أصل هذه القرابة النسائية؛ فلا يكفي ذكر أبناء جحش بأسمائهم ثم إسقاط أمهم من فصل بيت النبوة. ولا يفهم من مجرد القرابة تسوية أفراد الفرع في الاعتقاد أو المسار. [٣٠, ٤٤, ٤٥]

٣٨. برة وأم حكيم البيضاء وأبناؤهما

برة بنت عبد المطلب عمة النبي، وتذكر المصادر زواجها بعبد الأسد المخزومي، ومن هذا الفرع أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد. وتضيف شهادة النسب المنقولة في ترجمة صفية أبا سبرة بن أبي رهم ابنا لبرة من زواج آخر. وأبو سلمة زوج أم سلمة قبل زواجها بالنبي، فتتقاطع قرابة النسب مع تاريخ البيت المدني لاحقا. لا تخلط هذه برة مع برة بنت عبد العزى أم آمنة، أو برة بنت مر في سجل الأمهات، أو الأسماء التي تغيرت إلى زينب في تراجم أخريات. تعيين الأب والجيل هو الذي يحفظ كل امرأة في موضعها. [٢٩, ٣٠, ٤٤, ٤٥]

وأم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب تزوجت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس. وابنتها أروى بنت كريز أم عثمان بن عفان؛ فصلة عثمان هنا تمر من أمه وجدته، ولا تجعله ابنا مباشرا لإحدى عمات النبي. وتذكر بعض قوائم الأسرة البيضاء مع عبد الله في وصف التوأم، وهو خبر نسبي لا آية ولا حكم عقدي. وبهذا تكتمل أسماء العمات الست مع أمهات بعض الفروع وأبنائها الأقرب، مع بقاء التمييز بين ما ترويه كتب الأنساب وما يسند إلى أهل البيت. حفظ القرابة لا يحسم التقييم الديني أو

السياسي للشخصيات في أحداث لاحقة، ولا يجوز استبدال البحث في تلك الأحداث بحجة النسب. [٢٧, ٣٠, ٤٤, ٤٥]

٣٩. أبو طالب: العم الذي حمل أمانة الكفالة

أبو طالب بن عبد المطلب، واسمه في المشهور عبد مناف، أخو عبد الله لأبيه وأمه فاطمة بنت عمرو. انتقلت إليه كفالة النبي بعد عبد المطلب، فدخل الطفل بيتا له أبناؤه وأعماله وضيق معاشه، ووجد فيه حماية العم ورعاية فاطمة بنت أسد. لا يختزل هذا الدور في لقب زعيم بني هاشم؛ فالكفالة تشمل الطعام والمبيت ومرافقة الصغير والدفاع عنه. وتصل أخبار الكافي بين وصية الجد برعايته وبين مواقف أبي طالب في مكة، ثم يظهر العم في روايات الزواج من خديجة وفي حماية الدعوة. تفصل أحداث الرحلات والزواج في الفصل التالي، ويثبت هنا موقع البيت الحاضن في تسلسل النشأة. [١٨, ٢٨, ٣٠, ٣١]

وتسمي بعض الروايات حمزة إلى جانبه في الدفاع عن النبي، وعليا رسولا يحمل كلام أبيه إلى بعض أعمامه، وجعفرا ممن وجههم إلى الصلاة مع ابن عمه. هذه الصلات تبرز الفاعلين من داخل الأسرة، ولا تجعل كل حديث في كل مشهد صحيحا بمجرد موافقة المعنى العام. وفي تاريخ وفاة أبي طالب وعلاقته بوفاة خديجة تفاصيل مختلفة؛ فلا يلزم اختيار شهر أو فاصل زمني قاطع لفهم أثر فقده. إن زوال حمايته حدث كبير في أخبار مكة، غير أن الخبر الذي يأمر النبي بالخروج بعد وفاته لا يكفي وحده لإلغاء ما بين الوفاة والهجرة من أحداث معلومة في كتب السيرة. [١٨, ٣١]

٤٠. إيمان أبي طالب في روايات الكافي

في باب مولد النبي ووفاته من الكافي روايات صريحة في إيمان أبي طالب. فالحديث الثامن والعشرون يشبه حاله بأصحاب الكهف في إسرار الإيمان، وصنفه المجلسي في مرآة العقول حسنا. والحديث التاسع والعشرون يستدل بما ينسب إلى أبي طالب من شعر يقر فيه بنبوة محمد وشبهه بموسى في الكتب؛ وحكم المجلسي بصحة أصله، مع إرسال في آخره. لا يصح إذن وصف الباب كله بالصحة أو الضعف على السواء. وفي الحديث الثلاثين خبر دفاع أبي طالب وحمزة عن النبي بعد إيذائه، وفي الحادي والثلاثين خبر فقد النصير عند وفاة أبي طالب، وكلاهما عند المجلسي حسن كالصحيح. [١٨]

وترد في الباب أخبار أخرى عن حساب الجمل وإشارة اليد، وعن من حمل النبي وكفله، بأحكام سندية مختلفة؛ منها المرفوع والضعيف والمجهول والمرسل. يذكر هذا التفاوت لأن قوة القول بإيمان أبي طالب في المدرسة الإمامية لا تبيح ترقية كل جزئية مروية عنه إلى الصحيح. كما أن صحة سند في اصطلاح عالم معين ليست دعوى اتفاق جميع المحدثين على فهم كل لفظ فيه. والحاصل من المادة هنا أن إيمان أبي طالب ليس إضافة معاصرة إلى السيرة، بل له نصوص في مصدر إمامي مبكر وتقرير عند علماء المذهب، ويعرض مع إسناد الأقوال إلى أصحابها. [١٢, ١٣, ١٨]

٤١. الآيات التي أدخلت في الجدل حول أبي طالب

لا يسمي القرآن أبا طالب في آية «إنك لا تهدي من أحببت» من القصص، ولا في آية النهي عن الاستغفار للمشركين من التوبة، ولا في قوله «وهم ينهون عنه وينأون عنه» من الأنعام. وتعيين الشخص في هذه المواضع بحث في أسباب النزول والتفسير. ينقل الطبرسي في مجمع البيان قول من ربط بعض هذه الآيات بأبي طالب ثم يناقشه، ويقرر الموقف الإمامي من إيمانه. وفي الأنعام يبين ملاءمة السياق لجماعة تصد عن النبي وتنأى عنه، فلا تجعل حماية أبي طالب من الأذى دليلا على دخوله في جماعة الصادين. [٦, ٣٥, ٣٦, ٣٧]

ويفرق التفسير بين البيان والدعوة اللذين يقوم بهما الرسول، وبين الهداية التي يملكها الله، فلا يؤخذ نفي إحداهما لنفي كل فضيلة عمن يراد تعيينه. كذلك تبقى آية استغفار إبراهيم لأبيه وتبرئه منه ضمن سياقها، مع البحث السابق في هوية آزر، ولا تنقل إلى أبي طالب بلا حجة. يعرض الخلاف بأمانة من غير إخفاء أن مفسرين من مدارس أخرى اختاروا تعيينات مختلفة. أما اعتماد هذا الفصل فقرآني أولا، ثم إمامي في فهم موقع أبي طالب، مع صيانة الفرق بين النص القرآني وبين تفسيره وبين الخبر الذي يحتج به على مناسبة نزوله. [٥, ٦, ١٦, ٣٥, ٣٦, ٣٧]

٤٢. الوصايا واسم آبي وحدود تعيين الوصي

يروي الكافي في الحديث الثامن عشر من الباب نفسه أن أبا طالب كان مستودعا للوصايا فدفعها إلى النبي، وقد حكم المجلسي بضعف هذا الطريق. الخبر مهم في عرض ما قيل عن موقعه، لكنه لا يكفي منفردا لصنع سلسلة موثقة من الأوصياء في كل حلقة من حلقات النسب. ووجود كتاب أو أمانة عند رجل، أو إخباره بنبي منتظر، أو قيامه بالكفالة، أو ثبوت الإيمان له، معان ليست متطابقة بالضرورة مع تعيينه حجة معصومة منصوصا عليها. لكل دعوى دليلها ومصطلحها، ولا يستعاض عن ذلك بزيادة وصف «الوصي» إلى كل اسم في شجرة العائلة. [١٨, ٢٠, ٣١]

وفي كمال الدين يذكر الصدوق آبي في سياق أواخر أوصياء عيسى واتصال خبر سلمان، وينبه إلى أن بعض الناس قرأ الاسم «أبي» فحمله على أبي طالب، ويذكر له اسم بردة أيضا. فهذا تنبيه قديم إلى احتمال التصحيف، لا مسوغ لحذف أحد الوجهين بلا بيان. تحفظ شخصية آبي أو بردة في سجل الانتقال الروائي، ويحفظ أبو طالب في نصوص الكفالة والإيمان وما ورد في إيداع الوصايا عنده. أما توحيد الشخصيتين أو الفصل القطعي بين جميع ما روي عنهما فيحتاج تحقيق طرق الأخبار ونسخها؛ فلا يقدم اختلاف الرسم دليلا قاطعا بمفرده. [٢٠, ٣١]

٤٣. فاطمة بنت أسد: الأم في بيت الكفالة

فاطمة بنت أسد بن هاشم زوجة أبي طالب وأم علي وإخوته في السجل المشهور، فتجتمع لعلي صلة بني هاشم من أبيه وأمه. ويصور خبر وفاتها في الكافي عمق علاقتها بالنبي: يدخل عليه ابنها علي وقد بكى،

ويعبر النبي عن مكانتها لديه بالأمومة، ثم تذكر الرواية قميصه وصلاته وقبرها وما سبق من إحسانها إليه. ويتضمن الخبر أنها كانت أول امرأة هاجرت إلى رسول الله ماشية من مكة؛ هذه الصيغة من متن الرواية، لا نتيجة إحصاء مستقل لجميع المهاجرات. حكم المجلسي على هذا الطريق بالضعف، فلا يسقط محتواه من سجل الروايات ولا ينقل بغير بيان درجته. [١٩, ٣١]

ولا تخلو القصة من امرأة أخرى: جارية أرادت فاطمة عتقها ثم أوصت بذلك، فيذكر النبي إتمام العتق. لا يسميها النص، فتبقى الجارية الموصى بعتقها، ولا تستبدل بأم أيمن أو ثويبة بلا دليل. وتظهر نساء في تجهيز فاطمة، ويذكر نقل الأمالي عمارا في السؤال عن بعض فعل النبي؛ فهم أطراف في الخبر بحسب مصادره. أما الأخبار التي تصل فاطمة بآمنة وبشارة ولادة علي بعد ثلاثين سنة فلها طرق أخرى وأحكام مختلفة. هذه التفاصيل تظهر أن حفظ النساء يشمل الأم المعروفة والمرأة التي حفظ الخبر فعلها ولم يحفظ اسمها، مع الفصل بين الروايات المتقاربة. [١٩, ٣١]

٤٤. طالب وعقيل وجعفر وعلي

يسمي السجل المشهور لأبي طالب أربعة بنين: طالبا، وعقيلا، وجعفرا، وعليا. وينقل فرق عشر سنين بين بعضهم في كتب السيرة، وهو ضبط تاريخي مروي لا يتوقف عليه إثبات الأخوة. لطالب أخبار في الخروج إلى بدر وما أعقبه من غياب خبره، فلا يجزم بموته في مكان أو بقتاله النبي من مجرد ذكر اسمه في الخارجين. ولعقيل حضور في معرفة النسب وأخبار مكة، ويورد الصدوق في المنقول عنه محبة النبي له، مع تعليل يتعلق بمحبة أبي طالب إياه. تحفظ أخوته وصلاته دون إسقاط جدالات مراحل متأخرة على جميع حياته. [٣٠, ٣١, ٤٢]

وجعفر مرتبط في أخبار البيت بأمر أبيه أن يصل جناح ابن عمه في الصلاة، ثم تظهر منزلته في الهجرة إلى الحبشة ومؤتة. وزوجته أسماء بنت عميس من النساء المركزيات في سيرته، وتميز من أختها سلمى زوجة حمزة. وعلي ابن هذا البيت الذي ربى النبي ثم رباه النبي، وتثبت له صلة النسب بالأب والأم وصلة الزواج بفاطمة الزهراء. لا يحمل عنوان أجداد النبي على إدراج علي أو جعفر أو عقيل في أصوله؛ هؤلاء أبناء عمه، وبعضهم من أهل بيته بمعان أخرى مؤيدة بالنصوص. لذلك تؤخذ أخبارهم هنا بقدر بناء الأسرة، وتترك تراجمهم الجامعة للفصول المختصة. [١٩, ٣٠, ٣١, ٤٠, ٤١]

٤٥. أم هانئ وجمانة وريطة في اختلاف السجل

يسمي نقل إعلام الورى في بحار الأنوار بنتين لأبي طالب: أم هانئ واسمها فاختة، وجمانة. وترد هند في بعض كتب التراجم اسما لأم هانئ؛ فلا تنشأ من ذلك أخت ثالثة باسم هند. ولأم هانئ أخبار عند فتح مكة وفي الرواية، ويثبت لها موضعها أختا لعلي وابنة لعم النبي. أما جمانة فتذكر طبقات ابن سعد زواجها بأبي سفيان بن الحارث وولادة جعفر له، وخبرا عن عطائها من خيبر. وأبو سفيان هنا

ابن الحارث بن عبد المطلب، لا أبو سفيان بن حرب، وجعفر ابن أبي سفيان غير خاله جعفر بن أبي طالب. [٣٠, ٤٣, ٤٤]

وتورد الطبقات ريطة بنت أبي طالب، وتذكر أم طالب مع احتمال أن تكون كنيتها، وتصرح بأن سجل هشام بن الكلبي لا يسمي أم طالب مستقلة. لذلك تحفظ ريطة وأم طالب بوصفهما تعيينا محتملا لامرأة واحدة في رواية أوسع من القائمة الثنائية، لا بنتين ثابتتين زائدتين. وفي النص نفسه استثناء لاسم يقرأ «طريق» في النسخة الإلكترونية، وتشتهر في بعض النقول صيغة «طليق»؛ فلا يدخل في قائمة الأبناء الأربعة على درجة واحدة دون تحقيق ضبطه ونسبته. هذه إحالة مقارنة إلى مصدر نسبي غير إمامي، تحمي من ادعاء اتفاق الكتب على الحصر، ولا تعادل حديثا مسندا عن أهل البيت. [٣٠, ٤٣]

٤٦. حمزة وأهل بيته

حمزة بن عبد المطلب عم النبي، وأمه هالة بنت أهيب أو وهيب، وهو من أبرز رجال الأسرة في النصرة. يرد مع أبي طالب في خبر الكافي عن دفع الإهانة عن النبي، وله في روايات أهل البيت منزلة الشهادة والقرابة. والرضاعة تضيف إليه صلة أخرى في الأخبار التي تجعل ثويبة مرضعته ومرضعة النبي؛ فهي صلة غير العمومة النسبية. يعرف بأبي عمارة وأبي يعلى، ولا تستخرج من الكنيتين شخصيتان. وأخباره في أحد، وما اتصل بوحشي وهند بنت عتبة وحزن النبي وصفية عليه، تتناولها السيرة في موضعها؛ المقصود هنا تثبيت موقعه وفروع بيته، لا استباق تفاصيل المعركة. [١٨, ٢٨, ٣٠, ٤٦]

ولمنع إسقاط النساء والأولاد، تحفظ قائمة ابن سعد المقارنة: يعلى وعامر، وأمهما بنت الملة الأوسية التي لا يسميها الموضع باسم مستقل؛ وعمارة وأمه خولة بنت قيس؛ وأمامة وأمها سلمى بنت عميس. ويذكر تنازع علي وجعفر وزيد بن حارثة في حضانة أمامة، والحكم لجعفر لأن خالتها أسماء بنت عميس عنده. وفي السجل نفسه أبناء ليعلى هم عمارة والفضل والزبير وعقيل ومحمد، فلا تخلط عمارة ابن يعلى بعمارة ابن حمزة. هذه تفاصيل من مصدر تاريخي غير إمامي للمقارنة النسبية، ولا يدعي الفصل تصحيح جميع أخبارها. واختلاف بعض كتب التراجم في تسمية بنت حمزة لا يجيز جمع كل اسم مختلف فيه بنتا مستقلة. [٤٣, ٤٦]

٤٧. العباس ولبابة وأبناؤهما

العباس بن عبد المطلب، وأمه نتيلة أو نطيلة بنت جناب، عم النبي وصاحب السقاية في أخبار الأسرة. يرد في قصص عاتكة وبدر وفتح مكة وحنين، وتتفاوت الروايات في وقت إعلان إسلامه وكتمانه. وزوجته أم الفضل هي لبابة بنت الحارث الهلالية، أخت ميمونة بنت الحارث زوجة النبي. وقع في النقل المطبوع من إعلام الورى بحار الأنوار تركيب «لبابة بنت الفضل بن الحارث»، لكن

سجل اليعقوبي والنسب يثبت لبابة بنت الحارث، فلا يحول اسم الكنية إلى أب جديد. كما تحفظ قراءة «هند» في بعض أخبار الأخوات بوصفها اختلاف تعيين، دون إسقاط الاسم الأشهر أو اختراع زوجة جديدة من التصحيف. [٢٨, ٣٠, ٤٥]

يسمي نقل إعلام الورى أبناء العباس: عبد الله، وعبيد الله، والفضل، وقثم، ومعبدا، وعبد الرحمن، ومعهم أم حبيب من أم الفضل؛ ثم تماما، وكثيرا، والحارث، وآمنة، وصفية من أمهات أولاد شتى. فالبنات ثلاث في هذه القائمة، ولا ينبغي اختزال البيت في عبد الله بن عباس وحده. وفي كتاب نسب قريش تفاصيل وزيادات في الفروع، فتحفظ نسبة كل قائمة إلى موضعها دون ادعاء اتحاد الأعداد في جميع المصنفات. وعبد الله وعبيد الله اسمان لرجلين، وقثم ابن العباس غير قثم المذكور في بعض قوائم أبناء عبد المطلب. أما أسماء الأمهات اللاتي لم يسمهن النص فلا تستكمل بالتخمين. [٣٠, ٤٥]

٤٨. الحارث والزبير وبنات العمومة

الحارث أكبر أبناء عبد المطلب في السجل المشهور، وصاحب أبيه في خبر حفر زمزم. يعدد إعلام الورى له أبا سفيان والمغيرة ونوفلا وربيعة وعبد شمس، ويذكر تغيير اسم عبد شمس إلى عبد الله. لكن نسب قريش يجعل المغيرة اسم أبي سفيان نفسه، ويضيف عبد المطلب وأمية وأروى، ويسمي أمهم عدية بنت قيس. يحفظ الاختلاف ولا يجمع المغيرة وأبا سفيان يقينا شخصين. وأروى بنت الحارث امرأة أخرى غير عمته أروى بنت عبد المطلب. ويرتبط ربيعة بأم الحكم بنت الزبير، فيلتقي فرعا العمين في زواج واحد. [٢٧, ٣٠, ٤٥]

ومن بنات الزبير ضباعة، التي يروي الكافي زواجها بالمقداد ويصل الخبر بميزان التقوى؛ وفي طريقه راو مبهم، فلا ينسب إليه التصحيح بلا فحص. وتسمي الطبقات أمها عاتكة بنت أبي وهب، وتذكر ابنيها عبد الله وكريمة، ثم تفرد أم الحكم وصفية وأم الزبير بتراجم. وتذكر كتب الرجال أن أم الحكم أو أم حكيم قد يكون اسمها صفية أو عاتكة، بل تنقل قولا يوحدها مع ضباعة وقولا يفرق بينهما. إذن تحفظ جميع الألفاظ في سجل الاختلاف، ولا يعلن عدد نهائي من مجرد تعدد عناوين التراجم. وأم حكيم بنت الزبير غير عمته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب. [٣٠, ٤٥, ٤٧, ٤٨]

٤٩. أبو لهب وأم جميل ودرة

أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي الذي ذكره القرآن بكنيته في سورة المسد، وذكرت زوجته بوصف حمل الحطب من غير تسمية شخصية. تعينها كتب التفسير والسيرة بأم جميل بنت حرب، واسمها أروى في كتب الأنساب، وهي أخت أبي سفيان بن حرب. لا ينقل هذا الذم إلى أبي طالب لمجرد اشتراكهما في العمومة، ولا ينفي توحيد الآباء المباشرين في الاعتقاد الإمامي؛ فالعم فرع جانبي لا أب في عمود النسب. ويجمع نور الثقلين أخبار تكذيبه وخبر مجيء أم جميل بالحجر، وفي بعضها أبو بكر

شاهد في المشهد وأسماء بنت أبي بكر راوية؛ هذه تعيينات روائية، لا أسماء نطقت بها السورة. [١٠, ١٢, ٣٠, ٣٨, ٤٥]

ومن أبنائه عتبة وعتيبة ومعتب؛ لا يخلط عتبة بعتيبة، وتذكر كتب النسب اختلاف مسارهم وإسلام عتبة ومعتب. وتجب إضافة درة بنت أبي لهب، التي أفردت لها كتب الحديث والتراجم أخبارا عن أذى لحقها بسبب أبويها وإنكار النبي ذلك. في طرقها ما هو مرسل، ويصف الهيثمي رجال بعض طرقها بالتوثيق؛ فلا يطلق عليها حكم واحد. ويحفظ معها خبر إسلامها وقرابتها في حد النقل، من غير جعل ذم أبيها حكما عليها. هذه الأسرة أوضح مثال في الفصل على ضرورة حفظ الرجال والنساء أفرادا: القرآن يحكم على موقف أبي لهب وزوجته، ولا يجيز تحميل الأبناء ذنب النسب. [٣, ١٠, ٣٠, ٤٤, ٤٥]

٥٠. ثويبة وحليمة وأم أيمن

تكتمل صورة البيت بمن لم يدخلن في عمود النسب. ثويبة مولاة أبي لهب ترد في أخبار إرضاع النبي وحمزة وأبي سلمة، ويضيف اليعقوبي جعفرا في صيغته؛ فيحفظ اختلاف القائمة ولا يعالج بدمج الأعمار والقرابات. وحليمة بنت أبي ذؤيب السعدية مرضعته في بني سعد، وزوجها الحارث بن عبد العزى، وأختها سلمى خالته من الرضاعة في نقل إعلام الورى، وتذكر أخبار الأسرة عبد الله وأنيسة والشيماء في صلات الرضاعة والحضانة. وفي بيان المجلسي تسمية أنيسة بالشيماء، بينما تفرق صيغ أخرى بينهما وتجعل الشيماء لقبا لحذافة؛ فلا يثبت العدد بإحصاء الأسماء والألقاب معا. التفصيل الزمني للرضاعة والعودة من البادية من مادة الفصل السابع والأربعين. [٢٨, ٣٠]

وأم أيمن بركة حاضنة النبي، وموضعها في أخبار آمنة واليتم يجعلها من أساس هذا الفصل، لا اسما هامشيا بعد الرجال. وتصلها السيرة لاحقا بزيد بن حارثة وبابنها أسامة، مع بقاء تمييز أمومتها لأسامة عن رعايتها للنبي. وتتفاوت الأخبار في طريق اتصالها الأول بالبيت وفي بعض تواريخ حياتها، فلا يحسمها هذا السجل بلا دليل. كما تبقى المرضعة أو المرأة الزائرة التي لم يسمها خبر بعينه مجهولة الاسم في ذلك الخبر. لا يصح ملء كل فراغ بحليمة، ولا عد كل امرأة تسمى «أما» للنبي أما في النسب؛ فقد تدل الأمومة على الولادة أو الرضاع أو الرحمة والرعاية بحسب السياق. [١٩, ٢٨, ٣٠, ٤٤]

٥١. خديجة والانتقال إلى بيت النبي

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي تصل بين بيت الرعاية الذي نشأ فيه النبي والبيت الذي أسسه بالزواج. وأمها فاطمة بنت زائدة، وتدخل في أنساب أسرتها هالة بنت عبد مناف وقلابة المعروفة بالعرقة بحسب نقل النسابين. ويظهر إخوتها وصلاتها القرشية في تفسير القرابات: العوام أبو الزبير أخوها، وهالة بنت خويلد أختها في كتب النسب، وليست هالة بنت أهيب أم حمزة وصفية.

ويذكر القرآن عناية الله بنبيه وإغناءه في سورة الضحى، أما تعيين دور خديجة في تفاصيل هذا الإغناء فمادة تفسير وسيرة، وليس اسمها مكتوبا في الآية. [٧, ٢٢, ٣٩, ٤٥]

وتسرد مقدمة باب المولد في الكافي أولاده من خديجة: القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم، ثم الطيب والطاهر وفاطمة، مع اختلاف في توقيت الولادات بالنسبة إلى البعثة. وتذكر كتب النسب عبد الله، وتختلف في اعتبار الطيب والطاهر اسمين أو وصفين؛ فلا يثبت عدد البنين بمجرد الجمع بين القوائم. وإبراهيم من مارية القبطية في المرحلة المدنية، لا من خديجة. كذلك لا يصح ادعاء أن جميع المصادر الإمامية تسمي زينب ورقية وأم كلثوم ربائب لا بنات؛ فصيغة الكافي المقروءة تسميهن بناته، وإن وجد خلاف في تحقيق النسب عند بعض الباحثين. يثبت النص كما هو، وتفصل الدراسة في فصل الأسرة المختص، دون جعل الخلاف سببا لحذف النساء. [١٨, ٣٠, ٤٥]

٥٢. أهل البيت في آيتي التطهير والمباهلة

لا يستعمل عنوان بيت النبوة هنا لإلغاء الدلالة الخاصة لأهل البيت في الروايات الإمامية. يجمع نور الثقلين عند آية التطهير من الأحزاب أخبار النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ومنها خبر الكساء في بيت أم سلمة وسؤالها عن الدخول معهم. فهذه الشخصيات الخمس محور التعيين الروائي للآية، وأم سلمة صاحبة البيت وراوية الخبر لها موضعها الذي لا يسقط. ولا يجعل ذكر الزوجات في سياق السورة كل قريب من بني هاشم داخلا تلقائيا في هذا التعيين الخاص، ولا يخرج ذكر النساء في الفصل من أهميته لمجرد اختلاف نوع الصلة. [١١, ٤٠]

وفي آية المباهلة من آل عمران تسمي الروايات عليا وفاطمة والحسن والحسين مع النبي، وتستدل بألفاظ الأبناء والنساء والأنفس على منزلتهم. لا يذكر القرآن أسماءهم في ألفاظ الآية نفسها، بل يأتي التعيين من الرواية والتفسير. وتحفظ فاطمة هنا بوصفها ابنة النبي وامرأة المباهلة في التفسير الإمامي، والحسن والحسين بوصفهما ابنيه من جهة ابنته، فلا يمحو سجل النسب الأبوي هذا الامتداد النسائي. أما تسلسل الأئمة من ذرية الحسين وتراجم أمهاتهم وزوجاتهم فهو امتداد لاحق لبيت النبوة يعالج في فصوله، ولا يحول هذا الفصل التمهيدي إلى موسوعة لجميع القرابة عبر القرون. [١, ١١, ٤٠, ٤١]

٥٣. استدراك الأسماء في الفروع النسائية القريبة

تضيف المقابلة بكتاب نسب قريش أسماء قريبة لا يغني عنها ذكر الأم أو الأخ الأشهر. ففي أولاد صفية بنت عبد المطلب السائب وأم حبيب إلى جانب الزبير، وأم حبيب أم أم حسن بنت خالد بن حزام. وفي أولاد عاتكة من أبي أمية: عبد الله وزهير وقريبة. وفي أولاد البيضاء من كريز: عامر وأم طلحة، واسمها أرنب، إلى جانب أروى. ولأروى بنت عبد المطلب بنت اسمها فاطمة من كلدة بن هاشم في ذلك النقل. وفي بنات أميمة حبيبة بنت جحش، إلى جانب زينب وحمنة، فلا تستبدل حبيبة

بأم حبيبة بنت أبي سفيان لمجرد تقارب الاسم. هذه زيادات نسبية يصرح بمصدرها، وليست أخبارا جديدة ينسبها الفصل إلى أحد الأئمة. [٤٥]

ويصل السجل أم آمنة برة بنت عبد العزى بأم حبيب بنت أسد، ثم برة بنت عدي، وأميمة بنت مالك، وقلابة بنت الحارث، ودبة بنت الحارث، ولبنى بنت الحارث في تعاقب الأمهات الذي يورده المصعب. وفي أسرة هالة أم حمزة وصفية تظهر العبلة بنت المطلب، وخديجة بنت سعيد، وأم الخير بنت سعيد، وعاتكة بنت عبد العزى، وريطة بنت كعب، ونائلة بنت حذاقة. وفي أم لبنى أم أبي لهب يذكر هند بنت عمرو والسوداء بنت زهرة. لا تضاف هذه النساء إلى عمود آباء النبي، بل إلى فروع الأمهات القريبة، مع ملاحظة أن بين هذا السجل وسجل اليعقوبي اختلافات في بعض الأسماء والوصلات. [٢٩, ٤٥]

وفي أسرة أسد بن هاشم يسمي المصدر حنينا، وخلدة التي أمها مارية الرومية، وفاطمة بنت أسد التي يسمي أمها فاطمة بنت هرم بن رواحة. ومارية هنا ليست مارية القبطية أم إبراهيم. وتظهر رقيقة في فرع أبي صيفي أيضا، فتحتاج رقيقة المنسوبة مباشرة إلى هاشم في بعض المختصرات إلى تمييز من رقيقة بنت أبي صيفي؛ لا يكفي الاسم وحده للجمع. ومن ولد جعفر وأسماء تذكر الأخبار عبد الله وعونا ومحمدا، ومن بيت ضباعة والمقداد عبد الله وكريمة. هذه القرابات المباشرة تحفظ النساء والرجال معا، ولا تعني استيعاب كل أعقابهم في الأجيال التالية. [٤٤, ٤٥, ٤٧]

ويستدرك اسم فاطمة بنت حمزة، وكنيتها أم الفضل، مع قول يجعل اسم بنت حمزة أمامة أو عمارة في أسد الغابة، وذكر أم أبيها في نقل الإصابة. تحفظ هذه الصيغ بجانب مبحث حمزة ولا تعد يقينا أربع بنات مختلفات. وفي خبر علي عن توزيع الخمر بين الفواطم تسمى فاطمة بنت النبي، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة، وتبقى الرابعة غير مسماة في المتن المنقول. وتعيين ابن حجر المحتمل لها بامرأة عقيل اجتهاد في الشرح، لا اسم صريح في أصل الخبر. كما أن ورود اسم فاطمة في هذا الحديث لا يجعلها واحدة من الفواطم الجدات التي سبق سجلها. [٤٩]

٥٤. الخبر الطويل المنسوب إلى البكري وميزان القراءة

يحفظ بحار الأنوار في أبواب المولد خبرا طويلا منسوبا إلى أبي الحسن البكري، يجمع انتقال النور وأخبار الأجداد وزواج عبد الله وولادة النبي في سرد واسع. وقد نبه المجلسي نفسه إلى غرابته وإرساله، وذكر وجه إيراده لوجود بعض مضامينه في أخبار أخرى. لا تعني هذه العبارة توثيق كل حوار أو اسم أو عدد فيه. ومن أخطاء القراءة أن يقتطع خبر منه ثم يقال «روى المجلسي عن الإمام» مع أن المجلسي ناقل لكتاب قصصي لا يسند جميع فصوله إلى إمام بسند متصل. لذلك تميز الإحالات هنا هذا النقل عن أخبار الخصال والعيون والكافي المسماة في المباحث السابقة. [٢٥]

وتتكرر بعض الشخصيات نفسها في الخبر الطويل وفي التاريخ، مثل عبد المطلب وعبد الله وآمنة وسلمى؛ فلا تصح نسبة كل ما في الخبر الغريب إلى الشخصية التاريخية اعتمادا على اتفاق الاسم.

كذلك تظل النساء المجهولات والرهبان والعرافون والخدم غير المسمين في بعض المشاهد أوصافا لأطراف الحكاية، ولا تمنح لهم أسماء مأخوذة من مشهد آخر. أما الأخبار التي يظهر فيها تضارب زمني أو نسب بعيد غير قابل للمقابلة، فتسجل باعتبارها مادة مروية ولا تستخدم لبناء تاريخ قاطع. صيانة هذا الحد تحفظ مكانة الشخصيات من جهة، وتمنع نسبة ما لم يثبت إلى أهل البيت من جهة أخرى. [٢١, ٢٢, ٢٥, ٣٢]

٥٥. البيت الذي استقبل الرسالة

ينتهي هذا الفصل إلى بيت ذي طبقات واضحة: جذور إبراهيم وإسماعيل وهاجر عند البيت الحرام، وسلسلة آباء إلى عدنان وما حفظ في أمهاتهم، وبيت هاشم وسلمى وعبد المطلب، ثم عبد الله وآمنة، ثم رجال ونساء تولوا الرعاية أو قامت بينهم القرابة والمصاهرة. حفظت أسماء العمات كما حفظت أسماء الأعمام، وألحقت الفروع القريبة والمرضعات والحاضنة، وأبقيت الأسماء المختلفة والمجهولة على حالها المنقولة. وتبين أن إيمان الآباء في الاعتقاد الإمامي، وإيمان أبي طالب في رواياته، والفضيلة الخاصة لأهل الكساء، مسائل متصلة بتاريخ البيت لكنها لا تختزل في قاعدة تقول إن كل قريب سواء. [١٢, ١٣, ١٨, ١٩, ٢٩, ٣٠, ٤٠]

ومن هذا الموضع يبدأ الفصل السابع والأربعون: مولد محمد ﷺ، وأخبار نشأته، وما ترويه المصادر عن تهيئته للرسالة. يحمل إليه هذا الفصل مفاتيح الأسماء والقرابات، فلا يحتاج القارئ إلى إعادة التعرف إلى كل امرأة ورجل عند كل حادثة. ويبقى ترتيب الأدلة ثابتا: القرآن فيما نص عليه، والرواية مع مصدرها ودرجة ما تحقق من طريقها، والتفسير مع نسبة القول، والتاريخ في حدوده. هذا هو تمام الفصل في نطاقه: نص متصل يحفظ حضور النساء والرجال، ويبين اختلاف الأخبار حيث وقع، ويترك لكل فصل لاحق أحداثه وتراجمه التفصيلية.

٥٦. المراجع ومواضع الاستشهاد

تحيل الأرقام إلى المواضع التالية، لا إلى تسعة وأربعين كتابا مستقلا؛ فقد أفردت مواضع متعددة من الكتاب الواحد لتيسير المراجعة. أرقام الصفحات بحسب الطبعة المعروضة في الرابط، وقد تختلف عن طبعات أخرى. والمصادر التاريخية غير الإمامية في آخر القائمة للمقابلة النسبية المصرح بها، وليست بديلا من القرآن وروايات أهل البيت في تقرير الاعتقاد.

[١] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيات ١٢٤–١٢٩: عهد إبراهيم ورفع قواعد البيت والدعاء ببعثة الرسول.

[٢] القرآن الكريم، سورة إبراهيم، الآيات ٣٥–٤١: البلد الحرام والذرية والصلاة والتوحيد.

[٣] القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية ١٣: التقوى وميزان الكرامة.

[٤] القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآيات ٢١٤–٢١٩: إنذار العشيرة والتقلب في الساجدين.

[٥] القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية ٧٤: إبراهيم وآزر.

[٦] القرآن الكريم، سورة التوبة، الآيتان ١١٣-١١٤: الاستغفار وموقف إبراهيم.

[٧] القرآن الكريم، سورة الضحى، ولا سيما الآيات ٦-٨: اليتم والعناية والإغناء.

[٨] القرآن الكريم، سورة الفيل، الآيات ١-٥.

[٩] القرآن الكريم، سورة قريش، الآيات ١-٤.

[١٠] القرآن الكريم، سورة المسد، الآيات ١-٥: أبو لهب وزوجته.

[١١] القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية ٣٣: آية التطهير، مع مراعاة السياق المحيط.

[١٢] الشيخ الصدوق، الاعتقادات، باب الاعتقاد في آباء النبي ﷺ؛ موضع إسلام الآباء وأبي طالب وآمنة، ص ١١٠ وما بعدها بحسب ترقيم الطبعات، وص ١١٢ في العرض المرتبط.

[١٣] الشيخ المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، القول في آباء النبي ﷺ، ص ١٣٩: توحيد الآباء ودلالة التقلب في الساجدين.

[١٤] الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تفسير الشعراء ٢١٨-٢١٩؛ الوجه المتعلق بالصلاة والوجه المروي في النسب.

[١٥] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الشعراء ٢١٨-٢١٩؛ نقل التفسير عن الباقر والصادق عليهما السلام.

[١٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنعام ٧٤: اسم آزر وتعيين القرابة والموقف الإمامي.

[١٧] عبد علي الحويزي، نور الثقلين، تفسير الأنعام ٧٤؛ ومنه نقل روضة الكافي في خبر إبراهيم وآزر.

[١٨] محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب مولد النبي ﷺ ووفاته، الباب ١١١ في الفهرس الإلكتروني؛ المقدمة والأحاديث ١٨ و٢١-٣٣. أحكام السند المنسوبة إلى المجلسي من مرآة العقول، ج ٥، كما أثبتها العرض مع كل حديث.

[١٩] الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب مولد أمير المؤمنين عليه السلام، الباب ١١٣ إلكترونيا؛ المقدمة والأحاديث ١-٣، مع أحكام مرآة العقول، ج ٥، ص ٢٧٧-٢٨٢ في العرض.

[٢٠] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ١٦٦ وما حولها، في خبر سلمان وآبي أو بردة والتنبيه على قراءة الاسم؛ وتراجع الأبواب المتصلة بحفظ الوصايا والبشارات.

[٢١] محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١٠٤-١٠٨، الخبران ٤٩-٥٠ وما اتصل بهما؛ نقل نسب النبي عن المناقب وغيره، مع اختلاف النسخ وتسلسل ما فوق عدنان.

[٢٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، الأخبار ٥١-٦٧، ص ١٠٨-١٢٧؛ أخبار الآباء والوالدين، والزواج والوفاة، والسنن الخمس المنقولة عن الخصال. الإحالة إلى الأصول المذكورة هنا بواسطة نقل البحار.

[٢٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، الخبر ٦٨، ص ١٢٧-١٢٨، نقلا عن الخصال: ولد عبد المطلب وتعقيب الصدوق على الأسماء والعدد.

[٢٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، الخبر ٦٩، ص ١٢٨-١٣٠، نقلا عن عيون أخبار الرضا: خبر ابن الذبيحين وفداء عبد الله وذكر عاتكة.

[٢٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، الخبر ٤٨، ص ٢٦-١٠٤: كتاب الأنوار المنسوب إلى البكري، مع نقد النسبة في الحاشية وتنبيه المجلسي إلى الغرابة والإرسال. لا يعتمد هنا مصدرا مصححا لكل تفاصيله.

[٢٦] أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٢٢-٢٤٥ تقريبا، أبواب ولد إسماعيل وأنساب عدنان وقريش إلى هاشم والمطلب؛ بحسب ترقيم النص المعروض.

[٢٧] اليعقوبي، التاريخ، ج ١، ص ٢٤٥-٢٥٣: عبد المطلب وزمزم والزوجات والأولاد والفداء وخبر الفيل.

[٢٨] اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ٩-١٤: المولد والرضاعة والوالدان والكفالة؛ ويراجع ص ٤٨ في لبابة أم الفضل.

[٢٩] اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ١١٨-١٢٢: نسب النبي وأمهات آبائه والعواتك والفواطم. يختلف ترقيم هذه الصفحات عن بعض الطبعات القديمة.

[٣٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٢، باب أحوال عشائره وأقربائه وخدمه، ولا سيما ص ٢٤٧-٢٦٦، عن المناقب وإعلام الورى والكافي، مع مباحث الأسرة ص ١٧٦-٢٠٥ وأخبار الأخوات ص ٢٨٨ وما حولها.

[٣١] المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٥، باب نسب أمير المؤمنين وأحوال والديه، ص ٦٨ وما بعدها؛ ومنه أخبار أمالي الصدوق والاحتجاج والكافي في أبي طالب وفاطمة بنت أسد.

[٣٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الفيل؛ أسماء القصة وخلفياتها والخبر المنقول عن العياشي.

[٣٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة قريش؛ معنى الإيلاف وأقوال اسم قريش.

[٣٤] الحويزي، نور الثقلين، تفسير سورة الفيل؛ الروايات المفسرة مع إبقاء طرقها مستقلة.

[٣٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنعام ٢٦؛ سياق النهي والنأي ومناقشة تعيين أبي طالب.

[٣٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير القصص ٥٦؛ معنى الهداية ومناقشة سبب النزول المنسوب إلى أبي طالب.

[٣٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير التوبة ١١٣-١١٤؛ الاستغفار وإيمان أبي طالب وموقف إبراهيم.

[٣٨] الحويزي، نور الثقلين، تفسير سورة المسد، الأخبار ١-٧ في عرض أول السورة؛ أبو لهب وأم جميل وخبر قرب الإسناد.

[٣٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، أبواب أحوال النبي وخديجة؛ ولا سيما حواشي النسب ص ١٠٥-١٠٧، وفيها نقل المحبر في الأمهات والعواتك والفواطم.

[٤٠] الحويزي، نور الثقلين، تفسير الأحزاب ٣٣؛ روايات الكساء وأهل البيت ومجلس الرضا في العترة، مع تمييز أم سلمة ودورها في الرواية.

[٤١] الحويزي، نور الثقلين، تفسير آل عمران ٦١، ولا سيما الأخبار ١٥٧-١٦٠؛ المباهلة وتعيين علي وفاطمة والحسن والحسين.

[٤٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٤٤-٢٤٦ وما حول ص ٣٣٠؛ رؤيا عاتكة قبل بدر، عن التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم ومن طرق السيرة الأخرى.

[٤٣] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، دار صادر، ص ٤٨-٤٩: أم طالب وريطة وجمانة وأمامة بنت حمزة، شاهد نسبي مقارن من خارج المدونة الإمامية.

[٤٤] علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب المناقب، أخبار صفية وعاتكة وأم هانئ ودرة وأم أيمن وأسماء، ومنها الأرقام ١٥٣٩٤-١٥٤١٨ في العرض الإلكتروني. استعمل للمقارنة مع التصريح بالإرسال حيث ورد.

[٤٥] المصعب بن عبد الله الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، أبواب ولد هاشم وعبد المطلب وعبد الله والعباس وأبي طالب والحارث وأبي لهب، وما اتصل بها من أنساب النساء. شاهد مقارنة تاريخي، لا مصدر إمامي في العقيدة.

[٤٦] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ص ٥، ترجمة حمزة، أسماء أولاده وأمهاتهم وحضانة أمامة. يقابل بترقيم ص ٨-٩ في طبعة أخرى كما يشير العرض.

[٤٧] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ص ٣٨، التراجم ٤١٠٨-٤١١١: ضباعة وأم الحكم وصفية وأم الزبير، تقرأ مع خلاف الأسماء في كتب الرجال.

[٤٨] جمال الدين المزي، تهذيب الكمال، ج ٣٥، ص ٣٤٨ وما حولها، الترجمة ٧٩٦٩: أم الحكم أو أم حكيم بنت الزبير، والأقوال في اسمها وصلتها بضباعة، للمقارنة الاسمية فقط.

[٤٩] ابن الأثير، أسد الغابة، وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ترجمة فاطمة بنت حمزة، النصان معروضان في رابط الترجمة، وفيهما كنيتها واختلاف اسمها وخبر الفواطم. لا ينقل تخمين الشارح إلى متن الرواية.

الفصل ٤٧ — محمد ﷺ — الميلاد والنشأة والاستعداد للرسالة

١ مدخل إلى السنوات الأولى

يتناول هذا الفصل حياة محمد بن عبد الله ﷺ من مولده في مكة إلى عتبة البعثة، حيث اجتمعت رعاية الله له، وخبرة اليتم، ووفاء الأسرة، والعمل، والزواج، والتعبد. وقد خصص الفصل السابق للأسرة والنسب، فلا يعاد هنا تاريخ الأجداد إلا بقدر ما يفسر الحضانة والكفالة. أما نزول الوحي وتفاصيل الدعوة المكية فلها الفصل التالي. وفي هذه الحدود تظهر آمنة وعبد المطلب وأبو طالب وفاطمة بنت أسد وثويبة وحليمة وأم أيمن وخديجة، ثم علي وزيد، بوصفهم أشخاصًا لهم أدوار متمايزة في حياته؛ فالأم غير المرضعة، والمرضعة غير الحاضنة، والكفيل غير الراوي المتأخر. ويحفظ هذا التمييز حضور النساء كما يحفظ دقة التاريخ، فلا تذوب أعمالهن في عبارة عامة عن رعاية العائلة. [١,٦,١٩]

لا يقدّم القرآن سجلًا يوميًا لطفولة النبي، ولا يسمي جميع من تولوا رعايته. ولهذا تتوزع أخبار هذه المرحلة بين روايات النشأة وكتب السيرة والأنساب، وتظهر مواضع الاختلاف عند بحث الميلاد والرضاع والكفالة.

٢ اليتم والإيواء في سورة الضحى

تقول سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾، ثم تذكر الهداية والإغناء، وتنتقل إلى الوصية باليتيم والسائل والتحدث بنعمة الله. وهذه الصلة بين النعمة والمسؤولية هي مدخل السيرة: لم تكن خسارة الأبوين نهاية الرعاية، ولم يتحول الإيواء إلى امتياز يبيح قهر الضعفاء. يشرح الطبرسي الإيواء بكفالة عبد المطلب ثم أبي طالب، فيقرأ رعاية الأقربين بوصفها سببًا من أسباب العناية الإلهية. والآية لا تسمي هذين الكفيلين، وإنما تأتي التسمية من التفسير والسيرة؛ كما أنها لا تضبط العمر الذي مات فيه الأب أو الأم. ومن ثم تثبت حقيقة اليتم قرآنيًا، وتبحث تواريخ الفقدان وأسماء القائمين بالرعاية في مصادرها الخاصة. [١,٢]

وينقل نور الثقلين تفسيرًا منسوبًا إلى الإمام الرضا عليه السلام يرى في اليتم تفرد النبي، وفي عدم معرفة قومه بفضله وجهًا من معنى الضلال المذكور في السورة، وفي علمه غنى للناس. وهذا بيان تأويلي للمنزلة، لا يلغي ظاهر اليتم التاريخي ولا يحول فقر الآخرين إلى مشهد طفولي وقع في يوم معلوم. كما يورد جوابًا منسوبًا إلى الإمام الصادق عليه السلام في حكمة اليتم، خلاصته ألا تكون لأحد من الخلق منة تستولي على مقام الرسالة. ولا يجوز فهم ذلك إلغاءً لحق الأم أو الكفيل في البر والشكر؛ فالقرآن نفسه يأمر بالإحسان. تتكامل هنا قراءة الحادثة وقراءة معناها، مع إبقاء النقل المختصر في التفسير على مرتبته، دون اختراع سند كامل له. [١,٣]

٣ مكة والبيت وذاكرة عام الفيل

ولد النبي ﷺ في مكة، في بيئة ارتبط معاشها ومكانتها بالبيت الحرام وبالرحلة والتجارة. وتجمع سورة قريش بين الإيلاف ورحلتي الشتاء والصيف وبين عبادة رب البيت الذي أطعمهم وآمنهم؛ فهي تمنح خلفية لفهم الأسواق والقوافل والكفالة، دون أن تعطي تفاصيل عقود خديجة أو طريق كل رحلة من رحلات محمد. أما سورة الفيل فتثبت خبر أصحاب الفيل ومآل اعتدائهم، ولا تنص على أن مولد النبي وقع في يوم الحادثة أو بعده بعدد معين من الأيام. ربط المولد بعام الفيل معروف في كتب السيرة، وأسماء أبرهة وعبد المطلب وتفاصيل المفاوضة تؤخذ من الروايات التاريخية، وقد سبق بحث أصل الحادثة في موضعها من الكتاب. [٤,٥,٨]

وكان الانتماء إلى بني هاشم يمنح الطفل موضعًا معروفًا في شبكة القرابة، لكنه لم يمنع خسارة الأب ثم الأم ثم الجد. وتبرز قيمة الأسرة حين تتحول المكانة إلى عمل يومي: إرضاع وإطعام وحماية ومرافقة في السفر. وليس من الدقة تصوير مكة كتلة بشرية واحدة؛ ففيها من رعى الطفل ومن شهد أمانته ومن خالفه بعد البعثة، وقد يجتمع الاعتراف بفضله الاجتماعي مع العناد اللاحق لدعوته. لهذا لا ننقل موقف الرجل يوم بدر، مثلًا، إلى كل لحظة من شبابه قبل الإسلام. ويعين الفصل بين الأزمنة على فهم الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وغيرهما حين يرد اسم أحدهم في خبر المولد أو بناء الكعبة، دون تبرئة أفعاله اللاحقة أو اختراع عداوة طفولية لم تثبت. [٥,١٩,٣٣]

٤ تاريخ المولد بين المشهور وتعدد الأخبار

المشهور في التقليد الإمامي مولد رسول الله ﷺ في السابع عشر من ربيع الأول، ويذكر الشيخ المفيد في مسار الشيعة هذا اليوم ويصل وصفه بطلوع الفجر من يوم الجمعة في عام الفيل. لكن مقدمة باب مولده في الكافي تذكر الثاني عشر من ربيع الأول ويوم الجمعة، وتورد الزوال وقولًا بطلوع الفجر. وهذه المقدمة بيان تاريخي للكليني، فلا تتحول كل جملة فيها إلى حديث مسند عن الإمام. ويجمع المجلسي الأقوال ويشير إلى مخالفة الكليني للمشهور، إلا أن تفسير سبب اختياره بتاريخ مذهبي أو بتقية يظل رأيًا للمصنف ما لم يقم عليه دليل مستقل. يعتمد هذا الفصل السابع عشر عند ذكر المناسبة الإمامية، ويثبت الثاني عشر بوصفه قولًا موجودًا في مصدر إمامي مبكر. [٦,٧,٨]

ويزيد التدقيق أهمية حين تقارن أخبار الحمل بتواريخ الولادة؛ فبعض النصوص تجمع مواسم وأشهرًا لا تنتج مدة حمل واحدة إذا حسبت على ظاهرها. وليس الحل تغيير شهر في النص بلا شاهد، أو اختراع تقويم يجعل جميع الأخبار متفقة. وكذلك لا نثبت يومًا ميلاديًا بعينه اعتمادًا على تحويل حديث لتاريخ قمري مختلف فيه. نكتفي هنا بالإطار المشهور، وهو مكة وعام الفيل، مع بيان مواضع الخلاف. ولا ينقص الاحتراز من حرمة المولد أو مكانة صاحبه؛ فالواقعة المركزية ثابتة في السيرة، أما اليوم والساعة وبعض تفاصيل الحمل فدرجات أخرى من المعرفة. ويصبح القارئ قادرًا على تمييز المناسبة المتوارثة من مسألة نقد المصادر، دون أن يطلب من إحداهما أن تقوم مقام الأخرى. [٦,٨,١٩]

٥ آمنة وعبد الله ومكان الولادة

آمنة بنت وهب هي أم النبي ﷺ، وعبد الله بن عبد المطلب أبوه. والقول المعروف في السيرة أن عبد الله توفي وآمنة حامل، لكن مقدمة الكافي تذكر أنه مات بالمدينة بعد الولادة بشهرين. ويورد اليعقوبي ما يوافق هذا العمر، كما تنقل المصادر أقوالًا أخرى. ولذلك تصح عبارة أنه فقد أباه في أول حياته، أما قول إنه لم يره قط فيحتاج إلى نسبته إلى القول بوفاة الأب قبل المولد. ولا يمكن من هذه الأخبار استخراج حديث دار بين الأب وطفله أو مشاعر وصفها شاهد لم يذكره المصدر. تبقى آمنة الشخصية البشرية المركزية في خبر الحمل والوضع، ويظل عبد الله حاضرًا بالنسب والفقدان، دون توسيع لحضوره في الأحداث على خلاف حدود الرواية. [٦,٨,١٩]

ويحدد الكافي موضع المولد في شعب أبي طالب، في الدار التي اشتهرت لاحقًا بدار محمد بن يوسف. ثم يذكر أن الخيزران جعلت موضع الولادة مسجدًا. ومحمد بن يوسف والخيزران من تاريخ الدار اللاحق، فلا يوضعان في مجلس الولادة، ولا تعد الخيزران قابلة أو مرضعة. كما أن اسم شعب أبي طالب في هذا الخبر تسمية مكان، ولا يعني أن الولادة حدثت أثناء حصار الشعب الذي جاء بعد البعثة بسنين. وتفيد هذه الفروق في منع خلط الحوادث المتباعدة بسبب اشتراكها في اسم واحد. أما مطابقة الموقع التاريخي لمبنى معاصر، أو القطع بحدود الغرفة القديمة اليوم، فبحث مستقل لا تثبته رواية الكافي وحدها، ولا يحتاج إليه سرد النشأة. [٦,٨]

٦ خبر الولادة في أمالي الصدوق

يروي الصدوق في المجلس الثامن والأربعين من أماليه خبرًا عن الإمام الصادق عليه السلام يجمع سهولة حمل آمنة وولادتها وظهور النور ورفع المولود رأسه إلى السماء، ثم فرح عبد المطلب به. وتظهر آمنة في الخبر بوصفها صاحبة التجربة والمنقولة عنها شهادة الولادة، لا مجرد اسم في سلسلة الآباء. ويصل الخبر بين قدوم الطفل وتحولات تتجاوز بيته: اضطراب الشياطين، وانكفاء الأصنام، وآيات في بلاد فارس. وهذه المادة من روايات المولد ذات المضمون الإعجازي؛ تنقل على أنها رواية عن الإمام في مصدر محدد، ولا تقدم على أنها نتائج سجل طبي أو وثيقة فارسية معاصرة. كما أن إرجاعها إلى الأمالي يمنع الاكتفاء بالإحالة العامة إلى البحار، الذي نقلها ضمن أخبار متعددة الأصول. [٩,١١]

ومن شخصيات الخبر إبليس وجبرئيل؛ يظهر الأول ساعيًا إلى معرفة سبب التغير، ويظهر جبرئيل مانعًا له من الوصول إلى النبي. وهما ليسا رجلين من أهل مكة يضافان إلى تعداد الأقارب، بل شخصيتان غيبيتان في متن الرواية. ويذكر الخبر رجلًا يسمى عمرو بن أمية في كلام عن النجوم؛ ولا يكفي الاسم المشترك للحكم بأنه الصحابي عمرو بن أمية الضمري. وترد في أخبار أخرى تسمية الوليد بن المغيرة في موقف قريب من هذا الوصف. لا نبدل الاسمين ولا نجعلهما شخصًا واحدًا. وتبقى دلالة الخبر في سياقه: المولد بداية هداية ونقض لسلطان الضلال، مع صيانة أسماء الشخصيات وصيغ النقل من المزج الذي يصنع رواية جديدة لم يروها أحد. [٩,١٠,١١]

٧ آيات فارس وأسماء أهل الخبر

تذكر رواية الأمالي ارتجاس إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة، وخمود نار فارس، وغور بحيرة ساوة، ورؤيا الموبذان. وترد قصة أوسع في كتب الأخبار تجعل كسرى يطلب تفسير ما وقع، ويظهر فيها النعمان بن المنذر وعبد المسيح بن بقيلة وسطيح الغساني. وظيفة هؤلاء في القصة تفسير العلامة أو نقل السؤال؛ فهم ليسوا شهودًا داخل بيت آمنة. كما أن الموبذان لقب ديني، وكسرى لقب ملكي، فلا يستخرج من اللفظ وحده اسم شخص لم تعينه الرواية. وعندما تنسب المصادر الحدث إلى أنوشروان، تذكر النسبة بوصفها من تحديد المؤرخ، دون أن تصبح كل تفاصيل الخبر وثيقة رسمية عن البلاط الساساني. [٩,١١,١٩]

ويكشف اختلاف العدد أهمية إبقاء المصادر منفصلة؛ فاليعقوبي يذكر ثلاث عشرة شرفة في سياق خبره، بينما تذكر رواية الأمالي أربع عشرة. ولا يحل الخلاف بإضافة شرفة خفية إلى النص أو الادعاء بأن أحد الرقمين خطأ مطبعي دون مقابلة نسخ. أما الأعمار الهائلة والأوصاف العجيبة التي ترد عن سطيح في بعض الروايات فهي جزء من أدب الأخبار، ولا نحتاج إلى اعتمادها حقيقة بيولوجية كي نثبت ورود شخصيته في التراث. ويختلف خبر سطيح كذلك عن حديث منسوب إلى الإمام، وإن جاور أحدهما الآخر في كتاب جامع. إن أثر هذه الأخبار في ذاكرة المولد واضح، لكن مقدار ثبوتها التاريخي مسألة أخرى، ولذلك تظل لغتها هنا لغة الرواية المحددة لا القطع بجميع الجزئيات. [٩,١١,١٩]

٨ يوسف وصاحب الكتاب ومجلس قريش

يحفظ كمال الدين خبرًا يسمي يوسف اليهودي في التعرف إلى مولود مكة، ويذكر حديثه مع قوم من قريش ونظره إلى علامة في جسد الطفل. وفي طريق الخبر رفع يقتضي الاحتراز في السند، كما يرد فيه تاريخ للولادة لا يطابق اليوم المشهور عند الإمامية. وتوجد رواية أخرى نقلها المجلسي عن أمالي الطوسي تذكر رجلًا من أهل الكتاب دون تسميته، وتورد في المجلس هشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابني ربيعة. ولأن الاسم محذوف في إحدى الروايتين، لا نجزم أن الرجل هو يوسف نفسه. ويبقى وصف العلامة وتسلسل الحوار جزءًا من كل متن على حدة، فلا يؤخذ الاسم من الأول والسند من الثاني والتاريخ من الثالث لتصنع شهادة واحدة أقوى من أصولها. [١٠,١١]

وتعرض هذه الروايات تفاوت مواقف أهل الكتاب: معرفة وبشارة وتحذير وحسد في بعض الأفراد. ولا تبيح نسبة الحسد أو إرادة القتل إلى كل يهودي أو نصراني في زمان النبي أو بعده. فبحيرا في أخبار الرحلة، مثلًا، يؤدي دور الناصح الحريص، وهو من البيئة الدينية نفسها بالمعنى العام لأهل الكتاب. وعند ذكر يوسف لا يخلط بالنبي يوسف عليه السلام؛ فاشتراك الاسم لا يساوي وحدة الشخصية. وكذلك لا تعد أسماء كعب الأحبار أو الليث بن سعد أو معاوية، حين تدخل في أسانيد

بعض أخبار المولد أو مجالس روايتها، من الحاضرين ليلة الولادة. بهذه الحدود يظل الحصر واسعًا، لكنه لا يتحول إلى جمع أسماء من غير مراعاة للزمن والوظيفة. [١٠,١١,٢٢]

٩ النساء في أخبار الوضع

تظهر فاطمة بنت أسد في رواية ينقلها ابن شهرآشوب عن الإمام الصادق عليه السلام، فتخبر أبا طالب بما رأته من نور عند ولادة النبي، فيبشرها بشأن ولد سيكون لها. وهذا هو موضعها في خبر المولد، قبل أن تتولى رعاية محمد في بيت أبي طالب، وقبل ولادة علي بسنين. وترد في أخبار أخرى نسوة غير مسميات يحيطن بآمنة؛ فلا تملأ الفراغ أسماؤهن بالتخمين. أما فاطمة بنت عبد الله، أم عثمان بن أبي العاص الثقفي، فتذكرها كتب تراجم غير إمامية، ومنها الإصابة، بوصفها شاهدة على النور ليلة الولادة. يثبت اسمها هنا مع تعريف مصدره، ولا تحول هذه الترجمة إلى رواية صادرة عن أهل البيت. [١١,١٢,١٨]

وتذكر كتب الدلائل وشروح السيرة الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف في خبر التوليد، وهي غير الشفاء بنت عبد الله العدوية المعروفة في تراجم الصحابيات. ولا يثبت تشابه الاسمين أن امرأة واحدة قامت بالدورين. ويقتصر هذا الفصل على إثبات ورود خبر أم عبد الرحمن في تلك الكتب دون إسناده إلى إمام. كما يلزم التمييز بين نساء ولادة محمد ونساء خبر ولادة فاطمة الزهراء: سارة وآسية ومريم وكلثوم أخت موسى ترد أسماؤهن في الرواية الأخيرة التي نقلها الصدوق ثم المجلسي، فلا ينقلن إلى غرفة آمنة لمجرد شيوع صورة النساء الأربع. إن حضور المرأة في القصة لا يصان بكثرة الأسماء، بل بوضع كل اسم في الحدث الذي جاء فيه فعلًا. [١٣,٤٦]

١٠ محمد وأحمد والاسم الذي حمله الطفل

يسمي القرآن النبي محمدًا، ويورد على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام البشارة برسول يأتي من بعده اسمه أحمد. فالاسمان ليسا شخصيتين مختلفتين، ولا يقتضي أحدهما إلغاء الآخر. وتروي أخبار المولد أن آمنة أمرت بتسمية وليدها محمدًا، كما تربط السيرة إعلان الاسم وفرحة الأسرة بعبد المطلب. ويمكن أن تختلف جهة التسمية في تفاصيل الروايات دون أن يختلف اسم صاحبها. وفي دراسة النشأة يفيد تثبيت الاسم في تمييز النبي عن رجال سموا محمدًا في أواخر الجاهلية، وقد أحصى بعض أصحاب السير عددًا منهم. فلا يقال إنه أول من حمل هذا الاسم على وجه لم يقع فيه خلاف، ولا تستخرج من معنى الحمد وحده قائمة تاريخية كاملة بألقابه في جميع الكتب السابقة. [٩,٢٤,٤٢]

أما كنية أبي القاسم فتتصل بابنه القاسم، ولذلك يناسب ظهورها مرحلة الأبوة، وإن استخدمها المصنفون عند الحديث عن حياته كلها. ووصفه بالأمين يتصل في أخبار مكة بثقة الناس، ويتضح أثره عند نزاع الحجر الأسود؛ فلا يلزم من ذلك أن نضع تاريخًا محددًا لأول مرة نودي فيها بهذا اللقب. وينبغي أيضًا إبقاء عبارة رسول الله في السرد على معناها التعريفي بصاحب السيرة، دون أن تفهم كل

مرة على أنها تعيين لتاريخ بدء الرسالة العامة. فقد يقول الراوي خرج رسول الله وهو طفل، يريد الشخص الذي صار معروفًا بالرسالة. بهذا لا يتحول اصطلاح الاحترام اللاحق إلى دليل زمني مستقل، وتبقى الأسماء والألقاب مفاتيح للتعريف لا أسبابًا للالتباس. [٦,٣٢,٣٣,٤٢]

١١ ثويبة وأول صلات الرضاعة

تذكر السيرة ثويبة مولاة أبي لهب في أوائل من أرضعن النبي ﷺ، وتربط بعض الأخبار رضاعته بلبن ابنها مسروح. وهي امرأة ذات دور محدد في حفظ الطفل، فلا يكفي ذكر أبي لهب ثم إسقاط اسمها من الحكاية. وينقل اليعقوبي أنها أرضعته بعد أمه، وتذكر مصادر أخرى المدة بصيغ مختلفة لا تسمح بجدول يومي يقيني. أما حمزة بن عبد المطلب وأبو سلمة بن عبد الأسد فيردان في أخبار الرضاع المتصل بها، وتثبت رواية فقهية في الكافي أصل أخوة الرضاعة بين النبي وحمزة من امرأة أرضعتهما، من غير أن تسميها في ذلك المتن. فالتسمية والتاريخ وتفصيل شبكة الرضاع تؤخذ من أخبار السيرة، وأصل العلاقة في الرواية الفقهية له دلالة مستقلة. [١٤,١٩]

ويشيع خبر أن أبا لهب أعتق ثويبة فرحًا بالمولد، ثم شوهد في المنام يخفف عنه بسبب ذلك. تختلف صيغ هذا الخبر في سبب العتق وزمانه وصاحب الرؤيا، فلا يجعل أصلًا حاكمًا على سورة المسد، ولا حديثًا صحيحًا عن الإمام لمجرد تداوله في كتب المولد. كما لا يلزم من حفظ ثويبة جميلًا للنبي تصحيح كل خبر ألحق بها. وتختلف الأخبار في إسلامها ووفاتها، ولذلك لا يجزم الفصل بما لا يحسمه النقل المعتمد. ويظل القدر الذي يعنينا أنها من النساء اللاتي دخلن في رعايته المبكرة، وأن اسمها وابنها وصلاتها بالرضاع ينبغي أن تحفظ مع هذا التمييز، دون جعل مواقف مولاها اللاحقة حكمًا عليها هي. [١٤,١٩]

١٢ حليمة والحارث في بني سعد

انتقل محمد ﷺ إلى رعاية حليمة السعدية، المعروفة بابنة أبي ذؤيب، وزوجها الحارث بن عبد العزى. وتختلف بعض كتب الأنساب في ضبط اسم أبي ذؤيب وتسلسل نسبه، فتكون الكنية والنسبة إلى بني سعد أضبط للتعريف من بناء يقين على سلسلة واحدة مختلف فيها. تروي حليمة في الأخبار المأثورة عنها خروج نساء يلتمسن الرضعاء في سنة شدة، وتأخرها عن الحصول على طفل، ثم أخذها اليتيم. وهذه الرواية تضع الحاجة المادية ضمن ظروف الرحلة، لكنها لا تختزل المرأة في حساب الأجر؛ إذ يمضي الخبر إلى تعلقها بالطفل وطلبها بقاءه عندها. والحارث حاضر بصفته شريكها في السفر وفي تدبير البيت، لا شخصية منفصلة عن قرار الرعاية وآثاره. [١٤,١٥,١٦]

ويصف خبر الرضاعة تبدل الحال بعد حمله: وفرة اللبن، وقوة الدابة، وتحسن حال الماشية. ينقل الراوندي وابن شهرآشوب صورًا من هذه البركة، كما ورد أصل القصة في روايات ابن إسحاق التي نقلها غير واحد. لا تساوي هذه الطرق جميعًا رواية واحدة مسندة إلى الإمام، ولا يكفي التشابه لتصحيح

كل زيادة عن كلام الدواب أو النمو الخارق. وأما ما يذكر من رضاعه من جانب وترك الآخر لأخيه، فيقدم بحسب نصه بوصفه من أخبار الإنصاف المبكر المنقولة في المناقب. وتظل الرضاعة في ذاتها عملًا بشريًا متكررًا: سهرًا وحملًا وإطعامًا ووقاية؛ وهو ما يجعل دور حليمة حاضرًا حتى عند من يتوقف في بعض الزيادات الإعجازية. [١٤,١٥,١٦]

١٣ الإخوة والأخوات من الرضاعة

تسمي روايات السيرة عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث والشيماء أبناء حليمة والحارث، وتذكر للشيماء أسماء أو صيغًا منها حذافة، مع اختلاف في الضبط بين الكتب. ويورد ابن إسحاق أنها كانت تحضن النبي مع أمها. لذلك لا يغني جمع الجميع تحت كلمة إخوته عن ذكر الأختين، كما لا يثبت أن أنيسة اسم رجل بسبب تصحيف أو اختصار في كتاب متأخر. والشيماء لقب اشتهرت به صاحبة الخبر، فلا تجعل حذافة والشيماء امرأتين مستقلتين بلا حجة. وتضيف بعض القوائم أبا سفيان بن الحارث إلى صلات الرضاع، وهو ابن عم النبي، ويجب تمييزه دائمًا من أبي سفيان بن حرب الذي يكثر ذكره في أحداث الدعوة. [١٥,٢٧,٥٣]

وفي المادة التي جمعها المجلسي اسم سلمى أخت حليمة بوصفها خالة من الرضاعة، وهي غير سلمى مولاة النبي التي تذكر في سياق أبي رافع وأسرته. كما ترد تسمية ضمرة لابن حليمة في سياق قصصي مطول، ولا يثبت بذلك أنه شخص آخر تضاف سيرته إلى عبد الله أو أنه الاسم الصحيح البديل له. الأنسب حفظ هذا الاسم مع نسبة موضعه، وترك التوحيد أو التعدد حيث لا يكفي الدليل. وتذكر بعض كتب التاريخ جعفر بن أبي طالب بين من أرضعتهم ثويبة، لكن ذلك يحتاج إلى نظر مستقل في التسلسل الزمني، ولا يحمل عليه جميع ما روي عن الرضاع. فشبكة القرابة باللبن واسعة، وقد يختلط فيها اسم المرضعة أو الابن أو اللقب؛ والتدقيق يحفظ كل علاقة بقدر ما يسندها النص. [١٦,١٩,٢٧]

١٤ العودة من البادية إلى الأم

تجعل روايات حليمة الفطام مرحلة أولى في عودة الطفل إلى مكة، ثم تذكر رغبتها في استبقائه ورضا آمنة في بعض الصيغ، خوفًا من وباء أو حرصًا على ما رأته المرضعة من البركة. وتختلف الأخبار في مدة المقام الثانية وفي عمر العودة النهائية؛ فبعضها يذكر نحو خمس سنين، وبعضها يربط العودة بحادثة وقعت بعد مدة أقصر من الفطام. ولا يملك السرد أن يجزم بأنه أمضى كل يوم من عمره الأول في مكان واحد، أو أن آمنة انقطعت عنه انقطاعًا كاملًا. بين المنزلين صلة وقرار وتسليم، وهي أعمال تظهر فيها الأم والمرضعة فاعلتين، لا متنافستين على محبته. وكل تحديد للعمر في هذه المرحلة يذكر مع المصدر الذي اختاره، دون إخفاء البدائل. [١٤,١٥,١٦]

وترد أخبار عن ضياعه وقتًا يسيرًا والبحث عنه أو عن معرفته في الطريق على يد أهل كتاب. تختلف تفاصيل هذه القصص وأسماء أصحابها، فلا تكرر كلها بوصفها حوادث مستقلة لمجرد تغير الراوي أو

المكان. وقد نبه تعليق في البحار إلى إشكال نسبة مشاهدة طفولته إلى ابن مسعود، لأن حساب الأعمار لا يساعد على ذلك. هذا التنبيه مثال مهم على أن جامع الأخبار نفسه أو محقق طبعتها قد يسجل خللًا في المتن. فإذا أثبتنا ورود القصة وجب أن نثبت معه موضع الإشكال، لا أن نسكت عنه ثم نطيل وصف المشهد. ويكفينا في مسار النشأة أن الطفل عاد إلى رعاية أمه وأهل مكة، مع إبقاء الأخبار المختلف فيها في دائرة النقل المعلن. [١٤,١٦]

١٥ أخبار شق الصدر ومعنى الشرح

يحفظ البحار صيغًا مختلفة لأخبار غسل الصدر أو البطن، بعضها من مناقب ابن شهرآشوب وبعضها مما نقله ابن أبي الحديد عن روايات السيرة والتاريخ. وتختلف في العمر، وفي عدد القادمين، وفي كيفية الغسل، وفي ذكر شيء أخرج من الجسد. ويرد في إحدى الصيغ أن حليمة وزوجها خافا على الطفل، وأن آمنة ردت تفسير حاله بتسلط الشيطان. ويظهر جبريل وميكائيل مسميين في بعض الأخبار، ويكتفى برجلين أو ثلاثة في غيرها. لذلك لا تنشأ رواية موحدة بتجميع العدد والاسم والعمر والتفصيل التشريحي من طرق مختلفة. كما أن نقل المجلسي خبرًا عن مصدر غير إمامي لا يغير منشأه ولا يجعله تلقائيًا قولًا لأحد الأئمة. [١٤,١٦]

أما قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فلا يتضمن بنفسه وصف عملية جسدية ولا اسم ملكين ولا عمرًا في بني سعد. ويعرض مجمع البيان الشرح بمعنى توسعة الصدر للعلم والنبوة وتحمل أعباء الرسالة، ضمن مناقشة وجوه التفسير. وهذا المعنى ينسجم مع قراءة العناية والتسديد، ولا يقتضي أن النبي كان حاملًا لشر أخلاقي أزيل بانتزاع جزء مادي. ولا يصح في المقابل نفي وجود جميع أخبار الغسل من المكتبة الإمامية؛ فهي موجودة في كتب جامعة، لكن وجودها غير تصحيحها. يحافظ الفصل على هذه الحدود: نص القرآن، ثم تفسيره، ثم أخبار مختلفة تحتاج إلى نقد السند والمتن، مع عدم نسبة عقيدة تفصيلية إلى جميع علماء الإمامية من غير استقراء. [١٦,٤٨]

١٦ آمنة والأبواء والفقد الثاني

ترتبط وفاة آمنة في السيرة بالأبواء، بين مكة والمدينة، وبالعودة من زيارة يثرب. ويذكر ياقوت في مادة الأبواء صلتها بزيارة قبر عبد الله ووجود أم أيمن في خبر الرحلة. أما عمر النبي عند وفاة أمه فليس على قول واحد: تذكر مقدمة الكافي أربع سنين، ويجعل اليعقوبي الوفاة بعد ست سنين وثلاثة أشهر، ويشيع في كتب السيرة اختصارها إلى ست. يعرض الفصل هذا الاختلاف دون توزيع وفاة واحدة على رحلتين متخيلتين. ولا يعتمد وصفًا دقيقًا لمرض آمنة أو مدته أو كلماتها الأخيرة إلا بنص مخصوص؛ فالمكان والعمر التقريبي لا يكفيان لملء المشهد بحوار أدبي ينسب إليها على أنه تاريخ. [٦,١٩,٤٩]

بموت الأم دخل اليتم مرحلة أشد، وإن بقيت حول الطفل أسرة وحاضنة. ويتيح ذكر أم أيمن فهم أن الانتقال إلى كفالة الجد لم يكن انتقالًا إداريًا مجردًا، بل صاحبه استمرار امرأة اعتنت به. أما

الأنساب إلى بني النجار وبني زهرة فتشرح شبكة القرابة ولا تستلزم وجود خال مباشر مسمى؛ فكلمة الأخوال تستعمل أحيانًا في القبيلة التي تتصل بها الأسرة من جهة النساء. وقد بينت مصادر الأنساب أن النبي لم يكن له أخ أو أخت من أبويه. لذلك تبقى أنيسة والشيماء أختين من الرضاعة، ولا تتحولان إلى ابنتين لآمنة، كما لا ينشأ أخ للنبي من مجرد ذكر رجل في أسرة أمه. تتضح سيرة الطفل حين تضبط صلات النساء والرجال بهذا القدر من العناية. [١٥,١٩,٢٧,٤٩]

١٧ أم أيمن وبركة الرعاية المستمرة

أم أيمن هي بركة، الحاضنة التي بقي اسمها مرتبطًا بالبيت النبوي على امتداد مراحل متباعدة. وتنقل كتب السيرة والمواد المجموعة في البحار أنها كانت من الموالي ثم أعتقها النبي. ويختلف التعبير في انتقالها إليه من جهة الأب أو الأم في الروايات العامة؛ ويذكر النص المنقول في البحار أنها كانت مما ورثه عن أمه. فلا يثبت من ذلك عقد تمليك مفصل أو تاريخ دقيق لعتقها. وفي خبر رعاية عبد المطلب يخاطبها باسم بركة ويؤكد العناية بابنه، فيظهر عملها داخل شبكة الكفالة. ومن الإنصاف ألا يستبدل اسمها بعبارة جارية مجهولة، وألا تستعار تفاصيل حياة خادمة أخرى لتوسيع قصتها. [٢٧,٥٠]

وتذكر الأخبار زوجها عبيدًا الخزرجي وابنها أيمن، ثم زواجها من زيد بن حارثة وولادة أسامة. وهذه الصلات تعرف بشخصيتها، لكنها لا تعني أن الأحداث جميعًا وقعت في طفولة النبي أو قبل بعثته. يذكر هذا الفصل الأسماء اللازمة لفهم الكنية والبيت، ويترك تحديد ما تأخر منها إلى موضعه الزمني. وأيمن وأسامة أخوان من جهة الأم في هذه الأخبار، ولا يخلط أي منهما بمسروح ابن ثويبة أو عبد الله ابن حليمة. وتستمر قيمة أم أيمن في أنها لم تكن اسمًا عابرًا عند موت آمنة، بل إن حضورها في الذاكرة النبوية شاهد على امتداد الوفاء لمن شارك في الرعاية. أما فضائلها وأخبارها في الهجرة والمدينة فخارج حدود هذه المرحلة. [٢٧]

١٨ عبد المطلب والطفل عند البيت

تولى عبد المطلب كفالة حفيده، وتلتقي أخبار متعددة على شدة تعلقه به وتقريبه منه. ويروي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام خبر جلوس النبي صغيرًا على فراش جده عند الكعبة، مع قول عبد المطلب لمن أراد إبعاده أن يتركوه لما يرجو له من شأن. وصف المجلسي سند هذا الخبر بالحسن كالصحيح، وهو حكم ينقل عنه لا إعلان بإجماع جميع المحدثين على درجته. ويورد اليعقوبي صورة قريبة تذكر أعمام الطفل حول فراش أبيهم. في هذا المشهد تتكشف الكفالة فعلًا معلنًا وسط العائلة: ليس الطفل مجرد وارث للاسم، بل حاضر في مجلس كبير القوم ومشمول بحمايته. [١٩,٢٠]

وتلحق هذه المرحلة أخبار الاستسقاء وحضور الطفل مع جده عند دعاء القوم، وأخبار سؤال أهل الكتاب عنه. وقد سبق في الفصل الخاص بالبشارات ذكر سيف بن ذي يزن، فيكفي هنا ربط خبره باهتمام عبد المطلب بحفظ حفيده، دون إعادة خطابه المطول. وترد في الكافي أيضًا قصة فقد الإبل

وخروج النبي لطلبها وقلق الجد، لكن المجلسي يضعف طريقها؛ فلا تساوى في الاحتجاج بخبر الفراش المذكور. يجمع هذه الأخبار معنى الرعاية والانتباه إلى مستقبل الطفل، مع تفاوت الثبوت. ولا يثبت من الحكايات أن عبد المطلب عرف كل واقعة ستجري لحفيده تفصيلًا، أو أنه ألغى أسباب الحفظ اعتمادًا على البشارة؛ فالمرويات نفسها تصوره حريصًا يسأل ويبحث ويوصي. [٦,١٩,٢٠,٥٠]

١٩ موت الجد وانتقال الكفالة

تجعل مقدمة الكافي وفاة عبد المطلب والنبي ابن نحو ثماني سنين، ويوافق هذا الإطار عدد من أخبار السيرة. ويتولى أبو طالب بعده كفالته، فتصل رعاية الجد برعاية العم الذي كان شقيق عبد الله في الأب والأم بحسب المشهور في الأنساب. ويذكر اليعقوبي وصايا لعبد المطلب تميز بين شؤون الرئاسة والبيت وبين حفظ الطفل؛ فيظهر الزبير في بعض تلك الشؤون، وأبو طالب في كفالة محمد. لا تقتضي هذه القسمة نزاعًا بين العمين، ولا يصح ملء نص الوصية بتفاصيل لا يحملها المصدر. المهم أن الرعاية لم تترك للمصادفة بعد الفقد الثالث، بل انتقلت إلى بيت معلوم داخل الأسرة. [٦,١٩]

كان لفقد الجد أثره في ترتيب حياة الطفل، لكن النصوص لا تقدم يوميات نفسية نستطيع أن ننقلها عنه. ومن حق السيرة الأدبية أن تتأمل معنى الحزن، بشرط أن تعلن التأمل ولا تجعله كلامًا مرويًا. أما هذا الفصل فيمضي بما يثبت من الانتقال وأعمال الرعاية. وتبقى عمات النبي وأعمامه في محيطه القرابي، وقد عولجت تراجمهم في الفصل السابق؛ فلا ينسب إلى صفية أو عاتكة أو أميمة أو برة أو أروى أو أم حكيم البيضاء موقف في الوفاة لمجرد ثبوت قرابتها. حضور المرأة في النسب لا يسقط، لكن إسناد فعل مخصوص إليها يحتاج إلى خبر مخصوص، كما يحتاج إليه إسناده إلى رجل. [٦,١٩,٢٧]

٢٠ بيت أبي طالب وفاطمة بنت أسد

في بيت أبي طالب استقرت مرحلة طويلة من النشأة. تصف الأخبار قرب العم من ابن أخيه وحرصه على صحبته في الطعام والسفر، وتصف فاطمة بنت أسد بإيثاره وحسن القيام عليه. وينقل الكافي في خبر وفاتها أن النبي ذكر تقديمها إياه على نفسها وولدها؛ وهذا استذكار متأخر لرعاية سابقة، فيستفاد منه وجه العناية دون نقل جنازتها وأحداث المدينة إلى سنوات الطفولة. وطريق هذا الخبر يشتمل على إرسال ورواة محل بحث، فلا يطلق عليه الصحيح لمجرد اشتماله على منقبة معروفة. وتؤيد صورة الرعاية العامة أخبار تاريخية أخرى، لكن التأييد العام لا يصحح تلقائيًا كل تفصيل في الرواية الطويلة. [١٤,١٨,١٩]

وكان البيت يضم أبناء أبي طالب، وفيهم طالب وعقيل وجعفر ثم علي، مع اختلاف أعمارهم ومراحل حضورهم في حياة النبي. ولا يجوز وضع علي في مشاهد طفولة محمد قبل أن يولد؛ فقد نبه المجلسي إلى إشكال زمني في خبر يربط بعض أفعال الصغار بحمل فاطمة بنت أسد بعلي، بينما كان عمر

النبي عند مولده نحو ثلاثين سنة في المشهور. كذلك لا تختلط فاطمة بنت أسد بفاطمة بنت عمرو أم عبد الله وأبي طالب، ولا بفاطمة الزهراء بنت النبي. هذه الأسماء المتشابهة تمثل نساء من أجيال مختلفة. وصون أدوارهن يبدأ بالتعريف الواضح: جدة من جهة الأب، وزوجة عم تولت الرعاية، وبنت ستولد في مرحلة أخرى. [٦,١٤,١٨,٢٩]

٢١ أبو طالب بين الكفالة والإيمان

لا تنحصر شخصية أبي طالب في توفير الطعام والسكن؛ ففي الروايات الإمامية يظهر حافظًا للنبي ومصدقًا بمقامه. ويروي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام تشبيه حاله بأصحاب الكهف في إسرار الإيمان، ويورد احتجاجًا بشعره على نفي الكفر عنه. وصف المجلسي خبر التشبيه بالحسن، وحكم بصحة الطريق في أصل خبر الاحتجاج بالشعر، مع تمييز الزيادة المرسلة في آخره. وهذه أحكام على أخبار بعينها، لا على كل ما جمع في ترجمته. وقد سبق بحث إيمانه في الفصل السابق، ولذلك يستبقى هنا ما يفسر طبيعة البيت الذي نشأ فيه النبي، ويؤجل تفصيل حمايته زمن الدعوة إلى المرحلة المكية. [٢١]

ومن الأخبار التي لا يصح إسقاطها في مراجعة شاملة، ولا اعتمادها بلا نقد، خبر إدرار اللبن لأبي طالب في الأيام الأولى من المولد حتى وجدت حليمة. يرويه الكافي في باب المولد، ويصفه المجلسي بالضعيف. لذلك يذكر بوصفه خبرًا موجودًا، ولا يبنى عليه ترتيب الرضاع الثابت، ولا ينكر وجوده لأن مضمونه مستغرب. يوضح هذا المثال الفرق بين احترام المصدر والتعامل مع كل مروياته بوصفها متساوية. كما يبين أن إيمان أبي طالب وكفالته لا يتوقفان على تصحيح هذا الخبر الخاص؛ فلأصل موقفه ورعايته شواهد أخرى. وتظل ثويبة وحليمة وآمنة صاحبات أدوارهن في الرضاعة والأمومة، دون إعادة تشكيل التسلسل كله لإثبات رواية واحدة ضعيفة. [٦,١٧,٢١]

٢٢ الرعي والعمل قبل التجارة

ترد في علل الشرائع رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تربط رعي الأنبياء الغنم بتعلم رعاية الناس. وهي تقدم معنى تربويًا للعمل: الانتباه إلى الضعيف، والصبر، وجمع المتفرق، وتحمل مسؤولية من لا يحسن الدفاع عن نفسه. لكن النص العام عن الأنبياء لا يسمي صاحب كل قطيع رعاه محمد، ولا يحدد عدد السنين أو الأجرة أو موضع كل مرعى. وما يروى في مصادر أخرى عن أجور أو أسماء أماكن لا يدخل في هذا الحديث من غير إحالة مستقلة. لذلك يذكر أصل الرعي في سياق الأخبار المأثورة، وتبقى التفاصيل المهنية على قدر ما تثبته مصادر السيرة، دون تحويل مرحلة الشباب إلى سجل وظائف حديث لا وجود له في النصوص. [٢٣]

ويساعد هذا المعنى على وصل حياة البادية بحياة مكة دون افتراض أن المهنة هي التي صنعت النبوة. فالرواية تنظر إلى العمل من جهة الحكمة في التربية، والرسالة في القرآن اصطفاء من الله. كما أن مشاركة النبي في العمل لا تبرر المبالغات التي تجعل كل تفاصيل السوق والرعي تعليمًا مباشرًا من

رجل بعينه. لقد عاش بين الناس، وعرف أحوالهم، وأقام علاقات أسرة وتجارة، ثم واجههم بما عرفوه من سيرته؛ وهذا ما ينسجم مع الاحتجاج القرآني بلبثه فيهم عمرًا قبل القرآن. ويظل الفرق قائمًا بين الخبرة الإنسانية التي تظهر في السيرة وبين مصدر الوحي الذي يعلنه القرآن، فلا تلغى الأولى ولا يستبدل بها الثاني. [٢٣,٣٥,٤٥]

٢٣ الرحلة مع أبي طالب إلى الشام

تنقل كتب السيرة خروج أبي طالب في تجارة إلى الشام وصحبته لمحمد وهو صغير، وتختلف في عمره بين نحو تسع سنين واثنتي عشرة. ويجعل اليعقوبي السفر في التاسعة، بينما تجمع كتب أخرى القولين. وتروي بعض الصيغ تعلق الطفل بعمّه حين تهيأ للسفر، وهو مشهد يعبر عن رابطة الرعاية بعد فقد الأقربين. لا يلزم من هذا الخبر أن تكون كل رحلة شامية مذكورة في الكتب هي الرحلة نفسها؛ فهناك أخبار عن تجارة خديجة في سن الشباب، ولها ظروف وأشخاص آخرون. كما لا يحدد ذكر الشام أن القافلة دخلت كل مدنها، أو أن النبي أقام في دير شهورًا يتلقى علومًا لم يذكرها المصدر. [١٩,٢٢,٥٠]

تظهر بصرى في روايات اللقاء بحيرا، وتظهر القافلة بوصفها جماعة من التجار وأصحاب الدواب. وقد يتوسع أحد النصوص في عددهم أو أحوال الماء والطعام والظل، بينما يوجز آخر اللقاء. يحتفظ الفصل بهذا الفرق؛ فاختصار مصدر لا يثبت نفي ما في الآخر، لكن الزيادة لا تصير يقينًا لمجرد أنها أوسع تصويرًا. ويتقدم أبو طالب في المشهد بوظيفتين: قريب يحمي طفلًا، وصاحب سفر يقدر الأخطار والعودة. وحين يذكر الخبر تحذيرًا من بعض الناس، لا نحوله إلى واقعة اعتداء مكتملة لم تقع في النص، ولا إلى حكم عام على جماعة دينية بأسرها. ففي متن الرحلة نفسه راهب يطعم وينصح ويحاول صيانة الغلام. [٢٢]

٢٤ بحيرا ونسطور وحدود التعرف إلى العلامة

بحيرا، ويكتب اسمه بحيرى في بعض المصادر، راهب يرتبط في الأخبار بالنظر إلى صفات الغلام وبالتحذير من تعريضه للخطر. وفي الرواية المطولة التي حفظها الصدوق ونقلها المجلسي يسأل عن شأنه، ويلاحظ ما يراه من العلامات، ويتحدث مع أبي طالب. وتتضمن الرواية رفض الغلام أن يقسم باللات والعزى، وهو معنى ينسجم مع الصورة الإمامية للطهارة من الوثنية. لكن هذه الرواية التاريخية لا تتحول بجميع ألفاظها إلى حديث صحيح عن الإمام، ولا يثبت بها أن الراهب منح محمدًا معرفة رسالته أو كتب له القرآن. وظيفة بحيرا في متنها التعرف إلى علامة والبشارة والتحذير، لا تأسيس الوحي أو منح النبوة. [٢٢,٣٥]

وتذكر الصيغة المطولة نفسها رجلًا يسمى نسطور ينظر إلى خاتم النبوة في الشام، بينما ترد في أخبار تجارة خديجة تسمية راهب بنحو نسطور أو نسطورا، وقد يسمى الراهب بحيرا في صيغة أخرى. لا يكفي

تقارب الوظيفة أو الاسم لإثبات أن اللقاءات كلها مع شخص واحد، ولا لبناء ثلاثة لقاءات مستقلة إذا كان بعض النصوص إعادة للقصة. كذلك لا يخلط نسطور المذكور هنا بشخصية كنسية قديمة تحمل الاسم نفسه دون قرينة. ويذكر شمعون الصفا في بعض أخبار الكتب والعلامات بوصفه صاحب علم سابق منقول، لا حاضرًا في القافلة. فالحصر الدقيق يسجل الراهب والشخصية المذكورة في كتابه ويفرق بين مستويي حضورهما. [٢٢,٢٤]

٢٥ حرب الفجار واختلاف المشاركة

تورد السيرة حروبًا عرفت بالفجار لوقوع انتهاك لحرمة الزمن أو المكان في سياقها، وتربط بعض أخبارها بشباب النبي. ويسوق اليعقوبي روايات متفاوتة تذكر البراض بن قيس، والنعمان بن المنذر، وعروة بن عتبة من بني كلاب، وحرب بن أمية، والزبير بن عبد المطلب، ضمن أسباب النزاع وأدوار القبائل. وقد تتشابه هذه الأسماء مع أسماء أخرى في الكتاب، فلا يخلط عروة المذكور هنا بعروة بن الزبير، ولا الزبير عم النبي بابن العوام. وتختلف الأعمار المنسوبة إلى محمد في أخبار الفجار، كما تختلف نسبة حمل النبل أو الحضور أو القتال إليه. ومن ثم لا يكفي عنوان الحرب وحده لتحديد موقفه في كل يوم من أيامها. [١٩]

ويذكر اليعقوبي موقفًا لأبي طالب يعترض على الخروج إلى القتال في الشهر الحرام، ثم يجمع روايات أخرى لا تسير في اتجاه واحد. وتصريحه بجمع الأخبار يمنع تحويلها إلى قصة متجانسة بلا خلاف. يمكن للقارئ أن يعرف أن هذه الحروب كانت من خلفية الجيل الذي نشأ فيه النبي، وأن خبر مشاركته تفصيل مختلف فيه، دون أن يثبت له فعلًا محرمًا أو ينفي جميع صور الحضور اعتمادًا على رغبة مسبقة. وتبقى أسماء الرجال المذكورين أطرافًا في أخبار النزاع، لا أصحاب مناقب بمجرد ظهورهم في السيرة. أما الأثر الأخلاقي الأوضح في المرحلة التالية فيبرز في حلف نصرة المظلوم، حيث تنتقل الذاكرة من تنازع العصبيات إلى التزام رد الحق لصاحبه. [١٩]

٢٦ حلف الفضول ونصرة صاحب الحق

يذكر اليعقوبي حلفًا عقد في دار عبد الله بن جدعان على رد المظالم، ويربطه بمرحلة كان النبي فيها شابًا. وتلتقي أخبار السيرة على قيمة الالتزام بنصرة من أخذ حقه، وإن اختلفت في اسم صاحب المظلمة وقبيلته واسم من ظلمه. يورد اليعقوبي خبر رجل من بني أسد، وخبر قيس بن شيبة السلمي مع أبي خلف الجمحي، فلا يدمج الاثنان في اسم مركب ولا يستبدل بهما اسم من رواية أخرى دون بيان. ويظهر الزبير بن عبد المطلب في سياق الحلف، ويظل عبد الله بن جدعان صاحب الدار التي اجتمعوا فيها. وهذه أسماء تفهم من وظيفة أصحابها في الواقعة، لا من أحكام لاحقة على مجمل حياتهم. [١٩]

وترد في كتب التاريخ أسماء حلف المطيبين وحلف الفضول في سياقات متجاورة، وقد ترتبط قصة وعاء الطيب بامرأة من بني عبد المطلب؛ فيذكر اليعقوبي عاتكة، ويورد قولًا بأم حكيم البيضاء. لا

يصح نقل هذه المرأة إلى حلف الفضول تلقائيًا أو الجزم بأن الحلفين واقعة واحدة. كما تختلف قوائم البطون الداخلة في الأحلاف، فتراعى ألفاظ كل مصدر. ومع هذا يبقى المعنى الذي يهم حياة النبي واضحًا في الرواية التاريخية: الانحياز إلى الحق لا يتوقف على أن يكون صاحبه من القبيلة نفسها. وتلتقي هذه الدلالة الأخلاقية مع ما سيقرره القرآن من العدل، لكن لا تنسب عبارة حديثية مفصلة عن الحلف إلى الإمام الصادق أو غيره بغير طريق معروف. [١٩]

٢٧ خديجة قبل الزواج

دخلت خديجة بنت خويلد حياة محمد ﷺ وهي صاحبة مال وتدبير وتجارة، ومن أسرة بني أسد القرشية. وتصفها الأخبار بقدرتها على اختيار من تتعامل معه، ثم اختيار من تتزوجه، فلا تقدم بوصفها مالًا انتقل إلى رجل فحسب. كان ما عرفته من أمانته سببًا محوريًا في الأخبار التي تشرح اتصالها به. ويظهر في محيطها أخوها أو أقاربها وأختها هالة وابن أخيها حكيم بن حزام بحسب كل واقعة، لكن كثرة القرابة لا تلغي أنها صاحبة القرار. وتحفظ رواية عقد الزواج في الكافي لها قولًا صريحًا في الرضا بنفسها، وإن كان سند تلك الرواية ضعيفًا عند المجلسي. فاستقلال الدور ظاهر في المادة، مع التزام التحفظ في الألفاظ التي لا يثبت طريقها. [٢٤,٢٥,٢٦,٢٧]

وتختلف الأخبار في عمرها عند الزواج، فيشيع الأربعون، ويذكر المفيد هذا العمر، وترد ثمان وعشرون في مادة نقلها أصحاب السيرة والمجلسي. كما وقع خلاف في زواجها السابق وأسماء من نسبت إليهم وأولادها منهم، وقد عولج أصل هذا الخلاف في فصل الأسرة. لا يبنى هنا ترجيح جازم على حساب عدد الولادات وحده، ولا يطرد قول من المصادر لمجرد مخالفته للصورة الشائعة. وفي نطاق هذا الفصل يكفي أن تبقى خديجة شخصية راشدة ذات مكانة، اختارت هذا الزواج وتحملت تبعاته. ولا ينقص مقامها أن يختلف المؤرخون في رقم عمرها، كما لا تزيده دعوى قطعية لا تملك دليلها. [٧,٢٤]

٢٨ التجارة وميسرة وخبر الراهب

تروي كتب السيرة أن خديجة عرضت على محمد أن يخرج في تجارتها إلى الشام، وأن ميسرة صحبه، ثم عاد يخبرها بما رأى من أمانته وما نسب إلى الرحلة من علامات. وميسرة في هذه الأخبار شخص يعمل في بيتها أو تجارتها، وليس راهبًا ولا قريبًا للنبي. وتختلف النصوص في وصف المعاملة وأجرها وفي مقدار الربح، بل يعترض اليعقوبي على بعض تصوير العمل بالأجرة في أصل الخبر. لذلك لا نعطي العقد اسمًا فقهيًا محددًا، كالمضاربة الصحيحة بشروط معينة، دون نص يضبطه. يكفي إثبات أن الصلة التجارية من عناصر رواية الزواج عند طائفة واسعة من أصحاب السيرة، مع نقل اعتراض المصدر الذي خالف بعض تفاصيلها. [١٩,٢٤]

ومن تفاصيل الرحلة أن راهبًا رأى محمدًا في ظل شجرة أو تعرف إلى علامة فيه، وأن ميسرة شاهد ما حمله على تعظيمه. يسمي بعض النقل الراهب نسطورا، ويسميه نقل آخر بحيرا، ويتركه بعضهم بلا اسم.

ولا نضيف إلى ميسرة خبرًا من رحلة أبي طالب ثم نحسبه شاهدًا مستقلًا عليه. كما أن الأعداد الكبيرة للربح أو العطاء أو الرفاق في القصص المطولة تحتاج إلى مصدرها الخاص، ولا تستخرج من مجرد خبر نجاح التجارة. والذي يهم مسار الحياة أن العمل جعل شخصية محمد وأمانته أقرب إلى معرفة خديجة، وأن الروايات تسند إليها التفكير والاختيار بعد هذه المعرفة؛ فلا تختصر العلاقة في معجزة شاهدها رجل ثم قرر عنها الزواج. [٢٢,٢٤]

٢٩ هالة ونفيسة وعمار في التمهيد للزواج

تختلف أخبار التمهيد للزواج في الوسيط الذي نقل الرغبة. يذكر اليعقوبي عمار بن ياسر مع النبي وهالة بنت خويلد أخت خديجة في سياق الاتصال بين البيتين. وتذكر ترجمة نفيسة في طبقات ابن سعد دورها في السعي بين خديجة ومحمد. وهي نفيسة بنت أمية، المعروفة أيضًا بابنة منية نسبة إلى أمها في هذا النقل؛ فلا تعد نفيسة بنت أمية ونفيسة بنت منية امرأتين لمجرد اختلاف طريقة النسبة. وهذه الرواية الأخيرة من مصدر تاريخي غير إمامي، فتذكر للمقارنة واستكمال الاسم، لا بوصفها خبرًا عن الإمام. كما لا تتحول هالة إلى نفيسة، إذ لكل منهما اسم وقرابة ودور في طريق مختلف. [١٩,٢٥]

ولا يلزم من تعدد الوسطاء أن تكون الروايات كلها متناقضة في أصل وقوع الزواج، لكن الجمع التفصيلي بينها يحتاج إلى قرينة. فلا نكتب جلسة حضرت فيها هالة ونفيسة وعمار وميسرة جميعًا ثم ننسبها إلى التاريخ إذا لم يروها المصدر. ويمكن أن يثبت دور امرأة في رواية دون أن ينفى دور غيرها مطلقًا، مع إبقاء الحدود بين الروايات واضحة. ويظهر من هذا الحصر أن النساء لم يكن خلفية صامتة في أخبار الزواج؛ فخديجة صاحبة الرغبة، وهالة قريبة متصلة بالبيت، ونفيسة وسيطة في طريق آخر. وتحديد هذه الوظائف أدق من إيراد أسمائهن في نهاية الفصل دون بيان ما الذي وصل كل واحدة منهن بالحدث. [١٩,٢٤,٢٥]

٣٠ مجلس العقد وخطبة أبي طالب

يورد الكافي في باب خطب النكاح رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تصف مجيء أبي طالب في أهل بيته ونفر من قريش، وثناءه على ابن أخيه، وإشارته إلى رغبة كل من محمد وخديجة في الآخر. ويضع النص في فم أبي طالب تقديم الخلق والمقام على المال الذي يزول، ويربط الأسرة بإبراهيم وإسماعيل والبيت الحرام. ثم تتكلم خديجة وتعلن رضاها، ويذكر الخبر تحملها المهر من مالها واعتراض رجل من قريش ورد أبي طالب عليه، ثم الوليمة. هذه عناصر الخبر كما وصل، لكن المجلسي حكم على سنده بالضعف؛ لذلك لا يقال إن كل لفظ من الخطبة ثابت قطعًا، ولا تستخرج منه وحده قاعدة فقهية عامة في المهر. [٢٦]

ويسمي هذا المتن ورقة بن نوفل ويصفه بعم خديجة، بينما المشهور في نسب ورقة أنه ابن عمها، وترد في أخبار أخرى تسمية عمرو بن أسد عمها في العقد. يثبت الاختلاف كما هو، فلا يصحح الاسم بصمت

ولا ينقل وصف العم إلى ورقة على أنه نسب لا نزاع فيه. ويذكر آخر الخبر عبد الله بن غنم بوصفه قائل شعر في الزواج، وهو غير عبد الله والد النبي. أما روايات إسكار خويلد أو غيره لإجراء العقد فتختلف أسانيدها وتواجه معارضة من أخبار وفاته قبل ذلك؛ فلا تدخل في السرد الثابت ولا تنسب إلى أهل البيت بلا دليل. هذا الموضع من أشد مواضع الحاجة إلى فصل أصل الزواج عن تفاصيل مجلس اختلفت فيها كتب الأخبار. [١٩,٢٤,٢٦]

٣١ بيت خديجة وامتداد الوفاء

صار الزواج بداية بيت استمر مع النبي طوال السنوات الباقية قبل البعثة، ثم في أشد أعوام الدعوة المكية. والمشهور أنه كان ابن خمس وعشرين سنة عنده، مع وجود أقوال أخرى نقلتها المصادر. لا يحتاج بيان هذا الاستقرار إلى اختراع يوميات البيت أو توزيع ثروة خديجة على أرقام لا تثبت. وما ترويه السيرة من اختيارها له وتقديمها شأنه يفسر استعدادها اللاحق للمساندة، لكنه لا يجعل كل أفعالها قبل البعثة مجرد تمهيد صامت لما سيقوم به زوجها. فلها عملها وقرارها وقرابتها، ثم إيمانها وموقفها. وفي هذه المرحلة يتعلم القارئ أن البيت النبوي تشكل بعلاقة متبادلة، لا بزواج يمحو شخصية المرأة وراء صاحب السيرة. [٧,١٩,٢٤,٢٦]

ويحفظ النقل الذي أورده المجلسي عن المنتقى خبر قدوم حليمة بعد الزواج تشكو شدة أصابت قومها، وتكليم النبي خديجة في أمرها، وإعطائها من الماشية ما يعينها. يذكر الخبر أربعين شاة وبعيرًا، فينقل العدد على عهدة هذا الطريق، ولا يجعل تقريرًا ماليًا يقينيًا. وتفيد القصة في بيان اتصال نساء المراحل المختلفة: المرضعة القديمة تدخل في اهتمام البيت الجديد، وخديجة تشارك في الوفاء لمن رعت زوجها. كما ترد أخبار إكرام امرأة أرضعته وبسط الرداء لها، لكن عدم تسمية المرأة في بعض المتون يمنع القطع باسمها من غير قرينة. فالوفاء معنى متكرر، وتعيين كل مشهد وتاريخه وشخصيته يبقى مسألة نصية مستقلة. [٥٠]

٣٢ الأبوة وأسماء الأولاد

تذكر مقدمة الكافي القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم في أولاد النبي من خديجة قبل البعثة، ثم الطيب والطاهر وفاطمة في ترتيب آخر، وتورد قولًا بأن الجميع ولدوا قبل البعثة إلا فاطمة. وتختلف كتب السيرة في عد الطيب والطاهر اسمين لولدين أو لقبين لعبد الله؛ فلا يجمع الباحث القوائم المختلفة ثم يعلن عددًا أكبر من غير نقد. كما أن مسألة نسبة البنات غير فاطمة وقع فيها نقاش عند بعض المتأخرين، لكن لا يجوز بسبب ذلك حذف النص الموجود في الكافي أو الزعم أن التراث الإمامي كله على قول واحد. يحفظ الفصل أسماء المذكورين، ويبين أن هذه المقدمة تاريخية، وأن تفصيل أنساب الأبناء والبنات وخلافها قد عولج في فصل الأسرة. [٦,٢٤]

أما فاطمة الزهراء عليها السلام، فتجعل مقدمة باب مولدها في الكافي ولادتها بعد المبعث بخمس سنين؛ ولذلك لا توضع مع أبيها في حراء قبل البعثة وفق هذا التسلسل. وكذلك إبراهيم ابن مارية ليس من أولاد مرحلة خديجة، فلا يدخل في بيتها طفلًا، وإن ذكر تعريفًا بأبناء النبي عامة. ويجب تمييز خديجة بنت خويلد من أختها هالة، وهند بن أبي هالة الذي يظهر في أخبار أسرتها من هند بنت عتبة وغيرها من النساء المشتركات في الاسم. ولا تستلزم ولادة كل طفل وصف مشهد احتفال أو مرض أو وفاة لم يصل بسند أو خبر محدد. إن الأبوة جزء أصيل من هذه السنوات، لكن دقة السيرة لا تقل عند الحديث عن البيت عنها عند الحديث عن الحروب والملوك. [٦,٢٤,٢٩]

٣٣ علي في رعاية النبي

ولد علي بن أبي طالب عليه السلام والنبي في نحو الثلاثين بحسب الإطار المشهور، فاجتمع في بيت أبي طالب وفاطمة بنت أسد جيلان من الرعاية: رعايتهما لمحمد، ثم عناية محمد بولدهما. ويروي أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة قربه الخاص من النبي منذ الصغر، وحمله له وتعليمه اليومي وحضوره معه في حراء. هذه شهادة من داخل العلاقة كما حفظها نهج البلاغة، وليست مجرد تخمين يستخرج من القرابة. لكنها ترد في الكتاب بلا سلسلة سند مفصلة لكل جملة، فيراعى نوع المصدر عند البحث الحديثي. وتوضح دلالتها أن التربية كانت بالملازمة والاقتداء، وأن معرفة علي بأحوال النبي لم تبدأ عند إعلان الدعوة للناس. [١٨,٣١]

وتحكي رواية تاريخية نقلها ابن طاووس عن الثعلبي، وحفظها البحار، أن قريشًا أصابتها شدة، فعرض النبي على العباس أن يخففا عن أبي طالب بعض عياله؛ فأخذ النبي عليًا وأخذ العباس جعفرًا، وطلب أبو طالب إبقاء عقيل عنده. وهي رواية تفسر انتقال الإقامة في إطار التعاون العائلي، ولا تعني تبرؤ الأب من ولده أو خروجه من أسرته. كما لا يجعل أصلها المنقول عن مجاهد حديثًا للإمام الصادق لمجرد ورودها في كتاب شيعي. وتختلف بعض الأخبار في توزيع الأبناء، فيبقى الوصف السابق منسوبًا إلى طريقه. ويظل المعنى الذي تجمع عليه صورة البيت أن عليًا تربى في قرب النبي، وصار من أهل داره قبل أن تتسع جماعة المؤمنين. [٣٠,٣١]

٣٤ زيد وحارثة وحكيم بن حزام

يدخل زيد بن حارثة في تاريخ البيت قبل البعثة، وتختلف الأخبار في طريق وصوله إليه. تذكر مادة السيرة المجموعة في البحار أن حكيم بن حزام اشتراه لخديجة ثم وهبته للنبي فأعتقه. ويروي تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام، بطريق يمر بجميل وابن أبي عمير، أن النبي اشتراه في سوق عكاظ في تجارة لخديجة بعد الزواج. لا يدمج الشراءان في عقدين متعاقبين لمجرد الرغبة في الجمع؛ بل تثبت الصيغتان ويترك الترجيح لما يزيد على النص المتاح. وحكيم ابن أخي خديجة في خبر الأولى، وزيد شخص له نسبه وحياته، لا لقب لغلام مجهول من خدم البيت. [٢٧,٥١]

ويذكر تفسير القمي أباه حارثة بن شراحبيل، وتشيع صيغة شراحيل في كتب الأنساب، وقدومه إلى أبي طالب وطلبه عودة ابنه، واختيار زيد البقاء مع النبي. لكن سياق هذا الخبر يذكر إسلام زيد بعد البعثة قبل قصة الأب، فلا يجزم الفصل بأن تفاصيل الزيارة وقعت كلها قبل الوحي. وتعرف الأخبار الموفقيات أمه سعدى بنت ثعلبة، وتصل سبيه بغارة وقعت أثناء زيارة قومها؛ وهذا مصدر تاريخي للمعلومة، لا جزء من سند القمي. أما تصحيح التبني في سورة الأحزاب ورد الأنساب إلى الآباء فهو تشريع لاحق، يذكر هنا لمنع الخلط بين المحبة والولادة البيولوجية. وزيد المذكور في القرآن هو زيد بن حارثة، لا ابنًا من صلب النبي. [٢٨,٥١,٥٢,٥٤]

٣٥ إعادة بناء الكعبة

كانت إعادة بناء الكعبة من أبرز الوقائع العامة التي اتصلت بحياة النبي قبل البعثة. تختلف الأخبار في تعليل الحاجة إلى البناء بين أثر السيل وتصدع الجدران ووقائع أخرى، ويذكر الكافي في خبر مرفوع سرقة شيء من ذخائرها وقصر جدارها. وتجمع الرواية على حرص قريش على إصلاح البيت، مع خوفها من الإقدام على هدمه. ويبرز في الخبر المسند عن الإمام الصادق عليه السلام شرط طيب المال وترك ما اكتسب بقطيعة رحم أو حرام؛ ثم يتم البناء إلى موضع الحجر. وهذا الخبر، الذي وصف المجلسي سنده بالصحيح، يمنح رواية الحدث أصلًا أوضح من الاكتفاء بذكره في كتب السيرة دون تمييز طرقه. [٣٢,٣٣]

وتضع أخبار كثيرة البناء في الخامسة والثلاثين من عمره، بينما يذكر اليعقوبي الخامسة والعشرين، وفي متن الكافي المرفوع عبارة تجعله قبل المبعث بثلاثين سنة، وهي لا تنسجم مع التوقيت المشهور. لذلك يعتمد السرد وقوع البناء قبل البعثة، ويعرض العمر المشهور مع التنبيه إلى الخلاف بدل حذف العبارة المشكلة أو تغييرها من غير شاهد. كما يروي الكافي عن داود بن سرحان عن الإمام الصادق مشاركة النبي في البناء وتحديد نصيبه من العمل، ويصف المجلسي هذا الخبر بالحسن. وتختلف صيغة أخرى في نصيب بني هاشم من جهات البيت؛ وقد لاحظ المجلسي صعوبة الجمع بين بعض الألفاظ، فلا نحولها إلى مخطط معماري جازم. [١٩,٣٢,٣٣,٣٤,٥٠]

٣٦ الحجر الأسود وحل النزاع

لما بلغ البناء موضع الحجر الأسود تنازعت القبائل شرف وضعه، حتى قارب الخلاف أن يتحول إلى شر. يروي الإمام الصادق عليه السلام في خبر الكافي أنهم احتكموا إلى أول من يدخل، فدخل محمد ﷺ، فأمر بثوب، ووضع الحجر فيه، وأخذت القبائل بجوانبه فرفعته، ثم تناوله فوضعه في موضعه. تحمل هذه الصورة حلًا عمليًا واضحًا: إشراك المتنازعين في حمل الحجر، مع تولي من رضوا به إتمام وضعه. ولا يحتاج بيان حكمته إلى حوار زائد يخترعه الكاتب لكل رئيس. كما لا يحمل الحديث الصحيح أسماء الرجال الأربعة؛ إذ ذكر القبائل إجمالًا، وتأتي الأسماء من متن آخر له طريق مختلف. [٣٢]

في المتن المرفوع للكافي ترد أسماء عتبة بن ربيعة، والأسود بن المطلب، وأبي حذيفة بن المغيرة، وقيس بن عدي، ممثلين أرباعًا من قريش. ويعطي اليعقوبي قائمة متقاربة مع اختلاف في بعض الأسماء، ويورد العاص بن وائل بديلًا في أحد المواضع. تثبت القائمة الأولى على أنها قائمة ذلك المتن، ولا تضاف إليها البدائل لتصبح للثوب أطراف أكثر مما تصفه الرواية. كذلك لا يخلط أبو حذيفة بن المغيرة بأبي حذيفة بن عتبة، ولا الأسود بن المطلب بالأسود بن عبد يغوث. وقد صار بعض أهل المجلس من خصوم الدعوة بعد ذلك، لكن قبولهم حكمه هنا يبين منزلته الاجتماعية قبل ظهور الخصومة الدينية العامة، دون أن يجعلهم مؤمنين برسالته في ذلك اليوم. [١٩,٣٣]

٣٧ البناة وصاحبة النار والأسماء غير المعلومة

يتقدم الوليد بن المغيرة في بعض روايات الهدم، ويذكر اليعقوبي أبا وهب بن عمرو بن عائذ عند تحريك حجر من الأساس. وفي أخبار نقلها المجلسي عن المنتقى يظهر باقوم، رجل رومي ذو خبرة بالبناء وصل في سفينة تحطمت قرب جدة، فاستفادت قريش من خشبها ومن عمله. أما متن الكافي المرفوع فيذكر سفينة ومواد وعمالًا دون تسمية باقوم. فلا ينسب الاسم إلى ذلك المتن، ولا يحدد اسم ملك الروم أو نجار آخر من مجرد ورود اللقب أو الوظيفة. ومعرفة هذا الفرق تحفظ العامل الذي سمته رواية، وتحفظ صمت الرواية الأخرى عن الاسم دون أن تعده نفيًا قاطعًا لوجوده. [١٩,٣٣,٥٠]

ويروي اليعقوبي خبر امرأة تبخر البيت فتتصل النار بكسوته، وتذكر مصادر أخرى أثر السيل. لا يعين الخبر اسم المرأة، فلا تجعل آمنة أو خديجة أو إحدى العمات صاحبة الحادثة بلا دليل. وكذلك تبقى جماعة العمال وأصحاب السفينة وأكثر المشاركين في نقل الحجارة غير مسمين حيث سكت النص. وتتفاوت الأخبار في حادثة الإزار أثناء البناء، وفي تسمية العباس أو أبي طالب في سياقها؛ فيراعى منشؤها ولا تتخذ مشاهد التعري مادة لإساءة إلى مقام النبي أو لتلفيق قصة جديدة. القدر الأوضح في الروايات الإمامية التي سبقت هو مشاركته في البناء وحسن حسمه للنزاع، وهما يكفيان لفهم موقعه في مجتمع مكة دون تحميل كل تفصيل متداول الدرجة نفسها. [١٩,٣٢,٣٤,٥٠]

٣٨ الهداية قبل نزول الكتاب

لا تحمل عبارة ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ في سورة الضحى، عند القراءة الإمامية التي يتبناها هذا الكتاب، إقرارًا بعبادة النبي للأصنام قبل البعثة. يعرض مجمع البيان معاني تتصل بعدم العلم بتفاصيل الشريعة قبل إعلام الله، أو بعدم معرفة القوم بفضله، ويذكر أيضًا أخبارًا تاريخية حمل بعض المفسرين اللفظ عليها. فلفظ الضلال يتحدد بالسياق، ولا يساوي الكفر في كل استعمال. وقد سبق تفسير منسوب إلى الإمام الرضا يجعل الجهل في القوم الذين لم يعرفوا مقامه. ينبغي إبقاء هذه الوجوه على أنها تفسير وتأويل، لا تحويل كل وجه إلى حادثة جديدة وقعت في سن محددة. [١,٢,٣]

وبالمثل تقول سورة الشورى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ في سياق بيان الوحي نورًا يهدي الله به. يذكر الطبرسي تفسير الإيمان بمعالم الشرائع أو وجوه من المعرفة التي أعلم بها الرسول، ولا يجعل الآية دليلًا لازمًا على سابق الشرك. ويقول القرآن في موضع آخر إنه لم يكن يرجو أن يلقى إليه الكتاب إلا رحمة من ربه. فعدم امتلاك تفاصيل الكتاب قبل إنزاله أمر، والعداوة لله أو عبادة الوثن أمر آخر. ومن هنا تفهم تهيئته للرسالة مع بقاء الرسالة منحة إلهية، لا نتيجة تعلم نص جاهز من بشر ولا انتقالًا من فساد أخلاقي تثبته الآيات. [٣٨,٣٩,٤٠]

٣٩ النبي الأمي ودلالة السيرة المعروفة

يسمي القرآن محمدًا النبي الأمي، ويحتج بأنه لم يكن يتلو من قبل القرآن كتابًا ولا يخطه بيمينه، لئلا يجعل المبطلون ذلك مدخلًا إلى اتهامه بالنقل من كتب السابقين. وتظهر أهمية هذه الحجة حين تقرأ مع قوله إنه لبث في قومه عمرًا قبل ذلك؛ فالجمهور المخاطب عرف الشخص وحياته قبل مجيء الكتاب. ليست الحجة أن كل إنسان لا يكتب يعجز عن التفكير، بل أن هذا القرآن لا يفسر بما عرفوه من دراسة كتب واقتباسها. ويشرح مجمع البيان الآية على هذا الوجه، مع نقل بحث الشريف المرتضى في اختصاص النفي بما قبل النبوة وعدم القطع بحال القراءة والكتابة بعدها. [٣٥,٣٦,٤٤,٤٥]

ولذلك لا تجعل الرحلة إلى الشام برهانًا على تلقي كتاب سري من بحيرا، ولا يجعل عمل التجارة برهانًا على كتابة كل عقد بيده. كلا الاستنتاجين يزيد على المادة. كما لا يعني وصف الأمي الجهل بالله أو الخلق أو أحوال الناس. وقد حملت روايات إمامية اللفظ على النسبة إلى أم القرى، وحملت روايات أخرى الأمية في القوم على عدم وجود كتاب سماوي عندهم. يعرض الفصل هذه الوجوه مع اختلافها، ويقدم النص القرآني المحدد على التعريفات الواسعة التي قد توهم العجز المطلق عن التعلم أو المعرفة. فالمسألة تتعلق بمنشأ القرآن ووجه الحجة، ولا يصح تحويلها إلى انتقاص من شخصية النبي أو إلى إثبات تعليم بشري لم تشهد به المصادر. [٢٢,٣٥,٣٦,٣٧]

٤٠ اختلاف أخبار القراءة والكتابة

جمع المجلسي عن علل الشرائع ومعاني الأخبار وبصائر الدرجات والتفسير أخبارًا ليست على لفظ واحد في القراءة والكتابة. فمنها ما ينسب إلى الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يقرأ ولا يكتب، ومنها ما ينسب إلى الإمام الجواد عليه السلام أنه كان يعرف القراءة والكتابة بألسن متعددة وأن وصف الأمي نسبة إلى مكة. وبعض الطرق مرفوع أو مشتمل على راو يحتاج إلى تحقيق، فلا يجوز عرضها جميعًا في رتبة الصحيح بلا فحص. كما أن ذكر خبر عن الإمام الجواد لا يجعله عن الإمام الباقر لمجرد اشتراكهما في كنية أبي جعفر؛ وقد عين بعض النصوص محمد بن علي الرضا، فالتعيين يحسم المقصود في ذلك الطريق. [٣٧]

وتساعد المقارنة على تجنب اتفاق موهوم بين العلماء، فقراءة المرتضى للآية تحفظ الاحتمال في مرحلة ما بعد النبوة، بينما تؤكد روايات أخرى معرفة واسعة. يمكن بيان الفرق دون الانتقاص من أحد أو إخفاء كلامه. ولا يستنبط من خبر عن تلقي كتاب في المدينة وصف مفصل لطريقة تعليمه في طفولته بمكة. فهذا انتقال بين زمنين يحتاج إلى دليل. ويقتصر الموقف المحرر هنا على ما هو لازم للسيرة: القرآن لم يقدم ثمرة نسخ سابق لكتب البشر، والعناية الإلهية بالنبي لا تقاس بمدرسة لم تثبت له، واختلاف الأخبار في القدرة أو الممارسة أو زمنها يبقى ظاهرًا للقارئ بدل إغلاقه بجملة عامة من قبيل اتفق الجميع. [٣٥,٣٦,٣٧]

٤١ حراء والمجاورة والتعبد

تصل النشأة إلى سنوات المجاورة في حراء، حيث يذكر أمير المؤمنين عليه السلام أن النبي كان يجاور في كل سنة، وأنه كان يراه هناك. لهذه الشهادة وزنها في رسم العلاقة بين الخلوة والبيت؛ فحراء ليس انقطاعًا مجهولًا عن كل إنسان، بل عبادة تشهدها صلة خاصة بعلي. وتذكر أخبار السيرة الإطعام للمساكين والطواف عند العودة، مع اختلاف في تفصيل المدد والشهور. ولا يجوز أن ننقل من عبادات رمضان بعد البعثة جميع أحكامها إلى ما قبلها، أو نضع جدول صلوات مطابقًا لما شرع لاحقًا دون دليل. الثابت في مسار الرواية هو التوجه إلى الله والمجاورة المتكررة، أما الهيئة التفصيلية لكل عبادة فتحتاج إلى نصها. [٣١,٥٠]

ومع بروز حراء لا يغيب دور خديجة في استقرار البيت، ولا تصبح شريكة الحياة مجرد امرأة تنتظر أخبارًا لا صلة لها بمعناها. ما تقوله رواياتها عند بدء الوحي من معرفة بصدقه وحسن خلقه يرتبط بعشرة سبقت ذلك بسنين، وإن كانت تفاصيل أول التلقي من موضوع الفصل التالي. وكذلك لا يجعل حضور علي في حراء دليلًا على أنه نبي؛ فالخطبة نفسها تميز مرتبته من النبوة وتثبت له القرب والوزارة. ويحفظ هذا التمييز المقامين معًا: محمد هو الرسول صاحب الوحي التشريعي، وعلي هو القريب الملازم الذي يروي جانبًا من تلك الاستعدادات. والخلوة في هذا السياق عبادة وتهيئة، لا برنامجًا وضعه كاهن أو راهب لصناعة دعوة بشرية. [٢٤,٣١]

٤٢ التسديد منذ الفطام

تصف الخطبة القاصعة عناية الله بالنبي منذ الفطام، بملك عظيم يسلك به طريق المكارم ومحاسن الأخلاق ليلًا ونهارًا. ولا تسمي العبارة هذا الملك، فلا يجزم بأنه جبريل أو ميكائيل من غير دليل آخر، وإن كان جبريل معلوم الوظيفة في تبليغ القرآن. كما لا تجعل عبارة منذ الفطام مولدًا ثانيًا أو بداية دراسة عند إنسان. المقصود في سياق الخطبة بيان التسديد الإلهي المتصل، الذي يصحبه كمال الخلق، ثم يظهر أثره في تعليم علي. ويجمع النص بين عناية غيبية بالنبي وممارسة تربوية منظورة من النبي نحو الصبي الذي لازمه؛ فلا تلغي الغيبية أفعال التربية اليومية، ولا تلغي الأفعال اليومية مصدر العناية في الاعتقاد الإمامي. [٣١]

ويخاطب القرآن الرسول بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وهو حكم قرآني في مقامه، لا سجل لتاريخ كل خصلة في طفولته. يستأنس به في فهم وحدة السيرة الأخلاقية، دون جعله تصحيحًا آليًا لخبر يتضمن تاريخًا مضطربًا أو سندًا مجهولًا. فالحكمة في التحكيم عند الحجر الأسود، والوفاء للمرضعة، والعناية بعلي، وأمانة المعاملة شواهد من أجناس مختلفة يمكن أن تتجاور في صورة واحدة، لكن كل شاهد يحتفظ بدرجته. وبذلك تكون محبة النبي باعثًا على الدقة، لا مبررًا لنسبة كل حكاية حسنة إليه. كما أن الاحتراز في خبر خاص لا يعني إنكار أصل العناية والتسديد الذي يتناوله النص الديني. [٣١,٣٢,٤٣,٥٠]

٤٣ الحج والعبادة قبل البعثة

ينقل المجلسي عن مستطرفات السرائر من جامع البزنطي خبرًا عن زرارة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام في حج النبي مستسرًا، ويذكر في عدده عشرين حجة مع اختلاف في عدد ما كان منها قبل النبوة. ويظهر التردد في بعض ألفاظ العدد من الراوي أو النسخة. لذلك لا يختار الفصل رقمًا ثم يبني عليه جدول سنوات متصلًا كأنه ثبت بلا خلاف. ومعنى الاستسرار في الخبر لا يساوي انعدام العبادة أو الانتساب إلى وثنية مكة؛ بل يتصل بكيفية وقوعها وإظهارها. كما أن ورود الخبر بواسطة كتاب جامع عن أصل أقدم يقتضي التصريح بوساطة النقل، ولا يسوغ الادعاء أننا قابلنا أصل البزنطي المفقود أو قرأنا مخطوطه مباشرة. [٥٦]

وتشتمل الصيغة المجموعة على ذكر صلاة في بصرى في سن أربع، وهو توقيت لا يوافق العمر المشهور لرحلة أبي طالب. لا يثبت هذا التفصيل تلقائيًا رحلة ثانية في الرابعة؛ فاحتمال اختلاف المتن أو اضطراب التاريخ يبقى قائمًا. ويفيد ذلك في فصل سؤالين: هل تصور الروايات النبي متعبدًا قبل البعثة، وما الزمن الدقيق لكل عمل نسب إليه؟ الأول له شواهد في القاصعة وغيرها، والثاني أشد تفصيلًا وأقل انتظامًا في الأخبار. لذلك يقرر الفصل معنى التعبد والاستقامة في الإطار الإمامي، ويترك عدد الحجج وسنواتها وبعض الهيئات مواضع اختلاف. فلا يغلق البحث بدعوى أن حياته الدينية بدأت فجأة في الأربعين أو أن جميع تفاصيلها السابقة معلومة لنا. [٣١,٥٦]

٤٤ الرؤيا والنبوة والرسالة

يفرق الكافي في باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث بين صور من التلقي، ويروي عن الإمام الباقر عليه السلام حديثًا يذكر ما كان يراه رسول الله من أسباب النبوة قبل الوحي، حتى جاءه جبريل بالرسالة. فهذا نص مهم لفهم الاستعداد: لا يعامل السنوات السابقة على أنها فراغ كامل من المعرفة بالله، ولا يجعل كل رؤيا نزولًا للقرآن أو إعلانًا عامًا للدعوة. وترد رؤيا إبراهيم مثالًا في البيان، وهو حضور تعليمي لنبي سابق، لا مشاركة زمنية منه في مكة في حياة محمد. كما أن تحديد رتبة التلقي في المصطلح الروائي لا يعطينا تاريخ كل رؤيا أو كلماتها؛ فلا تكتب أحلام تفصيلية ثم تنسب إلى الإمام لأن أصل الرؤيا ذكر في الحديث. [٤١]

وتذكر الرواية نفسها جبريل بوصفه حامل الرسالة، وتفرق بين الرؤية والسماع بحسب مقام المتلقي. وفي رواية أخرى من الباب بيان أن صاحب التلقي يوفق لمعرفة حقية ما رأى، فلا تكون النبوة اعتمادًا ضروريًا على حكم شخص خارجي يقرر له أن ما جاءه من عند الله. وهذا لا ينفي أن خديجة صدقته أو أن بعض أهل الكتاب عرفوا علامات، لكنه يضع التصديق في موضعه الصحيح: استجابة للرسول لا إنشاء لرسالته. وتحتاج أخبار بدايات الوحي المختلفة إلى موازنة أوسع في الفصل التالي، خاصة حيث تصف بعض الطرق اضطرابًا أو خوفًا أو مراجعة ورقة. أما هنا فتنتهي مرحلة التهيئة عند وضوح الانتقال إلى خطاب الرسالة، مع إبقاء الفروق الروائية التي تفسر هذا الانتقال. [٢٤,٤١]

٤٥ أبو المويهب والاسمان في خبر الرحلة

من الأسماء التي قد تفوت عند الاقتصار على بحيرا ونسطورا أبو المويهب الراهب، وقد عقد الصدوق لخبره بابًا في كمال الدين. يرد في الخبر عبد مناة بن كنانة ونوفل بن معاوية، يصفان شابًا من بني هاشم يعمل في تجارة خديجة، ثم يلتقيه الراهب ويبشر بشأنه ويسأل عن علي بن أبي طالب. وتختلف بعض النقول في ضبط عبد مناة أو عبد مناف. لا يعين الاسم وحده جد قبيلة قديمًا ليجعل معاصرًا للنبي، ولا يخلط نوفل بن معاوية بنوفل والد ورقة. كما أن أبا المويهب غير أبي مويهبة مولى النبي المذكور في أخبار مرحلة متأخرة. هذه فروق تتصل بالهوية نفسها، لا بمجرد طريقة تهجئة يمكن إهمالها. [٥٥]

ينتهي إسناد الخبر إلى بكر بن عبد الله الأشجعي عن آبائه، ولا يعرضه الصدوق في هذا الموضع قولًا مسندًا إلى الإمام الصادق. وفي متنه سؤال عن قرب ولادة علي، مع وصف محمد بأنه في تجارة خديجة، مما يحتاج إلى مراعاة التوقيت قبل الجزم بأنه سفر الخامسة والعشرين المشهور. فالمعرفة بأن عليًا ولد والنبي نحو الثلاثين تجعل الجمع التفصيلي بين الأزمنة غير تلقائي. يثبت الفصل خبر الراهب والأسماء المصاحبة له بوصفها من مادة البشارات المتصلة بالنشأة، ولا يبني عليها برنامج سفر جديدًا. كما لا تعد إعادة الخبر في البحار والدر النظيم شهادتين مستقلتين إذا كانا ينقلان أصلًا واحدًا. [١٨,٥٥]

٤٦ الأخبار المطولة والأسماء التي انفردت بها

نقل المجلسي فصولًا مطولة من كتاب الأنوار المنسوب إلى أبي الحسن البكري في المولد والرضاعة والزواج. وفيها حوارات وقصائد وأعداد وتفاصيل كثيرة تزيد على الأخبار الموجزة، ويظهر في سياق تجارة خديجة اسم ناصح إلى جانب ميسرة، كما يظهر ضمرة في بعض قصص بيت حليمة. حفظ هذه الأسماء لا يقتضي تقديمها كأنها ثبتت بطريق مستقل عن إمام؛ فيقال ناصح المذكور في قصة البكري، وضمرة في تلك الصيغة من خبر الرضاعة. أما الثروة الهائلة والقوافل المفصلة والمجالس الطويلة المنسوبة إلى خديجة وأقاربها فلا تدخل كلها في متن السيرة المحرر بلا فحص. كثرة التفصيل لا تقوم مقام قدم المصدر أو اتصال الإسناد. [١٦,٥٧]

وترد في مادة المولد أسماء ملائكة أو أشخاص في أخبار غيبية، ومنها رضوان في بعض النقل، وأسماء في حكايات تنتهي إلى كعب الأحبار، فلا يصح تصنيفها كلها ضمن رجال مكة ونسائها. وكذلك يرد المأمون وما شاء الله المنجم في كلام متأخر عن حساب المولد، وهما من تاريخ تلقي الخبر لا من زمن وقوعه. ولا يستدل بالتنجيم المنقول على صحة يوم بعينه أو على مصدر النبوة. بهذه المعالجة لا تسقط الرواية الأقل اعتمادًا من سجل المراجعة، لكنها توضع في موقعها الصحيح. ويظل للقارئ أن يميز بين اسم له دور في النشأة، واسم ورد في مثال أو رؤيا، واسم راو أو مؤلف أو قارئ متأخر؛ وهي فئات لا تجمع في عدد واحد يوهم تساوي المشاركة. [٨,١١,٥٧]

٤٧ الشخصيات القرآنية في خلفية النشأة

يحضر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في خلفية البيت ودعوة الرسول الذي يتلو الآيات ويعلم الكتاب والحكمة، ويذكر القرآن دعاءهما عند رفع القواعد. ويحضر عيسى ابن مريم في البشارة بأحمد، وتحضر مريم في نسبه ومقامها المعروف في القرآن. هذه الصلات تفسر معنى الامتداد النبوي، ولا تعني أن أصحابها كانوا من شهود مولد محمد في مكة. ويأتي موسى في بعض أخبار البشارات والمقارنة بين الرسالات، ويأتي إبراهيم في مثال الرؤيا الذي ضربه حديث الكافي. أما آدم وشيث وداود حين ترد أسماؤهم في قوائم الصحف والكتب في الروايات المطولة، فيحفظ نوع هذا الورود ولا يجعل دليلًا مستقلًا على نص كتاب لم يعرضه المصدر. [٢٦,٤١,٤٢,٤٧,٥٧]

وتظهر خديجة وفاطمة ومريم وآسية في أخبار فضل النساء، وتظهر سارة وكلثوم أخت موسى معهن في سياق مخصوص من خبر ولادة فاطمة، فلا تجعل هذه المواضع رواية واحدة عن ولادة النبي. أما أصحاب الكهف فيحضرون مثالًا في حديث إيمان أبي طالب، وهم جماعة قرآنية لا أفراد من أسرته. ويحضر جبريل في خبر حمل الرسالة، وميكائيل في بعض أخبار الغسل، ويبقى الملك العظيم في القاصعة غير مسمى. هذه الحدود تمنع إهمال شخصية وردت بالاسم أو الصفة، وتمنع في الوقت نفسه توسيع دائرتها إلى مشاركة لم يقل بها النص. فالقرآن والرواية والسيرة يقدم كل منها نوعًا من الصلة، ومن الأمانة أن تبقى الصلة موصوفة كما هي. [١٤,٢١,٣١,٤١,٤٦]

٤٨ ما يبقى مجهول الاسم أو مختلف الهوية

ليست كل شخصية في الأخبار مسماة: امرأة تبخر الكعبة، ورجل يقترح المال الطيب، وجماعة مراضع، ونسوة يحيطن بآمنة، وصاحب كتاب يتفقد العلامة، ورفاق قافلة وعمال سفينة. لا يقل ظهور هؤلاء في الحدث لمجرد غياب أسمائهم، لكن لا يجوز اختراع اسم لسد الفراغ. وعندما يرد اسم في طريق واحد يبقى مقيدًا به: يوسف في خبر، ورجل من أهل الكتاب في آخر؛ الشفاء أم عبد الرحمن في بعض كتب الدلائل، وفاطمة أم عثمان في كتب التراجم. وتبقى سيرة الحاضنات والمرضعات والأختين من الرضاعة جزءًا من تاريخ الرعاية، لا ملحقًا تجميليًا بعد اكتمال سيرة الرجال. [١١,١٢,١٣,١٥,٣٢,٣٣]

كذلك لا يشمل اكتمال هذا الفصل إعادة جميع شخصيات الفصول المجاورة. فبشارات سلمان وقس وغيرهما عرضت في سياقها السابق، وأنساب الجدات والعمات والأعمام في فصل الأسرة، وورقة في أخبار أول الوحي، وأسماء المؤمنين الأوائل والمخالفين في فصل الدعوة. إذا ذكر أحدهم هنا فبالقدر المتصل بالنشأة، لا بإعادة حياته كلها. ولا ينقل أسامة أو إبراهيم ابن النبي أو أحداث زواج زينب بنت جحش إلى مرحلة ما قبل البعثة لتوسيع الحصر. فالاستيعاب المفيد يقوم على صحة الصلة والزمن، وعلى ذكر الشخص حيث وقع خبره، مع إحالة لا تترك القارئ يظن أن الاسم نسي أو أن كل ما ورد عنه وقع في السنوات الأربعين الأولى. [٢٤,٢٧,٢٨,٥١,٥٤]

٤٩ عند عتبة البعثة

تنتظم المرحلة في مسار واضح مع بقاء اختلاف بعض الأرقام: مولد في مكة ارتبط بعام الفيل، ورعاية آمنة والمراضع، وفقد الأب والأم، وكفالة عبد المطلب ثم أبي طالب وفاطمة بنت أسد، وشباب عرف العمل وصلات المجتمع، وزواج بخديجة، وبيت احتضن الأبناء وعليًا وزيدًا، ومشاركة في شأن الكعبة، ومجاورة في حراء. لا يلزم لهذا المسار أن تزول الفروق في يوم المولد أو عمر الوفاة أو تاريخ البناء. بل يزداد وضوحه حين يعرف القارئ ما هو إطار مشترك وما هو تفصيل مختلف فيه. والشخصيات الكبرى والصغيرة ليست أسماء تضاف لزيادة العدد؛ لكل منها فعل أو شهادة أو صلة محددة تفسر وجودها في الفصل. [٦,١٩,٢٤,٣١,٣٢,٥١]

وعند هذه العتبة يقف الفصل: محمد ﷺ معروف لأهله وقومه، تحيط به خديجة وعلي ومن اتصل بالبيت، وتصف روايات أهل البيت تهيئته بعناية الله قبل إعلان الرسالة. يبقى جبريل في خبر الانتقال إلى الوحي، ثم تبدأ مرحلة أخرى لها ألفاظ التنزيل ومواقف التصديق والإنكار وتكاليف الدعوة. وما حمله الفصل من روايات متفاوتة لم يسو بينها، وما أثبته من النساء والرجال لم ينقل أحدًا منهم إلى زمن لا يسنده خبره. هكذا تكتمل صورة النشأة بوصفها حياة عاشها إنسان اصطفاه الله: فقد ورعاية وعمل ووفاء وعبادة، ثم رسالة ستخاطب العالم. وتفتح هذه النهاية الفصل التالي من موضعه الصحيح، من بدء البعثة والدعوة في مكة. [٣١,٣٨,٤٠,٤١,٤٥]

٥٠ المصادر والإحالات

تشير الأرقام في المتن إلى المواضع الآتية، وقد يشتمل الرقم على أكثر من موضع من الكتاب نفسه. أرقام الأحاديث الإلكترونية تعرف موضع النص ولا تستبدل عنوان الباب. أحكام الصحيح والحسن والضعيف الواردة في الفصل منسوبة إلى المجلسي حيث صرح باسمه، ولا تعني حكمًا مستقلًا على جميع طرق الخبر. عند الاعتماد على خبر منقول في البحار يذكر أصله الذي سماه المصنف، مع التصريح بوساطة البحار إذا لم تكن الإحالة إلى الأصل مباشرة.

[١] القرآن الكريم، سورة الضحى، الآيات ١-١١، ولا سيما ٦-١١ في اليتم والإيواء والهداية والإغناء وحقوق الضعفاء.

[٢] الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الضحى ١-١١، ولا سيما وجوه تفسير الآيات ٦-٨. عرض يجمع التفسير والأخبار ولا يسند كل الأقوال إلى الأئمة.

[٣] عبد علي الحويزي، نور الثقلين، تفسير الضحى ٦، الخبران ١٣ و١٤ في العرض؛ نقل تفسير منسوب إلى الرضا وجواب منسوب إلى الصادق.

[٤] القرآن الكريم، سورة الفيل ١-٥. لا تتضمن السورة تعيين يوم مولد النبي أو الفاصل الزمني بينه وبين الحادثة.

[٥] القرآن الكريم، سورة قريش ١-٤، في الإيلاف والرحلة وعبادة رب البيت.

[٦] محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب مولد النبي ﷺ ووفاته، الباب ١١١ إلكترونيًا؛ المقدمة التاريخية والأخبار المتصلة بالطفولة، ومنها خبر الإبل ٢٤. المقدمة ليست حديثًا مسندًا مستقلًا.

[٧] الشيخ المفيد، مسار الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، ص ٢٩-٣٠ في العرض، أحداث ربيع الأول: الزواج والمولد في السابع عشر، مع تمام العبارة في الصفحة التالية.

[٨] محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٢٤٨-٢٥١، عرض الخلاف في تاريخ المولد وموضعه؛ وما اتصل بحساب المولد في الأخبار التالية. الآراء التوفيقية للمصنف تميز من نصوص الروايات.

[٩] الشيخ الصدوق، الأمالي، المجلس ٤٨، الحديث الأول، الخبر المسلسل ٤٤٤ في النسخة المقروءة، ص ٣٦٠-٣٦٢؛ خبر المولد عن الإمام الصادق. نقله البحار، ج ١٥، ص ٢٥٧-٢٦٠.

[١٠] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب مولد النبي ﷺ، خبر آمنة ويوسف اليهودي، مع الرفع في طريقه؛ وقابله نقل المجلسي في البحار، ج ١٥، ص ٢٦٩-٢٧٠. تختلف أرقام الأخبار بين العروض.

[١١] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٢٥٧-٢٧٥، أخبار المولد والعلامات؛ ومنها النقل عن أمالي الطوسي، وكمال الدين، ومناقب ابن شهرآشوب. ليست جميع الأخبار في هذا المدى عن معصوم.

[١٢] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٨، ص ٢٧٥ في العرض، ترجمة ١١٦٠٣، فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن أبي العاص. مصدر تراجم غير إمامي للمقارنة.

[١٣] محمد الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، شرح خبر الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف عند المولد، مع نقل الرواية عن كتب الدلائل. يستخدم لإثبات وجود الخبر وتمييز الشخصية، لا لتصحيح نسبته إلى إمام.

[١٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٣٣١-٣٤٠، أخبار الرضاعة والصغر، عن الخرائج والمناقب والكافي، مع تعليقات على بعض الإشكالات الزمنية. وفيه حديث أخوة حمزة من الرضاع نقلًا عن الكافي.

[١٥] محمد بن إسحاق، السيرة، ص ٥٥ في العرض، تسمية عبد الله وأنيسة والشيماء وأخبار حليمة؛ تقارن صيغ الأسماء بما في سيرة ابن هشام والروض الأنف. مصدر سيرة غير إمامي.

[١٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٣٦٤-٣٧٩، صيغ الرضاعة والغسل والأخبار المطولة؛ يصرح المتن بأصول من السيرة والتاريخ وكتاب الأنوار. لا تحمل المجموعة حكمًا واحدًا على الأسانيد.

[١٧] الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب المولد، الحديث ٢٧ إلكترونيًا، خبر إدرار اللبن لأبي طالب؛ حكم المجلسي في مرآة العقول، ج ٥، ص ٢٥٢: ضعيف.

[١٨] الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب مولد أمير المؤمنين، الباب ١١٣ إلكترونيًا؛ المقدمة وخبر فاطمة بنت أسد ٢. يستفاد من الخبر استذكار الرعاية مع التحفظ في طريقه.

[١٩] أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، التاريخ، ج ٢، ص ٧-٢١: المولد والرضاعة والكفالة والشباب والفجار والأحلاف وبناء الكعبة والزواج. مصدر تاريخي يجمع أقوالًا متعارضة ولا يسوي الفصل بينها.

[٢٠] الكافي، ١/٤/١١١/٢٦، خبر فراش عبد المطلب؛ مرآة العقول، ج ٥، ص ٢٤٩ في العرض: حسن كالصحيح.

[٢١] الكافي، ١/٤/١١١/٢٨-٢٩، إيمان أبي طالب والتشبيه بأصحاب الكهف والاحتجاج بالشعر؛ مع تمييز أصل الطريق من الزيادة المرسلة في الخبر ٢٩، وأحكام المجلسي المعروضة.

[٢٢] الصدوق، كمال الدين، أخبار بحيرا ورحلة أبي طالب؛ نقلها المجلسي في البحار، ج ١٥، ص ١٩٣-١٩٩، بما في ذلك نسطور واختلاف بعض ألفاظ المتون. الإحالة هنا إلى النقل الجامع مع بيان أصله.

[٢٣] الصدوق، علل الشرائع، ج ١، ص ٧٥ في العرض، خبر عقبة عن الإمام الصادق في رعي الأنبياء الغنم؛ ويوافق الموضع ص ٣٢ في طبعات أخرى.

[٢٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١-٢٠ في أخبار خديجة والزواج، وص ١٢٩-١٣١ في الأسماء والألقاب. ينقل عن مصادر إمامية وغير إمامية، منها كشف الغمة والمنتقى والمناقب.

[٢٥] محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ١٩٣ في طبعة دار الكتب العلمية المعروضة، ترجمة ٤١٨٤، نفيسة بنت أمية وأمها منية ودورها في الزواج.

[٢٦] الكافي، ج ٥، كتاب النكاح، باب خطب النكاح، ٥/٣/٤٤/٩ إلكترونيًا؛ خطبة أبي طالب وإعلان رضا خديجة. مرآة العقول، ج ٢٠، ص ٩٨: ضعيف.

[٢٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٦٢-٢٦٣، القرابات من الرضاع والموالي والمواليات، ومنهم سلمى أخت حليمة وزيد وحكيم وأم أيمن وعبيد وأيمن وأسامة. القائمة تمتد إلى مراحل لاحقة فلا تحمل كلها على ما قبل البعثة.

[٢٨] القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٤-٥، في التبني ورد الأنساب إلى الآباء.

[٢٩] الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب مولد فاطمة الزهراء، ١/٤/١١٤، المقدمة التاريخية التي تجعل المولد بعد المبعث بخمس سنين.

[٣٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٢٤-٢٥، عن طرائف ابن طاووس نقلًا عن تفسير الثعلبي عن مجاهد: الأزمة وتخفيف عيال أبي طالب وضم علي وجعفر.

[٣١] الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة القاصعة ١٩٢ في الترقيم الشائع، فقرات تربية علي والتسديد منذ الفطام والمجاورة في حراء. قوبل النص بما نقله البحار، ج ١٥، ص ٣٦١، وبالنص المعروض لدى مؤسسة علوم نهج البلاغة.

[٣٢] الكافي، ج ٤، كتاب الحج، باب بناء الكعبة، ٤/٣/٩/٣ إلكترونيًا، سعيد الأعرج عن الإمام الصادق؛ المال الطيب وحل نزاع الحجر. حكم المجلسي المعروض: صحيح.

[٣٣] الكافي، ٤/٣/٩/٤، الخبر المرفوع في الهدم والبناء وأسماء حاملي الثوب والسفينة؛ يثبت اضطراب التوقيت المذكور في متنه ولا يصحح بصمت.

[٣٤] الكافي، ٤/٣/٩/٥، داود بن سرحان عن الإمام الصادق في مشاركة النبي بالبناء؛ مرآة العقول، ج ١٧، ص ٥٩: حسن، مع اختلاف آخر في نصيب بني هاشم.

[٣٥] القرآن الكريم، سورة العنكبوت ٤٨، في نفي تلاوة كتاب وخطه قبل القرآن.

[٣٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير العنكبوت ٤٦-٥٠، ولا سيما ٤٨؛ وفيه نقل موقف الشريف المرتضى من القراءة والكتابة قبل النبوة وبعدها.

[٣٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٣١-١٣٤، الأخبار ٦٥-٧٢ وما يتصل بها، عن علل الشرائع ومعاني الأخبار والبصائر والتفسير، في الأمي والقراءة والكتابة. ينسب كل قول إلى طريقه.

[٣٨] القرآن الكريم، سورة الشورى ٥١-٥٣، وخاصة ٥٢، في الوحي والكتاب والهداية.

[٣٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الشورى ٥١-٥٣، وجوه معنى الروح والكتاب والإيمان.

[٤٠] القرآن الكريم، سورة القصص ٨٦، في إلقاء الكتاب ورحمة الله.

[٤١] الكافي، ج ١، كتاب الحجة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث، ١/٤/٣، خاصة الحديثين ٣ و٤؛ أسباب النبوة قبل الوحي وكيف يعرف المتلقي حقية التلقي.

[٤٢] القرآن الكريم، سورة الصف ٦، بشارة عيسى ابن مريم بأحمد.

[٤٣] القرآن الكريم، سورة القلم ٤، في خلق النبي العظيم.

[٤٤] القرآن الكريم، سورة الأعراف ١٥٧-١٥٨، وصف النبي الأمي.

[٤٥] القرآن الكريم، سورة يونس ١٦، الاحتجاج بلبث النبي في قومه عمرًا قبل القرآن.

[٤٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢ في فضل النساء، وص ٧٩-٨١ في خبر ولادة فاطمة عن أمالي الصدوق، المجلس ٨٧، الحديث ١؛ ورود سارة وآسية ومريم وكلثوم أخت موسى في ذلك السياق.

[٤٧] القرآن الكريم، سورة البقرة ١٢٧-١٢٩، إبراهيم وإسماعيل ورفع القواعد والدعاء ببعثة الرسول.

[٤٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الشرح ١-٨، دلالة شرح الصدر وما ورد من وجوه التفسير.

[٤٩] ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة الأبواء، في موضع وفاة آمنة وخبر الزيارة وذكر أم أيمن. مصدر جغرافي تاريخي للمقارنة.

[٥٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٣٥٩-٣٦٣ و٤٠٠-٤١١؛ أخبار المجاورة والرضاعة المتأخرة والكفالة والبناء، مع النقل عن شرح ابن أبي الحديد والمنتقى وغيره. يميز النقل عن رأي المصنف وتعليقات المحقق.

[٥١] تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٢ وما يتصل بها، تفسير الأحزاب ٤، علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل عن الإمام الصادق؛ شراء زيد وقدوم حارثة واختيار البقاء.

[٥٢] الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، ص ٣١٧، في نسب زيد وأمه سعدى بنت ثعلبة وخبر سبيه؛ رقم الصفحة الإلكترونية ٣٢٤.

[٥٣] الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، مبحث إخوة النبي من الرضاع، في أبي سفيان بن الحارث وأسماء أبناء حليمة واختلاف ضبط الشيماء وأنيسة. مصدر مقارنة غير إمامي.

[٥٤] القرآن الكريم، سورة الأحزاب ٣٧، الموضع الذي يسمي زيدًا؛ يذكر هنا للتعريف ولا ينقل حدث الآية المتأخر إلى ما قبل البعثة.

[٥٥] الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، باب ١٦ في خبر أبي المويهب الراهب، الحديث الوحيد في العرض الإلكتروني ٣٩/٢/١٦؛ عن بكر الأشجعي عن آبائه، وليس في هذا الطريق قولًا للإمام.

[٥٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٣٦١، الخبر ١٧، نقلًا عن مستطرفات السرائر من جامع البزنطي، في الحج قبل النبوة، مع اختلاف ألفاظ العدد والعمر.

[٥٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٠-٢٩ وما بعدها، عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكري، وخاصة ص ٢٩ في ناصح وميسرة؛ وتقارن مادة الرضاعة المطولة في ج ١٥، ص ٣٧١-٣٧٩.

الفصل ٤٨ — محمد ﷺ — البعثة والدعوة في مكة

٠١. من حراء إلى عتبة الهجرة

يبدأ هذا الفصل حين انتقل محمد صلى الله عليه وآله من الاستعداد للرسالة إلى تبليغها، وينتهي حين صار للمؤمنين في يثرب إخوة يتعهدون بالنصرة. وبين الطرفين قامت جماعة صغيرة حول الوحي، وواجهت الاستهزاء والتعذيب والمقاطعة، وعبرت البحر إلى الحبشة، ثم وجدت طريقًا جديدًا خارج مكة. ويذكر الكليني في صدر باب مولد النبي ووفاته أنه أقام بمكة بعد مبعثه ثلاث عشرة سنة. فهذا هو الإطار العام الذي يُعتمد هنا، مع بيان الاختلاف في تأريخ الحوادث المفردة؛ أما مبيت علي على الفراش، والغار، والطريق إلى المدينة، وبناء المسجد، فموضع تفصيلها الفصل ٠٤٩. [٤,١٢,٥٤]

٠٢. «اقرأ»: افتتاح الرسالة بالخلق والتعليم

تضع الآيات الأولى من سورة العلق الإنسان أمام ربه الخالق والمعلم: «اقرأ باسم ربك الذي خلق». فالافتتاح ليس إعلان سيادة قبيلة على أخرى، وإنما ردّ المعرفة والوجود إلى الله. وتجمع أخبار المبعث على مركزية حراء ونزول جبرئيل، وإن اختلفت في بعض المشاهد والعبارات. وفي الرواية التي يوردها المجلسي عن التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري، يأتي الأمر بالقراءة في سياق إظهار آيات الله للنبي وتثبيته. غير أن نسبة هذا التفسير وأسانيد مروياته محل بحث؛ لذلك يُستأنس بهذا التصوير، ولا يُجعل كل تفصيل فيه مساويًا لدلالة الآيات نفسها. [١,٦]

لم يكن القلم في هذه البداية زينة لفظية. فالرسالة التي واجهت قومًا يعتزون بالأنساب والمآثر أقامت للعلم مسؤولية، وربطت التعلّم بالتواضع: الإنسان يتعلم ما لم يعلم، فلا يملك أن يستغني عن خالقه. وتستأنف السورة نفسها الحديث عن الطغيان حين يرى الإنسان نفسه مستغنيًا. وهكذا ترتبط أول الدعوة بما سيظهر في خصومتها: صاحب القوة يتوهم أن المال والنادي يحميانه، وصاحب الوحي يدعو إلى السجود والقرب. وليس في السورة اسم خديجة أو ورقة أو أبي جهل؛ تعيين هؤلاء، حيث يَرِد، من طبقة الرواية والتفسير، لا من ألفاظ هذا الافتتاح. [١]

٠٣. السابع والعشرون من رجب ومسألة نزول القرآن

استقرّ إحياء المبعث عند الإمامية في السابع والعشرين من رجب، وله مستند روائي في أبواب الصيام. ففي الكافي خبر عن أبي الحسن الأول، الإمام موسى الكاظم، يذكر بعثة محمد رحمة للعالمين في ذلك اليوم، ويرد نظيره عن الإمام الصادق. وفي أحد طرقه سهل بن زياد وواسطة مبهمة بلفظ «بعض أصحابنا»، فلا يصح وصف هذا الطريق بالصحة دون بحث. ويجمع المجلسي الروايات والأقوال، وينقل أيضًا خبرًا يربط النبوة برمضان، ثم يناقش وجوه الجمع. يثبت الفصل التاريخ المشهور في التقليد الإمامي، مع إبقاء الخلاف الروائي ظاهرًا. [٥,٥٧]

أما قوله تعالى إن القرآن أُنزل في رمضان، وقوله إنه أُنزل في ليلة القدر، فلا ينبغي تجاوزهما عند الكلام على المبعث. وقد ميّز العلماء بين ابتداء البعثة، ونزول القرآن في ليلة القدر، والتنزيل المتدرج على امتداد الرسالة. وهذه وجوه تفسيرية للجمع، لا نص واحد يروي لنا جدولًا يوميًا متفقًا عليه. لذلك لا يساوي الفصل آليًا بين ليلة المبعث وليلة الإسراء وليلة القدر، ولا يضع لكل حادثة تاريخًا قطعيًا لمجرد شهرة التاريخ على الألسن. والمتيقن في ترتيب القصة أن الوحي صار تكليفًا بالتبليغ، وأن القرآن رافق الدعوة في أحوالها المختلفة. [٥,٥٧]

٤. جبرئيل ومعرفة الوحي

يسمّي القرآن جبرئيل، ويصف حامل التنزيل بالأمانة والقوة، ويجعل إنزال الوحي على قلب النبي بإذن الله. وفي الكافي تمييز بين النبي والرسول والمحدَّث، وفيه وصف لرؤية الرسول للملك وسماعه منه. كما ينقل المجلسي عن مصادر إمامية سؤالًا للإمام الصادق: كيف عرف الرسول أن جبرئيل من عند الله؟ وجوابه يرد المعرفة إلى التوفيق الإلهي. وتفيد هذه النصوص أن يقين النبوة ليس حكمًا أصدره شخص خارج الوحي ثم صار الرسول نبيًا بإقراره؛ فالمؤمنون يعرفون صدقه، لكنهم لا يمنحونه مصدر رسالته. [٧,٨]

وتروي المصادر أحوالًا من الثقل عند الوحي، وتفرّق بعض روايات الإمام الصادق بين نزول جبرئيل وبين ما يقع عند الخطاب الإلهي بلا واسطة الملك. لا تُحوَّل هذه الأخبار إلى تشخيص طبي، ولا إلى وصف لله بالجسم أو الجهة. وفي المقابل لا تُسقط أسماء ميكائيل وإسرافيل من الروايات التي تذكرهما، لكن لا يُجعلان شريكين لجبرئيل في كل حادثة لمجرد ورودهما في باب آخر. وكذلك ظهور الملك في صورة دحية الكلبي في أخبار لاحقة لا يجعل دحية حاضرًا عند بدء المبعث؛ فالإنسان الذي تقع المشابهة بصورته غير الملك المتصور بها. [٨,٣٩]

٥. خديجة: التصديق الذي صار نصرة

كانت خديجة بنت خويلد أول البيت الذي استقبل الرسالة. لا يقتصر حضورها على لحظة سماع الخبر؛ فهي المصدِّقة، والمصلية، وصاحبة البيت الذي احتمى فيه النبي، والمنفقة حين تحول إيمان الأسرة إلى حصار اقتصادي. ويشهد كلام أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة أن بيت الإسلام في أول أمره جمع رسول الله وخديجة وعليًا. وفي هذا التصوير لا تقع المرأة على هامش البداية، بل تكون في أصل الجماعة المؤمنة. وإدراج اسمها مستقلًا يحفظ فعلها الديني والاجتماعي، فلا تختزل في كونها زوجة صاحب الرسالة. [٩,١٢,٤٣]

وتذكر بعض أخبار السيرة ورقة بن نوفل في صلة خديجة بأخبار الوحي والكتب السابقة. وقد عُرضت خلفيته في الفصل السابق؛ أما هنا فيُذكر بقدر علاقته بروايات بدء الرسالة، مع اختلاف ألفاظها وطرقها. فلا يُنسب إلى خديجة أنها احتاجت إلى استبدال ثقتها بالنبي بتصديق ورقة، ولا يُستخرج من

معرفة ورقة بالكتب أنه مصدر القرآن. وتبقى رواية كل لقاء منسوبة إلى ناقلها، ولا تُجمع مشاهد ورقة وعداس وبحيرا في مجلس متخيل واحد. تعدد هذه الأسماء في كتب الدلائل لا يساوي اجتماعها زمنًا ومكانًا. [١٢,٥٧]

٦. علي بن أبي طالب وبيت الصلاة الأول

نشأ علي بن أبي طالب في قرب النبي، ثم ظهر هذا القرب في أول الإيمان والصلاة والنصرة. وتروي الخطبة القاصعة أنه كان يرى نور الوحي والرسالة ويشم ريح النبوة، وأنه سمع رنّة الشيطان حين نزل الوحي. وليست هذه المشاركة دعوى نبوّة لعلي؛ فالنص نفسه يميّز مقامه من مقام الرسول. وتثبت الروايات الإمامية سبقه إلى التصديق، ولا يجعل صغر سنه عيبًا في إيمانه. وتختلف الأخبار في عمره العددي عند البعثة؛ لذلك يثبت الفصل صباه وسبقه، من غير بناء حساب زمني كامل على رقم مختلف فيه. [٩,١٠,١٣]

وفي خبر عفيف، الذي نقله المجلسي عن دلائل النبوة، شاهدٌ من خارج البيت يرى رجلًا وامرأة وغلامًا يصلّون، فيسأل العباس بن عبد المطلب عنهم، فيعرّفه بمحمد وخديجة وعلي. يحفظ الخبر اسم عفيف واسم العباس بوصفهما شاهدًا ومفسرًا للمشهد، ولا ينقل إليهما تلقائيًا حكم السابقين في تلك الساعة. ويظهر في أخبار أخرى أن أبا طالب دعا جعفرًا إلى أن يصل جناح ابن عمه في الصلاة. وهكذا انتقلت العبادة من فرد يتوجه إلى ربه إلى بيت وجماعة صغيرة، قبل أن يكون للمؤمنين مسجد آمن يجتمعون فيه علنًا. [١٣,١٤]

٧. زيد وجعفر ودائرة السابقين

يَرِد زيد بن حارثة مع خديجة وعلي في أخبار السابقين، وتظهر منزلته في ملازمة النبي وخدمته وحمله همّ الدعوة. وهو الشخص الذي سمّاه القرآن لاحقًا في سورة الأحزاب، لكن ذكر اسمه في تلك السورة متعلق بحادثة مدنية؛ فلا يجعل الفصل آية الأحزاب خبرًا مكيًا. ويَرِد جعفر بن أبي طالب في أخبار الصلاة المبكرة، ثم تصبح له قيادة ظاهرة في الحبشة. يجتمع الأخوان علي وجعفر في أصل النصرة، ويفترقان في موضع التكليف: يبقى علي قريبًا من رسول الله، ويحمل جعفر صوت الجماعة إلى ملك خارج الجزيرة. [١٢,١٣,٢٤]

ويذكر اليعقوبي، مع اختلاف في ترتيب الأسبقية، أبا ذر وعمرو بن عبسة وخالد بن سعيد بن العاص وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وخباب بن الأرت ومصعب بن عمير، ويذكر أبا بكر أيضًا. وترد أسماء الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأبي عبيدة بن الجراح في أخبار إسلام الأوائل والهجرة. يُحفظ لهم حضورهم التاريخي بلا حذف بسبب الخلاف اللاحق، وبلا تحويل ترتيب مختلف فيه إلى قائمة متفق عليها. أما سلمان الفارسي فلا يُجعل عضوًا

حاضرًا في جماعة مكة لمجرد علو مقامه؛ فلقاؤه النبوي المعروف متصل بمرحلة المدينة. [١٢,٢٤,٢٦,٥٧]

٨. الكتمان والتدرج في إعلان الدعوة

لم يكن كتمان الدعوة انقطاعًا عن الناس، بل مرحلة حماية لجماعة ناشئة في بيئة قادرة على البطش بمن لا عشيرة له. وينقل الصدوق، كما في بحار الأنوار، خبرًا عن الإمام الصادق يجعل الكتمان ثلاث سنين ضمن ثلاث عشرة سنة بمكة، وخبرًا آخر يذكر خمس سنين. لا يُلغى أحدهما في التحرير، ولا يؤخذ الرقمان معًا كأنهما وصف واحد. وتبقى دلالة الآية «فاصدع بما تؤمر» واضحة في الانتقال إلى الجهر، من غير أن تقدم وحدها تاريخًا مفصلًا لكل اجتماع سبق الإعلان. [٦]

وفي أخبار السيرة تبرز دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانًا لاجتماع المؤمنين وتعليمهم، وتظهر أسماء إسلام ارتبطت بالدخول إليها. وهي قرينة على حاجة الدعوة إلى موضع للتربية والقراءة، وليست بديلًا من البيت الأول الذي جمع النبي وخديجة وعليًا. وقد يُستعمل «أول» بمعنى أول من آمن، أو أول من أظهر، أو أول من قدم من قبيلة، أو أول من دخل في خبر مخصوص. لهذا تُقرأ دعاوى الأسبقية بحسب سؤالها وسياقها، فلا تُجعل جميعها متعارضة، ولا تُسوّى مراتب الأدلة لمجرد الاشتراك في اللفظ. [٩,٢٣,٥٧]

٩. «قم فأنذر»: العبادة التي تصير مسؤولية

في سورة المدثر يأتي النداء بالتكبير والتطهر وهجر الرجز والصبر لله، وفي سورة المزمل يقوم الليل وتلاوة القرآن في إعداد حامل القول الثقيل. لا يتشكل الداعية هنا بالإقناع اللفظي وحده، بل بالصلاة والصبر وضبط النفس. فالذي يواجه سخرية الملأ يحتاج إلى صلة متكررة بالوحي، كيلا يختزل رسالته في رد فعل على خصومه. وهذه الآيات تفسر جانبًا من حياة البيت والجماعة: تلاوة تُحفظ، وصلاة تُقام، وقلوب تتعلم أن انتظار النصر ليس تخليًا عن العمل. [٢,٣]

وتُقرأ أخبار تشريع الصلاة في هذا الضوء مع الانتباه إلى مراتبها. فوجود الصلاة المبكرة ثابت في روايات علي وخديجة وجعفر، ولا يعني اختلاف الروايات في تأريخ فرض الصلوات الخمس أن النبي لم يصلِّ قبل الإسراء. وكذلك لا يُنقل إلى المرحلة المكية كل تفصيل فقهي استقر في المدينة. كانت العبادة تؤسس الولاء لله، وتمنح المؤمنين إيقاعًا مشتركًا تتكرر فيه القراءة والسجود، قبل أن تكون لهم مؤسسات أو قدرة على حماية كل من التحق بهم. [١٣,١٤,٣٨,٣٩]

١٠. إنذار العشيرة ودعوة بني عبد المطلب

جاء الأمر القرآني: «وأنذر عشيرتك الأقربين». وفي أخبار الدعوة إلى الطعام جمع النبي بني عبد المطلب، وتولى علي إعداد ما أمره به، ثم عرض الرسول عليهم الإيمان والنصرة. وتختلف الألفاظ في

عدد المجتمعين وتكرار الاجتماع، لكنها تحفظ اعتراض أبي لهب وقيام علي بالإجابة. وتنقل مصادر إمامية، منها علل الشرائع وتفسير القمي وما جمعه نور الثقلين، ألفاظ الوزارة والوصاية وقضاء الدين وإنجاز العِدات. هذه الألفاظ تُثبت بحسب طرقها، ولا تُختزل الواقعة في مائدة عائلية خالية من دلالتها على استمرار مسؤولية الرسالة. [١٠,١١]

ويحضر أبو طالب والعباس وحمزة في محيط العشيرة، بينما تذكر بعض الروايات عبيدة بن الحارث في دائرة المستجيبين. وليس كل اسم تَرِد فضيلته في شرح الآية حاضرًا بالضرورة عند الطعام؛ فذكر الحسن والحسين والأئمة في تفسير الامتداد المطهر للعترة لا يجعلهم مولودين في زمن هذا الاجتماع. كما أن بعض الزيادات التفسيرية المنقولة مع الآية تُذكر بوصفها رواية في القراءة أو البيان، ولا تُدرج في نص المصحف المتداول. وبذلك يُحفظ معنى الرواية وموقع علي، مع صيانة حدود النص القرآني وحدود التاريخ. [١٠,١١,١٢]

١١. أبو طالب في مواجهة قريش

وجدت قريش أن الوصول إلى النبي يمر بموقف أبي طالب. فجاءته وفود تطلب كف ابن أخيه عن عيب آلهتها، وعرضت في الأخبار المال والزعامة، ثم بلغت المساومة حد عرض عمارة بن الوليد بدل محمد ليُسلَّم إلى القتل. رفض أبو طالب منطقًا يطلب منه أن يربي ابنهم ويدفع إليهم ابن أخيه ليقتلوه. وحفظت الأخبار احتجاجه وشعره وحراسته، فلا يُختصر دوره في عاطفة العمومة. لقد جعل نصرة النبي التزامًا عمليًا عرّضه وبيته وبني هاشم للخطر. [١٢,٣٤,٤٥]

وتنقل رواية في الكافي، أوردها المجلسي، أن المشركين ألقوا على النبي أذى وهو في المسجد الحرام، فشكا ذلك إلى أبي طالب، فدعا حمزة وواجه القوم. وفي هذا السياق يظهر حمزة قبل أن تصبح سيرته مرتبطة بأحد وحدها. ولا يعني جمع روايات الأذى أنها حادثة واحدة حتمًا: مرة يكون الحديث عن ثياب لوثت، ومرة عن سلا وضع على الظهر في السجود، ومرة عن حجارة. يُروى المشترك في معنى الاعتداء والنصرة، وتُترك جزئيات كل خبر في حدوده. [١٤,٣٤]

١٢. أبو لهب وأم جميل في سورة المسد

أبو لهب من القلائل الذين سمّاهم القرآن بكنيتهم في سياق الخصومة للرسالة. وتذكر السورة امرأته بوصفها حمالة الحطب، من غير أن تسميها. ويعرّفها التفسير بأم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، ويذكر في اسمها أروى. أما زوجها فهو عبد العزى بن عبد المطلب. هنا يتجاور قرب النسب وعداوة الموقف: عم النبي وزوجته لا يمنحهما الانتساب حصانة من الحكم على العمل. ويشرح مجمع البيان حمل الحطب بحمل الشوك أو النميمة أو حمل الخطايا، فيحفظ الفصل تنوع التفسير ولا يحصر الصورة في مشهد واحد غير مختلف فيه. [١٨]

ويورد الطبرسي خبرًا عن أسماء بنت أبي بكر في مجيء أم جميل تبحث عن النبي وتريد إيذاءه، وفيه حضور أبي بكر. يُذكر هذا بوصفه خبرًا في التفسير عن أسماء، لا رواية مسندة إلى إمام لمجرد أن الطبرسي نقله. أما عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب فيَرِدان في أخبار الأسرة والعداوة، وتضطرب بعض الألفاظ في تعيين صاحب خبر افتراس السبع. فلا يُنقل اسم أحدهما إلى الآخر بغير تنبيه، ولا تُجعل القصة تفصيلًا قالته سورة المسد. فالسورة تثبت موقف الزوجين ومآله، وأخبار الأبناء طبقة أخرى. [١٨,٥٦]

١٣. الوليد بن المغيرة وأبو جهل

تصف سورة المدثر رجلًا أُعطي مالًا ممدودًا وبنين شهودًا، ثم فكر وقدّر وانتهى إلى اتهام القرآن بالسحر. لا تذكر الآيات اسمه، لكن مجمع البيان وأخبار السيرة يعيّنانه بالوليد بن المغيرة. وتصور الروايات صراعًا بين أثر الكلام الذي سمعه وبين حرصه على منزلته بين قريش. فالخلاف ليس جهلًا باللغة وحده؛ إنه أيضًا رفض لما تفرضه الاستجابة من تغيير في الميزان الذي تُقاس به المكانة. ويظل تعيين الوليد من التفسير، بينما يظل الوصف القرآني أوسع من شخصه في دلالته على الكبر والمكابرة. [٣,١٩]

وأبو جهل هو عمرو بن هشام المخزومي، وتَرِد كنيته الأولى أبو الحكم. لا يُخلط بالوليد بن المغيرة، ولا بالوليد بن الوليد الذي يظهر في أخبار المسلمين المستضعفين لاحقًا. وفي تفسير آخر سورة العلق يُذكر أبو جهل في منع الصلاة والتهديد، وفي أخبار قريش يظهر متكلمًا في المساومة ومحرّضًا على الأذى. وتربط بعض الروايات اعتراضه بالتنافس بين البطون: كيف تنفرد بنو هاشم بالنبوة؟ هذه خلفية يرويها التفسير والسيرة، وليست عذرًا يرفعه القرآن عن مسؤولية اختياره. [١,١٩,٣٤]

١٤. شبكة الاستهزاء والمساومة

لم تنحصر الخصومة في رجلين. تسمي الأخبار العاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث في بعض قوائم المستهزئين، مع اختلاف في نسب الأخير ولفظه. وتظهر أسماء أمية بن خلف وأخيه أُبيّ، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، كلّ في أخبار مخصوصة. وليس ورودهم تحت عنوان قريش دليلًا على أنهم أدّوا الدور نفسه أو اجتمعوا في كل واقعة. وقد عرضت السيرة كذلك الحكم بن أبي العاص وعدي بن حمراء أو حمران في أخبار الأذى؛ تُحفظ الأسماء مع اختلاف الرسم دون اختراع سيرة مفصلة لكل واحد. [١٢,٢٣,٥٦]

وكانت المساومة في العبادة وجهًا آخر من وجوه الضغط: أن يعبد كل فريق ما يعبد الآخر مدة، فتعود وحدة الجماعة على حساب التوحيد. تجيب سورة الكافرون بوضوح الفصل بين العبادتين، ويذكر مجمع البيان أسماء من عرضوا هذا الاقتراح، منهم الوليد والعاص وأمية والأسود بن المطلب. لا تعني

الاستجابة القرآنية إلغاء العدل مع المخالف، إنها رفض أن يصير الله واحدًا من آلهة يتداول الناس عبادتها. وبذلك يتضح أن صمود الدعوة لم يكن مجرد عناد شخصي، وإنما حفظ لما تتأسس عليه الرسالة. [٢٠,٣٤]

١٥. النضر وعقبة وأسئلة التحدي

يمثل النضر بن الحارث في أخبار التفسير محاولة صرف الناس عن القرآن بحكايات الملوك والأبطال. ويذكر مجمع البيان عند «لهو الحديث» أنه كان يأتي بأخبار رستم وإسفنديار ليعارض بها ما يسمعه الناس من قصص الأنبياء. رستم وإسفنديار هنا اسمان داخل مادة الحكاية التي ينسبها الخبر إلى النضر، لا شخصيتان حضرتا مكة أو ورد اسماهما في القرآن. وتروي أخبار أسباب النزول إرسال النضر وعقبة للسؤال عند أهل الكتاب عن مسائل يمتحنون بها النبي؛ فترد قصص أصحاب الكهف وذي القرنين والسؤال عن الروح ضمن سياق المحاجّة، لا لمجرد جمع الأعاجيب. [٣٠,٣١,٣٢]

وفي سورة الإسراء سلسلة مطالب: تفجير الينابيع، وامتلاك البساتين، وإسقاط السماء، والإتيان بالله والملائكة، والرقي إلى السماء بكتاب مخصوص. ويرد عبد الله بن أبي أمية في بعض الأخبار بوصفه صاحب تعنت في هذه المطالب. والجواب يرد الأمر إلى حقيقة الرسول البشر الذي يبلغ عن ربه، لا إلى ساحر ينفذ شروط الجمهور. وتذكر سورة الفرقان ندم الظالم على اتخاذ الخليل المضل، ويورد الطبرسي خبر عقبة وأُبيّ بن خلف. لا تُدرج أسماء هؤلاء في نص الآيتين؛ إنما تُشرح بها الرواية، مع بقاء العبرة في فساد الصحبة والصد عن الحق. [٣٠,٣٣]

١٦. الذين لم تكن لهم منعة

كان تفاوت القدرة على الحماية من أقسى حقائق مكة. يستطيع بعض المؤمنين الاحتماء بالعشيرة، ويُترك آخرون لسلطة المالك أو الحليف أو صاحب المال. لذلك لا تكتمل القصة بذكر الأشراف وحدهم. يذكر اليعقوبي بلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وصهيب بن سنان، وأبا فكيهة، وعامر بن فهيرة، مع آل ياسر فيمن عُذّب. وتختلف أحوالهم الاجتماعية وأنسابهم؛ فلا يُجعل كل واحد منهم عبدًا في كل مرحلة من حياته لمجرد وصف الجماعة بالمستضعفين. يجمعهم أنهم دفعوا ثمن الإيمان في أجسادهم وأمنهم اليومي. [١٢,٢١,٢٣]

وتحفظ الأخبار جهر عبد الله بن مسعود بالقرآن عند قريش وما أصابه من ضرب، كما تحفظ طلب خباب الدعاء للمؤمنين تحت الأذى. لم يكن الصبر إقرارًا بحق المعذِّب في تعذيبه؛ كان ثباتًا حين تعجز الجماعة عن رفع الظلم فورًا. ومن هنا تُفهم الهجرة اللاحقة بوصفها عملًا لحفظ الدين والنفس، لا انتقاصًا من الشجاعة. فليس المطلوب أن يبقى الضعيف تحت يد خصمه حتى يهلك، ولا أن تتحول مآسي المؤمنين إلى حكايات تُعجب القارئ ثم تُنسيه أسماء من تحملوها. [١٢,٢٣]

١٧. سمية وياسر وعمار: الإيمان تحت الإكراه

لا تنفصل قصة عمار بن ياسر عن أمه سمية وأبيه ياسر. يذكر التفسير والسيرة تعذيب الأسرة، ويصفان سمية بأنها من أول من استشهد في الإسلام، وينسبان قتلها إلى أبي جهل. تختلف بعض الروايات في تفصيل الاعتداء، فلا حاجة إلى إعادة المشهد بما يتجاوز الثابت في أصل الخبر. المهم أن سمية امرأة آمنت وثبتت وقُتلت بسبب إيمانها؛ ليست مجرد اسم ملحق بترجمة ابنها. ويَرِد أبو حذيفة بن المغيرة في أخبار صلة الأسرة ببني مخزوم، فلا يُخلط بأبي حذيفة بن عتبة المهاجر إلى الحبشة. [١٢,٢١,٥٦]

وعند آية النحل: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»، يروي مجمع البيان خبر عمار وما نطق به تحت العذاب. ويجمع نور الثقلين روايات عن الإمام الصادق تستشهد بعذره في باب الإكراه والتقية. بذلك يُفصل بين كلمة انتُزعت بالقهر وبين صدر انشرح بالكفر. لا يقدح هذا الترخيص في شهادة سمية وياسر، ولا يجعل ثباتهما تكليفًا لازمًا لكل مكره؛ فالمقامات والأحكام لا تُسوّى بغير دليل. ويقابل النبي في الخبر عمارًا بالرحمة وطمأنة القلب، فتظل كرامة المؤمن محفوظة بعد العذاب كما كانت قبله. [٢١,٢٢]

١٨. النساء المستضعفات وأسماء حفظتها السيرة

إلى جانب سمية تظهر زِنّيرة، والنهدية وابنتها، وأم عبيس، وجارية بني مؤمل التي تسميها بعض المصادر لُبينة أو لبيبة. تَرِد أخبارهن في كتب السيرة والتاريخ، ومنها الكامل لابن الأثير، وتذكر التعذيب والعتق وتختلف أحيانًا في اسم المالك أو المعذِّب. أُثبتت هذه الأسماء استكمالًا للحضور النسائي، مع التصريح بأن هذا الموضع يعتمد خبر السيرة المقارن، ولا يدّعي وجود حديث إمامي مسند يثبت جميع تفصيلاته. وتبقى ابنة النهدية باسم الصلة الذي حفظه الخبر؛ فلا يُختلق لها اسم شخصي لإكمال القائمة. [٢٣,٥٨]

وتنسب هذه الأخبار شراء عدد من المستضعفين وعتقهم إلى أبي بكر، وتذكر في بعضها أبا قحافة في حوار معه. يُنقل هذا باعتباره نسبة تاريخية محددة، ولا يُحذف لفكرة مذهبية سابقة، ولا يتحول إلى تصحيح شامل لكل ما رُوي في الباب. وكذلك لا تُستعمل قائمة المعذَّبات للطعن العام في جنس أو قبيلة؛ فداخل المجتمع نفسه نساء آذين ونساء نصرن ونساء هاجرن. والميزان الذي تعلّمه القصة هو العمل والاختيار، لا مجرد النسب أو المال أو كون الإنسان رجلًا أو امرأة. [٢٣,٥٨]

١٩. حمزة وإسلام عمر في أخبار المرحلة

تصل أخبار حمزة بين خبر امرأة رأت الأذى وبين موقف رجل يملك منعة. ففي الرواية المشهورة أخبرته امرأة بما صنع أبو جهل بابن أخيه، فأقبل بقوسه واعترض على المعتدي وأظهر انضمامه إلى دين النبي. يسميها بعض أهل السيرة مولاة لعبد الله بن جدعان، وترد في نقل آخر امرأة من بعض السطوح. يبقى اسمها الشخصي غير ثابت في النصوص المعتمدة هنا، لكن فعلها حاضر: نقلت الاعتداء

فلم يظل مستورًا. ويختلف تأريخ إسلام حمزة بين السنة الخامسة والسادسة في بعض أخبار الباب. [١٤,٢٣,٥٦]

وتروي السيرة إسلام عمر بن الخطاب في المرحلة المكية، وتصل الرواية المشهورة ذلك بأخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد وخباب بن الأرت، مع اختلاف طرق القصة. يُذكر هؤلاء بوصفهم أشخاص هذا الخبر التاريخي، ولا تُنسب تفاصيله إلى الإمام الصادق أو الباقر دون إسناد. كما لا يُتخذ القول بأن المسلمين جهروا بعد إسلام عمر دليلًا على نفي صلاة النبي وعلي وخديجة قبله؛ فالجهر الجماعي واتساع القدرة على الحماية غير ابتداء العبادة. يحفظ هذا التفريق ما يرويه التاريخ دون إلغاء ما سبق من النصوص. [١٣,٢٣]

٢٠. فاطمة الزهراء في البيت المكي

يذكر الكليني في باب مولد فاطمة عليها السلام أنها ولدت بعد المبعث بخمس سنين، بينما تورد كتب أخرى تواريخ مختلفة. ويُعتمد هنا هذا الوجه في ترتيب حياتها داخل السرد الإمامي، مع عدم تسوية الخلاف. نشأت فاطمة في بيت يتلقى الوحي ويواجه العداوة، وعرفت أمها مؤمنة ونصيرة قبل أن تفقدها. وتذكر رواية عن زرارة وحمران، عن الإمامين الباقر والصادق، بنت النبي التي أزالت الأذى عنه وهو ساجد؛ يذكر بعض النقل اسم فاطمة، ويتركه بعضه بوصف «ابنته»، فتُحفظ دقة اللفظ حين تُنسب الرواية. [٤,١٥,٥٩]

وفي أمالي الصدوق خبر عن الإمام الصادق يصف ولادتها، ويسمي النساء اللاتي جئن لنصرة خديجة: سارة، وآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وكلثم أو كلثوم أخت موسى. هذا حضور غيبي يرويه النص، لا زيارة تاريخية لنساء أحياء من عصر خديجة. وترد فيه حور لم يسمِّهن بأسماء فردية. يُسجّل الفصل هذه الشخصيات لأن إسقاطها يخل بما ترويه مدرسة أهل البيت، مع بيان طبقة الخبر وعدم ادعاء أن أسماء آسية وسارة وأخت موسى جميعها مذكورة صراحة في القرآن؛ فمريم هي المسماة فيه، وأسماء الأخريات من الرواية. [١٦]

٢١. الأبناء والكوثر وحضور الأسرة

يحفظ صدر باب الكافي أسماء القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم، ثم الطيب والطاهر وفاطمة، ويذكر اختلافًا في مواليد ما بعد البعثة. ويجعل بعض أهل التاريخ الطيب والطاهر لقبين لعبد الله، بينما تفصل ألفاظ أخرى بينهما. فلا تُزاد الأعداد بجمع الألقاب والأسماء بلا تحقيق. كما لا تُنقل المناقشة الحديثة في نسب رقية وزينب وأم كلثوم إلى حكم متفق عليه عند الإمامية؛ فالنص المراجع من الكافي يذكرهن في أولاد النبي، وإن وُجدت مناقشات أخرى في الباب. والمطلوب هنا حفظ الشخصيات وسياقها، لا حسم بحث أنساب كامل بطريق التلميح. [٤,١٢]

وعند سورة الكوثر يَرِد العاص بن وائل في خبر التعيير بانقطاع العقب بعد فقد الابن. يذكر مجمع البيان النهر والحوض والخير الكثير والذرية والشفاعة في تفسير الكوثر، وينقل عن الإمام الصادق بعض هذه المعاني. وتندرج كثرة ذرية فاطمة في الخير الموهوب، دون حصر لفظ السورة في معنى واحد وإلغاء بقية المروي. أما زينب وأبو العاص بن الربيع فيعودان إلى المشهد في أخبار الصلة أثناء الحصار، وتظهر رقية في أخبار الحبشة. ويبقى لمكة وجه عائلي: ولادة وفقد ووفاء، يتداخل مع الدعوة دون أن يذوب فيها. [١٧,٢٤,٤٣]

٢٢. الطريق إلى الحبشة

حين اشتد الأذى أذن النبي بالخروج إلى الحبشة، حيث ملك لا يُظلم عنده من يلجأ إليه في الأخبار المعتمدة في السيرة. كان البحر طريقًا غير مألوف لجماعة تركت ديارها لتحفظ إيمانها. وتؤرخ الأخبار المشهورة الخروج الأول بالسنة الخامسة، ثم تذكر خروجًا أوسع، مع اختلاف في أعداد الرجال والنساء وفي إدراج بعض الأسماء في الرحلة الأولى أو الثانية. يذكر اليعقوبي اثني عشر رجلًا في الأولى وسبعين في الثانية، وتورد أخبار أخرى أحد عشر رجلًا وأربع نسوة ثم عددًا يزيد على الثمانين. تُحفظ الأرقام بوصفها روايات، ولا يُصطنع مجموع موحد منها. [١٢,٢٤,٢٦]

وتذكر قوائم الخروج المبكر عثمان بن عفان ورقية، وأبا حذيفة بن عتبة وسهلة بنت سهيل، وأبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد وأم سلمة، وعامر بن ربيعة وليلى بنت أبي حثمة؛ وتذكر الزبير وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وعثمان بن مظعون وسهيل بن بيضاء، مع اختلاف في أبي سبرة وحاطب بن عمرو وعبد الله بن مسعود. ليست النساء في هذه القوائم أمتعة مع الرجال، بل مؤمنات اخترن مغادرة الأهل والبلد. وذكر الزوجين معًا يوضح الأسرة المهاجرة، ولا يجعل أحدهما تابعًا بلا اختيار. [٢٤,٢٦]

٢٣. جعفر وأسماء بنت عميس

يحمل جعفر بن أبي طالب في أخبار الحبشة وظيفة البيان باسم الجماعة. لم يكن اختيار المتكلم أمرًا شكليًا؛ فقد واجه المسلمون خصومًا يحملون الهدايا ويعرفون لغة النفوذ، وكان عليهم أن يشرحوا سبب خروجهم وحقيقة دينهم. وتظهر أسماء بنت عميس إلى جانبه مهاجرة، ويذكر الخبر مولد عبد الله بن جعفر في الحبشة. وتذكر أخبار الأنساب أبناء آخرين لجعفر من أسماء، لكن تحديد سنة ولادة كل منهم يحتاج إلى مصدر مستقل؛ فلا تُنقل جميع تفاصيل حياتهم اللاحقة إلى مرحلة الوصول الأولى. [١٢,٢٥,٢٦]

وفي بعض ما حفظه إعلام الورى ونقله المجلسي أن للنجاشي ابنًا سمي محمدًا، وأن أسماء سقته من لبنها. يُذكر هذا التفصيل بحد نسبته، ولا يُجعل دليلًا على تعيين جميع أبناء الملك أو ترتيب عهده السياسي. وله قيمة في كشف الصلات الإنسانية حول الملجأ: الرضاعة والولادة والرعاية، إلى جانب المناظرة في

القصر. أما عودة جعفر إلى النبي وما ارتبط بها من صلاة جعفر وخيبر فمدني متأخر، يُشار إلى استمرار إقامته، وتُترك تفاصيل العودة لموضعها من السيرة. [٢٥]

٢٤. النجاشي ومريم وعيسى في مجلس الحماية

النجاشي لقب ملك الحبشة، وتسميه الأخبار أصحمة، وتَرِد اختلافات في ضبط الاسم والنسب. يصور كلام جعفر انتقالًا من عبادة الأوثان والظلم وقطع الأَرحام إلى التوحيد والعدل والعفاف والصلة. وعندما سُئل عما جاء به النبي قرأ من سورة مريم، فدخلت مريم بنت عمران وعيسى ابن مريم في حجة المهاجرين. ليست مريم امرأة من الجماعة المهاجرة، ولا عيسى شاهدًا حيًا في القصر؛ إنهما شخصيتان قرآنيتان يتعرف أهل المجلس من خلال قصتهما إلى مضمون الرسالة. وهذه الصلة تفسر لماذا لا يكتمل باب الحبشة دون ذكرهما. [٢٤,٢٥]

وتظهر في المجلس جماعة القسيسين والرهبان، وتذكر بعض الروايات بكاءهم أو اعتراض بعضهم. لا تُختلق لهم أسماء ولا تُعامل النصرانية كلها بوصفها موقفًا واحدًا. كما أن ربط آيات المائدة في قرب المودة بالنجاشي وأصحابه تفسير لسبب نزول أو مصداق، ولا يجعل السورة كلها مكية؛ ففي الأخبار وفود جاءت إلى المدينة أيضًا. وقد يضم باب واحد في الكتاب وقائع متباعدة من أول اللجوء إلى خبر بدر ثم الوفاة، لذلك فُصل هنا بين زمن القصة المكية وما استُشهد به لاحقًا على صدق النجاشي وحسن موقفه. [٢٤,٢٥,٦٠]

٢٥. سفارة قريش واختلاف أسماء الرسل

بعثت قريش من يطالب بإعادة المهاجرين. وفي تفسير القمي والخرائج وما نقله المجلسي يَرِد عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، بينما يُذكر عبد الله بن أبي ربيعة في طريق مشهور من رواية أم سلمة في السيرة. لا يُجزم بأن الاسمين لشخص واحد، ولا يُفترض تعدد السفارات حلًا نهائيًا من غير برهان مستقل. والمشترك أن النجاشي لم يكتفِ بكلام الخصوم، بل سمع من الجماعة التي تريد قريش تسليمها. فكان تمكين المهاجرين من الكلام شرطًا لكشف الفرق بين الاتهام ومضمون اعتقادهم. [٢٥,٢٦,٦١]

وفي ذيول بعض الأخبار حكاية عن عمارة وامرأة أو وصيفة في قصر النجاشي، وعن زوجة عمرو، وتسميها رواية اليعقوبي رابطة بنت منبه. أُثبت ورود هذه الشخصيات في سجل المراجعة، لكن لم تُبنَ عليها قصة جازمة عن علاقات خاصة؛ فالتفاصيل مضطربة والطريق مختلف. وكذلك يرد في بعض النقول اسم عبد الله بن جحش حيث المشهور في زوج أم حبيبة عبيد الله بن جحش، وترد مارية في سياق هدايا النجاشي مع أن خبرها المعروف يتعلق بالمقوقس ومرحلة مدنية. هذا موضع تصحيح وفصل، لا موضع نسخ جميع ألفاظ الجامع بلا نقد. [١٢,٢٥,٢٦]

٢٦. أسر الحبشة التي لا تختصر في اسم قائدها

تزيد قوائم السيرة أسماء نساء وأسر لا تظهر كلها في الخبر المختصر للمجلس: أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان مع عبيد الله بن جحش؛ وسودة بنت زمعة مع السكران بن عمرو؛ وأم كلثوم بنت سهيل مع أبي سبرة؛ وفاطمة بنت صفوان مع عمرو بن سعيد؛ وأمينة أو أميمة بنت خلف مع خالد بن سعيد؛ وبركة بنت يسار مع قيس بن عبد الله؛ وأم حرملة مع جهم بن قيس؛ ورملة بنت أبي عوف مع المطلب بن أزهر. هذه قائمة تاريخية للمقارنة والاستكمال، وليست رواية واحدة عن إمام، ولا ضمانًا لاتفاق النساخ على كل نسب فيها. [٢٦]

وتذكر القوائم ريطة بنت الحارث مع الحارث بن خالد، وفاطمة بنت المجلل مع حاطب بن الحارث، وفكيهة بنت يسار مع خطاب بن الحارث، وحسنة مع سفيان بن معمر، وعمرة بنت السعدي مع مالك الذي تختلف بعض النقول في اسم أبيه. وتذكر أطفالًا ولدوا هناك، منهم محمد بن أبي حذيفة، وزينب بنت أبي سلمة، وعبد الله بن جعفر، وسعيد وأمة ابنا خالد بن سعيد. تحفظ هذه الأسماء أن اللجوء حياة أسر كاملة، لا سفر رجال فقط. أما تمام خبر أم حبيبة وزواجها بالنبي فمتأخر، فلا يُدرج ضمن أحداث ما قبل الهجرة إلى المدينة. [٢٦]

٢٧. عبد الله بن أم مكتوم وموضع سورة عبس

لا يسمّي مطلع سورة عبس من عبس وتولى، ولا يسمّي الأعمى باسمه. ويعيّن المفسرون الأعمى بعبد الله بن أم مكتوم، مع اختلاف في اسمه ونسبه. وينقل مجمع البيان القصة المشهورة في نسبة العبوس إلى النبي، ثم يعرض اعتراض السيد المرتضى على هذه النسبة، ويروي عن الإمام الصادق أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي. وينقل نور الثقلين عن التفسير المنسوب إلى القمي خبرًا يسمّي عثمان بن عفان، إلى جانب نقل ما في المجمع. لا يحوَّل هذا التعدد إلى إجماع غير موجود، ولا يُنسب التعيين المختلف فيه إلى لفظ القرآن. [٢٧,٢٨]

ويُقدَّم في هذا الفصل الاتجاه المنقول عن أهل البيت الذي ينزه النبي عن الإعراض عن طالب الهداية لفقره، مع بيان أن مستند التعيين رواية تحتاج إلى بحثها، لا مجرد اختيار أدبي. ويتفق المقصد الأخلاقي للآيات على أن الساعي إلى التزكي لا تُنقصه إعاقته ولا فقره، وأن الاستغناء الاجتماعي لا يمنح صاحبه حق التقدم على طالب العلم. لذلك يُذكر ابن أم مكتوم بصفته طالبًا للقراءة والهداية، لا مجرد أداة في الجدل حول شخص آخر. حضوره يكشف سؤالًا دائمًا: من تراه الجماعة جديرًا بأن تُصغي إليه؟ [٢٧,٢٨]

٢٨. الفقراء في مجلس النبوة

يقول القرآن: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه». ويشرح مجمع البيان الآية بأخبار طلب الفصل بين أهل الجاه والمستضعفين، ويذكر أسماء عمار وبلال وخباب وصهيب في هذا

المحيط. غير أن بعض طرق القصة تذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، وهما اسمان ترتبط مجالسهما المعروفة بالمرحلة المدنية. لهذا يثبت الفصل المبدأ القرآني، ولا ينقل كل مشهد أورده التفسير إلى مكة بلا فحص. فقد يجمع المفسر سبباً ومصداقاً وخبراً في المعنى، ولا يكون عنوان السورة وحده تاريخاً لكل رواية تحتها. [٢٩]

ويترتب على هذا المبدأ أن المجلس ليس ملكًا للأغنياء يحددون من يجلس فيه. فالمؤمن الذي لا يملك حماية القبيلة يجد اعترافاً لا تمنحه إياه السوق ولا العصبية. وإلى هذا المعنى تتصل آيات الكهف في ملازمة الذين يدعون ربهم وعدم تجاوزهم طلباً لزينة الحياة. إن تعليم الجماعة أن ترى صاحب العبادة والصدق، بدل قياسه بثوبه أو ماله، جزء من بناء الدعوة نفسها. وهو ما يجعل أخبار بلال وخباب وصهيب وأبي فكيهة وعامر بن فهيرة عناصر في تفسير التحول الاجتماعي، لا أسماء زائدة على قصة الزعماء. [٢٩,٣١]

٢٩. القرآن يعيد ترتيب الحياة المكية

لم تقتصر السور المكية على مناقشة الأصنام. ففي الإسراء أوامر ببر الوالدين وإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل، ونهي عن قتل الأولاد والفاحشة والقتل بغير حق وأكل مال اليتيم وبخس الكيل والمشي مرحًا. وفي البلد وصف للعقبة باقتحام مجال العتق والإطعام في يوم المسغبة. تدخل الأم والأب واليتيم والمسكين في خطاب الرسالة، ولو لم يثبت اسم كل واحد منهم في كتاب سيرة. والإحاطة بالشخصيات لا تعني اختراع أسماء لمن أبهمهم القرآن؛ بل حفظ حضور هذه الفئات وما فرضه الوحي من حقوق لها. [٥٥,٦٢]

وتُستحضر قصص الأنبياء لتثبيت الرسول وإقامة الحجة على السامعين: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في مواجهة أقوامهم، وإبراهيم في جدال الأوثان، وموسى وهارون في مواجهة فرعون، ويوسف في المحنة، ويونس في الضيق. وترِد النساء في هذه القصص بفاعلية الإيمان أو الامتحان: مريم، وأم موسى وأخته، وامرأة فرعون، وامرأة العزيز، وملكة سبأ، وغيرهن مما فصلته الفصول السابقة. حضورهن هنا حضور في التلاوة والتعليم، لا مشاركة زمنية في مجتمع مكة، ولا موجب لإعادة سيرهن كاملة داخل سيرة النبي. [٣١,٤٠,٥٥,٦٣]

أصحاب الجنة: البستان الذي صار امتحانًا

في القلم ٦٨:١٧–٣٣ تظهر جماعة أرادت قطع الثمر صباحًا ومنع المساكين. أُصيبت الجنة ليلًا، فلما رأوها ظنوا أنهم أخطؤوا الطريق، ثم أقروا بالحرمان والظلم. وذكّرهم أوسطهم بالتسبيح، فتلاوموا ورغبوا إلى ربهم. الجنة هنا بستان، وأصحابه وأوسطهم والمساكين شخصيات وأدوار لم تسمّها الآيات. وترد قصتهم هنا لأنها من تعليم الوحي لأهل مكة، لا لأن أصحاب البستان ثبت أنهم عاصروا النبي ﷺ. [٦٦]

ويحفظ تفسير القمي خبرًا عن ابن عباس يذكر أبًا كان يؤدي حقوق الفقراء وخمسة أبناء ورثوا بستانه، اعترض أصغرهم وأعقلهم على المنع ثم أُكره. هذا التفصيل من خبر ابن عباس. أما النقل التالي عن أبي الجارود عن الإمام الباقر فيربط المثل بابتلاء أهل مكة ويذكر بستانًا في اليمن. فلا تُنسب تفاصيل الطريق الأول كلها إلى الإمام، ولا يثبت القرآن عدد الأبناء أو اسم الأب. [٦٧]

صاحب الجنتين وصاحبه: الحوار الذي كشف الغرور

وفي الكهف ١٨:٣٢-٤٤ رجلان: صاحب جنتين أعجب بماله ونفره واستبعد زوال نعمته وشك في الساعة، وصاحب مؤمن ذكّره بالخالق وبالشكر. ثم هلك الثمر وبقي الغني نادمًا لا تنصره فئته. لا يسمي القرآن الرجلين أو أولادهما. وينقل مجمع البيان قولًا بأنهما ابنا ملك، ثم يورد عن تفسير القمي أنهما غني وجار فقير، ويرى هذا ألصق بظاهر الآيات. تبقى هذه تعيينات تفسيرية، ويُحفظ حضور الصاحب الناصح والنفر والأولاد المشار إليهم دون أسماء مخترعة. [٦٨]

التي نقضت غزلها: صورة الوفاء المنقوض

ويضرب النحل ١٦:٩٢ صورة امرأة تنقض ما أحكمت غزله للتحذير من نقض الأيمان. يذكر مجمع البيان، عن الكلبي، امرأة قرشية تدعى ريطة بنت عمرو وجواري يغزلن معها، ويذكر كذلك القول بأنه مثل لا يتوقف على تعيين امرأة بعينها. فالمرأة حاضرة في النص بوصفها، والاسم والجواري من التفسير المنقول، ولا يُجعل تشبيه نقض العهد سيرة قرآنية مفصلة لها. [٦٩]

شخصيات الأمثال: الوصف لا يستلزم اسمًا تاريخيًا

وتظهر في النحل ١٦:٧٥-٧٦ صورة العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء في مقابل من ينفق رزقه، وصورة الأبكم ووليه في مقابل الآمر بالعدل. وفي الزمر ٣٩:٢٩ رجل يتنازعه شركاء متشاكسون وآخر خالص لرجل واحد. هذه أدوار في أمثال تشرح التوحيد والعمل، فلا تُحوّل جميعها إلى أشخاص مؤرخين. وينقل مجمع البيان في النحل تعيينات منسوبة إلى عطاء ومقاتل، منها أُبيّ بن خلف، وحمزة وعثمان بن مظعون، وهاشم بن عمرو؛ وهي أقوال تفسيرية مختلفة، وليست أسماء نطقت بها الآيات أو قائمة رواها إمام. [٧٠]

وفي الصافات ٣٧:٥٠-٦١ يذكر أحد أهل الجنة قرينًا كان يشككه في البعث، ثم يطّلع فيراه في الجحيم ويحمد نعمة النجاة. لا يسمي النص القائل ولا قرينه. وقد نُقل في التفسير ربطهما برجلَي الجنتين، لكنه قول زائد على ألفاظ السورتين، فلا تدمج القصتان في سيرة واحدة مقطوع بها. وموضعهما هنا تعليم القرآن عن أثر الصحبة والاختيار، مع بقاء تفصيل مشاهد الآخرة لكتبه في السلسلة. [٧١]

٣٠. حماية الوحي وخبر الغرانيق

من المواضع التي يجب تدقيقها قبل ربطها بعودة بعض مهاجري الحبشة قصة الغرانيق المنسوبة إلى تلاوة سورة النجم. يورد مجمع البيان الخبر في تفسير آية الحج «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي»، ثم ينقل نقد السيد المرتضى للأحاديث المروية في الباب وتنزيه الرسل عما تضمنته. وتعرض المناقشة وجوهًا في تفسير إلقاء الشيطان، منها تحريف السامعين أو إلقاء المعارضين، فلا تساوي بين الإلقاء الشيطاني وبين إقرار النبي مدح الأصنام وحيًا. لا يُكتب في هذا الفصل أن الرسول نطق مدح اللات والعزى ومناة على أنه قرآن ثابت. [٣٥,٤٠]

واللات والعزى ومناة أسماء معبودات جاهلية ذكرها القرآن في معرض الإبطال، لا أسماء نساء يجب إدخالهن في تراجم المؤمنات أو المشركات. أما رجوع بعض المهاجرين بعد سماع خبر عن تحسن الحال في مكة فخبر تاريخي يحتاج إلى طريقه، ولا يُثبت بذاته صحة كل تفسير قُدِّم لسبب الإشاعة. هذا التفريق يحفظ واقعة العودة حيث تَرِد، ويمنع استعمالها دليلًا دائريًا: تصح القصة لأن الناس عادوا، ويثبت سبب العودة لأن القصة صحيحة. المرجع الأول في نسبة الكلام إلى الوحي هو النص المحفوظ، ثم نقد الروايات المفسرة له. [٢٦,٣٥,٤٠]

٣١. انشقاق القمر وحدود الخبر

تفتتح سورة القمر بقرب الساعة وانشقاق القمر، وتذكر إعراض المعاندين وتسميتهم الآية سحرًا مستمرًا. ويعرض مجمع البيان ونور الثقلين الروايات التي تجعل الانشقاق آية ظهرت في عهد النبي، وينقلان طرقًا عن ابن مسعود وابن عباس وأنس وحذيفة وجبير بن مطعم وغيرهم. وجود اسم راوٍ متأخر السن أو غير حاضر في مجلس مخصوص لا يجعله شاهدًا مباشرًا على كل التفصيل؛ فالرواية قد تكون نقلًا عمن شهد. لذلك يُذكر أصل الآية وتفسيرها المشهور، وتفصل عنه دعاوى المكان الدقيق والعدد والتوقيت التي تختلف بها الأخبار. [٣٦,٣٧]

ولا يحتاج تحرير هذه الآية إلى إلحاق حكاية ملك هندي أو خبر رصد حديث أو دعوى أثر جيولوجي لم تُفحص مصادره. كما لا تُجمع أخبار انشقاق القمر مع أخبار الشجرة والصخرة والناقة في واقعة واحدة. يذكر باب الدلائل ركانة في خبر المصارعة والشجرة، ويذكر غيره من طالبي الآيات، تحفظ نسبتهم إلى أخبارهم دون إعطائها حكمًا واحدًا. فآيات الله في القرآن موضوع هداية وامتحان، وليست مادة لتكثير المشاهد حتى يضيع الفرق بين النص القرآني والرواية التاريخية وخبر المعجزة ذي الطريق الخاص. [٢٣,٣٦,٣٧]

٣٢. الإسراء من المسجد الحرام

يثبت القرآن الإسراء بالعبد ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، ويجعل غايته إراءة الآيات. هذا هو النص الذي يبدأ منه البحث. ويعرض الطبرسي اختلاف الأخبار في

موضع الابتداء وتاريخ الليلة، ويذكر في بعض الروايات بيت أم هانئ بنت أبي طالب. تُحفظ أم هانئ باسمها وصلتها، ولا تُخلط بأم أيمن بركة، ولا بأسماء بنت عميس. أما كون الابتداء من البيت أو من المسجد في بعض الألفاظ فتناقشه كتب التفسير باعتبار سعة إطلاق الحرم أو تعدد الخبر، لا يختار السرد حلًا قطعيًا لم يثبته المصدر. [١٢,٣٨]

ويقرر الاتجاه الإمامي المعروف حقيقة الإسراء والمعراج، مع اختلاف تفاصيل الروايات. وينبه الطبرسي إلى أن بعض ما حُكي في الباب مقبول، وبعضه محتمل، وبعضه لا يصح على ظاهره، وبعضه منكر، وهذه ملاحظة نقدية من داخل التفسير نفسه. فلا يحمل إثبات أصل الإسراء على قبول كل قصة لحقت به. وتذكر الأخبار البراق بوصفه مركوب الرحلة، وجبرئيل هاديًا بإذن الله، وترد في بعض طرقها مشاركة ميكائيل وإسرافيل عند الابتداء. تبقى هذه أوصاف الرواية، والآية لا تسمي البراق ولا تفصل ترتيب السماوات. [٣٨,٣٩]

٣٣. الأنبياء في رواية المعراج

في الخبر الطويل المنقول عن تفسير القمي، بطريق ينتهي إلى الإمام الصادق، يَرِد آدم في السماء الأولى، ويحيى وعيسى في الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة. تُنسب هذه الخريطة إلى ذلك الخبر، ولا يُقال إن سورة الإسراء عددتهم بهذا الترتيب. ويتبادل الرسول معهم السلام في معنى اتصال النبوات، لا في معنى انتقال الرسالة الخاتمة إلى سلطة نبي سابق. وهم شخصيات حاضرة في رواية اللقاء الغيبي، متميزة عن الشخصيات التي سمع أهل مكة قصصها في القرآن. [٣٩]

ويظهر موسى في أخبار مراجعة عدد الصلوات، وتختلف طرق الباب في ألفاظها وتفاصيلها. فلا يتحول الحوار إلى انتقاص من علم النبي أو رحمة الله، ولا يُحذف من الكتاب لمجرد صعوبة فهمه؛ بل يُروى في حدوده ويُحال إلى بحثه العقدي والحديثي. وعند سورة النجم يعرض المفسرون الكلام على المرئي والدنو وآيات الرب الكبرى. لا يثبت النص رؤية الله جسمًا بالعين، ولا يجعل القرب مسافة مادية بين الخالق والمخلوق. فتنزيه الله أصل يحكم فهم ألفاظ الرؤية والدنو، وتُقرأ الروايات على ضوئه. [٣٩,٤٠]

٣٤. الملائكة والنساء غير المسمّيات في أخبار المعراج

تسمي الروايات مالكًا خازن النار، وتذكر ملك الموت وملائكة أبواب السماوات، وتصف جماعات من الملائكة بالتسبيح والخشوع. اسم مالك معروف في القرآن في سورة الزخرف، أما التفاصيل التي تضعه في حوار المعراج فمن الرواية. وملك الموت في القرآن موصوف بوظيفته، فلا يُنسب اسم عزرائيل إلى آية لم تسمه. كما لا تتحول أوصاف الملائكة المجازية أو الخبرية إلى صور لله؛ فالتمييز بين الخالق ورسله من الملائكة لازم في كل موضع. [٣٩]

وفي بعض أخبار الطريق امرأة متزينة تدعو النبي، ثم يُفسَّر ظهورها بالدنيا، وفي أخبار مشاهد الجزاء رجال ونساء موصوفون بأعمال مثل أكل أموال اليتامى أو الربا أو إفساد الأنساب. هذه شخصيات تمثيلية أو جماعات غير مسماة في الرواية، فلا تُخترع لهن أسماء ولا يُحكم أنهن نساء معاصرات للنبي عاين مصيرهن النهائي. ولا يصح تحويل أخبار وعظية متفاوتة الطرق إلى قائمة اتهامات عامة للنساء. يُحفظ أصل الوعظ والعدل والمسؤولية المشتركة، وتُترك الروايات المفصلة في درجة ثبوتها الخاصة. [٣٨,٣٩]

٣٥. النفر من الجن وامتداد الإنذار

تذكر سورتا الجن والأحقاف نفرًا استمعوا إلى القرآن، فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين. لا يسميهم القرآن بأسماء أفراد، ولا يحصر عددهم في سبعة أو تسعة. يورد مجمع البيان أخبارًا تنسبهم إلى نصيبين أو اليمن، ويذكر في قول زر بن حبيش اسم زوبعة، كما يذكر أخبارًا متعارضة في حضور ابن مسعود ليلة الجن. تُحفظ هذه النسب والأسماء على أنها تفاصيل تفسيرية متفاوتة، ويُبنى أصل القصة على الاستماع والإيمان والإنذار الذي صرح به النص. ولا يُجعل كل ما ورد في كتب الجن حادثة واحدة وقعت في ليلة واحدة. [٤١,٤٢]

وتضع بعض الروايات هذا الاستماع عند نخلة بعد الرجوع من الطائف، بينما تصفه أخرى في مسير إلى سوق عكاظ أو في لقاء مخصوص. لذلك جُمع بحثه هنا موضوعيًا دون تثبيت تاريخ لا تتفق عليه المصادر. ويَرِد إبليس في تفسير «سفينا» وفي أخبار رنته عند البعثة، لكنه ليس واحدًا من المؤمنين الذين رجعوا إلى قومهم منذرين. أما النساء من الجن فلا تُضاف شخصية بعينها إلى هذا المجلس المكي لمجرد ورود امرأة من الجن في قصة نبي آخر. فالاتساع الذي تثبته الآيات هو شمول الدعوة، لا إباحة وصل أخبار متباعدة بلا دليل. [٦,٤١,٤٢]

٣٦. الصحيفة القاطعة ودخول الشعب

حين لم تفلح الخصومة في تسليم النبي، اتجهت قريش إلى مقاطعة بني هاشم وبني المطلب. تذكر الأخبار صحيفة تمنع البيع والشراء والمناكحة والمخالطة حتى يُسلَّم محمد. وفي هذا الانتقال صار الأذى نظامًا جماعيًا يضغط على الأسرة كلها ليبلغ غايته في فرد. ويَرِد أبو لهب خارج التضامن الهاشمي في المقاطعة، فلا يُنسب موقف واحد إلى جميع أبناء عبد المطلب. ويحفظ اليعقوبي اسم منصور بن عكرمة في كتابة الصحيفة، بينما تختلف مصادر أخرى في اسم كاتبها؛ فوظيفة الكاتب ثابتة في الخبر، وتعيينه يُترك بحسب الطريق. [١٢,٤٣,٤٤]

وتختلف مدة الإقامة بين سنتين وثلاث وأربع في الأخبار التي جمعها المجلسي، كما يختلف تأريخ البداية. لا تُعرض السنوات الثلاث المشهورة كأنها الرقم الوحيد الذي عرفه التراث. والمشترك بين الروايات أن المقاطعة طالت، وأن الطعام صار عسير الوصول، وأن الخروج إلى المواسم لم يرفع الضيق المستمر. لم

يكن الشعب مجرد موضع اعتزال اختاره المؤمنون للعبادة؛ كان مجال حصار وحراسة وخوف على حياة النبي، تشارك في تبعاته أطفال ونساء ورجال لا تختصرهم أسماء قادة بني هاشم. [٤٣,٤٤]

٣٧. الحراسة والإنفاق وإيصال الطعام

تصف الأخبار أبا طالب وهو يبدل موضع نوم النبي ويحرسه ويستعين بولده وأبناء إخوته. وتصف خديجة وهي تنفق مالها في المحنة. كانت الحماية عملًا يتكرر كل ليلة، والإنفاق استنزافًا طويلًا، لا تبرعًا رمزيًا في بداية القصة. وتذكر رواية إرسال أبي العاص بن الربيع الطعام إلى الشعب ليلًا، كما تذكر أخبار أخرى حكيم بن حزام يحمل الطعام إلى عمته خديجة، واعتراض أبي جهل عليه وتدخل أبي البختري. تُروى وجوه الصلة كما جاءت، ولا يُستنتج من إعانة شخص في واقعة أنه كان يومئذ على عقيدة جميع من أعانهم. [٤٣,٤٤]

وترد أسماء هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية ومطعم بن عدي وزمعة بن الأسود وأبي البختري في أخبار السعي إلى نقض المقاطعة، مع اختلاف التفصيل بين المصادر. من المهم حفظ هذه الأسماء لأن المجتمع لم يكن كتلة نفسية واحدة؛ حتى من لم يتبع الرسالة قد يرفض تجويع الأرحام. وفي المقابل لا يجعل القرب من بني هاشم كل فعل نصرة خاليًا من حساب القرابة أو المصلحة. يتسع السرد للأفعال المحددة كما هي: إطعام، واعتراض، وحماية، ثم يترك الحكم على السرائر لمن يعلمها. [٢٣,٤٤]

٣٨. انكشاف أمر الصحيفة والخروج من الحصار

تروي مصادر السيرة الإمامية أن النبي أخبر أبا طالب بأكل الأرضة ما في الصحيفة من قطيعة وظلم وبقاء اسم الله، فطلب أبو طالب إحضارها وجعل ظهور الخبر حجة على القوم. ويذكر المجلسي اختلافًا في بعض ألفاظ ما أُكل وما بقي، ويرجح الوجه الموافق للأخبار التي ساقها ولشعر أبي طالب. لا تُسوّى الروايات المتباينة قبل قراءتها. ويجتمع في خبر الخروج وجهان: دلالة يخبر بها النبي، وحراك رجال رفضوا استمرار المقاطعة. لا يلزم من ذكر أحدهما محو الآخر، ولا من اجتماعهما إثبات كل عبارة نُقلت في المجلس. [٤٣,٤٤]

ولم يمحُ الخروج آثار الجوع والإنهاك. فقد استُهلك مال، واضطربت معايش، وعرف الأطفال معنى أن يمنع الكبار الطعام عنهم لإرغام أهلهم على تسليم قريب. من هنا تصبح قراءة الحصار أوسع من عدّ سنواته أو وصف وثيقته. إنه امتحان لوظيفة الرحم حين تتحول العصبية إلى ظلم، وامتحان للثبات حين يطول الانتظار. وقد عاد بنو هاشم إلى مخالطة الناس، لكن الأمان لم يعد كاملًا، وكانت خسارة الحاميين الكبيرين قريبة في ترتيب أخبار السيرة. [١٢,٤٣,٤٤]

٣٩. فقد خديجة وأبي طالب

تتابعت على النبي مصيبتا خديجة وأبي طالب، وسُمي العام في أخبار السيرة عام الحزن. تختلف الروايات في أيهما توفي أولًا، وفي المدة بين الوفاتين، وفي الزمن الفاصل إلى الهجرة. يذكر اليعقوبي وجهًا، ويذكر صدر الكافي وجهًا آخر، ويجمع المجلسي أقوالًا في الأيام والأسابيع والأشهر. لذلك لا تُكتب عبارة أن بينهما ثلاثة أيام أو خمسًا وثلاثين ليلة باعتبارها محل اتفاق. الثابت في معنى المرحلة أن الرسول فقد نصرة البيت الداخلية وحماية العم الظاهرة، وأن قريشًا اجترأت بعد غياب أبي طالب بما لم تكن تجترئ عليه من قبل. [٤,١٢,٤٧]

وتروي أخبار فاطمة أنها سألت عن أمها، فجاءت البشارة بمنزل خديجة في الجنة. ويَرِد عند احتضار خديجة ذكر مريم وآسية وأخت موسى في خبر حفظه الفقيه ونقله المجلسي. تُسجّل هذه الشخصيات في مقام البشارة الغيبية، ولا تعاد صياغتها كمشهد دنيوي شهدته نساء مكة. وفي الحزن تظهر قيمة خديجة التي لا يعوضها مجرد استمرار الجماعة في الزيادة؛ فالرسالة لا تلغي ألم الفقد، وصبر النبي لا يعني أن قلبه لا يحزن. [١٢,٤٧]

٤٠. إيمان أبي طالب في تفسير أهل البيت

يصرح الطبرسي عند آية الأنعام «وهم ينهون عنه وينأون عنه» برد تفسيرها بأبي طالب، ويحتج بسياق الآيات وبإجماع أهل البيت على إيمانه، كما يناقش عند «إنك لا تهدي من أحببت» الأخبار التي ربطتها بوفاته. يعرض الفصل هذا الموقف بوصفه اتجاه المصدر الإمامي المعتمد، ولا يقدمه على أنه اتفاق جميع مدارس التفسير. فحقيقة وجود اختلاف مذهبي لا تبيح طمس اختيار أهل البيت في كتاب موضوعه رواياتهم، كما لا تبيح نسبة كل خبر مخالف إليهم لأن جامعًا متأخرًا أدرجه للنقل أو المناقشة. [٤٥,٤٦]

وتشهد أخبار النصرة والشعر والوصايا على صورة أبي طالب في هذه المدرسة: مؤمن يحمي الرسول بتدبير يناسب موضعه في قومه، وقد لا يجاهر بكل ما يبطن بالطريقة التي يطلبها خصومه. لكن الاستدلال بمجموع هذه المواد لا يغني عن فحص كل سند عند إرادة الحكم الحديثي الدقيق. ولهذا لا يصف الفصل كل بيت شعر بأنه متواتر، ولا يجعل الرواية المرسلة صحيحة لموافقتها النتيجة المختارة. يحفظ الموقف العقدي ودليله كما قرره أصحابه، ويفصل ذلك عن أحكام تفصيلية لم تُنجز لها دراسة رجال مستقلة هنا. [١٢,٤٥,٤٦,٤٧]

٤١. سودة وخولة وعائشة بعد خديجة

تذكر أخبار السيرة زواج النبي بسودة بنت زمعة بعد خديجة، وتذكر خولة بنت حكيم زوج عثمان بن مظعون في عرض أمر الزواج، كما تذكر عقده على عائشة بنت أبي بكر قبل الهجرة. وتعود سودة إلى سياق الحبشة من خلال زواجها السابق بالسكران بن عمرو. يجمع هذا الموضع أسماء النساء وأدوارهن

المحددة: امرأة عرفت الهجرة والفقد، وامرأة سعت في الصلة، وامرأة ارتبط عقدها ببيت النبي. ولا تُنقل تفاصيل الدخول والحياة المدنية إلى مكة، كما لا تُحسم مسألة العمر المختلف في بحثه بإشارة عابرة. [٢٦,٤٩]

وفي محيط الأسرة تبقى أم أيمن بركة، وفاطمة بنت أسد، وصفية بنت عبد المطلب، وأم هانئ، وأسماء بنت أبي بكر أسماء ينبغي تمييزها، وإن لم تمنح الأخبار لكل واحدة مشهدًا مستقلًا في كل سنة مكية. سبقت أصول صلتهن في الفصل ٤٧، ويأتي تفصيل مشاركة بعضهن في الهجرة بعد هذا الفصل. فلا تُجعل أسماء بنت عميس حاضرة في أحداث مكة في سنوات إقامتها بالحبشة بلا دليل، ولا تُخلط بفاطمة بنت الخطاب أو أسماء بنت أبي بكر. تكرر الأسماء والكنى يقتضي ضبط النسب قبل نقل الدور. [٤,١٢,٢٦,٣٨]

٤٢. الطائف: ثلاثة إخوة وعداس

بعد فقد أبي طالب قصد النبي ثقيف بالطائف طالبًا من يسمع ويحمي البلاغ. تسمّي الرواية التي نقلها إعلام الورى سادتها الثلاثة: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو. رفضوا الدعوة بأجوبة جارحة، ثم تعرض الرسول للرمي بالحجارة. ويَرِد زيد بن حارثة رفيقًا في أخبار الرحلة. لا يُختصر أهل الطائف جميعًا في أسماء هؤلاء، ولا يُتخيل أن كل ساكن شارك في الأذى؛ الخبر يعيّن الزعماء ومن أغروا أو استجابوا، ويترك عامة السكان خارج حكم لا دليل عليه. [١٢,٤٨]

وفي البستان يظهر عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ويبعثان غلامهما عداسًا بعنب. يعرّفه الخبر بأنه نصراني من نينوى، ويفتح ذكر يونس بن متى باب التعارف بينه وبين النبي. دخل اسم يونس هنا من حديث الرسول عن نبي سابق يعرفه عداس، لا من حضور يونس في الطائف. ومع اختلاف بعض التفاصيل يبقى للمشهد معناه: قد يرفض أصحاب السلطة، ويصغي من لا يملك سلطتهم. لم تمنع جراح النبي أن يبلّغ إنسانًا واحدًا، ولم تجعل الخدمة الاجتماعية لعداس قدرته على الفهم أقل من قدرة ساداته. [١٢,٤٢,٤٨]

٤٣. العودة في جوار مطعم بن عدي

عند الرجوع إلى مكة تظهر مشكلة الحماية من جديد. يروي الخبر طلب الجوار من الأخنس بن شريق، ثم سهيل بن عمرو، ثم مطعم بن عدي الذي قبل. ويذكر طعيمة بن عدي مع أبناء مطعم وأصهاره في إظهار الحماية بالسلاح عند البيت. هؤلاء ليسوا أسماء عابرة؛ فالطواف في البلد الذي ولد فيه الرسول صار يحتاج إلى أمان معلن. وقد سبق للأخنس وسهيل حضور في سياقات أخرى، فلا يُفسَّر امتناع كل واحد منهما بالعبارة نفسها؛ ينقل الخبر عذر الحلف عن الأخنس ورفضًا عن سهيل. [٤٨]

وتختلف الأخبار في مدة هذا الجوار؛ ففي رواية لا يريد النبي الإقامة فيه أكثر من يوم بعد أداء الطواف والسعي، وفي نقل آخر مدة أطول. لذلك لا يُبنى فصل زمني جازم على أحد الرقمين دون

بيان. والمشترك أن قبول حماية اجتماعية محددة لم يكن تنازلًا عن مضمون التوحيد، وأن الوفاء بالمعروف يمكن أن يُذكر لمن لم يتبع الدين آنذاك. ومن هنا يعود مطعم بن عدي إلى سجل الشخصيات مرتين: في نقض المقاطعة وفي الجوار، ويُحفظ لكل موقف سياقه. [٤٤,٤٨]

٤٤. عرض الدعوة على القبائل

استمر النبي يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويطلب من يحميه حتى يبلغ كلام ربه. تذكر الأخبار كندة وكلبًا وبني حنيفة، وتصف ردودًا مختلفة. وكان أبو لهب يتبعه في بعض المشاهد محذرًا الناس منه، فيواجه طالب الهداية صوتين: دعوة الرسول وصوت قريبه الذي يكذبه. ليس السوق هنا مكان تجارة فقط؛ إنه لقاء قبائل وفرصة لخروج الخبر من احتكار قريش. ولذلك بقيت المواسم منفذًا للدعوة حتى حين ضاقت الحياة اليومية داخل مكة. [١٢,٤٣,٤٩]

وفي خبر بني عامر بن صعصعة يسأل بحيرة بن فراس عمن يكون له الأمر بعد النبي إذا هم نصروه، فيأتي الجواب بأن الأمر لله يضعه حيث يشاء. يَرِد هذا في السيرة، ويُستعمل هنا لإيضاح طبيعة الشرط السياسي الذي قد يواجه الدعوة، لا لإثبات كل خبر مطول عن وفود القبائل. يثبت الفصل أن الرسول طلب منعة للبلاغ، وأنه لم يجعل الرسالة ملكًا يمكن مقايضته على النصرة. [٦٤]

٤٥. يثرب بين الحرب وانتظار المخرج

كانت يثرب تعرف صراع الأوس والخزرج وحروبًا أرهقت البيوت. وتذكر الأخبار يهود بني النضير وقريظة وقينقاع في خلفية المعرفة بانتظار نبي، مع اختلاف في الألفاظ ومن قالها. لا تُنسب المعرفة أو النية نفسها إلى كل فرد من هذه الجماعات، ولا يُستبق تاريخ علاقاتها المدني بحكم جاهز على كل مرحلة. في هذا الوسط بدت الدعوة لبعض أهل يثرب فرصة إيمان وفرصة لجمع الكلمة بعد العداوة، وهو ما تقوله الأخبار عن رجائهم أن يؤلف الله بينهم بالنبي. [١٢,٥٠,٦٤]

قبل البيعتين المشهورتين يظهر سويد بن الصامت في خبر صحف أو حكمة لقمان، ويظهر إياس بن معاذ في خبر وفد يبحث عن الحلف. لقمان هنا صاحب حكمة تُعرض، لا شاهدًا حيًا في مكة. وتختلف المصادر في إثبات تمام إسلام سويد وإياس وفي ترتيب الزيارات. كما يروي إعلام الورى لقاء أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس بالنبي، وسماع أسعد بعد أن حذره عتبة بن ربيعة. تُحفظ هذه البدايات المتعددة دون دمج الرجال في وفد واحد أو عدّ كل لقاء بيعة عقبة مستقلة. [١٢,٥٠,٦٤]

٤٦. الستة والاثنا عشر في العقبة الأولى

تسمي الرواية المشهورة في اللقاء الأول ستة من الخزرج: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث ابن عفراء، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب. والأخير غير جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام المشهور، فلا يختصر الاسم على نحو يوقع في الخلط. ويظهر اسم

عفراء في نسبة ابنها، فيُحفظ حضور الأم في التعريف، من غير أن يثبت بذلك وحده أنها حضرت مجلس الستة. وتَرِد في بعض النقول صور مصحفة للأسماء، ولذلك قورنت القائمة بنص السيرة. [٤٩,٦٤]

وفي العام التالي تذكر السيرة اثني عشر رجلًا: أسعد، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة. وتوصف البيعة في بعض الأخبار ببيعة النساء، أي على شروط الإيمان والعمل قبل التكليف بالقتال، لا لأن المجتمعين الاثني عشر نساء. وهذا الاصطلاح لا يثبت نزول آية الممتحنة المدنية يومئذ؛ إنه تسمية بالمشابهة في الشروط. [٥٢,٥٣,٦٤]

٤٧. مصعب وأسعد وسعد وأسيد

أُرسل مصعب بن عمير لتعليم القرآن والدعوة في يثرب، ونزل عند أسعد بن زرارة في الروايات المعروفة. كان التعليم انتقالًا من زيارة موسمية قصيرة إلى عمل يتكرر في البيوت والمجالس. وتذكر أخبار إعلام الورى لقاء أسيد بن حضير ثم سعد بن معاذ، وكيف تحول الإنكار الأول إلى رغبة في السماع ثم قبول. وفي هذا الموضع تظهر قيمة أسعد بوصفه صاحب صلة بأهله ومضيفًا للداعية، وقيمة مصعب بوصفه قارئًا ومعلّمًا؛ فلا يُختصر نجاح الدعوة في منزلة الزعيم الذي أسلم في نهاية المشهد. [٥٠,٥٢,٦٤]

وتذكر الأخبار دخول رجال ونساء من دور الأوس والخزرج، لكنها لا تسمي الجميع. فلا يساوي تعميم الخبر في كثرة الإسلام إحصاءً لكل بيت أو حكمًا بأن جميع أهل يثرب آمنوا في وقت واحد. ويظهر عبد الله بن أُبيّ في الخلفية صاحب مشروع زعامة لم يوافق هذا التحول، ثم يرد عند استفسار قريش عن البيعة وهو لا يعلم بتفاصيلها. تُحفظ شخصيته في هذا الحد الزمني؛ أما ما وقع منه في المدينة فله موضعه اللاحق. وكذلك لا يُجعل سعد بن معاذ نقيبًا في قائمة العقبة لمجرد علو منزلته في قومه. [٥٠,٥١,٦٤]

٤٨. العقبة الثانية: عهد حماية لا وعد عابر

جاء اللقاء الأكبر عند العقبة بعد انتشار الدعوة في يثرب. يذكر بعض الأخبار سبعين رجلًا، وبعضها ثلاثة وسبعين، ومعهم امرأتان. وتظهر رواية كعب بن مالك في وصف الاجتماع ليلًا، كما يَرِد البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام وأسعد بن زرارة وأبو الهيثم في الحوار. لم يكن المطلوب مجرد إعلان الإعجاب بالنبي، بل الالتزام بحمايته كما يحمون أنفسهم وأهليهم. وكانت لهذا الالتزام تبعات يدركها أهل الحروب والعلاقات القبلية. [٥١,٥٢,٥٣,٦٤]

ويَرِد العباس بن عبد المطلب في تثبيت العهد على القوم، وتذكر رواية إعلام الورى حضور حمزة وعلي في حماية الموضع. كما يظهر العباس بن عبادة بن نضلة محذرًا من نقض النصرة عند الشدة؛ وهو غير العباس عم النبي، ولا يُدمج الرجلان بسبب الكنية أو الاسم. واختلاف طرق المشهد في الحاضرين والحوار لا يُعالج باصطناع نص خطبة جامع من كلمات الجميع. يثبت السرد معنى العهد، ويذكر الأسماء بحسب أدوارها وطرقها، ويترك اللفظ الحرفي للمصدر عند الحاجة إليه. [٥١,٥٣,٦٤]

٤٩. النقباء الاثنا عشر وضبط اختلاف القائمة

تسمي رواية إعلام الورى، المنقولة في البحار، تسعة من الخزرج: أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، ورافع بن مالك، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، وعبادة بن الصامت. وتسمي من الأوس أبا الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة. وكان عمل النقيب مسؤولية عن قومه في العهد، فلا يختزل في لقب تشريفي. ويربط الخبر العدد بنقباء بني إسرائيل؛ وهذه مقارنة وردت في الرواية وليست تصريحًا قرآنيًا بأسماء أهل العقبة. [٥١,٦٤]

وفي رواية ابن إسحاق عند ابن هشام يرد رفاعة بن عبد المنذر بدل أبي الهيثم، ثم ينقل ابن هشام القول الآخر الذي يثبت أبا الهيثم ولا يذكر رفاعة في النقباء. يحفظ الفصل هذا الاختلاف، ولا يجمع الاسمين في قائمة مغلقة ثم يسميها اثني عشر. ووالد جابر هو عبد الله بن عمرو بن حرام؛ وفي بعض النصوص تصحيف «حرام» إلى «حزام». ويتميز أسيد بن حضير عن أبيه حضير، وسعد بن خيثمة عن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة؛ فاشتراك الأسماء الأولى من أكثر أبواب الزيادة والنقص في القوائم. [٥١,٦٤]

٥٠. نسيبة وأسماء: حضور النساء في عهد العقبة

تسمي السيرة المرأتين: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، من بني مازن بن النجار؛ وأسماء بنت عمرو بن عدي، أم منيع، من بني سلمة. وبهما يصبح حضور النساء جزءًا مسمى من تأسيس النصرة، لا جملة عامة ملحقة بتاريخ الرجال. أما بطولات نسيبة في أُحد وما بعدها فليست وقائع مكية، وإن كانت تعين القارئ على تعرف صاحبة الاسم. وكذلك لا تُنقل تفاصيل أبنائها حبيب وعبد الله أو مواقفهم المتأخرة إلى ليلة العقبة دون تمييز بين ترجمة الأسرة وإثبات حضور كل فرد في الاجتماع. [٦٤]

وأسماء هذه غير أسماء بنت عميس المهاجرة إلى الحبشة، وغير أسماء بنت أبي بكر، وغير أسماء بنت يزيد التي ترد في أخبار أخرى. ولا يصح أن تُزاد أم سليم أو أم حرام على عدد المرأتين اعتمادًا على شهرتهما في سيرة الأنصار وحدها. يذكر ابن هشام البيعة من غير مصافحة النساء، وتبقى كيفية الإقرار في حدود ما ينقله الخبر. والمهم في هذه المرحلة أن العهد حمل التزامًا عائليًا واجتماعيًا، وأن امرأة من بني

النجار وأخرى من بني سلمة دخلتا فيه باسميهما وصفتهما، لا باعتبارهما شخصيتين مجهولتين وراء الرجال. [٦٤]

٥١. بقية أهل العقبة من الأوس والخزرج

لئلا يقتصر إحصاء العقبة على النقباء، تُراجع التسمية الموسعة عند ابن إسحاق وابن هشام بوصفها سجلًا سيريًا، لا حديثًا مسندًا عن إمام لكل اسم. ومن الأوس: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان، وسلمة بن سلامة بن وقش، وظهير بن رافع، وأبو بردة بن نيار واسمه هانئ، ونهير بن الهيثم، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر، وعبد الله بن جبير، ومعن بن عدي، وعويم بن ساعدة. يثبت حضور الاسم هنا في ذلك السجل، ولا تُستخرج منه تلقائيًا مرتبة دينية واحدة لجميع المذكورين، ولا تُنقل إليه أخبارهم في بدر وأُحد. [٦٤]

ومن الخزرج، في بني النجار وفروعهم: أبو أيوب خالد بن زيد، ومعاذ وعوف ومعوّذ بنو الحارث المنسوبون إلى أمهم عفراء، وعمارة بن حزم، وأسعد بن زرارة، وسهل بن عتيك، وأوس بن ثابت، وأبو طلحة زيد بن سهل، وقيس بن أبي صعصعة، وعمرو بن غزية. وفي بني الحارث: سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة، وبشير بن سعد، وعبد الله بن زيد، وخلاد بن سويد، وعقبة بن عمرو أبو مسعود. وفي بني بياضة: زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، وخالد بن قيس؛ وفي بني زريق: رافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعباد بن قيس، والحارث بن قيس. يحفظ ذكر عفراء تعريف الأبناء بأمهم، من غير أن يثبت به وحده حضورها للعقبة. [٦٤]

٥٢. استكمال سجل العقبة وفروق التسمية والعدد

وفي بني سلمة وفروعهم ترد الأسماء الآتية: البراء بن معرور وابنه بشر، وسنان بن صيفي، والطفيل بن النعمان، ومعقل بن المنذر، ويزيد بن المنذر، ومسعود بن يزيد، والضحاك بن حارثة، ويزيد بن حرام، وجبار بن صخر، والطفيل بن مالك، وكعب بن مالك، وسليم بن عمرو، وقطبة بن عامر وأخوه يزيد، وأبو اليسر كعب بن عمرو، وصيفي بن سواد، وثعلبة بن غنمة، وعمرو بن غنمة، وعبس بن عامر، وعبد الله بن أنيس، وخالد بن عمرو، وعبد الله بن عمرو بن حرام وابنه جابر، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وثابت بن الجذع، وعمير بن الحارث، وخديج بن سلامة، ومعاذ بن جبل. وينبه ابن هشام إلى اختلاف بعض الأنساب، ومنها صيفي وعمير؛ لذلك تُحفظ التسمية مع الإحالة ولا تُنسج تراجم تفصيلية من قراءة نسخة واحدة. [٦٤]

وتكتمل فروع الخزرج بعبادة بن الصامت، والعباس بن عبادة بن نضلة، ويزيد بن ثعلبة، وعمرو بن الحارث، ثم رفاعة بن عمرو الذي يرد أيضًا رفاعة بن مالك، ومالك بن الوليد بن عبد الله، وعقبة بن وهب، ثم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. هذه قائمة تتبع الأسماء والفروق في النص المنقول؛ وليست محاولة لإجبار كل اسم مختلف فيه على مجموع واحد. فالكتاب يذكر ثلاثة وسبعين رجلًا، مع فروق

داخلية في التسمية والعد والتعقيب. ولا يُضاف صاحب نسب بوصفه حاضرًا مستقلًا، ولا تُحسب الكنية والاسم رجلين؛ وتبقى نسيبة وأسماء المرأتين المسمّاتين في خاتمة السجل. [٦٤]

٥٣. الطفيل بن عمرو واتساع الدعوة خارج مكة

ومن الشخصيات التي قد تغيب إذا حُصرت الدعوة في أهل مكة الطفيل بن عمرو الدوسي. تصف السيرة وصوله إلى مكة وتحذير قريش له من سماع النبي، ثم اختياره الاستماع بعد أن أدرك قدرته على التمييز. وتذكر إسلامه وعودته إلى قومه داعيًا، وإسلام أبيه وزوجته في خبره؛ فالزوجة هنا امرأة غير مسماة في هذا الموضع، ولا يجوز اختراع اسم لها. ويرد في الرواية خبر النور في سوطه، ويُساق بصفته خبرًا سيريًا لا آية قرآنية أو حديثًا ثابت السند بمجرد وروده في الكتاب. [٦١]

وتعرض الرواية بطء استجابة دوس وعودة الطفيل إلى النبي، ثم توجيهه إلى الدعوة برفق. وما تذكره بعد ذلك من قدوم جماعة دوس زمن خيبر أو أخبار ابنه عمرو واليمامة يتجاوز موضوع الفصل؛ فلا يُجعل جميع أفراد الوفد المتأخر مسلمين في مكة بهذا الطريق. ويظل أبو ذر في سجل السابقين الذي تقدم، مع تجنب صناعة تاريخ يومي لإسلام كل فرد عند اختلاف الطرق. المقصود إظهار تعدد منافذ الدعوة: بيت خديجة وعلي، وحماية أبي طالب، وهجرة جعفر وأصحابه، ووفادة رجل من دوس، ثم جماعة يثرب التي حملت عهد النصرة. [١٢,٥٧,٦١]

ضماد والاستماع بعد اتهام قريش

وفي صحيح مسلم، من طريق ابن عباس، خبر ضماد من أزد شنوءة: قدم مكة فسمع اتهام بعض سفهائها للنبي بالجنون، وكان يرقي، فعرض ما يظنه نفعًا. فسمع من النبي حمد الله والاستعانة به والشهادتين، وطلب إعادة الكلام، ثم أعلن قبوله وبايع، وجاء في الخبر امتداد البيعة إلى قومه. تبقى تسمية هذا الرجل ضمادًا محفوظة؛ فهو غير ضمام بن ثعلبة صاحب الوفادة المعروفة. [٧٢]

يعرض هذا الخبر انتقال الرجل من سماع اتهام الآخرين إلى الإصغاء المباشر، وهو وجه إدراجه بجوار إسلام الطفيل. لكنهما خبران لشخصين مختلفين، ولا يكفي التشابه في المعنى لإثبات تعاصرهما الدقيق أو جمعهما في مجلس واحد. ومصدر خبر ضماد هنا من مدونة الحديث السنية للمقارنة السيرية، فلا ينسب إلى روايات أهل البيت، ولا يُحمّل عرض الرقية حكمًا طبيًا أو استدلالًا فقهيًا خارج غرض الحكاية. [٧٢]

٥٤. العاص وخبّاب وابن الزبعرى: استدراك على شخصيات الجدل

ومن استدراكات الآيات المكية ما يرويه مجمع البيان في تفسير مريم ٧٧ عن خباب بن الأرت والعاص بن وائل: إذ يجعل الخبر مطالبة خباب بحقه المالي موضعًا لمحاولة حمله على الكفر، ثم يورد قول العاص في المال والولد بعد البعث. يصرح الفصل بأن العاص تعيين في خبر النزول؛ فالآية لا

تسميه. ويكمل هذا المشهد صورة الاضطهاد الاقتصادي إلى جانب التعذيب، كما يمنع اختزال خباب في كونه قارئ الصحيفة في قصة إسلام عمر. [٢١,٢٣,٦٥]

ويظهر عبد الله بن الزبعرى في أخبار الاعتراض على وعيد المعبودات، محتجًا بما يعبد بعض الناس من الملائكة وعيسى وعزير؛ وتعرض المصادر جوابًا يميز المطيعين لله عمن رضي بعبادته أو دعا إليها. فلا يصبح عيسى أو عزير طرفًا بشريًا حاضرًا في مكة؛ إنما ورد اسماهما في موضوع المحاجة. ويُستدرك نعيم بن عبد الله النحّام في خبر توجيه عمر إلى بيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد. وهكذا تُضم الشخصية بحسب وظيفتها في الخبر، مع الفصل بين المعترض والمُخبِر والشخص التاريخي الذي دار الجدل حوله. [٢٣,٥٧,٦١]

٥٥. استكمال مهاجري الحبشة: الرجال والأبناء

تكشف مراجعة التسمية المطولة المنقولة عن ابن إسحاق أن الاقتصار على جعفر وعثمان وأبي سلمة يفوّت عددًا كبيرًا من أهل الهجرة. ومن الأسماء التي تستكمل المشهد، فوق من تقدّم: أبو حذيفة بن عتبة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وأبو سبرة بن أبي رهم مع اختلاف في بعض قوائم الهجرة الأولى، وسهيل بن بيضاء، وعمرو وخالد ابنا سعيد، وعبد الله بن جحش، وقيس بن عبد الله، ومعيقيب بن أبي فاطمة، وعتبة بن غزوان، ويزيد بن زمعة، وعمرو بن أمية بن الحارث، وطليب بن عمير، وسويبط بن سعد، وجهم بن قيس وابناه عمرو وخزيمة، وأبو الروم بن عمير، وفراس بن النضر، وعامر بن أبي وقاص، والمطلب بن أزهر وابنه عبد الله. وليس كل مذكور في هذه المجموعة من الرحلة الأولى نفسها. [٢٤,٢٦]

ويضم السجل عبد الله بن مسعود وأخاه عتبة، والمقداد بن الأسود، والحارث بن خالد، وعمرو بن عثمان، وشماس بن عثمان، وهبار بن سفيان وأخاه عبد الله، وهشام بن أبي حذيفة، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، ومعتّب بن عوف، وقدامة وعبد الله أخوي عثمان بن مظعون، والسائب بن عثمان، وحاطب بن الحارث وابنيه محمد والحارث، وخطاب بن الحارث، وسفيان بن معمر وابنيه جابر وجنادة، وشرحبيل بن عبد الله المعروف بابن حسنة. تُحفظ نسبة المقداد المشهورة في التعريف، ويُراعى اختلاف أسماء بعض الأفراد؛ فتسمية شماس لقبًا لا تستدعي اختراع شخص آخر بجوار عثمان الذي تعينه كتب النسب. [٢٦]

٥٦. تتمة رجال الحبشة وحدود الأعداد المروية

ومن بقية الرجال في هذا السجل: عثمان بن ربيعة، وخنيس بن حذافة، وعبد الله بن الحارث بن قيس، وهشام بن العاص، وقيس وعبد الله ابنا حذافة، وأبو قيس بن الحارث وإخوته الحارث ومعمر والسائب وبشر وسعيد، وسعيد بن قيس الذي يذكر النص تعريفًا آخر له، وعمير بن رئاب، ومحمية بن جزء، ومعمر بن عبد الله، وعروة بن عبد العزيز، وعدي بن نضلة وابنه النعمان، وعبد الله بن مخرمة،

وعبد الله بن سهيل، وسليط بن عمرو وأخوه السكران، ومالك بن ربيعة، وأبو حاطب بن عمرو، وسعد بن خولة، وأبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن أبي سرح، وعياض بن زهير، وعمرو بن الحارث، وعثمان بن عبد غنم، وسعيد بن عبد قيس وأخوه الحارث. هذه الأنساب المختصرة وسائل لتمييز الأفراد، ويُرجع في تمامها واختلافها إلى المصدر. [٢٦]

وتحتاج الأعداد إلى قيدها: يذكر النقل ثلاثة وثمانين رجلًا على تقدير إدخال عمار، مع التنبيه إلى الشك في هجرته إلى الحبشة. كما يناقش ابن كثير إدخال أبي موسى الأشعري في مهاجري مكة، ويفرق بين هذه الهجرة وبين خروج أبي موسى من اليمن ولقائه جعفرًا في الحبشة في زمن آخر. فلا يحول الفصل الاحتمال إلى يقين، ولا يضيف أبا موسى إلى المرحلة المكية لمجرد وروده في قائمة ناقشها ناقلها نفسه. وفي المقابل لا يُسقط الاسم من التدقيق؛ يُذكر سبب التحفظ عليه ويظل موضعه الزمني مفتوحًا لما يثبته الدليل. [٢٦]

٥٧. أسر الحبشة: النساء اللواتي يحفظن أسماء البيوت

تقدمت أسماء المهاجرات وأزواجهن في مباحث طريق الحبشة وأسماء بنت عميس وأسر المهاجرين، ولا سيما المباحث ٢٢–٢٦، فلا تُعاد القائمة نفسها هنا. ويُجمع إليها سجل الأطفال في الفقرة التالية لتتضح مشاركة الأسر عبر مراحل الرحلة. وتبقى خديجة وفاطمة في الأسرة المقيمة بمكة، فلا تُحسبان ضمن المهاجرات إلى الحبشة؛ كما أن ذكر الأسرة في سجل جامع لا يثبت أن أفرادها خرجوا جميعًا في الرحلة الأولى. [١٥,٢٤,٢٥,٢٦]

وتظهر أسماء الأطفال في خبر الولادة أو الأسرة: عبد الله بن جعفر، ومحمد بن أبي حذيفة، وزينب بنت أبي سلمة، وسعيد وأمة ابنا خالد بن سعيد، وعبد الله بن المطلب بن أزهر، وأولاد الحارث بن خالد: موسى وعائشة وزينب وفاطمة. وليس كل ولد ذُكر مع الأسرة مولودًا في الحبشة أو حاضرًا الرحلة الأولى؛ يُحفظ تفصيل الخبر حين يصرح به. كما لا تُخلط زينب بنت أبي سلمة بزينب بنت رسول الله، ولا فاطمة بنت الحارث بفاطمة الزهراء، ولا أم كلثوم بنت سهيل بأم كلثوم المنسوبة إلى بيت النبي. وبذلك تصبح مراجعة النساء والأطفال جزءًا من ضبط الحدث نفسه. [٢٥,٢٦]

٥٨. الأنبياء والنساء القرآنيات في تعليم المرحلة المكية

لا يساوي استيعاب الشخصيات جمع كل اسم قرآني في قائمة معاصرين للنبي. فآدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وإدريس واليأس واليسع وذو الكفل يردون في سياق النبوة والعظة، ويتوزع ذكرهم على سور منها مريم والأنبياء والشعراء والصافات وص. ويرد لقمان وذو القرنين وأصحاب الكهف وصاحب موسى في القصص والتعليم، مع اختلاف في نبوة بعض الشخصيات أو

أسمائها خارج النص. فلا يُجعل الاسم التفسيري، كالخضر أو يوشع لفتى موسى، اسمًا صرح به نص سورة الكهف. [٣١,٦٣]

ويظهر حضور النساء في مريم، وأم موسى وأخته، وامرأة فرعون، والمرأتين عند ماء مدين، وامرأة إبراهيم، وامرأة لوط، وامرأة العزيز والنسوة في قصة يوسف، والملكة في قصة سليمان، وزوج آدم. بعضهن مسمى كمريم، وبعضهن معرّف بالإضافة أو الدور؛ أما آسيا وبلقيس وأسماء أخرى فموضعها الرواية والتفسير بحسب سند التعيين. ولا تُسقط الفروق بين حواء زوج آدم، وسارة في بيت إبراهيم، والمرأة التي جادلت أو بايعت في زمن النبي. وكذلك فرعون وهامان وقارون والسامري والعزيز والملك في قصة يوسف شخصيات في القصص المنزل، لا وجوه من خصومة قريش المعاصرة. والإحالات القرآنية تحدد موضع الاستحضار دون إعادة فصولهم السابقة داخل هذا الفصل. [١٦,٣١,٣٨,٦٣]

٥٩. موضع الرواية وموضع الراوي في اكتمال الفصل

لأئمة أهل البيت حضور معرفي أصيل في الفصل من طريق رواياتهم، ولو لم يكونوا أحياء زمن الحدث. فعلي شاهد مشارك وراوٍ في أخبار من المرحلة، وأما الإمام الباقر والإمام الصادق وغيرهما فوجود أسمائهم في الأسانيد أو البيان لا يجعلهم حاضرين في حراء أو العقبة. وكذلك زرارة وهشام بن سالم والمفضل بن عمر ومحمد بن مسلم وسائر الناقلين ليسوا شخصيات مكية لمجرد روايتهم الخبر. ويُفرّق في النقول المنسوبة إلى تفسير الإمام العسكري بين نسبة الكتاب وبين الحكم على طريق كل خبر؛ فلا تتحول تسمية المصنف إلى تصحيح آلي لجميع محتواه. [٦,٧,٩,١٦,٢٢,٣٩]

وبناء على ذلك، يجمع التدقيق بين الآيات، وتفسيرها في مجمع البيان ونور الثقلين، والروايات الأصلية المتاحة في الكافي وأمالي الصدوق، والنقول التي يحفظها البحار عن القمي والعياشي وإعلام الورى والخرائج وغيرها، مع كتب السيرة لاستكمال الأسماء والأنساب. ليس تكرار الخبر في هذه الكتب تعددًا مستقلًا للأسانيد إذا عاد الجميع إلى أصل واحد. ولم تُستخرج أحكام رجالية نهائية لكل طريق في هذا الفصل؛ إنما مُيّز النص القرآني من الخبر والتفسير والسرد التاريخي، وأُبرز الاختلاف المؤثر بدل إخفائه. ويظل الاستيعاب مقيدًا بالمواد المحالة التي أمكن فحصها، لا دعوى إحاطة بكل مخطوط أو بكل كتاب مفقود. [٤,٦,١٦,٢٣,٢٥,٢٦,٢٨,٥١]

٦٠. عند عتبة الهجرة

انتهت المرحلة إلى جماعة تؤمن وتتعلم، وأسر تحمل كلفة الاضطهاد، وحماية فقدت ركنيها بوفاة خديجة وأبي طالب، ثم عهد جديد وصل مكة بيثرب. في هذا المسار بقي محمد رسولًا يبلغ عن ربه، وعلي قريبًا مشاركًا منذ البدايات، وخديجة أصلًا في النصرة، وفاطمة ابنة بيت شهد الدعوة والفقد؛ وامتدت الدائرة إلى جعفر وأسماء وأم سلمة والمهاجرين، وإلى الرجال والنساء الذين بايعوا في العقبة. لا تُقرأ هذه

الأسماء زينة في الهامش، بل مواضع متباينة من الإيمان والاحتمال والحماية والتعلم. [٤,٩,١٥,٢٥,٢٦,٤٣,٥١,٦٤]

وتستحضر آية الأنفال ٣٠ مؤامرة القوم في التثبيت أو القتل أو الإخراج، لكنها لا تسمي أفراد دار الندوة. تنتهي هنا مقدمات الانتقال، ويُترك للفصل التالي تفصيل المبيت في الفراش، والخروج والغار والطريق، وأدوار أبي بكر وأسماء وعبد الله وعامر بن فهيرة والدليل، ووصول المهاجرين إلى المدينة وبناء المجتمع. بذلك يبقى لهذا الفصل تمامه الموضوعي: من بدء التكليف بالدعوة إلى قيام عهد النصرة، مع توثيق رجاله ونسائه، وحفظ ما اختلف فيه النقل، وتهيئة القارئ للمرحلة الجديدة من غير استباق سردها. [٥٤,٦٤]

٠٦١. المراجع ومواضع التوثيق

الأرقام في المتن مرتبطة بالمواضع الآتية، وقد يتكرر الكتاب لاختلاف الآية أو الباب. صفحات البحار هي صفحات المجلد المطبوع المعروضة في النسخة الإلكترونية، وليست أرقام شاشة التصفح. وعند الإحالة إلى نقل محفوظ في البحار، يُذكر مصدر النقل حيث تبين؛ ولا توهم الإحالة أن جميع الأصول المذكورة قد قوبلت في طبعات مستقلة. تُقرأ مراجع السيرة المقارنة بوصفها مصادر تاريخية مساعدة، ولا تنسب مادتها إلى أهل البيت إلا إذا صرح النقل بذلك.

[١] القرآن الكريم، سورة العلق ٩٦:١–١٩؛ بدء القراءة ومشهد النهي عن الصلاة.

[٢] القرآن الكريم، سورة المزمل ٧٣؛ قيام الليل وأعباء التبليغ.

[٣] القرآن الكريم، سورة المدثر ٧٤؛ الإنذار والتطهير ومواجهة التكذيب.

[٤] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته؛ المقدمة والأخبار المتصلة بأبي طالب والمدة المكية.

[٥] الكليني، الكافي، ج٤، ص١٤٩، ح٢، باب صيام الترغيب؛ خبر السابع والعشرين من رجب، مع ملاحظة طريقه.

[٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص١٧٦–٢٠٨؛ أخبار البعثة وبدء الوحي، ومنها النقول عن كمال الدين والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري.

[٧] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدَّث.

[٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٥٦–٢٦٨؛ كيفية الوحي ومعرفة الرسول به.

[٩] نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، في قرب علي من النبي؛ والنص المنقول في بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٢٣.

[١٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص١٧٨–١٨٢ و١٩١–١٩٣؛ إنذار العشيرة وخبر الدار، مع مصادره المنقولة واختلاف طرقه.

[١١] الحويزي، نور الثقلين، تفسير الشعراء ٢٦:٢١٤ وما بعدها؛ إنذار الأقربين.

[١٢] اليعقوبي، التاريخ، ج٢، ص٢٢-٣٩؛ مبعث النبي وأوائل الدعوة ووجوه الاستجابة والاعتراض.

[١٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٨-٢١٠؛ خبر عفيف وأخبار سبق علي إلى الصلاة.

[١٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢١٠-٢١١؛ إسلام حمزة وما اتصل بالخبر.

[١٥] الكليني، الكافي، كتاب الحجة، باب مولد الزهراء فاطمة عليها السلام؛ الباب ١١٤ في ترتيب النسخة الإلكترونية.

[١٦] الصدوق، الأمالي، المجلس السابع والثمانون، ح١، الرقم المتسلسل ٩٤٧، ص٦٩٠-٦٩١ في النسخة المرتبطة؛ خبر المفضل عن الإمام الصادق في ولادة فاطمة.

[١٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الكوثر ١:١٠٨-٣؛ الأقوال في الخير الكثير وامتداد الذرية.

[١٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة المسد ١١١؛ أبو لهب وامرأته.

[١٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير المدثر ١١:٧٤ وما بعدها؛ خبر الوليد بن المغيرة.

[٢٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الكافرون ١٠٩؛ أخبار اقتراح المشاركة في العبادة.

[٢١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير النحل ١٠٦:١٦؛ الإكراه وخبر عمار وأبويه.

[٢٢] الحويزي، نور الثقلين، تفسير النحل ١٠٦:١٦؛ روايات الإكراه والتقية.

[٢٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أخبار ابتداء الإسلام: التعذيب، وإسلام حمزة وعمر، والجهر بالقرآن، والحصار؛ مرجع سيري مقارن.

[٢٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٤١٠-٤١٤؛ هجرة الحبشة في النقل عن مجمع البيان.

[٢٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٤١٤-٤٢١؛ أخبار جعفر والنجاشي والمهاجرين، والنقول عن القمي وإعلام الورى والخرائج، مع التنبيه إلى مواضع الخلط.

[٢٦] ابن كثير، البداية والنهاية، طبعة السعادة، باب هجرة من هاجر من أصحاب رسول الله من مكة إلى أرض الحبشة؛ التسمية المنقولة عن ابن إسحاق وتعقيب ابن كثير على بعض الأسماء.

[٢٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير عبس ١:٨٠-١٠؛ اختلاف تعيين العابس ومناقشة السيد المرتضى.

[٢٨] الحويزي، نور الثقلين، تفسير عبس ١:٨٠-١٠؛ الرواية المنقولة عن القمي وما يغايرها من طرق.

[٢٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنعام ٦:٥٢ وما بعدها؛ النهي عن طرد المؤمنين واختلاف روايات المناسبة.

[٣٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الفرقان ٢٥:٢٧-٢٩؛ أخبار عقبة بن أبي معيط وصاحبه.

[٣١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الكهف، ابتداءً من ١٨:١؛ سؤال أصحاب الكهف وذي القرنين وقصة موسى وصاحبه.

[٣٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير لقمان ٣١:٦؛ لهو الحديث والأقوال في النضر بن الحارث.

[٣٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الإسراء ١٧:٩٠-٩٣؛ مطالب المعاندين وأسماء من تعينهم أخبار النزول.

[٣٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٣٨-٢٤٠؛ أخبار الأذى والمواجهة المكية المنقولة في هذا الموضع.

[٣٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الحج ٢٢:٥٢؛ نقد خبر الغرانيق ونقل مناقشة المرتضى.

[٣٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير القمر ١:٥٤-٣؛ انشقاق القمر.

[٣٧] الحويزي، نور الثقلين، تفسير القمر ١:٥٤؛ الروايات في انشقاق القمر.

[٣٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الإسراء ١٧:١؛ الأقوال والأخبار في الإسراء والمعراج.

[٣٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٣١٩-٣٣٠؛ خبر المعراج المنقول عن تفسير القمي بطريق هشام بن سالم عن الإمام الصادق.

[٤٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير النجم ١:٥٣ وما بعدها؛ الوحي والرؤية ودلالات السياق.

[٤١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الجن ١:٧٢ وما بعدها؛ استماع الجن واختلاف الأخبار في الموضع والعدد.

[٤٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأحقاف ٢٩:٤٦-٣٢؛ النفر من الجن وما يرد في تعيينهم.

[٤٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١-٥؛ دخول الشعب والمقاطعة ونقض الصحيفة.

[٤٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١٨-٢٢؛ حماية أبي طالب وتفاصيل الحصار واختلاف مدته.

[٤٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأنعام ٢٦:٦؛ مناقشة تعيين الآية في أبي طالب.

[٤٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير القصص ٥٦:٢٨؛ الهداية والأقوال في سبب النزول.

[٤٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٥ و١٤-١٧ و٢٤-٢٥؛ وفاة أبي طالب وخديجة واختلاف تأريخها.

[٤٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٦-٨؛ الطائف وعداس والجوار عند العودة إلى مكة.

[٤٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٣؛ عرض الدعوة على القبائل وأخبار متصلة بالأزواج وأوائل الأنصار.

[٥٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٨-١١؛ أسعد وذكوان ومصعب وأسيد وسعد وانتشار الإسلام في يثرب.

[٥١] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١٢-١٤؛ بيعة العقبة والنقباء في النقل عن إعلام الورى.

[٥٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٤؛ عدد أهل العقبة في الخبر المنقول.

[٥٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٥-٢٧؛ لقاء العقبة والعهد وأدوار الحاضرين.

[٥٤] القرآن الكريم، الأنفال ٨:٣٠؛ التثبيت أو القتل أو الإخراج.

[٥٥] القرآن الكريم، الإسراء ١٧:٢٣-٣٩؛ منظومة العدل والرحمة والمسؤولية.

[٥٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٣٦-٢٤٣؛ أخبار مكية متفرقة في الدعوة والمعارضة والآيات.

[٥٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص١٩٤-٢٠٥؛ أوائل الدعوة وأسماء المستجيبين والمحاجّين واختلاف الأخبار.

[٥٨] الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أخبار المستضعفين وعتق النساء؛ مرجع سيري مقارن لضبط الأسماء.

[٥٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٥؛ الخبر المنقول عن العياشي بطريق زرارة وحمران في أذى قريش وإزالة البنت الأذى عن النبي.

[٦٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير المائدة ٥:٨٢ وما بعدها؛ أخبار النجاشي والوفد، مع مراعاة مدنية السورة.

[٦١] ابن هشام، السيرة، في تهذيب عبد السلام هارون، أبواب الهجرة إلى الحبشة وخبر أم سلمة والطفيل بن عمرو؛ النص السيري أساس المقارنة لا تعليقات المهذب.

[٦٢] القرآن الكريم، سورة البلد ٩٠؛ فك الرقبة وإطعام المحتاجين والتواصي بالمرحمة.

[٦٣] القرآن الكريم: الأعراف ٧:١١-٢٥؛ هود ١١:٢٥-٩٥؛ يوسف ١٢؛ الكهف ١٨؛ مريم ١٩؛ طه ٢٠؛ الأنبياء ٢١؛ الشعراء ٢٦؛ النمل ٢٧؛ القصص ٢٨؛ لقمان ٣١؛ الصافات ٣٧؛ ص ٣٨. مواضع الشخصيات القرآنية المستحضرة في التعليم المكي.

[٦٤] ابن هشام، السيرة، في تهذيب عبد السلام هارون، أبواب عرض الإسلام على القبائل، وأوائل الأنصار، والعقبتين، وتسمية من شهد العقبة؛ ص٢٢٦-٢٥٠ بحسب ترقيم صفحاتالملفالرقميالمرتبط.

[٦٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير مريم ١٩:٧٧-٨٠؛ خبر خباب بن الأرت والعاص بن وائل.

[٦٦] القرآن الكريم، القلم ١٧-٣٣؛ الطبرسي، مجمع البيان، تفسير هذه الآيات: أصحاب الجنة وأوسطهم والمساكين.

[٦٧] تفسير القمي، القلم ١٧-٣٣: خبر ابن عباس في الأب وأبنائه الخمسة، ثم رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر؛ مع الفصل بين الطريقين.

[٦٨] القرآن الكريم، الكهف ٣٢-٤٤؛ مجمع البيان عند ٣٢-٣٦ و٣٧-٤٤: الرجلان واختلاف تعيينهما.

[٦٩] القرآن الكريم، النحل ٩١-٩٤؛ مجمع البيان: التي نقضت غزلها، وتسمية ريطة عن الكلبي، والقول بالمثل غير المعيّن.

[٧٠] القرآن الكريم، النحل ٧٥-٧٦ والزمر ٢٩؛ مجمع البيان في الموضعين، ولا سيما الأقوال المنسوبة إلى عطاء ومقاتل عند النحل ٧٦.

[٧١] القرآن الكريم، الصافات ٥٠-٦١؛ مجمع البيان عند الكهف ٣٧-٤٤ في القول المنقول عن ابن عباس بربط القرينين.

[٧٢] مسلم، الصحيح، كتاب الجمعة، الحديث ٨٦٨ في الترقيم الرقمي؛ خبر ضماد عن ابن عباس. مصدر حديثي مقارن.— النص في المصدر

الفصل ٤٩ — محمد ﷺ — الهجرة وبناء الأمة

٠١. من دار الاضطهاد إلى دار المسؤولية

جاءت الهجرة إلى المدينة بعد أن آمنت جماعة من أهل يثرب وتعهدت بالنصرة، فصار للمؤمنين موضع يجتمعون فيه ويعبدون الله بعيدًا عن سلطان قريش المباشر. غير أن الانتقال لم يكن رحلة واحدة خرج فيها الجميع معًا؛ فقد تقدمت أسر وأفراد، واحتبس آخرون، وتفرقت عائلات قبل أن تلتئم. وكان على المجتمع الجديد أن يوفر المنزل والطعام والأمان، وأن يصل بين المهاجرين والأنصار، وأن ينظم علاقته بمن لم يدخل في الإسلام. لذلك تبدأ حكاية الهجرة قبل خروج النبي، وتستمر بعد وصوله، في البيوت والمسجد والعلاقات اليومية. [١٠,١٧]

يتناول هذا الفصل الخروج من مكة والمبيت والغار والطريق، ثم قباء والاستقرار في المدينة وتكوين الجماعة، وينتهي عند مقدمات المواجهة التي أفضت إلى بدر. وترد بعض الشواهد اللاحقة في مباحث الأسرة والتكافل لتفسير نمو المؤسسات، مع التنبيه إلى أنها لا تقع جميعًا في السنة الأولى.

٠٢. الرجال والنساء والولدان في آيات الهجرة

تميز سورة النساء بين من يستطيع مفارقة موضع الفتنة ثم يقعد، وبين المستضعفين حقًا: «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا» (النساء: ٩٨). فالمرأة والطفل والشيخ والمريض حاضرون في أصل الحكم، وليست قدرتهم نسخة من قدرة الرجل القادر على السفر. ويشرح مجمع البيان الاستضعاف بقلة الحيلة والعجز عن الخلاص ومعرفة الطريق. وتكشف هذه الآيات أن قراءة الهجرة باعتبارها سجلًا للفرسان وحدهم تفقد جزءًا من موضوع القرآن نفسه. [٧]

وفي آل عمران: ١٩٥ يقترن الوعد بعدم إضاعة العمل بذكر الذكر والأنثى، ثم بالهجرة والإخراج من الديار والأذى. وينقل الطبرسي سؤال أم سلمة عن ذكر الرجال في الهجرة دون النساء؛ وتنقل رواية هجرة عليّ والفواطم تطبيق الآيات على سيرهم وعبادتهم. هذان مساران روائيان ينبغي عرضهما كما هما، مع بقاء عموم الآية لكل عامل مؤمن. فالمرأة في هذا الفصل صاحبة إيمان واختيار وعمل، وقد تكون كذلك راوية تحفظ خبرًا لا يحفظه غيرها. [٣,٨]

٠٣. أبو سلمة وأم سلمة وسلمة: أسرة فرقتها الهجرة

تروي السيرة عن هند بنت أبي أمية، أم سلمة، أن زوجها أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد هيأ بعيره ليخرج بها وبابنهما سلمة إلى المدينة. فاعترض أهلها من بني المغيرة وأمسكوها، ثم طالب بنو عبد الأسد بالطفل وتجاذبه الفريقان، فافترق الأب والأم والابن. مضى أبو سلمة إلى المدينة، وبقيت أم سلمة بمكة تبكي فراقهما. وبعد تدخل رجل من قرابتها رق لحالها أذنوا لها باللحاق، ورد إليها أهل أبي سلمة طفلها. لا يسمي هذا الطريق الرجل الذي شفع لها، فيحفظ له فعله دون اختلاق اسم. [١٠]

خرجت أم سلمة بابنها حتى لقيت عثمان بن طلحة عند التنعيم، فسألها عن وجهتها، ثم صحبها وقاد بعيرها حتى أوصلها إلى موضع زوجها بقباء ورجع. وتثني روايتها على احترازه وكرم صحبته في النزول والركوب. وهو عثمان بن طلحة صاحب الحجابة، لا عثمان بن عفان؛ وإعانته هنا لا تقتضي افتراض إسلامه يومئذ. كما أن أم سلمة كانت حين هذه الهجرة زوجة أبي سلمة، وإن سمّاها ناقل الخبر «زوج النبي» باعتبار ما صار إليها لاحقًا. [١٠]

٤. خروج البيوت: بنو جحش ونساء بني غنم

يحفظ ابن إسحاق، في رواية ابن هشام، خبر أسر خرجت حتى خلت دورها بمكة، ويخص بني جحش وبني مظعون وبني البكير. ومن بني جحش عبد الله وأخوه أبو أحمد، وتذكر أخبار بني غنم بن دودان النساء بأسمائهن: زينب بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وحمنة بنت جحش، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم. وهذه الأسماء تمنع اختزال الهجرة في أسماء رؤساء البيوت؛ فقد كانت النساء شريكات في مفارقة المسكن وشبكة القرابة. [١٠]

وتذكر السيرة عكاشة بن محصن، وشجاعًا وعقبة ابني وهب، وأربد بن حميرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالكًا وصفوان وثقفًا بني عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيد، وتمامًا وسخبرة ابني عبيدة، ومحمد بن عبد الله بن جحش. اختلاف رسم بعض الأسماء في النسخ لا يسوغ إسقاط أصحابها، كما لا يسوغ مضاعفتهم كلما اختلف الرسم. والسجل هنا من السيرة المقارنة، لا قائمة مسندة بأجمعها إلى أحد الأئمة. [١٠]

٥. عياش وهشام والمحبوسون بمكة

تورد السيرة اتفاق عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص على موضع يلتقون فيه للخروج؛ فاحتبس هشام، وخرج الآخران. ثم قدم أبو جهل والحارث بن هشام على عياش بالمدينة، واستدعياه إلى أمه، ووعداه بالأمان، فلما عاد معهما أوثقاه ورداه إلى مكة. وتبين القصة أن الوصول إلى دار الهجرة لم يمنع استعمال روابط الأسرة لاسترجاع المهاجر وإكراهه، وأن محنة المستضعف قد تستمر بعد أول نجاة. [١٠]

ويذكر مجمع البيان الدعاء بتخليص الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وضعفة المسلمين. وفي السيرة خبر خروج الوليد بن الوليد لإنقاذ عياش وهشام، وامرأة كانت تحمل إليهما الطعام فدل تتبع طريقها على محبسهما؛ لا يذكر النص اسمها ولا يصرح بأنها قصدت الدلالة. أما رسالة عمر إلى هشام بآيات الرجاء من الزمر، فترِد خبرًا عن معالجة اليأس بعد الإكراه. ولا يصح جعل ورود هذه الأخبار في باب واحد دليلًا على وقوعها كلها في أسبوع الهجرة نفسه. [٧,١٠]

٠٦. صهيب وأبو ذر: المال والقدرة على الخروج

يروي ابن هشام أن قريشًا منعت صهيب بن سنان من الخروج بماله، محتجة بأنه قدم قليل المال ثم كثر ماله عندها، فترك المال لينجو بدينه. وترد القصة في التفسير عند النحل: ٤١، كما تُذكر في بعض أقوال سبب نزول البقرة: ٢٠٧ مع أبي ذر. ويعرض مجمع البيان هذه الأقوال إلى جانب رواية المبيت في عليّ، فلا تستبدل إحداها بالأخرى من غير بيان. والموقف العملي لصهيب واضح في هذا الطريق: قبول خسارة المال لفتح سبيل الهجرة. [٢,١٠,٤١]

أما أبو ذر الغفاري فله مسار خاص في الإسلام والعودة إلى قومه واللحاق بالرسول، وتختلف أخبار زمان استقراره بالمدينة. ويذكر نور الثقلين، ناقلًا عن تفسير القمي، عليًّا وسلمان وأبا ذر وعمارًا عند آيات الهجرة والأذى في آل عمران، وهو تطبيق يمتد إلى أحوالهم ولا يجعلهم جميعًا رفقة واحدة خرجت من مكة. وهذه التفرقة تحفظ حضور أبي ذر وسلمان دون اختلاق طريق سفر مشترك لهما مع النبي. [٩]

٠٧. دار الندوة ومشروع قتل النبي

تلخص الأنفال: ٣٠ وجوه التدبير المعادي: الحبس أو القتل أو الإخراج. وتشرح روايات التفسير اجتماع قريش بدار الندوة وخشيتها من أن يلتحق النبي بالأنصار، فيجد حماية تمكنه من نشر دعوته. ويظهر أبو جهل في خبر اقتراح أن يشترك رجال من بطون متعددة في قتله، ليصعب على بني هاشم مطالبة قبيلة واحدة بدمه. كان الخطر إذن مدبرًا، وكانت الهجرة جوابًا يجمع الوحي والأخذ بأسباب النجاة. [١,٣,٤]

ومن الأسماء التي ترد في طرق خبر المشاورة أو الرصد: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، وأمية وأبي ابنا خلف، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو لهب، وطعمة بن عدي، وابن الغيطلة. ليست هذه قائمة موحدة اتفقت عليها جميع الروايات، وبعضها يسمي الحاضرين في المشاورة وبعضها الواقفين على الدار. وتذكر روايات الشيخ النجدي بوصفه إبليس متمثلًا، وهو عنصر روائي غيبي لا اسم رجل آخر أثبته القرآن في الحادثة. [١,٤]

٠٨. ليلة المبيت: عليّ يحمل مسؤولية النجاة

في رواية الأمالي الطويلة يخبر النبي عليًّا بما عزم عليه المشركون، ويأمره أن يبيت على فراشه ليتوارى أثر خروجه. فيسأل عليّ عن سلامة رسول الله بمبيته، ثم يقبل المهمة. وتمثل هذه الليلة في الرواية الإمامية فعلًا من أفعال الفداء الواعي: شاب يعرف أن السيوف تقصد صاحب الفراش، فيبقى فيه لتتهيأ لصاحب الرسالة فسحة الخروج. ولا ينفصل هذا العمل عن بقائه بعد ذلك لأداء الأمانات ورعاية من سيلحقون بالنبي. [٣,٤]

يروي الطوسي أيضًا عن علي بن الحسين نزول «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله» في عليّ حين بات على الفراش. ويورد مجمع البيان هذا التفسير، ويبحث الميزان مناسبة معنى بذل النفس له. فاسم عليّ ليس جزءًا من لفظ الآية، وإنما هو تعيين روائي لمصداقها. وفي أخبار أخرى يرد جبريل وميكائيل في حماية عليّ والمباهاة بإيثاره، ويُحفظ ذلك بوصفه خبر فضيلة، مع التمييز بين أصل المبيت وبين تفاصيل الطرق التي ترويه. [٢,٣,٣٩]

٩. الخروج من الدار ودور أم هانئ وهند بن أبي هالة

تذكر رواية أم هانئ بنت أبي طالب أن النبي دخل بيتها بعد خروجه من موضع الرصد، وأن خبر نجاة عليّ بلغها، ثم مضى إلى غار ثور. ويختلف هذا الطريق في بعض ترتيب الخروج عن الرواية التي تصف التوجه مباشرة إلى الموضع المتفق عليه. لا يحتاج حفظ دور أم هانئ إلى جمع الترتيبين في رحلة مفصلة لم يروها أحد، يكفي أن تُذكر بوصفها صاحبة بيت وردت شهادته في أخبار تلك الليلة. [٣,٤]

وتسمي رواية الأمالي هند بن أبي هالة، ربيب النبي وابن خديجة، فيمن رافقوا مرحلة الوصول إلى الغار ثم عاد إلى مكة بأمر النبي؛ وتذكر ذهابه مع عليّ إلى الغار في الليلة التالية. وهند هنا رجل، فلا يحذف اسمه ظنًا أنه امرأة أو يخلط بأم سلمة هند بنت أبي أمية. ويظهر عمار بن ياسر وأبو رافع في صدر الطريق رواةً لهذا الخبر، بينما تُسند إلى هند أفعال داخله؛ وهذه فروق لازمة بين الشاهد والناقل وصاحب الفعل. [٣]

١٠. رد الودائع: الأمانة باقية مع الخصومة

لم يجعل النبي أموال الناس المودعة عنده غنيمة بسبب عداء قومه، بل خلف عليًّا ليردها إلى أصحابها. تتفق على أصل هذه المهمة أخبار الأمالي والسيرة، وإن اختلفت في تفصيل الاتصال بالغار وشراء الرواحل. وتصف الرواية نداءً لأصحاب الأمانات ليأخذوا ودائعهم. فالهجرة لم تقتصر على إخراج الجسد من الخطر، كان لا بد من إنهاء حقوق متعلقة بالذمة، كيلا يغادر صاحب الرسالة وتبقى أمانة ضائعة باسمه. [٣,١١]

وتربط رواية الأمالي تمويل جانب من الرعاية والهجرة بمال خديجة وما بذلته في فك العاني وإعانة المحتاج وحمل المهاجر. وتأتي خديجة هنا بحضور أثرها بعد وفاتها، لا بصفتها مسافرة إلى المدينة. كما يُذكر أبو طالب في تفسير اشتداد الأذى بعد غياب حمايته. وحفظ هذا الأثر يختلف عن إدراج الراحلين في أسماء القافلة؛ فقد صنع بعض الناس أسباب النجاة قبل أن يشهدوا نتيجتها. [٣]

١١. الغار في القرآن والتفسير الإمامي

تثبت التوبة: ٤٠ مشهد اثنين في الغار، وقول الرسول لصاحبه: «لا تحزن إن الله معنا»، ثم نزول السكينة والتأييد بجنود لم تُر. ويسمي التفسير الصاحب أبا بكر، ويسمي موضع الاحتماء غار ثور. لا

يذكر القرآن اسم الغار ولا اسم الصاحب في لفظ الآية، لكن تمييز اللفظ عن شرحه لا يعني إنكار التعريف التاريخي الذي تنقله المصادر. ويظل محور الآية نصرة الله لرسوله حين أخرجه الذين كفروا. [٥,٦]

يرجح الطوسي في التبيان، والطبرسي في مجمع البيان، رجوع ضمير السكينة إلى النبي بالنظر إلى سياق الضمائر والتأييد. ويناقش الطوسي الاستدلال بمجرد الصحبة على منزلة عقدية مخصوصة، ويفرق بين إثبات المصاحبة وإثبات المدح بها. ويعرض الفصل هذا التفسير باعتباره تفسيرًا إماميًا معللًا، دون أن يحوّل كل تفصيل جدلي متأخر إلى واقعة شهدها أهل الطريق، أو يجعل الآية تصريحًا بأحكام لم تذكرها بألفاظها. [٥,٦]

١٢. أسماء وعبد الله وعامر: شبكة الإمداد

تصف السيرة أعمالًا متكاملة حول الغار: عبد الله بن أبي بكر يسمع الأخبار ثم يبلغها، وعامر بن فهيرة يرعى الغنم ويأتي بما ينتفع به، وأسماء بنت أبي بكر تهيئ الزاد. وتروي خبر شد الطعام بنطاقها، ومنه لقب ذات النطاقين. وفي خبر آخر تواجه أسماء سؤال أبي جهل عن أبيها واعتداءه عليها. فهي صاحبة فعل في الإعداد والتحمل، ولا يصح أن يبتلع ذكر أبيها دورها الخاص. [١١]

وتحفظ الرواية حديث أسماء مع جدها أبي قحافة، وقد فقد بصره، حين خشي أن يكون أبو بكر ترك أهله بلا مال، فطمأنته بحيلة الأحجار المغطاة. وتروي عائشة خبر زيارة النبي بيت أبي بكر والإذن بالخروج، فتكون راوية لمرحلة الإعداد، لا امرأة حضرت الغار. كما تذكر رواية إعلام الورى اتصال الدليل بعليّ وأسماء وعامر لتجهيز السفر. تُعرض هذه الصلات بحسب طرقها، ولا يُفترض أنها نسخة واحدة متطابقة في كل حركة. [١١,١٢]

١٣. عبد الله بن أريقط والطريق غير المعتاد

استعين بعبد الله بن أريقط دليلًا للطريق، وترد في النسخ صيغ أريقط وأرقط. وتصرح السيرة بأنه كان يومئذ على الشرك، فلا يدرج في المؤمنين بمجرد قيامه بالدلالة. تكمن وظيفته في معرفة المسالك وإيصال الركب إلى المقصد، وهي وظيفة تختلف عن صحبة الغار وعن حمل الزاد. وتبين الاستعانة به أن خبرة الطريق كانت جزءًا من تدبير النجاة، وأن الروايات لا تختزل الرحلة في مشهد المعجزة وحده. [١١,١٢]

يعدد ابن إسحاق مواضع طريق مر بأسفل مكة واتجه ناحية الساحل، ثم عاد إلى مسالك تقود نحو قباء، ومنها عسفان وقديد والعرج. وعند العرج يذكر أوس بن حجر الأسلمي الذي أعان ببعير، وغلامه مسعود بن هنيدة الذي أرسله مع الركب. وهما من الأسماء القليلة التداول في مختصرات الهجرة، لكن لهما وظيفة محددة في هذا الطريق. ولا يُخلط أوس الأسلمي هنا بالشاعر التميمي الذي يشترك معه في الاسم. [١١]

١٤. المطاردة وسراقة بن مالك

تروي السيرة أن سراقة بن مالك بن جعشم علم بخبر الركب وطمع في الجائزة، فخرج في أثره. ثم تصف عثار فرسه وما منعه من إدراك النبي، وطلبه كتاب أمان، ورجوعه يصرف من لقيه عن جهة الركب. وفي بعض طرق الخبر يكتب له أبو بكر بأمر الرسول. يرد الحدث كذلك في كتب الدلائل، لكن التفاصيل الدقيقة للفرس وعدد المحاولات ليست سواء في جميع الطرق. [١١,١٢]

وتحفظ الرواية اللاحقة لقاء سراقة بالنبي بعد أن تغيرت أحوال الدعوة، وإبرازه كتاب الأمان وسؤاله عن سقي الإبل الضالة. يُذكر هذا الامتداد لبيان مآل الشخصية، مع إبقائه خارج زمن الطريق الأول. أما الحمامتان ونسج العنكبوت والشجرة عند الغار فتنتمي إلى أخبار الحماية في عدد من الطرق؛ الآية نفسها تذكر جنودًا لم تُرَ ولا تسمي هذه الموجودات. والتوثيق يحفظ الخبر من جهة، وحدود النص القرآني من جهة أخرى. [٤,٦,١١]

١٥. أم معبد وأبو معبد وذاكرة المرأة على الطريق

تحتل أم معبد الخزاعية موضعًا خاصًا في أخبار الطريق. تذكر الرواية أن الركب طلب عندها ما يشتريه من الطعام فلم يجد، ثم رأى النبي شاة أضعفها الجهد لا يرجى منها لبن، فاستأذن صاحبتها وحلبها بعد الدعاء، فشربت وشرب القوم وبقي عندها لبن. وعندما عاد أبو معبد سألها عما رأى، فوصفت له الرجل الذي مر بها. ولا تُستبدل كنيتها باسم مختلف فيه دون إحالة؛ حضورها في الحادثة ثابت في هذه الطرق بكنيتها. [٤,٣٦]

يصور وصفها هيئة النبي ووقاره ووضوح كلامه وعناية أصحابه به؛ وهي ملاحظة امرأة رأت ضيفًا عابرًا، لا مجرد إضافة إلى كلام زوجها. وتزيد بعض طرق الخرائج خبر طفل لها لم يكن يمشي أو يتكلم ثم عوفي، كما يرد ذكر شجرة أو ثمرة في سياق الدلائل. يثبت الطفل في هذا الموضع بوصفه طفلًا غير مسمى في تلك الرواية، ولا تجعل الزيادة جزءًا لازمًا من كل صيغة لقصة أم معبد. ويظهر حسان بن ثابت في الأشعار الملحقة بالخبر بوصفه شاعرًا يجيب، لا رفيقًا في الطريق. [٤,٣٦]

١٦. بريدة بن الحصيب ومن تغير موقفه في الطريق

ينقل بحار الأنوار عن المنتقى خبر خروج بريدة بن الحصيب الأسلمي في جماعة من قومه، ثم لقائه النبي وسؤاله عن اسمه وقبيلته وإسلامه. ويصف الخبر اتخاذه عمامته لواءً، ومشيه مع الركب. يتصل هذا المشهد بالتحول من طلب المكافأة أو الترقب إلى الإيمان والنصرة، لكنه يظل خبرًا محدد الطريق؛ فلا يحوّل عدد رجاله الوارد فيه إلى تعداد قطعي لأصحاب الهجرة. [٤]

وتختلف هذه الشخصية عن أوس بن حجر الذي وفر بعيرًا، وعن سراقة الذي طارد ثم أعطى عهدًا، وعن عبد الله بن أريقط الذي أدى عمل الدليل. جمع الأسماء دون وظائفها يضيع معنى الطريق؛ أما

ربط كل اسم بالفعل المنقول فيُظهر كيف اجتمعت خبرة ومساعدة وعهد وتحول ديني حول رحلة واحدة، دون افتراض تساوي منزلة أصحابها أو زمن إسلامهم. [٤,١١]

١٧. هجرة عليّ والفواطم

بعد إتمام الودائع والاستعداد للرحيل، تذكر رواية الأمالي وصول كتاب من النبي إلى عليّ يأمره بالقدوم، يحمله أبو واقد الليثي. فيأذن عليّ لمن معه من المستضعفين بالخروج، ويخرج بفاطمة بنت رسول الله، وأمه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب. ويسير معهم أيمن ابن أم أيمن وأبو واقد. وتصف الرواية عناية عليّ بالنساء حين اشتد سوق الرواحل، وطلبه الرفق بهن مع وجود الخوف من المطاردة. [٣]

ثم تذكر اعتراض فرسان من قريش قرب ضجنان، وتسمي جناحًا مولى الحارث بن أمية فيمن تقدم، وتصف دفاع عليّ وانصراف الباقين. هذه التفاصيل من الرواية الطويلة، وليست أسماء منصوصة في آية قرآنية. ويصرح صدر الرواية بأن أخبار هند وعمار وأبي رافع دخل بعضها في بعض؛ لذلك لا تعامل بوصفها تسجيلًا واحدًا متصلًا من شاهد لكل جزئية. ومع ذلك فهي أصل مهم لجمع شخصيات القافلة في التراث الإمامي. [٣]

١٨. فاطمة الزهراء في القافلة

تخرج فاطمة بنت محمد من مكة إلى أبيها في زمن لم يكن فيه بيتها الزوجي قد تأسس بالمدينة. يجمع خبر هجرتها بين انتمائها إلى بيت الرسالة وبين احتمالها مشقة الانتقال مع النساء والمستضعفين. وتذكر الرواية انتظار النبي وصول عليّ وابنته، ثم لقائهما في موضع نزوله. فحضور فاطمة لا يقتصر على الاسم الملحق بأمير المؤمنين؛ لها موضع في التكليف والرعاية والعبادة، ثم يبدأ في المدينة فصل جديد من حياتها. [٣,١٤]

وفي ذكر الفواطم عند آيات آل عمران يظهر العمل المشترك: ذكر الله والصلاة والسير منزلًا بعد منزل. وتظل عبارة «من ذكر أو أنثى» أوسع من القافلة الخاصة؛ فلا يحصر التفسير أجر الهجرة في نسوة مسميات ولا يمحو خصوصية العمل الذي حفظته الرواية لهن. ومن هذا الموضع يتصل الحديث عن فاطمة بالمجتمع الجديد: البيت الذي سيقام لها ولعليّ جزء من مدينة تبنى على العبادة والوفاء والتكافل. [٣,٨]

١٩. فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير

فاطمة بنت أسد أم عليّ، وصاحبة الرعاية القديمة للنبي في بيت أبي طالب. تحفظ رواية الكافي فضل هجرتها وبرها، كما تحفظ رواية الأمالي خروجها مع ابنها. والجمع بين الخبرين يبين انتقال أمومة الرعاية من البيت المكي إلى المجتمع المدني؛ فهي ليست مجرد اسم في نسب عليّ. أما ما يذكره بعض الأخبار من

سيرها على قدميها، فلا يساوى آليًا بوصف الركوب في طريق آخر، بل يبقى لكل خبر لفظه ودلالته. [٣,٢٤]

وتسمي الرواية الثالثة فاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وتذكر نسخة بحار الأنوار قولًا بأنها ضباعة. لا تُزاد امرأة رابعة لمجرد وجود هذا القول، ولا تمحى فاطمة من المتن لصالح تحديد لا يتفق عليه النقل. يثبت الاسم الوارد وتذكر المغايرة في التعليق. وكذلك أبو واقد الليثي غير واقد بن عبد الله التميمي الذي يرد في أخبار المهاجرين والسرايا؛ تشابه الاسم الأول لا يجمع الرجلين. [٣,٤,١٠]

٢٠. أم أيمن وأيمن والمستضعفون اللاحقون

تذكر رواية الأمالي أن أم أيمن لحقت بعليّ عند ضجنان في نفر من المستضعفين، بعد أن كان ابنها أيمن قد خرج مع القافلة. فتختلف لحظة التحاق الأم عن موقع الابن في أول الخبر. وأم أيمن، بركة حاضنة النبي، امرأة لها تاريخ من الرعاية والإيمان، وابنها أيمن غير أسامة بن زيد، وإن جمعتهما الأم. وحفظ هذين الاسمين يمنع ذوبان عمل الأسرة في عبارة عامة مثل «خرج معه أهل بيته». [٣]

ولا تسمي الرواية جميع من لحق بالقافلة من المستضعفين، رجالًا ونساءً. ويثبت لهم حضور جماعي في السير والعبادة من غير أسماء مخترعة. يتيح ذلك أن تكون الرواية أمينة لما سكت عنه المصدر أيضًا: فالنجاة عمل جماعة، لكن بقاء الخبر لا يضمن بقاء أسماء كل من شارك فيه. وما أمكن استدراكه من المصادر يضاف ببيان طريقه، أما الفراغ فيترك معلنًا. [٣,٧]

٢١. قباء وانتظار عليّ

يقدم خبر الروضة من الكافي، عن علي بن الحسين، انتظار النبي عليًّا بقباء بوصفه جزءًا من ترتيب الاستقرار، ويصف انتقالهما بعد ذلك إلى بني سالم ثم إلى المدينة. وتحفظ روايات إعلام الورى ومناقب آل أبي طالب أصل هذا الارتباط، مع اختلافها في عدد أيام الإقامة. والمغزى التاريخي المباشر أن مهمة عليّ بمكة وُصلت بمقام النبي في قباء، ولم يترك أمر الأسرة والودائع بلا انتظار أو تدبير. [١٣,١٤]

وفي بعض طرق الخبر حوار مع أبي بكر بشأن الانتقال إلى المدينة قبل قدوم عليّ، وفيه تفسير لموقفه بعبارات نقدية. ينقل ذلك بحسب مصدره، ولا يجعل كلام الراوي عن الباطن وصفًا محسوسًا مستقلًا. أما تورم قدمي عليّ في السير واستقبال النبي له فمذكور في أخبار أخرى استشهد بها جامع البحار. وتتطلب التفاصيل تقدير كل طريق على حدة؛ اتفاق المصادر على اللقاء لا يجعل جميع زياداتها متساوية في الثبوت. [١٣,١٤]

٢٢. تاريخ الوصول بين المتفق عليه والمختلف فيه

يجمع العرض التاريخي على جعل الهجرة أصلًا للعهد المدني، وتذكر الأخبار ربيع الأول في زمن القدوم. أما يوم الشهر وعدد ليالي الغار والإقامة بقباء فتتعدد فيها الأقوال؛ ففي الأخبار الحادي عشر والثاني عشر، وفي الإقامة أيام قليلة أو بضع عشرة ليلة. ويفصل الترتيب بين ليلة الخروج من مكة، والوصول إلى قباء، والدخول إلى موضع المسجد بالمدينة. دمج هذه المحطات يجعل الروايات متناقضة أحيانًا قبل النظر في اختلاف مرادها. [٤,١٣,١٤]

كما لا يعني بدء السنة الهجرية بالمحرم أن الخروج وقع في المحرم؛ تسمية التقويم بالهجرة شيء، وتاريخ الرحلة في شهور تلك السنة شيء آخر. ويورد ابن شهرآشوب هذا الفصل بين الحدث وردّ التاريخ إلى المحرم. لذلك يستخدم السرد السنة الأولى وربيع الأول حيث يتفق أصل الأخبار، ويترك الجزم باليوم المختلف فيه. ولا يُنشأ يوم ميلادي دقيق لمجرد الرغبة في جدول لا يحتمل الخلاف. [٤]

٢٣. كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمة وأهل قباء

يرد كلثوم بن الهدم مضيفًا للنبي بقباء، ويرد سعد بن خيثمة صاحب بيت كان يجتمع فيه الناس وينزل فيه العزاب من المهاجرين. وتعرض السيرة احتمال اختلاف المنزل الذي ينام فيه النبي عن الموضع الذي يجلس فيه للناس، فلا يلزم من تعدد الاسمين أن أحدهما بلا دور. وكان بنو عمرو بن عوف موضع نزول جماعة من المهاجرين قبل قدوم الرسول، فوجد القادم شبكة من البيوت والعلاقات، لا أرضًا خالية من الاستعداد. [١١,١٣]

وتذكر الأخبار رجلًا يهوديًا رأى الركب ونادى أهل المدينة، دون أن تسميه؛ وخروج الرجال والنساء والصبيان للاستقبال. لا يسمى هذا المبشر عبد الله بن سلام من غير نص يصل بينهما، ولا تعد كل من في المشهد مسلمًا لمجرد فرحه أو إخباره بالقدوم. وينقل خبر آخر منظر أبي بكر يظل النبي بردائه حين زال الظل عنه، فعرف من لم يره من قبل أيهما رسول الله. [١١,١٣]

٢٤. أسعد بن زرارة وإصلاح الصلة بين الأوس والخزرج

تروي أخبار النزول أن أسعد بن زرارة جاء إلى النبي متخفيًا في أول مقامه بقباء، لأن موضع النزول في الأوس وبينهم وبين الخزرج آثار الحرب. فسأل النبي من يجيره، فقام عويم بن ساعدة وسعد بن خيثمة بالجوار، وصار يأتي ويتحدث ويصلي. ليس بناء الأمة إذن شعارًا يزيل الذاكرة القبلية دفعة واحدة؛ تظهر الرواية إجراءً عمليًا يحمي الزائر ويفتح الطريق إلى الاجتماع. [١٣]

وتذكر الرواية سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة في إزالة الأصنام من بيئة الخزرج، كما تحفظ دور أسعد القديم في التعليم والاستقبال. وتقرأ هذه الحركة في ضوء آل عمران: ١٠٣، التي تذكر العداوة ثم تأليف القلوب والأخوة بنعمة الله. فالآية لا تمنح قائمة أسماء لجميع من جرى بينهم الإصلاح، لكن أخبار المدينة تبين الأشخاص والبيوت التي ظهر فيها أثره. [١٣,٣٣]

٢٥. سلمان: الهجرة إلى الحق قبل حرية الجسد

كان سلمان في رواية إعلام الورى قد خرج من فارس يطلب الدين، وتنقل في صحبة أهل الكتاب، ثم انتهى إلى يثرب مملوكًا يعمل في النخل. وعندما علم بقدوم النبي حمل إليه تمرًا وسمّاه صدقة، فرأى أنه لم يأكل منه؛ ثم جاءه بهدية فأكل، ونظر إلى خاتم النبوة. يسجل الخبر امتحانه للعلامات التي عرفها، ثم إيمانه وانتظاره الفرج من الرق. فلا يبدأ حضوره يوم بناء الخندق، وإن اشتهر دوره هناك بعد سنوات. [١٣]

وفُصّلت رحلة سلمان ونساؤها ورهبانها في الفصل ٤٥. وترد في سيرته الطويلة محطات وأشخاص ورهبان ومالكون تختلف تفاصيلهم بين الطرق. ويقتصر هذا الموضع على ما يتصل بلقائه في المدينة، دون تسمية الراهب أو المالك إذا لم يسمه النص المعتمد. كما لا يعد سلمان واحدًا ممن عبروا طريق مكة إلى قباء مع النبي؛ هجرته رحلة أوسع انتهت إلى ذلك اللقاء. ومن هذه البداية يتضح أن الأمة الناشئة لم تكن مقصورة على نسب عربي أو حرية اجتماعية سابقة. [٩,١٣]

٢٦. مسجد قباء ومعنى التأسيس على التقوى

يرد بناء مسجد قباء في أخبار الأيام الأولى، وتروي كتب الحديث عن الصادق تفسير المسجد الذي أسس على التقوى بمسجد قباء. وينقل مجمع البيان هذا القول وغيره عند التوبة: ١٠٨، ويذكر في تفسير محبة التطهر غسل أثر النجاسة، عن الباقر والصادق. فالمسجد موضع صلاة وطهارة والتزام جماعي، وليس حجرًا يكتسب فضله بمعزل عن مقصد بنائه وعمل أهله. [١٥,١٦]

ومع أن الآية تضيء منزلة قباء، فإن سياق مسجد الضرار متأخر، مرتبط في التفسير بالعودة من تبوك. فلا يوضع أبو عامر الراهب وبناة مسجد الضرار ضمن مشهد تأسيس قباء الأول، ولا تجعل أسماء تلك الحادثة من عمال البناء فيه. يذكرها هذا الفصل عند الحاجة إلى الفصل الزمني فقط، وتبقى تفاصيل النزاع لموضعها من أواخر السيرة. [١٦]

٢٧. امرأة قباء وسهل بن حنيف

يحفظ ابن إسحاق خبرًا ينسبه إلى عليّ عن امرأة مسلمة بقباء لا زوج لها، كان رجل يأتيها ليلًا بشيء تأخذه. فسألها عليّ عن أمره، فبينت أن سهل بن حنيف كان يكسر أصنام قومه ويأتيها بحطبها لتنتفع به. يرد ذلك في أخبار إقامة عليّ بقباء، ويذكر أن عليًّا ظل يذكر لسهل هذا الصنيع. المرأة غير مسماة، ودورها في الخبر بيان حالها والشهادة بما وقع، لا مجرد حضور عابر. [١١]

والخبر من السيرة المقارنة، فلا ينقل بعبارة «قال الصادق» أو «روي عن الباقر». كما لا تستنتج منه تهمة للمرأة، إذ نهايته بيان وجه الإعانة. وتظهر فيه صلة مبكرة بين ترك الوثنية وإعانة المحتاج؛ فالتحول الديني يصل إلى حياة امرأة تعيش بلا زوج وإلى ما تستخدمه من وقود، لا إلى المواجهة العلنية وحدها. [١١]

٢٨. الجمعة في بني سالم

تصف أخبار الانتقال من قباء إدراك النبي الجمعة في بني سالم بن عوف، عند وادي رانوناء، وصلاته وخطبته هناك. ويذكر خبر الكافي أن عليًّا كان معه في هذا الانتقال. أما اجتماع أهل يثرب للجمعة قبل قدومه، فينقله التفسير في شأن أسعد بن زرارة؛ فلا يُخلط «أول جمعة جمعها النبي بعد القدوم» بأول اجتماع للمؤمنين في المدينة قبل هجرته. [١٤,١٧,٤٠]

وتنقل المصادر صيغًا مختلفة لأول خطبة، يجمعها الحث على التقوى والاستعداد للآخرة والإحسان ولو بالقليل وصدق القول. لا تركب من تلك الصيغ خطبة جديدة ثم تنسب إلى النبي بحروفها. يكفي بيان مضمونها وإحالة القارئ إلى الألفاظ المختلفة، ليظل الانتقال إلى المدينة موصولًا بالتربية: جماعة تسمع وتتعلم وتحاسب نفسها، قبل أن تصبح عنوانًا للقوة السياسية. [١٧,٤٠]

٢٩. منازل الأنصار على طريق الدخول

في بني سالم يعرض عتبان بن مالك والعباس بن عبادة النزول، وفي بني بياضة يرد زياد بن لبيد وفروة بن عمرو، وفي بني ساعدة سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، وفي بني الحارث بن الخزرج سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة. وتصف الرواية تنافس البيوت في طلب ضيافة الرسول، وجوابه بترك الناقة تسير. ليس هؤلاء أسماء مكررة في بيعة العقبة فحسب؛ لهم هنا فعل استقبال وضيافة. [١٣,١٧]

وعند بني عدي بن النجار يذكر سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبي خارجة، ويستحضر النص قرابة النبي من جهتهم بواسطة سلمى بنت عمرو، أم عبد المطلب. وسلمى سابقة للعصر المدني، فيكون ذكرها لبيان النسب لا للحضور في الاستقبال. وتحتاج النسخ إلى ضبط: فبعضها يصحف عتبان إلى غسان، أو زياد بن لبيد إلى زياد بن الوليد. وتثبت القراءة التي يوضحها السياق وشواهد النص، ولا تُنشأ شخصيات جديدة من التصحيف. [١٧]

٣٠. أبو أيوب خالد بن زيد

بركت الناقة في الموضع الذي اتصل ببناء المسجد، وحمل أبو أيوب خالد بن زيد رحل النبي إلى بيته. ويظهر اسمه وكنيته معًا في أخبار السيرة والحديث؛ فلا يجعل خالد بن زيد شخصًا آخر غير أبي أيوب. وأقام النبي عنده إلى أن تهيأت مساكنه، وصار البيت مقصدًا للزوار والوفود الصغيرة وأهل الحاجة، يتصل فيه الخاص بالعام في بداية الاستقرار. [١٣,١٤,١٧]

وتحفظ الرواية اختيار النبي السفل لأنه أرفق بمن يقصده، وحرص المضيف على ألا يؤذيه بمن في العلو. وتذكر انكسار إناء ماء واستنشافه بقطيفة خوفًا من أن يتسرب إليه، وصناعة الطعام وإرساله. لا تقاس هذه الخدمة بمن حمل سيفًا؛ لها أثرها في تأمين الحياة اليومية لصاحب الرسالة، وفي جعل بيت أنصاري جزءًا من تأسيس المدينة المؤمنة. [١٣,١٧]

٣١. أم أيوب وأم أبي أيوب وجواري بني النجار

تقول رواية ابن إسحاق على لسان أبي أيوب: كان هو وأم أيوب في العلو، وتشارك أم أيوب في تجفيف الماء وإعداد الطعام. وتقول رواية إعلام الورى: أم أبي أيوب، وتذكرها في إدخال الرحل والعيش في العلو؛ كما تنقل المناقب خبرًا آخر عن أمه. هذان التعبيران لا يتطابقان لغويًا: أم أيوب كنية امرأة في بيت أبي أيوب، وأم أبي أيوب تعني والدته. لذلك لا يدمج الفصل الخبرين في امرأة واحدة ذات اسم مبتكر. [١٣,١٧]

وترد جوار من بني النجار في خبر الاستقبال وهن يعلنّ فرحهن بجوار النبي، ويجيبهن بالمحبة. يبقين جماعة غير مسماة في هذا الطريق؛ ولا يلزم أن تكون كل واحدة منهن امرأة ورد اسمها في أخبار لاحقة. وكذلك نشيد «طلع البدر علينا» مذكور في بعض كتب السيرة، لكن طرقه وتعيين مناسبة إنشاده لا يساويان قوة أصل القدوم والاستقبال. يحتفظ السرد بصورة الفرح دون اتخاذ كل لفظ مشهور سجلًا قطعيًا لذلك اليوم. [١٣]

٣٢. الطعام الذي حملته بيوت الأنصار

تذكر رواية النزول أن أسعد بن زرارة كان يبعث إلى النبي بالطعام، وأن سعد بن عبادة وسعد بن خيثمة والمنذر بن عمرو وسعد بن الربيع وأسيد بن حضير شاركوا في تعهده. وفي خبر أسيد أنه حمل القدر بنفسه عندما لم يجد من يحملها. وتأتي هذه التفاصيل لتكشف موردًا من موارد النصرة: الزراعة والطهي والأواني والحمل والتوزيع، وهي أعمال تتكامل لتستقبل المدينة أناسًا فارقوا أسباب عيشهم. [١٣]

ولا يسمي الخبر جميع من طبخ من النساء أو الخدم وأهل البيوت، فلا ينسب العمل كله إلى الرجال المسمين على أنهم أدوه بأيديهم منفردين. الأسماء المعلومة هي أصحاب الإرسال أو الحمل، وتبقى المساعدة المنزلية غير المفصلة ضمن حدود الرواية. وتدل الحادثة على أن الإيواء لم يكن منحة لحظة الوصول فحسب؛ كان التزامًا متكررًا حتى أمكن بناء المساكن واستئناف العمل. [١٣]

٣٣. سهل وسهيل: حق اليتيمين في أرض المسجد

كان موضع المسجد مربدًا لسهل وسهيل، وهما غلامان يتيمان من بني النجار. وتختلف الروايات فيمن كان يتولى أمرهما: ففي رواية معاذ بن عفراء، وفي أخرى أسعد بن زرارة. ويذكر خبر إعلام الورى عرضهما الأرض دون ثمن وإصرار النبي على الشراء، بينما تصف السيرة إرضاء معاذ لهما. يبقى الأصل المشترك أن الأرض لها أصحاب معلومون، وأن تحويلها إلى مسجد مرتبط بمعالجة حقهم، لا بتجاهله لصغر سنهم. [١٣,١٧]

ولا يضاف إلى الآية اسم سهل أو سهيل؛ إنما حفظتهما الرواية التاريخية. وترد أحيانًا عبارة «يتيمان له» بمعنى في كفالته، فلا تجعل الراعي أباهما الذي يناقض وصف اليتم. ومن المهم أن يبقى الطفلان

داخل حكاية التأسيس: كان أول البناء متصلًا بأرضهما، ومكانهما في الرواية يذكّر بأن المؤسسة العامة تنشأ بين حقوق أفراد، منهم من لا يملك قوة المطالبة بنفسه. [١٣,١٧]

٣٤. بناء المسجد في رواية الإمام الصادق

يروي الكليني عن عبد الله بن سنان عن الصادق أن النبي بنى مسجده بالسميط، ثم زاد فيه مع كثرة المسلمين، وأن الجدار بني على صور من ترتيب اللبن. ثم أقيمت سواري من جذوع النخل، وألقيت عليها العوارض والخصف والإذخر اتقاء الحر. وعندما نزل المطر وقطر السقف طلبوا تطينه، فجاء في الخبر الإبقاء على عريش بسيط كعريش موسى. الرواية تصف نمو البناء تبعًا للحاجة، لا تشييد صورته الأخيرة في يوم واحد. [١٥]

وتفسر الرواية ألفاظ السميط والسعيدة والذكر والأنثى في تركيب اللبن، فلا تحمل هذه الأسماء على أشخاص شاركوا في البناء. كما أن موسى المذكور في التشبيه نبي سابق يستحضر مثال بساطة البناء، وليس حاضرًا في المدينة. وتنتقل الأخبار من مادة الجدار إلى مواقيت الصلاة والظل؛ فالمسجد بناء يُستعمل ويُتعلم فيه، وتكوينه مرتبط بحياة الجماعة لا بزينة منفصلة عنها. [١٥]

٣٥. عليّ وعمار والعمل في البناء

عمل النبي مع أصحابه في نقل اللبن والحجارة، وتذكر السيرة رجز عليّ في عمارة المساجد، وأخذ عمار بن ياسر يردده. وتصف ثقل اللبن على عمار ومسح النبي غباره وقوله في الفئة التي ستقتله. ويظهر اسم سمية في كنية «ابن سمية»؛ فهي أمه الشهيدة التي مضى خبرها في المرحلة المكية، وليست امرأة حضرت بناء المسجد بعد استشهادها. [١٣,١٧]

وتذكر بعض طرق الخبر خصومة حول الرجز، ويحذف متن ابن هشام اسم الرجل المعترض بينما تسميه نقول أخرى عثمان بن عفان. لذلك يبقى تعيينه منسوبًا إلى تلك النقول، ولا يصاغ كأنه اسم صريح في كل رواية. أما الحدث الذي يجمع تلك التفاصيل فهو مشاركة أصحاب مراتب اجتماعية مختلفة في عمل واحد، ورفض إهانة عمار بسبب أصله أو ما لقيه في مكة. [١٧]

٣٦. البيوت حول المسجد وسد الأبواب

نشأت مساكن النبي وأهل بيته قرب المسجد، وخُطت منازل لبعض أصحابه، فصارت صلة البيت بمكان الصلاة جزءًا من تنظيم المدينة. وتنقل الروايات الإمامية خبر سد الأبواب المفتوحة إلى المسجد إلا باب عليّ، وفي خبر الكافي في قصة جويبر ذكر باب عليّ ومسكن فاطمة. ويقدم الخبر ذلك بأمر إلهي، لا بقرار محاباة دنيوية في توزيع المساكن. [١٣,٢٣]

وتورد رواية إعلام الورى حمزة فيمن ورد كلامهم عند سد الأبواب، بينما تربط رواية الكافي الترتيب بتنظيم المبيت وإقامة الصفة للفقراء. لا يفرض جمعهما تاريخًا واحدًا لكل ما حول المسجد، ولا يثبت

أن كل توسعة أو حكم للمبيت وقع قبل بدر. ويظل عليّ وفاطمة وحمزة شخصيات الخبر، أما الإمام الباقر الذي ينقله في قصة جويبر فهو راوٍ من أهل البيت في عصر لاحق. [١٣,٢٣]

٣٧. الأذان: جبريل وعليّ وبلال

في الكافي، باب بدء الأذان والإقامة، يروي منصور بن حازم عن الصادق أن جبريل نزل بالأذان، وأن عليًّا سمعه وحفظه، ثم أمر النبي أن يدعى بلال ليعلمه عليّ. وترد رواية أخرى عن الباقر تربط الأذان بصلاة النبي في المعراج. يقدم هذان الخبران الأذان بوصفه تعليمًا من الوحي، ويتصل دور بلال بإعلانه وتعليمه، لا باختراع ألفاظه. [١٨]

وفي السيرة خبر رؤيا عبد الله بن زيد بن ثعلبة، وموافقة عمر على أنه رأى مثلها؛ يذكر هنا للمقارنة، ولا يدمج مع رواية أهل البيت على أنه منشأ معتمد واحد للتشريع. كما يذكر الكافي رفع بلال صوته فوق جدار المسجد عند دخول الوقت. فيصبح من عُذب بمكة على التوحيد صوت الجماعة في المدينة، ويصل الأذان بين العقيدة التي صبر عليها وبين انتظام الحياة اليومية حول الصلاة. [١٨,١٩]

٣٨. الصلاة وتدرج تنظيم العبادة

يتضمن خبر علي بن الحسين في الروضة حديثًا عن زيادة ركعات الصلاة في المدينة بعد قوة الإسلام، مع بقاء صلاة الفجر على ركعتين، ويفسر شهود قرآن الفجر بملائكة الليل والنهار. ويعرض هذا الفصل مضمون الخبر في سياق نشوء الجماعة، دون اتخاذ رواية تاريخية واحدة بديلًا عن أبواب الفقه التفصيلية التي تجمع سائر النصوص وأحكام السفر والحضر. [١٤]

فالمسجد والنداء والجمعة والجماعة منظومة متصلة: مكان يجمع، وصوت يدعو، وتعليم يتكرر، ووقت تشترك فيه البيوت. وتشارك النساء في تعلم الدين والعبادة، وإن كان نص بعينه لا يسمي كل حاضرة. ومن الخطأ عدّ خلو خبر بناء الجدار من أسماء النساء دليلًا على غيابهن من الحياة الدينية كلها؛ إنما تحدد الرواية ما اختارت وصفه. [١٤,١٨,٢٣]

٣٩. المؤاخاة: النصرة قبل تعداد الأزواج

قرنت الأنفال: ٧٢–٧٥ بين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وبين الذين آووا ونصروا. وتنقل التفاسير الإمامية خبر التوارث بالمؤاخاة أولًا، ثم تقديم أولي الأرحام في الإرث. ويجب التفريق بين تغير حكم الميراث وبقاء المواساة والنصرة؛ انتهاء نوع من التوارث لا يعني إلغاء الأخوة الدينية أو حق الجار والمحتاج. وتظهر المؤاخاة جوابًا لمشكلة اجتماعية عاجلة أحدثها خروج المهاجرين من بيوتهم وأموالهم. [٢٠]

وتحفظ الأخبار أعدادًا مختلفة لمن شملتهم المؤاخاة، كما تختلف في بعض الأزواج. لذلك لا يبنى مجموع نهائي بجمع قوائم متداخلة، ولا يفرض أن جميع الأزواج المذكورين عقدت أخوتهم في يوم واحد.

وتضم بعض القوائم جعفراً وهو بالحبشة، وتضم سلمان وأبا الدرداء مع الحاجة إلى فحص تاريخ كل خبر؛ فالقائمة قد تجمع علاقات من مراحل متعددة. [٢١]

٤٠. النبي وعليّ في المؤاخاة

تجعل الرواية الإمامية مؤاخاة النبي لعليّ من دلائل اختصاصه وقربه، وترد في رواية ابن إسحاق عند المؤاخاة عبارة أخذ النبي بيد عليّ وجعله أخاه. ويستشهد المجلسي باجتماع هذا النقل مع أخبار الفضائل. فلا يصور عليّ كمن ترك بلا أخ أو احتاج إلى إلحاق قسري بقائمة الأنصار؛ المقصود في هذه الروايات تخصيصه بأخوة الرسول نفسه. [٢١]

ويذكر جامع البحار قولًا مخالفًا في بعض كتب الأنساب يقرن عليًّا بسهل بن حنيف، وينبه إلى مخالفته للمشهور. يثبت هذا بوصفه اختلافًا في النقل، لا قرينتين مستقلتين يجب قبولهما جميعًا. كما لا يلغي مقام حمزة أو جعفر أو غيرهما؛ فخبر المؤاخاة يبين علاقة مخصوصة، ويمكن حفظ أدوار سائر أهل البيت دون أن تذوب خصوصية عليّ أو تتخذ وسيلة لمحوهم. [٢١]

٤١. أسماء المؤاخاة في سجل ابن إسحاق

يضم سجل ابن إسحاق: حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة؛ وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، مع التنبيه إلى غياب جعفر بالحبشة؛ وأبا بكر وخارجة بن زيد؛ وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك؛ وأبا عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ؛ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع؛ وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت؛ وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك؛ وسعيد بن زيد وأبي بن كعب؛ ومصعب بن عمير وأبا أيوب. ترد الأسماء هنا لحفظ سجل الرواية، ولا يدل الجمع على أن النص أعطى تاريخًا مستقلًا لكل زوج. [٢١]

ويذكر أبا حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر؛ وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة؛ وبلالًا وأبا رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي؛ وأبا ذر والمنذر بن عمرو؛ وسلمان وأبا الدرداء. وفي الزبير ترد المؤاخاة مع سلمة بن سلامة بن وقش أو عبد الله بن مسعود، وفي عمار مع حذيفة بن اليمان أو ثابت بن قيس بن شماس. يجب إبقاء «أو» حيث اختلف النقل، وإبقاء أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان شخصين مختلفين، كما أن أبا رويحة غير أبي رافع. [٢١]

٤٢. زيادات سجل المؤاخاة وأسماء لا تهمل

وينقل جامع البحار عن المحبر زيادات وبدائل، منها أبو مرثد الغنوي وعبادة بن الصامت؛ ومرثد بن أبي مرثد وأوس بن الصامت؛ وعبيدة بن الحارث وعمير بن الحمام؛ والطفيل بن الحارث والمنذر بن محمد؛ والحصين بن الحارث ورافع بن عنجدة؛ وشجاع بن وهب وأوس بن خولي؛ وعبد الله بن جحش وعاصم بن ثابت؛ ومحرز بن نضلة وعمارة بن حزم؛ وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن ماعص؛ وعتبة بن

غزوان وأبو دجانة؛ وسعد مولى عتبة وتميم مولى خراش. وهذه أسماء رجال، حتى حين ترد صيغة «سالم مولى» أو «سعد مولى» بدل نسب طويل. [٢١]

ومن زياداته: طليب بن عمير والمنذر بن عمرو؛ وسعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ؛ وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل؛ وذو الشمالين عمير بن عبد عمرو ويزيد بن الحارث؛ وخباب بن الأرت وجبار بن صخر؛ والمقداد بن عمرو وجبر بن عتيك؛ وعمير بن أبي وقاص وعمرو بن معاذ؛ ومسعود بن ربيع القارئ وعبيد بن التيهان؛ وعامر بن فهيرة والحارث بن أوس؛ وصهيب والحارث بن الصمة؛ وأبو سلمة وسعد بن خيثمة؛ وشماس بن عثمان وحنظلة بن أبي عامر؛ والأرقم وأبو طلحة زيد بن سهل. وتبقى هذه زيادات مصدر بعينه، لا إجماعًا على كل اقتران. [٢١]

٤٣. بقية الأسماء في الرواية الموسعة للمؤاخاة

وتستكمل الرواية الموسعة معتب بن حمراء وثعلبة بن حاطب؛ وزيد بن الخطاب ومعن بن عدي؛ وواقد بن عبد الله وبشر بن البراء؛ وعامر بن ربيعة ويزيد بن المنذر؛ وعاقل بن أبي البكير ومبشر بن عبد المنذر، مع بديل المجذر بن زياد؛ وعامر بن أبي البكير وثابت بن قيس؛ وخالد بن أبي البكير وزيد بن الدثنة؛ وإياس بن أبي البكير والحارث بن خزمة؛ وعثمان بن مظعون وأبا الهيثم بن التيهان؛ وعبد الله بن مظعون وسهل بن عبيد بن المعلى؛ والسائب بن عثمان وحارثة بن سراقة. [٢١]

وتذكر معمر بن الحارث ومعاذ بن عفراء؛ وخنيس بن حذافة وأبا عبس بن جبر؛ وعبد الله بن مخرمة وفروة بن عمرو؛ وأبا سبرة وسلمة بن سلامة؛ ووهب بن سرح وسويد بن عمرو؛ وصفوان بن بيضاء ورافع بن المعلى. وتعرض لبعض المشهورين بدائل أخرى، كزيد بن حارثة وأسيد بن حضير، وأبي عبيدة ومحمد بن مسلمة، وسلمان ورخيلة بن يخلد. الغرض من إثبات البدائل صيانة السجل من الحذف، مع منع الاستنتاج أن الشخص عقدت له كل هذه المؤاخاة في مناسبة واحدة. [٢١]

٤٤. من الضيافة إلى الكسب

كانت المؤاخاة بابًا للمواساة، لكن المهاجرين لم يكونوا صورة واحدة من الفقر والعجز. ففي خبر البخاري المقارن يعرض سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف مساعدته، فيسأل عبد الرحمن عن السوق ويشتغل بالبيع والشراء، ثم يتزوج امرأة من الأنصار. يرد هذا الخبر هنا مع التصريح بمصدره، ويظهر فيه اجتماع كرم المضيف ورغبة القادم في الكسب. والمرأة الأنصارية غير مسماة في هذا المتن، فلا يختار لها اسمًا من كتب أخرى دون تحقيق. [٤٢]

ومن جهة القرآن، تصف الحشر: ٨ المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ثم تصف إيثار الذين تبوؤوا الدار والإيمان. نزلت سورة الحشر في سياق لاحق، لكن ألفاظها تشرح معنى العلاقة التي بدأت مع الهجرة. فلا تُختزل الآية في أول يوم، ولا تقرأ الضيافة باعتبارها إذلالًا أو تبعية دائمة؛ إنها استجابة لحاجة قسرية، ومقدمة لاستعادة القدرة على الحياة والعمل. [٢٢]

٤٥. الإيثار في البيت: عليّ وفاطمة والضيف

يعرض مجمع البيان عند الحشر: ٩ أخبارًا متعددة في الإيثار، منها خبر ضيف لم يوجد له طعام عند أهل النبي، فأخذه رجل وأطعمه قوت بيته وأطفأ السراج. ثم ينص الطبرسي على طريق يعيّن عليًّا وفاطمة صاحبي هذا العمل. ويكشف تعيين المرأة هنا عن فعلها: تدبير طعام البيت ورعاية الصبية والمشاركة في تحمل الجوع. ولا يختزل الإيثار في إكرام الرجل للضيف مع إغفال ما قامت به زوجته. [٢٢,٣٤]

وترد في الباب نفسه أخبار أخرى، كإيثار الأنصار المهاجرين في مال بني النضير، وتداول الطعام بين محتاجين. لا يُلزم تعددها بتعدد نزول الآية كل مرة، ولا يثبت أن خبر الضيف وقع في السنة الأولى، خصوصًا مع ذكر الصبية. ويكفي إثباته شاهدًا على خلق البيت المدني في رواية التفسير. كذلك لا تسمى هوية الضيف إذا تركها الطريق مجهولة. [٢٢]

٤٦. جويبر والصفة: السكن والكرامة

يروي الكافي عن الباقر قصة جويبر، رجل من أهل اليمامة قدم راغبًا في الإسلام، فقربه النبي وأطعمه وكساه، وكان قليل المال غريبًا. ثم يصف الخبر كثرة الغرباء والفقراء، وتنظيم موضع يأوون إليه هو الصفة، وتعهد النبي لهم بما يتيسر من الطعام، واقتداء المسلمين به. ليست الصفة اسم قبيلة أو جماعة ذات عدد ثابت، بل موضع ضم أصحاب حاجات تتغير مع وصول الناس وخروجهم وقدرتهم على العمل. [٢٣]

وتصف الرواية ما كان جويبر يراه مانعًا من الزواج: قلة المال وضعف المكانة والنسب والهيئة. فيجيبه النبي بإعادة معيار التفاضل إلى الإسلام والتقوى والطاعة. لا يذكر النص سنة معينة للقصة، فتدرج في نمو المجتمع المدني دون إلزامها بأول شهر للهجرة. ويذكر صدر الحديث منجح بن رباح ومسألة زواجه في عصر الباقر؛ وهو سبب لاستحضار القصة القديمة، لا رجل حضر مجلس النبي في زمن جويبر. [٢٣]

٤٧. الذلفاء وزياد بن لبيد: صوت المرأة في الاختيار

بعث النبي جويبرًا إلى زياد بن لبيد يطلب تزويجه ابنته الذلفاء. استغرب زياد الطلب مستحضرًا عادة التزويج من الأكفاء في قومه، فسمعت الذلفاء الحوار، وسألته، وطلبت أن يرد جويبر حتى يتحقق من الرسول. وبعد رجوع زياد من النبي قبلت ما جاء به وحثت على الاستجابة. فهي في الرواية صاحبة قول مؤثر، وليست بنتًا صامتة تنتقل بين قراري رجلين. [٢٣]

هيئت لهما دار ومتاع ولباس، ثم انشغل جويبر أول لياليه بالشكر والعبادة حتى خشي أهل الزوجة أنه لا يرغب في النساء. فسأله النبي، فبين أنه يتذكر فقره وما صار إليه، ثم وعد بإعطاء زوجته حقها.

وتنتهي الرواية باستشهاده في غزوة لا تسميها، وبقاء الذلفاء بعده. فلا تجعل الغزوة بدرًا أو أحدًا بلا دليل، ولا تضيع شخصيتها عند موت الزوج؛ إنما يستمر خبرها في خاتمة الرواية. [٢٣]

٤٨. لماذا لا تتحول الصفة إلى قائمة ثابتة؟

تسمية شخص من أهل الصفة في خبر متأخر لا تثبت وجوده فيها وقت تأسيسها. ويظهر أبو هريرة في أخبار الصفة في المصادر المقارنة، لكن حضوره المدني متأخر عن أصل الهجرة، فلا يوضع بين من استقبلوا النبي بقباء. وينطبق الاحتراز نفسه على أسماء وافدين آخرين دخلوا المدينة في سنوات متعددة. وما يثبته حديث جويبر هو رعاية الفقراء والغرباء وتنظيم مأواهم، لا سجل دائم يغني عن تحقيق سيرة كل اسم. [٢٣,٤٨]

وتظهر في الرواية أطعمة بسيطة، وتوزيع متكرر، وحاجة إلى مسكن وزواج، فتقود من سد الجوع إلى الاندماج في المجتمع. هذه صلة أساسية بين الرحمة والكرامة: يبقى للفقير اسم وقصة وحق في تكوين أسرة، ويخاطب بوصفه مؤمنًا مسؤولًا. ولا تتوقف الرعاية عند باب المسجد، إذ تصل إلى بيت زياد والذلفاء وما بذلوه من تهيئة منزل جديد. [٢٣]

٤٩. تلاحق الأسرة: سودة وعائشة وأم رومان

ينقل البحار عن المنتقى إرسال زيد بن حارثة وأبي رافع لإحضار أهل النبي، ويسمي سودة بنت زمعة، ويذكر خروج عبد الله بن أبي بكر بأهل أبيه ومنهم أم رومان وعائشة، وصحبة طلحة في الخبر. وهذه ليست قافلة الغار؛ إنها مرحلة تلاحق الأسر بعد استقرار الطريق. كما أن انتقال عائشة إلى بيت النبي بالمدينة غير عقد زواجه بها الذي سبق الهجرة، وتختلف الروايات في سنة البناء بها. [٣٥]

وتوجد رواية مقارنة مطولة تضم فاطمة وأم كلثوم وأم أيمن وأيمن وأسامة إلى الخارجين مع زيد وأبي رافع. وهي تختلف عن رواية الأمالي في هجرة فاطمة وأم أيمن مع عليّ؛ فلا يجمع الفصل الطريقين في قافلتين تسافر فيهما المرأة نفسها بلا دليل. يثبت موضع الاختلاف، وتكون رواية هجرة الفواطم أصل السرد الإمامي، مع حفظ الأسماء التي وردت في الطريق الآخر. وفي رواية المنتقى ذكر عبد الرحمن في أهل أبي بكر يحتاج إلى احتراز، فلا يعد تلقائيًا مهاجرًا مسلمًا في هذه المرحلة. [٣,٣٥,٤٥]

٥٠. أسماء وعبد الله بن الزبير: ميلاد في دار الهجرة

تروي أسماء بنت أبي بكر في المصادر الحديثية المقارنة أنها خرجت حاملًا بعبد الله بن الزبير، ونزلت قباء فولدته، ثم حملته إلى النبي فحنكه ودعا له. يضيف هذا الخبر إلى دور أسماء في تجهيز الزاد خبر جسد يتحمل السفر والحمل والولادة. والطفل هنا عبد الله بن الزبير، لا عبد الله بن أبي بكر الذي نقل الأخبار، ولا عبد الله بن أريقط الدليل. [٤٣]

ولا يستعمل وصفه بالأول في بعض الأخبار إلا ضمن حدوده، كأول مولود للمهاجرين في المدينة؛ فلا يمحو أطفال الأنصار الذين ولدوا قبلهم، ولا يصير أول طفل مسلم على الإطلاق. ومع ولادته يدخل الجيل التالي في الحكاية: ليست الهجرة خروج بالغين فقط، بل انتقال أسر تتكاثر وتربي أبناءها في بيئة جديدة، وتحمل معها ذكريات مكة وتعيد تنظيم حياتها. [٤٣]

٥١. أم سليم وأنس وأبو طلحة

تذكر كتب التراجم أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك، في نساء الأنصار السابقات، وتحفظ خبر امتناعها من الزواج بأبي طلحة وهو على الشرك، ثم زواجه بها بعد إسلامه. وترد في رواياتها عناية بتعليم ولدها وصلته بالنبي، والدعاء لأنس. وهي غير أم سلمة المهاجرة، وغير أم أيمن الحاضنة؛ التقارب في الكنى لا يلغي اختلاف الأنساب والبيوت والأعمال. [٤٤]

وأبو طلحة هو زيد بن سهل، وليس طلحة بن عبيد الله المهاجر. وتذكر ترجمة أم سليم ابنها أبا عمير الذي مات صغيرًا، وعبد الله بن أبي طلحة المولود بعده، لكن أحداث الأسرة تمتد زمنًا فلا تُضغط في سنة الوصول. ويثبت هؤلاء في مبحث البيت الأنصاري بقدر صلتهم بتكون المجتمع، مع إبقاء الروايات التفصيلية لمواطنها، وعدم تقديم أخبار التراجم المقارنة على أنها جميعًا مروية عن أهل البيت. [٤٤]

٥٢. زواج عليّ وفاطمة وبداية البيت

تروي أخبار إعلام الورى طلب عليّ الزواج بفاطمة، وذكر درعه فيما يملك، وإتمام الزواج بإذن النبي. وتختلف الأخبار في تحديد الشهر والفصل بين العقد والبناء، لكن مقام الزواج مدني بعد الهجرة. ويذكر خبر الروضة زمنًا بعد الهجرة بسنة، وتجمع كتب الفضائل أقوالًا أخرى؛ فلا يستنتج من قرب ذكر الزواج من بناء المسجد أنهما وقعا في الأسبوع نفسه. [١٤,٢٥]

وتذكر الرواية حارثة بن النعمان في تهيئة المسكن، وقوله إن ما يأخذه النبي من ماله أحب إليه مما يتركه. وهكذا يدخل مضيف أنصاري في تأسيس بيت أهل البيت، لا على سبيل القرابة بل البذل. ويصف الخبر فراشًا بسيطًا من جلد كبش؛ فقلة المتاع لا تنقص من منزلة البيت، بل تجعل قيمته فيما يقوم عليه من علاقة وعبادة وخدمة، لا فيما يحويه من زينة. [٢٥]

٥٣. نساء أخبار الزفاف ومشكلة أسماء بنت عميس

تذكر بعض أخبار الزفاف نساء قمن بالتجهيز والخدمة، وترد أم أيمن في رواية نقلها كشف الغمة. ويقع اسم أسماء بنت عميس في بعض طرقها، مع أن إقامتها مع جعفر في الحبشة تجعل حضورها زفاف فاطمة المبكر موضع إشكال تاريخي. يثبت اسمها في موضع الرواية مع بيان الإشكال، ولا يُصحح تلقائيًا إلى أسماء بنت يزيد أو أسماء بنت أبي بكر لمجرد الحاجة إلى اسم بديل. [٤٦]

وقد نبه الإربلي إلى هذا التعارض بعد إيراد الأخبار، ورجح أن التي شهدت الزفاف سلمى بنت عميس، أخت أسماء وزوجة حمزة بن عبد المطلب، وأن شهرة أسماء أو سهو راو ربما نقل الاسم إلى غير صاحبته. فيثبت اسم سلمى هنا بوصفه ترجيح الإربلي، لا قراءة متفقًا عليها لجميع الأسانيد. وتبقى أم أيمن في الرواية الأخرى، كما تبقى أسماء بنت عميس صاحبة هجرتي الحبشة والمدينة في ترتيب سيرتها الصحيح. [٣,٤٦]

٥٤. فاطمة بنت أسد: الوفاء بعد الهجرة

يروي الكافي عن الصادق خبر فاطمة بنت أسد، وبرها بالنبي، ووصيتها بعتق خادمتها، ثم مجيء عليّ يخبره بوفاتها، وتسميته إياها أمًّا. ويذكر أمره النساء بتغسيلها، وإعطاء قميصه لتكفن فيه، وحمله جنازتها ودعاءه لها. هذا خبر من حياتها المدنية اللاحقة، لا من يوم الوصول نفسه، ويجعل الوفاء للرعاية القديمة عملًا ظاهرًا عند موت صاحبتها. [٢٤]

والخادمة التي أوصت بعتقها امرأة حقيقية في الخبر، وإن لم يسمها النص؛ وكذلك النساء القائمات بالغسل لا تُملأ أسماؤهن بالتخمين. وتذكر الرواية رجال البيت مثل عليّ، وتستحضر أبا طالب في وفاء النبي لبره وبر زوجته. أما طريق الخبر ففيه إرسال، فلا يوصف جميعه بالصحة لمجرد وجوده في الكافي؛ يحفظ فضلها مع نسبة تفاصيله إلى الرواية التي حملتها. [٢٤]

٥٥. البراء وأسعد وكلثوم: فقد المؤسسين

تذكر الأخبار وفاة البراء بن معرور قبل قدوم النبي، وصلاته على قبره بعد الوصول؛ فهو حاضر بأثر بيعته ووعده، لا بجسده في استقبال قباء. ويموت أسعد بن زرارة في أول العهد المدني والمسجد يبنى، فتأتي بنو النجار تطلب من يخلف نقيبها، فيتولى النبي شأنهم. كما تذكر وفاة كلثوم بن الهدم بعد القدوم بيسير. لا يضيع دور هؤلاء لأنهم لم يشهدوا اتساع المدينة وغزواتها اللاحقة. [١٧,٣٥]

وتورد المصادر خلافًا في أول من دفن بالبقيع، بين أسعد بن زرارة من الأنصار وعثمان بن مظعون من المهاجرين. لا يحل هذا الخلاف بحذف أحدهما؛ قد يختلف المراد بالأول بحسب الجماعة أو موضع الدفن أو تقليد الرواية. ويذكر عثمان في امتداد لاحق من حياة المجتمع، مع الفصل بينه وبين عثمان بن عفان وعثمان بن طلحة. إن ضبط الموت والغياب مهم بقدر ضبط الوصول، لأنه يمنع إقحام شخص في حادثة بعد وفاته. [٣٥]

٥٦. حمى المدينة والحنين إلى مكة

تروي عائشة في السيرة ما أصاب أبا بكر وعامر بن فهيرة وبلالًا من حمى عند القدوم، وتنقل كلمات وأشعارًا قالوها في المرض والحنين إلى مكة، ثم دعاء النبي للمدينة. لا يشبه الوصول نهاية قصة تستريح

فيها النفوس والأجساد فورًا؛ فقد وجد المهاجرون بيئة جديدة ومرضًا وفقدًا للمألوف، وكان على الإيواء أن يصير تمريضًا ورعاية أيضًا. [٤٧]

وتظهر عائشة هنا ناقلة لأحوال المرضى في البيت، فيختلف دورها عن خبر الإعداد بمكة أو خبر انتقالها إلى بيت النبي. وتبقى أسماء الجبال والمواضع في شعر بلال أماكن للحنين، فلا تدخل في سجل الأشخاص. ويعطي الخبر للمدينة صورة إنسانية: دار إيمان وأمان، لكنها تحتاج إلى صبر على المرض، وإلى بناء ألفة جديدة بين أهلها والقادمين إليها. [٤٧]

٥٧. بيوت الإيواء وأسماء لا تختصرها قوائم المشاهير

تكشف منازل المهاجرين في سيرة ابن هشام شبكةً واسعة من الضيافة: نزل عمر ومن معه عند رفاعة بن عبد المنذر بقباء، وتذكر معه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله ابني سراقة، وخنيس بن حذافة زوج حفصة آنذاك، وسعيد بن زيد، وواقد بن عبد الله، وخولي ومالك ابني أبي خولي، وإياس وعاقل وعامر وخالد بني البكير. ونزل طلحة وصهيب عند خبيب بن إساف، مع قول آخر في نزول طلحة عند أسعد بن زرارة. هذه أسماء وافدين ومضيفين، وليست كلها أسماء أصحاب عقد مؤاخاة واحد. [١٠]

وتذكر السيرة مع حمزة وزيد: أبا مرثد كناز بن حصن، ويقال ابن حصين، وابنه مرثد، وأنسة وأبا كبشة مولَيَي النبي، مع اختلاف المنزل بين كلثوم وسعد وأسعد. ونزل عبيدة والطفيل والحصين بنو الحارث، ومسطح بن أثاثة، وسويبط بن سعد، وطليب بن عمير، وخباب مولى عتبة بن غزوان عند عبد الله بن سلمة. وخباب هذا غير خباب بن الأرت. ومن المضيفين أيضًا المنذر بن محمد للزبير وأبي سبرة، وسعد بن معاذ لمصعب، وعباد بن بشر لعتبة بن غزوان، وأوس بن ثابت لعثمان. وفي التعريف بسالم تظهر ثبيتة بنت يعار التي أعتقته؛ فلا يحجب لقب «مولى أبي حذيفة» أثر هذه المرأة في حريته. [١٠]

٥٨. الكتاب بين المهاجرين والأنصار في رواية أهل البيت

يروي الكافي، في باب إعطاء الأمان، عن الصادق عن أبيه خبرًا قرأه في كتاب لعليّ: أن رسول الله كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب. وينقل منه أحكامًا تتصل بالقسط، وتعاقب الجماعات في أعباء الغزو، وحرمة الجوار، واتحاد قرار السلم على العدل. فبناء الأمة لا يقوم على الحماس وحده؛ إنما يحتاج إلى عهد مكتوب يضبط المسؤوليات ويحمي من يستجير. وهذه الرواية شاهد إمامي على أصل الكتاب وبعض مضامينه، وليست نقلًا لجميع ألفاظ الصحيفة المطولة المشهورة. [٣٢]

وفي روايات الباب نفسه يشرح الصادق أن أمان أحد المسلمين يلزم غيره الوفاء به، ويرد أن عليًا أمضى أمان عبد مملوك لأنه من المؤمنين. فالإنسان الذي قد يضعه المجتمع في أدنى مراتبه يستطيع أن يرتب بحق قوله واجبًا على أصحاب القوة. هذه أحكام عامة تضيء معنى العهد المدني، ولا تُحوَّل حادثة العبد غير المسمى إلى واقعة من يوم الهجرة؛ لم يحدد الخبر هنا زمانها ولا اسم صاحبها. [٣٢]

٥٩. الصحيفة وحقوق الجماعات المختلفة

يروي ابن إسحاق، في النص الذي حفظه ابن هشام، كتابًا أطول يبدأ بالمؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، ثم يذكر التناصر، وفداء الأسرى، والدِّيات، ومقاومة الظلم، وحماية الجار، ورد الخصومة الخطيرة إلى الله ورسوله. وترد فيه بطون الأنصار: بنو عوف وساعدة والحارث وجشم والنجار وعمرو بن عوف والنبيت والأوس. حفظ هذه الجماعات يوضح أن الوحدة لم تمحُ مسؤوليات الأسر والعشائر، بل أعادت وصلها بميزان مشترك. [٢٧]

وتنص الصحيفة على دين اليهود ودين المسلمين، وعلى النصرة والإنفاق في حال الاشتراك في الدفاع، وتذكر يهود بني عوف والنجار والحارث وساعدة وجشم والأوس وثعلبة، وجفنة بطنًا من ثعلبة، وبني الشطيبة، وموالي ثعلبة وبطانة يهود. وهذه تسميات النص؛ فلا تستبدل تلقائيًا بقائمة بني قينقاع والنضير وقريظة، إذ يحتاج تحديد الصلة بين التسميات إلى بحث مستقل. وفي حكم النساء تمنع الصحيفة إجارة امرأة إلا بإذن أهلها بحسب لفظها؛ يُذكر هذا قيدًا تاريخيًا في النص، ولا يطمس عند عرض عموم الجوار. [٢٧]

٦٠. عبد الله بن سلام وخالدة بنت الحارث

تحفظ السيرة قصة الحبر عبد الله بن سلام، الذي تذكر أن اسمه قبل الإسلام الحصين. سمع بمقدم النبي وهو يعمل في نخلة، وكانت عمته خالدة بنت الحارث عنده، فتعجبت من تكبيره؛ فشرح لها ما عرفه من علامات النبوة، ثم ذهب إلى النبي. وتذكر الرواية إسلامه وإسلام أهل بيته وعمته. هنا تدخل خالدة القصة بسؤالها وموقفها، لا بمجرد إلحاق اسم امرأة باسم قريب مشهور. [٢٦]

وتحكي الرواية أن عبد الله طلب أن يُسأل قومه عنه قبل إعلان إسلامه، ليظهر تغير جوابهم بعد الإعلان. تُنسب هذه المحاورة إلى طريق السيرة، ولا يجعل نقدها لسلوك من حضرها حكمًا على جميع اليهود. إن جمع قصة عبد الله وخالدة مع أحكام الصحيفة يمنع اختزال سكان المدينة المختلفين في صف واحد؛ فقد تنوعت مواقف الأفراد، وبقي لكل موقف سياقه ودليله. [٢٦,٢٧]

٦١. صفية وحيي وأبو ياسر ومخيريق

ينقل ابن إسحاق عن صفية بنت حيي بن أخطب ذكرى من طفولتها: خرج أبوها وعمها أبو ياسر إلى النبي بقباء ثم عادا آخر النهار متعبين، فلم يلتفتا إليها كعادتهما، وسمعت بينهما حديثًا عن معرفته وموقف أبيها منه. تنقل الرواية شعور طفلة لاحظت تغيرًا في بيتها، ثم سمعًا نسبت إليه قولًا محددًا. ولا يستقيم سردها في هذه المرحلة بوصفها زوجة النبي؛ ذلك وصف من مستقبل سيرتها، أما هنا فهي ابنة في بيت أبيها وناقلة لاحقة لذكرى مبكرة. [٢٦]

وفي خبر إعلام الورى المنقول في البحار تظهر أسماء حيي وأبي ياسر وجدي بن أخطب وكعب بن أسد ومخيريق في علاقات اليهود بالنبي. وتتباين بعض هذه التعريفات مع رواية ابن إسحاق، فيحفظ

الخلاف ولا توحد الجماعات بتخمين. أما مخيريق الذي تذكر السيرة وصيته بماله للنبي وخروجه للقتال وموته، فحادثته مؤرخة بأحد، يشار إليها هنا بوصفها امتدادًا لاحقًا للعلاقة والصدقات، ولا تدخل ضمن وقائع السنة الأولى. [١٣,٢٦]

٦٢. المصالحة ومقاومة إحياء العصبية

تأمر آية آل عمران ١٠٣ بالاعتصام بحبل الله وتذكر نعمة التأليف بعد العداوة. وينقل ابن إسحاق في السيرة قصة إثارة ذكريات بعاث بين الأوس والخزرج، وقيام أوس بن قيظي وجبار بن صخر إلى التفاخر حتى قارب القوم العودة إلى السلاح، ثم تذكير النبي لهم بما جمعهم الله عليه. وفي الخبر المحرض شأس بن قيس وفتى من اليهود أرسله لإثارة الحديث. لا يسمى الفتى بما لم يسمه المصدر، ولا تحمل جماعته الدينية وزر فعل فرد فيها. [٣٣,٥٤]

وترسم السيرة كذلك مجلسًا مر به النبي وفيه عبد الله بن أبي، فقرأ ودعا، فاعترض ابن أبي على مخاطبته أهل المجلس، بينما طلب عبد الله بن رواحة أن يواصل دعوتهم. ثم شرح سعد بن عبادة للنبي أثر التحول السياسي في نفس ابن أبي. ترد هذه القصة في رواية أسامة بن زيد، وهي تبين أن المدينة لم تستقبل الرسالة بموقف واحد، وأن الصبر على المعارضة الداخلية جزء من تأسيس المجتمع، من غير إسقاط جميع أحداث النفاق المتأخرة على يوم الوصول. [٤٩]

ويحفظ مجمع البيان عند الآيتين ١٠٢–١٠٣ رواية أخرى عن مقاتل تسمي المتفاخرين ثعلبة بن غنم وأسعد بن زرارة، وتورد في التفاخر خزيمة بن ثابت وحنظلة وعاصم بن ثابت وسعد بن معاذ وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبا زيد. غير أن جمع أسعد، الذي تذكر السيرة موته مبكرًا، مع مفاخر مؤرخة بأحد وبني قريظة يثير إشكالًا زمنيًا ظاهرًا. لذلك تذكر الأسماء بوصفها نص هذا الطريق المختلف، ولا يبنى عليها مجلس محقق في السنة الأولى. [١٧,٣٣]

ومن معارضي المرحلة في السيرة أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، الذي كان يعرف بالراهب، وأبى اتباع النبي ثم خرج من المدينة. وهو والد حنظلة المعروف بغسيل الملائكة، لكن اختلاف الموقف بين الأب والابن يمنع توريث أحدهما حكم الآخر. تذكر السيرة حواره مع النبي في الحنيفية، أما تحالفاته ورحلته اللاحقة إلى الشام ومن نازع في ميراثه فخارج حد المرحلة المدروسة هنا. [٤٩]

٦٣. أصوات المدينة: صرمة وصاحبة البيت وفاطمة بنت النعمان

تذكر السيرة أبا قيس صرمة بن أبي أنس، رجلًا من بني النجار اعتزل عبادة الأوثان وأظهر توحيدًا، ثم أسلم حين قدم النبي، وتحفظ له شعرًا يستحضر سنوات الدعوة والمهاجرين والأنصار. ويظل صرمة صاحب هذه الترجمة متميزًا عند البحث من الأسماء المختلفة الواردة في سبب نزول حكم الصيام. وتروي امرأة من بني النجار أن بيتها كان مرتفعًا قرب المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر. إن بيت هذه المرأة غير المسماة أسهم في انتظام العبادة اليومية، وإن لم تحفظ الرواية اسمها. [١٩,٥٠]

ويرد في المنتقى، كما نقله البحار، خبر امرأة نجارية اسمها فاطمة بنت النعمان، ينسب إليها تابعًا من الجن أخبرها بمقدم النبي وتحريم الحرام. يثبت الاسم هنا لأن الخبر داخل مادة الهجرة، لكن الحكاية ليست آية قرآنية ولا رواية مسندة في هذا الموضع عن إمام من أهل البيت، ولا يُجزم بتفصيلها الغيبي. وهذه المرأة غير فاطمة الزهراء وفاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير؛ الاشتراك في الاسم لا يبرر دمج التراجم. [٣٥]

٠٦٤. القبلة ووحدة الوجهة

تقرر البقرة ١٤٢–١٥٠ أن المشرق والمغرب لله، وتأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام، وتربط التحول بطاعة الرسول. ويجمع مجمع البيان أقوالًا مختلفة في مدة الصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة: ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر، وقولًا بتسعة أو عشرة، وقولًا بثلاثة عشر، ورواية عن الصادق من طريق علي بن إبراهيم تذكر سبعة أشهر. لا يجوز عرض أحد هذه الأعداد وكأنه لفظ القرآن أو إجماع الروايات الإمامية؛ الثابت القرآني هو الأمر بالتحويل، أما التاريخ التفصيلي فباب رواية وترجيح. [٢٨,٥١]

وفي الرواية التي أوردها الطبرسي عن الصادق يأتي جبرئيل والنبي في الصلاة فيحوله إلى الكعبة؛ وتذكر النسخة مسجد بني سالم. أما اختلاف تسميات المسجد والتاريخ في الأخبار فلا يعالج بتبديل الألفاظ صامتًا. ويذكر الطبرسي البراء بن عازب وأنسًا ومعاذ بن جبل بين نقلة أقوال المدة، وهؤلاء شهود رواية لا أشخاص صرحت الآية بأسمائهم. يضم الأمر كل المصلين حيث كانوا، من رجال ونساء، فتتحد الوجهة دون اشتراط رؤية المسجد نفسه. [٢٨,٥١]

٠٦٥. الصيام والبيت: النص القرآني واختلاف سبب النزول

تجمع آيات البقرة ١٨٣–١٨٧ التكليف بالصيام والرخصة للمريض والمسافر، والتيسير في وقت الطعام والعلاقة بين الزوجين. وفي تفسير الآية ١٨٧ ينقل الطبرسي عن علي بن إبراهيم خبرًا مرفوعًا إلى الصادق عن مطعم بن جبير، أخي عبد الله بن جبير، نام قبل الطعام ثم أصابه الضعف. يذكر طريق الخبر حفر الخندق، فلا تُنقل هذه الجزئية إلى أول رمضان في المدينة لمجرد أن أصل تشريع الصيام من أعمال التأسيس. وذكر عبد الله بن جبير هنا للتعريف بأخيه واستحضار موقعه بأحد، لا لإدخاله في مشهد الطعام. [٢٩]

ويحفظ التفسير أسماء أخرى عند العامة: قيس بن صرمة، وأبو صرمة، وأبو قيس بن صرمة، وصرمة بن إياس، وينقل خبر اعتراف عمر ورجال آخرين بمخالفة المنع السابق. هذه صيغ متغايرة، لا أربعة رجال ثبت أنهم جميعًا أصحاب الحادثة نفسها. وتبقى الزوجة أو الأهل الذين أبطؤوا بالطعام غير مسمين في الخبر. أما الآية فتخاطب الأزواج والزوجات بعلاقة متبادلة في الستر والقرب، وتحدد الأكل والشرب إلى الفجر؛ وهذا معناها الذي لا يتوقف على ترجيح اسم صاحب سبب النزول. [٢٩]

٠٦٦. الذين بقوا بمكة: مسؤولية الهجرة وعذر العجز

لا ينتهي موضوع الهجرة بوصول القادرين؛ فالنساء ٩٧-٩٩ تميز بين من ظلم نفسه بترك الخروج مع القدرة، وبين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا. وينقل مجمع البيان، في صلة الآيات ببدر، أسماء قيس بن الفاكه، والحارث بن زمعة، وقيس بن الوليد، وأبي العاص بن منبه، وعلي بن أمية؛ وينسب هذا التعيين إلى عكرمة وطريق أبي الجارود عن الباقر. الأسماء تفسيرية، والآيات نفسها لا تسمي هؤلاء. [٧]

ويذكر ابن عباس في النقل أنه كان من الولدان المستضعفين، ويذكر أباه وأمه ضمن الرجال والنساء المستضعفين. يحفظ الفصل هذه الأسرة في موضع العذر، مع بقاء تفصيل مراحل قدرتها وخروجها لما يأتي من السيرة. وبهذا لا يصير غياب شخص عن قافلة الهجرة دليلًا آليًا على النفاق، ولا تتحول الأعذار إلى إلغاء للتكليف عن القادر. العبرة التي يقررها النص مرتبطة بالقدرة الحقيقية، لا بالشهرة أو الجنس أو السن وحده. [٧]

٠٦٧. من مات في الطريق: جندب أو جندع بن ضمرة

في تفسير النساء ١٠٠ يذكر مجمع البيان رجلًا بمكة سماه جندعًا أو جندب بن ضمرة، كان مريضًا لكنه رأى نفسه قادرًا على معرفة الطريق والخروج، فطلب من أبنائه حمله، فخرجوا به على سرير حتى مات بالتنعيم. ينسب الطبرسي الخبر إلى أبي حمزة الثمالي وقتادة وسعيد بن جبير. يحفظ اختلاف الاسم كما وصل، ويحفظ الأبناء غير المسمين الذين حملوا أباهم، فلا تصبح رحلة هذا المريض مجرد عنوان بلا من قام برعايته. [٣٧]

وتقرر الآية أن من خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت فقد وقع أجره على الله. ويورد التفسير تطبيقًا لاحقًا في خبر زرارة وابنه عبيد، حين أرسله يستعلم أمر الإمام بعد الصادق، ونُقل رجاء الإمام في دخول زرارة في معنى الآية. ليست قصة زرارة من تاريخ هجرة النبي؛ إنها شاهد من روايات أهل البيت على امتداد معنى طلب الحق وعدم ضياع السعي قبل بلوغ المقصد. يذكر معها الإمام موسى بن جعفر وعبد الله المسؤول عن أمره في الخبر ضمن هذا السياق اللاحق وحده. [٣٧]

٠٦٨. من الإخراج إلى الإذن بالدفاع

تربط آيتا الحج ٣٩-٤٠ الإذن بالقتال بوقوع الظلم والإخراج من الديار بسبب الإيمان، وتذكران الصوامع والبيع والصلوات والمساجد في سياق دفع الهدم. وينقل مجمع البيان عن الباقر أن الآية نزلت في المهاجرين وجرت في آل محمد الذين أخرجوا وأخيفوا. فالمعنى لا يستنفد في اسم قائد أو سرية، بل يتصل بحماية جماعة تعرضت للاضطهاد وبصيانة العبادة من الاستئصال. وتبقى دلالات الألفاظ والتاريخ التفصيلي للإذن محل بيان المفسر، لا مادة لزيادة أسماء لم يذكرها. [٣٠]

وفي الكافي ينقل الصادق وصايا النبي للسرايا: منع الغلول والغدر والمثلة وقتل الشيخ الفاني والصبي والمرأة، وعدم قطع الشجر إلا للاضطرار، وحماية المستجير حتى يسمع ثم إبلاغه مأمنه إن لم يتبعهم. نعرض هذه الوصايا إطارًا أخلاقيًا مرويًا للعمل العسكري، دون الزعم أن كل بند وصل بسند واحد أو أن كل تفصيل فقهي محل اتفاق. وترد في الباب روايات متعددة متفاوتة الطرق، ويصرح أحد رواتها بالظن في واسطة النقل؛ هذا مما يجب حفظه عند وصف درجة الخبر. [٣١]

٦٩. البعوث الأولى والعهود قبل بدر

تذكر الأخبار بعث حمزة إلى ساحل البحر ولقاءه أبا جهل، وتوسط مجدي بن عمرو الجهني لمنع القتال. وتذكر بعث عبيدة بن الحارث، ورمي سعد بن أبي وقاص، والتحاق المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان بالمسلمين، مع اختلاف اسم قائد الطرف القرشي بين عكرمة بن أبي جهل ومكرز بن حفص، ورواية أخرى تسمي أبا سفيان. كما تذكر بعث سعد إلى الخرار. لا نجعل الاختلاف في أول راية أو ترتيب هذه البعوث يقينًا موحدًا؛ إنه ظاهر في مادة السيرة نفسها. [٣٨,٥٢]

وفي الأبواء أو ودان تذكر موادعة بني ضمرة ورئيسهم مخشي بن عمرو، ثم بواط والعشيرة وموادعة بني مدلج وحلفائهم. وتحفظ السيرة أسماء من تولوا المدينة عند الخروج، مثل سعد بن عبادة والسائب بن عثمان بن مظعون وأبي سلمة، ثم زيد بن حارثة عند ملاحقة كرز بن جابر الفهري بعد إغارته على السرح. وتذكر رواية العشيرة عليًا وعمارًا ونومهما عند عمل بني مدلج، وتسمية علي بأبي تراب في هذا الطريق؛ مع وجود أخبار أخرى في سبب الكنية. هذه مشاهد تسبق بدر الكبرى، ولا تعادلها في الحجم أو النتائج. [٣٨,٥٢]

٧٠. نخلة: الأسماء والحرمة والمسؤولية

في بعث نخلة تذكر السيرة عبد الله بن جحش أميرًا، ومعه أبا حذيفة بن عتبة، وعكاشة بن محصن، وعتبة بن غزوان، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله، وخالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء. وتذكر أن سعدًا وعتبة تخلفا في طلب بعير، فلا ينسب إليهما حضور القتل. وكان في العير عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة. قتل واقد عمرًا، وأسر عثمان والحكم، وأفلت نوفل؛ وتذكر الرواية إسلام الحكم في ما بعد. [٣٨]

وتتصل الواقعة بالبقرة ٢١٧ في القتال في الشهر الحرام. يختلف تصوير اليوم في الأخبار: أهو آخر رجب، أم يوم ظنوه من جمادى وهو من رجب؟ ويحفظ مجمع البيان الخلاف والمسؤولية، كما تنقل السيرة إنكار النبي أن يكون أمرهم بقتال في الشهر الحرام. لا تمحو المقارنة بين جرم القتل وجرم الصد والإخراج حرمة الدم، ولا تجعل كل تصرف صدر في بعث مأمورًا به تفصيلًا. ويقف الفصل عند

هذا الحد الذي يكشف انتقال المجتمع إلى اختبار القوة؛ أما بدر الكبرى وما بعدها فلهما السياق التالي. [٣٨,٥٣]

٧١. حاصل الهجرة وبناء الأمة

انتقلت الرسالة إلى مدينة لها بيوت وطرق ونخيل وأسواق وجماعات متعددة، فصار الإيمان مسؤولية في الضيافة والعدل والعبادة والعهد. وفي قلب الانتقال النبي وعلي وفاطمة، وحولهم رجال ونساء حفظت المصادر بعض أسمائهم وأبقت آخرين بلا تسمية: صاحب أمان، ودليل طريق، وحامل طعام، وأم تحمي ولدها، وامرأة تفتح بيتها، وأبناء يحملون أباهم المريض. لا تقل قيمة الدور الإنساني لأن اسمه لم يصل، ولا تزداد قوة الخبر لأن صاحبه مشهور.

اعتمد هذا الفصل القرآن، وما أمكن مقابلته من الكافي وأمالي الطوسي ومجمع البيان والتبيان ونور الثقلين، واستعان بحار الأنوار مع تمييز مصادره، وبالسيرة القديمة للمقارنة واستدراك الأسماء. وقد فصل بين النص القرآني والتعيين التفسيري والخبر التاريخي، وبين الحدث المبكر والامتداد المدني اللاحق. فهذا استكمال لما أمكن توثيقه في المصادر المفحوصة ضمن موضوع الفصل، لا دعوى بإحصاء جميع المخطوطات والطرق أو تصحيح كل رواية فيه. وتأتي قائمة الإحالات لتتيح مراجعة مواضع الاستدلال، مع اختلاف ترقيم الطبعات.

٧٢. المصادر ومواضع الإحالات

الأرقام التالية تحيل إلى مواضع الاستدلال، وقد يعود أكثر من رقم إلى الكتاب نفسه لاختلاف الباب أو الصفحة. روابط النسخ الرقمية مرفقة بعناوين المراجع. أرقام صفحات تهذيب السيرة هي الأرقام المطبوعة في النسخة المرتبطة، وليست إحالة إلى طبعة كاملة أخرى. أخبار السيرة المقارنة مميزة من المصادر الإمامية، والإحالة إلى كتاب جامع لا تستغني عن تحقيق كل طريق على حدة.

[١] الطبرسي، مجمع البيان، الأنفال: ٣٠؛ تدبير قريش للخروج بالنبي أو حبسه أو قتله.

[٢] الطبرسي، مجمع البيان، البقرة: ٢٠٧؛ الأقوال في سبب النزول وخبر مبيت عليّ.

[٣] الطوسي، الأمالي، المجلس السادس عشر، ح١٠٣١/٣٧، ص٤٦٣–٤٧٢؛ خبر الهجرة المركب عن عمار وأبي رافع وهند، ورد الأمانات ومسير عليّ والفواطم.

[٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٨–١٠٣؛ باب الهجرة؛ مجموعة طرق متعددة، منها المنتقى والخرائج والأمالي. الإحالة إلى الجمع لا تعني تصحيح جميع المرويات.

[٥] الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٥، تفسير التوبة: ٤٠؛ دلالة الصحبة والسكينة في خبر الغار.

[٦] الطبرسي، مجمع البيان، التوبة: ٤٠؛ الغار والنصرة والسكينة.

[٧] الطبرسي، مجمع البيان، النساء: ٩٧-٩٩؛ أسماء من تذكرهم أخبار بدر، واستثناء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

[٨] الطبرسي، مجمع البيان، آل عمران: ١٩٥؛ خبر سؤال أم سلمة وعموم الثواب للذكر والأنثى.

[٩] الحويزي، نور الثقلين، تفسير آل عمران: ١٩٥؛ المرويات التفسيرية وتطبيقها، ومنها النقل عن تفسير القمي.

[١٠] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٥٠-٢٥٧؛ هجرة أم سلمة وبني جحش وغيرهم، والمحبوسون، ومنازل المهاجرين. مصدر سيرة مقارن.

[١١] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٥٨-٢٦٦؛ دار الندوة والغار والدليل وسراقة والطريق وقباء.

[١٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٦٩-٧٧؛ أخبار إعلام الورى والخرائج في الطريق والمعجزات المنقولة.

[١٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١٠٤-١١٤؛ النقل عن الطبرسي، إعلام الورى؛ قباء والقدوم والأرض والمسجد والعلاقات باليهود.

[١٤] الكليني، الكافي، الروضة، ج٨، ص٣٣٨-٣٤١، خبر سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين في الهجرة؛ ونقله البحار، ج١٩، ص١١٥-١١٧. يختلف رقم صفحة العرض الإلكتروني عن المطبوع.

[١٥] الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الصلاة، باب بناء المساجد وما يؤخذ منها والحدث فيها، ولا سيما ح١؛ بناء المسجد.

[١٦] الطبرسي، مجمع البيان، التوبة: ١٠٧-١١٠؛ مسجد التقوى ومسجد الضرار، مع التمييز بين تاريخ التأسيس وورود المقابلة القرآنية لاحقًا.

[١٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٦٦-٢٧٣؛ القدوم والضيافة وأرض المسجد والبناء والمؤاخاة ووفاة أسعد.

[١٨] الكليني، الكافي، ج٣، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان والإقامة وفضلهما وثوابهما، ح١ و٢ و٣١؛ الوحي وتعليم الأذان.

[١٩] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٧٤-٢٧٥؛ خبر عبد الله بن زيد ورؤيا الأذان في السيرة المقارنة، وامرأة بني النجار التي كان بلال يؤذن على بيتها.

[٢٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٢-٣٨؛ تفسير آيات الهجرة والموالاة من الأنفال، ومنها المنقول عن تفسير القمي في الآيات ٧٢-٧٥.

[٢١] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١٣٠-١٣٨؛ أخبار المؤاخاة، ومعها حواشي الطبعة الناقلة لقائمة ابن هشام وقائمة المحبر لابن حبيب، ص٧٠-٧٥؛ تميز الحاشية من أصل كلام المجلسي.

[٢٢] الطبرسي، مجمع البيان، الحشر: ٨-١٠ ضمن المقطع المعروض؛ المهاجرون والإيثار وما نقل في ضيف عليّ وفاطمة.

[٢٣] الكليني، الكافي، ج٥، كتاب النكاح، باب أن المؤمن كفو المؤمنة، ح١؛ جويبر والذلفاء وزياد بن لبيد والصفة.

[٢٤] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب مولد أمير المؤمنين، خبر وفاة فاطمة بنت أسد وتجهيزها.

[٢٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١١٢-١١٤؛ إعلام الورى في زواج عليّ وفاطمة ودار حارثة بن النعمان، مع أخبار ترتيب القبلة والصلاة.

[٢٦] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٧٩-٢٨١؛ عبد الله بن سلام وخالدة بنت الحارث ومخيريق وشهادة صفية عن حيي وأبي ياسر.

[٢٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٧٠-٢٧٢؛ نص الكتاب بين المؤمنين والجماعات اليهودية؛ بنود الحماية والمسؤوليات والدفاع.

[٢٨] الطبرسي، مجمع البيان، البقرة: ١٤٤؛ تحويل القبلة واتجاه الصلاة.

[٢٩] الطبرسي، مجمع البيان، البقرة: ١٨٧، في سياق الآيات ١٨٣-١٨٧؛ مطعم بن جبير، وصيغ الاسم الأخرى، والأهل غير المسمين؛ خبر الصادق مرفوع في هذا النقل.

[٣٠] الطبرسي، مجمع البيان، الحج: ٣٩-٤٠، ضمن المقطع ٣٦-٤٠؛ الإذن للمظلومين وجريان المعنى في آل محمد.

[٣١] الكليني، الكافي، ج٥، كتاب الجهاد، باب وصية رسول الله وأمير المؤمنين في السرايا، ولا سيما ح١؛ قارن البحار، ج١٩، ص١٧٧.

[٣٢] الكليني، الكافي، ج٥، كتاب الجهاد، باب إعطاء الأمان، ح١ و٢ و٥؛ الكتاب بين المهاجرين والأنصار في ح٥، ص٣١ من الطبعة الشائعة.

[٣٣] الطبرسي، مجمع البيان، آل عمران: ١٠٢-١٠٣؛ التأليف والاعتصام، وخبر مقاتل المختلف في أسماء المتفاخرين. يراجع كذلك تفسير الآيتين ١٠٠-١٠١.

[٣٤] الحويزي، نور الثقلين، الحشر: ٩؛ الأخبار التفسيرية في الإيثار.

[٣٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١٢٩-١٣٣؛ النقل عن المنتقى في انتقال الأسر وبعض وفيات أوائل المدينة، وخبر فاطمة بنت النعمان.

[٣٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٧٥-٧٦؛ المنقول من الخرائج في أم معبد والغلام غير المسمى؛ خبر إضافي مستقل عن أصل قصة اللبن.

[٣٧] الطبرسي، مجمع البيان، النساء: ١٠٠؛ جندع أو جندب بن ضمرة وأبناؤه، والتطبيق اللاحق في زرارة وعبيد.

[٣٨] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٣٢٧-٣٣٦؛ ودان والبعوث الأولى والعشيرة وكرز ونخلة؛ اختلاف الراية والقيادة والترتيب، وأسماء أصحاب عبد الله بن جحش.

[٣٩] الطباطبائي، الميزان، تفسير البقرة: ٢٠٤-٢٠٧؛ عموم دلالة الآية وعرض روايات المبيت في البحث الروائي.

[٤٠] الطبرسي، مجمع البيان، الجمعة: ٩؛ أخبار الجمعة الأولى؛ قارن جمعها في البحار، ج١٩، ص١٢٥-١٢٨.

[٤١] الطبرسي، مجمع البيان، النحل: ٤١-٤٢؛ الهجرة بعد الظلم والأقوال في صهيب وغيره.

[٤٢] البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، خبر عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وطلب الدلالة على السوق. شاهد مقارن، لا حديث إمامي.

[٤٣] مسلم، الصحيح، ح٢١٤٦ في الترقيم المتداول؛ حديث أسماء بنت أبي بكر في ولادة عبد الله بن الزبير بقباء.

[٤٤] ابن الأثير، أسد الغابة، قسم كنى النساء، ترجمة أم سليم؛ أنس وأبو طلحة والأسرة.

[٤٥] الطبراني، المعجم الكبير، خبر انتقال عائشة والأسرة، ح٦٠ في عرض النص بالموسوعة الحديثية. في طريقه محمد بن الحسن بن زبالة؛ لا يعامل طريقه معاملة الصحيح.

[٤٦] الإربلي، كشف الغمة، ج١، ص٣٧٥-٣٧٦؛ روايات الزفاف، ثم تعقيب المؤلف على أسماء بنت عميس وترجيحه سلمى أختها.

[٤٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٣٢٥-٣٢٦؛ حمى أبي بكر وعامر بن فهيرة وبلال، ونقل عائشة ودعاء النبي.

[٤٨] أبو داود، السنن، ح٢٧٢٤؛ قول أبي هريرة في قدومه المدينة والنبي بخيبر، في عرض المصادر الأصلية؛ لتصحيح التسلسل الزمني، لا لإدخاله في قافلة السنة الأولى.

[٤٩] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٣٢٣-٣٢٥؛ أبو عامر وابن أبي، ومجلس الدعوة في رواية أسامة، وعبد الله بن رواحة وسعد بن عبادة.

[٥٠] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٢٧٥-٢٧٧؛ أبو قيس صرمة بن أبي أنس وشعره في التوحيد والقدوم.

[٥١] الطبرسي، مجمع البيان، البقرة: ١٤٢؛ اختلاف الأقوال في مدة القبلة الأولى والرواية المنقولة عن الصادق.

[٥٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص١٧٣-١٧٧؛ مقدمات الغزوات والبعوث، مع ضرورة ملاحظة تصحيحات أسماء رجال نخلة في حواشي الطبعة.

[٥٣] الطبرسي، مجمع البيان، البقرة: ٢١٧؛ بعث عبد الله بن جحش وحرمة الشهر واختلاف اليوم.

[٥٤] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، في تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، ص٣٠٤-٣٠٥؛ شأس بن قيس، وأوس بن قيظي وجبار بن صخر، وإثارة ذكر بعاث ثم الصلح.

الفصل ٥٠ — محمد ﷺ — اكتمال الرسالة وبيان الوصية

٥٠.١ من قيام الجماعة إلى اكتمال البلاغ

انتهى الفصل السابق عند مقدمات بدر، بعد أن صارت الهجرة مجتمعًا له مسجد وعهود وبيوت ومسؤوليات. ومن ذلك الموضع يبدأ هذا الفصل: سنواتٌ حملت النصر والابتلاء، وفقد الأحبة وعودة المهاجرين، واتساع الدعوة، ونزول أحكام تنظّم الأسرة والمال والعلاقات بين الناس. ويبلغ السرد حجة الوداع والغدير، ثم مرض رسول الله ﷺ ووفاته وتجهيزه، والوصية التي تقرؤها مدرسة أهل البيت بوصفها استمرارًا للهداية بعد ختم النبوة. فلا تُختزل هذه السنوات في المعارك، ولا تُختزل الأمة في قادتها؛ ففيها المرأة التي تجادل عن بيتها، والأم التي تسأل عن ابنها، والأسير والمهاجر والطفل، ومن ثبت ومن ضعف ومن راجع موقفه.

ختم النبوة ثابت في الأحزاب: ٤٠، والإمامة في الفهم الإمامي بيانٌ للدين الموحى وحفظٌ له، لا نبوة جديدة ولا كتاب بعد القرآن. [١]

٥٠.٢ بدر بين القافلة والجيش

خرج المسلمون في السنة الثانية للهجرة، وكانت قافلة أبي سفيان بن حرب وراء تحركهم الأول، ثم واجهوا جيشًا من قريش خرج لنصرتها. وينقل القرآن اختلاف الرغبات عند اقتراب المواجهة: كانوا يودّون أن تكون لهم الطائفة غير ذات الشوكة، بينما مضى الحدث إلى لقاء الجيش؛ وفي ذلك معنى الأنفال: ٥–٨ و٤٢. وتذكر السيرة بَسْبَس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء في استطلاع خبر القافلة، وضمضم بن عمرو الغفاري رسولًا إلى مكة يستنفر قريشًا. ولا ينبغي خلط أبي سفيان بن حرب، صاحب القافلة، بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الذي يرد في روايات أخرى عن بدر. [٢]

وتتصل بخروج قريش رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، وخبرها عند العباس، وسخرية أبي جهل منها. تُروى الرؤيا في كتب السيرة بوصفها إنذارًا بالمصيبة، ولا يجعلها القرآن جزءًا من وصفه للوقعة. ومن قريش من رجع حين نجا المال، ومنهم الأخنس بن شريق وبنو زهرة في الرواية المشهورة، ومنهم من أصر على المسير. وهذه الفروق تكشف أن الطرف المقابل لم يكن شخصًا واحدًا ولا موقفًا واحدًا، وأن نسبة القرار إلى جميع أفراد القبيلة تمحو اختلافًا حفظته الأخبار نفسها. [٢]

٥٠.٣ المشورة والماء وليلة الدعاء

برز المقداد بن عمرو، المعروف بالمقداد بن الأسود، في إعلان الاستعداد للنصرة، وتكلم سعد بن معاذ عن الأنصار. ويروي الخبر أن النبي ﷺ أعاد طلب المشورة حتى يتبين موقف من بايعوه في المدينة من القتال خارجها. وكان علي والزبير وسعد بن أبي وقاص ممن ورد ذكرهم في خبر استطلاع الماء. وترد أسماء أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبي يسار غلام بني العاص، في تعيين بعض من سُئلوا عن

جيش قريش. والمغزى في رواية الاستجواب أن النبي أنكر ضربهم حين قالوا ما لا يوافق ظن السائلين؛ فالخبر لا يصير حقًا لمجرد أنه يرضي المتوقع. [٢]

وتذكر السيرة رأي الحباب بن المنذر في منزل الماء، ثم إعداد موضع للنبي والدعاء قبل اللقاء. وفي رواية يوردها المفيد عن علي، نام الناس ليلة بدر وبقي رسول الله يصلي ويدعو. ويثبت القرآن أصل الاستغاثة والتأييد بالملائكة في الأنفال: ٩-١٢؛ أما تفاصيل صور الملائكة وأسمائهم وأعداد من قتلهم كل فرد، فتُقرأ على مستوى الروايات التي نقلتها. وقد جاء المطر والنعاس في السياق القرآني علامة طمأنينة وتثبيت، لا إلغاءً للخوف البشري ولا للأسباب التي أخذ بها المؤمنون. [٢, ٣]

٤. المبارزة ودور أمير المؤمنين

خرج علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث لمبارزة عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وتختلف طرق السيرة في توزيع حمزة وعبيدة على عتبة وشيبة، بينما يستقر في العرض المشهور لقاء علي بالوليد. أصيب عبيدة إصابة انتهت بوفاته في طريق الرجوع، وبقيت مبارزته جزءًا من ذاكرة بدر. ويجعل المفيد جهاد علي في هذه الوقعة من الشواهد المبكرة على مكانته في نصرة الرسالة؛ ثم يورد أسماء جماعة ممن قُتلوا بسيفه، مع أن مقابلة القوائم تكشف خلافًا في بعض الأسماء والاشتراك في قتل بعضهم. [٣, ٤]

ومن الأسماء البارزة في تلك الأخبار العاص بن سعيد، وطعيمة بن عدي، ونوفل بن خويلد، وحنظلة بن أبي سفيان، وزمعة بن الأسود. ويُفصل بين من قُتل في القتال ومن قُتل بعد الأسر؛ فخبر النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يخص مرحلة أخرى، وتختلف الأخبار في مباشر قتل عقبة. أما العبارة القرآنية «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» في الأنفال: ١٧ فترجع الفاعلية النهائية إلى الله مع إثبات فعل الرسول؛ فلا يُستخرج منها حذف دور الناس، ولا تُستعمل الأرقام المختلفة لإيهام القارئ بإحصاء لا خلاف فيه. [٤, ٥]

أم ورقة وطلب المشاركة في بدر

وفي سنن أبي داود خبر أم ورقة، التي يسميها هذا الطريق أم ورقة بنت نوفل: طلبت عند الخروج إلى بدر أن ترافق النبي لتمرض المرضى، ورجت الشهادة، فأمرها أن تقر في بيتها. يحفظ الخبر نيتها ودورها المطلوب، ولا يثبت خروجها إلى بدر بالفعل. ويصفها بقراءة القرآن، ويذكر إذنًا لها بمؤذن في بيتها. أما خبر مقتلها الذي تتضمنه تتمة الرواية في زمن عمر فيقع بعد نهاية هذا الجزء؛ فلا يُقدم على أنه حادثة من حياة النبي. وهذه رواية من سنن أبي داود للمقارنة، لا رواية إمامية ولا حكم فقهي مستخرج هنا في إمامة الصلاة. [١٦٢]

٥. شهداء بدر والأمهات الحاضرات في أسمائهم

تذكر القائمة المشهورة أربعة عشر شهيدًا: من المهاجرين عبيدة بن الحارث، وعمير بن أبي وقاص، وذو الشمالين عمير بن عبد عمرو، وعاقل بن البكير، ومهجع مولى عمر، وصفوان بن بيضاء. ومن الأنصار مبشر بن عبد المنذر، وسعد بن خيثمة، وحارثة بن سراقة، وعوف ومعوذ ابنا عفراء، وعمير بن الحمام، ورافع بن المعلى، ويزيد بن الحارث. وترد زيادات في بعض الأخبار، منها أنسة مولى النبي، ومعاذ بن ماعص، وعبيد بن السكن، مع اختلاف في عدّ من توفي بعد الوقعة متأثرًا بجراحه. ولذلك تُذكر القائمة الأصلية والزيادات بوصفها روايات متمايزة. [٦]

يحفظ اسما ابني عفراء حضور أمّهما عفراء بنت عبيد، كما يحفظ اسم صفوان ذكر أمه البيضاء. وترد أم حارثة في سؤالها عن مصير ابنها؛ وهي الربيّع بنت النضر في كتب التراجم. أما عمير بن أبي وقاص فتربطه الأخبار بسعد أخيه، ويظهر سعد بن خيثمة في قصة التنافس على الخروج مع أبيه خيثمة. ليست صلات القرابة حاشية زائدة: بها نرى البيوت التي تحملت الفقد، والأمهات اللواتي لم يقفن في مركز القيادة لكن أسماءهن بقيت في تسمية الشهداء والسؤال عنهم. [٦, ٢, ٧]

٦. الأسرى والعباس وحدود الرواية

كان في الأسرى العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وأبو العاص بن الربيع، وسهيل بن عمرو، وأبو عزيز بن عمير، والوليد بن الوليد. وتُسمي الأخبار أبا اليسر كعب بن عمرو في أسر العباس، وتذكر عبيد بن أوس وجبار بن صخر في أخبار بني هاشم، مع اختلاف في توزيع الأسرى على آسريهم. وتقرأ الأنفال: ٦٧–٧١ القضية في إطار أخلاقي يتعلق بالأسر والفداء وصدق ما في القلوب؛ ولا تكفي القرابة بالنبي أو بعلي وحدها لإثبات موقف ديني واحد لجميع المذكورين في ذلك اليوم. [٥, ٨]

وتتصل بالعباس قصة المال الذي تركه عند أم الفضل لبابة بنت الحارث، وبها يرد ذكر الفضل وعبد الله وقثم من أبنائه. كما يرد عمرو بن أبي سفيان في مبادلته بسعد بن النعمان الذي حُبس بمكة. وتذكر الأخبار فداءً بالمال، وعفوًا عمن لم يجد، وتعليمًا للكتابة في أخبار أخرى. ويُروى موقف النبي من اقتراح المثلة بسهيل بن عمرو على جهة رفضها؛ فتُقرأ مع أخبار العهد وحسن معاملة الأسير، مع بقاء تفاوت أسانيد التفاصيل. ولا يصح جعل جميع هذه الجزئيات حديثًا واحدًا أو نسبتها جميعًا إلى إمام بعينه. [٥]

٧. زينب وقلادة خديجة ووفاء أبي العاص

أرسلت زينب في فداء أبي العاص قلادةً ارتبطت بخديجة وتجهيزها لزواجها، فاستعادت القلادة في مجلس الأسرى ذكر خديجة بعد وفاتها. وتروي السيرة أن النبي استأذن المسلمين في إطلاق أسيرها ورد مالها، فوافقوا. ثم لحق خروج زينب من مكة، وفيه خبر كنانة بن الربيع، وزيد بن حارثة ومن

خرج معه لاستقبالها، وما أصابها من ترويع على يد هبّار بن الأسود ومن شاركه. تُذكر زينب هنا وفق تسمية هذه الروايات، أما اختلاف بعض المصنفات في بنوة زينب ورقية وأم كلثوم أو كون بعضهن ربائب، فلا يُحسم بإسقاط أسمائهن ولا بتجاهل النصوص المخالفة. [٩, ١٠]

وبعد سنوات عاد أبو العاص إلى دائرة الخبر حين أُخذ مال قافلته، فأجارته زينب، ورُد المال ثم أدّاه إلى أصحابه بمكة وأعلن إسلامه. تختلف الروايات في رد زينب إليه بالعقد الأول أو بعقد جديد؛ لذلك لا تُلصق تفاصيل هذه العودة بيوم بدر نفسه. وتبقى أمامة بنت أبي العاص، التي تذكرها كتب الأسرة لاحقًا، ابنةً لزينب في الخبر المشهور، لا اسمًا آخر لابنتها يُستبدل دون بيان. وتُحفظ لرقية صلتها بمرضها وغياب عثمان عن بدر لرعايتها في السيرة الشائعة، مع التنبيه إلى أن أخبار ترتيب زواج رقية وأم كلثوم ليست على صيغة واحدة. [٩, ١٠]

٨. خبر بدر في مكة وصوت أم الفضل

روى أبو رافع أنه كان يعمل عند زمزم حين جاء خبر الهزيمة، وأنه وأم الفضل سرّا بانتصار النبي. وفي المجلس أبو لهب، ثم أبو سفيان بن الحارث الذي وصف ما جرى لقريشٍ. ولما اعتدى أبو لهب على أبي رافع، نهضت أم الفضل ودافعت عنه في الرواية. فتظهر لبابة هنا فاعلةً في مواجهة الاعتداء، لا مجرد زوجة للعباس أو أم لأبنائه. وتربط الأخبار بين ذلك وبين مرض أبي لهب وموته، بينما يظل الحكم القرآني عليه وعلى امرأته أم جميل في سورة المسد سابقًا مستقلًا عن جزئيات هذه القصة. [١١]

وفي امتداد أثر بدر ترد قصة عمير بن وهب وصفوان بن أمية: خرج عمير إلى المدينة وفي الرواية قصدٌ خفي، ثم انتهى لقاؤه بالنبي إلى إسلامه. ويرد أبو عزة الجمحي، عمرو بن عبد الله، في خبر العفو عنه لفقره وعياله ثم عودته إلى التحريض. وتُروى هذه الأخبار بأسانيد السيرة وتفاصيلها، فتُحفظ فيها أسماء من تغيرت مواقفهم، من غير تحويل النصر إلى دعوى أن جميع أهل مكة بقوا على موقف واحد أو أن كل من حضر بدرًا ثبت بعد ذلك على السيرة نفسها. [١٢]

٩. ما بين بدر وأحد

لم تنته التوترات برجوع الجيش. تذكر المصادر بني قينقاع، وعبد الله بن أبي بن سلول المتعلق بحلفهم، وعبادة بن الصامت الذي تبرأ من ذلك الحلف حين اصطدم بموقف الجماعة. وتذكر غزوة السويق وخروج أبي سفيان، وحركة ذي أمر وبحران وبعث القردة. وفي أخبار ذي أمر يرد دُعثور بن الحارث في قصة السيف، بينما ترد روايات شبيهة باسم غورث بن الحارث في سياق آخر؛ وتشابه المغزى لا يجيز دمج الرجلين والواقعتين بلا دليل. [١٣]

ويأتي كعب بن الأشرف في أخبار التحريض بعد بدر ثم قتله، ويذكر في بعثه محمد بن مسلمة وأبو نائلة سلكان بن سلامة وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر في أخبار السيرة. هذه وقائع تاريخية تُقرأ بظروف النزاع وعهود المدينة واختلاف طرق النقل؛ وليست قاعدة عامة لإيذاء المخالف

أو إذنًا فرديًا بالقتل. كما لا تُحمّل طائفة دينية كاملة تبعة أفعال أشخاص معينين، وقد نص القرآن نفسه على اختلاف أحوال أهل الكتاب، وأنهم ليسوا سواء، في آل عمران: ١١٣. [١٣]

١٠. أحد والطريق إلى مواضع الرماة

جاءت قريش إلى أحد في السنة الثالثة طلبًا للثأر من بدر. وفي مقدمتها أبو سفيان بن حرب، ومعها نساء تذكر منهن هند بنت عتبة. وتربط آل عمران: ١٢١-١٢٢ خروج النبي من أهله بتهيئة مواقع القتال، وتذكر همّ طائفتين بالفشل دون أن تسميهما؛ وتعينهما أخبار التفسير ببني سلمة وبني حارثة. وفي الطريق رجع عبد الله بن أبي ومعه جماعة، ثم استقر الجيش عند أحد، وجُعل عبد الله بن جبير على الرماة مع أمر بالمحافظة على موضعهم. [١٤, ١٥]

برز خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل في فرسان قريش، وظهر أثر ترك كثير من الرماة مواقعهم حين تبدلت الجولة. يصف القرآن التنازع والعصيان واختلاف الإرادة بين الدنيا والآخرة في آل عمران: ١٥٢، فلا يصح أن تُسرد أحد قصة انتصار متصل خالٍ من المحاسبة. وفي المقابل لا يجوز أن تتحول الآية إلى تعيين شخص لم تسمه الرواية التي يُحتج بها. يبقى ميزان السرد: ما صرح به القرآن يُثبت، وما فصلته الأخبار يُنسب إلى مصدره، ومن ثبت يُذكر بثباته ومن رجع يُذكر بحسب ثبوت الخبر فيه. [١٦, ١٥]

١١. علي وحملة اللواء ومن عاد إلى رسول الله

تتفق مصادر إمامية متعددة على إبراز ثبات علي في أشد ساعات أحد، ويورد المفيد خبر دفعه الكتائب عن رسول الله. وفي لواء قريش يرد طلحة بن أبي طلحة، ثم رجال من بني عبد الدار، منهم أبو سعد، وعثمان، ومسافع، والحارث، وأرطاة، وصواب مولى القوم. وتختلف قوائم الأسماء ونسبة قتل بعضهم، ولذلك لا تُنسخ قائمة من كتاب مع دعوى أنها محل اتفاق جميع أهل السيرة. ومن النساء في الجانب الآخر عمرة بنت علقمة الحارثية التي تذكر الأخبار أنها رفعت اللواء بعد سقوطه؛ فحفظ اسمها جزء من تصوير الوقعة كما رُويت، لا تزكية لموقفها. [١٥]

وتذكر أخبار الثبات والرجوع أبا دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة، ومصعب بن عمير، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم، لكنها لا تجعل حضورهم على صورة واحدة في جميع مراحل اليوم. ويرد أبو عبيدة بن الجراح ومالك بن سنان في أخبار علاج النبي وإزالة حلق المغفر. أما عبارة أن الجميع فروا إلا واحدًا أو اثنين، فلا تُدمج بلا تمييز مع خبر عودة جماعة لاحقًا؛ فقد يصف خبر لحظة الانكشاف، ويصف آخر ما أعقبها. ويبقى خبر علي في مركز الروايات الإمامية، من غير حاجة إلى محو من نصت المصادر على عودته أو مشاركته. [١٥, ١٧]

١٢. حمزة وصفية وهند ووحشي

كان استشهاد حمزة بن عبد المطلب من أثقل مصائب أحد. وتذكر الأخبار وحشيًا، وكان مملوكًا لجبير بن مطعم، في قتله بالحربة، وتربط تحريره بالثأر لطعيمة بن عدي الذي قُتل ببدر. كما تذكر هند بنت عتبة في التحريض والتمثيل بحمزة؛ وتختلف صيغ التفاصيل وما أضيف إليها من خوارق. وما يثبت من حرمة المثلة لا يتوقف على صحة كل تفصيل في خبر الكبد. ويظهر الحليس في الإنكار على ما رآه من أبي سفيان عند جسد حمزة، مع اختلاف ضبط نسب الحليس في طرق الخبر. [١٥, ١٧]

أما صفية بنت عبد المطلب، أخت حمزة وأم الزبير وعمة النبي، فقد جاءت إلى موضع المصاب. وتروي الأخبار محاولة حجب منظر التمثيل عنها ثم صبرها حين علمت. وترد نساء الأنصار في مواساة رسول الله بعد أن سمع بكاء أهل المدينة على قتلاهم. لا يصبح الحزن ضعفًا في هذا السرد؛ فقد حزن النبي وبكى، وأُمر الناس أن يصبروا وأن يكفوا عن الاعتداء. ويُفصل بين هند بنت عتبة هنا وهند بنت عمرو بن حرام، المرأة الأنصارية التي فقدت زوجها وابنها وأخاها؛ فتشابه الاسم الأول لا يجمع شخصيتين متباعدتين. [١٥, ١٨]

١٣. فاطمة عند جراح أبيها

لما بلغ المدينة خبر اضطراب الجيش خرجت فاطمة، وتذكر روايات أبان بن عثمان مجيئها مع صفية. وفي أخبار أخرى تولت غسل الدم، وكان علي يأتي بالماء، ثم استعملت حصيرًا محرقًا لإيقاف النزف. وهنا تظهر فاطمة ابنةً ترعى أباها في ساعة الألم، وتظهر مشاركة علي في حمل الماء وحماية الرسول. ولا ينبغي أن تضيع هذه الصورة الإنسانية بين قوائم القتلى وفضائل المبارزين. [١٥]

وفي تفصيل الإصابة اختلاف مهم: تنص أخبار سيرة مشهورة على كسر رباعية النبي، ويسوق المجلسي عن الصادق في خبر أبان نفي ذلك وإثبات الجرح في الوجه. لذلك يثبت السرد هنا حصول الإصابة وسيلان الدم، ويعرض اختلاف الروايتين في السن بدل أن ينسب نفيها وإثباتها معًا إلى قول واحد. وترد أسماء عتبة بن أبي وقاص، وعبد الله بن شهاب، وابن قميئة في توزيع الاعتداءات، مع فروق في الأداة والموضع؛ فلا تُبنى صورة دقيقة لجسد النبي من جمع روايات متعارضة دون تنبيه. [١٥, ١٧]

١٤. نسيبة وأهل بيتها

خرجت نسيبة بنت كعب، أم عمارة، أول النهار للسقاية، ثم قاتلت دفاعًا عن النبي حين انكشف عنه جمع من الناس. وتحفظ رواياتها جراح العاتق ومواجهة ابن قميئة، وسؤال أم سعد لها عن أثر الجرح، وخبر عبد الله بن زيد في مشاركته وربط جرح أمه. وتذكر بعض طرق السيرة زوجها غزية، وعمارة بن غزية، في أهل بيتها الذين شهدوا. والمقصود حفظ صلتها بأسرتها كما يذكرها كل طريق، لا جعل جميع الصيغ المتفاوتة نسبًا واحدًا متفقًا عليه. [١٩]

وفي خبر منقول عن تفسير القمي أن ابنها قُتل يومئذ ثم أخذت سيفه، بينما تصف طرق أخرى عبد الله بن زيد حيًا معها، وتصل أخباره بأحداث لاحقة. فهذا موضع اختلاف لا يجوز تجاوزه بدمج الخبرين. وكذلك لا تُنقل إصابة يد نسيبة يوم اليمامة إلى أحد؛ إذ اليمامة واقعة بعد وفاة النبي. ويُحفظ من روايات أحد دعاء النبي لأهل بيتها وثناؤه على موقفها، مع إبقاء الأسماء التي كُنّي عنها في بعض النصوص مجهولة حيث لم يصرح المصدر بها؛ فشرح المؤلف اللاحق ليس لفظ الراوي نفسه. [١٩, ١٥]

وتلحق بصورة الخدمة في أحد أم سليط، فقد حفظ صحيح البخاري عنها شهادة تذكر حملها القرب للمقاتلين في ذلك اليوم. جاء التذكير بهذا العمل في خبر لاحق عن توزيع عمر أثوابًا؛ فزمن رواية الشهادة وتداولها غير زمن الفعل الذي تشهد له. ولا تحل أم سليط محل نسيبة أو فاطمة في المشهد، بل تضيف عملًا آخر لامرأة أخرى سماها المصدر. [١٦٣]

١٥. بيوت الشهداء وهند بنت عمرو

تتسع صورة أحد بمصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وشماس بن عثمان، وعبد الله بن عمرو بن حرام أبي جابر، وعمرو بن الجموح، وخلاد ابنه، وسعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وأنس بن النضر، وحنظلة بن أبي عامر. ومن الأسماء التي لا ينبغي إهمالها وهب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عقبة، اللذان تذكر الأخبار قدومهما ثم قتالهما واستشهادهما. ويذكر القرآن حياة الشهداء عند ربهم في آل عمران: ١٦٩–١٧١، من غير أن يسوق قائمة بأسمائهم؛ فالأسماء من روايات الوقعة، والمعنى القرآني أوسع من شخص واحد. [١٨, ٢٠]

وحملت هند بنت عمرو بن حرام في خبرها ثلاثة أحزان: زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد، وأخوها عبد الله أبو جابر. وكان عمرو صاحب عرج، وقد قرر النبي عذره ثم أذن له حين أصر على الخروج. وتروي الأخبار دفن عمرو وعبد الله معًا وما كان بينهما من مودة. أما حنظلة، المسمى غسيل الملائكة، فلا يُخلط بأبيه أبي عامر الذي اتخذ موقفًا معاديًا؛ وتذكر زوجته في خبر خروجه من بيته، وتسميها بعض كتب التراجم جميلة بنت عبد الله بن أبي، مع خلاف في نسبها وتمييزها من جميلة بنت أبي. كما ترد حمنة بنت جحش في تلقيها نبأ مقتل أخيها وخالها وزوجها مصعب في أخبار المواساة. [١٨, ١٧, ٢١, ٢٢]

١٦. حمراء الأسد وما بعد الجراح

خرج النبي في أثر جيش قريش بعد أحد، مع رجال لم تبرأ جراحهم. وتتناول آل عمران: ١٧٢–١٧٥ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح؛ وترد في تفسيرها حمراء الأسد، كما ترد أقوال تتصل بموعد بدر التالي. ويحفظ خبر معبد الخزاعي دوره في نقل ما أضعف عزم قريش على العودة

إلى المدينة. وترد أسماء أبي عزة الجمحي، ومعاوية بن المغيرة، في أحداث ما بعد المعركة، مع اختلاف في تفاصيل الأمان ومباشرة القتل. ولا يُخلط معاوية بن المغيرة هنا بمعاوية بن أبي سفيان. [٢٣, ٢٠]

لا تنتهي دلالة أحد عند عدد القتلى؛ فقد بقيت الآية «وما محمد إلا رسول» سؤالًا عن الثبات بعد غياب الرسول أو موته. وفي القراءة الإمامية يتصل هذا المعنى بما سيقع عند وفاته، لكن الاتصال في العبرة لا يلغي سياق أحد. فالآية تربي الجماعة على أن عبادة الله لا تتوقف بوفاة نبي، وأن الوفاء به يكون باتباع ما بلّغ، لا بادعاء محبته مع ترك توجيهه. [١٦]

١٧. الرجيع وخبيب وزيد وعاصم

تروي مصادر السيرة أن طلبًا لتعليم الدين انتهى بغدر عند الرجيع. وتسمي مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق؛ وفي بعض الطرق زيادة معقب بن عبيد واختلاف العدد والإمرة بين مرثد وعاصم. قُتل بعضهم في موضع القتال، وأُسر آخرون ثم بيعوا بمكة. ويرتبط خبيب بحجير بن أبي إهاب وعقبة بن الحارث، ويرتبط زيد بصفوان بن أمية في أخبار الثأر لمن قتل ببدر. [٢٤]

وترد سلافة بنت سعد في طلب رأس عاصم ثأرًا لابنيها، وخبر حماية الدبر لجسده ثم حمل السيل له. وفي أسر خبيب ترد امرأة وطفل قربه حين كان يحمل موسى استعارها؛ فطمأن المرأة ولم يجعل الطفل وسيلة انتقام. وتختلف المصادر في تسمية المرأة وصلتها بالبيت، فلا يُحوَّل اختلافها إلى شخص واحد محسوم. ويُروى عن زيد رفضه أن تصيب النبي شوكة وهو آمن بين أهله، وهي صورة وفاء حفظتها السيرة، مع ضرورة التفريق بين خبيب بن عدي وخبيب بن إساف وغيره ممن تشابهت أسماؤهم. [٢٤]

١٨. بئر معونة وأمان أبي براء

في بئر معونة يرد أبو براء عامر بن مالك، الملقب ملاعب الأسنة، في عرض الحماية، والمنذر بن عمرو في قيادة المبعوثين، وحرام بن ملحان في تبليغ الرسالة. ويظهر عامر بن الطفيل في استنفار من غدر بهم، وترد قبائل رعل وذكوان وعصية. وتختلف الأعداد بين بضع وعشرين وأربعين وسبعين في طرق جمعها المجلسي؛ لذلك لا يُعطى رقم واحد منزلة النص القرآني. ومن الناجين كعب بن زيد الذي تُذكر وفاته لاحقًا، وعمرو بن أمية الضمري الذي وقع في الأسر ثم أُطلق. [٢٥]

وترد أم سليم وأم حرام في صلة الأسرة بحرام بن ملحان، ويُذكر عامر بن فهيرة مولى أبي بكر في شهداء البعث. كما ترد قصة قتل عمرو بن أمية رجلين كان لهما عهد، ثم التزام النبي بديتهما؛ فالإصابة التي وقعت بالمسلمين لا تُسقط حق من كان في الأمان. وتُحفظ أسماء النساء المرتبطات بالضحايا من غير نسبة حضور الميدان إليهن بلا خبر. أما العبارات التي قالت بعض الروايات إنها قُرئت ثم رُفعت، فلا

تُدرج في نص القرآن المعتمد ولا تُجعل زيادات فيه؛ يظل الاستشهاد بالآيات الموجودة في المصحف. [٢٥]

١٩. بنو النضير والفيء

وصفت سورة الحشر إخراج جماعة من أهل الكتاب من ديارهم، وظنهم أن الحصون تمنعهم، ووعد المنافقين لهم ثم خذلانهم. وتعين أخبار التفسير الجماعة ببني النضير، وتذكر حيي بن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع وغيرهم من رجالهم، وعبد الله بن أُبي في وعد النصرة. ويشيع في السيرة أن النبي جاء يطلب المشاركة في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، ثم كُشف له تدبير الاعتداء عليه. وترد صيغة أخرى فيها كعب بن الأشرف؛ وهذه تثير إشكالًا زمنيًا إذا جُمعت مع الرواية التي تجعل مقتله سابقًا، فلا تُساق الصيغتان على أنهما وصف واحد متفق عليه. [٢٦, ٢٧]

وترد في خبر توزيع الأموال أسماء سهل بن حنيف وأبي دجانة، مع خلاف فيمن أُلحق بهما من الأنصار لحاجته، بينما ظهر الإيثار في قبول الأنصار إعانة المهاجرين. وقد فُصّل أصل هذا المعنى في الفصل السابق، ويكفي هنا ربطه بالحدث. والفيء في الحشر: ٦–١٠ ليس دعوة إلى دوران المال بين الأقوياء؛ بل يذكر النص ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وتحت هذه الأوصاف رجال ونساء وأطفال لا تسميهم الروايات فردًا فردًا، فلا يُخترع لهم اسم، ولا يُنسى حضورهم لأنهم غير مسمين. [٢٦, ٢٧]

٢٠. الصلاة في الخوف والبيوت التي تخلفها البعوث

تأتي أخبار ذات الرقاع وعسفان في شرح صلاة الخوف، ويرتبط بها النساء: ١٠٢. وتختلف السيرة في تاريخ بعض هذه الخرجات، وفي إلحاق روايات أبي موسى وأبي هريرة بها، لأن قدومهما في أخبار أخرى متأخر. ويذكر خبر الحراسة عباد بن بشر وعمار بن ياسر، وصلاة الحارس مع إصابته بالسهام. وفي قصة جابر وجمله تظهر زوجته ورعايتها أخواته بعد استشهاد أبيه، وتسمّيها كتب التراجم سهيمة بنت مسعود، ويَرِد سهيلة في شروح الحديث. فلا ينبغي أن يُحصر خبر جابر في ثمن الجمل ويغيب عنه البيت الذي حمل مسؤوليته. [٢٨, ٢٩, ٣٠]

وفي هذه السنوات كبر الحسن والحسين في بيت فاطمة وعلي، وبدأ حضور الجيل الذي سيحفظ امتداد الرسالة. لا تُسقط الألقاب اللاحقة على كل خبر طفولة، ولا تُربط كل فضيلة بموعد لا يثبته المصدر. يُذكر ميلادهما في أشهر الروايات في السنتين الثالثة والرابعة، مع وجود اختلافات في السنة واليوم. وستعود صورتهما في الكساء والمباهلة والصدقة وفي أيام مرض جدهما، حيث يكون الطفل نفسه حاضرًا في الحدث الذي سيُفهم لاحقًا في سياق الإمامة. [١٠, ١]

٢١. الأحزاب وسلمان في حفر الخندق

اجتمعت قريش وغطفان وحلفاؤهما حول المدينة، وتبرز في أخبار التحالف أسماء أبي سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وحيي بن أخطب، مع اختلاف في تعداد الرؤساء وأعداد الجموع. يصور القرآن الشدة في الأحزاب: ٩-٢٢؛ إذ بلغت القلوب الحناجر وظهر صدق المؤمنين واضطراب المنافقين. واقترن الخندق بسلمان الفارسي، ورأيه في التحصين في أخبار السيرة، وبمشاركته في الحفر. وترد في فضله كلمة النبي التي تضمه إلى أهل البيت في مقام القرب والنصرة، فلا يُفهم هذا المقام بوصفه نسبًا جسديًا أو مساواةً بين كل موارد استعمال لفظ أهل البيت. [٣١, ٣٢]

وفي خبر الصخرة ترد مجموعة فيها سلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وعمرو بن عوف، ويشارك النبي في العمل. ويُروى خبر طعام جابر وزوجته، وقلة ما عندهما ثم إطعام الجمع، في باب الآيات المنقولة. والمرأة هنا شريكة في إعداد الطعام وطمأنة جابر حين جاء النبي بأصحابه. أما تحديد مقدار الطعام وعدد الآكلين في كل صيغة فتابع لطريقها؛ لا حاجة لضم كل عدد إلى الآخر كي يكتمل معنى العناية الإلهية وسط الجوع والحصار. [٣١]

٢٢. علي وعمرو بن عبد ود

عبر نفر من فرسان المشركين موضعًا من الخندق، وتذكر الأخبار عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله. خرج علي لسد الثغرة ثم لمبارزة عمرو بعد طلب الإذن. وتحتل هذه المواجهة موضعًا بارزًا في «الإرشاد» وفي أخبار مناقب أمير المؤمنين؛ إذ ثبت حيث اشتد الخوف، وانتهت المبارزة بمقتل عمرو وتراجع أصحابه. وتربط تفاسير إمامية هذا النصر بتفسير الأحزاب: ٢٥ وتطبيقها على جهاد علي، مع بقاء النص القرآني مثبتًا كفاية الله للمؤمنين القتال. [٣٣]

وتحفظ روايات القصة امتناع علي عن سلب درع خصمه، وكلامًا لأخت عمرو في شرف قاتله. وتختلف الأشعار والتعليلات والتفاصيل اللاحقة، فلا يُجزم باسم الأخت إذا لم يثبته النص المحتج به. وترد أخبار المفاضلة بين ضربة علي وأعمال أخرى بألفاظ متعددة وأسانيد متفاوتة؛ فيثبت دور علي من الروايات التي تصف الواقعة، وتُعرض ألفاظ الثواب بحسب مصادرها من غير أن تُجعل جميعها نصًا واحدًا متواتر اللفظ. [٣٣]

٢٣. فاطمة وصفية والنساء تحت الحصار

نقل الصدوق في «عيون أخبار الرضا»، في رواية عن الرضا عن آبائه عن علي، خبر كسرة خبز جاءت بها فاطمة إلى أبيها أيام الخندق، وكانت قد خبزت للحسن والحسين. فيلتقي جوع المعسكر بقوت البيت،

ويظهر الطفلان في خلفية الطعام الذي حملته أمهما، لا بوصفهما مقاتلين. وهذه الصورة تحفظ دور النساء في الإعاشة والرعاية، كما تحفظ قلة الطعام التي عاشها بيت النبي مع جماعته. [٣٤]

وفي خبر صفية بنت عبد المطلب عند حصن فارع يظهر حسان بن ثابت والنساء والصبيان الذين احتموا بالحصن، ورجل طاف به فخشيت صفية أن يكشف موضعهم. تروي أنها نزلت فقتلته حين لم يخرج حسان إليه. ينقل الطوسي الخبر في أماليه، وترد صورته في السيرة؛ وهو خبر بعينه، لا أساس لتعميم حكمٍ على كل من ينتمي إلى دين الرجل أو قومه. والأمهات والأطفال المحتمون غير مسمين واحدًا واحدًا، لكن خوفهم وحقهم في الأمان من صميم الحدث. [٣٤]

٢٤. نعيم وحذيفة وانصراف الأحزاب

جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي معلنًا إسلامه في خبر الخندق، ثم تحرك بين بني قريظة وقريش وغطفان بما أضعف ثقتهم بعضهم ببعض. وفي ليلة البرد خرج حذيفة بن اليمان يستطلع خبر المعسكر، ملتزمًا أمر النبي أن يعود بالخبر دون أن يبدأ عملًا آخر. ويُروى خبره في «الكافي» بطريق فيه إرسال، وتختلف أسماء الرجلين اللذين جلس بينهما في بعض الصيغ؛ فتذكر رواية معاوية وسهيل بن عمرو، وأخرى عمرو بن العاص ومعاوية. [٣٥]

ويثبت القرآن الريح والجنود التي لم يروها في الأحزاب: ٩، ثم انصراف الذين كفروا بغيظهم في الآية ٢٥. وما يضاف من تفاصيل انقلاب القدور وقلع الخيام وتعداد رؤساء كل قبيلة يبقى من الروايات. ومن رجال المدينة سعد بن معاذ الذي أصابه سهم في أكحله، وتذكر الأخبار حبان بن العرقة في رميه، مع اختلاف الضبط. وسيصل جرح سعد بين نهاية الحصار وقضية بني قريظة، ثم وفاته وما روي في جنازته. [٣٥, ٣٢]

٢٥. بنو قريظة وقراءة الحدث بحدوده

تذكر الأحزاب: ٢٦–٢٧ إنزال الذين ظاهروا الأحزاب من صياصيهم، وقتل فريق وأسر فريق، ولا تسمي الآية القبيلة ولا تسوق عددًا. وتعينها أخبار التفسير ببني قريظة، وتذكر كعب بن أسد وحيي بن أخطب، وسعد بن معاذ في الحكم بعد الحصار. ويورد المفيد تقدم علي بالراية، ثم تذكر مصادر السيرة تنفيذ الحكم وأسر النساء والذرية. هذه تفاصيل يثبت وجودها في التراث ولا يُخفى ما فيها، مع التفريق بين النص القرآني وبين تقديرات العدد وشروط الحكم وصيغ التنفيذ المختلفة. [٣٦, ٣٧]

وتذكر بعض الأخبار امرأة واحدة قُتلت لاعتداء نُسب إليها، وتختلف صيغة الخبر: ففي بعض النقل حجر أُلقي على النبي، وفي السيرة رحى قتلت خلاد بن سويد. فلا يثبت السرد اسمًا للمرأة ولا يجمع الفعلين دون قرينة. وتظهر ريحانة في آثار الواقعة، ويختلف نسبها وبعض أخبار إسلامها ووضعها في بيت النبي بين رواية التسري ورواية الزواج. ويُذكر هذا الخلاف عند الحديث عن الأسرة، من غير طمس لحقيقة الأسر أو تصويره بوصفه اختيارًا حرًا من غير دليل. [٣٧, ٣٨]

٢٦. من حفظ العهد ورفيدة في رعاية سعد

لا تسوي الروايات بين جميع بني قريظة ومن جاورهم. فتذكر ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد فيمن أسلم، وتذكر عمرو بن سعدى الذي امتنع عن الغدر ثم خلّى محمد بن مسلمة سبيله. ويرد الزبير بن باطا، وثابت بن قيس بن شماس الذي سعى لمكافأته على يد سابقة، وطلب الأمان له ولأهله وماله، ثم تروي القصة اختيار الزبير اللحاق بقومه بعد السؤال عن مصير رؤسائهم. يختلف ضبط بعض الأسماء، ومنهم عزال بن سموأل الذي يرد في سؤال الزبير. هذه الفروق الفردية تمنع تحويل الانتماء القبلي إلى وصف أخلاقي ثابت لكل فرد. [٣٧]

وكان سعد بن معاذ يُرعى في خيمة رفيدة، وهي امرأة من أسلم تصفها سيرة ابن هشام بمداواة الجرحى وخدمة المحتاجين من المسلمين. أمر النبي أن يُجعل سعد قريبًا ليتردد عليه. وتمنح هذه الرواية رفيدة حضورًا محددًا موثقًا في رعاية الجرحى؛ أما إطلاق اسم كامل متفق عليه عليها، أو إلحاق كل خبر طبي في السيرة بها، فيحتاج شاهدًا مستقلًا. ثم توفي سعد من أثر جرحه، وتذكر الأحاديث تكريمه والتحذير من سوء الخلق مع الأهل في أخبار جنازته، لتبقى المنزلة العالية مقرونة بالمسؤولية الأخلاقية. [٣٧, ٣٩]

٢٧. أبو لبابة وأم سلمة وخبر التوبة

استدعى بنو قريظة أبا لبابة بن عبد المنذر، فلما رأى النساء والصبيان رقّ لهم، وأشار إلى حلقه في جواب سؤالهم عن النزول على الحكم. ثم عدّ فعله خيانة وربط نفسه في المسجد. وتذكر الرواية أن خبر قبول توبته جاء والنبي في بيت أم سلمة، فبشرته أم سلمة من حجرتها، ثم لم يقبل أن يفكّه غير رسول الله. وتظهر زوجته غير المسماة في بعض الطرق حين كانت تحله للصلاة؛ فلا تُنسب هذه الخدمة إلى أم سلمة لمجرد حضورها في خاتمة القصة. [٣٧]

ويرد أبو لبابة أيضًا في أقوال تفسير التوبة: ١٠٢، وتختلف الأخبار بين ربطها بهذه الواقعة وربطها بالتخلف عن تبوك مع آخرين. ليس كل ورود للاسم في تفسير آية دليلًا على أن الآية نزلت في القصة السابقة زمنيًا؛ فقد يكون نقلًا لقول آخر أو تطبيقًا على معنى التوبة. وسيأتي موضع تبوك في سياقه، مع حفظ هذا الفرق بين الأحداث. [٤٠]

٢٨. بنو المصطلق وجويرية

تذكر السيرة غزوة بني المصطلق عند المريسيع، وتختلف في جعلها في السنة الخامسة أو السادسة. ويظهر الحارث بن أبي ضرار سيد القوم، وابنته برّة التي عُرفت بعد ذلك بجويرية، وثابت بن قيس بن شماس في خبر وقوعها في السهم والمكاتبة، ثم زواج النبي بها. وتروي عائشة أن صلتها بالنبي حملت جماعة على إطلاق أسرى من قومها. يثبت هذا أثرًا مرويًا للزواج في تحرير أناس بعينهم، ولا يجيز إخفاء أن بداية قصتها في هذه الأخبار كانت الأسر. [٣٨, ٤١]

ونتصل بالرجوع من الغزوة مشادة على الماء بين جهجاه، أجير عمر بن الخطاب، ورجل أنصاري أو حليف للأنصار تسميه الطرق سنان بن وبر، وترد له صيغ أخرى. حاولت العصبية أن تجعل النزاع مواجهة بين المهاجرين والأنصار. ثم قال عبد الله بن أبي كلمته في إخراج الأعز للأذل، وسمعها زيد بن أرقم، وكان شابًا، فبلغها إلى النبي. تُثبت سورة المنافقون المقالة دون تسمية قائلها، وتعينه أخبار النزول، وهذه التفرقة تحفظ للشاب شهادته وللقرآن دقة لفظه. [٤١, ٤٢]

٢٩. عبد الله بن عبد الله واختلاف اختيار الأب والابن

حين أنكر عبد الله بن أبي مقالته، ثقل الاتهام على زيد بن أرقم، ثم جاءت الرواية بتصديقه. وفي الطرف الآخر ظهر ابن عبد الله بن أبي، واسمه عبد الله، خائفًا أن يُقتل أبوه فيحمله غضب القرابة على قتل مؤمن. عرض على النبي أن يتولى هو ما قد يؤمر به، فجاء الجواب في الرواية بالإبقاء على حسن صحبة الأب ما دام معهم. فالابن لا يحمل ذنب أبيه، ولا تصبح الغيرة للدين ذريعة إلى إهدار كل صلة إنسانية. [٤١]

تظهر في هذه الواقعة ثلاثة مستويات لا يصح خلطها: قول سياسي أراد تفريق الجماعة، وشهادة شاب تَحمّل التبعة، واختيار ابن رفض أن يتبع أباه في موقفه. ومنها نفهم لماذا يكرر القرآن وصف الرجال والنساء بأعمالهم لا بمجرد قرابتهم؛ فالبيت الواحد قد يجمع مؤمنًا ومعاندًا، والمقياس هو ما يختاره كل إنسان. [٤١, ٤٢]

٣٠. الإفك وصيانة الأعراض

تقرر النور: ١١–٢٦ أن تداول التهمة بغير بينة ليس أمرًا هينًا، وتطالب المؤمنين والمؤمنات بحسن الظن ورد البهتان. ولا تسمي الآيات المرأة المقذوفة ولا أصحاب الإفك. يسوق «مجمع البيان» رواية عائشة وصفوان بن المعطل، وفيها عبد الله بن أبي، ومسطح بن أثاثة وأمه، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وأبو بكر وأم رومان، وأسامة بن زيد وعلي وبريرة. وترد زينب بنت جحش في السيرة شاهدة بالخير مع كونها ضرة لعائشة، وأم أيوب وأبو أيوب في رفض التهمة. [٤٣, ٤٤]

وفي التفسير المنسوب إلى القمي رواية أخرى تصل الآيات بمارية القبطية وجريح القبطي، وتنسب إطلاق التهمة إلى عائشة. لا تُدمج القصتان؛ فإبراهيم ولد في مرحلة متأخرة عن بني المصطلق في التسلسل المشهور. كما أن أمر القتل الوارد في بعض صيغ قصة القبطي يثير بحثًا في فهم الخبر وسنده، ولا يقرر جواز قتل متهم بغير بينة. تذكر الرواية نفسها ثبت علي وانكشاف بطلان التهمة. والنتيجة التي يثبتها القرآن، مهما اختلف تعيين سبب النزول، هي صيانة البريء وتحريم الإفك؛ فلا يُحوّل البحث في الروايات إلى إعادة نشر التهمة بوصفها حقيقة. [٤٣, ٤٥]

وتحمي سورة النور نساء لم تحفظ هذه الرواية أسماءهن: يذكر مجمع البيان عند الآية ٣٣، ونور الثقلين نقلًا عنه، شكوى جوارٍ كان عبد الله بن أُبي يكرههن على البغاء طلبًا للكسب. ويبين التفسير أن

المغفرة للمكرهات، وأن وزر الإكراه على المعتدي. حضورهن هنا حضور صاحبات شكوى وحق في الحماية، فلا تُجعلن راضيات بالاستغلال، ولا تُختلق لهن أسماء لا يسميها هذا الموضع. [١٥٩]

٣١. زيد وزينب وإبطال أحكام التبني

وبين أحداث المدينة نزلت آيات غيّرت أحكامًا اجتماعية، ولا يلزم من جمعها هنا القطع بتاريخ واحد لها. زيد بن حارثة هو الصحابي الذي صرّح القرآن باسمه في الأحزاب: ٣٧. وقد كان يُدعى زيد بن محمد قبل الأمر بدعوة الأدعياء لآبائهم. وتظهر زينب بنت جحش، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وأخوها عبد الله وأختها حمنة، في أخبار زواجها من زيد ثم مفارقته لها وزواج النبي بها. ويبين النص غاية تشريعية صريحة: رفع الحرج في أزواج الأدعياء بعد انقضاء العلاقة، وعدم مساواة التبني بالنسب. [٤٦, ٤٧]

ويروي الطبرسي عن علي بن الحسين أن ما أخفاه النبي هو ما أعلمه الله به من زواجه بها لاحقًا، ويرى هذا التفسير موافقًا لما أظهره النص: «زوجناكها». وتُنقل في بعض الكتب قصة نظر وإعجاب، لكنها ليست قرآنًا، ولا تُتقدم على البيان الذي يصون مقام النبوة ويوافق غرض الآية. وزينب نفسها صاحبة قرار ومكانة في هذه الأخبار، لا مجرد وسيلة لجدل حول الرجال. ويُفصل بينها وبين زينب بنت خزيمة أم المساكين، وبين زينب المذكورة في أسرة النبي وأخبار أبي العاص. [٤٦, ٤٧]

٣٢. بيوت النبي ومسؤولية أمهات المؤمنين

وصفت الأحزاب: ٦ أزواج النبي بأمهات المؤمنين، ثم خاطبتهن الآيات ٢٨–٣٤ بالتخيير والعبادة والوقار والذكر، وقرنت المنزلة بمضاعفة المسؤولية. وترد في هذه البيوت سودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة هند بنت أبي أمية، وزينب بنت خزيمة، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي، وميمونة بنت الحارث؛ أما خديجة فقد توفيت قبل الهجرة، وبقي ذكرها في الوفاء والأسرة. وتختلف تواريخ بعض الزيجات والوفيات، فلا يُتصور أن جميع هؤلاء كن في البيوت في وقت واحد. [٣٨]

ويحفظ لقب أم سلمة ذكر أولادها من أبي سلمة، كما تحفظ أم حبيبة صلتها بابنتها حبيبة من عبيد الله بن جحش. وميمونة هي أخت لبابة أم الفضل في أخبار الأسرة، وترد صلتها بالعباس في الزواج. وتصف كتب التراجم زينب بنت خزيمة برعاية المساكين، ولم يطل مقامها بعد الزواج. أما النساء اللواتي تختلف الأخبار في تمام عقدهن أو وقوع الدخول بهن، فيُذكرن في موضع الاختلاف، ولا تُزاد أسماؤهن تلقائيًا على قائمة الأزواج اللواتي مات النبي عنهن. [٣٨]

وتذكر الأحزاب ٥٠ امرأة مؤمنة تعرض الزواج بالنبي من غير مهر، دون تسميتها. وينقل مجمع البيان عن علي بن الحسين تعريفها بأم شريك بنت جابر، ويورد أقوالًا أخرى في ميمونة وزينب بنت خزيمة

وخولة بنت حكيم، وقولًا ينفي وقوع هذا الزواج. تُحفظ الأسماء بوصفها اختلافًا في التعيين؛ فلا يثبت من عرض الزواج وحده أن كل امرأة صارت زوجة للنبي. [١٦٠]

٣٣. المسلمات والمؤمنات

جاءت الأحزاب: ٣٥ بتكرار مقصود للرجال والنساء في الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والصدقة والصوم والعفة والذكر. ويروي التفسير سؤال أم سلمة، كما يورد خبر أسماء بنت عميس بعد رجوعها من الحبشة وسؤالها عن ذكر النساء. فإذا جُعل خبر أسماء سببًا خاصًا فلا يُنقل رجوعها إلى ما قبل خيبر دون دليل؛ جمع الطبرسي الأقوال لا يجعل أزمنة الوقائع متطابقة. والثابت من الآية أن باب المغفرة والأجر العظيم مفتوح للرجال والنساء على أساس العمل والإيمان. [٤٨]

وتُروى عن الصادق صلة تسبيح فاطمة بكثرة الذكر. ويتصل ذلك بخبر طلب فاطمة من يعينها في عمل البيت، وتعليمها الذكر المعروف في روايات أهل البيت. لا يثبت من هذا إسقاط حاجات النساء أو عدّ تعبهن بلا قيمة؛ فالخبر يحفظ تعب فاطمة وسؤالها كما يحفظ تعليمها. وفي الأخبار التي تذكر فضة خادمة البيت تبقى فضة إنسانة ذات اسم وإيمان وعمل، لا مجرد وصف لخدمة لا صاحب لها. [٤٨, ٤٩]

الشفاء بنت عبد الله وتعليم الكتابة

ورد اسم الشفاء بنت عبد الله سابقًا لتمييزها من الشفاء التي تذكر في بعض أخبار المولد، ويتبين هنا عملها في التعليم. ففي سنن أبي داود، من روايتها، أن النبي دخل عليها وهي عند حفصة، وذكر تعليمها حفصة الكتابة في سياق سؤال عن تعليم رقية. يدل هذا الخبر في حدوده على علاقة تعليم بين امرأتين، وحضور الكتابة في البيت، دون أن يحدد تاريخ الدرس أو يجعلها المعلمة الوحيدة لنساء المدينة. ولا يتضمن هذا الموضع حكمًا بصحة علاج أو وصفة طبية؛ إنما يحفظ دور الشفاء التعليمي بنسبته إلى المصدر المقارن. [١٦٤]

٣٤. آية التطهير وأهل الكساء

في الأحزاب: ٣٣ يأتي نص التطهير، وتقرأه مدرسة أهل البيت في ضوء بيان النبي لأهل كسائه: علي وفاطمة والحسن والحسين معه. وروى الكليني عن أبي بصير عن الصادق خبر جمعهم تحت الكساء في بيت أم سلمة، وسؤالها وجواب النبي بأنها إلى خير، مع تخصيص هؤلاء في هذا البيان. ونقل الطبرسي طرقًا عن أم سلمة وأبي سعيد وأنس وواثلة وعائشة وغيرهم. فحضور أم سلمة شاهد رئيس في الرواية، ولا يقتضي تمييز أهل الكساء إلغاء منزلتها أو دورها في نقل الخبر. [١, ٤٨]

وأصل حادثة الكساء يُفصل عن النص المطول الشائع في بعض المجالس بكل تفاصيله؛ فلا يُنسب ذلك النص كله إلى «الكافي» لمجرد ثبوت أصل الاجتماع فيه. كما تُفصل الرواية عن استدلال المتكلم

بالعصمة: الخبر يعيّن الأشخاص، ثم يقوم الاستدلال على معنى الإرادة والتطهير وقرائن النص. وفي هذا الموضع بالذات تتقدم فاطمة مع ابنيها في صميم بيان أهل البيت، فلا تُعرض الإمامة كحكاية رجال غابت عنها المرأة التي جمعها النبي معهم. [١, ٤٨]

٣٥. الإطعام وفضة والمسكين واليتيم والأسير

تنقل التفاسير الإمامية في الإنسان: ٥–٢٢ خبر علي وفاطمة والحسن والحسين وفضة، ونذر الصوم بعد مرض الطفلين، وتقديم الطعام للمسكين واليتيم والأسير. ويعرض «مجمع البيان» خلاصة القصة وطرقها، ويجمع «نور الثقلين» أخبارًا متعلقة بها. وتختلف صيغ التفاصيل في مدة العطاء وترتيبه وما يرد من أشعار؛ فيثبت السرد هوية أهل البيت وفضة في الرواية، ويقرأ الإيثار على ضوء ألفاظ السورة من غير إلزام القارئ بتفصيل لا تتفق عليه الطرق. [٤٩, ٥٠]

ولا يصرح القرآن بأسماء المستفيدين الثلاثة أو أعمارهم أو أنسابهم. يبقون مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، ولا يجعل فقرهم أو أسرهم إنسانيتهم أقل حضورًا من أصحاب البيت. والغاية التي يعلنها النص هي وجه الله، مع عدم طلب جزاء ولا شكور. ومن هنا تدخل المرأة والطفل ومن يقوم بالخدمة ومن حُرم الحرية في شبكة الإحسان نفسها، من غير أن يحتاج كل منهم إلى نسب مشهور كي يستحق الطعام. [٤٩]

٣٦. الولاية والصدقة في الركوع

في تفسير المائدة: ٥٥ يورد الطبرسي خبر تصدق علي بخاتمه وهو راكع، وينقل طرقًا فيها أبو ذر وعبد الله بن سلام وابن عباس، ويذكر وروده عن الباقر والصادق. وتظهر في بعض صيغ الخبر شكوى عبد الله بن سلام وأصحابه من مقاطعة قومهم، ثم رؤية السائل وما ناله. السائل غير مسمى في الأصل المشهور؛ فلا تُضاف إليه هوية جازمة. وفي «الكافي» رواية أخرى تذكر حلة، وتصف السائل بأنه من الملائكة؛ وهذه صيغة مستقلة، وقد حكم المجلسي على طريقها بالضعف على المشهور، فلا تُدمج في رواية الخاتم بلا تمييز. [٥١, ١]

وتستدل المدرسة الإمامية بالآية في الولاية، وتصلها ببيان النبي الذي سيظهر علنًا في الغدير. لكن الاسم «علي» ليس في لفظ الآية المتلو، بل في الروايات التي تعين مصداقها؛ وهذا ليس تقليلًا من دلالة الرواية، وإنما ضبط لطريقة الاستدلال. ويَرِد موسى وهارون في بعض أدعية الخبر على سبيل القياس على المعونة والوزارة، لا على سبيل إثبات نبوة لعلي بعد محمد خاتم النبيين. [٥١, ١]

٣٧. خولة وبيت يسمع الله شكواه

تفتتح المجادلة بامرأة تجادل النبي في زوجها وتشتكي إلى الله. يسميها «مجمع البيان» خولة بنت ثعلبة في قول، وخولة بنت خويلد في آخر، ويذكر زوجها أوس بن الصامت. جاءت تشكو الظهار وخوفها على

صبية صغار: إن ضمتهم إلى نفسها جاعوا، وإن تركتهم لأبيهم ضاعوا في وصف الرواية. فأثبت القرآن سماع تحاورها، ونفى أن تصير الزوجة أمًا بكلمة يقولها الزوج، وبيّن الكفارة. [٥٢]

في هذه القصة ليست المرأة متلقية صامتة لحكم وقع عليها؛ إنها تسأل وتراجع وتشرح أثر الكلمة في حياة البيت. وأوس غير عبادة بن الصامت، وإن جمعتهما القرابة، وخولة هذه غير خولة بنت حكيم أو غيرها من الصحابيات. وترد عائشة في بعض طرق خبر المجلس، لكن دورها شاهدٌ في الرواية لا صاحبة الشكوى. أما الأطفال فلا تسميهم الآية ولا الخبر المعروض، ويكفي حفظ حضورهم بوصفهم المتأثرين المباشرين بالخلاف. [٥٢]

٣٨. بنو أبيرق والعدل مع من لا يشبهنا

تربط أخبار النساء: ١٠٥–١١٥ قضية الخيانة ببني أبيرق: بشر وبشير ومبشر، ويُكنى بشير أبا طعمة في الرواية المعروضة. وتذكر رفاعة بن زيد، وابن أخيه قتادة بن النعمان، ولبيد بن سهل الذي رُمي بالتهمة، وأسيد بن عروة الذي دافع عن قومه. وفي طريق آخر أُلقيت التهمة على يهودي اسمه زيد بن السهين في ضبط النص؛ وتشيع له صيغ أخرى في كتب التفسير. ثم تذكر الرواية هرب بشير إلى مكة ونزوله على سلافة بنت سعد، وإنكارها عليه بعدما هجاها حسان بسببه. [٥٣]

يرفض النص الدفاع عن الخائن لمجرد انتمائه إلى الجماعة، ويجعل الحق مقدمًا على العصبية. وما ترويه بعض الطرق من تفاصيل ظن النبي تُقرأ مع تنزيه النبوة الذي يصرح به الطبرسي في تفسيره، ولا تتحول إلى نسبة حكم ظالم متعمد إليه. ويستحق المظلوم غير المسلم أن يُحفظ اسمه وحقه في هذا الفصل مثلما يُحفظ اسم الصحابي صاحب الشكوى؛ فالآيات لا تجعل الاختلاف الديني سببًا لإلصاق الجريمة بالبريء. [٥٣]

٣٩. اللعان والوصية وشهادة المختلفين في الدين

تُذكر في تفسير النور: ٦–٩ قصة هلال بن أمية وزوجته، وشريك بن سحماء في التهمة، وعاصم بن عدي وسعد بن عبادة في السؤال السابق للحكم. ويسمي الطريق المعروض الزوجة خولة، بينما تُروى قصة أخرى في مصادر الحديث عن عويمر العجلاني؛ فلا يلزم أنهما حادثة واحدة ولا أن تفاصيل إحداهما تُنقل إلى الأخرى. ومهما اشتد الغضب والغيرة فإن الآيات تجعل للقضية مسارًا من الشهادات والأيمان، ولا تجعل ادعاء الزوج وحده حكمًا نهائيًا بثبوت التهمة على المرأة. [٥٤]

وعند النور ٣ يورد مجمع البيان خبر رجل غير مسمى سأل عن الزواج بأم مهزول، وينسب خبر التعيين إلى عدد من المفسرين، لا إلى إمام. ثم ينقل عن الباقر والصادق تفسيرًا يتعلق برجال ونساء عُرفوا بهذا الفعل، مع اعتبار التوبة. فتبقى أم مهزول اسمًا في خبر تفسيري، لا اسمًا صريحًا في القرآن، ولا تُخلط بالمكرهات في الآية ٣٣؛ فاختلاف الاختيار والإكراه اختلاف في المسؤولية. [١٦١]

وفي المائدة: ١٠٦-١٠٨ ترد وصية رجل مسافر، وتسمي الرواية تميمًا الداري وعديًا في حمل المال، وابن أبي مارية في صاحب الوصية، مع اختلاف في بعض الأسماء وصلة الرجلين. وينقل الطبرسي عن الباقر أصل الخبر، وعن الباقر والصادق قبول الشاهدين من غير المسلمين عند فقد الشاهدين المسلمين في ظرف الآية. والغرض في السرد حفظ مال الميت وحق الورثة، وهم غير مسمين؛ إذ لا تنتهي المسؤولية بالموت، ولا يغني ظاهر الثقة عن التحقق حين تظهر قرينة على النقص. [٥٥]

٤٠. الحديبية والخروج للعمرة

خرج النبي في السنة السادسة يريد العمرة، وساق الهدي وأحرم، فمنعته قريش من الوصول إلى البيت. وتذكر الأخبار خالد بن الوليد في قوة صدّ الطريق قبل إسلامه، ثم الوصول إلى الحديبية. وتتابع الرسل والوسطاء: بديل بن ورقاء الخزاعي، والحليس، وعروة بن مسعود الثقفي، ومكرز بن حفص، ثم سهيل بن عمرو الذي تم معه الصلح. وكان عثمان بن عفان رسولًا إلى مكة، وأثار خبر قتله الذي لم يثبت بيعة الرضوان؛ فتُفصل الشائعة التي حركت الموقف عن حقيقة ما وقع له. [٥٦, ٥٧]

يثبت الفتح: ١٨ رضا الله عن المؤمنين إذ يبايعون تحت الشجرة وعلمه بما في قلوبهم، ويذكر إنزال السكينة. وتختلف الروايات في عدد المبايعين، كما تذكر الجد بن قيس في خبر التخلف. لا يذكر القرآن قائمة بأسماء الحاضرين، ولا تُختصر دلالة الرضا على موقف الطاعة في إعفاء أي إنسان من المحاسبة على كل فعل تالٍ. وكان المؤمنون والمؤمنات المجهولون للمسلمين داخل مكة من أسباب كف القتال، كما يصرح الفتح: ٢٥؛ وفي ذلك حضور قرآني مباشر لأناس حالت حمايتهم دون الصدام. [٥٦, ٥٧]

٤١. كاتب الصلح ومشورة أم سلمة

كان علي بن أبي طالب كاتب الصلح، وسهيل بن عمرو مفاوض قريش. وعند الاعتراض على وصف «رسول الله» ظهرت في الخبر حرمة النبوة في نفس علي، مع قبول النبي إتمام الاتفاق بصيغته التي توقف القتال. ووصل أبو جندل بن سهيل مقيدًا، فصار ابتلاؤه من أشد مشاهد الصلح على المسلمين. لا تُقرأ الواقعة منفصلة عن قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ [الفتح: ١]، ولا تُجعل مشقة اللحظة دليلًا على فشل العهد. وتختلف طرق الخبر في بعض ألفاظ الكتاب وطريقة محو العبارة، ولذلك لا نجمعها في اقتباس واحد منسوب حرفيًا إلى الوثيقة. [٥٦]

وحين تأخر المسلمون عن النحر والحلق، شكا النبي الأمر إلى أم سلمة، فأشارت عليه أن يبدأ بنفسه. يرد هذا الدور في الخبر الذي ينقله المجلسي عن تفسير القمي، وليس مجرد إضافة من سيرة متأخرة. فنحر النبي وحلق، واتجه الناس إلى التحلل. بذلك تستعاد أم سلمة بوصفها صاحبة رأي حاضر في أزمة عامة، ويستعاد أبو جندل بوصفه إنسانًا متألمًا، لا مجرد اسم في شروط الصلح. [٥٨]

٤٢. المؤمنات المهاجرات وأبو بصير

خصّ القرآن المؤمنات المهاجرات بحكم الامتحان وعدم إرجاعهن إلى الكفار، مع تسوية الحقوق المالية التي تذكرها الآية [الممتحنة: ١٠-١١]. ومن أشهر الأسماء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، ويذكر خبر السيرة قدوم أخويها عمارة والوليد في طلبها. ويعرض مجمع البيان أخبار سبيعة بنت الحارث الأسلمية وأميمة بنت بشر، مع اختلاف الروايات في أسماء الأزواج وبعض التفاصيل. لا يعني إدراج هذه الأخبار أن جميع النساء المذكورات قدمن في يوم واحد، ولا أن كل اسم ورد في تفسير الآية ثابت بطريق مستقل صحيح. [٥٩, ٦٠]

أما أبو بصير، وتذكر كتب السيرة اسمه عتبة بن أسيد، فدخل خبره في تطبيق شرط إعادة الرجال ثم في اجتماع جماعة على طريق قوافل قريش، ولحق به أبو جندل. ويُقرأ ما وقع من قتل وقطع للطريق ضمن ظروف الرواية والاتفاق، لا بوصفه قاعدة مفتوحة لأي فرد. كما لا يجوز إسقاط الحكم الخاص بالمؤمنات من سرد الحديبية؛ فهو موضع قرآني واضح انتقلت فيه المرأة من موضوع تفاوض إلى صاحبة إيمان وذمة يحميهما النص. [٥٦, ٥٩]

٤٣. خيبر: الحصون والمقاتلون والجرحى

تأتي خيبر بعد الحديبية في السنة السابعة على المشهور. ولم تكن حصنًا واحدًا أُخذ بضربة واحدة، بل مجموعة حصون وعمليات وحصار انتهى بترتيبات تتعلق بالأرض والزرع. تتكرر أسماء النطاة والقموص والوطيح والسلالم، ويظهر مرحب وأخوه الحارث بين المقاتلين، ومحمود بن مسلمة بين من أصيبوا أثناء الحصار، وعامر بن الأكوع في خبر ارتداد سلاحه عليه. ويدفع النبي في خبر عامر توهم بطلان أجره بسبب هيئة إصابته، وترد القصة من طريق سلمة بن الأكوع وغيره. [٦١]

ويجب الفصل بين بيان ما تقوله مصادر المغازي وبين الحكم على جميع تفاصيلها. فأخبار كنز كنانة بن الربيع، واستجوابه وتعذيبه ثم قتله، مذكورة في بعض المصادر التي جمعها المجلسي؛ لكنها لا تصير رواية صحيحة عن إمام لمجرد وجودها في البحار. ذكرُها بأمانة مع بيان طريقها أولى من حذفها أو تحويلها إلى تشريع عام. وكذلك لا نحمل أفعال جماعة تاريخية على جميع اليهود في كل زمان؛ موضوع السرد حصون وأطراف وأفعال معينة. [٦٢]

٤٤. الراية لعلي وباب الحصن

تحتل راية خيبر موضعًا مركزيًا في فضائل علي. ففي الروايات وعد النبي بإعطاء الراية رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ثم دعا عليًا وكان يشكو عينيه، فدعا له ودفع إليه الراية. ويورد الإرشاد والبحار الأخبار التي تجعل الفتح على يديه بعد تعثر محاولات سابقة. ومن خلال مبارزة مرحب تبرز شجاعته وخدمته للرسالة، لا مجرد غلبة عسكرية منفصلة عن الطاعة. [٦١, ٦٣]

ويرد عن الإمام الباقر خبر اقتلاع الباب واتخاذه ترسًا، كما تختلف أخبار الباب في كيفية حمله وعدد من حاولوا تحريكه بعد المعركة. نثبت أصل الخبر من موضعه، وننسب المقادير والتفاصيل إلى طرقها، فلا تُصنع منها صورة مركبة يدّعى أن جميع الرواة اتفقوا عليها. وتذكر بعض الطرق مرضعة مرحب وتحذيرها له، لكنها لا تسمّيها؛ لذا تبقى «مرضعة مرحب» في السرد، ولا يستحدث لها اسم. [٦٤]

٤٥. صفية والنساء في خيبر

صفية بنت حيي بن أخطب شخصية مستقلة في هذا الحدث؛ فقد فقدت أهلًا وزوجًا، ثم تذكر المصادر عتقها وزواج النبي منها. ويروي الطبرسي عن أبان خبر تسليم علي إياها إلى بلال، واعتراض النبي على المرور بها على قتلى قومها. وتُذكر معها امرأة أخرى لا تتفق الأخبار على تسميتها. وفي خبر تهيئتها للزواج تظهر أم سليم، وفي حراسة موضع نزول النبي يظهر أبو أيوب الأنصاري. هذه التفاصيل تكشف أن الأسر وما يتلوه لم يكن شأن المقاتلين وحدهم. [٦٢, ٦٥]

وتحفظ الطبقات أخبار أم سنان الأسلمية، وأم مطاع الأسلمية، وأمية بنت قيس الغفارية ومجموعة نساء من غفار في خيبر. وتقول أم سنان في الخبر الذي ترويه ابنتها ثبيتة إنها خرجت لرعاية المرضى والجرحى وإصلاح الأسقية، وأن النبي ألحقها بأم سلمة. هذه شواهد من كتب التراجم للاستدراك على قائمة النساء، وليست أسانيد إمامية مصححة بمجرد نقلها هنا. ولا نستخرج من خبر أمية حكمًا عامًا في توزيع الغنيمة؛ فالتفاصيل الفقهية تحتاج جمع أدلتها الخاصة. [٦٦, ٦٧]

٤٦. السم وفدك: خبران مختلفان

يرد في أخبار خيبر أن زينب بنت الحارث، زوج سلام بن مشكم، قدمت شاة مسمومة، وأن بشر بن البراء بن معرور أكل منها ومات. وتختلف الطرق في مقدار ما تناوله النبي وفي مصير المرأة بعد اعترافها. ويُذكر دخول أم بشر عليه في مرضه الأخير وربطه الألم بأكلة خيبر. لذلك يمكن عرض الصلة كما جاءت في الروايات، دون تشخيص طبي حديث أو تعيين قاتل آخر لا تنهض عليه حجة. كما يجب تصحيح الخلط الذي يجعل زينب بنتًا لسلام بدل كونها زوجته في المشهور من الخبر. [٦٨]

أما فدك فموضوعها المال والأرض والفيء. وتقرر الروايات الإمامية صلة إعطائها لفاطمة بآية حق ذي القربى [الإسراء: ٢٦]، بينما تعرض كتب السير كيفية الصلح على الأرض. يجب الفصل بين أصل فدك في حياة النبي وبين مطالبة فاطمة بها بعد وفاته؛ فالنزاع المتأخر لا يُسقط حضورها السابق في الرواية، ولا يجعل جميع أموال خيبر وفدك بابًا واحدًا. وسيعود الفصل إلى احتجاج فاطمة في حدود اتصال ذلك بوفاة النبي وانتقال الأمر بعده. [٦٩, ٧٠]

٤٧. جعفر وأسماء والعائدون من الحبشة

يقترن فتح خيبر بوصول جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة، وترد عبارة فرح النبي بقدومه وبالفتح في مصادر الفضائل والسيرة. وتظهر أسماء بنت عميس زوجته، وأبناؤهما عبد الله ومحمد وعون، ضمن الأسرة التي حملت تجربة الهجرة الطويلة. كما تذكر أخبار الوصول أبا موسى الأشعري وجماعة قدموا من جهة الحبشة. ويجب مراعاة اختلاف مسارات الهجرة وتواريخ القدوم عند نسبة المشاركة في غزوة سابقة؛ فوجود الاسم في السيرة المدنية لا يجعله حاضرًا تلقائيًا في كل واقعة. [٧١]

وتروي أسماء خبر رد الشمس لعلي في طريق خيبر في بعض المصادر. يُعرض الخبر بوصفه رواية لها طرق وبحث مستقل، ولا يُحوّل إلى تفسير لآية لا تتحدث عنه. كما لا يختلط بما يروى من نوم عن الصلاة في الطريق، فهما خبران مختلفان تناول علماء الإمامية مسألة السهو فيهما بمواقف متباينة. وما يحتاجه مسار الفصل هنا هو تثبيت عودة جعفر وأسرته، ثم وصلها بما سيقع في مؤتة من استشهاده ورعاية أهله. [٧٢]

٤٨. الرسائل واتساع دائرة الدعوة

اتسعت المخاطبات بعد الحديبية، وتعرض كتب السيرة رسلًا إلى حكام خارج الحجاز: دحية الكلبي إلى هرقل، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علي. كما يظهر العلاء بن الحضرمي مع المنذر بن ساوى في البحرين، وعمرو بن العاص مع جيفر وأخيه من ابني الجلندى في عمان. وتحتاج تواريخ هذه البعثات إلى تفريق، فلا تصاغ كأنها جميعًا وصلت في ساعة واحدة. [٧٣, ٧٤]

ويوفر قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ [آل عمران: ٦٤] أصلًا واضحًا لخطاب التوحيد والحوار. أما ألفاظ كل رسالة وقصة تلقيها فتحتاج إلى مصدرها الخاص. وترد أسماء باذان في اليمن وشيرويه في خبر الدولة الساسانية، فلا يختلط الحكام بالرسل. وليس كل لقب سياسي اسمًا شخصيًا؛ فـ«قيصر» و«كسرى» و«النجاشي» ألقاب، وقد يؤدي التساهل فيها إلى جمع أشخاص مختلفين في ترجمة واحدة. [٧٣, ٧٤]

٤٩. أم حبيبة وأبرهة ومارية وسيرين

في خبر زواج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان تظهر امرأة كثيرًا ما تُسقطها المختصرات: أبرهة، التي كانت تقوم على شؤون ثياب النجاشي وطيبه، فبشرت أم حبيبة وساعدت في تجهيزها وطلبت تبليغ سلامها إلى النبي. وتذكر الرواية توكيل خالد بن سعيد بن العاص وحضور جعفر ومن بقي من المسلمين هناك. يرد الخبر ضمن مادة السيرة التي جمعها المجلسي، وتبقى تفاصيله منسوبة إلى طريقه. ولا تُحمل

قصة عبيد الله بن جحش، زوج أم حبيبة السابق، على أخويه عبد الله وأبي أحمد أو على أخته زينب. [٧٥]

وفي خبر وفد المقوقس تُذكر مارية القبطية وأختها سيرين، وحاطب حامل الرسالة والهدية، ومأبور الذي تختلف كتابة اسمه في بعض النسخ. وكانت مارية أم إبراهيم، وصارت سيرين أم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. ويصحح هامش البحار في موضع اسم «حسان بن وهب» إلى حسان بن ثابت؛ فلا ينقل التصحيف إلى متن الفصل. وعند ولادة إبراهيم تظهر سلمى، زوج أبي رافع، قابلةً، ويظهر أبو رافع مبشرًا بالنّبأ. هذه شبكة نسائية وأسرية لا يصح اختزالها إلى عبارة «وصلت هدية». [٧٦]

٥٠. مؤتة: الشهداء وأسرهم

في مؤتة استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة. ويختلف ترتيب الإمرة في بعض الروايات الإمامية عن المشهور في كتب المغازي؛ لذلك نثبت الأسماء ونبين اختلاف الترتيب عند نقله، ولا نزعم اتفاق المصادر عليه. وبعد مقتل القادة يظهر ثابت بن أقرم في جمع الناس وتسليم الراية لخالد بن الوليد، وتختلف المصادر في تقويم انسحاب الجيش. كما تذكر مقدمات الحملة مقتل رسول النبي الحارث بن عمير الأزدي على يد شرحبيل بن عمرو الغساني. [٧٧]

وتأتي أسماء بنت عميس وأطفال جعفر في قلب الخبر، لا في ذيله. يروي التراث الإمامي أن النبي أمر فاطمة أن تصنع طعامًا لأسماء وأهل بيتها ثلاثة أيام، فصار إعداد الطعام لأهل المصيبة سنةً. ويظهر عبد الله بن جعفر طفلًا يمسح النبي رأسه، مع حضور أخويه في الأسرة. وتمنع هذه الرواية قلب العزاء إلى تكليف أهل الميت بإطعام الوافدين؛ فالعمل المنقول هنا خدمة المفجوعين. كما يبقى لقب جعفر الطيار متصلًا بما ترويه الأخبار عن عوض الله له بعد قطع يديه. [٧٨]

٥١. ذات السلاسل وضرورة تمييز الحملات

تورد المصادر الإمامية حملة لعلي إلى وادي اليابس أو الرمل، وتصل بعض طرقها بسورة العاديات. وفي كتب المغازي حملة تسمى ذات السلاسل يقودها عمرو بن العاص. تشابه الاسم لا يكفي لإثبات أن الخبرين واقعة واحدة بكل رجالها وتاريخها. ويعرض مجمع البيان أيضًا أقوالًا أخرى في العاديات: خيل الغزو أو إبل الحجيج. لذلك تُذكر صلة السورة بحملة علي بوصفها تفسيرًا روائيًا واردًا، مع إبقاء نص السورة الذي لا يسمّي قائدًا أو موضعًا. [٧٩]

٥٢. عمرة القضاء وميمونة وابنة حمزة

في عمرة القضاء حضرت الوفاءَ بالعهد أسرٌ وأطفال، لا الرجال وحدهم. وتذكر الأخبار زواج ميمونة بنت الحارث، ودور أختها أم الفضل والعباس، وبقاء أبي رافع لإحضارها. كما خرجت ابنة حمزة من مكة، فتنازع رعايتها علي وجعفر وزيد بن حارثة، وحملتها فاطمة في خبر السيرة. وقضى النبي بخالتها

أسماء بنت عميس التي كانت عند جعفر، وأمها سلمى بنت عميس. يرد اسم الطفلة بصيغ منها عمارة وأمامة في كتب التراجم؛ فلا يجعل اختلاف الاسم بنتين من غير دليل. [٨٠]

٥٣. كتاب حاطب وحاملة الرسالة

في مقدمات فتح مكة يظهر حاطب بن أبي بلتعة وكتابه الذي يحذر قريشًا، وتذكر تفاسير الممتحنة امرأة تدعى سارة حملته. وتختلف الطرق في نسب ولائها وفي عدد الفرسان الذين بعثوا وراءها؛ وأبرزهم علي والزبير، مع ورود المقداد وغيره في طرق أخرى. وينبغي ألا تحول عبارة «امرأة» في طريق مختصر إلى نفي وجود اسمها في طريق مفصل، ولا الاسم المفصل إلى اتفاق بين جميع الروايات. ويربط مجمع البيان القصة بآيات الممتحنة الأولى، وفيها النهي عن إلقاء المودة إلى العدو على حساب الجماعة المؤمنة. [٨١, ٨٢]

٥٤. الطريق إلى مكة والأمان

جاء الفتح بعد نقض الحلف الذي دخلت فيه خزاعة مع النبي، وتذكر المصادر عمرو بن سالم وبديل بن ورقاء في طلب النصرة. وفي الطريق يظهر العباس وأبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، ثم إعلان الأمان بصيغ متعددة، منها إغلاق الباب والكف عن القتال. ويجب تمييز أبي سفيان بن حرب من أبي سفيان بن الحارث، ابن عم النبي الذي جاء مع عبد الله بن أبي أمية، وتدخلت أم سلمة في شأنهما. كما لا تختزل المدينة كلها في مشهد مقاتلة واحدة؛ فقد كان منع توسع الدماء عنصرًا ظاهرًا في أخبار الدخول. [٨٣]

٥٥. بيعة النساء: هند وأم حكيم

أفرد القرآن بيعة المؤمنات بنص واضح [الممتحنة: ١٢]، يجمع التوحيد وصيانة المال والعرض والولد والطاعة في المعروف. وفي رواية الكافي عن الإمام الصادق، كما ينقلها البحار، تظهر هند بنت عتبة وأم حكيم بنت الحارث بن هشام، زوج عكرمة، وسؤال أم حكيم عن المعروف. وتصف الرواية بيعة بالماء مع تصريح النبي بأنه لا يصافح النساء. ويتعين التنبيه إلى أن بعض الطرق تذكر أم حكيم بنسب مختلف؛ فلا ندمج النساء المتشابهات في الكنية من غير فحص. [٨٤, ٨٥]

٥٦. أم هانئ ومفتاح الكعبة والعفو

أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجالًا يوم الفتح، وأقر النبي أمانها؛ وفي الخبر حضور علي وفاطمة. وتختلف الروايات في أسماء من أجارتهم، فتذكر بعضها الحارث بن هشام وقيس بن السائب. وفي شأن مفتاح الكعبة تظهر روايات عثمان بن طلحة، وأخرى تسمي شيبة وأمه؛ فتحتاج هذه الألفاظ إلى ضبط العلاقة بين أفراد أسرة السدانة. وأذن بلال على الكعبة، وصارت إزالة الأصنام إعلانًا عمليًا للتوحيد. [٨٣, ٨٦]

وفي أخبار الأمان والعفو تظهر أسماء عكرمة وأم حكيم، وصفوان بن أمية وعمير بن وهب، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعثمان بن عفان. وتذكر أخبار المستثنين من الأمان ابن خطل وقينتيه، ومنها فرتنى التي يختلف رسم اسمها، وسارة، والحويرث بن نقيذ أو نفيل بحسب النسخ. ليست قوائم المستثنين ولا مصائرهم متطابقة؛ لذا لا يصح القول إن كل من ورد اسمه في قائمة قُتل، أو إن العفو شمل كل واقعة بلا استثناء. [٨٣, ٨٧]

٥٧. بنو جذيمة ورد المظالم

أرسل النبي خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فوقع قتل وأسر تبرأ النبي منهما، وأرسل عليًا لتدارك المظالم. وتظهر في طرق القصة مواقف عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر، فلا تنسب طاعة أمر قتل الأسرى إلى كل من كان في السرية. ويؤكد الإرشاد والبحار دفع الديات وتعويض الأموال، حتى الأضرار الصغيرة في بعض الألفاظ. جوهر الخبر أن انتساب الفاعل إلى جيش المسلمين لا يمنع نقد فعله، وأن الاستنكار يحتاج إلى رد الحقوق، لا إلى كلمة مجردة. [٨٨, ٨٩]

٥٨. حنين: الكثرة والثبات

ينص القرآن على الاغترار بالكثرة ثم ضيق الأرض والفرار، قبل نزول السكينة [التوبة: ٢٥–٢٧]. وفي الطرف المقابل يظهر مالك بن عوف النصري ودريد بن الصمة، وفي أخبار الثبات يظهر علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن ابن أم أيمن. وتختلف القوائم في عدد الثابتين وأسمائهم؛ فتذكر طرق الفضل بن العباس وعقيلًا وربيعة ونوفلًا وغيرهم، ولا تُقدّم قائمة مركبة باعتبارها إحصاء متفقًا عليه. وأيمن غير أخيه لأمه أسامة بن زيد؛ فلا يُسقط أحدهما بسبب شهرة الآخر. [٩٠, ٩١]

٥٩. أم سليم والشيماء ونساء هوازن

تذكر السيرة أم سليم في حنين ومعها خنجر، وحوارها مع أبي طلحة والنبي؛ وكانت حاملًا بعبد الله بن أبي طلحة في الخبر. ولا يلغي هذا الدور كونها أم أنس بن مالك أيضًا. ثم تظهر الشيماء بنت الحارث، أخت النبي من الرضاعة وابنة حليمة، بين الأسرى؛ فعرفها وأكرمها وخيرها في الإقامة أو الرجوع. ويذكر البحار أخت النبي من الرضاعة دون أن يلزم من ذلك وجود امرأة أخرى غير المذكورة في السيرة. [٩٢, ٩٣]

وفي وفد هوازن تكلم زهير بن صرد عن الحالات والحاضنات والأسر، فدخلت إعادة النساء والأطفال في المفاوضة. ويجب إبقاء مشقة الأسر ظاهرة، لا تحويل النساء إلى أعداد غنائم فقط. ويرتبط ذلك بتحول مالك بن عوف وعودة الأسر، مع اختلاف التفاصيل في شروط الرد وتعويض من تمسك بنصيبه. [٩٣]

٦٠. أوطاس والطائف وتقسيم الأموال

تذكر أخبار أوطاس أبا عامر الأشعري وأبا موسى، وفي حصار الطائف يظهر من خرج إلى المسلمين من الرقيق، ومنهم أبو بكرة نفيع في كتب السيرة. ثم يأتي إسلام عروة بن مسعود ومقتله بعد رجوعه إلى قومه، ووفد ثقيف، ودور المغيرة بن شعبة وأبي سفيان في هدم اللات. هذه مراحل متتابعة، فلا يقال إن أهل الطائف جميعًا أسلموا لحظة انتهاء الحصار. [٩٤, ٩٥]

وفي العطاء تظهر أسماء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس، كما يظهر حزن بعض الأنصار وما خاطبهم به النبي. ويشرح خبر علي والعباس بن مرداس أن «قطع اللسان» كان إرضاءه بالعطاء في سياق الرواية، لا قطع عضو. ويعرض القرآن المؤلفة قلوبهم ضمن مصارف الصدقات [التوبة: ٦٠]، لكن لا تُسوّى جميع أموال الغنيمة والصدقة بمجرد تشابه الغرض. [٩٦, ٩٧]

أبو محذورة والأذان في مكة

ومن أخبار الرجوع من حنين ما يرويه النسائي على لسان أبي محذورة. يحكي أنه كان مع نفر يقلدون صوت المؤذن مستهزئين، فاستدعاهم النبي وميز صاحب الصوت المرتفع، ثم علمه الأذان. ويذكر أبو محذورة أنه طلب أن يؤذن بمكة، فأذن له النبي، فقدم على عتاب بن أسيد وأذن فيها بأمره. لا تحدد هذه الرواية عدد جميع المؤذنين أو تعيد تأريخ بدء الأذان؛ وإنما تضيف إلى صورة التعليم بعد حنين انتقال رجل من الاستهزاء إلى تحمل مهمة. وتُروى هنا بوصفها خبرًا مقارنًا من سنن النسائي، مع ترك الخلاف الفقهي في ألفاظ الأذان لموضعه. [١٦٥]

٦١. تبوك وعلي وحديث المنزلة

في تبوك برزت مشقة الحر وبعد الطريق وقلة الزاد، وبقي علي بأمر النبي. وحين أُثير الكلام حول تخلفه جاءت رواية المنزلة: علاقته بالنبي بمنزلة هارون من موسى، مع استثناء النبوة بعد محمد. تعرض المصادر الإمامية الحديث بوصفه بيانًا للمكانة والاستخلاف، وليس مجرد مواساة شخصية. والاستثناء نفسه يحفظ ختم النبوة؛ فلا يُستنتج من التشبيه نبي جديد، ولا تلزم مطابقة كل تفاصيل سيرة هارون لسيرة علي. [٩٨, ٩٩]

٦٢. أبو ذر وأبو خيثمة وذو البجادين

تذكر أخبار الطريق أبا ذر حين تأخر به بعيره ثم لحق بالجيش، وأبا خيثمة حين ترك ظل بستانه وطعامًا أعدته زوجتاه ليلحق بالنبي. لا تسمي الرواية المعتمدة هنا الزوجتين؛ فتُذكران بدورهما دون اختلاق اسمين. ويظهر عبد الله ذو البجادين في خبر وفاته ودفنه أثناء الحملة في السيرة، مع اختلاف تفصيل نسبه في النسخ. وتستعاد هذه الأسماء لبيان أن مشقة تبوك شملت السائرين والمتأخرين الذين لحقوا، لا قائمة المتخلفين وحدها. [٩٨, ١٠٠]

٦٣. الثلاثة الذين خُلّفوا والعاجزون عن النفقة

يسمي تفسير التوبة: ١١٨ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. وتظهر زوجاتهم وأهلوهم في الرواية عند السؤال عن المعاشرة وإيصال الطعام؛ ولا يصح إهمال هذا الحضور لأن الآية جاءت بصيغة الرجال. وتصف الروايات تخلف هؤلاء بالتواني ثم الصدق والتوبة، فلا يُلحقون آليًا بالمنافقين. أما أصحاب الأعذار ومن فاضت أعينهم من الدمع لعدم وجود ما يحملهم [التوبة: ٩١-٩٢] فباب آخر، وتختلف قوائم «البكائين» في الأسماء والعدد، ولذلك لا يُجعل الفقر معصية أو التخلف كله نوعًا واحدًا. [١٠١, ١٠٢]

٦٤. مسجد الضرار ومحاولة العقبة

في مسجد الضرار يقدم القرآن الحكم على المقصد: الإضرار والتفريق والإرصاد لمن حارب الله ورسوله [التوبة: ١٠٧-١١٠]. وتربط التفاسير ذلك بأبي عامر الراهب وجماعة من المنافقين، وتختلف أسماء من أُرسلوا لهدم البناء؛ فيرد مالك بن الدخشم مع رفيق تختلف تسميته، وفي طريق آخر عمار ووحشي. لا يصلح هذا الخبر ذريعة للحكم على مسجد معاصر بغير بينة، وموضوع الفصل هو الحادثة التي عيّنها الوحي. [١٠٣, ١٠٤]

وتظهر في خبر محاولة إيذاء النبي عند العقبة أدوار حذيفة وعمار، مع اختلاف عدد المتآمرين وتفصيل تعرفهم. نذكر من سمته الرواية التي نستعملها، ونترك المجهولين مجهولين، ولا نستخرج قائمة اتهام من الجمع بين أخبار متفاوتة. وكذلك ترد وفاة عبد الله بن أبي بن سلول وحضور ابنه عبد الله في هذه المرحلة، مع خلاف في بعض تفاصيل الصلاة والقميص؛ فيفصل دور الابن المؤمن عن موقف أبيه. [١٠٥, ١٠٦]

٦٥. تبليغ براءة وعهود المشركين

تذكر المصادر إرسال أبي بكر ثم إلحاق علي لتبليغ براءة، وتبرز في الروايات عبارة أن التبليغ يكون من النبي أو رجل منه. تختلف الأخبار في بعض تفاصيل الرجوع وإمارة الحج، فلا يُطمس هذا الاختلاف. والمضمون القرآني لا يجيز إسقاط جميع العهود؛ فالاستثناء لمن وفوا بعهدهم صريح [التوبة: ٤]، والأمان لطالب الاستماع وإبلاغه مأمنه صريح أيضًا [التوبة: ٦]. ومن ثم يقترن موقع علي في البلاغ بقراءة أحكام العهود كاملة، لا باقتطاع لفظ القتال وحده. [١٠٧, ١٠٨]

٦٦. وفد نجران والمباهلة

في وفد نجران يظهر العاقب عبد المسيح، والسيد الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، ومعهم رجال يختلف تفصيل أسمائهم في الأخبار. ويُذكر أخ لأبي حارثة باسم كرز أو بشر في بعض النسخ، فلا يُضاعف عدد الأشخاص لمجرد اختلاف الرسم. وكان موضوع المحاورة عيسى، فجاء القياس بآدم [آل عمران:

٥٩]، ثم آية المباهلة [آل عمران: ٦١]. ويجب عدم دمج هذا الوفد المسيحي بكل وفد آخر جاء من منطقة نجران. [١٠٩, ١١٠]

خرج النبي بعلي وفاطمة والحسن والحسين. وعلى القراءة الإمامية يبين هذا الاختيار مصداق الأبناء والنساء والأنفس في المقام، ويجعل فاطمة ممثلةً أصيلةً في حجة النبوة، لا حضورًا هامشيًا. ثم انتهى الأمر إلى الصلح بدل المباهلة. وتروي المصادر شروطًا مالية وضمانات تحتاج إلى ألفاظ الوثيقة في كل طريق؛ فلا ننسب كل زيادة في الروايات المطولة إلى أصل واحد متفق عليه. [١٠٩, ١١١]

٦٧. الوفود والنساء اللاتي فتحن أبواب اللقاء

اتسعت الوفود، وتظهر في أخبار طيئ ابنة حاتم وأخوها عدي بن حاتم؛ وتشتهر تسميتها سفانة في كتب التراجم، بينما يقول بعض نصوص السيرة «ابنة حاتم» فقط. وكان لإطلاقها وإرشادها أخاها أثر في وصوله. كما يظهر ثمامة بن أثال، وضمام بن ثعلبة، ووفد بني تميم الذي تُذكر فيه أسماء الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم، ويقابل خطباءهم وشعراءهم ثابت بن قيس وحسان بن ثابت. لا تعني كثرة الأسماء أن جميعهم أصحاب الموقف نفسه أو أن أخبارهم متساوية القوة. [١١٢, ١١٣]

٦٨. اليمن: علي والقضاء والتبليغ

تعرض المصادر بعث علي إلى اليمن للدعوة والقضاء، وإسلام همدان في الخبر، كما تعرض حملات خالد ثم إلحاق علي، وشكوى رفعها بريدة ورد النبي عليها في فضل علي. ينبغي الفصل بين المهمات المختلفة وعدم صهرها في رحلة واحدة. وتظهر في المرحلة أسماء معاذ بن جبل وأبي موسى والمهاجر بن أبي أمية في أخبار التعليم والبعث، مع اختلاف مواقيت التكليف. أما أخبار الأسود العنسي وفيروز الديلمي وقيس بن مكشوح وما جرى بعد وفاة النبي فتحتاج حدًا زمنيًا واضحًا؛ يذكر اتصالها بأواخر حياته دون نقل جميع أحداث الردة إلى هذا الفصل. [١١٤, ١١٥]

٦٩. آيات التثبت وآداب الجماعة

يربط مجمع البيان آية التثبت [الحجرات: ٦] بخبر الوليد بن عقبة وبني المصطلق، ويورد تفسيرًا آخر متصلًا بقصة مارية؛ فيجب إبقاء الطريقين منفصلين. وتذكر روايات السخرية والتنابز [الحجرات: ١١] ثابت بن قيس في بعض الأخبار، وصفية وما قيل لها في أصلها في أخرى. وفي خطاب الوفود يرد الأقرع ومن نادوا من وراء الحجرات. هذه تعيينات تفسيرية لا أسماء مكتوبة في الآيات، وحكم التثبت وصيانة الكرامة يتجاوز أسباب النزول الخاصة. [١١٦, ١١٧, ١١٨]

٧٠. الأسرة: الأبناء والبنات والأحفاد

يُذكر القاسم وعبد الله في أبناء خديجة، ويُفسر الطيب والطاهر في بعض الأقوال لقبين لعبد الله، فلا يزاد عدد الأبناء بلا بيان الخلاف. ويأتي إبراهيم من مارية. وفي البنات تعرض المصادر زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، مع وجود قول في بعض التراث الإمامي بأن بعض المنسوبات إلى البنوة ربائب؛ وقد بيّن الفصل هذا الخلاف دون إخفائه. ومن ذرية فاطمة في حياة النبي الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم. أما المحسن وأخبار إسقاطه فتتصل في المشهور الإمامي بما بعد وفاة النبي، فلا توضع الواقعة قبلها. [١٠]

٧١. سورة التحريم وحدود الاستدلال

تتعدد أخبار سبب نزول أول التحريم بين قصة العسل وقصة مارية، وتختلف تفاصيل الأولى فيمن سقت النبي العسل: حفصة أو زينب بنت جحش أو أم سلمة في طرق مختلفة. وتظهر عائشة وحفصة في تفسير المرأتين المتظاهرتين، وسودة في بعض تفاصيل الخبر. تثبت العتاب القرآني دون أن نصنع من اختلاف القصص حادثة واحدة، ودون أن نستنتج اتهامًا بالقتل من آيات لم تقل ذلك. أما جبريل وصالح المؤمنين والملائكة [التحريم: ٤] فيرد تفسير صالح المؤمنين بعلي ضمن المأثور الإمامي. [١١٩, ١٢٠]

وفي ختام السورة تظهر امرأة نوح وامرأة لوط مثالًا لا تنفع فيه صلة الزوجية وحدها، وامرأة فرعون ومريم بنت عمران مثالًا لاستقلال الإيمان [التحريم: ١٠–١٢]. تسمية امرأة فرعون آسية واردة في الروايات، لا في لفظ الآية. ولا يحمل تعبير الخيانة في امرأتي نوح ولوط تلقائيًا على الفاحشة؛ فالتفسير الإمامي يرده إلى الموقف من الرسالة. هؤلاء شخصيات قرآنية مرتبطة بحجة السورة، لا معاصرات للنبي في المدينة. [١٢١]

٧٢. وفاة إبراهيم والكسوف

مات إبراهيم ابن مارية صغيرًا، وحزن النبي عليه وبكى. وتربط الروايات يوم وفاته بكسوف الشمس، ثم تذكر تصحيح النبي اعتقاد من ربط الظاهرة بموت الطفل: الشمس والقمر من آيات الله، فلا يجعلان تابعين لموت أحد. وفي روايات الإمامية يظهر علي في تجهيز إبراهيم. ويجب أن يبقى اسم مارية حاضرًا في هذا الفقد، مع سلمى وأبي رافع في خبر ولادته، وأهل رضاعه ورعايته حيث تسميهم المصادر. ولا ينفي الرضا بقضاء الله دمعة الأب أو ألم الأم. [١٢٢]

٧٣. حجة الوداع: النساء في تعلم المناسك

في الخروج للحج ولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأُمرت بما يحفظ إحرامها مع حكم النفاس، وترد القصة عن الباقر والصادق في مصادر الأحكام. وهنا تكون أسماء زوج أبي بكر بعد استشهاد

جعفر، فلا تبقى العلاقات الأسرية جامدة على واقعة مؤتة. وتظهر عائشة في أخبار الحيض والعمرة، وصفية في السؤال عن الإفاضة، وترد أسئلة النساء عن أداء الحج عن الأقارب. هذه الروايات جزء من تعليم المناسك، وليست تفاصيل عارضة يجوز حذف النساء معها من الحجة. [١٢٣, ١٢٤, ١٢٥]

٧٤. علي من اليمن وفاطمة وسراقة

قدم علي من اليمن فوجد فاطمة قد أحلت ولبست ثيابًا مصبوغة، فأخبرته أن أباها أمرها بذلك، وصدق النبي قولها. ويأتي سؤال سراقة بن مالك: أهذا لعامهم أم للأبد؟ في سياق بيان دخول العمرة في الحج. تضع الرواية فاطمة ناقلةً موثوقة للحكم النبوي، وعليًا مستفتيًا يتحقق من الأمر، وسراقة سائلًا عن استمراره. ولا تُسوّى صورة إحرام من ساق الهدي بصورة من لم يسقه، فهذا التفصيل لازم لفهم اختلاف الأفعال في الحجة. [١٢٣]

٧٥. خطب الحج وحرمة الحقوق

تتكرر في خطب الحج حرمة الدماء والأموال، ورد الأمانات، وإبطال مظالم الجاهلية، والوصية بالنساء، ومسؤولية الشاهد في تبليغ الغائب. ومن الأسماء المتصلة بتفصيل الطريق أسامة بن زيد والفضل بن العباس؛ وترد المرأة الخثعمية في السؤال عن الحج عن أبيها دون اسم شخصي ثابت في الرواية المشهورة. ولا يجوز جمع خطب عرفة ومنى والغدير في نص واحد ثم نسبته إلى موقف واحد. نحفظ المعاني المشتركة، ونحيل كل نص خاص إلى موضعه. [١٢٣, ١٢٦]

٧٦. غدير خم وبلاغ الولاية

في عودة النبي من الحج كان موقف غدير خم، المشهور في التراث الإمامي في الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة. ويصف المفيد اجتماع الناس ورفع مقام علي، ويربطه بآية البلاغ [المائدة: ٦٧]. ومن مركز الخبر قول النبي: «من كنت مولاه فعلي مولاه». تقدم القراءة الإمامية هذا الإعلان تعيينًا للولاية بعد النبي ضمن سياق الأولوية والطاعة، ولا تقصره على محبة عامة مأمور بها لجميع المؤمنين. والآية نفسها لا تتضمن اسم علي نصًا؛ إنما يأتي التعيين من الرواية وتفسيرها. [١٢٧, ١٢٨]

٧٧. حديث الباقر وإكمال الدين

يروي الكافي عن جماعة من أصحاب الإمام الباقر خبر الأمر بولاية علي، وإعلانها في الغدير، واتصالها بآيتي البلاغ وإكمال الدين [المائدة: ٦٧، ٣]. وقد وصف المجلسي هذا الحديث بعينه بالحسن في مرآة العقول؛ وهذه درجة لخبر محدد، لا تصحيح لجميع أخبار الغدير المطولة. وتذكر تفاسير الآية أيضًا أقوالًا في نزول الإكمال بعرفة؛ فيبين الفصل الرواية الإمامية التي يعتمدها، ويصرح بوجود القول الآخر بدل دعوى اتفاق جميع المفسرين. [١٢٩, ١٣٠]

٧٨. التهنئة والنساء وما يحتاج إلى احتراز

يذكر الإرشاد تهنئة علي، ويرد اسم عمر بن الخطاب في هذا الموضع، كما ترد أبيات حسان بن ثابت في طرق من الخبر. لكن ثبوت أصل الغدير لا يغني عن تحقيق كل لفظ من الأبيات أو كل تفصيل في مراسم البيعة. وبخاصة لا ننقل طريقة البيعة بالماء الثابتة في رواية فتح مكة إلى الغدير بلا مصدر يربطها به. حضور النساء في الحجة والبلاغ العام محفوظ، أما إسناد دور تفصيلي لامرأة بعينها في الغدير فيحتاج نصًا. [١٢٧, ٨٥]

ويورد بعض التفسير قصة معترض يختلف اسمه بين الحارث أو النعمان بن الحارث الفهري، ويربطها بأول المعارج. نذكرها في حدود كونها خبرًا مختلفًا فيه، مع إشكال تأريخ السورة في الأقوال التي تجعلها مكية؛ فلا تُجعل عماد إثبات الغدير، ولا تُطمس مشكلة الزمن بتفصيل غير موثق. [١٣١]

٧٩. الثقلان والمرجعية بعد الرسول

يجمع حديث الثقلين بين كتاب الله وأهل بيت النبي في باب الهداية بعده. وفي حديث أبي بصير عن الصادق في الكافي، الذي وصفه المجلسي بالصحيح بسنديه، يأتي بيان أهل البيت والاحتجاج بوجوب طاعتهم، مع ذكر علي والحسن والحسين وتسلسل الأمر بعدهم. وتوجد رواية زيد بن أرقم في صحيح مسلم عند ماء خم تذكر الكتاب وأهل البيت أيضًا، مع اختلاف الألفاظ والسياق؛ فلا تُساق الصيغ المتعددة كأنها لفظ واحد حرفي. [١, ١٣٢]

٨٠. الأئمة الاثنا عشر ولوح فاطمة

تنتظم الوصية في الاعتقاد الإمامي في علي، ثم الحسن، فالحسين، فعلي زين العابدين، فمحمد الباقر، فجعفر الصادق، فموسى الكاظم، فعلي الرضا، فمحمد الجواد، فعلي الهادي، فالحسن العسكري، فمحمد المهدي. يعرض الكافي بابًا مستقلًا في الاثني عشر والنص عليهم. ويذكر حديثه الأول لقاء الخضر بعلي والحسن وسلمان، وقد وصفه المجلسي بالصحيح. هؤلاء خلفاء في الهداية بحسب المذهب، لا أنبياء بعد خاتم النبيين، ولا أسماء منصوصة جميعًا بحروفها في القرآن. [١٣٣]

وفي حديث اللوح تكون فاطمة حاملة الوثيقة وجابر بن عبد الله شاهدها، ويعرضها لاحقًا على الإمام الباقر. غير أن المجلسي حكم على طريق الحديث الثالث في هذا الباب بالضعف؛ فنذكر هذا الحكم ولا نسوّي سنده بسند الحديث الأول. لا يعني ضعف هذا الطريق إلغاء دور فاطمة في بقية الأدلة، كما لا يجوز ستره لموافقة مضمون الخبر للمعتقد. ويعود ذكر موسى وعيسى وأيوب في أوصاف المهدي داخل الخبر إلى المقارنة، لا إلى حضورهم في المدينة. [١٣٤]

٨١. بعث أسامة في أيام المرض

عقد النبي لأسامة بن زيد قيادة الجيش المتجه إلى ناحية الشام، في الموضع المتصل باستشهاد أبيه زيد في مؤتة. وتذكر رواية المفيد إلحاح النبي على إنفاذ الجيش، ووجود أبي بكر وعمر بين من تناولهم أمر الخروج في سياق الخبر. وتختلف المصادر في قوائم الجيش وبعض التوقيت، فلا يُنسب كل اسم متداول إليه دون إحالة. والمغزى الظاهر أن صغر السن لم يمنع التكليف بالقيادة، وأن مرض النبي لم يُلغ أمره. [١٣٥, ١٣٦]

٨٢. الدواة والكتف والخلاف في الحجرة

يورد الإرشاد طلب النبي دواة وكتفًا ليكتب ما يمنع الضلال، ثم اعتراض عمر في صيغة يرويها المفيد. وترد الواقعة أيضًا من طريق ابن عباس في الصحيح بلفظ غلبة الوجع ووجود اختلاف ولغط عنده. يجب عزو اللفظ الشديد إلى مصدره، فلا يزعم أن كل طريق يرويه بالحروف نفسها. ولم يُكتب النص المطلوب في ذلك المجلس بحسب هذه الأخبار؛ ولذلك لا ننشئ وثيقة مفقودة ونضعها بين علامتي اقتباس. وتقرأ الإمامية دلالة الحادثة في ضوء النصوص السابقة على الولاية والوصية. [١٣٥, ١٣٧]

٨٣. نساء البيت والصلاة في المرض

تظهر عائشة وحفصة وأم سلمة وسائر أهل البيت في روايات أيام المرض، وتختلف الأخبار فيمن أمر بتقديم أبي بكر للصلاة وكيف كانت صلاة النبي عند خروجه. يعرض المفيد رواية إمامية مغايرة للرواية السنية المشهورة؛ فلا يُدمج القولان في تسلسل واحد يوهم اتفاقهما. ويظهر علي والفضل بن العباس معينين للنبي في حركته في خبر المفيد، بينما تختلف بعض الطرق في تسمية المعين الثاني. ونسبة فعل محدد إلى زوجة تحتاج نصًا، ولا تكفي الخصومة المذهبية لسد فراغ الرواية. [١٣٨, ١٣٥]

٨٤. الوصية وقضاء الدين وحفظ العلم

في خبر المفيد عرض النبي على العباس تحمل وصيته وإنجاز عداته وقضاء دينه، فاعتذر بكبره وكثرة عياله، ثم قبل علي ذلك. وتذكر الرواية تسليم الخاتم والسلاح ومتاع مخصوص، ومناجاة النبي لعلي وتعليمه. هذا جانب تنفيذي من الوصية إلى جانب معنى الإمامة في الأدلة السابقة؛ فلا يُختزل في المال، ولا يُلغى المال والديون من معناه. ويقترن العلم بالأمانة وخدمة الأسرة وإنجاز الحقوق، لا باللقب وحده. [١٣٩, ١٤٠]

٨٥. فاطمة والنبأ الأخير

تحضر فاطمة عند أبيها فتظهر دمعتها ثم سرورها بما أسر إليها. ويذكر الإرشاد أنه أخبرها بأنها أول أهل بيته لحوقًا به. وترد أصل القصة في طرق أخرى مع تفاوت ترتيب الكلام. ويظهر الحسن والحسين في

أخبار الوداع بوصفهما سبطيه وأهل مودته، لا مجرد شاهدين صغيرين. ولا نضيف خطابًا مطولًا بين الأب وابنته من إنشاء أدبي ثم نقدمه كحديث؛ فحرمة المقام تقتضي حفظ حدود ما نقلته المصادر. [١٣٨, ١٤١]

٨٦. الوفاة واختلاف التاريخ

المشهور عند الإمامية وفاة النبي في أواخر صفر، ويُحيى ذكراه في الثامن والعشرين منه، من السنة الحادية عشرة للهجرة. لكن مقدمة باب مولده ووفاته في الكافي تذكر الثاني عشر من ربيع الأول، وتعرض المصادر أقوالًا أخرى. ويذكر المجلسي هذه الفروق، فلا يصح ادعاء اتفاق المصادر الإمامية على يوم واحد. والعمر المشهور ثلاث وستون سنة. ولا نجعل حسابًا ميلاديًا مفترضًا حكمًا على الروايات دون دراسة التقويم والرؤية التي بُني عليها. [١٤٢, ١٤٣]

ويحكم القرآن معنى الوفاة بقوله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ [آل عمران: ١٤٤] وبقوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠]. فالحزن لا ينفي البشرية، وختم النبوة لا يعني سقوط التكليف أو زوال الكتاب. أما سبب الوفاة فتذكر أخبار أثر سم خيبر، ويجب إبقاء نسبة أي سبب آخر في حدود دليله وعدم تحويل الظن إلى اتهام. [٦٨, ١٣٨]

٨٧. الغسل والصلاة والدفن

يتولى علي غسل النبي وتجهيزه في رواية المفيد، ويعينه الفضل بن العباس بالماء. وتذكر طرق أخرى العباس وقثم وأسامة وشقران في أعمال مختلفة؛ فلا يصير كل حاضر مباشرًا للغسل بالضرورة. وفي حفر القبر ورد إرسال إلى أبي عبيدة الذي يضرح وإلى أبي طلحة زيد بن سهل الذي يلحد، فجاء أبو طلحة. وذكر الإرشاد دخول علي والعباس والفضل وأسامة للدفن، وإدخال أوس بن خولي استجابة لطلب الأنصار أن يكون لهم نصيب في المواراة. [١٤٤, ١٤٥]

وترد صلاة المسلمين أفواجًا ودفنه في الحجرة التي توفي فيها. ويبقى حضور النساء في الحزن والصلاة بحسب ما تفصله الطرق، ولا يبرر غياب أسمائهن من قائمة النازلين في القبر إسقاطهن من مشهد الفقد. وفي بعض النسخ أخطاء في عدد سنة الوفاة أو صيغ التواريخ؛ فتقارن ولا تنقل بلا تنبيه. [١٤٤, ١٤٥]

٨٨. السقيفة والحد الفاصل مع المرحلة التالية

في الوقت المتصل بالتجهيز انعقد اجتماع السقيفة، وتظهر فيه أسماء سعد بن عبادة وأبي بكر وعمر وأبي عبيدة والحباب بن المنذر وبشير بن سعد وأسيد بن حضير. وتختلف الروايات في تفصيل المناقشة والتوقيت، بينما تبرز المصادر الإمامية انشغال علي وأهل البيت بالنبي. ويذكر المفيد رفض علي عرض

أبي سفيان الذي رآه إثارة للفتنة. يعرض الفصل هذا التحول بقدر صلته بوفاة النبي والوصية، وتبقى البيعة وتفاصيل ما جرى لبيت فاطمة موضوعًا يحتاج عرضًا مستقلًا كامل المصادر. [١٤٦, ١٤٧]

٨٩. فاطمة وفدك وحقوق أهل البيت

تتصل وفاة النبي بمطالبة فاطمة بحقوقها، ويجب التمييز بين دعوى النحلة ودعوى الإرث، وبين فدك وسائر الأموال. وفي أخبار الاحتجاج تظهر فاطمة وعلي وأم أيمن وأبو بكر، ويظهر العباس في أخبار المطالبة بالتركة. ويستند الجدل القرآني إلى آيات الإرث ووراثة سليمان لداود ودعاء زكريا بالوارث [النمل: ١٦؛ مريم: ٥-٦]، مع اختلاف المدرستين في تفسير المال والعلم وفي تقويم الخبر المحتج به. فلا يقدم قول الطرفين كأنه اتفاق، ولا يختزل احتجاج فاطمة إلى انفعال شخصي. [٧٠, ١٤٨]

٩٠. وجوه قرآنية لا تستوعبها عناوين المعارك

لا يكتمل استدراك الشخصيات بذكر الغزوات وحدها. ففي آية الصدقة قبل النجوى [المجادلة: ١٢] تذكر الروايات عمل علي بها؛ وفي المفاضلة بين السقاية وعمارة المسجد والإيمان والجهاد [التوبة: ١٩] ترد أخبار العباس وعلي ورجال السدانة مع اختلاف تعيين الثالث. وفي النساء: ٩٤ ترد أخبار قتل من أظهر السلام أو الشهادة، ومنها خبر أسامة ومرداس باختلاف نسبه؛ والآية أصل في التثبت وصيانة الدم، ولا يصح جعل كل طريق حادثة واحدة. [١٤٩, ١٥٠, ١٥١]

وفي آية التحاكم [النساء: ٦٥] يرد الزبير ورجل من الأنصار مختلف في تعيينه، وفي أخبار البخل ونقض العهد [التوبة: ٧٥] يشتهر اسم ثعلبة، لكن اختلاف تعيينه وطرق قصته يمنع إلصاقها بكل من اسمه ثعلبة بن حاطب. كما ترد أسماء الجلاس بن سويد وعمير بن سعد في تفسير التوبة: ٧٤، ونبتل في أخبار الأذى والسماع، وفنحاص في تفسير آل عمران: ١٨١. هذه أسماء في أسباب النزول والروايات، وليست مذكورة بأسمائها في نص الآيات. [١٥٢, ١٥٣, ١٥٤, ١٥٥, ١٥٦]

٩١. استدراك أسماء شهداء أحد

لئلا تقتصر الذاكرة على أشهر الشهداء، تُستدرك هنا أسماء قائمة ابن إسحاق كما نقلها ابن هشام، مع إبقاء ملاحظاته على اختلاف الأسماء. من بني عبد الأشهل ومن اتصل بهم: عمرو بن معاذ، والحارث بن أنس، وعمارة بن زياد بن السكن، وسلمة وعمرو ابنا ثابت بن وقش، وثابت بن وقش في زيادة ينقلها ابن إسحاق، ورفاعة بن وقش، وحسيل بن جابر اليمان والد حذيفة، وصيفي وحباب ابنا قيظي، وعباد بن سهل، والحارث بن أوس. ومن أهل راتج: إياس بن أوس، وعبيد بن التيهان وقيل عتيك، وحبيب بن يزيد؛ ومن بني ظفر يزيد بن حاطب. لا يُخلط اليمان بحذيفة ابنه، ولا أبو سفيان بن الحارث بن قيس الأنصاري، المذكور في القائمة، بابن عم النبي أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. [١٥٧]

وتضم القائمة حنظلة بن أبي عامر، وأنيس بن قتادة، وأبا حية، وعبد الله بن جبير، وخيثمة أبا سعد، وعبد الله بن سلمة، وسبيع بن حاطب الذي ورد اسمه بصورة أخرى عند ابن هشام. ومن بني النجار ومن اتصل بهم: عمرو بن قيس وابنه قيس، وثابت بن عمرو، وعامر بن مخلد، وأبو هبيرة بن الحارث، وعمرو بن مطرف، وأوس بن ثابت أخو حسان، وأنس بن النضر، وقيس بن مخلد، وكيسان، وسليم بن الحارث، والنعمان بن عبد عمرو. ثم خارجة بن زيد، وسعد بن الربيع، وأوس بن الأرقم، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، وسعيد بن سويد، وعتبة بن ربيع. [١٥٧]

وترد أسماء ثعلبة بن سعد، وثقف بن فروة، وعبد الله بن عمرو بن وهب، وضمرة الجهني، ونوفل بن عبد الله، والعباس بن عبادة، والنعمان بن مالك، والمجذر بن ذياد، وعبادة بن الحسحاس، ورفاعة بن عمرو، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح وابنه خلاد ومولاه أبي أيمن، وسليم بن عمرو بن حديدة ومولاه عنترة، وسهل بن قيس، وذكوان بن عبد قيس، وعبيد بن المعلى. ويضيف ابن هشام مالك بن نميلة، والحارث بن عدي، ومالك بن إياس، وإياس بن عدي، وعمرو بن إياس. ومع حمزة وعبد الله بن جحش ومصعب وشماس المذكورين سابقًا تتم القائمة التي قصدها المصدر، مع بقاء اختلاف الروايات في العدد وإلحاق بعض الرجال. لا تُعامل القائمة النسبية وحدها تصحيحًا لأسانيد كل قصة فردية. [١٥٧]

٩٢. سرايا وأسرى ونساء خارج العناوين الكبرى

من أخبار هذه السنوات مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، وتذكر السيرة في البعث عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبا قتادة الحارث بن ربعي وخزاعي بن أسود. وتذكر زوجة أبي رافع وصياحها، مع نهي النبي في الخبر عن قتل المرأة والوليد؛ فوجودها جزء من الواقعة وإن لم يسمها النص. ولا يختلط سلام هذا بسلام بن مشكم، ولا عبد الله بن أنيس بأنس بن النضر. وفي ذي قرد يظهر سلمة بن الأكوع والمرأة الغفارية التي نجت على ناقة، ثم نذرت نحرها، فبُيّن لها أنها لا تملكها. [١٥٨, ٤١]

كما تُستدرك قضية محلم بن جثامة وعامر بن الأضبط في أحد طرق تفسير النساء: ٩٤، وخبر الجارية التي حملت رسالة حاطب، والمرأة التي كانت تصنع طعام جابر، ونساء الأنصار اللاتي واسين أهل أحد. والاستدراك لا يقتضي اعتماد كل تعيين متأخر: فقد حفظت المصادر أفعال بعض هؤلاء من غير أسماء، فتكون الأمانة في إثبات الفعل وترك الاسم مجهولًا. [١٥١, ١٧, ٣١]

أم عطية والخدمة المتكررة

وتروي أم عطية الأنصارية في صحيح مسلم أنها شاركت مع رسول الله في سبع غزوات، تبقى في رحال القوم وتصنع الطعام وتداوي الجرحى وتقوم على المرضى. يثبت الخبر بهذه الأفعال أن الحضور النسائي شمل الإمداد والرعاية المتواصلة، ولا يختزل في اسم امرأة واحدة عند معركة واحدة. لكنه لا

يسمي الغزوات السبع في هذا الطريق؛ فلا تُملأ قائمتها بالتخمين ولا يُنقل عددها إلى كل امرأة خدمت في الجيش. ونحفظه بنسبته إلى المصدر المقارن، من غير دمج أم عطية بأم سنان أو الربيع بنت معوذ. [١٦٦]

جليبيب والبحث عمن غاب

ومن طريق أبي برزة يروي صحيح مسلم خبر جليبيب: سأل النبي بعد قتال عمن فقده أصحابه، ثم ذكر افتقاده جليبيبًا، فوجدوه قتيلًا إلى جانب سبعة في الخبر، فحمله النبي حتى وضع في قبره وأظهر قربه منه. لا يسمي هذا الطريق الغزوة، فلا يصح إلحاق القصة ببدر أو أحد أو حنين جزمًا. كما لا يتضمن خبر الزواج الذي يروى في طرق أخرى، فلا يُضاف ذلك التفصيل دون توثيقه. وجليبيب غير جويبر الذي تقدم خبره مع الذلفاء؛ فتشابه حضور الضعفاء اجتماعيًا لا يجيز جمع الشخصيتين. [١٦٧]

٩٣. ضبط المتشابهات وحضور المجهولين

من مواضع الاحتراز: أم عمارة نسيبة بنت كعب ليست كل امرأة وردت باسم نسيبة؛ وأم سليم ليست أم سلمة؛ وأسماء بنت عميس ليست أسماء بنت أبي بكر؛ وهند بنت عتبة ليست هند بنت عمرو بن حرام ولا أم هانئ؛ والربيع بنت النضر ليست الربيع بنت معوذ؛ وزينب بنت جحش ليست زينب بنت خزيمة ولا زينب المنسوبة إلى بنوة النبي ولا زينب بنت علي. وكذلك لا يُجمع سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وسعد بن أبي وقاص وسعد بن الربيع في شخصية واحدة. وقد وُزعت هذه الأسماء في مواضعها بحسب القرابة والزمن والفعل، لا بحسب التشابه اللفظي. [٣٨, ١٥٧]

ويبقى في الفصل رجال ونساء وأطفال لا تسمّيهم النصوص: المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا مستترين بمكة، والمسكين واليتيم والأسير في خبر الإطعام، والمرأة الخثعمية، وزوجتا أبي خيثمة، وبعض الجرحى والأسرى. عدم معرفة الاسم ليس عدم وجود الشخص. وقد شملت المراجعة مواضع المصادر المثبتة في الإحالات؛ أما دعوى استنفاد كل مخطوط وكل طريق روائي فلا تُبنى على هذا الفحص وحده. [٥٧, ٤٩, ١٢٦, ١٠١]

٩٤. اكتمال الرسالة وبقاء الأمانة

يبلغ الفصل منتهاه عند وفاة رسول الله ﷺ وقد بُلّغ القرآن، وبُيّنت معالم العبادة والعدل والرحمة، وأُعلنت في روايات أهل البيت مرجعية العترة وولاية علي. ولم يكن طريق الرسالة خاليًا من جراح أحد، وحصار الخندق، ودموع الأسر والأمهات، ولا من خلاف الجماعة عند الرحيل. ومن هنا تستمر حكاية الهداية: كتابٌ باقٍ، ومسؤولية أخلاقية لا تسقط، ووصية تقرؤها الإمامية في علي وفاطمة وذريتهما امتدادًا لحفظ الدين، مع ثبوت أن محمدًا خاتم النبيين. [١, ١٢٩, ١٣٣]

المصادر والإحالات

الإحالات إلى القرآن مثبتة باسم السورة ورقم الآية في المتن. وما عدا ذلك مرقم بحسب أول وروده. أرقام صفحات البحار هي الأرقام المطبوعة داخل النص الرقمي، وقد تختلف عن رقم صفحة ملف آخر. الأخبار المنقولة بواسطة المجلسي تُنسب إلى المصدر الذي عيّنه، ولا يُفترض الاطلاع المباشر على كل أصل مخطوط.

[١] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة، وخصوصًا ح١ وح٣.

[٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٠٢–٢٤٣: بدر ومقدماتها. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٨٨–٩٧: بدر؛ وتقارن النقول في البحار.

[٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٧٤–٢٨٣: نقل الإرشاد في دور علي. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٤١–٢٤٣، ٣٤٨–٣٥٩: الأسرى والفداء. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٦٠–٣٦١: أسماء الشهداء واستدراكاتها. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧] الترمذي، الجامع، ح٣١٧٤، الربيع بنت النضر وأمومة حارثة.

[٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٨: ٦٧ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٤٨–٣٥٤: زينب وأبو العاص. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٥١–١٦٩، ٢٤٧–٢٩٤: الأولاد والأقارب مع اختلاف الأنساب. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١١] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٢٦–٣٤٥: عمير وصفوان وأبو عزة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٢٦–٣٥٩: ما بعد بدر. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١–١٣: ما بين بدر وأحد. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٤] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣: ١٢١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٤-١٤٦: أحد ومصادر أخبارها. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣: ١٤٤ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، أخبار أحد والعودة إلى المدينة. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٩٤-٩٧، ١٣٠-١٣٥: المصابون وأسر الشهداء. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٤٩-٥٤، ١٣٢-١٣٥: نسيبة واختلاف رواية ابنها. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٢٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣: ١٦٩ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٢١] ابن حجر، الإصابة، ج٨، ص٤٢ في المصورة الرقمية؛ اختلاف نسب جميلة وبيان النقل عن ابن سعد.

[٢٢] ابن هشام، السيرة، خبر حمنة في فقد أخيها وخالها وزوجها يوم أحد.

[٢٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٣٧-١٤٦: حمراء الأسد. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٢٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٥٠-١٥٦: الرجيع. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٢٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٤٧-١٥٠: بئر معونة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٢٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥٩: ٢ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٢٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٥٧-١٧٣: بنو النضير. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٢٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٧٤-١٧٩: ذات الرقاع وعسفان. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٢٩] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ذات الرقاع وخبر جابر. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٣٠] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ترجمة سهيمة بنت مسعود، رقم٤٣٤٥ في طبعة دار الكتب العلمية؛ وتقارن صيغة سهيلة في فتح الباري.

[٣١] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٨٦-٢٨٠: الأحزاب وبنو قريظة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣٣: ٩ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٣٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٠٢-٢٠٧، ٢٢٥-٢٤٤: مبارزة عمرو بن عبد ود. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٤٥-٢٤٦: صفية وفاطمة في الخندق، عن أمالي الطوسي وعيون أخبار الرضا. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٦٨-٢٧٨: حذيفة ونهاية الحصار. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣٣: ٢٦ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٣٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٦٣-٢٨٠: بنو قريظة وسعد وأبو لبابة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٧٠-٢٢٧: أزواج النبي وأم سلمة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٣٩] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٥٣٣، خيمة رفيدة وسعد بن معاذ. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٤٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ١٠٢ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٤١] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٨١-٣٠٨: بنو المصطلق والسرايا المجاورة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٤٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٦٣: ١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٤٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٢٤: ١١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٤٤] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٥٦٧-٥٧١، الإفك. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٤٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٥٣-١٥٧: مارية والإفك وإبراهيم. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٤٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣٣: ٣٧ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٤٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٧٧-١٨٨: زينب بنت جحش وتأويل الآية. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٤٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣٣: ٣٣ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٤٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٧٦: ٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٠] الحويزي، نور الثقلين، تفسير ٧٦: ٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥: ٥٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥٨: ١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤: ١٠٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٤] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٢٤: ٦ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥: ١٠٦ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣١٧–٣٧٤: الحديبية والصلح. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٥٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤٨: ١٨ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٥٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣٥٢–٣٥٤: مشورة أم سلمة، نقلًا عن تفسير القمي. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٥٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٦٠: ١٠ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٦٠] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٥٨١، أم كلثوم بنت عقبة. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٦١] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١–٤١: خيبر. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٦٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٥–٧، ٢٢، ٣٢–٣٤: صفية وكنانة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٦٣] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٨٣–٨٥: راية خيبر؛ وتقارن النقول في البحار.

[٦٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٩–١٠، ٢١–٢٣: مرحب وباب الحصن. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٦٥] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٥٨٩، صفية وأم سليم وأبو أيوب. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٦٦] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢٩٢، أم مطاع وأم سنان الأسلميتان.

[٦٧] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨، ص٢٩٣، أمية بنت قيس الغفارية.

[٦٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٦–٧: الشاة المسمومة وبشر وأمه. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٦٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٢-٢٦: فدك. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ١٧: ٢٦ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٧١] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١-٤١: قدوم جعفر وأهل الحبشة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٤٢-٤٣: رواية أسماء في رد الشمس. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٣] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٧٣٧-٧٣٩، الرسل إلى الملوك. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٧٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٤٣-٥٠، ٣٦٤-٣٧٧، ٤٠٨-٤١٤: الرسل والوفود وأخبار الملوك. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٤٣-٤٥: أم حبيبة وأبرهة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٤٥-٤٨: مارية وسيرين وسلمى وأبو رافع. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٥٠-٦٥: مؤتة واختلاف أخبار الإمرة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٥٣-٥٥: أسماء وأولاد جعفر وإطعام أهل المصيبة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٧٩] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٦٦-٩٠: ذات السلاسل وتفسير العاديات. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٨٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص٣٣٧، ٣٧٢-٣٧٣: عمرة القضاء وميمونة وابنة حمزة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٨١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٦٠: ١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٨٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٩٣-٩٥، ١١٩-١٢٣: حاطب وحاملة الكتاب. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٨٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٩١-١٣٨: فتح مكة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٨٤] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٦٠: ١٢ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٨٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١١٣، ١٣٤-١٣٥: بيعة النساء، عن الكافي وغيره. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٨٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤: ٥٨ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٨٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، فتح مكة وأسماء المستثنين والعفو. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٨٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٣٩-١٤٥: بنو جذيمة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٨٩] المفيد، الإرشاد، ج١، ص١٥٩-١٦٠: بنو جذيمة؛ وتقارن النقول في البحار.

[٩٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٢٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٩١] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٤٦-١٨١: حنين. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٩٢] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٦٤٦-٦٤٧ و٦٥٣، أم سليم والشيماء. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٩٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٧١-١٧٤: أخت النبي من الرضاعة ووفد هوازن. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٩٤] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، أوطاس والطائف ووفد ثقيف. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[٩٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٨٠-١٨٩: الطائف. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٩٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٥٩-١٧٨: العطاء والأنصار والمؤلفة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٩٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٦٠ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[٩٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٩٠-٢٥١: تبوك. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[٩٩] المفيد، الإرشاد، ج١، ص١٧٤-١٧٧: تبوك وحديث المنزلة؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٠٠] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، تبوك وذو البجادين. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١٠١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ١١٨ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٠٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٩١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٠٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ١٠٧ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٠٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٥٢-٢٦٣: مسجد الضرار. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٠٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص١٩٣-١٩٦، ٢٢٣-٢٥١: أخبار العقبة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٠٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٨٤ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٠٧] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٦٤-٢٧٦: تبليغ براءة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٠٨] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٨٥-٨٧: براءة؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٠٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣: ٦١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١١٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٧٧-٣٥٥: وفد نجران والمباهلة، مع اختلاف طرق الأخبار. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١١١] المفيد، الإرشاد، ج١، ص١٨٦-١٩٠: نجران والمباهلة؛ وتقارن النقول في البحار.

[١١٢] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، وفود تميم وطيئ، ولا سيما ص٧٢١-٧٢٤. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١١٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٦٤-٣٧٧: الوفود. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١١٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٥٦-٣٦٣، ٣٧٠-٣٧٧: بعوث اليمن. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١١٥] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية، النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، بعوث اليمن وخبر الأسود. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١١٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤٩: ١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١١٧] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤٩: ٦ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١١٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤٩: ١١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١١٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٦٦: ١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٢٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٢٧-٢٤٦: أخبار التحريم. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٢١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٦٦: ١٠ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٢٢] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٥٥-١٥٧: وفاة إبراهيم والكسوف. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٢٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٧٨-٤٠٧: حجة الوداع وأحكام المناسك. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٢٤] مسلم، الصحيح، ح١٢١١، رواية عائشة في الحج والعمرة؛ للمقارنة.

[١٢٥] البخاري، الصحيح، ح١٧٥٧، صفية والإفاضة.

[١٢٦] البخاري، الصحيح، ح١٥١٣، المرأة الخثعمية والفضل.

[١٢٧] المفيد، الإرشاد، ج١، ص١٩٥-١٩٧: الغدير؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٢٨] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥: ٦٧ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٢٩] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب النص، ح٤؛ مرآة العقول ٣:٢٥٠: حسن.

[١٣٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥: ٣ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٣١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٧٠: ١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٣٢] مسلم، الصحيح، ح٢٤٠٨، حديث زيد بن أرقم في خم؛ للمقارنة مع الرواية الإمامية.

[١٣٣] الكليني، الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب ما جاء في الاثني عشر، وخصوصًا ح١؛ مرآة العقول ٦:٢٠٣: صحيح.

[١٣٤] الكليني، الكافي، ج١، حديث اللوح، ح٣؛ مرآة العقول ٦:٢٠٨: ضعيف.

[١٣٥] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٢٠١-٢٠٤: المرض وأسامة والدواة؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٣٦] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٥٥-٤٧٠: جيش أسامة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٣٧] البخاري، الصحيح، ح٥٦٦٩، خبر ابن عباس في طلب الكتاب؛ للمقارنة اللفظية.

[١٣٨] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٥٥-٥٠٢: المرض والوصية. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٣٩] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٢٠٥-٢٠٦: الوصية؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٤٠] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٦٩-٤٧٠: الوصية إلى علي وقضاء الدين. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٤١] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٢٠٧: الوفاة وفاطمة؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٤٢] الكليني، الكافي، ج١، باب مولد النبي ووفاته، مقدمة الباب وأخباره.

[١٤٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥١٤-٥٢١: اختلاف تاريخ الوفاة. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٤٤] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٢٠٧-٢٠٩: التجهيز والدفن؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٤٥] المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٠٣-٥٤٩: التجهيز والصلاة والدفن. تُراجع نسبة كل خبر إلى مصدره داخل الباب.

[١٤٦] المفيد، الإرشاد، ج١، ص٢٠٩-٢١٠: السقيفة وموقف علي؛ وتقارن النقول في البحار.

[١٤٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، وفاة النبي وأمر سقيفة بني ساعدة. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١٤٨] أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، ج١، ص١٣١ وما بعدها، احتجاج فاطمة وشهادة أم أيمن وعلي؛ لا يلزم من إيراده تصحيح جميع طرقه.

[١٤٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٥٨: ١٢ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ١٩ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤: ٩٤ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٢] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٤: ٦٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٣] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٧٥ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٤] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٧٤ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٥] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٩: ٦١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٦] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير ٣: ١٨١ وما يتصل به في المجموعة المعروضة.

[١٥٧] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٤٧٠-٤٧٢، أسماء شهداء أحد وزيادات ابن هشام. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١٥٨] ابن هشام عن ابن إسحاق، السيرة النبوية؛ النسخة الرقمية المعنونة «تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون»، ص٥٥٣-٥٥٩، أبو رافع وذو قرد. مصدر تاريخي للمقارنة واستدراك الأسماء.

[١٥٩] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير النور ٣٣؛ والحويزي، نور الثقلين، عند الآية نفسها، الأخبار ١٦٦-١٦٨؛ حماية النساء من الإكراه وخبر الشكوى.

[١٦٠] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير الأحزاب ٥٠؛ المرأة الواهبة واختلاف تعيينها، مع نسبة قول أم شريك إلى علي بن الحسين.

[١٦١] الطبرسي، مجمع البيان، تفسير النور ٣؛ أم مهزول في خبر التفسير، والتفسير المنقول عن الباقر والصادق في التوبة.

[١٦٢] أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، الحديث ٥٩١؛ أم ورقة.— النص في المصدر

[١٦٣] البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، الحديث ٢٨٨١؛ أم سليط.— النص في المصدر

[١٦٤] أبو داود، السنن، كتاب الطب، الحديث ٣٨٨٧؛ الشفاء وتعليم حفصة.— النص في المصدر

[١٦٥] النسائي، السنن، كتاب الأذان، الحديث ٦٣٢؛ أبو محذورة بعد حنين.— النص في المصدر

[١٦٦] مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، الحديث ١٨١٢، طريق أم عطية؛ أعمال الرعاية.— النص في المصدر

[١٦٧] مسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، الحديث ٢٤٧٢؛ جليبيب، من طريق أبي برزة.— النص في المصدر

خاتمة الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين، الذي وفقني لإتمام هذا الجزء من «حكاية الهداية»، وأعانني على هذه الخدمة بما منّ به عليّ من وقت وقدرة ورغبة في طلب المعرفة. أحمده على نعمة الإيمان، وعلى ما فتح لي من أبواب التأمل في كتابه الكريم. وأتوجّه بالشكر إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله وإلى أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، لما بلّغوه وبيّنوه وحفظوه من معالم الحق، ولما وجدت في سيرتهم وهديهم من زاد لهذه الرحلة. فما كان لهذا العمل أن يتمّ إلا بفضل الله وتوفيقه، وببركة الاهتداء بمحمد وآل محمد، وأسأله أن يتقبّله خدمةً خالصةً لوجهه الكريم.

نصل في ختام هذا الجزء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وقد سرنا في صفحات «حكاية الهداية» من بدء الخلق وآدم عليه السلام، عبر أخبار الأنبياء والأوصياء وحملة العهد، حتى بلغنا الرسالة الخاتمة. وفي هذه الرحلة حاولنا أن نتتبع الصلة بين الأجيال، وأن نفهم كيف بقيت الدعوة إلى الله حاضرة في حياة الإنسان، على اختلاف الأزمنة والبلاد وأحوال الناس.

وقد ظهر في مسيرتنا أن الهداية تتصل بحياة الإنسان كلها؛ بإيمانه وعمله، وبالبيت الذي ينشأ فيه، وبالموقف الذي يتخذه حين يختبره الخوف أو الطمع أو فقد الأحبة. فالدعوة إلى التوحيد تحمل معها مسؤولية العدل والرحمة والوفاء بالعهد. وكلما وقفنا عند نبي أو وصي، عاد إلينا السؤال عن أثر ما بلّغه في نفوس الناس، وعن الأمانة التي حملها من آمن به إلى من جاء بعده.

وللنساء في هذه المسيرة حضور لا يستقيم فهمها بإغفاله. فقد رافقتنا أخبار الأمهات والزوجات والبنات، ومواقف المؤمنات في الرعاية والهجرة والصبر ونصرة الحق، وصولًا إلى خديجة وفاطمة عليهما السلام. كما بقي للرجال والنساء الذين لم تحفظ بعض النصوص أسماءهم موضعهم في الحكاية؛ فغياب الاسم لا يلغي الفعل، ولا يسقط ما تكشفه قصتهم من معاني الإيمان والمسؤولية.

وبقي القرآن الكريم أصل النظر وميزان الفهم، وإليه تُردّ دلالات الروايات، مع الاستعانة بما ورد عن النبي وأهل بيته عليهم السلام، وفحص ما تنقله كتب التفسير والسير. وقد اقتضت أمانة البحث أن نبيّن مواضع الاختلاف، وألّا نجعل الاحتمال يقينًا، أو نملأ ما سكتت عنه المصادر بتفاصيل لا نملك دليلها. فما بقي غير محسوم في خبر أو اسم أو تاريخ يظل محتاجًا إلى مزيد من التحقيق، مهما كانت رغبتنا في اكتمال الصورة.

وحين بلغنا سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، بلغنا موضع اجتماع ما سبق من الدعوة إلى التوحيد في الرسالة الخاتمة. وقد تناولت الفصول الأخيرة بناء الجماعة، وتعليم الكتاب، وما صاحب التبليغ من صبر وتضحية، ثم وقفت عند اكتمال الرسالة وبيان الوصية ورحيل النبي. وعند هذا الموضع يتمّ المسار الذي خُصص له الجزء الأول، وتبرز مسؤولية الأمة في حفظ ما بلغها والعمل به.

ومن هنا تتجه القراءة إلى مرحلة حفظ الرسالة وبيانها بعد خاتم النبيين. وفي المنهج الإمامي الذي يسير عليه هذا الكتاب، تُفهم إمامة أهل البيت عليهم السلام في صلتها بالقرآن والسنة ووصية الرسول؛ فهي

امتداد للهداية في حفظ الدين وتعليمه، مع ثبوت ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وآله. وبهذا المعنى يصل آخر هذا الجزء بأول الجزء الذي يليه.

إن «حكاية الهداية» كتاب يتألف، بحسب خطته، من أربعة أجزاء مترابطة، وهذا هو جزؤه الأول. وتتيح هذه القسمة أن تأخذ المراحل والشخصيات حقها من العرض والتحقيق، مع بقاء الصلة بين البدايات وما تفرّع عنها من أحداث ومسؤوليات. ولكل جزء مجاله الذي يعالجه، وتتكامل دلالته بقراءته في سياق الأجزاء الأخرى.

الجزء الثاني — من النبي محمد ﷺ إلى الإمام المهدي عليه السلام

يبدأ هذا الجزء من الرسالة المحمدية وما أودعه الرسول في أمته من كتاب وتعليم ووصية، ثم يتابع حركة الهداية في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وصولًا إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف. ويتناول صلتهم بالرسالة، وحفظهم للعلم، ومواقفهم في التعليم والإصلاح ومواجهة المحن، مع حضور فاطمة الزهراء عليها السلام وأسرهم وأبنائهم وبناتهم والنساء والرجال الذين ناصروهم ورووا عنهم وحملوا علمهم. ويقف عند ولادة الإمام المهدي وإمامته والتمهيد لمرحلة الغيبة، ليصل هذا الجزء بما يليه، مع تجنّب إعادة ما استوفاه الجزء الأول.

الجزء الثالث — الإمام المهدي عليه السلام من الغيبة إلى الظهور وما بعده

يتابع هذا الجزء البحث في الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، والغيبة الصغرى والكبرى، والسفراء والوكلاء والرواة والعلماء والشخصيات الرجالية والنسائية المتصلة بزمن الغيبة. كما يتناول معنى الانتظار ومسؤولية المؤمن فيه، ويدرس ما ورد في علامات الظهور وقيام الإمام وإقامة العدل، والروايات المتعلقة بالرجعة والمهديين والأوصياء بعد القائم. وتُعرض هذه الموضوعات مع فحص الأخبار ودلالاتها، والتمييز بين الثابت والمختلف فيه، من دون الجزم بتفاصيل المستقبل التي لا ينهض عليها دليل، أو تعيين مصاديق معاصرة بغير حجة.

الجزء الرابع — الإنسان في طريق الهداية

ينتقل هذا الجزء إلى ما تعنيه الهداية في حياة الإنسان وعمله. ويبحث الفطرة والعقل والاختيار، وصلتنا بالقرآن والوحي، وأثر التوحيد والنبوة والإمامة في بناء الوعي والسلوك. ويتناول طلب العلم والتواضع، والتوبة والرحمة، والأسرة وتربية الأبناء، ودور المرأة، والعدل ومقاومة الظلم، والصبر في الابتلاء، والدعاء والعبادة، والتعامل مع الاختلاف والفتن، والانتظار المسؤول في زمن الغيبة. وغايته أن يصل ما تعلّمناه من سير الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام بمسؤوليتنا عن تهذيب النفس وخدمة الناس والوفاء بالعهد في حياتنا اليومية.

وللقارئ الذي يرغب في متابعة حركة الهداية وفهم امتدادها أن يواصل الرحلة معنا عند نشر الأجزاء اللاحقة، إن شاء الله. فستتيح له هذه المتابعة أن يصل ما قرأه هنا بما يأتي بعده، وأن ينظر في الأحداث والشخصيات ضمن سياق أوسع. وتبقى دعوتنا إليه أن يصاحب هذه القراءة بالتدبر ومراجعة الدليل، وأن يجعل غايتها معرفة الحق وما يقتضيه من عمل.

كلمة الباحث والكاتب

وأنا، كاتب هذه الصفحات، العبد الحقير الضعيف، أقدّم هذا الجهد وأنا أرجو رحمة الله وقبوله، وأسعى إلى أن أنال رضا الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام. لا أرى لنفسي فضلًا بهذا العمل؛ فما فيه من توفيق فمن الله، وما يقع فيه من نقص أو خطأ فمن قصوري، وأسأله أن يعينني على معرفته وتصحيحه. وحسبي رجاءً أن تكون هذه الصفحات خدمةً صادقةً لكتاب الله ولمحمد وآل محمد، وأن أكون أنا أول المنتفعين بما أدعو إليه من البحث والتعلّم ومراجعة النفس.

وأبيّن للقارئ الكريم أنني لست رجل دين، وإنما أنا مجرد باحث عن الحق والطريق الصحيح في كتاب الله وسيرة محمد وآل محمد عليهم السلام. أقرأ لأتعلّم، وأبحث لأفهم، وأكتب لأشارك ما أصل إليه من معرفة مقرونة بدليلها، مع إقراري بحدود علمي وحاجتي إلى التصحيح. وأرحّب بكل ملاحظة علمية أمينة تعين على تصويب خطأ أو استدراك نقص؛ فغايتي أن أقترب من الحق، وأن يكون الوفاء له مقدّمًا على التمسّك برأي أو عبارة كتبتها.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل نافعًا، وأن يرزقنا أمانة النقل وعدل النظر، وأن يقرّبنا ما نتعلمه من الصدق والرحمة والوفاء. فما نرجوه من قراءة سير الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام أن يعيننا العلم بها على إصلاح علاقتنا بالله وبالناس، وأن نعرف مسؤوليتنا عن العهد الذي نقرؤه في أخبار من سبقنا.

هنا نطوي صفحات الجزء الأول، وقد بلغنا خاتم النبيين محمدًا صلى الله عليه وآله، ونقف عند الأمانة التي تركها في أمته. ومن هذا الموضع تبدأ مقدمة الجزء الثاني: كيف حُفظت الرسالة بعد رحيل حاملها، وكيف مضت الهداية في أهل بيته، وما مسؤولية الإنسان في معرفتها والوفاء لها؟

الباحث والكاتب السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

فهرس الأعلام والأوصاف

يدل هذا الفهرس على مواضع المعالجة الرئيسة للأعلام والأوصاف، بأرقام الفصول المرتبطة بفهرسٍ المحتويات. ولا يعني جمع الأسماء في مدخل واحد ثبوت اتحادها؛ فقد يكون المدخل مخصصًا لاختلاف الاسم أو الهوية. وتبقى سجلات الشخصيات داخل الفصول موضع التفصيل في الرجال والنساء والجماعات ومن لم تحفظ المصادر أسماءهم.

تُذكر الشخصيات الواردة في أخبار مختلف فيها للوصول إلى مناقشتها، لا للحكم بصحة كل ما نسب إليها. كما لا يدل ورود اسم في أكثر من فصل على معاصرته جميع من وردوا فيه.

إبراهيم — الفصل ١٢

إبراهيم ابن النبي — الفصل ٥٠

ابن نوح الذي لم يركب السفينة — الفصل ٥

ابنتا صاحب مدين — الفصول ٢١، ٢٢

أبو أيوب وأم أيوب — الفصل ٤٩

أبو رغال — الفصل ١٠

أبو طالب — الفصول ٤٦، ٤٧، ٤٨

أبو محذورة — الفصل ٥٠

أخت موسى — الفصل ٢٢

إدريس وأخنوخ — الفصل ٤

آدم — الفصل ٢

أرفخشد وشالح — الفصل ٧

إرميا وأرميا — الفصل ٣٦

آزر وتارخ — الفصل ١٢

أسامة بن زيد — الفصل ٥٠

إسحاق — الفصل ١٦

إسحاق وإيم في سلسلة الوصية — الفصل ٣١

أسعد بن زرارة — الفصول ٤٨، ٤٩

أسماء بنت أبي بكر — الفصل ٤٩

أسماء بنت عميس — الفصول ٤٨، ٤٩، ٥٠

إسماعيل بن إبراهيم — الفصل ١٥
إسماعيل بن حزقيل — الفصل ١٥
آسية امرأة فرعون — الفصول ٢٢، ٢٣
أصحاب الأخدود — الفصول ٣١، ٤٥
أصحاب الرس — الفصول ١٠، ٣١
أصحاب الصخرة — الفصل ٤٥
أصحاب الكهف — الفصل ٤٥
آصف بن برخيا — الفصل ٣٠
إقليما ولوذا — الفصل ٢
الأم ورضيعها عند الأخدود — الفصل ٤٥
الحسن بن علي — الفصل ٥٠
الحسين بن علي — الفصل ٥٠
الخضر — الفصل ٢٥
الخلجان ووفد عاد — الفصل ٨
السامري — الفصل ٢٤
الشفاء بنت عبد الله — الفصل ٥٠
الشفاء في أخبار المولد — الفصل ٤٧
الشيماء — الفصول ٤٧، ٥٠
الطفيل بن عمرو — الفصل ٤٨
العجوز والريح — الفصل ٢٩
العروس المتصدقة — الفصل ٤٣
الغلام في قصة الخضر — الفصل ٢٥
المرأة التي ربت دانيال — الفصول ٣١، ٣٧
المرأة الكنعانية — الفصل ٤٣
النجاشي — الفصل ٤٨
إليا في أخبار الراوندي — الفصول ٣٢، ٣٨
إلياس — الفصل ٣٢

اليتيمان وصاحب الجدار – الفصل ٢٥
اليسابغ وروبيل – الفصول ٣١، ٤٤
اليسع – الفصل ٣٣
أم اليسع – الفصول ٣٢، ٣٣
أم أيمن وبركة – الفصول ٤٧، ٤٩
أم حبيبة – الفصل ٥٠
أم سلمة – الفصول ٤٨، ٤٩، ٥٠
أم سليط – الفصل ٥٠
أم سليم أم أنس – الفصول ٤٩، ٥٠
أم سليم صاحبة الحصاة – الفصل ٤٤
أم سليمان – الفصل ٢٩
أم عطية الأنصارية – الفصل ٥٠
أم غانم – الفصل ٤٤
أم معبد وأبو معبد – الفصل ٤٩
أم موسى – الفصل ٢٢
أم هانئ – الفصول ٤٩، ٥٠
أم ورقة – الفصل ٥٠
أم يونس – الفصول ٣٢، ٣٤
امرأة العزيز وزليخا – الفصل ١٨
امرأة زكريا وأم يحيى – الفصول ٣٩، ٤١، ٤٢
امرأة عمران وحنة – الفصول ٣٩، ٤٠
امرأة لوط – الفصل ١٣
آمنة بنت وهب – الفصول ٤٦، ٤٧
أمية بن أبي الصلت – الفصل ٤٥
أوريا – الفصل ٢٨
أيوب – الفصل ٢٠
بثريا في أخبار الوصية – الفصول ١٩، ٢١

بحيرا الراهب — الفصول ٤٥، ٤٧
بخت نصر — الفصول ٣٦، ٣٧
بشر بن أيوب — الفصول ٢٠، ٣٥
بلال بن رباح — الفصول ٤٨، ٤٩
بلعم بن باعوراء — الفصول ٢٤، ٢٦
بنات لوط — الفصل ١٣
بنيامين — الفصول ١٧، ١٨
ثويبة — الفصل ٤٧
جالوت — الفصول ٢٧، ٢٨
جرجيس — الفصل ٣٨
جعفر بن أبي طالب — الفصول ٤٨، ٥٠
جليبيب — الفصل ٥٠
جويبر والذلفاء — الفصل ٤٩
جويرية بنت الحارث — الفصل ٥٠
حام بن نوح — الفصول ٥، ٦
حبابة الوالبية — الفصل ٤٤
حبيب النجار — الفصول ٤٣، ٤٤
حزبيل وخربيل — الفصل ٢٣
حزقيل — الفصل ٣٨
حكيمة بنت الإمام الجواد — الفصل ٤٤
حليمة السعدية — الفصل ٤٧
حمزة بن عبد المطلب — الفصول ٤٨، ٥٠
حنظلة بن صفوان — الفصول ٣١، ٣٦
حواء — الفصل ٢
حيقوق وحبقوق — الفصل ٣١
خالد بن سنان — الفصل ٤٥
خديجة بنت خويلد — الفصول ٤٧، ٤٨

خولة صاحبة الشكوى — الفصل ٥٠
دانيال — الفصل ٣٧
داود — الفصل ٢٨
ذو القرنين — الفصول ٧، ٢٥
ذو الكفل — الفصل ٣٥
رفقة ورفقا — الفصول ١٦، ١٧
رفيدة — الفصل ٥٠
روبيل وتنوخا في قصة يونس — الفصل ٣٤
روذين والطفل وأبواه — الفصل ٣١
زكريا النبي — الفصل ٤١
زوجة أيوب واختلاف اسمها — الفصل ٢٠
زوجة نوح — الفصل ٥
زياد بن لبيد — الفصل ٤٩
زيد بن حارثة — الفصول ٤٨، ٥٠
زيد بن عمرو بن نفيل — الفصل ٤٥
زينب بنت جحش — الفصل ٥٠
سارة — الفصل ١٤
سام بن نوح — الفصل ٦
سراقة بن مالك — الفصل ٤٩
سلمان الفارسي — الفصول ٤٥، ٤٩، ٥٠
سلمى بنت عمرو — الفصل ٤٦
سليمان — الفصل ٢٩
سمية وياسر وعمار — الفصل ٤٨
شاهد امرأة العزيز — الفصل ١٨
شعيا — الفصل ٣١
شعيب النبي — الفصل ٢١
شعيب بن صالح — الفصل ٢١

شمعون الصفا – الفصل ٤٤
شمويل وأشمويل – الفصل ٢٧
شيث وهبة الله – الفصول ٢، ٣
صاحبا السجن – الفصل ١٨
صاحبة الثور في خبر جرجيس – الفصل ٣٨
صالح – الفصل ١٠
صفورا وصفراء امرأة موسى – الفصول ٢١، ٢٢، ٢٦
صفورا ومبنه في أخبار الوصية – الفصل ٣١
صفية بنت الحضرمي – الفصل ٤٥
صفية بنت حيي – الفصول ٤٩، ٥٠
صفية بنت عبد المطلب – الفصل ٥٠
ضماد الأزدي – الفصل ٤٨
ضمام بن ثعلبة – الفصل ٥٠
طالوت – الفصل ٢٧
طريفة الكاهنة – الفصل ٢٩
عازر ولعازر – الفصل ٤٣
عبد الله بن أريقط – الفصل ٤٩
عبد الله والد النبي – الفصول ٤٦، ٤٧
عبد المطلب – الفصل ٤٦
عتاقا – الفصل ٢
عداس – الفصل ٤٨
عدنان – الفصل ٤٦
عزير – الفصل ٣٨
عزيز مصر – الفصل ١٨
علي بن أبي طالب – الفصول ٤٨، ٤٩، ٥٠
عمران أبو مريم – الفصل ٣٩
عمرو بن عامر – الفصل ٢٩

عيسى ابن مريم — الفصل ٤٣
عيص وعيسو — الفصول ١٦، ١٧
فاطمة الزهراء — الفصول ٤٨، ٤٩، ٥٠
فاطمة بنت أسد — الفصول ٤٦، ٤٧، ٤٩
فتى موسى — الفصول ٢٥، ٢٦
فرعون — الفصول ٢٢، ٢٣
قارون — الفصل ٢٤
قدار بن سالف — الفصل ١٠
قس بن ساعدة — الفصل ٤٥
قصي بن كلاب — الفصل ٤٦
قوم تبع — الفصل ٤٥
قيدوس — الفصل ٤٠
كالب بن يوفنا — الفصول ٢٦، ٢٧
لقمان الحكيم وابنه — الفصول ٢٧، ٢٨
لقمان في أخبار عاد — الفصل ٨
لوط — الفصل ١٣
ليا وراحيل — الفصول ١٧، ١٨
مؤمن آل فرعون — الفصل ٢٣
مارية وسيرين — الفصل ٥٠
محمد خاتم الأنبياء — الفصول ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠
محياة ابنة خالد بن سنان — الفصل ٤٥
مريم بنت عمران — الفصل ٤٠
مصعب بن عمير — الفصول ٤٨، ٥٠
ملك مصر في قصة يوسف — الفصل ١٨
ملكة سبأ وبلقيس — الفصول ٢٩، ٣٠
موسى بن عمران — الفصول ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥
ناعمة وحورية — الفصل ٢

ناقة صالح وفصيلها — الفصل ١٠
نرجس ومليكة — الفصل ٤٤
نزلة ومنزلة — الفصول ٢، ٣
نسيبة بنت كعب وأم عمارة — الفصول ٤٨، ٥٠
نمرود — الفصل ١٢
نوح — الفصل ٥
هابيل وقابيل — الفصول ٢، ٣
هاجر — الفصول ١٤، ١٥
هاروت وماروت — الفصل ٢٩
هارون أخو موسى — الفصول ٢٢، ٢٣، ٢٤
هاشم بن عبد مناف — الفصل ٤٦
هامان — الفصل ٢٣
هند بنت عتبة — الفصل ٥٠
هند بنت عمرو — الفصل ٥٠
هندوا وأسفرا ورامين — الفصل ٣١
هود — الفصل ٨
ورقة بن نوفل — الفصول ٤٥، ٤٧
يافث ابن آدم — الفصول ٢، ٣
يافث بن نوح — الفصول ٥، ٦
يحيى بن زكريا — الفصل ٤٢
يعقوب وإسرائيل — الفصل ١٧
يوحنا في أخبار الحواريين — الفصول ٤٣، ٤٤
يوسف النبي — الفصل ١٨
يوسف النجار — الفصول ٤٠، ٤٣
يوشع بن نون — الفصل ٢٦
يونس بن متى — الفصل ٣٤

فهرس كتب المصادر

يجمع هذا الدليل عناوين من كتب المصادر المذكورة في توثيق الفصول، لتيسير الوصول إلى إحالاتها التفصيلية. تراجع بيانات الجزء والباب والحديث والصفحة ونوع النقل في قائمة مصادر الفصل نفسه؛ فالذكر هنا لا يعني تصحيح جميع أخبار الكتاب، ولا أن النقل كان مباشرًا من الأصل في كل موضع. القرآن الكريم أصل الاستدلال في الكتاب. وتميز الفصول بين مصادر الحديث والتفسير الإمامية، والكتب الجامعة، وكتب التاريخ والمصادر المقارنة. وتُبقي نسبة الكتاب المختلف فيها أو اختلاف الطبعات والتسميات ظاهرة في موضع التوثيق.

إثبات الوصية — الفصول ٦ إلى ٩، ١٤ إلى ١٩، ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٦ إلى ٣٨، ٤١ إلى ٤٤

إعلام الورى — الفصول ٣٤، ٤٦، ٤٨، ٤٩

إقبال الأعمال — الفصول ٢٠، ٢٥، ٣١، ٣٦، ٣٧

الاحتجاج — الفصول ٨، ٢٠، ٢٣، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠ إلى ٤٢، ٤٤ إلى ٤٧، ٥٠

الإرشاد للمفيد — الفصول ٢٥، ٢٨، ٤٢، ٥٠

الأمالي للصدوق — الفصول ٣، ٥ إلى ٧، ١٠ إلى ١٢، ١٦ إلى ٢٠، ٢٢، ٢٤ إلى ٢٦، ٣٠، ٣٤، ٤٠ إلى ٤٤، ٤٦ إلى ٤٨

الأمالي للطوسي — الفصول ٢، ١٢، ١٥، ٢٠، ٢٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٧، ٤٩، ٥٠

الإمامة والتبصرة — الفصول ٣، ١٩، ٢١، ٣٠، ٣١

البداية والنهاية — الفصول ٢، ٨، ١٠، ١١، ١٧، ٢٦، ٣١، ٣٧، ٤٨

التبيان في تفسير القرآن — الفصول ٢٠، ٢١، ٢٥، ٢٧ إلى ٢٩، ٣٢ إلى ٣٦، ٣٨ إلى ٤١، ٤٣ إلى ٤٦، ٤٩

التفسير الصافي — الفصول ٢٩، ٣٢

التوحيد للصدوق — الفصول ٢، ٥، ٨، ١٥، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٢، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٩

الخصال — الفصول ١، ٣، ٨، ١٠، ١٢، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٣ إلى ٢٦، ٢٩، ٣٤، ٤٠، ٤٤، ٤٦

السيرة النبوية لابن هشام — الفصول ٤٧ إلى ٥٠

الطبقات الكبرى لابن سعد — الفصول ٤٦، ٤٧، ٥٠

القرآن الكريم — الفصول ١ إلى ٥٠

الكافي — الفصول ١ إلى ٣، ٥ إلى ٣٤، ٣٧ إلى ٥٠

المحاسن – الفصول ٢٤، ٢٧ إلى ٢٩، ٣٨، ٤٢، ٤٥
الميزان في تفسير القرآن – الفصول ٢، ٥، ٨، ١٠ إلى ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢ إلى ٣٦، ٣٨ إلى ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٩
بحار الأنوار – الفصول ١ إلى ٣، ٥ إلى ٢٠، ٢٢ إلى ٢٥، ٢٧ إلى ٥٠
بصائر الدرجات – الفصول ٦، ١١، ١٦ إلى ١٨، ٢٤، ٢٧، ٣٠ إلى ٣٢، ٣٤، ٣٨
تحف العقول – الفصول ١٥، ٢٤، ٢٩، ٣٠، ٤٣، ٤٤
تفسير الثعلبي وعرائس المجالس – الفصول ٢٣، ٢٤، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٤٥، ٤٧
تفسير العياشي – الفصول ٢، ٥، ١٢ إلى ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٣٩ إلى ٤١، ٤٣
تفسير القمي – الفصول ١ إلى ٣، ٥، ٧ إلى ١٠، ١٢، ١٤ إلى ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٤ إلى ٣٦، ٣٨، ٤٠ إلى ٤٤، ٤٧ إلى ٥٠
تنبيه الخواطر – الفصول ٢٨، ٢٩، ٣٤، ٤٣
تنزيه الأنبياء – الفصول ٢٢، ٢٣، ٢٥
جامع الترمذي – الفصول ٣٥، ٥٠
حياة القلوب – الفصل ٢
سنن أبي داود – الفصول ٤٩، ٥٠
سنن النسائي – الفصول ٤٣، ٥٠
صحيح البخاري – الفصول ٢٦، ٤٩، ٥٠
صحيح مسلم – الفصول ٤٨ إلى ٥٠
علل الشرائع – الفصول ٢، ٣، ٥، ٧، ٨، ١٢ إلى ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٣٤، ٣٦، ٣٩ إلى ٤١، ٤٤، ٤٧
عيون أخبار الرضا – الفصول ٢، ٥، ٧، ٨، ١١، ١٢، ١٥ إلى ١٨، ٢٠، ٢٢، ٢٤، ٢٨ إلى ٣٦، ٣٨، ٤٢ إلى ٤٤، ٤٦، ٥٠
قصص الأنبياء للراوندي – الفصول ٢، ٥ إلى ٨، ١٠ إلى ١٣، ١٥ إلى ٢٤، ٢٦ إلى ٢٩، ٣١ إلى ٤٥
كمال الدين وتمام النعمة – الفصول ١ إلى ٣، ٥ إلى ١٣، ١٥ إلى ٢٢، ٢٥ إلى ٣٢، ٣٤، ٣٦ إلى ٣٨، ٤٠ إلى ٤٨
مجمع البيان – الفصول ٥، ٨، ١٢، ١٣، ١٨، ٢٠ إلى ٥٠

مرآة العقول – الفصول ٢، ٩ إلى ١١، ١٣ إلى ١٥، ٢٧ إلى ٣٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠
معاني الأخبار – الفصول ٧، ٨، ١٠، ١٢، ١٥، ١٦، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٢، ٣٤، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٧
مكارم الأخلاق – الفصول ٢٠، ٢٩
من لا يحضره الفقيه – الفصول ٢، ٣، ٥، ١٥ إلى ٢٠، ٢٣، ٢٨، ٤٠، ٤٢، ٤٣
نهج البلاغة – الفصول ١٠، ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٢٩، ٤٣، ٤٧، ٤٨
نور الثقلين – الفصول ٣، ٥، ٧، ٨، ١٠ إلى ١٣، ١٥، ١٦، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٧ إلى ٣٠، ٣٢ إلى ٥٠

حكاية الهداية

الجزء الأول

كيف امتدّت رسالة الهداية عبر التاريخ؟ وكيف حمل الأنبياء والأوصياء أمانة الدعوة إلى الله؟

يتتبّع هذا الجزء مسيرة الهداية من بداية الخلق إلى خاتم الأنبياء، مستنداً إلى القرآن الكريم، ومستعيناً بروايات النبي وأهل بيته عليهم السلام، مع التمييز بين النصّ الصريح والرواية والتفسير.

وفي هذه الرحلة، تتصل قصص الأنبياء بسير الرجال والنساء الذين رافقوهم، وتتجلّى معاني الإيمان والابتلاء والصبر والمسؤولية، ليكون النظر في الماضي باباً لفهم الطريق والعمل بالهداية.

بدأ البحث والعمل على هذه السلسلة مجتمعة سنة ٢٠١٧؛ اكتمل بعض كتبها، وما زال العمل على بقيّتها ومراجعتها مستمرّاً.

لست رجل دين، وإنما أنا باحث عن الحق، وجامع لما في بواطن الكتب، أرجو الصواب وأرحّب بالتصحيح.

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

ISBN 978-1-7642390-4-2